

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصباح المنير

في تهذيب

نفسه من كثرة

الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير
رحمة الله

إعداد:

جماعة من العلماء

بإشراف

الشيخ صفى الرحمن المباركفوري

رحمة الله

دار النشر والنشر والتوزيع

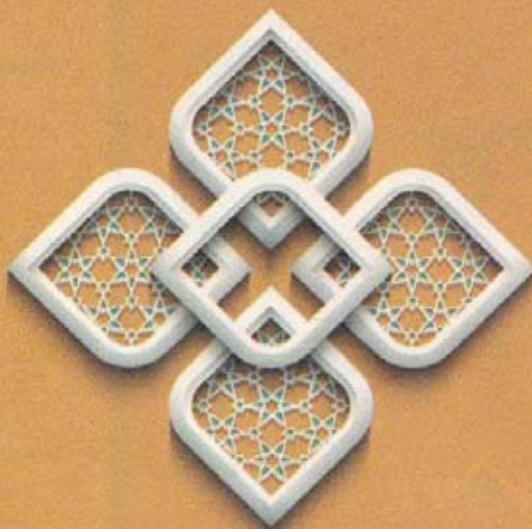
الرياض

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com



المُصْبَاحُ الْمُنِيرُ فِي تَهْذِيبِ

تَفْسِيرِ أَمْرِكُمْ شَرِيفاً

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ربيع الثاني ١٤٣٤ هـ / مارس ٢٠١٣ م



دارالسلام للنشر والتوزيع

شارع الأمير عبد العزيز بن جلوي (الضباب سابقاً) مقابل العرفة التجارية

المملكة العربية السعودية من ب. 22743 الرياض 11416

هاتف: 4033982-4043432-00986 فاكس: 00986-1-4021659

E-mail: darussalam@awalnet.net.sa, riyyadh@dar-us-salam.com

Website: www.darussalamksa.com

دارالسلام للنشر والتوزيع

■ فرع العليا:

تلفون: 00966-1-4614483

فاكس: 4644945

■ فرع الملز:

تلفون: 00966-1-4735220

فاكس: 4735221

■ فرع السويدي:

تلفون: 00966-1-4286641

■ فرع السويلم:

تلفون: 00966-1-2860422

فاكس: 2860422

■ فرع جدة:

تلفون: 00966-2-6879254

فاكس: 6336270

■ فرع المدينة المنورة:

تلفون: 00966-503417155

فاكس: 8151121

■ فرع خميس مشيط:

تلفون: 00966-7-2207055

فاكس: 2207055

■ فرع الخبر:

تلفون: 00966-3-8692900

فاكس: 8691551

■ فرع الشارقة:

تلفون: 00971-6-5634623

فاكس: 5632624

■ فرع الكويت:

تلفون: 00965-99600845

■ فرع لندن:

تلفون: 0044-208-539 4885

فاكس: 208-5394889

■ فرع نيويورك:

تلفون: 001-718-6255925

فاكس: 718-6251511

■ فرع هيوستن:

تلفون: 001-713-7220419

فاكس: 7220431

■ فرع لاهور:

تلفون: 0092-42-7240024

فاكس: 7354072

■ فرع كراتشي:

تلفون: 0092-21-4393936

فاكس: 4393937

■ فرع اسلام آباد:

تلفون: 0092-51-2500237

رفع

عبد الرحمن الفوزان
أسكنه الفردوس
www.moswarat.com

المُصْبِحُ المُنِيرُ فِي تَهْذِيبِ

تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ



طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْقَحَةٌ وَمُصَوَّرَةٌ وَضَبُوطَةٌ بِالسُّكُونِ

لِلْإِمَامِ الرَّابِعِ الْجَلِيلِ عَمَادِ الدِّينِ أَبِي الْفِدَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ

ابْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ الدَّمَشَقِيِّ رَحِمَهُ اللهُ

المُتَوَفَى (٧٧٤هـ)

إِعْدَادُ: جَمَاعَةُ فِرْعَانَ الْعُلَمَاءِ

بِإِشْرَافِ

السَّيِّخِ صَفِيِّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكِيِّ كَفَوْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

بَحَثُوا عَنِ الْأَحْوَالِ الْجُغْرَافِيَّةِ لِلْأَمَاكِنِ
وَالْبُلْدَانِ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،
وَعَنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ.

وَكَانَ تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ أَهَمِّ مَا
كُتِبَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَمِنْ أَعْظَمِهِ
وَأَكْثَرِهِ قَبُولًا وَانْتِشَارًا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِذْ كَانَ
ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مُتَّصِلًا بِعُلُومِ الْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ، وَبِعُلُومِ تَارِيخِ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ مَعَ
مَا مَنَحَهُ اللَّهُ مِنَ النَّظَرِ الثَّاقِبِ فِي سُنَّةِ اللَّهِ الَّتِي
تَجْرِي فِي صَلَاحِ الْأُمَّمِ وَفَسَادِهَا وَفِي تَقَدُّمِهَا
وَتَأَخُّرِهَا وَانْحِطَاطِهَا.

وَكَانَ لَهُ إِطْلَاعٌ وَاسِعٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ
الإِشَارَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ، فَاخْتَارَ رَحِمَهُ
اللَّهُ مَنَهَجَ التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ، فَأَكْثَرَ مِنْ إِبْرَادِ
الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ، وَأَقْوَالِ السَّلَفِ الصَّالِحِ
مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أُمَّةِ
الْهُدَى وَالْيَقِينِ، وَمَنْ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ
فِي عِلْمِ تَأْوِيلِ الْكِتَابِ، وَلَمْ يَغْفُلْ جَوَانِبَ
أُخْرَى أَشْرْنَا إِلَيْهَا. وَبِذَلِكَ جَاءَ تَفْسِيرُهُ جَامِعًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى
إِلِهِ وَصَحْبِهِ الْعُرِّ الْمَيَامِينِ، وَعَلَى مَنْ تَبِعَهُمْ
بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَبَعْدُ: فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ أَعَزُّ مَا شَرَفَ اللَّهُ
بِهِ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ، فَهُوَ كِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ، وَيَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، فَمَنْ
تَمَسَّكَ بِهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنْ
هَجَرَهُ فَهُوَ فِي خُسْرَانٍ عَظِيمٍ.

وَقَدْ اعْتَنَتِ بِهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ اعْتِنَاءً لَا
مِثْلَ لَهُ فِيمَا سَلَفَ مِنَ الْأُمَّمِ. فَقَدْ بَحَثَ
عُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَمَّا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: مِنْ
الْأَحْكَامِ وَالْحِكْمِ، وَالْمَعَانِي وَالتَّنَكُّتِ،
وَالْحُجَجِ وَالتَّبَرَاهِينِ، وَالْأَدِلَّةِ وَالتَّبَيَانِ،
وَالْمَوَاعِظِ وَالتَّعْبِيرِ، وَالْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ،
وَلَطَائِفِ الْعِبَارَاتِ وَدَقَائِقِ الْإِشَارَاتِ،
وَجَوَانِبِ الْإِعْجَازِ، وَوُجُوهِ الْإِعْرَابِ،
وَاخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ، وَأَنْوَاعِ اللَّهْجَاتِ، حَتَّى

الإخوة بِتَخْرِيجِ الْأَحَادِيثِ وَالْأَقْوَالِ تَحْتَ
إِشْرَافِهِ، فَقَامَ بِهِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ.

أَمَّا إِضْطِحَ الْمَعَانِي مِنَ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ
فَأَبْقَيْ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ - تَقْرِيْبًا - مَعَ وَضْعِ
الْعَنَاوِينِ عَلَى الْمَبَاحِثِ.

ثُمَّ كَلَّفَنِي الْأَخُ عَبْدَ الْمَالِكِ مُجَاهِدًا
بِالْمُرَاجَعَةِ وَإِعَادَةِ النَّظَرِ، فَقُمْتُ بِذَلِكَ
وَأَصْلَحْتُ وَغَيَّرْتُ وَبَدَّلْتُ وَزِدْتُ وَنَقَّضْتُ،
حِينَ رَأَيْتُ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ، كَمَا قَامَ بِبَعْضِ
ذَلِكَ أَخُونَا الْفَاضِلُ شَكِيلُ أَحْمَدُ السَّلْفِي أَحَدُ
الْبَاحِثِينَ فِي قِسْمِ الْبَحْثِ وَالتَّضْحِيحِ فِي دَارِ
السَّلَامِ، وَبِذَلِكَ كُلِّهِ جَاءَ الْكِتَابُ كَمَا يَرُوقُ
النَّوَاطِرُ وَيَسُرُّ الْخَوَاطِرَ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ.
بَعْضُ أَعْمَالٍ أُخْرَى:

(١) وَقَدْ جَاءَ هَذَا التَّلْخِيصُ مِنْ نُسخَةِ
مَطْبُوعَةٍ مِنْ مَكْتَبَةِ دَارِ السَّلَامِ، وَكَانَتْ
مُصَحَّحَةً وَمُعْتَمَدَةً عَلَى نُسخَةِ مِصْرِيَّةٍ قَدِيمَةٍ
مَطْبُوعَةٍ بِ«دَارِ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ، لِعَيْسَى
الْبَابِي الْحَلَبِيِّ وَشُرَكَاهُ» وَتَارِيخُ هَذِهِ الطَّبَعَةِ غَيْرُ
مُسَجَّلٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى نَحْوِ قَرْنٍ مِنَ
الزَّمَانِ. كَمَا أَنَّ النُّسخَةَ الْمَطْبُوعَةَ بِدَارِ السَّلَامِ
كَانَتْ قَدْ قُوِبِلَتْ عَلَى خَمْسِ نُسخِ أُخْرَى
مُحَقَّقَةٍ وَمَطْبُوعَةٍ حَدِيثًا حَتَّى تَمَّ تَدَارُكُ الْأَخْطَاءِ
بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ.

(٢) وَكَانَ مِنْ أَوْصَافِ تِلْكَ النُّسخَةِ الَّتِي
أُثْبِتَ فِي هَذَا التَّلْخِيصِ أَيْضًا: أَنَّ مَا وُجِدَ
مِنَ الْأَخْطَاءِ فِي أَسْمَاءِ الرُّجَالِ صُوبَ

بَيْنَ فَنِّي الرِّوَايَةِ وَالذَّرَايَةِ وَالْمَثْبُوتِ وَالْمَعْقُولِ،
وَأَنْتَفَعَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ أَيَّمَا أَنْتَفَاعٍ، وَحَصَلَ لَهُ مِنْ
الْقَبُولِ وَالْإِقْبَالِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لِعِيره مِنْ كُتُبِ
التَّفْسِيرِ إِلَّا نَادِرًا.

وَحَيْثُ إِنَّ أَحَانَا الْفَاضِلَ الشَّيْخَ
عَبْدَ الْمَالِكِ مُجَاهِدًا - الْمُدِيرَ الْمُسْتَوْوَلِ لِمَكْتَبَةِ
دَارِ السَّلَامِ - يَتَمَتَّعُ بِهَمَّةٍ عَالِيَةٍ، وَقَصْدِ نَبِيلِ
وَعَمَلِ جَلِيلِ فِي الْقِيَامِ بِخِدْمَةِ كُتُبِ السَّلْفِ
وَنَشْرِهَا فِي صُورِ أَيْقَنَةٍ وَحَلَلِ قَيْبِيَّةٍ؛ فَقَدْ رَأَى
- بَعْدَ الْإِسْتِشَارَةِ وَإِجَالَةِ الْفِكْرِ - أَنْ يَخْتَارَ
مَجْمُوعَةً ذَاتَ كِفَاءَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْفَضِيلَةِ
الْبَاحِثِينَ وَالْكَاتِبِينَ بِتَرْجَمَةِ هَذَا التَّفْسِيرِ إِلَى
لُغَاتٍ عَالَمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ حَيَّةٍ حَتَّى يَسْتَفِيدَ بِهِ مُعْظَمُ
أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ. كَذَلِكَ رَأَى مِنْ
الْأَحْسَنِ أَنْ يُلْخِصَ الْكِتَابَ تَلْخِيصًا يَصْغُرُ
لِإِجْلِهِ الْحَجْمُ. وَلَا تَقُوتُ الْمَبَاحِثُ.

وَيُوضَعُ لِكُلِّ مَبْحَثٍ أَنْسَبُ عُنْوَانٍ لَهُ.
وَتُعْزَى الْأَحَادِيثُ وَالْأَقْوَالُ الْبَاقِيَّةُ بَعْدَ
التَّلْخِيصِ إِلَى مُخْرِجِيهَا. حَتَّى تَتِمَّ الْفَائِدَةُ.

وَالْتَمَسَ مِنْ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ / أَبِي الْأَشْبَالِ
أَحْمَدَ شَاغِبٍ - حَفِظَهُ اللَّهُ وَبَارَكَ فِي حَيَاتِهِ -
أَنْ يَقُومَ بِهَذَا الْعَمَلِ، فَبَدَلَ جُهْدَهُ الْمَشْكُورَ فِي
التَّلْخِيصِ، وَذَلِكَ بِإِنْقَاءِ عَدَدٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي
مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ يَتِمُّ بِهَا مَعْنَى الْمَوْضُوعِ،
وَحَذْفِ بَقِيَّةِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي هِيَ مُجَرَّدُ تَكَرَّرٍ
لِمَعْنَى وَاحِدٍ مِنْ طُرُقِ شَتَّى - وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ
تَلْخِيصُ أَقْوَالِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ - وَكَلَّفَ بَعْضَ

بِمَرَاجَعَةِ الْأُصُولِ مِنْ كُتُبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ وُضِعَ الصَّوَابُ بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ، وَحَيْثُمَا وُجِدَ الْأَمْرُ غَامِضًا نُبِّهَ عَلَيْهِ فِي الْهَامِشِ.

(٣) أَمَّا الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي وَرَدَتْ أَثْنَاءَ التَّفْسِيرِ فَوُضِعَتْ مُشَكَّلَةً بِخَطِّ الْمُصْحَفِ بَيْنَ قَوْسَيْنِ مُخْتَصِّينِ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ: ﴿﴾ أَخْذًا مِنَ الْمُصْحَفِ الْمُبْرَمَجِ فِي الْحَاسِبِ.

(٤) وَوُضِعَ فِي رَأْسِ الصَّفْحَةِ اسْمُ السُّورَةِ وَرَقْمُهَا، وَأَرْقَامُ الْآيَاتِ، حَتَّى يَسْهَلَ الْوُصُولُ إِلَى الْمَطْلُوبِ.

(٥) وَعِنْدَ اخْتِلَافِ النُّسخِ فِي أَسْمَاءِ السُّورِ اخْتِيرَ الْإِسْمُ الْمُثَبَّتُ فِي الْأَصْلِ.

(٦) وَوُضِعَتْ الزِّيَادَاتُ عَلَى النُّسخَةِ الْأَصْلِيَّةِ بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ: [] وَقَدْ قَامَ بِهِذِهِ الْأَعْمَالِ

أَصْحَابُ الْفَضِيلَةِ الْعَامِلِينَ فِي قِسْمِ الْبَحْثِ وَالتَّصْحِيحِ فِي الْمَكْتَبَةِ فَجَزَاهُمْ اللَّهُ خَيْرًا.

وَقَدْ رَغِبَتِ الْمَكْتَبَةُ أَنْ يَأْتِيَ هَذَا الْمُلَخَّصُ

فِي مُجَلِّدٍ وَاحِدٍ مَعَ الْمَقَاسِ الْمُنَاسِبِ وَالسُّعْرِ

الزَّهِيدِ، لِيَكُونَ سَهْلًا مَيْسُورًا يَبْلُغُ إِلَى الْآفَاقِ،

وَلَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنْ بَيْوتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَدَخَلَهُ

هَذَا السُّفْرُ الْمُبَارَكُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَكُونَ زَادًا مُمْتَعًا

فِي أَسْفَارِهِمْ، وَذُخْرَ خَيْرٍ فِي جِلْهِمْ وَتَرْحَالِهِمْ،

عَسَى اللَّهُ أَنْ يُقَدِّرَ ذَلِكَ وَهُوَ الْمُوقِفُ لِلْخَيْرِ،

وَالْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

وَصَحْبِهِ وَبَارَكَ وَسَلَّم

١٤٢٠/٦/١٢ هـ - صَفْحَةُ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكُ كُفُورِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مُقَدِّمَةُ الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ

لِتَحْقِيقِ هَذَا الْغَرَضِ أَقْوَالَ الْأَيْمَةِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ، فِي تِلْكَ الْأَحَادِيثِ، أَوْ فِي رُؤَايَهَا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى التَّيَجَّةِ النَّهَائِيَّةِ فِي تَعْيِينِ مَرْتَبَةِ الْحَدِيثِ مِنَ الضَّعْفِ أَوْ الْحُسْنِ أَوْ الصَّحَّةِ، فَأَخْرَجُوا الضَّعِيفَ وَأَسْقَطُوهُ، وَتَرَكُوا الْبَقِيَّةَ، فَجَزَاهُمُ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْجُهِدِ الْمَشْكُورِ خَيْرًا.

(٢) تَشْكِيلُ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ، وَوَضْعُ الْحَرَكَاتِ عَلَى كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى لَا يَقَعَ الْإِلْتِبَاسُ فِي الْمَوَاضِعِ الضَّعِيفَةِ عَلَى عَامَّةِ الْقُرَّاءِ، وَتَتَّضِحَ الْمَعَانِي الصَّحِيحَةُ وَيَسْهُلَ عَلَى الْعَامَّةِ قِرَاءَةُ أَلْفَاظِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَبَارَكَ وَسَلَّم.

١٤٢١/٢/٤ هـ صَفِيُّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكُفُورِيُّ

الطَّبَعَةُ الثَّلَاثَةُ فِي رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ عَامَ ١٤٣٣ هـ أَيْ ٢٠١٢ مِيلَادِي، وَهِيَ مُشْكَلَةٌ الْكَلِمَاتِ، مُصَحَّحَةٌ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهِدْيِهِ وَاقْتَفَى أَثَرَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. وَبَعْدُ، فَهِيَ الطَّبَعَةُ الثَّانِيَةُ لِكِتَابِ «الْمُصْبَاحِ الْمُنِيرِ فِي تَهْذِيبِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ» تُقَدِّمُهَا مَكْتَبَةُ دَارِ السَّلَامِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ بِالرِّيَّاضِ، وَقَدْ نَفَدَتْ نَسْخَ الطَّبَعَةِ الْأُولَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فِي أَقْرَبِ فُرْصَةٍ، وَحَصَلَ بِهِ مِنَ الْقَبُولِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَإِعْجَابِهِمْ بِهِ وَإِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ مَا يَحْتُنُّ عَلَى الشُّكْرِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى إِحْسَانِهِ الْعَمِيمِ وَفَضْلِهِ الْكَرِيمِ.

وَبِمُنَاسَبَةِ هَذِهِ الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ رَأَى الْمَسْئُولُونَ الْقِيَامَ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ فِي ضَوْءِ مَشُورَةِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ، عَدَا مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي تَقْدِيمِ الطَّبَعَةِ الْأُولَى. فَكَلَّفُوا لَجَنَةَ الْبَحْثِ وَالْإِعْدَادِ الْعِلْمِيَّ الْقِيَامَ بِهَا وَتَتَلَخَّصُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِيمَا يَلِي:

(١) إِخْرَاجُ جَمِيعِ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَمْ يَنْجِبِرْ ضَعْفُهَا، وَلَمْ تَصِلْ إِلَى دَرَجَةِ الْقَبُولِ، فَلَا يُوجَدُ - بِحَمْدِ اللَّهِ - فِي هَذِهِ الطَّبَعَةِ إِلَّا الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ أَوْ الْحَسَنَةُ أَوْ الضَّعِيفَةُ الَّتِي انْجَبَرَ ضَعْفُهَا، وَارْتَقَى إِلَى دَرَجَةِ الْقَبُولِ، وَقَدْ رَاجَعَ الْإِخْوَةَ الْبَاحِثُونَ

شرح الرموز المستعملة في التخريج

ابن أبي حاتم = تفسير ابن أبي حاتم	الترمذي = جامع الترمذي
ابن أبي حاتم غ = تفسير ابن أبي حاتم	الحاكم = المستدرک للحاکم
تحقیق الدكتور الغامدي	الحلية = حلية الأولياء لأبي نعيم
مسودة غير مطبوع	الحميدي = مسند الحميدي
ابن أبي شيبة = المصنف لابن أبي شيبة	الخطيب = التاريخ للخطيب البغدادي
ابن حبان = صحيح ابن حبان	الدارقطني = السنن للإمام الدارقطني
ابن خزيمة = صحيح ابن خزيمة	الدارمي = سنن الدارمي
ابن عدي = الكامل في ضعفاء الرجال	الرازي = التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي
ابن عساكر = تاريخ دمشق لابن عساكر (مختصر)	الزفاف = آداب الزفاف لناصر الدين الألباني
ابن ماجه = السنن للإمام ابن ماجه	سعید بن منصور = سنن سعید بن منصور
القزويني	السنة = كتاب السنة لابن أبي عاصم
ابن هشام = سيرة ابن هشام	شرح السنة = شرح السنة للإمام البغوي
أبو داود = السنن للإمام أبي داود	الشريعة = لمحمد بن الحسين الآجري
أحمد = مسند الإمام أحمد بن حنبل	الطبراني = المعجم الكبير للطبراني
الإحياء = إحياء العلوم للإمام الغزالي	الطبري = تفسير جامع البيان للطبري
الأم = كتاب الأم للإمام الشافعي	عبدالرزاق = تفسير عبدالرزاق
البخاري = الصحيح للإمام البخاري	عدي = الكامل لابن عدي
البغوي = تفسير الإمام البغوي	العظمة = العظمة لأبي الشيخ-دار
البيهقي = السنن الكبرى للإمام البيهقي	العاصمة الرياض = العاصمة الرياض
تحفة الأحوذی = شرح جامع الترمذي	العقيلي = الضعفاء الكبير للعقيلي
للشيخ عبدالرحمن المباركفوري	علل الحديث = لعلي بن المديني
التاريخ الكبير = للإمام البخاري	عمدة التفسير = عمدة التفسير للحافظ ابن كثير (أحمد شاكر)
	غريب الحديث = غريب الحديث لأبي عبيد

مشكاة	=	مشكاة المصابيح للخطيب	القاسم بن سلام	
فتح الباري	=	فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر	فتح الباري	
المطالب	=	مشكل الآثار للطحاوي	تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.	القرطبي
المطالب	=	المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر	تفسير الكشاف للزمخشري	الكشاف
موارد الظمان	=	موارد الظمان لأبي بكر الهيثمي	كنز العمال	الكنز
الموطأ	=	موطأ الإمام مالك	مجمع الزوائد	المجمع
النسائي في الكبرى	=	السنن الكبرى للإمام النسائي	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبدالحق ابن غالب الغرناطي	المحرر الوجيز
النسائي	=	السنن للإمام النسائي	المحلى لابن حزم	المحلى
اليوم والليلة	=	عمل اليوم والليلة للنسائي	الصحيح للإمام مسلم	مسلم

ترجمة المؤلف

بِقَلَمِ فَضِيلَةَ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْأَرْنَؤُوطِ - رَحِمَهُ اللهُ -

وَلَا زَمَ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ يُوسُفَ بْنَ الزُّكَيْيِ الْمَرْيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٤٢) هـ، وَبِهِ انْتَفَعَ وَتَخَرَّجَ وَتَزَوَّجَ بِابْنَتِهِ.

وَقَرَأَ عَلَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ تَقِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ ابْنِ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٢٨) هـ كَمَا قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ الْحَافِظِ الْمُؤَرِّخِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ ابْنِ عُثْمَانَ ابْنِ قَايِمَارِ الذَّهَبِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٤٨) هـ وَأَجَازَ لَهُ مِنْ مِصْرَ أَبُو مُوسَى الْقُرَافِي، وَأَبُو الْفَتْحِ الدَّبُوسِي، وَعَلِيُّ بْنُ عَمَرَ السَّوَانِي، وَغَيْرُهُمْ.

قَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ فِي «الْمُعْجَمِ الْمُخْتَصِّ» عَنِ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ: هُوَ الْإِمَامُ الْمُفْتِي، الْمُحَدِّثُ الْبَارِعُ، فَصِيحٌ مُتَمَنَّ، وَمُفَسِّرٌ نَقَالٌ، وَلَهُ تَصَانِيفٌ مُفِيدَةٌ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي «الدَّرَرِ الْكَامِنَةِ»: اشْتَعَلَ بِالْحَدِيثِ مُطَالَعَةً فِي مُتُونِهِ وَرِجَالِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْإِسْتِحْضَارِ، حَسَنَ الْمَفَاكِهِةَ، سَارَتْ تَصَانِيفُهُ فِي حَيَاتِهِ، وَانْتَفَعَ النَّاسُ بِهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وَقَالَ الْمُؤَرِّخُ الشَّهْرُ أَبُو الْمَحَاسِنِ جَمَالُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ سَيْفِ الدِّينِ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ تَعْرِي بَرْدِي فِي كِتَابِهِ (الْمَنْهَلُ الصَّافِي

هُوَ الْإِمَامُ الْجَلِيلُ أَبُو الْفِدَاءِ عِمَادُ الدِّينِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُمَرَ بْنِ كَثِيرِ الْقُرَشِيِّ الْبُصْرِيِّ الْأَصْلُ الدَّمَشْقِيُّ النَّشْأَةَ وَالتَّرْبِيَةَ وَالتَّعْلِيمَ.

وُلِدَ بِ (مِجْدَل) الْقَرْيَةِ مِنْ أَعْمَالِ مَدِينَةِ بُصْرَى سَنَةَ (٧٠١ هـ - ١٣٠٢ م) وَكَانَ أَبُوهُ حَطِيبَ قَرْيَةً، وَمَاتَ أَبُوهُ فِي الرَّابِعَةِ مِنْ عُمُرِهِ، وَرَبَّاهُ أَخُوهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْوَهَّابِ وَعَلَّمَهُ فِي مَبْدَأِ أَمْرِهِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى دِمَشْقَ الشَّامِ الْمَحْرُوسَةِ سَنَةَ (٧٠٦) هـ فِي الْخَامِسَةِ مِنْ عُمُرِهِ.

شَيْخُوهُ:

تَفَقَّهَ بِالشَّيْخِ بُرْهَانَ الدِّينِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفَزَارِيِّ الشَّهْرِيِّ بِابْنِ الْفَرَكَاحِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٢٩) هـ وَسَمِعَ بِدِمَشْقَ مِنْ عَيْسَى بْنِ الْمُطْعَمِ، وَمِنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي طَالِبِ الشَّهْرِيِّ بِابْنِ الشُّحْنَةِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٣٠)، وَمِنْ ابْنِ الْحَجَّارِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٣٠) هـ وَمِنْ مُسْنِدِ الشَّامِ بَهَاءِ الدِّينِ الْقَاسِمِ بْنِ مُظَفَّرِ بْنِ عَسَاكِرِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٢٣) هـ وَمِنْ ابْنِ الشَّيْرَازِيِّ، وَمِنْ إِسْحَاقَ بْنِ يَحْيَى الْأَمْدِيِّ شَيْخِ الظَّاهِرِيَّةِ عَفِيفِ الدِّينِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٢٥) هـ وَمِنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَرَّادٍ.

بِالرَّوَايَةِ، وَقَدْ طُبِعَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ،
وَاخْتَصَرَهُ عِدَّةُ أَشْخَاصٍ.

٢- التَّارِيخُ الْمُسَمَّى بِالْبِدَايَةِ، وَهُوَ الْمَطْبُوعُ فِي (١٤) مُجَلَّدًا، بِاسْمِ (الْبِدَايَةِ وَالنَّهَائَةِ) ذَكَرَ فِيهِ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ، وَالسِّيَرَةَ النَّبَوِيَّةَ، وَالتَّارِيخَ الْإِسْلَامِيَّ إِلَى زَمَنِهِ ثُمَّ أَلْفَ «الْفَتْنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَالْمَلَاحِمِ وَأَحْوَالِ الْآخِرَةِ».

وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِ«النَّهَائَةِ» وَقَدْ طُبِعَتْ «الْبِدَايَةُ» أَوَّلًا ثُمَّ طُبِعَتْ «النَّهَائَةُ» بِمُفْرَدِهَا، وَحَقَّقَهَا عِدَّةُ أَشْخَاصٍ.

٣- «التَّكْمِيلُ فِي مَعْرِفَةِ الثَّقَاتِ وَالضُّعَفَاءِ وَالْمَجَاهِيلِ» جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ كِتَابَيْ شَيْخِيهِ الْمِزِّيِّ وَالذَّهَبِيِّ «تَهْذِيبِ الْكَمَالِ فِي أَسْمَاءِ الرِّجَالِ» وَ«مِيزَانِ الْاِعْتِدَالِ فِي نَقْدِ الرِّجَالِ» مَعَ زِيَادَاتٍ مُفِيدَةٍ فِي الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

٤- «الْهَدْيُ وَالسُّنَنُ فِي أَحَادِيثِ الْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ» وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِ«جَامِعِ الْمَسَانِيدِ» جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ، وَالْبَزَارِ، وَأَبِي يَعْلَى الْمَوْصِلِيِّ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، مَعَ الْكُتُبِ السُّنَنِيَّةِ: الصَّحِيحَيْنِ، وَالسُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ. وَرَتَّبَهُ عَلَى الْأَبْوَابِ، طُبِعَ مِنْهُ - حَدِيثًا - بَعْضُ الْأَجْزَاءِ.

٥- «طَبَقَاتُ الشَّافِعِيِّ» مُجَلَّدٌ وَسَطٌ، وَمَعَهُ مَنَاقِبُ الشَّافِعِيِّ.

وَالْمُسْتَوْفِي بَعْدَ الْوَافِيِّ): هُوَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ عِمَادُ الدِّينِ أَبُو الْفِدَاءِ، لَازِمَ الْإِسْتِغَالِ، وَدَأَّبَ وَحَصَلَ وَكَتَبَ، وَبَرَعَ فِي الْفِقْهِ وَالتَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ، وَجَمَعَ وَصَنَّفَ، وَدَرَسَ وَحَدَّثَ وَأَلَّفَ، وَكَانَ لَهُ إِطْلَاعٌ عَظِيمٌ فِي الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ، وَالْفِقْهِ وَالْعَرَبِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَافْتَى وَدَرَسَ إِلَى أَنْ تُوفِّيَ رَحِمَهُ اللهُ، وَاشْتَهَرَ بِالضُّبُطِ وَالتَّحْرِيرِ، وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ رِيَّاسَةُ الْعِلْمِ فِي التَّارِيخِ وَالحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ.

تَلَامِيذُهُ:

وَهُمْ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ ابْنُ حِجْبِي، وَقَالَ فِيهِ: أَحْفَظُ مَنْ أَدْرَكْنَاهُ لِمَتُونِ الْأَحَادِيثِ وَأَعْرَفُهُمْ بِجَرْحِهَا وَرِجَالِهَا، وَصَحِيحِهَا وَسَقِيمِهَا، وَكَانَ أَقْرَانُهُ وَشُيُوخُهُ يَعْتَرِفُونَ لَهُ بِذَلِكَ، وَمَا أَعْرَفُ أَنِّي اجْتَمَعْتُ بِهِ إِلَّا وَاسْتَفَدْتُ مِنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ الْعِمَادِ الْحَنْبَلِيُّ فِي كِتَابِهِ: «شَدْرَاتُ الذَّهَبِ فِي أَحْبَارٍ مَنْ ذَهَبَ»: هُوَ الْحَافِظُ الْكَبِيرُ، عِمَادُ الدِّينِ، كَانَ كَثِيرَ الْإِسْتِحْضَارِ، قَلِيلَ النُّسْيَانِ، جَيِّدَ الْفَهْمِ، يُشَارِكُ فِي الْعَرَبِيَّةِ. وَقَالَ فِيهِ ابْنُ حَبِيبٍ: سَمِعَ وَجَمَعَ وَصَنَّفَ، وَأَطْرَبَ الْأَسْمَاعَ بِالْفَتْوَى، وَحَدَّثَ وَأَفَادَ، وَطَارَتْ أَوْرَاقُ فِتَاوِيهِ إِلَى الْبِلَادِ، وَاشْتَهَرَ بِالضُّبُطِ وَالتَّحْرِيرِ.

مُؤَلَّفَاتُهُ:

مُؤَلَّفَاتُهُ كَثِيرَةٌ:

١- مِنْهَا، وَمِنْ أَعْظَمِهَا تَفْسِيرُهُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ

- ٦- خَرَجَ أَحَادِيثَ أَدْلَةَ التَّنْبِيهِ فِي فِقْهِ الشَّافِعِيَّةِ.
- ٧- شَرَعَ فِي شَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُكْمَلْهُ.
- ٨- شَرَعَ فِي كِتَابِ كَبِيرٍ فِي الْأَحْكَامِ وَلَمْ يُكْمَلْهُ، وَصَلَ فِيهِ إِلَى الْحَجِّ.
- ٩- مُخْتَصَرُ كِتَابِ الْمَدْخَلِ لِلْبَيْهَقِيِّ. وَأَكْثَرُهَا لَمْ يُطْبِعَ.
- ١٠- اخْتَصَرَ عُلُومَ الْحَدِيثِ لِأَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ وَسَمَّاهُ «مُخْتَصَرُ عُلُومِ الْحَدِيثِ» وَطَبَعَهُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ شَاكِرٌ الْمُحَدِّثُ الْمِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، مَعَ شَرْحٍ لَهُ، وَسَمَّى شَرْحَهُ «الْبَاعِثُ الْحَدِيثُ فِي شَرْحِ مُخْتَصَرِ عُلُومِ الْحَدِيثِ» وَقَدْ طُبِعَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ.
- ١١- السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ مُطَوَّلَةٌ (ضِمْنَ الْبِدَايَةِ) وَمُخْتَصَرَةٌ، وَهُمَا مَطْبُوعَتَانِ.
- ١٢- رِسَالَةٌ فِي الْجِهَادِ، سَمَّاهَا «الْإِجْتِهَادُ فِي طَلَبِ الْجِهَادِ» وَقَدْ طُبِعَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ.
- وَفَاتُهُ:
- قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكَانَ قَدْ ضُرَّ - يَعْنِي فَقَدَ بَصَرَهُ - فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، وَتُوْفِيَ بِدِمَشْقَ الشَّامِ الْمَحْرُوسَةِ سَنَةَ (٧٧٤هـ - ١٣٧٣م).
- رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَانِهِ.

رَفَعُ

عبد الرحمن العجوي
أسكنها الفردوس
www.moswarat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مُقَدِّمَةٌ ابْنِ كَثِيرٍ]

(قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْأَوْحَدُ، الْبَارِعُ الْحَافِظُ [الْمُتَّقِنُ]،
عِمَادُ الدِّينِ أَبُو الْفِدَاءِ: إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْحَطِيبِ أَبِي حَفْصِ
عَمْرٍو بْنِ كَثِيرٍ، الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَتَحَ كِتَابَهُ بِالْحَمْدِ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ
الدِّينِ ﴿٣﴾ وَافْتَتَحَ خَلْقَهُ بِالْحَمْدِ فَقَالَ تَعَالَى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ﴿٤﴾ [الأنعام: ١] وَاخْتَمَّهُ بِالْحَمْدِ فَقَالَ
بَعْدَ مَا ذَكَرَ مَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: «وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ
حَافِيَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَنُصِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ
وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ [الزمر: ٧٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
«وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَهُوَ
الْحَكِيمُ وَالَّذِي يُرْجَعُونَ ﴿٦﴾ [التقصص: ٧٠] فَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
وَالْآخِرَةِ، أَيْ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ وَمَا هُوَ خَالِقٌ، هُوَ
الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ كَمَا يَقُولُ الْمُصَلِّي: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ
الْحَمْدُ، مِلءَ السَّمَوَاتِ وَمِلءَ الْأَرْضِ وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ
شَيْءٍ بَعْدُ» (١).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴿٧﴾ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا
يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجْمٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿٨﴾ [النساء: ١٦٥]
وَخَتَمَهُمُ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ الْهَادِي لِأَوْضَحِ
السَّبِيلِ، أَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنْ لَدُنْ
بِعْتِيهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «قُلْ يَتَّيَبُوا بِهَا
النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْتِي بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٩﴾ [الأعراف: ١٥٨] وَقَالَ تَعَالَى:
﴿لَا يُذَكِّرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴿١٠﴾ [الأنعام: ١٩] فَمَنْ بَلَغَهُ هَذَا الْقُرْآنُ
مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ، وَأَسْوَدَ وَأَحْمَرَ، وَإِنْسٍ وَجَانٍّ فَهُوَ نَذِيرٌ
لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَخْرَابِ فَأَلْهَأْ

مَوْعِدُهُمْ ﴿١١﴾ [هود: ١٧] فَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ دُونِ مَا نُنزِّلُ
مَوْعِدُهُ بِنَصِّ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرِي وَمَنْ يَكْذِبُ
بِهَذَا الْحَدِيثِ فَسَتَدْرِكُهُمْ مِنَ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ [القمم: ٤٤] وَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» (١٣) قَالَ
مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْإِنْسَ وَالْجِنَّ. فَهُوَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ، رَسُولُ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، مُبَلِّغًا
لَهُمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ
الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٤﴾ [فصلت: ٤٢].

[الْأَمْرُ بِفَهْمِ الْقُرْآنِ]

وَقَدْ أَعْلَمَهُمْ فِيهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ نَذَّبَهُمْ إِلَى فَهْمِهِ،
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ
لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿١٥﴾ [النساء: ٨٢] وَقَالَ تَعَالَى:
﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُزَكَّاتٍ لِيَذَّبُوا بَابَتِهِمْ وَيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾
[ص: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ
أَفْئَالُهُمْ ﴿١٧﴾ [محمد: ٢٤].

(فَالْوَجِبُ) عَلَى الْعُلَمَاءِ الْكُتُفُ عَنْ مَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ
وَتَفْسِيرِ ذَلِكَ، وَطَلَبُهُ مِنْ مَطَانِهِ، وَتَعَلُّمُ ذَلِكَ وَتَعْلِيمُهُ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَبُوا بِهِ
ثُمَّ قَلِيلًا قَلِيلًا فَفَسَسَ مَا يَشْرَبُونَ ﴿١٨﴾ [آل عمران: ١٨٧] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمًّا قَلِيلًا
أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا
يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾
[آل عمران: ٧٧] فَذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِإِعْرَاضِهِمْ
عَنِ كِتَابِ اللَّهِ الْمُتَزَلِّ إِلَيْهِمْ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَجَمْعِهِمَا،
وَاشْتِغَالِهِمْ بِغَيْرِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ اتِّبَاعِ كِتَابِ اللَّهِ.

وَوَنَّهُمُ الْحَبْرُ الْبَحْرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ بِرِكَدَةِ دَعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُ، حَيْثُ قَالَ: «اللَّهُمَّ فَفَهِّهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمُهُ التَّأْوِيلَ» (٣).
 وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: يَغْمُ تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ (٤). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ مَاتَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ عَلَى الصَّحِيحِ، وَعَمَّرَ بَعْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا كَسَبَهُ مِنَ الْعُلُومِ بَعْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ؟! وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ: اسْتَخْلَفَ عَلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ عَلَى الْمُوسِمِ، فَحَطَبَ النَّاسَ، فَقَرَأَ فِي حُطْبَتِهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ - وَفِي رِوَايَةِ سُورَةِ النُّورِ - فَفَسَّرَهَا تَفْسِيرًا لَوْ سَمِعْتَهُ الرُّومُ وَالتَّرُكُ وَالدِّينِيَّةُ لَأَسْلَمُوا (٥).

وَلِهَذَا غَالِبٌ مَا يَرَوِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّدِّيُّ الْكَبِيرُ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الْأَخْبَانِ يُنْقَلُ عَنْهُمَا مَا يَحْكُونَهُ مِنْ أَقَاوِيلِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّتِي أَبَاحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدَّثُوا عَنِّي بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (٦). وَلِهَذَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَدْ أَصَابَ يَوْمَ التِّرْمُوكِ زَامِلَتَيْنِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَكَانَ يُحَدِّثُ مِنْهُمَا بِمَا فَهِمَهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْأَذْنِ فِي ذَلِكَ.

[حُكْمُ الرِّوَايَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ]

وَلَكِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ تُذَكَّرُ لِلِاسْتِشْهَادِ لَا لِلِاغْتِصَادِ، فَإِنَّهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:
 (أَحَدُهَا): مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ مِمَّا بِأَيْدِينَا مِمَّا يَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ، فَذَلِكَ صَحِيحٌ.

(وَالثَّانِي): مَا عَلِمْنَا كَذِبَهُ [بِمَا] عِنْدَنَا، مِمَّا يُخَالِفُهُ.
 (وَالثَّلَاثُ): مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ لَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَكْذِبُهُ، وَيَجُوزُ حِكَايَتُهُ لِمَا تَقَدَّمَ. وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَايِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَى أَمْرِ دِينِي. كَمَا يَذَكِّرُونَ فِي مِثْلِ هَذَا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكُهْفِ، وَلَوْ نَ كَلِمَتُهُمْ، وَعَدَدْتُهُمْ. وَعَصَا مُوسَى مِنْ أَيْ الشَّجَرِ

(١) أحمد: ١٣١/٤ (٢) الطبري: ٨٠/١ (٣) فتح الباري: ٢٠٥/١ (٤) الطبري: ٩٠/١ (٥) الطبري: ٨١/١ (٦) فتح الباري: ٥٧٢/٦

فَعَلَيْنَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ نَنْتَهِيَ عَمَّا ذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَنْ نَأْتِمِرَ بِمَا أَمَرْنَا بِهِ مِنْ تَعَلُّمِ كِتَابِ اللَّهِ الْمُتَرَلِّإِنَّا وَتَعْلِيمِهِ، وَتَفْهِيمِهِ وَتَفْهِيمِهِ، قَالَ تَعَالَى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِلكِبْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فُتِنُوا ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ [الحديد: ١٦، ١٧] فِيهِ ذِكْرُهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ الَّتِي قَبْلَهَا تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الْقُلُوبَ بِالْإِيمَانِ وَالْهُدَى بَعْدَ قَسْوَتِهَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَاللَّهُ الْمُؤَمَّلُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا هَذَا، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

[أُصُولُ التَّفْسِيرِ]

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَحْسَنَ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟

(فَالْجَوَابُ): أَنْ أَصَحَّ الطَّرِيقِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِالْقُرْآنِ، فَمَا أُجْمِلَ فِي مَكَانٍ فَإِنَّهُ قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَإِنْ أَعْيَاكَ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمَوْضِحَةٌ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَالِفِينَ حَصِيصًا ﴿١٠٥﴾ [النساء: ١٠٥] وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ [النحل: ٦٤] وَقَالَ تَعَالَى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤] وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» (١) يَعْنِي السُّنَّةَ. وَالسُّنَّةُ أَيْضًا تَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ كَمَا يَنْزِلُ الْقُرْآنُ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَتَلَّى كَمَا يَتَلَّى الْقُرْآنَ.

وَالْعَرَضُ أَنَّكَ تَطْلُبُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فَمِنَ السُّنَّةِ. وَإِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ رَجَعْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، فَإِنَّهُمْ أَذْرَى بِذَلِكَ، لِمَا شَاهَدُوا مِنَ الْقَرَأِينِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي اخْتَصَّوْا بِهَا، وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ النَّامِ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، لَا سِيَّمَا عُلَمَاءُؤُهُمْ وَكِبَرَاءُؤُهُمْ كَالْأَيْمَةِ الْأَرَبِيَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالْأَيْمَةِ الْمُهْتَدِينَ الْمُهْدِيِّينَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ، وَأَبْنُ نَزَلَتْ. وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَنَالَهُ الْمَطَايَا لَأَتَيْتُهُ (٢).

كَانَتْ. وَأَسْمَاءُ الطُّورِ الَّتِي أَحْيَاهَا اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ. وَتَعَيَّنَ
الْبَعْضُ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْقَيْلُ مِنَ الْبَقْرَةِ. وَنَزَعَ الشَّجَرَةَ
الَّتِي كَلَّمَ اللَّهُ مِنْهَا مُوسَى. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، مِمَّا لَا فَايِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ عَلَى
الْمُكَلِّفِينَ فِي دِيْبِهِمْ وَلَا دُنْيَاهُمْ.

[مَكَانُهُ تَفْسِيرِ التَّابِعِينَ]

(فصل) إِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ،
وَلَا وَجَدْتَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ، فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْمَةِ فِي
ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ التَّابِعِينَ، كُمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ، فَإِنَّهُ كَانَ آيَةً
فِي التَّفْسِيرِ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنَا أَبَانُ بْنُ
صَالِحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: عَرَضْتُ الْمُضْحَفَ عَلَى ابْنِ
عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، أَوْفَقَهُ عِنْدَ
كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا^(١). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ أَبِي
مُليْكَهَ قَالَ: رَأَيْتُ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ تَفْسِيرِ
الْقُرْآنِ وَمَعَهُ الْوَاحِهُ، قَالَ: يَقُولُ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَكْتُبْ
حَتَّى سَأَلَهُ عَنِ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ^(٢). وَلِهَذَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
يَقُولُ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ^(٣).

وَكَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَعِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءَ بْنَ
أَبِي رَبَاحٍ وَالْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ، وَمَسْرُوقَ بْنَ الْأَجْدَعِ وَسَعِيدَ
بْنَ الْمُسَيَّبِ وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ، وَقَتَادَةَ
وَالضَّحَّاكَ بْنَ مَرْجَمٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ، وَمَنْ
بَعْدَهُمْ، فَتَذَكَّرْ أَقْوَالَهُمْ فِي الْآيَةِ، فَيَقْعُ فِي عِبَارَاتِهِمْ تَبَايُنٌ
فِي الْأَلْفَاظِ يَحْسِبُهَا مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ اخْتِلَافًا، فَيَحْكِيهَا
أَقْوَالًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُعْبَرُ عَنِ الشَّيْءِ
بِلَازِمِهِ أَوْ بِتَطْيِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصْصُ عَلَى الشَّيْءِ بِعَيْنِهِ،
وَالكُلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ فِي أَكْثَرِ الْأَمَاكِينِ، فَلْيَتَفَطَّنِ اللَّيْسُ
لِذَلِكَ، وَاللَّهُ الْهَادِي.

[التَّفْسِيرُ بِالرَّأْيِ]

فَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ فَحَرَامٌ، لِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ
ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ، فَلْيَسْبُوهُ
مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ الثَّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَأَبُو
دَاوُدَ. وَقَالَ الثَّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٤).

[السُّكُوتُ عَنْ تَفْسِيرِ غَيْرِ الْمَعْلُومِ]

وَلِهَذَا تَحَرَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ عَنْ تَفْسِيرِ مَا لَا عِلْمَ
لَهُمْ بِهِ، كَمَا رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ قَالَ: قَالَ أَبُو

بَكْرُ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيُّ أَرْضٍ تُقْلَبِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ
تُقْلَبِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ^(٥). وَرَوَى أَيْضًا
عَنْ أَنَسٍ أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْحَطَّابِ قَرَأَ عَلَى الْمُنْبَرِ ﴿وَلِكَلِمَةٍ وَأَنَا﴾
[عيس: ٣١] فَقَالَ: هَذِهِ الْفَائِكَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا الْأَبُ؟ ثُمَّ
رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكْلُفُ يَا عَمْرُؤُ. وَهَذَا
مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِنَّمَا أَرَادَا اسْتِكْشَافَ
عِلْمِ كَيْفِيَّةِ الْأَبِ، وَإِلَّا فَكَوْنُهُ نَبْتًا مِنَ الْأَرْضِ ظَاهِرٌ لَا
يُجْهَلُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٧﴾ وَعَبَقًا وَقَضْبًا﴾ [عيس: ٢٧، ٢٨] الْآيَةَ

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ؛ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ
عَنْ آيَةِ - لَوْ سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُكُمْ لَقَالَ فِيهَا - فَأَبَى أَنْ يَقُولَ
فِيهَا. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ^(٦). وَرَوَى أَيْضًا عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ
قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ
سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا يَوْمٌ كَانَ
مِقْدَارُهُ حَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ؟ [المعارج: ٤] فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ إِنَّمَا
سَأَلْتُكَ لِتُحَدِّثَنِي. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فِي
كِتَابِهِ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمَا. فَكِرَةٌ أَنْ يَقُولَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا
يَعْلَمُ^(٨).

وَقَالَ اللَّيْثُ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ
الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِي الْمَعْلُومِ مِنَ الْقُرْآنِ^(٩).
وَقَالَ أَيُّوبُ وَابْنُ عَوْنٍ وَهَيْشَامُ الدُّسْتَوَائِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ
سَيِّرِينَ: سَأَلْتُ عُبَيْدَةَ يَعْنِي السَّلْمَانِيَّ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ
فَقَالَ: ذَهَبَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ فِيهِمْ أَنْزَلَ الْقُرْآنُ فَأَتَى
اللَّهُ وَعَلَيْكَ بِالسَّدَادِ^(١٠). وَرَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ مَسْرُوقٍ
قَالَ: اتَّقُوا التَّفْسِيرَ فَإِنَّمَا هُوَ الرَّوَايَةُ عَنِ اللَّهِ^(١١).

فَهَذِهِ الْأَثَارُ الصَّحِيحَةُ وَمَا شَاكَلَهَا عَنِ الصَّحَابَةِ وَأَيْمَةِ
السَّلَفِ، مَحْمُولَةٌ عَلَى تَحَرُّجِهِمْ عَنِ الْكَلَامِ فِي التَّفْسِيرِ بِمَا
لَا عِلْمَ لَهُمْ فِيهِ. فَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ لَعَنَهُ
وَشَرَعًا فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا رَوَى عَنْ هُوَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ
أَقْوَالٌ فِي التَّفْسِيرِ، وَلَا مُنَافَاةَ، لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيَمَا عِلْمُوهُ

(١) الطبري: ٩٠/١ (٢) الطبري: ٩٠/١ (٣) الطبري: ٩١/١

(٤) الطبري: ٧٧/١ وتحتة الأحوذى: ٢٧٧/٨ والنسائي في فضائل القرآن: ١١٤ وأبو داود في العلم من رواية أبي الحسن ابن العبد - قاله المزي في الأطراف: ٤٢٣/٤ (٥) الطبري: ٧٨/١ (٦) الطبري: ٢٢٩/٢٤ (٧) الطبري: ٨٦/١ (٨) الطبري: ٦٠٢/٢٣ (٩) الطبري: ٨٦/١ (١٠) الطبري: ٨٦/١ (١١) الطبري: ٨٦/١

أَلْفًا وَخَمْسَةَ عَشَرَ حَرْفًا. وَقَالَ سَلَامٌ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجَمَانِيُّ: أَنَّ الْحَجَّاجَ جَمَعَ الْقُرَّاءَ وَالْحُقَاطَ وَالْكِتَابَ، فَقَالَ: أَخْبَرُونِي عَنِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ كَمْ مِنْ حَرْفٍ هُوَ؟ قَالَ: فَحَسَبْنَا فَأَجْمَعُوا أَنَّهُ ثَلَاثُمِائَةٌ أَلْفٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَسَبْعُمِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا.

[تَقْسِيمَاتٌ أُخْرَى لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ]

قَالَ: فَأَخْبَرُونِي عَنْ نِصْفِهِ، فَإِذَا هُوَ إِلَى أَلْفَاءٍ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْكَهْفِ ﴿وَلَيَسْأَلَنَّ﴾ [الآية: ١٩] وَثَلَاثَةَ الْأَوَّلِ عِنْدَ رَأْسِ مِائَةِ آيَةٍ مِنْ بَرَاءَةٍ، وَالثَّانِي عَلَى رَأْسِ مِائَةٍ أَوْ إِحْدَى وَمِائَةٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ، وَالثَّلَاثُ إِلَى آخِرِهِ، وَسَبْعُهُ الْأَوَّلُ إِلَى الدَّلَالِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ﴾ [النساء: ٥٥] وَالسَّبْعُ الثَّانِي إِلَى التَّاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿فَأُولَئِكَ حِطَّتْ﴾ (٤) [الآية: ١٤٧] وَالثَّلَاثُ إِلَى الْأَلِفِ الثَّانِيَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الرَّعْدِ: ﴿أَكْثَلُهَا﴾ [الآية: ٣٥] وَالرَّابِعُ إِلَى الْأَلِفِ فِي الْحَجِّ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿جَعَلْنَا مَسْكَاً﴾ [الآية: ٣٤] وَالْخَامِسُ إِلَى الْهَاءِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْأَحْزَابِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [الآية: ٣٦] وَالسَّادِسُ إِلَى الْوَاوِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْفَتْحِ: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَنْتَ السُّوءَ﴾ [الآية: ٦] وَالسَّابِعُ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ. قَالَ سَلَامٌ أَبُو مُحَمَّدٍ: عَلِمْنَا ذَلِكَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، قَالُوا: وَكَانَ الْحَجَّاجُ يَقْرَأُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رُبْعَ الْقُرْآنِ، فَأَلَّوْهُ إِلَى آخِرِ الْأَنْعَامِ، وَالثَّانِي إِلَى ﴿وَلَيَسْأَلَنَّ﴾ [الآية: ١٩] مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ، وَالثَّلَاثُ إِلَى آخِرِ الزُّمَرِ، وَالرَّابِعُ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ. وَقَدْ حَكَى الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي فِي كِتَابِهِ (الْبَيَانِ) خِلَافًا فِي هَذَا كُلِّهِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[التَّحْرِيْبُ وَالتَّجْرِيْةُ]

وَأَمَّا التَّحْرِيْبُ وَالتَّجْرِيْةُ فَفَقَدِ اشْتَهَرَتْ الْأَجْزَاءُ مِنْ ثَلَاثِينَ. كَمَا فِي الرُّبْعَاتِ بِالْمَدَارِسِ وَعَیْرِهَا. وَقَدْ ذَكَرْنَا - فِيمَا تَقَدَّمَ - الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي تَحْرِيْبِ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ، وَالحَدِيثَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَابْنَ مَاجَةَ وَعَیْرِهِمْ عَنْ أَوْسِ بْنِ حُدَيْفَةَ: أَنَّهُ سَأَلَ أَصْحَابَ

وَسَكَنُوا عَمَّا جَهَلُوهُ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، فَإِنَّهُ كَمَا يَجِبُ السُّكُوتُ عَمَّا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ الْقَوْلُ فِيمَا سُئِلَ عَنْهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَسْأَلَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُوهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وَلَمَّا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوِي مِنْ طُرُقٍ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» (١).

[وَجُوهُ التَّفْسِيرِ]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ: حَدَّثَنَا سُفْيَانٌ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ (٢).

[السُّورَةُ الْمَكِّيَّةُ وَالْمَدِينِيَّةُ]

رَوَى هَمَّامٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْقُرْآنِ الْبَقْرَةُ وَأَلْ عِمْرَانُ، وَالنِّسَاءُ، وَالْمَائِدَةُ وَبَرَاءَةُ، وَالرَّعْدُ، وَالتَّحُلُّ وَالْحَجُّ وَالتُّورُ وَالْأَحْزَابُ، وَمُحَمَّدٌ وَالفَتْحُ وَالتَّحْرِيَاتُ، وَالرَّحْمَنُ وَالحَدِيدُ وَالمَجَادَلَةُ، وَالحَشْرُ وَالمُمْتَحِنَةُ وَالصَّفِّ، وَالجُمُعَةُ وَالمُنَافِقُونَ وَالتَّغَابُنُ وَالتَّلَاقُ وَ ﴿يَتْلَاهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إِلَى رَأْسِ الْعَشْرِ، وَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ وَ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ هُوَ لِأَيِّ السُّورِ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ وَسَائِرُ السُّورِ بِمَكَّةَ (٣).

[عَدَدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ]

فَأَمَّا عَدَدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فَسِتَّةُ أَلْفِ آيَةٍ، ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: وَمِائَتَا آيَةٍ وَأَرْبَعُ آيَاتٍ، وَقِيلَ: وَأَرْبَعُ عَشْرَةَ آيَةً. وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَتِسْعُ عَشْرَةَ آيَةً، وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَخَمْسُ وَعِشْرُونَ آيَةً، أَوْ سِتُّ وَعِشْرُونَ آيَةً، وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَسِتُّ وَثَلَاثُونَ، حَكَى ذَلِكَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي فِي كِتَابِهِ الْبَيَانِ.

[عَدَدُ كَلِمَاتِهِ وَحُرُوفِهِ]

وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ شَادَانَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ: سَبْعٌ وَسَبْعُونَ أَلْفَ كَلِمَةٍ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَثَلَاثُونَ كَلِمَةً.

وَأَمَّا حُرُوفُهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: هَذَا مَا أَحْصَيْنَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ ثَلَاثُمِائَةٌ أَلْفٌ حَرْفٍ، وَأَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ حَرْفٍ، وَمِائَةٌ وَثَمَانُونَ حَرْفًا. وَقَالَ الْفَضْلُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ: ثَلَاثُمِائَةٌ أَلْفٌ حَرْفٍ وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ

(١) أحمد: ٢٦٣/٢ ٣٠٥ ٤٩٥ وتحفة الأحوذني: ٤٠٧/٧

والحاكم: ١٠١/١ (٢) الطبري: ٧٥/١ (٣) الإقنان: ٢٨/١

(٤) كذا جاء، والصواب: ﴿وَلَفَكَ الْأَجْرَةَ حِطَّتْ﴾ كما في التنزيل. وفي بعض النسخ بحذف "فاولئك" في الأول، وهو صحيح أيضًا. الناشر.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ كَيْفَ تُحَرِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا ثَلَاثٌ، وَحَمْسٌ، وَسَعٌ، وَتِسْعٌ، وَأَحَدُ عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبُ الْمُفْصَلِ حَتَّى يُخْتَمَ (١).

[مَعْنَى السُّورَةِ وَاشْتِقَاقُهَا]

(فَضْلٌ) وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى السُّورَةِ مِمَّا هِيَ مُشْتَقَّةٌ.

فَقِيلَ: مِنَ الْإِبَانَةِ وَالِارْتِفَاعِ قَالَ النَّابِغَةُ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةَ

تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ

فَكَأَنَّ الْفَارِيَّ يَتَّقِلُ بِهَا مِنْ مَثَرَةٍ إِلَى مَثَرَةٍ.

وَقِيلَ: لِشَرَفِهَا وَارْتِفَاعِهَا كَسُورِ الْبُلْدَانِ.

وَقِيلَ: سُمِّيَتْ سُورَةٌ لِكَوْنِهَا قِطْعَةً مِنَ الْقُرْآنِ وَجُزْءًا

مِنْهُ، مَأْخُودٌ مِنْ أَسَارِ الْإِنَاءِ وَهُوَ الْبَيْتِيُّ. وَعَلَى هَذَا

فَيَكُونُ أَضْلُهَا مَهْمُوزًا. وَإِنَّمَا حُمِفَتِ الْهَمْزَةُ فَأُبْدِلَتْ

الْهَمْزَةُ وَاوًا لِانْضِمَامِ مَا قَبْلَهَا.

وَقِيلَ: لِتَمَامِهَا وَكَمَالِهَا، لِأَنَّ الْعَرَبَ يُسْمُونَ النَّاقَةَ

التَّامَّةَ سُورَةً (قُلْتُ) وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَمْعِ

وَالِإِحَاطَةِ لِآيَاتِهَا، كَمَا يُسَمَّى سُورُ الْبَلَدِ لِإِحَاطَتِهِ

بِمَنَازِلِهِ وَدُورِهِ. وَجَمْعُ السُّورَةِ سُورٌ - يَفْتَحُ الْوَاوِ - وَقَدْ

يُجْمَعُ عَلَى سُورَاتٍ وَسُورَاتٍ.

[مَعْنَى الْآيَةِ]

وَأَمَّا الْآيَةُ فَمِنَ الْعَلَامَةِ عَلَى انْتِطَاعِ الْكَلَامِ الَّذِي

قَبْلَهَا عَنِ الَّذِي بَعْدَهَا وَانْفِصَالِهِ، أَي: هِيَ بَاطِنَةٌ عَنِ

أُخْرِيهَا وَمُتَفَرِّدَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾

[البقرة: ٢٤٨] وَقِيلَ سُمِّيَتْ آيَةً لِأَنَّهَا عَجَبٌ يَعْجِزُ الْبَشَرَ عَنِ

التَّكَلُّمِ بِمِثْلِهَا، قَالَ سَيِّوِيَّةٌ: وَأَضْلُهَا آيَةٌ مِثْلُ أَكْمَةٍ

وَشَجَرَةٍ، تَحَرَّكَتِ الْبَاءُ وَانْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا فَقَلِبَتْ أَلِفًا،

فَصَارَتْ آيَةً بِهَمْزَةٍ بَعْدَهَا مَدَّةً. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: أَضْلُهَا آيَةٌ

عَلَى وَزْنِ آيَةٍ، فَقَلِبَتْ أَلِفًا ثُمَّ حُذِفَتْ لِالْتِيَابِهَا. وَقَالَ

الْفَرَّاءُ: أَضْلُهَا آيَةٌ، بِتَشْدِيدِ الْبَاءِ، فَقَلِبَتْ الْأُولَى أَلِفًا

كَرَاهِيَةَ التَّشْدِيدِ، فَصَارَتْ آيَةً. وَجَمَعُهَا آيٌ وَآيَاتٌ وَآيَايٌ.

[مَعْنَى الْكَلِمَةِ]

وَأَمَّا الْكَلِمَةُ فَهِيَ اللَّفْظَةُ الْوَّاحِدَةُ، وَقَدْ تَكُونُ عَلَى

حَرْفَيْنِ مِثْلَ «مَا» وَ «لَا» وَحِوِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَكُونُ أَكْثَرَ،

وَأكْثَرُ مَا تَكُونُ عَشْرَةَ أَحْرَفٍ مِثْلُ: ﴿لَيْسَتَلْهَنَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]

﴿أَنْزَلْنَاهُمْ كَمَا﴾ [هود: ٢٨] ﴿فَأَلْفَيْتَكُمْوَهُ﴾ [الحجر: ٢٢]. وَقَدْ

تَكُونُ الْكَلِمَةُ الْوَّاحِدَةُ آيَةً مِثْلُ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]

﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَالْمَصَرِ﴾ وَكَذَلِكَ ﴿الْعَرَبِ﴾ وَ﴿طِهَ﴾ وَ﴿يَسَ﴾

وَ﴿حَمَدَ﴾ فِي قَوْلِ الْكُوفِيِّينَ، وَ﴿حَمَدَ﴾ ① عَسَقَ عِنْدَهُمْ

كَلِمَتَانِ، وَغَيْرُهُمْ لَا يُسَمِّي هَذِهِ آيَاتٍ، بَلْ يَقُولُ: هَذِهِ

قَوَاتِحُ السُّورِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ: لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ

وَخَدَهَا آيَةٌ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُدْهَاتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]

بِسُورَةِ الرَّحْمَنِ.

[الْعُجْمَةُ وَالْقُرْآنُ]

(فَضْلٌ) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي

الْقُرْآنِ شَيْءٌ مِنَ التَّرَاكِبِ الْأَعْجَمِيَّةِ، وَأَجْمَعُوا أَنَّ فِيهِ

أَعْلَامًا مِنَ الْأَعْجَمِيَّةِ كِإِبْرَاهِيمَ وَنُوحَ وَلُوطَ. وَاخْتَلَفُوا

هَلْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ بِالْأَعْجَمِيَّةِ؟ فَأُنْكَرَ ذَلِكَ

الْبَاقِلَانِيُّ وَالطَّبْرِيُّ وَقَالَا: مَا وَقَعَ فِيهِ مِمَّا يُوَافِقُ

الْأَعْجَمِيَّةَ فَهُوَ مِنْ بَابِ مَا تَوَافَقَتْ فِيهِ اللُّغَاتُ.

(١) أحمد: ٩/٤ وأبو داود: ١١٤/٢ وابن ماجه: ١/٤٢٧

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[أَسْمَاءُ الْفَاتِحَةِ وَمَعْنَاهَا]

يُقَالُ لَهَا: الْفَاتِحَةُ، أَي فَاتِحَةُ الْكِتَابِ خَطًّا، وَبِهَا تَفْتُحُ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَوَاتِ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا: أُمُّ الْكِتَابِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَصَحَّحَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ وَيُقَالُ لَهَا: (الْحَمْدُ) وَيُقَالُ لَهَا: (الصَّلَاةُ) لِقَوْلِهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي»^(١) الْحَدِيثُ؛ فَسُمِّيَتْ الْفَاتِحَةُ صَلَاةً لِأَنَّهَا شَرَطُ فِيهَا.

وَيُقَالُ لَهَا: (الرُّقِيَّةُ) لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ فِي الصَّحِيحِ حِينَ رَفَى بِهَا الرَّجُلُ السَّلِيمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟»^(٢)

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر ٨٧] وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

[عَدَدُ آيَاتِهَا]

وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ بِلَا خِلَافٍ. وَالْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ مِنْ أَوَّلِهَا، كَمَا هُوَ عِنْدَ جُمْهُورِ قُرَّاءِ الْكُوفَةِ، وَقَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَخَلْفَتِي مِنَ الْخَلْفِ.

[عَدَدُ كَلِمَاتِهَا وَحُرُوفِهَا]

قَالُوا: وَكَلِمَاتُهَا خَمْسٌ وَعِشْرُونَ كَلِمَةً، وَحُرُوفُهَا مِائَةٌ وَثَلَاثَةٌ عَشْرَ حُرُوفًا.

[لِمَاذَا سُمِّيَتْ أُمُّ الْكِتَابِ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَابِ التَّفْسِيرِ: وَسُمِّيَتْ أُمُّ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ^(٣). وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِجُمُوعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ جَامِعٍ أَمْرًا أَوْ مُقَدِّمًا لِأَمْرٍ إِذَا كَانَتْ لَهُ تَوَابِعٌ تَتَّبِعُهُ، هُوَ لَهَا إِمَامٌ جَامِعٌ: أُمَّا، فَتَقُولُ لِلْجِلْدَةِ الَّتِي تَجْمَعُ الدَّمَاعَ: أُمُّ الرَّأْسِ، وَيُسَمُّونَ لِيَوَاءَ الْجَيْشِ وَرَأَيْتَهُمُ الَّتِي يَجْتَمِعُونَ تَحْتَهَا: أُمًّا. قَالَ: وَسُمِّيَتْ مَكَّةُ أُمُّ الْقُرَى لِتَقَدُّمِهَا أَمَامَ

جَمِيعِهَا وَجَمَعَهَا مَا سِوَاهَا، وَقِيلَ: لِأَنَّ الْأَرْضَ دُحِيتَ مِنْهَا^(٤).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ: «هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَهِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^(٥). وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي»^(٦).

[ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْفَاتِحَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَصَلِّي فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أَجِبْهُ حَتَّى صَلَّيْتُ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟» قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، قَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثُمَّ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ» قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ قُلْتَ: «لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ» قَالَ: «نَعَمْ» الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ^(٧). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٨) وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٩).

(حَدِيثٌ آخَرَ) رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي فَصَائِلِ الْقُرْآنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا، فَتَرَلْنَا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمَ، وَإِنْ تَفَرْنَا غُيِّبَ، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَفَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْنِبُهُ بِرُقِيَّةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً وَسَقَانًا لَبْنَا. فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقِيَّةً أَوْ كُنْتَ تَرَقِي؟ فَقَالَ: لَا مَا رَقِيتُ إِلَّا بِأَمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لَا تُحَدِّثُوا شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي وَتَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَا لَهُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ، أَقْسِمُوا، وَأَضْرِبُوا لِي بِسْمِهِمْ»^(١٠).

(حَدِيثٌ آخَرَ): رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالنَّسَائِيُّ فِي

(١) تحفة الأحوذى: ٢٨٣/٨ (٢) فتح الباري: ٥٢٩/٤ (٣)

فتح الباري: ٦/٨ (٤) الطبري: ١٠٧/١ (٥) أحمد: ٢/

٤٤٨ (٦) الطبري: ١٠٧/١ (٧) أحمد: ٢١١/٤ (٨) فتح

الباري: ٦/٨، ٦٧١ (٩) أبو داود: ١٥٠/٢ والنسائي: ١٣٩/٢

وابن ماجه: ١٢٤٤/٢ (١٠) فتح الباري: ٦٧١/٨

إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿١٧٨﴾ [الإسراء: ١٧٨] وَالْمُرَادُ صَلَاةُ الْفَجْرِ، كَمَا جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «أَنَّهُ يَشْهَدُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ»^(١).

[وَجُوبُ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا إِمَامًا كَانَ أَوْ مَأْمُومًا أَوْ مُتَفَرِّدًا]

فَدَلَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَهُوَ اتِّفَاقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ حَيْثُ قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ»^(٢). وَالْخِدَاجُ هُوَ النَّاقِصُ، كَمَا فَسَّرَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ «غَيْرُ تَمَامٍ». وَأَيْضًا قَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(٣). وَفِي صَحِيحِي ابْنِ خُزَيْمَةَ وَابْنِ حِبَّانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُجْزِيءُ صَلَاةً لَا يَقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ»^(٤). وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ^(٥).

[تَفْسِيرُ الْإِسْتِعَاذَةِ وَأَحْكَامِهَا]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَوْفَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٦) وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩، ٢٠٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ حَمْنٌ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾^(٧) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٨٠﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨١﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٨) وَمَا يُقَلِّنَهَا إِلَّا لِلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقَلِّنَهَا إِلَّا لِمَنْ حَظَّ عَظِيمٌ ﴿١٨٢﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٨٣﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِمُضَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسَانِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، لِيُرِدَّهُ عَنْهُ طَبْعُهُ الطَّيِّبَ الْأَصْلِي إِلَى الْمُوَالَاةِ وَالْمُصَافَاةِ،

(١) مسلم: ٥٥٤/١ والنسائي في الكبرى: ١٢/٥ (٢) مسلم: ٢٩٦/١ والنسائي في الكبرى: ١٢، ١١/٥ (٣) فتح الباري: ٨/٢٥٧ (٤) فتح الباري: ٢٥١/٨ ومسلم: ٤٣٩/١ (٥) أحمد: ٢٥٠/٢ (٦) فتح الباري: ٢٧٦/٢ ومسلم: ٢٩٥/١ (٧) ابن خزيمة: ٢٤٨/١ وابن حبان: ١٣٩/٣ (٨) [فَعَلَى الْمُصَلِّي أَنْ يَقْرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ إِمَامًا كَانَ أَوْ مَأْمُومًا أَوْ مُتَفَرِّدًا فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ وَفِي كُلِّ رُكْعَةٍ وَلَا بَدَأَ].

سُنِّيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيَّنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جِبْرَائِيلُ، إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا فَوَقَّه، فَرَفَعَ جِبْرَائِيلُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فُتِحَ قَطُّ، قَالَ: فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَآتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَمْ تَقْرَأْ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيَتْهُ. وَهَذَا لَفْظُ النَّسَائِيِّ وَلِمُسْلِمٍ نَحْوُهُ^(١).

[قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ]

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا أُمَّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ - ثَلَاثًا - غَيْرُ تَمَامٍ» فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّمَا نَكُونُ خَلْفَ الْإِمَامِ، فَقَالَ: إِقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قَالَ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» قَالَ اللَّهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَرَضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»^(٢) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» قَالَ اللَّهُ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، وَفِي لَفْظٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ وَالنَّسَائِيِّ: «فِيصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(٣).

الْكَلَامُ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْحَدِيثِ

مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْفَاتِحَةِ مِنْ وُجُوهِ

وَهُوَ: أَنَّهُ قَدْ أُطْلِقَ فِيهِ لَفْظُ الصَّلَاةِ، وَالْمُرَادُ الْقِرَاءَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] أَيْ بِقِرَاءَتِكَ، كَمَا جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٤). وَهَكَذَا قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَصَفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» ثُمَّ بَيَّنَّ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْقِسْمَةِ فِي قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، فَدَلَّ عَلَى عَظَمَةِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَأَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ أَرْكَانِهَا؛ إِذْ أُطْلِقَتْ الْعِبَادَةُ وَأُرِيدَ بِهَا جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْهَا. وَهُوَ الْقِرَاءَةُ، كَمَا أُطْلِقَ لَفْظُ الْقِرَاءَةِ وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ فِي قَوْلِهِ: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ»

السَّلْمِيِّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَهَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ» قَالَ: هَمَزُهُ الْمُوتَةُ، وَنَفْخُهُ الْكَبِيرُ، وَنَفْثُهُ الشَّعْرُ. (٣)

[الْتَعُوذُ عِنْدَ الْغَضَبِ]

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَعْلَى أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْمُثَنَّى الْمُؤَصِّلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَلَاخَى رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَتَمَعَ أَنْفُ أَحَدِهِمَا غَضَبًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ سَيِّئًا لَوْ قَالَهُ لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» (٤).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، فَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ. وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا مَعَ مُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيَّ (٥).

وَقَدْ جَاءَ فِي الْإِسْتِعَاذَةِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا هَهُنَا، وَمَوْطِنُهَا كِتَابُ الْأَذْكَارِ وَقَضَائِلِ الْأَعْمَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْإِسْتِعَاذَةُ وَاجِبَةٌ أَوْ مُسْتَحَبَّةٌ؟]

(مَسْأَلَةٌ) وَجْمَهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ مُسْتَحَبَّةٌ، لَيْسَتْ بِمُتَحْتَمَةٍ يَأْتُمُ تَارِكُهَا. وَحَكَى الرَّازِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَجُوبَهَا فِي الصَّلَاةِ وَخَارِجَهَا كُلَّمَا أَرَادَ الْقِرَاءَةَ. وَاحْتَجَّ الرَّازِيُّ لِعَطَاءٍ بِظَاهِرِ الْآيَةِ «فَاسْتَعِذْ» [النحل: ٩٨] وَهُوَ أَمْرٌ ظَاهِرُهُ الْوُجُوبُ، وَبِمَوْاطِنَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهَا، وَلِأَنَّهَا تَدْرَأُ شَرَّ الشَّيْطَانِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَلِأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ أَحْوَطٌ، فَإِذَا قَالَ الْمُسْتَعِذُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» كَفَى ذَلِكَ.

[مِنْ لَطَائِفِ الْإِسْتِعَاذَةِ]

وَمِنْ لَطَائِفِ الْإِسْتِعَاذَةِ أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلنَّفْسِ مِمَّا كَانَ يَتَّعَاطَاهُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَتَطْيِيبٌ لَهُ، وَهُوَ لِيَلَاوَةِ كَلَامِ

وَيَأْتُمُ بِالْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مَحَالَةَ، إِذْ لَا يَقْبَلُ مُضَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا، وَلَا يَبْتَغِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ، لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَنْبَغِي آدَمَ لَا يَفِينَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ آبَائَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ» [الأعراف: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ» [فاطر: ٦] وَقَالَ: «فَاتَّخِذُوهُ وَذَرَيْتَهُ أَوْلِيَاةَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَفْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» [الكهف: ٥٠] وَقَدْ أَقْسَمَ لِلْوَالِدِ - آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ لَهُ لِمَنْ النَّاصِحِينَ، وَكَذَّبَ، فَكَيْفَ مُعَامَلَتُهُ لَنَا وَقَدْ قَالَ: «فَعِرْيَكَ لِأَعْوِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ» (٨١) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَاصِينَ» [ص: ٨٢، ٨٣] وَقَالَ تَعَالَى: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَنُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» [النحل: ٩٨-١٠٠].

[الْإِسْتِعَاذَةُ تَكُونُ قَبْلَ التَّلَاوَةِ]

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [النحل: ٩٨] أَي إِذَا أَرَدْتَ الْقِرَاءَةَ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ» الْآيَةَ [المائدة: ٦]. أَي إِذَا أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَفْتَحَ صَلَاتَهُ وَكَبَّرَ قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ. ثُمَّ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثَلَاثًا - ثُمَّ يَقُولُ: - أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ». وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هُوَ أَشْهَرُ شَيْءٍ فِي هَذَا الْبَابِ (١).

وَقَدْ فَسَّرَ «الْهَمَزُ» بِالْمُوتَةِ، وَهِيَ الْحَقْنُ، وَالتَّفْخُ بِالْكَبِيرِ، وَالتَّفْثُ بِالشَّعْرِ، كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنِ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا - ثَلَاثًا - الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا - ثَلَاثًا - سُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا - ثَلَاثًا - اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ» قَالَ عَمْرُو: هَمَزُهُ: الْمُوتَةُ وَنَفْخُهُ: الْكَبِيرُ وَنَفْثُهُ: الشَّعْرُ (٢). وَقَالَ ابْنُ مَاجَةَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُثَنَّرِ: حَدَّثَنَا ابْنُ فَضِيلٍ: حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ

(١) أحمد: ٦٩/٣ وأبو داود: ٤٩٠/١ وتحفة الأحوذى: ٢/٤٧ والنسائي: ١٣٢٢/٢ وابن ماجه: ٢٦٤/١ (٢) أبو داود: ١/٤٨٦ وابن ماجه: ٢٦٥/١ (٣) ابن ماجه: ٢٦٦/١ (٤) النسائي في الكبرى: رقم ١٠٢٣٣ (٥) فتح الباري: ٦/٣٨٨ ومسلم: ٢٠١٥/٤ وأبو داود: ١٤٠/٥ والنسائي في الكبرى: ١٠٤/٦

الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُغْنِيهَا إِلَّا دُو حَظِّ عَظِيمٍ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّمَا بَنَزَعْنَاكَ مِنَ السَّيِّئِينَ نَزْعٌ قَاسِتَعِدُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥٦﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

[تَسْمِيَةُ الشَّيْطَانِ]

الشَّيْطَانُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ إِذَا بَعُدَ، فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنِ طِبَاعِ الْبَشَرِ، وَيَعِيدُ بِنَفْسِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَقِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطٍ، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: كِلَاهُمَا صَحِيحٌ فِي الْمَعْنَى وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ أَصَحُّ. وَقَالَ سَيْبَوَيْهِ: الْعَرَبُ تَقُولُ: تَشْطَنَ فُلَانٌ إِذَا فَعَلَ فِعْلَ الشَّيَاطِينِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَاطٍ لَقَالُوا: تَشَيْطُ. فَالشَّيْطَانُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْبُعْدِ عَلَى الصَّحِيحِ، وَلِهَذَا يُسَمَّوْنَ كُلُّ مَنْ تَمَرَّدَ مِنْ جَنِّي وَإِنْسِي وَحَيَوَانٍ شَيْطَانًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّاكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» فَقُلْتُ: أَوْ لِلْإِنْسِ شَيْطَانٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ»^(١). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَضْفَرِ؟ فَقَالَ: «الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»^(٢). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَكِبَ بَرْدُونَ فَجَعَلَ يَتَبَخَّرُ بِهِ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ، فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا تَبَخُّرًا فَتَزَلَّ عَنْهُ وَقَالَ: مَا حَمَلْتُمُونِي إِلَّا عَلَى شَيْطَانٍ، مَا نَزَلْتُ عَنْهُ حَتَّى أَنْكَرْتُ نَفْسِي.^(٣) إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

[مَعْنَى الرَّجِيمِ]

وَالرَّجِيمُ فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ أَي: إِنَّهُ مَرْجُومٌ مَطْرُودٌ عَنِ الْخَيْرِ كُلِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَمَيْنَا آسْمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا دُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [المالك: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا رَمَيْنَا آسْمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيذٍ الْكُرْكِيِّ﴾^(٤) وَحَفَظَ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ^(٥) لَا يَسْتَمُونَ إِلَى التَّلَا الْأَكْثَلِ وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ^(٦) مُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ^(٧) إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْمَطْفَعَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ [الصافات: ٦-١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَاسِبًا لِلنَّظِيرِينَ﴾^(٨) وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ

اللَّهُ، وَهِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ، وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ، وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنِ مَقَاوِمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْبَاطِنِيِّ، الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ، وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةَ وَلَا يَدَارِي بِالْإِحْسَانِ، بِخِلَافِ الْعَدُوِّ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَثَانِي. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥] وَقَدْ نَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ لِمُقَاتَلَةِ الْعَدُوِّ الْبَشَرِيِّ، فَمَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الظَّاهِرُ الْبَشَرِيُّ كَانَ شَهِيدًا، وَمَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنِيُّ كَانَ طَرِيدًا، وَمَنْ غَلَبَهُ الْعَدُوُّ الظَّاهِرِيُّ كَانَ مَأْجُورًا، وَمَنْ فَهَرَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنِيُّ كَانَ مَفْتُونًا أَوْ مَوْزُورًا، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يَرَى الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ اسْتَعَاذَ مِنْهُ بِالَّذِي يَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ الشَّيْطَانُ.

(فصل) وَالِاسْتِعَاذَةُ هِيَ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالِالْتِصَاقُ بِجَنَابِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَالْعِيَاذَةُ تَكُونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ، وَاللِّيَاذُ يَكُونُ لِطَلْبِ جَلْبِ الْخَيْرِ.

[مَعْنَى الْاسْتِعَاذَةِ]

وَمَعْنَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، أَي اسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرِّيَنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ أَوْ يَضُرِّيَنِي عَنْ فِعْلٍ مَا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ يَحْثُنِي عَلَى فِعْلٍ مَا نَهَيْتُ عَنْهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكْفُهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ، وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى بِمُصَانَعَةِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَمُذَارَاتِهِ بِإِسْدَاءِ الْجَمِيلِ إِلَيْهِ، لِيُرَدَّهُ طَبْعُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأَدَى، وَأَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ شَيْطَانِ الْجِنِّ، لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رِشْوَةَ، وَلَا يُؤْتَرُ فِيهِ جَمِيلٌ، لِأَنَّهُ شَرِيرٌ بِالطَّبْعِ، وَلَا يَكْفُهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ. وَهَذَا الْمَعْنَى فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَا أَعْلَمُ لَهُنَّ رَابِعَةً، قَوْلُهُ فِي الْأَعْرَافِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الآية: ١٩٩] فَهَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُعَامَلَةِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْبَشَرِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّمَا بَنَزَعْنَاكَ مِنَ السَّيِّئِينَ نَزْعٌ قَاسِتَعِدُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ٢٠٠] وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، «أَدْفَعْ بِاللَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ»^(٩) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ^(١٠) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ حَمِ السَّجْدَةِ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِاللَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١١) وَمَا يُغْنِيهَا إِلَّا

(١) أحمد: ١٧٨/٥ (٢) مسلم: ٣٦٥/١ (٣) الطبري: ١

رَجِيمٌ ﴿٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿٨﴾ [الحجر: ١٦-١٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقِيلَ: رَجِيمٌ بِمَعْنَى رَاجِمٌ لِأَنَّهُ يَرْجُمُ النَّاسَ بِالْوَسْوَاسِ وَالرَّيَاثِثِ. وَالْأَوَّلُ أَشْهُرٌ وَأَصْحٌ.

[الْبِسْمَلَةُ أَوَّلُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ]

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. إِفْتَتَحَ بِهَا الصَّحَابَةُ كِتَابَ اللَّهِ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ ثُمَّ اخْتَلَفُوا هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِهَا، أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ؟

وَمِمَّنْ حَكِيَ عَنْهُ أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ إِلَّا بَرَاءَةَ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عَمَرَ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَعَلِيٌّ، وَمِنْ التَّابِعِينَ عَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَكْحُولٌ وَالزُّهْرِيُّ، وَيَبِي يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ وَأَبُو عَبْدِ الْقَاسِمِ بْنُ سَلَامٍ رَجَمَهُمُ اللَّهُ. وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُمَا: لَيْسَتْ آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا مِنْ السُّورِ، وَقَالَ دَاوُدُ: هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ لَا مِنْهَا، وَهَذِهِ رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ.

[الْجَهْرُ وَالْإِسْرَارُ بِالْبِسْمَلَةِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ]

فَأَمَّا الْجَهْرُ بِهَا فِي الصَّلَاةِ فَمَنْ رَأَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ الْفَاتِحَةِ فَلَا يُجْهَرُ بِهَا، وَكَذَا مَنْ قَالَ: إِنَّهَا آيَةٌ مِنْ أَوَّلِهَا، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِأَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ السُّورِ فَاخْتَلَفُوا، فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ رَجْمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنَّهُ يُجْهَرُ بِهَا مَعَ الْفَاتِحَةِ وَالسُّورَةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ طَوَائِفٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَائِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ سَلْفًا وَخَلْفًا، فَجَهَرَ بِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمَعَاوِيَةَ، وَحَكَاةُ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَمَرَ وَعَلِيٍّ، وَنَقَلَهُ الْخَطِيبُ عَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، وَهُوَ غَرِيبٌ، وَمِنْ التَّابِعِينَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةَ وَأَبِي قَلَابَةَ وَالزُّهْرِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ وَابْنُ مُحَمَّدٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَمُجَاهِدٌ وَسَالِمٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيُّ، وَأَبِي بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ، وَأَبِي وَائِلٍ وَابْنِ سَبْرِينَ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُكْدِرِ وَعَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ وَنَافِعُ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَعَمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ

وَالْأَزْرَقِيُّ بْنُ قَيْسٍ، وَحَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ وَأَبِي الشَّعْنَاءِ وَمَكْحُولٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْقِلٍ بْنُ مُقْرِنٍ - زَادَ الْبَيْهَقِيُّ -: وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَفْوَانَ وَمُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ - زَادَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -: وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ.

وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا بَعْضُ الْفَاتِحَةِ، فَيُجْهَرُ بِهَا كَسَائِرِ أَعْضَائِهَا، وَأَيْضًا فَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ جِبَانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ صَلَّى فَجَهَرَ فِي قِرَائَتِهِ بِالْبِسْمَلَةِ، وَقَالَ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ: إِنِّي لِأَشْبَهُكُمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَصَحَّحَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَالْخَطِيبُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَعَبْرُهُمْ^(١). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: كَانَتْ قِرَاءَتُهُ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ وَيَمُدُّ الرَّحْمَنَ وَيَمُدُّ الرَّجِيمَ^(٢). وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَصَحِيحِ ابْنِ خُزَيْمَةَ وَمُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّافِعِيُّ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ مَعَاوِيَةَ صَلَّى بِالْمَدِينَةِ فَتَرَكَ الْبِسْمَلَةَ فَأَتَكَرَّ عَلَيْهِ مَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ذَلِكَ، فَلَمَّا صَلَّى الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ بَسَمَلُ^(٤).

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ النَّبِيَّةِ أَوْرَدْنَاهَا كِفَايَةً وَمَقْنَعٌ فِي الْإِحْتِجَاجِ لِهَذَا الْقَوْلِ عَمَّا عَدَاهَا. فَأَمَّا الْمُعَارَضَاتُ وَالرِّوَايَاتُ الْغَرِيبَةُ وَتَطْرِيقُهَا، وَتَعْلِيلُهَا وَتَضْعِيفُهَا وَتَقْرِيرُهَا فَلَهُ مَوْضِعٌ آخَرٌ.

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ لَا يُجْهَرُ بِالْبِسْمَلَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَهَذَا هُوَ الثَّابِتُ عَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ، وَطَوَائِفٍ مِنْ سَلَفِ التَّابِعِينَ وَالْخَلْفِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالنُّوْرِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ.

(١) النسائي: ١٣٤/٢ وابن خزيمة: ٢٥١/١ وصحيح ابن حبان: ١٤٣/٣ والحاكم: ٢٣٢/١ والدارقطني: ٣٥٥/١ والبيهقي: ٤٦/٢ (٢) فتح الباري: ٧٠٩/٨ (٣) أحمد: ٦/٣٠٢ وأبو داود: ٢٩٤/٤ وابن خزيمة: ٢٤٨/١ والحاكم: ٢/٢٣١ والدارقطني: ٣٠٧/١ (٤) مسند الإمام الشافعي: ٨٠/١ والحاكم: ٢٣٣/١

بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَصْرَهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»^(٩).

[بِمَاذَا يَتَعَلَّقُ بِسْمِ اللَّهِ]

وَمِنْ هُنَا يَتَكشِفُ لَكَ أَنَّ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ النَّحَاةِ - فِي تَقْدِيرِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِكَ بِسْمِ اللَّهِ، هَلْ هُوَ اسْمٌ أَوْ فِعْلٌ - مُتَّفَارِقَانِ، وَكُلٌّ قَدْ وَرَدَ بِهِ الْقُرْآنُ، أَمَا مَنْ قَدَّرَهُ بِاسْمِ تَقْدِيرُهُ: بِسْمِ اللَّهِ ابْتِدَائِي، فَلَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَدِيدَهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١] وَمَنْ قَدَّرَهُ بِالْفِعْلِ أَمْرًا أَوْ خَبْرًا نَحْوُ: ابْتَدَأَ بِسْمِ اللَّهِ أَوْ ابْتَدَأَتْ بِاسْمِ اللَّهِ فَلَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١١] وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَصْدَرٍ، فَلَمْ أَنْ تَقْدَّرَ الْفِعْلَ وَمَصْدَرَهُ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْفِعْلِ الَّذِي سَمَّيْتِ قَوْلَهُ إِنْ كَانَ قِيَامًا أَوْ فِعْوًا، أَوْ أَكْثَلًا أَوْ شَرْبًا، أَوْ قِرَاءَةً، أَوْ وُضُوءًا أَوْ صَلَاةً، فَالْمَشْرُوعُ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ فِي الشَّرُوعِ فِي ذَلِكَ كَلِمَةً تَبَرُّكًا وَتَمِيمًا وَاسْتِعَانَةً عَلَى الْإِتِمَامِ وَالْتِقَابِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[مَعْنَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ «اللَّهُ»]

[اللَّهُ] عَلَّمَ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُقَالُ: إِنَّهُ الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْعَرْشُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١٠) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي كَلَّمَ الْقُدُوسَ السَّلَامَ الْمُؤْمِنَ الْمُهَيَّبَ الْعَزِيزَ الْجَبَّارَ الْمُنْكَرُفَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(١١) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الحشر: ٢٢-٢٤] فَأَجْرَى الْأَسْمَاءَ الْبَاقِيَةَ كُلَّهَا صِفَاتٍ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ

وَعِنْدَ الْإِمَامِ مَالِكٍ أَنَّهُ لَا يُقْرَأُ بِالسَّمَلَةِ بِالْكَلْبَةِ لَا جَهْرًا وَلَا سِرًّا، وَاحْتَجُّوا بِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفْتِيحُ الصَّلَاةَ بِالتَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١٢). وَبِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَكَانُوا يُفْتَحُونَ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِمُسْلِمٍ: وَلَا يَذْكُرُونَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلَا فِي آخِرِهَا^(١٣). وَنَحْوُهُ فِي السُّنَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١٤). فَهَذِهِ مَا خِذُ الْأَيْمَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ، لِأَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى صِحَّةِ مَنْ جَهَرَ بِالسَّمَلَةِ وَمَنْ أَسْرَرَ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

فَصَلِّ فِي فَضْلِهَا

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ رَدِيفِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ غَيْرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ قُلْتُ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُلْ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، تَعَاظَمَ وَقَالَ: بِقُوَّتِي صَرَغْتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ اللَّهِ، تَصَاعَرَ حَتَّى يَمِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ»^(١٥). وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» وَابْنُ مَرْزُوقٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَهُ وَقَالَ: «لَا تَقُلْ هَكَذَا، فَإِنَّهُ يَتَعَاظَمُ حَتَّى يَكُونَ كَالنَّبِيِّ، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَكُونَ كَالذُّبَابَةِ»^(١٦). فَهَذَا مِنْ تَأْثِيرِ بَرَكَتِ بِسْمِ اللَّهِ.

[اسْتِحْبَابُهَا فِي بَدَايَةِ كُلِّ عَمَلٍ]

وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ كُلِّ عَمَلٍ وَقَوْلٍ، فَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ، وَتُسْتَحَبُّ بِالسَّمَلَةِ عِنْدَ دُخُولِ الْخَلَاءِ لِمَا وَرَدَ مِنَ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ^(١٧). وَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ لِمَا جَاءَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالسُّنَنِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ وَأَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «لَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(١٨). وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَهَكَذَا تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْأَكْلِ، لِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَبِيبِهِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: «قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، وَكُلْ بِبَيْبِنِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»^(١٩). وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَوْجَبَهَا وَالْحَالَةَ هَذِهِ، وَكَذَلِكَ تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْجَمَاعِ، لِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، لِلَّهِمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُعَدَّرُ

(١) ابن أبي حاتم: ١٢/١ (٢) فتح الباري: ٢٦٥/٢ ومسلم: ٢٩٩/١ قال الحافظ في بلوغ المرام: وفي رواية لأحمد والنسائي وابن خزيمة «لا يجهرون بيسم الله الرحمن الرحيم» وفي أخرى لابن خزيمة: «كانوا يسرون» وعلى هذا يحمل النفي في رواية مسلم. اهـ (٣) الترمذي: ٢٤٤ (٤) أحمد: ٥٩/٥ (٥) النسائي في الكبرى: ١٤٢/٦ (٦) عون المعبود: ٦/١ (٧) أحمد: ٤١/٣ وأبو داود: ٧٥/١ وتحفة الأحوذني: ١١٥/١ والنسائي: ٦١/١ وابن ماجه: ١٤٠/١ (٨) مسلم: ١٦٠٠/٣ (٩) فتح الباري: ١٣٦/٩ ومسلم: ١٠٥٨/٢

تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

[تفسير: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ]

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إسمانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ، وَرَحْمُنٌ أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنْ رَحِيمٍ، وَفِي كَلَامِ ابْنِ جَرِيرٍ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ حِكَايَةُ الْإِتِّفَاقِ عَلَى هَذَا، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مُشْتَقٌّ: مَا حَرَّجَهُ التَّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ أَسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ»^(٢). قَالَ: وَهَذَا نَصٌّ فِي الْإِشْتِقَاقِ، وَإِنْكَارُ الْعَرَبِ لِاسْمِ الرَّحْمَنِ، لِجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ وَبِمَا وَجَبَ لَهُ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ثُمَّ قِيلَ: هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَنَدْمَانٍ وَنَدِيمٍ، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدٍ. وَقِيلَ: لَيْسَ بِنَاءُ فَعْلَانٍ كَفَعِيلٍ، فَإِنَّ فَعْلَانًا لَا يَمَعُ إِلَّا عَلَى مُبَالَغَةِ الْفِعْلِ، نَحْوُ قَوْلِكَ رَجُلٌ غَضَبَانٌ - لِلرَّجُلِ الْمُتَمَلِّئِ غَضَبًا - وَفَعِيلٌ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ: الرَّحْمَنُ اسْمٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ يَخْتَصُّ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى، وَالرَّحِيمُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا اسْمَانِ رَقِيقَانِ أَحَدُهُمَا أَرْقٌ مِنَ الْآخَرِ أَيُّ: أَكْثَرُ رَحْمَةً^(٣).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا السَّرِيُّ بْنُ يَحْيَى التَّوَيْمِيُّ: حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ زُفَرٍ: سَمِعْتُ الْعَزْرَمِيَّ يَقُولُ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ قَالَ: الرَّحْمَنُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، الرَّحِيمُ قَالَ: بِالْمُؤْمِنِينَ^(٤). قَالُوا: وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وَقَالَ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فَذَكَرَ الْإِسْتِوَاءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنُ لِيُعْمَ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ، وَقَالَ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فَخَصَّهُمْ بِاسْمِهِ الرَّحِيمِ، قَالُوا: فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرَّحْمَنَ أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الرَّحْمَةِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَالرَّحِيمُ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، لَكِنْ جَاءَ فِي الدُّعَاءِ الْمَأْتُورِ: «رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا».

وَأَسْمُهُ تَعَالَى الرَّحْمَنُ خَاصٌّ بِهِ، لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْتَلْ مَنْ

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وَلَكَمَا تَجَهَّرَمُ مُسَيْلِمَةُ الْكُذَّابُ وَتَسْمَى بِرَحْمَنِ الْيَمَامَةِ كَسَاءَ اللَّهِ جِلْبَابَ الْكُذْبِ وَشُهِرَ بِهِ، فَلَا يُقَالُ إِلَّا مُسَيْلِمَةُ الْكُذَّابِ، فَصَارَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْكُذْبِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ، وَأَهْلِ الْوَبْرِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَالْأَعْرَابِ.

وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ تَقْدِيمُ اسْمِ «اللَّهِ» الَّذِي لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَوَضْفُهُ أَوْلَى بِالرَّحْمَنِ الَّذِي مُنِعَ مِنَ التَّسْمِيَةِ بِهِ لِغَيْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وَإِنَّمَا تَجَهَّرَمُ مُسَيْلِمَةُ الْيَمَامَةِ فِي التَّسْمِيَةِ بِهِ، وَلَمْ يُتَابِعْهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الضَّلَالَةِ. وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرَهُ قَالَ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كَمَا وَصَفَ غَيْرَهُ بِذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيْمِئًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] وَالْحَاصِلُ أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى مَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، كَاسْمِ: اللَّهُ، وَالرَّحْمَنُ، وَالْخَالِقُ، وَالرَّازِقُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلِهَذَا بَدَأَ بِاسْمِ اللَّهِ وَوَضَفَهُ بِالرَّحْمَنِ، لِأَنَّهُ أَحْصَى وَأَعْرَفَ مِنَ الرَّحِيمِ، لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ أَوْلَى إِنَّمَا تَكُونُ بِأَشْرَفِ الْأَسْمَاءِ، فَلِهَذَا ابْتَدَأَ بِالْأَحْصَى فَالْأَخْصَى.

وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ أُمَّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ حَرْفًا حَرْفًا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ [الفاتحة: ١-٤]^(٥) فَقَرَأَ بَعْضُهُمْ كَذَلِكَ وَهُمْ طَائِفَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ وَصَلَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②

[مَعْنَى الْحَمْدِ]

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَى «الْحَمْدُ لِلَّهِ» الشُّكْرُ لِلَّهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَدُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ

(١) فتح الباري: ٢١٨/١١ ومسلم: ٢٠٦٢/٤ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٣/٦ (٣) القرطبي: ١٠٥/١ (٤) الطبري: ١/ ١٢٧ العزرمي هو محمد بن عبيد الله بن أبي سلمان العزرمي أبو عبدالرحمن الكوفي متروك كما قال ابن حجر في التقريب لكن السند إليه حسن. (٥) مسند أحمد (٢٦٠٤٢) لكن بلفظ «آية آية»

وَاللَّهُ أَكْبَرُ، قَدْ عَرَفْنَاهَا. فَمَا الْحَمْدُ لِلَّهِ؟ قَالَ عَلِيُّ: كَلِمَةٌ أَحَبَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ، وَرَضِيهَا لِنَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تُقَالَ (٣). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (٤): الْحَمْدُ لِلَّهِ كَلِمَةُ الشُّكْرِ، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: شَكَرَنِي عَبْدِي. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٥).

[فَصَائِلُ الْحَمْدِ]

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيحٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أُشِيدُكَ مَحَامِدُ حَمِدَتْ بِهَا رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْحَمْدَ» وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٦).

وَرَوَى أَبُو عِيْسَى الْحَافِظُ التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ طَلْحَةَ ابْنِ خِرَاشٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ (٧).

وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ عَبْدِي نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ» (٨).

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ: «أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَبْتَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ. فَعَضَلْتُ بِالْمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُمَانِيهَا، فَصَعِدَا إِلَى اللَّهِ فَقَالَ: يَا رَبَّنَا إِنَّ عَبْدًا قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُمُهَا، قَالَ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ - : مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ: لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّ كَمَا يَبْتَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ. فَقَالَ اللَّهُ لَهُمَا: «اكْتُمَا هَا كَمَا قَالَ عَبْدِي، حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا» (٩).

[الْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي الْحَمْدِ لِاسْتِعْرَاقِ]

وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي الْحَمْدِ لِاسْتِعْرَاقِ جَمِيعِ أَجْنَاسِ

خَلْقِهِ، بِمَا أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَدَدُ، وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيْرُهُ أَحَدٌ: فِي تَصْحِيحِ الْأَلْبَابِ لِبَطْنِهَا، وَتَمَكِينِ جَوَارِحِ أَجْسَامِ الْمُكَلَّفِينَ لِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، مَعَ مَا بَسَطَ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الرِّزْقِ، وَعَذَاهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْعَيْشِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقِي مِنْهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَمَعَ مَا نَبَّهَهُمْ عَلَيْهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى دَوَامِ الْخُلُودِ فِي دَارِ الْمَقَامِ فِي النِّعَمِ الْمُقِيمِ، فَلِرَبَّنَا الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَوْلَى وَأَجْرًا (١٠).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثَنَاءٌ أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَفِي ضَمْنِهِ أَمْرٌ بِعِبَادَةِ أَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: قُولُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ. قَالَ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثَنَاءٌ عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، وَقَوْلُهُ: «الشُّكْرُ لِلَّهِ»: ثَنَاءٌ عَلَيْهِ بِنِعَمِهِ وَأَيَادِيهِ (١١).

[الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ]

وَالْتَّحْقِيقُ أَنَّ بَيْنَهُمَا عُمُومًا وَخُصُوصًا، فَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَلَى الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، تَقُولُ: حَمِدْتُهُ لِفُرُوسِيَّتِهِ، وَحَمِدْتُهُ لِكَرَمِهِ، وَهُوَ أَحْصَى لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَوْلِ، وَالشُّكْرُ أَعَمُّ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ [بِهِ]؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالنِّيَّةِ. وَهُوَ أَحْصَى لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ لَا يُقَالُ: شَكَرْتُهُ لِفُرُوسِيَّتِهِ، وَتَقُولُ: شَكَرْتُهُ عَلَى كَرَمِهِ وَإِحْسَانِيهِ إِلَيَّ. هَذَا حَاصِلُ مَا حَرَّرَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ أَبُو نَضْرٍ إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَمَادٍ الْجَوْهَرِيُّ: الْحَمْدُ نَقِيضُ الدَّمِّ، تَقُولُ: حَمِدْتُ الرَّجُلَ أَحْمَدُهُ حَمْدًا، وَمَحْمَدَةً، فَهُوَ حَمِيدٌ وَمَحْمُودٌ، وَالتَّحْمِيدُ أَبْلَغُ مِنَ الْحَمْدِ. وَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ؛ وَقَالَ فِي الشُّكْرِ: هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى الْمُحْسِنِ بِمَا أَوْلَاهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، يُقَالُ: شَكَرْتُهُ وَشَكَرْتُ لَهُ، وَبِاللَّامِ أَفْضَحُ. وَأَمَّا الْمُدْحُ فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْحَمْدِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ لِلْحَيِّ وَالْمَيِّتِ وَاللِّجَمَادِ أَيْضًا، كَمَا يَمْدُحُ الطَّعَامُ وَالْمَكَانَ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَيَكُونُ قَبْلَ الْإِحْسَانِ وَبَعْدَهُ، وَعَلَى الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ وَاللَّازِمَةِ أَيْضًا، فَهُوَ أَعَمُّ.

ذِكْرُ أَقْوَالِ السَّلَفِ فِي الْحَمْدِ

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ الْقَطِيعِيُّ: حَدَّثَنَا حَفْصُ وَرَوَاهُ غَيْرُ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ حَفْصِ فَقَالَ: قَالَ عُمَرُ عَلِيٍّ - وَأَصْحَابُهُ عِنْدَهُ - : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ،

(١) الطبري: ١٣٥/١ (٢) الطبري: ١٣٧/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٥/١ (٤) هذا القول لم يثبت عن ابن عباس في إسناده علي بن زيد بن جعدان وهو ضعيف انظر تقريب التهذيب لابن حجر رقم الترجمة ٤٧٣٤. (٥) ابن أبي حاتم: ١٣/١ (٦) أحمد: ٤٣٥/٣ والنسائي في الكبرى: ٤١٦/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٢٤/٩ والنسائي في الكبرى: ٢٠٨/٦ وابن ماجه: ١٢٤٩/٢ (٨) ابن ماجه: ١٢٥٠/٢ (٩) ابن ماجه: ١٢٤٩/٢

يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قِطَبٌ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدًا^(٤).

﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾

[معنى مالك ومملك]

ومالك مأخوذ من المَلِك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْنَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مریم: ٤٠] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢٠، ٢١] ومملك مأخوذ من المُلْك، كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣] وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

[معنى تَحْصِيصِ الْمُلْكِ يَوْمَ الدِّينِ]

وَتَحْصِيصِ الْمُلْكِ يَوْمَ الدِّينِ لَا يُنْبِئُهُ عَمَّا عَدَاهُ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَوْمُ الرُّوحِ وَالْمَلَائِكَةِ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُوقِيَ وَسَوِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [٤] يَقُولُ: لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حُكْمًا، كَمُلْكِهِمْ فِي الدُّنْيَا^(٥).

[معنى يَوْمِ الدِّينِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَيَوْمُ الدِّينِ يَوْمُ الْحِسَابِ لِلْخَلَائِقِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَدِينُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْهُ^(٦). وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالسَّلَفِ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

[الْمَلِكُ وَمَلِكُ الْأَمْلَاكِ هُوَ اللَّهُ]

وَالْمَلِكُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) الترغيب والترهيب: ٢/٢٥٣ (٢) القرطبي: ١/١٣٩ (٣)

القرطبي: ١/١٣٩ (٤) مسلم: ٤/٢١٠٩ (٥) ابن جرير (١٦٦)

وابن أبي حاتم (٢٤) وسنده ضعيف جدا وبشر بن عماره واو والضحاك لم يسمع من ابن عباس. (٦) ابن أبي حاتم: ١/١٩

الْحَمْدُ وَصُنُوفُهُ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ» الْحَدِيثِ^(١).

[مَعْنَى الرَّبِّ]

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ، وَعَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلِإِضْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ لِغَيْرِ اللَّهِ بَلْ بِالِإِضَافَةِ تَقُولُ: رَبُّ الدَّارِ، رَبُّ كَذَا، وَأَمَّا الرَّبُّ فَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ.

[مَعْنَى الْعَالَمِينَ]

وَالْعَالَمِينَ جَمْعُ عَالَمٍ وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَالَمُ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَالْعَوَالِمُ أَصْنَافُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَكُلُّ قَرْيَةٍ مِنْهَا وَجِيلٌ يُسَمَّى عَالَمًا أَيْضًا. قَالَ الْقَرَاءُ وَأَبُو عُبَيْدٍ: الْعَالَمُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَعْقَلُ، وَهُمْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالْمَلَائِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ، وَلَا يُقَالُ لِلْبَهَائِمِ عَالَمٌ. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَأَبِي مُحَيْصِينَ: الْعَالَمُ كُلُّ مَا لَهُ رُوحٌ تَرْفُفٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كُلُّ صِنْفٍ عَالَمٌ، وَقَالَ الرَّجَاجُ: الْعَالَمُ كُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، إِنَّهُ شَامِلٌ لِكُلِّ الْعَالَمِينَ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤].

[وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْعَالَمِ]

وَالْعَالَمُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَلَامَةِ (قُلْتُ) لِأَنَّهُ عَلِمَ دَالَ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَصَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ^(٢).

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي الْبَسْمَلَةِ بِمَا أَعْنَى عَنِ الْإِعَادَةِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: إِنَّمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لِيَكُونَ مِنْ بَابِ قَرْيِنِ التَّرْغِيبِ بَعْدَ التَّرْهيبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَقَى عِبَادَتِي أَيْ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [وَأَنَّ عِدَائِي هُوَ الْمَدَائِبُ الْأَلِيمُ] [الحجر: ٤٩، ٥٠]^(٣) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] قَالَ: فَالرَّبُّ فِيهِ تَرْهيبٌ، وَ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تَرْغِيبٌ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ

مَرْفُوعًا: «أَخْتَعُ اسْمَهُ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى بِمَلِكِ الْأَمْلاكِ، وَلَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ»^(١) وَفِيهِمَا عَنْهُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَتَيْنَ مُلُوكَ الْأَرْضِ؟ أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»^(٢). وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» [غافر: ١٦] فَأَمَّا تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا بِمَلِكٍ فَعَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» [البقرة: ٢٤٧] «وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ» [الكهف: ٧٩] «إِذْ جَعَلْنَا فِيكُمْ أَرْبَابًا وَجَعَلْنَاكُمْ مَمْلُوكًا» [المائدة: ٢٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «مِثْلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْبَةِ»^(٣).

[تَفْسِيرُ الدِّينِ]

وَالدِّينُ: الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ وَيَنْهَاهُمُ الْعَقَقُ» [النور: ٢٥] وَقَالَ: «أَوَلَا لَكِدِّيُونَ» [الصفات: ٥٣] أَيْ: مَجْزِيُّونَ مُحَاسِبُونَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»^(٤) أَيْ: حَاسِبُوا نَفْسَهُ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَاهَبُوا لِلْعُرْضِ الْأَكْبَرِ عَلَى مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ^(٥) «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ» [الحاقة: ٤١٨].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

[مَعْنَى الْعِبَادَةِ لُغَةً وَشَرْعًا]

وَالْعِبَادَةُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الدَّلَةِ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعْبَدٌ وَبَعِيرٌ مُعْبَدٌ أَيْ: مُدَلَّلٌ وَفِي الشَّرْعِ عِبَادَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمُحَبَّةِ وَالْمُخْضُوعِ وَالْخَوْفِ.

[فَوَائِدُ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ وَالْإِلْتِفَاتِ]

وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ، وَهُوَ إِيَّاكَ، وَكَرَّرَ لِلِإِفْتِمَامِ وَالْحَضَرِ، أَيْ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ، وَالدِّينُ كُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنِيَيْنِ. وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَلْفَاتِيحَةُ سِرِّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فَأَلَوَّلُ تَبَرُّؤُ مِنَ الشَّرِكِ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَتَقْوِيضُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ

وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا» [الملك: ٢٩]، «رَبِّ لَلشَّرِيقِ وَاللَّغَرْبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» [المزمل: ٩] وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وَتَحَوَّلَ الْكَلَامُ مِنَ الْعَيْبَةِ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ بِكَافِ الْخِطَابِ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَتَى عَلَى اللَّهِ فَكَانَتْهُ أَقْرَبَ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

[أَلْفَاتِيحَةُ إِشْرَادٍ إِلَى الثَّنَاءِ فَتَحِبُّ قِرَاءَتُهَا فِي الصَّلَاةِ] وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى، وَإِشْرَادٌ لِعِبَادِهِ بِأَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ بِذَلِكَ. وَلِهَذَا لَا تَصِحُّ صَلَاةٌ مَنْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(٦).

[تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ]

قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يَعْنِي إِيَّاكَ نُوحِدُ وَنَخَافُ وَنَرْجُوكَ، يَا رَبَّنَا، لَا غَيْرَكَ^(٧).

[تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ]

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عَلَى طَاعَتِكَ وَعَلَى أُمُورِنَا كُلِّهَا^(٨). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ وَأَنْ تَسْتَعِينُوهُ عَلَى أُمُورِكُمْ^(٩). وَإِنَّمَا قُدِّمَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَهُ هِيَ الْمَفْضُودَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا. وَالِإِفْتِمَامُ وَالْحَزْمُ تَقْدِيمُ مَا هُوَ الْأَهَمُّ فَالْأَهَمُّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[تَسْمِيَةُ اللَّهِ نَبِيَّهُ عَبْدًا فِي أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ]

وَقَدْ سَمَى اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِعَبْدِهِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ فَقَالَ: «لَعَبْدٌ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَنْ عَبْدِهِ الْكِتَابَ» [الكهف: ١] «وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ» [الجن: ١٩]، «سُبْحَانَ الَّذِي

(١) فتح الباري: ١/٦٠٤، ٣/١٦٨٨ (٢) فتح الباري:

١٣/٤٠٤، ٤/٢١٤٨ (٣) فتح الباري: ٦/٨٩، ١٣/١٥١٨ (٤) ابن ماجه: ٢/١٤٢٣ (٥) فيه انقطاع بين ثابت

ابن حجاج وعمر رضي الله عنه (٦) فتح الباري: ٢/٢٧٦، ١/٢٩٥ (٧) إسناده منقطع الضحاک لم يسمع من ابن

عباس رضي الله عنهما [جامع التحصيل للعلائي ١٩٩، ٢٠٠]

(٨) ابن أبي حاتم: ١/١٩ (٩) ابن أبي حاتم: ١/٢٠

أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴿١﴾ [الإسراء: ١] فَسَمَّاهُ عَبْدًا عِنْدَ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِ، وَعِنْدَ قِيَامِهِ فِي الدُّعْوَةِ، وَإِسْرَائِهِ بِهِ.

[الْإِرْشَادُ إِلَى الْعِبَادَةِ عِنْدَ ضَيْقِ الصَّدْرِ]

وَأَرْشَدَهُ إِلَى الْقِيَامِ بِالْعِبَادَةِ فِي أَوْقَاتٍ يَضِيقُ صَدْرُهُ مِنْ تَكْذِيبِ الْمُخَالِفِينَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ يَمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٧-٩٩].

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾﴾

[سِرُّ تَأْخِيرِ الدُّعَاءِ بَعْدَ الْحَمْدِ وَالْوَصْفِ]

لَمَّا تَقَدَّمَ الشُّنَاءُ عَلَى الْمَسْئُولِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاسَبَ أَنْ يُعَقَّبَ بِالسُّؤَالِ كَمَا قَالَ: «فِيضْفُهَا لِي وَرِضْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» وَهَذَا أَكْمَلُ أَحْوَالِ السَّائِلِ أَنْ يَمْدَحَ مَسْئُولَهُ ثُمَّ يَسْأَلَ حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] لِأَنَّهُ أَنْجَحَ لِلْحَاجَةِ وَأَنْجَحَ لِلْإِجَابَةِ، وَلِهَذَا أَرْشَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ الْأَكْمَلُ. وَقَدْ يَكُونُ السُّؤَالُ بِالْإِخْبَارِ عَنْ حَالِ السَّائِلِ وَاحْتِيَاجِهِ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. وَقَدْ يَتَقَدَّمُ مَعَ ذَلِكَ وَصْفُ الْمَسْئُولِ كَقَوْلِ ذِي النُّونِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وَقَدْ يَكُونُ بِمُجَرَّدِ الشُّنَاءِ عَلَى الْمَسْئُولِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي

حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرَّةَ يَوْمًا

كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الشُّنَاءِ

[معنى الهداية]

الْهُدَايَةُ هُنَا الْإِرْشَادُ وَالتَّوْفِيقُ، وَقَدْ تَعَدَّى الْهُدَايَةَ بِنَفْسِهَا كَمَا هُنَا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فَتَضَمَّنْ مَعْنَى أَلْهَمْنَا أَوْ وَفَّقْنَا أَوْ ارْزُقْنَا أَوْ أَعْطَانَا: ﴿وَهَدَيْتَهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أَيْ: بَيَّنَّا لَهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَقَدْ تَعَدَّى بِإِلَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اجْتَنِبْهُ وَهَدِنَا إِلَيْكَ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَاهْتَدَوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٤] وَذَلِكَ بِمَعْنَى الْإِرْشَادِ وَالذَّلَالَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وَقَدْ تَعَدَّى بِاللَّامِ كَقَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أَيْ: وَفَّقَنَا لِهَذَا وَجَعَلَنَا لَهُ أَهْلًا.

[مَعْنَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ]

وَأَمَّا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ فَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اغْوَجَاجَ فِيهِ، وَذَلِكَ فِي لُغَةِ جَمِيعِ الْعَرَبِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرِ بْنِ عَطِيَّةَ الْحَطَفِيِّ:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطِ

إِذَا اغْوَجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمًا^(١)

قَالَ: وَالشُّوَاهِدُ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، قَالَ: ثُمَّ تَسْتَعِيرُ الْعَرَبُ الصِّرَاطَ فَتَسْتَعْمَلُهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَصِفٍ بِاسْتِقَامَةٍ أَوْ اغْوَجَاجٍ، فَتَصِفُ «الْمُسْتَقِيمَ» بِاسْتِقَامَتِهِ وَ«الْمُغْوَجَ» بِاغْوَجَاجِهِ. وَالْمُرَادُ بِهِ الْإِسْلَامُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنَّتَيْهِ الصِّرَاطُ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرْحَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوَجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَنَحَكَ لَا تَفْتَحْ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجُهُ، فَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»^(٢).

[سُؤَالُ الْمُؤْمِنِ الْهُدَايَةَ مَعَ اتِّصَافِهِ بِهَا]

فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الْهُدَايَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ؟ فَهَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ أَمْ لَا؟

فَالْجَوَابُ أَنْ لَا، وَلَوْلَا احْتِيَاجُهُ لَيْلًا وَنَهَارًا إِلَى سُؤَالِ الْهُدَايَةِ لَمَا أَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مُفْتَقِرًا فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَنْبِيئِهِ عَلَى الْهُدَايَةِ وَرُسُوحِهِ فِيهَا وَتَبَسُّرِهِ وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأَرْشَدَهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يُبَدِّه بِالْمُعُونَةِ وَالتَّبَاتِ وَالتَّوْفِيقِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِسُؤَالِهِ فَإِنَّهُ

فَاصِدِينَ شَيْئًا لَكَتَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ، وَهُوَ اتَّبَاعُ الْحَقِّ، ضَلُّوا، وَكُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، لَكِنْ أَحْصَى أَوْصَافَ الْيَهُودِ الْغَضَبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وَأَحْصَى أَوْصَافَ النَّصَارَى الضَّلَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] وَبِهَذَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ وَالْأَنْبَاءُ، وَذَلِكَ وَاضِحٌ بَيْنَ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: جَاءَتْ خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذُوا عَمَّتِي وَنَاسًا، فَلَمَّا أَتَوْا بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَفُّوا لَهُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَأَى الْوَأْفِدُ، وَانْقَطَعَ الْوَلْدُ، وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ، مَا بِي مِنْ خِدْمَةٍ، فَمَنْ عَلَيَّ مِنْ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ: «مَنْ وَأْفِدُ؟»

قَالَتْ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، قَالَ: «الَّذِي فَرَّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَتْ: فَمَنْ عَلَيَّ، فَلَمَّا رَجَعَ وَرَجُلٌ إِلَى جَنْبِهِ - تَرَى أَنَّهُ عَلَيَّ - قَالَ: سَلِيهِ حُمْلَانًا، فَسَأَلْتُهُ فَأَمَرَ لَهَا، قَالَ: فَأَتَيْتِي فَقَالَتْ: لَقَدْ فَعَلَ فِعْلَةً مَا نَحَانُ أَبُوكَ يَفْعَلُهَا، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُ فُلَانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ، وَأَتَاهُ فُلَانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ، فَأَتَيْتُهُ فَإِذَا عِنْدَهُ امْرَأَةٌ وَصَيِّبَانٌ، وَذَكَرَ قُرْبَهُمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَلِكٍ كِشْرَى وَلَا قَيْصَرَ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ مَا أَفْرَكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟ مَا أَفْرَكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟» قَالَ: فَأَسْلَمْتُ، فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبَشَرَ وَقَالَ: «إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ: الْيَهُودَ، وَإِنَّ الضَّالِّينَ: النَّصَارَى...» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. وَرَوَاهُ الثَّرَمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(١).

وَفِي السِّيَرَةِ عَنْ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الشَّامِ يَطْلُبُونَ الدِّينَ الْحَنِيفَ قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الدُّخُولَ مَعَنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيحِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، فَقَالَ: أَنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ أَفْرُ، وَقَالَتْ لَهُ النَّصَارَى: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الدُّخُولَ مَعَنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيحِكَ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، فَقَالَ لَا أَسْتَطِيعُهُ، فَاسْتَمَرَّ عَلَى فِطْرَتِهِ، وَجَانَبَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَدِينِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَدْخُلْ مَعَ أَحَدٍ مِنَ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى، وَأَمَّا أَصْحَابُهُ فَتَضَرَّوْا وَدَخَلُوا فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوهُ أَقْرَبَ مِنْ دِينِ الْيَهُودِ إِذْ ذَاكَ،

(١) أحمد: ٢٧٨/٤ وتحفة الأحودي: ٢٨٩/٨

فَدَنْكَفَلَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ وَلَا سِيَّمًا الْمُضْطَرُّ الْمُحْتَاجُ الْمُفْتَقِرُ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿تَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِإِلَهٍ بِإِلَهٍ وَرَسُولِهِ وَالْكَتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ قَبْلُ...﴾ [آية النساء: ١٣٦]. فَقَدْ أَمَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ، لِأَنَّ الْمُرَادَ الثَّبَاتَ وَالِاسْتِمْرَارَ وَالْمُدَاوِمَةَ عَلَى الْأَعْمَالِ الْمُعِينَةِ عَلَى ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِخْ عُقُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ اسْتَمْرَ بِنَا عَلَيْهِ وَلَا تَعْدِلْ بِنَا إِلَى غَيْرِهِ. ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٧)

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِيمَا إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إِلَى آخِرِهَا أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [٧] مُتَسَّرٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ بَدَلٌ مِنْهُ عِنْدَ النَّحْوَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَطْفٌ بَيَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الْمَعْنَى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ وَمَنْ تَقَدَّمَ وَصَفُهُمْ وَنَعْنَهُمْ وَهُمْ أَهْلُ الْهِدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَامْتِنَالِ أَوْامِرِهِ وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ، غَيْرِ صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ فَسَدَتْ إِرَادَتُهُمْ فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ، وَلَا صِرَاطِ الضَّالِّينَ، وَهُمْ الَّذِينَ فَقَدُوا الْعِلْمَ فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ. وَأَكَّدَ الْكَلَامَ بِلَا؛ لِيُذَلَّ عَلَى أَنَّ تَمَّ مَسْلُكِينَ فَايَسِدِينَ هُنَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لِيُجَنَّبَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، فَإِنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَالْيَهُودُ فَقَدُوا الْعَمَلَ، وَالنَّصَارَى فَقَدُوا الْعِلْمَ. وَلِهَذَا كَانَ نَصَبٌ لِلْيَهُودِ وَالضَّلَالِ لِلنَّصَارَى، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ وَتَرَكَ حَقَّ الْغَضَبِ، بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ، وَالنَّصَارَى لَمَّا كَانُوا

تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] فَلَيْسَ، بِحَمْدِ اللَّهِ، لِمُتَّبِعٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةً صَحِيحَةً، لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ لِيُفْصَلَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ مُفْرَقًا بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَلَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ، لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

[التَّائِمِينَ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ]

(فَصَلِّ) يُسْتَحَبُّ لِمَنْ يَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا: آمِينَ مِثْلَ يَسِّ، وَيُقَالُ: آمِينَ بِالْقَصْرِ أَيْضًا [مِثْلَ يَمِينٍ] وَمَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ، وَالذَّلِيلُ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّائِمِينَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ وَاثِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقَالَ: آمِينَ، مَدَّ بِهَا صَوْتَهُ^(٣). وَلَا يُبِي دَاوُدَ: رَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَبْرَهُمْ^(٤). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَلَا ﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قَالَ: «آمِينَ» حَتَّى يَسْمَعَ مَنْ يَلِيهِ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ^(٥). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَزَادَ فِيهِ: فَبَرْتَجَ بِهَا الْمَسْجِدَ^(٦). وَالدَّارِقُطَنِيُّ وَقَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ^(٧). وَعَنْ بِلَالٍ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَسْفِينِي بِآمِينَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٨).

وَنَقَلَ أَبُو نَصْرِ الْقُسَيْرِيُّ عَنِ الْحَسَنِ وَجَعَلَ الصَّادِقُ أَنَّهُمَا شَدَّداً الِيمَمِ مِنْ آمِينَ مِثْلَ ﴿هَاتَيْنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢].

قَالَ أَصْحَابُنَا وَعَبْرُهُمْ: وَيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ لِمَنْ هُوَ خَارِجَ الصَّلَاةِ، وَيَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ الْمُصَلِّي، وَسَوَاءٌ كَانَ مُنْفَرِدًا أَوْ إِمَامًا أَوْ مَأْمُومًا وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، لِمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٩) وَلِمُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ

وَكَانَ مِنْهُمْ وَرَقَةُ بْنُ تَوَفَلٍ حَتَّى هَدَاهُ اللَّهُ بَيْنَهُ لَمَّا بَعَثَهُ، أَمَّنَ بِمَا وَجَدَ مِنَ الْوَحْيِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.^(١٠)
[مُسْتَمَلَاتُ الْفَاتِحَةِ]

(فَصَلِّ) إِشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ، وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ، عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَمَجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، وَعَلَى ذِكْرِ الْعَمَادِ وَهُوَ يَوْمَ الدِّينِ، وَعَلَى إِزْشَادِهِ عِبِيدَهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَتَوْجِيدِهِ بِالْأَلُوْهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مِمَّاثِلٌ، وَإِلَى سُؤَالِهِمْ بِآيَةِ الْهُدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ، وَتَشْبِيهِتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى [يُفْضِي بِهِمْ ذَلِكَ] إِلَى جَوَارِ الصِّرَاطِ [الْحَسَنِ] يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ فِي جَوَارِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَاسْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ لِكَلَّا يُحْشَرُوا مَعَ سَالِكَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ.

[إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَى اللَّهِ دُونَ الْإِضْلَالِ. وَالرَّدُّ عَلَى

الْقُدْرَةِ]

وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وَحِذِّ الْقَاعِلُ فِي الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وَإِنْ كَانَ هُوَ الْقَاعِلُ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَوْلًا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٤] الْآيَةَ. وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ بِقُدْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وَقَالَ: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَمْ يَدْرِهُمْ فِي طُعْيَتِهِمْ يَتَّبِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنفَرِدُ بِالْهُدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، لَا كَمَا تَقُولُ الْفِرَقَةُ الْقُدْرِيَّةُ وَمَنْ حَذَا حَدْوَهُمْ مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ هُمْ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ وَيَفْعَلُونَ، وَتَحْتَجُونَ عَلَى بَدْعَتِهِمْ بِمُتَشَابِهٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَتْرُكُونَ مَا يَكُونُ فِيهِ صَرِيحًا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ. وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالنَّعْيِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ، فَأَحْذَرُوهُمْ»^(١١) يَعْنِي فِي قَوْلِهِ

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٧/١٤٢، ١٤٣ (٢) فتح الباري:

٥٧/٨ (٣) أحمد: ٣١٥/٤ وأبو داود: ٥٧٤/١ وتحفة

الأحوذى: ٦٥/٢ (٤) تحفة الأحوذى: ٦٧/٢ (٥) أبو داود:

٥٧٥/١ (٦) أبو داود: ٥٧٥/١ وابن ماجه: ٢٧٩/١ (٧)

الدارقطني: ٣٣٥/١ (٨) أبو داود: ٥٧٦/١ (٩) فتح الباري:

٣٠٣/١١ ومسلم: ٣٠٧/١

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْثًا، وَهُمْ ذَوُو عَدَدٍ، فَاسْتَفْرَأَهُمْ، فَاسْتَفْرَأَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَتَى عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًا فَقَالَ: «مَا مَعَكَ يَا فُلَانُ؟» فَقَالَ: مَعِيَ كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ. فَقَالَ: «أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَذْهَبَ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ: وَاللهِ مَا مَنَعَنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ إِلَّا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ لَا أَقُومَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَأَقْرَأُوهُ، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْسُوسٍ مَسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَيَرُفُدُ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أَوْكِيٍّ عَلَى مَسْكٍ». هَذَا لَفْظُ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. ثُمَّ رَوَاهُ مُرْسَلًا، فَاللهُ أَعْلَمُ^(٨).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ: عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ - وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ - إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَأَنْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا - فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا أَخَذَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَقْرَأَ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ» قَالَ: قَدْ أَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرفَعْتُ رَأْسِي وَأَنْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظَّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا. قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ^(٩) وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ فِي كِتَابِ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ آلِ عِمْرَانَ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا (١) مسلم: ٣٠٧/١ (٢) مسلم: ٣٠٣/١ (٣) أحمد: ٢٨٤/٢ (٤) مسلم: ٥٣٩/١ وتحفة الأحوذى: ١٨٠/٨ والنسائي في الكبرى: ١٣/٥ (٥) الكبرى: ٢٤٠/٦ (٦) الدراري: ٣٢٢/٢ (٧) الطبراني: ١٦٣ وابن حبان: ٧٨/٢ (٨) تحفة الأحوذى: ١٨٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٢٢٧/٥ وابن ماجه: ٧٨/١ (٩) فتح الباري: ٦٨٠/٨

الله ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ: آمِينَ، وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَاقَفَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفْرًا لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١). قِيلَ: بِمَعْنَى «مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ» فِي الزَّمَانِ. وَقِيلَ: فِي الْإِجَابَةِ. وَقِيلَ: فِي صِفَةِ الْإِحْلَاصِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَى مَوْفِعًا «إِذَا قَالَ - يَعْنِي الْإِمَامُ - وَلَا الضَّالِّينَ فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمْ اللهُ»^(٢) وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ مَعْنَاهُ: لَا تُحَيِّبْ رَجَاءَنَا. وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ مَعْنَاهُ: االلَّهُمَّ اسْتَجِبْ لَنَا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ يَا كَرِيمُ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

(ذَكَرْ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا) فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بَيُوتَكُمْ قُبُورًا، فَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ». وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي يَسْمَعُ فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ^(٤). وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجْهُ^(٥). وَرَوَى الدَّارِمِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَا مِنْ بَيْتٍ تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ. وَرَوَى أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَدْخُلْ ذَلِكَ الْبَيْتَ شَيْطَانٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ: أَرْبَعٌ مِنْ أَوْلَاهَا، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَآيَاتِنِ بَعْدَهَا، وَثَلَاثُ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا، وَفِي رِوَايَةٍ: لَمْ يَقْرَبْهُ وَلَا أَهْلُهُ يَوْمَئِذٍ شَيْطَانٌ، وَلَا شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَا يَقْرَأُ عَلَى مَجْنُونٍ إِلَّا أَفَاقَ^(٦). وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ الْبَقَرَةُ، وَإِنْ مَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلَةً لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ نَهَارًا لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ». رَوَاهُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو حَاتِمِ ابْنِ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو مُرْدُودَةَ^(٧).

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَأَبُو مَاجَهَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُسِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④
أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤

بِرَكْعَةٍ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةً، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ قَالَ: ثُمَّ
سَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَالْ عِمْرَانَ
فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، يُظَلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا
عَمَامَتَانِ، أَوْ غَيَّابَتَانِ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ، وَإِنَّ
الْقُرْآنَ يَلْقَىٰ صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ
كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ يَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا
أَعْرِفُكَ. فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنَ الَّذِي أَطْمَأَنَّنَكَ فِي
الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتَ لَيْلِكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ،
وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمَلِكُ بِسَمِيهِ
وَالْحُلْدُ بِسَمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى
وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لِهَمَّا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَا
كُسِبْنَا هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ: اقْرَأْ
وَاصْعِدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغَرِّفْهَا، فَهُوَ فِي صُعُودِ مَا دَامَ
يَقْرَأُ، هَذَا كَانَ أَوْ تَرْبِيلاً»^(١).

وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ بَشْرِ بْنِ الْمُهَاجِرِ بَعْضَهُ^(٢).
وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

وَلِبَعْضِهِ شَوَاهِدٌ، فَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ
رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
يَقُولُ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ شَافِعٌ لِأَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَالْ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا بِأَيْتَانِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّابَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا
فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ أَهْلِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
ثُمَّ قَالَ: اقْرَأُوا الْبَقَرَةَ فَإِنَّ أَحَدَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ،
وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ»^(٣). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي
الصَّلَاةِ^(٤).

(الزَّهْرَاوَانِ): الْمُنِيرَتَانِ، وَ(الْغَيَّابَةُ): مَا أَظْلَكَ مِنْ
فَوْقِكَ، وَ(الْفِرْقَانِ): الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ، وَ(الصَّوَافِ):
الْمُضْطَمَّةُ الْمُتَضَامَةُ، وَ(الْبُطْلَةُ) السَّحْرَةُ، وَمَعْنَى (لَا
تَسْتَطِيعُهَا) أَي: لَا يُمَكِّنُهُمْ حِفْظُهَا وَقِيلَ: لَا تَسْتَطِيعُ
النَّفُودَ فِي قَارِيئِهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ
عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ
وَالْ عِمْرَانَ» وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا
نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: «كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ، أَوْ ظَلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ
بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ

عَنْ صَاحِبَيْهِمَا»^(٥) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ
غَرِيبٌ^(٧).

[سُورَةُ الْبَقَرَةِ مَدِينَةٌ بِلَا خِلَافٍ]

(فَضْلٌ) وَالْبَقَرَةُ جَمِيعُهَا مَدِينَةٌ بِلَا خِلَافٍ، وَهِيَ مِنْ
أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِهَا، لَكِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا
تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾... الْآيَةُ [البقرة: ٢٨١] يُقَالُ: إِنِّي
أَجْرٌ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ - وَيَخْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنْهَا -
وَكَذَلِكَ آيَاتُ الرَّبَِّا مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ. وَكَانَ خَالِدُ بْنُ
مَعْدَانَ يُسَمِّي الْبَقَرَةَ فُسْطَاطَ الْقُرْآنِ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:
وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَلْفِ حَبْرٍ، وَأَلْفِ أَمْرٍ، وَأَلْفِ نَهْيٍ.
وَقَالَ الْعَادُونَ: آيَاتُهَا: مِائَتَانِ وَتَمَانُونَ وَسَبْعُ آيَاتٍ،
وَكَلِمَاتُهَا: سِتَّةُ آلَافٍ كَلِمَةٍ وَمِائَتَانِ وَإِحْدَى وَعِشْرُونَ
كَلِمَةً، وَحُرُوفُهَا: خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةً

(١) أحمد: ٣٥٢/٥ (٢) ابن ماجه: ١٢٤٢/٢ (٣) أحمد:
٢٤٩/٥ (٤) مسلم: ٥٥٣/١ (٥) أحمد: ١٨٣/٤ (٦)
مسلم: ٥٥٤/١ (٧) تحفة الأحوذى: ١٩١/٨

حَرْفٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ^(١). وَقَالَ خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ^(٢). وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثَمَةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ وَلَا خِلَافَ فِيهِ.

وَرَوَى ابْنُ مَرْذُوبٍ مِنْ حَلِيبِ شُعْبَةَ عَنْ عَقِيلِ بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ عُنْتَةَ بْنِ مَرْثِدٍ: رَأَى النَّبِيَّ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ تَأَخَّرًا فَقَالَ: «يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» وَأَطْنُ هَذَا كَانَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، يَوْمٌ وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، أَمَرَ الْعَبَّاسُ فَنَادَاهُمْ: «يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ» يَعْنِي أَهْلَ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ «يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» لِيَسْتَطِيعُوا بِذَلِكَ، فَجَعَلُوا يُقْبَلُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ. وَكَذَلِكَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ مَعَ أَصْحَابِ مُسَيْلِمَةَ جَعَلَ الصَّحَابَةَ يَفْرُونَ لِكثَافَةِ جَيْشِ بَنِي حَنِيفَةَ فَجَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَتَنَادَوْنَ: يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَآءِ﴾

[الْكَلَامُ حَوْلَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ]

الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّورِ هِيَ مِمَّا اسْتَأْتَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ. رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وَقِيلَ: هِيَ أَسْمَاءُ السُّورِ. وَقِيلَ: هِيَ فَوَاتِحُ، انْفَتَحَ اللَّهُ بِهَا الْقُرْآنَ. وَقَالَ خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: فَوَاتِحُ السُّورِ كُلُّهَا: (قَ وَصَ وَحَمَ وَطَسَمَ وَالرَّا) وَغَيْرُ ذَلِكَ هَجَاءٌ مُؤْصِوْعٌ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: هِيَ حُرُوفٌ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ، اسْتَعْنِي بِذِكْرِ مَا ذَكَرَ مِنْهَا فِي أَوَائِلِ السُّورِ عَنْ ذِكْرِ بَوَاقِيهَا الَّتِي هِيَ تَبِيئَةُ الثَّمَانِيَّةِ وَالْعِشْرِينَ حَرْفًا، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: ابْنِي يَكْتُبُ فِي - ا ب ت ث - أَيُّ فِي حُرُوفِ الْمُعْجَمِ الثَّمَانِيَّةِ وَالْعِشْرِينَ، فَيَسْتَعْنِي بِذِكْرِ بَعْضِهَا عَنْ مَجْمُوعِهَا. حَكَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ^(٤).

قُلْتُ: مَجْمُوعُ الْحُرُوفِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ بِحَذْفِ الْمُكْرَرِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ عَشَرَ حَرْفًا، وَهِيَ - ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن - يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ: نَصُّ حَكِيمٍ قَاطِعٌ لَهُ سِرٌّ. وَهِيَ يَضْفُ الْحُرُوفُ عَدَدًا، وَالْمَذْكُورُ مِنْهَا أَشْرَفُ مِنَ الْمَثْرُوكِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَةِ التَّصْرِيفِ:

قَالَ الرَّمَحْشَرِيُّ: وَهَذِهِ الْحُرُوفُ الْأَرْبَعَةُ عَشَرَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَصْنَافِ أَجْنَاسِ الْحُرُوفِ، يَعْنِي مِنَ الْمَهْمُوسَةِ وَالْمَجْهُورَةِ، وَمِنَ الرَّخْوَةِ وَالشَّدِيدَةِ، وَمِنَ الْمُطْبَقَةِ وَالْمَفْتُوحَةِ، وَمِنَ الْمُسْتَعْلِيَّةِ وَالْمُنْخَفِضَةِ، وَمِنَ حُرُوفِ الْقَلْقَلَةِ. وَقَدْ سَرَدَهَا مُفَصَّلَةً ثُمَّ قَالَ: فَسُحَّانَ الَّذِي دَقَّتْ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِكْمَتَهُ. وَهَذِهِ الْأَجْنَاسُ الْمَعْدُودَةُ مَكْتُورَةٌ بِالْمَذْكُورَةِ مِنْهَا، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مُعْظَمَ الشَّيْءِ وَجَلُّهُ يَنْزِلُ مَنزِلَةَ كُلِّهِ.

وَمِنْ هُنَا لِحَظَ بَعْضُهُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَلَامًا فَقَالَ: لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَمْ يَنْزِلْهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنَّا وَلَا سُدَى، وَمَنْ قَالَ مِنَ الْجَهْلَةِ: إِنَّ فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ تَعَبُّدٌ لَمْ يَعْطَى لَهُ بِالْكَلْبِيِّ فَقَدْ أَخْطَأَ خَطَأً كَبِيرًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ لَهَا مَعْنَى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَإِنْ صَحَّ لَنَا فِيهَا عَنِ الْمَعْصُومِ شَيْءٌ قُلْنَا بِهِ، وَإِلَّا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا، وَقُلْنَا: ﴿إِنَّمَا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] وَلَمْ يُجْمِعِ الْعُلَمَاءُ فِيهَا عَلَى شَيْءٍ مُّعَيَّنٍ وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا، فَمَنْ ظَهَرَ لَهُ بَعْضُ الْأَقْوَالِ بِدَلِيلٍ فَعَلَيْهِ اتِّبَاعُهُ وَإِلَّا فَالْوَقْفُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ هَذَا الْمَقَامُ.

[الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ ذَالَةٌ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ]

الْمَقَامُ الْأَخْرُ فِي الْحِكْمَةِ الَّتِي افْتَضَّتْ إِيرَادَ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، مَا هِيَ - مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ مَعَانِيهَا فِي أَنْفُسِهَا؟ فَقِيلَ: إِنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ - فِي أَوَائِلِ السُّورِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا - بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا. وَقَدْ حَكَى هَذَا الْمَذْهَبَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْمُبَرِّدِ وَجَمَعَ مِنْ الْمُحَقِّقِينَ، وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنِ الْفَرَّاءِ وَقَطْرِبُ نَحْوَ هَذَا، وَفَرَّرَهُ الرَّمَحْشَرِيُّ فِي كِتَابِهِ وَنَصَرَهُ أَيْمَنُ نَصْرًا، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَشَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمُجْتَهِدُ أَبُو الْحَجَّاجِ الْمِزَنِيُّ، وَحَكَاهُ لِي عَنْ ابْنِ تَيْمِيَّةَ.

قَالَ الرَّمَحْشَرِيُّ وَلَمْ تَرُدْ كُلُّهَا مَجْمُوعَةً فِي أَوَّلِ الْقُرْآنِ، وَإِنَّمَا كُرِّرَتْ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي التَّحْدِي وَالْتَبَكِيَتِ، كَمَا كُرِّرَتْ قِصَصٌ كَثِيرَةٌ، وَكُرِّرَ التَّحْدِي بِالصَّرِيحِ فِي أَمَاكِنَ، قَالَ: وَجَاءَ مِنْهَا عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ - ص ن ق - وَحَرْفَيْنِ، مِثْلُ: ﴿حَمْدٌ﴾ وَثَلَاثَةٍ، مِثْلُ: ﴿الْعَم﴾، وَأَرْبَعَةٍ:

(١) الدر المنثور: ٤٧/١ (٢) الدر المنثور: ٤٧/١ (٣)

المجمع: ١٨٠/٦ (٤) الطبري: ٢٠٨/١

مِثْلُ ﴿الْمَرْءِ﴾ وَ ﴿الْمَصِّ﴾ وَخَمْسَةَ، مِثْلُ: ﴿كَهَيْصَ﴾ - وَ
- ﴿حَمْدًا﴾ عَسَقٌ لِأَنَّ أَسَالِيْبَ كَلَامِهِمْ عَلَى هَذَا مِنْ
الْكَلِمَاتِ مَا هُوَ عَلَى حَرْفٍ، وَعَلَى حَرْفَيْنِ، وَعَلَى ثَلَاثَةِ
وَعَلَى أَرْبَعَةٍ، وَعَلَى خَمْسَةٍ لَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

(قُلْتُ) وَلِهَذَا كُلُّ سُورَةٍ افْتِتِحَتْ بِالْحُرُوفِ فَلَا بُدَّ أَنْ
يُذَكَّرَ فِيهَا الْإِنْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَيَبَانَ إِعْجَازُهُ وَعَظَمَتُهُ، وَهَذَا
مَعْلُومٌ بِالْإِسْتِفْرَاءِ، وَهُوَ الْوَاقِعُ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً،
وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الْعَمَّ﴾ ذَلِكَ أَلْكَتَبُ لَا رَبِّ فِيهِ
﴿الْعَمَّ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿الْمَصِّ﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ
فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ
النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿الْعَمَّ﴾ تَنْزِيلُ
الْكِتَابِ لَا رَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ﴿حَمْدًا﴾ تَنْزِيلُ مِنَ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمْدًا﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَعَبَّرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ
عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ هُوَ لَا يَمُنْ أَمَعَنَ النَّظَرَ. وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.

﴿ذَلِكَ أَلْكَتَبُ لَا رَبِّ فِيهِ هُدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾

[لَا رَبِّ فِي الْقُرْآنِ]

(الْكِتَابُ): الْقُرْآنُ، وَ(الرَّبُّ): الشُّكُّ، قَالَ السُّدِّيُّ
عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مَرَّةَ
الْهَمْدَانِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا رَبِّ فِيهِ﴾ لَا شَكَّ فِيهِ. (١) وَقَالَ أَبُو
الدَّرْدَاءِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو مَالِكٍ،
وَنَافِعُ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ وَعَطَاءٌ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ
أَنَسٍ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ، وَالسُّدِّيُّ وَقَنَادَةَ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي
خَالِدٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: لَا أَعْلَمُ فِي هَذِهِ خِلَافًا. (٢).

وَمَعْنَى الْكَلَامِ هُنَا أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ الْقُرْآنُ لَا شَكَّ فِيهِ
أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّجْدَةِ:
﴿الْعَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
[السجدة: ٢، ١] وَقَالَ بَعْضُهُمْ هَذَا خَبْرٌ وَمَعْنَاهُ النَّهْيُ، أَيْ
لَا تَرْتَابُوا فِيهِ.

وَمِنْ الْقُرَّاءِ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَبِّ﴾
وَيَبْتَدِئُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ هُدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾ وَالْوُفْقُ عَلَى
قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَبِّ فِيهِ﴾ أَوْلَى لِلآيَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَلِأَنَّهُ
يَصِيرُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُدَى﴾ صِفَةً لِلْقُرْآنِ، وَذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ

كُونَ ﴿فِيهِ هُدَى﴾ وَهُدَى يَحْتَمِلُ مِنْ حَيْثُ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ
يَكُونَ مَرْفُوعًا عَلَى التَّعْتِ، وَمَنْصُوبًا عَلَى الْحَالِ.

[اِخْتِصَاصُ الْهُدَايَةِ بِالْمُتَّقِينَ]

وَخُصَّتْ الْهُدَايَةُ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] ﴿وَنَزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا
خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى
اِخْتِصَاصِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبْعِ بِالْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ هُوَ فِي نَفْسِهِ هُدًى،
وَلَكِنْ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الْأَبْرَارُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَكْفُرُ النَّاسُ قَدْ
جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ،
وَعَنْ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾
يَعْنِي نُورًا لِلْمُتَّقِينَ.

[مَعْنَى الْمُتَّقِينَ]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ: هُمْ
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الشُّرْكَ بِي، وَيَعْمَلُونَ بِطَاعَتِي (٣).
وَعَنْهُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ: الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللَّهِ عُقُوبَتَهُ فِي
تَرْكِ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْهُدَى، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ فِي التَّصَدِيقِ
بِمَا جَاءَ بِهِ. وَقَالَ قَنَادَةَ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ هُمُ الَّذِينَ نَعْتَهُمُ اللَّهُ
بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُؤْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ وَالتَّيَّ
بَعْدَهَا، وَاخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّ الْآيَةَ تَعْمُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَهُوَ
كَمَا قَالَ.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَطِيَّةِ السَّعْدِيِّ
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدَانُ يَكُونُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَالًا بِأَسَ بِهِ حَذْرًا وَمَا بِهِ بَأْسٌ» ثُمَّ
قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. (٤)

[الْهُدَايَةُ نُوْعَانِ]

وَيُطْلَقُ الْهُدَى وَتُرَادُ بِهِ مَا يَبْتَرُ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ،
وَهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِهِ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]
وَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ: ﴿مَنْ

(١) الطبري: ٢٢٨/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣١/١ (٣) الطبري (٤) إسناده ضعيف: الضحاك لم يسمع من ابن عباس وبشر بن
عمارة الخنعمي ضعيف (٤) تحفة الأحوزي: ١٤٧/٧ وابن
ماجه: ١٤٠٩/٢

وَيَنْقُصُ. وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ آثَارٌ كَثِيرَةٌ وَأَحَادِيثٌ أَفْرَدْنَا الْكَلَامَ فِيهَا فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْحَشِيَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢] وَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنََ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] وَالْحَشِيَّةُ: خُلَاصَةُ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

[الْمُرَادُ بِالْغَيْبِ]

وَأَمَّا الْغَيْبُ الْمُرَادُ هُنَا، فَقَدْ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِيهِ، وَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ تَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْجَمِيعَ مُرَادٌ، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قَالَ: يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَجَنَّتِهِ وَنَارِهِ، وَلِقَائِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبِالْبَعْثِ، فَهَذَا غَيْبٌ كُلُّهُ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دَعَامَةَ^(٦).

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ جُلُوسًا، فَذَكَرْنَا أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا سَبَقُونَا بِهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانَ بَيْنَنَا لَمَنْ رَأَاهُ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا آمَنَ أَحَدٌ قَطُّ إِيْمَانًا أَفْضَلَ مِنْ إِيْمَانِ بَعْثِ نُوْمٍ قَرَأَ ﴿الْعَرَاءُ﴾ ذَلِكَ الْكُتُبُ لَا رَبَّ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾^(٧). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْزُوقٍ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ^(٨). وَقَالَ الْحَاكِمُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَفِي مَعْنَى هَذَا: الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جُمُعَةَ: حَدَّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: نَعَمْ أَحَدُكَ حَدِيثًا جَدِيدًا: تَعَدَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا؟ أَسْلَمْنَا مَعَكَ وَجَاهَدْنَا مَعَكَ. قَالَ: «نَعَمْ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْني»^(٩).

يُضِلُّ اللَّهُ فَلَآ هَادِيَ لِمُمْسِكٍ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وَقَالَ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لِمَ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ بَيَانُ الْحَقِّ وَتَوْضِيحُهُ وَالذَّلَالَةُ عَلَيْهِ وَالْإِزْشَادُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا نَوْمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] وَقَالَ: ﴿وَهَدَيْتُهُ النَّجَاتَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] عَلَى تَفْسِيرٍ مِنْ قَالَ: الْمُرَادُ بِهِمَا: الْخَيْرُ وَالشَّرُّ. وَهُوَ الْأَرْجَحُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[مَعْنَى التَّقْوَى]

وَأَصْلُ التَّقْوَى: التَّوَقُّي مِمَّا يَكْرَهُ، لِأَنَّ أَصْلَهَا وَقْوَى مِنْ الْوَقَايَةِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ عَنِ التَّقْوَى فَقَالَ لَهُ: أَمَا سَلَكْتَ طَرِيقًا ذَا شَوْكٍ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ؟ قَالَ شَمَرْتُ وَاجْتَهَدْتُ، قَالَ: فَذَلِكَ التَّقْوَى.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

[مَعْنَى الْإِيمَانِ]

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ الْمُسَيْبِ بْنِ رَافِعٍ عَنِ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: الْإِيمَانُ التَّصْدِيقُ^(١٠). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ^(١١). وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ: الْإِيمَانُ: الْعَمَلُ^(١٢). وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يَخْشَوْنَ^(١٣).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَوَّلَى أَنْ يَكُونُوا مُؤَصِّفِينَ بِالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا، وَقَدْ تَدَخَّلَ الْحَشِيَّةُ لِلَّهِ فِي مَعْنَى الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ تَصْدِيقُ الْقَوْلِ بِالْعَمَلِ. وَالْإِيمَانُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِلْإِقْرَارِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَتَصْدِيقِ الْإِقْرَارِ بِالْفِعْلِ.

(قُلْتُ) أَمَّا الْإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ فَيُطْلَقُ عَلَى التَّصْدِيقِ الْمَحْضِ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَ فِي الْقُرْآنِ وَالْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] وَكَمَا قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِأَبِيهِمْ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] وَكَذَلِكَ إِذَا اسْتَعْمَلَ مَقْرُونًا مَعَ الْأَعْمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] فَأَمَّا إِذَا اسْتَعْمَلَ مُطْلَقًا فَالْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ الْمَطْلُوبُ لَا يَكُونُ إِلَّا اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا^(١٤). وَهُوَ يَزِيدُ

(١) الطبري: ٢٣٥/١ هذا منقطع من ملاحظات الطبري وأيضا أبو اسحاق مدلس مختلط (٢) الطبري: ٢٣٥/١ (٣) الطبري: ١/٢٣٥ (٤) الطبري: ٢٣٥/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٥/١ (٦) الطبري: ٢٣٦/١ (٧) سعيد بن منصور: ٥٤٤/٢ (٨) ابن أبي حاتم: ٣٤/١ والحاكم: ٢٦٠/٢ (٩) أحمد: ١٠٦/٤

﴿ وَيُصِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾ (٤)

[مَعْنَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ وَيُصِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ أَي يُصِيمُونَ الصَّلَاةَ بِفُرُوضِهَا^(١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ: إِتِمَامُ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَالتَّلَاوُءُ، وَالخُشُوعُ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهَا فِيهَا^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِبَتِهَا. وَوُضُوعُهَا وَرُكُوعُهَا وَسُجُودُهَا^(٣). وَقَالَ مَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: إِقَامَتُهَا الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِبَتِهَا وَإِسْبَاطُ الطُّهُورِ بِهَا، وَتِمَامُ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَالتَّشَهُدُ، وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَهَذَا إِقَامَتُهَا^(٤).

[الْمُرَادُ بِالْإِنْفَاقِ]

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾ قَالَ: زَكَاةُ أَمْوَالِهِمْ^(٥). وَقَالَ الشَّدِيدُ عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مَرَّةَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾ قَالَ: نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ^(٦). وَقَالَ جُوَيْرِيٌّ عَنِ الضَّحَّاكِ: كَانَتْ التَّقَاتُ قُرْبَانًا يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ عَلَى قَدْرِ مِيسَرَتِهِمْ وَجُهْدِهِمْ حَتَّى نَزَلَتْ فَرَأَيْضَ الصَّدَقَاتِ: سَبْعُ آيَاتٍ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ مِمَّا يُذَكَّرُ فِيهِنَّ الصَّدَقَاتُ، هُنَّ النَّاسِخَاتُ الْمُتَبَاتُ^(٧).

(قُلْتُ): كَثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ حَقُّ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَوْجِيدِهِ وَالشَّنَاءِ عَلَيْهِ وَتَمَجِيدِهِ وَالْإِنْبِهَالِ إِلَيْهِ، وَدُعَائِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ. وَالْإِنْفَاقُ هُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِالتَّقَعُّ الْمَتَّعَدِيِّ إِلَيْهِمْ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ الْقَرَابَاتُ وَالْأَهْلُونَ وَالْمَمَالِكُ، ثُمَّ الْأَجَانِبُ، فَكُلٌّ مِنَ التَّقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾ وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ الْبَيْتِ»^(٨). وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

[مَعْنَى الصَّلَاةِ]

وَأَصْلُ الصَّلَاةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الدُّعَاءُ. ثُمَّ اسْتَعْمِلَتْ الصَّلَاةُ فِي الشَّرْعِ فِي ذَاتِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَالْأَفْعَالِ الْمَخْصُوصَةِ فِي الْأَوْقَاتِ الْمَخْصُوصَةِ، بِشُرُوطِهَا الْمَعْرُوفَةِ وَصِفَاتِهَا وَأَنْوَاعِهَا الْمَشْهُورَةِ.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِفُونَ ﴾ (٤)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أَي يُصَدِّقُونَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ اللَّهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ، وَلَا يَجْحَدُونَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ^(٩). ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِفُونَ ﴾ أَي بِالْبُعْثِ وَالْقِيَامَةِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ^(١٠). وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ الْآخِرَةُ؛ لِأَنَّهَا بَعْدَ الدُّنْيَا.

[أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ]

وَالْمَوْصُوفُونَ هُنَا هُمُ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاثُ عَشْرَةَ فِي الْمُنَافِقِينَ^(١١). فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ عَامَّاتٌ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ اتَّصَفَ بِهَا مِنْ عَرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ، وَكِتَابِيٍّ، مِنْ إِنْسِيٍّ وَجَنِّيٍّ. وَلَيْسَ تَصِحُّ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِدُونِ الْآخَرَى، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْآخَرَى وَشَرْطٌ مَعَهَا، فَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَالْإِقْبَانُ بِالْآخِرَةِ.

كَمَا أَنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ إِلَّا بِذَلِكَ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ - كَمَا قَالَ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ قَبْلِهِ... آيَاتُ [النساء: ١٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُحْدِثُوا

(١) الطبري: ٢٤١/١ (٢) الطبري: ٢٤١/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٧/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٧/١ (٥) الطبري: ١/٢٤٣ (٦) الطبري: ١/٢٤٣ (٧) الطبري: ١/٢٤٣ (٨) الفتح: ١/٦٤ (٩) الطبري: ١/٢٤٤ (١٠) ابن أبي حاتم: ١/٣٩ (١١) الطبري: ١/٢٣٩

أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا
 آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ
 وَاحِدٌ... الآية [العنكبوت: ٤٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُنَا
 الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكِتَابِ آمِنِينَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء:
 ٤٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّهَلَّوْنَ بِالْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى
 تُبَيِّنُوا النُّزُوحَ وَالْإِحْسَالَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة:
 ٦٨] وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ بِذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رُسُلِهِ﴾
 [البقرة: ٢٨٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ
 يُفِرُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
 الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى جَمِيعِ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ
 وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ - لَكِنْ لِمُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ حُصُوصِيَّةٌ،
 وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا بَأْيَدِيهِمْ مُفَصَّلًا، فَإِذَا دَخَلُوا فِي
 الْإِسْلَامِ وَآمَنُوا بِهِ مُفَصَّلًا كَانَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْأَجْرُ
 مَرَّتَيْنِ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَإِنَّمَا يَحْضُلُ لَهُ الْإِيمَانُ بِمَا تَقَدَّمَ
 مُجْمَلًا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ
 الْكِتَابِ فَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَلَا تُصَدِّقُوهُمْ، وَلَكِنْ قُولُوا: آمَنَّا
 بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ»^(١). وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ إِيْمَانُ
 كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أُمَّمٌ
 وَأَكْمَلُ وَأَعَمُّ وَأَشْمَلُ، مِنْ إِيْمَانٍ مِنْ دَخَلَ مِنْهُمْ فِي
 الْإِسْلَامِ، فَهُمْ وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَجْرَانِ مِنْ تِلْكَ الْحَبِيبَةِ،
 فَغَيْرُهُمْ يَحْضُلُ لَهُ مِنَ التَّضَدِيقِ مَا يُبَيِّنُ ثَوَابَهُ عَلَى
 الْأَجْرَيْنِ اللَّذَيْنِ حَصَلَا لَهُمْ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)

[الْهُدَايَةُ وَالْفَلَاحُ مِنْ نَصِيبِ الْمُؤْمِنِينَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أَي الْمُتَّصِفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ
 مِنَ الْإِيمَانِ بِالْعَيْبِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الَّذِي
 رَزَقَهُمُ اللَّهُ، وَالْإِيْمَانِ بِمَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ
 الرُّسُلِ وَالْإِيْقَانِ بِالذَّارِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ مُسْتَلْزِمُ الْإِسْتِعْدَادِ
 لَهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ ﴿عَلَى هُدًى﴾
 أَي عَلَى نُورٍ وَبَيَانٍ وَبَصِيرَةٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِأَنْ أَدْرَكُوا مَا طَلَبُوا
 وَنَجَّوْا مِنْ شَرِّ مَا مِنْهُ هَرَبُوا، فَفَارَوْا بِالثَّوَابِ وَالْخُلُودِ فِي
 الْجَنَّاتِ، وَالنَّجَاةِ مِمَّا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْعِقَابِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي غَطَّوْا الْحَقَّ
 وَسَتَرُوهُ، وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
 إِنذَارُكَ وَعَدْمُهُ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ. كَمَا قَالَ
 تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا
 يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ
 [يونس: ٩٦، ٩٧] وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُعَانِدِينَ مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكِتَابِ بِكَلِمَةٍ مَا يُبْعَثُوا
 قَلْبًا﴾ [البقرة: ١٤٥]، أَي إِنْ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ
 فَلَا مُسْعِدَ لَهُ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، فَلَا تَذَهَبُ نَفْسُكَ
 عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ، وَبَلَّغَهُمُ الرِّسَالَةَ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لَكَ فَلَهُ
 الْحِطُّ الْأَوْفَرُ، وَمَنْ تَوَلَّى فَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا يُهَمِّتُكَ
 ذَلِكَ ﴿فَاتِمَّا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَمَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ﴿إِنَّمَا
 أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
 تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْرُصُ أَنْ
 يُؤْمِنَ جَمِيعُ النَّاسِ وَيَتَّبِعُوهُ عَلَى الْهُدَى، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى
 أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ
 الْأَوَّلِ، وَلَا يَضِلُّ إِلَّا مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ الشَّقَاوَةُ فِي الذِّكْرِ
 الْأَوَّلِ^(٢).

﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧)

[مَعْنَى الْحَتْمِ]

قَالَ السُّدِّيُّ: ﴿حَتَمَ اللَّهُ﴾ أَي طَبَعَ اللَّهُ^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ إِذْ أَطَاعُوهُ فَحَتَمَ
 اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً،
 فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ هُدًى وَلَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَقْهَرُونَ وَلَا
 يَعْقِلُونَ^(٤). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى
 قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ: الطَّبَعُ. ثَبَّتَ الذُّنُوبُ عَلَى الْقَلْبِ فَحَتَّتْ بِهِ
 مِنْ كُلِّ نَوَاجِيهِ حَتَّى تَلْتَقِيَ عَلَيْهِ، فَالْتِقَاؤُهَا عَلَيْهِ الطَّبَعُ،
 وَالطَّبَعُ الْحَتْمُ^(٥). قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَلْحَتَمَ عَلَى الْقَلْبِ
 وَالسَّمْعِ^(٦). قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ أَنَّهُ

(١) أبو داود: ٥٩/٤ (٢) الطبري: ٢٥٢/١ (٣) ابن أبي
 حاتم: ٤٤/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٤٤/١ (٥) ابن أبي حاتم:
 ٤٤/١ (٦) الطبري: ٢٥٩/١

وَجَعَلَ عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، يَقُولُ: عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَلَا يُبْصِرُونَ^(٨).

[ذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ]

لَمَّا تَقَدَّمَ وَضِفَ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ بِأَرْبَعِ آيَاتٍ ثُمَّ عَرَفَ حَالَ الْكَافِرِينَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ شَرَعَ تَعَالَى فِي بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَلَمَّا كَانَ أَمْرُهُمْ يَشْتَبِهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِمْ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ كُلُّ مِنْهَا نِفَاقٌ، كَمَا أَنْزَلَ سُورَةَ بَرَاءةٍ فِيهِمْ، وَسُورَةَ الْمُنَافِقِينَ فِيهِمْ، وَذَكَرَهُمْ فِي سُورَةِ النَّوْرِ وَغَيْرِهَا مِنَ السُّورِ تَعْرِيفًا لِأَحْوَالِهِمْ لِيُتَجَنَّبَ، وَيَجْتَنَّبَ مَنْ تَلَبَّسَ بِهَا أَيْضًا، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨)

يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

[مَعْنَى النَّفَاقِ]

النَّفَاقُ، هُوَ: إِظْهَارُ الْخَيْرِ وَإِسْرَارُ الشَّرِّ. وَهُوَ أَنْوَاعٌ: إِعْتِقَادِيٌّ، وَهُوَ الَّذِي يُخَلِّدُ صَاحِبَهُ فِي النَّارِ. وَعَمَلِيٌّ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذَا كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْمُنَافِقُ يُخَالِفُ قَوْلَهُ فِعْلُهُ، وَبِرُّهُ عِلَاقَتُهُ، وَمَدْخَلُهُ مَخْرَجُهُ، وَمَشْهُدُهُ مَغْيِبُهُ.^(٩)

[بِدَايَةُ النَّفَاقِ]

وَإِنَّمَا نَزَلَتْ صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ فِي السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ لِأَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نِفَاقٌ، بَلْ كَانَ جِلَافُهُ، مِنَ النَّاسِ مَنْ كَانَ يُظْهِرُ الْكُفْرَ مُسْتَكْرَهًا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُؤْمِنٌ، فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ بِهَا الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وَكَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَعْبدُونَ الْأَصْنَامَ عَلَى طَرِيقَةِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَبِهَا الْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْلَافِهِمْ، وَكَانُوا ثَلَاثَ قَبَائِلَ: بَنُو قَيْنُقَاعِ حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ، وَبَنُو النَّضِيرِ وَبَنُو قُرَيْظَةَ حُلَفَاءُ الْأَوْسِ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ قَبِيلَتِي الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وَقَلَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ

سَمِعَ مُجَاهِدًا يَقُولُ: الرَّانُ أَيْسَرُ مِنَ الطَّبْعِ، وَالطَّبْعُ أَيْسَرُ مِنَ الْإِقْفَالِ، وَالْإِقْفَالُ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ^(١٠). وَقَالَ الْأَعْمَشُ: أَرَانَا مُجَاهِدٌ بِيَدِهِ فَقَالَ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْقَلْبَ فِي مِثْلِ هَذِهِ يَعْنِي الْكُفْرَ، فَإِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا ضَمَّ مِنْهُ، وَقَالَ بِأَصْبَعِهِ الْخُنْصِرَ هَكَذَا، فَإِذَا أَذْنَبَ ضَمَّ، وَقَالَ بِأَصْبَعٍ أُخْرَى، فَإِذَا أَذْنَبَ ضَمَّ، وَقَالَ بِأَصْبَعٍ أُخْرَى هَكَذَا، حَتَّى ضَمَّ أَصَابِعَهُ كُلِّهَا، ثُمَّ قَالَ: يُطْبِعُ عَلَيْهِ بِطَابِعٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّيُّ^(١١).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْحَتْمِ وَالطَّبْعِ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ مُجَازَاةً لِكُفْرِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]. وَذَكَرَ حَدِيثَ تَقْلِيبِ الْقُلُوبِ «يَا مُمْلَبُ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»^(١٢) وَذَكَرَ حَدِيثَ حَدِيثَةَ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: «تُعْرَضُ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُرُودًا عُرُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نَكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةُ سُودَاءٍ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نَكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةُ بَيْضَاءٍ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مُزْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحَيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا»^(١٣)...

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْحَقُّ عِنْدِي فِي ذَلِكَ مَا صَحَّ بِظَهْرِهِ الْخَيْرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةُ سُودَاءٍ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ ضَمِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [المطففين: ١٤]^(١٤). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١٥).

[إِعْرَابُ غِشَاوَةٍ وَمَعْنَاهَا]

وَاعْلَمَ أَنَّ الْوَقْفَ النَّامَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ جَمَلَةٌ تَامَةٌ، فَإِنَّ الطَّبْعَ يَكُونُ عَلَى الْقَلْبِ وَعَلَى السَّمْعِ، وَالْغِشَاوَةُ وَهِيَ الْغِطَاءُ يَكُونُ عَلَى الْبَصَرِ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنِ أَنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [٧] يَقُولُ: فَلَا يَعْلَمُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ، يَقُولُ:

(١) الطبري: ٢٥٩/١ (٢) الطبري: ٢٥٨/١ (٣) القرطبي:

١٨٧/١ (٤) الترمذي: (٢١٤٠) وابن ماجه: ٣٨٣٤ (٥)

مسلم: ١٢٨/١ (٦) الطبري: ٢٦٠/١ (٧) تحفة الأحوزدي:

٢٥٤/٩ والنسائي في الكبرى: ٥٠٩/٦ وابن ماجه: ١٤١٨/٢

(٨) الطبري: ٢٦٦/١ (٩) الطبري: ٢٧٠/١

الْمُؤْمِنِينَ

٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ حَسَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ لَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا أَنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ إِلَّا أَنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [٩] أَي يَظَاهِرُهُمْ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَعَ إِسْرَارِهِمْ الْكُفْرَ يَعْتَقِدُونَ بِجَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ بِذَلِكَ، وَأَنَّ ذَلِكَ نَافِعُهُمْ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُ يُرَوِّجُ عَلَيْهِ كَمَا قَدْ يُرَوِّجُ عَلَىٰ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّمَا هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] وَلِهَذَا قَابَلَهُمْ عَلَىٰ اعْتِقَادِهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ: وَمَا يُعْتَرُونَ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا، وَلَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ مِنْ أَنفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ﴾ قَالَ: يُظْهِرُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُرِيدُونَ أَنْ يَحْرُزُوا بِذَلِكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَفِي أَنفُسِهِمْ غَيْرُ ذَلِكَ^(٢).

الْيَهُودِ إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ يَفَاقُ أَيْضًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدُ شَوْكَةٌ تُخَافُ، بَلْ قَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَادَعَ الْيَهُودَ وَقَبَائِلَ كَثِيرَةً مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوْلِي الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقَعَةُ بَدْرٍ وَأَظْهَرَ اللَّهُ كَلِمَتَهُ وَأَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ، وَكَانَ رَأْسًا فِي الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ سَيِّدَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَىٰ أَنْ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ، فَجَاءَهُمُ الْخَيْرُ وَأَسْلَمُوا وَاسْتَعْلَمُوا عَنْهُ، فَبَقِيَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقَعَةُ بَدْرٍ قَالَ: هَذَا أَمْرُ اللَّهِ قَدْ تَوَجَّهَ، فَأَظْهَرَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ، وَدَخَلَ مَعَهُ طَوَائِفٌ مِمَّنْ هُوَ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِ وَنَحْلَتِهِ، وَآخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَمِنْ تَمَّ وَجِدَ التَّفَاقُ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ، فَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ نَافِقٌ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُهَاجِرُ مَكْرَهًا، بَلْ يُهَاجِرُ فِتْرَةَ مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَأَرْضَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

[تفسير الآية]

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي الْمُتَفَقِّهِينَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ^(١). وَكَذَا فَسَّرَهَا بِالْمُتَفَقِّهِينَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَلِهَذَا نَبَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ صِفَاتِ الْمُتَفَقِّهِينَ، لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِظَاهِرِ أَمْرِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَيَقَعَ بِذَلِكَ فَسَادٌ عَرِيضٌ مِنْ عَدَمِ الْإِحْتِرَازِ مِنْهُمْ وَمِنْ اعْتِقَادِ إِيْمَانِهِمْ، وَهُمْ كُفَّارٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَهَذَا مِنَ الْمَحْدُورَاتِ الْكِبَارِ أَنْ يُظَنَّ بِأَهْلِ الْمَنُجُورِ خَيْرٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أَي يَقُولُونَ ذَلِكَ قَوْلًا لَيْسَ وَرَاءَهُ شَيْءٌ آخَرَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَفَقِّهُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون: ١] أَي إِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ إِذَا جَاءَوْكَ فَقَطْ لَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلِهَذَا يُؤَكِّدُونَ فِي الشَّهَادَةِ "يَٰنَ" وَ"لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" فِي خَبَرِهَا. أَكَّدُوا أَمْرَهُمْ قَالُوا: ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ. وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، كَمَا كَذَّبَهُمُ اللَّهُ فِي شَهَادَتِهِمْ وَفِي خَبَرِهِمْ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اعْتِقَادِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ لَكَافِرُونَ﴾ [المنافقون: ١] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) الطبري: ٢٦٩/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٤٦/١

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّىٰ عَلِمْتَهُمْ ﴿١٠١﴾... [الآية: [النوبة: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْنَ لَرَبِّهِ الْكَافِرِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعْنَتِكَ لَعْنَتِكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٠٢] مَلْعُونِينَ أَيْمًا نَفَقُوا أَيْدُوا وَقَتَلُوا نَفْسِيًّا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١] فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ [يَعْرِفَهُمْ]، وَلَمْ يَدْرِكْ عَلَى أَعْيَانِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ تَذَكُّرٌ لَهُ صِفَاتِهِمْ فَيَتَوَسَّسُهَا فِي بَعْضِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتُمُوهُمْ وَسَيَجْزِي اللَّهُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ بِالنِّفَاقِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ ابْنِ سُلُوفٍ، وَقَدْ شَهِدَ عَلَيْهِ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا مَاتَ صَلَّى عَلَيْهِ ﷺ وَشَهِدَ دَفْنَهُ كَمَا يُعْمَلُ بِبَيْتَةِ الْمُسْلِمِينَ. وَقَدْ عَاتَبَهُ ﷺ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ فَقَالَ: «إِنِّي أَجْرُهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يُقْتَلُ أَصْحَابُهُ» (٥)، وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ» وَفِي رِوَايَةٍ «لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُعْفَرُ لَهُ لِرِدَّتِ» (٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

مُصْلِحُونَ﴾ [١١] أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [الْمُرَادُ بِالْفَسَادِ]

قَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعَنِ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قَالَ: هُمُ الْمُتَنَافِقُونَ، أَمَا ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: الْفَسَادُ هُوَ الْكُفْرُ وَالْعَمَلُ بِالْمَعْصِيَةِ (٧). وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: يَعْنِي لَا تَعْصُوا فِي الْأَرْضِ. وَكَانَ فَسَادُهُمْ ذَلِكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، لِأَنَّهُ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَمَرَ بِمَعْصِيَتِهِ فَقَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّ صَلَاحَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِالطَّاعَةِ (٨). وَهَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ (٩).

[أَنْوَاعُ فَسَادِ الْمُتَنَافِقِينَ]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَأَهْلُ النِّفَاقِ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ:

(١) ابن أبي حاتم: ٤٧/١ (٢) الطبري: ٢٨٠/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٤٨/١ (٤) الطبري: ٢٨٠/١ (٥) الطبري: ٢٣/٤٠٦ (٦) فتح الباري: ١٨٤/٨ (٧) الطبري: ٢٨٨/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٥٠/١ (٩) ابن أبي حاتم: ٥١/١

وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٨] يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ نَعَتْ الْمُتَنَافِقِينَ عِنْدَ كَثِيرٍ: خَبِثَ الْأَخْلَاقِ، يُضَدِّقُ بِلِسَانِهِ، وَيُنَكِّرُ بِقَلْبِهِ، وَيُخَالِفُ بِعَمَلِهِ، وَيُضَيِّعُ عَلَى حَالٍ وَيُمْسِي عَلَى غَيْرِهِ، وَيُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُضَيِّعُ عَلَى غَيْرِهِ، وَيَتَكَفَّمُ تَكَفَّمُ السَّفِينَةِ كُلَّمَا هَبَّتْ رِيحٌ هَبَّ مَعَهَا (١).

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُمَآ كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [١٢]

[الْمُرَادُ بِالْمَرَضِ]

قَالَ السُّدِّيُّ عَنِ أَبِي مَالِكٍ وَعَنِ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنِ مَرَّةَ الْهَمْدَانِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنِ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قَالَ: شَكٌّ، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قَالَ: شَكًّا (٢). وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ (٣). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قَالَ: هَذَا مَرَضٌ فِي الدِّينِ، وَلَيْسَ مَرَضًا فِي الْأَجْسَادِ، وَهُمْ الْمُتَنَافِقُونَ، وَالْمَرَضُ: الشُّكُّ الَّذِي دَخَلَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قَالَ: زَادَهُمْ رِجْسًا (٤). وَقَرَأَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١٢] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [النوبة: ١٢٤، ١٢٥]: قَالَ: شَرًّا إِلَى شَرِّهِمْ وَضَلَالَةً إِلَى ضَلَالَتِهِمْ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ - رِجْمَهُ اللَّهُ - حَسَنٌ، وَهُوَ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَكَذَلِكَ قَالَهُ الْأَوَّلُونَ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَهُمْ هُدًى وَهُدًى وَأَنَّهُمْ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [١٧] وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ وَفَرَى (بِكُذُوبِهِمْ) وَقَدْ كَانُوا مُتَنَفِّصِينَ بِهِذَا وَهَذَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا كَذِبَةً، وَيُكْذِبُونَ بِالغَيْبِ، يَجْمَعُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا.

(تَنْبِيْهٌ) قَوْلُ مَنْ قَالَ: كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْلَمُ أَعْيَانَ بَعْضِ الْمُتَنَافِقِينَ، إِنَّمَا مُسْتَنَدُهُ حَدِيثُ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ فِي تَسْمِيَةِ أَوْلَادِكَ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ مُنَافِقًا فِي عَزْوَةِ بَنِي النَّبِيِّ هَمُّوا أَنْ يُنَكِّبُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ظُلْمَاءِ اللَّيْلِ عِنْدَ عَقَبَةِ هُنَاكَ، عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُقَرُّوا بِهِ النَّاقَةَ لِيَسْقُطَ عَنْهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ، فَأَطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ حُذَيْفَةُ.

فَأَمَّا غَيْرُ هَؤُلَاءِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمُ

بِمَعْصِيَتِهِمْ فِيهَا رَبَّهُمْ. وَرُكُوبِهِمْ فِيهَا مَا نَهَاهُمْ عَنْ رُكُوبِهِ. وَتَضْيِعِهِمْ فَرَائِضَهُ، وَشَكْهَمُ فِي دِينِهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ عَمَلٌ إِلَّا بِالتَّضَدِيقِ بِهِ وَالإِيقَانِ بِحَقِيقَتِهِ. وَكَذِبُهُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِدَعْوَاهُمْ غَيْرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ. وَمُظَاهَرَتِهِمْ أَهْلَ التَّكْذِيبِ بِاللهِ وَرُكُوبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللهِ إِذَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا. فَذَلِكَ إِفْسَادُ الْمُتَنَافِقِينَ فِي الأَرْضِ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ مُضِلِّحُونَ فِيهَا^(١).

وهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ، فَإِنَّ مِنَ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ اتِّخَاذَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أَوْلِيَاءَهُ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] فَطَمَعَ اللهُ المَوَالَاةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحْتَدُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ فِي الذَّرِكِ أَلَسْتُمْ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَخُذَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] فَالْمُنَافِقُ لَمَّا كَانَ ظَاهِرُهُ الإِيمَانَ اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَكَانَ الْفَسَادُ مِنْ جِهَةِ الْمُنَافِقِ حَاصِلًا، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَرَّ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَوَالِيَ الكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ عَلَى حَالِهِ الأَوَّلِ لَكَانَ شُرُهُ أَحْفَ، وَلَوْ أَخْلَصَ الْعَمَلُ لِلَّهِ وَتَطَابَقَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ لِأَفْلَحَ وَنَجَحَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أَي نُرِيدُ أَنْ نُنَادِيَ الفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالكَافِرِينَ، وَنُضْطَلِحَ مَعَ هُوَلاءِ وَهُوَلاءِ، كَمَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أَي إِنَّمَا نُرِيدُ الإِصْلَاحَ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ^(٢). فَيَقُولُ اللهُ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ: أَلَا إِنَّ هَذَا الَّذِي يَعْتَمِدُونَهُ وَيَرْغَمُونَ أَنَّهُ إِصْلَاحٌ هُوَ عَيْنُ الْفَسَادِ، وَلَكِنْ مِنْ جَهْلِهِمْ لَا يَشْعُرُونَ بِكُوزِهِ فَسَادًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ أَشْفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣)

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لِلْمُنَافِقِينَ ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أَي كَيْمَانِ النَّاسِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالبُعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ

الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَعَنَهُ، وَأَطِيعُوا اللهُ وَرَسُولَهُ فِي امْتِنَائِ الأَمْرِ وَتَرَكَ الرِّوَاجِرِ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يَعْنُونَ - لَعَنَهُمُ اللهُ - أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، قَالَهُ أَبُو العَالِيَةِ وَالسُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ^(٤). وَبِهِ يَقُولُ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ^(٥). وَغَيْرُهُمْ. يَقُولُونَ: أَنُصِيرُ نَحْنُ وَهُوَلاءِ بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ، وَعَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُمْ سُفَهَاءُ؟

وَالسُّفَهَاءُ جَمْعُ سَفِيهِ كَمَا أَنَّ الحُكَمَاءَ جَمْعُ حَكِيمٍ وَالعُلَمَاءَ جَمْعُ حَلِيمٍ، وَالسُّفِيهِ هُوَ الجَاهِلُ الضَّعِيفُ الرَّأْيِيُّ، القَلِيلُ المَعْرِفَةِ بِمَوَاضِعِ المَصَالِحِ وَالمَصَارِّ، وَلِهَذَا سَمَى اللهُ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ سُفَهَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] قَالَ عَامَّةُ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: هُمُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ. وَقَدْ تَوَلَّى اللهُ سُبْحَانَهُ جَوَابَهُمْ فِي هَذِهِ المَوَاطِنِ كُلِّهَا فَقَالَ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فَكَأَنَّ وَحَصَرَ السُّفَهَاءَةَ فِيهِمْ ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي وَمِنْ تَمَامِ جَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِحَالِهِمْ فِي الضَّلَالَةِ وَالجَهْلِ، وَذَلِكَ أَرَادَى لَهُمْ وَأَبْلَغَ فِي العَمَى، وَالبُعْدِ عَنِ الهُدَى.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾^(٦) اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِ وَيُؤْتِمُّ فِي

طَلَبَتِهِمْ بِعَهْدِهِمْ ﴿٥﴾

[مَكْرُ الْمُتَنَافِقِينَ وَخِدَاعُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا لَقِيَ هُوَلاءِ الْمُتَنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: آمَنَّا، وَأَطَهَرُوا لَهُمُ الإِيمَانَ وَالمَوَالَاةَ وَالمَصَافَاةَ غُرُورًا مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَبِنَاقَا وَمُصَانَعَةٍ وَتَقِيَّةٍ، وَلِيَسْرُكُوهُمْ فِيمَا أَصَابُوا مِنْ خَيْرٍ وَمَعْتَمٍ ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يَعْنِي إِذَا انصَرَفُوا وَذَهَبُوا وَخَلَصُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ - وَشَيَاطِينُهُمْ: سَادَتُهُمْ وَكَبَرَاؤُهُمْ مِنْ أَحْبَابِ اليَهُودِ وَرُؤُوسِ المُشْرِكِينَ وَالمُنَافِقِينَ.

[شَيَاطِينُ الجِنَّ وَالإِنْسِ]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَشَيَاطِينُ كُلِّ شَيْءٍ مَرَدُّهُ، وَيَكُونُ

(١) الطبري: ٢٨٩/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٥٢/١ إسناده ضعيف لأجل تليس محمد بن إسحاق ولم يصرح وشيخه محمد بن أبي محمد وهو مجهول (٣) الطبري: ٢٩٣/١ (٤) الطبري: ٢٩٤/١

الْبَقَرَةُ

٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ
بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُمَاتٌ وَعَدْوٌ وَبُرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْدِعَهُمْ فِي إِذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ
حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطَفُ
أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا سُورَةَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

الشَّيْطَانُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى
بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

[معنى الاستهزاء]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ
ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ إِنَّا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا نَحْنُ نَسْتَهْزِئُ بِالْقَوْمِ وَنَلْعَبُ بِهِمْ^(١).
وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾
سَاجِرُونَ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٢)، وَكَذَلِكَ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ
أَنَسٍ وَقَتَادَةُ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى جَوَابًا وَمُقَابَلَةً عَلَى صَنِيعِهِمْ
﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيُذِئِبُهُمْ فِي طُعْنِيهِمْ يَعْهُونَ﴾ وَقَالَ ابْنُ
جَرِيرٍ: أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ فَاعِلٌ بِهِمْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا
نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ
لَمْ يَأْتِ بِالطُّبِّ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهَرُ مِنْ فِيهِ الْعَذَابُ﴾... الآية [الحديد: ١٣]،
وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا
نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيُذَادُوا إِثْمًا﴾...
الآية [آل عمران: ١٧٨]، قَالَ: فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ اسْتَهْزَاءِ
اللَّهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - وَسُخْرِيَّتِهِ وَمَكْرِهِ وَخَدِيعَتِهِ لِلْمُنَافِقِينَ
وَأَهْلِ الشَّرْكِ بِهِ.

[مَكْرُ الْمُنَافِقِينَ وَبَالَهُ عَلَيْهِمْ]

فَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ مُجَارِبُهُمْ جَزَاءَ الْإِسْتَهْزَاءِ،
وَمُعَافِيَتُهُمْ عُقُوبَةَ الْخِدَاعِ، فَأَخْرَجَ خَبْرَهُ عَنْ جَزَائِهِ إِثَامَهُمْ
وَعِقَابِهِ لَهُمْ مَخْرَجَ خَبْرِهِ عَنْ فِعْلِهِمُ الَّذِي عَلَيْهِ اسْتَحَقُّوا
الْعِقَابَ، فِي اللَّفْظِ، وَإِنْ اخْتَلَفَ الْمُعْتَبَانِ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَحَزْرًا وَسِتْرًا سِتْنَةً مِثْلَهَا فَمَنْ عَصَا وَأَصْلَحَ فَاجْرُؤُ عَلَى
اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ آمَنَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فَأَلَّوْهُ ظُلْمٌ وَالثَّانِي عَدْلٌ، فَهَمَّا وَإِنْ
اتَّفَقَ لَفْظُهُمَا فَقَدْ اخْتَلَفَ مَعْنَاهُمَا، قَالَ: وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى
وَجْهًا كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَظَائِرِ ذَلِكَ. لِأَنَّ الْمَكْرَ
وَالْخِدَاعَ وَالسُّخْرِيَّةَ عَلَى وَجْهِ اللَّعِبِ وَالْعَيْبِ مُتَّيَّبٌ عَنِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ بِالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا عَلَى وَجْهِ الْإِنْتِقَامِ وَالْمُقَابَلَةِ
بِالْعَدْلِ وَالْمُجَارَاةِ فَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ.

[الْمَدُّ وَالطُّغْيَانُ وَالْعَمَةُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذِئِبُهُمْ فِي طُعْنِيهِمْ يَعْهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]
رَوَى السُّدِّيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَسٍ

مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَيَذِئِبُهُمْ﴾: يُمَلِّي لَهُمْ^(٤). وَقَالَ
مُجَاهِدٌ: يَزِيدُهُمْ^(٥). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ
مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ٥٥﴾ شَأْبُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:
٥٥، ٥٦] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ زَيْدُهُمْ عَلَى وَجْهِ
الْإِمْلَاءِ وَالْتِرَاقِ لَهُمْ فِي عُقُوبِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَنُقَلِّبُ أَقْسَامَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ مَرَّةً
وَنَذَرُهُمْ فِي طُعْنِيهِمْ يَعْهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]^(٦) وَالطُّغْيَانُ:
هُوَ الْمُجَاوَزَةُ فِي الشَّيْءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْآلَاءُ
حَمَلْنَاكُم بِالْبَارِيَّةِ﴾ [الحاقة: ١١] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَ(الْعَمَةُ):
الضَّلَالُ. يُقَالُ: عَمَهُ فُلَانٌ يَعْهَهُ عَمَهَا وَعُمُوها إِذَا ضَلَّ،
قَالَ: وَقَوْلُهُ: ﴿فِي طُعْنِيهِمْ يَعْهُونَ﴾ فِي ضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ
الَّذِي عَمَرَهُمْ دَنْسُهُ وَعَلاَهُمْ رِجْسُهُ، يَتَرَدَّدُونَ حَيَارَى

(١) الطبري: ٣٠٠/١؛ ضعيف لتدليس ابن إسحاق (٢) الطبري:

٣٠٠/١؛ ضعيف الضحَّاك لم يسمع من ابن عباس (٣) الطبري:

٣٠٠/١ (٤) الطبري: ٣١١/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٥٧/١

(٦) الطبري: ٣٠٧/١

طَفَيْتُ نَارَهُ، وَصَارَ فِي ظِلَامٍ شَدِيدٍ لَا يُبْصِرُ وَلَا يَهْتَدِي، وَهُوَ مَعَ هَذَا أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ، أَبْكُمْ لَا يَنْطِقُ، أَعْمَى لَوْ كَانَ ضِيَاءً لَمَا أَبْصَرَ، فَلِهَذَا لَا يَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ هُوَ لِأَنَّ الْمُنَافِقُونَ فِي اسْتِئْذَانِهِمُ الصَّلَاةَ عِوَضًا عَنِ الْهُدَى وَاسْتِحْبَابِهِمُ الْعَيَّ عَلَى الرُّشْدِ. وَفِي هَذَا الْمَثَلِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أَي ذَهَبَ عَنْهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَهُوَ النُّورُ، وَأَبْقَى لَهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، وَهُوَ الْإِحْرَاقُ وَاللُّسْخَانُ ﴿وَوَرَّكُمُ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وَهُوَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّكِّ وَالْكَفْرِ وَالنَّفَاقِ ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى سَبِيلِ خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُونَهَا، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿صُمٌّ﴾ لَا يَسْمَعُونَ خَيْرًا ﴿بُكْمٌ﴾ لَا يَتَكَلَّمُونَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ ﴿عُمَى﴾ فِي ضَلَالَةٍ وَعَمَايَةِ الْبَصِيرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصُرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فَلِهَذَا لَا يَرْجِعُونَ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَايَةِ الَّتِي بَاعَوْهَا بِالضَّلَالَةِ.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُبٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعًا فِي مَعَابِدِهِمْ مِنَ الصَّوْعِ حَذَرِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ بِكَادِ التَّرْتِيبِ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾

[مَثَلٌ آخَرَ لِلْمُنَافِقِينَ]

هَذَا مَثَلٌ آخَرَ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِضَرْبِ آخَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَهُمْ قَوْمٌ يَظْهَرُ لَهُمُ الْحَقُّ تَارَةً وَيَسْكُتُونَ تَارَةً أُخْرَى، فَقُلُوبُهُمْ فِي حَالِ سَكْنٍ وَكُفْرِهِمْ وَتُرُدِّدِهِمْ ﴿كَصَيْبٍ﴾ وَالصَّيْبُ: الْمَطَرُ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَنَاسٌ مِنَ الصَّحَابَةِ (١). وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالشَّدْيِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ (٢). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ السَّحَابُ (٣). وَالْأَشْهُرُ هُوَ الْمَطَرُ نَزَلَ

ضَلَالًا لَا يَجِدُونَ إِلَى الْمَخْرَجِ مِنْهُ سَبِيلًا، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَخَتَمَ عَلَيْهَا، وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَغْشَاهَا فَلَا يُبْصِرُونَ رُشْدًا وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِمِجْرَتِهِمْ وَمَا

كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٧﴾

رَوَى الشَّدْيِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ قَالَ: أَخَذُوا الضَّلَالَةَ وَتَرَكُوا الْهُدَى. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا (٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتَحْبَبُوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى (٣)، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ قَتَادَةُ يُشْبِهُهُ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى فِي تَمُودَ: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾. [فصلت: ١٧]

وَحَاصِلُ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ فِيهَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ عَدَلُوا عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ وَاعْتَاضُوا عَنِ الْهُدَى بِالضَّلَالَةِ. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أَي بَدَلُوا الْهُدَى ثَمَنًا لِلضَّلَالَةِ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ قَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِيمَانُ ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ إِلَى الْكُفْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣] أَوْ أَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى كَمَا يَكُونُ حَالُ فَرِيقٍ آخَرَ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَنْوَاعٌ وَأَقْسَامٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا رَبَحَت بِمِجْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أَي مَا رَبِحَتْ صَفَقَتُهُمْ فِي هَذِهِ السِّبَعَةِ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ أَي رَاشِدِينَ فِي صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿فَمَا رَبِحَت بِمِجْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قَدْ وَاللَّهِ رَأَيْتُهُمْ خَرَجُوا مِنَ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالَةِ، وَمِنَ الْجَمَاعَةِ إِلَى الْفُرْقَةِ، وَمِنَ الْأَمْنِ إِلَى الْخَوْفِ، وَمِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ (٤). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِمِثْلِهِ سِوَاهُ (٥).

﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَوَرَّكُمُ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عَمَى فَهَمُّ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

[مَثَلٌ آخَرَ لِلْمُنَافِقِينَ]

تَقْدِيرُ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَبَّهَهُمْ فِي اسْتِئْذَانِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، وَصَيَّرَ وَرَّيَهُمْ بَعْدَ الْبَصِيرَةِ إِلَى الْعَمَى، بِمَنْ اسْتَوْفَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ وَانْتَفَعَ بِهَا وَأَبْصَرَ بِهَا مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، وَتَأَنَسَ بِهَا، فَبَيَّنَّا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ

(١) الطبري: ٣٠٩/١ (٢) الطبري (٣٨٤، ٣٨٣) وابن أبي حاتم (١٥٤) وسنده صحيح. (٣) الطبري (٣٨٢) وابن أبي حاتم (١٥٢) وسنده صحيح أيضًا. (٤) الطبري: ٣١٦/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٦٠/١ (٦) الطبري: ٣٣٤/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٦٦/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٦٧/١

فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴿[الحديد: ١٣]. وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشْرِكِكُمْ لَئِيمَةً جُنَّتْ تَحْرِي مِنْ تَحِيهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الآية [الحديد: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نَارًا وَغَفِرْنَا لَنَا ذُنُوبَنَا وَأَنْعَمْتَ عَلَيْنَا يَا رَبُّنَا﴾ [التحرير: ٨].

ذَكَرَ الْحَدِيثُ الْوَارِدُ فِي ذَلِكَ

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قَالَ: عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ يَمُرُونَ عَلَى الصِّرَاطِ، مِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ النَّخْلَةِ، وَأَذَانُهُمْ نُورًا مَنْ نُورُهُ فِي إِبْهَامِهِ يَتَّقِدُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ أُخْرَى^(٥). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ إِلَّا يُعْطَى نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيُطْفَأُ نُورُهُ، فَالْمُؤْمِنُ مُشْفِقٌ مِمَّا بَرَى مِنْ إِطْفَاءِ نُورِ الْمُنَافِقِينَ، فَهُمْ يَقُولُونَ ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورًا﴾ [التحرير: ٨]^(٦). وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مَرْزُوحٍ: يُعْطَى كُلُّ مَنْ كَانَ يُظْهِرُ الْإِيمَانَ فِي الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورًا، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى الصِّرَاطِ طُفِيَ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ أَشْفَقُوا فَقَالُوا ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورًا﴾ [التحرير: ٨].

أَقْسَامُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَقْسَامُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ

فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا صَارَ النَّاسُ أَقْسَامًا، مُؤْمِنُونَ خُلُصًا، وَهُمْ الْمُؤْصِفُونَ بِالآيَاتِ الْأَرْبَعِ فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ، وَكُفَّارٌ خُلُصًا، وَهُمْ الْمُؤْصِفُونَ بِالآيَاتِ الْبَعْدِيَّةِ، وَمُنَافِقُونَ وَهُمْ قِسْمَانِ: خُلُصًا، وَهُمْ الْمَضْرُوبُ لَهُمُ الْمَثَلُ النَّارِيُّ، وَمُنَافِقُونَ يَتَرَدَّدُونَ، تَارَةً يُظْهِرُ لَهُمْ لَمَعُ الْإِيمَانِ وَتَارَةً يَخْبُو، وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَثَلِ الْمَائِي، وَهُمْ أَخْفَ حَالًا مِنَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ.

ثُمَّ صَرَّبَ مِثْلَ الْعِبَادِ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْجَهْلِ

مِنَ السَّمَاءِ فِي حَالِ ظُلُمَاتٍ، وَهِيَ: الشُّكُوكُ وَالْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ ﴿وَرَعْدٌ﴾ وَهُوَ مَا يُرْعَجُ الْقُلُوبَ مِنَ الْخَوْفِ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ وَالْفَرَعَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] وَقَالَ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ لَهُمْ لِمَنْعَكُمْ وَمَا هُمْ بِبِئْرِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَمُنَعَكُمْ أَوْ مَعْرِبَتٍ أَوْ يُدْعَى لَوْلَا إِلَهِهِمْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧] وَ﴿الْبُرْقُ﴾ هُوَ مَا يَلْمَحُ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الضَّرْبُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الصُّوْعِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أَيْ وَلَا يُجِدِي عَنْهُمْ حَذْرُهُمْ شَيْئًا، لِأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِقُدْرَتِهِ، وَهُمْ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ حَدِيثَ الْجَنُودِ ﴿٧﴾ فَرَعُونَ وَمَعُودِ ﴿٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ﴿٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧-٢٠] بِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿يَكَاذِبُونَ يُخَفُّونَ أَبْصَارَهُمْ﴾ أَيْ لِيَسْتَدْتِيهِمْ وَقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ، وَضَعْفَ بَصَائِرِهِمْ وَعَدَمَ ثَبَاتِهَا لِلْإِيمَانِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يَكَاذِبُونَ يُخَفُّونَ أَبْصَارَهُمْ﴾ يَقُولُ: يَكَاذِبُ مُحَكَّمُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُنَافِقِينَ^(١). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿كُلَّمَا أَصَابَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ اطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهِ، وَإِذَا أَصَابَ الْإِسْلَامَ نَكَبَتْ قَامُوا لِيَرْجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ^(٢). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ [الحج: ١١] وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿كُلَّمَا أَصَابَ لَهُمْ مَسْأَلَةٌ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أَيْ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَيَتَكَلَّمُونَ بِهِ، فَهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ بِهِ عَلَى اسْتِقَامَةٍ، فَإِذَا ارْتَكَبُوا مِنْهُ إِلَى الْكُفْرِ قَامُوا أَيْ مُتَحَيِّرِينَ^(٣). وَهَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَتَقَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالشَّدِيدُ بِسَنَدِهِ عَنِ الصَّحَابَةِ، وَهُوَ أَصَحُّ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٤).

وَهَكَذَا يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَمَا يُعْطَى النَّاسُ النُّورَ بِحَسَبِ إِيْمَانِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى مِنَ النُّورِ مَا يُضِيءُ لَهُ مَسِيرَةَ فَرَسِيخٍ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْفَأُ نُورُهُ تَارَةً وَيُضِيءُ أُخْرَى، فَيَمِشِي عَلَى الصِّرَاطِ تَارَةً وَيَقِفُ أُخْرَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْفَأُ نُورُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَهُمْ الْخُلُصُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ

(١) الطبري: ٣٤٩/١ (٢) الطبري: ٣٤٩/١ (٣) الطبري: ٣٤٦/١ إنساده ضعيف لوجه: ١- محمد بن حميد الرازي شيخ الطبري ضعيف. ٢- وسلمة بن الفضل أيضًا ضعيف. ٣- محمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح له. ٤- محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت مجهول تفرد عنه ابن إسحاق كما في التبريق. (٤) ابن أبي حاتم: ٧٥/١ (٥) الطبري: ١٧٩/٢٣ (٦) الحاكم: ٤٩٥/٢

إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ قَالَ: لِمَا تَرَكُوا مِنَ الْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ. ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ [ابن إسحاق]: أَيُّ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ مَا أَرَادَ بِعِبَادِهِ مِنْ نِقْمَةٍ أَوْ عَفْوٍ قَدِيرٌ^(٤). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، لِأَنَّهُ حَذَرَ الْمُتَنَافِقِينَ بِأَسْهٍ وَسَطَوْتَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ بِهِمْ مُحِيطٌ، وَعَلَى إِذْهَابِ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ قَدِيرٌ^(٥).

وَذَهَبَ ابْنُ جَرِيرٍ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ مَضْرُوبَانِ لِصِنْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ وَتَكُونُ أَوْ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بِمَعْنَى الْوَاوِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْعَمُهُمْ هَاتِمًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أَوْ تَكُونُ لِلتَّخْيِيرِ أَيِ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِهَذَا وَإِنْ شِئْتَ بِهَذَا. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ. أَوْ لِلتَّسَاوِيِ مِثْلُ: جَالِسِ الْحَسَنِ أَوْ ابْنِ سَبْرِينَ عَلَى مَا وَجَّهَهُ الرَّمَحْسَرِيُّ: أَنَّ كَلِمَةَ مِنْهُمَا مُسَاوٍ لِلآخِرِ فِي إِبَاحَةِ الْجُلُوسِ إِلَيْهِ. وَيَكُونُ مَعْنَاهُ عَلَى قَوْلِهِ: سَوَاءٌ ضَرَبْتَ لَهُمْ مَثَلًا بِهَذَا أَوْ بِهَذَا فَهُوَ مُطَابِقٌ لِحَالِهِمْ.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْعُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

[تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ]

شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ وَحْدَانِيَّةِ الْوَلُوهِيَّةِ، بِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُنْعَمُ عَلَى عِبِيدِهِ، بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَإِسْبَاحِهِ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، بِأَنْ جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا أَيْ مَهْدًا كَالْفِرَاشِ، مُقَرَّرَةً مَوْطَأَةً مُتَّبَعَةً بِالرَّوَاسِيِ الشَّامِيَّاتِ ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وَهُوَ السَّقْفُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا

الْمُرَكَّبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كَبْرِيَّ بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الْأَطْمَانُ مَاءً حَيًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ الْآيَةَ [النور: ٣٩]، ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلُ الْكُفَّارِ الْجُهَالِ الْجَهْلَ الْبَسِيطَ، وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿أَوْ كَطَلْمَنَةٍ فِي بَحْرِ لُبِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ بَدَنَهُ لَمْ يَكِدْ رِبْهًا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] فَفَسَّمِ الْكُفَّارَ هَهُنَا إِلَى قِسْمَيْنِ: دَاعِيَةٍ وَمُقَلِّدٍ، كَمَا ذَكَرَهُمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَجِّ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الحج: ٨٠، ٨٣].

وَقَدْ فَسَّمِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَّلِ الْوَاقِعَةِ وَفِي آخِرِهَا، وَفِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى قِسْمَيْنِ: سَابِقُونَ وَهُمْ الْمُقَرَّبُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ وَهُمْ الْأَبْرَارُ.

فَتَلَخَّصَ مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَانِ: مُقَرَّبُونَ وَأَبْرَارٌ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ صِنْفَانِ: دُعَاةٌ وَمُقَلِّدُونَ، وَأَنَّ الْمُتَنَافِقِينَ أَيْضًا صِنْفَانِ: مُتَافِقٌ خَالِصٌ، وَمُتَافِقٌ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُتَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ حَاصِلَةً مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّيَمَّنَ خَانَ»^(١). إِسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَكُونُ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ إِيْمَانٍ وَشُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ. إِمَّا عَمَلِيًّا - لِهَذَا الْحَدِيثِ - أَوْ اعْتِقَادِيًّا، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ.

[أَنْسَامُ الْقُلُوبِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدٌ، فِيهِ مِثْلُ السَّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفٌ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُضْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، فَيَسْرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنكُوسُ فَقَلْبُ الْمُتَنَافِقِ الْخَالِصِ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُضْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيْمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَمِثْلُ الْإِيْمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبُقْلَةِ يُمِدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمِثْلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْفَرْحَةِ يُمِدُّهَا الْفَيْحُ وَالِدَّمُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ»^(٢). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ حَسَنٌ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ

(١) فتح الباري: ١١١/١ ومسلم: ٧٨/١ (٢) أحمد: ١٧/٣

(٣) إسناده ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم وهو صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك (تقريب لابن حجر ٥٦٨٥).
ولانقطاعه: أبو البخترى سعيد بن فيروز لم يدرك أبا سعيد الخدري. أنظر للتفصيل تحرير تقريب التهذيب ٤١/٢ وجوده ابن كثير والسيوطي! (٤) ابن أبي حاتم: ٧٦/١ إسناده ضعيف ابن إسحاق مدلس ولم يصرح وفيه علل أخرى (٥) الطبري: ٣٦١/١

أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَكَبِيبٌ شُوِّدٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨] وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ لِلْمَنَافِعِ، وَمَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالنَّبَاتِ الْمُخْتَلِفِ الطُّعُومِ وَالْأَرَابِيجِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، مَعَ اتِّحَادِ طَبِيعَةِ التَّرْبَةِ وَالْمَاءِ: اسْتَدَلَّ عَلَى وُجُودِ الصَّائِعِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَلَطْفِهِ بِهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَبِرِّهِمْ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، وَالآيَاتُ فِي الْقُرْآنِ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ كَثِيرَةٌ جَدًّا.

﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيَّ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ اللَّهِ فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ وَالْمِجَارَةِ أَضْعَفُ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

[إِتْبَاتُ رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ]

ثُمَّ سَرَعَ تَعَالَى فِي تَقْرِيرِ النُّبُوَّةِ بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ مُحَاطِبًا لِلْكَافِرِينَ: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيَّ عَبْدِنَا﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ، إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَعَارِضُوهُ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيَّ ذَلِكَ بِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِن كُنْتُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ أَعْوَانَكُمْ^(٥). وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ: شُرَكَاءَكُمْ، أَيْ قَوْمًا آخَرِينَ يَسَاعِدُونَكُمْ عَلَى ذَلِكَ، أَيْ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ فِي ذَلِكَ يَمْدُونَكُمْ وَيَنْصُرُونَكُمْ^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ قَالَ: نَاسٌ يَشْهَدُونَ بِهِ^(٧). يَعْنِي حُكَّامَ الْفُصَحَاءِ.

[التَّحْدِيهِ وَالْإِعْجَازُ]

وَقَدْ تَحَدَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِثْلِ مَا جَاءَ اللَّهُ هَدًى مِنْهَا تَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الآية: ٤٩] وَقَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا

وَهُمْ عَنَّا بِكِتَابٍ مُّعْزُونٍ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وَأَنْزَلَ لَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، وَالْمُرَادُ بِهِ السَّحَابُ هَهُنَا، فِي وَفْتِهِ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّرُوعِ وَالشَّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ، رِزْقًا لَهُمْ وَإِنْعَامِيهِمْ، كَمَا قَرَّرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَمِنْ أَشْبَهِ آيَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ السَّمَاءِ نَزْلًا ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] وَمَضْمُونُهُ: أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، مَالِكُ الدَّارِ وَسَاكِنِيهَا، وَرَازِقُهُمْ، فَبِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقُكَ»^(١). الْحَدِيثُ. وَكَذَا حَدِيثُ مُعَاذٍ: «أَتَدْرِي مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ؟ أَنْ يُعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^(٢). الْحَدِيثُ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»^(٣).

[دَلَالَةُ وُجُودِ الْبَارِي تَعَالَى]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَالرَّازِيِّ وَغَيْرِهِ عَلَى وُجُودِ الصَّائِعِ تَعَالَى، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلِيِّ، فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ السُّفْلِيَّةَ وَالْعُلُويَّةَ وَالاخْتِلَافَ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا، وَطَبَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا، وَوَضْعِهَا فِي مَوَاضِعِ النَّفْعِ بِهَا مُحْكَمَةً، عِلْمَ قُدْرَةِ خَالِقِهَا وَحِكْمَتَهُ، وَعِلْمَهُ وَإِقَانَهُ وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ، وَقَدْ سُئِلَ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ تَعَالَى؟ فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنْ الْبَعْرُ لَيَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَإِنْ أَثَرُ الْأَقْدَامِ لَيَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَجْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ؛ أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟^(٤)

فَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ السَّمَوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ النَّيِّرَةِ مِنَ السَّيَّارَةِ وَمِنَ النَّوَابِيتِ، وَشَاهَدَهَا كَيْفَ تَدُورُ مَعَ الْفَلَكَ الْعَظِيمِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَبَلِيلَةٍ دَوِيرَةٍ، وَلَهَا فِي أَنْفُسِهَا سَبِيلٌ يَخْصُهَا، وَنَظَرَ إِلَى الْبِحَارِ الْمُكْتَنِفَةِ لِلْأَرْضِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالْجِبَالِ الْمُتَوَسِّعَةِ فِي الْأَرْضِ لِتَقَرَّرَ وَيَسْكُنَ سَاكِنُوهَا مَعَ اخْتِلَافِ

(١) فتح الباري: ٣٥٠/٨، ٩٠/١، ٩٠/١ (٢) فتح الباري:

٣٥٩/١٣، ٥٩/١، ٥٩/١ (٣) أحمد: ٣٨٤/٥، ٣٩٤، ٣٩٨

(٤) الرازي: ٩١/٢، ٩١/٢ (٥) الطبري: ٣٧٦/١ (٦) ابن أبي حاتم:

٨٤/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٨٥/١

بِالْعَكْسِ - عَلَى الْخِلَافِ - فَكُلُّ مَنْ لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ فَصِيحٌ لَا يُحَادِثُ وَلَا يُدَانِي، فَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ مُعَيَّبَاتٍ مَاضِيَةٍ كَانَتْ، وَوَقَعَتْ طَبَقٌ مَا أَخْبَرَ سِوَاءَ سِوَاءٍ. وَأَمَرَ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَنَهَى عَنْ كُلِّ شَرٍّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَتَّ كَيْمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَيْ صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ، فَكُلُّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَعَدْلٌ وَهُدًى، لَيْسَ فِيهِ مُجَازَفَةٌ وَلَا كَذِبٌ وَلَا أَفْرَاءٌ، كَمَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَعَظِيمٌ مِنَ الْأَكَاذِبِ وَالْمُجَازَفَاتِ الَّتِي لَا يَحْسُنُ شِعْرُهُمْ إِلَّا بِهَا، كَمَا قِيلَ فِي الشُّعْرِ: إِنَّ أَعْدَبَهُ أَكْذَبَهُ. وَتَجَدُّ الْقَصِيدَةِ الطَّوِيلَةِ الْمُدِيدَةِ قَدْ اسْتَعْمِلَ عَلَيْهَا فِي وَصْفِ النِّسَاءِ أَوْ الْحَيْلِ أَوْ الْخَمْرِ، أَوْ فِي مَدْحِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ أَوْ فَرَسٍ أَوْ نَاقَةٍ أَوْ حَرْبٍ أَوْ كَائِنَةٍ أَوْ مَخَافَةٍ أَوْ سَبْعٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الْمُسَاهَدَاتِ الْمُتَعَيَّبَةِ الَّتِي لَا تُفِيدُ شَيْئًا إِلَّا قُدْرَةُ الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَيَّنِ: عَلَى الشَّيْءِ الْخَفِيِّ أَوْ اللَّدِيقِ، أَوْ إِبْرَارُهُ إِلَى الشَّيْءِ الْوَاضِحِ، ثُمَّ تَجَدُّ لَهُ فِيهِ بَيِّنَاتٌ أَوْ أَكْثَرُ هِيَ بَيِّنَاتٌ الْقَصِيدِ، وَسَائِرُهَا هَذَرٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ.

وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَجَمِيعُهُ فَصِيحٌ فِي غَايَةِ نَهَايَاتِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا، مِمَّنْ فَهِمَ كَلَامَ الْعَرَبِ وَنَصَارِيْفَ التَّعْبِيرِ، فَإِنَّهُ، إِنْ تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَهُ وَجَدْتَهَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ سِوَاءَ كَانَتْ مَبْسُوطَةً أَوْ وَجِيزَةً، وَسِوَاءَ تَكَرَّرَتْ أَمْ لَا، وَكُلَّمَا تَكَرَّرَ حَلَا وَعَلَا، لَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَمَلُّ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ.

وَإِنْ أَخَذَ فِي الْوَعِيدِ وَالتَّهْلِيدِ، جَاءَ مِنْهُ مَا تَقْشَعُرُّ مِنْهُ الْجِبَالُ الصُّمُّ الرَّاسِيَاتُ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْقُلُوبِ الْفَاهِمَاتِ. وَإِنْ وَعَدَ؛ أَتَى بِمَا يَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَالْأَذَانَ، وَيُسَوِّقُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَمُجَاوِرَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، كَمَا قَالَ فِي التَّرْغِيْبِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وَقَالَ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١] وَقَالَ فِي التَّرْهِيْبِ: ﴿أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨] ﴿أَمْ أَمْسَرْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ تَمُورًا﴾ [١١] أَمْ أَمْسَرْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ تَمُورًا نَذِيرًا﴾ [الملك: ١٦، ١٧] وَقَالَ فِي الرَّجْرِ: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [المنكوت: ٤٠] وَقَالَ فِي الْوَعْظِ: ﴿أَفَرَوَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾ مَا أَفْقَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَمْتُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ

يَمِيلُ هَذَا الْقُرْآنُ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وَقَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُتَّفَرِّقَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١١٣] وَقَالَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢٣] أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨] وَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ مَكِّيَّةٌ.

ثُمَّ تَحَدَّثَاهُمْ بِذَلِكَ أَيْضًا فِي الْمَدِينَةِ فَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أَيْ شَكٍّ ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ - يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ - ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يَعْنِي مِنْ مِثْلِ الْقُرْآنِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَأَخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ وَالرَّمْضَخَرِيُّ وَالرَّازِيُّ، وَنَقَلَهُ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَأَكْثَرَ الْمُحَقِّقِينَ، وَرَجَّحَ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ مِنْ أَحْسَنِهَا أَنَّهُ تَحَدَّثَاهُمْ كُلُّهُمْ مُتَّفَرِّقِينَ وَمُجْتَمِعِينَ، سِوَاءَ فِي ذَلِكَ أُمِّيَّهُمْ وَكِتَابِيَّهُمْ، وَذَلِكَ أَكْمَلُ التَّحَدُّثِ، وَأَشْمَلُ مِنْ أَنْ يَتَحَدَّثَ أَحَادَهُمُ الْأُمِّيِّينَ مِمَّنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يُعَانِي شَيْئًا مِنَ الْعُلُومِ، وَيَدْبِلُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١١٣] وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] فَهَذَا التَّحَدُّثِ عَامٌّ لَهُمْ كُلُّهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ أَفْضَحُ الْأَمَمِ، وَقَدْ تَحَدَّثَاهُمْ بِهَذَا فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ مَعَ شِدَّةِ عِدَاوَتِهِمْ لَهُ وَبُغْضِهِمْ لِيَدِيهِ، وَمَعَ هَذَا عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفَعَّلُوا﴾ وَلَكِنْ لَيْتِي التَّائِيْدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْ وَلَكِنْ تَفَعَّلُوا ذَلِكَ أَبَدًا، وَهَلِيهِ أَيْضًا مُعْجِزَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّهُ أَخْبَرَ خَبْرًا جَارِمًا قَاطِعًا مُقَدِّمًا غَيْرَ خَائِفٍ وَلَا مُشْفِقٍ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُعَارِضُ بِمِثْلِهِ أَبَدَ الْأَبَدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ الْأَمْرُ، لَمْ يُعَارِضْ مِنْ لَدُنْهُ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا وَلَا يُمَكِّنُ، وَأَنْتَى يَتَأْتَى ذَلِكَ لِأَحَدٍ وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ؟ وَكَيْفَ يُشْبِهُ كَلَامَ الْخَالِقِ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ!؟

[مِنْ وَجُوهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ]

وَمِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَجَدَ فِيهِ مِنْ وَجُوهِ الْإِعْجَازِ فُنُونًا ظَاهِرَةً وَخَفِيَّةً مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] فَأَحْكَمَتْ الْأَفَاظُ وَفُصِّلَتْ مَعَانِيهِ، أَوْ

من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل ذبيء، كما قال ابن مسعود وعزبه من السلف، إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأزعها سمعك، فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾... الآية [الأعراف: ١٥٧].

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأحوال، وفي وصف الجنة والنار، وما أعد الله فيها لأوليائِهِ وأعدائِهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ، وَالْمَلَأْدِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ؛ بَشَّرَتْ بِهِ وَحَدَّرَتْ وَأَنْذَرَتْ، وَدَعَتْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ، وَزَهَّدَتْ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَتْ فِي الْآخِرَةِ، وَثَبَّتْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى، وَهَدَّتْ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَشَرَعِيهِ الْقَوِيمِ، وَنَفَتْ عَنِ الْقُلُوبِ رِجْسَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

[القرآن هو المعجزة العظمى لنبينا محمد ﷺ]

ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١) - لفظ مسلم - وقوله ﷺ: «وإنما كان الذي أوتيته وحياً» أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء، والله أعلم، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، والله الحمد والمنة.

[المراد بالحجارة]

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يُلْتَمَى فِي النَّارِ لِإِضْرَامِهَا كَالْحَطَبِ وَنَحْوِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْفَالَسِيُّونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ

بَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُوبُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٥﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَفْضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمَوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾

لَهَا وَرُدُّونَ ﴿٣٩﴾ لَوْ كَانَتْ هَوَالِءَ إِلَهَةٍ مَا رَدُّوهُمَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[الأنبياء: ٩٨، ٩٩] وَالْمُرَادُ بِالْحِجَارَةِ هَهُنَا هِيَ حِجَارَةُ الْكِبْرِيَّتِ الْعَظِيمَةُ السُّودَاءُ الصُّلْبَةُ الْمُنِينَةُ، وَهِيَ أَشَدُّ الْأَحْجَارِ حَرًّا إِذَا حَمِيَتْ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا حِجَارَةُ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾... الآية [الأنبياء: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ الأظهر: أَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿أُعِدَّتْ﴾ عَائِدٌ إِلَى النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدَهُ إِلَى الْحِجَارَةِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ فِي الْمَعْنَى، لِأَنَّهُمَا مُتَلَاذِمَانِ، وَ﴿أُعِدَّتْ﴾ أَي أُرْصِدَتْ وَحُصِّلَتْ لِلْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَي لِمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ^(٢).

(١) فتح الباري: ٦١٩/٨ ومسلم: ١٣٤/١ (٢) الطبري: ١/

٣٨٣ إسناده ضعيف لتدليس ابن إسحاق ولوجه أخرى.

[إِنَّ جَهَنَّمَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنْ أَيْمَةِ السُّنَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ النَّارَ مَوْجُودَةَ الْآنَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّتْ﴾ أَيُّ أُرْصِدَتْ وَهَيْئَتْ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ مِنْهَا: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ»^(١). وَمِنْهَا «اسْتَأْذَنْتِ النَّارُ رَبَّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلِ بَعْضِي بَعْضًا، فَأِذِنْ لَهَا بِفَتْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي السَّيِّئِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيِّفِ»^(٢) وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ: سَمِعْنَا وَجِبَةَ، فَقُلْنَا: مَا هَذِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا حَجَرٌ أَلْقِيَ بِهِ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً، الْآنَ وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا». وَهُوَ عِنْدَ مُسْلِمٍ^(٣). وَحَدِيثُ صَلَاةِ الْكُشُوفِ وَلَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

﴿وَيَبِّرُ الزَّيْتُ﴾ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كَلِمًا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ تَمَرٍ زَرَقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾

[جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَعَدَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ أَوْلِيَائِهِ مِنَ السَّعْدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ الَّذِينَ صَدَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةَ.

وَهَذَا مَعْنَى تَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ "مَنَائِي" عَلَى أَصَحِّ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ كَمَا سَبَّسَطُهُ فِي مَوْضِعِهِ، وَهُوَ أَنْ يُذَكَّرَ الْإِيْمَانُ وَيُتَّبَعُ بِذِكْرِ الْكُفْرِ أَوْ عَكْسُهُ، أَوْ حَالِ السَّعْدَاءِ ثُمَّ الْأَشْقِيَاءِ أَوْ عَكْسُهُ، وَحَاصِلُهُ ذِكْرُ الشَّيْءِ وَمُقَابِلُهُ. وَأَمَّا ذِكْرُ الشَّيْءِ وَنَظِيرُهُ فَذَلِكَ الشَّابُه كَمَا سَتَوْضُحُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَبِّرُ الزَّيْتُ﴾ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿فَوْصَفَهَا بِأَنَّهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، أَيُّ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَغَرَفِهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ أَنْهَارَهَا تَجْرِي فِي غَيْرِ أَخْدُوْدٍ^(٤)، وَجَاءَ فِي الْكُوْتَرِ أَنَّ حَافَتَيْهِ قِبَابُ اللَّوْلُؤِ الْمُجَوَّبِ، وَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَطَيْبُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْجَوْهَرُ، نَسَأَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ هُوَ الْبُرِّ الرَّجِيمِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَجْرِي تَحْتَ تِلَالٍ - أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ - الْمِسْكِ»^(٥) وَرَوَى أَيْضًا عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ

عَبْدُ اللَّهِ: أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَجْرِي مِنْ جِبَلِ الْمِسْكِ^(٦).

[مُشَابَهَةٌ تِمَارِ الْجَنَّةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلِمًا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ تَمَرٍ زَرَقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ يَحْيَى ابْنِ أَبِي كَثِيرٍ، قَالَ: عُسْبُ الْجَنَّةِ الرَّغْرَغَانُ، وَكُتْبَانُهَا الْمِسْكُ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْوَلْدَانُ بِالْفَوَاكِحِ فَيَأْكُلُونَهَا، ثُمَّ يُؤْتَوْنَ بِمِثْلِهَا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَذَا الَّذِي أُتِئْتُمُونَا إِنْفًا بِهِ، فَتَقُولُ لَهُمُ الْوَلْدَانُ: كُلُوا فَالْوَلُونَ وَاحِدًا وَالطَّعْمُ مُخْتَلَفٌ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾^(٧).

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾ قَالَ: يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ^(٨). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾ قَالَ يُشْبِهُ تَمْرَ الدُّنْيَا، غَيْرَ أَنَّ تَمْرَ الْجَنَّةِ أَطْيَبُ^(٩). وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي ظُهْيَانَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا يُشْبِهُ شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا فِي الْأَسْمَاءِ. وَفِي رِوَايَةٍ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ^(١٠).

[أَنْوَاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مُطَهَّرَاتٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَنْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْقَدْرِ وَالْأَذَى^(١١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مِنَ الْخَيْضِ وَالْعَائِطِ وَالْبَوْلِ وَالشَّخَامِ وَالْبُرَاقِ وَالْمَيْيِ وَالْوَلِيدِ^(١٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَذَى وَالْمَأْثَمِ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: لَا خَيْضَ وَلَا كَلْفَ^(١٣). وَرَوَى عَنْ عَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَالضُّحَّاكِ وَأَبِي صَالِحٍ وَعَطِيَةَ وَالشَّدْيِ نَحْوُ ذَلِكَ^(١٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هَذَا هُوَ تَمَامُ السَّعَادَةِ، فَإِنَّهُمْ مَعَ هَذَا النَّعِيمِ فِي مَقَامِ أَمِينٍ مِنَ الْمَوْتِ وَالْإِنْقِطَاعِ، فَلَا آخِرَ لَهُ وَلَا انْقِضَاءَ، بَلْ فِي نَعِيمِ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ عَلَى الدَّوَامِ، وَاللَّهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَحْشُرَنَا فِي زَمْرَتِهِمْ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ بَرٌّ رَحِيمٌ.

(١) مسلم: ٢١٨٦/٤ (٢) البخاري: ٥٣٧ وتحفة الأحوذى: ٣١٧/٧ (٣) مسلم: ٢١٨٤/٤ (٤) في سنده سعيد بن عباس الجبري وهو مختلط وسماع يزيد بن هارون عنه متأخر، وقول مسروق، صحيح ثابت. (٥) ابن أبي حاتم: ٨٧/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٨٨/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٩٠/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٩٠/١ (٩) الطبري: ٣٩١/١ (١٠) الطبري: ٣٩٢/١ (١١) الطبري: ٣٩٥/١ (١٢) الطبري: ٣٩٦/١ (١٣) ابن أبي حاتم: ٩١/١ (١٤) ابن أبي حاتم: ٩٢/١

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّلِبُ وَالطَّلُوبُ ﴿[الحج: ٧٣]﴾ وَقَالَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٦﴾ تُوَفِّيهِ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُغْتَضِبُونَ مِنْهُ بِمَا اسْتَغْتَابُوا اللَّهَ لَنْ يَكُفَّ عَنْهُمُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْهُ إِنَّ اللَّهَ يَصِفُ مَا يُغْتَابُونَ﴾ [الأنعام: ١٦] وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٧﴾ يَثِبَتْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُصَلِّ اللَّهُ الطَّالِبِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿[إبراهيم: ٢٤-٢٧]﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ...﴾ [آلآية [النحل: ١٧٥]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ...﴾ [آلآية [النحل: ١٧٦]، كَمَا قَالَ: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ...﴾ [آلآية [الروم: ٢٨].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا﴾ [الأنعام: ١٦] وَالْأَمْثَالُ صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا يُؤْمِنُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ مِنْ رَبِّهمُ، وَيَهْدِيهمُ اللَّهُ بِهَا^(٥).

رَوَى السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يَعْنِي بِهِ الْمُتَأَفِّقِينَ، وَيَهْدِي بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَزِيدُ هَؤُلَاءِ ضَلَالَةَ إِلَى ضَلَالَتِهِمْ لِتَكْذِيبِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا مِنَ الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ بِمَا ضَرَبَ لَهُمْ، وَأَنَّهُ لِمَا ضَرَبَ لَهُ مُوَافِقٌ، فَذَلِكَ إِضْلَالُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِهِ^(٦). ﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾ يَعْنِي الْمَثَلُ ﴿كَثِيرًا﴾ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ، فَيُرِيدُهُمْ هُدًى إِلَى هُدَاهُمْ، وَإِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، لِتَصْدِيقِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُ مَثَلًا، وَإِقْرَارِهِمْ بِهِ، وَذَلِكَ هِدَايَةً مِنَ اللَّهِ لَهُمْ بِهِ ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهمُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَفْسُقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ رَوَى السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ لِلْمُتَأَفِّقِينَ، يَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ [١٧-٢٠] قَالَ الْمُتَأَفِّقُونَ: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يَضْرِبَ هَذِهِ الْأَمْثَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١) وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: أَيُّ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ أَنْ يَذْكَرَ شَيْئًا مِمَّا قَلَّ أَوْ كَثُرَ. وَإِنَّ اللَّهَ حِينَ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ، قَالَ أَهْلُ الضَّلَالَةِ: مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ ذِكْرِ هَذَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٢).

[مَثَلُ لِلدُّنْيَا]

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: هَذَا مَثَلُ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلدُّنْيَا أَنَّ الْبَعْضَ تَحِيًّا مَّا جَاعَتْ، فَإِذَا سَمِنَتْ مَاتَتْ، وَكَذَلِكَ مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ضُرِبَ لَهُمْ هَذَا الْمَثَلُ فِي الْقُرْآنِ إِذَا امْتَلَكُوا مِنَ الدُّنْيَا رِيًّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿فَلَمَّا سَوَّأَ مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحْيِي، أَيُّ لَا يَسْتَكْفُفُ، وَقِيلَ: لَا يَخْشَى، أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا، أَيُّ: أَيُّ مَثَلٍ كَانَ، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ، صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أَيُّ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحَقَّرَ وَلَا أَصْغَرَ مِنَ الْبَعْضِ. رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِبَّتٌ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»^(٤) فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَضْعِفُ شَيْئًا يَضْرِبُ بِهِ مَثَلًا وَلَوْ كَانَ فِي الْحَقَارَةِ وَالصُّغَرِ كَالْبَعْضِ، كَمَا لَا يَسْتَكْفُفُ عَنْ خَلْقِهَا كَذَلِكَ لَا يَسْتَكْفُفُ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِهَا، كَمَا ضَرَبَ الْمَثَلُ بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَّخِذُهَا النَّاسُ مَثَلًا فَاسْتَجِيعُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِينَ

(١) الطبري: ١/٣٩٨ (٢) الطبري: ١/٣٩٩ (٣) الطبري: ١/

٣٩٨ (٤) مسلم: ٤/١٩٩١ (٥) ابن أبي حاتم: ١/٩٣ (٦)

الطبري: ١/٤٠٨

هُمُ الْمُنَافِقُونَ .

وَالْفَاسِقُ فِي اللَّغَةِ هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ: إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قَشْرَتِهَا. وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْفَارَةِ فُوسِقَةً لِخُرُوجِهَا عَنْ جُحْرِهَا لِلْفَسَادِ.

وَبَتَّ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْجِلِّ وَالْحَرَمِ: الْعَرَابُ وَالْحِدَاةُ وَالْعَقْرُبُ وَالْفَارَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»^(١).

فَالْفَاسِقُ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْعَاصِيَّ، وَلَكِنْ فَسِقَ الْكَافِرُ أَشَدَّ وَأَفْحَشُ، وَالْمُرَادُ بِهِ فِي الْآيَةِ الْفَاسِقُ الْكَافِرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى «الَّذِينَ يَنْفُسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ

فِي الْأَرْضِ أَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» وَهَذِهِ الصِّفَاتُ صِفَاتُ الْكُفَّارِ الْمُبَابِنَةِ لِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّعْدِ «أَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَا هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلَا الْأَنْبِيَاءِ (٢٦) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُسُونَ

الْأَيْتَانَ (٢٧) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» الْآيَاتِ، إِلَى أَنْ قَالَ: «وَالَّذِينَ يَنْفُسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ وَالَّذِينَ يَنْفُسُونَ

١٩-٢٥] وَالْعَهْدُ الَّذِي وَصَفَ هُوَ لِإِ الْفَاسِقِينَ يَنْفُسُهُ، هُوَ: وَصِيَّةُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ، وَأَمْرُهُ إِتَاهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ، وَنَهْيُهُ إِتَاهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، فِي كُتُبِهِ وَعَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، وَتَقْضُهُمْ ذَلِكَ هُوَ تَرْكُهُمُ الْعَمَلَ بِهِ.

وَقِيلَ: بَلْ هِيَ فِي كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ، وَالْعَهْدُ الَّذِي نَفَضَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ هُوَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا، وَاتَّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بُعِثَ، وَالتَّصْدِيقِ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَتَقْضُهُمْ ذَلِكَ، هُوَ: جُحُودُهُمْ بِهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَتِهِ وَإِنْكَارُهُمْ ذَلِكَ، وَكَيْفَانُهُمْ عِلْمَ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ، بَعْدَ إِعْطَائِهِمُ اللَّهُ مِنْ

أَنْفُسِهِمُ الْمِيثَاقَ: لِكَيْفِيَّتِهِ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ بَدَّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا. وَهَذَا

اختيار ابن جرير رحمه الله وهو قول مقاتل بن حيان.

وَقِيلَ: بَلْ غُيِبَ بِهِذِهِ الْآيَةِ جَمِيعُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالنِّفَاقِ، وَعَهْدُهُ إِلَى جَمِيعِهِمْ فِي تَوْحِيدِهِ: مَا وَضَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ. وَعَهْدُهُ إِلَيْهِمْ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ: مَا اخْتَجَّ بِهِ لِرُسُلِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَا يُقَدِّرُ

أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ غَيْرُهُمْ: أَنْ يَأْتِيَ [بِمِثْلِهَا]، الشَّاهِدَةَ لَهُمْ عَلَى صِدْقِهِمْ، قَالُوا: وَتَقْضُهُمْ ذَلِكَ: تَرْكُهُمُ الْإِفْرَارَ بِمَا قَدْ تَبَيَّنَتْ لَهُمْ صِحَّتُهُ بِالْأَدِلَّةِ، وَتَكْذِيبُهُمُ الرُّسُلَ وَالْكِتَابَ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا بِهِ حَقٌّ. وَرَوَى عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ أَيْضًا نَحْوَ هَذَا وَهُوَ حَسَنٌ، وَإِلَيْهِ مَالُ الرَّمَخْسَرِيِّ.

وَقَوْلُهُ: «وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ صِلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ، كَمَا فَسَّرَهُ قَتَادَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ» [محمد: ٢٢]^(٢) وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ. فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِوَصْلِهِ وَفِعْلِهِ فَقَطَّعُوهُ وَتَرَكَوهُ.

[الْمُرَادُ بِالْخُسْرَانِ]

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» قَالَ: فِي الْآخِرَةِ^(٣). وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى:

«أَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ وَالَّذِينَ يَنْفُسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ» [الرعد: ٢٥] وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ شَيْءٍ نَسَبَهُ اللَّهُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِ

الْإِسْلَامِ مِنْ اسْمٍ مِثْلَ خَاسِرٍ، فَإِنَّمَا يُعْنِي بِهِ: الْكُفْرَ، وَمَا نَسَبَهُ إِلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّمَا يُعْنِي بِهِ: الذَّنْبَ^(٤). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»

الْخَاسِرُونَ جَمْعُ خَاسِرٍ، وَهُمْ النَّاقِضُونَ أَنْفُسَهُمْ حُطُوطَهُمْ - بِمَعْصِيَتِهِمْ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، كَمَا يَخْسِرُ الرَّجُلُ فِي تِجَارَتِهِ بِأَنْ يُوَضَعَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ فِي بَيْعِهِ، وَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ خَسِرَ بِحِرْمَانِ اللَّهِ إِيَّاهُ رَحْمَتَهُ الَّتِي خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ فِي الْفِيئَامَةِ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَى رَحْمَتِهِ. يُقَالُ مِنْهُ خَسِرَ الرَّجُلُ يَخْسِرُ خَسْرًا وَخُسْرَانًا، كَمَا قَالَ جَرِيرُ بْنُ عَطِيَّةَ:

إِنْ سَلِيطًا فِي الْخُسْرَانِ إِنَّهُ

أَوْلَادٌ قَوْمٌ خُلِقُوا أَقْنَهُ^(٥)

«كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أُمَمًا قَلِيلًا كَمِثْلِهِمْ ثُمَّ يُمِيتُهُمْ ثُمَّ يُحْيِيهِمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)»

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُنْصَرِّفُ فِي عِبَادِهِ: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ» أَي كَيْفَ تَجْحَدُونَ وُجُودَهُ أَوْ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ «وَكُنْتُمْ أُمَمًا قَلِيلًا»

(١) فتح الباري: ٤٠٨/٦، ومسلم: ٨٥٦/٢ (٢) الطبري: ١/٤١٦

(٣) ابن أبي حاتم: ١٠١/١ (٤) الطبري: ١/٤١٧

إسناده ضعيف منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٥)

الطبري: ١/٤١٧

فَأَخْرَجَكُمُ ﴿٢٩﴾ أَي وَقَدْ كُنْتُمْ عَدَمًا فَأَخْرَجَكُمُ إِلَى الْوُجُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣٦﴾ الطور: ٣٥، ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ [الإنسان: ١] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَخْرَجَكُمُ ﴿٢٩﴾ أَمْوَاتًا فِي أَضْطِرَابِ آبَائِكُمْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا حَتَّى خَلَقَكُمُ، ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ مَوْتَهُ الْحَقِّ، ثُمَّ يُخَيِّمُكُمْ حِينَ يَبْعَثُكُمْ، قَالَ: وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْتَنَا أُنْسَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أُنْتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] (١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَىٰ

السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾

[بَيَانٌ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى دَلَالَتهُ مِنْ خَلْقِهِمْ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ذَكَرَ دَلِيلًا آخَرَ مِمَّا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أَي قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ. وَالاسْتَوَاءُ هَهُنَا تَضَمَّنَ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالِاقْتِبَالَ لِأَنَّهُ عُدِيَ بِإِلَى ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أَي فَخَلَقَ السَّمَاءَ سَبْعًا، وَالسَّمَاءُ هَهُنَا اسْمُ جِنْسٍ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾. ﴿هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَي وَعِلْمُهُ مُجِيطٌ بِجَمِيعِ مَا خَلَقَ، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

[بِدَايَةُ الْخَلْقِ]

وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ حِمِّ السَّجْدَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيْنَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِجَاسًا مِّن فَوْقِهَا وَيَنْزِلُ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءً لِلنَّاسِلِينَ ﴿٢﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَبِالْأَرْضِ أَيْنَمَا طَوَّعَا أَوْ كَرِهَا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الثَّلَاثَا بِمَصْبُوحٍ وَجَفَظًا ذَلِكَ تَقْوِيرٌ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢] فِيمَا هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى ابْتَدَأَ بِخَلْقِ الْأَرْضِ أَوَّلًا، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ سَبْعًا، وَهَذَا شَأْنُ الْبِنَاءِ أَنْ يُبْدَأَ بِعِمَارَةِ أَسْفَلِهِ ثُمَّ مَعَالِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَدْ صَرَّحَ الْمُفَسِّرُونَ بِذَلِكَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ هَذَا. إِنَّ شَاءَ اللَّهُ. فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمْ أَنْشَأَ خَلْقًا آدَمَ التَّمَاءِ بَنِيهَا ﴿١٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿١٨﴾ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا ﴿١٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦

الْمِائَةِ الْوَاحِدَةِ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣١﴾ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٤﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٨﴾ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٩﴾

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٢﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣٣﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٤﴾ مِمَّا لَكُمْ وَلَا تَعْبُدُكُمْ ﴿٣٥﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ﴿نُومًا﴾ هَهُنَا إِنَّمَا هِيَ لِعَطْفِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ، لَا لِعَطْفِ الْفِعْلِ عَلَى الْفِعْلِ. رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (١). كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ

ثُمَّ قَدْ سَادَ - وَقَبْلَ ذَلِكَ - جَدُّهُ

[خُلِقَتِ الْأَرْضُ قَبْلَ السَّمَاوَاتِ]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ نَارَ مِنْهَا دُخَانًا، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَبْعَ أَرْضِينَ يَعْنِي بَعْضُهَا تَحْتَ بَعْضٍ (٢). وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ

(١) الطبري: ١/٤١٩ (٢) الطبري: ١/٤٣٧ (٣) الطبري: ١/٤٣٦

السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَاتِ سُورَةِ السَّجْدَةِ الْمَاضِيَةِ. فَهَذِهِ وَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ.

[دُحِيتِ الْأَرْضُ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ]

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سئِلَ عَنْ هَذَا بِعَيْنِهِ فَأَجَابَ بِأَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ إِنَّمَا دُحِيتْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ^(١). وَكَذَلِكَ أَجَابَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَقَدْ حَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ، وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّ الدَّخِي مُفَسِّرٌ يَقُولُهُ تَعَالَى:

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٢) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣٦﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَلَهَا ﴿٣٧﴾ فَفَسَّرَ الدَّخِي بِإِخْرَاجِ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، لَمَّا أَكْمَلْتَ صُورَةَ الْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ثُمَّ السَّمَاوِيَّةِ دَحَى بَعْدَ ذَلِكَ الْأَرْضَ، فَأَخْرَجَتْ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا مِنَ الْمِيَاهِ، فَتَبَتِ النَّبَاتَاتُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَصِفَاتِهَا وَالْوُثَايَا وَأَشْكَالِهَا، وَكَذَلِكَ جَرَتْ هَذِهِ الْأَفْلَاكُ فَدَارَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّوَابِتِ وَالسِّيَّارَةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠)

[اسْتِخْلَافُ آدَمَ وَبَيْنِهِ لِلْمَلَائِكَةِ وَمَا قَالُوهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِامْتِنَانِهِ عَلَى نَبِيِّ آدَمَ بِتَنْبِيهِهِ بِذِكْرِهِمْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى قَبْلَ إِيجَادِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [٣٠] أَيُّ وَأَذْكَرُ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ، وَأَفْضَلُ عَلَى قَوْمِكَ ذَلِكَ. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أَيُّ قَوْمًا يَخْلُقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وَقَالَ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] وَقَالَ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩، ومريم: ٥٩] وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ آدَمَ عَيْنًا، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا حَسَنَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَكَأَنَّهُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ بِعِلْمِ خَاصٍّ. أَوْ بِمَا فَهَمُوهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يَخْلُقُ هَذَا الصَّنْفَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ. أَوْ فَهَمُوا مِنْ الْخَلِيفَةِ أَنَّهُ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ مَا يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنْ

الْمَظَالِمِ، وَيَرَدُّعُهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ، قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ. وَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ هَذَا لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى وَجْهِ الْحَسَدِ لِيَنِّي آدَمَ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا يَسْفِكُونَ بِالْقَوْلِ، أَيُّ: لَا يَسْأَلُونَهُ شَيْئًا لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ، وَهَهُنَا لَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ فِي الْأَرْضِ خَلْقًا - قَالَ قَتَادَةُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ فِيهَا - فَقَالُوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ آيَةٌ... وَإِنَّمَا هُوَ سُؤَالٌ اسْتِعْلَامٌ وَاسْتِخْشَافٌ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ، يَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا مَا الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ هَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ^(٢)؟ فَإِنَّ كَانَ الْمُرَادُ عِبَادَتَكَ فَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، أَيُّ نَصَلِّي لَكَ، كَمَا سَيَأْتِي. أَيُّ وَلَا يَصْدُرُ مِنَّا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَهَلَّا وَقَعَ الْإِفْصَارُ عَلَيْنَا؟

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ فِي خَلْقِ هَذَا الصَّنْفِ عَلَى الْمَفَاسِدِ الَّتِي ذَكَرْتُمُوهَا مَا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ، فَإِنِّي جَاعِلٌ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، وَأُرْسِلُ فِيهِمُ الرُّسُلَ، وَيُوجَدُ مِنْهُمْ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَالْعِبَادُ وَالزُّهَادُ وَالْأَوْلِيَاءُ وَالْأَبْرَارُ، وَالْمَقْرَبُونَ وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ، وَالخَاشِعُونَ وَالْمُجْتَبُونَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، الْمُتَّبِعُونَ رُسُلَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ تَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا صَعِدَتْ إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ سَأَلُوهُمُ وَهُوَ أَعْلَمُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُونَ^(٣). وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَتَعَاقَبُونَ فِيْنَا، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَمْكُتُ هَؤُلَاءِ وَيَصْعَدُ أَوْلَئِكَ بِالْأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ»^(٤). فَيَقُولُهُمْ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُونَ مِنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وَقِيلَ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى جَوَابًا لَهُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِنَّ لِي حِكْمَةً مَفْصَلَةً فِي خَلْقِ هَؤُلَاءِ، وَالْحَالَةَ مَا ذَكَرْتُمْ، لَا تَعْلَمُونَهَا، وَقِيلَ: إِنَّهُ جَوَابٌ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

(١) فتح الباري: ٤١٧/٨ (٢) الطبري: ٤٦٤/١ (٣) فتح الباري: ٤٢٦/١٣ (٤) مسلم: ١٧٩ ومسند أبي عوانة: ١٤٥/١

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا مَا سُبْحَنَّكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾
[فَضَّلُ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ]

هَذَا مَقَامٌ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ شَرَفَ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِمَا اخْتَصَّهُ مِنْ عِلْمِ أَسْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُمْ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ سُجُودِهِمْ لَهُ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ هَذَا الْفَضْلَ عَلَى ذَلِكَ لِإِنْسَابِهِ مَا بَيْنَ الْمَقَامِ وَعَدَمِ عَلَيْهِمْ بِحِكْمَةِ خَلْقِ الْخَلِيفَةِ - حِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُونَ - وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ هَذَا الْمَقَامَ عَقِيبَ هَذَا، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ شَرَفَ آدَمَ بِمَا فَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قَالَ: هِيَ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي يَتَعَارَفُ بِهَا النَّاسُ، إِنْسَانٌ وَذَابَةٌ وَسَمَاءٌ وَأَرْضٌ وَسَهْلٌ وَبَحْرٌ وَخَيْلٌ وَجِمَارٌ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ وَغَيْرِهَا^(٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ عَاصِمِ بْنِ كَلْبٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَعْبُدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قَالَ: عَلَّمَهُ اسْمَ الصَّحْفَةِ وَالْقِدْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ حَتَّى الْفُسُوءَةَ وَالْفُسَيْسِيَةَ^(٤). وَقِيلَ: أَسْمَاءُ النُّجُومِ، وَقِيلَ: أَسْمَاءُ ذُرِّيَّتِهِ كُلِّهَا. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْمَلَائِكَةِ وَأَسْمَاءَ الذَّرِّيَّةِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَتَّى الْفُسُوءَةَ وَالْفُسَيْسِيَةَ، يَعْنِي أَسْمَاءَ الذَّوَاتِ وَالْأَفْعَالِ - الْمُكَبَّرِ وَالْمُصَغَّرِ - .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَقَالَ لِي خَلِيفَةٌ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ: حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ

يَحْمَدُكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ فَقَالَ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ مِنْ وُجُودِ إِبْلِيسَ بَيْنَكُمْ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا وَصَفْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِهِ. وَقِيلَ: بَلْ تَضَمَّنَ قَوْلُهُمْ: «أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ طَلَبًا مِنْهُمْ أَنْ يَسْكُنُوا الْأَرْضَ بِدَلِّ بَنِي آدَمَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنْ أَنْ يَبْقَاءَكُمْ فِي السَّمَاءِ أَصْلَحَ لَكُمْ وَالْيَقِينُ بِكُمْ. ذَكَرَهَا الرَّازِيُّ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْأُجُوبَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وُجُوبُ نَصْبِ الْخَلِيفَةِ، وَبَعْضُ مَسَائِلِ الْخِلَافَةِ]
وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ نَصْبِ الْخَلِيفَةِ لِيُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَيَقْطَعَ تَنَازُعَهُمْ، وَيَتَصَرَّرَ لِمَطْلُوبِهِمْ مِنْ ظَالِمِهِمْ، وَيُقِيمَ الْحُدُودَ، وَيَرْجُرَ عَنْ تَعَاطِي الْفَوَاحِشِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُهْمَةِ الَّتِي لَا تُمْكِنُ إِقَامَتُهَا إِلَّا بِالْإِمَامِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. وَالْإِمَامَةُ تَنَالُ بِالنَّصِّ كَمَا يَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنَ أَهْلِ الشُّنَّةِ فِي أَبِي بَكْرٍ، أَوْ بِالْإِيْمَاءِ إِلَيْهِ كَمَا يَقُولُ آخَرُونَ مِنْهُمْ، أَوْ بِاسْتِخْلَافِ الْخَلِيفَةِ آخَرَ بَعْدَهُ، كَمَا فَعَلَ الصَّدِيقُ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ، أَوْ بِتَرْكِهِ سُورَى فِي جَمَاعَةٍ صَالِحِينَ كَذَلِكَ، كَمَا فَعَلَهُ عُمَرُ، أَوْ بِاجْتِمَاعِ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ عَلَى مُبَايَعَتِهِ، أَوْ بِمُبَايَعَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَهُ فَيَجِبُ التِّزَامُهَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ.

وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا حُرًّا بِالْعَا عَاقِلًا مُسْلِمًا عَدْلًا مُجْتَهِدًا بَصِيرًا، سَلِيمَ الْأَعْضَاءِ خَيْرًا بِالْحُرُوبِ وَالْأَرَءِ، قُرْبِيًّا عَلَى الصَّحِيحِ - وَلَا يُشْتَرَطُ الْهَاشِمِيُّ وَلَا الْمَعْصُومُ مِنَ الْخَطِّ خِلَافًا لِعِلَالَةِ الرَّوَافِضِ - وَلَوْ فَسَقَ الْإِمَامُ هَلْ يُعَزَّلُ أَمْ لَا؟ فِيهِ خِلَافٌ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَا يُعَزَّلُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»^(١). وَهَلْ لَهُ أَنْ يُعَزَّلَ نَفْسَهُ؟ فِيهِ خِلَافٌ، وَقَدْ عَزَلَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَفْسَهُ، وَسَلَّمَ الْأَمْرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، لَكِنْ كَانَ هَذَا لِعُدْرِ وَقَدْ مُدِحَ عَلَى ذَلِكَ. فَأَمَّا نَصْبُ إِمَامَيْنِ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَكْثَرَ فَلَا يَجُوزُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ جَاءَكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَكُمْ فَاقْتُلُوهُ، كَايُنَا مَنْ كَانَ»^(٢) وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَحَكَى إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّهُ جَوَزَ نَصْبَ إِمَامَيْنِ فَأَكْثَرَ إِذَا تَبَاعَدَتِ الْأَقْطَارُ وَاتَّسَعَتِ الْأَقَالِيمُ بَيْنَهُمَا، وَتَرَدَّدَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي ذَلِكَ.

(١) البخاري: ٧٠٥٦ والطبري: ٤٧٧/١ (٢) مسلم: ٣/

١٤٧٠ (٣) الطبري: ٤٥٨/١ إسناده ضعيف الضحاک لم يسمع

من ابن عباس (٤) الطبري: ٤٨٥/١

الْحَكِيمِ ﴿ هَذَا تَقْدِيرٌ وَتَنْزِيهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَأَنْ يَعْلَمُوا شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أَي الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ الْحَكِيمُ فِي خَلْقِكَ وَأَمْرِكَ، وَفِي تَعْلِيمِكَ مَنْ تَشَاءُ، وَمَنْعِكَ مَنْ تَشَاءُ، لَكَ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ وَالْعَدْلُ الثَّامُّ.

[إِظْهَارُ فَضْلِ آدَمَ بِعِلْمِهِ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَتَدَارَأْتُمْ أَنْتُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ: قَالَ: أَنْتَ جِبْرَائِيلُ، أَنْتَ مِيكَائِيلُ، أَنْتَ إِسْرَائِيلُ، حَتَّى عَدَدَ الْأَسْمَاءِ كُلِّهَا حَتَّى بَلَغَ الْغُرَابَ^(٥). وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿قَالَ يَتَدَارَأْتُمْ أَنْتُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قَالَ: إِسْمُ الْحَمَامَةِ وَالْغُرَابِ وَاسْمُ كُلِّ شَيْءٍ^(٦). وَرَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ نَحْوَ ذَلِكَ^(٧). فَلَمَّا ظَهَرَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي سُرْدِهِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أَي أَلَمْ أَتَقَدِّمُ إِلَيْكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] وَكَمَا قَالَ إِخْبَارًا عَنِ الْهُدُودِ أَنَّهُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦].

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ غَيْرُ مَا ذَكَرْنَاهُ، فَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قَالَ يَقُولُ: أَعْلَمُ السِّرَّ كَمَا أَعْلَمُ الْعَلَانِيَةَ، يَعْنِي مَا كَتَمَ إِبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْإِعْزَازِ^(٨). وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فَكَانَ الَّذِي أَبْدَوْا هُوَ

حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحْيِي. أَتُوا نَوْحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَهُ يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ سُؤَالَ رَبِّهِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، فَيَسْتَحْيِي، يَقُولُ: أَتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَهُ يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، يَقُولُ: أَتُوا مُوسَى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّهُ، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ، يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ. فَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّهِ. يَقُولُ: أَتُوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحَهُ، فَيَأْتُونَهُ يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، أَتُوا مُحَمَّدًا عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي فَيَأْذِنُ لِي، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُقَالُ: ارْزُقْ رَأْسَكَ وَسَلْ تَعْطَهُ وَقُلْ يَسْمَعُ وَاشْفَعُ تَشْفَعُ، فَارْزُقْ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يُعَلِّمْنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي - مِثْلَهُ - ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ النَّالِيَةَ ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مِنْ حَسَبِ الْقُرْآنِ وَوَجِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ^(٩). وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(١٠) وَابْنُ مَاجَهَ.

وَوَجْهُ إِيرَادِهِ هَهُنَا، وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ﴾. فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ^(١١). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يَعْنِي الْمُسْمَيَاتِ كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: ثُمَّ عَرَضَ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٢) وَمَعْنَى ذَلِكَ فَقَالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ مَنْ عَرَضْتُهُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْقَائِلُونَ: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ - مِنْ غَيْرِنَا أَمْ مِنَّا - فَحَسُنُ نَسِجَ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسَ لَكَ؟ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي قِيلِكُمْ: إِنِّي إِنْ جَعَلْتُ خَلِيفَتِي فِي الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِكُمْ عَصَانِي وَذَرَيْتَهُ، وَأَفْسَدُوا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، وَإِنْ جَعَلْتُكُمْ فِيهَا أَطَعْتُمُونِي وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرِي بِالْعَظِيمِ لِي وَالتَّقْدِيرِ، فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَرَضْتُمْ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تُشَاهِدُونَهُمْ، فَأَنْتُمْ بِمَا هُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ مِنَ الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ الَّتِي لَمْ تُوجَدْ؛ أُخْرَى أَنْ تَكُونُوا غَيْرَ عَالِمِينَ.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ

(١) فتح الباري: ١٠/٨ (٢) مسلم: ١٨١/١ والنسائي في الكبرى: ٢٨٤/٦ وابن ماجه (٣) مسلم: ١٨١/١ والنسائي في الكبرى: ٣٦٤/٦ وابن ماجه: ١٤٤٢/٢ (٤) عبد الرزاق: ٤٢/١ (٥) ابن أبي حاتم: ١١٨/١ (٦) ابن أبي حاتم: ١١٩/١ (٧) ابن أبي حاتم: ١١٩/١ (٨) الطبري: ١/٤٩٨ الضحاک لم يسمع من ابن عباس.

رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَكَ، فَقَالَ: «لَا، لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا
بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِشَيْءٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ
عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»^(٤) وَرَوَّحَهُ الرَّازِيُّ.

[إِسْتِكْبَارُ إِبْلِيسَ]

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حَسَدَ عَدُوِّ اللَّهِ إِبْلِيسُ آدَمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْكِرَامَةِ، وَقَالَ: أَنَا نَارِي، وَهَذَا
طَبِيعِي، وَكَانَ بَدَأَ الذُّنُوبَ الْكَبِيرَ، إِسْتَكْبَرَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ
يَسْجُدَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٥). قُلْتُ: وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ
«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ
كِبَرٍ»^(٦). وَقَدْ كَانَ فِي إِبْلِيسَ مِنَ الْكِبَرِ - وَالْكَفْرِ - وَالْعِبَادِ
مَا افْتَضَى طَرْدَهُ وَإِعَادَهُ عَنْ جَنَابِ الرَّحْمَةِ وَحَضْرَةِ
الْقُدْسِ.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧) فَارْتَمَى الشَّيْطَانُ عَنْهَا
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي

الْأَرْضِ مَسْكَنٌ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

[تَكْرِيمُ آخِرِ آدَمَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَمَّا أَكْرَمَ بِهِ آدَمَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ
الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، إِنَّهُ أَبَاحَ لَهُ الْجَنَّةَ
يَسْكُنُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، وَيَأْكُلُ مِنْهَا مَا شَاءَ رَغَدًا، أَيُّ:
هَيِّنًا وَاسِعًا طَيِّبًا: وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُويهَ عَنْ أَبِي
دَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ آدَمَ أَنْبِيَاً كَانَ؟ قَالَ:
«نَعَمْ نَبِيًّا رَسُولًا كَلَّمَهُ اللَّهُ قَبْلًا» - يَعْنِي عَيْنَانًا - فَقَالَ:
﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٨).

[خُلِقَتْ حَوَاءٌ قَبْلَ دُخُولِ آدَمَ الْجَنَّةَ]

وَسِبَاقُ الْآيَةِ يَفْتَضِي أَنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ دُخُولِ آدَمَ
الْجَنَّةَ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ حَيْثُ قَالَ:
لَمَّا فَرَعَ اللَّهُ مِنَ مَعَابَةِ إِبْلِيسَ أَقْبَلَ عَلَى آدَمَ وَقَدْ عَلَّمَهُ
الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا فَقَالَ: ﴿يَكَادُمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ:
﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [٣٣، ٣٢] قَالَ: ثُمَّ أَلْقِيَتِ السَّنَةُ
عَلَى آدَمَ فِيمَا بَلَّغْنَا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ،

(١) أبو داود: ٢٨/٥ (٢) الطبري: ٥٠٢/١ إسناده ضعيف
لتدليس ابن إسحاق (٣) الطبري: ٥١٢/١ (٤) الترمذي:
١١٥٩ والمجمع: ٣١٠/٤ (٥) ابن أبي حاتم: ١٢٣/١ (٦)
مسلم: ٩٣/١ (٧) العظمة: ١٥٥٣/٥

قَوْلُهُمْ: أَنْجَعَلُ فِيهَا مِنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَكَانَ
الَّذِي كَتَمُوا بَيْنَهُمْ هُوَ قَوْلُهُمْ: لَنْ يَخْلُقَ رَبُّنَا خَلْقًا إِلَّا كُنَّا
نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْهُ وَأَكْرَمُ، فَعَرَفُوا أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ عَلَيْهِمْ آدَمَ فِي
الْعِلْمِ وَالْكَرَمِ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾

[تَكْرِيمُ آدَمَ بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ]

وَهَذِهِ كِرَامَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِآدَمَ، إِمْتَنَّ بِهَا عَلَى
ذُرِّيَّتِهِ حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ،
وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَحَادِيثٌ أَيْضًا كَثِيرَةٌ، مِنْهَا حَدِيثُ
الشَّفَاعَةِ الْمُتَقَدِّمِ، وَحَدِيثُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَبِّ أَرِنِي
آدَمَ الَّذِي أَخْرَجْنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ قَالَ:
أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِي، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِي، وَأَسْجَدَ
لَهُ مَلَائِكَتُهُ»^(٩).

[دُخُولُ إِبْلِيسَ فِيمَنْ أَمَرَ بِالسُّجُودِ. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ

الْمَلَائِكَةِ]

وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، دَخَلَ
إِبْلِيسُ فِي خِطَابِهِمْ، لِأَنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ غُضْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ
كَانَ قَدْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَتَوَسَّسَ بِأَعْيَالِهِمْ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي
الْخِطَابِ لَهُمْ، وَذَمَّ فِي مَخَالَفَةِ الْأَمْرِ، وَسَبَّسُطُ الْمَسْأَلَةِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] وَلِذَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ
إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ إِبْلِيسُ قَبْلَ أَنْ يَرْكَبَ
الْمَعْصِيَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ اسْمُهُ «عَزَازِيلُ»، وَكَانَ مِنْ سُكَّانِ
الْأَرْضِ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ الْمَلَائِكَةِ اجْتِهَادًا، وَأَكْثَرِهِمْ
عِلْمًا، فَذَلِكَ دَعَاهُ إِلَى الْكِبَرِ، وَكَانَ مِنْ حَيِّ يُسْمَوْنَهُ
جِنًّا^(١٠).

[كَانَتْ الطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالسَّجْدَةُ لِآدَمَ]

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ﴾ فَكَانَتْ الطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالسَّجْدَةُ لِآدَمَ، أَكْرَمَ اللَّهُ آدَمَ أَنْ
أَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ^(١١). وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: كَانَ هَذَا سُجُودَ
تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ وَإِكْرَامٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى
الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْجُدُوا لِلَّهِ
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وَقَدْ كَانَ هَذَا مَشْرُوعًا فِي
الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ وَلَكِنَّهُ نُسِخَ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ مُعَاذٌ: قَدِمْتُ
الشَّامَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِيتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، فَأَنْتَ يَا

وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره: «... ثم أخذ ضلعاً من أضلاعِهِ مِنْ شِقَمِهِ الْأَيْسَرِ وَالْأَمَّ مَكَانَهُ لِحَمَا، وَأَدَمُ نَائِمٌ لَمْ يَهَبْ مِنْ نَوْمِهِ، حَتَّى خَلَقَ اللَّهُ مِنْ ضِلْعِهِ تِلْكَ زَوْجَتَهُ حَوَاءَ، فَسَوَّاهَا امْرَأَةً لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا كُنِيَفَ عَنْهُ السَّنَةُ وَهَبَ مِنْ نَوْمِهِ رَأَاهَا إِلَى جَنْبِهِ فَقَالَ: - فِيمَا يَزْعُمُونَ وَاللَّهِ أَعْلَمُ - : «الْحَمِي وَدَمِي وَزَوْجَتِي» فَسَكَنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا زَوَّجَهُ اللَّهُ وَجَعَلَ لَهُ سَكَنًا مِنْ نَفْسِهِ، قَالَ لَهُ قِيْلًا: ﴿يَتَّكِدُمْ أَتَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

[اختيار آدم بالشجرة وتوعها]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [٣٥] فَهُوَ اخْتِيَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَامْتِحَانٌ لِأَدَمَ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ مَا هِيَ؟ فَقِيْلَ: الْكُرْمُ. وَقِيْلَ: الْجَنْطَةُ. وَقِيْلَ: النَّخْلَةُ. وَقِيْلَ: التَّيْنَةُ. وَقِيْلَ: شَجَرَةٌ مِنْ أَكْلٍ مِنْهَا أَحَدَثَ، وَقِيْلَ: شَجَرَةٌ تَأْكُلُ ثَمَرَهَا الْمَلَائِكَةُ لِخُلْدِهِمْ. قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ رَجَمَهُ اللَّهُ: وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ يَعْينِيهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا، فَأَكَلَا مِنْهَا، وَلَا عِلْمَ عِنْدَنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَقَدْ قِيْلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ الْبُرِّ، وَقِيْلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ الْعُنْبِ، وَقِيْلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ التَّيْنِ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا، وَذَلِكَ عِلْمٌ إِذَا عُلِمَ لَمْ يَنْتَعِ الْعَالِمُ بِهِ عِلْمُهُ، وَإِنْ جَهِلَهُ جَاهِلٌ لَمْ يَضُرَّهُ جَهِلُهُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢). وَكَذَلِكَ رَجَّحَ [إِلَيْهِمَا] الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، وَغَيْرُهُ. وَهُوَ الصَّوَابُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلُّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿عَنْهَا﴾ عَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَرَأَ عَاصِمٌ بْنُ بَهْدَلَةَ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي النَّجُودِ (فَأَزَلُّهُمَا) أَي: فَتَحَاهُمَا^(٣). وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورِينَ وَهُوَ الشَّجَرَةُ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿فَأَزَلُّهُمَا﴾: أَي مِنْ قِبَلِ الرَّزْلِ^(٤).

فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلُّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أَي بِسَبَبِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِكُمْ عَنْهُ مِزَّ الْأُكْ﴾ [الذاريات: ٩] أَي يُضَرِّفُ بِسَبَبِهِ مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أَي مِنَ اللَّبَاسِ وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ وَالرُّزْقِ الْهَنِيِّ

فَلَمَّا أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يٰبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرِينَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنْقُوتُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسَمُوا الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا كَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ فِيهَا وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يٰبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

وَالرَّاحَةِ ﴿وَقَلْنَا أَهْطُوا بِعُضْرِكُمْ لِيَعِضَ عَدُوٌّ وَكَرَّ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفْرِّجٌ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أَي قَرَارٌ وَأَرْزَاقٌ وَأَجَالٌ - إِلَى حِينٍ - أَي إِلَى وَقْتٍ وَمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ، ثُمَّ تَقُومُ الْقِيَامَةُ.

[بعض صفات آدم عليه السلام]

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طَوَّالًا، كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَأَ مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الْجَنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةٌ، فَتَارَعَهَا، فَتَادَاهُ الرَّحْمَنُ: يَا آدَمُ مَنِي تَفْرُؤُ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ لَا، وَلَكِنِ اسْتَحْيَا»^(٥).

[لبث آدم في الجنة وهبوطه منها]

وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا أُسْكِنَ آدَمُ

(١) الطبري: ٥١٤/١ (٢) الطبري: ٥٢٠/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٢٨/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٨/١ (٥) ابن أبي حاتم: ١٢٩/١

لَهُ: بلى، وَعَطَسْتُ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، وَسَبَقَتْ رَحْمَتَكَ غَضَبِكَ؟ قِيلَ لَهُ: بلى، وَكُتِبَتْ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَ هَذَا؟ قِيلَ لَهُ: بلى، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ ثُبْتُ هَلْ أَتَتْ رَاجِعِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ^(٦). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ مَعْبُدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِخَوْرِهِ^(٧). وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ أَيُّ إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظَلِمَ نَفْسَهُ﴾... آيَاتُ [النساء: ١١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ تَعَالَى يُغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ يَتُوبُ. وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبِيدِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَنْذَرَ بِهِ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ وَإِبْلِيسَ حِينَ أَهْبَطَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْمُرَادُ الذَّرِيَّةُ: إِنَّهُ سَيَنْزِلُ الْكُتُبَ وَيَبْعَثُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْهُدَى: الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ؛ وَالنَّبِيَّاتُ وَالنَّبِيَّاتُ^(٩) ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ أَيُّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى مَا أَنْزَلْتُ بِهِ الْكُتُبَ وَأَرْسَلْتُ بِهِ الرُّسُلَ ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ فِيْمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ^(١٠) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]

(١) الحاكم: ٥٤٢/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ١٣١/١ إسناده ضعيف سماع جرير عن عطاء بعد الاختلاط (٣) ابن أبي حاتم: ١٣٢/١ إسناده ضعيف لأجل عباد بن ميسرة وهو لين الحديث وصدقة بن عمرو الغساني مجهول (٤) مسلم: ٥٨٥/٢ والنسائي: ٩٠/٣ (٥) ابن أبي حاتم: ١٣٦/١ والطبري: ٥٤٣/١ و٥٤٦ (٦) الطبري: ٥٤٣/١ (٧) الطبري: ٥٤٢/١ (٨) الحاكم: ٢/٥٤٥ (٩) ابن أبي حاتم: ١٣٩/١ (١٠) الطبري: ٣٨٩/١٨

الْجَنَّةِ إِلَّا مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ^(١١).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَهْبَطَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا «دَحْنًا» بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ^(١٢). وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: أَهْبَطَ آدَمُ بِالْهِنْدِ، وَحَوَاءُ بِحُدَّةَ، وَإِبْلِيسُ بِدَسْتُمِسَانَ مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى أَمْيَالٍ، وَأَهْبَطَتِ الْحَيَّةُ بِأَصْبَهَانَ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(١٣). وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خَلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»^(١٤).

[شَبْهَةٌ وَجَوَابُهَا]

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَتْ جَنَّةُ آدَمَ الَّتِي أُخْرِجَ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ كَمَا يَقُولُهُ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَكَيْفَ تَمَكَّنَ إِبْلِيسُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَقَدْ طُرِدَ مِنْ هُنَالِكَ طُرْدًا قَدْرِيًّا، وَالْقَدْرِيُّ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا يَعْنِيهِ اسْتَدْلَ بِهِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْجَنَّةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا آدَمُ فِي الْأَرْضِ لَا فِي السَّمَاءِ، كَمَا قَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي أَوَّلِ كِتَابِنَا «الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ».

وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ بِأَجْوِبَةٍ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ مُنِعَ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ مُكْرَمًا، فَأَمَّا عَلَى وَجْهِ السَّرِيقَةِ وَالْإِهَانَةِ، فَلَا يَمْتَنِعُ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ - كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ -: أَنَّهُ دَخَلَ فِي فَمِ الْحَيَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسَّوسَ لَهُمَا وَهُوَ خَارِجٌ بَابِ الْجَنَّةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسَّوسَ لَهُمَا وَهُوَ فِي الْأَرْضِ، وَهُمَا فِي السَّمَاءِ، ذَكَرَهَا الزَّمَخَشَرِيُّ وَغَيْرُهُ.

﴿فَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾



[تَوْبَةُ آدَمَ وَدُعَاؤُهُ]

قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُفَسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبَّنَا طَلَعْنَا نَفْسًا وَإِنَّ لَنَا تَقَفْرًا لَنَا وَرَحِمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وَرَوَى هَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ وَخَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ^(١٥). وَقَالَ السُّدِّيُّ عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قَالَ: قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قِيلَ لَهُ: بلى، وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قِيلَ

[تَذْكِرُ الْيَهُودِ بِعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ]

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ قَالَ: بِعَهْدِي الَّذِي أَخَذْتُ فِي أَعْنَاقِكُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذَا جَاءَكُمْ، أَنْجِزْ لَكُمْ مَا وَعَدْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَصَدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ بِوَضْعِ مَا كَانَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَصَارِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ فِي أَعْنَاقِكُمْ بَدُونِكُمْ الَّتِي كَانَتْ مِنْ إِحْدَانِكُمْ^(٦). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ^(٧): هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَنْتُمْوَهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾

الآية (المائدة: ١٢).

وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الَّذِي أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ نَبِيًّا عَظِيمًا يَطِيعُهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ، وَالْمُرَادُ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ عَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَنْبَهُ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، وَجَعَلَ لَهُ أَجْرَيْنِ. وَقَدْ أوردَ الرَّازِي بِسَارَاتٍ كَثِيرَةً عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قَالَ عَهْدُهُ إِلَى عِبَادِهِ: دِينَ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَّبِعُوهُ^(٨). وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ؟ قَالَ: أَرْضَ عَنْكُمْ وَأَدْخِلَكُمْ الْجَنَّةَ^(٩). وَكَذَا قَالَ الشَّدِيدُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْحَمُونَ﴾ أَيِ فَآخِشُونَ^(١٠). قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالشَّدِيدُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْحَمُونَ﴾ أَيِ أَنْ نَزَلَ بِكُمْ مَا أَنْزَلْتُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ مِنَ النَّمَاتِ الَّتِي قَدْ عَرَفْتُمْ مِنَ الْمَسْخِ وَغَيْرِهِ^(١١). وَهَذَا انْتِقَالٌ مِنَ التَّرْغِيبِ إِلَى التَّرْهِيبِ، فَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ، وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالِاتِّعَاطِ بِالْقُرْآنِ

(١) أبو داود الطيالسي: ٣٥٦ (٢) الطبري: ٥٥٣/١ (٣) الطبري: ٥٥٦/١ (٤) الطبري: ٥٥٦/١ (٥) إسناده ضعيف لتدليس ابن إسحاق وجهالة شيخه محمد بن أبي محمد كما تقدم (٦) الطبري: ٥٥٥/١ (٧) الطبري: ٥٥٨ (٨) الطبري: ٥٥٨/١ (٩) ابن أبي حاتم: ١٤٣/١ إسناده ضعيف لعدم سماع ضحاك من ابن عباس (١٠) الطبري: ٥٦٠/١ (١١) ابن أبي حاتم: ١٤٤/١

[١٢٤، ١٢٣] كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيِ مُخَلَّدُونَ فِيهَا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا مَحِيصَ.

﴿يَبْنَى إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُونَ﴾ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِِي وَلَا تَشْكُرُوا بِآيَاتِي ثَمًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَقْفُونَ ﴿١﴾

[حَضُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَمُتَابِعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَمُهَيِّجًا لَهُمْ بِذِكْرِ أَبِيهِمْ إِسْرَائِيلَ وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَقْدِيرُهُ: يَا بَنِي الْعَبْدِ الصَّالِحِ الْمُطِيعِ لِلَّهِ، كُونُوا مِثْلَ أَبِيكُمْ فِي مُتَابِعَةِ الْحَقِّ، كَمَا تَقُولُ: يَا ابْنَ الْكَرِيمِ افْعَلْ كَذَا، يَا ابْنَ الشُّجَاعِ بَارِزِ الْأَبْطَالِ، يَا ابْنَ الْعَالِمِ أَطْلُبِ الْعِلْمَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَاكِرِينَ﴾ [الإسراء: ٣].

[إِسْرَائِيلُ لَقِبَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

فَإِسْرَائِيلُ هُوَ يَعْقُوبُ بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَضَرَتْ عِصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبُ؟» قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ^(١) وَرَوَى الطَّبْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ إِسْرَائِيلَ كَقَوْلِكَ: عَبْدُ اللَّهِ^(٢)».

[نِعْمَ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَمَى، وَفِيمَا سِوَى ذَلِكَ أَنْ فَجَّرَ لَهُمُ الْحَجْرَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَنَجَّاهُمْ مِنْ عُبُودِيَةِ آلِ فِرْعَوْنَ^(٣). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: نِعْمَتُهُ أَنْ جَعَلَ مِنْهُمْ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ^(٤). قُلْتُ: وَهَذَا كَقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: ﴿يَقُولُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُم مَلُوكًا وَأَنَا لَكُمْ مَوْلَى يَوْمَئِذٍ أَجْمَعِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] يَغْنِي فِي زَمَانِهِمْ، وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيِ بَلَائِي عِنْدَكُمْ وَعِنْدَ آبَائِكُمْ لَمَّا كَانَ نَجَّاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ^(٥).

وَرَوَّاجِرِهِ، وَامْتِنَالِ أَوْامِرِهِ، وَتَصْدِيقِ أَخْبَارِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يَعْني بِهِ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَسِرَاجًا مُنِيرًا، مُشْتَمِلًا عَلَى الْحَقِّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، يَقُولُ: لِأَنَّهُمْ يَجِدُونَ مُحَمَّدًا ﷺ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. وَرَوِي عَنْ مُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَقَتَادَةَ نَحْوُ ذَلِكَ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَعِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِكُمْ^(٢). قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: يَقُولُ: وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ^(٣)، يَعْني مِنْ جَنَسِكُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ بَعْدَ سَمَاعِكُمْ بِمَبْعُوهِ. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ^(٤). وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ «بِهِ» عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ وَكَيْلًا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ لِأَنَّهُمَا مُتَلَاذِمَانِ، لِأَنَّ مَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ فَقَدْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فَيَعْني بِهِ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بَشَرٌ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَاشَرَةً، فَإِنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ أَوَّلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ خُوِطِبُوا بِالْقُرْآنِ، فَكَفَرَهُمْ بِهِ يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُمْ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ جَنَسِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِبْنِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَقُولُ: لَا تَعْتَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِي وَتَصْدِيقِ رَسُولِي بِالذُّنُوبِ وَشَهَوَاتِهَا، فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ فَائِنَّةٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ طَلْحِ بْنِ حَبِيبٍ، قَالَ: أَلْتَقَوِي أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ تَتْرَكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ تَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ^(٥). وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ أَنَّهُ تَعَالَى يَتَرَعَّدُهُمْ فِيمَا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ كَيْفَانِ الْحَقِّ وَإِظْهَارِ خِلَافِهِ وَمُخَالَفَتِهِمُ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٢﴾
[الَّتِي عَنْ لُبْسِ الْحَقِّ وَكَيْفَانِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا لِلْيَهُودِ عَمَّا كَانُوا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ تَلْبِيسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَتَمْوِيهِ بِهِ، وَكَيْفَانِهِمُ الْحَقِّ، وَإِظْهَارِهِمُ الْبَاطِلَ: ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فَتَهَاهُمْ عَنِ السَّبْتَيْنِ مَعًا، وَأَمْرُهُمْ بِإِظْهَارِ الْحَقِّ وَالتَّضْرِيحِ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ لَا تَخْلَطُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَالتَّصَدَّقْ بِالْكَذِبِ^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وَلَا تَلْسُوا الْيَهُودِيَّةَ وَالتَّضْرِيَّةَ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ دِينَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالتَّضْرِيَّةَ بِدْعَةٌ لَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ^(٧). وَرَوِي عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ نَحْوُ ذَلِكَ^(٨).

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيَّ لَا تَكْتُمُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِي وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَأَنْتُمْ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِيمَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ^(٩).

(قُلْتُ) وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرْرِ الْعَظِيمِ عَلَى النَّاسِ مِنْ إِضْلَالِهِمْ عَنِ الْهُدَى الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ، إِلَى أَنْ سَلَكُوا مَا تَبْدُونَهُ لَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ الْمَشُوبِ بِنَوْعٍ مِنَ الْحَقِّ لِثَرَوْجُوهُ عَلَيْهِمْ. وَالتَّبَيُّانُ: الْإِيضَاحُ، وَعَكْسُهُ: الْكَيْفَانُ وَخَلْطُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَمْرُهُمْ أَنْ يُصَلُّوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَمْرُهُمْ أَنْ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ أَيَّ يَدْفَعُونَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَمْرُهُمْ أَنْ يَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، يَقُولُ: كُونُوا مَعَهُمْ وَمِنْهُمْ^(١٠). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَيَّ وَكُونُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ، وَمِنْ أَحْصَى ذَلِكَ وَأَكْمَلَهُ الصَّلَاةَ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنْ

(١) ابن أبي حاتم: ١٤٥/١ (٢) ابن أبي حاتم: ١٤٥/١ (٣)

ابن أبي حاتم: ١٤٥/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٤٥/١ (٥) ابن

أبي حاتم: ١٤٧/١ (٦) الطبري: ٥٦٩/١ إسناده ضعيف

الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٧) ابن أبي حاتم: ١٤٧/١

(٨) ابن أبي حاتم: ١٤٧/١ (٩) ابن أبي حاتم: ١٤٨/١ إسناده

ضعيف لتدليس ابن إسحاق كما تقدم (١٠) الكشاف: ١٣٣/١

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

الْعُلَمَاءِ بِهِدِيهِ الْآيَةِ عَلَى وَجُوبِ الْجَمَاعَةِ.

﴿ وَأَمَّا رُؤَسَاءُ النَّاسِ فَهُمْ يَأْتِرُونَ أَيْدِيَهُمْ وَأَتْسِئُوا بِأَيْدِيهِمْ وَأَنْتُمْ نَسَوْنَ الْكِتَابَ وَأَنْتُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ ﴾

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

[التَّوْبِيخُ عَلَى تَرْكِ الطَّاعَاتِ لِمَنْ يَأْمُرُ النَّاسَ

بِالْمَعْرُوفِ]

يَقُولُ تَعَالَى: كَيْفَ يَلِيْقُ بِكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنْتُمْ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَهُوَ جِمَاعُ الْخَيْرِ: أَنْ تَنْسُوا أَنْفُسَكُمْ فَلَا تَأْتِمُرُوا بِمَا تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ، وَأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ تَتْلُونَ الْكِتَابَ وَتَعْلَمُونَ مَا فِيهِ عَلَى مَنْ قَصَرَ فِي أَوْامِرِ اللَّهِ؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِأَنْفُسِكُمْ، فَتَسْتَبِيهُوا مِنْ رَفْدِيَتِكُمْ، وَتَتَّبَصَّرُوا مِنْ عَمَائِيَتِكُمْ، وَهَذَا كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قَالَ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ وَبِالْبِرِّ، وَيُخَالِفُونَ، فَعَيَّرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(١). وَكَذَلِكَ قَالَ الشُّدِّيُّ وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقُونَ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالصُّومِ وَالصَّلَاةِ، وَيَدْعُونَ الْعَمَلَ بِمَا يَأْمُرُونَ بِهِ النَّاسَ، فَعَيَّرَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ أَمَرَ بِخَيْرٍ فَلْيَكُنْ أَشَدَّ النَّاسِ فِيهِ مُسَارِعَةً^(٢). وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي تَتْرَكُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي تَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْكُفْرِ بِمَا عِنْدَكُمْ مِنَ التَّوْبَةِ وَالْعَهْدِ مِنَ التَّوْرَةِ، وَتَتْرَكُونَ أَنْفُسَكُمْ، أَي وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ بِمَا فِيهَا مِنْ عَهْدِي إِلَيْكُمْ فِي تَصْدِيقِ رَسُولِي، وَتَقْضُونَ مِيثَاقِي، وَتَجْحَدُونَ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ كِتَابِي^(٣).

وَالْعَرَضُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ، وَبَيَّهَهُمْ عَلَى خَطِيئِهِمْ فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ كَانُوا يَأْمُرُونَ بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُونَهُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَمَّهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْبِرِّ مَعَ تَرْكِهِمْ لَهُ، [بَلْ عَلَى تَرْكِهِمْ لَهُ] فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَالِمِ، وَلَكِنَّ الْوَاجِبَ وَالْأَوْلَى بِالْعَالِمِ أَنْ يَفْعَلَهُ مَعَ مَنْ أَمَرَهُمْ بِهِ، وَلَا يَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِضْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] فَكُلُّ مَنْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَفَعَلَهُ وَاجِبٌ، لَا يَسْقُطُ أَحَدُهُمَا بِتَرْكِ الْآخَرِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ مِنْ

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: قِيلَ لِأَسَامَةَ وَأَنَا رَدِيئُهُ: أَلَا تُكَلِّمُ عُثْمَانَ؟ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَنِّي لَا أَكَلِّمُهُ إِلَّا أَسْمِعُكُمْ، إِنِّي لَأَكَلِّمُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ دُونَ أَنْ أَفْتِيحَ أَمْرًا لَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ افْتَتَحَهُ، وَاللَّهُ لَا أَقُولُ لِرَجُلٍ: إِنَّكَ خَيْرُ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا، بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ بِهِ أَقْتَابُهُ، فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ يَقُولُ: كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأَكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»^(٤). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٥).

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّحْتِيُّ: إِنِّي لَأُكْرَهُ الْقِصَصَ لِثَلَاثِ آيَاتٍ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿يَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾^(٦) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ [الصف: ٣٠٢]^(٧) وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْبٍ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِضْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٨) الَّذِينَ يَنْظُرُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَجُوعُونَ ﴿٤٥﴾

[الِاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عَبِيدَهُ فِيمَا يُؤْمَلُونَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، كَمَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: اسْتَعِينُوا عَلَى طَلَبِ الْآخِرَةِ بِالصَّبْرِ عَلَى الْفَرَائِضِ وَالصَّلَاةِ، فَأَمَّا الصَّبْرُ فَقِيلَ: إِنَّهُ الصَّبَامُ^(٩). نَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ: وَلِهَذَا يُسَمَّى رَمَضَانُ شَهْرَ الصَّبْرِ^(١٠). كَمَا نَطَقَ بِهِ الْحَدِيثُ^(١١). وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالصَّبْرِ

(١) عبد الرزاق: ٤٤/١ (٢) الطبري: ٨/٢ (٣) الطبري: ٢/

٧ (٤) أحمد: ٢٥٥/٥ (٥) فتح الباري: ٣٨١/٦ ومسلم: ٤/

٢٢٩١ (٦) القرطبي: ٣٦٧/١ (٧) ابن أبي حاتم: ١٥٤/١

إسناده ضعيف فيه عمران بن خالد ضعيف الحديث (٨) القرطبي:

٣٧٢/١ (٩) إسناده ضعيف فيه علي بن زيد بن جدعان وهو

ضعيف.

مجاهد قال: كل ظن في القرآن فهو علم وهذا سنه صحيح.

(قُلْتُ) وَفِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَمْ أَرْزُقْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَاسُ وَتَرْزُعًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي»^(٥).

﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا بَعَثْنَا لَبِّي أَعْمَتْ عَيْنُكَ وَأَنَّى فَضَّلْنَاكَ عَلَى

الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾

[تَذَكُّرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِتَضْيِيلِهِمْ عَلَى الْأُمَمِ]

يُذَكِّرُهُمْ تَعَالَى بِسَالِفِ نِعَمِهِ إِلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ، وَمَا كَانَ فَضْلَهُمْ بِهِ مِنْ إِسْأَالِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّى فَضَّلْنَاكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: بِمَا أُعْطُوا مِنَ الْمُلْكِ وَالرُّسُلِ وَالْكِتَابِ عَلَىٰ عَالَمٍ مَنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالَمًا^(٦). وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَقَتَادَةَ وَإِسْمَاعِيلَ بْنَ أَبِي خَالِدٍ نَحْوَ ذَلِكَ^(٧).

[أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ]

وَيَجِبُ الْحَمْلُ عَلَىٰ هَذَا، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى خِطَابًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠] وَفِي الْمَسَائِدِ وَالسَّنَنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ الْقُسَيْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً خَيْرًا مِنْهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»^(٨). وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ تُذَكِّرُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

(١) هذا منقطع أبو سنان سعيد بن سنان لم يسمع من عمر (٢) ابن أبي حاتم: ١٥٥/١ (٣) الطبري: ١٦/٢ (٤) الطبري: ٢/ ١٧ (٥) مسلم: ٢٢٧٩/٤ (٦) الطبري: ٢٤/٢ (٧) ابن أبي حاتم: ١٥٨/١ (٨) أحمد: ٤٤٧/٤ و ٣/٥ وتحفة الأحودي:

الْكُفِّ عَنِ الْمَعَاصِي، وَلِهَذَا قَرَنَهُ بِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ، وَأَعْلَاهَا فِعْلُ الصَّلَاةِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: الصَّبْرُ صَبْرَانِ: صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ حَسَنٌ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ الصَّبْرُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ. قَالَ: وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ نَحْوَ قَوْلِ عُمَرَ^(٢).

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَالصَّلَاةُ﴾ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ... آيَةَ [العنكبوت: ٤٥].

وَالصَّبْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ عَائِدٌ إِلَى الصَّلَاةِ، نَصٌّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَىٰ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ وَهُوَ الْوَصِيَّةُ بِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ قَارُونَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْصَادِقُونَ﴾ [الفصل: ٨٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعِ بِالْأَيْدِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَتَّىٰ حِمِيمٌ﴾^(٣) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] أَيْ وَمَا يُلْقِي هَذِهِ الْوَصِيَّةَ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلْقَاهَا أَيْ يُؤْتَاهَا وَيُلْهِمَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ. وَعَلَىٰ كُلِّ تَقْدِيرٍ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أَيْ: مُشَقَّةٌ ثَقِيلَةٌ ﴿إِلَّا عَلَىٰ الْمُتَشَابِهِينَ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمُصْذِقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَطْمَئِنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ لَرَجِعُونَ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهُ، أَيْ وَإِنَّ الصَّلَاةَ أَوْ الْوَصِيَّةَ لَثَقِيلَةٌ ﴿إِلَّا عَلَىٰ الْمُتَشَابِهِينَ﴾^(٥) الَّذِينَ يَطْمَئِنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ أَيْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مَحْشُورُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعْرُوضُونَ عَلَيْهِ، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾ أَيْ أُمُورُهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ مَشِيئَتِهِ، يَحْكُمُ فِيهَا مَا يَشَاءُ بَعْدَهِ، فَلِهَذَا لَمَّا أُتِفِقُوا بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ سَهَّلَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ الطَّاعَاتِ وَتَرَكُ الْمُتَشَكَّرَاتِ. [الظن بمعنى اليقين] فَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿يَطْمَئِنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: الْعَرَبُ قَدْ تَسَمَّى الْيَقِينَ ظَنًّا، وَالشُّكَّ ظَنًّا، فَظَيْرُ تَسْمِيَتِهِمُ الظَّلْمَةُ سُذُقَةً، وَالضِّيَاءُ سُذُقَةً، وَالْمُغِيثُ صَارِخًا، وَالْمُسْتَعِيثُ صَارِخًا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي يُسَمَّى بِهَا الشَّيْءُ وَضِدُّهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَرَا الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]^(٦). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ

وَإِذْ بَحِثْنَاكُمْ مِّنْ أَعَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بِلَاءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَمَجَّيْنَاكُمْ
وَأَغْرَقْنَا أَعَالِ فِرْعَوْنَ وَاسْتَمَرُّنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا إِلَهُكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ
بِأَنْفُسِكُمْ فَاقْنُبُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكَمُ حَيْرٌ لَّكُمْ
عِنْدَ بَارِيكُمْ فَابْعَثْ عَلَيْنِكُمْ أَنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ
﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذْنَاكُمْ الضَّعْفَةَ وَاسْتَمَرُّنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ
مِّن بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كَلَامًا مِّن طَبِيبَتٍ
مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾
[الطارق: ١٠] أَي إِنَّهُ تَعَالَى لَا يُقْبَلُ فِيمَنْ كَفَرَ بِهِ فِدْيَةٌ وَلَا
شَفَاعَةٌ، وَلَا يُنْقِذُ أَحَدًا مِنْ عَذَابِهِ مُنْقِذٌ، وَلَا يُخَلِّصُ مِنْهُ
أَحَدٌ، وَلَا يُجِيرُ مِنْهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ
وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وَقَالَ: ﴿فِيَوْمٍ لَا يُعَذِّبُ
عَذَابَهُ أُمَّةٌ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَا يُوفِّقُ وَثَاقَهُ أُمَّةٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] وَقَالَ:
﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصفات: ٢٥،
٢٦] وَقَالَ: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا
إِلَهًا بَلْ صَلَّوْا عَلَيْهِمْ﴾ ... الْآيَةُ [الأحزاب: ٢٨]، وَقَالَ
الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا
تَنصُرُونَ﴾ [الصفات: ٢٥] مَا لَكُمْ الْيَوْمَ لَا تُسَانِعُونَ مِنَّا،
هَيْهَاتَ لَيْسَ ذَلِكَ لَكُمْ الْيَوْمَ ^(١). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَتَأْوِيلُ
قَوْلِهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ يَوْمئِذٍ لَا يَنْصُرُهُمْ نَاصِرٌ
كَمَا لَا يَشْفَعُ لَهُمْ شَافِعٌ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا فِدْيَةٌ،

﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا
يُؤَخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

لَمَّا ذَكَرَهُمُ تَعَالَى بِبِعْمِهِ أَوَّلًا، عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ التَّحْذِيرِ
مِنْ طُولِ نِقْمِهِ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ يَعْنِي
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أَي لَا يُغْنِي أَحَدٌ
عَنْ أَحَدٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:
١٥ الأنعام: ١٦٤] وَقَالَ: ﴿لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾
[عبس: ٣٧] وَقَالَ: ﴿يَلَيِّبُهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ وَأَحْشَوْا يَوْمًا لَا
يَجْرَى وَالِدٌ عَنِ وَالِدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾
[القمان: ٣٣] فَهَذَا أَلْبَغُ الْمَقَامَاتِ أَنَّ كُلًّا مِنَ الْوَالِدِ وَوَالِدِهِ
لَا يُغْنِي أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ شَيْئًا.

[لَا يُقْبَلُ مِنَ الْكُفَّارِ شَفَاعَةٌ وَلَا فِدَاءٌ، وَلَا يُصْرُونَ]
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ يَعْنِي مِنَ
الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:
٤٨] وَكَمَا قَالَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ ﴿فَمَا لَنَا مِنَ شَفِيعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠، ١٠١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُؤَخَذُ مِنْهَا
عَدْلٌ﴾ أَي لَا يُقْبَلُ مِنْهَا فِدَاءٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ يَوْمَئِذٍ الْأَرْضُ
ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِنَّ﴾ [آل عمران: ٩١] وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ
لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ
عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [المائدة: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعَدَّلَ كُلُّ
عَدْلٍ لَا يُؤَخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠] وَقَالَ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤَخَذُ
مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَاؤِكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ﴾ ...
الْآيَةُ [الحديد: ١٥]. فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا
بِرَسُولِهِ، وَتَابَعُوهُ عَلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ، وَوَأَفُوا اللَّهَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ قَرَابَةُ قَرِيبٍ وَلَا
شَفَاعَةُ ذِي جَاهٍ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ وَلَوْ بِبِلَاءِ الْأَرْضِ
ذَهَبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَن يَأْتِيَ يَوْمًا لَا بَيْعَ فِيهِ
وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وَقَالَ: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا
خُلَّةٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ أَي وَلَا أَحَدٌ يُعْضَبُ
لَهُمْ فَيَنْصُرُهُمْ وَيُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ لَا
يُعْطَفُ عَلَيْهِمْ ذُو قَرَابَةٍ وَلَا ذُو جَاهٍ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ،
هَذَا كُلُّهُ مِنْ جَانِبِ التَّلَطُّفِ، وَلَا لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ أَنفُسِهِمْ

(١) الطبري: ٣٦/٢ [إسناده ضعيف].

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وَأَمَّا فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ فَلَمَّا قَالَ: ﴿وَوَكِّرْهُمْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ﴾ أَيُّ بَأْيَادِيهِ وَنِعْمِهِ عَلَيْهِمْ فَتَنَسَّبَ أَنْ يَقُولَ هُنَاكَ: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِجُونَ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فَعَطَفَ عَلَيْهِ الذَّبْحَ لِيُذَلَّ عَلَى تَعَدُّدِ النِّعَمِ وَالْأَيَادِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.

و"فِرْعَوْنُ" عَلِمَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا مِنْ الْعَمَالِيِقِ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا أَنَّ "قِيصَرَ" عَلِمَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ الرُّومَ مَعَ الشَّامِ كَافِرًا، وَ"حِشْرَى" لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ، وَ"بَيْعٌ" لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ كَافِرًا، وَالنَّجَاشِيَّ لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَفِي الَّذِي فَعَلْنَا بِكُمْ مِنْ إِنْجَانِنَا آبَاءَكُمْ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ بَلَاءٌ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ، أَيُّ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ^(١). وَأَضَلَّ الْبَلَاءُ الْإِخْتِيَارَ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْغَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وَقَالَ: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَاللَّهُمَّ رَجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَأَكْثَرَ مَا يُقَالُ فِي الشَّرِّ: بَلَوْتُهُ أَبْلُوهُ بَلَاءً^(٢). وَفِي الْخَيْرِ أُبْلِيَهُ إِبْلَاءً وَبَلَاءً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَنَكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾، مَعْنَاهُ: وَبَعْدَ أَنْ أَنْقَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَخَرَجْتُمْ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَرَجَ فِرْعَوْنُ فِي طَلَبِكُمْ فَفَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ مُفَصَّلًا، كَمَا سَيَأْتِي فِي مَوَاضِعِهِ، وَمَنْ أَسْطَهَا مَا فِي سُورَةِ الشُّعْرَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ﴿فَأَمْجَنَكُمُ﴾ أَيُّ خَلَصْنَاكُمْ مِنْهُمْ، وَحَجَزْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَأَغْرَقْنَاهُمْ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْفَى لِمُصْدِرِكُمْ وَأَبْلَغَ فِي إِهَانَةِ عَدُوِّكُمْ.

[صَوْمُ يَوْمِ عَاشُورَاءِ]

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَانَ يَوْمَ عَاشُورَاءِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ يَصُومُونَ يَوْمَ عَاشُورَاءِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي تَصُومُونَ؟» قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَحَقُّ

بَطَلْتُ هُنَاكَ الْمُحَابَاةَ، وَأَضْمَحَلَّتِ الرَّشَا وَالشَّفَاعَاتُ، وَارْتَفَعَ مِنَ الْقَوْمِ التَّنَاصُرُ وَالْتِعَاوُنُ، وَصَارَ الْحُكْمُ إِلَى الْجَبَّارِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ لَدَيْهِ الشُّفَعَاءُ وَالنُّصَرَاءُ، فَيَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا، وَبِالْحَسَنَةِ أضعَافَهَا، وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُورُونَ﴾ [٢٦] مَا لَكُمْ لَا تَنَاصُرُونَ ﴿٥٠﴾ بَلْ هُوَ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصفات: ٢٤-٢٦]^(١).

﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدْحِجُونَ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [٤٩] وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَنَكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾

[تَنْجِيَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَإِعْرَاقِ آلِ فِرْعَوْنَ] يَقُولُ تَعَالَى: اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَيُّ خَلَصْنَاكُمْ مِنْهُمْ، وَأَنْقَذْنَاكُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ صُحْبَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ كَانُوا يَسْؤُمُونَكُمْ، أَيُّ يُوْرِدُونَكُمْ وَيُدْبِقُونَكُمْ وَيُولُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهُ كَانَ قَدْ رَأَى رُؤْيَا هَالِكَةً، رَأَى نَارًا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَدَخَلَتْ بِيوتِ الْقَيْطِ بِيَلَادِ مِصْرَ، إِلَّا بِيوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مَضْمُونَهَا: أَنَّ زَوَالَ مَلِكِهِ يَكُونُ عَلَى يَدَيِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقِيلَ: بَلْ تَحَدَّثَ سَمَارُهُ عِنْدَهُ بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَوَقَّعُونَ خُرُوجَ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُمْ بِهِ دَوْلَةٌ وَرَفْعَةٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهُ بِقَتْلِ كُلِّ ذَكَرٍ يُوْلَدُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنْ تُتْرَكَ الْبَنَاتُ، وَأَمَرَ بِاسْتِعْمَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مَسَاقِ الْأَعْمَالِ وَأَرْذَلِهَا.

وَهَهُنَا فَسَّرَ الْعَذَابَ بِذَّبْحِ الْأَنْبَاءِ، وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَطَفَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِجُونَ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْقَصَصِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ وَالْمُؤْمَنَةُ وَالتَّائِيْدُ.

وَمَعْنَى ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾ يُوْلُونَكُمْ، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ. كَمَا يُقَالُ سَامَهُ حُطَّةٌ حَسَنَةً، إِذَا أَوْلَاهُ إِيَّاهَا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: يُدِيمُونَ عَذَابَكُمْ، كَمَا يُقَالُ: سَائِمَةُ الْعَنَمِ: مَنْ إِذَا مَتَّهَا الرَّغْيَى. نَقَلَهُ الْقُرْطُبِيُّ، وَإِنَّمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿يُدْحِجُونَ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَفْسِيرًا لِلنِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِهِذَا لِقَوْلِهِ هَهُنَا:

يُمُوسَىٰ مِنْكُمْ» فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَ بِصَوْمِهِ^(١).
وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ
مَاجَةَ^(٢).

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ
ظَالِمُونَ﴾^(٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

[إِتِّخَاذُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي عَفْوِي عَنْكُمْ،
لَمَّا عَبَدْتُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ عِنْدَ
انْقِضَاءِ أَمَدِ الْمُوَاعَدَةِ، وَكَانَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَهِيَ
الْمَذْكُورَةُ فِي الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ
ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأْتَمَمْنَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قِيلَ إِنَّهَا: ذُو
الْقَعْدَةِ بِكَمَالِهِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ. وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ
خَلَاصِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَإِنْبَاجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ وَهُوَ مَا
يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾
وَكَانَ ذَلِكَ أَيْضًا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ
سِيَاقُ الْكَلَامِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:
٤٣].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا عِبَادَتِي فَأَنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ بَاغِدِكُمْ
الْعِجْلَ فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ
بَارِيكُمْ فَطَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾^(٥٤)
[تَوْبَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ]

هَذِهِ صِفَةُ تَوْبَتِهِ تَعَالَى عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبَادَةِ
الْعِجْلِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا عِبَادَتِي فَأَنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ بَاغِدِكُمْ
الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤] فَقَالَ: ذَلِكَ حِينَ وَقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ
شَأْنِ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ مَا وَقَعَ حَتَّىٰ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا سِقَاطَ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا
وَيَغْفِرْ لَنَا...﴾ [الآية [الأعراف: ١٤٩]. قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ
يَقُولُ مُوسَى: ﴿يَتَقَوَّمُوا عِبَادَتِي فَأَنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ بَاغِدِكُمْ
الْعِجْلَ﴾^(٣) وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالرَّبِيعُ بْنُ
أَسِّسٍ: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ أَيَّ إِلَىٰ خَالِقِكُمْ^(٤). قُلْتُ:
وَفِي قَوْلِهِ هَهُنَا ﴿إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ تَنْبِيهُ عَلَىٰ عِظَمِ جُرْمِهِمْ، أَيَّ

فَتَوْبُوا إِلَىٰ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَوَقَدْ عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ.

وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ، قَالَ: فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ تَوْبَتَهُمْ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَنْ لَقِيَ مِنْ وَالِدٍ وَوَالِدٍ، فَيَقْتُلُهُ بِالسَّيْفِ، وَلَا
يُبَالِي مَنْ قَتَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ، فَطَابَ أَوْلِيَاكِ الَّذِينَ كَانُوا
خَفِيَّيَ عَلَىٰ مُوسَى وَهَارُونَ مَا اطَّلَعَ اللَّهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ،
فَاعْتَرَفُوا بِهَا، وَفَعَلُوا مَا أَمُرُوا بِهِ، فَغَفَرَ اللَّهُ لِلْقَاتِلِ
وَالْمَقْتُولِ^(٥).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ مُوسَى
لِقَوْمِهِ: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ
بَارِيكُمْ فَطَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ: أَمَرَ مُوسَى
قَوْمَهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ، قَالَ: وَأَخْبَرَ
الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ، فَجَلَسُوا، وَقَامَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا عَلَى
الْعِجْلِ، فَاتَّخَذُوا الْخَنَازِرَ بِأَيْدِيهِمْ، وَأَصَابَتْهُمْ ظُلْمَةٌ
شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَانْجَلَتِ الظُّلْمَةُ عَنْهُمْ
وَقَدْ جَلَّوْا عَنْ سَبْعِينَ أَلْفَ قَيْلٍ، كُلُّ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ كَانَتْ لَهُ
تَوْبَةٌ، وَكُلُّ مَنْ بَقِيَ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ^(٦).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَتَقَوَّمُوا عِبَادَتِي فَأَنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ بَاغِدِكُمْ
الضُّعْفَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

[طَلَبُ خِيَارِهِمْ رُؤْيَةَ اللَّهِ وَإِمَاتَتَهُمْ وَإِحْيَاؤَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي بَعْثِي لَكُمْ بَعْدَ
الضُّعْفِ إِذْ سَأَلْتُمْ رُؤْيِي جَهَنَّمَ عِيَانًا مِمَّا لَا يَسْتَطَاعُ لَكُمْ
وَلَا لِأَمْتَالِكُمْ، كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ
الْآيَةِ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَتَقَوَّمُوا عِبَادَتِي فَأَنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ بَاغِدِكُمْ
الضُّعْفَةَ﴾ [البقرة: ٥٥] وَرَوَى فِي رِوَايَةٍ: أَيَّ حَتَّىٰ نَرَىٰ
اللَّهِ^(٨). وَقَالَ عَزُورَةُ ابْنُ رُوَيْمٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾
قَالَ: صَعِقَ بَعْضُهُمْ وَبَعْضٌ يَنْظُرُونَ^(٩)، ثُمَّ بُعِثَ هَؤُلَاءِ،
وَصَعِقَ هَؤُلَاءِ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿فَأَخَذْتُمْ الضُّعْفَةَ﴾ فَمَاتُوا، فَقَامَ مُوسَى

(١) أحمد: ٢٩١/١ (٢) فتح الباري: ٢٨٧/٤ ومسلم: ٢/٧٩٦ والنسائي في الكبرى: ١٥٧/٢ وابن ماجه: ٥٥٣/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٦٧/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٦٧/١ (٥) النسائي في الكبرى: ٤٠٤/٦ و٤٠٥ والطبري: ٣٠٦/١٨ وابن أبي حاتم: ١٦٨/١ (٦) الطبري: ٧٣/٢ (٧) الطبري: ٨١/٢ (٨) ابن أبي حاتم: ١٧٠/١ (٩) ابن أبي حاتم: ١٧٢

[تَظْلِيهِمْ بِالْعَمَامِ وَإِنزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ]
 لَمَا ذَكَرَ تَعَالَى مَا دَفَعَهُ عَنْهُمْ مِنَ النَّعْمِ، شَرَعَ يُذَكِّرُهُمْ
 أَيْضًا بِمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّعْمِ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمْ
 الْعَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧] وَهُوَ جَمْعُ غَمَامَةٍ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ
 يَغُمُّ السَّمَاءَ، أَي يُوَارِيهَا وَيَسْتُرُهَا. وَهُوَ السَّحَابُ
 الْأَبْيَضُ، ظَلَّلُوا بِهِ فِي التَّيِّهِ لِيَقِيَهُمْ حَرَّ الشَّمْسِ. كَمَا رَوَاهُ

النَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنِ
 ابْنِ عُمَرَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَأَبِي مَجَلَزٍ وَالصَّحَّاحِ وَالسُّدِّيِّ
 نَحْوَ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٥). وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا
 عَلَيْكُمْ الْعَمَامَ﴾ كَانَ هَذَا فِي الْبَرِّيَّةِ، ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ مِنَ
 الشَّمْسِ^(٦). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ آخَرُونَ: وَهُوَ عَمَامٌ أَبْرَدُ
 مِنْ هَذَا وَأَطْيَبُ^(٧). كَمَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ: لَيْسَ بِسَحَابٍ.
 وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: لَيْسَ مِنْ زَيْ هَذَا السَّحَابِ، بَلْ أَحْسَنُ مِنْهُ
 وَأَطْيَبُ وَأَبْهَى مَنظَرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ [البقرة: ٥٧] قَالَ
 عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ الْمَنَّ يُنَزَّلُ
 عَلَيْهِمْ عَلَى الْأَشْجَارِ، فَيَعْدُونَ إِلَيْهِ، فَيَأْكُلُونَ مِنْهُ مَا
 شَاءُوا. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ الْمَنَّ يُنَزَّلُ عَلَيْهِمْ فِي مَحَلَّتِهِمْ
 سُقُوطَ الثَّلْجِ، أَسَدُ بِيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ
 الْعَسَلِ، يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ
 الشَّمْسِ، يَأْخُذُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ قَدْرَ مَا يَكْفِيهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ،
 فَإِذَا تَعَدَّى ذَلِكَ فَسَدَ وَلَمْ يَبْقَ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ
 سَادِسِهِ، لِيَوْمِ جُمُعَتِهِ، أَخَذَ مَا يَكْفِيهِ لِيَوْمِ سَادِسِهِ وَيَوْمِ
 سَابِعِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَوْمَ عِيدٍ لَا يَشْخَصُ فِيهِ لِأَمْرِ مَعِيشَتِهِ،
 وَلَا يَطْلُبُهُ لِشَيْءٍ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي الْبَرِّيَّةِ^(٨).

فَالْمَنَّ الْمَشْهُورُ إِنْ أُكِلَ وَحْدَهُ كَانَ طَعَامًا وَحَلَاوَةً،
 وَإِنْ مُزِجَ مَعَ الْمَاءِ صَارَ شَرَابًا طَيِّبًا، وَإِنْ رُكِّبَ مَعَ غَيْرِهِ
 صَارَ نَوْعًا آخَرَ. وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ الْمَرَادُ مِنَ الْآيَةِ وَحْدَهُ،
 وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنَّ وَمَاؤُهَا
 شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»^(٩). وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(١٠).

(١) ابن أبي حاتم: ١٧٣/١ (٢) ابن أبي حاتم: ١٧٣/١ (٣)
 ابن أبي حاتم: ١٧٣/١ (٤) الطبري: ٨٨/٢ (٥) ابن أبي
 حاتم: ١٧٤/١ (٦) ابن أبي حاتم: ١٧٤/١ (٧) الطبري: ٢/
 ٩١ (٨) ابن أبي حاتم: ١٧٦/١ (٩) فتح الباري: ١٤/٨
 (١٠) أحمد: ١٨٧/١

يَبْكِي وَيَدْعُو اللَّهَ، وَيَقُولُ: رَبِّ مَاذَا أَقُولُ لِيَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا
 أَتَيْتُهُمْ، وَقَدْ أَهْلَكْتَ خِيَارَهُمْ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ
 وَلَيْتَى أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] فَأَوْحَى
 اللَّهُ إِلَى مُوسَى أَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ مِمَّنْ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ، ثُمَّ
 إِنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُمْ فَقَامُوا وَعَاشُوا [رَجُلًا رَجُلًا]، يُنْظَرُ بَعْضُهُمْ
 إِلَى بَعْضٍ كَيْفَ يُحْيُونَ؟ قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ
 بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لِمَلَكِكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ كَانَ مَوْتُهُمْ عُقُوبَةً لَهُمْ، فَبِعَثُوا مِنْ
 بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَسْتَوْفُوا آجَالَهُمْ^(٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ^(٣).

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْلَمَ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ:
 قَالَ لَهُمْ مُوسَى - لَمَّا رَجَعَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِالْأَنْوَاحِ، قَدْ كُتِبَ
 فِيهَا النُّورَةُ، فَوَجَدَهُمْ يَعْبُدُونَ الْعَجَلَ، فَأَمَرَهُمْ بِقَتْلِ
 أَنْفُسِهِمْ فَفَعَلُوا، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ -: إِنَّ هَذِهِ
 الْأَنْوَاحَ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ أَمْرُكُمْ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ،
 وَنَهْيُكُمْ الَّذِي نَهَاكُمْ عَنْهُ. فَقَالُوا: وَمَنْ يَأْخُذُ بِقَوْلِكَ
 أَنْتَ؟ لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، حَتَّى يَطَّلِعَ اللَّهُ عَلَيْنَا
 فَيَقُولَ: هَذَا كِتَابِي فَخُذُوهُ، فَمَا لَهُ لَا يَكْلَمُنَا كَمَا يَكْلَمُكَ
 أَنْتَ يَا مُوسَى؟ وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ
 جَهْرَةً﴾ قَالَ: فَجَاءَتْ غَضَبَةٌ مِنَ اللَّهِ، فَجَاءَتْهُمْ صَاعِقَةٌ
 بَعْدَ التَّوْبَةِ، فَصَعَقَتْهُمْ فَمَاتُوا أَجْمَعُونَ، قَالَ: ثُمَّ أَحْيَاهُمْ
 اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ، وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ
 مَوْتِكَ لِمَلَكِكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: خُذُوا كِتَابَ
 اللَّهِ، فَقَالُوا: لَا، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَصَابَكُمْ؟ فَقَالُوا:
 أَصَابَنَا أَنَا مُتْنَا ثُمَّ أَحْيَيْنَا، قَالَ: خُذُوا كِتَابَ اللَّهِ، قَالُوا:
 لَا، فَبَعَثَ اللَّهُ مَلَائِكَةً فَتَنَّتِ الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ^(٤).

وَهَذَا السِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَلَّفُوا بَعْدَ مَا أَحْيُوا. وَقَدْ
 حَكَى الْمَاوَرِدِيُّ فِي ذَلِكَ قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ سَقَطَ التَّكْلِيفُ
 عَنْهُمْ لِمَعَايِنَتِهِمُ الْأَمْرَ جَهْرَةً حَتَّى صَارُوا مُضْطَرِّبِينَ إِلَى
 التَّصَدِيقِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ؛ لِئَلَّا يَخْلَوْا عَاقِلٌ مِنْ
 تَكْلِيفِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، لِأَنَّ مَعَايِنَتَهُمْ
 لِلْأُمُورِ الْفَظِيحَةِ لَا تَمْنَعُ تَكْلِيفَهُمْ، لِأَنَّ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ قَدْ شَاهَدُوا
 أُمُورًا عِظَامًا مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُكَلَّفُونَ،
 وَهَذَا وَاضِحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ
 طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

وَأَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ:
حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١). وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنْ
السُّمِّ، وَالْكُمَاةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»^(٢). تَفَرَّدَ
بِإِخْرَاجِهِ التِّرْمِذِيُّ^(٣).

وَأَمَّا السَّلْوَى، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:
السَّلْوَى طَائِرٌ شَبِيهُ بِالسَّمَانِيِّ، كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ. وَرَوَى
السُّدِّيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَنْ نَاسٍ مِنْ
الصَّحَابَةِ: السَّلْوَى طَائِرٌ يُشْبِهُ السَّمَانِيَّ^(٤). وَكَذَا قَالَ
مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَعِكْرِمَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ
أَنَسٍ رَجَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى^(٥). وَعَنْ عِكْرِمَةَ: أَمَّا السَّلْوَى
فَطَيْرٌ كَطَيْرٍ يَكُونُ بِالْجَنَّةِ، أَكْبَرُ مِنَ الْعُصْفُورِ أَوْ نَحْوِ
ذَلِكَ^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: السَّلْوَى كَانَ مِنْ طَيْرِ أَقْرَبَ إِلَى
الْحُمْرَةِ، تَحْشُرُهَا عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْجَنُوبُ، وَكَانَ الرَّجُلُ
يَذْبَحُ مِنْهَا قَدْرَ مَا يَكْفِيهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ، فَإِذَا تَعَدَّى فَسَدَ وَلَمْ
يَبْقَ عِنْدَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ سَادِسِهِ، لِيَوْمِ جُمُعَتِهِ، أَخَذَ مَا
يَكْفِيهِ لِيَوْمِ سَادِسِهِ وَيَوْمِ سَابِعِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَوْمَ عِبَادَةِ لَا
يَسْتَخْصُ فِيهِ لِشَيْءٍ وَلَا يَطْلُبُهُ^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [٥٧] أَمْرٌ
إِبَاحِيٌّ وَإِشَادِيٌّ وَأَمْتِنَانِيٌّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ
كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٥٧] أَيْ أَمَرْنَاهُمْ بِالْأَكْلِ مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ، وَأَنْ يَعْبُدُوا، كَمَا قَالَ: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [سبأ: ١٥] فَخَالَفُوا وَكَفَرُوا، فَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ.
هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالْمُعْجَزَاتِ
الْقَاطِعَاتِ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ.

[فَضِيلَةُ صَحَابَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى سَائِرِ أَصْحَابِ
الْأَنْبِيَاءِ]

وَمِنْ هَهُنَا تَبَيَّنَ فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ عَلَى سَائِرِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ، فِي صَبْرِهِمْ وَتَبَاتِهِمْ
وَعَدَمِ تَعَتُّبِهِمْ، مَعَ مَا كَانُوا مَعَهُ فِي أَشْفَارِهِ وَعَزَوَاتِهِ،
مِنْهَا عَامٌ تَبَوَّكُ، فِي ذَلِكَ الْقَبِيطِ وَالْحَرِّ الشَّدِيدِ وَالْجَهْدِ،
لَمْ يَسْأَلُوا حَرْقَ عَادَةٍ، وَلَا إِجَادَةَ أَمْرٍ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ
سَهْلًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنْ لَمَّا أَجْهَدَهُمُ الْجُوعُ سَأَلُوهُ
فِي تَكْثِيرِ طَعَامِهِمْ، فَجَمَعُوا مَا مَعَهُمْ، فَجَاءَ قَدْرَ مَبْرُكِ
الشَّاةِ، فَدَعَا اللَّهُ فِيهِ، وَأَمَرَهُمْ فَمَلَأُوا كُلُّ وَعَاءٍ مَعَهُمْ.
وَكَذَا لَمَّا احْتَأَجُّوا إِلَى الْمَاءِ سَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى، فَجَاءَتْهُمْ

وَأَذَقْنَا أذْخُلًا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَرِّدُ
وَسَرِّدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَدَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ
السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى
لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ
أَثْنَاءَ عَشْرَةِ عَيْنًا قَدْحًا كَلُّ آبِائِمْ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَافِهَا وَفُومِهَا
وَعَدْسِهَا وَبَصِلَهَا قَالِ اسْتَبْدِلْ لَوْكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا أَتَمًّا
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَؤُا بِعِصَابٍ مِنَ
اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الْنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

سَحَابَةً فَأَمْطَرْنَاهُمْ، فَسَرَبُوا وَسَقَوْا الْإِبِلَ وَمَلَأُوا
أَسْقِيَتَهُمْ، ثُمَّ نَظَرُوا فَإِذَا هِيَ لَمْ تَجَاوِزِ الْعَشْرَكَ. هَذَا
هُوَ الْأَكْمَلُ فِي اتِّبَاعِ الشَّيْءِ. مَعَ قَدْرِ اللَّهِ، مَعَ مُتَابَعَةِ
الرَّسُولِ ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَرِّدُ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَدَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ
﴿٥٩﴾﴾

[تَعَتُّتُ الْيَهُودَ بَعْدَ الْفَتْحِ بَدَلًا مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى]
يَقُولُ تَعَالَى لَا يَمَّا عَلَى نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ وَعَنْ

(١) فتح الباري: ١٤/٨، ومسلم: ١٦١٩/٣، وتحفة الأحوذى: ٦/٢٣٥ والنسائي في الكبرى: ٣٧٠/٤، وابن ماجه: ١١٤٣/٢ (٢)
تحفة الأحوذى: ٢٣٣/٦ (٣) تحفة الأحوذى: ٢٣٥/٦ (٤)
الطبري: ٩٦/٢ (٥) ابن أبي حاتم: ١٧٨/١ (٦) ابن أبي حاتم: ١٧٩/١ (٧)

حِطَّةٌ ﴿٥٩﴾ قَالَ: مَغْفِرَةٌ - اسْتَغْفِرُوا- (٥). وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَيُّ أُحْطُطُ عَنَّا خَطَايَانَا (٦) ﴿تَنْفِرُ لَكَ خَلِيَّتُكُمْ وَسَيَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾. وَقَالَ: هَذَا جَوَابُ الْأَمْرِ، أَيُّ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْنَاكُمْ غَفَرْنَا لَكُمْ الْخَطِيئَاتِ، وَصَاعَفْنَا لَكُمْ الْحَسَنَاتِ.

وَحَاصِلُ الْأَمْرِ: أَنَّهُمْ أَمِرُوا أَنْ يَخْضَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْفَتْحِ بِالْفِعْلِ وَالْقَوْلِ، وَأَنْ يَعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ، وَيَسْتَغْفِرُوا مِنْهَا. وَالشُّكْرُ عَلَى النِّعْمَةِ عِنْدَهَا، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَحْبُوبِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿٦٠﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٦١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَدَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا: حِطَّةٌ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، فَبَدَلُوا وَقَالُوا، حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ» (٧). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مَوْفُوفًا وَبَعْضُهُ مُسْنَدًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حِطَّةٌ﴾ قَالَ: فَبَدَلُوا وَقَالُوا: حَبَّةٌ (٨). وَرَوَى نَحْوَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَعَنْ طَرِيفِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ (٩). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَحَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ: أَنَّهُمْ بَدَلُوا أَمْرَ اللَّهِ لَهُمْ مِنَ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَأَمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا سُجَّدًا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، مِنْ قِيلِ أَسْتَاهِهِمْ، رَافِعِي رُؤُوسِهِمْ، وَأَمِرُوا أَنْ يَقُولُوا: حِطَّةٌ، أَيُّ أُحْطُطُ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَخَطَايَانَا، فَاسْتَهَزَّوْا وَقَالُوا: جِنَّةٌ فِي شَعِيرَةٍ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْمُعَانَدَةِ، وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ يَفْسُقُهُمْ، وَهُوَ خُرُوجُهُمْ عَنِ طَاعَتِهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الرَّجْزِ يَعْنِي بِهِ الْعَذَابُ (١٠).

(١) ابن أبي حاتم: ١٨١/١ (٢) الرازي: ٨٢/٣ (٣) الطبري: ١١٣/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ١٨٣/١ ضعيف أبو سعيد الأزدي لا يعرف (٥) ابن أبي حاتم: ١٨٣/١ إسناده ضعيف العوفي مع عائلته من الضعفاء (٦) ابن أبي حاتم: ١٨٥/١ (٧) فتح الباري: ١٤/٨ (٨) النسائي في الكبرى: ٢٨٦/٦ (٩) تحفة الأحوذني: ٢٩١/٨ (١٠) الطبري: ١١٨/٢ ضعيف الضحاك لم يسمع من ابن عباس

ذُخُولِهِمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، لَمَّا قَدِمُوا مِنْ بِلَادِ مِصْرَ صُحْبَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَمِرُوا بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَقِتَالِ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعَمَالِيْقِ الْكُفْرَةِ، فَتَكَلَّمُوا عَنْ قِتَالِهِمْ وَضَعْفُوا وَاسْتَحْسَرُوا، فَرَمَاهُمُ اللَّهُ فِي النَّيِّهِ عُقُوبَةً لَهُمْ، كَمَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَلِهَذَا كَانَ أَصْحُ الْقَوْلَيْنِ: أَنَّ هَذِهِ الْبَلَدَةَ هِيَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ السُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ (١) وَقَتَادَةُ وَأَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيُّ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ مُوسَى: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرُدُّوا... الْآيَاتِ [المائدة: ٢١]. وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ أَرِيحَاءُ (٢). وَيُحْكَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ.

وَهَذَا كَانَ لَمَّا خَرَجُوا مِنَ النَّيِّهِ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَعَ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَشِيَّةَ جُمُعَةٍ، وَقَدْ حَبِسَتْ لَهُمُ الشَّمْسُ يَوْمَئِذٍ قَلِيلًا حَتَّى أَمَكَّنَ الْفَتْحُ، وَلَمَّا فَتَحَهَا أَمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا الْبَابَ الْبَلَدِ ﴿سُجَّدًا﴾ أَيُّ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ، وَرَدَّ بَلَدِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْقَادِهِمْ مِنَ النَّيِّهِ وَالضَّلَالِ، قَالَ الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أَيُّ رُكْعًا. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قَالَ: رُكْعًا مِنْ بَابِ صَغِيرٍ (٣)، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَزَادَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: فَدَخَلُوا مِنْ قِبَلِ أَسْتَاهِهِمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَمِرُوا أَنْ يَسْجُدُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ حَالَ ذُخُولِهِمْ. وَاسْتَبَدَّه الرَّازِيُّ، وَحَكَى عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّ الْمُرَادَ هَهُنَا بِالسُّجُودِ الْخُضُوعُ؛ لِتَعَدُّرِ حَمَلِهِ عَلَى حَقِيقَتِهِ.

وَقَالَ خُصِيفٌ: قَالَ عِكْرِمَةُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الْبَابُ قِبَلَ الْقِبْلَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ بَابُ الْحِطَّةِ مِنْ بَابِ إِيْلَاءٍ: بَيْتُ الْمُقَدَّسِ. وَحَكَى الرَّازِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُ عُنِيَ بِالْبَابِ جِهَةً مِنْ جِهَاتِ الْقِبْلَةِ. وَقَالَ خُصِيفٌ: قَالَ عِكْرِمَةُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَدَخَلُوا عَلَى شِقِّ. وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْأَرْدَوِيِّ عَنْ أَبِي الْكَنْدُودِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: قِيلَ لَهُمْ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فَدَخَلُوا مُقْبِعِي رُؤُوسِهِمْ أَيُّ رَافِعِي رُؤُوسِهِمْ (٤) خِلَافَ مَا أَمِرُوا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقُولُوا

وَهُوَ الْإِنْفَجَارُ، فَنَاسَبَ ذِكْرُ الْإِنْفَجَارِ هَهُنَا وَذَلِكَ هُنَاكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْسُكُ لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدُ فَادُعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقَتَائِبِهَا وَفُومِهَا وَعَدَيْهَا وَبَصِلِهَا قَالَ اسْتَنْدِلْتُكَ الَّذِي هُوَ أَذْفُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطَلُوا وَمَضَرَا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾

[طَلَبُهُمُ الطَّعَامَ الدَّنِيءَ بِدَلِّ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَأَذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي إِنْزَالِي عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى طَعَامًا طَيِّبًا نَافِعًا هَيِّئًا سَهْلًا، وَأَذْكُرُوا دُبْرَكُمْ وَضَجْرَكُمْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ، وَسْأَلِكُمْ مُوسَى اسْتِئْذَالَ ذَلِكَ بِالْأَطْعِمَةِ الدَّنِيئَةِ مِنَ الثَّمُولِ وَنَحْوِهَا مِمَّا سَأَلْتُمْ. قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: فَبَطَرُوا ذَلِكَ فَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَيْهِ، وَذَكَّرُوا عَيْشَهُمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ، وَكَانُوا قَوْمًا أَهْلُ أَغْدَاسٍ وَبَصِلٍ وَبُقُولٍ وَفُومٍ فَقَالُوا: «يَمْسُكُ لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدُ فَادُعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقَتَائِبِهَا وَفُومِهَا وَعَدَيْهَا وَبَصِلِهَا» وَإِنَّمَا قَالُوا ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاجِدُ﴾ وَهُمْ يَأْكُلُونَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، لِأَنَّهُ لَا يَبْدَلُ وَلَا يَتَّخِرُ كُلَّ يَوْمٍ، فَهُوَ مَأْكَلٌ وَاحِدٌ. فَالْبُقُولُ وَالْقَتَاءُ وَالْعَدَسُ وَالْبَصِلُ كُلُّهَا مَعْرُوفَةٌ، وَأَمَّا الْفُومُ فَوَقَعَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: وَفُومِهَا، بِالْتَاءِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفُومِهَا﴾ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الثُّومُ^(١). قَالَ: وَفِي اللُّغَةِ الْقَدِيمَةِ: فُومُوا لَنَا بِمَعْنَى اخْتَبَرُوا. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا، فَإِنَّهُ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَبَدِّلَةِ كَقَوْلِهِمْ: «وَقَوْمًا فِي عَائِثٍ شَرٌّ، وَعَافُورٍ شَرٌّ، وَأَثَافِي وَأَثَائِي، وَمَعَاظِيرُ وَمَعَاظِيرُ»، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِمَّا تُقَلِّبُ الْفَاءَ تَاءً وَالتَّاءَ فَاءً لِتَقَارُبِ مَخْرَجَيْهِمَا^(٢). وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْفُومُ: الْحِنْطَةُ. وَهُوَ الْبُرُّ الَّذِي يُعْمَلُ مِنْهُ الْخُبْزُ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحُبُّوبُ الَّتِي تُؤْكَلُ كُلُّهَا فُومٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ اسْتَنْدِلْتُكَ الَّذِي هُوَ أَذْفُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فِيهِ تَقْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا سَأَلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَطْعِمَةِ

وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَالسُّدِّيِّ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ: أَنَّهُ الْعَذَابُ^(٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَخَزِيمَةَ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطَّاعُونَ رَجُزٌ، عَذَابٌ عَذَّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»^(٤) وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٥)، وَأَصْلُ الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا»^(٦) الْحَدِيثُ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْوَجَعَ وَالسَّقَمَ رَجُزٌ عَذَّبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ»^(٧) وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلُهُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٨).

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

﴿٦٠﴾

[إِنْفَجَارُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَأَذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي إِجَابَتِي لِئَبِيئَكُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ اسْتَسْقَانِي لَكُمْ، وَتَسْبِيرِي لَكُمْ الْمَاءَ وَإِخْرَاجِهِ لَكُمْ مِنْ حَجَرٍ مَعَكُمْ، وَتَفْجِيرِي الْمَاءَ لَكُمْ مِنْهُ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا، لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِكُمْ عَيْنٌ قَدْ عَرَفُوهَا، فَكُلُوا مِنَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَاشْرَبُوا مِنْ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي أَنْبَعْتُهُ لَكُمْ بِلا سَعْيٍ مِنْكُمْ وَلَا كَدٍّ، وَاعْبُدُوا الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وَلَا تَقَابَلُوا النِّعَمَ بِالْعِضْبَانِ فَتُسَلِّبُوهَا. وَقَدْ بَسَطَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي كَلَامِهِمْ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَجُعِلَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ حَجَرٌ مُرْبَعٌ، وَأَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْرَبَهُ بِعِصَاهُ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهُ ثَلَاثُ عِيُونٍ، وَأَعْلَمَ كُلُّ سِبْطٍ عَيْنَهُمْ، يَشْرَبُونَ مِنْهَا، لَا يَرْتَحِلُونَ مِنْ مَقَلَّتِهِ إِلَّا وَجَدُوا ذَلِكَ مَعَهُمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ بِالْمَنْزِلِ الْأَوَّلِ^(٩).

وهذه القِصَّةُ شَبِيهَةٌ بِالْقِصَّةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَلَكِنْ تِلْكَ مَكِّيَّةٌ، فَلِذَلِكَ كَانَ الْإِنْجَارُ عَنْهُمْ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْضِي عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مَا فَعَلَ لَهُمْ. وَأَمَّا فِي هَذِهِ السُّورَةِ - وَهِيَ الْبَقْرَةُ - فَهِيَ مَدْيَنِيَّةٌ، فَلِهَذَا كَانَ الْخُطَابُ فِيهَا مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِمْ، وَأُخْبِرَ هُنَاكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَبْيَحَسَّتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وَهُوَ أَوَّلُ الْإِنْفَجَارِ، وَأُخْبِرَ هَهُنَا بِمَا آلَ إِلَيْهِ الْحَالُ آخِرًا،

(١) ابن أبي حاتم: ١٨٧/١ (٢) ابن أبي حاتم: ١٨٦/١ (٣) النسائي في الكبرى: ٣٦٢/٤ (٤) فتح الباري: ١٨٩/١٠ ومسلم: ١٧٣٩/٤ (٥) الطبري: ١١٦/٢ (٦) فتح الباري: ٥١٢/٦ ومسلم: ١٧٣٧/٤ (٧) الطبري: ١٢٠/٢ (٨) ابن أبي حاتم: ١٩٣/١ (٩) الطبري: ١٣٠/٢

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٦١﴾ يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا الَّذِي جَارَيْنَاهُمْ مِنَ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ. وَإِحْلَالِ الْغَضَبِ بِهِمْ مِنْ الذَّلَّةِ: بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَإِهَانَتِهِمْ حَمَلَةَ الشَّرْعِ، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ، فَانْتَقَضُوهُمْ إِلَى أَنْ أَفْضَلِي بِهِمْ الْحَالُ إِلَى أَنْ قَتَلُوهُمْ، فَلَا كُفْرَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

[تَعْرِيفُ الْكِبْرِ]

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّقِ عَلَى صِحَّتِهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ» (٨). وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامٌ ضَلَّالَةً. وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْمُتَمَثِّلِينَ» (٩). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وَهَذِهِ عِلَّةٌ أُخْرَى فِي مُجَازَاتِهِمْ بِمَا جُوزُوا بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْصُونَ وَيَعْتَدُونَ، فَالْعِصْيَانُ فِعْلُ الْمَنَاهِي، وَالْإِعْتِدَاءُ: الْمَجَاوِزَةُ فِي حَدِّ الْمَأْدُونِ فِيهِ وَالْمَأْمُورِ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦١)

[الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ مَدَارُ النَّجَاةِ فِي كُلِّ

زَمَانٍ]

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ مَنْ خَالَفَ أَوْامِرَهُ، وَارْتَكَبَ زَوَاجِرَهُ، وَتَعَدَّى فِي فِعْلِهِ مَا لَا إِذْنَ فِيهِ، وَأَنْتَهَكَ الْمَحَارِمَ، وَمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ النَّكَالِ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ، وَأَطَاعَ فَإِنَّ لَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كُلُّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ فَلَهُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا يَتْرَكُونَهُ وَيُخْلَفُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [يونس: ٦٢] وَكَمَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْإِحْضَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّكَ اللَّهُ تَمَّ

الذِّينَةَ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالطَّعَامِ الْهَيَّءِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ (١). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّهُمَا فَسَّرَا ذَلِكَ بِمِصْرَ فِرْعَوْنَ (٢). وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ: مِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ، كَمَا رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ، وَالْمَعْنَى عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ لَهُمْ: هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمْ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَزِيزٍ، بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي أَيْ بَلَدٍ دَخَلْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهُ، فَلَيْسَ يُسَاوِي مَعَ دَنَاءَتِهِ وَكَثْرَتِهِ فِي الْأَمْصَارِ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ فِيهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ أَيُّ مَا طَلَبْتُمْ، وَلَمَّا كَانَ سُؤْلُهُمْ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ، وَلَا ضَرُورَةَ فِيهِ، لَمْ يُجَابُوا إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٦١)

[ضَرْبُ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ عَلَى الْيَهُودِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أَيُّ وُضِعَتْ عَلَيْهِمْ، وَالزَّمُوا بِهَا شَرْعًا وَقَدْرًا، أَيُّ لَا يَزَالُونَ مُسْتَدْلِينَ، مَنْ وَجَدَهُمْ اسْتَدْلَهُمْ وَأَهَانَهُمْ، وَضَرْبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَذْلَاءُ مُتَمَسِكُونَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: أَذْلَهُمُ اللَّهُ فَلَا مَنَعَةَ لَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَقَدْ أذْرَكْتَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَإِنَّ الْمَجُوسَ لَتَجْبِيهِمُ الْجَزِيَّةُ (٣). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ: الْمَسْكَنَةُ: الْفَاقَةُ (٤). وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: الْخِرَاجُ (٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ مِنَ اللَّهِ (٦). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ إِنْصَرَفُوا وَرَجَعُوا. وَلَا يُقَالُ: بَاءَ إِلَّا مَوْصُولًا إِمَّا بِخَيْرٍ وَإِمَّا بِشَرٍّ، يُقَالُ مِنْهُ: بَاءَ فُلَانٌ بِذَنْبِهِ، يَبُوءُ بِهِ بَوَاءً وَبَوَاءً، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] يَعْنِي تَنْصَرَفَ مُتَحَمِّلُهُمَا، وَتَرَجَعَ بِهِمَا قَدْ صَارَا عَلَيْكَ دُونِي. فَمَعْنَى الْكَلَامِ إِذَنْ: رَجَعُوا مُنْصَرِفِينَ مُتَحَمِّلِينَ غَضَبَ اللَّهِ، قَدْ صَارَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ غَضَبٌ، وَوَجِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ سَخَطٌ (٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

(١) ابن أبي حاتم: ١٩٤/١ (٢) الطبري: ١٣٤/٢ (٣) ابن أبي حاتم: ١٩٥/١، ١٩٦ (٤) ابن أبي حاتم: ١٩٦/١ (٥) ابن أبي حاتم: ١٩٦/١ (٦) الطبري: ١٣٨/٢ (٧) الطبري: ١٣٨/٢ (٨) مسلم: ٩٣/١ (٩) أحمد: ٤٠٧/١

أَسْتَقْدَمُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَنْبَشِرُوا بِإِجْنَتِهِ الَّتِي كُتِبَتْ تُوعَدُونَ ﴿فصلت: ٣٠﴾.

[تعريف المؤمنين]

رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ (١) - قَالَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل
عمران: ٨٥]. فَإِنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ إِخْبَارٌ عَنْ أَنَّهُ
لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ طَرِيقَةً وَلَا عَمَلًا إِلَّا مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرِيعَةِ
مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ بِمَا بَعَثَهُ بِهِ، فَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَكُلُّ مَنْ
اتَّبَعَ الرَّسُولَ فِي زَمَانِهِ فَهُوَ عَلَى هُدًى وَسَبِيلِ نَجَاةٍ.
فَالْيَهُودُ أَتْبَاعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ
إِلَى التَّوْرَةِ فِي زَمَانِهِمْ.

[وَجْهٌ تَسْمِيَةِ الْيَهُودِ]

وَالْيَهُودُ مِنَ الْهُودِ - وَهِيَ الْمَوَدَّةُ - أَوْ التَّهَوُّدِ، وَهِيَ
التَّوْبَةُ، كَقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا هُنَا أَيْتُكَ﴾
[الأعراف: ١٥٦] أَيْ تَبْنَا. فَكَأَنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ فِي
الْأَصْلِ لِتَوْبَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ. وَقِيلَ:
لِنِسْبَتِهِمْ إِلَى يَهُودَا أَكْبَرَ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ
الْعَلَاءِ: لِأَنَّهُمْ يَتَهَوَّدُونَ، أَيْ يَتَحَرَّكُونَ عِنْدَ قِرَاءَةِ التَّوْرَةِ.

[وَجْهٌ تَسْمِيَةِ النَّصَارَى]

فَلَمَّا بَعَثَ عِيسَى ﷺ وَجَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ اتِّبَاعُهُ
وَالْإِقْيَادُ لَهُ، فَأَصْحَابُهُ وَأَهْلُ دِينِهِ هُمُ النَّصَارَى، سُمُّوا
بِذَلِكَ لِتَنَاصُرِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ. وَقَدْ يُقَالُ لَهُمْ أَنْصَارٌ أَيْضًا،
كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَك
الْحَوَارِيُّونَ لَمَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢، الصف: ١٤].
وَقِيلَ: إِنَّهُمْ إِنَّمَا سُمُّوا بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا أَرْضًا
يُقَالُ لَهَا: "نَاصِرَةٌ". قَالَهُ قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ. وَرَوَى عَنِ
ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا (٢). وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالنَّصَارَى جَمْعُ نَصْرَانٍ،
كَنَسَاوَى جَمْعُ نَسْوَانٍ، وَسَكَارَى جَمْعُ سَكَرَانٍ، وَيُقَالُ
لِلْمَرْأَةِ: نَصْرَانَةٌ.

[الْمُؤْمِنُونَ]

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ، وَرَسُولًا إِلَى
بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَجَبَ عَلَيْهِمْ تَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ.
وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَالْإِنْكَفَافُ عَمَّا عِنْدَهُ زَجْرٌ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، وَسُمِّيَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُؤْمِنِينَ لِكَثْرَةِ

الْمُؤْمِنُونَ

١٠

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَآذِكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا
هَذَا وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا
أَدْعُ لِنَارِكَ يَبِّينَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا يَكْرَهُونَ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُوا آدْعُ لِنَارِكَ يَبِّينَ لَنَا مَا لَوْ نُهَاهَا قَالَتْ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾

إِيمَانِهِمْ، وَشِدَّةِ إِيقَانِهِمْ، وَلِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ
الْمَاضِيَةِ وَالْعُيُوبِ الْآتِيَةِ.

[الصَّابِتُونَ]

وَأَمَّا الصَّابِتُونَ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِمْ، فَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: الصَّابِتُونَ قَوْمٌ
بَيْنَ الْمَجُوسِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَيْسَ لَهُمْ دِينٌ (٣).
وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْهُ (٤). وَرَوَى عَنِ عَطَاءٍ وَسَعِيدِ
ابْنِ جُبَيْرٍ نَحْوَ ذَلِكَ (٥). وَقِيلَ: فِرْقَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
يَقْرَأُونَ الزُّبُورَ. وَقِيلَ: قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ. وَقِيلَ: قَوْمٌ
يَعْبُدُونَ الْكُوكَبَ. وَأَظْهَرَ الْأَقْوَالِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قَوْلُ
مُجَاهِدٍ وَمُتَابِعِيهِ وَوَهْبِ بْنِ مُنْبِهٍ: أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَيْسُوا عَلَى دِينِ
الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى وَلَا الْمَجُوسِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا

(١) ابن أبي حاتم: ١٩٨/١ (٢) الرازي: ٩٧/٣ (٣) الطبري: ١٤٦/٢ (٤) الطبري: ١٤٦/٢ (٥) ابن أبي حاتم: ١٩٩/١

هُمْ بِأَقْوَمٍ عَلَى فِطْرَتِهِمْ وَلَا دِينَ مُرَّرَ لَهُمْ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتُنُونَهُ،
وَلِهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُبْزَوْنَ مَنْ أَسْلَمَ بِالصَّابِيَاءِ. أَيْ إِنَّهُ
قَدْ خَرَجَ عَنْ سَائِرِ أَذْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ. وَقَالَ بَعْضُ
الْعُلَمَاءِ: الصَّابِيُونَ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيِّ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِثُوقٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٦٦) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٧﴾
[أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ الْيَهُودِ مَعَ رَفْعِ الطُّورِ عَلَيْهِمْ
وَتَوَلَّيْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنْ
الْعَهْدِ وَالْمَوَاقِفِ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَاتَّبَعَ
رُسُلِهِ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ رَفَعَ
الْجَبَلَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، لِيُقِرُّوا بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ،
وَيَأْخُذُوهُ بِثُوقٍ وَجَزْمٍ وَهَمَّةٍ وَامْتِنَانٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَلْنَا أَنَّهُ وَقِعٌ بِيَمِّهِمْ خُذُوا
مَا آتَيْنَاكُمْ بِثُوقٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:
١٧١] فَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ، كَمَا فَسَّرَهُ بِهِ فِي الْأَعْرَافِ،
وَنَصَّرَ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَعِكْرَمَةُ
وَالْحَسَنُ وَالصَّحَّاحُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(١). وَهَذَا
ظَاهِرٌ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الطُّورُ مَا أُثْبِتَ مِنْ
الْجِبَالِ، وَمَا لَمْ يُثْبِتْ فَلَيْسَ بِطُورٍ^(٢). وَقَالَ الْحَسَنُ فِي
قَوْلِهِ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِثُوقٍ﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ^(٣). وَقَالَ
مُجَاهِدٌ: ﴿بِثُوقٍ﴾: بِعَمَلٍ مَا فِيهِ^(٤). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ
وَالرَّبِيعُ ﴿وَادْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يَقُولُ: [إِقْرَأُوا مَا فِي التَّوْرَةِ
وَاعْمَلُوا بِهِ]^(٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ عَنْهُ وَانْتَبَيْتُمْ وَتَقَضَّيْتُمُوهُ﴾ فَلَوْلَا
الْفَضْلُ وَالرَّحْمَةُ وَالرَّحْمَةُ عَلَيْهِمْ، أَيْ بِتَوْبَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِرْسَالِهِ
النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بِنَقْضِكُمْ
ذَلِكَ الْمِيثَاقِ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
خَاسِيِينَ﴾ (٦٧) فَعَلَّلْنَاهَا تَكْلَافًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً

لِلْمُنْتَهِينَ ﴿٦٧﴾

[عَبَدُواهُمْ فِي السَّبْتِ وَمَسَّحَهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرًا]
يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ مَا أَحَلَّ

مِنَ الْبَاسِ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي عَصَتْ أَمْرَ اللَّهِ، وَخَالَفُوا
عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ السَّبْتِ وَالْقِيَامِ
بِأَمْرِهِ، إِذْ كَانَ مَشْرُوعًا لَهُمْ، فَتَحَبَّلُوا عَلَى اضْطِجَادِ
الْحَبْتَانِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِمَا وَضَعُوا لَهَا مِنَ الشُّصُوصِ
وَالْحَبَائِلِ وَالْبِرَكِ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ، فَلَمَّا جَاءَتْ يَوْمَ
السَّبْتِ عَلَى عَادَتِهَا فِي الْكَثْرَةِ نَشِيتَ بَيْنَكَ الْحَبَائِلِ
وَالْحَبِيلِ، فَلَمْ تَخْلُصْ مِنْهَا يَوْمَهَا ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ
أَخَذُوهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ السَّبْتِ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ، مَسَّحَهُمُ
اللَّهُ إِلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ، وَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْإِنْسَانِيِّ فِي
الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وَلَيْسَتْ بِإِنْسَانٍ حَقِيقَةً، فَكَذَلِكَ أَعْمَالُ
هَؤُلَاءِ وَحِيلَتُهُمْ لَمَّا كَانَتْ مُشَابِهَةً لِلْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ،
وَمُخَالَفَةً لَهُ فِي الْبَاطِنِ، كَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ.
وَهَذِهِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ حَيْثُ يَقُولُ
تَعَالَى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ
إِذْ يَبْعُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِبَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ
شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبُوتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] الْقِصَّةُ بِكَمَالِهَا، وَقَالَ
الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
خَاسِيِينَ﴾ فَجَعَلَ اللَّهُ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ، فَرَعَمَ: أَنْ
شَبَّابَ الْقَوْمِ صَارُوا قِرَدَةً، وَأَنَّ الْمَسِيحَةَ صَارُوا
خَنَازِيرَ^(١). وَقَالَ شَيْبَانُ النَّحْوِيُّ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِيِينَ﴾ فَصَارَ الْقَوْمُ قِرَدَةً تَعَاوَى، لَهَا أذُنَابٌ
بَعْدَ مَا كَانُوا رِجَالًا وَنِسَاءً^(٢).

[الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ الْمَوْجُودَةُ لَيْسَتْ مِنْ نَسْلِ

الْمَمْسُوحَةِ]

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنَّمَا كَانَ
الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ فَجَعَلُوا قِرَدَةً - فَوَاقًا - ثُمَّ
هَلَكُوا، مَا كَانَ لِلْمَسْخِ نَسْلٌ^(٣). وَقَالَ الصَّحَّاحُ، عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ: فَمَسَّحَهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً بِمَعْصِيَتِهِمْ، يَقُولُ: إِذْ لَا

(١) ابن أبي حاتم: ٢٠٣/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٠٣/١ إسناده
ضعيف لوجهه ١- من ملاحظات المؤلف. ٢- الضحاک عن ابن
عباس مرسل. ٣- بشر بن عمار الخثعمي ضعيف. (٣) ابن أبي
حاتم: ٢٠٤/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٠٥/١ (٥) ابن أبي
حاتم: ٢٠٥/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٢١٠/١ إسناده ضعيف
العوفي مع عائلته من جملة الضعفاء. (٧) ابن أبي حاتم: ١/
٢٠٩ (٨) ابن أبي حاتم: ٢٠٩/١ إسناده ضعيف فيه عبدالله بن
محمد شبه المتروك ومحمد بن مسلم الطائفي ضعيف.

الْبَقَرَةُ

١١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِينُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
 إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَدَلُولٌ
 تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا
 إِنَّنِ جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِذْ
 قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرُوهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦٩﴾
 فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
 آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٠﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
 مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنْ
 مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾
 ﴿٧٢﴾ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
 يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا
 وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمْعًا
 اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِحَاجَتِكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٤﴾

يَحْيُونَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، قَالَ: وَلَمْ يَعِشْ مَنْخُ
 قَطٌ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ وَلَمْ يَنْسَلُوا،
 وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْفَرْدَةَ وَالْحَنَازِيرَ وَسَائِرَ الْخَلْقِ فِي السَّنَةِ
 الْأَيَّامَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، فَمَسَخَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فِي
 صُورَةِ الْفَرْدَةِ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ بِمَنْ يَشَاءُ كَمَا يَشَاءُ،
 وَيُحَوِّلُهُ كَمَا يَشَاءُ^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَلًا﴾ أي فجعل الله هذه
 القرية، والمراد أهلها، بسبب اغتدائهم في سببهم
 ﴿نَكَلًا﴾ أي عاقبتناهم عقوبة فجعلناها عبرة. كما قال الله
 عن فِرْعَوْنَ ﴿فَلَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي من
 القرى، قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللتنا بها من
 العقوبة عبرة لما حولها من القرى، كما قال تعالى:
 ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكَ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ﴾ [الأحاف: ٢٧] فجعلهم عبرة ونكالًا لمن في
 زمانهم، وموعظة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم،
 ولهذا قال: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ المراد بالموعظة ههنا
 الزاجر أي جعلنا ما أحللتنا بهؤلاء من البأس والتكال
 في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من
 الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما
 أصابهم، كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطنة عن أبي
 هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لَا تَرْكَبُوا مَا ارْتَكَبَتْ
 الْيَهُودُ فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَذْنِ الْحَيْلِ﴾^(٢) وهذا إسناد
 جيد، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا
 أَنْتَذِبْنَا هَؤُلَاءِ قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٧٤﴾

[قصة مقتول بني إسرائيل والبقرة]

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في
 خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو
 بسببها، وإخياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم.

روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني، قال: كان
 رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال
 كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه
 على باب رجل منهم، ثم أصبح يديه، حتى تسلحوا،
 وركب بعضهم على بعض. فقال ذوو الرأي منهم والنهي:
 علام يقتل بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟ فأثروا

موسى عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ
 يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا اتَّخَذْنَا هَؤُلَاءِ قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ
 مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أذنى
 بقرة، ولكنهم شددوا، فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة
 التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة
 غيرها، فقال: والله لا أنقضها من ملء جلدتها ذهباً،
 فأخذوها بملء جلدتها ذهباً، فذبحوها، فصره بعضهم،
 فقام. فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا - لابن أخيه- ثم
 مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، فلم يورث قاتل بعد^(٣).
 ورواه ابن جرير بنحو من ذلك، والله أعلم^(٤).

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِينُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا
 فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾
 قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِينُ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا

(١) الطبري: ١٦٧/٢ إسناده ضعيف الضحاك لم يسمع من ابن
 عباس. (٢) إرواء الغليل: ٣٧٥/٥ (٣) ابن أبي حاتم: ١/
 ١١٤ (٤) الطبري: ١٨٣/٢

بَقْرَةً صَفْرَاءَ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آتِنَا لَنَا رَبِّكَ
بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ
لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُّ لَكُمْ فِيهَا وَلَا
تَسْقَى لَوْنُهَا مُسْلَمَةٌ لِأَسْمَاءِ فِيهَا قَالُوا أَتَنَزَّلَتْ بِالْحَقِّ فَذَجَبُوا
وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

[تَعَنَّتُهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنِ الْبَقْرَةِ وَتَضْيِيقِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ تَعَنَّتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَثْرَةَ سُؤَالِهِمْ
لِرَسُولِهِمْ، لِهَذَا لَمَّا ضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ،
وَلَوْ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقْرَةٍ كَانَتْ، لَوَقَعَتْ الْمَوْعِدَ عَنْهُمْ،
كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا
فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: «آتِنَا لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ» أَيَّ مَا
هَذِهِ الْبَقْرَةُ، وَأَيُّ شَيْءٍ صِفَتُهَا؟ قَالَ: «إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا
فَارِضٌ وَلَا يَكْرُؤُ أَيُّ لَا كَبِيرَةٌ هَرَمَةٌ وَلَا صَغِيرَةٌ لَمْ يَلْحَقْهَا
الْفَحْلُ. كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيُّ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ
وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَوَهْبُ بْنُ مُثَنَّبٍ
وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا (١).
وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «عَوَانُ بَيْتِكَ ذَلِكَ»،
يَقُولُ: يَصِفُ بَيْنَ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ، وَهِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ
مِنَ الدَّوَابِّ وَالْبَقَرِ، وَأَحْسَنُ مَا تَكُونُ (٢).

وقال مجاهد: إنها كانت صفراء (٣)، وروى ابن أبي
حاتم عن الحسن في قوله تعالى: «بَقْرَةً صَفْرَاءَ فَاقِعٌ
لَوْنُهَا» قال: سوداء شديدة السواد، وهذا غريب
والصحيح الأول ولهذا أكد صفرتها بأنه «فاقِعٌ
لَوْنُهَا» (٤).

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس «فاقِعٌ لَوْنُهَا»
شديدة الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض (٥). وقال السُّدِّيُّ
«تَسُرُّ النَّظِيرِينَ» أَيُّ تُعْجِبُ النَّظِيرِينَ (٦). وكذا قال أبو
الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ (٧). وقال وهبُ بْنُ مُثَنَّبٍ: إِذَا
نَظَرْتَ إِلَى جِلْدِهَا تَخَيَّلْتَ أَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَخْرُجُ مِنْ
جِلْدِهَا (٨). وفي التَّوْرَةِ: أَنَّهَا كَانَتْ حَمْرَاءَ. فَلَعَلَّ هَذَا
حَطًّا فِي التَّعْرِيبِ، أَوْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: إِنَّهَا كَانَتْ شَدِيدَةً
الصفرة تَضْرِبُ إِلَى حُمْرَةٍ وَسَوَادٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: «إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا» أَيُّ لِكثرتها، فَمِيزَ
لَنَا هَذِهِ الْبَقْرَةَ وَصَفَهَا وَجَلَّهَا لَنَا «وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ» إِذَا
بَيَّنَّتْهَا لَنَا «لَمُهْتَدُونَ» إِلَيْهَا.
«قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُّ لَكُمْ فِيهَا وَلَا تَسْقَى

لَوْنُهَا» أَيُّ إِنَّهَا لَيْسَتْ مُدْلَلَّةً بِالْحِرَائَةِ، وَلَا مُعَدَّةً لِلسَّقَى
فِي السَّقَايَةِ، بَلْ هِيَ مُكْرَمَةٌ، حَسَنَةٌ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ
مَعْمَرٍ عَنِ قَتَادَةَ: «مُسْلَمَةٌ» يَقُولُ: لَا عَيْبَ فِيهَا (٩). وكذا
قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُسْلَمَةٌ مِنْ
الشَّيْءِ (١٠). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: مُسْلَمَةٌ الْقَوَائِمُ
وَالْخَلْقُ (١١). «لَا شَيْءَ فِيهَا»، قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا بِيَاضَ وَلَا
سَوَادَ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةَ: لَيْسَ
فِيهَا بِيَاضٌ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: «لَا شَيْءَ فِيهَا»
قَالَ: لَوْنُهَا وَاحِدٌ بَيْمٌ. «قَالُوا أَتَنَزَّلَتْ بِالْحَقِّ» قَالَ
قَتَادَةَ: الْآنَ بَيْنَتْ لَنَا (١٢) «فَذَجَبُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» قَالَ
الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَادُوا أَنْ لَا يَفْعَلُوا: وَلَمْ يَكُنْ
ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ لَا يَذْبَحُوهَا (١٣).
يَعْنِي أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذِهِ الْأَسْئَلَةِ وَالْأَجْوِبَةِ
وَالْإِبْضَاحِ مَا ذَبَحُوهَا إِلَّا بَعْدَ الْجُهْدِ، وَفِي هَذَا دَمٌ لَهُمْ،
وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ إِلَّا التَّعَنُّتُ، فَلِهَذَا مَا كَادُوا
يَذْبَحُوهَا. وَقَالَ عبيدَةُ وَمُجَاهِدٌ وَوَهْبُ بْنُ مُثَنَّبٍ وَأَبُو
الْعَالِيَةِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّهُمْ اسْتَرَوْهَا بِمَالٍ
كَثِيرٍ، وَفِيهِ اخْتِلَافٌ (١٤).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَبْهُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضَهُمْ كَذَلِكَ يُعَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَرَبِّكُمْ ءَابَتِيهِ

لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾

[إِحْيَاءُ الْمَقْتُولِ وَتَعْيِينُ الْقَاتِلِ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: «فَاذْرَبْهُمْ فِيهَا» اخْتَلَفْتُمْ (١٥). وَهَكَذَا
قَالَ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالضَّحَّاكُ:
اخْتَصَمْتُمْ فِيهَا (١٦). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ «وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا
فَاذْرَبْهُمْ فِيهَا» قَالَ بَعْضُهُمْ: أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ، وَقَالَ آخَرُونَ:

- (١) ابن أبي حاتم: ٢١٦/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٢١٧/١
الضحاك عن ابن عباس مرسل. (٣) ابن أبي حاتم (٧٠٦) /١
١٣٩ الطبري ١٢٢٨. (٤) ابن أبي حاتم (٧٠٩) /١ ١٣٩ وقول
الحسن هذا استغفره المصنف ورد الطبري ابن جرير /١
٣٨٨، ٣٨٧ وابن قتيبة في "غريب القرآن" ص ٥٣. (٥) ابن أبي
حاتم: ٢٢١/١ إسناده ضعيف العوفي تقدم حكمه (٦) ابن أبي
حاتم: ٢٢٢/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٢٢٢/١ (٨) الطبري: ٢/
٢٠٢ (٩) الطبري: ٢/٢١٤ (١٠) ابن أبي حاتم: ٢٢٥/١
(١١) ابن أبي حاتم: ٢٢٦/١ (١٢) ابن أبي حاتم (٧٣٩) /١
١٤٣ (١٣) الطبري: ٢/٢١٩ الضحاك عن ابن عباس
مرسل (١٤) الطبري: ٢/٢٢١ (١٥) فتح الباري: ٦/٥٠٦
(١٦) ابن أبي حاتم: ٢٢٩/١

بَلْ أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ^(١). وَكَذَآ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بِنِ
أَسْلَمَ.
﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٢) قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا
تُعَيِّنُونَ^(٣).

﴿فَقُلْنَا أَضْرَبُوهُ بَعْضَهَا﴾ هذا "البعض" أي شيء كان
من أَعْضَاءِ هَذِهِ الْبَقْرَةِ، فَالْمُعْجِزَةُ حَاصِلَةٌ بِهِ، وَخَرَقُ
الْعَادَةِ بِهِ كَائِنٌ، وَقَدْ كَانَ مُعَيَّنًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَلَوْ كَانَ
فِي تَعْيِينِهِ لَنَا فَائِدَةٌ تَعُوذُ عَلَيْنَا فِي أَمْرِ الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا
لَبَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا، وَلَكِنَّهُ أَبْهَمَهُ وَلَمْ يَجِئْ مِنْ طَرِيقِ
صَحِيحٍ عَنِ مَعْصُومِ بَيَّانِهِ، فَتَحَنَّنْ نُبْهَمُهُ كَمَا أَبْهَمَهُ اللَّهُ،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَآكَ يُعْنِي اللَّهُ الْمَوْتُ﴾ أَي فَضْرُبُوهُ
فَحَيِّ، وَتَبَّه تَعَالَى عَلَى قُدْرَتِهِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بِمَا شَاهَدُوهُ
مِنْ أَمْرِ الْقَبِيلِ، جَعَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ الصَّنِيعَ حُجَّةً لَهُمْ
عَلَى الْمَعَادِ، وَفَاصِلًا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَالْعِنَادِ.

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِمَّا خَلَقَهُ مِنْ إِحْيَاءِ
الْمَوْتَى فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ ﴿ثُمَّ بَمَثَلِكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾
وَهَذِهِ الْوَصْفَةُ، وَوَصْفَةُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ الْأَوْفُ
حَذَرَ الْمَوْتِ، [البقرة: ٢٤٣] وَوَصْفَةُ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، [البقرة: ٢٥٩] وَوَصْفَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ وَالطُّبُورِ الْأَرْبَعَةِ، [البقرة: ٢٦٠] وَتَبَّه تَعَالَى بِإِحْيَاءِ
الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ صَبْرُورَتِهَا
رَمِيمًا. وَشَاهِدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ
أَحْيَايَهَا وَأَخْرَجَ مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ بِأَكْثَرٍ﴾ [٢٣] وَجَعَلْنَا فِيهَا
جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَنْزَلْنَا فِيهَا مِنَ الْعَبُورِ ﴿٢٤﴾ لِيَأْكُلُوا
مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥]
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً
وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّقُ
فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
بِقَدِيرٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٧٤]

[بَيَانُ قَسْوَةِ قُلُوبِ الْيَهُودِ]

يَقُولُ تَعَالَى تَوْبِيحًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ عَلَى مَا
شَاهَدُوهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ
قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كَلِّهِ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا تَلِينُ
أَبَدًا، وَلِهَذَا نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مِثْلِ حَالِهِمْ، فَقَالَ:
﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ

الْأَمَدُ فَكَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَسَقَاتُ﴾ [الحديد: ١٦]
قَالَ الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا ضُرِبَ
الْمَقْتُولُ بِبَعْضِ الْبَقْرَةِ جَلَسَ أَحْيَا مَا كَانَ قَطًّا، فَقِيلَ
لَهُ: مَنْ قَتَلَكَ؟ قَالَ: بَنُو أَحِي قَتَلُونِي، ثُمَّ قُضِيَ.
فَقَالَ بَنُو أَحِيهِ حِينَ قَبَضَهُ اللَّهُ: وَاللَّهِ مَا قَتَلْنَا، فَكَذَّبُوا
بِالْحَقِّ بَعْدَ أَنْ رَأَوْهُ، فَقَالَ اللَّهُ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ﴾، يَعْنِي أَبْنَاءَ أَحِي الشَّيْخِ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ
قَسْوَةً﴾^(٤). فَصَارَتْ قُلُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ طَوْلِ الْأَمَدِ
قَاسِيَةً بَعِيدَةً عَنِ الْمَوْعِظَةِ بَعْدَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ
وَالْمُعْجِزَاتِ، فَهِيَ فِي قَسْوَتِهَا كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا عِلَاجَ
لِلْيَنَابِ، أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ، فَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ مَا
يَتَفَجَّرُ مِنْهَا الْعُيُونُ بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، وَمِنْهَا مَا يَشَقُّقُ
فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَارِيًا، وَمِنْهَا مَا يَهْبِطُ مِنْ
رَأْسِ الْجَبَلِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَفِيهِ إِذْرَاكٌ لِذَلِكَ بِحَسَبِهِ. كَمَا
قَالَ: ﴿سُجِّحَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يُسْحَبُ بِحَبْرِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾
وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ
لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أَي وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لِأَلْبِنِ
مِنْ قُلُوبِكُمْ عَمَّا تَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ﴾^(٥).

[وُجُودُ قُوَّةِ الْإِذْرَاكِ فِي الْجَمَادَاتِ]

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ، وَهُوَ إِسْنَادُ
الْخُشُوعِ إِلَى الْحِجَارَةِ، كَمَا أُسْنِدَتْ الْإِرَادَةُ إِلَى الْجِدَارِ
فِي قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَبْقُضَ﴾ [الكهف: ٧٧] قَالَ الرَّازِيُّ
وَالْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ. وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا، فَإِنَّ
اللَّهَ تَعَالَى يَخْلُقُ فِيهَا هَذِهِ الصَّفَةَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وَقَالَ: ﴿سُجِّحَ لَهُ السَّمَوَاتُ
السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ الْآيَةَ. [الإسراء: ٤٤] وَقَالَ:
﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا
خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ يَنْفَعِيوُنَّ ظِلْمَهُ﴾ الْآيَةَ [النحل: ٤٨] ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا

(١) الطبري: ٢٢٥/٢ (٢) الطبري: ٢٢٥/٢ (٣) ابن أبي
حاتم: ٢٢٩/١ (٤) الطبري: ٢٣٤/٢ العوفي مع عائلته
ضعفاء. (٥) ابن أبي حاتم: ٢٣٣/١ إسناده ضعيف لتدليس
محمد بن إسحاق وجهالة محمد بن أبي محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
 وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَا فِي وَإِنْ هُمْ
 إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
 ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
 قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ
 ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
 أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَأَمْ يَقُولُونَ
 عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
 وَأَحْطَتْ بِهَا حَبَطَتْ بِهَا حَبْطَ حَبِّ السَّيِّئَةِ فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
 فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
 أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدِينَ
 إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
 لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
 تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

[قَطَعَ الطَّمَعُ فِي إِيْمَانِ يَهُودِ زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَنْظَمُونَ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا
 لَكُمْ﴾ أَيُّ نِقَادِ لَكُمْ بِالطَّاعَةِ هَوْلًا لِّلْفِرْقَةِ الضَّالَّةِ مِنْ
 الْيَهُودِ الَّذِينَ شَاهَدُوا آبَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مَا
 شَاهَدُوهُ، ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴿وَقَدْ كَانَ
 قَرِيبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهَا﴾ أَيُّ يَتَأَوَّلُونَهُ
 عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أَيُّ فَهَمُوهُ عَلَى
 الْجَلِيلَةِ، وَمَعَ هَذَا يُخَالِفُونَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
 أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ تَحْرِيفِهِ وَتَأْوِيلِهِ؟ وَهَذَا
 الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ بِمِيثَاقِهِمْ لَعْنَتَهُمْ
 وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾
 [المائدة: ١٣] قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ

طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جِبَلٍ﴾
 الآية [الحشر: ٢١]: ﴿وَقَالُوا لِيُجَادِبَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا
 أَنْطَقَنَا اللَّهُ﴾ الآية [فصلت: ٢١]، وَفِي الصَّحِيحِ: «هَذَا
 جِبَلٌ يُحِثُّنَا وَنُحِثُهُ»^(١).

وَكَحَنَيْنِ الْجِنِّعِ الْمُتَوَاتِرِ خَبِيرُهُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ:
 «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ،
 إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»^(٢). وَفِي صِفَةِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ: «إِنَّهُ يَشْهَدُ
 لِمَنْ اسْتَلَمَ بِحَقِّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣). وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِي مَعْنَاهُ.

(تَنْبِيهُ) اِخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] بَعْدَ الْإِجْمَاعِ
 عَلَى اسْتِحَالَةِ كَوْنِهَا لِلشَّكِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوْ هُنَا بِمَعْنَى
 الْوَاوِ، تَقْدِيرُهُ: فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ وَأَشَدُّ قَسْوَةً، كَقَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمْ مَاءً أَوْ كُفْرًا﴾ [الإنسان: ٢٤]
 ﴿عُدًّا أَوْ نُدْرًا﴾ [المرسلات: ٦] وَقَالَ آخَرُونَ: أَوْ هُنَا
 بِمَعْنَى بَلْ، فَتَقْدِيرُهُ: فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ بَلْ أَشَدُّ قَسْوَةً،
 وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا فُرِغَ مِنْهُمْ مِنْهُمْ يُخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ
 خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْنَا آيَةً أَوْ
 نَزِيرًا﴾ [الصافات: ١٤٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾
 [النجم: ٩]. وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ
 أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عِنْدَكُمْ، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ:
 مَعْنَى ذَلِكَ فَقُلُوبُكُمْ لَا تَخْرُجُ عَنْ أَحَدِ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ، إِمَّا
 أَنْ تَكُونَ مِثْلَ الْحِجَارَةِ فِي الْقَسْوَةِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَشَدَّ
 مِنْهَا فِي الْقَسْوَةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمَعْنَى ذَلِكَ عَلَى هَذَا
 التَّأْوِيلِ، فَبَعْضُهَا كَالْحِجَارَةِ قَسْوَةً، وَبَعْضُهَا أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ
 الْحِجَارَةِ^(٤)؛ وَقَدْ رَجَحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ مَعَ تَوْجِيهِ غَيْرِهِ.

(قُلْتُ): وَهَذَا الْقَوْلُ الْأَخِيرُ يَبْقَى شَبِيهًُا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] مَعَ قَوْلِهِ:
 ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَصَبْإٍ بِحَيْعَةٍ﴾ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَطَلْمِثٍ فِي
 بَحْرِ لَيْحٍ﴾ الآية [النور: ٣٩، ٤٠]، أَيُّ إِنْ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ
 هَكَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ هَكَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ
 كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
 يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥] وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا
 بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتَّخَذْتُمُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
 لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ

(١) فتح الباري: ٩٨/٦ وانظر الفخر الرازي: ١٣٠/٣ (٢)
 مسلم: ١٧٨٢/٤ (٣) أحمد: ٢٦٦/١ (٤) الطبري: ٢٣٦/٢

وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾^(١) قَالَ: كَانَ مَا أَسْرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَوَلَّوْا عَنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَخَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: تَنَاهَا أَنْ يُخْبِرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا فِي كِتَابِهِمْ خَشِيَةَ أَنْ يُحَاجَّهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا فِي كِتَابِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ^(٢) ﴿وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي حِينَ قَالُوا لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿أَمَّا﴾. كَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ^(٣).

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ﴾^(٤) قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَسْمَعُوا بِهِ. ثُمَّ قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُبُونَ^(٥) ﴿

[مَعْنَى الْأُمِّيِّ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ أَيِّ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. قَالَه مُجَاهِدٌ. وَالْأُمِّيُونَ جَمْعُ أُمِّيٍّ، وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ. قَالَه أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أَيُّ لَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ^(٦). وَلِهَذَا فِي صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ أُمِّيٌّ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُو مِنْ قَلْبِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِسَبِيلِكَ إِذَا لَزَمْتَ الْمَبْطُلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هُكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» الْحَدِيثُ^(٧). أَيُّ لَا نَقْتَرُ فِي عِبَادَاتِنَا وَمَوَاقِيَتِنَا إِلَى كِتَابٍ وَلَا حِسَابٍ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

[تَفْسِيرُ الْأَمَانِيِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ يَقُولُ: إِلَّا قَوْلًا يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ كَذِبًا^(٨). وَقِيلَ: إِلَّا أَمَانِيَّ يَتَمَتَّنُونَهَا.

مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَوَعَوْهُ^(٩). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الَّذِينَ يُحْرَفُونَهُ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَهُ هُمُ الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ^(١٠). وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُحْرَفُونَهَا﴾ قَالَ: التَّوْرَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ يُحْرَفُونَهَا، يَجْعَلُونَ الْحَلَالَ فِيهَا حَرَامًا وَالْحَرَامَ فِيهَا حَلَالًا، وَالْحَقَّ فِيهَا بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ فِيهَا حَقًّا، إِذَا جَاءَهُمُ الْمُحِقُّ بِرِسْوَةِ أَخْرَجُوا لَهُ كِتَابَ اللَّهِ، وَإِذَا جَاءَهُمُ الْمُبْطِلُ بِرِسْوَةِ أَخْرَجُوا لَهُ ذَلِكَ الْكِتَابَ، فَهُوَ فِيهِ مُحِقٌّ، وَإِذَا جَاءَهُمْ أَحَدٌ يَسْأَلُهُمْ شَيْئًا لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ وَلَا رِسْوَةٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ بِالْحَقِّ. فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿أَتَأْتِرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَسْتَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]^(١١).

[الْيَهُودُ كَانُوا يُقِرُّونَ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا يُؤْمِنُونَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ الْآيَةُ، رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أَيُّ أَنَّ صَاحِبَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَيْكُمْ خَاصَّةٌ^(١٢). وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا: لَا نَحْدُثُوا الْعَرَبَ بِهَذَا، فَإِنَّكُمْ قَدْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ مِنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ تَقْرُونَ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ قَدْ أَخَذَ لَهُ الْمِيثَاقَ عَلَيْكُمْ بِاتِّبَاعِهِ. وَهُوَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي كُنَّا نَنْتَظِرُ وَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا، إِجْحَادُهُ وَلَا تَقْرُوا بِهِ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٦] روى عبدالرزاق عن قتادة: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ: سَيَكُونُ نَبِيٌّ فَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾^(١٣).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ كَانُوا إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا بَعْضُهُمْ: لَا نَحْدُثُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، مِمَّا فِي كِتَابِكُمْ، لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَيُخْصِمُوكُمْ^(١٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: يَعْنِي مَا أَسْرُوا مِنْ كُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَكْذِيبِهِمْ بِهِ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ.

(١) ابن أبي حاتم: ٢٣٦/١ (٢) الطبري: ٢٤٥/٢ (٣) الطبري: ٢٤٦/٢ (٤) الطبري: ٢٥٠/٢ إسناده ضعيف لتدليس ابن إسحاق ووجه أخرى. (٥) تفسير عبدالرزاق ٥٠/١ وسنده صحيح (٦) ابن أبي حاتم: ٢٣٩/١ (٧) ابن أبي حاتم: ١/٢٤٠ (٨) ابن أبي حاتم: ١/٢٤٠ (٩) ابن أبي حاتم: ١/٢٤١ (١٠) فتح الباري: ١٥١/٤ (١١) الطبري: ٢٦١/٢

لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ: أَنَّهُمْ لَنْ تَمْسَهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، ثُمَّ يَنْجُونَ مِنْهَا. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أَيِّ بِذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ عَهْدٌ فَهُوَ لَا يُخْلِفُ عَهْدَهُ، وَلَكِنْ هَذَا مَا جَرَى وَلَا كَانَ، وَلِهَذَا أَتَى بِ«أَمْ» الَّتِي بِمَعْنَى بَلْ، أَيِّ بَلْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكُذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ أَلْهُودٌ قَالُوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً^(٨). زَادَ غَيْرُهُ: وَهِيَ مُدَّةُ عِبَادَتِهِمْ الْعَجَلِ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُودِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا فَتِحَتْ خَيْبَرَ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، شَاةٌ فِيهَا سَمٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ هَهُنَا». فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟» قَالُوا: فُلَانٌ، قَالَ: «كَذَّبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ». فَقَالُوا: صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيٌّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي آيَاتِنَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» فَقَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُقُونَا فِيهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِحْسِنُوا وَاللَّهِ لَا تَخْلُقُكُمْ فِيهَا أَبَدًا». ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيٌّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟» فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟» فَقَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا أَنْ نَسْتَبْرِحَ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا لَمْ يَصْرُكَ^(٩). وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ خَرِّيبَةَ وَالنَّسَائِيُّ بِنَحْوِهِ^(١٠).

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ يَقُولُ تَعَالَى: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَمَنِّيْتُمْ وَلَا كَمَا تَسْتَهْتَهُونَ،

قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يَعْقَهُونَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُوسَى شَيْئًا، وَلَكِنَّهُمْ يَتَخَرَّصُونَ الْكُذِبَ، وَيَتَخَرَّصُونَ الْأَبَاطِيلَ كَذِبًا وَزُورًا^(١١). وَالتَّمَنَّى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ تَخَلُّقُ الْكُذِبِ وَتَخَرُّصُهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَتْلُوتُونَ﴾ يَكْذِبُونَ^(١٢). وَقَالَ قَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ: يَتْلُوتُونَ بِاللَّهِ الطُّتُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ^(١٣).

[وَيْلٌ لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الْمُحَرِّفِينَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُوبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ مَمْنًا قَلِيلًا﴾... الْآيَةِ، هَؤُلَاءِ صِنْفٌ آخَرَ مِنَ الْيَهُودِ، وَهُمْ الدُّعَاةُ إِلَى الضَّلَالِ بِالزُّورِ وَالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ، وَأَكَلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ. وَالْوَيْلُ: الْهَلَاكُ وَالذَّمَارُ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مَشْهُورَةٌ فِي اللُّغَةِ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ أَحَدُتُمْ أَخْبَارِ اللَّهِ، تَقْرُؤُونَهُ غَضًا لَمْ يُشَبَّ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لِيَشْتَرُوا بِهِ مَمْنًا قَلِيلًا، أَفَلَا يَبْهَتُهُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدًا قَطُّ سَأَلَكُمْ عَنِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ^(١٤). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١٥). وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ: الْكُتْمُ الْقَلِيلُ: الدُّنْيَا بِحَدِّافِيرِهَا^(١٦).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ أَيُّ قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُذِبِ وَابْتِهَانِ وَالْإِفْتِرَاءِ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا أَكَلُوا بِهِ مِنَ السُّخْتِ، كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿قَوْلٌ لَهُمْ﴾ يَقُولُ: فَالْعَذَابُ عَلَيْهِمْ مِنَ الَّذِي كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْكُذِبِ، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ يَقُولُ: مِمَّا يَأْكُلُونَ بِهِ النَّاسَ السَّفَلَةَ وَغَيْرَهُمْ^(١٧).

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ

اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾

[مِنْ أَمَانِيِّ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ لَا يَمْكُتُونَ فِي النَّارِ إِلَّا أَيَّامًا

مَعْدُودَةً]

يَقُولُ تَعَالَى إِجْبَارًا عَنِ الْيَهُودِ فِيمَا نَقَلُوهُ وَادَّعَوْهُ

(١) الطبري: ٢٦٢/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١ (٥) فتح الباري: ٣٤٤/٥ و٣٤٥/١٣ و٥٥٥ (٦) ابن أبي حاتم: ١/٢٤٧ (٧) الطبري: ٢٧٣/٢ الضحاك عن ابن عباس مرسل.

(٨) الطبري: ٢٧٦/٢ ضعف للعوفي وعائلته. (٩) دلائل النبوة: ٢٥٦/٤ (١٠) أحمد: ٤٥١/٢ وفتح الباري: ٣١٤/٦ والنسائي في الكبرى: ٤١٣/٦

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

١٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
 ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا
 مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ
 وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهَلْ يُعْرَفُ مِنْكُمْ
 إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ
 وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ
 بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
 بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ
 اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
 قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

[ميثاق بني إسرائيل]

يُذَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ
 الْأَمْرِ، وَأَخَذَهُ مِيثَاقَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَنْهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ
 كُلِّهِ، وَأَعْرَضُوا قَضًا وَعَمْدًا، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ، وَيَذَكِّرُونَهُ،
 فَأَمَرَهُمْ تَعَالَىٰ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِهَذَا أَمَرَ
 جَمِيعَ خَلْقِهِ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا
 مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾
 [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ
 رَسُولًا أَنْبِئُوا بِحُجُوبِ اللَّهِ وَاجْعَلُوا الطَّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]
 وَهَذَا هُوَ أَعْلَىٰ الْحُقُوقِ وَأَعْظَمُهَا، وَهُوَ حَقُّ اللَّهِ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَىٰ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

ثُمَّ بَعْدَهُ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ، وَآكَدُهُمْ وَأَوْلَاهُمْ بِذَلِكَ حَقٌّ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٥٢/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٥٢/١ (٣)

ابن أبي حاتم: ٢٥٣/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٥٣/١ (٥)

أحمد: ٤٠٢/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٢٥٤/١ إسناده ضعيف
 لتدليس ابن إسحاق وجهالة محمد بن أبي محمد.

بَلِ الْأَمْرُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً، وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَهُوَ مَنْ
 وَافَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، بَلْ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ
 سَيِّئَاتٌ، فَهَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ﴾ أَيَّ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،
 مِنَ الْعَمَلِ الْمُوَافِقِ لِلشَّرِيعَةِ، فَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهَذَا
 الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ
 الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْرَىٰ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وَمَنْ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ
 أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبِيعًا ﴿
 [النساء: ١٢٣، ١٢٤] وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو وَاثِلٍ وَعَطَاءُ
 وَالْحَسَنُ: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قَالَ: أَحَاطَ بِهِ
 شِرْكُهُ^(١). وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي رَزِينٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ حُثَيْمٍ
 ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قَالَ: الَّذِي يَمُوتُ عَلَىٰ خَطِيئَةٍ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتُوبَ^(٢). وَعَنْ الشَّدِيِّ وَأَبِي رَزِينٍ نَحْوَهُ^(٣).
 وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُمَا، وَقَتَادَةُ
 وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ الْمَوْجِبَةُ
 الْكَبِيرَةُ^(٤). وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ.

[مُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ إِذَا اجْتَمَعْنَ يُهْلِكُنَّ]

وَيُذَكِّرُ هَهُنَا الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ
 ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِبَائِكُمْ
 وَمُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَخْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّىٰ يَهْلِكُنَّهُ»
 وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا «كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِأَرْضِ
 فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ
 بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّىٰ جَمَعُوا سَوَادًا،
 وَأَجَّجُوا نَارًا فَأَنْضَجُوا مَا قَدَّفُوا فِيهَا»^(٥). وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ
 إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيُّ مَنْ آمَنَ بِمَا
 كَفَرْتُمْ وَعَمِلَ بِمَا تَرَكْتُمْ مِنْ دِينِهِ، فَلَهُمُ الْجَنَّةُ ﴿خَالِدِينَ
 فِيهَا﴾، يُخْرِجُهُمْ: أَنَّ الثَّوَابَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرُّ مُقِيمٌ عَلَىٰ
 أَهْلِهِ أَبَدًا لَا انْقِطَاعَ لَهُ^(٦).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَإِلَٰهِيْنَ

إِحْسَانًا وَدَىٰ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَوَلُؤْلُقًا لِلنَّاسِ حُسْنًا

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا

مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦] قَامَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَمْ تَقُمْ بِهِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَهَا، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَّالَاءُ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهِيَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسَدُّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُهُمْ اللَّهُ الْعَذَابِ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [نبؤد الميثاق، وَنَقَضَهُمْ لَهُ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَمَا كَانُوا يُعَاوَنُوهُ مِنَ الْقِتَالِ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجِ، وَهُمْ الْأَنْصَارُ، كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عِبَادَ أَصْنَامٍ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ، وَكَانَتْ يَهُودُ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَ قَبَائِلَ: بَنُو قَيْنِقَاعَ. وَبَنُو النَّضِيرِ: حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ. وَبَنُو فُرَيْطَةَ: حُلَفَاءُ الْأَوْسِ. فَكَانَتْ الْحَرْبُ إِذَا تَنَبَّهَتْ بَيْنَهُمْ، قَاتِلَ كُلُّ فَرِيقٍ مَعَ حُلَفَائِهِ، فَقَتَلُ الْيَهُودِيَّ أَعْدَاءَهُ، وَقَدْ يَقْتُلُ الْيَهُودِيَّ الْآخَرَ - مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرَ - وَذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَنَصَّ كِتَابِهِمْ، وَخُرُوجَهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ، وَبَيْتَهُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَثَاثِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْأَمْوَالِ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتْ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا اسْتَفْتَكُوا الْأَسَارَى مِنَ الْفَرِيقِ الْمَغْلُوبِ - عَمَلًا بِحُكْمِ التَّوْرَةِ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أَيُّ لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يُخْرِجُهُ مِنْ مَنْزِلِهِ، وَلَا يَظَاهِرُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَوَبَّأْ إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْمِلَّةِ الْوَاحِدَةِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُؤِهِمْ

الْوَالِدِينَ، وَلِهَذَا يَقْرَنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَ حَقِّهِ وَحَقِّ الْوَالِدِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى النَّصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿وَوَاتِ ذَا الْقَرْبَى حَقًّا وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٦] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفَيْهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

قَالَ: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وَهُمْ الصَّغَارُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ مِنَ الْأَبَاءِ، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَسَيَّاتِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَافِ عِنْدَ آيَةِ النَّسَاءِ الَّتِي أَمَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾... آيَةِ [النساء: ٣٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أَيُّ كَلِمَتُهُمْ طَيِّبًا، وَلَيُّوْا لَهُمْ جَانِبًا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالتَّهْيِي عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: فَالْحَسَنُ مِنَ الْقَوْلِ: يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَحْلُمُ وَيَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ حُسْنًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ، وَهُوَ كُلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ^(٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَخْفَرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَالْقُ أَخَاكَ بِوَجْهِ مُطْلَقِي». وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ^(٣).

وَنَاسَبَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِأَنْ يَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا بَعْدَ مَا أَمَرَهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِالْفِعْلِ، فَجَمَعَ بَيْنَ طَرَفَيْ الْإِحْسَانِ الْفِعْلِيِّ وَالْقَوْلِيِّ. ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِعِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ بِالْمُتَعَيَّنِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالرِّزْقَةُ، فَقَالَ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَيُّ تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِتَطْيِيرِ ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ بِقَوْلِهِ ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقَرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

(١) فتح الباري: ٥/٦ ومسلم: ٨٩/١ (٢) ابن أبي حاتم: ١/٢٥٨ (٣) أحمد: ١٧٣/٥ ومسلم: ٢٠٢٦/٤ وتحفة الأحوذى:

وَتَوَاصِلِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ غَضُوهُ
تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهْرِ^(١).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفْرَزْتُمْ وَأَسْتَرْتُمْ فَتَشْهَدُونَ﴾ أَيُّ ثُمَّ
أَفْرَزْتُمْ بِمَعْرِفَةِ هَذَا الْمِيثَاقِ وَصِحَّتِهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ بِهِ.
﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مَن
يَذَرُهُمْ﴾... الْآيَةُ، رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنِ
ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا
مِنْكُمْ مَن يَذَرُهُمْ﴾... الْآيَةُ^(٢). قَالَ: أَنْبَأَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ مِنْ
فِعْلِهِمْ، وَكَذَلِكَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ سَفْكَ دِمَائِهِمْ، وَافْتَرَضَ
عَلَيْهِمْ فِيهَا فِدَاءَ أَسْرَاهُمْ، فَكَانُوا فَرِيقَيْنِ: طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بَنُو
قَيْنُقَاعَ، وَهُمْ حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ وَالنَّضِيرِ، وَقَرِظَةٌ، وَهُمْ
حُلَفَاءُ الْأَوْسِ. فَكَانُوا إِذَا كَانَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ
حَرْبٌ خَرَجَتْ بَنُو قَيْنُقَاعَ مَعَ الْخَزْرَجِ، وَخَرَجَتْ النَّضِيرُ
وَقَرِظَةٌ مَعَ الْأَوْسِ، يُظَاهِرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ حُلَفَاءَهُ
عَلَى إِخْوَانِهِ، حَتَّى تَسَافَكُوا دِمَاءَهُمْ بَيْنَهُمْ، وَيَأْبُدِيهِمُ التَّوْرَةُ
يَعْرِفُونَ فِيهَا مَا عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ، وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَهْلُ
شِرْكِ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَلَا يَعْرِفُونَ جَنَّةَ وَلَا نَارًا وَلَا بَعْتًا
وَلَا قِيَامَةً، وَلَا كِتَابًا، وَلَا حَلَالًا وَلَا حَرَامًا، فَإِذَا وَضَعَتْ
الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، إِفْتَدَوْا أَسْرَاهُمْ، تَصْدِيقًا لِمَا فِي التَّوْرَةِ
وَأَخْذًا بِهِ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَغْتَدِي بَنُو قَيْنُقَاعَ مَا كَانَ مِنْ
أَسْرَاهُمْ فِي أَيْدِي الْأَوْسِ، وَيَفْتَدِي النَّضِيرُ وَقَرِظَةٌ مَا كَانَ
فِي أَيْدِي الْخَزْرَجِ مِنْهُمْ، وَيَطْلُبُونَ مَا أَصَابُوا مِنْ دِمَائِهِمْ،
وَقَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنْهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُظَاهَرَةً لِأَهْلِ الشَّرْكِ
عَلَيْهِمْ، يَقُولُ اللَّهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - حَيْثُ أَنْبَأَهُمْ بِذَلِكَ:
﴿أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أَيُّ تُفَادُونَهُمْ
بِحُكْمِ التَّوْرَةِ، وَتَقْتُلُونَهُمْ، وَفِي حُكْمِ التَّوْرَةِ: أَنْ لَا يَقْتُلَ
وَلَا يُخْرَجَ مِنْ دَارِهِ، وَلَا يُظَاهَرَ عَلَيْهِ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ
وَيَعْبُدُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِهِ، إِنْغِيَاءَ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فَفِي ذَلِكَ مِنْ
فِعْلِهِمْ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ - فِيمَا بَلَغَنِي - نَزَلَتْ هَذِهِ
الْفِصَّةُ.

وَالَّذِي أَرَشَدَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَهَذَا السِّيَاقُ: دَمَّ
الْيَهُودِ فِي قِيَامِهِمْ بِأَمْرِ التَّوْرَةِ الَّتِي يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا،
وَمُخَالَفَةَ شَرْعِهَا، مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ بِذَلِكَ وَشَهَادَتِهِمْ لَهُ
بِالصَّحَّةِ، فَلِهَذَا لَا يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا عَلَى نَقْلِهَا،
وَلَا يُصَدِّقُونَ فِيمَا كَتَمُوهُ مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَعْتِيهِ
وَمَبْعَثِهِ، وَمُخْرَجِهِ وَمُهَاجِرِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُؤُونِهِ الَّتِي

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَوَقَّعْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا
عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تُهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ﴾^(٣)

[اسْتِكْبَارُ الْيَهُودِ وَتَكْذِيبُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَقَتْلُهُمْ إِيَّاهُمْ]
بِنَعْتِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْعَتُوِّ وَالْعِنَادِ
وَالْمُخَالَفَةِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ
أَهْوَاءَهُمْ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَى مُوسَى الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَةُ،
فَحَرَّفُوهَا وَبَدَّلُوهَا، وَخَالَفُوا أَمْرَهَا وَأَوْلُوهَا، وَأَرْسَلَ
الرُّسُلَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِشَرِيعَتِهِ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا
الْنَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا
اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾... الْآيَةُ
[المائدة: ٤٤]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
بِالرُّسُلِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ: أُتْبِعْنَا^(٣). وَقَالَ
غَيْرُهُ: أُرْدَفْنَا. وَالْكُلُّ قَرِيبٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا
رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

حَتَّى خَتَمَ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَجَاءَ
بِمُخَالَفَةِ التَّوْرَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ، وَلِهَذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ
الْبَيِّنَاتِ، وَهِيَ الْمُعْجِزَاتُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ إِخْبَاءِ
الْمَوْتَى، وَخَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ

(١) مسلم: ١٩٩٩/٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦١/١ إسناده
ضعيف لتدليس ابن إسحاق وجهالة شبخه. (٣) ابن أبي حاتم:

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

١٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾
 بِسْمَا أَسْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَعِضَابٌ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٨٢﴾
 وَإِذْ أُقِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالَ لَوْ تَوَدُّونَ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾
 وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٨٤﴾
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قُلُوبًا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَا مُّرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَيْلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أَي فِي أَكْتَةِ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [عَلَيْهَا] غِشَاوَةٌ^(٢) وَقَالَ عِكْرِمَةُ: عَلَيْهَا طَابَعٌ^(٣). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَي لَا تَفْقَهُ^(٤). قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ (غُلْفٌ)، بِضَمِّ اللَّامِ، وَهُوَ جَمْعٌ

طَبْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ، وَإِبْرَاءِ الْأَسْقَامِ، وَإِخْبَارِهِ بِالْعُيُوبِ^(١)، وَتَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ. فَاسْتَدَّتْ تَكْذِيبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ، وَحَسَدُهُمْ وَعِنَادُهُمْ لِمُخَالَفَةِ التَّوْرَةِ فِي الْبَعْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ عِيسَى: ﴿وَلَا حِجْدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُمُ بِبَابِي مِنَ رَبِّكُمْ﴾... الْآيَةَ [آل عمران: ٥٠]، فَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُعَامِلُ الْأَنْبِيَاءَ أَشْوَأَ الْمُعَامَلَةِ، فَفَرِيقًا يَكْذِبُونَهُ، وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَهُ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَأْتُونَهُمْ بِالْأُمُورِ الْمُخَالَفَةِ لِأَهْوَائِهِمْ وَأَرْزَائِهِمْ، وَبِالْإِزْمَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ الَّتِي قَدْ تَصَرَّفُوا فِي مُخَالَفَتِهَا، فَلِهَذَا كَانَ ذَلِكَ يَسْقُ عَلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوهُمْ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

[رُوحُ الْقُدُسِ هُوَ جِبْرِيلُ]

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ هُوَ جِبْرِيلُ - كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ^(٢)، وَتَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ خَالِدٍ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَقَتَادَةُ^(٣) مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٨٥﴾ عَلَىٰ فَلَاحِكٍ لِيَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] -: مَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَضَعَ لِحْسَانَ ابْنِ ثَابِتٍ مِثْبَرًا فِي الْمَسْجِدِ، فَكَانَ يُنْفِخُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَيُّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ كَمَا نَافِخُ عَنْ نَبِيِّكَ»^(٤). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ^(٥) وَالتِّرْمِذِيُّ^(٦)، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَفِي صَحِيحِ ابْنِ جِبَّانَ^(٧)، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَتْ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»^(٨).

[اسْتَمْرَارُ الْيَهُودِ فِي مُحَاوَلَةِ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ]

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: وَفَرِيقًا قَتَلْتُمْ، لِأَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ وَضْفَهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا، لِأَنَّهُمْ حَاوَلُوا قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ بِالسِّحْرِ وَالسَّحْرِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: «مَا زِلْتُ أَكَلَّةَ خَيْرٍ تُعَاوِدُنِي فَهَذَا أَوْانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي»^(٩). (قُلْتُ): وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ^(١٠) وَغَيْرِهِ^(١١).

(١) ابن أبي حاتم: ٢٦٨/١ إسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦٩/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٠ (٤) فتح الباري: ١٠/٥٦٢ (٥) أبو داود: ٥/٢٧٩ (٦) تحفة الأحوذى: ٨/١٣٧ (٧) لم يروه ابن حبان عن ابن مسعود كما ظن المصنف بل هو عند ابن حبان من حديث جابر بمعناه. (٨) السنة: ١٤/٣٠٤ (٩) ابن عدي: ٣/١٢٣٩ (١٠) إنما رواه البخاري معلقًا فكان ينبغي تقييده. (١١) فتح الباري: ٧/٧٣٧ (١٢) الطبري: ٢/٣٢٦ إسناده ضعيف لضعف ابن حميد وسلمة بن الفضل وجهالة محمد بن أبي محمد (١٣) الطبري: ٢/٣٢٦ (١٤) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٤ (١٥) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٣

الْبِرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ أَخُو بَنِي سَلَمَةَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْلِمُوا، فَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَنَحْنُ أَهْلُ شِرْكٍ، وَتُخْبِرُونَنَا بِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ، وَتَصِفُونَهُ بِصِفَتِهِ، فَقَالَ سَلَامٌ بْنُ مِشْكَمٍ أَخُو بَنِي النَّضِيرِ: مَا جَاءَنَا بِشَيْءٍ نَعْرِفُهُ، مَا هُوَ الَّذِي كُنَّا نَذْكُرُ لَكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾... آيَةٌ (٣). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَانَتْ الْيَهُودُ تَسْتَنْصِرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ابْعَثْ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي نَجِدُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَنَا حَتَّى نُعَذِّبَ الْمُشْرِكِينَ وَنَقْتُلَهُمْ. فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَرَأَوْا أَنَّهُ مِنْ غَيْرِهِمْ، كَفَرُوا بِهِ، حَسَدًا لِلْعَرَبِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٤).

﴿يُسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٥)

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠] يَهُودٌ شَرَوْا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَكَيْفَانِ مَا جَاءَهُ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ بِأَنْ يَبِينُوهُ (٥). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿يُسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠] يَقُولُ: بَاعُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ (٦). يَقُولُ: يُسْمَا اعْتَصَمُوا لِأَنْفُسِهِمْ، فَرَضُوا بِهِ وَعَدَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ تَصْدِيقِهِ وَمُؤَاوَزَتِهِ وَنُصْرَتِهِ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْبُغْيِ وَالْحَسَدِ وَالْكَرَاهِيَةِ ﴿أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَلَا حَسَدَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْعُضْبِ عَلَى الْعُضْبِ: فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ فِيمَا كَانُوا ضَعُّوا مِنَ التَّوْرَةِ وَهِيَ مَعَهُمْ، وَغَضِبَ بِكُفْرِهِمْ بِهَذَا النَّبِيِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ (٧).

(قُلْتُ): وَمَعْنَى "بَاءُوا" اسْتَوْجَبُوا وَاسْتَحَقُّوا وَاسْتَفْرَعُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِالْإِنْجِيلِ وَعِيسَى، ثُمَّ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

(١) القرطبي: ٢٥/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٧٤/١ (٣) الطبري: ٣٣٣/٢ إسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد وضعف ابن حميد وسلمة بن الفضل (٤) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٦ (٥) الطبري: ٣٤٠/٢ (٦) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٧ (٧) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٩ شيخ ابن إسحاق مجهول

غِلَافٍ، أَي قُلُوبِنَا أَوْعِيَهُ كُلَّ عِلْمٍ، فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى عِلْمِكَ (١). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أَي طَرَدَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ (٢). ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] وهذا الذي رجحه ابن جرير وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ادَّعَوْا، بَلْ قُلُوبُهُمْ مَلْعُونَةٌ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَقَلِيلٌ مَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ. وَقِيلَ: فَقَلِيلٌ إِيْمَانُهُمْ. بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَلَكِنَّهُ إِيْمَانٌ لَا يَنْفَعُهُمْ، لِأَنَّهُ مَعْمُورٌ بِمَا كَفَرُوا بِهِ مِنَ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِشَيْءٍ، وَإِنَّمَا قَالَ: فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ بِالْحَجِيعِ كَافِرُونَ؟ كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: قَلَمَّا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا قَطُّ. تُرِيدُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا قَطُّ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨)

[كَانَتْ الْيَهُودُ تَنْتَظِرُ بَعَثَةَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَعَثَ كَفَرُوا بِهِ] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾، يَعْنِي الْيَهُودَ، ﴿كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ التَّوْرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي وَقَدْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ مَجِيءِ هَذَا الرَّسُولِ بِهَذَا الْكِتَابِ يَسْتَنْصِرُونَ بِمَجِيئِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا قَاتَلُوهُمْ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ سَيَبْعَثُ نَبِيًّا فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَامَ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ يَهُودَ كَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَجِيئِهِ، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَرَبِ، كَفَرُوا بِهِ وَجَحَدُوا مَا كَانُوا يَقُولُونَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَبِشْرُ بْنُ

يَكْفُرُهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِالْقُرْآنِ^(١). وَعَنْ عِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ
مِثْلُهُ^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لَمَّا
كَانَ كُفْرُهُمْ سَبَبَهُ الْبُغْيَ وَالْحَسَدَ، وَمَنْشَأُ ذَلِكَ التَّكْبِيرُ،
قَوْلُهُمْ بِالْإِهَانَةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَدِّحْلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أَي صَاغِرِينَ حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ
رَاغِبِينَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،
عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُحَسَّرُ
الْمُتَّكِبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الدَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلَمُهُمْ
كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ
لَهُ: بُولَسٌ، تَعْلَمُهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَاءِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ:
عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ»^(٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ
أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩١﴾ ﴿وَلَقَدْ
جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ
ظَالِمُونَ﴾ ﴿٩٢﴾

[إِدْعَاءُ الْيَهُودِ الْإِيمَانَ مَعَ كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَي لِلْيَهُودِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ،
وَصَدُوقُهُ وَأَتَّبِعُوهُ ﴿قَالُوا تَوْفُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أَي يَكْفِينَا
الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَلَا نَقْرُ إِلَّا
بِذَلِكَ ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ بِعَنِي بِمَا بَعْدَهُ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أَي وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا أَنْزَلَ عَلَى
مُحَمَّدٍ ﷺ الْحَقُّ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ مَنْصُوبًا عَلَى الْحَالِ،
أَي فِي حَالِ تَصَدِيقِهِ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ،
فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ
ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ أَي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ الْإِيمَانَ بِمَا
أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ، فَلِمَ قَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَاءَكُمْ بِتَصَدِيقِ
التَّوْرَةِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ وَالْحُكْمَ بِهَا وَعَدَمَ نَسْخِهَا، وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ صِدْقَهُمْ؟ فَتَلْتُمُوهُمْ بَعِيًا وَعِنَادًا وَاسْتِجْبَارًا عَلَى
رُسُلِ اللَّهِ، فَلَسْتُمْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا مُجْرَدَ الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ
وَالنَّشْهِيِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا
تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِحْتُمْ بِكَذِبَتُمْ وَقَرِحًا تَقْتُلُونَ﴾ وَقَالَ

السُّدِّيُّ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُعَيِّرُهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِمَ
تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي بِالْآيَاتِ
الْوَاضِحَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ هِيَ: الطُّوفَانُ وَالْجِرَادُ
وَالْقُمَّلُ وَالصَّفَادِعُ، وَالذَّمُّ، وَالْعَصَا، وَالْيَدُ، وَفَرْقُ
الْبَحْرِ، وَتَطْلِيلُهُمْ بِالْعَمَامِ وَالْمَنْ وَالسَّلْوَى، وَالْحَجْرُ،
وَعَبْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ
الْعِجْلَ﴾ أَي مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي زَمَانِ مُوسَى وَأَيَّامِهِ،
وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾، أَي مِنْ بَعْدِ مَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَى
الطُّورِ لِمُنَاجَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذْتُمْ
مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا﴾
[الأعراف: ١٤٨]، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، أَي وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
فِي هَذَا الصَّبِيحِ الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ. وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا سَقِطَ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا
وَيَغْفِرْ لَنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا
ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي
قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٢﴾

[عِضْيَانُ الْيَهُودِ بَعْدَ اخْتِذِ مِيثَاقِهِمْ وَرُؤْيِيهِمُ الطُّورَ فَوْقَ
رُؤْسِهِمْ]

يُعَدُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ خَطَأَهُمْ، وَمُخَالَفَتَهُمْ
لِلْمِيثَاقِ، وَعَتْوَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ، حَتَّى رَفَعَ الطُّورَ عَلَيْهِمْ
حَتَّى قَبِلُوهُ ثُمَّ خَالَفُوهُ، وَلِهَذَا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وَقَدْ
تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾
قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ
الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قَالَ: أُشْرِبُوا حُبَّهُ حَتَّى خَلَصَ ذَلِكَ إِلَى
قُلُوبِهِمْ^(٥). وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ^(٦). وَقَوْلُهُ:
﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي
بِئْسَمَا تَعْتَمِدُونَهُ فِي قَدِيمِ الذَّهْرِ وَحَدِيثِهِ مِنْ كُفْرِكُمْ بِآيَاتِ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٧٨/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٧٩/١ (٣)

أحمد: ١٧٩/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٨١/١ (٥) عبد الرزاق:

٥٢/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٢٨٣/١

الْحَقُّ

١٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾
 وَلَنْ يَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾
 وَلَنَجْذِيَهُمْ أَصْحَابَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ

أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَجَّبٍ مِنْهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
 قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَلِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾
 مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ

وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾
 أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهِدُوا عَهْدَ آبَائِهِمْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلَّ أَكْرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

تَعْمَلُونَ ﴿[الجمعة: ٦-٨] فَهُمْ عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ تَعَالَى، لَمَّا زَعَمُوا أَنََّّهُمْ أُنْبَاءُ اللَّهِ وَاجْتَاؤُهُ، وَقَالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، دُعُوا إِلَى الْمُبَاهَلَةِ وَالِدُعَاءِ عَلَى أَكْذِبِ الطَّائِفَتَيْنِ: مِنْهُمْ أَوْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا نَكَلُوا عَنْ ذَلِكَ، عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنََّّهُمْ ظَالِمُونَ. لِأَنََّّهُمْ لَوْ كَانُوا جَائِزِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ، لَكَانُوا أَقْدَمُوا عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا تَأَخَّرُوا عَلِمَ كَذِبُهُمْ.

وَهَذَا كَمَا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ وَقَدْ نَجَرَانِ مِنَ النَّصَارَى بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي الْمُنَاطَرَةِ، وَعُتُوهُمْ وَعِنَادِهِمْ، إِلَى الْمُبَاهَلَةِ، فَقَالَ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَقَالُوهَا نَبَأَ آبَائِكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاءُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ نَبَهَلْ فَتَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾ [آل

اللَّهُ، وَمُخَالَفَتِكُمْ الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ اغْتِمَادُكُمْ فِي كُفْرِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَهَذَا أَكْبَرُ ذُنُوبِكُمْ، وَأَشَدُّ الْأَمْرِ عَلَيْكُمْ، إِذْ كَفَرْتُمْ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ وَسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، الْمَبْعُوثُ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَكَيْفَ تَدْعُونَ لِأَنْفُسِكُمْ الْإِيمَانَ، وَقَدْ فَعَلْتُمْ هَذِهِ الْأَفَاعِيلَ الْقَبِيحَةَ: مِنْ تَقْضِيَتِكُمُ الْمَوَاتِيقِ، وَكُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَعِبَادَتِكُمُ الْعِجَلِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِيَهُمْ أَصْحَابَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَجَّبٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

[دَعْوَةُ الْيَهُودِ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ]

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي دُعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ أَكْذَبَ، فَأَبَوْا ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^(١). ﴿وَلَنْ يَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أَي يَعْلَمُهُمْ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِكَ وَالْكَفْرِ بِذَلِكَ، وَلَوْ تَمَنَّوَهُ يَوْمَ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ مَا بَقِيَ عَلَى الْأَرْضِ يَهُودِيٌّ إِلَّا مَاتَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿تَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ فَسَلُّوا الْمَوْتَ ^(٢). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عِكْرَمَةَ قَوْلَهُ: ﴿تَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ تَمَنَّى يَهُودُ الْمَوْتَ، لَمَاتُوا ^(٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَوْ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَشَرِقَ أَحَدُهُمْ بِرِيقِهِ ^(٤). وَهَذِهِ أُسَانِيدُ صَحِيحَةٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ فِي تَفْسِيرِهِ: وَبَلَعْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يِبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا» ^(٥).

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ ﴿قُلْ يَتَّخِذَهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَضِعْتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ وَلَا يَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي يَمُرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْكِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٨٤/١ ابن إسحاق مدلس وشيخه مجهول (٢) الطبري: ٣٦٦/٢ الضحاک لم يسمع من ابن عباس (٣) ابن أبي حاتم: ٢٨٥/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١/١ (٥) الطبري: ٣٦٢/٢

أَيَّ خَيْرٍ بَصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُ عِبَادُهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَسَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧) مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ

عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾

[عَدَاوَةُ الْيَهُودِ لِجِبْرِيلَ]

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّوَالِدِ جَمِيعًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا لِلْيَهُودِ مِنْ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَهُمْ، وَأَنَّ مِيكَائِيلَ وَلِيُّ لَهُمْ^(٦). قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قَالَ عِكْرَمَةُ: جِبْرُ وَمِيكَ وَإِسْرَافُ: عَبْدٌ. إِيلُ: اللَّهُ، ثُمَّ رَوَى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بِمَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي أَرْضِ يَحْتَرِفُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيُّ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الْوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ أَنفًا» قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَتَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ. وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامِ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَرِيَادَةُ كَبِدِ الْحَوْتِ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ، نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ» قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بِبَهْتُونِي، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ» قَالُوا: أَعَادَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. قَالُوا: هُوَ شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَانْتَقَصُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

عمران: [٦١] فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ لِبَعْضٍ: وَاللَّهِ لَئِنْ بَاهَلْتُمْ هَذَا النَّبِيَّ لَا يَبْقَى مِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرَفُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ، وَبَدَلُوا الْحِزْبَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ، فَضَرَبَهَا عَلَيْهِمْ، وَوَعَتْ مَعَهُمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ أَمِينًا. وَمِثْلُ هَذَا الْمَعْنَى أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَ تَدْعُهُ لَهُ الرِّهَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] أَيْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ مَدًّا وَمِنْكُمْ فَرَادَهُ اللَّهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ، وَمَدُّ لَهُ، وَاسْتَدْرَجَهُ، كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ فِي مَوْضِعِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ فَسَّرَتِ الْآيَةَ بِتَمَنِّي الْمَوْتِ دُونَ التَّعَرُّضِ لِلْمُبَاهَلَةِ. وَالْأَوَّلُ أَوْلَى.

وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةُ تَمَنِّيًا، لِأَنَّ كُلَّ مُحِقٍّ يُوَدُّ لَوْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُبْطِلَ الْمُنَاطِرَ لَهُ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ لَهُ فِي بَيَانِ حَقِّهِ وَظُهُورِهِ، وَكَانَتِ الْمُبَاهَلَةُ بِالْمَوْتِ، لِأَنَّ الْحَيَاةَ عِنْدَهُمْ عَزِيزَةً عَظِيمَةً لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ سُوءِ مَا لِيَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ.

[حِرْصُهُمْ عَلَى طَوْلِ الْعُمُرِ]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَسْتَوْهَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٧٩) وَلَنَجِدُهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ أَيْ عَلَى طَوْلِ الْعُمُرِ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ مَا لِيَهُمُ السَّيِّئُ، وَعَاقِبَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ الْخَاسِرَةَ، لِأَنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ، فَهُمْ يُوَدُّونَ لَوْ تَأَخَّرُوا عَنْ مَقَامِ الْآخِرَةِ بِكُلِّ مَا أُمَكَّنَهُمْ، - وَمَا يُحَادِرُونَ مِنْهُ وَاقَعَ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ - حَتَّى وَهُمْ أَحْرَصُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمَنْ أَلْبَسَ أَشْرَكَ﴾ قَالَ: الْأَعَاجِمُ^(١). وَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قَالَ: حَبِيبَتْ إِلَيْهِمُ الْخَطِيئَةُ طَوْلَ الْعُمُرِ^(٣).

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمَا هُوَ بِمُخْرِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يَعْمُرَ﴾ أَيْ وَمَا هُوَ بِمُجْتَبِيهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكَ لَا يَرْجُو بَعَثًا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَهُوَ يُحِبُّ طَوْلَ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْيَهُودِيَّ قَدْ عَرَفَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخِزْيِ، بِمَا ضَيَّعَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ^(٤). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَهُودٌ أَحْرَصُ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ هَوْلَاءِ، وَقَدْ وَدَّ هَوْلَاءٌ لَوْ يَعْمُرَ أَحَدُهُمْ أَلْفَ سَنَةٍ، وَلَيْسَ بِمُخْرِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ لَوْ عَمَّرَ، كَمَا أَنَّ عُمَرَ إِبْلِيسَ لَمْ يَنْفَعَهُ إِذْ كَانَ كَافِرًا^(٥). ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

(١) ابن أبي حاتم: ٢٨٦/١ (٢) الحاكم: ٢٦٣/٢ (٣) ابن أبي حاتم: ٢٨٧/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٨٨/١ شيخ ابن إسحاق مجهول كما تقدم (٥) الطبري: ٣٧٦/٢ (٦) الطبري: ٣٧٧/٢

إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ^(١)، وَقَدْ أَخْرَجَاهُ مِنْ وَجْهِ
آخَرَ عَنِ أَسَى^(٢).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: إِبِلٌ عِبَارَةٌ عَنْ عَبْدٍ، وَالْكَلِمَةُ
الْأُخْرَى هِيَ اسْمُ اللَّهِ، لِأَنَّ كَلِمَةَ «إِبِلٌ» لَا تَتَعَبَّرُ فِي
الْجَمِيعِ، فَوِزَانُهُ: عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَبْدُ الْمَلِكِ
عَبْدُ الْقُدُوسِ، عَبْدُ السَّلَامِ عَبْدُ الْكَافِي، عَبْدُ الْجَلِيلِ، فَعَبْدٌ
مَوْجُودَةٌ فِي هَذَا كَلْمُهُ، وَاخْتَلَفَتِ الْأَسْمَاءُ الْمُضَافُ إِلَيْهَا،
وَكَذَلِكَ جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَعِزْرَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَنَحْوُ
ذَلِكَ، وَفِي كَلَامِ غَيْرِ الْعَرَبِ يُقَدِّمُونَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ عَلَى
الْمُضَافِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[التفريق بين الملائكة كالتفريق بين الأنبياء]

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عِدَاؤُا
لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَيَّ مَنْ عَادَى جِبْرَائِيلَ
فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ الَّذِي نَزَلَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ عَلَى قَلْبِكَ
مِنَ اللَّهِ، بِإِذْنِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَهُوَ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ مَلَكِيٌّ،
وَمَنْ عَادَى رَسُولًا فَقَدْ عَادَى جَمِيعَ الرُّسُلِ، كَمَا أَنَّ مَنْ آمَنَ
بِرَسُولٍ يَلْزِمُهُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، وَكَمَا أَنَّ مَنْ كَفَرَ
بِرَسُولٍ فَإِنَّهُ يَلْزِمُهُ الْكُفْرَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:
١٥٠] الْآيَتِينَ، فَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ الْمُحَقَّقِ إِذْ آمَنُوا بِبَعْضِ
الرُّسُلِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِمْ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَادَى جِبْرَائِيلَ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ
لِلَّهِ، لِأَنَّ جِبْرَائِيلَ لَا يَنْزِلُ بِالْأَمْرِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُ
بِأَمْرِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾... الْآيَةَ

[مریم: ٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَبُّهُ لَنْزِلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نَزَلَ بِهِ
الرُّوحُ الْأَمِينُ^(٣) عَلَيَّ قَلْبِكَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-

١٩٤]، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي
بِالْحَرْبِ»^(٤). وَلِهَذَا غَضِبَ اللَّهُ لِجِبْرَائِيلَ عَلَى مَنْ عَادَاهُ،
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَتْ عِدَاؤُا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ
اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيَّ مِنْ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ:
﴿وَهُدًى وَبُشْرًى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيَّ هُدًى لِقُلُوبِهِمْ وَبُشْرًى لَهُمْ
بِالْجَنَّةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾... الْآيَةَ [فصلت: ٤٤]
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾... الْآيَةَ [الإسراء: ٨٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ
وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ
عَادَانِي وَمَلَائِكَتِي وَرُسُلِي - وَرُسُلُهُ تَشْمَلُ رُسُلَهُ مِنْ
الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ
الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] - ﴿وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَائِيلَ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ،
فَإِنَّهُمَا دَخَلَا فِي الْمَلَائِكَةِ فِي عُمُومِ الرُّسُلِ، ثُمَّ خُصَّصَا
بِالذِّكْرِ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي الْإِنْتِصَارِ لِجِبْرَائِيلَ، وَهُوَ السَّفِيرُ
بَيْنَ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَقَرَنَ مَعَهُ مِيكَائِيلَ فِي اللَّفْظِ، لِأَنَّ
الْيَهُودَ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرَائِيلَ عَدُوُّهُمْ، وَمِيكَائِيلَ وَلِيُّهُمْ،
فَاعْلَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ عَادَى وَاحِدًا مِنْهُمَا فَقَدْ عَادَى
الْآخَرَ، وَعَادَى اللَّهُ أَيْضًا. وَلِأَنَّهُ أَيْضًا يَنْزِلُ عَلَى أَنْبِيَاءِ
اللَّهِ بَعْضُ الْأَحْيَانِ، وَلَكِنَّ جِبْرَائِيلَ أَكْثَرُ، وَهِيَ وَظِيفَتُهُ،
كَمَا أَنَّ إِسْرَافِيلَ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ لِلْبُعْثِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ
إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ
وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ، أَتَيْتَ تَحَكُّمَ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ
تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿فَاتِكِ اللَّهُ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ﴾ فِيهِ إِيقَاعُ الْمُظْهَرِّ مَكَانَ
الْمُضْمَرِ حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ، بَلْ قَالَ:
﴿فَاتِكِ اللَّهُ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ﴾. وَإِنَّمَا أَظْهَرَ اللَّهُ هَذَا الْأِسْمَ
هَهُنَا لِتَقْرِيرِ هَذَا الْمَعْنَى وَإِظْهَارِهِ، وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّ مَنْ عَادَى
وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ عَادَى اللَّهَ، وَمَنْ عَادَى اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لَهُ،
وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَدُوًّا فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، كَمَا تَقَدَّمَ
الْحَدِيثُ «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَهُ بِالمُحَارَبَةِ»^(٥).

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفَاسِقُونَ﴾^(٦) أَوْكَلَمَا عَلَّمَدُوا عَهْدًا بَدَدُوا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ
أَكْرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٧) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ بَدَدَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ كَتَبَ
اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٨) وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا

(١) فتح الباري: ١٥/٨ و ٣١٩/٧ (٢) البخاري: ٣٣٢٩،
٣٩١١، ٣٩٣٨، ٣١٥، ٣١٥ (٣) فتح الباري: ١١/٣٤٨ (٤)
مسلم: ٥٣٤/١ (٥) فتح الباري: ١١/٣٤٨

الشَّيْطَانِ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ
كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ
هَدْرَتٍ وَمُرُوتٍ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ
فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
وَمَا هُمْ بِبِضَآئِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَيَعْلَمُونَ مَا
يُضْرَهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا سَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ
اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

[دلائل نبوة محمد ﷺ]

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بَنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ
أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ الْآيَةُ...، أَي أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا
مُحَمَّدٌ عَلَامَاتٍ وَأَصْحَابِ، ذَلَالَاتٍ عَلَى نُبُوتِكَ، وَتِلْكَ
الْآيَاتُ هِيَ مَا حَوَاهُ كِتَابُ اللَّهِ مِنْ خَفَايَا عُلُومِ الْيَهُودِ،
وَمَكْنُونَاتِ سَرَائِرِ أَخْبَارِهِمْ، وَأَخْبَارِ أَوْلِيائِهِمْ مِنْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ، وَالتَّبَايَعَاتِ تَضَمَّنَتْهُمُ النَّبِيُّ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا
إِلَّا أَخْبَارُهُمْ وَعُلَمَائُهُمْ، وَمَا حَرَفَهُ أَوْلِيائُهُمْ وَأَوَّخِرُهُمْ
وَبَدَّلُوهُ مِنْ أَحْكَامِهِمْ الَّتِي كَانَتْ فِي التَّوْرَةِ، فَاطَّلَعَ اللَّهُ
فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَانَ فِي
ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ لِمَنْ أَنْصَفَ نَفْسَهُ، وَلَمْ
يُدْعُهَا إِلَى هَلَاكِهَا الْحَسَدَ وَالْبَغْيَ، إِذْ كَانَ فِي فِطْرَةِ كُلِّ
ذِي فِطْرَةٍ صَحِيحَةٍ تَصْدِيقٍ مِّنْ أَتَى بِحِثْلٍ مَا جَاءَ بِهِ
مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي وَصَفَ - مِنْ غَيْرِ
تَعَلَّمَ تَعَلَّمَهُ مِنْ بَشَرِيٍّ، وَلَا أَخَذَ شَيْئًا مِنْهُ عَنِ آدَمِيٍّ -
كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ
بَيِّنَاتٍ﴾ يَقُولُ: فَأَنْتَ تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ، وَتُخْبِرُهُمْ بِهِ غَدْوَةً
وَعَشِيَّةً، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَأَنْتَ عِنْدَهُمْ أُمِّيٌّ لَمْ تَقْرَأْ كِتَابًا،
وَأَنْتَ تُخْبِرُهُمْ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ عَلَى وَجْهِهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى
فِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَبَيَانٌ، وَعَلَيْهِمْ حُجَّةٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ^(١).

[نقض العهود من عادة اليهود]

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ الصَّنِيفِ - حِينَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،
وَذَكَرَهُمْ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَيْتِاقِ، وَمَا عَهْدَ إِلَيْهِمْ فِي
مُحَمَّدٍ ﷺ -: وَاللَّهِ مَا عَهْدَ إِلَيْنَا فِي مُحَمَّدٍ، وَمَا أَخَذَ عَلَيْنَا
مِيثَاقًا، فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَلَيْهِمْ عَهْدًا نَبَذُوهُ
فَوَيْقُ مِنْهُمْ﴾^(٢) وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فِي قَوْلِهِ ﴿بَلْ
أَكْرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ: نَعَمْ، لَيْسَ فِي الْأَرْضِ عَهْدٌ

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ
السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَدْرَتٍ وَمُرُوتٍ
وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
وَمَا هُمْ بِبِضَآئِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَيَعْلَمُونَ
مَا يُضْرَهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا سَكَّرُوا بِهِ
أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا
وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ
﴿١٠٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رِعْسًا وَفُولُوا
أَنْظُرْنَا وَاسْمِعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ آلِيمٍ ﴿١٠٤﴾
مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُزِيلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

يُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ إِلَّا نَقَضُوهُ وَبَدَّلُوهُ، يُعَاهِدُونَ الْيَوْمَ وَيَنْقُضُونَ
عَدَا^(٣).

[اليهود طرخوا كتاب الله وأقبلوا على السحر]

قَالَ الشَّدْيِيُّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قَالَ: لَمَّا جَاءَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ عَارِضُوهُ بِالتَّوْرَةِ،
فَخَاصَمُوهُ بِهَا، فَاتَّقَبَتِ التَّوْرَةُ وَالْقُرْآنُ، فَتَبَدَّلُوا التَّوْرَةَ،
وَأَخَذُوا بِكِتَابِ أَصْفَ، وَسِحْرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَلَمْ يُوَافِقِ
الْقُرْآنَ، فَلَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ: إِنَّ
الْقَوْمَ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَلَكِنَّهُمْ بَدَّلُوا عِلْمَهُمْ وَكَتَمُوهُ
وَجَحَدُوا بِهِ^(٥).

(١) الطبري: ٣٩٧/٢ الضحاک عن ابن عباس مرسل (٢)
الطبري: ٤٠٠/٢ إسناده ضعيف بجهالة محمد بن أبي محمد مولى
زيد بن ثابت (٣) ابن أبي حاتم: ٢٩٥/١ (٤) الطبري: ٢/٢
٤٠٤ (٥) الطبري: ٤٠٤/٢

[كَانَ السِّحْرُ قَبْلَ عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أَي عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَيَسْتَمِعُونَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَوْتٍ أَوْ غَيْبٍ أَوْ أَمْرٍ، فَيَأْتُونَ الْكَهَنَةَ فَيُخْبِرُونَهُمْ، فَتُحَدِّثُ الْكَهَنَةُ النَّاسَ، فَيَجِدُونَهُ كَمَا قَالُوا، فَلَمَّا أَمْتَهُمُ الْكَهَنَةُ كَذَبُوا لَهُمْ، وَأَدْخَلُوا فِيهِ غَيْرَهُ، فَزَادُوا مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ سَبْعِينَ كَلِمَةً، فَكَتَبَ النَّاسُ ذَلِكَ الْحَدِيثَ فِي الْكُتُبِ، وَفَسِي ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَّ الْجِنَّ تَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَبَعَثَ سُلَيْمَانُ فِي النَّاسِ، فَجَمَعَ بِلْكَ الْكُتُبَ فَجَعَلَهَا فِي صُنْدُوقٍ، ثُمَّ دَفَنَهَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ مِنَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا اخْتَرَقَ، وَقَالَ: لَا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أَنَّ الشَّيَاطِينُ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ إِلَّا ضَرَبْتُ عُقْمَهُ. فَلَمَّا مَاتَ سُلَيْمَانُ، وَذَهَبَتِ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَمْرَ سُلَيْمَانَ، وَخَلَفَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ خَلْفٌ، تَمَثَّلَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، ثُمَّ أَتَى نَفَرًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ أَدْلَكُمُ عَلَى كَنْزٍ لَا تَأْكُلُونَهُ أَبَدًا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَاحْفَظُوا تَحْتَ الْكُرْسِيِّ، فَذَهَبَ مَعَهُمْ وَأَرَاهُمُ الْمَكَانَ وَقَامَ نَاجِيَةً، فَقَالُوا لَهُ: فَاذُنٌ، فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي هَهُنَا فِي أَيْدِيكُمْ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوهُ فَاقْتُلُونِي، فَحَفَرُوا فَوَجَدُوا بِلْكَ الْكُتُبَ، فَلَمَّا أُخْرِجُوا قَالَ الشَّيْطَانُ: إِنَّ سُلَيْمَانَ إِنَّمَا كَانَ يَضْبِطُ الْإِنْسَانَ وَالشَّيَاطِينُ وَالطَّيْرَ بِهَذَا السِّحْرِ، ثُمَّ طَارَ وَذَهَبَ، وَنَشَأَ فِي النَّاسِ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ سَاحِرًا، وَاتَّخَذَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِلْكَ الْكُتُبَ، فَلَمَّا جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاصَمُوهُ بِهَا، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾^(١).

[قِصَّةُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَتَفْسِيرُ الْمَلَكَيْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَجُلِهِ﴾ اِخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ «مَا» نَافِيَةٌ أَعْنِي الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «مَا» نَافِيَةٌ وَمَعطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا

يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ جَبْرِيْلٌ وَمِيكَائِيلُ فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ بَدَلًا مِنَ الشَّيَاطِينِ، قَالَ: وَصَحَّ ذَلِكَ إِنَّمَا لِأَنَّ الْجَمْعَ يُطْلَقُ عَلَى الْإِثْنَيْنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]^(٢) أَوْ لِكُونِهِمَا لِهَمَّا أَتْبَاعٌ، أَوْ ذِكْرًا مِنْ بَيْنِهِمْ لِتَمَرُّدِهِمَا، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ عِنْدَهُ: يُعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ. ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا أَوْلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَأَصَحُّ، وَلَا يُنْفَتُّ إِلَى مَا سِوَاهُ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادِهِ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾... الْآيَةِ، يَقُولُ: لَمْ يُنَزَّلِ اللَّهُ السِّحْرَ^(٣). وَبِإِسْنَادِهِ عَنِ الرَّبِيعِ ابْنِ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ قَالَ: مَا أُنزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا السِّحْرَ^(٤). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ مِنَ السِّحْرِ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وَلَا أُنزِلَ اللَّهُ السِّحْرَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿بِابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ.

قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: كَيْفَ وَجْهٌ تَقْدِيمِ ذَلِكَ؟ قِيلَ وَجْهٌ تَقْدِيمِهِ أَنْ يُقَالَ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ مِنَ السِّحْرِ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وَمَا أُنزِلَ اللَّهُ السِّحْرَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَيَكُونُ مَعْنَى «بِالْمَلَكَيْنِ» جَبْرِيْلٌ وَمِيكَائِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لِأَنَّ سِحْرَةَ الْيَهُودِ، فِيمَا ذُكِرَ كَانَتْ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أُنزَلَ السِّحْرَ عَلَى لِسَانِ جَبْرِيْلَ وَمِيكَائِيلَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ. فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، وَأَخْبَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنَّ جَبْرِيْلَ وَمِيكَائِيلَ لَمْ يَنْزِلَا بِسِحْرِ، وَبِرَأٍ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا نَحَلُوهُ مِنَ السِّحْرِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ السِّحْرَ مِنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنَّهَا تَعْلَمُ النَّاسَ ذَلِكَ بِبَابِلَ، وَأَنَّ الَّذِينَ يُعْلَمُونَهُمْ ذَلِكَ رَجُلَانِ: إِسْمُ أَحَدِهِمَا هَارُوتَ، وَإِسْمُ الْآخَرِ مَارُوتَ، فَيَكُونُ ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَرْجَمَةٌ عَنِ «النَّاسِ» وَرَدًّا عَلَيْهِمْ^(٥). هَذَا لَفْظُهُ بِحُرُوفِهِ، وَهَذَا

(١) الطبري: ٤٠٥/٢ (٢) القرطبي: ٥٠/٢ (٣) الطبري: ٢/٢

٤١٩ حكم العوفي تقدم (٤) الطبري: ٤١٩/٢ (٥) الطبري: ٢/٢

وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِذَا آتَاهُمَا إِنْسَانٌ يُرِيدُ السَّحْرَ وَعَظَاهُ، وَقَالَ لَهُ: لَا تَكْفُرْ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ، فَإِذَا أَبِي قَالَا لَهُ: إئْتِ هَذَا الرَّمَادَ قَبْلَ عَلَيْهِ، فَإِذَا بَالَ عَلَيْهِ خَرَجَ مِنْهُ نُورٌ فَسَطَعَ حَتَّى يَدْخُلَ السَّمَاءَ، وَذَلِكَ الْإِيمَانُ، وَأَقْبَلَ شَيْءٌ أَسْوَدُ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي مَسَامِعِهِ وَكُلَّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ غَضَبُ اللَّهِ. فَإِذَا أُخْبِرَهُمَا بِذَلِكَ عَلَّمَاهُ السَّحْرَ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [الآية (٥)]. وَقَالَ سُيُدُّ عَنْ حَجَّاجٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَا يَجْتَرِئُ عَلَى السَّحْرِ إِلَّا كَافِرٌ، وَأَمَّا الْفِتْنَةُ فَهِيَ الْمِحْنَةُ وَالِاخْتِبَارُ^(٦). وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ عَلَى تَكْفِيرِ مَنْ تَعَلَّمَ السَّحْرَ، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَرَّازُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: (مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)^(٧) وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ وَلَهُ شَوَاهِدٌ أُخْرُ.

[مِنَ السَّحْرِ مَا يَفْرُقُ بِهِ بَيْنَ الرُّوَجِينِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَجْوِهِ﴾ أَي فَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مِنْ عِلْمِ السَّحْرِ، مَا يَتَصَرَّفُونَ بِهِ فِيمَا يَتَصَرَّفُونَ [فِيهِ] مِنْ الْأَفَاعِيلِ الْمَذْمُومَةِ، مَا إِنَّهُمْ لَيُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الرُّوَجِينِ، مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخِلْطَةِ وَالِاخْتِلَافِ. وَهَذَا مِنْ صَنِيعِ الشَّيَاطِينِ، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَضَعُ عَرَشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ، فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنَزَلَةٌ أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةٌ، وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا زِلْتُ بِفُلَانٍ حَتَّى تَرَكَتُهُ وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ إِبْلِيسُ: لَا وَاللَّهِ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكَتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، قَالَ: فَيَقْرُؤُهُ وَيُدْنِيهِ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ أَتَيْتُ^(٨)».

وَسَبَبُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الرُّوَجِينِ بِالسَّحْرِ مَا يُحِيلُ إِلَى الرَّجُلِ أَوْ الْمَرْأَةِ مِنَ الْآخِرِ مِنْ سُوءٍ مُنْظَرٍ أَوْ خُلْقٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ حِفْدٍ أَوْ بَعْضَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُفْتَضِلَةِ لِلْفَرَقَةِ، وَالْمَرْءُ عِبَارَةٌ عَنِ الرَّجُلِ وَتَأْتِيهِ امْرَأَةٌ،

(١) القرطبي: ٥١/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٣١٢/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٣١٠/١ (٤) الطبري: ٤٤٣/٢ (٥) الطبري: ٤٤٣/٢ (٦) الطبري: ٤٤٣/٢ (٧) كشف الأستار: ٤٤٣/٢ (٨) مسلم: ٢١٦٧/٤

التَّأْوِيلُ فِيهِ مِنَ التَّكْلِيفِ مَا لَا يَحْفَى. وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُمَا كَانَا مَلَكَتَيْنِ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَنَّهُمَا أَنْزَلَا إِلَى الْأَرْضِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا كَانَ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا وَرَدَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ: أَنَّ هَذَيْنِ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ لِهَمَّا هَذَا، فَيَكُونُ تَخْصِيصًا لِهَمَّا، فَلَا تَعَارُضَ حِينَئِذٍ، كَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ مِنْ أَمْرِ إِبْلِيسَ مَا سَبَقَ، وَفِي قَوْلِهِ: إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ، مَعَ أَنَّ شَانَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عَلَى مَا ذَكَرَ أَحْفَ مِمَّا وَقَعَ مِنْ إِبْلِيسَ لَعْنَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ حَكَاهُ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ عَلِيِّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَكَعْبِ الْأَحْبَارِ وَالسُّدِّيِّ وَالْكَلْبِيِّ. وَأَمَّا قِصَّةُ الزُّهْرَةِ فَمَوْضُوعَةٌ بِلَا مَرِيَّةٍ^(١).

قَالَ أَصْحَابُ الْهَيْئَةِ: وَيُعَدُّ مَا بَيْنَ بَابِلَ، وَهِيَ مِنْ إِفْلِيمِ الْعِرَاقِ، عَنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الْعَرَبِيِّ - وَيُقَالُ لَهُ: أَوْقِيَانُوسُ -: سَبْعُونَ دَرَجَةً، وَيُسَمُّونَ هَذَا طُولًا، وَأَمَّا عَرْضُهَا، وَهُوَ بُعْدُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَسْطِ الْأَرْضِ مِنْ نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ، وَهُوَ الْمَسَامِثُ لِخَطِّ الْإِسْتِوَاءِ: اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[تَعَلَّمَ السَّحْرَ كُفْرًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنِ قَيْسِ ابْنِ عَبَّادٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: فَإِذَا آتَاهُمَا الْآتِي يُرِيدُ السَّحْرَ نَهْيَاهُ أَشَدُّ النَّهْيِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، وَذَلِكَ أَنََّّهُمَا عَلِمَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالْكَفْرَ وَالِإِيمَانَ، فَعَرَفَا أَنَّ السَّحْرَ مِنَ الْكُفْرِ، قَالَ: فَإِذَا أَبِي عَلَيْهِمَا أَمْرًا أَنْ يَأْتِي مَكَانَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا آتَاهُ عَايِنَ الشَّيْطَانَ فَعَلِمَهُ، فَإِذَا تَعَلَّمَهُ خَرَجَ مِنْهُ النُّورُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سَاطِعًا فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: يَا حَسْرَتَا، يَا وَيْلَهُ مَاذَا أَصْنَعُ^(٢)؟! وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: نَعَمْ أَنْزَلَ الْمَلَكَانِ بِالسَّحْرِ، لِيُعَلِّمَا النَّاسَ الْبَلَاءَ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِي بِهِ النَّاسَ، فَاتَّخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ أَنْ لَا يُعَلِّمَا أَحَدًا حَتَّى يَقُولَا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ^(٣). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَحَدُ عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يُعَلِّمَا أَحَدًا حَتَّى يَقُولَا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ، أَي بِلَاءٌ أُبْتَلِيْنَا بِهِ، فَلَا تَكْفُرْ^(٤).

وَيُنْتَى كُلُّ مِنْهُمَا وَلَا يُجْمَعَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[قَضَاءُ اللَّهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ قَالَ: نَعَمْ، مَنْ شَاءَ اللَّهُ سَلَطَهُمْ عَلَيْهِ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ لَمْ يُسَلِّطْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرَّ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبِعَدَاؤِهِمْ مَا يَصُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أَيُّ يَصُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ وَلَيْسَ لَهُ نَفْعٌ يُوَازِي ضَرَرَهُ ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أَيُّ وَلَقَدْ عَلِمَ الْيَهُودُ الَّذِينَ اسْتَبَدَّلُوا بِالسَّحْرِ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ لَمَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ ذَلِكَ، أَنَّهُ ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: مِنْ نَصِيبِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ مَا سَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ﴾ الْبَدِيلُ مَا اسْتَبَدَّلُوا بِهِ مِنَ السَّحْرِ عَوَضًا عَنِ الْإِيمَانِ وَمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ لَوْ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ بِمَا وَعُظُوا بِهِ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أَيُّ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَاتَّقَوْا الْمَحَارِمَ، لَكَانَ مَثُوبَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّا اسْتَحَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَرَضُوا بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْعَهْدَ وَيَلِكُمْ قَوْلَ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعِينَا وَتَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمَعُوا بِالْكَافِرِينَ عَذَابُ آلِيسَ﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٠٥﴾

[الْأَدَبُ فِي اخْتِيَارِ الْكَلِمَاتِ]

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَبْهُوا بِالْكَافِرِينَ فِي مَقَامِهِمْ وَفِعَالِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَانُونَ مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ تَوْرِيَّةٌ لِمَا يَفْضِدُونَهُ مِنَ التَّنْقِصِ، عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ، فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَقُولُوا: إِسْمَعْ لَنَا، يَقُولُونَ: رَاعِنَا - وَيُورُونَ بِالرُّعُونَةِ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُعَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ

مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لِيَأْ يَأْسِنَهُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، وَكَذَلِكَ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ بِالْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِأَتَمِّهِمْ كَانُوا إِذَا سَلِمُوا إِنَّمَا يَقُولُونَ: السَّامُ عَلَيْنَكُمْ. وَالسَّامُ هُوَ الْمَوْتُ، وَلِهَذَا أَمَرْنَا أَنْ نُرَدَّ عَلَيْهِمْ بِ «وَعَلَيْنَكُمْ» وَإِنَّمَا يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا.

وَالغَرَضُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكَافِرِينَ قَوْلًا وَفِعْلًا، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعِينَا وَتَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمَعُوا بِالْكَافِرِينَ عَذَابُ آلِيسَ﴾. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَتِ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(٤). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْهُ: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(٥) فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى النَّهْيِ الشَّدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ وَالتَّوْعِيدِ عَلَى التَّشَبُّهِ بِالْكَافِرِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلِبَاسِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمُ الَّتِي لَمْ تُشْرَعْ لَنَا وَلَمْ تُقَرَّرْ عَلَيْنَا.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعِينَا﴾ قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أُرْعِنَا سَمْعَكَ. وَإِنَّمَا «رَعِينَا» كَقَوْلِكَ عَاطِنَا^(٦). وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ وَأَبِي مَالِكٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَعَطِيَّةِ الْعُوفِيِّ وَفَتَادَةَ نَحْوِ ذَلِكَ^(٧). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا تَقُولُوا رَعِينَا﴾ لَا تَقُولُوا خِلَافًا^(٨). وَفِي رِوَايَةٍ: لَا تَقُولُوا: إِسْمَعْ مِنَّا، وَنَسْمَعْ مِنْكَ. وَقَالَ عَطَاءٌ: لَا تَقُولُوا «رَعِينَا» كَأَنَّكَ لَعْنَةٌ تَقُولُهَا الْأَنْصَارُ، فَنَهَى اللَّهُ عَنْهَا^(٩). وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ، يُدْعَى رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ، يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فَإِذَا لَقِيَهُ فَكَلَّمَهُ قَالَ: أُرْعِنِي سَمْعَكَ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَحْسَبُونَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانَتْ تَفْحَمُ بِهِذَا، فَكَانَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣١٢/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣١١/١ (٣)

ابن أبي حاتم: ٣١٤/١ (٤) أحمد: ٥٠/٢ (٥) أبو داود: ٤/

٣١٤ (٦) الطبري: ٤٦١/٢ الضحاك لم يسمع من ابن

عباس (٧) ابن أبي حاتم: ٣١٧/١ (٨) ابن أبي حاتم: ١/

٣١٨ (٩) ابن أبي حاتم: ٣١٨/١

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

١٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿١٠٦﴾ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَقَرَارٍ أَحْسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْتَمُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَعِزَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

غَيْرَهَا. وَسَوَاءٌ نُسِخَ حُكْمُهَا أَوْ خَطُهَا، إِذْ هِيَ فِي كِتَابِ خَاتَمِهَا مُنْسُوخَةٌ^(٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، فَقَرِءَ عَلَى وَجْهَيْنِ، (نَسَّأَهَا) وَ﴿نُنسِهَا﴾. فَأَمَّا مَنْ قَرَأَهَا بِفَتْحِ التَّوْنِ وَالْهَمْزَةِ بَعْدَ السَّيْنِ فَمَعْنَاهُ: نُؤَخِّرُهَا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، يَقُولُ: مَا بُدِّلَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَرَكْتُهَا، لَا بُدْلَ لَهَا^(١٠). وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (أَوْ نَسَّأَهَا): ثَبِّتَ خَطُهَا وَبُدِّلَ حُكْمُهَا^(١١). وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عَمِيرٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ: (أَوْ نَسَّأَهَا): نُؤَخِّرُهَا وَنُرْجِعُهَا^(١٢). وَقَالَ عَطِيَّةُ الْوُفِيِّ: (أَوْ نَسَّأَهَا): نُؤَخِّرُهَا فَلَا

نَاسٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: إِسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ غَيْرَ صَاحِرٍ. وَهِيَ كَالَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، فَتَقَدَّمَ اللَّهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَقُولُوا: رَاعِنَا^(١). وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ يَنْحُو مِنْ هَذَا^(٢).

[شِدَّةُ عِدَاوَةِ الْكَافِرِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ لِلْمُسْلِمِينَ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يَبِينُ بِذَلِكَ تَعَالَى شِدَّةَ عِدَاوَةِ الْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ حَذَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مُشَابَهَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، لِيَقْطَعَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَبَنَى تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّرْعِ التَّامِّ الْكَامِلِ الَّذِي شَرَعَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿١٠٦﴾ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٨﴾ [النَّسْخُ وَتَعْرِيفُهُ]

قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: مَا بُدِّلَ مِنْ آيَةٍ^(٣). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ أَيُّ مَا نَحُو مِنْ آيَةٍ^(٤). وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ قَالَ: ثَبِّتَ خَطُهَا وَبُدِّلَ حُكْمُهَا. حَدَّثَ بِهِ عَنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٥). وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ نَحْوُ ذَلِكَ^(٦). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ نَسَخُهَا: قَبْضُهَا^(٧). وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: يَعْنِي قَبْضُهَا وَرَفْعُهَا، مِثْلُ قَوْلِهِ: (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنِيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ). وَقَوْلُهُ: (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَإِدْبَانَ مِنْ ذَهَبٍ لَّابْتَعَىٰ لِحَمَاهُمَا ثَالِثًا)^(٨).

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾، مَا نَقُلَ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَتَبَدَّلَهُ وَتَغَيَّرَهُ، وَذَلِكَ أَنْ نَحُولَ الْحَلَالَ حَرَامًا، وَالْحَرَامَ حَلَالًا، وَالْمُبَاحَ مَحْظُورًا، وَالْمَحْظُورَ مُبَاحًا. وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَظْرِ وَالْإِطْلَاقِ وَالْمَنْعِ وَالْإِبَاحَةِ، فَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَلَا يَكُونُ فِيهَا نَاسِخٌ وَلَا مَنْسُوخٌ، وَأَصْلُ النَّسْخِ مِنْ نَسَخَ الْكِتَابِ، وَهُوَ: نَقَلَهُ مِنْ نُسْخَةٍ إِلَىٰ أُخْرَىٰ غَيْرِهَا، فَكَذَلِكَ مَعْنَىٰ نَسَخِ الْحُكْمِ إِلَىٰ غَيْرِهِ إِذَا مَا هُوَ تَحْوِيلُهُ وَنَقْلُ عِبَارَتِهِ إِلَىٰ

(١) الطبري: ٤٦٢/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٩٦٥/٣ (٣)

الطبري: ٤٧٣/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٢١/١ (٥) ابن أبي

حاتم: ٣٢٢/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٢٢/١ (٧) ابن أبي

حاتم: ٣٢٢/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٣٢٤/١ (٩) الطبري: ١/

٤٧٢ (١٠) الطبري: ٤٧٦/٢ (١١) الطبري: ٤٧٣/٢ (١٢)

الطبري: ٤٧٧/٢

وَسُلْطَانَهَا دُونَ غَيْرِي، أَحْكَمُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ، وَأَمْرٌ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ، وَأَنْهَى عَمَّا أَشَاءُ، وَأَنْسَخُ وَأُبَدِّلُ وَأَعَيِّرُ مِنْ أَحْكَامِي الَّتِي أَحْكَمُ بِهَا فِي عِبَادِي، بِمَا أَشَاءُ إِذَا أَشَاءُ، وَأَقْرِ فِيهِمَا مَا أَشَاءُ.

ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا الْخَبْرُ وَإِنْ كَانَ خَطَابًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى وَجْهِ الْخَبَرِ عَنْ عَظَمَتِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْهُ جَلٌّ تَنَاوُهُ تَكْذِيبٌ لِلْيَهُودِ، الَّذِينَ أَنْكَرُوا نَسْخَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ، وَجَحَدُوا بُؤَةَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لِمَجِيئِهِمَا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بِتَغْيِيرِ مَا غَيَّرَ اللَّهُ مِنْ حُكْمِ التَّوْرَةِ، فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانَهُمَا، وَأَنَّ الْخَلْقَ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ، وَطَاعَتِهِ وَعَلَيْهِمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ. وَأَنَّ لَهُ أَمْرَهُمْ بِمَا يَشَاءُ، وَنَهْيَهُمْ عَمَّا يَشَاءُ، وَنَسْخَ مَا يَشَاءُ، وَإِقْرَارَ مَا يَشَاءُ، وَإِنْشَاءَ مَا يَشَاءُ مِنْ إِقْرَارِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ^(٧).

(قُلْتُ): الَّذِي يَحْمِلُ الْيَهُودَ عَلَى الْبَحْثِ فِي مَسْأَلَةِ النَّسْخِ، إِنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِبَادُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ، كَمَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَشَرَائِعِهِ الْمَاضِيَةِ، كَمَا أَحَلَّ لِأَدَمَ تَزْوِيجَ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، ثُمَّ حَرَّمَ ذَلِكَ. وَكَمَا أَبَاحَ لِنُوحٍ، بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّفِينَةِ أَكْلَ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ، ثُمَّ نَسَخَ جِلَّ بَعْضِهَا. وَكَانَ نِكَاحُ الْأَخْتَيْنِ مُبَاحًا لِإِسْرَائِيلَ وَبَنِيهِ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ وَمَا بَعْدَهَا. وَأَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، ثُمَّ نَسَخَهُ قِتْلَ الْفِعْلِ. وَأَمَرَ جُمْهُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقِتْلِ مَنْ عَدَدَ الْعَجَلِ مِنْهُمْ، ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُمْ الْقِتْلَ كَيْلًا يَسْتَأْصِلُهُمُ الْقِتْلُ. وَأَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا. وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ وَيَصْدُقُونَ عَنْهُ. وَمَا يُجَابُ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ بِأَجْوَبَةٍ لَفْظِيَّةٍ فَلَا يَصْرِفُ الدَّلَالَهَ فِي الْمَعْنَى، إِذْ هُوَ الْمَقْصُودُ، وَكَمَا فِي كُتُبِهِمْ مَشْهُورًا مِنَ الْبِسْرَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ، فَإِنَّهُ يُفِيدُ وَجُوبَ مُتَابَعَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا عَلَى شَرِيعَتِهِ، وَسَوَاءٌ قِيلَ: إِنَّ الشَّرَائِعَ الْمُتَقَدِّمَةَ مَعْيَاةً إِلَى بَعْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَا يُسَمَّى ذَلِكَ نَسْخًا لِقَوْلِهِ:

(١) الطبري: ٤٧٧/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٢٦/١ (٣) الطبري: ٤٨١/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٢٦/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٢٧/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٢٧/١ (٧) الطبري: ٢/٤٨٨

نَسَخَهَا^(١). وَقَالَ السُّدِّيُّ مِثْلَهُ أَيْضًا، وَكَذَا الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ^(٢). وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ ﴿أَوْ نُنْشِئَهَا﴾، فَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْشِئَهَا﴾، قَالَ: كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ نَبِيَّهُ ﷺ مَا يَشَاءُ، وَيُنْسَخُ مَا يَشَاءُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿نَأَتْ بِخَيْرٍ مِمَّنَّا أَوْ مِثْلَهَا﴾، أَيُّ فِي الْحُكْمِ بِالنَّسْخِ إِلَى مَضْلَحَةِ الْمُكَلَّفِينَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿نَأَتْ بِخَيْرٍ مِمَّنَّا﴾ يَقُولُ: خَيْرٌ لَكُمْ فِي الْمَنْفَعَةِ، وَأَرْفَقُ بِكُمْ^(٣). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: فَلَا تَعْمَلُ بِهَا (أَوْ تَنْسَأُهَا) أَيُّ تَرْجِيئُهَا عِنْدَنَا، نَأَتْ بِهَا أَوْ نَظِيرَهَا^(٤). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿نَأَتْ بِخَيْرٍ مِمَّنَّا أَوْ مِثْلَهَا﴾ يَقُولُ: نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنَ الَّذِي نَسَخَتْهُ أَوْ مِثْلَ الَّذِي تَرَكْنَاهُ^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿نَأَتْ بِخَيْرٍ مِمَّنَّا أَوْ مِثْلَهَا﴾ يَقُولُ: آيَةٌ فِيهَا تَخْفِيفٌ، فِيهَا رُخْصَةٌ، فِيهَا أَمْرٌ، فِيهَا نَهْيٌ^(٦).

[بَيَانُ صِحَّةِ النَّسْخِ وَالرَّدُّ عَلَى الْيَهُودِ فِي اسْتِحْوَاجِهِمْ ذَلِكَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ، يُرِيدُ عِبَادَةَ تَعَالَى بِهَذَا إِلَى أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ، فَكَمَا [يَخْلُقُهُمْ] كَمَا يَشَاءُ، وَيُسْعِدُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُشْقِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُصِحُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُمْرِضُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُوقِفُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْذُلُ مَنْ يَشَاءُ: كَذَلِكَ يَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَيَحِلُّ مَا يَشَاءُ وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، وَيُبِيحُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْظُرُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مَعْتَبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ. وَيَخْتَبِرُ عِبَادَهُ وَطَاعَتَهُمْ لِرُسُلِهِ بِالنَّسْخِ، فَيَأْمُرُ بِالشَّيْءِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصَاحِبَةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا تَعَالَى، ثُمَّ يَنْهَى عَنْهُ لِمَا يَعْلَمُهُ تَعَالَى، فَالطَّاعَةُ كُلُّ الطَّاعَةِ فِي امْتِنَالِ أَمْرِهِ، وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ فِي تَصْدِيقِ مَا أَخْبَرُوا، وَامْتِنَالِ مَا أَمَرُوا، وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زَجَرُوا.

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ عَظِيمٌ وَبَيَانٌ بَلِيغٌ لِكُفْرِ الْيَهُودِ وَتَرْيِيفٌ شُنْهَتِهِمْ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ، فِي دَعْوَى اسْتِحْوَاجِهِ النَّسْخِ، إِمَّا عَقْلًا كَمَا زَعَمَهُ بَعْضُهُمْ جَهْلًا وَكُفْرًا، وَإِمَّا نَفْلًا كَمَا تَحَرَّصَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ أَفْرَاءً وَإِفْكَا.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: أَلَمْ تَعْلَمَ يَا مُحَمَّدُ، أَنَّ لِي مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿إِذَا أَمَرْتُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِنْ نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ﴾، وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ بَعْدَ مَا أَخْبَرَهُمْ: أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْحَجَّ. فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلُّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ»، ثُمَّ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ» الْحَدِيثُ (٢).

ولهذا قال أنس بن مالك: نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع. (٣)

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي بل تريدون، أو هي على بابها في الاستيفاهم، وهو إنكارى، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهُ جَهَنَّمَ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْقَةَ بِأَيْمَانِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣] (٤). قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عبد الله بن جبير عن ابن عباس، قال: قال رافع بن خريملة أو وهب بن زيد: يا محمد، إني سألت رسول الله ﷺ عن شيء من قولهم، ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٥).

والمراد: أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والافتراء، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكديباً وعناداً. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، أي ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال. وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء، واتباعهم والافتراء عليهم، والافتراء عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها؛ على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا بَعْثَ اللَّهِ ﷺ كَانِ يَنْهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ﴾ (١).

وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم،

﴿ثُمَّ آتُوا الصِّيَامَ إِلَى آيَةٍ﴾ وَقِيلَ: إِنَّهَا مُطْلَقَةٌ، وَإِنْ شَرِيعَةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ نَسَخَتْهَا، فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، فَوْجُوبٌ مُتَابِعَتِهِ مُعَيَّنٌ، لِأَنَّهُ جَاءَ بِكِتَابٍ هُوَ آخِرُ الْكُتُبِ عَهْدًا بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ، ردًا على اليهود عليهم لعنة الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾... الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] و[قور] في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها - خطابًا مع أهل الكتاب - وقوع النسخ عند اليهود في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَّيَّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾... الآية [النساء: ٩٣]، كما سيأتي تفسيره. والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكمة البالغة. وكلهم قال بوقوعه.

﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [النهي عن كثرة السؤال]

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سَوْؤُهُمْ وَإِنْ سَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ أَنْفَرُوا أَنْ يُدَّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] أي وإن سألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه، فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصحيح: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحْرَمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ». ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلمت تكلم بأمر عظيم، وإن سكنت سكنت على مثل ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، ثم أنزل الله حكم الملاعة، ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث المغيرة بن شعبه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ (١).

وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم،

(١) فتح الباري: ٣/٣٩٨ ومسلم: ٣/١٣٤١ (٢) مسلم: ٢/

٩٧٥ (٣) مسلم: ١/٤١ (٤) الدارمي: ١/٤٨ والمجمع: ١/

١٥٨ (٥) الطبري: ٢/٤٩٠ إسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي

اللَّهُ كُفْرًا وَاحْتِلَاءً قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُونَهَا وَيَسْأَلُونَكَ
الْقُرْآنَ ﴿إبراهيم: ٢٨، ٢٩﴾.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: يَتَبَدَّلُ الشَّدَّةُ بِالرَّخَاءِ. ^(١)

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
الْحَقُّ فَأَعْتَفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِشَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ
مِّنْ خَيْرٍ يَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٨﴾﴾
[الْتَهْيِي عَنْ سُلوِكِ طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]

يُحَدِّثُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سُلوِكِ طَرِيقِ الْكُفَّارِ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ، وَيُعَلِّمُهُمْ بَعْدَاوَرِيَهُمْ لَهُمْ فِي الْبَاطِنِ
وَالظَّاهِرِ، وَمَا هُمْ مُشْتَبِهُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لِلْمُؤْمِنِينَ، مَعَ
عِلْمِهِمْ بِفَضْلِهِمْ وَفَضْلِ نَبِيِّهِمْ. وَيَأْمُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ
بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَالِاخْتِمَالِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ مِنَ النَّصْرِ
وَالْفَتْحِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ، وَيَحْتَنُّهُمْ
عَلَىٰ ذَلِكَ وَيُرِعِّبُهُمْ فِيهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ:
أَنَّ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ الْيَهُودِيَّ كَانَ شَاعِرًا، وَكَانَ يَهْجُو
النَّبِيَّ ﷺ، وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَوْ يَرُدُّوكُمْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ ^(٢).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولًا أُمِّيًّا يُخْبِرُهُمْ
بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ وَالْآيَاتِ، ثُمَّ يَصْدُقُ
بِذَلِكَ كُلَّهُ مِثْلَ تَصْدِيقِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوا ذَلِكَ كُفْرًا
وَحَسَدًا وَبَغْيًا، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ
عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يَقُولُ: مِنْ بَعْدِ
مَا أَضَاءَ لَهُمُ الْحَقُّ، لَمْ يَجْهَلُوا مِنْهُ شَيْئًا، وَلَكِنَّ الْحَسَدَ
حَمَلَهُمْ عَلَى الْجُحُودِ، فَعَبَّرَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ وَلَا مَهْمَ أَشَدَّ
الْمَلَامَةِ ^(٣). وَشَرَعَ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ
التَّصَدِيقِ وَالِإِيمَانِ وَالِإِقْرَارِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَا أَنْزَلَ
مِنْ قَبْلِهِمْ، بِكِرَامِيهِ وَتَوَابِيهِ الْجَزِيلِ وَمَعُونَتِهِ لَهُمْ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنْ قِبَلِ
أَنْفُسِهِمْ ^(٤). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
الْحَقُّ﴾ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، يَجِدُونَهُ
مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَكَفَرُوا بِهِ حَسَدًا
وَبَغْيًا، إِذْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ ^(٥). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ
أَنَسٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ ^(٦),

مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ مِنْ
قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا﴾... آيَةٌ
[آل عمران: ١٨٦]، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾،
نَسَخَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَقْبَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾
[التوبة: ٥] وَقَوْلُهُ: ﴿قَبِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ صَخِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]
فَنَسَخَ هَذَا عَفْوَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ^(٧). وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ
وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ وَالشَّدِيُّ ^(٨): إِنَّهَا مُسْوَخَةٌ بِآيَةِ
السِّيفِ. وَيُرْشِدُ إِلَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرِهِ﴾.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: كَانَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يُعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ
الْكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى. قَالَ اللَّهُ
تَعَالَىٰ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَأَوَّلُ مِنَ الْعَفْوِ مَا
أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، حَتَّىٰ أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ بِالْقَتْلِ، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ مَنْ قَتَلَ
مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ ^(٩). وَهَذَا إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ وَلَمْ أَرَهُ فِي
شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ السَّنَّةِ، وَلَكِنْ لَهُ أَصْلٌ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ
أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ^(١٠).

[الْتَرغِيبُ فِي الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا
لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، يَحْتَنُّهُمْ تَعَالَىٰ عَلَى
الِاشْتِعَالِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَتَعَوُّدِ عَلَيْهِمْ عَاقِبَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ، حَتَّىٰ يُمَكِّنَ لَهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ
مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [عافر: ٥٢]،
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يَعْنِي
أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يَغْفُلُ عَنْ عَمَلِ عَامِلٍ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ، سَوَاءً
كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، فَإِنَّهُ سَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. وَرَوَى

(١) ابن أبي حاتم: ٣٣٠/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٣١/١ (٣)
الطبري: ٥٠٢/٢ إسناده ضعيف الضحاك لم يسمع من ابن
عباس (٤) ابن أبي حاتم: ٣٣٢/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٣٥/١
(٦) ابن أبي حاتم: ٣٣٥/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٣٣٤/١ (٨)
ابن أبي حاتم: ٣٣٥/١ (٩) ابن أبي حاتم: ٣٣٣/١ (١٠) فتح
الباري: ٨٧/٨ ومسلم: ١٤٢٢/٣

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

١٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجْهُ اللَّهِ إِلَّابِ اللَّهِ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنُوْنَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِلُنَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨).

فَعَمَلُ الرَّهْبَانِ وَمَنْ شَابَهُمْ، وَإِنْ فُرِضَ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ فِيهِ لِلَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ ذَلِكَ مُتَابِعًا لِلرَّسُولِ ﷺ، الْمُبْعُوثِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَفِيهِمْ وَأَمثَالِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْكُفْرِ يَفْعَلُونَ بِحَيْثُ يَسْتُرُونَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ إِذْ جَاءَهُمْ لُرٌّ بِحَدِّهِ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تَشْفَىٰ مِنْ عَيْنٍ عَابِثَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-٥].

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ، وَلَكِنْ لَمْ يُخْلِصْ عَامِلُهُ الْقَصْدَ لِلَّهِ، فَهُوَ أَيْضًا

(١) إسناده ضعيف فيه ابن لهيعة (٢) ابن أبي حاتم: ٣٣٦/١

(٣) ابن أبي حاتم: ٣٣٦/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٣٧/١ (٥) ابن

أبي حاتم: ٣٣٧/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٣٧١/١ (٧) ابن أبي

حاتم: ٣٣٨/١ (٨) مسلم: ١٣٤٤/٣

ابن أبي حاتم عَنْ عُقَيْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١] يَقُولُ: «بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ» (١).

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٦﴾ تِلْكَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

[أمانِي أهل الكتاب]

يُبَيِّنُ تَعَالَى اغْتِرَارَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ بِمَا هُمْ فِيهِ، حَيْثُ ادَّعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَىٰ بِلَّتِيهَا، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَنْ نَبْنُوَ لِلَّهِ وَأَجْتَنُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨] فَأَذْبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِمَا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مُعَذِّبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَلَوْ كَانُوا كَمَا ادَّعَوْا لَمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَكَمَا تَقَدَّمَ مِنْ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ لَنْ تَمْسَهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، ثُمَّ يَنْتَقِلُونَ إِلَى الْجَنَّةِ. وَرَدَّ عَلَيْهِمْ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ، وَهَكَذَا قَالَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى الَّتِي ادَّعَوْهَا بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بَيِّنَةٍ، فَقَالَ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَمَانِيٌّ تَمَنُّوْهَا عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ (٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ (٣). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: حُجَّتْكُمْ (٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: بَيِّنَتَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٥) أَيُّ فِيمَا تَدْعُونَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أَيُّ مَنْ أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِلَّهِ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ سَأَلْتَهُ فَقُلْ أَتَمَسَّتْ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَمِنْ أَتَمَعِينَ﴾... الْآيَةَ (آل عمران: ٢٠). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يَقُولُ: مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ (٦). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أَخْلَصَ ﴿وَجْهَهُ﴾، قَالَ: دِينَهُ (٧). وَهُوَ مُحْسِنٌ أَيُّ إِتَمَعَ فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَإِنَّ لِلْعَمَلِ الْمَتَّقِلِ شَرْطَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ وَحَدَّهُ، وَالْآخَرُ أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، فَمَنْ كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبَلْ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ عَمِلَ عَمَلًا

قَوْلِ الْيَهُودِ وَيَقِيلُهُمْ^(٣). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ قَالَ أُمَمٌ كَانَتْ قَبْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَقَبْلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ^(٤). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فَهَمُ الْعَرَبُ، قَالُوا لَيْسَ مُحَمَّدٌ عَلَى شَيْءٍ^(٥). وَاخْتَارَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا عَامَّةٌ تَضَلُّحٌ لِلْجَمِيعِ، وَلَيْسَ ثَمَّ دَلِيلٌ قَاطِعٌ يُعَيِّنُ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، فَالْحَمْلُ عَلَى الْجَمِيعِ أَوْلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أَي إِنَّهُ تَعَالَى يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَيَقْضِي بَيْنَهُمْ بِقَضَائِهِ الْعَدْلِ، الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبِّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيًا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٦)

[ظَلْمٌ مِنْ مَنَعَ عَنِ الْمَسَاجِدِ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا]

الْمُرَادُ مِنَ الَّذِينَ مَنَعُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ وَسَعَوْا فِي خَرَابِهَا، هُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ كَمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، قَالَ: هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَالُوا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ، حَتَّى نَحَرَ هَدْيَهُ بِذِي طُوًى، وَهَادَنَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: «مَا كَانَ أَحَدٌ يُصَدُّ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ، وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ، يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فَلَا يُصَدُّ» فَقَالُوا: لَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا مِنْ قَتْلِ آبَائِنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَفِينَا بَاقٍ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ قَالَ: إِذْ قَطَعُوا مَنْ يَعْمُرُهَا بِذِكْرِهِ، وَيَأْتِيهَا لِلْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ^(٦).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ قُرَيْشًا مَنَعُوا النَّبِيَّ ﷺ الصَّلَاةَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَأَنْزَلَ

مُرْدُودٌ عَلَى فَاعِلِهِ، وَهَذَا حَالُ الْمُرَائِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلِيلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾^(٧) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ^(٨) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ^(٩) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ رِيحًا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۗ إِنَّكَ عَلَىٰ ذِكْرِ عِنْدَ مَا تُنَادِي﴾ [الكهف: ١١٠] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وَقَوْلُهُ: "فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" ضَمِنَ لَهُمْ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ تَحْصِيلَ الْأُجُورِ، وَآمَنَهُمْ مِمَّا يَخَافُونَهُ مِنَ الْمَحْذُورِ، فَ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا مَضَى مِمَّا يَتْرُكُونَهُ، كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، فَ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي فِي الْآخِرَةِ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يَعْنِي لَا يَحْزَنُونَ لِلْمَوْتِ^(١١).

[تَنَارُحُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِيمَا بَيْنَهُمْ كُفْرًا وَعِنَادًا]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، بَيَّنَّ بِهِ تَعَالَى تَنَافُضَهُمْ وَتَبَاغُضَهُمْ وَتَعَادِيَهُمْ وَتَعَانُدَهُمْ، كَمَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ أَهْلُ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَتَتْهُمْ أَجْبَارُ يَهُودٍ، فَتَنَارَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَافِعُ بْنُ خُرَيْمَةَ: مَا أَتَيْتُمْ عَلَى شَيْءٍ وَكَفَرَ بِيَعْسَى وَبِالْإِنْجِيلِ. وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى لِلْيَهُودِ: مَا أَتَيْتُمْ عَلَى شَيْءٍ. وَجَحَدَ نُبُوَّةَ مُوسَى وَكَفَرَ بِالتَّوْرَةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾^(١٢). قَالَ: إِنَّ كُلًّا يَتْلُو فِي كِتَابِهِ تَصْدِيقَ مَنْ كَفَرَ بِهِ، أَي يَكْفُرُ الْيَهُودُ بِيَعْسَى وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ، فِيهَا مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى بِالتَّصْدِيقِ بِيَعْسَى، وَفِي الْإِنْجِيلِ مَا جَاءَ بِهِ عَيْسَى بِتَصْدِيقِ مُوسَى، وَمَا جَاءَ مِنَ التَّوْرَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَكُلٌّ يَكْفُرُ بِمَا فِي يَدِ صَاحِبِهِ.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، بَيَّنَّ بِهِذَا جَهْلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِيمَا تَقَابَلُوا مِنَ الْقَوْلِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِيمَاءِ وَالْإِشَارَةِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيمَنْ عَنِيَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ: وَقَالَتِ النَّصَارَى مِثْلَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٣٨/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٣٩/١
ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت (٣) ابن أبي حاتم: ٣٤١/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٤٠/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٤٠/١ (٦) الطبري: ٥٢١/٢

اللَّهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾^(١).

لَمَّا وَجَّهَ اللَّهُ تَعَالَى الدَّمَ فِي حَقِّ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، شَرَعَ فِي دَمِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مِنْ مَكَّةَ، وَمَنَعُوهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَاسْتَعْوَدُوا عَلَيْهَا بِأَصْنَامِهِمْ وَأَنْدَادِهِمْ وَشُرَكَائِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(٢) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مِحْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنبَسِطُوكُمْ مِنْهُم مَّعَرَّةً بَعِيرٍ عَلَيْهِمْ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَكْنَا لَعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فَإِذَا كَانَ مِنْ هُوَ كَذَلِكَ مَطْرُودًا مِنْهَا، مَصْدُودًا عَنْهَا فَأَيُّ خَرَابٍ لَهَا أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؟ وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ عِمَارَتِهَا زُخْرَفَتِهَا وَإِقَامَةُ صُورَتِهَا فَقَطْ، إِنَّمَا عِمَارَتُهَا بِذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا وَإِقَامَةُ شُرْعِهِ فِيهَا، وَرَفْعُهَا عَنِ الدَّنَسِ وَالشُّرْكِ.

[بِشَارَةِ بَغْلَبَةِ الْإِسْلَام]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، هَذَا خَبْرٌ مَعْنَاهُ الطَّلَبُ، أَي لَا تُمْكِنُوا هُوَ لَا إِذَا قَدِرْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِهَا، إِلَّا تَحْتَ الْهُدْنَةِ وَالْجِزْيَةِ، وَلِهَذَا لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ، أَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ أَنْ يُنَادَى بِرِحَابٍ مَتَى: «أَلَا لَا يَحْجُرَنَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوقَنَّ بِالنَّبِيِّ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَجَلٌ فَأَجَلُهُ إِلَىٰ مَدْيَنَةِ»^(٣). وَهَذَا إِنَّمَا كَانَ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَمْسُرُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا بِشَارَةٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُ سَيُظْهِرُهُمْ

عَلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَعَلَى سَائِرِ الْمَسَاجِدِ، وَأَنَّهُ يُذِلُّ الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ، حَتَّى لَا يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا خَائِفًا، يَخَافُ أَنْ يُؤَخَذَ فَيُعَاقَبَ أَوْ يُقْتَلَ، إِنْ لَمْ يُسَلِّمْ. وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ هَذَا الْوَعْدَ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ مَنَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَأَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَنْ لَا يَبْقَى بِحِزْبَةِ الْعَرَبِ دِينَانٍ، وَأَنْ يُجْلَى الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْهَا، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِتَشْرِيفِ أَكْتَفَافِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَتَطْهِيرِ الْبُغْيَةِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولَهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، بِشِيرًا وَنَذِيرًا، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الْخِزْيُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا صَدَّوْا الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، صَدَّوْا عَنْهُ، وَكَمَا أَجْلَوْهُمُ مِنْ مَكَّةَ أَجْلَوْا عَنْهَا، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عَلَى مَا انْتَهَكُوا مِنْ حُرْمَةِ النَّبِيِّ، وَامْتَنَهُوهُ مِنْ نَسَبِ الْأَصْنَامِ حَوْلَهُ، وَدَعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ عِنْدَهُ، وَالطَّوَافِ بِهِ عُرْيَانًا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفَاعِيلِهِمُ الَّتِي يَكْرَهُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

وَقَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُسْرِ بْنِ أَرْطَاءَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ»^(٤). وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ﴾^(٥)

[اِسْتِقْبَالَ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ]

وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ مَكَّةَ، وَفَارَقُوا مَسْجِدَهُمْ وَمُصَلَّاهُمْ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يُصَلِّي بِمَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْكَعْبَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَجَّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ صَرَفَهُ اللَّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَا نُسِخَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقِبْلَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةَ، وَكَانَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٤١/١ ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد كما مر. (٢) فتح الباري: ٥٦٥/٣ (٣) أحمد: ١٨١/٤

كَلَّمَهُمْ بِالْكَفَايَةِ وَالْجُودِ وَالْإِفْضَالِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ، مَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ، بَلْ هُوَ يَجْمَعُهَا عَلِيمٌ. (١٠)

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَمْ قَلْبُونًا ﴿١١٦﴾ بِدِيحِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾
الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ وَلَدًا]

إِسْتَمَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، وَالَّتِي تَلِيهَا، عَلَى الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى، عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ، وَكَذًا مَنْ أَشْبَهَهُمْ مِنْ الْيَهُودِ، وَمِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، مِمَّنْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ، فَأَكْذَبَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ وَقَوْلِهِمْ: إِنَّ لِلَّهِ وَلَدًا. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أَي تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا أَفْتَرُوا، وَإِنَّمَا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِنَّ، وَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَمُقَدِّرُهُمْ وَمُسَخِّرُهُمْ، وَمُسِيرُهُمْ، وَمُصَرِّفُهُمْ كَمَا يَشَاءُ، وَالْجَمِيعُ عِبِيدٌ لَهُ، وَمِلْكٌ لَهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِنْهُمْ، وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلِّدًا مِنْ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا مُشَارِكٌ فِي عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ، وَلَا صَاحِبَةٌ لَهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِإِذْنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿١٩﴾ السَّمَوَاتِ يَنْفَطِرْنَ مِنِّهِ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَجَّرُ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٢٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٢١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٢٢﴾ إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا ﴿٢٣﴾ لَقَدْ أَحْضَمُّ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٢٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٢٥﴾ [مريم: ٨٨-٩٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤].

أَهْلَهَا الْيَهُودُ، أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَفَرِحَتْ الْيَهُودُ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَعَّةٍ عَشْرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ قَبِيلَةَ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ يَدْعُو وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فُولُوا وَجُوهَكُمْ سَطْرًا﴾ [البقرة: ١٤٤] فَازْتَابَ مِنْ ذَلِكَ الْيَهُودُ، وَقَالُوا: مَا وَلَاهُمْ عَنْ قَبِيلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وَقَالَ: ﴿فَأَيُّنَا تُولُوا فِتْمَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (١) وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَأَيُّنَا تُولُوا فِتْمَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ قَالَ: قِيلَ لِلَّهِ، أَيُّنَا تَوَجَّهَتْ شَرْقًا أَوْ غَرْبًا (٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَأَيُّنَا تُولُوا فِتْمَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَلَكُمْ قَبِيلَةٌ تَسْتَقْبِلُونَهَا: الْكَعْبَةُ (٣).

قِيلَ: بَلْ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ التَّوَجُّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْنَا مِنَ اللَّهِ أَنْ يُصَلِّيَ الْمُتَطَوِّعُ حَيْثُ تَوَجَّهَ، مِنْ شَرْقٍ أَوْ غَرْبٍ، فِي مَسِيرِهِ فِي سَفَرِهِ، وَفِي حَالِ الْمَسَافَةِ وَشِدَّةِ الْخَوْفِ (٤). فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَيَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَيَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَأَيُّنَا تُولُوا فِتْمَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (٥). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدُودِيَّةٍ، وَأَصْلُهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ وَعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الْآيَةِ (٦). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَأَلَ عَنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصَفَّهَا، ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، صَلُّوا رِجَالًا قِيَامًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَرُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا، قَالَ نَافِعٌ: وَلَا أَرَى ابْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (٧).

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِيمَنْ اسْتَبَهَتْ عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ لِأَجْلِ الظُّلْمَةِ وَالسَّحَابِ وَتَحَوَّهَمَا فَصَلَّى لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ.

[قِبْلَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ]

وَقَدْ أوردَ الْحَافِظَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُودِيَّةٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ، لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ» (٨). وَلَهُ مُنَاسَبَةٌ هُنَا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ بِلَفْظٍ «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ» (٩). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ يَسَعُ خَلْقَهُ

(١) الطبري: ٥٢٧/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٤٧/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٤٥/١ (٤) الطبري: ٥٣٠/٢ (٥) الطبري: ٢/٥٣٠ (٦) مسلم: ٤٨٦/١ وتحفة الأحوذى: ٢٩٢/٨ والنسائي: ٢٤٤/١ وابن أبي حاتم: ٣٤٤/١ والحاكم: ٢٦٦/٢ (٧) فتح الباري: ٤٦/٨ (٨) العقيلي: ٣٠٩/٤ إسناده ضعيف لأجل أبي معشر المدني أنظر العقيلي (٩) تحفة الأحوذى: ٣١٧/٢ وابن ماجه: ٣٢٣/١ (١٠) الطبري: ٥٣٧/٢

كَقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنِ جَمْعِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ وَاسْتِمْرَارِهِمْ: نِعَمَتِ الْبِدْعَةِ هَذِهِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَمَعْنَى الْكَلَامِ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَهُوَ مَالِكٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، تَشْهَدُ لَهُ جَمِيعُهَا بِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَتُقَرُّ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَهُوَ بَارئُهَا وَخَالِفُهَا وَمُوجِدُهَا، مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ وَلَا مِثَالٍ احْتِدَاها عَلَيْهِ، وَهَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ أَنْ مِمَّنْ يَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ: الْمَسِيحُ - الَّذِي أَصَفَاوْا إِلَى اللَّهِ بُنُوتهُ - وَإِخْبَارٌ مِنْهُمْ: أَنَّ الَّذِي ابْتَدَعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ، وَعَلَى غَيْرِ مِثَالٍ، هُوَ الَّذِي ابْتَدَعَ الْمَسِيحَ عَيْسَى، مِنْ غَيْرِ وَالِدٍ يُقَدِّرُهُ^(١).

وَهَذَا مِنْ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَلَامٌ جَيِّدٌ وَعِبَارَةٌ صَحِيحَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وَيَبِينُ بِذَلِكَ تَعَالَى كَمَا لَقَدْ قَدَّرْتَهُ، وَعَظِيمُ سُلْطَانِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا قَدَّرَ أَمْرًا وَأَرَادَ كَوْنَهُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ - أَيْ مَرَّةً وَاحِدَةً - فَيَكُونُ، أَيْ فَيُوجَدُ، عَلَى وَفْقِ مَا أَرَادَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يسر: ٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةٍ بِلَيْسٍ﴾ [القمر: ٥٠] وَبَيَّنَّ بِذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنْ خَلَقَ عَيْسَى بِكَلِمَةٍ «كُنْ» فَكَانَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مَكَّنْتُ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنزِيلًا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَافِعُ بْنُ حُرَيْمَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتُ رَسُولًا مِنْ

فَقَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ السَّبْدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا شَبِيهَ لَهُ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِهِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ مَرْبُوبَةٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهَا وَلَدٌ؟ وَهَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْبَقَرَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَسْتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَبَزَعَمُ أَيُّ لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ إِنَّ لِي وَلَدًا، فَسُبْحَانِي أَنْ اتَّخَذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»^(١).

إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى سَمِعَهُ، مِنْ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرِزُّهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»^(٢).

[كُلُّ شَيْءٍ خَاصٌّ وَقَانَتْ اللَّهُ تَعَالَى]

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ [قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ: أَخْبَرَنَا أَسْبَاطُ عَنْ مُطَرِّبٍ عَنْ عَطِيَّةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿قَلْبَتَيْنِ﴾ مُصَلِّينَ^(٣)]. وَقَالَ عِكْرَمَةُ وَأَبُو مَالِكٍ: ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ مَقْرُونٌ لَهُ بِالْمُبُودِيَّةِ^(٤). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾: يَقُولُ: الْإِخْلَاصُ^(٥). وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: يَقُولُ: ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ أَيْ قَانِمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٦). وَقَالَ الشَّدِيُّ: ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ أَيْ: مُطِيعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٧). وَقَالَ حُصَيْنٌ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ قَالَ: مُطِيعُونَ. كُنْ إِنْسَانًا فَكَانَ، وَقَالَ: كُنْ جَمَارًا فَكَانَ^(٨). وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ مُطِيعُونَ، قَالَ: طَاعَةُ الْكَافِرِ فِي سُجُودِ ظِلِّهِ وَهُوَ كَارِهِ^(٩). وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ مُجَاهِدٍ - وَهُوَ إِخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ - يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا، وَهُوَ أَنَّ الْقُنُوتَ: هُوَ الطَّاعَةُ وَالِاسْتِكَانَةُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ شَرْعِيٌّ وَقَدْرِيٌّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

[مَعْنَى الْبَدِيعِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: خَالِقُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ. [قَالَهُ] مُجَاهِدٌ وَالشَّدِيُّ. وَهُوَ مَقْتَضَى اللَّغَةِ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلشَّيْءِ الْمُحْدَثِ: بَدْعَةٌ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بَدْعَةٌ» وَالْبَدْعَةُ عَلَى قِسْمَيْنِ: تَارَةٌ تَكُونُ بَدْعَةً شَرْعِيَّةً، كَقَوْلِهِ: «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١٠). وَتَارَةٌ تَكُونُ بَدْعَةً لُغَوِيَّةً،

(١) فتح الباري: ١٨/٨ (٢) فتح الباري: ٣٧٢/١٣ ومسلم: ٢١٦٠/٤ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٤٩/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١/١

٣٤٩ إسناده ضعيف عطية العوفي ضعيف (٥) ابن أبي حاتم: ١/١

٣٥٠ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٥٠/١ (٧) الطبري: ٥٣٨/٢ (٨)

ابن أبي حاتم: ٣٤٩/١ (٩) ابن أبي حاتم: ٣٤٨/١ (١٠)

مسلم: ٥٩٢/٢ (١١) الطبري: ٥٥٠/٢

التَّائِبِينَ

١٩

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتَمَّتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢٠﴾ يٰٓبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّىٰ فَضَلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذْ أَسْرَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلْبَتِ فَاتَمَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشُّرَرِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ يَا اللَّهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٥﴾

الحجيرة ﴿١٢٥﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَسْتَلْ عَن أَحَبِّ الْحَجِيرِ﴾ لَا نَسَأَلُكَ عَن كُفْرٍ مِّنْ كَفَرٍ بِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ الْبَلْغَ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٦١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾... آيَةُ [الغاشية: ٢١-٢٦]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَحْنُ عَلَاؤُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مِنَ خَجَافٍ وَعِيدٍ﴾ [ق: ٤٥]؛ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

[أَوْصَافُهُ ﷺ فِي التَّوْرَةِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ فَقَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهُ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ؛ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا

(١) ابن أبي حاتم: ٣٥٢/١ إسناده ضعيف كما مرَّ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٥٣/١

اللَّهُ كَمَا تَقُولُ، فَقُلْ اللَّهُ فَيَكَلِّمَنَا حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ (١). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: هَذَا قَوْلُ كُفَّارِ الْعَرَبِ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى (٢).

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ- وَأَنَّ الْقَائِلِينَ ذَلِكَ هُمُ مُشْرِكُو الْعَرَبِ- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَخِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾... آيَةُ [الأنعام: ١٢٤]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنزِلَ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ آيَةً أَوْ تَنزِيلًا مِثْلَ آيَةِ مُوسَىٰ﴾ [الفرقان: ٢١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كُفْرِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَعَتُوهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَسُؤَالِهِمْ مَا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِهِ، إِنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ وَالْمُعَانَدَةُ، كَمَا قَالَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَلَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يُنمُون لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٥٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَشَبَّهتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أَيِ أَشْبَهتْ قُلُوبُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ قُلُوبَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالْعَتُوِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿١٠١﴾ أَوْصَاؤًا بِهٖ﴾... آيَةُ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أَيِ قَدْ أَوْضَحْنَا الدَّلَالَاتِ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ، بِمَا لَا يَحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى سُؤَالِ آخَرَ وَزِيَادَةِ أُخْرَى لِمَنْ أَيْقَنَ وَصَدَّقَ وَاتَّبَعَ الرُّسُلَ، وَفَهَمَ مَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَمَّا مَنْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمِعِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَأُولَٰئِكَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلْ عَن أَحَبِّ

وَيَقْرَأُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَلَا يَحْرَفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يَتَأَوَّلُ مِنْهُ شَيْئًا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ^(٧). قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: يُحْلُونَ حَلَالَهُ وَيُحْرَمُونَ حَرَامَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ^(٨). وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ: هُمُ الَّذِينَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلُوهَا مِنَ اللَّهِ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةِ عَذَابٍ اسْتَعَاذُوا مِنْهَا^(٩). قَالَ: وَقَدْ رَوَى هَذَا الْمَعْنَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ تَعَوَّذَ^(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ حَبَّرَ عَنِ ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أَي: مَنْ أَقَامَ كِتَابَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ حَقَّ إِقَامَتِهِ؛ آمَنَ بِمَا أَرْسَلْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّبِّهِمْ لَآكْفَلُوا مِنْ قَوْعِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ آرْتَمِهِمْ... الْآيَةَ [المائدة: ٦٦]﴾ قُلْ يَكْفُلُ الْكِتَابَ لَسَمَّ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ رِبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] أَي: إِذَا أَقَمْتُمُوهَا حَقَّ الْإِقَامَةِ، وَأَمْسَمْتُمْ بِهَا حَقَّ الْإِيمَانِ، وَصَدَقْتُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْإِخْبَارِ بِمَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ وَنَصْرِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ؛ فَادْكُمُ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ وَاتَّبَاعِ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... الْآيَةَ [الأعراف: ١٥٧]، وَقَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُوا عَلَيْهِمْ يَجِزُونَ لِبِذَانَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أَي: إِنْ كَانَ مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ شَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ - لَوَاقِعًا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامِنًا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الفصل: ٥٢-٥٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَجَزَأًا لِّلْأُمِّيِّينَ، وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَا فَظًّا وَلَا غَلِيظًا، وَلَا صَحَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَبْضِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا^(١١).
إِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْخُبَارِيُّ، فَرَوَاهُ فِي الْبُيُوعِ وَفِي التَّفْسِيرِ^(١٢).

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرِيُّ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أُتْبِعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [١٢٠] الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [١٢١]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْني بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاهُ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرِيُّ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وَاتَّبَعَتْ الْيَهُودُ يَا مُحَمَّدُ وَلَا النَّصَارَى بِرَاضِيَةٍ عَنْكَ أَبَدًا، فَدَعُ طَلَبَ مَا يُرْضِيهِمْ وَيُؤَافِقُهُمْ، وَأَقْبِلْ عَلَى طَلَبِ رِضَا اللَّهِ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: إِنْ هَدَى اللَّهُ الَّذِي بَعَثَنِي بِهِ هُوَ الْهُدَى، يَعْنِي هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ^(١٣) الصَّحِيحُ الْكَامِلُ الشَّامِلُ، قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ قَالَ: خُصُومَةٌ عَلَّمَهَا اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ يُخَاصِمُونَ بِهَا أَهْلَ الضَّلَالَةِ^(١٤). قَالَ قَتَادَةُ: وَبَلَّغْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»^(١٥). (قُلْتُ): هَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو^(١٦). ﴿وَلَئِنْ أُتْبِعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْأُمَّةِ عَنِ اتِّبَاعِ طَرَائِقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بَعْدَ مَا عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْخُطَّابَ مَعَ الرَّسُولِ وَالْأَمْرَ لِأُمَّتِهِ.

[مَعْنَى التَّلَاوَةِ الْحَقَّةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: هُمُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَنْ يُحْلَلَ حَلَالَهُ، وَيُحْرَمَ حَرَامَهُ،

(١) أحمد: ١٧٤/٢ (٢) فتح الباري: ٤٠٢/٤ و ٤٤٩/٨
والأدب المفرد: ٧٢ (٣) الطبري: ٥٦٢/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٥٦/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٥٥/١ (٦) مسلم: ١٩٢٤ (٧) الطبري: ٥٦٧/٢ (٨) الطبري: ٥٦٧/٢ (٩) القرطبي: ٩٥/٢ إسناده ضعيف زيد بن أسلم لم يسمع من عمر رضي الله عنه (١٠) ابن ماجه: ٤٢٩

شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْتَنَّهُ وَهَدَاهُ لِكَيْ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي
الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ
أَنْتَ مِلَّةٌ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿النحل﴾

١٢٠-١٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ دِينًا وُجِّدَ فِيمَا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
[الأنعام: ١٦١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا
نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ إِنَّكَ
أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِذَلِكَ نَسَبُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَرَى
الْمُؤْمِنِينَ ﴿آل عمران: ٦٧، ٦٨﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَكَلِّمَتُكَ أَيُّ: بِشْرَانِعَ وَأَوَامِرَ وَنَوَاهِ،
فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ تَطْلُقُ، وَيُرَادُ بِهَا الْكَلِمَاتِ الْقَدْرِيَّةُ، كَقَوْلِهِ
تَعَالَى عَنِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَصَدَقْتَ يَكَلِّمَتِ رَبِّيَا
وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَلْبَيْنِ﴾ [التحرير: ١٢] وَتَطْلُقُ، وَيُرَادُ
بِهَا الشَّرْعِيَّةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَعَدْتُكَ بِرَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَيُّ: كَلِمَاتُهُ الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ إِمَّا
خَبْرٌ صِدْقِي، وَإِمَّا طَلَبٌ عَدْلِي إِنْ كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا، وَمِنْ
ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿وَإِذْ أَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَكَلِّمَتِ
فَأَتَتْهُنَّ﴾، أَيُّ قَامَ بِهِنَّ، قَالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أَيُّ
جَزَاءً عَلَيَّ مَا فَعَلْتُ؛ لَمَّا قَامَ بِالْأَوَامِرِ، وَتَرَكَ الزَّوْجَرَ جَعَلَهُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ قُدْوَةً، وَإِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ وَيُحْتَذَى حُدُوهُ.

[مَا هِيَ كَلِمَاتُ الْإِبْتِلَاءِ؟]

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَعْيِينِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي اخْتَبَرَ اللَّهُ بِهَا
إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي
ذَلِكَ رَوَايَاتٍ، فَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِبْتِلَاءَهُ
اللَّهُ بِالْمَنَابِكِ^(٢). وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو إِسْحَاقَ^(٣). وَرَوَى
عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنْ
يَكَلِّمَتِ﴾، قَالَ: إِبْتِلَاءُهُ بِالطَّهَارَةِ: حَمْسٌ فِي الرَّأْسِ وَحَمْسٌ
فِي الْجَسَدِ، فِي الرَّأْسِ. قَصُّ الشَّارِبِ وَالْمَضْمَضَةُ،
وَالِاسْتِنْشَاقُ، وَالسَّوَاكُ وَفَرْقُ الرَّأْسِ. وَفِي الْجَسَدِ تَقْلِيمُ
الْأَطْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالخِتَانُ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ^(٤).
وَعَسَلُ أَثَرِ الْعَاظِ وَالْبُؤُولُ بِالْمَاءِ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:
وَرَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَمُجَاهِدٍ وَالشَّعْبِيِّ وَالنَّخَعِيِّ،
وَأَبِي صَالِحٍ وَأَبِي الْجَلْدِ نَحْوُ ذَلِكَ^(٥).

لَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا
وَأَنْتَ تَوَلَّوْنَا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿آل
عمران: ٢٠﴾.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَآلِنَارٌ مَوْعِدُهُ﴾
[هود: ١٧] وَفِي الصَّحِيحِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ
بِي أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي
إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»^(١).

﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
عَدْلٌ وَلَا نِنْفَعُهَا سَفْعَةً وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ، وَكُرِّرَتْ
هَهُنَا لِلتَّأْكِيدِ وَالْحَثِّ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ، وَنِعْتَهُ وَاسْمَهُ وَأَمْرَهُ
وَأُمَّتَهُ، فَحَذَّرَهُمْ مِنْ كِتْمَانِ هَذَا، وَكَيْفَ مَا أَنْعَمَ بِهِ
عَلَيْهِمْ، وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ
الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ، وَلَا يَحْسُدُوا بَنِي عَمِّهِمْ مِنَ الْعَرَبِ
عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ إِزْسَالِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ مِنْهُمْ،
وَلَا يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ الْحَسَدُ عَلَى مَخَالَفَتِهِ وَتَكْذِيبِهِ وَالْحَيْدِ
عَنْ مُوَافَقَتِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ
الْدِّينِ.

﴿وَإِذْ أَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَكَلِّمَتِ فَأَتَتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾
[ذِكْرُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَتَوَلِّيَتِهِ إِمَامَةَ النَّاسِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبْتَدَأًا عَلَى شَرَفِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ يُقْتَدَى بِهِ فِي
التَّوْحِيدِ حِينَ قَامَ بِمَا كَلَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ
وَالنَّوَاهِي، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِذْ أَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَكَلِّمَتِ﴾ أَيُّ
وَأَذْكُرُ يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابَيْنِ - الَّذِينَ
يَسْتَحِلُّونَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَلَيْسُوا عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهَا
مُسْتَقِيمٌ فَأَنْتَ وَالَّذِينَ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - أَذْكُرُ لَهُؤُلَاءِ
إِبْتِلَاءَ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ، أَيُّ اخْتَبَارَهُ لَهُ بِمَا كَلَّفَهُ بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ
وَالنَّوَاهِي ﴿فَأَتَتْهُنَّ﴾ أَيُّ قَامَ بِهِنَّ كُلُّهُنَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] أَيُّ وَفَّى جَمِيعَ مَا
شُرِعَ لَهُ فَعْمَلُ بِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

(١) مسلم: ١٣٤/١ (٢) الطبري: ١٣/٣ (٣) الطبري: ٣/٣

١٣ (٤) عبد الرزاق: ٥٧/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٥٩/١

الْعَبْرِ، أَنَّهُ لَا يَنَالُ عَهْدُ اللَّهِ بِالْإِمَامَةِ ظَالِمًا، ففِيهَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ سَيُوجَدُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ مَنْ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. وَقَالَ ابْنُ خُوَيْرٍ مَنَادُ الْمَالِكِيِّ: الظَّالِمُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً، وَلَا حَاكِمًا، وَلَا مُفْتِيًا، وَلَا شَاهِدًا وَلَا رَاوِيًا.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

[فَضَّلَ بَيْتَ اللَّهِ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يَقُولُ: لَا يَقْبَضُونَ فِيهِ وَطْرًا، بِأُتُونَهُ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ، ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَيْهِ^(١). وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا﴾ يَقُولُ: وَأَمَّا مِنَ الْعُدُوِّ وَأَنْ يُحْمَلَ فِيهِ السَّلَاحُ، وَقَدْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ وَهُمْ آمِنُونَ لَا يَسْبُونَ^(٢). وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالسُّدِّيِّ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالُوا: مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا^(٣).

وَمَضْمُونُ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ شَرَفَ الْبَيْتِ، وَمَا جَعَلَهُ مَوْصُوفًا بِهِ شَرَعًا وَقَدْرًا، مِنْ كَوْنِهِ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ، أَيْ جَعَلَهُ مَحَلًّا تَشْتَأِقُ إِلَيْهِ الْأُرْوَاحُ، وَتَجُرُّ إِلَيْهِ، وَلَا تَقْضِي مِنْهُ وَطْرًا وَلَوْ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ كُلَّ عَامٍ، اسْتِجَابَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، لِذُعَاءِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي قَوْلِهِ ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَهُ﴾ [إبراهيم: ٣٧-٤٠] وَبَصَفَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ جَعَلَهُ آمِنًا، مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا. وَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ، ثُمَّ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَمَا هَذَا الشَّرْفُ إِلَّا لِشَرَفِ بَانِيهِ أَوْلَا، وَهُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْنَكَ مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، نَبَّهَ عَلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ الْأَمْرِ

(قُلْتُ): وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا مَا نَبَّهَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَسَّرَ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ، وَالسَّوَاكِ، وَاسْتِنشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَطْفَارِ، وَعَسَلُ الْبَرَاجِمِ، وَتَنُفُّ الْإِيطِ، وَحَلَقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ» وَنَسِيَتْ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمُضْمَضَةَ. قَالَ وَكَيْعٌ: انْتِقَاصُ الْمَاءِ، يَعْنِي: الْاسْتِنْبَاجَ^(١). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالْإِسْحَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَطْفَارِ، وَتَنُفُّ الْإِيطِ»، وَلَفْظُهُ لِمُسْلِمٍ^(٢).

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْكَلِمَاتُ الَّتِي ابْتَلَى اللَّهُ بِهِنَّ إِبْرَاهِيمَ فَاتَّهَمُنَّ: فِرَاقُ قَوْمِهِ فِي اللَّهِ حِينَ أُمِرَ بِمُقَامَرَتِهِمْ. وَمُحَاجَّتُهُ نُمُودًا فِي اللَّهِ حِينَ وَقَفَهُ عَلَى مَا وَقَفَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَطَرِ الْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ خِلَافُهُ. وَصَبْرُهُ عَلَى قَذْفِهِ إِيَّاهُ فِي النَّارِ لِيُحْرِقُوهُ فِي اللَّهِ، عَلَى هَوْلِ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ. وَالْهَجْرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَطْنِهِ وَبِلَادِهِ فِي اللَّهِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ عَنْهُمْ. وَمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الضِّيَافَةِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ. وَمَا ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ ذَبْحِ ابْنِهِ حِينَ أَمَرَهُ بِذَبْحِهِ. فَلَمَّا مَضَى عَلَى ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ كَلِمَةً، وَأَخْلَصَهُ لِلْبَلَاءِ، قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿أَسْلِمْتَ قَالَ آسَلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خِلَافِ النَّاسِ وَفِرَاقِهِمْ^(٣).

[عَهْدُ اللَّهِ لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ]

وقَوْلُهُ: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قَالَ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامًا سَأَلَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ الْأَيْمَةُ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ، وَأُخْبِرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ظَالِمُونَ، وَأَنَّهُ لَا يَنَالُهُمْ عَهْدُ اللَّهِ، وَلَا يَكُونُونَ أَيْمَةً، فَلَا يُفْتَدَى بِهِمْ، وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى طَلِبَتِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فَكُلُّ نَبِيِّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وَكُلُّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ؛ ففِي ذُرِّيَّتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فَيُخْبِرُهُ أَنَّهُ كَائِنٌ فِي ذُرِّيَّتِهِ ظَالِمٌ؛ لَا يَنَالُ عَهْدَهُ، وَلَا يَبْغِي أَنْ يُؤَلِّهَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ ذُرِّيَّةِ خَلِيلِهِ. وَمُحْسِنٌ؛ سَتَمَفُّدٌ فِيهِ دَعْوَتُهُ، وَتَبْلُغُ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ مَسَائِلِهِ.

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَإِنْ كَانَتْ ظَاهِرَةً فِي

(١) مسلم: ٢٢٣/١ (٢) فتح الباري: ٣٤٧/١٠ ومسلم: ١/٢٢٢ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٦٠/١ إسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد كما سبق (٤) الطبري (١٩٦٩) إسناده ضعيف العوفي ضعيف كما مر (٥) الطبري: ٢٩/٣ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٧٠/١

بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ. فَقَالَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾.

[مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ]

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْلَمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ قَالَ: الْحَجَرُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيِّ اللَّهِ، قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً، فَكَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ وَيُنَاوِلُهُ إِسْمَاعِيلُ الْحِجَارَةَ. وَلَوْ غَسَلَ رَأْسَهُ -كَمَا يَقُولُونَ- لَأَخْتَلَفَ رِجَالُهُ! (١). وَقَالَ الشُّدِّيُّ: الْمَقَامُ الْحَجَرُ الَّذِي وَضَعَتْهُ زَوْجَةُ إِسْمَاعِيلَ تَحْتَ قَدَمِ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى غَسَلَتْ رَأْسَهُ (٢). حَكَاهُ الْقُرْطُبِيُّ وَضَعْنَهُ، وَرَحَّحَهُ غَيْرُهُ. وَحَكَاهُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ ابْنِ أَنَسٍ (٣).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرٍ يُحَدِّثُ عَنْ حِجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: لَمَّا طَافَ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ لَهُ عُمَرُ: هَذَا مَقَامُ أَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: أَفَلَا تَتَّخِذُهُ مُصَلِّينَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ (٤). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ مَثَابَةٌ، يَتَوَبُّونَ: يَرْجِعُونَ. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْتُ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ فَنَزَلَتْ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبُرِّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ. قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَابَتَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ فَقُلْتُ: إِنْ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَبَيْدَلْنَ اللَّهُ رَسُولَهُ خَيْرًا مِنْكُنَّ، حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ مَا يَعْظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعْظُهُنَّ أَنْتَ؟! فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَفَكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَةً﴾. . . .

الآيَةُ [التَّحْرِيمُ]: [٥].

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: اسْتَلَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّكْنَ، فَرَمَلَ ثَلَاثًا وَمَشَى أَرْبَعًا، ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ فَفَرَأَ ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ (٥). وَهَذَا قِطْعَةٌ مِنَ الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٦). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ (٧).

فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَقَامِ إِنَّمَا هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُومُ عَلَيْهِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، لَمَّا ارْتَفَعَ الْجِدَارُ أَنَاهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ لِيَقُومَ فَوْقَهُ، وَيُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، فَيَضَعُهَا بِيَدِهِ لِرَفْعِ الْجِدَارِ، وَكُلَّمَا كَمَلَ نَاحِيَةٌ انْتَقَلَ إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ وَافِقٌ عَلَيْهِ كُلَّمَا فَرَعَ مِنْ جِدَارٍ نَقَلَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي تَلِيهَا، وَهَكَذَا حَتَّى تَمَّ جِدْرَانُ الْكَعْبَةِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ، وَكَانَتْ آثَارُ قَدَمَيْهِ ظَاهِرَةً فِيهِ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا مَعْرُوفًا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قِصِيدِهِ الْمَعْرُوفَةِ اللَّامِيَّةِ:

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ

عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ

وَقَدْ أَدْرَكَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ فِيهِ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: رَأَيْتُ الْمَقَامَ فِيهِ أَصَابِعُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخْمَصُ قَدَمَيْهِ، غَيْرَ أَنَّهُ أَذْهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ.

(قُلْتُ): وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَقَامُ مُلْصَقًا بِجِدَارِ الْكَعْبَةِ قَدِيمًا وَمَكَانُهُ مَعْرُوفٌ الْيَوْمَ، إِلَى جَانِبِ الْبَابِ مِمَّا بَلِي الْحَجَرُ يُمْنَةَ الدَّخْلِ مِنَ الْبَابِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ هُنَاكَ (٨). وَكَانَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا فَرَعَ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَضَعَهُ إِلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ أَوْ أَنَّهُ انْتَهَى عِنْدَهُ الْبِنَاءُ فَتَرَكَهُ هُنَاكَ وَلِهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَمْرٌ بِالصَّلَاةِ هُنَاكَ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الطَّوَافِ، وَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ انْتَهَى بِنَاءُ الْكَعْبَةِ فِيهِ، وَإِنَّمَا آخَرُهُ عَنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدَ الْأَيْمَةِ الْمُهَدِّيِّينَ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الَّذِينَ أَمَرْنَا بِاتِّبَاعِهِمْ، وَهُوَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ قَالَ فِيهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ» (٩). وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنُ بِوَفَاقِهِ فِي الصَّلَاةِ عِنْدَهُ، وَلِهَذَا لَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ: حَدَّثَنِي عَطَاءٌ وَغَيْرُهُ مِنْ

(١) ابن أبي حاتم: ١/٣٧١ (٢) الطبري: ٣/٣٥ (٣) الرازي: ٤/٤٥ (٤) ابن أبي حاتم: ١/٣٧٠ (٥) الطبري: ٣/٣٦ (٦) مسلم: ٢/٩٢٠ (٧) فتح الباري: ٣/٥٨٦ (٨) قد أزيلت هذه البقعة، ووضع مقام إبراهيم في عمود قصير من الزجاج والسياح. (٩) الترمذي: ٣٦٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ رَعَىٰ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَضَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنْ اللَّهُ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشِئُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَمْرِ بِتَطْهِيرِهَا وَتَطْيِيبِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِبَانَتِهَا مِنَ الْأَذَى وَالنَّجَاسَاتِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «إِنَّمَا بَنِيَتِ الْمَسَاجِدَ لِمَا بَنِيَتْ لَهُ» (٨) . وَقَدْ جَمَعْتُ فِي ذَلِكَ جُزْءًا عَلَى حِدَةٍ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

[تَحْرِيمُ مَكَّةَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] رَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ بَيْتَ اللَّهِ وَأَمْنَهُ ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا ، فَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا ، وَلَا يُقَطَّعُ عِضَاهُمَا» (٩) وَهَكَذَا رَوَاهُ

(١) المصنف (٨٩٥٥) ٤٨/٥ (٢) المصنف (٨٩٥٣) ٤٧/٥ -

٤٨ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٧٣/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٧٥/١

(٥) ابن أبي حاتم: ٣٧٥/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٧٦/١ (٧)

ابن أبي حاتم: ٣٧٦/١ (٨) مسلم: ٣٩٧/١ (٩) الطبري: ٣/

أَصْحَابِنَا ، قَالَ : أَوَّلُ مَا نَقَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١) . وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَيْضًا عَنْ مُجَاهِدٍ ، قَالَ : أَوَّلُ مَنْ أَحْرَمَ الْمَقَامَ إِلَى مَوْضِعِهِ الْآنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢) . وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ الْمَقَامَ كَانَ زَمَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَزَمَانَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مُتَّصِفًا بِالْبَيْتِ ، ثُمَّ آخَرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ مَعَ مَا تَقَدَّمَ .

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَلَّفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

[الْأَمْرُ بِتَطْهِيرِ بَيْتِ اللَّهِ]

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ قَوْلُهُ : ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قَالَ : أَمَرَهُمَا اللَّهُ أَنْ يُطَهَّرَاهُ مِنَ الْأَذَى وَالنَّجَسِ ، وَلَا يُصِيبُهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ (٣) . وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : قُلْتُ لِعَطَاءٍ : مَا عَهْدُهُ؟ قَالَ : أَمْرُهُ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ : ﴿أَنَّ طَهْرًا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَلَّفِينَ﴾ قَالَ : مِنَ الْأَوْثَانِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : «طَهْرًا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ» أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالرَّفَثِ وَقَوْلِ الزُّوْرِ وَالرُّجَسِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فَالطَّوَّافُ بِالْبَيْتِ مَعْرُوفٌ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يَعْنِي مَنْ آتَاهُ مِنْ غُرْبَةٍ (٤) . «وَالْمُكَلَّفِينَ» الْمُقِيمِينَ فِيهِ ، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ ، أَنَّهُمَا فَسَّرَا الْعَاكِفِينَ بِأَهْلِهِ الْمُقِيمِينَ فِيهِ ، كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ (٥) . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : «وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» ، قَالَ : إِذَا كَانَ مُصَلِّيًا فَهُوَ مِنَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (٦) . وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَقَتَادَةُ (٧) .

وَتَطْهِيرُ الْمَسَاجِدِ مَأْخُودٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] وَمِنْ السُّنَّةِ مِنْ

النَّسَائِيَّ^(١)، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٢).
 وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ
 مَكَّةَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ
 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،
 وَإِنَّهُ لَمْ يَجَلِّ الْقِتَالَ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَجَلِّ لِي إِلَّا سَاعَةً
 مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ
 شَوْكُهُ، وَلَا يُفْرَقُ صِدُّهُ، وَلَا يُلْتَقَطُ لِقَطْعَتِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا،
 وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِلَّا
 الْإِذْحَرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِيَبُوتِهِمْ، فَقَالَ: «إِلَّا الْإِذْحَرَ»^(٣).
 وَهَذَا لَفْظٌ مُسْلِمٌ، وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ نَحْوُ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ
 رَوَى الْبُخَارِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
 مِثْلَهُ^(٤).

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ
 يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ: إِذْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ أُحَدِّثَكَ
 قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَدَدُ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ، سَمِعْتُهُ
 أُذْنًا، وَوَعَاهُ قَلْبِي، وَأَبْصُرْتُهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، إِنَّهُ
 حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ
 يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَجَلِّ لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يُعْضَدُ بِهَا شَجَرَةٌ، فَإِنْ أَحَدٌ
 تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَدْنُ لِرَسُولِهِ
 وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَدْنُ لِي فِيهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ
 عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ
 الْعَائِبَ» فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ: مَا قَالَ لَكَ عَمْرٍو؟ قَالَ: أَنَا
 أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ، إِنَّ الْحَرَّمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا
 وَلَا فَارًّا بِدَمٍ، وَلَا فَارًّا بِحَرْبَةٍ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَهَذَا
 لَفْظُهُ^(٥).

فَإِذَا عَلِمَ هَذَا فَلَا مَتَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى
 أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَبَيْنَ
 الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَهَا، لِأَنَّ
 إِبْرَاهِيمَ بَلَّغَ عَنِ اللَّهِ حُكْمَهُ فِيهَا وَتَحْرِيمَهُ إِثَابًا، وَأَنَّهَا لَمْ
 تَزَلْ بَلَدًا حَرَامًا عِنْدَ اللَّهِ قَبْلَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا،
 كَمَا أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكْتُوبًا عِنْدَ اللَّهِ حَاتِمَ
 النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَلِدٌ فِي طَيْبَتِهِ، وَمَعَ هَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ»... الْآيَةَ،

[دُعَاءُ الْخَلِيلِ لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْخَلِيلِ أَنَّهُ قَالَ: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
 بَلَدًا ءَامِنًا» أَي مِنَ الْخَوْفِ، أَي لَا يُرْعَبُ أَهْلُهُ، وَقَدْ فَعَلَ
 اللَّهُ ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدْرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ
 ءَامِنًا» [آل عمران: ٩٦] وَقَوْلِهِ: «أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا
 ءَامِنًا وَبَحَطَفْنَا النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ» [العنكبوت: ٦٧] إِلَى غَيْرِ
 ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِ الْقِتَالِ
 فِيهِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 يَقُولُ: «لَا يَجَلِّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ»^(٦). وَقَالَ
 فِي هَذِهِ السُّورَةِ: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا» أَي اجْعَلْ هَذِهِ
 الْبُقْعَةَ بَلَدًا ءَامِنًا. وَنَاسَبَ هَذَا لِأَنَّهُ قَبْلَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ. وَقَالَ
 تَعَالَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
 الْبَلَدَ ءَامِنًا» [إبراهيم: ٣٥] وَنَاسَبَ هَذَا هُنَاكَ لِأَنَّهُ، وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ، كَأَنَّهُ وَقَعَ دُعَاءُ مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَاسْتِفْرَافِ
 أَهْلِهِ بِهِ، وَبَعْدَ مَوْلِدِ إِسْحَاقَ الَّذِي هُوَ أَصْغَرُ سِنًا مِنْ
 إِسْمَاعِيلَ بِثَلَاثِ بِنَاتٍ عَشْرَةَ سَنَةً، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الدُّعَاءِ:
 «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ
 رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ» [إبراهيم: ٣٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَصْطَرِّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ
 وَيَسَّ الْمَصِيرَ» رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: «قَالَ وَمَنْ
 كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَصْطَرِّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْمَصِيرَ»
 قَالَ: هُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى^(٧). وَهَذَا قَوْلٌ مُجَاهِدٌ
 وَعِكْرَمَةٌ^(٨). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ
 تَعَالَى: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ

(١) النسائي في الكبرى: ٤٨٧/٢ (٢) مسلم: ٩٩٢/٢ (٣)

فتح الباري: ٥٦/٤ ومسلم: ٩٨٦/٢ (٤) فتح الباري: ٣/

٢٥٣ (٥) فتح الباري: ٥٠/٤ ومسلم: ٩٨٧/٢ (٦) أحمد:

٢٦٢/٥ (٧) مسلم: ٩٨٩/٢ (٨) الطبري: ٥٣/٣ (٩)

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ النَّبِيِّ، وَرَفَعَهُمَا الْقَوَاعِدَ مِنْهُ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ وَعِزْرَهُ عَنْ أَبِي وَابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُمَا كَانَا يَقْرَأَانِ (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ النَّبِيِّ وَإِسْمَاعِيلُ وَيَقُولَانِ رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (٤).

(قُلْتُ) وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُمَا بَعْدَهُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ... الْآيَةَ، فَهُمَا فِي عَمَلٍ صَالِحٍ، وَهُمَا يَسْأَلَانِ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْهُمَا، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ وَهَبِ بْنِ الْوُرْدِ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ النَّبِيِّ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا﴾ ثُمَّ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ تَرْفَعُ قَوَائِمَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ مُشْفِقٌ أَنْ لَا يَتَقَبَّلَ مِنْكَ (٥). وَهَذَا كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أَيْ يُعْطُونَ مَا أُعْطُوا مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْتَفَقَاتِ وَالْقُرْبَاتِ ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أَيْ خَائِفَةٌ أَنْ لَا يَتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، كَمَا جَاءَ بِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا سَبَّأَتِي فِي مَوْضِعِهِ.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمُنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعْفِيَ أُنْتَرَهَا عَلَى سَارَةِ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ، وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ النَّبِيِّ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ رَمْزَمٍ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسَقَاءَ فِيهِ مَاءً، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعْتَهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرَكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أُنَيْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مَرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: اللَّهُ أَمْرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إِذَا لَا يُضِيعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ. فَأَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ؟ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ النَّبِيِّ، ثُمَّ دَعَا بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ حَتَّى بَلَغَ

مَنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُحَجِّرُهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: وَمَنْ كَفَرَ أَيْضًا أَرْزُقْهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ، أَلْخُلُقُ خَلْقًا لَا أَرْزُقُهُمْ؟ أَمْتَعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرَّهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ (١). ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُودِيَّةٍ. وَرَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ نَحْوَ ذَلِكَ أَيْضًا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٢) مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُذِيقُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣) نَمُتُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِيَنَّهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٤) وَبِشَوْبَتِهِمْ أَوْبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَخْرُجُونَ﴾ (٥) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْعِبَادَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ ثُمَّ أَلْجَيْتُهُ بَعْدَ مَتَاعِهِ فِي الدُّنْيَا، وَبَسَطْنَا عَلَيْهِ مِنْ ظِلِّهَا، إِلَى عَذَابِ النَّارِ، وَبُئْسَ الْمَصِيرُ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْظِرُهُمْ وَيَمِيلُهُمْ ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ أَحَدٌ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا إِنَّ مِنَ قَرِيبَةٍ أَمَلْتُمْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨] وَفِي الصَّحِيحِينَ «لَا أَحَدٌ أَضْرَبُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ، مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» (٦). وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِكُنِي لِلظَّلَامِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَمْلِكْتَهُ» (٧) ثُمَّ قَرَأَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]

[بِنَاءِ الْكَعْبَةِ وَالِدَّعَاءِ بِقَبُولِ ذَلِكَ الْعَمَلِ]

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ النَّبِيِّ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فَالْقَوَاعِدُ جَمْعُ قَاعِدَةٍ وَهِيَ السَّارِيَّةُ وَالْأَسَاسُ.

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٧٧/١ (٢) فتح الباري: ٣٧٢/١٣
ومسلم: ٢١٦٠/٤ (٣) فتح الباري: ٢٠٥/٨ (٤) القرطبي:
١٢٦/٢ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٨٤/١

﴿بَشُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ سَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ.

وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ: يَتَلَجُّطُ - فَأَنْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَبَلَّتِ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا، فَظَهَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَلِذَلِكَ سَعَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا».

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: «صَهْ» - تُرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمِعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ

أَسَمِعَتْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بَعْقِيهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءَ، فَجَعَلَتْ تَحْوِضُهُ، وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَانِهَا، وَهُوَ يَقُورُ بَعْدَ مَا تَعْرِفُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكْتَ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَعْرِفْ مِنَ الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا» قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافِي الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَهُنَا بَيْتًا لِلَّهِ بَيْنَهُ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُوفُ فِتْنًاخُذْ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ.

فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمِ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمِ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَتَزَلُّوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ، فَإِذَا هُمُ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ عِنْدَنَا، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْأَنْسَ» فَتَزَلُّوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ فَتَزَلُّوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلٌ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ

فَجَاءَ إِبرَاهِيمَ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلَ لِيُطَالِعَ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، فَسَكَتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَأَقْرَبِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُعَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلَ، كَأَنَّهُ أَنْسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشِنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولَ: غَيْرَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، فَالْحَقِّي بِأَهْلِكَ، وَطَلِّقْهَا، وَتَزَوَّجْ مِنْهُمْ بِأُخْرَى.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَنْتَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ لَدَعَا لَهُمْ فِيهِ» قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُؤَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَأَقْرَبِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِّيهِ يُثَبِّتْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَنَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَنْتَ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشِنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّنَا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَهُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُسَيِّدَكَ.

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، وَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبْنِيَ هَهُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ

أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَالنَّاسُ يَتَّحِلُونَ هَذَا الْكَلَامَ لِلْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْرُومٍ^(٥).

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ فُرَيْشًا تَجَرَّأَتْ الْكُعْبَةَ، فَكَانَ شِقُّ الْبَابِ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَرُزْهَرَةَ، وَكَانَ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ، وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ لِبَنِي مَخْرُومٍ، وَقَبَائِلُ مِنْ فُرَيْشٍ انْتَضَمُوا إِلَيْهِمْ، وَكَانَ ظَهْرُ الْكُعْبَةِ، لِبَنِي جُمَحٍ وَسَهْمٍ، وَكَانَ شِقُّ الْحَجْرِ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ وَلِبَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَلِبَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ ابْنِ لُؤَيٍّ، وَهُوَ الْحَطِيمُ.

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ هَابُوا هَذِمَهَا وَفَرَقُوا مِنْهُ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةَ: أَنَا أَبْدُوكُمْ فِي هَذِمِهَا، فَأَخَذَ الْمِعْوَلُ ثُمَّ قَامَ عَلَيْهَا وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَمْ تَرَعْ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ، ثُمَّ هَدَمَ مِنْ نَاحِيَةِ الرُّكْنَيْنِ، فَتَرَبَّصَ النَّاسُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَالُوا: نَنْظُرُ، فَإِنْ أُصِيبَ لَمْ نَهْدِمِ مِنْهَا شَيْئًا، وَرَدَدْنَاهَا كَمَا كَانَتْ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ مَا صَنَعْنَا، فَأَصْبَحَ الْوَلِيدُ مِنْ لَيْلَتِهِ غَادِيًا عَلَى عَمَلِهِ، فَهَدَمَ وَهَدَمَ النَّاسُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى الْهَدْمُ بِهِمْ إِلَى الْأَسَاسِ، أُسَاسَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَفْضَوْا إِلَى حِجَارَةٍ حُضِرَ كَالْأَسِنَّةِ آخِذٌ بَعْضُهَا بَعْضًا، قَالَ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ يَزُورِي الْحَدِيثَ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ فُرَيْشٍ وَمِمَّنْ كَانَ يَهْدِمُهَا، أَدْخَلَ عَتَلَةَ بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْهَا لِيُقْلِعَ بِهَا أَيْضًا أَحَدَهُمَا، فَلَمَّا تَحَرَّكَ الْحَجَرُ تَنَفَّضَتْ مَكَّةُ بِأَسْرَهَا، فَانْتَهَزَا عَنْ ذَلِكَ الْأَسَاسِ^(٦).

[الْتِزَاعُ فِي وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ. وَقَضَاءُ مُحَمَّدٍ بْنِ

عَبْدِ اللَّهِ ﷺ الْقَضَاءُ الْعَادِلُ]

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ الْقَبَائِلَ مِنْ فُرَيْشٍ جَمَعَتْ الْحِجَارَةَ لِبَنَاتِهَا، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ بَنَوْهَا حَتَّى بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الرُّكْنِ، يَعْنِي الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ، فَأَخْضَمُوا فِيهِ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الْأُخْرَى، حَتَّى تَحَاوَرُوا وَتَخَالَفُوا وَأَعْدُوا لِلْقِتَالِ، فَفَرَّبَتْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ حِفْنَةً مَمْلُوءَةً دَمًا، ثُمَّ تَعَاقَدُوا هُمْ وَبَنُو عَدِيِّ

الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ بَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ بَيْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ بَيْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُتَاوَلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا نَقَبَلْ مِنْكَ إِنَّا نَتَّعِبُكَ﴾^(١). قَالَ: فَجَمَعَا بَيْنَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا نَقَبَلْ مِنْكَ إِنَّا نَتَّعِبُكَ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ذُكِرَ بِنَاءُ فُرَيْشِ الْكُعْبَةِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَدَدٍ طَوِيلَةٍ، قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ سِنِينَ وَقَدْ نَقَلَ مَعَهُمْ فِي الْحِجَارَةَ وَلَهُ مِنَ الْعُمَرِ خَمْسُونَ وَثَلَاثُونَ سَنَةً صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ فِي السِّيَرَةِ: وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، اجْتَمَعَتْ فُرَيْشٌ لِبُنْيَانِ الْكُعْبَةِ، وَكَانُوا يَهْمُونَ بِذَلِكَ لِيَسْقِفُوهَا، وَيَهَابُونَ هَدْمَهَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ رَضْمًا فَوْقَ الْقَامَةِ، فَأَرَادُوا رَفْعَهَا وَتَسْقِيفَهَا، وَذَلِكَ أَنَّ نَفْرًا سَرَقُوا كَثْرَ الْكُعْبَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَكُونُ فِي بِئْرِ فِي جَوْفِ الْكُعْبَةِ، وَكَانَ الَّذِي وُجِدَ عِنْدَهُ الْكَنْزُ [دُونِ كَأ]^(٢) - مَوْلَى بَنِي مُلَيْحِ بْنِ عَمْرِو بْنِ خَزَاعَةَ - فَقَطَعَتْ فُرَيْشٌ يَدَهُ، وَبَزَعُمُ النَّاسُ أَنَّ الَّذِينَ سَرَقُوهُ: وَضَعُوهُ عِنْدَ دُونِكَ، وَكَانَ الْبَحْرُ قَدْ رَمَى بِسَفِينَتِهِ إِلَى جِدَّةٍ لِرَجُلٍ مِنْ تِجَارِ الرُّومِ، فَتَحَطَّمَتْ، فَأَخَذُوا حَسْبَهَا، فَأَعْدَوْهُ لِيَسْقِيفَهَا، وَكَانَ بِمَكَّةَ رَجُلٌ قِنْطِيٌّ نَجَّارٌ، فَهَيَّأَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بَعْضَ مَا يُصْلِحُهَا.

وَكَانَتْ حَيْثُ تَخْرُجُ مِنْ بِئْرِ الْكُعْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تُطْرَحُ فِيهَا مَا يَهْدَى لَهَا كُلَّ يَوْمٍ، [فَتَشْرُقُ]^(٣) عَلَى جِدَارِ الْكُعْبَةِ، وَكَانَتْ مِمَّا يَهَابُونَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَدْنُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا اخْرَأَلَتْ وَكَشَّتْ وَفَتَحَتْ فَاهَا، فَكَانُوا يَهَابُونَهَا^(٤). فَبَيْنَا هِيَ يَوْمًا تَشْرُقُ عَلَى جِدَارِ الْكُعْبَةِ كَمَا كَانَتْ تَصْنَعُ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا طَائِرًا فَأَخْطَفَهَا فَذَهَبَ بِهَا، فَقَالَتْ فُرَيْشٌ: إِنَّا لَنَرَجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ رَضِيَ مَا أَرَدْنَا، عِنْدَنَا عَامِلٌ رَفِيقٌ، وَعِنْدَنَا حَسْبٌ، وَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ الْحَيْثُ.

فَلَمَّا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ فِي هَدْمِهَا وَبُنْيَانِهَا، قَامَ أَبُو وَهَبِ ابْنُ عَمْرِو بْنِ عَائِدِ بْنِ عَبْدِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْرُومٍ، فَتَنَاولَ مِنَ الْكُعْبَةِ حَجْرًا فَوَتَّبَ مِنْ يَدِهِ، حَتَّى رَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ فُرَيْشٍ، لَا تَدْخُلُوا فِي بُنْيَانِهَا مِنْ كَسْبِكُمْ إِلَّا طَيِّبًا، لَا يَدْخُلُ فِيهَا مَهْرٌ بَغِيٌّ، وَلَا يَتَّبِعُ رَبًّا، وَلَا مَظْلَمَةٌ

(١) فتح الباري: ٤٥٦/٦ (٢) في النسخ: دُوك، بدون علامة النصب والمثبت عن السيرة لابن هشام (٢٣١/١). (الناشر) (٣) فتشروق، كذا أثبتناه من السيرة أي تبرز للشمس. وفي الأصل: فتشرف وهو قريب المراد. (٤) كيف سرقوا كنز الكعبة ما دامت الحية قد كانت على هذا الحال؟ (٥) ابن هشام: ٢٠٤/١ (٦) ابن هشام: ٢٠٧/١

وَمُرَّةٌ قَدْ تَقَدَّمَهَا كِلَابٌ
فَبَوَّأْنَا الْمَلِيكَ بِذَلِكَ عِزًّا
وَعِنْدَ اللَّهِ يُلْتَمَسُ الشَّوَابُ^(١)
[بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ الْكَعْبَةَ عَلَى مَا كَانَ يُرِيدُهُ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ]

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ الْكَعْبَةُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ
ثَمَانِي عَشَرَ ذِرَاعًا، وَكَانَتْ تُكْسَى الْقُبَاطِيَّ، ثُمَّ كُتِبَتْ بَعْدَ
الْبُرُودِ، وَأَوَّلُ مَنْ كَسَاهَا الدِّيَاجُ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ^(٢).

(قُلْتُ) وَلَمْ تَزَلْ عَلَى بِنَاءِ فُرَيْشٍ حَتَّى احْتَرَقَتْ فِي أَوَّلِ
إِمَارَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ سَنَةِ سِتِّينَ وَفِي آخِرِ وَلَايَةِ يَزِيدَ
ابْنَ مُعَاوِيَةَ، لَمَّا حَاصَرُوا ابْنَ الزُّبَيْرِ، فَحِينَئِذٍ نَقَضَهَا ابْنُ
الزُّبَيْرِ إِلَى الْأَرْضِ وَبَنَاهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَأَدْخَلَ فِيهَا الْحَجَرَ، وَجَعَلَ لَهَا بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا
مُلَصَّقَيْنِ بِالْأَرْضِ، كَمَا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ خَلِيلِهِ عَائِشَةَ أُمَّ
الْمُؤْمِنِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ مُدَّةَ إِمَارَتِهِ،
حَتَّى قَتَلَهُ الْحَجَّاجُ، فَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ بِأَمْرِ
عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ لَهُ بِذَلِكَ.

رَوَى مُسْلِمٌ بْنُ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَطَاءٍ،
قَالَ: لَمَّا احْتَرَقَ الْبَيْتُ زَمَنَ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ حِينَ غَزَاهَا
أَهْلُ الشَّامِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، تَرَكَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ
حَتَّى قَدِمَ النَّاسُ الْمَوْسِمَ، يُرِيدُ أَنْ يُجَرِّتَهُمْ أَوْ يُحَزِّبَهُمْ
عَلَى أَهْلِ الشَّامِ، فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ،
أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْكَعْبَةِ أَنْقَضَهَا ثُمَّ أَنْبِي بِنَاءَهَا، أَوْ
أُضِلِّحْ مَا وَهَى مِنْهَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنِّي قَدْ خَرَقْتُ لِي
رَأْيِي فِيهَا، أَرَى أَنْ تُضْلِحَ مَا وَهَى مِنْهَا، وَتَدْعُ بَيْتًا
أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَأَحْجَارًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَبِعَتْ
عَلَيْهَا ﷺ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: لَوْ كَانَ أَحَدُهُمْ احْتَرَقَ بَيْتَهُ
مَا رَضِيَ حَتَّى يُجَدِّدَهُ، فَكَيْفَ بَيْتَ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ؟ إِنِّي
مُسْتَخِيرٌ رَبِّي ثَلَاثًا، ثُمَّ عَازِمٌ عَلَى أَمْرِي، فَلَمَّا مَضَتْ
ثَلَاثٌ، أَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يُنْقِضَهَا، فَتَحَامَاهَا النَّاسُ أَنْ
يَنْزِلَ بِأَوَّلِ النَّاسِ يَصْعَدُ فِيهِ أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ، حَتَّى صَعِدَهُ
رَجُلٌ، فَأَلْفَى مِنْهُ حِجَارَةً، فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ النَّاسُ أَصَابَهُ
شَيْءٌ تَتَابَعُوا، فَنَقَضُوهُ حَتَّى بَلَّغُوا بِهِ الْأَرْضَ، فَجَعَلَ
ابْنُ الزُّبَيْرِ أَعْمَدَةً يَسْتُرُ عَلَيْهَا السُّتُورَ حَتَّى ارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ،

ابْنُ كَعْبٍ بْنُ لُؤَيٍّ عَلَى الْمَوْتِ، وَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي ذَلِكَ
الدَّمِّ فِي تِلْكَ الْحَفْنَةِ، فَسَمُوا «لَعَقَةَ الدَّمِّ» فَكَتَبْتُ فُرَيْشَ
عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسًا، ثُمَّ إِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي
الْمَسْجِدِ فَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا، فَرَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الرِّوَايَةِ أَنَّ
أَبَا أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنَ مَخْرُومَ، وَكَانَ
عَامِدًا أَسَنَ فُرَيْشٍ كُلِّهِمْ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ فُرَيْشٍ، اجْعَلُوا
بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا
الْمَسْجِدِ يُفْضِي بَيْنَكُمْ فِيهِ، فَفَعَلُوا، فَكَانَ أَوَّلَ دَاخِلِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ رَضِينَا، هَذَا
مُحَمَّدٌ.

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ وَأَخْبِرُوهُ الْخَبَرَ قَالَ ﷺ: هَلُمُّ إِلَيَّ تَوْبًا،
فَأْتِي بِهِ فَأَخَذَ الرُّكْنَ، يَعْنِي الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ، فَوَضَعَهُ فِيهِ
بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: لِنَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ التُّوبِ ثُمَّ ارْزِعُوهُ
جَوْبِعًا، فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا بَلَّغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ، وَضَعَهُ هُوَ
بِيَدِهِ ﷺ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ، وَكَانَتْ فُرَيْشٌ تُسَمِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الرَّوحِيُّ «الْأَمِين».

فَلَمَّا فَرَعُوا مِنَ الْبُنْيَانِ وَبَنَوْهَا عَلَى مَا أَرَادُوا، قَالَ
الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَيَّةِ الَّتِي كَانَتْ
فُرَيْشٌ تَهَابُ بُنْيَانَ الْكَعْبَةِ لَهَا:

عَجِبْتُ لَمَّا تَصَوَّبَتِ الْعُقَابُ
إِلَى الثُّعْبَانِ وَهِيَ لَهَا اضْطِرَابُ
وَقَدْ كَانَتْ يَكُونُ لَهَا كَشِيشُ
وَأَحْبَابًا يَكُونُ لَهَا وِثَابُ
إِذَا قُمْنَا إِلَى التَّاسِيسِ شَدْتُ
تَهْيِئْنَا الْبِنَاءَ وَقَدْ تَهَابُ
فَلَمَّا أَنْ حَشِينَا الرُّجْرَ جَاءَتْ
عُقَابُ تَثْلُبُ لَهَا انْصِبَابُ
فَضَمَّتْهَا إِلَيْهَا ثُمَّ حَلَّتْ
لَنَا الْبُنْيَانَ لَيْسَ لَهُ حِجَابُ
فَقُمْنَا حَاشِدِينَ إِلَى بِنَاءِ
لَنَا مِنْهُ الْقَوَاعِدُ وَالشُّرَابُ
غَدَاةَ نُرْفَعُ التَّاسِيسَ مِنْهُ
وَلَيْسَ عَلَيَّ مُسَوِّينَا ثِيَابُ
أَعَزَّ بِهِ الْمَلِيكَ بَنِي لُؤَيٍّ
فَلَيْسَ لِأَضْلِهِ مِنْهُمْ ذَهَابُ
وَقَدْ حَسَدَتْ هُنَاكَ بَنُو عَدِيٍّ

بَابَهَا؟» قَالَتْ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: «تَعَزُّزًا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدْعُوهُ حَتَّى يَرْتَقِي، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ» قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: قُلْتُ لِلْحَارِثِ: أَنْتَ سَمِعْتَهَا تَقُولُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَتَكَتْ سَاعَةٌ بِعَصَاهُ، ثُمَّ قَالَ: وَدِدْتُ أَنْي تَرَكْتُ وَمَا تَحَمَّلْتُ^(٣).

[حَبْسِي يَهْدِمُ الْكَعْبَةَ قُرْبَ الْقِيَامَةِ]

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْرَبُ الْكَعْبَةُ ذُو السُّؤْمِقَيْنِ مِنَ الْحَبْسَةِ» أَخْرَجَاهُ^(٤). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجٍ، يُقْلِعُهَا حَجْرًا حَجْرًا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُحْرَبُ الْكَعْبَةُ ذُو السُّؤْمِقَيْنِ مِنَ الْحَبْسَةِ، وَيَسْلُبُهَا حَلِيَّتَهَا، وَيَجْرُدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أَضْيَلُ أَفْيِدِعَ، يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَيَعُولُهُ»^(٦) - أَلْفَدَعُ: رَنَعٌ بَيْنَ أَلْقَدَمِ وَعَظْمِ السَّاقِ - وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، لِمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الْيَحْنَنُ الْبَيْتَ وَالْيَعْتَمَرَنُ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»^(٧).

[دُعَاءُ الْخَلِيلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةَ لِدُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِيَانِ بِذَلِكَ وَاجْعَلْنَا مُسْتَسْلِمِينَ لِأَمْرِكَ، خَاضِعِينَ لِطَاعَتِكَ، وَلَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الطَّاعَةِ أَحَدًا سِوَاكَ، وَلَا فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَكَ^(٨). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ.

وَهَذَا الدُّعَاءُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ:

وَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِنِّي سَمِعْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِكُفْرٍ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّنِي عَلَى بِنَائِهِ لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الْحَجَرِ حَمْسَةَ أَذْرُعَ، وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ» قَالَ: فَأَنَا أَجِدُ مَا أَتَّفِقُ، وَلَسْتُ أَخَافُ النَّاسَ، قَالَ: فَرَادَ فِيهِ حَمْسَةَ أَذْرُعَ مِنَ الْحَجَرِ، حَتَّى أَبْدَى لَهُ أَسَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَبْنَى عَلَيْهِ الْبِنَاءَ، وَكَانَ طُولُ الْكَعْبَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا زَادَ فِيهِ اسْتَقْصَرَهُ فَرَادَ فِي أَوَّلِهِ عَشْرَةَ أَذْرُعَ وَجَعَلَ لَهُ بَابَيْنِ: أَحَدُهُمَا يَدْخُلُ مِنْهُ، وَالْآخَرُ يُخْرَجُ مِنْهُ.

فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ، كَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يَسْتَجِيرُهُ بِذَلِكَ وَيُخْبِرُهُ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ وَضَعَ الْبِنَاءَ عَلَى أَسْ نَظَرَ إِلَيْهِ الْعُدُولُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِنَّا لَسْنَا مِنْ تَلْطِيطِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي شَيْءٍ، أَمَا مَا زَادَهُ فِي طَوْلِهِ فَأَقْرَهُ، وَأَمَا مَا زَادَ فِيهِ مِنَ الْحَجَرِ فَرَدَّهُ إِلَى بِنَائِهِ، وَسَدَّ الْبَابَ الَّذِي فَتَحَهُ، فَفَضَّضَهُ وَأَعَادَهُ إِلَى بِنَائِهِ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنْ عَائِشَةَ بِالْمَرْفُوعِ مِنْهُ^(٢)، وَلَمْ يَذْكَرِ الْقِصَّةَ.

وَقَدْ كَانَتْ السُّنَّةُ إِقْرَارًا مَا فَعَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَدَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ خَشِيَ أَنْ تُنْكِرَهُ قُلُوبُ بَعْضِ النَّاسِ لِحَدَاثَةِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَقُرْبِ عَهْدِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَكِنْ خَفِيَ هَذِهِ السُّنَّةُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَلِهَذَا لَمَّا تَحَقَّقَ ذَلِكَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا رَوَتْ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَدِدْنَا أَنَا تَرَكْنَاهُ وَمَا تَوَلَّى. كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: وَقَدْ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي خِلَافَتِهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: مَا أَطْلُقُ أَبَا حَبِيبٍ، يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ، سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ مَا كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهَا، قَالَ الْحَارِثُ: بَلَى، أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْهَا. قَالَ: سَمِعْتَهَا تَقُولُ مَاذَا؟ قَالَ: قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ قَوْمَكَ اسْتَقْصَرُوا مِنْ بِنَائِ الْبَيْتِ، وَلَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِاللَّشْرِكِ أَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ، فَإِنْ بَدَأَ لِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمَّي لِأُرِيكَ مَا تَرَكُوهُ مِنْهُ» فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعَ، زَادَ الْوَلِيدُ بْنُ عَطَاءٍ - أَحَدُ رُؤَاتِهِ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الْأَرْضِ: شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا، وَهَلْ تَدْرِينَ لِمَ كَانَ قَوْمُكَ رَفَعُوا

(١) مسلم: ٩٧٠/٢ (٢) النسائي: ٢١٨/٥ (٣) مسلم: ٢/

٩٧١ (٤) فتح الباري: ٥٣٨/٣ البخاري ١٥٩٥ ومسلم: ٤/

٢٢٣٢ (٥) فتح الباري: ٥٣٨/٣ (٦) أحمد: ٢٢٠/٢ (٧)

فتح الباري: ٥٣١/٣ (٨) الطبري: ٧٣/٣

وَالْمُرَادُ أَنْ أَوَّلَ مَنْ نَوَّهَ بِذِكْرِهِ وَشَهَرَهُ فِي النَّاسِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُهُ فِي النَّاسِ مَذْكُورًا مَشْهُورًا سَائِرًا حَتَّى أَفْصَحَ بِاسْمِهِ خَاتَمَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَسَبًا، وَهُوَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَيْثُ قَامَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَظِييًّا، وَقَالَ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦]. وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَ أَوَّلَ بَدَأِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى بِي، وَرَأْتُ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ»^(١).

وَقَوْلُهُ: «وَرَأْتُ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ»، قِيلَ: كَانَ مَنَامًا رَأَتْهُ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ، وَقَصَّتْهُ عَلَى قَوْمِهَا، فَشَاعَ فِيهِمْ وَاشْتَهَرَ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ تَوْطِئَةً. وَتَخْصِيصُ الشَّامِ بِظُهُورِ نُورِهِ إِشَارَةٌ إِلَى اسْتِقْرَارِ دِينِهِ وَنُبُوْتِهِ بِيَلَادِ الشَّامِ. وَلِهَذَا تَكُونُ الشَّامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَعْقِلًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ، وَبِهَا يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، إِذَا نَزَلَ بِدِمَشْقَ بِالْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ النَّبِيضَاءِ مِنْهَا. وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «وَهُمْ بِالشَّامِ»^(٢).

[تَفْسِيرُ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، وَالْحِكْمَةَ يَعْنِي الشَّيْءَ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَأَبُو مَالِكٍ وَغَيْرُهُمْ^(٣). وَقِيلَ: أَلْفَهُمْ فِي الدِّينِ. وَلَا مُنَافَاةَ. ﴿وَوَرِّكِهِمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي طَاعَةَ اللَّهِ^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، فَيَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنَّا فَلْيَرْغَبْ مِنَّا وَلَا مَن سِوَهُ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣١] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ رَبِّي الْعَلَمِيِّينَ [١٣٢] وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَدْوَجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] وَهَذَا الْقَدْرُ مَرْغُوبٌ فِيهِ شَرْعًا، فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنْ يُحِبَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قَالَ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدُوا الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(١).

[تَفْسِيرُ الْمَنَاسِكِ]

﴿وَأَرَانَا مَنَاسِكَنَا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: أَخْبَرَنَا عَتَابُ بْنُ بَشِيرٍ عَنْ خُصَيْفٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴿وَأَرَانَا مَنَاسِكَنَا﴾ فَأَتَاهُ جِبْرَائِيلُ فَأَتَى بِهِ الْبَيْتَ، فَقَالَ: ارْزُقِ الْقَوَاعِدَ، فَرَفَعَ الْقَوَاعِدَ وَأَتَمَّ الْبَيْتَانَ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ فَأَخْرَجَهُ فَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى الصَّفَا، قَالَ: هَذَا مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إِلَى الْمَرْوَةِ، فَقَالَ: وَهَذَا مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ نَحْوَ مَنَى، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَقَبَةِ إِذَا إِبْلِيسُ قَائِمٌ عِنْدَ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ: كَبَّرَ وَارْمِهِ، فَكَبَّرَ وَرَمَاهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِبْلِيسُ فَقَامَ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسطَى، فَلَمَّا جَارَ بِهِ جِبْرَائِيلُ وَإِبْرَاهِيمُ، قَالَ لَهُ: كَبَّرَ وَارْمِهِ، فَكَبَّرَ وَرَمَاهُ، فَذَهَبَ الْخَيْبُ إِبْلِيسُ. وَكَانَ الْخَيْبُ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْحَجِّ شَيْئًا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ. فَأَخَذَ بِيَدِ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى أَتَى بِهِ الْمَشْعَرِ الْحَرَامَ، فَقَالَ: هَذَا الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ، فَأَخَذَ بِيَدِ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى أَتَى بِهِ عَرَفَاتٍ، قَالَ: قَدْ عَرَفْتَ مَا أَرَيْتُكَ؟ قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: «نَعَمْ»^(٢). وَرَوَى عَنْ أَبِي مَجَلَزٍ وَقَتَادَةَ نَحْوَ ذَلِكَ^(٣).

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١٣١]

[دَعَاءُ الْخَلِيلِ بِيَعْنَةِ النَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ تَمَامِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ أَنْ يُبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، أَيُّ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ وَافَقَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُسْتَجَابَةَ قَدَّرَ اللَّهُ السَّابِقَ فِي تَعْيِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ رَسُولًا فِي الْأُمِّيِّينَ إِلَيْهِمْ، وَإِلَى سَائِرِ الْأَعْجَمِيِّينَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْجِنِّ.

(١) مسلم: ١٢٥٥/٣ (٢) سعيد بن منصور: ٦١٥/٢ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٨٧/١ (٤) أحمد: ٢٦٢/٥ (٥) فتح الباري: ٦/٧٣١ ومسلم: ١٥٢٤/٢ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٩٠/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٣٩١/١

مُسْلِمُونَ ﴿١٣٠﴾

[مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، لَا يَرْعُبُ عَنْهَا إِلَّا السَّفِيهَ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَدًّا عَلَى الْكُفَّارِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَخَذْتُوهُ مِنَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ، الْمُخَالِفِ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ إِمَامِ الْحَقَّاءِ، فَإِنَّهُ جَرَّدَ تَوْحِيدَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَلَمْ يَدْعُ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَلَا أَشْرَكَ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ سَائِرَ قَوْمِهِ، حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ، فَقَالَ: ﴿يَعْقُوبُ ابْنِي بَرٌّ وَمَا شُرْكُوكُمْ﴾ ﴿٧٨﴾ ابْنِي وَجِهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿الأنعام: ٧٨، ٧٩﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرٌّ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْهَامًا إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوَدَعَةٍ وَمَدَهَا إِنْيَاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِذْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَاهُ حَلِيلٌ﴾ [التوبة: ١٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِنًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ شَاكِرًا لِأَنَّمِيهِ أَحْبَبْتَهُ وَهَدَيْتَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

وَلِهَذَا وَأَمْثَالِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عَن طَرِيقِيهِ وَمَنْهَجِهِ، فَيُخَالِفُهَا وَيَرْعُبُ عَنْهَا ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أَي ظَلَمَ نَفْسَهُ بِسَفْهِهِ وَسُوءِ تَدْبِيرِهِ، بِتَرْكِهِ الْحَقَّ إِلَى الضَّلَالِ، حَيْثُ خَالَفَ طَرِيقَ مَنْ اصْطَفَيْتُ فِي الدُّنْيَا لِلْهُدَايَةِ وَالرِّشَادِ، مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّي إِلَى أَنْ اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ السُّعْدَاءِ، فَمَنْ تَرَكَ طَرِيقَهُ هَذَا وَمَسْلُكَهُ وَمِلَّتَهُ، وَاتَّبَعَ طَرِيقَ الضَّلَالَةِ وَالْعِي، فَأَيُّ سَفِهَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا؟ أَمْ أَيُّ ظَلَمَ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَطُلُوءٌ عَظِيمٌ﴾ [القمان: ١٣]، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ، أَحَدَثُوا طَرِيقًا لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَخَالَفُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أَخَذُوهُ^(١). وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَبِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]،

[٦٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ أَي أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَالْإِسْتِسْلَامِ

وَالْإِنْقِيَادِ، فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ شَرَعًا وَقَدْرًا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ أَي وَصَّى بِهَذِهِ الْمِلَّةِ، وَهِيَ الْإِسْلَامُ لِلَّهِ، أَوْ: يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى الْكَلِمَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَسْلَمْتُ رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ لِجَرِّصِهِمْ عَلَيْهَا وَمَحَبَّتِهِمْ لَهَا: حَافِظُوا عَلَيْهَا إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ، وَوَصَّوْا أَبْنَاءَهُمْ بِهَا مِنْ بَعْدِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨].

وَقَدْ قَرَأَ بَعْضُ السَّلَفِ: (وَيَعْقُوبُ) بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى بَنِيهِ، كَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَصَّى بَنِيهِ وَابْنَ ابْنِهِ يَعْقُوبَ بِنَ إِسْحَاقَ، وَكَانَ حَاضِرًا ذَلِكَ. وَالظَّاهِرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ إِسْحَاقَ وُلِدَ لَهُ يَعْقُوبُ فِي حَيَاةِ الْحَلِيلِ وَسَارَةَ، لِأَنَّ الْبِشَارَةَ وَقَعَتْ بِهِمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿بَشَّرْتَنِيهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١] وَقَدْ قُرِئَ بِنَصْبِ (يَعْقُوبُ) هَهُنَا عَلَى نَزْعِ الْخَافِضِ، فَلَوْ لَمْ يُوجَدْ يَعْقُوبُ فِي حَيَاتِهِمَا لَمَا كَانَ لِذِكْرِهِ مِنْ بَيْنِ ذُرِّيَةِ إِسْحَاقَ كَبِيرَ فَايِدَةٍ، وَأَيْضًا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَمَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ﴾ الْآيَةَ [العنكبوت: ٢٧]، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وَهَذَا يَفْتَضِي: أَنَّهُ وُجِدَ فِي حَيَاتِهِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ بَانِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، كَمَا نَطَقَتْ بِذَلِكَ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ، وَبَيَّنَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وَضِعَ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بَيْتُ الْمَقْدِسِ»، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً» الْحَدِيثُ^(٢). وَأَيْضًا فَإِنَّ وَصِيَّةَ يَعْقُوبَ لِبَنِيهِ سَيِّئَاتِي ذِكْرُهَا قَرِيبًا، وَهَذَا يُدُلُّ عَلَى أَنَّهُ هَهُنَا مِنْ جُمْلَةِ الْمُوصَّيْنَ.

[وَجُوبُ الْإِلْتِزَامِ بِالتَّوْحِيدِ حَتَّى الْمَمَاتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَبِيَّتِي﴾ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَي أَحْسِنُوا فِي حَالِ الْحَيَاةِ، وَالزُّمُّوا هَذَا لِيُرْفَقَكُمْ اللَّهُ الْوَفَاةَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ غَالِيًا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَيَبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْكَرِيمُ عَادَتَهُ بِأَنَّ مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وَفَقَّ لَهُ وَيَسَّرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ نَوَى صَالِحًا تَبَّتْ عَلَيْهِ.

(١) ابن أبي حاتم: ٣٩٢/١ (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٦ ومسلم:

الْبَقَرَةُ

٢١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن نُّوَلُّوْا فَمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنِي فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلِنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ اسْتَلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] وَالْإِسْلَامُ هُوَ مِلَّةُ الْأَنْبِيَاءِ قَاطِبَةً وَإِن تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ مَنَاهِجُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَالْأَحَادِيثُ، فَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ: «نَحْنُ مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ» (٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أَي مَضَتْ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أَي إِنَّ السَّلْفَ الْمَاضِينَ مِنْ آبَائِكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، لَا يَنْفَعُكُمْ ائْتِسَابُكُمْ إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا خَيْرًا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ لَهُمْ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَهَذَا

وَهَذَا لَا يُعَارِضُ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا» (١). وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ رَوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ «لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ... وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ» وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَطَىٰ وَالْفَنَىٰ ﴿٦﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿١﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلنَّسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَخُلُ وَاسْتَفْتَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِّلْمَسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

[عَهْدُ يَعْقُوبَ لِبَنِيهِ عِنْدَ الْمَوْتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْتَبِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَبْنَاءَ إِسْمَاعِيلَ وَعَلَى الْكُفَّارِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِأَنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَصَّى بَيْنَهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ، لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَمَّهُ. قَالَ نَحَّاسٌ: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْعَمَّ أَبَا. نَقَلَهُ الْقُرْطُبِيُّ (٢).

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ جَعَلَ الْجَدَّ أَبَا وَحَجَبَ بِهِ الْإِخْوَةَ، كَمَا هُوَ قَوْلُ الصَّدِيقِ، حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَلَمْ يَخْتَلَفْ عَلَيْهِ (٣). وَإِلَيْهِ ذَهَبَتْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِهِ يَقُولُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَطَاوُسٌ وَعَطَاءٌ. وَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ: إِنَّهُ يُقَاسِمُ الْإِخْوَةَ، وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ عَمْرِو وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَرَزِيدِ بْنِ نَابِتٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ السَّلْفِ وَالْخَلْفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أَي نُوحِدُهُ بِالْأَلُوْهِيَّةِ، وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا غَيْرَهُ، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أَي مُطِيعُونَ خَاصِعُونَ،

(١) فتح الباري: ١٠٥/٦ (٢) القرطبي: ١٣٨/٢ (٣) فتح الباري: ١٩/١٢ (٤) أحمد: ٣١٩/٢

جَاءَ فِي الْأَثَرِ: «مَنْ تَطَّأَ بِهِ عَمَلَهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(١).

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢)

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ صُورِيًّا الْأَعْوَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا الْهُدَى إِلَّا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَأَتَيْنَا يَا مُحَمَّدَ تَهْتِدُ. وَقَالَتِ النَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أَي لَا نُرِيدُ مَا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، بَلْ نَتَّبِعُ ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أَي مُسْتَقِيمًا، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَعِيسَى بْنُ جَارِيَّةٍ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: حَنِيفًا أَي مُتَّبِعًا^(٥). وَقَالَ أَبُو قِلَابَةَ: الْحَنِيفُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ كُلِّهِمْ مِنْ أَرْزَلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ:

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرِّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ

مُسْلِمُونَ﴾^(٦)

[الْمُسْلِمُ يُؤْمِنُ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا يَفَرِّقُ بَيْنَ نَبِيِّ وَنَبِيٍّ]

أَرشَدَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ بِوَسِيئَةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُفْصَلًا، وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ مُجْمَلًا، وَنَصَّ عَلَى أَعْيَانٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَأَجْمَلَ ذِكْرَ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْ لَا يَفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَلْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ كُلِّهِمْ، وَلَا يَكُونُوا كَمَنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سُبُلًا﴾^(٧) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا... الْآيَةُ [النساء: ١٥٠].

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَفَرِّقُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَصُدُّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا»^(٨).

رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ مَا يُصَلِّي الرُّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ بِ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الْآيَةِ، وَالْأُخْرَى بِ:

﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ سُلَيْمَانَ﴾ [آل عمران: ٥٢]^(٩).

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ: الْأَسْبَاطُ بَنُو يَعْقُوبَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، وَلَدَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ، فَسَمُّوا الْأَسْبَاطَ^(١٠). وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ وَعَظِيمَةُ:

الْأَسْبَاطُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْقَبَائِلُ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَهَذَا يَفْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسْبَاطِ هَهُنَا شُعُوبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ مُوسَى لَهُمْ: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾... الْآيَةُ [المائدة: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] قَالَ الْقُرْظِيُّ: وَالسَّبْطُ الْجَمَاعَةُ وَالْقَبِيلَةُ الرَّاجِعُونَ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ^(١١).

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَصُدُّقُوا بِكُتُبِهِ كُلِّهَا وَيُرْسِلِيهِ^(١٢). وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ حَبِيبٍ: إِنَّمَا أَمَرْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِالتَّوْرَةِ وَالإِنْجِيلِ، وَلَا نَعْمَلُ بِمَا فِيهِمَا^(١٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آمِنُوا بِالتَّوْرَةِ وَالتَّزْوِيرِ وَالإِنْجِيلِ وَلَيْسَعُكُمُ الْقُرْآنُ»^(١٤).

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ لَوْلَا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١٥) صِنْعَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْكَ اللَّهُ صِنْعَةً وَنَحْنُ لَهُمُ عَبِيدُونَ﴾^(١٦)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾، يَعْنِي الْكُفَّارَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ، بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يَفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ أَي فَقَدْ أَصَابُوا الْحَقَّ وَأَرشَدُوا إِلَيْهِ ﴿وَإِنْ لَوْلَا﴾ أَي عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، أَي فَسَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَيُظْفِرُكَ بِهِمْ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(١) مسلم: ٢٠٧٤/٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٩٦/١ [إسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد (٣) ابن أبي حاتم: ٣٩٧/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٩٧/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٩٧/١ (٦) فتح الباري: ٢٠/٨ (٧) مسلم: ٥٠٢/١ وأبو داود: ٤٦/٢ والنسائي في الكبرى: ٣٣٩/٦ (٨) ابن أبي حاتم: ٣٩٩/١ (٩) القرطبي: ١٤١/٢ (١٠) ابن أبي حاتم: ٤٠٠/١ (١١) ابن أبي حاتم: ٤٠٠/١ (١٢) إسناده ضعيف فيه عبید الله بن أبي حميد متفق على ضعفه قال ابن حجر: متروك الحديث (تقريب)

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَخْبَرَنَا زِيَادُ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا نَافِعُ ابْنُ أَبِي نُعَيْمٍ، قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيَّ بِبَعْضِ الْخُلَفَاءِ مُصْحَفِ عُمَانَ بْنِ عَمَّانَ - لِيُضْلِحَهُ - قَالَ زِيَادٌ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ لَيَقُولُونَ: إِنَّ مُصْحَفَهُ كَانَ فِي حَجْرِهِ حِينَ قُتِلَ فَوَقَعَ الدَّمُ عَلَى: ﴿سَبَّحِكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فَقَالَ نَافِعٌ: بَصُرْتُ عَنِّي بِالِدَّمِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَدْ قَدِمَ (١). وَقَوْلُهُ: ﴿صَبَغَهُ اللَّهُ﴾، قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: دِينَ اللَّهِ (٢). وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَعِكْرِمَةَ وَإِبْرَاهِيمَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَعَطِيَّةَ الْعَرَفِيِّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَالسُّدِّيَّ نَحْوَ ذَلِكَ (٣). وَأَنْتِصَابٌ ﴿صَبَغَهُ اللَّهُ﴾ إِيْمَا عَلَى الْإِغْرَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَطَرَتْ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠] أَيِ الزَّمْرَةِ ذَلِكَ، عَلَيْهِمْ هُوَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَلَأَهُ إِزْهِمَةً﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَنَحْنُ لَمْ نُخْطِئْكُمْ﴾ (١٣٩) أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِزْهِمَةً وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ صَدْرِي قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّوَجُّؤِ.

ثُمَّ أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دُكِرَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ، إِيْمَا الْيَهُودِيَّةِ وَإِيْمَا النَّصْرَانِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ يَعْنِي بَلِ اللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا هُودًا وَلَا نَصَارَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الْآيَةَ وَالَّتِي بَعْدَهَا [آل عمران: ٦٧، ٦٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانُوا يَقْرَأُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي آتَاهُمْ: إِنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامَ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا بَرَاءً مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَشَهِدُوا لِلَّهِ بِذَلِكَ، وَأَقْرَأُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِلَّهِ، فَكَتَمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ عِنْدَهُمْ

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى دَرَجَةِ مُجَادَلَةِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أَيِ تَنَاطُرُونَنَا فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالْإِنْتِقَادِ، وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ الْمُتَصَرِّفِ فِينَا وَفِيكُمْ، الْمُسْتَجِقِّ لِإِخْلَاصِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾ أَيِ نَحْنُ بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ، وَأَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنَّا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُكُمْ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [آل عمران: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونَ فِي اللَّهِ﴾ ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الأنعام: ٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّوْا إِزْهِمَةً فِي رِيءِهِمْ﴾

﴿... الْآيَةِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكُرَيْمَةِ: ﴿وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَنَحْنُ لَمْ نُخْطِئْكُمْ﴾ أَيِ نَحْنُ بَرَاءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنَّا، ﴿وَنَحْنُ لَمْ نُخْطِئْكُمْ﴾ أَيِ

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَنَحْنُ لَمْ نُخْطِئْكُمْ﴾ (١٣٩) أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِزْهِمَةً وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ صَدْرِي قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

(١) ابن أبي حاتم: ٤٠٢/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٤٠٢/١

ضعيف مرسل (٣) ابن أبي حاتم: ٤٠٣/١

يَدْعُو اللَّهَ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَوْلُوا
وَجْوهَكُمْ سَطْرًا﴾ أَي نَحْوَهُ، فَارْتَابَ مِنْ ذَلِكَ الْيَهُودُ وَقَالُوا:
مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لِلَّهِ
الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤).

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْبَابِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ، وَحَاصِلُ
الْأَمْرِ: أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمِيرًا بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ
مِنْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، فَكَانَ بِمَكَّةَ يُصَلِّي بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، فَتَكُونُ
بَيْنَ يَدَيْهِ الْكَعْبَةُ وَهُوَ مُسْتَقْبِلُ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ^(٥). فَلَمَّا
هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ تَعَدَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالتَّوَجُّهِ
إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْجُمْهُورُ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: أَنَّ الْخَبَرَ
وَصَلَ قَوْمًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُمْ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ نَحْوَ بَيْتِ
الْمَقْدَسِ فَتَوَجَّهُوا نَحْوَ الْكَعْبَةِ^(٦). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا
عَنِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِيٍّ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا النَّاسُ يُقْبَأُونَ
فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، إِذْ جَاءَهُمْ آيَةٌ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنًا وَقَدْ أَمَرَ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ
فَاسْتَقْبَلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى
الْكَعْبَةِ^(٧).

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّاسِخَ لَا يُلْزَمُ حُكْمُهُ إِلَّا بَعْدَ
الْعِلْمِ بِهِ، وَإِنْ تَقَدَّمَ نَزْوُهُ وَإِبْلَاغُهُ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِإِعَادَةِ
الْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا، حَصَلَ لِبَعْضِ النَّاسِ - مِنْ أَهْلِ التَّفَاقُحِ
وَالرَّيْبِ وَالْكَفْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ - اِرْتِيَابٌ، وَزَنَجٌ عَنِ الْهُدَى،
وَتَخَيُّطٌ وَشَكٌّ، وَقَالُوا: ﴿مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا
عَلَيْهَا﴾ أَي قَالُوا: مَا لَهُمْ لِهَؤُلَاءِ تَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا وَتَارَةً
يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَوَابَهُمْ فِي قَوْلِهِ ﴿قُلْ لِلَّهِ
الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أَي الْحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ
﴿فَاتَيْنَا نُؤَلُّوا فَنَمَّ وَجْهَهُ اللَّهُ﴾ وَ﴿يَسْ أَلِرَّ أَنْ نُؤَلُّوا وَجْوهَكُمْ فَيَلَّ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْآلِدَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أَي
الشَّانَ كُلَّهُ فِي امْتِنَالِ أَوَامِرِ اللَّهِ، فَحَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا،

مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِمَقْبِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١) تَهْدِيدٌ
وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ، أَي إِنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِعَمَلِكُمْ، وَسَيَجْزِيكُمْ
عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أَي قَدْ مَضَتْ،
﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أَي لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَلكُمْ
أَعْمَالُكُمْ ﴿وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَلَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمْ
إِنْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ، وَلَا تَعْتَرُوا
بِمَجْرَدِ النِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ حَتَّى تَكُونُوا مِثْلَهُمْ مُقَادِرِينَ لِأَوَامِرِ اللَّهِ
وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ، الَّذِينَ يُعْتَوُّوا مُتَّبِعِينَ وَمُتْلَدِرِينَ، فَإِنَّهُ مَنْ كَفَرَ
بِنَبِيِّ وَاحِدٍ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الرُّسُلِ، وَلَا سِيَّمَا بِسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ
وَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ
وَالجِنِّ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى
سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي
كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ
وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ
إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)

[تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ
عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ
صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ
فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ [صَلَّى] مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ
الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاجِعُونَ، قَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ
النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ
الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ - قَبْلَ أَنْ تَحْوَلَ قِبَلَ الْبَيْتِ - رِجَالًا
قِيلُوا لَمْ نَدِرْ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. إِنَّفَرَدَ بِهِ
الْبُخَارِيُّ^(٢) مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ^(٣).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَقْبَلَ بَيْتَ
الْمَقْدَسِ، فَفَرَحَتِ الْيَهُودُ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضِعْمَةِ
عَشَرَ شَهْرًا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ

(١) ابن أبي حاتم: ٤٥٥/١ (٢) فتح الباري: ٢٠/٨ (٣)
مسلم: ٣٧٥/١ (٤) الطبري: ١٣٣/٣ (٥) يعارضه ما ثبت في
صحيح البخاري من صلواته ﷺ في الحطيم حينما كان بمكة (انظر
حديث (٣٨٥٦) (٦) البخاري: ٣٩٩ وكان هؤلاء بني سلمة،
وكانوا ساكنين عند مسجد القبلتين (٧) فتح الباري: ٢٤/٨
ومسلم: ٣٧٥/١

الْعَدْلُ، فَتَدْعُونَ فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلَاغِ، ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ^(٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَدْعَى قَوْمَهُ، فَيَقَالُ: هَلْ بَلَّغْتُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقَالُ: وَمَا عَلِمْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيًّا ﷺ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: عَدْلًا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ أَنَّهُ قَالَ: آتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَوَافَقْتُهَا وَقَدْ وَقَعَ بِهَا مَرَضٌ فَهُمْ يَمُوتُونَ مَوْتًا ذَرِيعًا، فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَمَرَّتُ بِهِ جَنَازَةً فَأَتَيْتُ عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرٌ، فَقَالَ: وَجِبْتَ وَجِبْتَ، ثُمَّ مَرَّ بِأُخْرَى فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا شَرٌّ، فَقَالَ عُمَرُ: وَجِبْتَ. فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ: مَا وَجِبْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ، قُلْتُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ يَخْبِرُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ» قَالَ: فَقُلْنَا وَثَلَاثَةٌ قَالَ: فَقَالَ: «وَثَلَاثَةٌ» قَالَ: فَقُلْنَا وَاثْنَانِ قَالَ: «وَاثْنَانِ». ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الْوَاحِدِ^(٥). وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٦).

[مِنْ حِكْمَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَاقِبَةً وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا شَرَعْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ التَّوَجُّهَ أَوَّلًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ صَرَفْنَاكَ عَنْهَا إِلَى الْكَعْبَةِ لِظَهَرِ حَالٍ مِنْ يَتَّبِعُكَ وَيَطِيعُكَ، وَيَسْتَقْبِلُ مَعَكَ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ ﴿وَمِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَاقِبَةً﴾، أَيْ مُرْتَدًّا عَنْ دِينِهِ ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾، أَيْ هَذِهِ الْفِعْلَةُ وَهُوَ صَرَفٌ

فَالطَّاعَةُ فِي امْتِنَالِ أَمْرِهِ، وَلَوْ وَجَّهْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَاتٍ إِلَى جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَتَحْنُ عَيْدُهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَخِدَامَتِهِ، حَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا، وَهُوَ تَعَالَى لَهُ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَأَمْرِهِ عِنَايَةٌ عَظِيمَةٌ إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَجَعَلَ تَوَجُّهَهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمُبَشَّيَّةِ عَلَى اسْمِهِ تَعَالَى وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَشْرَفَ بُيُوتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، إِذْ هِيَ بِنَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يُعْنِي فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: «إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَ عَلَيَّ شَيْءٌ كَمَا يَحْسُدُونَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِينَ»^(١).

[فَضْلُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا حَوَّلْنَاكُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاخْتَرْنَاهَا لَكُمْ لِتَجْعَلَكُمْ خِيَارَ الْأُمَّمِ، لِتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُهَدَاءَ عَلَى الْأُمَّمِ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ مُعْتَرِفُونَ لَكُمْ بِالْفَضْلِ، وَالْوَسْطُ هُنَا: الْخِيَارُ وَالْأَجْوَدُ، كَمَا يُقَالُ: قُرَيْشٌ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا، أَيْ خَيْرَهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَطًا فِي قَوْمِهِ، أَيْ أَشْرَفَهُمْ نَسَبًا، وَمِنْهُ الصَّلَاةُ الْوَسْطَى الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ، وَهِيَ الْعَصْرُ: كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا، وَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطًا خَصَّهَا بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ وَأَقْوَمِ الْمَنَاهِجِ وَأَوْضَحِ الْمَذَاهِبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِيُظْهِرَ لَكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَدْعَى قَوْمَهُ فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغْتُمْ فَيَقُولُونَ: مَا أَنَا مِنْ نَذِيرٍ وَمَا أَنَا مِنْ أَحَدٍ. فَيَقَالُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: وَالْوَسْطُ

(١) أحمد: ١٣٤/٦ (٢) أحمد: ٣٢/٣ (٣) فتح الباري: ٨/٢١ وتحفة الأحوذى: ٢٩٧/٨ والنسائي في الكبرى: ٢٩٢/٦ وابن ماجه: ١٤٣٢/٢ (٤) أحمد: ٥٨/٣ (٥) أحمد: ٨/٢١ (٦) فتح الباري: ٢٧١/٣ وتحفة الأحوذى: ١٦٦/٤ والنسائي: ٥١/٤

إِلَى الْقِبْلَةِ الْأُخْرَى، أَي لِيُعْطِيَكُمْ أَجْرَهُمَا جَمِيعًا ﴿١٤٣﴾
 اللَّهُ بِالنَّاسِ لِرُءُوفٍ رَحِيمٌ ﴿١٤٤﴾.

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ
 قَدْ فُرِقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا، فَجَعَلَتْ كُلَّمَا وَجَدَتْ صَبِيًّا مِنْ
 السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِصَدْرِهَا، وَهِيَ تَدُورُ عَلَى وَلَدِهَا،
 فَلَمَّا وَجَدَتْهُ صَمْتُهُ إِلَيْهَا وَالْقَمْتَةُ تَذِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدِهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ
 عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَوَاللَّهِ
 لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا» ﴿١٤٥﴾.

﴿قَدْ رَأَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّيْتَنِكَ قِبَلَهُ رَضَتْهَا قَوْلٌ
 وَجْهَكَ سَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجْوهَكُمْ
 سَطَرُهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا
 اللَّهُ بِغَفِلٍ عَنَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤٦﴾

[أَوَّلُ مَا نُسِخَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقِبْلَةَ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ أَوَّلُ مَا
 نُسِخَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقِبْلَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا
 هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْيَهُودَ فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ
 يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَفَرِحَتِ الْيَهُودُ فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ بِضِعَةِ عَشْرٍ شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ
 يَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ رَأَى
 تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَوْلُوا وَجْوهَكُمْ سَطَرُهُ﴾
 فَأَرَاتَبَ مِنْ ذَلِكَ الْيَهُودَ، وَقَالُوا: ﴿مَا وَلَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي
 كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ ﴿١٤٧﴾ [البقرة: ١٤٢]
 وَقَالَ: ﴿فَأَنبَأْنَا تَوَلَّوْنَا وَمَن وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وَقَالَ اللَّهُ
 تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ
 يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَةً﴾ [البقرة: ١٤٣].

[أَهْلُ الْقِبْلَةَ عَيْنُ الْكَعْبَةِ أَمْ جِهَةُ الْكَعْبَةِ؟]

رَوَى الْحَاكِمُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ سَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قَالَ: سَطَرُهُ:
 قِبْلَتُهُ^(١). ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَهَذَا
 قَوْلُ أَبِي الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ

التَّوَجُّهُ عَنِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ إِلَى الْكَعْبَةِ، أَي وَإِنْ كَانَ هَذَا
 الْأَمْرُ عَظِيمًا فِي النَّفْسِ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ،
 وَأَتَقَنُوا بِتَصْدِيقِ الرَّسُولِ، وَأَنْ كُلُّ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ
 الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ،
 فَلَهُ أَنْ يَكَلِّفَ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ وَيَنْسَخَ مَا يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ
 التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، بِخِلَافِ الَّذِينَ فِي
 قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَإِنَّهُ كُلَّمَا حَدَّثَ أَمْرٌ أَحَدَتْ لَهُمْ شَكًّا، كَمَا
 يَحْضُلُ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِيقَانٌ وَتَصْدِيقٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَيَنْهَرُ مَنْ يَبْقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًىوً إِيْمَانًا
 فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَزِيدُهُمْ مَرَضًا فَيَذَرُوهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَأَمَّا
 الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَيَذَرُوهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴿١٤٧﴾
 [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ
 مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾
 [الإسراء: ٨٢] وَلِهَذَا كَانَ مَنْ تَبَتَّ عَلَى تَصْدِيقِ
 الرَّسُولِ ﷺ وَاتَّبَاعِهِ فِي ذَلِكَ وَتَوَجَّهَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ
 شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ؛ مِنْ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ
 إِلَى أَنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ هُمُ
 الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:
 بَيْنَا النَّاسُ يُصَلُّونَ الصُّبْحَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ
 فَقَالَ: قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ قُرْآنًا، وَقَدْ أَمِرُ أَنْ يَسْتَقْبِلَ
 الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا، فَتَوَجَّهُوا إِلَى الْكَعْبَةِ^(١). وَرَوَاهُ
 مُسْلِمٌ^(٢) وَالتِّرْمِذِيُّ، وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: أَنَّهُمْ كَانُوا رُكُوعًا
 فَاسْتَدَارُوا كَمَا هُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ وَهُمْ رُكُوعٌ^(٣). وَكَذَا رَوَاهُ
 مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ مِثْلَهُ^(٤). وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى كَمَالِ طَاعَتِهِمْ لِلَّهِ
 وَلِرَسُولِهِ، وَأَنْفِيَادِهِمْ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
 أَجْمَعِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أَي صَلَاتُكُمْ إِلَى
 بَيْتِ الْمُقَدَّسِ قَبْلَ ذَلِكَ، مَا كَانَ يَصْبِغُ تَوَائِبَهَا عِنْدَ اللَّهِ،
 وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِيِّ عَنِ الْبَرَاءِ
 قَالَ: مَاتَ قَوْمٌ كَانُوا يُصَلُّونَ نَحْوَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَقَالَ
 النَّاسُ: مَا حَالُهُمْ فِي ذَلِكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ
 اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
 وَصَحَّحَهُ^(٥).

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ
 إِيمَانَكُمْ﴾ أَي بِالْقِبْلَةِ الْأُولَى، وَتَصْدِيقَكُمْ بِنَبِيِّكُمْ، وَاتَّبَاعَهُ

(١) فتح الباري: ٢٢/٨ (٢) مسلم: ٣٧٥/١ (٣) تحفة
 الأحوذى: ٣٠٠/٨ (٤) مسلم: ٣٧٥/١ (٥) فتح الباري: ٨/
 ٢٠ وتحفة الأحوذى: ٣٠٠/٨ (٦) ابن أبي حاتم: ٩٩/١
 إسناده ضعيف كما مر (٧) مسلم: ٢١٠٩/٤ (٨) ابن أبي
 حاتم غ: ١٠٣/١ (٩) الحاكم: ٢٦٩/٢

وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَعَٰغِيهِمْ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِثِّي مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ سَطْرُهُ﴾ أَمَرَ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْكُفَّةِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَعَرَبًا وَشِمَالًا وَجَنُوبًا، وَلَا يُسْتَنَى مِنْ هَذَا شَيْءٌ سِوَى التَّائِفَةِ فِي حَالِ السَّفَرِ، فَإِنَّهُ يُصَلِّيهَا حَيْثُمَا تَوَجَّهَ قَائِلُهُ، وَقَلْبُهُ نَحْوَ الْكُفَّةِ. وَكَذَا فِي حَالِ الْمَسَافِقَةِ فِي الْقِتَالِ يُصَلِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَكَذَا مَنْ جَهَلَ جِهَةَ الْقِبْلَةِ يُصَلِّي بِاجْتِهَادِهِ، وَإِنْ كَانَ مُحْطِطًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا.

[مَسْأَلَةٌ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ كَانَتْ مَعْلُومَةً عِنْدَ الْيَهُودِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ آوَأُوا الْكُتُبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أَيِ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا اسْتِقْبَالَكُمْ وَأَنْصَرَفَكُمْ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سُبُوغُهُكَ إِلَيْهَا، بِمَا فِي كُتُبِهِمْ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ مِنَ النَّعْتِ وَالصِّفَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُمَّيْهِ، وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَشَرَفَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلَكِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَتَكَاثَمُونَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا، وَلِهَذَا تَهَدَّدَهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ آوَأُوا الْكُتُبَ يَكُلُّ عَائِيَةَ مَا تَبِعُوا قِلْتَاكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَوْنٌ

الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

[عِنَادُ الْيَهُودِ وَجُحُودُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ شَأْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّهُ لَوْ أَقَامَ عَلَيْهِمْ كُلُّ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ لَمَا اتَّبَعُوهُ وَتَرَكَوْا أَهْوَاءَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّقْتَ عَلَيْهِمْ كَلِمَتَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَلَكِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ آوَأُوا الْكُتُبَ يَكُلُّ عَائِيَةَ مَا تَبِعُوا قِلْتَاكَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ شِدَّةِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَنَّهُ كَمَا هُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ فَهَوَ أَيْضًا مُسْتَمْسِكٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَلَا كَوْنِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِكُونِهَا قِبْلَةَ الْيَهُودِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى. ثُمَّ حَذَرَ تَعَالَى عَنْ مُخَالَفَةِ الْحَقِّ

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ

٢٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَبِغِيًّا يُكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ آيِنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

الَّذِي يَعْلَمُهُ الْعَالِمُ إِلَى الْهَوَى، فَإِنَّ الْعَالِمَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَقْوَمُ مِنْ غَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ مُحَاطًا لِلرُّسُولِ وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَوْنٌ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَبِغِيًّا يُكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

[مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَيْفَانَهُمُ الْحَقُّ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ، يَعْرِفُونَ صِحَّةَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ كَمَا يَعْرِفُ أَحَدُهُمْ وَلَدَهُ، وَالْعَرَبُ كَانَتْ تَضْرِبُ الْمَثَلَ فِي صِحَّةِ الشَّيْءِ بِهَذَا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ مَعَهُ صَغِيرٌ: «إِنَّكَ هَذَا؟» قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشْهَدُ بِهِ، قَالَ «أَمَا إِنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ»^(٢). قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَيُرْوَى

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٧/١-١٠٩ (٢) أحمد: ٤/١٦٣

قَوْلِهِ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤] فَذَكَرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِجَابَتَهُ إِلَى طَلِبَتِهِ، وَأَمْرَهُ بِالْقِبْلَةِ الَّتِي كَانَ يَوْمَ التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا وَيَرْضَاهَا، وَقَالَ فِي الْأَمْرِ الثَّانِي: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فَذَكَرَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ، وَارْتَفَى عَنِ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ - حَيْثُ كَانَ مُوَافِقًا لِرِضَا الرَّسُولِ ﷺ، فَبَيَّنَ أَنَّهُ الْحَقُّ أَيْضًا مِنَ اللَّهِ يُجِبُهُ وَيَرْضِيهِ - وَذَكَرَ فِي الْأَمْرِ الثَّلَاثِ حِكْمَةَ قَطْعِ حُجَّةِ الْمُخَالِفِ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا [يَحْتَجُّونَ] بِاسْتِقْبَالِ الرَّسُولِ إِلَى قِبْلَتِهِمْ، وَقَدْ كَانُوا يَعْلَمُونَ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ أَنَّهُ سَيُضَرَّفُ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَى الْكَعْبَةِ، وَكَذَلِكَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ انْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ لَمَّا صُرِفَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ، وَقَدْ كَانُوا يُعْظَمُونَ الْكَعْبَةَ، وَأَعْجَبَهُمْ إِسْتِقْبَالُ الرَّسُولِ إِلَيْهَا.

[حِكْمَةُ نَسْخِ الْقِبْلَةِ]

وقوله: ﴿لَتَلَوَّ بِكُنُوفِهِ لِنَاسٍ لِيَبْدِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكِبَاطِ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوَجُّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَإِذَا قَدَّوْا ذَلِكَ مِنْ صِفَتِهَا رَبَّمَا اخْتَجَّوْا بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَتَلَوَّ يَحْتَجُّوْا بِمُوَافَقَةِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي قُرَيْشٍ. وَوَجَّهَ بَعْضُهُمْ حُجَّةَ الظُّلْمَةِ، وَهِيَ دَاحِضَةٌ، أَنْ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يَزْعُمُ أَنَّهُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ كَانَ تَوَجُّهُهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلِمَ يَزْجِعُ عَنْهُ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَ لَهُ التَّوَجُّهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوَّلًا، لِمَا لَهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَأَطَاعَ رَبَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، ثُمَّ صَرَفَهُ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ وَهِيَ الْكَعْبَةُ، فَاثْمَثَلْ أَمْرُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ أَيْضًا، فَهُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ مُطِيعٌ لِلَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، لَا يَخْرُجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَمْتُهُ تَبِعَ لَهُ.

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبُوهُمْ وَكُفْرًا﴾ أَي لَا تَحْسَبُوا شُبُهَةَ الظُّلْمَةِ الْمُتَعَتِّينَ، وَأَفْرِدُوا الْحَسْبَةَ لِي، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ أَهْلُ

عَنْ عَمَرٍ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ: أَتَعْرِفُ مُحَمَّدًا كَمَا تَعْرِفُ وَلَدَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَأَكْثَرَ، تَزَلَّ الْأَمِينُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَمِينِ فِي الْأَرْضِ يَتَعَبَّرُ بِعَفْوَتِهِ، وَإِنِّي لَا أَدْرِي مَا كَانَ مِنْ أُمِّهِ^(١).

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا التَّحَقُّقِ وَالْإِتْقَانِ الْعِلْمِيِّ ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أَي لَيَكْتُمُونَ النَّاسَ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ثُمَّ تَبَيَّنَ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، فَقَالَ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ

بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٥٠)

[لِكُلِّ أُمَّةٍ قِبْلَةٌ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أَهْلَ الْأَدْيَانِ، يَقُولُ: لِكُلِّ قِبْلَةٍ قِبْلَةٌ يَرْضَوْنَهَا، وَوَجْهَةٌ اللَّهِ حَيْثُ تَوَجَّهَ الْمُؤْمِنُونَ^(٢). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: لِلْيَهُودِيِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا، وَلِلنَّصْرَانِيِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا، وَهَذَاكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ لِلْقِبْلَةِ الَّتِي هِيَ الْقِبْلَةُ^(٣). وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالضَّحَّاكِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَالسُّدِّيِّ نَحْوَ هَذَا^(٤).

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَسَّاكُمْ مِنْ أُمَّةٍ وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبِّئُكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨] وَقَالَ هُنَا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي هُوَ قَادِرٌ عَلَى جَمْعِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ وَأَبْدَانُكُمْ.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُمْ وَكُفْرًا وَلا تَمَنَىٰ عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٠)

[لِمَاذَا تَكَرَّرَ ذِكْرُ نَسْخِ الْقِبْلَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟]

هَذَا أَمْرٌ ثَالِثٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، قِيلَ: إِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ لِتَلَقُّيهِ بِمَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ مِنَ السِّيَاقِ، فَقَالَ أَوْلَا: ﴿قَدْ رَأَى نَفْسًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْسَتْكَ قِبْلَةٌ تَرْضَاهَا﴾ إِلَى

(١) القرطبي: ١٦٣/٢ أخرجه الثعلبي وفيه الكليبي وهو كذاب أظن الوسيط للواحدي أيضا (٢) الطبري: ١٩٣/٣ إسناده ضعيف عطية العوفي ضعيف (٣) ابن أبي حاتم غ: ١٢١/١ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١٢١-١٢٢

إِبْنِ آدَمَ، إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي، إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - أَوْ قَالَ: فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ - وَإِنْ دَنَوْتُ مِنِّي شَبْرًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا، وَإِنْ دَنَوْتُ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتُكَ هَرْوَلَةً» صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِشُكْرِهِ، وَوَعَدَ عَلَى شُكْرِهِ بِمَزِيدِ الْخَيْرِ فَقَالَ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعَطَارِدِيِّ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ مِنْ خَزَلٍ لَمْ نَرَهُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا بَعْدَهُ، فَقَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْفِهِ» وَقَالَ رُوْحٌ مَرَّةً: «عَلَى عَبْدِهِ»^(٦).

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [١٥١] وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [١٥٢]

[فَضْلُ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ]

لَمَّا فَرَعَ تَعَالَى مِنْ بَيَانِ الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ شَرَعَ فِي بَيَانِ الصَّبْرِ، وَالْإِرْسَادِ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أُنْ كُنَّ فِي نِعْمَةٍ فَيَشْكُرُ عَلَيْهَا، أَوْ فِي نِعْمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٧). وَيَبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّ أَجْوَدَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى تَحْمِلِ الْمَصَائِبِ: الصَّبْرُ وَالصَّلَاةُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وَالصَّبْرُ صَبْرَانِ: فَصَبْرٌ عَلَى تَرْكِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ. وَصَبْرٌ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ. وَالثَّانِي أَكْثَرُ نَوَابِغَ لِأَنَّهُ الْمَفْضُودُ. وَأَمَّا الصَّبْرُ الثَّلَاثُ، وَهُوَ: الصَّبْرُ عَلَى

أَنْ يُخْشَى مِنْهُ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَأَن تَمَنَّيَ عَلَيْكُمُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿وَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أَيْ لِأَيِّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعْتُ لَكُمْ مِنْ اسْتِثْبَالِ الْكُفْبَةِ، لِتَكْمُلَ لَكُمْ الشَّرِيعَةُ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهَا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَيْ إِلَى مَا صَلَّتْ عَنْهُ الْأُمَّمُ، هَدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ وَخَصَّصْنَاكُمْ بِهِ، وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفَ الْأُمَّمِ وَأَفْضَلَهَا.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [١٥١] فَادَّكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [١٥٢] [بِعْتَهُ نَبِينًا مُحَمَّدًا ﷺ نِعْمَةً عَظِيمَةً تَوْجِبُ ذِكْرَ اللَّهِ وَشُكْرَهُ]

يُذَكِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بِعْتِهِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ، وَيُزَكِّيكُمْ، أَيْ يُطَهِّرُهُمْ مِنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَدَسَسِ النَّفْسِ وَأَفْعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَيُعَلِّمُهُمُ ﴿الْكِتَابَ﴾، وَهُوَ الْقُرْآنُ، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، وَهِيَ السُّنَّةُ، وَيُعَلِّمُهُمْ مَالَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ، فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ يُسْفَهُونَ بِالْقَوْلِ الْفَرِيِّ، فَانْتَقَلُوا بِرِكَاتِ رِسَالَتِهِ، وَيُؤْمِنُ سَفَارَتِهِ، إِلَى حَالِ الْأَوْلِيَاءِ، وَسَجَايَا الْعُلَمَاءِ. فَصَارُوا أَعَمَقَ النَّاسِ عِلْمًا، وَأَبْرَهُمْ قُلُوبًا، وَأَقْلَهُمْ تَكَلُّفًا، وَأَصْدَقَهُمْ لَهْجَةً. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيكُمْ﴾ ... الْآيَةُ [آل عمران: ١٦٤]، وَذَمَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِنِعْمَةِ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ^(٨). وَلِهَذَا نَدَّبَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَمُقَابَلَتِهَا بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، فَقَالَ: ﴿فَادَّكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يَقُولُ: كَمَا فَعَلْتُ فَادَّكُرُونِي^(٩).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَادَّكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قَالَ: أَذْكُرُونِي فِيمَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكُمْ أَذْكُرْكُمْ فِيمَا أَوْجَبْتُ لَكُمْ عَلَى نَفْسِي^(١٠). وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ»^(١١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا

(١) البخاري: ٣٩٧٧ (٢) الطبري: ٢١٠/٣ (٣) ابن أبي حاتم غ: ١٤١/١ (٤) فتح الباري: ٣٩٥/١٣ (٥) أحمد: ١٣٨/٣ وفتح الباري: ٥٢١/١٣ (٦) أحمد: ٤٣٨/٤ (٧) مسلم: ٤/٢٢٢

الْبَقَرَةُ

٢٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٥﴾ وَلَتَنَلُوكنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الصَّافِيَ الْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُمُونَ مَا آتَانَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٣﴾ وَاللَّهُ كَرِيمٌ ﴿١٦٤﴾ وَاللَّهُ وَجِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٥﴾

الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال: ﴿لِيَأْسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾. وقال ههنا: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي يقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي ذهب بعضها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي لا تغل الحداثئ والمزارع كعادتها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي تسألوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا: أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا: أنه لا يضع ليديه منقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك: اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك، فقال:

الْمَصَائِبِ وَالنَّوَائِبِ، فَذَلِكَ أَيْضًا وَاجِبٌ، كَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الْمَعَاصِي. كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الصَّبْرُ فِي بَابَيْنِ: الصَّبْرُ لِلَّهِ بِمَا أَحَبَّ وَإِنْ ثَقُلَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ، وَالصَّبْرُ لِلَّهِ عَمَّا كَرِهَ وَإِنْ نَارَعَتْ إِلَيْهِ الْأَهْوَاءُ، فَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ مِنَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ (١).

[حياة الشهداء]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يزرفون، كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأتي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي، وقد أعطيتنا ما لم نعط أحدا من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى (٢) - لِمَا يَرُونَ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ - فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي كَتَبْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ».

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرِجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ» (٣). فبيده دلالة لعموم المؤمنين أيضا، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفا لهم وتكريما وتَعْظِيمًا.

﴿وَلَتَنَلُوكنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

[يبتلى المؤمن فيصبر ويؤجر]

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده، أي يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَنَلُوكنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فتارة بالشرء وتارة بالضرء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَأْسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فَإِنَّ

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٤٤/١ (٢) مسلم: ١٥٠٢/٣ (٣) أحمد: ٤٥٥/٣

[مَعْنَى نَفْيِ الْجُنَاحِ فِي الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قُلْتُ: أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟﴾ قُلْتُ: فَوَاللَّهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحَ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: بِسْمَا قُلْتُ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ عَلَى مَا أَوْلَتْهَا عَلَيْهِ كَانَتْ (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا)، وَلَكِنَّهَا إِنَّمَا أَنْزَلْتَ أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمُوا كَانُوا يُهْلُونَ لِمَنَاءِ الطَّائِفَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ، وَكَانَ مَنْ أَهَلَ لَهَا يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَسَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّوَافَ بِهِمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الطَّوَافَ بِهِمَا^(٥). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الرَّهْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهِذَا الْحَدِيثِ أَبَا بَكْرٍ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ. فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْعِلْمُ. مَا كُنْتُ سَمِعْتُهُ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ: إِنَّ النَّاسَ - إِلَّا مَنْ ذَكَرَتْ عَائِشَةُ - كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ طَوَافَنَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَجَرَيْنِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنَّمَا أَمْرُنَا بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ، وَلَمْ نُؤْمَرْ بِالطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: فَلَعَلَّهَا نَزَلَتْ فِي هُوَلَاءِ وَهُوَلَاءِ^(٦). وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ عَنْ أَنَسٍ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ إِسَافٌ عَلَى الصَّفَا وَكَانَتْ نَائِلَةً عَلَى الْمَرْوَةِ، وَكَانُوا يَسْتَلِمُونَهُمَا فَتَحَرَّجُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ مِنَ الطَّوَافِ بَيْنَهُمَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٧).

[حُكْمُ السَّعْيِ وَأَصْلُهُ]

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ الطَّوِيلِ: أَنَّ رَسُولَ

﴿أَوْلَيْتِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أَيُّ نَنَاءٍ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَيُّ أُمَّتَهُ مِنَ الْعَذَابِ^(١). ﴿وَأَوْلَيْتِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرُ بْنُ الْحَطَّابِ: نِعْمَ الْعُدْلَانِ وَنِعْمَتِ الْعِلَاوَةُ ﴿أَوْلَيْتِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فَهَذَا الْعُدْلَانِ ﴿وَأَوْلَيْتِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾ فَهَذِهِ الْعِلَاوَةُ^(٢). وَهِيَ مَا تَوْضَعُ بَيْنَ الْعُدْلَيْنِ، وَهِيَ زِيَادَةٌ فِي الْحَمْلِ، فَكَذَلِكَ هُوَلَاءِ أَعْطُوا ثَوَابَهُمْ وَزِيدُوا أَيْضًا.

[فَضْلُ الْإِسْتِرْجَاعِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ]

وَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوَابِ الْإِسْتِرْجَاعِ، وَهُوَ قَوْلُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ. فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: أَتَانِي أَبُو سَلَمَةَ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا سُرِرْتُ بِهِ. قَالَ: «لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ فَيَسْتَرْجِعُ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَجْرِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ» قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَحَفِظْتُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا تُوفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ اسْتَرْجَعْتُ وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ أَجْرِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا. ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي، فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ لِي خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا أَدْبُعُ إِهَابًا لِي، فَعَسَلْتُ يَدَيَّ مِنَ الْقَرِظِ، وَأَذِنْتُ لَهُ، فَوَضَعَتْ لَهُ وَسَادَةً أَدَمَ حَشْوُهَا لَيْفًا، فَعَدَدَ عَلَيْهَا، فَخَطَبَنِي إِلَى نَفْسِي، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَبِي أَنْ لَا يَكُونَ بِكَ الرَّغْبَةُ، لَكِنِّي امْرَأَةٌ فِي غَيْرَةِ شَدِيدَةٍ، فَأَخَافُ أَنْ تَرَى مِنِّي شَيْئًا يُعَذِّبُنِي اللَّهُ بِهِ، وَأَنَا امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلْتُ فِي السَّنِّ، وَأَنَا ذَاتُ عِيَالٍ، فَقَالَ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُدْهِبُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْكَ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ السَّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكَ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكَ عِيَالِي». قَالَتْ: فَقَدْ سَلَّمْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَتَرَوَجَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ بَعْدُ: أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِأَبِي سَلَمَةَ خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ ﷺ^(٣). وَنَحْوُهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مُخْتَصَرًا^(٤).

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٥٨/١ إسناده ضعيف فيه عبدالله بن لهيعة (٢) الحاكم: ٢٧٠/٢ وعلقه البخاري. (٣) أحمد: ٤/ ٢٧ (٤) مسلم: ٦٣٣/٢ (٥) أحمد: ١٤٤/٦ (٦) فتح الباري: ٥٨١/٣ ومسلم: ٩٢٩/٢ (٧) الطبري ٢٣٣٤، ٢٣٣٦ نحوه.

الرَّازِي، وَعَزَى الثَّالِثَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ^(٣). وَاللَّهُ
أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَلَكُوكَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ يُسَبِّحُ عَلَى الْقَلِيلِ
بِالْكَثِيرِ، عَلَيْهِمْ يَقْدِرُ الْجَزَاءُ فَلَا يَنْحَسِرُ أَحَدًا تَوَابَهُ، وَ لَا
يُظَلِّمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا
عَظِيمًا [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أُنزِلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُذَكِّرَاتِ مِنْ بَعْدِ مَا
بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^(٤)
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاوَا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(٦) خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَى
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُظَلَّوْنَ^(٧)﴾

[اللَّعْنُ الدَّائِمُ لِمَنْ كَتَمَ الْأَحْكَامَ الدِّيْنِيَّةَ]

هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ
الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ، وَالْهَدْيِ النَّافِعِ
لِلْقُلُوبِ، مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مِنْ كُتْبِهِ الَّتِي
أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ
الْكِتَابِ، كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٨). ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَلْعَنُهُمْ
كُلُّ شَيْءٍ عَلَى صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ، فَكَمَا أَنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ
كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَوْثُ فِي الْمَاءِ، وَالطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ،
فَهُؤُلَاءِ بِخِلَافِ الْعُلَمَاءِ، فَيَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمُسْنَدِ مِنْ طُرُقٍ يَشُدُّ بَعْضُهَا
بَعْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ
سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٩).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَوْلَا آيَةُ فِي كِتَابِ
اللَّهِ، مَا حَدَّثْتُ أَحَدًا شَيْئًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أُنزِلَنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ وَالْمُذَكِّرَاتِ... آيَةَ﴾^(١٠). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا أُجْدَبَتِ
الْأَرْضُ، قَالَتِ الْبُهَائِمُ: هَذَا مِنْ أَجْلِ عَصَاةِ بَنِي آدَمَ، لَعَنَ
اللَّهُ عَصَاةَ بَنِي آدَمَ^(١١). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ
وَقَتَادَةُ: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ يَعْنِي تَلْعَنُهُمُ الْمَلَائِكَةُ
وَالْمُؤْمِنُونَ^(١٢). وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ
لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الْجِبْتَانِ فِي الْبَحْرِ». وَجَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

اللَّهُ ﷻ لَمَّا فَرَعَ مِنْ طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ عَادَ إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ،
ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الصَّفَا وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ
شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ثُمَّ قَالَ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ» وَفِي رِوَايَةِ
النَّسَائِيِّ «أَبْدَأُوا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»^(١٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي تَجْرَةَ قَالَتْ:
رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالنَّاسُ
بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ وَرَاءَهُمْ، وَهُوَ يَسْعَى، حَتَّى أَرَى رُكْبَتَيْهِ مِنْ
شِدَّةِ السَّعْيِ يَدُورُ بِهِ إِزَارُهُ وَهُوَ يَقُولُ: «اسْعَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ
عَلَيْكُمْ السَّعْيَ»^(١٤).

وَاسْتَدِلُّ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ السَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا
وَالْمَرْوَةِ رُكْنٌ فِي الْحَجِّ. وَقِيلَ: إِنَّهُ وَاجِبٌ وَلَيْسَ بِرُكْنٍ،
فَإِنْ تَرَكَهُ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا جَبْرُهُ بِدَمٍ. وَقِيلَ: مُسْتَحَبٌّ.
وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ رُكْنٌ أَوْ وَاجِبٌ. فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ
الطَّوَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، أَيْ مِمَّا شَرَعَ
اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ مَاخُودٌ
مِنْ طَوَافِ هَاجِرٍ وَتَرَدَّادِهَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فِي طَلَبِ
الْمَاءِ لَوْلَدِهَا، لَمَّا نَفَذَ مَاؤُهُمَا وَزَادَهُمَا حِينَ تَرَكَهُمَا
إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَالِكَ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمَا أَحَدٌ مِنَ
النَّاسِ، فَلَمَّا خَافَتِ الصَّبِيغَةَ عَلَى وَلَدِهَا هُنَالِكَ، وَنَفَذَ مَا
عِنْدَهُمَا، قَامَتْ تَطْلُبُ الْعَوْتَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمْ تَزَلْ
تَتَرَدَّدُ فِي هَذِهِ الْبُئْعَةِ الْمُسْرِفَةِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، مُتَدَلِّلَةً
خَائِفَةً وَجِلَّةً مُضْطَرَّةً قَظِيمَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى كَشَفَ
اللَّهُ كُرْبَتَهَا، وَأَسَّسَ غُرْبَتَهَا، وَفَرَّجَ شِدَّتَهَا، وَأَتْبَعَ لَهَا زَمْرَمَ
الَّتِي مَاؤُهَا «طَعَامٌ طَعْمٌ، وَشِفَاءٌ سَقْمٌ» فَالْسَّاعِي بَيْنَهُمَا يُتَّبَعِي
لَهُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ فِقْرَهُ وَذُلَّهُ وَحَاجَتَهُ إِلَى اللَّهِ، فِي هِدَايَةِ قَلْبِهِ
وَصَلَاحِ حَالِهِ وَغُفْرَانِ ذَنْبِهِ، وَأَنْ يَلْتَجِيَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
لِيُزِيحَ مَا هُوَ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، وَأَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى
الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَيْهِ إِلَى مَمَاتِهِ وَأَنْ يَحُولَهُ مِنْ
حَالِهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، إِلَى حَالِ
الْكَمَالِ وَالْغُفْرَانِ وَالسَّدَادِ وَالِاسْتِقَامَةِ، كَمَا فَعَلَ بِهَاجِرَ
عَلَيْهَا السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قِيلَ: زَادَ فِي طَوَافِهِ بَيْنَهُمَا
عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ، ثَابِتَةً وَتَاسِعَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَقِيلَ:
يَطُوفُ بَيْنَهُمَا فِي حَجَّةٍ تَطَوُّعٍ أَوْ عُمْرَةٍ تَطَوُّعٍ، وَقِيلَ:
الْمُرَادُ: «تَطَوُّعٌ خَيْرًا» فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ، حَكَى ذَلِكَ

(١) مسلم: ٨٨٦/٢ والنسائي: ٢٣٩/٥ (٢) أحمد: ٤٢١/٦

(٣) الرازي: ١٤٦/٤ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١٧٠/١ (٥)

أحمد: ٤٩٥/٢ (٦) فتح الباري: ٢٥٨/١ (٧) ابن أبي حاتم

غ: ١٧٥/١ (٨) ابن أبي حاتم غ: ١٧٤/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَافِعُ النَّاسِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيَّنَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَمِنَ
النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٧﴾
إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَطَعَّتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَى
لَنَا كَرَةٌ فَنَسَبْنَا مِنْهُمْ مِمَّا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٩﴾
يَأْتِيهَا النَّاسُ كُفُوفًا إِلَى الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٧٠﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾

عمران: ١، ٢] (٢). ثُمَّ ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى تَقَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ بِخَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِمَّا ذَرَأَ
وَبَرَأَ، مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، فَقَالَ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ
الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَافِعُ النَّاسِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيَّنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾

[دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تِلْكَ فِي
ارْتِفَاعِهَا وَلَطَافِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَكَوَافِيهَا السَّيَّارَةِ وَالنُّوَابِثِ،
وَدَوْرَانِ فَلَكِيَّهَا، وَهَذِهِ الْأَرْضُ فِي كَثَافَتِهَا وَأَنْخِافِصِهَا
وَجِبَالِهَا وَبِحَارِهَا وَقِفَارِهَا وَوَهَادِهَا وَعُمُرَانِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ
الْمَنَافِعِ. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. هَذَا يَجِيءُ ثُمَّ

أَنَّ كَاتِمَ الْعِلْمِ يُلْعَنُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ.
وَاللَّاعِنُونَ أَيْضًا، وَهُمْ: كُلُّ فَصِيحٍ وَأَعْجَبِيٍّ، إِمَّا بِلِسَانِ
الْمَقَالِ، أَوْ الْحَالِ، أَوْ لَوْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ. [أَوْ] يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَوْلَاءِ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:
﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا﴾ أَي رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ،
وَأَصْلَحُوا أَعْمَالَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ، وَبَيَّنُّوا لِلنَّاسِ مَا كَانُوا
يَكْتُمُونَهُ ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وَفِي
هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَةَ إِلَى كُفْرٍ أَوْ بَدْعَةٍ إِذَا تَابَ إِلَى اللَّهِ
تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَحْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَاسْتَمَرَّ بِهِ الْحَالُ إِلَى مَمَاتِهِ
بِأَنَّ ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾ خَلِيدِينَ
فِيهَا ﴿أَي فِي اللَّعْنَةِ التَّابِعَةِ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ
الْمُصَاحِبَةِ لَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾
فِيهَا أَي لَا يُقَصِّرُ عَمَّا هُمْ فِيهِ ﴿وَلَا هُمْ يُظْفَرُونَ﴾ أَي لَا
يُغَيَّرُ عَنْهُمْ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَا يُفْتَرُ، بَلْ هُوَ مُتَوَاصِلٌ دَائِمٌ،
فَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

[جَوَازُ لَعْنِ الْكُفْرَةِ]

(فصل) لَا خِلَافَ فِي جَوَازِ لَعْنِ الْكُفَّارِ، وَقَدْ كَانَ عَمْرُ
ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَيِّمَةِ يُلْعَنُونَ
الْكُفْرَةَ فِي الْفُتُوتِ وَغَيْرِهِ، فَأَمَّا الْكَافِرُ الْمُعَيَّنُ فَقَدْ ذَهَبَ
جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُلْعَنُ، لِأَنَّا لَا نَدْرِي يَمَّا
يَخْتِمُ اللَّهُ لَهُ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: بَلْ يَجُوزُ لَعْنُ الْكَافِرِ
الْمُعَيَّنِ، وَفِي قِصَّةِ الَّذِي كَانَ يُؤْتَى بِهِ سَكَرَانَ فَيُحْدِثُهُ، فَقَالَ
رَجُلٌ: لَعْنَةُ اللَّهِ؛ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ» (١). فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَا
يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ يُلْعَنُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٧١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَقَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا
عَدِيلَ لَهُ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَيْنِ
الِاسْمَيْنِ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ شَهْرِ بْنِ
حَوْشَبٍ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ
﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٧١﴾
﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾» [آل

وَنَسْخَرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦٦﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ
اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ
العَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٦﴾ إِذْ تَبَرَّأَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
الْأَسْبَابُ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَخَّطْنَا لَهُمْ
عَمَلَهُمْ فَجَعَلْنَاهُم مِّثْلَهُمْ وَمَا هُم

بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

[أَحْوَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَبَرُّوْهُ

الْمُتَّبِعِينَ مِنْ تَابِعِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْمُشْرِكِينَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَمَالَهُمْ فِي
الدَّارِ الْآخِرَةِ، حَيْثُ جَعَلُوا لَهُ أَندَادًا أَيْ أَمْثَالًا وَنُظَرَاءَ،
يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ، وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،
وَلَا ضِدَّ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ
الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(١).
وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وَلِحُبِّهِمْ لِلَّهِ، وَتَمَامُ
مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ، وَتَوْفِيرِهِمْ وَتَوْجِيهِهِمْ لَهُ، لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا
بَلْ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ، وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ، وَيَلْجَأُونَ فِي جَمِيعِ
أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ.

ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ
بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يَقُولُ: لَوْ يَعْلَمُونَ مَا يُعَانِيُونَهُ هُنَاكَ، وَمَا يَحِلُّ
بِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ النُّظْمِ الْمُنْكَرِ الْهَائِلِ عَلَى شَرِكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ:
لَا تَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ كُفْرِهِمْ بِأَوْتَانِهِمْ وَتَبَرُّيِّ الْمُتَّبِعِينَ مِنْ
التَّابِعِينَ، فَقَالَ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾
تَبَرَّأَتْ مِنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُمْ
فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، فَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا
إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [الفصص: ٦٣] وَيَقُولُونَ: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ
وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ مُمُؤِنُونَ﴾
[سبأ: ٤١] وَالْجِنَّ أَيْضًا تَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَتَبَتَّضَلُّونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ
لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن

يَدْعُبُ، وَيَخْلُقُهُ الْآخَرَ وَيَعْفُوهُ، لَا يَتَّخِرُ عَنْهُ لِحِظَّةً، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وَتَارَةً يَطُورُ
هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا، وَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا ثُمَّ يَتَفَارِضَانِ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ
فِي اللَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩] أَيْ يَزِيدُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا، وَمِنْ
هَذَا فِي هَذَا.

﴿وَالَّذِلَّكَ أَلْتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أَي فِي
تَسْخِيرِ الْبَحْرِ لِحَمْلِ السُّفُنِ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ لِمَعَايِشِ
النَّاسِ وَالِإِنْتِفَاعِ بِمَا عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الْأَقْلِيمِ، وَنَقَلَ هَذَا إِلَى
هُؤُلَاءِ، وَمَا عِنْدَ أَوْلَئِكَ إِلَى هُؤُلَاءِ.

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَيَّاهُ لَمْ يَخْلُقْ أَهْلُ الْأَرْضِ حِينَئِذٍ
وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَا لَا
يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٦].

﴿وَبَّئِ فِيهَا مِن كُلِّ ذَاتٍ﴾ أَي عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا
وَأَلْوَانِهَا وَمَنَافِعِهَا وَصِغَرِهَا وَكِبَرِهَا، وَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ
وَيَزِرُّهُ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَمَا مِنْ ذَاتٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَسُودَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ أَي فَتَارَةَ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَارَةً تَأْتِي
بِالْعَذَابِ، وَتَارَةً تَأْتِي مُبَشِّرَةً بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ، وَتَارَةً
تَسُوقُهُ، وَتَارَةً تَجْمَعُهُ، وَتَارَةً تُفْرِقُهُ، وَتَارَةً تُصْرِفُهُ، ثُمَّ تَارَةً
تَأْتِي مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الشَّامِيَّةُ، وَتَارَةً تَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ
الْيَمَنِ، وَتَارَةً صَبَا، وَهِيَ الشَّرْقِيَّةُ الَّتِي تُصَدِّمُ وَجْهَ الْكَعْبَةِ،
وَتَارَةً دُبُورًا، وَهِيَ غَرْبِيَّةٌ تَنْفُذُ مِنْ نَاحِيَةِ دُبُرِ الْكَعْبَةِ. وَقَدْ
صَنَّفَ النَّاسُ فِي الرِّيَاحِ وَالْمَطَرِ وَالْأَنْوَاءِ كُتُبًا كَثِيرَةً فِيمَا
يَعْتَلِقُ بِلِغَائِهَا وَأَحْكَامِهَا، وَبَسَطَ ذَلِكَ يَطُولُ هُنَا، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي سَائِرِ بَيْنِ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يُسَخَّرُ إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ
وَالْأَمَاكِينِ، كَمَا يُصْرِفُهُ تَعَالَى.

﴿لَا تَلْبَسُوا لِقَوْمٍ يَقُولُونَ﴾ أَي فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دَلَالَاتٍ بَيِّنَةً
عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَلِيمًا وَتَعُودُوا وَعَلَى جُوبِهِمْ

(١) فتح الباري: ٣/٨ ومسلم: ٩٠/١

[إبراهيم: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْعَلُوهُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً...﴾... الآية [النور: ٣٩]،
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِيُحْرَجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٧﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ
وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾﴾
[الْأَمْرُ بِأَكْلِ الْحَلَالِ، وَالنَّهْيُ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ]

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَقْبَلُ بِالْخَلْقِ،
شَرَعَ يَبِينُ أَنَّهُ الرَّزَاقُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، فَذَكَرَ فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ
أَنَّهُ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ فِي حَالِ كَوْنِهِ
حَلَالًا مِنَ اللَّهِ طَيِّبًا، أَيُّ مُسْتَطَابًا فِي نَفْسِهِ، غَيْرَ ضَارٍّ
لِلْأَبْدَانِ وَلَا لِلْعُقُولِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ.
وَهِيَ طَرِيقُهُ وَمَسَالِكُهُ فِيمَا أَصَلَ اتِّبَاعُهُ فِيهِ مِنْ تَحْرِيمِ
الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ وَنَحْوِهَا، مِمَّا كَانَ رِزْقَهُ لَهُمْ
فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، كَمَا فِي حَدِيثِ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الَّذِي فِي
صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ
تَعَالَى: إِنَّ كُلَّ مَالٍ مَنَحْتُهُ عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ - وَفِيهِ -
وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَقْنَاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ
عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّكَ لَهُمْ»^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تَفْصِيلٌ عَنْهُ وَتَحْذِيرٌ مِنْهُ،
كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَ
يَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وَقَالَ تَعَالَى:
﴿أَفَنَسِيخُوهُ وَدُرَيْسَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي
قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: كُلُّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهِيَ
مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ^(٣). وَرَوَى عَبْدُ بِنِ حُمَيْدٍ عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا كَانَ مِنْ يَمِينٍ أَوْ نَذْرٍ فِي غَضَبٍ، فَهُوَ مِنْ
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا
يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ
إِنَّمَا يَأْمُرُكُم عَدُوُّكُمْ الشَّيْطَانُ بِالْأَفْعَالِ السَّيِّئَةِ، وَأَعْلَظُ مِنْهَا
الْفَاحِشَةُ كَالزُّنَا وَنَحْوِهَا، وَأَعْلَظُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَى
اللَّهِ بِإِلَاحِيَّتِهِ، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ كَافِرٍ وَكُلُّ مُبْتَدِعٍ أَيْضًا.

لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا
خُسِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٤٠﴾ [الاحقاف:
٥، ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا
لَهُمْ عِزًّا ﴿٤١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾
[مریم: ٨١، ٨٢] وَقَالَ الْخَلِيلُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمْ
النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ
اسْتُضِعِفُوا لَأَنَّهُنَّ صَدَدْتِكُمْ عَنِ الْمُنَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِرَبِّكَ
تَجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْإِيلِ
وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُبُوا
الَّذِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَحَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَغْصَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ
لِعَنَى وَوَعَدُكُمْ فَخَلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ
دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ
قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أَيُّ
عَابَتُوا عَذَابَ اللَّهِ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْحَبِيلُ وَأَسْبَابُ
الْخَلَاصِ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنِ النَّارِ مَعْدِلًا وَلَا مَصْرَفًا. قَالَ
عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قَالَ:
الْمَوَدَّةُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ^(١).
وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرًا مَبْنِيًّا
كَمَا تَبَرَّأْنَا وَإِنَّا﴾ أَيُّ: لَوْ أَنَّ لَنَا عَوْدَةً إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا حَتَّى
نَتَّبَرَّ مِنْ هُوْلَاءِ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ، فَلَا نَلْتَمِزُ إِيَّاهُمْ، بَلْ نُوْحِدُ
اللَّهَ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَهُمْ كَادِبُونَ فِي هَذَا، بَلْ ﴿لَوْ رُدُّوا
لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَادِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، كَمَا
أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُ
اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ تَدَهَّبُ وَتَضَمَّجُ كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾
[الفرقان: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾... الآية

(١) الطبري ٣/ ٢٩٠ (٢) مسلم: ٤/ ٢١٩٧ (٣) ابن أبي حاتم

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا أُولُو كُفْرٍ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُ بِمَا لَا
يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٧١﴾﴾
[المُشْرِكُ مُقَلِّدٌ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُؤُلَاءِ الْكُفْرَةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ:
اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاتْرَكُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ
الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ، قَالُوا فِي جَوَابِ ذَلِكَ: بَلْ نَتَّبِعُ مَا
أَلْفَيْنَا، أَي وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَي مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ
وَالْأَنْدَادِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أُولُو كُفْرٍ
كَانُوا﴾ أَي الَّذِينَ يُفْتَدُونَ بِهِمْ وَيُفْتَقُونَ أَثَرَهُمْ ﴿لَا
يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أَي لَيْسَ لَهُمْ فَهْمٌ وَلَا هِدَايَةٌ.
وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي طَائِفَةٍ
مِنَ الْيَهُودِ، دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالُوا:
بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ (١).

[مَثَلُ الْمُشْرِكِ مِثْلَ الْحَيَوَانِ]

ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ تَعَالَى مَثَلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠] فَقَالَ: ﴿وَمَثَلُ
الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَمَى وَالضَّلَالِ
وَالْجَهْلِ كَالذُّوَابِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا، بَلْ
إِذَا نَعَقَ بِهَا رَاعِيهَا، أَي دَعَاهَا إِلَى مَا يُرِيدُهَا لَا تَفْقَهُ مَا
يَقُولُ وَلَا تَفْهَمُهُ، بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَقَطُّ. هَكَذَا رَوَى
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَعَطَاءَ
وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيَّ وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ نَحْوُ
هَذَا (٢).

وَقَوْلُهُ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى﴾ أَي صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، بُكْمٌ
لَا يَتَفَوَّهُونَ بِهِ، عُمْى عَنْ رُؤْيِي طَرِيقِهِ وَمَسْلَكِهِ ﴿فَهُمْ لَا
يَفْقَهُونَ﴾ أَي لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُونَهُ.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ
وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا
عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

[الْأَمْرُ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، وَبَيَانُ الْمَحْرَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَكْلِ مِنَ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقَهُمْ تَعَالَى، وَأَنْ يَشْكُرُوهُ -تَعَالَى- عَلَى ذَلِكَ إِنْ كَانُوا
عَبِيدَهُ، وَالْأَكْلُ مِنَ الْحَلَالِ سَبَبٌ لِتَقَبُّلِ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ،

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا أُولُو كُفْرٍ كَانُوا وَعَبَاءُ وَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
﴿١٧١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ
لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ سُنًا قَلِيلًا أَوْلِيَّكَ مَا يَأْكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ
أَسْرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ وَالْعَذَابُ بِالْمَعْفُورَةِ فَمَا
أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَوِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

كَمَا أَنَّ الْأَكْلَ مِنَ الْحَرَامِ يَمْنَعُ قَبُولَ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةَ. كَمَا
جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا
يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ،
فَقَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ
السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا
رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ. وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ،
وَعُدْيَتِي بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ (٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ
وَالْتِّرْمِذِيُّ (٤).

وَلَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِرُزْقِهِ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الْأَكْلِ مِنْ

(١) الطبري: ٣٠٥/٣ إسناده ضعيف فيه محمد بن أبي محمد وهو
مجهول (٢) ابن أبي حاتم غ: ١/٢٢٥-٢٢٨ (٣) أحمد: ٣/٣٢٨
(٤) مسلم: ٢/٧٠٣ وتحفة الأحمدي: ٨/٣٣٣

طَبِيهِ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمَيْتَةَ، وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِهَا مِنْ غَيْرِ تَذَكِّيَةٍ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ مُنْحَنَةً أَوْ مُؤَوَّذَةً أَوْ مُتَرَدِّبَةً أَوْ نَطِيحَةً أَوْ قَدْ عَدَا عَلَيْهَا السَّبُعُ. وَقَدْ خُصِّصَ مِنْ ذَلِكَ مَيْتَةُ الْبَحْرِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ﴾ [المائدة: ٩٦] عَلَى مَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلِحَدِيثِ الْعَبْرِيِّ فِي الصَّحِيحِ^(١). وَفِي الْمُسْنَدِ وَالْمَوْطَأِ وَالسُّنَنِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْبَحْرِ: «هُوَ الظُّهُورُ مَاؤُهُ، الْأَجْلُ مَيْتَتُهُ»^(٢). وَرَوَى الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ وَالِدَارَقُطْنِيُّ حَدِيثَ ابْنِ عَمَرَ مَرْفُوعًا: «أَجَلٌ لَنَا مَيْتَانِ وَدَمَانِ، السَّمَكُ وَالْجَرَادُ وَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»^(٣). وَسَيَأْتِي تَقْرِيرُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ.

(مَسْأَلَةٌ) وَلَبِنُ الْمَيْتَةِ وَيَبِضُهَا الْمُتَّصِلُ بِهَا نَجَسٌ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ، لِأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْهَا. وَقَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةٍ: هُوَ طَاهِرٌ إِلَّا أَنَّهُ يَنْجَسُ بِالْمَجَاوِرَةِ، وَكَذَلِكَ أَنْفَحَةُ الْمَيْتَةِ فِيهَا الْخِلَافُ، وَالْمَشْهُورُ عِنْدَهُمْ، أَنَّهَا نَجِسَةٌ. وَقَدْ أوردوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَكْلَ الصَّحَابَةِ مِنْ جُبْنِ الْمَجُوسِ. فَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي التَّفْسِيرِ هُنَا: [مَا] يَخَالِطُ اللَّبَنَ مِنْهَا يَسِيرٌ، وَيُعْفَى عَنْ قَلِيلِ النَّجَاسَةِ إِذَا خَالَطَ الْكَثِيرَ مِنْ الْمَائِعِ^(٤). وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ السَّمْنِ وَالْجُبْنِ وَالْفِرَاءِ، فَقَالَ: «الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ»^(٥).

وَكَذَلِكَ حُرْمَ عَلَيْهِمْ لَحْمُ الْخَنزِيرِ سِوَاءَ ذُنْبِيٍّ أَمْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، وَدَخَلَ شَحْمُهُ فِي حُكْمِ لَحْمِهِ إِمَّا تَغْلِيبًا، أَوْ أَنَّ اللَّحْمَ يَشْمَلُ ذَلِكَ، أَوْ بِطَرِيقِ الْقِيَاسِ عَلَى رَأْيٍ. وَكَذَلِكَ حُرْمَ عَلَيْهِمْ مَا أَهْلٌ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَهُوَ مَا ذُبِحَ عَلَى غَيْرِ اسْمِهِ تَعَالَى مِنَ الْأَنْصَابِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَزْلَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ يَنْحَرُونَ لَهُ. وَأوردَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا سئِلَتْ عَمَّا يَذْبَحُهُ الْعَجَمُ لِأَعْيَادِهِمْ، فَيَهْدُونَ مِنْهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَقَالَتْ: مَا ذُبِحَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ فَلَا تَأْكُلُوا مِنْهُ، وَكُلُوا مِنْ أَشْجَارِهِمْ^(٦).

إِبَاحَةُ الْحَرَامِ لِلْمُضْطَّرِّ

ثُمَّ أَبَاحَ تَعَالَى تَنَاوُلَ ذَلِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَالِاحْتِيَاجِ إِلَيْهَا عِنْدَ قَدِّغِ غَيْرِهَا مِنَ الْأَطْعِمَةِ، فَقَالَ: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَإِغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أَيُّ فِي غَيْرِ بَعْغٍ وَلَا عُذْوَانٍ وَهُوَ: مُجَاوِرَةٌ

(١) فتح الباري: ١٥٢/٦ (٢) أحمد: ٣٦٥/٥ والموطأ: ١/٢٢ وأبو داود: ٦٤/١ وتحفة الأحوذى: ٢٢٤/١ والنسائي: ٥٠ وابن ماجه: ١٣٦/١ (٣) ترتيب مسند الشافعي: ١٧٣/٢ وأحمد: ٩٧/٢ وابن ماجه: ١٠٧٣/٢ والدارقطني: ٢٧٢/٤ (٤) القرطبي: ٢٢١/٢ (٥) ابن ماجه: ١١١٧/٢ (٦) القرطبي: ٢٢٤/٢ ابن أبي شيبة (٣٣٣٤، ٢٤٨٥٦). (٧) ابن أبي حاتم غ: ٢٣٦/١ (٨) الطبري: ٣٢٤/٣ (٩) ابن ماجه: ٧٧٠/٢ تحفة الأحوذى: ٥١٠/٤ (١١) ابن أبي حاتم غ: ٢٤٠/١

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ وَالْحَرْوِ وَالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِذِنَ اللَّهُ لِمَنْ سَمِعَ عَلَيْهِ ﴿١٨١﴾﴾

لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يُزكِّيهم، أي لا يُثني عليهم ولا يمدحهم، بل يُعذِّبهم عذاباً أليماً، ثم قال تعالى مخبراً عنهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الضَّلَلَةَ يَلْهَدُونَ﴾ أي اغتاضوا عن الهدى، وهو: نشر ما في كُتُبهم من صفة الرسول، وذكر مبعثه، والبيارة به من كُتُب الأنبياء، واتباعه وتصديقه. استبدلوا عن ذلك واغتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه، والكفر به، وكنمان صفاته في كُتُبهم. ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي اغتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة، وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ شَدِيدٍ عَظِيمٍ هَائِلٍ، يَتَعَجَّبُ مَنْ رَأَاهُمْ فِيهَا مِنْ صَبْرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، مَعَ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَعْلَالِ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

فِي الْإِضْطِرَارِ^(١). وَعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: مَنْ اضْطُرَّ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ ثُمَّ مَاتَ، دَخَلَ النَّارَ^(٢). وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ أَكْلَ الْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَرِّ عَزِيمَةٌ لَا رُحْصَةَ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الضَّلَلَةَ يَلْهَدُونَ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٨﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٩﴾﴾ [دَمَّ الْيَهُودَ عَلَى كِتْمَانِهِمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ الَّذِينَ كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ، مِمَّا تَشْهَدُ لَهُ بِالرِّسَالَةِ وَالنَّبَوَةِ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ لِئَلَّا تَذْهَبَ رِيَاسَتُهُمْ، وَمَا كَانُوا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْعَرَبِ مِنَ الْهَدَايَا وَالتُّخْفِ عَلَى تَعْظِيمِهِمْ إِيَّاهُمْ، فَخَشُوا لِعَنَتِهِمُ اللَّهُ - إِنْ أَظْهَرُوا ذَلِكَ أَنْ يَتَّبِعَهُ النَّاسُ وَيَتْرُكُوهُمْ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ إِنْثَاءً عَلَى مَا كَانَ يَحْضُرُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ نَزْرٌ يَسِيرٌ، فَبَاعُوا أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ. وَاعْتَاضُوا عَنِ الْهُدَىٰ وَاتَّبَعُوا الْحَقَّ وَتَصَدَّقُوا الرُّسُولَ وَالْإِيمَانَ بِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ، بِذَلِكَ النَّزْرَ الْيَسِيرَ، فَخَابُوا وَخَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ لِعِبَادِهِ صِدْقَ رَسُولِهِ بِمَا نَصَبَهُ وَجَعَلَهُ مَعَهُ مِنَ الْآيَاتِ الظَّاهِرَاتِ، وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، فَصَدَّقَهُ الَّذِينَ كَانُوا يَخَافُونَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، وَصَارُوا عَوْنًا لَهُ عَلَى قِتَالِهِمْ، وَبَاءُوا بِغَضَبِ عَلَى غَضَبٍ، وَدَمَّتْهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وَهُوَ عَرَضُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أَي إِنَّمَا يَأْكُلُونَ مَا يَأْكُلُونَهُ فِي مُقَابَلَةِ كِتْمَانِ الْحَقِّ نَارًا تَأْجِجُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يَجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى غَضَبًا عَلَيْهِمْ،

(١) أيضا غ: ٢٤٠/١ (٢) البيهقي: ٣٥٧/٩ (٣) البخاري:

٥٦٣٤ ومسلم: ٢٠٦٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ اللَّهُ سَزَّلَ الْكُتُبَ بِالْحَقِّ﴾ أَيِ
 إِنَّمَا اسْتَحَقُّوا هَذَا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى
 رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُتُبَهُ بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ
 وَإِنطَالِ الْبَاطِلِ، وَهَؤُلَاءِ إِتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا، فِكِتَابُهُمْ
 أَمْرُهُمْ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، وَهَذَا
 الرَّسُولُ الْخَاتَمُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهُمْ يُكْذِبُونَهُ وَيُخَالِفُونَهُ وَيَحْجِدُونَهُ
 وَيَكْتُمُونَ صِفَتَهُ، فَاسْتَهْزَؤُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُتَنَزَّلَةِ عَلَى رَسُولِهِ،
 فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ
 سَزَّلَ الْكُتُبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكُتُبِ لَيَنْ شِقَاقِ
 بَعِيدٍ﴾

﴿وَالْكِتَابِ﴾ وَهُوَ اسْمٌ جِنْسٍ يَشْمَلُ الْكُتُبَ الْمُتَنَزَّلَةَ مِنَ
 السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى خُيِّمَتْ بِأَشْرُفِهَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ
 الْمُهَيَّبُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ كُلُّ
 خَيْرٍ، وَاسْتَمَلَ عَلَى كُلِّ سَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنُسِخَ
 بِهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَهُ، وَأَمِنَ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ كُلِّهِمْ مِنْ
 أَوْلِيهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ
 وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَائِ الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ﴾ أَيِ أَخْرَجَهُ وَهُوَ مُحِبٌّ
 لَهُ رَاغِبٌ فِيهِ، كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي
 هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ
 شَيْءٍ، تَأْمُلُ الْعِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ»^(٣). وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشْكِيانًا وَنِيْمًا وَأَسِيرًا﴾^(٤) إِنَّمَا تُطْعَمُكَ

لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿[الإنسان: ٨، ٩]﴾ وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ﴾ [آل
 عمران: ٩٢] وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُؤَيِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
 خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] نَمَطٌ آخَرَ أَرْفَعُ مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنَّهُمْ
 اتَّروا بِمَا هُمْ مُضْطَرُونَ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ أَعْطَوْا وَأَطَعُوا مَا
 هُمْ مُحِبُّونَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ وَهُمْ قَرَابَاتُ الرَّجُلِ، وَهُمْ
 أَوْلَى مَنْ أُعْطِيَ مِنَ الصَّدَقَةِ، كَمَا نَبَتْ فِي الْحَدِيثِ:
 «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ:
 صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»^(٤). فَهُمُ أَوْلَى النَّاسِ بِكَ وَيَبْرُكُ وَإِعْطَاكَ»
 وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ
 الْعَزِيزِ.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ هُمُ الَّذِينَ لَا كَاتِبَ لَهُمْ، وَقَدْ مَاتَ
 آبَاؤُهُمْ وَهُمْ ضِعْفَاءُ صِغَارًا، دُونَ الْبُلُوغِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى
 التَّكْسِبِ. وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ

تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ اللَّهُ سَزَّلَ الْكُتُبَ بِالْحَقِّ﴾ أَيِ
 إِنَّمَا اسْتَحَقُّوا هَذَا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى
 رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُتُبَهُ بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ
 وَإِنطَالِ الْبَاطِلِ، وَهَؤُلَاءِ إِتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا، فِكِتَابُهُمْ
 أَمْرُهُمْ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، وَهَذَا
 الرَّسُولُ الْخَاتَمُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهُمْ يُكْذِبُونَهُ وَيُخَالِفُونَهُ وَيَحْجِدُونَهُ
 وَيَكْتُمُونَ صِفَتَهُ، فَاسْتَهْزَؤُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُتَنَزَّلَةِ عَلَى رَسُولِهِ،
 فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ
 سَزَّلَ الْكُتُبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكُتُبِ لَيَنْ شِقَاقِ
 بَعِيدٍ﴾

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ
 مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى
 الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَتَى السَّبِيلَ
 وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُ
 بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
 أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٧)

[جامع البر]

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى جُمَلٍ عَظِيمَةٍ وَقَوَاعِدٍ عَمِيمَةٍ،
 وَعَقِيدَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ.

وَأَمَّا الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا
 أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلًا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ حَوَّلَهُمْ
 إِلَى الْكَعْبَةِ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى نَفُوسٍ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 وَبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانَ حِكْمَتِهِ فِي ذَلِكَ،
 وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ إِنَّمَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَامْتِنَالُ
 أَوَامِرِهِ، وَالتَّوَجُّهُ حَيْثُمَا وَجَّهَ، وَاتِّبَاعُ مَا سَرَعَ، فَهَذَا هُوَ
 الْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالإِيمَانُ الْكَامِلُ، وَلَيْسَ فِي لُزُومِ التَّوَجُّهِ إِلَى
 جِهَةٍ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ بَرٌّ وَلَا طَاعَةٌ إِنْ كَمْ يَكُنْ عَنْ
 أَمْرِ اللَّهِ وَسُرْعِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ
 الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾...

الْآيَةِ، كَمَا قَالَ فِي الْأَضَاحِي وَالْهَدَايَا: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ
 لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِنَالِهَا الْقُرْآنِ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]
 وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَانَتْ الْيَهُودُ تُقْبِلُ قِبَلَ الْمَغْرِبِ، وَكَانَتْ
 النَّصَارَى تُقْبِلُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ
 تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يَقُولُ: هَذَا كَلَامُ
 الإِيمَانِ، وَحَقِيقَتُهُ الْعَمَلُ. وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ وَالرَّبِيعِ بْنِ

(١) ابن أبي حاتم غ: ٢٥١/١ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٢٥٣/١

(٣) فتح الباري: ٣٣٤/٣ ومسلم: ٧١٦/٢ (٤) أحمد: ٤/٤

عَلَى الصَّحَاكُ وَغَيْرُهُمْ^(١٢). وَإِنَّمَا نُصِبَ «الصَّابِرِينَ» عَلَى الْمُدْحِ، وَالْحُثُّ عَلَى الصَّبْرِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ، لِثَبَاتِهِ وَصُغُوبَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ. وَقَوْلُهُ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا»، أَي هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذَا الصِّفَاتِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي إِيْمَانِهِمْ، لِأَنَّهُمْ حَقَّقُوا الْإِيْمَانَ الْقَلْبِيَّ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» لِأَنَّهُمْ اتَّقَوْا الْمَحَارِمَ وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ.

«يَتَابَعُوا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْمِ بِالْحَرْمِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عَفَى لِمَنْ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَإِنْبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَدَايٌ أَلِيمَةٌ ﴿١٧٨﴾ وَكُفُّمُ فِي الْقِصَاصِ حَيَوَةٌ يَتَأْتِي الْأَلْبَابَ لَمَّا كُتِبَ تَتَوَّنُونَ ﴿١٧٩﴾»

[الْأَمْرُ بِالْقِصَاصِ، وَبَيَانُ مَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعَدْلُ فِي الْقِصَاصِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، حُرِّمَ بِحُرِّمِكُمْ، وَعَبُدْكُمْ بِعَبْدِكُمْ، وَأَنْتُمْ كُمْ بِأَنْتَاكُم، وَلَا تَتَجَاوَزُوا وَتَعْتَدُوا كَمَا اعْتَدَى مَنْ قَبْلَكُمْ، وَغَيْرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَسَبَّ ذَلِكَ قُرْئَةً وَالتَّضْيِيرُ، كَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ قَدْ عَزَّتْ قُرْئَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَهَرُوا هُمْ، فَكَانَ إِذَا قَتَلَ النَّضِيرِيُّ الْقُرْظِيَّ لَا يَقْتُلُ بِهِ، بَلْ يُعَادِي بِمَاءِهِ وَسَقَى مِنَ التَّمْرِ، وَإِذَا قَتَلَ الْقُرْظِيُّ النَّضِيرِيَّ قَتَلَ بِهِ، وَإِنْ فَادَوْهُ فَدَوَّهُ بِمَائَتِي وَسَقَى مِنَ التَّمْرِ، ضِعْفَ دِيَّةِ قُرَيْظَةَ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ، وَلَا يَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ الْمُحْرِفِينَ الْمُخَالِفِينَ لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِيهِمْ كُفْرًا وَوَعْيًا، فَقَالَ تَعَالَى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْمِ بِالْحَرْمِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى» وَقَوْلُهُ: «الْحَرْمُ بِالْحَرْمِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى» مِنْهَا مَنْسُوخَةٌ، نَسَخْتَهَا: «النَّفْسُ بِالنَّفْسِ» [المائدة: ٤٥]، وَدَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَقْتُلُ بِالْكَافِرِ، لِمَا تَبَيَّنَ فِي الْبَحَارِيِّ عَنِ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

ﷺ قَالَ: «لَا يَنْبَغُ بَعْدَ حُلْمٍ»^(١).

«وَالْمُسْكِينِ» وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ فِي قُوتِهِمْ وَكِسْوَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ، فَيُعْطُونَ مَا تُسَدُّ بِهِ حَاجَتَهُمْ وَحَلَّتُهُمْ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوْفِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَالثَّقْمَةُ وَالثَّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنَى يُغْنِيهِ وَلَا يُنْطِنُ لَهُ فَيَصَدَّقَ عَلَيْهِ»^(٢).

«وَأَبْنُ السَّبِيلِ» وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ الَّذِي قَدْ فَرَغَتْ نَفَقَتُهُ، فَيُعْطَى مَا يُوصلُهُ إِلَى بَلَدِهِ، وَكَذَا الَّذِي يُرِيدُ سَفْرًا فِي طَاعَةٍ، فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الضَّيْفِ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِبْنُ السَّبِيلِ هُوَ الضَّيْفُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْمُسْلِمِينَ^(٣). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَاكُ وَالزُّهْرِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ^(٤).

«وَالسَّابِقِينَ» وَهُمْ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلطَّلَبِ فَيُعْطُونَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ، «وَفِي الرِّقَابِ» وَهُمْ الْمَكَاتِبُونَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُؤَدُّونَهُ فِي كِتَابَتِهِمْ، وَسَبَّابِي الْكَلَامِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ مِنْ بَرَاءةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» أَي وَآتَمَّ أفعالَ الصَّلَاةِ فِي أوقَاتِهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَطُمَأْنِينِهَا وَخُشُوعِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْضِيِّ، وَقَوْلُهُ: «وَعَاتَى الزَّكَاةَ» الْمُرَادُ بِهِ زَكَاةُ الْمَالِ، كَمَا قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ^(٥).

وَقَوْلُهُ: «وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا» كَقَوْلِهِ: «الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ الْعَيْثُ» [الرعد: ٢٠] وَعَكْسُ هَذِهِ الصِّفَةِ التَّفَاقُ، كَمَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَمَنَ حَانَ»^(٦). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٧).

وَقَوْلُهُ: «وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» أَي فِي حَالِ الْفَقْرِ، وَهُوَ الْبَأْسَاءُ، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ وَالْأَسْقَامِ، وَهُوَ الضَّرَّاءُ. «وَحِينَ الْبَأْسِ» أَي فِي حَالِ الْفِتَالِ وَالْإِقْتَاءِ الْأَعْدَاءِ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ^(٨) وَوَمَرَّةُ الْهَمْدَانِيُّ^(٩) وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ^(١٠) وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالشَّدِيدِيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَأَبُو مَالِكٍ^(١١).

(١) عبدالرزاق: ٤١٦/٦ إسناده ضعيف فيه جوير وهو متروك
(٢) فتح الباري: ٣٩٩/٣ ومسلم: ٧١٩/٢ (٣) ابن أبي حاتم
غ: ٢٥٩/١ (٤) أيضا غ: ٢٦٠/١ (٥) ابن أبي حاتم غ: ١/١
٢٦٤ (٦) مسلم: ٧٨/١ (٧) مسلم: ٧٨/١ (٨) ابن أبي
حاتم غ: ٢٧٠/١ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٢٧١/١ (١٠) أيضا
غ: ٢٧٠/١ (١١) ابن أبي حاتم غ: ٢٧١/١ (١٢) الطبري:
٣٥٥/٣

الله ﷻ: «وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بَكَافِرٍ»^(١) وَلَا يَصْحُ حَدِيثٌ وَلَا تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ هَذَا، وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ بِهِ لِعُمُومِ آيَةِ الْمَائِدَةِ.

(مَسْأَلَةٌ) وَمَذَهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَالْجُمْهُورِ أَنَّ الْجَمَاعَةَ يُقْتَلُونَ بِالْوَاحِدِ، قَالَ عُمَرُ فِي غِلَامٍ قَتَلَهُ سَبْعَةٌ فَقَتَلْتَهُمْ، وَقَالَ: لَوْ تَمَالَأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتَهُمْ، وَلَا يُعْرَفُ لَهُ فِي زَمَانِهِ مُخَالَفٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَذَلِكَ كَالْإِجْمَاعِ. وَحُكِيَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَوَايَةٌ: أَنَّ الْجَمَاعَةَ لَا يُقْتَلُونَ بِالْوَاحِدِ، وَلَا يُقْتَلُ بِالنَّفْسِ إِلَّا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ. وَحَكَاهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ مُعَاذِ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَالزُّهْرِيِّ وَابْنِ سِيرِينَ، وَحَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ.

وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءَهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ» فَالْعَمُورُ أَنْ يُقْبَلَ الدِّيَّةُ فِي الْعَمْدِ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَأَبِي الشَّعْثَاءِ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءِ وَالْحَسَنِ^(٢) وَقَتَادَةَ^(٣) وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ^(٤). وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» يَعْنِي: فَمَنْ تَرَكَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ، يَعْنِي أَخَذَ الدِّيَّةَ بَعْدَ اسْتِحْقَاقِ الدَّمِ، وَذَلِكَ الْعَمُورُ^(٥). «فَاتَّبَعْهُ بِالْمَعْرُوفِ» يَقُولُ: فَعَلَى الطَّالِبِ اتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا قَبِلَ الدِّيَّةَ، «وَأَدَاءَهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ» يَعْنِي مِنَ الْقَاتِلِ مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ وَلَا مَكَلٍ، يَعْنِي الْمَدْفَعَةَ.

[لَوْلِي الدَّمُ إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ]

وَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ» يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا شَرَعَ لَكُمْ أَخْذَ الدِّيَّةِ فِي الْعَمْدِ تَخْفِيفًا مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ مِمَّا كَانَ مَحْتَوَمًا عَلَى الْأَمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ أَوْ الْعَمْرِ، كَمَا رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُتِبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْفِصَاصُ فِي الْقَتْلِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ الْعَمُورُ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُذِهِ الْأُمَّةِ: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْفِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْكُفْرِ بِالْكَفْرِ وَالْعَمْدِ بِالْعَمْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى» فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» فَالْعَمُورُ أَنْ يُقْبَلَ الدِّيَّةُ فِي الْعَمْدِ^(٦). وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ^(٧). وَقَالَ قَتَادَةُ: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ» رَجِمَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَأَطْعَمَهُمُ الدِّيَّةَ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَهُمْ، فَكَانَ أَهْلُ التَّوْرَةِ إِنَّمَا هُوَ الْفِصَاصُ وَعَمُورٌ لَيْسَ بَيْنَهُمْ أَرْضٌ، وَكَانَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ إِنَّمَا هُوَ عَمُورٌ أَمَرُوا بِهِ، وَجَعَلَ لَهُذِهِ الْأُمَّةِ الْفِصَاصَ وَالْعَمُورَ وَالْأَرْضَ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلِ بْنِ

فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٠﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ لِيُبَيِّنَ مِنَ الْهُدَى وَالْقُرْآنِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨١﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٢﴾

حَيَّانَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوُ هَذَا^(٨).

وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَكَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» يَقُولُ تَعَالَى: فَمَنْ قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَّةِ أَوْ قَبُولِهَا، فَكَلَهُ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ أَلِيمٌ مُوجِعٌ شَدِيدٌ، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءِ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ وَالسُّدِّيَّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ: أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُقْتَلُ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَّةِ^(٩).

[فَائِدَةُ الْفِصَاصِ وَحِكْمَتُهُ]

وَقَوْلُهُ: «وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَّةٌ» يَقُولُ تَعَالَى: وَفِي شَرَعِ الْفِصَاصِ لَكُمْ - وَهُوَ قَتْلُ الْقَاتِلِ - حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ لَكُمْ، وَهِيَ بَقَاءُ الْمُهْجِ وَصَوْفُهَا، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ الْقَاتِلُ أَنَّهُ

(١) البخاري: ١١١ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٩، ٢٧٨/١ (٣)

الطبري: ٣٦٨/٣ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٩/١ (٥) ابن أبي

حاتم غ: ٢٨٠/١ إسناده ضعيف الضحاك عن ابن عباس مرسل

(٦) سنن سعيد بن منصور: ٦٥٢/٢ (٧) صحيح ابن حبان: ٧/

٦٠١ (٨) ابن أبي حاتم غ: ٢٨٥/١ (٩) أيضا ٢٨٧-٢٨٩

يُقْتَلُ إِنَّكَ عَنْ صَنِيعِهِ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَيَاةً لِلنَّفُوسِ، وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: الْقَتْلُ أَفْئَى لِلْقَتْلِ. فَجَاءَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي الْقُرْآنِ أَفْصَحَ وَأَبْلَغَ وَأَوْجَزَ ﴿وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: جَعَلَ اللَّهُ الْفِصَاصَ حَيَاةً، فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يُرِيدُ أَنْ يُقْتَلَ فَتَمَنُّعُهُ مَخَافَةَ أَنْ يُقْتَلَ. وَكَذَا رُويَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ ابْنِ أَنَسٍ وَمَقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ^(١). ﴿يَتَأُولَى الْأَنْبِيَاءَ لَمَلَكْتُمْ تَتَّقُونَ﴾ يَقُولُ: يَا أُولِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالنُّهَى، لَعَلَّكُمْ تَتَزَجَّرُونَ وَتَتَرَكُّونَ مَحَارِمَ اللَّهِ وَمَأْتِمَهُ، وَالتَّقْوَى اسْمٌ جَامِعٌ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُيَدُّونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَاصْلَحْ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾

[الْأَمْرُ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، ثُمَّ نَسَخَهَا فِي

حَقِّ الْوَرِثَةِ]

إِسْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ عَلَى الْأَمْرِ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى أَصْحَابِ الْقَوْلَيْنِ قَبْلَ نَزُولِ آيَةِ الْمَوَارِيثِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْفَرَائِضِ نُسِخَتْ هَذِهِ، وَصَارَتِ الْمَوَارِيثُ الْمُقَدَّرَةُ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ يَأْخُذُهَا أَهْلُهَا، حَتْمًا مِنْ غَيْرِ وَصِيَّةٍ، وَلَا تَحْمِلُ مِنْهُ الْمَوْصِي، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي السُّنَنِ وَغَيْرِهَا عَنْ عَمْرٍو بْنِ خَارِجَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِيُورِثُ»^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: جَلَسَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ حَتَّى آتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فَقَالَ: نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَكَذَا رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ^(٤). وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾: نَسَخَتْهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَمِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَأَبِي مُوسَى وَسَعِيدِ بْنِ

[الْوَصِيَّةَ لِقَرِيبٍ لَا يَرِثُ]

بَقِي الْأَقَارِبُ الَّذِينَ لَا مِيرَاثَ لَهُمْ يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يُوصِيَ لَهُمْ مِنَ الثَّلَاثِ إِسْتِثْنَانًا بِآيَةِ الْوَصِيَّةِ وَشُمُولِهَا، وَلَمَّا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا حَقَّ امْرِئٌ مُسْلِمٌ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ بَيْتَ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي^(٥). وَالآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ بِالْأَمْرِ بِبِرِّ الْأَقَارِبِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

[الْوَصِيَّةُ بِالْمَعْرُوفِ]

وَالْمُرَادُ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يُوصِيَ لِأَقْرَبِيهِ وَصِيَّةً لَا تُجْجَفُ بِوَرَثَتِهِ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا تَقْيِيرٍ، كَمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ سَعْدًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَالًا وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتِي لِي، أَفَأُوصِي بِثَلَاثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا» قَالَ: فَبِالشُّطْرِ؟ قَالَ: «لَا» قَالَ: فَالثَّلَاثُ؟ قَالَ: «الثَّلَاثُ وَالثَّلَاثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ غَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»^(٦). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثَّلَاثِ إِلَى الرَّبِيعِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الثَّلَاثُ وَالثَّلَاثُ كَثِيرٌ»^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُيَدُّونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: فَمَنْ بَدَّلَ الْوَصِيَّةَ وَحَرَفَهَا، فَغَيَّرَ حُكْمَهَا وَزَادَ فِيهَا أَوْ نَقَصَ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْكَيْفَانُ لَهَا بِطَرِيقِ الْأُولَى ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ

(١) ابن أبي حاتم غ: ٢٩٠-٢٩٢ (٢) تحفة الأحوذى: ٦/٣١٣ والنسائي: ٦/٢٤٧ وابن ماجه: ٢/٩٠٥ (٣) سعيد بن منصور: ٢/٦٦٣ والحاكم: ٢/٢٧٣ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١/٣٠١، ٣٠٢ (٥) الطبري: ٣/٣٩١ (٦) ابن أبي حاتم غ: ١/٣٠٢ (٧) ابن أبي حاتم غ: ١/٣٠١ (٨) الطبري: ٣/٣٨٩ (٩) ابن أبي حاتم غ: ١/٣٠٣ (١٠) فتح الباري: ٥/٤١٩ ومسلم: ٣/١٢٤٩ و١٢٥٠ (١١) فتح الباري: ٥/٧٢٤ ومسلم: ٣/١٢٥٠ (١٢) البخاري: ٢٧٤٣

يُذَلُّونَهُ^(١): قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: وَقَدْ وَقَعَ أَجْرُ الْمَيْتِ عَلَى اللَّهِ، وَتَعَلَّقَ الْإِنَّمُ بِالَّذِينَ بَدَّلُوا ذَلِكَ^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبِيحٌ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ قَدْ إِطْلَعَ عَلَى مَا أَوْصَى بِهِ الْمَيْتُ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَلِكَ، وَبِمَا بَدَّلَهُ الْمُوصِي إِلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٣) وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ: الْجَنَفُ: الْخَطَأُ^(٤). وَهَذَا يَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْخَطَأِ كُلِّهَا: بِأَنْ زَادَ وَإِرْتَابًا بِوَاسِطَةٍ أَوْ وَسِيلَةٍ، كَمَا إِذَا

أَوْصَى بَيْنِيهِ الشَّيْءُ الْفُلَانِيَّ مُحَابَاةً، أَوْ أَوْصَى لِابْنِ ابْنَتِهِ لِيزِيدَهَا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ، إِذَا مُحْطًا غَيْرَ عَامِدٍ، بَلْ يَطْبَعُهُ وَقُوَّةَ شَفَقَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَبَصُّرٍ، أَوْ مَعْتَمِدًا أَيَّمَا فِي ذَلِكَ، فَيَلْوِصِي - وَالْحَالَةَ هَذِهِ - أَنْ يُصْلِحَ الْقَضِيَّةَ، وَيَعْدِلَ فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ، وَيَعْدِلَ عَنِ الَّذِي أَوْصَى بِهِ الْمَيْتُ إِلَى مَا هُوَ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ، وَأَشْبَهُ الْأُمُورِ بِهِ، جَمْعًا بَيْنَ مَقْصُودِ الْمُوصِي وَالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ، وَهَذَا الْإِضْلَاحُ وَالتَّوْفِيقُ لَيْسَ مِنَ التَّبْدِيلِ فِي شَيْءٍ، وَلِهَذَا عَطَفَ هَذَا فَيْتَنَهُ - عَلَى التَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ - لِيُعْلَمَ: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ بِسَبِيلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[فَضْلُ الْعَدْلِ فِي الْوَصِيَّةِ]

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى حَافٍ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُحْتَمُّ لَهُ بِسَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُحْتَمُّ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِفْرُؤُوا وَإِنْ شِئْتُمْ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾... آيَةُ [البقرة: ٢٢٩]^(٥).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَيْبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامِ كَمَا كَيْبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ﴾ أَيَّمَا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهِ ذِيَّةٌ طَعَامٌ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَإِنْ أَنْصَرْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[الْأَمْرُ بِالصَّوْمِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَامْرَأَ لَهُمْ بِالصِّيَامِ، وَهُوَ الْإِمْسَاكُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْوَقَاقِ، بِنِيَّةِ خَالِصَةٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِيَأْتِيَ فِيهِ مِنْ زَكَاةِ النَّفْسِ وَطَهَارَتِهَا وَتَنْقِيَّتِهَا مِنَ الْأَخْلَاطِ الرَّوِيَّةِ

لِتَلَّا يَشُقَّ عَلَى النَّفْسِ فَتَضَعُفَ عَنْ حَمْلِهِ وَأَدَائِهِ .

وَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ عَاشُورَاءَ يُصَامُ، فَلَمَّا نَزَلَ فَرَضَ رَمَضَانَ كَانَ مِنْ شَاءِ صَامَ وَمِنْ شَاءِ أَفْطَرَ^(٦). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ذِيَّةٌ طَعَامٌ

مَسْكِينٍ﴾ كَمَا قَالَ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ فِي ابْتِدَاءِ

الْأَمْرِ مِنْ شَاءِ صَامَ، وَمِنْ شَاءِ أَفْطَرَ وَأَطْعَمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ

مَسْكِينًا، وَهَكَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلَمَةَ بِنِ الْأَكْوَعِ أَنَّ

قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ذِيَّةٌ طَعَامٌ

مَسْكِينٍ﴾: كَانَ مِنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطَرَ يُفْتَدِي، حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ

الَّتِي بَعْدَهَا فَتَسَخَّتْهَا^(٨). وَرَوَى أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللَّهِ

عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: هِيَ مَنْسُوحَةٌ^(٩). وَقَالَ السُّدِّيُّ

عَنْ مَرَّةٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَعَلَى

الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ذِيَّةٌ طَعَامٌ مَسْكِينٍ﴾ قَالَ: يَقُولُ: ﴿وَعَلَى

الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أَيُّ يَتَجَسَّمُونَهُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَكَانَ مِنْ

شَاءِ صَامَ، وَمِنْ شَاءِ أَفْطَرَ وَأَطْعَمَ مَسْكِينًا^(١٠). ﴿فَمَنْ

تَطَوَّعَ﴾ يَقُولُ: أَطْعَمَ مَسْكِينًا آخَرَ ﴿نَهْوُ خَيْرٍ لَهُ وَأَنْ نَصُومُوا

خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فَكَانُوا كَذَلِكَ حَتَّى نَسَخَتْهَا ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ

(١) الطبري: ٣٩٧/٣ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٣١٠/١ (٣) ابن

أبي حاتم غ: ٣١١/١ (٤) عبد الرزاق: ٨٨/٩ (٥) فتح

الباري: ٨/٩ ومسلم: ١٠١٨/٢ (٦) فتح الباري: ٢٦/٨

ومسلم: ٧٩٢/٢ (٧) فتح الباري: ٢٦/٨ (٨) فتح الباري: ٢٩/٨ (٩) فتح الباري: ٢٩/٨ (١٠) فتح الباري: ٢٨/٨

الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۗ

وَأُنزِلَتْ التَّوْرَةُ لَيْسَتْ مَصْنَعَيْنِ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لثَلَاثَ عَشْرَةَ حَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنزِلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ حَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ^(٥).

[فَضْلُ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ هَذَا مَدْحٌ لِّلْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ هُدًى لِّقُلُوبِ الْعِبَادِ وَمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ أَي دَلَالِيلٌ وَحُجَجًا بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ لِمَنْ فَهَمَهَا وَتَدَبَّرَهَا، دَالَّةٌ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْهُدَى الْمُتَافِي لِلضَّلَالِ، وَالرُّشْدِ الْمُخَالِفِ لِلْعُيِّ، وَمُفْرَقًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

[إِيجَابُ صَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هَذَا إِجَابٌ حَثٌّ عَلَى مَنْ شَهِدَ اسْتِهْلَالَ الشَّهْرِ، أَي كَانَ مُقِيمًا فِي الْبَلَدِ حِينَ دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَهُوَ صَحِيحٌ فِي بَدَنِهِ، أَنْ يَصُومَ لَا مَحَالَةَ، وَنَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةَ الْإِبَاحَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ لِمَنْ كَانَ صَحِيحًا مُقِيمًا أَنْ يُفْطِرَ وَيَقْدِيَ بِإِطْعَامِ مُسْكِينٍ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، وَلَمَّا حَثَّمَ الصِّيَامَ أَعَادَ ذِكْرَ الرُّحْصَةِ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ فِي الْإِفْطَارِ، بِشَرْطِ الْقَضَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مَعْنَاهُ: وَمَنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ فِي بَدَنِهِ يَشُقُّ عَلَيْهِ الصِّيَامُ مَعَهُ أَوْ يُؤْذِيهِ، أَوْ كَانَ عَلَى سَفَرٍ، أَي فِي حَالَةِ السَّفَرِ، فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ، فَإِذَا أَفْطَرَ فَلَعَلَّهِ عِدَّةٌ مَا أَفْطَرَهُ فِي السَّفَرِ مِنَ الْأَيَّامِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أَي إِنَّمَا رَخَّصَ لَكُمْ فِي الْفِطْرِ فِي حَالِ الْمَرَضِ وَفِي السَّفَرِ مَعَ تَحْتِمِهِ فِي حَقِّ الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ تَبْسِيرًا عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ.

[مَسَائِلُ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ]

وَقَدْ بَيَّنَّتِ الشُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ حَرَجَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لِعَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَسَارَ حَتَّى بَلَغَ الْكَدِيدَ، ثُمَّ أَفْطَرَ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْفِطْرِ. أَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ^(٦). وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ عَلَى التَّخْيِيرِ وَلَيْسَ بِحَثِّمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. قَالَ: فَمِمَّا الصَّائِمُ

[فِدْيَةُ الصِّيَامِ لِلْعَجْزَةِ وَكِبِيرِي السَّنِ]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَطَاءٍ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: (وَعَلَى الَّذِينَ يَطُوفُونَهِ فِدْيَةٌ طَعَامَ مُسْكِينٍ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَتْ مَسْئُوعَةً، هُوَ لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْمَرْأَةِ الْكَبِيرَةِ لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا فَيُطْعَمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُسْكِينًا^(١). وَهَكَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ، فَحَاصِلُ الْأَمْرِ أَنَّ النَّسْخَ ثَابِتٌ فِي حَقِّ الصَّحِيحِ الْمُقِيمِ بِإِجَابِ الصِّيَامِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وَأَمَّا الشَّيْخُ الْفَنَائِيُّ الْهَرَمِيُّ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ، فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ، وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ حَالٌ يَصِيرُ إِلَيْهَا يَتِمَّكُنُ فِيهَا مِنَ الْقَضَاءِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِدْيَةٌ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ، كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: (وَعَلَى الَّذِينَ يَطُوفُونَهِ) أَي: يَتَجَشَّمُونَهُ^(٢). كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ. وَهُوَ إِخْتِيَارُ الْبُخَارِيِّ فَإِنَّهُ قَالَ: وَأَمَّا الشَّيْخُ الْكَبِيرُ إِذَا لَمْ يُطِيقِ الصِّيَامَ، فَقَدْ أَطْعَمَ أَنْسَ بَعْدَ مَا كَبُرَ عَامًا أَوْ عَامَيْنِ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مُسْكِينًا، حُبْرًا وَلَحْمًا وَأَفْطَرَ^(٣).

وَهَذَا الَّذِي عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ قَدْ أَسْنَدَهُ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَيُّوبَ بْنِ أَبِي تَمِيمَةَ، قَالَ: ضَعَّفَ أَنْسَ عَنِ الصَّوْمِ، فَصَنَعَ جُضْئَهُ مِنْ تَرِيدٍ، فَدَعَا ثَلَاثِينَ مُسْكِينًا فَأَطْعَمَهُمْ^(٤). وَمِمَّا يَلْتَحِقُ بِهِذَا الْمَعْنَى: الْحَامِلُ وَالْمَرَضُ إِذَا خَافَتْ عَلَى أَنْفُسِهِمَا أَوْ وَلَدَيْهِمَا، يَتَدَيَّانِ فَفَطَّرَ وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِمَا.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَلَكُمْ تَنكَرُوتٌ ﴿١٨٥﴾﴾

[فَضْلُ رَمَضَانَ وَتُرُودُ الْقُرْآنِ فِيهِ]

يَمْدَحُ تَعَالَى شَهْرَ الصِّيَامِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الشُّهُورِ بِأَنْ اخْتَارَهُ مِنْ بَيِّنِهِ لِأَنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهِ، وَكَمَا اخْتَصَّهُ بِذَلِكَ قَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُ الشَّهْرُ الَّذِي كَانَتْ الْكُتُبُ الْإِلَهِيَّةُ تُنَزَّلُ فِيهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ وَائِلَةَ يَعْنِي ابْنَ الْأَسْفَعِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أُنزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ،

(١) فتح الباري: ٢١٨/٨ (٢) الطبري: ٤٣١/٣ (٣) فتح

الباري: ١٧٩/٨ (٤) مسند أبي يعلى: ٢٠٤/٧ طبراني كبير

(٦٧٥) (٥) أحمد: ١٠٧/٤ (٦) فتح الباري: ٢١٣/٣

[ذِكْرُ اللَّهِ عَلَىٰ إِتْمَامِ الْعِبَادَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ﴾ أَيَّ وَلِتَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ انْقِضَاءِ عِبَادَتِكُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وَقَالَ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وَقَالَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَرْ الشُّجُورِ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠] وَلِهَذَا جَاءَتِ السُّنَّةُ بِاشْتِحَابِ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا كُنَّا نَعْرِفُ انْقِضَاءَ صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا بِالتَّكْبِيرِ (٨). وَلِهَذَا أَخَذَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَشْرُوعِيَّةَ التَّكْبِيرِ فِي عَمِدِ الْفِطْرِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيَّ إِذَا قُمْتُمْ بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ مِنْ طَاعَتِهِ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَتَرْكِ مَحَارِمِهِ وَحِفْظِ حُدُودِهِ، فَلَعَلَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ بِذَلِكَ. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (٩).

[اللَّهُ يَسْمَعُ دُعَاءَ عِبَادِهِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لَا نَضَعُ شَرْفًا، وَلَا نَعْلُو شَرْفًا، وَلَا نَهْبُطُ وَاذِيًا، إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ، قَالَ: فَدَنَا مِنَّا، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبِعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنْتِي رَاحِلَتِي، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» (١٠). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (١١). وَبَيَّنَّهُ الْجَمَاعَةُ بِتَحْوِيلِهِ. وَرَوَى الْإِمَامُ

وَمِنَّا الْمُفْطِرُ، فَلَمْ يَعْيبِ الصَّائِمَ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ، فَلَوْ كَانَ الْإِفْطَارُ هُوَ الْوَاجِبُ لَأَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الصَّيَامَ، بَلِ الَّذِي ثَبَّتَ مِنْ فِعْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ صَائِمًا، لِمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي حَرِّ شَدِيدٍ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ يَدَهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا فِيْنَا صَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ رَوَاحَةَ (١).

وَالْإِفْطَارُ فِي السَّفَرِ أَفْضَلُ، أَخَذْنَا بِالرُّخْصَةِ، وَلَمَّا ثَبَّتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ: «مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ، وَمَنْ صَامَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ» (٢). وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللَّهِ الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ» (٣). وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هُمَا سَوَاءٌ، لِحَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّ حَمْرَةَ بِنَ عَمْرِو الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كَثِيرُ الصَّيَامِ، أَفَأَصُومُ فِي السَّفَرِ؟ فَقَالَ: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ». وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٤). وَقِيلَ: إِنْ شَقَّ الصَّيَامُ فَالْإِفْطَارُ أَفْضَلُ، لِحَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا قَدْ ظَلَّلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالُوا: صَائِمٌ، فَقَالَ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّيَامُ فِي السَّفَرِ». أَخْرَجَاهُ (٥).

فَأَمَّا إِنْ رَغِبَ عَنِ السُّنَّةِ وَرَأَى أَنَّ الْفِطْرَ مَكْرُوهٌ إِلَيْهِ، فَهَذَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْإِفْطَارُ، وَنَحْرَمُ عَلَيْهِ الصَّيَامَ. وَلَا يَجِبُ التَّنَاضُحُ فِي الْفِضَاءِ، بَلِ إِنْ شَاءَ فَرَّقَ وَإِنْ شَاءَ تَابَعَ، وَعَلَيْهِ ثَبَّتَ الدَّلِيلُ لِأَنَّ التَّنَاضُحَ إِنَّمَا وَجِبَ فِي الشَّهْرِ لِضَرُورَةِ آدَائِهِ فِي الشَّهْرِ، فَأَمَّا بَعْدَ انْقِضَاءِ رَمَضَانَ، فَالْمَرَادُ صِيَامَ أَيَّامِ عِدَّةِ مَا أَفْطَرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

[الْيَسْرُ دُونَ الْعُسْرِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَسَكِّنُوا وَلَا تُتَفِّرُوا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٦). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى جِئِنِ بَعْثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ: «بَشِّرَا وَلَا تُتَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا» (٧). وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أَيَّ إِنَّمَا أَرْخَصَ لَكُمْ فِي الْإِفْطَارِ لِلْمَرَضِ وَالسَّفَرِ وَنَحْوِهِمَا مِنَ الْأَعْدَارِ لِإِرَادَتِهِ بِكُمْ الْيُسْرَ، وَإِنَّمَا أَمَرَكُمُ بِالْفِضَاءِ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عِدَّةَ شَهْرِكُمْ.

(١) فتح الباري: ٢١٥/٤ ومسلم: ٧٩٠/٢ (٢) مسلم: ٢/٧٩٠ (٣) مسلم: ٧٨٦/٢ (٤) فتح الباري: ٢١١/٤ ومسلم: ٧٨٩/٢ (٥) فتح الباري: ٢١٦/٤ ومسلم: ٧٨٦/٢ (٦) أحمد: ١٣١/٣ وفتح الباري ٥٤١/١٠ ومسلم: ٣/١٣٥٩ (٧) فتح الباري: ٦٦٠/٧ ومسلم: ١٥٨٧/٣ (٨) البخاري: ٨٤٢ (٩) أحمد: ٤٠٢/٤ (١٠) فتح الباري: ٢/٥٠٩ ومسلم: ٢٠٧٦/٤

أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ. قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي»^(١).

[الدُّعَاءُ يُقْبَلُ وَلَا يَضِيعُ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِيْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَجِيمٌ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْأُخْرَى، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشُّؤْمِ مِثْلَهَا» قَالُوا: إِذَا نَكَّرْنَا؟ قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(٢).

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ: أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، حَدَّثَهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا عَلَيَّ ظَهْرُ الْأَرْضِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ الشُّؤْمِ مِثْلَهَا: مَا لَمْ يَدْعُ بِإِيْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَجِيمٍ»^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»^(٥). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ^(٦). وَهَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَتَابَهُ الْجَنَّةَ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِيْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَجِيمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْإِسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يُسْتَجَابْ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ»^(٧).

[ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ]

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَسُنَنِ التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَهَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْعِمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، يَقُولُ: بِعِزَّتِي لَا نُصْرَنُكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»^(٨).

«أَجَلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتَّقِنَ بُشْرُوهُنَّ وَأَتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

عَائِيَتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٢٩

الْبَقَرَةِ

أَجَلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتَّقِنَ بُشْرُوهُنَّ وَأَتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

[الْأَذْنُ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ

فِي لَيَالِي رَمَضَانَ]

هَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ، وَرَفَعَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُهُمْ إِنَّمَا يَحِلُّ لَهُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالْجِمَاعُ إِلَى صَلَاةِ الْعِشَاءِ، أَوْ يَنَامُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَمَنْ نَامَ أَوْ صَلَّى الْعِشَاءَ حَرَّمَ عَلَيْهِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَالْجِمَاعَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ، فَوَجَدُوا مِنْ ذَلِكَ مَسَقَّةً كَبِيرَةً، وَ«الرَّفْتُ» هُنَا هُوَ الْجِمَاعُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ. وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَطَاوُسٌ وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ^(٩) وَالضَّحَّاكُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ

(١) أحمد: ٣/٢١٠ (٢) أحمد: ٣/١٨ (٣) أحمد: ٥/٣٢٩

(٤) تحفة الأحوذى: ١٠/٢٤ (٥) أحمد: ٢/٣٩٦ (٦) فتح الباري: ١١/١٤٥ ومسلم: ٤/٢٠٩٥ (٧) مسلم: ٤/٢٠٩٦

(٨) أحمد: ٣/٥٤٤ وتحفة الأحوذى: ٧/٢٢٩ وابن ماجه: ١/٥٥٧

(٩) ابن أبي حاتم غ: ١/٣٦٧-٣٦٩

وَالسُّدِّيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسِيُّ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: يَعْنِي هُنَّ سَكَنٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ سَكَنٌ لَهُنَّ^(٢). وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُنَّ لِحَافٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِحَافٍ لَهُنَّ^(٣). وَحَاصِلُهُ: أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كُلُّ مِنْهُمَا يُخَالِطُ الْآخَرَ وَيُمَاسُهُ وَيُصَاحِجُهُ، فَتَنَاسَبَ أَنْ يُرَخَّصَ لَهُمْ فِي الْمَجَامَعَةِ فِي لَيْلِ رَمَضَانَ، لِئَلَّا يَشُقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيُخْرَجُوا.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَتَمَّ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ إِلَى مِثْلِهَا، وَإِنْ قَيْسَ بِنَ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ صَائِمًا، وَكَانَ يَوْمَهُ ذَلِكَ يَعْمَلُ فِي أَرْضِهِ، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارَ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ أَطْلُقِي فَأَطْلُبْ لَكَ، فَعَلَبْتُهُ عَيْنَهُ فَتَمَّ، وَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ نَائِمًا قَالَتْ: خَيْبَتُ لَكَ، أَيْمَتُ؟ فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غَشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَاہِ الرَّفَّتْ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا^(٤).

وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ هُنَّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحَاقَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ كَانُوا لَا يَفْرُبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوُنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾^(٥).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِذَا صَلُّوا الْعِشَاءَ، حَرُمَ عَلَيْهِمُ النِّسَاءُ وَالطَّعَامُ إِلَى مِثْلِهَا مِنَ الْقَابِلَةِ، ثُمَّ إِنَّ أَنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَصَابُوا مِنَ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَسَكَّوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوُنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَقِنْ بَيْنَهُمْ﴾ الْآيَةَ، وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٦). وَقَوْلُهُ: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَنَسٌ وَشُرَيْحُ الْقَاضِي وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ

وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالْحَكَمُ بْنُ عْتَبَةَ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالصَّحَّاحُ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي الْوَلَدَ^(٧). وَقَالَ قَتَادَةُ: وَابْتَغُوا الرُّخْصَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَقَالَ سَعِيدُ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يَقُولُ: مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ.

[آخِرُ وَقْتِ السَّحُورِ]

قَوْلُهُ: ﴿وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْاَيْلِ﴾ أَبَاحَ تَعَالَى الْأَكْلَ وَالشَّرْبَ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبَاحَةِ الْجَمَاعِ فِي أَيِّ اللَّيْلِ شَاءَ الصَّائِمُ إِلَى أَنْ يَبَيِّنَ ضِيَاءَ الصَّبَاحِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ، وَعَبَّرَ عَنِ ذَلِكَ بِالْخَيْطِ الْأَبْيَضِ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ، وَرَفَعَ اللَّبْسَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: أَنْزَلَتْ: ﴿وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وَلَمْ يَنْزَلْ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدَهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، فَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُ رُؤْيُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فَعَلِمُوا أَنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيِّ، قَالَ: أَخَذَ عَدِيُّ عِقَالًا أَبْيَضَ وَعِقَالًا أَسْوَدَ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ نَظَرَ فَلَمْ يَسْتَبِيحَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلْتُ تَحْتَ وَسَادَتِي، قَالَ: «إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعْرِضٌ، أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وَسَادَتِكَ». وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْفَقَا». فَفَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِالْبَلَادَةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، بَلْ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ وَسَادُهُ عَرِيضًا فَفَقَاهُ أَيْضًا عَرِيضٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيُسَرِّهُ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْ عَدِيِّ ابْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ. أَهْمَا الْخَيْطَانِ؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْفَقَا إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: لَا، بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»^(٨).

(١) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٨ (٢) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٨ -

٣٧١ (٣) ابن أبي حاتم: ١ / ٣٨١ (٤) الطبري: ٣ / ٤٩٥ (٥)

فتح الباري: ٨ / ٣٠ (٦) الطبري: ٣ / ٤٩٦ و ٤٩٨ إسناده

ضعيف، حكم العوفي تقدم (٧) ابن أبي حاتم: ١ / ٣٧٧-٣٧٨

والطبري: ٣ / ٥٠٦، ٥٠٧ (٨) انظر لجميع هذه الآثار فتح

الباري: ٨ / ٣١

[اسْتِحْبَابُ السَّحُورِ وَبَيَانُ وَفْتِهِ]

وَلَكِنَّ الْمُعْتَرِضَ الْأَحْمَرَ^(٦). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَلَفْظُهُمَا: «كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلَا يَهْدِنَا السَّاطِعَ الْمُضْعِدُ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَعْتَرِضَ لَكُمْ الْأَحْمَرُ»^(٧).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ سُمْرَةَ بِنْتِ جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَعْرُوكُمْ أَذَانٌ بِلَالٍ وَلَا هَذَا الْبِيَاضُ - لِعَمُودِ الصُّبْحِ - حَتَّى يَسْتَطِيرَ»^(٨). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِثْلَهُ سِوَاءً^(٩).

[مَنْ أَصْبَحَ جُنْبًا فَلَا حَرَجَ فِي صِيَامِهِ]

(مَسْأَلَةٌ) وَمِنْ جَعَلَهُ تَعَالَى الْفَجْرَ غَايَةً لِإِبَاحَةِ الْجَمَاعِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ - لِمَنْ أَرَادَ الصِّيَامَ - يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَصْبَحَ جُنْبًا فَلْيَغْتَسِلْ وَلْيَتِمَّ صَوْمَهُ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ سَلْفًا وَخَلْفًا، لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَالَتَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصْبِحُ جُنْبًا مِنْ جَمَاعٍ غَيْرِ إِحْتِلَامٍ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ وَيَصُومُ. وَفِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْهُمَا: ثُمَّ لَا يُفْطِرُ وَلَا يَقْضِي^(١٠).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنْبٌ فَأَصُومُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنْبٌ فَأَصُومُ». فَقَالَ: لَسْتُ مِثْلَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَحْسَنَ كُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَيْتُ»^(١١).

[الصِّيَامُ يَنْتَهِي بِدُخُولِ اللَّيْلِ فَيُسْرِعُ الْإِفْطَارُ عَلَى

الْفُورِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا الْبَيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يَقْتَضِي الْإِفْطَارَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حُكْمًا شَرْعِيًّا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا، وَآذَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»^(١٢). وَعَنْ سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

وَفِي إِبَاحَتِهِ تَعَالَى جَوَازَ الْأَكْلِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ السَّحُورِ، لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الرُّحْصَةِ وَالْأَخْذِ بِهَا مَحْبُوبٌ، وَلِهَذَا وَرَدَتْ السُّنَّةُ النَّاتِيَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَثِّ عَلَى السَّحُورِ، فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»^(١). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فَضْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةُ السَّحْرِ»^(٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ فَلَا تَدَعُوهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ تَجَرَّعَ جُرْعَةَ مَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُسْتَطِيرِ»^(٣). وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّرْغِيبِ فِي السَّحُورِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ. حَتَّى وَلَوْ بِجُرْعَةٍ مِنْ مَاءٍ تَشْبِهُهَا بِالْأَكْلِينَ.

وَيُسْتَحَبُّ تَأْخِيرُهُ إِلَى وَقْتِ انْتِجَارِ الْفَجْرِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: تَسَحَّرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قُمْنَا إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ أَنَسٌ: قُلْتُ لَزَيْدٍ: كَمْ كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟ قَالَ: قَدَّرُ خَمْسِينَ آيَةً^(٤).

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ طَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ تَسَامَحُوا فِي السَّحُورِ عِنْدَ مَقَارِبَةِ الْفَجْرِ، رُوِيَ مِثْلُ هَذَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ وَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَحَدِيثُهُ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنَ عَمْرٍ، وَابْنَ عَبَّاسٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَعَنْ طَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ، مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَأَبُو مِجَلَزٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَأَبُو الصُّحَى، وَأَبُو وَاثِلٍ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ، وَالْحَكَمُ بْنُ عُمَيْرَةَ، وَمُجَاهِدٌ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَأَبُو الشَّعْثَاءِ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ، وَاللَّيْثُ ذَهَبُ الْأَعْمَشُ وَمَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ، وَقَدْ حَرَّرْنَا أَسَانِيدَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الصِّيَامِ الْمُمْرَدِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الْقَاسِمِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَمْتَعِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِكُمْ، فَإِنَّهُ بِنَادِي لَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ لَا يُؤَدِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»^(٥).

لَفْظُ الْبُخَارِيِّ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ قَيْسِ بْنِ طَلْقٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ فِي الْأَفْقِ

(١) فتح الباري: ١٦٥/٤، ومسلم: ٧٧٠/٢ (٢) مسلم: ٧٧١/٢

(٣) أحمد: ٤٤/٣ (٤) فتح الباري: ١٦٤/٤، ومسلم: ٧٧١/٢

(٥) فتح الباري: ١٦٢/٤، ومسلم: ٧٦٨/٢ (٦) أحمد: ٢٣/٤

(٧) تحفة الأحوذى: ٣٨٩/٣ (٨) الطبري: ٥١٧/٣

(٩) مسلم: ٧٦٩/٢ (١٠) فتح الباري: ١٨٢/٤، ومسلم: ٧٨١/٢

(١١) مسلم: ٧٨١/٢ (١٢) فتح الباري: ٢٣١/٤

ومسلم: ٧٧٢/٢

الله ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»
أَخْرَجَاهُ^(١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:
«يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعَجَّلَهُمْ
فِطْرًا»^(٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(٣)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ
غَرِيبٌ.

[النَّهْيُ عَنِ صَوْمِ الْوَصَالِ]

وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ النَّهْيُ عَنِ
الْوَصَالِ، وَهُوَ أَنْ يَصِلَ يَوْمًا بِيَوْمٍ وَلَا يَأْكُلَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا.
رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
الله ﷺ: «لَا تُوَاصِلُوا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ تُوَاصِلُ،
قَالَ: «فَأِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَبَيْتُ بِطُعْمِنِي رَبِّي وَسَقِينِي».
قَالَ: فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوَصَالِ فَوَاصِلَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَيْنِ
وَلَيْتَيْنِ ثُمَّ رَأَوْا الْهَلَالَ، فَقَالَ: «لَوْ تَأَخَّرَ الْهَلَالُ لَرَدَدْتُمْ»
كَالْمَنْكَلِ لَهُمْ. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤).

وَقَدْ ثَبَتَ النَّهْيُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، وَثَبَتَ أَنَّهُ مِنْ
خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَلَى ذَلِكَ وَيُعَانُ،
وَالْأَظْهَرُ أَنَّ ذَلِكَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ فِي حَقِّهِ إِنَّمَا كَانَ
مَعْتُوبًا لَا حَسَبًا، وَإِلَّا فَلَا يَكُونُ مُوَاصِلًا مَعَ الْحَسِيِّ. وَأَمَّا
مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمْسِكَ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ السَّحْرِ
فَلَهُ ذَلِكَ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ
عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ أَرَادَ
أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحْرِ» قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ
يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبَيْتُ لِي
مُطْعِمٌ بِطُعْمِنِي وَسَاقٍ بِسَقِينِي». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ
أَيْضًا^(٥).

[أَحْكَامُ الْإِعْتِكَافِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُبَيِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾
قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الرَّجُلِ
يَعْتَكِفُ فِي الْمَسْجِدِ فِي رَمَضَانَ أَوْ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ، فَحَرَّمَ
اللهُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْكِحَ النِّسَاءَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا حَتَّى يَقْضِيَ
إِعْتِكَافَهُ^(١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا اعْتَكَفَ
فَخَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ جَامِعًا إِنْ شَاءَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا
تُبَيِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ أَيُّ لَا تَقْرُبُوهُمْ مَا
دُمْتُمْ عَاكِفِينَ فِي الْمَسْجِدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ^(٢). وَكَذَلِكَ قَالَ
مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرٌ وَاحِدٍ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ حَتَّى

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٣). قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: رُوِيَ عَنِ ابْنِ
مَسْعُودٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ
وَالضَّحَّاكِ، وَالشَّدِيدِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَمُقَاتِلِ، قَالُوا: لَا
يُقْرَبُهَا وَهُوَ مُعْتَكِفٌ^(٤).

وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ عَنْ هُوَلَاءِ هُوَ الْأَمْرُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ
الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْمُعْتَكِفَ يَحْرُمُ عَلَيْهِ النِّسَاءُ مَا دَامَ مُعْتَكِفًا فِي
مَسْجِدِهِ، وَلَوْ ذَهَبَ إِلَى مِزْلَةٍ لِحَاجَةٍ لَا بَدَّ لَهُ مِنْهَا فَلَا
يَجِلُّ لَهُ أَنْ يَتَلَبَّثَ فِيهِ إِلَّا بِمُقَدَّارٍ مَا يَفْرُغُ مِنْ حَاجَتِهِ تِلْكَ
مِنْ قِضَاءِ الْغَائِطِ أَوْ الْأَكْلِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْبَلَ امْرَأَتَهُ وَلَا
أَنْ يَضُمَّهَا إِلَيْهِ. وَلَا يَسْتَعْلِفُ بَشِيءَ سِوَى اعْتِكَافِهِ، وَلَا
يَعُودُ الْمَرِيضَ لَكِنْ يَسْأَلُ عَنْهُ وَهُوَ مَارٌّ فِي طَرِيقِهِ.
وَلِلْإِعْتِكَافِ أَحْكَامٌ مُفْصَلَةٌ فِي بَابِهِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا قِطْعَةً
صَالِحَةً مِنْ ذَلِكَ فِي آخِرِ كِتَابِ الصِّيَامِ، وَاللهُ الْحَمْدُ
وَالْمِنَّةُ، وَلِهَذَا كَانَ الْمُفْقَهَاءُ الْمُصَنِّفُونَ يُبْعَثُونَ كِتَابَ الصِّيَامِ
بِكِتَابِ الْإِعْتِكَافِ اقْتِدَاءً بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَإِنَّهُ نَبَّهَ عَلَى ذِكْرِ
الْإِعْتِكَافِ بَعْدَ ذِكْرِ الصَّوْمِ.

وَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى الْإِعْتِكَافَ بَعْدَ الصِّيَامِ إِرْشَادًا وَتَنْبِيهًا
عَلَى الْإِعْتِكَافِ فِي الصِّيَامِ أَوْ فِي آخِرِ شَهْرِ الصِّيَامِ، كَمَا
فِي السُّنَّةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ
الْأَوَّخَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ
اعْتَكَفَ أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ، أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أُمِّ
الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا^(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ كَانَتْ تَزُورُ
النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ
سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ لِتَرْجِعَ إِلَى مَنَزِلِهَا، وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلًا، فَقَامَ
النَّبِيُّ ﷺ لِمُسْتَبِي مَعَهَا حَتَّى تَبْلُغَ دَارَهَا، وَكَانَ مَنَزِلُهَا فِي
دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فِي جَانِبِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ
الطَّرِيقِ لَقِيَهُ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ
أَسْرَعَا. وَفِي رِوَايَةٍ: تَوَارَبَا. أَيُّ حَيَاءٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِكُونِ
أَهْلِهِ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا

(١) فتح الباري: ٢٣٤/٤، ومسلم: ٧٧١/٢ (٢) أحمد: ٢/

٢٣٧ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٨٦/٣ (٤) أحمد: ٢٨١/٢ وفتح

الباري: ٢٣٨/٤، ومسلم: ٧٧٤/٢ (٥) فتح الباري: ٣٣٨/٤

(٦) الطبري: ٥٤٠/٣ (٧) الطبري: ٥٤١/٣ (٨) الطبري: ٣/

٥٤١ (٩) ابن أبي حاتم: ٣٨٥-٣٨٧ (١٠) فتح الباري: ٣١٨/٤

ومسلم: ٣١٨/٤

وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ أَكَلُ الْحَرَامِ (٣). وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَمُقَاتِلَ ابْنِ حَيَّانَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا تُخَاصِمُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ ظَالِمٌ (٤).

[قَضَاءُ الْقَاضِي لَا يُحِلُّ حَرَامًا وَلَا يُحَرِّمُ حَلَالًا]

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا بَأْتِنِي الْخُصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْخَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذْرُهَا» (٥). فَذَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَهَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُغَيِّرُ الشَّيْءَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَلَا يُحِلُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَرَامًا هُوَ حَرَامٌ، وَلَا يُحَرِّمُ حَلَالًا هُوَ حَلَالٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مُلْزِمٌ فِي الظَّاهِرِ، فَإِنْ طَابَقَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَذَلِكَ، وَإِلَّا فَلِلْحَاكِمِ أَجْرُهُ، وَعَلَى الْمُحْتَالِ وَرُزُّهُ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْخُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي تَعْلَمُونَ بَطْلَانَ مَا تَدْعُونَهُ وَتُرَوِّجُونَهُ فِي كَلَامِكُمْ. قَالَ قَتَادَةُ: إِعْلَمْ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّ قَضَاءَ الْقَاضِي لَا يُحِلُّ لَكَ حَرَامًا، وَلَا يُحَقِّقُ لَكَ بَاطِلًا، وَإِنَّمَا يَقْضِي الْقَاضِي بِنَحْوِ مَا يَرَى وَيَشْهَدُ بِهِ الشُّهُودُ، وَالْقَاضِي بَشَرٌ يُحْطِئُ وَيُصِيبُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قَضَى لَهُ بِبَاطِلٍ أَنْ حُصُومَتَهُ لَمْ تَنْقُضْ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقْضِي عَلَى الْمُبْطِلِ لِلْمُحَقِّ بِأَجُودَ مِمَّا قَضَى بِهِ لِلْمُبْطِلِ عَلَى الْمُحَقِّ فِي الدُّنْيَا (٦).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِبُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٧)

[السُّؤَالُ عَنِ الْأَهْلِ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَأَلَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْأَهْلِ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِبُ لِلنَّاسِ﴾ يَعْلَمُونَ بِهَا حَلَّ دِينِهِمْ وَعِدَّةَ نِسَائِهِمْ وَوَقْتَ

صَفِيَّتْهُ بِنْتُ حُبَيْبٍ، أَيْ لَا تُسْرِعَا وَاعْلَمَا أَنَّهَا صَفِيَّتْهُ بِنْتُ حُبَيْبٍ أَيْ زَوْجَتِي، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَثْدِفَ فِي قُلُوبِكُمْ شَيْئًا» - أَوْ قَالَ -: «شَرًّا» (١). قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَعْلَمَ أُمَّتُهُ التَّبَرِّيَّ مِنَ التُّهْمَةِ فِي مَحَلِّهَا، لِئَلَّا يَقَعَ فِي مَحْذُورٍ، وَهَمَا كَانَا أَنْقَى اللَّهُ مِنْ أَنْ يَطَّنَا بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الْمُرَادُ بِالْمُبَاشَرَةِ إِنَّمَا هُوَ الْجَمَاعُ وَدَوَاعِيهِ مِنْ تَقْبِيلٍ وَمُعَانَقَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَأَمَّا مَعَاطَاةُ الشَّيْءِ وَنَحْوُهُ فَلَا بَأْسَ بِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُدْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ فَأَرْجُلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَقَدْ كَانَ الْمَرِيضُ يَكُونُ فِي الْبَيْتِ، فَمَا أَسْأَلُ عَنْهُ، إِلَّا وَأَنَا مَارَةٌ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أَي هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ وَفَرَضْنَاهُ وَحَدَّدْنَاهُ مِنَ الصِّيَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَمَا أَبْحَنَّا فِيهِ وَمَا حَرَمْنَا وَذَكَّرْنَا غَايَاتِهِ وَرُخْصَهُ وَعَزَائِمَهُ: حُدُودُ اللَّهِ. أَي شَرَعَهَا اللَّهُ وَبَيَّنَّاهُ بِنَفْسِهِ، ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أَي: لَا تَجَاوَزُوهَا وَتَتَعَدَّوهَا. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَعْنِي هَذِهِ الْحُدُودُ الْأَرْبَعَةَ، وَيَقْرَأُ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ثُمَّ انْمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ﴾ قَالَ: وَكَانَ أَبِي وَعِزُّهُ مِنْ مَشِيخَتِنَا يَقُولُونَ هَذَا وَيَتْلُونَهُ عَلَيْنَا.

﴿كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ عَائِيَتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أَي كَمَا بَيَّنَّ الصِّيَامَ وَأَحْكَامَهُ وَسَرَائِعَهُ وَتَفَاصِيلَهُ كَذَلِكَ بَيَّنَّ سَائِرَ الْأَحْكَامِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَي يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَهْتَدُونَ وَكَيْفَ يُطِيعُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ عَائِيَتِ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد]:

[٩]. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْخُكَّامِ

لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧)

[الرُّسُوءُ حَرَامٌ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الرَّجُلِ يَكُونُ عَلَيْهِ مَالٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيهِ بَيْتَةٌ، فَيَجْعَدُ الْمَالَ، وَيُخَاصِمُ إِلَى الْحُكَّامِ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ عَلَيْهِ،

(١) فتح الباري: ٣٢٦/٤، ومسلم: ١٧١٢/٤ (٢) فتح الباري: ٣٢٠/٤، ومسلم: ٢٤٤/١ (٣) الطبري: ٥٥٠/٣ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٩٣/١، ٣٩٤، والطبري: ٥٥٠/٣، ٥٥١ (٥) فتح الباري: ١٩٠/١٣، ومسلم: ١٣٧٣/٣ (٦) الطبري: ٥٥٠/٣

الْبَقَرَةُ

٣٠

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ فَضَلْتُمْهُمْ وَآخِرُ جَوْهَرِهِمْ مِنْ حَيْثُ آخَرْتُمْكُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُواهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلِكُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَتْلُواهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَقْتُلُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَاتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ صِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

بِقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَعَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وَفِي هَذَا نَظْرًا، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿الَّذِينَ يُفْتَلِكُوا﴾ إِنَّمَا هُوَ تَهْيِيجٌ وَإِعْرَافٌ بِالْأَعْدَاءِ الَّذِينَ هَمَّتْهُمْ قِتَالُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، أَيْ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ أَنْتُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] (٨) وَلِهَذَا قَالَ فِي الْآيَةِ: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ فَضَلْتُمْمْ وَآخِرُ جَوْهَرِهِمْ مِنْ حَيْثُ آخَرْتُمْكُمْ﴾ أَيْ لِيَكُنْ هِمَّتُكُمْ مُتَّبِعَةً عَلَى قِتَالِهِمْ، كَمَا هَمَّتْهُمْ مُتَّبِعَةً عَلَى قِتَالِكُمْ، وَعَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنْ بِلَادِهِمْ الَّتِي أَخْرَجْتُمْ مِنْهَا قِصَاصًا.

[الْتَهْيِي عَنْ الْإِعْتِدَاءِ كَالْمَثَلَةِ وَالْعُلُولِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أَيْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تَعْتَدُوا فِي ذَلِكَ، وَيَدْخُلُ

(١) الطبري: ٥٥٤/٣ إسناده ضعيف العوفي مع عائلته كلهم ضعفاء (٢) عبد الرزاق: ١٥٦/٤ (٣) الحاكم: ٤٢٣/١ (٤) الفتح: ٣١/٨ (٥) مسند الطيالسي: ٩٨ (٦) ابن أبي حاتم غ: ٤٠١/١ (٧) الطبري: ٥٦١/٣ (٨) الطبري: ٥٦٢/٣

حَجَّهُمْ (١). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جَعَلَ اللَّهُ الْأَهْلَةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ، فَصُومُوا لِرُؤْيَيْتِهِ، وَأَطْرَبُوا لِرُؤْيَيْتِهِ، فَإِنْ عَمَّ عَلَيْكُمْ فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا» (٢). وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (٣).

[مَدَارُ الْبِرِّ عَلَى التَّقْوَى]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِمَّا أُنْعَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَدْبَارِهَا﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: كَانُوا إِذَا أَخْرَمُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتَوْا الْبَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِمَّا أُنْعَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَدْبَارِهَا﴾ (٤) وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا قَدِمُوا مِنْ سَفَرِهِمْ، لَمْ يَدْخُلِ الرَّجُلُ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ (٥).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: كَانَ أَقْوَامٌ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ سَفَرًا، وَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ يُرِيدُ سَفَرَهُ الَّذِي خَرَجَ لَهُ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ أَنْ يُقِيمَ وَيَدْعَ سَفَرَهُ، لَمْ يَدْخُلِ الْبَيْتَ مِنْ بَابِهِ وَلَكِنْ يَسُورُهُ مِنْ قِبَلِ ظَهْرِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا... الْآيَةُ (٦). وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَيْ اتَّقُوا اللَّهَ، فافعلوا مَا أَمَرَكُم بِهِ وَاتْرَكُوا مَا نَهَاكُم عَنْهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ عَدَا، إِذَا وَفَّقْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَجَازِيكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ.

﴿وَقَتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ فَضَلْتُمْهُمْ وَآخِرُ جَوْهَرِهِمْ مِنْ حَيْثُ آخَرْتُمْكُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُواهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلِكُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَتْلُواهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَكَوْنُ الدِّينِ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

[الْأَمْرُ بِقِتَالِ مَنْ يُقَاتِلُ، وَبِقِتَالِهِ حَيْثُ وَجَدَ]

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ﴾ قَالَ: هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَاتِلُ مَنْ قَاتَلَهُ، وَيَكُفُّ عَمَّنْ كَفَّ عَنْهُ، حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ بَرَاءةِ (٧). وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، حَتَّى قَالَ: هَذِهِ مُسْوَخَةٌ

إِلَّا أَنْ يَبْدُؤَكُمْ بِالْقِتَالِ فِيهِ، فَلَكُمْ حَيْتُذُ قِتَالِهِمْ وَقَتْلُهُمْ دَفْعًا لِلصَّائِلِ، كَمَا بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى الْقِتَالِ، لَمَّا تَأَلَّثَ عَلَيْهِ بُطُونُ قُرَيْشٍ وَمَنْ وَالَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءٍ نَقِيفٍ وَالْأَحْيَاءِ عَامِئِدٍ، ثُمَّ كَفَّ اللَّهُ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] وَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَّ تَعَلَّمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فُنْصِيْبِكُمْ مِّنْهُم مَّعْرَةٌ يَغْيِرُ عَلِيمٌ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ نِّسَاءٍ لَوْ تَزَلَّتْ لَعُدْنَا الذِّبْنَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَدَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ فَإِنْ تَرَكُوا الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ، وَأَنَابُوا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْبَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي حَرَمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ لِمَنْ تَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ.

[الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً]

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أَيُّ شِرْكَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَمُقَاتِلُ ابْنُ حَيَّانَ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ (٦). ﴿وَيَكُونُ الدِّينَ لِلَّهِ﴾ أَيُّ يَكُونُ دِينُ اللَّهِ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِيُّ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، كَمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يَمَاتِلُ شَجَاعَةً وَيَمَاتِلُ حِمِيَّةً وَيَمَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهَوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٧). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «أَمُرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُواهَا عَضُّوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» (٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: فَإِنْ أَنْهَوْا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرْكِ وَقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ فَكُفُّوا عَنْهُمْ، فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ أَنْ لَا

فِي ذَلِكَ ارْتِكَابُ الْمَنَاهِي - كَمَا قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - مِنَ الْمُتَلَبُّ وَالْعُلُولُ وَقَتْلُ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ وَالشُّيُوخِ، الَّذِينَ لَا رَأْيَ لَهُمْ وَلَا قِتَالَ فِيهِمْ، وَالرُّهْبَانَ وَأَصْحَابِ الصَّوَامِعِ، وَتَحْرِيقِ الْأَشْجَارِ، وَقَتْلِ الْحَيَّوَانِ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ. كَمَا قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَغَيْرُهُمْ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ بُرَيْدَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «أَغْرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، أَغْرُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ» (١). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: وَجِدْتُ امْرَأَةً فِي بَعْضِ مَعَارِجِ النَّبِيِّ ﷺ مَقْتُولَةً، فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ (٢). وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

[الشُّرْكَ أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ]

وَلَمَّا كَانَ الْجِهَادُ فِيهِ إِزْهَاقُ النَّفْسِ وَقَتْلُ الرِّجَالِ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَالشُّرْكِ بِهِ، وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ، أَبْلَغُ وَأَشَدُّ وَأَعْظَمُ وَأَطْمُ مِنَ الْقِتَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ﴾ قَالَ أَبُو مَالِكٍ: أَيُّ مَا أَنْتُمْ مُقِيمُونَ عَلَيْهِ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ (٣). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكْرَمَةُ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَالصَّحَّاحُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ﴾ يَقُولُ: الشُّرْكَ أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ.

[حُرْمَةُ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ، وَجَوَازُ دَفْعِ الصَّائِلِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمٌ لِلَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَدْنُ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ» (٤). يَعْنِي بِذَلِكَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قِتَالَهُ أَهْلِهَا يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَإِنَّهُ فَتَحَهَا عَنُوةً، وَقَتِلَتْ رِجَالٌ مِنْهُمْ عِنْدَ الْحَنْدَمَةِ، وَقَدْ آمَنَهُمْ بِقَوْلِهِ: «مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ» (٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يَقْبَلُواكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْهُمْ كَذَلِكَ حَرَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

(١) مسلم: ١٣٥٧/٣ (٢) فتح الباري: ١٧٢/٦ ومسلم: ٣/

١٣٦٤ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٤١٢/١ (٤) فتح الباري: ٦/

٣٢٧ ومسلم: ٩٨٦/٢ و٩٨٧ (٥) أحمد: ٢/٢٩٢ (٦) ابن أبي

حاتم غ: ٤١٥-٤١٦ (٧) فتح الباري: ١٣/٤٥٠ ومسلم:

١٥١٣/٣ (٨) فتح الباري: ١/٥٩٢ ومسلم: ١/٥٣

﴿حُرْمَةُ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ إِلَّا إِذَا بَدَأَ الْعَدُوُّ بِالْقِتَالِ فِيهَا﴾

قَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَمِقْسَمٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطَاءٌ وَغَيْرُهُمْ: لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُعْتَمِرًا فِي سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَحَبَسَهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الدُّخُولِ وَالْوُضُوءِ إِلَى النَّبِيِّ، وَصَدَّوهُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَهُوَ شَهْرٌ حَرَامٌ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى الدُّخُولِ مِنْ قَابِلٍ، فَدَخَلَهَا فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ هُوَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَقْصَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَزَلَّتْ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الْفَتْهُرُ الْكِرَامُ بِالشَّهْرِ الْكِرَامِ وَالْمُرْمُتُ فِصَاصٌ﴾^(١) وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُغْزَوُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، إِلَّا أَنْ يُغْزَى - [أَوْ] يُغْزَوْا - فَإِذَا حَضَرَ أَقَامَ حَتَّى يَسْلُخَ. هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ^(٥).

وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ مُخَيَّمٌ بِالْحُدَيْبِيَةِ أَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ فِي رِسَالَةٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، بِأَبْعِ أَصْحَابِهِ، وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ، تَحْتَ الشَّجَرَةِ، عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ لَمْ يُقْتَلْ، كَفَّ عَنْ ذَلِكَ، وَجَنَحَ إِلَى الْمُسَالَمَةِ وَالْمُصَالِحَةِ، فَكَانَ مَا كَانَ.

وَكَذَلِكَ لَمَّا فَرَعَ مِنْ قِتَالِ هَوَازِنَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَتَحَصَّنَ فَلَهُمْ بِالطَّائِفِ، عَدَلَ إِلَيْهَا فَحَاصَرَهَا، وَدَخَلَ ذُو الْقَعْدَةِ وَهُوَ مُحَاصِرٌ لَهَا بِالْمُنَجَّبِيَّةِ، وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهَا إِلَى كَمَالِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا^(٦). كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ، فَلَمَّا كَثُرَ الْقَتْلُ فِي أَصْحَابِهِ انصَرَفَ عَنْهَا وَلَمْ تُفْتَحْ، ثُمَّ كَرَّ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ وَاعْتَمَرَ مِنَ الْجِعْرَانَةِ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، وَكَانَتْ عُمُرُهُ هَذِهِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ أَيْضًا عَامَ ثَمَانٍ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أَمَرَ بِالْعَدْلِ حَتَّى فِي الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أَمَرَ لَهُمْ بِطَاعَةِ

يُقَاتِلَ إِلَّا مَنْ قَاتَلَ^(١). أَوْ يَكُونُ تَقْدِيرُهُ: فَإِنْ انْتَهَوْا فَقَدْ تَخَلَّصُوا مِنَ الظُّلْمِ، وَهُوَ الشَّرْكَ، فَلَا عُدْوَانَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَالْمَرَادُ بِالْعُدْوَانِ هَهُنَا الْمُعَاقِبَةُ وَالْمُقَاتَلَةُ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [١٩٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] وَلِهَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: الظَّالِمُ الَّذِي أَبِي أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٢).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُوا فِتْنَةً﴾... الْآيَةَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَنَا هُجْرَانِي فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ ضَبِعُوا، وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ وَصَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ فَقَالَ يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ دَمَ أُخِي، قَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُوا فِتْنَةً﴾؟ فَقَالَ: قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ نَكُنْ فِتْنَةً، وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونُوا فِتْنَةً، وَيَكُونُ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ.

وَزَادَ عُثْمَانُ بْنُ صَالِحٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى ابْنَ عُمَرَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَحُجَّ عَامًا وَتَعْتَمِرَ عَامًا، وَتَتَرَكَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَذُو عِلْمَتٍ مَا رَغِبَ اللَّهُ فِيهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أُخِي، بُيِّئَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَدَاءُ الزَّكَاةِ، وَحُجُّ النَّبِيِّ.

قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنْ طَافَتَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَنَتَلَوُا فَاصلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَقَىءَ إِلَيْكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُوا فِتْنَةً﴾ قَالَ: فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا، فَكَانَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ فِي دِينِهِ، إِمَّا قَتَلُوهُ أَوْ عَذَّبُوهُ، حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ، فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً. قَالَ: فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟ قَالَ: أَمَّا عُثْمَانُ فَكَانَ اللَّهُ عَاقِبَ عَنْهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَكَّرْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ. وَأَمَّا عَلِيٌّ فَأَبْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَتَنُهُ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ، فَقَالَ: هَذَا بَيْنُهُ حَيْثُ تَرَوْنَ^(٣).

﴿الْفَتْهُرُ الْكِرَامُ بِالشَّهْرِ الْكِرَامِ وَالْمُرْمُتُ فِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

(١) الطبري: ٥٨٤/٣ (٢) الطبري: ٥٧٣/٣ (٣) فتح الباري: ٣٢/٨ وهو عند أحمد: ٣٤٥/٣ (٤) الطبري: ٥٧٦/٣ و٥٧٧ و٥٧٩ (٥) أحمد: ٣٤٥/٣ (٦) إنما كمل أربعون يومًا من يوم وقعة حنين إلى يوم رجوعه ﷺ من الجعرانة إلى المدينة. (٧) فتح الباري: ٧٠١/٣ ومسلم: ٩١٦/٢

اللَّهُ وَتَقْوَاهُ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُ تَعَالَى مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِالْغَيْبِ
وَالْتَّائِبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥)

[الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ حُذَيْفَةَ ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا
بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ^(١). وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي
حَاتِمٍ مِثْلَهُ، قَالَ: وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ
وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٍ، وَالضُّحَّاكِ وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ
وَالشَّدَّيَّ، وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ أَسْلَمَ
أَبِي عِمْرَانَ، قَالَ: حَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ بِالْمُسْتَنْطِيبَةِ
عَلَى صَفِّ الْعُدُوِّ حَتَّى خَرَقَهُ، وَمَعَنَا أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ،
فَقَالَ نَاسٌ: أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: نَحْنُ
أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، إِنَّمَا نَزَلَتْ فِيْنَا، صَحَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
وَشَهِدْنَا مَعَهُ الْمَشَاهِدَ وَنَصَرْنَاهُ، فَلَمَّا فَشَا الْإِسْلَامَ وَظَهَرَ،
اجْتَمَعْنَا مَعَشَرَ الْأَنْصَارِ نَجِيًّا فَقُلْنَا: قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِصُحْبَةِ
نَبِيِّهِ ﷺ وَنَصْرِهِ، حَتَّى فَشَا الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ أَهْلُهُ، وَكُنَّا قَدْ
أَتْرَانَاهُ عَلَى الْأَهْلِيْنَ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَقَدْ وَضَعَتْ
الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، فَنَرْجِعُ إِلَى أَهْلِينَا وَأَوْلَادِنَا، فَتَقِيمُ
فِيهِمَا، فَتَزَلَّ فِيْنَا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى
التَّهْلُكَةِ﴾، فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَتَرْكِ
الْجِهَادِ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَعَبْدُ بْنُ
حُمَيْدٍ، فِي تَفْسِيرِهِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ
مَرْدُوَيْهِ وَالْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْتَدْرَكِهِ، وَابْنُ حَبَّانَ فِي
صَحِيحِهِ وَالحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ^(٢). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ
صَحِيحٌ غَرِيبٌ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ
يُخْرِجَاهُ.

وَلَفِظَ أَبِي دَاوُدَ عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ: كُنَّا
بِالْمُسْتَنْطِيبَةِ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ غَامِرٍ، وَعَلَى أَهْلِ
الشَّامِ رَجُلٌ - يُرِيدُ: فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ - فَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ
صَفٌّ عَظِيمٌ مِنَ الرُّومِ، فَصَفَّقْنَا لَهُمْ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ
المُسْلِمِينَ عَلَى الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا،
فَصَاحَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى
التَّهْلُكَةِ، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ لَتَتَأَوَّلُونَ
هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى غَيْرِ التَّأْوِيلِ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِيْنَا مَعَشَرَ

الْأَنْصَارِ، إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، قُلْنَا فِيَمَا
بَيْنَنَا: لَوْ أَقْبَلْنَا عَلَى أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَاهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ
الْآيَةَ^(٣).

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّيِّعِيِّ،
قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: إِنَّ حَمَلْتُ عَلَى الْعُدُوِّ
وَحَدِي فَتَقْتُلُونِي، أَكُنْتُ أَلْقَيْتُ بِيَدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ؟ قَالَ:
لَا، قَالَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا
نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] وَإِنَّمَا هَذِهِ فِي النَّفَقَةِ. رَوَاهُ ابْنُ
مَرْدُوَيْهِ وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى
شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، وَرَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَقَيْسُ بْنُ
الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ. فَذَكَرَهُ، وَقَالَ بَعْدَ قَوْلِهِ:
﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، وَلَكِنَّ التَّهْلُكَةَ أَنْ
يُذِنَ الرَّجُلُ الذَّنْبَ فَيُلْقِي بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَلَا يُتُوبَ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ فِي الْقِتَالِ،
إِنَّمَا هُوَ فِي النَّفَقَةِ: أَنْ تُمَسِكَ بِيَدِكَ عَنِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
- وَلَا تُلْقَ بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ -.

وَمُضْمُونُ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فِي سَائِرِ
وُجُوهِ الْقُرْبَاتِ وَوُجُوهِ الطَّاعَاتِ، وَخَاصَّةً صَرْفَ الْأَمْوَالِ
فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ، وَبَدَلُهَا فِيَمَا يَقُولِي بِهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى
عَدُوِّهِمْ. وَالْإِخْبَارُ عَنْ تَرْكِ فِعْلٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُ: هَلَاكٌ وَدَمَارٌ،
لِمَنْ لَزِمَهُ وَاعْتَادَهُ. ثُمَّ عَطَفَ بِالْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ، وَهُوَ أَعْلَى
مَقَامَاتِ الطَّاعَةِ، فَقَالَ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَتَيْنُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا
تَحْلِفُوا بِرُءُوسِكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذَى
مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُوْتِنْتُمْ مِنَ تَمَنَّعَ
بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامًا فَلَنَفَقَةٍ أَوْ مِمَّا يَنْتَفِعُونَ
بِهِ مِنَ الْمَالِ أَوْ نُسُكٍ ذَلِكَ لِيُذَكَّرَ بِهَذَا الْحَجِّ الْأَعْبَادِ﴾ [البقرة: ١٩٦]

الْعُقَابِ (١٩٦)

[الْأَمْرُ بِاتِّمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَحْكَامَ الصِّيَامِ، وَعَطَفَ بِذِكْرِ الْجِهَادِ،

(١) فتح الباري: ٣٣/٨ (٢) تحفة الأحوذى: ٣١١/٨ والنسائي
في الكبرى: ٢٩٩/٦ وابن أبي حاتم غ: ٤٢٤/١ والطبري: ٣/٣
٥٩٠ وصحيح ابن حبان: ١٠٥/٧ والحاكم: ٧٧٥/٢ (٣) أبو
داود: ٢٧/٣

وَأَرْبَعَمِائَةٍ، وَكَانَ مِنْهُمْ بِالْحُدَيْبِيَّةِ خَارِجَ الْحَرَمِ، وَقِيلَ: بَلْ كَانُوا عَلَى طَرَفِ الْحَرَمِ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالْحَضْرُ أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَعْدُو أَوْ مَرَضٍ أَوْ ضَلَالٍ - وَهُوَ التَّوَهُانُ عَنِ الطَّرِيقِ - أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَسِرَ أَوْ عَرَجَ فَقَدْ حَلَّ وَعَلَيْهِ حِجَّةٌ أُخْرَى» قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَا: صَدَقَ^(٨). وَأَخْرَجَهُ أَصْحَابُ الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةِ^(٩).

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَه: «مَنْ عَرَجَ أَوْ كَسِرَ أَوْ مَرَضَ... فَذَكَرَ مَعْنَاهُ^(١٠). وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(١١) ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَعَلْقَمَةَ، وَسَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَمَجَاهِدٍ وَالتَّحَّيِّ، وَعَطَاءِ وَمُقَاتِلِ بْنِ حِيَّانٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْإِحْصَارُ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ مَرَضٍ أَوْ كَسِرٍ^(١٢). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: الْإِحْصَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آذَاهُ^(١٣).

وَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ الْحَجَّ وَأَنَا شَاكِيَةٌ، فَقَالَ: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنْ مَحَلِّي حَيْثُ حَسَنْتِي»^(١٤). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمِثْلِهِ^(١٥). فَصَحَّ الْإِشْتِرَاطُ فِي الْحَجِّ لِهَذَا الْحَدِيثِ.

وَقَوْلُهُ: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»: شَأْنُهُ^(١٦). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْهَدْيُ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ مِنَ الْإِبِلِ وَالتَّبَقْرِ وَالتَّمَعْرِ وَالضَّانِ^(١٧). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» قَالَ: يَقْدَرُ بِسَارَتِهِ^(١٨). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنْ كَانَ مُوسِرًا فَمِنَ الْإِبِلِ، وَإِلَّا فَمِنَ التَّبَقْرِ، وَإِلَّا

شَرَعَ فِي بَيَانِ الْمَنَاسِكِ فَأَمَرَ بِإِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَظَاهِرُ السِّيَاقِ إِكْمَالُ أَفْعَالِهِمَا بَعْدَ الشَّرُوعِ فِيهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: «فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ» أَي صُدِدْتُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، وَمُنِعْتُمْ مِنْ إِتْمَامِهِمَا، وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الشَّرُوعَ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مُلْزِمٌ. وَقَالَ مَكْحُولٌ: إِنْ تَمَّهِمَا: إِتْمَامُهُمَا جَمِيعًا مِنَ الْمِقَاتِ^(١٩). وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: بَلَّغْنَا أَنَّ عَمَرَ قَالَ فِي قَوْلِ اللهِ: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» مِنْ تَمَامِهِمَا: أَنْ تُفْرَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْآخَرِ، وَأَنْ تُتَمَّرَ فِي غَيْرِ أَشْهُرِ الْحَجِّ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ»^(٢٠) [البقرة: ١٩٧].

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» أَي أَقِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ^(٢١). وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ زُرَّارَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْحَجُّ: عَرَفَةُ، وَالْعُمْرَةُ الطَّوَافُ^(٢٢). وَكَذَا رَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ عَلْقَمَةَ فِي قَوْلِهِ: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ»، قَالَ: هِيَ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللهِ: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ) لَا يُجَاوِزُ بِالْعُمْرَةِ الْبَيْتِ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: كَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢٣). وَقَالَ سُفْيَانُ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ عَلْقَمَةَ أَنَّهُ قَالَ: (وَأَقِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ)^(٢٤). وَكَذَا رَوَى الثَّوْرِيُّ أَيضًا، عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ مَنصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، أَنَّهُ قَرَأَ: (وَأَقِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ).

[إِذَا أَحْصَرَ الْمُحْرِمُ فِي الطَّرِيقِ فَلْيَذْبَحْ وَلْيَحْلِقْ رَأْسَهُ وَيَتَحَلَّلْ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» ذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي سَنَةِ سِتٍّ، أَي عَامِ الْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ حَالَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ سُورَةَ الْفَتْحِ بِكَمَالِهَا، وَأَنْزَلَ لَهُمْ رُخْصَةً أَنْ يَذْبَحُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْهَدْيِ، وَكَانَ سَبْعِينَ بَدَنَةً، وَأَنْ يَحْلِقُوا رُؤُوسَهُمْ، وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا مِنْ إِحْرَامِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَحْلِقُوا رُؤُوسَهُمْ وَيَتَحَلَّلُوا، فَلَمْ يَفْعَلُوا إِتِّظَارًا لِلنَّسَخِ، حَتَّى خَرَجَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ فَفَعَلَ النَّاسُ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَرَ رَأْسَهُ وَلَمْ يَحْلِقْهُ، فَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «رَجِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ» قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ فِي النَّالِيَةِ: «وَالْمُقَصِّرِينَ»^(٢٥). وَقَدْ كَانُوا اشْتَرَكُوا فِي هَدْيِهِمْ ذَلِكَ كُلِّ سَبْعَةٍ فِي بَدَنَةٍ، وَكَانُوا أَلْفًا

(١) ابن أبي حاتم غ: ٤٣٧/١ (٢) أيضًا: ٤٣٧/١ (٣) الطبري: ١٢/٤ (٤) ابن أبي حاتم: ٤٣٩/١ (٥) الطبري: ٤/٧ (٦) الطبري: ٧/٤ (٧) مسلم: ٩٤٦/٢ (٨) أحمد: ٣/٤٥٠ (٩) تحفة الأحوذى: ٨/٤ والنسائي: ١٩٨/٥ (١٠) أبو داود: ٤٣٤/٢ وابن ماجه: ١٠٢٨/٢ (١١) ابن أبي حاتم غ: ٤٤٤/١ (١٢) ابن أبي حاتم غ: ٤٤٥/١ (١٣) أيضًا: ١/٤٤٥ (١٤) فتح الباري: ٣٤/٩ (١٥) مسلم: ٨٦٨/٢ (١٦) الموطأ: ٣٨٥/١ (١٧) ابن أبي حاتم غ: ٤٥٠/١ (١٨) ابن أبي حاتم غ: ٤٥١/١

قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاحْلِقْهُ، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينٍ، أَوْ انْسُكْ نَسِيكَةً»، قَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِي بِأَيَّتِهِنَّ بَدَأُ^(٦). وَلَمَّا كَانَ لَفْظُ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ الرُّحْصَةِ جَاءَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ «فَيَذِيهُ مِنْ صِيَاهِ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُكٍّ» وَلَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ بِذَلِكَ أَرْشَدَهُ إِلَى الْأَفْضَلِ فَالْأَفْضَلِ، فَقَالَ: انْسُكْ شَاةً، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينٍ، أَوْ صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَكُلُّ حَسَنٍ فِي مَقَامِهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

[بَيَانُ التَّمَتُّعِ فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» أَي إِذَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ آدَاءِ الْمَنَاسِكِ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَمَتِّعًا بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، وَهُوَ يَشْمَلُ مَنْ أَحْرَمَ بِهِمَا، أَوْ أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ أَوَّلًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَحْرَمَ بِالْحَجِّ، وَهَذَا هُوَ التَّمَتُّعُ الْخَاصُّ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْفُقَهَاءِ، وَالتَّمَتُّعُ الْعَامُّ يَشْمَلُ الْقِسْمَيْنِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، فَإِنَّ مِنَ الرَّوَاةِ مَنْ يَقُولُ: تَمَتَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَآخَرُ يَقُولُ: قَرَنَ. وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ سَأَلَ الْهَدْيَ.

وَقَالَ تَعَالَى: «فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» أَي فَلْيَذْبَحْ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَدْيِ، وَأَقْلَهُ شَاةً، وَلَهُ أَنْ يَذْبَحَ الْبَقْرَ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَبَحَ عَنْ نِسَائِهِ الْبَقْرَ. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَبَحَ الْبَقْرَ عَنْ نِسَائِهِ وَكُنَّ مُتَمَتِّعَاتٍ^(٧). رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ مَرْزُوقٍ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّمَتُّعِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: نَزَلَتْ آيَةُ الْمُنْتَعَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَقَعَلْنَاهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْزِلْ قُرْآنٌ يُحْرِمُهَا وَلَمْ يَنْهَ عَنْهَا، حَتَّى مَاتَ، قَالَ رَجُلٌ بِرَأْيِهِ مَا شَاءَ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: يَقَالُ: إِنَّهُ عَمْرُ^(٨).

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْبُخَارِيُّ قَدْ جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ أَنَّ عَمْرَ كَانَ يَنْهَى النَّاسَ عَنِ التَّمَتُّعِ وَيَقُولُ: إِنَّ نَأْخُذَ بِكِتَابِ اللَّهِ بِأَمْرِ بِالْتَّمَامِ، يَعْنِي قَوْلَهُ: «وَأَمْتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» وَفِي نَفْسِ

فَمِنْ النِّعَمِ^(١). وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» قَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ فِيمَا بَيْنَ الرُّحْصِ وَالْعَلَاءِ^(٢). وَالذَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ إِجْرَاءِ ذَبْحِ الشَّاةِ فِي الْإِحْصَارِ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ ذَبْحَ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، أَيْ مَهْمَا تَيْسَّرَ مِمَّا يُسَمَّى هَدْيًا، وَالْهَدْيُ مِنَ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالغَنَمُ، كَمَا قَالَهُ الْحَبْرُ الْبَحْرُ تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ وَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَهْدَى النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً غَنَمًا^(٣).

وَقَوْلُهُ: «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ» مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَأَمْتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» وَلَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ: «فَإِنْ أَحْرَمْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» كَمَا زَعَمَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمَّا حَصَرَهُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَنِ الدُّخُولِ إِلَى الْحَرَمِ، حَلَقُوا وَذَبَحُوا هَدْيَهُمْ خَارِجَ الْحَرَمِ، فَأَمَّا فِي خَالَ الْأَمْنِ وَالْوُضُوءِ إِلَى الْحَرَمِ فَلَا يَجُوزُ الْحَلْقُ «حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ» وَيُفْرَغُ النَّاسِكُ مِنْ أَفْعَالِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ إِنْ كَانَ قَارِنًا، أَوْ مِنْ فِعْلٍ أَحَدِهِمَا إِنْ كَانَ مُفْرَدًا أَوْ مُتَمَتِّعًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حَفْصَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا شَأْنُ النَّاسِ حَلُّوا مِنَ الْعُمْرَةِ، وَلَمْ تَحِلَّ أَنْتَ مِنْ عُمْرَتِكَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي لَبَدْتُ رَأْسِي وَقَلَدْتُ هَدْيِي، فَلَا أَجِلُّ حَتَّى أَنْحَرُ»^(٤).

[مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ مُحْرِمًا وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْهَدْيَةُ]

وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أذى مِنَ رَأْسِهِ فَيَذِيهُ مِنْ صِيَاهِ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُكٍّ» رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَصْبَهَانِيِّ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَعْقِلٍ قَالَ: قَعَدْتُ إِلَى كَعْبِ ابْنِ عُجْرَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْكُوفَةِ - فَسَأَلْتُهُ عَنْ فِذْيَةٍ مِنْ صِيَامٍ، فَقَالَ: حُيِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَالْقَمْلُ يَبْتَاثِرُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْجَهْدَ بَلَغَ بِكَ هَذَا، أَمَا تَجِدُ شَاةً؟» قُلْتُ: لَا، قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينٍ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقِ رَأْسَكَ» فَتَزَلْتُ فِي حَاصَّةٍ وَهِيَ لَكُمْ عَامَةً^(٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: أَتَى عَلِيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أَوْقُدُ تَحْتِ قَدِيرٍ، وَالْقَمْلُ يَبْتَاثِرُ عَلَى وَجْهِهِ، أَوْ قَالَ: حَاجِبِي، فَقَالَ: «يُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟»

(١) الطبري: ٣٠/٤ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٤٥٢/١ (٣) فتح الباري: ٦٣٩/٣ ومسلم: ٩٥٨/٢ (٤) فتح الباري: ٤٩٣/٣ ومسلم: ٩٠٢/٢ (٥) فتح الباري: ٣٤/٨ (٦) أحمد: ٤/٢٤١ (٧) أبو داود: ٣٦٢/٢ (٨) فتح الباري: ٣٤/٨ ومسلم: ٩٠٠/٢

الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ

٣١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَاتَّقُونَ
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٧٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٧٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَفْوَ رَجِيمٌ ﴿١٧٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ سَكَكُمُ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنْ التَّاسِ مِنَ
يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلْقٍ ﴿١٨٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٨١﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨٢﴾

النَّاسَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، فَكَانَ مِنَ
النَّاسِ مَنْ أَهْدَى فَسَاقَ الْهَدْيَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُهْدِ، فَلَمَّا
قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ قَالَ لِلنَّاسِ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى فَإِنَّهُ
لَا يَجِلُّ مِنْ شَيْءٍ حَرَمٍ مِنْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ
مِنْكُمْ أَهْدَى فَلْيَطْفِ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَلْيَقْضِرْ
وَلْيَجِلِّ، ثُمَّ لِيَهْلِ بِالْحَجِّ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ
أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ». وَذَكَرَ تَمَامَ
الْحَدِيثِ، وَالْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٨).

وقوله: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد، كما تقول
العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي،
وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُقُ بِطَرَفِي بِحَنَاجِهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]
وقال: ﴿وَلَا تَخْطُ بِبَيْمِنِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال:

(١) الطبري: ٩٧/٤ (٢) الطبري: ٩٥/٤ (٣) الطبري: ٤/
٩٤ (٤) الطبري: ٩٨-٩٩/٤ (٥) مسلم: ٨٠٠/٢ (٦) عبد
الرزاق: ٧٦/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٤٩٨/٢ (٨) فتح
الباري: ٦٣٠/٣ ومسلم: ٩٠١/٢

الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرماً لها،
إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين
ومعتبرين، كما قد صرح به رضي الله عنه.

[إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُتَمَتِّعَ الْهَدْيَ فَلْيَصُمْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ]

وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ
تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يقول تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلْيَصُمْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، أَيْ فِي أَيَّامِ الْمَنَاسِكِ، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِذَا لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلَعَلَّهِ صِيَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي
الْحَجِّ قَبْلَ يَوْمِ عَرَفَةَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ الثَّلَاثِ، فَقَدْ تَمَّ
صَوْمُهُ، وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ (١). وَكَذَا رَوَى أَبُو
إِسْحَاقَ عَنْ وَبَرَةَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: يَصُومُ يَوْمًا قَبْلَ
التَّوْبَةِ، وَيَوْمَ التَّوْبَةِ، وَيَوْمَ عَرَفَةَ (٢). وَكَذَا رَوَى جَعْفَرُ بْنُ
مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيٍّ أَيْضًا (٣).

فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد، يجوز أن يصومها
في أيام التشريق، لقول عائشة وابن عمر في صحيح
البخاري: لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن
لم يجد الهدى. وروى شفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه
عن علي، أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في
الحج، صامهن أيام التشريق، وبهذا يقول عبيد بن عمير
الليثي وعكرمة والحسن البصري وعروة بن الزبير (٤).
وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ وأما
ما رواه مسلم عن فضيلة الهذلي رضي الله عنه، قال: قال
رسول الله ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامٌ أَكُلَ وَشَرِبَ، وَذَكَرَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ» (٥) فهذا عامٌ وروايه عائشة وابن عمر مخصوصةٌ
منه.

وقوله: ﴿وسبعة إذا رجعتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما إذا
رجعتُمْ إلى رحالكم، الثاني: إذا رجعتُمْ إلى أوطانكم،
روى عبد الرزاق عن سالم، سيعت ابن عمر قال: ﴿فَمَنْ لَمْ
يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قال: إِذَا رَجَعَ إِلَى
أَهْلِهِ (٦). وَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ
وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالزُّهْرِيَّ وَالرَّبِيعَ
ابْنَ أَنَسٍ (٧).

وقد روى البخاري عن سالم بن عبد الله، أن ابن عمر
قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى
الحج، وأهدى، فساق معه الهدى من ذي الحليفة، وبدأ
رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج، فتمتع

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِمَّا مِثَقَتْ رِيَّةَ آزِيْعِكَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] وَقِيلَ: مَعْنَى «كَاِمِلَةً»، الْأَمْرُ بِإِكْمَالِهَا وَإِتْمَامِهَا.

[لَا يَتَمَتَّعُ أَهْلُ مَكَّةَ]

وَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» حَاضِرُوهُ: هُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ، فَلَا مُتَمَتَّةَ لَهُمْ. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ: الْمُتَمَتَّةُ لِلنَّاسِ - لَا لِأَهْلِ مَكَّةَ - مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ مِنَ الْحَرَمِ. وَكَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» قَالَ: وَبَلَغَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلُ قَوْلِ طَاوُسٍ ^(١). وَقَوْلُهُ: «وَأَقْعُوا اللَّهَ» أَي فِيمَا أَمَرَكُمُ وَمَا نَهَاكُمُ. «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَيُدِيبُ الْعَاقِبَ» أَي لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَارْتَكَبَ مَا عَنَّهُ زَجْرَهُ.

«الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ وَصَّ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْهُمَا فَالْيَدِ حَيْزُ الرَّادِ الْقَفْوَى وَأَتَقَوُّوا بِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴿١٢٧﴾» [مَتَى يُحْرَمُ لِلْحَجِّ؟]

قَوْلُهُ: «الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ» أَي لَا يَصِحُّ الْإِحْرَامُ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِهِ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(٢) وَجَابِرٍ، وَبِهِ يَقُولُ عَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَمُجَاهِدٌ رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَالِدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ تَخْصِيصَ وَقْتِ الْحَجِّ بِأَشْهُرٍ مَعْلُومَاتٍ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ شُهُورِ السَّنَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ قَبْلُهَا، كِمَقَامَاتِ الصَّلَاةِ.

وَرَوَى الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُحْرَمَ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي شُهُورِ الْحَجِّ مِنْ أَجْلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ» ^(٣). وَرَوَى ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَا يُحْرَمُ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ الْحَجِّ أَنْ يُحْرَمَ بِالْحَجِّ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ ^(٤). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلُ الصَّحَابِيِّ: مِنْ السَّنَةِ كَذَا، فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ، وَلَا سِيَّمَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ تَرْجُمَانُهُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ، رَوَى ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُحْرَمَ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ» ^(٥). وَإِسْنَادُهُ لَا بَأْسَ بِهِ، لَكِنْ رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ مِنْ طَرَفِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ أَبِي الرَّبِيعِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُسْأَلُ: أَيُّهَلُ بِالْحَجِّ قَبْلَ

أَشْهُرِ الْحَجِّ؟ فَقَالَ: لَا ^(٦). وَهَذَا الْمَوْفُوفُ أَصَحُّ وَأَثْبَتٌ مِنَ الْمَرْفُوعِ، وَبَطْنِي جَيْتِيذٌ مَذْهَبُ صَحَابِيٍّ يَتَّقَوِي بِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنَ السَّنَةِ: أَنْ لَا يُحْرَمَ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[أَشْهُرُ الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: «أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ» قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: هِيَ سَوَالٌ وَدُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ^(٧). وَهَذَا الَّذِي عَلَّفَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ بِصِغَةِ الْحَزْمِ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مَوْصُولًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ: «الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ» قَالَ: سَوَالٌ وَدُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ. إِسْنَادٌ صَحِيحٌ ^(٨). وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ: هُوَ عَلَى سَرَطِ الشَّيْخَيْنِ ^(٩).

(قُلْتُ) وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَمُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ، وَمَكْحُولٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاجِمٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ ^(١٠). وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: وَصَحَّ إِطْلَاقُ الْجَمْعِ عَلَى شَهْرَيْنِ وَبَعْضِ الثَّلَاثِ لِلتَّغْلِيْبِ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: رَزَتْهُ الْعَامُ وَرَأَيْتُهُ الْيَوْمَ، وَإِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْعَامِ وَالْيَوْمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» [البقرة: ٢٠٣] وَإِنَّمَا تَعَجَّلَ فِي يَوْمٍ وَيُضْفِ يَوْمٌ ^(١١).

وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ وَصَّ فِيهِنَّ الْحَجَّ» أَي أَوْجَبَ بِإِحْرَامِهِ حَجًّا، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى لُزُومِ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ وَالْمُضَيِّ فِيهِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْفَرْضِ هَهُنَا الْإِيجَابُ وَالْإِلْزَامُ ^(١٢). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «فَمَنْ وَصَّ فِيهِنَّ الْحَجَّ» يَقُولُ: مَنْ أَحْرَمَ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، وَقَالَ عَطَاءٌ: الْفَرْضُ الْإِحْرَامُ ^(١٣). وَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ ^(١٤).

(١) الطبري: ١١١/٤ (٢) الطبري: ١١٥/٤ (٣) الأم: ١٣٢/٢

(٤) ابن خزيمة: ١٦٢/٤ (٥) ابن أبي شيبة: الجزء المفقود /

٣٦١ (٦) الأم: ١٣٢/٢ والبيهقي: ٣٤٣/٤ (٧) فتح الباري:

٤٩٠/٣ (٨) الطبري: ١١٦/٤ (٩) الحاكم: ٢٧٦/٢ (١٠)

ابن أبي حاتم غ: ٤٨٦/٢ ٤٨٧ و ٤٨٨ (١١) الطبري: ٤/

١٢٠ (١٢) الطبري: ١٢١/٤ (١٣) الطبري: ١٢٣/٤ (١٤)

الطبري: ١٢٣/٤

[الْتَهْيُ عَنِ الرَّفَثِ فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أَيُّ مَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ فَلْيَجْتَنِبِ الرَّفَثَ، وَهُوَ الْجِمَاعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَاهِ الرَّفَثِ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وَكَذَلِكَ يَحْرُمُ تَعَاطِي دَوَاعِيهِ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّقْبِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ التَّكَلُّمُ بِهِ بِحَضْرَةِ النَّسَاءِ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عَمْرٍو كَانَ يَقُولُ: الرَّفَثُ: إِثْبَانُ النَّسَاءِ، وَالتَّكَلُّمُ بِذَلِكَ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا ذَكَرُوا ذَلِكَ بِأَقْوَاهِمِهِمْ. وَقَالَ عَطَاءٌ بْنُ أَبِي رِيَاحٍ: الرَّفَثُ: الْجِمَاعُ وَمَا دُونَهُ مِنْ قَوْلِ الْفُحْشِ. وَكَذَا قَالَ عَمْرٍو بْنُ دِينَارٍ. وَقَالَ عَطَاءٌ: كَانُوا يَكْرَهُونَ الْعَرَابَةَ - وَهُوَ التَّعْرِضُ - وَهُوَ مُحْرَمٌ. وَقَالَ طَاوُسٌ: هُوَ أَنْ تَقُولَ لِلْمَرْأَةِ إِذَا حَلَلْتَ أَصْبَتِكَ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّفَثُ: غَشِيَانُ النَّسَاءِ وَالْقَبْلُ وَالْعَمْرُ، وَأَنْ يُعْرَضَ لَهَا بِالْفُحْشِ مِنَ الْكَلَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَابْنُ عَمْرٍو: الرَّفَثُ غَشِيَانُ النَّسَاءِ^(١). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ [و] عَطَاءٌ، وَمَكْحُولٌ، وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ، وَعَطَاءُ ابْنُ يَسَارٍ، وَعَطِيَّةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالرَّبِيعُ وَالزُّهْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ، وَمَالِكُ ابْنُ أَنَسٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مَالِكٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَغَيْرُهُمْ.

[الْتَهْيُ عَنِ الْفُسُوقِ فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾ قَالَ يَفْسُقُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، هِيَ: الْمَعَاصِي. وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ، وَطَاوُسٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمُحَمَّدُ ابْنُ كَعْبٍ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَمَكْحُولٌ، وَابْنُ أَبِي بَرٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ. وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ يُونُسَ عَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَقُولُ: الْفُسُوقُ: إِثْبَانُ مَعَاصِي اللَّهِ فِي الْحَرَمِ^(٢).

وَقَالَ آخَرُونَ: الْفُسُوقُ هُنَا السَّبَابُ. وَقَدْ يَتَمَسَّكُ لَهُؤُلَاءِ بِمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(٣).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْفُسُوقُ هُنَا الذَّبْحُ لِلْأَصْنَامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ فِتْنًا أَهْلًا لِيَغِيْرَ اللَّهُ

يَوْمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وَقَالَ الصَّحَّاحُ: الْفُسُوقُ: التَّنَابُؤُ بِالْأَلْقَابِ.

وَالَّذِينَ قَالُوا: الْفُسُوقُ هُنَا هُوَ جَمِيعُ الْمَعَاصِي الصَّوَابِ مَعَهُمْ، كَمَا نَهَى تَعَالَى عَنِ الظُّلْمِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ، وَإِنْ كَانَ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ مِنْهَا عَنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ أَكْثَرُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ لِلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] وَقَالَ فِي الْحَرَمِ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَاكِمِ يُظْلَمْ نُذْرَةً مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَزُفْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(٤).

[الْتَهْيُ عَنِ الْجِدَالِ فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ الْمُرَادُ بِالْجِدَالِ الْمُخَاصَمَةُ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قَالَ: أَنْ تُمَارِيَ صَاحِبَكَ حَتَّى تُغْضِبَهُ^(٥). وَكَذَلِكَ رَوَى يَفْسُقُ وَالصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٦). وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَعَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ وَمَكْحُولٌ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَعَمْرٍو بْنُ دِينَارٍ وَالصَّحَّاحُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ^(٧).

[التَّرْغِيبُ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ]

وَأَخَذَ الرَّادِي فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَعْلَمُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ لَمَّا نَهَاهُمْ عَنْ إِثْبَانِ الْقَبِيحِ قَوْلًا وَفِعْلًا، حَثَّهُمْ عَلَى فِعْلِ الْجَمِيلِ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ عَالِمٌ بِهِ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَزَّوْدُوا قَابَكُ حَيْرَ الرَّادِ النَّقْوَى﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَكَزَّوْدُوا قَابَكُ حَيْرَ الرَّادِ النَّقْوَى﴾^(٨). وَرَوَى ابْنُ

(١) الطبري: ٤/١٢٦-١٢٩ (٢) ابن أبي حاتم: ٤٩٧/٢-٥٠٠
 (٣) فتح الباري: ١/١٣٥ (٤) فتح الباري: ٤/٢٥٠ ومسلم: ٢/٩٨٣
 (٥) الطبري: ٤/١٤١ (٦) الطبري: ٤/١٤١ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٢/٥٠٣-٥٠٥ (٨) فتح الباري: ٣/٤٤٩ وأبو داود: ٢/٣٤٩

رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَسَأَلَهُ عَنِ الَّذِي سَأَلْتَنِي ، فَلَمْ يُجِبْهُ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ»^(٥). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ مَوْلَى عُمَرَ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كُنْتُمْ تَتَجَرَّوْنَ فِي الْحَجِّ؟ قَالَ: وَهَلْ كَانَتْ مَعَايِشُهُمْ إِلَّا فِي الْحَجِّ؟^(٦)

[الْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إِنَّمَا صَرَفَ عَرَفَاتٍ وَإِنْ كَانَ عَلَمًا عَلَى مُؤْتَبَرٍ، لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ جَمْعٌ، كَمُسَلِمَاتٍ وَمُؤْمِنَاتٍ، سُمِّيَ بِهِ بُقْعَةً مُعَيَّنَةً فَرُوعِيَ فِيهِ الْأَصْلُ فَصَرِفَ، إِخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٧).

وَعَرَفَةُ مَوْضِعُ الْوُقُوفِ فِي الْحَجِّ، وَهِيَ عُمْدَةٌ أَفْعَالٍ الْحَجِّ، وَلِهَذَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَجَّ عَرَفَاتٌ - ثَلَاثًا - فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ، وَأَيَّامٌ مِنِّي ثَلَاثَةٌ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمٍ مِنْهَا فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»^(٨).

وَوَقْتُ الْوُقُوفِ مِنَ الزَّوَالِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ الثَّانِي مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الظُّهْرَ إِلَى أَنْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَقَالَ: «لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكُكُمْ»^(٩). وَقَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ».

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ مَضْرُوسٍ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَامِ الطَّائِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْمَزْدَلِفَةِ حِينَ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي جِئْتُ مِنْ جَبَلِي طِيٍّ، أَكَلْتُ رَاحِلَتِي، وَأَتَيْتُ نَفْسِي، وَاللَّهِ مَا تَرَكْتُ مِنْ جَبَلٍ إِلَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَهَلْ لِي مِنْ حَجٍّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ، فَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى

جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْدُودِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانُوا إِذَا أَحْرَمُوا وَمَعَهُمْ أَرْوَادُهُمْ رَمَوْا بِهَا وَاسْتَأْنَفُوا زَادًا آخَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَزَرَدُوا فَإِنَّ حَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ فَهِيَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَرُوا أَنْ يَتَزَوَّدُوا الدَّقِيقَ وَالسَّوِيقَ وَالكَعْكَ^(١٠).

[زَادَ سَفَرِ الْآخِرَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ حَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ لَمَّا أَمَرَهُمْ بِالزَّادِ لِلسَّفَرِ فِي الدُّنْيَا أَرشَدَهُمْ إِلَى زَادِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ اسْتِصْحَابُ النَّقْوَى إِلَيْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَرِيثًا وَيَلِاسَ النَّقْوَى ذَلِكَ حَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] لَمَّا ذَكَرَ اللَّبَاسَ الْحِسِّيَّ نَبَهَ مُرَشِدًا إِلَى اللَّبَاسِ الْمُعْتَبَرِيِّ، وَهُوَ الْحُشُوعُ وَالطَّاعَةُ وَالنَّقْوَى، وَذَكَرَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا وَأَنْفَعُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَتَّقُونَ بِتَأْوِيلِ الْأَلْبَابِ﴾ يَقُولُ: وَاتَّقُوا عِقَابِي وَنَكَالِي وَعَذَابِي لِمَنْ خَالَفَنِي وَلَمْ يَأْتِمِرْ بِأَمْرِي، يَا ذَوِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَأذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ بَيْنِهِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٩٨﴾

[التَّجَارَةُ فِي الْحَجِّ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَتْ عُكَاظُ وَمِجَنَّةٌ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَأْتَمُّوا أَنْ يَتَجَرَّوْا فِي الْمَوْسِمِ، فَتَزَلَّتْ: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ)^(١١). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانُوا يَتَّقُونَ الْبُيُوعَ وَالتَّجَارَةَ فِي الْمَوْسِمِ وَالْحَجِّ، يَقُولُونَ: أَيَّامٌ ذِكْرٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١٢). وَهَكَذَا فَسَّرَهَا مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَمَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ، وَقَتَادَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُمْ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَحُجُّ وَمَعَهُ تِجَارَةٌ، فَفَرَّ ابْنُ عُمَرَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١٣) وَهَذَا مَوْقُوفٌ، وَهُوَ قَوِيٌّ جَيِّدٌ. وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا، رَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ التَّيْمِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نَكْرِي فَهَلْ لَنَا مِنْ حَجٍّ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، وَتَأْتُونَ الْمُعَرَّفَ، وَتَزْمُونَ الْحِمَارَ، وَتَحْلِفُونَ رُؤُوسَكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ

(١) الطبري: ١٥٦/٤ (٢) فتح الباري: ٣٤/٨ (٣) أبو داود:

٣٥٠/٢ (٤) الطبري: ١٦٥/٤ (٥) أحمد: ١٥٥/٢ (٦)

الطبري: ١٦٨/٤ (٧) الطبري: ١٧١/٤ (٨) أحمد: ٣١٠/٤

وأبو داود: ٤٨٥/٢ وتحفة الأحوذبي: ٦٣٣/٣ والنسائي: ٢٥٦/٥

وابن ماجه: ١٠٠٣/٢ (٩) مسلم: ٩٤٣/٢

نَدَفَعَ، وَقَدْ وَقَفَ بَعْرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ وَقَضَى نَفْتَهُ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(١). ثُمَّ قِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ عَرَفَاتُ لِمَارَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنِي ابْنُ جُرَيْجٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: بَعَثَ اللَّهُ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَحَجَّ بِهِ، حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ عَرَفَةَ قَالَ: عَرَفْتُ - وَكَانَ قَدْ آتَاهَا مَرَّةً قَبْلَ ذَلِكَ -، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ عَرَفَةَ^(٢). وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ عَرَفَةَ لِأَنَّ جِبْرِيْلَ كَانَ يُرِي إِبْرَاهِيمَ الْمَنَاسِكَ فَيَقُولُ: عَرَفْتُ عَرَفْتُ، فَسُمِّيَتْ عَرَفَاتٍ^(٣). وَرَوَى نَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٤) وَابْنِ عُمَرَ وَأَبِي مِجْلَزٍ^(٥). فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَسُمِّيَ عَرَفَاتُ: الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ، وَالْمَشْعَرُ الْأَقْصَى، وَ[إِلَّا] عَلَىٰ وَزْنِ هَلَالٍ، وَيُقَالُ لِلْجَبَلِ فِي وَسْطِهَا: جَبَلُ الرَّحْمَةِ.

[وَقْتُ الْإِفَاضَةِ مِنْ عَرَفَاتٍ وَمُزْدَلِفَةَ]

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقِفُونَ بِعَرَفَةَ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْجِبَالِ كَانَتْهَا الْعَمَائِمُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الرِّجَالِ دَفَعُوا، فَأَخَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الدَّفْعَةَ مِنْ عَرَفَةَ حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ^(٦). وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْذُوبٍ وَرَادٍ: ثُمَّ وَقَفَ بِالْمُزْدَلِفَةِ وَصَلَّى الْفَجْرَ بَغْلَسٍ، حَتَّىٰ إِذَا أَسْفَرَ كُلُّ شَيْءٍ وَكَانَ فِي الْوَقْتِ الْآخِرِ، دَفَعَ. وَهَذَا حَسَنُ الْإِسْنَادِ. وَفِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّوِيلِ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، قَالَ فِيهِ: فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا - يَعْنِي بِعَرَفَةَ - حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا حَتَّىٰ غَابَ الْقُرْصُ، وَأَرْدَفَ أَسَامَةَ خَلْفَهُ، وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ شَقَّ لِلْقُضَوَاءِ الرُّمَامَ، حَتَّىٰ إِنْ رَأَسَهَا لِكُصِيبِ مَوْرِكِ رَحْلِهِ، وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: «أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ» كُلَّمَا أَتَى حَبَلًا مِنَ الْجِبَالِ^(٧) أَرَحَىٰ لَهَا قَلِيلًا حَتَّىٰ تَصْعَدَ حَتَّىٰ أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ، فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرَبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، ثُمَّ اضْطَجَعَ حَتَّىٰ طَلَعَ الْفَجْرُ، فَصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ نَبَّيْنَهُ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ الْقُضَوَاءَ حَتَّىٰ أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَدَعَا اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّىٰ أَسْفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ^(٨).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ سُئِلَ: كَيْفَ كَانَ يَسِيرُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ دَفَعَ؟ قَالَ: كَانَ يَسِيرُ الْعُنُقَ، فَإِذَا وَجَدَ فَجْوَةً نَصَّ. وَالْعُنُقُ هُوَ انْسِاطُ السَّيْرِ، وَالنَّصُّ فَوْقَهُ^(٩).

[الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ]

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَالِمٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ الْمُزْدَلِفَةُ كُلُّهَا^(١٠). وَقَالَ هُشَيْمٌ عَنْ حَجَّاجٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: «فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ» قَالَ: فَقَالَ: هُوَ الْجَبَلُ وَمَا حَوْلَهُ^(١١). وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيَّ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ أَنَّهُمْ قَالُوا: هُوَ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ^(١٢).

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ عَرَفَةَ، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسَّرٍ، وَكُلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ مَنْحَرٌ، وَكُلُّ أَيَّامِ الشَّرِيْقِ ذَبِيحٌ»^(١٣).

وَقَوْلُهُ: «وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَيْتُمْ» تَنْبِيهُ لَهُمْ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْيَسَارِ وَالْإِرْشَادِ، إِلَىٰ مَشَاعِرِ الْحَجِّ، عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْهِدَايَةِ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ» قِيلَ: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْهَدْيِ. وَقَبْلَ الْقُرْآنِ. وَقَبْلَ الرُّسُولِ. وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ وَمَتَلَازِمٌ وَصَحِيحٌ.

«ثُمَّ أَوْضِعُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَأَسْتَقْبِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ عَوُّورٌ رَجِيْدٌ»^(١٤)

[الْأَمْرُ بِالتَّزَامِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَالْإِفَاضَةَ مِنْهَا: لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يَقِفُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ]

ثُمَّ - هَهُنَا - لِعَطْفِ حَبْرٍ عَلَىٰ حَبْرٍ، وَتَرْتِيبِهِ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ

(١) أحمد: ٢٦١/٤ أبو داود: ٤٨٦/٢ و تحفة الأحوذى: ٣/٦٣٥ والنسائي: ٢٦٤/٥ وابن ماجه: ١٠٠٤/٢ (٢) عبد الرزاق: ٩٦/٥ (٣) الطبري: ١٧٤/٤ (٤) الطبري: ١٧٣/٤ (٥) ابن أبي حاتم غ: ٥١٩/٢ (٦) ابن أبي حاتم غ: ٥١٧/٢ (٧) الكلمتان بالحاء المهملة. وهو التل اللطيف من الرمل الضخم. وفي النهاية: قيل: الحبال في الرمل كالجبال في غير الرمل. (٨) مسلم: ٨٨٦/٢ (٩) فتح الباري: ٦٠٥/٣ ومسلم: ٩٣٦/٢ (١٠) ابن أبي حاتم غ: ٥٢١/٢ (١١) الطبري: ٤/١٧٦ (١٢) ابن أبي حاتم غ: ٥٢١/٢ و٥٢٢ (١٣) أحمد: ٤/٨٢

تَعَالَى أَمَرَ الْوَاقِفَ بِعَرَفَاتٍ أَنْ يَذْفَعَ إِلَى الْمُرْدَلِفَةِ لِيَذْكُرَ اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَكُونَ وَثُوقُهُ مَعَ جُمْهُورِ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ، كَمَا كَانَ جُمْهُورُ النَّاسِ يَصْنَعُونَ، يَقِفُونَ بِهَا إِلَّا قُرَيْشًا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَخْرُجُونَ مِنَ الْحَرَمِ، فَيَقِفُونَ فِي طَرَفِ الْحَرَمِ عِنْدَ أَدْنَى الْجِلِّ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ اللَّهِ فِي بَلَدِيهِ وَقُطَانِ بَيْتِهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُرْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْحُمْسَ، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَبْفَ بِهَا، ثُمَّ يَبْفِضَ مِنْهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفْكَصَ النَّاسُ﴾^(١). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُهُمْ^(٢). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَحَكَى عَلَيْهِ الْإِجْمَاعَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: أَضَلَّكَ بَعِيرًا لِي بِعَرَفَةَ، فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ وَاقِفٌ، قُلْتُ: إِنَّ هَذَا مِنَ الْحُمْسِ، مَا شَأْنُهُ هَهُنَا؟^(٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤).
ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِفَاضَةِ هَهُنَا، هِيَ: الْإِفَاضَةُ مِنَ الْمُرْدَلِفَةِ إِلَى مَتَى لِرُمِي الْجِمَارِ^(٥). فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَوَيَّوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: أَضَلَّكَ بَعِيرًا لِي بِعَرَفَةَ، فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ وَاقِفٌ، قُلْتُ: إِنَّ هَذَا مِنَ الْحُمْسِ، مَا شَأْنُهُ هَهُنَا؟^(٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤).

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِفَاضَةِ هَهُنَا، هِيَ: الْإِفَاضَةُ مِنَ الْمُرْدَلِفَةِ إِلَى مَتَى لِرُمِي الْجِمَارِ^(٥). فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَوَيَّوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: أَضَلَّكَ بَعِيرًا لِي بِعَرَفَةَ، فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ وَاقِفٌ، قُلْتُ: إِنَّ هَذَا مِنَ الْحُمْسِ، مَا شَأْنُهُ هَهُنَا؟^(٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤).

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِفَاضَةِ هَهُنَا، هِيَ: الْإِفَاضَةُ مِنَ الْمُرْدَلِفَةِ إِلَى مَتَى لِرُمِي الْجِمَارِ^(٥). فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قَائِدًا فَصْنَيْتَهُ مَنَاسِكَكُمْ فَادْعُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أُشْكَدَ ذِكْرًا فَمِنْ النَّكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾^(٦) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٧) أَوْلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٨)

﴿الْأَمْرُ بِكثْرَةِ الذِّكْرِ وَطَلْبِ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بَعْدَ قَضَاءِ النَّسْكِ﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ وَالْإِكْتِنَانِ مِنْهُ بَعْدَ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ وَفَرَاعِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقِفُونَ فِي الْمَوْسِمِ. فَيَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ: كَانَ أَبِي يُطْعِمُ وَيَحْمِلُ الْحِمَالَاتِ، وَيَحْمِلُ الدِّيَاتِ، لَيْسَ لَهُمْ ذِكْرٌ غَيْرُ فِعَالِ آبَائِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أُشْكَدَ ذِكْرًا﴾^(٩) وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ الْحَثُّ عَلَى كَثْرَةِ الذِّكْرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا كَانَ انْتِصَابُ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أُشْكَدَ ذِكْرًا﴾ عَلَى التَّمْيِيزِ، تَقْدِيرُهُ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أُشْكَدَ [مِنْهُ] ذِكْرًا، وَ«أَوْ» - هَهُنَا - لِتَحْقِيقِ الْمُمَاتَلَةِ فِي الْخَبَرِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أُشْكَدَ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وَقَوْلُهُ: ﴿يَخْتَفُونَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أُشْكَدَ خَشِيَةً﴾ [النساء: ٧٧] وَ«وَأَرْسَلْتَهُ إِلَى مَائِدَةِ آدَمَ أَوْ رِبْدُونَكَ﴾ [الصافات: ١٤٧] «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] فَلَيْسَتْ هَهُنَا لِلنَّسْكِ قَطْعًا، وَإِنَّمَا هِيَ لِتَحْقِيقِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ [بِأَنَّهُ] كَذَلِكَ أَوْ أَزِيدُ مِنْهُ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَرْسَدَ إِلَى دَعَائِهِ بَعْدَ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ فَإِنَّهُ مَطْنَةٌ الْإِجَابِيَّةِ، وَدَمَّ مَنْ لَا يَسْأَلُهُ إِلَّا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ وَهُوَ مُعْرِضٌ

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَرْسَدَ إِلَى دَعَائِهِ بَعْدَ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ فَإِنَّهُ مَطْنَةٌ الْإِجَابِيَّةِ، وَدَمَّ مَنْ لَا يَسْأَلُهُ إِلَّا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ وَهُوَ مُعْرِضٌ

(١) فتح الباري: ٣٥/٨ (٢) الطبري: ١٨٧، ١٨٦/٤ (٣) أحمد: ٨٠/٤ (٤) فتح الباري: ٦٠٢/٣ ومسلم: ٨٩٤/٢ (٥) فتح الباري: ٣٥/٨ (٦) مسلم: ٤١٤/١ (٧) فتح الباري: ٣٧٨/٢ ومسلم: ٤١٧/١ (٨) فتح الباري: ١٠٠/١١ (٩) فتح الباري: ٤٨٤/١٣ ومسلم: ٢٠٧٨/٤ (١٠) ابن أبي حاتم غ: ٥٣٠/٢

عَنْ أَحْرَاهُ، فَقَالَ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ تَبْتَغُونَ﴾ أَيْ مِنْ نَصِيبٍ وَلَا حَظٍّ، وَتَضَمَّنَ هَذَا الدُّمُّ التَّنْفِيرَ عَنِ الشُّبُهَةِ بِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ قَوْمٌ مِنَ الْأَعْرَابِ يَجْتَبُونَ إِلَى الْمُؤَقِفِ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عَامَ غَيْثٍ، وَعَامَ خَيْبٍ، وَعَامَ وَوَلَادٍ حَسَنٍ، لَا يَذْكُرُونَ مِنْ أَمْرِ الْأَجْرَةِ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ تَبْتَغُونَ﴾ أَيْ فِي الْأَخْرَجَةِ مِنَ خَلْقِي وَكَانَ يَجِيءُ بَعْدَهُمْ آخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وَلِهَذَا مَدَحَ مَنْ يَسْأَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَى، فَقَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

فَجَمَعَتْ هَذِهِ الدُّعْوَةُ كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا، وَصَرَفَتْ كُلَّ شَرٍّ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ فِي الدُّنْيَا تَشْمَلُ كُلَّ مَطْلُوبٍ دُنْيَوِيٍّ مِنْ عَافِيَةٍ، وَدَارٍ رَحِيَةٍ، وَرُزُقَةٍ حَسَنَةٍ، وَرِزْقٍ وَاسِعٍ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَمَرْكَبٍ هَنِئٍ، وَتَنَائٍ جَمِيلٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اسْتَمْتَلَتْ عَلَيْهِ عِبَارَاتُ الْمُتَسَرِّينَ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا، فَإِنَّهَا كُلُّهَا مُنْدَرِجَةٌ فِي الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا.

وَأَمَّا الْحَسَنَةُ فِي الْآخِرَةِ، فَأَعْلَى ذَلِكَ دُخُولُ الْحِجَّةِ وَتَوَابِعُهُ مِنَ الْأَمْنِ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ فِي الْعَرَصَاتِ، وَتَبْيِيرِ الْجِسَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ الصَّالِحَةِ.

وَأَمَّا النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ فَهِيَ يَقْتَضِي تَبْيِيرَ أَسْبَابِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ وَالْآثَامِ، وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ وَالْحَرَامِ. وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: مَنْ أَعْطِيَ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَجَسَدًا صَابِرًا، فَقَدْ أُوتِيَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَوُفِّيَ عَذَابَ النَّارِ.^(١)

وَلِهَذَا وَرَدَّتِ السُّنَّةُ بِالرَّغِيبِ فِي هَذَا الدُّعَاءِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^(٢).

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ لِإِيَّاهِ؟» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ

﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذْ اتَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذْ أَيْقَلُ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

فَعَجَّلَهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تَطِيعُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ - فَهَلَّا قُلْتَ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾» قَالَ: فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَّاهُ^(٣). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٤).

وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي أَجْرْتُ نَفْسِي مِنْ قَوْمٍ عَلَى أَنْ يَحْمِلُونِي، وَوَضَعْتُ لَهُمْ مِنْ أَجْرَتِي عَلَى أَنْ يَدْعُونِي أَحْسَنَ مَعَهُمْ، أَفِيحْزِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَنْتَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٥) ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.

﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ

(١) ابن أبي حاتم غ: ٥٤٢/٢ (٢) فتح الباري: ٣٥/٨ (٣) أحمد: ١٠٧/٣ (٤) مسلم: ٢٠٦٨/٤ (٥) الحاكم: ٢٧٧/٢

وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١١٧﴾

[الذِّكْرُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلِ وَشُرْبِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ: أَيَّامُ التَّشْرِيقِ، وَالْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ: أَيَّامُ الْعَشْرِ^(١). وَقَالَ عِكْرِمَةُ:

﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ يَعْنِي التَّكْبِيرَ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ، عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلِ وَشُرْبِ»^(٣).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ نُبَيْسَةَ الْهَذَلِيَّةِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلِ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ» وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا^(٤).

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: «عَرَفَةَ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ»^(٥).

وَتَقَدَّمَ أَيْضًا حَدِيثُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ الدَّبَلِيِّ: «وَأَيَّامُ مِنَى ثَلَاثَةٌ؛ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»^(٦).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ طَعْمٍ وَذِكْرِ اللَّهِ»^(٧).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُدَّافَةَ يَطُوفُ فِي مِنَى: «لَا تَصُومُوا هَذِهِ الْأَيَّامَ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ أَكْلِ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٨).

[بَيَانُ الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ]

وَقَالَ مِقْسَمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ، أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ: يَوْمُ النَّحْرِ، وَثَلَاثَةٌ بَعْدَهُ^(٩).

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَبِي مُوسَى وَعَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَأَبِي مَالِكٍ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَيَحْيَى بْنَ أَبِي كَثِيرٍ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ

وَالزُّهْرِيَّ وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكَ وَمَقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيَّ، وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ وَغَيْرِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ^(١٠). وَعَلَيْهِ دَلٌّ ظَاهِرٌ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَيْثُ قَالَ:

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾

فَدَلَّ عَلَى ثَلَاثَةِ بَعْدَ النَّحْرِ.

وَيَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى الْأَصْحَاحِيِّ، وَالذِّكْرُ الْمَوْقُفُ خَلْفَ الصَّلَوَاتِ، وَالْمُطْلَقُ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ، وَيَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ أَيْضًا التَّكْبِيرُ

وَذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ رَمِي الْجَمَرَاتِ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالسُّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمِي الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١١).

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى التَّمَرَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِيَّ وَهُوَ تَفَرُّقُ النَّاسِ مِنْ مَوْسِمِ الْحَجِّ إِلَى سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالْآفَاقِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ فِي الْمَشَاعِرِ وَالْمَوَاقِفِ، قَالَ: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(١٢) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُنَالِكَ الْخَرْتُ وَالسُّنْدُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَافِدَ﴾^(١٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلْهَآئُهُمْ^(١٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْغَبَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ﴾^(١٥)

[بَيَانُ أَحْوَالِ الْمُتَافِقِينَ]

قَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيحٍ النَّفْعِيِّ، جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَفِي بَاطِنِهِ خِلَافٌ ذَلِكَ^(١٦).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُتَافِقِينَ تَكَلَّمُوا فِي خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ قَتَلُوا بِالرَّجِيعِ وَعَابُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَمِّ الْمُتَافِقِينَ وَمَدْحِ خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْغَبَاتِ اللَّهِ﴾.

وَقِيلَ: بَلْ ذَلِكَ عَامٌّ فِي الْمُتَافِقِينَ كُلِّهِمْ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ^(١٧). وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنِ الْقُرْظِيِّ، عَنْ نَوْفٍ - وَهُوَ الْكَلْبِيُّ وَكَانَ مِمَّنْ يَقْرَأُ الْكُتُبَ - قَالَ: إِنِّي لِأَجِدُ صِفَةَ نَاسٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُتَزَلِّ: قَوْمٌ يَحْتَالُونَ عَلَى الدُّنْيَا بِالذِّمَنِ، أَلَسْتَهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنْ

(١) القرطبي: ٣/٣ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٥٤٥/٢ (٣) أحمد: ١٥٢/٤ (٤) أحمد: ٧٥/٥ ومسلم: ٨٠٠/٢ (٥) أحمد: ٨٢/٤ (٦) أبو داود: ٤٨٥/٢ (٧) الطبري: ٢١١/٤ (٨) الطبري: ٢١١/٤ (٩) الطبري: ٢١٣/٤ (١٠) ابن أبي حاتم غ: ٥٤٧-٥٤٩ (١١) أبو داود: ٤٤٧/٢ (١٢) الطبري: ٢٢٩/٤ (١٣) الطبري: ٢٣٠/٤

السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ»^(٦).

فَهَذَا الْمُنَافِقُ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ وَإِهْلَاكَ الْحَرْثِ، وَهُوَ مَحَلُّ نَمَاءِ الزُّرُوعِ وَالشَّمَارِ، وَالنَّسْلِ، وَهُوَ نِتَاجُ الْحَيَوَانَاتِ الَّذِينَ لَا قِيَامَ لِلنَّاسِ إِلَّا بِهِمَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا سَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا مَنَعَ اللَّهُ الْقَطْرَ، فَهَلَكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» أَي لَا يُحِبُّ مِنْ هَذِهِ صِفَتَهُ، وَلَا مَنْ يَصُدِّرُ مِنْهُ ذَلِكَ.

[مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِ رُدُّ النَّصِيحَةِ]

وَقَوْلُهُ: «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ» أَي إِذَا وَعِظَ هَذَا الْفَاجِرُ فِي مَقَالِهِ وَفِعَالِهِ، وَقِيلَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ وَانزَعُ عَنْ قَوْلِكَ وَقَوْلِكَ، وَارْجِعْ إِلَى الْحَقِّ؛ امْتَنَعَ وَأَبَى، وَأَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَالْعُصْبُ بِالْإِثْمِ، أَي بِسَبَبِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ [قَلْبُهُ] مِنَ الْآثَامِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذَا نَتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ بِكَادُوتٍ يَسْطُرُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكُمْ النَّارِ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْصَّيْرِ» [الحج: ٧٢] وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُ» أَي هِيَ كَافِيَةٌ عُقُوبَةً فِي ذَلِكَ.

[مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ إِثَارٌ مَرَضَاةِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» لَمَّا أَخْبَرَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الدَّمِيمَةَ، ذَكَرَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَمِيدَةَ فَقَالَ: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَسْرُ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَأَبُو عَثْمَانَ النَّهْدِيُّ وَعِكْرِمَةُ وَجَمَاعَةٌ: نَزَلَتْ فِي صَهْبِ بْنِ سِنَانِ الرَّومِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ بِمَكَّةَ وَأَرَادَ الْهَجْرَةَ، مَنَعَهُ النَّاسُ أَنْ يُهَاجِرَ بِمَالِهِ، وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنْهُ وَيُهَاجِرَ فَعَلَّ، فَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ وَأَعْطَاهُمْ مَالَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ، فَتَلَقَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَجَمَاعَةٌ إِلَى طَرَفِ الْحَرَّةِ وَقَالُوا لَهُ: رِيحَ النَّبِيِّ، فَقَالَ: وَأَنْتُمْ فَلَا أَحْسَرَ اللَّهُ تِجَارَتِكُمْ، وَمَا ذَاكَ؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ، وَيُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «رِيحَ النَّبِيِّ صُهَيْبٌ»^(٧).

الصَّيْرِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسْوِكَ الضَّانِّ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذُّنَابِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَعَلَيْ يَجْتَرُّونَ؟ وَيَبِي يَعْتَرُونَ! حَلَفْتُ بِنَفْسِي لَا أَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ فَنَنْتَهُ تَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانًا. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: تَدَبَّرْتُهَا فِي الْقُرْآنِ فَإِذَا هُمْ الْمُنَافِقُونَ، فَوَجَدْتُهَا «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ»^(١). . . آيَةٌ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ» مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَظْهَرُ لِلنَّاسِ الْإِسْلَامَ، وَيُبَارِزُ اللَّهُ بِمَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ» . . . آيَةٌ [النساء: ١٠٨]، هَذَا مَعْنَى مَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢). وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ إِذَا أَظْهَرَ لِلنَّاسِ الْإِسْلَامَ حَلَفَ، وَأَشْهَدَ اللَّهُ لَهُمْ: أَنَّ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مُوَافِقٌ لِلِسَانِهِ. وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ، وَقَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ^(٣). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَكَاهُ عَنْ مُجَاهِدٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: «هُوَ الَّذِي خِصِمَا» أَلَا لَكُ فِي اللَّغَةِ: الْأَعْوَجُ «وَيُنزِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» [طه: ٩٧] أَي عَوْجًا. وَهَكَذَا الْمُنَافِقُ فِي حَالِ خُصُومَتِهِ يَكْذِبُ وَيُزَوِّرُ عَنِ الْحَقِّ، وَلَا يَسْتَقِيمُ مَعَهُ، بَلْ يَقْتَرِي وَيَضْجُرُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٤). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ تَرْفَعُهُ، قَالَ: «إِنَّ أَبْعَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ الْخِصْمُ»^(٥).

وَقَوْلُهُ: «وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ» وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ أَي هُوَ أَعْوَجُ الْمَقَالِ سَيِّءُ الْفِعَالِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ، وَهَذَا فِعْلُهُ، كَلَامُهُ كَذِبٌ، وَاعْتِقَادُهُ فَاسِدٌ، وَأَفْعَالُهُ قَبِيحَةٌ، وَالسَّعَى - هَهُنَا - هُوَ الْقُصْدُ، كَمَا قَالَ إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ: «ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى» فَحَسَرَ فَادَى^(٦) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَكْبَلُ^(٧) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى^(٨)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَنْتَهِي^(٩) [النازعات: ٢٢-٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» [الجمعة: ٩] أَي أَقْصِدُوا وَاعْمَدُوا نَاوِينَ بِذَلِكَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَإِنَّ السَّعَى الْحُسْبَى إِلَى الصَّلَاةِ مِنْهَا عِنْدَ السَّلَامَةِ النَّبَوِيَّةِ: «إِذَا أَنْتُمْ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأَتُوهَا وَعَلَيْكُمْ

(١) الطبري: ٤/٢٣٢ (٢) الطبري: ٤/٢٣٠ (٣) الطبري: ٤/٢٣٣

(٤) فتح الباري: ١/١١١ (٥) فتح الباري: ٨/٣٦ (٦) مسلم: ١/٤٢٠ (٧) فتح القدير: ١/٢١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَدَ يَدِهِمْ لَكُمَّ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِكَ نِعْمَةٌ
 اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١٧﴾ زَيْنَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَيَسْعُرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
 اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 ﴿١١٨﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
 فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ ءَاوَنُوهُ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٩﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
 يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ
 وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ
 الْآلَانَ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿١٢٠﴾ يَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ
 مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
 وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

البقرة: ١٦٩، ﴿وَ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾
 [فاطر: ٦] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وَقَوْلُهُ:
 ﴿فَإِنَّ زَلَّجْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَيَّ عَدَلْتُمْ
 عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجُجُ، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ﴾ أَيُّ فِي انْتِقَامِهِ لَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَائِبٌ
 ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَحْكَامِهِ وَنَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ، وَلِهَذَا قَالَ أَبُو
 الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿عَزِيزٌ﴾ فِي نَقْمَتِهِ
 ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَمْرِهِ^(٥).

﴿هَلْ يَظُنُّونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ
 وَقَفَى الْأَمْرَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿١٢١﴾

[الْحَثُّ عَلَى عَدَمِ التَّأَخِيرِ فِي الْإِيمَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُهَدِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ

وَمَعْنَى الْآيَةِ عَامٌ يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ
 وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يَفْعَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
 وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ
 وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْرَأْ بِعَيْتِكُمُ الَّتِي بَايَعْتُمْ
 بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] وَلَمَّا حَمَلَ
 هِشَامُ بْنُ عَامِرٍ بَيْنَ الصَّفِينِ أَنْكَرَ عَلَيْهِ بَعْضُ النَّاسِ، فَرَدَّ
 عَلَيْهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرَهُمَا، وَتَلَّوْا هَذِهِ
 الْآيَةَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
 وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا
 تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ فَإِنَّ
 زَلَّجْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 حَكِيمٌ ﴿١٢٩﴾

[وَجُوبُ الْأَخْذِ بِالْإِسْلَامِ كَامِلًا]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، الْمُصَدِّقِينَ
 بِرَسُولِهِ، أَنْ يَأْخُذُوا بِجَمِيعِ عُرَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ،
 وَالْعَمَلَ بِجَمِيعِ أَوَامِرِهِ، وَتَرَكَ جَمِيعِ زَوَاجِرِهِ، مَا
 اسْتَطَاعُوا مِنْ ذَلِكَ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،
 وَمُجَاهِدٌ وَطَاوُسٌ وَالضَّحَّاكُ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ
 وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يَعْنِي
 الْإِسْلَامَ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿كَآفَّةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ
 وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَعِكْرَمَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ
 حَبَّانٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: جَمِيعًا^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ
 اعْمَلُوا بِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَوَجُوهِ الْبِرِّ^(٣) خَاصَّةً مَنْ آمَنَ مِنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ.

كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ - كَذَا قَرَأَهَا
 بِالنَّصَبِ - يَعْنِي: مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مَعَ
 الْإِيمَانِ بِاللَّهِ مُسْتَمْسِكِينَ بِبَعْضِ أُمُورِ التَّوْرَةِ وَالشَّرَائِعِ الَّتِي
 أَنْزَلَتْ فِيهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾^(٤)
 يَقُولُ: ادْخُلُوا فِي شَرَائِعِ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا تَدْعُوا مِنْهَا
 شَيْئًا، وَحَسْبُكُمْ الْإِيمَانُ بِالتَّوْرَةِ وَمَا فِيهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أَيُّ اعْمَلُوا
 الطَّاعَاتِ وَاجْتَنِبُوا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ الشَّيْطَانُ فَ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
 بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾

(١) الطبري: ٢٥٢/٤ وابن أبي حاتم غ: ٥٨٤/٢ ٥٨٥ (٢)
 ابن أبي حاتم غ: ٥٨٦-٥٨٨ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٥٨٥/٢
 (٤) ابن أبي حاتم غ: ٥٨٢/٢ (٥) ابن أبي حاتم غ: ٥٩١/٢

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يَعْني يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِضَلِّ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَجَزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢١٢﴾ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنْ لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢١٣﴾﴾ [الفرج: ٢١-٢٣] وَقَالَ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾... [الأنعام: ١٥٨].

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يَقُولُ: وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجِيءُ فِيمَا يَشَاءُ^(١). وَهِيَ فِي بَعْضِ الْفِرَاءَاتِ (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ) وَهِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ وَنِزْلُ الْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْتَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١٤﴾﴾ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَزُرُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٥﴾﴾ [عقاب تَبْدِيلِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَالسُّحْرِيَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يَقُولُ: وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجِيءُ فِيمَا يَشَاءُ^(١). وَهِيَ فِي بَعْضِ الْفِرَاءَاتِ (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ) وَهِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ وَنِزْلُ الْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْتَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١٤﴾﴾ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَزُرُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٥﴾﴾ [عقاب تَبْدِيلِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَالسُّحْرِيَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: كَمْ شَاهَدُوا مَعَ مُوسَى مِنْ آيَاتِنَا، أَيْ حُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ، كَيَدِيهِ وَعَصَاهُ، وَقَلْبِهِ الْبَحْرَ، وَضَرْبِ الْحَجَرِ، وَمَا كَانَ مِنْ تَطْلِيلِ الْغَمَامِ عَلَيْهِمْ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمِنْ إِنْزَالِ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِدْقِ مَنْ جَرَتْ هَذِهِ الْخَوَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ، وَمَعَ هَذَا أَعْرَضَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْهَا، وَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، أَيْ اسْتَبَدَّلُوا بِالْإِيمَانِ بِهَا الْكُفْرَ بِهَا وَالْإِعْرَاضَ عَنْهَا ﴿وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ﴿٢١٦﴾﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّ الْفِرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، قَالَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي بَيْتِهِمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٧﴾﴾ [الْإِخْتِلَافُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ دَلِيلَ عَلَى الْبُغْيِ وَالضَّلَالِ]

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، قَالَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي بَيْتِهِمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٧﴾﴾ [الْإِخْتِلَافُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ دَلِيلَ عَلَى الْبُغْيِ وَالضَّلَالِ]

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، قَالَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي بَيْتِهِمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٧﴾﴾ [الْإِخْتِلَافُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ دَلِيلَ عَلَى الْبُغْيِ وَالضَّلَالِ]

(١) الطبري: ٢٦٤/٤ (٢) الحميدي: ٤٥٩/٢ (٣) الطبراني:

١٩٢/١٠ (٤) فتح الباري: ٣٥٧/٣ (٥) مسلم: ٤/٢٧٣٢

(٦) أحمد: ٧١/٦

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ أُنِي وَلَهُ الْحُكْمُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَائِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تُهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١) وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْتُورِ: «اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا، وَأَرِزُقْنَا اتِّبَاعَهُ، وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَأَرِزُقْنَا اجْتِنَابَهُ، وَلَا تَجْعَلْهُ مُلْتَبَسًا عَلَيْنَا فَفَضِّلْ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا»^(٢).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ﴾ وَالنَّسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرُزُلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ آلاَءَ إِنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبًا ﴿١٣١﴾ ﴿لَا يَحْضِلُّ النَّصْرُ وَدُخُولَ الْجَنَّةِ إِلَّا بَعْدَ الْإِخْتِيَارِ وَالتَّمْيِيزِ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ قَبْلَ أَنْ تُبْتَلُوا وَتُخْتَبَرُوا وَتُمْتَحَنُوا كَمَا فَعِلَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ﴾ وَالنَّسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَهِيَ الْأَمْرَاضُ وَالْأَسْقَامُ وَالْأَلَامُ وَالْمَصَائِبُ وَالنَّوَائِبُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُرَّةُ الْهَمْدَانِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: ﴿النَّسَاءُ﴾ الْفَقْرُ^(١). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ الْسَقَمُ.

﴿وَرُزُلُوا﴾ خَوْفًا مِنَ الْأَعْدَاءِ زَلْزَالًا شَدِيدًا، وَامْتِحْنًا إِمْتِحَانًا عَظِيمًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ حَبَابِ ابْنِ الْأَرْتِّ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ فَقَالَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوضِعُ الْمِنْشَارَ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُخَلِّصُ إِلَى قَدَمَيْهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ». ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّهِ

قِرَاءَةً عَبْدُ اللَّهِ: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)^(١). وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ^(٢) ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، كَذَا رَوَى أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهَا: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)^(٣).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قَالَ: كَانُوا عَلَى الْهُدَى جَمِيعًا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَعِثَ نُوحًا^(٤).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾... الْآيَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِيَانَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، فَعَدَا لِلْيَهُودِ، وَبَعَدَ غَدًا لِلنَّصَارَى»^(٥).

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ فَاخْتَلَفُوا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَاتَّخَذَ الْيَهُودُ يَوْمَ السَّبْتِ، وَالنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ. وَاخْتَلَفُوا فِي الْقِبْلَةِ فَاسْتَقْبَلَتِ النَّصَارَى الْمَشْرِقَ، وَالْيَهُودُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْقِبْلَةِ. وَاخْتَلَفُوا فِي الصَّلَاةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرْكَعُ وَلَا يَسْجُدُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْجُدُ وَلَا يَرْكَعُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَلِّي وَهُوَ يَتَكَلَّمُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَلِّي وَهُوَ يَمْشِي، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ. وَاخْتَلَفُوا فِي الصِّيَامِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَصُومُ بَعْضَ النَّهَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصُومُ عَنْ بَعْضِ الطَّعَامِ، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ. وَاخْتَلَفُوا فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: كَانَ يَهُودِيًّا، وَقَالَتِ النَّصَارَى كَانَ نَصْرَانِيًّا، وَجَعَلَهُ اللَّهُ حَنِيفًا مُسْلِمًا، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ. وَاخْتَلَفُوا فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَذَّبَتْ بِهِ الْيَهُودُ، وَقَالُوا لِأُمِّهِ بُهْتَانًا عَظِيمًا، وَجَعَلَتْهُ النَّصَارَى إِلَهًا وَوَلَدًا، وَجَعَلَهُ اللَّهُ رُوحَهُ وَكَلِمَتَهُ، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أَيُّ يَعْلَمُوهُ بِهِمْ وَيَمَا هَدَاهُمْ لَهُ. قَالَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ^(٧). ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ مِنْ خَلْقِهِ ﴿إِلَى

(١) الطبري: ٢٧٥/٤ (٢) الحاكم: ٥٤٦/٢ (٣) الطبري: ٤/٧٨ (٤) عبد الرزاق: ٨٢/١ (٥) عبد الرزاق: ٨٢/١ (٦) الطبري: ٢٨٤/٤ (٧) الطبري: ٢٨٦/٤ (٨) انفراد بإخراجه مسلم: ٥٣٤/١ (٩) تخريج الإحياء: ١٤١٨/٣ (١٠) ابن أبي حاتم: ٦٦٦/٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدْعُنَّ سَبِيلَ اللَّهِ وَكُفْرًا بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ وَلَا يَرَاؤُنَّ يَفْقَهُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٍ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦٩﴾

وَلَا يَمِينُونَ بِنِ مِهْرَانَ هَذِهِ الْآيَةِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ مَوَاضِعُ الثَّقَةِ، مَا ذَكَرَ فِيهَا طَبْلًا وَلَا مِزْمَارًا وَلَا تَصَاوِيرَ الْخُشْبِ وَلَا كِسْوَةَ الْجِيطَانِ^(٥).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلَيْهِمْ﴾ أَي مَهْمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنْ فِعْلٍ مَعْرُوفٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَطْلُمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾

[إِجْبَابُ الْجِهَادِ]

هَذَا إِجْبَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْجِهَادِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكْفُوا شَرَّ الْأَعْدَاءِ عَنِ حُوزَةِ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ:

(١) فتح الباري: ٧١٦/٦ (٢) فتح الباري: ٢٥/٩ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٦١٩/٢ (٤) الحاكم: ٦١١/٣ (٥) ابن أبي حاتم غ: ٦٢٠/٢

لَيْتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّائِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتٍ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعْجِلُونَ^(١).

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وَقَدْ حَصَلَ مِنْ هَذَا جَانِبٌ عَظِيمٌ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي يَوْمِ الْأَحْزَابِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ﴿١٦٦﴾ هُنَاكَ أُبْتَلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٦٧﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ... الْآيَاتِ [الأحزاب: ١٠-١٢]. وَكَمَا سَأَلَ هِرْقُلُ أَبَا سُفْيَانَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ فَكَيْفَ كَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ؟ قَالَ سِجَالًا، يُدَالُ عَلَيْنَا وَنُدَالُ عَلَيْهِ. قَالَ: كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَي سَنَّتُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨] وَقَوْلُهُ: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ﴾ أَي يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَيَدْعُونَ بِقُرْبِ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ عِنْدَ ضَيْقِ الْحَالِ وَالشَّدَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَصَرَ اللَّهُ قُرَيْبًا﴾ ﴿١٦٦﴾ كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّا مَعَ الْقَسْرِ سُرًا﴾ ﴿١٦٧﴾ إِنَّا مَعَ الْقَسْرِ سُرًا﴾ [الشرح: ٦٥، ٦٥]. وَكَمَا تَكُونُ الشَّدَةُ: يَنْزِلُ مِنَ النَّصْرِ مِثْلُهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَصَرَ اللَّهُ قُرَيْبًا﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ فِي الْأَقْرَابِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ

اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ ﴿١٦٥﴾

[مَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِ؟]

قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي نَفَقَةِ التَّطَوُّعِ^(٣). وَمَعْنَى الْآيَةِ: يَسْأَلُونَكَ كَيْفَ يُنْفِقُونَ؟ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ. فَبَيَّنَ لَهُمْ تَعَالَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَالَّذِينَ فِي الْأَقْرَابِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أَي إِصْرُفُهَا فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ، كَمَا جَاءَ الْحَدِيثُ: «أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأَخْتِكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»^(٤).

رَجُلَانِ وَيَقِي بَيْتَهُمْ، فَلَقُوا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ فَقَتَلُوهُ، وَلَمْ يَدْرُوا أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ رَجَبٍ أَوْ مِنْ جُمَادَى، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: قَتَلْتُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كِبِيرٌ...﴾ الآية (٣).

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ هِشَامٍ رَاوِي السِّيَرَةِ، عَنْ زِيَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَكَّائِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارِ الْمَدَنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ لَهُ، أَنَّهُ قَالَ: وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشِ بْنِ رِثَابِ الْأَسَدِيِّ فِي رَجَبٍ مَقْفَلَةً مِنْ بَدْرِ الْأُولَى، وَبَعَثَ مَعَهُ ثَمَانِيَةَ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، لَيْسَ فِيهِمْ مِنَ الْأَنْصَارِ أَحَدٌ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَنْظُرَ فِيهِ حَتَّى يَبْسِرَ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ يَنْظُرَ فِيهِ فَيَمْضِي لِمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَلَا يَسْتَكْرِهَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا.

وَكَانَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، ثُمَّ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ: أَبُو حُدَيْفَةَ بْنُ عُثْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَمِنْ خُلَفَائِهِمْ: عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ جَحْشٍ، وَهُوَ أَمِيرُ الْقَوْمِ، وَعُكَّاشَةُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحَدِ بَنِي أُسَدِ بْنِ حُرَيْمَةَ، وَمِنْ بَنِي تَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ: عُثْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بْنِ جَابِرٍ، حَلِيفٌ لَهُمْ، وَمِنْ بَنِي زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَمِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ: عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، حَلِيفٌ لَهُمْ مِنْ عَنَزِ بْنِ وَاثِلٍ، وَوَأْفِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ عَرَبِينَ بْنِ نَعْلَةَ بْنِ يَرْبُوعٍ، أَحَدُ بَنِي تَمِيمٍ - حَلِيفٌ لَهُمْ - وَخَالِدُ بْنُ الْبُكَيْرِ أَحَدُ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ، حَلِيفٌ لَهُمْ، وَمِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرِ: سُهَيْلُ بْنُ بَيْضَاءَ. فَلَمَّا سَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ يَوْمَئِذٍ، فَتَحَ الْكِتَابَ فَنَظَرَ فَإِذَا فِيهِ: إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا، فَاْمُضْ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، تَرَضُّدُ بِهَا فُرَيْشًا، وَتَعَلَّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ. فَلَمَّا نَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ الْكِتَابَ، قَالَ: سَمِعَا وَطَاعَةً، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: قَدْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى نَخْلَةَ، أَرَضُّدُ بِهَا فُرَيْشًا، حَتَّى آتِيَهُ مِنْهُمْ بِخَبْرٍ، وَقَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الشَّهَادَةَ وَيَرِغِبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ، فَأَمَّا أَنَا فَمَاضٍ لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَضَى

الْجِهَادَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ غَزَا أَوْ قَعَدَ، فَالْقَاعِدُ، عَلَيْهِ إِذَا اسْتُعِينَ أَنْ يُعِينَ، وَإِذَا اسْتُعِيثَ أَنْ يُعِيثَ، وَإِذَا اسْتُنْفِرَ أَنْ يَنْفِرَ، وَإِنْ لَمْ يُحْتَجَّ إِلَيْهِ قَعَدَ.

(قُلْتُ) وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ، مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً» (١). وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْفَتْحِ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَأَنْفِرُوا» (٢).

وَقَوْلُهُ: «وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ» أَي شَدِيدٌ عَلَيْكُمْ وَمَشَقَّةٌ. وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا أَنْ يُقْتَلَ أَوْ يُجْرَحَ مَعَ مَشَقَّةِ السَّفَرِ وَمُجَالِدَةِ الْأَعْدَاءِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» أَي لِأَنَّ الْقِتَالَ يُعَقِّبُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالْإِسْتِيلَاءَ عَلَى بِلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ. «وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» وَهَذَا عَامٌّ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، فَذُجِبَ الْمَرْءُ شَيْئًا وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ خَيْرَةٌ وَلَا مَضْلَحَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ الْقُعُودُ عَنِ الْقِتَالِ فَذُجِبَتْهُ اسْتِيلَاءُ الْعَدُوِّ عَلَى الْبِلَادِ وَالْحُكْمِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» أَي هُوَ أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ مِنْكُمْ، وَأَخْبَرَ بِمَا فِيهِ صَلَاحُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَأَخْرَاطِكُمْ، فَاسْتَجِيبُوا لَهُ وَاتَّقُوا لِأَمْرِهِ، لَعَلَّكُمْ تَرْضَوْنَ.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُ يُقَاتِلُكُمْ حَتَّى تَرْضَوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنْ أَلْبَسْتُمْ أَهْلَ الدِّينِ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

[سَرِيَّةُ نَخْلَةَ، وَحُكْمُ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ] رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَهْطًا، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَلَمَّا ذَهَبَ يَنْطَلِقُ بِكَيِّ صَبَابَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَبَسَهُ، فَعَثَ عَلَيْهِمْ مَكَانَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا، وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَقْرَأَ الْكِتَابَ حَتَّى يَبْلُغَ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ: «لَا تُكْرَهُنَّ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ». فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ اسْتَرْجَعَ، وَقَالَ: سَمِعَا وَطَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَخَبَرَهُمُ الْخَبْرَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، فَارْجَعَ

(١) مسلم: ١٥١٧/٣ (٢) فتح الباري: ٥٦/٤ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٦٢٨/٢

وَمَضَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ.
فَسَلَّكَ عَلَى الْحِجَازِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِمَعْدِنِ فَوْقِ الْفُرْعِ
يُقَالُ لَهُ بَحْرَانُ، أَضَلَّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ
بَعِيرًا لَهُمَا كَانَا يَعْتَبِرَانِهِ، فَتَخَلَّفَا عَلَيْهِ فِي طَلَبِهِ، وَمَضَى عَبْدُ
اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَبِقِيَّةِ أَصْحَابِهِ حَتَّى نَزَلَ بِنَخْلَةَ، فَمَرَّتْ بِهِ
عَيْرٌ لِقُرَيْشٍ تَحْمِلُ زَبِيبًا وَأُدْمًا وَبِجَارَةَ مِنْ تِجَارَةِ قُرَيْشٍ،
فِيهَا عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ، وَاسْمُ الْحَضْرَمِيِّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
عَبَادٍ أَحَدُ الصَّدَفِ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغْبِرَةِ وَأَخُوهُ
نُوفَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَخْزُومِيَّانِ، وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ مَوْلَى
هِشَامِ بْنِ الْمُغْبِرَةِ، فَلَمَّا رَأَهُمُ الْقَوْمُ هَابُوهُمْ، وَقَدْ نَزَلُوا
قَرِيبًا مِنْهُمْ، فَأَشْرَفَ لَهُمْ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، وَكَانَ قَدْ
حَلَقَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ آمَنُوا وَقَالُوا: عَمَّارٌ، لَا بَأْسَ
عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ.

وَتَشَاوَرَ الْقَوْمُ فِيهِمْ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ،
فَقَالَ الْقَوْمُ: وَاللَّهِ لَئِنْ تَرَكْتُمْ الْقَوْمَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَيَدْخُلَنَّ
الْحَرَمَ، فَلَيَمْتَنِعَنَّ مِنْكُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ لَتَقْتُلْتُمَهُمْ فِي
الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَتَرَدَّدَ الْقَوْمُ وَهَابُوا الْإِفْدَامَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ
سَجَعُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِ مَنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ
مِنْهُمْ وَأَخَذُوا مَا مَعَهُمْ، فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ
عَمْرُو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَاسْتَأَسَرَ عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ
اللَّهِ وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ، وَأَقَلَّتِ الْقَوْمُ نُوفَلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ
فَأَعَجَزَهُمْ. وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَأَصْحَابُهُ بِالْعَيْرِ
وَالْأَسِيرِينَ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ آلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
جَحْشٍ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِمَّا
غَنِمْنَا الْخُمْسَ. وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَفْرَضَ اللَّهُ الْخُمْسَ مِنَ
الْمَغَازِمِ، فَعَزَلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خُمْسَ الْعَيْرِ، وَقَسَمَ
سَائِرَهَا بَيْنَ أَصْحَابِهِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَا أَمْرُكُمْ بِقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ»
فَوَقَّفَ الْعَيْرَ وَالْأَسِيرِينَ، وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا.
فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَسْقَطَ فِي أَيْدِي الْقَوْمِ،
وَطَنُوا أَنْتَهُمْ قَدْ هَلَكُوا، وَعَقَّبَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
فِيمَا صَنَعُوا، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدْ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ
الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَسَفَعُوا فِيهِ الدَّمَ، وَأَخَذُوا فِيهِ الْأَمْوَالَ،
وَأَسْرُوا فِيهِ الرِّجَالَ؛ فَقَالَ مَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
مِمَّنْ كَانَ بِمَكَّةَ: إِنَّمَا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا فِي شَعْبَانَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا تَجَلَّى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ
وَأَصْحَابِهِ مَا كَانُوا فِيهِ حِينَ نَزَلَ الْقُرْآنَ طَمَعُوا فِي الْأَجْرِ،
فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْطَمِعُ أَنْ تَكُونَ لَنَا غَزْوَةً نُعْطَى فِيهَا
أَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الذِّبْنَ أَمْوَا
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ رَجُونَ رَحْمَتَ
اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَوَضَعَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَعْظَمِ
الرَّجَاءِ^(١).

(١) ابن هشام: ٢٥٢/٢-٢٥٥

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَغْفُورُ كَذَلِكَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَنْ خَرَّ وَإِنْ تَخَاطَبْتُمْ فِيهَا خَيْرٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْصِلِينَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَاللَّهُ لَعَنَتَكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

الْتَدْرُجُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مَيْسِرَةَ، عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا أُزِيلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتٌ شَافِيَا، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فُدِعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتٌ شَافِيَا، فَزَلَّتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّسَاءِ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَى: أَنْ لَا يَقْرَبِينَ الصَّلَاةَ سُكَرَانَ، فُدِعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتٌ شَافِيَا، فَزَلَّتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، فُدِعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَلَمَّا بَلَغَ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا^(١). هَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٢)، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: هَذَا الْإِسْنَادُ صَالِحٌ صَحِيحٌ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَسَيَأْتِي هَذَا الْحَدِيثُ أَيْضًا مَعَ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا عِنْدَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾... الْآيَاتِ^(٣).

فَقَوْلُهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أَمَا الْخَمْرُ، فَكَمَّا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ كُلُّ مَا حَامَرَ الْعَقْلَ. كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَكَذَا الْمَيْسِرُ، وَهُوَ الْقِمَارُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ﴾ أَمَا إِثْمُهُمَا فَهُوَ فِي الدِّينِ، وَأَمَا الْمَنَافِعُ فَدُنْيَوِيَّةٌ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِيهَا نَفْعَ الْبَدَنِ وَتَهْيِيزَ الطَّعَامِ - وَإِخْرَاجَ الْفَضْلَاتِ، وَتَسْجِيدَ بَعْضِ الْأَذْهَانِ وَكَذَلِكَ الشَّدَّةِ الْمُطْرَبَةِ الَّتِي فِيهَا، وَكَذَا بَيْعُهَا وَالِانْتِفَاعُ بِمَنْعِهَا. وَمَا كَانَ يَقْمَسُهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الْمَيْسِرِ فَيَنْفَعُهُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عِيَالِهِ. وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَصَالِحُ لَا تُؤَازِرُ مَضَرَّتَهُ وَمَفْسَدَتَهُ الرَّاجِحَةَ، لِتَعَلُّقِهَا بِالْعَقْلِ وَالدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾،

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَنْ خَرَّ وَإِنْ تَخَاطَبْتُمْ فِيهَا خَيْرٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْصِلِينَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَاللَّهُ لَعَنَتَكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَئِنَّكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ كُنْتُمْ لَمَنْ يَنْكِحُهُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِآذَانِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ سَبَّحْتُمْ وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُزُورًا لِأَيِّمَنِيكُمْ أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُمَهَّدَةً لِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ عَلَى النَّبَاتِ، وَلَمْ تَكُنْ مُصْرَحَةً بَلْ مُعْرَضَةً، وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قُرِئَتْ عَلَيْهِ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتٌ شَافِيَا. حَتَّى نَزَلَ التَّصْرِيحُ بِتَحْرِيمِهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ^(٥) وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِهِ التَّقَّةُ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَالشَّعْبِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِنَّ هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْخَمْرِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ

(١) أحمد: ٥٣١/١ (٢) أبو داود: ٧٩/٤ وتحفة الأحوذى: ٤١٥/٨ والنسائي: ٢٨٧/٨ (٣) أحمد: ٣٥١/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٦٦/٢

يَأْكُلُهُ أَوْ يَسُدُّ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلَّ إِصْلَاحُ لَهَا خَيْرٌ إِنْ تَخَاطَبْتُمْ فِيهَا خَوَاتِمُكُمْ﴾ فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ^(٨). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ^(٩) وَالحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ^(١٠). وَهَكَذَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، كَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالشَّعْبِيِّ، وَابْنِ أَبِي لَيْلَى وَفَتَاةُ وَعَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ^(١١).

وَرَوَى وَكِيعٌ بِنُ الْجَرَّاحِ عَنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ مَالُ النَّبِيِّ عِنْدِي عُرَّةً، حَتَّى أُخَلِّطَ طَعَامَهُ بِطَعَامِي، وَشَرَابَهُ بِشَرَابِي^(١٢).

فَقَوْلُهُ: ﴿قُلَّ إِصْلَاحُ لَهَا خَيْرٌ﴾ أَيُّ عَلَى حِدَةٍ، ﴿وَإِنْ تَخَاطَبْتُمْ فِيهَا خَوَاتِمُكُمْ﴾ أَيُّ وَإِنْ خَلَطْتُمْ طَعَامَكُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَكُمْ بِشَرَابِهِمْ فَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ، لِأَنَّكُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْهَسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أَيُّ يَعْلَمُ مَنْ قَضَاهُ وَبَيَّنَّهُ الْإِفْسَادَ أَوْ الْإِصْلَاحَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَصَبَقَ عَلَيْكُمْ وَأَحْرَجَكُمْ، وَلَكِنَّهُ وَسَّعَ عَلَيْكُمْ، وَخَفَّفَ عَنْكُمْ، وَأَبَاحَ لَكُمْ مُحَالَطَتَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بَلْ قَدْ جَوَّرَ الْأَكْلَ مِنْهُ لِلْفَقِيرِ بِالْمَعْرُوفِ، إِمَّا بِشَرْطِ صَمَانِ الْبَدَلِ لِمَنْ أَيْسَرَ، أَوْ مَجَانًا، كَمَا سَيَأْتِي بَيَّانُهُ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ التَّقَهُ.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِوَالِدِهَا وَمُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِمَّنْ مُشْرِكَةٌ وَلَوْ أَحَبَّبْتُمْ﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِمَّنْ مُشْرِكٌ وَلَوْ أَحَبَّبْتُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيْنَ عَائِيَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

[تَحْرِيمُ نِكَاحِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ]

هَذَا تَحْرِيمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا الْمُشْرِكَاتِ مِنْ عِبْدَةِ الْأَوْثَانِ، ثُمَّ إِنْ كَانَ عُمُومُهَا مُرَادًا،

(١) الطبري: ٣٣١/٤ - ٣٣٦ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٦٥٦/٢

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٦٥٦/٢ و ٦٥٧ (٤) الطبري: ٣٤٠/٤

(٥) مسلم: ٦٩٢/٢ (٦) مسلم: ١٠٣٦ (٧) الطبري: ٤/٤

(٨) الطبري: ٣٥٠/٤ إسناده ضعيف لاختلاط عطاء بن

السائب (٩) أبو داود: ٢٩١/٣ والنسائي: ٢٥٦/٦ (١٠)

الحاكم: ١٠٣/٢ (١١) الطبري: ٣٥٣-٣٥٠/٤ (١٢)

الطبري: ٣٥٥/٤

كَبِيرٌ، ثُمَّ نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، ثُمَّ نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ فَحَرَمَتِ الْخَمْرَ^(١).

[الْأَمْرُ بِإِنْفَاقِ مَا فَضَّلَ مِنَ الْمَالِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْمَعْتَدُ﴾ قُرِئَ بِالنَّضْبِ وَبِالرَّفْعِ، وَكِلَاهُمَا حَسَنٌ مُتَّجِهٌ قَرِيبٌ. وَقَالَ الْحَكَمُ عَنْ مِقْسَمِ بْنِ عَبْدِ عَبَّاسٍ: ﴿وَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْمَعْتَدُ﴾ قَالَ: مَا يُفْضَلُ عَنْ أَهْلِكَ^(٢). كَذَا رَوَى عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، وَمُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ، وَالْحَسَنَ وَفَتَاةُ وَالْقَاسِمَ، وَسَالِمَ، وَعَطَاءَ الْخُرَاسَانِيِّ، وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ وَغَيْرَ وَاحِدٍ^(٣).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِنْدِي دِينَارٌ، قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى أَهْلِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبْصَرُ»^(٤)؛ وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلَا أَهْلَكَ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ عَنْ أَهْلِكَ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا»^(٥).

وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: «ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْدَلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ. وَلَا تَلَامُ عَلَى كِفَافٍ»^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَيُّ كَمَا فَضَّلَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَّهَا وَأَوْضَحَهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ سَائِرَ الْآيَاتِ فِي أَحْكَامِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي فِي زَوَالِ الدُّنْيَا وَقَنَائِمِهَا، وَأَقْبَالَ الْآخِرَةِ وَبِقَائِمِهَا^(٧).

[إِصْلَاحُ أَمْوَالِ النِّبَاتِي]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلَّ إِصْلَاحُ لَهَا خَيْرٌ إِنْ تَخَاطَبْتُمْ فِيهَا خَوَاتِمُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْهَسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾... الْآيَةَ، رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤] وَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا إِتْمًا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] إِذْ طَلَّقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يُفْضَلُ لَهُ الشَّيْءُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى

وَمُخَالَطَتُهُمْ تَبَعَتْ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَافْتِنَانِهَا وَإِنَارِهَا عَلَى الدَّارِ الآخِرَةِ، وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ وَحِيمَةٌ ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ لِذُنُوبِهِمْ﴾ أَي بِشَرِّهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ وَمَا نَهَى عَنْهُ ﴿وَبَيْنَ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ .

﴿وَسَأَلْتُنَاكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَى فَاغْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ يَشْتُمُوا وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُهُمْ وَبَيَّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٢٣﴾

[الْأَمْرُ بِاغْتِرَالِ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ]

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يُوَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَاعِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَأَلْتُنَاكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَى فَاغْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ حَتَّى فَرَعَ مِنَ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ». فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدْعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا، إِلَّا خَالَفْنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ كَذَا وَكَذَا، أَفَلَا نَجَاعِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَحَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةً مِنْ لَبَنٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنَّ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَقَوْلُهُ: ﴿فَاغْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ يَعْنِي الْفَرْجَ، لِقَوْلِهِ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»^(١). وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ، إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ مَبَاشَرَةُ الْحَائِضِ فِيمَا عَدَا الْفَرْجَ، رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ مِنَ الْحَائِضِ شَيْئًا أَلْقَى عَلَى فَرْجِهَا تُوْبًا^(٢).

وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُشْرِكَةٍ مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَوَتَيْيَةٍ، فَقَدْ خَصَّ مِنْ ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَلْخَصَّنَا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْنَاهُمُ الْأُجُورَهُنَّ مُخْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْحِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾: اسْتَشْنَى اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ^(١). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَمَكْحُولٌ وَالْحَسَنُ وَالصَّحَّاحُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْرُهُمْ^(٢). وَقِيلَ: بَلِ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِبَدَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَمْ يُرَدْ أَهْلُ الْكِتَابِ بِالْكَلِمَةِ. وَالْمَعْنَى قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ حِكَايَتِهِ الْإِجْمَاعَ عَلَى إِبَاحَةِ تَزْوِيجِ الْكِتَابِيَّاتِ: وَإِنَّمَا كَرِهَ عُمَرُ ذَلِكَ لِئَلَّا يَزْهَدَ النَّاسُ فِي الْمُسْلِمَاتِ، أَوْ لِيُغَيَّرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي. كَمَا رَوَى أَبُو كُرَيْبٍ عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: تَزَوَّجَ حُدَيْفَةُ يَهُودِيَّةً، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: خَلِّ سَبِيلَهَا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَتَزْعُمُ أَنَّهَا حَرَامٌ، فَأَخْلَى سَبِيلَهَا؟ فَقَالَ: لَا أَزْعُمُ أَنَّهَا حَرَامٌ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تَعَاطُوا الْمُؤْمِسَاتِ مِنْهُنَّ^(٣). وَهَذَا إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: الْمُسْلِمُ يَتَزَوَّجُ النَّصْرَانِيَّةَ، وَلَا يَتَزَوَّجُ النَّصْرَانِي الْمُسْلِمَةَ^(٤). قَالَ: وَهَذَا أَصَحُّ إِسْنَادًا مِنَ الْأَوَّلِ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ كَرِهَ نِكَاحَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَتَأَوَّلَ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾^(٥). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا أَعْلَمُ شِرْكًَا أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَقُولَ: رَبُّهَا عَيْسَى^(٦).

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِارْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاطْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرَبَّتْ يَدَاكَ»^(٧). وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ مِثْلَهُ^(٨). وَلَهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أَي لَا تَزَوَّجُوا الرِّجَالَ الْمُشْرِكِينَ النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أَي وَلَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ - وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبْسِيًّا - خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ، وَإِنْ كَانَ زَيْسًا سَرِيًّا. ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى الْتَارِ﴾ أَي مُعَاشَرَتِهِمْ

(١) الطبري: ٣٦٢/٤ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٦٦٩/٢-٦٧١

(٣) الطبري: ٣٦٦/٤ (٤) الطبري: ٣٦٦/٤ فيه يزيد بن أبي

زيد الكوفي ضعيف كبير فتغير صار يلقن، وكان شيعياً (تق) (٥)

ابن أبي حاتم غ: ٦٧١/٢ (٦) فتح الباري: ٣٢٦/٩ (٧) فتح

الباري: ٣٥/٩ ومسلم: ١٠٨٧/٢ (٨) مسلم: ١٠٨٧/٢ (٩)

مسلم: ١٠٩٠/٢ (١٠) أحمد: ١٣٢/٣ (١١) مسلم: ١/

٢٤٦ (١٢) أبو داود: ٢٨٦/١

وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ أَنَّ مَسْرُوقًا رَكِبَ إِلَى عَائِشَةَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ وَعَلَى أَهْلِهِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَبُو عَائِشَةَ؟ مَرْجًا مَرْجًا، فَأَذَّنُوا لَهُ، فَدَخَلَ فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ وَأَنَا أَسْتَحْيِي، فَقَالَتْ: إِنَّمَا أَنَا أُمُّكَ وَأَنْتَ ابْنِي، فَقَالَ: مَا لِلرَّجُلِ مِنْ أَمْرِيَّةٍ وَهِيَ حَائِضٌ؟ فَقَالَتْ: لَهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا فُرْجَهَا^(١). وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرَمَةَ.

وَوَيْحُ النَّظْمِيِّينَ أَيِ الْمُتَزَهِّينَ عَنِ الْأَقْدَارِ وَالْأَدْيِ، وَهُوَ مَا نُهِيَ عَنْهُ مِنْ إِيْتَانِ الْحَائِضِ أَوْ فِي غَيْرِ الْمَأْتَى.

[سَبَبُ نَزُولِ قَوْلِهِ ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلْحَرْثُ مَوْضِعُ الْوَلَدِ^(١). ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَّيْ شَيْئًا﴾ أَيِ كَيْفَ شَيْئًا، مُقْبِلَةً وَمُذْبِرَةً فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ، كَمَا تَبَيَّنَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ:

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ الْمُثَنِّدِ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا قَالَ: كَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَّيْ شَيْئًا﴾^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ^(٢).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنِّدِ أَنَّ جَابِرَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَخْبَرَهُ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: مَنْ أَتَى امْرَأَةً، وَهِيَ مُذْبِرَةٌ، جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَّيْ شَيْئًا﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ فِي الْحَدِيثِ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُقْبِلَةً وَمُذْبِرَةً إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْفَرْجِ»^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ فِي أَنْاسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِذَا كَانَ فِي الْفَرْجِ»^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ ابْنَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ أَمْرٍ، وَأَنَا أَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ، قَالَتْ: فَلَا تَسْتَحْيِي يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: عَنْ إِيْتَانِ النِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ؟ قَالَتْ: حَدَّثَنِي أُمُّ سَلَمَةَ أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا لَا

(قُلْتُ) وَيَجُلُّ مُضَاجَعَتُهَا وَمَوَاكِلَتُهَا بِلَا خِلَافٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَأْمُرُنِي فَأَغْسِلُ رَأْسَهُ وَأَنَا حَائِضٌ، وَكَانَ يَتَكَبَّرُ فِي حُجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ^(٥). وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهَا، قَالَتْ: كُنْتُ أَتَعَرَّقُ الْعَرَقَ وَأَنَا حَائِضٌ فَأَعْطِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي وَضَعْتُ فَمِي فِيهِ، وَأَشْرَبُ الشَّرَابَ فَأَنَا وَلَهُ فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كُنْتُ أَشْرَبُ مِنْهُ^(٦).

وَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْهَلَالِيَّةِ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَاشِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ أَمْرَهَا فَاتَّزَرَّتْ وَهِيَ حَائِضٌ. وَهَذَا لَقَطُ الْبُخَارِيِّ^(٧). وَلَهُمَا عَنِ عَائِشَةَ نَحْوُهُ^(٨). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: مَا يَجُلُّ لِي مِنْ أَمْرَاتِي وَهِيَ حَائِضٌ؟ قَالَ: «مَا فَوْقَ الْإِزَارِ»^(٩). فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: ﴿فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَجْبُورِ﴾ وَنَهَى عَنْ قُرْبَانِهِنَّ بِالْجَمَاعِ مَا دَامَ الْحَيْضُ مَوْجُودًا، وَمَفْهُومُهُ: جِلُّهُ إِذَا انْقَطَعَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فِيهِ نَذْبٌ وَإِشَادَةٌ إِلَى غَشْيَانِهِنَّ بَعْدَ الْإِغْتِسَالِ. وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا انْقَطَعَ حَيْضُهَا لَا تَجُلُّ حَتَّى تَغْتَسِلَ بِالْمَاءِ أَوْ تَتَيَّمَمَ إِنْ تَعَدَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا بِشَرْطِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ أَيِ مِنَ الدَّمِ ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أَيِ بِالْمَاءِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَغَيْرُهُمْ^(١٠).

[تَحْرِيمُ الْوَطْءِ فِي الدُّبُرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي الْفَرْجَ^(١١). وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ الْوَطْءِ فِي الدُّبُرِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْرِيرُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ أَبُو رَزِينٍ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ

(١) الطبري: ٣٧٨/٤ (٢) فتح الباري: ٤٧٩/١ (٣) مسلم: ٢٤٥/١ (٤) فتح الباري: ٤٨٣/١ ومسلم: ٢٤٣/١ (٥) فتح الباري: ٤٨٠/١ ومسلم: ٢٤٢/١ (٦) أحمد: ٣٤٢/٤ وأبو داود: ١٤٥/١ وتحفة الأحوذى: ٤١٥/١ وابن ماجه: ٢١٣/١ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٦٨٢/٢ و٦٨٣ (٨) ابن أبي حاتم غ: ٦٨٤ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٦٨٤/٢ و٦٨٥ (١٠) الطبري: ٣٩٧ (١١) فتح الباري: ٣٧/٨ (١٢) مسلم: ١٠٥٨/٢ وأبو داود: ٦١٨/٢ (١٣) ابن أبي حاتم غ: ٦٩٣/٢ (١٤) أحمد: ٢٦٨/١

الْبَقَرَةُ

٣٦

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ فَمَا كَسَبْتُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٢﴾ الَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ رُبُصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٣﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَسَوَاءٌ أُنْزِلَتْ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَمَا مَسَّكُمُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَمْنَاءَ تَتِيمَتُهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٦﴾ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢٧﴾

هُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ (٨).

وَرَوَى أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ أَبِي الْحَبَابِ، قَالَ: قُلْتُ: لِابْنِ عَمَرَ: مَا تَقُولُ فِي الْجَوَارِي حِينَ أُحْمَضُ لَهُنَّ؟ قَالَ: وَمَا التَّحْمِيزُ؟ فَذَكَرْتُ الدُّبْرَ، فَقَالَ: وَهَلْ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩)؟ وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ وَنَصٌّ صَرِيحٌ مِنْهُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ زَيْدٍ النَّيْسَابُورِيُّ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ ابْنُ حِصْنٍ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ رُوْحٍ، سَأَلْتُ مَالِكَ بْنَ

يَعْبُودَ النَّسَاءَ، وَكَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِنَّهُ مِنْ جَبَى امْرَأَتِهِ كَانَ وَلَدُهُ أَحْوَلُ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ نَكَحُوا فِي نِسَاءِ الْأَنْصَارِ فَجَبَّوْهُنَّ، فَأَبَتْ امْرَأَةٌ أَنْ تُطِيعَ زَوْجَهَا، وَقَالَتْ: لَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى آتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَدَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرْتُ لَهَا ذَلِكَ، فَقَالَتْ: اجْلِسِي حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، اسْتَحْيَيْتِ الْأَنْصَارِيَّةَ أَنْ تَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ، فَحَدَّثْتُ أُمَّ سَلَمَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَدْعِي الْأَنْصَارِيَّةَ» فَدُعَيْتُ، فَتَلَا عَلَيْهَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ﴾ «صِمَامًا وَاحِدًا» (١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ (٢).

وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ كَعْبِ بْنِ عَلْقَمَةَ، عَنْ أَبِي النَّضْرِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ قَالَ لِنَافِعِ مَوْلَى ابْنِ عَمَرَ إِنَّهُ قَدْ أَكْثَرَ عَلَيْكَ الْقَوْلَ، إِنَّكَ تَقُولُ عَنْ ابْنِ عَمَرَ: إِنَّهُ أَفْتَى أَنْ تُوتِيَ النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ، قَالَ: كَذَبُوا عَلَيَّ، وَلَكِنْ سَأَحْدُثُكَ كَيْفَ كَانَ الْأَمْرُ، إِنَّ ابْنَ عَمَرَ عَرَضَ الْمُصْحَفَ يَوْمًا وَأَنَا عِنْدُهُ حَتَّى بَلَغَ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ﴾ فَقَالَ: يَا نَافِعُ، هَلْ تَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْآيَةِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ، إِنَّا كُنَّا مَعَسَرَ قُرَيْشٍ نَجَبِي النِّسَاءِ، فَلَمَّا دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ وَنَكَحْنَا نِسَاءَ الْأَنْصَارِ أُرْدْنَا مِنْهَا مِثْلَ مَا كُنَّا نُرِيدُ، فَإِذَا هُنَّ قَدْ كَرِهْنَ ذَلِكَ وَأَعْظَمْنَهُ، وَكَانَتْ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ قَدْ أَخَذْنَ بِحَالِ الْيَهُودِ، إِنَّمَا يُؤْتَيْنَ عَلَى جُنُوبِهِنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ﴾ (٣) وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

رَوَى أَحْمَدُ عَنْ حُرَيْمَةَ بِنِ ثَابِتِ الْخَطْمِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَا يَسْتَحْيِي اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ - ثَلَاثًا - لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَعْجَازِهِنَّ» (٤). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٥).

وَرَوَى أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ أَتَى رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً فِي الدُّبْرِ» (٦). ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَزْمٍ أَيْضًا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ طَلْقٍ، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُوتِيَ النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (٧). وَأَخْرَجَهُ أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ:

(١) أحمد: ٣٠٥/٦ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٢٢/٨ (٣) النسائي في الكبرى: ٣١٥/٥ (٤) أحمد: ٢١٥/٥ (٥) النسائي في الكبرى: ٣١٦/٥ وابن ماجه: ٦١٩/١ (٦) تحفة الأحوذى: ٣٢٩/٤ والنسائي في الكبرى: ٣٢٠/٥ وصحيح ابن حبان: ٦/٢٠٢ (٧) ذكره ابن حجر في أطراف المسند ٣٨٤/٤ ولم يوجد في المطبوع (٨) تحفة الأحوذى: ٢٧٤/٤ (٩) الدارمي: ١/٢٧٧ ح ١١٤٣

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ﴾ قَالَ: لَا تَجْعَلَنَّ عُرْضَةً لِيَمِينِكَ أَنْ لَا تَضَعَ الْخَيْرَ، وَلَكِنْ كَفَّرَ عَنْ يَمِينِكَ وَاصْنَعِ الْخَيْرَ^(١). وَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَالشَّعْبِيُّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَطَاوُسٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ وَعِكْرِمَةُ وَمُحَاوِلٌ وَالزُّهْرِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيبٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالصَّحَّاحُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالشَّدْيِيُّ رَجَمَهُمُ اللَّهُ^(٢).

وَيُؤَيِّدُ مَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ الْجُمْهُورُ مَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا أُحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا»^(٣). وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَعْمَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»^(٤).

[لَعْنُ الْيَمِينِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ أَيُّ لَا يُعَاقِبُكُمْ وَلَا يَلْزِمُكُمْ بِمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الْأَيْمَانِ اللَّاعِيَةِ، وَهِيَ الَّتِي لَا يُقْضَاهَا الْحَالِفُ، بَلْ تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ عَادَةً مِنْ غَيْرِ تَعْقِيدٍ وَلَا تَأْكِيدٍ، كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٥). فَهَذَا قَالَهُ لِقَوْمٍ حَدِيثِي عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، قَدْ أَسْلَمُوا، وَالسُّنَنُ قَدْ أَلْفَتْ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَلْفِ بِاللَّاتِ مِنْ غَيْرِ قَضْدٍ، فَأَمَرُوا أَنْ يَتَلَفَّظُوا بِكَلِمَةِ الْإِحْلَاصِ كَمَا تَلَفَّظُوا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ مِنْ غَيْرِ قَضْدٍ، لِتَكُونَ هَذِهِ بِهِدِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾... الْآيَةَ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿بِمَا عَدَقْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٩٨].

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: (بَابُ لَعْنِ الْيَمِينِ) ثُمَّ رَوَى عَنْ عَطَاءٍ فِي اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّغْوُ فِي الْيَمِينِ هُوَ كَلَامُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ:

أَنْسِي: مَا تَقُولُ فِي إِثْبَانِ النَّسَاءِ فِي أَذْبَارِهِنَّ؟ قَالَ: مَا أَنْتُمْ قَوْمٌ عَرَبٌ؛ هَلْ يَكُونُ الْحَرْثُ إِلَّا مَوْضِعَ الزَّرْعِ؟ لَا تَعْدُوا الْفَرْجَ، قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ. قَالَ: يَكْذِبُونَ عَلَيَّ يَكْذِبُونَ عَلَيَّ. فَهَذَا هُوَ الثَّابِتُ عَنْهُ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَبِي سَلَمَةَ وَعِكْرِمَةَ وَطَاوُسٍ وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ وَالْحَسَنِ، وَعَبْرِهِمْ مِنَ السَّلْبِ: إِنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْلِقُ عَلَى فَاعِلِهِ الْكُفْرَ، وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ مَعَ امْتِنَالٍ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ تَرْكِ الْمُحْرَمَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْمَلُوا أَنْتُمْ مُلْتَمِعِينَ﴾ أَيُّ فَيَحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ جَمِيعَهَا ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ، أَلْتَارِكِينَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُمْ. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: أَرَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ قَالَ: تَقُولُ: «بِاسْمِ اللَّهِ» التَّسْمِيَةَ عِنْدَ الْجَمَاعِ^(٦). وَقَدْ نَبَتْ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»^(٧).

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَنْ تَبْزُقُوا وَتَقُولُوا وَتُصَلِّعُوا بِرَبِّ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْدِيكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

حَلِيمٌ ﴿١٦٥﴾

[الْتِهَانُ عَنِ الْيَمِينِ بِتَرْكِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَجْعَلُوا أَيْمَانَكُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى مَانِعَةً لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَصِلَةِ الرَّحِمِ إِذَا حَلَفْتُمْ عَلَى تَرْكِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّخَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْمَلُوا وَيَصَفَّحُوا إِلَّا حُبُّونَ أَنْ يَعْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فَلَا اسْتِمْرَارَ عَلَى الْيَمِينِ أَوْ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا بِالتَّكْفِيرِ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْأَخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٨)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهُ لَأَنْ يَلِجَ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ، أَوْ لَهْ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٩) وَأَحْمَدُ^(١٠).

(١) الطبري: ٤١٧/٤ (٢) فتح الباري: ١٣٦/٩ (٣) فتح الباري: ٤٤١/١٢ (٤) مسلم: ١٢٧٦/٣ (٥) أحمد: ٣١٧/٢ (٦) الطبري: ٤٢٢/٤ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٧٠٠-٧٠٢ (٨) فتح الباري: ٥٢٥/١١ (٩) مسلم: ١٢٦٨/٣ (١٠) فتح الباري: ٥٤٥/١١ (١١) مسلم: ١٢٦٨/٢

كَلَّا وَاللَّهِ، وَبَلَىٰ وَاللَّهِ»^(١).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَعُوَ الْيَمِينِ أَنْ تَحْلِفَ وَأَنْتَ غَضَبَانٌ^(٢).

وَرَوَى أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَعُوَ الْيَمِينِ أَنْ تُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، فَذَلِكَ مَا لَيْسَ عَلَيْكَ فِيهِ كَفَّارَةٌ^(٣). وَكَذَا رُوِيَ عَنِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ^(٤).

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: (بَابُ الْيَمِينِ فِي الْغَضَبِ) ثُمَّ رَوَى عَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ: أَنَّ أَحْوَرَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ بَيْنَهُمَا مِيرَاثٌ، فَسَأَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ الْقِسْمَةَ، فَقَالَ: إِنْ عُدْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْقِسْمَةِ فَكُلُّ مَالِي فِي رِتَاجِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنْ الْكَعْبَةَ غَنَيْتَهُ عَنْ مَالِكَ، كَفَّرَ عَنْ يَمِينِكَ، وَكَلَّمْ أَخَاكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَمِينُ عَلَيْكَ، وَلَا نَذْرٌ فِي مَعْصِيَةِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي قِطْعَةِ الرَّحِمِ، وَفِيمَا لَا تَمْلِكُ»^(٥).

وَقَوْلُهُ: «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هُوَ أَنْ يَحْلِفَ عَلَى الشَّيْءِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ»... [الْمائدة: ٨٩]. «وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ» أَي عَفُورٌ لِعِبَادِهِ حَلِيمٌ عَلَيْهِمْ.

«لَلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَابِهِمْ رَبْعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ» وَإِنْ عَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

[الْإِيلَاءُ وَحُكْمُهُ]

الْإِيلَاءُ: الْحَلْفُ، فَإِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ أَنْ لَا يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ مَدَّةً، فَلَا يَحْلُوَ إِذَا كَانَ يَكُونُ أَقَلَّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ أَقَلَّ، فَلَهُ أَنْ يَنْتَظِرَ انْقِضَاءَ الْمُدَّةِ ثُمَّ يُجَامِعَ امْرَأَتَهُ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَصِيرَ، وَلَيْسَ لَهَا مُطَالَبَةٌ بِالْفَيْئَةِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، آلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا، فَتَزَلَّ لِنِسْعِ وَعِشْرِينَ، وَقَالَ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ»^(٦). وَلَهُمَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نَحْوُهُ^(٧). فَأَمَّا إِنْ زَادَتْ الْمُدَّةُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَلِلزَّوْجَةِ مُطَالَبَةٌ الزَّوْجِ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، إِذَا أَنْ يَبِيءَ أَيُّ جُبَامِعٍ، وَإِذَا أَنْ يُطَلَّقَ، فَيُجْبِرُهُ الْحَاكِمُ عَلَى هَذَا، وَهَذَا لِتَلَا يَضُرَّ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «لَلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَابِهِمْ» أَي: يَحْلِفُونَ عَلَى تَرْكِ الْجَمَاعِ مِنْ نِسَائِهِمْ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِيلَاءَ يَخْتَصُّ بِالزَّوْجَاتِ دُونَ الْإِمَاءِ،

كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ «رَبْعُ أَشْهُرٍ» أَي يَنْتَظِرُ الزَّوْجُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ حِينَ الْحَلْفِ، ثُمَّ يُوقَفُ وَيُطَالَبُ بِالْفَيْئَةِ أَوْ الطَّلَاقِ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَإِنْ فَاءُوا» أَي رَجَعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَالشَّعْبِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَمِنْهُمْ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٨). «فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ» لِمَا سَلَفَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمْ بِسَبَبِ الْيَمِينِ.

وَقَوْلُهُ: «وَإِنْ عَمُوا الطَّلَاقَ» فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ بِمُجَرَّدِ مُضِيِّ الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، كَمَا رَوَى مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا آلَى الرَّجُلُ مِنْ امْرَأَتِهِ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ طَلَاقٌ وَإِنْ مَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، حَتَّى يُوقَفَ، فَإِنَّمَا أَنْ يُطَلَّقَ وَإِنَّمَا أَنْ يَبِيءَ^(٩). وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ^(١٠). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سُهَيْلِ ابْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلْتُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الصَّحَابَةِ عَنِ الرَّجُلِ يُؤَلِي مِنْ امْرَأَتِهِ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ حَتَّى تَمُضِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَيُوقَفَ، فَإِنْ فَاءَ وَإِلَّا طَلَّقَ^(١١). وَرَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ مِنْ طَرِيقِ سُهَيْلِ^(١٢). (قُلْتُ) وَهُوَ يُرَوَى عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَابْنَ عُمَرَ وَابْنَ عَبَّاسٍ، وَيَبِيءُ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَمُجَاهِدٌ وَطَاوُسٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالْقَاسِمُ.

«وَالطَّلَاقُ يَرْتَضَى بِأَنْفُسِهِمْ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا حَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُؤْمِلُنَّ أَحَقَّ بِرُؤْيِهِ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ﴿١٧٨﴾

[بَيَانُ عِدَّةِ الْمُطَلَّغَةِ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْمُطَلَّغَاتِ الْمَذْحُولِ بِهِنَّ مِنْ ذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ، بِأَنْ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، أَي بِأَنْ تَمُكَّتْ إِحْدَاهُنَّ بَعْدَ طَلَاقِ زَوْجِهَا لَهَا ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، ثُمَّ تَتَزَوَّجَ إِنْ شَاءَتْ.

(١) أبو داود: ٥٧٢/٣ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٧١٦/٢ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٧١٥/٢ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٧١٥/٢ (٥) أبو داود: ٥٨١/٣ (٦) فتح الباري: ٣٨٠/٨ ومسلم: ١١١٣/٢ (٧) فتح الباري: ١٤٣/٤ ومسلم: ١١١٠/٢ (٨) الطبري: ٤/٤٦٧، ٤٦٦ (٩) الموطأ: ٥٥٦/٢ (١٠) فتح الباري: ٩/٣٣٥ (١١) الطبري: ٤٩٣/٤ (١٢) الدارقطني: ٦١/٤

[مَعْنَى الْقُرْءِ]

رَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجِي فَأَرْفِي بِوَاحِدَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ، فَجَاءَنِي وَقَدْ وَضَعْتُ مَائِي وَتَزَعْتُ ثِيَابِي وَأَعْلَقْتُ بَابِي، فَقَالَ عُمَرُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَاهَا امْرَأَتَهُ مَا دُونَ أَنْ تَحِلَّ لَهَا الصَّلَاةُ، قَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَرَى ذَلِكَ^(١). وَهَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَأَنَسِ ابْنَ مَالِكٍ وَابْنَ مَسْعُودٍ وَمُعَاذٍ، وَأَبِي ابْنِ كَعْبٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَابْنَ عَبَّاسٍ وَسَعِيدَ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةَ وَالْأَسْوَدَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُجَاهِدَ وَعَطَاءَ وَطَاوُسَ وَسَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةَ وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالشَّعْبِيَّ وَالرَّبِيعَ وَمُقَاتِلَ ابْنَ حَبِيَّانَ وَالسُّدِّيَّ وَمَكْحُولَ وَالصَّحَّاحَ وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيَّ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْأَقْرَاءُ الْحَيْضُ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَبِي حُبَيْشٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهَا: «دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَانِكَ»^(٢). فَهَذَا لَوْ صَحَّ لَكَانَ صَرِيحًا فِي أَنَّ الْقُرْءَ هُوَ الْحَيْضُ، وَلَكِنَّ الْمُنْذِرَ - أَحَدَ رَوَاتِهِ - قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ: مَجْهُولٌ لَيْسَ بِمَشْهُورٍ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي الثَّقَاتِ.

[يُقْبَلُ كَلَامُ النِّسَاءِ فِي الْحَيْضِ وَالطَّهْرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أَيُّ مِنْ حَبَلٍ أَوْ حَيْضٍ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ، وَمُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَكَمُ بْنُ عُثَيْبَةَ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالصَّحَّاحُ وَعَيْرٌ وَاحِدٌ^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تَهْدِيدٌ لهنَّ عَلَى خِلَافِ الْحَقِّ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمَرْجِعَ فِي هَذَا إِلَيْهِنَّ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُعْلَمُ إِلَّا مِنْ جَهْتِهِنَّ، وَتَعَدَّرَ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ غَايِبًا عَلَى ذَلِكَ، فَرَدَّ الْأَمْرُ إِلَيْهِنَّ، وَتَوَعَّدَنَ فِيهِ لِئَلَّا يُخْبِرْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، إِمَّا اسْتِعْجَالًا مِنْهَا لِانْقِصَاءِ الْعِدَّةِ أَوْ رَعْبَةً مِنْهَا فِي تَطْوِيلِهَا لِمَا لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ، فَأَمَرَتْ أَنْ تُخْبِرَ بِالْحَقِّ فِي ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ.

[الزَّوْجُ أَحَقُّ بِالرَّجْعَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُعْلَمَنَّ أَنَّ رَجْعَ بَيْتِهِنَّ فِي ذَلِكَ إِذَا أَرَادُوا إِضْلَاحًا﴾ أَيُّ وَزَوْجُهَا الَّذِي طَلَّقَهَا أَحَقُّ بِرَدِّهَا، مَا دَامَتْ فِي عِدَّتِهَا، إِذَا كَانَ مُرَادُهُ بِرَدِّهَا إِضْلَاحَ وَالْخَيْرِ، وَهَذَا فِي الرَّجْعِيَّاتِ، فَأَمَّا الْمُطَلَّقاتُ الْبَوَائِنُ، فَلَمْ يَكُنْ حَالُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ

مُطَلَّقةً بَائِنٌ، وَإِنَّمَا صَارَ ذَلِكَ لَمَّا حُصِرُوا فِي الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ، فَأَمَّا حَالُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَكَانَ الرَّجُلُ أَحَقَّ بِرَجْعَةِ امْرَأَتِهِ وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ، فَلَمَّا قُصِرُوا فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا عَلَى ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ، صَارَ لِلنَّاسِ مُطَلَّقةً بَائِنٌ، وَعَيْرٌ بَائِنٌ.

[حُصُوقُ الزَّوْجَيْنِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلهنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ وَلهنَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ مَا لِلرِّجَالِ عَلَيْنَهُنَّ، فَلْيُؤَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى الْآخِرِ، مَا يَجِبُ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَحَدُكُمْوَهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْنَهُنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُوسَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُنَّ، فَإِنْ فَعَلَنَّ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، وَلهنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(٤). وَفِي حَدِيثٍ بَهَزَ بِنَ حَكِيمٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَنِيْدَةَ الْقُسَيْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدِنَا؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعَمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَسِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»^(٥).

وَقَالَ وَكَيْعٌ عَنْ بَشِيرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ أَتَرَيْنَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أُحِبُّ أَنْ أَتَرَيْنَ لِي الْمَرْأَةَ، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلهنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٦).

[فَضْلُ الرَّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْنَ دَرَجَةٌ﴾ أَيُّ فِي الْفَضِيلَةِ فِي الْخَلْقِ وَالْخَلْقِ، وَالْمَنْزِلَةِ، وَطَاعَةِ الْأَمْرِ وَالْإِنْفَاقِ، وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ وَالْفَضْلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ وَمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ وَشَرَعِهِ وَقَدْرِهِ.

﴿أَطْلُقُ مَرَّتَانٍ فِيمَا سَأَلْتُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ شَرِيحٍ يُلْحَسِنُ وَلَا يَحِلُّ

(١) الطبري: ٥٠٢/٤ (٢) أبو داود: ١٩١/١ والنسائي: ٦/٦

٢١١ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٧٤٤/٢ و٧٤٥ (٤) مسلم: ٢/٢

٨٨٦ (٥) أبو داود: ٦٠٦/٢ (٦) الطبري: ٥٣٢/٤ وابن أبي

حاتم غ: ٧٥٠/٢ ابن أبي شيبة (١٩٦٠٨).

لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سَيِّئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَتَكَلَّمَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ طَلَّأ أَنْ يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سَيِّئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَتَكَلَّمَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ طَلَّأ أَنْ يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

[قَصْرُ الطَّلَاقِ عَلَى الثَّلَاثِ، وَبَيَانُ الرَّجْعِيَّةِ وَالْبَائِنَةِ]
هَذِهِ آيَةُ الْكَرِيمَةِ رَافِعَةٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ أَحَقَّ بِرَجْعَةِ امْرَأَتِهِ وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ، مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا فِيهِ ضَرَرٌ عَلَى الزَّوْجَاتِ قَصَرَهُمُ اللَّهُ إِلَى ثَلَاثِ طَلَقَاتٍ، وَأَبَاحَ الرَّجْعَةَ فِي الْمَرَّةِ وَالسَّنِينَ، وَأَبَانَهَا بِالْكُلِّيَّةِ فِي الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

[الْإِذْنُ بِالْخُلْعِ وَاسْتِرْجَاعُ الْمَهْرِ فِيهِ]
وَأَمَّا إِذَا تَسَافَقَ الزَّوْجَانِ، وَلَمْ تَقُمْ الْمَرْأَةُ بِحُقُوقِ الرَّجُلِ، وَأَبْغَضَتْهُ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى مُعَاشَرَتِهِ، فَلَهَا أَنْ تَتَنَدَّى مِنْهُ بِمَا أَعْطَاهَا، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِي بَدْلِهَا لَهُ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سَيِّئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾... الْآيَةُ.

فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا عُدْرٌ، وَسَأَلَتْ الْإِفْتِدَاءَ مِنْهُ، فَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ثُوبَانَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا طَلَاقًا فِي غَيْرِ مَا بَأَسَ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(٦). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ^(٧).

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَامْرَأَتِهِ حَبِيبَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ^(٨). وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي مُوطَّأِهِ عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ سَهْلِ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، خَرَجَ إِلَى الصُّبْحِ، فَوَجَدَ حَبِيبَةَ بِنْتِ سَهْلِ عِنْدَ بَابِهِ فِي الْعَلَسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ هَذِهِ؟» قَالَتْ: أَنَا حَبِيبَةُ بِنْتُ سَهْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. «قَالَ: مَا شَأْنُكَ؟» فَقَالَتْ: لَا أَنَا وَلَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ - لِرُزُوجِهَا - فَلَمَّا جَاءَ زَوْجُهَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذِهِ حَبِيبَةُ بِنْتُ سَهْلِ قَدْ ذَكَرْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَذْكُرَ». فَقَالَتْ حَبِيبَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّ مَا أَعْطَانِي عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ مِنْهَا»، فَأَخَذَ مِنْهَا وَجَلَسَتْ فِي بَيْتِ أَهْلِهَا^(٩). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(١٠)، وَأَبُو دَاوُدَ^(١١) وَالنَّسَائِيُّ^(١٢).

قَالَ أَبُو دَاوُدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سُنَنِهِ: (بَابُ تَسْخِ الْمُرَاحَةِ بَعْدَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ): ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَالطَّلَاقُ يَرِيضُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ فُرُوجٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾... الْآيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَهُوَ أَحَقُّ بِرَجْعَتِهَا وَإِنْ طَلَّقَهَا ثَلَاثًا، فَتَسَخَّ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾... الْآيَةُ^(١). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٢).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُرْوَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِامْرَأَتِهِ: لَا أَطْلُقُكَ أَبَدًا، وَلَا أُوْرِكُ أَبَدًا. قَالَتْ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَطْلُقُكَ حَتَّى إِذَا دَنَا أَجْلُكَ رَاجَعْتُكَ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أَيُّ إِذَا طَلَّقَتْهَا وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ فَأَتَتْ مُحَيَّرٌ فِيهَا، مَا دَامَتْ عِدَّتُهَا بَاقِيَةً، بَيَّنَّ أَنْ تَرُدَّهَا إِلَيْكَ، نَاوِيًا الْإِصْلَاحَ بِهَا وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهَا، وَبَيَّنَّ أَنْ تَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتَهَا، فَتَبِينَ مِنْكَ، أَوْ تُطَلِّقَ سَرَاحًا مُحْسِنًا إِلَيْهَا، لَا تَطْلِمَهَا مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا وَلَا تُضَارَّ بِهَا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ تَطْلِيمَتَيْنِ، فَلَيْتَى اللَّهُ فِي ذَلِكَ، أَيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، فَإِنَّمَا أَنْ يُمَسِّكَهَا بِمَعْرُوفٍ فَيُحْسِنَ صَحَابَتَهَا، أَوْ يُسْرِحَهَا بِإِحْسَانٍ فَلَا يَطْلِمَهَا مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا^(٥).

[الْتِهَانِي عَنْ اسْتِرْجَاعِ الْمَهْرِ]
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ سَيِّئًا﴾ أَيُّ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُضَاجِرُوهُنَّ وَتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ، لِيَقْتَدِينَ

(١) أبو داود: ٦٤٤/٢ (٢) النسائي: ٢١٢/٦ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٧٥٤/٢ (٤) الطبري: ٥٣٩/٤ (٥) الطبري: ٤/٥٤٣ (٦) الطبري: ٥٦٩/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٦٧/٤ (٨) الطبري: ٥٥٦/٤ (٩) الموطأ: ٥٦٤/٢ (١٠) أحمد: ٦/٤٣٣ (١١) أبو داود: ٦٦٧/٢ (١٢) النسائي: ١٦٩/٦

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ امْرَأَةً ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَغْتَبَ عَلَيَّ فِي خُلُقِي وَلَا دِينِي، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرَدِّينَ عَلَيَّ حَدِيثَهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْبَلِي الْحَدِيثَ وَطَلِّقِيهَا تَطْلِيقَةً»^(١). وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٢).

[عِدَّةُ الْمُخْتَلَعَةِ]

رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ مَعُوذِ بْنِ عَمْرٍاءَ، أَنَّهَا اخْتَلَعَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ أَمِرتُ أَنْ تَعْتَدَ بِحَيْضَةٍ^(٣).

[اعْتِدَاءُ حُدُودِ اللَّهِ ظُلْمًا]

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلَّغْ حُدُودَ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَي هَذِهِ الشَّرَائِعُ الَّتِي شَرَعَهَا لَكُمْ هِيَ حُدُودُهُ فَلا تَتَجَاوَزُوهَا، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ حَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا، وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ مَحَارِمًا فَلا تَتَشَهَّكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحِمَهُ لَكُمْ مِنْ غَيْرِ نَسِيَانٍ فَلا تَسْأَلُوهَا عَنْهَا»^(٤).

[الطَّلَاقَاتُ الثَّلَاثُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ حَرَامٌ]

وَقَدْ اسْتَدِلَّ بِهِذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ جَمْعَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ حَرَامٌ، وَيَدُلُّ لَهُ حَدِيثُ مُحَمَّدٍ بْنِ لَبِيدِ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثَ تَطْلِيقَاتٍ جَمِيعًا، فَقَامَ غَضَبَانٌ ثُمَّ قَالَ: «أَيْلَعَبُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟» حَتَّى قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَقْتُلُهُ؟^(٥).

[لَا رَجْعَةَ بَعْدَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾ أَي إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَلْقَةً ثَالِثَةً بَعْدَ مَا أُرْسِلَ عَلَيْهَا الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ، فَإِنَّهَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾، أَي حَتَّى يَطَّأَهَا زَوْجٌ آخَرَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ، فَلَوْ وَطَّئَهَا وَاطَى فِي غَيْرِ نِكَاحٍ وَلَوْ فِي مَلِكِ الْيَمِينِ، لَمْ تَحِلَّ لِلأَوَّلِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِزَوْجٍ، وَهَكَذَا لَوْ تَزَوَّجَتْ وَلَكِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا الزَّوْجُ لَمْ تَحِلَّ لِلأَوَّلِ، رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، سُئِلَ عَنِ الْمَرْأَةِ يَتَزَوَّجُهَا الرَّجُلُ فَيَطَّلِقُهَا، فَتَزَوَّجُ رَجُلًا فَيَطَّلِقُهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، أَتَحِلُّ لِزَوْجِهَا الأَوَّلِ؟ قَالَ: «لَا، حَتَّى يَدْخُلَ غُسْبَتَهَا»^(٦). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا^(٧).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: دَخَلَتْ امْرَأَةٌ رِفَاعَةَ الْقُرْظِيَّ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّ رِفَاعَةَ طَلَّقَتِي الْبَتَّةَ، وَإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّيْبِرِ تَزَوَّجَنِي، وَإِنَّمَا عِنْدَهُ مِثْلُ الْهَدْيَةِ، وَأَخَذَتْ هَدْيَةً مِنْ جِلْبَابِهَا، وَخَالِدُ ابْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بِالْبَابِ لَمْ يُؤَدِّنْ لَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَا تَنْتَهِي هَذِهِ عَمَّا تَجْهَرُ بِهِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى التَّبَسُّمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَأَنَّكَ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَيَّ رِفَاعَةَ، لَا، حَتَّى تَدْرُقِي غُسْبَتَهُ، وَيَذُوقَ غُسْبَتِكَ»^(٨). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٩) وَمُسْلِمٌ^(١٠) وَالنَّسَائِيُّ وَعِنْدَ مُسْلِمٍ: أَنَّ رِفَاعَةَ طَلَّقَهَا آخَرَ ثَلَاثَ تَطْلِيقَاتٍ^(١١).

(١) فتح الباري: ٣٠٦/٩ (٢) النسائي: ١٦٩/٦ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٦٣/٤ (٤) الدارقطني: ٢٩٨/٤ (٥) النسائي: ١٤٢/٦ (٦) مسلم: ١٠٥٧/٢ (٧) فتح الباري: ٢٨٤/٩ (٨) أحمد: ٣٤/٦ (٩) فتح الباري: ٥١٨/١٠ (١٠) مسلم: ١٠٥٧/٢ (١١) النسائي: ١٤٦/٦

وَالْمُرَادُ بِالْعُسَيْلَةِ الْجِمَاعُ، لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ
وَالنَّسَائِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
«أَلَا إِنَّ الْعُسَيْلَةَ: الْجِمَاعُ»^(١).

[الَّلَعْنَةُ عَلَى الْمُحَلَّلِ وَالْمُحَلَّلِ لَهُ]

(فَضْلٌ) وَالْمَقْصُودُ مِنَ الرُّوْحِ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي
الْمَرْأَةِ، قَاصِدًا لِدَوَامِ عِشْرَتِهَا، كَمَا هُوَ الْمَشْرُوعُ مِنَ
التَّزْوِجِ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الثَّانِي إِنَّمَا قَصْدُهُ أَنْ يُحِلَّهَا لِلأَوَّلِ،
فَهَذَا هُوَ الْمُحَلَّلُ الَّذِي وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِذَمِّهِ وَلَعْنِهِ،
وَمَتَى صَرَّحَ بِمَقْصُودِهِ فِي الْعَقْدِ بَطْلَ النِّكَاحِ عِنْدَ جُمْهُورِ
الْأَيِّمَةِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ الْوَأَيْمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالْوَأَيْمَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ،
وَالْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ، وَأَكَلَ الرِّبَا وَمُوكَلَّهُ^(٢). وَرَوَاهُ
التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٣). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ
صَحِيحٌ. قَالَ: وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ
الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ عُمَرُ وَعُثْمَانُ وَابْنُ عُمَرَ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ
مِنَ التَّابِعِينَ، وَيُرْوَى ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ
عَبَّاسٍ.

وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ نَافِعٍ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ
رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا،
فَتَزَوَّجَهَا أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ مَوَامِرَةٍ مِنْهُ لِيُحِلَّهَا لِأَخِيهِ، هَلْ تَحِلُّ
لِلأَوَّلِ؟ فَقَالَ: لَا إِلَّا بِنِكَاحِ رَعْبِيَّةٍ، كُنَّا نَعُدُّ هَذَا سَفَاحًا عَلَى
عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ
وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٤). وَهَذِهِ الصَّبَغَةُ مُشْعِرَةٌ بِالرَّفْعِ.

وَهَكَذَا رَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالْجَوْزَجَانِيُّ وَحَرْبُ
الْكِرْمَانِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ الْأَثَرِيُّ عَنْ قَبِيصَةَ بِنِ جَابِرٍ، عَنْ عُمَرَ
أَنَّهُ قَالَ: لَا أَوْتَى بِمُحَلَّلٍ وَلَا مُحَلَّلٍ لَهُ إِلَّا رَجِمْتُهُمَا^(٥).

[مَتَى تَحِلُّ الْمُطَّلَقَةُ ثَلَاثًا لِرُزُوجِهَا الْأَوَّلِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» أَي الرُّوْحِ الثَّانِي بَعْدَ الدُّخُولِ بِهَا
«فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا» أَي الْمَرْأَةُ وَالرُّوْحُ الْأَوَّلُ «إِنْ
ظَنَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» أَي يَتَعَاشَرَا بِالْمَعْرُوفِ. قَالَ
مُجَاهِدٌ: إِنْ ظَنَّ أَنَّ نِكَاحَهُمَا عَلَى غَيْرِ دَلْسَةٍ^(٦). «وَتِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ» أَي شَرَائِعُهُ وَأَحْكَامُهُ «يُنَبِّئُهَا» أَي يُؤْصِحُّهَا
«لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

«وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَيْنَ أَجْهَنَ فَأَنْبِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدَائِكُمْ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ

نَفْسَهُ وَلَا تَنْجِدُوا عَائِيتَ اللَّهِ هُرُوءًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا
أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْطِيَكُمْ بِهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾

[الْأَمْرُ بِحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الْمُطَّلَقَةِ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلرِّجَالِ إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمْ
الْمَرْأَةَ طَلَاقًا لَهُ عَلَيْهَا فِيهِ رَجْعَةٌ: أَنْ يُحْسِنَ فِي أَمْرِهَا إِذَا
انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا مِقْدَارُ مَا يُمَكِّنُهُ فِيهِ
رَجْعَتُهَا، فَإِمَّا أَنْ يُمَسِّكَهَا، أَيْ يَرْتَجِعَهَا، إِلَى عِضْمَةِ
نِكَاحِهِ، بِمَعْرُوفٍ، وَهُوَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَى رَجْعَتِهَا، وَيُنَوِّي
عِشْرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ يُسَرِّحَهَا، أَيْ يَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقُضِي
عِدَّتَهَا، وَيُخْرِجَهَا مِنْ مَتْرَلِهِ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ، مِنْ غَيْرِ
شِفَاقٍ وَلَا مُخَاصَمَةٍ وَلَا تَقَابُحٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَا
تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدَائِكُمْ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَمَسْرُوقٌ
وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالرَّبِيعُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُ
وَاحِدٍ: كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ، فَإِذَا قَارَبَتْ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ
رَاجِعَهَا ضِرَارًا، لِئَلَّا تَذْهَبَ إِلَى غَيْرِهِ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا فَتَعْتَدُ،
فَإِذَا شَارَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ طَلَّقَ لِتَطُولَ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ،
فَنَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ^(٧). وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» أَي بِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تَنْجِدُوا عَائِيتَ اللَّهِ هُرُوءًا» رَوَى ابْنُ
جَرِيرٍ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي مُوسَى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
غَضِبَ عَلَى الْأَشْعَرِيِّينَ، فَأَتَاهُ أَبُو مُوسَى قَالَ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ، أَغَضِبْتَ عَلَى الْأَشْعَرِيِّينَ؟ فَقَالَ: «يَقُولُ أَحَدُكُمْ: قَدْ
طَلَّقْتُ، قَدْ رَاجَعْتُ، لَيْسَ هَذَا طَلَاقَ الْمُسْلِمِينَ، طَلَّقُوا
الْمَرْأَةَ فِي قُبُلِ عِدَّتِهَا»^(٨). وَقَالَ مَسْرُوقٌ: هُوَ الَّذِي يُطَلِّقُ
فِي غَيْرِ كُنْهٍ، وَيُضَارُّ امْرَأَتَهُ بِطَلَاقِهَا وَارْتِجَاعِهَا، لِتَطُولَ
عَلَيْهَا الْعِدَّةُ^(٩). وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ
وَالرَّبِيعُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: هُوَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ وَيَقُولُ: كُنْتُ
لَا عِيًّا. أَوْ يُعْتِقُ أَوْ يَنْكِحُ وَيَقُولُ: كُنْتُ لَا عِيًّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

(١) أحمد: ٦٢/٦ وفيه أبو عبد الملك المكي وهو مجهول وقد
اختلف في وقفه ورفع وإرساله، ولم أقف على الحديث عند
النسائي. (٢) أحمد: ٤٤٨/١ (٣) أحمد: ٤٤٨/١ وتحفة
الأحوذى: ٢٦٤/٤ والنسائي: ١٤٩/٦ (٤) الحاكم: ١٩٩/٢
(٥) ابن أبي شيبة: ٢٩٤/٤ (٦) الطبري: ٥٩٨/٤ (٧) ابن أبي
حاتم غ: ٧٧٢-٧٧٤ والطبري: ٤٩٢٠١ (٨) الطبري: ٥/
١٤ (٩) الطبري: ٨/٥

﴿وَلَا تَنْحَدُوا عَنِّي اللَّهُ هُمُومًا﴾ ^(١) فَأَلَزَمَ اللَّهُ بِذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَذَكُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أَي فِي إِرْسَالِهِ الرُّسُولَ بِالْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ إِلَيْكُمْ ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أَي السُّنَّةَ ﴿يُعِظُكُمْ بِهِ﴾ أَي يَأْمُرُكُمْ وَيَنْهَىكُمْ وَيَتَوَعَّدُكُمْ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي فِيمَا تَأْتُونَ وَفِيمَا تَدْرُونَ، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَي فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمُ السَّرِيَّةِ وَالْجَهْرِيَّةِ، وَسَبَّحَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَّ أَهْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ

أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ بِلَدُنِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

[نَهَى الْوَالِيَّ عَنْ مَنَعِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَنْكِحَ زَوْجَهَا الْمُطَلَّقَ] قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الرَّجُلِ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ طَلْقًا أَوْ طَلْقَتَيْنِ، فَتَنْقَضِي عِدَّتُهَا، ثُمَّ يَبْدُو لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا وَأَنْ يُرَاجِعَهَا، وَتُرِيدُ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ، فَيَمْنَعُهَا أَوْلِيَاؤُهَا مِنْ ذَلِكَ، فَنَهَى اللَّهُ أَنْ يَمْنَعُوهَا ^(٢). وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا ^(٣). وَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَالضَّحَّاكُ: إِنَّهَا أَنْزَلَتْ فِي ذَلِكَ ^(٤). وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ.

[لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَالِيٍّ]

وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُزَوِّجَ نَفْسَهَا، وَأَنَّه لَا بَدَّ فِي تَزْوِيجِهَا مِنْ وَلِيِّ، كَمَا قَالَه التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، وَلَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الرَّائِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا» ^(٥). وَفِي الْأَثَرِ الْآخَرَ: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَالِيٍّ مُرْشِدٍ وَسَاهِدِي عَدْلٍ» ^(٦).

[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُرَزِيِّ وَأَخِيهِ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الصَّحِيحِ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ أُخْتِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ طَلَّقَتْهَا زَوْجَهَا، فَتَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَخَطَبَهَا، فَأَبَى مَعْقِلٌ، فَتَزَلَّتْ: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ ^(٧). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ مَرْدُودِيهِ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ

مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ^(٨) بِهِ. وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا، وَلَفْظُهُ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ. أَنَّهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ، ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقًا لَمْ يُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتِ الْعِدَّةُ، فَهَوِيَهَا وَهَوَيْتَهُ، ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الْخُطَّابِ، فَقَالَ لَهُ: [يَا لَكُمُ]، أَكْرَمْتُكَ بِهَا وَزَوَّجْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا، وَاللَّهُ لَا تَرْجِعُ إِلَيْكَ أَبَدًا. آخِرُ مَا عَلَيْكَ. قَالَ: فَعَلِمَ اللَّهُ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا، وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَّ أَهْلَهُنَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ: سَمِعَا لِرَبِّي وَطَاعَةً، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ: أَرْوُجُكَ وَأَكْرِمُكَ ^(٩). زَادَ ابْنُ مَرْدُودِيهِ: وَكَفَّرَتْ عَنْ يَمِينِي ^(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَي هَذَا الَّذِي نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ مِنْ مَنَعِ الْوَالِيَا أَنْ يَتَزَوَّجَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ يَأْتِمُرُ بِهِ، وَيَتَعِظُ بِهِ، وَيَنْتَعِلُ لَهُ ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. أَي يُؤْمِنُ بِشَرَعِ اللَّهِ، وَيَخَافُ وَعِيدَ اللَّهِ وَعَدَابَهُ، فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ ﴿ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أَي إِتْبَاعُكُمْ شَرَعَ اللَّهُ، فِي رَدِّ الْمُؤَلِّيَّاتِ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَتَرَكَ الْحَمِيَّةَ فِي ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أَي مِنَ الْمَصَالِحِ، فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي الْخَيْرَةَ فِيمَا تَأْتُونَ، وَلَا فِيمَا تَدْرُونَ.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَفْسَهَا وَلَا تَضَاكَ وَوَالِدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ رِاضٍ مِنْهُمَا فَتَشَاوُرَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا بِأَوْلَادِكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

[لَا رِضَاعَةَ إِلَّا فِي مُدَّةِ الرِّضَاعَةِ]

هَذَا إِشَادَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْوَالِدَاتِ أَنْ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ

(١) ابن أبي حاتم غ: ٧٧٥/٢ و٧٧٦ (٢) الطبري: ٢٢/٥
(٣) الطبري: ٢٢/٥ (٤) الطبري: ٢٢/٥ و٢٣ (٥) ابن ماجه: ٦٠٦/١ (٦) الأم للشافعي ٢٢/٥ و٢٢٧/٧ و١٢٤، عن ابن عباس موقوفًا. (٧) فتح الباري: ٤٠/٨ (٨) أبو داود: ٢/٥٦٩ وتحفة الأحوذى: ٣٢٥/٨ وابن أبي حاتم غ: ٧٧٨/٢ والطبري: ١٧/٥-١٩ و١٠٤/٧ (٩) تحفة الأحوذى: ٣٢٤/٨ (١٠) البيهقي: ١٠٤/٧

وَعَلَى وَالِدِ الْطِفْلِ نَفَقَةُ الْوَالِدَاتِ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،
أَيِّ بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أُمَّتَلِيهِنَّ فِي بَلَدِهِنَّ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ
وَلَا إِفْتَارٍ، بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ فِي يَسَارِهِ، وَنَوَاسِطِهِ وَإِفْتَارِهِ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ فِى ذُو سَعَةِ مِىن سَعَةٍ مِىن سَعَةٍ وَمَنِ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ
فَلْيَتَّقِ اللَّهَ إِذْ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ
بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] قَالَ الضَّحَّاكُ: إِذَا طَلَّقَ
زَوْجَتَهُ وَلَهُ مِنْهَا وَلَدٌ، فَأَرْضَعَتْ لَهُ وَلَدَهُ، وَجَبَ عَلَى
الْوَالِدِ نَفَقَتُهَا وَكِسْوَتُهَا بِالْمَعْرُوفِ^(٧).

[لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُضَاكِرْ وَاوِلِدَهُ إِذْ يُولَدُهَا﴾ أَيُّ بِأَنَّ تَدَفُّعَهُ عَنْهَا
لِيَتَضَرَّ أَبَاهُ بِتَرْبِيَّتِهِ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهَا دَفْعُهُ إِذَا وَلَدَتْهُ حَتَّى
تَسْقِيَهُ اللَّبَأَ الَّذِي لَا يَعْيشُ بِدُونِ تَنَاوُلِهِ غَالِيًا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا
لَهَا دَفْعُهُ عَنْهَا إِِنْ شَاءَتْ، وَلَكِنْ إِِنْ كَانَتْ مُضَارَّةً لِأَبِيهِ فَلَا
يَحِلُّ لَهَا ذَلِكَ، كَمَا لَا يَحِلُّ لَهُ إِتْرَاعُهُ مِنْهَا لِمُجَرَّدِ الضَّرَارِ
لَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُمْ يُولَدُوهُمْ﴾ أَيُّ بِأَنَّ يُرِيدَ أَنْ
يَتَنَزَّعَ الْوَلَدَ مِنْهَا إِضْرَارًا بِهَا. قَالَه مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ
وَالزُّهْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ، وَالتَّوْرِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قِيلَ: فِي عَدَمِ
الضَّرَارِ لِقَرِيْبِهِ. قَالَه مُجَاهِدٌ وَالسَّعْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ. وَقِيلَ:
عَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى وَالِدِ الطِّفْلِ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَى وَالِدَةِ
الطِّفْلِ، وَالْقِيَامِ بِحَقُوقِهَا، وَعَدَمِ الْإِضْرَارِ بِهَا، وَهُوَ قَوْلُ
الْجُمْهُورِ. وَقَدْ اسْتَفْصَى ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، وَقَدْ
ذَكَرَ أَنَّ الرِّضَاعَةَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ رُبَّمَا ضَرَبَتْ الْوَلَدَ إِمَامًا فِي
بَدَنِهِ أَوْ عَقْلِيهِ. وَقَالَ سُفْيَانُ التَّوْرِيُّ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنِ
إِبْرَاهِيمَ، عَنِ عَلْقَمَةَ: أَنَّهُ رَأَى امْرَأَةً تُرْضِعُ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ،
فَقَالَ: لَا تُرْضِعِيهِ^(٩).

[الْفَطَامُ عَنِ تَرَاضٍ مِنْهُمَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِضَالًا عَنِ تَرَاضٍ مِثْلَهَا وَتَشَاوُرًا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهَا﴾ أَيُّ فَإِنْ اتَّفَقَ وَالِدَا الطِّفْلِ عَلَى فِطَامِهِ قَبْلَ
الْحَوْلَيْنِ، وَرَأَيَا فِي ذَلِكَ مَضْلَحَةً لَهُ، وَتَشَاوُرًا فِي ذَلِكَ
وَأَجْمَعًا عَلَيْهِ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ
انْفِرَادَ أَحَدِهِمَا بِذَلِكَ دُونَ الْآخَرَ لَا يَكْفِي، وَلَا يَجُوزُ

كَمَالَ الرِّضَاعَةِ، وَهِيَ سِتَانِ، فَلَا اغْتِبَارَ بِالرِّضَاعَةِ بَعْدَ
ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ فَلَا يُحْرَمُ مِنَ
الرِّضَاعَةِ إِلاَّ مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ، فَلَوْ ارْتَضَعَ الْمَوْلُودُ
وَعُمُرُهُ فَوْقَهُمَا لَمْ يُحْرَمِ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ
الرِّضَاعَةَ لَا تَحْرُمُ إِلاَّ فِي الصَّغَرِ دُونَ الْحَوْلَيْنِ) ثُمَّ رَوَى
عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُحْرَمُ مِنَ
الرِّضَاعِ إِلاَّ مَا فَتَقَ الْأُمْعَاءُ فِي الثَّدْيِ، وَكَانَ قَبْلَ
الْفِطَامِ»^(١٠). وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ
عَلَى هَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
وَغَيْرِهِمْ، أَنَّ الرِّضَاعَةَ لَا تَحْرُمُ إِلاَّ مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ،
وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ الْكَامِلَيْنِ، فَإِنَّهُ لَا يُحْرَمُ سِتَانًا.
(قُلْتُ) تَفَرَّدَ التِّرْمِذِيُّ بِرِوَايَةِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَرِجَالُهُ عَلَى
شَرَطِ الصَّحِيحِينَ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: إِلاَّ مَا كَانَ «فِي الثَّدْيِ» أَيُّ فِي مَجْلٍ
الرِّضَاعَةَ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ
أَحْمَدُ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ
النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ ابْنِي مَاتَ فِي الثَّدْيِ؛ إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا
فِي الْجَنَّةِ»^(١١).

وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلاَّ مَا كَانَ فِي
الْحَوْلَيْنِ»^(١٢). (قُلْتُ) وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ
عَنْ ثَوْرِ بْنِ زَيْدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْفُوعًا^(١٣). وَرَوَاهُ
الدَّارِقُطْنِيُّ عَنْ ثَوْرٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرَادَ:
«وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ». وَهَذَا أَصَحُّ.

[رِضَاعَةُ الْكَبِيرِ]

وَقَدْ رَوَى فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا
كَانَتْ تَرَى رِضَاعَ الْكَبِيرِ يُؤْتَرُ فِي التَّحْرِيمِ^(١٤). وَهُوَ قَوْلُ
عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَأْمُرُ
بِمَنْ تَخْتَارُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا مِنَ الرِّجَالِ لِيَعُضَّ نِسَائِهَا،
فَتُرْضِعُهُ، وَتَحْتَجُّ فِي ذَلِكَ بِحَدِيثِ سَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ
حَيْثُ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ امْرَأَةً أَبِي حُدَيْفَةَ أَنْ تُرْضِعَهُ وَكَانَ
كَبِيرًا، فَكَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا بِتِلْكَ الرِّضَاعَةِ، وَأَبَى ذَلِكَ سَائِرُ
أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَأَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْخَصَائِصِ^(١٥). وَهُوَ
قَوْلُ الْجُمْهُورِ.

[أُجْرَةُ الرِّضَاعَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ

(١) تحفة الأحوذى: ٣١٣/٤ (٢) عمدة التفسير: ١٢٦/١ (٣)

الدارقطني: ١٧٤/٤ (٤) الموطأ: ٦٠٢/٢ (٥) مسلم: ٢/

١٠٧٧ (٦) أبو داود: ٥٤٩/٢ ٥٥٠ (٧) الطبري: ٣٩/٥

(٨) الطبري: ٤٩/٥ ٥٠ (٩) الطبري: ٣٦/٥

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

٣٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ
 أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
 ﴿٣٦﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ
 أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّهُ أَتَى كُمْ سَتَدْرُكُونَهُنَّ
 وَلَكِنْ لَا تُؤَاغِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا
 وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
 وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا
 أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ
 مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْأَوْسَعِ
 قَدْرِهِ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
 ﴿٣٨﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
 لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرِيضَةً فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا
 الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
 وَلَا تَلْسُقُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَسْتَبِدَّ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ مُشَاوَرَةِ الْآخَرِ. قَالَه
 الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُ. وَهَذَا فِيهِ اخْتِطَاطٌ لِلطُّفْلِ وَالزَّامٌ لِلنَّظَرِ فِي
 أَمْرِهِ، وَهُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ حَيْثُ حَجَرَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ
 فِي تَرْبِيَةِ طِفْلِهِمَا، وَأَرَشَدَهُمَا إِلَى مَا يُضِلُّهُمَا وَيُضِلُّحُهُ،
 كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكَ فَاتَّوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ
 وَأَتَمَرُوا بِبَنَاتِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتَ مِنْ فَسْرُوعٍ لَكَ أُخْرَى﴾ [الطلاق]:

[٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَي إِذَا اتَّفَقَتِ الْوَالِدَةُ
 وَالْوَالِدُ عَلَى أَنْ يَسْتَلِمَ مِنْهَا الْوَلَدُ إِذَا لِعُدْرٍ مِنْهَا أَوْ لِعُدْرٍ
 لَهُ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي بَدْلِهِ، وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا،
 إِذَا سَلَّمَهَا أَجْرَتَهَا الْمَاضِيَةَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَاسْتَرْضَعَ
 لِوَلَدِهِ غَيْرَهَا بِالْأَجْرَةِ بِالْمَعْرُوفِ. قَالَه غَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُ:
 ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَي فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِكُمْ
 وَأَقْوَالِكُمْ.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ
 أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي
 أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿٣٦﴾
 [عِدَّةُ الْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لِلنِّسَاءِ اللَّاتِي يَتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ أَنْ
 يَعْتَدِدْنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَ لَيَالٍ، وَهَذَا الْحُكْمُ يَشْمَلُ
 الزَّوْجَاتِ الْمُدْخُولِ بِهِنَّ وَغَيْرِ الْمُدْخُولِ بِهِنَّ بِالْإِجْمَاعِ.
 وَمُسْتَنَدُهُ فِي غَيْرِ الْمُدْخُولِ بِهَا عُمُومُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ،
 وَهَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ
 وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ: أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ تَزَوَّجَ
 امْرَأَةً فَمَاتَ عَنْهَا، وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا، وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا،
 فَتَرَدُّوا إِلَيْهِ مِرَارًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ
 يَكُ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ،
 وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ: لَهَا الصَّدَاقُ كَامِلًا، وَفِي لَفْظٍ:
 لَهَا صَدَاقٌ مِثْلِهَا، لَا وَكَسَ وَلَا شَطَطَ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ،
 وَلَهَا الْمِيرَاثُ، فَقَامَ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ الْأَشْجَعِيُّ فَقَالَ:
 سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَضَى بِهِ فِي بَرُوعَ بِنْتِ وَاشِيقَ،
 فَفَرَّحَ عَبْدُ اللَّهِ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا. وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَامَ رَجُلٌ
 مِنْ أَشْجَعٍ فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِهِ فِي
 بَرُوعَ بِنْتِ وَاشِيقَ (١).

وَلَا يُخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ
 حَامِلٌ، فَإِنْ عِدَّتْهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ، وَلَوْ لَمْ تَمُتْ بَعْدَهُ
 سِوَى لَحْظَةٍ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَمْثَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ
 حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] وَلَمَّا تَبَيَّنَتْ بِهِ السُّتَةُ فِي حَدِيثِ سُبَيْعَةَ
 الْأَسْلَمِيَّةِ الْمُخْرَجِ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ: أَنَّهُ تَوَفَّى
 عَنْهَا زَوْجُهَا سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْسَبْ أَنْ
 وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ: فَوَضَعَتْ حَمْلَهَا
 بَعْدَهُ بِلَيَالٍ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نَفَاسِهَا، تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ،
 فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعَكِكَ، فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكَ
 مُتَجَمِّلَةً، لَعَلَّكَ تَرَجِينَ النِّكَاحَ؟ وَاللَّهُ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى
 يَمُرَّ عَلَيْكَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ. قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي
 ذَلِكَ، جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي جِئْنَ أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَقْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ جِئْنَ

(١) أحمد: ٤٨٠/٣ وأبو داود: ٥٨٨/٢ وتحفة الأحمدي: ٤/

٢٩٩ والنسائي: ١٩٨/٦ وابن ماجه: ٦٠٩/١

وَصَعْتُ حَمَلِي، وَأَمَرَنِي بِالزَّوْجِ إِنْ بَدَأَ لِي^(١).

[حِكْمَةُ هَذِهِ الْعِدَّةِ]

وَقَدْ ذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَغَيْرُهُمَا: أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي جَعْلِ عِدَّةِ الْوَفَاءِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، لِإِحْتِمَالِ إِشْتِمَالِ الرَّجْمِ عَلَى حَمَلٍ، فَإِذَا انْتَهَرَ بِهِ هَذِهِ الْمُدَّةُ، ظَهَرَ إِنْ كَانَ مَوْجُودًا، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا: «إِنْ خَلَقَ أَحَدُكُمْ جَمْعًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضَعَّةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ»^(٢). فَهَذِهِ ثَلَاثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، وَالْإِحْتِمَالُ بِعَشْرِ بَعْدَهَا، لِإِذَا قَدْ يَنْقُصُ بَعْضُ الشُّهُورِ. ثُمَّ لِيُظْهِرَ الْحَرَكَةَ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[عِدَّةُ أُمِّ الْوَالِدِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا سَيِّدُهَا]

وَمِنْ هُنَا ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ إِلَى أَنَّ عِدَّةَ أُمِّ الْوَالِدِ عِدَّةَ الْحُرَّةِ هَهُنَا، وَيُؤَيِّدُهُمْ مَارَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ: لَا تَلْبَسُوا عَلَيْنَا سُنَّةَ نَبِيِّنَا، عِدَّةَ أُمِّ الْوَالِدِ، إِذَا تَوَفَّى عَنْهَا سَيِّدُهَا، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا^(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ^(٤).

[وُجُوبُ الْإِحْدَادِ فِي هَذِهِ الْعِدَّةِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا بَلَغَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا وَجُوبُ الْإِحْدَادِ عَلَى الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجَهَا مُدَّةَ عِدَّتِهَا، لِمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ وَرَبِيبَةَ بِنْتِ جَحْشٍ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُجِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»^(٥).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ ابْتَنَى تَوْفِي عَنْهَا زَوْجَهَا وَقَدْ اشْتَكَّتْ عَيْنُهَا أَفَنَكْحُلُهَا؟ فَقَالَ: «لَا» كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا» - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَمَكَّتْ سَنَةً»^(٦). قَالَتْ رَبِيبُ بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ: كَانَتْ امْرَأَةً إِذَا تَوَفَّى عَنْهَا زَوْجَهَا دَخَلَتْ جَفْسًا، وَكَبَسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا، وَلَمْ تَمَسَّ طَيِّبًا وَلَا شَيْئًا حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةً، ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَى بَعْرَةً، فَتَرْمِي بِهَا، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَّةٍ: حِمَارٍ أَوْ شَاؤٍ أَوْ طَيْرٍ فَتَقْتَضُ بِهِ. فَقَلَّمَا تَقْتَضُ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ.

وَالْعَرَضُ أَنَّ الْإِحْدَادَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ الزَّيْنَةِ مِنَ الطَّيِّبِ وَنُبْسِ مَا يَدْعُوهَا إِلَى الْأَزْوَاجِ مِنْ ثِيَابٍ وَحُلِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ وَاجِبٌ فِي عِدَّةِ الْوَفَاءِ قَوْلًا وَاحِدًا، وَيَجِبُ الْإِحْدَادُ عَلَى جَمِيعِ الزَّوْجَاتِ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ، سَوَاءً فِي ذَلِكَ الصَّغِيرَةُ وَالْأَيِسَةُ وَالْحُرَّةُ وَالْأَمَةُ وَالْمُسْلِمَةُ وَالْكَافِرَةُ، لِعُمُومِ الْآيَةِ.

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا بَلَغَ أَجْلَهُنَّ» أَي انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ. قَالَ الضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ. «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» قَالَ الزُّهْرِيُّ: أَي عَلَى أَوْلِيَائِهَا^(٧). «فِيمَا فَعَلْنَ» يَعْنِي النِّسَاءَ اللَّائِي انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ^(٨). قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِذَا طَلَّقَتِ الْمَرْأَةُ أَوْ مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا، فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ تَتَزَيَّنَّ وَتَتَصَنَّعَ وَتَتَعَرَّضَ لِلزَّوْجِ، فَذَلِكَ الْمَعْرُوفُ^(٩). وَرُوِيَ عَنِ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ نَحْوَهُ^(١٠). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» قَالَ: النِّكَاحُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ^(١١). وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ وَالزُّهْرِيِّ وَالسَّيِّدِيِّ نَحْوَ ذَلِكَ^(١٢).

«وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَنَذَكُرُهُنَّ وَلَكِنَّ لَا نُؤَاعِدُهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرَضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ» ﴿١٦٥﴾

[إِبَاحَةُ التَّعْرِيبِ بِالْخِطْبَةِ فِي الْعِدَّةِ، وَالنَّهْيُ عَنِ النِّكَاحِ فِيهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» أَنْ تَعْرَضُوا بِخِطْبَةِ النِّسَاءِ فِي عِدَّتِيهِنَّ مِنْ وَفَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنْ غَيْرِ تَضَرُّحٍ، قَالَ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَجَرِيرٌ وَغَيْرُهُمْ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ» قَالَ: التَّعْرِيبُ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي أُرِيدُ

(١) فتح الباري: ٣٧٩/٩، ومسلم: ١١٢٢/٢ (٢) فتح الباري:

٤٤٩/١٣، ومسلم: ٢٠٣٦/٤ (٣) أحمد: ٣٠٢/٤، وأبو داود:

٣٧٠/٢ (٤) ابن ماجه: ٦٧٣/١ (٥) فتح الباري: ٣٩٤/٩

ومسلم: ١١٢٣/٢ (٦) مسلم: ١١٢٤/٢ (٧) ابن أبي حاتم

غ: ٨١٢/٢ وعند ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طلحة عن ابن

عباس ما وجدت فيه رواية العوفي عن ابن عباس (٨) ابن أبي

حاتم غ: ٨١٣/١ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٨١٣/٢ (١٠) ابن

أبي حاتم غ: ٨١٢/٢ (١١) الطبري: ٩٣/٥ (١٢) ابن أبي

حاتم غ: ٨١٤٠/٢

قَالَ: يَقُولُ لَوْلِيَّهَا: لَا تَسْفِيْنِي بِهَا، يَعْنِي لَا تَزُوْجَهَا حَتَّى تُعَلِّمَنِي^(١). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكَتْمَ أَجَلَهُ﴾ يَعْنِي وَلَا تَعْقِدُوا الْعُقْدَةَ بِالنِّكَاحِ حَتَّى تَنْقُضِي الْعِدَّةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ. وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ. وَأَبُو مَالِكٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَالزُّهْرِيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَالثَّوْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكَتْمَ أَجَلَهُ﴾ يَعْنِي وَلَا تَعْقِدُوا الْعُقْدَةَ بِالنِّكَاحِ حَتَّى تَنْقُضِي الْعِدَّةَ^(٢). وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْعُقْدُ فِي مَدَّةِ الْعِدَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى مَا يَقَعُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنْ أُمُورِ النِّسَاءِ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِضْمَارِ الْخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ، ثُمَّ لَمْ يُؤَيِّسَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَمْ يَقْطِعْهُمْ مِنْ عَائِدَتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّوَهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

[الطَّلَاقُ قَبْلَ الدُّخُولِ]

أَبَاحَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَاقَ الْمَرْأَةِ بَعْدَ الْعُقْدِ عَلَيْهَا، وَقَبَلَ الدُّخُولَ بِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَطَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَلَسُّ النِّكَاحِ^(٣). بَلْ وَيَجُوزُ أَنْ يُطَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا وَالْفَرُضُ لَهَا - إِنْ كَانَتْ مُفَوَّضَةً - وَإِنْ كَانَ فِي هَذَا إِكْسَارٌ لِقَلْبِهَا.

[مُنْعَةُ الطَّلَاقِ]

وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى بِامْتِنَاعِهَا، وَهُوَ تَعْوِضُهَا عَمَّا فَاتَهَا بِشَيْءٍ تُعْطَاهُ مِنْ زَوْجِهَا بِحَسَبِ حَالِهِ، عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ. عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ، أَنَّهُمَا قَالَا: تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شَرَّاحِيلَ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ، بَسَطَ يَدَهُ لَا تَتَزَوَّجَ غَيْرَهُ^(٤).

(١) الطبري: ٩٥/٥ (٢) الطبري: ٩٦/٥ (٣) فتح الباري: ٨٤/٩ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٨١٧/٢ و٨١٨ (٥) مسلم: ٢/ ١١١٤ (٦) الطبري: ١٠٧/٥ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٨٢١/٢ (٨) الطبري: ١٠٩/٥ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٨٢٤/٢ (١٠) الطبري: ١١٤/٥ (١١) ابن أبي حاتم غ: ٨٢٦/٢ (١٢) ابن أبي حاتم غ: ٨٢٨/٢ و٨٢٩ (١٣) ابن أبي حاتم غ: ٨٣١/٢

التَّزْوِجَ، وَإِنِّي أَحِبُّ امْرَأَةً مِنْ أَمْرَاهَا وَمِنْ أَمْرَاهَا... يُعْرَضُ لَهَا بِالْقَوْلِ بِالْمَعْرُوفِ^(١). وَفِي رِوَايَةٍ: وَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ رَزَقَنِي امْرَأَةً. [صَالِحَةٌ]. وَنَحْوُ هَذَا. وَلَا يَنْصَبُ لِلْخَطْبَةِ^(٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَغْلِيْقًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ هُوَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي أُرِيدُ التَّزْوِجَ، وَإِنَّ النِّسَاءَ لِمَنْ حَاجَتِي، وَلَوْ دِدْتُ أَنْ يُسَّرَ لِي امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ^(٣). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَطَاوُسٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ. وَالزُّهْرِيُّ وَزَيْدُ بْنُ مُسَيْطٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ^(٤) وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَيْمَةِ فِي التَّعْرِيزِ: إِنَّهُ يَجُوزُ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا مِنْ غَيْرِ تَضْرِيحٍ لَهَا بِالْخِطْبَةِ.

وَهَكَذَا حُكْمُ الْمُطَلَّغَةِ الْمَبْتُوتَةِ يَجُوزُ التَّعْرِيزُ لَهَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ حِينَ طَلَّقَهَا زَوْجَهَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ حَنْصِ أَجْرٍ ثَلَاثَ تَطْلِيقَاتٍ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَ فِي بَيْتِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَقَالَ لَهَا: «فَإِذَا حَلَلْتِ فَادِينِي» فَلَمَّا حَلَّتْ، حَطَبَ عَلَيْهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ مَوْلَاهُ، فَزَوَّجَهَا بِإِيَّاهُ^(٥). فَأَمَّا الْمُطَلَّغَةُ فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهَا لَا يَجُوزُ لِعَبْرِ زَوْجِهَا التَّضْرِيحُ بِخِطْبَتِهَا وَلَا التَّعْرِيزُ لَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَكْتَنَمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيِ أَضْمَرْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ خِطْبَتَيْهِنَّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَرْتُمْ لَهُنَّ﴾ أَيِ فِي أَنْفُسِكُمْ، فَرَفَعَ الْحَرَجَ عَنْكُمْ فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ لَا تَقُلْ لَهَا: إِنِّي عَاشِقٌ، وَعَاطِفٌ، وَعَاطِفٌ، وَنَحْوُ هَذَا^(٦). وَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيِّ وَعِكْرَمَةَ وَأَبِي الضَّحَى وَالضَّحَّاكِ وَالزُّهْرِيِّ^(٧) وَمُجَاهِدٍ وَالثَّوْرِيِّ، هُوَ: أَنْ يَأْخُذَ مِيثَاقَهَا أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ غَيْرَهُ^(٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ^(٩) وَالسُّدِّيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ يَعْنِي بِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبَاحَةِ التَّعْرِيزِ، كَقَوْلِهِ: إِنِّي فَيْكُ لِرَاغِبٍ. وَنَحْوُ ذَلِكَ^(١٠). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَبْرِينَ: قُلْتُ لِعَبِيدَةَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؟

إِيَّاهَا، فَكَأَنَّهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا، وَيَكْسُوَهَا تَوْبَتَيْنِ رَازِقَتَيْنِ^(١).

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَيْفٌ مِمَّا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاةِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢)

[لِلْمَرْأَةِ نِصْفُ الْمَهْرِ إِذَا طَلَّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ]

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُتَعَةِ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْأُولَى، حَيْثُ إِنَّمَا أُوجِبَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نِصْفُ الْمَهْرِ الْمَفْرُوضِ إِذَا طَلَّقَ الزَّوْجُ قَبْلَ الدُّخُولِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ تَمَّ وَاجِبَ آخَرَ مِنْ مُتَعَةٍ لَبَيَّنَّا، لَا سِيَّمَا وَقَدْ قَرَأَهَا بِمَا قَبْلُهَا مِنْ اخْتِصَاصِ الْمُتَعَةِ بِتِلْكَ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَتَشْطِيرُ الصَّدَاقِ وَالْحَالَةَ هَذِهِ أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ قَدْ سَمِيَ لَهَا صَدَاقًا تَمَّ فَارْقَاهَا قَبْلَ دُخُولِهِ بِهَا، فَإِنَّهُ يَجِبُ لَهَا نِصْفُ مَا سَمِيَ مِنَ الصَّدَاقِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أَيِ النِّسَاءِ، عَمَّا وَجِبَ لَهَا عَلَى زَوْجِهَا مِنَ النِّصْفِ، فَلَا يَجِبُ لَهَا عَلَيْهِ شَيْءٌ. قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ قَالَ: إِلَّا أَنْ تَعْفُوا الثَّيْبَ فَتَدَعَ حَقَّهَا^(٣). قَالَ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَرَوَى عَنْ شُرَيْحٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ وَعِكْرِمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالشَّعْبِيِّ، وَالْحَسَنِ، وَنَافِعٍ وَقَتَادَةَ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَعَطَاءَ الْخُرَاسَانِيِّ وَالضَّحَّاكَ وَالزُّهْرِيَّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبَّانَ وَابْنِ سَبْرِينَ وَالرَّبِيعِ ابْنَ أَنَسٍ وَالسُّدِّيَّ نَحْوَ ذَلِكَ^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: رَوَى عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لِيُؤْتِيَ عَقْدَةَ النِّكَاحِ الزَّوْجُ»^(٥) وَهَكَذَا أَسْنَدَهُ ابْنُ مَرْدُودِيَّةٍ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَمَأْخُذُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ حَقِيقَةُ الزَّوْجِ، فَإِنَّ بِيَدِهِ عَقْدَهَا وَإِبْرَامَهَا وَنَقْضَهَا وَانْهَادَمَهَا، وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يَهَبَ شَيْئًا مِنْ مَالِ الْمَوْلِيَّةِ لِلْغَيْرِ، فَكَذَلِكَ فِي الصَّدَاقِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ بَعْضُهُمْ: خُوطِبَ بِهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ^(٦). وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ قَالَ: أَقْرَبُهُمَا لِلتَّقْوَى: الَّذِي يَعْفُو^(٧). وَكَذَا رَوَى عَنِ الشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِ. وَقَالَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ

قَلْبَتَيْنِ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ

فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَتَخَفَتُونَ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَرْوَاجًا وَصِيَّةً

لِأَرْوَاجِهِمْ مَتَنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ

مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْنَعٌ

بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٤١﴾ كَذَلِكَ يبين

اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ

إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٤٣﴾

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٤﴾

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُضْعَافًا

كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾

مُجَاهِدٌ وَالتَّخَجُّعِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانَ، وَالرَّبِيعُ بْنُ

أَنَسٍ وَالتَّوْرِيُّ: الْفَضْلُ - هَهُنَا - أَنْ تَعْفُوا الْمَرْأَةَ عَنْ

شَطْرِهَا، أَوْ إِثْمَامُ الرَّجُلِ الصَّدَاقَ لَهَا^(٧). وَهَذَا قَالَ:

﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أَيِ الْإِحْسَانِ. قَالَهُ سَعِيدٌ^(٨).

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ

أُمُورِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ

قَلْبَتَيْنِ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا

اللَّهُ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

(١) فتح الباري: ٢٦٩/٩ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٨٣٩/٢ (٣)

ابن أبي حاتم غ: ٨٤٠-٨٤٢ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٨٤٢/٢

ورواه الدار قطني في سننه (٣٧١٨) والبيهقي في السنن الكبرى /٨

٢٥١ وقال: هذا غير محفوظ وابن لهيعة غير محتج به والله

أعلم. ورواه الطبري (٥٣٤٤) بطريق ابن لهيعة مرسلًا وهذا هو

المحفوظ. (٥) الطبري: ١٦٢/٥ (٦) الطبري: ١٦٢/٥ (٧)

الطبري: ١٦٥/٥ و١٦٦ (٨) الطبري: ١٦٦/٥

اللَّهُ عَنْهُمَا^(٦).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَمُرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الْوُسْطَى: صَلَاةُ الْعَصْرِ»^(٧). وَفِي لَفْظٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى» وَسَمَّاها لَنَا أَنَّهُا هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ^(٨). وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هِيَ الْعَصْرُ». قَالَ ابْنُ جَعْفَرٍ: سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى^(٩). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١٠). وَرَوَى أَبُو حَاتِمٍ بْنُ جَبَانَ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ»^(١١). وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ»، ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١٢). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَلَفْظُهُ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ»^(١٣). الْحَدِيثُ.

فَهَذِهِ نُصُوصٌ فِي الْمَسْأَلَةِ لَا تَحْتَمِلُ شَيْئًا، وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ: الْأَمْرُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا: قَوْلُهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ»^(١٤)، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ بُرَيْدَةَ بِنِ الْحُصَيْبِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَكَرُوا بِالصَّلَاةِ فِي يَوْمِ الْعَيْمِ، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ، فَقَدْ حِطَّ عَمَلُهُ»^(١٥).

[الْتِهْيَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمًا لَللَّهِ قَلْبَيْنِ﴾ أَي حَاشِعِينَ ذَلِيلِينَ مُسْتَكِينِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهَذَا الْأَمْرُ مُسْتَلْزِمٌ تَرَكَ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ لِمُنَاقَاةِ إِبَائِهَا، وَلِهَذَا لَمَّا ائْتَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الرَّدِّ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ جِئِنَ سَلَّمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، اِعْتَدَرَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، وَقَالَ: «إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا»^(١٦).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا، وَحِفْظِ حُدُودِهَا، وَأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرِّ الْوَالِدَيْنِ»، قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَرَدَّاهُ لَرَأَيْتَنِي^(١٧).

[الصَّلَاةُ الْوُسْطَى]

وَخَصَّ تَعَالَى مِنْ بَيِّنِهَا بِمَزِيدِ التَّأَكِيدِ الصَّلَاةَ الْوُسْطَى، وَهِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ عَسَاكِرٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ: وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَقَالَ الْقَاضِي الْمَاوَرِدِيُّ: وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ التَّابِعِينَ: وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَثَرِ. وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي تَفْسِيرِهِ: وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ النَّاسِ. وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ خَلْفِ الدِّمِيَاطِيِّ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِ«كَشْفِ الْمَعْطَى فِي تَبْيِينِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى» وَقَدْ نَصَّ فِيهِ: أَنَّهَا الْعَصْرُ. وَحَكَاهُ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيِّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي أَيُّوبَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَسَمُرَةَ ابْنِ جُنْدُبٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ وَحَفْصَةَ وَأُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ عَلَى الصَّحِيحِ عَنْهُمْ - وَيَبِي قَالَ عُيَيْدَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَرَزِينٌ، وَرَبْرُ بْنُ حَبِيبٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَابْنُ سِيرِينَ، وَالْحَسَنُ وَقَنَادَةَ وَالضَّحَّاكُ، وَالْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ وَعُيَيْدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ وَغَيْرُهُمْ.

ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ نَارًا»، ثُمَّ صَلَّاهَا بَيْنَ الْعِشَاءِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ^(١٨). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١٩)، وَالنَّسَائِيُّ^(٢٠). وَأَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَسَانِيدِ وَالسَّنَنِ وَالصَّحَاحِ مِنْ طُرُقٍ عَنْ عَلِيٍّ^(٢١). وَحَدِيثُ يَوْمِ الْأَحْزَابِ، وَشَغَلِ الْمُشْرِكِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَنْ آدَاءِ صَلَاةِ الْعَصْرِ يَوْمَئِذٍ، مَرْوِيُّ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ يَطُولُ ذِكْرُهُمْ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ: رِوَايَةُ مَنْ نَصَّ مِنْهُمْ فِي رِوَايَتِهِ أَنَّ الصَّلَاةَ الْوُسْطَى هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّازٍ رَضِيَ

(١) فتح الباري: ١٢/٢ ومسلم: ٩٠/١ (٢) أحمد: ١١٣/١

(٣) مسلم: ٤٣٧/١ (٤) النسائي في الكبرى: ٣٠٣/٦ (٥)

فتح الباري: ١٢٤/٦ ١٢٤/٧ ٤٦٧/٧ ٤٣/٨ ١٩٧/١١ ومسلم: ١/

٤٣٦ وأبو داود: ٢٨٧/١ وتحفة الأحوذى: ٣٢٨/٨ والنسائي:

٢٣٦/١ وأحمد: ١٣٧/١ (٦) مسلم: ٤٢٧/١ ٤٣٨ (٧)

أحمد: ٢٢/٥ (٨) أحمد: ٨/٥ (٩) أحمد: ٧/٥ (١٠)

تحفة الأحوذى: ٣٢٨/٨ (١١) ابن حبان: ١٢١/٣ (١٢)

تحفة الأحوذى: ٣٢٩/٨ (١٣) مسلم: ٤٣٧/١ (١٤) مسلم:

٤٣٦/١ (١٥) ابن ماجه: ٢٢٤/١ (١٦) مسلم: ٣٨٢/١

لَنَا. قَالَ أَنَسٌ: وَمَا يَسْرُنِي بِتِلْكَ الصَّلَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ^(٨).

[الْأَمْرُ بِاتِّمَامِ الصَّلَاةِ فِي حَالَةِ الْأَمْنِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا آمَنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ» أَيِ أَقِيمُوا صَلَاتَكُمْ كَمَا أَمَرْتُمْ، فَأَتِمُّوا رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَقِيَامَهَا وَفُعُودَهَا وَخُشُوعَهَا وَهُجُودَهَا، «كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» أَيِ مِثْلَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وَهَدَاكُمْ، وَعَلَّمَكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَابِلُوهُ بِالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ، كَقَوْلِهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْخَوْفِ: «فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا^(٩)

[النساء: ١٠٣] وَسَتَاتِي الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةَ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصِفَاتِهَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ»... آيَةَ [النساء: ١٠٢].

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّاتُ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَرْوَجًا وَصِيَّةً لِأَرْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ» فَإِنَّ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَشْهُرِكُمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١٠) وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَفَّاتِ^(١١) كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ^(١٢)

[نَسْخُ هَذِهِ آيَةِ]

قَالَ الْأَكْثَرُونَ: هَذِهِ آيَةٌ مَسْخُوحَةٌ بِالَّتِي قَبْلَهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: «يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِمْ أَرِيمةً أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» [البقرة: ٢٣٤] رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قُلْتُ لِغُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّاتُ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَرْوَجًا» قَدْ نَسَخْتَهَا آيَةُ الْآخِرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ - أَوْ نَدَعُهَا - قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ^(٩)

وَمَعْنَى هَذَا الْإشْكَالِ الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ لِغُثْمَانَ: إِذَا كَانَ حُكْمُهَا قَدْ نُسِخَ بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ فَمَا الْحِكْمَةُ فِي إِبْقَائِ رِسْمِهَا مَعَ زَوَالِ حُكْمِهَا، وَبَقَاءِ رِسْمِهَا بَعْدَ الَّتِي نَسَخْتَهَا يَوْمَهُمْ بَقَاءَ حُكْمِهَا؟ فَأَجَابَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ،

(١) مسلم: ٣٨١/١ (٢) أحمد: ٣٦٨/٤ (٣) فتح الباري: ٨٨/٣ ومسلم: ٣٨٣/١ وأبو داود: ٥٨٣/١ وتحفة الأحوذى: ٣٣٠/٨ والنسائي: ١٨/٣ (٤) الموطأ: ١٨٤/١ (٥) فتح الباري: ٤٦/٨ ومسلم: ٥٧٤/١ (٦) مسلم: ٤٧٨/١ و٤٧٩/١ وأبو داود: ٤٠/٢ والنسائي: ١٦٩/٣ وابن ماجه: ٣٣٩/١ والطريرى: ٢٤٧/٥ (٧) الطيرى: ٢٤٠/٥ و٢٤١ (٨) فتح الباري: ٥٠٣/٢ (٩) فتح الباري: ٤٨/٨

السَّلْمِيِّ حِينَ تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَذِكْرُ اللَّهِ»^(١)

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يُكَلِّمُ صَاحِبَهُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَاجَةِ فِي الصَّلَاةِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ: «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ». فَأَمَرْنَا بِالشُّكُوتِ^(٢). رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى ابْنِ مَاجَهَ^(٣).

[صَلَاةُ الْخَوْفِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا» فَإِذَا آمَنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»، لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ، وَالْقِيَامِ بِحُدُودِهَا، وَشَدَّدَ الْأَمْرَ بِتَأْكِيدِهَا، ذَكَرَ الْحَالَ الَّتِي يَشْتَعِلُ الشَّخْصُ فِيهَا عَنْ أَدَائِهَا عَلَى الْوُجْهِ الْأَكْمَلِ، وَهِيَ حَالُ الْقِتَالِ وَالْتِحَامِ الْحَرْبِ، فَقَالَ: «فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا» أَيِ فَصَلُّوا عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ، رِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا، يَعْنِي مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا، كَمَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصَفَهَا. ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ صَلُّوا رِجَالًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، أَوْ رُكْبَانًا، مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا، قَالَ نَافِعٌ: لَا أَرَى ابْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٤). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - وَهَذَا لَفْظُهُ - وَمُسْلِمٌ^(٥).

وَرَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّنَائِي وَأَبْنُ مَاجَهَ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ رُكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رُكْعَةٌ^(٦). وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَالضُّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ^(٧).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: (بَابُ الصَّلَاةِ عِنْدَ مُنَاهِضَةِ الْحُصُونِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ). وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: إِنْ كَانَ تَهَيُّاً الْفَتْحِ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ صَلُّوا إِيْمَاءً، كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْإِيْمَاءِ أَحْرُوا الصَّلَاةَ حَتَّى يَنْكَشِفَ الْقِتَالُ، أَوْ يَأْمَنُوا، فَيَصَلُّوا رُكْعَتَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا صَلُّوا رُكْعَةً وَسَجَدَتَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا لَا يُجْزِيهِمُ التَّكْبِيرُ، وَيُؤَخَّرُونَهَا حَتَّى يَأْمَنُوا. وَبِهِ قَالَ مَكْحُولٌ. وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: حَضَرْتُ مُنَاهِضَةَ حِصْنِ تَشْتَرٍ عِنْدَ إِضَاءَةِ الْفَجْرِ وَاشْتَدَّ إِشْتِعَالُ الْقِتَالِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ، فَلَمْ نُصَلِّ إِلَّا بَعْدَ اِرْتِفَاعِ النَّهَارِ، فَصَلَّيْنَاهَا وَنَحْنُ مَعَ أَبِي مُوسَى، فَفُتِحَ

بَانَ هَذَا أَمْرٌ تَوْقِيفِي، وَأَنَا وَجَدْتُهَا مُثَبَّتَةً فِي الْمُصْحَفِ كَذَلِكَ بَعْدَهَا، فَأَثْبَتُهَا حَيْثُ وَجَدْتُهَا.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فَكَانَ لِلْمَتَوَفَى عَنْهَا زَوْجُهَا: نَفَقَتُهَا وَسُكْنَاهَا فِي الدَّارِ سَنَةً، فَسَخَّطَهَا أَيُّهُ الْمَوَارِيثِ، فَجُعِلَ لَهُنَّ الرَّبْعُ أَوْ النُّصْفُ، مِمَّا تَرَكَ الزَّوْجُ^(١).

وَرُوِيَ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ امْرَأَتَهُ اعْتَدَّتْ سَنَةً فِي بَيْتِهِ، يُنْفَقُ عَلَيْهَا مِنْ مَالِهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدُ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فَهَذِهِ عِدَّةُ الْمَتَوَفَى عَنْهَا زَوْجُهَا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا، فَعِدَّتُهَا أَنْ تَضَعَ مَا فِي بَطْنِهَا، وَقَالَ: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ وَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ النُّصْفُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ فَبَيْنَ مِيرَاثِ الْمَرَأَةِ، وَتَرَكَ الْوَصِيَّةِ وَالنَّفَقَةِ^(٢).

قَالَ: وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرَمَةَ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ وَالرَّبِيعِ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، قَالُوا: نَسَخَتْهَا ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٣).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قَالَ: كَانَتْ هَذِهِ الْعِدَّةُ، تَعْتَدُّ عِنْدَ أَهْلِ زَوْجِهَا، وَاجِبٌ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ قَالَ: جَعَلَ اللَّهُ لَهَا تَمَامَ السَّنَةِ: سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً وَصِيَّةً، إِنْ شَاءَتْ سَكَنْتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فَالْعِدَّةُ كَمَا هِيَ، وَاجِبٌ عَلَيْهَا، زُعِمَ ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَالَ عَطَاءٌ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةَ عِدَّتِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾. قَالَ عَطَاءٌ: إِنْ شَاءَتْ اعْتَدَّتْ عِنْدَ أَهْلِهَا، وَسَكَنْتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ، لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: ثُمَّ جَاءَ الْمِيرَاثُ فَسَخَّ الشُّكْنَى، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَلَا سُكْنَى لَهَا^(٤).

وَقَوْلُ عَطَاءٍ وَمَنْ تَابَعَهُ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مُسْوَخٌ بِآيَةٍ

الْمِيرَاثِ، إِنْ أَرَادُوا مَا زَادَ عَلَى الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَالْعَشْرِ فَمُسْلَمٌ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنَّ سُكْنَى الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرِ لَا تَجِبُ فِي تَرَكَةِ الْمَيِّتِ، فَهَذَا مَحَلُّ خِلَافٍ بَيْنَ الْأَيْمَةِ، وَقَدْ اسْتَدَلُّوا عَلَى وَجُوبِ الشُّكْنَى فِي مَنْزِلِ الزَّوْجِ، بِمَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي مَوْطِئِهِ عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: أَنَّ الْفَرِيعَةَ بِنْتَ مَالِكِ بْنِ سَيَانَ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْأَلُهُ أَنْ تُرْجَعَ إِلَى أَهْلِهَا فِي بَنِي خُدْرَةَ، فَإِنَّ زَوْجَهَا خَرَجَ فِي طَلَبِ أَعْبُدِلَهْ أَبَقُوا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِطَرَفِ الْقُدُومِ لِحَقِّهِمْ فَفَتَلُوهُ، قَالَتْ: فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَرْجَعَ إِلَى أَهْلِي فِي بَنِي خُدْرَةَ، فَإِنَّ زَوْجِي لَمْ يَتْرُكْنِي فِي مَسْكَنِ يَمْلِكُهُ وَلَا نَفَقَةَ؟ قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَتْ: فَانصَرَفْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي الْحَجْرَةِ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ أَمْرَ بِي فَنُودِيتُ لَهُ فَقَالَ: «كَيْفَ قَلْبِي؟» فَردَّدْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُ لَهُ مِنْ شَأْنِ زَوْجِي، فَقَالَ: «امْكُتِي فِي بَيْتِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» قَالَتْ: فَاعْتَدَدْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعِشْرًا، قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَسَأَلَنِي عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرْتُهُ فَاتَّبَعَهُ وَقَضَى بِهِ^(٥). وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٦). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[وَجُوبُ مَنَعَةِ الطَّلَاقِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ رَجُلٌ: إِنْ شِئْتُ أَحْسَنْتُ فَفَعَلْتُ، وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَفْعَلْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٧). وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وَجُوبِ الْمَنَعَةِ لِكُلِّ مُطَلَّقةٍ، سِوَاهُ كَانَتْ مَفْوضَةً، أَوْ مَفْرُوضًا لَهَا، أَوْ مُطَلَّقةً قَبْلَ الْمَسِيحِ، أَوْ مَدْخُولًا بِهَا، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ^(٨).

(١) ابن أبي حاتم غ: ٨٧١/٢ (٢) الطبري: ٢٥٥/٥ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٨٧٥/٢ (٤) البخاري: ٥٣٤٤، ٤٥٣١ (٥) الموطأ: ٥٩١/٢ (٦) أبو داود: ٧٧٣/٢ وتحفة الأحوذى: ٣١٩/٤، ٣٩٠ والنسائي: ٢٠٠/٦ وابن ماجه: ٦٥٤/١ (٧) الطبري: ٢٦٤/٥ (٨) الطبري: ٢٦٣/٥

وَتَفَرَّقُوا فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ دَهْرٍ، مَرَّ بِهِمْ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يُقَالُ لَهُ: حَزَقِيلُ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُحْيِيَهُمْ عَلَى يَدَيْهِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ: أَيُّهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْتَبِعِي، فَاجْتَمَعَ عِظَامُ كُلِّ جَسَدٍ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَنَادَى: أَيُّهَا الْعِظَامُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَكْتَسِبِي لِحْمًا وَعَصَبًا وَجِلْدًا، فَكَانَ ذَلِكَ، وَهُوَ يُسَاهِدُهُ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَنَادَى: أَيُّهَا الْأَرْوَاحُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَرْجِعِ كُلُّ رُوحٍ إِلَى الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ، فَقَامُوا أَحْيَاءَ يَنْظُرُونَ، قَدْ أَحْيَاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ رَفْدَتِهِمُ الطَّوْبَةَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.

وَكَانَ فِي إِحْيَائِهِمْ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ الْجِسْمَانِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أَيِّ فِيمَا يُرِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ، وَالذَّلَالَاتِ الدَّامِعَةِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١) أَيَّ لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ، عَلَى أَنَّهُ لَنْ يُعْنِيَ حَذَرَ مَنْ قَدَرَ، وَأَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الْوَبَاءِ، طَلَبًا لَطُولِ الْحَيَاةِ، فَعُومَلُوا بِنَقِيصِ قُضْدِهِمْ، وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ سَرِيعًا فِي آتٍ وَاحِدٍ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْعَ لِقَائِهِ أُمَّرَأَةَ الْأَجْنَادِ: أُمُّ عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. فَجَاءَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَكَانَ مُتَعَبًا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ» فَحَمِدَ اللَّهُ عُمَرَ ثُمَّ أَنْصَرَفَ^(٢). وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٣).

[الْفِرَارُ مِنَ الْجِهَادِ لَا يُقَرَّبُ الْأَجَلَ وَلَا يُعَدُّهُ] وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْكُوفِيِّ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ مَتْعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] مِنْ بَابِ ذِكْرِ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعُمُومِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أَيُّ فِي إِخْلَالِهِ وَتَحْرِيمِهِ، وَقُرُوضِهِ وَحُدُودِهِ، فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، بَيِّنَةً وَوَضَحَةً وَفَسْرَةً، وَلَمْ يَتْرُكْهُ مُجْمَلًا فِي وَفْتِ إِحْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ تَفْهَمُونَ وَتَتَذَكَّرُونَ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَلِّعُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَبِصْطًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٣٣﴾

[قِصَّةُ هَؤُلَاءِ الْأَمْوَاتِ]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا: دَاوْرَدَانُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ: كَانُوا مِنْ أَهْلِ دَاوْرَدَانِ - قَرْيَةٍ عَلَى فَرْسَخٍ مِنْ قِبَلِ وَاسِطٍ -.

وَرَوَى وَكَيْعُ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قَالَ: كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ، خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الطَّاعُونِ، قَالُوا: نَأْيِي أَرْضًا لَيْسَ بِهَا مَوْتُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِمَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا، قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿مُوتُوا﴾ فَمَاتُوا، فَمَرَّ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحْيِيَهُمْ فَأَحْيَاهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾... الْآيَةَ.

وَذَكَرَ عَيْرٌ وَاحِدٌ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ كَانُوا أَهْلَ بَلَدَةٍ فِي زَمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، اسْتَوْحَمُوا أَرْضَهُمْ، وَأَصَابَهُمْ بِهَا وَبَاءٌ شَدِيدٌ، فَخَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ، هَارِبِينَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، فَتَزَلُّوا وَادِيًا أَقْبَحَ، فَمَلَأُوا مَا بَيْنَ عُدُوَّتَيْهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَلَكَيْنِ، أَحَدُهُمَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي، وَالْآخَرُ مِنْ أَعْلَاهُ، فَصَاحَا بِهِمْ صَاحَةً وَاحِدَةً، فَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ مَوْتَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَحِيِزُوا إِلَى حَظَائِرِ، وَبُنِيَ عَلَيْهِمْ جُدْرَانٌ وَقُبُورٌ، وَفُتُوا وَتَمَزَّقُوا

(١) الطبري: ٢٦٦/٥ (٢) أحمد: ١٩٤/١ (٣) فتح الباري:

١٨٩/١٠ و ١٩٠ و ١٢/٣٦١ ومسلم: ٤/١٧٤٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

٤٠

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَآئِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مِلْكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

[قِصَّةُ الْيَهُودِ فِي طَلَبِهِمُ الْمَلِكِ وَالْقِتَالِ مَعَهُ، وَاسْتِقَامَةُ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَانْتِصَارُهُمْ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ شَمُوِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٣). وَقَالَ وَهْبُ ابْنِ مَثَبٍ وَغَيْرُهُ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ أَحْدَثُوا الْأَحْدَاثَ، وَعَبَدَ بَعْضُهُمُ الْأَصْنَامَ، وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَقِيمُهُمْ عَلَى مَنَهِجِ التَّوْرَةِ، إِلَى أَنْ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ، فَقَاتَلُوا مِنْهُمْ مَثَلَةً عَظِيمَةً، وَأَسْرَوْا خَلْقًا كَثِيرًا، وَأَخَذُوا مِنْهُمْ بِلَادًا كَثِيرَةً. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُقَاتِلُهُمْ إِلَّا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَهُمُ التَّوْرَةَ، وَالتَّابُوتَ الَّذِي كَانُوا فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَكَانَ

(١) تهذيب التهذيب: ١٢٤/٣ (٢) مسلم: ٧٥٨ (٣) الطبري:

عَلَيْهِمْ ﴿ أَيُّ كَمَا أَنَّ الْحَدَرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدْرِ، كَذَلِكَ الْفِرَارُ مِنَ الْجِهَادِ وَتَجَنُّبِهِ لَا يَقْرُبُ أَجَلًا وَلَا يُبْعِدُهُ، بَلِ الْأَجَلُ الْمَحْتَمُومُ وَالرَّزْقُ الْمَشْمُومُ مُقَدَّرٌ مُّقْتَنٌّ لَا يَزَادُ فِيهِ وَلَا يُقْصُصُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَىٰ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُّسْتَنبِئَةٍ ﴿[النساء: ٧٧، ٧٨].

وَرُوِيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْجُيُوشِ، وَمُقَدِّمِ الْعَسَاكِرِ، وَحَامِيِ حَوْرَةَ الْإِسْلَامِ، وَسَيِّدِ اللَّهِ الْمَسْلُوقِ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ: أَبِي سُلَيْمَانَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ فِي سِيَابِ الْمَوْتِ: لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَكَذَا مَوْفِقًا، وَمَا مِنْ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا وَفِيهِ رَمِيَّةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ، وَهَذَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَىٰ فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْعَبِيرُ!! فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجَبِيَاءِ. يُعْنِي أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ لِكُونِهِ مَا مَاتَ قِتِيلًا فِي الْحَرْبِ، وَيَتَأَسَّفُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيَتَأَلَّمُ أَنْ يَمُوتَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ ^(١).

[الْقُرْضُ الْحَسَنُ وَتَوَابُهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ يُحْتِ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ كَرَّرَ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ فِي كِتَابِيهِ الْعَزِيزِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَفِي حَدِيثِ التَّرْوِيلِ أَنَّهُ يَقُولُ تَعَالَىٰ: «مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيْبِهِمْ وَلَا ظَلْمًا» ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفًا فِي كُلِّ سُكُوتٍ مِّائَةً وَخَمْسِينَ حَبًّا وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ ... الْآيَةَ، [البقرة: ٢٦] وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصِطُ﴾ أَيُّ أَنْفَقُوا وَلَا تَبَالُوا، فَاللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ، يُضَيِّقُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فِي الرِّزْقِ، وَيُوسِّعُهُ عَلَىٰ آخَرِينَ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا يَسُؤُهُ تَرْجُعُهُمْ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَآئِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مِلْكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ

ذَلِكَ مُؤْرُونًا لِيُخَلِّفَهُمُ عَنْ سُلْطَانِهِمْ إِلَىٰ مُوسَىٰ الْكَلِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَلَمْ يَزَلْ يَهُمُّ تَمَادِيهِمْ عَلَى الضَّلَالِ حَتَّى اسْتَلْبَهُ مِنْهُمْ بَعْضُ الْمُلُوكِ فِي بَعْضِ الْحُرُوبِ، وَأَخَذَ التَّوْرَةَ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ مَنْ يَحْفَظُهَا فِيهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَانْقَطَعَتْ النَّبُوَّةُ مِنْ أَسْبَابِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ سِبْطِ لَأَوِي الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْأَنْبِيَاءُ إِلَّا امْرَأَةٌ حَامِلٌ مِنْ بَعْلِهَا وَقَدْ قُتِلَ، فَأَخَذَهَا فَحَسَبُوهَا فِي بَيْتِ، وَاحْتَفَظُوا بِهَا، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهَا غَلَامًا يَكُونُ نَبِيًّا لَهُمْ، وَلَمْ تَزَلِ الْمَرْأَةُ تَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَهَا غَلَامًا، فَسَمِعَ اللَّهُ لَهَا وَوَهَبَهَا غَلَامًا، فَسَمَّاهُ شَمُوئِيلَ. أَي سَمِعَ اللَّهُ دُعَائِي. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: شَمْعُونُ، وَهُوَ بِمَعْنَاهُ.

فَسَبَّ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ، وَنَسَأَ فِيهِمْ، أَنْبَتَهُ اللَّهُ نَبَاتًا حَسَنًا، فَلَمَّا بَلَغَ سِنَّ الْأَنْبِيَاءِ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، وَأَمَرَهُ بِالذُّعْوَةِ إِلَيْهِ وَتَوَجُّدِهِ، فَدَعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُقِيمَ لَهُمْ مَلِكًا يُقَاتِلُونَ مَعَهُ أَعْدَاءَهُمْ، وَكَانَ الْمَلِكُ أَيْضًا قَدْ بَادَ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ أَقَامَ اللَّهُ لَكُمْ مَلِكًا أَلَّا تَقُولُوا بِمَا التَّرْتُمْتُ مِنَ الْقِتَالِ مَعَهُ. ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَابْنَانَا﴾ أَي وَقَدْ أَحْدَثَ مِنَّا الْبِلَادُ، وَسَيِّبَتِ الْأَوْلَادُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أَي مَا وَفَوْا بِمَا وَعَدُوا، بَلْ نَكَلَ عَنِ الْجِهَادِ أَكْثَرُهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِمْ.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

أَي: لَمَّا طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكًا مِنْهُمْ، فَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْ أَجْنَادِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ فِيهِمْ، لِأَنَّ الْمَلِكَ فِيهِمْ كَانَ فِي سِبْطِ يَهُودَا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ ذَلِكَ السَّبْطِ، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾، أَي كَيْفَ يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْنَا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أَي هُوَ مَعَ هَذَا فَقِيرٌ لَا مَالَ لَهُ يَقُومُ بِالْمُلْكِ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كَانَ سَقَاءً. وَقِيلَ: دَبَّاعًا. وَهَذَا اغْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ

وَتَعَتَّتْ، وَكَانَ الْأَوْلَىٰ بِهِمْ: طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ.

ثُمَّ قَدْ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَي إِخْتَارَهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ، يَقُولُ: لَسْتُ أَنَا الَّذِي عَيَّنْتَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، بَلِ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِ لَمَّا طَلَبْتُمْ مِنِّي ذَلِكَ، ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أَي وَهُوَ مَعَ هَذَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ وَأَنْبَلُ، وَأَشْكَلُ مِنْكُمْ، وَأَشَدُّ قُوَّةً وَصَبْرًا فِي الْحَرْبِ وَمَعْرِفَةً بِهَا. أَي أَنْتُمْ عُلَمَاءُ وَقَامَةٌ مِنْكُمْ. وَمِنْ هُنَا يَبْغِي أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ ذَا عِلْمٍ وَشَكْلٍ حَسَنٍ، وَقُوَّةً شَدِيدَةً فِي بَدَنِهِ وَنَفْسِهِ؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي مَا شَاءَ فَعَلَّ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ، لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي هُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمُلْكَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

يَقُولُ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ عِلَامَةَ بَرَكَةِ مُلْكِ طَالُوتَ عَلَيْكُمْ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ التَّابُوتَ الَّذِي كَانَ أُخِذَ مِنْكُمْ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ وَقَارٌ وَجَلَالَةٌ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أَي وَقَارٌ^(١). وَقَالَ الرَّبِيعُ: رَحْمَةٌ. وَكَذَا رُوِيَ عَنِ الْعَوْفِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قَالَ: عَصَاهُ، وَرُضَاضُ الْأَلْوِاحِ^(٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَعِكْرِمَةُ، وَزَادَ: وَالتَّوْرَةَ^(٣). وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: سَأَلْتُ الثَّوْرِيَّ عَنْ قَوْلِهِ ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾؟ فَقَالَ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: فَقَبِيرٌ مِنْ مَنْ، وَرُضَاضُ الْأَلْوِاحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْعَصَا

(١) عبد الرزاق: ٩٨/١ (٢) الطبري: ٣٣١/٥ (٣) الطبري:

وَالنَّعْلَانِ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَاءَتْ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُ التَّابُوتَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى وَضَعْتَهُ بَيْنَ يَدَيْ طَالُوتَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ^(٢). قَالَ السُّدِّيُّ: أَصْبَحَ التَّابُوتُ فِي دَارِ طَالُوتَ، فَأَمَّنُوا بِنُبُوَّةِ شَمْعُونَ، وَأَطَاعُوا طَالُوتَ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾ أَي عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَفِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ مِنْ طَاعَةِ طَالُوتَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكُم مَّبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَنْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ يُؤذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٤)﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ طَالُوتَ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ خَرَجَ فِي جُنُودِهِ، وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ جِيشُهُ يَوْمَئِذٍ فِيمَا ذَكَرَهُ السُّدِّيُّ ثَمَانِينَ أَلْفًا^(٥) - فَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّكُم مَّبْتَلِيكُمْ﴾ أَي مُخْتَبِرِكُمْ بِنَهَرٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: وَهُوَ نَهْرٌ بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ^(٥). يَعْنِي نَهْرَ الشَّرِيعَةِ الْمَشْهُورَ، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أَي فَلَا يَصْحَبُنِي الْيَوْمَ فِي هَذَا الْوَجْهِ ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، أَي فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ اعْتَرَفَ مِنْهُ بِيَدِهِ رَوِي، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَرَوْ^(٦).

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِينَ كَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ ثَلَاثِمِائَةً وَبِضْعَةَ عَشَرَ، عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ، وَمَا جَاوَزَهُ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ^(٧). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِنَحْوِهِ^(٨).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أَي اسْتَقْتَلُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ، فَسَجَّعَهُمْ غَلْمَاؤُهُمْ، وَهُمْ الْعَالِمُونَ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، فَإِنَّ النَّصْرَ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٤١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكُم مَّبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَنْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يُؤذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٤١) ﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِبِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ^(٤٢)﴾ فَهَكَذَا هُوَ مَا يُؤذِنُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ بِمَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ^(٤٣) ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ^(٤٤)﴾

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. لَيْسَ عَنْ كَثْرَةِ عَدُوِّ وَلَا عَدُوِّ. وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿كَمَنْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ يُؤذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِبِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ^(٤٢)﴾ فَهَكَذَا هُوَ مَا يُؤذِنُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ بِمَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ^(٤٣) ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ^(٤٤)﴾

أَي لَمَّا وَاجَهَ جِزْبُ الْإِيمَانِ، وَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ أَصْحَابِ طَالُوتَ، لِعَدُوِّهِمْ أَصْحَابِ جَالُوتَ، وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ

(١) الطبري: ٣٣٣/٥ (٢) الطبري: ٣٣٥/٥ (٣) الطبري: ٥/٥
٣٣٥ (٤) الطبري: ٣٣٩/٥ (٥) الطبري: ٣٤٠/٥ (٦)
الطبري: ٣٤٥/٥ (٧) الطبري: ٣٤٦/٥ و٣٤٧ (٨) فتح
الباري: ٣٣٩/٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلاَةَ وَلَا شَفِيعَةً ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ۚ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يَعْنِي مُوسَى وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، وَكَذَلِكَ آدَمَ كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ فِي صَحِيحِ ابْنِ جِبَانَ عَنْ أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كَمَا تَبَيَّنَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ حِينَ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْبِيَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ بِحَسَبِ تَقَاوُتِ مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْحَدِيثِ الثَّابِتِ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ فِي قَسَمِ يُقْسِمُهُ: لَا وَالَّذِي اضْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ . فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ، فَلَطَمَ بِهَا وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَقَالَ: أَيَّ حَبِيبٍ، وَعَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَجَاءَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَكَى عَلَى الْمُسْلِمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَفْضَلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَضَعِفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَي أَنْزِلْ عَلَيْنَا صَبْرًا مِنْ عِنْدِكَ ﴿وَتَبَيَّنَتْ أَدَمَانُكَ﴾ أَي فِي لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ، وَجَبْنَا الْفِرَارَ وَالْعَجْزَ ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوِيءِ الْكَثِيرِينَ﴾ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ يَازِدُ اللَّهُ﴾ أَي غَلَبُوهُمْ وَقَهَرُوهُمْ بِنَصْرِ اللَّهِ لَهُمْ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ ذَكَرُوا فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: أَنَّهُ قَتَلَهُ بِمِقْلَاعٍ كَانَ فِي يَدِهِ، رَمَاهُ بِهِ فَأَصَابَهُ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ طَالُوتُ قَدْ وَعَدَهُ إِنْ قَتَلَ جَالُوتَ أَنْ يُرَوِّجَهُ ابْنَتَهُ، وَيُسَاطِرُهُ يِعْمَتُهُ، وَيُشْرِكُهُ فِي أَمْرِهِ، فَوَقَى لَهُ، ثُمَّ آلَ الْمُلْكُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الَّذِي كَانَ بِيَدِ طَالُوتَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أَي النَّبُوَّةَ بَعْدَ شَمُوِيلَ ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أَي مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّهُ بِهِ ﷺ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أَي لَوْلَا اللَّهُ يَدْفَعُ عَنْ قَوْمٍ بِآخَرِينَ، كَمَا دَفَعَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمِقَاتِلَةِ طَالُوتَ وَشَجَاعَةِ دَاوُدَ لَهْلُكُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَيَّجَتِ صَوْبِعُ بَيْعٍ وَمَسَلُوتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ . . . آيَةُ [الحج: ٤٠] .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا كِنَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَي مَنْ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ، يَدْفَعُ عَنْهُمْ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَلَهُ الْحُكْمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَنْزَلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَي هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي فَضَّلْنَاهَا عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ بِالْحَقِّ، أَي بِالْوَاقِعِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الْمُطَابِقُ لِمَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَهَذَا تَوْكِيدٌ وَتَوْطِئَةٌ لِلْقَسَمِ .

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ .

[تفضيل بعض الأنبياء على بعض]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا

الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ [فَضْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ]

هَذِهِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَلَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ «أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَرَدَّدَهَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ أَبِي: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، قَالَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَهَا لِسَانًا وَسَمْتَيْنِ تَقْدَسُ الْمَلِكُ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ»^(٤). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٥)، وَلَيْسَ عِنْدَهُ زِيَادَةٌ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ. . . الْخ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، أَنَّهُ كَانَ فِي سَهْوَةٍ لَهُ، وَكَانَتْ الْعُورُ نَجِيءً فَتَأَخَذُ، فَسَكَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتَهَا فَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ: فَجَاءَتْ، فَقَالَ لَهَا، فَأَخَذَهَا. فَقَالَتْ لَهُ: إِنِّي لَا أَعُودُ. فَأَرْسَلَهَا؛ فَجَاءَتْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» قَالَ: أَخَذْتُهَا، فَقَالَتْ لِي: إِنِّي لَا أَعُودُ، فَأَرْسَلْتُهَا، فَقَالَ: «إِنَّهَا عَائِدَةٌ»، فَأَخَذْتُهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ تَقُولُ: لَا أَعُودُ، وَأَجِئُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» فَأَقُولُ: أَخَذْتُهَا، فَيَقُولُ: لَا أَعُودُ، فَيَقُولُ: «إِنَّهَا عَائِدَةٌ» فَأَخَذْتُهَا، فَقَالَتْ: أُرْسِلْنِي، وَأَعْلَمُكَ شَيْئًا تَقُولُهُ فَلَا يَهْرُبُكَ شَيْءٌ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ. فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ وَهِيَ كَذُوبٌ»^(٦). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٧). وَالْعُورُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: هُوَ الْجَانُّ إِذَا تَبَدَّى فِي اللَّيْلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ مِثْلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَرَوَى فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ»، وَفِي كِتَابِ «الْوَكَاةِ»، وَفِي «صِفَةِ إِبْلِيسَ» مِنْ صَحِيحِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: وَكَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ

يُفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْفَةِ الطُّورِ؟ فَلَا تُفَضِّلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ»^(١) وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢).

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَحَاكَمُوا فِيهَا عِنْدَ التَّخَاصُمِ وَالتَّشَاجُرِ، وَأَنَّ مَقَامَ التَّفْضِيلِ لَيْسَ إِلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَيْكُمْ الْإِنْفِيَادُ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ، وَالْإِيمَانُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: «وَمَا أَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَنُ» أَيِ الْحُجَجِ وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَيْهِمْ «وَأَيَّدْتَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ أَيْدَهُ بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ أَخْتَلَفُوا فِيمَنْهُمْ مِنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا» أَيِ بَلِّ كُلِّ ذَلِكَ عَنْ قِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ».

«يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسًا مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾» يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ فِي سَبِيلِهِ، سَبِيلِ الْخَيْرِ، لِيَدْخُرُوا ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَلِيكَهِمْ، وَلِيُبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، «مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ» يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ «لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ» أَيِ لَا يَبِيعُ أَحَدٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا يُفَادَى بِمَالٍ لَوْ بَدَلَهُ، وَلَوْ جَاءَ بِجِلْدِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَا تَنْفَعُهُ خَلَّةٌ أَحَدٍ، يَعْنِي صِدَاقَتَهُ بَلِّ وَلَا نَسَابَتَهُ، كَمَا قَالَ: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسَاءَلُونَ» [المؤمنون: ١١٠] «وَلَا شَفَعَةٌ» أَيِ وَلَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.

وَقَوْلُهُ: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» مُبْتَدَأٌ مَحْضُورٌ فِي خَبَرِهِ، أَيِ وَلَا ظَالِمٍ أَظْلَمَ مِمَّنْ وَافَى اللَّهُ يَوْمَئِذٍ كَافِرًا، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» وَلَمْ يَقُلْ: وَالظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ^(٣).

«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ

(١) فتح الباري: ٥٠٨/٦ مسلم: ٤٣/٤ (٢) فتح الباري: ٦/

٥١٩ مسلم: ٤٣/٤ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٩٦٦/٣ (٤)

أحمد: ١٤١/٥ (٥) مسلم: ٥٥٦/١ (٦) أحمد: ٤٢٣/٥

(٧) تحفة الأحمدي: ١٨٣/٨

الْبَقْرَةَ، وَالْإِمْرَانَ وَطَهُ»^(٥) وَقَالَ هِشَامٌ - وَهُوَ ابْنُ عَمَارٍ خَطِيبٌ دِمَشْقِيٌّ - : أَمَّا الْبَقْرَةُ فَ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَفِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿التَّوْحِيدُ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَفِي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ طه: [١١١].

وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْتَمَلَةٌ عَلَى عَشْرِ جُمَلٍ مُسْتَقِلَّةٍ

١- فَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إِنْجَابٌ بِأَنَّهُ الْمَتَمَرُّدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْحَلَاقِقِ.

٢- ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أَيُّ الْحَيِّ فِي نَسْبِهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا، الْمَقِيمُ لِغَيْرِهِ. فَجَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، لَا قِيَامَ لَهَا بِدُونِ أَمْرِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

٣- وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أَيُّ لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ وَلَا غَفْلَةٌ وَلَا ذَهْوٌ عَنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَمِنْ تَمَامِ الْقَيُّومِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَعْتَرِيهِ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ أَيُّ لَا تَغْلِبُهُ ﴿سِنَةٌ﴾ وَهِيَ الْوَسَنُ وَالنَّعَاسُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنْ السِّنَّةِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَسْبَعِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النَّورُ أَوْ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ شُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٦).

٤- وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إِنْجَابٌ بِأَنَّ الْجَمِيعَ عِبْدُهُ وَفِي مُلْكِهِ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٤٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا [مريم: ٩٣-٩٥].

٥- وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ

أَسِيرِكَ الْبَارِحَةِ؟﴾ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَأ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ». فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَيَعُودُ». فَرَضَدْتُهُ، فَجَعَلَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ. فَرَحِمْتُهُ وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةِ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَأ حَاجَةٌ وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ»، فَرَضَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ، فَجَعَلَ يَحْتُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ، فَقَالَ: دَعْنِي أَعْلَمَنَّكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾... حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةِ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطَبُ مِنْهُ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قُلْتُ: لَا. قَالَ: «ذَلِكَ شَيْطَانٌ»^(١). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ^(٢).

[اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَ﴿التَّوْحِيدُ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿إِنَّ فِيهِمَا اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ﴾^(٣). وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٤).

وَرَوَى ابْنُ مَرْدُودٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، فِي ثَلَاثِ: سُورَةِ

(١) فتح الباري: ٦٧٢/٨ ٥٦٨/٤ ٣٨٦/٦ (٢) اللارامي: ٥٣٢ السنن الكبرى للنسائي ٢٣٨/٦ (١٠٧٩٥) (٣) أحمد: ٦/٤٦١ (٤) أبو داود: ١٦٨/٢ وتحفة الأحوذني: ٤٤٧/٩ وابن ماجه: ١٢٦٧/٢ (٥) الطبراني: ٢٨٢/٨ (٧٧٥٨)، (٧٩٢٥) وسلسلة الأحاديث الصحيحة (٧٤١). (٦) مسلم: ١/١٦٢

بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿النجم: ٢٦﴾ وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَسْغُوتُ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾ وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّهُ لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَشْفَعَ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «آتَى تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخْرَجَ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي. ثُمَّ يُقَالُ: ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تَسْمَعُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ - قَالَ: - فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ»^(١).

٦- وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ذَلِيلٌ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، مَا ضِيهَا وَحَاضِرَهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا، كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَكُنْ آيَاتِنَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مریم: ٦٤].

٧- وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أَيَّ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَطَّلَعَهُ عَلَيْهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَا يَطَّلِعُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ دَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، إِلَّا بِمَا أَطَّلَعَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

٨- وَقَوْلُهُ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ رَوَى وَكَيْعٌ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَلْكَرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ^(٢). وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْفُوقًا مِثْلَهُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ^(٣) وَلَمْ يُحَرِّجَاهُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، بُسِطْنَ، ثُمَّ وُضِلْنَ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ، مَا كُنَّ فِي سَعَةِ الْكُرْسِيِّ إِلَّا بِمَنْزِلَةِ الْحَلَقَةِ فِي الْمَفَازَةِ^(٤).

٩- وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَدْرِي جُفَاهُ﴾ أَيَّ لَا يُثْقَلُهُ وَلَا يَكْرَهُهُ جَفْظُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِمَا، وَمَنْ بَيْنَهُمَا، بَلْ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ، وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، الرَّقِيبُ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَعِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا حَقِيرَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، مُتَوَاضِعَةٌ ذَلِيلَةٌ صَغِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، مُتَحَاجَّةٌ قَبِيرَةٌ. وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، الْقَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَهُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْحَسِيبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الرَّقِيبُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

١٠- فَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كَقَوْلِهِ: وَهُوَ ﴿الْكَبِيرُ الْمَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ الْأَجُودِ فِيهَا طَرِيقَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ: إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أَيَّ لَا تُكْرَهُوا أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ وَاضِحٌ، جَلِيٌّ ذَلَالَةٌ وَبَرَاهِينُهُ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكْرَهُ أَحَدٌ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ، بَلْ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ، وَتَوَرَّ بِصِيرَتِهِ، دَخَلَ فِيهِ عَلَى بَيِّنَةٍ، وَمَنْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُبِيدُهُ الدُّخُولُ فِي الدِّينِ مُكْرَهًا مَقْسُورًا.

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَإِنْ كَانَ حُكْمُهَا عَامًّا. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِفْلَاةً، فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تَهْوَدَهُ، فَلَمَّا أَجْلَيْتِ بَنُو النَّصِيرِ، كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٥)، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ^(٦).

فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَسْلِمْتَ»، قَالَ: إِنِّي أَجِدُنِي كَارِهَا، قَالَ: «وَإِنْ كُنْتَ كَارِهَا»^(٧). فَإِنَّهُ ثَلَاثِيٌّ صَحِيحٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُكْرَهُهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، بَلْ دَعَا إِلَيْهِ، فَأَخْبَرَ أَنْ نَفْسَهُ لَيْسَتْ قَابِلَةً لَهُ، بَلْ هِيَ كَارِهَا، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْتَ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَرُفُكَ حُسْنَ النَّيِّ وَالْإِحْلَاصِ.

[التَّوْحِيدُ هُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيَّ مَنْ

(١) مسلم: ١٨٠/١ (٢) الطبراني: ٣٩/١٢ (٣) الحاكم: ٢/

٢٨٢ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٩٨١/٣ (٥) الطبري: ٤٠٧/٥

(٦) أبو داود: ١٣٢/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٠٤/٦ (٧)

أحمد: ١٨١/٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ يُحَى
وَيُمَيِّتُ قَالَ أَنَا أَحْيِى وَأُمَيِّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ
عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى
الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

الْوُثْقَى، أَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ». قَالَ: وَهُوَ عَبْدُ
اللَّهِ ابْنُ سَلَامٍ (٤). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٥). وَأَخْرَجَهُ
الْبُخَارِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ (٦).

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى
الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧)
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ،
فَيُخْرِجُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشُّكِّ وَالرَّيْبِ
إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الْمُبِينِ السَّهْلِ الْمُنِيرِ، وَأَنَّ
الْكَافِرِينَ إِنَّمَا وَلِيُّهُمْ الشَّيْطَانُ، يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا فِيهِ مِنْ
الْجَهَالَاتِ وَالضَّلَالَاتِ، وَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَجِدُونُ بِهِمْ عَنْ

خَلَعَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْلِيَانَ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبَادَةٍ
كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَوَحَدَ اللَّهُ فَعْبَدَهُ وَحْدَهُ، وَشَهِدَ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أَيَّ فَقَدْ
ثَبَّتَ فِي أَمْرِهِ، وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُنْتَهَى، وَالصِّرَاطِ
الْمُسْتَقِيمِ. رَوَى أَبُو قَاسِمٍ الْبَغَوِيُّ عَنْ حَسَّانَ بْنِ فَائِدٍ
الْعَبْسِيِّ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الْجِبْتَ:
السَّحْرُ. وَالطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ. وَإِنَّ الشُّجَاعَةَ وَالْجُبْنَ
غَرَائِزُ تَكُونُ فِي الرِّجَالِ، يُقَاتِلُ الشُّجَاعُ عَمَّنْ لَا يَعْرِفُ،
وَيَغْرُ الْجَبَانُ مِنْ أُمَّهِ. وَإِنَّ كَرَمَ الرَّجُلِ دِينُهُ، وَحَسْبُهُ:
خُلُقُهُ، وَإِنَّ كَانَ فَارِسِيًّا أَوْ بَطْنِيًّا (١). وَمَعْنَى قَوْلِهِ فِي
الطَّاغُوتِ: إِنَّهُ الشَّيْطَانُ. قَوِيٌّ جِدًّا، فَإِنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ شَرٍّ
كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْلِيَانَ وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهَا،
وَالِاسْتِئْصَارِ بِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أَيَّ
فَقَدْ اسْتَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِأَقْوَى سَبَبٍ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ بِالْعُرْوَةِ
الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْفِصِمُ، فَهِيَ فِي نَفْسِهَا مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قَوِيَّةٌ،
وَرَبَطُهَا قَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى يَعْنِي
الْإِيمَانَ (٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ الْإِسْلَامُ (٣). وَرَوَى الْإِمَامُ
أَحْمَدُ عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ
رَجُلٌ فِي وَجْهِهِ أَثَرٌ مِنْ خُشُوعٍ، فَدَخَلَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ
أَوْجَزَ فِيهِمَا، فَقَالَ الْقَوْمُ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا
خَرَجَ اتَّبَعْتُهُ حَتَّى دَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ فَحَدَّثْتُهُ، فَلَمَّا
اسْتَأْنَسَ، قُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا دَخَلْتَ قِبَلَ الْمَسْجِدِ،
قَالُوا كَذَا وَكَذَا، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ
يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ، وَسَأَحَدُكُمْ لِمَ؟ إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَفَضَّضْتُهَا عَلَيْهِ، رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ
خَضْرَاءَ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: فَذَكَرَ مِنْ خُضْرَتِهَا وَسَعَتِهَا -
وَفِي وَسَطِهَا عَمُودٌ حَدِيدٌ أَسْفَلُهُ فِي الْأَرْضِ وَأَعْلَاهُ فِي
السَّمَاءِ، فِي أَعْلَاهُ عُرْوَةٌ، فَقِيلَ لِي: اضْعُدْ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ:
لَا أَسْتَطِيعُ، فَجَاءَنِي مِنْصَفٌ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: هُوَ
الْوَصِيفُ - فَرَفَعَ نِيَابِي مِنْ خَلْفِي، فَقَالَ: اضْعُدْ،
فَضَعَدْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ، فَقَالَ: اسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ،
فَأَسْتَيْقِظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،
فَقَضَّضْتُهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «أَمَّا الرَّوْضَةُ فَرَوْضَةُ الْإِسْلَامِ،
وَأَمَّا الْعَمُودُ فَعَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الْعُرْوَةُ فَهِيَ الْعُرْوَةُ

(١) الطبري: ٤١٧/٥ فيه حسان بن فائد العبسي تفرد بالرواية عنه
أبو إسحاق السبيعي وقال أبو حاتم الرازي: هو شيخ [الجرح
والتعديل ٢٣٣/٣] (٢) الطبري: ٤٢١/٥ (٣) الطبري: ٥/
٤٢١ (٤) أحمد: ٤٥٢/٥ (٥) فتح الباري: ١٦١/٧ ومسلم:
١٩٣٠/٤ (٦) فتح الباري: ٤١٨/٢

وَاجِدٍ: وَذَلِكَ أَنِّي أُوتِي بِالرَّجُلَيْنِ، قَدِ اسْتَحَقَّا الْقَتْلَ فَأَمَرْتُ بِقَتْلِ أَحَدِهِمَا - فَيُقْتَلُ، وَبِالْعَمَلِ عَنِ الْآخَرِ فَلَا يُقْتَلُ، فَذَلِكَ مَعْنَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ (١).

وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ مَا أَرَادَ هَذَا، لِأَنَّهُ لَيْسَ جَوَابًا لِمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ، وَلَا فِي مَعْنَاهُ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مَانِعٍ لِرُجُودِ الصَّانِعِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَدْعِيَ لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَقَامَ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً، وَيُوهِمُ أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِدَيْكَ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، كَمَا اقْتَدَى بِهِ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» [القصص: ٣٨] وَلِهَذَا قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ - لَمَا ادَّعَى هَذِهِ الْمُكَابَرَةَ -: «فَاتَكِ اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ» أَي: إِذَا كُنْتُ كَمَا تَدْعِي مِنْ أَنَّكَ تُحْيِي وَتُمِيتُ، فَالَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي الْوُجُودِ، فِي خَلْقِ ذَوَاتِهِ، وَتَسْخِيرِ كَوَاكِبِهِ وَحَرَكَاتِهِ، فَهَذِهِ السَّمْسُ تَبْدُو كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَإِنْ كُنْتُ إِلَهَا كَمَا ادَّعَيْتَ: تُحْيِي وَتُمِيتُ، فَأَتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ؟ فَلَمَّا عَلِمَ عَجْزَهُ وَانْقِطَاعَهُ وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُكَابَرَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، «بُهِتَ»، أَي: أُخْرِسَ، فَلَا يَتَكَلَّمُ. (*) وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» أَي لَا يُلْهِمُهُمْ حُجَّةً وَلَا بُرْهَانًا، بَلْ «حُجَّجْتَهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ».

وَهَذَا التَّنْزِيلُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَحْسَنُ مِمَّا ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ: أَنَّ عُدُولَ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ إِلَى الْمَقَامِ الثَّانِي انْتِقَالَ مِنْ دَلِيلٍ إِلَى أَوْصَحَ مِنْهُ... وَبَيِّنُ بَطْلَانَ مَا ادَّعَاهُ نُمْرُودُ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَدْ ذَكَرَ السُّدِّيُّ أَنَّ هَذِهِ الْمُنَاطَرَةَ: كَانَتْ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَنُمْرُودَ بَعْدَ خُرُوجِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ، وَلَمْ يَكُنْ اجْتِمَاعَ بِالْمَلِكِ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَجَرَتْ بَيْنَهُمَا هَذِهِ الْمُنَاطَرَةُ. «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَوِيَّةٍ وَهِيَ حَاطِبِيَّةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْجِبُ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِنتُ قَالَ لَبِنتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِنتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى جِمْارِكَ وَلِيَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ

طَرِيقَ الْحَقِّ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِفْكِ «أَوَلَيْكَ أَحْسَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» وَلِهَذَا وَحَدَّ تَعَالَى لَفْظَ الثُّورِ، وَجَمَعَ الظُّلُمَاتِ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ، وَالْكَفْرَ أَجْنَاسٌ كَثِيرَةٌ، وَكُلُّهَا بَاطِلَةٌ، كَمَا قَالَ: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَأَتَيْتُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَلَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [الأنعام: ١٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» [الأنعام: ١] وَقَالَ تَعَالَى: «عَنِ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ» [النحل: ٤٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فِي لَفْظِهَا إِشْعَارٌ بِتَفَرُّدِ الْحَقِّ وَانْتِسَارِ الْبَاطِلِ وَتَفَرُّقِهِ وَتَشَعُّبِهِ.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخِي - وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [١٦٨]

[مُنَاطَرَةُ حَلِيلِ اللَّهِ مَعَ نُمْرُودَ]

هَذَا الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ هُوَ مَلِكُ بَابِلَ نُمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ بْنِ كُوشِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَيُقَالُ: نُمْرُودُ بْنُ فَالِحِ بْنِ عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَالْأَوَّلُ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: وَمَلَكَ الدُّنْيَا مَسَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا أَرْبَعَةٌ: مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ، فَالْمُؤْمِنَانِ سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ، وَدَاوُدُ الْقُرَيْشِيُّ، وَالْكَافِرَانِ: نُمْرُودُ وَبُخْتَنَصْرُ (١). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «أَلَمْ تَرَ» أَي بِقَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ «إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ»، أَي وَجُودِ رَبِّهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ تَمَّ إِلَهَ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ بَعْدَهُ فِرْعَوْنُ لِمَلِيئِهِ: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي». وَمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الطُّغْيَانِ وَالْكُفْرِ الْعَلِيظِ وَالْمَعَانِدَةَ الشَّدِيدَةَ إِلَّا تَجَبُّرُهُ، وَطُولُ مُدَّتِهِ فِي الْمُلْكِ، وَلِهَذَا قَالَ: «أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» وَكَأَنَّهُ طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَلِيلًا، عَلَى وَجُودِ الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمِيتُ» أَي إِنَّمَا الدَّلِيلُ عَلَى وَجُودِهِ: حُدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَشَاهِدَةِ بَعْدَ عَدَمِهَا، وَعَدَمُهَا بَعْدَ وَجُودِهَا: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، ضَرُورَةٌ، لِأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِنَفْسِهَا، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهَا، وَهُوَ: الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الْمُحَاجُّ - وَهُوَ النُّمْرُودُ - «أَنَا أُخِي - وَأُمِيتُ». قَالَ فَتَادَهُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُهُ

(١) الطبري: ٤٣٣/٥ (٢) الطبري: ٤٣٣/٥، ٤٣٦، ٤٣٧

(*) كذافي الأصل: والظاهر: فلم يتكلم

الْبَقَرَةُ

٤٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ
 تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَاخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
 الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
 ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٥﴾
 مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَتَتْت سَعِ سَبَايِلَ فِي كُلِّ سَبْتَلَةٍ مَّائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ
 لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ
 أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 ﴿٦٧﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا
 أَذَىٰ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِأَنبُلُوا
 صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ
 وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ
 تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
 شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾

اللَّهُ ﷻ قَرَأَ: ﴿كَيْفَ نُشْرُهَا﴾ بِالزَّيِّ ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ
 الْإِسْنَادِ. وَلَمْ يَحْرَجَاهُ^(٤). وَفَرَى (نَشْرُهَا) أَي نُحْيِيهَا،
 قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(٥).

﴿ثُمَّ نَكْسُوها لِحْمًا﴾: قَالَ الشُّدِّيُّ وَعَيْرُهُ: تَفَرَّقَتْ
 عِظَامُ جِمَارِهِ حَوْلَهُ يَمِينًا وَيَسَارًا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَهِيَ تَلُوحٌ مِّنْ
 بَيَاضِهَا، فَبَعَثَ اللَّهُ رِيحًا فَجَمَعَتْهَا مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ تِلْكَ
 الْمَحَلَّةِ، ثُمَّ رَكَّبَ كُلَّ عِظْمٍ فِي مَوْضِعِهِ حَتَّى صَارَ جِمَارًا
 قَائِمًا مِنْ عِظَامٍ لَا لَحْمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ كَسَاهَا اللَّهُ لِحْمًا وَعَصَبًا
 وَعُرُوقًا وَجِلْدًا، وَبَعَثَ اللَّهُ مَلِكًا فَفَتَحَ فِي مَنْخَرِي الْجِمَارِ،
 فَتَهَّقَ. كُلُّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٦). وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَرَأَى مِنْ
 عَزْرِي، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ هَذَا كُلُّهُ ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي أَنَا عَالِمٌ بِهِذَا، وَقَدْ رَأَيْتُهُ عَيْنَانَا: فَأَنَا

نُشْرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لِحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٩﴾
 [فِصَّةُ عَزْرِي]

تَقَدَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي
 رَبِّهِ﴾ وَهُوَ فِي قُوَّةِ قَوْلِهِ: هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ الَّذِي حَاجَّ
 إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، وَلِهَذَا عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَو كَالَّذِي مَرَّ
 عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ
 نَاجِيَةَ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ
 عَزْرِي^(١). وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ نَاجِيَةَ نَفْسِهِ^(٢). وَحَكَاهُ ابْنُ
 جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ
 وَالشُّدِّيِّ وَسَلِيمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ بْنُ جَبْرِ: هُوَ
 رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَأَمَّا الْقَرْيَةُ فَالْمَشْهُورُ أَنَّهَا بَيْتُ
 الْمَقْدِسِ، مَرَّ عَلَيْهَا بَعْدَ تَخْرِيْبِ بُخْتَنْصَرَ لَهَا، وَقَتَلَ أَهْلِهَا
 ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أَي لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، قَوْلُهُ: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾
 أَي سَاقِطَةٌ سُقُوفُهَا وَجُدْرَانُهَا عَلَى عَرَصَاتِهَا، فَوَقَفَ
 مُتَمَكِّرًا فِيمَا آلَ أَمْرُهَا إِلَيْهِ بَعْدَ الْعِمَارَةِ الْعَظِيمَةِ، وَقَالَ:
 ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وَذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ
 دُورِهَا، وَشِدَّةِ خَرَابِهَا، وَبُعْدِهَا عَنِ الْعُودِ إِلَى مَا كَانَتْ
 عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا اللَّهُ فَمِائَةٌ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ قَالَ:
 وَعُمِّرَتِ الْبَلْدَةُ بَعْدَ مُضِيِّ سِتِّينَ سَنَةً مِنْ مَوْتِهِ، وَتَكَامَلَ
 سَاكِنُوهَا، وَتَرَاجَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ أَحْيَا اللَّهُ فِيهِ عَيْنِيهِ،
 لِيَنْظُرَ بِهَا إِلَى صُنْعِ اللَّهِ فِيهِ: كَيْفَ يُحْيِي بَدَنَهُ؟ فَلَمَّا
 اسْتَقَلَّ سَوِيًّا ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ لَهُ، أَي بِوِاسِطَةِ الْمَلَكِ: ﴿كَمْ
 لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قَالُوا: وَذَلِكَ أَنَّهُ مَاتَ
 أَوَّلَ النَّهَارِ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ
 بَاقِيَةَ ظَنِّ أَنَّهَا شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَقَالَ: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾،
 ﴿قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى مَطَايِكَ وَشَرَايِكَ لَمْ
 يَسَسَّهْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ - فِيمَا ذَكَرَ - عَنَبٌ وَتَيْنٌ
 وَعَصِيرٌ، فَوَجَدَهُ كَمَا فَقَدَهُ لَمْ يَتَّعَزَّ مِنْهُ شَيْءٌ، لَا الْعَصِيرُ
 إِسْتِحَالَ، وَلَا التَيْنُ حَمَضَ وَلَا أَتَنَّ، وَلَا الْعَنَبُ تَعَفَّنَ.

﴿وَانْظُرْ إِلَى جِمَارِكَ﴾ أَي كَيْفَ يُحْيِيهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،
 وَأَنْتَ تَنْظُرُ ﴿وَلِنَجْمِكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ أَي دَلِيلًا عَلَى
 الْمَعَادِ ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْوَطَائِرِ كَيْفَ نُشْرُهَا﴾ أَي
 نَرَفَعُهَا، فَيَرْكَبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي
 مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٠٩/٣ (٢) الطبري: ٤٣٩/٥ (٣)
 الطبري: ٤٣٩/٥، ٤٤٠، وابن أبي حاتم غ: ١٠٠٩/٣، ١٠١٠
 (٤) الحاكم: ٢/٢٣٤ (٥) الطبري: ٥/٤٧٦ (٦) الطبري: ٥/

تَعَالَى الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَي تَوَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ، لَا عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَي فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَي عَلَى مَا خَلَفُوهُ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَلَا مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، لَا يَأْسَفُونَ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أَي مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَدُعَاءٌ لِلسَّلَامِ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أَي عَفْوٌ وَعَفْرٌ عَنْ ظُلْمٍ قَوْلِي أَوْ فِعْلِي ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾، ﴿وَاللَّهُ عَنِّي﴾ عَنْ خَلْقِهِ، ﴿حَلِيمٌ﴾ أَي يَحْلِمُ وَيَغْفِرُ وَيَصْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ. وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمَنِّ فِي الصَّدَقَةِ، فِيهِ صَحِيحٌ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُنْظَرُ لِنَهْمِهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُنْتَفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ»^(٥).

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطَلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّدَقَةَ تَبْطُلُ بِمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى، فَمَا يَبِي تَوَابِ الصَّدَقَةِ بِخَطِيئَةِ الْمَنِّ وَالْأَذَى، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً النَّاسِ﴾ أَي لَا تُبْطَلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَمَا تَبْطُلُ صَدَقَةٌ مَنْ رَأَى بِهَا النَّاسَ، فَأُظْهِرَ لَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا فَضْدُهُ مِدْحَةُ النَّاسِ لَهُ أَوْ شَهْرَتُهُ بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ لِشُكْرِ بَيْنِ النَّاسِ، أَوْ يُقَالُ: إِنَّهُ كَرِيمٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مَعَ قَطْعِ نَظَرِهِ عَنْ مُعَامَلَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ، وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ ذَلِكَ الْمُرَائِي بِإِنْفَاقِهِ، قَالَ الصُّحَّاحُ: وَالَّذِي يَتَّبِعُ نَفَقَتَهُ مَنًّا أَوْ أَذَى^(٦). فَقَالَ: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وَهُوَ جَمْعُ صَفْوَانِيَّةٍ، [وَ] مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الصَّفْوَانُ يُسْتَعْمَلُ مُفْرَدًا أَيْضًا، وَهُوَ الصِّفَا وَهُوَ الصَّخْرُ الْأَمْلَسُ، ﴿عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَاصَابُهُ وَابِلٌ﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أَي فَتَرَكَ الْوَابِلَ ذَلِكَ الصَّفْوَانَ صَلْدًا أَي أَمْلَسَ يَابِسًا، أَي لَا شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ يُنَمِّيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَصْحَابِهَا، كَمَا يُنَمِّي الزَّرْعَ لِمَنْ بَذَرَهُ فِي الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ، وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِتَضْعِيفِ الْحَسَنَةِ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ»^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ، وَلَفْظُ مُسْلِمٍ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ»^(٢).

حَدِيثٌ آخَرٌ: رَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَثْمَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، يَقُولُ اللَّهُ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ طَعَامَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلِخُلُوفٍ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، الصَّوْمُ جَنَّةٌ، الصَّوْمُ جَنَّةٌ»^(٣). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤).

وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَي بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ فِي عَمَلِهِ ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي فَضْلُهُ وَاسِعٌ كَثِيرٌ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِهِ، عَلَيْهِمْ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، سُبْحَانَهُ وَيَحْمَدِيهِ.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾ ﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾ ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطَلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَاصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

[النَّهْيُ عَنِ إِتْبَاعِ الصَّدَقَاتِ الْمَنِّ وَالْأَذَى]

يَمْدُحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِهِ، ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ مَنًّا عَلَى مَنْ أُعْطُوهُ، فَلَا يَمْتُونُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَمْتُونُ بِهِ لَا يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَذَى﴾ أَي لَا يَفْعَلُونَ مَعَ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ مَكْرُوهًا يُحِيطُونَ بِهِ مَا سَلَفَ مِنَ الْإِحْسَانِ، ثُمَّ وَعَدَهُمُ اللَّهُ

(١) أحمد: ١٢١/٤ (٢) مسلم: ١٥٠٥/٣ والنسائي: ٤٩/٦

(٣) أحمد: ٤٤٣/٢ (٤) مسلم: ٨٠٧/٢ (٥) مسلم: ١٠٢/١

(٦) الطبري: ٥٢٧/٥

ذَلِكَ الثَّرَابِ، بَلْ قَدْ ذَهَبَ كُلُّهُ، أَيْ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ
الْمُرَائِينَ تَذَهَبُ وَتَضْمَحِلُّ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ
أَعْمَالٌ فِيمَا يَرَى النَّاسُ كَالثَّرَابِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا
يَقْدُرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَثْبِيحًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَانَتْ
أُكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٦٥)

وَهَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ
عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ، ﴿وَتَثْبِيحًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ وَهُمْ مُتَحَقِّقُونَ
مُسْتَبْتُونَ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ، وَنَظِيرُ
هَذَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى
صِحَّتِهِ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» (١). أَيْ يُؤْمِنُ
أَنَّ اللَّهَ شَرَعَهُ، وَيَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أَيْ كَمَثَلِ بُسْتَانٍ بِرَبْوَةٍ،
وَهُوَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ: الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ الْمُسْتَوِي مِنْ
الْأَرْضِ، وَزَادَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: وَتَجْرِي فِيهِ
الْأَنْهَارُ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ، كَمَا تَقَدَّمَ،
فَآتَتْ ﴿أُكْلَهَا﴾ أَيْ ثَمَرَتَهَا ﴿ضَعْفَيْنِ﴾ أَيْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى
غَيْرِهَا مِنَ الْجِنَانِ ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ﴾ قَالَ
الضَّحَّاكُ: هُوَ الرَّذَاذُ، وَهُوَ اللَّيْنُ مِنَ الْمَطَرِ (٣). أَيْ هَذِهِ
الْجَنَّةُ بِهَذِهِ الرَّبْوَةِ لَا تَمَلُّ أَبَدًا، لِأَنَّهَا إِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطَلَّ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كِفَايَتُهَا، وَكَذَلِكَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِ لَا
يَبُورُ أَبَدًا، بَلْ يَقْبَلُهُ اللَّهُ وَيُكْرَهُهُ وَيُثِمِّيه، كُلُّ عَامِلٍ بِحَسَبِهِ،
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ
مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ شَيْءٌ.

﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ
وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦)

[مَثَالُ صِيَاغِ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،
وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ يَوْمًا
لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَنْ تُرَوُّنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ؟ ﴿أَيُّدُ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٤٥

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَثْبِيحًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَثَانَتْ أُكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْحَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِتَّائِحِينَ إِلَّا أَنْ تُعْصُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَكِيمٌ
﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ لِلفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يُعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قَالُوا: اللَّهُ
أَعْلَمُ. فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ،
فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،
قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ضَرَبْتُ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ:
أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ
يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ
بِالْمَعَاصِي، حَتَّى أَعْرَقَ أَعْمَالَهُ (٤).

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ كِفَايَةٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَتَبْيِينُ
مَا فِيهَا مِنَ الْمَثَلِ يَعْمَلُ مَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلِ أَوْلًا، ثُمَّ بَعْدَ
ذَلِكَ انْعَكَسَ سَبْرُهُ، فَبَدَّلَ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ، عِبَادًا
بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، فَأَبْطَلَ بِعَمَلِهِ الثَّانِي مَا أَسْلَفَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ
مِنَ الصَّالِحِ، وَاحْتِجَاجٌ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَوَّلِ فِي أَصْبَحِ

(١) فتح الباري: ٤/٣٠٠ (٢) الطبري: ٥/٥٣٧ (٣) الطبري:

٥٣٩/٥ (٤) فتح الباري: ٨/٤٩

الأَرْضِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ أَطْيَبِ الْمَالِ وَأَجْوَدِهِ وَأَنْفَسِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّصَدُّقِ بِرُدَالَةِ الْمَالِ وَدَيْتِهِ، وَهُوَ حَيْثُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أَي تَقْصِدُوا الْخَبِيثَ ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِصَاحِبِيهِ﴾ أَي لَوْ أُعْطِيتُمُوهُ مَا أَخَذْتُمُوهُ، إِلَّا أَنْ تَتَخَاَصَرُوا فِيهِ، فَاللَّهُ أَعْنَى عَنْهُ مِنْكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ مَا تَكْرَهُونَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أَي لَا تَعْدِلُوا عَنِ الْمَالِ الْحَلَالِ، وَتَقْصِدُوا إِلَى الْحَرَامِ، فَتَجْعَلُوا نَفَقَتَكُمْ مِنْهُ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾... الْآيَةَ، قَالَ: نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ، كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَ أَيَّامُ جُذَافِ الشُّحْلِ أَخْرَجَتْ مِنْ حِطَابِهَا أَقْنَاءَ الْبُسْرِ، فَعَلَّقُوهُ عَلَى حَبْلِ بَيْنَ الْأَسْطُوَانَتَيْنِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْكُلُ فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُ، فَيَعْمِدُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِلَى الْحَشْفِ، فَيَدْخُلُهُ مَعَ أَقْنَاءِ الْبُسْرِ، يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾^(١). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَسْتُمْ بِصَاحِبِيهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ﴾ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لَكُمْ عَلَى أَحَدٍ حَقٌّ، فَجَاءَكُمْ بِحَقِّ دُونَ حَقِّكُمْ لَمْ تَأْخُذُوهُ بِحِسَابِ الْجِدِّ حَتَّى تُنْفِصُوهُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تُنْفِصُوا فِيهِ﴾ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِي مَا لَا تَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِكُمْ، وَحَقِّي عَلَيْكُمْ مِنْ أَطْيَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ؟ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَزَادَ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَنْ نَأْكُلُوا الْبَرِّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]^(٢).

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أَي وَإِنْ أَمَرَكُمُ بِالصَّدَقَاتِ وَبِالطَّيِّبِ مِنْهَا فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِسْوَابِ الْغَنِيِّ الْفَقِيرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ النَّفْسُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٢٧] وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَجَمِيعِ خَلْقِهِ فَقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَاسِعٌ

الْأَحْوَالِ، فَلَمْ يَحْضَلْ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَخَانَهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وَهُوَ الرِّيحُ الشَّدِيدُ ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أَي أَحْرَقَ ثِمَارَهَا، وَأَبَادَ أَشْجَارَهَا، فَأَيُّ حَالٍ يَكُونُ حَالَهُ...؟

وقد روى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس، قال: ضرب الله مثلا حسنا، وكل أمثاله حسن، قال: «أبود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات» يقول: صنعته في شبته «وأصابه الكبر» وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فأحرق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يعرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة إذا رد إلى الله عز وجل، ليس له خير فيستعذب، كما ليس لهذا قوة فيعرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيرا يعود عليه، كما لم يُغن عن هذا ولده، وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنة الله عند أفقر ما كان إليها، عند كبره وضعف ذريته^(١).

وهكذا روى الحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم اجعل أوسع رزقك علي عند كبر سني وانقضاء عمري»^(٢). ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أَي تَعْتَبِرُونَ وَتَفْهَمُونَ الْأَمْثَالَ وَالْمَعَانِي وَتَنْتَرِلُونَهَا عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلَكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِصَاحِبِيهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِصُوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ السَّيِّطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْتِيكُمْ بِالْمَعْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَعْرِفَةَ مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكَرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٨﴾

[تَرْغِيبُ إِتْفَاقِ الْمَالِ الطَّيِّبِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّدَقَةُ هُنَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ﴾ مَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا، وَمِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرُوعِ الَّتِي أَنْبَتَهَا لَهُمْ مِنَ

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٧٤/٣ العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (٢) الحاكم: ٥٤٢/١ وفيه عيسى بن ميمون وهو متهم وقال الألباني: ضعيف جدا [سلسلة الأحاديث الضعيفة: ١٣٨٥] (٣) الطبري: ٥٥٩/٥ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١٠٨٨/٣ والطبري: ٥٦٥/٥

الْفَضْلِ، لَا يَنْفُدُ مَا لَدَيْهِ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ وَاسِعُ الْعَطَاءِ، كَرِيمٌ جَوَادٌ، وَسَيَجْزِيهِ بِهَا - وَيَضَاعِفُهَا لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً - مَنْ يَفْرُضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظُلُومٍ، وَهُوَ الْحَمِيدُ، أَيِ الْمَحْمُودِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرَعِهِ وَقَدْرِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

[الموساوسُ الشَّيْطَانِيَّةُ فِي الْإِنْفَاقِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَمَةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَمَةً، فَأَمَّا لَمَمَةُ الشَّيْطَانِ فَاِبْعَادُ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَمَةُ الْمَلِكِ فَاِبْعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَوَعَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾^(١) الْآيَةَ، وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنَيْهِمَا جَمِيعًا^(٢).

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أَيِ يُخَوِّفُكُمُ الْفَقْرَ لِتُمْسِكُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ، فَلَا تُنْفِقُوهُ فِي مَرَضَاءِ اللَّهِ. «وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ» أَيِ مَعَ نَهْيِهِ إِيَّاكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ؛ يَأْمُرُكُم بِالْمَعَاصِي وَالْمَأْتِمِ وَالْمَحَارِمِ وَمُخَالَفَةِ الْخَلَاقِ، قَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ» أَيِ فِي مُقَابَلَةِ مَا أَمَرَكُمُ الشَّيْطَانُ بِالْفَحْشَاءِ «وَفَضْلًا» أَيِ فِي مُقَابَلَةِ مَا خَوَّفَكُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْفَقْرِ «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

[مَعْنَى الْحِكْمَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني الْمَعْرِفَةَ بِالْقُرْآنِ، نَاسِخِهِ وَمُنْشُوعِهِ، وَمُحْكَمِهِ وَمُشَابِهِهِ، وَمُقَدِّمِهِ وَمُؤَخَّرِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَأَمْثَالِهِ^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَا لَا فَسَلْطَةَ عَلَيْهِ هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا»^(٤).

وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٥).

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَيَعْمَأَهِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُومٌ وَلَا كِنٌّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيِ وَمَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكَارِ إِلَّا مَنْ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ، يَعْنِي بِهِ الْخُطَابَ وَمَعْنَى الْكَلَامِ.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَيَعْمَأَهِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ

عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ الْعَامِلُونَ مِنْ الْخَيْرَاتِ مِنَ التَّقَاتِ وَالْمُنْدُورَاتِ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مُجَازَاتِهِ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجُزَاءِ لِلْعَامِلِينَ لِذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِهِ وَرَجَاءَ مَوْعُودِهِ، وَتَوَعَّدَ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِطَاعَتِهِ، بَلْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَكَذَّبَ خَبْرَهُ، وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٩٠/٣ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٣٢/٨
والنسائي في الكبرى: ٣٠٥/٦ (٣) الطبري: ٥٧٦/٥ (٤)
أحمد: ٤٣٢/١ (٥) فتح الباري: ١٩٩/١ ومسلم: ٥٥٩/١
والنسائي في الكبرى: ٤٢٦/٣ وابن ماجه: ١٤٠٧/٢

أَنْصَارٍ ﴿ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَدُّونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَيَقْتَصِمُوهُ .
[فَضْلُ إِظْهَارِ الصَّدَقَةِ وَإِخْفَائِهَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنْ بُدِّئُوا بِالصَّدَقَةِ فَعِمْنَا هِيَ ﴾ أَيْ إِنْ
أَظْهَرْتُمْوَهَا فَعِمْنَا شَيْءٌ هِيَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾
فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ إِسْرَارَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهَا ،

لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ ، إِلَّا أَنْ يَتَرْتَبَ عَلَى الْإِظْهَارِ
مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنْ اقْتِدَاءِ النَّاسِ بِهِ ، فَيَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ

هَذِهِ الْحَيِيَّةِ ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ
كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ

بِالصَّدَقَةِ » (١) . وَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِسْرَارَ أَفْضَلُ لِهَذِهِ الْآيَةِ ،
وَلَمَّا ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ: « سَعَةُ يُظَلِّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا
ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلَانِ

تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ
مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلٌ

ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ
مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَتْ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ،

وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا
تُنْفِقُ بِيَمِينِهِ » (٢) .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَعْيَاتِكُمْ ﴾ أَيْ بَدَلَ
الصَّدَقَاتِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ سِرًّا ، يَحْضَلُ لَكُمْ الْخَيْرُ

فِي رَفْعِ الدَّرَجَاتِ ، وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ السَّيِّئَاتِ ، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ

وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ .
﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ يُنْفِقُ وَمَا تَنْفِقُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَجِو

اللَّهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٧﴾
لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْئَلُونَ

ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ
التَّعْفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا

تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَبِلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْدِي وَاللِّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ

رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٩﴾
[الصَّدَقَةُ لِلْمُشْرِكِينَ]

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ:

كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَحُوا لِأَنسَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ،
فَسَأَلُوا فَرَّخَصَ لَهُمْ ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ

هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا

تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ (٣)
وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ مَنْ

عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت: ٤٦] وَنَظَائِرُهَا فِي الْقُرْآنِ
كثيرة .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ قَالَ
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: نَفَقَةُ الْمُؤْمِنِ لِنَفْسِهِ . وَلَا يُنْفِقُ الْمُؤْمِنُ

إِذَا أَنْفَقَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ (٤) . وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ:
يَعْنِي إِذَا أُعْطِيَ لَوْجَهُ اللَّهِ فَلَا عَلَيْكَ مَا كَانَ عَمَلُهُ (٥) .

وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٌ وَحَاصِلُهُ: أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ إِذَا تَصَدَّقَ ابْتِغَاءَ
وَجْهِ اللَّهِ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَلَا عَلَيْهِ فِي نَفْسِ

الْأَمْرِ لِمَنْ أَصَابَ ، أَبْرٌ أَوْ فَاجِرٌ أَوْ مُسْتَحِقٌّ أَوْ غَيْرُهُ ، وَهُوَ
مُتَابٌ عَلَى قَصْدِهِ ، وَمُسْتَنْدٌ هَذَا تَمَامُ الْآيَةِ: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا

مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ وَالْحَدِيثُ
الْمُخْرَجُ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ: « قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ
بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ:

تُصَدَّقُ عَلَى زَانِيَةٍ ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، عَلَى زَانِيَةٍ ،
لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ

غَنِيٍّ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدَّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ ، قَالَ:
اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، عَلَى غَنِيٍّ ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ،

فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ ، فَأَصْبَحُوا
يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدَّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ

الْحَمْدُ ، عَلَى زَانِيَةٍ! وَعَلَى غَنِيٍّ ، وَعَلَى سَارِقٍ . فَأُنِيَ
فَقِيلَ لَهُ: أَمَا صَدَقْتِكَ فَقَدْ قُبِلَتْ ، وَأَمَا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ

تَسْتَعْفِفَ بِهَا عَنْ زَنَاهَا ، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أُعْطَاهُ
اللَّهُ ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعْفِفَ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ (٦) .

(١) أبو داود: ٨٣/٢ (٢) فتح الباري: ٣/٣٤٤ ومسلم: ٢/٧١٥ (٣) السائي في الكبرى: ٦/٣٠٥ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٣/١١١٥ (٥) ابن أبي حاتم غ: ٣/١١١٥ (٦) فتح الباري: ٣/٣٤٤ ومسلم: ٢/٧٠٩

[مَنْ أَحَقُّ بِالصَّدَقَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
 يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله،
 وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم
 ما يغنيهم و ﴿لَا يَسْئَلُونَ صَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني
 سفرًا للتسبب في طلب المعاش. والضرب في الأرض هو
 السفر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسْأَلُوا عَلَيْكُمْ
 جُنَاحَ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْحُومٌ وَمَا خُوفُ بَصُرَتُمْ فِي الْأَرْضِ يَبْتَعُونَ مِنْ
 فَضْلِ اللَّهِ وَالْآخِرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾... الآية [المزمل:
 ٢٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي
 الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في
 لباسهم وحالهم ومقاليهم، وفي هذا المعنى الحديث
 المتفق على صحته عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ
 وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالْأَكْلَةُ وَالْأَكْلَتَانِ، وَلَكِنْ
 الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنَى يُغْنِيهِ، وَلَا يَطْفُنُ لَهُ فَيَصَدَّقَ
 عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا»^(١). وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ
 حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي بما يظهر لذوي
 الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي
 وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وَقَالَ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾
 [محمد: ٣٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِكْفَافًا﴾ أي لا يُسْأَلُونَ
 في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من
 سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف في المسألة،
 وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، قال: سَرَحْتَنِي أُمِّي
 إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ، فَأَتَيْتُهُ فَعَدَدْتُ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَنِي
 فَقَالَ: «مَنْ اسْتَعْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَعَفَّ أَعَمَّهُ اللَّهُ،
 وَمَنْ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيَمَةٌ أَوْقِيَتْهُ فَقَدْ
 أَلْحَفَ». قَالَ: فَقُلْتُ: نَاقِيَتِي الْيَاقُوتَةُ خَيْرٌ مِنْ أَوْقِيَّتِي،
 فَرَجَعْتُ فَلَمْ أَسْأَلُهُ^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالسَّائِغِيُّ^(٤).

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَبِلَ اللَّهُ يَوْمَ عِلْمِهِ﴾ أي لا
 يحفى عليه شيء منه وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم
 القيامة أحوج ما يكون إليه.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
 يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا بَيْعُ
 مِثْلِ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
 مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
 فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ
 اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
 إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنًا وَاللَّهُ
 وَذَرَوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا وَإِنْ كُنْتُمْ مَوْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
 فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
 أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ
 ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
 اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

[مَدْحُ الْمُتَصَدِّقِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِإِتِّيلٍ وَالتَّهَارِ سِرًّا
 وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
 هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هَذَا مَدْحٌ مِنْ تَعَالَى لِلْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ،
 وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ، فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ مِنْ لَيْلٍ وَنَهَارٍ
 وَالْأَحْوَالِ: مِنْ سِرٍّ وَجَهَارٍ، حَتَّى إِنْ التَّقَمَّةَ عَلَى الْأَهْلِ
 تَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَيْضًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ قَالَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ حِينَ عَادَهُ مَرِيضًا عَامَ
 الْفَتْحِ. وَفِي رِوَايَةٍ: عَامَ حَجَّةِ الْوُدَاعِ: «وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً
 تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَزِدَّتْ بِهَا دَرَجَةً وَرَفَعَتْ، حَتَّى مَا
 تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ»^(٥). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي
 مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ
 إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً».

(١) فتح الباري: ٣/٣٩٩ (٢) أحمد: ١/٣٨٤ (٣) أحمد:
 ٩/٣ (٤) أبو داود: ٢/٢٧٩ والنسائي: ٥/٩٨ (٥) فتح
 الباري: ٣/١٩٦ ومسلم: ٤/١٢٥٠

أَخْرَجَاهُ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَاتِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

[ذَمُّ أَكْلِ الرِّبَا]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْأَبْرَارَ الْمُؤَدِّينَ النَّفَقَاتِ، الْمُخْرِجِينَ الرِّكَوَاتِ، الْمُتَفَضِّلِينَ بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَاتِ لِذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْقَرَابَاتِ، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ، شَرَعَ فِي ذَمِّ أَكْلِ الرِّبَا وَأَمْوَالِ النَّاسِ، بِالْبَاطِلِ وَأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْهَا، إِلَى بَعْثِهِمْ وَنُشُورِهِمْ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، أَي لَا يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْمَضْرُوعُ حَالَ صَرْعِهِ، وَتَخَبَّطُ الشَّيْطَانُ لَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ قِيَامًا مُنْكَرًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَكَلَ الرِّبَا يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يُخْتَقُ^(٢). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيِّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَقَتَادَةَ وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ نَحْوَ ذَلِكَ^(٣). وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ فِي حَدِيثِ الْمَنَامِ الطَّوِيلِ: «فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - : أَحْمَرٌ مِثْلُ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ الْحِجَارَةَ عِنْدَهُ، فَيَفْعَرُ لَهُ فَاةً، فَيَلْقِمُهُ حَجْرًا... فَذَكَرَ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ أَكَلَ الرِّبَا^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، أَي إِنَّمَا جُوزُوا بِذَلِكَ لِإِعْتِرَاضِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ، وَلَيْسَ هَذَا قِيَاسًا مِنْهُمْ لِلرِّبَا عَلَى الْبَيْعِ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّةِ أَصْلِ الْبَيْعِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْقِيَاسِ لَقَالُوا: إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ الْبَيْعِ، وَإِنَّمَا قَالُوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أَي هُوَ نَظِيرُهُ، فَلِمَ حَرَّمَ هَذَا وَأَبِيحَ هَذَا؟

(١) البخاري: ٥٥، ومسلم: ١٠٠٢ (٢) الطبري: ٩/٦ (٣) ابن أبي حاتم غ: ١١٣٠/٣، ١١٣١ (٤) فتح الباري: ٢٩٥/٣ (٥) أبو داود: ٦٢٨/٣ (٦) ابن أبي حاتم غ: ١١٣٥/٣ (٧) أبو داود: ٦٩٥/٣ (٨) الحاكم: ٢٨٥/٢ ضعيف: وعله ضعفه تدليس أبي الزبير وضعفه الألباني في الضعيفة (٩٩٠) وقال: وقد صح النهي عن المخابرة من طرق أخرى عن جابر رضي الله عنه عند مسلم وغيره ولكنه محمول على الوجه المفضي إلى الغرر والجهالة لا على كراتها مطلقا حتى بالذهب والنفضة لثبوت جواز ما لا غرر فيه في أحاديث كثيرة...

وَيُكْتَبُ إِلَّا إِذَا أَظْهَرَ فِي صُورَةِ عَقْدِ شَرْعِيٍّ، وَيَكُونُ دَاخِلُهُ فَاسِدًا، فَلَا عَيْتَارَ بِمَعْنَاهُ لَا بِصُورَتِهِ، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ.

﴿يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ﴾
 أَيُّمُ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الدِّينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ ﴿١٠٧﴾

[لَا يُبَارَكُ فِي الرِّبَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَمْحُو الرِّبَا، أَيُّ يَذْهَبُهُ، إِمَّا بِأَنْ يَذْهَبَهُ بِالْكَلْبَةِ مِنْ يَدِ صَاحِبِهِ، أَوْ يُحْرِمَهُ بَرَكَةَ مَالِهِ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، بَلْ يُعَذِّبُهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَعَاقِبَتُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَتُهُ الْخَبِيثُ﴾ [المائدة: ١٠٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جِمَاعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وَقَالَ: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِوُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾... [آية الروم: ٣٩]، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا﴾: وَهَذَا نَظِيرُ الْخَبْرِ الَّذِي رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ [عَنِ النَّبِيِّ ﷺ] أَنَّهُ قَالَ: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ»^(١). رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِخَوْرِهِ^(٢).

[إِنَّ اللَّهَ يُرِي الصَّدَقَاتِ كَمَا يُرِي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ]

وقوله: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ أَيُّ يُنْمِيهَا. وَقِيلَ: يُرِيهَا. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلٍ تَمْرَةً مِنْ كَسْبِ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِمِيزَانِهِ، ثُمَّ يُرِيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرِي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(٣). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ^(٤).

(١) فتح الباري: ٤٨/١٠ ومسلم: ٤/٢٣٢٢ (٢) فتح الباري: ١٥٣/١ ومسلم: ١٢١٩/١ (٣) تحفة الأحوذني: ٧/٢٢١ والنسائي: ٣٢٨/٨ (٤) أحمد: ٣٦/١ وابن ماجه: ٢٧٦ (٥) ابن ماجه: ٧٦٤/٣ ونحوه للحاكم في المستدرک: ٣٧/٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (٦) أحمد: ٤٦/٦ (٧) فتح الباري: ٥١/٨ ومسلم: ١٢٠٦/٣ وأبو داود: ٧٥٩/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٠٦/٦ وابن ماجه: ١١٢٢/٢ (٨) فتح الباري: ٥٧٢/٦ ومسلم: ١٢٠٧/٣ (٩) مسلم: ٣/١٢١٩ (١٠) الطبري: ١٥/٦ (١١) أحمد: ٣٩٥/١ (١٢) فتح الباري: ٣٢٦/٣ وفتح الباري: ٤٢٦/١٣ (١٣) مسلم: ٢/٧٠٢

مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمَزَابِتُ، وَهِيَ: اشْتِرَاءُ الرُّطْبِ فِي رُؤُوسِ النَّخْلِ بِالتَّمْرِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَالْمُحَاقَلَةُ، وَهِيَ اشْتِرَاءُ الْحَبِّ فِي سُنْبُلِهِ فِي الْحَقْلِ بِالْحَبِّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. إِنَّمَا حُرِّمَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَمَا شَاكَلَهَا حَسْمًا لِمَادَةِ الرِّبَا، لِأَنَّهُ لَا يُعْلَمُ التَّسَاوِي بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ قَبْلَ الْجَفَافِ، وَبَابُ الرِّبَا مِنْ أَشْكَلِ الْأَبْوَابِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَدْ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثَلَاثٌ وَادِدْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهَدَ إِلَيْنَا فِيهِنَّ عَهْدًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ: الْجَدُّ، وَالْكَلَالَةُ، وَأَبْوَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا^(١). - يَعْنِي بِذَلِكَ بَعْضَ الْمَسَائِلِ الَّتِي فِيهَا شَائِئَةُ الرِّبَا - وَالشَّرِيعَةُ شَاهِدَةٌ بِأَنَّ كُلَّ حَرَامٍ فَالْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ، لِأَنَّ مَا أُضْضِيَ إِلَى الْحَرَامِ حَرَامٌ، كَمَا أَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَزِنَعَ فِيهِ»^(٢). وَفِي السُّنَنِ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «دَعُ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ»^(٣). وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ عُمَرَ قَالَ: مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ، آيَةُ الرِّبَا، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فُضِّصَ قَبْلَ أَنْ يُفَسَّرَهَا لَنَا، فَدَعَا الرِّبَا وَالرِّبِيَّةَ^(٤). وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرِّبَا سَبْعُونَ حُوبًا، أَسْرَهَا أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّه»^(٥).

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَهُوَ تَحْرِيمُ الْوَسَائِلِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْمُحْرَمَاتِ، الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ فَرَأَاهُنَّ، فَحَرَّمَ التَّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ^(١). وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ، سِوَى التِّرْمِذِيِّ^(٢).

كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا، فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوهَا أَثْمَانَهَا»^(٣). وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَبْرِهِمَا عِنْدَ لَعْنِ الْمُحَلَّلِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] قَوْلُهُ ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ أَكِلَ الرِّبَا وَمُوكَلَّهُ وَسَاهِدِيهِ وَكَاتِبِيهِ»^(٤). قَالُوا: وَمَا يُشْهَدُ عَلَيْهِ

[الْكَافِرُ الْأَيْمُ مَبْعُوضٌ عِنْدَ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، أَي لَا يُحِبُّ كَثُورَ الْقَلْبِ، أَيَّمُ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُنَاسَبَةٍ فِي خْتَمِ هَذِهِ الْآيَةِ بِهَذِهِ الصَّفَةِ، وَهِيَ أَنَّ الْمُرَابِي لَا يَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحَلَالِ، وَلَا يَكْتَنِبِي بِمَا شَرَعَ لَهُ مِنَ التَّكْسِبِ الْمُبَاحِ، فَهُوَ يَسْعَى فِي أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، بِأَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ الْخَبِيثَةِ، فَهُوَ جَحُودٌ لِمَا عَلَيْهِ مِنَ النِّعْمَةِ، ظُلُومٌ أَيَّمُ بِأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

[مَدْحُ الشَّاكِرِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَا دَحَا لِلْمُؤْمِنِينَ يَرْبِّهِمُ الْمُطِيعِينَ أَمْرَهُ، الْمُؤَدِّينَ شُكْرَهُ، الْمُحْسِنِينَ إِلَى خَلْقِهِ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَانِ الزَّكَاةِ، مُخْبِرًا عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ التَّيْبَعَاتِ آمِنُونَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٨﴾ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَاجْتِنَابِ الرِّبَا]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، نَاهِيًا لَهُمْ عَمَّا يُقْرَبُهُمْ إِلَى سَخَطِهِ وَيُبْعِدُهُمْ عَنْ رِضَاهُ، فَقَالَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ فِيمَا تَفْعَلُونَ ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أَي ائْرِكُوا مَا لَكُمْ عَلَى النَّاسِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَمْوَالِ، بَعْدَ هَذَا الْإِنذَارِ ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي بِمَا شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ تَحْلِيلِ الْبَيْعِ وَتَحْرِيمِ الرِّبَا وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَابْنُ جُرَيْجٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالسُّدِّيُّ: أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ نَزَلَ فِي بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَمِيرٍ مِنْ قُضَيْفٍ، وَبَنِي الْمُغِيرَةِ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، كَانَ بَيْنَهُمْ رِبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَدَخَلُوا فِيهِ، طَلَبَتْ قُضَيْفٌ أَنْ تَأْخُذَهُ مِنْهُمْ، فَتَسَاوَرُوا، وَقَالَتْ بَنُو الْمُغِيرَةِ: لَا نُؤَدِّي الرِّبَا فِي الْإِسْلَامِ، فَكَتَبَ فِي ذَلِكَ عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ، نَائِبُ مَكَّةَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَكَتَبَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فَقَالُوا: نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَنَذَرُ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا، فَتَرَكُوهُ كُلَّهُمْ^(١). وَهَذَا تَهْلِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى تَعَاطِي الرِّبَا بَعْدَ الْإِنذَارِ.

[أَكْلُ الرِّبَا إِغْلَانٌ عَنِ الْحَرْبِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَأَذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ أَي اسْتَبَقْتُمَا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^(٢). وَعَنْهُ قَالَ: يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْلِ الرِّبَا: خُذْ سِلَاحَكَ لِلْحَرْبِ، ثُمَّ قَرَأْ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. فَمَنْ كَانَ مُقِيمًا عَلَى الرِّبَا، لَا يَنْزِعُ عَنْهُ فَحَقُّ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَتِيْبَهُ، فَإِن نَزَعَ وَإِلَّا ضَرَبَ عُقْبَهُ^(٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُبْتِغُوا رُءُوسَ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ أَي بِأَخْذِ الزِّيَادَةِ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أَي يَوْضِعُ رُءُوسِ الْأَمْوَالِ أَيْضًا، بَلْ لَكُمْ مَا بَدَلْتُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَقْصٍ مِنْهُ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرٍو بْنِ الْأَخْوَصِ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ رِبَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ، لَكُمْ رُءُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، وَأَوَّلُ رِبَا مَوْضُوعٍ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»^(٤).

[الإِحْسَانُ إِلَى الْمُعْسِرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يَا مَرْ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَلَى الْمُعْسِرِ الَّذِي لَا يَجِدُ وَفَاءً، فَقَالَ: ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ لَا كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِمُدَيْبِهِ إِذَا حَلَّ عَلَيْهِ الدَّيْنُ: إِمَا أَنْ تَقْضِي وَإِمَّا أَنْ تُرْبِي، ثُمَّ يَنْدُبُ إِلَى الْوَضْعِ عَنْهُ، وَيَعِدُّ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرِ وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، فَقَالَ: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي وَأَن تَتْرَكُوا رَأْسَ الْمَالِ بِالْكَلْبَةِ وَتَضَعُوهُ عَنِ الْمَلِينِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ،

(١) ابن أبي حاتم غ: ٣/١١٤٠، ١١٤١ (٢) الطبري: ٢٦/٦

(٣) الطبري: ٢٥/٦ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٣/١١٤٧

الْمُؤْمِنِينَ

٤٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ وَيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُمْلِعَ لَهُ فُلْيُمْلِلْ لَهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبُ الشَّاهِدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَاِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَيَعْلَمْكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٤٥﴾. وكذا رواه الضحاك والعوفي عن ابن
عباس (٦).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ وَيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ
أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ
الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي
عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِعَ لَهُ
فُلْيُمْلِلْ لَهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ
لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَةِ
أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبُ
الشَّاهِدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ

قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ
يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ» قَالَ: ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا
فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَاهُ صَدَقَةٌ» قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ
تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ». ثُمَّ
سَمِعْتُكَ تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَاهُ
صَدَقَةٌ»، قَالَ: «لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَجِلَّ
الَّذِينَ، فَإِذَا حَلَّ الَّذِينَ فَأَنْظَرَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَاهُ
صَدَقَةٌ» (١).

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْفَرُطِيِّ: أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ
كَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَى رَجُلٍ، وَكَانَ يَأْتِيهِ يَتَقَضَاةً فَيَحْتَبِي مِنْهُ،
فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَخَرَجَ صَبِيًّا، فَسَأَلَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: نَعَمْ هُوَ
فِي الْبَيْتِ يَأْكُلُ خَزِيرَةً، فَتَادَاهُ، فَقَالَ: يَا فَلَانُ، اخْرُجْ،
فَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّكَ هَاهُنَا، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا يُعْيَبُكَ
عَنِّي؟ فَقَالَ: إِنِّي مُعْسِرٌ، وَلَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ. قَالَ: اللَّهُ
إِنَّكَ مُعْسِرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَبَكَى أَبُو قَتَادَةَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ، أَوْ مَحَا عَنْهُ،
كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي
صَحِيحِهِ (٣).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُؤَصِّلِيُّ عَنْ حُدَيْفَةَ، قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَى اللَّهُ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
قَالَ: مَاذَا عَمِلْتَ لِي فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ لَكَ
يَا رَبِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الدُّنْيَا أَرْجُوكَ بِهَا - قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
- قَالَ الْعَبْدُ عِنْدَ آخِرِهَا: يَا رَبِّ، إِنَّكَ كُنْتَ أَعْطَيْتَنِي فَضْلَ
مَالٍ، وَكُنْتُ رَجُلًا أَبَايَعِ النَّاسِ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ،
فَكُنْتُ أَيْسَرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأَنْظَرُ الْمُعْسِرِ، قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَحَقُّ مِنْ يُوسِرٍ، ادْخُلِ الْجَنَّةَ». وَقَدْ أَخْرَجَهُ
الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ حُدَيْفَةَ، زَادَ مُسْلِمٌ: وَعُقِبَهُ
ابْنُ عَامِرٍ وَأَبِي مَسْعُودِ الْبَدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ (٤).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يَعْطَى عِبَادَهُ، وَيُذَكِّرُهُمْ زَوَالَ الدُّنْيَا، وَفَنَاءَ
مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا، وَإِتْيَانَ الْآخِرَةِ، وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ
تَعَالَى، وَمُحَاسَبَتَهُ تَعَالَى خَلْقَهُ عَلَى مَا عَمِلُوا، وَمُجَازَاتِهِ
إِيَّاهُمْ بِمَا كَسَبُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَيُحَذِّرُهُمْ عُقُوبَتَهُ، فَقَالَ:
﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وَقَدْ رَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ آخِرُ آيَةٍ
نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبَّاسٍ، قَالَ: آخِرُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا

(١) أحمد: ٣٦٠/٥ (٢) أحمد: ٣٠٨/٥ (٣) مسلم: ٤/٢٠٧٤ (٤) فتح الباري: ٥٧٠/٦ (٥) النسائي في الكبرى: ٣٠٧/٦ (٦) الطبري: ٦/٤٠ العوفي لا يحتج به كما مر

عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلَيْتَى اللَّهُ رَبُّكَ ﴿١﴾ أَيُّ وَلِيْمِلِ الْمَدِينُ عَلَى الْكَاتِبِ مَا فِي ذِمَّتِهِ مِنَ الدِّينِ، وَلَيْتَى اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا يَبْعَثُ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أَيُّ لَا يَكْتُمُ مِنْهُ شَيْئًا ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ مَحْجُورًا عَلَيْهِ بِتَبْذِيرِ وَنَحْوِهِ ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أَيُّ صَغِيرًا، أَوْ مَجْنُونًا ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَوْمِلَ هُوَ﴾ إِمَّا لِعِيٍّ أَوْ جَهْلٍ بِمَوْضِعِ صَوَابِ ذَلِكَ مِنْ حَطِّهِ ﴿فَلْيَمْلِكْ وَليُّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

[الْأَمْرُ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ بَنِيكُمْ﴾ أَمْرٌ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ لِزِيَادَةِ التَّوْبِقَةِ ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَمْوَالِ، وَمَا يُفْضَدُ بِهِ الْمَالُ، وَإِنَّمَا أُقِيمَتِ الْمَرَاتَانِ مَقَامَ الرَّجُلِ لِنُقْصَانِ عَقْلِ الْمَرْأَةِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الْإِسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزَلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أُغْلِبَ لِيذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالذِّينِ؟ قَالَ: «أَمَّا نُقْصَانُ عَقْلِهَا، فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمَكُّتُ اللَّيَالِي لَا تُصَلِّي وَتَقْطُرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ»^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ تَرَمَّوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى اشْتِرَاطِ الْعَدَالَةِ فِي الشُّهُودِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَهُمَا يَعْني الْمَرَاتَيْنِ، إِذَا نَسِيَتِ الشَّهَادَةَ (فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) أَيُّ يَحْضُرُ لَهَا ذِكْرَى بِمَا وَقَعَ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ. وَلِهَذَا قَرَأَ آخَرُونَ: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ إِذَا دُعُوا لِلتَّحْمِلِ فَلَعْنَهُمُ الْإِجَابَةُ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ وَمِنْ هُنَا اسْتَفِيدَ أَنَّ تَحْمِلَ الشَّهَادَةَ فَرُضٌ كِفَايَةٌ. وَقِيلَ: - وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ - الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ:

كَبِيرًا إِلَى أَجْلِيهِ ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْفَقُ إِلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَحَدَّرَةً حَاضِرَةً تُدْرِكُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ إِلَّا أَنْ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ سَوْفَ بِكُمْ وَأَتَفَّوْا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

[الْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْمُعَامَلَاتِ الْمُوجَلَّةِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ أَحَدَ الْقُرْآنِ بِالْعُرْشِ آيَةَ الدِّينِ^(١).

فَقَوْلُهُ: ﴿يَأْتِيهَا الذِّكْرُ مَأْمُومًا إِذَا تَدَايَنْمُ بَيْنَ إِلَهٍ أَجَلِي مُسَمًّى فَالْكَتُبُوهُ﴾ هَذَا إِزْشَادٌ مِنْهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَعَامَلُوا بِمُعَامَلَاتٍ مُوجَلَّةٍ أَنْ يَكْتُبُوهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَحْفَظَ لِمَقْدَارِهَا وَمِيقَاتِهَا، وَأَضْبَطَ لِلشَّاهِدِ فِيهَا، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى هَذَا فِي آخِرِ الْآيَةِ حَيْثُ قَالَ: ﴿ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْفَقُ إِلَّا تَرْتَابُوا﴾، وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِيمَ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسْلِفُونَ فِي الثَّمَارِ السَّتِينَ وَالثَّلَاثِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَسْلَفَ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزَنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿فَالْكَتُبُوهُ﴾ أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالْكِتَابَةِ لِلتَّوْبِقَةِ وَالْحِفْظِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَنْ إِذَا دَانَ فَلْيَكْتُبْ، وَمَنْ ابْتِاعَ فَلْيَشْهَدْ^(٣). وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ وَالشَّعْبِيُّ وَالرَّبِيعِيُّ بْنُ أَنَسٍ وَالْحَسَنُ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ^(٤): كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا، ثُمَّ نَسَخَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَيِّدُوا الَّذِي أَوْفَىنَ آمَنَتَهُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أَيُّ بِالْقِسْطِ وَالْحَقِّ، وَلَا يَجُزْ فِي كِتَابَتِهِ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَكْتُبُ إِلَّا مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أَيُّ وَلَا يَمْتَنِعُ مَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ إِذَا سُئِلَ أَنْ يَكْتُبَ لِلنَّاسِ، وَلَا ضُرُورَةَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، فَكَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَى غَيْرِهِ وَمَنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، وَلْيَكْتُبْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تُعَيِّنَ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعَ لِأَخْرَقٍ»^(٥) وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ: وَاجِبٌ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَكْتُبَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَمْلِكِ الَّذِي

(١) الطبري: ٤١/٦ (٢) فتح الباري: ١٠٥/٤ ومسلم: ٣/

١٢٢٦ (٣) الطبري: ٤٧/٦ (٤) الطبري: ٤٧/٦، ٤٩، ٥٠

(٥) فتح الباري: ١٧٦/٥ (٦) الطبراني: ٥/١١ (٧) مسلم:

﴿وَلَا يَأْتِ الشُّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا﴾^(١): لِلدَّاءِ؛ لِحَقِيقَةِ قَوْلِهِ: ﴿الشُّهَادَةُ﴾. وَالشَّاهِدُ - حَقِيقَةٌ - فِيمَنْ تَحَمَّلَ، فَإِذَا دُعِيَ لِأَدَائِهَا فَعَلِيهِ الْإِجَابَةُ إِذَا تَعَيَّنَتْ، وَإِلَّا فَهُوَ فَرَضٌ كِفَايَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو مِجْلَزٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِذَا دُعِيتَ لِتَشْهَدَ فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ، وَإِذَا شَهِدْتَ فَدُعِيتَ فَأَجِبْ^(٢). وَقَدْ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهَا تَعْمُ الْحَالَيْنِ: التَّحَمُّلُ وَالْأَدَاءُ.

وقوله: ﴿وَلَا سَمِعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَدِيدًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجْلِهِ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْإِرْسَادِ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْحَقِّ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، فَقَالَ: ﴿وَلَا سَمِعُوا﴾ أَي لَا تَمَلُّوا أَنْ تَكْتُبُوا الْحَقَّ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ كَانَ مِنَ الْقَلَّةِ وَالْكَثْرَةِ ﴿إِلَىٰ أَجْلِهِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أَي هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْكِتَابَةِ لِلْحَقِّ إِذَا كَانَ مُوجِبًا ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أَي أَعْدَلُ ﴿وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ﴾ أَي أَثْبَتُ لِلشَّاهِدِ - إِذَا وَضَعَ حَظَّهُ ثُمَّ رَأَهُ تَذَكَّرَ بِهِ الشَّهَادَةَ - لِإِحْتِمَالِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْتُبْهُ أَنْ يَنْسَاهُ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ غَالِبًا ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وَأَقْرَبُ إِلَىٰ عَدَمِ الرَّبِيَّةِ بَلْ تَرْجِعُونَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَىٰ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُمُوهُ فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ بِلَا رِيْبَةٍ.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَاضِرَةً تُدْبرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أَي إِذَا كَانَ الْبَيْعُ بِالْحَاضِرِ يَدًا بِيَدٍ، فَلَا بَأْسَ بِعَدَمِ الْكِتَابَةِ لِانْتِفَاءِ الْمَحْدُورِ فِي تَرْكِهَا.

فَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَىٰ الْبَيْعِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا بَاعْتُمْ﴾ وَهَذَا الْأَمْرُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ أَوْ مَحْمُولٌ عَلَىٰ الْإِرْسَادِ وَالنَّدْبِ لَا عَلَىٰ الْوُجُوبِ، وَالذَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَدِيثُ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ، وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ عَمَّهُ حَدَّثَهُ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، إِتْبَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَاسْتَبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبْطَأَ الْأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَعْرَابِيَّ، فَيَسْأَلُونَهُ بِالْفَرَسِ، وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِتْبَاعَهُ، حَتَّى زَادَ بَعْضُهُمُ الْأَعْرَابِيَّ فِي السَّوْمِ عَلَىٰ ثَمَنِ الْفَرَسِ الَّذِي إِتْبَاعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَتَادَى الْأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ مُتْبَاعًا هَذَا الْفَرَسِ

فَابْتَعَهُ وَإِلَّا بَعْتَهُ. فَتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَعْرَابِيِّ، قَالَ: «أَوْلَيْسَ قَدْ ابْتَعْتَهُ مِنْكَ؟» قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا وَاللَّهِ مَا بَعْتُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ قَدْ ابْتَعْتَهُ مِنْكَ» فَطَفِقَ النَّاسُ يَلُودُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْأَعْرَابِيِّ، وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ، فَطَفِقَ الْأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَاعْتُكَ، فَمَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ: وَتِلْكَ إِنْ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، حَتَّى جَاءَ خُزَيْمَةُ فَاسْتَمَعَ لِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُرَاجَعَةِ الْأَعْرَابِيِّ، يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَاعْتُكَ، قَالَ خُزَيْمَةُ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَاعْتَهُ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ خُزَيْمَةَ فَقَالَ: «بِمَ تَشْهَدُ؟» فَقَالَ: بِتَضَدِّيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَحَجَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ نَحْوَهُ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ الْكَاتِبُ وَلَا الشَّاهِدُ، فَيَكْتَبْ هَذَا خِلَافَ مَا يُمْلِي، وَيَشْهَدُ هَذَا بِخِلَافِ مَا سَمِعَ، أَوْ يَكْتُمُهَا بِالْكَلْبِيَّةِ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا^(٥)﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَقَاعَلُوا فَلْيَنْهَ فُسُوقًا بِكُمْ﴾ أَي إِنْ خَالَفْتُمْ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ، وَ فَعَلْتُمْ مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ، فَإِنَّهُ فُسُوقٌ كَائِنٌ بِكُمْ، أَي لَارِمْ لَكُمْ، لَا تَجِدُونَ عَنْهُ، وَلَا تَتَفَكَّرُونَ عَنْهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي خَافُوا وَرَاقِبُوا وَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَاتْرَكُوا زَجْرَهُ ﴿وَتَمْلِكُكُمْ اللَّهُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿بِتَأْيِئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿بِتَأْيِئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَي هُوَ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَعَوَاقِبِهَا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْكُلِّيَّاتِ.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهِنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا الشُّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

(١) الطبري: ٦٨/٦ (٢) ابن أبي حاتم غ: ١١٨١/٣ والطبري: ٧١/٦ (٣) أحمد: ٥/٢١٥ (٤) أبو داود: ٤/٣١ والنسائي: ٣٠١/٧ (٥) الطبري: ٦/٨٦، ٨٥

[بَيَانُ الرَّهْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي مُسَافِرِينَ، وَتَدَايَيْتُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يَكْتُبُ لَكُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوْ وَجَدُوهُ، وَلَمْ يَجِدُوا قِرْطَاسًا أَوْ دَوَاةَ أَوْ قَلَمًا؛ فَرَهْنٌ مَّقْبُوضَةٌ أَيْ فَلَئِكَ بَدَلَ الْكِتَابَةِ رَهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فِي يَدِ صَاحِبِ الْحَقِّ. وَقَدْ اسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَرَهْنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ عَلَى أَنَّ الرَّهْنَ لَا يَلْزَمُ إِلَّا بِالْقَبْضِ، وَقَدْ بَيَّنَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، تُوْفِيَ وَوِزَعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَقًا مِنْ شَعِيرٍ، رَهْنَهَا قَوْنًا لِأَهْلِيهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: هَذِهِ نَسَخَتْ مَا قَبْلَهَا (٢). وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِذَا اتَّخَمَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلَا بَأْسَ أَنْ لَا تَكْتُبُوا أَوْلَا تَشْهَدُوا (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيْسَ لِلَّهِ رَبُّهُ﴾ يَعْنِي الْمُؤْتَمَنَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ عَنْ سُمْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذْتَ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ» (٤).

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أَي لَا تُخْفُوهَا وَتَغْلُوهَا، وَلَا تَظْهَرُوهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: شَهَادَةُ الزُّورِ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَايِرِ، وَكَيْتَمُهَا كَذَلِكَ (٥). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ قَالَ الشُّدِّيُّ: يَعْنِي فَاجِرٌ قَلْبُهُ (٦). وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّهَا إِذَا لَوْنُ الْآيِمِينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شَهَادَةَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾

وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

[هَلْ يُحَاسِبُ الْعِبَادَ عَلَىٰ مَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَأَنَّهُ الْمُطَّلِعُ عَلَىٰ مَا فِيهِنَّ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ

بَيَانُ الرَّهْنِ

٤٩

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ، وَلَيْسَ لِلَّهِ رَبُّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِلْنَا مَا لَأَطَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

الظَّاهِرُ، وَلَا السَّرَائِرُ وَالضَّمَائِرُ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَّتْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَحَاسِبُ عِبَادَهُ عَلَىٰ مَا فَعَلُوهُ وَمَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُيُوتِهِمْ يَعَلَمُهُ اللَّهُ وَسَلَّمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩] وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ الْبَيْتَ وَالْخَفَى﴾ [طه: ٧] وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدْ أُخْبِرَ فِي هَذِهِ بِمَزِيدٍ عَلَى الْعِلْمِ، وَهُوَ الْمُحَاسَبَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَخَافُوا مِنْهَا، وَمِنْ مُحَاسَبَةِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى جَلِيلِ الْأَعْمَالِ وَخَفِيرِهَا، وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَإِقَانِهِمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى

(١) فتح الباري: ٣٥٤/٤ ومسلم: ١٢٢٦/٣ عن عائشة (٢) ابن أبي حاتم غ: ١٢٠٢/٣ (٣) ابن أبي حاتم غ: ١٢٠٣/٣ (٤) أحمد: ١٣/٥ وأبو داود: ٨٢٢/٣ وتحفة الأحوذى: ٤٨٢/٤ والنسائي في الكبرى: ٤١١/٣ وابن ماجه: ٨٠٢/٢ (٥) الطبري: ١٠٠/٦ (٦) الطبري: ١٠٠/٦

وَقَدْ رَوَى الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمُ السُّنَّةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ»^(٤).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتَّكَبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاتَّكَبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتَّكَبُوهَا عَشْرًا»^(٥).

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَإِنَّكَ عِنْدَنَا رَبَّنَا وَإِنَّكَ الْبَصِيرُ﴾^(٦) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴿١٨٥﴾

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَإِنَّكَ عِنْدَنَا رَبَّنَا وَإِنَّكَ الْبَصِيرُ﴾^(٦) فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ فَأَنْزَلَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾...

الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٦﴾

ذَكَرَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي فَضْلِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ

الْكَرِيمَتَيْنِ تَفَعَّلَا اللَّهُ بِهِمَا

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَنَاهُ»^(٦) وَقَدْ أَخْرَجَهُ بِقِيَّتِهِ الْجَمَاعَةُ مِثْلَهُ^(٧). وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرَفِ مُتَعَدِّدٍ^(٨) وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ^(٩).

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، قَالَ: ﴿إِذْ يَنْسُ السِّدْرَةَ مَا يَعْنِي﴾ [النجم: ٣١] قَالَ: فَرَأَشُ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَعُفِّرَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ لِمَنْ يَكْتُمُهُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَكْتُمُهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ جَبُّوا عَلَى الرُّكْبِ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَلَّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْنَا هَذِهِ الْآيَةَ، وَلَا نُطِيقُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، عَفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فَلَمَّا أَقْرَبَ بِهَا الْقَوْمُ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ فِي آتِرِهَا ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَإِنَّكَ عِنْدَنَا رَبَّنَا وَإِنَّكَ الْبَصِيرُ﴾^(٦) فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ فَأَنْزَلَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾...

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فَذَكَرَ مِثْلَهُ، وَلَقَطَهُ: فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: نَعَمْ: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ^(١٠).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَمَرَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَبَكَى، قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قُلْتُ: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ أَنْزَلْتُ، غَمَّتْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَمًّا شَدِيدًا، وَغَاطَتْهُمْ غَيْظًا شَدِيدًا، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكْنَا، إِنْ كُنَّا نُوَاخِذُ بِمَا تَكَلَّمْنَا وَبِمَا نَعْمَلُ، فَأَمَّا قُلُوبُنَا فَلَيْسَتْ بِأَيْدِينَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، قَالَ: فَنَسَخَهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إِلَى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فَتَجَوَّزَ لَهُمْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَأَخَذُوا بِالْأَعْمَالِ^(١١).

(١) أحمد: ٤١٢/٢ (٢) مسلم: ١١٥/١ (٣) أحمد: ١/٣٣٢ (٤) فتح الباري: ٣٠٠/٩ ومسلم: ١١٧/١ وأبو داود: ٦٥٧/٢ وتحفة الأحوذى: ٣٦١/٤ والنسائي: ١٥٦/٦ وابن ماجه: ٦٥٨/١ (٥) فتح الباري: ٤٧٣/١٣ ومسلم: ١١٧/١ (٦) فتح الباري: ٦٧٢/٨ (٧) مسلم: ٥٥٥/١ وأبو داود: ١٤/٥ (٨) فتح الباري: ٤٣٥/١ (٩) أحمد: ١١٨/٤

لَمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا أَلْمُفْحَمَاتُ^(١).

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي فَصَائِلِ الْفَاتِحَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جَبْرِيلُ، إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا فَوْقَهُ، فَرَفَعَ جَبْرِيلُ بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ، مَا فُتِحَ قَطُّ، قَالَ: فَتَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَبَشِرْ بِبُورَيْنِ قَدْ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوْتِيَتْهُ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(٢) وَهَذَا لَفْظُهُ.

[تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ]

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْجَمِيعِ فَقَالَ: ﴿كُلُّ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ فَاَلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، فَرُدُّ صَمَدٌ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. وَيُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَالْكَتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، لَا يُفْرَقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، بَلِ الْجَمِيعِ عِنْدَهُمْ صَادِقُونَ بَارُونَ رَاشِدُونَ مَهْدِيُونَ هَادُونَ إِلَى سُبُلِ الْخَيْرِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَنْسَخُ شَرِيعةَ بَعْضٍ بِإِذْنِ اللَّهِ، حَتَّى نَسَخَ الْجَمِيعُ بِشَرَعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، الَّذِي تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شَرِيعَتِهِ، وَلَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أَي سَمِعْنَا قَوْلَكَ يَا رَبَّنَا وَفَقِهْنَاهُ، وَفُئِمْنَا بِهِ وَامْتَنَّا الْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهُ، ﴿عُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ سُؤَالٌ لِلعُفْرِ وَالرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَي لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، وَرَافَتِهِ بِهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَهَذِهِ هِيَ النَّاسِخَةُ الرَّافِعَةُ لِمَا كَانَ أَشْفَقَ مِنْهُ الصَّحَابَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفَوْهُ يَحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أَي هُوَ وَإِنْ حَاسَبَ وَسَأَلَ، لَكِنْ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا بِمَا يَمْلِكُ الشَّخْصُ دَفْعَهُ، فَأَمَّا مَا لَا يُمَكِّنُ دَفْعَهُ مِنْ وَسْوَسةِ النَّفْسِ وَحَدِيثِهَا، فَهَذَا لَا يُكَلِّفُ بِهِ الْإِنْسَانَ. وَكَرَاهِيَةُ الْوَسْوَسةِ السَّيِّئَةِ مِنَ الْإِيمَانِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أَي مِنْ خَيْرٍ ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أَي مِنْ شَرٍّ، وَذَلِكَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ التَّكْلِيفِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا عِبَادَهُ إِلَى سُؤَالِهِ، وَقَدْ تَكَمَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، كَمَا أَرَسَدَهُمْ وَعَلَّمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أَي إِنْ تَرَكْنَا فَرَضًا عَلَى جِهَةِ النَّسْيَانِ، أَوْ فَعَلْنَا حَرَامًا كَذَلِكَ، أَوْ أَخْطَأْنَا أَي الصَّوَابَ فِي الْعَمَلِ، جَهْلًا مَتَا يُوْجِهُ الشَّرْعِي. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»^(٣). وَلِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَ اللَّهُ: «قَدْ فَعَلْتُ»^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أَي لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، وَإِنْ أَطَقْنَاهَا، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَنَا مِنَ الْأَعْلَالِ وَالْأَصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، الَّتِي بَعَثْتَ نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ، بِوَضْعِهِ فِي شَرَعِهِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ السَّهْلِ السَّمْحِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»^(٥). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ»^(٦). وَجَاءَ الْحَدِيثُ مِنْ طُرُقٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحِثِّنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أَي مِنَ التَّكْلِيفِ وَالْمُضَابِغِ وَالْبَلَاءِ، لَا تُثَبِّلْنَا بِمَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ، وَقَدْ قَالَ مَكْحُولٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحِثِّنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: الْعُرْبَةُ وَالْعُلْمَةُ^(٨). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ». وَقَوْلُهُ: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ أَي فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مِمَّا تَعَلَّمَهُ مِنْ تَقْصِيرِنَا وَزَلَلِنَا ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ أَي فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادِكَ، فَلَا تُظْهِرْهُمْ عَلَى مَسَاوِينَا وَأَعْمَالِنَا الْقَبِيحَةِ ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أَي فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فَلَا تُؤَفِّعْنَا بِتَوَفِيقِكَ فِي ذَنْبٍ آخَرَ، وَلِهَذَا قَالُوا: إِنَّ الْمُذْنِبَ مُحْتَاجٌ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَنْ يَغْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ عِبَادِهِ، فَلَا يَفْضَحْهُ بِهِ بَيْنَهُمْ، وَأَنْ يَعْصِمَهُ، فَلَا يُوقِعَهُ فِي تَطْيِيرِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: «نَعَمْ»، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أَي أَنْتَ وَلِيُّنَا وَنَاصِرُنَا، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْكَ التَّكْلَانُ، وَلَا

(١) مسلم: ١٥٧/١ (٢) مسلم: ٥٥٤/١ والنسائي في الكبرى:

١٢/٥ (٣) مسلم: ١١٥/١ (٤) مسلم: ١١٦/١ (٥) مسلم:

١١٥/١ (٦) مسلم: ١١٦/١ (٧) أحمد: ٥/٢٦٦/١١٦،

٢٣٣ (٨) ابن أبي حاتم: ٣/١٢٣٥

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ الْعَمَادُ ﴿٩﴾

حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أَي الَّذِينَ جَحَدُوا دِينَكَ، وَأَنْكَرُوا وَحَدَائِثَكَ، وَرِسَالَاتِكَ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ، وَأَشْرَكُوا مَعَكَ مِنْ عِبَادِكَ، فَاَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَاجْعَلْ لَنَا الْعَاقِبَةَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ. وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: أَنَّ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا فَرَّغَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: آمِينَ^(١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

لِأَنَّ صَدْرَهَا إِلَى ثَلَاثٍ وَتَمَانِينَ آيَةً مِنْهَا نَزَلَتْ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ، وَكَانَ قُدُومُهُمْ فِي سَنَةِ تِسْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، كَمَا سَبَّأَتِي بَيَانُ ذَلِكَ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الْمُبَاهَلَةِ مِنْهَا، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرْنَا مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْبَقَرَةِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

قَدْ ذَكَرْنَا الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي أَنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] و﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْم﴾ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَتَقَدَّمَ أَيْضًا الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي نَزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ، أَي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ، بَلْ هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، وَقَوْلُهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّتْ يَدِيهِ﴾ أَي مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ

الْأَنْبِيَاءِ، فَهِيَ تُصَدِّقُهُ بِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ، وَبَشَّرَتْ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَهُوَ يُصَدِّقُهَا، لِأَنَّهُ طَابَتْ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ وَبَشَّرَتْ، مِنَ الْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أَي عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أَي عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَي مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أَي فِي زَمَانِهِمَا. ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وَهُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْعَمَى وَالرَّشَادِ، بِمَا يَذْكُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَائِلِ

(١) الطبري: ١٤٦/٦ إسناده ضعيف وفيه أبو إسحاق السبيعي مدلس ولم يصرح، والسند إليه - فيه شيخ الطبري مجهول الحال ومما يدل على أن هناك واسطة بين أبي إسحاق ومعاذ رضي الله عنه ما أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي إسحاق عن رجل: أن معاذًا . . . [٨٠٦٢] وروى مثله الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن [٤٣١].

الواضحات، والزاهين القاطعات، وبيئته ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه ويبيته عليه من ذلك. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي يوم القيامة، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي منيع الجناب عظيم السلطان، ﴿ذُو أَنْبَاءٍ﴾ أي ممن كذب بآياته، وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هو الذي يُمَوِّزُكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، ﴿هُوَ الَّذِي يُمَوِّزُكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تعريض، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عند مخلوق، كما خلق الله سائر البشر، لأن الله صوره في الرحم، وخلقها كما يشاء، فكيف يكون إلهها - كما زعمته النصارى، عليهم لعائن الله - وقد تقلب في الأحشاء، وتقل من حال إلى حال؟ كما قال تعالى:

﴿تَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ لَثِمَةٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّقُ الْيَعْسَادَ ﴿٩﴾

إِبَانِ الْأَيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَالْمُحْكَمَاتِ

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، أَي بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ، لَا الْيَسَاسَ فِيهَا عَلَىٰ أَحَدٍ، وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخْرَىٰ فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَىٰ الْوَاضِحِ مِنْهُ، وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَىٰ مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ، فَقَدْ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أَي

قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَجَمَهُ اللَّهُ: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ فِيهِنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ، وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ، وَدَفْعُ الْخُصُومِ وَالْبَاطِلِ، لَيْسَ لَهُنَّ تَضْرِيفٌ وَلَا تَحْرِيفٌ عَمَّا وَضَعْنَ عَلَيْهِ، قَالَ: وَالْمُتَشَابِهَاتُ فِي الصِّدْقِ، لَهُنَّ تَضْرِيفٌ وَتَحْرِيفٌ وَأَتَوَيْلٌ، إِنْتَلَىٰ اللَّهُ فِيهِنَّ الْعِبَادَ، كَمَا ابْتَلَاهُمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، لَا يُضْرَفْنَ إِلَىٰ الْبَاطِلِ، وَلَا يُحْرَفْنَ عَنِ الْحَقِّ.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، ويترلوه عليها، لا احتمال لفظه لما يضر فوته، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم، وحجة عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي الإضلال لإتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] وبقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمات المصروفة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد ورسول من رسل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي تحريفه على ما يريدون، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فَقَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِمْ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ، فَاحْذَرُوهُمْ»^(١). وقد روى هذا الحديث

الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْقَدْرِ مِنْ صَحِيحِهِ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الشَّيْءِ مِنْ سُنَنِهِ، ثَلَاثُهُمْ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: ثَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَدْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْأَلْبَابِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(١). لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

[لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهَاتِ إِلَّا اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي الْوَقْفِ هُنَا. فَقِيلَ: عَلَى الْجَلَالَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَتَفْسِيرٌ لَا يُعَدَّرُ أَحَدٌ فِي فَهْمِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ^(٢). وَيُرْوَى هَذَا الْقَوْلُ عَنْ عَائِشَةَ وَعُرْوَةَ، وَأَبِي الشَّعْثَاءِ، وَأَبِي نَهْيَكٍ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وَتَبِعَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلِ الْأُصُولِ، وَقَالُوا: الْخِطَابُ بِمَا لَا يُفْهَمُ، بَعِيدٌ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ^(٣). وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا لِابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(٤). وَالتَّأْوِيلُ يُطْلَقُ، وَيُرَادُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ مَعْنِيَانِ، أَحَدُهُمَا: التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى حَقِيقَةِ الشَّيْءِ، وَمَا يُؤْوَلُ أَمْرُهُ إِلَيْهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رَبِّي مِنْ قَبْلِ﴾ [يوسف: ١٠٠] وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أَي حَقِيقَتَهُ مَا أُخْبِرُوا بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ هَذَا، فَالْوَقْفُ عَلَى الْجَلَالَةِ، لِأَنَّ حَقَائِقَ الْأُمُورِ وَكُنْهَهَا لَا يَعْلَمُهُ عَلَى الْجَلِيلَةِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مُتَبَدِّلاً وَ «يَقُولُونَ» عَامَّةً بِهِمْ خَبْرُهُ، وَأَمَّا إِنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ الْمَعْنَى الْآخَرَ، وَهُوَ التَّفْسِيرُ وَالْبَيَانُ وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الشَّيْءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَنْتَنَّا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦] أَي بِتَفْسِيرِهِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى، فَالْوَقْفُ عَلَى «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ». لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ وَيَفْهَمُونَ مَا خُوطِبُوا بِهِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، وَإِنْ لَمْ يُحِيطُوا عِلْمًا بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ عَلَى كُنْهِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿يَقُولُونَ عَامَّةً بِهِمْ﴾ حَالًا مِنْهُمْ،

وَسَاعَ هَذَا، وَهُوَ - أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَعْطُوفِ دُونَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ - كَقَوْلِهِ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ «يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا... الْآيَةَ [الحشر: ١٠]»، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفرج: ٢٢] أَي وَجَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ صُفُوفًا صُفُوفًا.

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ «يَقُولُونَ عَامَّةً بِهِمْ»، أَي بِالْمُتَشَابِهِ، «كُلُّ قِنٍ عِنْدَ رَبِّنَا» أَي الْجَمِيعُ مِنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُصَدِّقُ الْآخَرَ وَيَشْهَدُ لَهُ، لِأَنَّ الْجَمِيعُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمُخْتَلِفٍ وَلَا مُتَضَادٍّ، لِقَوْلِهِ: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُقَرَاءَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» [النساء: ٨٢]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَدْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْأَلْبَابِ﴾ أَي إِنَّمَا يَفْهَمُ وَيَعْقِلُ وَيَتَذَكَّرُ الْمَعَانِي عَلَى وَجْهِهَا أَوْلُو الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْفُهُومِ الْمُسْتَقِيمَةِ. وَرَوَى ابْنُ الْمُثَنَّبِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ نَافِعِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: يُقَالُ: الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: الَّتَمَوَّضِعُونَ لِلَّهِ، الَّتَمَذَّلُونَ لِلَّهِ فِي مَرْضَاتِهِ، لَا يَتَعَاطُونَ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَلَا يَحْقِرُونَ مَنْ دُونَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ مُخْبِرًا أَنَّهُمْ دَعَا رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أَي لَا تُبَلِّغْنَا عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ أَمَمْتَنَا عَلَيْهِ، وَلَا تَجْعَلْنَا كَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِينٌ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ بَيَّنَّا عَلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ، وَدِينِكَ الْقَوِيمِ، «وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ» أَي مِنْ عِنْدِكَ «رَحْمَةً» تُثَبِّتْ بِهَا قُلُوبَنَا، وَتَجْمَعُ بِهَا سَمَلْنَا، وَتَزِيدُنَا بِهَا إِيمَانًا وَإِقَانًا، «إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ». رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا مُغَلَّبَ الْقُلُوبِ بَيَّنْتُ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»^(٥).

وَقَوْلُهُ «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَبَّ فِيهِ» أَي

(١) فتح الباري: ٥٧/٨ ومسلم: ٢٠٥٣/٤ وأبو داود: ٦/٥

(٢) الطبري: ٥٧/١ (٣) الطبري: ٢٠٣/٦ (٤) فتح الباري:

٢٠٥/١ وأحمد (٢٣٩٧) ٢٢٥/٤ واللفظ له، وفي البخاري لفظ

"الكتاب" يدل "التأويل" (٥) ابن أبي حاتم: ٨٤/٢ والطبري:

يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ: إِنَّكَ يَا رَبَّنَا سَتَجْمَعُ بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ، وَتَحْكُمُ فِيهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَتَجْرِي كَلًّا بِعَمَلِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَسَرًّا. ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُعْزِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ قَوْمٌ الشَّاكِرُونَ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتَابُونَ وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ الْأُمَمَاءُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ اللَّتَانِ فَتِمَّةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَوْثَقُوا بِرَبِّكُمْ يَخَيْرٌ مِّنْ ذَلِكَ لَكُمْ لَلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ: إِنَّكَ يَا رَبَّنَا سَتَجْمَعُ بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ، وَتَحْكُمُ فِيهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَتَجْرِي كَلًّا بِعَمَلِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَسَرًّا. ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُعْزِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ قَوْمٌ الشَّاكِرُونَ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتَابُونَ وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ الْأُمَمَاءُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ اللَّتَانِ فَتِمَّةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَوْثَقُوا بِرَبِّكُمْ يَخَيْرٌ مِّنْ ذَلِكَ لَكُمْ لَلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

[يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ النَّارِ﴾ [غافر: ٥٢] وَلَيْسَ مَا أُوْتُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ يَنْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ وَأَلِيمٌ عِقَابُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُعْزِكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أُنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْزُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [١٩٦، ١٩٧]، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيَّ بَيِّنَاتِ اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَخَالَفُوا كِتَابَهُ، وَلَمْ يَتَّعَبُوا بِوَجْهِهِ إِلَىٰ أَنْبِيَائِهِ ﴿لَنْ تُعْزِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ قَوْمٌ الشَّاكِرُونَ﴾ أَيَّ حَطْبِهَا الَّذِي تُسَجَّرُ بِهِ، وَتُوقَدُ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَصَنِيعِ آلِ فِرْعَوْنَ^(١). وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: كَشَنَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَفَعْلِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَشِبِهِ آلِ فِرْعَوْنَ^(٢). وَالْأَلْفَاظُ مُتَقَارِبَةٌ، وَالذَّأْبُ: الضَّيْعُ وَالْحَالُ وَالشَّانُ وَالْأَمْرُ وَالْعَادَةُ، كَمَا يُقَالُ: لَا يَزَالُ هَذَا دَأْبِي وَدَأْبُكَ. وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْأَمْوَالُ وَلَا الْأَوْلَادُ، بَلْ يَهْلِكُونَ وَيُعَذَّبُونَ، كَمَا جَرَى لِآلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكذِّبِينَ لِلرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ، ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيُّ شَدِيدِ الْأَخْذِ، أَلِيمُ الْعَذَابِ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، الَّذِي غَلَبَ كُلَّ شَيْءٍ، وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتَابُونَ وَنَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ اللَّتَانِ فَتِمَّةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي

الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

[تَهْدِيدُ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ سَيُعْلَبُونَ، وَحَثُّهُمْ عَلَى الْإِغْتِيَارِ

بِیَوْمِ بَدْرٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِّلْكَافِرِينَ ﴿سَعْتَابُونَ﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَنَحْشُرُونَ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عَمْرِ بْنِ قَتَادَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَصَابَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ مَا أَصَابَ، وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنِقَاعَ. وَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ! أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا» فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ لَا يَعْزُوكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنْ

(١) الطبري: ٦/٢٢٤ لم يلق الضحاك ابن عباس كما مر (٢) ابن

أبي حاتم: ٩٢/٢

فَقُلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَعْمَارًا، لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ وَاللَّهِ! لَوْ قَاتَلْنَا لَعَرَفْتَنَا أَنَا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنْتَ لَمْ تَلَقَ مِنَّا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَأْتُوا بِالْأَنْصَارِ﴾^(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية، أي دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعلم أمره ﴿في فئتين﴾ أي طائفتين ﴿التقات﴾ أي لقتال ﴿فمنه تقتل في سبيل الله﴾ وهم المسلمون ﴿والخري كفرة﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ قال بعض العلماء - فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأى أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رآه سببا ليضرة الإسلام عليهم.

والقول الثاني: إن المعنى في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ أي ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثلهم، أي ضعفهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم، قال عبدالله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيتناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيتناهم يزيدون علينا رجلا واحدا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْقَيْمَمِ فِي آعِينِكُمْ فَبَدَّلُوا بِكُمْ بَدْلًا مِمَّا رَأَيْتُمْ عَنْ آبِي عِبْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَقَدْ قُلُّوا فِي آعِينِنَا حَتَّى قُلْتُ لِرَجُلٍ إِلَى جَانِبِي: تَرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: أَرَاهُمْ مِائَةً، قَالَ: فَأَسْرَنَّا رَجُلًا مِنْهُمْ، فَقُلْنَا، كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: أَلْفًا^(٢).

فَعِنْدَمَا عَايَنَ كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْآخَرَ، رَأَى الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَيْهِمْ، أَي أَكْثَرَ مِنْهُمْ بِالضَّعْفِ، لِيَتَوَكَّلُوا وَيَتَوَجَّهُوا وَيَطْلُبُوا الْإِعَانَةَ مِنْ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَأَى الْمُسْرِكُونَ الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ، لِيَحْصُلَ لَهُمُ الرُّعْبُ وَالْخَوْفُ وَالْجَزَعُ وَالْهَلَعُ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ التَّصَافُ، وَالتَّقَى الْفَرِيقَانِ، قَلَّلَ اللَّهُ هَوْلَاءِ فِي آعِينِ هَوْلَاءِ، وَهَوْلَاءِ فِي آعِينِ هَوْلَاءِ، لِيُقَدِّمَ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرَ ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَاتَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤] أي لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَيُظْهِرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَيُعِزَّ الْمُؤْمِنِينَ وَيُدَلَّ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَوْلَهُ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأُولِي الْأَنْصَارِ ﴿أَيِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَمُعْتَبَرًا لِمَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ وَفَهُمْ يَهْتَدِي بِهِ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ وَأَفْعَالِهِ، وَقَدَرِهِ الْجَارِي بِنَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبِّ الشَّهَادَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَبْلِ الْمُسَوَّمِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَنَابِ ﴿١٥﴾﴾ قُلْ أُوْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّنْ دَلِكُمْ لَلَّذِينَ آتَقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

بِالْأَنْبَاءِ ﴿١٥﴾

[بَيَانُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا زَيْنَ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلَادِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، قَبْدًا بِالنِّسَاءِ، لِأَنَّ الْفِتْنَةَ بِهِنَّ أَشَدُّ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(٣). فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصْدُ بِهِنَّ الْإِعْفَافَ وَكَثْرَةَ الْأَوْلَادِ، فَهَذَا مَطْلُوبٌ مَرْغُوبٌ فِيهِ، مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ، كَمَا وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالتَّرْغِيبِ فِي التَّزْوِيجِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ «وَإِنْ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ كَانَ أَكْثَرَهَا نِسَاءً»^(٤). وَقَوْلُهُ ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ: إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرْتُهُ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا»^(٥). وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «حُبَّتْ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطُّيْبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٦). وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النِّسَاءِ. إِلَّا الْحَيْلُ. وَفِي رِوَايَةٍ: مِنَ الْحَيْلِ. إِلَّا النِّسَاءَ^(٧).

وَحُبُّ الْبَنِينَ تَارَةً يَكُونُ لِلتَّقَاخُرِ وَالرِّيَّةِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا، وَتَارَةً يَكُونُ لِتَكْثِيرِ النِّسْلِ، وَتَكْثِيرِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ

(١) الطبري: ٢٣٤/٦ عاصم بن عمر بن قتادة تابعي، فالرواية مرسله (٢) الطبري: ٢٣٦/٦ أبو إسحاق مدلس ولم يصرح وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه عبدالله بن مسعود على الراجح كما قال ابن حجر في التقريب (٣) فتح الباري: ٤١/٩ (٤) فتح الباري: ٩/١٥ (٥) مسلم: ١٠٩٠/٢ (٦) النسائي في الكبرى: ٢٨٠/٥ (٧) النسائي: ٢١٧/٦ و٦١/٧ عن أنس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا مَكَافَأَغْرَلْنَا ذُنُوبَنَا وَفَنَّا
 عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِينِ
 وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
 اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ
 اللَّهِ إِسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْضًا مِنْهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَتَّيْتِ
 اللَّهُ فِتْنًا اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَمِعْتُ
 وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
 ءَاسَلْتُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ فَأَسَلْتُمْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
 عَلَيْكُمُ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِصَيْرُمِ الْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
 يَتَّيْتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بَعِيرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
 الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
 بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَطَبَتْ أَعْمَلُهُمْ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ مِنَ النَّصِيرِ ﴿٢٢﴾

هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مِنْ زَهْرَتِهَا وَتَعِيمِهَا الَّذِي هُوَ زَائِلٌ لَا
 مَحَالَةَ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ
 جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي تَنْحَرِقُ بَيْنَ جَوَانِبِهَا
 وَأَرْجَائِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَشْرِيَّةِ: مِنَ الْعَسَلِ وَاللَّبَنِ
 وَالْخَمْرِ وَالْمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ
 سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي
 مَا كَيْسَنَ فِيهَا أَبَدَ الْأَبَادِ، لَا يَبْعُونَ عَنْهَا جَوْلًا، ﴿وَأَزْوَاجٌ
 مُطَهَّرَةٌ﴾ أَي مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ، وَالْأَدَى وَالْحَيْضِ
 وَالنَّفَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَبْعُرِي نِسَاءَ الدُّنْيَا ﴿وَرِضْوَانٌ
 مِنْ اللَّهِ﴾ أَي يَجُلُّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُهُ فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ بَعْدَهُ
 أَبَدًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى الَّتِي فِي بَرَاءةِ:
 ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أَي أَعْظَمُ مِمَّا
 أُعْطَاهُمْ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِصَيْرُمِ

مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهَذَا مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ،
 كَمَا تَبَيَّنَ فِي الْحَدِيثِ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي
 مُكَافِّرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَحُبُّ الْمَالِ كَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ،
 وَالتَّكْبَرِ عَلَى الضُّعْفَاءِ، وَالتَّجَبُّرِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَهَذَا
 مَدْمُومٌ، وَتَارَةً يَكُونُ لِلتَّقَفَةِ فِي الْقُرْبَاتِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ
 وَالْقُرَابَاتِ، وَوُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ، فَهَذَا مَمْدُوحٌ مَحْمُودٌ
 عَلَيْهِ شَرَعًا.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُتَسَرُّونَ فِي مِقْدَارِ الْفِتْنَارِ عَلَى أَقْوَالٍ،
 وَحَاصِلُهَا: أَنَّهُ الْمَالُ الْحَزِيلُ. كَمَا قَالَ الضُّحَّاكُ
 وَغَيْرُهُ^(٢).

(وَحُبُّ الْخَيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ) تَارَةً يَكُونُ رَبَطَهَا
 أَصْحَابُهَا مُعَدَّةً لِسَبِيلِ اللَّهِ، مَتَى اخْتَارُوا إِلَيْهَا غَزَاوًا عَلَيْهَا،
 فَهِيَ لِأَيِّ يَتَابُونَ. وَتَارَةً تُرَبِّطُ فَحْرًا وَبَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ،
 فَهَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَرُزْرٍ. وَتَارَةً لِلتَّعَمُّقِ وَافْتِنَاءِ نَسْلِهَا،
 وَلَمْ يُسَّ حَقَّ اللَّهُ فِي رِقَابِهَا. فَهَذِهِ لِصَاحِبِهَا سَبْرًا. كَمَا
 سَيَأْتِي الْحَدِيثُ بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾...

الآيَةُ [الأنفال: ٦٠]، وَأَمَّا الْمُسُومَةُ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْمُسُومَةُ الرَّاعِيَةُ^(٣) وَالْمُطَهَّمَةُ الْحِسَانُ.
 وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ
 وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السُّدِّيِّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ
 وَأَبِي سَيَانَ. وَغَيْرِهِمْ^(٤). وَقَالَ مَكْحُولٌ: الْمُسُومَةُ الْغُرَّةُ
 وَالتَّحْجِيلُ^(٥). وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ
 أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ
 مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدَّنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ
 يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ
 مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ - أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ»^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ يَعْنِي الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْعَنَمَ،
 ﴿وَالْحَرْثُ﴾ يَعْنِي الْأَرْضَ الْمُتَّخَذَةَ لِلْبُغْرَاسِ وَالزَّرْعَةِ.
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مَكْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي إِنَّمَا
 هَذَا زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَبِيبَتُهَا الْفَانِيَةُ الزَّائِلَةُ ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ
 حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ أَي حُسْنُ الْمَرْجِعِ وَالنَّوَابِ.

[جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْتَيْتُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ أَي
 قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ: أَأَخْبِرْكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّا زَيْنَ لِلنَّاسِ فِي

(١) ابن حبان: ١٣٤/٦ (٢) الطبري: ٢٥٠/٦ (٣) الطبري:
 ٢٥٢/٦ (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٣/٢-١٢٥ (٥) ابن أبي
 حاتم: ١٢٧/٢ (٦) أحمد: ١٧٠/٥

بِالْمَكَادِ ﴿١٦﴾ أَيُّ يُعْطَى كُلًّا بِحَسَبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَطَاءِ .

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَاكَ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٧﴾ الْمَكْرِبِينَ وَالْمَكْرِبِينَ وَالْمَقْتَبِينَ وَالْمَقْتَبِينَ

بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

[شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ]

شَهِدَ تَعَالَى، وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا، وَهُوَ أَصْدَقُ الشَّاهِدِينَ وَأَعْدَلُهُمْ، وَأَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ﴿أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ الْمَتَّفِرُّدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَأَنَّ الْجَمِيعَ عِبِيدُهُ وَخَلْقُهُ وَالْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ ... الْآيَةُ [النساء: ١٦٦]، ثُمَّ قَرَنَ شَهَادَةَ مَلَائِكَتِهِ وَأُولِي الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ، فَقَالَ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أَيُّ هُوَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ كَذَلِكَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ عَظَمَةٌ وَكِبَرِيَاءٌ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشُرْعِهِ وَقَدْرِهِ.

[الَّذِينَ هُوَ الْإِسْلَامُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَامُ﴾ إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَهُ يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ سِوَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ اتَّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كُلِّ جِهَةٍ، حَتَّى خْتِمُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِي سُدَّ جَمِيعُ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ بَعْدَ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِدِينٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَتِهِ فَلَيْسَ بِمُتَقَبَّلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ... الْآيَةُ [آل عمران: ٨٥]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُخْبِرًا بِإِنْحِصَارِ الدِّينِ الْمُتَقَبَّلِ عِنْدَهُ فِي الْإِسْلَامِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَامُ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ الْأَوَّلَ، إِنَّمَا اخْتَلَفُوا بَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بِمَا بَيْنَهُمْ﴾ أَيُّ بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَاخْتَلَفُوا فِي الْحَقِّ، لِتَحَاسُدِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ وَتَدَابُرِهِمْ، فَحَمَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضَ الْبَعْضِ الْآخِرَ عَلَى مُخَالَفَتِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا،

[دُعَاءُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمْ]

يَصِفُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَاكَ﴾ أَيُّ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَيُّ يَا إِمَانِيْنَا بِكَ وَبِمَا شَرَعْتَهُ لَنَا، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَتَقْصِرْنَا مِنْ أَمْرِنَا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ، ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الصَّادِقِينَ﴾ أَيُّ فِي قِيَامِهِمْ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِهِمْ الْمَحْرَمَاتِ، ﴿وَالسَّادِقِينَ﴾ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بِمَا يَنْزِلُ مِنْهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، ﴿وَالْقَائِلِينَ﴾ وَالْقَائِلُونَ الطَّاعَةُ وَالْخُضُوعُ ﴿وَالسَّائِبِينَ﴾ أَيُّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا أَمُرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْفَرَائِطِ، وَسَدِّ الْخَلَّاتِ، وَمُوَاسَاةِ ذَوِي الْحَاجَاتِ ﴿وَالسُّتُورِينَ﴾ بِالْأَسْحَارِ ﴿دَلَّ عَلَى فَضِيلَةِ الْاسْتِغْفَارِ وَقَتِ الْأَسْحَارِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ يَغْفُوبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا قَالَ لِيَنِيهِ: ﴿سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ إِنَّهُ أَخْرَجَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحْرِ.

وَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَسَائِدِ وَالسَّنَنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: ﴿يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأَعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَاسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟﴾ (١) ... الْحَدِيثُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، مِنْ أَوْلِيهِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ، فَأَنْتَهَى وَتَرَهُ إِلَى السَّحْرِ» (٢). وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا نَافِعُ، هَلْ جَاءَ السَّحْرُ؟ فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ، أَقْبَلَ عَلَى الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ حَتَّى يُضْبِحَ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٣).

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بِمَا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنَّ حَاقُّكَ فَقُلْ أَسَلْتُ رَبِّي لِيَّ وَرَبِّي لِيَّ وَمَنْ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأَيُّسِينَ أَسَلْتُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ

(١) فتح الباري: ١١/١٣٣، ومسلم: ١/٥٢١، وأبو داود: ٢/٧٧ وتلخفة الأحوذى: ٩/٤٧١ والنسائي في الكبرى: ٦/١٢٣ وابن ماجه: ١/٤٣٥ وأحمد: ٢/٤٨٧ (٢) فتح الباري: ٢/٥٦٤ ومسلم: ١/٥١٢ (٣) ابن أبي حاتم: ٢/١٤٥ والطبري: ٧٥٠

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَيُّ مَنْ جَحَدَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ وَيُحَاسِبُهُ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَيُعَاقِبُهُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ كِتَابَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ جَاحَدَكَ﴾ أَيُّ جَادَلُوكَ فِي التَّوْحِيدِ ﴿فَقُلْ أَتَأْتُونَ اللَّهَ وَوَجْهَ اللَّهِ وَمَنْ أَتَى اللَّهَ مِنْ خَلْقِهِ﴾ أَيُّ قُلْ: أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي لِلَّهِ وَوَجْهَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا يَدَّ لَهُ، وَلَا وَدَّ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، ﴿وَمَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ أَيُّ عَلَى دِينِي يَقُولُ كَمَا قَالْتِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ ... الآية [يوسف: ١٠٨].

[الإسلام دين الناس كافة، والنبي ﷺ مبعوث إليهم جميعاً]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعَبِيدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَدْعُوا إِلَى طَرِيقَتِهِ وَدِينِهِ، وَالِدُخُولِ فِي شَرْعِهِ، وَمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ: الْكِتَابِيِّينَ مِنَ الْمَلْتِنِيِّينَ، وَالْأُمِّيِّينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِلَّا فَتَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أَيُّ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابُهُمْ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَأْبَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أَيُّ هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَاةَ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ [الأنبياء: ٢٣] وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ لِي رَسُولٍ اللَّهُ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا ثَبَتَ تَوَاتُرُهُ بِالْوَقَائِعِ الْمُتَعَدِّدَةِ أَنَّهُ ﷺ بَعَثَ كُتْبَهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ مُلُوكَ الْأَفَاقِ، وَطَوَائِفَ بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبِهِمْ وَعَجَبِهِمْ كِتَابِيَهُمْ وَأُمِّيَهُمْ، امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ (١).

وقد روى عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي

الَّذِينَ كَفَرُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٢٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ نَشَاءٍ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ نَشَاءٍ وَتُعْزِزُ مَنْ نَشَاءُ وَتُزِيلُ مَنْ نَشَاءُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٤﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَاتِ وَتُخْرِجُ الْمَمَاتِ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٥﴾ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتِلُهُمْ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٦﴾ قُلْ إِنْ تَحُفُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْدُوهُ بَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٧﴾

أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» (٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَالَ ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»، وَقَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» (٣). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِعَدْوٍ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيَّرْتُمُوهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

[ذم اليهود على كفرهم وقتلهم الأنبياء والصالحين] هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله، قديماً وحديثاً، التي بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم، وعناداً لهم، وتعاطفاً على الحق، واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا

(١) فتح الباري: ١/٤٢١ ومسلم: ٤/١٩٩٣ (٢) مسلم: ١/١٣٤ (٣) مسلم: ١/٣٧٠ والبخاري: ٣٣٥

مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ حِينَ بَلَّغُوهُمْ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ بِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا حَرِيمَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، إِلَّا لِكُذُوبِهِمْ دَعَوْهُمْ إِلَى الْحَقِّ ﴿٢٣﴾ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴿٢٤﴾ وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الْكِبْرِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١).

ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، فابلهم الله على ذلك بالدلالة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال تعالى: ﴿تَبَيَّرْتُمُوهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي موجه مهين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ كَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوَفَيْتَ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

[ذم أهل الكتاب على عدم تحكيمهم كتاب الله] يقول تعالى مذكراً على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ، تولوا وهم معرضون عنهم، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتتويبه بذكرهم بالمخالفة والعناد، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراءؤهم على الله فيما ادعوا لأنفسهم أنهم إنما يعدون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي تبهم على دينهم الباطل، ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطاناً، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ﴿كَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله، وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه، والعلماء من قومهم، الأمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله،

وَمَحَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ، وَمَجَازِيَهُمْ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه، ﴿وَوَفَيْتَ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٦﴾ تُولِيهِ أَيْلٌ فِي النَّهَارِ وَتُولِيهِ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمْتِ وَتُدْخِلُ الْحَيَّ مِنَ النَّهَارِ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

[الإرشاد إلى الشكر]

يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد معظماً لرَبِّكَ، وشاكراً له، ومقوصاً إليه، ومؤكداً عليه ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ أي لك الملك كله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن، وفي هذه الآية تبيين وإرشاد إلى شكر نعمه الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأن الله تعالى حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي، خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء، ولا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، وأطاعه على العيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الأفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشريعته على سائر الأديان والشرائع. فضلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ ...

الآية، أي أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما ردّ تعالى على من يتحكّم عليه في أمره حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قال الله ردّاً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ... الآية [الزخرف: ٣٢]، أي نحن نتصرف في خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ
٥٤
الْمُرْسَلَاتِ

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ حَبِيرٍ مُخَضَّرًا وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٢٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

كَبِيرٌ ﴿الأنفال: ٧٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتُمُوا مِنْهَ تَكْتُمٌ﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يَتَّقِيَهُمْ بظَاهِرِهِ لَا بِبَاطِنِهِ وَيَتَّبِعِهِ. كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: «إِنَّا لَنَكْتُمُ فِي وَجْهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ»^(١). وقال البخاري: قال الحسن: التَّقِيَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يُحَذِّرُكُمْ يَقْتُمُهُ أَي مُخَالَفَتُهُ وَسَطْوَتُهُ فِي عَذَابِهِ لِمَنْ وَالَى أَعْدَاءَهُ، وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿قُلْ إِنْ تَحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُشَدُّوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَسَمِعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢١﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ حَبِيرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ

(١) فتح الباري: ١٠/٥٤٤

الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ النَّامَةُ فِي ذَلِكَ، وَهَكَذَا نُعْطِي النَّبُوَّةَ لِمَنْ نُرِيدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ... الآية [الإسراء: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيد في قصر هذا، فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة ربيعاً و صيفاً و خريفاً و شتاءً. وقوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي تُخْرِجُ الْحَيَّةَ مِنَ الزَّرْعِ، وَالزَّرْعَ مِنَ الْحَيَّةِ، وَالنَّخْلَةَ مِنَ التَّوَاةِ، وَالتَّوَاةَ مِنَ النَّخْلَةِ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْكٰفِرِ، وَالْكٰفِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالذَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَالْبَيْضَةَ مِنَ الذَّجَاجَةِ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿وَتَرَوُا مَنِ نَشَاءُ بَدِيعٍ حِسَابٍ﴾ أي تُعْطِي مَنْ شِئْتَ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَعْذُرُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِحْصَائِهِ، وَتَقْتَرُ عَلَىٰ آخِرِينَ لِمَا لَكَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْعَدْلِ.

﴿لَا يَخْجِدُ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٨﴾

[النهي عن موالاة المشركين]

نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي وَمَنْ يَرْتَكِبْ نَهْيَ اللَّهِ فِي هَذَا، فَقَدْ بَرِءَ مِنَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّيكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْفُوتَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا اللَّهُ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَّخِذْ مِنْكُمْ فَلْيَبْئُتْ مِنْهُمْ... الآية [المائدة: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَعْرَابِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ

أَنْ يَبْنَهَا وَيَبْنِيَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْدُرْكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
بِالْعَبَادِ ﴿٣٠﴾

[اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ، وَيُحْضِرُ كُلَّ أَعْمَالٍ]

العبد يوم القيامة]

دَعَاؤُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ،
وَالدِّينَ النَّبَوِيَّ، فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا
تَبَتَّ فِي الصَّحِيحِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ
عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ:
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أَيُّ يَحْضِلُ
لَكُمْ فَوْقَ مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُ
إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ
وَعِزُّهُ مِنَ السَّلَفِ: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ،
فَاتَّبَلَاهُمْ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ
بِاتِّبَاعِكُمْ الرَّسُولِ ﷺ، يَحْضِلُ لَكُمْ هَذَا كُلَّهُ مِنْ بَرَكَتِهِ
سِفَارَتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمِيرًا لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَاصِّ وَعَامِّ:
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيُّ خَالَفُوا عَنْ أَمْرِهِ
﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَتَهُ فِي الطَّرِيقَةِ
كُفْرٌ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ، وَإِنْ ادَّعَى وَزَعَمَ فِي
نَفْسِهِ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ، وَيَتَّقَرَّبُ إِلَيْهِ، حَتَّى يُتَابِعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ
الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ وَرَسُولَ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْحَيِّ
وَإِنْسِي، الَّذِي لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ بَلِ الْمُرْسَلُونَ بَلِ أَوْلُو الْعَزْمِ
مِنْهُمْ فِي زَمَانِهِ مَا وَسِعَهُمْ إِلَّا اتِّبَاعُهُ، وَالدُّخُولُ فِي طَاعَتِهِ،
وَاتِّبَاعُ شَرِيعَتِهِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْرِيضُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ
أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ... الْآيَةِ [آل عمران: ١٨١]. إِنْ
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾

الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضًا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

[الْمُصْطَفُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ الْبَيُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ
الْأَرْضِ، فَاصْطَفَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَفَتَحَ
فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ
شَيْءٍ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَهْبَطَهُ مِنْهَا لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ
مِنَ الْحِكْمَةِ. وَاصْطَفَى نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ
رَسُولٍ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، لَمَّا عَبَدَ النَّاسُ الْأَوْثَانَ،
وَأَشْرَكُوا فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَاتَّقَمَّ لَهُ

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ
وَالظُّوَاهِرَ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ، بَلِ عِلْمُهُ
مُحِيطٌ بِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْأَزْمَانِ، وَالْأَيَّامِ
وَاللَّحْظَاتِ وَجَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ
فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبِحَارِ وَالْجِبَالِ، ﴿وَاللَّهُ عَلَيَّ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ وَقُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، وَهَذَا
تَنْبِيهُ مِنْهُ لِعِبَادِهِ عَلَى خَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ لِئَلَّا يَرْتَكِبُوا مَا نَهَى عَنْهُ
وَمَا يُبْعِضُهُ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَهُوَ قَادِرٌ
عَلَى مُعَاجَلَتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَإِنْ أَنْظَرَ مَنْ أَنْظَرَ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ
يُمَهِّلُ، ثُمَّ يَأْخُذُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ
خَيْرٍ مُحْضَرًا... الْآيَةِ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحْضَرُ
لِلْعَبْدِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُوا
الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] فَمَا رَأَى مِنْ أَعْمَالِهِ
حَسَنًا سَرَّهُ ذَلِكَ وَأَفْرَحَهُ، وَمَا رَأَى مِنْ قَبِيحٍ سَاءَهُ وَعَظَاهُ،
وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ بَعِيدٌ. كَمَا يَقُولُ
لِشَيْطَانِهِ الَّذِي كَانَ مُقْتَرِنًا بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي جَرَّاهُ
عَلَى فِعْلِ الشُّوْرِ ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِيقَيْنِ فَيَلْسَنَ
الْقَرِينِ﴾ [الزخرف: ٣٨]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُؤَكِّدًا وَمَهْدِدًا
وَمُتَوَعِّدًا: ﴿وَيَحْدُرْكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ﴾ أَيُّ يَخُوفُكُمْ عِقَابَهُ، ثُمَّ
قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُرْجِيًا لِعِبَادِهِ لِئَلَّا يَنَاسُوا مِنْ رَحْمَتِهِ
وَيَسْتَفْطُوا مِنْ لُطْفِهِ ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعٰكِلِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ: مِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ حَذَرَهُمْ نَفْسَهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ^(١): أَيُّ
رَجِيمٌ بِخَلْقِهِ، يُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَسْتَفْتِيَهُمْ عَلَى صِرَاطِهِ
الْمُسْتَقِيمِ، وَدِينِهِ الْقَوِيمِ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا رَسُولَهُ الْكَرِيمَ.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٣٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٣﴾

[حُبُّ اللَّهِ فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ
اللَّهِ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي

(١) الطبري: ٢٠٢/٦ (٢) فتح الباري: ٣٥٥/٥ (٣) ابن أبي حاتم: ٢٠٥/٢

لَمَّا طَلَتْ مُدَّتُهُ بَيْنَ ظَهْرَانِي فَوَمِهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَجَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، فَأَعْرَفَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَهُ عَلَى دِينِهِ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ.

وَاصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَأَلَّ عِمْرَانَ، وَالْمُرَادُ بِعِمْرَانَ هَذَا هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ.

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

[قِصَّةُ وِلَادَةِ مَرْيَمَ]

امْرَأَةً عِمْرَانَ هَذِهِ هِيَ أُمُّ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَهِيَ حَتَّةُ بِنْتُ فَاوُودَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ امْرَأَةً لَا تَحْمِلُ، فَرَأَتْ يَوْمًا طَائِرًا يَرُوقُ فَرَحَهُ، فَاسْتَحَبَّتِ الْوَلَدَ، فَدَعَتْ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَهَبَهَا وَلَدًا، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا، فَوَاقَعَهَا زَوْجُهَا، فَحَمَلَتْ مِنْهُ، فَلَمَّا تَحَقَّقَتِ الْحَمْلَ نَذَرَتْ أَنْ يَكُونَ مُحَرَّرًا، أَيْ خَالِصًا مُفْرَعًا لِلْعِبَادَةِ، وَلِخِدْمَةِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيْ السَّمِيعُ لِدُعَائِي، الْعَلِيمُ بِبَيْتِي، وَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَا فِي بَطْنِهَا: أَدْرَكَ أَمْ أُنْثَى؟ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ أَيْ فِي الْقُوَّةِ وَالْجَلْدِ فِي الْعِبَادَةِ وَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ يَوْمَ الْوِلَادَةِ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ لِأَنَّهُ شَرَعُ مِنْ قَبْلُنَا، وَقَدْ حُكِيَ مُفْرَرًا، وَبِذَلِكَ تَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ».

أَخْرَجَاهُ^(١). وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ فِيهِمَا: أَنَّ أَنْسَ بْنَ مَالِكٍ ذَهَبَ بِأَخِيهِ حِينَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَنَكَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ^(٢). وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَتْ تَسْمِيَةُ الْآخَرِينَ يَوْمَ الْوِلَادَةِ.

فَأَمَّا حَدِيثُ فَتَادَةَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ سَمُرَةَ بِنِ جُنْدُبٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ غُلَامٍ رَهِيْنٌ بِعَقِيْمَتِهِ، يُدْبِحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيَسْمَى وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ» فَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ^(٣). وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ بِهَذَا اللَّفْظِ. وَرَوِي: وَيُدْمَى. وَهُوَ أَثْبَتُ وَأَحْفَظُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْ أُمِّ مَرْيَمَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أَيْ عَوَدْتَهَا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، وَعَوَدْتُ ذُرِّيَّتَهَا وَهُوَ وَلَدُهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهَا ذَلِكَ، كَمَا رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا أَلَّ مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «افْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾»^(٤). أَخْرَجَاهُ^(٥).

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كَمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُومَ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

[نُشُوءُ مَرْيَمَ وَكِرَامَتُهَا عَلَى اللَّهِ]

يُخْبِرُ رَبَّنَا أَنَّهُ تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمِّهَا نَذِيرَةً، وَأَنَّهُ ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، أَيْ جَعَلَهَا شَكْلًا مَلِيحًا وَمَنْظَرًا بَهِيحًا، وَيَسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ الْقَبُولِ، وَقَرَّبَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، تَعَلَّمَ مِنْهُمْ الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ وَالذِّينَ، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أَيْ جَعَلَهُ كَافِلًا لَهَا. وَإِنَّمَا قَدَّرَ اللَّهُ كَوْنَ زَكَرِيَّا كَافِلًا لِسَعَادَتِهَا، لِتُقْتَسَبَ مِنْهُ عِلْمًا جَمًّا نَافِعًا، وَعَمَلًا صَالِحًا، وَلَا أَنَّهُ كَانَ زَوْجَ خَالَتِهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ: زَوْجَ أُخْتِهَا. كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «إِذَا بَيَّحْتِي وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ»^(٦). وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ ذَلِكَ أَيْضًا تَوْسَعًا، فَعَلَى هَذَا كَانَتْ فِي حِصَانَةِ خَالَتِهَا، وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي عُمَارَةَ بِنْتِ حَمْرَةَ أَنْ تَكُونَ فِي حِصَانَةِ

(١) فتح الباري: ٣٠٦/٣، ومسلم: ١٨٠٧/٤ (٢) فتح الباري: ٥٠١/٩ (٣) أحمد: ٧/٥ وأبو داود: ٢٥٩/٣ وتحفة الأحوزي: ١١٥/٥ والنسائي: ١٦٦/٧ وابن ماجه: ١٠٥٧/٢ (٤) عبد الرزاق: ١١٩/١ (٥) فتح الباري: ٦٠/٨، ومسلم: ٤/١٨٣٨ (٦) فتح الباري: ٥٣٩/٦

خَالَهَا امْرَأَةٌ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَ: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ»^(١).

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَيَادَتِهَا وَجَلَالَتِهَا فِي مَحَلِّ عِبَادَتِهَا، فَقَالَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الشَّعْنَاءِ وَإِبْرَاهِيمُ التَّحِييُّ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالسُّدِّيُّ: يُعْنِي وَجَدَ عِنْدَهَا فَاقِهَةً الصَّنِيفِ فِي الشِّتَاءِ، وَفَاقِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّنِيفِ^(٢). فَإِذَا رَأَى زَكَرِيَّا هَذَا عِنْدَهَا ﴿قَالَ يَمْرِمُ أَنِّي لَلْبِ هَذَا﴾ أَي يَقُولُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(٣٨) فَدَادَهُ الْمَلَأِيكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ^(٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ^(٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا تَلْتَمِثُ أَيَّامٍ إِلَّا مَرَمًا وَادَّكَرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَخَّرَ بِالْعُسِيِّ وَالْإِبْرَكِ^(٤١)

[دُعَاءُ زَكَرِيَّا وَتَبَشِيرُهُ بِيَحْيَى]

لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَرِيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامَ فَاقِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّنِيفِ، وَفَاقِهَةً الصَّنِيفِ فِي الشِّتَاءِ، طَمَعَ حِينَئِذٍ فِي الْوَلَدِ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ وَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ، وَاشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيْبًا، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرَةً وَعَاقِرًا، لَكِنَّهُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ سَأَلَ رَبَّهُ وَنَادَاهُ نِدَاءً حَقِيًّا، وَقَالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أَي مِنْ عِنْدِكَ ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أَي وَلَدًا صَالِحًا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَدَادَهُ الْمَلَأِيكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أَي خَاطَبَتْهُ الْمَلَأِيكَةُ شِفَاهًا خِطَابًا أَسْمَعَتْهُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابِ عِبَادَتِهِ، وَمَحَلِّ خُلُوتِهِ، وَمَجْلِسِ مُنَاجَاتِهِ وَصَلَاتِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا بَشَّرَتْهُ بِهِ الْمَلَأِيكَةُ ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ أَي بِوَلَدٍ يُوجَدُ لَكَ مِنْ صُلْبِكَ اسْمُهُ يَحْيَى. قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا سُمِّيَ يَحْيَى لِأَنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُ بِالْإِيمَانِ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾. رَوَى الْعَوْفِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ... وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ

سُورَةُ آلِ اْاَمْرَانِ ٥٥ سُورَةُ آلِ اْاَمْرَانِ

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ^(٣٨) فَدَادَهُ الْمَلَأِيكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ^(٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ^(٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا تَلْتَمِثُ أَيَّامٍ إِلَّا مَرَمًا وَادَّكَرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَخَّرَ بِالْعُسِيِّ وَالْإِبْرَكِ^(٤١) وَإِذْ قَالَتْ الْمَلَأِيكَةُ لِمَرِيَمِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ^(٤٢) لِمَرِيَمَ افْتَنَى لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ^(٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَلِيِّ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ^(٤٤) إِذْ قَالَتْ الْمَلَأِيكَةُ لِمَرِيَمِ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ^(٤٥)

وَأَبُو الشَّعْنَاءِ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ^(٤١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمْ: الْحَكِيمُ^(٥٠). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالتَّوْرِيُّ وَالضَّحَّاكُ: السَّيِّدُ: الْحَكِيمُ التَّحِييُّ^(٦١). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ. وَقَالَ عَطِيَّةُ: السَّيِّدُ فِي خَلْقِهِ وَدِينِهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ الْغَضَبُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ الشَّرِيفُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْكَرِيمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَصُورًا﴾ لَيْسَ مَعْنَاهُ هَهُنَا أَنَّهُ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، بَلْ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ مَعْصُومٌ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْقَادُورَاتِ. وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ تَرْوِجِهِ بِالنِّسَاءِ الْحَلَالِ وَغَشِيَانِهِنَّ

(١) فتح الباري: ٥٧١/٧ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٢٧/٢-٢٢٩

(٣) ابن أبي حاتم: ٢٣٥/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٣٥/٢-٢٣٥

٢٣٧ (٥) ابن أبي حاتم: ٢٣٨/٢ (٦) الطبري: ٣٧٥/٦

وَأَبْلَادِهِنَّ، بَلْ قَدْ يُفْهَمُ وَجُودُ النَّسْلِ لَهُ مِنْ دُعَاءِ زَكَرِيَّا الْمُتَقَدِّمِ حَيْثُ قَالَ: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَدًا لَهُ ذُرِّيَّةٌ وَنَسْلٌ وَعَقَبٌ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ ثَانِيَةٌ بِنَبْوَةِ يَحْيَى بَعْدَ الْبَشَارَةِ بِوِلَادَتِهِ، وَهِيَ أَعْلَى مِنَ الْأُولَى، كَقَوْلِهِ لِأُمِّ مُوسَى: ﴿إِنَّا رَأَوُوكَ إِلَيْنَا وَجَاعَلُوكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فَلَمَّا تَحَقَّقَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْبَشَارَةَ، أَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ وَجُودِ الْوَلَدِ مِنْهُ بَعْدَ الْكِبَرِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ يَكُونُ لِي عُذْمٌ وَقَدْ بَلَغَتْنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ أَيُّ الْمَلِكِ﴾ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿أَيُّ هَكَذَا أَمْرُ اللَّهِ عَظِيمٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَتَعَاظَمُهُ أَمْرٌ﴾، قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿أَيُّ عِلْمًا أَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى وَجُودِ الْوَلَدِ مِنِّي﴾ قَالَ آيَاتِكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ لَثَلَاثَةَ آيَاتٍ إِلَّا رَمَزًا ﴿أَيُّ إِشَارَةً لَا تَسْتَطِيعُ النَّطْقُ مَعَ أَنَّكَ سَوِيٌّ صَحِيحٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿تَلَكَّ لَيْسَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثُمَّ أَمَرَ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ وَالسَّبْحِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّسِيِّ وَالْإِنْكَارِ﴾. وَسَيَأْتِي طَرْفَ آخَرَ فِي بَسْطِ هَذَا الْمَقَامِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ مَرْيَمَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَلَقَكِ عَلَى نَيْسَاءٍ الْعَلَمِيَّةِ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَنِيِّ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

[فَضْلُ مَرْيَمَ عَلَى نِسَاءِ عَصْرِهَا]

هَذَا إِجْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَاطَبَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُمْ بِذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ قَدِ اصْطَفَاهَا، أَيِ اخْتَارَهَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهَا وَرَهَابَتِهَا. وَشَرَفَهَا، وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَكْثَارِ وَالْوَسَاوِسِ، وَاصْطَفَاهَا ثَانِيًا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِحَبْلَالَتِهَا: عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. رَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» (١).

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٢). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمَلُ مِنَ

الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» (٣). وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ (٤). وَنَفِظَ الْبُخَارِيُّ: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» (٥). وَقَدْ اسْتَفْصِيَتْ طُرُقَ هَذَا الْحَدِيثِ وَالْفَاطِظَةَ فِي قِصَّةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي كِتَابِنَا: «الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهَا بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالسُّجُودِ، وَالرُّكُوعِ وَالذُّعُوبِ فِي الْعَمَلِ لَهَا، لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ مِمَّا فِيهِ مِخْتَنٌ لَهَا، وَرِفْعَةٌ فِي الدَّارَيْنِ، بِمَا أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، حَيْثُ خَلَقَ مِنْهَا وَلَدًا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْرُؤُا اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَمَّا الْقُنُوتُ فَهِيَ الطَّاعَةُ فِي خُشُوعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ لَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَوْ قَلْبُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ بَعْدَ مَا أَطْلَعَهُ عَلَى جَلِيلَةِ الْأَمْرِ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَنِيِّ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أَيِ تَقْضُهُ عَلَيْكَ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أَيِ مَا كُنْتَ عِنْدَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ، فَتُخْبِرُهُمْ عَنْهُمْ مُعَايِنَةً عَمَّا جَرَى، بَلْ أَطْلَعَكَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ كَأَنَّكَ كُنْتَ حَاضِرًا وَشَهِيدًا لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ حِينَ اقْتَرَعُوا فِي شَأْنِ مَرْيَمَ أَيُّهُمْ يَكْفُلُهَا، وَذَلِكَ لِرِغْبَتِهِمْ فِي الْأَجْرِ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: ثُمَّ خَرَجَتْ بِهَا، يَعْنِي أُمَّ مَرْيَمَ بِمَرْيَمَ، تَحْمِلُهَا فِي خَرَقِهَا إِلَى بَنِي الْكَاهِنِ بْنِ هَارُونَ أَخِي مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قَالَ: وَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَلُوتُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَا يَلِي الْحِجْبَةَ مِنَ الْكُعْبَةِ، فَقَالَتْ لَهُمْ: دُونَكُمْ هَذِهِ النَّذِيرَةُ، فَإِنِّي حَرَرْتُهَا، وَهِيَ ابْنَتِي، وَلَا تَدْخُلُ الْكَنِيسَةَ حَائِضٌ، وَأَنَا لَا أَرُدُّهَا إِلَى بَيْتِي. فَقَالُوا:

(١) تحفة الأحوذى: ٣٨٨/١٠ (٢) فتح الباري: ٥٤٢/٦
 ومسلم: ١٨٨٦/٤ (٣) الطبري: ٣٩٧/٦ (٤) فتح الباري: ٥٤٣/٦
 ومسلم: ١٨٨٦/٤ و تحفة الأحوذى: ٥٦٣/٥ والنسائي في الكبرى: ٩٣/٥ وابن ماجه: ١٠٩١/٢ (٥) فتح الباري: ٧/١٣٣

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضِنَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
 وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾
 وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
 وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمِمَّا تَدْخِرُونَ
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
 وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
 هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَسَ عِيسَى مِنْهُمُ
 الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
 أَنْصَارُ اللَّهِ عَامِنًا بِاللَّهِ وَشَهِدْنَا بِمَا تَسْمَعُونَ ﴿٥٣﴾

عِبَادَةَ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي حَالِ صِغَرِهِ، مُعْجِزَةً وَآيَةً،
 وَحَالِ كُهُولِيَّتِهِ حِينَ يُوجِي اللَّهُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ
 إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا
 تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ فِي صِغَرِهِ إِلَّا عِيسَى إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ» (٤).
 وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:
 «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى، وَصَبِيٌّ كَانَ فِي
 زَمَنِ جُرَيْجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرٌ» (٥) «وَمِنَ الصَّالِحِينَ» أَي فِي قَوْلِهِ
 وَعَمَلِهِ لَهُ عِلْمٌ صَاحِبٌ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ.

[خَلَقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ آبٍ]

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِشَارَةَ الْمَلَائِكَةَ لَهَا بِذَلِكَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ، قَالَتْ فِي مُتَاجِرَاتِهَا: «رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ
 يَمَسِّنِي بَشَرًا» تَقُولُ: كَيْفَ يُوجِدُ هَذَا الْوَلَدُ مِنِّي وَأَنَا

(١) ابن جرير: ٣٥١/٦ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦٦/٢ (٣) ابن
 أبي حاتم: ٢٦٧/٢، ٢٦٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٧٢/٢، ٢٧٣
 ابن إسحاق مدلس ولم يصرح بسماعه (٥) ابن أبي حاتم: ٢/
 ٢٧٢ والبخاري: ٣٤٣٦ ومسلم: ٢٥٥٠

هَذِهِ ابْنَةُ إِمَامِنَا - وَكَانَ عِمْرَانُ يُؤْمِنُهُمْ فِي الصَّلَاةِ -
 وَصَاحِبُ قُرْبَانِنَا! فَقَالَ زَكَرِيَّا: ادْفَعُوهَا إِلَيَّ فَإِن خَالَتَهَا
 تَحْيَى، فَقَالُوا: لَا تَطِيبُ أَنْفُسُنَا، هِيَ ابْنَةُ إِمَامِنَا، فَذَلِكَ
 حِينَ اقْتَرَعُوا بِأَقْلَامِهِمْ عَلَيْهَا الَّتِي يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَةَ،
 فَفَرَعَهُمْ زَكَرِيَّا فَكَفَّلَهَا (١). وَقَدْ ذَكَرَ عِكْرَمَةُ أَيْضًا (٢)
 وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْدُ وَاحِدٍ، دَخَلَ حَدِيثُ
 بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: أَنَّهُمْ دَخَلُوا إِلَى نَهْرِ الْأُرْدُنِّ، وَاقْتَرَعُوا
 هُنَالِكَ عَلَى أَنْ يُلْقُوا أَقْلَامَهُمْ، فَأَيُّهُمْ تَبَيَّنَ فِي جَرِيَةِ الْمَاءِ
 فَهُوَ كَافِلُهَا، فَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ، فَاحْتَمَلَهَا الْمَاءُ إِلَّا قَلَمُ
 زَكَرِيَّا، فَإِنَّهُ تَبَيَّنَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ صُعْدًا يَشُقُّ جَرِيَةَ
 الْمَاءِ (٣). وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وَعَالِمُهُمْ
 وَإِمَامُهُمْ وَنَبِيِّهُمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ
 النَّبِيِّينَ.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ
 الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٤﴾
 وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ
 أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
 إِذَا فَضِنَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾
 [تَبْسِيرُ مَرْيَمَ الصَّادِقَةِ بِعِيسَى]

هَذِهِ بِشَارَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِأَنْ
 سَبَّوْجَدَ مِنْهَا وَلَدٌ عَظِيمٌ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ
 قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أَي بَوْلَدٍ
 يَكُونُ وَجُودُهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ، أَي يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ،
 وَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: «مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» كَمَا ذَكَرَهُ
 الْجُمْهُورُ «اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» أَي يَكُونُ مَشْهُورًا
 يَهَذَا فِي الدُّنْيَا، يَعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، وَسُمِّيَ الْمَسِيحَ
 لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا مَسَحَ أَحَدًا مِنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ بَرِيءًا بِإِذْنِ اللَّهِ
 تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» نِسْبَةٌ لَهُ إِلَى أُمِّهِ حَيْثُ لَا
 أَبَ لَهُ «وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» أَي لَهُ وَجَاهَةٌ
 وَمَكَانَةٌ عِنْدَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، بِمَا يُوجِيهِ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ،
 وَيُزَلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَعَبْدٌ ذَلِكَ مِمَّا مَنَحَهُ بِهِ، وَفِي
 الدَّارِ الْآخِرَةِ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ فِيمَنْ يَأْذَنُ لَهُ فِيهِ، فَيَقْبَلُ مِنْهُ،
 أَسْوَةٌ بِإِخْوَانِهِ مِنْ أَوْلِي الْعَزْمِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ
 وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

[كَلَامُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ]

وقوله: «وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا» أَي يَدْعُو إِلَى

لَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ، وَلَا مِنْ عَزْمِي أَنْ أَتَزَوَّجَ، وَلَسْتُ
 بَعِيًّا، حَاشَا لِلَّهِ! فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي
 جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ هَكَذَا
 أَمْرُ اللَّهِ عَظِيمٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَصَرَّحَ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿يَخْلُقُ
 مَا يَشَاءُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يَفْعَلُ. كَمَا فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا، بَلْ نَصَّ
 هُنَا عَلَى أَنَّهُ يَخْلُقُ لَيْلًا يَبْقَى لِمُطَلِّ شَهْوَةً، وَكَأَنَّ ذَلِكَ
 بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَيُّ فَلَا يَتَأَخَّرُ
 شَيْئًا، بَلْ يُوجَدُ عَقِيبَ الْأَمْرِ بِلَا مُهْلَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا
 أَمْرًا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمصر: ٥٠] أَيُّ إِنَّمَا نَأْمُرُ
 مَرَّةً وَاحِدَةً لَا مَثْنَوِيَّةَ فِيهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ سَرِيعًا كَلَمْحٍ
 بِالْبَصَرِ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [٥٧] وَرَسُولًا
 إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيُّ قَدْ جِئْتُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَيُّ أَنَّهُ خَلَقَ
 لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخَ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا
 يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُتْرِي الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُتِي الْمَوْتُ يَأْذِنُ اللَّهُ
 وَأَنْتُمْ يَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَلْبَسُونَ فِي يَوْمِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بِيَدَيَّ
 مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ
 وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُواهُ ﴿٥٩﴾ إِنَّ اللَّهَ
 رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٠﴾

[صِفَاتُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُعْجَزَاتُهُ وَدَعْوَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ تَمَامِ بَشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِأَنَّهَا
 عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُهُ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾،
 الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ هُنَا: الْكِتَابَةَ، وَالْحِكْمَةَ
 تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ﴿وَالتَّوْرَةَ
 وَالْإِنْجِيلَ﴾: فَالتَّوْرَةُ، هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى
 مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ. وَالْإِنْجِيلُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِيسَى
 ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَقَدْ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 يَحْفَظُ هَذَا وَهَذَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَيُّ
 يَجْعَلُهُ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّمَا لَهُمْ: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ
 بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَيُّ أَنَّهُ خَلَقَ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ
 فَأَنْفَخَ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ، يُصَوِّرُ
 مِنَ الطَّيْرِ شَكْلَ طَيْرٍ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ، فَيَطِيرُ عَيْنًا يَأْذِنُ اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ، الَّذِي جَعَلَ هَذَا مُعْجَزَةً لَهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ
 ﴿وَأُتْرِي الْأَكْمَةَ﴾ هُوَ الَّذِي يُوَلِّدُ أَعْمَى، وَهَذَا الْمَعْنَى
 أَبْلَغُ فِي الْمُعْجَزَةِ، وَأَقْوَىٰ فِي التَّحْدِي ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾

مَعْرُوفٌ، ﴿وَأُتِي الْمَوْتُ يَأْذِنُ اللَّهُ﴾.

قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: بَعَثَ اللَّهُ كُلَّ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
 بِمُعْجَزَةٍ تُنَاسِبُ أَهْلَ زَمَانِهِ، فَكَانَ الْغَالِبُ عَلَى زَمَانِ
 مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّحَرُ، وَتَعْظِيمُ السَّحَرَةِ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ
 بِمُعْجَزَةٍ بَهَرَتْ الْأَبْصَارَ، وَحَيَّرَتْ كُلَّ سَحَّارٍ، فَلَمَّا
 اسْتَبَقْنَا أَنَّهُمَا مِنْ عِنْدِ الْعَظِيمِ الْجَبَّارِ انْقَادُوا لِلْإِسْلَامِ،
 وَصَارُوا مِنَ الْأَبْرَارِ. وَأَمَّا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَعَثَهُ فِي
 زَمَنِ الْأَطْيَاءِ، وَأَصْحَابِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ، فَجَاءَهُمْ مِنْ
 الْآيَاتِ بِمَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدًا مِنَ
 الَّذِي شَرَعَ الشَّرِيعَةَ، فَمِنْ أَيْنَ لِلطَّبِيبِ قُدْرَةٌ عَلَى إِحْيَاءِ
 الْجَمَادِ، أَوْ عَلَى مُدَاوَاةِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، وَبَعَثَ مَنْ هُوَ
 فِي قَبْرِهِ رَهِينٌ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ. وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، بَعَثَهُ فِي
 زَمَانِ الْفُصْحَاءِ وَالْبُلْغَاءِ، وَنَحَارِيرِ الشُّعْرَاءِ، فَأَتَاهُمْ بِكِتَابٍ
 مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا
 بِمِثْلِهِ، أَوْ يَعْبُرَ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، لَمْ
 يَسْتَطِيعُوا أَبَدًا، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا، وَمَا ذَاكَ

إِلَّا لِأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْخَلْقِ أَبَدًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(١) أَي أُخْبِرْكُمْ بِمَا أَكَلْتُمْ أَحَدَكُمْ الْآنَ، وَمَا هُوَ مُدْخِرٌ فِي بَيْتِهِ لِعَدِهِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكُمُ ﴿لَايَةً لِّكُمْ﴾ أَي عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) وَمَصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدَى مَنَ التَّوْرَةِ أَي مُفَرَّرًا لَهَا وَمُثَبِّتًا ﴿وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَسَخَ بَعْضَ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ، وَكَشَفَ لَهُمْ عَنِ الْمُغْطَى فِي مَا كَانُوا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ خَطَأً، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَي بِحُجَّةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى صِدْقِي فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^(٣) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَي أَنَا وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ إِلَيْهِ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسَلِّمٌ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَسَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

[نُصْرَةُ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى أَنِّي اسْتَشَعَرْتُمُ مِنْهُمُ التَّصْمِيمَ عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِمْرَارَ عَلَى الضَّلَالِ، قَالَ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَي مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَى اللَّهِ^(١). وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ مَنْ أَنْصَارِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ؟ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ: ﴿مَنْ رَجُلٌ يُؤَيِّنُنِي حَتَّى أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي. فَإِنْ فُرِّقْنَا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي﴾^(٢). حَتَّى وَجَدَ الْأَنْصَارَ، فَأَوَّهَ وَنَصَرُوهُ، وَهَاجَرَ إِلَيْهِمْ، فَاسْتَوْهَ وَمَتَّوَهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ. وَهَكَذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتَدَبَ لَهُ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَآمَنُوا بِهِ وَأَزْرَوْهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسَلِّمٌ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَسَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الْحَوَارِيُّونَ قِيلَ: كَانُوا قَصَارِيْنَ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحَوَارِيَّ النَّاصِرَ، كَمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَدَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْأَخْرَابِ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرِ﴾^(٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاكْتَسَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قَالَ: مَعَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٤). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

[هَمُّ الْيَهُودِ بِقَتْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فِيمَا هَمُّوا بِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِرَادَتِهِ بِالسُّوءِ وَالصُّلْبِ حِينَ تَمَالَوْا عَلَيْهِ، وَوَسَّوْا بِهِ إِلَى مَلِكِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَكَانَ كَافِرًا، فَأَنهَوْا إِلَيْهِ أَنْ هَمَّنَا رَجُلًا يُصِلُّ النَّاسَ، وَيَصُدُّهُمْ عَنِ طَاعَةِ الْمَلِكِ، وَيَفْتِنُ الرَّعَايَا، وَيَفْرُقُ بَيْنَ الْأَبِّ وَابْنِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَلَّدُوهُ فِي رِقَابِهِمْ، وَرَمَوْهُ بِهِ مِنَ الْكُذْبِ، وَأَنَّهُ وَلَدٌ زَنِيَةٌ حَتَّى اسْتَأْرَأُوا غَضَبَ الْمَلِكِ، فَبَعَثَ فِي طَلَبِهِ مَنْ يَأْخُذُ وَيَضْلِبُهُ وَيُتَكَلَّمُ بِهِ. فَلَمَّا أَحَاطُوا بِمَنْزِلِهِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِهِ، نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْتِهِمْ، وَرَفَعَهُ مِنْ رُوزَتِهِ ذَلِكَ النَّيْتِ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَلْقَى اللَّهُ شِبْهَهُ عَلَى رَجُلٍ كَانَ عِنْدَهُ فِي الْمَنْزِلِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَوْلَيْكَ اعْتَقَدُوهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ عِيسَى، فَأَخَذُوهُ وَأَهَانُوهُ وَصَلَبُوهُ، وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ الشُّوكَ، وَكَانَ هَذَا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُ نَجَّى نَبِيَّهُ، وَرَفَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَتَرَكَّهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ يَعْصَمُونَ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِطَلَبَتِهِمْ، وَأَسْكَنَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ قَسْوَةً، وَعِنَادًا لِلْحَقِّ مُلَازِمًا لَهُمْ، وَأَوْرَثَهُمْ ذِلَّةً لَا تُفَارِقُهُمْ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمًا كَافِرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٥) فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاعْدِبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

(١) ابن أبي حاتم: ٢٩٠/٣ (٢) أحمد: ٣٢٢/٣ (٣) فتح الباري: ٦٣/٦ ومسلم: ١٨٧٩/٤ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٩٤/٢

[مَعْنَى مُتَوَفِّيكَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الْمُرَادُ بِالْوَفَاةِ هَهُنَا النَّوْمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾... الآية [الأنعام: ٦٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾... الآية [الزمر: ٤٢]. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ إِذَا قَامَ مِنَ النَّوْمِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»^(١). وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَكْفُرْهُمْ عَلَى مَرِيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾^(١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴿إِلَى قَوْلِهِ﴾ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا^(١٥٧) بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا^(١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿[النساء: ١٥٦-١٥٩] وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِعِيسَى قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى، وَذَلِكَ حِينَ يَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ، فَحِينَئِذٍ يُؤْمِنُ بِهِ أَهْلُ الْكِتَابِ كُلُّهُمْ، لِأَنَّهُ يَضَعُ الْجُزْيَةَ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يَعْنِي وَفَاةَ الْمَنَامِ، رَفَعَهُ اللَّهُ فِي مَنَامِهِ^(٢).

[التَّحْرِيفُ فِي دِينِ الْمَسِيحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَطَّهْرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ بَرَفَعِي إِيَّاكَ إِلَى السَّمَاءِ ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَهَكَذَا وَقَعَ، فَإِنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ، تَفَرَّقَتْ أَصْحَابُهُ شِبَعًا بَعْدَهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَابْنُ أُمَّتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ غَلَا فِيهِ فَجَعَلَهُ ابْنَ اللَّهِ، وَآخَرُونَ قَالُوا: هُوَ اللَّهُ، وَآخَرُونَ قَالُوا: هُوَ نَالِثٌ ثَلَاثَةً. وَقَدْ حَكَى اللَّهُ مَقَالَاتِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَرَدَّ عَلَى كُلِّ فَرِيقٍ، فَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ نَبَغَ لَهُمْ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْيُونَانِ، يُقَالُ لَهُ: قُسْطَنْطِينُ، فَدَخَلَ فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، قِيلَ: حِيلَةٌ، لِيُسَدَّهُ، فَإِنَّهُ كَانَ فَيْلسُوفًا، وَقِيلَ: جَهْلًا مِنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ بَدَّلَ لَهُمْ دِينَ الْمَسِيحِ وَحَرَفَهُ، وَزَادَ فِيهِ وَنَقَصَ مِنْهُ. وَوُضِعَتْ لَهُ الْقَوَانِينُ، وَالْأَمَانَةُ الْكُبْرَى، الَّتِي هِيَ الْحِجَابَةُ الْحَقِيرَةُ، وَأَجَلَ فِي زَمَانِهِ لَحْمُ الْحَنْزِيرِ، وَصَلَّوْا لَهُ إِلَى الْمَشْرِقِ، وَصَوَّرُوا لَهُ

الْكَنَائِسَ، وَزَادُوا فِي صِيَامِهِمْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ مِنْ أَجْلِ ذَنْبِ ارْتِكَابِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ، وَصَارَ دِينَ الْمَسِيحِ دِينَ قُسْطَنْطِينِ، إِلَّا أَنَّهُ بَنَى لَهُمْ مِنَ الْكَنَائِسِ وَالْمَعَابِدِ وَالصَّوَامِعِ وَالذَّبَابَاتِ مَا يَزِيدُ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ مَعْبَدٍ، وَبَنَى الْمَدِينَةَ الْمُنَشُوبَةَ إِلَيْهِ، وَاتَّبَعَهُ الطَّائِفَةُ الْمَلِكِيَّةُ مِنْهُمْ، وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ قَاهِرُونَ لِلْيَهُودِ، أَيْدَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ كُفَّارًا، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ.

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَكَانَ مَنْ آمَنَ بِهِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ، كَانُوا هُمْ أَتْبَاعَ كُلِّ نَبِيِّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، إِذْ قَدْ صَدَّقُوا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، خَاتِمَ الرُّسُلِ وَسَيِّدَ وُلْدِ آدَمَ، الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى التَّصْدِيقِ بِجَمِيعِ الْحَقِّ، فَكَانُوا أَوْلَى بِكُلِّ نَبِيِّ مِنْ أُمَّتِهِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّتِهِ وَطَرِيقَتِهِ، مَعَ مَا قَدْ حَرَفُوا وَبَدَّلُوا، ثُمَّ لَوْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، لَكَانَ قَدْ نَسَخَ اللَّهُ بِشَرِيعَتِهِ شَرِيعَةَ جَمِيعِ الرُّسُلِ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا يُعَيَّرُ وَلَا يُبَدَّلُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلَا يَزَالُ قَائِمًا مَنْصُورًا ظَاهِرًا عَلَى كُلِّ دِينٍ، فَلِهَذَا فَتَحَ اللَّهُ لِأَصْحَابِهِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَاحْتَارُوا جَمِيعَ الْمَمَالِكِ، وَذَانَتْ لَهُمْ جَمِيعَ الدُّوَلِ، وَكَسَرُوا كِسْرَى، وَقَصَرُوا قَيْصَرَ، وَسَلَبُواهُمَا كُنُوزَهُمَا، وَأَنْفَقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ نَبِيُّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾... الآية [النور: ٥٥]. وَلِهَذَا لَمَّا كَانُوا هُمْ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَسِيحِ حَقًّا، سَلَبُوا النَّصَارَى بِلَادَ الشَّامِ، وَأَجْلَوْهُمْ إِلَى الرُّومِ، فَلَجَّوْا إِلَى مَدِينَتِهِمُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ فَوْقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمُصَدِّقُ أُمَّتَهُ بِأَنَّ آخِرَهُمْ سَفَتَحُونَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَيَسْتَفْتِحُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ، وَيَقْتُلُونَ الرُّومَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جِدًّا، لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهَا، وَلَا يَرُونَ بَعْدَهَا نَظِيرَهَا، وَقَدْ جَمَعْتُ فِي هَذَا جُزْءًا مُفْرَدًا.

(١) فتح الباري: ١١/١٣٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٢/٢٩٦

[تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنَّكَ مُرْجِعُهُمْ فَلَاحِكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (٥٩) فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من نصيرين ﴿وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه أو أطراه من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأخذ الأموال، وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿وما لهم من الله من واق﴾، ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهن أجورهن﴾ أي في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنان العليات ﴿والله لا يحب الظالمين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذلك نتلوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في أمر عيسى، ومبدأ ميلاده، وكيفيته أمره، هو مما قاله تعالى وأوحاه إليك، ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مزية فيه ولا شك، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قولك الحق الذي فيه يمتدون﴾ (٦٢) ما كان لله أن ينخذ من ولد سبحانه إذا فصح أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿مريم: ٣٤، ٣٥﴾ وههنا قال تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) الحق من ربك فلا تكن من الممتدين ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من البعير فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنت الله على الكافرين﴾ (٦١) إن هذا هو القصاص الحق وما من إله إلا الله وإبراهيم الله هو العزيز الحكيم ﴿٦٧﴾ فإن تولوا فإن الله عليمٌ بالمفسدين ﴿٦٨﴾

[الْمَمَانِلَةُ فِي خَلْقِ آدَمَ وَعِيسَى]

يقول جل وعلا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في قدره الله حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿خلقكم من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ فالذي خلق آدم من غير أب وأم، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء البتوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى. ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

٥٨

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ هَاتِنْتُمْ هَهُنَا حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٣﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٤﴾

جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقهم، حين: خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقیة البریة من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿ولنجعله آيةً للناس﴾ ﴿مريم: ٢١﴾ وقال ههنا: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممتدين﴾ أي هذا القول هو الحق في عيسى الذي لا محيد عنه، ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

[الدعوة إلى المباهلة في عيسى عليه السلام]

ثم قال تعالى أمراً رسوله ﷺ، أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من البعير فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنت الله على الكافرين﴾ أي نلتعن ﴿فنجعل لعنت الله على الكافرين﴾ أي منا أو منكم. وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول

الله، بَأَنَّهُ كَانَ يُحِيي الْمَوْتَى وَيُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ
وَالْأَسْقَامَ، وَيُخْبِرُ بِالْغُيُوبِ، وَيَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ
الطَّيْرِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِأَمْرِ اللَّهِ.
وَلِيَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ، وَيَحْتَجُّونَ فِي قَوْلِهِمْ: بَأَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ،
يَقُولُونَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ يَعْلَمُ. وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي الْمُهَدِّ بِشَيْءٍ
لَمْ يَصْنَعْهُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَهُ. وَيَحْتَجُّونَ فِي قَوْلِهِمْ بَأَنَّهُ
ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَعَلْنَا وَأَمَرْنَا وَخَلَقْنَا وَقَضَيْنَا،
فَيَقُولُونَ لَوْ كَانَ وَاحِدًا مَا قَالَ إِلَّا فَعَلْتُ وَقَضَيْتُ وَأَمَرْتُ
وَخَلَقْتُ. وَلَكِنَّهُ هُوَ وَعِيسَى وَمَرْيَمُ - تَعَالَى اللَّهُ وَتَقَدَّسَ
وَتَنَزَّهَ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِدُونَ عُلوًّا كَبِيرًا - فِي
كُلِّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ قَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَلَى التَّفْسِيرِ إِلَى أَنْ قَالَ: فَلَمَّا
أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْخَبْرُ مِنَ اللَّهِ، وَالْفَضْلُ مِنَ الْقَضَاءِ
بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَأَمْرٌ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ مُلَاعَظَتِهِمْ إِنْ رَدُّوا ذَلِكَ
عَلَيْهِ، دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، دَعْنَا
نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا، ثُمَّ نَأْتِيكَ بِمَا نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِيمَا دَعَوْتَنَا
إِلَيْهِ، فَأَنْصَرِفُوا عَنْهُ، ثُمَّ خَلَوْا بِالْعَاقِبِ، وَكَانَ ذَا رَأْيِهِمْ،
فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ
النَّصَارَى، لَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا لَنَبِيِّ مَرْسَلٍ، وَلَقَدْ
جَاءَكُمْ بِالْفَضْلِ مِنْ خَيْرِ صَاحِبِكُمْ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ مَا
لَاعَنَ قَوْمٌ نَبِيًّا قَطُّ، فَبَيَّحِي كِبِيرُهُمْ وَلَا نَبَتْ صَغِيرُهُمْ. وَإِنَّهُ
لَلْإِسْتِئْصَالِ مِنْكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ، فَإِنْ كُنتُمْ أَبِيتُمْ إِلَّا إِلْفَ
دِينِكُمْ، وَالْإِقَامَةَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي
صَاحِبِكُمْ، فَوَادِعُوا الرَّجُلَ وَأَنْصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ، فَأَتَوْا
النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَدْ رَأَيْنَا إِلَّا نُلَاعِنَكَ،
وَنَنْزُكَكَ عَلَى دِينِكَ، وَنَرْجِعُ عَلَى دِينِنَا، وَلَكِنْ ابْعَثْ مَعَنَا
رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا يَحْكُمُ بَيْنَنَا فِي أَشْيَاءِ
اخْتَلَفْنَا فِيهَا مِنْ أُمُورِنَا، فَإِنَّكُمْ عِنْدَنَا رِضًا^(١).

وَرَوَى الْبَحَارِيُّ عَنْ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ
الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا
تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعِنَاهُ لَا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا
عَقِبْنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ
مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا، فَقَالَ:

السُّورَةَ إِلَى هُنَا فِي وَفْدِ نَجْرَانَ: أَنَّ النَّصَارَى حِينَ قَدِمُوا
فَجَعَلُوا يُحَاجُّونَ فِي عِيسَى، وَيَزْعُمُونَ فِيهِ مَا يَزْعُمُونَ مِنَ
النَّبُوتِ وَالْإِلَهِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَيْهِمْ،
كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ وَغَيْرُهُ. قَالَ
ابْنُ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ الْمَشْهُورَةِ وَغَيْرِهَا: وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ وَفَدَى نَصَارَى نَجْرَانَ، سِتُونَ رَاكِبًا، فِيهِمْ أَرْبَعَةٌ
عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يُؤُولُ إِلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ وَهُمْ:
الْعَاقِبُ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ، وَالسَّيِّدُ، وَهُوَ الْأَيْهَمُ، وَأَبُو
حَارِثَةَ بْنُ عُلْقَمَةَ أَخُو بَكْرِ بْنِ وَاثِلِ، وَأَبُو إِسْحَاقَ بْنُ الْحَارِثِ،
وَرَيْدٌ، وَقَيْسٌ، وَيَزِيدُ وَنَبِيهٌ، وَخُوَيْلِدٌ، وَعَمْرُو، وَخَالِدٌ،
وَعَبْدُ اللَّهِ، وَيُحَسِّنُ. وَأَمْرٌ هُوَ لِأَنَّ يُولُ إِلَى ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ،
وَهُمْ: الْعَاقِبُ، وَكَانَ أَمِيرَ الْقَوْمِ، وَذَا رَأْيِهِمْ، وَصَاحِبَ
مَشُورَتِهِمْ، وَالَّذِي لَا يَصُدُّونَ إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ. وَالسَّيِّدُ وَكَانَ
عَالِمَهُمْ وَصَاحِبَ رَحْلِهِمْ وَمُجْتَمِعِهِمْ. وَأَبُو حَارِثَةَ بْنُ
عُلْقَمَةَ، وَكَانَ أَشْفَقَهُمْ وَحَبْرَهُمْ وَإِمَامَهُمْ، وَصَاحِبَ
مِذْرَابِهِمْ. وَكَانَ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَاثِلِ،
وَلَكِنَّهُ تَنَصَّرَ فَعَطَّمَتَهُ الرُّومُ وَمَلُوكُهَا، وَشَرَفُوهُ، وَبَنَوْا لَهُ
الْكِنَائِسَ، وَمَوَلَّوهُ، وَأَخْلَدُوهُ، لِمَا يَعْلَمُونَهُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي
دِينِهِمْ^(١). وَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصِفَتَهُ
وَسَانَتَهُ، بِمَا عَلِمَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَكِنْ حَمَلَهُ جَهْلُهُ
عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ فِي النَّصْرَانِيَّةِ، لِمَا يَرَى مِنْ تَعْظِيمِهِ فِيهَا،
وَجَاهِهِ عِنْدَ أَهْلِهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ،
قَالَ: قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ
مَسْجِدَهُ حِينَ صَلَّى الْعَصْرَ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْجَبَرَاتِ: حُبِّبٌ
وَأَزْدِيَّةٌ، فِي جَمَالِ رِجَالِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ. قَالَ:
يَقُولُ بَعْضُ مَنْ رَأَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا رَأَيْنَا
بَعْدَهُمْ وَفَدَا مِثْلَهُمْ، وَقَدْ حَانَتْ صَلَاتُهُمْ، فَقَامُوا فِي
مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُصَلُّونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«دَعُوهُمْ» فَصَلُّوا إِلَى الْمَشْرِقِ، قَالَ: فَكَلَّمَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ أَبُو حَارِثَةَ بْنَ عُلْقَمَةَ، وَالْعَاقِبُ
عَبْدَ الْمَسِيحِ، أَوْ السَّيِّدُ الْأَيْهَمُ، وَهُمْ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ عَلَى
دِينِ الْمَلِكِ مَعَ اخْتِلَافِ أَمْرِهِمْ يَقُولُونَ: هُوَ اللَّهُ،
وَيَقُولُونَ: هُوَ وَلَدُ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، تَعَالَى
اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلوًّا كَبِيرًا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ النَّصْرَانِيَّةِ، فَهَمْ يَحْتَجُّونَ فِي قَوْلِهِمْ: هُوَ

(١) ابن هشام: ٢/٢٢٢ (٢) ابن هشام: ٢/٢٣٣

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَعْنِي يُطِيعُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أَي فِإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا النَّصْفِ وَهَذِهِ الدَّعْوَةَ، فَأَشْهَدُوهُمْ أَنَّكُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي سَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ.

وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ، فَأَسْلِمِمْ تَسْلِمًا، وَأَسْلِمِمْ يُوْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَبِئَآهْلِ الْكُتُبِ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةً سَلَامٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ وَاحِدًا: أَنَّ صَدْرَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ إِلَى بَضْعِ وَتَمَانِينَ آيَةً مِنْهَا؛ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: هُمْ أَوَّلُ مَنْ بَدَّلَ الْجِزْيَةَ. وَلَا خِلَافَ أَنَّ آيَةَ الْجِزْيَةِ نَزَلَتْ بَعْدَ الْفَتْحِ! فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ كِتَابَةِ هَذِهِ الْآيَةِ قَبْلَ الْفَتْحِ إِلَى هِرَقْلَ فِي جُمْلَةِ الْكِتَابِ، وَبَيْنَ مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَالزُّهْرِيُّ؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ قُدُومَ وَفْدِ نَجْرَانَ كَانَ قَبْلَ الْخُدَيْبِيَّةِ، وَأَنَّ الَّذِي بَدَّلُوهُ مُصَالِحَةَ عَنِ الْمَبَاهِلَةِ لَا عَلَى وَجْهِ الْجِزْيَةِ، بَلْ يَكُونُ مِنْ بَابِ الْمُهَادَنَةِ وَالْمُصَالِحَةِ، وَوَافَقَ نَزُولَ آيَةِ الْجِزْيَةِ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ: فَرُضَ الْحُمْسُ وَالْأَرْبَعَةُ أَمْخَاسٌ وَفَقَّ مَا فَعَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ فِي تِلْكَ السَّرِيَّةِ قَبْلَ بَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَتْ فَرِيضَةُ الْقَسَمِ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ [البقرة: ٢١٧].

وَوُحِّتَمَلُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا أَمَرَ بِكُتُبِ هَذَا فِي كِتَابِهِ إِلَى هِرَقْلَ، لَمْ يَكُنْ أَنْزَلَ بَعْدُ، ثُمَّ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ مُوَافَقَةً لَهُ ﷺ، كَمَا نَزَلَ بِمُوَافَقَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي الْحِجَابِ وَفِي الْأَسَارَى، وَفِي عَدَمِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَاجْتَنِبُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّفَكَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ

﴿لَا نَعْتَنُّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ﴾ فَاسْتَشْرَفَ لَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»^(١). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ، فَبَحَّهَ اللَّهُ: إِنْ رَأَيْتَ مُحَمَّدًا يُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ لِأَيَّتِهِ، حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ، قَالَ: فَقَالَ: «لَوْ فَعَلَ لَأَخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا»، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يَبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَا لَا وَلَا أَهْلًا»^(٣). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٤). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أَي هَذَا الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فِي شَأْنِ عِيسَى هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَعْدِلَ عَنْهُ وَلَا مَجِيدٌ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَى اللَّهِ نُحْيِيهِمْ وَأَلْمَسِيهِمْ﴾ أَي مَنْ عَدَلَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ فَهُوَ الْمُفْسِدُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ سَرَّ الْجَزَاءِ، وَهُوَ الْقَادِرُ الَّذِي لَا يَقُوتهُ شَيْءٌ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ حُلُولِ نِقْمَتِهِ.

﴿قُلْ يَتَّهَلُّوا الْكُتُبَ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةً سَلَامٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [١٦٤]

[مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ]

هَذَا الْخُطَابُ يُعْمُ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ. ﴿قُلْ يَتَّهَلُّوا الْكُتُبَ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةً﴾ وَالْكَلِمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُفِيدَةِ، كَمَا قَالَ هُنَا، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿سَلَامٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أَي عَدْلٌ وَنِصْفٌ، نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لَا وَتَنَا، وَلَا صَلِيًّا، وَلَا صَنَمًا، وَلَا طَاغُوتًا، وَلَا نَارًا، وَلَا سَيْئًا، بَلْ نُفَرِّدُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَهَذِهِ دَعْوَةٌ جَمِيعِ الرُّسُلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى:

(١) فتح الباري: ٦٩٥/٧ (٢) فتح الباري: ٦٩٦/٧ (٣)

أحمد: ٢٤٨/١ (٤) فتح الباري: ٥٩٥/٨ وتحفة الأحمدي:

٧٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦

أَرْوَجًا خَيْرًا مِنْكُمْ﴾... الآية [التحریم: ٥].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتْ الذُّرُورَةُ وَإِنْ نَحِيلُ إِلَا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هَاتَمٌ هُوَ لَاءٌ حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ [مُحَاجَّةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

يُنَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَدَعَا كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ، كَمَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ابْنُ يَسَارٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: اجْتَمَعَتْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَأَحْبَارُ يَهُودٍ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَهُ، فَقَالَتِ الْأَحْبَارُ: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا يَهُودِيًّا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا نَصْرَانِيًّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾... الآية، أَي كَيْفَ تَدْعُونَ - أَيُّهَا الْيَهُودُ - أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا، وَقَدْ كَانَ زَمَنَهُ قَبْلَ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى؟ وَكَيْفَ تَدْعُونَ - أَيُّهَا النَّصَارَى - أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا^(١). وَإِنَّمَا حَدَّثَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بَعْدَ زَمَنِهِ بِدَهْرٍ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَاتَمٌ هُوَ لَاءٌ حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾... الآية. هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُحَاجُّ فِيمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ بِلَا عِلْمٍ، وَلَوْ تَحَاجُّوا فِيمَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْهُ عِلْمٌ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَدْيَانِهِمُ الَّتِي شَرَعَتْ لَهُمْ إِلَى حِينِ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ فَانْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الَّذِي يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَجَلِيَّاتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ أَي مُتَحَنِّنًا عَنِ الشَّرْكِ، فَاصِدًا إِلَى الْإِيمَانِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَاتِبِي تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا يَهْتَدُوا﴾...

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفَرُوا بآخِرِهِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هَدَى اللَّهُ أَنْ يُؤْفِقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ وَأُبْحَجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٧٨﴾ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٢﴾

الآية [البقرة: ١٣٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَحَقُّ النَّاسِ بِمُتَابَعَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ الَّذِي اتَّبَعُوهُ عَلَى دِينِهِ، وَهَذَا النَّبِيُّ، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بَعْدَهُمْ. رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وِلَايَتِي مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾^(٢)... الآية. قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي وِلَايَتِي جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِرُسُلِهِ.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

(١) الطبري: ٤٩٠/٦ (٢) سعيد بن منصور: ١٠٤٧/٣

وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَسْمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا بآخِرِهِ
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكَ قُلْ إِنَّ الْهُدَى
 هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ
 إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْضَعُ
 بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

[حَسَدُ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ وَكَيْدُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ حَسَدِ الْيَهُودِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَبَغْيِهِمْ إِيَّاهُمْ
 الْإِضْلَالِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ وَبَالَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ،
 وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ أَنَّ هُمْ مَمْكُورٌ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُكْرًا
 عَلَيْهِمْ: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ
 تَشْهَدُونَ﴾ أَيُّ تَعْلَمُونَ صِدْقَهَا وَتَحَقُّقَهَا حَقًّا ﴿يَتَاهَلُ
 الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
 أَيُّ تَكْتُمُونَ مَا فِي كُتُبِكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ
 ذَلِكَ وَتَحَقُّقُونَهُ.

﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ
 آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا بآخِرِهِ﴾... الآية، هذه مكيدة
 أَرَادُوا لِيَلْبِسُوا عَلَى الضَّعْفَاءِ مِنَ النَّاسِ أَمْرَ دِينِهِمْ،
 وَهُوَ أَنَّهُمْ اشْتَرَوْا بَيْنَهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا الْإِيمَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ،
 وَيُضِلُّوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَإِذَا جَاءَ آخِرُ
 النَّهَارِ ارْتَدُّوا إِلَى دِينِهِمْ، لِيَقُولَ الْجَهْلَةُ مِنَ النَّاسِ: إِنَّمَا
 رَدَّاهُمْ إِلَى دِينِهِمْ أَطْلَاعُهُمْ عَلَى نِقِيبَتِهِ وَعَيْبِ فِي دِينِ
 الْمُسْلِمِينَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وَقَالَ ابْنُ
 أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْيَهُودِ
 بِهَذِهِ الْآيَةِ: يَعْنِي يَهُودَ، صَلَّتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ صَلَاةَ
 الْفَجْرِ، وَكَفَرُوا آخِرَ النَّهَارِ مَكْرًا مِنْهُمْ، لِيُرُوا النَّاسَ أَنَّ
 قَدْ بَدَتْ لَهُمْ مِنْهُ الضَّلَالَةُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا اتَّبَعُوهُ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكَ﴾ أَيُّ لَا
 تَطْمَئِنُّوا وَتُظْهِرُوا سِرِّكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ،
 وَلَا تَظْهَرُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
 وَيَحْتَجُّوا بِهِ عَلَيْكُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى
 اللَّهِ﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي يَهْدِي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَنْتُمْ
 الْإِيمَانَ بِمَا يُنَزِّلُهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ
 الْآيَاتِ النَّبِيَّاتِ، وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، وَالْحُجَجِ
 الْوَاضِحَاتِ؛ وَإِنْ كَتَمْتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ مَا بِأَيْدِيكُمْ مِنْ صِفَةِ
 مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فِي كُتُبِكُمْ الَّتِي تَقْلَمُوهَا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ

الْأَقْدَمِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ يُؤْتَىَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ
 عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يَقُولُونَ: لَا تَظْهَرُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ
 لِلْمُسْلِمِينَ، فَيَتَعَلَّمُوهُ مِنْكُمْ، وَيَسْأَلُوكُمْ فِيهِ، وَيَمْتَارُوا بِهِ
 عَلَيْكُمْ لِشِدَّةِ الْإِيمَانِ بِهِ، أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ،
 أَيُّ يَتَّخِذُوهُ حُجَّةً عَلَيْكُمْ بِمَا فِي أَيْدِيكُمْ، فَتَقَوُّمُ بِهِ
 عَلَيْكُمْ الدَّلَالَةَ، وَتَرَكَبَ الْحُجَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ
 اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ
 الْأُمُورِ كُلِّهَا تَحْتَ تَصَرُّفِهِ، وَهُوَ الْمُعْطِي الْمَنَاعِ، يَمُنُّ
 عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالتَّصَوُّرِ التَّامِّ، وَيُضِلُّ
 مَنْ يَشَاءُ فَيُعَيِّبُ بَصَرَهُ وَبَصِيرَتَهُ، وَيَخْتُمُ عَلَى قَلْبِهِ
 وَسَمْعِهِ، وَيَجْعَلُ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، وَلَهُ الْحُجَّةُ التَّامَّةُ
 وَالْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ﴿وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَخْضَعُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ
 يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ أَيُّ اخْتَصَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ
 مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَا يَحُدُّ وَلَا يُوَصِّفُ بِمَا شَرَّفَ بِهِ نَبِيِّكُمْ
 مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَاكُمْ بِهِ إِلَى أَكْمَلِ

الشَّرَائِعِ.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ
 وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ
 قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ سَيِّئٌ وَيَقُولُونَ
 عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى
 فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

[بَيَانُ حَالِ أَمَانَةِ الْيَهُودِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّ فِيهِمْ الْخَوَنَةَ، وَيُحَذِّرُ
 الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِهِمْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ ﴿مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ
 بِقِطَارٍ﴾ أَيُّ مِنْ الْمَالِ ﴿يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ وَمَا دُونَهُ بِطَرِيقِ
 الْأُولَى أَنْ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ
 إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أَيُّ بِالْمُطَالَبَةِ وَالْمَلَارَمَةِ
 وَالْإِلْحَاحِ فِي اسْتِخْلَاصِ حَقِّكَ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعُهُ فِي
 الدِّينَارِ فَمَا فَوْقَهُ أَوْلَى أَنْ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ
 بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ سَيِّئٌ﴾ أَيُّ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى
 جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرَجٌ فِي
 أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ، وَهُمْ الْعَرَبُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَلَّهَا لَنَا،
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
 أَيُّ وَقَدْ اخْتَلَفُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَاتَّفَقُوا بِهَذِهِ الضَّلَالَةَ، فَإِنَّ

اللَّهِ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بُهْتٌ.

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ يَزِيدَ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: إِنَّا نَصِيبُ فِي الْعَزْوِ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الذِّمَّةِ الدَّجَاجَةَ وَالشَّاةَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَقُولُونَ مَاذَا؟ قَالَ: تَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ بَأْسٌ، قَالَ: هَذَا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ﴾، إِنَّهُمْ إِذَا أَدَّوْا الْجَزْيَةَ لَمْ تَجَلْ لَكُمْ أَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِطَبِيبٍ أَنْفُسِهِمْ^(١). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ أَي لَكِنْ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِي عَاهَدْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بُعِثَ، كَمَا أَخَذَ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَمِيهِمْ بِذَلِكَ، وَاتَّقَى مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاتَّبَعَ طَاعَتَهُ وَشَرِيعَتَهُ الَّتِي بَعَثَ بِهَا خَاتَمَ رُسُلِهِ وَسَيِّدَ الْبَشَرِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢)

[لَا نَصِيبَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ خَالَفَ الْعَهْدَ]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يَعْتَاصُونَ عَمَّا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَذَكَرِ صِفَتِهِ لِلنَّاسِ وَيَبَيِّنُ أَمْرِهِ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمُ الْكَادِيَةَ الْفَاجِرَةَ الْأَيْمَةَ بِالْأَيْمَانِ الْقَلِيلَةِ الرَّهِيْدَةِ، وَهِيَ عُرُوضُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أَي لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا وَلَا حَظَّ لَهُمْ مِنْهَا ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَي بِرَحْمَةٍ مِنْهُ لَهُمْ، يَعْنِي لَا يُكَلِّمُهُمْ كَلَامَ لُطْفٍ بِهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ أَي مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَذْنَانِ، بَلْ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ تَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، فَلَنَذْكُرُ بَعْضًا مِنْهَا.

(الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي دَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ خَابِرًا وَخَسِرًا؟ قَالَ: وَأَعَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمُنْتَقِ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ، وَالْمَتَّانُ»^(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ^(٢).

(الْحَدِيثُ الثَّانِي) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السِّنْتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِيَتَحَسَّبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلْتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَدَرِ دِينَ اللَّهِ يَجْعَلُونَ لَهُهُ اسْمًا مِمَّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

الْكَذِبِيِّ، قَالَ: خَاصِمَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ، يُقَالُ لَهُ: إِمْرُؤُ الْقَيْسِ ابْنُ عَبَّاسٍ، رَجُلًا مِنْ حَضْرَمَوْتٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَرْضِ، فَقَضَى عَلَى الْحَضْرَمِيِّ بِالْيَمِينَةِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيْتَةٌ، فَقَضَى عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ بِالْيَمِينِ، فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ: إِنَّ أَمَكْنَتَهُ مِنَ الْيَمِينِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذَهَبَتْ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ أَرْضِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى بَيْعِينَ كَازِبِيَةً لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ لِقِيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» قَالَ رَجَاءٌ - أَحَدُ رُؤَايِهِ - وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: مَاذَا لِمَنْ تَرَكَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «الْجَنَّةُ». قَالَ: فَاشْهَدْ أَنِّي قَدْ تَرَكَتُهَا لَهُ كُلِّهَا^(٤). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٥).

(١) عبد الرزاق: ١٢٣/١ فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس لم يصرح بالسماع (٢) أحمد: ١٤٨/٥ (٣) مسلم: ١٠٢/١ وأبو داود: ٣٤٦/٤ وتحفة الأحوذى: ٤٠١/٤ والنسائي: ٢٤٥/٧ وابن ماجه: ٧٤٤/٢ (٤) أحمد: ١٩١/٤ (٥) النسائي في الكبرى: ٤٨٦/٣

مَحْفُوظَةٌ لَا تُحَوَّلُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، فَإِنْ عَنَى وَهَبٌ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَهَا التَّبْدِيلُ وَالتَّحْرِيفُ وَالرِّيَاضَةُ وَالتَّقْصُصُ، وَأَمَّا تَعْرِيبُ ذَلِكَ الْمَشَاهِدِ بِالْعَرَبِيَّةِ فِيهِ خَطَأٌ كَبِيرٌ، وَزِيَادَاتٌ كَثِيرَةٌ وَنُقْصَانٌ، وَوَهْمٌ فَاحِشٌ، وَهُوَ مِنْ بَابِ تَفْسِيرِ الْمُعَبَّرِ الْمُعَرَّبِ؛ وَفَهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ بَلْ جَمِيعُهُمْ فَاسِدٌ. وَأَمَّا إِنْ عَنَى كُتِبَ اللَّهُ الَّتِي هِيَ كُتِبَ عِنْدَهُ فِتْلِكَ كَمَا قَالَ مَحْفُوظَةٌ لَمْ يَدْخُلْهَا شَيْءٌ.

﴿مَا كَانَ لِيَسِّرَ أَنْ يُؤَيِّسَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتَّوْبَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلتَّيْبَةِ وَالنِّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

[النَّبِيُّ لَا يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَلَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ] أَي مَا يَبْنِي لِيَسِّرَ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتَّوْبَةَ، أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: اعْبُدُونِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَي مَعَ اللَّهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يَصْلُحُ لِنَبِيِّ وَلَا لِمُرْسَلٍ، فَلَأَنْ لَا يَصْلُحُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِهِمْ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالأُخْرَى، فَالْجَهْلَةُ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَمَشَائِخِ الضَّلَالِ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الدِّمِّ وَالتَّوْبِيخِ، بِخِلَافِ الرُّسُلِ وَالتَّبَاعِيهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَبَلَّغْتَهُمْ آيَاهُ رُسُلُهُ الْكِرَامُ، وَإِنَّمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ، وَبَلَّغْتَهُمْ آيَاهُ رُسُلُهُ الْكِرَامُ، فَالرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، هُمُ السُّفَرَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي آدَاءِ مَا حَمَلُوهُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَابْتِلَاحِ الْأَمَانَةِ، فَقَامُوا بِذَلِكَ أَمَّ قِيَامٍ وَنَصَحُوا الْخَلْقَ، وَبَلَّغُوهُمُ الْحَقَّ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أَي لَكِنْ يَقُولُ الرَّسُولُ لِلنَّاسِ: كُونُوا رَبَّيْنَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو رَزِينٍ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ: أَي حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ^(٦). وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ حَقٌّ عَلَى مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ فِقِيهًا ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تَحْفُظُونَ أَلْفَاظَهُ.

(١) أحمد: ٣٧٩/١ (٢) فتح الباري: ٣٣٦/٥ ومسلم: ١/١٢٢ (٣) أحمد: ٤٨٠/٢ (٤) أبو داود: ٧٤٩/٣ وتحفة الأحوذى: ٢١٨/٥ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٦١/٢ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٦٥/٢

(الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ) رَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لِقِيَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ». فَقَالَ الْأَشْعَثُ: فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ؛ كَانَ بَنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَاكَ بَيْتَةٌ؟» قُلْتُ: لَا. فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «اخْلِفْ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا يَحْلِفَ فَيَذْهَبَ مَالِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الْآيَةَ^(١). أَخْرَجَاهُ^(٢).

(الْحَدِيثُ الرَّابِعُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ، وَرَجُلٌ بَاعَ إِمَامًا فَإِنْ سَلِعَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ - يَعْنِي كَاذِبًا - وَرَجُلٌ بَاعَ إِمَامًا فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ»^(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٤).

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ آسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

[تَحْرِيفُ الْيَهُودِ لِكَلَامِ اللَّهِ بِلِيِّ الْأَلْسِنِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ لَعْنَتُ اللَّهِ، أَنَّ مِنْهُمْ فَرِيقًا يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَبْدُونَ كَلَامَ اللَّهِ وَيُزِيلُونَهُ عَنِ الْمُرَادِ بِهِ، لِيُوهِمُوا الْجَهْلَةَ أَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَذَلِكَ، وَيَسْبُونَهُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالتَّشَعُّبِيُّ وَالتَّحْسِنِيُّ وَالتَّوَادَةُ وَالتَّرِيبِيُّ بْنُ أَنَسٍ: ﴿يَلُونُ آسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ يُحْرَفُونَهُ^(٥).

وَهَكَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ يَحْرَفُونَ وَيَزِيدُونَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُرِيْلُ لَفْظَ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ يَحْرَفُونَهُ: يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ. وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مُثَنَّبٍ: إِنَّ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ كَمَا أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى، لَمْ يُعَيَّرْ مِنْهُمَا حَرْفٌ، وَلَكِنَّهُمْ يَصْلُونَ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ وَكُتِبَ كَانُوا يَكْتُبُونَهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فَأَمَّا كُتُبُ اللَّهِ فَإِنَّهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦١

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلٰى اِبْرٰهِيْمَ
وَاسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَالْاَسْبَاطِ وَمَا اُوْتِيَ
مُوسٰى وَعِيسٰى وَالتَّيُّوْبَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرِقُ بَيْنَ اَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْاِسْلَامِ
دِيْنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْمًا كَفَرُوْا بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوْا
اَنَّ الرُّسُوْلَ حَقٌّ وَّجَءَ هُمْ بِالْبَيِّنٰتِ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظّٰلِمِيْنَ ﴿٨٦﴾ اُولٰٓئِكَ جَزَاؤُهُمْ اَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّٰهِ
وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ اَجْمَعِيْنَ ﴿٨٧﴾ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا لَا يَخَفُفُ
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُوْنَ ﴿٨٨﴾ اِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا مِنْ
بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوْا فَاِنَّ اللّٰهَ عَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿٨٩﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ
كَفَرُوْا بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ ثُمَّ اَزَادُوْا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَهُمْ
وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الضّٰلُّوْنَ ﴿٩٠﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَمَاتُوْا وَهُمْ
كٰفِرًا لَنْ يُقْبَلَ مِنْ اَحَدِهِمْ مِّلْءُ الْاَرْضِ ذَهَبًا وَّلَوْ
اَفْتَدٰى بِهٖٓ اُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نّٰصِرِيْنَ ﴿٩١﴾

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالٰى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ اَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكَيْفِ اَتَّيْنٰكُمْ اَنْبِيَآءًا﴾ أَي وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ اَحَدٍ غَيْرِ اللهِ، لَا نَبِيٍّ مُّرْسَلٍ وَلَا مَلِكٍ مُّقَرَّبٍ ﴿اَيُّكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ اِذْ اَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ اَيُّ لَّا يَفْعَلُ ذٰلِكَ لِاَنَّ مَنْ دَعَا اِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ فَقَدْ دَعَا اِلَى الْكُفْرِ، وَالْاَنْبِيَاءُ اِنَّمَا يَأْمُرُوْنَ بِالْاِيْمَانِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالٰى: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ اِلَّا نُوْحٰى اِلَيْهِ اللهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾ [الانبيا: ٢٥] وَقَالَ تَعَالٰى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ اُمَّةٍ رَّسُوْلًا اَنْتَ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوْتِ﴾ ... الْاَيَّةُ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿وَسَتَلَّ مَنْ اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا اَجْعَلْنَا مِنْ دُوْنِ الرَّحْمٰنِ اِلٰهَةً يُعْبَدُوْنَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وَقَالَ اِيْحِبَارًا عَنِ الْمَلٰٓئِكَةِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ اِنِّي اِلٰهٌُ مِنْ دُوْنِهِ فَلَذٰلِكَ نَجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْظٰلِمِيْنَ﴾ [الانبيا: ٢٩].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ اِيْرَاسِيَّ قَالُوْا اَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوْا وَاَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّٰهِدِيْنَ ﴿٨٦﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَاُوْلٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُوْنَ ﴿٨٧﴾﴾

[أَخَذُ الْمِيثَاقِ مِنَ الْاَنْبِيَاءِ اَنْ يُؤْمِنُوْا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] يُخْبِرُ تَعَالٰى اَنَّهُ اَخَذَ مِيثَاقَ كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ مِنْ لَدُنْ اَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اِلَى عِيسٰى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَهْمَا اَتَى اللهُ اَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَبَلَغَ اَيُّ مَبْلَغٍ، ثُمَّ جَاءَهُ رَسُوْلٌ مِنْ بَعْدِهِ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُنَّهُ، وَلَا يَمْتَنِعَهُ مَا هُوَ فِيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالتَّوْبَةِ مِنْ اِتِّبَاعِ مَنْ بَعَثَ بَعْدَهُ وَنَصْرَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالٰى وَتَقَدَّسَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ اَيُّ لَمَهْمَا اَعْطَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُوْلٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ اِيْرَاسِيَّ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْني عَهْدِي^(١). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ اِسْحَاقَ: ﴿اِيْرَاسِيَّ﴾ اَيُّ يَقُولُ مَا حُمِّلْتُمْ مِنْ عَهْدِي^(٢). اَيُّ مِيثَاقِي الشَّدِيدِ الْمَوْكَدِ ﴿قَالُوْا اَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوْا وَاَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّٰهِدِيْنَ ﴿٨٦﴾﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ﴾ اَيُّ عَنِ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ﴿فَاُوْلٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُوْنَ﴾، قَالَ عَلِيُّ بْنُ اَبِي طَالِبٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ عَبْدُ اللهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا مِنْ الْاَنْبِيَاءِ اِلَّا اَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ، لِيَنْ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَهُوَ

حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُنَّهُ^(٣). وَاَمْرُهُ اَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى اُمَّتِهِ لِيَنْ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَهُمْ اَحْيَاءٌ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُنَّهُ. وَقَالَ طَاوُسٌ وَالحَسَنُ الصُّرَيْقِيُّ وَقَتَادَةُ: اَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ اَنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهَذَا لَا يُضَادُّ مَا قَالَهُ عَلِيُّ وَابْنُ عَبَّاسٍ.

فَالرَّسُوْلُ مُحَمَّدٌ خَاتَمَ الْاَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا اِلَى يَوْمِ الدِّينِ، هُوَ الْاِمَامُ الْاَعْظَمُ الَّذِي لَوْ وُجِدَ فِي اَيِّ عَصْرِ وَوَجِدَ، لَكَانَ هُوَ الْوٰجِبُ الطَّاعَةَ، الْمُقَدَّمُ عَلَى الْاَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَلِهَذَا كَانَ اِمَامَهُمْ لَيْلَةَ الْاِسْرَاءِ لَمَّا اجْتَمَعُوا بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَذٰلِكَ هُوَ الشَّفِيعُ فِي يَوْمِ الْمَحْشَرِ فِي اِيْتِانِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُوْدُ الَّذِي لَا يَلِيْقُ اِلَّا لَهُ، وَالَّذِي يَجِيْدُ عَنْهُ اَوْلُو الْعِزْمِ مِنَ الْاَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِيْنَ، حَتَّى تَنْتَهِيَ التَّوْبَةُ اِلَيْهِ،

(١) ابن أبي حاتم: ٣٧٣/٢، ٣٧٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٢ / ٢٧٣ (٣) الطبري: ٦ / ٥٥٥

يَكُونُ هُوَ الْمَخْصُوصَ بِهِ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

﴿أَفَعَدَّ دِينَ اللَّهِ يَبْعُوثَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ
وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ
لَا نَفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ عِزَّ
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾
[الدين عند الله الإسلام ولا يقبل غيره]

يَتَوَلَّى تَعَالَى مُتَكِرًا عَلَى مَنْ أَرَادَ دِينًا سِوَى دِينِ اللَّهِ
الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، وَأُرْسِلَ بِهِ رُسُلُهُ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي ﴿لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
أَيَّ اسْتَسَلَّمَ لَهُ مَنْ فِيهِمَا طَوْعًا وَكَرْهًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾... الآية،
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَفْتَنُوا ظُلْمَهُ
عَنِ اليمينِ وَالشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُوَ ذِكْرُونَ ﴿٨٤﴾ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْكَرُونَ
﴿٨٥﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:
٤٨-٥٠] فَالْمُؤْمِنُ مُسْتَسَلِّمٌ بِقَلْبِهِ وَقَالِيهِ لِلَّهِ، وَالْكَافِرُ
مُسْتَسَلِّمٌ لِلَّهِ كَرْهًا، فَإِنَّهُ تَحْتَ التَّشْخِيرِ وَالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ
الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ، وَقَدْ رَوَى وَكَيْعٌ فِي
تَفْسِيرِهِ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قَالَ: هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِقَوْلِهِ﴾ [لقمان: ٢٥]^(١) وَرَوَى عَنِ
ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا﴾ قَالَ: جِئْنَا أَخَذَ الْمِيثَاقَ^(٢). ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾
أَيَّ يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيُجَازِي كُلَّ بِعَمَلِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يَعْنِي
الْقُرْآنَ، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ﴾ أَيَّ مِنَ الصُّحُفِ وَالْوَحْيِ، ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وَهُمْ
بُطُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُتَشَعَّبَةُ مِنْ أَوْلَادِ إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ
يَعْقُوبُ - الْأَثْنِي عَشَرَ، ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يَعْنِي
بِذَلِكَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وَهَذَا يَعْ
جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ جُمْلَةً ﴿لَا نَفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي بَلْ
نُؤْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ هَذِهِ
الْأُمَّةِ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ أُنزِلَ، لَا
يُكْفِرُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ هُمْ مُصَدِّقُونَ بِمَا أُنزِلَ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عِزَّ
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾... الآية، أَيَّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا
سِوَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْخَاسِرِينَ﴾ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ
عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ إِذْ
ذَكَرَ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَجِيءُ
الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا
الصَّلَاةُ؛ فَتَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ؛ وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا
رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ، فَيَقُولُ إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ
فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ
تَجِيءُ الْأَعْمَالُ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ،
ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا
الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، بِكَ الْيَوْمَ أَخَذُ
وَبِكَ أُعْطِي، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عِزَّ الْإِسْلَامِ دِينًا
فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ تَفَرَّدَ بِهِ
أَحْمَدُ^(٤).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ
الرَّسُولَ حَقًّا وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَىٰ عَنْهُمْ
الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَأَوَّكُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

[لَا يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ تَابَ]
رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ
الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَلِحَقَّ بِالشَّرْكِ، ثُمَّ نَدِمَ، فَأُرْسِلَ
إِلَى قَوْمِهِ أَنْ سَلُّوا لِي رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ:
فَنَزَلَتْ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إِلَى
قَوْلِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَأُرْسِلَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ فَاسْتَلَمَ^(٥).
وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ^(٦). وَقَالَ

(١) الطبري: ٥٦٥/٦ (٢) الطبري: ٥٦٥/٦ (٣) فتح الباري:
٣٥٥/٥ (٤) أحمد: ٣٦٢/٢ فيه عباد بن راشد التميمي ضعفه
الجمهور، أنظر تحرير تقريب التهذيب ١٧٧/٢ والحسن البصري
لم يسمع من أبي هريرة كما ذكر ابن كثير هنا، أنظر للتفصيل
"جامع التحصيل في أحكام المراسيل" للعلائي ص ١٦٤ ط. عالم
الكتب. (٥) الطبري: ٥٧٢/٦ (٦) النسائي في الكبرى: ٦/٦
٣١١ والحاكم: ٣٦٦/٤ وابن حبان: ٣٢٣/٦

الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ^(٢).
وَكَذَلِكَ لَوْ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا مَا قُبِلَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾
[البقرة: ١٢٣] وَقَالَ: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾
[إبراهيم: ٣١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لَيَفْتَدُوا بِهِيَ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ
أَلِيمٍ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَكَلِمَةُ الْإِيمَانِ﴾ [المائدة: ٣٦].
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ
يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ فَعَطْفٌ
﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ عَلَى الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُهُ، وَمَا
ذَكَرْنَاهُ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يُقَالَ: أَنَّ الْوَاوَ زَائِدَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَيَقْتَضِي ذَلِكَ أَنْ لَا يُفْتَدَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ قَدْ
أَنْفَقَ مِثْلَ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَوْ افْتَدَى نَفْسَهُ مِنَ اللَّهِ بِمِثْلِ
الْأَرْضِ ذَهَبًا، بِوِزْنِ جِبَالِهَا وَتِلْكَهَا وَتُرَابِهَا، وَرِمَالِهَا
وَسَهْلِهَا وَوَعْرِهَا وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ
إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْكِتَابُ﴾ أَي قَامَتْ
عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ وَالْبُرَاهِينُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ
الرُّسُولُ، وَوَضَحَ لَهُمُ الْأَمْرُ، ثُمَّ ارْتَدَوْا إِلَى ظُلْمَةِ الشَّرِكِ،
فَكَيْفَ يَسْتَحِقُّ هَؤُلَاءِ الْهِدَايَةَ بَعْدَمَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْعَمَايَةِ،
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثُمَّ قَالَ
تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّعْنَةُ كِتَابُ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أَي يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ، وَيَلْعَنُهُمْ خَلْفُهُ، ﴿خَالِدِينَ
فِيهَا﴾ أَي فِي اللَّعْنَةِ، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُظْفَرُونَ﴾ أَي لَا يُفْتَرَّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
سَاعَةً وَاحِدَةً. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَهَذَا مِنْ لَطْفِهِ وَبِرِّهِ وَرَأْفَتِهِ
وَرَحْمَتِهِ وَعَادِلَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ أَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، تَابَ عَلَيْهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ
تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ^(٤)

[لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْكَافِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا فِذْيَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمَهْدِدًا لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ، ثُمَّ
أَزْدَادَ كُفْرًا، أَي اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ، وَمُخْبِرًا بِأَنَّهُمْ
لَنْ تُقْبَلَ لَهُمْ تَوْبَةٌ عِنْدَ مَمَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتْ
التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ
المَوْتُ... الآية [النساء: ١٨]، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿أَنَّ
تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَي الْخَارِجُونَ عَنِ
الْمَنْهَجِ الْحَقِّ إِلَى طَرِيقِ الْغَيِّ، رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبِرَارُ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ قَوْمًا أَشْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدَوْا، ثُمَّ أَشْلَمُوا ثُمَّ
ارْتَدَوْا، فَأَرْسَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ يَسْأَلُونَ لَهُمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ
لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ
إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ^(١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ
آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ خَيْرٍ مَنْزِلٍ،
فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ، فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَلَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ
تُرَدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَارٍ، لِمَا بَرَى مِنْ
فَضْلِ الشَّهَادَةِ، وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا
ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ شَرِّ مَنْزِلٍ،
فَيَقُولُ لَهُ: تَقْتَدِي مِنِّي بِطِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ فَيَقُولُ: أَيُّ
رَبِّ نَعَمْ، فَيَقُولُ: كَذَّبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَسْرَرَ
فَلَمْ تَعْمَلْ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ^(٢). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ أَي وَمَا لَهُمْ مِنْ أَحَدٍ يُفْتَدِيهِمْ
مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَلَا يُجِيرُهُمْ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ وَمَا نُفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ

اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(٣)

[الإنفاق من أحبِّ الأموال من البرِّ]

رَوَى وَكَيْعٌ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ عَمْرٍو بْنِ مَيْمُونٍ ﴿لَنْ نَنَالُوا
الْبِرَّ﴾ قَالَ: الْجَنَّةُ^(٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ
مَالِكٍ، يَقُولُ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِي بِالْمَدِينَةِ مَالًا،

(١) الدرر المشرور: ٢٥٨/٢ (٢) مسلم: ١٩٦/١ (٣) أحمد:
٢٠٧/٣ (٤) الطبري: ٥٨٧/٦ فيه تدليس أبي إسحاق السبيعي
ولم يصرح وشريك بن عبدالله القاضي سبى الحفظ.

وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَتَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِخَ بَخٍ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفَعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقْرَابِهِ وَبَنِي عَمِّهِ^(١). أَخْرَجَاهُ^(٢). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ هُوَ أَنفَسُ عِنْدِي مِنْ سَهْمِي الَّذِي هُوَ بِخَيْرٍ، فَمَا تَأْمُرُنِي بِهِ؟ قَالَ: «حَبْسِ الْأَصْلِ وَسَبْلِ الثَّمَرَةِ»^(٣).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ قَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاَتْلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤) فَمَنْ أَفَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(٥) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(٦) [أَسْئَلَةُ الْيَهُودِ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَضَرَتْ عِصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: حَدَّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسَأُكَ عَنْهُمْ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيُّ، قَالَ: «سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتَتَابِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ» قَالُوا: فَذَلِكَ لَكَ، قَالَ: «فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ». قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ أَرْبَعِ خِلَالٍ: أَخْبِرْنَا أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ وَكَيْفَ مَاءُ الْمَرْأَةِ وَمَاءُ الرَّجُلِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ الذَّكْرُ مِنْهُ وَالْأُنْثَى؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ هَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ فِي التَّوْمِ، وَمَنْ وَلِيَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ لَئِنْ أَخْبَرْتُمْ لَيَتَابِعْتُهُ، فَقَالَ: «أُنشِدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقَمُهُ، فَتَنَدَّرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيَحْرَمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانِ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟» فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ: قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْنَا». وَقَالَ: «أُنشِدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ

تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَيْضٌ غَلِيظٌ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَضْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيْهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَهُ، بِإِذْنِ اللَّهِ: إِنْ عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءُ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِنْ عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءُ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْنَا». وَقَالَ: «أُنشِدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟» قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْنَا: وَأَنْتَ الْآنَ فَحَدِّثْنَا مَنْ وَلِيْتُكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَعِنْدَهَا نُجَامِعُكَ أَوْ نَفَارِقُكَ. قَالَ: «إِنَّ وَلِيَّيَ جِبْرِيلَ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ»، قَالُوا: فَعِنْدَهَا نَفَارِقُكَ، لَوْ كَانَ وَلِيْتُكَ غَيْرَهُ لَتَابَعْنَاكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عِدْوًا لِيَجْرِيْلَ﴾... الآية [البقرة: ٩٧]^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أَيُّ حَرَمَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ، قُلْتُ: وَلِهَذَا السِّيَاقِ بَعْدَمَا تَقَدَّمَ مَتَاسْتَانِ.

(إِحْدَاهُمَا) أَنَّ إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَتَرَكَهَا لِلَّهِ، وَكَانَ هَذَا سَائِعًا فِي شَرِيعَتِهِمْ، فَلَهُ مَتَاسَبَةٌ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَنَا، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمِمَّا يُجِبُّهُ الْعِبَادَةُ وَيَسْتَهَيِّبُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا أَنَالُ عَلَى حَبِيْبِهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَبِيْبِهِ﴾... الآية [الإنسان: ٨].

(الْمَتَاسَبَةُ الثَّانِيَةُ) لَمَّا تَقَدَّمَ السِّيَاقُ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَّارَى، وَاعْتِقَادِهِمُ الْبَاطِلَ فِي الْمَسِيحِ، وَتَبْيِينِ زَيْفِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَظُهُورِ الْحَقِّ وَالْيَقِيْنِ فِي أَمْرِ عَيْسَى وَأُمَّهِ، وَكَيْفِ خَلَقَهُ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَبَعَثَهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، شَرَعَ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ قَبْحَهُمُ اللَّهُ، وَيَبَيِّنُ أَنَّ السَّنَخَ الَّذِي أَنْكَرُوا وَفُوعَهُ وَجَوَارِزَهُ قَدْ وَقَعَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَصَّ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَةَ أَنَّ نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِيْنَةِ، أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ يَأْكُلُ مِنْهَا، ثُمَّ بَعَدَ هَذَا حَرَمَ إِسْرَائِيلَ

(١) أحمد: ١٤١/٣ (٢) فتح الباري: ٧١/٨ ومسلم: ٢/٦٦٣ (٣) مسلم: ١٢٥٦/٣ والنسائي: ٢٣٢/٦ أخرجه بهذا اللفظ "حبس الأصل وسبل الثمرة" النسائي وابن ماجه وغيرهما ولم يوجد بهذا اللفظ في الصحيحين. (٤) أحمد: ٢٧٨/١

سورة آل عمران

سورة آل عمران

٦٢

لَنْ نُنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَانَفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
فَاتَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ ﴿٩٦﴾ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَّبِيَّ**
إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
 التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٧﴾ **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٨﴾ **إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي**
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٩﴾ **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ**
إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ
 مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ
قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَمْ يَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ **قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ**
سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ تَبِعُونَهَا عَوَاجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
 بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ **يَتَاهَلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا**
فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٢﴾

عَلَى نَفْسِهِ لِحَمَانِ الْإِبِلِ وَالْبَنَاهَا، فَاتَّبَعَهُ بَنُوهُ فِي ذَلِكَ،
 وَجَاءَتِ التَّوْرَةُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ، وَأَشْيَاءَ أُخْرَ زِيَادَةَ عَلَى
 ذَلِكَ، وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَدَانَ لِأَدَمَ فِي تَرْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ
 بَنِيهِ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ التَّسْرِي عَلَى الرُّوْجَةِ
 مُبَاحًا فِي شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ فَعَلَهُ إِبْرَاهِيمُ
 فِي هَاجَرَ لَمَّا تَسَرَّى بِهَا عَلَى سَارَةَ، وَقَدْ حُرِّمَ مِثْلُ هَذَا فِي
 التَّوْرَةِ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ سَائِعًا،
 وَقَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَمَعَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ، ثُمَّ
 حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ، وَهَذَا كُلُّهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي
 التَّوْرَةِ عِنْدَهُمْ، وَهَذَا هُوَ النَّسْخُ بَعِيْنِهِ، فَكَذَلِكَ فَلَئِكُنَّ مَا
 شَرَعَهُ اللَّهُ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي إِخْلَالِهِ بَعْضَ مَا حُرِّمَ
 فِي التَّوْرَةِ، فَمَا بِالْهَمِّ لَمْ يَتَّبِعُوهُ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ؟
 وَكَذَلِكَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ،
 وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمِلَّةَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ، فَمَا بِالْهَمِّ لَا
 يُؤْمِنُونَ؟

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَّبِيَّ
 إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
 التَّوْرَةُ﴾ أَيَّ كَانَ حِلاَّبًا لَهُمْ جَمِيعُ الْأَطِعمَةِ قَبْلَ نُزُولِ
 التَّوْرَةِ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأَتُوا
 بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنَّهَا نَاطِقَةٌ بِمَا قُلْنَا
 ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ﴾ أَيَّ فَمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ، وَادَّعَى أَنَّهُ شَرَعَ لَهُمْ
 السَّبْتَ وَالتَّمَسُّكَ بِالتَّوْرَةِ دَائِمًا، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا أُخْرَ
 يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجُجِ بَعْدَ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِنْ
 وَفُوعِ النَّسْخِ وَظُهُورِ مَا ذَكَرْنَاهُ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. ثُمَّ
 قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أَيَّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ صَدَقَ اللَّهُ
 فِيمَا أُخْبِرَ بِهِ، وَفِيمَا شَرَعَهُ فِي الْقُرْآنِ، ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ
 إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيَّ اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
 الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ
 الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي لَمْ
 يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلِ مِنْهَا وَلَا أْبَيَّنَّ وَلَا أَوْضَحَ وَلَا أَمَّ، كَمَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلِكِ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا فِيمَا
 مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
 وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩٩﴾

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى
 النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
 عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

[الكَعْبَةُ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْعِبَادَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أَيَّ لِعُمُومِ النَّاسِ
 لِعِبَادَتِهِمْ وَتُسْكِينِهِمْ، يَطُوفُونَ بِهِ، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ، وَيَعْتَكِفُونَ
 عِنْدَهُ ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يَعْنِي الْكَعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ
 الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي يَزْعُمُ كُلُّ مَنْ طَافَ النَّصَارَى
 وَالْيَهُودَ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ وَمَنْهَجِهِ، وَلَا يَحُجُّونَ إِلَى الْبَيْتِ
 الَّذِي بَنَاهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَنَادَى النَّاسَ إِلَى
 حَجِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُبَارَكًا﴾ أَيَّ وُضِعَ مُبَارَكًا
 وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي دَرٍّ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ
 وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قُلْتُ: كَمْ
 بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ

حَيْثُ أَدْرَكْتَ الصَّلَاةَ فَصَلِّ، فَكَلَّمَهَا مَسْجِدًا^(١) وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمًا^(٢).

[وَجْهٌ تَسْمِيَةٌ بَكَّةً، وَأَسْمَاءُ مَكَّةَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِي يَبْكُهُ﴾ بَكَّةً مِنْ أَسْمَاءِ مَكَّةَ عَلَى الْمَشْهُورِ، قِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبْكُ أَغْثَ الظَّلَمَةِ وَالْجَبَابِرَةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ [يَذَلُّونَ] بِهَا، وَيَخْضَعُونَ عِنْدَهَا. وَقِيلَ: لِأَنَّ النَّاسَ يَتَبَاكُونَ فِيهَا، أَيْ يَزْدَحِمُونَ. وَقَدْ ذَكَرُوا لِمَكَّةَ أَسْمَاءً كَثِيرَةً: مَكَّةُ، وَبَكَّةُ، وَالْبَيْتُ الْعَيْقِيُّ، وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ، وَالْبَلَدُ الْأَمِينُ، وَالْمَأْمُونُ، وَأُمُّ رَحِمٍ، وَأُمُّ الْقُرَى، وَصَلَاحٌ، وَالْعَرْشُ عَلَى وَزْنِ بَدْرٍ، وَالْقَادِسُ، لِأَنَّهَا تُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمَمْدَسَةُ، وَالنَّاسَةُ بِالثُّونِ، وَبِالْبَاءِ أَيْضًا، وَالْحَاطِمَةُ، وَالنَّسَاسَةُ، وَالرَّأْسُ، وَكُوْتَى، وَالْبَلْدَةُ، وَالْبَيْتَةُ، وَالنَّكْبَةُ.

[مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أَيْ دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّهُ مِنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّ اللَّهَ عَظَّمَهُ وَشَرَّفَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يَعْنِي الَّذِي لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى رَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنْهُ وَالْجُدْرَانِ، حَيْثُ كَانَ يَتَّقُ عَلَيْهِ، وَيَتَاوَلُهُ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ، وَقَدْ كَانَ مُتَنَصِّفًا بِيَجْدَارِ الْبَيْتِ حَتَّى أَخْرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي إِمَارَتِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الطَّوْفُ مِنْهُ، وَلَا يُشَوِّشُونَ عَلَى الْمُصَلِّينَ عِنْدَهُ بَعْدَ الطَّوْفِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَأُحْيِدُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ فِي ذَلِكَ فَاعْتَنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هَهُنَا، وَ اللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيْ فَمِنْهُنَّ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَشْعَرُ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَنْتَرُ قَدَمَيْهِ فِي الْمَقَامِ آيَةً بَيِّنَةً^(٤). وَكَذَا رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْحَسَنِ وَتَقَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَمُقَاتِلَ بْنِ حَبَّانٍ وَغَيْرِهِمْ^(٥). وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ:

وَمَوْطِيءُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ

عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ

[الْحَرَمُ مَقَامُ أَمْنٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يَعْنِي حَرَمَ مَكَّةَ إِذَا دَخَلَهُ الْخَائِفُ بِأَمْنٍ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ:

كَانَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ، فَيَضَعُ فِي عُنُقِهِ صُوفَةً وَيَدْخُلُ الْحَرَمَ، فَيَلْقَاهُ ابْنُ الْمَقْتُولِ فَلَا يَهِيحُهُ حَتَّى يَخْرُجَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخْتَفِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾... الْآيَةُ [العنكبوت: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش: ٤٠٣] وَحَتَّى إِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ تَحْرِيمِهَا حُرْمَةً اضْطِيَادِ صَيْدِهَا، وَتَنْفِيرِهِ عَنْ أَوْكَارِهِ، وَحُرْمَةِ قَطْعِ شَجَرِهَا وَقَلْعِ حَشِيشِهَا، كَمَا ثَبَّتَ الْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَرْفُوعًا وَمَوْفُوفًا، فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ: «لَا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا» وَقَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمٌ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَجَلِّ الْقِتَالَ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَجَلِّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا الْإِذْحَرَ، فَإِنَّهُ لِقَبَائِلِهِمْ وَلِيُوتِبَهُمْ، فَقَالَ: «إِلَّا الْإِذْحَرَ»^(٦).

وَلَهُمَا، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ أَيْضًا، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ: ائْتِنِي لِي أُبَيِّهَا الْأَمِيرُ أَنْ أَحَدِّثَكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَدُّ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ، سَمِعْتُهُ أَذْنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي، وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمْتُ بِهِ، أَنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمٌ لِلَّهِ، وَلَمْ يُحْرَمِهَا النَّاسُ، فَلَا يَجِلُّ لِأَمْرِي يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضَدُ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذُنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ». فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ: مَا قَالَ لَكَ

(١) أحمد: ١٥٠/٥ (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٦ ومسلم: ١/٣٧٠ (٣) الطبري: ٢٦/٧ (٤) الطبري: ٢٧/٧ (٥) ابن أبي حاتم: ٤١٣، ٤١٢/٢ (٦) فتح الباري: ٥٦/٤ ومسلم: ٩٨٦/٢

مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٩). وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ»^(١٠) وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١١).

[مُنْكَرُ الْحَجِّ كَاثِرًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبِيدُ بْنُ عَرَفَةَ: أَيُّ وَمَنْ جَحَدَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ فَقَدْ كَفَرَ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ. وَقَدْ رَوَى أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ الْحَافِظُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَنْ أَطَاقَ الْحَجَّ فَلَمْ يَحُجَّ، فَسَوَاءٌ عَلَيْهِ يَهُودِيًّا مَاتَ أَوْ نَصْرَانِيًّا. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١٢).

[بَيَانُ وُجُوبِ الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَيْجٌ إِلَيْتِ مِنْ أَسْطِطَاعِ إِلَيْهِ سَبِيلًا» [آل عمران: ٩٧] هَلِيبُ آيَةُ وُجُوبِ الْحَجِّ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ بِأَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَدَعَائِمِهِ وَقَوَاعِيدِهِ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ إِجْمَاعًا ضَرُورِيًّا، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ فِي الْعُمْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً بِاللَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: حَظَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ الْحَجُّ فَحُجُّوا» فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ» ثُمَّ قَالَ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكٌ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤْلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فِدَعُوهُ»^(٥)، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ نَحْوَهُ^(٦).

[مَعْنَى الْأَسْطِطَاعَةِ]

وَأَمَّا الْأَسْطِطَاعَةُ فَأَقْسَامٌ تَارَةٌ يَكُونُ الشَّخْصُ مُسْتَطِيعًا بِنَفْسِهِ، وَتَارَةٌ بغيرِهِ كَمَا هُوَ مَقْرَّرٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ، رَوَى أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَامَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ الْحَاجُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الشَّعْتُ الثَّقِيلُ»، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْعُجُّ وَالثُّجُّ»، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: مَا السَّبِيلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرَّادُّ وَالرَّاحِلَةُ»^(٧)، وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ^(٨). وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «مَنْ أَسْطِطَعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» فَقِيلَ: مَا السَّبِيلُ؟ قَالَ: «الرَّادُّ وَالرَّاحِلَةُ»، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾^(١٣) قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١٤)

[تَعْنِيفُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ]

هَذَا تَعْنِيفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكُفْرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى عِبَادِهِمْ لِلْحَقِّ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِهِ مِنْ أَرَادَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، بِجَهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ، مَعَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَالسَّادَةِ الْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَمَا بَشَّرُوا بِهِ وَنَوَّهُوا بِهِ مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْهَاشِمِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَسُولِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، بِأَنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ بِمَا خَالَفُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَمُقَابَلَتِهِمُ الرَّسُولَ الْمُبَشِّرَ بِهِ بِالْكَذِبِ وَالْجُحُودِ وَالْإِنْدَادِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، أَيَّ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿يَوْمَ لَا يَفْعَلُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

(١) مسلم: ٩٨٧/٢ (٢) مسلم: ٩٨٩/٢ (٣) أحمد: ٤/٣٠٥ (٤) تحفة الأحوذى: ٤٢٦/١٠ والنسائي في الكبرى: ٢/٤٧٩ وابن ماجه: ١٠٣٧/٢ (٥) أحمد: ٥٠٨/٢ (٦) مسلم: ٩٧٥/٢ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٤٨/٨ (٨) ابن ماجه: ٢/٩٦ (٩) الحاكم: ٤٤٢/١ (١٠) أحمد: ٢٢٥/١ (١١) أبو داود: ٣٥٠/٢ (١٢) الحلية: ٢٥٢/٩

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ
٢٣

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ يَمِينِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ ظَلَمَ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

[مَا هُوَ حَقُّ تَقَاتِهِ؟]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﴿١٠١﴾ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴿١﴾ قَالَ: أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ ﴿٢﴾. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ مَوْقُوفٌ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ ﴿٣﴾. كَذَا قَالَ، وَالْأَطْهَرُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَرَوَى عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَتَّبِعِي الْعَبْدُ اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ حَتَّىٰ يَحْزَنَ لِلسَّانَةِ ﴿٤﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَيَّ حَافِظًا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

[تَحذِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ طَاعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]

يُحَذِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ أَنْ يُطِيعُوا طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَمَا مَنَحَهُمْ بِهِ مِنْ إِزْسَالِ رَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَنًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ... آيَاتُ الْبَقَرَةِ: ١٠٩﴾، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١] يَعْنِي أَنَّ الْكُفْرَ بَعِيدٌ مِنْكُمْ وَحَاشَاكُمْ مِنْهُ، فَإِنَّ آيَاتِ اللَّهِ تَنْزِيلٌ عَلَىٰ رَسُولِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَهُوَ يَتْلُوهَا عَلَيْكُمْ وَيُلْغِيهَا إِلَيْكُمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَالْآيَةُ بَعْدَهَا [الحديد: ٨]. وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟» قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» وَذَكَرُوا الْأَنْبِيَاءَ، قَالَ: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قَالُوا: فَتَحْنُ. قَالَ: «وَكَيْفَ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟» قَالُوا: فَأَيُّ النَّاسِ أَعْجَبُ إِيْمَانًا؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا» ﴿١﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] أَيُّ وَمَعَ هَذَا فَلَا عِصْصَامَ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ هُوَ الْعُمْدَةُ فِي الْهُدَايَةِ، وَالْعُمْدَةُ فِي مَبَاغِدَةِ الْعَوَايَةِ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى الرَّشَادِ، وَطَرِيقُ السَّدَادِ وَحُصُولِ الْمُرَادِ.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(١) الطبراني: ٢٣، ٢٢/٤ نحو هذا المعنى انظر أيضا مسند الإمام أحمد ١٠٦/٤ وتقدم أيضا تحت آية البقرة رقم ٣. (٢) ابن أبي حاتم: ٤٤٦/٢ (٣) الحاكم: ٢٩٤/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٢/٤٤٨

عَلَيْهِ، فَعِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ .

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ جَالِسٌ، مَعَهُ مَجْنُونٌ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْفَعُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِلِهِ وَلَا مَوْتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» وَلَوْ أَنَّ فَطْرَةَ مِنَ الرَّفُومِ فُطِرَتْ لَأَمْرَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْسَتَهُمْ، فَكَيْفَ يَمَنُّ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الرَّفُومُ؟^(١) . وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَالحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَالَ الحَاكِمُ: عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُحَرِّجَاهُ^(٢) .

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣) . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤) . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»^(٥) .

[الْأَمْرُ بِالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ وَلزُومِ الْجَمَاعَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» قِيلَ: «بِحَبْلِ اللَّهِ» أَيُّ بِعَهْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُفَعُّوهُ إِلَّا بِحَبْلِ مَنِ اللَّهِ وَحَبْلِ مَنِ النَّاسِ» أَيُّ بِعَهْدِ وَذِمَّةِ .

وَقَوْلُهُ: «وَلَا تَفَرَّقُوا» أَمَرَهُمُ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ، وَالْأَمْرُ بِالْإِجْتِمَاعِ وَالْإِتِّلَافِ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وُلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(٦) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأذْكُرُوا لَكُمْ عَلَيْنَا إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» . . . إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَهَذَا السِّيَاقُ فِي شَأْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَإِنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ وَصَغَائِنُ وَإِحْنٌ وَذُخُولٌ، طَالَ بِسَبَبِهَا قِتَالُهُمْ وَالْوَقَائِعُ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَدَخَلَ فِيهِ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ، صَارُوا إِخْوَانًا مَتَحَابِّينَ بِجَلَالِ اللَّهِ، مُتَوَاصِلِينَ فِي ذَاتِ اللَّهِ،

مُتَعَاوِينَ عَلَى الْبُرِّ وَالتَّقْوَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي أَبَدَكَ بِصَرِّهِ وَالتَّوَمِينَ» وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ يَسْبَبُ كُفْرِهِمْ، فَأَتَقَدَّهُمُ اللَّهُ مِنْهَا: أَنْ هَدَاهُمْ لِلْإِيمَانِ، وَقَدِ امْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُتَيْنَ، فَعَتَبَ مَنْ عَتَبَ مِنْهُمْ، لِمَا فَضَّلَ عَلَيْهِمْ فِي الْقِسْمَةِ، بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَاهُ فَأَعَانَكُمْ اللَّهُ بِي؟» فَكَلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُ^(٧) .

«وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٨) . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ^(٩) . وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(١٠) . تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ^(١١) . وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^(١٢) .

[الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالذِّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ» مُتَّصِبَةٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي الدِّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» . قَالَ الضَّحَّاكُ: هُمْ خَاصَّةُ الصَّحَابَةِ وَخَاصَّةُ الرِّوَاةِ، يَعْنِي الْمُجَاهِدِينَ وَالْعُلَمَاءَ^(١٣) . وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، أَنْ تَكُونَ فِرْقَةً مِنَ الْأُمَّةِ مُتَّصِدَةً لِهَذَا الشَّانِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسَبِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَعْبِرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

(١) أحمد: ٣٠٠/١ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٠٧/٧ والنسائي في الكبرى: ٣١٣/٦ وابن ماجه: ١٤٤٦/٢ وابن حبان: ٢٧٨/٩ والحاكم: ٢٩٤/٢ (٣) أحمد: ٣١٥/٣ (٤) مسلم: ٤/٢٢٠٥ (٥) فتح الباري: ٣٩٥/١٣ ومسلم: ٢٠٦١/٤ (٦) مسلم: ١٣٤٠/٣ (٧) صحيح البخاري ٤٣٣٠ وصحيح مسلم ١٠٦١ عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه (٨) الطبري: ٩٢/٧

فِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» وفي رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» (١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُهُنَّ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ» (٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ (٣). وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ، مَعَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْسِيرُهَا فِي أَمَاكِنِهَا.

[التَّهْيِي عَنْ التَّفَرُّقَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» الآية، يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ تَكُونَ كَالْأُمَمِ الْمَاضِيْنَ فِي تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ وَتَرْكِهِمْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالتَّهْيِي عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عَامِرٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ لُحَيْيٍّ، قَالَ: حَجَجْنَا مَعَ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَامَ حِينَ صَلَّى الظُّهْرَ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - كُلَّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً - وَهِيَ الْجَمَاعَةُ - وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تُجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ» وَاللَّهُ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ لَعَبْرَتُكُمْ مِنْ النَّاسِ أُخْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ (٤). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمُحَمَّدَ ابْنَ يَحْيَى (٥).

[ثَمَرَاتُ الْأَلْفَةِ وَالْفُرْقَةِ يَوْمَ الْحَشْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٦). «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ (٧). «فَدُودُوا الْعِدَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» وَهَذَا الْوَصْفُ يَعُمُّ كُلَّ كَافِرٍ «وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمَنْ رَمَاهُ اللَّهُ فِيهَا خَلِيدُونَ» يَعْنِي الْجَنَّةَ، مَا كَانُوا فِيهَا أَبَدًا، لَا يَبْعَثُونَ عَنْهَا حَوْلًا، وَقَدْ رَوَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي غَالِبٍ،

وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدْحَىٰ وَإِنْ يَفْتَلُوكُمْ يُولُوكُمْ إِلَّا ذَبَابًا ثُمَّ لَا تُيْضِرُّونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا نَفَقُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبِغَضِبِ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْأَحْيَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

قَالَ: رَأَى أَبُو أَمَامَةَ رُؤُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجٍ مَسْجِدٍ دِمَشْقَ (٨)، فَقَالَ أَبُو أَمَامَةَ: كِلَابُ النَّارِ، شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَيْدِي السَّمَاءِ، خَيْرٌ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قُلْتُ لِأَبِي أَمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعَهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا - حَتَّى عَدَّ سَبْعًا - مَا

(١) مسلم: ٧٠، ٦٩/١ (٢) أحمد: ٣٨/٥ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٩٠/٦ (٤) أحمد: ١٠٢/٤ (٥) أبو داود: ٥/٥ (٦) ابن أبي حاتم: ٤٦٤/٢ (٧) ابن أبي حاتم: ٤٦٥/٢ موضوع فيه مجاشع بن عمرو هو أحد الكذابين كما قال ابن معين [ميزان الاعتدال ٣/٣٤٦ قال ابن حبان: كان ممن يضع الحديث على اللغات ويروي الموضوعات عن أقوام ثقات لا يحل ذكره في الكتب إلا على سبيل القدح فيه ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار للخواص [المجروحين ٣/١٨] قال الأزدي: كذاب دامر لا تحل الرواية عنه [الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٣/٣٥] (٨) هم رؤوس الخوارج كما في المعجم الكبير للطبراني ٨/٢٦ والازارقة يعني الخوارج كما في مسند أحمد ٥/٢٥٣.

حَدَّثَكُمْهُ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِنَحْوِهِ^(٢).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أَي هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَجُهُ وَبَيِّنَاتُهُ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَي نَكْشِفُ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أَي لَيْسَ بِظَالِمٍ لَهُمْ، بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَخْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي الْجَمِيعِ مُلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أَي هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الْحَاكِمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣) لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا آذَىٌ وَإِنْ يَفْتِنُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَصُرُونَ^(٤) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبِأُذَى بَعْضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ^(٥)

[فَضَّلَ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ وَكَوْنَهَا خَيْرَ أُمَّةٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِأَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ^(٦). وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ^(٧). وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَّةِ وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَسَنَنِ ابْنِ مَاجَةَ وَمُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ مِنْ رِوَايَةِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٨). وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ، وَقَدْ حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ،

وَيُرَوَّى مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأَبِي سَعِيدٍ نَحْوَهُ، وَإِنَّمَا حَارَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِسَبَبِهَا مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرِّعِ كَامِلٍ عَظِيمٍ، لَمْ يُعْطِهِ نَبِيًّا قَبْلَهُ، وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ، فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالٍ غَيْرِهِمْ مَقَامَهُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهْرًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَّةِ»^(٩) وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ بِنَاسِبٍ ذَكَرَ بَعْضُهَا هَهُنَا. وَتَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمَرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وَجُوهَهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنِ الْأَسَدِيِّ يَرَفَعُ نُبْرَةَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ»^(١٠).

نَوْعٌ آخَرَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَشَرَفِهَا وَكَرَامَتِهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مِنْ يَتْبَعَنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبُعُ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثُلُثُ النَّاسِ» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا الشُّطْرَ»^(١١). وَهَكَذَا رَوَاهُ عَنْ طَرِيقٍ آخَرَ^(١٢). وَهُوَ

(١) تحفة الأحوزي: ٣٥١/٨ (٢) ابن ماجه: ٦٢/١ وأحمد: ٢٥٦/٥ (٣) فتح الباري: ٧٢/٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٢/٤٧٢، ٤٧٣ (٥) أحمد: ٣/٥ و تحفة الأحوزي: ٣٥٢/٨ وابن ماجه: ١٤٣٣/٢ (٦) أحمد: ٩٨/١ (٧) فتح الباري: ١١/٤١٣ ومسلم: ١٩٧/١ (٨) أحمد: ٣٤٦/٣ (٩) أحمد: ٣/٣٨٣

عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ. وَثَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

(حديث آخر) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُرَيْدَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عَشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا»^(٢) وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَنْ طَرِيقٍ آخَرَ^(٣). وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٤). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ^(٥).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْأَخْرُونَ الْأَوْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأَوْتِنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، عَدَا لِلْيَهُودِ، وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ^(٦) - وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ الْأَخْرُونَ الْأَوْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ^(٧).

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَغَيْرُهَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فَمَنْ انْتَصَفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهِدِهِ الصِّفَاتِ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالْمَدْحِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: بَلَّغْنَا أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَجَّةِ حَجَّهَا، رَأَى مِنَ النَّاسِ سُرْعَةً، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿كُنتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ، فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا^(٨). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ أَشْبَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ دَمَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾... الْآيَةَ [المائدة: ٧٩]، وَلِهَذَا لَمَّا مَدَحَ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ، شَرَعَ فِي دَمِّ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَأْيِيبِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أَيْ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْ مَتَّهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَيْ قَلِيلٌ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَى

(١) فتح الباري: ١١/٣٨٥ ومسلم: ١/٢٠٠ (٢) أحمد: ٥/٣٥٥ (٣) أحمد: ٥/٣٤٧ (٤) تحفة الأحوذى: ٧/٢٥٦ (٥) ابن ماجه: ٢/١٣٤ (٦) البخاري: ٨٩٦، ٣٤٨٦، ٣٤٨٧ ومسلم: ٨٥٥ (٧) مسلم: ٨٥٥ (٨) الطبري: ٧/١٠٢ ضعيف: قتادة عن عمر مرسل قال العلائي: أحد المشهورين بالتدليس وهو أيضا يكثر من الإرسال... ولم يسمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا من أنس رضي الله عنه كما قال الإمام أحمد أنظر [جامع التحصيل رقم ٦٣٣] (٩) الطبري: ٧/١١٢ فيه عطية العوفي وعائلته وتقدم مرارا حاله (١٠) ابن أبي حاتم: ٢/٤٨٠، ٤٨١

أَلْرُومَهَا قَدَرًا وَسُرْعًا .

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أَي وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْكِبْرُ وَالْبَغْيُ وَالْحَسَدُ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ وَالْمَسْكَنَةُ أَبَدًا مُتَّصِلًا بِذَلِكَ الْأَجْرَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أَي إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِ رُسُلِ اللَّهِ، وَقَيْضُوا لِذَلِكَ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُكْتَبِرُونَ الْعِضْيَانَ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَشْيَانَ لِمَعَاصِي اللَّهِ، وَالْإِعْتِدَاءِ فِي شَرْعِ اللَّهِ، فَعِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْتَعَانُ .

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُ آيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ آتَاهُ الْبَيِّنَاتُ وَهُمْ يَسْتَحْذِرُونَ﴾ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَّهِنُونَ مِنَ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦) مَثَلُ مَا يُبْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧)

[فَضْلٌ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ - وَرَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ آمَنَ مِنْ أَحْبَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَسِيدِ بْنِ عُبَيْدٍ وَتَعْلَبَةَ بْنِ سَعِيَةَ وَأَسِيدِ بْنِ سَعِيَةَ وَغَيْرِهِمْ، أَي لَا يَسْتَوِي مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ بِالذَّمِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ (١) أَي لَيْسُوا كُلُّهُمْ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، بَلْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَمِنْهُمْ الْمُجْرِمُونَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أَي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مُطِيعَةٌ لِشَرْعِهِ، مُتَّبِعَةٌ نَبِيِّ اللَّهِ، فَهِيَ قَائِمَةٌ، بِعِنْيِ مُسْتَقِيمَةٍ ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ آتَاهُ الْبَيِّنَاتُ وَهُمْ يَسْتَحْذِرُونَ﴾ أَي يَقُومُونَ اللَّيْلَ وَيُكْتَبِرُونَ التَّهَجُّدَ، وَيَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ فِي صَلَوَاتِهِمْ ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَّهِنُونَ مِنَ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ . . .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦) مَثَلُ مَا يُبْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧) يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوَامِعِنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨) هَاتَانِهُمَا أَوْلَادٌ مُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقَوْمُ فَالِقَاءَ آثَانِهِمْ وَإِذَا حَلَّوْا عِضْوًا عَلَيْكُمْ إِلَّا نَامِلًا مِنَ الْعِظِ قُلْ مَوْتُوْا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١٩) إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةَ سَوْمِهِمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةُ يَضْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠) وَإِذْ عَدُوٌّ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١)

الآية [آل عمران: ١١٩]، وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أَي لَا يَضِيعُ عِنْدَ اللَّهِ، بَلْ يَجْزِيهِمْ بِهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أَي لَا يُخْفِي عَلَيْهِ عَمَلٌ غَامِلٌ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرٌ مِنْ أَحْسَنِ عَمَلٍ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفْرَةِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُ: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أَي لَا يَرُدُّ عَنْهُمْ بِأَسْ أَسْ وَاللَّهُ وَلَا عَذَابُهُ إِذَا أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

[بَيَانٌ مَثَلُ مَا يُبْفِقُهُ الْكُفَّارُ]

ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِمَا يُبْفِقُهُ الْكُفَّارُ فِي هَذِهِ الدَّارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ (٢). فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُبْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أَي يَرُدُّ شَدِيدٌ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ

(١) المحرر الوجيز: ٤٩٢/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٤٩٣/٢

وَالصَّحَّاءُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَزِيرُهُمْ^(١). وَقَالَ عَطَاءٌ: بَرَدٌ وَجَلِيدٌ^(٢). وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا. وَمَجَاهِدٌ: ﴿فِيهَا صِرٌّ أَيْ نَارٌ^(٣)﴾. وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ، فَإِنَّ الْبَرَدَ الشَّدِيدَ وَلَا سِيَّمَا الْجَلِيدَ يَحْرِقُ الزَّرْوَعَ وَالنَّمَارَ، كَمَا يَحْرِقُ الشَّيْءُ بِالنَّارِ ﴿أَصَابَتْ حَرَّتَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُ﴾ أَيْ فَأَحْرَقَتْهُ، يَعْنِي بِذَلِكَ الشَّفْعَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى حَرِّ قَدْ آتَى جَدَادُهُ أَوْ حَصَادُهُ، فَدَمَّرَتْهُ وَأَعْدَمَتْ مَا فِيهِ مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ، فَذَهَبَتْ بِهِ وَأَفْسَدَتْهُ، فَعَدَمَهُ صَاحِبُهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ. فَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ يَمْحَقُ اللَّهُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَتَمَرَّتْهَا، كَمَا أَذْهَبَ ثَمَرَةَ هَذَا الْحَرِّ بِذُنُوبِ صَاحِبِهِ. وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ بَنَوْهَا عَلَى غَيْرِ أَضَلِّ وَعَلَى غَيْرِ آسَاسٍ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُونًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١٧) هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ مُجِبُونَكُمْ وَلَا يُجِبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْآنَابِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنْ أَلَّهَ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الضُّدُورِ﴾^(١٨) إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَتُؤْتَمُّ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَنَقَّوْا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ أَلَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(١٩)

[النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بَطَانَةً]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْمُتَنَافِقِينَ بَطَانَةً، أَيْ يُطَلِّعُونَهُمْ عَلَى سَرَائِرِهِمْ، وَمَا يُضْمِرُونَهُ لِأَعْدَائِهِمْ، وَالْمُتَنَافِقُونَ بِجَهْدِهِمْ وَطَاقِفِهِمْ لَا يَأْلُونَ الْمُؤْمِنِينَ خِيَالًا، أَيْ يَسْعَوْنَ فِي مُخَالَفَتِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَبِمَا يَسْتَطِيعُونَهُ مِنَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، وَيُودُونَ مَا يُعْنِتُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحْرِجُهُمْ وَيَسْقُ عَلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ﴾ أَيْ مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، وَبَطَانَةُ الرَّجُلِ هُمْ خَاصَّةً أَهْلُهُ الَّذِينَ يَطَّلِعُونَ عَلَى دَاخِلِهِ أَمْرِهِ. وَقَدْ رَوَى الْخَارِجِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَعَزِيرُهُمَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ»^(٤). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ أَبِي الدُّهْمَانَةِ، قَالَ: قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَهُنَا غَلَامًا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ

حَافِظٌ كَاتِبٌ، فَلَوْ اتَّخَذْتَهُ كَاتِبًا، قَالَ: قَدْ اتَّخَذْتُ إِذَا بَطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ^(٥). فِي هَذَا الْأَثَرِ مَعَ هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الدِّمَةِ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ الَّتِي فِيهَا اسْتِطَالَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأُطْلِعَ عَلَى دَوَاحِلِ أُمُورِهِمُ الَّتِي يُخْفَى أَنْ يَفْشَوْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُونًا مَا عَنِتُّمْ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أَيْ قَدْ لَاحَ عَلَى صَفَحَاتِ وُجُوهِهِمْ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ، مَعَ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مَا لَا يَخْفَى مِثْلُهُ عَلَى لِسَبِ عَاقِلٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ مُجِبُونَكُمْ وَلَا يُجِبُونَكُمْ﴾ أَيْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تُجِئُونَ الْمُتَنَافِقِينَ بِمَا يُطَهِّرُونَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَتُجِئُونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَهُمْ لَا يُجِئُونَكُمْ لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَيْ لَيْسَ عِنْدَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ، وَهُمْ عِنْدَهُمُ الشُّكُّ وَالرَّيْبُ وَالْحَيْرَةُ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَيْ بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِهِمْ وَبِمَا مَضَى مِنَ الْكِتَابِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكِتَابِكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْبَغْضَاءِ لَهُمْ مِنْهُمْ لَكُمْ^(٦). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْآنَابِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وَالْآنَابِلُ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ. قَالَهُ قَتَادَةُ^(٧). وَهَذَا شَأْنُ الْمُتَنَافِقِينَ يُطَهِّرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمَوَدَّةَ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْآنَابِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وَذَلِكَ أَشَدُّ الْغَيْظِ وَالْحَقِّ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنْ أَلَّهَ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الضُّدُورِ﴾ أَيْ مَهْمَا كُنْتُمْ تَحْسُدُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَعْظِيكُمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُتِمُّ نِعْمَتِهِ عَلَى

(١) ابن أبي حاتم: ٤٩٤/٢، ٤٩٥ (٢) ابن أبي حاتم: ٢/٤٩٦ (٣) ابن أبي حاتم: ٤٩٥/٢ (٤) فتح الباري: ١٣/٢٠١ والنسائي: ١٥٨/٧ (٥) ابن أبي حاتم: ٢/٥٠٠ ابن أبي شيبة ٨/٤٧٠ (٦) ابن أبي الدهمقانة أو أبو دهقانة ما وجدت ترجمته في المراجع والمصادر التي لدي (٦) الطبري: ١٤٩/٧ (٧) الطبري: ١٥٣/٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٦٦
سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

اِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ اَنْ تَفْسَلَا وَاللَّهُ وَلِيْمَاهُمَا وَعَلَى
 اللَّهُ فُلْيَسُوْكَلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴿١٢١﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَاَنْتُمْ
 اَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴿١٢٢﴾ اِذْ تَقُوْلُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ
 اَنْ يَكْفِيْكُمْ اَنْ يَمِيْدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ اَلْفٍ مِنَ الْمَلٰٓئِكَةِ
 مُزَلِّيْنَ ﴿١٢٣﴾ بَلَىٰ اِنْ تَصٰبِرُوْا وَتَتَّقُوْا وَيَاۤتُوْكُمْ مِّنْ فَوْرِهِمْ
 هٰذَا يَمِيْدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ اَلْفٍ مِنَ الْمَلٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِيْنَ
 ﴿١٢٤﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ اِلَّا بُشْرٰى لَكُمْ وَلِنُظْمِيْنَ قُلُوْبِكُمْ بِهِ وَمَا
 النَّصْرُ اِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيْزِ الْحَكِيْمِ ﴿١٢٥﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
 مِّنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوْا حٰٓئِيْبِيْنَ ﴿١٢٦﴾ لَيْسَ لَكَ
 مِنَ الْاَمْرِ شَيْءٌ اَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ اَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَاِنَّهُمْ ظٰلِمُوْنَ
 ﴿١٢٧﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ يَعْفُوْا لِمَنْ يَشَآءُ
 وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ وَاللَّهُ عَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿١٢٨﴾ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ
 ءَامَنُوْا لَا تَاْكُلُوْا الرِّبٰۤاَ اَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴿١٢٩﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِيْ اُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِيْنَ
 ﴿١٣٠﴾ وَاَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُوْلَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ ﴿١٣١﴾

رُوَّسَاءَ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ: أَرْضُ هَذِهِ الْأَمْوَالِ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ، فَأَنْفَقُوهَا فِي ذَلِكَ، فَجَمَعُوا الْجُمُوعَ وَالْأَحَابِيْشَ، وَأَقْبَلُوا فِي نَحْوِ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، حَتَّى نَزَلُوا قَرِيْبًا مِنْ أُحُدٍ بِلِقَاءِ الْمَدِيْنَةِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا صَلَّى عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي النَّجَارِ يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ ابْنُ عَمْرٍو، وَاسْتَشَارَ النَّاسَ «أَيُخْرَجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُتُ بِالْمَدِيْنَةِ؟» فَأَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَالْمَقَامِ بِالْمَدِيْنَةِ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَحْسِسٍ، وَإِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمُ الرَّجَالُ فِي وُجُوْهِهِمْ، وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا حَآئِيْبِيْنَ. وَأَشَارَ آخَرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَيْسَ لِأُمَّتِهِ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ نَدِمَ بَعْضُهُمْ وَقَالُوا: لَعَلَّنَا اسْتَكْرَهْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ شِئْتَ أَنْ نَمْكُتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَيْسَ

عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ، وَمُكْمَلٌ دِيْنُهُ، وَمُعَلِّ كَلِمَتُهُ، وَمُظْهِرٌ دِيْنُهُ، فَمُوتُوا أَنْتُمْ بَعِيْظِكُمْ ﴿١٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ ﴿١٢٢﴾ أَيُّ هُوَ عَلِيْمٌ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَائِرُكُمْ وَنَكِيْتُهُ سَرَائِرُكُمْ مِنَ الْبُغْضَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْغِيْلِ لِلْمُؤْمِنِيْنَ، وَهُوَ مُجَارِيكُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُرِيَكُمْ خِلَافَ مَا تُؤْمَلُونَ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيْدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ خَالِدُونَ فِيهَا، فَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ وَإِنْ نُصِبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وَهَذِهِ الْحَالُ ذَالَةٌ عَلَى شِدَّةِ الْعِدَاوَةِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِيْنَ خِصْبٌ وَنَصْرٌ وَتَأْيِيْدٌ وَكَثُرُوا وَعَزَّ أَنْصَارُهُمْ، سَاءَ ذَلِكَ الْمُتَافِقِيْنَ، وَإِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمِيْنَ سَنَةٌ أَوْ جَدْبٌ، أَوْ أُدِيلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ، لِمَا لِلَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ - كَمَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ - فَرِحَ الْمُتَافِقُونَ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿وَإِنْ تَصٰبِرُوْا وَتَتَّقُوْا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾... الْآيَةُ، يُرِيْدُهُمْ تَعَالَى إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ، وَكَيْدِ الْمُجَارِ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ. وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا يَقَعُ فِي الْوُجُوْدِ شَيْءٌ إِلَّا بِتَقْدِيْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ.

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ أُحُدٍ وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْإِخْتِبَارِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ. وَالتَّمْيِيْزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالتَّمُنَّافِقِيْنَ وَبَيَانِ صَبْرِ الصَّابِرِيْنَ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ عَدَدْتَ مِنْ أَهْلِكَ بُيُوْتِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ﴿١٢١﴾ اِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ اَنْ تَفْسَلَا وَاللَّهُ وَلِيْمَاهُمَا وَعَلَى اللَّهُ فُلْيَسُوْكَلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَاَنْتُمْ اَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴿١٢٣﴾﴾

[بَيَانُ غَرْوَةِ أُحُدٍ]

الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْوَقْفَةِ يَوْمَ أُحُدٍ عِنْدَ الْجَمْهُورِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (١). وَكَانَتْ وَقْفَةُ أُحُدٍ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَوْمَ السَّبْتِ لِلنَّصِيفِ مِنْ شَوَّالِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ سَبَبُهَا: أَنَّ الْمُشْرِكِيْنَ حِينَ قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَسَلِمَتِ الْعِيْرُ بِمَا فِيهَا مِنَ التَّجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي سَفْيَانَ، فَلَمَّا رَجَعَ فَلَهُمْ إِلَى مَكَّةَ، قَالَ أَبْنَاءُ مَنْ قُتِلَ

(١) ابن أبي حاتم: ٥١٠/٢

لَأَمْتَهُ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ».

فَسَارَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانُوا بِالشُّوْطِ، رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فِي ثُلُثِ النَّجِيشِ مُغْضَبًا، لِكُونِهِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى قَوْلِهِ، وَقَالَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ: لَوْ نَعْلَمُ الْيَوْمَ قِتَالًا لَا نَتَّبِعَانَاكُمْ، وَلَكِنَّا لَا نَرَاكُمْ تَقَاتِلُونَ الْيَوْمَ. وَاسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَائِرًا حَتَّى نَزَلَ الشُّعْبَ مِنْ أُحُدٍ فِي عُدْوَةِ الْوَادِي، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ، وَقَالَ: «لَا يَقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ». وَتَهَيَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْقِتَالِ وَهُوَ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. وَأَمَرَ عَلَى الرَّمَامَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ أَحَا بْنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ. وَالرَّمَامَةُ يَوْمَيْدٍ حَمْسُونَ رَجُلًا، فَقَالَ لَهُمْ: «انْضَحُوا الْحَيْلَ عَنَّا وَلَا تُؤْتِنَنَّ مِنْ قِبَلِكُمْ وَالرَّمَامَةُ مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ التَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ» وَظَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، وَأَعْطَى اللُّوَاءَ مُصْعَبَ بْنَ عَمْرٍو أَحَا بْنِي عَبْدِ الدَّارِ. وَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ الْعُلَمَانِ يَوْمَيْدٍ، وَأَرْجَأَ آخَرِينَ، حَتَّى امْضَاهُمْ يَوْمَ الْحَنْدَقِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ بِقَرِيبٍ مِنْ سِتِّينَ. وَتَعَبَاتُ فَرِيْسٌ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، وَمَعَهُمْ مِائَتَا فَرَسٍ قَدْ جَنَّبَوْهَا، فَجَعَلُوا عَلَى مِمْنَةِ الْحَيْلِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَعَلَى الْمَيْسِرَةِ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، وَدَفَعُوا إِلَى بَنِي عَبْدِ الدَّارِ اللُّوَاءَ، ثُمَّ كَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَا سَبَّأَتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوَاضِعِهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أَي تَنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَتَجْعَلُهُمْ مِمْنَةً وَمَيْسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، قَالَ: نَحْنُ الطَّافِقَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ. وَمَا نَجِبُ - وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسْرُبِي أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾^(١) وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ^(٢).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أَي تَنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَتَجْعَلُهُمْ مِمْنَةً وَمَيْسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، قَالَ: نَحْنُ الطَّافِقَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ. وَمَا نَجِبُ - وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسْرُبِي أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾^(١) وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ^(٢).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أَي تَنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَتَجْعَلُهُمْ مِمْنَةً وَمَيْسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، قَالَ: نَحْنُ الطَّافِقَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ. وَمَا نَجِبُ - وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسْرُبِي أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾^(١) وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ^(٢).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أَي تَنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَتَجْعَلُهُمْ مِمْنَةً وَمَيْسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، قَالَ: نَحْنُ الطَّافِقَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ. وَمَا نَجِبُ - وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسْرُبِي أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾^(١) وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ^(٢).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أَي تَنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَتَجْعَلُهُمْ مِمْنَةً وَمَيْسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾... الْآيَةُ، قَالَ: نَحْنُ الطَّافِقَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ. وَمَا نَجِبُ - وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسْرُبِي أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾^(١) وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ^(٢).

(١) فتح الباري: ٦٣/٨ (٢) مسلم: ١٩٤٨/٤ (٣) ابن أبي حاتم: ٥١٩-٥٢١ (٤) الطبري: ١٧٤/٧

بَلَّغَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ كُرَزَ بْنِ جَابِرٍ يُعِدُّ الْمُشْرِكِينَ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَنْ يَكْفُرِيكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مُسُومِينَ﴾ قَالَ: قَبَلَعَتْ كُرَزًا الْهَزِيمَةَ، فَلَمْ يُعِدَّ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يُعِدَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْخَمْسَةِ^(١). وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: أَمَدَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَفِ^(٢). فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُعِدُّكُمْ بِالْأَفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ التَّنْصِيفَ عَلَى الْأَفِ - هَهُنَا - لَا يُتَأَنَّى الثَّلَاثَةَ

الْأَفِ فَمَا فَوْقَهَا، لِقَوْلِهِ: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بِمَعْنَى يَرُدُّهُمْ غَيْرُهُمْ وَتَبِعُهُمْ أَلُوفٌ أُخْرَى مِثْلُهُمْ. وَهَذَا السِّيَاقُ شَبِيهُ هَذَا السِّيَاقِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. فَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلَّغَ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ يَعْنِي: تَصَبَّرُوا عَلَى مُصَابِرَةِ عَدُوِّكُمْ، وَتَتَّقُونِي وَتَطِيعُوا أَمْرِي. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَا تُوتُوكُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَتَنَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَالسُّدِّيُّ: أَيُّ مِنْ وَجْهِهِمْ هَذَا^(٣). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ سَفَرِهِمْ هَذَا، وَيُقَالُ: مِنْ غَضَبِهِمْ هَذَا^(٤).

إِلَّا يَوْمَ بَدْرٍ^(١). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبَّادٍ أَنَّ الزُّبَيْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ عَلَيْهِ يَوْمَ بَدْرٍ عِمَامَةٌ صَفْرَاءُ مُعْتَجِرًا بِهَا، فَتَزَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ، عَلَيْهِمْ عِمَامَتُهُمْ صُفْرًا^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَطْمَينَ لِقَابِكُمْ بِهِ﴾ أَيُّ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَأَعْلَمَكُمْ بِإِنزَالِهِمْ إِلَّا بِشَارَةً لَكُمْ، وَتَطْيِيبًا لِقُلُوبِكُمْ وَتَطْمِينًا، وَإِلَّا فَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ لَأَنْصَرَ مِنْ أَعْدَائِهِ بِدُونِكُمْ، وَمِنْ غَيْرِ اِحْتِيَاجٍ إِلَى قِتَالِكُمْ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقِتَالِ: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَاكُمْ مِنْهُمُ وَلَكِنْ لِنَبِّئُوا بَعْضَكُمْ بِأَلْبَابِهِمْ وَأَلَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَانْصَبُوا بِأَعْيُنِهِمْ وَيَضَلُّوا بِهِمْ﴾ [محمد: ٤-٦] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَطْمَينَ لِقَابِكُمْ بِهِ﴾ وَمَا أَنْصَرَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ أَيُّ: هُوَ ذُو الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةُ فِي قَدْرِهِ وَالْإِحْكَامُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ أَمْرُكُمْ بِالْجِهَادِ وَالْجِلَادِ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي كُلِّ تَقْدِيرٍ، وَلِهَذَا ذَكَرَ جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْمُمْكِنَةَ فِي الْكُفَّارِ الْمُجَاهِدِينَ، فَقَالَ: ﴿لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا﴾ أَيُّ لِيُهْلِكَ أُمَّةً ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ﴾ أَيُّ يُخْرِبُهُمْ وَيُرُدُّهُمْ بِعَيْظِهِمْ لَمَّا لَمْ يَنَالُوا مِنْكُمْ مَا أَرَادُوا. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا﴾ أَيُّ يَرْجِعُوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أَيُّ لَمْ يَحْصُلُوا عَلَى مَا أَمَّلُوا.

ثُمَّ اعْتَرَضَ بِجُمْلَةٍ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَيُّ بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا عَلَيَّ أَلْتَلَعُ الْأَبْطَغُ وَعَلَيْتُمُ الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ فِي عِبَادِي إِلَّا مَا أَمَرْتُكَ بِهِ فِيهِمْ^(٨). ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى بَيِّنَةَ الْأَقْسَامِ، فَقَالَ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ

الْقَوْلِ الثَّانِي) أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ مُتَمَلِّقٌ بِقَوْلِهِ ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْصُلِ الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ يَوْمَئِذٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَّغَ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ فَلَمْ يَصْبِرُوا، بَلَّ فَرُّوا، فَلَمْ يَمْدُوا بِمَلِكٍ وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُعِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسُومِينَ﴾ أَيُّ مُعَلِّمِينَ بِالسِّيَمَا، وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّيِّعِيُّ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرَّبٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ سَيْمًا الْمَلَائِكَةَ يَوْمَ بَدْرٍ الصُّوفُ الْأَبْيَضُ^(٥). وَكَانَ سَيْمَاهُمْ أَيْضًا فِي نَوَاصِي خَيْلِهِمْ. وَقَالَ مَكْحُولٌ: ﴿مُسُومِينَ﴾ بِالْعَمَائِمِ. وَرَوَى ابْنُ مَرْدُويهٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْقُدُوسِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُسُومِينَ﴾ قَالَ: «مُعَلِّمِينَ» وَكَانَ سَيْمًا الْمَلَائِكَةَ يَوْمَ بَدْرٍ عَمَائِمَ سُودٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ عَمَائِمَ حُمْرٍ. وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ حُصَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمْ تُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ

(١) ابن أبي حاتم: ٥٢٠/٢ (٢) الطبري: ١٧٨/٧ (٣) ابن أبي حاتم: ٥٢٣/٢، ٥٢٤ (٤) الطبري: ١٨٢/٧ العوفي تقدم حاله (٥) ابن أبي حاتم: ٥٢٥/٢ أبو إسحاق السبيعي مدلس مختلط كما مر (٦) ابن أبي شيبة: ٣٥٤/١٤ (٧) ابن أبي حاتم: ٥٢٧/٢ (٨) الطبري: ١٩٥/٧

﴿١٣٠﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فِجْسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِدُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى
مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ
مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٤﴾ فَذَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ
﴿١٣٥﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٦﴾
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
﴿١٣٧﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٨﴾

وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿١٣٩﴾ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٠﴾
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٤١﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٤٣﴾ وَسَارِعُوا إِلَى
مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٤﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فِجْسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَنْ يَغْفِرِ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّةٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٤٧﴾
[حُرْمَةُ الرَّبَا عَلَى الْإِطْلَاقِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ تَعَاطِي الرَّبَا،

الْكُفْرَ وَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ
ظَالِمُونَ﴾ أَي يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ
مِنَ الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فَلَانًا وَفَلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ
اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ
لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (١) ... الْآيَةَ وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فَلَانًا، اللَّهُمَّ الْعَنِ
الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ الْعَنِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، اللَّهُمَّ
الْعَنِ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ» فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فَتَيَبَ
عَلَيْهِمْ كُلُّهُمُ (٣).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ، أَوْ يَدْعُوَ
لِأَحَدٍ، قَتَّتْ بَعْدَ الرُّكُوعِ وَرَبَّمَا قَالَ: إِذَا قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ
لِمَنْ حَمَدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ: اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ،
وَسَلْمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رِبْعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ
الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ
سِنِينَ كَسِينِي يَوْسُفَ» يَجْهَرُ بِذَلِكَ. وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ
صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فَلَانًا وَفَلَانًا» لِأَحْيَاءٍ
مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ
شَيْءٌ﴾ ... الْآيَةَ (٤).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ حُمَيْدٌ وَتَابِتٌ، عَنْ أَنَسِ بْنِ
مَالِكٍ: سُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أَحُدٍ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ
شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» فَتَزَلَّتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ، كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أَحُدٍ، وَشَجَّ فِي جَنْبَيْهِ
حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ
فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ؟»
فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ
فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٦) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي
الْجَمِيعِ مِلْكٌ لَهُ، وَأَهْلُهَا عَبِيدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ،

(١) فتح الباري: ٧٣/٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٦/٣١٤

(٣) أحمد: ٩٣/٢ (٤) البخاري: ٤٥٦٠ (٥) فتح الباري: ٧/٧

٣٦٥ (٦) أحمد: ٩٩/٣ (٧) مسلم: ١٧٩١

﴿ كَرِضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَالنَّارِ فِي أَشْفَلِ سَافِلِينَ، فَلَا تُتَافَى بَيْنَ كَوْنِهَا كَعَرْضِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبَيْنَ وُجُودِ النَّارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ﴾ أَي فِي الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ وَالْمُنْسَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، كَمَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤] وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يَشْعَلُهُمْ أَمْرٌ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنْفَاقِ فِي مَرَاضِيهِ. وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْكٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أَي إِذَا نَارَ بِهِمْ الْغَيْظَ كَظْمُوهُ، بِمَعْنَى كَتَمُوهُ، فَلَمْ يَعْمَلُوهُ، وَعَفَوْا مَعَ ذَلِكَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٣). وَقَدْ رَوَاهُ

الشَّيْخَانُ^(٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ، وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزَنٌ بِرَبْوَةٍ - ثَلَاثًا - أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ. وَالسَّعِيدُ مَنْ وَقِيَ الْفِتْنَ، وَمَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٌ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ جَوْفَهُ إِيمَانًا»^(٥). انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ لَيْسَ فِيهِ مَجْرُوحٌ، وَمَتْنُهُ حَسَنٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ» وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٦). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَرَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جُرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٌ كَظَمَهَا ابْتِعَاءً وَجْهِ اللَّهِ»^(٧).

(١) فتح الباري: ١٤/٦ (٢) كشف الأستار: ٤٣/٣ صحيح ابن حبان ٣٠٦/١ والمستدرک ٣٦/١ (٣) أحمد: ٢٣٦/٢ (٤) فتح الباري: ٥٣٥/١٠ ومسلم: ٢٠١٤/٤ (٥) أحمد: ١/٣٢٧ (٦) أحمد: ٤٣٨/٣، ٤٤٠، وأبو داود: ١٣٧/٥ وتحفة الأحوذی: ١٣٩/٦ وابن ماجه: ١٤٠٠/٢ (٧) أحمد: ١٢٨/٢

وَأَكْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِذَا حَلَّ أَجَلَ الدِّينِ: إِمَّا أَنْ يَقْضِيَهَا وَإِمَّا أَنْ يُرْبِيَهَا، فَإِنْ قَضَاهُ، وَإِلَّا زَادَهُ فِي الْمُدَّةِ، وَزَادَهُ الْآخِرُ فِي الْقَدْرِ، وَهَكَذَا كُلُّ عَامٍ، فَرُبَّمَا تَضَاعَفَ الْقَلِيلُ حَتَّى يَصِيرَ كَثِيرًا مُضَاعَفًا. وَأَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالتَّقْوَى لَعَلَّهُمْ يُفْلِحُونَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَى، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِالنَّارِ وَحَدَّرَهُمْ مِنْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

[النَّدْبُ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَحُصُولِ الْجَنَّةِ]

ثُمَّ نَدَّبَهُمْ إِلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى نَيْلِ الْقُرْبَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَيَّ مَعْفِرِينَ مِنْ رِزْقِكُمْ وَحَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَي كَمَا أُعِدَّتِ النَّارُ لِلْكَافِرِينَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ - تَنْبِيْهَا عَلَى اتِّسَاعِ طَوْلِهَا - كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ فُرُشِ الْجَنَّةِ: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أَي: فَمَا ظَنُّكَ بِالطَّهَاتِرِ؟ وَقِيلَ: بَلْ عَرْضُهَا كَطَوْلِهَا، لِأَنَّهَا قُبَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَالشَّيْءُ الْمُقْبَبُ وَالْمُسْتَدِيرُ عَرْضُهُ كَطَوْلُهُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَسَقَفَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^(١). وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ [الحديد: ٢١].

رَوَى الْبَزَّازُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فَأَيْنَ النَّارُ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ النَّهَارُ؟» قَالَ: حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: «وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢). وَهَذَا يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ (أَحَدُهُمَا): أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ مُشَاهَدَتِنَا اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي مَكَانٍ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. (الثَّانِي) أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّ النَّهَارَ إِذَا تَغَشَّى وَجْهَ الْعَالَمِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ يَكُونُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرَ، فَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ فِي أَعْلَى عِلْمِينَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَعَرْضُهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ^(١).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْكٰظِمِيْنَ الْعَيْظِ﴾ أَي لَا يُعْمَلُونَ غَضَبُهُمْ فِي النَّاسِ، بَلْ يَكْتُمُونَ عَنْهُمْ شَرَّهُمْ، وَيَحْتَسِبُونَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ﴾ أَي مَعَ كَفِّ الشَّرِّ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَلَا يَبْقَى فِي أَنْفُسِهِمْ مُوجِدَةٌ عَلَى أَحَدٍ، وَهَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ هَذَا مِنْ مَقَامَاتِ الْإِحْسَانِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «ثَلَاثٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا يَعْقِرُ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أَي إِذَا صَدَرَ مِنْهُمْ ذَنْبٌ أَسْعَوْهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَلَعِمَ أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»^(٣). أَخْرَجَهُ فِي الصَّحِيحِ بِنَحْوِهِ^(٤).

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّ إِبْلِيسَ حِينَ نَزَلَتْ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾... الآية، بَكَى^(٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أَي لَا يَعْفِرُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلًا مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَي تَابُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ عَنِ قَرِيبٍ، وَلَمْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَيُصِرُّوا عَلَيْهَا. غَيْرَ مُقْلِعِينَ عَنْهَا، وَلَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ الذَّنْبُ تَابُوا عَنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبِيدِ بْنِ عَمِيرٍ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ مَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾

أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاعْفِرُوا يُعْفَرُ لَكُمْ، وَيَلْ لِأَقْطَاعِ الْقَوْلِ، وَيَلْ لِلْمُصْرِينِ الَّذِينَ يُصِرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^(٦) تَقَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَصْفِهِمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أَي جَزَاءُكُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ «مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أَي مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوبَاتِ ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أَي مَأْكِينِينَ فِيهَا «وَيَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ» يَمْدُحُ تَعَالَى الْجَنَّةَ.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَلَا تَهْمُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ فَوْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَوْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَمَحَقَ الْكٰفِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰدِقِينَ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

[بَيَانُ حِكْمَةِ مَا أُصِيبُوا بِهِ يَوْمَ أُحُدٍ] يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَتْلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أَي قَدْ جَرَى نَحْوُ هَذَا عَلَى الْأُمَّمِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ، وَالِدَائِرَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ فِيهِ بَيَانٌ لِلْأُمُورِ عَلَى جَلِيلَتِهَا، وَكَيْفَ كَانَ الْأُمَّمُ الْأَقْدَمُونَ مَعَ أَعْدَائِهِمْ «وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ» يَعْنِي الْقُرْآنَ، فِيهِ خَبِيرٌ مَا قَبْلَكُمْ. وَ «هُدًى» لِقُلُوبِكُمْ، وَ «مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» أَي زَاجِرٌ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ.

(١) ابن ماجه: ١٤٠١/٢ (٢) أحمد: ٢٣١/٤ (٣) أحمد: ٢٩٦/٢ (٤) فتح الباري: ٤٧٤/١٣ (٥) عبد الرزاق: ١/١٣٣ (٦) أحمد: ١٦٥/٢

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِيْنَ ﴿١٤١﴾ اَمْرٌ حَسِبْتُمْ اَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جٰهَدُوْا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ اَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَاَيْتُمُوْهُ وَاَنْتُمْ تُنظَرُوْنَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ اِلَّا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهٖ الرُّسُلُ اَفَاِيْنَ مَاتَ اَوْ قُتِلَ اَنْفَلَبْتُمْ عَلٰى اَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلٰى عَقْبِهٖ فَلَنْ يَصُرَ اِلَهِ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّٰهُ الشّٰكِرِيْنَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ اَنْ تَمُوْتَ اِلَّا بِاِذْنِ اللّٰهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُّرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهٖ مِنْهَا وَمَنْ يُّرِدْ ثَوَابَ الْاٰخِرَةِ نُؤْتِهٖ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشّٰكِرِيْنَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَّبِيِّ قَتَلْتُمْ مَعَهُ رِيْبِيْنَ كَثِيْرًا فَمَا وَهَنُوْا لَمَّا اَصَابَهُمْ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ وَمَا ضَعُفُوْا وَمَا اسْتَكْبَرُوْا وَاللّٰهُ يُحِبُّ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ اِلَّا اَنْ قَالُوْا رَبَّنَا اَعْرِفْنَا دُنُوْبَنَا وَاِسْرَافَنَا فِيْ اَمْرِنَا وَتَبَّتْ اَقْدَامُنَا وَاَنْصُرْنَا عَلٰى الْقَوْمِ الْكٰفِرِيْنَ ﴿١٤٧﴾ فَانْتَهَمَ اللّٰهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْاٰخِرَةِ وَاللّٰهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ ﴿١٤٨﴾

رَأَيْتُمُوهُ ﴿١٤١﴾ يَعْنِي الْمَوْتَ شَاهَدْتُمُوهُ وَقَتَ لَمَعَانِ الشُّبُوفِ، وَحَدَّ الْأَسْبَةِ، وَاشْتِيَاكَ الرِّمَاحِ، وَصُفُوفِ الرِّجَالِ لِلْقِتَالِ، وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُعْبَرُونَ عَنْ هَذَا بِالتَّخْيِيلِ. وَهُوَ مُشَاهَدَةُ مَا لَيْسَ بِمَحْسُوسٍ كَالْمَحْسُوسِ كَمَا تَتَخَيَّلُ الشَّأْ صَدَاقَةُ الْكِبْشِ، وَعَدَاوَةُ الدُّبِّ.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَاِيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ اَنْفَلَبْتُمْ عَلٰى اَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلٰى عَقْبِهٖ فَلَنْ يَصُرَ اِلَهِ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّٰهُ الشّٰكِرِيْنَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ اَنْ تَمُوْتَ اِلَّا بِاِذْنِ اللّٰهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُّرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهٖ مِنْهَا وَمَنْ يُّرِدْ ثَوَابَ الْاٰخِرَةِ نُؤْتِهٖ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشّٰكِرِيْنَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَّبِيِّ قَتَلْتُمْ مَعَهُ رِيْبِيْنَ كَثِيْرًا فَمَا وَهَنُوْا لَمَّا اَصَابَهُمْ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ وَمَا ضَعُفُوْا وَمَا اسْتَكْبَرُوْا وَاللّٰهُ يُحِبُّ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ اِلَّا اَنْ قَالُوْا رَبَّنَا اَعْرِفْنَا دُنُوْبَنَا وَاِسْرَافَنَا فِيْ اَمْرِنَا وَتَبَّتْ اَقْدَامُنَا وَاَنْصُرْنَا عَلٰى الْقَوْمِ الْكٰفِرِيْنَ ﴿١٤٧﴾ فَانْتَهَمَ اللّٰهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِيْنَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أَي لَا تَضَعُفُوا بِسَبَبِ مَا جَرَى ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَانْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ أَي الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أَي إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ، وَقِيلَ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ، فَقَدْ أَصَابَ أَغْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِ وَجِرَاحٍ ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أَي تُدْبِلُ عَلَيْكُمْ الْأَغْدَاءَ نَارَةً، وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ الْعَاقِبَةُ، لِمَا لَنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مِثْلِ هَذَا: لِيَرَى مَنْ يَصُيِّرُ عَلٰى مُنَاجَزَةِ الْأَغْدَاءِ ﴿وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يَعْنِي يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ، وَيَتَذَلُّونَ مُهَجِّهْمُ فِي مَرْضَاتِهِ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِيْنَ ﴿١٤٥﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي يُكْفِّرُ عَنْهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ ذُنُوبٌ. وَإِلَّا رَفِعَ لَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا أُصِيبُوا بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَمْحَقُ الْكٰفِرِيْنَ﴾ أَي فَإِنَّهُمْ إِذَا ظَفِرُوا بَعَوًا وَبَطَرُوا، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ دِمَارِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَمَحْقِهِمْ وَقَتْلِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿اَمْرٌ حَسِبْتُمْ اَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جٰهَدُوْا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ أَي أَحْسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ تُبْتَلُوا بِالْقِتَالِ وَالشَّدَائِدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مِثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِينَ الْاَسَاءَةَ وَالضَّرَّةَ وَرَزَقُوا﴾... [الآية: البقرة: ٢١٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَحْسِبَ النَّاسَ اَنْ يَرْكَبُوا اَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾... [الآية: العنكبوت: ١، ٢]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿اَمْرٌ حَسِبْتُمْ اَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جٰهَدُوْا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ أَي لَا يَحْصُلُ لَكُمْ دُخُولُ الْجَنَّةِ حَتَّى تُبْتَلُوا، وَيَرَى اللَّهُ مِنْكُمْ الْمُجَاهِدِيْنَ فِي سَبِيلِهِ، وَالصَّابِرِيْنَ عَلٰى مُقَارَبَةِ الْأَغْدَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ اَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَاَيْتُمُوْهُ وَاَنْتُمْ تُنظَرُوْنَ﴾ أَي قَدْ كُنتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ، تَمَنَّوْنَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَتَتَحَرَّقُونَ عَلَيْهِمْ، وَتُودُونَ مُنَاجَزَتَهُمْ وَمُصَابَرَتَهُمْ، فَهِيَ قَدْ حَصَلَ لَكُمْ الَّذِي تَمَنَيْتُمُوهُ وَطَلَبْتُمُوهُ، فَدُونَكُمْ فَقَاتِلُوا وَصَابِرُوا، وَقَدْ تَبَّتْ فِي الصَّحِيحِيْنَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهُ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّبُوفِ»^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ

وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

[ذِكْرُ إِشَاعَةِ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ، وَبَيَانِ الْمَوْقِفِ الصَّحِيحِ فِي حَالَةِ مَوْتِهِ]

لَمَّا انْهَزَمَ مَنْ انْهَزَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أَحَدٍ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، نَادَى الشَّيْطَانُ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وَرَجَعَ ابْنُ قَمَيْةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: قَتَلْتُ مُحَمَّدًا، فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ، وَجَوَّزُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، كَمَا قَدْ قَصَّ اللَّهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَحَصَلَ ضَعْفٌ وَوَهْنٌ وَتَأَخَّرَ عَنِ الْقِتَالِ، فَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَي لَمْ أَسُوَّةَ بِهِمْ فِي الرِّسَالَةِ وَفِي جَوَازِ الْقَتْلِ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ أَبِيهِ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا فُلَانُ، أَشَعَرْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قُتِلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ فَقَدْ بَلَغَ، فَقَاتِلُوا عَنْ دِينِكُمْ، فَتَزَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ النَّبْهِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَكْرِمًا عَلَى مَنْ حَصَلَ لَهُ ضَعْفٌ ﴿أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أَي رَجَعْتُمْ الْقَهْقَرَى ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أَي الَّذِينَ قَامُوا بِطَاعَتِهِ، وَقَاتَلُوا عَنْ دِينِهِ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا. وَكَذَلِكَ ثَبَّتَ فِي الصَّحَاحِ وَالْمَسَائِدِ وَالسُّنَنِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ الْإِسْلَامِ مِنْ طَرَفِ مُتَعَدِّدَةٍ نَفِيذِ الْقَطْعِ، وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ فِي مُسْنَدِي الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الصُّلَيْبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكِنِهِ بِالسُّنْحِ، حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَبَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُعْشَى بِثَوْبٍ حَبْرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ وَقَبَّلَهُ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كَتَبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مَتَّهَا.

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ يُحَدِّثُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا

بَعْدُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قَالَ: فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا النَّاسُ مِنْهُ كُلُّهُمْ، فَمَا سَمِعَهَا بَشَرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا تَلَاهَا. وَعَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ: أَنَّ عُمَرَ قَالَ: وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقَلِّبُنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ أَي لَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَحَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْمُدَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنَ مُعَمَّرٍ وَلَا يَقْضِي مِنَ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدِي﴾ [الأنعام: ٢] وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَشْجِيعٌ لِلْجَبَنَاءِ، وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ الْإِفْدَامَ وَالْإِحْجَامَ لَا يَقْضِي مِنَ الْعُمُرِ وَلَا يَرِيدُ فِيهِ، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حَبِيبِ بْنِ صُهَيْبَانَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَهُوَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ -: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَعْبُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْعُدُوِّ هَذِهِ النُّطْفَةَ - يَعْنِي دَجَلَةَ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ ثُمَّ أَفْحَمَ فَرَسَهُ دَجَلَةَ، فَلَمَّا أَفْحَمَ، أَفْحَمَ النَّاسُ، فَلَمَّا رَأَاهُمُ الْعُدُوُّ، قَالُوا: دِيْوَانٌ! فَهَرَبُوا (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أَي مَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا فَقَطْ نَالَ مِنْهَا مَا قَدَرَهُ اللَّهُ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ، وَمَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْهَا مَعَ مَا قَسَمَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (٤) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا

(١) دلائل النبوة: ٢٤٨/٣ (٢) فتح الباري: ٧٥١/٧ (٣) ابن أبي حاتم: ٥٨٤/٢، وديوان جمع ديوان، وهو بالفارسية والهندية: العفريت الكبير.

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّكُمْ عَلٰٓى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللّٰهُ مَوْلٰٓئِكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِيْنَ ﴿١٥٠﴾ سَنَلِيْقَ
فِي قُلُوْبِ الَّذِينَ كَفَرُوْا الرُّعْبَ بِمَا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ
مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَمَا وُتِّهُمُ النَّارُ وَيَسَّ
مَتٰوٰى الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ
وَعَدَهٗ اِذْ تَحْسُوْنَهُمْ بِاِذْنِهٖ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ
وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰنَكُمْ
مَا تُحِبُّوْنَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ
مَّنْ يُرِيْدُ الْاٰخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ
﴿١٥٢﴾ اِذْ تُصْعِدُوْنَ وَلَا تَكُوْنُوْنَ عَلٰى اَحَدٍ
وَالرُّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِيْ اٰخِرَتِكُمْ فَاتَّبِعْكُمُ
عَمَّا يَعْزِمُ لِكَيْلًا تَحَرُّوْا عَلٰى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا اَصْبَحَكُمْ وَاللّٰهُ خَيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٥٣﴾

مَوْلٰٓئِكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِيْنَ ﴿١٥٠﴾ سَنَلِيْقَ فِي قُلُوْبِ الَّذِينَ
كَفَرُوْا الرُّعْبَ بِمَا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا
وَمَا وُتِّهُمُ النَّارُ وَيَسَّ مَتٰوٰى الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ
اللّٰهُ وَعَدَهٗ اِذْ تَحْسُوْنَهُمْ بِاِذْنِهٖ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ
وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰنَكُمْ مَا تُحِبُّوْنَ
مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الْاٰخِرَةَ ثُمَّ
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللّٰهُ ذُو
فَضْلٍ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١٥٢﴾ اِذْ تُصْعِدُوْنَ وَلَا تَكُوْنُوْنَ عَلٰى
اَحَدٍ وَالرُّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِيْ اٰخِرَتِكُمْ فَاتَّبِعْكُمُ عَمَّا يَعْزِمُ
لِكَيْلًا تَحَرُّوْا عَلٰى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا اَصْبَحَكُمْ وَاللّٰهُ
خَيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٥٣﴾

[النَّهْيُ عَنْ طَاعَةِ الْكُفَّارِ، وَبَيَانُ اَسْبَابِ مَا حَصَلَ فِي

[الإسراء: ١٨، ١٩] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: «وَسَجَّرِي
التَّكْبِيرِ» أَي سَتُعْطِيهِمْ مِنْ فَضْلِنَا وَرَحْمَتِنَا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسْتَلْبًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَمَّا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ
يَوْمَ أُحُدٍ: «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ» قِيلَ:
مَعْنَاهُ: كَمْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ، وَقُتِلَ مَعَهُ رِيبُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ كَثِيرٌ.
وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: وَكَمْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَصْحَابِهِ رِيبُونَ كَثِيرٌ، وَكَلَامُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي
السِّيَرَةِ يَقْتَضِي قَوْلًا آخَرَ، قَالَ: أَي وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ أَصَابَهُ
الْقَتْلُ وَمَعَهُ رِيبُونَ، أَي جَمَاعَاتٍ، فَمَا وَهَتُوا بَعْدَ نَبِيِّهِمْ،
وَمَا ضَعُفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ، وَمَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي
الْجِهَادِ عَنِ اللّٰهِ وَعَنْ دِينِهِمْ، وَذَلِكَ الصَّبْرُ «وَاللّٰهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ» فَجَعَلَ قَوْلَهُ: «مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ» حَالًا، وَقَدْ نَصَرَ
هَذَا الْقَوْلَ الشَّهْلِيُّ، وَبَالَغَ فِيهِ، وَلَهُ اتِّجَاهٌ لِقَوْلِهِ: «فَمَا
وَهَتُوا لِمَا أَصَابَهُمْ»... الْآيَةُ، وَكَذَلِكَ حِكَاةُ الْأُمَوِيِّ فِي
مَعَارِيزِهِ عَنِ كِتَابِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَقُلْ غَيْرَهُ، وَرَوَى
شُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ «رِيبُونَ كَثِيرٌ» أَي الْوَفَّ (١).
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ
وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: الرِّيبُونَ:
الْجُمُوعُ الْكَثِيرَةُ (٢).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الْحَسَنِ «رِيبُونَ كَثِيرٌ»
أَي عُلَمَاءُ كَثِيرٌ، وَعَنْهُ أَيْضًا: عُلَمَاءُ صَبْرٍ أَبْرَارٌ وَأَتْقِيَاءُ.
«فَمَا وَهَتُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا
اسْتَكَانُوا» قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: «وَمَا ضَعُفُوا» يَقْتُلُ
نَبِيِّهِمْ (٣) «وَمَا اسْتَكَانُوا» يَقُولُ: فَمَا ارْتَدُّوا عَنْ بَصِيرَتِهِمْ
وَلَا عَنْ دِينِهِمْ أَنْ قَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّ اللّٰهِ حَتَّى
لَحِقُوا بِاللّٰهِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وَمَا اسْتَكَانُوا»
تَحَشَّعُوا، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: وَمَا ذَلُّوا لِعَدُوِّهِمْ،
«وَاللّٰهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» (٤) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيْ أَمْرِنَا وَنَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» أَي لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَجْرِي إِلَّا ذَلِكَ
«فَقَاتَلَهُمُ اللّٰهُ فَوَابَّ الدُّنْيَا» أَي النَّصْرَ وَالظَّفَرَ وَالْعَاقِبَةَ
«وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ» أَي جَمَعَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ هَذَا «وَاللّٰهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

(١) الطبري: ٧/٢٦٦ (٢) ابن أبي حاتم: ٥٨٨، ٥٨٧/٢ (٣)
ابن أبي حاتم: ٥٩١/٢

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّكُمْ عَلٰٓى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللّٰهُ

أُحِدِ مِنَ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ تَوْرَثُ الرَّدَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُزِدُواكُمْ
عَلَىٰ آغْفِيكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ
وَمُؤَالَاتِهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ
اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَلْقَى فِي
قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الْخَوْفَ مِنْهُمْ، وَالذَّلَّةَ لَهُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ
وَشِرْكِهِمْ، مَعَ مَا آذَرَهُ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ
وَالنَّكَالِ، فَقَالَ: ﴿سَتَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ
بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَهُمْ لِنَاكَرٍ
وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ وَقَدْ نَبَتْ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ
جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيَتْ حَمْسًا لَمْ
يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ
شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُحِلَّتْ لِي
الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَدُ إِلَى قَوْمِهِ
خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أَيَّ أَوْلَى
التَّهَارِ ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾ أَيَّ تَقْتُلُونَهُمْ ﴿بِأَذِيَّتِهِ﴾ أَيَّ يَسْلِيطُهُ
إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿حَتَّىٰ إِذَا قُتِلْتُمْ﴾ وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ
ابْنُ عَبَّاسٍ: الْقَسْلُ: الْجُبْنُ^(٢) ﴿وَوَسَدَعْتُمْ فِي الْآمْرِ
وَعَصَيْتُمْ﴾ كَمَا وَفَّقَ لِلرَّمَاةِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا
تُحِبُّونَ﴾ وَهُوَ الظَّفَرُ مِنْهُمْ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾
وَهُمُ الَّذِينَ رَغِبُوا فِي الْمَغْنَمِ حِينَ رَأَوْا الْهَزِيمَةَ
﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ
لِيَنْتَلِيَكُمْ ﴿ثُمَّ آدَاهُمْ عَلَيْكُمْ لِيُخَيَّرَكُمْ وَبِمَنَاجِحِكُمْ﴾ وَلَقَدْ
عَفَا عَنْكُمْ ﴿أَيَّ عَفَّرَ لَكُمْ ذَلِكَ الصَّبِيحَ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ
أَعْلَمُ - لِكثْرَةِ عَدَدِ الْعَدُوِّ وَعُدْدِهِمْ، وَقَوْلُهُ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ
وَعُدْدِهِمْ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَقِينَا الْمَشْرِكِينَ
يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرَّمَاةِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَالَ: «لَا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا
عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا
تُعِينُونَا» فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ هَرَبُوا، حَتَّى رَأَيْنَا السَّاءَ يَسْتَدِينُ
فِي الْجَبَلِ، رَفَعَنَ عَنْ سَوْقِيهِمْ، قَدْ بَدَتْ خِلَاجُهُنَّ،
فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ:

عَهْدٌ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَا تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا
صُرِفَ وَجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَبِيلًا، فَأَشْرَفَ أَبُو
سُفْيَانَ فَقَالَ: أَيُّ الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «لَا تُجِيبُوهُ».
فَقَالَ: أَيُّ الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي فُحَاقَةَ؟ فَقَالَ: «لَا تُجِيبُوهُ».
فَقَالَ: أَيُّ الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: «إِنَّ هُوَ لَأَيُّ قَدْ
قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءَ لَأَجَابُوا. فَلَمْ يَمْلِكْ عَمْرٌ نَفْسَهُ
فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، قَدْ أَبَقَى اللَّهُ لَكَ مَا يُحْزِنُكَ،
فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: ااعْلُ هُبْلُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ»
قَالُوا: مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلٌ». فَقَالَ
أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَىٰ وَلَا عُزَىٰ لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا
مَوْلَىٰ لَكُمْ». قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ يَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ
سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مِثْلَهُ لَمْ أَمْرٌ بِهَا وَلَمْ تَسْؤِي^(٣). تَفَرَّدَ
بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ الزُّبَيْرَ
ابْنَ الْعَوَّامِ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَنْظُرُ إِلَى خَدَمِ هِنْدٍ
وَصَوَاجِبَاتِهَا مُشْمَرَاتٍ هَوَارِبٍ مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ كَثِيرٍ وَلَا
قَلِيلٍ. وَمَالَتِ الرَّمَاةُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفْنَا الْقَوْمَ عَنْهُ،
يُرِيدُونَ النَّهْبَ، وَخَلَّوْا ظَهْرَنَا لِلْحَيْلِ، فَأَتَيْنَا مِنْ أَدْبَارِنَا،
وَصَرَخَ صَارِخٌ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاثْكَمْنَا، وَانْكَفَأْنَا
عَلَيْنَا الْقَوْمَ بَعْدَ أَنْ أَصَبْنَا أَصْحَابَ اللِّوَاءِ، حَتَّى مَا يَدْتُو
مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمْ يَزَلْ لِيَّوَاءُ
الْمُشْرِكِينَ صَرِيحًا حَتَّى أَخَذْتَهُ عَمْرَةَ بِنْتُ عُلْقَمَةَ الْحَارِثِيَّةَ،
فَدَفَعْتَهُ لِقُرَيْشٍ فَلَا تُؤَا بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَنْتَلِيَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ
إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَافِعٍ أَحَدُ
بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ، قَالَ: انْتَهَى أَنَسُ بْنُ النَّصْرِ عَمَّ
أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ
فِي رَجَالٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَدْ أَلْقَوْا مَا بِيَدَيْهِمْ،
فَقَالَ: مَا يُخْلِيكُمْ؟ فَقَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ:
فَمَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ قَوْمُوا فَمُوتُوا عَلَىٰ مَا مَاتَ
عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَمَّهُ يَعْنِي أَنَسَ

(١) فتح الباري: ١/١٩١، ١/٣٧٠ (٢) الطبري: ٧/

٢٩١ (٣) فتح الباري: ٧/٤٠٥ (٤) ابن هشام: ٣/٨٨

الصَّحِيحِينَ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَيْضًا قَالَ: رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَقِي يَوْمَ أُحُدٍ فَهَزِمَ النَّاسُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَدُكَ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فَلَقِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: أَيْنَ يَا سَعْدُ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى فُقَيْلٌ، فَمَا عَرِفَ حَتَّى عَرَفْتَهُ أُخْتَهُ بِنَاتِهِ أَوْ بِشَامَةِ، وَبِهِ يَضَعُ وَثْمَانُونَ مِنْ طَعْنِهِ وَضَرْبِهِ وَرَمِيَهُ بِسَهْمٍ. هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ^(١). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ حُوَيْهٍ^(٢).

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ أَبِي ابْنُ خَلْفٍ أَخُو بَنِي جُمَحٍ، قَدْ حَلَفَ وَهُوَ بِمَكَّةَ لَيَقْتُلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَتْ رَسُولَ اللَّهِ حَلْفَتَهُ، قَالَ: «بَلِّ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، أَقْبَلَ أَبِي فِي الْحَدِيدِ مُتَّعًا وَهُوَ يَقُولُ: لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا مُحَمَّدٌ، فَحَمَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ قَتْلَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ مُضْعَبُ ابْنِ عَمِيرٍ، أَخُو بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، يَقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ، فَقَتَلَ مُضْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، وَأَبْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرْقُوتَهُ أَبِي بْنِ خَلْفٍ، مِنْ فَرْجَةٍ بَيْنَ سَابِعَةِ الدَّرْعِ وَالْبَيْضَةِ، وَطَعَنَهُ فِيهَا بِحَرْبَتِهِ، فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ عَنْ فَرْسِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ طَعْنَتَيْهِ دَمٌ، فَأَنَاهُ أَصْحَابُهُ فَاحْتَمَلُوهُ، وَهُوَ يَخُورُ خُورَ الثَّوْرِ، فَقَالُوا لَهُ: مَا أَجْرَعَكَ إِنَّمَا هُوَ خَدَشٌ؟ فَذَكَرَ لَهُمْ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «بَلِّ أَنَا أَقْتُلُ أَبِيًّا». ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي بِي، بِأَهْلِ ذِي الْمَجَازِ لَمَاتُوا أَجْمَعُونَ، فَمَاتَ إِلَى النَّارِ، فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ. وَقَدْ رَوَاهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي مَغَازِيهِ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَبِّبِ بِحُورِهِ.

وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: جُرْحٌ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، وَهَشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكَانَ عَلِيٌّ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالْمَجْنِ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةَ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةً حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ، حَتَّى إِذَا صَارَ رَمَادًا أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَأَنْتُمْ عَمَّا يَعْبُورُونَ» أَي فَجَازَاتِكُمْ عَمَّا عَلَى عَمِّ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: نَزَلْتُ بَيْنِي فَلَانَ،

ابْنُ النَّضْرِ، غَابَ عَنْ بَدْرِ فَقَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوْلَى قِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْنَ أَشْهَدَنِي اللَّهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَّرَيْنَ اللَّهُ مَا أُجِدُّ، فَلَقِي يَوْمَ أُحُدٍ فَهَزِمَ النَّاسُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَدُكَ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فَلَقِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: أَيْنَ يَا سَعْدُ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى فُقَيْلٌ، فَمَا عَرِفَ حَتَّى عَرَفْتَهُ أُخْتَهُ بِنَاتِهِ أَوْ بِشَامَةِ، وَبِهِ يَضَعُ وَثْمَانُونَ مِنْ طَعْنِهِ وَضَرْبِهِ وَرَمِيَهُ بِسَهْمٍ. هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ^(١). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ حُوَيْهٍ^(٢).

[ذَكَرُ مَا أَصَابَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْهَزِيمَةِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ» أَي صَرَفْتُمْ عَنْهُمْ «إِذْ تُصْعِدُونَ» أَي فِي الْجَبَلِ هَارِبِينَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ «إِذْ تُصْعِدُونَ» أَي فِي الْجَبَلِ^(٣). «وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ» أَي وَأَنْتُمْ لَا تَلُوتُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الدَّهْشِ وَالْخَوْفِ وَالرُّعْبِ «وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ» أَي وَهُوَ قَدْ خَلَفْتُمُوهُ وَرَاءَ طُهُورِكُمْ، يَدْعُوكُمْ إِلَى تَرْكِ الْفِرَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَإِلَى الرَّجْعَةِ وَالْعَوْدَةِ وَالنُّكْرَةِ. قَالَ السُّدِّيُّ: لَمَّا شَدَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِأُحُدٍ فَهَزَمُوهُمْ، دَخَلَ بَعْضُهُم الْمُدَيْبَةَ، وَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ فَوْقَ الْجَبَلِ إِلَى الصَّخْرَةِ فَقَامُوا عَلَيْهَا. وَجَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ «إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادَةَ اللَّهِ» فَذَكَرَ اللَّهُ صُغُودَهُمْ عَلَى الْجَبَلِ، ثُمَّ ذَكَرَ دُعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ»^(٤). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَابْنُ زَيْدٍ^(٥).

[دِفَاعُ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ]

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ سَلَاءً وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ، يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ^(٦). وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي عُمَانَ النَّهْدِيِّ، قَالَ: لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي قَاتَلَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، غَيْرُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعْدِ، عَنْ حَدِيثِهِمَا^(٧).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: نَتَلَّ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِنَانَتَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَالَ: «إِذَا مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ»، وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ^(٨). وَثَبَّتَ فِي

(١) فتح الباري: ٤١١/٧ (٢) مسلم: ١٥١٢/٣ (٣) ابن أبي

حاتم: ٦٠٩/٢ (٤) الطبري: ٣٠١/٧ (٥) الطبري: ٣٠٣/٧

(٦) فتح الباري: ٤١٦/٧ (٧) البخاري: ٤٠٦٠ ومسلم:

٢٤١٤ (٨) البخاري: ٤٠٥٥ (٩) البخاري: ٤٠٥٤ ومسلم:

٢٣٠٦ (١٠) البخاري: ٤٠٧٥، ٢٩١١ ومسلم: ١٧٩٠.

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ
٧٠

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغِيثُ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمُ وَاللَّهُ يُمِيتُ وَيُحْيِي وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّم لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

وَنَزَلَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَذَّابُوا آيَاتِ رَبِّهِمْ فَوَجَدْنَا آلِهَتَهُمُ الْكُفْرَ وَالْكَرْبَ فَوَضَعْنَاهُمْ عَلَى آغُوشِهِمْ أَعْيُنَ السَّمَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا مُّجْتَمِعًا يَلْمِزُكَ لِيَدْعُنَا وَيَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَنَكْفُرُ بِالَّذِينَ هُيَاةً بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَبْسُومَةٌ ﴿١٥٣﴾ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَّا قَوْلُهُ: ﴿وَأَصْلَيْتُكُمْ فِي جُدُوعِ التَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أَي عَلَى جُدُوعِ التَّخْلِ^(١). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْعَمُّ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ وَحِينَ قِيلَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ. وَالثَّانِي حِينَ عَلَاهُمْ الْمُشْرِكُونَ فَوْقَ الْجَبَلِ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَغْلِبُونَا» وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: الْعَمُّ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ. وَالثَّانِي حِينَ قِيلَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ، كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ مِنَ الْهَزِيمَةِ. وَرَوَاهُمَا ابْنُ مَرْدُودِيَّةٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: الْعَمُّ الْأَوَّلُ سَمَاعُهُمْ قَتْلَ مُحَمَّدٍ، وَالثَّانِي: مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ. وَعَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَكْسَهُ. وَعَنْ الشُّدِّيِّ: الْأَوَّلُ مَا فَاتَهُمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالغَنِيمَةِ، وَالثَّانِي إِشْرَافُ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكَيْلًا تَحَرَّزُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أَي عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالظَّفَرِ بَعْدُكُمْ ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقَتْلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالشُّدِّيُّ^(٢). ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغِيثُ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [إِنزَالِ الْأَمْنَةِ، وَهِيَ النَّعَاسُ أَثْنَاءَ الْغُرُورِ، عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَذَكَرَ هَلَعَ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُثَمَّنًا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمْنَةِ، وَهُوَ النَّعَاسُ الَّذِي غَشِيَهُمْ وَهُمْ مُسْتَلِيمُو السَّلَاحِ فِي حَالِ هَمِّهِمْ وَعَدَمِهِمْ، وَالنَّعَاسُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾. . . الْآيَةَ [الأنفال: ١١] وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاهُ النَّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَقَطَ سِنْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ

وَأَحُدَهُ، وَيَسْقُطُ وَأَحُدَهُ^(٣). رَوَاهُ فِي الْمَغَازِي مُعَلَّقًا. وَفِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مُشْنَدًا^(٤). وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ، وَجَعَلْتُ أَنْظُرُ، وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النَّعَاسِ. لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٥). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: كُنْتُ فِيمَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ النَّعَاسُ. الْحَدِيثُ^(٦).

قَالَ: وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ، أَجْبَنُ قَوْمٌ وَأَرْعَنُهُ وَأَحْدَلُهُ لِلْحَقِّ ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أَي إِنَّمَا هُمْ كَذَّبَةٌ، أَهْلُ شَكِّ وَرَيْبٍ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغِيثُ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ يَعْنِي أَهْلَ الْإِيمَانِ

(١) الطبري: ٣٠٤/٧ (٢) ابن أبي حاتم: ٦١٣/٢ (٣) فتح الباري: ٢٢/٧ (٤) فتح الباري: ٧٦/٨ وتحفة الأحوذى: ٨/٣٥٨ (٥) تحفة الأحوذى: ٣٥٨/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٤٩ والحاكم: ٢٩٧/٢ (٦) النسائي في الكبرى: ٦/٣٤٩

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أَي عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أَي يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَحْلُمُ عَنْ حَلْفِهِ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: لَقِيَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفِ الْوَلِيدِ بْنَ عُقْبَةَ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: مَا لِي أَرَاكَ جَفَوْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَبْلَغُهُ أَنِّي لَمْ أَفِرْ يَوْمَ عَيْتَيْنِ - قَالَ عَاصِمٌ: يَقُولُ: يَوْمَ أُحُدٍ - وَلَمْ أَنْخَلِفْ عَنْ بَدْرٍ، وَلَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ، قَالَ: فَاذْطَلَقَ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ عُثْمَانَ. قَالَ: فَقَالَ: أَمَا قَوْلُهُ: إِنِّي لَمْ أَفِرْ يَوْمَ عَيْتَيْنِ، فَكَيْفَ يُعَيِّرُنِي بِذَنْبٍ قَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وَأَمَا قَوْلُهُ: إِنِّي تَخَلَّفْتُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنِّي كُنْتُ أَمْرَضُ رَفِيئَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَاتَتْ، وَقَدْ ضَرَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَهْمٍ، وَمَنْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَهْمٍ فَقَدْ شَهِدَ. وَأَمَا قَوْلُهُ: إِنِّي تَرَكْتُ سُنَّةَ عُمَرَ فَإِنِّي لَا أُطِيقُهَا وَلَا هُوَ. فَأْتِيَ فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ (١).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكَوْنُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَالُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾ وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَنْفَرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾ وَلَيْنَ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْتَسِرُونَ (١٥٨)﴾

[النهى عن مشابهة الكفار في تعليق الموت وأمور]

القدر يعير مسيئة الله تعالى

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار وفي الحروب: لو كانوا عندنا ما مالوا لَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكَوْنُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أَي عَنْ إِخْوَانِهِمْ ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي سَافَرُوا لِلتَّجَارَةِ وَنَحْوَهَا ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾ أَي كَانُوا فِي الْعُرْوِ ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أَي فِي الْبَلَدِ ﴿مَا مَالُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أَي مَا مَاتُوا فِي السَّفَرِ، وَمَا قُتِلُوا فِي الْعُرْوِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي

وَالْيَقِينَ وَالنَّيَابَ وَالتَّوَكُّلَ الصَّادِقَ، وَهُمْ الْجَارِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَبَّحُ رُسُولَهُ، وَيُنْجِزُ لَهُ مَا مَوْلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ فَدَأَمَتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي لَا يَعْشَاهُمْ النَّعَاسُ مِنَ الْفَلَقِ وَالْجَزَعِ وَالْخَوْفِ ﴿يَطَّلُونَ بِاللهِ عَيْرَ الْحَقِّ ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾... إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ [الفتح: ١٢]، وَهَكَذَا هُوَ لِإِعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا ظَهَرُوا تِلْكَ السَّاعَةَ أَنَّهَا الْفَيْضَةُ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَادَ وَأَهْلُهُ. وَهَذَا شَأْنُ أَهْلِ الرَّبِّ وَالشُّكِّ، إِذَا حَصَلَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ الْفَطِيحَةِ تَحْضُلُ لَهُمْ هَذِهِ الظُّنُونُ الشَّيْعَةُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ﴾ فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَلَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ مَا أَخْفَوْهُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾ أَي يُسِرُّونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ الرَّبِيبُ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ عَلَيْنَا، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ، فَمَا مِنَّا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا دَفَعَهُ فِي صَدْرِهِ، قَالَ: فَوَ اللَّهُ إِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِ بْنِ قُسَيْرٍ مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَالْحُلْمِ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا. فَحَفِظْتُهَا مِنْهُ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾ لِقَوْلِ مُعْتَبِ (١). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أَي هَذَا قَدْرٌ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَحُكْمٌ حَتْمٌ لَا زِمَ لِإِحَادِ عُنْهُ، وَلَا مَنَاصَ مِنْهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَتَلَطَّبْ إِلَهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيَمَحَّصْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَي يَخْتَبِرُكُمْ بِمَا جَرَى عَلَيْكُمْ، لِيَجِيِزَ الْحَيْثُ مِنَ الطَّيِّبِ، وَيُظَهِّرَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ لِلنَّاسِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَي بِمَا يَخْتَلِجُ فِي الصُّدُورِ مِنَ السَّرَائِرِ وَالصَّمَائِرِ.

[ذَكَرَ تَوَلَّى بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ وَبَيَّانُ الْعَوْفِ عَنْهُمْ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أَي بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَإِنَّ مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا،

قُلُوبِهِمْ ﴿١٥٩﴾ أَي خَلَقَ هَذَا الْإِعْتِقَادَ فِي نَفْسِهِمْ لِيَزِدَادُوا حَسْرَةً عَلَى مَوْتِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَاللَّهُ بِحَيْثُ وَبِئْتِ﴾ أَي يَدِهِ الْخَلْقَ، وَإِلَيْهِ يُرْجَع الْأَمْرُ، وَلَا يَحِيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدْرِهِ، وَلَا يَزَادُ فِي عُمُرٍ أَحَدٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَي وَعِلْمُهُ وَبَصْرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَعْرُفَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَوْتَ أَيْضًا، وَسَبِيلَهُ إِلَى نَبْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمْعِ حُطَايَاهَا الْفَانِي، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجَعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَجْزِيهِ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ فِطْرَةٌ لَقَدْ كُنْتُمْ أَفْجَارًا كَذِبًا﴾

﴿لَا تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿١٦٠﴾

﴿إِن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦١﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾

﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَا أُوتِيَ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَحِكْمًا وَعَلَّمْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٦٣﴾

﴿أَوَلَمْ أَصْابَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَابْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّا هَذَا قُلُوبُنا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٦٤﴾

بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَطْرًا غَلِيظًا لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ وَالْفَطْرُ: الْغَلِيظُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا غَلِيظُ الْكَلَامِ، لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿غَلِيظُ الْقَلْبِ﴾ أَي لَوْ كُنْتُ سَيِّءَ الْكَلَامِ، فَاسِيَ الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَأَنْفَضُوا عَنْكَ وَتَرَكُوكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ، وَالْآنَ جَانِبَكَ لَهُمْ تَأْلِيمًا لِقُلُوبِهِمْ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّهُ رَأَى صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ إِنَّهُ لَيْسَ بِفَطْرٍ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسِّيَةِ السَّبِيَةِ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ. (١)

[الْأَمْرُ بِالشُّورَى وَالْعَمَلُ بِهَا]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وَلِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي

قُلُوبِهِمْ ﴿١٥٩﴾ أَي خَلَقَ هَذَا الْإِعْتِقَادَ فِي نَفْسِهِمْ لِيَزِدَادُوا حَسْرَةً عَلَى مَوْتِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَاللَّهُ بِحَيْثُ وَبِئْتِ﴾ أَي يَدِهِ الْخَلْقَ، وَإِلَيْهِ يُرْجَع الْأَمْرُ، وَلَا يَحِيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدْرِهِ، وَلَا يَزَادُ فِي عُمُرٍ أَحَدٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَي وَعِلْمُهُ وَبَصْرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَعْرُفَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَوْتَ أَيْضًا، وَسَبِيلَهُ إِلَى نَبْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمْعِ حُطَايَاهَا الْفَانِي، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجَعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَجْزِيهِ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ فِطْرَةٌ لَقَدْ كُنْتُمْ أَفْجَارًا كَذِبًا﴾

﴿لَا تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿١٦٠﴾

﴿إِن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦١﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾

﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَا أُوتِيَ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَحِكْمًا وَعَلَّمْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٦٣﴾

[مِنْ صِفَاتِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ الرَّحْمَةُ وَاللِّينُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا رَسُولَهُ، مُمْتَنًا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا أَلَانَ بِهِ قَلْبُهُ عَلَى أُمَّتِهِ الْمُتَّبِعِينَ لِأَمْرِهِ، التَّارِكِينَ لِزَجْرِهِ، وَأَطَابَ لَهُمْ لَفْظُهُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ فِطْرَةٌ لَقَدْ كُنْتُمْ أَفْجَارًا كَذِبًا﴾ أَي شَيْءٌ جَعَلْتُكُمْ لَهُمْ لَيْتًا، لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكُمْ وَبِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ فِطْرَةٌ لَقَدْ كُنْتُمْ أَفْجَارًا كَذِبًا﴾ وَالْعَرَبُ تَصِلُهَا بِالْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ وَبِالنِّكَرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ وَهَكَذَا هَهُنَا قَالَ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ فِطْرَةٌ لَقَدْ كُنْتُمْ أَفْجَارًا كَذِبًا﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَذَا خَلَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ، بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَبِيهَةٌ

(١) فتح الباري: ٤٤٩/٨

الأمر إذا حدثت، تطيبنا لقلوبهم، ليكون أنشط لهم فيما يعملونه، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتل إنا هنا قاعدون. ولكن نقول: اذهب، فنحن معك، وبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم أيضًا أين يكون المنزل، حتى أشار المنذر بن عمرو - المعيق ليموت - بالتقدم إلى أمام القوم. وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصلحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عاميذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين. فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتبرين، فأجابه إلى ما قال. وقال ﷺ في قصة الإفك: «أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبوا أهلي ورموهم، وإيم الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبوتهم بمن؟ والله ما علمت عليه إلا خيرا»^(١). واستشار عليًا وأسماء في فراق عائشة رضي الله عنها. فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها وقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «المستشار مؤتمن»^(٢) ورواه أبو داود والترمذي، وحسنه النسائي^(٣).

[التوكل على الله بعد المشورة]

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَضُرَّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَضُرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا اتَّصِرُوا إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ثم أمرهم بالتوكل عليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

[الغلول لسبب من شأن النبي ﷺ]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد: ما ينبغي لنبى أن يحون^(٤). وروى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه

الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ نزلت في قطيقة حمراء فقيدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها، قال: فأكثروا في ذلك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٥). وكذا رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن غريب^(٦). وهذه تيرته له صلوات الله وسلامه عليه عن جميع وجوه الحيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، وقد وردت السنة بالتهني عن ذلك أيضًا في أحاديث متعدده، روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي، عن النبي ﷺ قال: «أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض، تجدون الرجلين جارين في الأرض - أو في الدار - فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعًا، فإذا اقتطعه طوفه من سبع أرضين إلى يوم القيامة»^(٧).

وروى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللثبية، على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم، وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «ما بال العالم تبعته فيجيء فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أهدي إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا يأتني أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بغيرا له رغاء، أو بقره لها حوار، أو شاة تبعر» ثم رفع يديه حتى رأينا غفرة إبطيه، ثم قال: «اللهم هل بلغت» ثلاثا، وزاد هشام بن عروة فقال أبو حميد: بصر عيني، وسمع أذني، وسلوا زيد بن ثابت. أخرجه^(٨).

وروى أبو عيسى الترمذي في كتاب الأحكام عن معاذ ابن جبل، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلما (١) البخاري: ٤٧٥٧ (٢) ابن ماجه: ١٢٣٣/٢ (٣) أبو داود: ٣٤٥/٥ وتحفة الأحوذى: ١٠٩/٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٧/٢ (٥) الطبري: ٣٤٨/٧ (٦) أبو داود: ٢٨٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٣٥٩/٨ (٧) أحمد: ١٤٠/٤ فيه عبد الله بن محمد بن عقيل أبو محمد المدني في حديثه لين ويقال تغير بأخره. كما في التفرغ لابن حجر رحمه الله. (٨) أحمد: ٤٢٣/٥ والبخاري: ٢٥٩٧ و٧١٧٤ ومسلم: ١٨٣٢

سِرْتُ أَرْسَلَ فِي أَثْرِي فَرُدِدْتُ، فَقَالَ: «أَتَدْرِي لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ؟ لَا تُصَيِّنُ شَيْئًا بِغَيْرِ إِذْنِي، فَإِنَّهُ غُلُولٌ» وَمَنْ يَغْلُبْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لِهَذَا دَعَوْتُكَ فَاْمُضِ لِعَمَلِكَ﴾ (١). هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بِغَيْرِ لَهُ رُغَاءً، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْتِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أْبَلَعْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمَحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أْبَلَعْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أْبَلَعْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْتِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أْبَلَعْتُكَ» (٢). أَخْرَجَاهُ (٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: فَلَانٌ شَهِيدٌ وَفَلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ، فَقَالُوا: فَلَانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ عَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٍ -». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَذْهَبَ فَنَادِي فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ». قَالَ: فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ: أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ السَّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٤).

[لَيْسَ الْأَمِينُ وَالْعَالُ سَوَاءٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ أَتَعَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَي لَا يَسْتَوِي مَنْ أَتَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ فِيمَا شَرَعَهُ، فَاسْتَحَقَّ رِضْوَانَ اللَّهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَأَجِيرَ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، وَمَنْ اسْتَحَقَّ غَضَبَ اللَّهِ وَأَلْزِمَ بِهِ، فَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ، وَمَأْوَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَهَذِهِ لَهَا نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَمْلِكُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ... الْآيَةُ [القصص: ٦١].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: يَعْنِي: أَهْلُ الْخَيْرِ وَأَهْلُ الشَّرِّ دَرَجَاتٌ (٥). وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْكَسَائِيُّ: مَنَازِلٌ. يَعْنِي مُنَازِلَةٌ فِي مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، وَدَرَكَاتِهِمْ فِي النَّارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَنَازِلٌ عَمِلُوا﴾ ... الْآيَةُ [الأنعام: ١٣٢]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَي وَسَيُؤْتِيهِمْ إِيَّاهَا، لَا يَظْلِمُهُمْ خَيْرًا، وَلَا يَزِيدُهُمْ شَرًّا، بَلْ يَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

[بِعَنَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي مِنْ جِنْسِهِمْ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ مُخَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَمُجَالَسَتِهِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] أَي مِنْ جِنْسِكُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ ... الْآيَةُ [الكهف: ١١٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَمَعَشِرَ الْحَيِّ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فَهَذَا أْبْلَغُ فِي الْإِمْتِنَانِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ، بِحَيْثُ يُمَكِّنُهُمْ مُخَاطَبَتَهُ وَمُرَاجَعَتَهُ فِي فَهْمِ الْكَلَامِ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَيُرَكِّبُهُمْ﴾ أَي يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِتُرْكُوبِ نَفْسِهِمْ، وَتَطَهَّرَ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ الَّذِي كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهِ فِي حَالِ شُرُكِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ، وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ يَعْنِي الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَي مِنْ قَبْلِ هَذَا الرَّسُولِ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَي لَفِي غَيِّ وَجَهْلٍ ظَاهِرٍ جَلِيٍّ بَيْنَ لِكُلِّ أَحَدٍ. ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَوْجِبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ فَلَمَّا أَنَّ هَذَا قَوْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا أَصَبْتُمْ

(١) تحفة الأحوذى: ٥٦٤/٤ فيه داود بن يزيد بن عبد الرحمن الأودي ضعيف (تقريب) واستنكر له ابن عدي هذا الحديث بعينه في الكامل ٨٠/٣ ط. دار الفكر بيروت (٢) أحمد: ٤٢٦/٢ (٣) فتح الباري: ٢١٤/٦ ومسلم: ١٤١٦/٣ (٤) أحمد: ١/٣٠ ومسلم: ١١٤ والترمذي: ١٥٧٤ (٥) ابن أبي حاتم: ٢/٦٤٦ والطبري: ٣٦٧/٧

يَوْمَ اتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَمِتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَا فَوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قِتَلُوا قُلْ فَادْرَأْ وَأَعَنْ أَنْفُسَكُمْ أَلَمْ تَكُنْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ [سَبَبٌ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَحِكْمَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَلَبْتُمْ مُصِيبَةً﴾ وَهِيَ مَا أَصِيبَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ قِتِيلًا، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ أَسِيرًا، ﴿قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا﴾ أَيُّ مِنْ أَيْنَ جَرَى عَلَيْنَا هَذَا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، عُوفِيُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ، وَكَسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَلَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ بِسَبَبِ عِصْيَانِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ، يَعْنِي بِذَلِكَ الرَّمَاةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مُعْتَبَرَ لِحُكْمِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ اتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ﴾ أَيُّ فِرَارِكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَدُوِّكُمْ، وَقَتْلُهُمْ لِحِمَاةِ مِنْكُمْ، وَجِرَاحَتُهُمْ لِإِخْوَانِهِمْ؛ كَانَ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَتَبَتُّوا وَلَمْ يَتَزَلَّزَلُوا ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَمِتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلُولَ الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي أُنْتَاءِ الطَّرِيقِ، فَاتَّبَعَهُمْ مَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِيَابِ وَالْقِتَالِ وَالْمُسَاعَدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي كَثُرُوا سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: ادْفَعُوا

يَوْمَ اتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَمِتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَا فَوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قِتَلُوا قُلْ فَادْرَأْ وَأَعَنْ أَنْفُسَكُمْ أَلَمْ تَكُنْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ [سَبَبٌ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَحِكْمَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَلَبْتُمْ مُصِيبَةً﴾ وَهِيَ مَا أَصِيبَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ قِتِيلًا، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ أَسِيرًا، ﴿قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا﴾ أَيُّ مِنْ أَيْنَ جَرَى عَلَيْنَا هَذَا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، عُوفِيُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ، وَكَسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَلَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ بِسَبَبِ عِصْيَانِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ، يَعْنِي بِذَلِكَ الرَّمَاةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مُعْتَبَرَ لِحُكْمِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ اتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ﴾ أَيُّ فِرَارِكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَدُوِّكُمْ، وَقَتْلُهُمْ لِحِمَاةِ مِنْكُمْ، وَجِرَاحَتُهُمْ لِإِخْوَانِهِمْ؛ كَانَ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَتَبَتُّوا وَلَمْ يَتَزَلَّزَلُوا ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَمِتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلُولَ الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي أُنْتَاءِ الطَّرِيقِ، فَاتَّبَعَهُمْ مَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِيَابِ وَالْقِتَالِ وَالْمُسَاعَدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي كَثُرُوا سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: ادْفَعُوا

بِالدَّعَاءِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: رَابِطُوا. فَتَعَلَّلُوا قَاتِلَيْنِ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنُونَ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَلْفُونَ حَرْبًا لَجِئْنَاكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَلْفُونَ قِتَالًا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ تَنَقَّلَ بِهِ الْأَحْوَالُ، فَيَكُونُ فِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ، وَفِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ، لِقَوْلِهِ: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ يَا فَوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ هَذَا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فَإِنَّهُمْ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ جُنْدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ جَاءُوا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، يَتَحَرَّفُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا أَصِيبَ مِنْ سَرَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ. وَهُمْ أَضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ كَاتِبٌ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ لَا مَحَالَةَ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قِتَلُوا﴾ أَيُّ لَوْ سَمِعُوا مِنْ مَسْؤَرَتِنَا عَلَيْهِمْ فِي التَّعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قِتَلُوا مَعَ مَنْ

قَتَلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ قَادِرُوا عَلَنَ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي إِنْ كَانَ الْقَعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ، فَيَتَّبِعِي أَنْكُمْ لَا تَمُوتُونَ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ، فَادْفَعُوا عَن أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالَ مُجَاهِدٌ عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ ^(١).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ ^(١٦٩) فَرِحِينَ يَمَآءَ اتَّهَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَاتَّقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ لَمْ يَسْسِتْهُمْ سُوءٌ وَاتَّقِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

[فَضْلُ الشَّهَدَاءِ]

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنِ الشَّهَدَاءِ بِأَنَّهُمْ وَإِنْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ حَيَّةٌ مَرْزُوقَةٌ فِي دَارِ الْقَرَارِ. رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَن مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَن هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ فَقَالَ: أَمَّا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَن ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جُوفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوَنَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَسْتَهْوِي؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُريدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ، تُرِكُوا» ^(٢). وَقَدْ رَوَى نَحْوَهُ عَن أَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَن أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسْرُهَا أَنْ تَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدُ، فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» أَنْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ ^(٣).

(١) الطبري: ٣٨٣/٧ رواه ابن جريج عن مجاهد وابن جريج ثقة مدلس لم يسمع التفسير من مجاهد. قال عمرو بن علي: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: لم يسمع ابن جريج من مجاهد إلا حديثًا واحدًا [تقدمه الجرح والتعديل: ٢٤٥] وقال الدوري عن يحيى بن معين: لم يسمع ابن جريج من مجاهد إلا حرفًا [تاريخ يحيى بن معين برواية الدوري ٣٧٢/٢] والسند إلى ابن جريج ضعيف لأن فيه الحسين بن داود المصيصي الذي كان يلحق شيخه الحجاج انظر تقريب التهذيب (٢٩٢٥). (٢) مسلم: ١٥٠٢/٣ (٣) أحمد: ١٢٦/٣ ومسلم: ١٨٧٧ (٤) أحمد: ٢٦٥/١ (٥) الطبري: ٣٨٩/٧، ٣٩٠ (٦) دلائل النبوة للبيهقي: ٢٩٩/٣ (٧) أحمد: ٢٦٦/١ (٨) الطبري: ٣٨٧/٧

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَابِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرِبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ، وَحَسَنَ مَقْلَبِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لَيْتَا نَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا نَتَّكِلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَبْلَعُهُمْ عَنْكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ وَمَا بَعْدَهَا ^(٤). هَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَالضَّحَّاكُ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَتْلِي أُحُدٍ ^(٥).

رَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ مُرْدُوَيْهِ عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: نَظَرَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا جَابِرُ، مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمًّا؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَشْهَدَ أَبِي، وَتَرَكَ دِينًا وَعِيَالًا، قَالَ: فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا»، قَالَ عَلِيٌّ: الْكِفَاحُ الْمُوَاجَهَةُ قَالَ: سَلْنِي أُعْطِكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ أَرُدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلُ: إِنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ. قَالَ: أَيُّ رَبِّ قَابَلُغَ مِنْ وَرَائِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾... الآية ^(٦).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهْرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ ^(٧). وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ^(٨).

وَهُوَ إِسْنَادٌ جَيِّدٌ. وَكَانَ الشَّهَدَاءُ أَقْسَامًا: مِنْهُمْ مَنْ تَسْرَحَ
 أَرْوَاحُهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى هَذَا النَّهْرِ بِنَابِ
 الْجَنَّةِ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُنْتَهَى سَيْرِهِمْ إِلَى هَذَا النَّهْرِ،
 فَيَجْتَمِعُونَ هُنَالِكَ، وَيُعْدَى عَلَيْهِمْ بِرِزْقِهِمْ هُنَاكَ وَيُرَاحُ،
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَيْتَا فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ حَدِيثًا فِيهِ الْبِشَارَةُ
 لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِأَنْ رُوحَهُ تَكُونُ فِي الْجَنَّةِ تَسْرَحُ أَيْضًا فِيهَا،
 وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَرَى مَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ وَالشَّرُورِ،
 وَتَشَاهِدُ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهَا مِنَ الْكِرَامَةِ، وَهُوَ بِإِسْنَادٍ
 صَحِيحٍ عَزِيزٍ عَظِيمٍ، اجْتَمَعَ فِيهِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ
 أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْمُتَّبَعَةِ، فَإِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ
 اللَّهُ - رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ،
 عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ الْأَصْبَحِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ
 الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَسَمَةُ
 الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى
 جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ» (١).

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: «إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى
 شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ» وَأَمَّا أَرْوَاحُ الشَّهَدَاءِ فَكَمَا تَقَدَّمَ
 فِي حَوَاصِلِ طَيْرِ خَضِرٍ، فَهِيَ كَالْكَوَاكِبِ بِالنَّسَبَةِ إِلَى
 أَرْوَاحِ عُمومِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهَا تَطِيرُ بِأَنْفُسِهَا، فَسَأَلَ اللَّهُ
 الْكَرِيمَ الْمَنَّانُ أَنْ يُبَيِّنَنَا عَلَى الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ﴾... إِلَى آخِرِ
 الْآيَةِ، أَيِ الشَّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحْيَاءً عِنْدَ
 اللَّهِ، وَهُمْ فَرِحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النُّعْمَةِ وَالْغِنَى،
 وَمُسْتَبْشِرُونَ بِإِحْوَانِهِمُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ:
 أَنَّهُمْ يَفْتَدِمُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ مِمَّا أَمَامَهُمْ، وَلَا
 يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ وَرَاءَهُمْ. نَسَأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ. وَقَدْ
 ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ
 أَصْحَابِ بَيْتِ مَعُونَةَ السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
 غَدَاةِ وَاحِدَةٍ، وَقَتَّتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ
 يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ، قَالَ أَنَسٌ: وَنَزَلَ فِيهِمْ قُرْآنُ قِرْآنِهِ
 حَتَّى رُفِعَ: «أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا
 وَأَرْضَانَا» (٢).

فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضِّلَ لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا
 رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٦﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
 يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٧﴾
 وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ
 شَيْعًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ﴿١٧٨﴾ إِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَصُرُوا
 اللَّهُ شَيْعًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا
 وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٨٠﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا
 أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ
 عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَمَوُّا بِاللَّهِ
 وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨١﴾ وَلَا
 يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا
 لِمُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّفُونَ مَا يَبْخُلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٨٢﴾

وَسُرُّوا لِمَا عَايَنُوا مِنْ وِفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ. وَقَالَ
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هَذِهِ الْآيَةُ جَمَعَتْ الْمُؤْمِنِينَ
 كُلَّهُمْ سُوءًا الشَّهَدَاءِ وَعَيْرُهُمْ، وَقَلَّمَ ذَكَرَ اللَّهُ فَضْلًا ذَكَرَ بِهِ
 الْأَنْبِيَاءُ، وَثَوَابًا أَعْطَاهُمْ: إِلَّا ذَكَرَ مَا أَعْطَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
 مِنْ بَعْدِهِمْ.

[ذَكَرَ عَزْوَةَ حَمْرَاءَ الْأَسَدِ وَفَضَّلُ مَنْ شَهِدَهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ هَذَا كَانَ يَوْمَ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، وَذَلِكَ أَنَّ
 الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَرُّوا
 رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَمَرُّوا فِي سَيْرِهِمْ تَدَدَّمُوا لِمَ
 لَا تَمَّمُوا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَجَعَلُوهَا الْقَيْصَلَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ
 ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الذَّهَابِ وَرَاءَهُمْ،
 لِيُرْعِبَهُمْ، وَيُرِيَهُمْ أَنَّ بِهِمْ قُوَّةً وَجَلْدًا، وَلَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ
 لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: اسْتَبْشَرُوا

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ
 لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: اسْتَبْشَرُوا

(١) أحمد: ٤٥٥/٣ (٢) فتح الباري: ٤٤٥/٧ ومسلم: ١/

سَيُؤَيِّنُ مَن حَضَرَ الْوُفْعَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، سَيُؤَيِّنُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِمَا سَنَدُكُرُهُ - فَانْتَدَبَ الْمُسْلِمُونَ - عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْجِرَاحِ - وَالْإِثْنَانِ طَاعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ، قَالَ: لَمَّا رَجَعَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ أُحُدٍ، قَالُوا: لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمْ، وَلَا الْكُؤَاعِبَ أَرَدَقْتُمْ، بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ، ارْجِعُوا، فَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَانْتَدَبَ الْمُسْلِمِينَ، فَانْتَدَبُوا حَتَّى بَلَغَ حَمْرَاءَ الْأَسَدِ - أَوْ بَنِي أَبِي عَيْيَةَ - الشُّكَّ مِنْ سُفْيَانَ - فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: نَرْجِعُ مِنْ قَابِلٍ، فَارْجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ تُعَدُّ عَزْوَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾... الْآيَةَ، قُلْتُ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لَمَّا أَصَابَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، فَقَالَ: «مَنْ يَرْجِعُ فِي إِثْرِهِمْ؟» فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُتَّفِرِدًا بِهَذَا السِّيَاقِ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾... الْآيَةَ، أَيِ الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ النَّاسُ بِالْجُمُوعِ، وَخَوْفِهِمْ بِكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ، فَمَا أَكْثَرُوا لِذَلِكَ، بَلْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَاسْتَعَانُوا بِهِ. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (٣). وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْثُودٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ يَوْمَ أُحُدٍ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ (٤).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنقَلِبُوا بِنِعْمَةِ مَن اللَّهُ وَفَضْلِ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ﴾ أَيِ لَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ كَفَاهُمْ مَا أَهَمَّهُمْ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأْسَ مَنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى بَلَدِهِمْ ﴿بِنِعْمَةِ مَن اللَّهُ وَفَضْلِ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ﴾ مِمَّا أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوَّهُمْ ﴿وَأَتَّسَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وَرَوَى

الْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنقَلِبُوا بِنِعْمَةِ مَن اللَّهُ وَفَضْلِ﴾ قَالَ: النَّعْمَةُ: أَنَّهُمْ سَلِمُوا. وَالْفَضْلُ: أَنَّ عِيرًا مَرَّتْ. وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَوْسِمِ، فَاسْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَبِحَ فِيهَا مَا لَا فَسَمَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ (٥).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أَيِ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ، وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذُووُ بَأْسٍ وَذُووُ شِدَّةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ إِذَا سَوَّلَ لَكُمْ وَأَوْهَمَكُمْ فَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ، وَالْجَاؤُوا إِلَيَّ، فَإِنِّي كَافِيكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المجادلة: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَالَ: ﴿وَلَيَسَّرَنَّ اللَّهُ مَن يَصْرَفُهُ﴾ [الحج: ٤٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَنَاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَصْرَفُوا اللَّهُ يَصْرَفُهُمْ﴾... الْآيَةَ [محمد: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا لَنَنْصُرَنَّ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ⑤ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ⑥ [عافر: ٥١، ٥٢].

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهُ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ⑦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ لَنْ يَصُرُوا اللَّهُ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑧ وَلَا يَحْزَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ حَرْبًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ⑨ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْعِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَن رُشِدَهُ مَن يَشَاءُ فَمَا تُمِئُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ⑩ وَلَا يَحْزَنَ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِمَا

(١) النسائي في الكبرى: ١١٠٨٣ (٢) البخاري: ٤٠٧٧ (٣) فتح الباري: ٧٧/٨ (٤) فتح الباري ٢٢٩/٨ ط السلفية وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن مردويه وأخرجه الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" ١١/٨٦ فيه أبو بكر بن عياش هو ثقة عابد إلا أنه لما كبر ساء حفظه وشيخه حميد الطويل مدلس قد عنعن. (٥) دلائل النبوة: ٣١٨/٣

ءَاتَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّفُونَ
مَا يَجْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧٦﴾

[تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي
الْكُفْرِ﴾ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى النَّاسِ، كَانَ يَحْزَنُهُ
مُبَادَرَةُ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ وَالشَّقَاقِ، فَقَالَ
تَعَالَى: لَا يَحْزَنُكَ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ
اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أَي حِكْمَتُهُ فِيهِمْ أَنَّهُ
يُرِيدُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ
﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ
إِخْبَارًا مُقَرَّرًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أَي
اسْتَبَدَّلُوا هَذَا بِهَذَا ﴿لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أَي وَلَكِنْ يَصُرُونَ
أَنْفُسَهُمْ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكَلِّمُهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُكَلِّمُهُمْ لِيُزَادُوا
إِسْثًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ
مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ سَبْعُ مِائَاتٍ بَلْ لَا يَتَفَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون:
٥٥، ٥٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ يَهْدِ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِيُتَمَدَّدُوا
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسَبُونَ﴾ [القلم: ٤٤] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعْجَبْكَ
أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ
أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ
عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أَي لَا بُدَّ أَنْ يَعْقِدَ سَبَبًا
مِنَ الْجَحَنَةِ، يَطَّهَّرُ فِيهِ وَلِيُّهُ، وَيَفْتَضِحُ فِيهِ عَدُوُّهُ، يُعْرِفُ بِهِ
الْمُؤْمِنَ الصَّابِرَ، وَالْمُنَافِقَ الْفَاجِرَ، يَعْنِي بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ
الَّذِي امْتَحَنَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَظَهَرَ بِهِ إِيْمَانُهُمْ وَصَبْرُهُمْ
وَجَلَدُهُمْ وَتَبَاتُّهُمُ وَطَاعَتُهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَهَيْتَ بِهِ
سِترَ الْمُنَافِقِينَ. فَظَهَرَ مُخَالَفَتُهُمْ وَكُفُولُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ،
وَخِيَانَتُهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ
لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾
قَالَ مُجَاهِدٌ: مَيَّزَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: مَيَّزَ بَيْنَهُمْ
بِالْجِهَادِ وَالْهَجْرَةِ^(٢). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَكُمْ
عَلَى الْقَيْبِ﴾ أَي أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَتَّى
يَمَيِّزَ لَكُمْ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِ لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ
الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ مِنْ
رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمُ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَكَتْنَا مَا قَالُوا وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٧٧﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعٰبِدِ ﴿١٧٨﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ عَهْدٌ لِّنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ الْتَارَ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَٰلَيْنَتَ
وَإِلَٰذِي فَلْتَمَّ فَمِمَّا قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٧٩﴾
فَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ نَكْتُمُوكُمْ فَكُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٠﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذٰئِقَةُ الْمَوْتِ
وَإِنَّمَا تُوَفُّونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ
عَنِ التَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا
إِلَّا لَمْتَعٌ عٰلَورِ ﴿١٨١﴾ لَتَبْلُوُنَّ فِيْ أَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا
وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٢﴾

عَبِيهِ أَحَدًا ﴿١٨١﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿[الجن: ٢٦، ٢٧]﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:
﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَي أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَاتَّبِعُوهُ فِيمَا
شَرَعَ لَكُمْ ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

[ذَمُّ الْبُخْلِ وَالْوَعِيدِ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أَي لَا يَحْسَبَنَّ
الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالِ يَنْفَعُهُ، بَلْ هُوَ مُضِرٌّ عَلَيْهِ فِي
دِينِهِ، وَرَبِّمَا كَانَ فِي دُنْيَاهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَالِ أَمْرِ مَالِهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: ﴿سَيُطَوَّفُونَ مَا يَجْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.
رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ
شُجَاعًا أَفْرَعًا، لَهُ زَيْبَتَانِ، يُطَوَّفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ

(١) الطبري: ٤٢٤/٧ (٢) الطبري: ٤٢٤/٧

بِلَهْرَمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْبًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ...﴾ (١) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تَقَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَبَانَ فِي صَحِيحِهِ (٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَدِيٍّ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَفْرَعُ يَبْتَعُهُ، يَبْرُمُ مِنْهُ وَهُوَ يَبْتَعُهُ، فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ» ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ مُضَادَّهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿سَبَطَوْفُونَ مَا بَجَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٤) ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ ﴿وَأَنْفُسُهُمْ وَمَا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَدِّمُوا لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ بَيِّنَاتِكُمْ وَصَمَائِرِكُمْ.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاهُ سَكَتُكُمْ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونِ عَادٍ الْحَرِيقِ﴾ (٥) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يُظْلِمُ لِلْعَبِيدِ (٦) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِتَيْنَا آلَ نُؤْمٍ لِرَسُولٍ حَقٍّ يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٨)

[وَعِيدُ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ]

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قَالَتِ الْيَهُودُ: يَا مُحَمَّدُ، افْتَقَرَ رَبُّكَ، يَسْأَلُ عِبَادَةَ الْقَرْضِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاهُ﴾... الْآيَةَ، رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُودِيَّةَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَكَتُكُمْ مَا قَالُوا﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، وَلِهَذَا قَرَنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أَيُّ هَذَا قَوْلُهُمْ فِي اللَّهِ، وَهَذِهِ مَعَامَلَتُهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَسَجَّزِيهِمْ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَقُولُوا دُونُوا عَادِ الْحَرِيقِ﴾ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يُظْلِمُ

لِلْعَبِيدِ أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيحًا وَتَوْبِيحًا وَتَحْقِيرًا وَتَضْغِيرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِتَيْنَا آلَ نُؤْمٍ لِرَسُولٍ حَقٍّ يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى تَكْذِيبًا أَيْضًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ، أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِرَسُولٍ حَتَّى يَكُونَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ أَنْ مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ، فَقَبِلَتْ مِنْهُ، أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ تَأْكُلُهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَعَبْرُهُمَا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ بِالْحُجُجِ وَالْبُرَاهِينِ، ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أَيُّ وَبِأَنَّ تَأْكُلُ الْقُرْآنَ الْمُتَقَبَّلَةَ، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أَيُّ فَلِمَ قَاتَلْتُمُوهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْمَعَانِدَةِ وَقَتَلْتُمُوهُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنْكُمْ تَبْتَعُونَ الْحَقَّ وَتَتَقَادُونَ لِلرُّسُلِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَيُّ لَا يَهْدِيكَ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ لَكَ، فَلَمْ أَسْؤُهُ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مَعَّ مَا جَاءَهُ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَهِيَ الْحُجُجُ وَالْبُرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ مِنَ السَّمَاءِ، كَالصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَيُّ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُحِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُزْرِ﴾ (١٠) ﴿لَسْتُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١١)

[كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَامًّا يُمْمُ جَمِيعَ الْخَلِيقَةِ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١٢) وَيَسْتَعِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿[الرحمن: ٢٦، ٢٧] فَهُوَ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَتَفَرَّدُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ بِالذِّمَّةِ وَالْبِقَاءِ، فَيَكُونُ آخِرًا كَمَا كَانَ

(١) فتح الباري: ٧٨/٨ (٢) ابن حبان: ١٠٧/٥ (٣) أحمد:

٣٧٧/١ (٤) تحفة الأحودي: ٣٩٣/٨ والنسائي في الكبرى:

٣١٧/٦ وابن ماجه: ٥٦٨/٢

أَوْلَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيفَةٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَتَّى يَمُوتَ، فَإِذَا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ وَفَرَعَتِ النَّطْفَةُ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ وُجُودَهَا مِنْ صُلْبِ آدَمَ، وَانْتَهَتِ الْبَرِيَّةُ، أَقَامَ اللَّهُ الْقِيَامَةَ، وَجَارَى الْخَلَائِقَ بِأَعْمَالِهَا جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا، كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا، فَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا تُوَفِّيَتْ أُمْرُوكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

[لَمَنِ الْفَوْزُ؟]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ الشَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أَيُّ مَنْ جُنِبَ النَّارَ، وَنَجَا مِنْهَا، وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ كُلُّ الْفَوْزِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ الشَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾». هَذَا حَدِيثٌ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ^(٢) وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ تَضَعِيرٌ لِشَأْنِ الدُّنْيَا، وَتَحْقِيرٌ لِأَمْرِهَا، وَأَنَّهَا دَنِيَّةٌ فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْتِيهِمُ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: ١٦، ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُوهُ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَوَبَّيْتُمْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠] وَفِي الْحَدِيثِ: «وَاللَّهُ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجَعُ إِلَيْهِ»^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ هِيَ مَتَاعٌ، هِيَ مَتَاعٌ، مَتْرُوكَةٌ، أَوْشَكَتْ - وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - أَنْ تَضْمَحَلَّ عَنْ أَهْلِهَا، فَحَدُوا مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ طَاعَةَ اللَّهِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

[الْمُؤْمِنُ يُبْتَلَى وَيَسْمَعُ مِنَ الْعُدُوِّ الْأَدَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُجَلَّبَأُ مِنَ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْسُكُمْ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغْتُمْ بِئْسَ مِنَ الْغُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقَصَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْمَرْبِ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ، أَيُّ لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ أَهْلِهِ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زَيْدٌ فِي الْبَلَاءِ ﴿وَلَسْمَعُكَ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾

مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَى كَثِيرًا﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِمُ الْمَدِينَةَ، قَبْلَ وَقَعَةِ بَدْرٍ، مُسَلِّبًا لَهُمْ عَمَّا نَالَهُمْ مِنَ الْأَدَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَأَمِيرًا لَهُمْ بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ حَتَّى يُفْرَجَ اللَّهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَكِبَ عَلَى جِمَارٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ، يُعَوِّدُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فِي بَيْتِ الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، قَبْلَ وَقَعَةِ بَدْرٍ، قَالَ: حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَلُولٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبْدَةَ الْأَوْثَانَ، وَالْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتْ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّائِيَّةِ، حَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ وَقَالَ: لَا تُعْبَرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ وَقَفَ، فَتَزَلَّ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: أَيُّهَا الْمَرْءُ، إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا. ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْضُصْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نَحِبُّ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ، حَتَّى كَادُوا يَبْتَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْفَظُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ، فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَيَّ مَا قَالَ أَبُو حَبَابٍ؟» يُرِيدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ، فَوَاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، وَلَقَدْ اضْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ عَلَى أَنْ يُتَّوَجَّهُوا، وَيَعْصِبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا أَبَى اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ، شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،

(١) فتح الباري: ١٠٠/٦ (٢) ابن حبان: ٢٥٢/٩ (٣) الحاكم: ٢٩٩/٢ (٤) مسلم: ٢٨٥٨ والترمذي: ٢٣٢٤

وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ كَمَا
 أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَضْرِبُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ مِنْ قِبَلِكُمْ وَمِنَ
 الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا...﴾ الآية وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ
 إِيمَانِكُمْ كِفْلًا حَسَنًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
 الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ...﴾ [البقرة: ١٠٩]،
 وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي اللَّهَ بِأَمْرٍ...
 [البقرة: ١٠٩]، حَتَّى أذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَدْرًا،
 فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ
 سُلُوفٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبْدَةَ الْأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ
 تَوَجَّهَ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَأَسْلَمُوا.^(١)
 فَكُلُّ مَنْ قَامَ بِحَقٍّ، أَوْ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ
 فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤَدَّى، فَمَا لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الصَّبْرُ فِي اللَّهِ،
 وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
 تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَتُوا بِهِ...﴾ ثُمَّ قَلِيلًا فَيَسَّ
 مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُجِبُونَ أَنْ
 يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

إِذْ أَهْلَ الْكِتَابِ عَلَى نَبْذِ الْيَهُودِ وَكَيْفَانِ الْحَقِّ] هَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْ يُؤْهِوهُ بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ، لِيَكُونُوا عَلَى أُهْبِيَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِذَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَابِعُوهُ فَكُنْتُمْوَا ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وَعَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالذُّونِ الطَّيْفِيفِ، وَالْحِظِّ الدُّنْيَوِيِّ السَّخِيفِ، فَيُسْتَبِ الصَّفَقَةُ صَفَقَتُهُمْ، وَيُسْتَبِ الْبَيْعَةُ بَيْعَتُهُمْ، وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ، فَيُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، وَيُسْلِكَ بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ. فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الدَّلَالِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طَرَفِ مُتَعَدِّدَةٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَتَلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٢).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَتُوا بِهِ...﴾ ثُمَّ قَلِيلًا فَيَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَسْعَمْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَلْبَارِئِ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٣﴾

[ذَمُّهُمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ وَحُبُّهُمْ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَرَاتِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ بِمَا لَمْ يُعْطُوا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ ادَّعَى دَعْوَةَ كَاذِبَةٍ لِيَتَكَبَّرَ بِهَا، لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا قَلَّةً»^(٣). وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا «الْمُتَسَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ»^(٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ: أَذْهَبَ يَا رَافِعُ - لِيَوَابِهِ - إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: لَيْسَ كَانَ كُلُّ أَمْرٍ مِثْلًا فَرِحَ بِمَا أَتَى، وَأَحَبُّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، مُعَذَّبًا، لَتُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَهَذِهِ؟ إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ

(١) البخاري: ٤٥٦٦ ومسلم: ١٧٩٨ (٢) الطبراني: ٤٠١/٨
 (٣) البخاري: ٦١٠٥، ٦٦٥٢ ومسلم: ١٠٤/١ (٤) مسلم: ٢١٢٩

أَوْتُوا الْكِتَابَ لِكَيْ يُنَبِّئَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُوا بِهِ فَسَبَّوهُ وَرَأَىٰ ظُهُورَهُمْ
 وَأَشْرَوْا بِهِ مِنْهُمَا قَلِيلًا فَيَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٩٠﴾ وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ:
 ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَهُمْ وَيَحْسَبُونَ أَن يُمْحَدُوا بِمَا لَمْ
 يَفْعَلُوا﴾... الآية. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَأَلَهُم النَّبِيُّ ﷺ
 عَنْ شَيْءٍ، فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بغيره، فَخَرَجُوا قَدْ
 أَرَوْهُ أَن قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، وَاسْتَحَدُوا بِذَلِكَ
 إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا آتَا مِنْ كِتَابِنِهِمْ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ^(١).
 وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّسْبِيرِ، وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ
 وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا^(٢). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي
 سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُتَافِقِينَ
 عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 إِلَى الْعَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَزْوِ اعْتَدَرُوا إِلَيْهِ
 وَحَلَفُوا، وَأَحْبَبُوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَتَرَكْتُ:
 ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَهُمْ وَيَحْسَبُونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ
 يَفْعَلُوا﴾... الآية، وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِتَحْوِيهِ^(٣).

هَذِهِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا
 وَاقْتِضَاعِهَا، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُشَاهِدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ
 كَوَاكِبِ سَيَّارَاتٍ، وَثَوَابِتٍ، وَبِحَارٍ وَجِبَالٍ وَقَفَارٍ،
 وَأَشْجَارٍ وَبَنَاتٍ، وَزُرُوعٍ وَثَمَارٍ، وَحَيَوَانَ وَمَعَادِنٍ، وَمَنَافِعَ
 مُخْتَلِفَةً الْأَلْوَانَ وَالرَّوَابِحَ وَالطُّعُومَ وَالْخَوَاصِ، ﴿وَاخْتَلَفَ
 اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَي تَعَاوَيْهِمَا وَتَقَارُضِهِمَا الطُّولَ وَالْقِصَرَ،
 فَتَارَةً يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ ثُمَّ يَأْخُذُ هَذَا مِنْ
 هَذَا، فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَاصِرًا، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا.
 وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿لَا يَأْتِيَنَّكَ الْأَلْبَابُ﴾ أَي الْعُقُولِ الثَّامَّةِ الذِّكْيَةِ الَّتِي
 تُذَكِّرُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَى جَلِيَّاتِهَا، وَلَيْسُوا كَالصُّمِّ
 الْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَكَأَنَّ
 مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
 مُعْرِضُونَ ﴿١٩١﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾
 [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى أَوْلِي الْأَلْبَابِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
 اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾. كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ
 الْبُخَارِيِّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
 «صَلِّ قَائِمًا، فَإِن لَمْ تَسْتَطِعْ قَاعِدًا، فَإِن لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى
 جَنْبٍ»^(٤). أَي لَا يَقْطَعُونَ ذِكْرَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ
 بِسَرَائِرِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ، ﴿وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي يَتَفَهَمُونَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْحِكْمِ الدَّالِّ
 عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَأَخْتِيَارِهِ
 وَرَحْمَتِهِ. وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَا يَتَعَبَّرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ
 عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَسُرْعِهِ وَقَدْرِهِ وَآيَاتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَكَأَنَّ
 مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
 مُعْرِضُونَ ﴿١٩٢﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾
 [يوسف: ١٠٥، ١٠٦] وَمَدَحَ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ
 يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أَي
 مَا خَلَقْتَ هَذَا الْخَلْقَ عَبَثًا، بَلْ بِالْحَقِّ، لِتَجْزِيَ الَّذِينَ
 أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَتَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. ثُمَّ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يُفْرَأُ
 بِالتَّاءِ عَلَى مُخَاطَبَةِ الْمُفْرَدِ، وَبِالْيَاءِ عَلَى الْإِجْتِمَاعِ عَنْهُمْ،
 أَي لَا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْعَذَابِ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُمْ
 مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثُمَّ قَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ﴾ أَي هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا
 يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فَهَابُوهُ وَلَا تُخَالِفُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ
 وَرَيْفَتَهُ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، وَالْقَدِيرُ الَّذِي لَا
 أَقْدَرَ مِنْهُ.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
 لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٣﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
 جُنُوبِهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا
 بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٤﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدَخِيلِ النَّارِ
 فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٥﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا
 يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
 وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٦﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا
 وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْعَهْدَ ﴿١٩٧﴾
 [دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ لِأَوْلِي الْأَلْبَابِ، وَصِفَاتُهُمْ وَقَوْلُهُمْ
 وَدَعَاؤُهُمْ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي

(١) أحمد: ٢٩٨/١ (٢) فتح الباري: ٨١/٨ ومسلم: ٤/٢١٤٣ ونحفة الأحوذى: ٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣١٨
 (٣) البخاري: ٤٥٦٧ ومسلم: ٢٧٧٧ (٤) فتح الباري: ٢/٦٨٤

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ ٧٦

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ اِنِّي لَا اُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ اَوْ اُنْتِي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَاَلَّذِينَ هَا جَرُوا وَاُخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَاُوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وُقْتِلُوا لَا اُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا اُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ بَّحْرٰى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

لَا يَعْرِفَنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيْلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيهَا نَزِلًا مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَمَاعِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ لِّلْاَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَاِنَّ مِنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ الْيَكْمَ وَمَا اُنزِلَ اِلَيْهِمْ خَشِعِيْنَ لِلّٰهِ لَا يَشْتَرُوْنَ بِقَايَتِ اللّٰهِ ثَمَنًا قَلِيْلًا اَوْ لَوْلَاكَ لَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ اِنَّ اللّٰهَ سَرِيْعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴿٢٠٠﴾

سُورَةُ النَّسٰٓءِ ١١٦

نَزَّهُوهُ عَنِ الْعَبَثِ وَخَلَقِ الْبَاطِلِ، فَقَالُوا: ﴿سُبْحٰنَكَ﴾ اَيُّ عَنِ اَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿فَيُنَادِي عَذَابَ النَّارِ﴾ اَيُّ يَا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، يَا مَنْ هُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَثِّ. فَمَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَقِيَصُنَا لِاعْمَالٍ تَرْضٰى بِهَا عَنَّا. وَوَقَفْنَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ تَهْدِيْنَا بِهِ اِلَى جَنٰتِ النَّعِيْمِ، وَتُجَبِّرُنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْاَلِيْمِ.

ثُمَّ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا اِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ اَخْرَيْتَهُ﴾ اَيُّ اَهْتَتْهُ وَاظْهَرَتْ خِزْيُهُ لِاهْلِ الْجَمْعِ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ اَنْصَارٍ﴾ اَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مُجْبِرَ لَهُمْ مِنْكَ. وَلَا مُجِدِّ لَهُمْ عَمَّا اَرَدْتَ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا اِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي بِالْاِيْمٰنِ﴾ اَيُّ دَاعِيًا يَدْعُو اِلَى الْاِيْمَانِ، وَهُوَ الرَّسُوْلُ ﷺ ﴿اَنْ اٰمِنُوْا بِرَبِّكُمْ فَاٰمَنَّا﴾ اَيُّ يَقُوْلُ: اٰمِنُوْا بِرَبِّكُمْ فَاٰمَنَّا، اَيُّ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَاتَّبَعْنَاهُ، ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا﴾ اَيُّ بِاِيْمَانِنَا وَاتَّبَاعِنَا نَبِيَّكَ، ﴿فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا﴾ اَيُّ اسْتَرَهَا، ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فَيَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، ﴿وَنُؤْتِنَا مَعَ الْاَبْرَارِ﴾ اَيُّ الْحَقْنًا بِالصّٰلِحِيْنَ، ﴿رَبَّنَا وَاِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلٰى رُسُلِكَ﴾ قِيْلُ: مَعْنَاهُ عَلٰى الْاِيْمَانِ بِرُسُلِكَ، وَقِيْلُ: مَعْنَاهُ عَلٰى اَلْسِنَةِ رُسُلِكَ. وَهَذَا اَظْهَرُ - ﴿وَلَا نُغْوِنَا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾ اَيُّ عَلٰى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، ﴿اِنَّكَ لَا تَخْفٰى بِالْمِعَادِ﴾ اَيُّ لَا بُدَّ مِنَ الْمِعَادِ الَّذِيْ اُخْبِرْتَ عَنْهُ رُسُلُكَ وَهُوَ الْقِيَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

وَقَدْ تَبَّتْ اَنْ رَّسُوْلَ اللّٰهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ هٰذِهِ الْاَيٰتِ الْعُشْرَ مِنْ اٰخِرِ اَلِ عِمْرٰنَ اِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لِتَهَجُّدِهِ، فَرَوٰى الْبُخَارِيُّ رَجَمَهُ اللّٰهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَشَتْ عِنْدَ خَالَتِيْ مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَتْ رَسُوْلَ اللّٰهِ ﷺ مَعَ اَهْلِيْهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْاٰخِرِ قَعَدَ، فَنَوَّظَ اِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿اِنَّ فِيْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَاٰيٰتٍ لِّاُولِي الْاَلْبَابِ﴾ ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنْ، فَصَلَّى اِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ اَذَّنَ بِلَالٍ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ ^(١). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(٢).

وَرَوٰى ابْنُ مَرْدُوَيْهٍ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: انْطَلَقْتُ اَنَا وَاِبْنُ عُمَرَ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهَا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهَا حِجَابٌ، فَقَالَتْ: يَا عُبَيْدُ مَا يَمْنَعُكَ مِنْ زِيَارَتِنَا؟ قَالَ: قَوْلُ الشّٰعِرِ: زُرْ غَيًّا تَزِدُّ حُبًّا. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: ذَرِينَا، اُخْبِرِنَا بِاَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ مِنْ رَسُوْلِ اللّٰهِ ﷺ، فَبَكَتْ وَقَالَتْ: كُلُّ امْرٍهٍ كَانَ عَجَبًا، اَتَانِيْ فِي

لَيْتِي حَتَّى مَسَّ جِلْدُهُ جِلْدِي، ثُمَّ قَالَ: «ذَرِنِي اَنْعَبَدَ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللّٰهِ اِنِّي لَا حِبُّ فُرْبِكَ، وَاِنِّي اُحِبُّ اَنْ تَعْبُدَ لِرَبِّكَ، فَقَامَ اِلَى الْقُرْبَةِ. فَتَوَضَّأَ وَكَمَّ بِكُثْرٍ صَبَّ الْمَاءِ، ثُمَّ قَامَ بِصَلِّي، فَبَكَى حَتَّى بَلَ لِحَبَّتِهِ، ثُمَّ سَجَدَ، فَبَكَى حَتَّى بَلَ الْاَرْضَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلٰى جَنْبِهِ فَبَكَى، حَتَّى اِذَا اَتَى بِلَالٌ يُؤَدُّهُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ. قَالَتْ: فَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللّٰهِ، مَا يَبْكِيكَ وَقَدْ عَفَرَ اللّٰهُ لَكَ ذَنْبَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَاَخَّرَ؟ فَقَالَ: «وَيْحَكَ: يَا بِلَالُ، وَمَا يَمْنَعُنِي اَنْ اُبْكِيَّ وَقَدْ اُنزِلَ عَلَيَّ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ: ﴿اِنَّ فِيْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَاٰيٰتٍ لِّاُولِي الْاَلْبَابِ﴾» ثُمَّ قَالَ: «وَيْلٌ لِّمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا» ^(٣).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ اِنِّي لَا اُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ اَوْ اُنْتِي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَاَلَّذِينَ هَا جَرُوا وَاُخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

(١) فتح الباري: ٨٣/٨ (٢) مسلم: ٥٣٠/١ (٣) ابن حبان (لاإحسان): ٦٢٠

لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ، لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطَى إِلَّا جَزِيلاً كَثِيراً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ التَّوَابِ﴾ أَي عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحاً.

﴿لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ مَتَّعَ قَلِيلاً ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُهَادِّ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزَّلْنَا مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ لَا تَزِرُ كَيْفَ﴾

[التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِأَهْلِ الدُّنْيَا، وَبَيَانُ مَا لِلصَّالِحِينَ مِنَ الْجَزَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَنْظُرُوا إِلَى مَا هُوَ لِأَنَّ الْكُفَّارَ مُتْرَفُونَ فِيهِ مِنَ النَّعْمَةِ وَالْغِنَةِ وَالشُّرُورِ، فَعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ، وَيُضَيِّحُونَ مُرْتَهِنِينَ بِأَعْمَالِهِمْ السَّيِّئَةِ، فَإِنَّمَا نُبَدِّلُ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ اسْتِدْرَاجاً، وَجَمِيعٌ مَا هُمْ فِيهِ

﴿مَتَّعَ قَلِيلاً ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُهَادِّ﴾. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ [غافر: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِثُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَنُعَذِّبَهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [القمان: ٢٤]... وَقَالَ تَعَالَى:

﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهَا رَوِيلاً﴾ [الطارق: ١٧] أَي قَلِيلاً، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَكًا فَهُوَ لَنَفِيهِ كَمَنْ مَنَعْتَهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١] وَهَكَذَا لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَذَكَرَ مَا لَهُمْ

إِلَى النَّارِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزَّلْنَا مِنَ عِنْدِ اللَّهِ أَي صِبَاغَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ لَا تَزِرُ كَيْفَ﴾

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ، وَمَا مِنْ كَافِرٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْنِي فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ لَا تَزِرُ كَيْفَ﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيُذَاقُوا عَذَابَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] ﴿٤٢﴾.

وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِ وَقَتَلُوا وَقِيلُوا لَأَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَعَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ التَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

[اسْتِحَابَةُ اللَّهِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَي فَاجَابَهُمْ، رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ سَلَمَةَ - رَجُلٍ مِنْ آلِ أُمِّ سَلَمَةَ - قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النَّسَاءَ فِي الْهَجْرَةِ بِشَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَي لَا أُضَيِّعْ عَمَلَ عَمِلَ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُثْبِتُ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: هِيَ أَوَّلُ طَعِينَةٍ قَدِمَتْ عَلَيْنَا﴾. وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى سِرِّطِ الْبُخَارِيِّ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَي لَا أُضَيِّعْ عَمَلَ عَمِلَ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُثْبِتُ﴾ هَذَا تَفْسِيرٌ لِلْجَابِيَةِ، أَي قَالَ لَهُمْ مُجِيباً لَهُمْ أَنَّهُ لَا يُضَيِّعُ عَمَلَ عَامِلٍ لَدَيْهِ، بَلْ يُؤْفِي كُلَّ عَامِلٍ بِقِسْطِ عَمَلِهِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُثْبِتُ، وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أَي جَمِيعُكُمْ فِي ثَوَابِي سَوَاءً، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أَي تَرَكُوا دَارَ الشُّرْكِ وَأَتَوْا إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ، وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْإِخْوَانَ وَالْخُلَانَ وَالْجِيرَانَ، ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أَي ضَاقَتْ بِهِمُ الْمُسْرِكُونَ بِالْأَذَى حَتَّى أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِ﴾ أَي إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُمْ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَخَدَعَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا فَعَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتَلُوا وَقِيلُوا﴾ وَهَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُغَمَّرَ جَوَادُهُ، وَيُغَمَّرَ وَجْهُهُ بِدَمِهِ وَتُرَابِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ، أَيَكْفُرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ قُتِلْتُ؟» فَأَعَادَ عَلَيْهِ مَا قَالَ، فَقَالَ: «نَعَمْ، إِلَّا الدِّينَ، قَالَ لِي جَبْرِيلُ أَيَّاً﴾. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿لَأَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَعَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي تَجْرِي فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ

(١) سعيد بن منصور: ١١٣٦/٣ (٢) الحاكم: ٣٠٠/٢ (٣) مسلم: ١٥٠١/٣ (٤) الطبري: ٤٩٦/٧ فيه فرج بن فضالة

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

[حَالُ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَجْرُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَبِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، مَعَ مَا هُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَأَنَّهُمْ خَاشِعُونَ لِلَّهِ، أَيْ مُطِيعُونَ لَهُ، خَاضِعُونَ مُتَدَلِّلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أَيْ لَا يَكْتُمُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِشَارَاتِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَذَكَرَ صِفَتَهُ وَنَعْيَهُ وَمَعْنَاهُ، وَصَفَتِهِ أُمِّيَّةً، وَهُوَ لَا يَهُودِيٌّ هُمْ خَيْرَةٌ أَهْلُ الْكِتَابِ وَصَفَوْتُهُمْ، سَوَاءٌ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ ... الْآيَةِ [القصص: ٥٢-٥٤]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ... الْآيَةِ [البقرة: ١٢١]. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آتِلٍ وَهُمْ يَسْتَجِدُّونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذْقَانِ سِحْرًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَتْ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ وَيَجْرُونَ لِلآذْقَانِ يَتَكُونُ وَرِثَةً هُزْخُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وَهَذِهِ الصَّفَاتُ تُوْجَدُ فِي الْيَهُودِ، وَلَكِنْ قَلِيلًا كَمَا وَجَدَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمثَالِهِ مِمَّنْ آمَنَ مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ، وَلَمْ يَلْعَنُوا عَشْرَةَ أَنْفُسٍ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَهْتَدُونَ وَيَتَقَادُونَ لِلْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الْتَائِبِينَ عِدَاةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَدَدٌ نَجْرِيٌّ مِنْ فَتْحِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ... الْآيَةِ [المائدة: ٨٢-٨٥]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَوْلَئِكَ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ... الْآيَةِ، وَقَدْ تَبَّتْ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ ﴿كَهَيِّصَ﴾ [مريم: ١] بِحَضْرَةِ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ وَعِنْدَهُ الْبَطَارِكَةُ وَالْقَسَاوِسَةُ، بَكَى وَبَكَوَا مَعَهُ حَتَّى أَخْضَبُوا لِحَاهِمُ^(١). وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّجَاشِيَّ لَمَّا مَاتَ نَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ: «إِنَّ أَخَا لَكُمْ بِالْحَبَشَةِ قَدْ مَاتَ، فَضَلُّوا عَلَيْهِ» فَخَرَجَ إِلَى الصَّخْرَاءِ فَصَفَّهُمْ وَصَلَّى عَلَيْهِ^(٢).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي مُسْلِمَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ^(٣). وَقَالَ عَبَادُ بْنُ مَنْصُورٍ: سَأَلْتُ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ... الْآيَةِ، قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَاتَّبَعُوهُ، وَعَرَفُوا الْإِسْلَامَ، فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَجْرَ اثْنَيْنِ: لِلَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِالَّذِي اتَّبَعُوا مُحَمَّدًا ﷺ.

رَوَاهُمَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَدْ تَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» ... (٤) فَذَكَرَ مِنْهُمْ: «وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أَيْ لَا يَكْتُمُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ، كَمَا فَعَلَهُ الطَّائِفَةُ الْمُرْذُولَةُ مِنْهُمْ، بَلْ يَبْدُلُونَ ذَلِكَ مَجَانًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يَعْنِي سَرِيعُ الْإِحْصَاءِ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ.

[الْأَمْرُ بِالْمُصَابِرَةِ وَالْمُرَابِطَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أُمِرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَدْعُوهُ لِسْرَاءٍ وَلَا لِضْرَاءٍ وَلَا لِشِدَّةٍ وَلَا لِرِخَاءٍ، حَتَّى يَمُوتُوا

الصغير ١٧٣/٢ وفي نسخة ١٨٧/٢ التاريخ الكبير ١٣٤/٧ وقال البخاري : كل من قلت فيه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه [لسان الميزان تحت ترجمة أبان بن جبهه الكوفي ٣٠/١] ورواية لقمان بن عامر الوصابي عن أبي الدرداء مرسله كما قال أبو حاتم الرازي [الجرح والتعديل ١٨٢/٧]. (١) ابن هشام: ٣٥٧/١ (٢) فتح الباري: ٢٣٠/٧ ومسلم: ٦٥٧/٢ (٣) الطبري: ٧/٤٩٩ (٤) فتح الباري: ١٦٩/٦ ومسلم: ١٣٤/١

مُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُصَابِرُوا الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ دِينَهُمْ^(١).
وَكَذًا قَالَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ.

وَأَمَّا الْمُرَابِطَةُ فَهِيَ الْمُدَاوَمَةُ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ وَالنَّبَاتِ،
وَقِيلَ: انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَهْلُ
ابْنُ حَنِيْفٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَغَيْرُهُمْ. وَرَوَى ابْنُ
أَبِي حَاتِمٍ هَهُنَا الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي
هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ
بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطِيئَاتِ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاعُ
الرُّؤُوسِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخَطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ،
وَالِانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمْ
الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ»^(٢).

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُرَابِطَةِ هَهُنَا مُرَابِطَةُ الْعَزْوِ فِي نُحُورِ
الْعُدُوِّ، وَحِفْظُ تُغُورِ الْإِسْلَامِ، وَصِيَانَتُهَا عَنْ دُخُولِ
الْأَعْدَاءِ إِلَى حَوْرَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ
بِالتَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ، وَذِكْرُ كَثْرَةِ الثَّوَابِ فِيهِ، فَرَوَى
الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رِبَاطٌ يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ
الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(٣).

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
أَنَّهُ قَالَ: «رِبَاطٌ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ
مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ
رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ»^(٤).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبيدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ
مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،
وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»^(٥) وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ
التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٦)، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ جِبَانَ
فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا^(٧).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ
حَسْبِيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٨).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ
وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ
يُعْطَ سَخَطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى
لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعَيْنَانِ قَرَسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشَعَّتْ رَأْسُهُ، مُعْبَرَةٌ

قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْجِرَاسَةِ كَانَ فِي الْجِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ
فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ
شَفَعَ لَمْ يُشْفَعْ»^(٩).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: كَتَبَ أَبُو عُبيدَةَ
إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنَ الرُّومِ، وَمَا
يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلُ
بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مَثَلَةٍ شِدَّةً يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَهَا فَرْجًا. وَإِنَّهُ لَنْ
يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرِينَ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبُرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ﴾^(١٠). وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبرَاهِيمَ بْنِ أَبِي
سُكَيْنَةَ، قَالَ: أَمَلَى عَلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ
بِطَرَسُوسَ، وَوَدَّعْتُهُ لِلخُرُوجِ، وَأَنْشَدَهَا مَعِيَ إِلَى الْفَضِيلِ
ابْنِ عِيَاضٍ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِائَةٍ، وَفِي رِوَايَةٍ: سَنَةِ سَبْعِ
وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ.

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا
لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ
فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يَتَعَبُ حَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ
فَخُيْلُونَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا
وَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغَبَارِ الْأَطْيَبِ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِينَا
قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِي وَغَبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي
أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانِ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا

لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ
قَالَ: فَلَقِيْتُ الْفَضِيلَ بْنَ عِيَاضٍ بِكِتَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ، فَلَمَّا قَرَأَهُ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ: صَدَقَ أَبُو

(١) الطبري: ٥٠٢/٧ (٢) مسلم: ٢١٩/١ والنسائي: ٨٩/١
(٣) البخاري: ٢٨٩٢ (٤) مسلم: ١٩١٣ (٥) أحمد: ٢٠/٦
(٦) أبو داود: ٢٠/٣ وتحفة الأحوذى: ٢٤٩/٥ (٧) ابن حبان: ٦٩/٧
(٨) الترمذي: ١٦٣٩ (٩) البخاري: ٢٨٨٦ (١٠)
الطبري: ٥٠٣/٧

سُورَةُ الْاٰلِ اٰمِرَانٍ ٧٧

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

يٰۤاَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
 زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
 بِهِ ءِوَالَ اَرْحَامٍ اِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلَيكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَاَتُوا اللّيٰمَةَ اَمْوَالَهُمْ
 وَلَا تَتَّبِعُوْا الْخَبِيْثَ بِالطّيْبِ وَلَا تَاْكُلُوْا اَمْوَالَهُمْ اِلَى اَمْوَالِكُمْ اِنَّهٗ
 كَانَ حُوبًا كَبِيْرًا ﴿٢﴾ وَاِنْ خِفْتُمْ اَلَّا تَقْسُطُوْا فِى الْيَمِيْنِ فَاَنْكَحُوْا
 مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنًا وَثَلَاثًا وَرُبْعًا فَاِنْ خِفْتُمْ اَلَّا تَعْدِلُوْا
 فَوَاحِدَةً اَوْ مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُكُمْ ذٰلِكَ اَدْنٰى اَلَّا تَعْوِلُوْا ﴿٣﴾ وَاَتُوا
 النِّسَاءَ صِدْقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَاِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَسَافِكُوْهُ
 هِنِيًْا مَّرِيْبًا ﴿٤﴾ وَلَا تَقْوُلُوْا السُّفْهٰةَ اَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ
 قِيَمًا وَاَرْزُقُوْهُمْ فِيْهَا وَاَسْكُوْهُمْ وَقُوْلُوْا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَاَبْلُوْا
 الْيَمِيْنَةَ حَتّٰى اِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَاِنْ اَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوْا
 اِلَيْهِمْ اَمْوَالَهُمْ وَلَا تَاْكُلُوْهَا اِسْرَافًا وَاَبْدًا اِنَّ يَكْبُرُوْا وَاَمَنْ كَانَ
 غَنِيًّا فَلْيَسْعِفِمْ وَمَنْ كَانَ فَقِيْرًا فَلْيَاْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَاِذَا
 دَفَعْتُمْ اِلَيْهِمْ اَمْوَالَهُمْ فَاَشْهَدُوْا عَلَيْهِمْ وَكُنْ بِاللّٰهِ حَسِيْبًا ﴿٦﴾

عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَنَصَحَنِي، ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ مِمَّنْ يَكْتُبُ
 الْحَدِيثَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكُتِبَ هَذَا الْحَدِيثُ،
 كِرَاءَ حَمَلِكَ كِتَابِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْيَمَانِي، وَأَمَلَى عَلَيَّ
 الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ: حَدَّثَنَا مُنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ عَنْ أَبِي
 صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
 عَلَّمَنِي عَمَلًا أَنْالَ بِهِ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
 فَقَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصَلِّيَ فَلَا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ فَلَا
 تُفْطِرُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أضعفُ مِنْ أَنْ أَسْتَطِيعَ
 ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ طَوَّقْتَ
 ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ
 فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيْسَتْ فِي طَوْلِهِ، فَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ
 الْحَسَنَاتُ؟» (١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ
 وَأَحْوَالِكُمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذِ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى
 الْيَمَنِ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيَّةَ الْحَسَنَةَ
 تَمَحُّجًا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنًا» (٢). ﴿لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ
 عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ
 عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ عَدَا إِذَا لَقِيتُمُونِي (٣).
 انْتَهَى تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثْنَةُ،
 نَسَأَلُهُ الْمَوْتَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، آمِينَ.

[تفسير] سُورَةِ النَّسَاءِ

[مَدِينَةَ، وَبَعْضُ مَا لِهَذِهِ السُّورَةِ مِنْ فِصَائِلَ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ سُورَةُ النَّسَاءِ
 بِالْمَدِينَةِ. وَكَذَا رَوَى ابْنُ مَرْدُودِيَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ
 وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ. وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ لِحَمْسِ
 آيَاتٍ مَا يُسْرِنِي أَنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٤٠]، و ﴿إِنْ جَحَبْتُمْ
 كَبَابِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٣١]، وَ ﴿إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾
 [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾
 ... الْآيَةُ [النساء: ٦٤] [وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ

سُوءًا أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
 رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] (٤) ثُمَّ قَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ،
 إِذْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ سَمِعَ مِنْ أَبِيهِ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ.

وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَلُونِي عَنْ سُورَةِ
 النَّسَاءِ فَإِنِّي قَرَأْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا صَغِيرٌ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ
 صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (٥).

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿يٰۤاَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

(١) تاريخ دمشق ٣٤/٣٠٧ ط. دار إحياء التراث العربي وسير
 اعلام النبلاء ٨/٤١٢/١ إسناده واه والمتمهم به واحد من اثنين. ١-
 محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة قال أبو حاتم أحاديثه باطلة تدل
 على كذبه [لسان الميزان ١/١٩٥] وقال الذهبي: "كذاب"
 [ديوان الضعفاء] ١/٢٠٠ - محمد بن عبدالله بن المطلب أبو
 المفضل الشيباني كذاب دجال وكان يضع الأحاديث للرافضة
 [لسان الميزان ٦/٢٤٨] أحمد: ٥/٢٣٦ (٢) تحفة الأحوذني:
 ١٢٣/٦ (٣) الطبري: ٧/٥١٠ (٤) الحاكم: ٢/٣٠٥ (٥)
 الحاكم: ٢/٣٠١

رَوْحَهَا وَبَتْ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَوْا اللَّهَ الَّذِي سَاءَ لَوْ بِهِ
وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالتَّذْكِيرُ بِالْخَلْقِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا خَلَقَهُ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ عِبَادَتُهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُنْبَهَا لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُمْ بِهَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا رَوْحَهَا﴾ وَهِيَ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ، خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِهِ الْأَيْسَرِ، مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظَ فَرَأَاهَا فَاعْجَبْتُهُ، فَأَنْسَرَ إِلَيْهَا وَأَنْسَتَ إِلَيْهِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ اسْتَمْتَعَتْ بِهَا اسْتَمْتَعَتْ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ»^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَتْ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أَيَّ وَذَرَأٌ مِنْهُمَا أَيُّ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَتَسْرَهُمْ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَلِغَايِهِمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعَادِ وَالْمَحْشَرِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَوْا اللَّهَ الَّذِي سَاءَ لَوْ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أَيَّ وَأَتَوْا اللَّهَ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: ﴿الَّذِي سَاءَ لَوْ بِهِ﴾ أَيَّ كَمَا يُقَالُ: أَسَأَلْتُ بِاللَّهِ وَبِالرَّحِمِ^(٢). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: وَأَتَوْا اللَّهَ الَّذِي بِهِ تَعَايَدُونَ وَتُعَاهَدُونَ^(٣). وَأَتَوْا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا، وَلَكِنْ بَرُّوْهَا وَصَلُّوْهَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(٤). وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (وَالْأَرْحَامَ) بِالْخَفْضِ عَلَى الْعَطْفِ عَلَى الضَّمِيرِ فِي بِهِ، أَيَّ تَسَاءَلُونَ بِاللَّهِ وَبِالْأَرْحَامِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أَيَّ هُوَ مُرَاقِبٌ لِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ كَمَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «عَبَدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٦). وَهَذَا إِرْشَادٌ وَأَمْرٌ بِمُرَاقَبَةِ الرَّقِيبِ. وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنْ أَصْلَ الْخَلْقِ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمَّ وَاحِدَةٍ، لِيُعْطَفَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيُحْتَنَنَهُمْ عَلَى ضِعْفَائِهِمْ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ أَوْلَادُ النَّفَرِ مِنْ مَضَرَ، وَهُمْ مُجْتَابُوا النَّمَارِ - أَيَّ مِنْ عَرَبِيهِمْ وَفَقْرِهِمْ - قَامَ فَحَطَبَ النَّاسَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ فَقَالَ فِي حُطْبَتِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ... حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ. وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرِهَا﴾ [الحشر: ٥٩]، ثُمَّ حَضَّهُمْ عَلَى الصَّدَقَةِ فَقَالَ: «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»^(٧). وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي حُطْبَةِ الْحَاجَةِ^(٨). وَفِيهَا: ثُمَّ يقرأ ثلاث آياتٍ هذِهِ مِنْهَا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ... الْآيَةَ.

﴿وَأَتُوا الْبَنِيَّ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيِّتَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾^(٩) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَفْسِدُوا فِي الْيَمِينِ فَاكْتُبُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَتِلْكَ رِزْقٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آدَقُ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴿١٠﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَتَيْنِ فِعْلَةٌ فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَسَا فَاكُلُوهُ هَنِيئًا

مَرِيئًا ﴿١١﴾

[الْأَمْرُ بِحِفْظِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى]

يَأْمُرُ تَعَالَى بِدَفْعِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى إِلَيْهِمْ إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ كَامِلَةً مُوفَّرَةً، وَيَنْهَى عَنْ أَكْلِهَا وَضَمِّهَا إِلَى أَمْوَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيِّتَ بِالطَّيِّبِ﴾ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ وَالزُّهْرِيُّ: لَا تُعْطِ مَهْزُولًا وَتَأْخُذْ سَمِينًا^(٩). وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّحَعِيُّ وَالضَّحَّاكُ: لَا تُعْطِ زَائِنًا وَتَأْخُذْ جَيْدًا^(١٠). وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ أَحَدُهُمْ يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِينَةَ مِنْ عَنَمِ الْيَتِيمِ، وَيَجْعَلُ فِيهَا مَكَانَهَا الشَّاةَ الْمَهْزُولَةَ، وَيَقُولُ: شَاةٌ بِشَاةٍ، وَيَأْخُذُ الدَّرْهَمَ الْجَيْدَ، وَيَطْرَحُ مَكَانَهُ الرَّيْفَ، وَيَقُولُ: دِرْهَمٌ بِدِرْهَمٍ^(١١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيبٍ وَالسُّدِّيُّ وَسُفْيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ: أَيَّ لَا تَخْلُطُوهَا فَتَأْكُلُوهَا جَمِيعًا^(١٢). وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيَّ إِنَّمَا كَبِيرًا عَظِيمًا^(١٣).

وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَالْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ وَفَتَادَةَ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيبٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَأَبِي سَيَانَ مِثْلَ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١٤) وَالْمَعْنَى: إِنَّ أَكْلَكُمْ أَمْوَالَهُمْ مَعَ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُم عَظِيمٌ وَخَطَأٌ

(١) فتح الباري: ٤١٨/٦ (٢) الطبري: ٥١٩/٧ (٣) الطبري: ٥١٨/٧ (٤) الطبري: ٥٢٢، ٥٢١/٧ (٥) الطبري: ٥١٩/٧ (٦) فتح الباري: ١٤٠/١ (٧) مسلم: ٧٠٥/٢ (٨) أحمد: ٣٥٨/٤ والنسائي: ٧٥/٥ وابن ماجه: ٧٤/١ (٩) الطبري: ٧/٥٢٥ (١٠) الطبري: ٥٢٥/٧ (١١) الطبري: ٥٢٦/٧ (١٢) الطبري: ٥٢٨/٧ (١٣) الطبري: ٥٣٠/٧ (١٤) الطبري: ٥٣٠

كَبِيرًا فَاجْتَبِيُوهُ.

سَلَمَةَ الثَّقَفِيَّ أَسْلَمَ وَتَحْتَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَرِي مِنْهُنَّ أَرْبَعًا» فَلَمَّا كَانَ فِي عَهْدِ عُمَرَ طَلَّقَ نِسَاءَهُ، وَقَسَمَ مَالَهُ بَيْنَ بَيْنِهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ فَقَالَ: إِنِّي لَأَظُنُّ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ سَمِعَ بِمَوْتِكَ فَقَدَفَهُ فِي نَفْسِكَ، وَلَعَلَّكَ لَا تَمَكُّتُ إِلَّا قَلِيلًا. وَإِنَّمَا اللَّهُ لَتَرَا جَعَنَ نِسَاءَكَ، وَلَتَرَجَعَنَّ فِي مَالِكَ، أَوْ لَأُورِثُنَّ مِنْكَ، وَلَا مُرَنَّ بِقَبْرِكَ فَيَرْجِمَكَ كَمَا رَجِمَ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ. وَهَكَذَا رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالدَّارِقُطَنِيُّ وَالنَّبِيهِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، إِلَى قَوْلِهِ: «اخْتَرِي مِنْهُنَّ أَرْبَعًا» وَبَاقِي الْحَدِيثِ فِي قِصَّةِ عُمَرَ مِنْ أَفْرَادِ أَحْمَدَ^(٣).

وَوَجْهَ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ لَسَوَّغَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَائِرُهُنَّ فِي بَقَاءِ الْعِشْرَةِ، وَقَدْ أَسْلَمْنَ مَعَهُ، فَلَمَّا أَمَرَهُ بِإِمْسَاكِ أَرْبَعٍ، وَفَرَاقِ سَائِرُهُنَّ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ بِحَالٍ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الدَّوَامِ، فَفِي الْإِسْتِثْنَاءِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

[الْاِكْتِفَاءُ بِالْوَاحِدَةِ عِنْدَ خَشْيَةِ عَدَمِ الْعَدْلِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا فَعَدْلًا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، أَيِ فَإِنْ خَشِيتُمْ مِنْ تَعْدَادِ النِّسَاءِ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ» فَمَنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَقْتَصِرْ عَلَى وَاحِدَةٍ، أَوْ عَلَى الْجَوَارِي السَّرَارِيِّ، فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ قَسْمُ بَيْنَهُنَّ، وَلَكِنْ يُسْتَحَبُّ، فَمَنْ فَعَلَ فَحَسَنٌ، وَمَنْ لَا فَلَا حَرَجَ. وَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ أَذَقَ إِلَّا تَعُولُوا» أَيِ أَنْ لَا تَجُورُوا. يُقَالُ: عَالَ فِي الْحُكْمِ إِذَا قَسَطَ وَظَلَمَ وَجَارَ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مُرْدُوَيْهِ وَأَبُو حَاتِمٍ بَنُ جَبَانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «ذَلِكَ أَذَقَ إِلَّا تَعُولُوا» قَالَ: «لَا تَجُورُوا»^(٤). قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: قَالَ أَبِي: هَذَا حَدِيثٌ خَطَأً. وَالصَّحِيحُ: عَنْ عَائِشَةَ مَوْفُوفٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنَ وَأَبِي مَالِكٍ وَأَبِي رَزِينٍ وَالنَّحْجِيِّ وَالشَّعْبِيِّ وَالضَّحَّاكِ وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ، وَمُقَاتِلَ بْنَ

[النَّهْيُ عَنِ نِكَاحِ الْيَتِيمَةِ بِصَدَاقِ دُونَ]

وَقَوْلُهُ: «وَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا نَفْسُطُوا فِي الْيَتِيمِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنًا»، أَيِ إِذَا كَانَ تَحْتَ جِجْرٍ أَحَدِكُمْ يَتِيمَةً، وَخَافَ أَنْ لَا يُعْطِيَهَا مَهْرَ مِثْلِهَا، فَلْيَعْدِلْ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ كَثِيرٌ، وَلَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَانكِحَهَا، وَكَانَ لَهَا عَدَقٌ، وَكَانَ يُمَسِّكُهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ، فَانزَلَتْ فِيهِ: «وَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا نَفْسُطُوا» أَحْسِبُهُ قَالَ: كَانَتْ شَرِيكَتَهُ فِي ذَلِكَ الْعَدَقِ وَفِي مَالِهِ^(١).

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «وَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا نَفْسُطُوا فِي الْيَتِيمِ»، قَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي، هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي جِجْرٍ وَلِئِذَا تَشْرَكَهُ فِي مَالِهِ، وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالَهَا، فَيُرِيدُ وَلِئِذَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَهِيَ أَنْ يَنْكِحُوهنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ. وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سِتِّيَهُنَّ فِي الصَّدَاقِ، وَأَمُرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ. قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَإِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ» قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللَّهِ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «وَتَرْتَبِئُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» [النساء: ١٢٧] رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ إِذَا كَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالَ، فَهِيَ أَنْ يَنْكِحُوا مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهِ وَجَمَالِهِ مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ إِذَا كُنَّ قَلِيلَاتِ الْمَالِ وَالْجَمَالَ^(٢).

[قَصْرُ الزَّوْجِ عَلَى أَرْبَعٍ مِنَ النِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ: «مَثْنًا وَثَلَاثًا وَرُبْعًا» أَيِ انكِحُوا مَا شِئْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ، إِنْ شَاءَ أَحَدُكُمْ ثِنْتَيْنِ، وَإِنْ شَاءَ ثَلَاثًا، وَإِنْ شَاءَ أَرْبَعًا. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «جَائِلِ الْمَلَائِكَةِ مُرَلًّا أُولَى أَجْحَمٍ مَثْنًا وَثَلَاثًا وَرُبْعًا» [فاطر: ١٠] أَيِ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ، وَلَا يَنْفِي مَا عَدَا ذَلِكَ فِي الْمَلَائِكَةِ لِذِلَالَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ قَصْرِ الرِّجَالِ عَلَى أَرْبَعٍ، فَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ. كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاهُورُ الْعُلَمَاءِ، لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ امْتِنَانٍ وَإِبَاحَةٍ، فَلَوْ كَانَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعٍ لَذَكَرَهُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ غَيْلَانَ بْنَ

(١) فتح الباري: ٨٧/٨ (٢) فتح الباري: ٨٧/٨ (٣) أحمد:

١٤/٢ والأُم: ٤٩/٥ والتِّرْمِذِيُّ: ١١٢٨ وابن ماجه: ١٩٥٣

وسنن الدارقطني: ٣/٢٧١ والبيهقي: ٧/١٨٢ (٤) ابن حبان:

حَيَّانَ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا تَمِيلُوا^(١). هُمُ الْيَتَامَى^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: هُمُ النِّسَاءُ^(٣).

[إِعْطَاءُ الصَّدَاقِ وَاجِبٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَرَاؤُا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ نَهْلًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: النِّحْلَةُ: الْمَهْرُ^(٤). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ: ﴿نِحْلَةٌ﴾: فَرِيضَةٌ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿نِحْلَةٌ﴾ أَيُّ فَرِيضَةٌ. زَادَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مُسْمَاءٌ^(٥). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: النِّحْلَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْوَجِبُ، يَقُولُ: لَا تَنْكِحْهَا إِلَّا بِشَيْءٍ وَاجِبٍ لَهَا، وَلَيْسَ يَتَّبِعِي لِأَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَنْكِحَ امْرَأَةً إِلَّا بِصَدَاقٍ وَاجِبٍ، وَلَا يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ تَسْمِيَةَ الصَّدَاقِ كَذِبًا بِغَيْرِ حَقٍّ^(٦). وَمَضْمُونُ كَلَامِهِمْ: أَنَّ الرَّجُلَ يَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُ الصَّدَاقِ إِلَى الْمَرْأَةِ حَتْمًا، وَأَنْ يَكُونَ طَيِّبَ النَّفْسِ بِذَلِكَ، كَمَا يَمْنَعُ الْمَنِيحَةَ وَيُعْطِي النِّحْلَةَ طَيِّبًا بِهَا، كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يُعْطِيَ الْمَرْأَةَ صَدَاقَهَا طَيِّبًا بِذَلِكَ، فَإِنْ طَابَتْ هِيَ لَهُ بِهِ بَعْدَ تَسْمِيَتِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلْيَاكُلْهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنِ شَيْءٍ مِّنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾.

[الْأَمْرُ بِاخْتِيَارِ الْيَتَامَى، وَدَفْعِ أَمْوَالِهِمْ لَهُمْ عِنْدَ الرُّشْدِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ بْنُ حَيَّانَ: أَيُّ اخْتَبَرُوهُمْ^(٧). ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْحُلْمَ^(٨). قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْبُلُوغُ فِي الْعُلَامِ تَارَةً يَكُونُ بِالْحُلْمِ، وَهُوَ أَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَنْزِلُ بِهِ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ، وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «لَا يَتِمُّ بَعْدَ احْتِلَامٍ، وَلَا ضَمَاتٍ يَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ»^(٩). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ عَنْ عَائِشَةَ وَغَيْرِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ»^(١٠). أَوْ يَسْتَكْمِلُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَخَذُوا ذَلِكَ مِنْ

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذِكْرًا فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ أَرزُقُوهُمْ فِيهَا وَأَكْسُوهُمْ وَقَوْلُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّزْمُومًا﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْفُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾

[الْحَجْرُ عَلَى السُّفَهَاءِ]

يُنْهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَمْكِينِ السُّفَهَاءِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا، أَيُّ تَقَوْمُ بِهَا مَعَايِشُهُمْ مِنَ التَّجَارَاتِ وَغَيْرِهَا، وَمِنْ هَهُنَا يُؤَخَذُ الْحَجْرُ عَلَى السُّفَهَاءِ، وَهُمْ أَقْسَامٌ، فَتَارَةً يَكُونُ الْحَجْرُ لِلصَّغِيرِ، فَإِنَّ الصَّغِيرَ مَسْلُوبُ الْعِبَارَةِ. وَتَارَةً يَكُونُ الْحَجْرُ لِلْمَجْنُونِ. وَتَارَةً لِسُوءِ التَّصَرُّفِ لِنَقْصِ الْعَقْلِ أَوْ الدِّينِ. وَتَارَةً يَكُونُ الْحَجْرُ لِلْفُلْسِ. وَهُوَ مَا إِذَا أَحَاطَتِ الذُّيُوبُ بِرَجُلٍ، وَصَاقَ مَالَهُ عَنْ وَقَائِعِهَا، فَإِذَا سَأَلَ الْعُرَمَاءُ الْحَاكِمَ الْحَجْرَ عَلَيْهِ، حَجَرَ عَلَيْهِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قَالَ: هُمُ بَنُوكَ وَالنِّسَاءُ^(١١). وَكَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالْحَكَمُ بْنُ عَيْنَةَ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ: هُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَانُ^(١٢). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:

(١) الطبري: ٥٤٩/٧-٥٥١ (٢) الطبري: ٥٥٣/٧ (٣) الطبري: ٥٥٣/٧ (٤) الطبري: ٥٥٣/٧ (٥) الطبري: ٥٦٢ (٦) الطبري: ٥٦٢/٧ (٧) الطبري: ٥٦٣/٧ (٨) الطبري: ٥٦٤/٧ (٩) الطبري: ٥٧٠/٧ (١٠) الطبري: ٥٧٤ (١١) الطبري: ٥٧٥/٧ (١٢) أبو داود: ٢٩٣/٣ إسناده ضعيف: فيه خالد بن سعيد بن أبي مريم مجهول، لا يتابع عليه [تحرير تقريب التهذيب ١٦٤] ويعني عنه حديث حنظلة مرفوعًا: لا يتم بعد احتلام ولا يتم على جارية إذا هي حاضت [المعجم الكبير (٣٥٠٢) ١٤/٤] (١٣) أبو داود: ٥٥٨-٥٦٠

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَليَحْشَ الَّذِينَ لَو تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ
فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْفِئَةِ لِلنِّسَاءِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً
فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
النِّصْفُ وَلِأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ
كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرَّثَهُ إِبْرَاهِيمُ فَلِلَّذِي
فِي بَيْتِهِ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَيْتِهِ ثُلُثُ مَا تَرَكَ
فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْإِخْوَةِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي
بِهَا أَوْ دِينَءٍ ءَابَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

إِلَيْهِمْ أَمْوَالُهُمْ لِئَلَّا يَقَعَ مِنْ بَعْضِهِمْ جُحُودٌ وَإِن كَارَ لِمَا قَبِضَهُ
وَسَلَّمَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أَيَّ وَكَفَى بِاللَّهِ
مُحَاسِبًا وَشَهِيدًا وَرَقِيبًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ فِي حَالِ نَظَرِهِمْ
لِلْأَيْتَامِ، وَحَالِ تَسْلِيمِهِمْ لِلْأَمْوَالِ، هَلْ هِيَ كَامِلَةٌ مُوقِفَةٌ أَوْ
مُنْقُوصَةٌ مَبْحُوسَةٌ مُدْخَلَةٌ، مُرُوجٌ حِسَابُهَا، مُدْلَسٌ أَمْوَرُهَا؟
اللَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِهَذَا تَبَيَّنَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي
أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَيَّ اثْنَيْنِ، وَلَا ثَلَاثِينَ
مَالَ يَتِيمٍ» (٨).

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ
الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) وَإِذَا

الْحَدِيثِ الثَّابِتِ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ:
عَرَضْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ فَلَمْ
يُجِزْنِي، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ
فَأَجَازَنِي، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا
الْحَدِيثُ: إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ (١).

وَاخْتَلَفُوا فِي إِبْنَاتِ الشَّعْرِ الْحَشِينِ حَوْلَ الْفَرْجِ، وَهِيَ
الشَّعْرَةُ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا بُلُوعٌ، وَقَدْ دَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَى ذَلِكَ
فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: عَرَضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ،
فَكَانَ مَنْ أَتَيْتَ قِتْلًا، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّي سَبِيلَهُ، فَكُنْتُ
فِي مَنْ لَمْ يُنْبِتْ فَخُلِّي سَبِيلِي (٢). وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَهْلُ السُّنَنِ
الرَّابِعَةَ بِنَحْوِهِ (٣). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ ءَأْتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي صَلَاحًا فِي دِينِهِمْ،
وَحِفْظًا لِأَمْوَالِهِمْ. وَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ
الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيْمَةِ (٤). وَهَكَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ:
مَتَى بَلَغَ الْغُلَامُ مُضِلِّحًا لِدِينِهِ وَمَالِهِ أَنْفَكَ الْحَجْرُ عَنْهُ،
فَيَسْلَمُ إِلَيْهِ مَالُهُ الَّذِي تَحْتَ يَدِ وَلِيِّهِ بِطَرِيقِهِ.

[جَوَازُ الْأَكْلِ لِلْفُقَرَاءِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِقَدْرِ قِيَامِهِمْ عَلَيْهِ]
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوها إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا﴾ يَنْهَى
تَعَالَى عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ
﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ أَيَّ مُبَادَرَةً قَبْلَ بُلُوغِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:
﴿وَمَنْ كَانَ عَيْنًا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ مَنْ كَانَ فِي عَيْنَةٍ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ
فَلْيَسْتَعْفِفْ عَنْهُ، وَلَا يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئًا، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ
بِالْمَعْرُوفِ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَنْزَلَتْ
هَذِهِ الْآيَةَ فِي وَالِي الْيَتِيمِ ﴿وَمَنْ كَانَ عَيْنًا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وَمَنْ كَانَ
فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ قِيَامِهِ عَلَيْهِ (٥). وَرَوَاهُ
الْبُخَارِيُّ (٦). وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ،
عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَيْسَ لِي
مَالٌ وَلِي يَتِيمٌ؟ فَقَالَ: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا
مُبْدِرٍ وَلَا مَتَأْتِلٍ مَالًا، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِيَّ مَالَكَ - أَوْ قَالَ:
تَقْدِي مَالَكَ - بِمَالِهِ شَكَ حُسَيْنٌ (٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يَعْنِي بَعْدَ بُلُوغِهِمْ
الْحُلْمَ، وَإِبْنُ عَبَّاسٍ الرَّشْدَ، فَحِينَئِذٍ سَلَمُوا أَمْوَالَهُمْ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ بِاللَّهِ تَعَالَى
لِلْأَوْلِيَاءِ أَنْ يُشْهَدُوا عَلَى الْإَيْتَامِ إِذَا بَلَغُوا الْحُلْمَ، وَسَلَمُوا

(١) البخاري: ٢٦٦٤، ومسلم: ١٨٦٨ (٢) أحمد: ٤/٣١٠

(٣) أبو داود: ٥٦١/٤، وتحفة الأحوذى: ٢٠٧/٥ والنسائي في
الكبرى: ١٨٥/٥ وابن ماجه: ٨٤٩/٢ (٤) الطبري: ٥٧٦/٧

(٥) الطبري: ٥٩٣/٧ (٦) فتح الباري: ٨٩/٨ (٧) مسند

أحمد: ٢/٢١٥، ٢١٦ (٨) مسلم: ٣/١٤٥٨

يَرْتُونَ، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ قِسْمَةَ مَالِ جَزِيلٍ، فَإِنَّ
أَنْفُسَهُمْ تَتَوَقَّ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ إِذَا رَأَوْا هَذَا يَأْخُذُ وَهَذَا
يَأْخُذُ، وَهُمْ يَأْتِسُونَ لَا شَيْءَ يُعْطُونَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى،
وَهُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ، أَنْ يُرْضَخَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَسْطِ،
يَكُونُ بَرًّا بِهِمْ وَصَدَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ وَجَبْرًا
لِكَسْرِهِمْ.

[الْعَدْلُ فِي الْوَصِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ
خَلْفِهِمْ﴾... الآية. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الرَّجُلِ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ، فَيَسْمَعُهُ رَجُلٌ
يُوصِي بِوَصِيَّةٍ تَضُرُّ بَوْرَثَتِهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي يَسْمَعُهُ أَنْ
يَتَّقِيَ اللَّهَ وَيُوقِّمَهُ وَيُسَدِّدَهُ لِلصَّوَابِ. وَلْيَنْظُرْ لِبَوْرَثَتِهِ، كَمَا
كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَضَعَ بَوْرَثَتَهُ إِذَا حَشِيَ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ^(٧).
وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٨). وَبُتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ:
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ
يَعُودُهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا
ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: فَالْثُّبُورُ؟
قَالَ: «لَا». قَالَ: فَالْثُّلُثُ؟ قَالَ: «الْثُّلُثُ، وَالْثُّلُثُ كَثِيرٌ».
ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ
مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَائِلَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»^(٩).

[الْوَعِيدُ لِمَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ]

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالآيَةِ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فِي مُبَاشَرَةِ أَمْوَالِ
الْيَتَامَى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾، حَكَاهُ ابْنُ
جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١٠). وَهُوَ قَوْلٌ
حَسَنٌ يَتَأَيَّدُ بِمَا بَعْدَهُ مِنَ التَّهْدِيدِ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى
ظُلْمًا، أَيْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ تُعَامَلَ ذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ، فَعَامِلٌ
النَّاسَ فِي ذُرِّيَّاتِهِمْ إِذَا وَلِيْتَهُمْ. ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَنْ أَكَلَ
أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا؛ وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بَطْنِهِمْ نَارًا وَسَبِيلُ نَارًا تَتَّجَّجُ فِي بَطْنِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

حَصَرَ الْقِسْمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا
لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿١٠﴾ وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضَعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١١﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بَطْنِهِمْ نَارًا
وَسَبِيلُ نَارٍ ﴿١٢﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّوْرِيثِ وَالرَّضْخِ لِحَاضِرِي الْقِسْمَةِ مِنْ غَيْرِ الْوَرِثَةِ]

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجْعَلُونَ
الْمَالَ لِلرِّجَالِ الْكِبَارِ، وَلَا يورثُونَ النِّسَاءَ وَلَا الْأَطْفَالَ
شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ﴾... الآية، أَي الْجَمِيعُ فِيهِ سَوَاءٌ فِي حُكْمِ اللَّهِ
تَعَالَى، يَشْتَرُونَ فِي أَصْلِ الْوَرَاثَةِ، وَإِنْ تَفَاوَتُوا بِحَسَبِ مَا
فَرَضَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْهُمْ بِمَا يُدْلِي بِهِ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْ قَرَابَةٍ، أَوْ
زَوْجِيَّةٍ، أَوْ وِلَاةٍ، فَإِنَّهُ لِحُكْمَةِ كَلْحَمَةِ النَّسَبِ. وَقَدْ رَوَى
ابْنُ مَرْدُويه عَنْ جَابِرٍ قَالَ: جَاءَتْ أُمُّ كُحَيْجَةَ إِلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي ابْنَتَيْنِ، وَقَدْ مَاتَ
أَبُوهُمَا، وَلَيْسَ لَهُمَا شَيْءٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾... الآية، وَسَيَاتِي هَذَا
الْحَدِيثُ عِنْدَ آتِي الْمِيرَاثِ بِسِيَاقٍ آخَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية، قِيلَ: الْمُرَادُ وَإِذَا
حَصَرَ قِسْمَةَ الْمِيرَاثِ ذُو الْقُرْبَى مِمَّنْ لَيْسَ يُوَارِثُ
﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ﴾ فَلْيُرْضَخْ لَهُمْ مِنَ التَّرِكَةِ نَصِيبٌ^(١١).
رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١٢): ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ أَوْلُوا
الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ﴾. قَالَ: هِيَ مُحْكَمَةٌ وَلَيْسَتْ
بِمَسْخُوحَةٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هِيَ قَائِمَةٌ
يُعْمَلُ بِهَا^(١٣). وَقَالَ التَّوْرِيُّ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ
فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: هِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى أَهْلِ الْمِيرَاثِ مَا
طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ^(١٤). وَهَكَذَا رَوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي
مُوسَى وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالشَّعْبِيِّ
وَالْحَسَنِ^(١٥). وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَكْحُولٌ
وَإِبْرَاهِيمُ التَّحِيْبِيُّ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وَالزُّهْرِيُّ وَيَحْيَى بْنُ
يَعْمَرَ: أَنَّهَا وَاجِبَةٌ. وَقِيلَ: هَذَا بِالْوَصِيَّةِ يُوصِي بِهِ الْمَيِّتُ.
وَقِيلَ: بَلْ هَذِهِ الْآيَةُ مَسْخُوحَةٌ.

قَالَ الْعَوْفِيُّ^(١٦) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ﴾
وَهِيَ قِسْمَةُ الْمِيرَاثِ، وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَالْمَعْنَى
عَلَى هَذَا، إِذَا حَصَرَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ مِنَ الْقَرَابَةِ الَّذِينَ لَا

(١) أبو داود: ٣١٤/٣ (٢) فتح الباري: ٩٠/٨ (٣) الطبري:

٨/٨ (٤) الطبري: ٨/٨ (٥) الطبري: ٨/٨ (٦) فيه عائلة

العوفي الضعفاء (٧) الطبري: ١٩/٨ (٨) الطبري: ٢١/٨

(٩) فتح الباري: ٤٢٧/٥ ومسلم: ١٢٥٣/٤ (١٠) الطبري:

٢٣/٨ أفته. العوفي وعائلته

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(١)

﴿يُؤْيِبِكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَهَبَنَّهُنَّ ثُلُثًا مَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُؤْيِبُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِثْلَ مَتْنِهَا الشُّدُسُ وَمَا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثُهُ الْآوَاءُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُؤْيِبُ بِهَا أَوْ دَيْنِ ءَابَائِكُمْ وَأَبْنَاؤَكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

[الأمْرُ بِالْمَوَارِيثِ وَالْحَضُّ عَلَى تَعَلُّمِهَا]

هذه الآية الكريمة، والتي بعدها، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هنَّ آياتُ علمِ الفرائضِ، وهو مُسْتَبْتَبٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ، وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ مِمَّا هُوَ كالتفسيرِ لِلذَّكَرِ مِنْهَا مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِتفسيرِ ذَلِكَ. وَقَدْ وَرَدَ التَّرغِيبُ فِي تَعَلُّمِ الْفَرَايِضِ، وَهَذِهِ الْفَرَايِضُ الْخَاصَّةُ مِنْ أَمْرِ ذَلِكَ. قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَرَايِضُ بِصِفِّ الْعِلْمِ، لِأَنَّهُ يُبْتَلَى بِهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ.

[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تفسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلَمَةَ مَاشِيَيْنِ، فَوَجَدَنِي النَّبِيَّ ﷺ لَا أَعْقِلُ شَيْئًا، فَدَعَا بِيَاءَ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ فَقُلْتُ: مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يُؤْيِبِكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٢) وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(٣)، وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ كُلُّهُمْ^(٤).

(حَدِيثٌ آخَرٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ) رَوَى أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ فِي أُحُدٍ شَهِيدًا، وَإِنْ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا، وَلَا يُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ، قَالَ: فَقَالَ: «بِقَضِي اللَّهِ فِي ذَلِكَ» قَالَ: فَنَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَمَّهُمَا فَقَالَ: «أَعْطِ ابْنَتِي سَعْدِ الثَّنَيْنِ، وَأُمَّهُمَا الثَّمَنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ»^(٥).

وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٦). وَالظَّاهِرُ أَنَّ حَدِيثَ جَابِرِ الْأَوَّلِ إِنَّمَا نَزَلَ بِسَبَبِهِ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ كَمَا سَيَأْتِي، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ لَهُ إِذْ ذَاكَ أَخَوَاتٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَنَاتٌ، وَإِنَّمَا كَانَ يُورَثُ كِلَاةً، وَلَكِنْ ذَكَرْنَا الْحَدِيثَ هَهُنَا تَبَعًا لِلْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ ذَكَرَهُ هَهُنَا، وَالْحَدِيثَ الثَّانِي عَنْ جَابِرٍ أَشْبَهَ بِنَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْأَوْلَادُ يَرِثُونَ بِحِسَابِ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ]

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُؤْيِبِكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أَيُّ يَأْمُرُكُمْ بِالْعَدْلِ فِيهِمْ، فَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَجْعَلُونَ جَمِيعَ الْمِيرَاثِ لِلذَّكَوَرِ دُونَ الْإِنَاثِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ، وَفَاوَتَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، وَذَلِكَ لِإِحْتِيَاجِ الرَّجُلِ إِلَى مَوْثِقَةِ التَّقْوَةِ وَالْكُلْفَةِ، وَمُعَانَاةِ التَّجَارَةِ وَالتَّكْسِبِ، وَتَجَسُّمِ الْمَشَقَّةِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُعْطَى ضِعْفِي مَا تَأْخُذُهُ الْأُنْثَى، وَقَدْ اسْتَبْتَبَ بَعْضُ الْأَذْكَيَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْيِبِكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أَنَّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدِ بِوَلَدِهِ، حَيْثُ أَوْصَى الْوَالِدَيْنِ بِأَوْلَادِهِمْ، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَقَدْ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ تَدُورُ عَلَى وَلَدِهَا، فَلَمَّا وَجَدْتُهُ مِنَ السَّبْيِ أَخَذْتُهُ فَأَلْصَقْتُهُ بِصَدْرِهَا وَأَرْضَعْتُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «اتْرُونْ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَوَاللَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»^(٧). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ هَهُنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الْمَالُ لِلْوَلَدِ، وَكَانَتْ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ، فَسَخَّ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلْأَبْوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسَ وَالثُّلُثَ، وَجَعَلَ لِلزَّوْجَةِ الثَّمَنَ وَالرُّبْعَ، وَلِلزَّوْجِ الشُّطْرَ وَالرُّبْعَ^(٨).

(١) فتح الباري: ٤٦٢/٥ ومسلم: ٩٢/١ (٢) فتح الباري: ٨/

٩١ (٣) مسلم: ١٢٣٥/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٢٠/٦ (٤)

فتح الباري: ١١٨/١ ومسلم: ١٢٣٤/٣ وأبو داود: ٣٠٨/٣

وتحفة الأحوذني: ٣٦٨/٨ والنسائي: ٧٧/١ وابن ماجه: ٢/

٩١١ (٥) أحمد: ٣٥٢/٣ (٦) أبو داود: ٣١٤/٣ وتحفة

الأحوذني: ٢٦٧/٦ وابن ماجه: ٩٠٨/٢ (٧) مسلم: ٤/

٢١٠٩ (٨) فتح الباري: ٩٣/٨

[مِيرَاثُ الْبَنَاتِ إِذَا انْفَرَدْنَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: قَوْلُهُ: ﴿فَوْقَ زَائِدَةٍ، وَتَقْدِيرُهُ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْرَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] وَهَذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ لَّا هُنَا وَلَا هُنَاكَ. فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ لَّا فَائِدَةٌ فِيهِ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ، ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مَا قَالُوهُ لَقَالَ: فَلَهُمَا ثُلُثَا مَا تَرَكَ، وَإِنَّمَا اسْتَفِيدَ كَوْنُ الثَّلَثَيْنِ لِلْبَنَاتَيْنِ مِنْ حُكْمِ الْأَخْتَيْنِ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ فِيهَا لِلأَخْتَيْنِ بِالثَّلَثَيْنِ. وَإِذَا وَرَثَ الْأَخْتَانِ الثَّلَثَيْنِ فَلَأَنَّ يَرثُ الْبَنَاتَانِ الثَّلَثَيْنِ بِطَرِيقِ الْأُولَى. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، حَكَمَ لِابْنَتَيْ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِالثَّلَثَيْنِ، فَذَلَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فَلَوْ كَانَ لِلْبَنَاتَيْنِ النِّصْفُ لَنَصَّ عَلَيْهِ أَيْضًا، فَلَمَّا حَكَمَ بِهِ لِلوَاحِدَةِ عَلَى انْفِرَادِهَا، ذَلَّ عَلَى أَنَّ الْبَنَاتَيْنِ فِي حُكْمِ الثَّلَاثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[مِيرَاثُ الْوَالِدَيْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّامَا الشُّدُسُ﴾ إِلَى آخِرِهِ، الْأَبَوَانِ لَهُمَا فِي الْمِيرَاثِ أَحْوَالٌ: (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَجْتَمِعَا مَعَ الْأَوْلَادِ فَيُفْرَضُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا بِنْتُ وَاحِدَةٍ، فُفْرَضَ لَهَا النِّصْفُ، وَلِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ؛ وَأَخَذَ الْأَبُ الشُّدُسَ الْآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ، فَيُجْمَعُ لَهُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ بَيْنَ الْفَرَضِ وَالتَّعْصِيبِ.

(الْحَالُ الثَّانِي) أَنْ يَنْفَرِدَ الْأَبَوَانِ بِالْمِيرَاثِ، فَيُفْرَضُ لِلأُمِّ - وَالْحَالَةُ - الثُّلُثُ، وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِيَّ بِالتَّعْصِيبِ الْمَحْضِ، وَيَكُونُ قَدْ أَخَذَ ضِعْفِي مَا فُرِضَ لِلأُمِّ، وَهُوَ الثُّلُثَانِ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُمَا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَخَذَ الزَّوْجُ النِّصْفَ وَالزَّوْجَةُ الرَّبْعَ. ثُمَّ تَأْخُذُ الأُمُّ بَعْدَ فَرَضِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ، ثَلَاثَ الْبَاقِي فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ، لِأَنَّ الْبَاقِي كَانَتْ جَمِيعَ الْمِيرَاثِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهَا نِصْفَ مَا جَعَلَ لِلأَبِ. فَتَأْخُذُ ثَلَاثَ الْبَاقِي وَيَأْخُذُ الْأَبُ ثُلُثَيْهِ.

(وَالْحَالُ الثَّلَاثُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَبَوَيْنِ) وَهُوَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعَ الْإِخْوَةِ، سَوَاءً كَانُوا مِنَ الْأَبَوَيْنِ أَوْ مِنَ الْأَبِ أَوْ مِنَ الأُمِّ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتُونَ مَعَ الْأَبِ شَيْئًا، وَلِكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ

يَحْجُبُونَ الأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ إِلَى الشُّدُسِ، فَيُفْرَضُ لَهَا مَعَ وَجُودِهِمُ الشُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ سِوَاهَا وَسِوَى الْأَبِ، أَخَذَ الْأَبُ الْبَاقِي. وَحُكْمُ الْأَخْوَيْنِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَحُكْمِ الْإِخْوَةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ﴾ أَصْرَبُوا بِالأُمِّ وَلَا يَرْتُونَ، وَلَا يَحْجُبُهَا الأَخُ الْوَاحِدُ مِنَ الثُّلُثِ وَيَحْجُبُهَا مَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَكَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا حَجَبُوا أُمَّهُمْ عَنِ الثُّلُثِ: أَنَّ أَبَاهُمْ يَلِي إِنْكَاحَهُمْ وَنَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ دُونَ أُمَّهُمْ، وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ.

[تَقْدِيمُ الدِّينِ ثُمَّ الْوَصِيَّةِ عَلَى الْمِيرَاثِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ بَعَدَ وَصِيَّةٍ يُوْصِي بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ سَلْفًا وَخَلْفًا أَنَّ الدِّينَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ، وَذَلِكَ عِنْدَ إِمْعَانَ النَّظَرِ يُفْهَمُ مِنْ فَحْوَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أَيُّ إِنَّمَا فَرَضْنَا لِلآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، وَسَاوَيْنَا بَيْنَ الْكُلِّ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ، عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الأَمْرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، مِنْ كَوْنِ الْمَالِ لِلْوَالِدِ، وَلِلْوَالِدَيْنِ الْوَصِيَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، إِنَّمَا نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا، فَفَرَضَ لِلهُؤُلَاءِ وَلِلهُؤُلَاءِ بِحَسَبِهِمْ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَأْتِيهِ النَّفْعُ الدُّنْيَوِيُّ أَوْ الأُخْرَوِيُّ أَوْ هُمَا مِنْ أَبِيهِ مَا لَا يَأْتِيهِ مِنْ ابْنِهِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالعَكْسِ، وَلِذَا قَالَ: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أَيُّ كَانَ النَّفْعُ مُتَوَقَّعًا وَمَرْجُوعًا مِنْ هَذَا، كَمَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوعٌ مِنَ الْآخَرِ، فَلِهَذَا فَرَضْنَا لِهَذَا وَلِهَذَا، وَسَاوَيْنَا بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَوَيْصِيَّةُ رَبِّكَ﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَفْصِيلِ الْمِيرَاثِ وَإِعْطَاءِ بَعْضِ الْوَرَثَةِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضِ، هُوَ فَرَضٌ مِنَ اللَّهِ، حَكَمَ بِهِ وَقَضَاهُ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا، وَيُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ﴾ وَكَذَلِكَ كَانَ لَهُنَّ وَلَكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِي بِهَا أَوْ دِينٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَكُمُ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينٍ وَإِنْ

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴿١٢﴾﴾
 وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ
 وَلَهُنَّ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ
 فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ
 مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ
 رَجُلٌ يورثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
 فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا
 أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٣﴾
 ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾
 وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ
 نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

[حُكْمُ أَوْلَادِ الْأُمِّ مِنْ غَيْرِ أَبِيهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أَي مِنْ أُمِّ كَمَا هُوَ فِي قِرَاءَةِ بَعْضِ السَّلَفِ، مِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَكَذَا فَسَّرَهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِيمَا رَوَاهُ قَتَادَةُ عَنْهُ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ وَإِخْوَةُ الْأُمِّ يُخَالِفُونَ بَقِيَّةَ الْوَرَثَةِ مِنْ وَجُوهٍ: أَحَدُهَا أَنَّهُمْ يَرْتُونَ مَعَ مَنْ أَذَلُّوا بِهِ، وَهِيَ الْأُمُّ. الثَّانِي: أَنَّ ذُكُورَهُمْ وَإِنَاثُهُمْ فِي الْمِيرَاثِ سَوَاءٌ. الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ لَا يَرْتُونَ إِلَّا إِذَا كَانَ مِثْلُهُمْ يورثُ كَلَالَةً، فَلَا يَرْتُونَ مَعَ أَبٍ وَلَا جَدٍّ وَلَا وَلَدٍ وَلَا وَلَدِ ابْنِ الرَّابِعِ: أَنَّهُمْ لَا يَرْتُونَ عَلَى الثُّلُثِ، وَإِنْ كَثُرَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ أَي لَتَكُونَ وَصِيَّتُهُ عَلَى الْعَدْلِ، لَا عَلَى الْإِضْرَارِ وَالْجَوْرِ

(١) الطبري: ٥٣/٨ هذه الرواية من مراسيل الشعبي لأن عامر الشعبي عن أبي بكر وعمر مرسل [جامع التحصيل ٣٢٢] (٢) الطبري: ٥٩/٨ (٣) الطبري: ٥٥-٥٧

كَانَ رَجُلٌ يورثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٣﴾

[مِيرَاثُ الرِّوَجِينِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَكُمْ أَيُّهَا الرِّجَالُ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِذَا مِتُّنَ عَنْ غَيْرِ وَلَدٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ، فَلِكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الدَّيْنَ مُدَّ مَعَهُ عَلَى الْوَصِيَّةِ، وَبَعْدَهُ الْوَصِيَّةُ ثُمَّ الْمِيرَاثُ، وَهَذَا أَمْرٌ مُّجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَحُكْمُ أَوْلَادِ الْبَنِينَ وَإِنْ سَفَلُوا حُكْمُ أَوْلَادِ الصُّلْبِ.
 ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَهُنَّ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾... إِلَى آخِرِهِ، وَسَوَاءٌ فِي الرَّبْعِ أَوْ الثُّمُنِ الزَّوْجَةُ وَالزَّوْجَتَانِ الْأَثْنَانِ وَالثَّلَاثُ وَالْأَرْبَعُ يَشْتَرِكْنَ فِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾... إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ.

[تَعْرِيفُ الْكَلَالَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يورثُ كَلَالَةً﴾ الْكَلَالَةُ مُسْتَقْتَنَةٌ مِنَ الْإِكْتِلِيلِ، وَهُوَ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَالْمُرَادُ هُنَا مِنْ يَرِثُهُ مِنْ حَوَاشِيهِ، لَا أَصُولُهُ وَلَا فُرُوعُهُ. كَمَا رَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ سئِلَ عَنِ الْكَلَالَةِ، فَقَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ: الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ، فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ قَالَ: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أَخَالَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي رَأْيِ رَأَاهُ^(١). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ آخِرَ النَّاسِ عَهْدًا بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَلْفُؤُلُ مَا قُلْتُ، فَقُلْتُ: وَمَا قُلْتُ؟ قَالَ: الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ^(٢). وَهَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَصَحَّ مِنْ غَيْرِ وَجِهٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَبِهِ يَقُولُ الشَّعْبِيُّ وَالتَّحْنُفِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَالْحَكَمُ^(٣). وَبِهِ يَقُولُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ وَالْأَيُّمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ، بَلْ جَمِيعِهِمْ، وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ وَاحِدٍ.

وَالْحَيْفَ بَأْنَ يَحْرِمَ بَعْضَ الْوَرْتَةِ أَوْ يَنْقُصَهُ، أَوْ يَزِيدَهُ عَلَى مَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْفَرِيضَةِ، فَمَتَى سَعَى فِي ذَلِكَ، كَانَ كَمَنْ ضَادَّ اللَّهَ فِي حُكْمِيهِ وَقَسَمْتِهِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِيُورِثُ»^(١).

﴿بِئْسَ مَا كَانَتْ تَفْعِلُ فَمَا تُطِيعُ اللَّهَ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾^(٢) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعْتَدِ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ

مُهِيتٌ^(٣)

[الْوَعِيدُ عَلَى تَعَدِّي الْحُدُودِ فِي الْمَوَارِيثِ]

أَي هَذِهِ الْفَرَائِضُ وَالْمَقَادِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلْوَرْتَةِ بِحَسَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ الْمَيِّتِ، وَاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ، وَقَفْدِهِمْ لَهُ عِنْدَ عَدَمِهِ، هِيَ حُدُودُ اللَّهِ، فَلَا تَعْتَدُوهَا وَلَا تَجَاوِزُوهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَي فِيهَا، فَلَمْ يَزِدْ بَعْضَ الْوَرْتَةِ وَلَمْ يَنْقُصْ بَعْضًا بِحِيلَةٍ وَوَسِيلَةٍ، بَلْ تَرَكَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَفَرِيضَتِهِ وَقِسْمَتِهِ ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٤) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعْتَدِ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِيتٌ^(٥) أَي لِكُورْبِهِ غَيْرَ مَا حَكَّمَ اللَّهُ بِهِ، وَضَادَّ اللَّهُ فِي حُكْمِهِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَصُدُّ عَنْ عَدَمِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ، وَحَكَمَ بِهِ، وَلِهَذَا يُجَازِيهِ بِالْإِهَانَةِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمُقِيمِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى حَافٍ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ» قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ، أَفَرُؤُوهَا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿بِئْسَ مَا كَانَتْ تَفْعِلُ فَمَا تُطِيعُ اللَّهَ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾^(٦).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي بَابِ الْإِضْرَارِ فِي الْوَصِيَّةِ مِنْ سَنِينِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ، أَوْ الْمَرْأَةَ، بِطَاعَةِ اللَّهِ سَبْعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهَا الْمَوْتُ، فَيُضَارِّانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ» وَقَالَ: قَرَأَ عَلَيَّ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ هُنَا: ﴿مَنْ بَعَدَ وَصِيَّتِي يُؤْصِي بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارِّاً﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٧). وَهَكَذَا

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٨). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَسِيَقُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَمُّ وَأَكْمَلُ.

﴿وَأَلَّتِي بِأَيْتِكَ الْفَجْحَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةَ مَنَكَمٍ فَإِنْ شَهِدُوا فَاسْكُرْهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾^(٩) وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَتَأَدُّوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(١٠)

[الْأَمْرُ بِحَسَبِ الزَّانِيَةِ فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ نَسَخَ هَذَا الْأَمْرَ] كَانِ الْحُكْمُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا زَنَتْ، فَكَبَّتْ زَنَاهَا بِالْبَيْتَةِ الْعَادِلَةِ، حُسِبَتْ فِي بَيْتِ، فَلَا تُمْكِنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَلَّتِي بِأَيْتِكَ الْفَجْحَةَ﴾ يَعْنِي الزَّانَا ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةَ مَنَكَمٍ فَإِنْ شَهِدُوا فَاسْكُرْهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فَالسَّبِيلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ هُوَ النَّاسِخُ لِذَلِكَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ الثَّوْرِ، فَنَسَخَهَا بِالْجُلْدِ أَوْ الرَّجْمِ، وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ، وَسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَأَبِي صَالِحٍ وَقَتَادَةَ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَالضَّحَّاكَ، أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ، وَهُوَ أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوُحْيُ، أَثَّرَ عَلَيْهِ، وَكُرِبَ لِذَلِكَ، وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ، قَالَ: «خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الثَّيْبُ بِالثَّيْبِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، الثَّيْبُ جِلْدٌ مِائَةٌ وَرَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ، وَالْبِكْرُ جِلْدٌ مِائَةٌ ثُمَّ نَفِي سَنَةً»^(١١). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ مِنْ طُرُقٍ عَنْ عَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَفْظُهُ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جِلْدٌ مِائَةٌ وَتَغْرِبُ عَامٍ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جِلْدٌ مِائَةٌ وَالرَّجْمُ»^(١٢)

(١) أبو داود: ٢٨٧٠ والترمذي: ٢١٢١، ٢١٢٢ والنسائي: ٣٦٧٣ وابن ماجه: ٢٧١٢، ٢٧١٣ (٢) أحمد: ٢٧٨/٢ (٣) أبو داود: ٢٨٨/٣ (٤) تحفة الأحوذى: ٣٠٤/٦ وابن ماجه: ٩٠٢/٢ (٥) أحمد: ٣١٧/٥ (٦) مسلم: ١٣١٦/٣ وأبو داود: ٥٧٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٧٠٥/٤ والنسائي في الكبرى: ٢٧٠/٤ وابن ماجه: ٨٥٢/٤

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَهَا مِنْكُمْ فَكَادُوهُمَّا﴾ أَيُّ
وَالَّذِينَ يَأْتِيَانِ الْفَاحِشَةَ فَكَادُوهُمَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمَا: أَيُّ بِالشُّنْمِ
وَالتَّعْيِيرِ وَالضَّرْبِ بِالتَّعَالِ (١). وَكَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ،
حَتَّى نَسَخَهُ اللَّهُ بِالجُلْدِ أَوْ الرَّجْمِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ
فِي الرَّجُلَيْنِ إِذَا فَعَلَا - لَا يَكْفِي - (٢). وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ
اللُّوَاطَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ رَوَى أَهْلُ السُّنَنِ عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَعْمَلُ
عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّابَا وَأَصْلَحَا﴾ أَيُّ أَفْلَحَا وَنَزَعَا عَمَّا
كَانَا عَلَيْهِ، وَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُمَا وَحَسَنَتْ، ﴿فَاعْرَضُوا
عَنْهُمَا﴾ أَيُّ لَا تُعْتَقُوهُمَا بِكَلَامٍ قَبِيحٍ بَعْدَ ذَلِكَ، لِأَنَّ
التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا
رَحِيمًا﴾. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ «إِذَا زَنَتِ أُمَّةٌ أَحَدَكُمْ
فَلْيَجْلِدْهَا الحَدَّ، وَلَا يَتْرَبْ عَلَيْهَا» (٤) أَيُّ ثُمَّ لَا يُعَيِّرُهَا
بِمَا صَنَعَتْ بَعْدَ الحَدِّ الَّذِي هُوَ كَفَّارَةٌ لِمَا صَنَعَتْ.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا﴾ (٥) وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ
حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الفتنَ وَلَا الَّذِينَ
يَمُوتُونَ وَهُمْ كَمَا قَالَ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦﴾
[قَبُولُ تَوْبَةِ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ]

يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ عَمِلَ
السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَوْ قَبْلَ مُعَايِنَةِ الْمَلِكِ الَّذِي يَقْبِضُ
رُوحَهُ، أَيُّ قَبْلَ العَرْعَرَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: كُلُّ مَنْ
عَصَى اللَّهَ حَطَأً أَوْ عَمْدًا فَهُوَ جَاهِلٌ، حَتَّى يَنْزِعَ عَنِ
الذَّنْبِ (٥). وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ
أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يَقُولُونَ: كُلُّ ذَنْبٍ أَصَابَهُ
عَبْدٌ فَهُوَ بِجَهَالَةٍ (٦). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ:
أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: اجْتَمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فَرَأَوْا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَصِي بِهِ فَهُوَ جَهَالَةٌ، عَمْدًا كَانَ
أَوْ غَيْرَهُ (٧). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ عَنْ
مُجَاهِدٍ، قَالَ: كُلُّ عَامِلٍ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ جَاهِلٌ حِينَ
عَمِلَهَا. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَقَالَ لِي عَطَاءُ بْنُ رَبَاحٍ
نَحْوَهُ (٨). وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ جَهَالَتِهِ

وَأَلَّتِي يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي
الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا
﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَهَا مِنْكُمْ فَكَادُوهُمَّا فَإِذَا تَابَا
وَأَصْلَحَا فَاعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا
﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السُّوءَ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تُبْتُ الفتنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَمَا قَالَ
أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيَهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءٍ اتَّيْمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ
مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

عمل السوء (٩)

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «ثُمَّ يَتُوبُونَ
مِنْ قَرِيبٍ» قَالَ: مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَلِكِ
الْمَوْتِ (١٠). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَا كَانَ دُونَ الْمَوْتِ فَهُوَ
قَرِيبٌ (١١). وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ
قَرِيبٍ»، مَا لَمْ يُعْرِغْ (١٢). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الدُّنْيَا كُلُّهَا
قَرِيبٌ (١٣). وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُعْرِغْ» (١٤).
رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.
وَوَقَعَ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَهُوَ

(١) الطبري: ٨٥/٨ (٢) الطبري: ٨٢/٨ (٣) أبو داود: ٤/٦٠٧
وتحفة الأحوذى: ٢١/٥ والنسائي في الكبرى: ٤/٣٢٢
وابن ماجه: ٨٥٦/٢ (٤) فتح الباري: ٤/٤٩١ ومسلم: ٣/١٣٣٨
(٥) الطبري: ٨٩/٨ (٦) الطبري: ٨٩/٨ (٧) عبد
الرزاق: ١٥١/١ (٨) الطبري: ٩٠/٨ (٩) الطبري: ٩٠/٨
(١٠) الطبري: ٩٤/٨ (١١) الطبري: ٩٤/٨ (١٢) الطبري:
٩٦/٨ (١٣) الطبري: ٩٤/٨ (١٤) أحمد: ١٣٢/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨١

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَأَنْتُمْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ
 إِحْدَيْتَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ
 بُهْتِنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿١٩﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى
 بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا
 غَلِيظًا ﴿٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ
 النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا
 وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢١﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ
 وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعُمَّتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ
 الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
 وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
 وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ
 اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ
 مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
 إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٢﴾

وَأَنْ شَاءُوا زَوْجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يَرْجُواهَا، فَهَمْ أَحَقُّ
 بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ (٣).

[التهني عن الإضرار بالنساء]

وقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهُبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي
 لا تضاروهن في العشرة، لتترك لك ما أصدقتهن، أو
 بعضه، أو حقًا من حقوقها عليك، أو شيئًا من ذلك على
 وجه التفهر لها والاضطهاد. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ
 مُبِينَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ
 وَالشَّعْبِيُّ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، وَسَعِيدُ
 ابْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ،
 وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو قِلَابَةَ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ

(١) تحفة الأحوزي: ٥٢١/٩ وابن ماجه: ١٤٢٠/٢ (٢) أحمد:
 ١٧٤/٥ إسناده ضعيف لجهالة ابن نعيم وأسامة بن سلمان مجهول
 أيضًا ويغني عنه حديث ابن عمر الذي تقدم "إن الله يقبل توبة عبده
 ما لم يغر" (٣) فتح الباري: ٩٣/٨

وَهُمْ، إِنَّمَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (١).
 قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
 حَكِيمًا﴾ فَأَمَّا مَتَى وَقَعَ الْإِبَاسُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَعَايَنَ الْمَلِكُ،
 وَحَشَرَجَتِ الرُّوحُ فِي الْحَلْقِ، وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ، وَبَلَغَتِ
 الْحُلُقُومُ، وَغَرَّغَرَتِ النَّفْسُ صَاعِدَةً فِي الْغَلَّاصِمِ، فَلَا تُوْبَةُ
 مُقْبِلَةً جَنِيذًا، وَلَا تَجِيْنٌ مَنَاصِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَيْسَتْ
 التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ
 الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْقَتْلَ﴾ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا
 بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ...﴾ [الآيتين: غافر: ٨٤، ٨٥]،
 وَكَمَا حَكَّمَ تَعَالَى بِعَدَمِ تُوْبَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذَا عَايَنُوا الشَّمْسَ
 طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ
 لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا
 خَيْرًا﴾... [الآية: الأنعام: ١٥٨].

وقوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا﴾ يعني أن
 الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته،
 وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدْيَةٌ وَلَوْ بِمِلْءِ الْأَرْضِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو
 الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ. ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ
 كُفَّارًا﴾ قَالُوا: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الشُّرْكِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ
 عَنْ أُسَامَةَ بْنِ سَلْمَانَ: أَنَّ أَبَا ذَرٍّ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تُوْبَةَ عَبْدِهِ، أَوْ يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ، مَا لَمْ يَبْعَ
 الْحِجَابَ». قِيلَ: وَمَا وَفُوعُ الْحِجَابِ؟ قَالَ: «أَنْ تَخْرُجَ
 النَّفْسُ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ» (٢). وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ
 أَحْتَدِنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَي مُوجِعًا شَدِيدًا مُقِيمًا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا
 تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهُبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ
 مُبِينَةٍ وَعَايَرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
 شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١) وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ
 زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ إِحْدَيْتَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ
 شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتِنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿١٩﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ
 أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا
 غَلِيظًا ﴿٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا
 قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢١﴾

[معنى إرت النساء كرها]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قَالَ: كَانُوا إِذَا مَاتَ
 الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِأَمْرَاتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَرْوَجَهَا،

مُؤْمِنَةٍ، إِنْ سَخَطَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ^(٥).

[النَّهْيُ عَنِ اسْتِزْدَادِ الصَّدَاقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَمَاتَ بَيْتُكُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْبَتِنَا وَإِنَّمَا تُهَيِّبُوا أَنفُسَكُمْ أَنْ يُفَارِقَ امْرَأَةً، وَيَسْتَبْدِلَ مَكَانَهَا غَيْرَهَا، فَلَا يَأْخُذَنَّ مِنْهَا كَانَ أَصْدَقَ الْأُولَى شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ قِنطَارًا مِنْ مَالٍ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ الْإِصْدَاقِ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ نَهَى عَنْ كَثْرَةِ الْإِصْدَاقِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: أَلَا لَا تَعْلَمُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرَمَةً فِي الدُّنْيَا، أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ، كَانَ أَوْلَاكُمْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، مَا أَصْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ، وَلَا أَصْدَقَتْ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَةً، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَبْتَلِي بِصَدَقَةِ امْرَأَتِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهَا عَدَاوَةٌ فِي نَفْسِهِ، وَحَتَّى يَقُولَ: كَلَفْتُ إِلَيْكَ عِلْقَ الْقُرْبَى^(٦). ثُمَّ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ طُرُقٍ^(٧). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: رَكِبَ عُمَرُ ابْنَ الْخَطَّابِ مَيْتَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَا إِكْتَارُكُمْ فِي صُدُقِ النِّسَاءِ؟ وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَالصَّدَقَاتُ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَرْبَعِمِائَةَ ذَهَبٍ، فَمَا دُونَ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ الْإِكْتَارُ فِي ذَلِكَ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ أَوْ كَرَامَةً لَمْ تَسْبِقُوهُمْ إِلَيْهَا. فَلَا أَعْرِفُ مَا زَادَ رَجُلٌ فِي صَدَاقِ امْرَأَةٍ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ ذَهَبٍ. قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ، فَاعْتَرَضَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَهَيْتَ النَّاسَ أَنْ يَزِيدُوا النِّسَاءَ صَدَاقَهُمْ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ ذَهَبٍ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْفُرْآنِ؟ قَالَ: وَأَيُّ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا تَنْبِئُكُمْ بِإِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا... آيَةٌ؟ قَالَ: فَقَالَ: اللَّهُمَّ غَفْرًا، كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ. ثُمَّ رَجَعَ فَرَكِبَ الْمَيْتَرَ فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ

أَسْلَمَ، وَسَعِيدُ بْنُ أَبِي هِلَالٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ الزَّانَا. يَعْنِي إِذَا زَنَتْ فَلَكَ أَنْ تَسْتَرْجِعَ مِنْهَا الصَّدَاقَ الَّذِي أُعْطَيْتَهَا، وَتَضَاجِرَهَا حَتَّى تَتْرُكَهُ لَكَ، وَتُخَالِعَهَا^(١). كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعَيِّمَا حُدُودَ اللَّهِ... آيَةٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَالصَّحَّاحُ: الْفَاحِشَةُ الْمُبِينَةُ النُّشُورُ وَالْعُضْيَانُ^(٢). وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ يُعْمُ ذَلِكَ كُلُّهُ: الزَّانَا وَالْعُضْيَانُ، وَالنُّشُورُ وَبَدَاءُ اللِّسَانِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ. يَعْنِي أَنَّ هَذَا كُلُّهُ يُبِيحُ مَضَاجِرَتَهَا حَتَّى تُبْرَأَهُ مِنْ حَقِّهَا أَوْ بَعْضِهِ. وَيُفَارِقُهَا، وَهَذَا جَيِّدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْأَمْرُ بِحُسْنِ عَشْرَةِ النِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَي طَبَّبُوا أَقْوَالَكُمْ لَهُنَّ، وَحَسَّنُوا أَفْعَالَكُمْ وَهَيَّأْتِكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ، كَمَا نُجِبُ ذَلِكَ مِنْهَا، فَافْعَلْ أَتَتْ بِهَا مِثْلُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكُنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِيهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي^(٣)» وَكَانَ مِنْ أَحْلَافِهِ ﷺ أَنَّهُ جَمِيلُ الْعِشْرَةِ، دَائِمُ الْبِشْرِ، يُدَاعِبُ أَهْلَهُ، وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ، وَيُوسِّعُهُمْ نَفَقَتَهُ، وَيُضَاحِكُ نِسَاءَهُ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُسَابِقُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يَتَوَدَّدُ إِلَيْهَا بِذَلِكَ، قَالَتْ: سَابَقْتَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْتُهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ أَحْمِلَ اللَّحْمَ، ثُمَّ سَابَقْتُهُ بَعْدَ مَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ فَسَبَقْتَنِي، فَقَالَ: «هَذِهِ بَيْتُكَ^(٤)».

وَيَجْتَمِعُ نِسَاؤُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْكُلُ مَعَهُنَّ الْعِشَاءَ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ، ثُمَّ تَتَصَرَّفُ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى مَنْزِلِهَا، وَكَانَ يَتَامُ مَعَ الْمَرْأَةِ مِنْ نِسَائِهِ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ، يَضَعُ عَنْ كَتِفَيْهِ الرِّدَاءَ وَيَتَامُ بِالْأَزَارِ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ يَدْخُلُ مَنْزِلَهُ، يَسْمُرُ مَعَ أَهْلِهِ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَتَامَ، يُؤَانِسُهُمْ بِذَلِكَ ﷺ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أَي فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَبْرُكُمْ مَعَ إِمْسَاكِكُمْ لَهُنَّ وَكِرَاهَتِهِنَّ، فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُوَ أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهَا فَيُرْزَقَ مِنْهَا وَلَدًا، وَيَكُونَ فِي ذَلِكَ الْوَلَدِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا يَفْرُقُ مُؤْمِنٌ

(١) الطبري: ١١٥/٨-١١٧ (٢) الطبري: ١١٧/٨ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٩٤/١٠ (٤) أبو داود: ٦٦/٣ (٥) مسلم: ١/١٠٩١ (٦) أحمد: ٤٠/١ (٧) أبو داود: ٥٨٢/٢ وتحفة الأحوذى: ٢٥٥/٤ والنسائي: ١١٧/٦ وابن ماجه: ٦٠١/١

نَهَيْتُمْ أَنْ تَزِيدُوا النِّسَاءَ فِي صَدَاقِهِنَّ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَ مِنْ مَالِهِ مَا أَحَبَّ. قَالَ أَبُو بَعْلَى: وَأَظْنُهُ قَالَ: فَمَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ فَلْيَفْعَلْ، إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أَيْ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَ الصَّدَاقَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَقَدْ أَفْضَيْتَ إِلَيْهَا وَأَفْضَتْ إِلَيْكَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَمَاعَ^(١). - وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ لِلْمُتَلَاعَتَيْنِ بَعْدَ فَرَاغِهِمَا مِنْ تَلَاعُعِهِمَا: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ. فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» ثَلَاثًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَالِي؟ - يَعْنِي مَا أَصْدَقَهَا - قَالَ: «لَا مَالَ لَكَ. إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهَوَّ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَهَوَّ أَبْعَدَ لَكَ مِنْهَا»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: الْعُقْدَ^(٣). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ جَابِرِ بْنِ خَطِيبَةَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِيهَا: «وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ»^(٤).

تَحْرِيمَ زَوْجَاتِ الْأَبِّ عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَحُكْمَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ الْآيَةُ، يُحَرِّمُ اللَّهُ تَعَالَى زَوْجَاتِ الْأَبَاءِ تَحْرِمَةً لَهُمْ، وَإِعْظَامًا وَاحْتِزَامًا أَنْ تَوَطَّأَ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى إِذَا تَحَرَّمَ عَلَى الْإِبْنِ بِمُجَرَّدِ الْعُقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا امْرَأَةَ الْأَبِّ وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ»^(٥). وَهَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَقَتَادَةُ^(٦).

فَهُوَ حَرَامٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، مُبْتَسَعٌ غَايَةَ التَّبَسُّعِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ﴾ [الأنعام: ١٥١] وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً

وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فَرَادَ هَهُنَا ﴿وَمَقْتًا﴾ أَيْ بُغْضًا أَيْ هُوَ أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِهِ، وَيُؤَدِّي إِلَى مَقْتِ الْإِبْنِ أَبَاهُ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَتِهِ، فَإِنَّ الْعَالِبَ أَنْ مَنْ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ يُبْغِضُ مَنْ كَانَ زَوْجَهَا قَبْلَهُ، وَلِهَذَا حُرِّمَتْ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْأُمَّةِ، لِأَنَّهِنَّ أُمَّهَاتُ لِكُونِهِنَّ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ. وَهُوَ كَالْأَبِّ، بَلْ حَقُّهُ أَكْبَرُ مِنْ حَقِّ الْأَبَاءِ بِالْإِجْمَاعِ، بَلْ حُبُّهُ مُقَدَّمٌ عَلَى حُبِّ النَّفْسِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَاحٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَقْتًا﴾ أَيْ يَمُتُّ اللَّهُ عَلَيْهِ، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أَيْ وَيُسُّ طَرِيقًا لِمَنْ سَلَكَهُ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَعَاطَاهُ بَعْدَ هَذَا فَقَدْ اِزْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، فَيُقْتَلُ، وَيَصِيرُ مَالُهُ فَيْئًا لِيَتَّيَبَ الْمَالِ. كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ طَرِيقٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، عَنْ خَالِهِ أَبِي بُرْدَةَ - وَفِي رِوَايَةٍ: ابْنُ عَمْرٍ، وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ عَمِّهِ - أَنَّهُ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً أَبِيهِ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَقْتُلَهُ وَيَأْخُذَ مَالَهُ^(٧).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَكَهَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَاتِّهَنَاتُكُمْ الَّتِي أَزْصَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أُمَّهَاتِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٢٣﴾ وَالْمُنْصَنُوتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَهُ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَدُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ عَدْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَفَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمُوهُنَّ مِنْ بَعْدِ الرِّضْعَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٢٤﴾

[بَيَانُ الْمُحَرَّمَاتِ الْأَبَدِيَّةِ وَعَبْرِ الْأَبَدِيَّةِ] هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ تَحْرِيمِ الْمُحَارِمِ مِنَ النَّسَبِ، وَمَا يَتَّبَعُهُ مِنَ الرِّضَاعِ، وَالْمُحَارِمِ بِالصُّهْرِ، كَمَا رَوَى ابْنُ

(١) الطبري: ١٢٦/٨ (٢) فتح الباري: ٣٦٦/٩ ومسلم: ٢/١١٣١ (٣) الطبري: ١٢٩/٨ (٤) مسلم: ٨٨٩/٢ (٥) الطبري: ١٣٢/٨ (٦) الطبري: ١٣٢-١٣٤/٨ (٧) أحمد: ٤/٢٩٠ وأبو داود: ٤/٦٠٩ وتحفة الأحوذى: ٤/٥٩٨ والنسائي في الكبرى: ٤/٢٩٦ وابن ماجه: ٢/٨٦٩

﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
 كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِحْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَتَّعُوا
 بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ
 مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
 حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ
 الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
 فَنِيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
 بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
 بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ
 أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْ تَبْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْنَّ يَصِفُ
 مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
 الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي
 كَانَتْ تَكُونُ فِي
 أَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبْنَ بِفَحِشَةٍ
 فَعَلَيْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 ﴿٢٦﴾

[الرَّيْبَةُ حَرَامٌ سِوَاءَ كَانَتْ فِي حَجَرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ]
 وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَيْبِيكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾
 فَجَمْعُهَا الرَّيْبَةُ عَلَى أَنَّ الرَّيْبَةَ حَرَامٌ سِوَاءَ كَانَتْ فِي حَجَرِ
 الرَّجُلِ، أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حَجَرِهِ، قَالُوا: وَهَذَا النِّصَابُ
 خَرَجَ مَخْرَجَ الْعَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا
 تُكْرَهُوا فَنِيَتِكُمْ عَلَى الْبَيْعِ إِذْ أُرِدْنَ مَخْصَصًا﴾ [النور: ٣٣]. وَفِي
 الصَّحِيحِينَ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، انكِحْ أُخْتِي
 بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ. وَفِي لَفْظِ لِمُسْلِمٍ: عَزَّةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ،
 قَالَ: «أَوْ تُحِبِّينَ ذَلِكَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيةٍ،
 وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرِ أُخْتِي، قَالَ: «فَإِنَّ ذَلِكَ لَا
 يَحِلُّ لِي». قَالَتْ: فَإِنَّا نَحَدِّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكَحَ بِنْتَ أَبِي
 سَلَمَةَ، قَالَ: «بِنْتُ أُمَّ سَلَمَةَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «إِنِّهَا لَوْ
 لَمْ تَكُنْ رَيْبِيَّةً فِي حَجَرِي مَا حَلَّتْ لِي، إِنِّهَا لَبِنْتُ أُخْتِي

(١) الطبري: ١٤٢/٨ (٢) الطبري: ١٤١/٨ (٣) فتح الباري:
 ٤٣/٩ ومسلم: ١٠٦٨/٢ (٤) مسلم: ١٠٧٥/٢ (٥) أبو
 داود: ٥٥٠/٢

أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ سَبْعُ نَسَبًا
 وَسَبْعُ صِهْرًا، وَقَرَأَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ
 وَأَخَوَاتُكُمْ﴾... الآية (١). وَرَوَى الطَّبْرِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
 قَالَ: يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ سَبْعٌ، وَمِنَ الصَّهْرِ سَبْعٌ، ثُمَّ قَرَأَ:
 ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ
 وَكَهَنَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ فَهِنَّ النَّسَبُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْتِكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ
 مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾ أَي كَمَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ،
 كَذَلِكَ يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ الَّتِي أَرْضَعْتِكَ، وَلِهَذَا رَوَى
 البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ،
 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّضَاعَةَ تَحْرُمُ مَا تَحْرُمُ
 الْوِلَادَةُ»، وَفِي لَفْظِ لِمُسْلِمٍ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ
 مِنَ النَّسَبِ» (٣).

[قَدْرٌ مَا يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَمَدَّتُهَا]

وَلَا يَحْرُمُ أَقْلٌ مِنْ خَمْسِ رَضَعَاتٍ، لِمَا ثَبَتَ فِي
 صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ فِيهَا
 أَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يَحْرُمْنَ، ثُمَّ
 نَسِخَ بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ، فَتَوَفَّى النَّبِيُّ ﷺ وَهُنَّ فِيهَا يُقْرَأُ
 مِنَ الْقُرْآنِ (٤). وَفِي حَدِيثٍ سَهْلَةٌ بِنْتُ سَهْلٍ: أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ أَمَرَهَا أَنْ تُرْضِعَ سَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ خَمْسَ
 رَضَعَاتٍ (٥).

ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا بَدَأَ أَنْ تَكُونَ الرِّضَاعَةُ فِي سِنِّ الصَّغِيرِ
 دُونَ الْحَوْلَيْنِ. كَمَا قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي
 سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿يُرْضِعْنَ أَبْوَالَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ
 أَرَادَ أَنْ يُيمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

[حُرْمَةُ أُمَّهَاتِ الزَّوْجَاتِ وَبَنَاتِهِنَّ]

وقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَيْبِيكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ
 مِنَ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ
 بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، أَمَّا أُمُّ الْمَرْأَةِ فَإِنَّهَا تَحْرُمُ
 بِمَجْرَدِ الْعُقْدِ عَلَى ابْتِنِهَا، سِوَاءَ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ،
 وَأَمَّا الرَّيْبِيَّةُ، وَهِيَ بِنْتُ الْمَرْأَةِ، فَلَا تَحْرُمُ بِمَجْرَدِ الْعُقْدِ
 عَلَى أُمِّهَا حَتَّى يَدْخُلَ بِهَا، فَإِنْ طَلَّقَ الْأُمُّ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا
 جَازَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِبَنَّتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَرَيْبِيكُمُ الَّتِي فِي
 حُجُورِكُمْ وَنِيسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا
 دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فِي تَرْوِيجِهِنَّ، فَهَذَا
 خَاصٌّ بِالرَّبَائِبِ وَحَدُّهُنَّ.

سَلَفٌ... الآية. أَي وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ مَعًا فِي التَّرْوِيجِ، وَكَذَا فِي مَلِكِ الْيَمِينِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْكُمْ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ فَقَدْ عَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَفَرْنَاهُ. فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا مَثْوِيَّةَ فِيهَا يُسْتَقْبَلُ وَلَا اسْتِثْنَاءَ فِيهَا سَلَفٌ، كَمَا قَالَ:

﴿لَا يَدُورُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان:

٥٦] فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَدُورُونَ فِيهَا الْمَوْتُ أَبَدًا، وَقَدْ

أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَيُّمَةَ قَدِيمًا

وَحَدِيثًا عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ فِي النِّكَاحِ،

وَمَنْ أَسْلَمَ وَتَحْتَهُ أُخْتَانِ خَيْرٌ، فَيَمْسِكُ إِحْدَاهُمَا وَيُطَلِّقُ

الْأُخْرَى لَا مَحَالَةَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ

فَيْرُوزَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَسْلَمْتُ وَعِنْدِي امْرَأَتَانِ أُخْتَانِ،

فَأَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أُطَلِّقَ إِحْدَاهُمَا^(٧).

[تَحْرِيمُ الْمُحْصَنَاتِ إِلَّا إِذَا صِرْنَ مَلَكَ الْيَمِينِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ﴾ أَي وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَجْنِبِيَّاتِ الْمُحْصَنَاتِ،

وَهُنَّ الْمُرُوجَاتُ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، يَعْنِي إِلَّا مَا

مَلَكَتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ فَإِنَّهُ يَجِلُّ لَكُمْ وَطُوهُنَّ إِذَا

اسْتَبْرَأْتُمُوهُنَّ، فَإِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ. وَرَوَى الْإِمَامُ

أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: أَصَبْنَا نِسَاءً مِنْ سَبْيِ

أَوْطَاسٍ، وَلَهُنَّ أَزْوَاجٌ، فَكَرِهْنَا أَنْ نَقَعَ عَلَيْهِنَّ وَلَهُنَّ

أَزْوَاجٌ، فَسَأَلْنَا النَّبِيَّ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ

مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فَاسْتَحْلَلْنَا بِهَا

فُرُوجَهُنَّ^(٨). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(٩)، وَرَوَاهُ

النَّسَائِيُّ^(١٠)، وَابْنُ جَرِيرٍ^(١١)، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي

صَحِيحِهِ^(١٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَي هَذَا التَّحْرِيمُ

كِتَابَ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَالزُّمُوا كِتَابَهُ، وَلَا تَخْرُجُوا عَنْ

حُدُودِهِ، وَالزُّمُوا شَرَعَهُ وَمَا فَارَضَهُ.

[إِحْلَالُ نِكَاحٍ غَيْرٍ مَن ذُكِرْنَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَدَّاهُ ذَلِكَ﴾ أَي مَا عَدَا

مِنَ الرِّضَاعَةِ، أَرْضَعْتَنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثَوْبِيَّةَ، فَلَا تَعْرِضَنَّ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلَا أَحْوَابِكُنَّ^(١). وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبَخَّارِيِّ: «إِنِّي لَوْ لَمْ أَتَزَوَّجْ أُمَّ سَلَمَةَ مَا حَلَّتْ لِي»^(٢). فَجَعَلَ الْمَنَاطَ فِي التَّحْرِيمِ مُجَرَّدَ تَزْوِيجِهِ أُمَّ سَلَمَةَ، وَحَكَمَ بِالتَّحْرِيمِ لِذَلِكَ.

[تَفْسِيرُ الدُّخُولِ]

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أَي نَكَحْتُمُوهُنَّ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ^(٣). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ

عَطَاءٍ: هُوَ أَنْ تُهْدَى إِلَيْهِ فَيَكْشِفُ وَيُقَشِّسَ وَيَجْلِسَ بَيْنَ

رِجْلَيْهَا. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ أَهْلِهَا؟ قَالَ:

هُوَ سَوَاءٌ، وَحَسْبُهُ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ابْتِنَاهَا^(٤).

[تَحْرِيمُ زَوْجَاتِ الْأَبْنَاءِ دُونَ زَوْجَاتِ الْمُتَبَنَّى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾

أَي وَحَرَّمَتْ عَلَيْكُمْ زَوْجَاتِ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ وَلَدْتُمُوهُنَّ مِنْ

أَصْلَابِكُمْ، يَخْتَرِزُ بِذَلِكَ عَنِ الْأَدْعَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّبِعُونَهُمْ

فِي الْجَاهِلِيَّةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا

زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ

أَدْعَائِهِمْ﴾... الآية [الأحزاب: ٣٧]، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:

سَأَلْتُ عَطَاءَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ

أَصْلَابِكُمْ﴾. قَالَ: كُنَّا نَحَدِّثُ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

لَمَّا نَكَحَ امْرَأَةَ زَيْدٍ، قَالَ الْمُسْرِكُونَ بِمَكَّةَ فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾

وَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]،

وَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾

[الأحزاب: ٤٠]، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ

مُحَمَّدٍ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مُبْهَمَاتٌ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾،

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ طَاوُسٍ وَإِبْرَاهِيمَ

وَالزُّهْرِيِّ وَمَكْحُولٍ، نَحْوَ ذَلِكَ.

(قُلْتُ) مَعْنَى مُبْهَمَاتٍ أَي عَامَّةٌ فِي الْمَدْخُولِ بِهَا وَعَبْرٌ

الْمَدْخُولِ، فَتَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[شَبْهَةٌ وَجَوَابُهَا]

(فَإِنَّ قِيلَ): فَمِنْ أَيْنَ تَحْرُمُ امْرَأَةُ ابْنِهِ مِنَ الرِّضَاعَةِ كَمَا هُوَ

قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْكِيهِ إِجْمَاعًا وَلَيْسَ مِنْ صُلْبِهِ،

(فَالْجَوَابُ) مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ

النِّسَابِ»^(١).

[تَحْرِيمُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ فِي النِّكَاحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ

(١) فتح الباري: ٦٤/٩ ومسلم: ١٠٧٣/٢ (٢) فتح الباري:

٦٢/٩ (٣) الطبري: ١٤٨/٨ (٤) الطبري: ١٤٨/٨ (٥)

الطبري: ١٤٩/٨ (٦) مسلم: ١٠٧٢/٢ (٧) أحمد: ٤/

٢٣٢ (٨) أحمد: ٧٢/٣ (٩) تحفة الأحوذني: ٢٨٢/٤ (١٠)

النسائي في الكبرى: ٣٠٨/٣ (١١) الطبري: ١٥٣/٨ (١٢)

مسلم: ١٠٨٠/٢

بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ
فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ بِنِكَاحِكُمْ فَتَقْتَلِينَ نَفْسَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ
مِنْ الْعَدَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَمَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تُصْرَبُوا خَيْرٌ
لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾

[جَوَازُ نِكَاحِ الْإِمَاءِ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ نِكَاحَ الْحَرَائِرِ]
يَقُولُ تَعَالَى: وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مِنْكُمْ طَوْلًا ﴿١٦﴾ أَيُّ سَعَةٍ
وَقُدْرَةٍ ﴿١٦﴾ أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴿١٦﴾ أَيُّ الْحَرَائِرِ
الْعَفَائِفِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴿١٦﴾ فَمَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَتَيْكُمْ
الْمُؤْمِنَاتِ ﴿١٦﴾ أَيُّ فَتَرَوُجُوا مِنَ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ اللَّاتِي
يَمْلِكُهُنَّ الْمُؤْمِنُونَ، ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ ﴿١٦﴾ أَيُّ هُوَ الْعَالِمُ بِحَفَاتِقِ الْأُمُورِ وَسَرَائِرِهَا، وَإِنَّمَا لَكُمْ
أَيُّهَا النَّاسُ الظَّاهِرُ مِنَ الْأُمُورِ؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ
أَهْلِهِنَّ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السَّيِّدَ هُوَ وَلِيُّ أُمَّتِهِ، لَا تَزُوجُ إِلَّا
بِإِذْنِهِ، وَكَذَلِكَ هُوَ وَلِيُّ عَبْدِهِ، لَيْسَ لِعَبْدِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ
إِذْنِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ
مَوْلَاهِ فَهُوَ عَاهِرٌ»^(٧). أَيُّ زَانٍ. فَإِنْ كَانَ مَالِكُ الْأُمَةِ امْرَأَةً
زَوَّجَهَا مِنْ بُرُوجِ الْمَرْأَةِ، بِإِذْنِهَا؛ لِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:
«لَا تَزُوجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، وَلَا الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ
الَّتِي تَزُوجُ نَفْسَهَا»^(٨). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ وَاذْفَعُوا مَهْرَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، أَيُّ عَنْ طَيْبِ
نَفْسٍ مِنْكُمْ، وَلَا تَبْخَسُوا مِنْهُ شَيْئًا اسْتِثْنَانَهُ بِهِنَّ لِكُونِهِنَّ
إِمَاءَ مَمْلُوكَاتٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ أَيُّ عَفَائِفٍ عَنْ
الرِّئَاءِ، لَا يَتَعَايَنُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ﴾ وَهِنَّ
الزَّوَانِي اللَّاتِي لَا يَمْنَعَنَّ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ - وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:
الْمُسَافِحَاتُ هُنَّ الزَّوَانِي الْمُعْلِنَاتُ^(٩). يَعْنِي الزَّوَانِي
الَّتِي لَا يَمْنَعَنَّ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ وَمُتَّخِذَاتِ ﴿أَخْدَانٍ﴾
يَعْنِي أَخْلَاءَ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمُجَاهِدٍ
وَالسَّعْبِيِّ، وَالصَّحَّاحِ، وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَيَحْيَى بْنِ أَبِي
كَثِيرٍ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ وَالسُّدِّيِّ، قَالُوا: أَخْلَاءُ^(١٠).

مَنْ ذُكِرَ مِنَ الْمُحَارِمِ، هُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ، قَالَهُ عَطَاءٌ
وَعِيره^(١١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
مُسْفِحِينَ﴾ أَيُّ تَحْصَلُوا بِأَمْوَالِكُمْ مِنَ الزَّوْجَاتِ إِلَى أَرْبَعِ،
أَوْ السَّرَّارِي مَا شِئْتُمْ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ:
﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ
مِنْهُنَّ فَاتَّوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أَيُّ كَمَا تَسْتَمْتَعُونَ بِهِنَّ
فَاتَّوهُنَّ مَهْرَهُنَّ فِي مَقَابَلَةِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾
[النساء: ٢١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾
[النساء: ٤]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

[بَيَانُ مُتْعَةِ النِّسَاءِ وَحُرْمَتِهَا]

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبِي بَنُ كَعْبٍ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ
وَالسُّدِّيُّ يَقْرَءُونَ: (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجْلِ مَسْمَى
فَاتَّوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً)^(١٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي
نِكَاحِ الْمُتْعَةِ^(١٣). وَالْعُمْدَةُ مَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
عَنْ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ، وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ يَوْمَ خَيْبَرَ^(١٤).
وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ بْنِ مَعْبُدِ الْجُهَنِيِّ،
عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ عَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ:
«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي كُنْتُ أَذْنُتُ لَكُمْ فِي الْإِسْتِمْتَاعِ مِنَ
النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ
عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ
شَيْئًا»^(١٥) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَّيْتُمْ بِهِ
مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ مَعْنَاهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ
نِحْلَةً﴾... الْآيَةُ [النساء: ٤]، أَيُّ إِذَا فُرِضَتْ لَهَا صَدَاقًا
فَأَبْرَأْتِكُ مِنْهُ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ وَلَا عَلَيْهَا
فِي ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: زَعَمَ الْحَضْرَمِيُّ: أَنَّ
رَجُلًا كَانُوا يَفْرِضُونَ الْمَهْرَ، ثُمَّ عَسَى أَنْ يُدْرِكَ أَحَدَهُمُ
الْعُسْرَةَ، فَقَالَ: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، فِيمَا
تَرَضَّيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ^(١٦). يَعْنِي إِنْ وَضَعْتَ لَكَ مِنْهُ
شَيْئًا فَهُوَ لَكَ سَائِعٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا﴾ مُتَّاسِبٌ ذِكْرُ هَذَيْنِ الْوُضُفَيْنِ بَعْدَ شَرْعِ هَذِهِ
الْمُحَرَّمَاتِ.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ
فَمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَتَيْكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

(١) الطبري: ١٧٢/٨ (٢) الطبري: ١٧٦/٨ - ١٧٨ (٣)

الطبري: ١٧٦/٨ (٤) فتح الباري: ٩/٥٩٠ ومسلم: ٢/١٠٢٧

(٥) مسلم: ٢/١٠٢٥ (٦) الطبري: ١٨٠/٨ (٧) أبو داود:

٥٦٣/٢ (٨) ابن ماجه: ١/٦٠٦ (٩) الطبري: ١٩٣/٨

(١٠) الطبري: ١٩٤/٨

[عَلَى الْأَمَةِ إِذَا رَزَتْ نِصْفَ عَذَابِ الْحُرَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَحْصِنَّ فَإِنَّ أَتَيْتَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْتَهُنَّ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِحْصَانِ هَهُنَا التَّرْوِيجُ، لِأَنَّ سِبَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ سِبَاقُهَا كُلُّهَا فِي الْفَتَيَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا أَحْصِنَّ﴾ أَي تَزَوَّجْنَ، كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَنْ تَبِعَهُ (١). وَقَوْلُهُ: ﴿نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يُمَكِّنُ تَنْصِيفَهُ، وَهُوَ: الْجُلْدُ لَا الرَّجْمُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أَي إِنَّمَا يُبَاحُ نِكَاحُ الْإِمَاءِ بِالشَّرْطِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْوُقُوعَ فِي الزَّانَا، وَشَقَّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَنِ الْجَمَاعِ، وَعَنَتٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَحَيْثُ يَتَزَوَّجُ بِالْأَمَةِ، وَإِنْ تَرَكَ تَزَوُّجَهَا وَجَاهَدَ نَفْسَهُ فِي الْكُفِّ عَنِ الزَّانَا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ لِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَهَا جَاءَ أَوْلَادُهُ أَرْقَاءً لِسَيِّدِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُخَيِّرَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)

يُخَيِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا، ﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يَعْنِي طَرِيقَهُمْ الْحَمِيدَةَ وَاتِّبَاعَ شَرَائِعِهِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أَي مِنَ الْإِثْمِ وَالْمَحَارِمِ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَي فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أَي يُرِيدُ اتِّبَاعَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالزَّانَا أَنْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أَي فِي شَرَائِعِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَمَا يَقْدَرُهُ لَكُمْ، وَلِهَذَا أَبَاحَ الْإِمَاءَ بِشُرُوطِهِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ (٢). ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ فَتَأْسَبُ التَّخْفِيفُ لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ وَضَعْفِ عَزْمِهِ وَهَيْبَتِهِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ طَاوُسٍ، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

٨٣ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِنْ تَجْتَبَرُوا كِبَارٍ مَا نَهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَعَاثُوهُمْ نُصَلِّهِمْ إِنْ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

ضَعِيفًا﴾ أَي فِي أَمْرِ النِّسَاءِ (٣). وَقَالَ وَكَيْعٌ: يَذْهَبُ عَقْلُهُ عِنْدَهُنَّ.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِنْ تَجْتَبَرُوا كِبَارٍ مَا نَهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

[النَّهْيُ عَنِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ]

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ أَنْ يَأْكُلُوا أَمْوَالًا بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْبَاطِلِ، أَي بِأَنْوَاعِ الْمَكَايِبِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ شَرْعِيَّةٍ كَأَنْوَاعِ الرِّبَا وَالْقِمَارِ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ صُنُوفِ الْحَيْلِ، وَإِنْ ظَهَرَتْ فِي غَالِبِ الْحُكْمِ

(١) الطبري: ٢٠٢/٨ (٢) الطبري: ٢١٥/٨ (٣) الطبري: ٨/٨

بِأَصْحَابِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ «يَا عَمْرُو، صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرْدِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ، فَصَحَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا^(٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٦). وَأُورِدَ ابْنُ مَرْدُودِيهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسِمْ قَسْمُهُ فِي يَدِهِ، يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ مُتَرَدِّدٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»، وَهَذَا الْحَدِيثُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٧). وَعَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنِ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذَّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٨). وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا أُنِيَ وَمَنْ يَتَعَاطَى مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ مُعْتَدِيًا فِيهِ ظَالِمًا فِي تَعَاتِيهِ أُنِيَ عَالِمًا بِتَحْرِيمِهِ مُتَجَاسِرًا عَلَى آثَانِهِ كَيْدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ، فَلْيَحْذَرِ مِنْهُ كُلُّ عَاقِلٍ لِيَبِئْسَ مِمَّنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

[تَكْفَرُ الصَّغَائِرُ إِذَا اجْتَنَبَتِ الْكِبَائِرُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ جَحْتَبُوا كِبَائِرَ مَا نُتَهَوْنَ عَنْهُ نُكْفَرُ عَنْكُمْ سَعْيَاتِكُمْ﴾... الْآيَةَ، أُنِيَ إِذَا اجْتَنَبْتُمْ كِبَائِرَ الْأَثَامِ الَّتِي نُهَيْتُمْ عَنْهَا، كَفَرْنَا عَنْكُمْ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ وَأَدْخَلْنَاكُمْ الْجَنَّةَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَدْخَلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، فَلَنَذْكُرُ بَعْضًا مِنْهَا، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَدْرِي مَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ؟»

(١) الطبري: ٢١٧/٨ (٢) الطبري: ٢٢١/٨ (٣) فتح الباري: ٣٨٥/٤ ومسلم: ١١٦٣/٣ (٤) فتح الباري: ٣٩٠/٤ (٥) أحمد: ٢٠٣/٤، ٢٠٤ (٦) أبو داود: ٣٣٤ (٧) البخاري: ٥٧٧٨ ومسلم: ١٠٩ (٨) أحمد: ٣٣/٤

الشَّرْعِيِّ مِمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّ مُتَعَاطِيَهَا إِنَّمَا يُرِيدُ الْحِيلَةَ عَلَى الرِّبَا، حَتَّى رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الرَّجُلِ يَشْتَرِي مِنَ الرَّجُلِ الثُّوبَ فَيَقُولُ: «إِنْ رَضِيْتَهُ أَخَذْتُهُ، وَإِلَّا رَدَدْتُهُ وَرَدَدْتُ مَعَهُ ذِرْهَمًا»، قَالَ: هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]^(١). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿بِتَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَانَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَالطَّعَامُ هُوَ أَفْضَلُ أَمْوَالِنَا، فَلَا يَجِلُّ لِأَحَدٍ مِمَّا أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ، فَكَيْفَ لِلنَّاسِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾... الْآيَةَ [النور: ٦١]، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِمَكْرَةٍ عَنِ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ فَرِيءٌ تِجَارَةٌ بِالرَّفْعِ وَبِالنَّضْبِ وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تَتَعَاطَوْا الْأَسْبَابَ الْمَحْرَمَةَ فِي احْتِسَابِ الْأَمْوَالِ، وَلَكِنَّ الْمَتَاجِرَ الْمَشْرُوعَةَ الَّتِي تَكُونُ عَنْ تَرَاضٍ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَافْعَلُوها، وَتَسَبَّبُوا بِهَا فِي تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتِ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِمَكْرَةٍ عَنِ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ بَيْعًا أَوْ عَطَاءً يُعْطِيهِ أَحَدٌ أَحَدًا^(٢). وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

[خِيَارُ الْمَجْلِسِ فِي الْبَيْعِ مِنْ تَمَامِ التَّرَاضِي فِي التِّجَارَةِ]

وَمِنْ تَمَامِ التَّرَاضِي إِثْبَاتُ خِيَارِ الْمَجْلِسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا»^(٣) وَفِي لَفْظِ الْبُخَارِيِّ: «إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا»^(٤).

[النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أُنِيَ بِإِزْتِكَابِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَتَعَاطِي مَعَاصِيهِ، وَأَكْلِ أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أُنِيَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ، عَامَ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، قَالَ: احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرْدِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ

النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، - أَوْ قَتْلُ النَّفْسِ، شُعْبَةُ الشَّاكِّ - وَالْيَمِينُ الْعَمُوسُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٧).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي التَّسْبِيبِ إِلَى شَمِّ الْوَالِدَيْنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يُلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قَالُوا: وَكَيْفَ يُلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ» وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٨). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: صَحِيحٌ، وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقَتَالُهُ كُفْرٌ»^(٩).

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكْفِي سَاءَ عِلْمًا﴾^(١٠)
[التَّهْنِي عَنْ تَمَنِّي مَا فَضَّلَ بِهِ غَيْرُهُ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَارَسُولَ اللَّهِ، يَغْزُوا الرَّجَالَ وَلَا نَغْزُوا، وَلَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(١٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْسَبْنَ﴾ أَي كُلُّ لَهُ جَزَاءٌ عَلَى عَمَلِهِ بِحَسَبِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ فِي الْمِيرَاثِ، أَي كُلُّ يَرِثُ بِحَسَبِهِ، رَوَاهُ الْوَالِئِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى مَا يُضِلُّهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَحْتَوَمٌ، وَالتَّمَنِّي لَا يُجْدِي سَيِّئًا، وَلَكِنْ سَلُونِي مِنْ فَضْلِي أُعْطِيكُمْ، فَإِنِّي كَرِيمٌ وَهَابٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكْفِي سَاءَ عِلْمًا﴾ أَي هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الدُّنْيَا فَيُعْطِيهِ مِنْهَا، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ فَيَقْفِرُهُ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْآخِرَةَ فَيَقْبِضُ لِأَعْمَالِهَا، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَذْلَانَ فَيَخْذُلُهُ عَنِ تَعَاطِي الْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ،

(١) أحمد: ٤٣٩/٥ (٢) فتح الباري: ٤٦٢/٥ ومسلم: ١/٩٢ (٣) أحمد: ١٣١/٣ (٤) فتح الباري: ٤١٩/١٠ ومسلم: ٩١/١ (٥) فتح الباري: ٣٠٩/٥ ومسلم: ٩١/١ (٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩٠/١ (٧) أحمد: ٢٠١/٢ والبخاري: ٦٦٧٥ وتحفة الأحوذبي: ٣٠٢١ والنسائي: ٦٣/٨ (٨) مسلم: ٩٠ (٩) البخاري: ٥٩٧٣ ومسلم: ٦٤ (١٠) أحمد: ٣٢٢/٦ (١١) تحفة الأحوذبي: ٣٧٥، ٣٧٧

قُلْتُ: هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ أَبَاكُمْ، قَالَ: «لَكِنِّي أَدْرِي مَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ، لَا يَبْطَهُرُ الرَّجُلُ فَيُحْسِنُ طَهْرَهُ، ثُمَّ يَأْتِي الْجُمُعَةَ فَيَنْصُبُ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ صَلَاتَهُ إِلَّا كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، مَا اجْتَنِبْتَ الْمُقْتَلَةَ»^(١١). وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ نَحْوَهُ.

[السَّبْعُ الْمَوْبِقَاتُ]

(تَفْسِيرُ هَذِهِ السَّبْعِ) وَذَلِكَ بِمَا تَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(١٢).

(حَدِيثٌ آخَرٌ، فِيهِ ذِكْرُ شَهَادَةِ الزُّورِ): رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكَبَائِرَ، أَوْ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ، فَقَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وَقَالَ: «أَلَا أُتْبِكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: قَوْلُ الزُّورِ - أَوْ شَهَادَةُ الزُّورِ -» قَالَ شُعْبَةُ: أَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ: «شَهَادَةُ الزُّورِ»^(١٣). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِهِ^(١٤).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُتْبِكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَكَيِّئًا، فَجَلَسَ فَقَالَ: «أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ» فَمَارَالَ يَكْرُرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ^(١٥).

(حَدِيثٌ آخَرٌ فِيهِ ذِكْرُ قَتْلِ الْوَالِدِ) وَهُوَ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ - وَفِي رِوَايَةٍ - أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ»^(١٦) ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

(حَدِيثٌ آخَرٌ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَفِيهِ ذِكْرُ الْيَمِينِ الْعَمُوسِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ

وَلِهَذَا قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا».

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٤)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُهُمْ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ أَي وَرَثَةً (١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ: أَي عَصَبَةً. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَرَبُ تَسْمِي ابْنَ الْعَمِّ مَوْلَىٰ.

قَالَ: وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، مِنْ تَرَكَا وَالِدَيْهِ وَأَقْرَبِيهِ مِنَ الْمِيرَاثِ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَلِكُلِّكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - جَعَلْنَا عَصَبَةً يَرِثُونَهُ مِمَّا تَرَكَ وَالِدَاهُ وَأَقْرَبُوهُ مِنْ مِيرَاثِهِمْ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيحُهُمْ﴾ أَي وَالَّذِينَ تَحَالَفْتُمْ بِالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ أَنْتُمْ وَهُمْ، فَاتُّوهُمْ نَصِيحُهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ، كَمَا وَعَدْتُمُوهُمْ فِي الْأَيْمَانِ الْمُعْلَطَةِ، إِنَّ اللَّهَ شَهِدٌ بَيْنَكُمْ فِي تِلْكَ الْعُهُودِ وَالْمُعَاقِدَاتِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي الْبِدَاءِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأُمِرُوا أَنْ يُوفُوا لِمَنْ عَاقَدُوا، وَلَا يُنْشِئُوا بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مُعَاقِدَةً. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ قَالَ: وَرَثَةً، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرِيُّ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَجْمِهِ، لِأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ نُسِخَتْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيحُهُمْ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالرَّقَادَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ، وَيُوصَى لَهُ (٢).

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْفَلِحَتْ قَيْنَتُكَ حَفِظْتَ لِلْغَيْبِ يَمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيُّ نَحَافُونَ شُرُوهُنَّ يِعْطُوهُنَّ وَيَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَصَاحِبِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (٣٤)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أَي الرَّجُلُ قِيمٌ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَهُوَ رَئِيسُهَا وَكَبِيرُهَا وَالْحَاكِمُ عَلَيْهَا وَمُؤَدِّبُهَا إِذَا اغْوَجَتْ، ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أَي لِأَنَّ الرَّجَالَ أَفْضَلُ مِنَ النِّسَاءِ، وَالرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ. وَلِهَذَا كَانَتِ النُّبُوَّةُ مُخْتَصَّةً بِالرِّجَالِ، وَكَذَلِكَ

الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ لِقَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣). وَكَذَا مَنْصِبُ الْقَضَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أَي مِنَ الْمُهْرِ وَالنِّقَاقَاتِ وَالْكَلْفِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَهُنَّ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَالرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهِ، وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَيْهَا وَالْإِفْضَالُ، فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ قِيمًا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةً﴾ ... الْآيَةَ [البقرة: ٢٢٨].

[عَلَامَةُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ أَي مِنَ النِّسَاءِ ﴿قَيْنَتُكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ: يَعْنِي: مُطِيعَاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ (٤). ﴿حَفِظْتَ لِلْغَيْبِ﴾ وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: أَي تَحْفَظُ زَوْجَهَا فِي غَيْبَتِهِ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أَي الْمَحْفُوظُ مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ (٥). رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ النِّسَاءِ امْرَأَةٌ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَيْبَتْ عَنْهَا حَفِظْتَكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكَ» قَالَ: ثُمَّ قرأ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إِلَى آخِرِهَا (٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ حَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ الْأَبْوَابِ شِئْتَ» (٧).

[النُّشُورُ وَعِلَاجُهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيُّ نَحَافُونَ شُرُوهُنَّ﴾ أَي وَالنِّسَاءُ اللَّائِي تَتَخَوَّفُونَ أَنْ يَنْشُرْنَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَالنُّشُورُ هُوَ الْإِزْنِاعُ، فَالْمَرْأَةُ النَّاشِرُ هِيَ الْمُرْتَفِعَةُ عَلَى زَوْجِهَا، النَّارِكَةُ لِأَمْرِهَا، الْمُعْرِضَةُ عَنْهُ، الْمُبْغِضَةُ لَهُ، فَتَمَّتْ ظَهَرَ لَهُ مِنْهَا أَمَارَاتُ النُّشُورِ فَلْيَعْظُمَا وَلْيَحَوْفَهَا عِقَابَ اللَّهِ فِي

(١) الطبري: ٢٧٠، ٢٧١ / ٨ (٢) فتح الباري: ٩٦ / ٨ (٣) فتح

الباري: ٧٣٢ / ٧ (٤) الطبري: ٢٩٤ / ٨ (٥) الطبري: ٨ / ٨

٢٩٥ (٦) الطبري: ٢٩٥ / ٨ إسناده ضعيف: فيه أبو معشر نجح

ابن عبدالرحمن المدني مولى بني هاشم قال البخاري: منكر

الحديث [التاريخ الكبير ١١٤ / ٨] وكان يحدث عن نافع والمقبري

بأحاديث منكورة وله طريق آخر عند أحمد ٥١ / ٢ والسنن الكبرى

للنسائي (٨٩٦١) والمستدرک للحاكم ٣ / ١٦٦، ١٦٢ وقال:

حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. (٧)

أحمد: ١ / ١٩١ قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده منقطع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٤

سُورَةُ النِّسَاءِ

الرِّجَالِ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ
عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقْتَ
قَلْبَكَ حَفِظْتَ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْلِ تَحَافُونَ
نُشُورَهُمْ فَعَطَّوهُمْ وَأَهْجَرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ
وَأَضْرَبُوهُمْ فَإِنَّ أَطْعَنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٥﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ
بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ
يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿٣٥﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مُحْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ
أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا﴾ ﴿٣٥﴾

[تَحْكِيمُ حَكَمَيْنِ عِنْدَ خَوْفِ الشَّقَاقِ بَيْنَ الرُّوَجَيْنِ]
ذَكَرَ الْحَالِ الْأَوَّلَ وَهُوَ إِذَا كَانَ التُّشُورُ وَالتُّشُورُ مِنَ
الرُّوَجَةِ. ثُمَّ ذَكَرَ الْحَالِ الثَّانِيَّ وَهُوَ إِذَا كَانَ التُّشُورُ مِنَ
الرُّوَجَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا
حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وَقَالَ الْفَقَهَاءُ: إِذَا وَقَعَ
الشَّقَاقُ بَيْنَ الرُّوَجَيْنِ، أَسْكَنَهُمَا الْحَاكِمُ إِلَى جَنْبِ ثِقَّةٍ يَنْظُرُ
فِي أَمْرِهِمَا، وَيَمْنَعُ الظَّالِمَ مِنْهُمَا مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنْ تَقَامَ
أَمْرُهُمَا وَطَالَتْ حُضُومَتُهُمَا، بَعَثَ الْحَاكِمُ ثِقَّةً مِنْ أَهْلِ

(١) تحفة الأحوذى: ٣٢٣/٤ (٢) فتح الباري: ٢٠٥/٩ (٣) مسلم: ١٠٥٩/٢ (٤) الطبري: ٣٠٢/٨ (٥) الطبري: ٨/٣٠٢-٣٠٤ (٦) أبو داود: ٦٠٦/٢ والنسائي في الكبرى: ٥/٣٧٥ وابن ماجه: ٥٩٣/١ وأحمد: ٣/٥ (٧) مسلم: ٨٨٦/٨ (٨) الطبري: ٣١٤/٨ (٩) الطبري: ٣١٦/٨

عِضَائِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ حَقَّ الرُّوَجِ عَلَيْهَا وَطَاعَتَهُ، وَحَرَّمَ عَلَيْهَا مَعْصِيَتَهُ، لِمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»^(١). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»^(٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَلَفْظُهُ: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»^(٣). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ تَحَافُونَ نُشُورَهُمْ فَعَطَّوهُمْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَهْجَرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَهْجَرُ هُوَ أَنْ لَا يُجَامِعَهَا. وَيُصَاحِبُهَا عَلَى فِرَاشِهَا وَيُوَلِّيْهَا ظَهْرَهُ»^(٤). وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ. وَزَادَ آخَرُونَ مِنْهُمْ السُّدِّيَّ وَالضَّحَّاكَ وَعِكْرَمَةَ وَابْنَ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ: وَلَا يَكْلَمَهَا مَعَ ذَلِكَ وَلَا يُحَدِّثُهَا»^(٥). وَفِي الشُّنَنِ وَالْمُسْنَدِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَنِيْدَةَ الْقُشَيْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقَّ امْرَأَةً أَحَدِنَا؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تُضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُتَّبِعَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»^(٦). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَضْرِبُوهُمْ﴾، أَي إِذَا لَمْ يَزِدْغَنَّ بِالْمَوْعِظَةِ وَلَا بِالْهَجْرَانِ، فَلَكُمْ أَنْ تُضْرِبُوهُمْ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي حُجَّةِ الْوَدَاعِ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكَرَّهُتُهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(٧). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ»^(٨). قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْنِي غَيْرَ مُؤْتَرٍ»^(٩).

[لَا سَبِيلَ عَلَى الْمَرْأَةِ إِذَا أَطَاعَتْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أَي إِذَا أَطَاعَتِ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي جَمِيعِ مَا يُرِيدُ مِنْهَا مِمَّا أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْهَا، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَيْسَ لَهُ ضَرْبُهَا وَلَا هَجْرَانُهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ تَهْدِيدٌ لِلرِّجَالِ إِذَا بَعَوْا عَلَى النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، فَإِنَّ اللَّهَ الْعَلِيمَ الْكَبِيرَ وَيْلُهُنَّ، وَهُوَ يَنْتَقِمُ مِمَّنْ ظَلَمَهُنَّ وَبَعَى عَلَيْهِنَّ.

[١٤]، وَكَقَوْلِهِ: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» [الإسراء: ٢٣] ثُمَّ عَطَفَ عَلَىٰ الْإِحْسَانِ إِلَىٰ الْوَالِدَيْنِ الْإِحْسَانَ إِلَى الْقَرَابَاتِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمُسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّجْمِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»^(٣). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَالْيَتَامَىٰ» وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا مَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ، وَمَنْ يُفُوقُ عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْحُؤُوعِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: «وَالْمَسْكِينِ» وَهُمْ الْمَحَاوِجُ مِنَ ذَوِي الْحَاجَاتِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَقُومُ بِكِفَايَتِهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمُسَاعَدَتِهِمْ بِمَا تَيَّمَّ بِهِ كِفَايَتَهُمْ، وَتَرَوُلُهُ بِهِ صَرُورَتُهُمْ، وَسَيَّأَتِي الْكَلَامِ عَلَى الْفَقِيرِ وَالْمُسْكِينِ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ.

[حَقُّ الْجَارِ]

وَقَوْلُهُ: «وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ»، يَعْنِي الَّذِي يَتَنَكَّرُ وَيَتَنَكَّرُ قَرَابَةً^(٤). «وَالْجَارِ الْجُنُبِ» الَّذِي لَيْسَ يَتَنَكَّرُ وَيَتَنَكَّرُ قَرَابَةً^(٥). وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَمَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ وَالصَّحَّاحِ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَقَتَادَةَ^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: «وَالْجَارِ الْجُنُبِ» يَعْنِي الرَّفِيقَ فِي السَّفَرِ^(٧). وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالْوَصَابِ بِالْجَارِ، فَتَذَكَّرْ بَعْضًا مِنْهَا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَارَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»^(٨) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٩).

(الْحَدِيثُ الثَّانِي) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَارَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»^(١٠). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ نَحْوَهُ ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ^(١١).

(الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ) رَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

الْمَرْأَةِ، وَثِقَةٌ مِنْ قَوْمِ الرَّجُلِ، لِيَجْتَمَعَا، فَيَنْظُرَا فِي أَمْرِهِمَا، وَيَقْعَلَا مَا فِيهِ الْمَضْلَعَةُ مِمَّا يَرِيَانَهُ مِنَ التَّفْرِيقِ أَوْ التَّفْرِيقِ، وَتَشَوَّفُ الشَّارِعُ إِلَى التَّفْرِيقِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا» وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثُوا رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَهْلِ الرَّجُلِ، وَرَجُلًا مِثْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ، فَيَنْظُرَانِ أَهْلُهُمَا الْمُسِيءَ، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ هُوَ الْمُسِيءَ حَجَبُوا عَنْهُ امْرَأَتَهُ، وَفَصَّرُوهُ عَلَى التَّفَقُّةِ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ هِيَ الْمُسِيءَةَ، فَصَّرُوهَا عَلَى زَوْجِهَا، وَمَنْعُوهَا التَّفَقُّةَ، فَإِنْ اجْتَمَعَ رَأْيُهُمَا عَلَى أَنْ يُفْرَقَا أَوْ يَجْمَعَا، فَأَمْرُهُمَا جَائِزٌ، فَإِنْ رَأَيَا أَنْ يَجْمَعَا فَرَضِي أَحَدُ الزَّوَجَيْنِ وَكَرِهَ ذَلِكَ الْآخَرَ، ثُمَّ مَاتَ أَحَدُهُمَا، فَإِنَّ الَّذِي رَضِيَ يَرِثُ الَّذِي كَرِهَ وَلَا يَرِثُ الْكَارِهَ الرَّاضِي^(١٢). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ. قَالَ الشُّنَّحُ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْحَكَمَيْنِ إِذَا اخْتَلَفَ قَوْلُهُمَا فَلَا عِبْرَةَ بِقَوْلِ الْآخِرِ. وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ قَوْلَهُمَا نَافِذٌ فِي الْجَمْعِ وَإِنْ لَمْ يُوَكَّلْهُمَا الزَّوْجَانِ. وَاخْتَلَفُوا هَلْ يَنْفُذُ قَوْلُهُمَا فِي التَّفْرِيقِ، ثُمَّ حَكَى عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ يَنْفُذُ قَوْلُهُمَا فِيهَا أَيْضًا مِنْ غَيْرِ تَوْكِيلٍ.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [٣٦]

[الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَغَيْرِهِمْ]

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ الْمُنْتَفِلُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ الْأَنَابِ وَالْحَالَاتِ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ مِنْهُمْ أَنْ يُوحِّدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»^(٢) ثُمَّ أَوْصَى بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَهُمَا سَبَبًا لِخُرُوجِكَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ عِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، كَقَوْلِهِ: «أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ» [لقمان:

(١) الطبري: ٣٢٥/٨ (٢) فتح الباري: ٣٥٩/١٣ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٢٤/٣ (٤) الطبري: ٣٣٥/٨ (٥) الطبري: ٨/٣٣٨ (٦) الطبري: ٣٣٦، ٣٣٥/٨ (٧) الطبري: ٨/٣٤١ (٨) أحمد: ٨٥/٢ (٩) فتح الباري: ٤٥٥/١٠ ومسلم: ٢٠٢٥/٤ (١٠) أحمد: ١٦٠/٢ (١١) أبو داود: ٣٥٧/٥ وتحفة الأحوذى: ٧٣، ٧٢/٦

عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٢).

(الْحَدِيثُ الرَّابِعُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «مَا تَقُولُونَ فِي الزَّنَا؟» قَالُوا: حَرَامٌ، حَرَمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بَعْسِرَ نِسْوَةٍ أَيْسُرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةٍ جَارِهِ»، قَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟» قَالُوا: حَرَمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ آيَاتِ أَيْسُرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ»^(٣). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزْنِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»^(٤).

(الْحَدِيثُ الْخَامِسُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ عَائِشَةَ، أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: إِنْ لِي جَارَيْنِ فَلِي أَيُّهُمَا أَهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِيهِمَا مِنْكَ بَابًا»، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٥). وَقَوْلُهُ: «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنَبِ» عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ قَالَا: هِيَ الْمَرْأَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ: هُوَ الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الرَّفِيقُ الصَّالِحُ. وَأَمَّا «ابْنُ السَّبِيلِ» فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ: هُوَ الضَّيْفُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَالْحَسَنُ، وَالصَّحَّاحُ وَمُقَاتِلٌ: هُوَ الَّذِي تَمُرُّ عَلَيْكَ مُجْتَازًا فِي السَّفَرِ وَهَذَا أَظْهَرُ. وَبِاللَّهِ التَّقَى وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ.

[الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَمْلُوكِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» وَصِيَّةٌ بِالْأَرْقَاءِ، لِأَنَّ الرَّفِيقَ ضَعِيفُ الْحِيلَةِ، أَسِيرٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَلِهَذَا بَيَّنَّ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ بُوصِي أُمَّتِهِ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ، يَقُولُ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فَجَعَلَ يُرَدِّدُهَا حَتَّى مَا يَبْيَضُ بِهَا لِسَانُهُ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّادِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ»^(٧) وَرَوَاهُ

النَّسَائِيُّ^(٨)، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ لِقَهْرْمَانَ لَهُ: هَلْ أُعْطِيتَ الرَّفِيقَ قُوتَهُمْ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَاطْلُقْ فَأَعْطِهِمْ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْسِبَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُمْ»^(٩). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ، وَلَا يُكَلَّفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُطِيقُ»^(١٠). رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيَأْتِ بِلِقْمَةٍ أَوْ لِقْمَتَيْنِ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيَّ حَرِّهِ وَعِلاجِهِ» أَخْرَجَاهُ^(١١). وَلَفْظُهُ لِلْبُخَارِيِّ.

[إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا»، أَيُّ مُخْتَالًا فِي نَفْسِهِ، مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا فَخُورًا عَلَى النَّاسِ، يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَقِيرٌ، وَعِنْدَ النَّاسِ بَعْضٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا» يَعْنِي مُتَكَبِّرًا «فَخُورًا» يَعْنِي يُعَدُّ مَا أُعْطِيَ، وَهُوَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى^(١٢). يَعْنِي يَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ نِعَمِهِ، وَهُوَ قَلِيلُ الشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَاقِدِ أَبِي رَجَاءِ الْهَرَوِيِّ، قَالَ: لَا تَجِدُ سَيِّئَةَ الْمَلَكََةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ مُخْتَالًا فَخُورًا، وَتَلَا: «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»... الْآيَةَ، وَلَا عَاقًا إِلَّا وَجَدْتَهُ جَبَّارًا شَقِيًّا، وَتَلَا: «وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ جَبَّارًا شَقِيًّا» [مريم: ٣٢]. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ [بَلْهَجِيمِ]، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: «إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ»^(١٣).

«الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا

(١) أحمد: ١٦٧/٢ (٢) تحفة الأحوذى: ٧٥/٦ (٣) أحمد:

٨/٦ (٤) فتح الباري: ٣٥٠/٨ (٥) أحمد:

١٧٥/٦ (٦) البخاري: ٦٠٢٠ (٧) النسائي في الكبرى: ٢٥٨/٤

فيه تدليس قتادة ولم يصرح (٨) النسائي في الكبرى: ٣٧٦/٥ (٩) مسلم: ٦٩٢/٢ (١٠) مسلم: ٣/

١٢٨٤ (١١) فتح الباري: ٢١٤/٥ (١٢) مسلم: ١٢٨٤/٣ (١٣)

الطبري: ٣٥٠/٨ (١٣) أحمد: ٦٤/٥ ابن أبي حاتم (٥٣١٤)

٩٥١/٣

سُورَةُ النِّسَاءِ
٨٥

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَمَسَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنْ
اللَّهُ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ
الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

وَالغَازِي، وَالْمُنْفِقُ المُرَّءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ: «يَقُولُ صَاحِبُ
الْمَالِ: مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ فِي
سَبِيلِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يُعَالَ: جَوَادٌ،
فَقَدْ قِيلَ: أَيُّ فَقْدٍ أَحَدَتْ جَزَاءَكَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي
أَرَدْتَ بِفِعْلِكَ»^(٤). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ»... الآية، أَيُّ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ
هَذَا الصَّبِيحِ، وَعُدُولِهِمْ عَنِ فِعْلِ الطَّاعَةِ عَلَى وَجْهِهَا
الشَّيْطَانُ، فَإِنَّهُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، وَقَارَنَهُمْ، فَحَسَنَ
لَهُمُ الْقَبَائِحَ: «وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا»
[النساء: ٣٨].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ» الآية، أَيُّ شَيْءٍ يَصْرُهُمْ لَوْ
آمَنُوا بِاللَّهِ وَسَلَكُوا الطَّرِيقَ الْحَمِيدَةَ، وَعَدَلُوا عَنِ الرِّيَاءِ إِلَى

عَاتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾
وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا
عَلَيْهِمْ لَوْ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ
اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

[دَمُّ الْبُخْلِ]

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًا لِلَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ أَنْ يُنْفِقُوهَا
فِيمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ بَرِّ الْوَالِدِينَ وَالْإِحْسَانِ إِلَى
الْأَقَارِبِ، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى،
وَالْجَارِ الْجُنُبِ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الْأَرْقَاءِ، وَلَا يَدْفَعُونَ حَقَّ اللَّهِ فِيهَا،
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ أَيْضًا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ»^(١). وَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّهُ
أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَلْبُكُمْ، أَمْرُهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمْرُهُمْ
بِالْفُجُورِ فَفَجَّرُوا»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»
فَالْبُخِيلُ جَحُودٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، لَا تَطَهَّرُ عَلَيْهِ وَلَا تَبِينُ، لَا
فِي مَأْكَلِهِ وَلَا فِي مَلْبَسِهِ وَلَا فِي إِعْطَائِهِ وَبَدَلِهِ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿١﴾ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ»
أَيُّ بِحَالِهِ وَسَمَائِلِهِ «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» [العاديات:
٦-٨] وَقَالَ هَهُنَا: «وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»
وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا»
وَالْكَفْرُ هُوَ السُّرُّ وَالْتَعَطُّيَّةُ، فَالْبُخِيلُ يَسْتُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ
وَيَكْتُمُهَا وَيَجْحَدُهَا، فَهُوَ كَافِرٌ لِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَفِي
الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ
أَثَرَهَا عَلَيْهِ»^(٣). وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى
بُخْلِ الْيَهُودِ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ الَّذِي عِنْدَهُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ
وَكَيْتْمَانِهِمْ ذَلِكَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ مُحْتَمَلَةٌ لِذَلِكَ،
وَالظَّاهِرُ أَنَّ السِّيَاقَ فِي الْبُخْلِ بِالْمَالِ، وَإِنْ كَانَ الْبُخْلُ
بِالْعِلْمِ دَاخِلًا فِي ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، فَإِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ
فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى الْأَقَارِبِ وَالضَّعْفَاءِ، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي
بَعْدَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: «وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ»
فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمُؤْمِسِّكِينَ الْمَذْمُومِينَ وَهُمْ الْبُخْلَاءُ، ثُمَّ ذَكَرَ
الْبَادِلِينَ الْمُرَائِينَ الَّذِينَ يَقْصِدُونَ بِإِعْطَائِهِمُ الشُّمْعَةَ وَأَنْ
يُمدَّحُوا بِالْكَرَمِ، وَلَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ. وَفِي حَدِيثِ
الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ هُمْ أَوْلُ مَنْ تُسَجَّرُ بِهِمُ النَّارُ وَهُمْ: الْعَالِمُ،

(١) الأدب المفرد: ٨٣ (٢) أبو داود: ٣٢٤/٢ (٣) الطبراني
الكبير: ١٣٥/١٨ الصحيحة ١٢٩٠/٣، ١٣٢٠. (٤) النسائي: ٢٤/٦

الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ»^(٢). وَقَدْ يَكُونُ هَذَا خَاصًّا بِأَبِي طَالِبٍ مِنْ دُونَ الْكُفَّارِ بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يَنَابُ عَلَيْهِ الرِّزْقُ فِي الدُّنْيَا، وَيَجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ»^(٣).

[مَعْنَى الْأَجْرِ الْعَظِيمِ]

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَعِزَّةُ بْنُ سَعِيدٍ وَبُنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: «وَيُؤْتَى مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا»: يَعْنِي الْجَنَّةَ، نَسَأَلَ اللَّهُ رِضَاهُ وَالْجَنَّةَ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُمَانَ النَّهْدِيِّ، قَالَ: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ مُجَالَسَةً مِنِّي لِأَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَدِمَ قَبْلِي حَاجًّا وَقَدِمْتُ بَعْدَهُ، فَإِذَا أَهْلُ الْبَصْرَةِ يَأْتِرُونَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«إِنَّ اللَّهَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةَ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ» قُلْتُ: وَيَحْكُمُ مَا كَانَ أَحَدٌ أَكْثَرَ مُجَالَسَةً مِنِّي لِأَبِي هُرَيْرَةَ، وَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَلْحَقَهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ انْطَلَقَ حَاجًّا، فَأَنْطَلَقْتُ إِلَى الْحَجِّ أَنْ أَلْقَاهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ أَبِي عُمَانَ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، سَمِعْتُ إِخْوَانِي بِالْبَصْرَةِ يُزْعَمُونَ أَنَّكَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللَّهِ بَلْ سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفِي أَلْفِ حَسَنَةٍ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: «فَمَا مَنَعَ الْحِكْمَةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» [التوبة: ٣٨].

[شَهَادَةُ نَبِيَّنَا ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَمْنِي الْكُفَّارِ

الْمَوْتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَّةِ أَمْرِهِ وَسَأْيِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْأَمْرُ وَالْحَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَجِيءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ»... [الآية [الزمر: ٦٩]؛ وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَوْمَ نَبَعَتْ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ

الْإِخْلَاصِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَجَاءِ مَوْعُودِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لِمَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي يُجِبُّهَا اللَّهُ وَيُرْضَاهَا، وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا» أَيُّ وَهُوَ عَلِيمٌ بِنِيَّاتِهِمُ الصَّالِحَةِ وَالْفَاسِدَةِ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّوْفِيقَ مِنْهُمْ فَيُوفِّقُهُ، وَذُلَّهُمُ رُشْدَهُ، وَيَقِيضُهُ لِعَمَلِ صَالِحٍ يَرْضَى بِهِ عَنْهُ، وَيَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخُذْلَانَ وَالطَّرْدَ عَنِ الْجَنَابِ الْأَعْظَمِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَنْ طُرِدَ عَنْ بَابِهِ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا»^(٤) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا^(٥) يَوْمَ يَمِيزُ بَوْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَاوُ الرَّسُولِ لَوْ سَوَى بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ

حَدِيثًا^(٦)]

[لَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ: لَا يَظْلِمُ عَدَدًا مِنْ عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، بَلْ يُؤْفِقُهَا لَهُ، وَيُضَاعَفُهَا لَهُ إِنْ كَانَتْ حَسَنَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ...» [الآية [الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ لُقْمَانَ أَنَّهُ قَالَ: «يَبْنَؤُ إِهَابًا إِنْ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ»... [الآية [لقمان: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يَمِيزُ بَصْدُرُ النَّاسِ أَسْنَانًا لِمَا لِكُرُوا أَعْمَلْتُمْ»^(٧) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ^(٨) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٩) [الزلزلة: ٦-٨] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ، وَفِيهِ: «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ» وَفِي لَفْظٍ: «أَذْنِي أَذْنِي أَذْنِي مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيَخْرُجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو سَعِيدٍ: إِفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ»... [الآية^(١٠)].

[هَلْ يُخَفِّفُ الْعَذَابَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ]

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: «وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفُهَا» فَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيُخَفَّفُ عَنْهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ أَبَدًا. وَقَدْ اشْتَدَّ لَهُ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ الْعَبَّاسَ قَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَمَّكَ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَنْصُرُكَ، فَهَلْ نَفَعْتُهُ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ هُوَ فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ

(١) فتح الباري: ٤١٣/١٣ ومسلم: ١٦٧/١ (٢) البخاري:

٣٨٨٣ و٦٢٠٨ ومسلم: ٢٠٩ (٣) مسند الطيالسي: ٤٧ ومسلم:

فُرْبَانٍ وَمَحَالِّهَا - الَّتِي هِيَ الْمَسَاجِدُ - لِلْجُنُبِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَازًا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ مِنْ غَيْرِ مُكْبِتٍ، وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ الآية [البقرة: ٢١٩] فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَاهَا عَلَى عُمَرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتٌ شَافِيَةٌ. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَلَاهَا عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتٌ شَافِيَةٌ. فَكَانُوا لَا يَتَشَرَّبُونَ الْخَمْرَ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصْبَابُ وَالْأَلْكَامُ رِجْسٌ مِمَّنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] فَقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ: فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّسَاءِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ فَكَانَ مُتَادِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَتِ الصَّلَاةُ يَتَّيِدِي: أَنْ لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سُكَرَانَ^(٤). لَفُظَ أَبِي دَاوُدَ. وَذَكَرُوا فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ سَعْدِ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ، صَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا فَدَعَا أَنَسًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَأَنَسًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَكَلْنَا وَشَرَبْنَا حَتَّى سَكَرْنَا، ثُمَّ افْتَعَرْنَا، فَرَفَعَ رَجُلٌ لَحْيَ بَعِيرٍ فَفَزَّرَ بِهِ أُنْفَ سَعْدٍ، فَكَانَ سَعْدٌ مَفْزُورَ الْأَنْفِ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، فَتَزَلَّتِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾^(٥). . . الْآيَةَ، وَالْحَدِيثُ بِطَوِيلِهِ عِنْدَ مُسْلِمٍ^(٦). وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ^(٧).

(سَبَبُ آخَرَ) رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ، فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَدَعَمُوا فُلَانًا، قَالَ: فَقَرَأَ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَتَحَنُّنُ تَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٨). هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَكَذَا رَوَاهُ

أَنْفُسِهِمْ... الآية [النحل: ٨٩] وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْرَأْ عَلَيَّ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى آتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فَقَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَيْثُ مَا أُنشِئَتْ وَبَلَّغْتَهُمْ مِمَّا يَرُونَ مِنْ أَهْوَالِ الْمَوْقِفِ وَمَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْفُضِيحَةِ وَالنَّوْبِخِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ...﴾ الآية [النبا: ٤٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَيْثُ مَا إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِجَمِيعِ مَا فَعَلُوهُ، وَلَا يَكْتُمُونَ مِنْهُ شَيْئًا. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: أَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: مَا هُوَ؟ أَشْكُ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: لَيْسَ هُوَ بِالشُّكِّ، وَلَكِنْ الْخِتْلَافُ قَالَ: فَهَاتِ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: أَسْمَعُ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وَقَالَ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ أَوْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَا قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا﴾ [الأنعام: ٢٣] فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَلَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَلَا يَغْفِرُ شِرْكًَا جَحَدَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالُوا: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] رَجَاءً أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، فَحَنَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ: ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفِيمًا غَفُورًا﴾^(٣)

[النَّهْيُ عَنْ اقْتِرَابِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ وَالْجَنَابَةِ] يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ فِعْلِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ الْمُصَلِّي مَا يَقُولُ، وَعَنْ

(١) فتح الباري: ٧١٢/٨ (٢) عبد الرزاق: ١٦٠/١ (٣) أحمد: ٥٣/١ (٤) أبو داود: ٨٠/٤ (٥) مسند الطيالسي: ٢٨ (٦) مسلم: ١٨٧٨/٤ (٧) أبو داود: ١٧٧٣ وتحفة الأحوذني: ٤٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦ (٨) الطبري: ٣٧٨/٨

وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

[بَيَانُ التَّيْمِمْ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. أَمَّا الْمَرَضُ الْمَيْحُ لِلتَّيْمِمْ، فَهُوَ الَّذِي يُخَافُ مَعَهُ مِنَ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ، فَوَاتُ غُضُوبٍ أَوْ شَيْئُهُ أَوْ تَطْوِيلِ الْبُرِّ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ جَوَزَ التَّيْمِمْ بِمَجَرَّدِ الْمَرَضِ، لِغُمُومِ الْآيَةِ. وَالسَّفَرُ مَعْرُوفٌ، وَلَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الطَّوِيلِ وَالْقَصِيرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ الْغَائِطُ: هُوَ الْمَكَانُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ، كَتَى بِذَلِكَ عَنِ التَّغَوُّطِ، وَهُوَ الْحَدَثُ الْأَصْغَرُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فَقُرِئَ (لَمَسْتُمْ) وَ(لَا مَسْتُمْ)، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْنَ مَا وَضَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قَالَ: الْجَمَاعُ^(١٢). وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ أَبِي بِنْتِ بْنِ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ وَالْحَسَنِ وَعُبَيْدِ بْنِ عَمِيرٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيِّ وَقَتَادَةَ وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ، نَحْوُ ذَلِكَ^(١٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا مُعْتَزِلًا لَمْ يَصِلْ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَصِلَ مَعَ الْقَوْمِ، أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ؟» قَالَ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَلَكِنْ أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ»^(١٤). وَالتَّيْمِمْ فِي اللَّغَةِ هُوَ الْقَصْدُ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَيَمَّمْتُ اللَّهَ بِحِفْظِهِ، أَيَّ قَصَدْتُ. وَالصَّعِيدُ هُوَ التُّرَابُ فَقَطُّ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَضَيِّعْ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠] أَيَّ تَرَابًا أَمْلَسَ طَيِّبًا، وَلَمَّا ثَبَّتَ فِي

التَّيْمِمْ^(١٥). وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى تَقْلُمُوا مَا تَقْلُمُونَ﴾ هَذَا أَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي حَدِّ السَّكْرَانِ أَنَّهُ الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ، فَإِنَّ الْمَحْمُورَ فِيهِ تَخْلِيضٌ فِي الْفِرَاقَةِ وَعَدَمٌ تَدْبُرُهُ وَخُشُوعُهُ فِيهَا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَنْصَرِفْ فَلْيَتِمَّ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ»^(١٦). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ^(١٧). وَرَوَاهُ هُوَ وَالنَّسَائِيُّ^(١٨). وَفِي بَعْضِ أَقْفَاطِ الْحَدِيثِ: «فَلَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَعْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»^(١٩). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ قَالَ: لَا تَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ وَأَنْتُمْ جُنُبٌ، إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ، قَالَ: تَمُرُّ بِهِ مَرًّا، وَلَا تَجْلِسُ^(٢٠). ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَأَبِي الضُّحَى، وَعَطَاءٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَمَسْرُوقٍ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَالْحَكَمُ بْنُ عُثَيْبَةَ، وَعَعْرِمَةَ، وَالْحَسَنَ الْبُصْرِيَّ، وَيَحْيَى بْنَ سَعِيدِ الْأَنْصَارِيِّ، وَابْنَ شِهَابٍ، وَقَتَادَةَ نَحْوُ ذَلِكَ^(٢١). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ يَزِيدِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أَنَّ رِجَالَ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَتْ أَبْوَابُهُمْ فِي الْمَسْجِدِ، فَكَانَتْ تُصَيِّبُهُمْ جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ عِنْدَهُمْ، فَيَرِيدُونَ الْمَاءَ وَلَا يَجِدُونَ مَرًّا إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾^(٢٢) وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ مَا قَالَهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، مَا ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سُدُّوا كُلَّ خَوْخَةٍ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»^(٢٣). وَهَذَا قَالَهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ﷺ، عَلِمًا مِنْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَبَلِي الْأَمْرَ بَعْدَهُ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْمَسْجِدِ كَثِيرًا لِلْأُمُورِ الْمُهَمَّةِ فِيمَا يَصْلُحُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ بِسَدِّ الْأَبْوَابِ الشَّارِعَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَّا بَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ رَوَى: «إِلَّا بَابَ عَلِيٍّ»، كَمَا وَقَعَ فِي بَعْضِ السَّنَنِ فَهُوَ خَطَأٌ، وَالصَّوَابُ مَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ. وَقَدْ ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَأْوِلِينِي الْحُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ» فَقُلْتُ: إِنِّي حَائِضٌ، فَقَالَ: «إِنَّ حَيْضَتِكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ»^(٢٤). وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلُهُ^(٢٥). فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ مُرُورِ الْحَائِضِ فِي الْمَسْجِدِ، وَالنِّسَاءِ فِي مَعْنَاهَا،

(١) تحفة الأحوذى: ٣٨٠/٨ (٢) أحمد: ١٤٢/٣ (٣) فتح الباري: ٣٧٧/١ (٤) النسائي: ٢١٥/١ (٥) فتح الباري: ١/٣٧٥ (٦) الطبري: ٣٨٢/٨ (٧) الطبري: ٣٨٤-٣٨١/٨ (٨) الطبري: ٣٨٤/٨ (٩) فتح الباري: ٦٦٥/١ (١٠) مسلم: ١/٢٤٥ (١١) مسلم: ٢٤٥/١ (١٢) الطبري: ٣٩٢/٨ (١٣) الطبري: ٣٩٣، ٣٩٢/٨ (١٤) فتح الباري: ٥٤٥/١ (١٥) مسلم: ٤٧٤/١

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
 مِنَ الَّذِينَ هَادُوا مِحْرُفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا يَا لَيْسَ لَنَا
 وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا
 لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ آمَنُوا بَمَا نَزَّلْنَا
 مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
 عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
 اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ يُشْرِكْ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
 ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا
 ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِلِ اللَّهِ يُزَكِّي مِنْ يَشَاءُ
 وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَانًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ
 وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ آتَوْا نَصِيبًا
 مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُغُوتِ وَيَقُولُونَ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آتَوْا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

الصَّلَاةِ، أَنْ تَفْعَلَ عَلَى هَيْئَةٍ نَاقِصَةٍ، مِنْ سُكْرِ حَتَّى يَصْحُرَ
 الْمَكْلَفُ وَيَعْقِلُ مَا يَقُولُ، أَوْ جَنَابَةٍ حَتَّى يَغْتَسِلَ، أَوْ حَدِيثِ
 حَتَّى يَبْوَضًا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَرِيضًا أَوْ عَادِمًا لِلْمَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ
 عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرْخَصَ فِي التَّيْمُمِ، وَالْحَالَةَ هَذِهِ، رَحْمَةً بِعِبَادِهِ
 وَرَأْفَةً بِهِمْ، وَتَوْسِيعَةً عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(ذَكَرَ سَبَبَ نَزُولِ مَشْرُوعِيَةِ التَّيْمُمِ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ
 عَائِشَةَ، قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ
 حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْحَيْشِ، انْقَطَعَ عَقْدُ لِي،
 فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْيَمَاسِيَةِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ
 وَلَبَسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ
 فَقَالُوا: أَلَا تَرَى إِلَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ، أَقَامَتْ بِرَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ وَلَبَسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ فَجَاءَ

صَحِيحٌ مُسْلِمٌ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: «فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا
 كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا،
 وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»^(١) فَخَصَّصَ
 الطُّهُورِيَّةَ بِالْتَّرَابِ، فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ، فَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ يَقُومُ
 مَقَامَهُ لَذَكَرَهُ مَعَهُ، وَالطُّيْبُ هَهُنَا قِبَلُ: الْحَلَالِ، وَقِيلَ:
 الَّذِي لَيْسَ بِنَجِسٍ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، إِلَّا
 ابْنَ مَاجَةَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الصَّعِيدُ
 الطُّيْبُ طَهُورٌ الْمُسْلِمِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ، فَإِذَا
 وَجَدَهُ فَلْيُسِّسْهُ بِشِرْتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ»^(٢). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ:
 حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلُهُ: «فَأَمْسُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ» التَّيْمُمُ
 بَدَلٌ عَنِ الْوُضُوءِ فِي التَّطَهُّرِ بِهِ، لَا أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْهُ فِي جَمِيعِ
 أَعْضَائِهِ، بَلْ يَكْفِي مَسْحَ الْوُجْهِ وَالْيَدَيْنِ فَقَطُّ بِالْإِجْمَاعِ،
 وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَكْفِي لَهُ مَسْحُ الْوُجْهِ وَالْكَفَّيْنِ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ.
 رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِيزَى: أَنَّ رَجُلًا أَتَى
 عُمَرَ، فَقَالَ: إِنِّي أَجَبْتُ فَلَمْ أَجِدْ مَاءً، فَقَالَ عُمَرُ: لَا
 تُصَلِّ، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا تَذْكُرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ أَنَا وَأَنْتَ
 فِي سَرِيَّةٍ فَأَجَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ مَاءً، فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ، وَأَمَّا
 أَنَا فَتَمَعَكْتُ فِي التَّرَابِ فَصَلَّيْتُ، فَلَمَّا أَتَيْتَا النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرْتُ
 ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ» وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ
 الْأَرْضَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا وَمَسَحَ بِهَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ^(٣). وَهَذِهِ
 الْأُمَّةُ مُخْتَصَّةٌ بِمَشْرُوعِيَةِ التَّيْمُمِ، دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ، كَمَا ثَبَتَ
 فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،
 قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ
 قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ
 مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةُ
 فَلْيُصَلِّ» وَفِي لَفْظٍ: «فَعِنْدَهُ طَهُورُهُ وَمَسْجِدُهُ، وَأَحَلَّتْ لِي
 الْعَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ
 النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(٤). وَتَقَدَّمَ
 فِي حَدِيثِ حُدَيْفَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ «فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ،
 جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ
 مَسْجِدًا، وَتُرْبَتُهَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»^(٥) وَقَالَ تَعَالَى
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «فَأَمْسُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا» أَيُّ وَمِنْ عَفْوِهِ عَنكُمْ وَعَفْرَانِهِ لَكُمْ أَنْ شَرَعَ
 التَّيْمُمَ، وَأَبَاحَ لَكُمْ فِعْلَ الصَّلَاةِ بِهِ إِذَا فَقَدْتُمُ الْمَاءَ، تَوْسِيعَةً
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً لَكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِيهَا تَنْزِيهُ

(١) مسلم: ٣٧١/١ (٢) أحمد: ١٨٠/٥ وأبو داود: ١/٣٥٥
 وتحفة الأحوزي: ٣٨٨/١ والنسائي: ١٧١/١ (٣) أحمد: ٤/
 ٢٦٥ فتح الباري: ٥١٩/١ ومسلم: ٣٧٠/١ (٥) مسلم:

وَالْعُقُوبَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْمِعْ عَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أَيِ اسْمِعْ مَا نَقُولُ، لَا سَمِعْتَ. رَوَاهُ الصَّحَّاحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٤). وَهَذَا اسْتِهْزَاءٌ مِنْهُمْ وَاسْتِهْزَاءٌ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ، ﴿وَرَاعِنَا لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ أَيِ يُوْهُمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَاعِنَا سَمِعَكَ يَقُولُهُمْ: رَاعِنَا، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ الرَّغْوَةَ بِسَبِّهِمُ النَّبِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِكَلَامِهِمْ خِلَافَ مَا يُظْهِرُونَهُ: لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ، يَعْنِي بِسَبِّهِمُ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيِ قُلُوبُهُمْ مَطْرُودَةٌ عَنِ الْخَيْرِ مُبْعَدَةٌ مِنْهُ، فَلَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ نَافِعٌ لَهُمْ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا نَافِعًا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهًا فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارَهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَحْسَبَ السَّبِّبَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا^(٥)

[دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ مَعَ التَّهْدِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْإِيمَانِ بِمَا نَزَّلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ تَصْدِيقُ الْأَخْبَارِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبَشَارَاتِ، وَمَتَّهَدًا لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَطْغَسَ وُجُوهًا فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارَهَا﴾: قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَطَمَّسَهَا: أَنْ تَعْمَى. ﴿فَرَدَدَهَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارَهَا﴾ يَقُولُ: نَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَفْئِيتِهِمْ، فَيَمْسُونَ الْقَهْقَرَى، وَنَجْعَلُ لِأَحْدِهِمْ عَيْنَيْنِ مِنْ قَفَاهُ^(٥). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ^(٦). وَهَذَا أُبْلَغَ فِي الْعُقُوبَةِ وَالتَّكَالِ، وَهُوَ مَثَلٌ صَرَبَهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي صَرْفِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَرَدَّهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ، وَرُجُوعِهِمْ عَنِ الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ إِلَى سَبْلِ الضَّلَالَةِ، يُهْرَعُونَ وَيَمْسُونَ الْقَهْقَرَى عَلَى

أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضِعَ رَأْسَهُ عَلَى فِخْذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعَنُ بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، وَلَا يَمْتَنِعُنِي مِنَ التَّحْرُكِ إِلَّا مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فِخْذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التِّيْمِمْ، فَيَمِّمُوا. فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِيِّ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَجَعَلْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَوَجَدْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٢).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُشْرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتَّخِذُوا السَّبِيلَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا^(٣) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمِعْ عَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا^(٤) أَدَمَ الْيَهُودِ عَلَى اخْتِيَارِهِمُ الضَّلَالَةَ وَتَحْرِيفِ الْكَلِمِ وَالْعُصْيَانِ، وَلِيَّ الْأَلْسُنِ وَالطَّعْنِ فِي الدِّينِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - أَنَّهُمْ يُشْرُونَ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، وَيَعْرِضُونَ عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَيَتْرَكُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لِيَسْتَرُوا بِهِ نَمَنًا قَلِيلًا مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتَّخِذُوا السَّبِيلَ أَيِ يَدُودُونَ لَوْ تَكْفُرُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أَتُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَتَتْرَكُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أَيِ هُوَ يَعْلَمُ بِهِمْ وَيَحْدَرُكُمْ مِنْهُمْ، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أَيِ كَفَى بِهِ وَلِيًّا لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ وَنَصِيرًا لِمَنْ اسْتَنْصَرَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ «مِنْ» فِي هَذَا لِيَبَانَ الْجِنْسُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أَيِ يَتَأَوَّلُونَ الْكَلَامَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيُسْرَوْنَهُ بِغَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَضْدًا مِنْهُمْ وَافْتِرَاءً ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أَيِ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا مَا قُلْتُمْ يَا مُحَمَّدٌ وَلَا نَطِيعُكَ فِيهِ. هَكَذَا فَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ^(٣). وَهُوَ الْمُرَادُ، وَهَذَا أُبْلَغَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ بَعْدَمَا عَقَلُوهُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِثْمِ

(١) فتح الباري: ١/٥١٤ (٢) فتح الباري: ٧/٢٤ و ١٢/١٨٠
ومسلم: ١/٢٧٩ (٣) الطبري: ٨/٤٣٣ (٤) الطبري: ٨/٤٣٤
ضعيف كما مر (٥) الطبري: ٨/٤٤٠ تقدم حكم العوفي وعائلته
(٦) الطبري: ٨/٤٤١

أَذْبَارِهِمْ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي
أَعْيُنِهِمْ غُمَّةً تَفْهَىٰ إِلَىٰ الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا... الآية [س: ٨، ٩]: إِنَّ هَذَا مَثَلٌ
ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَمَعْنِيهِمْ عَنِ الْهُدَىٰ.

[إِسْلَامٌ كَعَبِ الْأَخْبَارِ عِنْدَ سَمَاعِهِ هَذِهِ الْآيَةُ]

وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ كَعَبَ الْأَخْبَارِ أَسْلَمَ حِينَ سَمِعَ هَذِهِ الْآيَةَ.
رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَيْسَىٰ بْنِ الْمُغْبِرَةِ، قَالَ: تَذَاكَرْنَا عِنْدَ
إِبْرَاهِيمَ إِسْلَامَ كَعَبٍ، فَقَالَ: أَسْلَمَ كَعَبٌ زَمَانَ عُمَرَ، أُقْبِلَ
وَهُوَ يَرِيدُ بَيْتَ الْمُقَدِّسِ، فَمَرَّ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ
عُمَرُ، فَقَالَ: يَا كَعَبُ، أَسْلِمْتَ. فَقَالَ: أَلَسْتُمْ تَقْرَأُونَ فِي
كِتَابِكُمْ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾ إِلَى ﴿أَسْفَارًا﴾
[الجمعة: ٥] وَأَنَا قَدْ حُمِلْتُ التَّوْرَةَ، قَالَ: فَتَرَكَهُ عُمَرُ.
ثُمَّ خَرَجَ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ حِمَصَ، فَسَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِهَا
حَزِينًا وَهُوَ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنًا يَأْتُوا
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ
أَذْبَارِهَا﴾... الآية، قَالَ كَعَبٌ: [يَا رَبِّ أَمِنْتُ] يَا رَبِّ
أَسْلَمْتُ مَخَافَةَ أَنْ تُصِيبَهُ هَذِهِ الْآيَةُ، ثُمَّ رَجَعَ فَأَتَىٰ أَهْلَهُ فِي
الْيَمَنِ، ثُمَّ جَاءَ بِهِمْ مُسْلِمِينَ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا
لَعْنَا أَسْحَبًا سَبَّتِ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي سَبِّهِمْ بِالْحِيلَةِ
عَلَى الْأَصْطِبَادِ، وَقَدْ مَسَّحُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ. وَسَيَّأْتِي بَسْطُ
قِصَّتِهِمْ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ
مَفْعُولًا﴾ أَي إِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ فَإِنَّهُ لَا يَخَالَفُ وَلَا يَمَانَعُ.

[لَا يُغْفَرُ الشِّرْكَ أَبَدًا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أَي: لَا يَغْفِرُ
لِعَبْدٍ لِقَبِيْهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِهِ، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾، أَي مِنْ
الذُّنُوبِ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أَي مِنْ عِبَادِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: يَا عَبْدِي مَا عَبْدتني وَرَجوتني، فَيَأْتِي
غَافِرًا لَكَ عَلَيَّ مَا كَانَ فِيكَ، يَا عَبْدِي إِنَّكَ إِنْ لَقِيتني بِقُرَابِ
الْأَرْضِ خَطِيئَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي، لَقِيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(٢).
تَقَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ
عَلَىٰ ذَلِكَ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ؟
قَالَ: «وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ؟
قَالَ: «وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ -ثَلَاثًا-». ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ:

«عَلَىٰ رَعْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ»، قَالَ: فَخَرَجَ أَبُو ذَرٍّ وَهُوَ يَجْرُ
إِزَارَهُ وَهُوَ يَقُولُ: وَإِنْ رَعِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ
يُحَدِّثُ بِهِذَا بَعْدُ، وَيَقُولُ: وَإِنْ رَعِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ^(٣).
أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ حُسَيْنِ بِهِ^(٤).

وَرَوَى الْبَزَّازُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: قَالَ: كُنَّا نُمْسِكُ عَنِ
الِاسْتِغْفَارِ لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ حَتَّىٰ سَمِعْنَا نَبِيَّنَا ﷺ يَقُولُ: ﴿إِنَّ
اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وَقَالَ:
«أَخْرَجْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).
وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كَقَوْلِهِ:
﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وَتَبَّتْ فِي
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
أَيُّ الذُّنُوبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ
خَلَقَكَ»... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ^(٦).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بِلِ اللَّهِ بِرِّي مَن يَشَاءُ وَلَا
يُظَلِّمُونَ قِتِيلًا﴾^(٧) أَنْظَرَ كَيْفَ يَقْرَأُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا
مُبِينًا^(٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ
بِالْحَبِيبِ وَالطَّلُوعِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا سَبِيلًا^(٩) أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ
نَصِيرًا^(١٠)

[دَمَ الْيَهُودِ وَلَعَنَهُمْ عَلَىٰ تَرْكِيهِمْ أَنفُسَهُمْ وَإِيمَانِهِمْ
بِالْحَبِيبِ وَالطَّلُوعِ وَقَلْبِهِمُ الْهُدَايَةَ وَالْإِيمَانَ]
قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ
تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ فِي الْيَهُودِ وَالتَّصَارِي حِينَ
قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجْبَاؤُهُ^(١١) وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَزَلَتْ فِي
قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وَفِي
قَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾^(١٢)
[البقرة: ١١١]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ اللَّهُ بِئْرِي مَن يَشَاءُ﴾
أَي الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِحَقَائِقِ
الْأُمُورِ وَغَوَامِضِهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُظَلِّمُونَ قِتِيلًا﴾
أَي وَلَا يُتْرَكُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَجْرِ مَا يُوَازِنُ مِقْدَارَ الْقِتِيلِ. قَالَ

(١) الطبري: ٤٤٦/٨ ضعيف: فيه عيسى بن المغيرة التميمي
مجهول الحال [تقريب] وجابر بن نوح بن جابر ضعيف الحديث
[الجرح والتعديل ٥٠٠/٢] (٢) أحمد: ١٥٤/٥ (٣) أحمد:
١٥٢/٥ (٤) فتح الباري: ٢٩٤/١٠ ومسلم: ٩٥/١ (٥)
كشف الأستار: ٨٤/٤ (٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ١/
٩٠ (٧) الطبري: ٤٥٢/٨ (٨) الطبري: ٤٥٣/٨

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ مَجْدَلُهُ نَصِيرًا ﴿٥٦﴾
 أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٧﴾ أَمْ
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا
 آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَآئِنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٨﴾
 فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَعَنَّهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا
 ﴿٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ
 جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخُلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٦١﴾ إِنَّ
 اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
 النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
 بَصِيرًا ﴿٦٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦٣﴾

[لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ لِاسْتِنصَارِهِم بِالْمُشْرِكِينَ]

وَهَذَا لَعْنٌ لَهُمْ وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُمْ لَا نَاصِرَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا
 فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا ذَهَبُوا يَسْتَنْصِرُونَ بِالْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا
 قَالُوا لَهُمْ ذَلِكَ، لِيَسْتَمِيلُوهُمْ إِلَىٰ نُصْرَتِهِمْ، وَقَدْ أَجَابُوهُمْ
 وَجَاءُوا مَعَهُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، حَتَّى حَفَرَ النَّبِيُّ ﷺ
 وَأَصْحَابُهُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ الْخَنْدَقِ، فَكَفَى اللَّهُ شَرَّهُمْ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِظَتِهِمْ لَمَّا بَنَوْا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ
 وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٧﴾ أَمْ
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ

ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ
 وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: هُوَ مَا يَكُونُ فِي شِقِّ النَّوَاةِ ^(١). وَقَوْلُهُ:
 ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْعَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبُ﴾ أَي فِي تَرْكِيبِهِمْ أَنْفُسَهُمْ
 وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجْبَاؤُهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ
 الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١]،
 وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ نَسْتَنَاقِ النَّارَ إِلَّا آتِيَانَا مَمْدُونَاتٍ﴾ [آل عمران:
 ٢٤] وَاتِّكَالِهِمْ عَلَى أَعْمَالِ آبَائِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ
 أَنَّ أَعْمَالَ الْآبَاءِ لَا تَجْزِي عَنِ الْبَنَاءِ شَيْئًا فِي قَوْلِهِ: ﴿بِتِلْكَ
 أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾... [الآية
 [البقرة: ١٣٤]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَفَى بِهِ إِيمَانًا مُبِينًا﴾ أَي وَكَفَى
 بِصَنِيعِهِمْ هَذَا كَذِبًا وَافْتِرَاءً ظَاهِرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى
 الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْفُوتُوا
 أَمَّا الْجِبْتِ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ^(٢)، عَنْ حَسَّانَ بْنِ
 فَائِدٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: الْجِبْتُ: السُّحْرُ،
 وَالطَّاعُوتُ: الشَّيْطَانُ ^(٣). وَقَالَ الْعَلَامَةُ أَبُو نَصْرِ إِسْمَاعِيلُ
 ابْنُ حَمَّادٍ الْجَوْهَرِيُّ فِي كِتَابِهِ «الصَّحَاحُ»: الْجِبْتُ كَلِمَةٌ
 تَقَعُ عَلَى الصَّنَمِ وَالْكَاهِنِ وَالسَّاحِرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الطَّوَاغِيتِ،
 فَقَالَ: هُمْ كَهَاتَانِ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ:
 الطَّاعُوتُ: الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ
 صَاحِبُ أَمْرِهِمْ ^(٥). وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: الطَّاعُوتُ هُوَ كُلُّ
 مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[لَا فَضْلَ لِلْكَفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا هُوَ الَّذِي هَدَىٰ مِنَ الَّذِينَ
 آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أَي يُفَضِّلُونَ الْكُفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِجَهْلِهِمْ،
 وَقِلَّةِ دِينِهِمْ، وَكُفْرِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ بِأَيْدِيهِمْ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: جَاءَ حَيْبُ بْنُ أَخْطَبَ وَكَعْبُ
 ابْنُ الْأَشْرَفِ إِلَىٰ أَهْلِ مَكَّةَ فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ
 وَأَهْلُ الْعِلْمِ، فَأَخْبِرُونَا عَنَّا وَعَنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: مَا أَنْتُمْ
 وَمَا مُحَمَّدٌ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ نَصِلُ الْأَرْحَامَ، وَنَنْحَرُ الْكُوفَاءَ،
 وَنَشْقِي الْمَاءَ عَلَى اللَّبَنِ، وَنَفُكُ الْعَنَاءَ، وَنَشْقِي الْحَجِيجَ،
 وَمُحَمَّدٌ صُبُورٌ قَطَعَ أَرْحَامَنَا، وَاتَّبَعَهُ سُرَاقُ الْحَجِيجِ بَنُو
 غِفَارٍ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ فَقَالُوا: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَهَدَىٰ سَبِيلًا،
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾... [الآية، وَقَدْ
 رَوَى هَذَا مِنْ غَيْرٍ وَجِهٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ
 السَّلَفِ.

(١) الطبري: ٤٥٨/٨، ٤٥٩ (٢) محمد بن إسحاق هنا وهم أو خطأ من الناسخ الفخبر معروف من رواية أبي إسحاق السبيعي عن حسان بن فائد. كما ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم وابن حجر في "تغليق التعليق" ١٩٦/٤ ط. المكتب الإسلامي من طرق عن أبي إسحاق. وقد ذكره المصنف بالصواب في سورة البقرة تحت آية رقم ٢٥٦ طبري: (٣) ٤٦٢/٨ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٣/٩٩٤ (٥) الطبري: ٤٦٢/٨

عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ
مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

[بَيَانُ عَذَابٍ مَنْ يَكْفُرُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يُعَاقَبُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ
وَصَدَّ عَنْ رُسُلِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا...
الآيَةِ، أَيْ نُدْخِلُهُمْ نَارًا دُخُولًا يُحِيطُ بِجَمِيعِ أَجْرَامِهِمْ
وَأَجْزَائِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ دَوَامِ عِقُوبَتِهِمْ وَنَكَالِهِمْ، فَقَالَ:
﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قَالَ
الْأَعْمَشُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: إِذَا اخْتَرَقَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلُوا جُلُودًا
غَيْرَهَا بِيَضَاءِ أَثْمَالِ الْقَرَاتِيسِ^(٣). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.
وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ قَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ
جُلُودُهُمْ... الْآيَةِ، قَالَ: تَنْضِجُهُمْ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ أَلْفَ
مَرَّةً. قَالَ حُسَيْنٌ: وَزَادَ فِيهِ فَضْلٌ عَنْ هِشَامٍ عَنِ الْحَسَنِ
﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ كَلَّمَا أَنْضَجْتَهُمْ فَأَكَلَتْ لَحُومَهُمْ قِيلَ
لَهُمْ: عُدُّوا فَعَادُوا^(٤).

[بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَهُوَ الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ مَالِ
السَّعْدَاءِ فِي جَنَّاتِ عَدْنِ التِّي تَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارُ فِي جَمِيعِ
فِجَاجِهَا، وَمَحَالِّهَا وَأَرْجَائِهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا،
وَهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يُحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ وَلَا يَبْغُونَ
عَنْهَا حَوْلًا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أَيْ مِنَ
الْحَيْضِ وَالتَّفَاسِ وَالْأَذَى وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَالصِّفَاتِ
التَّقَاصَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَقْدَارِ
وَالْأَذَى^(٥). وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَالحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالتَّخَعِيُّ
وَأَبُو صَالِحٍ وَعَطِيَّةُ وَالتَّشَدِيُّ^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ
الْبَوْلِ وَالحَيْضِ وَالتَّخَامِ وَالتَّبْرَاقِ وَالتَّمْنِيِّ وَالتَّوَلَدِ. وَقَوْلُهُ:
﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أَيْ ظِلًّا عَمِيمًا كَثِيرًا غَزِيرًا طَيِّبًا
أَيْقِنَا. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:
«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يُسِيرُ الرَّابِطُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا
يَقْطَعُهَا: شَجَرَةُ الْخُلْدِ»^(٧).

(١) الطبراني: ١٤٦/١١ (٢) الطبري: ٤٨٢/٨ (٣) الطبري:

٤٨٤/٨ (٤) الطبري: ٤٨٥/٨ (٥) الطبري: ٣٩٥/١ (٦)

ابن أبي حاتم: ٩٢/١ (٧) الطبري: ٤٨٩/٨ إسناده ضعيف فيه
أبو الضحاك مجهول ولكن أخرجه البخاري (٤٨٨١) ومسلم

إِزْهِيمَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةَ وَآيَاتِنَهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٦﴾ فَمَنْ مَنَّ آمَنَ
بِهِ وَمَنْ مَنَّ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٧﴾
[بُخْلُ الْيَهُودِ وَحَسَدُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ نُنْصِبْ مِنَ الْمَلَكِ﴾، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ
إِنْكَارِيٌّ، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ
بِالْبُخْلِ، فَقَالَ: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾، أَيْ لِأَنَّهُمْ لَوْ
كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْمَلِكِ وَالتَّصَرُّفِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا
مِنَ النَّاسِ - وَلَا سِوَمَا مُحَمَّدًا ﷺ - شَيْئًا، وَلَا مَا
يَمْلَأُ «التَّقِيرَ» وَهُوَ التَّقْطَعُ الَّذِي فِي التَّوَابِ فِي قَوْلِ ابْنِ
عَبَّاسٍ وَالأَكْثَرِينَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ
تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَسْتَكْمَكُنَّ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أَيْ
خَوْفَ أَنْ يَذْهَبَ مَا بِأَيْدِيكُمْ مَعَ أَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ تَفَادَهُ، وَإِنَّمَا
هُوَ مِنْ بُخْلِكُمْ وَشَحْكِكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ
قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] أَيْ بِخَيْلًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ
النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ حَسَدَهُمْ
النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَنْعَهُمْ
مِنَ تَصْدِيقِهِمْ إِتْيَاهُ حَسَدَهُمْ لَهُ، لِكُونِهِ مِنَ الْعَرَبِ وَلَيْسَ
مِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي
قَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ... الْآيَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:
نَحْنُ النَّاسُ دُونَ النَّاسِ^(١). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا
عَالِ إِزْهِيمَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةَ وَآيَاتِنَهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا﴾ أَيْ فَقَدْ
جَعَلْنَا فِي أَشْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ
إِبْرَاهِيمَ، النُّبُوَّةَ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، وَحَكَمُوا فِيهِمْ
بِالسَّنَنِ، وَهِيَ الْحِكْمَةُ، وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ الْمُلُوكَ وَمَعَ هَذَا
﴿فَمَنْ مَنَّ آمَنَ بِهِ﴾، أَيْ بِهَذَا الْإِتْيَاءِ وَهَذَا الْإِنْعَامِ،
﴿وَمَنْ مَنَّ صَدَّ عَنْهُ﴾ أَيْ كَفَرَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَسَعَى فِي
صَدِّ النَّاسِ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْهُمْ وَمِنْ جِنْسِهِمْ مِنْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ. فَقَدْ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِمْ، فَكَيْفَ يَكُ يَا مُحَمَّدُ
وَلَسْتَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَمَنْ مَنَّ آمَنَ
بِهِ﴾، أَيْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿وَمَنْ مَنَّ صَدَّ عَنْهُ﴾^(٢). فَالْكَفَرَةُ
مِنْهُمْ أَشَدُّ تَكْذِيبًا لَكَ، وَأَبْعَدُ عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى،
وَالْحَقُّ الْمُبِينُ، وَلِهَذَا قَالَ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ: ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ
سَعِيرًا﴾ أَيْ وَكَفَى بِالنَّارِ عِقُوبَةَ لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ
وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ كُتُبَ اللَّهِ وَرُسُلَهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ
جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ
وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦١﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ
صُدُودًا ﴿٦٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءَ وَكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
جَاءُواكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٥﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سُلايِمًا ﴿٦٥﴾

سنة^(٦١). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْئُتُكُمْ بِهِ﴾ أي يأمرهم به من
أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس، وغير ذلك من
أوامره وشرايعه الكاملة العظيمة الشاملة. وقوله تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ أي سميعًا لأقوالكم، بصيرًا
بأفعالكم.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ مَأْمُونًا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ
لَنْزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

(٢٨٣٦) وغيرهما ولفظه: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في
ظلها مائة عام لا يقطعها وأقروا إن شئتم "وظل ممدود" وليس فيه
"شجرة الخلد". (١) أحمد: ٤١٤/٣ وأبو داود: ٨٠٥/٣
وتحفة الأحوذى: ٤٧٩/٤ (٢) مسلم: ١٩٩٧/٤ (٣)
الطبري: ٤٩٢/٨ إسناده ضعيف فيه: الحسين بن داود المصيصي
الذي كان يلقن شيخه الحجاج. قد تقدم ذكره (٤) الطبري: ٨/
٤٩٠ (٥) ابن ماجه: ٧٧٥/٢ وعند ابن ماجه لفظ "القاضي"
بدل "الحاكم" (٦) ما وجدته بهذا اللفظ والرواية ضعيفة انظر
[ضعيف الترغيب للألباني ٧١، ٧/٢] الكنز: ١٢/٦

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأًا بَعْظِكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا
بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

[الْأَمْرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا. وَفِي
حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ سُمْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَدَّ
الْأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانَكَ» رَوَاهُ
الإمامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ^(١). وَهَذَا يُعْمُ جَمِيعَ الْأَمَانَاتِ
الْوَجِيبَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ
مِنَ الصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ وَالصِّيَامِ وَالْكَفَّارَاتِ وَالتَّدْوِيرِ
وغير ذلك مما هو مؤتمنٌ عَلَيْهِ، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْعِبَادُ،
وَمِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَالْوَدَائِعِ وَغير
ذلك مما يَأْتُمُونُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ غيرِ اِطِّلاعِ
بَيْنَهُ عَلَى ذلك، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَدَائِهَا، فَمَنْ لَمْ
يَفْعَلْ ذلك فِي الدُّنْيَا أُخِذَ مِنْهُ ذلك يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا
ثَبَّتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
«لَتُؤَدَّ الْحُقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا حَتَّىٰ يُفْتَصَّرَ لِلنِّسَاءِ الْجَمَاءِ مِنْ
الْقُرَّانِ»^(٢). رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي الْآيَةِ،
قَالَ: نَزَلَتْ فِي عُمَانَ بْنِ طَلْحَةَ، قَبَضَ مِنْهُ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، فَدَخَلَ فِي النَّبْتِ يَوْمَ الْفَتْحِ،
فَخَرَجَ وَهُوَ يَتَلَوُّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا
الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا... الْآيَةَ، فَدَعَا عُمَانَ إِلَيْهِ فَدَفَعَ إِلَيْهِ
المِفْتَاحَ. قَالَ: وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكَعْبَةِ وَهُوَ يَتَلَوُّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ
تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾-: فَذَاهُ أَبِي وَأُمِّي مَا سَمِعْتُهُ
يَتَلَوُّهَا قَبْلَ ذلك^(٣). وَهَذَا مِنَ الْمَشْهُورَاتِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ
نَزَلَتْ فِي ذلك، وَسِوَاهِ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي ذلك أَوْ لَا،
فَحَكْمُهَا عَامٌّ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ:
هِيَ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، أَيُّ هِيَ أَمْرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ.

[الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ]

وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أمرٌ
منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، ولهذا قال محمد بن
كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما
نزلت في الأمراء^(٤). يعنى الحكام بين الناس، وفي
الحديث: «إن الله مع الحاكم ما لم يجز، فإذا جار وكله
الله إلى نفسه»^(٥). وفي الأثر: «عدل يوم كعبادة أربيعين

[الْأَمْرُ بِطَاعَةِ الْأَمِيرِ فِي الْمَعْرُوفِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُدَّافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ^(١). وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ^(٢). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا خَرَجُوا وَجَدَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ، قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: اجْمَعُوا لِي حَطْبًا، ثُمَّ دَعَا بِنَارٍ فَأَضْرَمَهَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَتَدْخُلْتَهَا، قَالَ: فَهَمَّ الْقَوْمُ أَنْ يَدْخُلُوهَا قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ شَابٌّ مِنْهُمْ: إِنَّمَا فَرَزْتُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنَ النَّارِ، فَلَا تَعْجَلُوا حَتَّى تَلْقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوهَا فَادْخُلُوهَا. قَالَ: فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^(٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ». وَأَخْرَجَاهُ^(٥). وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَآتَرَةً عَلَيْنَا. وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ»^(٦). أَخْرَجَاهُ. وَفِي الْحَدِيثِ الْأَخْرَجَ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَسْبِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيئَةٌ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٧). وَعَنْ أُمِّ الْخُصَيْنِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ يَقُولُ: «وَلَوْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُوذُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، اسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٨). وَفِي لَفْظٍ لَهُ: «عَبْدًا حَبَشِيًّا مَجْدُوعًا» وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»^(٩). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «أَطِيعُوا اللَّهَ» أَي اتَّبِعُوا كِتَابَهُ «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» أَي خُذُوا بِسُنَّتِهِ «وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» أَي فِيمَا أَمَرَكُمْ

بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^(١٠).

[الْأَمْرُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عِنْدَ التَّنَازُعِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرٌ وَاجِدٌ مِنَ السَّلَفِ: أَي إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ^(١١). وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ كُلُّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَقُرُوعِهِ أَنْ يَرُدَّ التَّنَازُعُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» [الشورى: ١٠]. فَمَا حَكَمَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَشَهِدَا لَهُ بِالصَّحَّةِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» أَي رُدُّوا الْخُصُومَاتِ وَالْجَهَالَاتِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَتَحَاكُمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ» «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَحَلِّ التَّنَازُعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ حَرِيمٌ» أَي التَّحَاكُمُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِمَا فِي فَضْلِ التَّنَازُعِ حَرِيمٌ «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أَي وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَالًا. كَمَا قَالَهُ الشُّدِّيُّ وَغَيْرٌ وَاجِدٌ^(١٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «وَأَحْسَنُ جَزَاءٍ»^(١٣) وَهُوَ قَرِيبٌ.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعَمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ بَيْنِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ صَلَكًا بَعِيدًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا

(١) فتح الباري: ١٠١/٨ (٢) مسلم: ١٤٦٥/٣ وأبو داود: ٣/

٩٢ وتحفة الأحوذى: ٣٦٤/٥ والنسائي: ١٥٤/٧ (٣) أحمد: ٨٢/١

(٤) فتح الباري: ٦٥٥/٧ ومسلم: ١٤٦٩/٣ (٥) أبو داود: ٢٦٢٦ والبخاري: ٧١٤٤ ومسلم: ١٨٣٩ (٦) فتح الباري: ٢٠٤/١٣ ومسلم: ٤٧٠/٣ (٧) فتح الباري: ١/١٣

١٣٠ (٨) مسلم: ١٨٣٨ (٩) فتح الباري: ١١٩/١٣ ومسلم: ١٤٦٦/٣

(١٠) فتح الباري: ١٣٠/١٣ (١١) الطبري: ٨/٥٠٤

(١٢) الطبري: ٥٠٦/٨ (١٣) الطبري: ٥٠٦/٨

بَلِيغًا ﴿١٦﴾

[مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَحَاكَمَ إِلَى مَا سِوَاهُمَا فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ]

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَضْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، كَمَا ذَكَرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ تَخَاصُّمًا، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ، وَذَلِكَ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ. وَقِيلَ: فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، أَرَادُوا أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى حُكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْآيَةُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهَا دَائِمَةٌ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَهُوَ الْمَرَادُ بِالطَّاعُوتِ هَهُنَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الظُّلُومِ﴾... إِلَى آخِرِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أَيِ يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا كَالْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا نَجِدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [الفمنان: ٢١] وَهَؤُلَاءِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾... [الآية: النور: ٥١].

[ذَمُّ الْمُنَافِقِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيِ فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا سَأَلْتَهُمُ الْمَقَادِيرُ إِلَيْكَ فِي مَصَائِبِ تَطَرُّفُهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَاحْتَاجُوا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أَيِ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ، وَيَحْلِفُونَ مَا أَرَدْنَا بِذَهَابِنَا إِلَى غَيْرِكَ، وَتَحَاكَمْنَا إِلَى عَدَاكَ إِلَّا إِلَّا إِحْسَانًا وَالتَّوْفِيقَ، أَيِ الْمُدَارَاةَ وَالتَّمَانَعَةَ، لَا اعْتِقَادًا مِمَّا صَحَّحَتْ تِلْكَ الْحُكُومَةُ، كَمَا أَخْبَرْنَا تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْأَرُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ فِيهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَيَضْحِكُوا عَلَيَّ مَا أَسْرَأُ فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ [المائدة: ٥٢]. وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَرَّةَ الْأَسْلَمِيُّ كَاهِنًا يَفْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ فِيهِ، فَتَنَافَرَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ

وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَسَجَّزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَكَتَفَ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ فِيهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِينِهِمْ. وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أَيِ لَا تَعْنِفْهُمْ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿وَعَظْمُهُمْ﴾ أَيِ وَإِنَّهُمْ عَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ التَّفَاقُ وَتَسْرَائِرِ الشَّرِّ، ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَةٌ أَنفُسُهُمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أَيِ وَأَنْصَحُهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ رَاجِعٍ لَهُمْ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٤) فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٦﴾

[طَاعَةُ الرَّسُولِ وَاجِبَةٌ حَتْمًا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أَيِ فَرَضْتُ طَاعَتَهُ عَلَى مَنْ أَرْسَلْتَهُ إِلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيِ لَا يُطِيعُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِي (٢). يَعْنِي لَا يُطِيعُهُمْ إِلَّا مَنْ وَقَفْتَهُ لِدَلِّكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أَيِ عَنْ أَمْرِهِ وَقَدْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَسْلِيطِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الْآيَةُ، يُرِيدُ تَعَالَى الْعِصَاةَ وَالْمُذْنِبِينَ إِذَا وَقَعَ مِنْهُمْ الْخَطَأُ وَالْعِصْيَانُ أَنْ يَأْتُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَيَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ عِنْدَهُ وَيَسْأَلُوهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

[لَا يَكُونُ الْمَرْءُ مُؤْمِنًا حَتَّى يُحَكِّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي

خُصُومَاتِهِ وَيَرْضَى بِهِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحَكِّمَ الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَمَا

وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ لَا تَتَذَكَّرُونَ مِنَّا لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَظِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُمْسِيَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ * فَلْيَقْتُلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

[أَكْثَرُ النَّاسِ يُعَايِدُونَ لِمَا يُؤْمَرُونَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَنَاهِي لَمَّا فَعَلُوهُ، لِأَنَّ طِبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ، وَهَذَا مِنْ عِلْمِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِمَا لَمْ يَكُنْ أَوْ كَانَ، فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ الآية، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أَيُّ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ، وَتَرَكُوا مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أَيُّ مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَارْتِكَابِ النَّهْيِ ﴿وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا﴾. قَالَ السُّدِّيُّ: أَيُّ وَأَشَدَّ تَضَدِّيقًا ﴿وَإِذَا لَا تَتَذَكَّرُونَ مِنَّا لَدُنَّا﴾ أَيُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَيُّ فِي

حَكَمَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الْأَقْبَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أَيُّ إِذَا حَكَمْتُكَ طَبِيعَتُكَ فِي بَوَاطِنِهِمْ فَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَمْتَ بِهِ، وَيَتَفَادُونَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فَيَسَلِّمُونَ لِدَلِكِ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ وَلَا مَدَافَعَةٍ وَلَا مُتَارَعَةٍ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا فِي شَرِيحٍ مِنَ الْحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ» فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ». وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَكَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا ﷺ بِأَمْرٍ لُهُمَا فِيهِ سَعَةٌ، قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسَبُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (١)... الآية.

(سَبَبُ آخِرٍ) - رَوَى الْحَافِظُ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ دُحَيْمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ضَمْرَةَ: أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى لِمُحِقِّ عَلَى الْمُبْطِلِ، فَقَالَ الْمُقْضِي عَلَيْهِ: لَا أَرْضَى، فَقَالَ صَاحِبُهُ: فَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أَنْ نَذْهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَذَهَبَا إِلَيْهِ، فَقَالَ الَّذِي قَضَى لَهُ: قَدْ اخْتَصَمْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى لِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَأَنْتُمَا عَلَى مَا قَضَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى صَاحِبُهُ أَنْ يَرْضَى، قَالَ: نَأْتِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَأَتِيَاهُ فَقَالَ الْمُقْضِي لَهُ: قَدْ اخْتَصَمْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَضَى لِي عَلَيْهِ، فَأَبَى أَنْ يَرْضَى، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَقَالَ: كَذَلِكَ. فَدَخَلَ عُمَرُ مَنْزِلَهُ وَخَرَجَ وَالسِّيفُ فِي يَدِهِ قَدْ سَلَّهُ، فَضْرَبَ بِهِ رَأْسَ الَّذِي أَبَى أَنْ يَرْضَى فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾... الآية (٢).

﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا﴾ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ لَا تَتَذَكَّرُونَ مِنَّا لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨ (٢) الدر المنثور: ٣٢٢/٢ إسناده ضعيف ضمرة لم يدرك عمر رضي الله عنه فهو مرسل.

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَهُوَ مَعَ الْمُكْرَمِينَ عِنْدَ اللَّهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أَي مَنْ عَمِلَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسَكِّنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ، وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الرُّبُوبَةِ وَهُمْ الصِّدِّيقُونَ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ثُمَّ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ صَلَحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ، ثُمَّ أَتْنِي عَلَيْهِمْ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خَيْرُ بَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّتِي قَبِضَ فِيهَا فَأَخَذَتْهُ بِيَحَّةٍ شَدِيدَةٍ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ» فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ^(١). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢). وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «اللَّهُمَّ [فِي] الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»^(٣) - ثَلَاثًا - ثُمَّ قَضَى عَلَيْهِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالنَّسْلِيمِ.

ذُكِرَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مَحْزُونٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا فُلَانُ، مَا لِي أَرَاكَ مَحْزُونًا؟» قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، شَيْءٌ فَكَّرْتُ فِيهِ، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: نَحْنُ نَعُدُّو عَلَيْكَ وَتُرْوَحُ، نَنْظُرُ إِلَى وَجْهِكَ وَنُجَالِسُكَ، وَعَدَا تَرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّينَ، فَلَا نَصِلُ إِلَيْكَ، فَلَمْ يَزِدْ النَّبِيُّ ﷺ سُبْحَانًا، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...﴾ الْآيَةِ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فَبَشَّرَهُ^(٤). وَقَدْ رَوَى هَذَا الْأَثَرُ مُرْسَلًا عَنْ مَشْرُوقٍ، وَعِكْرَمَةَ، وَعَامِرِ الشَّعْبِيِّ وَقَتَادَةَ، وَعَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِهَا سَنَدًا، وَقَدْ رَوَى مَرْفُوعًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ، رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي النَّيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ فَانظُرْ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعَتْ مَعِ

النَّبِيِّينَ، وَإِنْ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَدِّسِيُّ فِي كِتَابِهِ «صِفَةُ الْجَنَّةِ» ثُمَّ قَالَ: لَا أَرَى بِإِسْنَادِهِ بَأْسًا^(٥)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَتَبَّتْ فِي صَاحِبِ مُسْلِمٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبِ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ آيِثُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوءِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «سَلْ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَاعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(٦).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْةَ الْجَهَنِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَصَلَّيْتُ الْخَمْسَ، وَأَدَّيْتُ زَكَاةَ مَالِي. وَصُمْتُ شَهْرَ رَمَضَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا - وَنَصَبَ أُصْبُعِيهِ - مَا لَمْ يَعْوَ وَالِدِيهِ»^(٧). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَأَعْظَمَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ بِشَارَةً مَا تَبَّتْ فِي الصَّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ طُرُقٍ مُتَوَاتِرَةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ، فَقَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي أَحْبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَحْبُّ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَرْجُو أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثَنِي مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ كَعَمَلِهِمْ^(٨). قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِرَحْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَهْلَهُمْ لِذَلِكَ لَا بِأَعْمَالِهِمْ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أَي هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُودًا حِذْرَكُمْ فَانفَرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفروا جميعاً﴾^(٩) وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَبِطَئَنَ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا^(١٠) وَلَيْنَ أَصَبْتُمْ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨ (٢) مسلم: ١٨٩٣/٤ (٣) مسلم: ١٨٩٤/٤ (٤) الطبري: ٥٣٤/٨ (٥) الطبراني: ٣٣٠٨ ومن طريق أبي نعيم في الحلية ١٢٥/٨ (٦) مسلم: ٤٨٩ (٧) جامع المسانيد والسنن: ٧٧/١٠ (٨) فتح الباري: ٥١/٧

فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٢﴾﴾

[الْأَمْرُ بِأَخْذِ الْحَدَرِ مِنَ الْعَدُوِّ]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الْحَدَرِ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَهَذَا يَشْتَلِرُهُمُ التَّاهُبُ لَهُمْ بِإِعْدَادِ الْأَسْلِحَةِ وَالْعَدَدِ، وَتَكْتِيرِ الْعَدَدِ بِالْبَيْتِ فِي سَبِيلِهِ ﴿ثَبَاتٌ﴾ أَيْ جَمَاعَةٌ بَعْدَ جَمَاعَةٍ وَفِرْقَةٌ بَعْدَ فِرْقَةٍ وَسَرِيَّةٌ بَعْدَ سَرِيَّةٍ. وَالثَّبَاتُ جَمْعُ ثَبَةٍ، وَقَدْ تَجَمَّعَ الثُّبَةُ عَلَى ثَبِينٍ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ﴾ أَيْ عَضَبًا يَعْنِي، سَرَايَا مُتَّفَرِّقِينَ ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ يَعْنِي كُلُّكُمْ^(١). وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَالسُّدِّيَّ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيِّ وَمُقَاتِلَ بْنِ حَبَّانٍ وَخُصَيْفَ الْجَزْرِيِّ^(٢).

[مِنْ عَلَامَاتِ الْمُتَنَفِّقِينَ التَّخَلُّفَ عَنِ الْجِهَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْكُرْ لَمَن لَّيِّطَنَّ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: نَزَلَتْ فِي الْمُتَنَفِّقِينَ^(٣). وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ: ﴿لَّيِّطَنَّ﴾ أَيْ لَيِّتَخَلَّفَنَّ عَنِ الْجِهَادِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَبْتَاطُ هُوَ فِي نَفْسِهِ، وَيَبْطِئُ غَيْرُهُ عَنِ الْجِهَادِ كَمَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ سَلُولٌ - فَبَحَهُ اللَّهُ - يَفْعَلُ، يَتَأَخَّرُ عَنِ الْجِهَادِ وَيَبْطِئُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ فِيهِ. وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ جُرَيْجٍ وَابْنِ جَرِيرٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ الْمُتَنَفِّقِ أَنَّهُ يَقُولُ: إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْجِهَادِ ﴿فَإِنِ اصْبَتَكَ مُصِيبَةٌ﴾ أَيْ قَتْلٌ وَشَهَادَةٌ وَعَلَبَ الْعَدُوُّ لَكُمْ لِمَا لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ قَالَ: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أَيْ إِذْ لَمْ أَحْضُرْ مَعَهُمْ وَقَعَةُ الْقِتَالِ، بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ، وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ أَوْ الشَّهَادَةِ إِذْ قُتِلَ.

﴿وَلَئِنِ اصْدَبَكُمْ فَضَّلْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيْ نَصْرٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أَيْ كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ ﴿يَلَيِّتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أَيْ بِأَنْ يَضْرِبَ لِي بِسَهْمِ مَعَهُمْ، فَأَحْصَلَ عَلَيْهِ. وَهُوَ أَكْبَرُ قَضِيهِ وَغَايَةُ مُرَادِهِ.

[التَّرْغِيبُ فِي الْجِهَادِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أَيْ الْمُؤْمِنُ النَّافِرُ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أَيْ يَبِيعُونَ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِكُفْرِهِمْ

وَمَا لَكُمْ لَّا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٣﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً قَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِغِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٥﴾ أَيْتِمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَالْهُولَاءُ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٦﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٧﴾

وَعَدَمَ إِيمَانِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيْ كُلُّ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - سَوَاءً قُتِلَ أَوْ غَلِبَ وَسَلِبَ - فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَثُوبَةٌ عَظِيمَةٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: ﴿وَتَكْفَلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِذَا تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَىٰ مَنْسَكِيهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ﴾^(٤).

﴿وَمَا لَكُمْ لَّا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٣﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ

ضَعِيفًا ﴿٧٤﴾

[الْحَضْرُ عَلَى الْقِتَالِ لِإِنْقَاذِ الْمُسْتَضْعَفِينَ]

يُحْرَضُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ،
(١) الطبري: ٥٣٧/٨ (٢) الطبري: ٥٣٨، ٥٣٧/٨ (٣)
الطبري: ٥٣٨/٨ (٤) فتح الباري: ٢٥٣/٦، ومسلم: ١٤٩٦/٣

وَعَلَى السَّعْيِ فِي اسْتِنْفَادِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مِنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ الْمُتَبَرِّينَ مِنَ الْمَقَامِ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ بِغَيْرِ مَكَّةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرَبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿الْفَالِاحِ أَهْلَهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وِلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أَي سَحَّرْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ وِلِيًّا وَنَاصِرًا. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ^(١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أَي الْمُؤْمِنُونَ يَقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَالْكَافِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ. ثُمَّ هَجَّجَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كَبِهَ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَةَ إِذَا فِيهِمْ مِمَّنْ يُخَشُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ﴾

[لَا مَفْرَءَ مِنَ الْمَوْتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أَي أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ، وَلَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الْآيَةُ [الرَّحْمَنِ: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ٣٤] وَالْمَقْصُودُ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ صَائِرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، سِوَاءَ جَاهِدٍ أَوْ لَمْ يُجَاهِدْ، فَإِنَّ لَهُ أَجَلًا مَحْثُومًا، وَمَقَامًا مَقْسُومًا، كَمَا قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حِينَ جَاءَهُ الْمَوْتُ عَلَى فِرَاشِهِ: لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَكَذَا مَوْفِعًا، وَمَا مِنْ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا وَفِيهِ جُرْحٌ مِنْ طَعْنَةٍ أَوْ رَمِيَّةٍ، وَهَذَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أَي حَصِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ عَالِيَةٍ رَفِيعَةٍ، أَي لَا يُغْنِي حَذَرَ وَتَحْصُنَ مِنَ الْمَوْتِ.

[طَبِيرَةُ الْمُنَافِقِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أَي خِصْبٌ وَرِزْقٌ مِنْ تِمَارٍ

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ذَاتَ النَّصَبِ، لَكِنْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِمُوَاَسَاةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَالصَّبْرِ إِلَى حَيْثُ، وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ، وَيَوَدُّونَ لَوْ أَمُرُوا بِالْقِتَالِ لِيَسْتَنْفِرُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ الْحَالُ إِذْ ذَاكَ مُنَاسِبًا لِأَسْبَابِ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا: قَلَّةُ عَدَدِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّهِمْ. وَمِنْهَا: كَوْنُهُمْ كَانُوا فِي بَلَدِهِمْ، وَهُوَ بَلَدٌ حَرَامٌ، وَأَشْرَفُ بَقَاعِ الْأَرْضِ، فَلَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ فِيهِ ابْتِدَاءً، [لَا تَبَأًا] فَلِهَذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْجِهَادِ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ لَمَّا صَارَتْ لَهُمْ دَارٌ وَمَنْعَةٌ وَأَنْصَارٌ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا أَمُرُوا بِمَا كَانُوا يُودُّونَهُ، جَزَعَ بَعْضُهُمْ مِنْهُ، وَخَافُوا مُوَاجَهَةَ النَّاسِ

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أَي الْمُؤْمِنُونَ يَقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَالْكَافِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ. ثُمَّ هَجَّجَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كَبِهَ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَةَ إِذَا فِيهِمْ مِمَّنْ يُخَشُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ﴾

فِينِيلًا ﴿٧٧﴾ إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ لَاقٍ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ [اللُّؤْمُ عَلَى حُبِّ تَأَخُّرِ فَرَضِ الْقِتَالِ مِمَّنْ كَانُوا يُرِيدُونَهُ]

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ذَاتَ النَّصَبِ، لَكِنْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِمُوَاَسَاةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَالصَّبْرِ إِلَى حَيْثُ، وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ، وَيَوَدُّونَ لَوْ أَمُرُوا بِالْقِتَالِ لِيَسْتَنْفِرُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ الْحَالُ إِذْ ذَاكَ مُنَاسِبًا لِأَسْبَابِ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا: قَلَّةُ عَدَدِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّهِمْ. وَمِنْهَا: كَوْنُهُمْ كَانُوا فِي بَلَدِهِمْ، وَهُوَ بَلَدٌ حَرَامٌ، وَأَشْرَفُ بَقَاعِ الْأَرْضِ، فَلَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ فِيهِ ابْتِدَاءً، [لَا تَبَأًا] فَلِهَذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْجِهَادِ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ لَمَّا صَارَتْ لَهُمْ دَارٌ وَمَنْعَةٌ وَأَنْصَارٌ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا أَمُرُوا بِمَا كَانُوا يُودُّونَهُ، جَزَعَ بَعْضُهُمْ مِنْهُ، وَخَافُوا مُوَاجَهَةَ النَّاسِ

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨ (٢) الطبري: ٥٤٩/٨ (٣) النسائي في الكبرى: ٣٢٥/٦ والحاكم: ٣٠٧/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩١

سُورَةُ النِّسَاءِ

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرْنَا مِنْ عِنْدِكَ بَيْتَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُ لَكَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِّءَ أَنْ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجُدُوا فِيهِ أَخْنِيفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقِنْدِلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفَلُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِبِئْرٍ فَحِبُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي^(١). وَهَذَا الْحَدِيثُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢). وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» أَيُّ مَا عَلَيْكَ مِنْهُ، إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ فَمَنْ اتَّبَعَكَ سَعِدَ وَنَجَا، وَكَانَ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ نَظِيرٌ مَا حَصَلَ لَهُ، وَمَنْ تَوَلَّى عَنْكَ خَابَ وَخَسِرَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ إِلَّا نَفْسُهُ»^(٣).

[بَيَانُ سَفَاهَةِ الْمُتَنَافِقِينَ]

وَقَوْلُهُ: «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ» يُخَيِّرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْمُوَافَقَةَ وَالطَّاعَةَ «فَإِذَا بَرَرْنَا مِنْ عِنْدِكَ» أَيُّ خَرَجُوا وَتَوَارَوْا عَنْكَ «بَيْتَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ»

وَزُرُوعَ وَأَوْلَادَ وَنَحْوَ ذَلِكَ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيِّ «يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نُصِبْتُمْ سَيِّئَةٌ» أَيُّ فَحْطٌ وَجَدْتُ وَنَقُصٌ فِي الثَّمَارِ وَالزُّرُوعِ، أَوْ مَوْتٌ أَوْلَادٍ أَوْ نِتَاجٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيُّ «يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ» أَيُّ مِنْ قِبَلِكَ وَيَسْبَبُ اتِّبَاعَنَا لَكَ وَافْتِدَائِنَا بِدِينِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ نُصِبْتُمْ سَيِّئَةً يَبْتَزُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ» [الأعراف: ١٣١] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ...» [الآية [الحج: ١١]] وَهَكَذَا قَالَ هُؤَلَاءِ الْمُتَنَافِقُونَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا، وَهُمْ كَارِهُونَ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلِهَذَا إِذَا أَصَابَهُمْ شَرٌّ إِنَّمَا يُسَيِّدُونَهُ إِلَى اتِّبَاعِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» فَقَوْلُهُ: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، أَيُّ الْجَمِيعِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَهُوَ نَافِذٌ فِي الْأَبْرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمَرَادُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ لِيَحْضَلَ الْجَوَابُ «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ» أَيُّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمِنْهُ وَلَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ «وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ» أَيُّ فَمِنْ قِبَلِكَ، وَمِنْ عَمَلِكَ أَنْتَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» [الشورى: ٣٠] قَالَ السُّدِّيُّ وَالْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ «فَمِنَ نَفْسِكَ» أَيُّ بِذَنْبِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي الْآيَةِ: «فَمِنَ نَفْسِكَ» عَقُوبَةٌ لَكَ. يَا ابْنَ آدَمَ بِذَنْبِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا» أَيُّ تُبَلِّغُهُمْ شَرَائِعَ اللَّهِ وَمَا يُجِبُهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ «وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا» أَيُّ عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلْتُكَ، وَهُوَ شَهِيدٌ أَيْضًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَعَالِمٌ بِمَا تُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ، وَبِمَا يَرُدُّونَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ كُفْرًا وَعِنَادًا.

«مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرْنَا مِنْ عِنْدِكَ بَيْتَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُ لَكَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

[طَاعَةُ الرَّسُولِ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ]

يُخَيِّرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ

(١) أحمد: ٢٥٢/١ (٢) فتح الباري: ١٣٥/٦ ومسلم: ٣/

(٣) مسلم: ٥٩٤/٢

وَأَخِي، وَإِذَا مَشِيخَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكْرَهْنَا أَنْ نَفْرَقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ارْتَمَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغْضِبًا، حَتَّى احْمَرَ وَجْهَهُ، يَرْمِيهِمْ بِالْتَّرَابِ وَيَقُولُ: «مَهَلًا يَا قَوْمَ، بِهِذَا أَهْلَكْتَ الْأُمَّمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ يُكْذِبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، إِنَّمَا يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»^(١).

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَإِنَّا لَجُلُوسٌ إِذْ اخْتَلَفَ اثْنَانِ فِي آيَةٍ، فَارْتَمَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكْتَ الْأُمَّمُ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»^(٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(٣).

[الَّتِي هِيَ عَنْ إِشَاعَةِ الْخَبَرِ دُونَ تَحْقِيقِ]

وَقَوْلُهُ: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ»^(٤)، إِنَّكَ عَلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى الْأُمُورِ قَبْلَ تَحْقِيقِهَا، فَيُخْرِئُ بِهَا وَيُشْبِهُهَا وَيَنْشُرُهَا، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا صِحَّةٌ. وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي مُقَدِّمَةِ صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»^(٥). وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ مِنْ سُنَنِهِ^(٥). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ^(٦). أَيُّ الَّذِي يُكْثِرُ مِنَ الْحَدِيثِ عَمَّا يَقُولُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ تَنْبِيْ، وَلَا تَدْبِيرٍ، وَلَا تَبَيِّنٍ. وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(٧). وَنَذَرْتُ هَهُنَا حَدِيثَ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ الْمُتَّفَقَ عَلَى صِحَّتِهِ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، طَلَّقَ نِسَاءَهُ، فَجَاءَ مِنْ مَنَزِلِهِ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَوَجَدَ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَضِرَّ حَتَّى اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَفْهَمَهُ أَطْلَقْتَ نِسَاءَهُ؟ فَقَالَ: «لَا» فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ. وَعِنْدَ مُسْلِمٍ قُلْتُ: أَطْلَقْتَهُنَّ؟ فَقَالَ: «لَا» فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي، لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ

أَيَّ اسْتَسْرَوْا لَيْلًا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِغَيْرِ مَا أَظْهَرُوهُ لَكَ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ» أَيُّ يَعْلَمُهُ وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ حَفِظْتَهُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ هُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْعِبَادِ، يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا التَّهْدِيدِ أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَضْمُرُونَهُ وَيُسِرُّونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَمَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ لَيْلًا مِنْ مُحَالَفَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَعِضْيَانِهِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَالْمُؤَافَقَةَ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا»... الْآيَةَ [النور: ٤٧]، وَقَوْلُهُ: «فَاعْرِضْ عَنْهُمْ» أَيُّ اصْفَحْ عَنْهُمْ، وَاحْتَلَمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ، وَلَا تُكْتِفِ أُمُورَهُمْ لِلنَّاسِ، وَلَا تَحْفَ مِنْهُمْ أَيْضًا «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» أَيُّ: كَفَى بِهِ وِلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا، لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَتَانِ بِهِ.

«أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»^(٨) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَاطِئُوهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا»^(٩)
[الْقُرْآنُ حَقٌّ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لَهُمْ بِتَدْبِيرِ الْقُرْآنِ وَنَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَعَنْ تَفْهَمِ مَعَانِيهِ الْمُحْكَمَةِ وَاللَّفَاطِيهِ الْبَلِيغَةِ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا اضْطِرَابَ، وَلَا تَضَادَّ وَلَا تَعَارُضَ لِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ حَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالًا» [محمد: ٢٤]، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ» أَيُّ لَوْ كَانَ مُفْتَعَلًا مُخْتَلَفًا، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُ مِنْ جَهْلَةِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي بَوَاطِينِهِمْ «لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا»، أَيُّ اضْطِرَابًا وَتَضَادًا «كَثِيرًا»، أَيُّ وَهَذَا سَالِمٌ مِنَ الْاِخْتِلَافِ، فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ حَيْثُ قَالُوا: «ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» [آل عمران: ٧] أَيُّ مُحْكَمُهُ وَمُتَشَابِهُهُ حَقٌّ، فَلهَذَا رَدُّوا الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ فَاهْتَدَوْا، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْغٌ رَدُّوا الْمُحْكَمَ إِلَى الْمُتَشَابِهِ فَعَوَّوْا، وَلِهَذَا مَدَحَ تَعَالَى الرَّاسِخِينَ وَدَمَّ الرَّافِعِينَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرُ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا

(١) أحمد: ١٨١/٢ (٢) أحمد: ١٩٢/٢ (٣) مسلم: ٤/٤٠٥٣ والنسائي في الكبرى: ٣٣/٥ (٤) مسلم: ١٠/١ (٥) أبو داود: ٢٢٦/٥ (٦) مسلم: ٥ وأبو داود: ٤٩٩٢ (٧) مسلم: ٩/١

الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ^(١). وَمَعْنَى قَوْلِهِ: يَسْتَنْبِطُونَهُ أَي يَسْتَخْرِجُونَهُ [وَيَسْتَعْمِلُونَهُ] مِنْ مَعَادِينِهِ، يُقَالُ: اسْتَنْبَطَ الرَّجُلُ الْعَيْنَ إِذَا حَفَرَهَا وَاسْتَخْرَجَهَا مِنْ قُورِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قَالَ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني الْمُؤْمِنِينَ^(٢).

﴿فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾^(٣) مَنْ يَشْفَعُ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَمْ يَصِيبْ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِلًا^(٤) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِبِخْتٍ فَبِحَيْثُ فَبِحَيْثُ بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رَدُّهَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا^(٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا^(٦)

[أَمْرُ اللَّهِ رَسُولُهُ بِأَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ، وَمَنْ نَكَلَ عَنْهُ فَلَا عَلَيْهِ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَأَلْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ عَنِ الرَّجُلِ يَلْقَى مِائَةً مِنَ الْعَدُوِّ فَيَقَاتِلُ أَبْيَكونُ مِمَّنْ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُقْلُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَاكِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؟ قَالَ: قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّ ﷺ: ﴿فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عِيَّاشٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: قُلْتُ لِلْبَرَاءِ: الرَّجُلُ يَحْمِلُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، أَهُوَ مِمَّنْ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؟ قَالَ: لَا، لِأَنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولَهُ ﷺ وَقَالَ: ﴿فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾. إِنَّمَا ذَلِكَ فِي النَّفَقَةِ^(٧).

[تَحْرِيبُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي عَلَى الْقِتَالِ، وَرَعَّبَهُمْ فِيهِ، وَشَجَّعَهُمْ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ لَهُمْ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ يُسَوِّي الصُّفُوفَ: «قُومُوا إِلَى جَنَّتِهِ عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»^(٨). وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ فِي التَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا^(١) ﴿٨٧﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾^(٢) وَدُوَالُو كُفْرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيَاءَ وَلَا نَصِيرًا^(٣) ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَهُمْ وَكَمْ حَصَرْتُمْ صُدُورَهُمْ أَنْ يَقْبَلُواكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلْتُمُوهُمْ فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا^(٤) ﴿٨٩﴾ سَتَجِدُونَ أَهْرَجِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلِّ مَارَدًا وَإِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعِزُّوكُمْ وَيَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا^(٥) ﴿٩٠﴾

الَّتِي وُلِدَ فِيهَا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُبَشِّرُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ فَقَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٦). وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ^(٧) وَمُعَاذِ^(٨) وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، نَحْوُ ذَلِكَ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا وَنَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، قَالَ: فَجَبَتْ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ: أَعِدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ الْعَبْدَ بِهَا مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي

(١) فتح الباري: ١٨٧/٩ مسلم: ١١٠٥/٢ (٢) الطبري: ٨/٥٧٥ (٣) أحمد: ٢٨١/٤ (٤) مسلم: ١٥١٠/٣ (٥) فتح الباري: ١٤/٦ (٦) تحفة الأحوي: ٢٣٧/٧ (٧) ابن ماجه: ١٤٤٨/٢

الْحِجَّةَ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَوْلُهُ: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَى بِأَسْ أَلَيْبِنِ كَفْرُوا» أَيُّ بِتَحْرِيبِكُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى الْقِتَالِ تَنْبِئُ هِمُّهُمْ عَلَى مُنَاجَرَةِ الْأَعْدَاءِ. وَمُدَافَعَتِهِمْ عَنْ حَوْرَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَمُقَاوَمَتِهِمْ وَمُصَابِرَتِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا» أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ...» الآية [محمد: ٤].

[الشفاعة الحسنة والسئية]

وقوله: «مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا» أَيُّ مَنْ سَعَى فِي أَمْرٍ، فَيَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، «وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِمَّا» أَيُّ يَكُونُ عَلَيْهِ وَزْرٌ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ الَّذِي تَرْتَّبَ عَلَى سَعْيِهِ وَيَتَّبِعِهِ، كَمَا تَبَتَّ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اشْفَعُوا تُوجِرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ»^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي شَفَاعَاتِ النَّاسِ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ^(٣). وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ وَعَطِيَّةٌ وَقَتَادَةُ وَمَطَرٌ الْوَرَأَى: «مُقِيمًا» أَيُّ حَفِظًا^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شَهِيدًا، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: حَسِيًّا^(٥).

[الامر برد السلام بأحسن منه]

وقوله: «وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فُحِّبُوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أَوْ رُدُّوهُا» أَيُّ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْمُسْلِمُ فَرُدُّوا عَلَيْهِ أَفْضَلَ مِمَّا سَلَّمَ، أَوْ رُدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلَّمَ، فَالزِّيَادَةُ مَثْبُوتَةٌ، وَالْمِثَالُ مَفْرُوضَةٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «عَشْرًا»، ثُمَّ جَاءَ آخَرَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ بِرَسُولِ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا سَلَّمَ، فَقَالَ: «عَشْرُونَ»، ثُمَّ جَاءَ آخَرَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «ثَلَاثُونَ»^(٦). وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَالْبُرَّازُ، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَعَلِيِّ وَسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ^(٧). فَإِنَّ بَلَّغَ الْمُسْلِمِ غَايَةَ مَا شُرِعَ فِي السَّلَامِ، رَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا قَالَ.

وقد جاء في الحديث الذي رواه لأبو داود بسنده إلى أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمرٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٨).

وقوله: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمن قسمًا لقوله: «ليجمعنكم إلى يوم القيمة لا ربَّ فيه» وهذه اللام موطنة للقسم، فقوله: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كلَّ عاملٍ بعمله. وقوله تعالى: «ومن أصدق من الله حديثًا» أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيدِهِ، فلا إله إلا هو ولا ربَّ سواه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي التَّنْفِيقِ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا يَجِدُ لَهُ سَبِيلًا﴾^(٩) وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُدُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخَدُوا مِنْهُمْ وَلَيْسَ وَلَا نَصِيرًا^(١٠) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَتْكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَىٰكُمْ أَسَلَّمْتُمْ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا^(١١) سَتَجِدُونَ الْعَرَبِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا

(١) مسلم: ١٥٠١/٣ (٢) فتح الباري: ٣٥١/٣ (٣) الطبري: ٥٨١/٨ (٤) الطبري: ٥٨٣/٨ (٥) الطبري: ٥٨٣/٨ (٦) أحمد: ٤٣٩/٤ (٧) أبو داود: ٣٧٩/٥ وتحفة الأحوذى: ٧/٤٦٣ وكشف الأستار: ٤١٨/٢ (٨) فتح الباري: ٢٩٣/١٢ ومسلم: ١٧٠٦/٤ (٩) مسلم: ١٧٠٧/٤ (١٠) أبو داود: ٥/٣٧٨

قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْزِلُوا
وَبَلَّغُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيَدِيَهُمْ فَخُدُّوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ
حَيْثُ يَفْقَهُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَمَلًا لَّكُمْ عَلَيْهِمُ سُلْطَانًا
مُّبِينًا ﴿٩١﴾

[التكبير على اختلاف الصحابة يمين رجع من أحد]

يَسْأَلُ تَعَالَى مُتَكَبِّرًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي اخْتِلَافِهِمْ فِي
الْمُتَافِقِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ: وَاخْتَلَفَ فِي سَبَبِ ذَلِكَ فَرَوَى
الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج
إلى أحد فرجع ناساً خرجوا معه، فكان أصحاب رسول
الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول:
لا، فأنزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَّفِقِينَ فِتْنَتَيْنِ﴾. فقال رسول
الله ﷺ: «إنها طيبة وإنها تنفي الحبت كما ينفي الكبر
حبت الحديد»^(١). أخرجاه في الصحيحين^(٢). وقال
العوفي عن ابن عباس: نزلت في قوم كانوا بمكة قد
تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا
من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا: إن لقينا أصحاب
محمد فليس علينا منهم بأس، وإن المؤمنين لما أخبروا
أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا
إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم،
وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله - أو كما
قالوا - اقتلوا قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟
[أ] من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم، نستحل
دماؤهم وأموالهم؟ فكانوا كذلك فقتل، والرسول عندهم
لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء، فأنزل الله ﴿فَمَا
لَكُمْ فِي الْمُتَّفِقِينَ فِتْنَتَيْنِ﴾^(٣). رواه ابن أبي حاتم.
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي ردهم
وأوقعهم في الخطأ. قال ابن عباس: ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أي
أوقعهم^(٤). وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي بسبب عصيانهم
ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا
مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يَضِلَّ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي لا طريق
له إلى الهدى ولا مخلص له إليه، وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ
كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي هم يودون لكم الضلالة
ليستنوا وأنتم وإياهم فيها وما ذاك إلا لشدّة عداوتهم
وبغضهم لكم ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى
يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي تركوا الهجرة. قاله
العوفي عن ابن عباس^(٥). وقال السدي: أظهرها كفرهم.

وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى
أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّمْتَنٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
إِلَى أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَنَهُ. وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا
لِمَن أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ
كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

[مَنْ يُقَاتِلْ وَمَنْ لَا يُقَاتِلْ؟]

ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّمْتَنٌ﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى
قوم بينكم وبينهم مهادنة، أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم
كحكمهم. وهذا قول السدي وابن زيد وابن جرير^(١).
وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: فكان
من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم... ومن
أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه
وعهدهم...^(٢). وقد روي عن ابن عباس أنه قال:
نسخها قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْمُتَرَمِّمَةَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٣)... الآية [التوبة: ٥].

(١) أحمد: ١٨٤/٥ (٢) فتح الباري: ١١٥/٤ ومسلم: ٢/١٠٠٧ (٣) الطبري: ١٠/٩ ضعيف العوفي وعائلته كلهم
ضعفاء (٤) الطبري: ١٥/٩ (٥) الطبري: ١٧/٩ (٦) الطبري: ١٩/٩ (٧) فتح الباري: ٣٨٨/٥ وأحمد: ٣٢٥/٤
(٨) الطبري: ١٨/٩

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ﴾... الآية، هُوَ لَاءٌ قَوْمٌ آخَرُونَ مِنَ الْمُسْتَشِينِ عَنِ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ يَجِيئُونَ إِلَى الْمَصَافِّ وَهُمْ حَصْرَةٌ صُدُورُهُمْ، أَيْ ضَيْقَةٌ صُدُورُهُمْ، مُبْغِضِينَ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ، وَلَا يَهُونَ عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ مَعَكُمْ، بَلْ هُمْ لَا لَكُمْ وَلَا عَلَيْكُمْ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتَلُوكُمْ﴾ أَيْ مِنْ لُطْفِهِ بِكُمْ أَنْ كَفَّهُمْ عَنْكُمْ ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوْلُ أَيْتُكُمْ السَّلَامُ﴾ أَيْ الْمُسَالَمَةَ ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَكِينًا﴾ أَيْ فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ مَا دَامَتْ حَالُهُمْ كَذَلِكَ. وَهُوَ لَاءٌ كَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَحَضَرُوا الْقِتَالَ وَهُمْ كَارِهُونَ، كَالْعَبَّاسِ وَنَحْوِهِ وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَتْلِ الْعَبَّاسِ وَأَمَرَ بِأَسْرِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية، هُوَ لَاءٌ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ كَمَنْ تَقَدَّمَهُمْ، وَلَكِنْ نِيَّةُ هُوَ لَاءٌ غَيْرَ نِيَّةِ أَوْلَيْكَ، فَإِنَّ هُوَ لَاءٌ قَوْمٌ مُتَأَفِّفُونَ: يُظْهِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَاضِحَابِهِ الْإِسْلَامَ، لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ، وَيُضَايِعُونَ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ، فَيَعْبُدُونَ مَعَهُمْ مَا يَعْبُدُونَ، لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مَعَ أَوْلَيْكَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَّوْا إِلَى شِيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾... الآية [البقرة: ١٤]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أَيْ انْهَمَكُوا فِيهَا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْفِتْنَةُ - هَهُنَا - الشَّرْكَ^(١). وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيَسْلِمُونَ رِيَاءً ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى قُرَيْشٍ فَيَزْتَكِسُونَ فِي الْأَوْثَانِ، يَنْتَعُونَ بِذَلِكَ أَنْ يَأْمَنُوا هَهُنَا وَهَهُنَا، فَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ إِنْ لَمْ يَعْزَلُوا وَيُضِلُّوْهُا^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزَلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ أَلْمِهَادَةَ وَالصُّلْحَ، وَبَكَتُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أَيْ عَنِ الْقِتَالِ، ﴿فَخَذُوهُمْ﴾ أُسْرَاءَ، ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ نَفَقْتُمُوهُمْ﴾ أَيْ أَيْنَ لَقَيْتُمُوهُمْ، ﴿وَأَوْلَيْكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أَيْ بَيِّنًا وَاضِحًا.

﴿وَمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا إِلَّا خَطَطًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَطًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِيهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ

يَجِدَ فِصْيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَكَتِبِينَ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبٌ عَلَيْهِ وَلَعْنَةٌ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

[حُكْمُ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ خَطَطًا]

يَقُولُ تَعَالَى: لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا يَأْخُذَ ثَلَاثَ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيْبُ الرَّزَائِي، وَالتَّارِكُ لِذِيئِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٣). ثُمَّ إِذَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَحَادِ الرَّعِيَّةِ أَنْ يَقْتُلَهُ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا خَطَطًا﴾ قَالُوا: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَاخْتِلَافٌ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ وَاحِدٌ: نَزَلَتْ فِي عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ أَخِي أَبِي جَهْلٍ لِأُمِّهِ، وَهِيَ أَسْمَاءُ بِنْتُ مُحَرَّبَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا يُعَذِّبُهُ مَعَ أَخِيهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الْحَارِثُ بْنُ تَرِيدِ الْعَامِرِيِّ، فَأَصَمَّرَ لَهُ عِيَّاشُ الشُّوْءَ، فَأَسْلَمَ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَهَاجَرَ، وَعِيَّاشُ لَا يَشْعُرُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ رَأَى فَظْرًا أَنَّهُ عَلَى ذِيئِهِ فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(٤). قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي الدَّرْدَاءِ لِأَنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا وَقَدْ قَالَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ حِينَ رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ، فَأَهْوَى بِهِ إِلَيْهِ فَقَالَ كَلِمَتَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: إِنَّمَا قَالَهَا مُتَعَوِّذًا فَقَالَ لَهُ: «هَلَّا شَفَعْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟»^(٥). وَهَذِهِ الْقِصَّةُ فِي الصَّحِيحِ لِغَيْرِ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَطًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِيهِ﴾ هَذَانِ وَاجِبَانِ فِي قَتْلِ الْخَطَطِ، أَحَدُهُمَا: الْكُفَّارَةُ لِمَا ارْتَكَبَهُ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَإِنْ كَانَ خَطَطًا، وَمِنْ شَرْطِهَا أَنْ تَكُونَ عِتْقَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَلَا تُجْزَى الْكَافِرَةُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَّهُ جَاءَ بِأُمِّهِ سَوْدَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَلِيَّ عِتْقَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، فَإِنْ كُنْتُ تَرَى هَذِهِ مُؤْمِنَةً أَعْتَمْتُهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ: «أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ:

(١) الطبري: ٢٨/٩ (٢) الطبري: ٢٧/٩ (٣) فتح الباري: ٢٠٩/١٢ ومسلم: ١٣٠٢/٣ (٤) الطبري: ٣٢/٩ (٥) الطبري: ٣٤/٩

مَرَضٍ أَوْ حَيْضٍ أَوْ يَفَاسٍ اسْتَأْنَفَ، وَقَوْلُهُ: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَي هَذِهِ تَوْبَةُ الْقَاتِلِ خَطَأً إِذَا لَمْ يَجِدِ الْعُنُقَ صَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ .

[الْوَعِيدُ عَلَى قَتْلِ الْعَمْدِ]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حُكْمَ الْقَتْلِ الْخَطِئِ شَرَعَ فِي بَيَانِ حُكْمِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا...﴾ الْآيَةَ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَعَاطَى هَذَا الذَّنْبَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ مَفْرُوعٌ بِالشَّرْكِ بِاللَّهِ فِي غَيْرِ مَا آتَى فِي كِتَابِ اللَّهِ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾... الْآيَةَ [الفرقان: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَا لَوْ أَنَّ لَكُمْ رِيبًا مِّنْ عِندِكُمْ إِلَّا فِتْرَتًا يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَعْيُنُ عَنِ الْعُرُوفِ﴾... الْآيَةَ [الأنعام: ١٥١]، وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِ الْقَتْلِ كَثِيرَةٌ جَدًّا: فَمِنْ ذَلِكَ مَا تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُفْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»^(٥). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا (مَسْرَعًا فِي الطَّاعَةِ) صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَغَ»^(٦) (وَقَعَ فِي الْهَلَكَةِ). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»^(٧).

[هَلْ تَقْبَلُ تَوْبَةَ قَاتِلِ الْعَمْدِ؟]

وَقَدْ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَرَى أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لِقَاتِلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: اخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ الْكُوفَةِ، فَوَحَلَتْ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ، وَمَا نَسَخَهَا شَيْءٌ^(٨). وَكَذَا رَوَاهُ أَيْضًا مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(٩). وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ

«أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَتُؤْمِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَعِيقَهَا»^(١). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ وَجَهَالَةٌ الصَّحَابِيِّ لَا تَضُرُّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ لِّكَ أَهْلِيهِ﴾ هُوَ الْوَاجِبُ الثَّانِي فِيمَا بَيْنَ الْقَاتِلِ وَأَهْلِ الْقَتِيلِ عَوَضًا لَهُمْ عَمَّا فَاتَهُمْ مِنْ قَرِيبِهِمْ، وَهَذِهِ الدِّيَةُ إِنَّمَا تَجِبُ أَحْمَاسًا، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشُّنَنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي دِيَةِ الْخَطِئِ عَشْرِينَ بِنْتِ مَخَاضٍ، وَعَشْرِينَ بَنِي مَخَاضٍ ذُكُورًا، وَعَشْرِينَ بِنْتِ لُبُونٍ، وَعَشْرِينَ جَدْعَةَ، وَعَشْرِينَ حِقَّةً، لَفْظُ النَّسَائِيِّ^(٢). وَهَذِهِ الدِّيَةُ إِنَّمَا تَجِبُ عَلَى عَاقِلَةٍ الْقَاتِلِ لَا فِي مَالِهِ، كَمَا تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَقْتَلْتُ امْرَأَتَانِ مِنْ هَذِلِيلٍ فَرَمْتِ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلْتَهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَضَى أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ عَبْدًا أَوْ أَمَةً، وَقَضَى بِدِيَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا^(٣). وَهَذَا يُقْتَضِي أَنَّ حُكْمَ عَمْدِ الْخَطِئِ حُكْمُ الْخَطِئِ الْمُخَضِّ فِي وُجُوبِ الدِّيَةِ، لَكِنَّ هَذَا تَجِبُ فِيهِ الدِّيَةُ أَثْلَانًا كَالْعَمْدِ لِشَبْهَةِ الْعَمْدِ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَدِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَانًا صَبَانًا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُهُمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ»^(٤). وَبَعَثَ عَلِيًّا فَوَدَى قِتْلَاهُمْ وَمَا أَنْفَلَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى مِيلَعَةَ الْكَلْبِ. وَهَذَا الْحَدِيثُ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ خَطَأَ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ يَكُونُ فِي بَيْتِ الْمَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أَي فَتَجِبُ فِيهِ الدِّيَةُ مُسَلَّمَةً إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقُوا بِهَا، فَلَا تَجِبُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أَي إِذَا كَانَ الْقَتِيلُ مُؤْمِنًا، وَلَكِنْ أَوْلِيَاؤُهُ مِنْ الْكُفَّارِ أَهْلُ حَرْبٍ، فَلَا دِيَةَ لَهُمْ، وَعَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ لَا غَيْرَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حِمٌّ﴾... الْآيَةَ، أَي فَإِنْ كَانَ الْقَتِيلُ أَوْلِيَاؤُهُ أَهْلُ دِمَّةٍ أَوْ هُدْنَةٍ، فَلَهُمْ دِيَةٌ قَتِيلِهِمْ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا فِدْيَةٌ كَامِلَةٌ، وَتَجِبُ أَيْضًا عَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أَي لَا إِفْطَارَ بَيْنَهُمَا بَلْ يَسْرُدُ صَوْمَهُمَا إِلَى آخِرِهِمَا، فَإِنْ أَفْطَرَ مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ مِنْ

(١) أحمد: ٤٥١/٣ (٢) النسائي: ٤٧٩٩ وأحمد ٣٨٤/١ وأبو داود: ٤٥٤٥ والترمذي: ١٣٨٦ وابن ماجه: ٢٦٣١ (٣) فتح الباري: ١٢/٢٦٣١ (٤) فتح الباري: ٧/٦٥٣ (٥) فتح الباري: ١١/٤٠٢ ومسلم: ٣/١٣٠٤ (٦) جامع المسانيد والسنن: ٧/١٤٣ (٧) تحفة الأحوذى: ٤/٦٥٢ (٨) فتح الباري: ٨/١٠٦ (٩) مسلم: ٤/٢٣١٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٢٦

وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»^(٢).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا صَرَسَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَتُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَعُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَانِدُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَتُوا إِلَى اللَّهِ كَمَا تَبَتَّ الْعَبِيدُ لِلَّذِينَ هُم بِحَبِيرٍ﴾^(٣)

[السَّلَامُ مِنَ عَلَامَاتِ الْإِسْلَامِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَزْعَى غَنَمًا لَهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْنَا إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنَّا، فَعَمَدُوا إِلَيْهِ فَقَتَلُوهُ، وَأَتَوْا بِغَنَمِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٤) إِلَى آخِرِهَا، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي التَّفْسِيرِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ^(٥). وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٥). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ رَجُلٌ فِي غَنَمَةٍ لَهُ فَلَجَحَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا غَنِيمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَرَضَ الدُّنْيَا تِلْكَ الْغَنِيمَةُ، وَفَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿السَّلَامُ﴾^(٦).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي حَدَرْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، [عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَدَرْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِضْمٍ فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ، وَمُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ بْنِ قَيْسٍ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَطْنِ إِضْمٍ، مَرَّ بِنَا عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ الْأَشْجَعِيُّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ، مَعَهُ مَتَبَعٌ (تصغير متاع وهو السلعة وأثاث البيت) لَهُ وَوَطْبٌ (سقاء اللين) مِنْ لَبَنٍ، فَلَمَّا مَرَّ بِنَا سَلَّمَ عَلَيْنَا، فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ فَقَتَلَهُ، بِسُيِّءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَخَذَ بِعِيرِهِ وَمَتَبَعِهِ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ

سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا: أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ تَوْبَةٌ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ تَابَ وَأَنَابَ، وَخَشَعَ وَخَضَعَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَعَوَّضَ الْمُقْتُولَ مِنْ ظُلَامَتِهِ وَأَرْضَاهُ عَنْ [ظُلَامَتِهِ] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾... آيَةُ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وَهَذَا خَبْرٌ لَا يَجُوزُ نَسْخُهُ وَحَمْلُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَحَمْلُهُ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ خِلَافَ الظَّاهِرِ، وَيَحْتَاجُ حَمْلُهُ إِلَى دَلِيلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾... آيَةُ [الزمر: ٥٣]، وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مِنْ كُفْرٍ وَشُرْكَ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ وَقَتْلِ وَفَسْقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كُلٌّ مِنْ تَابَ أَيْ مِنْ أَيْ ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مَا عَدَا الشُّرْكَ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَبْلَهَا لِتَقْوِيَةِ الرَّجَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ خَبْرُ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ ثُمَّ أَرْشَدَهُ إِلَى بَلَدٍ يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ، فَهَاجَرَ إِلَيْهِ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ، فَفَبَضَّتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ^(١). كَمَا ذَكَرْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَإِنْ كَانَ هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَا أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى، لِأَنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنَّا الْأَصَارَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ وَبَعَثَ نَبِيًّا بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ.

فَأَمَّا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾... آيَةُ، فَقَدْ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ: هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جَازَاهُ، وَمَعْنَى هَذِهِ الصِّيغَةِ: أَنَّ هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جُوزِيَ عَلَيْهِ، وَكَذَا كُلُّ وَعِيدٍ عَلَى ذَنْبٍ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ لِذَلِكَ مُعَارِضٌ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تَمْنَعُ وَضُوءَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ إِلَيْهِ عَلَى قَوْلِي أَصْحَابِ الْمُوَازَنَةِ وَالْإِحْبَاطِ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا يُسَلَّكُ فِي بَابِ الوَعِيدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ. وَبِتَقْدِيرِ دُخُولِ الْقَاتِلِ إِلَى النَّارِ، إِذَا عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَنْ وَاظَفَهُ: أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لَهُ، أَوْ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ حَيْثُ لَا عَمَلٌ لَهُ صَالِحًا يُنْجُو بِهِ، فَلَيْسَ بِمُخَلَّدٍ فِيهَا أَبَدًا، بَلِ الْخُلُودُ هُوَ الْمَكْتُوبُ الطَّوِيلُ،

(١) فتح الباري: ٥٩١/٦ ومسلم: ٢١١٨/٤ (٢) البخاري: ٤٤، ٧٥٠٩، والترمذي: ٢٥٩٨ (٣) أحمد: ٢٧٢/١ (٤) تحفة الأحوذني: ٣٨٦/٨ (٥) الحاكم: ٢٣٥/٢ (٦) فتح الباري: ١٠٧/٨

الله ﷺ وَأَخْبَرَنَا الْخَبَرُ نَزَلَ فِيْنَا [الْقُرْآنُ] ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿حَسْبِيَ﴾ تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ^(١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُقَدَّادِ: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَفَتَلْتَهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلِ». هَكَذَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ^(٢) هَذَا الْحَدِيثَ مُعَلِّقًا مُخْتَصِرًا. وَقَدْ رَوَى مُطَوَّلًا مُؤْصَلًا، فَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبُرَّازُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةَ فِيهَا الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، فَلَمَّا اتَّوَا الْقَوْمَ وَجَدُوهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا. وَبَقِيَ رَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لَمْ يَبْرَحْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَهْوَى إِلَيْهِ الْمُقَدَّادُ فَفَتَلْتَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: أَقْتَلْتَ رَجُلًا شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ وَاللهُ لَا ذِكْرَ لَكَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ رَجُلًا شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَفَتَلْتَهُ الْمُقَدَّادُ. فَقَالَ: «ادْعُوا لِي الْمُقَدَّادَ، يَا مُقَدَّادُ، أَقْتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَيْفَ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَدَا؟» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ لَكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَانَهُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُقَدَّادِ: «كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَفَتَلْتَهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلِ»^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَانَهُ كَثِيرٌ﴾ أَي خَيْرٌ مِمَّا رَغِبْتُمْ فِيهِ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ مِثْلِ هَذَا الَّذِي أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ، وَأَظْهَرَ إِلَيْكُمْ الْإِيْمَانَ، فَتَعَاظَمْتُمْ عَنْهُ، وَاتَّهَمْتُمُوهُ بِالْمُضَانَعَةِ وَالتَّبَيُّةِ، لِيَتَّبِعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرُّزْقِ الْحَلَالِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ مَالِ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَي قَدْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالِ كَهَذَا الَّذِي يُسِرُّ إِيْمَانَهُ وَيُخْفِيهِ مِنْ قَوْمِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ آفًا، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ... [الآيَةُ | الْأَنْفَالُ: ٢٦]، وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ تَسْتَحْفُونَ بِإِيْمَانِكُمْ كَمَا اسْتَحْفَى هَذَا الرَّاعِي بِإِيْمَانِهِ^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ حَسِيرًا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَعْفَرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا^(٦).

[لَا يَسْتَوِي الْمُجَاهِدُونَ وَالْقَاعِدُونَ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبُرَّازِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدًا فَكَتَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَشَكَا ضَرَارَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾^(٧). رَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ رَأَى مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ فِي الْمَسْجِدِ، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَلَى عَلَيَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يَمْلِكُهَا عَلَيَّ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللهُ لَوْ أَسْتَطِيعَ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ، وَكَانَ أَعْمَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَكَانَ فَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَفَتَلْتُ عَلَيَّ حَتَّى خَفْتُ أَنْ تَرْضَى فَخِذِي، ثُمَّ سَرَّيْتُهُ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾^(٨).

إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ عَنْ بَدْرِ وَالْحَارِثِ بْنِ جَحْشٍ. وَإِنَّ أُمَّ مَكْتُومٍ: إِنَّا أَعْمِيَانِ يَارَسُولَ اللَّهِ، فَهَلْ لَنَا رُحْصَةٌ؟ فَتَزَلَّتْ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، فَهَؤُلَاءِ الْقَاعِدُونَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا^(٩) دَرَجَاتٍ مِنْهُ عَلَى الْقَاعِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ. هَذَا لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ^(١٠). فَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَانَ مُطْلَقًا، فَلَمَّا نَزَلَ بِوَحْيِ سَرِيعِ ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾، صَارَ ذَلِكَ مَخْرَجًا لِذَوِي الْأَعْدَارِ الْمَيْسِحَةِ لِتَرْكِ

(١) أحمد: ١١/٦ (٢) البخاري: ٦٨٦٦ (٣) مجمع الزوائد:

٩/٧ (٤) عبد الرزاق: ١٧٠/١ (٥) فتح الباري: ١٠٨/٨

(٦) فتح الباري: ١٠٨/٨ (٧) تحفة الأحمدي: ٣٨٨/٨

فَرَادَى مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا وَرَجَالًا وَرُكْبَانًا،
وَلَهُمْ أَنْ يَمْشُوا وَالْحَالَةَ هَذِهِ وَيَضْرِبُوا الضَّرْبَ الْمُتَّبَاعَ
فِي مَتْنِ الصَّلَاةِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: يُصَلُّونَ وَالْحَالَةَ
هَذِهِ رُكْعَةً وَاحِدَةً لِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ
عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ
رُكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رُكْعَةً. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ
وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٩). وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ. قَالَ
الْمُنْدَرِيُّ فِي الْحَوَاشِي: وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ وَجَابِرٌ وَالْحَسَنُ
وَمُجَاهِدٌ وَالْحَكَمُ وَقَتَادَةُ وَحَمَّادٌ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ طَاوُسٌ
وَالضَّحَّاكُ، وَقَدْ حَكَى أَبُو عَاصِمٍ الْعَبَادِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ
نَصْرِ الْمَرْوَزِيِّ: أَنَّهُ يَرَى رَدَّ الصُّبْحِ إِلَى رُكْعَةٍ فِي
الْخَوْفِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ حَزْمٍ أَيْضًا. وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ
رَاهُوَيْهِ: أَمَّا عِنْدَ الْمُسَابِقَةِ فَيُجْرَتُكَ رُكْعَةً وَاحِدَةً تَوْمِيءُ
بِهَا إِيْمَاءً، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَسَجْدَةً وَاحِدَةً لِأَنَّهَا ذُكِرَ اللَّهُ.

وَلِنْدُكْرٍ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَوْلًا قَبْلَ ذِكْرِ
صِفَتِهَا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ الزُّرْقَانِيِّ، قَالَ:
كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمُسْنَفَانَ، فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ،
عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَصَلَّى بِنَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ، فَقَالُوا: لَقَدْ كَانُوا عَلَى حَالٍ لَوْ
أَصْبَنَّا غَرَبْتَهُمْ، ثُمَّ قَالُوا: تَأْتِي عَلَيْهِمُ الْآنَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ
إِلَيْهِمْ مِنْ أبنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، قَالَ: فَتَزَلَّ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ
بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ
الصَّلَاةَ﴾ قَالَ: فَحَضَرْتُ، فَأَمَرَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذُوا
السَّلَاحَ، فَصَفَّنَا خَلْفَهُ صَفَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعْنَا
جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّفِّ
الَّذِي بِيَلِيهِ، وَالْآخَرُونَ قِيَامًا يَحْرِسُونَهُمْ، فَلَمَّا سَجَدُوا
وَقَامُوا جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا فِي مَكَانِهِمْ، ثُمَّ تَقَدَّمَ
هُؤْلَاءُ إِلَى مَصَافِّ هُؤْلَاءِ، وَجَاءَ هُؤْلَاءُ إِلَى مَصَافِّ

الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ إِسَاءِكُمْ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٢٣]،
وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ يَعْلَى بْنِ أَمِيَّةَ، قَالَ: سَأَلْتُ عُمَرَ
ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ
إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَقَدْ آمَنَ [اللَّهُ] النَّاسُ؟ فَقَالَ
لِي عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَجِبْتُ وَمَا عَجِبْتُ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا
عَلَيْكُمْ فَأَقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»^(١٠). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ
السُّنَنِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١١).
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ مِنْ
حَدِيثِ عُمَرَ، وَلَا يُحْفَظُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَرِجَالَهُ
مَعْرُوفُونَ. وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ أَبِي حَنْظَلَةَ
الْحَدَّاءِ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنْ صَلَاةِ السَّفَرِ، فَقَالَ:
رُكْعَتَانِ، فَقُلْتُ: أَيْنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾ وَنَحْنُ آمِنُونَ؟ فَقَالَ: سُنَّهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١٢).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَكَانَ يُصَلِّي رُكْعَتَيْنِ رُكْعَتَيْنِ
حَتَّى رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، قُلْتُ: أَقَمْتُمْ بِمَكَّةَ شَيْئًا؟ قَالَ:
أَقَمْنَا بِهَا عَشْرًا^(١٣).

وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ^(١٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ
عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبِ الْخَزَاعِيِّ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ
الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ بِمِنَى أَكْثَرَ مَا كَانَ النَّاسُ، وَآمَنَهُ رُكْعَتَيْنِ^(١٥).
وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى ابْنِ مَاجَةَ^(١٦). وَلَقَطَ الْبُخَارِيُّ قَالَ:
صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آمَنَ مَا كَانَ بِمِنَى رُكْعَتَيْنِ^(١٧).

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنُفِّقَنَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ
مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ
وَلتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَفَلَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ
وَأَمْعِيكُمْ فَبِمَاؤُنَّ عَلَيْكُمْ مِثْلَهُ وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ
كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضِينَ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ
وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

[بَيَانُ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَأَنْوَاعِهَا]

صَلَاةُ الْخَوْفِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ تَارَةً يَكُونُ تَجَاةَ
الْقِبْلَةِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي غَيْرِ صَوْبِهَا، وَالصَّلَاةُ تَارَةً تَكُونُ
رُبَاعِيَّةً، وَتَارَةً ثَلَاثِيَّةً كَالْمَغْرِبِ، وَتَارَةً تَكُونُ ثَنَائِيَّةً
كَالصُّبْحِ وَصَلَاةِ السَّفَرِ، ثُمَّ تَارَةً يُصَلُّونَ جَمَاعَةً، وَتَارَةً
يَلْتَحِمُ الْحَرْبُ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَمَاعَةِ، بَلْ يُصَلُّونَ

(١) أحمد: ٢٥/١ (٢) مسلم: ٤٧٨/١ وأبو داود: ٧/٢ وتحفة
الأحوذى: ٣٩٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٢٧/٦ وابن ماجه:
٣٣٩/١ (٣) ابن أبي شيبة: ٤٤٧/٢ (٤) فتح الباري: ٢/
٦٥٣ (٥) مسلم: ٤٨١/١ وأبو داود: ٢٥/٢ وتحفة الأحوذى:
١١٠/٣ والنسائي: ١٢١/٣ وابن ماجه: ٣٤٢/١ (٦) أحمد:
٣٠٦/٤ (٧) فتح الباري: ٦٥٥/٢ ومسلم: ٤٨٤/١ وأبو داود:
٤٩٣/٢ وتحفة الأحوذى: ٦٢١/٣ والنسائي: ١١٩/٣ فتح
الباري: ٦٥٥/٢ (٩) مسلم: ٦٨٧ وأبو داود: ١٢٤٧
والنسائي: ١٦٩/٣ وابن ماجه: ١٠٦٨

وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلوة فلنقم طائفةً
منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا
من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا
فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ووالذين
كفروا لو تعلمون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيمليون
عليكم ميلاً واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم
أذى من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم
وحذوا حذرهم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴿١٠٣﴾
فإذا قضيتُم الصلوة فاذكروا الله قِيماً وعودوا على
جنوبكم فإذا أطمأننتم فاقموا الصلوة إن الصلوة
كانت على المؤمنين كتباً موقوتاً ﴿١٠٤﴾ ولا تهؤوا
في ابتغاء القوم إن تكونوا تآمرون فإنهم يآلمون كما
تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً
حكيماً ﴿١٠٥﴾ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين
الناس بما آرتك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴿١٠٥﴾

للكافرين عذاباً مهيناً ﴿١٠٥﴾.

﴿فإذا قضيتُم الصلوة فاذكروا الله قِيماً وعودوا وعلى
جنوبكم فإذا أطمأننتم فاقموا الصلوة إن الصلوة كانت على
المؤمنين كتباً موقوتاً ﴿١٠٤﴾ ولا تهؤوا في ابتغاء القوم إن
تكونوا تآمرون فإنهم يآلمون كما تآلمون وترجون من الله
ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً ﴿١٠٥﴾﴾

[الأمر بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف]

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف،
وإن كان مشروعاً مرتباً فيه أيضاً - بعد - غيرها، ولكن
ههنا أكد، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها،
ومن الرخصة في الذهاب فيها والإتياب، وغير ذلك
مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر

هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً،
ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه، والآخرون قيام
يخرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم
سلم عليهم، ثم انصرف، قال: فضلاً رسول الله
ﷺ مرتين: مرة يعسفان، ومرة بأرض بني سليم (١).

وهكذا رواه أبو داود والنسائي (٢). وهذا إسناد صحيح
وله شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري عن ابن
عباس رضي الله عنهما، قال: قام النبي ﷺ وقام الناس
معه، فكبر وكبروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد
وسجدوا معه، ثم قام الثانية، فقام الذين سجدوا وخرسوا
إخوانهم، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه
والناس كلهم في الصلاة، ولكن يخرس بعضهم بعضاً (٣).

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله: أن رسول
الله ﷺ صلى بهم صلاة الخوف، فقام صف بين يديه
وصف خلفه، فصلى بالذي خلفه ركعة وسجدتين، ثم
تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم، وجاء أولئك
حتى قاموا في مقام هؤلاء، فصلى بهم رسول الله ﷺ
ركعة وسجدتين ثم سلم، فكانت للنبي ﷺ ركعتين، ولهم
ركعة (٤). ورواه النسائي وهو في صحيح مسلم بلفظ آخر،
وقد رواه عن جابر جماعة كثيرين في الصحيح والسنن
والمساييد.

وروى ابن أبي حاتم عن سالم، عن أبيه، قال: ﴿وإذا
كنت فيهم فأقمت لهم الصلوة﴾ قال: هي صلاة الخوف،
صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة
الأخرى مقبلية على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي
كانت مقبلية على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة
أخرى، ثم سلم بهم، ثم قامت كل طائفة منهم فصلت
ركعة ركعة (٥). وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم من
طريق معمر بن به. ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من
الصحابة، وقد أجاد الحافظ أبو بكر ابن مردويه في سرد
طرقه وألفاظه، وكذا ابن جرير. وأما الأمر بحمل السلاح
في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على
الوجوب لإظهار الآتية، ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿ولا
جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطرٍ أو كنتم مرضى
أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم﴾ أي بحيث تكونون على
أهبة إذا احتجتم إليها ليستموها بلا كلفة ﴿إن الله أعد

(١) أحمد: ٤/٥٩، ٦٠ (٢) أبو داود: ٢٨/٢ والنسائي: ٣/١٧٧، ١٧٦ (٣) فتح الباري: ٥٠٢/٢ (٤) أحمد: ٣/٢٩٨ والنسائي: ٣/١٧٤، ١٧٥ (٥) الدر المنثور: ٢/٣٧٥

الْحُرْمِ: ﴿فَلَا تَظَلُّوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] وَإِنْ كَانَ هَذَا مِنْهَا عَنَّهُ فِي غَيْرِهَا، وَلَكِنْ فِيهَا أَكْثَرُ، لِشِدَّةِ حُرْمَتِهَا وَعَظَمَتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيْمَا وَقَعْتُمْ وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ﴾ أَي فِي سَائِرِ أحوَالِكُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي إِذَا أَتَيْتُمْ وَدَهَبَ الْخَوْفُ، وَحَصَلَتِ الطَّمَأْنِينَةُ ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي فَأَتِمُّوْهَا وَأَقِيمُوْهَا كَمَا أَمَرْتُمْ بِجُلُودِهَا، وَخُشُوعِهَا، وَرُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، وَجَمِيعِ شُؤْنِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَي مَفْرُوضًا^(١). وَقَالَ أَيضًا: إِنَّ لِلصَّلَاةِ وَقْتًا كَوَقْتِ الْحَجِّ^(٢). وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَالْحَسَنِ وَمُقَاتِلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ^(٣).

[الْحَضُّ عَلَى مُطَارَدَةِ الْعَدُوِّ رَغْمَ الْجِرَاحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهَيَّأُوا فِي آيَاتِهِ الْقَوْمَ﴾ أَي لَا تَضَعُوا فِي طَلَبِ عَدُوِّكُمْ، بَلْ جِدُّوا فِيهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ، وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَلْيُتِمُّوا بِالْمُوتِ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أَي كَمَا يُصِيبُكُمْ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ كَذَلِكَ يَحْضُلُ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أَي أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ سِوَاهُ فِيمَا يُصِيبُكُمْ وَإِيَّاهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْأَلَامِ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ الْمَثُوبَةَ وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ، كَمَا وَعَدَكُمْ إِيَّاهُ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَهُوَ وَعْدٌ حَقٌّ، وَخَيْرٌ صِدْقٌ، وَهُمْ لَا يَرْجُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْجِهَادِ مِنْهُمْ، وَأَشَدُّ رَعِيَّةً فِي إِقَامَةِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِعْلَانِهَا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَي هُوَ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ فِيمَا يَقْدَرُهُ وَيَقْضِيهِ وَيَقْدُرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنْ أَحْكَامِهِ الْكُوفِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ حَصِيمًا﴾^(١٧) وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا^(١٨) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا^(١٩) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا^(٢٠) هَاتِمَةُ هُوَلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا^(١٧) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا^(١٨) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا^(١٩) هَاتِمَةُ هُوَلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلْ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا^(٢٠) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا^(٢١) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا^(٢٢) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَهَا يَريهَا فَفَدَى بِهَا فِدَاءً حَتَّى يَسْتَأْذِنَ بَيْنَ يَدَيْهَا فَلَهَا^(٢٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا^(٢٤)

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلْ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ

يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا^(٢٠)

[الْأَمْرُ بِالْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطَبًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أَي هُوَ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْحَقَّ فِي خَبَرِهِ وَطَلَبِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَاكَ اللَّهُ﴾ بَيَّنَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، سَمِعَ جَلْبَةَ خَضَمِ بِيَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِمَا أَسْمَعُ، وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنُّ بِحُجْرَتِهِ مِنْ بَعْضِ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذَرْهَا»^(٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: جَاءَ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ يَخْتَصِمَانِ إِلَى

(١) الطبري: ١٦٩/٩ (٢) الطبري: ١٦٩/٩ (٣) الطبري: ٩/١٦٧، ١٦٨ (٤) فتح الباري: ١٢٨/٥ ومسلم: ٣/١٣٣٧

وَكَيْلًا ﴿١١٠﴾ .

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٢﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِينًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

[الترغيب في التوبة والأستغفار والوعيد لمن يكسب الإثم أو يرمي به البريء]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَخْبَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِعَفْوِهِ وَحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ فَمَنْ أَدْنَبَ ذَنْبًا صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَعْظَمَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ (٣). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا نَفَعَنِي اللَّهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعَنِي مِنْهُ. وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ - وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فَيُصَلِّي رُكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غَفَرَ لَهُ﴾... وَقَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾... الْآيَةَ، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾... (٤). الْآيَةَ [آل عمران: ١٣٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾... الْآيَةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الْآيَةَ [فاطر: ١٨]، يَعْنِي أَنَّهُ لَا يُعْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ لَا يَحْمِلُ عَنْهَا غَيْرَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيُّ مِنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ كَانَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَوَارِبَ بَيْنَهُمَا قَدْ دَرَسَتْ، لَيْسَ عِنْدَهُمَا بَيِّنَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا إِسْطِطَامًا (الحديدة التي تحرك بها النار) فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ مِنْهُمَا: حَقِّي لِأَخِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِذْ قُلْتُمَا فَادْهَبَا فَاقْتَسِمَا، ثُمَّ تَوَخَّيَا الْحَقَّ ثُمَّ اسْتَمْتِمَا، ثُمَّ لِيُحْلِلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ» (١).

وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَرْذُوقٍ، مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنْ نَفَرَا مِنَ الْأَنْصَارِ غَزَاً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ، فَسُرِقَتْ دِرْعٌ لِأَحَدِهِمْ، فَأُظْلِمَ بِهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَى صَاحِبَ الدِّرْعِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ طُعْمَةَ بَنِ أَبِي قُرَيْبٍ سَرَقَ دِرْعِي، فَلَمَّا رَأَى السَّارِقَ ذَلِكَ عَمَدَ إِلَيْهَا فَأَلْقَاهَا فِي بَيْتِ رَجُلٍ بَرِيءٍ، وَقَالَ لِنَفَرٍ مِنْ عَشِيرَتِهِ: إِنِّي عَيَّبْتُ الدِّرْعَ وَالْقَيْئَهَا فِي بَيْتِ فُلَانٍ، وَسَتُوجَدُ عِنْدَهُ. فَانْطَلَقُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ لِيَلَّا فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنْ صَاحِبَتَنَا بَرِيءٌ. وَإِنَّ صَاحِبَ الدِّرْعِ فُلَانٌ، وَقَدْ أَحْطَنَّا بِذَلِكَ عِلْمًا، فَاغْذُرْ صَاحِبَتَنَا عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ وَجَادِلْ عَنْهُ. فَإِنَّهُ إِنْ لَا يَعْصِمُهُ اللَّهُ بِكَ يَهْلِكُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ فَبَرَّاهُ، وَعَدَّرَهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا﴾ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾... الْآيَةَ، هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْمُتَنَافِقِينَ فِي كُوفِهِمْ يَسْتَحْفُونَ بِقَبَائِحِهِمْ مِنَ النَّاسِ لِيَلَّا يُنْكِرُوا عَلَيْهِمْ؛ وَيُجَاهِرُونَ اللَّهَ بِهَا، لِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِهِمْ، وَعَالِمٌ بِمَا فِي صُمَائِرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَتَانَتْ هَتُولَاءُ جَدَلْتُمْ عَنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الْآيَةَ، أَيُّ هَبْ أَنْ هُوَ لَاءُ انْتَصَرُوا فِي الدُّنْيَا بِمَا أَدَّبُوهُ أَوْ أُبْدِيَ لَهُمْ عِنْدَ الْحُكَّامِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالظَّاهِرِ، وَهُمْ مُتَّبِعُونَ بِذَلِكَ، فَمَاذَا يَكُونُ صَنِيعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَوَكَّلُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي تَرْوِيجِ دَعْوَاهُمْ؟ أَيُّ لَا أَحَدٌ يَكُونُ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ وَكَيْلًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ

(١) أحمد: ٣٢٠/٦ (٢) ابن جرير (١٠٤٣٥) ورواه الترمذي:

٣٠٣٦، وحسنه الألباني رحمه الله (٣) الطبري: ١٩٥/٩ (٤)

أحمد: ٨/١

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مَن عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِينَهُمْ وَلَا مَرْنُفَهُمْ فليَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَئِمَهُمْ فليَعْبِرْكَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَٰعِدُهُمْ وَيَمِينِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَا وَلَّهُم جَهَنَّمَ وَلَا يَحْجُدُونَ عَنْهَا مَحْجَصًا ﴿١٢١﴾

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُضْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْبِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»، وَقَالَتْ: لَمْ أَسْمَعُهُ يُرْخِصُ فِي شَيْءٍ مِّمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: فِي الْحَرْبِ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثِ الرَّجُلِ أَمْرَاتِهِ، وَحَدِيثِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا، قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومُ بِنْتُ عُقْبَةَ مِن الْمَهَاجِرَاتِ اللَّاتِي بَايَعْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى ابْنِ مَاجَةَ^(٢). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَّامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ»، قَالَ: «وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٣). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَلِهَذَا قَالَ: «وَمَن يَفْعَلْ

يَكْسِبَ حَظِيئَتَهُ أَوْ إِنَّمَا تَمَّ بِرِوَايَةٍ بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بِهَتْنَا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ يَعْنِي: كَمَا أَنَّهُمْ بَنُو أُبَيْرِقٍ بِضَعِيحِهِمُ الْقَبِيحُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، وَهُوَ لَبِيدُ بْنُ سَهْلٍ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ، أَوْ زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ الْيَهُودِيُّ عَلَى مَا قَالَهُ الْأَخْرُونَ، وَقَدْ كَانَ بَرِيئًا وَهُمْ الظَّلْمَةُ الْحَوْنَةُ، كَمَا أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ رَسُولُهُ ﷺ. ثُمَّ هَذَا التَّفْرِيعُ وَهَذَا التَّوْبِيخُ عَامٌّ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِمَّنْ انْصَفَ مِثْلَ صَفِيئِهِمْ، وَارْتَكَبَ مِثْلَ حَظِيئَتِهِمْ فَعَلَيْهِ مِثْلُ عُثُوبَتِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ - وَذَكَرَ قِصَّةَ بَنِي أُبَيْرِقٍ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِن شَيْءٍ﴾ يَعْنِي: أَسِيرَ بْنِ عُرْوَةَ وَأَصْحَابَهُ. يَعْنِي بِذَلِكَ لَمَّا أَتَوْا عَلَى بَنِي أُبَيْرِقٍ وَلَا مَوَا قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ فِي كُؤُوبِهِمْ، وَهُمْ صُلَحَاءُ بَرَاءٍ، وَلَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَمَا أَنَّهُوَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَضْلَ الْقِصَّةِ وَجَلَاءَهَا لِرَسُولِهِ ﷺ.

ثُمَّ آمَنَ عَلَيْهِ بِتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَعِصْمَتِهِ لَهُ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَالْحِكْمَةُ، وَهِيَ السُّنَّةُ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أَي قَبْلَ نَزْوِلِ ذَلِكَ عَلَيْكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، [الشورى: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

[نَجْوَى الْخَيْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ يَعْنِي كَلَامِ النَّاسِ ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أَي إِلَّا نَجْوَى مَنْ قَالَ ذَلِكَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ كُلْثُومِ بِنْتِ عُقْبَةَ أَنَّهَا سَمِعَتْ

(١) أحمد: ٤٠٣/٦ (٢) فتح الباري: ٣٥٣/٥ ومسلم: ٤/٢٠١١ وأبو داود: ٢١٨/٥ وتحفة الأحوذى: ٧٠/٦ والنسائي في الكبرى: ١٩٣/٥ (٣) أحمد: ٤٤٤/٦ وأبو داود: ٤٩١٩ والترمذي: ٢٥٠٩

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١١٦﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١١٧﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١١٨﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَأَخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١١٩﴾ وَاللَّهُ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
مُحِيطًا ﴿١٢٠﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَتِمُّ بِكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا تِلْكَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي تَتَمَّى النِّسَاءِ
الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ حَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢١﴾

[الشُّرُكُ لَا يُغْفَرُ وَالْمُشْرِكُونَ يَعْذِبُونَ الشَّيْطَانَ فِي

[الْحَقِيقَةَ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ...﴾ الْآيَةَ. وَذَكَرْنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَيْ فَقَدْ سَلَكَ غَيْرَ الطَّرِيقِ الْحَقِّ، وَضَلَّ عَنِ الْهُدَى وَبَعُدَ عَنِ الصَّوَابِ، وَأَهْلَكَ نَفْسَهُ وَخَسِرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَاتَنَهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَابًا﴾ وَقَالَ [جَوْهَرٌ] عَنِ الضَّحَّاكِ فِي الْآيَةِ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ [الْمَلَائِكَةَ] بَنَاتُ اللَّهِ^(١). وَإِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، قَالَ: فَاتَّخَذُوهُنَّ أَرْبَابًا، وَصَوَّرُوهُنَّ جَوَارِي، [فَحَسَّنُوا] وَقَلَّدُوا، وَقَالُوا: هُوَ لَأَيُّ شَيْءٍ بَنَاتُ اللَّهِ الَّذِي

ذَلِكَ ابْتِعَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴿ أَيْ مُخْلِصًا فِي ذَلِكَ مُحْتَسِبًا تَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ تَوَابًا جَزِيلًا كَثِيرًا وَسَاعًا.

[جَزَاءً مِنْ شَأْنِ الرَّسُولِ وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ أَيْ وَمَنْ سَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ، فَصَارَ فِي شِقِّ، وَالشَّرْعُ فِي شِقِّ، وَذَلِكَ عَنْ عَدْوٍ مِنْهُ بَعْدَ مَا ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ وَبَيَّنَّ لَهُ وَاتَّضَحَّ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا مَلَاذِمٌ لِلصَّفَةِ الْأُولَى، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ الْمُخَالَفَةُ لِنَصِّ الشَّارِعِ، وَقَدْ تَكُونُ لِمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِيمَا عِلْمٌ اتَّفَقَهُمْ عَلَيْهِ تَحْقِيقًا، فَإِنَّهُ قَدْ ضَمَّنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةَ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْخَطَا، تَشْرِيفًا لَهُمْ وَتَعْظِيمًا لِنَبِيِّهِمْ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ صَحِيحَةٌ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ تَوَعَّدَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿تُؤْتِيهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أَيْ إِذَا سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ جَارَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ نُحَسِّنَهَا فِي صَدْرِهِ وَنُرِيئِنَاهُ لَهُ إِسْتِدْرَاجًا لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَذَرِفُ وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وَجَعَلَ النَّارَ مَصِيرَهُ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْهُدَى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا إِلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَجَهُمْ...﴾ الْآيَةَ [الصافات: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَأَى الْمَجْرُومُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَابًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا امْتَبَنَتْهُمْ وَلَا مَنِيَنَّهُمْ وَلَا مَنِيَنَّهُمْ فَلْيَبْتَئِكُمْ عَادَاتُ الْأَعْمَى وَلَا مَرِيَنَّهُمْ فَلْيَعْبُرُوا خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

نَعْبُدُهُ، يُعْتَوْنَ الْمَلَائِكَةَ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ شَبِيهُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمُرَيْقَةَ...﴾... الآيات [النجم: ١٩-٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْتَابًا...﴾... الآية [الزخرف: ١٩]، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا...﴾... الآيتين [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَكَ إِلَّا سَيِّطَلْنَا مَرِيدًا﴾ أَي هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ وَحَسَنَهُ وَرَبَّيْتَهُ لَهُمْ، وَهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ إِبْلِيسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتِي عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...﴾... الآية [يس: ٦٠]. وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ادَّعَوْا عِبَادَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أَي طَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جَوَارِهِ، وَقَالَ: ﴿لَا تَتَّخِذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أَي مُعَيَّنًا مَقْدَرًا مَعْلُومًا. قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ، ﴿وَلَا ضَلْتُمْ﴾ أَي عَنِ الْحَقِّ، ﴿وَلَا مَيَّنْتُمْ﴾ أَي أُرِيْنَ لَهُمْ تَرْكَ التَّوْبَةِ، وَأَعَدْتُمْ الْأَمَانِي، وَأَمَرْتُمْ بِالتَّشْوِيفِ وَالتَّأخِيرِ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَمَرْتُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ عَادَاتُ الْأَنْفَعِ﴾. قَالَ قَتَادَةُ وَالدُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: يَعْنِي تَشْقِيقَهَا وَجَعْلَهَا سِمَةً وَعَلَامَةً لِلْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ^(١).

﴿وَلَا مَرَّيْتُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْوَسْمَ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، النَّهْيُ عَنِ الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ، وَفِي لَفْظٍ: لَعَنَّ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ^(٢). وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَعَنَّ اللَّهُ الْوَأْسِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالتَّامِصَاتِ وَالْمُنْتَمِصَاتِ، وَالْمُتَمَلِّجَاتِ لِلْحَسَنِ الْمُغْيِرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَعْنِي قَوْلُهُ: ﴿وَمَا آتَانَاكَ الرَّسُولَ فَحُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَتِلْكَ خَسَارَةٌ لَا تَجْبَرُ لَهَا، وَلَا إِشْتِدْرَاكٌ لِفَاتِيحَتِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُّ أَوْلِيَاءَهُ وَيَمْنِيهِمْ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ كَذَّبَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا^(٣).

(١) الطبري: ٢١٤/٩ (٢) مسلم: ١٦١٨/٣ وفتح الباري: ٣٩٢/١٠ (٣) فتح الباري: ٤٩٨/٨

[النجاح ليس بالأمانى بل بالعمل الصالح]

لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةً، حَتَّى الشُّوْكَةَ يُشَاكِهَهَا، وَالتَّكْبَةَ يُتَكَبُّهَا»^(٦). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ^(٧). وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ^(٨). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحِذُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِلَّا أَنْ يُتُوبَ فَيُتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ^(٩). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾... الآية، لَمَّا ذَكَرَ الْجَزَاءَ عَلَى السَّيِّئَاتِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَ مُسْتَحِقَّهَا مِنَ الْعَبْدِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْأَجُودُ لَهُ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - وَسَأَلَهُ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالصَّفْحَ وَالْعَفْوَ وَالْمَسَامَحَةَ - شَرَعَ فِي بَيَانِ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادِهِ، ذَكَرَانِهِمْ وَإِنَانِهِمْ بِشَرْطِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ سَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلِمُهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا يَقْدَرُ النَّفِيرُ، وَهُوَ: الثَّقَرَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى النَّفِيلِ وَهُوَ: الْحَيْطُ الَّذِي فِي شَقِّ النَّوَاةِ، وَهَذَا النَّفِيرُ، وَهَمَا فِي نَوَاةِ التَّمْرَةِ. وَكَذَا الْقَطْمِيرُ وَهُوَ: اللَّفَافَةُ الَّتِي عَلَى نَوَاةِ التَّمْرَةِ. وَالثَّلَاثَةُ فِي الْقُرْآنِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أَخْلَصَ الْعَمَلُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَعَمِلَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَهُوَ مُحْسِنٌ أَي اتَّبَعَ فِي عَمَلِهِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، وَمَا أُرْسِلَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَوَيْدِنِ الْحَقِّ، وَهَذَانِ الشَّرْطَانِ لَا يَبْصِحُ عَمَلٌ عَامِلٌ بِدُونِهِمَا، أَي يَكُونُ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ مَتَّبِعًا لِلشَّرِيعَةِ، فَيَبْصِحُ ظَاهِرُهُ بِالْمُتَابَعَةِ، وَبَاطِنُهُ بِالْإِخْلَاصِ. فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ أَحَدَ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ فَسَدَ، فَمَنْ فَقَدَ الْإِخْلَاصَ كَانَ مُتَافِقًا، وَهُمْ الَّذِينَ يَرَاءُونَ النَّاسَ، وَمَنْ فَقَدَ الْمُتَابَعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلًا، وَمَتَى جَمَعَهُمَا فَهُوَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ

قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ افْتَحَرُوا، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبَيْتَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَكُنَّا بِنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، فَخُنَّ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَنَبَيْتَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكُنَّا نَقْضِي عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكُتُبِ مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾... الآية، ثُمَّ أَفْلَحَ اللَّهُ حُجَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ^(١). وَكَذَا رَوَى عَنِ الشَّدِيِّ وَمَسْرُوقٍ وَالصَّحَّاحِ وَأَبِي صَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ^(٢). وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: تَخَاصَمَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ، فَقَالَ أَهْلُ التَّوْرَةِ: كِتَابُنَا خَيْرُ الْكُتُبِ، وَنَبِيُّنَا خَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ: لَا دِينَ إِلَّا الْإِسْلَامُ، وَكُنَّا نَسْخُ كُلَّ كِتَابٍ، وَنَبَيْتَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَأَمْرُهُمْ وَأَمْرُنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِكِتَابِكُمْ وَنَعْمَلْ بِكِتَابِنَا، فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ، وَقَالَ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكُتُبِ مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾... الآية^(٣).

وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ هُوَ الْمُحِقُّ سَمِعَ قَوْلُهُ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكُتُبِ مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ أَي لَيْسَ لَكُمْ وَلَا لَهُمْ النَّجَاةُ بِمُجَرَّدِ التَّمَنِّيِّ بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَاتَّبَاعَ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الْكِرَامِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٤) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٥) [الزلزلة: ٧، ٨] وَقَدْ رَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لِأَعْلَمُ أَشَدَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «مَا هِيَ يَا عَائِشَةُ؟» قُلْتُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾، فَقَالَ: «هُوَ مَا يُصِيبُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ حَتَّى التَّكْبَةَ يُتَكَبُّهَا»^(٤). وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو دَاوُدَ^(٥).

رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

(١) الطبري: ٢٢٩/٩ (٢) الطبري: ٢٣١-٢٢٩/٩ (٣)

الطبري: ٢٣٠/٩ (٤) الطبري: ٢٤٤/٩ (٥) الطبري: ٩/٩

٢٤٦ وأبو داود: ٤٧١/٣ (٦) سعيد بن منصور: ١٣٧٨/٤

(٧) أحمد: ٢٤٨/٢ (٨) مسلم: ١٩٩٣/٤ وتحفة الأحوذ:

٤٠٠/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٢٨/٦ (٩) الطبري: ٢٣٩/٩

مِقَالٌ ذَرَّةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ ذَرَّةٌ لِمَا تَرَأَى لِلنَّاطِرِينَ وَمَا تَوَارَى.

﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كَتَبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَكُوْهُنَّ وَالسَّمْعِيْنَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقُوْمُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ

عَلِيْمًا ﴿١٢٧﴾

[حُكْمُ النِّسَاءِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَكُوْهُنَّ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ النِّسَاءُ، هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا، قَدْ شَرِكْتُهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعَدْقِ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا، وَيَكْرَهُ أَنْ يُرَوِّجَهَا رَجُلًا فَيَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا شَرِكْتُهُ، فَيُفْضِلُهَا، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٤). وَكَذَلِكَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٥).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الْآيَةَ، قَالَتْ: وَالَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ، الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ اللَّهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاكْبَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]^(٦). وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَكُوْهُنَّ﴾ رَغَبَهُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِمِّمِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حِجْرِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَتُهَوُّوْا أَنْ يَنْكِحُوا مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ. وَأَصْلُهُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِينَ^(٧). وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ فِي حِجْرِهِ نِسَاءً يَحِلُّ لَهُ تَزْوِيجُهَا، فَتَارَةً يَرْغَبُ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَمْتَرَهَا أَسْوَأَ أَمْثَالِهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُعِدِلْ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَهَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى الَّتِي فِي أَوَّلِ

سَيِّئَاتِهِمْ - الْآيَةَ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَمَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وَهُمْ مُحَمَّدٌ وَأَتْبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾... الْآيَةَ [آل عمران: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أُوحِيََا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وَالْحَنِيفُ هُوَ الْمَائِلُ عَنِ الشُّرْكِ قَضًا، أَيْ تَارِكًا لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ وَمُقْبِلٌ عَلَى الْحَقِّ بِكَلْبَتِهِ، لَا يَصُدُّهُ عَنْهُ صَادٌّ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْهُ رَادٌّ.

[إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّرْغِيبِ فِي اتِّبَاعِهِ، لِأَنَّهُ إِمَامٌ يُقْتَدَى بِهِ، حَيْثُ وَصَلَ إِلَى غَايَةِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعِبَادُ لَهُ، فَإِنَّهُ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الْخَلَّةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ الْمُحَبَّةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِكَثْرَةِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ، كَمَا وَصَفَهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾... الْآيَةَ [البقرة: ١٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾... الْآيَةَ وَالْآيَةَ بَعْدَهَا [النحل: ١٢٠، ١٢١]، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: إِنَّ مُعَاذًا لَمَّا قَدِمَ الْيَمَنَ صَلَّى بِهِمْ الصُّبْحَ، فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: لَقَدْ قَرَأْتُ عَيْنَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ^(٨). وَإِنَّمَا سَمِيَ خَلِيلَ اللَّهِ لِشِدَّةِ مَحَبَّةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ، لِمَا قَامَ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَطَبَهُمْ فِي آخِرِ خُطْبَتِهِ خَطَبَهَا، قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»^(٩).

وَجَاءَ مِنْ طَرِيقِ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجَلِّيِّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي الْجَمِيعِ مُلْكُهُ وَعَيْدُهُ وَخَلْقُهُ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، لَا رَادٌّ لِمَا قَضَى، وَلَا مُعَقَّبٌ لِمَا حَكَمَ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ وَلَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِمُ شَمْسَ مِثْقَلًا﴾ أَي عَلِمَهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ حَافِيَةٌ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَا يَغْرُبُ عَنْ عِلْمِهِ

(١) فتح الباري: ٦٦٢/٧ (٢) فتح الباري: ١٥/٧ ومسلم: ٤/

١٨٥٤ (٣) مسلم: ٣٧٧/١ وابن ماجه: ٥٠/١ ومسلم: ٤/

١٨٥٥ (٤) فتح الباري: ١١٤/٨ (٥) مسلم: ٣٠١٨ (٦)

الطبري: ٢٥٨/٩ (٧) فتح الباري: ٦/٩ ومسلم: ٢٣١٣/٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٩

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا كَرِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنَّ يَسَاءَ يَدُ هَيْبِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِكَارِهِنَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أَيُّ مِنَ الْفِرَاقِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أَيُّ الصُّلْحِ عِنْدَ الْمُشَاحَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْفِرَاقِ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: خَشِيتُ سَوْدَةَ أَنْ يُطَلِّقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تُطَلِّقْنِي، وَاجْعَلْ يَوْمِي لِعَائِشَةَ فَعَمَلٌ، وَتَرَكْتَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾... الْآيَةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا اضْطَلَحَا عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ جَائِزٌ^(٤). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٥). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا كَبُرْتُ سَوْدَةَ بِنْتُ زَمْعَةَ

السُّورَةَ. وَتَارَةً لَا يَكُونُ لِلرَّجُلِ فِيهَا رَغْبَةٌ لِدِمَامَتِهَا عِنْدَهُ أَوْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَهَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْضُلَهَا عَنِ الْأَزْوَاجِ حَسْبِيَّةً أَنْ يَشْرُكُوهُ فِي مَالِهِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿فِي يَتَمَى النِّسَاءِ﴾... الْآيَةَ، كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِيمَةُ فَيُلْقِي عَلَيْهَا ثَوْبَهُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا أَبَدًا، فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً وَهَوِيهَا تَزَوَّجَهَا، وَأَكَلَ مَالَهَا، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً مَنَعَهَا الرَّجَالُ أَبَدًا حَتَّى تَمُوتَ، فَإِذَا مَاتَتْ وَرَثَتَهَا. فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَنَهَى عَنْهُ^(١).

وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالنُّسُفِيَّةِ مِنْ أَوْلَادِنَ﴾ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُورَثُونَ الصَّغَارَ وَلَا الْبَنَاتَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَبَيَّنَ لِكُلِّ ذِي سَهْمٍ سَهْمَهُ، فَقَالَ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّةِ﴾ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ^(٢) وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا لِلْيَتَمَى بِالْقِسْطِ﴾ كَمَا إِذَا كَانَتْ ذَاتُ جَمَالٍ وَمَالٍ نَكَحَتْهَا وَاسْتَأْثَرَتْ بِهَا، كَذَلِكَ إِذَا لَمْ تَكُنْ ذَاتُ مَالٍ وَلَا جَمَالٍ فَانْكَحَهَا وَاسْتَأْثَرَتْ بِهَا^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ تَهَيَّبُجَا عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَامْتِثَالِ الْأَمْرِ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ.

﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا كَرِيمًا ﴿١٣٠﴾

[أَحْكَامُ نُشُورِ الرِّوَجِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَمُشْرَعًا عَنْ حَالِ الرِّوَجَيْنِ، تَارَةً فِي حَالِ نُفُورِ الرَّجُلِ عَنِ الْمَرْأَةِ، وَتَارَةً فِي حَالِ اتِّفَاقِهِ مَعَهَا، وَتَارَةً فِي حَالِ فِرَاقِهِ لَهَا، فَالْحَالَةُ الْأُولَى مَا إِذَا خَافَتْ الْمَرْأَةُ مِنْ رَوْجِهَا أَنْ يَنْفِرَ عَنْهَا أَوْ يُعْرِضَ عَنْهَا، فَلَهَا أَنْ تُسْقِطَ عَنْهُ حَقَّهَا أَوْ بَعْضَهُ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ مَبِيتٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْهِ، وَلَهُ أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْهَا، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِي بَذْلِهَا ذَلِكَ لَهُ، وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

(١) الطبري: ٩/ ٢٦٤ (٢) الطبري: ٩/ ٢٥٥ (٣) الطبري: ٩/ ٢٥٥ (٤) مسند الطيالسي: ٣٤٩ إسناده ضعيف لأن رواية سماك ابن حرب عن عكرمة مضطربة قال ابن حجر: صدوق وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة وقد تغير بأخوه فكان ربما يلقن [تقريب التهذيب] لكن أصل الحديث في الصحيحين أنظر ما بعده. (٥) تحفة الأحوذى: ٤٠٣/٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٠

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ يَأْلَسُ شَهَادَةَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَوْهُ أَوْ تَعْرِضُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا سَيِلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِذَا مَثَلُهُمْ إِنْ اللَّهُ جَاعِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

فَلَا تُرَاعِهِمْ فِيهَا، بَلِ اشْهَدِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَادَ صَرَرَهَا عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْحَقَّ حَاجِمٌ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ [وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أَيُّ لَا تَرْعَاهُ لِغَنَاهُ، وَلَا تُشْفِقْ عَلَيْهِ لِفَقْرِهِ، اللَّهُ يَتَوَلَّاهُمَا، بَلْ هُوَ أَوْلَىٰ بِهِمَا مِنْكَ، وَأَعْلَمُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا﴾ أَيُّ فَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ الْهَوَىٰ وَالْعَصِيَّةُ وَبُغْضُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ عَلَىٰ تَرْكِ الْعَدْلِ فِي أُمُورِكُمْ وَشُؤْنِكُمْ، بَلِ الزُّمُوا الْعَدْلَ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ كَانَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِبَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدُوا أَعْدَاؤَهُمْ أَوْ قُرْبَ لِلتَّفَوُّثِ﴾ [المائدة: ٨]، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُصُ عَلَىٰ أَهْلِ خَيْبَرَ يَمَارَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ لِيَرْفُقَ بِهِمْ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَيَّ، وَلَا تُنْمِئُوا أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ أَعْدَادِكُمْ مِنَ الْفِرْدَةِ وَالْحَنَازِيرِ وَمَا يَحْمِلُنِي حُبِّي إِيَّاهُ، وَبُغْضِي لَكُمْ عَلَىٰ أَنْ لَا أَعْدِلُ فِيكُمْ، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ. وَسَيَأْتِي الْحَدِيثُ مُسْتَدًا

يَقْدَرُهُ وَيَشْرَعُهُ، قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَيُّ هُوَ الْقَائِمُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، الرَّقِيبُ الشَّهِيدُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَكُنْ يَدِينِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِطَاحِرَتٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِذْهَابِكُمْ وَتَبْدِيلِكُمْ بِغَيْرِكُمْ إِذَا عَصَيْتُمُوهُ، وَكَمَا قَالَ: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا عَيْدِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ يَا مَنْ لَيْسَ هُمُ إِلَّا الدُّنْيَا، إِنْ عِلِمَ أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِذَا سَأَلْتَهُ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ أَغْنَاكَ وَأَعْطَاكَ وَأَقْنَاكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ الْكَاسِ مَنْ يَعُولُ رَبَّنَا عَالِيًا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿١٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُولُ رَبَّنَا عَالِيًا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقَدْ عَذَابُ النَّارِ ﴿١٤٠﴾ أَوْلَيْتِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ وَمَا كَسَبُوا﴾ ... الآية [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِمْ﴾ ... الآية [الشورى: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ... الآية [الإسراء: ٢١]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ يَأْلَسُ شَهَادَةَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَوْهُ أَوْ تَعْرِضُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

[الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالْعَدْلِ وَبِإِدَاءِ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ]

يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا قَوْمِينَ يَأْلَسُ بِالْقِسْطِ أَيُّ بِالْعَدْلِ، فَلَا يَعْدُوا عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَلَا تَأْخُذْهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَاتِمٌ وَلَا يَصْرِفُهُمْ عَنْهُ صَارْفٌ، وَأَنْ يَكُونُوا مُتَعَاوِنِينَ مُتَسَاعِدِينَ مُتَعَايِدِينَ مُتَنَاصِرِينَ فِيهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢] أَيُّ لِيَكُنْ أَدَاؤُهَا إِبْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، فَحَيْثُ نَكُونُ صَاحِبَةَ عَادِلَةٍ حَقًّا خَالِيَةً مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّجْمَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ اشْهَدِ بِالْحَقِّ وَلَوْ عَادَ صَرَرَهَا عَلَيْكَ، وَإِذَا سُئِلْتَ عَنِ الْأَمْرِ فَقُلِ الْحَقُّ فِيهِ وَلَوْ عَادَتْ مَضْرُوتُهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لِمَنْ أَطَاعَهُ فَرَجًا، وَمَخْرَجًا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَضِيقُ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أَيُّ وَإِنْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ عَلَىٰ وَالِدَيْكَ وَقَرَابَتِكَ

فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تَعْرَضُوا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ مِنَ السَّلَفِ : ﴿ تَلَّوْا ﴾ ، أَيْ تُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ وَتُعَيِّرُوهَا ^(١) . وَاللُّغِيُّ : هُوَ التَّحْرِيفُ وَتَعَمَّدُ الْكُذِبَ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ ... الْآيَةَ [آل عمران : ٧٨] ، وَالْإِعْرَاضُ هُوَ : كَثْمَانُ الشَّهَادَةِ وَتَرْكُهَا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « خَيْرُ الشَّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا » ^(٢) . وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ حَبِيبًا ﴾ أَيْ وَسَيَجَازِيكُمْ بِذَلِكَ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ^(٣)

[الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ الْإِيمَانِ]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالذُّخُولِ فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَشَعْبِهِ وَأَرْكَانِهِ وَدَعَائِمِهِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ ، بَلْ مِنْ بَابِ تَكْمِيلِ الْكَامِلِ وَتَثْبِيهِ وَتَثْبِيتهِ وَالْإِسْتِمْرَارِ عَلَيْهِ ، كَمَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] أَيْ بَصُرْنَا فِيهِ وَرَدْنَا هُدًى وَتَبَيَّنَّا عَلَيْهِ ، فَأَمَرَهُمُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ [الحديد : ٢٨] . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وَهَذَا جِنْسٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ نَزَّلَ ﴾ لِأَنَّهُ نَزَلَ مُفْرَقًا مُتَّجِمًا عَلَى الْوَقَائِعِ بِحَسَبِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، وَأَمَّا الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ ، فَكَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ^(٤) . [وَإِلَيْهِذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أَيْ فَقَدْ حَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَبَعَدَ عَنِ الْقَصْدِ كُلِّ الْبُعْدِ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ ^(٥) بَيَّرَ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ^(٦) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِئْتُمْ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ^(٧) وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَعَيْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يَكْفُرْ بِهَا وَيُسْتَهْزَأَ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ إِنَّ

اللَّهُ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ^(٨)

[أَحْوَالُ الْمُتَّقِينَ وَمَصِيرُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ ، ثُمَّ عَادَ فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعَ وَاسْتَمَرَ عَلَى ضَلَالِهِ وَازْدَادَ حَتَّى مَاتَ ، فَإِنَّهُ لَا تَوْبَةَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَلَا يَغْفِرُ اللهُ لَهُ ، وَلَا يَجْعَلُ لَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ فَرْجًا وَلَا مَخْرَجًا وَلَا طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ . رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا ﴾ قَالَ : تَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ حَتَّى مَاتُوا . وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ ^(٩) . ثُمَّ قَالَ : ﴿ بَيَّرَ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يَعْنِي أَنَّ الْمُتَّقِينَ مِنْ [أَهْلِ] هَذِهِ الصَّفَةِ : فَإِنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ ، يُؤَلِّقُونَهُمْ وَيُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ إِذَا خَلَوْا بِهِمْ : إِنَّمَا نَحْنُ مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ، أَيْ بِالْمُؤْمِنِينَ ، فِي إِظْهَارِنَا لَهُمْ الْمُوَافَقَةَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَلَكُوهُ مِنْ مَوَالَاةِ الْكَافِرِينَ ﴿ أَيْنِئْتُمْ عَنْهُمْ عِزَّةَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّ الْعِزَّةَ كُلَّهَا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِمَنْ جَعَلَهَا لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَّقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا : التَّهْيِيجُ عَلَى طَلَبِ الْعِزَّةِ مِنْ جَنَابِ اللهِ ، وَالْإِقْبَالُ عَلَى عُبُودِيَّتِهِ ، وَالْإِنْتِظَامُ فِي جُمْلَةِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمْ النُّصْرَةُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَعَيْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يَكْفُرْ بِهَا وَيُسْتَهْزَأَ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ إِذَا ارْتَضَيْتُمُ النَّبِيَّ بَعْدَ وَصُولِهِ إِلَيْكُمْ ، وَرَضِيْتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللهِ وَسُتْهَزَأَ وَيُنْتَقَصُ بِهَا ، وَأَقْرَبْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ ، فِي الْمَأْتَمِ ،

(١) الطبري : ٣٠٨/٩ (٢) مسلم : ١٣٤٤/٣ (٣) التعبير بالانزال في حق القرآن أكثر من التعبير بالنزول (٤) الطبري : ٩/٣١٥ إنساده ضعيف فيه حفص بن غصن وهو ضعيف [تقريب] وأيضا رواية سماك عن عكرمة مضطربة كما مرّ قريباً

وَالَّذِي أُحِيلَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ النَّهْيِ فِي ذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾... الآية [الأنعام: ٦٨]، قَالَ مُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانَ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، يَعْنِي نَسَخَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا إِذَا مَثَلْنَاكُمْ لِقَوْلِهِ﴾ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ جَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَئِنْ ذُكِّرْتُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أَي كَمَا أَسْرَثُوهُمْ فِي الْكُفْرِ كَذَلِكَ يُشَارِكُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا، وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ وَالْقِيُودِ وَالْأَغْلَالِ، وَشَرَابِ الْحَوِيمِ وَالْغَسَلِينَ لَا الزَّلَالَ.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْكُمْ وَعَمَّنَعْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُدْبِئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَانْتِخَاذًا لِلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ: أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ دَوَائِرَ السُّوءِ، بِمَعْنَى يَنْتَظِرُونَ زَوَالَ دَوْلِيَّتِهِمْ وَظُهُورَ الْكُفْرِ عَلَيْهِمْ وَذَهَابَ بِلْتَمَتِهِمْ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي نَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أَي يَتَوَدَّدُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أَي إِدَالَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَمَا وَقَعَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَإِنَّ الرُّسُلَ تُبْتَلَى ثُمَّ يَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْكُمْ وَعَمَّنَعْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي سَاعَدْنَاكُمْ فِي الْبَاطِنِ، وَمَا أَلْوَنَاهُمْ خَبَالًا وَتَخْذِيلًا حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ: نَغْلِبْ عَلَيْكُمْ^(١). كَقَوْلِهِ: ﴿اسْتَحْوِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة: ١٩] وَهَذَا أَيْضًا تَوَدَّدَ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَانِعُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، لِيَحْظُوا عِنْدَهُمْ وَيَأْتَمُوا كَيْدَهُمْ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ إِيْمَانِهِمْ وَقِلَّةِ إِيْقَانِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَي بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْكُمْ أَبْيَها الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْبَوَاطِنِ الرَّدِيئَةِ، فَلَا تَعْتَرُوا بِجَرَائِنِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَيْكُمْ ظَاهِرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُكُمْ ظَوَاهِرُكُمْ بَلْ هُوَ يَوْمٌ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَيَحْصَلُ مَا فِي الصُّدُورِ.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْكُمْ وَعَمَّنَعْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١)

[تَرْبِصُ الْمُنَافِقِينَ بِالْمُسْلِمِينَ]

عَبْدُ الرَّزَاقِ عَنْ يُسَيْعِ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: كَيْفَ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أُوذِنْتُ أَنَّهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٢). وَكَذَا رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قَالَ: ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٣). وَكَذَا رَوَى السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٤). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿سَبِيلًا﴾ أَي حُجَّةٌ^(٥). وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أَي فِي الدُّنْيَا بَأَن يُسَلِّطُوا عَلَيْهِمْ اسْتِئْصَالَ بِالْكَلْبِيَّةِ، وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ ظَفَرٌ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ

(١) الطبري: ٣٢٥/٩ (٢) عبد الرزاق: ١٧٥/١ (٣) الطبري:

٣٢٨/٩ (٤) الطبري: ٣٢٨/٩ (٥) الطبري: ٣٢٨/٩

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ رَوَى

عَمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعْبُرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَلَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَتَّبِعُ»^(١). تَفَرَّدَ بِهِ مُسْلِمٌ^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أَيُّ وَمَنْ صَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] فَإِنَّهُ ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ فَلَا هَادِيَ لَهُمْ وَلَا مُنْقِذَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ جَعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [١٤٤] إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [١٤٥] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [١٤٦] مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [١٤٧]

[الْتَهْيُ عَنْ وِلَاءِ الْكُفَارِ]

يُنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي مُصَاحِبَتَهُمْ وَمُضَادَّتَهُمْ، وَمُنَاصَحَتَهُمْ وَإِسْرَارَ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ، وَإِفْشَاءَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةَ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْتَقُوا مِنْهُمْ نَفْسًا وَمَنْ يَضُرَّكُمْ اللَّهُ فَتَسْكُرُوا﴾ [آل عمران: ٢٨] أَيُّ يُحَذِّرُكُمْ عَقُوبَتَهُ فِي إِزْتِكَابِكُمْ نَهْيَهُ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ جَعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أَيُّ حُجَّةً عَلَيْكُمْ فِي عُقُوبَتِهِ إِتَابَكُمْ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالنَّضْرِيُّ عَنِ عَرَبِيٍّ.

[الْمُنَافِقُونَ - الْمَوَالُونَ لِلْكَفَارِ - فِي أَسْفَلِ النَّارِ إِلَّا أَنْ يُتُوبُوا]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمُ الْعَلِيظِ. قَالَ الْوَالِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أَيُّ فِي أَسْفَلِ النَّارِ^(٣). وَقَالَ غَيْرُهُ: النَّارُ دَرَكَاتٌ كَمَا أَنَّ الْحَجَّةَ

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوْءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [١٤٨] إِنْ بُدُوْا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوْهُ أَوْ تَعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [١٤٩] إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [١٥٠] أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [١٥١] وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾ [١٥٢] يَسْأَلُكَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [١٥٣] وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقَلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقَلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [١٥٤]

دَرَجَاتٍ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ ﴿إِنَّ الْكُفَّيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قَالَ: فِي تَوَابِتٍ مِنْ نَارٍ تُطْبِقُ عَلَيْهِمْ، أَيُّ مُغْلَقَةٌ مُغْلَقَةٌ^(٤).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ سُئِلَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ: يُجْعَلُونَ فِي تَوَابِتٍ مِنْ نَارٍ تُطْبِقُ عَلَيْهِمْ فِي أَسْفَلِ دَرَكٍ مِنَ النَّارِ^(٥) ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أَيُّ يُقْذِرُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، تَابَ عَلَيْهِ وَقَبِلَ نَدْمَهُ إِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ، وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ، وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أَيُّ بَدَلُوا الرِّبَاةَ بِالْإِخْلَاصِ، فَيَنْفَعُهُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَإِنْ قَلَّ ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) الطبري: ٣٣٣/٩ (٢) مسلم: ٢١٤٦/٤ (٣) الطبري: ٩/٣٣٩ (٤) الطبري: ٣٣٩/٩ (٥) ابن أبي حاتم: ١٠٩٨/٤ (٦١٥٦) إسناده ضعيف فيه علي بن يزيد الألهاني ضعيف (تقريب) قال الدار قطني متروك [الضعفاء] ويُعني عنه ما تقدم.

بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقِرُّوا بَيْنَ يَدَيْهِمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٨﴾

[الْإِيمَانُ يَبْغِضُ الرُّسُلَ وَالْكَفْرُ يَبْغِضُهُمْ كُفْرًا خَالِصًا]

تَوَعَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَافِرِينَ بِهِ وَرُسُلِهِ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى حَيْثُ فَرَّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ فِي الْإِيمَانِ، فَآمَنُوا بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، بِمُجَرَّدِ التَّشْبِيهِ وَالْعَادَةِ، وَمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، لَا عَن ذَلِيلٍ فَادَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْهَوَى وَالْعَصَبِيَّةِ، فَالْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعْنَاتُ اللَّهِ - آمَنُوا بِالْأَنْبِيَاءِ إِلَّا عِيسَى وَمُحَمَّدًا عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالنَّصَارَى آمَنُوا بِالْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِخَاتَمِهِمْ وَأَشْرَفِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالسَّامِرَةَ لَا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيِّ تَعَدَّ يُوشَعَ خَلِيفَةَ مُوسَى ابْنِ عِمْرَانَ، وَالْمَجُوسُ يُقَالُ: إِنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيِّ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: زَرَادَشْتُ، ثُمَّ كَفَرُوا بِشَرَعِهِ، فَرَفِعَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَاجِبٌ بِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَنْ رَدَّ بُيُوتَهُ لِلْحَسَدِ أَوْ الْعَصَبِيَّةِ أَوْ التَّشْبِيهِ، تَبَيَّنَ أَنَّ إِيْمَانَهُ بِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ إِيْمَانًا شَرْعِيًّا، إِنَّمَا هُوَ عَن غَرَضٍ وَهَوَى وَعَصَبِيَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فَوَسَّمَهُمْ بِأَنَّهُمْ كُفَرَاءُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُقِرُّوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أَيْ فِي الْإِيمَانِ ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أَيْ طَرِيقًا وَمَسْلَكًا، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أَيْ كُفْرُهُمْ مُحَقَّقٌ لَا مَحَالَةَ بِمَنْ ادَّعَوْا الْإِيمَانَ بِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَرْعِيًّا، إِذْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ لَكُونَهُ رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَمْنُوا بِظَنِّيهِ، وَبِمَنْ هُوَ أَوْضَحُ ذَلِيلًا وَأَقْوَى بُرْهَانًا مِنْهُ، أَوْ نَظَرُوا حَقَّ النَّظَرِ فِي نُبُوتِهِ.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أَيْ كَمَا

(١) الطبري: ٣٤٤/٩ (٢) الطبري: ٣٤٤/٩ إسناده ضعيف فيه هشيم بن بشير وهو مدلس ولم يصرح (٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١١٠١ (٦١٢٢) (٤) أبو داود: ٤٨٩٤ (٥) مسلم: ٤/ ٢٠٠١

أَي فِي زُمْرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَن غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَذِّبُ الْعِبَادَ بِذُنُوبِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أَيْ أَصْلَحْتُمْ الْعَمَلَ وَأَمْتَمْتُمْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَاحِكًا عَلِيمًا﴾ أَيْ مَنْ شَكَرَ شَكَرَ لَهُ، وَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِهِ عَلِمَهُ وَجَازَاهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا عَلِيمًا﴾ ﴿١٥٩﴾ إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعَفَّوْا عَن سُوءِ فِعْلٍ أَوْ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴿١٦٠﴾

[الْإِذْنُ بِالْجَهْرِ بِالسُّوَى لِلْمَظْلُومِ مَعَ تَرْغِيهِ فِي الْعَفْوِ]

قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ يَقُولُ: لَا يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا، فَإِنَّهُ قَدْ أُرْخِصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وَإِنْ صَبَرَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَا يَدْعُ عَلَيْهِ، وَيُقْبَلُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِ، وَاسْتَخْرِجْ حَقِّي مِنْهُ^(٢). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ قَالَ: قَدْ أُرْخِصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَيْهِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مَالِكِ الْجَزَرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُوَ الرَّجُلُ يَشْتُمُكَ فَتَشْتُمُهُ، وَلَكِنْ إِنْ افْتَرَى عَلَيْكَ فَلَا تَقْتَرِ عَلَيْهِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَدَّ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].^(٣) وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْتَبَانُ مَا قَالَا، فَعَلَى الْبَادِيءِ مِنْهُمَا مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ»^(٤).

وقوله: ﴿إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعَفَّوْا عَن سُوءِ فِعْلٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ أَيْ إِنْ تَطَهَّرُوا أَنَّهَا النَّاسُ خَيْرًا أَوْ أَحْفَشْتُمُوهُ أَوْ عَفَوْتُمْ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُقَرِّبُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَيَجْزِلُ ثَوَابَكُمْ لَدَيْهِ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى أَنْ يُعْفَرَ عَن عِبَادِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى عِقَابِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ وَلِهَذَا وَرَدَّ فِي الْأَثَرِ: أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: سُبْحَانَكَ عَلَى جِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: سُبْحَانَكَ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صِدْقَةٍ، وَلَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُقِرُّوا

حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَسَدٌ نَّتَنظَّرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَي مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى يَدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بِلَادِ مِصْرَ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ وَجَمِيعِ جُنُودِهِ فِي النَّيْمِ، فَمَا جَاوَزُوهُ إِلَّا بَيِّسِيرًا، حَتَّىٰ أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَضْغَامٍ لَهُمْ فَقَالُوا لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾... الْآيَتَيْنِ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ إِتْخَاذِهِمُ الْعِجْلَ، مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ طه، بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى إِلَىٰ مَنَاجَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ لَمَّا رَجَعَ وَكَانَ مَا كَانَ، جَعَلَ اللَّهُ تَوْنَهُمْ مِنَ الَّذِي صَنَعُوهُ وَابْتَدَعُوهُ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ مِنْهُمْ مَنْ عِبَدَهُ، فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَعَقَمْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِهْنَأْنَا مُوسَىٰ سُلْطَنًا مُّبِينًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا قَوْمَهُمُ الطُّورَ بِبَيِّنَاتِهِمْ﴾ وَذَلِكَ حِينَ امْتَنَعُوا مِنَ الْإِذْتِمَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ، وَظَهَرَ مِنْهُمْ إِيَاءٌ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَفَعَ اللَّهُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ جِبَلًا، ثُمَّ أَلْزَمُوا: فَالْتَزَمُوا وَسَجَدُوا، وَجَعَلُوا يُنظَرُونَ إِلَىٰ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ، خَشْيَةً أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ كَانَهُمْ سُلُكًا وَظَنُوا أَنَّهُ وَقِعٌ مِّن سَمِّ خَدُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوْرٍ﴾... [الآية [الأعراف: ١٧١] ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أَي فَخَالَفُوا مَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَإِنَّهُمْ أَمَرُوا أَنْ يَدْخُلُوا بَابَ بَيْتِ الْقُدْسِ سُجَّدًا وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ، أَيِ اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا فِي تَرْكِنَا الْجِهَادَ وَنُكُولِنَا عَنْهُ، حَتَّىٰ نَهْنَأَ فِي النَّيْمِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَدَخَلُوا يَرْحُفُونَ عَلَىٰ أَسْتَاهِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ فِي شَعْرَةٍ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أَيِ وَصِيئَانَهُمْ بِحِفْظِ السَّبْتِ وَالتَّزَامِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، مَا دَامَ مَشْرُوعًا لَهُمْ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أَيِ شَدِيدًا، فَخَالَفُوا وَعَصَوْا وَتَحَيَّلُوا عَلَىٰ إِزْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾... [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

اسْتَهَانُوا بِمَنْ كَفَرُوا بِهِ، إِنَّمَا لَعَدِمَ نَظَرَهُمْ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ وَاعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَاقْبَالِهِمْ عَلَىٰ جَمْعِ حَطَامِ الدُّنْيَا مِمَّا لَا ضَرُورَةَ بِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَكْفُرُهُمْ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِبُيُوتِهِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ أَحْبَابِ الْيَهُودِ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ حَسَدُوهُ عَلَىٰ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَادُوهُ وَقَاتَلُوهُ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّ الدُّنْيَوِيَّ الْمُؤْصُولَ بِالذَّلِّ الْأَخْرَوِيَّ ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالسَّكَنَةَ وَبَاءُوا بِمَقْصَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقِرُّوْا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾... [الآية [البقرة: ٢٨٥]، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمُ الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ وَالثَّوَابَ الْجَلِيلَ وَالْعَطَاءَ الْجَمِيلَ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ عَلَىٰ مَا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أَيِ لِذُنُوبِهِمْ، أَيِ إِنْ كَانَ لِبَعْضِهِمْ ذُنُوبٌ.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَقَمْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِهْنَأْنَا مُوسَىٰ سُلْطَنًا مُّبِينًا﴾ وَرَفَعْنَا قَوْمَهُمُ الطُّورَ بِبَيِّنَاتِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

[عِنَادُ الْيَهُودِ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَالشَّدِيدِيُّ وَقَتَادَةُ: سَأَلَ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ كَمَا نَزَلَتْ التَّوْرَةُ عَلَىٰ مُوسَىٰ مَكْتُوبَةً^(١). قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: سَأَلُوهُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ صُحُفًا مِنَ اللَّهِ مَكْتُوبَةً إِلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ بِتَضَدِّيقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ^(٢). وَهَذَا إِنَّمَا قَالُوهُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّعَسُّتِ وَالْعِنَادِ وَالْكَفْرِ وَالْإِنْجَادِ، كَمَا سَأَلَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَبْلَهُمْ نَظِيرَ ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَذْكَورٌ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾... [الآيات [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أَيِ بِطَغْيَانِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَعُتُوهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَهَذَا مُفَسَّرٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ

﴿فَمَا تَقْضِهِمْ مِثْقَلُهُمْ ذَرَّةً وَكَفَّرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بَعِيرٍ حَتَّى وَقَالَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٦﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَإِلَّا يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾

[جَرَائِمُ الْيَهُودِ]

وَهَذِهِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي اِزْتَكَبُوهَا مِمَّا أُوجِبَ لَعْنَتُهُمْ وَطَرْدُهُمْ وَإِعَادَتُهُمْ عَنِ الْهُدَى، وَهُوَ تَقْضِيهِمُ الْمَوَاتِيقَ وَالْعُجُودَ الَّتِي أَخَذَتْ عَلَيْهِمْ. وَكَفَّرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، أَي حُجَّجَهُ وَبَرَّاهِنِيهِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا عَلَى [أَيْدِي] الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بَعِيرٍ حَتَّى﴾ وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ إِجْرَامِهِمْ وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَأَيْتَهُمْ قَتَلُوا جَمًّا غَيْرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ﴿وَقَوْلَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ: أَي فِي غَطَاءٍ^(١). وَهَذَا كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتِفٍ وَمَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾... الْآيَةَ [فصلت: ٥] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ كَانَتْهُمْ اِعْتَدَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَعِي مَا يَقُولُ، لِأَنَّهَا فِي غُلْفٍ وَفِي أَكْتِفٍ، فَقَالَ اللَّهُ: بَلْ هِيَ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي تَمَرَّتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَقَوْلُهُ الْإِيمَانِ.

[قَوْلُهُمْ فِي مَرْيَمَ وَادْعَاؤُهُمْ قَتْلَ عِيسَى وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ]

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَنَّهُمْ رَمَوْهَا بِالزَّنَانِ^(٢). وَكَذَلِكَ قَالَ السُّدِّيُّ وَجُوبَيْرٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ^(٣). وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ، أَنَّهُمْ رَمَوْهَا وَابْتَهَأَ بِالْعَظَائِمِ، فَجَعَلُوهَا زَانِيَةً، وَقَدْ حَمَلَتْ بِوَلَدِهَا مِنْ ذَلِكَ، زَادَ بَعْضُهُمْ: وَهِيَ حَائِضٌ. فَعَلَّيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أَي هَذَا الَّذِي يَدْعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمُنْصَبَ قَتَلْنَا، وَهَذَا مِنْهُمْ مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ ﴿يَتَأْتِيهَا

(١) الطبري: ٣٦٤/٩ (٢) الطبري: ٣٦٧/٩ (٣) الطبري: ٩/٩

مَنْ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ قَتَلَهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ سَلَّمَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ جُهَاِلِ النَّصَارَى: كَلُّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ وَحَيْرَةً وَضَلَالًا وَسُعْرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أَيُّ وَمَا قَتَلُوهُ مُتَبَيِّنِينَ أَنَّهُ هُوَ، بَلْ شَاكِرِينَ مُتَوَهِّمِينَ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أَيُّ مَنِيعَ الْجَنَابِ، لَا يُرَامُ جَنَابُهُ، وَلَا يُضَامُ مِنْ لَادٍ بِبَابِهِ، ﴿حَكِيمًا﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ مَا يُقَدَّرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخْلُقُهَا، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ وَالسُّلْطَانُ الْعَظِيمُ وَالْأَمْرُ الْقَدِيمُ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ، خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَفِي الْبَيْتِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ، يَعْنِي فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ: إِنْ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً، بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُلْقِي عَلَيْهِ شَبْهِي فَيَقْتُلَ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي؟ فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ ذَلِكَ الشَّابُّ، فَقَالَ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ الشَّابُّ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ ذَاكَ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبْهُ عِيسَى، وَرُفِعَ عِيسَى مِنْ رُوْزَنَةِ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبْهَ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ صَلَبُوهُ، فَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، وَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرْقٍ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ، كَانَ اللَّهُ فِيهَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعَدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَهُؤْلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيهَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهُؤْلَاءِ السُّنْطُورِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيهَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهُؤْلَاءِ الْمُسْلِمُونَ، فَظَاهَرَتِ الْكَافِرَاتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَقَتَلُوها، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ^(١). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنِ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنِ أَبِي مُعَاوِيَةَ بِنَحْوِهِ^(٢). وَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ يُلْقِي عَلَيْهِ شَبْهِي فَيَقْتُلَ مَكَانِي، وَهُوَ رِيفِي فِي الْجَنَّةِ؟

أَنَّ فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ رَجُلًا يُقْنِنُ النَّاسَ وَيُضِلُّهُمْ، وَيُنْسِدُ عَلَى الْمَلِكِ رِعَايَاهُ، فَغَضِبَ الْمَلِكُ مِنْ هَذَا، وَكَتَبَ إِلَى نَائِبِهِ بِالْمُقَدَّسِ أَنْ يَحْتَاطَ عَلَى هَذَا الْمَذْكُورِ، وَأَنْ يَضْلِبُهُ وَيَضَعُ الشُّوكَ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَكْفُ أَدَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابَ امْتَثَلَ مَتَوَلَّى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ذَلِكَ، وَذَهَبَ هُوَ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى الْمَنْزِلِ الَّذِي فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ - اثْنَا عَشَرَ أَوْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ، وَقِيلَ: سَبْعَةَ عَشَرَ نَفَرًا - وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ لَيْلَةَ السَّبْتِ، فَحَصَرُوهُ هُنَاكَ. فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ وَأَنَّهُ لَا مَحَالَهَ مِنْ دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ أَوْ خُرُوجِهِ عَلَيْهِمْ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَيُّكُمْ يُلْقِي عَلَيْهِ شَبْهِي وَهُوَ رِيفِي فِي الْجَنَّةِ؟ فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ شَابٌّ مِنْهُمْ فَكَانَهُ اسْتَضْعَرَّهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَعَادَهَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَتَنَدَّبُ إِلَّا ذَلِكَ الشَّابُّ، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ، وَأُلْقِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَبْهَ عِيسَى حَتَّى كَانَهُ هُوَ، وَفِيحَتْ رُوْزَنَةٌ مِنْ سَفْفِ الْبَيْتِ، وَأَخَذَتْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سِنَةً مِنَ النَّوْمِ، فَرُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾... الْآيَةُ [آل عمران: ٥٥]، فَلَمَّا رُفِعَ خَرَجَ أَوْلِيكَ النَّفْرَ، فَلَمَّا رَأَى أَوْلِيكَ ذَلِكَ الشَّابُّ، ظَنُّوا أَنَّهُ عِيسَى، فَأَخَذُوهُ فِي اللَّيْلِ وَصَلَبُوهُ، وَوَضَعُوا الشُّوكَ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَظْهَرَ الْيَهُودُ أَنَّهُمْ سَعَوْا فِي صَلْبِهِ، وَتَبَجَّحُوا بِذَلِكَ، وَسَلَّمَ لَهُمْ طَوَائِفٌ مِنَ النَّصَارَى ذَلِكَ، لِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عَقْلِهِمْ، مَا عَدَا مَنْ كَانَ فِي الْبَيْتِ مَعَ الْمَسِيحِ، فَإِنَّهُمْ شَاهَدُوا رَفْعَهُ. وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَّ الْيَهُودُ: أَنَّ الْمَضْلُوبَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، حَتَّى ذَكَرُوا: أَنَّ مَرْيَمَ جَلَسَتْ تَحْتَ ذَلِكَ الْمَضْلُوبِ وَبَكَتْ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ خَاطَبَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ امْتِحَانِ اللَّهِ عِبَادَهُ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ.

وَقَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ الْأَمْرَ وَجَلَّاهُ وَبَيَّنَّهٗ، وَأَظْهَرَهُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ، الْمُؤَيَّدِ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ، وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ، الْمُطَّلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شِبْهَ لَهُمْ﴾ أَيُّ رَأَوْا شَبْهَهُ فَظَنُّوهُ إِيَّاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَيُبَسِّئُونَ

(١) ابن أبي حاتم: ٤/١١١٠ (٢) النسائي في الكبرى: ٦/٤٨٩

وَأَمَّاكُمْ مِنْكُمْ»^(٩) وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(١٠).

(طريق آخرى) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتِ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِيْنُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثُوبَانِ مَمْصَرَانِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقَطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبَهُ بَلَّلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجُزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلِكَ كُلَّهُمَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، ثُمَّ تَقَعُ الْأَمْنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَحَ الْأَسْوَدُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنَّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذَّنَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَلْعَبُ الصَّبِيَّانَ بِالْحَيَاتِ لَا تَضُرُّهُنَّ، فَيَمَكْتُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَتَوَفَّى، وَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ» وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١١).

(حديث آخر) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزَلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقِ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافَوْا، قَالَتِ الرُّومُ: خَلَوْا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَّوْنَا مِنَّا نَقَاتِلُهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا وَاللَّهِ، لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا. فَيَقَاتِلُونَهُمْ: [فَيَنْهَزُهُمْ] ثَلْثَ لَيْلٍ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَحُ الثُّلُثُ لَا يَقْتَتُونَ أَبَدًا، فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَيَبْنِيانَهَا هُمْ يَقْسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَقُوا سُيُوفَهُمْ بِالرِّيْتُونَ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ. فَإِذَا جَاءُوا السَّامَ خَرَجَ فَيَبْنِيانَهَا هُمْ يُعْدُونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَأَاهُ عَدُوُّ اللَّهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ

[يُؤْمِنُ جَمِيعُ النَّصَارَى وَالْيَهُودَ بِالْمَسِيحِ قَبْلَ مَوْتِهِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا» رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١٢). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَ ذَلِكَ^(١٣). وَقَالَ أَبُو مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ: «إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» قَالَ: ذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِ عِيسَى، وَقَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا آمَنَ بِهِ^(١٤). [ذَكَرَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ «ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ» مِنْ صَحِيحِهِ الْمُتَلَفَى بِالْقُبُولِ: نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِكُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجُزْيَةَ، وَيَقْبِضُ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا»^(١٥). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١٦) وَقَوْلُهُ: «قَبْلَ مَوْتِهِ» أَي مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

(طريق أخرى عن أبي هريرة) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لِيُهْلَنَ عِيسَى بِفَجِّ الرُّوحَاءِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ، أَوْ لِيَتَّيْنَهُمَا جَمِيعًا»^(١٧). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١٨) وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَمْحُو الصَّلِيبَ، وَتُجْمَعُ لَهُ الصَّلَاةُ، وَيُعْطَى الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَ، وَيَضَعُ الْخَرَاجَ، وَيَنْزِلُ الرُّوحَاءَ فَيَحُجُّ مِنْهَا أَوْ يَعْتَمِرُ أَوْ يَجْمَعُهُمَا» قَالَ: وَتَلَا أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ»... الْآيَةَ، فَزَعَمَ حَظَلَّةُ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: يُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى. فَلَا أُدْرِي هَذَا كُلُّهُ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ شَيْءٌ قَالَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ^(١٩)? وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(طريق أخرى) رَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) الطبري: ٣٨٠/٩ (٢) الطبري: ٣٨٠/٩ (٣) الطبري: ٩/٣٨٠
 (٤) فتح الباري: ٥٦٦/٦ (٥) مسلم: ١٣٥/١ وانظر
 أيضًا فتح الباري: ٤٤/٥ (٦) أحمد: ٥١٣/٢ (٧)
 مسلم: ١٣٥/١ (٨) أحمد: ٢٩٠/٢ (٩) فتح الباري: ٦/١٣٥
 (١٠) أحمد: ٢٧٢/٢ ومسلم: ١٣٦/١، ١٣٧ (١١)
 أحمد: ٤٠٦/٢ وأبو داود: ٤٣٢٤ والطبري: ٣٨٨/٩

لَأَنْذَابَ حَتَّىٰ يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حُرْبِيهِ»^(١).

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَقَاتِلَنَّ الْيَهُودَ فَتَقْتُلْتَهُمْ، حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»^(٢).

وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِيَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْمَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»^(٣).

وَنُذَكِرُ حَدِيثَ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ هُنَا: رَوَى مُسْلِمٌ بِنِ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَحَفَّضَ فِيهِ وَرَفَعَ حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّحْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِنَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً فَحَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّحْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَحْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمْرٌو حَاجِبِ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِيَةٌ كَأَنَّي أَشْبَهُهُ بِعَبْدِ الْعَزْزِيِّ بْنِ قُطَيْنٍ، مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاتِ يَمِينًا وَعَاتِ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَانْتَبِهُوا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا لَبْنُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمَ كَسَنِيهِ، وَيَوْمَ كَشَهْرٍ، وَيَوْمَ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَسَنِيهِ أَنْكَفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، افْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالغَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى قَوْمٍ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَيَمْطُرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ دُرَى، وَأَسْبَعَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَهُ حَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيَضْبِحُونَ مُنْجِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِيَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَنْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَبَاعِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِكًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسِّيفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ، فَيَقْبَلُ

وَيَهْلِكُ وَجْهَهُ وَيَضْحَكُ، فَيَبْنِمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَيْنِ، وَاصْبَعًا كَفِيَّهُ عَلَى أَجْحِيحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرًا، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، وَلَا يَجِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِنَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَوَحَدَثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَيَبْنِمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عِيسَى: «إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانَ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْنِعْ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوْلَهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبْرِيَّةَ فَيَسْرِبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ يَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ يَهْدِيهِ مَرَّةً مَاءً، وَيُحْضِرُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ النُّورِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيَضْبِحُونَ فَرَسِي كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ رَهْمُهُمْ وَتَنَنَّهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْوِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطْرًا لَا يَكُرُّ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ، وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالرِّفْقَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَخْرِجِي ثَمْرَكَ وَرُدِّي بَرَكَتَكَ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعُصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ، وَيَسْتَعْطِلُونَ بِقِحْفِهَا، وَيَبَارِكُ اللَّهُ فِي الرُّسُلِ حَتَّى إِنَّ اللَّفْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِتْنَامَ، [مِنَ النَّاسِ وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْعَنَمِ لَتَكْفِي الْفَيْحَ مِنَ النَّاسِ] فَيَبْنِمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمْرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»^(٤) وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ^(٥). وَسَنَدُّهُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿حَقَّ إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ . . . الْآيَةُ [الأنبياء: ٩٦].

(١) مسلم: ٤/٢٢٢١ (٢) مسلم: ٤/٢٢٣٨ (٣) مسلم: ٤/٢٢٣٩ (٤) مسلم: ٤/٢٢٥٠ (٥) أحمد: ٤/١٨١ وأبو داود: ٤٩٦/٤ وتحفة الأحوذى: ٦/٤٩٩ والنسائي في الكبرى: ٥/١٥ وابن ماجه: ٢/١٣٥٦

[المزمل: ١٧]، وَذَلِكَ ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] (١).

(صِفَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقَطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبِهِ بَلَلٌ» (٢). وَفِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ: «فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيٍّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفِّهِ عَلَى أَجْحِحَةٍ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرٌ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ مِثْلُ جَمَانِ اللَّوْلُؤِ، لَا يَجُلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ» (٣). وَرَوَى الْخَارِثِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْلَةَ أُسْرِي بِي لَقِيتُ مُوسَى» قَالَ: فَفَتَعَتْهُ: «فَإِذَا رَجُلٌ حَسْبْتُهُ قَالَ: «مُضْطَرَبٌ، رَجُلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رَجَالِ شَنْوَاءَ» قَالَ: «وَلَقِيتُ عِيسَى» فَفَتَعَتْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «رَبُّعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ» يَعْنِي الْحَمَامَ «وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدَهُ بِهِ» (٤) الْحَدِيثِ. وَرَوَى الْخَارِثِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَى فَأَدَمٌ جَسِيمٌ سَبَطٌ، كَأَنَّهُ مِنْ رَجَالِ الرُّطْبِ» (٥). وَلَهُ وَلِمُسْلِمٍ عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمَرَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَانِي النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْبَةٌ طَافِيَةٌ» (٦). وَلِمُسْلِمٍ عَنْهُ مَرْفُوعًا «وَأَرَانِي اللَّهَ عِنْدَ الْكُعْبَةِ فِي الْمَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ أَدَمٌ كَأَحْسَنِ مَا تَرَى مِنْ أَدَمِ الرَّجَالِ، تَضْرِبُ لِمَتِّهِ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجُلٌ الشَّعْرُ، يَقَطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ رَأَيْتُ وَرَاءَهُ رَجُلًا جَعْدًا قَطَطًا، أَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَشْبَهُ مَنْ رَأَيْتُ يَابِنِ قَطْنٍ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ، يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَسِيحُ الدَّجَالُ» (٧).

لَوْ قَدْ بَيَّنَّتْ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مَنَارَةٌ لِلْجَمَاعِ الْأُمُورِيِّ بِيضَاءً مِنْ حِجَارَةٍ مَنُحَوِّتَةٍ عَوْضًا عَنِ الْمَنَارَةِ الَّتِي هُدِمَتْ بِسَبَبِ الْحَرِيقِ الْمُنْسُوبِ إِلَى صَنِيعِ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعْنَاتُ اللَّهِ الْمُتَّبَاعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وَكَانَ أَكْثَرُ عِمَارَتِهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَقَوِيَتِ الظُّنُونُ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي يَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا وَرَدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ].

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ يَعْقُوبَ ابْنِ عَاصِمٍ بِنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ التَّفَفِيّ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عَمْرٍو، وَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تَحَدَّثُ بِهِ، تَقُولُ: إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ - أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَوْ كَلِمَةٌ نَحْوَهَا - لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَحَدْتُ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا: يُحَرِّقُ الْبَيْتَ وَيَكُونُ وَيَكُونُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمُكُّتُ أَرْبَعِينَ، لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَيَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمُكُّتُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ - أَوْ إِيْمَانٍ - إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ» قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «فَيَقْفِي شِرَارَ النَّاسِ فِي خَفِيَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَمَثَلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقُهُمْ، حَسَنَ عَيْشِهِمْ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَصَعَقَ وَيَصَعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ الظِّلُّ - نَعْمَانُ الشَّاكُ - فَتَبَّتْ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. ثُمَّ يُقَالُ: أَيُّهَا النَّاسُ: هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿وَفَقُوهُ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤] قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرَجُوا بَعَثَ النَّارَ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾

(١) مسلم: ٢٢٥٨/٤ (٢) أبو داود: ٤٩٨/٤ (٣) مسلم: ٤/

٢٢٥٣ (٤) فتح الباري: ٤٩٣/٦ ومسلم: ١٥٤/١ (٥) فتح

الباري: ٥٤٩/٦ (٦) مسلم: ٢٢٤٨/٤ (٧) مسلم: ١٥٤/١

سُورَةُ النِّسَاءِ

١٠٤

النِّسَاءِ

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ ۚ يَعْلَمُهَا ۗ وَالْمَلَائِكَةُ شَاهِدُونَ ۖ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ۖ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

ثُمَّ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعِيسَى: أَحْمَرُ، وَلَكِنْ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ سَبَطَ الشَّعْرَ، يَبْتَهَادِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ، يُنَظِفُ رَأْسَهُ مَاءً - أَوْ يَهْرَاقُ رَأْسَهُ مَاءً - فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا ابْنُ مَرْيَمَ، فَذَهَبَتْ أَلْتَفْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرٌ جَسِيمٌ، جَعَدَ الرَّأْسَ، أَعْوَرَ عَيْنَيْهِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْنَةُ طَافِيَةٍ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الدَّجَالُ، وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا ابْنُ قَطَنِ» قَالَ الزُّهْرِيُّ: رَجُلٌ مِنْ خِزَاعَةَ هَلَكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ^(١). هَذِهِ كُلُّهَا أَلْفَاظُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَهَ مِنَ اللَّهِ، وَأَقْرَبُ يُعْبَدِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ لِلنَّاسِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْمَرْزُوقِ الْحَكِيمِ﴾ [الأنعام: ١١٦-١١٨].

﴿فِيظَلِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّتِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٦﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبَهُمْ آمُومًا النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٧﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِحُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٨﴾﴾

[تَحْرِيمَ طَيِّبَاتٍ عَلَى الْيَهُودِ لِأَجْلِ ظُلْمِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بِسَبَبِ ظُلْمِ الْيَهُودِ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ الذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ، حَرَّمَ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ كَانَ أَحْلَاهَا لَهُمْ، وَهَذَا التَّحْرِيمُ قَدْ يَكُونُ قَدْرِيًّا، بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى قَبَضَهُمْ لِأَن تَأَوَّلُوا فِي كِتَابِهِمْ، وَحَرَّوْهُوا وَبَدَّلُوا أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ، فَحَرَّمُوها عَلَى أَنْفُسِهِمْ تَشْدِيدًا مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَضْيِيقًا وَتَنْطَعًا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ شَرْعِيًّا بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَسْرِءَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ: أَنَّ الْجَمِيعَ مِنَ الْأَطْعَمَةِ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ مَا عَدَا مَا كَانَ حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ وَالْأَبْيَاهَا، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي التَّوْرَةِ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَعْرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ

سُوءُهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أَيْ إِنَّمَا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ يَسْتَحْسِنُونَ ذَلِكَ بِسَبَبِ بَعْثِمْ وَطَغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِيظَلِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّتِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أَيْ صَدُّوا النَّاسَ وَصَدُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَهَذِهِ سَجِيَّةٌ لَهُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَا مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ، وَلِهَذَا كَانُوا أَعْدَاءَ الرُّسُلِ، وَقَتَّلُوا خَلْقًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَذَّبُوا عِيسَى وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا.

وقوله: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ أَيْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَاَهُمْ عَنِ الرِّبَا فَتَنَّاوَلُوهُ وَأَخَذُوهُ وَاخْتَالُوا عَلَيْهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْحَيْلِ، وَضُؤْفٍ مِنَ الشُّبْهِ، وَأَكَلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ثُمَّ

(١) فتح الباري: ٥٥٠/٦

وَيُوسُفَ وَأَيُّوبَ وَسُعَيْبَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَيُوسُفَ وَدَاوُدَ
وَسُلَيْمَانَ وَالْإِنْسَانَ وَالنَّاسُ وَالنَّاسُ وَالنَّاسُ وَالنَّاسُ وَالنَّاسُ وَالنَّاسُ
الْكُفْلُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَسَيَدُّهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.
وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أَي خَلَقْنَا آخَرِينَ
لَمْ يُذَكِّرُوا فِي الْقُرْآنِ.

[فَضْلُ مُوسَى]

قَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِمُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الصَّغَةِ، وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُ: الْكَلِيمُ. وَقَدْ رَوَى
الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْذُوقٍ عَنْ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ:
جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ عِيَّاشٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقْرَأُ
(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا قَرَأَ هَذَا إِلَّا
كَافِرٌ، قَرَأْتُ عَلَى الْأَعْمَشِ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ عَلَى يَحْيَى بْنِ
وَثَّابٍ، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ عَلَى أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ،
وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَرَأَ
عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا﴾^(١). وَإِنَّمَا اشْتَدَّ غَضَبُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عِيَّاشٍ رَحِمَهُ
اللَّهُ عَلَى مَنْ قَرَأَ كَذَلِكَ، لِأَنَّهُ حَرَفَ لَفْظَ الْقُرْآنِ وَمَعْنَاهُ،
وَكَانَ هَذَا مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ أَوْ يُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ. كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ
الْمُعْتَزَلَةِ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى بَعْضِ الْمَشَائِخِ (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا) فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ اللَّحْنَاءِ، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟
يَعْنِي أَنَّ هَذَا لَا يَحْتَمِلُ التَّخْرِيفَ، وَلَا التَّأْوِيلَ.

[الْقَصْدُ مِنْ بَعْثَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَي يُبَشِّرُونَ مَنْ
أَطَاعَ اللَّهَ وَاتَّبَعَ رِضْوَانَهُ بِالْخَيْرَاتِ، وَيُنذِرُونَ مَنْ خَالَفَ
أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ بِالْعِقَابِ وَالْعَذَابِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِنَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أَي
إِنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ بِالسَّارَةِ وَالنَّذَارَةِ، وَبَيَّنَّ
مَا يُحِبُّهُ وَيُرْضَاهُ وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، لِنَلَّا يَكُونَ لِمُعْتَذِرِ
عُذْرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ
لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نُنزِلَ وَتُنزِلَ﴾ [طه: ١٣٤]، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنَكِينِ الرَّسُولِ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أَي النَّاسِ فِي
الدِّينِ، لَهُمْ قَدَمٌ رَاسِحَةٌ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ
عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عَطَفَ عَلَى
﴿الرَّسُولِ﴾ وَخَبَرَهُ ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ
قَبْلِكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْزَلْتُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَتَعَلَّبَهُ
ابْنُ سَعْيَةَ وَأَسَدُ وَرَيْدُ بْنُ سَعْيَةَ وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، الَّذِينَ دَخَلُوا
فِي الْإِسْلَامِ، وَصَدَّقُوا بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ الرَّكُوعُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ
رُكَاةَ الْأُمُورِ، وَيَحْتَمِلُ رُكَاةَ التَّفُوسِ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَي يُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِالتَّبَعِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْجَزَاءِ عَلَى
الْأَعْمَالِ خَيْرَهَا وَشَرِّهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ﴾ هُوَ الْخَبَرُ عَمَّا
تَقَدَّمَ ﴿سُنُّوتِهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْتِنَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَإِنَّا لَنَافِخُونَ فِي الصُّورِ﴾
وَرُسُلًا قَدْ فَضَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ
وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾
[أَوْحِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ] مِثْلُ مَا أَوْحِيَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ
عِكْرِمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ
سَكِينٌ وَعَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ: يَا مُحَمَّدُ مَا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى
بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ مُوسَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا:
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْتِنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إِلَى
آخِرِ الْآيَاتِ^(١). فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ
مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا أَوْحَى إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ،
فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْتِنَ مِنْ
بَعْدِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وَالزُّبُورُ اسْمُ
الْكِتَابِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[الْمَذْكُورُونَ فِي الْقُرْآنِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَسُولًا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ فَضَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ
نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أَي مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْآيَةِ، يَعْنِي فِي السُّورِ
الْمَكِّيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَهَذِهِ تَسْمِيَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ نَصَّ اللَّهُ عَلَى
أَسْمَائِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَهُمْ: آدَمُ وَإِدْرِيسُ وَنُوحٌ وَهُودٌ
وَصَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَلُوطٌ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ

(١) الطبري: ٤٠٠/٩ إسناده ضعيف محمد بن أبي محمد شيخ
محمد بن إسحاق مجهول كما مر مرارا. (٢) الطبراني الأوسط:
(٨٦٠٢) عبد الجبار بن عبد الله لا يعرف.

تُصِيبُهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» ... الآية [القصص: ٤٧]. وَقَدْ بَتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ»، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ رَسُولَهُ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ» (١).

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكِ الْكَاتِبِ﴾ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

لَمَّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إِلَى آخِرِ السَّبَاقِ، إِثْبَاتَ نُبُوَّتِهِ ﷺ وَالرَّدَّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ نُبُوَّتَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ وَإِنْ كَفَرَ بِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِمَّنْ كَذَبَكَ وَخَالَفَكَ، فَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أَيْ فِي عِلْمِهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُطَّلِعَ الْعِبَادَ عَلَيْهِ مِنَ النَّبَاتِ وَالْهَدْيِ وَالْقُرْقَانِ، وَمَا يُجِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْغُيُوبِ مِنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَمَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مَقْرَبٌ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَقَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَكِ الْكَاتِبِ﴾ يَشْهَدُونَ﴾ أَيْ بِصَدَقِ مَا جَاءَكَ وَأَوْحَى إِلَيْكَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ مَعَ شَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَيْ كَفَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، فَلَمْ يَتَّبِعُوا

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ وَالْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَكَلِمَتَهُ أَلْفَنَاهَا إِلَى مَرِيَمَ وَرُوحَ مَنْهَ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَكَةُ الْمَرْبُوتُ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَرَسِيحْشَرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَأَسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ بَرَهْنٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

الْحَقِّ، وَسَعَوْا فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَالْإِفْتِدَاءِ بِهِ، قَدْ خَرَجُوا عَنِ الْحَقِّ وَضَلُّوا عَنْهُ، وَبَعُدُوا مِنْهُ بُعْدًا عَظِيمًا شَاسِعًا، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي الْكَافِرِينَ بِآيَاتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ وَبِالْصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ وَارْتِكَابِ مَاتِمِهِ وَأَنْتَهَاكِ مَحَارِمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أَيْ سَبِيلًا إِلَى الْخَيْرِ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وَهَذَا اسْتِنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ... الْآيَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أَيْ قَدْ جَاءَكُمُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَالْبَيَانِ الشَّافِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمَنُوا بِمَا جَاءَكُم بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ إِيْمَانِكُمْ، وَلَا يَنْصَرِرُ بِكُفْرَانِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ

(١) فتح الباري: ١٤٦/٨ ومسلم: ٤/٢١١٤

تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنُوكُمْ حِينًا ﴿١٧١﴾ [إبراهيم: ٨] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أَي بَمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمْ الْهَدَايَةَ فِيهِدِيهِ، وَيَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقَابَةَ فِيَعُوبِيهِ، ﴿حَكِيمًا﴾ أَي فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرَعِيهِ وَقُدْرِيهِ. ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابَ لَا تَسْأَلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ: أَلْفَنَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَكَلِمَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِيهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَجِدُّ سَخْنَتُهُ: أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧٢﴾ [نَهَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَإِطْرَاءِ]

عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ]

إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ أَي إِنَّمَا هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَ لَهُ: كُنْ فَكَانَ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ، أَي خَلَقَهُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَرْيَمَ، فَفَتَحَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَانَ عِيسَى بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَتْ تِلْكَ النَّفْخَةُ الَّتِي نَفَخَهَا فِي جَيْبِ دَرْعِهَا، فَتَرَلَّتْ حَتَّى وَلَجَتْ فَرَجَهَا بِمَنْزِلَةِ لِقَاحِ الْأَبِ وَالْأُمِّ، وَالْجَمِيعُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا قِيلَ لِعِيسَى: إِنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحٌ مِنْهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ تَوْلَدَ مِنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاشِئٌ عَنِ الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَ لَهُ بِهَا: كُنْ، فَكَانَ. وَالرُّوحُ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيْلَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [التحریم: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى إِجْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ...﴾ [الزخرف: ٥٩].

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْفَنَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿كُنْ﴾ فَكَانَ^(٤). وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سِنَانَ الْوَاسِطِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ شَاذَانَ بْنَ يَحْيَى يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْفَنَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قَالَ: لَيْسَ الْكَلِمَةُ صَارَتْ عِيسَى، وَلَكِنْ بِالْكَلِمَةِ صَارَ عِيسَى^(٥). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»^(٦).

زَادَ فِي رِوَايَةٍ: «مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(٧). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٨). فَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ:

(١) أحمد: ٢٣/١ (٢) فتح الباري: ٥٥١/٦ (٣) أحمد: ٣/١٥٣ (٤) عبد الرزاق: ١٧٧/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٦٣١٠ (٦) فتح الباري: ٥٤٦/٦ (٧) فتح الباري: ٥٤٧/٦ (٨) مسلم: ٥٧/١

يُنْهَى تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ وَالْإِطْرَاءِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي عِيسَى حَتَّى رَعَوْهُ فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَغَلَوْهُ مِنْ حَيْزِ الثَّبُوتِ، إِلَى أَنْ اتَّخَذُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَعْبُدُونَهُ. بَلْ قَدْ غَلَوْا فِي أَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ، فَادْعَوْا فِيهِمُ الْعِصْمَةَ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ سِوَاءَ كَانُ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا، أَوْ ضَلَالًا أَوْ رَشَادًا، أَوْ صَاحِبًا أَوْ كَذِبًا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَتَهُمْ أَرْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الْآيَةَ [التوبة: ٣١]. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ. فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَلَفْظُهُ: «فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرِنَا وَابْنَ خَيْرِنَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوَيْتَكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ مَا أَحْبَبُ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣). فَتَرَدَّ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أَي لَا تَقْتَرُوا عَلَيْهِ وَتَجْعَلُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، تَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ غُلُوًّا كَبِيرًا، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ وَتَوَحَّدَ فِي سُؤْدَدِهِ وَكِبْرِيَايِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَنَهَا

وَعَشْرُونَ عَلَى مَقَالَةٍ، وَمِائَةٌ عَلَى مَقَالَةٍ، وَسَبْعُونَ عَلَى مَقَالَةٍ، وَأَزِيدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْقُصُ. فَلَمَّا رَأَى مِنْهُمْ عِصَابَةً قَدْ زَادُوا عَلَى الثَّلَاثِ مِائَةً بِمِائَتَيْ عَشَرَ نَفَرًا، وَقَدْ تَوَافَقُوا عَلَى مَقَالَةٍ، فَأَخَذَهَا الْمَلِكُ وَنَصَرَهَا وَأَيَّدَهَا - وَكَانَ فِيلُسُوفًا ذَاهِيَةً - وَمَحَقَّ مَا عَدَاهَا مِنَ الْأَقْوَالِ، وَانْتَضَمَ دَسْتُ أُولَئِكَ الثَّلَاثِ مِائَةٍ وَالثَّمَانِيَةَ عَشَرَ، وَبَيَّنَّتْ لَهُمُ الْكُنَائِسُ، وَوَضَعُوا لَهُمْ كُتُبًا وَقَوَائِنَ، وَأَحَدُوا فِيهَا الْأَمَانَةَ الَّتِي يُلْقِنُونَهَا الْوُلْدَانَ مِنَ الصَّغَارِ، لِيَعْتَقِدُوهَا، وَيُعْمِدُونَهُمْ عَلَيْهَا، وَأَتَّبَعَ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمَلَكِيَّةُ. ثُمَّ إِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا مَجْمَعًا ثَانِيًا، فَحَدَّثَتْ فِيهِمُ الْبِعُقُوبِيَّةُ، ثُمَّ مَجْمَعًا ثَالِثًا فَحَدَّثَتْ فِيهِمُ النَّسْطُورِيَّةُ، وَكُلُّ هَذِهِ الْفِرَقِ تَثَبَّتْ الْأَقَانِيمَ الثَّلَاثَةَ فِي الْمَسِيحِ، وَيَخْتَلِفُونَ فِي كُنْيَتِهِ ذَلِكَ، وَفِي الْأَهْوَاتِ وَالنَّاسُوتِ - عَلَى زَعْمِهِمْ - هَلِ اتَّحَدَا، أَوْ مَا اتَّحَدَا، أَوْ امْتَزَجَا، أَوْ حَلَّ فِيهِ عَلَى ثَلَاثِ مَقَالَاتٍ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يَكْفُرُ الْفِرْقَةَ الْأُخْرَى، وَنَحْنُ نَكْفُرُ الثَّلَاثَةَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

أَيُّ يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَجِدُّ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكَ وَلَدٌ﴾ أَيُّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ مُلْكُهُ وَخَلْقُهُ، وَجَمِيعُ مَا فِيهَا عَيْدُهُ وَهُمُ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَتَضْرِيغِهِ، وَهُوَ وَكِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهُمْ صَاحِبَةٌ وَوَلَدٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَبْعَثُ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾... الْآيَةُ [الأنعام: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَرَدًّا﴾ [مریم: ٨٨-٩٥].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْمُرُهُمْ إِلَهُهُ جَمِيعًا﴾ قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيَّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٧﴾

[الأنبياء والملائكة لا يستنكفون عن كونهم عباد الله] رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ لَنْ يَسْتَكْبِرَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَنْ يَحْتَشِمَ الْمَسِيحُ

«وَرُوحٌ مِنْهُ» كَقَوْلِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [البقرة: ١٣] أَيُّ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ، وَلَيْسَتْ مِنْهُ لِلتَّشْبِيهِ، كَمَا تَقُولُهُ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ - بَلْ هِيَ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى. وَأَضْيَقَتِ الرُّوحُ إِلَى اللَّهِ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيفِ، كَمَا أُضْيِقَتِ النَّاقَةُ وَالْبَيْتُ إِلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَدِيَهُ نَاقَةَ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤] وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] وَكَمَا رَوَى فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «فَأَدْخَلَ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ»^(١). أَضَافَهَا إِلَيْهِ إِضَافَةً تَشْرِيفٍ [لَهَا]، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ قَبِيلِ وَاحِدٍ وَنَمَطٍ وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيُّ فَصَدَّقُوا بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ، وَاعْلَمُوا وَتَقَنَّنُوا بِأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أَيُّ لَا تَجْعَلُوا عِيسَى وَأُمَّهُ مَعَ اللَّهِ شَرِيكَيْنِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالَّتِي فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةً وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَجِدُّ﴾ [المائدة: ٧٣] وَكَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ الْمَذْكُورَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْجُدُونِي﴾... الْآيَةُ [الأنعام: ١١٦] وَقَالَ فِي أُولَئِكَ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾... الْآيَةُ [المائدة: ٧٢] فَالنَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ - مِنْ جَهْلِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ صَاحِبٌ، وَلَا لِكُفْرِهِمْ حَدٌّ، بَلْ أَقْوَالُهُمْ وَضَلَالَتُهُمْ مُتَشِيرٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ إِلَهًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ شَرِيكًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ وَلَدًا، وَهُمُ طَوَائِفٌ كَثِيرَةٌ لَهُمْ آرَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَأَقْوَالٌ غَيْرٌ مُؤْتَلَفَةٌ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ حَيْثُ قَالَ: لَوْ اجْتَمَعَ عَشْرَةٌ مِنَ النَّصَارَى لَا فَرَقُوا عَلَى أَحَدٍ عَشَرَ قَوْلًا.

[فِرْقُ النَّصَارَى]

وَلَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ عُلَمَائِهِمُ الْمَسَاهِيرُ عِنْدَهُمْ وَهُوَ سَعِيدُ ابْنُ بَطْرِيْقٍ، بَتَرَكَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ فِي حُدُودِ سَنَةِ أَرْبَعِمِائَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ: أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا [فِي] الْمَجْمَعِ الْكَبِيرِ الَّذِي عَقَدُوا فِيهِ الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ الَّتِي لَهُمْ، وَإِنَّمَا هِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيرَةُ الصَّغِيرَةُ، وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ قُسْطَنْطِينِ بَانِي الْمَدِينَةِ الْمَشْهُورَةِ، وَأَنْتَهُمْ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ اخْتِلَافًا لَا يَنْضَبُ وَلَا يَنْحَصِرُ، فَكَانُوا أَزِيدَ مِنَ الْفَلِينِ؛ أَسْفَقًا، فَكَانُوا أَحْزَابًا كَثِيرَةً، كُلُّ خَمْسِينَ مِنْهُمْ عَلَى مَقَالَةٍ،

(١) البخاري: ٧٤٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ١٠٦
 سِتْفَتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرٌ وَأَهْلَكَ
 لَيْسَ لَهُ وَوَلَدٌ لَهُ وَأُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا
 إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ
 وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ
 يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَاتُ
 الْأَنْعَامِ إِلَّا مَيْتًا عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِلٍ الصَّيْدُ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ
 يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١٧٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرًا لِلَّهِ
 وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ
 الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضُلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
 وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا
 عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧٧﴾

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾
 [حُكْمُ الْكَلَالَةِ، وَهِيَ آخِرُ آيَةٍ نُزِّلَتْ]
 رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: أَجْرُ سُورَةِ نَزَلَتْ بَرَاءَةً،
 وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: يَسْتَفْتُونَكَ (٤).
 وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَرِيضٌ لَا أَقْبَلُ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَبَّ عَلَيَّ،
 أَوْ قَالَ: صَبَّوْا عَلَيَّ، فَعَقَلْتُ فَقُلْتُ: إِنَّهُ لَا يَرِثُنِي إِلَّا كَلَالَةٌ،
 فَكَيْفَ الْمِيرَاثُ؟ [قَالَ] فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْفَرَائِضِ (٥). أَخْرَجَاهُ
 فِي الصَّحِيحَيْنِ (٦). وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ. وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ
 فَنَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ ﴿بَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي
 الْكَلَالَةِ﴾... الآية (٧). وَكَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -

أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلِكَةَ الْمُفْرُونَ (١). وَلِهَذَا قَالَ:
 ﴿وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِيهِ وَيَسْتَكْفِرْ فَيَسْخَرْنَاهُ مِنْ جَمِيعٍ
 أَيْ يَجْمَعُهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ
 الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ، وَلَا يَجِيفُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾
 أَيْ فَيُعْطِيهِمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ،
 وَيَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَسِعَةً وَرَحْمَتِهِ وَأَمْتِنَانِهِ
 ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أَيْ: ائْتَمَنُوا مِنْ طَاعَةِ
 اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ ذَلِكَ ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
 وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ
 الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أَيْ
 صَاحِرِينَ حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ كَمَا كَانُوا مُتَمَتِّعِينَ مُسْتَكْبِرِينَ.
 ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا
 مُبِينًا (١٧٦)﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي
 رَحْمَةِ مَتْنِهِ وَفَضْلِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٧) ﴿
 [أَوْصَافُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ]
 يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا جَمِيعَ النَّاسِ وَمُخْبِرًا بِأَنَّهُ قَدْ
 جَاءَهُمْ مِنْهُ بُرْهَانٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ الدَّلِيلُ الْفَاطِعُ لِلْعُدْرِ،
 وَالْحُجَّةُ الْمُزِيلَةُ لِلشُّبْهَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا
 مُبِينًا﴾ أَيْ ضِيَاءً وَاضِحًا عَلَى الْحَقِّ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ
 وَغَيْرُهُ: وَهُوَ الْقُرْآنُ (٢) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا
 بِهِ﴾ أَيْ جَمَعُوا بَيْنَ مَقَامِي الْعِبَادَةِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي
 جَمِيعِ أُمُورِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا
 بِالْقُرْآنِ (٣). رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مَتْنِهِ
 وَفَضْلٍ﴾ أَيْ يَزَحْمُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَيَزِيدُهُمْ ثَوَابًا
 وَمُضَاعَفَةً وَرَفْعًا فِي دَرَجَاتِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ
 إِلَيْهِمْ، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ أَيْ طَرِيقًا وَاضِحًا
 قَصْدًا قِيَامًا لَا اغْوَجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ، وَهَذِهِ صِفَةُ
 الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مِنْهَاجِ
 الْإِسْتِقَامَةِ وَطَرِيقِ السَّلَامَةِ فِي جَمِيعِ الْأَعْتِقَادَاتِ
 وَالْعَمَلِيَّاتِ، وَفِي الْآخِرَةِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ
 الْمُقْتَضِي إِلَى رَوْضَاتِ الْجَنَّتِ.

﴿بَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرٌ أَهْلَكَ لَيْسَ لَهُ
 وَلَدٌ لَهُ وَأُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا
 وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا
 وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا وَاللَّهُ

(١) الطبري: ٤٢٤/٩ (٢) الطبري: ٤٢٨/٩ (٣) الطبري: ٤٢٩/٩
 (٤) فتح الباري: ١١٧/٨ (٥) أحمد: ٢٩٨/٣ (٦) فتح الباري: ٢٦/١٢
 (٧) فتح الباري: ١٢٣٥/٣ ١٢٣٥/٣ وأبو داود: ٣٠٨/٣ وتحفة الأحوذى: ٦
 ٢٧٣ والنسائي في الكبرى: ٥٩/٤ وابن ماجه: ٤٦٢/١

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: قَضَى فِينَا مَعَادُ بْنُ جَبَلٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: النَّصْفَ لِلْبَيْتِ وَالنَّصْفَ لِلْأُخْتِ. ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ: قَضَى فِينَا. وَلَمْ يَذْكُرْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٤). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْ هُزَيْلِ بْنِ شَرْحَبِيلٍ قَالَ: سُئِلَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ عَنْ ابْنَةٍ وَابْنَةٍ ابْنِ وَأُخْتِ، فَقَالَ: لِلْابْنَةِ النَّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النَّصْفُ، وَأَتِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَسَيَّأُ بَعْضِي، فَسَأَلَ ابْنَ مَسْعُودٍ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ: النَّصْفَ لِلْبَيْتِ، وَلِلْبَيْتِ الْإِبْنِ السُّدُسُ تَكْمَلَةَ الثَّلَاثِينَ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ، فَاتَيْنَا أَبَا مُوسَى، فَأَخْبَرَنَا بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْخَبْرُ فِيكُمْ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بَرِئُهُمَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أَيْ: وَالْأَخُ بَرِئٌ جَمِيعٌ مَالِهَا إِذَا مَاتَتْ كَلَالَةً، وَلَيْسَ لَهَا وَلَدٌ أَيْ: وَلَا وَالِدٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَا وَالِدٌ لَمْ يَرِثِ الْأَخُ شَيْئًا، فَإِنْ فُرِضَ أَنْ مَعَهُ مِنْ لَهْ فُرُضٌ صَرَفَ إِلَيْهِ فَرَضُهُ، كَزَوْجٍ أَوْ أَخٍ مِنْ أُمَّ، وَصَرَفَ الْبَاقِي إِلَى الْأَخِ، لِمَا بَيَّنَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ»^(٦). وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كَانَتْ أُمَّتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانُ مِمَّا تَرَكَ﴾ أَيْ: فَإِنْ كَانَ لِمَنْ يَمُوتُ كَلَالَةً أُخْتَانِ، فُرِضَ لَهُمَا الثَّلَاثَانِ، وَكَذَا مَا زَادَ عَلَى الْأُخْتَيْنِ فِي حُكْمِهِمَا، وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْجَمَاعَةُ حُكْمَ الْبَيْتَيْنِ، كَمَا اسْتَفِيدَ حُكْمُ الْأَخْوَاتِ مِنَ الْبَنَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ هَذَا حُكْمُ الْعَصَبَاتِ مِنَ الْبَنِينَ وَبَنِي الْبَنِينَ وَالْإِخْوَةَ إِذَا اجْتَمَعَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ، أُعْطِيَ الذَّكَرُ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ﴾ أَيْ: يَفْرُضُ لَكُمْ فَرَائِضَهُ، وَيَحُدُّ لَكُمْ حُدُودَهُ، وَيُوضِّحُ لَكُمْ شَرَائِعَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَصَلُّوا﴾ أَيْ: لِئَلَّا تَصَلُّوا عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ الْبَيَانِ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: هُوَ عَالِمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ لِعِبَادِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرَائِضِ بِحَسَبِ قُرْبِهِ مِنَ الْمُتَوَفَّى.

يَسْتَفْتُونَكَ عَنِ الْكَلَالَةِ ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ فِيهَا، فَدَلَّ الْمَذْكُورُ عَلَى الْمُتْرُوكِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْكَلَالَةِ وَاشْتِقَاقِهَا، وَأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ الْإِكْلِيلِ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَلِهَذَا فَسَّرَهَا أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ بِمَنْ يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿إِنْ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾، وَقَدْ أَشْكَلَ حُكْمَ الْكَلَالَةِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا بَيَّنَّتْ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّهُ قَالَ: ثَلَاثٌ وَوَدِدْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَهْدَ الْإِنَّا فِيهِنَّ عَهْدًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ: الْجَدُّ وَالْكَالَةُ وَبَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ عَنِ الْكَلَالَةِ حَتَّى طَعَنَ بِإِضْغِيبِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النَّسَاءِ»^(٢) هَكَذَا رَوَاهُ مُخْتَصَرًا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مَطْوُولًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا^(٣). وَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِآيَةِ الصَّيْفِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي فَضْلِ الصَّيْفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[ذِكْرُ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَاهَا وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ وَعَلَيْهِ

التَّكْلَانُ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَمْرًا هَلَكَ﴾ أَيْ مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] كُلُّ شَيْءٍ يَفْنَى وَلَا يَبْقَى إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَيْ: الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدٌ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُ﴾ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَلَوْ كَانَ مَعَهَا أَبٌ لَمْ تَرِثْ شَيْئًا، لِأَنَّهُ يَحْتَجُّهَا بِالْإِجْمَاعِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَلَا وَالِدٍ، بِالنَّصِّ عِنْدَ التَّأْمُلِ أَيْضًا، لِأَنَّ الْأُخْتِ لَا يَفْرُضُ لَهَا النَّصْفَ مَعَ الْوَالِدِ، بَلْ لَيْسَ لَهَا مِيرَاثٌ بِالْكَالِيَّةِ.

وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ وَعَبِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ فِي الْمَيْتِ: تَرَكَ بِنْتًا وَأُخْتًا إِنَّهُ لَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وَوَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ قَالَ: فَإِذَا تَرَكَ بِنْتًا فَقَدْ تَرَكَ وَلَدًا فَلَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ، وَخَالَفَهُمَا الْجُمْهُورُ فَقَالُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: لِلْبَيْتِ النَّصْفُ بِالْفَرَضِ، وَلِلْأُخْتِ النَّصْفُ الْآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ بِدَلِيلِ غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصَّتْ أَنْ يَفْرُضَ لَهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ. وَأَمَّا وَرَأَتْهَا بِالتَّعْصِيبِ فَلَمَّا

(١) فتح الباري: ٤٨/١ مسلم: ٤/٢٣٢٢ (٢) أحمد: ١/٢٦

(٣) مسلم: ٣/١٣٣٦ (٤) البخاري: ٦٧٤١ (٥)

البخاري: ٦٧٣٦ (٦) فتح الباري: ١٧/١٢ مسلم: ٣/١٢٣٣

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخَذَ عُمَرُ كَيْفًا وَجَمَعَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: لَأَقْضِيَنَّ فِي الْكَلَالَةِ قَضَاءً تَحَدُّثُ بِهِ النِّسَاءُ فِي خُدُورِهِنَّ، فَخَرَجَتْ حَيْثُ كَانَ مِنَ الْبَيْتِ فَتَفَرَّقُوا، فَقَالَ: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُمَّ هَذَا الْأَمْرَ لَأَتَمَّهُ^(١). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَرَوَى الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ النَّسَائِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: لِأَنْ أَكُونَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ثَلَاثٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ: مِنَ الْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ؟ وَعَنْ قَوْمٍ قَالُوا: يُقْرَأُ بِالزَّكَاةِ فِي أَمْوَالِنَا وَلَا نُؤَدِّيهِا إِلَيْكَ، أَيَحِلُّ فَتَالَهُمْ؟ وَعَنِ الْكَلَالَةِ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٢). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أُخَالَفَ فِيهِ أَبَا بَكْرٍ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: هُوَ مَا عَدَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ^(٣). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الصَّدِيقُ عَلَيْهِ جُمُهورُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأئِمَّةُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، كَمَا أَرَشَدَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ وَوَضَّحَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَصَلُّوا وَأَلَّهْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَاسِرٌ﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبَلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾^(١) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوهُا سَعَتِ رَبِّ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَتْلَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ سَتْرَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّوَدُّنِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: إِعْهَدْ إِلَيَّ، فَقَالَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ بِأَمْرٍ بِهِ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ. وَعَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَهُوَ فِي التَّوْرَةِ: بِأَيُّهَا الْمَسَاكِينُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: يَعْنِي بِالْعُقُودِ الْعُهُودِ^(١٢). وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: وَالْعُهُودُ مَا كَانُوا يَتَعَاهَدُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَلْفِ وَعَبْرِهِ^(١٣). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يَعْنِي بِالْعُهُودِ، يَعْنِي مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَمَا حَرَّمَ، وَمَا فَرَضَ وَمَا حَدَّ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ، فَلَا تَعْدِرُوا وَلَا تَنْكُثُوا، ثُمَّ شَدَّدَ فِي

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ

[فَصَائِلُ الْمَائِدَةِ وَزَمَنُ نَزُولِهَا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَشْمَاءِ بِنْتِ يَزِيدٍ، قَالَتْ: إِنِّي لَأَخِذَةٌ بِزِمَامِ الْعَضْبَاءِ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْمَائِدَةُ كُلُّهَا، وَكَادَتْ مِنْ ثِقَلِهَا تَدُقُّ عَضْدَ النَّاقَةِ^(٤). وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا. فَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ^(٥).

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ أَنْزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَالتَّفْتِيحُ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٦). وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ أَنْزَلَتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالتَّفْتِيحُ﴾^(٧) [النصر: ١]. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ نَحْوَ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٨). وَرَوَى الْحَاكِمُ أَيْضًا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، قَالَ: حَجَّجْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ لِي: يَا جُبَيْرُ، تَقْرَأُ

(١) الطبري: ٤٣٩/٩ (٢) الحاكم: ٣٠٤/٢ (٣) الطبري: ٩/٤٣٧ (٤) مسند أحمد ٤٥٥/٤٦ إسناده ضعيف فيه ليث بن أبي سليم صدوق اختلط فلم يتميز حديثه فترك كما في التقريب وشيخه شهر بن حوشب كثير الأوهام والإرسال (٥) مسند أحمد ١٧٦/٢ فيه حجت بن عبدالله قال البخاري فيه نظر [الكامل لابن عدي ٢/٨٥٥] وعبدالله بن لهيعة فيه ضعف أيضا (٦) تحفة الأحوذى: ٤٣٦/٨ فيه أيضا حجت بن عبدالله (٧) تحفة الأحوذى: ٨/٤٣٧ (٨) الحاكم: ٣١١/٢ (٩) الحاكم: ٣١١/٢ (١٠) أحمد: ١٨٨/٦ (١١) النسائي في الكبرى: ١١١٣٨ (١٢) الطبري: ٤٥٠/٩ (١٣) الطبري: ٤٤٩/٩

ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقْتُلُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿سُوهُ الدَّارِ﴾^(١) وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿أَوْفُوا بِالْمُعْهُودِ﴾ قَالَ: مَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمِيثَاقِ عَلَى مَنْ أَقْرَبَ بِالْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَالْكِتَابِ أَنْ يُوفُوا بِمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَرَائِضِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

[بَيَانُ مَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ هِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْعَنَمُ. قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٢). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَلِكَ هُوَ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ ابْنُ عَمْرٍو وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِبَاحَةِ الْجَنِينِ إِذَا وَجِدَ مِثْلًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا دُبِحَتْ^(٣). وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ فِي السُّنَنِ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَنْحَرُ النَّاقَةَ وَنَذْبَحُ الْبَقْرَةَ أَوْ الشَّاةَ فِي بَطْنِهَا الْجَنِينِ، أَنْفِيهِ أَمْ نَأْكُلُهَا؟ فَقَالَ: «كُلُّوهُ إِنْ شِئْتُمْ، فَإِنَّ ذِكَاةَ ذِكَاةِ أُمِّهِ» وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٤). رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ذِكَاةُ الْجَنِينِ ذِكَاةُ أُمِّهِ»^(٥). تَقَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَقَّى عَلَيْكُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَيْتَةَ وَالِدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَيْتَةَ وَمَآلِمَ يُذَكَّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ^(٧). وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْحَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَنْعَامِ إِلَّا أَنَّهَا تَحْرُمُ بِهَذِهِ الْعَوَارِضِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ﴾ يَعْنِي مِنْهَا فَإِنَّهُ حَرَامٌ لَا يُمَكِّنُ اسْتِدْرَاكُهُ وَتَلَاخُفُهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يَتَلَقَّى عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: إِلَّا مَا سَيَلَى عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْرِيمِ بَعْضِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ مَحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ بِالْأَنْعَامِ مَا يَعْمُ الْإِنْسِي مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْعَنَمِ، وَمَا يَعْمُ الْوَحْشِيَّ كَالطَّبَّاءِ وَالْبَقَرِ وَالْحُمْرِ، فَاسْتَشْنَى مِنَ الْإِنْسِيِّ مَا تَقَدَّمَ، وَاسْتَشْنَى مِنَ الْوَحْشِيِّ الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَحْلَلْنَا لَكُمْ الْأَنْعَامَ [فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ] إِلَّا مَا اسْتَشْنَى مِنْهَا - لِمَنْ التَزَمَ تَحْرِيمَ الصَّيْدِ، وَهُوَ حَرَامٌ - لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيْرَ بِلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَيْتَ اللَّهُ عَفْوَرٌ

[الْأَمْرُ بِإِحْتِرَامِ الْحَرَمِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا سَعَتِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ^(٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الصَّغَا وَالْمَرْوَةُ، وَالْهَدْيُ وَالْبُدْنُ مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ^(٩). وَقِيلَ: سَعَائِرُ اللَّهِ: مَحَارِمُهُ، أَيْ لَا تَحْلُوا مَحَارِمَ اللَّهِ الَّتِي حَرَّمَهَا تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ تَحْرِيمَهُ وَالْإِعْتِرَافَ بِتَعْظِيمِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ مِنَ الْإِنْتِدَاءِ بِالْقِتَالِ وَتَأْكِيدِ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾... الْآيَةَ [التوبة: ٣٦]، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ: اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ثَلَاثٌ مَتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ، وَرَجَبٌ مُضَرٌّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَسَعْبَانَ»^(١٠). وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ تَحْرِيمِهَا إِلَى آخِرِ وَقْتٍ.

[الْإِهْدَاءُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيذَ﴾ يَعْنِي لَا تَتْرَكُوا الْإِهْدَاءَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَإِنَّ فِيهِ تَعْظِيمًا لِسَعَائِرِ اللَّهِ، وَلَا تَتْرَكُوا تَقْلِيدَهَا فِي أَغْنَاقِهَا لِتَتَمَيَّزَ بِهِ عَمَّا عَدَاهَا مِنَ الْأَنْعَامِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهَا هَدْيٌ إِلَى الْكَعْبَةِ فَيَجْنِبُهَا مَنْ يُرِيدُهَا بِسُوءٍ، وَتَبَعَتْ مَنْ يَرَاهَا عَلَى الْإِثْنَيْنِ بِمِثْلِهَا؛ فَإِنَّ مَنْ دَعَا إِلَى هُدَى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَلِهَذَا لَمَّا حَجَّ

(١) الطبري: ٤٥٢/٩ (٢) الطبري: ٤٥٥/٩ (٣) الطبري: ٩/٤٥٦ (٤) أبو داود: ٢٥٢/٣ وتحفة الأحوذى: ٤٨/٥ وابن ماجه: ١٠٦٦/٢ (٥) أبو داود: ٢٥٣/٣ (٦) الطبري: ٩/٤٥٨ (٧) الطبري: ٤٥٨/٩ (٨) الطبري: ٤٦٣/٩ (٩) الطبري: ٤٦٣/٩ (١٠) فتح الباري: ١٠/١٠

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بَاتَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ وَهُوَ وَاِدِي الْعَقِيقِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ طَافَ عَلَى نِسَائِهِ وَكُنَّ تَسْعًا، ثُمَّ اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ اشْعَرَ هَدْيَهُ وَقَلَّدَهُ، وَأَهْلَ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَكَانَ هَدْيُهُ إِبِلًا كَثِيرَةً تَنَيْفٌ عَلَى السُّتَيْنِ، مِنْ أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْطَمْ شَعْتِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

[الْعَدْلُ وَاجِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ وَمَعْنَاهَا ظَاهِرٌ أَيْ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ قَدْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْوُضُوءِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَذَلِكَ عَامٌ الْحُدُوبِيَّةِ، عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، فَتَقْتَضُوا مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، بَلِ احْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]

أَيْ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ عَلَىٰ تَرْكِ الْعَدْلِ، فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ. فِي كُلِّ أَحَدٍ. فِي كُلِّ حَالٍ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدُوبِيَّةِ وَأَصْحَابُهُ حِينَ صَدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ النَّبِيِّ، وَقَدْ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَمَرَّ بِهِمْ أَنَسُ بْنُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ يُرِيدُونَ الْعُمْرَةَ، فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: نَصُدُّ هَؤُلَاءِ كَمَا صَدَدْنَا أَصْحَابَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَالشَّانُانُ هُوَ: الْبُغْضُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّمَدُّونَ﴾ يَا مَرْءَ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ - وَهُوَ الْبِرُّ - وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَهُوَ التَّقْوَىٰ. وَيُنْهَاهُمْ عَنِ التَّنَاصُرِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَآئِمِ وَالْمَحَارِمِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْإِثْمُ: تَرْكُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِفِعْلِهِ. وَالْعُدْوَانُ: مُجَاوَزَةُ مَا حَدَّ اللَّهُ فِي دِينِكُمْ، وَمُجَاوَزَةُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِي غَيْرِكُمْ^(٥). وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَصْرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ ظَالِمًا؟ قَالَ «تَحْجُرُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَلِكَ نَصْرُهُ»^(٦).

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا الْفَلَاحُ﴾ فَلَا تَسْتَحِلُّوهُا؛ وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا خَرَجُوا مِنْ أوطَانِهِمْ فِي غَيْرِ الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ قَلَّدُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّعْرِ وَالْوَبْرِ، وَتَقَلَّدَ مُشْرِكُو الْحَرَمِ مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ [الْحَرَمِ] فَيَأْمَنُونَ بِهِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: نُسِخَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ آيَاتُنِ الْفَلَاحِ وَتَوَلَّاهُ: ﴿فَإِنْ جَاءَوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾^(١) [المائدة: ٤٢].

[تَحْرِيمٌ مِنْ قِصْدِ النَّبِيِّ الْحَرَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أَيْ وَلَا تَسْتَحِلُّوهُا قِتَالَ الْفَاصِدِينَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَكَذَا مَنْ قَصَدَهُ طَالِبًا فَضَلَ اللَّهُ وَرَاجِعًا فِي رِضْوَانِهِ، فَلَا تَصُدُّوهُ وَلَا تَمْنَعُوهُ وَلَا تُهَيِّجُوهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُيَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ التَّجَارَةَ^(٢). وَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرِضْوَانًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَتَرَضُّونَ اللَّهُ بِحُجَّتِهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ عِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْحَطْمِ بْنِ هِنْدِ الْبَكْرِيِّ، كَانَ قَدْ آغَارَ عَلَى سَرْحِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُثْبِلِ اعْتَمَرَ إِلَى النَّبِيِّ، فَأَرَادَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنْ يَعْتَرِضُوا عَلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى النَّبِيِّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾^(٣).

[إِبَاحَةُ الصَّيْدِ بَعْدَ الْحَلَالِ مِنَ الْإِحْرَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أَيْ إِذَا فَرَعْتُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمْ وَأَحْلَلْتُمْ مِنْهُ فَقَدْ أَبْخَنَّا لَكُمْ مَا كَانَ مُحْرَمًا عَلَيْكُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ مِنَ الصَّيْدِ، وَهَذَا أَمْرٌ بَعْدَ الْحَظَرِ، وَالصَّحِيحُ - الَّذِي يُثْبِتُ عَلَى السَّبْرِ -: أَنَّهُ يُرَدُّ

(١) الطبري: ٣٣٢/١٠ (٢) الطبري: ٤٨١، ٤٨٠/٩ (٣)

الطبري: ٤٧٢/٩، ٤٧٥ (٤) الطبري: ٤٧٨/٩ (٥) الطبري:

٤٩٠/٩ (٦) أحمد: ٩٩/٣

انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ هُشَيْمٍ بِهِ نَحْوَهُ^(١). وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى آذَانِهِمْ، أَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يَخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى آذَانِهِمْ»^(٢). وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدَى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»^(٣).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفِقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُرْدِيَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ فَنسَى الْيَوْمَ بَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْسَتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٣﴾

[مَا حُرِّمَ أَكْلُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عِبَادَهُ خَيْرًا مُتَّصِمًا النَّهْيَ عَنْ تَعَاطِي هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ مِنَ الْمَيْتَةِ، وَهِيَ مَا مَاتَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ حَتَّى أَنْفَهُ مِنْ غَيْرِ ذِكَاةٍ وَلَا اضْطِيَادٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ، لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّمِ الْمُحْتَقِنِ، فَهِيَ ضَارَّةٌ لِلدِّينِ وَلِلْبَدَنِ، فَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَبُسْتُنَى مِنَ الْمَيْتَةِ السَّمَكُ، فَإِنَّهُ حَلَالٌ سِوَاءَ مَا تَبْدِيكِيَّةٍ أَوْ غَيْرِهَا لِمَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي مُوطَّئِهِ، وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِمْ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ جِبَانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ، فَقَالَ: «هُوَ الطَّهْرُ مَاؤُهُ الْجِلُّ مَيْتَتُهُ»^(٤). وَهَكَذَا الْجَرَادُ

لِمَا سَيَأْتِي مِنَ الْحَدِيثِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالدَّمُ﴾ [المائدة: ٣] يَعْنِي بِهِ الْمَسْفُوحُ، كَقَوْلِهِ ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الطَّحَالِ فَقَالَ: كُلُّهُ، فَقَالُوا: أَنَّهُ دَمٌ، فَقَالَ: إِنَّمَا حُرِّمَ عَلَيْكُمُ الدَّمُ الْمَسْفُوحُ، وَقَدْ رَوَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجِلُّ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»^(٥). وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَابْنُ مَاجَةَ وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَالبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

١٠٧

السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ فَنسَى الْيَوْمَ بَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْسَتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ يَعْلَمُونَهَا مَعَآلِمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْفُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حُلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حُلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَلِّفِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَاهِيمَ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

أَسْلَمَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ يَعْنِي إِنْسَانَهُ وَوَحْشِيَّتَهُ، وَاللَّحْمُ يَعْمُ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ حَتَّى الشَّحْمُ، وَلَا يُحْتَاجُ إِلَى تَحْدِثِ الظَّاهِرِيَّةِ فِي جُمُودِهِمْ هَهُنَا، وَتَعَسُّفِهِمْ فِي الْإِحْتِجَاجِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقٌ﴾ يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] أَعَادُوا الضَّمِيرَ فِيمَا فَهَمُّهُ عَلَى الْخِنْزِيرِ حَتَّى يَعْمُ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ. وَهَذَا بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ اللَّغَةُ، فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ الضَّمِيرُ إِلَّا إِلَى الْمُضَافِ دُونَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ اللَّحْمَ يَعْمُ جَمِيعَ الْأَجْزَاءِ كَمَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ، وَمِنْ الْعُرْفِ الْمُطَّرَدِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ

(١) فتح الباري: ١١٧/٥ (٢) أحمد: ٣٦٥/٥ (٣) مسلم: ٢٠٦٠/٤ (٤) أبو داود: ٦٤/١ وتحفة الأحوذى: ٢٢٤/١ والنسائي: ٥٠/١ وابن ماجه: ١٣٦/١ وابن خزيمة: ٥٩/١ وابن حبان: ٢٧٢/٢ (٥) ترتيب مسند الشافعي: ١٧٣/٢ (٦) أحمد: ٩٧/٢ والدارقطني: ٢٧٢/٤ والبيهقي: ٢٥٤/١

بُرَيْدَةُ بْنُ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالرُّدْشِيرِ، فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَدَمِهِ»^(١). فَإِذَا كَانَ هَذَا التَّنْفِيرُ لِمُجَرِّدِ اللَّحْمِ، فَكَيْفَ يَكُونُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعْدُ الْأَكِيدُ عَلَى أَكْلِهِ وَالتَّعْذِي بِهِ؟ وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى شُمُولِ اللَّحْمِ لِجَمِيعِ الْأَجْزَاءِ مِنَ الشَّحْمِ وَغَيْرِهِ؟ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ» فَيَقِيلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا تَطْلَى بِهَا الشُّفْنُ، وَتُدْمَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: «لَا، هُوَ حَرَامٌ»^(٢). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سُوْفْيَانَ أَنَّهُ قَالَ لِهَرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ: نَهَانَا عَنِ الْمَيْتَةِ وَالِدَمِّ.

وَقَوْلُهُ: «وَمَا أَهْلُ لَعْنَةِ اللَّهِ بِهِ» [المائدة: ٤] أَيُّ مَا ذَبِحَ فَذَكَّرَ عَلَيْهِ إِسْمُ غَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ حَرَامٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ أَنْ تَذْبَحَ مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى إِسْمِهِ الْعَظِيمِ، فَمَتَى عُدِلَ بِهَا عَنْ ذَلِكَ، وَذَكِّرَ عَلَيْهَا إِسْمُ غَيْرِهِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ طَاعُوتٍ أَوْ وَتَنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ فَإِنَّهَا حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ. وَقَوْلُهُ: «وَالْمُنْحِقَةُ» وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ بِالْحَنْقِ، إِمَّا قَصْدًا، وَإِمَّا إِتْفَاقًا، بِأَنْ تَتَخَبَّلَ فِي [وَنَاقَهَا]، فَتَمُوتُ بِهِ، فَهِيَ حَرَامٌ. وَأَمَّا «الْمَوْفُودَةُ» فَهِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِشَيْءٍ يُقِيلُ غَيْرَ مُحَدَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِالْحَشِيَّةِ، حَتَّى [تُوقَدَ بِهَا] فَتَمُوتَ^(٣). قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَضْرِبُونَهَا بِالْعِصِيِّ، حَتَّى إِذَا مَاتَتْ أَكَلُوهَا^(٤). وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيي بِالْمِعْرَاضِ الصَّيْدَ فَأُصِيبُ؟ قَالَ: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكَلَهُ، وَإِنْ أَصَابَ بَعْرَضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيدٌ، فَلَا تَأْكُلُهُ»^(٥). فَفَرَّقَ بَيْنَ مَا أَصَابَهُ بِالسَّهْمِ أَوْ بِالْمُزْرَاقِ وَنَحْوِهِ بِحَدِّهِ، فَأَحَلَّهُ، وَمَا أَصَابَ بَعْرَضِهِ فَجَعَلَهُ وَقِيدًا لَمْ يُحَلِّهِ، وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ.

وَأَمَّا «الْمُتْرَدِيَّةُ» فَهِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ شَاهِقٍ أَوْ مَوْضِعٍ عَالٍ، فَتَمُوتُ بِذَلِكَ، فَلَا تَحُلُّ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْمُتْرَدِيَّةُ الَّتِي تَسْقُطُ مِنْ جَبَلٍ^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ الَّتِي تَرْدَى فِي بئرٍ^(٧). وَقَالَ السُّدِّيُّ: هِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ جَبَلٍ أَوْ تَرْدَى فِي بئرٍ^(٨).

وَأَمَّا «النَّطِيحَةُ» فَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطْحِ غَيْرِهَا لَهَا، فَهِيَ حَرَامٌ، وَإِنْ جَرَحَهَا الْقُرْنُ وَخَرَجَ مِنْهَا الدَّمُ، وَلَوْ

مِنْ مَذْبَحِهَا. وَالنَّطِيحَةُ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ، أَيُّ مَنْطُوحَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ» أَيُّ مَا عَدَا عَلَيْهَا أَسَدٌ أَوْ فَهْدٌ أَوْ نَمِرٌ أَوْ ذئبٌ أَوْ كَلْبٌ، فَأَكَلَ بَعْضَهَا فَمَاتَتْ بِذَلِكَ، فَهِيَ حَرَامٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ سَالَ مِنْهَا الدَّمُ، وَلَوْ مِنْ مَذْبَحِهَا، فَلَا تَحُلُّ بِالْإِجْمَاعِ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ مَا أَفْضَلَ السَّبْعِ مِنَ الشَّاةِ أَوْ الْبَعِيرِ أَوْ الْبَقَرَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ: «إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ» عَائِدٌ عَلَى مَا يُمَكِّنُ عَوْدَهُ عَلَيْهِ مِمَّا انْعَقَدَ سَبَبُ مَوْتِهِ، فَأَمَكَّنَ تَدَارُكُهُ بِذِكَاةٍ وَفِيهِ حَيَاةٌ مُسْتَقَرَّةٌ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: «وَالْمُنْحِقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُتْرَدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ» يَقُولُ: إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ وَفِيهِ رُوحٌ فَكَلُوهُ، فَهُوَ ذَكِيٌّ^(٩). وَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَالسُّدِيِّ^(١٠). وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: إِذَا أَدْرَكْتَ ذِكَاةَ الْمَوْفُودَةِ وَالْمُتْرَدِيَّةِ وَالنَّطِيحَةِ، وَهِيَ تُحْرَكُ يَدًا أَوْ رِجْلًا فَكَلُوهَا^(١١). وَهَكَذَا رَوَى عَنْ طَاوُسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَعَبِيدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَالضَّحَّاكَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ: أَنَّ الْمُدْكَاةَ مَتَى تَحْرَكَتْ بِحَرَكَةٍ تَدُلُّ عَلَى بَقَاءِ الْحَيَاةِ فِيهَا بَعْدَ الذَّبْحِ، فَهِيَ حَلَالٌ^(١٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَأَقُو الْعَدُوَّ عَدًّا، وَلَيْسَ مَعَنَا مَدَى، أَفَتَذْبَحُ بِالْقَصَبِ؟ فَقَالَ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَكَلُوهُ، لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفْرُ، وَسَأَحْدُثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ: أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمَدَى الْحَبْسَةِ»^(١٣). وَقَوْلُهُ: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ» قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جُرَيْجٍ: كَانَتْ النَّصْبُ جِبَارَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ^(١٤). قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَهِيَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نَصْبًا، كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَذْبَحُونَ عِنْدَهَا، وَيَنْصَحُونَ مَا أَقْبَلَ مِنْهَا إِلَى الْبَيْتِ بِدِمَاءِ تِلْكَ الذَّبَائِحِ، وَيُسْرَحُونَ اللَّحْمَ وَيَصْعُقُونَهُ عَلَى

(١) مسلم: ١٧٧٠/٤ (٢) فتح الباري: ٤٩٥/٤ ومسلم: ٣/١٢٠٧ (٣) الطبري: ٤٩٦/٩ (٤) الطبري: ٤٩٦/٩ (٥) فتح الباري: ٥١٨/٩ (٦) الطبري: ٤٩٨/٩ (٧) الطبري: ٩/٤٩٨ (٨) الطبري: ٤٩٨/٩ (٩) الطبري: ٥٠٢/٩ (١٠) الطبري: ٥٠٤/٩ (١١) الطبري: ٥٠٣/٩ (١٢) الطبري: ٥٠٤/٩ (١٣) فتح الباري: ٥٥٤/٩ ومسلم: ٣/١٥٥٨ (١٤) الطبري: ٥٠٨/٩

النُّصْبِ^(١). وَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ، فَهِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ هَذِهِ الذَّبَائِحِ الَّتِي فُعِلَتْ عِنْدَ النَّصْبِ - حَتَّى وَلَوْ كَانَ يُدَكَّرُ عَلَيْهَا اسْمُ اللَّهِ فِي الذَّبْحِ عِنْدَ النَّصْبِ - مِنَ الشَّرِكِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيَتَّبِعِي أَنْ يُحْمَلَ هَذَا عَلَى هَذَا، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ تَحْرِيمُ مَا أَهْلٌ بِهِ لِيُغَيَّرَ اللَّهُ.

[حُرْمَةُ الْإِسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أَي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْإِسْتِقْسَامَ بِالْأَزْلَامِ، وَاحِدَهَا زَلَمٌ، وَقَدْ تَمْتَحُ الزَّيُّ، فَيُقَالُ: زَلَمْتُ، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّهَا يَتَعَاطُونَ ذَلِكَ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحِ ثَلَاثَةٍ، عَلَى أَحَدِهَا مَكْتُوبٌ: إِفْعَلْ، وَعَلَى الْآخَرِ: لَا تَفْعَلْ، وَالثَّلَاثُ: عُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: مَكْتُوبٌ عَلَى الْوَاحِدِ: أَمْرِي رَبِّي، وَعَلَى الْآخَرِ: نَهَانِي رَبِّي، وَالثَّلَاثُ: عُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَإِذَا أَجَالَهَا فَطَلَعَ سَهْمُ الْأَمْرِ فَعَلَهُ، أَوْ النَّهْيُ تَرَكَهُ، وَإِنْ طَلَعَ الْفَارِغُ أَعَادَ، وَالْإِسْتِقْسَامُ مَأْخُودٌ مِنْ طَلَبِ الْقِسْمِ مِنْ هَذِهِ الْأَزْلَامِ، هَكَذَا فَرَّرَ ذَلِكَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ قِدَاحٌ كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا الْأُمُورَ^(٢). وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَعَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَعْظَمَ أَصْنَامِ قُرَيْشٍ صَنَمٌ كَانَ يُقَالُ لَهُ هُبْلٌ، مَنصُوبٌ عَلَى بَيْتٍ دَاخِلِ الْكَعْبَةِ، فِيهَا تَوْضَعُ الْهَدَايَا، وَأَمْوَالُ الْكَعْبَةِ فِيهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ سَبْعَةُ أَزْلَامٍ، مَكْتُوبٌ فِيهَا مَا يَتَحَاكَمُونَ فِيهِ مِمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ، فَمَا خَرَجَ لَهُمْ مِنْهَا رَجَعُوا إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْدِلُوا عَنْهُ^(٣). وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا دَخَلَ الْكَعْبَةَ، وَجَدَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ مُصَوِّرِينَ فِيهَا، وَفِي أَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ فَقَالَ: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا»^(٤).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قَالَ: هِيَ سِهَامُ الْعَرَبِ، وَكِعَابُ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَانُوا يَتَقَامَرُونَ [بِهَا]^(٥). وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي الْأَزْلَامِ أَنَّهَا مَوْضِعَةٌ لِلْقِمَارِ، فِيهِ نَظْرٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْإِسْتِخَارَةِ تَارَةً وَفِي الْقِمَارِ أُخْرَى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ [فَرَّقَ] بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقِمَارِ، وَهُوَ الْمَيْسِرُ فَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصْطَبُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِمَّنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٦) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أُمُورِهِمْ أَنْ يَسْتَخِيرُوهُ، بِأَنْ يَعْبُدُوهُ ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الْخَيْرَةَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَأَقْدِرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضْنِي بِهِ»^(٧). لَفْظُ أَحْمَدَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

[يَأْسُ الْكُفَّارِ وَالشَّيْطَانِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي يَبْسُوا أَنْ يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ^(٨). وَكَذَا رَوَى عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَالسُّدِّيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ^(٩). وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَرُدُّ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَبْسُ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»^(١٠). وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَبْسُوا مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُسْلِمِينَ، لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُخَالَفَةِ لِلشَّرِكِ وَأَهْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى أَمْرًا

(١) الطبري: ٥٠٨/٩ (٢) الطبري: ٥١٥/٩ (٣) الطبري: ٩/

٥١٣ (٤) فتح الباري: ٤٤٦/٦ (٥) الطبري: ٥١٢/٩ (٦)

أحمد: ٣٤٤/٣ وفتح الباري: ٥٨/٣ وأبو داود: ١٨٧/٢ وتحفة

الأحودي: ٥٩١/٢ والنسائي: ٨٠/٦ وابن ماجه: ٤٤٠/١ (٧)

الطبري: ٥١٦/٩ (٨) الطبري: ٥١٦/٩ (٩) مسلم: ٢١٦٦/٤

لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَتَّبِعُوا فِي مَخَالَفَةِ الْكُفَّارِ، وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، فَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أَي لَا تَخَافُوهُمْ فِي مَخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَاخْشَوْنِي، أَنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَأُبْذِهِمْ، وَأُظْفِرْكُمْ بِهِمْ، وَأَشْفِ صُدُورَكُمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلْكُمْ قُوفَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[إِكْمَالُ دِينِ الْإِسْلَامِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَلَا إِلَى نَبِيِّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعَثَهُ إِلَى الْإِنْسِي وَالْجِنِّ، فَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا خُلْفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَي صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُمُ الدِّينَ، تَمَّتْ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أَي فَارْضُوهُ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّهُ الدِّينُ الَّذِي أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ، وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَلَ الرُّسُلِ الْكَرِيمِ، وَأَنْزَلَ بِهِ أَشْرَفَ كُتُبِهِ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ هَارُونَ بْنِ عَثْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، بَكَى عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بِيْكَ؟» قَالَ: أَبْكَانِي أَنَا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا، فَأَمَّا إِذَا أَكْمَلُ فَإِنَّهُ لَمْ يُكْمَلْ شَيْءٌ إِلَّا نَقَصَ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ»^(١). وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى الْحَدِيثُ الثَّابِتُ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ آيَةَ فِي كِتَابِكُمْ، لَوْ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ؟

قَالَ: قَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ^(٣). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ الْحَسَنِ

ابْنِ الصَّبَّاحِ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَوْنٍ...^(٤). وَرَوَاهُ أَيضًا مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٥). وَنُفِطَ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ طَارِقٍ، قَالَ: قَالَتِ الْيَهُودُ لِعُمَرَ: وَاللَّهِ! إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ آيَةَ لَوْ نَزَلَتْ فِيْنَا لَاتَّخَذْنَاهَا عِيدًا. فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ حِينَ أَنْزَلْتُمْ، وَأَيْنَ أَنْزَلْتُمْ، وَأَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ أَنْزَلْتُمْ: يَوْمَ عَرَفَةَ، وَأَنَا وَاللَّهِ بِعَرَفَةَ، قَالَ سُفْيَانُ: وَأَشْكُ: كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَمْ لَا؟ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٦) الْآيَةَ. وَشَكَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنْ كَانَ فِي الرِّوَايَةِ، فَهُوَ تَوَرُّعٌ حَيْثُ شَكَّ: هَلْ أَخْبَرَهُ شَيْخُهُ بِذَلِكَ أَمْ لَا؟ وَإِنْ كَانَ شَكًّا فِي كَوْنِ الْوُقُوفِ فِي حَجَّةِ الْوُدَّاعِ كَانَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَهَذَا مَا إِخَالَهُ يُصَدِّرُ عَنِ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ مَقْطُوعٌ بِهِ، لَمْ يَخْتَلَفْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمَعَارِضِيِّ وَالسَّرِيِّ، وَلَا مِنَ الْفُقَهَاءِ. وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثٌ مُتَوَاتِرَةٌ لَا يُشْكُ فِي صِحَّتِهَا، وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ عُمَرَ.

[إِبَاحَةُ الْمَيْتَةِ فِي حَالَةِ الْإِضْطِرَارِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي فَمَنْ احْتَاجَ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمُحْرَمَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِضَرُورَةٍ أَلْجَأَتْهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَهُ تَنَاوُلُهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَهُ، لِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ حَاجَةَ عَبْدِهِ الْمُضْطَرِّ وَافْتِقَارَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَيَتَجَاوَزُ عَنْهُ، وَيَغْفِرُ لَهُ، وَفِي الْمُسْتَدِّ وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُحْمَتُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»^(٧). لَفُطَ ابْنُ حِبَّانَ. وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ جَوَازِ تَنَاوُلِ الْمَيْتَةِ أَنْ يَمْضِيَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لَا يَجِدُ طَعَامًا، كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعَوَامِّ وَغَيْرِهِمْ، بَلْ مَتَى اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ جَارَ لَهُ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي وَاقِدِ اللَّيْثِيِّ، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا بِأَرْضِ تَيْمِيمَاتٍ بِهَا الْمُخْمَصَةُ، فَمَتَى تَحِلُّ لَنَا بِهَا الْمَيْتَةُ؟ فَقَالَ: «إِذَا لَمْ تَضْطَهِجُوا، وَلَمْ تَعْتَبِقُوا، وَلَمْ تَحْتَبِئُوا بَقْلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا»^(٨). تَفَرَّدَ بِهِ

(١) الطبري: ٥١٩/٩ (٢) مسلم: ١٣٠/١ (٣) أحمد: ١/٣٨ (٤) فتح الباري: ١٢٩/١ (٥) مسلم: ٢٣١٣/٤ وتحتفة الأحوذني: ٤٠٧/٨ والنسائي: ٢٥١/٥ (٦) فتح الباري: ١/٨ (٧) ابن حبان: ١٨٢/٤ (٨) أحمد: ٢١٨/٥

وَرَوَى عَنْ خَيْثَمَةَ وَطَاوُسٍ وَمُجَاهِدٍ وَمَكْحُولٍ وَيَحْيَى ابْنَ أَبِي كَثِيرٍ نَحْوَ ذَلِكَ^(١). ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَمَا مَا صَادَ مِنَ الطَّيْرِ الْبَارَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ الطَّيْرِ، فَمَا أَدْرَكْتَ فَهُوَ لَكَ، وَإِلَّا فَلَا تَطْعَمُهُ^(٢). قُلْتُ: وَالْمُحْكِيُّ عَنِ الْجُمْهُورِ: إِنَّ الصَّيْدَ بِالطَّيْرِ كَالصَّيْدِ بِالْكِلَابِ، لِأَنَّهُ تَكَلَّبَ الصَّيْدَ بِمَخَالِئِهَا، كَمَا تَكَلَّبُهُ الْكِلَابُ، فَلَا فَرْقَ. كَمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ صَيْدِ الْبَارِي فَقَالَ: «مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَكُلْ»^(٤).

وَسَمَّيْتُ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُضْطَادُّ بِهِنَّ: جَوَارِحَ مِنَ الْجُرْحِ، وَهُوَ الْكَسْبُ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: فَلَانَ جَرَحَ أَهْلُهُ خَيْرًا، أَيْ كَسَبَهُمْ خَيْرًا، وَيَقُولُونَ: فَلَانٌ لَا جَارِحَ لَهُ، أَيْ لَا كَاسِبَ لَهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَيَعْلَمُ مَا جَرَحَهُ بِأَلْسِنَاهِ» [الأنعام: ٦٠] أَيْ مَا كَسَبْتُمْ مِنْ خَيْرٍ وَسُرِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مُكَلَّبِينَ» يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ الضَّمِيرِ فِي «عَلَّمْتُمْ» فَيَكُونَ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمَفْعُولِ، وَهُوَ «الْجَوَارِحُ» أَيْ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ فِي حَالِ كَوْنِهِنَّ مُكَلَّبَاتٍ لِلصَّيْدِ، وَذَلِكَ أَنْ تَقْتَضِيَهُ بِمَخَالِئِهَا أَوْ أَظْفَارِهَا، فَيَسْتَدَلُّ بِذَلِكَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - عَلَى أَنَّ الْجَارِحَ إِذَا قَتَلَ الصَّيْدَ بِصَدْمَتِهِ لَا بِمَخَالِيهِ وَظَفَرِهِ أَنَّهُ لَا يَجِلُّ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ «تَعْلَمُونَهُنَّ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ» وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أُرْسِلَهُ اسْتَرْسَلَ، وَإِذَا أَشْلَاهُ اسْتَشْلَى، وَإِذَا أَخَذَ الصَّيْدَ أَمْسَكَهُ عَلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَجِيءَ إِلَيْهِ، وَلَا يُمْسِكُهُ لِنَفْسِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «كُلُّوا بِمَا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» فَمَتَى كَانَ الْجَارِحُ مُعَلَّمًا، وَأَمْسَكَ عَلَى صَاحِبِهِ، وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَتَ إِزْسَالِهِ، حَلَّ الصَّيْدُ وَإِنْ قَتَلَهُ بِالْإِجْمَاعِ. وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِعَيْثِلِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَارَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرْسِلُ الْكِلَابَ الْمُعَلَّمَةَ وَادْكُرُ اسْمَ اللَّهِ. فَقَالَ: «إِذَا أُرْسَلَتْ كَلَبَكَ

أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحَيْنِ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «مَا لَمْ تَضْطَبِحُوا» يَعْنِي بِهِ الْعَدَاءُ «وَمَا لَمْ تَعْتَبِقُوا» يَعْنِي بِهِ الْعُشَاءُ «أَوْ تَحْتَفِقُوا بَقَلًا فَشَأْنَكُمْ بِهَا» فَكُلُّوا مِنْهَا.

وَقَوْلُهُ: «عَبْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِنِّمِ» أَيْ مُتَعَاظٍ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبَاحَ ذَلِكَ لَهُ، وَسَكَتَ عَنِ الْآخِرِ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: «فَمَنْ أَمْطَرَ عَبْرَ بِنَاحٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [النحل: ١١٥] وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ الْعَاصِيَّ بِسَفَرِهِ لَا يَتَرَحَّصُ بِشَيْءٍ مِنْ رُحْصِ السَّفَرِ، لِأَنَّ الرُّحْصَ لَا تَنَالُ بِالْمَعَاصِي. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ أَنْطَبَيْتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ يَعْلَمُونَهُنَّ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا بِمَا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» [بَيَانُ الْحَلَالِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْخَبَائِثِ الضَّارَّةِ لِمُتَنَاوِلِهَا إِمَّا فِي بَدَنِهِ أَوْ فِي دِينِهِ أَوْ فِيهِمَا، وَاسْتَشَى مَا اسْتَشَنَاهُ فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ» [الأنعام: ١١٩] قَالَ بَعْدَهَا: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ أَنْطَبَيْتُ» كَمَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ يُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الطَّيِّبَاتُ: مَا أَحَلَّ لَهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يُصِيبُوهُ وَهُوَ الْحَلَالُ مِنَ الرِّزْقِ. وَقَدْ سُئِلَ الرَّهْرِيُّ عَنْ شُرْبِ الْبَوْلِ لِلتَّنَادُوِيِّ فَقَالَ: لَيْسَ هُوَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

[حُكْمُ صَيْدِ الْجَوَارِحِ الْمُعَلَّمَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ» أَيْ أُحِلَّ لَكُمْ الذَّبَائِحُ الَّتِي ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا [اضْطَدَّتْهُمُ] بِالْجَوَارِحِ، وَهِيَ الْكِلَابُ وَالنُّهُودُ وَالصُّقُورُ وَأَشْبَاهُهَا، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ. وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ» وَهِنَّ الْكِلَابُ الْمُعَلَّمَةُ، وَالْبَارِي، وَكُلُّ طَيْرٍ يُعَلَّمُ لِلصَّيْدِ. وَالْجَوَارِحُ: يَعْنِي الْكِلَابَ الصَّوَارِي وَالنُّهُودَ وَالصُّقُورَ وَأَشْبَاهَهَا^(١). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، ثُمَّ قَالَ:

(١) الطبري: ٥٤٨/٩ (٢) الطبري: ٥٤٧/٩، ٥٤٨ (٣) الطبري: ٥٤٩/٩ فيه ابن جريج هو ثقة لكنه معروف بالتدليس (٤) الطبري: ٥٥٠/٩ فيه مجالد بن سعيد تغير في آخر عمره ليس بالقوي كما مر وقد انفرد بذكر الباري في هذا الحديث فإن الحفاظ قد رووا هذا الحديث عن الشعبي عن عدي بن حاتم في الكلب المعلم. ولم يذكره الباري.

الْمُعَلَّمِ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ». قُلْتُ: وَإِنْ قَتَلْتَنِي؟ قَالَ: «وَإِنْ قَتَلْتَنِي. مَا لَمْ يَشْرُكْهَا كَلْبٌ لَيْسَ مِنْهَا، فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمَيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تَسْمَعْ عَلَى غَيْرِهِ» قُلْتُ لَهُ: فَإِنِّي أُرْمِي بِالْمِعْرَاضِ الصَّيْدَ فَأُصِيبُ؟ فَقَالَ: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بَعْضُ، فَإِنَّهُ وَقِيدٌ، فَلَا تَأْكُلْهُ»^(١). وَفِي لَفْظٍ لِهَمَّا: «وَإِذَا أُرْسَلْتَ كَلْبُكَ فَادْزُكْرْهُ اسْمَ اللَّهِ، فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَادْرُكْتَهُ حَيًّا فَادْبَحْهُ، وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ، فَإِنْ أَخَذَ الْكَلْبُ ذَكَاتَهُ»^(٢) وَفِي رِوَايَةٍ لِهَمَّا: «فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ»^(٣).

[التَّسْمِيَةُ عَلَى الْجَارِحِ عِنْدَ إِزْسَالِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْزُكْرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ عِنْدَ إِزْسَالِهِ لَهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «إِذَا أُرْسَلْتَ كَلْبُكَ الْمُعَلَّمُ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ»^(٤). وَفِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْمُخَرَّجِ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا «إِذَا أُرْسَلْتَ كَلْبُكَ فَادْزُكْرْ اسْمَ اللَّهِ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ فَادْزُكْرْ اسْمَ اللَّهِ»^(٥). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَادْزُكْرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يَقُولُ: إِذَا أُرْسَلْتَ جَارِحَكَ فَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَإِنْ نَسِيتَ فَلَا حَرَجَ^(٦). وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْأَكْلِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَ رَبِيئَةَ عَمْرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فَقَالَ: «سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِبَيْمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»^(٧). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ قَوْمًا يَأْتُونَنَا - حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ - بِلُحْمَانٍ لَا نَدْرِي أَدْزُكْرُ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَمْ لَا؟ فَقَالَ: «سَمُّوا اللَّهَ أَنْتُمْ وَكُلُوا»^(٨).

﴿الْيَوْمَ أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِلْبَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُؤَنَّبَتِ وَالْمُتَّصِنَتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِلْبَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا عَاتَبْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْجِينَ وَلَا مُنْجِزِي أَحَدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْأَجْرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

[حِلُّ ذَبِيحَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْحَبَائِثِ، وَمَا أَحَلَّهُ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿الْيَوْمَ أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَتِ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ حُكْمَ ذَبَائِحِ أَهْلِ الْكِتَابِينَ، مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَقَالَ: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِلْبَ حِلٌّ لَكُمْ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو أَمَامَةَ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ، وَمَكْحُولٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالشَّدْيِيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: يَعْنِي ذَبَائِحَهُمْ^(٩). وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، أَنَّ ذَبَائِحَهُمْ حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَا يَذْكُرُونَ عَلَى ذَبَائِحِهِمْ إِلَّا اسْمَ اللَّهِ، وَإِنْ اعْتَقَدُوا فِيهِ تَعَالَى مَا هُوَ مُتْرَكٌ عَنْهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْفَلٍ، قَالَ: أَذَلَّنِي بِجِرَابٍ مِنْ شَحْمِ يَوْمٍ خَبِيرَ فَحَصَّشْتُهُ وَقُلْتُ: لَا أُعْطِي الْيَوْمَ مِنْ هَذَا أَحَدًا، وَالتَّتَتْ فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ يَنْتَسِمُ^(١٠). فَاسْتَدَلَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ، عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ تَنَاوُلُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْعَنِيمَةِ، قَبْلَ الْقِسْمَةِ. وَهَذَا ظَاهِرٌ. وَاسْتَدَلَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ الْحَنَفِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَالْحَنَابِلِيُّ، عَلَى أَصْحَابِ مَالِكٍ فِي مَنْعِهِمْ أَكْلَ مَا يَعْتَقِدُ الْيَهُودُ تَحْرِيمَهُ مِنْ ذَبَائِحِهِمْ، كَالشُّحُومِ وَنَحْوِهَا مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ. وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِمُ الْجُمْهُورُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَأَجُودُ مِنْهُ فِي الدَّلَالَةِ، مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ أَهْلَ خَبِيرٍ أَهْدَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَاةً مَضْلِيئَةً، وَقَدْ سَمُّوا ذِرَاعَهَا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ الذَّرَاعُ، فَتَنَاوَلَهُ، فَنَهَسَ مِنْهُ نَهَشَةً، فَأَخْبَرَهُ الذَّرَاعُ أَنَّهُ مَسْمُومٌ، فَلَفَظَهُ، وَأَثَّرَ ذَلِكَ فِي ثَنَائِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَفِي أَبْهَرِهِ، وَأَكَلَ مَعَهُ مِنْهَا بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنُ مَعْرُورٍ فَمَاتَ، فَقَبِلَتْ الْيَهُودِيَّةُ النَّبِيَّ سَمَّتْهَا، وَكَانَ إِسْمُهَا زَيْنَبُ. وَوَجَّهَ الدَّلَالَةَ مِنْهُ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَكْلِهَا وَمَنْ مَعَهُ، وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ هَلْ نَزَعُوا مِنْهَا مَا يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَهُ مِنْ شَحْمِهَا أَمْ لَا؟^(١١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ أَيُّ وَيَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُطْعَمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ، وَلَيْسَ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْحُكْمِ عِنْدَهُمْ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَيْرًا عَمَّا أُبْرِئُوا بِهِ: مِنَ الْأَكْلِ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ، ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، سِوَاءَ كَانَ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ أَوْ غَيْرِهَا. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى. أَيُّ

(١) فتح الباري: ٥٢٧/٩، ومسلم: ١٥٢٩/٣ (٢) فتح الباري: ٥١٣/٩، ومسلم: ١٥٣٠/٣ (٣) فتح الباري: ٥٢٧/٩، ومسلم: ١٥٢٩/٣ (٤) فتح الباري: ٥٢٤/٩ (٥) فتح الباري: ٥٢٧/٩، ومسلم: ١٥٣٢/٣ (٦) الطبري: ٥٧١/٩ (٧) فتح الباري: ٤٣١/٩، ومسلم: ١٥٩٩/٣ (٨) فتح الباري: ٥٥٠/٩ (٩) الطبري: ٥٧٧-٧٣/٩ (١٠) فتح الباري: ٥٥٢/٩ (١١) فتح الباري: ٥٦٩/٧

وَلَكُمْ أَنْ تَطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ كَمَا أَكَلْتُمْ مِنْ ذَبَائِحِهِمْ. وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمُكَافَاةِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالْمُجَازَاةِ، كَمَا أَلْسَنَ النَّبِيُّ ﷺ ثَوْبَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ، حِينَ مَاتَ وَدَفَنَهُ فِيهِ، قَالُوا: لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ كَسَا الْعَبَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ثَوْبَهُ، فَجَازَاهُ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ بِذَلِكَ، فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي فِيهِ: «لَا تَصْحَبُ إِلَّا مُؤِمَّنًا، وَلَا يَأْكُلُ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»^(١) فَمَحْمُولٌ عَلَى التَّدْبِ وَالِاسْتِحْبَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[جَوَازُ نِكَاحِ الْحَرَائِرِ الْعَفَافِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]

وَقَوْلُهُ: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ» أَيُّ وَأَجَلَ لَكُمْ نِكَاحُ الْحَرَائِرِ الْعَفَافِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ. وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَفِيفَاتِ عَنِ الزَّنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى «مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسْلِفِينَ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَحْدَانٍ» [النساء: ٢٥]. وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمَرَ لَا يَرَى التَّزْوِيجَ بِالنِّسْرَانِيَّةِ، وَيَقُولُ: لَا أَعْلَمُ شِرْكًَا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ رَبَّهَا عَيْسَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ»^(٢) [البقرة: ٢٢١].

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْغِفَارِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ» قَالَ فَحُجِرَ النَّاسُ عَنْهُنَّ حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» فَكَفَّحَ النَّاسُ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ تَزَوَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْ نِسَاءِ النَّصَارَى، وَلَمْ يَرَوْا بِذَلِكَ بَأْسًا، أَخَذًا بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» فَجَعَلُوا هَذِهِ مُحْصَصَةً لِيَّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ» [البقرة: ٢٢١] وَهَذَا إِنْ قِيلَ بِدُخُولِ الْكِتَابِيَّاتِ فِي عُمُومِهَا وَإِلَّا فَلَا مُعَارَضَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا، لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ انْفَصَلُوا فِي ذُرِّيَّتِهِمْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى نَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» [البينة: ١] وَكَقَوْلِهِ: «وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا» [آل عمران: ٢٠].

وَقَوْلُهُ: «إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ» أَيُّ مُهُورَهُنَّ. أَيُّ كَمَا هُنَّ مُحْصَنَاتٌ عَفَافَاتٌ فَاذْبُلُوا لَهُنَّ الْمُهُورَ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ. وَقَدْ أَفْتَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَامِرُ الشَّعْبِيُّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هَوَاؤَهُمْ أَوْ اقْرَبِ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ءَوَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: بَانَ الرَّجُلُ إِذَا نَكَحَ امْرَأَةً فَزَنَتْ قَبْلَ دُخُولِهِ بِهَا أَنَّهُ يُفْرَقُ بَيْنَهُمَا. وَتَرَدُّ عَلَيْهِ مَا بَدَلَ لَهَا مِنَ الْمَهْرِ^(٣). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ: «مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسْلِفِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَحْدَانٍ» فَكَمَا شَرَطَ الْإِحْصَانَ فِي النِّسَاءِ، وَهِيَ الْعِفَّةُ عَنِ الزَّنَا، كَذَلِكَ شَرَطَهَا فِي الرِّجَالِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ أَيْضًا مُحْصِنًا عَفِيفًا، وَلِهَذَا قَالَ: «غَيْرِ مُسْلِفِينَ» وَهُمْ الزَّنَاةُ الَّذِينَ لَا يَزِيدُوعُونَ عَنِ مَعْصِيَةِ، وَلَا يَزِدُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَمَّنْ جَاءَهُمْ «وَلَا مُتَّخِذِي أَحْدَانٍ» أَيُّ ذَوِي الْعَشِيقَاتِ الَّذِينَ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا مَعَهُنَّ. كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ - سِوَاءِ - .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ

(١) أبو داود: ١٦٧/٥ (٢) صحيح البخاري (٥٢٨٥) (٣) الطبري: ٥٨٥/٩، ٥٨٦

عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾
[الْأَمْرُ بِالْوُضُوءِ]

قَوْلُهُ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الْآيَةُ أَمْرَةٌ بِالْوُضُوءِ عِنْدَ الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ هُوَ فِي حَقِّ الْمُحَدِّثِ وَاجِبٌ، وَفِي حَقِّ الْمُتَطَهِّرِ نَدْبٌ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْأَمْرَ بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ كَانَ وَاجِبًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بَرِيدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خَفِيهِ، وَصَلَّى الصَّلَاةَ بِوُضُوءِ وَاحِدٍ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ. قَالَ: «إِنِّي عَمِدًا فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ»^(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السَّنَنِ^(٢). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ الْمُشِيرِ، قَالَ: رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُصَلِّي الصَّلَاةَ بِوُضُوءِ وَاحِدٍ، فَإِذَا بَالَ أَوْ أَحَدَثَ، تَوَضَّأَ وَمَسَحَ بِفَضْلِ طَهْرِهِ الْخَفِيِّ. فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَسْئَلُكَ تَضَعُهُ بِرَأْيِكَ؟ قَالَ: بَلْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَضَعُهُ، فَأَنَا أَضَعُهُ كَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَضَعُهُ^(٣). وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ^(٤). وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَرَأَيْتَ وَضُوءَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ لِكُلِّ صَلَاةٍ طَاهِرًا كَانَ أَوْ غَيْرَ طَاهِرٍ، عَمَّنْ هُوَ؟ قَالَ: حَدَّثْتُهُ أَسْمَاءَ بِنْتُ زَيْدِ ابْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَنْظَلَةَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ الْغَسِيلِ، حَدَّثَهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَمْرًا بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ طَاهِرًا كَانَ أَوْ غَيْرَ طَاهِرٍ، فَلَمَّا سَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَمْرًا بِالسُّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَوَضَعَ عَنْهُ الْوُضُوءَ إِلَّا مِنْ حَدِيثٍ. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَرَى أَنَّ بِهِ قُوَّةَ عَلَى ذَلِكَ، كَانَ يَفْعَلُهُ حَتَّى مَاتَ^(٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٦). وَفِي فِعْلِ ابْنِ عُمَرَ هَذَا وَمُدَاوَمَتِهِ عَلَى إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ دَلَالَةٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ ذَلِكَ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ طَعَامًا، فَقَالُوا: أَلَا نَأْتِيكَ بِوُضُوءٍ؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَمُرْتُ بِالْوُضُوءِ إِذَا قُمْتُ إِلَى

الصَّلَاةِ»^(٧). وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ^(٨). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَى الْخَلَاءَ، ثُمَّ إِنَّهُ رَجَعَ فَأَتَانِي بِطَعَامٍ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَتَوَضَّأُ؟ فَقَالَ: «لِمَ؟ أَأَصْلِي فَأَتَوَضَّأُ؟»^(٩).

[النِّيَّةُ وَالنَّسَمِيَّةُ فِي الْوُضُوءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قَدْ اسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ عَلَى وُجُوبِ النِّيَّةِ فِي الْوُضُوءِ، لِأَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ: إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ لَهَا. كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: إِذَا رَأَيْتَ الْأَمِيرَ فَقُمْ، أَيْ لَهُ. وَقَدْ بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثُ: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِيءٍ مَا نَوَى»^(١٠). وَيُسْتَحَبُّ قَبْلَ غَسْلِ الْوَجْهِ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى وَضُوءِهِ، لِمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ طَرِيقِ جَدِّةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(١١). وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَغْسِلَ كَفَّيْهِ قَبْلَ إِدْخَالِهِمَا فِي الْإِنَاءِ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ عِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ النَّوْمِ، لِمَا بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَدْخُلُ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا، فَإِنْ أَحَدُكُمْ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»^(١٢) وَحَدُّ الْوَجْهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ مَا بَيْنَ مَتَابِعِ شَعْرِ الرَّأْسِ - وَلَا اِعْتِبَارَ بِالصَّلَعِ وَلَا بِالْغَمَمِ - إِلَى مُتَهَيِّئِ اللَّحْيَيْنِ وَالذَّقَنِ طَوْلًا، وَمِنَ الْأُذُنِ إِلَى الْأُذُنِ عَرْضًا.

[تَخْلِيلُ اللَّحْيَةِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: رَأَيْتُ عُثْمَانَ يَتَوَضَّأُ...، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، قَالَ: وَخَلَّلَ اللَّحْيَةَ ثَلَاثًا جِئْنَ غَسَلَ وَجْهَهُ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَ الَّذِي رَأَيْتُمْونِي فَعَلْتُ^(١٣). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(١٤).

(١) أحمد: ٣٥٨/٥ (٢) مسلم: ٢٣٢/١ وأبو داود: ١/١٢٠
وتحفة الأحوذى: ١٩٤/١ والنسائي: ٨٦/١ وابن ماجه: ١/١٠٠
١٧٠ (٣) الطبري: ١١/١٠ (٤) ابن ماجه: ١/١٧٠ (٥)
أحمد: ٢٢٥/٥ (٦) أبو داود: ٤١/١ (٧) أبو داود: ٣٦/٤
(٨) تحفة الأحوذى: ٥٧٩/٥ والنسائي: ٨٥/١ (٩) مسلم: ١/٢٨٣
(١٠) فتح الباري: ١/١٥١ ومسلم: ٣/١٥١٥ (١١) أبو داود: ١/٧٥ (١٢) فتح الباري: ١/٣١٦ ومسلم: ١/٢٣٣
(١٣) جامع المسانيد والسنن: ١٩٧/١٧ (١٤) تحفة الأحوذى: ١٣٣/١ وابن ماجه: ١/٤٨٨

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَحَسَنُهُ الْبُخَارِيُّ.

[كَيْفِيَّةُ الْوُضُوءِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَوَضَّأَ فَغَسَلَ وَجْهَهُ: أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَتَمَضَّضَ بِهَا وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً فَجَعَلَ بِهَا هَكَذَا، يَعْنِي أَضَافَهَا إِلَى يَدِهِ الْأُخْرَى، فَغَسَلَ بِهَا وَجْهَهُ، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا يَدَهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا يَدَهُ الْيُسْرَى، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَى رِجْلَيْهِ الْيُمْنَى حَتَّى غَسَلَهَا، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا رِجْلَهُ الْيُسْرَى، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْنِي يَتَوَضَّأُ^(١). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٢).

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَبَانَ، قَالَ: رَأَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ تَوَضَّأَ فَأَفْرَعُ عَلَى يَدَيْهِ ثَلَاثًا، فَغَسَلَهُمَا، ثُمَّ تَمَضَّضَ وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْوُرْقِ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ قَدَمَهُ الْيُمْنَى ثَلَاثًا، ثُمَّ الْيُسْرَى ثَلَاثًا مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٨) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٩). وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عُثْمَانَ فِي صِفَةِ الْوُضُوءِ: وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً^(١٠).

[وَجُوبُ غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ دُونَ الْمَسْحِ]

قَوْلُهُ: ﴿وَأَزَلُّكُمْ إِلَى الْكُفْبَيْنِ﴾ قُرِيءَ ﴿وَأَزَلُّكُمْ﴾ بِالتَّضْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿فَاعْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا ﴿وَأَزَلُّكُمْ﴾ يَقُولُ: رَجَعْتُ إِلَى الْغَسْلِ^(١١). وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَعُرْوَةَ وَعَطَاءَ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنَ وَمُجَاهِدٍ، وَإِبْرَاهِيمَ وَالضَّحَّاكَ، وَالسُّدِّيَّ وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ وَالزُّهْرِيَّ، وَإِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيَّ نَحْوَ ذَلِكَ^(١٢). وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ فِي وَجُوبِ الْغَسْلِ، كَمَا قَالَ السَّلْفُ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ بِالْخَفْضِ عَلَى الْمُجَاوِزَةِ وَتَنَاسُبِ الْكَلَامِ، كَمَا فِي قَوْلِ الْعَرَبِ: جَحْرُ ضَبِّ حَرْبٍ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: (عَلَيْهِمْ نِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) [الإنسان: ٢١] وَهَذَا دَائِعٌ شَائِعٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ شَائِعٌ.

ذَكَرَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةَ فِي غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ

قَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ أَمِيرِي الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَمُعَاوِيَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ عَاصِمٍ وَالْمُقَدَّادِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَسَلَ الرَّجْلَيْنِ فِي وَضُوءِهِ إِمَّا مَرَّةً، وَإِمَّا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، عَلَى اخْتِلَافٍ رَوَايَاتِهِمْ.

(١) أحمد: ٢٦٨/١ (٢) فتح الباري: ٢٩٠/١ (٣) فتح الباري: ٢٨٣/١ ومسلم: ٢١٦/١ (٤) مسلم: ٢١٩/١ (٥) فتح الباري: ٣٤٧/١ ومسلم: ٢١٠/١ (٦) أبو داود: ٨٢/١ (٧) أبو داود: ٨٩، ٨٨/١ (٨) عبد الرزاق: ٤٤/١ (٩) فتح الباري: ٣١١/١ ومسلم: ٢٠٥/١ (١٠) أبو داود: ١/١ (١١) الطبري: ٨٢، ٨٠ (١٢) الطبري: ٥٥/١٠ (١٣) الطبري: ٥٤-٥٧

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُتَوَضِّئِ أَنْ يَشْرَعَ فِي الْعُضُدِ فَيَغْسِلَهُ مَعَ ذِرَاعَيْهِ لِمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيُطِيلْ»^(٣). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يَقُولُ: «تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الْبَاءُ لِلِالْتِّصَاقِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى الْمَازِينِيِّ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ عَاصِمٍ، وَهُوَ جَدُّ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرَبِّيَ كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ: نَعَمْ فَدَعَا بِوُضُوءٍ فَأَفْرَعُ عَلَى يَدَيْهِ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ مَضَّضَ وَاسْتَنْشَقَ ثَلَاثًا، وَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ إِلَى الْوُرْقَيْنِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَذْبَرَ بَدَأَ بِمَقْدَمِ رَأْسِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ رَدَّهُمَا حَتَّى رَجَعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ^(٥). وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ خَيْرٍ عَنْ عَلِيٍّ فِي صِفَةِ وَضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوَ هَذَا^(٦). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ مُعَاوِيَةَ وَالْمُقَدَّامِ ابْنِ مَعْدِيكَرِبٍ فِي صِفَةِ وَضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَهُ^(٧). فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى وَجُوبِ تَكْمِيلِ مَسْحِ جَمِيعِ الرَّأْسِ.

كِتَابِ الْأَحْكَامِ الْكَبِيرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ يُطَهِّرْكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَي لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نِعْمَةً عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ التَّوَسُّعَةِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالسَّنْهِيلِ وَالسَّمَاخَةِ.

[الدُّعَاءُ بَعْدَ الْوُضُوءِ]

وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِالْحَثِّ عَلَى الدُّعَاءِ عَقِبَ الْوُضُوءِ بِأَنْ يَجْعَلَ فَاعِلُهُ مِنَ الْمُطَهَّرِينَ الدَّاخِلِينَ فِي امْتِنَالِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ غَامِرٍ قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبِي فَرَوَّحْتَهَا بِعَيْشِي، فَأَذْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَذْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» قَالَ: قُلْتُ: مَا أَجُودَ هَذَا! فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيْ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجُودُ مِنْهَا، فَظَنَرْتُ فَإِذَا عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جُنْتُ أَنْفًا، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُتْبِغُ - أَوْ فَيَسْبُغُ - الْوُضُوءَ، يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُيْحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(١). لَفْظُ مُسْلِمٍ.

[فَضْلُ الْوُضُوءِ]

وَرَوَى مَالِكٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوْ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَّتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصُّومُ جُنَّةٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا»^(٤). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۖ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَّلُ تَطَّلِعُ عَلَى خَاسِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

صَدَقَهُ مِنْ غُلُولٍ، وَلَا صَلَاةَ بِغَيْرِ طَهْوَرٍ»^(٥).

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٨) وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ

أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

[التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ الرِّسَالَةِ وَالْإِسْلَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا عَبْدَهُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ فِي

(١) أحمد: ١٥٣/٤ ومسلم: ٢٠٩/١ وأبو داود: ١١٨/١

والنسائي: ٩٢/١ وابن ماجه: ١٥٩/١ (٢) الموطأ: ٣٢/١

(٣) مسلم: ٢١٥/١ (٤) مسلم: ٢٠٣/١ (٥) مسلم: ٢٠٤/١

شَرَعِهِ لَهُمْ هَذَا الدِّينَ الْعَظِيمَ وَإِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ، وَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ فِي مُبَايَعَتِهِ عَلَى مُتَابَعَتِهِ وَمُتَاصِرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ، وَالْقِيَامِ بدينِهِ وَإِبْلَاغِهِ عَنْهُ، وَقُبُولِهِ مِنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وُفِّقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وَهَذِهِ هِيَ النِّبْيَةُ الَّتِي كَانُوا يُبَايِعُونَ عَلَيْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ كَمَا قَالُوا: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَأَثَرِهِ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] وَقِيلَ: هَذَا تَذْكَارٌ لِلْيَهُودِ بِمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوَاقِبِ وَالْعُهُودِ فِي مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْإِنْفِاقِ لِشَرِّعِهِ. رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تَأْكِيدٌ وَتَحْرِيزٌ عَلَى مُوَاطَبَةِ التَّقْوَى فِي كُلِّ حَالٍ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَخْتَلِجُ فِي الصَّمَائِرِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

[الْأَمْرُ بِالتَّزَامِ الْعَدْلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُوفُورًا قَوْمِيًّا لِلَّهِ﴾ أَيُّ كُوفُورًا قَوْمِيًّا بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا لِأَجْلِ النَّاسِ وَالسُّمُوعَةِ، وَكُوفُورًا «شَهَادَةً بِالْفُسْطِ» أَيُّ بِالْعَدْلِ لَا بِالْجَوْرِ. وَقَدْ بَتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّهُ قَالَ: نَحَلَنِي أَبِي نُحَلًا، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةَ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَهُ لِيُشْهَدَهُ عَلَى صَدَّقِي، فَقَالَ: «أَكُلْ وَلَدِكَ نَحَلْتُ مِثْلَهُ؟» قَالَ: لَا، فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ». وَقَالَ: «إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرِ» قَالَ: فَرَجَعَ أَبِي فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى آلَا تَعْدِلُوا﴾ أَيُّ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، بَلِ اسْتَعْمَلُوا الْعَدْلَ فِي كُلِّ أَحَدٍ صَدِيقًا كَانَ أَوْ عَدُوًّا، وَلِهَذَا قَالَ «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» أَيُّ عَدْلُكُمْ أَقْرَبُ إِلَى التَّقْوَى مِنْ تَرْكِهِ، وَدَلَّ الْفِعْلُ عَلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي عَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ، كَمَا فِي نَظَائِرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ

التَّضْمِيلِ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي لَيْسَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْهُ شَيْءٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] وَكَقَوْلِ بَعْضِ الصَّحَابِيَّاتِ لِعُمَرَ: أَنْتَ أَفْظُ وَأَعْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢)، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ أَعْمَالِكُمُ الَّتِي عَمِلْتُمُوهَا، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ أَيُّ لِلذُّنُوبِ «وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» وَهُوَ الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، لَا يَتَأَلَوْنَهَا بِأَعْمَالِهِمْ بَلِ بِرَحْمَتِهِ مِنْهُ وَفَضْلِهِ، وَإِنْ كَانَ سَبَبٌ وَصُولِ الرَّحْمَةِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَهُوَ تَعَالَى الَّذِي جَعَلَهَا أَسْبَابًا إِلَى نَيْلِ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ. فَالْكُلُّ مِنْهُ وَلَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَهَذَا مِنْ عَذَابِهِ تَعَالَى، وَحُكْمَتِهِ، وَحُكْمِهِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ، بَلِ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ.

[كَفَّ أَيْدِيَ الْكُفَّارِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَدْرَاكًا فَكَّفَ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾. رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ مِنْزِلًا، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِصَاءِ يَسْتَظِلُّونَ تَحْتَهَا، وَعَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ سِلَاحَهُ بِشَجَرَةٍ، فَجَاءَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَى سَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَسَلَّهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». قَالَ الْأَعْرَابِيُّ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُ». قَالَ: فَشَامَ الْأَعْرَابِيُّ السَّيْفَ، فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ الْأَعْرَابِيِّ، وَهُوَ جَالِسٌ إِلَى جَنْبِهِ، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ. وَقَالَ مَعْمَرٌ: كَانَ فَتَادَهُ يَذْكُرُ نَحْوَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ أَرَادُوا أَنْ يُفَيْكُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلُوا هَذَا الْأَعْرَابِيَّ، وَتَأَوَّلَ: «أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْتَظِلُّوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ» الْآيَةَ^(٣). وَفِصَّةُ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ - وَهُوَ غَوْرُثُ بْنُ الْحَارِثِ - ثَابِتَةٌ فِي الصَّحِيحِ^(٤).

(١) فتح الباري: ٢٥٠/٥، ومسلم: ١٢٤٢/٣ (٢) صحيح

البخاري (٣٦٨٣، ٣٢٩٤، ٦٠٨٥) (٣) عبد الرزاق: ١٨٥/١

(٤) البخاري: ٤١٣٥، ٤١٣٦، ٤١٣٩

وَذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ بَسَّارٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بَنِي النَّضِيرِ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يُلْقُوا عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الرَّحَى، لَمَّا جَاءَهُمْ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ الْعَامِرِيِّينَ، وَوَكَّلُوا عَمْرُو بْنَ جِحَاشِ بْنِ كَعْبٍ بِذَلِكَ، وَأَمَرُوهُ أَنْ جَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَ الْجِدَارِ وَاجْتَمَعُوا عِنْدَهُ أَنْ يُلْقَى تِلْكَ الرَّحَى مِنْ فَوْقِهِ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا تَمَالَوْا عَلَيْهِ، فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يَعْنِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَا أَمَّهُ، وَحَفِظَهُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ وَعَصَمَهُ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَغْدُوَ إِلَيْهِمْ، فَحَاصَرَهُمْ حَتَّى أَنْزَلَهُمْ فَأَجْلَاهُمْ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُمُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحْفَرُونَ الْكُفْرَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَسَوَّأَ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ نَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعَفَّ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١٤﴾

[مِيثَاقُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَعْنَتُهُمْ عَلَى نَقْضِهِ] لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ وَمِيثَاقِهِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِيَامِ بِالْحَقِّ، وَالشَّهَادَةِ بِالْعَدْلِ، وَذَكَرَهُمْ بَعْمَهُ عَلَيْهِمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ فِيمَا هَدَاهُمْ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى، شَرَعَ يَبِينُ لَهُمْ كَيْفَ أَخَذَ الْيَهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِيِّينَ: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، فَلَمَّا نَقَضُوا عَهْدَهُ وَمَوَاقِيقَهُ أَغْقَبَهُمْ ذَلِكَ لَعْنًا مِنْهُ لَهُمْ، وَطَرَدَا عَنْ بَابِهِ وَجَنَابِهِ، وَحِجَابًا لِقُلُوبِهِمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يَعْنِي عُرَفَاءَ عَلَى قَبَائِلِهِمْ بِالْمَبَايَعَةِ وَالسَّمْعِ

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

وَالطَّاعَةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: أَنَّ هَذَا كَانَ لَمَّا تَوَجَّهَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقِتَالِ الْجَبَارِيَّةِ، فَأَمَرَ بِأَنْ يُقِيمَ نَقَبَاءً، مِنْ كُلِّ سِبْطٍ نَقِيبٌ^(١).

[نَقَبَاءُ الْأَنْصَارِ لَيْلَةُ الْعَقَبَةِ] وَهَكَذَا لَمَّا بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَنْصَارَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، كَانَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا: ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ: وَهُمْ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِيرِ، وَسَعْدُ بْنُ خَيْمَةَ، وَرِفَاعَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَيُقَالُ بِدَلَّةٍ: أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَتِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ وَهُمْ: أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَسَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الْعُجْلَانِ، وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَسَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ، وَالْمُنْذَرُ بْنُ عُمَرَ بْنِ [حُثَيْسِ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَدْ ذَكَرَهُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فِي شِعْرِ لَهُ.

(١) الطبري: ١٠/١١٣

كَمَا أوردَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللهُ^(١). وَالْمَقْصُودُ: أَنْ هَؤُلَاءِ كَانُوا عَرَفَاءَ عَلَى قَوْمِهِمْ لِيَلْتَمِذَ عَنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَهُمْ الَّذِينَ وَلُوا الْمُعَاقِدَةَ وَالْمُبَايَعَةَ عَنْ قَوْمِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.

قَتَادَةُ: هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَاعْتَفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ مَسْخُوحَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلْيَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾... الْآيَةُ [التوبة: ٢٩]^(٢).

[مِيثَاقُ النَّصَارَى وَنَسْيَانُهُمْ لَهُ وَتَتَبِعُهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ إِذْعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ نَصَارَى مِثْلَهُمْ﴾ أَيَّ وَمِنَ الَّذِينَ إِذْعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ نَصَارَى مُتَابِعُونَ الْمَسِيحِ ابْنَ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَيْسُوا كَذَلِكَ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمُ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى مُتَابَعَةِ الرُّسُولِ ﷺ، وَمُنَاصَرَتِهِ، وَمُؤَازَرَتِهِ، وَاقْتِفَاءِ آثَارِهِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِكُلِّ نَبِيِّ يُرْسِلُهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَفَعَلُوا كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ، خَالَفُوا الْمَوَاقِيقَ، وَتَقَضُّوا الْعُهُودَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِرُوا بِهِ فَاعْتَرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغِضَاءَ لِمَعْصِيَتِهِمْ بَعْضًا، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ النَّصَارَى عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ لَا يَزَالُونَ مُتَبَاغِضِينَ مُتَعَادِينَ يَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَكُلُّ فِرْقَةٍ تَحْرُمُ الْأُخْرَى، وَلَا تَدْعُهَا تَلِجَ مَعْبَدَهَا، فَالْمَلِكِيَّةُ تُكْفِرُ الْيَعْقُوبِيَّةَ، وَكَذَلِكَ الْأُخْرُونَ، وَكَذَلِكَ النَّسْطُورِيَّةُ وَالْأَرِيوسِيَّةُ، كُلُّ طَائِفَةٍ تُكْفِرُ الْأُخْرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَوْمِ الْأَشْهَادِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِلنَّصَارَى عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُذِبِ عَلَى اللهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، وَمَا نَسَبُوهُ إِلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوقًا كَبِيرًا مِنْ جَعْلِهِمْ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا. تَعَالَى الْوَاجِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أَيَّ بِحِفْظِي وَكَلَامَتِي وَنَصْرِي ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أَيَّ صَدَقْتُمُوهُمْ فِيمَا يَجِيئُونَكُمْ بِهِ مِنْ الْوَحْيِ ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أَيَّ نَصَرْتُمُوهُمْ وَوَارَزْتُمُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وَهُوَ الْإِنْفَاقُ، فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ﴿لَأُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أَيَّ ذُنُوبِكُمْ، أَمْحُوهَا وَأَسْتُرْهَا وَلَا أُوَاجِدْكُمْ بِهَا ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيَّ أَدْفَعُ عَنْكُمْ الْمُحْذَرَّ، وَأُحْصِلَ لَكُمْ الْمَقْصُودَ.

[الْمِيثَاقُ وَتَقْضَاهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ صَدَّى سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أَيَّ فَمَنْ خَالَفَ هَذَا الْمِيثَاقَ بَعْدَ عَقْدِهِ وَتَوَكُّيدِهِ وَشَدْوِهِ، وَجَحَدَهُ وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةً مَنْ لَا يَعْرِفُهُ، فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ، وَعَدَلَّ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عِنْدَ مُحَالَاتِهِمْ مِيثَاقَهُ وَتَقْضِيَتَهُ عَهْدَهُ، فَقَالَ: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ أَيَّ فَيَسَبِّبُ تَقْضِيَتَهُ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ لَعَنَّاهُمْ، أَيَّ أَبْعَدْنَاَهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَطَرَدْنَاَهُمْ عَنِ الْهُدَى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً﴾ أَيَّ فَلَا يَتَعَطَّوْنَ بِمَوْعِظَةٍ لِعَظْمَتِهَا وَقَسَاوَتِهَا ﴿مُحْرِفُونَ أَلِكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أَيَّ فَسَدَتْ فُهُومُهُمْ وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ اللهِ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ، وَحَمَلُوهُ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ، وَقَالُوا عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِرُوا بِهِ﴾ أَيَّ وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ رَغْبَةً عَنْهُ. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مَكْرَهُمْ وَعَدْرَهُمْ لَكَ وَإِلْصَاقَكَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بِذَلِكَ تَمَالُؤُهُمْ عَلَى الْفِتَنِ بِرُسُولِ اللهِ ﷺ^(٣).

﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ كَثِيرًا قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(٤) يَهْدِي بِهِ اللهُ مِنَ النَّحْيِ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٥)

﴿فَاعْتَفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وَهَذَا هُوَ عَيْنُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عَامَلْتَ مِنْ عَصَى اللهِ فَبِئْسَ أَنْ تُطِيعَ اللهُ فِيهِ. وَبِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ تَأْلِيفٌ وَجَمْعٌ عَلَى الْحَقِّ، وَلَعَلَّ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ اللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يَعْنِي بِهِ الصَّفْحَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ. وَقَالَ

(١) ابن هشام: ٨٧، ٨٦/٢ (٢) الطبري: ١٣١/١٠ (٣) الطبري: ١٣٤/١٠

[بَيَانُ الْحَقِّ بِالرُّسُولِ وَالْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَبَيْنَ الْحَقِّ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ: عَرَبِيَهُمْ وَعَجَبِيَهُمْ، أُمِّيَهُمْ وَكِنَانِيَهُمْ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْفُرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أَيِّ بَيِّنٍ مَا بَدَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَأَوَّلُوهُ، وَافْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ فِيهِ، وَيَسْكُتُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا غَيَّرُوهُ وَلَا فَايِدَةَ فِي بَيَانِهِ. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَنْ كَفَرَ بِالرَّجْمِ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. قَوْلُهُ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فَكَانَ الرَّجْمُ مِمَّا أَخْفَوْهُ (١). ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ فَقَالَ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٢) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مِنَ ابْتِغَاءِ رِضْوَانِكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أَيُّ طُرُقِ النَّجَاةِ وَالسَّلَامَةِ وَمَنَاجِحِ الْإِسْقَامَةِ ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَتَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيُّ يُنْجِيهِمْ مِنَ الْمَهَالِكِ، وَيُوضِحُ لَهُمْ أَمِينَ الْمَسَالِكِ، فَيُضْرَفُ عَنْهُمْ الْمُخْذَرُورُ، وَيُحْصَلُ لَهُمْ أَحَبُّ الْأُمُورِ، وَيُنْفِي عَنْهُمْ الضَّلَالَةَ، وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى أَقْوَمِ حَالَةٍ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٤) [شِرْكُ النَّصَارَى وَكُفْرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَحَاكِمًا بِكُفْرِ النَّصَارَى فِي إِدْعَائِهِمْ فِي الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ - وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ - أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا. ثُمَّ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُوا أَذْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُمْ مَلُوكًا وَعَافَاكُمْ مَالَهُمْ يُوتُوا أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَذَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا لِمَوْسَى إِنْ فِيهَا قَوْمٌ مُجْرِبِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِذَاكُمْ غُلِيُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مَوْمِنِينَ (٢٣)

قَالَ مُخْبِرًا عَنِ قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَكُونِهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أَيُّ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْهُ، أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى صَرْفِهِ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ وَمَلِكُهُ وَخَلْقُهُ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَدْلِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمَتَّبِعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِمْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ أَيُّ نَحْنُ مُتَّسِبُونَ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَهُمْ بُنُوهُ، وَلَهُ بِهِمْ

عِنَايَةً، وَهُوَ يُحِبُّنَا. وَتَقَلُّوا عَنْ كِتَابِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِعِبْدِهِ إِسْرَائِيلَ: «أَنْتَ ابْنِي بِكَرِيٍّ» فَحَمَلُوا هَذَا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَحَرَفُوهُ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عَمَلَائِهِمْ وَقَالُوا: هَذَا يُطْلَقُ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّشْرِيفِ وَالِإِكْرَامِ. كَمَا نَقَلَ النَّصَارَى عَنْ كِتَابِهِمْ: أَنَّ عِيسَى قَالَ لَهُمْ: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ، يَعْنِي رَبِّي وَرَبَّكُمْ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبُتُوَّةِ مَا ادَّعَوْهَا فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا مِنْ ذَلِكَ مَعَزَتَهُمْ لَدَيْهِ وَحُظُونَهُمْ عِنْدَهُ، وَلِهَذَا قَالُوا: نَحْنُ أَوْلَادُ اللَّهِ وَأَجْبَاءُؤُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أَي لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَدَّعُونَ أَوْلَادَهُ وَأَجْبَاءَهُ، فَلِمَ أَعَذِّبُكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ عَلَى كُفْرِكُمْ وَكَيْدِكُمْ وَافْتِرَائِكُمْ؟

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أَي لَكُمْ أَسْوَةٌ أَمْثَالِكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ عِبَادِهِ ﴿بَغَيْرِ لِمَنِ يَسَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَسَاءُ﴾ أَي هُوَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَي الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي الْمَرْجِعُ وَالْمَأْتِ بِإِلَيْهِ، فَيَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَسَاءُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ. ﴿يَأْهَلُ الْكُتُبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِأَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، الَّذِي لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ، بَلْ هُوَ الْمُعَقَّبُ لِجَمِيعِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرَّسُولِ﴾ أَي بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ مَا بَيْنَ إِدْسَالِهِ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ هَذِهِ الْفِتْرَةِ كَمْ هِيَ؟ فَقَالَ أَبُو عُمَانَ التَّهْدِيُّ وَقَتَادَةُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: كَانَتْ سِتْمِائَةَ سَنَةٍ^(١). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ^(٢). وَعَنْ قَتَادَةَ: خَمْسِمِائَةَ وَسِتُّونَ سَنَةً^(٣). وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ: خَمْسِمِائَةَ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً^(٤). وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ: سِتْمِائَةَ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَلَا مُتَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْقَائِلَ الْأَوَّلَ أَرَادَ سِتْمِائَةَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةً. وَالْآخَرَ أَرَادَ: قَمَرِيَّةً، وَبَيْنَ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ وَبَيْنَ الْقَمَرِيَّةِ نَحْوَ مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَهْلِ الْكُهْفِ ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ

سِنِينَ وَأَزْدَادُوا سِتْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] أَي قَمَرِيَّةً لِتَكْمِيلِ ثَلَاثِمِائَةِ الشَّمْسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَعْلُومَةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانَتْ الْفِتْرَةُ بَيْنَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ آخِرِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، كَمَا نُبِتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»^(٥).

وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ بُعِثَ بَعْدَ عِيسَى نَبِيٌّ، يُقَالُ لَهُ خَالِدٌ بِنُ سِنَانٍ كَمَا حَكَاهُ الْقَضَاعِيُّ وَغَيْرُهُ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرَّسُولِ، وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وَتَغْيِيرِ الْأَدْيَانِ، وَكَثْرَةِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالتَّيْرَانِ وَالتَّصَلِّبَانِ، فَكَانَتْ النُّعْمَةُ بِهِ أَتَمَّ النِّعَمِ، وَالتَّحَاجَةُ إِلَيْهِ أَمْرٌ عَمَمٌ، فَإِنَّ الْفَسَادَ كَانَ قَدْ عَمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ، وَالتَّطْعِيَانِ وَالْجَهْلُ قَدْ ظَهَرَ فِي سَائِرِ الْعِبَادِ، إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِقِيَائِهِ مِنْ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، مِنْ بَعْضِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَعِبَادِ النَّصَارَى وَالتَّصَابِيئِينَ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارِ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُفَاءً كُلَّهُمْ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتْهُمْ، عَرَبْتَهُمْ وَعَجَمْتَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحْرِقَ قُرَيْشًا فَعَلْتُ: بَارَبِّ إِذْنٍ يَتَلَعَّوْا رَأْسِي، فَيَدْعُوهُ خُبْرَةً، فَقَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ، وَاعْزُهُمْ نَعْرَكَ، وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَنُتَوِّقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا تَبْعَثُ خَمْسَةَ أَمْثَالِهِ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ. وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ مُتَصَدِّقٌ. وَرَجُلٌ رَجِيمٌ رَقِيقٌ الْقَلْبِ بِكُلِّ

(١) البغوي: ٢٣/٢ (٢) فتح الباري: ١٠١/٣٢٤ (٣)

البغوي: ٢٣/٢ (٤) عبد الرزاق: ١٨٦/١ (٥) فتح الباري:

ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ . وَرَجُلٌ غَافِقٌ قَبِيرٌ ذُو عِيَالٍ . وَأَهْلُ النَّارِ حَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا [زَرْبًا] لَهُ : الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ بَيْعٌ - أَوْ تَبَعَاءُ ، شَكَّ بَيْحِي - لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ [الْبُخْلُ] أَوْ الْكَيْدُ «وَالسَّنْظِيرُ الْفَاحِشُ» (١) .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ إيرادِ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ : «وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَجْمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ : «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» (٢) . وَكَانَ الدِّينُ قَدِ التَّسَّ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَهَدَى الْخَلَائِقَ وَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَتَرَكَهُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالشَّرِيعَةِ الْعُرَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أَي لَيْتَلَا نَحْتَجِبُوا وَتَقُولُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ وَعَيَّرُوهُ : مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ وَيُنذِرُ مِنَ الشَّرِّ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ إِنِّي قَادِرٌ عَلَى عِقَابِ مَنْ عَصَانِي ، وَتَوَابِ مَنْ أَطَاعَنِي (٣) .

ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ . وَرَجُلٌ غَافِقٌ قَبِيرٌ ذُو عِيَالٍ . وَأَهْلُ النَّارِ حَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا [زَرْبًا] لَهُ : الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ بَيْعٌ - أَوْ تَبَعَاءُ ، شَكَّ بَيْحِي - لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ [الْبُخْلُ] أَوْ الْكَيْدُ «وَالسَّنْظِيرُ الْفَاحِشُ» (١) .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ إيرادِ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ : «وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَجْمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ : «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» (٢) . وَكَانَ الدِّينُ قَدِ التَّسَّ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَهَدَى الْخَلَائِقَ وَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَتَرَكَهُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالشَّرِيعَةِ الْعُرَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أَي لَيْتَلَا نَحْتَجِبُوا وَتَقُولُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ وَعَيَّرُوهُ : مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ وَيُنذِرُ مِنَ الشَّرِّ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ إِنِّي قَادِرٌ عَلَى عِقَابِ مَنْ عَصَانِي ، وَتَوَابِ مَنْ أَطَاعَنِي (٣) .

عَمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ بِهِ قَوْمُهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالْآيَةَ لَدَيْهِمْ فِي جَمْعِهِ لَهُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْبَارَكُمْ فَنُقَلِبُوا خَسِرِينَ﴾ (١٦) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (١٧) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (١٩) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَجْنِي فَاغْفِرْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٠) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢١)

عَمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ بِهِ قَوْمُهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالْآيَةَ لَدَيْهِمْ فِي جَمْعِهِ لَهُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْبَارَكُمْ فَنُقَلِبُوا خَسِرِينَ﴾ (١٦) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (١٧) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (١٩) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَجْنِي فَاغْفِرْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٠) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢١)

عَمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ بِهِ قَوْمُهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالْآيَةَ لَدَيْهِمْ فِي جَمْعِهِ لَهُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْبَارَكُمْ فَنُقَلِبُوا خَسِرِينَ﴾ (١٦) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (١٧) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (١٩) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَجْنِي فَاغْفِرْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٠) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢١)

عَمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ بِهِ قَوْمُهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالْآيَةَ لَدَيْهِمْ فِي جَمْعِهِ لَهُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْبَارَكُمْ فَنُقَلِبُوا خَسِرِينَ﴾ (١٦) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (١٧) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (١٩) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَجْنِي فَاغْفِرْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٠) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢١)

عَمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ بِهِ قَوْمُهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالْآيَةَ لَدَيْهِمْ فِي جَمْعِهِ لَهُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْبَارَكُمْ فَنُقَلِبُوا خَسِرِينَ﴾ (١٦) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (١٧) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (١٩) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَجْنِي فَاغْفِرْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٠) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢١)

تَذَكِيرُ مُوسَى قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَأَمْرُهُ بِدُخُولِهِمْ فِي الْأَرْضِ الْمَقْدَسَةِ وَتَمَرُدُهُمْ عَلَيْهِ [يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بْنِ

(١) أحمد: ١٦٢/٤ (٢) مسلم: ٢١٩٧/٤ (٣) الطبري: ١٠

وَالْبَيْتُ^(١). وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْمَرْأَةُ وَالْحَادِمُ. **﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾** قَالَ: الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِهِمْ يَوْمَئِذٍ. ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا أَوَّلَ مَنِ اتَّخَذَ الْخُدْمَ^(٣).

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَاوِي فِي جَسَدِهِ، أَمِنَا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ، فَكَأَنَّمَا حَبِزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَائِيرِهَا»^(٤).

وَقَوْلُهُ: **﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾** يَعْنِي عَالِمِي زَمَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْرَفَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ مِّنَ الْيُونَانِ وَالْقَبْطِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ بَنِي آدَمَ، كَمَا قَالَ: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ وَرَفَقْنَاهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** [الجاثية: ١٦] وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى لَمَّا قَالُوا: **﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾** [١٧٨] إِنَّ هَذَا مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٥) قَالَ آخِرَ اللَّهِ أَيْبَيْكُمْ لِنَهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠] وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَفْضَلَ زَمَانِهِمْ، وَإِلَّا فَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفُ مِنْهُمْ، وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَكْمَلُ شَرِيعَةً، وَأَقْوَمُ مِنْهَاجًا، وَأَكْرَمُ نَبِيًّا، وَأَعْظَمُ مُلْكًا، وَأَعَزُّ أَرْزَاقًا، وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، وَأَوْسَعُ مَمْلَكَةً، وَأَدْوَمُ عِزًّا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾** [البقرة: ١٤٣]، وَقَدْ ذَكَرْنَا الْأَحَادِيثَ الْمُتَوَاتِرَةَ فِي فَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَشَرَفِهَا وَكَرَمِهَا عِنْدَ اللَّهِ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾** [آل عمران: ١١٠] مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَحْرِيفِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْجِهَادِ وَالِدُخُولِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيهِمْ فِي زَمَانِ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ، لَمَّا ارْتَحَلَ هُوَ وَنَبُوهُ وَأَهْلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ لَمَّ يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى، فَوَجَدُوا فِيهَا قَوْمًا مِّنَ الْعَمَالِقَةِ الْجَبَّارِينَ قَدِ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا وَتَمَلَّكُوهَا، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالدُّخُولِ إِلَيْهَا، وَيُقَاتِلِ أَعْدَائِهِمْ، وَبَسِّرَهُمْ بِالنُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ، فَكَلَمُوا وَعَصَوْا وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، فَعُوقِبُوا بِالذَّهَابِ فِي النَّبِيِّ، وَالتَّمَادِي فِي سَيْرِهِمْ حَارِثِينَ، لَا يَذُرُونَ كَيْفَ يَتَوَجَّهُونَ فِيهِ إِلَى مَقْصِدِهِ، مَدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى تَفْرِيطِهِمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ

تَعَالَى. فَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ: **﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾** أَيِ الْمُطَهَّرَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** أَيِ الَّتِي وَعَدَكُمْوهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِ أَبِيكُمْ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ وَرَآئَهُ مَنَ آمَنَ مِنْكُمْ **﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَى آذَانِكُمْ﴾** أَيِ وَلَا تَتَكَلَّمُوا عَنِ الْجِهَادِ **﴿فَتَنَقِلُوا خِيسِرِينَ﴾** [١١] قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنَّا فَإِنَّا دَاخِلُونَ **﴿أَيِ اعْتَدَرُوا بِأَنَّ فِي هَذِهِ الْبُلْدَةِ الَّتِي أَمَرْنَا بِدُخُولِهَا وَقِتَالِ أَهْلِهَا، قَوْمًا جَبَّارِينَ، أَيِ ذَوِي خَلْقٍ هَائِلَةٍ، وَقُوَى شَدِيدَةٍ، وَإِنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى مَقَاوِمَتِهِمْ وَلَا مُصَاوَلَتِهِمْ، وَلَا يُسْجِنُنَا الدُّخُولُ إِلَيْهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا دَخَلْنَاهَا، وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ﴾**

[خُطْبَةُ يُوسُفَ وَكَالِبِ عَنِ الْجِهَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾** أَيِ فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِ اللَّهِ مُوسَى ﷺ، حَرَضَهُمُ رَجُلَانِ لِلَّهِ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ أَمْرَ اللَّهِ وَيَخْشَى عِقَابَهُ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ). أَيِ مِمَّنْ لَهُمْ مَهَابَةٌ وَمَوْضِعٌ مِنَ النَّاسِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُمَا يُوشِعُ بَنُ نُونٍ، وَكَالِبُ بْنُ يُوفِنَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكرِمَةُ، وَعَظِيئَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِّنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ^(٦). فَقَالَا: **﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾** إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ **﴿أَيِ إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرَهُ، وَوَأَقْبَلْتُمْ رَسُولَهُ، نَصَرَكُمُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَأَيَّدَكُمُ وَظَفَرَكُمُ بِهِمْ، وَدَخَلْتُمُ الْبُلْدَةَ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَكُمْ، فَلَمْ يَنْفَعِ ذَاكَ فِيهِمْ شَيْئًا﴾** قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَآذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَحْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ **﴿وَهَذَا نَكُولُ مِنْهُمْ عَنِ الْجِهَادِ، وَمُخَالَفَةِ لِرَسُولِهِمْ، وَتَخَلُّفَ عَنْ مَقَاتِلَةِ الْأَعْدَاءِ﴾**

[حُسْنُ جَوَابِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ بَدْرٍ]

وَمَا أَحْسَنَ مَا أَجَابَ بِهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جِئِنِ اسْتَشَارَهُمْ فِي قِتَالِ النَّبِيِّ، الَّذِينَ جَاؤُوا لِمَنْعِ الْعِيرِ، الَّذِي كَانَ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ،

(١) عبد الرزاق: ١٨٧/١ (٢) الحاكم: ٣١٢/٢ (٣) الطبري: ١٠/١٦٣ (٤) الترمذي: ٢٣٤٦ (٥) الطبري: ١٠/١٧٨-١٧٦

عَبَّاسٍ^(٥). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ: اِفْضُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ^(٦). وَقَالَ غَيْرُهُ: اُفْرُقْ: اِفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.

[تَحْرِيمُ دُخُولِ الْيَهُودِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُوتُ فِي الْأَرْضِ﴾... الْآيَةَ، لَمَّا دَعَا عَلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ حَكَمَ اللَّهُ بِتَحْرِيمِ دُخُولِهَا عَلَيْهِمْ مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَوَقَعُوا فِي التَّيِّهِ يَسِيرُونَ دَائِمًا، لَا يَهْتَدُونَ لِلخُرُوجِ مِنْهُ، وَفِيهِ كَانَتْ أُمُورٌ عَجِيبَةٌ، وَخَوَارِقُ كَثِيرَةٌ مِنْ تَطْلِيلِهِمْ بِالْعَمَامِ، وَإِنزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ، وَمِنْ إِخْرَاجِ الْمَاءِ الْجَارِي مِنْ صَخْرَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَيْدَى اللَّهُ بِهَا مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ. وَهُنَاكَ نَزَلَتْ التَّوْرَةُ، وَشُرِعَتْ لَهُمُ الْأَحْكَامُ، وَعُمِلَتْ قُبَّةُ الْعَهْدِ وَيُقَالُ لَهَا: قُبَّةُ الزَّمَانِ.

[فَتْحُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ مَنْصُوبٌ بِقَوْلِهِ ﴿يَتِيهُوتُ فِي الْأَرْضِ﴾ فَلَمَّا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ، خَرَجَ بِهِمْ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ بِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وَبِسَائِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْجِيلِ الثَّانِي، فَقَصَدَ بِهِمْ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ فَحَاصَرَهَا، فَكَانَ فَتْحُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَلَمَّا تَضَيَّقَتْ الشَّمْسُ لِلغُرُوبِ وَخَشِيَ دُخُولَ السَّبْتِ عَلَيْهِمْ، قَالَ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ. فَحَبَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى فَتَحَهَا، وَأَمَرَ اللَّهُ يَوْشَعَ بْنَ نُونٍ، أَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ يَدْخُلُونَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، أَنْ يَدْخُلُوا بِأَبْهَا سُجْدًا، وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ، أَيُّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا. فَبَدَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، وَدَخَلُوا يَرْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا كُلُّهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُوتُ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: فَتَاهُوا أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ: فَهَلْكَ مُوسَى وَهَارُونَ فِي التَّيِّهِ، وَكُلُّ مَنْ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا مَضَتْ الْأَرْبَعُونَ سَنَةً، نَاهَضَهُمْ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ، وَهُوَ

فَلَمَّا فَاتَ إِفْتِنَاصُ الْعِيرِ، وَاقْتَرَبَ مِنْهُمْ النَّيِّرُ، وَهُمْ فِي جَمْعٍ مَا بَيْنَ التَّسْعِمَائَةِ إِلَى الْأَلْفِ فِي الْعُدَّةِ، وَالْبَيْضِ وَاللَّيْلِ، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ تَكَلَّمَ مَنْ تَكَلَّمَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ» وَمَا يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا لِيَسْتَعْلِمَ مَا عِنْدَ الْأَنْصَارِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا جُمُهورَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: كَأَنَّكَ تُعَرِّضُ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَاللَّيِّ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ، فَخَضْتَهُ لَخَضَانَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَرَهُ أَنْ تَلْفِي بِنَا عُدُونًا عَدَا، إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللَّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَيَسِّرْ بِنَا عَلَيَّ بِرَكَّةِ اللَّهِ، فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ سَعْدٌ وَتَشَطَّهَ ذَلِكَ^(١).

وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْذُوبٍ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا سَارَ إِلَى بَدْرِ اسْتَشَارَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّا كُمْ يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: إِذَا لَا نَقُولُ لَهُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَيَلَّا إِنَّا هَهُنَا قَعُدُونَ﴾ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لَوْ صَرَبْتَ أَكْبَادَهَا إِلَى بِرِّكَ الْعِمَادِ لَاتَبَعْنَاكَ. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَرَوَاهُ ابْنُ جَبَانَ^(٢).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي الْمَعَاذِي وَفِي التَّفْسِيرِ مِنْ طُرُقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَلَفْظُهُ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ قَالَ: قَالَ الْمُقَدِّدُ يَوْمَ بَدْرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَيَلَّا إِنَّا هَهُنَا قَعُدُونَ﴾ وَلَكِنْ امْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ. فَكَأَنَّهُ سَرِيٌّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٣).

[دُعَاءُ مُوسَى عَلَى الْيَهُودِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يَعْنِي لَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ الْقِتَالِ غَضِبَ عَلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ دَاعِيًا عَلَيْهِمْ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أَيُّ لَيْسَ أَحَدٌ يُطِيعُنِي مِنْهُمْ فَيَمْتَلِ أَمْرَ اللَّهِ وَيُجِيبَ إِلَى مَا دَعَوْتُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَا وَأَخِي هَارُونَ ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي اِفْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ^(٤). وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ

(١) البداية والنهاية: ٣/٢٦٢ (٢) أحمد: ١٠٥/٣ والنسائي في

الكبرى: ٦/٣٣٤ وابن حبان: ١٠٩/٧ (٣) البخاري: ٤٦٠٩

(٤) الطبري: ١٠/١٨٨ (٥) الطبري: ١٠/١٨٩ (٦) الطبري:

بِأَسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾
 إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ
 جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ
 مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ
 كَيْفَ يُؤَدِّي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَدِّيهِ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾
 هَذَا الْقُرْآنُ فَؤَادِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾
 [قِصَّةُ هَابِيلَ وَقَابِيلَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبِينًا وَخِيمًا عَاقِبَةَ الْبُغْيِ وَالْحَسَدِ وَالظُّلْمِ،
 فِي خَبَرِ ابْنِي آدَمَ لِصُلْبِهِ وَهَمَّا قَابِيلَ وَهَابِيلَ كَيْفَ عَدَا
 أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرَ فَقَتَلَهُ، بَغْيًا عَلَيْهِ وَحَسَدًا لَهُ فِيمَا وَهَبَهُ
 اللَّهُ مِنَ النِّعْمَةِ، وَتَقَبَّلَ الْقُرْبَانَ الَّذِي أَخْلَصَ فِيهِ لِلَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ، فَفَارَزَ الْمُقْبُولُ بِوَضْعِ الْأَتَامِ وَالِدُخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ،
 وَخَابَ الْقَائِلُ وَرَجَعَ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أَي أَفْضَصُ
 عَلَى هَؤُلَاءِ الْبُعَاةِ الْحَسَدَةَ، إِخْوَانَ الْخَنَازِيرِ وَالْقَرَدَةِ، مِنَ
 الْيَهُودِ وَأُمَّتَالِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ، خَبَرَ ابْنِي آدَمَ، وَهَمَّا هَابِيلَ
 وَقَابِيلَ، فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَي عَلَى الْجَلِيلَةِ وَالْأَمْرِ الَّذِي لَا يُبْسَ
 فِيهِ وَلَا كَدِبَ، وَلَا وَهْمَ وَلَا تَبْدِيلَ، وَلَا زِيَادَةَ وَلَا
 نُقْصَانَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ﴾ [آل
 عمران: ٦٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَحْنُ نَفْصُ عَلَيَّكَ تَبَاهُمُ
 بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] وَقَالَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ
 الْحَقِّ﴾ [مریم: ٣٤]، وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِمَا فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ
 وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ لِآدَمَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، أَنْ يُزَوِّجَ بَنَاتَهُ مِنْ بَنِيهِ لِضُرُورَةِ الْحَالِ، وَلَكِنْ
 قَالُوا: كَانَ يُؤَلِّدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، فَكَانَ يُزَوِّجُ
 أَنْثَى هَذَا الْبَطْنِ لِذَكَرِ الْبَطْنِ الْآخَرَ، وَكَانَتْ أُخْتُ هَابِيلَ
 دَمِيمَةً، وَأُخْتُ قَابِيلَ وَصِيْبَةً، فَأَرَادَ أَنْ يُسْتَأْذِنَ بِهَا عَلَى
 أَخِيهِ، فَأَبَى آدَمُ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يُقَرِّبَا قُرْبَانًا، فَمَنْ تَقَبَّلَ مِنْهُ
 فِيهِ لَهُ، فَتَقَبَّلَ مِنْ هَابِيلَ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ قَابِيلَ، فَكَانَ مِنْ
 أَمْرِهِمَا مَا قَصَّه اللَّهُ فِي كِتَابِهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: نُهِيَ أَنْ
 تُنْكِحَ الْمَرْأَةُ أَخَاهَا تَوَامَهَا، وَأَمَرَ أَنْ يُنْكِحَهَا غَيْرُهُ مِنْ
 إِخْوَتِهَا، وَكَانَ يُؤَلِّدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ رَجُلًا وَامْرَأَةً، فَبَيْنَمَا هُمُ

الَّذِي قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَ مُوسَى، وَهُوَ الَّذِي افْتَتَحَهَا (١).
 وَهُوَ الَّذِي قِيلَ لَهُ: «الْيَوْمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ». فَهَمُّوا بِافْتِتَاحِهَا
 وَدَنَتِ السَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، فَخَشِيَ أَنْ دَخَلَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ
 أَنْ يَسْبُتُوا، فَنادَى السَّمْسُ: إِنِّي مَأْمُورٌ، وَإِنَّكَ مَأْمُورَةٌ،
 فَوَقَفَتْ حَتَّى افْتَتَحَهَا، فَوَجَدَ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَمْ يَرِ
 مِثْلَهُ قَطُّ، فَقَرَّبُوهُ إِلَى النَّارِ فَلَمْ تَأْتِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ
 الْعُغْلُولُ، فَدَعَا رُؤُوسَ الْأَشْبَاطِ وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا
 فَبَايَعَهُمْ، وَالتَّصَفَّتْ يَدُ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِيَدِهِ فَقَالَ: الْعُغْلُولُ
 عِنْدَكَ فَأَخْرَجَهُ، فَأَخْرَجَ رَأْسَ بَقْرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ لَهَا عَنَانٌ
 مِنْ يَاقُوتٍ وَأَسْنَانٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ فَوَضَعَهُ مَعَ الْقُرْبَانِ، فَأَتَتْ
 النَّارُ فَأَكَلَتْهُ. وَهَذَا السِّيَاقُ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ.

[تَسْلِيَةُ اللَّهِ لِمُوسَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تَسْلِيَةٌ
 لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُمْ، أَي لَا تَأْسَفْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
 فِيمَا حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِهِ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ
 الْقِصَّةُ تَضَمَّتْ تَفْرِيعَ الْيَهُودِ، وَبَيَانَ فَضَائِحِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ
 لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَتُكْلُوبِهِمْ عَنْ طَاعَتَيْهِمَا فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ
 الْجِهَادِ، فَضَعَفَتْ أَنْفُسُهُمْ عَنْ مُصَابِرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ
 وَمُقَاتَلَتِهِمْ، مَعَ أَنَّ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَلِيمَهُ
 وَصَفِيَّهُ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُوَ يَعِدُهُمْ بِالنَّصْرِ
 وَالظَّفْرِ بِأَعْدَائِهِمْ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بَعْدُوهُمْ
 فِزَعُونَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْغَرَقِ لَهُ وَلِجُنُودِهِ فِي الْبَيْتِ
 وَهُمْ يَنْظُرُونَ، لِيَقَرَّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ، ثُمَّ
 يَنْكَلُونَ عَنْ مُقَاتَلَةِ أَهْلِ بَلَدِهِ هَبِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ لَا
 تُوَارِي عَشَرَ الْمُعْشَارِ فِي عُدَّةِ أَهْلِهَا وَعَدِيدِهِمْ، فَظَهَرَتْ
 قَبَائِحُ صَنِيعِهِمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَافْتَضَحُوا فَضِيحَةً لَا
 يُعْطِيهَا اللَّيْلُ، وَلَا يَسْتُرُهَا اللَّذِيْلُ، هَذَا وَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ
 يَعْهَهُونَ، وَفِي عَيْهِمْ يَبْرَدُونَ، وَهُمْ الْبُخَصَاءُ إِلَى اللَّهِ
 وَأَعْدَاؤُهُ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ،
 فَصَبَحَ اللَّهُ وَجُوهَهُمُ الَّتِي مُسِخَ مِنْهَا الْخَنَازِيرُ وَالْقُرُودُ،
 وَالزَّمَهُمْ لَعْنَةً تَضَحُّهُمْ إِلَى النَّارِ ذَاتَ الْوُقُودِ، وَيَقْضِي لَهُمْ
 فِيهَا بِتَأْيِيدِ الْخُلُودِ، وَقَدْ فَعَلَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي جَمِيعِ
 الْوُجُودِ.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَمَثَّلَ
 مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا
 يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٢٧] لِيُنْ بَسَطَتْ لِيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا

كَذَلِكَ إِذْ وُلِدَ لَهُ امْرَأَةٌ وَضِيئَةٌ، وَوُلِدَ لَهُ أُخْرَى قَبِيحَةٌ دَمِيمَةٌ، فَقَالَ أَخُو الدَّمِيمَةِ: أَنْجَحْنِي أَخْتَكَ وَأُنْجِحْكَ أُخْتِي، فَقَالَ لَا، أَنَا أَحَقُّ بِأُخْتِي، فَقَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ صَاحِبِ الْكُفْسِ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ صَاحِبِ الزَّرْعِ، فَتَقَلَّتْهُ^(١). إسنَادٌ جَيِّدٌ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أَي مِمَّنِ اتَّقَى اللَّهَ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: لَأَنْ أُسْتَيْفَنَ أَنْ اللَّهَ قَدْ تَقَبَّلَ لِي صَلَاةً وَاحِدَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْنَ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ أَي تَقَبَّلَ اللَّهُ قُرْبَانَهُ لِتَقْوَاهُ، جَبَنَ تَوَعَّدَهُ أَخُوهُ بِالْقَتْلِ عَلَى غَيْرِ مَا ذَنَبَ مِنْهُ إِلَيْهِ ﴿لَيْنَ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ أَي لَا أَقْبَلُكَ عَلَى صَنِيعِكَ الْفَاسِدِ بِمِثْلِهِ فَكُونَ أَنَا وَأَنْتَ سَوَاءٌ فِي الْحَطِيئَةِ ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي مِنْ أَنْ أَضَعَّ كَمَا تُرِيدُ أَنْ تَضَعَّ، بَلْ أَضْبِرُّ وَأَحْتَسِبُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: وَإِنَّمِ اللَّهُ إِنْ كَانَ لِأَشَدِّ الرَّجُلَيْنِ، وَلَكِنْ مَنَعَهُ التَّحَرُّجُ، يَعْنِي الْوَرَعَ. وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا تَوَاجَعَ الْمُسْلِمَانِ بِسِنْفَيْهِمَا، فَأَلْقَايِلَ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا الْفَائِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ عِنْدَ فِئْتِهِ عُثْمَانَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِئْتَهُ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي» قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ لِتَقْتُلَنِي؟ فَقَالَ: «كُنْ كَابِنِ آدَمَ»^(٣). وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ وَأَبِي بَكْرٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَقِيدٍ وَأَبِي مُوسَى وَخَرَشَةَ^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَتَنَادَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أَي بِإِثْمِ قَتْلِي وَإِثْمِكَ الَّذِي عَلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَي فَحَسَنَتْ وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ، وَسَجَّعَتْهُ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، أَي بَعْدَ هَذِهِ

الْمَوْعِظَةِ وَهَذَا الرَّجْرُ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ جَعَلَ يَلْوِي عُنُقَهُ، فَأَخَذَ إِبْلِيسُ دَابَّةً وَوَضَعَ رَأْسَهَا عَلَى حَجَرٍ، ثُمَّ أَخَذَ حَجْرًا آخَرَ فَضَرَبَ بِهِ رَأْسَهَا حَتَّى قَتَلَهَا، وَابْنُ آدَمَ يَنْظُرُ، فَفَعَلَ بِأَخِيهِ مِثْلَ ذَلِكَ^(٦). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَخَذَ بِرَأْسِهِ لِيَقْتُلَهُ فَاضْطَجَعَ لَهُ، وَجَعَلَ يَغْمُزُ رَأْسَهُ وَعِظَامَهُ وَلَا يَدْرِي كَيْفَ يَقْتُلُهُ، فَجَاءَهُ إِبْلِيسُ فَقَالَ: أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَخَذَ هَذِهِ الصَّخْرَةَ فَاطْرَحَهَا عَلَى رَأْسِهِ، قَالَ: فَأَخَذَهَا فَأَلْقَاهَا عَلَيْهِ فَشَدِخَ رَأْسَهُ، ثُمَّ جَاءَ إِبْلِيسُ إِلَى حَوَاءَ مُسْرِعًا فَقَالَ: يَا حَوَاءُ، إِنَّ قَابِيلَ قَتَلَ هَابِيلَ، فَقَالَتْ لَهُ: وَنَحَكَ! وَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ الْقَتْلُ؟ قَالَ: لَا يَأْكُلُ وَلَا يَسْرُبُ وَلَا يَبْحَرُكُ، قَالَتْ: ذَلِكَ الْمَوْتُ. قَالَ: فَهُوَ الْمَوْتُ، فَجَعَلَتْ تَصِيحُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا آدَمُ وَهِيَ تَصِيحُ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَلَمْ تُكَلِّمَهُ، فَوَجَّعَ إِلَيْهَا مَرَّتَيْنِ فَلَمْ تُكَلِّمَهُ فَقَالَ: عَلَيْكَ الصَّيْحَةُ وَعَلَى بَنَاتِكَ، وَأَنَا وَبَنَاتِي مِنْهَا بَرَاءٌ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ؟ وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقْتُلْ نَفْسَ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(٨). وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى أَبِي دَاوُدَ^(٩). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ أَسْقَى النَّاسِ رَجُلًا لَا بِنَ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ، مَا سُفِكَ دَمٌ فِي الْأَرْضِ مِنْذُ قَتَلَ أَخَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا لِحَقِّ بِهِ مِنْهُ شَرٌّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ^(١٠).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ﴾ (١) الطبري: ٢٢٣/١٠ (٢) فتح الباري: ٣٥/١٣ ومسلم: ٤/٢٢١٤ (٣) أحمد: ١٨٥/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٤٣٦/٦ (٥) الطبري: ٢١٦، ٢١٥/١٠ (٦) الطبري: ٥٣٦/٤ (٧) عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف وهذا الحديث رواه عبدالرحمن بن زيد عن أبيه [تقريب] وقال الإمام أبو عبدالله الحاكم روى عن أبيه أحاديث موضوعة [المدخل إلى الصحيح] (٨) أحمد: ٣٨٣/١ (٩) فتح الباري: ١٩٨/١٢ ومسلم: ٣/١٣٠٣ وتحفة الأحوذى: ٤٣٦/٧ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٣٤ وابن ماجه: ٨٧٣/٢ (١٠) الطبري: ٢١٩/١٠ فيه محمد بن إسحاق وهو مدلس لم يصرح بالسماع وشيخه حكيم بن حكيم بن عباد بن ضيف مختلف فيه

كَيْفَ يُورَى سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتَلَقَّ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ السُّدِّيُّ بِإِسْنَادِهِ الْمُتَقَدِّمِ إِلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: لَمَّا مَاتَ الْغُلَامُ تَرَكَهُ بِالْعَرَاءِ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ يَدْفُنُ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابَيْنِ أَحْوَجَيْنِ فَاقْتَتَلَا، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَحَفَرَ لَهُ، ثُمَّ حَتَّى عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: ﴿يُوتَلَقَّ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوْءَ أَخِي﴾^(١). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ غُرَابٌ إِلَى غُرَابٍ مَيْتٍ، فَحَتَّى عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ حَتَّى وَارَاهُ، فَقَالَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ: ﴿يُوتَلَقَّ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوْءَ أَخِي﴾^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: عَلَاهُ اللَّهُ بِنَدَامَةٍ بَعْدَ خُسْرَانٍ.

[تَعْجِيلُ عَقُوبَةِ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ]
وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عِقَابَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(٣). وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي فِعْلِ قَابِلٍ هَذَا وَهَذَا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

﴿وَمَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَعْزِي نَفْسًا أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثُرُوا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾ يَتَائِبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَاتَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْقَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أَي حَرَّمَ قَتْلَهَا وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ، فَقَدْ سَلِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وَقَالَ الْأَعْمَشُ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُثْمَانَ يَوْمَ الدَّارِ فَقُلْتُ: جِئْتُ لِأَنْصُرَكَ، وَقَدْ طَابَ الضَّرْبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَيَسْرُكَ أَنْ تَقْتُلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَإِنِّي مَعَهُمْ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَ رَجُلًا وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قَتَلْتَ النَّاسَ جَمِيعًا، فَانصُرْ مَا دُونَنَا لَكَ مَا جُورًا غَيْرَ مَا زُورٍ، قَالَ: فَانصُرْتُ وَلَمْ أَقَاتِلْ.^(٤)

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَعْزِي نَفْسًا أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وَإِحْيَاؤُهَا أَلَّا يَقْتُلَ نَفْسًا حَرَّمَهَا اللَّهُ،

(١) الطبري: ١٠/٢٢٥ (٢) الطبري: ١٠/٢٢٦ (٣) أبو داود: ٢٠٨/٥ (٤) [الطبقات لابن سعد ٣/٥١] فيه الأعمش سلمان ابن مهران ثقة حافظ لكنه يدللس ولم يصرح

يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَرِمَ الْإِنْسَانَ]

يَقُولُ تَعَالَى: مِنْ أَجْلِ قَتْلِ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ ظَلَمًا وَعُدْوَانًا ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَي شَرَعْنَا لَهُمْ وَأَعْلَمْنَاهُمْ ﴿أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَعْزِي نَفْسًا أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أَي مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَعْزِي سَبَبٍ مِنْ فِصَاصٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَاسْتَحَلَّ قَتْلَهَا بِلا سَبَبٍ وَلَا جِنَايَةٍ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ نَفْسٍ وَنَفْسٍ

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: عَلَاهُ اللَّهُ بِنَدَامَةٍ بَعْدَ خُسْرَانٍ.

[تَعْجِيلُ عَقُوبَةِ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ]
وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عِقَابَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(٣). وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي فِعْلِ قَابِلٍ هَذَا وَهَذَا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

﴿وَمَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَعْزِي نَفْسًا أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثُرُوا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

[يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَرِمَ الْإِنْسَانَ]
يَقُولُ تَعَالَى: مِنْ أَجْلِ قَتْلِ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ ظَلَمًا وَعُدْوَانًا ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَي شَرَعْنَا لَهُمْ وَأَعْلَمْنَاهُمْ ﴿أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَعْزِي نَفْسًا أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أَي مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَعْزِي سَبَبٍ مِنْ فِصَاصٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَاسْتَحَلَّ قَتْلَهَا بِلا سَبَبٍ وَلَا جِنَايَةٍ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ نَفْسٍ وَنَفْسٍ

فَذَلِكَ الَّذِي أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، يُعْنِي أَنَّهُ مِنْ حَرَمٍ قَتَلَهَا إِلَّا بِحَقٍّ، حَيَّيَ النَّاسُ مِنْهُ^(١). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: «وَمَنْ أَحْيَاهَا» أَي كَفَّ عَنْ قَتْلِهَا^(٢).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا»، يَقُولُ: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا وَاحِدَةً حَرَمَهَا اللَّهُ فَهُوَ مِثْلُ مَنْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا^(٣). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَنْ اسْتَحَلَّ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَحَلَّ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا، وَمَنْ حَرَّمَ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» مَنْ قَتَلَ النَّفْسَ الْمُؤْمِنَةَ مُتَعَمِّدًا، جَعَلَ اللَّهُ جَزَاءَهُ جَهَنَّمَ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا، يَقُولُ: لَوْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا لَمْ يَزِدْ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْعَذَابِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ مُجَاهِدٌ: «وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» قَالَ: مَنْ لَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا فَقَدْ حَيَّيَ النَّاسَ مِنْهُ^(٤).

[تَهْدِيدُ الْمُشْرِكِينَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أَي بِالْحُجَجِ وَالْبُرَاهِينِ وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ «ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُشْرِكُونَ» وَهَذَا تَفْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى ارْتِكَابِهِمْ الْمُحَارِمَ بَعْدَ عَلَيْهِمْ بِهَا، كَمَا كَانَتْ بَنُو فَرِيطَةَ وَالنَّضِيرُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ بَنِي قَيْنِقَاعٍ مِمَّنْ حَوَّلَ الْمَدِينَةَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْحُرُوبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتْ الْحُرُوبُ أوزَارَهَا. فَدَاؤُ مِنْ أَسْرُوهُ، وَوَدَاؤُ مِنْ قَتْلُوهُ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ حَيْثُ يَقُولُ: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ ثُمَّ أَفْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ فَتُظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَةِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْكَرَى فَتَنْدَرُهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِمْ أَسْدُ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

[جَزَاءُ الْمُحَارِبِينَ وَالْأَشْرَارِ]

وَقَوْلُهُ: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُقْفَرُوا مِنَ الْأَرْضِ»... الْآيَةَ، الْمُحَارِبَةُ هِيَ الْمُضَادَّةُ وَالْمُخَالَفَةُ، وَهِيَ صَادِقَةٌ عَلَى الْكُفْرِ، وَعَلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَإِخَافَةِ السَّبِيلِ. وَكَذَا الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ يُطْلَقُ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرِّ، رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، قَالَا: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» إِلَى «أَنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ» نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمُشْرِكِينَ، فَمَنْ تَابَ مِنْهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُقْتَلُوا عَلَيْهِ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ سَبِيلٌ. وَلَيْسَتْ تَحْرُزُ هَذِهِ الْآيَةُ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ مِنَ الْحَدِّ إِنْ قَتَلَ، أَوْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، أَوْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، ثُمَّ لَحِقَ بِالْكَفَّارِ، قَبْلَ أَنْ يَقْتُلُوا عَلَيْهِ، لَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ الَّذِي أَصَابَ^(٥). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا»، نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ، مَنْ تَابَ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلُوا عَلَيْهِ، لَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ الَّذِي أَصَابَهُ^(٦).

وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ ارْتَكَبَ هَذِهِ الصِّفَاتِ؛ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي قِلَابَةَ - وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ الْجَرْمِيِّ الْبَصْرِيِّ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ عَجَلٍ ثَمَانِيَّةٍ، قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْتَوْحَمُوا الْمَدِينَةَ، وَسَقَمَتْ أَجْسَامُهُمْ فَشَكُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ فَتَصِيبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَالْبَانِيهَا؟» فَقَالُوا: بَلَى، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَالْبَانِيهَا فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَّ، وَطَرَدُوا الْإِبِلَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَأَدْرَكُوا فَجَاءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقَطَّعَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَسَمَّرَتْ أَعْيُنُهُمْ، ثُمَّ نِيدُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا. لَقِظَ مُسْلِمٌ، وَفِي لَقِظِ لَهَا: مِنْ عَجَلٍ أَوْ عَرَبِيَّةٍ، وَفِي لَقِظِ: وَالْقَوَا فِي الْحَرَّةِ فَجَعَلُوا يَسْتَسْقُونَ، فَلَا يَسْقُونَ^(٧).

(١) الطبري: ٢٣٥/١٠ (٢) الطبري: ٢٣٦/١٠ (٣) الطبري:

٢٣٣/١٠ وقد تقدم الكلام على العوفي وعائلته (٤) الطبري:

٢٣٥/١٠ (٥) الطبري: ٢٤٤/١٠ (٦) أبو داود: ٥٣٦/٤

والنسائي: ١٠١/٧ (٧) فتح الباري: ١١٤/١٢ ومسلم: ٣/

بَعْضًا، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْزُهُ إِلَى اللَّهِ: إِنْ شَاءَ عَذَّبْهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ^(٤). وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَدْنَبَ دَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ، فَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّي عُقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَنْ أَدْنَبَ دَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ، فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ»^(٥). رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَقَدْ سُئِلَ الْحَافِظُ الدَّارِقُطِيُّ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ^(٦) فَقَالَ: رُوِيَ مَرْفُوعًا وَمَوْفُوفًا، قَالَ: وَرَفَعَهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا» يَعْنِي سَرًّا وَعَارًا وَنَكَالًا وَذِلَّةً وَعُقُوبَةً فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ. «وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» أَي إِذَا لَمْ يَتُوبُوا مِنْ فِعْلِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى هَلَكُوا، لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَعَ الْجَزَاءِ الَّذِي جَازَيْتَهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعُقُوبَةُ الَّتِي عَاقَبْتَهُمْ بِهَا فِيهَا «عَذَابٌ عَظِيمٌ» يَعْنِي عَذَابٌ جَهَنَّمُ^(٧).

[تَسْقُطُ حُدُودُ الْمُحَارِبِينَ إِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ» أَمَا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا فِي أَهْلِ الشَّرْكِ فَظَاهِرٌ، وَأَمَا الْمُحَارِبُونَ الْمُسْلِمُونَ، فَإِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَنْهُمْ انْحِتَامُ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَقَطْعِ الرَّجْلِ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي سُقُوطَ الْجَمِيعِ، وَعَلَيْهِ عَمَلُ الصَّحَابَةِ. كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: كَانَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرِ التَّمِيمِيُّ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ، وَكَانَ قَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَحَارَبَ، فَكَلَّمَ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنْهُمْ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، فَكَلَّمُوا عَلِيًّا فِيهِ فَلَمْ يُؤْمِنْهُ، فَآتَى سَعِيدَ بْنَ قَيْسٍ الْهَمْدَانِيَّ فَخَلَعَهُ فِي دَارِهِ، ثُمَّ أَتَى عَلِيًّا، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتَ مَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ» [المائدة: ٣٤] قَالَ: فَكَتَبَ لَهُ أَمَانًا، قَالَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى «أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يُصَلِّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ» قَالَ ابْنُ أَبِي طَالِحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: مَنْ شَهَرَ السَّلَاحَ فِي فِتْنَةِ الْإِسْلَامِ، وَأَخَافَ السَّبِيلَ ثُمَّ ظَفِرَ بِهِ وَقُدِرَ عَلَيْهِ فِيمَا مَنِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ بِالْخِيَارِ: إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ وَإِنْ شَاءَ صَلَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ قَطَّعَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ^(١). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالصَّحَّاحُ. وَرَوَى ذَلِكَ كُلَّهُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ^(٢) وَمُسْتَدْرَدٌ هَذَا الْقَوْلُ: أَنَّ ظَاهِرَ (أَوْ) لِلتَّخْيِيرِ كَمَا فِي نِظَائِرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ «فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكِمْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا» [المائدة: ٩٥] وَكَقَوْلِهِ فِي كَفَّارَةِ الْهُدْيَةِ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ آدَى مِنْ رَأْسِهِ فِهْدِيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكٌّ» [البقرة: ١٩٦] وَكَقَوْلِهِ فِي كَفَّارَةِ الْبَيْعِنِ: «فَكَفَّرْتَهُمْ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ» [المائدة: ٨٩] هَذِهِ كُلُّهَا عَلَى التَّخْيِيرِ فَكَذَلِكَ فَلْتَكُنْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ» قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَنْ يَطْلُبَ حَتَّى يُفَدَّرَ عَلَيْهِ فَيَقَامَ عَلَيْهِ الْحُدُ. أَوْ يَهْرَبَ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَسْبِ بْنِ مَالِكٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالصَّحَّاحِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَالزُّهْرِيِّ، وَاللَيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ أَنْ يُنْفَى مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ أَوْ يُخْرِجُهُ السُّلْطَانُ أَوْ نَائِبُهُ مِنْ مُعَامَلَتِهِ بِالْكَلْفَةِ^(٣). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الشَّعْنَاءِ وَالْحَسَنُ وَالزُّهْرِيُّ، وَالصَّحَّاحُ وَمِقَاتِلُ ابْنُ حَيَّانَ: إِنَّهُ يُنْفَى وَلَا يُخْرَجُ مِنَ الْأَرْضِ الْإِسْلَامِ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْمُرَادُ بِالتَّقْيِي هَهُنَا السَّجُنُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» أَي هَذَا الَّذِي ذَكَرْتَهُ مِنْ قَتْلِهِمْ وَمِنْ صَلْبِهِمْ وَقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ وَنَفْيِهِمْ - خِزْيٌ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَعَ مَا آخَرَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَهَذَا يُؤَيِّدُ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ. فَأَمَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقُ وَلَا نَزْنِي، وَلَا نَقْتُلُ أَوْلَادَنَا، وَلَا يَعْضُهُ بَعْضُنَا

(١) الطبري: ٢٦٣/١٠ (٢) الطبري: ٢٦٢/١٠ (٣) (٤) مسلم: ١٣٣٣/٣ (٥) أحمد: ١٥٩/١ وتحفة الأحمدي: ٣٧٧/٧ وابن ماجه: ٨٦٨/٢ (٦) الدارقطني: ٢١٥/٣ (٧) الطبري: ٢٧٦/١٠

سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ: فَإِنَّهُ حَارَبَهُ بِنُ بَدْرِ. وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ (١).
 وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ
 مُرَادٍ إِلَى أَبِي مُوسَى وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ فِي إِمَارَةِ عُثْمَانَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ مَا صَلَّى الْمَكْتُوبَةَ، فَقَالَ: يَا أَبَا
 مُوسَى، هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ، أَنَا فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ
 الْمُرَادِيُّ، وَإِنِّي كُنْتُ حَارَبْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَسَعَيْتُ فِي
 الْأَرْضِ فَسَادًا، وَإِنِّي تَبْتُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيَّ، فَقَامَ
 أَبُو مُوسَى فَقَالَ: إِنَّ هَذَا فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ، وَإِنَّهُ كَانَ حَارَبَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَإِنَّهُ تَابَ مِنْ قَبْلِ
 أَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، فَمَنْ لَقِيَهُ فَلَا يَعْزُضْ لَهُ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنْ يَكُ
 صَادِقًا فَسَبِّحْ مِنْ صَدَقَ، وَإِنْ يَكُ كَادِبًا تَذَرِكُهُ ذُنُوبُهُ،
 فَأَقَامَ الرَّجُلُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ، فَأَذْرَكَهُ اللَّهُ تَعَالَى
 بِذُنُوبِهِ فَقَتَلَهُ. ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُوسَى بْنِ إِسْحَاقَ
 الْمَدَنِيِّ: أَنَّ عَلِيًّا الْأَسَدِيَّ حَارَبَ وَأَخَافَ السَّبِيلَ
 وَأَصَابَ الدَّمَ وَالْمَالَ فَطَلَبَهُ الْأَيْمَةُ وَالْعَامَّةُ، فَاْمْتَنَعَ وَلَمْ
 يَقْدِرُوا عَلَيْهِ حَتَّى جَاءَ تَائِبًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ
 هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَجَادِي الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ
 رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾
 [الزمر: ٥٣] فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَعِدْ قِرَاءَتَهَا،
 فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ، فَغَمَدَ سَيْفَهُ، ثُمَّ جَاءَ تَائِبًا حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ
 مِنَ السَّحَرِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى
 الصُّبْحَ، ثُمَّ قَعَدَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فِي عِمَارِ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا
 أَسْفَرُوا عَرَفَهُ النَّاسُ فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: لَا سَبِيلَ لَكُمْ
 عَلَيَّ، جِئْتُ تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيَّ، فَقَالَ أَبُو
 هُرَيْرَةَ: صَدَقَ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ حَتَّى أَتَى مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ،
 وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: هَذَا عَلِيُّ
 جَاءَ تَائِبًا، وَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَلَا قَتْلَ، فَتَرَكَ مِنْ ذَلِكَ
 كُلهُ، قَالَ وَخَرَجَ عَلَيَّ تَائِبًا مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي
 الْبَحْرِ، فَلَقُوا الرُّومَ فَقَرَّبُوا سَفِينَتَهُ إِلَى سَفِينَةٍ مِنْ سَفِينِهِمْ
 فَاقْتَحَمَ عَلَى الرُّومِ فِي سَفِينَتِهِمْ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَى شَقْهَا
 الْأَخْرَ، فَمَالَتْ بِهِ وَيَهْمُ فَعَرَّفُوا جَمِيعًا (٢).

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكُم مِّنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا
 وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا
 أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً لِّمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
 ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ
 عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ
 لَا يَخْرُجُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ
 قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ
 هَادُوا وَسَمِعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ لِّقَوْمٍ
 آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِتُحُوقِنَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ
 يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا
 وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ. مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ
 أَوْلَىٰ بِكُمُ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي
 الدُّنْيَا خِرَىٰ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالْوَسِيلَةَ وَالْجِهَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ إِذَا
 قُرِنَتْ بِطَاعَتِهِ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الْإِنْكَفَافُ عَنِ الْمَحَارِمِ
 وَتَرْكُ الْمُنْهَيَّاتِ، وَقَدْ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ
 الْوَسِيلَةَ﴾. قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ طَلْحَةَ عَنْ
 عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيِ الْقُرْبَةِ (٣). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ
 وَأَبُو وَاثِلٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ
 زَيْدٍ وَعَبْدُ وَاحِدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيِ تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ
 وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ (٤). وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ ﴿أَوْلَىٰ بِكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ
 يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِيبَهُمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] (٥).

(١) الطبري: ٢٨٠/١٠ إسناده ضعيف فيه مجالد بن سعيد وتقدم
 الكلام عليه (٢) الطبري: ٢٨٤/١٠ ضعيف فيه الوليد بن مسلم
 كثير التدليس وهو يدللس تدليس التسوية ولم يصرح هنا (٣)
 الطبري: ٢٩١/١٠ (٤) الطبري: ٢٩١/١٠ (٥) الطبري: ٢٩١/١٠

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ
 وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣٥) لِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ
 عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾
 يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكُم مِّنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ

وَالْوَسِيلَةُ هِيَ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ.
وَالْوَسِيلَةُ أَيْضًا عَلِمَ عَلَى أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَارُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ أَقْرَبُ أَمَكِنَةِ الْجَنَّةِ
إِلَى الْعَرْشِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ جِئَنِّي يَسْمَعُ
التَّذَاء: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ،
أَتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْتَعْتُهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي
وَعَدْتُهُ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ
سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا
يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُّوا لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا
تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ
سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ» (٢).

وَقَوْلُهُ: «وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» لَمَّا
أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ الْمَحَارِمِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ، أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ
الْأَعْدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الْخَارِجِينَ عَنِ الطَّرِيقِ
الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّارِكِينَ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ، وَرَعِبَهُمْ فِي ذَلِكَ
بِالَّذِي أَعَدَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْفَلَاحِ،
وَالسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ الْخَالِدَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا
تَحُولُ وَلَا تَزُولُ فِي الْعُرْفِ الْعَالِيَةِ الرَّيِّعَةِ، الْأَمِيَّةِ الْحَسَنَةِ
مَنَاطِرُهَا، الطَّيِّبَةِ مَسَاكِنُهَا، الَّتِي مَنْ سَكَنَهَا يَنْعَمُ لَا
يَبْأَسُ، وَيَحْيَى لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى تِبَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ.

[لَا تَقْبَلُ الْهَدْيَةَ مِنَ الْكُفَّارِ وَهُمْ يَسْتَمِرُّونَ فِي عَذَابِ

النَّارِ]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَذَابِ
وَالنَّكَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ» أَي لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ
جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِجَمِيعِ الْأَرْضِ ذَهَابًا وَبِمِثْلِهِ لَيَمْتَدِي بِذَلِكَ
مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَتَيَقَّنَ وَصُولَهُ إِلَيْهِ، مَا
تُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ، بَلْ لَا مَنَدُوحَةَ عَنْهُ وَلَا مَحِيصَ وَلَا
مَنَاصِرَ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أَي مُوجِعٌ
«يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُؤِيمٌ» كَمَا قَالَ تَعَالَى: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوا
مِنْهَا مِنْ عَمٍ أَعِيدُوا فِيهَا»... الْآيَةُ [الحج: ٢٢] فَلَا

يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّتِهِ وَأَلِيمٌ مَسَّهُ،
وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَكُلَّمَا رَفَعَهُمُ اللَّهُ فَصَارُوا فِي
أَعْلَى جَهَنَّمَ صَرَبَتْهُمْ الزَّبَانِيَةُ بِمَنَاقِبِ الْحَدِيدِ، فَيَرُدُّوهُمْ إِلَى
أَسْفَلِهَا «وَلَهُمْ عَذَابٌ مُؤِيمٌ» أَي دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ لَا خُرُوجَ لَهُمْ
مِنْهَا، وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقَالُ لَهُ: يَا
ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ؟ فَيَقُولُ: شَرٌّ مَضْجَعٍ،
فَيَقَالُ: هَلْ تَمْتَدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذَهَابًا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ
يَارَبِّ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، فَذِ سَأَلْتُكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ
تَفْعَلْ، فَيُؤَمَّرُ بِهِ إِلَى النَّارِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (٣).

«وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا
مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (٤) فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ
فَإِنَّ اللَّهَ يُؤْتِبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)

[الْأَمْرُ بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ]

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا وَأَمِيرًا بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ وَالسَّارِقَةِ،
وَقَدْ كَانَ الْقَطْعُ مَعْمُولًا بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَفَرَزَ فِي
الإِسْلَامِ، وَزِيدَتْ شُرُوطُ أُخْرَى كَمَا سَنَدُّكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى، كَمَا كَانَتِ الْقَسَامَةُ وَالذِّبَةُ وَالْقِرَاضُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي وَرَدَ الشَّرْعُ بِتَقْرِيرِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ،
وَزِيَادَاتِ هِيَ مِنْ تَمَامِ الْمَصَالِحِ.

[مَتَى تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ؟]

وَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدَهُ، وَيَسْرِقُ
الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدَهُ» (٤).

وَأُخْرِجَ الشَّيْخَانِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ فِي رُبْعٍ
وَدِينَارٍ فَصَاعِدًا» (٥) وَلِمُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعٍ دِينَارٍ
فَصَاعِدًا» (٦). فَهَذَا الْحَدِيثُ فَاصِلٌ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَنَصٌّ فِي
إِعْتِبَارِ رُبْعِ الدِّينَارِ لَا مَا سَاوَاهُ. وَحَدِيثٌ ثَمَنِ الْمَجْنُنِ -

(١) فتح الباري: ٢٥١/٨ (٢) مسلم: ٢٨٨/١ (٣) مسلم: ٤/٢١٢٢ والنسائي: ٣٦/٦ (٤) فتح الباري: ٨٣/١٢ ومسلم: ٣/١٣١٤ (٥) فتح الباري: ٩٩/١٢ ومسلم: ١٣١٢/٣ (٦) مسلم: ١٣١٣/٣

وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَةَ ذَرَاهِمَ - لَا يُنَافِي هَذَا، لِأَنَّهُ إِذْ ذَاكَ كَانَ الدِّينَارُ بِأَثْنَيْ عَشَرَ ذِرْهَمًا، فَهِيَ ثَمَنُ رُغْعِ دِينَارٍ، فَأَمَّا كَنْ الْجَمْعُ بِهَذَا الطَّرِيقِ، وَيُرْوَى هَذَا الْمَذْهَبُ عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ وَعَلِيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَبِهِ يَقُولُ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَاللَّبِيثُ بْنُ سَعْدِ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، وَأَبُو ثَوْرٍ، وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الطَّاهِرِيُّ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، إِلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ رُغْعِ الدِّينَارِ وَالثَّلَاثَةِ ذَرَاهِمَ مَرْدٌ شَرْعِيٌّ، فَمَنْ سَرَقَ وَاحِدًا مِنْهُمَا أَوْ مَا يُسَاوِيهِ قُطِعَ.

وَأَمَّا الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدُ زَوْفَرٌ، وَكَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فَإِنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ النَّصَابَ عَشْرَةُ ذَرَاهِمَ مَضْرُوبَةٌ غَيْرِ مَعْشُوشَةٍ، [وَالثَّابِتُ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ الْقَطْعُ فِي رُغْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا].

وَإِنَّمَا نَاسَبَ فِي بَابِ السَّرِقَةِ أَنْ يَكُونَ الْقَدْرُ الَّذِي تَقْطَعُ فِيهِ رُغْعُ دِينَارٍ، لِئَلَّا يُسَارِعَ النَّاسُ فِي سَرِقَةِ الْأَمْوَالِ، فَهَذَا هُوَ عَيْنُ الْحِكْمَةِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿جَزَاءُ مَا كَسَبَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ مُجَازَاةٍ عَلَى صَنِيعِهِمَا السَّيِّئِ فِي أَخْذِهِمَا أَمْوَالِ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ، فَنَاسَبَ أَنْ يُقْطَعَ مَا اسْتَعَانَا بِهِ فِي ذَلِكَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ، أَيُّ تَنْكِيلًا مِنَ اللَّهِ بِهِمَا عَلَى ارْتِكَابِ ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيُّ فِي انْتِقَامِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيُّ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ.

[تَوْبَةُ السَّارِقِ مَقْبُولَةٌ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ، وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ مَنْ تَابَ بَعْدَ سَرِقَتِهِ وَأَتَابَ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ بِهَا الَّذِينَ سَرَقَتْهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ سَرَقَتْنَا. قَالَ قَوْمُهَا: فَتَحْنُ نَفْدِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْطَعُوا يَدَهَا» فَقَالُوا: نَحْنُ نَفْدِيهَا بِحَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ، فَقَالَ: «افْطَعُوا يَدَهَا» فَطُغِعَتْ يَدُهَا الْيُمْنَى، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ حَطِيئَتِكَ كَيَوْمَ وَلَدْتِكِ أُمِّكَ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿فَمَنْ تَابَ

مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ، وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١). وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ الْمَحْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ، وَحَدِيثُهَا ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِءُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأُتِيَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَسْتَفْعُ فِي حَدِّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟» فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعِشِيُّ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاخْتَطَبَ فَأَتَتْهُ عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا» ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَطُغِعَتْ يَدُهَا. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَسَنْتُ تَوْبَتُهَا بَعْدُ، وَتَزَوَّجْتُ، وَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْزَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢). وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ. وَفِي لَفْظٍ لَهُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَتْ امْرَأَةٌ مَحْزُومِيَّةٌ تَشْتَعِيرُ الْمَتَاعَ وَتَجَحِّدُهُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَطْعِ يَدِهَا^(٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ هُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ، الْحَاكِمُ فِيهِ، الَّذِي لَا مَعْصِيَةَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ الْمَعَالُ لِمَا يُرِيدُ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمَّعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِخَبْرٍ فَنُكِرَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ يَأْتِكُمْ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٤) سَمَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلشَّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ

(١) أحمد: ١٧٧/٢ (٢) فتح الباري: ٦١٩/٧ ومسلم: ٣/١٣١٥ (٣) مسلم: ١٣١٦/٣

يَضْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤١﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِدَّتُهُ النَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمٌ
اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾
إِنَّا أَنْزَلْنَا النَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ
وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٣﴾

[التَّالِقِينَ بِعَدَمِ الْحُزْنِ عَلَى تَصَرُّفَاتِ الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ] نَزَلَتْ هَذِهِ آيَاتُ الْكُرَيْمَاتِ فِي الْمُسَارَعِينَ فِي الْكُفْرِ، الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، الْمُقَدِّمِينَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ عَلَى شَرَائِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِالْسِتِّهِمْ، وَقَلْبُهُمْ خَرَابٌ خَاوِيَةٌ مِنْهُ، وَهُوَ لَاءِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ، وَهُوَ لَاءِ كُلُّهُمْ ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أَيْ مُسْتَجِيبُونَ لَهُ، مُتَعَلِّقُونَ عَنْهُ ﴿سَمِعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوا﴾ أَيْ يَسْتَجِيبُونَ لِأَقْوَامٍ آخَرِينَ لَا يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ وَيُتَهَوَّنُهُ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ مِمَّنْ لَا يَحْضُرُ عِنْدَكَ مِنْ أَعْدَائِكَ.

[تَحْرِيفِ الْيَهُودِ وَمُحَاوَلَةِ انْجِرَافِهِمْ عَنِ الرَّجْمِ فِي قِصَّةِ الْيَهُودِيِّينَ]

﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أَيْ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَبْدُلُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ قَتَلُوا قِتِيلًا، وَقَالُوا: تَعَالَوْا حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنَّ حَكْمَ بِالِدِّيَّةِ فَاقْبَلُوهُ، وَإِنْ حَكَمَ بِالْقِصَاصِ فَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيِّينَ الَّذِينَ رَزَبَا، وَكَانُوا قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِرَجْمِ مَنْ أَحْصَنَ مِنْهُمْ، فَحَرَفُوهُ وَاضْطَلَحُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى الْجَلْدِ مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَالتَّحْمِيمِ وَالْإِرْكَابِ عَلَى حِمَارٍ مَقْلُوبِينَ، فَلَمَّا وَقَعَتْ تِلْكَ الْكَاثِبَةُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: تَعَالَوْا حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَيْهِ، فَإِنَّ حَكْمَ بِالْجَلْدِ وَالتَّحْمِيمِ فَخُذُوا عَنْهُ، وَاجْعَلُوهُ حُجَّةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَيَكُونُ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ قَدْ حَكَمَ بَيْنَكُمْ بِذَلِكَ، وَإِنَّ حَكْمَ بِالرَّجْمِ فَلَا تَتَّبِعُوهُ فِي

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١١٥

سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلْسَّحْتِ إِنْ جَاءَكَ
فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ
يَضْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤١﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِدَّتُهُ
النَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمٌ اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا النَّوْرَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبَنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ
اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ
وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَكَيْبِنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
فِصَاصًا فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ
لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٤﴾

ذَلِكَ.

وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَيْبًا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي النَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟» فَقَالُوا: نَفَضَحُهُمْ وَيُجْلِدُونَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ، فَأَتُوا بِالنَّوْرَةِ، فَأَتُوا بِالنَّوْرَةِ فَشَرَّوْهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: اِرْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فُرْجَمَا، فَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَخْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَمِينَهَا الْحِجَارَةَ. أَخْرَجَاهُ، وَهَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ، وَفِي لَفْظٍ لَهُ: فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «مَا تَصْنَعُونَ بِهِمَا؟» قَالُوا: نَسْحَمُ وَجُوهَهُمَا وَنُخْرِبُهُمَا، قَالَ: ﴿فَأَتُوا بِالنَّوْرَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] فَجَاءُوا وَقَالُوا لِرَجُلٍ مِنْهُمْ مِمَّنْ يَرِضُونَ أَعْوَرَ: اِقْرَأْ، فَقَرَأَ حَتَّى

﴿فَحُدُّوهُ﴾ أَيِ إِقْبَلُوهُ، ﴿وَإِنْ لَمْ تَوْثَوْهُ فَأَحَدُوا﴾ أَيِ مِنْ قَبُولِهِ وَاتِّبَاعِهِ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللهُ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَيِ الْبَاطِلِ ﴿أَكْتَلُونِ لِلسُّخْتِ﴾ أَيِ الْحَرَامِ، وَهُوَ الرِّشْوَةُ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ ^(٤١). أَيِ وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَيْفَ يُطَهِّرُ اللهُ قَلْبَهُ، وَأَتَى بِسْتَجِبْتُ لَهُ، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ وَكَأَنَّ أَيِ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْكَ﴾ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصُرُواكَ سِيفًا﴾ أَيِ فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَحْكَمْ بَيْنَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ بِتَحَاكُمِهِمْ إِلَيْكَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ، بَلْ مَا يُؤَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالْحَسَنُ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: هِيَ مُنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ ^(٤٢). ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أَيِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً خَارِجِينَ عَنِ طَرِيقِ الْعَدْلِ ﴿إِنَّ اللهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

[دَمْ مَقَاصِدِ الْيَهُودِ الرَّائِغَةِ وَمَدْحِ كِتَابِهِمُ التَّوْرَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةَ، وَمَقَاصِدِهِمُ الرَّائِغَةَ فِي تَرْكِهِمْ مَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ، الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِالنَّمْسِكِ بِهِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ حُكْمِهِ، وَعَدَلُوا إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَطْلَانَهُ وَعَدَمَ لُزُومِهِ لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٤٣) ثُمَّ مَدَحَ التَّوْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أَيِ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمِهَا وَلَا يُبَدِّلُونَهَا وَلَا يُحَرِّفُونَهَا ﴿وَالرَّابِّينِونَ وَالْأَحْبَارَ﴾ أَيِ وَكَذَلِكَ الرَّبَّانِيُّونَ مِنْهُمْ، وَهُمْ الْعُلَمَاءُ الْعَبَادُ.

انْتَهَى إِلَى مَوْضِعِ مِنْهَا، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ: اِرْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ، فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ تَلَوَّحُ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ فِيهَا آيَةَ الرَّجْمِ، وَلَكِنَّا نَتَكَاتَمُ بَيْنَنَا، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا ^(٤٤).

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةً قَدْ زَنِيَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودٌ فَقَالَ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟» قَالُوا: نَسُودُ وَجُوهَهُمَا قَدْ نُحِمَّهُمَا، وَنُحِمْلُهُمَا وَنُحَالَفُ بَيْنَ وَجُوهِهِمَا وَيُطَافُ بِهِمَا. قَالَ: ﴿فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93] قَالَ: فَجَاؤُوا بِهَا فَفَرَّعُواهَا، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِآيَةِ الرَّجْمِ، وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَفْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَرُّهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَا. قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ: كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيِّهَا مِنَ الْجَحَارَةِ بِنَفْسِهِ ^(٤٥).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَتَى نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ فَدَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى الْقَفِّ، فَأَتَاهُمْ فِي بَيْتِ الْمِدْرَاسِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ رَجُلًا مِمَّنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ فَأَحْكَمْ. قَالَ: وَوَضَعُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَسَادَةَ فَجَلَسَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «اثْنُونِي بِالتَّوْرَةِ» فَأَتَى بِهَا، فَتَرَعَ الْوَسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ وَوَضَعَ التَّوْرَةَ عَلَيْهَا، وَقَالَ: «أَمَنْتُ بِكَ وَبِمَنْ أَنْزَلَكَ» ثُمَّ قَالَ: «اثْنُونِي بِأَعْلَمِكُمْ» فَأَتَى بِفَتَى شَابٍّ... ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ الرَّجْمِ نَحْوَ حَدِيثِ مَالِكٍ عَنِ نَافِعٍ ^(٤٦).

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَكَمَ بِمُؤَافَقَةِ حُكْمِ التَّوْرَةِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِكْرَامِ لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ، لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِ الشَّرْعِ الْمُحَمَّدِيِّ لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنْ هَذَا بِوَحْيٍ خَاصٍّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَسُؤَالُهُ إِيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ: لِيُفَرِّغَهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ - مِمَّا تَوَاطَفُوا عَلَى كِتْمَانِهِ وَجَحْدِهِ وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ تِلْكَ الدُّهُورَ الطَّوِيلَةَ - فَلَمَّا اغْتَرَفُوا بِهِ، مَعَ عَمَلِهِمْ عَلَى خِلَافِهِ: بِأَنَّ زَيْعَهُمْ وَعِنَادَهُمْ وَتَكْذِيبَهُمْ - لِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ - مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ... (*)

وَعَدَلُوا لَهُمْ إِلَى تَحْكِيمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّمَا كَانَ عَنْ هَوَى مِنْهُمْ، وَشَهْوَةِ لِمُؤَافَقَةِ آرَائِهِمْ لَا لِإِعْتِقَادِهِمْ صِحَّةَ مَا يَحْكُمُ بِهِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ أَيِ: الْجَلْدَ وَالتَّحْكِيمَ

(١) الموطأ: ١١٩/٢ (٢) مسلم: ١٣٢٦/٣ (٣) أبو داود: ٥٩٧/٤ (*) الظاهر أن جواب «لما» غير مذكور، أي لما

اعترفوا بذلك كله وقعت عليهم الحجة. ووقع في بعض النسخ مع علمهم أي وقع التقرير عليهم لعلمهم بهذا كله. والله أعلم (٤) الطبري: ٣١٩/١٠ (٥) الطبري: ٣٣٢-٣٣٠/١٠

وَقَفِينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَنُتَبِّحُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ إِنَّمَا أَنزَلْتُ فِي الدِّيَةِ فِي بَنِي النَّصِيرِ وَبَنِي فُرَيْطَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ قَتْلَى بَنِي النَّصِيرِ كَانَ لَهُمْ شَرَفٌ، تُؤَدَّى لَهُمُ الدِّيَةُ كَامِلَةً، وَأَنَّ فُرَيْطَةَ كَانُوا يُؤَدَّى لَهُمْ نِصْفَ الدِّيَةِ، فَتَحَاكَمُوا فِي ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيهِمْ، فَحَمَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحَقِّ فِي ذَلِكَ، فَجَعَلَ الدِّيَةَ فِي ذَلِكَ سَوَاءً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ (٣). وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِي فِي حَدِيثِ ابْنِ إِسْحَاقَ بِنَحْوِهِ (٤).

وَقَدْ رَوَى الْعَوْفِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْوَالِيَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيِّينَ اللَّذِينَ رَزَا، كَمَا تَقَدَّمَتْ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ، وَقَدْ يَكُونُ اجْتِمَاعُ هَذَانِ السَّبَبَانِ فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَهَذَا يَقْوَى دَاوُدَ بِنَحْوِهِ (٥).

وَالْأَخْبَارُ وَهُمْ: الْعُلَمَاءُ ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أَيُّ بِمَا اسْتَوْدَعُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أَمُرُوا أَنْ يُظْهِرُوهُ وَيَعْمَلُوا بِهِ ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا﴾ أَيُّ لَا تَخَافُوا مِنْهُمْ وَخَافُوا مِنِّي ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِبَاطِنِي مِمَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ سِبَاطِي بَيَانُهُمَا .

سَبَبٌ آخَرٌ فِي نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَنزَلَ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنزَلَهَا اللَّهُ فِي الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَانَتْ إِحْدَاهُمَا قَدْ فَهَرَّتِ الْأُخْرَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى ارْتَضَوْا وَاصْطَلَحُوا عَلَى أَنْ كُلُّ قَبِيلٍ قَتَلَتْهُ الْعَرِيزَةُ مِنَ الدَّلِيلَةِ فِدْيَتُهُ خَمْسُونَ وَسَقًا، وَكُلُّ قَبِيلٍ قَتَلَتْهُ الدَّلِيلَةُ مِنَ الْعَرِيزَةِ فِدْيَتُهُ مِائَةٌ وَسَقًا، فَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ [فَدَلَّتِ الطَّائِفَتَانِ كُنْتَاهُمَا لِمَقْدَمِ رَسُولِ ﷺ وَيَوْمَئِذٍ لَمْ يَظْهَرِ، وَلَمْ يُؤْطِئْهُمَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصُّلْحِ] فَتَقَلَّتِ الدَّلِيلَةُ مِنَ الْعَرِيزَةِ قِتِيلًا، فَأَرْسَلَتِ الْعَرِيزَةُ إِلَى الدَّلِيلَةِ أَنْ ابْعَثُوا لَنَا بِمِائَةِ وَسَقًا، فَقَالَتِ الدَّلِيلَةُ: وَهَلْ كَانَ هَذَا فِي حَيِّينَ قَطُّ دِيْنَهُمَا وَاحِدٌ، وَتَسْبِيْهُمَا وَاحِدٌ، وَبَلَدُهُمَا وَاحِدٌ: دِيْنُهُ بَعْضُهُمْ نِصْفُ دِيْنِ بَعْضٍ، إِنَّمَا أَعْطَيْنَاكُمْ هَذَا ضَمِيمًا مِنْكُمْ لَنَا، وَفَرَقًا مِنْكُمْ، فَأَمَّا إِذْ قَدِمَ مُحَمَّدٌ فَلَا نُعْطِيكُمْ ذَلِكَ، فَكَادَتْ الْحَرْبُ تَهْجِجُ بَيْنَهُمَا ثُمَّ ارْتَضَوْا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَتِ الْعَرِيزَةُ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا مُحَمَّدٌ بِمُعْطِيكُمْ مِنْهُمْ ضِعْفٌ مَا يُعْطِيهِمْ مِنْكُمْ، وَلَقَدْ صَدَقُوا، مَا أَعْطَوْنَا هَذَا إِلَّا ضَمِيمًا مِنَّا وَقَهْرًا لَهُمْ، فَدَسُوا إِلَى مُحَمَّدٍ مَنْ يُخْبِرُكُمْ رَأْيَهُ، إِنْ أَعْطَاكُمْ مَا تُرِيدُونَ حَكْمَتُمُوهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِكُمْ حَذَرْتُمْ فَلَمْ تُحْكَمُوهُ. فَدَسُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَاسًا مِنَ الْمُتَافِقِينَ لِيُخْبِرُوا لَهُمْ رَأْيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جَاؤُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَخْبَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَمْرِهِمْ كُلِّهِ وَمَا أَرَادُوا، فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ فَبَيْنَهُمْ وَاللَّهُ أَنزَلَ، وَإِيَّاهُمْ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِنَحْوِهِ (٢).

(١) أحمد: ٢٤٦/١ (٢) أبو داود: ٧/٤ (٣) الطبري: ١٠

٣٢٦ (٤) أحمد: ٣٦٣/١ وأبو داود: ١٦/٤ والنسائي: ١٩/٨

وَرَوَى أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ قَوْلُهُ: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ إِلَى

أَنَّ سَبَبَ التَّزْوِيلِ فَصِيَّةُ الْفِصَاصِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَحَدِيثُهُ بِنُ الْيَمَانِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو مِجَلَزٍ وَأَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ وَعِكْرَمَةُ وَعَبِيدُ اللَّهِ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَعَبْرُهُمْ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ^(١). زَادَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَهِيَ عَلَيْنَا وَاجِبَةٌ^(٢).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَضِيَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَا. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: مَنْ جَحَدَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَقْرَبَ بِهِ وَلَمْ يَحْكَمْ بِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ فَاسِقٌ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٤).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ [ابن] طَاوُسٍ، قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ﴾... الْآيَةَ، قَالَ: هِيَ بِهِ كُفْرٌ.

قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ: وَلَيْسَ كَمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ: كَفَرَ دُونَ كُفْرٍ، وَظَلَمَ دُونَ ظُلْمٍ، وَفَسَقَ دُونَ فِسْقٍ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٥). وَقَالَ وَكَيْعٌ عَنْ سَعِيدِ الْمَكِّيِّ، عَنْ طَاوُسٍ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: لَيْسَ بِكُفْرٍ يُقْتَلُ عَنْ الْمِلَّةِ^(٦).

﴿وَكُنِينَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّفَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٧)

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا وَبِحَتْ بِهِ الْيَهُودُ وَقَرَعُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ فِي نَصِّ التَّوْرَةِ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَهُمْ يُخَالِفُونَ حُكْمَ ذَلِكَ عَمْدًا وَعِنَادًا، وَيُقِيدُونَ النَّصْرِيَّ مِنَ الْفَرَطِيِّ، وَلَا يُقِيدُونَ الْفَرَطِيَّ مِنَ النَّصْرِيِّ، بَلْ يَعْدِلُونَ إِلَى الدِّيَةِ، كَمَا خَالَفُوا حُكْمَ التَّوْرَةِ الْمَنْصُوصَ عِنْدَهُمْ فِي رَجْمِ الزَّانِي الْمُحْضَنِ، وَعَدَلُوا إِلَى مَا اضْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْجَلْدِ وَالتَّحْيِيمِ وَالْإشْهَارِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ جَحَدُوا حُكْمَ اللَّهِ قَصْدًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا وَعَمْدًا، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْجَمِيعِ فِيهِ، فَخَالَفُوا وَظَلَمُوا وَعَدَدُوا^(٨) عَلَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

[يُقْتَلُ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ]

وَقَدْ حَكَى الْإِمَامُ أَبُو نَصْرِ بْنِ الصَّبَّاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الشَّامِلِ». إِجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ، عَلَى الْاِحْتِجَاجِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَقَدْ اِحْتَجَّ الْأَيْمَةُ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَكَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَعَبْرُهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ فِي كِتَابِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ: «أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ»^(٩). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ»^(١٠). وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.

وَيُؤَيِّدُ مَا قَالَهُ ابْنُ الصَّبَّاحِ مِنَ الْاِحْتِجَاجِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي ذَلِكَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ الرُّبَيْعَ عَمَةَ أَنَسِ، كَسَرَتْ نَيْتَهُ جَارِيَةً، فَطَلَبُوا إِلَى الْقَوْمِ الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «الْقِصَاصُ»، فَقَالَ أَخُوهَا أَنَسُ بْنُ النَّصْرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تُكْسِرُ نَيْتَهُ فَلَانَةَ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ» قَالَ: فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسِرُ نَيْتَهُ فَلَانَةَ؟! قَالَ: فَرَضِي الْقَوْمَ فَعَفَوْا، وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١١) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١٢).

[قِصَاصُ الْجُرُوحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تُقْتَلُ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَتُقْتَلُ الْعَيْنُ بِالْعَيْنِ، وَيُقَطَّعُ الْأَنْفُ بِالْأَنْفِ، وَتُنزَعُ السِّنُّ بِالسِّنِّ، وَتُقْتَصَّرُ الْجِرَاحُ بِالْجِرَاحِ^(١٣). فَهَذَا يَسْتَوِي فِيهِ أَخْرَافُ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَرِجَالَهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ، إِذَا كَانَ عَمْدًا، فِي النَّفْسِ وَمَا دُونَ النَّفْسِ، وَيَسْتَوِي فِيهِ الْعَبِيدُ رِجَالَهُمْ

(١) الطبري: ٣٥٧-٣٤٧/١٠ (٢) الطبري: ٣٥٧/١٠ (٣) الطبري: ٣٥٦/١٠ (٤) الطبري: ٥٩٧/٤ (٥) عبد الرزاق: ١٩١/١ والطبري: ٥٩٥/٤ (٦) الطبري: ٣٥٥/١٠ (٧) كذا في الأصل والوجه أن يقال: وتعدى بعضهم على بعض. (٨) النسائي: ٥٨/٨ (٩) ابن ماجه: ٨٩٥/٢ (١٠) أحمد: ٣/١٦٧ (١١) فتح الباري: ١٢٤/٨ ومسلم: ١٣٠٢/٣ (١٢) الطبري: ٣٦٠/١٠

وَسَاؤُهُمْ فِيمَا بَيَّنَّهُمْ، إِذَا كَانَ عَمْدًا فِي النَّفْسِ وَمَا دُونَ
النَّفْسِ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.
قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ

لَا يَجُوزُ أَنْ يُقْتَصَرَ مِنَ الْجَرَاحَةِ حَتَّى تَتَدَمَّلَ جَرَاحَةُ
الْمَجْنِيِّ عَلَيْهِ، فَإِنْ اقْتَصَرَ مِنْهُ قَبْلَ الْإِنْدِمَالِ ثُمَّ زَادَ جُرْحُهُ،
فَلَا شَيْءَ لَهُ، وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ
عَمْرٍو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلًا طَعَنَ رَجُلًا
بِقَرْنٍ فِي رُكْبَتَيْهِ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَوْذَيْتِي، فَقَالَ:
«حَتَّى تَبْرَأَ»، ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَوْذَيْتِي، فَأَقَادَهُ فَقَالَ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، عَرِجْتُ، فَقَالَ: «قَدْ نَهَيْتُكَ فَعَصَيْتَنِي، فَأَبْعَدَكَ
اللَّهُ وَبَطَلَ عَرَجُكَ» ثُمَّ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقْتَصَرَ مِنْ
جُرْحٍ حَتَّى يَبْرَأَ صَاحِبُهُ^(١). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.
(مَسْأَلَةٌ) فَلَوْ اقْتَصَرَ الْمَجْنِيُّ عَلَيْهِ مِنَ الْجَانِي فَمَاتَ مِنَ
الْقِصَاصِ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ مِنَ
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ.

[الْعَفْوُ كَفَّارَةٌ لِلذُّنُوبِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَكَ»
قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «فَمَنْ تَصَدَّقَ
بِهِ» يَقُولُ: فَمَنْ عَفَا وَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْمَطْلُوبِ
وَأَجْرٌ لِلطَّالِبِ^(٢). وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ
السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ
فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْجَارِحِ. وَأَجْرُ الْمَجْرُوحِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٣).
رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «فَمَنْ
تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَكَ» قَالَ: لِلْمَجْرُوحِ، وَرَوَى
عَنْ الْحَسَنِ الْبُسْرِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ وَأَبِي
إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيَّ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عِبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قَالَ: سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُجْرَحُ مِنْ جَسَدِهِ
جَرَاحَةً فَيَتَصَدَّقُ بِهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ مِثْلَ مَا تَصَدَّقَ بِهِ»^(٤)
وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ^(٥).

وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ» قَدْ تَقَدَّمَ عَنْ طَاوُسٍ وَعَطَاءٍ أَنَّهُمَا قَالَا: كُفِّرَ
دُونَ كُفْرِ، وَظَلَمَ دُونَ ظُلْمٍ، وَفَسَقَ دُونَ فِسْقٍ.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَا فِيهِ هُدًى وَنُورًا وَمُصَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾

[ذِكْرُ عِيسَى وَمَدْحُ الْإِنجِيلِ]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَقَفَّيْنَا» أَي أَتْبَعْنَا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ بِعُنَى
أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَةِ﴾ أَي مُؤْمِنًا بِهَا حَاكِمًا بِمَا فِيهَا ﴿وَآيَاتِنَا فِيهِ هُدًى
وَنُورًا﴾ أَي هُدًى إِلَى الْحَقِّ وَنُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِزَالَةِ
الشُّبُهَاتِ وَحَلِّ الْمُسْكَلَاتِ ﴿وَمُصَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَةِ﴾ أَي مُتَّبِعًا لَهَا غَيْرَ مُخَالِفٍ لِمَا فِيهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ
مِمَّا بَيْنَ لَيْسِي إِسْرَائِيلَ بَعْضَ مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ لَيْسِي إِسْرَائِيلَ:
﴿وَلَأَحْجِدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُورِمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]
وَلِهَذَا كَانَ الْمَشْهُورُ مِنْ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْإِنجِيلَ
نَسَخَ بَعْضَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ» أَي وَجَعَلْنَا الْإِنجِيلَ هُدًى يُهْتَدَى بِهِ
﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أَي زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ
﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أَي لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَ وَعِيدَهُ وَعِقَابَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ»
فُرِيَءَ (وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ) بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَامٌ
كَيْ، أَي وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ لِيَحْكُمَ أَهْلَ مِلَّتِهِ بِهِ فِي زَمَانِهِمْ،
وَفُرِيَءَ ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بِالْجَزْمِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَامٌ الْأَمْرِ، أَي
لِيُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا فِيهِ، وَلِيُقِيمُوا مَا أَمُرُوا بِهِ فِيهِ، وَمِمَّا
فِيهِ الْبِشَارَةُ بِعِثَةِ مُحَمَّدٍ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ وَتَصَدِيقِهِ إِذَا
وُجِدَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ
حَتَّىٰ تَقْسِمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ»...
الآيَةَ [المائدة: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ
الَّذِي الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ»
إِلَى قَوْلِهِ «الْمُطَلِحُونَ» [الأعراف: ١٥٧]. وَلِهَذَا قَالَ
هَهُنَا: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»
أَي الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، الْمَائِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ،
التَّارِكُونَ لِلْحَقِّ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي
النَّصَارَى. وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ السِّيَاقِ.

(١) أحمد: ٢١٧/٢ (٢) الطبري: ٣٦٧/١٠ (٣) الطبري:

٣٢٦/١٠ (٤) أحمد: ٣١٦/٥ (٥) النسائي في الكبرى: ٦/

٣٣٥ والطبري: ٣٦٤/١٠

وَعَنِ الْوَالِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أَيَّ شَهِيدًا^(٤).
وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أَيَّ حَاكِمًا
عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ^(٥).

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ الْمَعْنَى، فَإِنَّ اسْمَ الْمُهَيِّمِينَ
يَتَضَمَّنُ هَذَا كُلَّهُ، فَهُوَ أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ
قِيلَهُ، جَعَلَ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ: آخِرَ
الْكِتَابِ وَخَاتَمَهَا وَأَشْمَلَهَا وَأَعْظَمَهَا وَأَكْمَلَهَا، حَيْثُ جَمَعَ
فِيهِ مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ، مَا لَيْسَ فِي
غَيْرِهِ، فَلِهَذَا جَعَلَهُ شَاهِدًا وَأَمِينًا وَحَاكِمًا عَلَيْهَا كُلِّهَا،
وَتَكْفُلُ تَعَالَى بِحِفْظِهِ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أَيَّ
فَأَحْكُمْ يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ النَّاسِ، عَرَبِيَهُمْ وَعَجَبِيَهُمْ، أُمَمِيَهُمْ
وَكَتَابِيَهُمْ، بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ،
وَبِمَا قَوَّرَهُ لَكَ مِنْ حُكْمٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ
يُنْسَخْهُ فِي شَرَعِكَ^(٦). هَكَذَا وَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِمَعْنَاهُ، رَوَى
ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُخَيَّرًا
إِنْ شَاءَ حَكَمَ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ فَوَدَّعَهُمْ إِلَى
أَحْكَامِهِمْ، فَتَزَلَّتْ ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَهُمْ﴾ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا فِي
كِتَابِنَا^(٧).

وَقَوْلُهُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيَّ آرَاءَهُمْ الَّتِي اضْطَلَحُوا
عَلَيْهَا، وَتَرَكُوا بِسَبَبِهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أَيَّ لَا
تَنْصَرِفْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ إِلَى أَهْوَاءِ هَؤُلَاءِ
الْجَهْلَةِ الْأَشْقِيَاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً
وَمِنْهَا جَاءَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا
مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾ [المائدة: ٤٨] قَالَ: سَبِيلًا^(٨) وَعَنْهُ: سَبِيلًا
وَسُنَّةً.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وَهَذَا خِطَابٌ

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً
وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبِّئُكُمْ فِي
مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فِيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٥٨] وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَخَذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُولُوا عَنْ بَعْضِ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ
ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لَفَيَسِفُونَ﴾ [٥٩] أَفْحَكُمُ الْمَجْهَلَةَ
يَتَعَوَّنُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حَكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٦٠]

[مدح القرآن ووصفه والأمر بالحكم به]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى التَّوْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى مُوسَى كَلِيمِهِ،
وَمَدَحَهَا وَأَثْنَى عَلَيْهَا، وَأَمَرَ بِاتِّبَاعِهَا حَيْثُ كَانَتْ سَائِعَةً
الِاتِّبَاعِ، وَذَكَرَ الْإِنْجِيلَ وَمَدَحَهُ وَأَمَرَ أَهْلَهُ بِإِقَامَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَا
فِيهِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ
عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أَيَّ بِالصِّدْقِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أَيَّ مِنْ الْكِتَابِ
الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدَحَهُ، وَأَنَّهُ سَيُنزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَانَ نُزُولُهُ كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ،
مِمَّا زَادَهَا صِدْقًا عِنْدَ حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ الَّذِينَ
انْقَادُوا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَاتَّبَعُوا شَرَائِعَ اللَّهِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَأَمِئْتُ بِهِمْ أَوْ لَا تُوَمِّئُونَ إِنْ الَّذِينَ أَوْلَوْا الْعِلْمَ مِنْ
قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [١٧] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا
إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أَيَّ إِنْ كَانَ
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ مَجِيءِ مُحَمَّدٍ
عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أَيَّ لَكَائِنَا لَا مَحَالَةَ وَلَا بُدَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
وغيره، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ التَّمِيمِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:
أَيَّ مُؤْتَمِنًا عَلَيْهِ^(٩). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ: الْمُهَيِّمِينَ الْأَمِينَ، قَالَ: الْقُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى كُلِّ
كِتَابٍ قَبْلَهُ^(١٠). وَرَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ
وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَعَطِيَّةَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيَّ
وَالسُّدِّيَّ وَابْنَ زَيْدٍ نَحْوَ ذَلِكَ^(١١). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْقُرْآنُ
أَمِينٌ عَلَى الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَبْلَهُ، فَمَا وَافَقَهُ مِنْهَا فَهُوَ حَقٌّ،
وَمَا خَالَفَهُ مِنْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ.

(١) الطبري: ٣٧٨/١٠ (٢) الطبري: ٣٧٩/١٠ (٣) الطبري:

٣٧٧/١٠-٣٨٠ (٤) الطبري: ٣٧٧/١٠ (٥) الطبري: ١٠/١٠

٣٧٩ (٦) الطبري: ٣٨٢/١٠ (٧) الطبري: ٣٣٢/١٠ (٨)

الطبري: ٣٨٧/١٠ إسناده ضعيف فيه أبو إسحاق السبيعي وهو

مدلس ولم يصرح.

لَجَمِيعِ الْأُمَمِ، وَإِخْبَارًا عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْعَظِيمَةِ، الَّتِي لَوْ شَاءَ لَجَمَعَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَشَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يُنْسَخُ شَيْءٌ مِنْهَا، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِكُلِّ رَسُولٍ شَرِيعَةً عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ نَسَخَهَا أَوْ بَعْضَهَا بِرِسَالَةِ الْآخَرِ الَّذِي بَعْدَهُ، حَتَّى نَسَخَ الْجَمِيعَ بِمَا بَعَثَ بِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ، الَّذِي ابْتَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَاطِبَةً، وَجَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَبْلُغُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أَي أَنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ الشَّرَائِعَ مُخْتَلِفَةً لِيَخْتَبِرَ عِبَادَهُ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ، وَيُنَبِّئَهُمْ أَوْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ بِمَا فَعَلُوهُ أَوْ عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ: ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ الْكِتَابِ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَدَبَهُمْ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَاتِّبَاعُ شَرْعِهِ الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ، وَالتَّصَدِيقُ بِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ آخِرُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَي مَعَادُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَمَصِيرُكُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أَي فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ الْعَادِلِينَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، بَلْ هُمْ مُعَانِدُونَ لِلْبُرَاهِينِ الْفَاطِعَةِ، وَالْحُجْجِ الْبَالِغَةِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّامِغَةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يَعْنِي أُمَّةً مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْأَوَّلَ أَظْهَرُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ أَحْسَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ وَالتَّهْيِئَةِ عَنْ خِلَافِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَي وَاحْذَرِ أَعْدَاءَكَ الْيَهُودَ أَنْ يَدْلُسُوا عَلَيْكَ الْحَقَّ فِيمَا يُثْبِتُونَهُ إِلَيْكَ مِنْ أُمُورٍ، فَلَا تَعْتَرِّ بِهَمٍّ، فَإِنَّهُمْ كَذَّبَتْهُ كَفْرَةً خَوْنَةً ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي عَمَّا تَحْكُمُ بِهِ بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَخَالَفُوا شَرْعَ اللَّهِ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أَي فَاغْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ وَحُكْمَتِهِ فِيهِمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الْهُدَى، لِمَا لَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ الَّتِي اقْتَضَتْ إِضْلَالَهُمْ وَنَكَالَهُمْ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أَي إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ نَاجِبُونَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا

أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ نَطَعْنَا أَكْثَرَ مَنِ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ... الآية [الأنعام: ١١٦].
وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسِيدٍ وَابْنُ صَلُوبَا وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ صُورِيًّا وَشَأْسُ بْنُ قَيْسٍ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنُهُ عَنْ دِينِهِ، فَأَنْوَهُ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَابُ يَهُودٍ، وَأَشْرَافُهُمْ، وَسَادَاتُهُمْ، وَإِنَّا إِنْ ابْتِعْنَاكَ ابْتِعْنَا يَهُودَ وَلَمْ يُخَالِفُونَا، وَإِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا حُصُومَةٌ، فَتَحَاكِمُهُمْ إِلَيْكَ، فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ، وَتُؤْمِنُ لَكَ وَنُصَدِّقُكَ، فَأَبَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ: ﴿وَأَنَّ أَحْسَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾^(١).
وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾ يُنَكِّرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُسْتَبِيلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ، وَعَدَلُ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ الَّتِي وَصَعَهَا الرِّجَالُ، بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الصَّلَاحَاتِ وَالْجَهَالَاتِ، مِمَّا يَضْعُونَهَا بِأَرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ النَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمُلْكِيَّةِ الْمَأْخُودَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جَنْكِيزْ خَانَ الَّذِي وَضَعَ لَهُمْ «الْبِسَاقَ»، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدْ افْتَبَسَهَا مِنْ شَرَائِعِ شَتَّى: مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالتَّنْصُرِيَّةِ، وَالمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ، فَصَارَتْ فِي بَيْنِهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أَي يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ، وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ؟ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾؟ أَي وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ، وَآمَنَ بِهِ، وَآيَقَنَ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَحْكَمُ

(١) الطبري: ٣٩٣/١٠ في محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت لا يعرف

كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُوَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

[سَبَبُ النُّزُولِ]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَكَانَتْ أَوَّلَ قَبِيلَةٍ مِنْ الْيَهُودِ نَفَقَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَنُو قَيْنِقَاعَ، فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: فَحَاصِرُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُوفٍ حِينَ أَمَكَنَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنَ فِي مَوَالِيِّ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنَ فِي مَوَالِيِّ، قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ. قَالَ: فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُرْسِلْنِي» وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى رَأَوْا لَوَجْهَهُ ظَلَلًا، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أُرْسِلْنِي» قَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِيِّ: أَرْبَعِمِائَةِ حَاسِرٍ، وَثَلَاثِمِائَةِ دَارِعٍ، قَدْ مَنَعُونِي مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ؟! إِنِّي أَمْرٌ أَحْسَى الدَّوَاتِرَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُم لَكَ».

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ يَسَارٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: لَمَّا حَارَبَتْ بَنُو قَيْنِقَاعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، تَشَبَّتَ بِأَمْرِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي، وَقَامَ دُونَهُمْ، وَمَشَى عُبَادَةَ بْنُ الصَّامِتِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَحَدَ بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ، لَهُ مِنْ حِلْفِهِمْ مِثْلُ الَّذِي لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي، [فَحَلَعَهُمْ] إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَبَرَّأَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ حِلْفِهِمْ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ مِنْ حِلْفِهِمْ، وَأَتَوَلَّى اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَبْرَأُ مِنْ حِلْفِ الْكُفَّارِ، وَوَلَايَتِهِمْ، فَفِيهِ وَفِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي نَزَلَتْ الْآيَاتُ فِي الْمَائِدَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكُفْرِيِّينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٣) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٤)

[مِنْ صِفَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّى عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَبْدِلُ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ، وَأَشَدُّ مَنَعَةً، وَأَقْوَمُ سَبِيلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٥) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]. أَيْ بِمُتَّبِعٍ وَلَا صَعِبٍ. وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أَيْ يَرْجِعُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ. وَهَذَا خَطَابٌ عَامٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكُفْرِيِّينَ﴾ هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْكَمَلِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ وَوَلِيِّهِ، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وَفِي صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ الضُّحُوكُ الْقَتَالُ. فَهُوَ ضُّحُوكٌ لِأَوْلِيَائِهِ، فَتَالٌ لِأَعْدَائِهِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أَيْ لَا يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالتَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، لَا يَرُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادًّا، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ صَادًّا، وَلَا يَحِيكُ فِيهِمْ لَوْمٌ لَائِمٌ، وَلَا عَذْلٌ عَادِلٌ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: أَمْرِي حَلِيلِي ﷺ بِسَبْعِ: أَمْرِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالذُّنُوفِ مِنْهُمْ، وَأَمْرِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمْرِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَذْبَرْتُ، وَأَمْرِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمْرِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمْرِي أَنْ لَا أَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَمْرِي أَنْ أَكْتَبِرَ مِنْ قَوْلٍ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهِنَّ مِنْ كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ^(٦).

وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ: «مَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ» قَالُوا: وَكَيْفَ يَذِلُّ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَتَحَمَّلُ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يُطِيقُ»^(٧). ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ

(١) ابن هشام: ٥٢/٣ (٢) أحمد: ١٥٩/٥ (٣) أحمد: ٥/٤٠٥ وتحفة الأحمدي: ٥٣١/٦ وابن ماجه: ١٣٣٢/٢

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي اتَّقُوا اللَّهَ أَنْ تَتَّخِذُوا هُزُؤًا لِأَعْدَاءِ كُفْرِكُمْ وَلِدِينِكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِشَرَعِ اللَّهِ الَّذِي اتَّخَذَهُ هُزُؤًا وَهُزُؤًا وَلَعِبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَسْتَعْفِفَ مِنْهُ تَقَنَّةً وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

[اسْتَهْزَاءُ الْكُفَّارِ بِالصَّلَاةِ وَالْأَذَانِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ أَي وَكَذَلِكَ إِذَا أَذَنْتُمْ دَاعِينَ إِلَى الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أَيضًا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ مَعَانِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَسُرَائِعِهِ، وَهَذِهِ صِفَاتُ أَتْبَاعِ الشَّيْطَانِ الَّذِي إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ أَدْبَرَ، وَلَهُ حُصَاصٌ - أَي ضُرَاطٌ - حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينَ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوبَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّوْبِ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا - لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ - حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَذْرِي كَيْفَ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدَكُمْ ذَلِكَ، فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ السَّلَامِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢). وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ التَّأْذِينَ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٣) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ هَلْ تَقْتُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَانًا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُ فَسِيفُونَ﴾^(٤) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنَ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ^(٥) وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا أَمَانًا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِنَّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ^(٦) وَرَبِّي كَبِيرٌ مِنْهُمْ يُسَبِّحُونَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَكْبَهُمُ الشُّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٧) لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبِّيُّوتُ وَالْأَحْبَابُ عَن قَوْلِهِمُ الْآيَةَ وَأَكْبَهُمُ الشُّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْعَعُونَ^(٨)

[نِقْمُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿هَلْ تَقْتُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَانًا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أَي هَلْ لَكُمْ عَلَيْنَا مَطْعَنٌ

أَوْ عَيْبٌ إِلَّا هَذَا؟ وَهَذَا لَيْسَ بِعَيْبٍ وَلَا مَذْمَةٍ. فَيَكُونُ الْإِسْتِهْزَاءُ مُنْقَطِعًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤] وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ «مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَبْرِيلَ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَعْنَاهُ اللَّهُ»^(٩). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَكْثَرُ فَسِيفُونَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿أَنْ أَمَانًا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أَي وَأَمَانًا بِأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِيفُونَ، أَي خَارِجُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

[أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْتَحْقُونَ شَرَّ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنَ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَي هَلْ أَحْبَبْتُكُمْ بِشَرِّ جَزَاءٍ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا تَقْنُونَهُ بِنَا؟ - وَهُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ هُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَفْسُورَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَن لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أَي أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَعَضِبَ عَلَيْهِ أَي غَضِبًا لَا يَرْضَى بَعْدَهُ أَبَدًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَكَمَا سَبَّأَنِي إِضَاحُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَقَدْ رَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ: أَهِيَ مِمَّا مَسَخَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْلِكْ قَوْمًا - أَوْ لَمْ يَمَسَخْ قَوْمًا - فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ»^(١٠). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ أَي وَجَعَلَ مِنْهُمْ مَن خَدَمَ الطَّاغُوتَ، أَي خُدَامَهُ وَعَبِيدَهُ، وَالْمَعْنَى أَنَّكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الطَّاغُوتَ فِي دِينِنَا وَالَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَاتِ دُونَ مَا سِوَاهُ، كَيْفَ يَصْدُرُ مِنْكُمْ هَذَا، وَأَنْتُمْ قَدْ وَجِدَ مِنْكُمْ جَمِيعُ مَا ذُكِرَ؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أَي مِمَّا تَقْنُونُونَ بِنَا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ فِيمَا لَيْسَ فِي الطَّرْفِ الْآخِرِ مُشَارَكَةً، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

(١) الطبري: ٤٣٠/١٠ (٢) البخاري: ١٢٢٢، ١٢٣١
 ومسلم: ٣٩٨، ٢٩١/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١١٦٤/٤ (٤) فتح
 الباري: ٣٨٨/٣ ومسلم: ٦٧٦/٢ (٥) مشكل الآثار: ٢٧٥/٤
 (٦) مسلم: ٢٠٥١/٤

[مِنْ عَادَاتِ الْمُتَافِقِينَ إِظْهَارُ الْإِيمَانِ وَإِبْطَانُ الْكُفْرِ]

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيُرِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ تُطْعِنُوا وَكُفَرُوا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقُونَ وَالنَّصْرَىٰ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا اجْعَلُوا إِلَهُكُمْ رَسُولًا لَنَا لَوْ لَا أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٢٠﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُتَافِقِينَ مِنْهُمْ: أَنَّهُمْ يُصَانِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ وَقُلُوبُهُمْ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الْكُفْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أَيِ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِالْكَفْرِ﴾ أَيِ مُسْتَضْحِجِينَ الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ خَرَجُوا وَهُوَ كَأَمِنْ فِيهَا، لَمْ يَتَّبِعُوا بِمَا قَدْ سَمِعُوا مِنْكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا نَجَعَتْ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ وَلَا الرِّوَاغِرُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فَخَصَّهُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْمُونَ﴾ أَيِ وَاللَّهُ عَالِمٌ بِسِرَائِرِهِمْ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَائِرُهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لِخَلْقِهِ خِلَافَ ذَلِكَ، وَتَرْتَبْنَا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمُ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَنْتَ الْجَزَاءُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْمُدُونِ وَأَكْبَهُهُ الشُّحَّتْ﴾ أَيِ يُبَادِرُونَ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَاطِي الْمَأْتِمِ وَالْمَحَارِمِ، وَالْإِعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ، وَأَكْبَلِهِمْ أُمُورَهُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أَيِ لَيْتَسَ الْعَمَلُ كَانَ عَمَلُهُمْ، وَيُسَّسَ الْإِعْتِدَاءِ إِعْتِدَاؤُهُمْ.

[النَّكْبِيرُ عَلَى الرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَخْبَارِ عَلَى تَرْكِهِمُ النَّهْيِ عَنِ الْمَعَاصِي]

قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ مِثْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يَقْطَعُ رِزْقًا وَلَا يُقْرَبُ أَحْلًا^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْنَعُ، وَلَمْ يُعَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعَذَابٍ»^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، يَقْتَدِرُونَ أَنْ يُعَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُعَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا»^(٥) وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْبَهُهُ الشُّحَّتَ لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يَعْنِي هَلَا كَانَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنِ تَعَاطِي ذَلِكَ، وَالرَّبَّانِيُّونَ هُمُ الْعُلَمَاءُ الْعُمَمَالُ أَرْبَابُ الْوَلَايَاتِ عَلَيْهِمْ، وَالْأَخْبَارُ: هُمُ الْعُلَمَاءُ قِطْطٌ. ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١): يَعْنِي الرَّبَّانِيِّينَ، أَنَّهُمْ يَسُّسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ، يَعْنِي فِي تَرْكِهِمْ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَشَدَّ تَوْبِيخًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْبَهُهُ الشُّحَّتَ لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) قَالَ: كَذَا قَرَأَ.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعِنَّا بِمَا قَالُوا بَلَّ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقَفُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيُرِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: حَطَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِرُكُوبِهِمُ الْمَعَاصِي، وَلَمْ يَنْهَهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ، فَلَمَّا تَمَادَوْا فِي الْمَعَاصِي أَخَذَتْهُمْ الْعُقُوبَاتُ. فَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ

(١) الطبري: ٤٥٠/١٠ (٢) الطبري: ٤٤٩/١٠ (٣) كنز العمال: ٦٨٣/٣ (٤) أحمد: ٣٦٣/٤ (٥) أبو داود: ٤/٥١٠ (٦) ابن ماجه: ١٣٢٩/٢

رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
كُلَّمَا أَقْبَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فِسَادًا وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا
لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَذَلْنَا لَهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفَلُوا مِنْ
قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا
يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

[قَوْلُ الْيَهُودِ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ - بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ
عُلُوًّا كَبِيرًا: بِأَنَّهُ بَخِيلٌ، كَمَا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ فَقِيرٌ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ،
وَعَبَّرُوا عَنِ الْبُخْلِ بِأَن قَالُوا: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ
أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ
مَغْلُولَةٌ﴾ قَالَ: لَا يَعْشُونَ بِذَلِكَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مُوثِقَةٌ، وَلَكِنْ
يَقُولُونَ: بِبَخْلِ يَعْنِي أَمْسَكَ مَا عِنْدَهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ
عُلُوًّا كَبِيرًا^(١). وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ
وَالسُّدِّيَّ وَالضَّحَّاكَ^(٢). وَقَرَأَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى
عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]
يَعْنِي أَنَّهُ يَنْهَى عَنِ الْبُخْلِ وَعَنِ التَّيْدِيرِ، وَهُوَ زِيَادَةُ
الْإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَعَبَّرَ عَنِ الْبُخْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا
تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] وَهَذَا هُوَ الَّذِي
أَرَادَ هُوَ لِإِثْمِ الْيَهُودِ، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ:
إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي فِتْنَةِ الْيَهُودِيِّ^(٣) عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ
أَنَّهُ الَّذِي قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران:
١٨١] وَرَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ مَا قَالُوهُ، وَقَابَلَهُمْ فِيمَا
اخْتَلَفُوهُ وَأَفْتَرُوهُ وَاتَّفَكَّهُوهُ، فَقَالَ: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعُنُوا بِمَا
قَالُوا﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ لَهُمْ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبُخْلِ،
وَالْحَسَدِ، وَالْجُبْنِ، وَالذَّلَّةِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿أَمْ لَمْ نَصِبْ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ الْقُدْرَةَ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نِقَبًا﴾ ﴿٥٢﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ
إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا... الآية
[النساء: ٥٣، ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ
الذَّلَّةَ﴾... [آل عمران: ١١٢] الآية.

[يَدَا اللَّهِ مَبْسُوطَتَانِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَي
بَلْ هُوَ الْوَاسِعُ الْفَضْلُ، الْجَزِيلُ الْعَطَاءُ، الَّذِي مَا مِنْ شَيْءٍ

إِلَّا عِنْدَهُ خَزَائِنُهُ، وَهُوَ الَّذِي مَا يَخْلُقُهُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي خَلَقَ لَنَا كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فِي
لَيْلِنَا وَنَهَارِنَا، وَحَضَرِنَا وَسَفَرِنَا، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِنَا، كَمَا
قَالَ: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ
لَا تحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]
وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:
حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ:
هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ
يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،
أَرَأَيْتُمْ مَا أَتَفَقُّ مِنْهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ
مَا فِي يَمِينِهِ - قَالَ - وَعَرَشُهُ عَلَى الْمَاءِ. وَفِي يَدِهِ
الْأُخْرَى الْقَبْضُ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ». وَقَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:
«أَنْفِقْ، أَنْفِقْ عَلَيْكَ»^(٤). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٥).

[مَا نَزَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَزِيدُ الْيَهُودَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا]

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُرِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أَي يَكُونُ مَا آتَاكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ مِنَ النِّعْمَةِ نِقْمَةً
فِي حَقِّ أَعْدَائِكَ مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ، فَكَمَا يَزْدَادُ بِهِ
الْمُؤْمِنُونَ تَصَدِيقًا وَعَمَلًا صَالِحًا، وَعِلْمًا نَافِعًا، يَزْدَادُ بِهِ
الْكَافِرُونَ الْحَاسِدُونَ لَكَ وَلَا تَمَتَّكَ ﴿طُغْيَانًا﴾، وَهُوَ الْمُبَالِغَةُ
وَالْمَجَاوِزَةُ لِلْحَدِّ فِي الْأَشْيَاءِ، ﴿وَكُفْرًا﴾ أَي تَكْذِيبًا، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ
يُتَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى:
﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ
الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَيْنَا
بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ لَا تَجْتَمِعُ
قُلُوبُهُمْ بَلِ الْعَدَاوَةُ وَاقِعَةٌ بَيْنَ فِرْقَتَيْهِمْ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ
دَائِمًا، لِأَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى حَقٍّ، وَقَدْ خَالَفُوا
وَكَذَّبُوا.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَقْبَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أَي كُلَّمَا
عَقَدُوا أَسْبَابًا يَكِيدُونَكَ بِهَا، وَكُلَّمَا أُرْمُوا أُمُورًا
يُحَارِبُونَكَ بِهَا، أَبْطَلَهَا اللَّهُ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَاقَ
مَكْرَهُمُ السَّيِّئُ بِهِمْ ﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فِسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) الطبري: ٤٥٢/١٠ (٢) الطبري: ٤٥٣/١٠ (٣) الطبري:

١٥٣/١٠ (٤) أحمد: ٣١٣/٢ (٥) فتح الباري: ٤١٥/١٣

ومسلم: ٦٩١/٢

الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٧﴾ أَي مِنْ سَجِيَّتِهِمْ أَنَّهُمْ دَائِمًا يَسْعَوْنَ فِي الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ.
[لَوْ عَمِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِكِتَابِهِمْ لَحَصَلَ لَهُمْ خَيْرًا دُنْيَا وَالْآخِرَةَ]

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أَي لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاتَّقَوْا مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنَ الْمَائِمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أَي لَأَرْزُقْنَا عَنْهُمْ الْمُحْذَرَّ وَأَنْتَلَاهُمْ الْمَمْضُودَ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْرَةٌ: يَعْنِي الْقُرْآنَ ^(١). ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أُنُجُلِهِمْ﴾ أَي لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي الْكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا تَغْيِيرٍ، لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَى مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنْ كُتِبَهُمْ نَاطِقَةٌ بِتَصْدِيقِهِ وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ حَتْمًا لَا مَحَالَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أُنُجُلِهِمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ كَثْرَةَ الرِّزْقِ النَّازِلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِثِ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية [الأعراف: ٩٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُودُوكَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وَكَقَوْلِهِ عَنْ أَتْبَاعِ عِيسَى ﴿فَقَاتِلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ...﴾ الآية [الحديد: ٢٧]، فَجَعَلَ أَعْلَى مَقَامَاتِهِمُ الْإِقْتِصَادَ، وَهُوَ أَوْسَطُ مَقَامَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ رُتْبَةُ السَّاقِطِينَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَرْزُقْنَا الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٧﴾﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسْوَدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْوُلُوا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٣].

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّبْلِيغِ وَالْوَعْدُ بِالْعِصْمَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِاسْمِ

الرِّسَالَةِ، وَأَمْرًا لَهُ بِإِبْلَاحِ جَمِيعِ مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ، وَقَدْ امْتَنَلْ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ذَلِكَ، وَقَامَ بِهِ أَنْتُمْ الْقِيَامَ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَذَبَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ الآية ^(٢). هَكَذَا رَوَاهُ هَاهُنَا مُخْتَصِرًا وَقَدْ أَخْرَجَهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِهِ مُطَوَّلًا، وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ ^(٣). وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَّتِهِمَا ^(٤). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهَا أَيْضًا أَنَّهَا قَالَتْ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ^(٥).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: مِنَ اللَّهِ الرِّسَالَةَ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ ^(٦). وَقَدْ شَهِدَتْ لَهُ أُمَّتُهُ بِإِبْلَاحِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَاسْتَنْطَقَهُمْ بِذَلِكَ فِي أَعْظَمِ الْمَحَافِلِ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ مِنْ أَصْحَابِهِ نَحْوُ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا ^(٧). كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَئِذٍ: «أُيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَعَلَ يُرْفَعُ إِصْبَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَقْلِبُهَا إِلَيْهِمْ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟» ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ يَعْنِي وَإِنْ لَمْ تُؤَدِّ إِلَى النَّاسِ مَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ، ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أَي وَقَدْ عَلِمَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يَعْنِي إِنْ كَتَمْتَ آيَةً مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَمْ تَبْلُغْ رِسَالَتَهُ ^(٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أَي بَلِّغْ أَنْتَ

(١) الطبري: ٤٦٣/١٠ (٢) فتح الباري: ١٢٤/٨ (٣) مسلم: ١٥٩/١ (٤) تحفة الأوحدي: ٤٤١/٨ والنسائي في الكبرى: ٣١٥/٦ (٥) فتح الباري: ٤١٥/١٣ ومسلم: ١٦٠/١ (٦) فتح الباري: ٥١٢/١٣ (٧) هكذا والرواية في ذلك كما يقول القاضي سليمان المنصورفوري في رحمة للعالمين ٢٦٦/١ وهو يذكر خطبته ﷺ في حجة الوداع بعرفة: «وقد بلغ عدد العابدين لله في هذه الأرض مائة وأربعًا وأربعين، أو أربعًا وعشرين ألفًا». (٨) مسلم: ٨٨٦/٢ (٩) الطبري: ٤٦٨/١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٠

وَحَسِبُوا أَن لَّاتُكُونَ فَتَنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ يَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَنَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَكْتَفِرُوا أَعْمَاءُ يَقُولُونَ لِمَن سَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ ﴿٧٠﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧١﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الطَّعَامِ أَنْظَرَكِيفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرَانِي يُؤْفِكُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ اتَّبِعُونِ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٣﴾

مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْإِيمَانُ بِمَبْعَيْهِ، وَالْإِقْدَاءُ بِشَرِيْعَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَرْدِكُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طَغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكُفْرَانِ﴾ أَيُّ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَهْدِنَاكَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَةِ ﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ لَمَّا طَالَ الْفَضْلُ حَسَنَ الْعَطْفِ بِالرَّفْعِ، وَالصَّابِقُونَ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى وَالْمَجُوسِ لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا النَّصَارَى فَمَعْرُوفُونَ، وَهُمْ حَمَلَةُ الْإِنْجِيلِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ الْمِيعَادُ وَالْجَزَاءُ يَوْمَ الدِّينِ، وَعَمِلَتْ عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

(١) أحمد: ١٤١/٦ (٢) فتح الباري: ٢٣٢/١٣ ومسلم: ٤/١٨٧٥ (٣) فتح الباري: ٩٥/٦ ومسلم: ٤/١٨٧٥ والصحيح أن دخوله ﷺ بعائشة كان في السنة الأولى من الهجرة. (٤) تحفة الأحوذى: ٤١٠/٨ (٥) الطبري: ٤٦٩/١٠ والحاكم: ٢/٣١٣

رِسَالَتِي وَأَنَا حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ، وَمُوَيْدُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ وَمُظْفَرُكَ بِهِمْ، فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، فَلَن يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْكَ بِسُوءِ يُؤْذِنِكَ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ يُحْرَسُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَحُدُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَهَرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَهِيَ إِلَى جَنْبِهِ قَالَتْ: فَقُلْتُ مَا شَأْنُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يُحْرَسُنِي اللَّيْلَةَ» قَالَتْ: فَبَيْنَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّلَاحِ، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: أَنَا سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ. فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قَالَ: جِئْتُ لِأَحْرُسَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ غَطِيطَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَوْمِهِ^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢). وَفِي لَفْظٍ: سَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ. يَعْنِي عَلَى إِثْرِ هِجْرَتِهِ بَعْدَ دُخُولِهِ بِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ مِنْهُ^(٣).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قَالَتْ: فَأَخْرَجَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقَبَّةِ وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ^(٤). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ بَلَغَ أَنْتَ وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ: ﴿فَالْمَا عَلَيْكَ أَلْبَلَعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلْيَرْدِكُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طَغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكُفْرَانِ﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّادِقُونَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

[لَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أَيُّ مِنَ الدِّينِ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، أَيُّ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا بَأَيْدِيكُمْ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَنَزَّلَةِ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَتَعَمَّلُوا بِمَا فِيهَا، وَمِمَّا فِيهَا: الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ

بَعْدَ إِزْسَالِ صَاحِبِهَا الْمُبْعُوثِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، فَمَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَلَا عَلَى مَا تَرَكُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى نَظِيرَتِهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أُغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالِمْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٥﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَبِيرٌ بِهِمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يَذُكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَفَقَضُوا تِلْكَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ وَاتَّبَعُوا آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وَقَدَّمُواهَا عَلَى الشَّرَائِعِ، فَمَا وَافَقَهُمْ مِنْهَا قَبِلُوهُ وَمَا خَالَفَهُمْ رَدُّوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٥﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ أَيَّ وَحَسِبُوا أَنْ لَا يَتَرْتَّبَ لَهُمْ شَرٌّ عَلَى مَا صَنَعُوا، فَتَرْتَّبَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمُوا عَنِ الْحَقِّ وَصَمُوا، فَلَا يَسْمَعُونَ حَقًّا وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، أَيَّ مِمَّا كَانُوا فِيهِ، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ أَيَّ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿كَبِيرٌ بِهِمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَيَّ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَايَةَ مِنْهُمْ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْهَوْهُمَا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَنْتُمْ صَادِقَةٌ كَانَا بِأَعْيُنِنَا نَنْظُرُ الْكٰفِرِينَ كَيْفَ يُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ نَنْظُرُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿كُفْرُ النَّصَارَى وَدَعْوَةُ الْمَسِيحِ لِلتَّوْحِيدِ﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا بِتَكْفِيرِ فِرْقِ النَّصَارَى مِنَ الْمَلَكِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّسْطُورِيَّةِ، مِمَّنْ قَالَ مِنْهُمْ: بِأَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ وَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عُلُوًّا كَبِيرًا، هَذَا

وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْمَسِيحُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِهَا وَهُوَ صَغِيرٌ فِي الْمَهْدِ أَنْ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَنَا اللَّهُ، وَلَا ابْنُ اللَّهِ، بَلْ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وَأَنْتَ الْكَذِبُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ قَالَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٠-٣٦] وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُمْ فِي حَالِ كُفُولَتِهِ وَتُبُوتهِ أَمِيرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَبِّهِمْ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أَيَّ فَيَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أَيَّ فَقَدْ أَوْجَبَ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَدْعَى أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَقْبِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَلَّةِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُنَادِيًا يُنَادِي فِي النَّاسِ: ﴿إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ﴾ وَفِي لَفْظٍ: «مُؤْمِنَةٌ»^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أَيَّ وَمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ نَاصِرٌ وَلَا مُعِينٌ، وَلَا مُنْقِذٌ مِمَّا هُوَ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّصَارَى خَاصَّةً، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ فِي جَعْلِهِمُ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ

الْهَيْزَلِ مَعَ اللَّهِ، فَجَعَلُوا اللَّهَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ^(٢) بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ. قَالَ السُّدِّيُّ: وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنَ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحٰنَكَ﴾ الْآيَةُ [المائدة: ١١٦]^(٣)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أَيَّ لَيْسَ مُتَعَدِّدًا بَلْ هُوَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلَهٌ جَمِيعُ الْكُلِّيَّاتِ وَسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمْتَهَدِّدًا: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْهَوْهُمَا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيَّ مِنْ هَذَا الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيَّ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَغْلَالِ وَالنَّكَالِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١) فتح الباري: ٢٠٧/٦ (٢) الطبري: ٤٨٣/١٠ (٣)

وَهَذَا مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى وَجُودِهِ وَطُفْهِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، مَعَ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَهَذَا الْإِفْرَاءِ وَالْكَذِبِ وَالْإِفْكِ: يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفُورَةِ، فَكُلُّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ.

[الْمَسِيحُ عَبْدٌ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَي لَهُ سَوِيَّةٌ أَمْثَالُهُ مِنْ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ الْكَرَامِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ﴾ أَي مُؤْمِنَةٌ بِهِ مُصَدِّقَةٌ لَهُ، وَهَذَا أَعْلَى مَقَامَاتِهَا، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أَي يَحْتَاجَانِ إِلَى التَّغْدِيَةِ بِهِ، وَإِلَى خُرُوجِهِ مِنْهُمَا، فَهَمَا عَبْدَانِ كَسَائِرِ النَّاسِ، وَلَيْسَا بِالْهَيْبَةِ كَمَا زَعَمَتْ فِرْقَةُ النَّصَارَى الْجَهْلَةَ، عَلَيْهِمْ تَعَايُنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿انظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أَي نُوضِحَهَا وَنُظِّهَرَهَا ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ أَي ثُمَّ انظُرْ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ وَبِأَيِّ قَوْلٍ يَتَمَسَّكُونَ؟ وَإِلَى أَيِّ مَذْهَبٍ مِنَ الضَّلَالِ يَذْهَبُونَ؟

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٧٧﴾

[الْتَّهْيُ عَنِ الشَّرِكِ وَالْغُلُوفِ فِي الدِّينِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ عَبْدَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْلِيَانِ، وَمُبَيِّنًا لَهُ أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنْ الْإِلَهِيَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أَي يَا مُحَمَّدٌ لَهُؤُلَاءِ الْعَابِدِينَ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ سَائِرِ فِرْقِ بَنِي آدَمَ، وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ النَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَي لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ ضَرِّ عَنكُمْ وَلَا إِصْصَالَ نَفْعٍ إِلَيْكُمْ ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَي السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْهُ إِلَى عِبَادَةِ جَمَادٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا لغيره وَلَا لِنَفْسِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ لَبِئْسَ بِلَانٍ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أَي لَا تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَلَا تُطْرُقُوا مَنْ أَمَرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ، فَتَبَالِغُوا فِيهِ حَتَّى تُخْرِجُوهُ عَنْ حَيْزِ الثَّبُوتِ إِلَى مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ، كَمَا صَنَعْتُمْ فِي الْمَسِيحِ وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَجَعَلْتُمُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَقْتِدَائِكُمْ بِشُيُوخِكُمْ، شُبُوحِ الضَّلَالِ الَّذِينَ هُمْ سَلْفُكُمْ يَمُنُّونَ بِمَا قَدِيمًا ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أَي وَخَرَجُوا عَنْ طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْإِعْتِدَالِ إِلَى طَرِيقِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٨١﴾

[لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ]

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(٧). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَدِيثَةٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَذُلَّ نَفْسَهُ» قِيلَ: وَكَيْفَ يَذُلُّ نَفْسَهُ؟! قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يَطِيقُ»^(٨). وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(٩).

[ذَمُّ الْمُنَافِقِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَرِهَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ مَا فَدَمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَوَالَاتِهِمْ لِلْكَافِرِينَ، وَتَرَكَّهُمْ مَوَالَاةَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّتِي أَعَقَبَتْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَسْحَطَتِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سُخْطًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ مَعَادِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وَفَسَّرَ بِذَلِكَ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنََّّهُمْ ﴿فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِيَاءَهُمْ﴾ أَيُّ لَوْ آمَنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ لَمَا اتَّخَذُوا مَا اتَّخَذُوهُ مِنْ مَوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي الْبَاطِنِ، وَمُعَادَاةَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أَيُّ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، مُخَالِفُونَ لِآيَاتِ وَحْيِهِ وَتَثْرِيلِهِ.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُوكَ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَهُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ فِيمَا أُنزِلَتْ عَلَى دَاوُدَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، بِسَبِّ عَضْيَانِهِمْ لِلَّهِ، وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ، قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَعِنُوا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَفِي الزَّبُورِ وَفِي الْقُرْآنِ. ثُمَّ بَيَّنَّ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أَيُّ كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَنَاقِمِ وَالْمَحَارِمِ. ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِيُحَدِّثَ أَنْ يُرَكَّبَ مِثْلَ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

[أَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ

عَنِ الْمُنْكَرِ]

وَالْأَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَلِنَذَكُرُ مِنْهَا مَا يُنَاسِبُ هَذَا الْمَقَامَ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَدِيثَةِ بِنِ الْيَمَانِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدَعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»^(١٠). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١١).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَعْبِرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَوْعَى»^(١٢) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنِ الْعُرْسِ، يَعْنِي ابْنَ عَمِيرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا عُيِّلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مِنْ شَهَدَاةَا فِكْرِهِمَا - وَقَالَ مَرَّةً: فَأَنْكَرَهَا - كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهَدَهَا»^(١٣). تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْلَمُوا - أَوْ يُعْلَمُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»^(١٤). وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حَاطِبِيًّا، فَكَانَ فِيمَا قَالَ: «أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ». قَالَ: فَبَكَى أَبُو سَعِيدٍ، وَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ رَأَيْنَا أَشْيَاءَ فَهَيْبَتَا^(١٥).

وَفِي حَدِيثٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) أحمد: ٣٨٨/٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٩١/٦ (٣) مسلم: ٦٩/١ (٤) أبو داود: ٤٣٤٥ (٥) أبو داود: ٤٣٤٧ (٦) ابن ماجه: ٤٠٠٧ (٧) أبو داود: ٥١٤/٤ وتحفة الأحوذى: ٣٩٥/٦ وابن ماجه: ١٣٢٩/٢ (٨) أحمد: ١٤٠٥/٥ (٩) تحفة الأحوذى: ٥٣١/٦ وابن ماجه: ١٣٣٢/٢

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾
[بَيَانُ سَبَبِ التَّرْوِلِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ]

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالشَّدِيدِيُّ وَغَيْرُهُمَا: نَزَلَتْ فِي
وَفِدَّ بَعَثَهُمُ النَّجَاشِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَسْمَعُوا كَلَامَهُ وَيَرَوْا
صِفَاتِهِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ أَسْلَمُوا وَبَكَوْا
وَخَشَعُوا، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فَأَخْبَرُوهُ^(١). وَقَالَ
عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: هُمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ أَسْلَمُوا
حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مَهَاجِرَةُ الْحَبَشَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ
قَتَادَةُ: هُمْ قَوْمٌ كَانُوا عَلَى دِينِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَلَمَّا
رَأَوْا الْمُسْلِمِينَ، وَسَمِعُوا الْقُرْآنَ أَسْلَمُوا وَلَمْ
يَتَلَعَّمُوا^(٢). وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي
صِفَةِ أَقْوَامٍ يَهْدِيهِ الْمَنَابِئُ، سِوَاءَ كَانُوا مِنَ الْحَبَشَةِ أَوْ
غَيْرِهَا.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا
الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ كُفْرٌ
عِنَادٌ وَجُحُودٌ وَمُبَاهَاةٌ لِلْحَقِّ وَعَمْطٌ لِلنَّاسِ وَتَنْقُصٌ بِحَمَلَةِ
الْعِلْمِ، وَلِهَذَا قَتَلُوا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى هَمُّوا بِقَتْلِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَسَمَوْهُ وَسَجَرُوهُ، وَأَلْبَسُوا عَلَيْهِ
أَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمُنْتَابِعَةِ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾ أَيِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ نَصَارَى
مِنْ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ وَعَلَى مَنَاجِيعِهِ، فِيهِمْ مَوَدَّةٌ لِلْإِسْلَامِ
وَأَهْلِهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إِذْ كَانُوا
عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ مِنَ الرَّفَقَةِ وَالرَّأْفَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانَةٌ﴾
[الحديد: ٢٧] وَفِي كِتَابِهِمْ: مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ
فَأَازِرْ لَهُ خَدِّكَ الْأَيْسَرَ. وَلَيْسَ الْقِتَالُ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِمْ،
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهَابَانًا
وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيِ يُوجَدُ فِيهِمْ الْقَسِيسُونَ وَهُمْ
حُطْبَاءُ وَهُمْ وَعُلَمَاءُ وَهُمْ، وَاجِدُهُمْ قَسِيسٌ وَقَسٌّ أَيْضًا، وَقَدْ
يُجْمَعُ عَلَى قَسُوسٍ، وَالرُّهْبَانُ جَمْعُ رَاهِبٍ، وَهُوَ الْعَابِدُ،
مُسْتَقٌ مِنَ الرَّهْبَةِ، وَهِيَ الْخَوْفُ، كَرَاكِبٍ وَرُكْبَانٍ،
وَقُرْسَانٍ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حَامِيَةَ بِنِ رَثَابٍ قَالَ:
سَمِعْتُ سَلْمَانَ وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ

وَأِذَا سَمِعُوا مَا نُزِّلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَنْبِئَهُمُ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا لَوْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ بِآيَاتِهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طيبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ
بِالْغُفْوِ فِي آيَمِنِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ
فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطَعْتُمْ مِنْ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ آيَمِنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا
آيَمِنَكُمْ كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

فَتَسْبِيتِ وَرَهْبَانًا﴾ فَقَالَ: هُمُ الرُّهْبَانُ الَّذِينَ هُمُ فِي
الصَّوَامِعِ وَالْخَرْبِ. فَدَعَوْهُمْ فِيهَا. قَالَ سَلْمَانُ: وَقَرَأْتُ
عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾ فَأَقْرَأَنِي (ذَلِكَ
بِأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ وَرُهْبَانًا)^(٣). فَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ نَصَّمَنْ وَصَفَّهُمْ بِأَنَّ
فِيهِمُ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ وَالتَّوَاضُّعَ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالْإِنْفِيَادِ لِلْحَقِّ
وَاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْصَافِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا نُزِّلَ إِلَى الرَّسُولِ
تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أَيِ مِمَّا
عِنْدَهُمْ مِنَ الْبِشَارَةِ بِبِعْثِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيِ مَعَ مَنْ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ هَذَا وَيُؤْمِنُ
بِهِ.

وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ النَّصَارَى هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ

(١) الطبري: ٥٠٠، ٤٩٩/١٠ (٢) الطبري: ٥٠١/١٠ (٣)
الطبراني: ٢٦٦/٦ إسناده ضعيف فيه يحيى بن عبد الحميد
الحماني ونصير بن زياد الطائي كلاهما ضعيف [مجمع الزوائد /

تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ...﴾ [آية: آل عمران: ١٩٩] وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنزلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَهْلِينَ﴾ [المقصص: ٥٢-٥٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿فَأْتَيْنَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أَي فَجَازَاهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَتَصَدِيقِهِمْ وَاعْتِرَافِهِمْ بِالْحَقِّ ﴿جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ تَحْوِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أَي مَا كَيْسَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَي فِي اتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ وَانْفِيسِهِمْ لَهُ، حَيْثُ كَانَ وَأَيْنُ كَانَ وَمَعَ مَنْ كَانَ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الْأَشْيَاءِ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَي جَحَدُوا بِهَا وَخَالَفُوهَا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أَي هُمْ أَهْلُهَا وَالِدَاخِلُونَ فِيهَا.

﴿يَكْتُمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيْبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٧﴾ وَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾

[لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالُوا: نَقَطُ مَذَائِبِنَا، وَنَتْرُكُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَنَسِيخُ فِي الْأَرْضِ كَمَا يَفْعَلُ الرَّهْبَانُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِكَيْتِي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي، وَأَنَا، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَمَنْ أَخَذَ بِسُنَّتِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَرَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى الْفِرَاشِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَوَلَّى أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا، لِكَيْتِي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنَا، وَأَقُومُ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْسَدُوا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ

مِنْهُ: وَلَا تُبَالِغُوا فِي التَّضْيِيقِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِتَحْرِيمِ الْمُبَاهَاةِ عَلَيْكُمْ، كَمَا قَالَ مَنْ قَالَهُ مِنَ السَّلَفِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: كَمَا لَا تَحْرَمُوا الْحَلَالَ، فَلَا تَعْتَدُوا فِي تَنَاوُلِ الْحَلَالَ، بَلْ خُذُوا مِنْهُ بِقَدْرِ كِفَايَتِكُمْ وَحَاجَتِكُمْ، وَلَا تَجَاوِزُوا الْحَدَّ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا...﴾ [آية: الأعراف: ٣١]، وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] فَشَرَعَ اللَّهُ عَدْلًا بَيْنَ الْعَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَحْرَمُوا طَيْبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أَي فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلالًا طَيِّبًا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ، وَاتَّبِعُوا طَاعَتَهُ وَرِضْوَانَهُ، وَاتْرَكُوا مُخَالَفَتَهُ وَعِصْيَانَهُ ﴿الَّذِي أَنْتَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

[اللَّغْوُ فِي الْيَمِينِ]

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَأَنَّهُ قَوْلُ الرَّجُلِ فِي الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ: لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ.

[كَفَّارَةُ الْيَمِينِ]

﴿فَكَفَّرْتُمُوهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ يَعْنِي مَحَاوِيحَ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَمَنْ لَا يَجِدُ مَا يَكْفِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَكْرِمَةُ: أَي مِنْ أَعْدَلِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ^(٣). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: مِنْ أَمْثَلِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ هِيَ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْكِسْوَةِ مَا يَصِحُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، إِنْ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً كُلَّ بِحَسْبِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) الطبري: ٥١٨/١٠ (٢) فتح الباري: ٥/٩ ومسلم: ٢/١٠٢٠ (٣) الطبري: ٥٤١/١٠ (٤) الطبري: ٥٣١/١٠

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: عِبَاءَةٌ لِكُلِّ مَسْكِينٍ أَوْ شَمْلَةٌ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَذْنَاهُ تَوْبٌ وَأَعْلَاهُ مَا شِئْتَ^(٢).
وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَحَمَادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ وَأَبُو مَالِكٍ. تَوْبٌ تَوْبٌ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبٍ﴾ وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُؤْمِنَةً كَمَا نَبَتْ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ الَّذِي هُوَ فِي مُوطَأَ مَالِكٍ وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ عَلَيْهِ عِثْقَ رَقَبَةٍ، وَجَاءَ مَعَهُ بَجَارِيَةٌ سُودَاءُ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(٤) الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ.

فَهَذِهِ خِصَالُ ثَلَاثٍ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، أَيُّهَا فَعَلَ الْحَاثُتُ أَجْزَأَ عِنْدَهُ بِالْإِجْمَاعِ، وَقَدْ بَدَأَ بِالْأَسْهَلِ، فَالْإِطْعَامُ أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ مِنَ الْكِسْفَةِ، كَمَا أَنَّ الْكِسْفَةَ أَيْسَرُ مِنَ الْعِثْقِ، فَتَرَفَّى فِيهَا مِنَ الْأَذْنَى إِلَى الْأَعْلَى، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرِ الْمُكَلَّفُ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ كَفَّرَ بِصِيَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا لثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾. وَقَدْ قَرَأَهَا أَبُو بَنِي بَنِي كَعْبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأَصْحَابُهُ: (فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ)^(٥). وَهَذِهِ إِذَا لَمْ يَنْبُتْ كَوْنُهَا فَرَاتًا مُتَوَاتِرًا، فَلَا أَقَلَّ أَنْ يَكُونَ خَبْرًا وَاحِدًا أَوْ تَفْسِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَهُوَ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ.

قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْدِيكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أَيُّ هَذِهِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ: لَا تَتْرُكُوهَا بِغَيْرِ تَكْفِيرٍ^(٦). ﴿كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أَيُّ يُوَضِّحُهَا وَيُفَسِّرُهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَذْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٧) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ^(٨) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ

الْمُبِينُ^(٩) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(١٠)

[تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ تَعَاطِيِ الْخَمْرِ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٢٣

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَذْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(١) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ^(٢) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ^(٣) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٤) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٥) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكِمْبَةِ أَوْ كَفَرَةً طَعَامٌ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْقِصَابٍ^(٦)

وَالْمَيْسِرِ، وَهُوَ الْقِمَارُ، وَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَبِيهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الشُّطْرُنْجُ مِنَ الْمَيْسِرِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِيهِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٧). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ لَيْثٍ، عَنْ عَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ قَالُوا: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْقِمَارِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ حَتَّى لَعِبَ الصَّبِيَّانَ بِالْجُوزِ^(٨). وَعَنْ ابْنِ عُمرٍ، قَالَ: الْمَيْسِرُ هُوَ الْقِمَارُ^(٩). وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: الْمَيْسِرُ هُوَ الْقِمَارُ، كَانُوا يَتَقَامَرُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى مَجِيءِ الْإِسْلَامِ، فَتَنَاهَهُمُ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْقَبِيحَةِ^(١٠).

(١) الطبري: ٥٤٧/١٠ عطية العوفي تقدم حكمه (٢) الطبري: ٥٤٥/١٠

(٣) الطبري: ٥٤٦، ٥٤٥/١٠ (٤) الموطأ: ٢/٧٧٦ والرسالة: ٧٥ ومسلم: ٣٨/١ (٥) الطبري: ٣١/٥ (٦)

الطبري: ٥٦٢، ٥٦٠/١٠ (٧) إسناده مرسل (٨) الطبري: ٤/٣٢٣، ٣٢٢

(٩) الطبري: ٣٢٥/٤ (١٠) الطبري: ٤/٣٢٤ الضحاك لم يلق ابن عباس كما مر.

[تَفْسِيرُ الْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ]

وَأَمَّا الْأَنْصَابُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هِيَ حِجَارَةٌ كَانُوا يَذْبَحُونَ قَرَابِينَهُمْ عِنْدَهَا، وَأَمَّا الْأَزْلَامُ فَقَالُوا أَيْضًا: هِيَ فِدَاحٌ كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجَسُّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ سَخَطٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ^(١). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: إِنَّهُ^(٢). وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: أَيُّ شَرٍّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ^(٣). ﴿فَأَجْتَبَوْهُ﴾ الصَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الرَّجْسِ، أَيُّ انْتِرَاكُهُ ﴿لَمَلَكْتُمْ تَلْحُوهُ﴾ وَهَذَا تَرْغِيبٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَتَرْهيبٌ.

ذَكَرَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةَ فِي بَيَانِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَأْكُلُونَ الْمَيْسِرَ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [البقرة: ٢١٩].

فَقَالَ النَّاسُ: مَا حُرِّمًا عَلَيْنَا إِنَّمَا قَالَ: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ﴾، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ حَتَّى كَانَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ، صَلَّى رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، أَمَّ أَصْحَابَهُ فِي الْمَغْرِبِ، فَخَلَطَ فِي قِرَاءَتِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ أَعْلَظَ مِنْهَا ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فَكَانَ النَّاسُ يَشْرَبُونَ حَتَّى يَأْتِيَ أَحَدُهُمُ الصَّلَاةَ وَهُوَ مُهَيِّقٌ، ثُمَّ أَنْزَلَتْ آيَةٌ أَعْلَظَ مِنْهَا ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبُوا لَهُمْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٩٠] قَالُوا: إِنْتَهَيْنَا رَبَّنَا. وَقَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَاسٌ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَنَاسٌ مَاتُوا عَلَى فُرْشِهِمْ، كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَأْكُلُونَ الْمَيْسِرَ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ رِجْسًا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَتَرَكُوهُ كَمَا تَرَكْتُمْ»^(٤) انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ لَنَا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا

شَافِيًا، فَزَلَّتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبُقْعَةِ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فَدْعِي عُمَرَ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَزَلَّتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ فَكَانَ مُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَالَ: حَتَّى عَلَى الصَّلَاةِ، نَادَى: لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانٌ. فَدْعِي عُمَرَ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَزَلَّتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، فَدْعِي عُمَرَ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ قَالَ عُمَرُ: إِنْتَهَيْنَا إِنْتَهَيْنَا^(٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ^(٦). وَصَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَيَّ بْنُ الْمَدِينِيِّ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَقَدْ تَبَتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى مَنبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَهِيَ مِنْ خَمْسَةِ: الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ وَالعَسَلِ، وَالحِنْطَةِ وَالتَّسْعِيرِ، وَالحُمُرِ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ^(٧). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَإِنَّ بِالْمَدِينَةِ يَوْمَئِذٍ لَخَمْسَةٌ أُشْرِبِيَّةٌ، مَا فِيهَا شَرَابُ الْعِنَبِ^(٨).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنْتُ أَسْقِي أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ وَأَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ، وَسَهِيلَ ابْنَ بَيْضَاءَ وَنَفْرًا مِنْ أَصْحَابِهِ عِنْدَ أَبِي طَلْحَةَ حَتَّى كَادَ الشَّرَابُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ، فَآتَى آتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: أَمَا سَعَرْتُمْ أَنْ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ؟ فَقَالُوا: حَتَّى نَنْظُرَ وَنَسْأَلَ، فَقَالُوا: يَا أَنَسُ، إِسْكَبْ مَا بَقِيَ فِي إِيَّانِكَ. فَوَاللَّهِ! مَا عَادُوا فِيهَا، وَمَا هِيَ إِلَّا التَّمْرُ وَالتَّبَسْرُ، وَهِيَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ^(٩). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنْتُ سَاقِي الْقَوْمِ يَوْمَ حُرْمَتِ الْخَمْرِ فِي بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ، وَمَا شَرَابُهُمْ إِلَّا الْفَضِيخُ: التَّبَسْرُ وَالتَّمْرُ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي قَالَ: أَخْرُجْ فَانظُرْ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، فَجَرَّتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: أَخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا، فَهَرَقْتُهَا فَقَالُوا: - أَوْ قَالَ بَعْضُهُمْ: - قَتِلْ

(١) الطبري: ١٠/٥٦٥ (٢) الطبري: ٤/٣٣٠ (٣) الطبري:

١٠/٥٦٥ (٤) أحمد: ٢/٣٥١ إسناده ضعيف لضعف أبي معشر

وجهمالة أبي وهب مولى أبي هريرة (٥) أحمد: ١/٥٣ فيه تدليس

أبي إسحاق السبيعي (٦) أبو داود: ٤/٧٩ وتحفة الأحوذني: ٨/

٤١٧ والنسائي: ٨/٢٨٦ (٧) فتح الباري: ٨/١٢٦ ومسلم: ٤/

٢٣٢٢ (٨) فتح الباري: ٨/١٢٦ (٩) أحمد: ٣/١٨١

قَالَ: وَصَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا فَدَعَانَا، فَشَرِبْنَا الْخَمْرَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ حَتَّى انْتَشِينَا فَتَفَاخَرْنَا، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: نَحْنُ أَفْضَلُ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: نَحْنُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَحْيَ جَزُورٍ، فَضْرَبَ بِهِ أَنْفَ سَعْدِ فَفَزَرَهُ - وَكَانَ أَنْفُ سَعْدٍ مَفْرُورًا - فَتَرَلَّتْ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٦).

(حَدِيثٌ آخَرَ) رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَمُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قَالَ: هِيَ فِي التَّوْرَةِ: إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْحَقَّ لِيُذْهِبَ بِهِ الْبَاطِلَ، وَيُبْطِلَ بِهِ اللَّعِبَ وَالْمَزَامِيرَ، وَالزُّفْنَ، وَالْكِبَارَاتِ - يَعْنِي الْبُرَابِطَ - وَالرَّمَارَاتِ - يَعْنِي بِهِ الدَّفَّ - وَالطَّنَابِيرَ وَالشَّعْرَ وَالْخَمْرَ، مُرَّةً لِمَنْ طَعَمَهَا، أَقْسَمَ اللَّهُ بِبَيْمِينِهِ وَعِزَّتِهِ مَنْ شَرِبَهَا بَعْدَ مَا حَرَّمْتُهَا لِأَعْيُنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ تَرَكَهَا بَعْدَ مَا حَرَّمْتُهَا لِأَسْمَانِي إِثَابًا فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ^(٧). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

(حَدِيثٌ آخَرَ) - قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أُنْبَأَنَا مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٨). وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، لَمْ يَتُرَبَّهَا فِي الْآخِرَةِ»^(٩).

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ يَقُولُ: اجْتَنَبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ، إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ فِيْمَنْ خَلَا قَبْلَكُمْ يَتَعَبَّدُ وَيَعْتَزِلُ النَّاسَ فَعَلَّقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةً فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا نَدْعُوكَ لِشَهَادَةٍ، فَدَخَلَ مَعَهَا، فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ أَبَا أَعْلَقَتَهُ دُونَهُ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غَلَامٌ وَبَاطِيئَةٌ خَمْرٌ فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ! مَا دَعَوْتُكَ لِشَهَادَةٍ، وَلَكِنْ

فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَهِيَ فِي بَطُونِهِمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾...

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أُدِيرُ الْكُأْسَ عَلَى أَبِي طَلْحَةَ وَأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَأَبِي دُجَانَةَ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَسُهَيْلِ بْنِ بَيْضَاءَ حَتَّى مَالَتْ رُؤُوسُهُمْ مِنْ خَلِيطِ بُسْرِ وَتَمْرٍ، فَسَمِعْتُ مُنَادِيًا يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. قَالَ: فَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا دَاخِلٌ وَلَا خَرَجَ مِنَّا خَارِجٌ حَتَّى أَهْرَقْنَا الشَّرَابَ، وَكَسَرْنَا الْفِلَالَ، وَتَوَضَّأَ بَعْضُنَا، وَاعْتَسَلَ بَعْضُنَا، وَأَصْبَنَا مِنْ طِيبِ أُمِّ سُلَيْمٍ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَمُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَرَى فِيمَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْرِبُهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾... الْآيَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ لِقَتَادَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقَالَ رَجُلٌ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَوْ حَدَّثَنِي مَنْ لَمْ يَكْذِبْ. مَا كُنَّا نَكْذِبُ، وَلَا نَدْرِي مَا الْكُذِبُ^(١٠).

(حَدِيثٌ آخَرَ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجُهٍ: لُعِنَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا، وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهَا، وَآكِلُ ثَمَرِهَا»^(١١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ^(١٢).

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُرَيْدِ فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَكُنْتُ مَعَهُ، فَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ، وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَتَأَخَّرْتُ عَنْهُ، فَكَانَ عَنْ يَمِينِهِ وَكُنْتُ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَتَنَحَّيْتُ لَهُ فَكَانَ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُرَيْدَ فَإِذَا بِرِزْقِاقٍ عَلَى الْمُرَيْدِ فِيهَا خَمْرٌ - قَالَ ابْنُ عُمَرَ: - فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُدْيَةِ - قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَمَا عَرَفْتُ الْمُدْيَةَ إِلَّا بِيَوْمِيذٍ - فَأَمَرَ بِالرِّزْقِاقِ فَشَقَّتْ، ثُمَّ قَالَ: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهَا، وَعَاصِرُهَا وَمُعْتَصِرُهَا، وَآكِلُ ثَمَرِهَا»^(١٣).

(حَدِيثٌ آخَرَ) رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ سَعْدِ قَالَ: أَنْزَلَتْ فِي الْخَمْرِ أَرْبَعُ آيَاتٍ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ،

(١) فتح الباري: ١٣٣/٥، ومسلم: ١٥٧٠/٣ (٢) الطبري: ٥٧٨/١٠ فيه عباد بن راشد التميمي البصري البزاز ضعيف لكن رواه البخاري (٥٦٠٠) ومسلم (١٩٨٠/٧) من طريق قتادة به مختصراً (٣) أحمد: ٢٥/٢ (٤) أبو داود: ٣٦٧٤ وابن ماجه: ٣٣٨٠ (٥) أحمد: ٧١/٢ (٦) البيهقي: ٢٨٥/٨ ومسلم: ١٧٤٨ (٧) ابن أبي حاتم: ١١٩٦/٤ (٨) مسند الشافعي: ١٧٦٣ والبخاري: ٥٥٧٥ ومسلم: ٢٠٠٣ (٩) مسلم: ٢٠٠٣

أَخَذِهِ بِالْأَيْدِي وَالرِّمَاحِ سِرًّا وَجَهْرًا، لِيُظَهَّرَ طَاعَةً مَنْ يُطِيعُ مِنْهُمْ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بَعْدَ هَذَا الْإِعْلَامِ وَالْإِنذَارِ وَالتَّقَدُّمِ، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ لِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ وَشَرَعَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ وَهَذَا تَحْرِيمٌ مِنْهُ تَعَالَى لِقَتْلِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، وَنَهْيٌ عَنِ تَعَاطِيهِ فِيهِ، وَلَا يُسْتَنْتَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا بَيَّنَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْعُرَابُ، وَالْحِدَاةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَارَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»^(٧). وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ لَيْسَ عَلَى الْمُحْرَمِ فِي قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ: الْعُرَابُ، وَالْحِدَاةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَارَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»^(٨). أَخْرَجَاهُ^(٩). وَرَوَاهُ أَيُّوبُ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عَمْرٍ مِثْلَهُ^(١٠). قَالَ أَيُّوبُ: فَقُلْتُ لِنَافِعٍ: فَالْحَيَّةُ؟ قَالَ: الْحَيَّةُ لَا شَكَّ فِيهَا، وَلَا يُخْتَلَفُ فِي قَتْلِهَا^(١١). وَالْحَقُّ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ الذُّبُّ وَالسَّبُعُ وَالتَّبَرُّ وَالْفَهْدُ، لِأَنَّهَا أَشَدُّ ضَرًّا مِنْهُ، أَوْ لِأَنَّ الْكَلْبَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا. فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَمَّا يَقْتُلُ الْمُحْرَمُ؟ فَقَالَ: «الْحَيَّةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَوْسِقَةُ، وَبِرِّي الْعُرَابُ وَلَا يَقْتُلُهُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحِدَاةُ، وَالسَّبُعُ الْعَادِي» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١٢).

[جَزَاءُ قَتْلِ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ أَوْ الْإِحْرَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بْنُ جَبْرِ: الْمُرَادُ بِالْمُتَعَمِّدِ هُنَا الْقَاصِدُ إِلَى قَتْلِ الصَّيْدِ، النَّاسِي لِإِحْرَامِهِ^(١٣). فَأَمَّا

(١) البيهقي: ٢٨٨، ٢٨٧/٨ (٢) أحمد: ٢٩٥/١ (٣) مسلم:

١٩١٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٤١٩/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/

٣٣٧ (٤) الطبري: ٥٨٤/١٠ (٥) الطبري: ٥٨٣/١٠ (٦)

الدر المنثور: ١٨٥/٣ (٧) البخاري: ٣٣١٤ ومسلم: ١١٩٨

(٨) الموطأ: ٣٥٦/١ (٩) فتح الباري: ٤٢/٤ ومسلم: ٢/

٨٥٨ (١٠) النسائي: ١٩٠/٥ (١١) فتح الباري: ٤٤/٦

(١٢) أبو داود: ٤٢٤/٢ وتحفة الأحوذى: ٥٧٦/٣ وابن ماجه:

١٠٣٢/٢ (١٣) الطبري: ١١/٨

دَعَوْتُكَ لِيَتَعَ عَلَيَّ أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْعِلَامَ، أَوْ تَشْرَبَ هَذَا الْخَمْرَ فَسَقْتَهُ كَأَسَا فَقَالَ: زِيدُونِي فَلَمْ يَرُمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَقَتَلَ النَّفْسَ. فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ هِيَ وَالْإِيمَانُ أَبَدًا إِلَّا أَوْشَكَ أَحَدُهُمَا أَنْ يُخْرَجَ صَاحِبُهُ. رَوَاهُ النَّبَهَيْيُّ^(١). وَهَذَا إِسْتِثْنَاءٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ «ذَمُّ الْمُسْكِرِ» مَرْفُوعًا. وَالْمَوْفُوفُ أَصَحُّ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا حُرِّمَتِ الْخَمْرُ قَالَ نَاسٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصْحَابُنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَشْرَبُونَهَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَلَمَّا حُوِّلَتِ الْقِبْلَةُ قَالَ نَاسٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِخْوَانُنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضَيِّعَ لِمَنْتَكُمُ﴾^(٢). وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قِيلَ لِي: أَنْتَ مِنْهُمْ» وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِهِ^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَاءَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِكُمْ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا يَبْلَغُ الْكَمِيَّةَ أَوْ كَثْرَةَ طَعْمِ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبِالْأَمْرِ عَنَّا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٥)

[حُرْمَةُ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ]

قَالَ الْوَالِييُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَاءَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قَالَ: هُوَ الضَّعِيفُ مِنَ الصَّيْدِ وَصَغِيرُهُ، يَبْتَلِي اللهُ بِهِ عِبَادَهُ فِي إِحْرَامِهِمْ، حَتَّى لَوْ شَاءَ وَاسْتَأْذَنُوا بِأَيْدِيهِمْ، فَتَهَاهُمْ اللهُ أَنْ يَقْرُبُوهُ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَنَاءَهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يَعْنِي صِعَارَ الصَّيْدِ وَفَرَاحَهُ، ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يَعْنِي كِبَارَهُ^(٥). وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَكَانَتِ الْوَحْشُ وَالطَّيْرُ وَالصَّيْدُ تَعْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ قَطُّ فِيمَا خَلَا، فَتَهَاهُمْ اللهُ عَنْ قَتْلِهِ وَهُمْ مُحْرَمُونَ ﴿لِيَعْلَمَ اللهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾^(٦) يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يَبْتَلِيهِمْ بِالصَّيْدِ، يَعْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، يَتَمَكَّنُونَ مِنْ

الْمُتَعَمِّدُ لِقَتْلِ الصَّيْدِ مَعَ ذِكْرِهِ لِإِحْرَامِهِ، فَذَلِكَ أَمْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُكْفَرَ، وَقَدْ بَطَلَ إِحْرَامُهُ، وَهُوَ قَوْلُ غَرِيبٍ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ الْعَامِدَ وَالنَّاسِي سَوَاءٌ فِي وُجُوبِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: دَلَّ الْكِتَابُ عَلَى الْعَامِدِ، وَجَرَتْ الشُّنَّةُ عَلَى النَّاسِي^(١). وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى وُجُوبِ الْجَزَاءِ عَلَى الْمُتَعَمِّدِ وَعَلَى تَأْيِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَمَّا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ﴾ وَجَاءَتْ الشُّنَّةُ مِنْ أَحْكَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَحْكَامِ أَصْحَابِهِ بِوُجُوبِ الْجَزَاءِ فِي الْخَطَا، كَمَا دَلَّ الْكِتَابُ عَلَيْهِ فِي الْعَمْدِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ قَتْلَ الصَّيْدِ إِتْلَافٌ، وَالْإِتْلَافُ مَضْمُونٌ فِي الْعَمْدِ وَفِي الشُّنَّانِ، لَكِنْ الْمُتَعَمِّدُ مَأْتُومٌ، وَالْمُخْطِئُ غَيْرُ مَأْتُومٍ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ دَلِيلٌ لِيُوجِبِ الْجَزَاءَ مِنْ مِثْلِ مَا قَتَلَهُ الْمُحْرِمُ، إِذَا كَانَ لَهُ مِثْلٌ مِنَ الْحَيَوَانَ الْإِنْسِيِّ كَمَا حَكَمَ بِهِ الصَّحَابَةُ فِي الْمِثْلِ، فَإِنَّهُمْ حَكَمُوا فِي النَّعْمَةِ بِبَدَنَةِ، وَفِي بَقْرَةِ الْوَحْشِ بِبَقْرَةٍ، وَفِي الْغَزَالِ بِعَظْرٍ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ مِثْلِيًّا، فَقَدْ حَكَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيهِ بِتَمَنِيهِ يُحْمَلُ إِلَى مَكَّةَ. رَوَاهُ النَّبَيْهِيُّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ بِعَنِي أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْجَزَاءِ فِي الْمِثْلِ - أَوْ بِالْقِيَمَةِ فِي غَيْرِ الْمِثْلِ - عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي جَرِيرٍ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: أَصَبْتُ ظَنِيًّا وَأَنَا مُحْرِمٌ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمْرٍ، فَقَالَ: اثْبَتِ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِكَ فَلْيَحْكُمَا عَلَيْكَ، فَأَثَبْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَسَعْدًا فَحَكَمَا عَلَيَّ بِتِسِّسِ أَغْفَرٍ^(٢). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ طَارِقٍ، قَالَ: أَوْطَأَ أَرْبُدُ ظَنِيًّا فَقَتَلَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ، فَأَتَى عَمْرَ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: احْكُمْ مَعِي، فَحَكَمَا فِيهِ جَدِيًّا فَذَجَعَ الْمَاءَ وَالسَّجَرَ، ثُمَّ قَالَ عَمْرٌ: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أَيَّ وَاصِلًا إِلَى الْكَعْبَةِ، وَالْمُرَادُ وَصُولُهُ إِلَى الْحَرَمِ بَأَنْ يُذْبِحَ هُنَاكَ، وَيُفَرِّقَ لَحْمَهُ عَلَى مَسَاكِينِ الْحَرَمِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أَيَّ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُحْرِمُ مِثْلًا مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ، أَوْ لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ مِنْ ذَوَاتِ الْأَمْثَالِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾، فَإِذَا

قَتَلَ الْمُحْرِمُ شَيْئًا مِنَ الصَّيْدِ حُكِمَ عَلَيْهِ فِيهِ، فَإِنْ قَتَلَ ظَنِيًّا أَوْ نَحْوَهُ فَعَلَيْهِ شَاءٌ تُذْبِحُ بِمَكَّةَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِطْعَامَ سِتَّةِ مَسَاكِينٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ قَتَلَ أَيْلًا أَوْ نَحْوَهُ، فَعَلَيْهِ بَقْرَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ عِشْرِينَ مَسْكِينًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ عِشْرِينَ يَوْمًا، وَإِنْ قَتَلَ نَعَامَةً أَوْ حِمَارَ وَحْشٍ أَوْ نَحْوَهُ، فَعَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنْ الْإِبِلِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ ثَلَاثِينَ مَسْكِينًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ، وَزَادَ: الطَّعَامُ مَدُّ مَدِّ يُشْبِعُهُمْ^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أَيَّ أَوْجَبْنَا عَلَيْهِ الْكُفَّارَةَ لِيَذُوقَ عُقُوبَةَ فِعْلِهِ الَّذِي ارْتَكَبَ فِيهِ الْمُخَالَفَةَ ﴿عَمَّا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أَيَّ فِي زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ وَاتَّبَعَ شَرَعَ اللَّهِ، وَلَمْ يَرْتَكِبِ الْمَعْصِيَةَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أَيَّ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَبُلُوغِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ إِلَيْهِ ﴿فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: مَا ﴿عَمَّا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾؟ قَالَ: عَمَّا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قَالَ: وَمَنْ عَادَ فِي الْإِسْلَامِ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ، وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ الْكُفَّارَةُ. قَالَ: قُلْتُ: فَهَلْ فِي الْعُودِ مِنْ حَدِّ تَعْلُمُهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: قُلْتُ: فَتَرَى حَقًّا عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُعَاقِبَهُ؟ قَالَ: لَا، هُوَ ذَنْبٌ أَذْنَبُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ يَنْتَدِي^(٥). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ بِالْكَفَّارَةِ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءُ^(٦). ثُمَّ الْجُمْهُورُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ عَلَى أَنَّهُ مَتَى قَتَلَ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ وَجَبَ الْجَزَاءُ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ، وَإِنْ تَكَرَّرَ مَا تَكَرَّرَ، سَوَاءً الْخَطَا فِي ذَلِكَ وَالْعَمْدُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ يَقُولُ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَاللَّهُ مَنَّعٌ فِي سُلْطَانِهِ، لَا يَشْهَرُهُ قَاهِرٌ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ انْتَقَمَ مِنْهُ - وَلَا مِنْ عُقُوبَةٍ مَنْ أَرَادَ عُقُوبَتَهُ - مَانِعٌ، لِأَنَّ الْخَلْقَ خَلَقَهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، لَهُ الْعِزَّةُ وَالْمَنْعَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ بِعَنِي أَنَّهُ ذُو مُعَاقِبَةٍ لِمَنْ عَصَاهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِنِّيَاهُ^(٧).

(١) الطبري: ١١/١١ (٢) الطبري: ٢٧/١١ (٣) الطبري:

٢٦/١١ (٤) الطبري: ٣١/١١ (٥) الطبري: ٤٨/١١ (٦)

الطبري: ٥٠/١١ (٧) الطبري: ٥٧/١١

﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾
 ﴿٩٧﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَبْشَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدَى وَالْقَلْبَدُ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

[إِحْلَالُ صَيْدِ الْبَحْرِ لِلْمُحْرَمِ]

قال ابن عباس وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبيرة وغيرهم، في قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعني ما يضطاد منه طرياً^(١). ﴿وطعامه﴾ ما يتروّد منه مليحاً يابساً. وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ﴿وطعامه﴾ ما لفظه ميتاً، وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبدالله بن عمرو وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم، وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرحمن وإبراهيم النخعي والحسن البصري.

وقوله ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وللسَّيَّارَةِ﴾ وهم جمع سيار. قال عكرمة: لمن كان يحضرة البحر والسفر^(٢). وقال غيره: الطري منه: لمن يضطاده من حاضرة البحر، وطعامه ما مات فيه أو اضطيد منه وملح وقد زادوا للمسافرين والناسين عن البحر. وقد روي نحوه عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم^(٣). وروى الإمام مالك بن أنس عن جابر بن عبدالله، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة وأنا فيهم، قال: فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فبني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله، فكان مزوداً تمر، قال: فكان يموتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا ثمرة تمر، فقلت: وما تعني التمر؟ فقال: فقد وجدنا قدها حين فنيت، قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الطرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانين عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بصلعين من أضلاع فصبأ، ثم أمر براحلة فرجلت، ومرت تحتها، فلم نصبهما^(٤). وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(٥).

وروى مالك عن أبي هريرة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل

أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَبْشَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدَى وَالْقَلْبَدُ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْتَى الْوَالِدِ لِأَعْلَامِكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَتَأْتَى الْوَالِدِ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّلَ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُرْبُ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

مَعَنَا الْقَلِيلُ مِنَ الْمَاءِ، فَإِن تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْجَلُّ مَيْتُهُ»^(٦). وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربعة، وصححه البخاري والثريدي وابن حبان وغيرهم، وقد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه^(٧).

[تَحْرِيمُ صَيْدِ الْبَرِّ لِلْمُحْرَمِ]

وقوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاضطاد، ففيه دلالة على تحريم ذلك، فإذا اضطاد المحرم الصيد متعمداً أثم وغرم، أو مخطئاً غرم وحرم عليه أكله، لأنه في حقه

(١) الطبري: ٥٩/١١ (٢) الطبري: ٧١/١١ (٣) الطبري: ٧٢/١١، ٧٣ (٤) الموطأ: ٩٣٠/٢ (٥) فتح الباري: ١٥٢/٥ (٦) مسند الشافعي: ١٥٣٥/٣ (٧) الموطأ: ٢٢/١ (٨) الترمذي: ٦٩ والنسائي: ٢٥ وأحمد: ٢٣٧/٢ وأبو داود: ٨٣ والترمذي: ٦٩ والنسائي: ٥٠/١ وابن ماجه: ٣٨٦ وابن خزيمة: ١١١ وابن حبان: ١١٩

كَأَلْمَيْتَةِ، وَكَذَا فِي حَقِّ غَيْرِهِ مِنَ الْمُحْرَمِينَ وَالْمُجَلِّينَ.
وَأَمَّا إِذَا صَادَ حَلَالٌ صَيْدًا، فَأَهْدَاهُ إِلَى مُحْرَمٍ، فَإِنْ
كَانَ الْحَلَالُ قَدْ فَصَدَ الْمُحْرَمَ بِذَلِكَ الصَّيْدِ، لَمْ يَجْزُ
لِلْمُحْرَمِ أَكْلُهُ لِحَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَنَامَةَ أَنَّهُ أَهْدَى
لِلنَّبِيِّ ﷺ حِمَارًا وَحَشِييًا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بُوْدَانَ، فَرَدَّهُ
عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ
إِلَّا أَنَا حُرْمٌ». وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي
الصَّحِيحَيْنِ (١). وَلَهُ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ، قَالُوا: فَوَجَّهَهُ: أَنْ
النَّبِيِّ ﷺ ظَنَّ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا صَادَهُ مِنْ أَجْلِهِ، فَرَدَّهُ
لِلذِّكَ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَقْصِدْهُ بِالْإِصْطِيَادِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ
الْأَكْلُ مِنْهُ؛ لِحَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ حِينَ صَادَ حِمَارٌ وَحَشِيٌّ،
وَكَانَ حَلَالًا لَمْ يُحْرَمْ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ مُحْرَمِينَ،
فَتَوَقَّفُوا فِي أَكْلِهِ ثُمَّ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ
كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا، أَوْ أَعَانَ فِي قَتْلِهَا؟»
قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَكُلُوا» وَأَكَلَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.
وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ثَابِتَةٌ أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ بِالْأَلْفَاظِ
كَثِيرَةٍ (٢).

[١] «وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» يَقُولُ تَعَالَى:
وَاحْشُوا اللَّهَ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَاحْذَرُوهُ، بِطَاعَتِهِ فِيمَا
أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فِي هَذِهِ
الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ: مِنَ النَّهْيِ عَنِ
الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ، وَعَنِ إِصَابَةِ صَيْدِ
الْبَرِّ وَقَتْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ. فَإِنَّ اللَّهَ مَصِيرِكُمْ
وَمَرْجِعِكُمْ، فِعَاقِبَتِكُمْ بِمَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ، وَبِحَاجِرَتِكُمْ
فَيُنِيبُكُمْ عَلَى طَاعَتِكُمْ لَهُ. «جَعَلَ اللَّهُ الْكُفَّةَ أَلْبَتَّ
الْحَرَامِ قِيَامًا لِلنَّاسِ» يَقُولُ تَعَالَى: صَيَّرَ اللَّهُ الْكُفَّةَ أَلْبَتَّ
الْحَرَامِ قِيَامًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَا قِيَامَ لَهُمْ: مِنْ رَيْسِ يَحْجُزُ
قَوِيهِمْ عَنْ ضَعِيفِهِمْ، وَمُسِيئِهِمْ عَنْ مُحْسِنِهِمْ، وَظَالِمِهِمْ
عَنْ مَظْلُومِهِمْ «وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْهُدَى وَالْقَلْبَدِيُّ» يَقُولُ:
وَجَعَلَ هَذِهِ قِيَامًا لِلنَّاسِ، كَمَا جَعَلَ الْكُفَّةَ قِيَامًا
لَهُمْ، فَحَجَزَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ، إِذْ
لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِيَامٌ غَيْرُهُ، وَجَعَلَهَا مَعَالِمَ لِدِينِهِمْ وَمَصَالِحَ
أُمُورِهِمْ. وَجَعَلَ تَعَالَى الْكُفَّةَ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهُدَى
وَالْقَلْبَدِيُّ قِيَامًا لِمَنْ كَانَ يُحْرَمُ ذَلِكَ مِنَ الْعَرَبِ وَيُعْظَمُهُ،
بِمَنْزِلَةِ الرَّيْسِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ أَمْرُ تَبَاعِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّةُ:
فَالْحَرَمُ كُلُّهُ. وَسَمَّاها اللَّهُ «حَرَامًا» لِتَحْرِيبِهِ إِيَّاهَا أَنْ

يُصَادَ صَيْدُهَا أَوْ يُخْتَلَى خَلَاها أَوْ يُعْصَدَ شَجَرُهَا.
وَكَذَلِكَ كَانَتْ الْكُفَّةُ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْهُدَى وَالْقَلْبَدِيُّ
قِيَامًا لِأَمْرِ الْعَرَبِ، الَّذِي كَانَ بِهِ صَلَاحُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.
وَهِيَ فِي الْإِسْلَامِ مَعَالِمٌ حَجَّجَهُمْ وَمَنَاسِكُهُمْ، وَمُتَوَجَّهَةٌ
لِصَلَاتِهِمْ «ذَلِكَ لِتَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» يَقُولُ تَعَالَى: صَيَّرْتُ لَكُمْ
- أَيُّهَا النَّاسُ - ذَلِكَ قِيَامًا، كَيْ تَعَلَّمُوا أَنَّ مَنْ أَحَدَتْ
لَكُمْ لِمَصَالِحِ دُنْيَاكُمْ مَا أَحَدَتْ - مِمَّا بِهِ قِيَامُكُمْ - عِلْمًا
مِنْهُ بِمَنَافِعِكُمْ وَمَضَارِكُمْ: أَنَّهُ كَذَلِكَ يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِمَّا فِيهِ صَلَاحٌ عَاجِلِكُمْ وَأَجَلِكُمْ.
وَلِتَعَلَّمُوا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ
أُمُورِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَهُوَ مُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُجَازِيَ
الْمُحْسِنَ مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ مِنْكُمْ بِإِسَاءَتِهِ
«اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» يَقُولُ
تَعَالَى: اعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ سَرَائِرِ أَعْمَالِكُمْ
وَعَلَانِيَتَيْهَا. شَدِيدٌ عِقَابُهُ مِنْ عَصَاةٍ وَتَمَرَّدٍ عَلَيْهِ، وَهُوَ غَفُورٌ
لِلذُّنُوبِ مَنْ أَطَاعَهُ وَأَنَابَ إِلَيْهِ، رَحِيمٌ بِهِ أَنْ يَعَاقِبَهُ عَلَى مَا
سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ بَعْدَ إِتَابَتِهِ وَتَوْبَتِهِ مِنْهَا «مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» وَهَذَا مِنَ اللَّهِ تَهْدِيدٌ
لِعِبَادِهِ وَوَعِيدٌ. يَقُولُ: لَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ
إِلَيْكُمْ، إِلَّا أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْكُمْ رِسَالَتَنَا، ثُمَّ إِلَيْنَا التَّوَابُ
عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَلَيْنَا الْعِقَابُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَغَيْرُ خَفِيِّ
عَلَيْنَا الْمُطِيعُ مِنْكُمْ الْقَابِلُ رِسَالَتَنَا، مِنَ الْعَاصِيِ الْآبِي

(١) البخاري: ١٨٢٥، ٢٥٧٣، ٢٥٧٣، ٨٥٠/٢ (٢) فتح
الباري: ٥٢٨/٩، ٥٢٨/٢ (٣) ذكر الحافظ ابن كثير هنا
أربع آيات. هي: ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩ ثم فسّر أكثر الآية الأولى
منها فقط إلى هذا الموضع، ولم يذكر تفسير آخرها ولا الثلاثة
بعدها. وهذا هو الثابت في كل الأصول المخطوطة والمطبوعة.
والظاهر أنه منها عن ذلك، رحمه الله. فمن البعيد جدًا أن يكون
ذلك سهواً من الناسخين يتفقون عليه في جميع النسخ على
اختلاف مصادرها. فرأيت - تكميل هذا النقص، بإثبات تفسيرها
من تفسير إمام المفسرين: ابن جرير الطبري - بشيء من الاختصار
والتصرف، والافتقار على التفسير نفسه. مراعيًا الدقة في
المحافظة على عبارته العالية ما استطعت، إن شاء الله، وبه
الاستعانة. (تكميل بقلم الشيخ أحمد شاكر، هذا كتب هنا في
الأصل: سقط من هذا الموضع تفسير الثلاث الآيات ٩٧، ٩٨،
٩٩ وترك لها بياض في النسخة المكية. وليس فيه هذا التكميل).
الناشر.

رِسَالَتَنَا. لِأَنَّ نَعْلَمُ مَا عَمِلَهُ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فَأَظْهَرَهُ بِجَوَارِحِهِ وَنَطَقَ بِهِ بِلِسَانِهِ، وَمَا تُخْفُونَهُ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ إِيْمَانٍ وَكُفْرٍ، أَوْ يَقِينٍ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ. فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ صَمَائِرِ الصُّدُورِ، وَطَوَاهِرِ أَعْمَالِ النَّفُوسِ، مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَبَيْدِهِ النَّوَابِ وَالْعِقَابُ، فَحَقِيقٌ أَنْ يَتَّقَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى].

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِدَ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِن سَأَلْتُمُو عَنَّا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدِدَ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنَّا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أَي يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ يَعْنِي أَنَّ الْقَلِيلَ الْحَلَالِ النَّافِعَ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الْحَرَامِ الضَّارِّ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِّمَّا كَثُرَ وَالْهَيْ» (١). ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أَي يَا ذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَتَحَبَّبُوا الْحَرَامَ وَدَعُوهُ وَافْتَنُوا بِالْحَلَالِ وَاتَّقُوا بِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

إِذْ السُّؤَالِ بِدُونِ فَائِدَةٍ

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِدَ لَكُمْ سُؤُوكُمْ﴾ هَذَا تَأْذِيْبٌ مِّنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَهْيٌ لَهُمْ عَنَ أَنْ يَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِي السُّؤَالِ وَالتَّقْيِيْبِ عِنَّهَا، لِأَنَّهَا إِن أُظْهِرَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْأُمُورُ رَبِّمَا سَاءَتْ نُهُمْ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ سَمَاعُهَا، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، وَقَالَ فِيهَا: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَصَحَحْتُكُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيْرًا». قَالَ: فَعَطَى أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُوهَهُمْ لَهُمْ حَيْنٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَنَ أَبِي؟ قَالَ: «فَلَانَ» فَتَرَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ﴾ (٢). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَمُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِي (٣).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنَ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِدَ لَكُمْ سُؤُوكُمْ﴾... الْآيَةَ، قَالَ: فَحَدَّثَنَا: أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

سَأَلُوهُ حَتَّى أَحْفَوُهُ بِالْمَسْأَلَةِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: «لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنَ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنَّهُ لَكُمْ» فَأَشْفَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيِ أَمْرٍ قَدْ حَضَرَ، فَجَعَلْتُ لَا أَلْتَقْتُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا وَجَدْتُ كَلًّا لَأَفَّا رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ كَانَ يَلَاحِي فَيُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَنَ أَبِي؟ قَالَ: «أَبُوكَ حُدَافَةَ». قَالَ: ثُمَّ قَامَ عُمَرُ - أَوْ قَالَ: فَأَنْشَأَ عُمَرُ - فَقَالَ:

رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا عَائِدًا بِاللَّهِ - أَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِّنَ شَرِّ الْفِتَنِ - قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ أَرْ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ، صُوِّرَتْ لِي الْجَنَّةُ وَالتَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا ذُونَ الْحَائِطِ» (٤). أَخْرَجَاهُ مِّنَ طَرِيقِ سَعِيدٍ (٥).

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنَ أَبِي؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَافِقَتُهُ: أَيْنَ نَافِقِي؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِدَ لَكُمْ سُؤُوكُمْ﴾... حَتَّى فَرَعَ مِنَ الْآيَةِ كُلِّهَا (٦). تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنَ عَلِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفِي كُلِّ عَامٍ؟ فَسَكَتَ، فَقَالُوا: أَفِي كُلِّ عَامٍ؟ فَقَالَ: «لَا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمَّا اسْتَطَعْتُمْ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِدَ لَكُمْ سُؤُوكُمْ﴾ الْآيَةَ، وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٧). وَظَاهِرُ الْآيَةِ التَّهْيِي عَنِ السُّؤَالِ عَنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي إِذَا عَلِمَ بِهَا الشَّخْصُ سَاءَتْهُ، فَلَا وُلَى: الْإِعْرَاضُ عِنَّهَا وَتَرْكُهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن سَأَلْتُمُو عَنَّا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدِدَ لَكُمْ﴾ أَي وَإِن تَسْأَلُوا عَنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نُهَيْتُمْ عَنِ السُّؤَالِ عِنَّهَا، حِينَ يَنْزِلُ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

(١) أحمد: ١٩٧/٥ (٢) فتح الباري: ١٣٠/٨ (٣) فتح الباري:

٣٢٦/١١ ومسلم: ١٨٣٢/٤ وأحمد: ١٨٠/٣ وتحفة الأحوذى:

٤٢١/٨ وتحفة الأشراف: ٤١٣/٨ (٤) الطبري: ١٠٠/١١ (٥)

فتح الباري: ٤٧/١٣ ومسلم: ١٨٣٤/٤ (٦) فتح الباري: ١٣٠/٨

(٧) أحمد: ١١٣/١ والترمذي: ٣٠٥٥ وابن ماجه: ٢٨٨٤

سُورَةُ الْمَائِدَةِ
١٢٥

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءَأُولُو كَانٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٢٥﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ
لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَإِن نَّبِئْتُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدَةُ
بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصْبَحْتُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِّنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٢٦﴾ فَإِن عُرِضَ
أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ
اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ
مِنَ شَهِدَتِهِمَا وَمَا ءَاعْتَدِينَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٧﴾ ذَلِكَ
أَدْعَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْههَا أَوْ يَحَافُونَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ
أَيْمَانِهِمْ ۗ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٢٨﴾

يُحْمَلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ. وَسَمَّوْهُ الْحَامِي (٤). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ
وَالنَّسَائِيُّ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ وَعَدَّ
الْأَصْنَامَ أَبُو خُرَاعَةَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجْرُ
أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ» (٦). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
عَمْرُو هَذَا هُوَ ابْنُ لُحْيِ بْنِ قَمْعَةَ، أَحَدُ رُؤَسَاءِ خُرَاعَةَ
الَّذِينَ وَلُوا الْبَيْتَ بَعْدَ جُرْهُمَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ
إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، فَأَدْخَلَ الْأَصْنَامَ إِلَى الْحِجَازِ، وَدَعَا
الرِّعَاعَ مِنَ النَّاسِ إِلَىٰ عِبَادَتِهَا وَالتَّقَرُّبَ بِهَا، وَشَرَعَ لَهُمْ
هَذِهِ الشَّرَائِعَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ

ثُمَّ قَالَ: «عَمَّا اللَّهُ عَنَّا» أَيَّ عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ
«وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ» وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «وَلَا تَسْأَلُوا عَنَّا
حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدْلَ لَكُمْ» أَيُّ: لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءَ
تَسْتَأْفُونَ السُّؤَالَ عَنهَا، فَلَعَلَّهُ قَدْ يُنَزَّلُ بِسَبَبِ سُؤَالِكُمْ
تَشْدِيدٌ أَوْ تَضْيِيقٌ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «أَعْظَمُ
الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَن شَيْءٍ لَمْ يَحْرَمْ، فَحَرَّمَ مِنْ
أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» (١). «عَمَّا اللَّهُ عَنَّا» أَيُّ مَا لَمْ يَذْكُرْهُ فِي كِتَابِهِ
فَهُوَ مِمَّا عَمَّا عَنْهُ، فَاسْكُتُوا أَنْتُمْ عَنهَا. وَفِي الصَّحِيحِ عَن
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ
مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ» (٢).
وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَيْضًا: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ فَرَضَ فَرَائِضَ
فَلَا تَضْيَعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا
تَتَّبِعُوهَا، وَسَكَتَ عَن أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا
تَسْأَلُوا عَنهَا» (٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا
كَافِرِينَ» أَيُّ قَدْ سَأَلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ الْمُنْهِيَةَ عَنْهَا قَوْمٌ مِّن
قَبْلِكُمْ فَأَجْبِرُوا عَنْهَا، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، فَأَصْبَحُوا بِهَا
كَافِرِينَ، أَيُّ بِسَبَبِهَا، أَيُّ بَيَّنَّتْ لَهُمْ فَلَمْ يَتَّبِعُوهَا بِهَا،
لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَلَىٰ وَجْهِ الْإِسْتِزْشَادِ بَلْ عَلَىٰ وَجْهِ
الِاسْتِهْزَاءِ وَالْعِتَادِ.

«مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَذَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءَأُولُو كَانٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ سَبَّأً وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٢٥﴾»

[تَفْسِيرُ الْحَيَوَانَاتِ الْمَذْكُورَةِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ:
"الْبَحْرِيَّةُ": الَّتِي يُنْمَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيَتِ، فَلَا يَحِلُّبُهَا أَحَدٌ
مِنَ النَّاسِ، وَ"السَّائِبَةُ": كَانُوا يُسَبِّبُونَهَا لِإِلَهِيَّتِهَا لَا يُحْمَلُ
عَلَيْهَا شَيْءٌ. قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ عَامِرِ الْخُرَاعِيِّ يَجْرُ قَضْبَةَ فِي النَّارِ، وَكَانَ
أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ» وَ"الْوَصِيلَةُ": النَّاقَةُ الْبِكْرُ نَبَكْرٌ -
فِي أَوَّلِ نِتَاجِ إِبْلِ - ثُمَّ تُتْنِي بَعْدَ بَأْتِي، وَكَانُوا يُسَبِّبُونَهَا
لِطَّوَاغِيَتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَىٰ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ،
وَ"الْحَامُ": فَحَلَّ الْإِبِلُ يَضْرِبُ الضَّرْبَ الْمَعْدُودَ، فَإِذَا
قَضَىٰ ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيَتِ، وَأَعْفُوهُ عَنِ الْحَمْلِ، فَلَمْ

(١) البخاري: ٧٢٨٩ ومسلم: ٢٣٥٨ (٢) مسلم: ١٨٣١/٤
(٣) البيهقي: ١٢/١٠ (٤) فتح الباري: ١٣٣/٨ (٥) مسلم:
٤١٩٢/٤ والنسائي في الكبرى: ٣٣٨/٦ (٦) أحمد: ٤٤٦/١
إسناده ضعيف فيه إبراهيم بن مسلم الهجري قال ابن حجر: "لين
الحديث رفع موقوفات" [تقريب التهذيب]

لِلذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَإِنْ كَانَتْ مَيْتَةً اشْتَرَكُوا فِيهَا.

وَأَمَّا الْحَامِي: فَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا لَفَّحَ فَحَلَّهُ عَشْرًا قِيلَ: حَامٍ فَاتْرُكُوهُ^(٦).

وَكَذَا قَالَ أَبُو رَوْقٍ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَأَمَّا الْحَامُ فَالْفَحْلُ مِنَ الْإِبِلِ إِذَا وُلِدَ لَوْلَدِهِ قَالُوا: حَمَى هَذَا ظَهْرَهُ، فَلَا يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ شَيْئًا وَلَا يَجْزُونَ لَهُ وَبَرًّا، وَلَا يَمْنَعُونَهُ مِنْ حِمَى رَعِي، وَمِنْ حَوْضٍ يَسْرُبُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الْحَوْضُ لِعَبْرٍ صَاحِبِهِ^(٧).

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: أَمَّا الْحَامُ فَمِنْ الْإِبِلِ، كَانَ يَضْرِبُ فِي الْإِبِلِ فَإِذَا انْقَضَى ضْرَابُهُ جَعَلُوا عَلَيْهِ رِيشَ الطَّوْأويسِ وَسَبَّوهُ، وَقَدْ قِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ

أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِيِّ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ الْجُسَمِيِّ، عَنْ

أَبِيهِ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي خُلُقَانٍ مِنَ

الْغِيَابِ، فَقَالَ لِي: «هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ:

«مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: فَقُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ: مِنَ الْإِبِلِ،

وَالْعَنَمِ، وَالْخَيْلِ، وَالرَّقِيقِ، قَالَ: «فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَاتْرِكْ

عَلَيْكَ»، ثُمَّ قَالَ: «تُنْتَجِجُ إِبِلَكَ وَافِيَةً أَذَانَهَا؟» قَالَ: قُلْتُ:

نَعَمْ، وَهَلْ تَنْتَجِجُ الْإِبِلَ إِلَّا كَذَلِكَ؟ قَالَ: «فَلَمَعَلَكَ تَأْخُذُ

الْمَوْسَى فَتَقَطِّعُ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ [بُحْرًا] وَتَسْتَقُ

آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ حُرْمٌ» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَلَا

تَفْعَلِ، إِنَّ كُلَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ حِلٌّ»، ثُمَّ قَالَ: «مَا جَعَلَ اللَّهُ

مِنْ بَيْعَرٍ وَلَا سَابِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ». أَمَّا الْبَيْعَرَةُ، فَفِي

الَّتِي يَجْدَعُونَ أَذَانَهَا فَلَا تَنْتَجِجُ أَمْرَأَتَهُ وَلَا بَنَاتَهُ وَلَا أَحَدٌ مِنْ

أَهْلِ بَيْتِهِ بِصُوفِهَا، وَلَا أَوْبَارِهَا، وَلَا أَشْعَارِهَا، وَلَا

أَلْبَانِهَا، فَإِذَا مَاتَتْ اشْتَرَكُوا فِيهَا^(٨).

وَأَمَّا السَّائِيَةُ، فَفِيهَا الَّتِي يُسَيِّونَ لِأَلْهَتِهِمْ وَيَذْهَبُونَ إِلَى

أَلْهَتِهِمْ فَيُسَيِّبُونَهَا، وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ، فَالسَّاءُ تَلِدُ سِنَّةَ أَبْطُنٍ،

فَإِذَا وَلَدَتْ السَّابِعَ جُدَعَتْ وَقَطَّعَ قُرْنُهَا، فَيَقُولُونَ: قَدْ

وَصَلَتْ فَلَا يَذْبُحُونَهَا، وَلَا تَضْرِبُ وَلَا تُمْنَعُ مَهْمَا وَرَدَتْ

عَلَى حَوْضٍ. هَكَذَا يُذَكِّرُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ مُدْرَجًا فِي الْحَدِيثِ،

(١) الطبري: ١٢٩/١١ (٢) الطبري: ١٣٠/١١ (٣) الطبري:

١٢٨/١١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٢٢/٤ (٥) عبد الرزاق: ١/١٩٦ (٦) الطبري: ١٢٩/١١ العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (٧) ابن أبي حاتم: ١٢٢٥/٤ (٨) ابن أبي حاتم: ١٢٢٠/٤

تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ [الأنعام: ١٣٦].

فَأَمَّا الْبَيْعَرَةُ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ

عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هِيَ النَّاقَةُ إِذَا نَتَجَتْ حَمْسَةَ

أَبْطُنٍ، نَظَرُوا إِلَى الْخَامِسِ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ،

فَأَكَلَهُ الرَّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى جَدَعُوا أَذَانَهَا،

فَقَالُوا: هَذِهِ بَيْعَرَةٌ^(١). وَذَكَرَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ قَرِيبًا مِنْ

هَذَا^(٢). وَأَمَّا السَّائِيَةُ فَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ مِنَ الْعَنَمِ. نَحْوُ

مَا فَسَّرَ مِنَ الْبَيْعَرَةِ إِلَّا أَنَّهَا: مَا وَلَدَتْ مِنْ وُلْدٍ كَانَ بَيْنَهَا

وَبَيْنَهُ سِنَّةٌ أَوْلَادٍ، كَانَتْ عَلَى هَيْئَتِهَا، فَإِذَا وَلَدَتْ السَّابِعَ

ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى أَوْ ذَكَرَيْنِ ذَبَحُوهُ، فَأَكَلَهُ رِجَالُهُمْ دُونَ

نِسَائِهِمْ^(٣). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ. السَّائِيَةُ هِيَ النَّاقَةُ

إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ مِنَ الْوُلْدِ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ، سُمِّيَتْ

فَلَمْ تُرَكَّبْ وَلَمْ يَجَزَّ وَبَرَّهَا وَلَمْ يُحَلَبْ لَبْنُهَا إِلَّا لِصَيْفٍ.

وَقَالَ أَبُو رَوْقٍ: السَّائِيَةُ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا خَرَجَ فَقَضِيَتْ

حَاجَتُهُ، سَيَّبَ مِنْ مَالِهِ نَاقَةً أَوْ غَيْرَهَا، فَجَعَلَهَا

لِلطَّوْأغِيَتِ، فَمَا وَلَدَتْ مِنْ شَيْءٍ كَانَ لَهَا. وَقَالَ

السُّدِّيُّ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا قُضِيَتْ حَاجَتُهُ، أَوْ عَوْفِي

مِنْ مَرَضٍ، أَوْ كَثُرَ مَالُهُ، سَيَّبَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ لِلأَوْتَانِ،

فَمَنْ عَرَّضَ لَهُ مِنَ النَّاسِ عَوْقِبَ بِعُقُوبَةٍ فِي الدُّنْيَا.

وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ

عَبَّاسٍ: هِيَ السَّاءُ إِذَا نَتَجَتْ سَبْعَةَ أَبْطُنٍ، نَظَرُوا إِلَى

السَّابِعِ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَهُوَ مَيْتٌ - اشْتَرَكِ فِيهِ الرَّجَالُ

دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى اسْتَحْيَوْهَا، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا

وَأُنْثَى فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ اسْتَحْيَوْهُمَا وَقَالُوا: وَصَلْتَهُ أُخْتَهُ

فَحَرَمْتَهُ عَلَيْنَا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٤). وَقَالَ

عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَنْبَأَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ

الْمُسَبِّبِ ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾، قَالَ: فَالْوَصِيلَةُ مِنَ الْإِبِلِ كَانَتْ

النَّاقَةُ تَنْتَكِرُ بِالْأُنْثَى، ثُمَّ تَنْتِ بِأُنْثَى فَسَمَّوْهَا الْوَصِيلَةَ،

وَيَقُولُونَ: وَصَلَتْ أَنْثَيْنِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ، فَكَانُوا

يَجْدَعُونَهَا لِطَّوْأغِيَتِهِمْ^(٥). وَكَذَا رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكِ

ابْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:

الْوَصِيلَةُ مِنَ الْعَنَمِ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ فِي خَمْسَةِ

أَبْطُنٍ، تَوَامِينِ تَوَامِينِ فِي كُلِّ بَطْنٍ، سُمِّيَتْ الْوَصِيلَةَ

وَتُرِكَتْ، فَمَا وَلَدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى جُعِلَتْ

وَقَدْ رَوَى وَجْهَ آخَرَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، مِنْ قَوْلِهِ، وَهُوَ أَشْبَهُ. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ أَبِي الزُّعْرَاءِ عَمْرٍو بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَمِّهِ أَبِي الْأَحْوَصِ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ نُضَلَةَ، عَنْ أَبِيهِ، بِهِ. وَلَيْسَ فِيهِ تَفْسِيرٌ هَذِهِ^(١).
وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْذِبُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أَي مَا سَرَعَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَلَا هِيَ عِنْدَهُ قُرْبَةٌ، وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ افْتَرَوْا ذَلِكَ، وَجَعَلُوهُ شَرْعًا لَهُمْ، وَقُرْبَةً يَتَّقِرُونَ بِهَا إِلَهِي، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلِ لَهُمْ، بَلْ هُوَ وَبَالَ عَلَيْهِمْ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أَي إِذَا دُعُوا إِلَى دِينِ اللَّهِ وَسَرْعِهِ وَمَا أَوْجَبَهُ، وَتَرَكُوا مَا حَرَّمَهُ، قَالُوا: يَكْفِينَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْأَبَاءَ وَالْأَجْدَادَ مِنَ الطَّرِيقِ وَالْمَسَالِكِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا فِي عَمَلٍ مَعْلُومٍ﴾ أَي لَا يَفْهَمُونَ حَقًّا وَلَا يَعْرِفُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَالْحَالَةَ هَذِهِ، لَا يَتَّبِعُهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ أَجْهَلُ مِنْهُمْ وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١٥)

[الْأَمْرُ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُصْلِحُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيَعْمَلُوا الْخَيْرَ بِجَهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ أَمْرُهُ لَا يَضُرُّهُ فِسَادُ مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاسِ، سِوَاءَ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَوْ بَعِيدًا.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَيْسِ قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَنْتَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُتَكَبِّرَ وَلَا يُعْرِضُونَ، يُوشِكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُعَمَّهُمْ بِعِقَابِهِ». قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِتْيَاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ^(٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَصَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ

الْوَصِيَّةِ أَتَانِ دَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَيْتُمْ لَا تَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَلْسِينَ﴾^(١٦) فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَهْمَا اسْتَحَقَّ إِنَّمَا فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدْتِهِمَا وَمَا امْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١٧) ذَلِكَ أَذَقَ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيْمَانِهِمْ وَأَتَمُّوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١٨)

[شَهَادَةُ عَدْلَيْنِ عَلَى الْوَصِيَّةِ]

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى حُكْمٍ عَزِيزٍ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَصَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتَانِ﴾ أَي شَهَادَةُ اثْنَيْنِ، وَقِيلَ: أَنْ يَشْهَدَ اثْنَانِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿دَوَا عَدْلٍ﴾ وَصَفَ الْإِثْنَيْنِ بِأَنْ يَكُونَا عَدْلَيْنِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْكُمْ﴾ أَي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قَالَ: مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي سَافَرْتُمْ ﴿فَأَصْبَحَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وَهَذَانِ شَرْطَانِ لِيَجُوزَ اسْتِشْهَادُ الدَّمِيِّينَ عِنْدَ فَقْدِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي سَفَرٍ، وَأَنْ يَكُونَ فِي وَصِيَّةٍ، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شَرِيحُ الْقَاضِي. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ شُرَيْحٍ قَالَ: لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَّا فِي سَفَرٍ، وَلَا تَجُوزُ فِي سَفَرٍ إِلَّا فِي الْوَصِيَّةِ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ^(٥). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَإِبْرَاهِيمُ النَّحَعِيُّ وَقَتَادَةُ وَعِكْرَمَةُ وَمَحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: يَعْنِي صَلَاةَ الْمُسْلِمِينَ^(٦).

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ يَقَامَ هَذَانِ الشَّاهِدَانِ بَعْدَ صَلَاةِ اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا بِحَضْرَتِهِمْ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أَي فَيُحْلِفَانِ بِاللَّهِ ﴿إِنْ آرَيْتُمْ﴾ أَي إِنْ ظَهَرَتْ لَكُمْ مِنْهُمَا رِيَّةٌ، أَنَّهُمَا خَانَا أَوْ غَلَا، فَيُحْلِفَانِ حِينَئِذٍ بِاللَّهِ ﴿لَا تَشْتَرِي بِهِ﴾ أَي بِأَيْمَانِنَا.

(١) أحمد: ١٣٦/٤ (٢) أحمد: ٥/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٢٢٩/١٢ (٤) الطبري: ١١٣/١١ (٥) الطبري: ١١/١١ (٦) الطبري: ١٧٤/١١

قَالَ مُتَابِلُ بْنُ حَيَّانَ. ﴿ثُمَّ﴾ أَي لَا نَعْتَاضُ عَنْهُ بِعَوَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الرَّائِلَةِ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أَي وَلَوْ كَانَ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ قَرِيبًا لَنَا لَا نَحَابِيهِ ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أَضَافَهَا إِلَى اللَّهِ تَشْرِيفًا لَهَا وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهَا ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيْمِينَ﴾ أَي إِنْ فَعَلْنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ تَحْرِيفِ الشَّهَادَةِ أَوْ تَبْدِيلِهَا أَوْ تَغْيِيرِهَا أَوْ كْتُمِهَا بِالْكَلْبِيَّةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عُرِّ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أَي فَإِنْ اسْتَهْرَ وَظَهَرَ وَتَحَقَّقَ مِنَ الشَّاهِدِينَ الْوَصِيِّينَ: أَنَّهُمَا خَانَا أَوْ غَلَا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ الْمَوْصَى بِهِ إِلَيْهِمَا، وَظَهَرَ عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ ﴿فَخَارَنَ يَوْمَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانُ﴾ أَي مَتَى تَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالْخَبَرِ الصَّحِيحِ عَلَى خِيَانَتِهِمَا، فَلْيَقِمِ اثْنَانِ مِنَ الْوَرَثَةِ الْمُسْتَحَقِّينَ لِلتَّرِكَةِ، وَلْيَكُونَا مِنْ أَوْلِي مَنْ يَرِثُ ذَلِكَ الْمَالِ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدْتَهُمَا﴾ أَي لَقَوْلُنَا: إِنَّهُمَا خَانَا، أَحَقُّ وَأَصْحُّ وَأَثْبُتُ مِنْ شَهَادَتِهِمَا الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أَي فِيمَا قُلْنَا فِيهِمَا مِنَ الْخِيَانَةِ، ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَي إِنْ كُنَّا قَدْ كَذَبْنَا عَلَيْهِمَا. وَهَذَا التَّحْلِيفُ لِلْوَرَثَةِ وَالرَّجُوعُ إِلَى قَوْلِهِمَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ: كَمَا يَحْلِفُ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ إِذَا ظَهَرَ لَوْثٌ فِي جَانِبِ الْقَاتِلِ، فَيُقْسِمُ الْمُسْتَحَقُّونَ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُدْفَعُ بِرُمَّيَةِ إِلَيْهِمْ. كَمَا هُوَ مُفْرَرٌ فِي بَابِ الْقَسَامَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَأْتُوا بِالْبَهْدَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا﴾ أَي شَرْعِيَّةً هَذَا الْحُكْمُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْمُرْضِيِّ مِنْ تَحْلِيفِ الشَّاهِدِينَ الدَّمِيِّينَ - [وَقَدْ] اسْتَرْبَبَ بِهِمَا - أَقْرَبُ إِلَى إِقَامَتِهِمَا الشَّهَادَةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمُرْضِيِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أَي يَكُونُ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى الْإِثْنَانِ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا هُوَ تَعْظِيمُ الْحَلْفِ بِاللَّهِ، وَمُرَاعَاةُ جَانِبِهِ وَإِجْلَالِهِ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفُضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ رُدَّتِ الْيَمِينُ عَلَى الْوَرَثَةِ، فَيَحْلِفُونَ وَيَسْتَحَقُّونَ مَا يَدْعُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ، ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ أَي وَأَطِيعُوا، ﴿وَاللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَي الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ وَمَتَابِعَةِ شَرْعِيَّتِهِ.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴿١٠٩﴾

[يَسْأَلُ الْأَنْبِيَاءَ عَنْ أُمَّهِمْ]

هَذَا إِجْبَارٌ عَمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴿١٠٩﴾﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نَزِّلْنا نَأْكُلُ مِنْهَا وَنَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

عَمَّا أُجِيبُوا بِهِ مِنْ أُمَّهِمُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وَقَوْلُ الرُّسُلِ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ^(١). قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ الثَّوْرِيِّ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنِ مُجَاهِدٍ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ فَيَفْرَعُونَ فَيَقُولُونَ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾^(٢). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣) وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ﴾ يَقُولُونَ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ: لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا عِلْمُ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا^(٤). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، ثُمَّ اخْتَارَهُ وَهُوَ مِنْ

(١) الطبري: ٢١٠/١١ (٢) عبد الرزاق: ٢٠١/١ (٣) الطبري: ٢١٠/١١ (٤) الطبري: ٢١١/١١

بَابِ التَّأْدِبِ مَعَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، أَي لَا عِلْمَ لَنَا بِالنَّبِيَّةِ إِلَى عِلْمِكَ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَتَحَنَّنْ وَإِنْ كُنَّا أَجِنَاتًا وَعَرَفْنَا مَنْ أَجَابَنَا، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كُنَّا إِنَّمَا نَطَّلِعُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا عِلْمَ لَنَا بِبَاطِنِهِ، وَأَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْمُطَّلِعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَعَلِمْنَا بِالنَّبِيَّةِ إِلَى عِلْمِكَ كَلَّا عِلْمٍ، فَإِنَّكَ ﴿أَنْتَ عَلَّمَ الْعُيُوبَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْقُرْآنَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخَافُ مِنَ الظَّالِمِينَ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتُومَ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

[تَذَكِيرٌ عِيسَى بِالنِّعَمِ]

يَذَكِّرُ تَعَالَى مَا امْتَنَّنَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا أَجْرَاهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، فَقَالَ: ﴿اَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أَي فِي خَلْقِي إِيَّاكَ مِنْ أُمِّ بَلَا ذَكَرٍ، وَجَعَلِي إِيَّاكَ آيَةً وَدَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِي عَلَى الْأَشْيَاءِ، ﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ حَيْثُ جَعَلْتُكَ لَهَا بُرْهَانًا عَلَى بِرَاعَتِهَا مِمَّا نَسَبَهُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِلُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلْتُكَ نَبِيًّا دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ، فَأَطَقْتُكَ فِي الْمَهْدِ صَغِيرًا، فَشَهِدْتَ بِبِرَاعَةِ أُمَّكَ مِنْ كُلِّ غَيْبٍ، وَاعْتَرَفْتَ لِي بِالْعِبُودِيَّةِ، وَأَخْبَرْتَ عَنْ رِسَالَتِي إِيَّاكَ. وَدَعَوْتَ إِلَى عِبَادَتِي. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أَي تَدْعُو إِلَى اللَّهِ النَّاسَ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ وَضَمَّنَ ﴿تُكَلِّمُ﴾ تَدْعُو، لِأَنَّ كَلَامَهُ النَّاسَ فِي كَهُولِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أَيِ الْخَطِّ وَالْفَهْمِ وَالْقُرْآنَ وَهِيَ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ الْكَلِيمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ تَخَافُ مِنَ الظَّالِمِينَ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أَي تُصَوِّرُهُ وَتَشْكُلُهُ عَلَى هَيْئَةِ الطَّائِرِ بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ، فَكَوْنُ طَائِرًا بِإِذْنِي أَي فَتَنفُخُ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي شَكَلْتَهَا، بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ، فَتَكُونُ طَيْرًا ذَا رُوحٍ تَطِيرُ

بِإِذْنِ اللَّهِ وَخَلَقِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتُومَ بِإِذْنِي﴾ أَي تَدْعُوهُمْ فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتُدْرِيهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَي وَادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ فِي كَفْيِ إِيَّاهُمْ عَنْكَ حِينَ جِئْتَهُمْ بِالْبُرَاهِينِ وَالْحُجُجِ الْقَاطِعَةِ عَلَى نُبُوتِكَ وَرِسَالَتِكَ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوكَ وَأَتَهَمُوكَ بِأَنَّكَ سَاحِرٌ، وَسَعَوْا فِي قَتْلِكَ وَصَلَبِكَ فَتَجَنَّبْتَ مِنْهُمْ، وَرَفَعْتُكَ إِلَيَّ، وَطَهَّرْتُكَ مِنْ دَنَسِهِمْ، وَكَفَيْتُكَ شَرَّهُمْ. وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْإِمْتِنَانَ يَكُونُ وَاقِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِصِغَةِ الْمَاضِي دَلَالَةً عَلَى وُقُوعِهِ لَا مَحَالَةَ، وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ الْعُيُوبِ الَّتِي أَطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْإِمْتِنَانِ عَلَيْهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَنْ جَعَلَ لَهُ أَصْحَابًا وَأَنْصَارًا. وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْوَحْيِ وَحْيُ الْإِهَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الْآيَةُ [القصص: ١٧]، وَهُوَ وَحْيُ الْإِهَامِ بِلَا خِلَافٍ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ أَنْ تَغْدِيَ مِنَ لَبَلِائِلِ بِيُوتَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْأَلْ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ الْآيَةُ [النحل: ٦٨، ٦٩]، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: ﴿آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَنْتُمْ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا لَرُبِّي أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبَنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١١﴾﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَادِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٢﴾﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلْتُكَ بِكُمُومٍ فَكُنْ بِكُمُومٍ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذُّبُ عَذَابًا لَا أَعَذُّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾﴾

[بَيَانُ نَزُولِ الْمَائِدَةِ]

هَذِهِ قِصَّةُ الْمَائِدَةِ وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ السُّورَةُ، فَيَقَالُ سُورَةُ الْمَائِدَةِ، وَهِيَ مِمَّا امْتَنَّنَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ

عِيسَى، لَمَّا أَجَابَ دُعَاءَهُ بِنَزُولِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ بَاهِرَةً وَحُجَّةً قَاطِعَةً، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وَالْمَائِدَةُ هِيَ الْخُورَانُ عَلَيْهِ الطَّعَامُ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ: أَنَّهُمْ إِذَا سَأَلُوا ذَلِكَ لِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً كُلَّ يَوْمٍ يَتَنَاثَرُونَ مِنْهَا وَيَتَقَوَّوْنَ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيَّ فَاجِبَهُمُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَسْأَلُوا هَذَا، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لَكُمْ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أَيَّ نَحْنُ مُخْتَابُونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا، ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ إِذَا شَاهَدْنَا نَزُولَهَا رِزْقًا لَنَا مِنَ السَّمَاءِ، ﴿وَتَعْلَمُ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أَيَّ وَنَزْدَادُ إِيمَانًا بِكَ وَعِلْمًا بِرِسَالَتِكَ ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيَّ وَتَشْهَدُ أَنَّهَا الْآيَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِكَ وَصِدْقِ مَا جِئْتَ بِهِ. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَانَا وَإِخْرَانًا﴾ قَالَ الشَّدِيُّ: أَيَّ تَجِدُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نَعُظُّهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدَنَا^(١). وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: يَعْنِي يَوْمًا نَصَلِّي فِيهِ^(٢). ﴿وَآيَةٌ مِنْكَ﴾ أَيَّ دَلِيلًا تَنْصِبُهُ عَلَى قُدْرَتِكَ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَعَلَى إِجَابَتِكَ لِدَعْوَتِي، فَيَصْدُقُونِي بِمَا أَبْلَغُهُ عَنْكَ، ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ أَيَّ مِنْ عِنْدِكَ رِزْقًا هَيِّئْنَا بِلاَ كَلْفِهِ وَلَا تَعَبٍ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٣) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ ﴿أَيَّ فَمَنْ كَذَبَ بِهَا مِنْ أُمَّتِكَ يَا عِيسَى وَعَائِدَتِهَا، ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيَّ مِنْ عَالَمِي زَمَانِكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَدْخِلُوا أَعْيُنَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى الدَّرَكِ الْمَدَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْمُنَافِقُونَ، وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَائِدَةِ، وَالْفِرْعَوْنَ^(٤).

عِيسَى، لَمَّا أَجَابَ دُعَاءَهُ بِنَزُولِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ بَاهِرَةً وَحُجَّةً قَاطِعَةً، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وَالْمَائِدَةُ هِيَ الْخُورَانُ عَلَيْهِ الطَّعَامُ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ: أَنَّهُمْ إِذَا سَأَلُوا ذَلِكَ لِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً كُلَّ يَوْمٍ يَتَنَاثَرُونَ مِنْهَا وَيَتَقَوَّوْنَ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيَّ فَاجِبَهُمُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَسْأَلُوا هَذَا، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لَكُمْ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أَيَّ نَحْنُ مُخْتَابُونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا، ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ إِذَا شَاهَدْنَا نَزُولَهَا رِزْقًا لَنَا مِنَ السَّمَاءِ، ﴿وَتَعْلَمُ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أَيَّ وَنَزْدَادُ إِيمَانًا بِكَ وَعِلْمًا بِرِسَالَتِكَ ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيَّ وَتَشْهَدُ أَنَّهَا الْآيَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِكَ وَصِدْقِ مَا جِئْتَ بِهِ. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَانَا وَإِخْرَانًا﴾ قَالَ الشَّدِيُّ: أَيَّ تَجِدُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نَعُظُّهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدَنَا^(١). وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: يَعْنِي يَوْمًا نَصَلِّي فِيهِ^(٢). ﴿وَآيَةٌ مِنْكَ﴾ أَيَّ دَلِيلًا تَنْصِبُهُ عَلَى قُدْرَتِكَ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَعَلَى إِجَابَتِكَ لِدَعْوَتِي، فَيَصْدُقُونِي بِمَا أَبْلَغُهُ عَنْكَ، ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ أَيَّ مِنْ عِنْدِكَ رِزْقًا هَيِّئْنَا بِلاَ كَلْفِهِ وَلَا تَعَبٍ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٣) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ ﴿أَيَّ فَمَنْ كَذَبَ بِهَا مِنْ أُمَّتِكَ يَا عِيسَى وَعَائِدَتِهَا، ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيَّ مِنْ عَالَمِي زَمَانِكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَدْخِلُوا أَعْيُنَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى الدَّرَكِ الْمَدَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْمُنَافِقُونَ، وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَائِدَةِ، وَالْفِرْعَوْنَ^(٤).

عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، عَلَيْهَا سَبْعَةُ أَرْغِفَةٍ، وَسَبْعَةُ أَحْوَابٍ، يَأْكُلُونَ مِنْهَا مَا شَاءُوا. قَالَ: فَسَرَقَ بَعْضُهُمْ مِنْهَا وَقَالَ: لَعَلَّهَا لَا تَنْزِلُ عَذَابًا. فَرُوعَتْ^(٥).

وَهَذِهِ الْأَثَارُ وَغَيْرُهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ عَلَى نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَيَّامَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، إِجَابَةً مِنَ اللَّهِ لِدَعْوَتِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ ظَاهِرُ هَذَا السِّيَاقِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الْآيَةَ.

[وَأَقِيعَةَ تَارِيخِيَّةٍ غَرِيبَةٍ]

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ التَّارِيخِ أَنَّ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ نَائِبَ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي قُبُوحِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَجَدَ الْمَائِدَةَ هُنَالِكَ مُرْصَعَةً بِاللَّيْلِ وَأَنْوَاعَ الْجَوَاهِرِ، فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بَانِي جَامِعِ دِمَشْقَ، فَمَاتَ وَهِيَ فِي

(١) الطبري: ١١/ ٢٢٥ (٢) الطبري: ١١/ ٢٢٥ (٣) الطبري: ١١/ ٢٣٣ (٤) الطبري: ٥/ ١٣٢ وابن أبي حاتم: ٤/ ١٢٤٦ (٥) الطبري: ٥/ ١٣٤

الطَّرِيقِ، فَحُمِلَتْ إِلَى أَخِيهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ، فَرَأَاهَا النَّاسُ فَتَعَجَّبُوا مِنْهَا كَثِيرًا، لِمَا فِيهَا مِنَ الْيَوَاقِيتِ النَّفِيسَةِ وَالْجَوَاهِرِ الْيَتِيمَةِ. وَيُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَائِدَةَ كَانَتْ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مَرَمٌ مَّا نَتُ فُلْتِ لِلنَّاسِ أُنْجِدُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ فُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْعُيُوبَ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعَلَّيْتُمْ فَلِإِنِّكُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَعَفَّرْتُمْ فَإِنَّكُمْ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

[الْمَسِيحُ يَتَبَرَأُ مِنَ الشَّرْكِ وَيُقِرُّ بِالْتَّوْحِيدِ]

هَذَا أَيْضًا مِمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَضْرَةِ مَنْ اتَّخَذَهُ وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿يَعْقُوبُ ابْنُ مَرْيَمَ مَّا نَتُ فُلْتِ لِلنَّاسِ أُنْجِدُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّصَارَى وَتَوْبِيخٌ وَتَفْرِيعٌ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ. هَكَذَا قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ، وَاسْتَدَلَّ قَتَادَةُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هَذَا تَوْفِيقٌ لِلتَّأْدِيبِ فِي الْجَوَابِ الْكَامِلِ، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: يَلْقَى عِيسَى حُجَّتَهُ، وَلِقَاءَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مَرَمٌ مَّا نَتُ فُلْتِ لِلنَّاسِ أُنْجِدُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: فَلَقَاهُ اللَّهُ ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ طَاوُسٍ بِنَحْوِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُ فُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أَيُّ إِنْ كَانَ صَدَرَ مِنِّي هَذَا فَقَدْ عَلِمْتَهُ يَا رَبِّ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ، فَمَا قُلْتُهُ وَلَا أَرَدْتُهُ فِي نَفْسِي وَلَا أَضْمَرْتُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْعُيُوبَ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ بِإِبْلَاغِهِ. ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَيُّ مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَّا إِلَى الَّذِي أَرْسَلْتَنِي بِهِ وَأَمَرْتَنِي بِإِبْلَاغِهِ: ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَيُّ هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ لَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ﴾ أَيُّ كُنْتُ أَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حِينَ كُنْتُ بَيْنَ أَطْهَرِهِمْ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَامَ فِيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقِي نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ، أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُمْ بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَدُوُّ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعَلَّيْتُمْ فَلِإِنِّكُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَعَفَّرْتُمْ فَإِنَّكُمْ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ^(٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَعَلَّيْتُمْ فَلِإِنِّكُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَعَفَّرْتُمْ فَإِنَّكُمْ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هَذَا الْكَلَامُ يَتَّصِفُ رَدَّ الْمَسِيحَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَسَاءُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَيَتَّصِفُ التَّبَرِّيَّ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، وَجَعَلُوا لِيهِ نِدَاءً وَصَاحِبَةً وَوَلَدًا، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ لَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَبَنَاءٌ عَجِيبٌ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ بِهَا لَيْلَةً حَتَّى الصَّبَاحُ يَرُدُّدَهَا.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٧﴾﴾ اللَّهُ تَمَّاكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٨﴾﴾

[لَا يَنْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الصَّدْقُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِيمَا أَنْهَاهُ إِلَيْهِ: مِنَ التَّبَرِّيِّ مِنَ النَّصَارَى الْمُلْحِدِينَ الْكَافِرِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ. وَمِنْ رَدِّ الْمَسِيحَةِ فِيهِمْ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. قَالَ الصَّحَّاحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: يَوْمَ يَنْفَعُ الْمُؤَحِّدِينَ تَوْحِيدُهُمْ، ﴿لَمْ جَنَّتْ

(١) ابن أبي حاتم: ١٢٥٣/٤ (٢) مسند الطيالسي: ٣٤٣ (٣) فتح الباري: ١٣٥/٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٢٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَستَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَمْ
يُرَوِّكُم أَهْلُكُمْ مِنَ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا
تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ثُمَّ
قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَيَّ وَمَعَ
هَذَا كُلُّهُ كَفَرُوا بِهِ بَعْضُ عِبَادِهِ، وَجَعَلُوا لَهُ شَرِيكًا وَعَدَلًا،
وَاتَّخَذُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا. تَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ
عُلُوقًا كَبِيرًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يَعْنِي
أَبَاهُمْ آدَمَ، الَّذِي هُوَ أَصْلُهُمْ، وَمِنْهُ خَرَجُوا فَانْتَشَرُوا فِي
الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى
عِنْدَهُ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ثُمَّ قَضَىٰ
أَجَلًا﴾ يَعْنِي الْمَوْتَ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يَعْنِي الْآخِرَةَ (٥).
وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،

تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلَقَيْنِ فِيهَا آدَمًا أَيَّ مَا كُنْتُمْ فِيهَا، لَا
يُحَوَّلُونَ وَلَا يَزُولُونَ، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ﴾ أَيَّ هَذَا الْقَوْمُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا
أَعْظَمَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ الْعَمَلُونَ﴾
[الصفات: ٦١] وَكَمَا قَالَ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾
[المطففين: ٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيَّ هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ، الْمَالِكُ لَهَا،
الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، الْقَادِرُ عَلَيْهَا، فَالْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ
وَقُدْرَتِهِ، وَفِي مَشِيئَتِهِ، فَلَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا وَزِيرَ، وَلَا عَدِيلَ،
وَلَا وَالِدَ، وَلَا وَلَدَ، وَلَا صَاحِبَةَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ
سِوَاهُ. قَالَ ابْنُ وَهْبٍ سَمِعْتُ حَبِيبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ عَنْ
أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُبَلِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَخْرَجَ
سُورَةَ أَنْزَلَتْ سُورَةَ الْمَائِدَةَ (١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضَّلُ سُورَةَ الْأَنْعَامِ وَزَمَنُ نُزُولِهَا]

قَالَ الْعَوْفِيُّ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنْزَلَتْ
سُورَةُ الْأَنْعَامِ بِمَكَّةَ (٢). وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،
قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ بِمَكَّةَ لَيْلًا جُمْلَةً وَاحِدَةً،
حَوْلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَخَارُونَ حَوْلَهَا بِالنَّبِيِّ (٣).
وَقَالَ الشَّيْخِيُّ عَنْ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ
الْأَنْعَامِ يُسَبِّعُهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ (٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

[الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ جَلِيلِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا دَحَا نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ، وَحَامِدًا لَهَا
عَلَىٰ خَلْقِهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَرَارًا لِعِبَادِهِ، وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ مَنفَعَةً لِعِبَادِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. فَجَمَعَ
لَفْظَ الظُّلُمَاتِ، وَوَحَّدَ لَفْظَ النُّورِ، لِكُونِهِ أَشْرَفَ، كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨] وَكَمَا قَالَ فِي

(١) الترمذي: ٣٠٦٣ (٢) الدر المنثور: ٢٤٣/٣ (٣)
الطبراني: ٢١٥/١٢ إسناده ضعيف فيه يوسف بن مهران البصري
قال ابن حجر: لم يرو عنه إلا ابن جُدعان بن الحديث [تقريب
٣٩٢] وعلي بن زيد بن جُدعان ضعيف (٤) الدر المنثور: ٣/
٢٤٣ (٥) الطبري: ١١/٢٥٧

وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ، وَزَيْدَ بْنِ أَسْلَمَ وَعَطِيَّةَ
وَالسُّدِّيَّ، وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ وَغَيْرِهِمْ^(١). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
وَمُجَاهِدٍ: ﴿ثُمَّ فَصَّحَ أَجَلًا﴾ يَعْنِي مُدَّةَ الدُّنْيَا^(٢). ﴿رَاجِلٌ
مُسَّسٌ عِنْدَهُ﴾ يَعْنِي عُمُرَ الْإِنْسَانِ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ. وَكَأَنَّهُ
مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِأَيْلٍ
وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وَمَعْنَى قَوْلِهِ:
﴿عِنْدَهُ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا
يُحِيطُ بِأُوقُنِيَّ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿تَشْتَلُوكَ عَنِ
السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾^(٣) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَا^(٤) إِلَى رَبِّكَ مِنْهُنَّهَا
[النازعات: ٤٢-٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قَالَ
السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي تَشْكُونَ فِي أَمْرِ السَّاعَةِ^(٥). وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أَيْ هُوَ الْمَدْعُودُ: اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ، أَيْ بَعْبُدُهُ وَيُوحِّدُهُ وَيُقِرُّ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَيُسْمَوْنَهُ: اللَّهُ، وَيَدْعُونَهُ رَغْبًا
وَرَهْبًا، إِلَّا مَنْ كَفَرَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ
الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤] أَيْ هُوَ
إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ اللَّهُ يَعْلَمُ
سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أَيْ جَمِيعَ
أَعْمَالِكُمْ خَيْرًا وَسَرًّا.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ﴾^(٦) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(٧) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ
مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يَمُكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ
مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا
مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ^(٨)

﴿ذُمُّ الْمُعَانِدِينَ وَإِبَاؤُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا﴾
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ
لِلْحَقِّ، وَمُبَاهَتَتِهِمْ وَمُنَارَعَتِهِمْ فِيهِ، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي
فَرِطَيْنِ فَلَسَوْهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ عَابِيُوهُ وَرَأَوْا نُزُولَهُ، وَبَاشَرُوا
ذَلِكَ، ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَهَذَا كَمَا
قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُكَابَرَتِهِمْ لِلْمُحْسُوسَاتِ ﴿وَلَوْ فَدَحْنَا
عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرُجُونَ﴾^(٩) لَقَالُوا إِنَّمَا سِحْرٌ
أَبْصَرْنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] وَكَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾

[عِنَادُ الْمُشْرِكِينَ وَتَوَعُّدُهُمْ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ:
أَنَّهُمْ مَهْمَا أَتَتْهُمْ مِنْ آيَةٍ أَيْ دَلَالَةٍ وَمُعْجَزَةٍ وَحُجَّةٍ مِنْ
الدَّلَالَاتِ، عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ، فَإِنَّهُمْ
يُعْرِضُونَ عَنْهَا، فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَلَا يُبَالُونَ بِهَا، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى
تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ، بِأَنَّهُ لَا بَدَأَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَيْرٌ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ
التَّكْذِيبِ، وَلَيَجِدُنَّ عَيْبَهُ وَلَيَدُوقُنَّ وَبَالَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى
وَإِعْظَا لَهُمْ وَمُحَذَّرًا لَهُمْ، أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ

(١) الطبري: ١١/٢٥٦-٢٥٨ (٢) الطبري: ١١/٢٥٦ (٣)

الطبري: ١١/٢٦٠

الْبَشَرِ

١٢٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ أَسْنَهْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤﴾ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَيَلًا فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِعمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤﴾ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَيَلًا فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِعمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾ مَن يَصْرِفُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

[اللهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعَمُ فَيَجِبُ الْإِنْفِادُ لَهُ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِمَا، وَأَنَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةَ الرَّحْمَةَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» (٢). وَقَوْلُهُ: «لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ» هَذِهِ اللَّامُ هِيَ الْمُؤْتَهَةُ لِلْقَسَمِ،

[الطور: ٤٤] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أَي لِيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أُنزِلْنَا مَلَكًا لَقِضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أَي لَوْ نَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، لَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْعَذَابُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا نُظِرَ فِي [الحجر: ٨] وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَرَوُ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ الْآيَةُ [الفرقان: ٢٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُونَ﴾ أَي لَوْ أُنزِلْنَا مَعَ الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ مَلَكًا، أَي لَوْ بَعَثْنَا إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مَلَكِيًّا، لَكَانَ عَلَى هَيْئَةِ الرَّجُلِ لِيُمْكِنَهُمْ مُخَاطَبَتُهُ وَالْإِنْفِاعُ بِالْأَخِذِ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأْتَسَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، كَمَا هُمْ يَلِيْسُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ فِي قَبُولِ رِسَالَةِ الْبَشَرِيِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِينَ لَأُنزِلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] فَمِنَ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْخَلَائِقِ رَسُولًا مِنْهُمْ، لِيَدْعُوَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلِيُمْكِنَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَنْتَفِعَ بِبَعْضِ، فِي الْمُخَاطَبَةِ وَالسُّؤَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١٦٤]، قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَاهُمْ مَلَكٌ، مَا أَنَاهُمْ إِلَّا فِي صُورَةِ رَجُلٍ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ النَّظَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الثُّورِ. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُونَ﴾ أَي وَلَخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَخْلُطُونَ (١). وَقَالَ الْوَالِئِيُّ عَنْهُ: وَلَسَبَّهْنَا عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَوَعْدٌ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِالضَّرَّةِ وَالْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ أَي فَكَّرُوا فِي أَنفُسِكُمْ، وَانظُرُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَعَانَدُوهُمْ، مِّنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا أَدَّخَرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَكَيْفَ نَجَّى رُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ

(١) الطبري: ٢٦٨/١١ الضحاك لم يلق ابن عباس (٢) فتح الباري: ٣٩٥/١٣ ومسلم: ٢١٠٧/٤

فَأَقْصَمَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، لِيَجْمَعَنَّ عِبَادَهُ ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾
 [الواقعة: ٥٠] وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، أَيْ لَا
 شَكَّ فِيهِ عِنْدَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَمَّا الْجَا حِلُّونَ الْمُكذَّبُونَ،
 فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾
 أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ لَا يُصَدِّقُونَ
 بِالْمَعَادِ، وَلَا يَخَافُونَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيْ كُلُّ ذَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ الْجَمِيعِ عِبَادَهُ وَخَلْقَهُ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَنَصْرِهِ
 وَتَدْبِيرِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيْ
 السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَصَمَائِرِهِمْ
 وَسَرَائِرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعِبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ،
 الَّذِي بَعَثَهُ بِالتَّوْحِيدِ الْعَظِيمِ وَبِالشَّرْعِ الْقَوِيمِ، وَأَمَرَهُ أَنْ
 يَدْعُو النَّاسَ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
 وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ تَأْمُرُونَنِي
 أَنْ أَعْبُدَ إِلَهًُا أُجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] وَالْمَعْنَى لَا أَتَّخِذُ وَلِيًّا إِلَّا
 اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَيْ
 خَالِقُهُمَا وَمُبْدِعُهُمَا، عَلَى غَيْرِ مِثَالِ سَبَقٍ ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا
 يُطْعَمُ﴾ أَيْ وَهُوَ الرَّزَاقُ لِخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ احتِجَاجِ إِلَيْهِمْ، كَمَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ الآية
 [الذاريات: ٥٦]، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ هُنَا (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا
 يُطْعَمُ) أَيْ لَا يَأْكُلُ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ، قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - مِنْ أَهْلِ قُبَاءَ -
 النَّبِيَّ ﷺ عَلَى طَعَامٍ، فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ النَّبِيُّ ﷺ
 وَغَسَلَ يَدَيْهِ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ،
 وَمَنْ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَانَا
 مِنَ الْعُرِيِّ، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرِ مُوَدَّعٍ
 رَبِّي، وَلَا [مُكَافِي] وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَعْتَى عَنْهُ. الْحَمْدُ
 لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَانَا
 مِنَ الْعُرِيِّ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالِ، وَبَصْرَنَا مِنَ الْعَمَى،
 وَفَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ»^(١). ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾
 أَيْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي
 أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ﴾ أَي الْعَذَابُ ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ﴾ يَعْنِي
 رَجِمَهُ اللَّهُ ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ ذُحِّجَ عَنِ
 النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

وَالْفَوْزُ: حُصُولُ الرِّبْحِ، وَنَفْيُ الْخَسَارَةِ.

﴿وَإِنْ يَسْسَكَ اللَّهُ بَصِيرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ
 بَصِيرًا فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ
 الْحَكِيمُ الْحَقِيرُ ﴿٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
 وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُذَكِّرَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَنْتَ مَعَ
 اللَّهِ وَاللَّهَةُ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
 تُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَى عَلَى
 اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

[اللَّهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْقَاهِرُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا: أَنَّهُ مَالِكُ الضَّرِّ وَالنِّعَمِ، وَأَنَّهُ
 الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ
 لِقَضَائِهِ، ﴿وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بَصِيرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ
 وَإِنْ يَمَسَّكَ بَصِيرًا فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٢٢) ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كَانُوا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَظْهَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ بُحْدُكَ لَوْ أَنَّكَ تُكْفِرُ أَنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنَّةً وَيَتَّبِعْتَّ عَنَّةً وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

[يُسْأَلُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ شُرَكَائِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ، قَائِلًا لَهُمْ: ﴿أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصاص: ٦٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أَيُّ حُجَّتِهِمْ وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ بَلِيَّتُهُمْ حِينَ ابْتُلُوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كَانُوا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣). قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَظْهَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٢٤) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

[لَا يَسْتَفِيدُ الشَّقِيَّ مِنَ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أَيُّ يَجِئُونَ لِيَسْتَمِعُوا قِرَاءَتَكَ، وَلَا تَجْزِي عَنْهُمْ شَيْئًا، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَيُّ أُغْطِيَهُ، لِئَلَّا يَفْقَهُوا الْقُرْآنَ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أَيُّ صَمَمًا عَنِ السَّمْعِ النَّافِعِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾... الْآيَةُ [البقرة: ١٧١]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أَيُّ مَهْمًا رَأَوْا مِنْ الْآيَاتِ وَالذَّلَالَاتِ وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، فَلَا فَهْمَ عِنْدَهُمْ وَلَا إِِنْصَافَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾... الْآيَةُ [الأنفال: ٢٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ بُحْدُكَ لَوْ أَنَّكَ تُكْفِرُ أَنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيُّ

يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الْآيَةُ [فاطر: ٢٢]، وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» (١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أَيُّ وَهُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرُّقَابُ، وَذَلِكَ لَهُ الْجَبَابِرَةُ، وَعَنْتَ لَهُ الْوُجُوهُ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَذَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ، وَتَوَاضَعَتْ لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ، وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوُّهُ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَاسْتِكَانَتِ وَتَضَاعَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَحَتَّ قَهْرُهُ وَحُكْمُهُ، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ ﴿الْقَلِيدُ﴾ بِمَوَاضِعِ الْأَشْيَاءِ وَمَحَالِّهَا، فَلَا يُعْطِي إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ، وَلَا يَمْنَحُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَتَىٰ سَمَاءٌ أَكْبَدُ شَهَادَةً﴾ أَيُّ مِنْ أَكْظَمِ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيُّ هُوَ الْعَالِمُ بِمَا جِئْتُمْ بِهِ، وَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ لِي ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَلَا الْفَرَانَ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أَيُّ وَهُوَ نَذِيرٌ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: حَقٌّ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَنْ يَدْعُو كَالَّذِي دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ يُنذِرَ بِالَّذِي أَنْذَرَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي كُنْتُ لَتَشْهَدُونَ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠] ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدًا وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

[أَهْلُ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَنْبَاءِ، عَنِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ بَشَرُوا بِوُجُودِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَعَبَتِ وَصْفِيَّتِهِ، وَبَلَدِيَّتِهِ وَمُهَاجِرَتِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿الَّذِينَ حَسِبُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أَيُّ حَسِبُوا كُلَّ الْحَسَارَةِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِهَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيِّ الظَّاهِرِ الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَتَوَهَّتْ بِهِ فِي قَلْبِهِمُ الرِّمَانِ وَحَدِيثِهِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ تَقُولُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أَيُّ لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ تَقُولُ عَلَى اللَّهِ، فَادَّعَى أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلَهُ، ثُمَّ لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَحُجَجِهِ، وَبَرَاهِينِهِ، وَذَلَالَاتِهِ. ﴿إِنَّهُ لَا يُبْلِغُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ لَا يُبْلِغُ هَذَا وَلَا هَذَا، لَا الْمُفْتَرِيَّ وَلَا الْمُكْذِبَ.

(١) فتح الباري: ٢/٣٧٩ (٢) الطبري: ١١/٢٩٩

يُحَاجُّونَكَ وَيُنَاطِرُونَكَ، فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، ﴿قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا اسْتِطْدَ الْأَعْلَى﴾ أَي مَا هَذَا الَّذِي جِئْتُ بِهِ، إِلَّا مَا خُودًا مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ، وَمَنْقُولٍ عَنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أَي أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَتَصْدِيقِ الرَّسُولِ وَالْإِنْفِيَادِ لِلْقُرْآنِ، ﴿وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أَي وَيَبْعُدُونَ هُمُ عَنْهُ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْفَاعِلِينَ الْقَائِمِينَ، لَا يَنْتَفِعُونَ وَلَا يَدْعُونَ أَحَدًا يَنْتَفِعُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يَرُدُّونَ النَّاسَ عَنِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ^(١). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: كَانَ كُفَّارٌ قُرَيْشِي لَا يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ^(٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٣). ﴿وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي وَمَا يَهْلِكُونَ بِهَذَا الصَّنِيعِ، وَلَا يَعُودُ وَبِأَلِّهِ إِلَّا عَلَيْهِمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

[لَا تَفِيدُ الْأَمَانِي عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْكُفَّارِ، إِذَا وَقَعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّارِ، وَشَاهَدُوا مَا فِيهَا مِنَ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، وَرَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ تِلْكَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ وَالْأَهْوَالَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ، قَالُوا ﴿يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، لِيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يُكْذِبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي بَلْ ظَهَرَ لَهُمْ حَيْثُ بَدَأَ مَا كَانُوا يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالمُعَانَدَةِ، وَإِنْ أَنْكَرُواهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ قَبْلَهُ بِسَبِيرٍ ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ ظَهَرَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، مِنْ صِدْقِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانُوا يُظْهِرُونَ لِاتِّبَاعِهِمْ خِلَافَهُ، كَقَوْلِهِ مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى، أَنَّهُ قَالَ

الْبَيِّنَاتُ

١٣١

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَعْتَهُ قَالُوا لَوِيسَ نَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَسَاءَ مَا يَرْزُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ لِيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ بِحُجُودِهِمْ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْزَلْنَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَمْرُسَلِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتِنَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾

لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هُنَالِكَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ الْآيَةُ [الإسراء: ١٠٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَحَمَلُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤] وَأَمَّا مَعْنَى الإِضْرَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ﴾، فَإِنَّهُمْ مَا طَلَبُوا الْعُودَ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الإِيمَانِ، بَلْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَابَتْهُ، جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَسَأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا، لِيَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا مِنَ النَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَي فِي تَمَنِّيهِمُ الرَّجْعَةَ، رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الإِيمَانِ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿لَوْ رُدُّوا﴾ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالمُخَالَفَةِ - ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَي فِي

(١) الطبري: ٣١١/١١ (٢) الطبري: ٣١١/١١ فيه حجاج بن أرتاة هو كثير الخطأ والتدليس ولم يصرح هنا بالسماع (٣) الطبري: ٣١٢/١١

قَوْلِهِمْ: ﴿يَلْتَمِئْنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ يَأْتِي رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ - وَقَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أَيْ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ. وَقَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أَيْ مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، ثُمَّ لَا مَعَادَ بَعْدَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ أَوْفَقُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: ﴿الَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟﴾ أَيْ أَلَيْسَ هَذَا الْمَعَادُ بِحَقٍّ، وَلَيْسَ بِبَاطِلٍ كَمَا كُنْتُمْ تَظُنُّونَ؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَيْ بِمَا كُنْتُمْ تُكْذِبُونَ بِهِ، فَذُوقُوا الْيَوْمَ مَسَّهُ ﴿أَفِيسَحَ هَذَا أَمْ أَتَسَّرَ لَا بُصُرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَانَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ خَسَارَةِ مَنْ كَذَّبَ بِلِقَائِهِ، وَعَنْ حَيْثِيَّةِ إِذَا جَاءَتْهُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، وَعَنْ نَدَامَتِهِ عَلَىٰ مَا فَرَطَ مِنَ الْعَمَلِ، وَمَا أَسْلَفَ مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ وَهَذَا الضَّمِيرُ يَحْتَمِلُ عَوْدَهُ عَلَىٰ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعَلَىٰ الْأَعْمَالِ وَعَلَىٰ الدَّارِ الْآخِرَةِ، أَيْ فِي أَمْرِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَانَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أَيْ يَحْمِلُونَ. وَقَالَ أَسْبَاطُ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ظَالِمٍ يَدْخُلُ قَبْرَهُ، إِلَّا جَاءَهُ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، أَسْوَدُ اللَّوْنِ، مُتَيْنُ الرِّيحِ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ دَنَسَةٌ، حَتَّىٰ يَدْخُلَ مَعَهُ قَبْرَهُ، فَإِذَا رَأَهُ قَالَ: مَا أَقْبِحَ وَجْهَكَ؟ قَالَ: كَذَلِكَ كَانَ عَمَلِكَ قَبِيحًا، قَالَ: مَا أَتَنَزَّ رِيحَكَ؟ قَالَ: كَذَلِكَ كَانَ عَمَلِكَ مُتَيْنًا، قَالَ: مَا أَذْنَسَ ثِيَابَكَ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: إِنَّ عَمَلَكَ كَانَ دَنَسًا، قَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: عَمَلُكَ. قَالَ: فَيَكُونُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ، فَإِذَا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ لَهُ: إِنِّي كُنْتُ أَحْمِلُكَ فِي الدُّنْيَا بِاللَّذَابِ وَالشَّهَوَاتِ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ تَحْمِلُنِي، قَالَ: فَيَرْكَبُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، فَيَسُوقُهُ حَتَّىٰ يَدْخُلَهُ النَّارَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَانَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أَيْ إِنَّمَا غَالِبُهَا كَذَلِكَ ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبْتَئِتِ اللَّهُ بِجَحْدُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرًا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلَغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ وَكُوِّ شَاءَ اللَّهُ لَجَمْعَهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

[تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ، فِي تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ: ﴿قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أَيْ قَدْ أَحْطْنَا عَلِمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ، وَحُزْنِكَ وَتَأْسُفِكَ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسُكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسُكَ عَلَىٰ عَائِذِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبْتَئِتِ اللَّهُ بِجَحْدُونَ﴾ أَيْ لَا يَبْتَهْمُونَكَ بِالْكَذِبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبْتَئِتِ اللَّهُ بِجَحْدُونَ﴾ أَيْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَأَيُّ وَلِكَيْفَهُمْ يُعَانِدُونَ الْحَقَّ، وَيَدْفَعُونَهُ بِضُدُورِهِمْ. وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ فِي قِصَّةِ أَبِي جَهْلٍ، حِينَ جَاءَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ صَحْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ، وَلَا يَشْعُرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْآخِرِ، فَاسْتَمَعُوهَا إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا هَجَمَ الصُّبْحُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ كُلُّ مِنْهُمْ لِلْآخِرِ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا جَاءَ بِهِ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا؛ لِمَا يَخَافُونَ مِنْ عِلْمِ شَبَابِ قُرَيْشٍ بِهِمْ، لِئَلَّا يَفْتِنُوا بِمَجِيئِهِمْ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةَ جَاءَ كُلُّ مِنْهُمْ، طَنًّا أَنْ صَاحِبِيَّ لَا يَجِيئَانِ، لِمَا سَبَقَ مِنَ الْعُهُودِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَتَلَاوَمُوا ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا؛ فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةَ جَاءُوا أَيْضًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا لِمِثْلِهَا ثُمَّ تَفَرَّقُوا، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ أَحَدَ عَصَاهُ، ثُمَّ حَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ أَبَا سُفْيَانَ ابْنَ حَرْبٍ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِكَ فِيْمَا سَمِعْتَ

﴿١٣٢﴾ ﴿٣٧﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا
مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ
مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مُحْشَرُونَ ﴿٤٠﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُودُّوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ
يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ
تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٢﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا
تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ
﴿٤٤﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا
ذُوقُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٦﴾

يُؤْمِنُونَ إِلَّا مَنْ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ (٤).
وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي إنما يستجيب
لِدَعَائِكَ يَا مُحَمَّدٌ مَنْ يَسْمَعُ الْكَلَامَ وَيَعْبَهُ وَيَفْهَمُهُ، كَقَوْلِهِ:
﴿يُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].
وقوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ يعني بذلك
الْكَفَّارَ، لِأَنَّهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ، فَسَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِأَمْوَاتِ
الْأَجْسَادِ، فَقَالَ: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ وَهَذَا
مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ بِهِمْ وَالْإِذْرَاءِ عَلَيْهِمْ.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ
آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧) وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا
طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُودُّوا بِكُمْ فِي
الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ

مِنْ مُحَمَّدٍ، قَالَ: يَا أَبَا نُعْلَبَةَ، وَاللَّهُ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ
أَعْرِفُهَا، وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا، وَسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا عَرَفْتُ
مَعْنَاهَا وَلَا مَا يُرَادُ بِهَا. قَالَ الْأَخْنَسُ: وَأَنَا وَالَّذِي
حَلَفْتُ بِهِ. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّىٰ أَتَى أَبَا جَهْلٍ،
فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، مَا رَأَيْتُكَ فِيمَا
سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: مَاذَا سَمِعْتُ؟ قَالَ: تَنَازَعْنَا
نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ: أَطَعُمُوا فَأَطَعْنَا، وَحَمَلُوا
فَحَمَلْنَا، وَأَعْطُوا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّىٰ إِذَا تَجَانَبْنَا عَلَى
الرُّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسِي رِهَانٍ، قَالُوا: مِتْنَا نَبِيًّا، يَا تَيْبِ
الْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَتَى نُنْزِلُكَ هَذِهِ؟ وَاللَّهُ لَا نُؤْمِنُ بِهِ
أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ وَتَرَكَهُ (١).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا
وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَعَزِيَةٌ لَهُ،
فِي مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَمْرٌ لَهُ بِالصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعِزْمِ
مِنَ الرُّسُلِ، وَوَعْدٌ لَهُ بِالنَّصْرِ كَمَا نَصَرُوا، وَبِالظَّفَرِ حَتَّىٰ
كَانَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، بَعْدَ مَا نَالَهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ مِنْ قَوْمِهِمْ
وَالْأَذَى الْبَلِيغِ، ثُمَّ جَاءَهُمُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا كَمَا لَهُمُ النَّصْرُ
فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أَيِ التِّي
كَتَبَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا
قَالَ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْفَرِيقِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَمُ الْمُصْرُونَ (١٧٢)

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْفَرِيقِينَ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وَقَالَ تَعَالَى:
﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
[المجادلة: ٢١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الرُّسُلِينَ﴾ أَيِ
مِنْ خَيْرِهِمْ، كَيْفَ نَصَرُوا وَأُيُدُوا عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ،
فَلَمْ فِيهِمْ أَسُوءَةٌ وَبِهِمْ فُدُوءَةٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ
عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أَيِ إِنْ كَانَ شَقَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْكَ ﴿فَإِنْ
اسْتَعْطَمْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قَالَ عَلِيُّ
ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: التَّفَقُّ: السَّرْبُ، فَتَذَهَبُ فِيهِ
﴿فَتَأْتِيهِمْ بَيَاتٌ﴾ أَوْ تَجْعَلُ لَكَ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ، فَتَضَعُدُ فِيهِ
فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ، أَفْضَلُ مِمَّا آتَيْتَهُمْ بِهِ فاعْفَلْ (٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ
وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى
الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْإِلْهَابِينَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ الْآيَةُ [يونس: ٩٩]، قَالَ
عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَحْرُصُ أَنْ
يُؤْمِنَ جَمِيعُ النَّاسِ، وَيَتَابِعُوهُ عَلَى الْهُدَىٰ، فَأَخْبِرَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا

(١) ابن هشام: ٣٣٧/١ متقطع إسناده. (٢) الطبري: ١١/١١
٣٣٨ (٣) الطبري: ١١/٣٣٨ (٤) الطبري: ١١/٣٤٠

مُسْتَقْبِرٌ ﴿٦٦﴾

[مُطَالَبَةُ الْمُشْرِكِينَ بِآيَةٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخِيرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، أَيْ خَارِقٌ عَلَى مُفْتَضَى مَا كَانُوا يُرِيدُونَ، وَمِمَّا يَتَعَتُونَ كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ [الأنعام: ٩٠-٩٣]: ﴿قُلْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ آيَةٌ مِنَ رَبِّكُمْ وَكُنْتُمْ أَكْثَرًا مِنْ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ هُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى تَقْتَضِي تَأْخِيرَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَ وَفَقَى مَا طَلَبُوا ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا، لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، كَمَا فَعَلَ بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا لَكَاثِمُونَ آيَةَ الْآيَةِ مُبِصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ لَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَمْتَ أَعَنَّهُمْ لَمَّا خَضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

[مَا الْمُرَادُ بِالْأُمَمِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ أَصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: الطَّيْرُ أُمَّةٌ، وَالْإِنْسُ أُمَّةٌ، وَالْحِجْرُ أُمَّةٌ^(٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ﴾ أَيْ خَلْقٌ أَمْثَالِكُمْ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيْ الْجَمِيعُ عِلْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَنْسَى وَاحِدًا مِنْ جَمِيعِهَا مِنْ رِزْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، سِوَاءَ كَانَ بَرِيًّا أَوْ بَحْرِيًّا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَمًا مِمَّا وَسَّوَدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ مُفْصِحٌ بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمَظَانِّهَا، وَحَاصِرٌ لِحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايِنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّا كَاشِعُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا يَرْجِعُونَ يَرْجِعُونَ﴾ قَالَ: حَشَرُهَا الْمَوْتُ^(٤). وَقِيلَ: إِنَّ حَشَرَهَا هُوَ يَوْمٌ بَعَثَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلِذَا أَلْوَحُوشٌ حَشِرتْ﴾ [التكوير: ٥]. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْنَا يَرْجِعُونَ يَرْجِعُونَ﴾ قَالَ: يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْبَهَائِمُ وَالِدَوَابُّ وَالطَّيْرُ وَكُلُّ شَيْءٍ، فَيُلْعَقُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ، أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تَرَابًا. فَلِذَلِكَ

يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَلْتَنِي كُتُّ تَرَابًا﴾ [النبا: ٤٠]^(٥). وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا فِي حَدِيثِ الصُّورِ.

[الْكَفَّارُ صَمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَيْ مَثَلُهُمْ فِي جَهْلِهِمْ، وَقَلْبُهُمْ غَمٌّ، وَوَجْهُهُمْ كَمَثَلِ: أَصَمٌّ وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ - أَبْكَمٌ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ، فَكَيفَ يَهْتَدِي مِثْلَ هَذَا إِلَى الطَّرِيقِ، أَوْ يَخْرُجُ مِمَّا هُوَ فِيهِ؟ كَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ صُمٌّ بِكُمْ عَمَى فَهَمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨]. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَطُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لَيْلِي يَنْشِئُهُ مَوْجٌ مِنْ قَوْعِهِ مَوْجٌ مِنْ قَوْعِهِ سَحَابٌ طُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ بِرَبِّهَا وَنَّ لَمْ يَجِدْ لِلَّهِ لَمْ يُرَأَى قَوْمًا لَّهُمْ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ يَسْأَلِ اللَّهَ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَسْأَلِ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةَ أَعْبَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ آيَاتِهِ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٥﴾﴾ فَطَمَعُ دَابِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

[الْمَنَامِينَ ﴿٥٥﴾]

[إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِدُعَائِهِمْ اللَّهُ وَخُذَهُ عِنْدَ

[العَذَابِ]

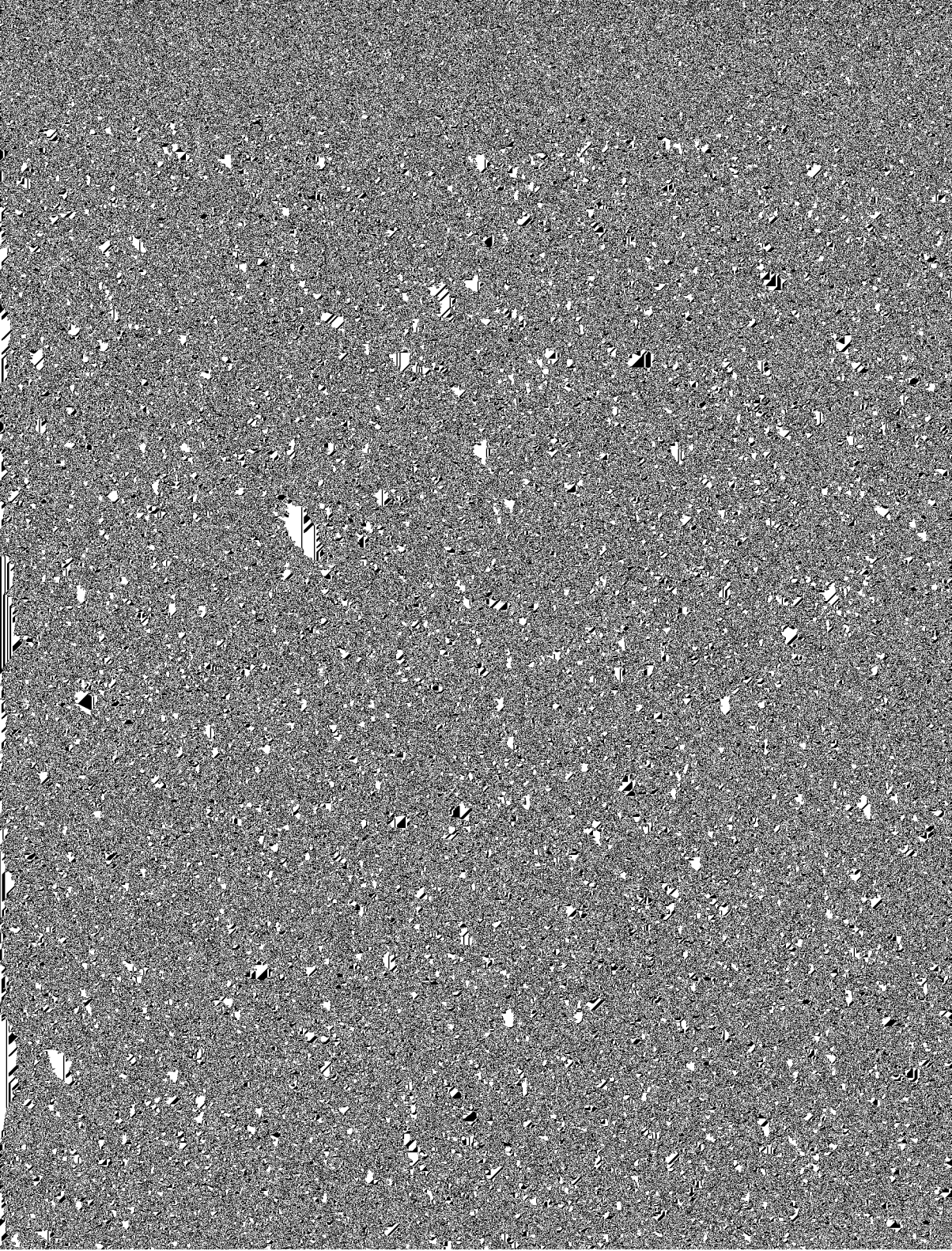
يُخِيرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى صَرْفِ حُكْمِهِ عَنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ وَخُذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ يُجِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةَ﴾ أَيْ أَتَاكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا؟ ﴿أَعْبَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيْ لَا تَدْعُونَ غَيْرَهُ

(١) الطبري: ٣٤٥/١١ (٢) الطبري: ٣٤٥/١١ (٣) الطبري:

(٤) ابن أبي حاتم: ١٢٨٦/٤ (٥) الطبري: ١١/

سُورَةُ الْأَنْعَامِ
 ١٣٣
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لِكَلِمَةٍ سَوَاءً مِمَّا جَعَلَ لِآيَاتِهِ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذُنُوبَهُمْ وَلِيُنذِرَ لِقَوْمٍ يُؤْتُونَ الْآيَاتِ

لِيُعَلِّمَكُمْ أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَفْعِ ذَلِكَ سِوَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ:
 هَاتِ كُتُبَكُمْ هَاتِ قُرْآنَكُمْ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ



أَرَبَيْكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابَتُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴿٥٠﴾ أَيْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ بِهِ، حَتَّى بَغْتَكُمْ وَفَجَأَكُمْ، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أَيْ ظَاهِرًا عِيَانًا، ﴿هَلْ يَهَاكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيْ إِنْ مَا كَانَ يُحِيطُ بِالظَّالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِالشَّرِكِ بِاللَّهِ. وَيَنْجُوا الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَرَى لِبَيْسُوَاتِهِمْ يَغْلِبُ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢].

وقوله: ﴿وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَيْ مُبَشِّرِينَ عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، بِالْخَيْرَاتِ، وَمُنذِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ: النِّقَمَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أَيْ فَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُمْ، ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَيْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَاتَهُمْ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَصَنِيعِهَا، اللَّهُ وَلِيُّهُمْ فِيمَا خَلَفُوهُ، وَحَافِظُهُمْ فِيمَا تَرَكُوهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْتَهْمِبُونَ الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أَيْ يَتَأَلَّهُمُ الْعَذَابُ، بِمَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَخَرَجُوا عَنِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَارْتَكَبُوا مِنْ مَنَاهِيهِ وَمَحَارِمِهِ وَأَنْتَهَاكُ حُرْمَاتِهِ.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكَ إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِكْرٌ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ رِيْدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَفَرْتَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٣﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾

[الرَّسُولُ لَا يَمْلِكُ خَزَائِنَ اللَّهِ وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ] يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أَيْ لَسْتُ أَمْلِكُهَا وَلَا أَنْصَرِفُ فِيهَا ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أَيْ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ، إِنَّمَا ذَاكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا أَطَّلِعُ مِنْهُ إِلَّا عَلَىٰ مَا أَطَّلَعَنِي عَلَيْهِ، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكَ﴾ أَيْ وَلَا أَدْعِي

أَنِّي مَلَكَ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ، يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، شَرَفَنِي بِذَلِكَ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أَيْ لَسْتُ أَخْرُجُ عَنْهُ قَيْدَ شَيْءٍ وَلَا أَذْنَىٰ مِنْهُ، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أَيْ هَلْ يَسْتَوِي مَنْ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَهُدْيَ إِلَيْهِ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَلَمْ يَتَّقْ لَهُ، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنْ مَا يَنْذَرُ أُولَئِ الَّذِينَ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِكْرٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيْ وَأَنْذِرْ بِهِ الْقُرَّانَ يَا مُحَمَّدُ ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أَيْ يَوْمَئِذٍ ﴿مِنْ دُونِهِ وِكْرٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيْ لَا قَرِيبَ لَهُمْ وَلَا شَفِيعَ فِيهِمْ، مِنْ عَذَابِهِ إِنْ أَرَادَهُ بِهِمْ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أَيْ أَنْذِرْ هَذَا الْيَوْمَ، الَّذِي لَا حَاجِمَ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فَيَعْمَلُونَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، عَمَلًا يُنْجِيهِمُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ، وَيُضَاعَفُ لَهُمْ بِهِ الْجَزِيلُ مِنْ تَوَابِهِ.

[نَهَى الرَّسُولَ عَنْ طَرْدِ أَصْحَابِهِ الضُّعَفَاءِ وَالْأَمْرُ

بِتَكْرِيمِهِمْ إِذَا جَاءُوا]

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ رِيْدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيْ لَا تُبْعِدْ هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ عَنكَ، بَلْ اجْعَلْهُمْ جُلَسَاءَكَ وَأَخِصَاءَكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ رِيْدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمَنْ أَغْنَانَا قَلْبُهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أَيْ يَعْبُدُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ ﴿بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَادَةُ: الْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [عافر: ٦٠] أَيْ أَتَقْبَلُ مِنْكُمْ. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيْ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَهُمْ مُخْلِصُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٣٤

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهْتُولَاءُ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أُنَبِّئُكُمْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذْ أَوْمَأْتُمْ إِلَى الْغَيْبِ فَذَلِكُمْ أَهْوَاءُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْفُتُوحُ الْفُتُوحَيْنِ ﴿٥٦﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيُعَلِّمُ مَا فِي الْبُرُوجِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِيفَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٨﴾

الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أي أوجهاها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً، ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ كل من عصى الله فهو جاهل، ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على أن لا يعود، وأصلح العمل في المستقبل، ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي ﴾ (١) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٢).

﴿ وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ولتستبين سبيل المجرمين ﴿ ٥٥ ﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أُنَبِّئُكُمْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذْ أَوْمَأْتُمْ إِلَى الْغَيْبِ فَذَلِكُمْ أَهْوَاءُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْفُتُوحُ الْفُتُوحَيْنِ ﴿ ٥٦ ﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿ ٥٧ ﴾

(١) مسلم: ٤/١٩٨٧ (٢) أحمد: ٢/٣١٣ (٣) فتح الباري:

عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿ كَقَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِي جَوَابِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿ أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ ﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٣] أَي إِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِي مِنْ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿ فَتَقَرَّرَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أَي إِنْ فَعَلْتَ هَذَا وَالْحَالَةَ هَذِهِ.

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أَي ابْتَلَيْنَا وَاخْتَبَرْنَا وَامْتَحَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، ﴿ لِيَقُولُوا أَهْتُولَاءُ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ غَالِبٌ مِنَ اتَّبَعَهُ فِي أَوَّلِ بَعْثَتِهِ، ضِعْفَاءُ النَّاسِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ مِنَ الْأَشْرَافِ إِلَّا قَلِيلٌ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ لِنُوحٍ: ﴿ وَمَا زَكَاةً أَنْتَ بَعْدَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدَى الرَّأْيِ ﴾ [الآية: هود: ٢٧]، وَكَمَا سَأَلَ هِرْقُلُ مَلِكَ الرُّومِ أَبَا سَفْيَانَ جِئِن سَأَلَهُ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ، فَقَالَ لَهُ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضِعْفَاؤُهُمْ؟ فَقَالَ: بَلْ ضِعْفَاؤُهُمْ، فَقَالَ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

والعرض: أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ كَانُوا يَسْخَرُونَ بِمَنْ آمَنَ مِنْ ضِعْفَائِهِمْ، وَيَعْتَدُونَ مَنْ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: ﴿ أَهْتُولَاءُ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ أَي مَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْدِيَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْخَيْرِ لَوْ كَانَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ خَيْرًا، وَيَدْعُونَا! كَقَوْلِهِمْ: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا نُنِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُهُمْ قَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أَي الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَوَاتًا [مریم: ٧٣] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ ذَلِكَ: ﴿ وَكَرَّ أَهْلُكُمَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَبَّكَ ﴾ [مریم: ٧٤] وَقَالَ فِي جَوَابِهِمْ جِئِن قَالُوا: ﴿ أَهْتُولَاءُ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ أَي أَلَيْسَ هُوَ أَعْلَمُ بِالشَّاكِرِينَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَصَمَائِرِهِمْ، فَيُوقِّعُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

وفي الحديث الصحيح: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ﴾ (١).

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أَي فَأَكْرِمُهُمْ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ، وَبَشِّرُهُمْ بِرَحْمَةِ

يُبْصِرُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْتَلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الرَّسُولُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِمَّا يَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَالْجَزَاءُ بِيَدِ اللَّهِ وَلَيْسَ بِيَدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا بَيَّنَّا مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنَ الْحُجَجِ وَالِدَلَالِ، عَلَى طَرِيقِ الْهِدَايَةِ وَالرُّشَادِ وَدَمَّ الْمُجَادِلَةِ وَالْجِنَادِ، ﴿كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أَيِ الَّتِي يَحْتَاجُ الْمُخَاطَبُونَ إِلَى بَيَانِهَا، ﴿وَلِنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيِ وَلِنُظَهِّرَ طَرِيقَ الْمُجْرِمِينَ الْمُخَالَفِينَ لِلرُّسُلِ، وَقُرَى: ﴿وَلِنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيِ وَلِنَسْتَبِينَ يَا مُحَمَّدُ - أَوْ يَا مُخَاطَبُ - سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أَيِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي أَوْحَاهَا اللَّهُ إِلَيَّ ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِيَ﴾ أَيِ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَنِي مِنَ اللَّهِ ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْتَلُونَ بِهِ﴾ أَيِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَيِ إِنَّمَا يَرْجِعُ أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ شَاءَ أَنْظَرَكُمْ وَأَجَلَّكُمْ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُبْصِرُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ﴾ أَيِ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْ فَصْلِ الْقَضَايَا، وَخَيْرُ الْفَاتِحِينَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْتَلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيِ لَوْ كَانَ مَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَيَّ، لَأَوْفَعْتُ لَكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ مَا تَبَتَّ فِي الصَّحِيحِينَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِيَلِيلَ بْنِ عَبْدِكُلَالٍ، فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَيَّ مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّلَعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ ظَلَلْتَنِي، فَظَنَنْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَتَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، ثُمَّ

قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَقَدْ بَعَثَنِي رُكَّكَ إِلَيْكَ، لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ بِمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَطِيعْتُ عَلَيْهِمُ الْأَحْسَنِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ أُرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(١). وَهَذَا لَفْظٌ مُثْلِمٌ، فَقَدْ عَرَضَ عَلَيْهِ عَذَابُهُمْ وَاسْتِنَصَالُهُمْ، فَاسْتَأْنَى بِهِمْ، وَسَأَلَ لَهُمُ التَّأخِيرَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا... فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْتَلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فَالْجَوَابُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ هَذِهِ الْآيَةُ دَلَّتْ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِلَيْهِ وَقُوعُ الْعَذَابِ الَّذِي يَطْلُبُونَهُ حَالَ طَلِبِهِمْ لَهُ، لَأَوْفَعَهُ بِهِمْ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ وَقُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ، بَلْ عَرَضَ عَلَيْهِ مَلَكُ الْجِبَالِ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ أَطِيعُ عَلَيْهِمُ الْأَحْسَنِينَ، وَهُمَا جَبَلَا مَكَّةَ اللَّذَانِ يَكْتَفِيَانِهَا جُنُوبًا وَشِمَالًا. فَلِهَذَا اسْتَأْنَى بِهِمْ وَسَأَلَ الرَّفْقَ لَهُمْ.

[لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ حَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» [لقمان: ٣٤]^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَيِ مُحِيطٌ عِلْمُهُ الْكَرِيمُ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، بَرِّيَّهَا وَبَحْرِيَّهَا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أَيِ وَيَعْلَمُ الْحَرَكَاتِ حَتَّى مِنَ الْجِمَادَاتِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْحَيَوَانَاتِ، وَلَا سَيِّمَا الْمُكَلَّفُونَ مِنْهُمْ مِنْ جِئِهِمْ وَإِنْسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [عافر: ١٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُوَفِّيكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ

(١) فتح الباري: ٦/٣٦٠، ومسلم: ٣/١٤٢٠ (٢) فتح الباري:

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿١١﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴿١٢﴾

[العباد بيده الله قبل الموت وبعدة]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّهُ يَتَوَفَّى عِبَادَهُ فِي مَنَامِهِمْ بِاللَّيْلِ، وَهَذَا هُوَ التَّوْفِيُّ الْأَضْعَرُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَا ضَرَفْتَ الْأُذُنَ فِيهَا مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ [الزمر: ٤٢]. فَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْوَفَاتَيْنِ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى، وَهَكَذَا ذَكَرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، حُكْمَ الْوَفَاتَيْنِ الصُّغْرَى ثُمَّ الْكُبْرَى، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أَيَّ وَيَعْلَمُ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِالنَّهَارِ (١).

وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ ذَلَّتْ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ، فِي حَالِ سُكُونِهِمْ وَحَالِ حَرَكَتِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أَيَّ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الفصص: ٧٣] أَيَّ فِي النَّهَارِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أَيَّ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أَيَّ فِي النَّهَارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يَعْنِي بِهِ أَجَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ أَيَّ فَيُخْبِرُكُمْ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيَّ وَيَجْزِيكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أَيَّ وَهُوَ الَّذِي فَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَخَضَعَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ كُلَّ شَيْءٍ، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أَيَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ بَدَنَ الْإِنْسَانِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُمْ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] وَحَفَظَةٌ يَحْفَظُونَ عَمَلَهُ وَيُحْصِنُونَهُ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الْآيَةَ [الانفطار: ١٠]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَلْقَى الْمُتَلَقَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (٢) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ق: ١٧، ١٨﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أَيَّ ائْتَضَرَ وَحَانَ أَجَلُهُ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أَيَّ مَلَائِكَةٌ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ وَاجِدٌ: لِمَلَكَ الْمَوْتِ أَغْوَانٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ (٣). يُخْرِجُونَ الرُّوحَ مِنَ الْجَسَدِ فَيُقْبِضُهَا مَلَكَ الْمَوْتِ إِذَا انْتَهَتْ إِلَى الْحُلُقُومِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ أَيَّ فِي حِفْظِ رُوحِ الْمُتَوَفَّى، بَلْ يَحْفَظُونَهَا وَيُنْزِلُونَهَا حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ فِيهِ عِلْمٌ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْفَجَّارِ فِيهِ سِحْنٌ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحَ، قَالُوا: اخْرِجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ،

كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَخْرَجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقَالُ: فُلَانٌ، فَيَقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءِ، قَالُوا: أَخْرَجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، أَخْرَجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَاقٍ، وَأَخْرَجِي مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقَالُ: فُلَانٌ، فَيَقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَا يُفْتَحُ لَكَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تُصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ... فَيَقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ - وَجُلَسَ الرَّجُلُ السَّوْءِ...^(١) فَيَقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ﴾ يَعْنِي الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٦﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى يَوْمِ بَعْثَتِ يَوْمَ مَعَادٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] وَقَالَ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يظَلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَمْرٌ الْحَسِيبُ﴾.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيَّكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ سِيعًا وَيُدْبِقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يَلْبَسُكُمْ: يَخْلِطُكُمْ مِنَ الْإِنْتِبَاسِ، يَلْبَسُوا: يَخْلِطُوا، سِيعًا: فِرْقًا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيَّكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ سِيعًا وَيُدْبِقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» أَوْ يَلْبَسُكُمْ سِيعًا وَيُدْبِقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذِهِ أَهْوَنُ أَوْ أَيْسَرُ»^(٢) وَهَكَذَا رَوَاهُ أَيْضًا فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ^(٣). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا فِي التَّفْسِيرِ^(٤).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَرَرْنَا بِقَرْيَةٍ تَدْعُوْنَ لَهَا قَرْيَةُ الْبَحْرِ، فِي إِجْنَاجِهِ الْمُضْطَرِّينَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَيِ الْحَائِرِينَ الْوَاقِعِينَ فِي الْمَهَامَةِ الْبَرِّيَّةِ، وَفِي اللَّجَجِ الْبَحْرِيَّةِ، إِذَا هَاجَتِ الرِّيَّاحُ الْعَاصِفَةُ، فَجَيِّئِدُ يُمْرِدُونَ الدُّعَاءَ لَهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صَدَلْ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا﴾ الْآيَةَ [الإسراء: ٦٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّدُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِرِيحٍ طَيِّبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيَّكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ سِيعًا وَيُدْبِقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» أَوْ يَلْبَسُكُمْ سِيعًا وَيُدْبِقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذِهِ أَهْوَنُ أَوْ أَيْسَرُ»^(٢) وَهَكَذَا رَوَاهُ أَيْضًا فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ^(٣). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا فِي التَّفْسِيرِ^(٤).

(١) أحمد: ٣٦٤/٢ (٢) فتح الباري: ١٤١/٨ (٣) فتح الباري: ٤٠٠/١٣ (٤) النسائي في الكبرى: ٣٤٠/٦

[الدَّعْوَةُ إِشَادًا بِغَيْرِ إِكْرَاهٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي بِالْقُرْآنِ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ، وَالْهَدَى وَالْبَيَانَ، ﴿تَوْمَكُمْ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أَي الَّذِي لَيْسَ وِرَاءَهُ حَقٌّ ﴿فَلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَي لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ، وَلَسْتُ بِمُوكَلِّ بِكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أَي إِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فَمَن اتَّبَعَنِي سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَن خَالَفَنِي فَقَدْ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَي لِكُلِّ نَبِيٍّ حَقِيقَةٌ، أَي لِكُلِّ خَيْرٍ وَقُوْعٌ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] وَقَالَ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

[النَّهْيُ عَنِ الْجُلُوسِ مَعَ مَنْ يَخُوضُ فِي

آيَاتِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أَي بِالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ. ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ﴾ أَي حَتَّى يَأْخُذُوا فِي كَلَامٍ آخَرَ غَيْرَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، ﴿وَإِنَّمَا يُبَشِّرُكَ الشَّيْطَانُ﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ آحَادِ الْأُمَّةِ، أَنْ لَا يَجْلِسَ مَعَ الْمُكْذِبِينَ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَيَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، فَإِنْ جَلَسَ أَحَدٌ مَعَهُمْ نَاسِيًا ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾: بَعْدَ التَّنَادُرِ ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «رُفِعَ عَنِ أُمَّتِي الْحَطَأُ وَالنَّسِيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(٨).

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمُسَارُ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ إِكْرَاهًا إِذَا نَهَاهُمْ﴾ الْآيَةُ [النساء: ١٤٠] أَي إِتْكُمْ إِذَا جَلَسْتُمْ مَعَهُمْ، وَأَقْرَبُ رُتْمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ سَاوَيْتُمُوهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ﴾ أَي

عَلَى مَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ، فَدَخَلَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، فَصَلَّيْنَا مَعَهُ، فَتَأَجَّجِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا: سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْعُرْقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّيَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمِ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا». انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ، فَرَوَاهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ^(١).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ مَوْلَى بَنِي زُهْرَةَ، وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: وَافَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ صَلَّاهَا كُلَّهَا، حَتَّى كَانَ مَعَ الْفَجْرِ، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدْ صَلَّيْتَ اللَّيْلَةَ صَلَاةً مَا رَأَيْتُكَ صَلَّيْتَ مِثْلَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلٌ إِنَّهَا صَلَاةٌ رَغَبَ وَرَهَبَ، سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا ثَلَاثَ خِصَالٍ، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَّمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَدُوًّا مِنْ غَيْرِنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُلْبَسَنَا شَيْعًا فَمَنْعَنِيهَا»^(٢). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ جِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْفِتَنِ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَلْسَمُكُمْ شَيْعًا﴾ يَعْنِي يَجْعَلُكُمْ مُتَّبِعِينَ شَيْعًا: فِرْقًا مَخَالِفِينَ. وَقَالَ الْوَالِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْأَهْوَاءَ^(٤). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٥). وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيُّ مِنْ طَرَفِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَسَتَمْتَرُوا هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»^(٦) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بِأَسْبَابِ بَعْضٍ بِالْعَذَابِ وَالْقَتْلِ»^(٧). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَنْدَادَ﴾ أَي نُبِيئُهَا وَنُوضِحُهَا مَرَّةً وَنُفَسِّرُهَا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أَي يَفْهَمُونَ وَيَتَدَبَّرُونَ عَنِ اللَّهِ آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ وَهُوَ الْحَقُّ فَلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ﴾ وَإِنَّمَا يُبَشِّرُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ وَالْحَسَنُ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

(١) أحمد: ١/١٧٥، ومسلم: ٢٨٩٠، (٢) أحمد: ١٠٨/٥، (٣) النسائي: ٣/٢١٧، وابن حبان: ١٧٩/٩، وتحفة الأحوذى: ٦/٣٩٧، وأحمد: ١٠٨/٥، (٤) الطبري: ١١/٤٢٠، (٥) الطبري: ١١/٤١٩، (٦) أبو داود: ٥/٥، وتحفة الأحوذى: ٧/٣٩٩، وابن ماجه: ٢/١٣٢٢، (٧) الطبري: ١١/٤٢١، (٨) ابن ماجه: ١/٦٥٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٣٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧٠﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧١﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧٢﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧٣﴾

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧٠﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧١﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧٢﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧٣﴾

أَلْحَقْ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَنْ أَلْحَقْ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧٥﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧٦﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿٧٧﴾

[مَثَلٌ مَنْ يَرْجِعْ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ

الصَّالِحِ]

قَالَ السُّدِّيُّ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: إِنِّبِعُوا سَبِيلَنَا وَاتْرَكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَنْدَعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُذِرْ عَلَيْنَ أَعْقَابَنَا﴾ أَيُّ فِي الْكُفْرِ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾ فَيَكُونُ مَثَلًا مَثَلُ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ، يَقُولُ: مَثَلَكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ، كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ مَعَ قَوْمٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَضَلَّ الطَّرِيقَ، فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَاسْتَهْوَتْهُ فِي الْأَرْضِ، وَأَصْحَابُهُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَعَلُوا يَدْعُوهُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ: إِنِّبِنَا فَإِنَّا عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ، فَلَدَيْكَ مَثَلٌ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِي يَدْعُو

(١) الطبري: ٤٤٣/١١ (٢) الطبري: ٤٤٤/١١ (٣) الطبري:

٤٤٣/١١ (٤) الطبري: ٤٤٣/١١ (٥) الطبري: ٤٤٤/١١

إِذَا تَجَبَّوهُمْ، فَلَمْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ بَرَّئُوا مِنْ عَهْدِيهِمْ وَتَخَلَّصُوا مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَكُنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيُّ وَلَكِنْ أَمْرَانَا كَمَا بِالْأَعْرَاضِ عَنْهُمْ، حِينَئِذٍ تَذَكَّرُوا لَهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ذَلِكَ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ﴾ أَيُّ وَلَكِنْ أَمْرَانَا كَمَا بِالْأَعْرَاضِ عَنْهُمْ، حِينَئِذٍ تَذَكَّرُوا لَهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ذَلِكَ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ كَثِيرٍ أَوْ كَرِهُوا لَكُمْ وَإِنْ تَبَسَّلْتُمْ بِهِمْ فَاتُخَذُوا مِنْكُمْ هَضْبَةً لَمْ يَبْغُوا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْ خَلْقِهِ﴾ أَيُّ وَلَكِنْ أَمْرَانَا كَمَا بِالْأَعْرَاضِ عَنْهُمْ، حِينَئِذٍ تَذَكَّرُوا لَهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ذَلِكَ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

﴿وَذَكَرَ بِهِ﴾ أَيُّ ذَكَرَ النَّاسَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَحَدَّثَهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ الْأَلِيمَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أَيُّ لِيَلَّا تَبَسَّلَ. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ، وَالْحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ: تَبَسَّلَ: تَسَلَّمَ (١). وَقَالَ الْوَالِيبِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَفْتَضَحَ (٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: تَحَسَّنَ (٣). وَقَالَ مَرَّةً وَابْنُ زَيْدٍ: تَوَاحَدَ (٤). وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: تَجَزَى (٥). وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالْعِبَارَاتِ مُتَّصِرَةٌ فِي الْمَعْنَى، وَحَاصِلُهَا الْإِسْلَامُ لِلْهَلَكَةِ، وَالْحَسَنُ عَنِ الْخَيْرِ وَالْإِزْتِهَانُ عَنِ ذِكْرِ الْمَطْلُوبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٦) إِلَّا أَحَبَّ الْيَتِيمَ [المدثر: ٣٨، ٣٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كَعَلٌّ عَدَلٌ لَا يُؤَخِّذُ مِنْهَا﴾ أَيُّ وَلَوْ بَدَّلَتْ كُلُّ مَبْدُولٍ مَا قَبِلَ مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ (آل عمران: ٤٩)، وَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنْدَعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُذِرْ عَلَيْنَ أَعْقَابَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَى اثْنَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلسَّلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٨) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ

﴿قُلْ أَنْدَعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُذِرْ عَلَيْنَ أَعْقَابَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَى اثْنَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلسَّلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٨) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ

عَمِرُوا قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الصُّورُ؟ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»^(٤).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَارِدٌ اتَّخَذَ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٧٤) وَكَذَلِكَ نَزَتْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَزَّ عَلَيْهِ الْيَلُّ رَأَى كَوْكَبًا قَالَهُ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلَاقَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِعَةً قَالَهُ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

[وَعَظُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ]

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَعَظَ أَبَاهُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَزَجَرَهُ عَنْهَا وَنَهَاها، كَمَا قَالَ: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَارِدٌ اتَّخَذَ أَصْنَامًا ءَالِهَةً؟ أَيِ أَتَنَّهُ لِيَسْمَعَ تَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ ﴿إِنِّي أَرَىكَ وَقَوْمَكَ﴾ أَيِ السَّالِكِينَ مَسْلَكَكَ ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أَيِ تَائِبِينَ لَا يَهْتَدُونَ أَيَّنَ يَسْلُكُونَ، بَلْ فِي حَيْرَةٍ وَجَهْلٍ، وَأَمْرِكُمْ فِي الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ بَيْنَ وَاصِحٍ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ. وَقَالَ تَعَالَى: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمِكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٧﴾ وَأَعِزَّنِي لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا» [مريم: ٤١-٤٨] فَكَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا مَاتَ عَلَى الشُّرْكِ وَبَيَّنَّ إِبْرَاهِيمَ ذَلِكَ، رَجَعَ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لَهُ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ، يَلْقَى أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَهُ آزَرُ: يَا بَنِي الْيَوْمِ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: أَيِ رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنَّكَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ

إِلَى الطَّرِيقِ، وَالطَّرِيقُ هُوَ الْإِسْلَامُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١) وَقَوْلُهُ: «كَأَلَيْ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ» هُمُ الْغِيْلَانُ يَدْعُونَهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَجَدِّهِ، فَيَتَّبِعُهَا وَهُوَ بَرِيٌّ أَنَّهُ فِي شَيْءٍ، فَيُضْحِكُ وَقَدْ رَمَتْهُ فِي هَلَكَةٍ، وَرَبِّمَا أَكَلْتَهُ، أَوْ تَلْقِيهِ فِي مَضَلَّةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَهْلِكُ فِيهَا عَطَشًا، فَهَذَا مَثَلٌ مَنْ أَجَابَ الْآلِهَةَ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٢). وَلِهَذَا قَالَ: «قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْمُنْتَهَى» [البقرة: ١٢٠] كَمَا قَالَ: «وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ» [الزمر: ٣٧] وَقَالَ: «إِنْ تَحَرَّصَ عَلَيَّ هَدَيْتُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرَةٍ» [النحل: ٣٧] وَقَوْلُهُ: «وَأَمْرًا لِلسَّلَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» أَيِ نُحْلِصَ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، «وَأَنْ أَمِيسُوا الصَّلَاةَ وَأَقِمْوهُ» أَيِ وَأَمْرًا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبِتَقْوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» أَيِ بِالْعَدْلِ فَهُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا، وَالْمَدَبِّرُ لَهُمَا وَلِمَنْ فِيهِمَا، وَقَوْلُهُ: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ» يَعْني يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ: كُنْ، فَيَكُونُ عَنْ أَمْرِهِ كَلِمَةُ الْبَصْرِ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، وَ«يَوْمَ» مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْعَطْفِ عَلَى قَوْلِهِ: «وَأَتَّقُوهُ»، وَتَقْدِيرُهُ: وَأَتَّقُوا يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ، فَيَكُونُ. وَإِمَّا عَلَى قَوْلِهِ: «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» أَيِ وَخَلَقَ يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ فَيَكُونُ. فَذَكَرَ بَدْءَ الْخَلْقِ وَإِعَادَتَهُ، وَهَذَا مُنَاسِبٌ. وَإِمَّا عَلَى إِضْمَارِ فِعْلِ تَقْدِيرُهُ: وَ(أَذْكُرُ) يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ، فَيَكُونُ. وَقَوْلُهُ: «قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ» جُمْلَتَانِ مَحَلُّهُمَا الْجَزُّ عَلَى أَنَّهُمَا صِفَتَانِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

[بَيَانُ نَفْخِ الصُّورِ]

وَقَوْلُهُ: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ»، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِقَوْلِهِ: «وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» كَقَوْلِهِ: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» [غافر: ١٦] كَقَوْلِهِ: «الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا» [الفرقان: ٢٦] وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَالْمُرَادُ بِالصُّورِ الْقَرْنُ الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَعَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ إِسْرَافِيلَ قَدْ أَلْتَمَمَ الصُّورَ، وَحَتَّى جَبَهَتْهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفَخُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

(١) الطبري: ٤٥٢/١١ (٢) الطبري: ٤٥٢/١١ (٣) الطبري:

٢٣٨/٥ (٤) تحفة الأحمدي: ١١٧/٧ وأحمد: ١٦٢/٢

يَعْتُونَ، وَأَيُّ حِزْبِي أَخْرَى مِنْ أَبِي الْأُبْعَدِ؟ فَيَقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْظِرْ مَا وَرَاءَكَ، فَإِذَا هُوَ بِدِيحٍ مُتَلَطِّحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ^(١).

[إِنْكِشَافٌ دَلَالِيلِ التَّوْحِيدِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ]

قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي تَبَيَّنَ لَهُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِي نَظَرِهِ إِلَى خَلْقِهِمَا، عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِي مَلِكِهِ وَخَلْقِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ شَاءَ نَحْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمُ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ﴾ [سبأ: ٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أَي تَعَشَّاهُ وَسَتَرَهُ ﴿رَبًّا كَوَكَبًا﴾ أَي نَجْمًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أَي غَابَ، قَالَ: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلَاقَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: عَلِمَ أَنَّ رَبَّهُ دَائِمٌ لَا يَزُولُ^(٢). ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِزًا﴾ أَي طَالِعًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَكْبَرَ﴾ هَذَا أَكْبَرَ أَي جِزْمًا مِنَ النُّجْمِ وَمِنْ الْقَمَرِ، وَأَكْثَرُ إِضَاءَةً ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أَي غَابَتْ ﴿قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ [٧٨] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى الْأَخْلَاصِ دِينِي، وَأَفْرَدْتُ عِبَادَتِي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي خَلَقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿حَنِيفًا﴾ أَي فِي حَالِ كَوْنِي حَنِيفًا، أَي مَائِلًا عَنِ الشَّرِكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

[هَذَا مَقَامُ الْمُنَاطَرَةِ لِاطْلَبِ التَّحْقِيقِ]

قد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلًا بقوله "لئن لم يهدني ربي"

وَالْحَقُّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاطِرًا لِقَوْمِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ بَطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْهَيْكَلِ وَالْأَصْنَامِ، فَبَيَّنَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ مَعَ أَبِيهِ خَطَأَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الْأَرْضِيَّةِ، الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِ الْمَلَائِكَةِ السَّمَاوِيَّةِ، لِيَسْتَفْعُوا لَهُمْ إِلَى الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، [الَّذِي] هُمْ - عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ - أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَإِنَّمَا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ مَلَائِكَتِهِ، لِيَسْتَفْعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الرَّزْقِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَأَيْتَ اتَّخَذْتَ اصْنَامًا ۗ اللَّهُ إِنِّي

أَرَيْكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٧٤] وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ

مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [٧٥]

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ

لَا أُحِبُّ الْأَفْلَاقَ﴾ [٧٦] فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِزًا قَالَ هَذَا

رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ

الضَّالِّينَ﴾ [٧٧] فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا

أَكْبَرَ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ [٧٨]

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٧٩] وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ

أَتَحْسَبُونَ فِي اللَّهِ وَقَدِ هَدَيْنَا وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرِكُونَ بِهِ

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا

تَتَذَكَّرُونَ﴾ [٨٠] وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا

تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٨١]

وَالنَّصْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. وَبَيَّنَ فِي هَذَا الْمَقَامِ خَطَأَهُمْ وَضَلَالَتَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْهَيْكَلِ، وَهِيَ الْكُورَاكِبُ السِّيَّارَةُ السَّبْعَةُ الْمُتَحِيرَةُ، وَهِيَ: الْقَمَرُ وَعُطَارِدُ وَالزُّهْرَةُ وَالشَّمْسُ وَالْمَرِيخُ وَالْمُشْتَرِي وَرَجُلٌ، وَأَشْدُهُنَّ إِضَاءَةً وَأَشْرَفُهُنَّ عِنْدَهُمُ الشَّمْسُ، ثُمَّ الْقَمَرُ ثُمَّ الزُّهْرَةُ، فَبَيَّنَ أَوْلَا صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّ هَذِهِ الزُّهْرَةَ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّهَا مُسَخَّرَةٌ مُقَدَّرَةٌ بِسَيْرٍ مُعَيَّنٍ، لَا تَرِيحُ عَنْهُ يَوْمًا وَلَا شِمَالًا، وَلَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا تَصَرُّفًا، بَلْ هِيَ جِزْمٌ مِنَ الْأَجْرَامِ خَلَقَهَا اللَّهُ مُبِيرَةً، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ ثُمَّ تَسِيرُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَغْرِبِ حَتَّى تَعْيِبَ عَنِ الْأَبْصَارِ فِيهِ، ثُمَّ تَبْدُو فِي اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ، وَمِثْلُ هَذِهِ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْقَمَرِ فَبَيَّنَ فِيهِ مِثْلَ مَا بَيَّنَ فِي النُّجْمِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الشَّمْسِ كَذَلِكَ، فَلَمَّا انْتَهَتْ الْإِلَهِيَّةُ عَنْ هَذِهِ الْأَجْرَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ أُنُورٌ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٣٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ
وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ
قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
يُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا أَفَضَلْنَا عَلَىٰ
ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَىٰ ٱللَّهِ يَهْدِي
بِهِ مَن يَشَآءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَ وَٱلنَّبُوَّةَ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي ءَاتَىٰهَا قَدْ كُنَّا بَهَا لَٰئِسِينَ بِهَا لَكٰفِرِينَ
﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰ ٱللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ قُلُوبٌ
أَسْرَكْنَا عَلَيْهِمْ أَجْرَآءَ ٱلَّذِينَ هُوَ ٱلَّذِي ٱلَّذِينَ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

بجميع الأشياء فلا يخفى عليه خافية ﴿٨٢﴾ أفلا تتذكرون ﴿٨٣﴾ أي
فيما بينت لكم؟ أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتتجزروا
عن عبادتها؟ وهذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هوذا
عليه السلام على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه،
حيث يقول: ﴿قالوا يهود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركي
إلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴿٥٣﴾ إن نقول إلا
اعتدك بعض إلهتنا يسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا إني بريء
مما تشركون ﴿٥٤﴾ من دوني فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون ﴿٥٥﴾ إني
توكلت على الله ربي وربكي ما من دابة إلا هو آخذٌ بِصَبْرٍ إِنَّ
رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿هود: ٥٣-٥٦﴾ وقوله: ﴿وكيف
أخاف ما أشركتم ﴿٨٢﴾ أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي
تعبدونها من دون الله ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم
يُرزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس وغير واحد من
السلف: أي حجة ﴿١﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿أم لهم

الْأَبْصَارُ، وَتَحَقَّقَ ذَٰلِكَ بِٱلدَّلِيلِ ٱلْقَاطِعِ، ﴿قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أَي أَنَا بَرِيءٌ مِّنْ عِبَادَتِهِنَّ وَمُؤَلَّاتِهِنَّ،
فَإِن كَانَتْ ٱلْهَيْهَاتَهُ فَكَيْدُونِي بِهَا جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظُرُونَ ﴿إِنِّي
وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أَي إِنَّمَا أَعْبُدُ خَالِقَ هَذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ
وَمُخْتَرِعَهَا وَمُسَخَّرَهَا وَمُقَدِّرَهَا وَمُدَبِّرَهَا، ٱلَّذِي بِيَدِهِ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَٱلْهَيْهَاتَهُ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن رَّبَّكُمْ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ
وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشَى ٱلنَّجْمَ ٱلنَّهَارَ
يَطْلُبُهُ حَبِيبًا وَٱلسَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ؕ ٱلَا لَهُ
ٱلْمُتَلَقُّ وَٱلْأَمْرُ تَبَآرَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] قَالَ ٱللَّهُ
فِي حَقِّهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ
عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أُتْرَفُ لَهَا
عِبَادَتِي ﴿ٱلْآيَاتِ [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وَمِمَّا يُؤَيَّدُ أَنَّهُ كَانَ
فِي هَذَا ٱلْمَقَامِ مَنَاطِرًا لِقَوْمِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلشَّرِكِ لَا
نَظَرَ، قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَحَاجَّتْهُ قَوْمُهُ قَالِ ٱلْمُتَحَوِّثُونَ فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا أَخَافُ مَآ
تُشْرِكُونَ بِهِ ؕ ٱلَا أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ
عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨١﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمُ ٱللَّهَ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا قَالِ ٱلرَّفِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ
مُّهْتَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم، حين جادلته قومه
فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظره وشبهه من القول، أنه
قال: ﴿المتحجوثي في الله وقد هدني﴾ أي تجادلوني في أمر
الله، وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرتني وهداني إلى الحق،
وأنا على بينة منه، فكيف أتفت إلى أقوالكم الفاسدة،
وشبهكم الباطلة؟! وقوله: ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلا
أن يشاء ربي شيئاً﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما
ذهبتم إليه: أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً،
وأنا لا أخافها ولا أباليها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها،
ولا تنظرون بل عاجلوني بذلك. وقوله تعالى: ﴿إلا أن
يشاء ربي شيئاً﴾ استثناء منقطع، أي لا يضر ولا ينفع إلا
الله عز وجل ﴿وسيع ربي كل شيء علماً﴾ أي أحاط علمه

هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ دُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
 وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
 وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلِّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَهُدَّيْنَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
 بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ اللَّهُ بِهِمْ
 مَا كَانُوا يَمَعُولُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ
 وَالنَّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَوَالَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا
 بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفْتَدَهُ
 قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا
 لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

[هبة إسحق ويعقوب لإبراهيم في شيخوخته]

يَذُكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَهَبَ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ طَعَنَ فِي
 السَّنِّ، وَأَيْسَ هُوَ وَأَمْرَأَتُهُ سَارَةُ مِنَ الْوَلَدِ، فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ
 وَهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ، فَبَشَّرُوهُمَا بِإِسْحَاقَ، فَتَعَجَّبَتِ
 الْمَرْأَةُ مِنْ ذَلِكَ، وَ«قَالَتْ يَتَوَلَّى أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي
 شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ
 رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكَّنْتُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ [هود: ٧٢، ٧٣]
 فَبَشَّرُوهُمَا - مَعَ وُجُودِهِ - بِنَبِيِّهِ، وَبِأَنَّ لَهُ نَسْلًا
 وَعَقِيًّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ»

[الصفات: ١١٢] وَهَذَا أَكْمَلُ فِي الْبِشَارَةِ وَأَعْظَمُ فِي
 النِّعْمَةِ، وَقَالَ: «فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ»
 [هود: ٧١] أَيْ وَيُولَدُ لِهَذَا الْمَوْلُودِ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُمَا، فَتَمَّرُ
 أَعْيُنُكُمَا بِهِ، كَمَا قَرَّتْ بِوَالِدِهِ، فَإِنَّ الْفَرَحَ بِوَلَدِ الْوَلَدِ شَدِيدٌ
 لِقَاءِ النَّسْلِ وَالْعَقَبِ، وَلَكَمَا كَانَ وَلَدُ الشَّيْخِ وَالشَّيْخَةِ قَدْ
 بَتَّوَهُمْ: أَنَّهُ لَا يُعْقَبُ لِضَعْفِهِ، وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ وَبِوَالِدِهِ
 بِاسْمِ يَعْقُوبَ الَّذِي فِيهِ اشْتِقَاقُ الْعَقَبِ وَالذَّرِّيَّةِ، وَكَانَ هَذَا
 مُجَازَاةً لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ اعْتَرَلَ قَوْمَهُ وَتَرَكَهُمْ
 وَنَزَحَ عَنْهُمْ، وَهَاجَرَ مِنْ بِلَادِهِمْ ذَاهِبًا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فِي
 الْأَرْضِ، فَعَوَّضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ، بِأَوْلَادٍ
 صَالِحِينَ مِنْ صُلْبِهِ عَلَى دِينِهِ، لِيَتَمَّرَ بِهِمْ عَيْتُهُ، كَمَا قَالَ
 تَعَالَى: «فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ ﴿[الشورى: ٢١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
 وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿[يوسف: ٤٠] وَقَوْلُهُ:
 «فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[أَيُّ فِئْتَيْنِ
 طَائِفَتَيْنِ أَصْوَبٌ: الَّذِي عَبْدَ مَنْ بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ، أَوْ
 الَّذِي عَبْدَ مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، بِلَا دَلِيلٍ، أَيُّهُمَا أَحَقُّ
 بِالْأَمْنِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿
 أَيُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،
 وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، هُمُ الْأَمِينُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُهْتَدُونَ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[الشرك هو الظلم العظيم]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ «وَلَمْ يَلْبِسُوا
 إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» قَالَ أَصْحَابُهُ وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَتَزَلَّتْ
 «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣] (١) وَرَوَى الْإِمَامُ
 أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالُوا:
 يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي
 تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: «يَبِئْسَ لَا شِرْكَ
 بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣]؟ إِنْمَا هُوَ
 الشِّرْكَ» (٢).

وَقَوْلُهُ: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ» أَيُّ
 وَجْهِنَا حُجَّتُهُ عَلَيْهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بِذَلِكَ
 قَوْلُهُ: «وَكَيفَ آخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
 أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
 أَحَقُّ بِالْأَمْنِ» (٣) ... الْآيَةُ. وَقَدْ صَدَّقَهُ اللَّهُ وَحَكَمَ لَهُ
 بِالْأَمْنِ وَالْهَدَايَةِ فَقَالَ: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
 بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كَلِمَةً:
 «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ
 نَشَاءُ»: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» أَيُّ حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ
 وَأَفْعَالِهِ، عَلِيمٌ أَيُّ بِمَنْ يَهْدِيهِ وَمَنْ يُضِلُّهُ، وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ
 الْحُجَجُ وَالْإِبْرَاهِيمُ، كَمَا قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
 كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿[يونس: ٩٦] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَقًّا رَأَوْا
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [يونس: ٩٦، ٩٧] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: «إِنَّ
 رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

«وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا

(١) فتح الباري: ١٤٤/٨ (٢) أحمد: ٤٤٤/١ (٣) الطبري:

إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأُمِّهِ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُ لَا أَبَ لَهُ: رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي حَرْبِ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ، قَالَ: أَرْسَلَ الْحَجَّاجُ إِلَيَّ يَحْيَى بْنُ يَعْمُرَ، فَقَالَ: بَلَّغْنِي أَنْكَ تَرْتُمُّ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ مِنْ ذُرِّيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، تَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ - وَقَدْ قَرَأْتَهُ مِنْ أَوْلَاهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَنْعَامِ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ قَالَ: بلى. قَالَ: أَلَيْسَ عِيسَى مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَيْسَ لَهُ أَبٌ؟ قَالَ صَدَقْتَ^(١). فَلِهَذَا إِذَا أَوْصَى الرَّجُلُ لِذُرِّيَّتِهِ، أَوْ وَقَفَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ، أَوْ وَهَبَهُمْ، دَخَلَ أَوْلَادَ الْبَنَاتِ فِيهِمْ، فَأَمَّا إِذَا أُعْطِيَ الرَّجُلُ بَنِيهِ، أَوْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَخْتَصُّ بِذَلِكَ بَنُوهُ لِضَلْبِهِ وَبَنُو بَنِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ذَكَرَ أَصُولَهُمْ وَفُرُوعَهُمْ، وَدَوَى طَبَقَتَهُمْ وَأَنَّ الْهَدَايَةَ وَالْإِجْتِيَاءَ شَمَلَهُمْ كُلَّهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِخْوَانِهِمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

[الشُّرْكُ يَحِطُّ أَعْمَالَ الْمُخْلُوقِينَ حَتَّى الرَّسُلِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَيَّ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَهَدَايَتِهِ وَإِيَّاهُمْ، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تُشْدِيدُ لِأَمْرِ الشُّرْكِ، وَتَغْلِيظُ لِشَأْنِهِ، وَتَعْظِيمُ لِمَلَابَسَتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَنْكَ﴾ الْآيَةَ [الزمر: ٦٥]، وَهَذَا شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَفْتَضِي جَوَازَ الْوُقُوعِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَرَادْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ١٤]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبِيَّةَ﴾ أَيَّ أَنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ، رَحْمَةً لِلْعِبَادِ بِهِمْ، وَطُفًا مِنَّا بِالْخَلِيقَةِ، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أَيَّ بِالنَّبِيَّةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ، الْكِتَابِ وَالْحِكْمِ وَالنَّبِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هُؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ

وَيَعْقُوبُ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿[مریم: ٤٩] وَقَالَ هُنَا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَوُحَا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيَّ مِنْ قَبْلِهِ هَدَيْنَاهُ كَمَا هَدَيْنَاهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ ذُرِّيَّةً صَالِحَةً.

[خُصُوصِيَّةُ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ]

وَكُلُّ مِنْهُمَا لَهُ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، أَمَّا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَعْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوهُ فِي السَّفِينَةِ، جَعَلَ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ، فَالْأَنْسَ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَأَمَّا الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَهُ نَبِيًّا، إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبِيَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الْآيَةَ [العنكبوت: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبِيَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُتِلُّ عَلَيْهِمْ عَائِلَةُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْبُكُورِ وَالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ﴾ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أَيَّ وَهَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الْآيَةَ، وَعَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى نُوحٍ - لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ - ظَاهِرٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ^(١). وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَعَوْدُهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ - لِأَنَّهُ الَّذِي سَبَقَ الْكَلَامَ مِنْ أَجْلِهِ - حَسَنٌ، لَكِنْ يُشْكَلُ عَلَيْهِ لَوْطٌ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، بَلْ هُوَ ابْنُ أُخِيهِ مَارَانَ بْنِ آزَرَ، أَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ دَخَلَ فِي الذَّرِّيَّةِ تَغْلِيظًا، وَكَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] فِإِسْمَاعِيلَ عَمُّهُ دَخَلَ فِي آبَائِهِ تَغْلِيظًا، وَكَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَدَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] فَدَخَلَ إِبْلِيسَ فِي أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ، وَذَمَّ عَلَى الْمُخَالَفَةِ لِأَنَّهُ كَانَ فِي نَسَبِهِ بِهِمْ، فَعُومِلَ مَعَامَلَتَهُمْ، وَدَخَلَ مَعَهُمْ تَغْلِيظًا، وَإِلَّا فَهُوَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ وَطَبِيعَتُهُ مِنَ النَّارِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنَ النَّورِ.

وَفِي ذِكْرِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ - أَوْ نُوحٍ، عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرَ - دَلَالَةٌ عَلَى دُخُولِ وَلَدِ الْبَنَاتِ فِي ذُرِّيَةِ الرَّجُلِ، لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَى

(١) الطبري: ٥٠٧/١١ (٢) الدر المنثور: ٣١١/٣ ابن أبي حاتم ٧٥٥٤/٤ فيه علي بن عباس وهو ضعيف كما في التقريب.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٣٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمُهُمَّ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٣٩﴾

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٤٠﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقْرَأَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةَ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَبُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٤١﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۗ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ زَعَمُونَ ﴿١٤٢﴾

وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (١). ﴿قَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أَيِ إِن يَكْفُرُ بِهَذِهِ النَّعْمِ، مَن كَفَرَ بِهَا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ، وَمَلِيْنٍ وَكِنَانِيْنٍ، قَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا آخَرِينَ، أَيِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَأَتْبَاعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أَيِ لَا يَجْحَدُونَ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَا يَرُدُّونَ مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا، بَلْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِهَا، مُحْكَمَهَا وَمُشَابِهَهَا، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ يَمَنَةً وَكَرِيمَةً وَإِحْسَانِيَةً. ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿أُولَئِكَ﴾ يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ، مَعَ مَنْ أُضِيفَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَبَاءِ وَالذَّرِّيَّةِ وَالْإِخْوَانِ، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أَيِ هُمْ أَهْلُ الْهُدَى لَا غَيْرُهُمْ ﴿فِيهِدَهُمْ أَقْدَةَ﴾، أَيِ افْتَدِ وَأَتَّبِعْ، وَإِذَا كَانَ هَذَا أَمْرًا لِلرَّسُولِ ﷺ، فَأَمْتُهُ تَبِعْ لَهُ، فِيمَا يَشْرَعُهُ وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ أَفِي (ص) سَجْدَةٍ؟ فَقَالَ نَعَمْ، ثُمَّ تَلَا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فِيهِدَهُمْ أَقْدَةَ﴾ ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْهُمْ. زَادَ فِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ... فَقَالَ: نَبِيُّكُمْ ﷺ يَمُنُّ أَمْرًا أَنْ يَفْتَدِيَ بِهِمْ (٢).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ لَّا أَسْتَلِكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَيِ لَا أُطَلَّبُ مِنْكُمْ عَلَىٰ إِبْلَغِي إِيَّاكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ أَجْرًا أَيِ أَجْرَةً، وَلَا أُرِيدُ مِنْكُمْ شَيْئًا، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْمَلَكُوتِ﴾ أَيِ يَنْذِرُكُمْ بِهِ، فَيَرْتَدُّونَ مِنَ الْعَمَىٰ إِلَى الْهُدَىٰ، وَمِنَ الْعَمَىٰ إِلَى الرَّشَادِ، وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمُهُمَّ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٣٩﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

[بَشْرِيَّةُ الرَّسُولِ وَإِنزَالُ الْكِتَابِ عَلَيْهِ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: وَمَا عَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، إِذْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ إِلَيْهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ (٣). وَقِيلَ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ، ﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ

عَجَبًا أَنْ أُوحِيَآ إِلَيَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْزِرَ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥] وَقَالَ لُهَيْتَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ أَيِ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِإِنزَالِ شَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فِي جَوَابِ سَلْبِهِمُ الْعَامَّ، بِإِتْبَاتِ قَضِيَّةٍ جُرَيْبِيَّةٍ مُّوجِبَةٍ: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ وَهُوَ التَّوْرَةُ الَّتِي قَدْ عَلِمْتُمْ وَكُلُّ أَحَدٍ: أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنزَلَهَا عَلَىٰ مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ، نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، أَيِ: لِيُسْتَضَاءَ بِهَا فِي كَشْفِ الْمُسْكَلَاتِ، وَيَهْتَدَىٰ بِهَا مِنْ ظُلْمِ الشُّبُهَاتِ.

(١) الطبري: ١١/٥١٥، ٥١٦ (٢) فتح الباري: ١٤٤/٨ (٣) الطبري: ١١/٥٢٤

الْيَوْمَ تَهَانُونَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ، كَمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ، وَتَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ وَالْإِقْبَادِ لِرُسُلِهِ.

وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ فِي كَيْفِيَّةِ اخْتِضَارِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَهِيَ مُفْرَرَةٌ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَي يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ هَذَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَي كَمَا بَدَأْنَاكُمْ أَعْدَانًاكُمْ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ ذَلِكَ وَتَسْتَبْعِدُونَهُ، فَهَذَا يَوْمَ الْبُعْثِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَكَّبْنَا مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أَي مِنَ النَّعْمِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي ائْتَيْنِيئُوهَا، فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَبَيَّنَّ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ»^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ بَدَجٌ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَيَنْ مَا جَمَعْتَ؟ فَيَقُولُ يَا رَبِّ، جَمَعْتُهُ وَتَرَكْتُهُ أَوْفَرَ مَا كَانَ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَيَنْ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَلَا يَرَاهُ قَدَّمَ شَيْئًا، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْنَا مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾

الآيَةَ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُعْمَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ تَفْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا كَانُوا اتَّخَذُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، ظَانِينَ أَنَّهَا تَنْفَعُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، إِنْ كَانَ تَمَّ مَعَادٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَانزاح الضَّالُّونَ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، وَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: ﴿أَبْنِ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَبْنِ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾^(٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْبُؤُونَكُمْ [الشعراء: ٩٢، ٩٣] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُعْمَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أَي فِي الْعِبَادَةِ لَهُمْ، فِيكُمْ قِسْطٌ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ لَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ قُرِئَ بِالرَّفْعِ؛ أَي سَمَلَكُمْ، وَبِالنَّضْبِ؛ أَي لَقَدْ نَقَطَ مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْوَصَلَاتِ وَالْوَسَائِلِ؛ ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أَي ذَهَبَ عَنْكُمْ

﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ مِنْ رَجَاءِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاهُوا الْقَدَابِ وَنَقَلْتُم بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾^(٣) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكْ لَنَا كَرَةٌ

فَنَتَبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الْآيَةَ [القصص: ٦٤]، وَقَالَ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ تَوْفِكُونَ^(٤) فَالِقُ الْأَمْشَاجِ وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرَ حَسْبَانَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٥) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^(٦)

[التَّعْرِيفُ بِاللَّهِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ]

يُخْرِجُ تَعَالَى أَنَّهُ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، أَي يَشُقُّهُ فِي النَّوَى، فَتَبَيَّنَّ مِنْهُ الزَّرُوعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، مِنْ الْحُبُوبِ وَالشَّمَارِ، عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا وَطُغُومِهَا مِنَ النَّوَى، وَلِهَذَا فَسَّرَ قَوْلُهُ: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَي يُخْرِجُ النَّبَاتَ الْحَيَّ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، الَّذِي هُوَ كَالْجَمَادِ الْمَيِّتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَيُّهُمُ اللَّهُمُّ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْهَا وَأَحْرَحَنَا مِنْهَا حَيًّا فَمِنَهُ يَأْكُلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٣-٢٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وَقَدْ عَبَّرُوا عَنْ هَذَا وَهَذَا بِعِبَارَاتٍ كُلِّهَا مُتَّحِرَةً مُؤَدَّبَةً لِلْمَعْنَى، فَمِنْ قَائِلٍ: يُخْرِجُ الدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ وَعَكْسَهُ، وَمِنْ قَائِلٍ: يُخْرِجُ الْوَلَدَ الصَّالِحَ مِنَ الْفَاجِرِ

وَعَكْسُهُ، وَعَبَّرَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُهَا آيَةُ وَتَشْمُلُهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أَي فَاعِلٌ هَذَا، هُوَ اللَّهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أَي كَيْفَ تَضْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ وَتَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، فَتَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرُهُ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَلْفُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ آيَاتٍ سَكَّاءً﴾ أَي خَالِقِ الضِّيَاءِ وَالظَّلَامِ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أَي فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَمْلِكُ ظِلَامَ اللَّيْلِ عَنْ غُرَّةِ الصَّبَاحِ، فَيُضِيءُ الْوُجُودَ، وَيَسْتَبِيرُ الْأَفْقَ، وَيَضْمَحِلُ الظَّلَامَ، وَيَذْهَبُ اللَّيْلُ بِسَوَادِهِ وَظِلَامِ رَوَاقِهِ، وَيَجِيءُ النَّهَارُ بِضِيَاءِهِ وَإِشْرَاقِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يُعْنَى آيَاتِ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حِينًا﴾ [الأعراف: ٥٤] فَيَبِينُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُضَادَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ، وَقَابِلُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ آيَاتٍ سَكَّاءً﴾ أَي سَاحِجًا مُظْلِمًا، لِيَتَسَكَّنَ فِيهِ الْأَشْيَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢، ١] وَقَالَ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنفَى (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢، ١] وَقَالَ: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ أَي يَجْرِيَانِ بِحِسَابِ مُقَدَّرٍ لَا يَتَّعَبِرُ وَلَا يَضْطَرِبُ، بَلْ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَنَازِلٌ يَسْلُكُهَا فِي الصَّبْفِ وَالسَّنَاءِ، فَيَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ طَوْلًا وَقَصْرًا، كَمَا قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [الآية [يونس: ٥]، وَكَمَا قَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيَاتُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وَقَالَ: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أَي الْجَمِيعُ جَارٍ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَكَثِيرًا مَا إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، يَخْتِمُ الْكَلَامَ بِالْعَزَّةِ وَالْعِلْمِ، كَمَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ آيَاتٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ إِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [٣٧] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [يس: ٣٧، ٣٨] وَلَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، فِي أَوَّلِ سُورَةِ حَمِّ السَّجْدَةِ، قَالَ: ﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الَّتِي بَصَّيْحَاجَ وَجَفَّطًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٤٠

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ آيَاتٍ سَكَّاءً وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمَسُكَّرُكُمْ وَمُسَوِّدُكُمْ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبِهِ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ آجِنًا وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٢٠﴾ بِدِيحِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

[فصلت: ١٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ اعْتَقَدَ فِي هَذِهِ النُّجُومِ غَيْرَ ثَلَاثٍ فَقَدْ أَخْطَأَ وَكَذَّبَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَيُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أَي قَدْ بَيَّنَّاها وَوَضَّحْنَاها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَي يَعْلَمُونَ وَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَيَتَجَنَّبُونَ الْبَاطِلَ.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمَسُكَّرُكُمْ وَمُسَوِّدُكُمْ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبِهِ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يَعْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ انْقَوًا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَنَسَّ مِنْهَا بَعْضًا كَثِيرًا

وَتَعَالَى، مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَبَّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابِ وَرَزَعٌ وَيَخِلُّ صِنَوَانٌ وَعَبْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَيُقْفَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الآية: الرعد: ٤]، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿لَايَتٍ﴾ أَيُّ دَلَالَاتٍ، عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ خَالِقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ يُصَدِّقُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَ رُسُلَهُ.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾

[ذَمُّ الْمُشْرِكِينَ]

هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، وَأَشْرَكُوا فِي عِبَادَتِهِ أَنْ عَبَدُوا الْجِنَّ، فَجَعَلُوهُمْ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ. فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ عُبِدَتِ الْجِنَّ، مَعَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ؟ فَالْجَوَابُ: إِنَّهُمْ مَا عَبَدُوهَا، إِلَّا عَنْ طَاعَةِ الْجِنَّ وَأَمْرِهِمْ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا مَرِيدًا﴾ [لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَكَ لَا تَلْحَدَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا] [وَالضَّلَافِنُ وَاللَّامِيَاتُ وَالْأَمْرُتُهُمْ فَلْيَبْتَغُوا حَلْفَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا] [يَعُدُّهُمْ وَيُمَيِّنُهُمْ وَمَا يَعُدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا] [النساء: ١١٧-١٢٠] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَسْتَجِدُّونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الآية: الكهف: ٥٠].

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيُّهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي شَهِدْتُ أَنَّكُمْ كَانُوا لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مریم: ٤٤] وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَسْبِقِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ] [يس: ٦٠، ٦١] وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِلَهُنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أَيُّ وَخَلَقَهُمْ، فَهُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكَيْفَ يُعْبَدُ مَعَهُ غَيْرُهُ؟ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ ﴿قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ﴾ [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ] [الصافات: ٩٥، ٩٦] وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ

وَسَاءَهُ [النساء: ١] وَقَوْلُهُ: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ، وَقَيْسُ ابْنُ أَبِي حَازِمٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَغَيْرُهُمْ: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أَيُّ فِي الْأَرْحَامِ، قَالُوا - أَوْ أَكْثَرُهُمْ -: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أَيُّ فِي الْأَضْلَابِ^(١). وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَطَائِفَةٍ عَكْسَهُ. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا وَطَائِفَةٍ: فَمُسْتَقَرٌّ فِي الدُّنْيَا، وَمُسْتَوْدَعٌ حَيْثُ يَمُوتُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْهَمُونَ﴾ أَيُّ يَفْهَمُونَ وَيَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ وَمَعْنَاهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أَيُّ بِقَدْرٍ، مُبَارَكًا وَرِزْقًا لِلْعِبَادِ وَإِحْيَاءً وَعَيَاثًا لِلْخَلَائِقِ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِحَلْفِهِ ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ حَضْرًا﴾ أَيُّ زَرْعًا وَشَجَرًا أَخْضَرَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَخَلَّقَ فِيهِ الْحَبُّ وَالنَّمْرُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهُ حَبًّا مَاتِرًا﴾ أَيُّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا كَالسَّنَابِلِ وَنَحْوِهَا، ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أَيُّ جَمْعُ قِنُو، وَهِيَ عُذُوقُ الرُّطَبِ ﴿دَائِيَةٌ﴾ أَيُّ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُتَنَاوِلِ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْوَالِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿قِنْوَانٌ دَائِيَةٌ﴾ يَعْنِي بِالْقِنْوَانِ الدَّائِيَّةِ: قِصَارَ النَّخْلِ اللَّاصِقَةِ عُذُوقِهَا بِالْأَرْضِ^(٢). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابِ﴾ أَيُّ وَنُخِرْ مِنْهُ جَنَابٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَهَذَانِ التَّوَعَانِ هُمَا أَشْرَفُ الثَّمَارِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَرَوَّامًا كَانَا خِيَارَ الثَّمَارِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِمَا عَلَى عِبَادِهِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتُخَدُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، وَقَالَ:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [يس: ٣٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالزَّرْتُونَ وَالرَّامَانَ مَسْبِيحًا وَعَبْرٌ مُسْبِيحٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: مُتَّشَابِهٌ فِي الْوَرَقِ وَالشَّكْلِ، قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَمُتَّخَالِفٌ فِي الثَّمَارِ شَكْلًا وَطَعْمًا وَطَبْعًا^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَبَوَّعَهُ﴾ أَيُّ نَضَجِهِ. قَالَهُ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمْ^(٤). أَيُّ فَكَّرُوا فِي قُدْرَةِ خَالِقِهِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ حَطْبًا، صَارَ عَبًّا وَرُطْبًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا خَلَقَ سُبْحَانَهُ

(١) الطبري: ٥٦٥/١١-٥٧٠ (٢) الطبري: ٥٧٦/١١ (٣)

الطبري: ٥٧٨/١١ (٤) الطبري: ٥٨٢/١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤١

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٤١﴾ لَا تَدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤٢﴾
قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٤٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصِرُكَ
الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا أَدْرَسَتْ وَلَيْسَ لَهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٤﴾
أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرَضَ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤٥﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٤٦﴾ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاوَةً غَيْرَ عَلَيْهِمْ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٨﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٤٩﴾

أَيُّ حَفِيظٍ وَرَقِيبٍ، يُدَبِّرُ كُلَّ مَا سِوَاهُ، وَيَرْزُقُهُمْ وَيَكْلُؤُهُمْ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

[رُؤْيَةُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أَيُّ لَا تَدْرِكُهُ فِي الدُّنْيَا،
وَإِنْ كَانَتْ تَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ، عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنْ غَيْرِ مَا طَرِيقِ نَابِتٍ، فِي الصَّحَاحِ
وَالْمَسَانِيدِ وَالسَّنَنِ. كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:
مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَبْصَرَ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَّبَ، وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى
اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ
الْأَبْصَرَ﴾^(١). وَكَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى
الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَبْغِي
لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ
قَبْلَ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النُّورُ - أَوِ النَّارُ

وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَقْبَلُ بِالْخَلْقِ وَخَدَهُ، فَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ
بِالْعِبَادَةِ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرِّفُوا لَهُ
بَيْنَ وَبَيْنَ يَغْيِرْ عَلَيْهِ﴾ يُنْبِئُهُ بِهِ تَعَالَى عَنْ ضَلَالٍ مَنْ ضَلَّ فِي
وَصْفِهِ تَعَالَى بِأَنَّ لَهُ وَكَذَا، كَمَا يُزْعَمُ مَنْ قَالَهُ مِنَ الْيَهُودِ فِي
عَزِيرٍ، وَمَنْ قَالَ مِنَ النَّصَارَى فِي عَيْسَى، وَمَنْ قَالَ مِنْ
مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي الْمَلَائِكَةِ: إِنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ. تَعَالَى اللَّهُ
عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلوًّا كَبِيرًا. وَمَعْنَى ﴿وَحَرِّفُوا﴾ أَيُّ
اخْتَلَفُوا وَاتَّفَقُوا وَتَحَرَّصُوا وَكَذَّبُوا. كَمَا قَالَهُ عُلَمَاءُ
السَّلَفِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَانَكُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾
أَيُّ تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاطَمَ، عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ
الضَّالُّونَ، مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَنْدَادِ وَالنَّظَرَاءِ وَالشُّرَكَاءِ.
﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢)

[مَعْنَى الْبَدِيعِ]

﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ مُبْدِعُهُمَا، وَخَالِفُهُمَا،
وَمُنْبِئُهُمَا، وَمُحَدِّثُهُمَا، عَلَى غَيْرِ مِثَالِ سَبَقٍ^(١). كَمَا قَالَ
مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ. وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْبَدِيعَةُ بَدْعَةً، لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ
لَهَا فِيمَا سَلَفَ ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَيُّ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟
﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾، أَيُّ وَالْوَالِدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلَّدًا بَيْنَ
شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُنَاسِبُهُ وَلَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ مِنْ
خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾^(٢) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا
إِذَا^(٣) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَهُمْ آيَاتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرَدًّا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فَبَيَّنَ تَعَالَى
أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فَكَيْفَ
يَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ مِنْ خَلْقِهِ تَنَاسِبُهُ؟ وَهُوَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ،
فَأَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلوًّا كَبِيرًا.

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٤١﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤٢﴾

[اللَّهُ هُوَ رَبُّكُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَيُّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ، وَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أَيُّ فَاعْبُدُوهُ وَخَدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَفْرُوا لَهُ
بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا وَالِدَ وَلَا
صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ وَلَا عَدِيلَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

(١) الطبري: ٥٤٠/٢ (٢) فتح الباري: ٤٧٢/٨ ومسلم: ١/

١٥٩ وتحفة الأحوذى: ٤٤١/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٣٥/٦

ومسلم: ٤٩/٦

بِحَافِظٍ وَلَا رَقِيبٍ، بَلْ أَنَا مُبَلِّغٌ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أَيُّ وَكَمَا فَصَّلْنَا الْآيَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، هَكَذَا نُوَضِّحُ الْآيَاتِ وَنُفَسِّرُهَا وَنُيَسِّبُهَا فِي كُلِّ مَوْطِنٍ، لِجِهَاتِ الْعَالَمِينَ وَلِيَقُولَ الْمُشْرِكُونَ وَالْكَافِرُونَ الْمُكذِّبُونَ: دَارَسْتَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَارَأْتَهُمْ، وَتَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ. هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالصَّحَّاحُ، وَغَيْرُهُمْ^(٢).

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ كَيْسَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: (دَارَسْتَ): تَلَوْتَ، خَاصَمْتَ، جَادَلْتَ^(٣).

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ كَذِبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾^(٤) وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوْلِيَاءُ أَكْتَبَتْهَا فَهِيَ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤، ٥] وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ زَعِيمِهِمْ وَكَادِبِهِمْ ﴿إِنَّهُ فَكَرَ فَقَدَرًا﴾^(٥) قِيلَ كَيْفَ قَدَرًا^(٦) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرًا^(٧) ثُمَّ نَظَرَ^(٨) ثُمَّ عَسَى وَيَسَّرًا^(٩) ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ^(١٠) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ^(١١) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ

[المدثر: ١٨-٢٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيُنْزِلْنَاهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ وَلْيُوضِّحْهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَيَتَّبِعُونَهُ، وَالْبَاطِلَ فَيَجْتَنِبُونَهُ، فَلِلَّهِ تَعَالَى الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي إِضْلَالِ أَوْلِيَاءِكَ وَبَيَانِ الْحَقِّ لَهُؤُلَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾^(١٢) الْآيَةُ [البقرة: ٢٦]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾...

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرَابُ الدِّينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ

[المدثر: ٣١] وَقَالَ: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْبُدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ

(١) مسلم: ١٦٢/١ (٢) الطبري: ٢٧/١٢ (٣) الطبراني:

لَوْ كَسَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْفِهِ^(١١). وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى لَمَّا سَأَلَ الرُّؤْيَى: يَا مُوسَى، إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَيًّا إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَأْسُ إِلَّا تَدَهَّدَهُ، أَيُّ تَدَعَّرَهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رُؤْيُهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَاحِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وَنَفِي هَذَا الْأَثَرِ الْإِذْرَاقِ الْخَاصِّ لَا يَنْفِي الرُّؤْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا يَشَاءُ، فَأَمَّا جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، فَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ.

وَلِهَذَا كَانَتْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تُثَبِّتُ الرُّؤْيَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَنْفِيهَا فِي الدُّنْيَا، وَتَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ فَالَّذِي نَفَتْهُ: الْإِذْرَاقُ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى رُؤْيَى الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ لِلْبَشَرِ، وَلَا لِلْمَلَائِكَةِ، وَلَا لِشَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ أَيُّ يُحِيطُ بِهَا وَيَعْلَمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ خَلَقَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ بِالْأَبْصَارِ عَنِ الْمُبْصِرِينَ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ لَا يَرَاهُ شَيْءٌ، وَهُوَ يَرَى الْخَلَائِقَ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قَالَ: ﴿اللَّطِيفُ لَا سِيخْرَاجَهَا، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بِمَكَانِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ لُقْمَانَ، فِيمَا وَعَظَ بِهِ ابْنَهُ ﴿يُنشِئُ إِنَّمَا إِنْ نَكَرْتَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿فَدَجَاءَكُمْ بِبَصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾^(١٢) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلْيُنْزِلْنَاهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^(١٣)

[تفسير البصائر]

الْبَصَائِرُ هِيَ الْبَيِّنَاتُ وَالْحُجُجُ الَّتِي اسْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْبَصَائِرَ، قَالَ: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُهُ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أَيُّ

الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، وَأَنَّهُ يُصَلِّ بِهٖ مَن يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ.

﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

[الأمْرُ بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَلَمِنَ اتَّبَعِ طَرِيقَتَهُ: ﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أَيِ افْتَدِيَ بِهِ وَافْتَبَّ أَثَرَهُ، وَاعْمَلْ بِهِ، فَإِنَّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ، الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، لِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيِ اغْفُ عَنَّهُمْ وَاصْفَحْ وَاحْتَمِلْ أَذَاهُمْ، حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللَّهُ لَكَ، وَيَنْصُرَكَ وَيُظْفِرَكَ عَلَيْهِمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ حِكْمَةً فِي إِضْلَالِهِمْ، فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَوْ شَاءَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اشْرَكُوا﴾ أَيِ بَلَّ لَهُ الْمَشِيئَةَ وَالْحِكْمَةَ، فِيمَا يَسْأُؤُهُ وَيَخْتَارُهُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أَيِ حَافِظًا، تَحْفَظُ أَقْوَالَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَيِ مُوَكَّلٍ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَأُمُورِهِمْ، إِنْ عَلَنِكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿١٠٧﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿الغاشية: ٢١، ٢٢﴾ وَقَالَ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ

فَيَتَّبِعُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾

[النَّهْيُ عَنِ سَبِّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَسُبُّوا اللَّهَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنِ سَبِّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَضْلَحَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْهَا، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَتَنْتَهِيَنَّ عَنِ سَبِّكَ الْهَيْتَا، أَوْ لَتَهْجُونَ رَبِّكَ، فَتَنَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿١٠٨﴾ وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسُبُّونَ أَصْنَامَ الْكُفَّارِ، فَيَسُبُّ الْكُفَّارُ اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿١٠٨﴾ وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ - وَهُوَ تَرْكُ الْمَضْلَحَةِ لِمَفْسَدَةٍ أَرْجَحَ مِنْهَا - مَا

جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَلْعُونٌ مَن سَبَّ وَالِدَيْهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يُسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ» ﴿٣﴾. أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ أَيِ وَكَمَا زَيْنًا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ حُبِّ أَصْنَابِهِمْ، وَالْمَحَامَاةَ لَهَا وَالْإِنْصَارَ، كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّمِ الْحَالِيَةِ عَلَى الضَّلَالِ عَمَلُهُمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ، وَبِاللَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، فِيمَا يَسْأُؤُهُ وَيَخْتَارُهُ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ أَيِ مَعَادُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ ﴿فَيَتَّبِعُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيِ يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ بِآيَةٍ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلُوبَنَا إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلْتُ أَقْدَمَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَدَرَهُمْ فِي طُعْنِيهِمْ بِعَمَلِهِمْ ﴿١١٠﴾

[طَلَبُ الْمُعْجَزَاتِ وَالْإِقْسَامُ عَلَى الْإِيمَانِ عِنْدَ مَحِيثِهَا] يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ، أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، أَيِ حَلَفُوا أَيْمَانًا مُّوَكَّدَةً ﴿لَئِن جَاءَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أَيِ مُعْجِزَةٍ وَخَارِقَةٍ ﴿لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾ أَيِ لَيُصَدِّقَنَّهَا ﴿قُلُوبَنَا إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيِ قُلُوبُنَا: يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ الْآيَاتِ تَعْتَنَّا وَكُفَّرْنَا وَعِنَادًا، لَا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَىٰ وَالْإِسْتِرْسَادِ: إِنَّمَا مَرْجِعُ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ جَاءَكُمْ بِهَا، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قِيلَ: الْمُخَاطَبُ بِمَا يُشْعِرُكُمْ الْمُشْرِكُونَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِدٌ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ: وَمَا يُدْرِيكُمْ بِصِدْقِكُمْ، فِي هَذِهِ الْأَيْمَانِ الَّتِي تُقْسِمُونَ بِهَا، وَعَلَى هَذَا فَالْقِرَاءَةُ: إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ بِكُفْرٍ (إِنَّهَا) عَلَى اسْتِثْنَاءِ الْخَبَرِ عَنْهُمْ، يَنْفِي الْإِيمَانَ عِنْدَ مَجِيءِ الْآيَاتِ الَّتِي طَلَبُوهَا... وَقِيلَ: الْمُخَاطَبُ بِقَوْلِهِ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ الْمُؤْمِنُونَ، أَيِ وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ. وَعَلَى هَذَا فَيَجُوزُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّهَا﴾ الْكُفْرُ كَالْأَوَّلِ وَالْفَتْحُ عَلَى أَنَّهُ مَعْمُولٌ ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ لَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صِلَةً

(١) الطبري: ٣٤/١٢ (٢) عبد الرزاق: ٢١٥/٢ (٣) فتح الباري: ٤١٧/١٠

سورة الأنعام

١٤٢

سورة الأنعام

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَأَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ وَلِنَصِّحِي إِلَيْهِ أَفَعَدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

كَقَوْلِهِ: ﴿مَا مَعَكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ٢٢] وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَرَمٌ عَلَى قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أَي مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، وَحَرَامٌ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَتَقْدِيرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ تَدْعُونَ لَهُمْ ذَلِكَ، حِرْصًا عَلَى إِيْمَانِهِمْ: أَنَّهُمَا إِذَا جَاءَهُمُ الْآيَاتُ يُؤْمِنُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمَّا جَحَدَ الْمُشْرِكُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، لَمْ تَثْبُتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَرَدَّتْ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ وَنَحْوَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيْمَانِ، وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ فَلَا يُؤْمِنُونَ، كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيْمَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ

ابْنِ أَسْلَمٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: أَحْبَبَ اللَّهُ مَا الْعِبَادُ قَائِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَقُولُوهُ، وَعَمَلُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. وَقَالَ - (وَلَا يَتَّبِعُكَ مِثْلَ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤] جَلَّ وَعَلَا - (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا

فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨] فَأَحْبَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، أَنَّهُمْ لَوْ رَدُّوا لَمْ يَكُونُوا عَلَى الْهُدَى، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوا

لَعَادُوا لِمَا هُمُ عَنْهُ وَإِنَّمَا لِكَذِبُوكُمْ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [قال:] وَلَوْ رَدُّوا إِلَى الدُّنْيَا، لِحِيلِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهُدَى، كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أَي تَنَزَّهَهُمْ ﴿فِي طَلْعَتَيْنِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ: فِي كُفْرِهِمْ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ: فِي ضَلَالَتِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قَالَ الْأَعْمَشُ: يَلْعَبُونَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ،

وَأَبُو مَالِكٍ، وَغَيْرُهُمْ: فِي كُفْرِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ. ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّا أَجَبْنَا سُؤَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ، لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا، فَزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ تُخَبِّرُهُمْ بِالرَّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ بِتَصْدِيقِ الرَّسُولِ، كَمَا سَأَلُوا فَقَالُوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قُبُلًا﴾

[الإسراء: ٩٢] وَ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُوَقِّيَ وَتَسَلِّ مَا أَوْقَى رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تَوَلَّأْنَا نُرُّوا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رِسَالًا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أَي فَأَخْبَرَهُمْ

بِصِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (قُبُلًا) بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْبَاءِ، مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَابَاةِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِضَمِّهَا، قِيلَ: مَعْنَاهُ مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَابَاةِ أَيْضًا، كَمَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَالْعَوْفِيُّ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(٣). وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿قُبُلًا﴾ أَي أَقْوَابًا، قُبُلًا قُبُلًا ^(٤). أَي تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ كُلُّ أَمَةٍ بَعْدَ أَمَةٍ، فَيُخَبِّرُونَهُمْ بِصِدْقِ الرَّسُولِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

أَي أَنَّ الْهُدَايَةَ إِلَيْهِ لَا إِلَيْهِمْ، بَلْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ

(١) الطبري: ٤٤/١٢ العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (٢) الطبري: ٤٥/١٢ (٣) الطبري: ٤٩/١٢ (٤) الطبري: ٥٠/٤٩، ١٢

السُّدِّيُّ: فُلُوبُ الْكَافِرِينَ ﴿وَلِيَصْوَهُ﴾ أَيُّ يُجْبِوهُ وَيُرِيدُوهُ^(١). وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ذَلِكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَكْفُرُ وَمَا نَعْبُدُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَتِينٍ ﴿١١٧﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْحَمِيمِ ﴿[الصافات: ١٦١-١٦٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَمِنَ قَوْلِ مُحَمَّدٍ﴾ ﴿٨﴾ يَوْفُكَ عَنْهُ مِنْ أَيْكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيَقْرَأُوا مَا هُمْ مُقْرَأُونَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَلِيَكْتَسِبُوا مَا هُمْ مُكْتَسِبُونَ^(٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: وَلِيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ^(٤).

﴿أَفَعَبَّرَ اللَّهُ أَجْتَعَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ. وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّ ﷺ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ: ﴿أَفَعَبَّرَ اللَّهُ أَجْتَعَى حَكْمًا﴾ أَيُّ بَنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أَيُّ مَبِينًا ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أَيُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، أَيُّ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَشَارَاتِ بِكَ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤] وَهَذَا شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَنْقُضِي وَقُوعَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قَالَ: صِدْقًا فِيمَا قَالَ، وَعَدْلًا فِيمَا حَكَمَ^(٥). يَقُولُ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ، فَكُلُّ مَا أَخْبَرَ بِهِ فَحَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا عَدَلَ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ فَبَاطِلٌ، فَإِنَّهُ لَا يَنْهَى إِلَّا عَنْ مَفْسَدَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أَيُّ لَيْسَ أَحَدٌ يُغَيِّبُ حُكْمَهُ تَعَالَى، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، الَّذِي يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿وَإِنْ طُغِيَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ صُلُوكًا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ

مَنْ يَسَاءُ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، ﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ وَعَلْبَتِيَّةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْآيَةَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ وَلِيَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْرَأُوا مَا هُمْ مُقْرَأُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ [لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَعْدَاءَ يُخَالِفُونَكَ وَيُعَادُونَكَ وَيُعَادُونَكَ، جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَيْضًا أَعْدَاءَ فَلَا يَحْزُنُكَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا﴾ الْآيَةَ [الأنعام: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ فِئِدَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفَرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ﴾ [فصلت: ٤٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نُوفَلٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي. وَقَوْلُهُ: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿عَدُوًّا﴾ أَيُّ لَهُمْ أَعْدَاءٌ مِنْ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَالشَّيْطَانُ كُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ نَظِيرِهِ بِالشَّرِّ، وَلَا يُعَادِي الرُّسُلَ إِلَّا الشَّيَاطِينُ مِنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، فَجَحَهُمُ اللَّهُ وَلَعَنَهُمْ، قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ قَالَ: مِنَ الْجِنِّ شَيْطَانِ، وَمِنَ الْإِنْسِ شَيْطَانِ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أَيُّ يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ الْمُزَيَّرَ الْمُزْخَرَفَ، وَهُوَ الْمُزَوَّرُ الَّذِي يَغْتَرُّ سَامِعُهُ مِنَ الْجَهْلَةِ بِأَمْرِهِ، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيُّ وَذَلِكَ كُلُّهُ بِقَدْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أَيُّ فَذَرَهُمْ ﴿وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ أَيُّ يَكْذِبُونَ. أَيُّ دَعَا أَذَاهُمْ، وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي عَدَاوَتِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَصْغَى إِلَيْهِ﴾ أَيُّ وَلِيَتِمِيلَ إِلَيْهِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١). ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَقَالَ

(١) الطبري: ٥٨/١٢ (٢) الطبري: ٥٩/١٢ (٣) الطبري:

٥٩/١٢ (٤) الطبري: ٦٠/١٢ (٥) الطبري: ٦٣/١٢

يَصِلُ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

[أَكْثَرَ النَّاسِ فِي ضَلَالٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، مِنْ بَنِي آدَمَ أَنَّهُ الضَّلَالُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأُولِينَ﴾ [الصفات: ٧١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَإِنَّمَا هُمْ فِي ظُنُونٍ كاذِبَةٍ وَحُسْبَانٍ باطل، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فَإِنَّ الخَرْصَ هُوَ الحَزْرُ، وَمِنْهُ خَرْصُ النَّخْلِ، وَهُوَ حَزْرٌ مَا عَلَيْهَا مِنَ الثَّمَرِ، وَذَلِكَ كُفْلُهُ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَصِلُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فَيَسِّرُهُ لِبَدَنِكَ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فَيَسِّرُهُمْ لِبَدَنِكَ، وَكُلُّ مُسَّرٍ لِمَا خَلِقَ لَهُ.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَلْيَاضُونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾

[إِخْلَالَ مَا ذُبِحَ بِاسْمِ اللَّهِ]

هَذَا إِبَاحَةٌ مِنَ اللَّهِ، لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الذَّبَائِحِ مَا ذَكَرَ عَلَيْهِ اسْمُهُ، وَمَقْهُومُهُ: أَنَّهُ لَا يُبَاحُ مَا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَمَا كَانَ يَسْتَبِيحُهُ كَفَّارٌ قُرَيْشِيٍّ مِنْ أَكْلِ المَيْتَاتِ، وَأَكَلَ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصْبِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ نَدَبَ إِلَى الأَكْلِ مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَوَضَحَهُ، فَارَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَصَلَّ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالتَّخْفِيفِ، وَالكُلُّ بِمَعْنَى البَيَانِ وَالمُوضِحِ ﴿إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أَيْ إِلَّا فِي حَالِ الإِضْطِرَارِ، فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَكُمْ مَا وَجَدْتُمْ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى جَهَالَةَ المُشْرِكِينَ، فِي آرَائِهِمُ الفَاسِدةِ، مِنْ اسْتِحْلَالِهِمُ المَيْتَاتِ، وَمَا ذَكَرَ عَلَيْهِ غَيْرَ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَلْيَاضُونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أَيْ هُوَ أَعْلَمُ بِاعْتِدَائِهِمْ وَكُذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ.

﴿وَدَرُوا ظِلْهَرِ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ

سَيَجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ ﴿١١٩﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿وَدَرُوا ظِلْهَرِ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ المَعْصِيَةُ فِي السَّرِّ وَالعَلَايَةِ ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَدَرُوا ظِلْهَرِ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٤٣

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَلْيَاضُونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾ وَدَرُوا ظِلْهَرِ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿١١٩﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوحِىَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجِدَلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢٠﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلَ فَاحِشِيَّتِهِ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿أَي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، فَلَيْلُهُ وَكَثِيرُهُ ^(٢). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الفُوحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية [الأعراف: ٣٣]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ أَيْ سَوَاءً كَانَ ظَاهِرًا أَوْ خَفِيًّا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ، رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْإِثْمِ، فَقَالَ: «الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ» ^(٣).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوحِىَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجِدَلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ

لَمُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾

[تَحْرِيمُ مَا ذُبِحَ بِغَيْرِ اسْمِ اللَّهِ]

أُسْتَدِلَّ بِهَذِهِ الآيةِ الكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَةَ لَا تَحِلُّ إِذَا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ الذَّبَائِحُ مُسْلِمًا، وَبِقَوْلِهِ

(١) الطبري: ٧٣/١٢ (٢) الطبري: ٧٢/١٢ (٣) مسلم: ٤/

فَقَالَ اللَّهُ فَلَا تَأْكُلُونَهُ، وَمَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ تَأْكُلُونَهُ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَعْطِيهِمْ﴾ فَأَكَلْتُمُ الْمَيْتَةَ ﴿إِنَّكُمْ لَمَشْرُكُونَ﴾^(٨). وَهَكَذَا قَالَهُ مَجَاهِدٌ، وَالصَّحَّاحُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ^(٩).

[تَقْدِيمُ قَوْلِ أَحَدٍ عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ شِرْكَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَعْطِيهِمْ إِنَّكُمْ لَمَشْرُكُونَ﴾ أَي حَيْثُ عَدَلْتُمْ، عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَشَرَعَهُ إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ، فَقَدَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ، فَهَذَا هُوَ الشِّرْكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُؤُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ٣١]، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ: فِي تَفْسِيرِهَا عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَبَدُوهُمْ، فَقَالَ: «بَلَى إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ»^(١٠).

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ

لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

[مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ]

هَذَا مَثَلُ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي كَانَ مِثْلًا، أَي فِي الضَّلَالَةِ هَالِكًا حَائِرًا، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ أَي أَحْيَا قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ، وَهَدَاهُ لَهُ وَوَفَّقَهُ لِاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أَي يَهْتَدِي كَيْفَ يَسْلُكُ وَكَيْفَ يَنْصَرِفُ بِهِ، وَالثُّورُ هُوَ الْقُرْآنُ كَمَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ، وَابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْإِسْلَامُ^(١٢). وَالْكُلُّ صَحِيحٌ ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَي الْجَهَالَاتِ، وَالْأَهْوَاءُ وَالضَّلَالَاتِ الْمُتَفَرِّقَةُ ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أَي لَا يَهْتَدِي إِلَى مُنْقِذٍ وَلَا مَخْلُصٍ مِمَّا هُوَ فِيهِ، وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ

فِي آيَةِ الصِّدِّيقِ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثُمَّ قَدْ أُكِّدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ ﴿وَلَيْتَهُمْ لَفَسَقُوا﴾ وَالصَّوْبُ، قِيلَ: عَائِدٌ عَلَى الْأَكْلِ، وَقِيلَ: عَائِدٌ عَلَى الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَبِالْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَمْرِ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الذَّبْحِ وَالصِّدِّيقِ، كَحَدِيثِي عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ وَأَبِي ثَعْلَبَةَ: «إِذَا أُرْسِلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمُ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ»^(١١). وَهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَحَدِيثُ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ»^(١٢). وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا. وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلْجِنِّ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(١٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَحَدِيثُ حُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ حَتَّى صَلَّيْنَا، فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللَّهِ»^(١٤). أَخْرَجَاهُ.

[وَحْيِ الشَّيْطَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنَ إِلَىٰ آوَالِيهِمْ لِيُجِدِلُواهُمْ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّ الْمُخْتَارَ بَزَعُمُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، قَالَ: صَدَقَ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنَ إِلَىٰ آوَالِيهِمْ﴾^(٥). وَعَنْ أَبِي زَيْمِلٍ، قَالَ: كُنْتُ قَاعِدًا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَجَّ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسِ، زَعَمَ أَبُو إِسْحَاقَ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَقَ، فَتَنَرْتُ، وَقُلْتُ: يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَقَ؟! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا وَحْيَانِ: وَحْيِ اللَّهِ وَوَحْيِ الشَّيْطَانِ، فَوَحِيَ اللَّهُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ وَوَحِيَ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ آوَالِيهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنَ إِلَىٰ آوَالِيهِمْ﴾^(٦). وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ عِكْرَمَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نَحْوُ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُجِدِلُواهُمْ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿لِيُجِدِلُواهُمْ﴾ قَالَ: يُوحِي الشَّيْطَانُ إِلَىٰ آوَالِيهِمْ: تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلْتُمْ، وَلَا تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟ وَفِي بَعْضِ الْأَفَاطِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الَّذِي قَتَلْتُمْ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ الَّذِي قَدَّمَ، لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ^(٧).

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: كَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ تَتَّبِعُونَ مَرْصَاةَ اللَّهِ، فَمَا

(١) فتح الباري: ٥٢٤/٩ ومسلم: ١٥٢٩/٣ وفتح الباري: ٩/

١٣٧ ومسلم: ١٥٣٢/٣ فتح الباري: ٥٤٦/٩ ومسلم:

١٥٥٨/٣ مسلم: (٣) ٣٣٢/١ فتح الباري: ٥٤٦/٩

ومسلم: ١٥٥١/٣ (٥) ابن أبي حاتم: ١٣٧٩/٤ فيه أبو بكر بن

عياش قد اختلط (٦) الطبري: ٨٦/١٢ (٧) الطبري: ٨١/١٢

(٨) الطبري: ٨١/١٢ (٩) الطبري: ٨٠/١٢ (١٠) تحفة

الأحودي: ٤٩٢/٨ لم أجده بهذا اللفظ عند الترمذي بل عنده

أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً

استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه [ترمذي: ٣٩٥] فيه غطيف

ابن أعين ليس بمعروف في الحديث. يحتمل أن ابن كثير رواه

بالمعنى (١١) الطبري: ٩١/١٢ (١٢) الطبري: ٩١/١٢

ابن عباس: ﴿أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ قَالَ: سَلَطْنَا شِرَارَهُمْ فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا عَظَمًا وَهَذَا﴾. قُلْتُ: وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [٢٦]

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ مَا عَلَّمَآنَا وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وَالْمُرَادُ بِالْمُكْرِ هَهُنَا دَعَاؤُهُمْ

إِلَى الضَّلَالَةِ بِزُحْرُفٍ مِنَ الْمَقَالِ وَالْفِعَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢٦] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا انْتَحَنَ صَدَدُنَا عَنِ الْمُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ﴾ [٢٧] وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ

مَكَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ الْآيَةَ [سبأ: ٣١-٣٣]، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانٌ، قَالَ: كُلُّ مَكْرٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ عَمَلٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيُّ وَمَا يَعُودُ وَبِالْمَكْرِ هُنَا ذَلِكَ وَإِضْلَالُهُمْ مِنْ أَضْلُوهُ إِلَّا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وَقَالَ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمِينَ﴾ [الفرقان: ٢١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ حَسَنًا لَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ، قَدَرًا مِنَ اللَّهِ وَحِكْمَةً بِالْعَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمَكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٧] وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمِينَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَبُوا صَغَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ سَدِيدٌ لِّمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [٢٧]

﴿أَكْبَارُ الْمُجْرِمِينَ وَحِيلُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا فِي قَرْيَتِكَ يَا مُحَمَّدُ أَكْبَارَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ، وَرُؤَسَاءَ وَدُعَاءَ إِلَى الْكُفْرِ، وَالصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِلَى مُحَالَفَتِكَ وَعَدَاوَتِكَ، كَذَلِكَ كَانَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ يَبْتَلُونَ بِذَلِكَ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾

الآيَةَ [الفرقان: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ الْآيَةَ [إسراء: ١٦]، قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ فَخَالَفُوا، فَدَمَرْنَاهُمْ، قِيلَ: أَمَرْنَاهُمْ أَمْرًا قَدْرِيًّا، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ

أَحْمَدَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ» (١). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَهُوَ الَّذِي ءَامَنُوا بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوَّلَآئِهِمْ أَطْلَعُوهُمْ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَشَىٰ مُبْكَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَشَىٰ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَشْمَنِ وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مِثْلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [١٦] وَلَا

الظُّلْمَةُ وَلَا النُّورُ﴾ [١٠] وَلَا الظُّلُّ وَلَا الحُرُورُ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [٢١] إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩-٣٣]، وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَوَجْهُ الْمُنَاسَبَةِ فِي ضَرْبِ الْمُثَلِّينَ هَهُنَا بِالنُّورِ وَالظُّلُمَاتِ مَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ [الأنعام: ١].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمَكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٧] وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمِينَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَبُوا صَغَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ سَدِيدٌ لِّمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [٢٧]

﴿أَكْبَارُ الْمُجْرِمِينَ وَحِيلُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا فِي قَرْيَتِكَ يَا مُحَمَّدُ أَكْبَارَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ، وَرُؤَسَاءَ وَدُعَاءَ إِلَى الْكُفْرِ، وَالصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِلَى مُحَالَفَتِكَ وَعَدَاوَتِكَ، كَذَلِكَ كَانَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ يَبْتَلُونَ بِذَلِكَ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾

الآيَةَ [الفرقان: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ الْآيَةَ [إسراء: ١٦]، قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ فَخَالَفُوا، فَدَمَرْنَاهُمْ، قِيلَ: أَمَرْنَاهُمْ أَمْرًا قَدْرِيًّا، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ

أَحْمَدَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ» (١). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَهُوَ الَّذِي ءَامَنُوا بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوَّلَآئِهِمْ أَطْلَعُوهُمْ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَشَىٰ مُبْكَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَشَىٰ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَشْمَنِ وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مِثْلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [١٦] وَلَا

عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْرُ يُقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ... الآية [الزخرف: ٣١، ٣٢]، يَعْتَوْنَ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ جَلِيلٍ مُبْجَلٍ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴿٣٢﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَي مِنْ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ - قَحَّهْمُ اللَّهُ - كَانُوا يَزْدُرُونَ بِالرُّسُولِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذُكُرُ إِلَهُكُمْ وَهُمْ يَذُكُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].

[اعتراف الكفار بعلو نسب النبي ﷺ]

هَذَا وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِفَضْلِهِ وَسُورِهِ وَنَسَبِهِ، وَطَهَارَةِ بَيْتِهِ وَمَرْبَاهُ، وَمَنْشَأِهِ صَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ بَيْنَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ: «الْأَمِين» وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ رَيْسُ الْكُفَّارِ أَبُو سُفْيَانَ جِئِن سَأَلَهُ هِرْقُلُ مَلِكُ الرُّومِ: وَكَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا. الْحَدِيثُ بِطَوِيلِهِ، الَّذِي اسْتَدَلَّ مَلِكُ الرُّومِ بِطَهَارَةِ صِفَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْعَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(١) انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٢). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنَا فَقَرْنَا، حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَمِصِبُ الَّذِينَ أَحْرَمُوا صَعَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَدَابٌ شَدِيدٌ﴾... الآية، هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِنَ اللَّهِ، وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَنْ اتِّبَاعِ رُسُلِهِ وَالْإِقْبَادِ لَهُمْ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ، فَإِنَّهُ سَمِصِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ صَعَارٌ وَهُوَ الدَّلَّةُ الدَّائِمَةُ، لِمَا أَنَّهُمْ اسْتَكْبَرُوا فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ ذَلًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَا اسْتَكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا أَصْرَطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا فَذَلَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَمْ دَارَ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشِرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا قَالُوا نَارُ مَثُومِكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّبُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمَعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ الثَّرِيَّاتِ كُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذِذُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا أَشْهَدُ نَاعِلِينَ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْحُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿[غافر: ٦٠]﴾ أَي صَاغِرِينَ دَلِيلِينَ حَقِيرِينَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لِمَا كَانَ الْمَكْرُ غَالِبًا إِنَّمَا يَكُونُ حَقِيًّا، وَهُوَ التَّلَطُّفُ فِي التَّحِيلِ وَالْحَدِيدَةِ، فَوَلَبُوا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جَزَاءً وَفَاقًا ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ ثُبُي السَّرَّابِ﴾ [الطارق: ٩] أَي تَظْهَرُ الْمُسْتَسْتَرَاتُ وَالْمَكْتُونَاتُ وَالضَّمَائِرُ، وَجَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوْمِ عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ عَدْرَةُ فَلَانَ بْنِ فَلَانَ»^(٤). وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَدْرُ حَقِيًّا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَصِيرُ عَلَمًا مَشْهُورًا عَلَى صَاحِبِهِ بِمَا فَعَلَ.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ

(١) أحمد: ١٠٧/٤ (٢) مسلم: ١٦٨٢/٤ (٣) فتح الباري: ٦٥٣/٦ (٤) فتح الباري: ٣٢٧/٦ ومسلم: ١٣٦١/٣

عَنْهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِ وَطَاقَتِهِ^(٥). وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُولُ: كَمَا يَجْعَلُ اللَّهُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيْقًا حَرَجًا، كَذَلِكَ يُسَلِّطُ اللَّهُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتَالِهِ، يَمِّنُ أَبِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَيُغْوِيهِ وَيُضْهِهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ^(٦). وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّجْسُ الشَّيْطَانُ^(٧). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الرَّجْسُ: كُلُّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ^(٨). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: الرَّجْسُ الْعَذَابُ.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلْوِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهِمْ بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَرِيقَ الضَّالِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ الصَّادِقِينَ عَنْهَا، نَبَّهَ عَلَى شَرَفِ مَا أُرْسِلَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، أَيْ هَذَا الدِّينَ الَّذِي شَرَعْنَاهُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، هُوَ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمُ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ﴾ أَيْ وَضَحْنَاهَا وَبَيَّنَّاهَا وَفَسَّرْنَاهَا ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَيْ لِمَنْ لَهُ فَهْمٌ وَوَعْيٌ يَعْقِلُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلْوِ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا وَصَفَ اللَّهُ الْجَنَّةَ ههنا بِدَارِ السَّلَامِ، لِسَلَامَتِهِمْ فِيهَا سَلْكُوهُ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُفْتَنِيِّ أَثَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَطَرَاتِقِهِمْ، فَكَمَا سَلِمُوا مِنْ آفَاتِ الْإِعْجَاجِ أَفْضَلُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴿وَهُوَ وَلِيُّهِمْ﴾ أَيْ حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ جَزَاءً عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، تَوَلَّاهُمْ وَأَنَابَهُمُ الْجَنَّةَ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشِرَ الْجِنِّ قَدْ أَسْكَرْتُم مِّنَ الْإِنْسِ﴾ وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثَلُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا

شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَادَّكُرْ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا نَقَضَهُ عَلَيْهِمْ وَتَنَذَرُهُمْ بِهِ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي الْجِنَّ

يُضِلُّهُ يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أَيْ يُسِّرُهُ لَهُ وَيُسِّطُهُ وَيُسَهِّلُهُ لِذَلِكَ، فَهَذِهِ عَلَامَاتٌ عَلَى الْخَيْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: يَقُولُ تَعَالَى: يُوسِّعُ قَلْبَهُ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ^(١). وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾ فُرِيَءٌ يَفْتَحُ الضَّادِ وَتَسْكِينِ الْبَاءِ، وَالْأَكْثَرُونَ ﴿ضَيْقًا﴾ بِشُدِيدِ الْبَاءِ وَكَشْرَهَا، وَهِيَ لُغَتَانِ كَهَيْنٍ وَهَيْنٍ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (حَرَجًا) يَفْتَحُ الْحَاءِ وَكَسِرَ الرَّاءِ قِيلَ: بِمَعْنَى آيَمٍ. قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَقِيلَ: بِمَعْنَى الْفِرَاءَةِ الْأُخْرَى: ﴿حَرَجًا﴾ يَفْتَحُ الْحَاءِ وَالرَّاءِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَّسِعُ لِشَيْءٍ مِنَ الْهُدَى، وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مَا يَتَّفَعُهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا يَنْفُذُ فِيهِ.

وَقَدْ سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنْ مُذَلِّجٍ عَنِ "الْحَرَجَةِ"، فَقَالَ: هِيَ الشَّجَرَةُ تَكُونُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، لَا تَصِلُ إِلَيْهَا رَاعِيَةٌ وَلَا وَحْشِيَّةٌ وَلَا شَيْءٌ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَذَلِكَ قَلْبُ الْمُتَأَنِّفِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ^(٢). ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ عَلَيْهِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾، قَالَ: لَا يَجِدُ فِيهِ مَسْلَكًا إِلَّا صُعْدًا^(٣).

وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يَقُولُ: فَكَمَا لَا يَسْتَطِيعُ ابْنُ آدَمَ أَنْ يَبْلُغَ السَّمَاءَ، فَكَذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ قَلْبَهُ، حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ^(٤).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا مَثَلُ صَرَبِهِ اللَّهُ لِقَلْبِ هَذَا الْكَافِرِ فِي شِدَّةِ ضَيْقِهِ عَنْ وُصُولِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ، يَقُولُ: فَمَثَلُهُ فِي امْتِنَاعِهِ مِنْ قَبُولِ الْإِيمَانِ وَضَيْقِهِ عَنْ وُصُولِهِ إِلَيْهِ، مَثَلُ امْتِنَاعِهِ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَعَجْزِهِ

(١) الدر المنثور: ٣/٣٥٦ (٢) الطبري: ١٢/١٠٤ إسناده ضعيف فيه مجاهيل (٣) الطبري: ١٢/١٠٥ (٤) الدر المنثور: ٣/٣٥٦ (٥) الطبري: ١٢/١٠٩ (٦) الطبري: ١٢/١١٠ (٧) الطبري: ١٢/١١١ (٨) الطبري: ١٢/١١١

بِالظَّالِمِينَ نَسَلْتُ بِعَظْمِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَتُهْلِكُ بَعْضُهُمْ
بِبَعْضٍ وَتَسْتَقِيمُ مِنْ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، جَزَاءً عَلَى ظُلْمِهِمْ
وَبِعِيهِمْ.

﴿يَمَعْتَرَ الْبَيْنَ وَالْإِنْسَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَرُسُلُكُمْ بِقُصُورٍ عَلَيْكُمْ
ءَابَائِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَخَرُّنَاهُمْ
لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾
[تَفْرِيعُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ بِالسُّؤَالِ عَنِ إِزْسَالِ الرُّسُلِ
وَاعْتِرَافِهِمْ بِذَلِكَ]

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يُفْرَعُ اللَّهُ بِهِ كَافِرِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ، حَيْثُ يَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ هَلْ بَلَّغْتَهُمُ الرُّسُلَ
رِسَالَاتِهِ؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ تَفْرِيرٌ: ﴿يَمَعْتَرَ الْبَيْنَ وَالْإِنْسَ الَّذِي
بَيْنَكُمْ وَرُسُلُكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ جُمَلَتِكُمْ، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ
فَقَطُّ وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رُسُلٌ، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مُجَاهِدٌ
وَأَبْنُ جُرَيْجٍ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ مِنَ الْأَيْمَةِ مِنَ السَّلَفِ
وَالْخَلْفِ^(٥). وَالذَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا هُمْ مِنَ الْإِنْسِ،
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَاللَّيثِيْنَ مِنْ
بَعْدِهِ﴾ - إِلَىٰ قَوْلِهِ - ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]. وَقَوْلُهُ
تَعَالَى عَنِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾
[العنكبوت: ٢٧] فَحَصَرَ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ فِي
ذُرِّيَّتِهِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ: إِنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ فِي الْجِنِّ
قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ بِيَعْتِيهِ، وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا

الطَّلْعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وَقَالَ: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾
[يوسف: ١٠٩] وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِنَّ تَبِعَ لِلْإِنْسِ فِي هَذَا
الْبَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ
نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَعِينُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا
قُصِيَ لَوْأَ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مِثْلِهِ مِثْلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ
وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ يَقَوْمَنَا أَيْجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَابِئُوا بِهِ، يَغْفِرُ
لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبُ دَاعِيَ
اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي

وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا،
وَيَعْبُدُونَ بِهِمْ وَيُطِيعُونَهُمْ، وَيُوحي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
زُخْرَفُ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿يَمَعْتَرَ الْبَيْنَ قَدْ اسْتَكْرَمْتُمْ مِنَ
الْإِنْسِ﴾ أَيُّ ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ، وَسَبَاقُ الْكَلَامِ يَدُلُّ
عَلَىٰ الْمَحْذُوفِ، وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﴿قَدْ اسْتَكْرَمْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾
أَيُّ مِنْ إِغْوَائِهِمْ، وَإِضْلَالِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آخَذُوا
عِثْمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَخَذُوا مِنْهُمُ الْعَهْدَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّمَا كَفَرُ
عَدُوٌّ
مُؤْمِنٌ ﴿١٣١﴾﴾ وَإِنْ أَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٣١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ
مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢] وَقَالَ
أَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ يَعْنِي أَنَّ
أَوْلِيَاءَ الْجِنِّ مِنَ الْإِنْسِ قَالُوا: مُجِيبِينَ لَلَّهِ تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ
بِهَذَا.

قَالَ الْحَسَنُ: وَمَا كَانَ اسْتِمْتَاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، إِلَّا أَنَّ
الْجِنَّ أَمَرَتْ وَعَمِلَتْ الْإِنْسُ^(١).
وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَنْزِلُ
الْأَرْضَ فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِكَبِيرِ هَذَا الْوَادِي. فَذَلِكَ
اسْتِمْتَاعُهُمْ، فَأَعْتَدُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٢). وَأَمَّا اسْتِمْتَاعُ
الْجِنِّ بِالْإِنْسِ فَإِنَّهُ كَانَ - فِيمَا ذَكَرَ - مَا يَتَّالِ الْجِنُّ مِنَ
الْإِنْسِ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي اسْتِعَانَتِهِمْ بِهِمْ، فَيَقُولُونَ:
قَدْ شَدَدْنَا الْإِنْسَ وَالْجِنِّ. ﴿وَبَلَّغْنَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا﴾ قَالَ
السُّدِّيُّ: يَعْنِي الْمَوْتَ ﴿قَالَ أَنْتَارُ مَثُونَكُمْ﴾ أَيُّ مَا وَأَكُمُ
وَمَنْزِلِكُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ وَأَوْلِيَاءُكُمْ ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ مَا كُنْتُمْ
فِيهَا مَكْنًا مُخَلَّدًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ.

﴿وَكَذَلِكَ نُوحِيَ بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

[تَوْحِيَّةُ بَعْضِ الظَّالِمِينَ عَلَىٰ بَعْضٍ]

وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: يُوحِي اللَّهُ بَعْضَ
الظَّالِمِينَ بَعْضًا فِي النَّارِ، يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا^(٣). وَقَالَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ نُوحِيَ بَعْضَ
الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قَالَ: ظَالِمِي الْجِنِّ وَظَالِمِي الْإِنْسِ. وَقَرَأَ:
﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ سُلْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٤﴾﴾
[الزخرف: ٣٦] قَالَ: وَنَسَلْتُ ظَلَمَةَ الْجِنِّ عَلَىٰ ظَلَمَةِ
الْإِنْسِ، وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا

وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيْبَلَىٰ بِظَالِمٍ
وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا وَلَّيْنَا هُوَلاءِ الْخَاسِرِينَ مِنْ
الْإِنْسِ تِلْكَ الطَّائِفَةُ الَّتِي أَعْوَنَهُمْ مِنَ الْجِنِّ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ

(١) الدر المنثور: ٣٥٧/٣ (٢) الطبري: ١١٦/١٢ (٣) عبد

الرزاق: ٢١٨/٢ (٤) الطبري: ١١٩/١٢ (٥) الطبري: ١٢/

صَلَّى مُبِينٍ ﴿١٣١﴾ [الأحاف: ٢٩-٣٢] وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ، وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ أَنَّهُ الْفَلَّانُ ﴿١٣٢﴾ فَيَأْتِي آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١، ٣٢].

وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿يَعْمَشَرُ الْيَمِينُ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَكِّرُونَكَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٢٠] أَيْ أَفْرَزْنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُونَا رِسَالَتِكَ وَأَنْذَرُونَا لِقَاءَكَ، وَأَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّفْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَيْ وَقَدْ فَرَطُوا فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَهَلَكُوا بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمْ لِلْمُعْجِزَاتِ، لَمَّا اغْتَرَوْا بِهِ مِنْ زُخْرُفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَنْتَهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا، بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ. ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى يُظَلِّمُ وَأَهْلَاهُمْ غَافِلُونَ ﴿١٣٣﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى يُظَلِّمُ وَأَهْلَاهُمْ غَافِلُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا أَعَذَرْنَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنزَالِ الْكُتُبِ، لِئَلَّا يُوَاحِدَ أَحَدٌ يُظَلِّمِهِ وَهُوَ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةٌ، وَلَكِنْ أَعَذَرْنَا إِلَى الْأُمَّمِ، وَمَا عَدَبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِئُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ وَاجْتَنِبُوا الطُّغْيَانَ﴾ [النحل: ٣٦] كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الاسراء: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ سَالَمَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨، ٩] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

قَالَ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أَيْ وَلِكُلِّ عَامِلٍ فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَوْ مَعْصِيَتِهِ مَرَاتِبٌ وَمَنَازِلٌ مِنْ عَمَلِهِ، يُبْلَغُهُ اللَّهُ إِيَّاهَا وَيُنَبِّئُهُ بِهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

(قُلْتُ) وَيَحْتَوِيلُ أَنْ يُعَوِّدَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أَيْ مِنْ كَافِرِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، أَيْ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ فِي النَّارِ بِحَسَبِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ [الأعراف: ٣٨] وَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخِرِينَ ﴿١٣٧﴾ إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٤٠﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْجِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٤١﴾

فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَيْ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ يَا مُحَمَّدٌ يَعْلَمُ مِنْ رَبِّكَ، يُحْصِيهَا وَيُثَبِّتُهَا لَهُمْ عِنْدَهُ، لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا عِنْدَ لِقَائِهِمْ يَأْتَهُ وَمَعَادِهِمْ إِلَيْهِ (١).

﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخِرِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٩﴾

[الْوَعِيدُ بِإِذْهَابِهِمْ إِذَا عَصَوْا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْغَفِيُّ﴾ أَيْ عَنِ جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أَيْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَحِيمٌ بِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]

[المجادلة: ٢١] وَقَالَ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر: ٥١، ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾
فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ
إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

[بَيَانُ بَعْضِ أَعْمَالِ الشَّرِكِ]

هَذَا ذِمٌّ وَتَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا بِدَعَا وَكُفْرًا وَشِرْكًَا، وَجَعَلُوا لِلَّهِ جُزْءًا مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أَي مِمَّا خَلَقَ وَبَرَأ ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ أَي مِنَ الزَّرْعِ وَالشَّمَارِ ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أَي جُزْءًا وَقِسْمًا ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ كَانُوا إِذَا حَرَّتُوا حَرْثًا أَوْ كَانَتْ لَهُمْ ثَمَرَةٌ، جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْهُ جُزْءًا وَلِلْوَتَنِ جُزْءًا، فَمَا كَانَ مِنْ حَرْثٍ أَوْ ثَمَرَةٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَصِيبِ الْأَوْتَانِ، حَفِظُوهُ وَأَحْصَوْهُ وَإِنْ سَقَطَ مِنْهُ شَيْءٌ فِيمَا سَمِيَ لِلصَّمَدِ، رَدُّهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلْوَتَنِ، وَإِنْ سَبَقَهُ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَتَنِ فَسَقَى شَيْئًا جَعَلُوهُ لِلَّهِ جَعَلُوا ذَلِكَ لِلْوَتَنِ، وَإِنْ سَقَطَ شَيْءٌ مِنَ الْحَرْثِ وَالشَّمْرِ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ فَاخْتَلَطَ بِالَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَتَنِ قَالُوا: هَذَا فَقِيرٌ، وَلَمْ يَرُدُّهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ، وَإِنْ سَبَقَهُ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ فَسَقَى مَا سَمِيَ لِلْوَتَنِ تَرَكُوهُ لِلْوَتَنِ، وَكَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِبَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامَّ فَيَجْعَلُونَهُ لِلْأَوْتَانِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَرِّمُونَهُ قُرْبَةَ اللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الْآيَةُ (٣). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أَي إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أَي قَوْمًا آخَرِينَ، أَي يَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أَي هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، كَمَا أَذْهَبَ الْقُرُونِ الْأُولَى وَأَتَى بِالَّذِي بَعْدَهَا، كَذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِ هَؤُلَاءِ وَالْإِثْنَانِ بِآخَرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١١﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا مِثْلَكُمْ لَعَلَّكُمْ لَا يَكُونُوا أُمَّتَكُمُ﴾ [محمد: ٢٨] وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عْتَبَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَانَ بْنَ عُثْمَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾: الدَّرِيَّةُ: الْأَصْلُ. وَالدَّرِيَّةُ: النَّسْلُ (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن مَّا نُوَسِّدُكَ لِآبَتٍ وَمَا أَنْشَأَ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَي أَخْبِرَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، أَنَّ الَّذِي يُوعَدُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿وَمَا أَنْشَأَ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَي وَلَا تُعْجِزُونَ اللَّهَ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَإِنْ صِرْتُمْ تَرَابًا رُفَاتًا وَعِظَامًا، هُوَ قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعْدٌ أَكِيدٌ، أَي اسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَنَاحِيَّتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَ أَنْتُمْ عَلَى هُدًى، فَأَنَا مُسْتَمِرٌّ عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ (١١) وَأَنْظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢] قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ نَاحِيَّتِكُمْ (٢). فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أَي أَنْتُمْ لِي أَوْ لَكُمْ؟ وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ مَوْعِدَهُ لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَي: فَإِنَّهُ تَعَالَى مَكَّنَهُ فِي الْبِلَادِ وَحَكَّمَهُ فِي نَوَاصِي مُخَالِفِيهِ مِنَ الْعِبَادِ، وَفَتَحَ لَهُ مَكَّةَ وَأَظْهَرَهُ عَلَى مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَعَادَاهُ وَنَاوَاهُ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُ عَلَى سَائِرِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَكَذَلِكَ الْيَمَنَ وَالْبَحْرَيْنِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ، ثُمَّ فُتِحَتِ الْأَمْصَارُ وَالْأَقَالِيمُ وَالرَّسَائِقُ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي أَيَّامِ خُلَفَائِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلْعَلْبَنِ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(١) الدر المنثور: ٣/٣٦١ (٢) الطبري: ١٢٩/١٢ (٣)

الطبري: ١٣٢، ١٣١/١٢

[بعض تحريمات المشركين في الأنعام]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (الْحَجَرُ): الْحَرَامُ، مِمَّا حَرَّمُوا مِنَ الْوَصِيلَةِ وَتَحْرِيمَ مَا حَرَّمُوا^(٦). وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَعَبْرُهُمْ^(٧). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَعْنَمٌ وَحَرَّتْ حَجَرٌ﴾ تَحْرِيمٌ كَانَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَتَغْلِيظٌ وَتَشْدِيدٌ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَالَ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ﴿حَجَرٌ﴾ إِنَّمَا اخْتَجَرُوا لِحَالَتِهِمْ^(٨). وَقَالَ السُّدِّيُّ ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِغْمِهِمْ﴾ يَقُولُونَ: حَرَامٌ أَنْ يَطْعَمَ إِلَّا مَنْ شِئْنَا^(٩). وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّي فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ وَاللَّهِ أَذِنْتُ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ نَهْرَةٌ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْعَةٍ وَلَا سَلْبَةٍ وَلَا مِجْرَافٍ وَلَا سَلْبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَلْمٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْتَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣] وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي حُرِّمَتْ طَهْرُهَا فِيهِ الْبَيْعَةُ وَالسَّلْبَةُ وَالْوَصِيلَةُ وَالْحَلْمُ. وَأَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا: لَا إِذَا وَلَدُوهَا وَلَا إِذَا نَحَرُوهَا.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبَّاسٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ: قَالَ لِي أَبُو وَايِلَ: أَتَدْرِي مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ طَهْرُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قُلْتُ: لَا، قَالَ: هِيَ الْبَيْعَةُ كَانُوا لَا يَحْجُونَ عَلَيْهَا^(١٠). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ مِنْ إِبِلِهِمْ طَائِفَةٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهَا: لَا إِِنْ رَكَبُوا وَلَا إِِنْ حَلَبُوا، وَلَا إِِنْ حَمَلُوا، وَلَا إِِنْ نَحَّجُوا وَلَا إِِنْ عَمِلُوا شَيْئًا^(١١). ﴿أَقْرَأَهُ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ عَلَى اللَّهِ وَكَذِبًا مِنْهُمْ فِي إِسْنَادِهِمْ ذَلِكَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرَعِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَلَا رِضِيَهُ مِنْهُمْ ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ عَلَيْهِ، وَيَسْتَدُونَ إِلَيْهِ.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَحَرَّمَ اللَّهُ أَرْوَاجَهَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَمَنْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

- (١) الطبري: ١٣٣/١٢ (٢) الطبري: ١٣٤/١٢ (٣) الطبري: ١٣٦/١٢ (٤) الطبري: ١٣٦/١٢ (٥) الطبري: ١٣٧/١٢ (٦) الطبري: ١٤٣/١٢ (٧) الطبري: ١٤٣/١٢ (٨) الطبري: ١٤٣/١٢ (٩) الطبري: ١٤٣/١٢ (١٠) الطبري: ١٤٤/١٢ (١١) الطبري: ١٤٥/١٢

وَالسُّدِّيُّ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(١). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي الْآيَةِ: كُلُّ شَيْءٍ يَجْعَلُونَهُ اللَّهُ مِنْ ذَبْحٍ يَذْبُحُونَهُ لَا يَأْكُلُونَهُ أَبَدًا حَتَّى يَذْكُرُوا مَعَهُ أَسْمَاءَ الْأَلْهَةِ، وَمَا كَانَ لِلْأَلْهَةِ لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ مَعَهُ، وَقَرَأَ الْآيَةَ حَتَّى بَلَغَ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٢). أَيُّ سَاءَ مَا يَفْعَلُونَ. فَإِنَّهُمْ أَخْطَأُوا أَوْلًا فِي الْقِسْمِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ، وَلَهُ الْمُلْكُ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَتَحْتِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ثُمَّ لَمَّا قَسَمُوا فِيمَا زَعَمُوا الْقِسْمَةَ الْفَاسِدَةَ لَمْ يَحْفَظُوا بَلَّ جَارُوا فِيهَا، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ أَكْثَرُ الدُّرَى﴾ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿١٦﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُمْ صَبْرًا﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلَا يَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾

[زَيْنَ الشَّيْطَانِ لِلْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا زَيْنَتِ الشَّيَاطِينُ لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهُ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيًّا، كَذَلِكَ زَيْنُوا لَهُمْ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ - حَشِيَّةَ الْإِمْلَاقِ - وَوَادَ الْبَنَاتِ حَشِيَّةَ الْعَارِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾: زَيْنُوا لَهُمْ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ شَبَابِيهِمْ يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَبْدُوا أَوْلَادَهُمْ حَشِيَّةَ الْعَبْلَةِ^(٤). وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَمَرْتَهُمُ الشَّيَاطِينُ أَنْ يَقْتُلُوا الْبَنَاتِ، إِمَّا ﴿لِيَرُدُّوهُمْ﴾ فَيَهْلِكُوهُمْ، ﴿وَ﴾ إِمَّا ﴿لِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أَيُّ فَيَخْلَطُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ^(٥) وَنَحْوُ ذَلِكَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيُّ كُلُّ هَذَا وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ لِذَلِكَ كَوْنًا، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِي ذَلِكَ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ فَدَعَهُمْ وَاجْتَنَبَهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ فَسَيَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَعْنَمٌ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ طَهْرُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَقْرَأَهُ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَّتْ حَجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن
 نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمَ حَرَمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ
 أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ
 خَالِصَةٌ لِّذِكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُنْ
 مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ أَنَّهُ
 حَكِيمٌ عَلَيْهِ ﴿١٣٩﴾ فَذُخِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
 سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ
 فَذُكِرُوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴿هُوَ الَّذِي
 أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
 مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ
 مُتَشَابِهٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتَاهُ حَقَّهُ يَوْمَ
 حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
 وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا بِمَا رَزَقَكُمُ
 اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً
 عَلَى اللَّهِ فَذُكِرُوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿الأنعام: ١٤٠﴾
 وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُتَّفَرِّدًا فِي كِتَابِ «مَنَاقِبِ قُرَيْشٍ» مِنْ
 صَحِيحِهِ (٦).

﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ
 وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ
 كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتَاهُ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا
 تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ
 وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا بِمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
 لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

[اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الثَّمَرَ وَالْحَبَّ وَالْأَنْعَامَ]
 يَقُولُ تَعَالَى مُبِينًا أَنَّهُ الْحَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الزُّرُوعِ

(١) الطبري: ١٤٦/١٢ أبو إسحاق السبيعي مدلس قد عنعن ولم
 يصرح بالسماع (٢) الطبري: ١٤٧/١٢ العوفي وعائلته قد تقدم
 حكمهم (٣) الطبري: ١٢ / ١٤٨ (٤) الطبري: ١٤٨/١٢ (٥)
 الطبري: ١٥٢/١٢ (٦) فتح الباري: ٦/٦٣٦

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبِيْعِيُّ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْهَدَيْلِ عَنِ
 ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ
 لِّذِكُورِنَا﴾ الْآيَةُ قَالَ: اللَّبَنُ (١). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ
 عَبَّاسٍ ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ
 لِّذِكُورِنَا﴾: فَهُوَ اللَّبَنُ كَانُوا يُحْرِمُونَهُ عَلَىٰ إِبَانِهِمْ وَيَسْرِئُهُ
 ذُكْرَانُهُمْ. وَكَانَتْ الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ، وَكَانَ
 لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِن كَانَتْ أُنْثَى تَرَكْتَ فَلَمْ تُذْبَحْ،
 وَإِن كَانَتْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، فَهِيَ اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ (٢).
 وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ (٣).

وَقَالَ السُّعَيْبِيُّ: الْبَجِيرَةُ لَا يَأْكُلُ مِنْ لَبَنِهَا إِلَّا الرِّجَالُ،
 وَإِن مَاتَ مِنْهَا شَيْءٌ أَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ. وَكَذَا قَالَ
 عِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ
 الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذِكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ قَالَ: هِيَ
 السَّائِبَةُ وَالْبَجِيرَةُ (٤). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ فِي
 قَوْلِ اللَّهِ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ أَي قَوْلُهُمُ الْكُذِبَ فِي
 ذَلِكَ (٥). يَعْنِي كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُصِفُ السُّنُكُمُ
 الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ
 يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٣٧﴾ مَتَّعٌ... الْآيَةُ
 [النحل: ١١٦، ١١٧] ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ أَي فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ
 وَسَرْعِهِ وَقَدْرِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ مِنْ خَيْرٍ وَسَرٍّ
 وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا أَنْتُمْ الْجَزَاءُ.

﴿فَذُخِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا
 رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ فَذُكِرُوا وَمَا كَانُوا
 مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: فَذُخِرَ الَّذِينَ فَعَلُوا هَذِهِ الْأَفْعَالَ فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فَحَسِرُوا أَوْلَادَهُمْ بِقَتْلِهِمْ،
 وَصَيَّقُوا عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ فَحَرَّمُوا أَشْيَاءَ ابْتَدَعُوهَا مِنْ
 تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ. وَأَمَا فِي الْآخِرَةِ فَيَصِيرُونَ إِلَى شَرِّ الْمَنَازِلِ
 بِكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَافْتِرَائِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ
 يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٣٧﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ
 إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا
 يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠] وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ ابْنَ
 مَرْدُودِيَةَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا، قَالَ: إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ، فَافْرَأْ مَا
 فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿فَذُخِرَ الَّذِينَ

الْمَعْرُوفِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ ابْنِ شِمَاسٍ، جَدُّ نَحْلًا لَهُ فَقَالَ: لَا يَأْتِينِي الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا أَطْعَمْتُهُ فَأَطْعَمَ حَتَّى أَمْسَى، وَلَيْسَتْ لَهُ نَمْرَةٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ. لَكِنَّ الظَّاهِرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى الْأَكْلِ، أَيْ لَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَصْرَفَةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الْآيَةَ [الأعراف: ٣١].

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ تَعْلِيْقًا: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ»^(٧). وَهَذَا مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[فَوَائِدُ الْأَنْعَامِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَفَرَسًا﴾ أَيْ وَأَنْشَأَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَا هُوَ حَمُولَةٌ وَمَا هُوَ فَرَسٌ، قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَمُولَةِ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْفَرَسُ الصَّغَارُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: حَمُولَةٌ: مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ وَفَرَسًا الصَّغَارُ مِنَ الْإِبِلِ. رَوَاهُ الْحَاجِمُ وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٨). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْحَمُولَةُ: مَا تَرَكِبُونَ. وَالْفَرَسُ: مَا تَأْكُلُونَ وَتَحْلِبُونَ، شَاءَ لَا تُحْمَلُ تَأْكُلُونَ لَحْمَهَا وَتَتَّخِذُونَ مِنْ صُوفِهَا لِحَافًا وَفَرَسًا^(٩). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَسَنٌ، يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَدَ بَرًّا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتَ أَيَدِنَا أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ﴾^(١٠) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنهَا رُكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ [يس: ٧١].

[٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُعْتَبَرَ بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَأُخْرَى وَدَرِ بَنَاتٍ خَالِصَاتٍ سَابِقَاتٍ لِلشَّرِيبِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَتْنًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٦٦-٨٠].

وَالثَّمَارِ وَالْأَنْعَامِ الَّتِي تَصَرَّفَ فِيهَا هُوَ لِأَنَّ الْمُشْرِكُونَ بَارَأْنَهُمُ الْفَاسِدَةَ، وَقَسَمُوهَا وَجَزَّوْهَا فَجَعَلُوا مِنْهَا حَرَامًا وَحَلَالًا، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَسْمُوكَاتٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَالْمَعْرُوشَاتُ مَا عَرَّشَ النَّاسُ ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَا خَرَجَ فِي الْبَرِّ وَالْجِبَالِ مِنَ الثَّمَرَاتِ^(١١). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَا عَرَّشَ مِنَ الْكَرَمِ ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَا لَمْ يُعْرَشَ مِنَ الْكَرَمِ. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿مُنْشِكِيهَا وَغَيْرَ مُنْشِكِيهَا﴾ قَالَ: ﴿مُنْشِكِيهَا﴾ فِي الْمَنْظَرِ ﴿وَغَيْرَ مُنْشِكِيهَا﴾ فِي الْمَطْعَمِ^(١٢). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قَالَ: مِنْ رُطْبِهِ وَعَيْنِهِ^(١٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا حَضَرَكَ الْمَسَاكِينُ طَرَحْتَ لَهُمْ مِنْهُ^(١٤). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ: عِنْدَ الزَّرْعِ يُعْطِي الْقُبْضَةَ، وَعِنْدَ الصَّرَامِ يُعْطِي الْقُبْضَةَ وَيَتْرَكُهُمْ فَيَتَّبِعُونَ أَتَارَ الصَّرَامِ^(١٥). وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، قَالَ: يُعْطِي مِثْلَ الصُّغْتِ^(١٦). وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا قَبْلَ الزَّكَاةِ، لِلْمَسَاكِينِ: الْقُبْضَةُ وَالصُّغْتُ لِعَلْفِ دَابَّتِهِ.

وَقَدْ دَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ يَصْرِمُونَ وَلَا يَتَصَدَّقُونَ، كَمَا ذَكَرَ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ فِي سُورَةِ «ن» ﴿إِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْمَتِهَا مُصْرِمِينَ﴾^(١٧) وَلَا يَسْتَنُونَ^(١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ^(١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [القلم: ١٧-٢٠] أَيْ كَاللَّيْلِ الْمُدْلِيهِمْ سُودَاءَ مُحْتَرِقَةٍ ﴿فَنَادَوْا مُصْرِمِينَ﴾^(٢٠) أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْوِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ^(٢١) فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ^(٢٢) أَنْ لَا يَدْخُلْنَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينًا^(٢٣) وَغَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرٍ^(٢٤) أَيْ قُوَّةَ وَجَلْدٍ وَهَمَّةٍ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَأَصْلَاؤُونَ﴾^(٢٥) بَلْ عَنْ مَحْرُومُونَ^(٢٦) قَالَ أَوْسَطُكُمْ أَلْ أَقْلَ لَكُمْ لَوْلَا سُبْحُونَ^(٢٧) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(٢٨) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ^(٢٩) قَالُوا يَبْرُلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(٣٠) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا حَيْرَانًا إِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا رَغْبُونَ^(٣١) كَذَلِكَ الْعَنَابُ وَالْعَنَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [القلم: ١٧-٣٣].

[بَيَانُ الْإِسْرَافِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تُسْرِفُوا فِي الْإِعْطَاءِ فَتَعَطُّوا فَوْقَ

(١) الطبري: ١٥٦/١٢ (٢) الطبري: ١٥٧/١٢ (٣) الطبري:

١٥٧/١٢ (٤) الطبري: ١٦٣/١٢ (٥) عبد الرزاق: ٢١٩/٢

(٦) الطبري: ١٦٥/١٢ (٧) كتاب اللباس تحت الباب الأول،

وفيه: «وتصدقوا» بعد «البسوا» (٨) الحاكم: ٣١٧/٢ (٩)

الطبري: ١٨١/١٢

[كُلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهَا خُطُوتِ

الشَّيْطَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْهَا زَرْقَكُمْ اللَّهُ﴾ أَي مِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرُوعِ وَالْأَنْعَامِ فَكُلْهَا خَلَقَهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا رِزْقًا لَكُمْ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ أَي طَرِيقَهُ وَأَوَامِرَهُ كَمَا اتَّبَعَهَا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا زَرَقَهُمُ اللَّهُ، أَي مِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرُوعِ إِفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ أَي إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيُّهَا النَّاسُ لَكُمْ ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أَي بَيِّنٌ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُونَ آدَمَ لَا يَفْقَهُنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفْتَحِذُوا ذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ.

﴿تَمَنِّيَةَ أَرْوَاجٍ مِنَ الضَّحَانِ أَتَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنِ قُلْ
الَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَيْنِ
نَيْغُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَتَيْنِ وَمِنَ
الْبَقَرِ أَتَيْنِ قُلْ الَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ
أَرْحَامَ الْأُنثِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

هَذَا بَيَانٌ لِجَهْلِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، فِيمَا كَانُوا حَرِّمُوا
مِنَ الْأَنْعَامِ وَجَعَلُوهَا أَجْزَاءً وَأَنْوَاعًا بَجِيرَةً وَسَائِيَةً وَوَصِيلَةً
وَحَامًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا فِي الْأَنْعَامِ
وَالزَّرُوعِ وَالثَّمَارِ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنشَأَ جَنَابَ مَعْرُوشَاتٍ
وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ، وَأَنَّهُ أَنشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَقَرُشًا، ثُمَّ
بَيَّنَّ أَصْنَافَ الْأَنْعَامِ إِلَى غَنَمٍ وَهُوَ بَيَاضٌ وَهُوَ الضَّأْنُ،
وَسَوَادٌ وَهُوَ الْمُعْزُ ذَكَرَهُ وَأُنثَاهُ، وَإِلَى إِبِلٍ ذُكُورَهَا وَإِنَانِهَا
وَبَقَرٍ كَذَلِكَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَحْرِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا شَيْئًا
مِنَ أَوْلَادِهَا، بَلْ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِيَتِي آدَمَ أَكْلًا وَرُكُوبًا
وَحَمُولَةً وَحَلْبًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ الْمَنَافِعِ، كَمَا قَالَ:
﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَنَزَلَ بِهِ الثَّمَرَاتُ﴾ [الزمر: ٦] الْآيَةُ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَيْنِ رَدُّ
عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْعَادِ خَالِصَةٌ
لِلنَّكْرُونَ وَمَحْرَمٌ عَلَى أَرْوَاجِنَا﴾ الْآيَةُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿تَمَنِّيَةَ أَرْوَاجٍ مِنَ الضَّحَانِ أَتَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنِ
قُلْ الَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ
أَرْحَامَ الْأُنثِيَيْنِ نَيْغُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
وَمِنَ الْإِبِلِ أَتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَتَيْنِ قُلْ الَّذِينَ حَرَّمَ
أَمِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَيْنِ
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ
عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قُلْ لَا أَحَدٌ
فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُخَرَّمًا عَلَيَّ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
مِيسَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ
فَسَقًا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِي ظُفْرِ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَاكِي أَوْ مَا
أَخْلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

﴿نَيْغُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي أَخْبِرُونِي عَنْ
يَقِينِ، كَيْفَ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَا رَعَمْتُمْ تَحْرِيمَهُ مِنْ
الْبَجِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ ﴿تَمَنِّيَةَ أَرْوَاجٍ مِنَ
الضَّحَانِ أَتَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنِ﴾ فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَرْوَاجٍ قُلْ
الَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَيْنِ يَقُولُ: لَمْ أَحْرَمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ
﴿أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَيْنِ﴾ يَعْنِي هَلْ يَسْتَجِلُّ الرَّحْمُ
إِلَّا عَلَى ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى، فَلِمَ تَحْرِمُونَ بَعْضًا وَتُحِلُّونَ بَعْضًا؟
﴿نَيْغُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: كُلُّهُ
حَلَالٌ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ
اللَّهُ بِهَذَا﴾ تَهَكَّمُ بِهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَافْتَرَوْهُ عَلَى اللَّهِ مِنْ
تَحْرِيمِ مَا حَرَّمَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَي لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُمْ ﴿إِنَّ
اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

(١) الطبري: ١٨٧/١٢ مرَّ حكم العوفي وعائلته عدة مرات

عَمْرُو بْنُ لَحْيِ بْنِ قَمْعَةَ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَوَّلُ مَنْ سَبَّ السَّوَابِ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ، وَحَمَى الْحَامِي. كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ^(١).

﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ يَجَسُّ أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِعَيرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيرَ بَاحٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)

[بَيَانُ الْأَشْيَاءِ الْمُحَرَّمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِنْدَهُ وَرَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أَيُّ آكِلٍ يَأْكُلُهُ. مَعْنَاهُ: لَا أُجِدُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ شَيْئًا حَرَامًا سِوَى هَذِهِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَا وَرَدَ مِنَ التَّحْرِيمَاتِ بَعْدَ هَذَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَفِي الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ رَافِعًا لِمَفْهُومِ هَذِهِ الْآيَةِ، ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: حَرَّمَ مِنَ الدَّمَاءِ مَا كَانَ مَسْفُوحًا، فَأَمَّا [لَحْمٌ] خَالَطَهُ الدَّمُ فَلَا بَأْسَ بِهِ^(٣).

وَقَالَ الْحَمِيدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، قَالَ: قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ لُحُومِ الْحُمْرِ الْأَهْلِيَّةِ زَمَنَ خَيْبَرَ، فَقَالَ: قَدْ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ الْحَكَمُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبِي ذَلِكَ الْحَبْرُ، يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ وَقَرَأَ: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الْآيَةَ^(٤). وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(٥).

وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ مَرْذُوبٍ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ أَشْيَاءَ وَيَتْرَكُونَ أَشْيَاءَ تَقْدَرًا، فَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ وَأَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، فَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَلَالٌ وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾... الْآيَةَ، وَهَذَا لَفْظُ ابْنِ مَرْذُوبٍ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَاتَتْ شَاةٌ لِسُودَةَ بِنْتُ زَمْعَةَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَاتَتْ فَلَانَةٌ تَعْنِي الشَّاةَ، قَالَ: «فَلَوْ لَا أَخَذْتُمْ مَسْكَهَا؟» قَالَتْ: نَأْخُذُ مَسْكَ شَاةٍ قَدْ مَاتَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا

وَمِنْ أَيْنَ حَرَّمْتُمُوهُ وَلَمْ يُحَرِّمَهُ اللَّهُ؟.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَسِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايِ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْضِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾^(٧)

[مَا حُرِّمَ عَلَى الْيَهُودِ مِنَ الْحَلَالِ لِيَنبَغِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ كُلَّ ذِي ظُفْرٍ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ^(٨) كَالْإِبِلِ وَالنَّعَامِ وَالْإِوَزِّ وَالْبَطِّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَسِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي الثَّرْبَ وَسَحْمَ الْكُلَيْتَيْنِ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِنَّهُ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ فَتَحْنُ نَحْرَهُ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يَعْنِي مَا عَلِقَ بِالظَّهْرِ مِنَ الشُّحُومِ^(٩). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ الْحَوَايِ﴾ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ:

(١) فتح الباري: ١٣٢/٨ (٢) الطبري: ١٩٣/١٢ (٣) الحميدي: ٣٧٩/٢ (٤) فتح الباري: ٥٧٠/٩ وأبو داود: ٤/١٦٢ (٥) أبو داود: ٣٨٠٠ والحاكم: ١١٥/٤ (٦) أحمد: ٣٢٧/١ (٧) فتح الباري: ٥٧٧/١١ والنسائي: ١٧٣/٧ (٨) راجع تفسير سورة آل عمران الآية ٩٣ (٩) الطبري: ٢٠٢/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرَدُّ
بِأَسْئِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا
قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ
فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ
تَعَالَوْا آتِلْ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفٌّ عَيْنِكُمْ الْأَشْرَافِيَّةِ
سَيِّئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ
إِمْلَاقٍ مَن نَّرَفُكُمُ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

وَسِعَتْ ﴿١٤٧﴾ وَهَذَا تَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي ابْتِغَاءِ رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ
وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﴿١٤٨﴾ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْئِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٩﴾
تَرْهِيْبٌ لَهُمْ مِنْ مُخَالَفَتِهِمُ الرَّسُولَ حَاتِمَ النَّبِيِّينَ، وَكَثِيرًا مَا
يَقْرَأُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ
مَعْفِرٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾
[الرعد: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَيْنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩،
٥٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾

(١) الطبري: ٢٠٣/١٢ (٢) الطبري: ٢٠٤/١٢ (٣) الطبري:
٢٠٤/١٢ (٤) الطبري: ٢٠٥/١٢ (٥) الطبري: ٢٠٥/١٢
(٦) الطبري: ٢٠٦/١٢ (٧) فتح الباري: ٤/٤٨٣ و مسلم: ٣/
١٢٠٧ (٨) فتح الباري: ٤/٤٩٥ (٩) فتح الباري: ٤/٤٩٥ و
مسلم: ٣/١٢٠٧ وأبو داود: ٣/٣٥٦ وتحفة الأحوذى: ٤/٥٢١ و
النسائي: ٧/٣٠٩ وابن ماجه: ٢/٧٣٢

الْحَوَايَا جَمْعٌ وَاحِدُهَا حَاوِيَاءٌ وَحَاوِيَةٌ وَحَوِيَّةٌ وَهُوَ مَا
تَحَوَّى مِنَ الْبَطْنِ فَاجْتَمَعَ وَاسْتَدَارَ، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّبَنِ،
وَهِيَ: الْمَبَاعِرُ وَتُسَمَّى الْمَرَايِضُ، وَفِيهَا الْأَنْعَاءُ. قَالَ:
وَمَعْنَى الْكَلَامِ: وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا
إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ مَا حَمَلَتِ الْحَوَايَا. قَالَ عَلِيُّ
ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَوْ الْحَوَايَا وَهِيَ الْمَبْعَرُ^(١).
وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْحَوَايَا الْمَبْعَرُ وَالْمَرْبُضُ^(٢). وَكَذَا قَالَ
سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ
بِعَظْمٍ﴾ يَعْنِي إِلَّا مَا اخْتَلَطَ مِنَ الشُّحُومِ بِعَظْمٍ فَقَدْ أَهْلَلْنَاهُ
لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: شُحْمُ الْأَلْيَةِ مَا اخْتَلَطَ بِالْعُضْعُصِ
فَهُوَ حَلَالٌ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقَوَائِمِ وَالْجَنْبِ وَالرَّأْسِ وَالْعَيْنِ
وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ فَهُوَ حَلَالٌ^(٤). وَنَحْوُهُ قَالَهُ السُّدِّيُّ^(٥).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْتُهُمْ بِبَعْضِهِمْ﴾ أَي هَذَا التَّضْيِيقُ
إِنَّمَا فَعَلْنَاهُ بِهِمْ وَالزَّمَانُ بِهِ مَجَازَاةٌ عَلَى بَعْضِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ
أَوْامِرَنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيظَلُّوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أَجَلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِيدِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾
[النساء: ١٦٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أَي وَإِنَّا لَعَادِلُونَ فِيمَا
جَازَيْنَاهُمْ بِهِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ
بِهِ يَا مُحَمَّدُ، مِنْ تَخْرِيمِنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لَا كَمَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّ
إِسْرَائِيلَ هُوَ الَّذِي حَرَمَهُ عَلَى نَفْسِهِ^(٦).

[حِيلَةُ الْيَهُودِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: بَلَغَ عَمْرُ بْنُ الْحَطَّابِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ سَمْرَةَ بَاعَ حَمْرًا فَقَالَ: قَاتَلَ اللَّهُ سَمْرَةَ أَلَمْ
يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حَرَمَتْ عَلَيْهِمْ
الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا». أَخْرَجَاهُ^(٧). وَعَنْ جَابِرِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ: «إِنَّ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْحَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِزِيرِ وَالْأَصْنَامِ»
فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يَدْمَنُ بِهَا
الْجُلُودُ، وَتَطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيَسْتَضْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ:
«لَا، هُوَ حَرَامٌ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «قَاتَلَ
اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهَا ثُمَّ بَاعُوهَا
وَأَكَلُوهَا ثَمَنَةً»^(٨). وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ^(٩).

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْئِهِ

عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: فَإِنْ كَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مُخَالَفُوكَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَمَنْ شَابَهُهُمْ، ﴿فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ

وَقَالَ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٧) إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُئِذٍ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الْعَظِيمُ الْوَدُودُ ﴿البروج: ١٢-١٤﴾ وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (١٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٢٠)

[ذِكْرُ مَغَالِطَةِ وَالرَّدِّ عَلَيْهَا]

هَذِهِ مَنَاطِرَةٌ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَشُبْهَةٌ تَشَبَّهَتْ بِهَا الْمُشْرِكُونَ فِي شِرْكِهِمْ وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ، فَإِنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرِكِ وَالتَّحْرِيمِ لِمَا حَرَّمُوهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ بِأَنْ يُلْهَمَنَا الْإِيمَانَ، وَيَحُولَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفْرِ، فَلَمْ يُغَيِّرْهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَرِضَاهُ مِنَّا بِذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ الآية [الزخرف: ٢٠]، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي فِي التَّنْحِلِ مِثْلُ هَذِهِ سَوَاءً.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ بِهِذِهِ الشُّبْهَةُ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ قَبْلَ هَؤُلَاءِ وَهِيَ حُجَّةٌ دَاجِضَةٌ بَاطِلَةٌ، لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ صَاحِبَةً لَمَا أَذَاقَهُمُ اللَّهُ بَأْسَهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ وَأَدَالَ عَلَيْهِمْ رُسُلَهُ الْكَرَامَ، وَأَذَاقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَلِيمِ الْإِنْتِقَامِ، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيُّ بِأَنَّ اللَّهَ رَاضٍ عَنْكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أَيُّ فَتُظْهِرُوهُ لَنَا وَتُبَيِّنُوهُ وَتُبَرِّزُوهُ ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أَيُّ الْوَهْمِ وَالْحَيَالِ، وَالْمُرَادُ بِالظَّنِّ هَاهُنَا الْإِعْتِقَادُ الْفَاسِدُ ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَيْتُمُوهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ لَّهُمْ يَا مُحَمَّدُ!﴾ ﴿فَلِلَّهِ﴾ أَيُّ لَهُ الْحُكْمَةُ النَّاتِمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي هِدَايَةِ مَنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فَكُلُّ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرْضَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُبْغِضُ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ

شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَوُنَّ مُخْتَلِفِينَ﴾ (٢١) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأُمَّةٍ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿هود: ١١٨، ١١٩﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: لَا حُجَّةَ لِأَخِي عَصَى اللَّهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى عِبَادِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾ أَيُّ أَحْضَرُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ وَكَذَّبْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أَيُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ وَالْحَالَةَ هَذِهِ كَذِبًا وَزُورًا ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَيُّ يُشْرِكُونَ بِهِ وَيَجْعَلُونَ لَهُ عَدِيلًا.

﴿قُلْ تَكَلَّمُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُتَذَكَّرُونَ بِهِ سَيِّئًا وَيَأْتُونَ الْبَلَاءَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ مَحْنُ نَزَفْتُمْ وَإِسَاهَتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَنَعَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٢)

[الْوَصَايَا الْعَشْرَةُ]

قَالَ دَاوُدُ الْأَوْدِيُّ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنِ عَلْقَمَةَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيُفْرَأْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قُلْ تَكَلَّمُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُتَذَكَّرُونَ بِهِ سَيِّئًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١). وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: فِي الْأَنْعَامِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿قُلْ تَكَلَّمُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾...

الآيَاتِ، ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (٢). وَرَوَى الْحَاكِمُ أَيْضًا فِي [مُسْتَدْرَكِهِ]، عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى ثَلَاثٍ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قُلْ تَكَلَّمُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حَتَّى قَرَعَ مِنَ الْآيَاتِ: «فَمَنْ وَفَى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَذْرَكَهُ اللَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عَقُوبَتُهُ، وَمَنْ أَخْرَجَ إِلَى الْآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ،

(١) تحفة الأحوذى: ٤٤٦/٨ إسناده ضعيف فيه داود بن يزيد بن عبد الرحمن الأودي ضعفه أحمد وابن معين وأبو داود والدارقطني وغيرهم (٢) الحاكم: ٣١٧/٢

إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ» ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(١).

وَأَمَّا تَفْسِيرُهَا فَيَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَقَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ، وَكُلَّ ذَلِكَ فَعَلُوهُ بِأَرَائِهِمْ وَتَسْوِيلِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ، ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿تَعَالَوْا﴾ أَيُّ هَلُمُّوا وَأَقْبَلُوا ﴿أَتَلَّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ أَفْضَلْ عَلَيْكُمْ وَأُخْبِرْكُمْ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا لَا تَخْرُصًا وَلَا طَنًّا بَلْ وَحْيًا مِنْهُ وَأَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ.

[النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ]

﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَكَأَنَّ فِي الْكَلَامِ مُحذُوفًا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَتَقْدِيرُهُ: وَأَوْصَاكُمْ ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ ﴿ذَلِكُمْ وَصَدَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي جَبْرِيْلُ فَبَسَّرَنِي أَنَّهُ مِنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أَمِيكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ»^(٢) وَفِي بَعْضِ الْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ عَنْ أَبِي دَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَأَنِي أَغْفِرُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، وَلَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً أَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، وَإِنْ أَخْطَأْتَ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ»^(٣). وَلِهَذَا شَاهِدٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤). وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

[الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيُّ وَأَوْصَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أَيُّ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (وَوَصَّى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أَيُّ أَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَفْرُنُ بَيْنَ طَاعَتِهِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى

الْمَصِيرِ ﴿٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَكَ عَلَيْهِ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نُرِّ لِي مَرَجِعُكُمْ فَأَبْنِيكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥، ١٤] فَأَمْرٌ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا - وَإِنْ كَانَ مُشْرِكِينَ - بِحَسْبِهِمَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَفِيهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: حَدَّثَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَرْذَنِي لَرَأَيْتَنِي^(٥).

[النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ الْوَالِدِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لَمَّا أَوْصَى تَعَالَى بِالْوَالِدَيْنِ وَالْأَجْدَادِ عَطَفَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْإِحْسَانِ إِلَىٰ الْأَبْنَاءِ وَالْأَخْفَادِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ كَمَا سَوَّلَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ ذَلِكَ، فَكَانُوا يَبْدُونَ النَّبَاتِ حَشِيَّةَ الْعَارِ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَ الذُّكُورِ حَشِيَّةَ الْإِفْتِقَارِ. وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ حَشِيَّةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الآية [الفرقان: ٦٨]]^(٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِمْلَاقٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْفَقْرُ^(٧). أَيُّ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ مِنْ فَقْرِكُمْ الْخَاصِلِ. وَقَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أَيُّ لَا تَقْتُلُوهُمْ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ فِي الْآجِلِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ:

(١) الحاكم: ٣١٨/٢ (٢) البخاري: ١٢٣٧ ومسلم: ٩٤ (٣) أحمد: ١٧٢/٥ وتحفة الأحوذى: ٥٢٤/٩ عن أنس (٤) مسلم: ٩٤/١ (٥) فتح الباري: ١٢/٢ ومسلم: ٨٩/١ (٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩١/١ (٧) الطبري: ٢١٧/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿تَحَنَّنْ رِزْقَهُمْ وَإِيَّاكَ﴾ فَبَدَأَ بَرَزَقِهِمْ لِإِلْتِمَامِ بِهِمْ، أَيْ لَا تَخَافُوا مِنْ فَقْرِكُمْ بِسَبَبِ رِزْقِهِمْ فَهُوَ عَلَى اللَّهِ، وَأَمَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَلَمَّا كَانَ الْفَقْرُ حَاصِلًا قَالَ: ﴿تَحَنَّنْ رِزْقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لِأَنَّهُ الْأَهْمُ هَهُنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَرَوْا ظَهِرَ الْإِنْعِرِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»^(١). وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمِيرٍ عَنِ وَرَادٍ عَنْ مَوْلَاهُ الْمُعْبِرَةِ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ مَعَ امْرَأَتِي رَجُلًا لَصَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصَفِّحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَتَعْجِبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ فَوَاللَّهِ! لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»^(٢). أَخْرَجَاهُ.

[النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وَهَذَا مِمَّا نَصَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى النَّهْيِ عَنْهُ تَأَكِيدًا، وَإِلَّا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، فَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجِلُّ دَمُ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِخْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيْبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٣).

وَقَدْ جَاءَ النَّهْيُ وَالرَّجْزُ وَالْوَعِيدُ فِي قَتْلِ الْمُعَاهِدِ وَهُوَ الْمُسْتَأْمَنُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، فَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَرْفُوعًا «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(٤). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَهُ دِمَةٌ اللَّهِ وَدِمَةٌ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَحْفَرَ بِدِمَةِ اللَّهِ، فَلَا يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ حَرِيفًا» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَالتِّرْمِذِيُّ،

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١٥٦)

وَأَنَّ هَذَا صِرْطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(١٥٧) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ^(١٥٨) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مِيسَرًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(١٥٩) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا نَعْنِ دِرَاسَتَهُمْ لَعَفْوَيتَ^(١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ^(١٥٧)

وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ أَيْ هَذَا مِمَّا وَصَّاهُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١٥٦)

[تَحْرِيمُ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ]

قَالَ عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وَ«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا» الْآيَةَ [النساء: ١٠]، فَاذْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ

(١) فتح الباري: ١٤٦/٨ و مسلم: ٢١١٤/٤ قد تقدم هذا الحديث (٢) فتح الباري: ٤١١/١٣ و مسلم: ١١٣٦/٢ (٣) فتح الباري: ٢٠٩/١٢ و مسلم: ١٣٠٢/٣ (٤) فتح الباري: ٣٧٠/١٢ تحفة الأحوذى: ٦٥٨/٤ وابن ماجه: ٨٩٦/٢

[الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ السَّبِيلِ الْأُخْرَى]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وفي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَتَّبِعُوا الَّذِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] وَنَحْوِ هَذَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاَهُمْ عَنِ الْإِخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرْيَةِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللَّهِ^(٤). وَنَحْوِ هَذَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَبِيلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا» وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السَّبِيلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٦). وَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٧).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَاللَّفْظُ لِأَحْمَدَ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّ عَنْ شِمَالِهِ وَقَالَ: «هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ» ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَ لَكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٨) وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ مِنْ سُنَنِهِ، وَالْبَرَزِيُّ^(٩). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ مَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ؟ قَالَ: تَرَكْنَا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَدْنَاهُ وَطَرَفُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَنْ يَمِينِهِ جَوَادٌ وَعَنْ يَسَارِهِ جَوَادٌ، ثُمَّ رَجُلٌ يَدْعُونَ مَنْ مَرَّ بِهِمْ، فَمَنْ أَخَذَ فِي تِلْكَ الْجَوَادِ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى النَّارِ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى الصِّرَاطِ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾... الْآيَةَ^(١٠).

(١) أبو داود: ٢٩١/٣ (٢) الطبري: ٢٢٣/١٢ (٣) الطبري: ٢٢٥/١٢ (٤) الطبري: ٢٢٩/١٢ (٥) الطبري: ٢٢٩/١٢ (٦) أحمد: ٤٦٥/١ (٧) الحاكم: ٣١٨/٢ (٨) أحمد: ٣٩٧/٣ (٩) عبد بن حميد: ٣٤٥ (٩) ابن ماجه: ١١ (١٠) الطبري: ١٢/٢٣٠ إسناده وإه أبان بن أبي عياش متروك.

مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يُفْضَلُ الشَّيْءُ فَيَحْسَبُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ - وَيَفْسُدُ - . فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ حَرٌّ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] قَالَ: فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَهُمْ. بِشَرَابِهِمْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ﴾ قَالَ الشَّعْبِيُّ وَمَالِكٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: يَعْنِي حَتَّى يَحْتَلِمَ^(١٢).

[الْأَمْرُ بِإِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْأَخْذِ وَالْإِعْطَاءِ، كَمَا تَوَعَّدَ عَلَى تَرْكِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾^(١٣) الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ^(١٤) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ^(١٥) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ^(١٦) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ^(١٧) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ [المطففين: ١-٦] وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا يَبْحُسُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَي مَنِ اجْتَهَدَ فِي آدَاءِ الْحَقِّ وَأَخَذِهِ، فَإِنْ أَخْطَأَ بَعْدَ اسْتِيفْرَاجِ وُسْعِهِ وَبَدَّلَ جُهْدَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ.

[الْأَمْرُ بِالشَّهَادَةِ الْعَادِلَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾... الْآيَةَ [المائدة: ٨]، وَكَذَا الَّتِي تُشَبِّهُهَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ عَلَى الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ حَالٍ.

[الْأَمْرُ بِإِيفَاءِ عَهْدِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: وَبِوَعْدِ اللَّهِ الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا فَأَوْفُوا، وَإِيفَاءُ ذَلِكَ أَنْ تُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاَكُمْ وَتَعْمَلُوا بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴿ذَلِكَ لَكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا أَوْصَاكُمْ بِهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ وَكَأَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَي تَتَعَطَّوْنَ وَتَتَّبَهُونَ عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ قَبْلَ هَذَا^(١٨).

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَ لَكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٠

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ
بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا
إِنَّمَا تُنظُرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا لَسَتْ
مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ءِئِمَّا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ بَنَتْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
﴿١٥٩﴾ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ مِمَّا هُوَ بِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْرَىٰ إِلَّا بِمِثْلِهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَهُ لِيُرِيَهُمْ حَيْفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ
﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِعِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهَ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
خَلْقَ الْأَرْضِ رَوَعًا بِبَعْضِكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلُوكُمُ
فِي مَاءِ آتِنَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنبِي
الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ
مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَدْعُو: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا
ادْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلَا تَفْرُقُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ
فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ
الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيَحِكُ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلَجَهُ،
فَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ
الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ
اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ
مُسْلِمٍ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٢). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ:
حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبِعُونَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ إِنَّمَا وَحَدَّ
سَبِيلَهُ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ، وَلِهَذَا جَمَعَ السُّبُلَ لِتَفْرِيقِهَا وَتَشْعُوبِهَا،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ
إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
[البقرة: ٢٥٧].

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا
لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وَهَذَا
كِتَابُهُ أَزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَاتَّبِعُونَهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

[مَدْحُ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ]

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ، سُبحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا
صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُونَهُ﴾ عَطَفَ بِمَدْحِ التَّوْرَةِ وَرَسُولِهَا،
فَقَالَ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وَكثيرًا مَا يَفْرُقُ سُبحَانَهُ
بَيْنَ ذِكْرِ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ
مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾
[الأحزاب: ١٢] وَقَوْلِهِ أَوَّلَ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ
الَّذِي جَاءَ بِهِ، مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِلُوهُمُ قَرِاطِيسَ بُدُونِهَا
وَتُحْفُونَ كَثِيرًا﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ٩١]، وَبَعْدَهَا ﴿وَهَذَا كِتَابٌ
أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ٩١، ٩٢].

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
مِنْ عِبَادِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَى بِمِثْلِ مَا آوَفَى مُوسَى﴾ قَالَ تَعَالَى:
﴿أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا آوَفَى مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا
وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ [القصص: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ
الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿بِقَوْمِنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ

مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ... الْآيَةُ
[الأحزاب: ٣٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أَيْ
آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ تَمَامًا كَامِلًا جَامِعًا، لِمَا
يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي شَرِيْعَتِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ... الْآيَةُ [الأعراف: ١٤٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أَيْ جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ فِي الْعَمَلِ
وَقِيَامِهِ بِأَمْرِنَا وَطَاعَتِنَا كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا
الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُ
بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمَّنَّ قَالِ إِنِّي جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]
وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا
وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ فِيهِ
(١) أحمد: ١٨٢/٤ (٢) تحفة الأحوذى: ١٥٢/٨ والنسائي في
الكبرى: ٣٦١/٦

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

[تَهْدِيدٌ مِّن سَوَافٍ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِهِ وَالْمُخَالِفِينَ لِرُسُلِهِ وَالْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ وَالصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ وَذَلِكَ كَائِنٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ وَذَلِكَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَائِنٌ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا حِينَ يَرُونَ شَيْئًا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مِنْ عَلَيْهَا» فَذَلِكَ حِينَ «لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ» (٤).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ» (٥). وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَعَنْدَهُ: «وَالذَّخَانُ» (٦).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ قَالَ: جَلَسَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَرْوَانَ بِالْمَدِينَةِ فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنِ الْآيَاتِ يَقُولُ: «إِنَّ أَوْلَهَا الذَّجَالُ»: قَالَ: فَأَنْصَرَفُوا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَحَدَّثُوهُ بِالَّذِي سَمِعُوهُ مِنْ مَرْوَانَ فِي الْآيَاتِ. فَقَالَ: لَمْ يَثَلُ مَرْوَانَ شَيْئًا، حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوْلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ ضُحَى، فَأَيُّهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَلِأَخْرَى عَلَى آثَرِهَا» ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - وَكَانَ يَفْرَأُ الْكُتُبَ -: «وَأَطْنُ أَوْلَهَا خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا كَلَّمَا غَرَبَتْ أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ وَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنْتَ فِي الرَّجُوعِ، فَأُذِنَ لَهَا فِي الرَّجُوعِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ اللَّهُ أَنْ تَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا فَعَلَتْ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ، أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ فَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنْتَ فِي

مَدْحِ كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلَهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ، يُرْعَبُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ وَيَأْمُرُهُمْ بِتَدْبِيرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهِ، وَوصَفَهُ بِالْبَرَكَةِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَتَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

[الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لِلَّهِ عَلَى خَلْقِهِ]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ لِنَلَا تَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يَعْنِي لِيَنْقَطِعَ عُدْرَتُكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ لَفَعَلُوا رِيئًا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الْآيَةُ [الْقِصَصُ: ٤٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (١). قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى (٢). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ أَي وَمَا كُنَّا نَفْهَمُ مَا يَقُولُونَ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِلِسَانِنَا وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَسُغْلٍ مَعَ ذَلِكَ عَمَّا هُمْ فِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أَي وَقَطَعْنَا تَعَلُّكُمُ أَنْ تَقُولُوا: لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فِيمَا أَوْتُوهُ كَقَوْلِهِ ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيَنْ أَعِزَّكُمْ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ شُرَكَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٤). . . . الْآيَةُ [فَاطِرُ: ٤٢]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يَقُولُ: فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ قُرْآنٌ عَظِيمٌ فِيهِ بَيِّنَاتٌ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَهُدًى لِمَا فِي الْقُلُوبِ وَرَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتَفُونَ مَا فِيهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أَي لَمْ يَتَّبِعْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَلَا اتَّبَعَ مَا أُرْسِلَ بِهِ وَلَا تَرَكَ غَيْرَهُ بَلْ صَدَفَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ؛ أَي صَرَفَ النَّاسَ وَصَدَّهُمْ عَنِ ذَلِكَ. قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أَعْرَضَ عَنْهَا.

(١) الطبري: ٢٣٩/١٢ (٢) الطبري: ٢٤٠/١٢ (٣) الطبري:

٢٤١/١٢ (٤) فتح الباري: ١٤٧/٨ (٥) الطبري: ٢٦٥/١٢

(٦) أحمد: ٤٤٥/٢

الرُّجُوعِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْءٌ ثُمَّ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ، فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ وَعَرَفْتَ أَنَّهُ إِذَا أذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوعِ لَمْ تَذْكُرِ الْمَشْرِقَ! قَالَتْ: رَبِّ مَا أَبْعَدَ الْمَشْرِقُ! مَنْ لِي بِالنَّاسِ؟ حَتَّى إِذَا صَارَ الْأَفُقُ كَأَنَّهُ طُوقٌ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ فَيَقَالُ لَهَا: مِنْ مَكَانِكَ فَاطْلُعِي فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، ثُمَّ تَلَا عَبْدُ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ...﴾ الْآيَةَ (١). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِمَا (٢).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيْمَانًا يَوْمِيذٍ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ ذَلِكَ: فَإِنْ كَانَ مُضِلِّحًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ بِخَيْرِ عَظِيمٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُضِلِّحًا فَأَحَدَتْ تَوْبَةً حَيْثُذِ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَقَدِّمَةُ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَي وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ سَوَّفَ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لِاقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَظُهُورِ أَشْرَاطِهَا كَمَا قَالَ: ﴿تَهَلَّ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ هُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذُكِرْتُمْ﴾ [محمد: ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٣) فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا... الْآيَةَ [عافر: ٨٤، ٨٥].

وَفِي الْحَدِيثِ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ» (٥). فَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَهُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسُلُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالتَّمَسُّكُ بِشَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْمُتَأَخَّرِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَضَلَّالَاتٍ وَجَهْلَاتٍ وَأَرَاءَ وَأَهْوَاءَ، وَالرُّسُلُ بُرَاءٌ مِنْهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالَّذِينَ اشْرَكُوا إِنَّكَ اللَّهُ بَصِصٌ يَنْبَهُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الْآيَةَ [الحج: ١٨]، ثُمَّ بَيَّنَّ لَطْفَهُ سُبْحَانَهُ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْرَىٰ

إِلَّا بِسِئْلَتِهَا وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ (٦)

[الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا]

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُفَصَّلَةٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ مِثْلِهَا﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ مُطَابِقَةً لِهَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إِنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ» (٧) وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (٨).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ

(١) أحمد: ٢٠١/٢ (٢) مسلم: ٢٢٦٠/٤ وأبو داود: ٤٩٠/٤
 وابن ماجه: ١٣٥٣/٢ (٣) الطبري: ٢٧٠، ٢٦٩/١٢ (٤) الطبري: ٢٦٩/١٢ العوفي وعائلته مشهورون بالضعف (٥) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٦) أحمد: ٢٧٩/١ (٧) فتح الباري: ١١/٣٣١
 ومسلم: ١١٨/١ والنسائي في الكبرى: ٣٩٦/٤

الرُّجُوعِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْءٌ ثُمَّ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ، فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ وَعَرَفْتَ أَنَّهُ إِذَا أذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوعِ لَمْ تَذْكُرِ الْمَشْرِقَ! قَالَتْ: رَبِّ مَا أَبْعَدَ الْمَشْرِقُ! مَنْ لِي بِالنَّاسِ؟ حَتَّى إِذَا صَارَ الْأَفُقُ كَأَنَّهُ طُوقٌ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ فَيَقَالُ لَهَا: مِنْ مَكَانِكَ فَاطْلُعِي فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، ثُمَّ تَلَا عَبْدُ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ...﴾ الْآيَةَ (١). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِمَا (٢).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيْمَانًا يَوْمِيذٍ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ ذَلِكَ: فَإِنْ كَانَ مُضِلِّحًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ بِخَيْرِ عَظِيمٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُضِلِّحًا فَأَحَدَتْ تَوْبَةً حَيْثُذِ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَقَدِّمَةُ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَي وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ سَوَّفَ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لِاقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَظُهُورِ أَشْرَاطِهَا كَمَا قَالَ: ﴿تَهَلَّ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ هُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذُكِرْتُمْ﴾ [محمد: ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٣) فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا... الْآيَةَ [عافر: ٨٤، ٨٥].

وَفِي الْحَدِيثِ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ» (٥). فَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَهُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسُلُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالتَّمَسُّكُ بِشَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْمُتَأَخَّرِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَضَلَّالَاتٍ وَجَهْلَاتٍ وَأَرَاءَ وَأَهْوَاءَ، وَالرُّسُلُ بُرَاءٌ مِنْهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالَّذِينَ اشْرَكُوا إِنَّكَ اللَّهُ بَصِصٌ يَنْبَهُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الْآيَةَ [الحج: ١٨]، ثُمَّ بَيَّنَّ لَطْفَهُ سُبْحَانَهُ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْرَىٰ

إِلَّا بِسِئْلَتِهَا وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ (٦)

[الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا]

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُفَصَّلَةٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ مِثْلِهَا﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ مُطَابِقَةً لِهَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إِنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ» (٧) وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (٨).

﴿مَلَّةَ إِزْهِمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِزْهِمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِزْهِمَ﴾ [الحج: ١٧٨] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ إِزْهِمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦٢﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاكُمْ وَهَدَانِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦٣﴾ وَوَعَاقِبَتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهَا فِي الْآخِرَةِ لَوَنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٤﴾ ثُمَّ أَحْيَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَنْعَمَ مِلَّةَ إِزْهِمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣] وَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ ﷺ أَمْرًا بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةِ، أَنْ يَكُونَ إِزْهِمَ أَكْمَلَ مِنْهُ فِيهَا، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ بِهَا قِيَامًا عَظِيمًا وَأَكْمَلَتْ لَهُ إِحْمَالًا تَامًا لَمْ يَسْفِهْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الْكَمَالِ. وَلِهَذَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَصَاحِبَ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ الَّذِي يَرْغَبُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ حَتَّى الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَيَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالَ: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»^(٦).

[الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بِأَمْرِهِ تَعَالَى أَنْ يُخَيَّرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ وَيَذْبُحُونَ لِغَيْرِ اسْمِهِ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ صَلَاتَهُ لِلَّهِ وَنُسُكَهُ عَلَى اسْمِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] أَيَّ أَخْلِصْ لَهُ صَلَاتَكَ وَذَبْحَكَ؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَذْبُحُونَ لَهَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمُخَالَفَتِهِمْ وَالْإِنْجِرَافِ عَمَّا هُمْ فِيهِ وَالْإِقْبَالَ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ وَالْعَزْمِ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ النُّسُكُ: الذَّبْحُ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ.

عَشْرَ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهَا مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شَبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرُولًا^(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

وَاعْلَمْ أَنَّ تَارِكَ السَّيِّئَةِ الَّذِي لَا يَعْمَلُهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ تَارَةً يَتْرُكُهَا اللَّهُ فَهَذَا نُكِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ عَلَى كَفِّهِ عَنْهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذَا: عَمَلٌ وَبِتُّهُ. وَلِهَذَا جَاءَ أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الصَّحِيحِ: «فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَائِي أَيُّ مِنْ أَجْلِي» وَتَارَةً يَتْرُكُهَا نِسْيَانًا وَذُهُولًا عَنْهَا، فَهَذَا لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَبْنُ خَيْرًا وَلَا فَعَلَ شَرًّا، وَتَارَةً يَتْرُكُهَا عَجْزًا وَكَسَلًا عَنْهَا بَعْدَ السَّعْيِ فِي أَسْبَابِهَا وَالتَّلَبُّسِ بِمَا يُغْرِبُ مِنْهَا، فَهَذَا بِمَنْزِلَةِ فَاعِلِهَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيِّئِهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(٣).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنِ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجُمُعَةُ كَمَارَةٌ لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَةٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»^(٤).

وَعَنْ أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَقَدْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَهَذَا لَفْظُهُ وَالنِّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَزَادَ: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ الْيَوْمَ بَعْسَرَةَ أَيَّامٍ» ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٥). وَالْأَحَادِيثُ وَالْأَثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَفِيمَا ذَكَرَ كِفَايَةً إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ التَّكْفُؤُ.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦٣﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٥﴾

[الْإِسْلَامُ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ]

يُسَوِّدُ تَعَالَى أَمْرًا نَبِيَّهُ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ أَنْ يُخَيَّرَ بِمَا أَعْتَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ: مِنَ الْهِدَايَةِ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا إِعْجَاجَ فِيهِ وَلَا انْجِرَافَ ﴿وَبِنَا قِيَمًا﴾ أَيُّ قَائِمًا تَائِبًا

(١) أحمد: ١٥٣/٥ (٢) مسلم: ٢٠٦٨/٤ (٣) البخاري: ٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣ (٤) الطبراني: ٢٩٨/٣ إسناده ضعيف فيه محمد بن إسماعيل بن عياش مع ضعفه لم يسمع من أبيه شيئاً [الجرح والتعديل] رقم الترجمة ١٠٧٨ لكن يشهد له حديث أبي هريرة عند مسلم ٢٧، ٢٦/٨٥٧ وغيره بنحوه وليس فيه ذكر الآية.
(٥) أحمد: ١٤٦/٥ وتحفة الأحوذى: ٤٧٠/٣ والنسائي: ٤/٢١٨ وابن ماجه: ١/٥٤٥ (٦) أحمد: ٢٣٦/١

وَأَمَّاتٍ شَتَّى، فَالَّذِينَ وَاحِدٌ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِن تَوَعَّتِ الشَّرَائِعُ الَّتِي هِيَ بِمَنْزِلَةِ الْأَمَّاتِ، كَمَا أَنَّ إِخْوَةَ الْأَخْيَافِ عَمَّكُنْ هَذَا بَنُو الْأُمِّ الْوَاحِدَةِ مِنْ آبَاءِ شَتَّى. وَالْإِخْوَةَ الْأَغْيَانَ الْأَشْفَاءَ مِنْ أَبِي وَاحِدٍ وَأُمِّ وَاحِدَةٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا كَبَّرَ اسْتَفْتَحَ ثُمَّ قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَقِيقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفُرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَأَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»^(٤). ثُمَّ ذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ فِيمَا يَقُولُهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالشَّهَادِ. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ^(٥).

﴿قُلْ اعْبُدُوا اللَّهَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِّلَ إِلَهُهُ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ إِذْ يَنْزِلُ إِلَيْكُمْ فِي سَحَابٍ فَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِي السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَاصْبَوْا مِنْهُ لَعَلَّكُمْ تَصْلِحُونَ﴾^(١٦٤)

[الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ التَّوَكُّلِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ فِي إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ﴾ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيُّ أَطْلُبُ رَبًّا سِوَاهُ، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُرَبِّبُنِي وَيَحْفَظُنِي وَيَكُلِّفُنِي وَيَدَبِّرُ أَمْرِي، أَيُّ لَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا أُنِيبُ إِلَّا إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. فَبِئْسَ هَذِهِ الْآيَةُ الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ التَّوَكُّلِ، كَمَا تَضَمَّنَتِ الَّتِي قَبْلَهَا إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى يَقْرَأُ بِالْآخِرِ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُرَشِدًا لِعِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا لَهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] وَقَوْلِهِ:

(١) الحاكم: ٤٦٧/٢ إسناده ضعيف لضعف محمد بن إسحاق وجهالة حال أبي عياش المغامري المصري أنظر للتفصيل في الإرواء للالباني (١١٣٨) (٢) الطبري: ٢٨٥/١٢ (٣) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٤) أحمد: ١٠٢/١ (٥) مسلم: ٥٣٤/١

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَوْمِ عِيدِ التَّحْرِ بِكَبَشِينَ وَقَالَ حِينَ ذَبَحَهُمَا: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَقِيقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَيَذَلِكَ أَمْرُتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

[دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ الْإِسْلَامُ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ^(١). وَهُوَ كَمَا قَالَ. فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُلَّهُمْ كَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَصْلُهُ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَدْ أَخْبَرَنَا تَعَالَى عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرُتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُتَسَلِّمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِلَّةٍ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ اسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(٣) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ بَيْنَهُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [البقرة: ١٣٠-١٣٢] وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وَقَالَ مُوسَى: ﴿يَعْلَمُونَ إِنْ كُنْتُمْ مَأْمَنَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾^(٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٥) وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [يونس: ٨٤-٨٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ...﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَسْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِيهِ بِحَسَبِ شَرَائِعِهِمُ الْخَاصَّةِ الَّتِي يَسْتَحِبُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، إِلَى أَنْ نَسِخَتْ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي لَا تُنْسَخُ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَلَا تَرَالُ قَائِمَةٌ مَنْصُورَةٌ وَأَعْلَامُهَا مَنْشُورَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاتٍ، وَبِنُنَّا وَاحِدًا»^(٦). فَإِنَّ أَوْلَادَ الْعِلَاتِ هُمُ الْإِخْوَةُ مِنْ أَبِي وَاحِدٍ

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاعْبُدْهُ وَكَرِهًا﴾ [المزمل: ٩]
وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَظِيمًا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، إِنْخِبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَزَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ، أَنَّ النَّفُوسَ إِنَّمَا تُجَازَى بِأَعْمَالِهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَأَنَّهُ لَا يُحْمَلُ مِنْ خَطِيئَةِ أَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَحِافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ: أَيُّ فَلَا يُظْلَمُ بِأَنَّ: يُحْمَلُ عَلَيْهِ سَيِّئَاتُ غَيْرِهِ. وَلَا يُهَضَمُ بِأَنَّ: يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا﴾ (٣٨) إِلَّا أَضْعَبَ أَلْيَيْنَ [المدرثر: ٣٨، ٣٩] مَعْنَاهُ كُلُّ نَفْسٍ مُرْتَهَنَةٌ بِعَمَلِهَا السَّيِّئِ، إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فَإِنَّهُ قَدْ يَعُودُ بَرَكَهُ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ عَلَى دُرِّيَاتِهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الطُّورِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآية: ٢١]، أَيُّ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فِي الْجَنَّةِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ شَارَكُوهُمْ فِي الْأَعْمَالِ، بَلْ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ، ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ﴾ أَيُّ أَنْقَضْنَا أَوْلِيكَ السَّادَةَ الرَّفْعَاءَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ سَيِّئًا، حَتَّى سَاوَيْنَاهُمْ وَهَوَّلَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَنْقَضَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً؛ بَلْ رَفَعَهُمْ تَعَالَى إِلَىٰ مَنْزِلَةِ الْآبَاءِ بِرَبِّكَ أَعْمَالِهِمْ بِفَضْلِهِ وَمَتِّبِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا﴾ أَيُّ مِنْ شَرٍّ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لِي ذَرِكُمْ تَرَجَعْتُمْ فَيَرْجِعْكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ أَيُّ إِعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ عَلَىٰ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَسْتَعْرِضُونَ وَنُعَرِّضُ عَلَيْهِ، وَنَبْنِئْنَا وَإِنَّا كُمْ بِأَعْمَالِنَا وَأَعْمَالِكُمْ وَمَا كُنَّا نَخْتَلِفُ فِيهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا سْتَأْذِنُوا عَلَمَاً أَجْرَمْنَا وَلَا سْتَسْتَلُّ عَلَمَاً تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رِشْنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْحُ الْعَلِيمُ [سبا: ٢٥، ٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦)

[جَعَلَ اللَّهُ النَّاسَ خَلَائِفَ وَمُتَفَاتِيهِ الدَّرَجَاتِ لِيُبْلِغَهُمْ] بِقَوْلِ تَعَالَى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أَيُّ

جَعَلَكُمْ تَعْمُرُونَهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَقَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ وَخَلَفْنَا بَعْدَ سَلْفٍ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِئِكَ فِي الْأَرْضِ بَخِلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وَقَوْلُهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَسَخِّلَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أَيُّ فَآوَتْ بَيْنَكُمْ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَحَاسِنِ وَالْمَسَاوِيءِ وَالْمَنَاطِرِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣١] وَقَوْلُهُ: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أَيُّ لِيَخْتَبِرَكُمْ فِي الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ وَأَمْتَحَنَكُمْ بِهِ، لِيَخْتَبِرَ الْعَنِيَّ فِي غِنَاهُ وَيَسْأَلَهُ عَنْ شُكْرِهِ، وَالْفَقِيرَ فِي فَقْرِهِ وَيَسْأَلَهُ عَنْ صَبْرِهِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ حَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَتَاطِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَىٰ إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ» (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تَرْهِيْبٌ وَتَرْغِيْبٌ: أَنَّ حِسَابَهُ وَعِقَابَهُ سَرِيعٌ، فَيَمُنُّ عِضَاهُ وَخَالَفَ رُسُلَهُ ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لِمَنْ وَالَاهُ وَاتَّبَعَ رُسُلَهُ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَطَلَبَ. وَكَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، كَقَوْلِهِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وَقَوْلُهُ: ﴿بَنِيَّ عِبَادِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦) وَأَنَّ عِدَائِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩، ٥٠] إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ التَّرْغِيْبِ وَالتَّرْهِيْبِ، فَتَارَةً يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ وَصِفَةِ الْجَنَّةِ وَالتَّرْغِيْبِ فِيمَا لَدَيْهِ، وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ بِالرَّهْبَةِ وَذِكْرِ النَّارِ وَأَنْكَالِهَا وَعَذَابِهَا وَالْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا، وَتَارَةً بِهِمَا لِيَنْجِعَ فِي كُلِّ بِحْسَبِهِ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْ أَطَاعِهِ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ نَهَىٰ وَرَجَرَ،

سُورَةُ الْأَعْرَافِ ١٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 المص ﴿١﴾ كَتَبْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
 لِنَذِيرِهِ. وَذَكَرْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ أَنْتَبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ
 مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
 وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَابِنَا وَأُوْهُمْ قَائِلُونَ
 ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَابِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
 ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْتَكْفُرُ الَّذِينَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكْفُرُ
 الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾
 وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَسْتَكْفُرُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَتَكُمُ
 فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
 وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
 لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾

ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْتَكْفُرُ الَّذِينَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكْفُرُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾
 فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾
 [أَحْوَالُ قَرِيْبٍ أَهْلَكْتَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَي بِمُخَالَفَةِ رُسُلِنَا
 وَتَكْدِيْبِهِمْ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ خِزْيَ الدُّنْيَا مُؤْضُولًا بِدَلِّ الآخِرَةِ،
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَبْنَاهُ بِرُسُلٍ مِنْ بَيْنِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ
 سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]
 وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ
 حَابِئَةٌ عَلَنُ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ بِطَرْتِ مَعِشَتِهَا
 فَبَلَغَتْ مَسْكَتَهُمْ لَمْ تَشْكُرْ مِنْ بَدْرِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَعْنُ
 الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨] وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنَابِنَا أَوْ هُمْ
 قَائِلُونَ﴾ أَي فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُ أَمْرُ اللَّهِ وَبَأْسُهُ وَبِقَمْتِهِ بِنَاتَا

وَصَدَقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، إِنَّهُ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ سَمِيْعٌ الدُّعَاءِ جَوَادٌ
 كَرِيْمٌ وَهَابٌ.

وَقَدْ رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: أَنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ
 الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ
 مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَطَعَ أَحَدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ
 فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْفِهِ يَتَرَاخَمُونَ بِهَا، وَعِنْدَ اللَّهِ تِسْعَةٌ
 وَيَسْعُونَ» وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).
 وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ
 كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ
 غَضَبِي»^(٢). آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿المص ﴿١﴾ كَتَبْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِنَذِيرِ
 بِهِ. وَذَكَرْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ أَنْتَبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا
 تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
 فَذْ تَقْدَمُ الْكَلَامُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ
 بِالْحُرُوفِ ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ﴾ أَي هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ أَي
 مِنْ رَبِّكَ ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ
 وَالسُّدِّيُّ: شَكٌّ مِنْهُ^(٣). وَقِيلَ: لَا تَتَحَرَّجْ بِهِ فِي إبْلَاغِهِ
 وَالْإِنذَارِ بِهِ ﴿فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزِيمَةَ مِنَ الرُّسُلِ﴾
 [الأحقاف: ٣٥] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِنَذِيرِ بِهِ﴾ أَي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
 لِنُذِيرَ بِهِ الْكَافِرِينَ ﴿وَذَكَرْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى
 مُخَاطِبًا لِلْعَالَمِ: ﴿أَنْتَبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي ائْتَمُّوا
 آثَارَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ
 كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيْكِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أَي لَا
 تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَكُونُوا قَدْ
 عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾
 كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾
 [يوسف: ١٠٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ طَعِ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ
 يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ١١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا
 يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَابِنَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾
 فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَابِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا

(١) أحمد: ٣٣٤/٢ وتحفة الأحوذى: ٥٢٧/٩ ومسلم: ٤/٤
 ٢١٠٩ (٢) مسلم: ٤/٢١٠٧ (٣) الطبري: ١٢/٢٩٦

﴿الْحَقُّ﴾ أَي لَا يَظْلِمُ تَعَالَى أَحَدًا كَقَوْلِهِ ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً
يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾
وَمَا آذَنَكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-١١] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فُجِعَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا
يَسْأَلُونَ ﴿١٢﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٣﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾
[المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

(فَضْلٌ) وَالَّذِي يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قِيلَ:
الْأَعْمَالُ وَإِنْ كَانَتْ أَغْرَاضًا إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُهَا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَجْسَامًا. قَالَ الْبَغَوِيُّ: يُرْوَى نَحْوُ هَذَا عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ^(٣). كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ النَّبِرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ
يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ أَوْ غِيَابَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ
طَيْرٍ صَوَافٍ^(٤). وَمِنْ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ قِصَّةُ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ
يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةٍ شَابٌ شَاحِبٌ اللَّوْنِ يَقُولُ: مَنْ
أَنْتَ؟ يَقُولُ: أَنَا الْقُرْآنُ الَّذِي أَشْهَرْتُ لَيْلِكَ وَأَطْمَأَتِ
نَهَارَكَ^(٥). وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ فِي قِصَّةِ سُؤَالِ الْقَبْرِ: «يَأْتِي
الْمُؤْمِنَ شَابٌ حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ الرَّيْحِ يَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟
يَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ»^(٦). وَذَكَرَ عَكْسُهُ فِي شَأْنِ
الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ.

وَقِيلَ: يُورَنُ كِتَابُ الْأَعْمَالِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ
الْبِطَاقَةِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ وَيُوضَعُ لَهُ فِي كِفَّةٍ تِسْعَةٌ
وَتِسْعُونَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِتِلْكَ
الْبِطَاقَةِ فِيهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ
مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ لَا تُظَلِّمُ.
فَتُوضَعُ تِلْكَ الْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«فَطَاشَتْ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ»^(٧) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِنَحْوِ
مِنْ هَذَا وَصَحَّحَهُ.

وَقِيلَ: يُورَنُ صَاحِبُ الْعَمَلِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «يُؤْتَى
(١) الطبري: ٣٠٦/١٢ (٢) الطبري: ٣٠٨/١٢ (٣) البغوي:
١٤٩/٢ (٤) مسلم: ٥٥٣/١ (٥) ابن ماجه: ١٢٤٢/٢ (٦)
أحمد: ٢٨٧/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٩٥/٧

أَي لَيْلًا، أَوْ هُمْ قَائِلُونَ مِنَ الْقَائِلِينَ وَهِيَ الْإِسْتِرَاحَةُ وَسَطَ
النَّهَارِ، وَكِلَا الْوَقْتَيْنِ وَثُتْ غَفْلَةٌ وَلَهْوٌ، كَمَا قَالَ: ﴿أَفَأَمِنَ
أَهْلُ الْفُرْعِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ
الْفُرْعِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧،
٩٨] وَقَالَ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي
تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ
رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا
كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَي فَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ عِنْدَ مَجِيءِ الْعَذَابِ، إِلَّا
أَنْ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّهُمْ حَقِيقُونَ بِهَذَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿حَمِيدِينَ﴾
[الأنبياء: ١١-١٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ... الْآيَةَ.
كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:
٦٥] وَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ أَرْسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا
عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ [المائدة: ١٠٩] فَيَسْأَلُ اللَّهُ
الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أَجَابُوا رُسُلَهُ فِيمَا أُرْسِلَهُمْ بِهِ،
وَيَسْأَلُ الرُّسُلَ أَيْضًا عَنْ إِبْلَاحِ رِسَالَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ
أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ
الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قَالَ: عَمَّا
بَلَّغُوا^(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَنُضَعَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِهِ وَمَا كُنَّا
عَالِمِينَ﴾ يُوضَعُ الْكِتَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ^(٢). ﴿وَمَا كُنَّا عَالِمِينَ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يُخَيِّرُ عِبَادَهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا قَالُوا وَبِمَا عَمِلُوا، مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَجَلِيلٍ
وَخَفِيرٍ، لِأَنَّهُ تَعَالَى الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ
شَيْءٌ، وَلَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الْعَالِمُ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ
وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿وَمَا تَسْفُطُ مِنْ رِزْقَةٍ إِلَّا يَلْمَسُهَا وَلَا
حَبْرَةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
[الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا

يَظْلِمُونَ ﴿٦﴾

[بَيَانُ وَزْنِ الْأَعْمَالِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَزْنَ﴾ أَي لِأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاحٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿١٧﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ ﴿الحجر: ٢٨، ٢٩﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِهِ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ، وَصَوْرَهُ بَشَرًا سَوِيًّا، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَعْظِيمًا لِشَأْنِ الرَّبِّ تَعَالَى وَجَلَالِهِ، فَسَمِعُوا كُلُّهُمْ وَأَطَاعُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَقد تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى إِبْلِيسَ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ آدَمَ وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ بِالْجَمْعِ، لِأَنَّهُ أَبُو الْبَشَرِ، كَمَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِيُنَبِّئَ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَوَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَرْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَمَّ وَالسَّلْوَتِي﴾ [البقرة: ٥٧] وَالْمُرَادُ آبَاؤُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ مُوسَى، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى الْآبَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَصْلُ، صَارَ كَأَنَّهُ وَاقِعٌ عَلَى الْآبَاءِ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [الأنبياء: ١٢]، فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ آدَمَ الْمَخْلُوقَ مِنَ السَّلَالَةِ - وَذَرِيَّتَهُ مَخْلُوقُونَ مِنْ نُطْفَةٍ - وَصَحَّ هَذَا لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ: ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الْجِنْسَ لَا مُمَيَّنًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْنَاكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ

طِينٍ ﴿١٧﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ﴾ تَقْدِيرُهُ: مَا أَخْرَجَكَ وَأَرْزَلَكَ وَاضْطَرَّكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْنَاكَ... وَنَحْوُ هَذَا، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ حَسَنٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُ إِبْلِيسَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مِنَ الْعُذْرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ، كَأَنَّهُ امْتَنَعَ مِنَ الطَّاعَةِ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاضِلُ بِالسُّجُودِ لِلْمَفْضُولِ، - يَعْنِي لَعْنَهُ اللَّهُ - وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي بِالسُّجُودِ لَهُ؟ ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ بِأَنَّهُ خَلِقَ مِنْ نَّارٍ، وَالنَّارُ أَشْرَفُ مِمَّا خَلَقْتَهُ مِنْهُ وَهُوَ الطِّينُ، فَتَظَرَّ اللَّعِينُ إِلَى أَصْلِ الْعُنْصُرِ وَلَمْ يَتَظَرَّ إِلَى الشَّرِيفِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَقَاسَ قِيَاسًا فَايْدًا فِي مُقَابَلَةِ نَصِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] فَشَدَّ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ لِتَرْكِ السُّجُودِ، فَلِهَذَا أَبْلَسَ مِنَ الرَّحْمَةِ أَيُّ: أَيْسَ مِنَ الرَّحْمَةِ. فَأَخْطَأَ - قَبَّحَهُ اللَّهُ - فِي قِيَاسِهِ، وَدَعَاؤُهُ: أَنَّ النَّارَ أَشْرَفُ مِنَ الطِّينِ - أَيْضًا - فَإِنَّ الطِّينَ مِنْ شَأْنِ الرِّزَانَةِ وَالْحِلْمِ وَالْأَنَانَةِ وَالتَّثَبُّتِ، وَالطِّينُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّيِّئِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ﴿١﴾. وَفِي مَنَاقِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقِيهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَهْمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أَحَدٍ» ﴿٢﴾. وَقد يُمَكِّنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَثَارِ بِأَنَّ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحًا، فَتَارَةٌ تُوزَنُ الْأَعْمَالُ، وَتَارَةٌ تُوزَنُ مَحَالُّهَا، وَتَارَةٌ يُوزَنُ فَاعِلُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا قَلِيلًا مَا

تَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾

[سَائِرُ نِعَمِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ خُلِقَتْ لِلْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: مُمْتَنًّا عَلَى عِبِيدِهِ فِيمَا مَكَّنَ لَهُمْ، مِنْ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ وَأَنْهَارًا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَنَازِلَ وَيُوتًا وَأَبَاحَ لَهُمْ مَنَافِعَهَا، وَسَخَّرَ لَهُمُ السَّحَابَ لِإِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَعَايِشَ أَيُّ مَكَاسِبَ وَأَسْبَابًا يَكْسِبُونَ بِهَا وَيَتَجَرَّوْنَ فِيهَا وَيَتَسَبَّبُونَ أَنْوَاعَ الْأَسْبَابِ وَأَكْثَرُهُمْ مَعَ هَذَا قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﴿وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وَقد قَرَأَ الْجَمِيعُ: ﴿مَعَايِشَ﴾ بِلَا هَمْزٍ إِلَّا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ هُرْمُزٍ الْأَعْرَجُ فَإِنَّهُ هَمَزَهَا. وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ بِلَا هَمْزٍ، لِأَنَّ مَعَايِشَ جَمْعُ مَعِيشَةٍ، مِنْ عَاشَ يَعْيشُ عَيْشًا، وَمَعِيشَةٌ أَصْلُهَا: مَعِيشَةٌ، فَاسْتَقْبَلَتْ الْكُسْرُ عَلَى الْبَاءِ فَتَقَلَّتْ إِلَى الْعَيْنِ فَصَارَتْ مَعِيشَةٌ، فَلَمَّا جُمِعَتْ رَجَعَتْ الْحَرَكَةُ إِلَى الْبَاءِ لِزَوَالِ الْإِسْتِقْبَالِ فَقِيلَ: مَعَايِشُ وَوزْنُهُ مَفَاعِلٌ، لِأَنَّ الْبَاءَ أَصْلِيَّةٌ فِي الْكَلِمَةِ بِخِلَافِ مَدَائِنَ وَصَحَائِفَ وَبَصَائِرَ، جَمْعُ مَدِينَةٍ وَصَحِيفَةٍ وَبَصِيرَةٍ مِنْ مَدَنَ وَصَحَّفَ وَأَبْصَرَ، فَإِنَّ الْبَاءَ فِيهَا زَائِدَةٌ، وَلِهَذَا تُجْمَعُ عَلَى فَعَائِلٍ وَتُهْمَزُ لِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٩﴾

[قِصَّةُ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ وَاسْتِكْبَارِ إِبْلِيسَ]

يُنَبِّئُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى شَرَفِ أَبِيهِمْ آدَمَ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ عِدَاوَةَ عَدُوِّهِمْ إِبْلِيسَ، وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لَهُمْ وَلَا يَبِيهِمْ آدَمَ، لِيَحْذَرُوهُ وَلَا يَتَّبِعُوا طَرَائِقَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

مَحَلُّ النَّبَاتِ وَالنُّمُوِّ وَالزِّيَادَةَ وَالْإِصْلَاحَ . وَالنَّارُ مِنْ شَأْنِهَا :
 الْإِحْرَاقُ وَالطَّيْسُ وَالشُّرْعَةُ ، وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيسُ عُضْرَهُ وَنَفَعَ
 آدَمَ عُضْرَهُ بِالرُّجُوعِ وَالْإِنَابَةِ وَالِاسْتِكَانَةَ وَالِانْقِيَادَ
 وَالِاسْتِسْلَامَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالِاعْتِرَافَ وَطَلَبَ التَّوْبَةَ وَالْمَغْفِرَةَ .
 وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ :
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ
 إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ » (١) .
 [أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسَ]

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ « خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ
 وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » قَالَ : قَاسَ إِبْلِيسُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَاسَ (٢) .
 إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ ، وَرَوَى عَنِ ابْنِ سِيرِينَ ، قَالَ : أَوَّلُ مَنْ قَاسَ
 إِبْلِيسَ ، وَمَا عَدَّتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِلَّا بِالْمَقَاسِ (٣) . إِسْنَادُ
 صَحِيحٌ أَيْضًا .

« قَالَ فَاهِطٌ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
 الصَّغِيرِينَ » (٤) قَالَ أَنْظِرْني إِيَّايَ يَوْمَ يُعْتَوْنُ (٥) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ
 (٦)

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِإِبْلِيسَ بِأَمْرِ قَدَرِي كَوْنِي « فَاهِطٌ
 مِنْهَا » أَيَّ بَسَبِ عَضْبَانِكَ لِأَمْرِي وَخُرُوجِكَ عَن طَاعَتِي ،
 فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ، قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ :
 الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا إِلَى الْمَنْزِلَةِ
 الَّتِي هُوَ فِيهَا فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى « فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
 الصَّغِيرِينَ » أَيَّ الدَّلِيلِينَ الْحَقِيرِينَ ، مُعَامِلَةٌ لَهُ بِتَقْبِضِ قَضِيهِ
 وَمُكَافَأَةٌ لِمُرَادِهِ بِضِدِّهِ .

فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْرَكَ اللَّعِينُ وَسَأَلَ النَّظْرَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ،
 قَالَ : « أَنْظِرْني إِيَّايَ يَوْمَ يُعْتَوْنُ » (٧) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ « أَجَابَهُ
 تَعَالَى إِلَى مَا سَأَلَ ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالِإِرَادَةِ
 وَالْمَشِيئَةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُنَاقِضُ ، وَلَا مُعَقَّبٌ لِحُكْمِهِ وَهُوَ
 سَرِيعُ الْحِسَابِ .

« قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (٨) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ
 بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
 شَاكِرِينَ » (٩)

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَنْظَرَ إِبْلِيسَ « إِيَّايَ يَوْمَ يُعْتَوْنُ »
 وَاسْتَوْتَقَ إِبْلِيسَ بِذَلِكَ ، أَخَذَ فِي الْمَعَانِدَةِ وَالتَّمَرُدِ ، فَقَالَ :
 « فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » أَيَّ كَمَا أَغْوَيْتَنِي ،
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَمَا أَضَلَلْتَنِي (١٠) . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَمَا
 أَهْلَكْتَنِي . « لِأَقْعُدَنَّ » لِإِعْبَادِكَ - الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَذَا

الَّذِي أَبْعَدْتَنِي بِسَبِيهِ - عَلَى « صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ » أَيَّ طَرِيقِ
 الْحَقِّ وَسَبِيلِ النَّجَاةِ ، لِأَضِلَّتْهُمْ عَنْهَا لِيَتَلَا يَعْبُدُوكَ وَلَا
 يُوحِدُوكَ بِسَبَبِ إِضْلَالِكَ إِيَّايَ . قَالَ مُجَاهِدٌ : « صِرَاطَكَ
 الْمُسْتَقِيمَ » يَعْنِي الْحَقَّ . رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَبْرَةَ بِنِ أَبِي
 الْفَرَاجِ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ
 قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطَرُوقِهِ ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ : أَتَسْلِمُ
 وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ؟ قَالَ : فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ - قَالَ - : قَعَدَ
 لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ : أَتَهَاجِرُ وَتَدْعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ؟
 وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطُّولِ ، فَعَصَاهُ وَهَاجِرَ . ثُمَّ
 قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ ، فَقَالَ :
 تُقَاتِلُ فَتَقْتُلُ فَتَنْحَسُ الْمَرْأَةُ وَيُقَسَّمُ الْمَالُ ؟ - قَالَ - : فَعَصَاهُ
 وَجَاهَدَ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ
 فَمَاتَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ قِيلَ كَانَ

(١) مسلم : ٢٢٩٤/٤ (٢) الطبري : ٣٢٨/١٢ (٣) الطبري :
 ٣٢٨/١٢ (٤) الطبري : ٣٣٢/١٢

الْعَيْبِ مِنَ الذَّمِّ. قَالَ: وَالْمُدْحُورُ: الْمُقْصِي، هُوَ الْمُبْعَدُ الْمَطْرُودُ^(٧). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: مَا نَعْرِفُ الْمُدَّوْمَ وَالْمُدْمُومَ إِلَّا وَاحِدًا^(٨). وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ التَّمِيمِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا»^(٩). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: صَغِيرًا مَقِيَّتًا^(١٠). وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَقِيَّتًا مَطْرُودًا^(١١). وَقَالَ قَتَادَةُ: لَعِينًا مَقِيَّتًا^(١٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَنَفِيًّا مَطْرُودًا^(١٣). وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: مَذْمُومًا مَنَفِيًّا وَالْمُدْحُورُ الْمُضَرَّ^(١٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَمَنْ يَمَلِكْ مِنْهُمْ لَأُمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ»^(١٥) كَقَوْلِهِ: «قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَمَلِكُ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكَ جَزَاءُ مَوْفُورًا»^(١٦) وَأَسْتَفْرَزَ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِحَيْلِكَ وَرَحْلِكَ وَسَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا^(١٧) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكَيْلًا [الإسراء: ٦٣-٦٥].

«وَيَبَادُءُ اسْتَنْكَرَ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْنَا وَلَا نَقْتَابَا هَذِهِ الشَّجَرَةُ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»^(١٨) فَسَوَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورَى عَنْهَا مِنْ سَوْءٍ تَهْمَا وَقَالَ مَا تَهَنُّكَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ^(١٩) وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيْكَمَا لَيَنْ أَتَّصِيحِينَ^(٢٠)

[مَكْرُ الشَّيْطَانِ مَعَ آدَمَ وَحَوَاءَ وَأَكْلُهُمَا مِنَ الشَّجَرَةِ] يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَبَاحَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِزَوْجَتِهِ حَوَاءَ الْجَنَّةَ أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا مِنْ جَمِيعِ ثِمَارِهَا إِلَّا شَجَرَةَ وَاحِدَةً. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ حَسَدَهُمَا الشَّيْطَانُ وَسَعَى فِي الْمَكْرِ وَالْوَسْوَسَةِ وَالْخَدِيعَةِ، لِيَسْلُبَهُمَا مَا هُمَا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَاللِّبَاسِ الْحَسَنِ «وَقَالَ» كِذْبًا وَافْتِرَاءً: «مَا تَهَنُّكَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ» أَي لِنَلَّا تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ خَالِدِينَ هَا هُنَا، وَلَوْ أَنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْهَا لَحَصَلَّ لَكُمَا

حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرَقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ^(٢١). وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ»^(٢٢) أَيْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَأَشْكَكْتُهُمْ فِي آخِرِيهِمْ «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» أَرْعَبُهُمْ فِي دُبَاهُمْ «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» أَشَبَّهُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ «وَعَنْ شِمَالِهِمْ» أَشْهَى لَهُمُ الْمَعَاصِي^(٢٣).

وَالْمُرَادُ جَمِيعُ طُرُقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَالْخَيْرُ يُضَدُّهُمُ عَنْهُ وَالشَّرُّ يُحِبِّبُهُ لَهُمْ. وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شِمَالِهِمْ» وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ فَوْقِهِمْ، لِأَنَّ الرَّحْمَةَ تَنْزَلُ مِنْ فَوْقِهِمْ^(٢٤). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شِكْرِي» قَالَ: مُوحِّدِينَ^(٢٥). وَقَوْلُ إِبْلِيسَ هَذَا إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ مِنْهُ وَتَوَهُّمٌ، وَقَدْ وَاقَفَ فِي هَذَا الْوَاقِعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٢٦) وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [سبأ: ٢٠، ٢١] وَلِهَذَا وَرَدَّ فِي الْحَدِيثِ الْإِسْتِعَاذَةَ مِنَ تَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ جِهَاتِهِ كُلِّهَا.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هُوَ لَاءَ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي. اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَورَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي. اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» قَالَ وَكَيْعٌ: مِنْ تَحْتِي يَعْنِي الْخَسْفَ^(٢٧). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ^(٢٨). وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ الْإِسْتِئْذَانِ.

«قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا لَمَنْ يَمَلِكْ مِنْهُمْ لَأُمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ»^(٢٩)

أَجْمَعِينَ

أَكَّدَ تَعَالَى عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةَ وَالطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ وَالنَّفْيَ عَنْ مَحَلِّ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، بِقَوْلِهِ: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا» قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَمَّا الْمَذْمُومُ فَهُوَ الْمَعِيبُ، وَالْمَذْمُومُ - عَيْزٌ مُشَدَّدٌ - الْعَيْبُ. يُقَالُ: دَامَهُ يَدَامُهُ دَامًا فَهُوَ مَذْمُومٌ. وَيَتْرَكُونَ الْهَمْزَةَ فَيَقُولُونَ: ذِمَّتُهُ أَذِيمُهُ ذِيمًا وَدَامًا، وَالْمَذْمُومُ وَالذِّمُّمُ أَبْلَغُ فِي

(١) أحمد: ٤٨٣/٣ (٢) الطبري: ٣٣٨/١٢ (٣) الطبري:

٣٤١/١٢ (٤) الطبري: ٣٤٢/١٢ (٥) أحمد: ٢٥/٢ (٦)

أبو داود: ٣١٥/٥ والنسائي: ٢٨٢/٨ وابن ماجه: ١٢٧٣/٢

وابن حبان: ١٥٥/٢ والحاكم: ٥١٧/١ (٧) الطبري: ١٢/

٣٤٢ (٨) الطبري: ٣٤٤/١٢ (٩) الطبري: ٣٤٤/١٢ إسناده

ضعيف فيه أبو إسحاق السبيعي مدلس ولم يصرح بالسماع (١٠)

الطبري: ٣٤٣/١٢ (١١) الطبري: ٣٤٣/١٢ (١٢) الطبري:

٣٤٣/١٢ (١٣) الطبري: ٣٤٣/١٢ (١٤) الطبري: ٣٤٤/١٢

الْحَسْرِينَ

١٥٣

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَ نَعْفِرَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَهَيْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
 تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٩﴾ يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا
 يُؤَرِّى سَوْءَ بَدَنِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ
 آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْكُمْ
 الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
 لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَرِيحِهِ إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ
 إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا فَعَلُوا
 فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِن اللَّهَ
 لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ
 أَمْرِي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
 وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٣﴾ فَرِيقًا
 هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَاةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٤﴾

﴿قَالَ أَهَيْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ
 إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٩﴾﴾
 [إِهْبَاطُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ]

قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْخِطَابِ فِي ﴿أَهَيْطُوا﴾ آدَمُ وَحَوَّاءُ
 وَإِبْلِيسُ وَالْحَيَّةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكَرِ الْحَيَّةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
 وَالْعُمْدَةُ فِي الْعِدَاوَةِ آدَمُ وَإِبْلِيسُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي
 سُورَةِ طه قَالَ: ﴿أَهَيْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾... الآية. وَحَوَّاءُ
 تَبِعَ لِآدَمَ، وَالْحَيَّةُ - إِنْ كَانَ ذِكْرُهَا صَحِيحًا - فَهِيَ تَبِعَ
 لِإِبْلِيسَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ الْأَمَّاكِينَ الَّتِي هَبَطَ فِيهَا كُلُّ
 مِنْهُمْ، وَيَرْجِعُ حَاصِلُ تِلْكَ الْأَخْبَارِ إِلَى الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ،
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا، وَلَوْ كَانَ فِي تَعْيِينِ تِلْكَ الْبِقَاعِ فَائِدَةٌ
 تَعُودُ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ لَذَكَرَهَا اللَّهُ

ذَلِكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ يَتَادُمْ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْجَنَّةِ وَمَنْ لِي
 لَا يَبْتَئِ﴾ [طه: ١٢٠] كَقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا﴾
 [المائدة: ١٧٦] أَيْ لِئَلَّا تَضَلُّوا ﴿وَأَلْفَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ
 تَبِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أَيْ لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ ﴿وَكَاَسَهُمَا﴾
 أَيْ حَلَفَ لَهُمَا بِاللَّهِ ﴿إِنِّي لَكُمَا لَيِّنُ النَّصِيحَاتِ﴾ فَإِنِّي مِنْ
 قَبْلِكُمَا هَاهُنَا وَأَعْلَمُ بِهَذَا الْمَكَانِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ
 الْمُفَاعَلَةِ، وَالْمُرَادُ أَحَدَ الطَّرْفَيْنِ. أَيْ حَلَفَ لَهُمَا بِاللَّهِ عَلَى
 ذَلِكَ حَتَّى خَدَعَهُمَا وَقَدْ يُخَدَعُ الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ
 فِي الْآيَةِ: حَلَفَ بِاللَّهِ: إِنِّي خَلِئْتُ قَبْلَكُمْ وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ
 فَأَتَبَعَانِي أُرِيدُكُمْ.

﴿يَدُلُّهُمَا بِرُؤُوسِهِمَا﴾ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
 عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَخْبَأْكُمْ عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ
 وَأَقُلُّ لَكُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ يُبْغِي ۖ ﴿٢٧﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا
 وَإِن لَّنَ نَعْفِرَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٨﴾

عَنْ أَبِي بِن كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ آدَمُ رَجُلًا
 طَوِيلًا كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، كَثِيرُ شَعْرِ الرَّأْسِ، فَلَمَّا وَقَعَ
 فِيهَا وَقَعَ بِهِ مِنَ الْخَطِيئَةِ، بَدَتْ لَهُ عَوْرَتُهُ عِنْدَ ذَلِكَ وَكَانَ لَا
 يَرَاهَا، فَانْطَلَقَ هَارِبًا فِي الْجَنَّةِ فَتَعَلَّقَتْ بِرَأْسِهِ شَجَرَةٌ مِنْ
 شَجَرِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهَا: أُرْسِلِينِي. فَقَالَتْ: إِنِّي غَيْرُ
 مُرْسِلَتِكَ. فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ أَمِنِّي تَقَرُّ؟ قَالَ:
 يَا رَبِّ! إِنِّي اسْتَحْبَبْتُكَ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ
 مِنْ طَرَفٍ، عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بِن كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
 مَرْفُوعًا^(٢). وَالْمَوْقُوفُ أَصْحَحُ إِسْنَادًا.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾
 قَالَ: وَرَقِ التَّيْنِ^(٣). صَحِيحٌ إِلَيْهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: جَعَلَا
 يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، قَالَ: كَهَيْئَةِ النَّوْبِ^(٤).

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾
 قَالَ: كَانَ لِبَاسُ آدَمَ وَحَوَّاءَ نُورًا عَلَى فُرُوجِهِمَا لَا يَرَى هَذَا
 عَوْرَةَ هَذِهِ وَلَا هَذِهِ عَوْرَةَ هَذَا، فَلَمَّا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ بَدَتْ
 لَهُمَا سَوَاتُهُمَا^(٥). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ إِلَيْهِ. وَرَوَى
 عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: قَالَ آدَمُ: أَيْ رَبِّ! أَرَأَيْتَ إِنْ
 ثُبْتُ وَاسْتَعْفَرْتُ، قَالَ: إِذَا أُذْخِلَكَ الْجَنَّةَ. وَأَمَّا إِبْلِيسُ فَلَمْ
 يَسْأَلْهُ التَّوْبَةَ وَسَأَلَهُ النَّظْرَةَ، فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الَّذِي
 سَأَلَهُ^(٦). وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مِرْزَاحٍ فِي قَوْلِهِ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا
 وَإِن لَّنَ نَعْفِرَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هِيَ الْكَلِمَاتُ
 الَّتِي تَلَقَّاها آدَمُ مِنْ رَبِّهِ^(٧).

(١) الطبري: ٣٥٤/١٢ (٢) الطبري: ٣٥٢/١٢ (٣) الطبري: ٣٥٥/١٢
 (٤) الطبري: ٣٥٣/١٢ (٥) الطبري: ٣٥٥/١٢
 (٦) عبد الرزاق: ٢٢٦/٢ (٧) الطبري: ٣٥٧/١٢

وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الْإِيْنُ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعْوَدُونَ ﴿٣٦﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ
وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن
دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾

[عَمَلُ الْكُفَّارِ الْفَاحِشَةِ وَنَسَبَتُهَا إِلَى اللَّهِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءَ.
يَقُولُونَ: نَطُوفُ كَمَا وَلَدْنَا أُمَّهَاتِنَا، فَتَضَعُ الْمَرْأَةُ عَلَى
فَرْجِهَا الشَّعْثَةَ أَوْ الشَّيْءَ وَتَقُولُ:

أَلْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُؤُهُ

وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ^(٣)

فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ

أَمْرًا بِهَا﴾... الْآيَةَ، قُلْتُ: كَانَتِ الْعَرَبُ مَا عَدَا قُرَيْشًا لَا

يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي لِبِسُوهَا، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَلِكَ:

أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِ عَصَا اللَّهِ فِيهَا، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ -

وَهُمُ الْحُمْسُ - يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِهِمْ، وَمَنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ

ثَوْبًا طَافَ فِيهِ، وَمَنْ مَعَهُ ثَوْبٌ جَدِيدٌ طَافَ فِيهِ ثُمَّ يَلْقِيهِ فَلَا

يَتَمَلَّكُهُ أَحَدٌ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ ثَوْبًا جَدِيدًا، وَلَا أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ

ثَوْبًا طَافَ عُرْيَانًا، وَرُبَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ فَطُوفَ عُرْيَانَةً

فَتَجْعَلُ عَلَى فَرْجِهَا شَيْئًا لِيَسْتُرَهُ بَعْضَ الشَّرِّ فَتَقُولُ:

أَلْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُؤُهُ

وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

وَأَكْثَرُ مَا كَانَ النِّسَاءُ يَطْفَنُ عُرَاءَ بِاللَّيْلِ، وَكَانَ هَذَا

شَيْئًا قَدْ ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَاتَّبَعُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ،

وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِعْلَ آبَائِهِمْ مُسْتَنَدٌ إِلَى أَمْرِ مِنَ اللَّهِ وَشَرَعٌ،

فَأَنْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً

قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرًا بِهَا﴾

[إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ، بَلْ بِالْقِسْطِ وَالْإِحْلَاصِ]

فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ أَدْعَى

ذَلِكَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَهُ

فَاحِشَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ، وَاللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا

لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ أَتْسِنِدُونَ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ صِحَّتَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أَيُّ

بِالْعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ

وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الْإِيْنُ﴾ أَيُّ أَمَرَكُمُ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي عِبَادَتِهِ

فِي مَحَالِّهَا وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْمُرْسَلِينَ الْمُؤَيَّدِينَ بِالْمُعْجَزَاتِ،

(١) الطبري: ٣٦٤/١٢ (٢) الطبري: ٣٦٨/١٢ (٣) الطبري:

٣٧٧/١٢

تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، أَوْ رَسُولُهُ ﷺ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَفْرٌ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] أَيُّ قَرَارٌ، وَأَعْمَارٌ
مَضْرُوبَةٌ إِلَى أَجَالٍ مَعْلُومَةٍ، قَدْ جَرَى بِهَا الْقَلَمُ وَأَخْصَاهَا
الْقَدْرُ، وَسَطُرَتْ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ فِيهَا
تَحْوِينٌ وَفِيهَا تَمْوِينٌ وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾
[طه: ٥٥] يُخْبِرُ تَعَالَى: أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ دَارًا لِبَنِي آدَمَ مَدَّةَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِيهَا مَحْيَاهُمْ وَفِيهَا مَمَاتُهُمْ، وَقُبُورُهُمْ وَمِنْهَا
نُشُورُهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، الَّذِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوْلِينَ
وَالْآخِرِينَ، وَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

﴿يَبْقَى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوْرِي سَوْءَ بَدَنِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ

التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِن آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾

[إِنْزَالُ اللَّبَاسِ وَالرِّيْثَةِ]

يَمْتَرُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّبَاسِ

وَالرِّيْثِ، فَاللَّبَاسُ الْمَذْكُورُ هَهُنَا لِسِتْرِ الْعَوْرَاتِ وَهِيَ

السُّوَاتُ، وَالرِّيْثَاسُ وَالرِّيْثُ مَا يَتَّجَمَلُ بِهِ ظَاهِرًا، فَأَلَّوُلُ

مِنَ الصَّرُورِيَّاتِ وَالرِّيْثُ مِنَ التَّكْمِلَاتِ وَالزِّيَادَاتِ. قَالَ

ابْنُ جَرِيرٍ: الرِّيْثَاسُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْأَثَاثُ وَمَا ظَهَرَ مِنْ

الثِيَابِ^(١).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾

يَبْقَى اللَّهُ فَيُورِي عَوْرَتَهُ فَذَلِكَ لِبَاسُ التَّقْوَى^(٢).

﴿يَبْقَى آدَمَ لَا يَفِينَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ

الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ مَا إِتَّخَذَا مِنْكُمْ

هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا رُؤْيَ لَهُمْ إِيَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

[التَّحْذِيرُ مِنَ فِتْنَةِ الشَّيْطَانِ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ مِنَ إِبْلِيسَ وَقَبِيلِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ

عِدَاوَتَهُ الْقَدِيمَةَ لِأَبِي الْبَشَرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي سَعْيِهِ

فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ دَارُ النِّعَمِ إِلَى دَارِ التَّعَبِ

وَالْعَنَاءِ، وَالتَّسْبِيبِ فِي هَتَاكَ عَوْرَتِهِ بَعْدَ مَا كَانَتْ مَسْتُورَةً

عَنْهُ، وَمَا هَذَا إِلَّا عَنْ عِدَاوَةِ أَكِيدَةٍ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿أَفَنَحْنُ ذُنُوبُهُ وَذُرِّيَّتُهُ أَوْلِيَاءَهُ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ

لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرًا بِهَا قُلْ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنْفَاءً، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ»^(١).
الْحَدِيثُ. وَوَجْهَ الْجَمْعِ عَلَى هَذَا: أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ فِي ثَانِي الْحَالِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَطَرَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْجِيهِهِ وَالْعِلْمُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، كَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِذَلِكَ وَجَعَلَهُ فِي غَرَائِزِهِمْ وَفَطَرَهُمْ وَمَعَ هَذَا قَدَّرَ أَنْ مِنْهُمْ شَقِيًّا وَمِنْهُمْ سَعِيدًا «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ»

[التغابن: ٢] وَفِي الْحَدِيثِ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَاتِعَ نَفْسَهُ فَمَعْتَقَهَا أَوْ مَوْبِقَهَا»^(١). وَقَدَّرَ اللَّهُ نَافِذَ فِي بَرِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ هُوَ «الَّذِي قَدَّرَ هَدْيًا» [الأعلى: ٣] وَ «الَّذِي أَطْعَمَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» [طه: ٥٠] وَفِي الصَّحِيحِينَ: «فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْآيَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»^(٣) الْآيَةِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا مِنْ أَيْبِنِ الدَّلَالَةِ عَلَى خَطَأِ مَنْ زَعَمَ: أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةِ رَيْبِهَا أَوْ ضَلَالَةٍ إِعْتَدَهَا، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُ بِضَوَابِ وَجْهَهَا، فَيَرَكُهَا عِنَادًا مِنْهُ لِرَبِّهِ فِيهَا.

لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ فَرِيقِ الضَّلَالَةِ - الَّذِي ضَلَّ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ هَادٍ - وَفَرِيقِ الْهُدَى، فَرْقٌ. وَقَدْ فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ أَسْمَائِهِمَا وَأَحْكَامِهِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ^(٤).

﴿يَبَيِّنْ عَادَمَ خُدُوًا زَيْنَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

سُرُوفًا إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٥)

[الْأَمْرُ بِالتَّجَمُّلِ عِنْدَ الدَّهَابِ إِلَى الْمَسَاجِدِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ، مِنَ الطَّوْفِ بِالْبَيْتِ عُرَاةً كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتَّسَائِيَّ وَابْنَ جَرِيرٍ - وَاللَّفْظُ لَهُ - مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ

(١) الطبري: ٣٨٥/١٢ (٢) الطبري: ٣٨٥/١٢ (٣) الطبري: ٣٨٦/١٢

(٤) الطبري: ٣٨٥/١٢ (٥) الطبري: ٣٨٦/١٢

(٦) فتح الباري: ٤٤٥/٦ ١٣٥/٨ ومسلم: ٢١٩٤/٤ (٧) الطبري: ٣٨٢/١٢ (٨) فتح الباري: ٤٨٦/١١ (٩) فتح الباري: ٢٩٠/٣ ومسلم: ٢٠٤٧/٤ (١٠) مسلم: ٢١٩٧/٤

(١١) مسلم: ٢٠٣/١ (١٢) فتح الباري: ٢٦٧/٣ ومسلم: ٢٠٣٩

(١٣) الطبري: ٣٨٨/١٢

فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ وَمَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَبِالإِخْلَاصِ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ الْعَمَلَ حَتَّى يَجْمَعَ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ، أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا مِنَ الشَّرِكِ.

[مَقْهُومُ الْبَدَاءِ وَالْعُدُودَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الضَّلَالَةَ﴾ أُخْتَلِفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ يُحْيِيكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: كَمَا بَدَأَكُمْ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ تَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءً^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قَالَ: بَدَأَ فَخَلَقَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا شَيْئًا ثُمَّ ذَهَبُوا ثُمَّ يُعِيدُهُمْ^(٣). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَمَا بَدَأَكُمْ أَوْ لَا كَذَلِكَ يُعِيدُكُمْ آخِرًا^(٤). وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَيْدُهُ بِمَا رَوَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تُحْسَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»^(٥) وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحِينَ^(٦).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(٧) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ خَلْقَ ابْنِ آدَمَ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا، كَمَا قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] ثُمَّ يُعِيدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا بَدَأَهُمْ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا^(٨): قُلْتُ: وَبِتَأْيِيدِ هَذَا الْقَوْلِ بِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ»^(٩). قُلْتُ: وَلَا بَدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ -

إِنْ كَانَ هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ - وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ وَيُنصَرَانِهِ وَيَمَجْسَانِهِ»^(١٠).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ، قَالَ: قَالَ

يَنْبِيءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
 وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
 الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيْدِي
 لِقَوْمٍ يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
 بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
 سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
 فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
 يَنْبِيءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ
 اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
 فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
 بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُذْبِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ
 رُسُلُنَا يَتَوَقَّوهُمْ قَالُوا أَأَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 قَالُوا أَضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنْفُسَهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ ﴿وَكُلُوا
 وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فِي الطَّعَامِ
 وَالشَّرَابِ ^(١). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَوْلُهُ ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ
 الْمُسْرِفِينَ﴾ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ حَدَّهُ
 فِي حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ، الْعَالِينَ فِيمَا أَحَلَّ بِإِحْلَالِ الْحَرَامِ أَوْ
 بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُحَلَّلَ مَا أَحَلَّ وَيُحَرَّمَ مَا
 حَرَّمَ، وَذَلِكَ الْعَدْلُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ ^(١١).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ
 هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ

(١) مسلم: ٤/ ٢٣٢٠ والنسائي في الكبرى: ٦/ ٣٤٥ والطبري:
 ١٢/ ٣٩٠ (٢) الطبري: ١٢/ ٣٩١ إسناده ضعيف، فيه العوفي
 وعاتلته (٣) الطبري: ١٢/ ٣٩٢-٣٩٤ (٤) أحمد: ١/ ٢٤٧
 (٥) أبو داود: ٤/ ٣٣٢ وتحفة الأحوذى: ٧/ ٧٢ وابن ماجه: ١/
 ٤٧٣ (٦) فتح الباري: ١٠/ ٢٦٤ (٧) الطبري: ١٢/ ٣٩٤
 (٨) أحمد: ٤/ ١٣٢ (٩) الترمذي: ٢٣٨٠ والنسائي في
 الكبرى: ٤/ ١٧٨ (١٠) الطبري: ١٢/ ٣٩٤ (١١) الطبري:

سَلَّمَ بِنُ كُهَيْلٍ عَنِ مُسْلِمِ الْبَطِينِ عَنِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ
 عَبَّاسٍ: قَالَ: كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عِرَاءَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ،
 الرِّجَالُ بِالنَّهَارِ وَالنِّسَاءُ بِاللَّيْلِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَقُولُ:
 الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ

وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجْلُهُ ^(١)
 فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وَقَالَ
 الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ
 مَسْجِدٍ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: كَانَ رِجَالٌ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عِرَاءَ
 فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالزَّيْنَةِ، وَالزَّيْنَةُ: اللَّبَاسُ، وَهُوَ مَا يُوَارِي
 السَّوَاءَ وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ حَيْدِ الْبُرِّ وَالْمَتَاعِ، فَأَمَرُوا أَنْ
 يَأْخُذُوا زِينَتَهُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ^(٢). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ
 وَعَطَاءٌ وَإِبْرَاهِيمُ التَّحِيصِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ
 وَالضَّحَّاكُ، وَمَالِكٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ ^(٣)، وَعَبْرٌ وَاحِدٌ مِنْ أَيْمَةِ
 السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي طَوَافِ الْمُشْرِكِينَ بِالْبَيْتِ
 عِرَاءَ. وَلِهَذَا الْآيَةُ وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنَ الشُّبُهَةِ يُسْتَحَبُّ
 التَّجَمُّلُ عِنْدَ الصَّلَاةِ - وَلَا سِيَّمَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْعِيدِ -
 وَالطَّيِّبُ، لِأَنَّهُ مِنَ الزَّيْنَةِ، وَالسُّوَاكُ، لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ ذَلِكَ.

وَمِنْ أَفْضَلِ اللَّبَاسِ الْبَيَاضُ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ
 ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبَسُوا مِنْ
 ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفُّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ،
 وَإِنْ خَيْرٌ أَكْحَالِكُمْ الْإِنْمِدُ، فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ
 الشُّعْرَ» ^(٤). هَذَا حَدِيثٌ جَيِّدٌ الْإِسْنَادِ، رِجَالُهُ عَلَى سَرَطِ
 مُسْلِمٍ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ:
 حَسَنٌ صَحِيحٌ ^(٥).

[الْتَهْيُ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾... الْآيَةَ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ:
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا شِئْتَ وَالْبَسُ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ
 خَصْلَتَانِ: سَرَفٌ وَمَخِيلَةٌ ^(١). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ
 عَبْدِ الْأَعْلَى: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ نُورٍ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ
 أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَحَلَّ اللَّهُ الْأَكْلَ وَالشَّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ
 سَرَفًا أَوْ مَخِيلَةً ^(٢). إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ
 الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبِ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 يَقُولُ: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ
 أَكْلَاتٌ يَمْنَنُ صُلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مَحَالَةَ، فَنَلَتْ طَعَامًا،
 وَنَلَتْ شَرَابًا، وَنَلَتْ لِنَفْسِهِ» ^(٣). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ ^(٤).
 وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ وَفِي نُسخِهِ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى مَنْ حَرَّمَ شَيْئًا مِنَ الْمَأْكَلِ أَوْ الْمَشَارِبِ أَوْ الْمَلَابِيسِ، مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ شَرْعٍ مِنَ اللَّهِ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَ بِأَرْائِهِمْ الْفَاسِدَةَ وَالْبِدَاعِيَّةَ ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الْآيَةَ، أَي: هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَبَدَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِنْ شَرِكْتُمْ فِيهَا الْكُفَّارَ حُبًّا فِي الدُّنْيَا فَهِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَشْرِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْحِجَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٣﴾

[الْمُشْرِكُونَ الْمُفْتَرُونَ يَنَالُهُمْ نَصِيحَتُهُمْ وَيَصِلُ عَنْهُمْ أَوْلِيَاؤُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ]

يَقُولُ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أَي لَا أَحَدَ أَظْلَمُ، مِمَّنِ افْتَرَى الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُتَزَلِّةِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرَظِيِّ: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيحَتُهُمْ مِنَ الْكَلْبِ﴾ قَالَ: عَمَلُهُ وَرِزْقُهُ وَعُمُرُهُ^(٥). وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ^(٦). كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِتْنَا مَرَجَهُمْ ثُمَّ نَدَيْعُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْرِيكَ كُفْرُهُ إِتْنَا مَرَجَهُمْ فَنَتْنَهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٣٣﴾ تَمْتَعُهُمْ قَلِيلًا﴾ [الفصان: ٢٣، ٢٤] الْآيَةَ، وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّعُهُمْ﴾ الْآيَةَ، يُخْبِرُ تَعَالَى: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا تَوَقَّتِ الْمُشْرِكِينَ نَفَرَهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَقَبِضَ أَرْوَاحَهُمْ إِلَى النَّارِ يَقُولُونَ لَهُمْ: أَيُّنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَدْعُونَهُمْ وَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَدْعُوهُمْ يُخَالِصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ قَالُوا: ﴿صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أَي ذَهَبُوا عَلَيْنَا فَلَا تَرْجُو نَفْعَهُمْ وَلَا خَيْرَهُمْ ﴿وَسَبِّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي أَقْرُوا وَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَنْتُمْ أَخْبَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا

الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

[الْحَرَامُ هُوَ الْفَوَاحِشُ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ وَالشُّرْكُ وَالْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا أَحَدٌ أَغْبَرُ مِنَ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ﴾^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢). وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قَالَ الشُّدِّيُّ: أَمَا الْإِثْمُ فَالْمَعْصِيَةُ وَالْبَغْيُ أَنْ تَبْغِيَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْإِثْمُ: الْمَعَاصِي كُلُّهَا وَأَخْبَرَ أَنَّ الْبَاغِيَّ، بَغْيُهُ عَلَى نَفْسِهِ^(٤). وَحَاصِلُ مَا فَسَّرَ بِهِ الْإِثْمَ أَنَّهُ الْخَطَايَا الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْفَاعِلِ نَفْسِهِ، وَالْبَغْيُ هُوَ التَّعَدِّيُّ إِلَى النَّاسِ فَحَرَّمَ اللَّهُ هَذَا وَهَذَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أَي تَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِ ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ مِنْ دَعْوَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ الْآيَةَ [الحج: ٣٠].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أُمَّةٌ قَدْ جَاءَتْ بِهَا رُسُلُنَا لِيُتْلَىٰ عَلَيْهَا فَكُلَّمَا قَرَأُوا آيَاتِنَا كَسَفَتْ وَرَأَوْهَا كَبَسَاطًا﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أَي قَرْنٍ وَجِيلٍ ﴿قَدْ جَاءَتْ بِهَا رُسُلُنَا لِيُتْلَىٰ عَلَيْهَا فَكُلَّمَا قَرَأُوا آيَاتِنَا كَسَفَتْ وَرَأَوْهَا كَبَسَاطًا﴾

(١) أحمد: ٣٨١/١ (٢) فتح الباري: ٢٣٠/٩ و مسلم: ٤/

٢١١٤ (٣) الطبري: ٤٠٣/١٢ (٤) الطبري: ٤٠٣/١٢ (٥)

الطبري: ٤١٣/١٢ (٦) الطبري: ٤١٤، ٤١٣/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٥

سورة الأعراف

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمُورٍ قَدَّخَلْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتُ أَخْبَاهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَجْنَاهُم لَآئِلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا بَضْعًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ لَآئِلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا بَضْعًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نَكْفِيهِمْ نَفْسًا إِلَّا وَسِعَهَا أَوْلِيَانَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَزَعَمْنَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بَيْنَا لِحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أَوْرِشْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوهُمُ اتَّعَنُ صَدَدْتُمْ عَنِ الْهَدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوهُمُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ أَيْلٍ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آصْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجَزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿سأ: ٣٢، ٣٣﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

[الْمُكَذَّبُونَ لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أَبَدًا]

قَوْلُهُ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ لَا يُرْفَعُ لَهُمْ مِنْهَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَا دُعَاءٌ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ

جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَجْنَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا بَضْعًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ [تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ وَتَلَاغُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقُولُهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمُورٍ﴾ أَي مِنْ أَمْثَالِكُمْ وَعَلَى صِفَاتِكُمْ ﴿قَدَّخَلْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَي مِنْ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْكَافِرَةِ ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ أَي مَعَ أُمَّةٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتُ أَخْبَاهَا﴾ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ الْآيَةُ [العنكبوت: ٢٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ عَمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أَي اجْتَمَعُوا فِيهَا كُلُّهُمْ ﴿قَالَتْ أَخْرَجْنَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ﴾ أَي أَخْرَاهُمْ دُخُولًا، وَهُمْ الْأَتْبَاعُ لِأَوْلَادِهِمْ وَهُمْ الْمَتَّبِعُونَ، لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ جُرْمًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، فَدَخَلُوا قَبْلَهُمْ فَيَسْكُوهُمْ الْأَتْبَاعُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَصَلُّوهُمْ عَنْ سُوءِ السَّبِيلِ، فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا بَضْعًا مِّنَ النَّارِ﴾ أَي أَضْعَفَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَابُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلْبِسْنَا اطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكَرِهْنَا فَأَصَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ ﴿٣٩﴾ رَبَّنَا إِنَّا ضَعَفْنَا مِنَ الْعَذَابِ الْآيَةُ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أَي قَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ وَجَازَيْنَا كُلًّا بِحَسَبِهِ، كَقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ الْآيَةُ [النحل: ٨٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَجْزِلَنَّا أَتْقَانَهُمْ وَأَتْقَانًا مَعَ أَتْقَانِهِمْ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمِنْ أَوْلَادِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الْآيَةُ [النحل: ٢٥]، وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ ﴿أَي قَالَ الْمَتَّبِعُونَ لِأَتْبَاعِهِمْ﴾ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: فَقَدْ ضَلَلْتُمْ كَمَا ضَلَلْنَا^(١) ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وَهَذِهِ الْحَالُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) وَرَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ﴿أَيُّ مِنْ حَسَدٍ وَبُغْضٍ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسِبُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَاقْتَصَرَ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هَدُّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَذَلُّ مِنْهُ بِمَسْكِنِهِ كَانِ فِي الدُّنْيَا» (١٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الْآيَةَ، إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا سَفِقُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَجَدُوا عِنْدَ بَابِهَا شَجَرَةً، فِي أَصْلِ سَاقِهَا عَيْنَانِ فَشَرِبُوا مِنْ إِحْدَاهُمَا فَيَنْزِعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ فَهَوَّ الشَّرَابُ الطَّهْرُورَ، وَاعْتَسَلُوا مِنَ الْأُخْرَى فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، فَلَمْ يَشْعُرُوا وَلَمْ يَسْخَرُوا بَعْدَهَا أَبَدًا (١٣).

وَرَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ - وَاللَّفْظُ لَهُ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةً» (١٤). وَلِهَذَا لَمَّا أُورِثُوا مَقَاعِدَ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿وَوَدُّوْا أَنْ يَلِكُمْ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمْ: نَالْتَكُمْ الرَّحْمَةَ، فَدَخَلْتُمْ الْجَنَّةَ. وَتَبَوَّأْتُمْ مَنَازِلَكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِكُمْ. وَإِنَّمَا وَجِبَ الْحَمْلُ عَلَى هَذَا لِمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» (١٥).

﴿وَأَدْنَى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ

جُبَيْرٌ، وَرَوَاهُ الْعَوْفِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (١). وَكَذَا رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ عَنْ لَيْثٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (٢). وَقِيلَ: الْمُرَادُ لَا تُفْتَحُ لِأَرْوَاحِهِمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ. رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٤). وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْبَرَاءِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ قَبِضَ رُوحِ الْفَاجِرِ، وَأَنَّهُ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ [قَالَ]: فَيُصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا تُمَرُّ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْحَيِيَّةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانَ: بِأَفْجِحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَتْ يُدْعَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَبْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيَسْتَفْتِحُونَ بِأَبَائِهَا لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ الْآيَةَ (٥). هَكَذَا رَوَاهُ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ طَوِيلٍ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٦).

وَقَدْ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لَا تُفْتَحُ لِأَعْمَالِهِمْ وَلَا لِأَرْوَاحِهِمْ (٧). وَهَذَا فِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فَسَرُوهُ بِأَنَّهُ الْبَعِيرُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الْجَمَلُ ابْنُ النَّاقَةِ، وَفِي رِوَايَةِ رُوحِ النَّاقَةِ (٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهَا: (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) بِضَمِّ الْجِيمِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ، يَعْنِي الْحَبْلَ الْغَلِيظَ فِي حُزْمِ الْإِبْرَةِ (٩). وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قَالَ: الْفُرْشُ ﴿وَمِنْ قُوَاهِمَ عَوَاشِرٌ﴾ قَالَ: اللَّحْفُ (١٠). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ وَالسُّدِّيُّ (١١).

﴿وَكَذَلِكَ تَجْرِي الْأَنْهَارُ﴾ وَكَذَلِكَ تَجْرِي الظَّلْمِيْنَ. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) وَرَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَأُورِدُوا أَنْ يَلِكُمْ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

[بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَأَحْوَالِهِمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ السَّعْدَاءِ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيُّ أَمَنْتَ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ضِدَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا، وَبُنِيَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ بِهِ سَهْلٌ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ:

(١) الطبري: ٤٢٢/١٢، ٤٢٣ (٢) الطبري: ٤٢٢/١٢ (٣)

الطبري: ٤٢٢/١٢ (٤) الطبري: ٤٢٢/١٢ (٥) الطبري:

٤٢٤/١٢ (٦) أبو داود: ١١٤/٥ والنسائي: ٧٨/٤ وابن ماجه:

٤٩٤/١ (٧) الطبري: ٤٢٣/١٢ (٨) الطبري: ٤٢٨/١٢ (٩)

الطبري: ٤٣١/١٢ (١٠) الطبري: ٤٣٦/١٢ (١١) الطبري:

٤٣٦/١٢ (١٢) فتح الباري: ١١٥/٥ (١٣) الطبري: ١٢/

٤٣٩ (١٤) النسائي في الكبرى: ٤٤٧/٦ (١٥) فتح الباري:

٣٠٠/١١ ومسلم: ٢١٧٠/٤

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سُورَةُ الْاَعْرَافِ

١٥٦

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدَّوْجِدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لِمَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْكُمْ وَالَّذِينَ نَحْنُزُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَأْتِكُمْ مَاءٌ فَسَاءَ مَا يَكُونُ لَكُمْ وَمَا تُبَدِّلُونَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا يَتَنَبَّهُونَ ﴿٥١﴾

أَبْصَرَهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لِمَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾
[الأعراف وأصحابها]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مُخَاطَبَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَعَ أَهْلِ النَّارِ بَنَى أَنْ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حِجَابًا وَهُوَ الْحَاجِزُ الْمَانِعُ مِنْ وُصُولِ أَهْلِ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهُوَ السُّورُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّهُمُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُورُهُمْ مِنْ بَيْنِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وَهُوَ الْأَعْرَافُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ (١) ثُمَّ رَوَى بِإِسْنَادِهِ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وَهُوَ السُّورُ، وَهُوَ الْأَعْرَافُ (٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَعْرَافُ حِجَابٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، سُورٌ لَهُ بَابٌ (٣). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَعْرَافُ جَمْعُ عُرْفٍ، وَكُلُّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عِنْدَ الْعَرَبِ يُسَمَّى عُرْفًا، وَإِنَّمَا قِيلَ لِعُرْفِ الدِّيكِ: عُرْفًا

وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

[لِأَهْلِ جَهَنَّمَ حَسْرَةٌ فَوْقَ حَسْرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا يُخَاطَبُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ إِذَا اسْتَقْرَّوا فِي مَنَازِلِهِمْ ﴿أَنْ قَدَّوْجِدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾ ﴿أَنْ﴾ هَهُنَا مَفْسَّرَةٌ لِلْقَوْلِ الْمَحْذُوفِ، ﴿وَقَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ، أَيْ قَالُوا لَهُمْ: ﴿قَدَّوْجِدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ عَنِ الَّذِي كَانَ لَهُ قَرِينٌ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْحَبِيرِ﴾ قَالَ تَالَهُ إِنَّ كَيْدَكَ لَتَذِينِ ﴿٥١﴾ وَلَوْلَا رِزْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَيْتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْلَانَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿الصَّافَاتِ: ٥٥-٥٩﴾ أَيْ: يُنْكَرُ عَلَيْهِ مَقَالَتُهُ الَّتِي يَقُولُهَا فِي الدُّنْيَا وَيَقْرَعُهَا بِمَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ، وَكَذَلِكَ تَقْرَعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٧﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلُهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿الطُّور: ١٤-١٦﴾ وَكَذَلِكَ قَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَى الْقَلْبِ يَوْمَ بَدْرٍ فَنَادَى: ﴿يَا أَيُّهَا جَهْلُ بَنِي هِشَامِ، وَيَا عَثْبَةَ بَنِي رَبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ بَنِي رَبِيعَةَ - وَسَمَى رُؤُوسَهُمْ - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا﴾ وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تُخَاطَبُ قَوْمًا قَدْ جَبَّيْنَا؟ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعٍ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَسْتِطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا﴾ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ أَعْلَمَ مُعْلِمٌ وَنَادَى مُنَادٍ ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ مُسْتَقْرَّةٌ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَرَعِهِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَيَبْغُونَ أَنْ تَكُونَ السَّبِيلُ مُعْوجَّةً غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ حَتَّى لَا يَتَّبِعَهَا أَحَدٌ ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أَيْ وَهُمْ بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَافِرُونَ، أَيْ: جَاحِلُونَ مُكْذِبُونَ بِذَلِكَ لَا يَصُدُّونَهُ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، فَلِهَذَا لَا يُبَالُونَ بِمَا يَأْتُونَ مِنْ مُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ حِسَابًا عَلَيْهِ وَلَا عِقَابًا، فَهُمْ شَرُّ النَّاسِ أَقْوَالًا وَأَعْمَالًا.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ

(١) مسلم: ٢٢٠٣/٤ (٢) الطبري: ٢٤٩/١٢ (٣) الطبري: ٤٤٩/١٢ (٤) الطبري: ٤٥١/١٢

لَا زَيْفَاعِهِ .

وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْأَعْرَافُ: أَعْرَافًا لِأَنَّ أَصْحَابَهُ يَعْرِفُونَ النَّاسَ^(١). وَأَصْحَابُ الْأَعْرَافِ هُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، نَصَّ عَلَيْهِ حَدِيثُهُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ حُدَيْفَةَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ - قَالَ - هُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ فَفَعَدَتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ وَخَلَفَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمْ عَنِ النَّارِ، قَالَ: فَوْقَهُمَا هُنَاكَ عَلَى السُّورِ حَتَّى يَفْضِي اللَّهُ فِيهِمْ^(٢).

وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَوْ يَدْخُلُوهَا وَمُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قَالَ: وَاللَّهِ مَا جَعَلَ ذَلِكَ الطَّمَعِ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا لِكِرَامَةٍ يُرِيدُهَا بِهِمْ^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ أَنْبَأَكُمْ اللَّهُ بِمَكَانِهِمْ مِنَ الطَّمَعِ^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ لِفَلَاءِ أَحْسَبِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَعَرَفُوهُمْ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٥).

﴿وَأَذَى أَحْسَبِ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُهُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٦) أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَتَّالَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَشُدُّ حَزْنُونَ﴾^(٧) يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ تَفْرِيعِ أَهْلِ الْأَعْرَافِ لِرِجَالٍ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَقَادَتِهِمْ يَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِسِيمَاهُمْ ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُهُمْ﴾ أَي كَثْرَتُكُمْ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَي لَا يَنْفَعُكُمْ كَثْرَتُكُمْ وَلَا جُمُوعُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، بَلْ صِرْتُمْ إِلَى مَا أَنتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَتَّالَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ - قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ - ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَشُدُّ حَزْنُونَ﴾^(٨).

﴿وَأَذَى أَحْسَبِ النَّارِ أَحْسَبِ الْجَنَّةِ أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٩) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَعَرَزَتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَائِبِينَ مَجْدُودٌ﴾^(١٠)

[نَعِيمُ الْجَنَّةِ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ذِلَّةِ أَهْلِ النَّارِ وَسَوْأِهِمْ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ شَرَابِهِمْ وَطَعَامِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ. قَالَ:

السُّدِّيُّ ﴿وَأَذَى أَحْسَبِ النَّارِ أَحْسَبِ الْجَنَّةِ أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يَعْنِي الطَّعَامَ^(١). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: عَنْ عُمَانَ الثَّقَفِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: يُنَادِي الرَّجُلُ أَبَاهُ أَوْ أَحَاهُ فَيَقُولُ لَهُ: قَدْ احْتَرَفْتُ فَأَيْضُ عَلَيَّ مِنَ الْمَاءِ، فَيَقَالَ لَهُمْ: أَجِيبُوهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٢). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يَعْنِي طَعَامَ الْجَنَّةِ وَشَرَابَهَا^(٣).

ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى الْكَافِرِينَ بِمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي الدُّنْيَا بِاتِّخَاذِهِمُ الدِّينَ لَهْوًا وَلَعِبًا وَاعْتِرَافَهُمْ بِالذُّنُوبِ وَزَيْفَتِهَا وَزُخْرُفِهَا عَمَّا أَمُرُوا بِهِ مِنَ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أَي يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةً مِنْ نَسِيهِمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَسُدُّ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْسَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ كَقَوْلِهِ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وَقَالَ ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَسَيِّئْنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنَسِّي﴾ [طه: ١٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ١٣٤] وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قَالَ: نَسِيَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَلَمْ يَنْسَهُمْ مِنَ الشَّرِّ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَتْرَكُهُمْ كَمَا تَرَكُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَتْرَكُهُمْ فِي النَّارِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ نَتْرَكُهُمْ مِنَ الرَّحْمَةِ كَمَا تَرَكُوا أَنْ يَعْمَلُوا لِلِقَاءِ يَوْمِهِمْ هَذَا. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَمْ أَرْزُقْكُمْ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكُمْ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكُمْ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكُ تَرَاسُومَ وَتَرَبُوعَ؟» فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَطَنَنْتَ أَنْتَ مَلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي^(١).

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِلَابٍ فَفَلَنْتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ

(١) الطبري: ٤٤٩/١٢ (٢) الطبري: ٤٥٣/١٢ ذكر البيهقي في "البعث والنشور" ص ١٠٥ أن رواية الشعبي عن حذيفة مرسلة. (٣) عبد الرزاق: ٢٣٠/٢ (٤) الطبري: ٤٦٥/١٢

(٥) الطبري: ٤٦٣/١٢ هذا أيضًا منقطع الضحك لم يسمع من ابن عباس كما مر. (٦) الطبري: ٤٦٩/١٢ (٧) الطبري: ١٢/٤٧٣ (٨) الطبري: ٤٧٤/١٢ (٩) الطبري: ٤٧٤/١٢ (١٠) مسلم: ٢٢٧٩/٤

يَوْمُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ
 سُوءُ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ
 فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
 [لَا مَجَالَ لِلْمُشْرِكِينَ لِإِعْذَارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ إِعْذَارِهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَا رَسُولَ
 الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ بِالْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُولُ، وَأَنَّهُ كِتَابٌ
 مُفَصَّلٌ مُبَيِّنٌ كَقَوْلِهِ: ﴿ كَتَبْنَا نُحْمَكَ عَائِنَهُ ثُمَّ فُصِّلْنَا ﴾ [الآية
 [هود: ١]، وَقَوْلِهِ: ﴿ فَصَلَّنَا عَلَى عَلِيٍّ ﴾ أَي عَلَى عِلْمٍ مِمَّا يَمَّا
 فَصَلَّنَا بِهِ. كَقَوْلِهِ: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء: ١٦٦]
 وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَمَّا أُخْبِرَ بِمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْخَسَارَةِ فِي
 الْأَجْرَةِ ذَكَرَ: أَنَّهُ قَدْ أَرَاهُ عِلَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا يَا رَسُولَ الرُّسُلِ
 وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾
 [الإسراء: ١٥] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ أَي مَا
 وَعُدُّوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ
 وَغَيْرُ وَاحِدٍ ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَهُ ابْنُ
 عَبَّاسٍ ^(٢): ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلِ ﴾ أَي تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ
 وَتَنَاسَوْهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا
 مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ أَي فِي خَلَاصِنَا مِمَّا صَرَفْنَا إِلَيْهِ مِمَّا
 نَحْنُ فِيهِ ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
 نَعْمَلُ ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَبُؤُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام:
 ٢٧، ٢٨] كَمَا قَالَ هُتَيْتَا: ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا
 كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَي خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ
 وَخُلُودِهِمْ فِيهَا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَي ذَهَبَ عَنْهُمْ
 مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا يَشْفَعُونَ فِيهِمْ وَلَا
 يَنْصُرُونَهُمْ وَلَا يُنْقِذُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

﴿ إِنَّا رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
 أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى الْيَلَّ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

[خَلَقَ الْكُونُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ الْعَالَمَ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ وَمَا بَيْنَ
 ذَلِكَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، كَمَا أُخْبِرَ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنَا عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ
 الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا
 مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
 قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
 إِنَّا رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى الْيَلَّ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِثًا
 وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
 وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ أَدْعُو رَبَّكُمْ تُضَرَّعًا
 وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي
 الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
 اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
 الرِّيحَ بِشْرَابٍ يَدِي رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا
 ثِقَالًا اشْقَنَهُ لِيَسِيلَ مِنْهُ فَاَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

الْقُرْآنِ، وَالسِتَّةُ الْأَيَّامُ هِيَ: الْأَحَدُ وَالْإِثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَاءُ
 وَالْأَرْبَعَاءُ وَالْخَمِيسُ وَالْجُمُعَةُ وَفِيهِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُ،
 وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاحْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ هَلْ كُلُّ
 يَوْمٍ مِنْهَا كَهَذِهِ الْأَيَّامِ كَمَا هُوَ الْمَتَّبَعُ إِلَى الْأَذْهَانِ أَوْ كُلُّ
 يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِدٌ ^(٣). وَالْإِمَامُ
 أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ. وَيُرْوَى ذَلِكَ مِنْ رِوَايَةِ الضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ
 عَبَّاسٍ، فَأَمَّا يَوْمَ السَّبْتِ فَلَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقٌ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ
 السَّابِعُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ السَّبْتُ وَهُوَ الْقَطْعُ. رَوَى الْإِمَامُ
 أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ:
 خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ
 الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ
 الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَتَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ
 الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ
 فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى

(١) الطبري: ٤٧٩/١٢ (٢) الطبري: ٤٧٩/١٢ (٣) الطبري:

اللَّيْلِ^(١).كُلُّهُ»^(٢).

[تفسير الاستواء]

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فَلَيْتَاسٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا، وَإِنَّمَا نَسَلْنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَالثَّوْرِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ بْنَ رَاهُوَيْهِ وَغَيْرِهِمْ، مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهُوَ إِمْرَاهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ. وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ إِلَى أَدْهَانِ الْمُشْبِهِينَ مَتَّفِقِي عَنِ اللَّهِ لَا يُشْبَهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَيْمَةُ مِنْهُمْ نَعِيمُ بْنُ حَمَادٍ الْخَزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ قَالَ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيهَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهِ، فَمَنْ أَثَبَّتَ اللَّهُ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ، وَنَفَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى النِّقَائِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى.

[اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَعْنَى أَيْلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ﴾ أَي يَذْهَبُ ظِلَامٌ هَذَا بِضِيَاءٍ هَذَا وَضِيَاءٌ هَذَا بِظِلَامٍ هَذَا وَكُلُّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَيْثُ أَي سَرِيعًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، بَلِ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا وَعَكْسُهُ كَقَوْلِهِ ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ﴾ [الشمس: ٣٧] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَرَبِيِّ الْعَلِيِّ (٣٨) وَالْقَمَرُ فَدَرَنَتْهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَبْغِي لَهَا أَنْ تَذُرَّكَ الْقَمَرُ وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس: ٣٧-٤٠] فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أَي لَا يَفُوتُهُ بِوَقْتٍ يَتَأَخَّرُ عَنْهُ بَلْ هُوَ فِي آتَرِهِ بِلَا وَاسِطَةٍ بَيْنَهُمَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالشُّجُومُ مَسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ وَكَلاهُمَا قَرِيبُ الْمَعْنَى، أَي الْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَلِهَذَا قَالَ مِنْبَهَا ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أَي لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] كَقَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾... آيَةُ [الفرقان: ٦١].

وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْتُورِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَرُوِيَ مَرْفُوعًا: «اللَّهُمَّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَاللَّيْلُ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ

﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وَلَا نَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾
[التَّوْبَةُ فِي الدُّعَاءِ]

أَرْشَدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ الَّذِي هُوَ صَلَاحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ فَقَالَ ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً، وَخُفْيَةً كَقَوْلِهِ ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الآية: الأعراف: ٢٠٥] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالْدُّعَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِرْبَعُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنْ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ»^(٣). الْحَدِيثُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿تَضَرُّعًا﴾ تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً لِبَطَاعَتِهِ ﴿وَخُفْيَةً﴾ يَقُولُ: بِخُشُوعِ قُلُوبِكُمْ وَصِحَّةِ الْيَقِينِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ لَا جَهْرًا مُرَاءَةً^(٤).

[النَّهْيُ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ]

رُوِيَ عَنْ عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فِي الدُّعَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهِ^(٥). وَقَالَ أَبُو مَجَلِزٍ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لَا يَسْأَلُ مَنَازِلَ الْأَنْبِيَاءِ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي نُعَامَةَ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ مَعْقِلٍ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتَهَا فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَعُدُّ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطَّهُورِ»^(٧). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(٨). وَهُوَ إِسْنَادٌ حَسَنٌ لَا بَأْسَ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أحمد: ٣٢٧/٢ ومسلم: ٢١٤٩ (٢) ضعيف، المرفوع روي من حديث أبي سعيد الخدري عند البيهقي في الشعب (٤٤٠٠) والديلمي في "مسند الفردوس" ٦٨١٧ وفيه خالد بن يزيد كذبه أبو حاتم ويحيى وقال ابن حبان: "بروي الموضوعات عن الأثبات" وعن حذيفة عند أحمد ٣٩٦/٥ وفي إسناده جهالة وعن سعد بن أبي وقاص عند البيهقي في الشعب (٤٣٩٩) وفي إسناده أبو بلج يحيى بن سليم قال البخاري فيه نظر. (٣) فتح الباري: ١٩١/١١ ومسلم: ٢٠٧٦/٤ (٤) الطبري: ٤٨٥/١٢ (٥) الطبري: ٤٨٦/١٢ (٦) الطبري: ٤٨٦/١٢ (٧) أحمد: ٥٥/٥ (٨) ابن ماجه: ٢١٧١/٢ وأبو داود: ٧٣/١

[الْتَهْيُ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾
يَنْهَى تَعَالَى عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَصْرَهُ بَعْدَ
الْإِصْلَاحِ! فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ مَاشِيَةً عَلَى السَّدَادِ ثُمَّ وَقَعَ
الْإِفْسَادُ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ أَصْرًا مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ، فَهَنَى
تَعَالَى عَنِ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَدَعَايِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالتَّذَلُّلِ
لَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَيُّ خَوْفًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنْ
وَبِيلِ الْعِقَابِ وَطَمَعًا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ ثُمَّ قَالَ:
﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيُّ: إِنَّ رَحْمَتَهُ
مُرْصِدَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ وَأَمِيرَةٌ وَيَتْرَكُونَ زَوَاجِرَهُ
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَخِرْنِي
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ١٥٦] وَقَالَ: ﴿قَرِيبٌ﴾ وَلَمْ
يَقُلْ: (قَرِيبَةٌ) لِأَنَّهُ ضَمَّنَ الرَّحْمَةَ مَعْنَى الثَّوَابِ أَوْ لِأَنَّهَا
مُضَافَةٌ إِلَى اللَّهِ، فَهَذَا قَالَ: ﴿قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
وَقَالَ مَطَرُ الْوَرَّاقِ: تَنْجِزُوا مَوْعُودَ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ، فَإِنَّهُ قَضَى:
أَنَّ رَحْمَتَهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١).

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا
أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَتْ لِقَوْمٍ لَدِينٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ
مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْجُجُ إِلَّا
نَكِدًا كَذَلِكَ نَضْرِبُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨)

[مِنْ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يُنْزِلُ الْمَطَرَ وَيُخْرِجُ الثَّمَرَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّهُ
الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْمُدَبِّرُ الْمُسَحِّرُ، وَأَرشَدَ إِلَى دَعَايِهِ لِأَنَّهُ
عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ، تَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ الرَّزَاقُ وَأَنَّهُ يُعِيدُ
الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ نُشْرًا)
أَيُّ نَاشِرَةً بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ الْحَامِلِ لِلْمَطَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ
قَرَأَ: ﴿بُشْرًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرِينَ﴾
[الروم: ٤٦].

وَقَوْلُهُ ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيُّ بَيْنَ الْمَطَرِ كَمَا قَالَ:
﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ
الْوَكِيلُ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] وَقَالَ: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ
اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنجًى لِمَنْ هُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ
سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أَيُّ حَمَلَتْ الرِّيَّاحُ سَحَابًا ثِقَالًا أَيُّ مِنْ كَثْرَةِ
مَا فِيهَا مِنَ الْمَاءِ تَكُونُ ثِقِيلَةً قَرِيبَةً مِنَ الْأَرْضِ مُدْلِهَمَةً.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْجُجُ
إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَضْرِبُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨)
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩)
قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ
يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِيَمَتُّكُمْ بِرَبِّكُمْ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦١) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى
رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٢) فَكَذَّبُوهُ
فَأَخْرَجْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٣) وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ
هُودًا قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٤) قَالَ يَقَوْمِ
لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)

وَقَوْلُهُ: ﴿سُقِنَتْ لِقَوْمٍ لَدِينٍ﴾ أَيُّ إِلَى أَرْضٍ مَبْنِيَّةٍ مُجَدَّبَةٍ
لَا نَبَاتَ فِيهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّمُ الْأَرْضِ الْمَيْتَةَ أَحْيَيْنَاهَا﴾
الْآيَةُ [يس: ٣٣]. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أَيُّ كَمَا أَحْيَيْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
كَذَلِكَ نُحْيِي الْأَجْسَادَ بَعْدَ صَبْرِ وَرْتِهَا رَمِيمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ:
يُنْزِلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَاءً مِنَ السَّمَاءِ فَمُطَّرُ الْأَرْضِ
أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَتَنْبُثُ مِنْهُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا يَنْبُثُ
الْحَبُّ فِي الْأَرْضِ. وَهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ يُضْرَبُ
اللَّهُ مَثَلًا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِأَحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَلِهَذَا قَالَ:
﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ
رَبِّهِ﴾ أَيُّ وَالْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ يَخْرُجُ نَبَاتُهَا سَرِيعًا حَسَنًا كَقَوْلِهِ
﴿وَأَنْبَتْنَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ﴿وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْجُجُ
إِلَّا نَكِدًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: كَالسَّبَّاحِ (٢) وَنَحْوِهَا.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّهُ ﷻ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَى كَمَثَلِ الْعَيْبِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا نَفِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(١).

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوُّوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ» إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوُّوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

[قِصَّةُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ آدَمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ وَفَرَعَ مِنْهُ، شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، فَابْتَدَأَ بِذِكْرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ نُوحٌ ابْنُ لَامَكَ بْنِ مَتُوشَلَخَ بْنِ خُنُوحَ وَهُوَ إِدْرِيسُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا يَزْعَمُونَ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ حَطَّ بِالْقَلَمِ - ابْنُ يَزِيدَ بْنِ مَهْلِبِ بْنِ قَيْنِ بْنِ يَانِشِ بْنِ شَيْثِ بْنِ آدَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هَكَذَا نَسَبَهُ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ النَّسَبِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: وَكَانَ أَوَّلُ مَا عُبِدَتْ الْأَصْنَامُ: أَنَّ قَوْمًا صَالِحِينَ مَاتُوا فَبَنَى قَوْمُهُمْ عَلَيْهِمْ مَسَاجِدَ وَصَوَّرُوا صُورَةَ أَوْلِيكَ فِيهَا، لِيَتَذَكَّرُوا حَالَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ فَيَتَسَبَّهُوا بِهِمْ، فَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ جَعَلُوا أَجْسَادًا عَلَىٰ تِلْكَ الصُّورِ، فَلَمَّا تَمَادَى الزَّمَانُ عَبَدُوا تِلْكَ الْأَصْنَامَ وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَاءِ أَوْلِيكَ الصَّالِحِينَ وَدَا، وَسَوَاعًا وَيَعُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرًا. فَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - رَسُولَهُ نُوحًا فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ: «يَتَقَوُّوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ» إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ أَيُّ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِذَا لَقِيتُمْ اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ. «قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ» أَيُّ

الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ وَالْكَبِرَاءُ مِنْهُمْ: «إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أَيُّ فِي دَعْوَتِكَ إِنَّا إِلَىٰ تَرْكِ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا، وَهَكَذَا حَالُ الصَّغَارِ إِنَّمَا يَرَوْنَ الْأَبْرَارَ فِي ضَلَالَةٍ، كَقَوْلِهِ: «وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَصَّالُونَ» [المطففين: ٣٢] «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْفَاكٌ قَدِيرٌ» [الأحقاف: ١١] إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ «قَالَ يَتَقَوُّوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أَيُّ مَا أَنَا ضَالٌّ وَلَكِنْ أَنَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ﴿٥٩﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ وَهَذَا شَأْنُ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ مُبَلِّغًا فَصِيحًا نَاصِحًا، عَالِمًا بِاللَّهِ لَا يُدْرِئُهُمْ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ وَهُمْ أَوْفَرُ مَا كَانُوا وَأَكْثَرُ جَمْعًا: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّبْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ أَصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ [وَيَتَكَلَّمُهَا] عَلَيْهِمْ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(٢).

«أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ نَجْوَىٰ مَنكُمُ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾» يَقُولُ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ «أَوْ عَجِبْتُمْ... الْآيَةَ، أَيُّ لَا تَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يُوحِيَ اللَّهُ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ وَلُطْفًا وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ، لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا نِعْمَةَ اللَّهِ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ ﴿٦٣﴾ وَكَلَّكُمْ رَحْمُونَ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: «فَكَذَّبُوهُ» أَيُّ تَمَادَوْا عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ وَمُخَالَفَتِهِ وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ [هود: ٤٠]: «فَأَجَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ» أَيُّ السَّفِينَةِ كَمَا قَالَ: «فَأَجَبْتَهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ» [العنكبوت: ١٥] «وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» كَمَا قَالَ: «وَمِمَّا حَطَّيْتُمُوهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا» [نوح: ٢٥] وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ» أَيُّ عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ لَهُ، فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ

(١) فتح الباري: ١/٢١١ (٢) مسلم: ٢/٨٩٠

انْتَمَ لَأَوْلِيَّائِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَأَنْجَى رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَهْلَكَ
أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية
[غافر: ٥١].

وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ، فِي عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: أَنَّ الْعَاقِبَةَ
فِيهَا لِلْمُتَّقِينَ وَالظَّالِمِينَ وَالظَّالِمِينَ وَالظَّالِمِينَ، كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ
بِالْعَرَقِ وَنَجَّى نُوحًا وَأَصْحَابَهُ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ:
بَلَغَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ نَجَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ
رَجُلًا أَحَدُهُمْ جُرْهُمٌ، وَكَانَ لِسَانُهُ عَرَبِيًّا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي
حَاتِمٍ. وَرَوَى مُتَّصِلًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَلِإِىَّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَتَبَدُّوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّا
لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ
يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾
أَتَيْفُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ
جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً
فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

[قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَسَبُ قَوْمِ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ نُوحٍ نُوحًا، كَذَلِكَ
أَرْسَلْنَا إِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُمْ
وَلَدُ عَادِ بْنِ إِزْمَ بْنِ عَوْصِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ.

قُلْتُ: هُوَ لِأَنَّ هُمْ عَادُ الْأُولَى الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ، وَهُمْ
أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِزْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إِلَى الْعَمَدِ فِي الْبَرِّ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ ﴿٦٦﴾ إِزْمَ ذَاتِ
الْعِمَادِ ﴿٦٧﴾ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ يَتْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ [الفجر: ٦-٨] وَذَلِكَ
لِشِدَّةِ بَأْسِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾
[فصلت: ١٥].

[مَسَاكِينُ قَوْمِ عَادٍ]

وَقَدْ كَانَتْ مَسَاكِينُهُمْ بِالْيَمَنِ بِالْأَحْقَافِ وَهِيَ جِبَالُ
الرَّمْلِ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ
وَأَثَلَةَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ لِرَجُلٍ مِنْ حَضْرَمَوْتٍ: هَلْ رَأَيْتَ
كَثِيبًا أَحْمَرَ، يُخَالِطُهُ مَدْرَةٌ حَمْرَاءُ، ذَا أَرَاكٍ وَسِدْرٍ كَثِيرٍ
يَتَاجِحِيهِ كَذَا وَكَذَا مِنْ أَرْضِ حَضْرَمَوْتٍ. هَلْ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ:

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١٥٩

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

أَتَيْفُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجَبْتُمْ
أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ قَالُوا أَأَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَنْدَرُ مَا كَانِ
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنْسَابًا يُعَادِنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَفَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ
أَتَجِدِلُونََنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجِئْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ
﴿٧٢﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَكُمْ نَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ
رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَمٍ ﴿٧٣﴾

نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ إِنَّكَ لَتَنْعُتُهُ نَعْتَ رَجُلٍ قَدْ رَأَاهُ،
قَالَ: لَا وَلَكِنِّي قَدْ حَدَّثْتُ عَنْهُ، فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ: وَمَا
شَأْنُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: فِيهِ قَبْرُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ^(١).

وَهَذَا فِيهِ فَائِدَةٌ: أَنَّ مَسَاكِينَهُمْ كَانَتْ بِالْيَمَنِ، فَإِنَّ هُودًا
عَلَيْهِ السَّلَامُ دُفِنَ هُنَاكَ. وَقَدْ كَانَ مِنْ أَشْرَفِ قَوْمِهِ نَسَبًا؛
لِأَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْقَبَائِلِ وَأَشْرَفِهِمْ.
وَلَكِنْ كَانَ قَوْمُهُ كَمَا شَدَّدَ خَلْقَهُمْ شَدَّدَ عَلَى قُلُوبِهِمْ،
وَكَانُوا مِنْ أَشَدِّ الْأُمَمِ تَكْذِيبًا لِلْحَقِّ، وَلِهَذَا دَعَاهُمْ هُودٌ
عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِلَى طَاعَتِهِ
وَتَقْوَاهُ.

[مَادَارَ بَيْنَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وَالْمَلَأُ هُمْ

(١) الطبري: ٥٠٧/١٢ إسناده ضعيف فيه محمد بن عبدالله بن
أبي سعيد الخزازي لا يعرف وابن إسحاق مدلس ولم يصرح.

مِنْ رِجْزٍ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ: سُخْطٌ وَعَضَبٌ^(١).
 ﴿أَتَجِدَلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أَي
 أَتَجَاحُونِي فِي هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ
 إِلَهَةً وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَى
 عِبَادَتِهَا حُجَّةً وَلَا دَلِيلًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا
 مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ
 وَوَعِيدٌ مِنَ الرَّسُولِ لِقَوْمِهِ وَلِهَذَا عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ:

[مَصِيرُ قَوْمِ عَادٍ]

﴿فَأَجْبَيْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ
 كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
 صِفَةَ إِهْلَاكِهِمْ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى مِنَ الْقُرْآنِ، بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ
 الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ
 كَالرِّيمِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَتَاهُكُمُ
 بَرِيحٌ صَرْصَرٌ عَلَيْهِ^(٦) سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَجَّ لَيَالٍ وَكُنِينَةً أَيَّامٍ
 حُسُومًا فَفَرَى الْقَوْمُ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ^(٧) فَهَلْ
 تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨] لَمَّا تَمَرَّدُوا وَعَتُوا
 أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِرِيحٍ عَاتِيَةٍ فَكَانَتْ تَحْمِلُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَرْفَعُهُ
 فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تُنْكِسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتُلْغُ رَأْسَهُ حَتَّى تُبَيِّتَهُ مِنْ
 جُنْبِهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانُوا يَسْكُنُونَ بِالْيَمَنِ بَيْنَ عُمَانَ
 وَحَضْرَمَوْتٍ وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ قَدْ فَسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَفَهَرُوا
 أَهْلُهَا بِفَضْلِ قُورَيْهِمُ الَّتِي آتَاهُمُ اللَّهُ وَكَانُوا أَصْحَابَ أَوْثَانٍ
 يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَهُوَ مِنْ أَوْسَطِهِمْ نَسَبًا وَأَفْضَلِهِمْ مَوْضِعًا فَأَمَرَهُمْ أَنْ
 يُوحِدُوا اللَّهَ وَلَا يَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ وَأَنْ يَكْفُوا عَنْ ظُلْمِ
 النَّاسِ فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً وَاتَّبَعَهُ
 مِنْهُمْ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرٌ يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ، فَلَمَّا عَتَتْ عَادُ عَلَى
 اللَّهِ وَكَذَّبُوا نَبِيَّهُ وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، وَتَجَبَّرُوا وَبَنَوْا
 بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً عَبْتًا بَعِيرٍ نَمَعُ كَلِمَتُهُمْ هُودٌ فَقَالَ: ﴿أَتَنْبِئُونَ بِكُلِّ
 رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ^(١٣) وَتَتَّبِعُونَ مَصَالِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ^(١٤) وَإِذَا
 بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَابِينِ^(١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١]

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِي
 إِلَهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ^(١٦)﴾ إِنَّ نَقُولَ إِلَّا
 أَتَرَدُّكَ بَعْضُ إِلَهِنَا يَسُوءُ^(١٧) أَي يَجُنُونِ ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ

الْجُمُهورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ مِنْهُمْ﴾ ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ
 وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَي فِي ضَلَالَةٍ حَيْثُ تَدْعُونَا
 إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدُّهُ،
 كَمَا تَعَجَّبَ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ
 فَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الْآيَةُ [ص: ٥]. ﴿قَالَ
 يَقُولُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي
 لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ بَلْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ مِنَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ
 شَيْءٍ فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ﴿أَتُفْلِكُمْ رَسُولَاتِي وَأَنَا
 لَكُمُ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الرَّسُولُ:
 الْبَلَاغُ وَالنُّصْحُ وَالْأَمَانَةُ ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 عَلَى نَجْلِ يَنْكُرُ يُنذِرْكُمْ﴾ أَي لَا تَعْجَبُوا أَنْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ
 رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ أَيَّامَ اللَّهِ وَلِقَاءَهُ، بَلْ أَحْمَدُوا
 اللَّهَ عَلَى ذَاكُمُ ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قُورَيْشٍ نُوْحٍ
 أَي وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي جَعْلِكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ نُوحٍ الَّذِي
 أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ لَمَّا خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ
 ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أَي زَادَ طَوْلَكُمْ عَلَى النَّاسِ
 ﴿بَسْطَةً﴾ أَي جَعَلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكُمْ كَقَوْلِهِ فِي
 قِصَّةِ طَارُوتَ ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾
 [البقرة: ٢٤٧] ﴿فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ أَي نِعْمَهُ وَمِنْتَهُ عَلَيْكُمْ
 ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ وَالْأَلَاءُ جَمْعٌ إِلَى وَقِيلَ: أَلَى.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَتَذَرَّ مَا كَانَ يَعْبُدُ
 آبَاؤُنَا فَأِنَّا يَمَانِيدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(٢٠)﴾ قَالَ قَدْ
 وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَضَبٌ أَتَجِدَلُونِي فِي أَسْمَاءِ
 سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا
 إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ^(٢١) فَأَجْبَيْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ^(٢٢)﴾
 يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَرُّدِهِمْ وَطُعْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ
 عَلَى هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ
 وَحَدُّهُ... الْآيَةَ، كَقَوْلِ الْكُفَّارِ مِنْ قُرَيْشٍ ﴿وَإِذْ قَالُوا
 اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا
 جِجَارَةً مِثْلَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]
 وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ أَنََّّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ
 أَصْنَامًا، فَصَنَمٌ يُقَالُ لَهُ: صُدَاءٌ. وَآخَرُ يُقَالُ: صَمُودٌ.
 وَآخَرُ يُقَالُ لَهُ: الْهَبَاءُ. وَلِهَذَا قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَدْ
 وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَضَبٌ﴾ أَي قَدْ وَجَبَ
 عَلَيْكُمْ بِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ قِيلَ: هُوَ مَقْلُوبٌ

(١) الطبري: ١٢/٥٢٢

وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْفُرُونَ بِجَمِيعٍ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٥٧﴾ إِنِّي قَوْلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٨﴾ [هود: ٥٣-٥٦].

[قِصَّةُ وَافِدِ عَادٍ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَارِثِ الْبُكَيْرِيِّ قَالَ: خَرَجْتُ أَشْكُو الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَرَرْتُ بِالرَّبْدَةِ فَإِذَا بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٍ بِهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ! إِنَّ لِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَاجَةً هَلْ أَنْتَ مُبْلِغِي إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَحَمَلْتُهَا فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَإِذَا الْمَسْجِدُ غَاصُّ بِأَهْلِهِ، وَإِذَا رَايَةُ سَوْدَاءٍ تَخْفِقُ، وَإِذَا بِلَالٌ مُتَقَلِّدٌ سِنْفًا بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ قَالُوا: يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَجْهًا. قَالَ: فَجَلَسْتُ فَدَخَلُ مَنْزِلَهُ - أَوْ قَالَ رَحْلَهُ - فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ وَسَلَّمْتُ، فَقَالَ: «هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ تَمِيمٍ شَيْءٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، وَكَانَتْ لَنَا الدَّبْرَةُ عَلَيْهِمْ، وَمَرَرْتُ بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٍ بِهَا، فَسَأَلْتَنِي أَنْ أَحْمِلَهَا إِلَيْكَ وَهَا هِيَ بِالْبَابِ، فَأَذِنَ لَهَا فَدَخَلْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ رَأَيْتَ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ تَمِيمٍ حَاجِزًا فَاجْعَلِ الدَّهْنَاءَ، فَحَمِيَتِ الْعَجُوزُ وَاشْتَوْفَرَتْ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَإِلَى أَيْنَ [تَنْصَطِرُ مَضْرَكًا؟] قَالَ: قُلْتُ: إِنَّ مَثَلِي مَثَلُ مَا قَالَ الْأَوَّلُ: «مِعْرَى حَمَلَتْ حَنْفَهَا» حَمَلْتُ هَذِهِ وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَانَتْ لِي خِصْمًا، أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدِ عَادٍ. قَالَ لِي: «وَمَا وَافِدٌ عَادٍ؟» وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ مِنْهُ وَلَكِنْ يَسْتَطِيعُهُ، قُلْتُ: إِنَّ عَادًا فَحُطُوا فَبَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: قَيْلٌ، فَمَرَّ بِمَعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ فَأَقَامَ عِنْدَهُ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ وَتُعْنِيهِ جَارِيَتَانِ يُقَالُ لَهُمَا: الْجَرَادَتَانِ، فَلَمَّا مَضَى الشَّهْرُ خَرَجَ إِلَى جِبَالِ مَهْرَةَ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجِءْ إِلَى مَرِيضٍ فَأَدَاوِيهِ، وَلَا إِلَى أَسِيرٍ فَأُقَادِيهِ، اللَّهُمَّ اسْقِ عَادًا مَا كُنْتُ تَسْقِيهِ. فَمَرَّتْ بِهِ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنَوْدِي مِنْهَا: ائْتِنَا، فَأَوْمَأَ إِلَى سَحَابِيَةٍ مِنْهَا سَوْدَاءَ فَنَوْدِي مِنْهَا: خُذْهَا رِمَادًا رَمِيدًا، لَا تَبْقِ مِنْ عَادٍ أَحَدًا. قَالَ: فَمَا بَلَغَنِي أَنَّهُ بَعَثَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا قَدَرَ مَا يَجْرِي فِي خَاتَمِي هَذَا حَتَّى هَلَكُوا. قَالَ أَبُو وَائِلٍ: وَصَدَقَ. قَالَ: وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ إِذَا بَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ قَالُوا: «لَا تَكُنْ كَوَافِدِ عَادٍ». هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْخُدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَعَمُونَ أَنْتَ صَاحِبُ مَرْسَلٍ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا التَّنَاقِفَ وَعَتَوْنَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَنْجُونَ مِنَ النَّصِيحَةِ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ طَآءِذًا لَقَوْمِهِ ءَاتَانِ مِنَ الْفَحِشَةِ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْبَنَاتِ أَلَيْسَ لَكُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

نَحْوَهُ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٣).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَكُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْخُدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَعَمُونَ أَنْتَ صَاحِبُ مَرْسَلٍ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا التَّنَاقِفَ وَعَتَوْنَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

(١) الطبري: ٥٠٧/١٢ (٢) أحمد: ٤٨٢/٣ (٣) تحفة الأحوذى: ١٦١/٩ والنسائي في الكبرى: ١٨١/٥ وابن ماجه: ٩٤١/٢

جَنِينٍ ﴿٧٨﴾

[مَسَاكِينٌ قَوْمٌ ثَمُودٌ وَنَسَبُهُمْ]

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ وَالنَّسَبِ: ثَمُودُ بْنُ عَائِرِ بْنِ إِدْرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ وَهُوَ أَخُو جَدِيسِ بْنِ عَائِرٍ، وَكَذَلِكَ قَبِيلُهُ طَسْمٌ؛ كُلُّ هَؤُلَاءِ كَانُوا أَحْيَاءَ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَابِيَّةِ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَتْ ثَمُودُ بَعْدَ عَادٍ وَمَسَاكِينُهُمْ مَشْهُورَةٌ فِيمَا بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ، إِلَى وَادِي الْقُرَى وَمَا حَوْلَهُ، وَقَدْ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِينُهُمْ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ عَلَى تَبُوكَ نَزَلَ بِهِمُ الْحَجْرَ عِنْدَ ثَمُودَ، فَاسْتَقَى النَّاسُ مِنَ الْآبَارِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا وَنَصَبُوا لَهَا الْقُدُورَ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَهْرَقُوا الْقُدُورَ وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ. ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبُئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عَذَّبُوا وَقَالَ: «إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»^(١). وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْحَجْرِ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»^(٢). وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٣).

[قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالِكُفْرُوتُ ثَمُودَ﴾ أَيُّ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلِهِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فَمَجِيعُ الرُّسُلِ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

[ثَمُودُ طَلَبَتْ نَاقَةً مِنْ صَخْرَةٍ فَظَهَرَتْ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أَيُّ قَدْ جَاءَكُمْ حُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى صَدَقِ مَا جِئْتُمْ بِهِ وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا صَالِحًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَافْتَرَحُوا عَلَيْهِ بِأَنْ تُخْرَجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءٌ عَيْتُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ صَخْرَةٌ مُتَفَرِّدَةٌ فِي نَاحِيَةِ الْحَجْرِ يُقَالُ لَهَا:

الْكَاثِيَةُ. فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ تُخْرَجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةٌ عَشْرَاءُ تَمَخَّضُ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِحُ الْعُهُودَ وَالْمَوَائِقَ لِنِجَابِهِمْ اللَّهُ إِلَى سُؤَالِهِمْ وَأَجَابَهُمْ إِلَى طَلِبَتِهِمْ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَسْتَعِنَّهُ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ قَامَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صَلَاتِهِ، وَدَعَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ ثُمَّ انْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةِ جَوْفَاءَ وَبُرَاءَ، يَتَحَرَّكُ جَنِينُهَا بَيْنَ جَنِينَيْهَا كَمَا سَأَلُوا، فَعِنْدَ ذَلِكَ آمَنَ رَيْسُ الْقَوْمِ جُنْدَعُ ابْنُ عَمْرٍو وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَرَادَ بَقِيَّةُ أَشْرَافِ ثَمُودَ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَصَدَّهُمْ دُؤَابُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ لَبِيدٍ، وَالْحَبَابُ صَاحِبُ أَوْلَادِهِمْ، وَرَبَابُ بْنُ [صَمْعَرًا] بْنُ جَلْهَسٍ، وَكَانَ لِحُجْدَعِ بْنِ عَمْرٍو، ابْنُ عَمٍّ يُقَالُ لَهُ: شِهَابُ ابْنِ خَلِيفَةَ بْنِ مِخْلَةَ بْنِ لَبِيدِ بْنِ جَوَّاسٍ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ ثَمُودَ وَأَفَاضِلِهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُسَلِّمَ أَيْضًا فَنَهَاهُ أَوْلِيكَ الرَّهْطُ فَأَطَاعَهُمْ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ رَجُلٌ مِنْ مُؤْمِنِي ثَمُودَ يُقَالُ لَهُ:

مَهُوشُ بْنُ [عَنْمَةَ] بْنِ الدَّمِيلِ رَحِمَهُ اللَّهُ:
وَكَانَتْ عُضْبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرٍو

إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَا شِهَابًا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلُّهُمْ جَمِيعًا
فَهُمْ بِأَنْ يُجِيبَ فَلَوْ أَجَابَا
لَأُضْبِحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا
وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ دُؤَابَا
وَلَكِنَّ الْعُتُوءَةَ مِنْ آلِ حَجْرِ
تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمْ ذُنَابَا

وَأَقَامَتِ النَّاقَةُ وَفَصِيلُهَا - بَعْدَ مَا وَضَعَتْهُ - بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مُدَّةً تَشْرَبُ مِنْ بَيْرِهَا يَوْمًا وَتَدْعُهُ لَهُمْ يَوْمًا، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ لَبِنَهَا يَوْمَ شُرْبِهَا يَحْتَلِبُونَهَا فِيمَا لَوْنَ مَا سَأَلُوا مِنْ أَوْعِيَتِهِمْ وَأَوَانِيهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَيَبْتَنُّمُ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرِبَ مَحْضَرًّا﴾ [القمر: ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُرُ شَرِبٌ يَوْمَ مَقْلُوبٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وَكَانَتْ تَسْرُحُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ تَرْدٌ مِنْ فَيْحٍ وَتَصُدُّرٌ مِنْ غَيْرِهِ لِيَسْعَهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَتَضَلَّعُ مِنَ الْمَاءِ وَكَانَتْ عَلَى مَا ذَكَرَ خَلْقًا هَائِلًا وَمَنْظَرًا رَائِعًا، إِذَا مَرَّتْ بِأَنْعَامِهِمْ نَفَرَتْ مِنْهَا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَاسْتَدَّتْ كَذِبَتَهُمْ لِصَالِحِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ

(١) أحمد: ١١٧/٢ (٢) أحمد: ٧٤/٢ (٣) فتح الباري: ٦/

٤٣٦ ومسلم: ٢٢٨٦/٤

السَّلَامُ - عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهَا لِيَسْتَأْثِرُوا بِالْمَاءِ كُلِّ يَوْمٍ .
فَيَقَالُ : إِنَّهُمْ اِتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى قَتْلِهَا . قَالَ قَتَادَةُ : بَلَّغَنِي أَنَّ
الَّذِي قَتَلَهَا طَافَ عَلَيْهِمْ كُلَّهُمْ : أَنَّهُمْ رَاضُونَ بِقَتْلِهَا؟ حَتَّى
عَلَى النِّسَاءِ فِي خُدُورِهِنَّ وَعَلَى الصَّبِيَّانِ ^(١) .

قُلْتُ : وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ
فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس :
١٤] وَقَالَ : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْجِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء :
٥٩] وَقَالَ : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ فَأَسْبَدَ ذَلِكَ عَلَى مَجْمُوعِ
الْقَبِيلَةِ ، فَدَلَّ عَلَى رِضَا جَمِيعِهِمْ بِذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

[قَتْلُ النَّاقَةِ]

وَدَكَرَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ
التَّفْسِيرِ : أَنَّ سَبَبَ قَتْلِ النَّاقَةِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهَا :
عُنَيْزَةُ ابْنَةُ عَنَمِ بْنِ مَجْلَزٍ ، وَتُكْنَى أُمُّ عَنَمٍ كَانَتْ عَجُوزًا
كَافِرَةً ، وَكَانَتْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
وَكَانَتْ لَهَا بَنَاتٌ حِسَانٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ ، وَكَانَ زَوْجُهَا ذُوَابُ
ابْنُ عَمْرٍو أَحَدُ رُؤَسَاءِ ثُمُودَ ، وَامْرَأَةٌ أُخْرَى يُقَالُ لَهَا :
صَدُوفُ بِنْتُ الْمُحَيَّا بْنِ دَهْرِ بْنِ الْمُحَيَّا ، ذَاتُ حَسَبٍ وَمَالٍ
وَجَمَالٍ ، وَكَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ مِنْ ثُمُودَ فَفَارَقَتْهُ ،
فَكَانَتَا تَجْعَلَانِ لِمَنْ التَّرَمَ لَهُمَا بِقَتْلِ النَّاقَةِ ، فَدَعَتْ صَدُوفُ
رَجُلًا يُقَالُ لَهُ : الْحُبَابُ ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا إِنْ هُوَ عَقَرَ
النَّاقَةَ فَأَبَى عَلَيْهَا ، فَدَعَتْ ابْنَ عَمٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ : مِضْدَعُ بْنُ
مَهْرَجِ بْنِ الْمُحَيَّا فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ ، وَدَعَتْ عُنَيْزَةَ بِنْتُ عَنَمٍ
قُدَارُ بْنُ سَالِفِ بْنِ جُنْدَعٍ ، وَكَانَ رَجُلًا أَحْمَرَ أَرْزَقَ قَصِيرًا
يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ وَلَدَ زَيْتِيٍّ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَبِيهِ الَّذِي
يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَهُوَ سَالِفٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ :
صَهْبَادٌ وَلَكِنْ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ سَالِفٍ . وَقَالَتْ لَهُ : أَعْطَيْكَ
أَيُّ بَنَاتِي شِئْتَ عَلَى أَنْ تَعْفَرَ النَّاقَةَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ انْطَلَقَ قُدَارُ
ابْنُ سَالِفٍ ، وَمِضْدَعُ بْنُ مَهْرَجٍ فَاسْتَوْجِبَا غَوَاةً مِنْ ثُمُودَ
فَاتَّبَعَهُمَا سَبْعَةُ نَفَرٍ ، فَصَارُوا يَسْعَةً رَهْطٍ وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ فِي الْوَادِيَةِ سَبْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل : ٤٨] وَكَانُوا رُؤَسَاءَ فِي قَوْمِهِمْ
فَاسْتَمَلُوا الْقَبِيلَةَ الْكَاافِرَةَ بِكَمَالِهَا فَطَاوَعْتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ،
فَانْطَلَقُوا فَارْضَدُوا النَّاقَةَ حِينَ صَدَرَتْ مِنَ الْمَاءِ ، وَقَدْ كَمَنَ
لَهَا قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ فِي أَضْلِ صَخْرَةٍ عَلَى طَرِيقِهَا ، وَكَمَنَ
لَهَا مِضْدَعُ بْنُ أَضْلِ أُخْرَى ، فَمَرَّتْ عَلَى مِضْدَعٍ فَرَمَاهَا
بِسَهْمٍ ، فَانْتَظَمَ بِهِ عَصَلَةَ سَاقِهَا وَخَرَجَتْ أُمُّ عَنَمٍ عُنَيْزَةُ

وَأَمَرَتْ ائْتِنْتَهَا وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا ، فَسَفَرَتْ عَنْ
وَجْهِهَا لِقُدَارٍ وَذَمَّرَتْهُ ، [فَسَدًا] عَلَى النَّاقَةِ بِالسَّيْفِ فَكَسَفَ
عُرْفُوبَهَا فَحَرَّتْ سَاقِطَةً إِلَى الْأَرْضِ وَرَعَتْ رُغَاةً وَاحِدَةً
تُحَدَّرُ سَقْبَهَا ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَتَيْهَا فَفَنَحَرَهَا ، وَانْطَلَقَ سَقْبَهَا وَهُوَ
فَصِيلُهَا حَتَّى أَتَى جَبَلًا مَتِينًا ، فَصَعَدَ أَعْلَى صَخْرَةٍ فِيهِ
وَرَعَا ^(٢) . فَرَوَى عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَمَّنْ سَمِعَ الْحَسَنَ
الْبَصْرِيَّ أَنَّهُ قَالَ : يَا رَبِّ أَيْنَ أُمِّي؟ وَيُقَالُ : إِنَّهُ رَعَا ثَلَاثَ
مَرَّاتٍ ، وَإِنَّهُ دَخَلَ فِي صَخْرَةٍ فَنَابَ فِيهَا ، وَيُقَالُ : بَلَّ
اِتَّبَعُوهُ فَعَقَرُوهُ مَعَ أُمِّهِ ^(٣) . فَاللَّهُ أَعْلَمُ . فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ
وَفَرَعُوا مِنْ عَقْرِ النَّاقَةِ وَبَلَغَ الْخَبْرُ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
فَجَاءَهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ ، فَلَمَّا رَأَى النَّاقَةَ بَكَى وَقَالَ :

﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ الآية [هود : ٦٥] .

[مُحَاوَلَةُ الْمُفْسِدِينَ بِقَتْلِ صَالِحٍ وَبِدَايَةِ الْعَذَابِ بِهِمْ ،
ثُمَّ نَزُولُ الْعَذَابِ عَلَى ثُمُودَ]

وَكَانَ قَتْلُهُمُ النَّاقَةَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، فَلَمَّا أَمْسَى أَوْلَيْكَ
التَّسْعَةَ الرَّهْطُ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَقَالُوا : إِنْ كَانَ
صَادِقًا عَجَلْنَاهُ قَبْلَنَا وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا الْحَفْنَاهُ بِنَاقَتِهِ ﴿ قَالُوا
تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ
أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ^(١) وَكَرَرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ^(٢) فَانْتَظَرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴿ الآية
[النمل : ٤٩-٥١] ، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَوَاطَؤُوا عَلَيْهِ ،
وَجَاءُوا مِنَ اللَّيْلِ لِيَفْتِكُوا بَنِيَّ اللَّهِ ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى وَهُوَ الْعَزِيزُ وَلِرَسُولِهِ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ فَرَضَحَتْهُمْ سَلْفًا
وَتَعَجَّلًا قَبْلَ قَوْمِهِمْ ، وَأَصْبَحَ ثُمُودُ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَهُوَ
الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ النَّظَرَةِ وَوُجُوهُهُمْ مُضْفَرَةٌ كَمَا وَعَدَهُمْ
صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ
التَّاجِيلِ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَوُجُوهُهُمْ مُحْمَرَةٌ ، وَأَصْبَحُوا
فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ أَيَّامِ الْمَتَاعِ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ وَوُجُوهُهُمْ
مُسْوَدَّةٌ ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ وَقَدْ تَحَنَّنُوا وَقَعَدُوا
يَنْتَظِرُونَ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ - عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - لَا يَدْرُونَ
مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ وَلَا كَيْفَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ، وَأَشْرَقَتِ
الشَّمْسُ : جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ
أَسْفَلٍ مِنْهُمْ ، فَفَاضَتْ الْأَرْوَاحُ وَرَهَقَتِ الثُّغُوسُ فِي سَاعَةِ
وَاحِدَةٍ ﴿ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴾ أَيُّ صَرَخَى لَا أَرْوَاحَ

(١) الطبري: ٥٣٧/١٢ (٢) الطبري: ٥٣١/١٢ (٣) عبد
الرزاق: ٢٣١/٢ فيه شيخ معمر مبهم .

رِسَالَةَ رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ ﴿٧٩﴾ أَي فَلَمْ تَتَّبِعُوا بِذَلِكَ، لِأَنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْحَقَّ وَلَا تَتَّبِعُونَ نَاصِحًا، وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَلَكِنَّ لَا نُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾
[فِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿و﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿لُوطًا﴾ أَوْ تَقْدِيرُهُ: ﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ﴿وَلَوْطٌ هُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ وَهُوَ ابْنُ أُخِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ قَدْ آمَنَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ سَدُومَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَنَائِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي اخْتَرَعُوهَا، لَمْ يَسْفِكْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا غَيْرِهِمْ، وَهُوَ إِثْبَانُ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ بَنُو آدَمَ تَعَهُدُهُ وَلَا تَأْلِفُهُ وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ أَهْلُ سَدُومَ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: مَا نَزَا ذَكَرٌ عَلَى ذَكَرٍ حَتَّى كَانَ قَوْمٌ لُوطٍ (٥). وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٨١﴾ أَي عَدَلْتُمْ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْهُنَّ إِلَى الرِّجَالِ، وَهَذَا إِسْرَافٌ مِنْكُمْ وَجَهْلٌ، لِأَنَّهُ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿هَتُولَاءِ بَنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ [هود: ٧١]

فَأَرشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ فَأَعْتَدَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَهْوَهُنَّ، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَرَبِّكَ لَنَعْلَمُ مَا رُبِدْ﴾ [هود: ٧٩] أَي لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا إِزْبَ لَنَا فِي النِّسَاءِ وَلَا

فِيهِمْ، وَلَمْ يَفِلْتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ لَا صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ لَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى، قَالُوا: إِلَّا جَارِيَةٌ كَانَتْ مُفْعَدَةً وَاسْمُهَا كَلْبَةُ ابْنَةِ السَّلْوِيِّ، وَيُقَالُ لَهَا: الزُّرَيْمَةُ، وَكَانَتْ كَافِرَةً شَدِيدَةَ الْعِدَاوَةِ لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا رَأَتْ مِنَ الْعَذَابِ أَطْلَقَتْ رِجْلَاهَا، فَقَامَتْ تَسْعَى كَأَسْرَعِ شَيْءٍ، فَأَنْتَ حَيًّا مِنَ الْأَحْيَاءِ فَأَخْبَرْتَهُمْ بِمَا رَأَتْ وَمَا حَلَّ بِقَوْمِهَا ثُمَّ اسْتَسْقَتْهُمْ مِنَ الْمَاءِ، فَلَمَّا شَرِبَتْ مَاتَتْ (١).

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ: وَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذُرِّيَّةِ نَمُودَ أَحَدٌ سِوَى صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ تَبِعَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: أَبُو رِغَالٍ كَانَ لَمَّا وَقَعَتِ النَّقْمَةُ بِقَوْمِهِ مُقِيمًا إِذْ ذَاكَ فِي الْحَرَمِ فَلَمْ يَصِبْهُ شَيْءٌ، فَلَمَّا خَرَجَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى الْحِجْلِ جَاءَهُ حَجَرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَفَتَلَهُ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ: أَخْبَرَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرِ أَبِي رِغَالٍ فَقَالَ: «أَتَذَرُونَ مَنْ هَذَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ رَجُلٍ مِنْ نَمُودَ، كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ حَرَمُ اللَّهِ عَذَابَ اللَّهِ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ فَدُفِنَ هَاهُنَا، وَدُفِنَ مَعَهُ غَضُنٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَنَزَلَ الْقَوْمُ فَأَبْتَدَرُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ فَبَحَثُوا عَنْهُ فَاسْتَخْرَجُوا الْغَضُنَ» (٢). وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: أَبُو رِغَالٍ: أَبُو قَيْفٍ (٣).

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْنَ لَقَدْ آتَيْنَاكُمْ رَسُولًا ربي وَصَحَّتْ

لَكُمْ وَلَكِنَّ لَا نُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ ﴿٧٩﴾

هَذَا تَفْرِيعٌ مِنْ صَالِحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِقَوْمِهِ، لَمَّا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَإِيَابَتِهِمْ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الْعَمَى، قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ ذَلِكَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، تَفْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَهُمْ يَسْمَعُونَ ذَلِكَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ أَقَامَ هُنَاكَ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَمَرَ بِرِجَالِهِ فُنُذِتْ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَرَكِبَهَا ثُمَّ سَارَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْقَلْبِ قَلْبِ بَدْرٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «يَا أَبَا جَهْلٍ بَنَ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةَ بَنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بَنَ رَبِيعَةَ، وَيَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تَكَلَّمُ مِنْ أَقْوَامٍ قَدْ جِيئُوا؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعٍ - لِمَا أَقُولُ - مِنْهُمْ، وَلَكِنَّ لَا يُجِيبُونَ» (٤).

وَهَكَذَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكُمْ

(١) الطبري: ١٢/٥٣٤ (٢) عبد الرزاق: ٢/٢٣٢ هذا مرسل كما قال ابن كثير وقد روي متصلًا عند أبي داود كتاب الخراج باب نبش القبور العادية يكون فيها المال (٣٠٨٨) وإسناده ضعيف بحير بن أبي بحير مجهول وقال ابن كثير: تفرد بوصله بحير بن أبي بحير هذا وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. أنظر أيضًا البداية والنهاية ١/١٥٨ وله شواهد ضعيفة. (٣) عبد الرزاق: ٢/٢٣٢ (٤) فتح الباري: ٧/٣٥١ ومسلم: ٤/٢٢٠٣ (٥) الطبري: ١٢/٥٤٨

إِرَادَةً، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مُرَادَنَا مِنْ أَضْيَافِكَ.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ

قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَهُرُونَ﴾ (٨٢)

أَيَّ مَا أَجَابُوا لُوطًا إِلَّا أَنْ هَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ وَتَفْيِهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَالِمًا وَأَهْلَكَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَاغِرِينَ مُهَانِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَهُرُونَ﴾ قَالَ فَتَادَةُ: عَابُوهُمْ بِغَيْرِ عَيْبٍ (١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَهُرُونَ مِنْ أَدْبَارِ الرِّجَالِ وَأَدْبَارِ النِّسَاءِ (٢). وَرَوَى مِنْهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا (٣).

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ، إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣)

وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُ

الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤)

يَقُولُ تَعَالَى: فَأَنجَيْنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ، سِوَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَطَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) فَمَا وَدَدْنَا فِيهَا عَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ، بَلْ كَانَتْ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا تَمَالِيْهُمُ عَلَيْهِ وَتَعْلَمُهُمْ بِمَنْ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ مِنْ ضِيفَانِهِ بِإِشَارَاتٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ. وَلِهَذَا لَمَّا أَمَرَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُسْرِيَ بِأَهْلِهِ أَمَرَ أَنْ لَا يَعْلَمَهَا وَلَا يُخْرِجَهَا مِنَ الْبَلَدِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلِ اتَّبَعْتَهُمْ فَلَمَّا جَاءَ الْعَذَابُ انْتَفَتَتْ هِيَ، فَأَصَابَهَا مَا أَصَابَهُمْ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا لَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْبَلَدِ وَلَا أَعْلَمَهَا لُوطٌ بَلْ بَقِيَتْ مَعَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أَيُّ الْبَاقِينَ.

وَقِيلَ: مِنَ الْهَالِكِينَ وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُوبٍ﴾ (٨٦) مَسْمُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّلْمِيَّاتِ بَعِيدٍ [هود: ٨٢، ٨٣] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيُّ أَنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ! كَيْفَ كَانَ عَاقِبَتُهُ مَنْ يَجْتَرِي عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَكْذِبُ رُسُلَهُ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ (٤).

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادًا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَذَلِكُمْ كَيْفَ بَيَّنَّتْ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ

سورة الأعراف

سورة الأعراف

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادًا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، فَذَلِكُمْ كَيْفَ بَيَّنَّتْ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَفْعَدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

[قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَدْيَنَ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُمْ مِنْ سُلَالَةِ مَدْيَنَ بْنِ مَدْيَانَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَشُعَيْبٌ وَهُوَ ابْنُ مَيْكِلَ بْنِ يَشْجَرَ، قَالَ: وَاسْمُهُ بِالشَّرْيَانِيَّةِ يُثْرُونَ (٥).

(قُلْتُ) مَدْيَنُ تُطَلَّقُ عَلَى الْقَبِيلَةِ وَعَلَى الْمَدِينَةِ، وَهِيَ الَّتِي يَقْرُبُ مَعَانَ مِنْ طَرِيقِ الْحِجَازِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ﴾ [الفصص: ٢٣] وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ كَمَا سَنَدَّكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ التَّفَقُّهُ. ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادًا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هَذِهِ دَعْوَةُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ ﴿فَدَلَّ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ قَدْ أَقَامَ اللَّهُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُمْ بِهِ، ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي مَعَامَلَتِهِمُ النَّاسَ بِأَنْ

(١) الطبري: ٥٥٠/١٢ (٢) الطبري: ٥٥٠/١٢ (٣) الطبري:

٥٥٠/١٢ (٤) أحمد: ٣٠٠/١ والترمذي: ١٤٥٦ وأبو داود:

٤٤٦٢ وابن ماجه: ٢٥٦١ (٥) الطبري: ٥٥٤/١٢

أَيُّ أَحْكَمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا وَانْضَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴿٩٠﴾ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٩١﴾ أَيُّ خَيْرِ الْحَاكِمِينَ، فَإِنَّكَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شَيْعًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿٩٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيمين ﴿٩٣﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شَيْعًا كَان لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شَيْعًا كَانُوا هُمُ الْخَسِرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

يُخْرِ تَعَالَى عَنْ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلْحَقِّ، وَلِهَذَا أَقْسَمُوا وَقَالُوا: ﴿لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شَيْعًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ فلهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيمين﴾ أخبر تعالى هنا: أَنَّهُمْ أَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ، وَذَلِكَ كَمَا أَرْجَفُوا شَيْعًا وَأَصْحَابَهُ وَتَوَعَّدُوهُمْ بِالْجَلَاءِ - كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ هُودٍ فَقَالَ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شَيْعًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّعْتَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيمين﴾ [هود: ٩٤] - وَالْمُنَاسَبَةُ هُنَاكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّهُمْ لَمَّا تَهَكَّمُوا بِهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَسْأَلُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الآية [هود: ٨٧]، فَجَاءَتِ الصَّيْحَةُ فَأَسْكَتَتْهُمْ. وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ فِي سِنَاقِ الْقِصَّةِ: ﴿فَأَسْأَلُكَ عَلَيْنَا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧] الآية. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ، وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظْلَمَتْ فِيهَا سَرَرٌ مِنْ نَارٍ وَلَهَبٌ وَوَهَجٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ وَفَاضَتِ النُّفُوسُ وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ ﴿فَأَصْحُوا فِي دَارِهِمْ جثيمين﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا﴾ أَيُّ كَانَتْهُمْ لَمَّا أَصَابَتْهُمْ النُّقْمَةُ لَمْ يُقِيمُوا بِدِيَارِهِمْ الَّتِي أَرَادُوا إِجْلَاءَ الرُّسُولِ وَصَحْبِهِ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لِقِيلِهِمْ ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شَيْعًا كَانُوا هُمُ الْخَسِرِينَ﴾.

﴿فَقَوْلَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَأَسَى عَلَى قَوْمٍ كَفِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أَيُّ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ شَيْعًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنُّقْمَةِ وَالنَّكَالِ، وَقَالَ مُقَرِّعًا لَهُمْ وَمُؤَيِّخًا:

﴿يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أَيُّ قَدْ أَذَيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ فَلَا آسَفُ عَلَيْكُمْ وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَأَسَى عَلَى قَوْمٍ كَفِرِينَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

[إِتِلَاءُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا اخْتَبَرَ بِهِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ، بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، يَعْنِي بِالْبَأْسَاءِ مَا يُصِيبُهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَسْقَامٍ، وَالضَّرَّاءِ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ قَفَرٍ وَحَاجَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، أَيُّ يَدْعُونَ وَيَخْشَعُونَ وَيَتَّهَلُّونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُتُفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: أَنَّهُ ائْتَلَاهُمْ بِالشَّدَةِ لِيَضَّرَّعُوا، فَمَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنَ الَّذِي أَرَادَ مِنْهُمْ، فَقَلَّبَ عَلَيْهِمُ الْحَالَ إِلَى الرَّخَاءِ لِيُخْتَبِرَهُمْ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أَيُّ حَوَّلْنَا الْحَالَ مِنْ شِدَّةٍ إِلَى رَخَاءٍ، وَمِنْ مَرَضٍ وَسَقَمٍ إِلَى صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ، وَمِنْ قَفَرٍ إِلَى غِنَى لِيَشْكُرُوا عَلَى ذَلِكَ فَمَا فَعَلُوا، وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أَيُّ كَثُرُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، يُعَال: عَفَا الشَّيْءُ إِذَا كَثُرَ.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ائْتَلَيْنَاهُمْ بِهَذَا وَهَذَا، لِيَضَّرَّعُوا وَيُنَبِّئُوا إِلَى اللَّهِ فَمَا نَجَّعَ فِيهِمْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، وَلَا ائْتَهَوْا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا، بَلْ قَالُوا: قَدْ مَسَّنَا مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، ثُمَّ بَعْدَهُ مِنَ الرَّخَاءِ مِثْلُ مَا أَصَابَ ءَابَاءَنَا فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَالذَّهْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ الذَّهْرُ تَارَاتٍ وَتَارَاتٍ، بَلْ لَمْ يَنْقَطُوا لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ وَلَا اسْتَشْعَرُوا ائْتِلَاءَ اللَّهِ لَهُمْ فِي الْحَالَيْنِ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَيَضَّرُّونَ عَلَى الضَّرَّاءِ، كَمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١). فَالْمُؤْمِنُ مَنْ يَنْتَهِنُ لِمَا ائْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيُّ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ بَغْتَةً،

سورة الأعراف

١٦٣

سورة الأعراف

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
 مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا
 وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا
 ضُحًىٰ وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
 مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
 يَرْتُوبُوا الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ
 بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
 تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِضْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ
 كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا جَدْنَا
 لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ جَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾
 ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
 وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرُونَ بِنِي رَسُولٍ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ
 لِلَّذِينَ يَرْتُوبُوا الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أَوْ لَمْ نُبَيِّنْ لَهُمْ أَنْ
 لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ (٢).
 وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِهَا: يَقُولُ تَعَالَى: أَوْ لَمْ
 نُبَيِّنْ لِلَّذِينَ يَسْتَخْلِفُونَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ آخَرِينَ
 قَبْلَهُمْ كَانُوا أَهْلَهَا، فَسَارُوا سَبِيلَهُمْ وَعَمِلُوا أَعْمَالَهُمْ وَعَتَوْا
 عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يَقُولُ: أَنْ لَوْ
 نَشَاءُ فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾
 يَقُولُ وَنَحْنُمْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ مَوْعِظَةٌ وَلَا
 تَذْكِيرًا (٣).

(قُلْتُ) وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا
 قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي

(١) أحمد: ١٣٦/٦ (٢) الطبري: ٥٨٠/١٢ (٣) الطبري:

أَي عَلَى بَعْتِهِ، وَعَدَمِ شُعُورِ مِنْهُمْ، أَي أَخَذْنَاهُمْ فَجَاءَهُ كَمَا
 فِي الْحَدِيثِ: «مَوْتُ الْفَجَاءَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخْذُهُ أَسْفٌ
 لِلْكَافِرِ» (١).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾
 أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ
 أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًىٰ وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا
 مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

[الْبَرَكَاتِ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْبَطْشِ مَعَ الْكُفْرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَلْبِ إِيْمَانِ أَهْلِ الْقُرَى الَّذِينَ أُرْسِلَ فِيهِمْ
 الرُّسُلُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا
 إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرِّي فِي
 الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أَي مَا ءَامَنَتْ
 قَرِيَةٌ بِتَمَامِهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ، فَإِنَّهُمْ ءَامَنُوا وَذَٰلِكَ بَعْدَمَا
 عَاقَبُوا الْعَذَابَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَنَاتِ آلِيهِ أَوْ
 يَرِيدُونَ ﴿٩٧﴾ فَءَامَنُوا فَتَنَعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصفات:

[١٤٧، ١٤٨]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا آيَةً،
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أَي ءَامَنَتْ
 قُلُوبُهُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَصَدَقَتْ بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَاتَّقَوْا
 يَفْعَلُ الطَّاعَاتِ وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي قَطَرَ السَّمَاءِ وَنَبَاتِ الْأَرْضِ، قَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَي
 وَلَٰكِن كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ فَعَاقَبْنَاهُمْ بِالْهَلَاكِ عَلَىٰ مَا كَسَبُوا مِنَ
 الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَوِّفًا وَمُحَذِّرًا مِنْ
 مُخَالَفَةِ أَوْامِرِهِ وَالتَّجَرُّوْ عَلَى زَوَاجِرِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ
 الْقُرَىٰ﴾ أَي الْكَافِرَةُ ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ أَي عَذَابُنَا وَنَكَالُنَا
 ﴿بَيِّنًا﴾ أَي لَبِيْلًا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ
 يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًىٰ وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ أَي فِي حَالِ شُغْلِهِمْ
 وَعَفْلَانِهِمْ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أَي بِأَسْهُ وَنِقْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ
 عَلَيْهِمْ وَأَخْذَهُ إِيَاهُمْ فِي حَالِ سَهْوِهِمْ وَعَفْلَانِهِمْ ﴿فَلَا يَأْمَنُ
 مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ
 الْبُصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُؤْمِنُ يَفْعَلُ الطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِقٌ
 وَجِلٌّ خَائِفٌ، وَالْفَاجِرُ يَفْعَلُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُوبُوا الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ

نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

أَنْهَى ﴿طه: ١٢٨﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦] وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿١٠١﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [طه: ٩٨] أَي هَلْ تَرَى لَهُمْ شَخْصًا أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتًا؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى حُلُولِ نَقْمِهِ بِأَعْدَائِهِ وَحُصُولِ نَعْمِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، وَلِهَذَا عَقَّبَ بِقَوْلِهِ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ:

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَفُضَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾

لَمَّا قَصَّ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ خَبْرَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِهِ الْكَافِرِينَ وَإِنْبَاءِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَعْدَرَ إِلَيْهِمْ بِأَنْ بَيَّنَّ لَهُمْ الْحَقَّ بِالْحُجَجِّ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَفُضَ عَلَيْكَ أَي يَا مُحَمَّدُ! مِنْ أَنْبِيَآهَا﴾ أَي مِنْ أَخْبَارِهَا ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي

الْحُجَجِّ عَلَى صِدْقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَفُضُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٢﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠٠، ١٠١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ

قَبْلُ﴾ الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ، أَي فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ أَوَّلَ مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ. حَكَاهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ رَجَمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ مُتَّجِهٌ حَسَنٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٣﴾ وَنُقِلَتْ أَقْسَامُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٠٩، ١١٠]. وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ

الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أَي لِأَكْثَرِ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ ﴿وَمِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أَي وَلَقَدْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ فَاسِقِينَ خَارِجِينَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالْإِمْتِنَانِ. وَالْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ هُوَ مَا جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ وَفَطَّرَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْلَابِ: أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَلِيكَهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ فَدَجِحْنَاكُمْ بَيِّنَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ فَيَقْرَأُ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَاتَا مُرُوتٍ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّبِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّي أَكْفَى لِمَنِ الْمُقْرَبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُ وَبِسْحَرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِينٍ ﴿١٢٠﴾

فَأَقْرَأُوا بِذَلِكَ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ. وَخَالَفُوهُ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَعَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ لِأَمِنْ عَقْلِ وَلَا شَرْعٍ - وَفِي الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ خِلَافٌ ذَلِكَ - وَجَاءَتِ الرُّسُلُ الْكِرَامُ مِنْ أَوْلِيَانِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ بِالنَّبِيِّ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُقَّاقًا، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَأَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّتْ لَهُمْ»^(١). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودًا أَوْ نَصْرَانِيَّةً وَنَجْرَانِيَّةً»^(٢). الْحَدِيثُ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٢١﴾﴾

[قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَيِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِ

(١) مسلم: ٤/٢١٩٧ (٢) فتح الباري: ٣/٢٩٠ و مسلم: ٤/٢٠٤٧

هَارُونَ عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ عَنِ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ﴾ فَتَحَوَّلَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً فَاعْرَاةٌ فَاهَا مُسْرَعَةٌ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَاهَا فِرْعَوْنُ أَنَّهَا قَاصِدَةٌ إِلَيْهِ اقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ وَاسْتَعْتَاتَ بِمُوسَى أَنْ يَكْفَهَا عَنْهُ فَفَعَلَ^(٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مُيِّنٌ﴾ التُّعْبَانُ الذِّكْرُ مِنَ الْحَيَّاتِ، فَاتِحَةٌ فَاهَا وَاضِعَةٌ لَحْيَهَا الْأَسْفَلَ فِي الْأَرْضِ وَالْأَعْلَى عَلَى سُورِ الْقَصْرِ، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ فِرْعَوْنَ لِتَأْخُذَهُ، فَلَمَّا رَأَاهَا دَعَرَ مِنْهَا وَرَبَّ وَأَخَذَتْ، وَلَمْ يَكُنْ يُحَدِّثُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَصَاحَ يَا مُوسَى! خُذْهَا وَأَنَا أُوْمِنُ بِكَ وَأُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَخَذَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَادَتْ عَصَا^(٤).

وقوله: ﴿وَرَوَّعَ يَدَهُ إِذَا هِيَ بِيضَاءَ اللَّظْطِرِينَ﴾ أَي أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ دِرْعِهِ بَعْدَ مَا أَدْخَلَهَا فِيهِ، فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ تَتَلَأَلُ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا مَرَضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ [النمل: ١٢]. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى كُمِّهِ فَعَادَتْ إِلَى لُونِهَا الْأَوَّلِ^(٥). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(٦).

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ﴾ يُرِيدُ أَنْ يَخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٧﴾
[قَوْلِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي مُوسَى: إِنَّهُ سَاحِرٌ وَاتَّفَقَهُمْ عَلَى مُعَارَضَتِهِ بِالسَّحَرَةِ]

أَي قَالَ الْمَلَأُ - وَهُمْ الْجَهُوْرُ وَالسَّادَةُ - مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ مُوَافِقِينَ لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ فِيهِ بَعْدَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ رَوْعُهُ وَاسْتَقَرَّ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ﴾ فَوَافَقُوا وَقَالُوا كَمَا قَالَتْهُ وَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِهِ كَيْفَ يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِهِ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ حِيلَتُهُمْ فِي إِطْفَاءِ نُورِهِ وَإِحْمَادِ كَلِمَتِهِ وَظَهْوَرِ كَذِبِهِ وَافْتِرَائِهِ؟ وَتَخَوُّفُوا أَنْ يَسْتَمِيلَ النَّاسُ بِسُخْرِهِ - فِيمَا يَعْتَقِدُونَ - فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لظُهُورِهِ عَلَيْهِمْ وَإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَالَّذِي خَافُوا مِنْهُ وَقَعُوا فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

ذِكْرُهُمْ كُنُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَلُوطٌ وَشُعَيْبٌ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ. ﴿مُوسَى يَأْتِيَنَّأ﴾ أَي بِحُجَجِنَا وَدَلَالِنَا الْبَيِّنَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَهُوَ مَلِكٌ مِصْرَ فِي زَمَنِ مُوسَى ﴿وَمَلَأِيهِ﴾ أَي قَوْمِيهِ ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ أَي جَحَدُوا وَكَفَرُوا بِهَا ظَلَمًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا، وَكَفَوَلَهُ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] أَي الَّذِينَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، أَي أَنْظُرْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، أَعْرِفْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِمَرَأَى مِنْ مُوسَى وَقَوْمِيهِ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّكَاثُفِ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِيهِ، وَأَشْفَى لِقُلُوبِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مُوسَى وَقَوْمِيهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَاتٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُنَاطَرَةِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ وَالْجَامِهِ إِبَاهُ بِالْحُجَّةِ وَإِظْهَارِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِحُضْرَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِيهِ مِنْ قِبَطِ مِصْرَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي أَرْسَلَنِي الَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أَي وَاجِبٌ وَحَقٌّ عَلَى ذَلِكَ أَنْ لَا أُخْبِرَ عَنْهُ إِلَّا بِمَا هُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لِمَا أَعْلَمُ مِنْ جَلَالِهِ وَعَظِيمِ شَأْنِهِ ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ مِنَ اللَّهِ أَعْطَانِيهَا ذَلِيلًا عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَي أَلْفَيْهِمْ مِنْ أَشْرِكِ وَتَهْرِكِ، وَدَعْوَهُمْ وَعِبَادَةَ رَبِّكَ وَرَبِّهِمْ، فَلَيْتَهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيِّ كَرِيمٍ إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَاتٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَي قَالَ فِرْعَوْنُ: لَسْتُ بِمُصَدِّقِكَ فِيمَا قُلْتَ وَلَا بِمُطِيعِكَ فِيمَا طَلَبْتَ، فَإِنْ كَانَتْ مَعَكَ حُجَّةٌ فَأَظْهَرَهَا لِنَرَاهَا إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا ادَّعَيْتَ.

﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ إِذَا هِيَ تَعْبَانُ مُيِّنٌ﴾ وَرَوَّعَ يَدَهُ إِذَا هِيَ بِيضَاءُ اللَّظْطِرِينَ ﴿١٧﴾

[عَصَا مُوسَى وَيَدُهُ الْبِيضَاءُ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعْبَانُ مُيِّنٌ﴾ الْحَيَّةُ الذِّكْرُ^(١). وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَالصَّحَّاحُ^(٢). وَفِي حَدِيثِ الْفُتُونِ مِنْ رِوَايَةِ زَيْدِ بْنِ

(١) الطبري: ١٦/١٣ (٢) الطبري: ١٧/١٣ (٣) الطبري: ١٦/١٣ مسند أبي يعلى (٢٦١٨) ١٠/٥-٢٩ مطولاً والسنن الكبرى للنسائي وذكره ابن كثير أيضاً في تفسير سورة طه: ٤٠. (٤) الطبري: ١٥/١٣ (٥) الطبري: ١٧/١٣ (٦) الطبري: ١٨/١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦٥

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿وَرَبِّيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَكَ وَخُنُوهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾
 [القصص: ٦] فَلَمَّا تَشَاوَرُوا فِي شَأْنِهِ وَاتَّخَمُوا بِمَا فِيهِ،
 اتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى .
 ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ
 سِحْرِ عَلَيْهِ ﴿١١٢﴾
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَرْجِهْ﴾ أَرْجَاهُ ﴿١﴾ ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أَيِ إِبْعَثْ
 ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ أَيِ فِي الْأَقَالِيمِ وَمَدَائِنِ مُلْكِكَ ﴿حَاشِرِينَ﴾
 أَيِ مَنْ يَحْشُرُ لَكَ السَّحْرَةَ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ وَيَجْمَعُهُمْ وَقَدْ
 كَانَ السَّحْرُ فِي زَمَانِهِمْ غَالِيًا كَثِيرًا ظَاهِرًا، وَاعْتَقَدَ مَنْ
 اعْتَقَدَ مِنْهُمْ وَأَوْهَمَ مَنْ أَوْهَمَ مِنْهُمْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى
 عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبِيلِ مَا تَسَعَّبَهُ سَحْرَتُهُمْ، فَلِهَذَا جَمَعُوا لَهُ
 السَّحْرَةَ لِيُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا أَرَاهُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، كَمَا أُخْبِرَ
 تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٌ مِثْلَهُ فَاجْعَلْ
 بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُغْلِبُكَ عَنْهُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا﴾ ﴿٥٩﴾ قَالَ
 مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِرَ النَّاسُ صُحْحِي ﴿٥٩﴾ فَنَوَّلَ فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ
 كَيْدَهُ ثُمَّ اتَّقَى ﴿٥٨-٦٠﴾ وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا:
 ﴿وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ
 الْغَالِبِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَعِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿١١٤﴾
 [الاجتماع السحرة ومقابلتهم مع موسى وتمويههم في
 تحويل جبالهم وعصيتهم حيات]
 يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَشَارَطَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنَ وَالسَّحْرَةُ الَّذِينَ
 اسْتَدْعَاهُمْ لِمُعَارَضَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنْ غَلَبُوا مُوسَى
 لِيُعْطِيَهُمْ وَيُعْطِيَهُمْ عَطَاءَ جَزِيلًا، فَوَعَدَهُمْ وَمَنَاهُمْ أَنْ
 يُعْطِيَهُمْ مَا أَرَادُوا وَيَجْعَلُهُمْ مِنْ جُلَسَائِهِ وَالْمُقْرَبِينَ عِنْدَهُ،
 فَلَمَّا تَوَقَّفُوا مِنْ فِرْعَوْنَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - .
 ﴿قَالُوا يَلْمُوسَىٰ إِمَامًا أَن تَلْقَىٰ وَإِمَامًا أَن تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾
 قَالَ أَلْفَوْا فَلَمَّا أَلْفَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُ
 سِحْرٌ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾
 هَذِهِ مَبَارَزَةٌ مِنَ السَّحْرَةِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِمْ:
 ﴿إِمَامًا أَن تَلْقَىٰ وَإِمَامًا أَن تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أَيِ قَبْلِكَ . كَمَا
 قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلِمَا أَن تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]
 [٦٥] فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَلْفَوْا﴾ أَيِ أَنْتُمْ أَوْلَا .
 قِيلَ: أَلْحِكْمَةُ فِي هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِيَرَى النَّاسُ صَنِيعَهُمْ
 وَيَتَأَمَّلُوا، فَإِذَا فَرَعُوا مِنْ بَهْرَجِهِمْ وَمَحَالِهِمْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ
 الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ بَعْدَ التَّطَلُّبِ لَهُ وَالْإِنْتِظَارِ مِنْهُمْ لِمَجِيئِهِ،
 فَيَكُونُ أَوْقَعٌ فِي الثُّمُوسِ، وَكَذَا كَانَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿فَلَمَّا أَلْفَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْهَبُوهُمْ﴾ أَيِ خَبَلُوا إِلَى
 الْأَبْصَارِ أَنْ مَا فَعَلُوا لَهُ: حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا
 مُجَرَّدُ صُنْعَةٍ وَخَيَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ
 خِيفَةَ مُوسَىٰ﴾ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٧٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي
 يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ
 حَيْثُ اتَّقَىٰ ﴿طه: ٦٧-٦٩﴾ .

رَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَلْفَوْا جِبَالَ
 غِلَظًا وَخَشَبًا طَوَالًا، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ
 أَنْهَا تَسَعَىٰ (٢) .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿٧٧﴾
 فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَأَقْبَلُوا
 صَغِيرِينَ ﴿٧٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٨٢﴾

[عَلْبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحَرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي ذَلِكَ الْمُوقِفِ الْعَظِيمِ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِأَمْرِهِ بِأَنْ يُلْقَى مَا فِي بَيْتِهِ وَهِيَ عَصَاهُ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أَي تَأْكُلُ ﴿مَا يَأْكُونُ﴾ أَي مَا يُلْقَوْنَهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ وَهُوَ بَاطِلٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَجَعَلَتْ لَا تَهْمُ بِشَيْءٍ مِنْ جِبَالِهِمْ وَلَا مِنْ خَشْبِهِمْ إِلَّا التَّقَمَّتْ فَعَرَفَتْ السَّحَرَةَ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ هَذَا بِسِحْرٍ فَخَرُّوا سُجَّدًا وَقَالُوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: جَعَلَتْ [تَبْتَلِعُ] تِلْكَ الْجِبَالَ وَالْعِصِيَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، حَتَّى مَا بَرَى بِالْوَادِي قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ مِمَّا أَلْقَوْا، ثُمَّ أَخَذَهَا مُوسَى فَإِذَا هِيَ عَصَا فِي يَدِهِ كَمَا كَانَتْ، وَوَقَعَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ لَوْ كَانَ هَذَا سَاحِرًا مَا عَلَيْنَا^(١). وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَرَّةَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ أَلْقَى عَصَاكَ، فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ نُعْبَانٌ مُبِينٌ فَاعْرَفَ فَاهُ يَتَّبِعُ جِبَالَهُمْ وَعِصِيَّتَهُمْ فَالْقَى السَّحَرَةَ عِنْدَ ذَلِكَ سُجَّدًا، فَمَا رَعَفُوا رُؤُوسَهُمْ حَتَّى رَأَوْا الْجَنَّةَ وَالتَّارَ وَتَوَابَ أَهْلِهِمَا^(٢).

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْمُونَ﴾ لَأُطْعَمَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ ثُمَّ لَأُسَلِّبَنَّكُمْ أَجْمِيعًا ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْفِئُ مِنَّا إِلَّا آتَ ءَامَنَّا بِتَابِتٍ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا فَأَوْفَىٰ عَلَيْنَا صِدْقًا وَوَفَّقَنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

[تَهْدِيدُ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَجَوَابُهُمْ لَهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا أَظْهَرَهُ لِلنَّاسِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أَي إِنَّ عَلْبَتَهُ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا، إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَسَاوُرٍ مِنْكُمْ وَرِضًا مِنْكُمْ لِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩، ٥٠] وَهُوَ يَعْلَمُ وَكُلُّ مَنْ لَهُ لُبٌّ أَنْ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ، فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُجَرَّدِ مَا جَاءَ مِنْ مَدِينٍ دَعَا فِرْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ، وَأَظْهَرَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةَ وَالْحُجَجَ الْقَاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي مَدَائِنِ مَلِكِهِ وَمَعَامِلَةِ سُلْطَنِيَّتِهِ فَجَمَعَ سَحَرَةَ مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بِيَلَادِ مِصْرَ، وَمِنْ اخْتَارَ هُوَ وَالْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ

وَأَحْضَرَهُمْ عِنْدَهُ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ، وَلِهَذَا قَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الظُّهُورِ فِي مَقَامِهِمْ ذَلِكَ وَالتَّقَدُّمُ عِنْدَ فِرْعَوْنَ. وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَلَا رَأَى وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ، وَفِرْعَوْنُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسْتَرًا وَتَدْلِيْسًا عَلَى رَعَاعِ دَوْلَتِهِ وَجَهْلَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَحَفَّ فَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] فَإِنَّ قَوْمًا صَدَّقُوهُ فِي قَوْلِهِ ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] مِنْ أَجْهَلِ خَلْقِ اللَّهِ وَأَصْلَهُمْ.

وَقَالَ الشُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادِهِ الْمَشْهُورِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قَالَ: ائْتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمِيرُ السَّحَرَةِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَرَأَيْتَكَ إِنْ عَلْبَتُكَ أَتَوْتُمْ بِي وَتَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ حَقٌّ؟ قَالَ السَّاحِرُ: لَا تَبِينَ عَدَا بِسِحْرٍ لَا يَعْلِيهِ سِحْرٌ، فَوَاللَّهِ! لَتُنَّ عَلْبَتُنِي لِأَوْمِنَنَّ بِكَ، وَلَا تَشْهَدَنَّ أَنَّكَ حَقٌّ، وَفِرْعَوْنُ يُنْظَرُ إِلَيْهِمَا. قَالُوا: فَلِهَذَا قَالَ مَا قَالَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾^(٣) أَي تَجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَهُوَ، وَتَكُونُ لَكُمْ دَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ، وَتُخْرِجُوا مِنْهَا الْأَكَابِرَ وَالرُّؤَسَاءَ، وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ وَالتَّصَرُّفُ لَكُمْ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَي مَا أَصْنَعُ بِكُمْ، ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَأُطْعَمَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ﴾ يَعْنِي يَقْطَعُ يَدَ الرَّجُلِ الْيَمْنَى وَرِجْلَهُ الْيُسْرَى أَوْ بِالْعَكْسِ ﴿ثُمَّ لَأُسَلِّبَنَّكُمْ أَجْمِيعًا﴾ وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ [طه: ٧١] أَي عَلَى الْجُدُوعِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَلَبَ وَأَوَّلَ مَنْ قَطَعَ الْأَيْدِيَّ وَالْأَرْجُلَ مِنْ خِلَافِ فِرْعَوْنَ^(٤). وَقَوْلُ السَّحَرَةِ ﴿إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أَي قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّا إِلَهُ رَاجِعُونَ. وَعَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ، وَنَكَالُهُ - عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ - أَعْظَمُ مِنْ نَكَالِكَ، فَلْيَصْبِرَنَّ الْيَوْمَ عَلَى عَذَابِكَ لِتُخْلَصَ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَي عُمَّنَا بِالصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَالتَّيْبَاتِ عَلَيْهِ ﴿وَوَفَّقْنَا مُسْلِمِينَ﴾ أَي مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿١٢٦﴾ إِنَّمَا رَبَّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا

(١) الطبري: ٣٠/١٣ (٢) الطبري: ٣٠/١٣ (٣) الطبري:

٣٣/١٣ (٤) الطبري: ٣٤/١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦٦

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

فَإِذَا جَاءَ تَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَكُن مِنَّا رَجُلٌ مِّنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٣٤﴾ قَالُوا أَتُتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُبْرِئَنَا مِمَّا عَلَّمْنَا أَنْتَ مِنَّا بِهَذَا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْعَاقِلُ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُّجْرِبٌ سَلِيمٌ ﴿١٣٦﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَجَعَلْنَا فِي أَلْبَابِهِم مِّمْلًا لِّئَلَّا يَفْقَهُوهُمُ الْكَلِمَ الَّتِي طَرَفُوا لَهَا فَيُرْتَدُّونَ لَئِيْلٌ عَلَيْهِمْ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿١٣٧﴾

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۗ أَيُّ قَدْ فَعَلُوا بِنَا مِثْلَ مَا رَأَيْتَ مِنَ الظُّلُمَاتِ ۗ وَالْإِذْلَالَ مِن قَبْلِ مَا جِئْتَ يَا مُوسَىٰ وَمِن بَعْدِ ذَلِكَ، فَقَالَ مُتَّبِعْنَا لَكُمْ عَلَىٰ حَالِهِمُ الْحَاضِرِ وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي تَأْيِي الْحَالِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ﴾... الآية، وَهَذَا تَحْضِيضٌ لَهُمْ عَلَى الْعَزْمِ عَلَى الشُّكْرِ عِنْدَ حُلُولِ النِّعَمِ وَرَوَالِ النِّعَمِ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصَ مِنَ السَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾ فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ. وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾
[إِتْيَافٌ عَلَى فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ مِنَ السَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وَابْتِلَاءُهُمْ وَابْتِلَاءُهُمْ ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وَهِيَ [سِنِي] الْجُوعِ

(١) الطبري: ٣٦/١٣ (٢) الطبري: ٣٨/١٣

وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَاقٍ ﴿١٣٢﴾ إِنَّهُمْ مِّن بَأْتِ رَبِّهِمْ مُّجْرِمًا فَإِن لَّمْ يَهْتَمُّ لَمْ يَمُوتْ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ يَأْتِيهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿١٣٤﴾ [طه: ٧٢-٧٥] فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً، فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَّةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدُ بْنُ عَمِيرٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: كَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً وَفِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ (١).

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدُرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَتَقْبِلُ آيَاتَهُمْ وَنَسِيحِي. نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

إِتْحَارِضُ الْقَوْمِ وَاسْتِعْدَادُ فِرْعَوْنَ لِقَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَشُكُوكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَوَعْدُهُ بِنَصْرِ اللَّهِ] يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ وَمَا أَضْمَرُوهُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْبَغْضَةِ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ: أَيُّ لِفِرْعَوْنَ: أَتَنْدُرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ أَيُّ أَتَدْعُهُمْ ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ يُفْسِدُوا أَهْلَ رِعِيَّتِكَ، وَيَذَعُوهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ؟ يَا لِلَّهِ الْعَجَبُ! صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِن إِفْسَادِ مُوسَىٰ وَقَوْمِهِ - أَلَا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَا يَشْعُرُونَ - وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ﴾. وَقَالَ الشَّدِيدِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ﴾ وَالْهَيْتُ - فِيمَا زَعَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ - كَانَتْ الْبَقْرَ كَانُوا إِذَا رَأَوْا بَقْرَةَ حَسَنَةً أَمَرَهُمْ فِرْعَوْنُ أَنْ يَبْعُدُوهَا، فَلِذَلِكَ أَخْرَجَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَازٍ (١).

فَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْنُ فِيمَا سَأَلُوهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَتَقْبِلُ آيَاتَهُمْ وَنَسِيحِي. نِسَاءَهُمْ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ نَائِبٌ بِهَذَا الصَّنِيعِ، وَقَدْ كَانَ نَكَلَ بِهِمْ قَبْلَ وِلَادَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَذْرًا مِنْ وُجُودِهِ، فَكَانَ خِلَافَ مَا رَأَىٰ وَضَدًا مَا قَصَدَهُ فِرْعَوْنُ. وَهَكَذَا عَوَمِلَ فِي صَنِيعِهِ أَيْضًا لَمَّا أَرَادَ إِذْلَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَهْرَهُمْ فَجَاءَ الْأَمْرُ عَلَىٰ خِلَافِ مَا أَرَادَ: أَعَزَّهُمُ اللَّهُ وَأَذَلَّهُ، وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ وَأَعْرَفَهُ وَجُنُودَهُ. وَلَمَّا صَمَمَ فِرْعَوْنُ عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمُسَاءَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ وَوَعَدَهُمُ بِالْعَاقِبَةِ وَأَنَّ الدَّارَ سَتَصِيرُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

عَبَّاسٍ: هُوَ الشُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحِنطَةِ^(٨). وَعَنْهُ أَنَّهُ
الدَّبِيُّ - وَهُوَ الْجَرَادُ الصَّغِيرُ الَّذِي لَا أَجْنَحَ لَهُ -^(٩).
وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ. وَعَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ
جُبَيْرٍ: الْقُمَّلُ: دَوَابٌّ سُودٌ صِغَارٌ^(١٠). وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ
جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: لَمَّا أَتَى مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ فِرْعَوْنَ قَالَ لَهُ: أُرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ
يُرْسِلْهُمْ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ، وَهُوَ الْمَطَرُ فَصَبَّ
عَلَيْهِمْ مِنْهُ شَيْئًا خَافُوا أَنْ يَكُونَ عَذَابًا فَقَالُوا لِمُوسَى: اذْءُ
لَنَا رَبِّكَ يَكْشِفُ عَنَّا الْمَطَرَ، فَنُؤْمِنُ لَكَ وَنُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ، فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُرْسِلُوا
مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَنْبَتَ لَهُمْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ شَيْئًا لَمْ يُبْنِئْهُ
قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الزُّرُوعِ وَالنَّمَارِ وَالْكَلَّا، فَقَالُوا: هَذَا مَا كُنَّا
نَنْمَنَى! فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ فَسَلَطَهُ عَلَى الْكَلَّا، فَلَمَّا
رَأَوْا أَثْرَهُ فِي الْكَلَّا عَرَفُوا أَنَّهُ لَا يُبْقِي الزُّرْعَ، فَقَالُوا: يَا
مُوسَى! اذْءُ لَنَا رَبِّكَ فَيَكْشِفُ عَنَّا الْجَرَادَ فَنُؤْمِنُ لَكَ وَنُرْسِلُ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ الْجَرَادَ فَلَمْ
يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَدَاسُوا وَأَحْرَقُوا
فِي النَّبُوتِ. فَقَالُوا: قَدْ أَحْرَقْنَا فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ
وَهُوَ الشُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَخْرُجُ عَشْرَةَ
أَجْرِيَةٍ إِلَى الرَّحَى فَلَا يَرُدُّ مِنْهَا إِلَّا ثَلَاثَةَ أَفْقِرَةٍ. فَقَالُوا: يَا
مُوسَى اذْءُ لَنَا رَبِّكَ يَكْشِفُ عَنَّا الْقُمَّلَ فَنُؤْمِنُ لَكَ وَنُرْسِلُ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُرْسِلُوا
مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَ فِرْعَوْنَ إِذْ سَمِعَ
نَبِيَّ ضِفْدَعٍ فَقَالَ لِفِرْعَوْنَ: مَا تَلْقَى أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ هَذَا؟
فَقَالَ: وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ كَيْدٌ هَذَا؟ فَمَا أَمْسُوا حَتَّى كَانَ
الرَّجُلُ يَجْلِسُ إِلَى دَفْنِهِ فِي الضَّفَادِعِ وَبِهِمْ أَنْ يَتَكَلَّمُ فَيَتَّبِ
الضَّفْدَعُ فِي فِيهِ، فَقَالُوا لِمُوسَى: اذْءُ لَنَا رَبِّكَ يَكْشِفُ عَنَّا
هَذِهِ الضَّفَادِعَ فَنُؤْمِنُ لَكَ وَنُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا
رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ
فَكَانُوا مَا اسْتَقَمُوا مِنَ الْأَنْهَارِ وَالْآبَارِ وَمَا كَانَ فِي أَوْعِيَّتِهِمْ

بِسَبَبِ قِلَّةِ الزُّرُوعِ ﴿وَنَقِصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهُوَ
دُونَ ذَلِكَ^(١١). وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ: كَانَتْ
التَّخْلَةُ لَا تَحْمِلُ إِلَّا ثَمْرَةً وَاحِدَةً^(١٢). ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾^(١٣)
فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْمَسْتَسَةُ ﴿أَيُّ مِنَ الْخُضْبِ وَالرُّزْقِ﴾ ﴿قَالُوا لَنَا
هَذِهِ﴾ أَيُّ هَذَا لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّهُ ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ﴾ أَيُّ
جَدْبٌ وَقَحْطٌ ﴿يَطْلُبُوا يُمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أَيُّ هَذَا بِسَبَبِهِمْ
وَمَا جَاءُوا بِهِ ﴿آلَا إِنَّمَا طَلَبْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿آلَا إِنَّمَا طَلَبْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَقُولُ:
مَصَابِيَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٤).

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ
بِؤْمِينِيكَ﴾^(١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ
وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَمَّا وَقَعَ
عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْؤَسَى أُنْجُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَنْ
كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٧﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ إِذَا
هُم يَنْكُرُونَ ﴿١٣٨﴾

[تَمَرُّدُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعِقَابُ اللَّهِ لَهُمْ بِآيَاتٍ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ تَمَرُّدِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ
وَعَثْوِهِمْ وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ، وَإِضْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ فِي
قَوْلِهِمْ ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ
بِؤْمِينِيكَ﴾ يَقُولُونَ: أَيُّ آيَةٍ جِئْتَنَا بِهَا وَدَلَالَةٍ وَحُجَّةٍ أَقَمْتَهَا
رَدَدْنَاهَا فَلَا نَقْبَلُهَا مِنْكَ، وَلَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَ بِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾: عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ فِي رَوَايَةٍ: كَثْرَةُ الْأَمْطَارِ الْمُعْرِفَةُ الْمُتَلَفَةُ لِلزُّرُوعِ
وَالنَّمَارِ. وَعَنْهُ فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى: هُوَ كَثْرَةُ الْمَوْتِ. وَقَالَ
مُجَاهِدٌ: الطُّوفَانُ: الْمَاءُ وَالطَّاعُونُ عَلَى كُلِّ حَالٍ^(١٦).
وَأَمَّا الْجَرَادُ فَمَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ، وَهُوَ مَأْكُولٌ، لَمَّا نَبَتْ فِي
الصَّحِيحِينَ عَنِ أَبِي يَعْفُورٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي
أَوْفَى عَنِ الْجَرَادِ، فَقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعَ
غَزَوَاتٍ نَأْكُلُ الْجَرَادَ^(١٧). وَرَوَى الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ابْنَ
حَنْبَلٍ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ
أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَجِلْتُ
لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: الْحُوْتُ وَالْجَرَادُ، وَالْكَبِدُ
وَالطَّحَالُ»^(١٨). وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ قَالَ: كَانَتْ تَأْكُلُ
مَسَامِيرَ أَبْوَابِهِمْ وَتَدْعُ الْحَسَبَ^(١٩). وَأَمَّا الْقُمَّلُ فَعَنِ ابْنِ

(١) الطبري: ٤٦/١٣ (٢) الطبري: ٤٦/١٣ (٣) الطبري:

٤٨/١٣ (٤) الطبري: ٥٠/١٣ (٥) فتح الباري: ٥٣٥/٩

ومسلم: ١٥٤٦/٣ (٦) مسند الشافعي: ١٧٣/٢ وأحمد: ٢/

٩٧ وابن ماجه: ١٠٧٣/٢ (٧) الطبري: ٦٨/١٣ (٨)

الطبري: ٥٤/١٣ (٩) الطبري: ٥٤/١٣ (١٠) الطبري: ١٣/

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦٧

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَجَازَنَابِيْنَ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
 أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ
 قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا هِمًّا وَمِنْ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ بَعْضَ أَعْيُنِكُمْ
 وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٨﴾ وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ
 مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَبِّلُونَ
 أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ فِي ذَلِكَ لَكُم بَلَاءٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٣٩﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
 وَأْتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتَ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ
 مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
 سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ
 رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ
 إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا سَجَدَ
 رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ
 قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾

عَنْهَا عَظِيمٌ ﴿١٣٩﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِكَ
 الْأَرْضِ وَمَعَادِرِهَا آلِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيهَا وَكَمَتُ رَبِّكَ الْخُسْفَى
 عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَدَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْغَعُ فِرْعَوْنُ
 وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْشُرُونَ ﴿١٤٠﴾

[إِعْرَاقُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي السِّمِّ وَتَوْرِيثُ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوْا وَتَمَرَّدُوا مَعَ ابْتِلَائِهِ إِيَّاهُمْ
 بِالْآيَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ - وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ - انْتَقَمَ مِنْهُمْ
 بِإِعْرَاقِهِ إِيَّاهُمْ فِي السِّمِّ وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَقَهُ لِمُوسَى،
 فَجَاوَزَهُ وَبَنَى إِسْرَائِيلَ مَعَهُ، ثُمَّ وَدَّهَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ عَلَى
 إِثْرِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَكْمَلُوا فِيهِ إِزْتَطَمَ عَلَيْهِمْ فَغَرِقُوا عَنْ
 آخِرِهِمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَعَاظُلِهِمْ عَنْهَا،
 وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْرَثَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ،
 وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا.

وَجَدُوهُ دَمَا عَيْطًا، فَسَكَوْا إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ ابْتُلِينَا
 بِالْدَّمِّ وَلَيْسَ لَنَا شَرَابٌ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ سَحَرَكُمْ! فَقَالُوا: مِنْ
 أَيْنَ سَحَرْنَا وَنَحْنُ لَا نَجِدُ فِي أَوْعِينَا شَيْئًا مِنَ الْمَاءِ إِلَّا
 وَجَدْنَاهُ دَمَا عَيْطًا! فَأَتَوْهُ وَقَالُوا: يَا مُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ
 يَكْشِفْ عَنَّا هَذَا الدَّمَ، فَتُؤَمِّنَ لَكَ وَتُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يُرْسِلُوا
 مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
 وَالسُّدِّيِّ وَتَفَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ: أَنَّهُ أَخْبَرَ
 بِذَلِكَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَرَجَعَ عَدُوُّ
 اللَّهِ فِرْعَوْنَ حِينَ آمَنَتِ السَّحَرَةُ مَغْلُوبًا مَغْلُوبًا، ثُمَّ أَهَى إِلَّا
 الْإِقَامَةَ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّمَادِي فِي الشَّرِّ فَتَابَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 الْآيَاتِ فَأَخَذَهُ بِالسِّنِينَ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الطُّوفَانَ، ثُمَّ الْجَرَادَ،
 ثُمَّ الْقُمَّلَ، ثُمَّ الضَّفَادِعَ، ثُمَّ الدَّمَ، آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ،
 فَأَرْسَلَ الطُّوفَانَ وَهُوَ الْمَاءُ فَنَاضَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، ثُمَّ
 رَكَدَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَحْرِثُوا وَلَا أَنْ يَعْمَلُوا شَيْئًا حَتَّى
 جَهَدُوا جُوعًا، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلِكَ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ
 بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ لِنَكْشِفَ عَنَّا الْإِجْرَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَنَّ
 مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ
 يَقُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ فَأَكَلَ
 الشَّجَرَ فِيمَا بَلَغَنِي، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيَأْكُلُ مَسَامِيرَ الْأَبْوَابِ
 مِنَ الْحَدِيدِ حَتَّى تَقَعَ دُورُهُمْ وَمَسَاكِينُهُمْ فَقَالُوا مِثْلَ مَا
 قَالُوا. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَقُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا.
 فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ فَذَكَرَ لِي أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 أَمَرَ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى كِتَابٍ حَتَّى يَضْرِبَهُ بَعْضَاهُ فَمَسَى إِلَى
 كِتَابٍ أَهْيَلٍ عَظِيمٍ فَضْرِبَهُ بِهَا، فَاثْنَالٌ عَلَيْهِمْ قُمَّلًا حَتَّى
 غَلَبَ عَلَى النَّبِيِّ وَالْأَطْعِمَةَ، وَمَنْعَهُمُ النَّوْمَ وَالْقَرَارَ، فَلَمَّا
 جَهَدَهُمْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالُوا. فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ
 يَقُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ فَكَلَمَاتِ
 النَّبِيِّ وَالْأَطْعِمَةَ وَالْآيَةَ، فَلَا يَكْشِفُ أَحَدٌ تُوْبًا وَلَا طَعَامًا
 إِلَّا وَجَدَ فِيهِ الضَّفَادِعَ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَهَدَهُمْ ذَلِكَ
 قَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالُوا فَسَأَلَ رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَقُوا لَهُ
 بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ فَصَارَتْ مِيَاهُ آلِ
 فِرْعَوْنَ دَمَا لَا يَسْتَقُونَ مِنْ بُرٍّ وَلَا نَهْرٍ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ مِنْ
 إِنَاءٍ إِلَّا عَادَ دَمَا عَيْطًا^(١).

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبُصْرِيِّ وَقَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَسْرُوقٍ
الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا أَلِيٌّ بِنِكَاحِهَا فِيهَا﴾ يَعْنِي الشَّامَ.
وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا
صَبَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جَرِيرٍ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَزَيْدٌ
أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ آيَةً
وَجَعَلَهُمُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ وَتَمَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَزَيْدٌ فِرْعَوْنُ
وَهَمْدَنٌ وَخُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦]
وَقَوْلُهُ: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْغَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾
أَيَّ وَحَرَبْنَا مَا كَانَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ يَصْنَعُونَهُ مِنَ الْعِمَارَاتِ
وَالْمَزَارِعِ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
وَمُجَاهِدٌ: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ يَبْنُونَ^(١).

﴿وَحَنُونًا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَاوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى
أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إِنَّ هَذُلَاءَ مُتَّبِعٌ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ^(٢).

[مُجَاوِزَةً بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ وَمُرُورُهُمْ بِمَعْبُودٍ مُجَسَّمٍ]
يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا قَالَهُ جَهْلُهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ حِينَ جَاوَزُوا الْبَحْرَ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَعَظِيمِ
سُلْطَانِهِ مَا رَأَوْا ﴿فَأَتَاوْا﴾ أَيَّ فَمَرُوا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى
أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾.

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ كَانُوا مِنَ الْكِنْعَانِيِّينَ. وَقِيلَ: كَانُوا
مِنْ لَحْمٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانُوا يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا عَلَى صُورِ
الْبَهْرِ فَلِهَذَا أُنَارَ ذَلِكَ شَبَهَهُ لَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ الْعِجْلَ بَعْدَ
ذَلِكَ، فَقَالُوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أَيَّ تَجْهَلُونَ عَظَمَةَ اللَّهِ وَجَلَالَهُ، وَمَا
يَجِبُ أَنْ يُزَهَّ عَنْهُ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْمِثْلِيِّ: ﴿إِنَّ هَذُلَاءَ مُتَّبِعٌ مَا
هُمْ فِيهِ﴾ أَيَّ هَالِكٌ ﴿وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وَرَوَى
الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسيره هذه الآية عن أبي
واقد الليثي: أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى
حُثَيْنَ، قَالَ: وَكَانَ لِلْكَافِرِ سِدْرَةٌ يَعْكِفُونَ عِنْدَهَا، وَيَعْلَقُونَ
بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ - قَالَ: - فَمَرَرْنَا
بِسِدْرَةِ خَضْرَاءَ عَظِيمَةٍ قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اجْعَلْ
لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ: «فُلْتُمْ وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا
كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إِنَّ هَذُلَاءَ مُتَّبِعٌ مَا هُمْ فِيهِ
وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣).

﴿قَالَ اغْبَرِ اللَّهُ أَبْعِبْكُمْ إِلَيْهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ﴾ وَإِذْ أٰجْبَسْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ^(١)

[تَذَكِيرٌ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعْمِ اللَّهِ]

يَذَكِّرُهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِفْقَادِهِمْ
مِنْ أَشْرَفِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْهَوَانِ، وَالذَّلَّةِ،
وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالِاسْتِفَاءِ مِنْ عُدُوِّهِمْ، وَالنَّظَرِ
إِلَيْهِ فِي حَالِ هَوَانِهِ وَهَلَاكِهِ وَعَرْفِهِ، وَدَمَارِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ
تَفْسِيرُهَا فِي الْبَقْرَةِ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

﴿وَوَدَعْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَتِ رَبِّهِ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي
وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

[صَامَ مُوسَى وَأَنْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ
الْهُدَايَةِ بِتَكْلِيمِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَةَ، وَفِيهَا
أَحْكَامُهُمْ وَتَفَاصِيلُ شُرْعِهِمْ. فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ وَعَدَ مُوسَى
ثَلَاثِينَ لَيْلَةً. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: فَصَامَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَطَوَّأَهَا، فَلَمَّا تَمَّ الْوَيْفَاتُ إِشْتَاكَ بِلِحَاءِ شَجَرَةٍ فَأَمَرَهُ اللَّهُ
تَعَالَى أَنْ يُكْمِلَ بِعَشْرِ: أَرْبَعِينَ، فَلَمَّا تَمَّ الْوَيْفَاتُ وَعَزَمَ مُوسَى
عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الطُّورِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ
أَجْبَسْنَاكُمْ مِنْ عُدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾... الْآيَةَ،
فَحِينَئِذٍ اسْتَخْلَفَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ
هَارُونَ وَوَصَّاهُ بِالِإِصْلَاحِ وَعَدَمِ الْإِفْسَادِ، وَهَذَا تَنْبِيهُ
وَتَذَكِيرٌ، وَإِلَّا فَهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ شَرِيفٌ كَرِيمٌ عَلَى
اللَّهِ، لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَلَالَةٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى
سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ
قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنِ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ
رَبِّنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا
فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[طَلَبَ مُوسَى رُؤْيَةَ رَبِّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ

(١) الطبري: ٧٨/١٣، ٧٩ (٢) الطبري: ٨٠/١٣ (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦٨

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ
فَخَذَ مَاءً آتَيْتُكَ وَكُنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ
شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِحَسَنِهَا سَأُورِيكُمْ
دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٥﴾ سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا
بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْعِغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجَالًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ أَلْمِيزُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٦٨﴾ وَنَاسِقِطٍ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَّضَلُوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٩﴾

غَضَبُهُ فَلَطَمْتُهُ فَقَالَ: «لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ
النَّاسَ يَضَعْفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيضُ، فَإِذَا أَنَا
بِمُوسَىٰ أُجِزُ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أُدْرِي أَفَاقَ
قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْفَةِ الطُّورِ؟»^(٦). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي
أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ صَحِيحِهِ وَمُسْلِمٍ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ،
وَأَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ مِنْ سُنَّتِهِ^(٧). وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي
هُرَيْرَةَ فَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانُ بِنَحْوِهِ^(٨).

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ
ءَاتَيْتُكَ وَكُنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ

لِمِيقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَصَلَ لَهُ التَّكْلِيمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى
سَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ
إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تُرَىٰ﴾ حَرْفُ «لَنْ» هُنَا عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي
الدُّنْيَا. لِأَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّ
الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَمَا سُورِدَهَا عِنْدَ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [عبس: ٢٢، ٢٣].

وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ
السَّلَامُ: «يَا مُوسَىٰ! إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَتَّىٰ إِذَا مَاتَ، وَلَا يَأْسُرُ
إِلَّا تَدَهْدُهُ»^(١) وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَجَلْ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ
دَكًّا وَحَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَمَّا بَجَلْ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قَالَ: قَالَ
«هَكَذَا» يَعْنِي أَنَّهُ أَخْرَجَ طَرَفَ الْخِنْصِرِ^(٢).

وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا
حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمِيُّ فِي
مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ طَرَفِ عَنِ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ. وَقَالَ: هَذَا
حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٤). وَقَالَ
السُّدِّيُّ عَنِ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:
﴿فَلَمَّا بَجَلْ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قَالَ: مَا تَجَلَّى مِنْهُ إِلَّا قَدَرَ
الْخِنْصِرِ ﴿جَمَلَهُ دَكًّا﴾ قَالَ: تَرَابًا، ﴿وَحَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾
قَالَ: مَغْشِيًا عَلَيْهِ^(٥). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. كَمَا أَنَّ هُنَا قَرِينَةٌ
تَدُلُّ عَلَى الْعُشْيِ. وَهِيَ قَوْلُهُ ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ وَالْإِفَاقَةُ لَا تَكُونُ
إِلَّا عَنِ عَشْيٍ ﴿قَالَ سُبْحَانِكَ﴾ تَنْزِيهًا وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا أَنْ
يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ. وَقَوْلُهُ ﴿ثُبَّتْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ
مُجَاهِدٌ: أَنْ أَسْأَلَكَ الرُّؤْيَةَ، ﴿وَأَنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنَّهُ
لَا يَرَاكَ أَحَدٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فِيهِ أَبُو سَعِيدٍ
وَأَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: فَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ فَأَسْنَدُهُ
الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ هُنَا، عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ
الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ لَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ
رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ لَطَمَ وَجْهِي، قَالَ:
«اذْعُوهُ» فَذَعُوهُ. قَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ! إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِيِّ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اضْطَمَى
مُوسَىٰ عَلَى الْبَشَرِ قَالَ: قُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ؟ وَأَخَذْتَنِي

(١) البداية والنهاية: ١١٢/٣ (٢) أحمد: ١٢٥/٣ (٣) تحفة
الأحودي: ٤٥١/٨ (٤) الحاكم: ٣٢٠/٢ (٥) الطبري: ١٣/
٩٧ (٦) فتح الباري: ١٥٢/٨ (٧) البخاري: ٢٤١٢، ٣٣٩٨،
٤٦٣٨، ٦٩١٧، ٧٤٢٧، ٦٥١٨ ومسلم: ٢٣٧٤ وأبو داود:
٤٦٦٨ (٨) أحمد: ٢٦٤/٢ وفتح الباري: ٤٥٥/١٣ ومسلم:
١٨٤٤/٤

قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَبًا سَأْوِيكَو دَارِ الْفٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

[اضطفاء موسى وإعطائه الألواح]

يَذُكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَاطَبَ مُوسَى بِأَنَّهُ اضْطَفَاهُ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ بِرِسَالَاتِهِ تَعَالَى وَبِكَلَامِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَلِهَذَا اخْتَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ جَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِي تَسْتَوِي شَرِيعَتُهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَأَتْبَاعُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ الْحَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ﴾ أَي مِنَ الْكَلَامِ وَالْمُنَاجَاةِ ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَي عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تَطْلُبْ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ، قِيلَ: كَانَتْ الْأَلْوَحُ مِنْ جَوْهَرٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ وَأَحْكَامًا مُفَصَّلَةً مُبَيَّنَّةً لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَحُ مُشْتَمِلَةً عَلَى التَّوْرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [الفصص: ٤٣] وَقِيلَ: الْأَلْوَحُ أَعْطَاهَا مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أَي بِعِزْمٍ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَبًا﴾ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعْدٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَأْخُذَ بِأَشَدِّ مَا أَمَرَ قَوْمُهُ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿سَأْوِيكَو دَارِ الْفٰسِقِينَ﴾ أَي سَتَرُونَ عَاقِبَةَ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي، كَيْفَ يَصِيرُ إِلَى الْهَلَاكِ وَالذَّمَّارِ وَالتَّيِّبِ؟.

﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا بِآيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئًا لِرُشْدٍ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئًا لِقِيٍّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [١٤٦] وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ سَبِيلًا لِقِيٍّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٧﴾ وَكَانُوا يَتَّخِذُونَ سَبِيلًا لِقِيٍّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٨﴾ وَكَانُوا يَتَّخِذُونَ سَبِيلًا لِقِيٍّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٩﴾

[يُحَرِّمُ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَي سَأَمْنَعُ فَهَمَّ الْحُجَجِ وَالْأَدْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَي كَمَا اسْتَكْبَرُوا

بِغَيْرِ حَقٍّ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ بِالْجَهْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قَالَ: أَنْزَعُ عَنْهُمْ فَهَمَّ الْقُرْآنِ وَأَصْرَفُهُمْ عَنْ آيَاتِي^(٢). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخُطَابَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ^(٣).

(قُلْتُ) لَيْسَ هَذَا بِالْأَزْمِ لِأَنَّ ابْنَ عُيَيْنَةَ إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ هَذَا مُطَرَّدٌ فِي حَقِّ كُلِّ أُمَّةٍ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ وَآخَرَ فِي هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا بِآيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٤٦] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كَلِمَةٌ بِآيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أَي وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ سَبِيلُ الرُّشْدِ أَي طَرِيقُ النِّجَاةِ لَا يَسْلُكُوهَا، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ طَرِيقُ الْهَلَاكِ وَالضَّلَالِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ثُمَّ عَلَّلَ مَصِيرَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَي كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أَي لَا يَعْلَمُونَ [شَيْئًا مِمَّا] فِيهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَسِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أَي مَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ حَسِطَ عَمَلُهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي إِنَّمَا نُجَازِيهِمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ وَكَمَا تَدِينُ ثُنَّانُ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَوَعَدْنَا الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ﴾ [١٤٧] وَكَانُوا يَتَّخِذُونَ سَبِيلًا لِقِيٍّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٨﴾ وَكَانُوا يَتَّخِذُونَ سَبِيلًا لِقِيٍّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٩﴾

[قِصَّةُ عِبَادَةِ الْعِجَلِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالٍ مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجَلِ الَّذِي اتَّخَذَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ، مِنْ حُلِيِّ الْقَبِيطِ

(١) الطبري: ١١٠/١٣ إسناده ضعيف فيه أبو سعد هو البقال سعيد بن مرزبان الكوفي الأعور ضعيف مدلس [تقريب] قال البخاري منكر الحديث قال ابن عدي هو في جملة الضعفاء [التاريخ الكبير ٥١٥/٢ الكامل في ضعفاء الرجال ٢/٢٨٣].

(٢) الطبري: ١١٢/١٣ (٣) الطبري: ١١٣/١٣

الزُّمَرِ

١٦٩

سُورَةُ الزُّمَرِ

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
 مِن بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
 أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا
 يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي
 رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 الْعِجْلَ سَيْنًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
 تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا بِرَبِّكَ مِن بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ
 ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِي
 دُخَانٍ مُّهِيبٍ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ
 مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
 قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي أَهْلِكُكُمْ إِنَّمَا فَعَلَ
 السَّفَهَاءُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ لِّمِيقَاتِنَا فَاعْفُرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء
 سلفاً وخلفاً. وقوله: ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ خوفاً أن
 يكون قد قصر في نهيبهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال
 يهرون ما معك إذ رأيهم صلوا﴾ ألا تتعبت أفصبت أمري ﴿١٥٤﴾
 قال يبنوم لا تأخذ يلجيتي ولا يرأسني إني خيبت أن تقول فرقت
 بين بني إسرئيل ولم ترقت قولي ﴿طه: ٩٢-٩٤﴾ وقال ههنا:
 ﴿ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي
 الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي لا تشفني مساقفهم
 ولا تخلطني معهم وإنما قال: ابن أم ليكون أرق وأنجع
 عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه
 السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى:
 ﴿ولقد قال لهم هرون من قبل يقولون إنما فتنتم به وإن ربكم
 الرحمن فاليعوب وطيعوا أمري﴾ ﴿طه: ٩٠﴾ فيند ذلك ﴿قال﴾
 موسى ﴿رب اغفر لي وإخوتي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم
 الراحمين﴾

الَّذِي كَانُوا اسْتَعَارَوْهُ مِنْهُمْ فَسَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا، ثُمَّ أَلْقَى
 فِيهِ الْقَبْضَةَ مِنَ الثَّرَابِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ - وَالْخَوَارُ: صَوْتُ
 الْبَقْرِ - وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِيَمِيقَاتِ رَبِّهِ
 تَعَالَى، فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّورِ، حَيْثُ
 يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ
 مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿طه: ٨٥﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ
 الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْعِجْلِ هَلْ صَارَ لَحْمًا وَدَمًا لَهُ خَوَارٌ، أَوْ
 اسْتَمَرَّ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ ذَهَبٍ إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيُصَوِّتُ
 كَالْبَقْرِ عَلَى قَوْلَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمَّا صَوَّتَ لَهُمْ
 الْعِجْلُ رَفِضُوا حَوْلَهُ وَافْتَتِنُوا بِهِ وَقَالُوا: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ
 مُوسَى فَتَسْبِي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنِّي أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا
 وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ﴿طه: ٨٩﴾ وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
 الْكَرِيمَةِ: ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يُكَبِّرُ
 تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ بِالْعِجْلِ وَدُهُولِهِمْ عَنِ خَالِقِ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ أَنْ عَبَدُوا مَعَهُ
 عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ، لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى خَيْرٍ،
 وَلَكِنْ غُطِّيَ عَلَى أَعْيُنِ بَصَائِرِهِمْ عَمَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أَي نَدَمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا
 ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا فَأَلَوْا لَيْنَ لَمْ يَرَحْمَتَا رَبُّنَا وَيَغْفِرَ لَنَا﴾
 وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَيْنَ لَمْ تَرَحْمَنَا﴾ بِالنَّاءِ الْمُثَنِّاةِ مِنْ فَوْقِ (رَبَّنَا)
 مُنَادَى (وَتَغْفِرْ لَنَا) ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَي مِنَ الْهَالِكِينَ،
 وَهَذَا إِعْرَافٌ مِنْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَالنِّجَاءُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.
 ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ
 بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ
 إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ
 بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
 لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾
 يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ
 مُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَعَالَى وَهُوَ غَضْبَانٌ أَسِيفٌ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:
 الْأَسِيفُ: أَشَدُّ الْغَضَبِ. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾
 يَقُولُ: بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ
 وَتَرَكَتْكُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يَقُولُ: اسْتَعْجَلْتُمْ
 مَجِيئِي إِلَيْكُمْ وَهُوَ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ
 وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَا جَاءَ فِي
 الْحَدِيثِ: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمَعَايِنَةِ» (١) ثُمَّ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّهُ إِنَّمَا

الرَّحِيمِ ﴿ وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمُعَانِينَ كَالْمُخْبِرِ، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ قَتَلُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يَلْقَ الْأُلُوحَ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَعَابَتْهُمْ أَلَّتْهُ الْأُلُوحُ»^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَعَمَّنَا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٧﴾﴾

أَمَّا الْعُضْبُ الَّذِي نَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ فَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْ لَهُمْ تَوْبَةَ حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاتْلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] وَأَمَّا الذَّلَّةُ فَاعْتَبَهُمْ ذَلِكَ ذُلًّا وَصَغَارًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾...

نَائِلَةٌ لِّكُلِّ مَنِ افْتَرَىٰ بَدْعَةً، فَإِنَّ ذُلَّ الْبِدْعَةِ وَمُخَالَفَةَ الرِّسَالَةِ مُتَّصِلَةٌ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى كَيْفِيهِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ ذُلَّ الْبِدْعَةِ عَلَىٰ أَكْتِفَائِهِمْ وَإِنْ هَمَلَجَتْ بِهِمُ النَّعْلَاتُ وَطَقَطَقَتْ بِهِمُ الْبِرَادِينُ. وَهَكَذَا رَوَى أَبُو بَسْمَانَ السَّخَيَّانِيُّ عَنِ أَبِي قِلَابَةَ الْجَرْمِيِّ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فَقَالَ: هِيَ وَاللَّهِ لِكُلِّ مُفْتَرٍ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢).

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كُلُّ صَاحِبٍ بِدْعَةٍ ذَلِيلٌ^(٣). ثُمَّ تَبَّهَ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَىٰ أَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عِبَادِهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شِرْكٍ أَوْ يَفَاقٍ أَوْ شِقَاقٍ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الْفِصَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَعَمَّنَا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ سَأَلَ عَنِ ذَلِكَ يَعْنِي عَنِ الرَّجُلِ يُزْنِي بِالْمَرْأَةِ ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَعَمَّنَا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٥٦﴾ فَتَلَاهَا عَبْدُ اللَّهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَأْمُرْهُمُ بِهَا وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْهَا^(٤).

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأُلُوحَ وَفِي سَخِّهَا

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

[أَخَذَ مُوسَى الْأُلُوحَ بَعْدَ أَنْ سَكَتَ الْغَضَبُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أَي سَكَنَ ﴿عَن مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أَي غَضِبَهُ عَلَى قَوْمِهِ ﴿أَخَذَ الْأُلُوحَ﴾ أَي الَّتِي كَانَ أَلْفَاها مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ عَلَى عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، غَيْرَةَ اللَّهِ

وَعَضْبًا لَهُ ﴿وَفِي سَخِّهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهَا لَمَّا أَلْفَاها تَكَسَّرَتْ ثُمَّ جَمَعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: فَوَجَدَ فِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً. وَأَمَّا التَّفْصِيلُ: فَذَهَبَ. وَزَعَمُوا أَنَّ رُضَاصَهَا لَمْ يَزَلْ مَوْجُودًا فِي خَزَائِنِ الْمُلُوكِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ هَذَا. وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْفَاطِعُ عَلَى أَنَّهَا تَكَسَّرَتْ حِينَ أَلْفَاها، وَهِيَ مِنْ جَوَاهِرِ الْجَنَّةِ فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَهَا بَعْدَ مَا أَلْفَاها وَجَدَ فِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ. صَمَّنَ الرَّهْبَةَ مَعْنَى الْخُضُوعِ، وَلِهَذَا عَدَّاهَا بِالْأَلَمِ.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيمِيقِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَتَّبِعُكُمَا بِمَا فَعَلَ الْأَشْقَهَاءُ مِنِّي إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِنَّا إِلَيْكَ

ذَهَابُ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمِيقَاتِ رَبِّهِمْ،

وَإِهْلَاكُهُمْ

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: كَانَ اللَّهُ أَمْرَهُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا فَاخْتَارَ سَبْعِينَ رَجُلًا، فَبَرَزَ بِهِمْ لِيَدْعُو رَبَّهُمْ وَكَانَ فِيمَا دَعَا اللَّهُ أَنْ قَالُوا: اللَّهُمَّ أَعْظِمْنَا مَا لَمْ تُعْظِهِ أَحَدًا قَبْلَنَا، وَلَا تُعْظِهِ أَحَدًا بَعْدَنَا، فَكِرَهُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ دَعَائِهِمْ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةَ، قَالَ مُوسَى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَتَّبِعُكَ الْآيَةَ^(٥)﴾. وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَهُ فِي ثَلَاثِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَعْتَدِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَوَعَدَهُمْ مَوْعِدًا ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ عَلَى عَيْنَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمْ لِيَعْتَدِرُوا فَلَمَّا أَتَوْا ذَلِكَ الْمَكَانَ قَالُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ يَا مُوسَى ﴿حَتَّىٰ رَى اللَّهُ جَهْرَةً﴾ فَإِنَّكَ قَدْ كَلَّمْتَهُ فَأَرَانَاهُ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] فَمَا تَوَا، فَتَمَّامَ مُوسَى يَبْكِي وَيَدْعُو اللَّهَ وَيَقُولُ: رَبِّ مَاذَا أَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا لَقَيْتُهُمْ وَقَدْ أَهْلَكْتَ خِيَارَهُمْ؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَتَّبِعُكَ^(٦)﴾. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: اخْتَارَ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَبْعِينَ رَجُلًا الْخَيْرَ فَالْخَيْرِ،

(١) ابن ماجه: ٢/٣٨٠ (٢) الطبري: ١٣/١٣٥ (٣) الطبري:

١٣٦/١٣ (٤) الدر المنثور: ٣/٥٦٦ (٥) الطبري: ١٣/

١٤١ (٦) الطبري: ١٣/١٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٠

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿وَأَكْتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَدَابِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّيِّبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْحَسَنَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [الآية: ٢٠١] ﴿إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ أَي تَبْنَا وَرَحِمْنَا وَأَنْبَأْنَا إِلَيْكَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكُ وَإِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٤). وَهُوَ كَذَلِكَ لَعَنَهُ.

﴿قَالَ عَدَابِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ

بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

[رَحْمَةُ اللَّهِ مَكْتُوبَةٌ لِلْمُتَّقِينَ الْمُرَكَّبِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ

وَبِرَسُولِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِنَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: ﴿عَدَابِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أَي أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ وَأَحْكُمُ مَا أُرِيدُ، وَلِي الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ، سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿قَالَ: انْطَلِقُوا إِلَى اللَّهِ فَتُوبُوا إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعْتُمْ وَسلُوهُ التَّوْبَةَ عَلَى مَنْ تَرَكْتُمْ وَرَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ، صُومُوا وَطَهَّرُوا وَطَهَّرُوا ثِيَابَكُمْ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سِنَاءَ لِمِيقَاتٍ وَقَتَهُ لَهُ رَبُّهُ، وَكَانَ لَا يَأْتِيهِ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْهُ وَعِلْمٍ، فَقَالَ لَهُ السَّعُونَ - فِيمَا ذَكَرَ لِي - حِينَ صَنَعُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَخَرَجُوا مَعَهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ لِمُوسَى: أَطْلُبْ لَنَا نَسْمَعَ كَلَامَ رَبِّنَا، فَقَالَ: أَفْعَلْ، فَلَمَّا دَنَا مُوسَى مِنَ الْجَبَلِ وَقَعَ عَلَيْهِ عُمُودُ الْعَمَامِ حَتَّى تَغَشَى الْجَبَلَ كُلَّهُ، وَدَنَا مُوسَى فَدَخَلَ فِيهِ وَقَالَ لِلْقَوْمِ: أَذْنُوا وَكَانَ مُوسَى إِذَا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَقَعَ عَلَى جَبْهَةِ مُوسَى نُورٌ ساطِعٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَضَرَبَ دُونَهُ بِالْحِجَابِ وَدَنَا الْقَوْمُ، حَتَّى إِذَا دَخَلُوا فِي الْعَمَامِ وَقَعُوا سُجُودًا فَمَسِعُوهُ وَهُوَ يُكَلِّمُ مُوسَى بِأَمْرِهِ وَيَنْهَاهُ، إِفْعَلْ وَلَا تَعْمَلْ. فَلَمَّا فَرَعَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ انْكَشَفَ عَنْ مُوسَى الْعَمَامُ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا مُوسَى! لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ وَهِيَ الصَّاعِقَةُ [فَأَقْبَلَتْ] أَرْوَاهُمْ فَمَاتُوا جَمِيعًا، فَقَامَ مُوسَى يُنَادِي رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي﴾ قَدْ سَفِهُوا، أَفْقَهْلُكَ مَنْ وَرَائِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟^(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ جُرَيْرٍ: إِنَّهُمْ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُزَابِلُوا قَوْمَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ الْعَجَلَ وَلَا نَهَوْهُمْ^(٢). وَيَتَوَجَّهُ هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِ مُوسَى: ﴿أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ أَلْسِنَاهُمْ مِثْلًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أَيِ الْإِتْلَاقِ وَاخْتِبَارِكِ وَامْتِحَانِكِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ^(٣). وَلَا مَعْنَى لَهُ غَيْرُ ذَلِكَ، يَقُولُ: إِنْ الْأَمْرُ إِلَّا أَمْرُكَ وَإِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لَكَ فَمَا شِئْتَ كَانَ، تُضَلُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، وَلَا هَادِي لِمَنْ أَضَلَّتْ وَلَا مُضِلٌّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعٌ لِمَا أُعْطِيتَ، فَالْمُلْكُ كُلُّهُ لَكَ وَالْحُكْمُ كُلُّهُ لَكَ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ سَرُّ الْعَافِرِينَ﴾ الْعَفْرُ هُوَ السُّرُّ وَتَرَكَ الْمُواخَذَةَ بِالذَّنْبِ، وَالرَّحْمَةُ إِذَا قُرِنَتْ مَعَ الْعَفْرِ يُرَادُ بِهَا أَنْ لَا يُوقَعُ فِي مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿وَأَنْتَ سَرُّ الْعَافِرِينَ﴾ أَي لَا يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِلَّا أَنْتَ. ﴿وَأَكْتُبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ مِنَ الدُّعَاءِ لِدَفْعِ الْمَحْذُورِ وَهَذَا لِتَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ ﴿وَأَكْتُبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَي أَوْجِبْ لَنَا وَأَنْبِئْ لَنَا فِيهِمَا حَسَنَةً.

(١) الطبري: ١٤٠/١٣ (٢) الطبري: ١٤٣/١٣، ١٤٤ (٣) الطبري: ١٥١/١٣ (٤) الطبري: ١٥٤/١٣

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، فكأنه تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله، أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [إغافر: ١٧]. وروى الإمام أحمد عن جندب وهو ابن عبد الله الجعفي رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقّلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقّلها ثم ركبها ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشركني في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أصل أم بغيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى، قال: «لقد حظرت رحمة واسعة، إن الله عز وجل خلق مائة رحمة، فأنزّل رحمة يتعاطف بها الخلق جنبها وإنسها وبهائيمها وأخر عنده تسعا وتسعين رحمة. أتقولون هو أصل أم بغيره؟»^(١) رواه أحمد وأبو داود^(٢). وروى الإمام أحمد أيضاً عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل مائة رحمة فمئتها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة»^(٣) تفرد بإخراجه مسلم^(٤). وقوله: ﴿سَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾... الآية، يعني فسأوجب حصول رحمتي منه مني وإحساناً إليهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي سأجعلها للمتقين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الشرك والعظائم من الذنوب. قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس وقيل: الأموال ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكتبة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي يصدقون.

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، فكأنه تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله، أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [إغافر: ١٧]. وروى الإمام أحمد عن جندب وهو ابن عبد الله الجعفي رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقّلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقّلها ثم ركبها ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشركني في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أصل أم بغيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى، قال: «لقد حظرت رحمة واسعة، إن الله عز وجل خلق مائة رحمة، فأنزّل رحمة يتعاطف بها الخلق جنبها وإنسها وبهائيمها وأخر عنده تسعا وتسعين رحمة. أتقولون هو أصل أم بغيره؟»^(١) رواه أحمد وأبو داود^(٢). وروى الإمام أحمد أيضاً عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل مائة رحمة فمئتها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة»^(٣) تفرد بإخراجه مسلم^(٤). وقوله: ﴿سَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾... الآية، يعني فسأوجب حصول رحمتي منه مني وإحساناً إليهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي سأجعلها للمتقين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الشرك والعظائم من الذنوب. قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس وقيل: الأموال ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكتبة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُونَ مَكْنُوبًا﴾ عندهم في التورينة والإيجيل بأمرهم بالمعروف وبنهتهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبيات ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا بهم وعززوه ونصروهم وآتبعوا الشور الذي أنزل معه

أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

[صِفَاتُ ذَلِكَ الرَّسُولِ ﷺ]

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُونَ مَكْنُوبًا﴾ عندهم في التورينة والإيجيل. وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه وأمرهم بتابعه، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم.

(١) أحمد: ٣١٢/٤ إسناده ضعيف لجهالة أبي عبدالله الجعفي وأصل الحديث عند البخاري في كتاب الآداب (٦٠١٠) من حديث أبي هريرة مختصراً (٢) أبو داود: ١٩٧/٥ (٣) أحمد: ٤٣٩/٥ (٤) مسلم: ٢١٠٨/٤ (٥) أحمد: ٤١١/٥ (٦) فتح الباري: ٢٥٩/٣ (٧) الطبري: ١٦٤/١٣ (٨) فتح الباري: ٤/٤٠٢ يبدو أن نسخة الطبري عند ابن كثير كانت خالية من هذه الزيادة، وإلا فهي موجودة عند الطبري المطبوع. كما بأعلاه.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هَذِهِ صِفَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمَتَّقِمَةِ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَن شَرٍّ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٠٢] فَأَرْعَاهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ. وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ وَأَعْظَمِهِ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالنَّهْيِ عَنِ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ كَمَا أَرْسَلَ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أَيُّ يُحِلُّ لَهُمْ مَا كَانُوا حَرَمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ وَالْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ضَمُّوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ لَحْمِ الْخَنزِيرِ وَالرَّبَا، وَمَا كَانُوا يَسْتَجْلِسُونَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَأْكَلِ الَّتِي حَرَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ أَنَّهُ جَاءَ بِالتَّيسِيرِ وَالسَّمَاخَةِ وَقَالَ ﷺ لِأَمِيرِهِ مُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ لَمَّا بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ: «بَشِّرَا وَلَا تُفْرَا وَبَشِّرَا وَلَا تُعْسِرَا وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا» (٢). وَقَالَ صَاحِبُهُ أَبُو بَرزَةَ الْأَسْلَمِيُّ: إِنِّي صَحَبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَشَهِدْتُ تَبْسِيرَهُ، وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَمُ الَّتِي قَبَلْنَا فِي شَرَائِعِهِمْ ضَيْقٌ عَلَيْهِمْ، فَوَسَّعَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أُمُورَهَا وَسَهَّلَهَا لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ» (٣). وَقَالَ: «رُفِعَ عَنِ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْبَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» (٤) وَلِهَذَا أَرشَدَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وَتَبَّتْ فِي صَاحِبِ مُسْلِمٍ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ كُلِّ سُؤَالٍ مِنْ هَذِهِ: قَدْ فَعَلْتُ. قَدْ فَعَلْتُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أَيُّ عَظَّمُوهُ وَوَقَرُّوهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبَعُوا النَّورَ الَّتِي أَنْزَلَ مَعَهُ﴾ أَيُّ الْقُرْآنَ وَالْوَحْيَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلِّغًا إِلَى النَّاسِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ

(١) الطبري: ١٣/١٦٦ (٢) فتح الباري: ٥/١٨٨ (٣) فتح الباري: ٩/٣٠٠ (٤) ابن ماجه: ١/٦٥٩ (٥) فتح الباري: ٨/١٥٣

وَقَطَعْنَهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُوا فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّفَعِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذ تَأْتِيهِمْ حِيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُوا فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفَعِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَا كُلِّهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَهِيَ مَدِينَةٌ، وَهَذَا السِّيَاقُ مَكِّيٌّ وَبَثْنًا عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا السِّيَاقِ وَذَلِكَ، بِمَا أُغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا. وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿ وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ

اللَّهُ ﷻ قَالَ: «أَعْطَيْتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيِّ قَبْلِي وَلَا أَقُولُهُ فَخَرًا: بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً: الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ، وَنَصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَخِي قَبْلِي، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ فَأَخْرَجْتُهَا لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(١) إِسْنَادٌ جَيِّدٌ وَلَمْ يُخْرَجُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صِفَةٌ ﴿اللَّهُ﴾ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أَي الَّذِي أَرْسَلْنِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَأْتُونَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ. ﴿النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾ أَي الَّذِي وَعَدْتُمْ بِهِ وَبَشَّرْتُمْ بِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُنْتَهَمَةِ، فَإِنَّهُ مُنْعَوْتٌ بِذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يُؤْتِي بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتَ وَمَا يَحْتَفِظُ بِهِ كُلٌّ فِي عِلْمِ اللَّهِ﴾ أَي يُصَدِّقُ قَوْلَهُ عَمَلُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴿وَأَتَّبِعُوهُ﴾ أَي اسْلُكُوا طَرِيقَهُ وَاقْتَمُوا أَثَرَهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

﴿وَمَنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَيَهْدِيهِمْ﴾ ﴿١٦٤﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ: أَنَّ مِنْهُمْ طَائِفَةً يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَيَعْدِلُونَ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْفَعُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ثَمًّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا بُدئَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنَ الْقَائِلِينَ مُّسْلِمِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأنعام: ٥٦-٥٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بُدئَ عَلَيْهِمُ مَجْرُورًا لِلَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧١﴾ وَيَخْرُجُونَ لِلَّذِينَ اتَّبَعَتْهُمْ يُنَبِّئُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

(١) أحمد: ٣٠١/١ هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد الهاشمي لكن هذا الحديث صحيح بالشواهد ومنها حديث جابر عند أحمد ٣/٣٠٤ والبخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) وحديث أبي ذر عند أحمد ٥/١٤٥، ١٤٨، ١٦١، وحديث عبدالله بن عمرو عند أحمد ٢/٢٢٢.

﴿وَقَطَعْنَهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٧٢

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَأَقَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ

عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ لِي رَبِّكُمْ وَعَلَّاهُمْ يَنْفُونَ ﴿١٦٦﴾

فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ

وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٧﴾

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٨﴾

وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لِيَبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ

يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٩﴾ وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَمْمَاتٍ مِنْهُمْ

الضَّالِّحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ

وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٠﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ

وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا

وإن يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ الرَّبُّ يُوخِّدُهُمْ مِثْلُ الْكِتَابِ

أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ

خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ وَالَّذِينَ يَمَسِّكُونَ

بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضْمِعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٢﴾

[مَسْخُحُهُمْ قِرَدَةٌ وَنَجَاةُ النَّاهِينَ دُونَ السَّاكِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى ثَلَاثِ

فِرْقٍ: فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتِ الْمُحْذَرَّ وَاحْتَالُوا عَلَى اضْطِغَادِ

السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَفِرْقَةٌ

نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ وَاعْتَزَلَتْهُمْ. وَفِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْهَ

وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكَرَةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ

مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَيْ لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلَاءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ

قَدْ هَلَكُوا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ مِنَ اللَّهِ؟ فَلَا فَائِدَةَ فِي نَهْيِكُمْ

يَا هُمْ، قَالَتْ لَهُمُ الْمُنْكَرَةُ: ﴿مَعذِرَةٌ لِي رَبِّكُمْ﴾ أَيْ فِيمَا

(١) الطبري: ١٨٠/١٣ (٢) الطبري: ١٨١، ١٨٠/١٣ (٣)

الطبري: ١٨٣/١٣ الضحاك لم يسمع من ابن عباس كما

تقدم (٤) الطبري: ١٨٣/١٣ (٥) الزفاف: ١٩٢ إرواء الغليل

١٥٣٥/٥ قال الألباني: وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات معروفون

من رجال "التهذيب" غير أبي الحسن أحمد بن محمد بن مسلم وهو المخرمي كما جاء منسوبا في أكثر من موضع من كتابه الآخر "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية" (١١٩/١٤٤٦ و ٢) وأما

يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِئَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ

شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا

كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾

[عُدْوَانُ الْيَهُودِ فِي السَّبْتِ]

هَذَا السِّيَاقُ هُوَ بَسْطُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ

اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الْآيَةُ [البقرة: ٦٥]، يَقُولُ تَعَالَى

لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ أَيْ وَاسْأَلَ

هُؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ

خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ، فَجَاجَأْتَهُمْ نِقْمَتُهُ عَلَى صَيِّعِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ

وَاحْتِيَالِهِمْ فِي الْمُخَالَفَةِ، وَحَذَّرَ هَؤُلَاءِ مِنْ كَيْفَانِ صِفَتِكَ

الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي كُتُبِهِمْ لِقَوْلِهِ لِقَوْلِهِمْ مَا حَلَّ بِهِنَّ مَا يَأْخُذُونَ

وَسَأَلْتَهُمْ. وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ هِيَ «أَيْلَةَ» وَهِيَ عَلَى شَاطِئِ بَحْرِ

الْقَلْزُومِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ

عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ

الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قَالَ: هِيَ قَرْيَةٌ يُقَالُ

لَهَا: «أَيْلَةُ»، بَيْنَ مَدْيَنَ وَالطُّورِ^(١). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ

وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي

السَّبْتِ﴾ أَيْ يَعْتَدُونَ فِيهِ وَيُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ لَهُمْ بِالْوَصَاةِ

بِهِ إِذْ ذَاكَ ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِئَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾.

قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ ظَاهِرَةٌ عَلَى الْمَاءِ^(٣).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ

كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ﴾ أَيْ نَحْتَبِرُهُمْ بِإِظْهَارِ السَّمَكِ لَهُمْ عَلَى

ظَهْرِ الْمَاءِ فِي الْيَوْمِ الْمُحْرَمِ عَلَيْهِمْ صَيْدُهُ وَإِخْفَائِهِ عَنْهُمْ فِي

الْيَوْمِ الْحَلَالِ لَهُمْ صَيْدُهُ ﴿كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ﴾ نَحْتَبِرُهُمْ

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يَقُولُ: يَفْسُقُهُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ

وَخُرُوجِهِمْ عَنْهَا^(٤). وَهُؤُلَاءِ قَوْمٌ إِحْتَالُوا عَلَى انْتِهَاكِ

مَحَارِمِ اللَّهِ بِمَا تَعَاطَوْا مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي مَعَنَاهَا

فِي الْبَاطِنِ: تَعَاطَى الْحَرَامِ. وَقَدْ رَوَى الْفَقِيهَ الْإِمَامُ أَبُو

عَبْدِ اللَّهِ بْنُ بَطَّةَ رَجَمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

قَالَ: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ فَتَسْتَجِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ

بِأَذْنِ الْحَيْلِ»^(٥). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ لِي رَبِّكُمْ وَعَلَّاهُمْ يَنْفُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا سَأَلُوا مَا

ذُكِّرُوا بِهِ أَجَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا

بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ

قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٨﴾

أَخَذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يَقُولُونَ: وَلَعَلَّهُمْ لِهَذَا الْإِنْكَارِ يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتْرُكُونَهُ وَيَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ، فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أَي فَمَا أَبِي الْفَاعِلُونَ قَبُولِ النَّصِيحَةِ ﴿أَجْمِئًا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي إِرْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فَصَصَ عَلَى نَجَاةِ التَّائِبِينَ وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ وَسَكَتَ عَنِ السَّائِبِينَ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَذْحًا فِيمَدَحُوا وَلَا إِرْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُدْمَنُوا. وَعَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ، قَالَ: مَا أَدْرِي أَتَجَا الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أَمْ لَا؟ قَالَ: فَلَمْ أَرْزَلْ بِهِ حَتَّى عَرَفْتُهُ أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فَكَسَانِي حُلَّةً^(١).

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الَّذِينَ صَلَّيْهِمْ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَيَكْفُرُونَ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٦٧﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِثْلُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارِ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦٨﴾ وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿١٦٩﴾

[التَّيْسَارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ]

يَذُكِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَرَقَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا، أَي طَوَائِفَ وَفَرَقًا كَمَا قَالَ: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُتُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] ﴿مِنْهُمْ الَّذِينَ صَلَّيْهِمْ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الإسراء: ١٠٤] أَي فِيهِمْ الصَّالِحُ وَعَبْرَ ذَلِكَ كَقَوْلِ الْجِنِّ: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ فِدَاك﴾ [الجن: ١١] ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ أَي اخْتَبَرْنَا هُمْ ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أَي بِالرَّحَاءِ وَالسَّدَّةِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْعَاقِبَةِ وَالْبَلَاءِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ الْآيَةَ: يَقُولُ تَعَالَى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْجِيلِ الَّذِينَ فِيهِمْ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ خَلَفَ آخَرَ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَقَدْ وَرَثُوا دِرَاسَةَ الْكِتَابِ وَهُوَ التَّوْرَةُ: وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قَالَ: لَا يَشْرَفُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا أَخَذُوهُ - حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا - وَيَتَمَتَّعُونَ الْمَغْفِرَةَ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ إِي وَاللَّهِ لَخَلَفُ سُوءٍ ﴿وَرَثُوا الْكِتَابَ﴾ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ

أَخَذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يَقُولُونَ: وَلَعَلَّهُمْ لِهَذَا الْإِنْكَارِ يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتْرُكُونَهُ وَيَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ، فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أَي فَمَا أَبِي الْفَاعِلُونَ قَبُولِ النَّصِيحَةِ ﴿أَجْمِئًا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي إِرْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فَصَصَ عَلَى نَجَاةِ التَّائِبِينَ وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ وَسَكَتَ عَنِ السَّائِبِينَ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَذْحًا فِيمَدَحُوا وَلَا إِرْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُدْمَنُوا. وَعَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ، قَالَ: مَا أَدْرِي أَتَجَا الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أَمْ لَا؟ قَالَ: فَلَمْ أَرْزَلْ بِهِ حَتَّى عَرَفْتُهُ أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فَكَسَانِي حُلَّةً^(١).

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ بِالْمُفْهُومِ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ بَقُوا نَجَوْا. وَ﴿بَئِيسٍ﴾ مَعْنَاهُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ: الشَّدِيدُ^(٢). وَفِي رِوَايَةٍ: أَلِيمٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُوجَعٌ^(٣). وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿خَسِيسٍ﴾ أَي ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ مَهَانِينَ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبَكَ لِيُبَعِّثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْؤِمُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ

رَجِيمٌ﴾ ﴿١٧٠﴾

[الذَّلَّةُ الدَّائِمَةُ لِلْيَهُودِ]

﴿تَأَذَّتْ﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الْأَذَانِ أَي: أَعْلَمَ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَمَرَ. وَفِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُفِيدُ مَعْنَى الْقَسَمِ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ، وَلِهَذَا [تَلَقَّيْتُ] بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيُبَعِّثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أَي عَلَى الْيَهُودِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْؤِمُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَي بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَاحْتِيَالِهِمْ عَلَى الْمَحَارِمِ، وَيُقَالُ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْخَرَاجَ سَبْعَ سِنِينَ، وَقِيلَ: ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ الْخَرَاجَ ثُمَّ كَانُوا فِي قَهْرِ الْمُلُوكِ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَالْكُشْدَانِيِّينَ وَالْكَلْدَانِيِّينَ، ثُمَّ صَارُوا إِلَى قَهْرِ النَّصَارَى وَإِذْلَالِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَأَخَذِهِمْ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ وَالْخَرَاجَ. ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَكَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَذِمَّتِهِ يُؤَدُّونَ الْخَرَاجَ وَالْجِزْيَةَ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: هِيَ الْمَسْكَنَةُ وَأَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ^(٤). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: يَسْتَحِبُّ أَنْ تُبَعِّتَ الْأَبْطَاطُ فِي الْجِزْيَةِ^(٥). قُلْتُ: ثُمَّ آخِرُ

(١) الطبري: ١٨٧/١٣ (٢) الطبري: ٢٠٢/١٣ (٣) الطبري:

٢٠٢/١٣ (٤) الطبري: ٢٠٥/١٣ (٥) عبد الرزاق: ٢٤٠/٢

(٦) الطبري: ٢١٢/١٣

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾
 وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَقْل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّعَاهُ حُوقُهُ فَشَلَّهُ كَمَا شَلَّ الْكَلْبَ إِذَا تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَلَيْسَ لِرَبِّكَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرٌ ﴿١٧٦﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسِهِمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٧٨﴾ مِّن يَدِ اللَّهِ فَهُوَ أَلْمُهْتَدِيٌّ وَمَن يَضِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

رَفْعُ الطُّورِ عَلَى رُؤُوسِ الْيَهُودِ لِتَمَرُّهُمْ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يَقُولُ: رَفَعْنَاهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهَا﴾^(٤) [النساء: ١٥٤] وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: رَفَعْتُهُ الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤] وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ثُمَّ سَارَ بِهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَ مَا سَكَتَ عَنْهُ الْعُضْبُ وَأَمَرَهُمْ بِالَّذِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُلْغَعَهُمُ مِنَ الْوُظَائِفِ فَتَقَلَّتْ عَلَيْهِمْ، وَأَبَوْا أَنْ يُبْرَوْا بِهَا حَتَّى تَنَقَّ اللَّهُ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قَالَ: رَفَعْتُهُ الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِطَوِيلِهِ^(٥).

وَرُؤُوسِهِمْ أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ وَعَهْدَ إِلَيْهِمْ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ الْآيَةُ [مريم: ٥٩] قَالَ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تَمَنَّوْا عَلَى اللَّهِ أَمَانِيَّ وَغَيْرَةَ يَغْتَرُونَ بِهَا ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ لَا يَسْغَلُهُمْ شَيْءٌ وَلَا يَنْهَاهُمْ شَيْءٌ عَنِ ذَلِكَ، كَلَّمَا هَفَّ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا أَكَلُوهُ لَا يَيَالُونَ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا^(١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَوْلُهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قَالَ: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا يَسْتَفْضُونَ قَاضِيًا إِلَّا ارْتَشَى فِي الْحُكْمِ وَإِنْ خَيَّرَهُمْ اجْتَمَعُوا، فَأَخَذَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ الْعُهُودِ أَنْ لَا يَفْعَلُوا وَلَا يَرْتَشُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا اسْتَفْضَى ارْتَشَى فَيُقَالُ لَهُ: مَا شَأْنُكَ تَرْتَشِي فِي الْحُكْمِ؟ فَيَقُولُ: سَيُغْفَرُ لِي، فَتَطْعُنُ عَلَيْهِ الْبَقِيَّةُ الْآخَرُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا صَنَعَ، فَإِذَا مَاتَ أَوْ نَزِعَ وَجِعِلَ مَكَانَهُ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَطْعُنُ عَلَيْهِ فَيَرْتَشِي، يَقُولُ: وَإِن يَأْتِ الْآخَرِينَ عَرَضَ الدُّنْيَا يَأْخُذُوهُ^(٢). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الْآيَةَ. يَقُولُ تَعَالَى مُكْرِمًا عَلَيْهِمْ فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا مَعَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِيثَاقِ لِيُبَيِّنَ الْحَقَّ لِلنَّاسِ، وَلَا يَكْتُمُونَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا كَتُمُونَهُ فَجَدَّدُ وَرَأَاهُ ظُهُورَهُمْ وَأَشْرَفُوا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَيَتَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قَالَ: فِيمَا يَمْتَنُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْ غَفْرَانِ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي لَا يَزَالُونَ يَعُودُونَ فِيهَا وَلَا يَتُوبُونَ مِنْهَا^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِي نَفْسٍ يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يُرْعِعُهُمْ فِي جَزِيلِ نَوَابِهِ وَيُحَدِّرُهُمْ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، أَيْ وَتَوَابِي وَمَا عِنْدِي خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى الْمَحَارِمَ وَتَرَكَ هَوَى نَفْسِهِ وَأَقْبَلَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يَقُولُ: أَفَلَيْسَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اغْتَاضُوا بِعَرَضِ الدُّنْيَا عَمَّا عِنْدِي عَقْلٌ يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفْهِ وَالتَّبْذِيرِ، ثُمَّ أَنْتَى تَعَالَى عَلَى مَنْ تَمَسَكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَى اتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أَيِ اغْتَصَمُوا بِهِ وَاقْتَدُوا بِأَوَامِرِهِ، وَتَرَكَوْا زَوَاجِرَهُ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضْمِعُ أَجْرَ الْمُضْلِمِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

(١) الطبري: ٢١٣/١٣ (٢) الطبري: ٢١٣/١٣ (٣) الطبري: ٢١٥/١٣ (٤) الطبري: ٢١٨/١٣ (٥) النسائي في الكبرى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

[بَيَانُ الْعَهْدِ الْمَأْخُوذِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَضْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَفَدَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجَّسَانِهِ كَمَا تُوَلَّدُ [الْبَيْهَمَةُ] بِبَيْهَمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»^(١) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ جِمَارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَقُولُ اللَّهُ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَانَتْهُمُ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّكَ لَهُمْ»^(٢). وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ فِي أَخْذِ الذَّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَمْيِيزِهِمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَصْحَابِ الشَّمَالِ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^(٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤).

رَوَى التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ! مَنْ هُوَ لَاءٌ؟ قَالَ: هُوَ لَاءٌ ذُرِّيَّتِكَ فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْصٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ قَالَ: أَيُّ رَبِّ! مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَّمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ. قَالَ: رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً قَالَ: أَيُّ رَبِّ! وَقَدْ وَهَبْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكٌ الْمَوْتِ قَالَ:

أَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْ لَمْ تُعْطَهَا ابْنُكَ دَاوُدُ؟ قَالَ: «فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنَسِيَ آدَمَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَحَطَى آدَمُ فَحَطَّتْ ذُرِّيَّتُهُ» ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٥). وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٦).

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَأَمْثَالُهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ وَمَيَّرَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أَيُّ أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالَ: وَالشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالْقَوْلِ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾... [الآيَةُ [الأعراف: ١٧٣]، وَتَارَةً تَكُونُ حَالًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أَيُّ حَالَهُمْ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧]: كَمَا أَنَّ السُّؤَالَ تَارَةً يَكُونُ بِالْقَالِ وَتَارَةً يَكُونُ بِالْحَالِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قَالُوا: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا هَذَا: أَنَّ جَعَلَ هَذَا الْإِشْهَادَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الْإِشْرَاكِ، فَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ هَذَا كَمَا قَالَ مَنْ قَالَهُ لَكَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَذْكُرُهُ لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَيْهِ. فَإِنْ قِيلَ: إِخْبَارُ الرَّسُولِ ﷺ بِهِ كَافٍ فِي وُجُودِهِ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْمُكْذِبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَكْذِبُونَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُلُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ، وَهَذَا جُعِلَ حُجَّةً مُسْتَقَلَّةً عَلَيْهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا مِنَ الْإِفْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أَيُّ لِقَاءًا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أَيُّ التَّوْحِيدِ ﴿غَافِلِينَ﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا الْآيَةُ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ ءَابَاتِنَا فَنَسَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَتَلَاحُ كَتَلَبُ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكُّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا

(١) فتح الباري: ٢٩٠/٣، ٢٩٠/٤، ٢٠٤٧/٤ (٢) مسلم: ٤/٢١٩٧ (٣) أحمد: ١٢٧/٣ (٤) فتح الباري: ٤١٩/٦ ومسلم: ٤/٢١٦٠ (٥) تحفة الأحوذى: ٤٥٧/٨ (٦) الحاكم: ٣٢٥/٢

بَيِّنَاتٍ فَأَقْصَصْنَا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَانفُسُهُمْ كَالْوَالِدِينَ الَّذِينَ
[قِصَّةُ بُلْعَمِ بْنِ بَاعُورَاءَ وَمَثَلِ الْعَالِمِ الَّذِي يَنْسَلِخُ عَنْ
عِلْمِهِ]

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ
مِنْهَا﴾ الآية قَالَ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ: بُلْعَمُ
بْنُ بَاعُورَاءَ^(١). وَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَةُ وَعَيْرٌ وَاحِدٌ عَنْ مَنْصُورٍ
بِهِ^(٢). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:
هُوَ صَيْفِيُّ ابْنِ الرَّاهِبِ. قَالَ قَتَادَةُ: وَقَالَ كَعْبٌ: كَانَ
رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَلْقَاءِ وَكَانَ يَعْلَمُ الْأَكْبَرَ وَكَانَ مُقِيمًا
بِبَيْتِ الْمُقَدَّسِ مَعَ الْجَبَّارِينَ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ: بُلْعَمُ آتَاهُ
اللَّهُ آيَاتِهِ فَتَرَكَهَا^(٣). وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ
بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ مُجَابِبَ الدَّعْوَةِ يُقَدِّمُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ، بَعَثَهُ
نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَلِكِ مَدْيَنَ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ
فَأَقْطَعَهُ وَأَعْطَاهُ، فَتَبِعَ دِينَهُ وَتَرَكَ دِينَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَقَالَ [عِمْرَانُ] بِنُ عُبَيْنَةَ عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحَارِثِ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ بُلْعَمُ بْنُ بَاعِرٍ^(٤). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ
وَعِكْرَمَةُ^(٥). وَقَالَتْ ثَقِيفٌ: هُوَ أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ.

وَأَمَّا الْمَشْهُورُ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَإِنَّمَا
هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي زَمَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا قَالَ ابْنُ
مَسْعُودٍ وَعَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ^(٦). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ مَدْيَنَةَ الْجَبَّارِينَ يُقَالُ لَهُ: بُلْعَمُ
وَكَانَ يَعْلَمُ اسْمَ اللَّهِ الْأَكْبَرَ^(٧). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَ مُوسَى بِهِمْ يُعْنِي بِالْجَبَّارِينَ وَمَنْ
مَعَهُ آتَاهُ - يُعْنِي بُلْعَمَ - آتَاهُ بَنُو عَمِّهِ وَقَوْمُهُ فَقَالُوا: إِنَّ
مُوسَى رَجُلٌ حَدِيدٌ وَمَعَهُ جُنُودٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ إِنْ يَطْهَرُ عَلَيْنَا
يُهْلِكُنَا فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ عَنَّا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، قَالَ: إِنِّي
إِنْ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ذَهَبَتْ دُنْيَايَ
وَأَخْرَجْتِي، فَلَمَّ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى دَعَا عَلَيْهِمْ، فَسَلَخَهُ اللَّهُ مَا
كَانَ عَلَيْهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ
السَّيْطَانُ﴾ الآية^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى
الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أَيْ
لَرَفَعْنَاهُ مِنَ التُّدْنُسِ عَنْ قَادُورَاتِ الدُّنْيَا بِالْآيَاتِ الَّتِي آتَيْنَاهُ

إِيَّاهَا ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أَيْ، مَالَ إِلَى زِينَةِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا وَأَقْبَلَ عَلَى لَذَائِهَا وَنَعِيْبِهَا، وَعَرَّتَهُ
كَمَا عَرَّتْ غَيْرُهُ مِنْ غَيْرِ أَوْلِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارَ عَنْ سَالِمِ أَبِي النَّضْرِ
أَنَّهُ حَدَّثَ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نَزَلَ فِي أَرْضِ بَنِي
كَثْعَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، أَتَى قَوْمَ بُلْعَامَ إِلَيْهِ فَقَالُوا لَهُ: هَذَا
مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ جَاءَ يُخْرِجُنَا مِنْ
بِلَادِنَا وَيَقْتُلُنَا وَيُحِلُّهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّا قَوْمُكَ وَلَيْسَ لَنَا
مَنْزِلٌ وَأَنْتَ رَجُلٌ مُجَابِبٌ الدَّعْوَةِ، فَاخْرُجْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ،
قَالَ: وَبَلَّغْتُمْ نَبِيَّ اللَّهِ مَعَهُ الْمَلَائِكَةَ وَالْمُؤْمِنُونَ، كَيْفَ
أَذْهَبُ أَدْعُو عَلَيْهِمْ وَأَنَا أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا أَعْلَمُ؟ قَالُوا لَهُ: مَا
لَنَا مِنْ مَنْزِلٍ فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ يُرَفِّقُونَهُ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى
فَتَنُوهُ، فَافْتَنَّ، فَرَكِبَ حِمَارَةً لَهُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي
يُطْلَعُ عَلَيْهِ عَسْكَرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ جَبَلُ «حُسْبَانَ» فَلَمَّا
سَارَ عَلَيْهَا غَيْرَ كَثِيرٍ، رَبِضَتْ بِهِ فَتَزَلَّ عَنْهَا فَضَرَبَهَا حَتَّى إِذَا
أَزَلَقَهَا قَامَتْ فَرَكِبَهَا، فَلَمْ تَسِرْ بِهِ كَثِيرًا حَتَّى رَبِضَتْ بِهِ
فَضَرَبَهَا، حَتَّى إِذَا أَزَلَقَهَا أَدْنَى اللَّهُ لَهَا فَكَلَّمَتْهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِ
فَقَالَتْ: وَيْحَكَ يَا بُلْعَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ؟ أَمَا تَرَى الْمَلَائِكَةَ
أَمَامِي تَرُدُّنِي عَنْ وَجْهِي هَذَا؟ تَذْهَبُ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ
وَالْمُؤْمِنِينَ لِيَتَدْعُوا عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْزِعْ عَنْهَا فَضَرَبَهَا فَحَلَّى اللَّهُ
سَبِيلَهَا حِينَ فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَتْ بِهِ
عَلَى رَأْسِ «حُسْبَانَ» عَلَى عَسْكَرِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ جَعَلَ
يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَلَا يَدْعُو عَلَيْهِمْ بِشَرٍّ إِلَّا صَرَفَ اللَّهُ لِسَانَهُ إِلَى
قَوْمِهِ وَلَا يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إِلَّا صَرَفَ لِسَانَهُ إِلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَنْتَ ذِي بُلْعَمُ مَا تَصْنَعُ؟ إِنَّمَا
تَدْعُو لَهُمْ وَتَدْعُو عَلَيْنَا؟ قَالَ: فَهَذَا مَا لَا أُمَلِكُ. هَذَا شَيْءٌ
قَدْ غَلَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ. قَالَ: وَانْدَلَعَ لِسَانُهُ فَوَقَعَ عَلَى صَدْرِهِ
فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الْآنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَلَمْ يَبْقَ
إِلَّا الْمَكْرُ وَالْحِيلَةُ فَسَأْمَكُرُ لَكُمْ وَاحْتَالَ، جَمَلُوا النِّسَاءَ
وَأَعْطَوْهُنَّ السَّلْعَ، ثُمَّ أَرْسَلُوهُنَّ إِلَى الْعَسْكَرِ يَبْعَثْنَ فِيهِ،
وَمُرُوهُنَّ فَلَا تَمْنَعُ امْرَأَةٌ نَفْسَهَا مِنْ رَجُلٍ أَرَادَهَا، فَإِنَّهُمْ إِنْ
زَنَى رَجُلٌ مِنْهُمْ وَاحِدٌ كَفَيْتُمُوهُمْ، فَفَعَلُوا. فَلَمَّا دَخَلَ

(١) عبد الرزاق: ٤٤٣/٢ (٢) الطبري: ٢٥٣/١٣ (٣)

الطبري: ٢٦١/١٣ العوفي وعائلته من الضعفاء (٤) الطبري:

٢٥٣/١٣ (٥) الطبري: ٢٥٤/١٣ (٦) الطبري: ٢٥٣/١٣

(٧) الطبري: ٢٥٨/١٣ (٨) الطبري: ٢٦٠/١٣

النِّسَاءِ الْعَسْكَرَ مَرَّتْ إِمْرَأَةٌ مِنَ الْكُنْعَانِيِّينَ إِسْمُهَا [كَسْيِي] ابْنَةُ صُورٍ - رَأْسُ أُمَّتِهِ - يَرْجُلُ مِنْ عُظْمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ زَمْرِيُّ ابْنُ شَلُومَ رَأْسِ سَبْطِ شَمْعُونِ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا رَأَاهَا أَعْجَبَتْهُ، فَقَامَ فَأَخَذَ يَبْدِهَا وَأَتَى بِهَا مُوسَى وَقَالَ: إِنِّي أَظُنُّكَ سَتَقُولُ هَذَا حَرَامٌ عَلَيْكَ لَا تَقْرُبْهَا؟ قَالَ: أَجَلُ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ لَا أَطِيعُكَ فِي هَذَا، فَدَخَلَ بِهَا فُبَّتَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الطَّاغُوتَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ فِتْنَا حَاصِ بْنِ الْعِيزَارِ بْنِ هَارُونَ صَاحِبِ أَمْرِ مُوسَى، وَكَانَ غَايِبًا حِينَ صَنَعَ زَمْرِيُّ بْنُ شَلُومَ مَا صَنَعَ، فَجَاءَ وَالطَّاغُوتُ يَجُوسُ فِيهِمْ فَأَخْبَرَ الْخَبِيرَ فَأَخَذَ حَرْبَتَهُ. وَكَانَتْ مِنْ حديدٍ كُلِّهَا، ثُمَّ دَخَلَ الْقُبَّةَ وَهُمَا مُتَصَاحِبَانِ فَانْتَمَطَهُمَا بِحَرْبَتِهِ ثُمَّ خَرَجَ بِهِمَا رَافِعُهُمَا إِلَى السَّمَاءِ، وَالْحَرْبَةُ قَدْ أَخَذَهَا بِذِرَاعِهِ وَاعْتَمَدَ بِمِرْفَقِهِ عَلَى خَاصِرَتِهِ وَأَسَدَدَ الْحَرْبَةَ إِلَى [لِحْيَتِهِ] وَكَانَ بِكُرِّ الْعِيزَارِ - وَجَعَلَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَكَذَا نَفَعَلُ بِمَنْ يَعْصِيكَ. وَرُفِعَ الطَّاغُوتُ، فَحُسِبَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الطَّاغُوتِ فِيمَا بَيْنَ أَنْ أَصَابَ زَمْرِيُّ الْمَرْأَةَ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ فِتْنَا حَاصِ، فَوَجَدُوهُ قَدْ هَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا. وَالْمُقْتَلُ لَهُمْ يَقُولُ: عِشْرُونَ أَلْفًا. فِي سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ، فَمِنْ هُنَالِكَ تُعْطِي بَنُو إِسْرَائِيلَ وَلَدًا فِتْنَا حَاصِ مِنْ كُلِّ ذَيْبِحَةٍ ذَبَحُوهَا الرَّقَبَةَ وَالذِّرَاعَ وَاللِّحْيَ وَالْبِكْرَ مِنْ كُلِّ أُمُورِهِمْ وَأَنْفُسِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ بِكُرِّ أَبِيهِ الْعِيزَارِ، فَفِي بُلْعَامَ ابْنِ بَاعُورَاءَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَتَى عَلَيْهِمْ تَبَا الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْتَلَخَ مِنْهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ كَثَلٍ أَلْكَبٍ إِنْ تَحَدَّثَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ، فَعَلَى سِيَاقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِي النَّضْرِ: أَنَّ بُلْعَامًا انْدَلَعَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ^(١)، فَتَسْبِيهُهُ بِالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي كَلْتَا حَالَتَيْهِ إِنْ رُجِرَ وَإِنْ تَرَكَ ظَاهِرًا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَصَارَ مَثَلُهُ فِي ضَلَالِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ فِيهِ وَعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِالدُّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ وَعَدَمِ الدُّعَاءِ، كَالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي حَالَتَيْهِ إِنْ حَمَلَتْ عَلَيْهِ وَإِنْ تَرَكَتَهُ هُوَ يَلْهَثُ فِي الْحَالَتَيْنِ. فَكَذَلِكَ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالذُّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَا عَدَمِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ:

أَنَّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالْمُتَافِقِ وَالضَّالِّ ضَعِيفٌ فَارْغَ مِنْ الْهُدَى فَهُوَ كَثِيرُ الْوَجِيبِ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذَا بِهَذَا. نُقِلَ نَحْوُهُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعَنْهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْصِبْ قَلْبُكَ مِنَ الْغُفْرِ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَأَقْصِبْ قَلْبُكَ مِنَ الْغُفْرِ﴾ أَي لَعَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَالَمِينَ بِحَالِ بُلْعَامَ، وَمَا جَرَى لَهُ فِي إِضْلَالِ اللَّهِ إِيَّاهُ وَإِنْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ؛ بِسَبَبِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَعْلِيمِهِ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، فِي غَيْرِ طَاعَةِ رَبِّهِ، بَلْ دَعَا بِهِ عَلَى جِزْبِ الرَّحْمَنِ وَسَعِبِ الْإِيمَانِ، أَتْبَعَ عِبْدَهُ وَرَسُولَهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، كَلِيمَ اللَّهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَي فَيَحْذَرُوا أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاهُمْ عِلْمًا وَمَيَّرَهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَجَعَلَ بِأَيْدِيهِمْ صِفَةً مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْرِفُونَهَا كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، فَهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ، كَمَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنْبِيَائُهُمْ بِذَلِكَ وَأَمَرْتَهُمْ بِهِ، وَلِهَذَا مَنْ خَالَفَ مِنْهُمْ مَا فِي كِتَابِهِ وَكَلِمَتِهِ، فَلَمْ يُعْلَمَ بِهِ الْعِبَادَ أَحَلَّ اللَّهُ بِهِ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا مَوْضُوعًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يَقُولُ تَعَالَى: سَاءَ مَثَلًا مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا أَي: سَاءَ مَثَلُهُمْ أَنْ شَبَّهُوا بِالْكَلابِ الَّتِي لَا هِمَّةَ لَهَا إِلَّا فِي تَحْصِيلِ أَكْثَلِ أَوْ شَهْوَةٍ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ حَيْزِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَأَقْبَلَ عَلَى شَهْوَةٍ نَفْسِيَّةٍ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ صَارَ شَبِيهًا بِالْكَلْبِ. وَيُسُّ الْمَثَلَ مِثْلَهُ، وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ لَنَا مِثْلُ السَّوْءِ، الْعَائِدُ فِي هَبَّتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْتِهِ»^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أَي مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَى، وَطَاعَةِ الْمَوْلَى، إِلَى الرُّكُوتِ إِلَى دَارِ الْبَلَى، وَالْإِقْبَالَ عَلَى تَحْصِيلِ اللَّذَاتِ وَمُؤَافَقَةِ الْهَوَى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَوْلِيكَ هُمْ

الْمُخْسِرُونَ﴾ (١٧٨)

يَقُولُ تَعَالَى مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ لَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لَا مَحَالَةَ. فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَالٌ يَسْأَلُ لَمْ يَكُنْ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ:

(١) الطبري: ٢٦٥/١٣ (٢) فتح الباري: ٢٨٨/٥

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

١٧٤

سُورَةُ الْاَعْرَافِ

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٤﴾
 وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٥﴾ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾ وَأَمَلِي لَهُمْ إِن كِيدِي مِتِينٌ ﴿١٧٨﴾ أَوْلَمْ يَنْفَكُوا مَا بَصَّاحِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٧٩﴾ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٠﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨١﴾ نَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْ قُبَّهَا إِلَّا هُوَ يُنْقَلِتُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْإِبْرَةِ نَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

«إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَعِذُّ بِهِ وَنَسْتَعْفِفُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ وَعَبَّيرُهُمْ^(١).

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

[الْكَفْرُ وَالْقُدْرُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أَي خَلَقْنَا وَجَعَلْنَا لِجَهَنَّمَ ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أَي هَيَأْتَانَهُمْ لَهَا وَيَعْمَلُ أَهْلِهَا يَعْمَلُونَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ عَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ كَوْنِهِمْ فَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٢).
 وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَمَسْأَلَةُ الْقُدْرِ كَبِيرَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا.

يُبْصِرُونَ الْهُدَى. كَالْأَنْعَامِ الشَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَتَفَعَّلُ بِهَيْدِهِ الْخَوَاسِ مِنْهَا إِلاَّ فِي الَّذِي يُبَيْئُهَا فِي ظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاةَ وَنِدَاةَ﴾ [البقرة: ١٧١] أَي وَمَثَلُهُمْ فِي حَالِ دُعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ كَمَثَلِ الْأَنْعَامِ إِذَا دَعَاهَا رَاعِيهَا لَا تَسْمَعُ إِلاَّ صَوْتَهُ، وَلَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ. وَلِهَذَا قَالَ فِي هُؤُلَاءِ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أَي مِنَ الدَّوَابِّ، لِأَنَّهَا قَدْ تَسْتَجِيبُ مَعَ ذَلِكَ لِرَاعِيهَا إِذَا أَسَسَ بِهَا، وَإِنْ لَمْ تَفْقَهُ كَلَامَهُ بِخِلَافِ هُؤُلَاءِ. وَلِأَنَّهَا تَفْعَلُ مَا خُلِقَتْ لَهُ إِمَّا بِطَبْعِهَا وَإِمَّا بِتَسْخِيرِهَا بِخِلَافِ الْكَافِرِ، فَإِنَّهُ إِتْمَا خَلِقَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَيُوحِدَهُ فَكَفَرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ.

وَلِهَذَا مِنْ أَطَاعَ اللَّهَ مِنَ الْبَشَرِ كَانَ أَشْرَفَ مِنْ مِثْلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي مَعَادِهِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ مِنَ الْبَشَرِ كَانَتْ الدَّوَابُّ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يَعْنِي لَيْسَ يَتَفَعَّلُونَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سَبَبًا لِلْهُدَايَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يُجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ [الأحزاف: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] هَذَا فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ. وَقَالَ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وَلَمْ يَكُونُوا صُمًّا وَلَا بُكْمًا وَلَا عُمَىٰ إِلاَّ عَنِ الْهُدَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وَقَالَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَعَشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نَقِضَ لَهُ سَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [٢٦] وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ﴾ أَي هُؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا

(١) أحمد: ١/٣٩٢ وأبو داود: ٥٩١/٢ وتحفة الأحوذى: ٤/

٢٣٧ والنسائي: ٣/١٠٥ وابن ماجه: ١/٦٠٩ (٢) مسلم: ٤/

ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَصُرُّهُمْ مِنْ خَدْلِهِمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ. وَفِي رِوَايَةٍ: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» وَفِي رِوَايَةٍ: «وَهُمْ بِالسَّامِ»^(١).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٧٢﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ الرِّزْقِ وَوُجُوهُ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٧١﴾ قَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الانعام: ٤٤، ٤٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أَي وَسَأْمِلِي لَهُمْ، أَي أُطَوِّلُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أَي قُوَّتِي شَدِيدٌ.

﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا مَا بَصَّحِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٧٣﴾﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا﴾ هُوَ لِأَنَّ الْمَكْذُوبُونَ بِآيَاتِنَا ﴿مَا بَصَّحِهِمْ﴾ يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ ﴿مِنْ حِنَّةٍ﴾ أَي لَيْسَ بِهِ جُنُونٌ، بَلْ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، دَعَا إِلَى حَقٍّ ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَي ظَاهِرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ لُبٌّ وَقَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ وَيَعِي بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِرِجْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفُرْدَى ثُمَّ تَنْفَكُرُوا مَا بَصَّحِكُمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] يَقُولُ: إِنَّمَا أُطْلِبُ مِنْكُمْ أَنْ تَقُومُوا قِيَامًا خَالِصًا لِلَّهِ لَيْسَ فِيهِ تَعَصُّبٌ وَلَا عِنَادٌ مَشْنَى وَفُرْدَى أَي: مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ، ثُمَّ تَنْفَكُرُوا فِي هَذَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِالرِّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ أَبِيهِ جُنُونٌ أَمْ لَا، فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ: بَانَ لَكُمْ وَظَهَرَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا. وَقَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ: ذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى الصِّفَا فَدَعَا فُرَيْشًا، فَجَعَلَ يُفَحِّدُهُمْ فَخَذَا فَخَذَا: يَا بَنِي فُلَانِ! يَا بَنِي فُلَانِ! فَحَدَّرَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَوَقَائِعِ اللَّهِ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا لَمَجْنُونٌ بَاتَ يُصَوِّتُ إِلَى الصَّبَاحِ - أَوْ حَتَّى أَصْبَحَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:

أَتَمَّ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْلَيْتِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَيْتِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾
﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي

أَسْمَائِهِ سَيَّجِرُونَ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٣﴾﴾
[بَيَانُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَثِرٌ يُحِبُّ الْوَثْرَ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١). وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ مِثْلَهُ.
ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ فِي تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَدِيلٍ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ أُمِّتِكَ، نَاصِبَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَذْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَشَأْلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْعَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبْعَ قَلْبِي، وَتُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَحًا» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا تَعَلَّمَهَا؟ فَقَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»^(٢).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قَالَ: الْإِلْحَادُ الْمُلْحِدِينَ أَنْ دَعَوْا اللَّاتَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ^(٣). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قَالَ: اسْتَشْفُوا اللَّاتَ مِنَ اللَّهِ، وَالْعُرَى مِنَ الْعَزِيزِ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: يُلْحِدُونَ: يُشْرِكُونَ فِي أَسْمَائِهِ^(٥). وَأَصْلُ الْإِلْحَادِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْعُدُولُ عَنِ الْقَصْدِ، وَالْمَيْلُ وَالْجَوْرُ وَالْإِنْجِرَافُ، وَمِنْهُ: اللَّحْدُ فِي الْقَبْرِ لِإِنْجِرَافِهِ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ عَنْ سَمْتِ الْحَفْرِ.
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أَي بَعْضُ الْأُمَمِ ﴿أُمَّةٌ﴾ قَائِمَةٌ بِالْحَقِّ قَوْلًا وَعَمَلًا ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يَقُولُونَهُ وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴿وَبِهِ يَعْلَمُونَ﴾ يَعْمَلُونَ وَيَقْضُونَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَارِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ، هِيَ: هَذِهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي

(١) فتح الباري: ٤١٧/٥ و ٢١٨/١١ و مسلم: ٢٠٦٢/٤ (٢)
أحمد: ٣٩١/١ (٣) الطبري: ٢٨٢/١٣ العوفي مَرَّارًا (٤)
الطبري: ٢٨٣/١٣ (٥) الطبري: ٢٨٣/١٣ (٦) فتح الباري: ٤٥١/١٣ و مسلم: ١٥٢٤/٣

عَبَّاسٍ: مُتَّهَاهَا^(٢). أَي مَتَى مَحَطُّهَا وَأَيَّانَ آخِرُ مَدَّةِ الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ أَوَّلُ وَقْتِ السَّاعَةِ ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ أَنْ يَرُدَّ عَلِمَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا أَي يَعْلَمُ جَلِيَّةَ أَمْرِهَا وَمَتَى يَكُونُ عَلَى التَّحْدِيدِ: لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ تَعَالَى وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: تَقَلَّ عَلِمَهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: أُنْهَمُ لَا يَعْلَمُونَ^(٣). قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الْحَسَنُ: إِذَا جَاءَتْ؛ تَنقَلَّتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. يَقُولُ: كَثُرَتْ عَلَيْهِمْ^(٤).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا يُصِيبُهُ مِنْ ضَرَرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٥). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: إِذَا جَاءَتْ انْشَقَّتِ السَّمَاءُ وَانْتَرَبَتِ الشُّجُومُ، وَكُوِّرَتِ الشَّمْسُ، وَسِيرَتِ الْجِبَالُ، وَكَانَ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَذَلِكَ تَقْلَعُهَا.

وَقَالَ الشُّدِّيُّ: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَقُولُ: حَفِيَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَلَا يَعْلَمُ قِيَامَهَا حِينَ تَقُومُ مَلَكَ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ^(٦). ﴿لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَعْنَةٌ﴾ يُعْتَنُهُمْ قِيَامَهَا تَأْتِيهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ. وَقَالَ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَعْنَةٌ﴾ قَضَى اللَّهُ أَنَّهَا ﴿لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَعْنَةٌ﴾ قَالَ: وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ السَّاعَةَ تَهِيحُ بِالنَّاسِ، وَالرَّجُلُ يُضِلُّ حَوْضَهُ وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَا شِئْتَهُ، وَالرَّجُلُ يُقِيمُ سِلْعَتَهُ فِي السُّوقِ وَيُخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ»^(٧). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَى النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَلِذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَسَرَ الرَّجُلَانِ نَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَبْتَاعَانِيهِ وَلَا يَطْوِيَانِيهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِحْيَتِهِ فَلَا

﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(١). ﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكَوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَهْلُهُمْ فَيَأْتِيهِمْ حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: أَوْلَمْ يَنْظُرُوا هَؤُلَاءِ الْمَكْدُوبُونَ يَا أَيُّهَا فِي مُلْكِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِيمَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ فِيهِمَا، فَيَتَدَبَّرُوا ذَلِكَ وَيَعْتَبِرُوا بِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ لِمَنْ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ، وَمِنْ فِعْلِ مَنْ لَا يَبْتَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ وَالذِّينُ الْخَالِصُ إِلَّا لَهُ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ وَيُصَدِّقُوا رَسُولَهُ، وَيُنَبِّئُوا إِلَى طَاعَتِهِ، وَيَخْلَعُوا الْأَنْدَادَ وَالْأَوْلِيَاءَ، وَيَحْذَرُوا أَنْ تَكُونَ آجَالُهُمْ قَدِ اقْتَرَبَتْ فَيَهْلِكُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَيَصِيرُوا إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُولُ: فَيَأْتِي تَحْوِيفٌ وَتَحْذِيرٌ وَتَرْهيبٌ بَعْدَ تَحْذِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْهيبِهِ، الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي آيِ كِتَابِهِ، يُصَدِّقُونَ إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿مَنْ ضَلَّ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَمْ يَدْرِهِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ كَتَبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةَ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ، وَلَوْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِيمَا نَظَرَ فَإِنَّهُ لَا يَجْزِي عَنْهُ شَيْئًا ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْأَرْبَابُ وَالْأَنْدَادُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَعْنَةٌ يُسْتَأْتُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[بَيَانُ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قِيلَ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ، وَقِيلَ: فِي نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ لِأَنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَكَانُوا يَسْأَلُونَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ اسْتِيعَادًا لِوُقُوعِهَا وَتَكَدُّبًا بِوُجُودِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَمَيَّ سَاطِلٍ لَبِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ

(١) الطبري: ٢٨٩/١٣ (٢) الطبري: ٢٩٤/١٣ (٣) عبد الرزاق: ٢٤٤/٢ (٤) عبد الرزاق: ٢٤٥/٢ (٥) والضحاك لم يسمع من ابن عباس (٦) الطبري: ٢٩٥/١٣ (٧) الطبري: ١٣/٢٩٧

يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمَهَا»^(١).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «سَأَلْتُكَ كَأَنَّكَ حَقِي عَنَّا» يَقُولُ: كَأَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ كَأَنَّكَ صَدِيقٌ لَهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا سَأَلَ النَّاسُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ سَأَلُوهُ سُؤَالَ قَوْمٍ كَانَتْهُمْ يَرُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا حَفِيٌّ بِهِمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَهُ إِشْتَاتَرٌ بِهِ، فَلَمْ يَطْلِعِ اللَّهُ عَلَيْهَا مَلَكَ مُقَرَّبًا وَلَا رَسُولًا^(٢). وَالصَّحِيحُ عَنْ مُجَاهِدٍ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ وَغَيْرِهِ. «سَأَلْتُكَ كَأَنَّكَ حَقِي عَنَّا» قَالَ: أُسْتَحْفِيتُ عَنْهَا السُّؤَالَ حَتَّى عَلِمْتُ وَقَفْتَهَا.

وَلِهَذَا قَالَ: «قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أَمْرَ دِينِهِمْ، فَجَلَسَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَ السَّائِلِ الْمُسْتَرْشِدِ، وَسَأَلَهُ ﷺ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ عَنِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ عَنِ الْإِحْسَانِ، ثُمَّ قَالَ: فَمَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» أَي لَسْتُ أَعْلَمُ بِهَا مِنْكَ وَلَا أَحَدٌ أَعْلَمُ بِهَا مِنْ أَحَدٍ، ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» الْآيَةَ [لقمان: ٣٤].

وَفِي رِوَايَةٍ: فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَبَيَّنَ لَهُ أَشْرَاطَ السَّاعَةِ، ثُمَّ قَالَ: «فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ» وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَفِي هَذَا كُلِّهِ يَقُولُ لَهُ بَعْدَ كُلِّ جَوَابٍ: صَدَقْتَ، وَلِهَذَا عَجِبَ الصَّحَابَةُ مِنْ هَذَا السَّائِلِ يَسْأَلُهُ وَبُصْدَقُهُ! ثُمَّ لَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا جَبْرِيلُ أَنَا كُمْ يَعْلَمُكُمْ دِينَكُمْ»^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «وَمَا أَتَانِي فِي صُورَةٍ إِلَّا عَرَفْتُهُ فِيهَا، إِلَّا صُورَتُهُ هَذِهِ». وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَتْ الْأَعْرَابُ إِذَا قَلِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَيَنْظُرُ إِلَى أَحَدِ النَّاسِ مِنْهُمْ يَقُولُ: «إِنْ يَعْشَى هَذَا لَمْ يَدْرِكَ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»^(٤). يَعْنِي بِذَلِكَ مَوْتَهُمُ الَّذِي يُفْضِي بِهِمْ إِلَى الْحُصُولِ فِي بَرْزَخِ الدَّارِ الْآخِرَةِ. ثُمَّ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ يَعْشَى هَذَا الْغُلَامُ فَعَسَى أَنْ لَا يَدْرِكَ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٥) انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِسَهْرٍ: «تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ، وَإِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ! مَا عَلَيَّ ظَهْرُ الْأَرْضِ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةٌ سَنَةً». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَمَرَ مِثْلَهُ، قَالَ ابْنُ عَمَرَ: وَإِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِخْرَامَ ذَلِكَ الْقُرْنِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي إِبرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، فَتَذَكَّرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ - قَالَ - : فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَيَّ إِبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَيَّ مُوسَى فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَيَّ عِيسَى فَقَالَ عِيسَى: أَمَّا وَجِبْتُهَا فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيمَا عَهَدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الدَّجَالَ خَارِجٌ - قَالَ - : وَمَعِيَ قَضِيانٌ، فَإِذَا رَأَيْتَ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرِّصَاصُ، قَالَ: فَيَهْلِكُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا رَأَيْتَ حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَ وَالْحَجَرَ يَقُولُ: يَا مُسْلِمُ! إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، قَالَ: فَيَهْلِكُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ بِأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسَلُونَ، فَيَطَّأُونَ بِلَادَهُمْ لَا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ وَلَا يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ: قَالَ: ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ فَيَسْأَلُونَهُمْ، فَأَدْعُو اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ فَيَهْلِكُهُمْ وَيُؤَيِّسُهُمْ حَتَّى تَجُوزِيَ الْأَرْضُ مِنْ تَتْنِ رِيحِهِمْ - أَيِ التُّنُنِ - قَالَ: فَيُنزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَطَرَ فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَقْدِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ». قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: قَالَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ: ثُمَّ تُنْسَفُ الْجِبَالُ وَتُمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ هُشَيْمٍ، قَالَ: «فَفِيمَا عَهَدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمُتِمِّ لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تُفَاجِئُهُمْ بِوِلَادَتِهَا نَيْلًا أَوْ نَهَارًا»^(٦). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ نَحْوَهُ^(٧).

(١) فتح الباري: ١١/٣٦٠ (٢) الطبري: ١٣/٢٩٨ فيه ضعف
العوفي (٣) فتح الباري: ١/١٤٠ (٤) مسلم: ٤/٢٢٦٩ (٥)
مسلم: ٤/٢٢٧٠ (٦) أحمد: ١/٣٧٥ (٧) ابن ماجه: ٢/١٣٦٥

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ
 أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
 تَغَشَّيَا حَمَلًا حَقِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا
 اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
 فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى
 اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
 ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
 وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْهِمُ أَعْيُنُهُمْ
 أَمْ أَنْتُمْ صٰحِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَجْرٌ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
 يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
 يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٩٥﴾

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ، لَوْ كُنْتُ
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَعْدَدْتُ لِلنَّبِيِّ الْمُجِدِّبِ مِنَ الْمُخْصِيَةِ وَلَوْ قُبِ
 الْعَلَاءِ مِنَ الرَّخْصِ، فَاسْتَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الرَّخْصِ. وَقَالَ
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: «وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ» قَالَ:
 لَا جُنُبْتُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَاتَّقَيْتَهُ^(١). ثُمَّ
 أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ، أَيْ نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ وَبَشِيرٌ
 لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ
 بِلِسَانِكَ لْيُنْذِرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَيُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» [سرم]:

[٤٩٧]

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
 لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيَا حَمَلًا حَقِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا
 أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
 فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

(١) أحمد: ٣٨٩/٥ (٢) الطبري: ٢٩٢/١٣ (٣) النسائي في
 الكبرى: ٥٠٦/٦ (٤) فتح الباري: ٣٥٥/١١ (٥) الدر
 المنثور: ٦٢٢/٣ الضحاك مَرَّ حَكَمَهُ (٦) الطبري: ٣٠٢/١٣

عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَكَلَّمَ عَلَى أَشْرَاطِهَا لِأَنَّهُ يُنَزَّلُ فِي آخِرِ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ مُتَّفَذًا لِأَحْكَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقْتُلُ الْمَسِيحَ
 الدَّجَالَ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ هَلَاكَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بِبِرْكَةِ دُعَائِهِ،
 فَأَخْبَرَ بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجْلِبُهَا لَوْ قَبَّأَ
 إِلَّا هُوَ» [الأعراف: ١٨٧]، وَلَكِنْ سَأَخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا
 يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا، إِنْ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةٌ وَهَرَجًا» قَالُوا: يَا
 رَسُولَ اللَّهِ! الْفِتْنَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا الْهَرَجُ؟ قَالَ: «لِيَلْسَانَ
 الْحَبَشَةِ: الْقَتْلُ» قَالَ: «وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاقُرُ، فَلَا يَكَادُ
 أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا»^(١) لَمْ يَرَوْهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْكُتُبِ
 السُّنَّةِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: كَانَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَزَالُ يَذْكُرُ مِنْ شَأْنِ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ
 «سَأَلْتُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلَهَا» الْآيَةَ^(٢). وَرَوَاهُ
 النَّسَائِيُّ^(٣). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، فَهَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ سَيِّدُ
 الرُّسُلِ وَخَاتِمُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيُّ
 الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ، وَالْعَاقِبِ وَالْمَقْفِيِّ،
 وَالْحَاشِرِ الَّذِي تُحْشِرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْهِ، مَعَ قَوْلِهِ فِيمَا
 نَبَتْ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^(٤). وَقَرَنَ
 بَيْنَ أَصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْيَمْنِيِّ تَلِيهَا، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ
 أَنْ يَزِدَّ عِلْمَ وَقْتِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: «قُلْ
 إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
 الْغَيْبِ لَأَسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

[الرَّسُولُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا حَتَّى
 لِنَفْسِهِ]

أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَفُوضَ الْأُمُورَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُخْبِرَ عَنْ
 نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ الْمُسْتَقْبَلِ وَلَا اِطَّلَاعَ لَهُ عَلَى
 شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا أَطَّلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
 «عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا»... الْآيَةُ [الجن]:
 [٢٦]. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
 الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ» أَي مِنَ الْمَالِ. وَفِي رِوَايَةٍ:
 لَعَلِمْتُ - إِذَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا - مَا أَرْبَحُ فِيهِ، فَلَا أَبِيعُ شَيْئًا
 إِلَّا رِبَحْتُ فِيهِ «وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ» وَلَا يُصِيبُنِي الْفَقْرُ^(٥).

يُشْرِكُونَ ﴿١٩١﴾

[كُلُّ النَّاسِ أَوْلَادُ آدَمَ]

وَعَنَّهُ قَالَ: عَنَى بِهَا ذُرِّيَّةَ آدَمَ وَمَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ بَعْدَهُ
يَعْنِي ﴿جَعَلَا لَهُمُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ (١٢).

وَعَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: هُمُ الْيَهُودُ،
وَالنَّصَارَى زَرْقَهُمُ اللَّهُ أَوْلَادًا فَهَوُّدُوا وَنَصَّرُوا (١٣). وَهَذِهِ
أَسَانِيدٌ صَحِيحَةٌ عَنِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ فَسَّرَ الْآيَةَ
بِذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ التَّفْسِيرِ وَأَوْلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ
الْآيَةُ.

وَأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ آدَمَ وَحَوَّاءَ، وَإِنَّمَا
الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ: الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَهُوَ كَالِاسْتِطْرَادِ
مِنْ ذِكْرِ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ
الْأُولَى بِمِصْبَاحٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِّلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّ
الْمِصْبَاحَ وَهِيَ النُّجُومُ الَّتِي زَيَّنَتْ بِهَا السَّمَاءَ لَيْسَتْ هِيَ
الَّتِي يُرْمَى بِهَا، وَإِنَّمَا هَذَا اسْتِطْرَادٌ مِنْ شَخْصِ الْمِصْبَاحِ
إِلَى جِنْسِهَا، وَلِهَذَا نَطَّأْتُ فِي الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْفُونَ﴾ (١٤) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ
نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا
يَسْتَجِيبُوا سِوَاكَ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتَ صَمِيمٌ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ آمَنَّاكُمْ فَاذْعُوبُهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا
لَكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ أَلَمْ يَأْتِ الْبَشَرُ بِشَيْءٍ أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَبْتَاطُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٨﴾ إِنَّ
رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ
يَنْصُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَى لَهُمْ
نُظْرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

[الهِتَةُ الْمُشْرِكِينَ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَنْصُرُ وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا]

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ
غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ
مَرْبُوبَةٌ مَصْنُوعَةٌ، لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ وَلَا تَنْصُرُ وَلَا
تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَنْصُرُ لِإِعْيَادِهَا، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا

يُتَبَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ. وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَتَهُ حَوَّاءَ ثُمَّ أَنْشَرَ النَّاسَ
مِنْهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَىكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿الآيَةَ﴾ [النساء:
١]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿أَيُّ لِيَأْلَفَهَا وَيَسْكُنَ بِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ
ءَابَائِهِمْ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] فَلَا أَلْفَةَ بَيْنَ زَوْجَيْنِ
أَعْظَمَ مِمَّا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ السَّاحِرَ رَبِّمَا
تَوَصَّلَ بِكَيْدِهِ إِلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

﴿فَلَمَّا تَعَشَّاهَا﴾ أَيُّ وَطَّئَهَا ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا حَنِينًا﴾
وَذَلِكَ أَوَّلُ الْحَمْلِ لَا تَجِدُ الْمَرْأَةَ لَهُ أَلْمًا، إِنَّمَا هِيَ النُّطْفَةُ
ثُمَّ الْعَلَقَةُ ثُمَّ الْمُضْغَةُ.
وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: اسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهِ (١).
وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالسُّدِّيِّ نَحْوَهُ (٢).
وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ عَنْ أَبِيهِ: اسْتَحَفَّتْهُ. وَقَالَ أَيُّوبُ:
سَأَلْتُ الْحَسَنَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قَالَ: لَوْ كُنْتُ رَجُلًا
عَرَبِيًّا لَعَرَفْتُ مَا هِيَ؟ إِنَّمَا هِيَ فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ (٣). وَقَالَ
قَتَادَةُ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا (٤). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:
مَعْنَاهُ اسْتَمَرَّتْ بِالْمَاءِ قَامَتْ بِهِ وَقَعَدَتْ (٥). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: اسْتَمَرَّتْ بِهِ فَشَكَتْ أَحْمَلَتْ أَمْ لَا؟ ﴿فَلَمَّا
أَنْقَلَتْ﴾ أَيُّ صَارَتْ ذَاتَ نَقْلِ بِحَمْلِهَا (٦). وَقَالَ السُّدِّيُّ:
كَبُرَ الْوَلَدُ فِي بَطْنِهَا (٧). ﴿دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا﴾
أَيُّ بَشَرًا سَوِيًّا، كَمَا قَالَ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَشْفَقَا
أَنْ يَكُونَ بَهِيمَةً (٨). وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الْبَحْرِيِّ وَأَبُو مَالِكٍ:
أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُونَ إِنْسَانًا (٩).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَئِنْ آتَيْنَا غُلَامًا (١٠). ﴿لَتَكُونَنَّ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُمُ شُرَكَاءَ فِيمَا
ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ ﴿جَعَلَا لَهُمُ شُرَكَاءَ فِيمَا
ءَاتَاهُمَا﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ الْمِلَلِ وَلَمْ يَكُنْ
يَادِمُ (١١).

(١) الطبري: ٣٠٥/١٣ (٢) الطبري: ٣٠٥، ٣٠٤/١٣ (٣)
الطبري: ٣٠٤/١٣ (٤) الطبري: ٣٠٥/١٣ (٥) الطبري:
٣٠٤/١٣ (٦) الطبري: ٣٠٥/١٣ (٧) الطبري: ٣٠٥/١٣
(٨) الطبري: ٣٠٦/١٣ (٩) الطبري: ٣٠٦/١٣ (١٠)
الطبري: ٣٠٦/١٣ (١١) الطبري: ٣١٤/١٣ (١٢) الطبري:
٣١٤/١٣ (١٣) الطبري: ٣١٥/١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٦

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٧٦﴾
 وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا
 أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
 وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧٨﴾ خذ العفو وأمر
 بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٧٩﴾ وَإِمَائِرُ غَنَاقٍ مِنَ
 الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٠﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا
 فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٨١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي النَّارِ ثُمَّ
 لَا يَقْصِرُونَ ﴿١٨٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا
 قُلْ إِنَّمَا اتَّبَعْتُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ
 فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٨٤﴾ وَأَذْكُرَّ بِكَ
 فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
 وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٨٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
 لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿١٨٦﴾

اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَجَعَلَ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ مَا وَاوَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ الآية، يَعْنِي
 أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهَا، وَسَوَاءٌ لَدَيْهَا مَنْ
 دَعَاهَا وَمَنْ دَعَاهَا، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَ تَقْبَلُونَ مَا لَا
 يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى
 أَنَّهَا عَيْبِدٌ مِثْلَ عَابِدِيهَا أَيْ مَخْلُوقَاتٍ مِثْلَهُمْ، بَلِ الْإِنْسَانِيُّ
 أَكْمَلُ مِنْهَا، لِأَنَّهَا تَسْمَعُ وَتُبْصِرُ وَتَبْطِشُ، وَتَلِكُ لَا تَفْعَلُ
 شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أَيْ
 اسْتَنْصِرُوا بِهَا عَلَيَّ فَلَا تُؤْخِرُونِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَاجْهَدُوا
 جَهْدَكُمْ ﴿إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾
 أَيْ اللَّهُ حَسْبِي وَكَافِي، وَهُوَ نَصِيرِي وَعَلِيٌّ مُكَلِّي وَإِلَيْهِ
 الْجَأُ، وَهُوَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ وَلِيِّي كُلِّ صَالِحٍ
 بَعْدِي. وَهَذَا كَمَا قَالَ هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لَهُ قَوْمُهُ:
 ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا
 أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٦٧] مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا
 تُظْهِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ

تَتَحَرَّكَ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَعَابِدُوهَا أَكْمَلُ مِنْهَا
 يَسْمَعُهُمْ وَيَبْصِرُهُمْ وَيَبْطِشُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُشْرِكُونَ مَا لَا
 يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أَيْ أُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ مَا لَا
 يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ
 ضَرْبًا مِثْلَ مَا اسْتَجْعَلُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا لَنْ يَسْمَعُوا
 لَكَ شَيْئًا لَئِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَسْمَعُوا لَهُمْ شَيْئًا وَلَا
 يُنصِرُهُمْ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّلَبِ وَالْمَلْطُوبِ ﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ
 حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] أُخْبِرَ
 تَعَالَى أَنَّ إِلَهَتَهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا خَلْقَ ذُبَابَةٍ
 بَلْ لَوْ سَلَبْتَهُمُ الذُّبَابَةَ شَيْئًا مِنْ حَقِيرِ الْمَطَاعِمِ وَطَارَتْ، لَمَا
 اسْتَطَاعُوا إِنْقَادَهُ مِنْهَا، فَمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَحَالُهُ كَيْفَ يُعْبَدُ -
 لِيُزَوَّقَ - وَيُسْتَنْصَرُ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ
 يُخْلَقُونَ﴾ أَيْ بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ مَصْنُوعُونَ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ:
 ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ﴾ الآية [الصافات: ٩٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا﴾ أَيْ لِعَابِدِيهِمْ
 ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ﴾ يَعْنِي وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ يُصْرُونَ مِمَّنْ
 أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ، كَمَا كَانَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
 يَكْسِرُ أَصْنَامَ قَوْمِهِ وَيُهِنُهَا غَايَةَ الْإِهَانَةِ، كَمَا أُخْبِرَ تَعَالَى
 عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوَاعِظُهُمْ صَرَبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣] وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَمْ يَلْمَهُ إِلَيْهِ
 يَرْجُمُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] وَكَمَا كَانَ مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بِنَ
 الْجُمُوحِ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَكَانَا شَابِيَيْنِ قَدْ
 أَسْلَمَا لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَكَانَا يَعْذُوَانِ فِي
 اللَّيْلِ عَلَى أَصْنَامِ الْمُشْرِكِينَ يَكْسِرَانِهَا وَيُتْلِفَانِهَا وَيَتَّخِذَانِهَا
 حَطَبًا لِلْأَرَامِلِ لِيَعْتَبِرَ قَوْمُهُمَا بِذَلِكَ، وَيَزْتَوُّوا لِأَنْفُسِهِمْ،
 فَكَانَ لِعَمْرٍو بِنِ الْجُمُوحِ - وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ - صَنْمٌ
 يَعْْبُدُهُ وَيُطِيبُهُ، فَكَانَا يَجِيئَانِ فِي اللَّيْلِ فَيَنْكَسِرَانِهِ عَلَى رَأْسِهِ
 وَيُلَطِّخَانِهِ بِالْعَذْرَةِ، فَيَجِيءُ عَمْرٍو بِنِ الْجُمُوحِ فَيَرَى مَا
 صَنَعَ بِهِ، فَيَغْسِلُهُ وَيُطِيبُهُ وَيَضَعُ عِنْدَهُ سِنْفًا وَيَقُولُ لَهُ:
 انْتَصِرْ، ثُمَّ يَعْذُوَانِ لِمِثْلِ ذَلِكَ، وَيَعُودُ إِلَى صَنْبِعِهِ أَيْضًا،
 حَتَّى أَخْذَاهُ مَرَّةً فَقَرَأَهُ مَعَ [جزء] كَلْبٍ مَيْتٍ، وَدَلِيَّاهُ فِي
 حَبْلٍ فِي بَيْتِ هُنَاكَ، فَلَمَّا جَاءَ عَمْرٍو بِنِ الْجُمُوحِ وَرَأَى
 ذَلِكَ، نَظَرَ فَعَلِمَ أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ بَاطِلًا، وَقَالَ:

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهًا مُسْتَدَنَّ

لَمْ تَكْ وَالْكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ
 ثُمَّ أَسْلَمَ فَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، وَقِيلَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا رَضِيَ

وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ^(٧).

وَقَالَ الْبَحَارِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ الْعُرْفُ: الْمَعْرُوفُ. ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عُبَيْتَةُ بْنُ حُصَيْنٍ بِنُ حُدُفَةَ، فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ أُخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّقَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كَهَوْلًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُبَيْتَةُ لِابْنِ أُخِيهِ: يَا ابْنَ أُخِي! لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُبَيْتَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْحَطَّابِ، فَوَ اللَّهُ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تُحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِيَّاتِ، وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٨). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبَحَارِيُّ.

وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ مَعْنَى الْآيَةِ، فَسَبَّكَ فِي بَيْتَيْنِ فِيهِمَا جَنَاسٌ، فَقَالَ:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفِ كَمَا

أَمِرْتَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ

وَلَسْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ

فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لِيْنِ

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: النَّاسُ رَجُلَانِ، فَرَجُلٌ مُحْسِنٌ

فَخُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَلَا تُكَلِّفُهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ وَلَا

مَا يُحْرِجُهُ. وَإِمَّا مُسِيءٌ فَمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنَّ تِمَادَى

عَلَى ضَلَالِهِ وَاسْتَعْصَى عَلَيْكَ وَاسْتَمَرَّ فِي جَهْلِهِ،

فَأَعْرِضْ عَنْهُ، فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ النَّسِيئَةَ مِمَّنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ﴾^(٩) وَقُلْ

رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ^(١٠) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي

الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١١) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا

(١) الطبري: ٣٢٨/١٣ (٢) الطبري: ٣٢٧/١٣ (٣) الطبري:

٣٢٧/١٣ (٤) فتح الباري: ١٥٥/٨ (٥) فتح الباري: ٨/

١٥٦ (٦) فتح الباري: ١٥٦/٨ (٧) الطبري: ١٥٤/٦ وابن

أبي حاتم: ١٦٣٨/٥ (٨) فتح الباري: ١٥٥/٨

بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] وَكَقَوْلِ الْخَلِيلِ: ﴿أَسْتُرْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾^(١٢) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ^(١٣) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الْآيَاتِ [الشعراء: ٧٦-٧٨]، وَكَقَوْلِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾^(١٤) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^(١٥) [الزخرف: ٢٧، ٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، مُؤَكَّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ إِلَّا أَنَّهُ بِصِيغَةِ الْخُطَابِ وَذَلِكَ بِصِيغَةِ الْعُبَيْتَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يُصْرُونَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَدُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ﴾ الْآيَةِ [فاطر: ١٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَرْتَدُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إِنَّمَا قَالَ: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ يَقَابِلُونَكَ بِعُيُونِ مَصُورَةٍ كَأَنَّهَا نَاطِرَةٌ وَهِيَ جَمَادٌ. وَلِهَذَا عَامَلَهُمْ مَعَامَلَةً مَنْ يَعْمَلُ لِأَنَّهَا عَلَى صُورَةٍ مَصُورَةٍ كَالْإِنْسَانِ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، فَعَبَّرَ عَنْهَا بِضَمِيرٍ مَنْ يَعْمَلُ.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ وَإِمَّا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(١٦)

[الْأَمْرُ بِالْعَفْوِ]

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أَمْرَهُ اللَّهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْعِلْظَةِ عَلَيْهِمْ^(١٧). وَقَالَ غَيْرٌ وَاجِدٌ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قَالَ: مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجَسُّسٍ^(١٨). وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ^(١٩). وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: خُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ. وَفِي صَحِيحِ الْبَحَارِيِّ عَنْ هِشَامَ عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ عَنْ أُخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: إِنَّمَا أَنْزَلَ ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ^(٢٠). وَفِي رِوَايَةٍ لِغَيْرِهِ: عَنْ هِشَامَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ^(٢١). وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ هِشَامَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ^(٢٢). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ جَمِيعًا: حَدَّثَنَا يُونُسُ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ هُوَ ابْنُ عُبَيْتَةَ عَنْ [أُمِّ] قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ،

وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا دُو حَظِّ عَظِيمٍ ﴿٢٠١﴾ أَي هَذِهِ الْوَصِيَّةُ ﴿وَأَيَّمَا

يَرْغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

﴿[فصلت: ٣٤-٣٦] وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ أَيضًا:

﴿وَأَيَّمَا يَرْغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾ فَهَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي الْأَعْرَافِ وَالْمُؤْمِنُونَ

وَحَمَّ السَّجْدَةَ لَا رَابِعَ لَهُنَّ، فَإِنَّهُ تَعَالَى، يُرِيدُ فِيهِنَّ إِلَى

مُعَامَلَةِ الْعَاصِي مِنَ الْإِنْسِ بِالْمَعْرُوفِ بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ،

فَإِنَّ ذَلِكَ يَكْفُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ التَّمَرُّدِ بِإِذْنِهِ تَعَالَى،

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا الَّذِي يَبْنُكَ وَيَبْنِيكَ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

[فصلت: ٣٤] ثُمَّ يُرِيدُ تَعَالَى إِلَى الْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ

الْجَانِّ، فَإِنَّهُ لَا يَكْفُهُ عَنكَ الْإِحْسَانُ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ هَلَاكَكَ

وَدَمَارَكَ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَكَ وَلَا يَبُكُّ مِنْ قَبْلِكَ .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿وَأَيَّمَا يَرْغَبُكَ مِنَ

الشَّيْطَانِ نَزَعٌ﴾ وَأَيُّمًا يُغْضِبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ

عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِ وَيَحْمِلُكَ عَلَى مَجَازَاتِهِ

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يَقُولُ: فَاسْتَجِرْ بِاللَّهِ مِنْ نَزْعِهِ ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾ سَمِيعٌ لِجَهْلِ الْجَاهِلِ عَلَيْكَ وَالْإِسْتِعَاذَةَ بِهِ مِنْ

نَزْعِهِ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ خَلْقِهِ. لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ

شَيْءٌ، عَلِيمٌ بِمَا يُدْهِبُ عَنكَ نَزْعَ الشَّيْطَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ

مِنْ أُمُورِ خَلْقِهِ ^(١).

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَحَادِيثَ الْإِسْتِعَاذَةِ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ بِمَا أَغْنَى

عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

﴿إِنَّ الْآيَاتِ لَأَتَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا

فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠٢﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا

يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٣﴾

[عَمَلُ أَهْلِ التَّقْوَى عِنْدَ الْوَسْوَسَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَطَاعُوهُ

فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكُوا مَا عَنْهُ رَجَرَ، أَنَّهُمْ ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أَي

أَصَابَهُمْ (طَيْفٌ). وَقَرَأَ الْآخَرُونَ ﴿طَلِيفٌ﴾ وَهِيَ قِرَاءَتَانِ

مَشْهُورَتَانِ، فَيُقِيلُ: بِمَعْنَى وَاجِدٍ، وَقِيلَ: بَيْنَهُمَا فَرْقٌ،

وَمِنْهُمُ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالْغَضَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِمَسِّ

الشَّيْطَانِ بِالصَّرْعِ وَنَحْوِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْهَمِّ

بِالذَّنْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِإِصَابَةِ الذَّنْبِ وَقَوْلُهُ:

﴿تَذَكَّرُوا﴾ أَي عَقَابَ اللَّهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَوَعْدَهُ،

وَوَعِيدَهُ، فَتَابُوا وَأَتَابُوا وَاسْتَعَاذُوا بِاللَّهِ وَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنْ

قَرِيبٍ ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أَي قَدِ اسْتَقَامُوا وَصَحُّوا وَمَا

كَانُوا فِيهِ .

[إِخْوَانُ الشَّيْطَانِ يَمُدُّونَ فِي الْغَيِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ﴾ أَي وَإِخْوَانُ

الشَّيْطَانِ مِنَ الْإِنْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْمَذِينِينَ كَانُوا إِخْوَانَ

الشَّيْطَانِ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٢٧] وَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُسْتَمِعُونَ لَهُمْ،

الْقَابِلُونَ لِأَمْرِهِمْ ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أَي تُسَاعِدُهُمْ

الشَّيْطَانُ عَلَى الْمَعَاصِي وَتُسَهِّلُهَا عَلَيْهِمْ وَتَحْسِنُهَا لَهُمْ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الْمَدُّ: الزِّيَادَةُ بِعَنَى بَرِيدُوهُمْ فِي الْغَيِّ،

بِعَنَى الْجَهْلُ وَالسَّفَهَ . ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ

الشَّيْطَانِ تَمُدُّ [وَ] الْإِنْسُ لَا تُقْصِرُ فِي أَعْمَالِهِمْ بِذَلِكَ،

كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ الْآيَةَ، قَالَ:

لَا الْإِنْسُ يُقْصِرُونَ عَمَّا يَعْمَلُونَ، وَلَا الشَّيْطَانُ تُسْمِكُ

عَنْهُمْ ^(٢). ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ لَا تَقْتُرُ فِيهِ وَلَا تَبْطُلُ عَنْهُ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانِ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْذُهُمْ

أَرْزَاقًا﴾ [مَرْيَمُ: ٨٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: تُزْعِجُهُمْ إِلَى

الْمَعَاصِي إِزْعَاجًا ^(٣).

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَتْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّكَ

لَكُنَّا مِنَ الْغَابِقِينَ﴾ [الْحَاقَّةُ: ١٧] وَهِيَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٤﴾

[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَتْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّكَ لَكُنَّا مِنَ الْغَابِقِينَ﴾ وَقَالَ مَرَّةً

أُخْرَى: لَوْلَا أَحَدَّثْتَهَا فَأَنشَأْنَاهَا ^(٤). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ

عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ

قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَتْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّكَ لَكُنَّا مِنَ الْغَابِقِينَ﴾ قَالُوا: تُنْجِرُهَا

عَنْ نَفْسِكَ ^(٥). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ

زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ^(٦). وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ﴾ أَي مُعْجِزَةٌ وَخَارِقٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿إِنْ لَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لِمَا خَصَّصْنَا لَهُمْ

[الشعراء: ٤] يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ: أَلَا تَجْهَدُ نَفْسُكَ فِي

طَلَبِ الْآيَاتِ مِنَ اللَّهِ، حَتَّى تَرَاهَا وَتُؤْمِنَ بِهَا، قَالَ اللَّهُ

تَعَالَى لَهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أَي أَنَا لَا

^(١) الطبري: ٣٣٢/١٣ (٢) الطبري: ٣٣٨/١٣ (٣) الطبري:

٢٥٢/١٣ (٤) الطبري: ٣٤١/١٣ (٥) الطبري: ٣٤١/١٣

(٦) الطبري: ٣٤٢، ٣٤١/١٣

الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية. وَإِنَّمَا ذَكَرَهُمْ بِهَذَا لِیَقْتَدَى بِهِمْ فِي كَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، وَلِهَذَا شُرِعَ لَنَا السُّجُودُ هَهُنَا - لِمَا ذَكَرَ سُجُودَهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَلَا تَصُفُونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، يُثَمِّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى فَالْأُولَى وَبِئْرَاصُونَ فِي الصَّفِّ»^(٣). وَهَذِهِ أَوَّلُ سَجْدَةٍ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يُشْرَعُ لِتَالِيهَا وَمُسْتَمِعَهَا السُّجُودَ بِالْإِجْمَاعِ.

تفسير سورة الأنفال وهي مدنيّة

آيَاتُهَا سَبْعُونَ وَخَمْسُ آيَاتٍ. كَلِمَاتُهَا: أَلْفٌ كَلِمَةً وَسِتْمِائَةٌ كَلِمَةً، وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ كَلِمَةً. حُرُوفُهَا: خَمْسَةٌ أَلْفٌ وَمِائَتَانِ وَأَرْبَعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَتَلُونَا مِنَ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿١﴾

[تفسير الأنفال]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَنْفَالُ: الْمَغَانِمُ، ثُمَّ رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سُورَةُ الْأَنْفَالِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ^(٤). أَمَّا مَا عَلَّقَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْأَنْفَالُ: الْأَعْيَانُ، كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَالِصَةً لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهَا شَيْءٌ^(٥). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ، وَعَطَاءٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَعَبْدُ وَاحِدٍ: أَنَّهَا الْمَغَانِمُ^(٦). [وَقِيلَ: أَنْتَلُّ مَا يُنْتَلَى الْإِمَامُ لِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ، مِنْ سَلْبٍ أَوْ نَحْوِهِ بَعْدَ قَسَمِ أَصْلِ الْمُعْتَمِ، وَقِيلَ: هُوَ الْخُمْسُ بَعْدَ الْأَرْبَعَةِ مِنْ

أَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا اتَّبَعِ مَا أَمَرَنِي بِهِ، فَمَا مَثَلُ مَا يُوْحِيهِ إِلَيَّ، فَإِنْ [بَعَثَ] آيَةً قَبِلْتَهَا وَإِنْ مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ ابْتِدَاءً إِنِّي أَهْمًا، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنِي فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُعْجَزَاتِ وَأَبْيُنُ الدَّلَالَاتِ وَأَصْدَقُ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ، فَقَالَ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٧)
[الْأَمْرُ بِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا لَهُ وَاحْتِرَامًا، لَا كَمَا كَانَ يَعْتَمِدُهُ كُفَّارٌ فُرَيْشٍ، الْمُشْرِكُونَ، فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ﴾ الآية [فصلت: ٢٦]. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كُنَّا نُسَلِّمُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الصَّلَاةِ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٨).

﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٩) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِسُجُودٍ﴾^(١٠)

[الْأَمْرُ بِالذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ كَثِيرًا، كَمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَفْرَضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ. وَقَالَ هَهُنَا: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ، ﴿وَالْآصَالِ﴾ جَمْعُ أَصِيلٍ، كَمَا أَنَّ الْأَيْمَانَ جَمْعُ يَمِينٍ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أَيُّ أَدْكُرُ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً وَبِالْقَوْلِ لَا جَهْرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ﴾ وَهَكَذَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ لَا يَكُونُ نِدَاءً وَجَهْرًا بَلِيغًا.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالِدُّعَاءِ فِي بَعْضِ الْأَشْفَارِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! ارْجِعُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»^(١١). وَالْمُرَادُ: الْحَضُّ عَلَى كَثْرَةِ الذِّكْرِ مِنَ الْعِبَادَةِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، لِئَلَّا يَكُونُوا مِنَ الْغَافِلِينَ، وَلِهَذَا مَدَحَ

(١) إسناده منقطع: المسيب بن رافع لم يسمع من عبد الله بن مسعود شيئًا كما قال أحمد وأبو حاتم الرازي [جامع التحصيل وتهذيب التهذيب] (٢) فتح الباري: ١٥٧/٦ ومسلم: ٢٠٧٧/٤ (٣) مسلم: ٣٢٢/١ (٤) فتح الباري: ١٥٦/٨ (٥) الطبري: ٣٧٨/١٣ (٦) الطبري: ٣٦١/١٣

سُورَةُ الْأَنْفَالِ
١٧٧

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾

الْأَخْمَاسِ. وَقِيلَ: هُوَ الْفَيْءُ. وَهُوَ مَا أَخَذَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، وَمَا شَدَّ مِنْهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ دَابِيَّةٍ أَوْ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ أَوْ مَتَاعٍ. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ صَالِحِ ابْنِ حَيٍّ قَالَ: بَلَغَنِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾: قَالَ: السَّرَايَا. وَمَعْنَى هَذَا مَا يُفْقَلُهُ الْإِمَامُ لِبَعْضِ السَّرَايَا زِيَادَةً عَلَى قَسْمِهِمْ مَعَ بَقِيَّةِ الْجَيْشِ.

[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ شَفَانِي اللَّهُ الْيَوْمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَهَبْ لِي هَذَا السِّيفَ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا السِّيفَ لَا لَكَ وَلَا لِي، ضَعْنَاهُ» قَالَ: فَوَضَعْتُهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ قُلْتُ: عَسَى أَنْ يُعْطَى هَذَا السِّيفَ مَنْ لَا يُبْلِي بِلَايِي، قَالَ: فَإِذَا رَجُلٌ يَدْعُونِي مِنْ وَرَائِي قَالَ: قُلْتُ: قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيَّ سَيْفًا؟ قَالَ ﷺ: «كُنْتُ سَأَلْتُنِي السِّيفَ وَلَيْسَ هُوَ لِي، وَإِنَّهُ قَدْ وَهَبَ لِي، فَهُوَ لَكَ». قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢).

سَبَبُ آخَرُ فِي نَزُولِ الْآيَةِ

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عِبَادَةَ عَنِ الْأَنْفَالِ؟ فَقَالَ: فِينَا - أَصْحَابَ بَدْرٍ - نَزَلَتْ، حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النِّقْلِ، وَسَاعَتْ فِيهِ أَخْلَافُنَا، فَأَنْتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَوَاءٍ - يَقُولُ: عَنْ سِوَاءِ -^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا، فَالْتَقَى النَّاسُ، فَهَزَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَدُوَّ، فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزُمُونَ وَيَقْتُلُونَ، وَأَقْبَلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَحْزُرُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ، وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يُصِيبُ الْعَدُوَّ مِنْهُ غِرَّةٌ، حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَفَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْعَنَائِمَ: نَحْنُ حَوَيْنَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ. وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا، نَحْنُ مَتَعْنَا عَنْهُ الْعَدُوَّ وَهَزَمْنَاهُمْ. وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: [لَسْتُمْ بِأَحَقَّ مِنَّا نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ] خُفْنَا أَنْ يُصِيبَ الْعَدُوَّ مِنْهُ غِرَّةٌ فَاشْتَعَلْنَا بِهِ. فَنَزَلَتْ ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾

فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَعَارَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ نَقَلَ الرُّبْعَ، فَإِذَا أَقْبَلَ [وَكُلُّ النَّاسِ] رَاجِعًا نَقَلَ الثُّلُثَ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْأَنْفَالَ^(٤). [وَيَقُولُ: لِيَزِدَّ قُوَّةَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ضَعْفِهِمْ]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ نَحْوَهُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَيِ اتَّقُوا اللَّهَ فِي أُمُورِكُمْ، وَأَصْلِحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَلَا تَطَالُمُوا وَلَا تَخَاصُمُوا، وَلَا تَسَاجَرُوا، فَمَا آتَاكُمْ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ خَيْرٍ مِمَّا تَخْتَصِمُونَ بِسَبِيهِ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيِ فِي قِسْمِهِ بَيْنَكُمْ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَقْسِمُهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا

(١) أحمد: ١/١٧٨ (٢) أبو داود: ٣/١٧٧ وتحفة الأحوذى: ٤٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٤٨ (٣) أحمد: ٥/٣٢٢ (٤) أحمد: ٥/٣٢٣ (٥) تحفة الأحوذى: ٨/٤٦٨ وابن ماجه: ٤٥١/٢

تَحْرِيجٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [عَلَى الْمُؤْمِنِينَ] أَنْ يَتَّقُوا [اللَّهَ] وَيُضِلُّوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ^(١). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ^(٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» أَي لَاتَسْتَبُوا^(٣).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) [أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ». قَالَ: الْمُنَافِقُونَ لَا يَدْخُلُ قُلُوبُهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ آدَاءِ فَرَائِضِهِ. وَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُونَ، وَلَا يُصَلُّونَ إِذَا غَابُوا، وَلَا يُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ» فَأَدَّوْا فَرَائِضَهُ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا يَقُولُ: زَادَتْهُمْ تَصَدِيقًا «وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» يَقُولُ: لَا يَزْجُونَ غَيْرَهُ^(٤).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ» فَرَقَتْ أَي فَرِغَتْ وَخَافَتْ^(٥). وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ. وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ - حَقِّ الْمُؤْمِنِ - الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّ قَلْبُهُ^(٦).

أَي خَافَ مِنْهُ، فَفَعَلَ أَمْرَهُ وَتَرَكَ رَوَاجِرَهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرَحٌ وَإِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَبْصُرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٥) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ [النازعات: ٤٠، ٤١] وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: سَمِعْتُ السُّدِّيَّ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ» قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يَطْلِمَ أَوْ قَالَ: يَهُمُّ بِمَعْصِيَةِ فَيُقَالُ لَهُ: إِنِّي اللَّهُ. فَيَجِلُّ قَلْبُهُ.

زِيَادَةُ الْإِيمَانِ إِذَا تَنَلَى آيَاتُ الْقُرْآنِ

وَقَوْلُهُ: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا»، كَقَوْلِهِ: «وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْسِرُونَ» [التوبة: ١٢٤]. وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَعَبْرُهُ مِنَ الْآيَةِ بِهِذِهِ

الآيَةَ وَأَشْبَاهَهَا عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَفَاضُلِهِ فِي الْقُلُوبِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ، بَلْ قَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْآيَةِ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ. كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ مُسْتَقْصَى فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

[بَيَانُ التَّوَكُّلِ]

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أَي لَا يَزْجُونَ سِوَاهُ، وَلَا يَتَّصِدُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ، وَلَا يُلَوِّدُونَ إِلَّا بِجَنَابِهِ، وَلَا يَطْلُبُونَ الْحَوَائِجَ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يَرْغَبُونَ إِلَّا إِلَيْهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَلِهَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ جَمَاعُ الْإِيمَانِ.

[بَيَانُ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ]

وَقَوْلُهُ: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» يُنْبِئُهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بَعْدَمَا ذَكَرَ اعْتِقَادَهُمْ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ تَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْخَيْرِ كُلِّهَا، وَهُوَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَهُوَ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا وَوُضُوعُهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا^(٧). وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: إِقَامَتُهَا الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا، وَإِسْبَاطُ الطُّهُورِ فِيهَا، وَتِمَامُ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَالشَّهَادَةُ وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. هَذَا إِقَامَتُهَا^(٨). وَالْإِنْفَاقُ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ: يَشْمَلُ إِخْرَاجَ الزَّكَاةِ وَسَائِرِ الْحُقُوقِ لِلْعِبَادِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ. وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ فَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِخَلْقِهِ.

[بَيَانُ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ]

وَقَوْلُهُ: «أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا»، أَي الْمُتَّصِفُونَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا الْإِيمَانِ.

[تَمَرَّةُ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ]

وَقَوْلُهُ: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أَي مَنَازِلُ وَمَقَامَاتُ وَدَرَجَاتُ فِي الْجَنَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» [آل عمران: ١٦٣] «وَمَغْفِرَةٌ»

(١) الطبري: ٣٨٤/١٣ (٢) الطبري: ٣٨٤/١٣ (٣) الطبري:

٣٨٤/١٣ (٤) الطبري: ٣٨٦/١٣ (٥) الطبري: ٣٨٦/١٣

(٦) الطبري: ٣٨٦/١٣ (٧) ابن أبي حاتم: ٣٧/١ (٨) ابن

أبي حاتم: ٣٧/١

أَيَّ يَغْفِرُ لَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَيَشْكُرُ لَهُمُ الْحَسَنَاتِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ عَلِيِّنَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْعَابِرَ فِي أَفْقٍ مِنْ أَقَافِ السَّمَاءِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَنَالُهَا غَيْرُهُمْ. فَقَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(١). وَفِي الْحَدِيثِ الْأَخْرَجِي الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ [عَطِيَّة] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْحَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الْعَابِرَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ وَأَنْعَمًا»^(٢).

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرَبَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسْأَلُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَمَهُمْ يَطْرُقُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَدُوَّ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقَطَّ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

[إِتْبَاعُ الرَّسُولِ بَاعِثُ خَيْرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ]

قَوْلُهُ: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: شَبَّهَ بِهِ - فِي الصَّلَاحِ لِلْمُؤْمِنِينَ - إِتْقَانَهُمْ رَبَّهُمْ وَإِصْلَاحَهُمْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ وَطَاعَتَهُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: كَمَا أَنْتُمْ لَمَّا اخْتَلَفْتُمْ فِي الْمَغَانِمِ وَتَسَاحَحْتُمْ فِيهَا فَانْتَرَعَهَا اللَّهُ مِنْكُمْ وَجَعَلَهَا إِلَى قِسْمِهِ وَقَسَمَ رَسُولُهُ ﷺ، فَقَسَمَهَا عَلَى الْعَدْلِ وَالنَّسْوِيَّةِ، فَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَصْلَحَةُ النَّامَةُ لَكُمْ. وَكَذَلِكَ لَمَّا كَرِهْتُمْ الْخُرُوجَ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ قِتَالِ ذَاتِ الشُّوْكَةِ، وَهُمْ النَّفِيرُ الَّذِي خَرَجُوا لِنَصْرِ دِينِهِمْ وَإِحْرَازِ عِيْرِهِمْ، فَكَانَ عَاقِبَةُ كَرَاهَتِكُمْ لِلْقِتَالِ - بِأَنَّ قَدْرَهُ لَكُمْ، وَجَمَعَ بِهِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ - رُشْدًا وَهُدًى، وَنَصْرًا وَفَتْحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] قَالَ السُّدِّيُّ: «وَإِنَّ فَرَبَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ» لِيَطْلُبَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يُسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ مُجَادَلَةً كَمَا جَادَلُوكَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالُوا: أَخْرَجْنَا لِيُعْبِرَ وَلَمْ نُعْلِمْنَا قِتَالًا فَتَسَعَّدَ لَهُ؟ ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أَيُّ هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَهَا الشُّوْكَةُ وَالْقِتَالُ، لِيُظْفِرَكُمْ بِهِمْ وَيُنْصِرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُظْهِرَ دِينَهُ

وَيَرَفَعَ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، وَيَجْعَلُهُ غَالِبًا عَلَى الْأَدْبَانِ، وَهُوَ أَغْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُكُمْ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ، وَإِنْ كَانَ الْعِبَادُ يُجِئُونَ خِلَافَ ذَلِكَ فِيمَا يَظْهَرُ لَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

﴿٢١٦﴾ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُهَيْبَانَ مُقْبِلًا مِنَ الشَّامِ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: «هَذِهِ عَيْرٌ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَأَخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُفْلِكُكُمْوهَا». فَانْتَدَبَ النَّاسُ فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَلْقَى حَرْبًا، وَكَانَ أَبُو سُهَيْبَانَ قَدِ اسْتَنْفَرَ حِينَ دَنَا مِنَ الْحِجَازِ يَتَجَسَّسُ الْأَخْبَارَ، وَيَسْأَلُ مَنْ لَقِيَ مِنَ الرُّكْبَانِ تَخَوُّفًا عَلَى أَمْرِ النَّاسِ، حَتَّى أَصَابَ خَبْرًا مِنْ بَعْضِ الرُّكْبَانِ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدِ اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لَكَ وَلِعَبْرِكَ، فَحَدَرَ عِنْدَ ذَلِكَ فَاسْتَأْجَرَ ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ، فَجَعَلَهُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ قُرَيْشًا فَيَسْتَنْفِرَهُمْ إِلَى أَمْوَالِهِمْ، وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدِ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ، فَخَرَجَ ضَمْضَمُ بْنُ عَمْرٍو سَرِيعًا إِلَى مَكَّةَ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ، حَتَّى بَلَغَ وادِيًا يُقَالُ لَهُ: ذَفِرَانُ، فَخَرَجَ مِنْهُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِهِ نَزَلَ، وَأَتَاهُ الْخَبْرُ عَنْ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِهِمْ، لِيَمْنَعُوا عِيْرَهُمْ، فَاسْتَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْشٍ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: فَأَحْسَنَ. ثُمَّ قَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: فَأَحْسَنَ. ثُمَّ قَامَ الْمُقَدَّادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِمضْ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، فَنَحْنُ مَعَكَ وَاللَّهِ! لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ، فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لَوْ سِرْتُ بِنَا إِلَى بَرْكِ الْعَمَادِ، يَعْنِي مَدِينَةَ الْحَبَشَةِ*) لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ!» وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَدَدَ النَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ

(١) فتح الباري: ٦/٣٦٨، ومسلم: ٤/٢١٧٧ (٢) أحمد: ٣/٢٧ وأبو داود: ٤/٢٨٧ وتحفة الأحوذى: ٨/١٤٢ وابن ماجه: ١/٣٧ إسناده ضعيف فيه عطية العوفي وهو ضعيف مدلس وله شواهد ضعيفة (*) وهي الآن مدينة من اليمن، كما عند المؤرخين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ
 مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى
 وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ
 عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ
 الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿٣﴾
 إِذْ يوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ
 الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ فذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
 عَذَابَ النَّارِ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ
 كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ ﴿٧﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدِ
 دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالِ أَوْ مُتَحَرِّجًا إِلَى فِتْنَةٍ فَفَدَّ بَاءَ
 يَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهُنَّ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

بِأَعْوُهُ بِالْعَقَبَةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا بَرَاءٌ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى
 تَصِلَ إِلَيَّ دَارِنَا، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَامِنَا، نَمْتَعُكَ
 مِمَّا نَمْتَعُ مِنْهُ أَتْبَاعَنَا وَنِسَاءَنَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَحَوَّفُ
 أَنْ لَا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نُصْرَتَهُ، إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ
 بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوِّ
 مِنْ بِلَادِهِمْ، فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ
 مُعَاذٍ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ» فَقَالَ:
 فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ،
 وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاقِفَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،
 فَأَمَضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! إِنْ
 اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لِحُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا يَتَخَلَّفُ مِنَّا
 رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَرُهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُونًا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ عِنْدَ
 الْحَرْبِ صُدُقٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقْرُبُ بِهِ عَيْنُكَ،
 فَيَسِرُ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَسَّطَهُ
 ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: «سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ
 وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ! لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ
 الْقَوْمِ»^(١) وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَ هَذَا^(٢). وَكَذَلِكَ
 قَالَ السُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَعَبْدُ وَاحِدٍ
 مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ^(٣). اِخْتَصَرْنَا أَقْوَالَهُمْ اِكْتِفَاءً بِسِيَاقِ
 مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنَ
 الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ
 قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 حَكِيمٌ ﴿٢﴾

[اِسْتِجَابَةُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِجَابَةُ اللَّهِ لَهُمْ
 بِإِنزَالِ الْمَلَائِكَةِ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَارِي: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:
 ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكَرِهَ
 اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: شَهِدْتُ
 مِنَ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهُدًا لِأَنَّهُ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ
 مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ
 فَقَالَ: لَا تَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: (اِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
 فَقَاتِلَا) وَلَكِنَّا نَقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ
 وَخَلْفِكَ، فَرَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهَهُ وَسَرَّهُ. يَعْنِي:
 قَوْلُهُ^(٤). ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ
 بَدْرٍ: «اللَّهُمَّ! أَنْشُدْكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ! إِنْ شِئْتَ لَمْ

تُعْبَدُ» فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:
 «سَبِّهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ». وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٥). وَقَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ أَيُّ يُرَدِّفُ بَعْضُهُمْ
 بَعْضًا كَمَا قَالَ هَارُونُ بْنُ هُبَيْرَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿مُرَدِّفِينَ﴾
 مُتَّبَاعِينَ^(٦). رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:
 وَأَمَدَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ
 جِبْرِيلُ فِي حَمْسِمَائَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُجْتَبِيَةٍ، وَمِيكَائِيلُ فِي
 حَمْسِمَائَةٍ مُجْتَبِيَةٍ^(٧). وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ
 وَمُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ حَدِيثًا^(٨) فِيهِ: بَيْنَا رَجُلٌ
 مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ
 سَمِعَ صَرْبَةً بِالسُّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتُ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ

(١) الطبري: ٣٩٩/١٣ (٢) الطبري: ٤٠٣/١٣ (٣) الطبري:
 ٤٠٥، ٤٠٢/١٣ (٤) فتح الباري: ٣٣٥/٧ (٥) فتح الباري:
 ٣٣٥/٧ والنسائي في الكبرى: ٤٧٧/٦ (٦) الطبري: ٤١٢/١٣
 (٧) الطبري: ٤٢٣/١٣ (٨) الطبري: ٤٠٩/١٣ ومسلم: ٣/

حَيْرُومٌ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَحَرَّ مُسْتَلْقِيًا، قَالَ: فَظَنَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِمْ أَنْفُهُ وَشَقَّ وَجْهُهُ، كَضْرِبَتِهِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَدَقْتُ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»، فَقَتِلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسْرُوا سَبْعِينَ^(١). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: بَابُ شُهُودِ الْمَلَائِكَةِ بَدْرًا. ثُمَّ رَوَى عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ الزُّرَقِيِّ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: «مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ^(٢). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ وَقَدْ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ وَهُوَ خَطَأٌ، وَالصَّوَابُ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعِمْرَانَ لَمَّا شَارَرَهُ فِي قَتْلِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ»^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ آيَاتِهِ، أَيْ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ بَعَثَ الْمَلَائِكَةَ وَإِعْلَامَهُ إِيَّاكُمْ بِهِمْ إِلَّا بُشْرَى ﴿وَلَطَمِينَ بِهِ فُلُوبِكُمْ﴾ وَإِلَّا فَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى نَصْرِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَنْصُرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا ااتَمَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا يَدَاهُ حَتَّى تَضَعَ الرِّجْلُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيُنزلُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُضْلِحُ بِاللَّهِمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَّوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ أَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٦﴾ وَلِيَمَّحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ أَمَنُوا وَيَمَّحَقَ الْكُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١] فَهَذِهِ حِكْمٌ شَرَعَ اللَّهُ جِهَادَ الْكُفَّارِ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِهَا. وَقَدْ كَانَ تَعَالَى إِنَّمَا يَعَاقِبُ الْأُمَّةَ السَّالِفَةَ الْمَكْدُبَةَ لِلْأَنْبِيَاءِ بِالْقَوَارِعِ الَّتِي تَعْمُ تِلْكَ الْأُمَّةَ الْمَكْدُبَةَ كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ، وَعَادًا الْأُولَى بِالذَّبُورِ، وَثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ، وَقَوْمَ لُوطٍ بِالْخَسْفِ وَالْقَلْبِ وَجِبَارَةَ السَّجِيلِ، وَقَوْمَ شَعْبٍ يَوْمَ الظُّلَّةِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِالْعُرْقِيِّ فِي الَّيْمِ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى النُّورَةَ شَرَعَ فِيهَا قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَاسْتَمَرَ الْحُكْمُ فِي بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ بَعْدَهُ

عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصِيرًا﴾ [الفصص: ٤٣] وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ، أَشَدُّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ، وَأَشْفَى لِبُصُورِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿قَتِلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] وَلِهَذَا كَانَ قَتْلُ صَنَائِدِ قُرَيْشٍ بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِأَعْيُنِ ارزِدَائِهِمْ، أَنْكَى لَهُمْ وَأَشْفَى لِبُصُورِ حِزْبِ الْإِيمَانِ، فَقَتَلَ أَبِي جَهْلٍ فِي مَعْرَكَةِ الْبِتَالِ وَحَوْمَةَ الْوَعَى أَشَدُّ إِهَانَةً لَهُ مِنْ مَوْتِهِ عَلَى فِرَاشِهِ بِقَارِعَةٍ أَوْ صَاعِقَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ لَعَنَهُ اللَّهُ بِالْعَدَسَةِ بَحِثٌ لَمْ يَقْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْ أَقَارِبِهِ، إِنَّمَا عَسَلُوهُ بِالْمَاءِ قَذْفًا مِنْ بَعِيدٍ، وَرَجَمُوهُ حَتَّى دَفَنُوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أَيْ لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا شَرَعَهُ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى دِمَارِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿إِذْ يُغَشِّبُكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيَتَبَيَّنَ بِهِ الْأَقْدَامُ ﴿١١﴾﴾ إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَلِيَّ مَعَكُمْ فَتُنزِلُوا إِلَيْهِ أَمْرًا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرْسَلْنَا فَاصْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْتَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ سَأَلُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُسَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ ذَلِكَ فَذَوْقُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾

[عَلَبَةُ النُّعَاسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ]

يُذَكِّرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِقَائِهِ النُّعَاسَ عَلَيْهِمْ أَمَانًا أَمَّنَهُمْ بِهِ مِنْ خَوْفِهِمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَفَلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ...﴾ آيَاتِهِ [آل عمران: ١٥٤]، قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: كُنْتُ وَمِنْ أَصَابِهِ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَقَدْ سَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِي مِرَارًا يَسْقُطُ

(١) مسلم: ١٣٨٤/٣ (٢) فتح الباري: ٣٦٢/٧ (٣) فتح الباري: ٣٥٥/٧ ومسلم: ١٩٤١/٤

وَأَخَذَهُ، وَيَسْفُطُ وَأَخَذَهُ، وَلَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ يَمِيدُونَ وَهُمْ تَحْتَ الْحَجِيفِ. وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمُقْدَادِ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِبٌ، إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي تَحْتَ شَجَرَةٍ وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ^(١). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: النَّعَاسُ فِي الْقِتَالِ أَمَنَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: النَّعَاسُ فِي الرَّأْسِ، وَالنَّوْمُ فِي الْقَلْبِ^(٣). قُلْتُ: أَمَا النَّعَاسُ فَقَدْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَمْرٌ ذَلِكَ مَشْهُورٌ جِدًّا. وَأَمَا آيَةُ الشَّرِيفَةِ إِنَّمَا هِيَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ بَدْرٍ، وَهِيَ دَالَةٌ عَلَى وُقُوعِ ذَلِكَ أَيْضًا، وَكَأَنَّ ذَلِكَ كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ شِدَّةِ الْبَأْسِ لِيَتَكُونَ قُلُوبُهُمْ أَمَنَةً مُطْمَئِنَّةً بِنَصْرِ اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [الشرح: ٥، ٦] وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْعَرِيشِ مَعَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهَمَّا يَدْعُوَانِ أَخَذَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سِنَّةٌ مِنَ النَّوْمِ، ثُمَّ اسْتَقْتَضَتْ مُتَسِيمًا فَقَالَ: «أَبَشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جِبْرِيلُ عَلَى نَتَائِهَا النَّقْعُ» ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الْعَرِيشِ وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَمِعْتُمْ لَبْعَةً يَبُوءُونَ الْذُّبْرَ﴾ [القمر: ٤٥]^(٤).

[تُرُودُ الْمَطَرِ لَيْلَةَ بَدْرٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَارَ إِلَى بَدْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ رَمْلَةٌ دَعَصَةٌ، وَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْعَيْظَ يُوسُوسُ بَيْنَهُمْ: تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَقَدْ غَلَبَكُمْ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَاءِ وَأَنْتُمْ تَصَلُّونَ مُجْنِبِينَ، فَأَمَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا شَدِيدًا فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ وَتَطَهَّرُوا وَأَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَجْسَ الشَّيْطَانِ وَتَبَّتِ الرَّمْلُ حِينَ أَصَابَهُ الْمَطَرُ، وَشَمَى النَّاسُ عَلَيْهِ وَالذُّوَابُ فَسَارُوا إِلَى الْقَوْمِ، وَأَمَدَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ جِبْرِيلُ فِي خَمْسِمِائَةِ مُجَنَّبَةٍ، وَمِيكَائِيلُ فِي خَمْسِمِائَةِ مُجَنَّبَةٍ^(٥).

دَهْسًا فَأَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مَا لَبَدَ لَهُمْ الْأَرْضَ، وَلَمْ يَمْنُتْهُمْ مِنَ الْمَسِيرِ، وَأَصَابَ قُرَيْشًا مَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ [يَرْتَجِلُوا] مَعَهُ^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ قَبْلَ النَّعَاسِ فَأَطْفَأَ بِالْمَطَرِ الْغُبَارَ وَتَلَبَّدَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَطَابَتْ نَفُوسُهُمْ وَتَبَّتْ بِهِ أَقْدَامُهُمْ^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُظْهِرْكُمْ بِهِ﴾ أَيُّ مِنْ حَدِيثِ أَضْعَرَ أَوْ أَكْبَرَ وَهُوَ تَطْهِيرُ الظَّاهِرِ ﴿وَيُدْهَبُ عَنْكُمْ بَجْرَ الشَّيْطَانِ﴾ أَيُّ مِنْ وَسْوَسةٍ أَوْ خَاطِرِ سَيِّءٍ وَهُوَ تَطْهِيرُ الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿عَلَيْهِمْ نَيْبٌ سُدُسٌ خُضِرٌ وَاسْتَرْقَّ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ فَهَذَا زِينَةُ الظَّاهِرِ ﴿وَسَقَنَهُمْ رَهْمًا سَرَاكًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أَيُّ مُطَهَّرًا لِمَا كَانَ مِنْ غَلٍّ أَوْ حَسَدٍ أَوْ تَبَاغُضٍ وَهُوَ زِينَةُ الْبَاطِنِ وَطَهَارَتُهُ.

﴿وَلِيُرِيَطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ بِالصَّبْرِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى مُجَالَدَةِ الْأَعْدَاءِ وَهُوَ شَجَاعَةُ الْبَاطِنِ ﴿وَيُنَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وَهُوَ شَجَاعَةُ الظَّاهِرِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[أَمْرُ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ بِتَثِيْبِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْقِتَالِ

مَعَهُمْ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَهِيَ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ وَتَمَجَّدَ - أَوْحَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَنْزَلَهُمْ لِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَدِينِهِ وَحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ يُوحِي إِلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَنْ يَثْبُتُوا الَّذِينَ آمَنُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ﴾ أَيُّ ثَبُّوا أَنْتُمْ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ عَنْ أَمْرِي لَكُمْ، بِذَلِكَ سَأَلْتِي الرُّغْبَ وَالذَّلَّةَ وَالصَّعَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَكَذَّبَ رَسُولِي ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أَيُّ إِضْرِبُوا الْأَطْرَافَ مِنْهُمْ وَهِيَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: إِضْرِبُوا الرُّؤُوسَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَوْقَ الْأَعْنَاقِ أَيُّ عَلَى الْأَعْنَاقِ وَهِيَ الرِّقَابُ. قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ. وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْشَدَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا

(١) مسند أبي يعلى: ١/ ٢٤٢ (٢) الطبري: ١٣/ ٤١٩ (٣)

ابن أبي حاتم: ٥/ ١٦٦٤ (٤) دلائل النبوة: ٣/ ٥٤ (٥)

الطبري: ١٣/ ٤٢٣ (٦) الواقدى في المغازي: ١/ ٥٤ (٧)

الطبري: ١٣/ ٤٢٥

لَقَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرَبَ الرَّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا لُؤْلُؤًا ﴿٤﴾ [محمد: ٤]. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: كَانَ النَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ يَعْرِفُونَ قَتْلَى الْمَلَائِكَةِ مِمَّنْ قَتَلُوهُمْ بِضَرْبٍ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَعَلَى الْبِنَانِ مِثْلَ سِمَةِ النَّارِ قَدْ أَحْرَقَ بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ وَأَضْرِبُوا مِنْ عَدُوِّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ طَرْفٍ وَمَنْفِصِلٍ مِنْ أَطْرَافِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ. وَالْبِنَانُ جَمْعُ بِنَانَةٍ^(١). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ... فَذَكَرَ قِصَّةَ بَدْرٍ إِلَى أَنْ قَالَ: فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَا تَقْتُلُوهُمْ قَتْلًا وَلَكِنْ خُدُوهُمْ أَخْذًا، حَتَّى تُعْرِفُوهُمْ الَّذِي صَنَعُوا مِنْ طَعْنِهِمْ فِي دِيْبِكُمْ وَرَغَبْتِهِمْ عَنِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ﴿أَيَّ مَعَكُمْ فَنَبِّئُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الْآيَةَ، فَقَتَلَ أَبُو جَهْلٍ لَعْنَهُ اللَّهُ فِي تِسْعَةِ وَسِتِّينَ رَجُلًا، وَأَسْرَ عُبَيْدُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَقَتَلَ صَبْرًا فَوْفَى ذَلِكَ سَبْعِينَ قَبِيلًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيَّ خَالَفُوهُمَا فَسَارُوا فِي شِقِّهِ، وَتَرَكُوا الشَّرْعَ وَالْإِيمَانَ بِهِ وَأَتَاعَهُ فِي شِقِّهِ. وَمَأْخُودٌ أَيْضًا مِنْ شِقِّ الْعَصَا، وَهُوَ: جَعَلَهَا فِرْقَتَيْنِ ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَمَا كَانَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ أَيُّ هُوَ الطَّالِبُ الْعَالِبُ لِمَنْ خَالَفَهُ وَنَاوَاهُ، لَا يَمُوتُهُ شَيْءٌ وَلَا يَقُومُ لِعُضْبِهِ شَيْءٌ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ذَلِكَ بِمَا كَفَرُوا وَأَنَّهُمْ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ﴾ هَذَا خَطَابٌ لِلْكَفَّارِ أَيُّ ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ فِي الدُّنْيَا، وَاعْلَمُوا أَيْضًا أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾^(٢) وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمِيذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءَ بِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ^(٣)

[اللَّهِبِيُّ عَنِ التَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ وَجَرَاؤُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعَّدًا عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الرَّحْفِ بِالنَّارِ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ أَيُّ تَقَارَبْتُمْ مِنْهُمْ وَدَنَوْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿فَلَا تُلُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أَيُّ تَقَرُّوا وَتَتَرَكُوا أَصْحَابَكُمْ ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمِيذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ﴾ أَيُّ يَبْرُؤُ بَيْنَ يَدَيْ قَرِينِهِ - مَكِيدَةً - لِيُرِيَهُ أَنَّهُ قَدْ خَافَ مِنْهُ فَيَتَّبِعُهُ ثُمَّ يَكُرُّ عَلَيْهِ، فَيَقْتُلُهُ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، نَصَّ عَلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالسُّدِّيُّ^(٢). وَقَالَ

الضَّحَّاكُ أَنَّ يَتَقَدَّمَ عَنْ أَصْحَابِهِ لِيَرَى غِرَّةً مِنَ الْعَدُوِّ فَيُصِيبُهَا ﴿أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ أَيُّ فَرَّ مِنْ هَاهُنَا إِلَىٰ فِتْنَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُعَاوَنُهُمْ وَيُعَاوَنُونَهُ. فَيَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ. حَتَّىٰ لَوْ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَرَّ إِلَىٰ أَمِيرِهِ^(٣) أَوْ إِلَىٰ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ دَخَلَ فِي هَذِهِ الرَّحْصَةِ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا قُتِلَ عَلَى الْجِسْرِ بِأَرْضِ فَارَسَ، لِكَثْرَةِ الْجَيْشِ مِنْ نَاجِيَةِ الْمَجُوسِ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ تَحَيَّرَ إِلَيَّ لَكُنْتُ لَهُ فِتْنَةً. هَكَذَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ سَبْرِينَ عَنْ عُمَرَ. وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي عُمَانَ التَّهْدِيدِيَّ عَنْ عُمَرَ، قَالَ: لَمَّا قُتِلَ أَبُو [عُبَيْدٍ] قَالَ عُمَرُ: أَيُّهَا النَّاسُ! أَنَا فِتْنَتُكُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَ عُمَرُ: أَنَا فِتْنَةُ كُلِّ مُسْلِمٍ. وَقَالَ عَبْدُ الْمَالِكِ ابْنُ عُمَيْرٍ عَنْ عُمَرَ: أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُعَرِّتْكُمْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَإِنَّمَا كَانَتْ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَنَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي

(١) الطبري: ٤٣١/١٣ (٢) الطبري: ٤٣٦/١٣ (٣) الطبري: ٤٣٦/١٣

حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا حَسَّانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَوْصِرِيُّ: حَدَّثَنَا خَلَادُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْحَضْرَمِيُّ: حَدَّثَنَا نَافِعٌ أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَمَرَ قُلْتُ: إِنَّا قَوْمٌ لَا نَثْبُتُ عِنْدَ قِتَالِ عَدُوِّنَا، وَلَا نَذَرِي مِنَ الْفَيْتَةِ إِمَامًا أَوْ عَسْكَرَنَا؟ فَقَالَ: إِنَّ الْفَيْتَةَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِذَا لَيْسَتْ الْوَيْتُ كَفَرُوا رَحْمًا﴾ الْآيَةَ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنْزَلْتَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ لَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ ﴿أَوْ مُحَرِّمًا إِلَى فَيْتَةٍ﴾: الْمَتَحَرِّجُ: الْفَارُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ فَرَّ الْيَوْمَ إِلَى أَمِيرِهِ أَوْ أَصْحَابِهِ^(١). فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْفِرَارُ لَا عَنْ سَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ وَكَبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَايِرِ، لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤَيَّبَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكَ بِاللَّهِ وَالسَّحَرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرِّحْبِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَفَرَ﴾ أَي رَجَعَ ﴿بِعَضْبٍ مِمَّا اللَّهُ وَمَاؤُهُ﴾ أَي مَصِيرُهُ وَمُنْقَلَبُهُ يَوْمَ مِيعَادِهِ ﴿جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرِ﴾.

﴿فَلَمْ تَقُولُوا لَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِئْتًا لَّخَسِرْتُمْ يَوْمًا﴾^(٣) سَمِعَ عَلِيٌّ^(٤) ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ^(٥) [قَتَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ وَرَمَهُمُ بِالرَّابِ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَنَّهُ الْمُحْمَدُ عَلَى جَمِيعِ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ خَيْرٍ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَفَّقَهُمْ لِذَلِكَ وَأَعَانَهُمْ عَلَيْهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَمْ تَقُولُوا لَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ﴾ أَي لَيْسَ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ قَتَلْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقَلَّةِ عَدَدِكُمْ. أَي بَلْ هُوَ الَّذِي أَطْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أُنزِلَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَابَسْتُمْ مَدِيرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] يُعْلِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ عَلَى كَثْرَةِ الْعَدَدِ وَلَا بَلْبَسِ اللَّامَةِ وَالْعَدَدِ، وَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يُؤَيِّدُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّ ﷺ أَيْضًا فِي

شَأْنِ الْقُبْضَةِ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي حَصَبَ بِهَا وَجُوهَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ بَدْرٍ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْعَرِيشِ، بَعْدَ دُعَائِهِ وَتَضَرُّعِهِ وَاسْتِكَانَتِهِ، فَرَمَاهُمْ بِهَا وَقَالَ: «شَاهَبَتِ الْوُجُوهَ» ثُمَّ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَصُدُّوا الْحُمَّلَةَ إِثْرَهَا، فَفَعَلُوا فَأَوْصَلَ اللَّهُ تِلْكَ الْحَضَبَاءَ إِلَى أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا نَالَهُ مِنْهَا مَا شَغَلَهُ عَنْ حَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٦). أَي هُوَ الَّذِي بَلَغَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ وَكَبَّتْهُمْ بِهَا لَا أَنْتَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِئْتًا لَّخَسِرْتُمْ يَوْمًا﴾ أَي لِيُعْرِفَ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِظْهَارِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقَلَّةِ عَدَدِهِمْ، لِيَعْرِفُوا بِذَلِكَ حَقَّهُ وَيَشْكُرُوا بِذَلِكَ نِعْمَتَهُ^(٧). وَهَكَذَا فَسَّرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا، وَفِي الْحَدِيثِ: «وَكُلُّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانًا». وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي سَمِيعُ الدُّعَاءِ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ وَالْعَلَبَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ أُخْرَى مَعَ مَا حَصَلَ مِنَ النَّصْرِ أَنَّهُ أَعْلَمَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُضْعَفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، مُضْعَفُ أَمْرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ وَكُلُّ مَا لَهُمْ فِي تَبَارٍ وَدَمَارٍ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهِيَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨)

[إِجَابَةُ اسْتِفْتَاكِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أَي تَسْتَنْصِرُوا وَتَسْتَفْتِضُوا اللَّهَ وَتَسْتَحْكِمُوهُ أَنْ يَفْضَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ ضَعْبَرَ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: االلَّهُمَّ أَتَيْنَاكَ كَانَ أَقْطَعَ لِلرَّحِمِ وَأَتَانَا بِمَا لَا يُعْرِفُ فَأَخْبِنِ الْعِدَّةَ. وَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاحًا مِنْهُ فَزَلَّتْ: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(٩). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ حِينَ نَقَى الْقَوْمُ: االلَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُ فَأَخْبِنِ الْعِدَّةَ. فَكَانَ الْمُسْتَفْتِحَ^(١٠). وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي

(١) الطبري: ٤٣٧/١٣ (٢) فتح الباري: ٤٦٢/٥ ومسلم: ١/ ٩٢ (٣) الطبري: ٤٤٤/١٣ (٤) الطبري: ٤٤٨/١٣ (٥) الطبري: ٤٥٣/١٣ (٦) أحمد: ٤٣١/٥

التفسير. وكذا رواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١)، وروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وي زيد بن رومان وغير واحد. وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأشتار الكعبة فاشتصروا الله وقالوا: اللهم، انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله: ﴿إِنْ سَتَفِينَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾. يقول: قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ... الآية^(٢)﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْدًا﴾ كقوليه ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدَّتَا﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة. ﴿وَلَنْ تَغْفِي عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجتمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المضطوئي.

يَقُولُونَ ﴿فَهُؤُلَاءِ شَرُّ الْبَرِيَّةِ لِأَنَّ كُلَّ دَائِيَةٍ مِمَّا سِوَاهُمْ مُطِيعَةٌ لِلَّهِ فِيمَا خَلَقَهَا لَهُ وَهُؤُلَاءِ خُلِقُوا لِلْعِبَادَةِ فَكَفَرُوا، وَلِهَذَا شَبَّهَهُمُ بِالْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِّبْيِ يَعْقُوبُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَيَدْنَكَ... الآية﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نمر من بني عبد الدار من قرئش. روى عن ابن عباس ومجاهد. واختاره ابن جرير^(٤). وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون، قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا، لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصدي إلى العمل الصالح، ثم أحرر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام: ﴿وَلَوْ كُنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ فَلَمْ يُفْهِمَهُمْ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قسداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ مُخْتَصِرٌ﴾

[الأمْرُ بِاسْتِجَابَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ]

قال البخاري ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أجبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يضرحكم. ثم روى عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آتته حتى صليت ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. وقال معاذ: أن حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ﷺ... بهذا. وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي: السبع المثاني^(٥). وقال محمد بن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴿١١﴾ ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ إِلَيْكُمُ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [الأمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]

ياأمر تعالى عبادة المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويخرجهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿ولا تولوا عنه﴾ أي تنزلوا طاعته وامتنال أوامره وتركوا واجره ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ وقال ابن إسحاق: هم المنافقون، فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك^(٣). ثم أحرر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ﴾ أي عن سماع الحق ﴿إليكم﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الذين لا

(١) النسائي في الكبرى: ٣٥٠/٦ والحاكم: ٣٢٨/٢ (٢) الطبري: ٤٥٣/١٣ (٣) الطبري: ٤٥٨/١٣ (٤) الطبري: ٤٦٠/١٣ (٥) فتح الباري: ١٥٨/٨

يُمِيعِكُمْ: أَي لِّلْحَرْبِ الَّتِي أَعَزَّكُمْ اللهُ تَعَالَى بِهَا بَعْدَ الذَّلِّ، وَقَوَّأَكُمْ بِهَا بَعْدَ الضَّعْفِ، وَمَنَعَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ مِنْهُمْ لَكُمْ^(١).

[اللهُ يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَبَيْنَ الْكَافِرِ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ^(٢). رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مَوْفُوفًا، وَقَالَ: صَحِيحٌ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٣). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَعَطِيَّةٌ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَالسُّدِّيُّ^(٤). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أَي حَتَّى يَتْرُكَه لَا يَعْقِلُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَكْفُرَ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا يُنَاسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْرِهُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ، ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ! أَمَّا بِكَ وَمِمَّا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ تَعَالَى يُقَلِّبُهَا»^(٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الْقَدْرِ مِنْ جَامِعِهِ، وَقَالَ: حَسَنٌ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزَيِّعَهُ أَزَاعَهُ» وَكَانَ يَقُولُ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» قَالَ: «وَالْمِيزَانَ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ»^(٧). وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٨).

﴿وَأَتَّقُوا فَتْنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَمُوا﴾

أَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾

[التَّحْذِيرُ مِنْ فَتْنَةٍ عَامَّةٍ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فَتْنَةَ أَيِّ اخْتِبَارًا وَمِخْنَةً يَعْمُ بِهَا الْمُسِيءُ وَعَيْرُهُ لَا يَخْصُرُ بِهَا أَهْلَ الْمَعَاصِي، وَلَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنْبَ بَلْ يَعْمُهُمَا حَيْثُ لَمْ تُدْفَعْ وَتُرْفَعْ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَطْرَفٍ قَالَ: قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! مَا جَاءَ بِكُمْ؟ ضَيَعْتُمْ الْخَلِيفَةَ الَّذِي قُتِلَ ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بَدِيهَهُ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّا قَرَأْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿وَأَتَّقُوا﴾

فِتْنَتَهُ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لَمْ تَكُنْ نَحْسِبُ أَنَّ أَهْلَهَا حَتَّى وَقَعَتْ مِتًّا حَيْثُ وَقَعَتْ^(٩). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا فَتْنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً^(١٠). وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ لَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُعْثِرُوا الْمُتَكَبِّرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَيَعْمَهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ^(١١). وَهَذَا تَفْسِيرٌ حَسَنٌ جَدًّا، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا فَتْنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ هِيَ أَيْضًا لَكُمْ^(١٢).

وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، وَعَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] فَأَيْكُمْ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ^(١٣). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَالْقَوْلُ بِأَنَّ هَذَا التَّحْذِيرَ يَعْمُ الصَّحَابَةَ وَعَيْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ الْخُطَابُ مَعَهُمْ - هُوَ الصَّحِيحُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْفِتَنِ، وَلِلذَلِكَ كِتَابٌ مُسْتَقِلٌّ يَوْضَحُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، كَمَا فَعَلَهُ الْأَيْمَةُ وَأَفْرَدُوهُ بِالتَّصْنِيفِ. وَمِنْ أَحْصَى مَا يُذَكِّرُ هَهُنَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ»^(١٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الرَّقَادِ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ مَوْلَايَ فَلَدِفَعْتُ إِلَى حُدَيْفَةَ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَصِيرُ مُنَافِقًا، وَإِنِّي لِأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِي الْمَقْعَدِ الْوَاحِدِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَحَاضِرَنَّ عَلَى الْخَيْرِ أَوْ [لَيُسْحِجَنَّكُمْ] اللهُ جَمِيعًا بِعَذَابٍ، أَوْ لَيُؤْمِرَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ»^(١٥).

(حديث آخر) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ

(١) ابن هشام: ٢/٣٢٤ (٢) الطبري: ١٣/٤٦٨ (٣) الحاكم: ٢/٣٢٨ (٤) الطبري: ١٣/٤٧٠، ٤٧١ (٥) أحمد: ٣/١١٢ (٦) تحفة الأحوذى: ٦/٣٥٠، ٣٤٩ (٧) أحمد: ٤/١٨٢ (٨) النسائي في الكبرى: ٤/٤١٤، وابن ماجه: ١/٧٢ (٩) أحمد: ١/١٦٥ (١٠) الطبري: ١٣/٤٧٤ (١١) الطبري: ١٣/٤٧٤ (١٢) الطبري: ١٣/٤٧٥ (١٣) الطبري: ١٣/٤٧٥ (١٤) أحمد: ٥/٣٨٨ (١٥) أحمد: ٥/٣٩٠

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
 أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَاوَنَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَوَرَزَقَكُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
 ﴿٦٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
 عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَفَّوْا
 اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
 لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
 اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِذْ أَنْتَ عَلَىٰ آلِهِمْ إِذْ نَسْنَا
 قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقَاتَلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
 أَسْطِيزُ الْأُولِينَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ
 هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ
 أَوْ آتِنَا بَعْدَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧٢﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٧٣﴾

بشير رضي الله عنه أنه خطب، فقال: وأومأ بإصبعه إلى
 أذنيه [سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل القوائم على
 حدود الله والواقع فيها والمُداهن فيها: كمثل قوم ركبوا
 سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشربها وأصاب
 بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء
 مروا على من فوقهم فآذوهم فقالوا: لو خرقتا في نصيبنا
 خرقتا فاستغفنا منه ولم تؤذ من فوقنا: فإن تركوهم وأمرهم
 هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً»^(١).
 انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم فرواه في الشريعة
 والشهادات^(٢). والترميذي في الفتن من غير وجه^(٣).
 (حديث آخر) روى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج
 النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا
 ظهرت المعاصي في أمي عنهم الله بعذاب من عنده»
 فقلت: يا رسول الله! أما فيهم أناس صالحون؟ قال:
 «بلى» قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيهم ما
 أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»^(٤).
 (حديث آخر) وروى الإمام أحمد أيضاً عن جرير: أن
 رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي
 هم أعز وأكثر ممن يعملون ثم لم يعيروهم إلا عنهم الله
 يعقاب»^(٥). وأخرجه ابن ماجه^(٦).

السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ
 قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: كان هذا الحي من العرب
 أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأغراه
 جلوداً، وأبينه ضللاً، من عاش منهم عاش شقيماً، ومن
 مات منهم ردى في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله! ما
 تعلم قبيلة من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً
 منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد، ووسّع به
 في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام
 أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم
 يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله^(٧).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ
 يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَاوَنَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَوَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

[تذكير المسلمين بما كانوا فيه من الذل والضعف وما
 ألوا إليه من القوة والنصر]

يُبْنَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعْمِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِهِ
 إِلَيْهِمْ، حَيْثُ كَانُوا قَلِيلِينَ فَكَثَّرَهُمْ وَمُسْتَضْعَفِينَ خَائِفِينَ
 فَقَوَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ، وَفُقَرَاءَ عَالَةً فَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَاسْتَشْكَرَهُمْ، فَطَاعُوهُ وَأَمْتَلَوْا جَمِيعَ مَا أَمَرَهُمْ. وَهَذَا
 كَانَ حَالُ الْمُؤْمِنِينَ حَالَ مَقَامِهِمْ بِمَكَّةَ قَلِيلِينَ مُسْتَضْعَفِينَ
 مُضْطَهَدِينَ يَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَهُمُ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ بِلَادِ اللَّهِ
 مِنْ مُشْرِكٍ وَمَجُوسِيٍّ وَرُومِيٍّ، كُلُّهُمْ أَعْدَاءُ لَهُمْ لِقَلَّتِيهِمْ
 وَعَدَمَ قُوَّتِهِمْ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِبُهُمْ حَتَّى أَدْنَى اللَّهُ لَهُمْ فِي
 الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَوَاهُمْ إِلَيْهَا وَبَيَّضَ لَهُمْ أَهْلَهَا أَوْوًا
 وَنَصَرُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ، وَوَأَسُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَبَدَلُوا مَهْجَتَهُمْ
 فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ. قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دَعَامَةَ

(١) أحمد: ٢٦٩/٤ (٢) فتح الباري: ٣٤٥، ١٥٧/٥ (٣)
 تحفة الأحوذني: ٣٩٤/٦ (٤) أحمد: ٣٠٤/٦ (٥) أحمد: ٤/
 ٣٦٤ (٦) أحمد: ٣٦٦/٤ وابن ماجه: ١٣٢٩/٢ (٧)
 الطبري: ٤٧٨/١٣

عندهُ أجرٌ عظيمٌ ﴿٢٨﴾

[سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْحَيَاةِ]

فِي الصَّحِيحَيْنِ قِصَّةُ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ يُعَلِّمُهُمْ بِقَصْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَابَهُمْ عَامَ الْفَتْحِ، فَاطَّلَعَ اللَّهُ رَسُولُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَعَثَ فِي إِثْرِ الْكِتَابِ فَاسْتَرْجَعَهُ وَاسْتَحْضَرَ حَاطِبًا فَأَقْرَأَ بِمَا صَنَعَ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: «دَعُهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». قُلْتُ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ، وَإِنْ صَحَّ أَنَّهَا وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ. فَالْأَخْذُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَالْحَيَاةُ تَعْمُ الذُّنُوبَ الصَّغَارَ وَالْكَبَارَ اللَّازِمَةَ وَالْمُتَعَدِّيَةَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «وَتَحْوُونَ أُمَّنَتَكُمْ» الْأَمَانَةَ: الْأَعْمَالَ الَّتِي اتَّيَمَّنَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ، يَعْنِي الْفَرِيضَةَ. يَقُولُ: «لَا تَحْوُونَ» لَا تَنْقُصُوهَا^(١).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: نَهَاكُمْ أَنْ تَحْوُونَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ كَمَا صَنَعَ الْمُنَافِقُونَ^(٢). وَقَوْلُهُ: «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ»، أَيِ الْخِيَارِ وَامْتِحَانٍ مِنْهُ لَكُمْ إِذْ أَعْطَاكُمْوهَا لِيَعْلَمَ أَتَشْكُرُونَهُ عَلَيْهَا وَتُطِيعُونَهُ فِيهَا أَوْ تَشْتَعِلُونَ بِهَا عَنْهُ وَتَعْتَاضُونَ بِهَا مِنْهُ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» [التغابن: ١٥] وَقَالَ: «وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْفَخْرِ فِتْنَةً» [الأنبياء: ٣٥]. وَقَالَ تَعَالَى: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [المنافقون: ٩]. وَقَالَ تَعَالَى: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِرِسْقٍ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ» الْآيَةُ [التغابن: ١٤]. وَقَوْلُهُ: «وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» أَيِ نَوَائِبِهِ وَعَطَاؤِهِ وَجَبَانَتِهِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، فَإِنَّهُ قَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ عُدُوًّا، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُعْنِي عَنكَ شَيْئًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْمَالِكُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَدَيْهِ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ

كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ»^(٣)، بَلْ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُقَدَّمٌ عَلَى الْأَوْلَادِ وَالْأَمْوَالِ وَالنَّفْسِ^(٤). كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٥).

«يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَكُفْرًا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» ﴿٢٩﴾
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَفَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَعَبْدُ وَاحِدٍ: «فُرْقَانًا» مَخْرَجًا. زَادَ مُجَاهِدٌ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٦). وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «فُرْقَانًا» نَجَاةً، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ نَصْرًا، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «فُرْقَانًا» أَيُّ فَضْلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ مِنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَعَمُّ مِمَّا تَقَدَّمَ وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَإِنَّ مِنَ اتَّقَى اللَّهَ بِفِعْلٍ أَوْ أَمْرِهِ وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ وَفَقَّ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ نَصْرِهِ وَنَجَاتِهِ وَمَخْرَجِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَسَعَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَكْفِيرِ ذُنُوبِهِ وَهُوَ مَحْوُهَا، وَعُفْرُهَا: سَتَرُهَا عَنِ النَّاسِ - سَبَبًا لِئَلَّا تَوَابَ اللَّهُ الْجَزِيلَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَءَامَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَلْفًا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [الحديد: ٢٨].

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ» ﴿٣٠﴾
[ذِكْرُ مَا دَبَّرَهُ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ حَبْسِهِ أَوْ إِجْلَائِهِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَفَتَادَةُ: «لِيُثْبِتُوكَ» لِيُقَيِّدُوكَ^(٧). وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْإِثْبَاتُ هُوَ الْحَبْسُ وَالْوَتَاقُ^(٨).

رَوَى الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ صَاحِبُ الْمَغَازِي عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: وَحَدَّثَنِي الْكَلْبِيُّ عَنْ بَادَانَ مَوْلَى أُمِّ هَانِيَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أَشْرَافِ كُلِّ قَبِيلَةٍ اجْتَمَعُوا لِيَدْخُلُوا دَارَ النَّدْوَةِ فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ جَلِيلٍ فَلَمَّا رَأَوْهُ

(١) الطبري: ٤٨٥/١٣ (٢) الطبري: ٤٨٣/١٣ (٣) مسلم: ٦٦/١ (٤) مسلم: ٦٧/١ (٥) فتح الباري: ٧٥/١ (٦) الطبري: ٤٨٩/١٣، ٤٩٠ (٧) الطبري: ٤٩١/١٣ (٨) الطبري: ٤٩٢/١٣

قَالُوا لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، سَمِعْتُ أَنْتُمْ اجْتَمَعْتُمْ فَأَرَدْتُ أَنْ أَحْضَرُكُمْ وَلَنْ يَعْدَمَكُمْ رَأْيِي وَنُضْجِي.
 قَالُوا: أَجَلٌ، أَدْخُلْ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ، فَقَالَ: انظُرُوا فِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ، وَاللَّهِ لَيُوشِكُنَّ أَنْ يُؤَايِبَكُمْ فِي أَمْرِكُمْ بِأَمْرِهِ.
 فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: إِحْسِبْهُ فِي وَثَاقٍ ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّبِ الْمُتُونِ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ زُهَيْرٌ وَالتَّائِبَةُ، إِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ. قَالَ: فَصَرَخَ عَدُوُّ اللَّهِ الشَّيْخُ التَّجْدِيُّ فَقَالَ: وَاللَّهِ! مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي، وَاللَّهِ! لَيُخْرِجَنَّ رَبُّهُ مِنْ مَحْسَبِهِ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيُوشِكُنَّ أَنْ يُبَيِّتُوا عَلَيَّ حَتَّى يَأْخُذُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ فَيَمْتَعُوهُ مِنْكُمْ، فَمَا آمَنْ عَلَيْكُمْ أَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ. قَالُوا: صَدَقَ الشَّيْخُ فَانظُرُوا فِي غَيْرِ هَذَا. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَخْرِجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا خَرَجَ لَنْ يَضُرَّكُمْ مَا صَنَعَ وَأَيَّنَ وَقَعَ إِذَا غَابَ عَنْكُمْ آدَاهُ وَاسْتَرَحْتُمْ، وَكَانَ أَمْرُهُ فِي غَيْرِكُمْ. فَقَالَ الشَّيْخُ التَّجْدِيُّ: وَاللَّهِ! مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي، أَلَمْ تَرَوْا حَلَاوَةَ قَوْلِهِ وَطَلَاةَ لِسَانِهِ. وَأَخَذَ الْقُلُوبَ مَا تَسْمَعُ مِنْ حَدِيثِهِ؟ وَاللَّهِ! لَيُنْفَعَنَّكُمْ ثُمَّ اسْتَعْرَضَ الْعَرَبَ لِيَجْتَمِعَنَّ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيَأْتِيَنَّ إِلَيْكُمْ حَتَّى يُخْرِجَكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ وَيَقْتُلَ أَشْرَافِكُمْ. قَالُوا: صَدَقَ وَاللَّهِ! فَانظُرُوا رَأْيَا غَيْرِ هَذَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعْنَهُ اللَّهُ: وَاللَّهِ! لِأَشِيرَنَّ عَلَيْكُمْ بِرَأْيِي مَا أَرَأَيْتُمْ أَبْصَرْتُمُوهُ بَعْدَ، لَا أَرَى غَيْرَهُ. قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَأْخُذُونَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ غَلَامًا شَابًا وَسَيْطًا نَهْدًا، ثُمَّ يُعْطَى كُلُّ غَلَامٍ مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا قَتَلُوهُ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، فَمَا أَظُنُّ هَذَا الْحَيِّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَفْوُونَ عَلَى حَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا. فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ، قَبِلُوا الْعَقْلَ وَاسْتَرَحْنَا وَقَطَعْنَا عَنَّا آدَاهُ. قَالَ: فَقَالَ الشَّيْخُ التَّجْدِيُّ: هَذَا وَاللَّهِ! الرَّأْيِيُّ، الْقَوْلُ مَا قَالَ الْفَتَى، لَا أَرَى غَيْرَهُ. قَالَ: فَتَفَرَّقُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ. فَآتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ قَامَرَهُ أَنْ لَا يَبِيَّتَ فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيَّتُ فِيهِ وَأَخْبَرَهُ بِمَكْرِ الْقَوْمِ، فَلَمْ يَبَيِّتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالْخُرُوجِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْدَ قُدُومِهِ الْمَدِينَةَ الْأَنْفَالَ يَذُكُرُ نِعْمَةَ عَلَيْهِ وَبِلَاءَهُ عِنْدَهُ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُواكَ أَوْ يُقْتُلُواكَ أَوْ يُخْرِجُواكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ وَأَنْزَلَ فِي قَوْلِهِمْ: تَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّبِ الْمُتُونِ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّي الْمُتُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فَكَانَ ذَلِكَ

الْيَوْمَ يُسَمَّى يَوْمَ الرَّحْمَةِ لِلَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ (١). وَعَنِ السُّدِّيِّ نَحْوُ هَذَا السِّيَاقِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾: أَيُّ فَمَكَرْتُ بِهِمْ يَكِيدِي الْمَتِينِ حَتَّى خَلَصْتُكَ مِنْهُمْ (٢).

﴿وَإِذَا نُنْتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُ هَذَا كَمَا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطَرْنَا عَلَيْكَ حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَفْتِنَا بِعَدَابِ الْإِسْرَارِ (٤) وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٥)

[رَزَعُمُ قُرَيْشٍ فِي إِيْتَابِنِهِمْ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ قُرَيْشٍ وَعُتُوبِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَدَعْوَاهُمْ الْبَاطِلِ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِهِ إِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وَهَذَا مِنْهُمْ قَوْلٌ بِلَا فِعْلٍ، وَإِلَّا فَقَدْ تَحَدَّثُوا غَيْرَ مَا مَرَّةً أَنْ بَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، فَلَا يَجِدُونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَإِنَّمَا هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ يُعْرُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْقَائِلَ لِذَلِكَ هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لَعْنَهُ اللَّهُ، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ، فَإِنَّهُ لَعْنَهُ اللَّهُ كَانَ قَدْ ذَهَبَ إِلَى بِلَادِ فَارِسَ وَتَعَلَّمَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِهِمْ رُسْتَمَ وَأَسْفَنْدِيَارَ، وَلَمَّا قَدِمَ وَجَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ اللَّهُ وَهُوَ يَتْلُو عَلَى النَّاسِ الْقُرْآنَ، فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسٍ جَلَسَ فِيهِ النَّضْرُ فَحَدَّثَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ أَوْلِيكَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا اللَّهُ! أَيُّنَا أَحْسَنُ قِصَصًا أَنَا أَوْ مُحَمَّدًا؟ وَلِهَذَا لَمَّا أَمَكَنَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَوَقَعَ فِي الْأَسَارَى أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُضْرَبَ رَقَبَتُهُ ضَرْبًا بَيْنَ يَدَيْهِ فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَمَعْنَى ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَهُوَ جَمْعُ أُسْطُورَةٍ أَيُّ كَتَبْتُمْ أَفْتِسَبَهَا فَهِيَ يَتَعَلَّمُ مِنْهَا وَيَتْلُوهَا عَلَى النَّاسِ، وَهَذَا هُوَ الْكُذِبُ الْبُحْثُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبْتَبَهَا فَهِيَ تَمُكِّلُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٦) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْإِنْتَرِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا [الفرقان: ٥، ٦] أَيُّ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ مِنْهُ وَيَصْفَحُ عَنْهُ.

(١) ابن هشام: ١/٤٨٠-٤٨٢ (٢) ابن هشام: ٢/٣٢٥

[اِسْتِفْتَاْحُ الْمُشْرِكِيْنَ وَطَلَبُهُمُ الْعَذَابِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْبَيْرِ﴾ هَذَا مِنْ كَثْرَةِ جَهْلِهِمْ وَشِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ، وَهَذَا مِمَّا عَيَّبُوا بِهِ وَكَانَ الْأَوْلَى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ وَوَقِّفْنَا لِإِتْبَاعِهِ، وَلَكِنْ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَعَجَلُوا الْعَذَابَ، وَتَقْدِيمَ الْعُقُوبَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ لَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لِمَاءِهِمُ الْعَذَابُ وَإِلَّا يَنْتَهُمُ عَنْهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا فَطَنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمُ دَافِعٌ لَهُ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١-٣] وَكَذَلِكَ قَالَ الْجَهْلَةُ مِنَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَمَا مَنَّا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وَقَالَ هُوَلَاءُ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْبَيْرِ﴾ قَالَ شُعْبَةُ عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ صَاحِبِ الزِّيَادِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: هُوَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْبَيْرِ﴾ فَتَرَلْتُ: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١).

[وُجُودُ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتِغْفَارُ الْمُشْرِكِينَ كَانَا أَمَانِينَ مِنْ

الْعَذَابِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ، قَدْ، وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكٌ. وَيَقُولُونَ: غُفْرَانِكَ غُفْرَانِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الْآيَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ فِيهِمْ أَمَانَانِ: النَّبِيُّ ﷺ وَالِاسْتِغْفَارُ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَبَقِيَ الْإِسْتِغْفَارُ (٢). وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي» ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ﴾ فَإِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ فِيهِمُ الْإِسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ

وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقِيلُوا هُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَتْهُمُ آفَاتٌ مِنَ اللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعِمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعِمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

الْقِيَامَةِ (٣). وَسَهَّدَ لِهَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ يَا رَبِّ! لَا أَبْرُحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي! لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَفْرَنِي» (٤). ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (٥).

﴿وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

[عَذَابُ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ إِزْتِكَابِهِمُ الْفُطَايِحِ]

يُخْرِجُ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْلٌ لِأَنْ يُعَذَّبَهُمْ، وَلَكِنْ لَمْ يُوقِعْ ذَلِكَ فِيهِمْ لِيَرْكَبَهُ مَقَامَ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَلِهَذَا

(١) فتح الباري: ١٦٠/٨ (٢) الطبري: ٥١١/١٣ (٣) تحفة الأحوذى: ٤٧٢/٨ (٤) أحمد: ٢٩/٣ (٥) الحاكم: ٢٦١/٤

لَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ أَوْقَعَ اللَّهُ بِهِمْ بِأَسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَتَلَ صَنَادِيدَهُمْ وَأَسِيرَ سَرَاتِهِمْ وَأَرْشَدَهُمْ تَعَالَى إِلَى الْإِسْتِعْقَارِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِهَا مِنَ الشُّرْكِ وَالْفَسَادِ. فَلَوْلَا مَا كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَغْفِرِينَ لَوَقَعَ بِهِمُ الْبَأْسُ الَّذِي لَا يَرُدُّ، وَلَكِنْ دَفِعَ عَنْهُمْ بِسَبِّ أَوْلِيكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي يَوْمِ الْحُدَيْبِيَّةِ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَبِسَاءَةِ مُؤْمِنَاتٍ لَمَ تَعَلَّمُوهُمُ أَنْ تَنْظُرُوهُمْ فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمُ مَعْرَةٌ بَعْدَ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَكْنَا لَعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَكَيْفَ لَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - أَيْ الَّذِي بِمَكَّةَ - يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ وَالطَّوَافِ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ أَيْ هُمْ لَيْسُوا أَهْلُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِنَّمَا أَهْلُهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وَإِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَسَعَى أَوْلِيكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ- وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرَ عِنْدَ اللَّهِ﴾، الْآيَةُ [البقرة: ٢١٧]. وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ عَنْ رِفَاعَةَ قَالَ: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا فَقَالَ: «هَلْ فِيكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ؟» فَقَالُوا: «فِينَا ابْنُ أُخْتِنَا وَفِينَا حَلِيفُنَا وَفِينَا مَوْلَانَا، فَقَالَ: «حَلِيفُنَا مِثَا وَابْنُ أُخْتِنَا مِثَا، وَمَوْلَانَا مِثَا إِنْ أَوْلِيَايَ مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ». ثُمَّ قَالَ: هَذَا صَحِيحٌ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(١). وَقَالَ عُرْوَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قَالَ: هُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ الْمُجَاهِدُونَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَا كَانُوا يُعَامِلُونَهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا

مُكَاةً وَتَصَدِيقَةً﴾، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو رَجَاءٍ الْعَطَّارِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْطُبِيُّ، وَحُجْرُ بْنُ عَبْسٍ وَبُيُوطُ بْنُ شُرَيْبٍ، وَقَتَادَةُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الصَّفِيرُ^(٢). وَزَادَ مُجَاهِدٌ: وَكَانُوا يُدْخِلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ^(٣). وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاةً وَتَصَدِيقَةً﴾، قَالَ: كَانَتْ قُرَيْشٌ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً تُصَفِّرُ وَتُصَفِّقُ وَالْمُكَاةُ: الصَّفِيرُ. وَالتَّصَدِيقُ: وَهَكَذَا رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَكَذَا رَوَى عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَأَبِي سَلَمَةَ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَحُجْرُ بْنُ عَبْسٍ وَابْنُ أَبِي نَحْوٍ هَذَا. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاةً وَتَصَدِيقَةً﴾ قَالَ: الْمُكَاةُ: الصَّفِيرُ. وَالتَّصَدِيقُ: وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ ﴿وَتَصَدِيقَةً﴾ قَالَ: صَدَّهُمُ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٤). قَوْلُهُ: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، قَالَ الصَّحَّاحُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُوَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبِيِّ^(٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُضِلُّونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُضِلُّونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغَابِرُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ﴾ لِيُعِزَّ اللَّهُ الْحَيِّتَ مِنَ الْأَطْيَبِ وَيَجْعَلَ الْحَيِّتَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلِيكَ هُمُ الْخَنِسِرُونَ﴾

[إِنْفَاقِ الْكُفَّارِ أَمْوَالَهُمْ لِلصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَعُودُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي الرَّهْرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ حَبَّانَ وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَالْحَضَمِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ سَعِيدِ بْنِ مُعَاذٍ قَالُوا: لَمَّا أُصِيبَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ وَرَجَعَ فَلَهُمْ إِلَىٰ مَكَّةَ وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بِعِيْرِهِ، مَسَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ

(١) لحاكم: ٣٢٨/٢ (٢) الطبري: ٥٢٦، ٥٢٢/١٣ (٣) الطبري: ٥٢٥/١٣ (٤) الطبري: ٥٢٧/١٣ (٥) الطبري: ٥٢٨/١٣

وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ يَبْدُرُ، فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بَنَ حَرْبٍ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ - مِنْ فُرَيْشٍ - تِجَارَةٌ، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ فُرَيْشٍ! إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكَمْ وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ لَعَلَّنَا أَنْ نُنْذِرَكَ مِنْهُ تَارًا يَمُنْ أَصِيبَ مِنَّا فَفَعَلُوا، قَالَ: فَبِهِمْ كَمَا ذَكَرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١). وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَكَمِ بْنِ عُيَيْنَةَ وَفَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ، وَابْنِ أَبِي بَرْزَى: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ وَنَفَقَتِهِ الْأَمْوَالِ فِي أَحَدٍ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ بَدْرٍ^(٣). وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهِيَ عَامَّةٌ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا خَاصًّا، فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُصِدُّوا عَنِ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الْحَقِّ فَسَبَعَلُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَذَهَبَ أَمْوَالُهُمْ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً - أَيْ نَدَامَةً - حَيْثُ لَمْ تَجِدْ شَيْئًا لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ وَظَهُورَ كَلِمَتِهِمْ عَلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَاللَّهُ مِثْمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَنَاصِرُ دِينِهِ، وَمُعَلِّنُ كَلِمَتِهِ وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ. فَهَذَا الْخِزْيُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، فَمَنْ عَاشَ مِنْهُمْ رَأَى بَعِيْنَهُ وَسَمِعَ بِأَذْيِهِ مَا يَسُوهُ، وَمَنْ قُبِلَ مِنْهُمْ أَوْ مَاتَ فَإِلَى الْخِزْيِ الْأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ السَّرمِدِيِّ، وَهَذَا قَالَ: ﴿سَيُفْقِرُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: فَيَمِيزُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنَ أَهْلِ الشَّقَاءِ^(٤). وَلِيَمِيزَ مَنْ يُطِيعُهُ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ، أَوْ يَعْصِيهِ بِالتَّكْوَلِ عَنِ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْرِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ - الْآيَةُ [آل عمران: ١٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسِرْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَتْلَمَّ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] فَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَىٰ هَذَا: إِنَّمَا ابْتَلَيْنَاكُمْ بِالْكَفَّارِ يُفَاتِلُونَكُمْ وَأَقْدَرْنَاكُمْ عَلَىٰ إِتْفَاقِ الْأَمْوَالِ وَبَدْلِهَا فِي ذَلِكَ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبَهُ﴾ أَيْ يَجْمَعُهُ كُلُّهُ وَهُوَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أَيْ هُوَ لَا هُمْ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾^(١) وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ قِيَامَ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٢) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يُعَمِّمُ التَّوَكُّلَ وَيَعَمُّ النَّصِيرَ^(٣)

[تَرْغِيبُ الْكُفَّارِ فِي التَّوْبَةِ وَتَرْهِيْبُهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ] يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أَيْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَسَاقَةِ وَالْعِنَادِ، وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أَيْ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ. كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَائِلٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخِذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أَخَذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ»^(٤). وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا»^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ أَيْ يَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتَنَا فِي الْأَوَّلِينَ: أَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِمْ أَنَا نَعَّاجِلُهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ.

[الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ لِإِنهَاءِ الْكُفْرِ وَالشَّرْكِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! أَلَا تَضَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الْآيَةَ [الحجرات: ٩] فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ لَا تَقَاتِلَ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! أَعَيَّرَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلَا أَقَاتِلُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعَيَّرَ بِالآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ [النساء: ٩٣]. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: قَدْ فَعَلْنَا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ كَانَ الْإِسْلَامَ قَلِيلًا وَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ، إِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُوثِقُوهُ حَتَّىٰ كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُ فِيمَا يُرِيدُ قَالَ: فَمَا قَوْلُكُمْ فِي عَلِيِّ

(١) الطبري: ٥٣٢/١٣ (٢) الطبري: ٥٣١، ٥٣٠/١٣ (٣) الطبري: ٥٣٣/١٣ (٤) الطبري: ٥٣٤/١٣ (٥) فتح الباري: ٢٧٧/١٢ (٦) مسلم: ١٢١ وأحمد: ٢٠٥/٤

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٨٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿٤١﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن
 كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فَاذْكُرُوا لِلَّهِ مَا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
 يَوْمَ التَّنَجُّثِ الَّذِي جَمَعْنَا لَكُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ
 أَنْتُمْ بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ
 أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِفَاتِكُمْ فِي الْمِيعَادِ
 وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ
 هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
 لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا
 وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلْبًا لَمُتَّ وَلَسْتَ فِي الْأَمْرِ
 وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ
 يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلَكُمُ
 فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ
 تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
 فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٥٥﴾

وَعُمَّانَ؟ قَالَ ابْنُ عَمَرَ: أَمَا قَوْلِي فِي عَلِيٍّ وَعُمَّانَ: أَمَا
 عُمَّانَ، فَكَانَ اللَّهُ قَدْ عَفَا عَنْهُ وَكَرِهْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ،
 وَأَمَا عَلِيٌّ فَأَبْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَتَنُهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ وَهَدِيَهُ
 ابْنَتُهُ أَوْ بِنْتُهُ حَيْثُ تَرَوْنَ^(١). وَعَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ:
 خَرَجَ عَلَيْنَا أَوْ إِلَيْنَا ابْنُ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: كَيْفَ
 تَرَى فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ؟ فَقَالَ: وَهَلْ تَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ كَانَ
 مُحَمَّدٌ ﷺ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً،
 وَلَيْسَ بِقِتَالِكُمْ عَلَى الْمَلِكِ^(٢). هَذَا كُلُّهُ سِيَاقُ الْبَحَارِيِّ
 رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقَلِيلَهُمْ
 حَتَّى لَا تَكُونَ فِئَةً﴾ يَعْنِي: لَا يَكُونُ شِرْكٌ^(٣). وَكَذَا قَالَ أَبُو
 الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ،
 وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ
 إِسْحَاقَ: بَلَغَنِي عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَغَيْرِهِ
 مِنْ عُلَمَائِنَا، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِئَةً﴾ حَتَّى لَا يَفْتَنَ مُسْلِمٌ عَنْ
 دِينِهِ^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ قَالَ
 الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: يُخْلِصُ
 التَّوْحِيدَ لِلَّهِ^(٥). وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ
 ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾: أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٦).
 وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَيَكُونُ التَّوْحِيدُ خَالِصًا لِلَّهِ، لَيْسَ
 فِيهِ شِرْكٌ، وَيَخْلَعُ مَا دُونَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ^(٧).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ
 كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾، لَا يَكُونُ مَعَ دِينِكُمْ كُفْرًا^(٨). وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا
 بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَمْرٌ
 أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ، حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا
 عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ
 عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٩) وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ
 قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ
 حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟
 فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَنهَوْا﴾ أَيُّ يَقَاتِلِكُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ
 فَكَفُّوا عَنْهُ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بِوِطْأَتِهِمْ ﴿فَلَا تَكُنْ اللَّهُ يَمَّا
 يَمْلِكُونَ بَصِيرًا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
 الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] الْآيَةِ، وَفِي الْآيَةِ
 الْأُخْرَى ﴿فَلِيخَوِّنْكُمْ فِي الَّذِينَ﴾ [البقرة: ١١]، وَقَالَ:
 ﴿وَقَلِيلَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ

إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَسَامَةَ: لَمَّا عَلَا ذَلِكَ الرَّجُلُ بِالسَّيْفِ،
 فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَضْرَبَهُ فَفَتَلَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِأَسَامَةَ: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» وَ
 «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ
 اللَّهِ! إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا، قَالَ: «هَلَّا سَفَقْتُ عَنْ قَلْبِي؟»
 وَجَعَلَ يَقُولُ وَيُكْرِرُ عَلَيْهِ، «مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ؟» قَالَ لِأَسَامَةَ: حَتَّى تَمَيَّنْتَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ
 [إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ]^(١١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعْمَ الْمَوْلَى وَنَعْمَ

(١) فتح الباري: ١٦٠/٨ (٢) فتح الباري: ١٦٠/٨ (٣)
 الطبري: ٥٣٨/١٣ (٤) ابن أبي حاتم: ١٧٠١/٥ (٥) ابن أبي
 حاتم: ١٧٠١/٥ (٦) الطبري: ٥٣٩، ٥٣٨/١٣ (٧) ابن
 هشام: ٣٢٧/٢ (٨) الطبري: ٥٣٩/١٣ (٩) فتح الباري: ١/
 ٩٥ ومسلم: ٥٣/١ (١٠) البخاري: ١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦،
 ٧٤٥٨ (١١) مسلم: ٩٦/١

النَّصِيرُ ﴿١﴾ أَي وَإِنْ اشْتَمَرُوا عَلَى خِلَافِكُمْ وَمُحَارَبَتِكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ، وَسَيُدْكُمُ وَتَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

﴿١﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

[حُكْمُ الْغَنِيمَةِ وَالْفِيءِ]

يَبِينُ تَعَالَى تَفْصِيلَ مَا شَرَعَهُ مُحْضَصًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الشَّرِيفَةِ، مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ إِحْلَالِ الْمَغَانِمِ. وَالْغَنِيمَةُ، هِيَ: الْمَالُ الْمَأْخُودُ مِنَ الْكُفَّارِ، بِإِيحَافِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، وَالْفِيءُ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَالْأَمْوَالِ الَّتِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا أَوْ يُتَوَفَّوْنَ عَنْهَا وَلَا وَارِثَ لَهُمْ، وَالْجَزِيَّةُ، وَالْخَرَاجُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ تَوْكِيدٌ لِتَحْمِيسِ كُلِّ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ حَتَّى الْخَيْطِ وَالْمِخِيطِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَغْلُظْ بَأْتٍ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَقَّى كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦] وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً فَغَنِمُوا خُمُسَ الْغَنِيمَةِ، فَضَرَبَ ذَلِكَ الْخُمُسَ فِي خُمُسَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قَالَ:

وَقَوْلُهُ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مِفْتَاحُ كَلَامٍ: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. فَجَعَلَ سَهْمَ اللَّهِ وَسَهْمَ الرَّسُولِ ﷺ وَاحِدًا^(١). وَهَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَالْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَرِيْدَةَ وَقَتَادَةَ، وَمُغِيرَةُ وَعَبِيْرُ وَاحِدٌ، أَنَّ سَهْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاحِدٌ^(٢). وَيُؤَيَّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيبٍ عَنْ رَجُلٍ [مِنْ بَلْقَيْنَ] قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بِوَادِي الْقُرَى، وَهُوَ يُعْرَضُ فَرَسًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تَقُولُ فِي الْغَنِيمَةِ؟ فَقَالَ: «اللَّهُ خُمُسُهَا وَأَرْبَعَةُ أَحْمَاسِهَا لِلْجَيْشِ» قُلْتُ: فَمَا أَحَدٌ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا السَّهْمُ تَسَخَّرَ مِنْ جَنْبِكَ»: لَيْسَ أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ أَحْيِكَ الْمُسْلِمِ^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّمِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ

الْكِنْدِيِّ، أَنَّهُ جَلَسَ مَعَ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَالْحَارِثِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْكِنْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ... فَتَذَاكَرُوا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِعِبَادَةَ: يَا عِبَادَةُ! كَلِمَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا فِي شَأْنِ الْأَخْمَاسِ؟ فَقَالَ عِبَادَةُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِهِمْ فِي غَزْوَةِ إِلى بَعِيرٍ مِنَ الْمُغَنِمِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَنَاولَ وَبَرَةً بَيْنَ أُنْمَلَتَيْهِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلَّا نَصِيبِي مَعَكُمْ إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مُرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، فَأُدُّوا الْخَيْطَ وَالْمِخِيطَ، وَأكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرَ، وَلَا تَعْلُوا فَإِنَّ الْعُلُولَ نَارٌ وَعَارٌّ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَاهِدُوا النَّاسَ فِي اللَّهِ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ، وَلَا تَبَالُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّغَرِ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ عَظِيمٍ، يُنْجِي بِهِ اللَّهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْعَمَلِ^(٤). هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ عَظِيمٌ. وَلَمْ أَرَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ السَّنَةِ مِنْ هَذَا التَّوَجُّهِ. وَلَكِنْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيِيُّ، مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... نَحْوَهُ. فِي قِصَّةِ الْخُمُسِ وَالتَّنْهِيِ عَنِ الْعُلُولِ^(٥). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيِيُّ^(٦) عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْسَةَ. وَقَدْ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمَغَانِمِ شَيْءٌ يَضْطَهِبُهُ لِنَفْسِهِ، عَبْدًا أَوْ أُمَّةً أَوْ فَرَسًا أَوْ سَيْفًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ. كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَعَامِرُ الشَّعْبِيُّ، وَتَبِعَهُمَا عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَنَقَّلَ سَفِينَهُ ذَا الْفَقَارِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُوَ الَّذِي رَأَى فِيهِ الرُّؤْيَا يَوْمَ أُحُدٍ^(٧). وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَتْ صَفِيَّةً مِنَ الصَّفِيِّ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ^(٨).

وَأَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى، فَإِنَّهُ يُصْرَفُ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ، لِأَنَّ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَأَزْرَوْا بَنِي هَاشِمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَدَخَلُوا مَعَهُمْ فِي الشُّعْبِ

(١) الطبري: ٥٤٩/١٣ (٢) الطبري: ٥٤٨/١٣، ٤٥٠ (٣) البيهقي: ٣٢٤/٦ (٤) أحمد: ٣١٦/٥ إسناده ضعيف فيه أبو بكر ابن عبد الله بن أبي مريم وهو ضعيف (٥) أحمد: ١٨٤/٢ وأبو داود: ٢٦٩٤ وانظر تفسير الآية آل عمران: ١٦١ (٦) أبو داود: ٢٧٥٥ (٧) أحمد: ٢٧١/١ والترمذي: ١٥٦١ (٨) أبو داود: ٢٩٩٤

[بَعْضُ تَفَاصِيلِ يَوْمِ بَدْرٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ يَوْمِ الْفُرْقَانِ «إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَوَّةِ
الَّذِيئَاتِ» أَي إِذْ أَنْتُمْ نَزُولُ بَعْدَوَةِ الْوَادِي الدُّنْيَا الْقَرِيْبَةِ إِلَى
الْمَدِيْنَةِ، «وَهُمْ» أَي الْمُشْرِكُونَ نَزُولُ «بِالْمُدَوَّةِ الْقُصْوَى»
أَي الْبَعِيْدَةِ مِنَ الْمَدِيْنَةِ إِلَى نَاحِيَةِ مَكَّةَ، «وَالرَّكْبُ» أَي
الْعَبْرُ الَّذِي فِيهِ أَبُو سُفْيَانَ بِمَا مَعَهُ مِنَ التِّجَارَةِ، «أَسْفَلَ
مِنْكُمْ» أَي مِمَّا يَلِي سَيْفَ الْبَحْرِ، «وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ» أَي

أَنْتُمْ وَالْمُشْرِكُونَ إِلَى مَكَانٍ «لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيْعَدِ»، قَالَ
مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
الرُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ
مِيْعَادٍ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ، ثُمَّ بَلَغَكُمْ كَثْرَةُ عَدُوِّهِمْ وَقَلَّةُ عَدَدِكُمْ، مَا
لَقَيْتُمُوهُمْ «وَلَكِنْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَقْعُولًا» أَي
لِيَقْضِيَ اللَّهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ إِغْرَازِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ،
وَإِذْ لَالِ الشُّرْكَ وَأَهْلِيهِ، عَنْ غَيْرِ مِلٍّ مِنْكُمْ، فَفَعَلَ مَا أَرَادَ
مِنْ ذَلِكَ بِطُغْيِهِ^(١). وَفِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِنَّمَا
خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ،
حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيْعَادٍ^(٢). قَالَ
مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ
الرُّبَيْرِ قَالَ: وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَنَا مِنْ بَدْرٍ، عَلِيَّ
ابْنَ أَبِي طَالِبٍ وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ وَالرُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ فِي
نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَتَجَسَّسُونَ لَهُ الْخَبَرَ، فَأَصَابُوا سِقَاءَ لِقْرَيْشٍ
غَلَامًا لِيْنِي سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَغَلَامًا لِيْنِي الْحَجَّاجِ، فَأَتَوْا
بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدُوهُ يُصَلِّي فَجَعَلَ أَصْحَابُ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُمَا لِمَنْ أَنْتُمَا؟ فَيَقُولَانِ: نَحْنُ سِقَاءُ
لِقْرَيْشٍ، بَعَثْنَا نَسْقِيهِمْ مِنَ الْمَاءِ، فَكَرِهَ الْقَوْمُ خَيْرَهُمَا،
وَرَجَّوْا أَنْ يَكُونَ لِأَبِي سُفْيَانَ فَضَرَبُوهُمَا، فَلَمَّا أَذْلَقُوهُمَا
قَالَا: نَحْنُ لِأَبِي سُفْيَانَ فَتَرَكُوهُمَا، وَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، وَقَالَ: «إِذَا صَدَقْنَاكُمْ
ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبْنَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقًا وَاللَّهِ! إِنَّهُمَا
لِقْرَيْشٍ، أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ؟» قَالَا: هُمْ وَرَاءَ هَذَا الْكَيْبِ
الَّذِي تَرَى بِالْمُدَوَّةِ الْقُصْوَى - وَالْكَيْبِ: الْعَقَنْقَلُ - فَقَالَ
لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمْ الْقَوْمُ؟» قَالَا: كَثِيرٌ. قَالَ: «مَا

غَضَبًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحِمَايَةِ لَهُ، مُسْلِمُهُمْ طَاعَةَ لِلَّهِ
وَلِرَسُولِهِ، وَكَافَرُهُمْ حِمِيَّةً لِلْعَشِيرَةِ، وَأَنَفَةً وَطَاعَةَ لِأَبِي
طَالِبٍ عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: «وَالْبَحْنُ» أَي يَتَامَى الْمُسْلِمِينَ.
«وَالْمَسْكِينُ». هُمْ: الْمَحَاوِجُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَسُدُّ
حَلْتَهُمْ. وَمَسَكْنَتُهُمْ.

«وَأَبْنُ السَّبِيلِ» هُوَ الْمُسَافِرُ أَوْ الْمُرِيدُ لِلسَّفَرِ إِلَى
مُسَافَةٍ تَقْصُرُ فِيهَا الصَّلَاةُ، وَلَيْسَ لَهُ مَا يُفِيْقُهُ فِي سَفَرِهِ
ذَلِكَ، وَسَبَّأْتِي تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

وَقَوْلُهُ: «إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا» أَي
إِمْتِثِلُوا مَا شَرَعْنَا لَكُمْ مِنَ الْخُمْسِ فِي الْغَنَائِمِ، إِنْ كُنْتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَلِهَذَا
جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي
حَدِيثٍ وَفِي عَبْدِ الْقَيْسِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ:
«وَأَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ. أَمْرُكُمْ بِالْإِيْمَانِ بِاللَّهِ ثُمَّ
قَالَ: هَلْ تَذَرُونَ مَا الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ
تُؤَدُّوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ»^(١). الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ، فَجَعَلَ
أَدَاءَ الْخُمْسِ مِنْ جُمْلَةِ الْإِيْمَانِ، وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ عَلَى
ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْإِيْمَانِ مِنْ صَحِيحِهِ، فَقَالَ: (بَابُ أَدَاءِ
الْخُمْسِ مِنَ الْإِيْمَانِ) ثُمَّ أَوْرَدَ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا،
وَقَوْلُهُ: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ». يُبَيِّنُ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ،
بِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بَدْرٍ، وَاسْمُ الْفُرْقَانِ،
لِأَنَّ اللَّهَ أَعْلَى فِيهِ كَلِمَةُ الْإِيْمَانِ عَلَى كَلِمَةِ الْبَاطِلِ،
وَأَظْهَرَ دِيْنَهُ وَنَصَرَ نَبِيَّهَ وَحِزْبَهُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِحَةَ
وَالْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ بَدْرٍ فَرَّقَ اللَّهُ
فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ^(٢). رَوَاهُ الْحَاجِمُ، وَكَذَا قَالَ
مُجَاهِدٌ وَمِقْسَمٌ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ
وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُ يَوْمُ بَدْرٍ^(٣).

«إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدَوَّةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيْعَدِ وَلَكِنْ لِيَقْضَى اللَّهُ
أَمْرًا كَانَتْ مَقْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبِحَجْتٍ مَنْ
حَجَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ»^(٤)

(١) فتح الباري: ١٥٧/١، ومسلم: ٤٦/١ (٢) الطبري: ١/١٣

٥٦١ (٣) الطبري: ١٣/٥٦١، ٥٦٣ (٤) ابن هشام: ٣٢٨/٢

(٥) الطبري: ١٣/٥٦٦

عِدْتُهُمْ؟» قَالَا: مَا نَدْرِي. قَالَ: «كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟» قَالَا: يَوْمًا تِسْعًا وَيَوْمًا عَشْرًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقَوْمُ مَا بَيْنَ التَّسْعِمَاةِ إِلَى الْأَلْفِ» ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: «فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟» قَالَا: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ، وَحَكِيمُ بْنُ حِرَامٍ، وَنُوفَلُ بْنُ حُوَيْلِدٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نُوفَلٍ، وَطَعْنِمَةُ بْنُ عَبْدِ بْنِ نُوفَلٍ، وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَأَبُو جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَبَيْبَةُ وَنُتْبَةُ ابْنَا الْحِجَاكِ، وَسَهَيْلُ بْنُ عَمْرِو، وَعَمْرُو بْنُ عَبْدِوُدٍّ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَادًا كَبِيدًا»^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبِحَيْثٍ مِنْ حَيْثٍ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: أَيُّ لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ الْحُجَّةِ لِمَا رَأَى مِنَ الْآيَةِ وَالْعِبْرَةِ، وَيُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ^(٢). وَهَذَا تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ. وَبَسَطَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّمَا جَمَعَكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، لِيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَرْفَعَ كَلِمَةَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، لِيَصِيرَ الْأَمْرُ ظَاهِرًا وَالْحُجَّةُ فَاطِعَةً وَالْبِرَاهِينُ سَاطِعَةً، وَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ، وَلَا شِبْهَةٌ، فَجِيئَ بِهَذَا مِنْ هَلَاكِ أَيُّ يَسْتَمِرُّ فِي الْكُفْرِ مَنْ اسْتَمَرَ فِيهِ، عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ: أَنَّهُ مُبْطَلٌ - لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ - ﴿وَبِحَيْثٍ مِنْ حَيْثٍ﴾ أَيُّ يُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أَيُّ حُجَّةٍ وَبَصِيرَةٍ، وَالْإِيمَانُ هُوَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتُمْ كَانُوا مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا فَيَمْشِي فِيهِ فِي النَّاسِ﴾ وَقَالَتْ عَائِشَةُ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ: فَهَلْكَ فِيَّ مَنْ هَلَكَ، أَيُّ قَالَ فِيهَا مَا قَالَ مِنْ الْبُهْتَانِ وَالْإِفْكِ^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أَيُّ لِدَعَائِكُمْ وَتَضَرُّعِكُمْ وَاسْتِعَاثَتِكُمْ بِهِ، ﴿عَلِيمٌ﴾ أَيُّ بِكُمْ، وَأَنْتُمْ تَسْتَحْفِقُونَ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِكُمْ الْكُفْرَةَ الْمُعَانِدِينَ.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَاشَيْتُمْ وَكُنْتُمْ رَمِيمًا وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٤) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَاتَمًا مَفْعُولًا وَإِلَى

اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾

[تَقْلِيلِ اللَّهِ كُلِّ فِتْنَةٍ فِي عَيْنِ الْأُخْرَى]

قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُمْ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا، وَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، فَكَانَ تَثْبِيثًا لَهُمْ^(٤). وَكَذَا قَالَ

ابْنُ إِسْحَاقَ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَاشَيْتُمْ﴾ أَيُّ لَجَبَبْتُمْ عَنْهُمْ، وَاسْتَحْتَفْتُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أَيُّ مِنْ ذَلِكَ، بِأَنَّ أَرَأَيْتُمْ قَلِيلًا ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ بِمَا تُجْنِهُ الصَّمَائِرُ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ الْأَحْشَاءُ، ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [عَافِر: ١٩] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِهِمْ، إِذْ أَرَاهُمْ إِيَّاهُمْ قَلِيلًا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ، فَيَجْرُؤُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُطِمِعُهُمْ فِيهِمْ، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّيِّعِيُّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَقَدْ قَلَّلُوا فِي أَعْيُنِنَا يَوْمَ بَدْرٍ، حَتَّى قُلْتُ لِرَجُلٍ إِلَى جَانِبِي تَرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: لَا بَلْ هُمْ مِائَةٌ، حَتَّى أَخَذْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ فَسَأَلْنَاهُ، فَقَالَ: كُنَّا أَلْفًا^(٦). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: حَضَّضَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ^(٧). إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَاتَمًا مَفْعُولًا﴾ أَيُّ لِيُلْقِي بَيْنَهُمُ الْحَرْبَ لِلنَّعْمَةِ مِمَّنْ أَرَادَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ، وَالْإِنْعَامَ عَلَى مَنْ أَرَادَ تَمَامَ النُّعْمَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ وَلَايَتِهِ^(٨). وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ تَعَالَى أَعْرَى كَلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْآخِرِ، وَقَلَّلَهُ فِي عَيْنِهِ لِيَطْمَعَ فِيهِ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمُوَاجَهَةِ، فَلَمَّا التَّحَمَّ الْفِتْنَالُ وَأَيَّدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ، بَقِيَ حِزْبُ الْكُفَّارِ يَرَى حِزْبَ الْإِيمَانِ ضِعْفَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَمَثَلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَأَفْوَةٍ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْكُفْرَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَتَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] وَهَذَا هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، فَإِنَّ كَلًّا مِنْهُمَا حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَلِلَّهِ الْحُكْمُ وَالْمُنَّةُ.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ

(١) ابن هشام: ٢٦٨/٢ (٢) الطبري: ٥٦٨/١٣ (٣) أحمد: ١٩٥/٦ (٤) الطبري: ٥٧٠/١٣ (٥) الطبري: ٥٧٠/١٣ (٦) الطبري: ٥٧٢/١٣ إسناده ضعيف أبو إسحاق مدلس ولم يصرح وأبو عبيده لم يسمع من عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (٧) ابن أبي حاتم: ١٧١٠/٥ (٨) ابن هشام: ٣٢٨/٢ وابن أبي حاتم: ١٧١٠/٥

كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا
فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

[تَعْلِيمُ آدَابِ الْحَرْبِ]

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ آدَابِ اللِّقَاءِ
وَطَرِيقِ الشَّجَاعَةِ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا
الْأَيُّهُنَّ ءَأَمْرًا إِذَا لَقِيتَهُ فَنِكَهَ فَاثْبُتُوا﴾ تَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ انْتَهَرَ فِي
بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ
قَامَ فِيهِمْ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لَا تَمْتَنُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ،
وَأَسْأَلُوا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ
الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ:
«اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمَ
الْأَحْزَابِ، اهْزِمْنَاهُمْ وَأَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»^(١). وَعَنْ كَعْبِ
الْأَحْبَارِ قَالَ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قِرَاءَةِ
الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَمَرَ النَّاسَ بِالصَّلَاةِ
وَالْقِتَالِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ أَمَرَ النَّاسَ بِالذِّكْرِ عِنْدَ الْقِتَالِ،
فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْآيَةُ ءَأَمْرًا إِذَا لَقِيتَهُ فَنِكَهَ فَاثْبُتُوا وَادْكُرُوا
اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

[الْأَمْرُ بِالنَّبَاتِ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ]

وَأَمَرَ تَعَالَى بِالنَّبَاتِ عِنْدَ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ وَالصَّبْرِ عَلَى
مُبَارَزَتِهِمْ، فَلَا يَغْرَبُوا وَلَا يَنْكَلُوا وَلَا يَجْبُتُوا، وَأَنْ يَذْكُرُوا
اللَّهَ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَلَا يَنْسُوهُ، بَلْ يَسْتَعِينُوا بِهِ وَيَتَوَكَّلُوا
عَلَيْهِ وَيَسْأَلُوهُ النَّصَرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَأَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ، فَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ائْتَمَرُوا،
وَمَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ انْتَهَرُوا. وَلَا يَتَنَارَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَيْضًا
فَيَحْتَلِفُوا فَيَكُونُ سَبَبًا لِيَتَحَادَلَهُمْ وَفَسَلِهِمْ، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾
أَيُّ قُوَّتُكُمْ وَحَدَّتُكُمْ، وَمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْإِقْبَالِ، ﴿وَأَصْبِرُوا﴾
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿وَقَدْ كَانَ لِلصَّحَابَةِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ فِي
بَابِ الشَّجَاعَةِ وَالْإِيْتِمَارِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ،
وَأَمْتِنَالِ مَا أَرْسَدَهُمْ إِلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ
وَالْقُرُونِ قَبْلَهُمْ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، فَإِنَّهُمْ بِرِكَّةِ
الرُّسُولِ ﷺ وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ، فَتَحُوا الْقُلُوبَ وَالْأَقَالِيمَ
شَرْقًا وَغَرْبًا، فِي الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، مَعَ قَلَّةِ عَدَدِهِمْ بِالنَّسَبَةِ إِلَى
جِيُوشِ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ، مِنَ الرُّومِ، وَالْفَرَسِ، وَالتُّرْكِ،
وَالصَّقَالِيَّةِ، وَالتُّبْرِيكِ، وَالْحَبُوشِ، وَأَصْنَافِ السُّودَانِ،
وَالْقِبْطِ، وَطَوَائِفِ بَنِي آدَمَ. فَهَرُوا الْجَمِيعَ حَتَّى عَلَتْ كَلِمَةُ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لِأَعْلَابِ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ
عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَالَاءُ دِينَهُمْ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

اللَّهُ، وَظَهَرَ دِينُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَأَمْتَدَّتِ الْمَمَالِكُ
الإِسْلَامِيَّةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فِي أَقَلِّ مِنْ
ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ أَجْمَعِينَ، وَحَشَرْنَا
فِي زُمْرَتِهِمْ إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَابٌ.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيشَاءَ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لِأَعْلَابِ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ
وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ
إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ غَرَّ هَوَالَاءُ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

(١) فتح الباري: ١٤٠/٦، و مسلم: ١٣٦٢/٣ (٢) ابن أبي حاتم
(٩١٣٢) (١٧١١/٥) فيه عبدالله بن عياش وهو ضعيف يعتبر به
[تحرير تقريب التهذيب] يزيد بن قودر ذكره ابن أبي حاتم ولم
يذكر فيه جرْحًا ولا تعديلاً.

[كَيْفِيَّةُ خُرُوجِ الْمُشْرِكِينَ لِيَوْمِ بَدْرٍ]

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِخْلَاصِ فِي الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ، وَكَثْرَةَ ذِكْرِهِ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ التَّشْبِهِ بِالْمُشْرِكِينَ فِي خُرُوجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، ﴿بَطْرًا﴾ أَي دَفْعًا لِلْحَقِّ، ﴿وَرِثَةً النَّاسِ﴾ وَهُوَ الْمَفَاخِرَةُ وَالتَّكَبُّرُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ الْعَيْرَ قَدْ نَجَا فَارْجِعُوا، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ، حَتَّى نَرِدَ مَاءَ بَدْرٍ، وَنَتَحَرَ الْعُجْرُ، وَنَشْرَبَ الْخَمْرَ، وَتَعْرِفَ عَلَيْنَا الْيَقَانَ، وَتَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِمَكَانِنَا فِيهَا يَوْمَنَا أَبَدًا. فَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَجْمَعٌ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا وَرَدُوا مَاءَ بَدْرٍ وَرَدُّوا بِهِ الْحِمَامَ، وَرَمَوْا فِي أَطْوَاءِ بَدْرٍ مُهَانِينَ أَدْلَاءً، صَغْرَةَ أَشْقِيَاءَ، فِي عَذَابِ سَرْمِدِيٍّ أَبَدِيٍّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أَي عَالِمٌ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَهَلَهُ، وَلِهَذَا جَازَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ لَهُمْ^(١). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالشَّيْخَانِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَةً النَّاسِ﴾ قَالُوا: هُمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ^(٢). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَمَّا خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَدْرٍ، خَرَجُوا بِالْيَقَانَ وَالذُّفُوفِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَةً النَّاسِ وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

[تَرْبِيبِ الشَّيْطَانِ وَتَغْرِيبِهِ الْمُشْرِكِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الْآيَةَ، حَسَنَ لَهُمْ - لَعَنَهُ اللَّهُ - مَا جَاءُوا لَهُ وَمَا هُمُوا بِهِ، وَأَطْمَعَهُمْ أَنَّهُ لَا غَالِبَ لَهُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ^(٣). وَنَفَى عَنْهُمْ الْحَشِيَّةَ مِنْ أَنْ يُؤْتُوا فِي دِيَارِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ بَنِي بَكْرِ، فَقَالَ: أَنَا «جَارٌ لَكُمْ» وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَدَّى لَهُمْ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، سَيِّدِ بَنِي مُدَلِّجٍ، كَبِيرِ تِلْكَ النَّاجِيَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، سَارَ إِبْلِيسُ بِرَأْيِهِ وَجَنُودِهِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَغْلِبَكُمُ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ، فَلَمَّا انْتَفَوْا وَنَظَرَ الشَّيْطَانُ إِلَى إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ، «نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ» قَالَ: رَجَعَ مُدْبِرًا، وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الْآيَةَ^(٤). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

جَاءَ إِبْلِيسُ يَوْمَ بَدْرٍ فِي جُنْدٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَعَهُ رَأْيَتُهُ، فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مُدَلِّجٍ، فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ، فَلَمَّا اضْطَفَّ النَّاسُ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُبْضَةً مِنَ الثَّرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وَجُوهِ الْمُشْرِكِينَ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَأَقْبَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى إِبْلِيسَ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، انْتَزَعَ يَدَهُ ثُمَّ وَلَّى مُدْبِرًا هُوَ وَشِبَعَتُهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا سُرَاقَةَ أَنْزَعِمِ أَنَّكَ لَنَا جَارٌ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ. وَذَلِكَ حِينَ رَأَى الْمَلَائِكَةَ^(٥).

[مَوْقِفُ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَ بَدْرٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَأَلْيَتُ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَالَهُمْ وَدِينُهُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: قَالَ: لَمَّا دَنَا الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ قَلَّلَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَلَّلَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: غَرَّ هَوَالَهُمْ وَدِينُهُمْ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ قِلَّتِهِمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ سَهَرُمُونُهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: رَأَوْا عِصَابَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَشَدَّدَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَذَكَرْنَا: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ عَدُوَّ اللَّهِ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَعْْبُدُوا اللَّهَ بَعْدَ الْيَوْمِ، قَسْوَةٌ وَعَتُوًّا^(٧). وَقَالَ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ: كَانَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَدْ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، فَخَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَمَّا رَأَوْا قَلَّةَ الْمُسْلِمِينَ، قَالُوا: غَرَّ هَوَالَهُمْ وَدِينُهُمْ^(٨). وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَي يَعْتَمِدُ عَلَى جَنَابِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أَي لَا يُضَامُ مِنَ التَّجَا إِلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مَنِيْعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَعْمَالِهِ لَا يَضَعُهَا إِلَّا فِي مَوَاضِعِهَا، فَيَنْصُرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ، وَيَحْذِلُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَكَّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلِكَةَ يَبْصُرُونَ

وُجُوهُهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُفُوفًا عَذَابِ الْحَرِيقِ﴾ (٥) ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمَتْ

أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ (٦)

(١) ابن هشام: ٣٢٩/٢ (٢) الطبري: ٩٠٨/١٤ (٣) الطبري:

١١/١٤ (٤) الطبري: ٩/١٤ (٥) الطبري: ٧/١٤ (٦) الدر

المشور: ٧٨/٤ (٧) الطبري: ١٤/١٤ (٨) الطبري: ١٣/١٤

[ضَرَبَ الْمَلَائِكَةُ الْكُفَّارَ عِنْدَ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ] يَقُولُ تَعَالَى: وَلَوْ عَايَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ حَالَ تَوَفِّي الْمَلَائِكَةَ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ، لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا هَائِلًا فَظِيمًا مُنْكَرًا، إِذْ يَصْرُبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿وَدُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾: أَسْتَاهَهُمْ. قَالَ: يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا أَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، ضَرَبُوا وَجُوهَهُمْ بِالسُّيُوفِ، وَإِذَا وَلَّوْا أَدْرَكْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَضَرَبُوا أَدْبَارَهُمْ ^(١). وَهَذَا السِّيَاقُ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهُ وَفَعْلُهُ بَدْرٌ، وَلَكِنَّهُ عَامٌّ فِي حَقِّ كُلِّ كَافِرٍ، وَلِهَذَا لَمْ يُخَصِّصْهُ تَعَالَى بِأَهْلِ بَدْرٍ، بَلْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَصْرُبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ وَفِي سُورَةِ الْقِتَالِ مِثْلُهَا [الآية: ٢٧]، وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ آخِرِينَ أَفْسَكُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] أَيْ بِاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ بِالضَّرْبِ فِيهِمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ - إِذَا اسْتَضَعَّتْ أَنْفُسُهُمْ، وَامْتَنَعَتْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَجْسَادِ-: أَنْ تَخْرُجَ قَهْرًا، وَذَلِكَ إِذْ بَشَّرُوهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ: إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِذَا جَاءَ لِلْكَافِرِ عِنْدَ احْتِضَارِهِ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الْمُنْكَرَةِ، يَقُولُ: أُخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الْحَيَّةَةَ إِلَى سُومٍ وَحَوِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، فَتَفْتَرِّقُ فِي بَدَنِهِ فَيَسْتَخْرِجُوجُوهَهَا مِنْ جَسَدِهِ، كَمَا يُخْرَجُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُورِ، فَتَخْرُجُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ ^(٢). وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لَهُمْ: ﴿دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ﴾ أَيْ هَذَا الْجَزَاءُ بِسَبَبِ مَا عَمِلْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا، جَازَاكُمْ اللَّهُ بِهَا هَذَا الْجَزَاءَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَصِيدِ﴾ أَيْ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، الْعَنِي الْحَمِيدُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، عِنْدَ مُسْلِمٍ رَجَمَهُ اللَّهُ، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْتُمْ لَكُمْ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» ^(٣). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغْتِرًا تَعَمَّةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعِيرُوا مَا يَأْتِيهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ كَذَابِ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْتَهُمْ يَذُوبُهُمْ وَآغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾ فِيمَا تَنَفَّسْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْتَهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَتَهُمْ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُخَافِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا أَيُّهُمْ لَا يَعْرِضُونَ ﴿٥٨﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَأَمَّا تَتَّقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِن جَنَّحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿ كَذَابِ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُوبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴿٥٢﴾ يَقُولُ تَعَالَى: فَعَلَّ هُوَ لِأَيِّ عَادَتِنَا وَسُنَّتِنَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنْ أُمَّلَتِنَا بِهِمْ مَا هُوَ دَأْبُنَا أَيْ عَادَتُنَا وَسُنَّتِنَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكْذِبِينَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْمُكْذِبَةِ بِالرُّسُلِ، الْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُوبُهُمْ﴾ أَيْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ أَهْلَكْتَهُمْ وَأَخَذَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ وَلَا يَقُوتهُ هَارِبٌ. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغْتِرًا تَعَمَّةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعِيرُوا مَا يَأْتِيهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٢﴾ كَذَابِ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْتَهُمْ يَذُوبُهُمْ وَآغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾

(١) الطبري: ١٦/١٤ (٢) أحمد: ٤/٢٨٧، ٢٨٨ (٣) مسلم: ١٩٩٤/٤

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عَذْلِهِ وَفَسْطِهِ فِي حُكْمِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُعَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى أَحَدٍ، إِلَّا بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُونَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ١١]

وقوله: ﴿كَذَابٌ مَالٍ فِرْعَوْنَ﴾ أي كصنعه بال فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته، أهلكتهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات وعيون، وزروع وكُنُوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ سَرَّ الْأَنْوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزبر] عهدهم منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا ينفقون ﴿فَأَمَّا تَتَفَفَّهْنَّ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [٥٧]

[الأمر بشدة ضرب من يكفر وينقض العهد]

أخبر تعالى: أن سر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه، وهم لا ينفقون أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام ﴿فَأَمَّا تَتَفَفَّهْنَّ فِي الْحَرْبِ﴾ أي تغلبنهم وتظفر بهم في حرب ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ أي نكل بهم، قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء الخراساني وابن عيينة (١). ومعناه غلط عقوبتهم وأخذهم قتلًا، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصبروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾. وقال السدي: يقول: لعلمهم يخذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك (٢).

﴿وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَتَهُ فَأَيُّ الْيَوْمِ إِذَا ظَنَّ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الْقَائِدِ إِلَيْهِمْ عَلَى سِوَاءِ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾ [٥٨]

[الأمر بنقض العهد على سوا]

يقول تعالى لبيته ﷺ: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ قَدْ عَاهَدْتَهُمْ خِيفَتَهُ﴾ أي نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿فَأَيُّ الْيَوْمِ إِلَيْهِمْ﴾ أي عهدهم ﴿عَلَى سِوَاءِ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يتقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم، على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾ أي حتى ولو في حق

الكافرين لا يجيها أيضا. روى الإمام أحمد عن سليم ابن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شئخ على ذائب يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدرا، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقده ولا يسدها حتى ينقضي أمدها، أو يندب إليهم على سوا» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا الشئخ عمرو بن عبسة رضي الله عنه (٣). وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي، وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن صحيح (٤).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾ [٥٩] وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴿٦٠﴾

[الأمر بإعداد حسب المستطاع حتى

يرهب أعداء الله]

يقول تعالى لبيته ﷺ: وَلَا تَحْسَبَنَّ يَا مُحَمَّدُ! الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴿أَي فَاتُونَا، فَلَا تَقْدِرْ عَلَيْهِمْ بَلْ هُمْ تَحْتَ قَهْرٍ قَدَرْتَنَا، وَفِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِنَا، فَلَا يُعْجِرُونَنَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٤] أي يظنون، وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ لَمَّا كَانُوا فِيهَا وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَاجِرُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب، لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والإسطعاع، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي مهما أمكنكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ روى الإمام أحمد عن عتبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا

(١) الطبري: ٢٣/١٤، ٢٤، (٢) الطبري: ٢٣/١٤ (٣) أحمد: ١١١/٤ (٤) أبو داود الطيالسي: ١٥٧ وأبو داود: ١٩٠/٣ وتحفة الأحوذى: ٢٠٣/٥ والنسائي: ٢٢٣/٥ وابن حبان: ٧/١٨٢

إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّةَ^(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ لِنِثْلَانِيَّةٍ، لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ. فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَاعَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ، كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا - فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَانُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِتَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَعْتَبًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَسْهَرْ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظَهْرِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِيوَاءً، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ» وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحُمْرِ، فَقَالَ «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَادَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^(٤). [الزلزلة: ٧، ٨]. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَهَذَا لَفْظُهُ، وَمُسْلِمٌ^(٥). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ، وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ، وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ، فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يُرْبِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَلْفُهُ وَرَوْتُهُ وَبَوْتُهُ - وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللَّهُ - وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ، فَالَّذِي يُقَامِرُ أَوْ يِرَاهُنَ عَلَيْهَا، وَأَمَّا فَرَسُ الْإِنْسَانِ، فَالْفَرَسُ يُرْبِطُهَا الْإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ مِنَ الْفَقْرِ»^(٥).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بِنِ أَبِي الْجَعْدِ الْبَارِقِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ»^(٦). وَقَوْلُهُ: ﴿رُهِبُونَ﴾ أَيِ تَحْوَفُونَ ﴿بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ﴾ أَيِ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي بَنِي قُرَيْظَةَ^(٧). وَقَالَ السُّدِّيُّ: فَارِسٌ^(٨).

وَقَالَ مَقَاتِلُ بْنُ حَبِآنَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُمُ الْمُتَأَفِّفُونَ^(٩). وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَوَفِّقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْأُنْفَاقِ لَا يَعْلَمُونَ لَعَنَ تَعَالَى تَعْلَمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلَبُونَ﴾ أَيِ مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ فِي الْجِهَادِ، فَإِنَّهُ يُوَفَّى إِلَيْكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ،

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٢﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَعْلَبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَعْلَبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٤﴾ أَلَنْ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَعْلَبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلَبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٥﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ بَأْسٌ حَتَّى يَشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ النَّبِيِّ الْأَلْوَنِ وَمَنْ يَرِيدِ الْأُخْرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٨﴾

كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٢﴾

[الْأَمْرُ بِالْجَنُوحِ لِلسَّلَامِ إِنْ جَنَحَ لَهَا الْعَدُوُّ] يَقُولُ تَعَالَى: إِذَا حَفَّتْ مِنْ قَوْمٍ حَيَاتُهُ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ، فَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى حَرْبِكَ وَمُتَابَذَتِكَ، فَقَاتِلْهُمْ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أَيِ مَالُوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أَيِ الْمُسَالَمَةِ

(١) أحمد: ١٥٦/٤ (٢) مسلم: ١٥٢٢/٣ (٣) الموطأ: ٢/٤١٤ (٤) البخاري: ٢٨٦٠ ومسلم: ٩٨٧ (٥) أحمد: ١/٣٩٥ (٦) فتح الباري: ٦٦/٦ (٧) الطبري: ٣٦/١٤ (٨) الطبري: ٣٦/١٤ (٩) الطبري: ٣٦/١٤

وَالْمُصَالِحَةِ وَالْمُهَادِنَةِ، ﴿فَاتَّخِذْ لَهَا﴾ أَي قِمْلٍ إِلَيْهَا وَأَقْبِلْ مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ الصُّلْحَ، وَوَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَسَعَّ سِنِينَ، أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ مَعَ مَا اشْتَرَطُوا مِنَ الشُّرُوطِ الْآخِرِ. وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي اخْتِلَافٌ - أَوْ أَمْرٌ - فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ السَّلْمُ فَافْعَلْ»^(١). وَقَوْلُهُ: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أَي صَالِحُهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ، وَلَوْ كَانُوا يُرِيدُونَ بِالصُّلْحِ خِدْبَةً، لَيَتَفَقَّهُوا وَيَسْتَعْدُوا ﴿فَارْتَحِبْ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أَي كَافِيكَ وَحُدَّهُ.

[التذكير بنعمة التآليف بين قلوب المؤمنين]

ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ بِمَا آيَدَهُ بِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِصِرْوِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أَي جَمَعَهَا عَلَى الْإِيمَانِ بِكَ، وَعَلَى طَاعَتِكَ وَمُنَاصَرَتِكَ وَمُؤَازَرَتِكَ ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أَي لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ فَإِنَّ الْأَنْصَارَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَأُمُورٌ يَلْزَمُ مِنْهَا التَّسَلُّسُلُ فِي الشَّرِّ، حَتَّى قَطَعَ اللَّهُ ذَلِكَ بِنُورِ الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ الْأَنْارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا حَطَبَ الْأَنْصَارَ، فِي شَأْنِ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ، قَالَ لَهُمْ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِي» كَلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَّنٌ^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكْفُرُ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَي عَزِيزُ الْجَنَابِ، فَلَا يُخَيِّبُ رَجَاءً مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ وَأَحْكَامِهِ.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكِيرُونَ يَعْلَمُوا مَا نَتَيْنَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَعْلَمُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ لَنْ خَفَّفَ اللَّهُ

عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَعْلَمُوا مَا نَتَيْنَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلَمُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾﴾

[التحريض على القتال والتبشير بأن القليل من المسلمين يغلبون الكثير من الكفار]

يُحَرِّضُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ وَمُنَاجَرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُبَارَاةِ الْأَقْرَانِ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّهُ حَسْبُهُمْ أَي كَافِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَإِنْ كَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ وَتَرَدَّدَتْ أَمْدَادُهُمْ، وَلَوْ قَلَّ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أَي حُثُّهُمْ وَدَرَمُهُمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّضُ عَلَى الْقِتَالِ، عِنْدَ صَفِّهِمْ وَمُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ، كَمَا قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ حِينَ أَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ فِي عَدُوِّهِمْ وَعَدَدِهِمْ: «فَوُومُوا إِلَى جَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ: عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ»، فَقَالَ: بَخَّ بَخَّ، فَقَالَ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخَّ بَخَّ؟» قَالَ: رَجَاءٌ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ «فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهَا». فَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ، فَكَسَرَ جَنْفَ سِنْفِهِ، وَأَخْرَجَ تَمْرَاتٍ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ أَلْقَى بَقِيَّتَهُنَّ مِنْ يَدَيْهِ وَقَالَ: لَيْتَ أَنَا حَيِّيتُ حَتَّى أَكَلَهُنَّ إِنَّهَا لِحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكِيرُونَ يَعْلَمُوا مَا نَتَيْنَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَعْلَمُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كُلُّ وَاحِدٍ بَعَشْرَةٌ، ثُمَّ نُسِخَ هَذَا الْأَمْرُ وَبَقِيَ الْإِشَارَةُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَارِثٍ: حَدَّثَنِي الرَّبِيعُ بْنُ الْخَرِيتِ، عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكِيرُونَ يَعْلَمُوا مَا نَتَيْنَ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ، ثُمَّ جَاءَ التَّخْفِيفُ، فَقَالَ: ﴿لَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُوا مَا نَتَيْنَ﴾ قَالَ: خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ، وَنَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ^(٤). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ الْمُبَارَكِ نَحْوَهُ^(٥). وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ

(١) أحمد: ٩٠/١ (٢) فتح الباري: ٦٤٤/٧ ومسلم: ٢/٧٣٨ (٣) مسلم: ١٥١١/٣ (٤) أبو داود: ١٠٥/٣ (٥) فتح الباري: ١٦٣/٨

يَأْتِيهَا النَّيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنَ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ التَّصَرُّ الْأَعْلَى قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ لَاتَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَعْفُورٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِهِمْ هَاجَرُوا وَجَهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٨١﴾

الله ﷻ: «أُعْطِيَتْ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٥). وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِسُودِ الرُّؤُوسِ غَيْرِنَا» وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الْآيَةَ^(٦). فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا مِنَ الْأَسَارَى الْفِدَاءَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ فِدَاءَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِمِائَةً^(٧). وَقَدْ اسْتَمَرَّ الْحُكْمُ فِي الْأَسْرَى عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ. أَنَّ الْإِمَامَ

ابن عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ نُقِلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْظَمُوا أَنْ يُقَاتِلَ عَشْرُونَ مِائَتِينَ، وَمِائَةٌ أَلْفًا، فَخَفَّتْ اللَّهُ عَنْهُمْ فَتَسَحَّحَتْ بِالْآيَةِ الْأُخْرَى، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الْآيَةَ، فَكَانُوا إِذَا كَانُوا عَلَى الشَّطْرِ مِنْ عَدُوِّهِمْ، لَمْ يَسْغُ لَهُمْ أَنْ يَفِرُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَإِذَا كَانُوا دُونَ ذَلِكَ، لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمْ قِتَالُهُمْ، وَجَارَ لَهُمْ أَنْ يَتَحَوَّزُوا عَنْهُمْ^(١).

﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبَغَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَخْرُجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٧) لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقٌ لَكُمْ لِمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٨١﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٢﴾

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رَضِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ فِي الْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ» فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ» فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَرَى أَنْ تَغْفُو عَنْهُمْ، وَأَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ. قَالَ: فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْعَمَى، فَعَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقٌ لَكُمْ لِمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقٌ﴾ يَعْنِي: فِي أُمِّ الْكِتَابِ الْأُولَى: أَنَّ الْمَغَانِمَ وَالْأَسَارَى حَلَالٌ لَكُمْ ﴿لَمْ سَبَقْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ مِنَ الْأَسَارَى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الْآيَةَ. وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣). وَرَوَى مِثْلَهُ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءِ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَقَتَادَةَ وَالْأَعْمَشَ أَيْضًا^(٤). أَنَّ الْمُرَادَ ﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقٌ﴾ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِحْلَالِ الْغَنَائِمِ.

وَيَسْتَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ، بِمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

(١) البخاري: ٤٦٥٢، ٤٦٥٣ (٢) أحمد: ٢٤٣/٣ (٣) الطبري: ٦٥/١٤ (٤) الطبري: ٦٥-٦٩ (٥) فتح الباري: ٥١٩/١ ومسلم: ٣٧٠/١ (٦) النسائي في الكبرى: ٣٥٢/٦ (٧) أبو داود: ٣/١٣٩

مُخَيَّرَ فِيهِمْ إِنْ شَاءَ قَتَلَ كَمَا فَعَلَ بِنَبِيِّ قُرَيْظَةَ، وَإِنْ شَاءَ فَادَى بِمَالٍ كَمَا فَعَلَ بِأَسْرَى بَدْرٍ، أَوْ بِمَنْ أُسِرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْجَارِيَةِ وَابْتَيْتَهَا - اللَّيْتِينَ كَانَتَا فِي سَبْيِ سَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ - حَيْثُ رَدَّهُمَا وَأَخَذَ فِي مَقَابَلَتَيْهِمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ شَاءَ اسْتَرْقَ مَنْ أُسِرَ.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا آخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾

[وَعُدَّ الْأَسْرَى بِعَوَضٍ أَحْسَنَ إِنْ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ]

قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: «إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أَنَسًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كَرْهًا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ - أَيْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ - فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبُخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَا يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا» فَقَالَ أَبُو حُدَيْفَةَ بْنُ عُبَيْدَةَ: أَنْقَلْتُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَعَشَائِرَنَا، وَتَرَكْتُ الْعَبَّاسَ، وَاللَّهُ! لَئِنْ لَقِيْتُهُ لِأَلْجَمْتُهُ بِالسَّيْفِ، فَبَلَغَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِعَمْرٍو ابْنَ الْخَطَّابِ: «يَا أَبَا حَفْصٍ! - قَالَ عُمَرُ: وَاللَّهُ! إِنَّهُ لَأَوَّلُ يَوْمٍ كَتَانِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا حَفْصٍ - أَيضْرَبُ وَجْهَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ؟» فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذْنٌ لِي فَأَضْرِبُ عَنْقَهُ فَوَاللَّهِ! لَقَدْ نَافَقَ. فَكَانَ أَبُو حُدَيْفَةَ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: وَاللَّهِ! مَا آمَنَ مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي قُلْتُ، وَلَا أَرَأَى مِنْهَا خَائِفًا إِلَّا أَنْ يُكْفَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَنِّي بِشَهَادَةٍ، فَقَتِلَ يَوْمَ الْبِمَامَةِ شَهِيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١). وَبِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، وَالْأَسَارَى مَحْبُوسُونَ بِالْوَتَائِقِ، بَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاهِرًا أَوَّلَ اللَّيْلِ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا لَكَ لَا تَنَامُ؟ وَقَدْ أَسَرَ الْعَبَّاسَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَمِعْتُ أَيْنِسَ عَمِّي الْعَبَّاسِ فِي وَتَائِفِهِ». فَأَطْلَقُوهُ فَسَكَتَ، فَتَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ عُمَيْدَةَ قَالَ ابْنُ شَيْهَابٍ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذْنٌ لَنَا فَلْتُرْكَ لِابْنِ أُحَيْنَةَ عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ. قَالَ:

«لَا وَاللَّهِ! لَا تَدْرُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا»^(٣). وَقَالَ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ، عَنْ عُرْوَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ جَمَاعَةٍ سَمَّاهُمْ قَالُوا: بَعَثْتُ قُرَيْشًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ فَقَدَى كُلُّ قَوْمٍ أَسِيرَهُمْ بِمَا رَضُوا، وَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ يُجْزِيكَ، وَأَمَّا ظَاهِرُكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا فَاقْتَدِ نَفْسَكَ وَابْتِنِي أَحْيِكَ نُوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَقِيلَ ابْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَحَلِيفَكَ عُبَيْدَةَ بْنَ عَمْرٍو أَحْيِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرِ» قَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ أَتَتْ وَأُمُّ الْفَضْلِ فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ أَصَبْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، فَهَذَا الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ لِبَنِي الْفَضْلِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَقَتْمٌ؟» قَالَ: وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عِلْمُهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرِ أُمِّ الْفَضْلِ فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عَشْرِينَ أَوْ قِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْكَ». فَقَدَى نَفْسَهُ وَابْتِنِي أَخُوَيْهِ وَحَلِيفَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا آخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ الْعَبَّاسُ: فَأَعْطَانِي اللَّهُ مَكَانَ الْعَشْرِينَ الْأَوْقِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ عَشْرِينَ عَبْدًا كُلَّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ، مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٤).

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَقَالَ: «انْتَرُوهُ فِي مَسْجِدِي». قَالَ: وَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أَتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِذَا جَاءَ الْعَبَّاسُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعْطِنِي فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي، وَفَادَيْتُ عَقِيلًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ» فَحَتَا فِي نَوْبِهِ ثُمَّ ذَهَبَ يَقْتُلُهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: مَرُّ بَعْضَهُمْ بِرَفْعِهِ إِلَيَّ قَالَ:

(١) ابن سعد: ١٠/٤ أنظر أيضًا دلائل النبوة للبيهقي ٣/١٤٠ (٢) ابن سعد: ١٣/٤ دلائل النبوة للبيهقي ٣/١٤١ إسناده صحيح. (٣) فتح الباري: ٧/٣٧٣ (٤) القرطبي: ٨/٥٢ إسناده ضعيف محمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح بإبهايم راويه.

وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ... الآية [التوبة: ١١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَرْضَوْنَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾ أَوْلَيْكَ هُمْ الصَّدُوقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ... الآية [الحشر: ٨، ٩]. وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أَي لَا يَحْسُدُونَهُمْ عَلَى فَضْلِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَلَى هَجْرَتِهِمْ. فَإِنَّ ظَاهِرَ الْآيَاتِ تَقْدِيمُ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ.

﴿وَأَنْ يَبْدُوا بِحَيَاتِكَ فَقَدْ حَانُوا اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ أَي

﴿وَأَنْ يَبْدُوا بِحَيَاتِكَ﴾ فِيمَا أَظْهَرُوا لَكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ﴿فَقَدْ حَانُوا اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ أَي مِنْ قَبْلِ بَدْرِ بِالْكَفْرِ بِهِ ﴿فَأَمَكَنَ مِنْهُمْ﴾ أَي بِالْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرِ ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ أَي عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُهُ حَكِيمٌ فِيهِ.

[لَا وَلايَةَ لِمَنْ آمَنَ وَلَمْ يُهَاجِرْ]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ﴾ قَرَأَ حَمْرَةَ: (وَلَا يَتَّبِعُهُمْ) بِالْكَسْرِ، وَالْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ، وَهُمَا وَاحِدٌ كَالدَّلَالَةِ وَالذَّلَالَةِ ﴿مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ هَذَا هُوَ الصَّنْفُ الثَّلَاثُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا، بَلْ أَقَامُوا فِي بَوَادِيهِمْ، فَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْمَعَانِمِ نَصِيبٌ، وَلَا فِي خُمُسِهَا إِلَّا مَا حَضَرُوا فِيهِ الْقِتَالَ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ جَيْشٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، وَقَالَ: «اغْرُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، إِذَا لَقَيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ جِلَالٍ - فَأَيُّنَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ: ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحْوِيلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَعْلِمُهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ. فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ، فَاعْلَمُهُمْ أَنََّّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي النَّبِيِّ وَالغَنِيمَةِ نَصِيبٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُمْ

﴿لَا﴾ قَالَ فَارْفَعَهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: «لَا» فَتَرَّ مِنْهُ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ ثُمَّ انْطَلَقَ. فَمَا زَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَّبِعُهُ بَصْرَهُ حَتَّى خَفِيَ عَنْهُ عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ. فَمَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمِنْهَا دِرْهُمٌ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِهِ تَغْلِيْقًا بِصِغَةِ الْجَزْمِ^(٢).

﴿وَأَنْ يَبْدُوا بِحَيَاتِكَ فَقَدْ حَانُوا اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ أَي

﴿وَأَنْ يَبْدُوا بِحَيَاتِكَ﴾ فِيمَا أَظْهَرُوا لَكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ﴿فَقَدْ حَانُوا اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ أَي مِنْ قَبْلِ بَدْرِ بِالْكَفْرِ بِهِ ﴿فَأَمَكَنَ مِنْهُمْ﴾ أَي بِالْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرِ ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ أَي عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُهُ حَكِيمٌ فِيهِ.

[الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ]

ذَكَرَ تَعَالَى أَصْنَافَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَسَمَهُمْ إِلَى مُهَاجِرِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَجَاءُوا لِتَنْصِرَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، وَبَدَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَإِلَى الْأَنْصَارِ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِذْ ذَاكَ، أَوْ أَوْلِيَاءَهُمْ الْمُهَاجِرِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَوَأَسْوَأَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنَصَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْقِتَالِ مَعَهُمْ فَهَؤُلَاءِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أَي كُلُّ مِنْهُمْ أَحَقٌّ بِالْآخِرِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَلِهَذَا أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كُلِّ اثْنَيْنِ أَحْوَانَ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِذَلِكَ إِذَا مَتَّ دَمًا عَلَى الْقَرَابَةِ، حَتَّى نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِالْمَوَارِيثِ، ثَبَتَ ذَلِكَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرٍ - هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَالطَّلَقَاءُ مِنْ قُرْبَى، وَالْعَتَقَاءُ مِنْ تَقِيفٍ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فِي غَيْرِ مَا آتَى فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... الآية [التوبة: ١٠٠] وَقَالَ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ

(١) البيهقي: ٣٥٦/٦ (٢) البخاري: ٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥

(٣) فتح الباري: ٣٠/١٢ (٤) أحمد: ٣٦٣/٤

عَنِ الذُّنُوبِ إِنْ كَانَتْ، وَيَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ وَهُوَ: الْحَسَنُ الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ، الشَّرِيفُ، دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا، لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَنْقُضِي، وَلَا يُسَامُ وَلَا يُمَلُّ، لِحُسْنِهِ وَتَوَعُّوهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَتْبَاعَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهَمَّ مَعَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ﴾. . . الآية [النوبة: ١٠٠] وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾. . . الآية [الحشر: ١٠]. وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بَلِ الْمُتَوَاتِرِ مِنْ طُرُقٍ صَحِيحَةٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» (٦) وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ» وَفِي رِوَايَةٍ: «حَشِرَ مَعَهُمْ» (٧).

[الْإِرْثُ لِلْأَقْرَابِ]

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أَي فِي حُكْمِ اللَّهِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ خُصُوصِيَّةٌ مَا يُطْلَقُهُ عُلَمَاءُ الْفَرَائِضِ عَلَى الْقَرَابَةِ الَّذِينَ لَا فَرَضَ لَهُمْ وَلَا هُمْ عَصَبَةٌ، بَلْ يُدْلُونَ بِوَارِثِ: كَالخَالَةِ وَالخَالِ، وَالعمَّةِ، وَأَوْلَادِ النِّبَاتِ، وَأَوْلَادِ الْأَخْوَاتِ وَنَحْوِهِمْ - كَمَا قَدْ بَرَعَهُمُ بَعْضُهُمْ وَبَحَّحَ بِالآيَةِ وَيَعْتَقِدُ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي الْمَسْأَلَةِ! بَلِ الْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْقَرَابَاتِ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٨) عَلَى أَنَّهَا نَاسِخَةٌ لِلْإِرْثِ بِالْجِلْفِ، وَالْإِخَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهِمَا أَوْلًا، وَعَلَى هَذَا فَتَشْمَلُ دَوْرِي الْأَرْحَامِ بِالْأَسْمِ الْخَاصِّ. وَمَنْ لَمْ يُورَثْهُمْ يَحْتَجُّ بِأَدْلَةٍ، مِنْ أَقْوَاهَا حَدِيثُ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثِ» (٩). قَالُوا: فَلَوْ كَانَ ذَا حَقٍّ لَكَانَ لَهُ فَرَضٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَسْمُومًا، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَارِثًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَجْرٌ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

أَبَوًا فَادْعُهُمْ إِلَىٰ إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ. فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ ثُمَّ قَاتِلْهُمْ» (١). انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ (٢). وَعِنْدَهُ زِيَادَاتٌ أُخْرَى، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ الْآيَةَ، يَقُولُ تَعَالَى: وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ، الَّذِينَ لَمْ يَهَاجِرُوا فِي قِتَالِ دِينِي عَلَىٰ عَدُوِّ لَهُمْ فَانصُرُوهُمْ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ نَصْرُهُمْ، لِإِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصَرُوكُمْ عَلَىٰ قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ، ﴿يَتَنَكَّمُ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أَي مَهَادَنَةٌ إِلَىٰ مُدَّةٍ، فَلَا تُحْفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَلَا تَنْفُضُوا أَيْمَانَكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ، وَهَذَا مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٣).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَآءِ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٤)
[الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَلَا وَلَايَةٌ لَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ، قَطَعَ الْمُؤَالَاةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ، كَمَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أُسَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا، وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا - ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَآءِ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾». ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (٤). قُلْتُ: الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ» (٥). وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أَي إِنْ لَمْ تَجَانِبُوا الْمُشْرِكِينَ وَتَوَالَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَإِلَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ فِي النَّاسِ، وَهُوَ النِّيَاسُ الْأَمْرُ وَاخْتِلَاطُ الْمُؤْمِنِ بِالْكَافِرِ، فَيَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ فَسَادٌ مُتَشِيرٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَعْفُورَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأَوْلِيَّكَ مِنْكُمْ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧)

[الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَطَفَ بِذِكْرِ مَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيَجَازِيهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالصَّفْحِ

(١) أحمد: ٣٥٢/٥ (٢) مسلم: ١٣٥٧/٣ (٣) الطبري: ١٤/

٨٣ (٤) الحاكم: ٢٤٠/٢ (٥) فتح الباري: ٥١/١٢ ومسلم:

١٢٣٣/٣ (٦) فتح الباري: ٥٧٣/١٠ (٧) الطبراني: ١٩/٣

(٨) الطبري: ٩٠/١٤ (٩) أبو داود: ٢٩١/٣

تفسير سورة التوبة [وهي] مدنيته

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ
اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

[لِمَ لَمْ تَكْتُبِ الْبِسْمَلَةَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ؟]

هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: أَخْرَجَ آيَةَ نَزَلَتْ:
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفِيكُمُ فِي الْكَلْبَلَةِ﴾ [المائدة: ١٧٦]
وَإِخْرَجَ سُورَةَ بَرَاءَةٍ^(١). وَإِنَّمَا لَمْ يُبَسِّمَلْ فِي أَوَّلِهَا لِأَنَّ
الصَّحَابَةَ لَمْ يَكْتُبُوا الْبِسْمَلَةَ فِي أَوَّلِهَا فِي الْمُصْحَفِ
الْإِمَامِ، بَلِ افْتَدَوْا فِي ذَلِكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. وَأَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ نَزَلَ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهَمَّ بِالْحَجِّ،
ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَحْضُرُونَ عَامَهُمْ هَذَا الْمَوْسِمَ عَلَى
عَادَتِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءَةً، فَكَرِهَ
مُخَالَطَتَهُمْ فَبَعَثَ أَبَا بَكْرَ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمِيرًا عَلَى
الْحَجِّ هَذِهِ السَّنَةِ، لِيُقِيمَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكَهُمْ وَيُعَلِّمَ الْمُشْرِكِينَ
أَنْ لَا يَحْجُوا بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَأَنْ يُتَادِيَ فِي النَّاسِ:
﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فَلَمَّا قَفَلَ أَتَبَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
لِيَكُونَ مُبَلِّغًا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِكُونِهِ عُضْبَةً لَهُ، كَمَا
سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

[إِعْلَانُ الْبَرَاءَةِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ]

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَي هَذِهِ بَرَاءَةٌ أَيْ
تَبَرُّؤٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ هَذِهِ الْآيَةُ لِذَوِي الْعَهْدِ
الْمُطْلَقَةِ غَيْرِ الْمُؤَقَّتَةِ، أَوْ مِنْ لَهُ عَهْدٌ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ
فَيُكْمَلُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ فَاجْلُهُ
إِلَى مُدَّتِهِ مَهْمَا كَانَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
مُدَّتِهِمْ﴾ الْآيَةَ، وَلَمَّا سَيَأْتِي فِي الْحَدِيثِ. «وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ». وَرَوَى عَنِ
الْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ^(٢).

وَقَالَ أَبُو مَعْشَرَ الْمَدَنِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيُّ
وَغَيْرُهُ قَالُوا: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرَ أَمِيرًا عَلَى
الْمَوْسِمِ سَنَةِ تِسْعٍ، وَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ بِثَلَاثِينَ آيَةً،
أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً مِنْ «بَرَاءَةِ» فَقَرَأَهَا عَلَى النَّاسِ، يُؤَجَّلُ

سُورَةُ التَّوْبَةِ ١٨٧

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُسْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ
﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحْدَاثًا تَوَلَّوْا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَى
مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ
فَأَقْبَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
كَلِمَ اللَّهِ فَمُرَّ بِغَلَبَةِ مَأْمَنِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

الْمُشْرِكِينَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ
يَوْمَ عَرَفَةَ أَجْلُهُمْ عَشْرِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمِ وَصَفَرَ
وَسَهْرَ رَيْبِ الْأَوَّلِ وَعَشْرًا مِنْ رَيْبِ الْآخِرِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ
فِي مَنَازِلِهِمْ، وَقَالَ: لَا يَحْجُنَّ بَعْدَ عَامِنَا هَذَا مُشْرِكٌ وَلَا
يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا^(٣). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَذَنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ
بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُسْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ
تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِعْلَامٌ ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ - وَتَقَدَّمَ -
وَإِنذَارٌ إِلَى النَّاسِ ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ
الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ أَيَّامِ الْمَنَاسِكِ وَأَظْهَرُهَا وَأَكْثَرُهَا جَمْعًا
﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أَي بَرِيءٌ مِنْهُمْ أَيْضًا ثُمَّ

(١) فتح الباري: ١٦٧/٨ (٢) الطبري: ١٠٠/١٤ - ١٠٢ (٣)
الطبري: ٣٠٤/٦

يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ إِلَىٰ مَدَّتِهِ» فَلَمْ يَحْجْ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَمْ يَطُفْ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، ثُمَّ قَدِمَا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ هَذَا مِنْ بَرَاءَةِ فِيمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشُّرْكِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ الْعَامِ وَأَهْلِ الْمُدَّةِ إِلَىٰ الْأَجْلِ الْمُسَمَّى (٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِيَتِيمِهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُنْفِقِينَ﴾

[مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ وَلَمْ يَنْقُصْ فَعَهْدُهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ]

هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ ضَرْبِ مُدَّةِ التَّاجِيلِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لِمَنْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ لَيْسَ بِمَوْقَّتٍ، فَاجْلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ يَبْسُجُ فِي الْأَرْضِ يَذْهَبُ فِيهَا لِيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ حَيْثُ شَاءَ، إِلَّا مَنْ لَهُ عَهْدٌ مَوْقَّتٌ فَاجْلُهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ الْمَضْرُوبَةِ الَّتِي عُوِّدَ عَلَيْهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ: «وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَهْدُهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ». وَذَلِكَ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَنْقُصَ الْمُعَاهَدُ عَهْدَهُ وَلَمْ يُظَاهَرْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا أَيْ يُمَالِيَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سِوَاهُمْ، فَهَذَا الَّذِي يُوفِي لَهُ بِمَدَّتِهِ وَعَهْدِهِ إِلَىٰ مَدَّتِهِ وَلِهَذَا حَرَّضَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَهُمْ.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَصْرُهُمْ وَأَقْدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾

[هَذِهِ هِيَ آيَةُ السَّنِيفِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَشْهُرُ التَّسْبِيرِ الْأَرْبَعَةَ الْمَنْصُوبِ عَلَيْهَا (٤) بِقَوْلِهِ: ﴿فَيَسْجُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ﴾ [التوبة: ٢-٥] أَيِ إِذَا انْقَضَتْ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي حَرَّمْنَا عَلَيْكُمْ فِيهَا قِتَالَهُمْ وَأَجَلْنَاهُمْ فِيهَا فَحَيْثُمَا وَجَدْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أَيِ مَنْ الْأَرْضِ وَهَذَا عَامٌّ، وَالْمَشْهُورُ تَخْصِيصُهُ بِتَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِي

دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ تَبْتُمْ﴾ أَيِ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالضَّلَالِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَيِ اسْتَمْرَرْتُمْ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي قِبْضَتِهِ وَتَحْتِ قَهْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ﴿وَيَنْبِرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَدَابِ اللَّهِ﴾ أَيِ فِي الدُّنْيَا بِالْخِزْيِ وَالتَّكَالِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْمَقَامِعِ وَالْأَعْلَالِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحِجَّةِ فِي الْمَوْذِنِينَ الَّذِينَ بَعَثْتُمْ يَوْمَ النَّحْرِ، يُؤَدُّونَ بِيَتِي: أَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. قَالَ حُمَيْدٌ: ثُمَّ أُرْدَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَدَّ بِبَرَاءَةِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيُّ فِي أَهْلِ مَنَى يَوْمَ النَّحْرِ بِبَرَاءَةِ، وَأَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ (١).

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِيمَنْ يُؤَدُّ يَوْمَ النَّحْرِ بِيَتِي: إِلَّا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. وَيَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ: يَوْمَ النَّحْرِ، وَإِنَّمَا قِيلَ: «الْأَكْبَرُ» مِنْ أَجْلِ قَوْلِ النَّاسِ: الْحَجُّ الْأَصْغَرُ. فَتَبَّ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ فَلَمْ يَحْجَّ عَامَ حِجَّةِ الْوُدَاعِ الَّذِي حَجَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُشْرِكٌ (٢).

وَهَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ كَانَ بَعَثَ أَبَا بَكْرٍ لِيَتِيمَ الْحَجِّ لِلنَّاسِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ بَعَثْتَ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ؟ فَقَالَ: «لَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي» ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا فَقَالَ: «اخْرُجْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةِ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بِيَتِي: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ. وَلَا يَحْجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ. وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ» فَخَرَجَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى نَاقَةٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَضْبَاءِ حَتَّى أَدْرَكَ أَبَا بَكْرٍ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ؟ فَقَالَ: بَلْ مَأْمُورٌ، ثُمَّ مَضَى فَاقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ الْحَجَّ وَالْعَرَبَ إِذْ ذَاكَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْحَجِّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ النَّحْرِ قَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالَّذِي أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ. وَلَا يَحْجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ. وَلَا

(١) فتح الباري: ١٦٨/٨ (٢) فتح الباري: ١٦٨/٨ (٣) الطبري: ١٠٧/١٤ (٤) الطبري: ١٣٧، ١٣٦/١٤

مَأْمَنُكُمْ ﴿١﴾ أَيُّ وَهُوَ آمِنٌ مُسْتَمِرٌّ الْأَمَانُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بِلَادِهِ
وَدَارِهِ وَمَأْمَنِهِ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا شَرَعْنَا
أَمَانَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ لِيَعْلَمُوا دِينَ اللَّهِ وَتَتَشَبَّهَ دَعْوَةُ اللَّهِ فِي
عِبَادِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ
قَالَ: إِنْسَانٌ يَأْتِيكَ لِيَسْمَعَ مَا تَقُولُ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ، فَهُوَ
آمِنٌ حَتَّى يَأْتِيكَ فَيَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ، وَحَتَّى يَبْلُغَ مَأْمَنَهُ حَيْثُ
جَاءَ ﴿٣﴾. وَمِنْ هَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي الْأَمَانَ لِمَنْ
جَاءَهُ مُسْتَرَشِدًا أَوْ فِي رِسَالَةٍ، كَمَا جَاءَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ
جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْهُمْ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ
وَمِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ وَسَهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَغَيْرُهُمْ، وَاحِدًا بَعْدَ
وَاحِدٍ يَتَرَدَّدُونَ فِي الْقِصَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَوَّأَ مِنْ
إِعْظَامِ الْمُسْلِمِينَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا بَهَرَهُمْ وَمَا لَمْ يُشَاهِدُوهُ
عِنْدَ مَلِكٍ وَلَا قَيْصَرَ، فَارْجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَأَخْبَرُوهُمْ
بِذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ وَأَمثَالُهُ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ هِدَايَةِ أَكْثَرِهِمْ،
وَلِهَذَا أَيْضًا لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ مُسَيْلَمَةَ الْكُذَّابِ عَلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «أَتَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلَمَةَ رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ:
نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ
لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ» ﴿٤﴾. وَقَدْ قِيضَ اللَّهُ لَهُ ضَرْبُ الْعُنُقِ فِي إِمَارَةِ
ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَى الْكُوفَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ التَّوَّاحِةِ،
ظَهَرَ عَنْهُ فِي زَمَانِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ يَشْهَدُ لِمُسَيْلَمَةَ بِالرِّسَالَةِ،
فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّكَ الْآنَ لَكُنْتَ فِي
رِسَالَةٍ» وَأَمَرَ بِهِ فَضَرَبَتْ عُنُقَهُ.

لَارْحَمَهُ اللَّهُ وَلَعَنَهُ. وَالْعَرَضُ أَنَّ مَنْ قَدِمَ مِنْ دَارِ
الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فِي آدَاءِ رِسَالَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ طَلَبِ
ضَلْحٍ أَوْ مَهَادَنَةٍ أَوْ حَمَلِ جِزْيَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ،
وَطَلَبِ مِنَ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ أَمَانًا أَعْطِيَ أَمَانًا مَا دَامَ مُتَرَدِّدًا
فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، وَحَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَأْمَنِهِ وَوَطَنِهِ.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا
الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَمُوا لَكُمْ
فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَحِثُ الْمُنْفَكِينَ ﴿٧﴾﴾

[تَأْكِيدُ الْبِرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي الْبِرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَنَظَرَتِهِ

الْحَرَمِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلِحُوا
فِيهِ فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَخُذُوهُمْ
أَيُّ وَأَسْرُوهُمْ إِنْ شِئْتُمْ قَتْلًا وَإِنْ شِئْتُمْ أَسْرًا. وَقَوْلُهُ:
﴿وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْدُوا لَهُمْ كَلَّ مَرَصِدٌ﴾ أَيُّ لَا تَكْتَفُوا
بِمَجْرَدِ وَجْدَانِكُمْ لَهُمْ، بَلْ أَفْضِدُوهُمْ بِالْحِصَارِ فِي مَعَاقِلِهِمْ
وَخُصُونِهِمْ وَالرَّصِدُ فِي طَرْفِهِمْ وَمَسَالِكِهِمْ، حَتَّى تُضَيِّقُوا
عَلَيْهِمْ الْوَأَسِعَ وَتَضَطَّرُّوهُمْ إِلَى الْقَتْلِ أَوْ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وَلِهَذَا اغْتَمَدَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي
قِتَالِ مَا بَعِيَ الزَّكَاةَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَمثَالِهَا، حَيْثُ
حَرَمَتْ قِتَالَهُمْ بِشَرْطِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَهِيَ: الدُّخُولُ فِي
الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامُ بِآدَاءِ وَاجِبَاتِهِ. وَتَبَّهَ بِأَعْلَاهَا عَلَى أَدْنَاهَا،
فَإِنَّ أَشْرَفَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ: الصَّلَاةُ الَّتِي
هِيَ حَقُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَعْدَهَا آدَاءُ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ نَفْعٌ
مُتَعَدِّ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِجِ، وَهِيَ أَشْرَفُ الْأَفْعَالِ
الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَخْلُوقِينَ، وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ بَيْنَ الصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ. وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَمُرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ
حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»... (١) الْحَدِيثُ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ السِّيفِ الَّتِي قَالَ فِيهَا
الضَّحَّاكُ ابْنُ مَرْحَمٍ: إِنَّهَا نَسَخَتْ كُلَّ عَهْدٍ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ
وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَكُلَّ عَهْدٍ وَكُلَّ مُدَّةٍ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمْ يَجِدْ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
عَهْدٌ وَلَا ذِمَّةٌ مُنْذُ نَزَلَتْ بِرَاءَةٌ، وَانْسِلَاخُ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
وَمُدَّةٌ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ [بِرَاءَةٌ]:
أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٍ - مِنْ يَوْمِ أَدْنُ بِرَاءَةَ إِلَى عَشْرِ مِنْ أَوَّلِ شَهْرِ
رَبِيعِ الْآخِرِ (٢).

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ
ثُمَّ أَبْلِغَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[إِذَا طَلَبَ الْمُشْرِكُ الْأَمْنَ فَيُعْطَى]

يَقُولُ تَعَالَى لِتَبَيُّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ بِقِتَالِهِمْ وَأَحْلَلْتُ لَكَ اسْتِيبَاحَةَ
نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أَيُّ اسْتَأْمَنَكَ فَأَجِبْهُ إِلَى
طَلَبَتِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ أَيُّ الْقُرْآنَ تَقْرُؤُهُ عَلَيْهِ وَتُذَكِّرُ لَهُ
شَيْئًا مِنْ [أَمْرِ] الدِّينِ تَقْبَلُهُ عَلَيْهِ بِهِ حُجَّةَ اللَّهِ ﴿ثُمَّ أَبْلِغَهُ

(١) فتح الباري: ١/٩٥، ١/٥٣ (٢) الطبري: ١٤/١٤

١٣٣ (٣) الطبري: ١٤/١٣٩ (٤) ابن هشام: ٤/٢٤٧

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَأُ بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فُصِّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَيْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْلِبُلُونُ قَوْمًا نَكَحُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُكُمْ وَأُولَئِكَ مَرَّةٌ آخَسُونَهُمْ فَأَلَّا هِ حَقٌّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿أَشْرَأُ بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ اغْتَاضُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ بِمَا نَهَوْا بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْخَبِيثَةِ ﴿فُصِّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَي مَنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إِلَى آخِرِهَا تَقَدَّمَتْ .

﴿وَإِن تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَيْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾

بِئْتَهُونَ ﴿١٢﴾

[لَا أَيْمَانَ لِأَيْمَةِ الْكُفْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِن نَكَتِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَى مَدَّةٍ مُّعَيَّنَةٍ ﴿أَيْمَنَهُمْ﴾ أَي عَهْدُهُمْ وَمَوَاقِفُهُمْ ﴿وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ﴾ أَي عَابَوْهُ وَانْتَقَصَوْهُ، وَمِنْ هُنَا أُحِذَ قَتْلُ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، أَوْ

إِيَّاهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ السَّنْفُ الْمُرَهَفُ أَيْنَ تَقْبُؤُوا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أَي أَمَانٌ وَيُتْرَكُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ كَافِرُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى وَالْمَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِجْلَةً﴾ ... الْآيَةُ [الفتح: ٢٥] ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أَي مَهْمَا تَمَسَّكُوا بِمَا عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَعَاهَدْتُمُوهُمْ مِنْ تَرْكِ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ سِنِينَ ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿وَقَدْ فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ. إِسْتَمَرَّ الْعَقْدُ وَالْهُدْنَةُ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فِي سَنَةِ سِتٍّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْشُ الْعَهْدَ وَمَالُوا حُلَفَاءَهُمْ وَهُمْ بَنُو بَكْرِ عَلَى خِرَازَةِ أَحْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَتَلُوهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَيْضًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْبَلَدَ الْحَرَامَ وَمَكَّنَهُ مِنْ نَوَاصِيهِمْ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْجَنَّةُ. فَأَطْلَقَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ فَسَمُوا الطُّلُقَاءَ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَلْفَيْنِ، وَمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَفَرَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ بِالْأَمَانِ وَالتَّسْيِيرِ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ، وَمِنْهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَيْرُهُمَا، ثُمَّ هَدَاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ التَّامِّ، وَاللَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَبْدُرُهُ وَيَفْعَلُهُ .

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُعَادَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ وَمُبَيِّنًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَهْدٌ لِشُرْكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَكُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَنَّهُمْ إِذَا ظَهَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَدْبَلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يُبْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا، وَلَا رَاقِبُوا فِيهِمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَعِكْرِمَةُ وَالْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْإِلَالُ: الْقَرَابَةُ، وَالدِّمَّةُ: الْعَهْدُ (١). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ (٢).

﴿أَشْرَأُ بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فُصِّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِمًّا لِلْمُشْرِكِينَ وَحَثًّا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ

قَتَلُوهُمْ يَعدِبُهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ
غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِجَمَّةٍ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ
أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى
أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ
الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

مَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ ذَكَرَهُ بِنَقْصٍ، وَلِهَذَا قَالَ:
﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾
أَيُّ يَزْجَعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالصَّلَالِ. وَقَدْ
قَالَ قَتَادَةُ وَعَبِيدُ بْنُ رِيْحَانَ: أَيْمَةُ الْكُفْرِ. كَأَبِي جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَسَيْبَةُ
وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَعَدَدٌ رَجَالًا. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ زَيْدِ بْنِ
وَهْبٍ عَنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ قَالَ: مَا قُوتِلَ أَهْلُ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ (١).

رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مِثْلُهُ.
وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا مُشْرِكِي
قُرَيْشٍ، فَهِيَ عَامَّةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ الْوَلِيدُ
ابْنُ مُسْلِمٍ: حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ: أَنَّهُ كَانَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى
النَّاسِ حِينَ وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّامِ قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ قَوْمًا
مُحَوِّقَةً رُؤُوسَهُمْ، فَاضْرِبُوا مَعَاقِدَ الشَّيْطَانِ مِنْهُمْ
بِالسُّيُوفِ، فَوَاللهِ لَأَنْ أَقْتُلَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ
أَقْتُلَ سَبْعِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَقَتَلُوا
أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٢).

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَحُوا أَبْنَتَهُمْ وَهُمْ لَا يَخْرُجُونَ﴾
الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَعُوكُمْ أَوْلَى مَرَّةً اتَّخَذْتَهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ
تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلُوهُمْ يَعدِبُهُمُ اللهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

[الْحَثُّ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَبَيَانُ بَعْضِ فَوَائِدِهِ]

وَهَذَا أَيْضًا تَهْيِيجٌ وَتَحْضِيضٌ وَإِعْرَافٌ عَلَى قِتَالِ
الْمُشْرِكِينَ النَّاكِثِينَ بِأَيْمَانِهِمُ الَّذِينَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ
مِنْ مَكَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيُكْسِبُوا أَوْ يَتْلَوْا أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَبِيرٌ
الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ
وَأَيَّاكُمْ أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الْآيَةَ [المتحنة: ٦]، وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ
مِنْهَا﴾... الْآيَةَ [الإسراء: ٧٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ بَدَعُوكُمْ
أَوْلَى مَرَّةً﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ: يَوْمٌ بَدَرَ حِينَ خَرَجُوا
لِنَصْرِ عِيْرِهِمْ، فَلَمَّا نَجَتْ وَعَلِمُوا بِذَلِكَ اسْتَمَرُّوا عَلَى
وُجُوهِهِمْ، طَلَبًا لِلْقِتَالِ بَغْيًا وَتَكْبَرًا كَمَا تَقَدَّمَ بَسْطَ ذَلِكَ.
وَقِيلَ الْمُرَادُ: نَقَضَهُمُ الْعَهْدَ وَقَاتَلَهُمْ مَعَ حُلَفَائِهِمْ بَنِي بَكْرٍ
لِخُرَاجِهِمْ أَخْلَافِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى سَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ

اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ وَكَانَ مَا كَانَ، وَاللهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.
وَقَوْلُهُ: ﴿اتَّخَذْتَهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَخْشَوْهُمْ وَاتَّخَذْتَهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ
يَخْشَى الْعِبَادُ مِنْ سَطْوَتِي وَعُقُوبَتِي، فَيَبْدِي الْأَمْرَ، وَمَا
شِئْتُ كَانَ، وَمَالَمْ أَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ثُمَّ قَالَ، عَزِيمَةٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَبَيَانًا لِحُكْمَتِهِ، فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْجِهَادِ - مَعَ
قُدْرَتِهِ عَلَى إِهْلَاكِ الْأَعْدَاءِ بِأَمْرِ مِنْ عِنْدِهِ - : ﴿قَتَلُوهُمْ
يَعدِبُهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ وَيَشْفِ صُدُورَ
قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾: وَهَذَا عَامٌّ فِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ، وَقَالَ
مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ
قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ بِغَنِيِّ خُرَاعَةٍ (٣). وَأَعَادَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ:
﴿وَيَذْهَبُ غِيظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عَلَيْهِمْ أَيْضًا. ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ﴾ أَيُّ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ

(١) الطبري: ١٤/١٥٦ (٢) ابن أبي حاتم: ٦/١٧٦١ (٣) الطبري: ١٤/١٦١

﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَعْقَالِهِ وَأَقْوَالِهِ الْكُؤُوبِيَّةَ وَالشَّرْعِيَّةَ فَيَعْمَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا، وَلَا يُضَيِّعُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَسُرٍّ، بَلْ يُجَازِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ لِيَجْءَ وَأَلَّهُ حَيْثُ يَمَآ تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

[مِنْ حِكْمَةِ الْقِتَالِ اخْتِبَارَ الْمُسْلِمِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تُتْرَكُوا مِنْهُمْ لَمْ يَخْتَبِرْكُمْ بِأُمُورٍ يَظْهَرُ فِيهَا أَهْلُ الْعَزْمِ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ لِيَجْءَ﴾ أَيُّ بَطَانَةٍ وَدَخِيلَةٍ بَلْ هُمْ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى النَّصْحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَانْتَهَى بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الْآخِرِ .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَنْ أَلْفَحْتُمْ بِهِمْ فَلَا تُؤْمِنُوا أُولَئِكَ فِي سُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [العنكبوت: ١-٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا شَرَعَ الْجِهَادَ لِعِبَادِهِ بَيَّنَّ أَنْ لَهُ فِيهِ حِكْمَةٌ وَهُوَ اخْتِبَارُ عِبِيدِهِ مِنْ طَبِيعِهِ وَمَنْ يَعْصِيهِ، وَهُوَ تَعَالَى الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، فَيَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ وَمَعَ كَوْنِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَا رَادَّ لِمَا قَدَرَهُ وَأَمْرًا.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧) **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ** **فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨)**

[لَا يَعْمُرُ الْمُشْرِكُونَ مَسَاجِدَ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: مَا يَبْنِي لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ الَّتِي بَنَيْتُ عَلَى اسْمِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَنْ

قَرَأَ: (مَسْجِدَ اللَّهِ) فَأَرَادَ بِهِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَشْرَفَ الْمَسَاجِدَ فِي الْأَرْضِ الَّذِي بُنِيَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَسَسَهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، هَذَا وَهُمْ شَاهِدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أَيُّ بِحَالِهِمْ وَيَقَالَهُمْ قَالَ السُّدِّيُّ: لَوْ سَأَلْتَ النَّضْرَانِيَّ مَا دِينُكَ؟ لَقَالَ: نَضْرَانِيٌّ، وَلَوْ سَأَلْتَ الْيَهُودِيَّ مَا دِينُكَ؟ لَقَالَ: يَهُودِيٌّ، وَالصَّابِيَّ لَقَالَ: صَابِيٌّ، وَالْمُشْرِكُ لَقَالَ: مُشْرِكٌ (١). ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أَيُّ بِشِرْكِهِمْ ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْبُدُوهُمْ وَأَهُمْ يَشْكُرُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

[أَهْلُ الْإِيمَانِ يَعْمُرُونَ الْمَسَاجِدَ]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فَشَهِدَ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ لِعِمَارِ الْمَسَاجِدِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٢).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ قَالَ: أَدْرَكْتُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَسَاجِدَ بُيُوتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكْرِمَ مَنْ زَارَهُ فِيهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أَيُّ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أَيُّ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ إِلَى بَرِّ الْخَلَائِقِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أَيُّ وَلَمْ يَحْفَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَحْشَ سِوَاهُ ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يَقُولُ: مَنْ وَحَدَ اللَّهُ وَآمَنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ آمَنَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ﴿وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يَقُولُ: لَمْ يَعْبُدْ إِلَّا اللَّهَ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ كَقَوْلِهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يَقُولُ: إِنَّ رَبَّكَ سَيَبْعَثُكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَهِيَ الشَّفَاعَةُ، وَكُلُّ «عَسَى» فِي

(١) الطبري: ١٤/١٦٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٧/٣٦٥

والحاكم: ١/٢١٢

القرآن، فهي واجبة^(١).

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نِعْمَةٌ مُقِيمَةٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

الإيمان والجهاد

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنلِّي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ لِلْمُكُونِ ﴾ (٢١) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَاءُ يَنْهَوْنَ عَنْ الْإِيمَانِ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿ بِهِ سِمَاءٌ ﴾ كانوا يسرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه. قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسماهم الله ظالمين يشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئاً^(٢).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر قال: لئن كُنتُم سبقتُمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني أن ذلك كله كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك^(٣). وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله! لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني، ونحج البيت ونسقي الحاج، فانزل الله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾... الآية^(٤).

سورة التوبة

١٩٠

سورة التوبة

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نِعْمَةٌ مُقِيمَةٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَاءَ كُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَحْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَسَوَّلَ اللَّهُ لَهْدِي الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرئوف فلا بد من ذكره هنا، روى عبد الرزاق عن الثعمان بن بشير رضي الله عنه أن رجلاً قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منير رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي ﷺ [فسالناه]. فنزلت: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٥).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَاءَ كُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

(١) الطبري: ١٦٧/١٤ (٢) الطبري: ١٧٠/١٤ (٣) الطبري: ١٧٠/١٤ (٤) الطبري: ١٧٢/١٤ (٥) مسلم: ١٨٧٩ وعبد الرزاق: ٢٦٨/٢ مسلم (١٨٧٩)

فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وِإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ
كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَرُسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾
[الْأَمْرُ بِتَرْكِ مَوْلَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ
كَانُوا أَقْرَبَ]

أَمَرَ تَعَالَى بِمَبَايِنَةِ الْكُفَّارِ بِهِ وَإِنْ كَانُوا آبَاءَ أَوْ أَبْنَاءَ،
وَوَهَى عَنِ مَوْلَاتِهِمْ إِذَا اسْتَحَبُّوا، أَيِ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى
الْإِيمَانِ، وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ
كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ
أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... الآية
[المجادلة: ٢٢]، وَرَوَى الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شُوذَبٍ قَالَ: جَعَلَ أَبُو أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ
يَنْعَتُ لَهُ الْآلِهَةَ يَوْمَ بَدْرٍ وَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحِيدُ عَنْهُ، فَلَمَّا
أَكْثَرَ الْجَرَّاحُ قَصْدَهُ ابْنَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ
الآيَةَ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية (١). ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى
رَسُولَهُ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ آثَرَ أَهْلَهُ وَقَرَابَتَهُ وَعَشِيرَتَهُ عَلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أَيِ
اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ
تَرْضَوْنَهَا﴾ أَيِ تُحِبُّونَهَا لِطَيِّبِهَا وَحُسْنِهَا، أَيِ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ
الْأَشْيَاءُ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَتَرَبَّصُوا أَيِ فَانْتَظِرُوا مَاذَا يَجْلُ بِكُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَنِكَالِهِ بِكُمْ
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبُدٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ:
كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
فَقَالَ: وَاللَّهِ! لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ
حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ﴾ فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الْآنَ
وَاللَّهِ! أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿الآنَ يَا
عُمَرُ﴾ (٢). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ (٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ

سُورَةُ التَّوْبَةِ ١٩١
ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ مَا هَمَّ هَذَا
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَدِلُوا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ
اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

وَأَبُو دَاوُدَ - وَاللَّفْظُ لَهُ - عَنْ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْتَةِ، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ
وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا
يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» (٤).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ
أَعْتَجْتُمْ كُفْرًا تَلَقْتُمْ عَنْكُمْ سِبْأًا وَمَضَّاكَ عَلَيْكُمْ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُودًا لَوْ تَرَوْهَا
وَعَدَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ
اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾

[إِنْ حَصَارَ الْفَتْحَ عَلَى النَّصْرِ الْغَيْبِيِّ]

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنْ
«بَرَاءة» يُذَكِّرُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانَهُ لَدَيْهِمْ

(١) البيهقي: ٢٧/٩ (٢) أحمد: ٣٣٦/٤ (٣) فتح الباري:
٥٣٢/١١ (٤) أحمد: ٤٢/٢ وأبو داود: ٣٤٦٢

فِي نَصْرِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ، وَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَبِتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ، لَا يَبْعُدُهُمْ وَلَا يَبْعُدُهُمْ، وَبِنَهْيِهِمْ عَلَى أَنْ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ، سَوَاءٌ قَلَّ الْجَمْعُ أَوْ كَثُرَ، فَإِنَّ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَعْجَبْتَهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وَمَعَ هَذَا مَا أَجْدَى ذَلِكَ عَنْهُمْ شَيْئًا فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَنْزَلَ نَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَعَهُ - كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - مُفَصَّلًا، لِيُعْلَمَهُمْ: أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَيَأْمُدَّاهُ وَإِنَّ قَلَّ الْجَمْعُ، فَ«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» [البقرة: ٢٤٩].

[وَقَعَةُ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ]

وَقَدْ كَانَتْ وَقَعَةُ حُنَيْنٍ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي شَوَالِ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَذَلِكَ لَمَّا فَرَّغَ ﷺ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ وَتَمَهَّدَتْ أُمُورُهَا وَأَسْلَمَ عَامَّةُ أَهْلِهَا، وَأَطْلَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَهُ أَنَّ هَوَازِنَ جَمَعُوا لَهُ لِيُفَاتِلُوهُ، وَأَنَّ أَمِيرَهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفِ النَّضْرِيِّ، وَمَعَهُ ثِقِيفٌ بِكَمَالِهَا، وَبَنُو جُشَمٍ، وَبَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، وَأَوْزَاعٌ مِنْ بَنِي هَلَالٍ، وَهُمْ قَلِيلٌ، وَنَاسٌ مِنْ بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَامِرٍ وَعَوْفِ بْنِ عَامِرٍ، وَقَدْ أَقْبَلُوا وَمَعَهُمُ النِّسَاءُ وَالْوَالِدَانُ وَالشَّاءُ وَالنَّعْمُ، وَجَاءُوا بِقَضِيصِهِمْ وَقَضِيصِهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جَيْشِهِ الَّذِي جَاءَ مَعَهُ لِلْفَتْحِ وَهُوَ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَمَعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُمْ الطُّلُقَاءُ فِي الْفَتَنِ أَيْضًا، فَسَارَ بِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ فَالْتَقَوْا بِوَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ: (حُنَيْنٌ) فَكَانَتْ فِيهِ الْوَقَعَةُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فِي غَلَسِ الصُّبْحِ، انْحَدَرُوا فِي الْوَادِي وَقَدْ كَمَنْتَ فِيهِ هَوَازِنٌ، فَلَمَّا تَوَاجَهُوا لَمْ يَشْعُرِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا بِهِمْ قَدْ تَأَوَّرُوهُمْ، وَرَشَقُوا بِالْبُنَالِ وَأَضَلَّتْهُمُ الشُّيُوفُ، وَحَمَلُوا حَمَلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ كَمَا أَمَرَهُمْ مَلِكُهُمْ، فِعِنْدَ ذَلِكَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَيَّتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ يَوْمئِذٍ بَعْلَتَهُ الشَّهْبَاءَ يَسُوقُهَا إِلَى نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَالْعَبَّاسُ عَمَّهُ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْمَنِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْسَرِ، يُتْقَلَانِهَا لِئَلَّا تُسْرِعَ السَّيْرَ وَهُوَ يَنْوِيهِ بِاسْمِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَدَعَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجْعَةِ وَيَقُولُ: «إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ» وَيَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» وَبَيَّتَ مَعَهُ مِنْ

حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يَطَاوِعْهُ بِعِيرِهِ عَلَى الرَّجُوعِ لَيْسَ دِرْعُهُ ثُمَّ انْحَدَرَ عَنْهُ وَأَرْسَلَهُ وَرَجَعَ بِنَفْسِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَجَعَتْ شِرْذِمَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَمَرَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَصُدُّوا الْحَمَلَةَ، وَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ بَعْدَ مَا دَعَا رَبَّهُ وَاسْتَنْصَرَهُ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ! أَنْزِلْ لِي مَا وَعَدْتَنِي» ثُمَّ رَمَى الْقَوْمَ بِهَا، فَمَا بَقِيَ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْهَا فِي عَيْنَيْهِ وَفِيهِ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ الْقِتَالِ ثُمَّ انْهَزَمُوا، فَاتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ أَقْفَاءَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ، وَمَا تَرَاجَعَ بَقِيَّةُ النَّاسِ إِلَّا وَالْأَسْرَى مُجْتَدِلَةٌ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَمَّارَةَ، أَفَرَزْتُمْ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ فَقَالَ: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاءَ، فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ انْهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْغَنَائِمِ فَاسْتَقْبَلُونَا بِالسَّهَامِ فَانْهَزَمَ النَّاسُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ آخِذًا بِلِجَامِ بَعْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَهُوَ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١)

قُلْتُ: وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّجَاعَةِ التَّامَّةِ، إِنَّهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى، وَقَدْ انْكَشَفَ عَنْهُ جَيْشُهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا عَلَى بَعْلَتِهِ وَلَيْسَتْ سَرِيعَةَ الْجَزْيِ، وَلَا تَصْلُحُ لِقَرٍّ وَلَا لِكَرٍّْ وَلَا لِهَرْبٍ، وَهُوَ مَعَ هَذَا أَيْضًا يَرْكُضُهَا إِلَى وُجُوهِهِمْ وَيُنَوِّهُ بِاسْمِهِ لِيَعْرِفَهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَمَا هَذَا كُلُّهُ إِلَّا ثِقَّةٌ بِاللَّهِ وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ، وَعِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ وَيُنِيْمُ مَا أَرْسَلَهُ

(١) فتح الباري: ٦/٨١ ومسلم: ٣/١٤٠١

حَرَّمَ اللَّهُ رَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١٦﴾
[مَنْعُ الْمُشْرِكِينَ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ]

أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الطَّاهِرِينَ دِينًا وَذَاتًا بِتَنْفِي
الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ نَجَسٌ دِينًا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَأَنْ
لَا يَقْرُبُوهُ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَانَ نَزُولُهَا فِي سَنَةِ تِسْعٍ،
وَلِهَذَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا صُحْبَةَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا عَامِدًا وَأَمَرَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْمُشْرِكِينَ أَنْ لَا يَحْجُجْ بَعْدَ
هَذَا الْعَامِ مُشْرِكًا وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عَرَبِيًّا. فَاتَمَّ اللَّهُ ذَلِكَ
وَحَكَمَ بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ جَابِرِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا
يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: إِلَّا أَنْ يَكُونَ
عَبْدًا أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الدِّمَةِ^(١). وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو
الْأَوْزَاعِيُّ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ
امْتَعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ دُخُولِ مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ
وَأَتَّبَعَ نَهْيَهُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. وَقَالَ
عَطَاءٌ: الْحَرَمُ كُلُّهُ مَسْجِدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى
نَجَاسَةِ الْمُشْرِكِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى طَهَارَةِ الْمُؤْمِنِ، وَلَمَّا وَرَدَ
فِي الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنُ لَا يَنْجُسُ»^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ﴾ قَالَ [مُحَمَّدٌ] بْنُ إِسْحَاقَ: وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ
قَالُوا: لَتَقْطَعَنَّ عَنَّا الْأَسْوَاقَ وَلَتَهْلِكَنَّ التِّجَارَةُ وَلَيَذْهَبَنَّ
[عَنَّا] مَا كُنَّا نَصِيبُ فِيهَا مِنَ الْمَرَافِقِ فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ
عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِنْ وَجْهِ غَيْرِ ذَلِكَ
﴿إِنْ شَاءَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أَيِ إِنْ هَذَا عَوَضُ
مَا تَخَوَّفْتُمْ مِنْ قَطْعِ تِلْكَ الْأَسْوَاقِ فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَطَعَ
عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الشَّرِّكَ: مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ أَعْنَاقِ أَهْلِ الْكِتَابِ
مِنَ الْجِزْيَةِ^(٤). وَهَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ
وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَفَتَادَةَ وَالصَّحَّاحِ وَغَيْرِهِمْ^(٥).
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أَيِ بِمَا يُضْلِحُكُمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيِ فِيمَا يَأْمُرُ
بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ لِأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، الْعَادِلُ فِي
خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا عَوَّضَهُمْ عَنْ تِلْكَ

بِهِ، وَيُطَهِّرُ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ
أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أَيِ طُمَأْنِينَتَهُ وَبَنَانَهُ عَلَى رَسُولِهِ
﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ الَّذِينَ مَعَهُ ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾
وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا
الْقَاسِمُ قَالَ: حَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي الْمُعْتَمِرُ
ابْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ عَوْفٍ - هُوَ ابْنُ أَبِي جَبِيلَةَ - الْأَعْرَابِيُّ
قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ مَوْلَى ابْنِ بُرْتَنَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ
كَانَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ حُتَيْنَ قَالَ: لَمَّا التَقَيْنَا نَحْنُ
وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُتَيْنَ لَمْ يَقُومُوا لَنَا حَلَبَ
شَاوَةً، قَالَ: فَلَمَّا كَشَفْنَاهُمْ جَعَلْنَا نَسُوقُهُمْ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى
انْتَهَيْنَا إِلَى صَاحِبِ الْبُعْلَةِ الْبَيْضَاءِ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
قَالَ: فَتَلَقَانَا عِنْدَهُ رِجَالٌ بِيضٌ حَسَانُ الْوُجُوهِ، فَقَالُوا لَنَا:
شَاهَبَ الْوُجُوهُ، ارْجِعُوا: قَالَ: فَانْهَزَمْنَا وَرَكِبُوا أَكْتَانَنَا
فَكَانَتْ إِيَّاهَا^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى بَقِيَّةِ هَوَازِنَ فَأَسْلَمُوا وَقَلِمُوا
عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ، وَلِحَقْفُوهُ وَقَدْ قَارَبَ مَكَّةَ عِنْدَ الْجِعْرَانَةِ، وَذَلِكَ
بَعْدَ الْوُقُوعَةِ بِقَرِيبٍ مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَيْرُهُمْ بَيْنَ
سَبِيهِمْ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ فَأَخْتَارُوا سَبِيَهُمْ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ
أَسِيرٍ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَامْرَأَةٍ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَقَسَمَ أَمْوَالَهُمْ بَيْنَ
الْعَانِيِينَ وَنَقَلَ أَنَا سَا مِنْ الطُّلُقَاءِ لِيَتَأَلَّفَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ
فَأَعْطَاهُمْ مِائَةَ مِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أَعْطَى مِائَةَ
مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا كَانَ،
فَأَمْتَدَحَهُ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ

فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتُنِدِي
وَمَتَى تَسَأُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِي عَدِي
وَإِذَا الْكِتَابَةُ عَرَدَتْ أَنْ يَأْبَاهَا
بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرَبَ كُلَّ مُهَنَّدٍ
فَكَأَنَّهُ لَيْتٌ عَلَى أَشْبَالِهِ

وَسَطَ الْهَبَاءَةَ حَادِرٌ فِي مَرَصِدِ
﴿يَتَأْبَاهَا الَّذِينَ﴾ أَمْتُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ
يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾
قَلِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا

(١) الطبري: ١٨٦/١٤ (٢) عبد الرزاق: ٢٧١/٢ (٣) فتح

الباري: ١٥٠/٣ (٤) الطبري: ١٩٧/١٤ (٥) الطبري: ١٤/

الْمَكَايِبِ بِأَمْوَالِ الْجَزِيَّةِ الَّتِي أَخَذُونَهَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ .
[التَّحْرِيسُ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّى يُعْطُوا الْجَزِيَّةَ]
فَقَالَ: ﴿فَتَلَبَّثُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ
صَاغِرُونَ﴾ فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَمَّا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ
يَبْقَ لَهُمْ إِيْمَانٌ صَحِيحٌ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا بِمَا جَاءُوا بِهِ
وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ لَا لِأَنَّهُ
شَرَعَ اللَّهُ وَدِينَهُ، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِمَا بَأْيَدِهِمْ إِيْمَانًا
صَحِيحًا لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِيْمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّ جَمِيعَ
الْأَنْبِيَاءِ بَشَرُوا بِهِ وَأَمَرُوا بِاتِّبَاعِهِ، فَلَمَّا جَاءَ وَكَفَرُوا بِهِ وَهُوَ
أَشْرَفُ الرُّسُلِ، عَلِمَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مَتَمَسِّكِينَ بِشَرَعِ الْأَنْبِيَاءِ
الْأَقْدَمِينَ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. بَلْ لِحُطُوطِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ،
فَلِهَذَا لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ بِبَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ كَفَرُوا بِسَيِّدِهِمْ
وَأَفْضَلِهِمْ وَخَاتَمِهِمْ وَأَكْمَلِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَتَلَبَّثُوا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾
وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ نَزَلَتْ أَوَّلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ
بَعْدَمَا تَمَهَّدَتْ أُمُورُ الْمُشْرِكِينَ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا .

فَلَمَّا اسْتَقَامَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِقِتَالِ أَهْلِ
الْكِتَابِيِّنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَلِهَذَا
تَجَهَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقِتَالِ الرُّومِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ
وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ، وَبَعَثَ إِلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ فَنَدَبَهُمْ
فَأَوْعَبُوا مَعَهُ، وَاجْتَمَعَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا
وَتَخَلَّفَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ
الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ جَدَبٍ وَوَقَّتْ قَيْظُ
وَحَرٌّ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ الشَّامَ لِقِتَالِ الرُّومِ، فَبَلَغَ
تَبُوكَ فَتَزَلَّ بِهَا، وَأَقَامَ عَلَى مَا نَهَا قَرِيبًا مِنْ عَشْرِينَ يَوْمًا، ثُمَّ
اسْتَحَارَ اللَّهُ فِي الرُّجُوعِ فَوَجَعَ عَامَهُ ذَلِكَ لِضَيْقِ الْحَالِ
وَضَعْفِ النَّاسِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[الْجَزِيَّةُ عَلَامَةُ الذَّلَّةِ وَالْكَفْرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿حَقِّ يُعْطُوا الْجَزِيَّةَ﴾ أَيِ إِنْ لَمْ يُسَلِّمُوا ﴿عَنْ
يَدٍ﴾ أَيِ عَنْ قَهْرٍ لَهُمْ وَعَلِيَّةٍ ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أَيِ ذَلِيلُونَ
حَقِيرُونَ مَهَانُونَ، فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ إِعْرَازُ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَلَا
رَفْعُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَلْ هُمْ أَدْلَاءُ صَغَرَةٌ أَشْفِيَاءُ، كَمَا

جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا
لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَأَضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ»^(١).

وَلِهَذَا اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تِلْكَ الشُّرُوطَ الْمَعْرُوفَةَ فِي إِذْلَاقِهِمْ وَتَضْغِيرِهِمْ
وَتَحْقِيرِهِمْ، وَذَلِكَ مِمَّا رَوَاهُ الْأَيْمَةُ الْحَفَاطُ مِنْ رِوَايَةِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَنَمِ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ صَالَحَ نَصَارَى مِنْ أَهْلِ الشَّامِ:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ نَصَارَى مَدِينَةِ كَذَا وَكَذَا: إِنَّكُمْ لَمَّا قَدِمْتُمْ
عَلَيْنَا سَأَلْنَاكُمْ الْأَمَانَ لِأَنْفُسِنَا وَدَرَارِينَا وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا،
وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا أَنْ لَا نُحَدِّثَ فِي مَدِينَتِنَا وَلَا فِيمَا
حَوْلَهَا ذَمًّا وَلَا كَيْسَةً وَلَا قَلَابَةً (هُوَ تَعْرِيْبٌ "كَلَادَةٌ" وَهِيَ
مِنْ بِيوتِ عِبَادَاتِ النَّصَارَى) وَلَا صَوْمَعَةً رَاهِبٍ، وَلَا نُجَدِّدُ
مَا حَرَبَ مِنْهَا، وَلَا نُحْيِي مِنْهَا مَا كَانَ خَطَطًا لِلْمُسْلِمِينَ،
وَأَلَّا نَمْنَعَنَّ كَنَائِسَنَا أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي لَيْلٍ وَلَا
نَهَارٍ، وَأَنْ نُوَسِّعَ أَبْوَابَنَا لِلْمَارَّةِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَأَنْ نُنْزِلَ مَنْ
مَرَّ بِنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ نَطْعُمُهُمْ، وَلَا نُؤْوِي فِي
كَنَائِسِنَا وَلَا مَنَازِلِنَا جَاشُوسًا، وَلَا نَكْتُمُ غَسًّا لِلْمُسْلِمِينَ،
وَلَا نَعْلَمُ أَوْلَادَنَا الْقُرَّانَ، وَلَا نَظْهَرُ شِرْكًَا وَلَا نَدْعُو إِلَيْهِ
أَحَدًا، وَلَا نَمْنَعُ أَحَدًا مِنْ ذَوِي قَرَابَتِنَا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ
إِنْ أَرَادُوهُ، وَأَنْ نُؤَفِّرَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ نُقَوْمَ لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِنَا
إِنْ أَرَادُوا الْجُلُوسَ، وَلَا نَتَشَبَّهُ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ مَلَابِسِهِمْ
فِي قَلَنْسُوَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ، وَلَا نَعْلِينَ وَلَا فَرَقٍ شَعْرٍ، وَلَا نَتَكَلَّمُ
بِكَلَامِهِمْ وَلَا نَكْتُمِي بِكَلَامِهِمْ، لَا نَرْكَبُ الشُّرُوجَ وَلَا نَتَقَلَّدُ
السُّيُوفَ، وَلَا نَتَّخِذُ شَيْئًا مِنَ السَّلَاحِ، وَلَا نَحْمِلُهُ مَعَنَا، وَلَا
نَنْقُشُ خَوَاتِمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا نَبِيعُ الْخُمُورَ. وَأَنْ نَجْزِيَ مَقَادِيمَ
رُؤُوسِنَا، وَأَنْ نَلْزِمَ زَيْنًا حَيْثُمَا كُنَّا، وَأَنْ نُشَدَّ الزَّنَائِرَ عَلَى
أَوْسَاطِنَا، وَأَنْ لَا نَظْهَرُ الصَّلِيبَ عَلَى كَنَائِسِنَا، وَأَنْ لَا نَظْهَرُ
ضَلْبِنَا وَلَا كُتْبِنَا فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقِهِمْ،
وَلَا نَضْرِبَ نَوَاقِيسَنَا فِي كَنَائِسِنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيفًا، وَأَنْ لَا
نَرْفَعُ أَصْوَاتَنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا فِي شَيْءٍ مِنْ حَضْرَةِ
الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نُخْرِجَ سَعَانِينَ (عِيدٌ مَعْرُوفٌ لِلنَّصَارَى) وَلَا
بَاعُونًَا (الْبَاعُونَ لِلنَّصَارَى كَالِاسْتِسْقَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ)، وَلَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٢

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشْرَكَ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كَثُرَ مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْصَى عَلَيْهِمْ فِي نَارِجَهْتُمْ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ إِنْ عَدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ وَفَتِنُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُفْتِنُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

نَزَعَ أَصْوَاتَنَا مَعَ مَوْتَانَا وَلَا نُظْهِرَ النَّيِّرَانَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقِهِمْ، وَلَا نَجَاوِرُهُمْ بِمَوْتَانَا، وَلَا نَتَّخِذُ مِنَ الرَّيْقِ مَا جَرَى عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ نُرْشِدَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا نَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ.

قَالَ: فَلَمَّا أَتَيْتُ عُمَرَ بِالْكِتَابِ زَادَ فِيهِ: وَلَا نُضْرَبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. شَرَطْنَا لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا وَقِيلْنَا عَلَيْهِ الْأَمَانُ، فَإِنْ نَحْنُ خَالَفْنَا فِي شَيْءٍ مِمَّا شَرَطْنَا لَكُمْ وَوَطَّنْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا، فَلَا ذِمَّةَ لَنَا، وَقَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنَّا مَا يَحِلُّ مِنْ أَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشَّقَاقِ (١).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ أَبِي اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضْهَرُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَنَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يُؤْذَنُوا﴾ ﴿٣٢﴾ أَتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحَمَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

[شَرِكُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَكُفْرُهُمْ هُوَ سَبَبُ قِتَالِهِمْ] وَهَذَا إِغْرَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ الْكُفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِمَقَالَتِهِمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ الشَّيْعَةَ وَالْفِرْيَةَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَمَّا الْيَهُودُ فَقَالُوا فِي عِزِّيْرِ: «إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ» تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عَلْوًا كَبِيرًا.

وَأَمَّا ضَلَالُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ فَظَاهِرٌ، وَلِهَذَا كَذَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الطَّائِفَتَيْنِ فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أَيْ لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ سِوَى افْتِرَائِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ ﴿يُضْهَرُونَ﴾ أَيْ يُشَاطِرُونَ ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأَمَمِ ضَلُّوا كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ ﴿فَتَنَاهُمْ اللَّهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَعَنَهُمُ اللَّهُ. ﴿أَنْ يُؤْذَنُوا﴾ أَيْ كَيْفَ يُضَلُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَيَعْدِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ؟! وَقَوْلُهُ: ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحَمَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طُرُقٍ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَّ إِلَى الشَّامِ وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَسْرَتَ أُخْتَهُ وَجَمَاعَةً مِنْ قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُخْتِهِ وَأَعْطَاهَا فَرَجَعَتْ إِلَى أُخِيهَا فَرَعَّبَتْهُ فِي الْإِسْلَامِ وَفِي الْقُدُومِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدِمَ عَدِيُّ الْمَدِينَةَ وَكَانَ رَيْسًا فِي قَوْمِهِ طِيءٍ وَأَبُوهُ حَاتِمُ الطَّائِفِيِّ الْمَشْهُورِ بِالْكَرَمِ، فَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِقُدُومِهِ، فَدَخَلَ عَلَى

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي عُنُقِي عَدِيٍّ صَلِيبٌ مِنْ فِضَّةٍ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحَمَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ فَقَالَ: «بَلَى إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحْلَلُوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَدِيُّ مَا تَقُولُ؟ أَيْفُوكَ أَنْ يَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ اللَّهِ؟ مَا يُفُوكَ؟ أَيْفُوكَ أَنْ يَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟» ثُمَّ دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَشِيرَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ» (٢). وَهَكَذَا قَالَ حَدِيثُهُ بِنُ الْيَمَانِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُمَا فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحَمَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: «إِنَّهُمْ اتَّبَعُوهُمْ فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا» (٣). وَلِهَذَا قَالَ

(١) من البيهقي الكبرى: ٢٠٢/٩، والمحلى: ٣٤٦/٧ (٢) أحمد: ٣٧٨/٤ وتحفة الأحوذى: ٤٩٢/٨ والطبري: ٢١٠/١٤ (٣) الطبري: ٢١٢/١٤

تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أَي
الَّذِي إِذَا حَرَّمَ الشَّيْءَ فَهُوَ الْحَرَامُ وَمَا حَلَّلَهُ فَهُوَ الْحَلَالُ،
وَمَا سَرَعَهُ اتَّبِعْ، وَمَا حَكَمَ بِهِ نَفَذْ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَي: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ
الشَّرْكَاءِ وَالنَّظَرَاءِ، وَالْأَعْوَانِ وَالْأَضْدَادِ وَالْأَوْلَادِ، لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ
يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَى وَبَيَّنَ الْحَقَّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبِطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ يَكْرِزُونَ بِالذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَلَا يَفْقَهُنَّهَا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ قَبَسَتْهُم بِعَذَابِ الْيَمْرِ ﴿٣٥﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ
فَتَكْوَفُ بِهَا جَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَيَطَّوُّهُم هَذَا مَا كَرَزْتُمْ
لِأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْرِزُونَ﴾ ﴿٣٥﴾

[مُحَاوَلَةٌ أَهْلِ الْكِتَابِ إِطْفَاءَ نُورِ الْإِسْلَامِ]
يَقُولُ تَعَالَى: يُرِيدُ هُوَ لَا الْكُفَّارَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ
الْكِتَابِ ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أَي: مَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ مِنَ الْهُدَى وَبَيَّنَ الْحَقَّ بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ،
فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شِعَاعَ الشَّمْسِ أَوْ
نُورَ الْقَمَرِ بِتَفْخِجِهِ، وَهَذَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ مَا أُرْسِلَ بِهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبَدٍ أَنْ يَتِمَّ وَيُظْهِرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى
مُقَابِلًا لَهُمْ فِيمَا رَامُوهُ وَأَرَادُوهُ: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ
نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وَالْكَافِرُ هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ الشَّيْءَ
وَيُعْطِيهِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ اللَّيْلُ كَافِرًا، لِأَنَّهُ يَسْتُرُ الْأَشْيَاءَ.
وَالزَّرَاعُ كَافِرًا، لِأَنَّهُ يُعْطِي الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ. كَمَا قَالَ:
﴿عَجِبَ الْكُفَّارُ بِنَانِهِ﴾ [الحديد: ٢٠].

قَالَ السُّدِّيُّ: الْأَخْبَارُ مِنَ الْيَهُودِ، وَالرُّهْبَانُ مِنَ
النَّصَارَى. ﴿وَهُوَ كَمَا قَالَ: فَإِنَّ الْأَخْبَارَ هُمْ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرِّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَن قَوْلِهِ
الْإِنَّمَا وَاعْتَمِدُوا الشَّحْتِ﴾ [المائدة: ٦٣] وَالرُّهْبَانُ: عِبَادُ
النَّصَارَى. وَالْقَسِيْسُونَ: عُلَمَاؤُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسَاتٍ وَرُهْبَانًا﴾. [المائدة: ٨٢]
وَالْمَقْصُودُ: التَّحْذِيرُ مِنَ عُلَمَاءِ الشُّوْءِ وَعِبَادِ الضَّلَالِ،
كَمَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ
شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ
النَّصَارَى. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ
كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقِدَّةِ بِالْقِدَّةِ» قَالُوا: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟
قَالَ: «فَمَنْ؟» - وَفِي رِوَايَةٍ: فَارِسُ وَالرُّومُ؟ قَالَ:
«فَمَنْ النَّاسُ إِلَّا هُوَ لَا؟» (٤)

[دِينِ الْإِسْلَامِ يَغْلِبُ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ]
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَبَيَّنَ
الْحَقَّ﴾ فَالْهُدَى: هُوَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْأَخْبَارَاتِ الصَّادِقَةِ
وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ. وَبَيَّنَ الْحَقَّ، هُوَ
الْأَعْمَالُ [الصَّالِحَةُ] الصَّحِيحَةُ النَّافِعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَي: عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ
كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ
زَوَى لِي الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا
زَوَى لِي مِنْهَا» (١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ تَمِيمِ الدَّارِيِّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ
هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا
وَيْرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، بَعِزُّ عَزِيزٍ أَوْ بَدَلُ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ
اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذَلًّا يُدِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ» فَكَانَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ
يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ [فِي] أَهْلِ بَيْتِي: لَقَدْ أَصَابَ مَنْ

وَالْحَاصِلُ: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّشْبُهِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ
وَأَحْوَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ
بِالْبِطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَذَلِكَ، أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ
الدُّنْيَا بِالذِّينِ وَمَنَاصِبِهِمْ وَرِيَاسَتِهِمْ فِي النَّاسِ، يَأْكُلُونَ
أَمْوَالَهُمْ بِذَلِكَ، كَمَا كَانَ لِأَخْبَارِ الْيَهُودِ عَلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ
شَرَفٌ، وَلَهُمْ عِنْدَهُمْ خَرْجٌ وَهَدَايَا وَصَرَائِبُ تَحِيءُ إِلَيْهِمْ،
فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ اسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ
وَعِنَادِهِمْ، طَمَعًا مِنْهُمْ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ تِلْكَ الرِّيَاسَاتُ
فَأُطْفِئَهَا اللَّهُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ وَسَلَبَهُمْ إِيَّاهَا، وَعَوَّضَهُمُ الدَّلَّ
وَالصَّغَارَ وَبَاءُوا بِعُصَبٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي وَهُمْ مَعَ

(١) مسلم: ٤/٢٢١٥ (٢) أحمد: ٤/١٠٣ (٣) الطبري: ١٤/
٢١٦ (٤) الشريعة: ص ١٨

أَكْلِهِمُ الْحَرَامَ يَصُدُونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَيَبْلِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُظْهِرُونَ لِمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْجَهْلَةِ: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَلَيْسُوا كَمَا يَزْعُمُونَ، بَلْ هُمْ دُعَاةٌ إِلَى النَّارِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ.

[عَذَابٌ مِّنْ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَتَرْتَهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ هُوَ لَاءٌ هُمْ الْقِسْمُ الثَّلَاثُ مِنْ رُؤُوسِ النَّاسِ، فَإِنَّ النَّاسَ عَالَّةٌ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَعَلَى الْعِبَادِ وَعَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ، فَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ هُوَ لَاءٌ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ

وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا وَأَمَّا الْكُتْرُ فَقَالَ مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُؤَدَّى زَكَاتُهُ^(١). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ فَقَالَ: هَذَا قَبْلُ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا نَزَلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طَهْرَةً لِلْأَمْوَالِ^(٢). وَكَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعِرَاكُ ابْنُ مَالِكٍ: نَسَخَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حُذِّمْنَا مِنْكُمْ صَدَقَةً﴾ الْآيَةَ [التوبة: ١٠٣].

وَقَدْ جَاءَ فِي مَدْحِ التَّمَلُّلِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَدَمِّ التَّكْثِيرِ مِنْهُمَا أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ. وَلْتُرَوِّدُ مِنْهَا هُنَا طَرَفًا يَدُلُّ عَلَى الْبَاقِي. رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رِضِيِّ اللَّهِ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الْآيَةَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَبَا لِلذَّهَبِ، تَبَا لِلْفِضَّةِ» يَقُولُهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَسَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: فَأَيُّ مَالٍ نَتَّخِذُ؟ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أَعْلَمُ لَكُمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ أَصْحَابَكَ قَدْ سَقَّ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: فَأَيُّ الْمَالِ نَتَّخِذُ؟ قَالَ: «لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَرُوحَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ هَذَا الْكَلَامُ تَبَكَيْتَا وَتَفْرِيغًا وَتَهَكُّمًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ صَبُّوا قَوْقُ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (٥٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان: ٤٨، ٤٩] أَيْ: هَذَا بِذَلِكَ، وَهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ لِأَنْفُسِكُمْ، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا وَقَدَّمَهُ عَلَى

طَاعَةَ اللَّهِ عَذَّبَ بِهِ. وَهُوَ لَاءٌ لَمَّا كَانَ جَمْعُ هَذِهِ الْأَمْوَالِ أَثَرٌ عِنْدَهُمْ مِنْ رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ عَذَّبُوا بِهَا، كَمَا كَانَ أَبُو لَهَبٍ لَعْنَةُ اللَّهِ جَاهِدًا فِي عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرًا تَعِينُهُ فِي ذَلِكَ، كَانَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَوْنًا عَلَى عَذَابِهِ أَيْضًا، ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أَيْ: عُقْبَتِهَا ﴿حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، أَيْ: تَجْمَعُ مِنَ الْحَطَبِ فِي النَّارِ وَتُلْقَى عَلَيْهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أُلْبَغَ فِي عَذَابِهِ مِمَّنْ هُوَ أَشْفَقُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالُ لَمَّا كَانَتْ أَعَزَّ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْبَابِهَا كَانَتْ أَضْرَّ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَنَاهِيكَ بِحَرِّهَا، فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ ثَوْبَانَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا، مِثْلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُجَاعًا أَفْرَعًا، لَهُ زَيْبَتَانِ يَتَّبِعُهُ وَيَقُولُ: وَتِلْكَ مَا أَنْتَ؟» يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي تَرَكَتَهُ بَعْدَكَ، وَلَا يَزَالُ يَتَّبِعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِمَهَا، ثُمَّ يُبْعَثُ سَائِرَ جَسَدِهِ» وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَانِخٌ مِنْ نَارٍ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»^(٥). . . . وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ: مَرَرْتُ عَلَى أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبْدَةِ فَقُلْتُ مَا أَنْزَلَكَ بِهَذِهِ الْأَرْضِ؟ قَالَ: كُنَّا بِالشَّامِ فَقَرَأْتُ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَتَرْتَهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هَذِهِ فِينَا، مَا هَذِهِ إِلَّا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: قُلْتُ: إِنَّهَا لَفِينَا وَفِيهِمْ^(٦).

(١) الموطأ: ٢٥٦/١ (٢) فتح الباري: ٨/ ١٧٥ (٣) عبد الرزاق: ٢٦٣/٢ إسناده ضعيف ذكره العلامة الزيلعي في تخريج الكشاف: ٧١/٢ وعزاه لعبد الرزاق في تفسيره. . . . ثم قال: "الحاصل أنه حديث ضعيف لما فيه من الاضطراب". (٤) الطبري: ٣٦٣/٦ وابن حبان: ٨٠٣ وابن خزيمة: ٢٢٥٥ والبخاري: ٤٦٥٩ (٥) مسلم: ٦٨٢/٢ (٦) فتح الباري: ٨/ ١٧٣

فَلَا بُدَّ مِنْ دَوْرَانِهَا، فَلَعَلَّهُمْ سَمَوْهُ بِذَلِكَ أَوَّلَ مَا سُمِّيَ،
عِنْدَ جُمُودِ الْمَاءِ فِي الْبَرْدِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
وَلَيْلَةٌ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَّةٍ
لَا يَبْصُرُ الْعَبْدُ فِي ظَلْمَائِهَا الطُّنْبَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ

حَتَّى يَلْفَ عَلَى خُرْطُومِهِ الذَّنْبَا
وَيُجْمَعُ عَلَى جُمَادِيَّاتٍ، كَحِبَارِي وَحِبَارِيَّاتٍ. وَقَدْ
يُذَكَّرُ وَيؤنَّثُ فَيَقَالُ: جُمَادَى الْأُولَى وَالْأَوَّلُ. وَجُمَادَى
الْآخِرُ وَالْآخِرَةُ. رَجَبٌ مِنَ التَّرْجِيبِ - وَهُوَ التَّعْظِيمُ -
وَيُجْمَعُ عَلَى أَرْجَابٍ وَرَجَابٍ وَرَجَبِيَّاتٍ. سَعْبَانٌ مِنْ تَسْعُبٍ
الْقَبَائِلِ وَتَفْرُقُهَا لِلْعَارَةِ، وَيُجْمَعُ عَلَى سَعْبَائِينَ وَسَعْبَانَاتٍ.
رَمَضَانٌ مِنْ شِدَّةِ الرَّمْضَاءِ، وَهُوَ الْحَرُّ يُقَالُ: رَمَضَتِ
الْفِصَالُ إِذَا عَطِشَتْ، وَيُجْمَعُ عَلَى رَمَضَانَاتٍ وَرَمَاضِينَ
وَأَرْمِضَةٍ، قَالَ: وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ
خَطَأً لَا يُعْرَجُ عَلَيْهِ وَلَا يُنْفَتَحُ إِلَيْهِ.

(قُلْتُ): قَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ وَلَكِنَّهُ ضَعِيفٌ وَبَيِّنْتُهُ فِي
أَوَّلِ كِتَابِ الصِّيَامِ. سُؤَالٌ مِنْ شَالَتْ الْإِبِلُ بِأَذْنَابِهَا لِلطَّرَاقِ
قَالَ: وَيُجْمَعُ عَلَى سُوَاوِلٍ وَسُوَاوِيلٍ وَسُوَاوَاتٍ. الْقُعْدَةُ
يَفْتَحُ الْقَافَ - (قُلْتُ): وَكَسْرُهَا - لِقُعُودِهِمْ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ
وَالتَّرْحَالِ، وَيُجْمَعُ عَلَى ذَوَاتِ الْقُعْدَةِ. الْحِجَّةُ بِكَسْرِ
الْحَاءِ - (قُلْتُ): وَفَتْحِهَا - سُمِّيَ بِذَلِكَ لِإِقَامَتِهِمُ الْحَجَّ
فِيهِ، وَيُجْمَعُ عَلَى ذَوَاتِ الْحِجَّةِ.

أَسْمَاءُ الْأَيَّامِ، أَوَّلُهَا: الْأَحَدُ وَيُجْمَعُ عَلَى أَحَادٍ
وَأَوْحَادٍ وَوُحُودٍ. ثُمَّ يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ وَيُجْمَعُ عَلَى اِثْنَيْنِ.
الثَّلَاثَاءُ يُمَدُّ وَيُذَكَّرُ وَيؤنَّثُ، وَيُجْمَعُ عَلَى ثَلَاثَاوَاتٍ،
وَأَتَالِثٍ. ثُمَّ الْأَرْبِعَاءُ بِالْمَدِّ وَيُجْمَعُ عَلَى أَرْبِعَاوَاتٍ
وَأَرْبَاعٍ. وَالْخَمِيسُ يُجْمَعُ عَلَى أَخْمِيسَةٍ وَأَخْمِيسٍ، ثُمَّ
الْجُمُعَةُ بِضَمِّ الْمِيمِ وَإِسْكَانِهَا وَفَتْحِهَا أَيْضًا وَيُجْمَعُ عَلَى
جُمُعٍ وَجُمَاعَاتٍ. السَّبْتُ مَاخُودٌ مِنَ السَّبْتِ وَهُوَ الْقَطْعُ
لِانْتِهَاءِ الْعَدَدِ عِنْدَهُ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَسْمِي الْأَيَّامَ: أَوَّلُ،
ثُمَّ أَهْوَنُ، ثُمَّ جِبَارٌ، ثُمَّ ذِبَارٌ، ثُمَّ مُؤَسِّنٌ، ثُمَّ الْعَرُوبَةُ، ثُمَّ
شِيَارٍ. قَالَ الشَّاعِرُ - مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ الْعَارِبَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ
:-

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ
يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ
الْقِيَمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً
كَمَا بَقُلْتُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾
[السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فِي
حَجَّتِهِ فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ
حُرْمٌ، ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَّاتٍ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحَرَّمُ
وَرَجَبٌ مُضَرٌ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَسَعْبَانَ» ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ
هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ
سَيَسْمِيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، ثُمَّ
قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى
ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا:
بَلَى، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ
فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَتْ
الْبَلَدَةُ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - وَأَحْسِبُهُ
قَالَ: - وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي
شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ
أَعْمَالِكُمْ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضَلَالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ
رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا هَلْ بَلَعْتُ؟ أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ،
فَلَعَلَّ مَنْ يَبْلُغُهُ يَكُونُ أَرْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ»^(١). رَوَاهُ
الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

(فَضَّلْ) ذَكَرَ الشَّيْخُ عِلْمُ الدِّينِ السَّخَاوِيُّ فِي جُزْءِ جَمَعَهُ
سَمَاءُ (المَشْهُورُ فِي أَسْمَاءِ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ) أَنَّ الْمُحَرَّمَ
سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِكُونِهِ شَهْرًا مُحَرَّمًا - وَعِنْدِي أَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ
تَأْكِيدًا لِتَحْرِيمِهِ، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَّقَلَّبُ بِهِ فَتَحِلُّهُ عَامًا
وَتَحَرِّمُهُ عَامًا - قَالَ: وَيُجْمَعُ عَلَى مُحَرَّمَاتٍ وَمَحَارِمٍ
وَمَحَارِيمٍ. وَصَفَرُ سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِخُلُوقِ بَيُوتِهِمْ مِنْهُمْ حِينَ
يَخْرُجُونَ لِلْقِتَالِ وَالْأَسْفَارِ، يُقَالُ: صَفَرَ الْمَكَانَ إِذَا خَلَا،
وَيُجْمَعُ عَلَى أَصْفَارٍ كَجَمَلٍ وَأَجْمَالٍ. وَشَهْرُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ
سُمِّيَ بِذَلِكَ لِإِرْتِبَاعِهِمْ فِيهِ، وَالْإِرْتِبَاعُ: الْإِقَامَةُ فِي عِمَارَةِ
الرَّبِيعِ، وَيُجْمَعُ عَلَى أَرْبِعَاءٍ كَنَصِيبٍ وَأَنْصِبَاءٍ، وَعَلَى أَرْبِعَةٍ
كَرَغِيفٍ وَأَرْغِفَةٍ. وَرَبِيعُ الْآخِرِ كَالْأَوَّلِ. جُمَادَى سُمِّيَ
بِذَلِكَ لِجُمُودِ الْمَاءِ فِيهِ، قَالَ: وَكَانَتِ الشُّهُورُ فِي حِسَابِهِمْ
لَا تَدُورُ - وَفِي هَذَا نَظْرٌ، إِذْ كَانَتْ شُهُورُهُمْ مَنْوُطَةً بِالْأَهْلَةِ

(١) أحمد: ٣٧/٥ (٢) فتح الباري: ١٧٥/٨ و ٣٣٨/٦ و ١٠

١٠ ومسلم: ١٣٠٥/٣

سُورَةُ التَّوْبَةِ
١٩٣
بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
فِي حِلِّهِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْتٌ لَهُمْ سَوَاءٌ أَعْمَلْتُمْ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْنَا
إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لِقَلِيلٍ ﴿٧٨﴾
إِلَّا أَنْفِرُوا يَعِدُّ بَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٧٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنِّي إِتَيْنَ إِدْهُمَا فِي الْعَارِ إِذْ
يَقُولُ لِيصْحَبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا لَنُفَعِّلُكَ اللَّهُ مَعَا فَانزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى
وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٨٠﴾

في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. وقال: إن الله اضطفى صفايا من خلقه. اضطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا، واضطفى من الكلام ذكره، واضطفى من الأرض المساجد. واضطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واضطفى من الأيام يوم الجمعة واضطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله. فإنما [تعظم] الأمور بما عظمها الله به، عند أهل الفهم وأهل العقل.

[القتال في الأشهر الحرم]

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: جميعكم
﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: جميعهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وأعلموا أن ابتداء القتال في الشهر الحرام
حرام لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعْبَةَ اللَّهِ

أَرْجِي أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي
بِأَوَّلِ أَوْ بِأَهْوَنَ أَوْ جَبَارِ
أَوْ النَّالِي دُبَارِ فَإِنَّ أَفْنَهُ
فَمُؤْنِسَ أَوْ عَرُونَ أَوْ شِيَارِ
[الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ]

وقوله تعالى: ﴿مِنَهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يُقال لهم: «السنل» كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقا وتشديدا. وأما قوله: «ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى «مضر» لئيب صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه «ربيعة» من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويستغلون فيه بإداء المناسك، وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْتُمْ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم من أمثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحدو بها على ما سبق في كتاب الله الأول، قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يُظْلِمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ الْآيَةُ﴾ ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراما وعظم حرمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم^(١). وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ إن الظلم

وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴿المائدة: ٢﴾ وَقَالَ: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ فَصَاحٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]... الآية، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَامَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾... الآية [التوبة: ٥].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كُلَّ بَشَرَةٍ كَمَا كَفَرُوا﴾ فَهُوَ إِذْ لِلْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِذَا كَانَتْ الْبِدَاءَةُ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ فَصَاحٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ حَتَّى يُقْبَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ أَهْلٌ مِنَ الْبَاطِلِ﴾... الآية [البقرة: ١٩١] أَمَّا حِصَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الطَّائِفِ وَاسْتِصْحَابَهُ الْحِصَارَ إِلَى أَنْ دَخَلَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَإِنَّهُ مِنْ تَبِعَةِ قِتَالِ هَوَازِنَ، وَأَخْلَاهَا مِنْ ثَقِيفٍ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ ابْتَدَؤُوا الْقِتَالَ وَجَمَعُوا الرِّجَالَ، وَدَعَوْا إِلَى الْحَرْبِ وَالتَّرَالِ، فَعِنْدَهَا قَصَدَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا تَحَصَّنُوا بِالطَّائِفِ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ لِيُنزِلَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ، فَتَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَتَلُوا جَمَاعَةً، وَاسْتَمَرَ الْحِصَارُ بِالمَجَانِقِ وَغَيْرِهَا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَكَانَ ابْتِدَآؤُهُ فِي شَهْرِ حَلَالٍ، وَدَخَلَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَاسْتَمَرَ فِيهِ أَيَّامًا، ثُمَّ قَفَلَ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ يُعْتَقَرُ فِي الدَّوَامِ مَا لَا يُعْتَقَرُ فِي الْإِبْتِدَاءِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُفْرَرٌ وَلَهُ نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْرَمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زِيَرَةَ لِهَتْمِ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْكٰفِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

[دَمَّ التَّصَرُّفِ فِي الشَّرْعِ بِالرَّأْيِ]

هَذَا مِمَّا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ تَصَرُّفِهِمْ فِي شَرْعِ اللَّهِ بِأَرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَتَغْيِيرِهِمْ أَحْكَامَ اللَّهِ بِأَهْوَائِهِمُ الْبَارِدَةِ، وَتَحْلِيلِهِمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمِهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْحَمِيَّةِ مَا اسْتَطَالُوا بِهِ مَدَّةَ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ فِي التَّحْرِيمِ الْمُنَاعِ لَهُمْ مِنْ فَضَاءِ أَوْطَارِهِمْ مِنْ قِتَالِ أَعْدَائِهِمْ، فَكَانُوا قَدْ أَخَذُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمُدَّةٍ تَحْلِيلِ الْمَحْرَمِ، فَأَخْرَوْهُ إِلَى صَفَرٍ فَيُحْلُونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَيُحْرَمُونَ الشَّهْرَ الْحَلَالَ لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ: الْأَشْهُرَ الْأَرْبَعَةَ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قَالَ: النَّسِيءُ: أَنْ جُنَادَةَ ابْنَ عَوْفٍ بَنِ أُمَيَّةَ الْكِنَانِيَّ كَانَ يُؤَافِي الْمَوْسِمَ فِي كُلِّ عَامٍ وَكَانَ يُكْنَى أَبُو ثُمَامَةَ فَيُنَادِي: أَلَا إِنَّ أَبَا ثُمَامَةَ لَا يُجَابُ وَلَا يُعَابُ، أَلَا وَإِنَّ صَفَرَ الْعَامِ الْأَوَّلِ الْعَامَ حَلَالَ، فَيُحْلُهُ لِلنَّاسِ فَيَحْرِمُ صَفْرًا عَامًا وَيَحْرِمُ الْمُحْرَمَ عَامًا، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يَقُولُ: يَتْرُكُونَ الْمُحْرَمَ عَامًا وَعَامًا يُحْرَمُونَ^(١). وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ^(٢). وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يَأْتِي كُلَّ عَامٍ إِلَى الْمَوْسِمِ عَلَى حِمَارٍ لَهُ فَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي لَا أَعَابُ وَلَا أُجَابُ وَلَا مَرَدٌّ لِي مَا أَقُولُ، إِنَّا قَدْ حَرَمْنَا الْمُحْرَمَ وَأَحْرَمْنَا صَفَرَ. ثُمَّ يَجِيءُ الْعَامَ الْمُقْبِلَ بَعْدَهُ فَيَقُولُ مِثْلَ مَقَالَتِهِ وَيَقُولُ: إِنَّا قَدْ حَرَمْنَا صَفَرَ وَأَحْرَمْنَا الْمُحْرَمَ، فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قَالَ: يَعْنِي الْأَرْبَعَةَ، فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ بِتَأْخِيرِ هَذَا الشَّهْرِ الْحَرَامِ^(٣). فَالنَّسِيءُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يُحْلُونَ شَهْرَ الْمُحْرَمِ عَامًا وَيُحْرَمُونَ عِوَضَهُ صَفْرًا، وَبَعْدَهُ رَيْبِعٌ، وَرَيْبِعٌ... إِلَى آخِرِ السَّنَةِ بِحَالِهَا عَلَى نِظَامِهَا وَعِدَّتِهَا وَأَسْمَاءُ شَهْرِيهَا. ثُمَّ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ يُحْرَمُونَ الْمُحْرَمَ وَيَتْرُكُونَهُ عَلَى تَحْرِيمِهِ، وَبَعْدَهُ صَفَرٌ، وَرَيْبِعٌ... إِلَى آخِرِهَا فَ﴿يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْرَمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أَيُّ: فِي تَحْرِيمِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنَ السَّنَةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ تَارَةً يُقَدِّمُونَ تَحْرِيمَ الشَّهْرِ الثَّلَاثِ مِنَ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَالِيَةِ، وَهُوَ الْمُحْرَمُ، وَتَارَةً يَنْسُئُونَهُ إِلَى صَفَرٍ، أَيُّ: يُؤَخِّرُونَهُ.

وَقَدْ تَكَلَّمَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَلَى هَذَا فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ كَلَامًا جَيِّدًا مُفِيدًا حَسَنًا فَقَالَ: كَانَ أَوَّلُ مَنْ نَسَأَ الشُّهُورَ عَلَى الْعَرَبِ، فَأَحَلَّ مِنْهَا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَحَرَّمَ مِنْهَا مَا أَحَلَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَلْفَلَسَ وَهُوَ: حُذِفَتْهُ بِنُ عَبْدِ قُصَمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَامِرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ حُرَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِبِلَاسِ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ. ثُمَّ قَامَ بَعْدَهُ عَلَى ذَلِكَ ابْنُهُ عَبَّادٌ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ عَبَّادِ ابْنُهُ قَلْعُ بْنُ عَبَّادِ، ثُمَّ ابْنُهُ أُمَيَّةُ ابْنُ قَلْعِ، ثُمَّ ابْنُهُ عَوْفُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ ابْنُهُ: أَبُو ثُمَامَةَ جُنَادَةَ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ آخِرَهُمْ

(١) الطبري: ٢٤٥/١٤ (٢) الطبري: ٢٤٦/١٤ (٣) الطبري:

وَعَلَيْهِ قَامَ الْإِسْلَامُ، فَكَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا فَرَعَتْ مِنْ حَجَّهَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ، فَقَامَ فِيهِمْ حَظِيماً فَحَرَّمَ رَجَبًا وَذَا الْقَعْدَةَ وَذَا الْحِجَّةَ، وَيُحِلُّ الْمُحَرَّمَ عَامًا وَيَجْعَلُ مَكَانَهُ صَفْرًا، وَيُحَرِّمُهُ عَامًا لِيُطَاطَأَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَيُحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، يَعْنِي: وَيُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ^(١). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢) إِلَّا نَسِفُوا بِمُذُنُكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٣) [الْعِتَابُ وَالتَّهْدِيدُ عَلَى التَّنَاقُلِ عَنِ الْجِهَادِ]

هَذَا شُرُوعٌ فِي عِتَابٍ مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَحِمَارَةِ الْقَيْظِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تَكَاسَلْتُمْ وَمَلْتُمْ إِلَى الْمَقَامِ فِي الدَّعَةِ وَالْخَفْضِ وَطَيْبِ الثَّمَارِ ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: مَا لَكُمْ فَعَلْتُمْ هَكَذَا، أَرْضًا مِنْكُمْ بِالذُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ؟ ثُمَّ زَهَدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا، وَرَغِبَ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ أَحِي بَنِي فَهْرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِضْبَعَهُ هَذِهِ فِي الِيسَمِ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجِعُ؟» وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ^(٤). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٥). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنِ الْأَعْمَشِ فِي الْآيَةِ ﴿فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قَالَ: كَرَادِ الرَّابِعِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ: لَمَّا حَضَرَتْ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ الْوَفَاةَ، قَالَ: اثْنُونِي بِكَفَنِي الَّذِي أَكْتَفَنُ فِيهِ، أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَمَا لِي مِنْ كَبِيرٍ؟ مَا أُخْلِيفَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا هَذَا؟ ثُمَّ وُلِيَ ظَهْرَهُ فَبَكَى، وَهُوَ يَقُولُ أَفْ لَكَ مِنْ دَارٍ! إِنْ كَانَ كَثِيرُكَ لَقَلِيلٌ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلُكَ لَقَصِيرٌ، وَإِنْ كُنَّا مِنْكَ لَفِي غُرُورٍ.

ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ فَقَالَ: ﴿إِلَّا نَسِفُوا بِمُذُنُكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اسْتَنْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيًّا مِنَ الْعَرَبِ فَتَنَاقَلُوا عَنْهُ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُمْ

الْقَطْرَ فَكَانَ عَذَابَهُمْ^(٦). ﴿وَيَسْتَبَدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أَي: لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْتَوَلُوا يَسْتَبَدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد ٣٩] ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أَي: وَلَا تَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا بِتَوَلِّيَكُمُ عَنِ الْجِهَادِ، وَتَوَلِّيَكُمُ وَتَنَاقَلِكُمْ عَنْهُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي: قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِصَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِدُونِكُمْ.

﴿إِلَّا نَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثَ ثَلَاثِينَ إِذْ هَمَّ فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَانزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٧) [اللَّهُ نَاصِرٌ نَبِيِّهِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا نَضُرُّوهُ﴾ أَي: تَضُرُّوا رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيَّدُهُ وَكَافِيهِ وَحَافِظُهُ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثَ ثَلَاثِينَ﴾ أَي: عَامَ الْهَجْرَةِ لَمَّا هَمَّ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلِهِ أَوْ حَبْسِهِ أَوْ نَفْيِهِ فَخَرَجَ مِنْهُمْ هَارِبًا بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، فَلَجَا إِلَى غَارٍ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، لِيَرْجِعَ الطَّلَبُ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي آثَارِهِمْ ثُمَّ تَسَيَّرُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَجُزُّعُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ فَيُخْلَصَ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْهُمْ أَدَى، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيَبْنِيهِ وَيَقُولُ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا»^(٨) كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِي الْعَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا»^(٩). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أَي: تَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: عَلَى أَبِي بَكْرٍ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أَي: الْمَلَائِكَةَ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا: الشُّرْكَ. وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(١٠). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى

(١) ابن هشام: ٤٥/١ (٢) أحمد: ٢٢٨/٤ (٣) مسلم: ٤/٤١٩٣ (٤) الطبري: ٢٥٥/١٤ (٥) فتح الباري: ١٧٦/٨ (٦) أحمد: ٤/١ (٧) فتح الباري: ١١/٧ ومسلم: ١٨٥٤/٤ (٨) الطبري: ٢٦١/١٤

الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيُّ: فِي انْتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ، مَبِيعُ الْجَنَابِ، لَا يُضَامُ مَنْ لَأَدَّ بِنَابِهِ، وَاحْتَمَى بِالتَّمَسُّكِ بِخَطَابِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ. ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢)

[تَحْتِمُ الْجِهَادَ عَلَى كُلِّ حَالٍ]

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى مُسْلِمِ بْنِ صَبِيحٍ: هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ سُورَةِ بَرَاءة^(٣). وَقَالَ مَعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: زَعَمَ حَضْرَبِيُّ أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُ: أَنَّ نَاسًا كَانُوا عَسَى أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ عَلِيًّا وَكَبِيرًا يَقُولُ: إِنِّي لَا أَتَمُّ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الْآيَةَ^(٤). أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّغْيِيرِ الْعَامِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ، لِيقْتَالَ أَعْدَاءَ اللَّهِ مِنَ الرُّومِ الْكُفْرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَحَتَمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ: فَقَالَ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ: كُھُولًا وَشَبَابًا. مَا سَمِعَ اللَّهُ عَذْرَ أَحَدٍ. ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. وَفِي رِوَايَةٍ: قَرَأَ أَبُو طَلْحَةَ سُورَةَ بَرَاءة فَآتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَقَالَ: أَرَى رَبَّنَا اسْتَنْفَرْنَا شَيْوَحًا وَشَبَابًا جَهْزُونِي يَا بَنِي! فَقَالَ بَنُوهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ! قَدْ غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ فَنَحْنُ نَغْزُو عَنْكَ فَأَبِي، فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَمَاتَ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفِنُونَهُ فِيهَا، إِلَّا بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ فَدَفِنُونَهُ فِيهَا^(٥). وَقَالَ الشُّدِّيُّ قَوْلُهُ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يَقُولُ: غَيِّبًا وَفَقِيرًا، وَقَوِيًّا وَضَعِيفًا، فَجَاءَهُ رَجُلٌ يَوْمِيذٍ، زَعَمُوا أَنَّهُ الْمِقْدَادُ وَكَانَ عَظِيمًا سَمِينًا فَشَكَا إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ، فَأَبَى، فَزَلَّتْ يَوْمِيذٍ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَدَّ عَلَى النَّاسِ، فَسَخَّهَا اللَّهُ فَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْمُضْمَعَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلَفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا اسْتَعْدَنَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا اسْتَعْدَنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَاتَبَتْ قُلُوبُهُمْ فُهُمَ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُمُ الْعُدَّةَ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خِلًا وَلَا وُضِعُوا لِحِلَالِكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي حَبَّانُ بْنُ زَيْدٍ الشَّرْعَبِيُّ قَالَ: نَزَرْنَا مَعَ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو وَكَانَ وَالِيًا عَلَى جَمْعٍ قِتْلِ الْأَفْسُوسِ إِلَى الْجَرَاخِمَةِ فَرَأَيْتُ شَيْخًا كَبِيرًا هَمًّا قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فِيمَنْ أَعَارَ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا عَمُّ! لَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ قَالَ: فَرَفَعَ حَاجِبَيْهِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! اسْتَنْفَرْنَا اللَّهُ خِفَافًا وَثِقَالًا، أَلَا إِنَّهُ مَنْ يُجِبُهُ اللَّهُ يَتَّبِعِهِ ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ فِئْتِيهِ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعِي اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ شَكَرَ، وَصَبَرَ، وَذَكَرَ، وَلَمْ يَعْبُدْ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ^(٥).

ثُمَّ رَعَبَ تَعَالَى فِي التَّقَمَّةِ فِي سَبِيلِهِ وَبَدَّلَ الْمُهْجَ فِي مَرَضَاتِهِ وَمَرَضَاتِهِ رَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) فتح الباري: ١/٢٦٨ ومسلم: ٣/١٥١٢ (٢) الطبري: ١٤/٢٧٠ (٣) الطبري: ١٤/٢٦٦ (٤) ابن أبي حاتم: ٦/١٨٠٢ (٥) الطبري: ١٤/٢٦٤

مِنْهُمْ ﴿... الآية^(٥) [النور: ٦٢]. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَنَاسٍ قَالُوا: اسْتَأْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنْ أَدِنَ لَكُمْ فَاقْعُدُوا، وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ فَاقْعُدُوا^(٦). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أَي: فِي إِبْدَاءِ الْأَعْدَارِ ﴿وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: هَلَّا تَرَكْتَهُمْ لِمَا اسْتَأْذَنُوكَ فَلَمْ تَأْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْقُعُودِ لِتَعَلَّمَ الصَّادِقَ مِنْهُمْ فِي إِظْهَارِ طَاعَتِكَ مِنَ الْكَاذِبِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مُصْرِبِينَ عَلَى الْقُعُودِ عَنِ الْعَزْوِ، وَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ.

وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْعَزْوِ أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أَي: فِي الْقُعُودِ عَنِ الْعَزْوِ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُحِبُّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْجِهَادَ قُرْبَةً، وَلَمَّا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ بَادَرُوا وَامْتَنَلُوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ أَي: فِي الْقُعُودِ وَمَنْ لَا عُذْرَ لَهُ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَي: لَا يَرْجُونَ ثَوَابَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي: شَكَّتْ فِي صِحَّةِ مَا جَسَّتْهُمْ بِهِ ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُّونَ﴾ أَي: يَتَحَيَّرُونَ يَتَذَدُّونَ رَجُلًا وَيُؤَخَّرُونَ أُخْرَى، وَلَيْسَتْ لَهُمْ قَدَمٌ ثَابِتَةٌ فِي شَيْءٍ، فَهُمْ قَوْمٌ حَيَارَى هَلْكَى، لَا إِلَى هُوَآءٍ وَلَا إِلَى هُوَآءٍ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ لَوْ حَرَجُوا فَيَكُرُّ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خِيَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ بَعُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكَرُ سَمْعُونَ ثُمَّ وَاللَّهِ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

[كشفت أحوال المنافقين]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أَي: مَعَكَ إِلَى الْعَزْوِ ﴿لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً﴾ أَي لَكَانُوا تَأَهُبُوا لَهُ ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أَي: أَنْبَغَضَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَكَ قَدْرًا ﴿فَنَثَبَطَهُمْ﴾ أَي: أَخْرَهُمْ ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أَي قَدْرًا، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى وَجْهَ كَرَاهِيَّتِهِ لِخُرُوجِهِمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿لَوْ حَرَجُوا فَيَكُرُّ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خِيَالًا﴾ أَي: لِأَنَّهُمْ جُبْنَاءُ مَخْدُولُونَ ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ بَعُونَكُمْ

أَي: هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّكُمْ تَقْرَمُونَ فِي التَّفَقُّهِ قَلِيلًا، فَيُعْزِمُكُمْ اللَّهُ أَمْوَالَ عَدُوِّكُمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخِرُ لَكُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَكْفَلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرُدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١). وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾... [البقرة: ٢١٦]

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَسْلِمْتَ» قَالَ: أَجِدُنِي كَارِهَا قَالَ: «أَسْلِمْتَ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهَا»^(٢).

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلُّونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سَبَبٌ تَخَلَّفَ الْمُنَافِقِينَ وَبَيَانَ حِيلَتِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُؤَبِّحًا لِلَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَزْوَةِ تَبُوكَ، وَقَعَدُوا بَعْدَمَا اسْتَأْذَنُوهُ فِي ذَلِكَ مُظْهِرِينَ أَنَّهُمْ ذَوُّ أَعْدَارٍ وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ فَقَالَ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَنِيمَةٌ قَرِيبَةٌ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أَي: قَرِيبًا أَيْضًا ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أَي: لَكَانُوا جَاءُوا مَعَكَ لِذَلِكَ ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾ أَي الْمَسَافَةُ إِلَى الشَّامِ ﴿وَسَيَّحِلُّونَ بِاللَّهِ﴾ أَي: لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أَي: لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا أَعْدَارٌ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُحِبُّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُّونَ ﴿٩﴾ [مُعَابَاةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِذْنِهِ لَهُمْ]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَوْنٍ قَالَ: هَلْ سَمِعْتُمْ بِمُعَابَاةِ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا؟ يَدَاءُ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَابَاةِ فَقَالَ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾^(٣). وَكَذَا قَالَ مُورِقُ الْعُجْلِيُّ وَغَيْرُهُ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: عَاتَبَهُ كَمَا تَسْمَعُونَ، ثُمَّ أَنْزَلَ النَّبِيَّ فِي سُورَةِ الثَّوْرِ فَرُخِّصَ لَهُ فِي أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ إِنْ شَاءَ فَقَالَ: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ

(١) مسلم: ١٤٩٦/٤ (٢) أحمد: ١٠٩/٣ (٣) ابن أبي حاتم: ١٨٠٥/٦ (٤) الطبري: ٢٧٤/١٤ (٥) الطبري: ١٤/٢٧٣ (٦) الطبري: ٢٧٣/١٤

التوبة

١٩٥

سورة التوبة

لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنذِرْنِي وَلَا تَنْفِتْنِي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾
 إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْهُنَّ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَسْأَلُ أَقْدَامُهَا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾
 قُلْ لَنْ يُصِيبَكَ آيٌ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
 قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَىٰ الْحُسَيْنَيْنِ وَمَنْ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ ﴿٥٢﴾
 قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَنَّ مِنْكُمْ إِتْكَم كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا نَعْتَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ مَنْ يَقُولُ لَكَ: يَا مُحَمَّدُ! «أُنذِرْنِي» فِي التَّمُودِ «وَلَا تَنْفِتْنِي» بِالْخُرُوجِ مَعَكَ بِسَبَبِ الْجَوَارِي مِنْ نِسَاءِ الرُّومِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» أَي: قَدْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الرَّهْرِيِّ وَيَزِيدُ بْنُ رُومَانَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ، قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - وَهُوَ فِي جِهَارِهِ - لِلْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ أَخِي بَنِي سَلَمَةَ: «هَلْ لَكَ يَا جَدُّ الْعَامِ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ تَأْذُنْ لِي وَلَا تَنْفِتْنِي، فَوَاللَّهِ! لَقَدْ عَرَفَ قَوْمِي مَا رَجُلٌ أَشَدَّ عَجَبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَىٰ إِنْ رَأَيْتِ نِسَاءَ بَنِي الْأَصْفَرِ أَنْ لَا أَضِيرَ عَنْهُنَّ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «قَدْ أَدْنَتْ لَكَ». فَفِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ نَزَلَتْ هَذِهِ: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ

الْفِتْنَةَ» أَي: وَلَا سَرَعُوا السَّيْرَ وَالْمَسِيَّ بَيْنَكُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْفِتْنَةِ «وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ» أَي: مُطِيعُونَ لَهُمْ وَسَمْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ فَيُؤَدِّي إِلَىٰ وُقُوعِ شَرِّ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَفَسَادِ كَبِيرٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ الَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا - فِيمَا بَلَغَنِي مِنْ ذَوِي الشَّرَفِ - مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولَ وَالْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ وَكَانُوا أَشْرَافًا فِي قَوْمِهِمْ، فَجَبَّطَهُمُ اللَّهُ، لِيَعْلَمُوا بِهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ فَيَفْسِدُوا عَلَيْهِ جُنْدَهُ^(١). وَكَانَ فِي جُنْدِهِ قَوْمٌ أَهْلٌ مَحَبَّةٍ لَهُمْ وَطَاعَةٍ فِيمَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ، لِشَرَفِهِمْ فِيهِمْ، فَقَالَ: «وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ» ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ، فَقَالَ: «وَاللَّهُ عَالِمٌ بِالظَّالِمِينَ». فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خِيَالًا» فَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ لَوْ خَرَجُوا؟ وَمَعَ هَذَا مَا خَرَجُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» [الأنعام: ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ عِلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَدَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» [الأنفال: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيْهُنَّ وَإِذَا لَا يَتَذَكَّرُونَ لَدَنَا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» [النساء: ٦٦-٦٨] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

«لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾»

يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّضًا لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمُتَافِقِينَ: «لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ» أَي: لَقَدْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجَالُوا آرَاءَهُمْ فِي كَيْدِكَ وَكَيْدِ أَصْحَابِكَ، وَخُدْلَانَ دِينِكَ وَإِحْمَادِهِ مَدَّةً طَوِيلَةً. وَذَلِكَ أَوَّلُ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ رَمَتْهُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَحَارَبَتْهُ يَهُودُ الْمَدِينَةِ وَمُنَافِقُوهَا. فَلَمَّا نَصَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَعْلَىٰ كَلِمَتَهُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ. فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا، ثُمَّ كَلَّمَا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ غَاطَهُمْ ذَلِكَ وَسَاءَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ».

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنذِرْنِي وَلَا تَنْفِتْنِي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ

(١) الطبري: ١٤/٢٧٧

أَتَذُن لِي وَلَا فَتْنِي... الآية. أي: إِنْ كَانَ إِنَّمَا يَخْشَى مِنْ نِسَاءِ بَنِي الْأَضْفَرِ - وَلَيْسَ ذَلِكَ بِهِ - فَمَا سَقَطَ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ بِخَلْفِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالرَّغْبَةِ بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسِهِ، أَعْظَمُ^(١). وَهَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ. وَقَدْ كَانَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ هَذَا مِنْ أَشْرَافِ بَنِي سَلَمَةَ^(٢). وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟» قَالُوا: «الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَيَّ أَنَا نَبِخُلُّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ؟! وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ الْفَتَى الْجَعْدُ الْأَبْيَضُ بِشَرِّ بْنِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ»^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَيْتَ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةً بِالْكَافِرِينَ﴾ أَي: لَا مَجِيدَ لَهُمْ عِنْدَهَا وَلَا مَحِصَ وَلَا مَهْرَبَ.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤْهُمُ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْأَلُونَ وَهُمْ فِرْحُونَ﴾^(٤) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٥)

يُعْلَمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بَعْدَاوَةَ هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَهُ مِنْ حَسَنَةٍ أَيْ: فَتَحَ وَظَفَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِمَّا يَسُرُّهُ وَيَسُرُّ أَصْحَابَهُ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ أَي: قَدْ اخْتَرْنَا مِنْ مُتَابِعَتِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴿وَيَسْأَلُونَ وَهُمْ فِرْحُونَ﴾ فَارْتُشِدَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَوَابِهِمْ فِي عَدَاوَتِهِمْ هَذِهِ - التَّامَّةَ - فَقَالَ: ﴿قُلْ﴾ أَي: لَهُمْ ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أَي: نَحْنُ نَحْتَمِسُ بِمَشِيئَتِهِ وَقَلَدْرِهِ ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أَي: سَيِّدُنَا وَمَلْجَأُنَا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي: وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِيَّةِ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيْنَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرَضُونَ﴾^(٦) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٧) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾^(٨)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا﴾ أَي: تَنْتَظِرُونَ بِنَا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِيَّةِ﴾ شَهَادَةٌ أَوْ ظَفَرٌ

بِكُمْ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ^(٩). ﴿وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ﴾ أَي: نَنْتَظِرُ بِكُمْ ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيْنَا﴾ أَي: نَنْتَظِرُ بِكُمْ هَذَا، أَوْ هَذَا، إِمَّا ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيْنَا﴾ سَيِّئِي أَوْ يَقْتُلُ ﴿فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرَضُونَ﴾.

﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أَي مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ طَائِعِينَ أَوْ مُكْرَهِينَ ﴿لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ لِنَفَقَتِهِمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَي: وَالْأَعْمَالُ إِنَّمَا تَصِحُّ بِالْإِيمَانِ ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أَي: لَيْسَ لَهُمْ قَدَمٌ صَحِيحٌ وَلَا هِمَّةٌ فِي الْعَمَلِ ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نَفَقَةً ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ أَنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَأَنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا. فَلِهَذَا لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ نَفَقَةً وَلَا عَمَلًا، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْبَلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ فِيهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(١٠)

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِمْ زِينَةً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُوا مِنْهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١] وَقَالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ سَائِرٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ فِيهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: بِرَكَاتِهَا وَالتَّفَقُّعِ مِنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أَي: وَيُرِيدُ أَنْ يُمِيتَهُمْ - حِينَ يُمِيتُهُمْ - عَلَى الْكُفْرِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْكَلِي لَهُمْ وَأَشَدَّ لِعَذَابِهِمْ. عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا يَكُونُ مِنْ بَابِ الْإِسْتِدْرَاجِ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ.

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِيُنَكِّرَهُمْ وَمَا هُمْ بِتَنَكَّرُوا وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾^(١٢) لَوْ يَحْدُثُ مَلْحَمًا أَوْ مَعْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾^(١٣)

(١) الطبري: ٢٨٧/١٤ (٢) الطبري: ٢٨٧/١٤ (٣) الحاكم: ٢١٩/٣ (٤) الطبري: ٢٩٢/١٤ (٥) الطبري: ٢٩٦/١٤

[بَيَانُ هَلْعِ الْمُتَافِقِينَ]

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ جَزَعِهِمْ وَفَزَعِهِمْ وَفَرَقِهِمْ وَهَلْعِهِمْ، أَنَّهُمْ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يَمِينًا مُؤَكَّدَةً ﴿وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ﴾ أَي: فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أَي: فَهُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْحَلْفِ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا﴾ أَي: حِصْنًا يَتَحَصَّنُونَ بِهِ وَجِزْرًا يَتَحَرَّزُونَ بِهِ ﴿أَوْ مَعْرَبًا﴾ وَهِيَ الَّتِي فِي الْجِبَالِ ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وَهُوَ السَّرْبُ فِي الْأَرْضِ وَالنَّقْفُ. قَالَ ذَلِكَ - فِي الثَّلَاثَةِ - ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ. ﴿لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أَي: يُسْرِعُونَ فِي ذَهَابِهِمْ عَنْكُمْ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَالِطُونَكُمْ كَرَاهًا لَا مَحَبَّةً، وَوَدُّوا أَنَّهُمْ لَا يُخَالِطُونَكُمْ وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَامًا، وَلِهَذَا لَا يَزَالُونَ فِي هَمٍّ وَحَزَنٍ وَعَمٍّ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ لَا يَزَالُ فِي عِزٍّ وَنَصْرٍ وَرِفْعَةٍ، فَلِهَذَا كُلَّمَا سَرَّ الْمُسْلِمُونَ سَاءَهُمْ ذَلِكَ، فَهُمْ يُوَدُّونَ أَنْ لَا يُخَالِطُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

[لَمَزُ الْمُتَافِقِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَطَمَعُهُمْ فِيهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أَي: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أَي: يَعْيبُ عَلَيْكَ ﴿فِي﴾ قَسَمِ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إِذَا فَرَّقْتَهَا وَيَتَّهَمُكَ فِي ذَلِكَ، وَهُمْ الْمُتَهَمُونَ الْمَأْبُوتُونَ، وَهُمْ مَعَ هَذَا لَا يَنْكِرُونَ لِلدِّينِ، وَإِنَّمَا يَنْكِرُونَ لِحِطِّ أَنْفُسِهِمْ وَلِهَذَا إِذَا أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ أَي يَعْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يَقُولُ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْعُنُ عَلَيْكَ فِي الصَّدَقَاتِ. وَذَكَرَ لَنَا: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ حَدِيثَ عَهْدٍ بِأَعْرَابِيٍّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ ذَهَبًا وَفِضَّةً، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ! لَئِنْ كَانَ اللَّهُ آمَرَكَ أَنْ تَعْدِلَ، مَا عَدَلْتُ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلَكَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْدِلُ عَلَيْكَ بَعْدِي؟» ثُمَّ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ: «احْذَرُوا هَذَا وَأَشْبَاهَهُ، فَإِنَّ فِي أُمَّتِي أَشْبَاهَ هَذَا، يَفْرُقُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ». وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ:

فَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذنُ قُلٍّ أذنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أُعْطِيَكُمْ شَيْئًا وَلَا أَمْتَعُكُمْوه، إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ»^(١).

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ قَتَادَةُ يُشْبِهُ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ فِي قِصَّةِ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ - وَاسْمُهُ حُرْقُوصٌ - لَمَّا اعْتَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ جِئِنَ قَسَمَ عَنَائِمَ حُنَيْنٍ فَقَالَ لَهُ: اعْدِلْ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ. فَقَالَ: «لَقَدْ جِئْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ رَأَاهُ مُقَفِّيًا: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَيْضِيءٍ هَذَا قَوْمٌ يَحْفَرُ أَحْدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرِّيْمَةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَيْدِي السَّمَاءِ»^(٢). وَذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْبَهًا لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

(١) الطبري: ٣٠٢/١٤ (٢) فتح الباري: ٣٠٢/١٢ ومسلم:

قِسْطًا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَقْرَبَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ، لِمَا بَيَّنَّتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ [بْنِ] رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّهُ انْطَلَقَ هُوَ وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ يَسْأَلَانِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيَسْتَعْمِلَهُمَا عَلَى الصَّدَقَةِ فَقَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِأَلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاحُ النَّاسِ»^(٥).

[الْمَوْلَمَةُ قُلُوبِهِمْ]

وَأَمَّا الْمَوْلَمَةُ قُلُوبِهِمْ فَأَقْسَامٌ: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيُسَلِّمَ، كَمَا أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ، وَقَدْ كَانَ شَهِدَهَا مُشْرِكًا، قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ يُعْطِينِي حَتَّى صَارَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَيَّ^(٦). كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ^(٧). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٨). وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَحْسُنَ إِسْلَامُهُ وَتَبَيَّنَتْ قَلْبُهُ، كَمَا أَعْطَى يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا جَمَاعَةً مِنْ صَنَادِيدِ الطُّلُقَاءِ وَأَشْرَافِهِمْ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ، وَقَالَ: «إِنِّي لَأَعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةً أَنْ يَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٩). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِدُهَيْمِيَّةٍ فِي تَرْبِيئِهَا مِنَ الْبَيْتِ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعِ بْنِ حَاسِبٍ، وَعُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرِ، وَعَلْقَمَةَ بْنَ عَلَاتَةَ، وَزَيْدَ الْخَيْرِ، وَقَالَ: «أَتَأَلَّفُهُمْ»^(١٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِمَا يُرْجَى مِنْ إِسْلَامِ نَظَرَانِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَجْبِيَ الصَّدَقَاتِ وَمَنْ يَلِيهِ، أَوْ لِيُدْفَعَ عَنْ حَوْرَةَ الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الرَّقَابُ]

وَأَمَّا الرَّقَابُ فَرَوِيٌّ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالتَّحَوِّيِّ وَالزُّهْرِيِّ وَابْنِ زَيْدٍ: أَنَّهُمْ الْمُكَابِتُونَ^(١١). وَرَوِيٌّ عَنْ أَبِي

سَيُوبِيئَا اللَّهُ مِنْ فَسْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٦٠﴾ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ أَدْبًا عَظِيمًا وَسِرًّا شَرِيفًا، حَيْثُ جَعَلَ الرِّضَا: بِمَا آتَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَالتَّوَكَّلُ: عَلَى اللَّهِ وَخَدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾. وَكَذَلِكَ الرَّغْبَةُ: إِلَى اللَّهِ وَخَدَهُ، فِي التَّوْفِيقِ لِبَطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَامْتِنَالِ أَوْامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، وَتَضَدِّيهِمْ أَخْبَارِهِ وَالْإِقْبَاءِ بِأَثَارِهِ.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالتَّمْسِكِينَ وَالتَّعْمِلِينَ عَلَيْهِمَا ﴾

وَالْمَوْلَمَةُ قُلُوبِهِمْ فِي الرَّقَابِ وَالتَّعْمِلِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٦١﴾

[بَيَانُ مَصَارِفِ الزَّكَاةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اعْتِرَاضَ الْمُتَنَافِقِينَ الْجَهْلَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمَزَهُمْ إِيَّاهُ فِي قِسْمِ الصَّدَقَاتِ، بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَسَمَهَا وَبَيَّنَّ حُكْمَهَا وَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِنَفْسِهِ. وَلَمْ يَكَلِّ قَسَمَهَا إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ. فَجَزَّأَهَا لَهُؤَلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ الْفُقَرَاءَ هَهُنَا عَلَى الْبَقِيَّةِ لِأَنَّهُمْ أَحْوَجُ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَلِشِدَّةِ فَاقَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ. وَرَوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالتَّحَوِّيِّ وَابْنِ زَيْدٍ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّ الْفَقِيرَ هُوَ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا. وَالتَّمْسِكِينَ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ وَيَطُوفُ وَيَتَّبِعُ النَّاسَ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: الْفَقِيرُ مَنْ يَهْ زَمَانَهُ، وَالتَّمْسِكِينَ: الصَّحِيحُ الْجِسْمُ^(٢). وَلِنُدْكُرُ أَحَادِيثَ تَتَعَلَّقُ بِكُلِّ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ.

[الْفُقَرَاءُ]

فَأَمَّا الْفُقَرَاءُ فَعَنِ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٣).

[التَّمْسِكِينَ]

وَأَمَّا التَّمْسِكِينَ فَعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ التَّمْسِكِيُّ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَالتَّلْمِثَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ» قَالُوا: فَمَنْ التَّمْسِكِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَجِدُ غَنَى يُغْنِيهِ، وَلَا يَبْطُنُ لَهُ فَيُصَدِّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا» رَوَاهُ الشَّيْخَانُ^(٤).

[التَّعْمِلُونَ عَلَيْهَا]

وَأَمَّا التَّعْمِلُونَ عَلَيْهَا فَهَمُّ الْجُبَاةِ وَالتَّسَاعُفِ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ

(١) الطبري: ٣٠٦/١٤ (٢) الطبري: ٣٠٦/١٤ (٣) أحمد: ١٦٤/٤ وأبو داود: ٢٨٥/٢ وتحفة الأحوذى: ٣١٧/٣

(٤) فتح الباري: ٣٩٩/٣ ومسلم: ٧١٩/٢ (٥) مسلم: ٢/٧٥٢ (٦) مسلم: ١٨٠٦/٤ (٧) أحمد: ٤٦٥/٦ (٨) مسلم: ٣/١٨٠٦ وتحفة الأحوذى: ٣٣٤/٣ (٩) فتح الباري: ٣/٣٩٩

(١٠) فتح الباري: ٤٣٣/٦ ومسلم: ٧٤١/٢ (١١) الطبري: ٣١٧/١٤

مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ نَحْوَهُ^(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ: لَا بَأْسَ أَنْ تُتَمَتَّعَ الرَّقِيبَةَ مِنْ الزَّكَاةِ، أَيْ: إِنَّ الرَّقَابَ أَعْمٌ مِنْ أَنْ يُعْطَى الْمُكَاتَبُ أَوْ يُشْتَرَى رَقَبَةً فَيُعْتَقَهَا اسْتِقْلَالًا. وَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوَابِ الْإِعْتَاقِ وَفَكَ الرِّقَبَةَ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ: أَنَّ اللَّهَ يُعْتِقُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهَا عَضْوًا مِنْ مُعْتِقِهَا حَتَّى الْفَرْجَ بِالْفَرْجِ. وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٣٩].

[مَا وَرَدَ فِي الْعِتَاقِ]

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنِ النَّبْرِاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ؟ فَقَالَ: «أَعْتَقِ النَّسَمَةَ وَفَكَ الرِّقَبَةَ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ لَيْسَا وَاحِدًا؟ قَالَ: «لَا، عَتَقُ النَّسَمَةَ: أَنْ تُفْرِدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَ الرِّقَبَةَ: أَنْ تُعِينَ فِي تَمْنِيهَا»^(٢).

[الْغَارِمُونَ]

وَأَمَّا الْغَارِمُونَ فَهُمْ أَقْسَامٌ: فَمِنْهُمْ مَنْ تَحَمَّلَ حَمَالَةً أَوْ ضَمَّنَ دَيْنًا فَلَزِمَهُ فَأَجْحَفَ بِمَالِهِ، أَوْ غَرِمَ فِي آدَاءِ دَيْنِهِ، أَوْ فِي مَعْصِيَةٍ ثُمَّ تَابَ، فَهَذَا يَدْفَعُ إِلَيْهِمْ، وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثُ قَيْصَةَ بْنِ مَخَارِقِ الْهَلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمَّ حَتَّى تَأْتِيَا الصَّدَقَةَ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا». قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا قَيْصَةُ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاَحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَرَابَةِ قَوْمِهِ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ سَحَتْ بِأَكْلِهَا صَاحِبُهَا سَحْتًا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا فَكَثُرَ دَيْنُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ» فَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُرْمَائِهِ: «خُدُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤).

[فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

وَأَمَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْهُمْ الْغَزَاؤُ الَّذِيْنَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الدِّيَّانِ.

[ابْنُ السَّبِيلِ]

وَإِبْنُ السَّبِيلِ هُوَ الْمَسَافِرُ الْمُجْتَازُ فِي بَلَدٍ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى سَفَرِهِ، فَيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ مَا يَكْفِيهِ إِلَى بَلَدِهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ، وَهَكَذَا الْحُكْمُ فِيمَنْ أَرَادَ إِنْشَاءَ سَفَرٍ مِنْ بَلَدِهِ وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ، فَيُعْطَى مِنْ مَالِ الزَّكَاةِ كِفَايَتَهُ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ. وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْآيَةِ، وَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ وَإِبْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: لِعَامِلٍ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ غَارِمٍ، أَوْ غَارٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مُسْكِينٍ تُصَدَّقُ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِغَنِيِّ»^(٥). وَقَوْلُهُ: «فَرِيضَةٌ مِنْكَ اللَّهُ» أَيْ: حُكْمًا مُقَدَّرًا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَفَرَضِهِ وَقَسَمِهِ «وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ» أَيْ: عَلِيمٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا وَبِمَصَالِحِ عِبَادِهِ. حَكِيمٌ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ وَيَشْرَعُهُ وَيَحْكُمُ بِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ ذُنُّهُ قُلْ أُوذِيَ خَيْرَ الَّذِيْنَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[مِنْ سِمَاتِ الْمُتَنَافِقِينَ إِيْدَاءَ النَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنْ الْمُتَنَافِقِينَ قَوْمٌ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْكَلَامِ فِيهِ، وَيَقُولُونَ: «هُوَ ذُنُّهُ» أَيْ: مَنْ قَالَ لَهُ سَيِّئًا صَدَقَهُ فِينَا، وَمَنْ حَدَّثَهُ صَدَقَهُ، فَإِذَا جِئْنَا وَحَلَفْنَا لَهُ صَدَقْنَا. رُوِيَ مَعْنَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ^(٦). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قُلْ أُوذِيَ خَيْرَ الَّذِيْنَ لَكُمْ» أَيْ: هُوَ ذُنُّ خَيْرٍ، يَعْرِفُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» أَيْ وَيُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ «وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» أَيْ وَهُوَ حِجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ. وَلِهَذَا قَالَ: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

(١) الطبري: ٣١٦/١٤ (٢) أحمد: ٢٩٩/٤ (٣) مسلم: ٢/٧٢٢ (٤) مسلم: ١١٦١/٣ (٥) أبو داود: ٢٨٨/٢ وابن ماجه: ٥٩٠/١ (٦) الطبري: ٢٢٦/١٤

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ
 إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ فَأَنْتُمْ لِمُ نَارِ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخُرْزِيُّ
 الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

[وَمِنْهَا مُحَاوَلَةٌ إِرْضَاءِ النَّاسِ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ]

قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ
 لِيُرْضَوْكُمْ﴾ الْآيَةَ. قَالَ ذَكَرْنَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُتَافِقِينَ قَالَ:
 وَاللَّهِ! إِنْ هُوَ لَأَنْ لَجِبَارُنَا وَأَشْرَافُنَا، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ
 حَقًّا، لَهُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ. قَالَ: فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
 فَقَالَ: وَاللَّهِ! مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لِحَقِّ، وَلَأَنْتَ أَشْرُ مِنَ الْحِمَارِ،
 قَالَ: فَسَعَى بِهَا الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى
 الرَّجُلِ فَدَعَاهُ فَقَالَ «مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ؟» فَجَعَلَ يُلْتَعِنُ
 وَيَخْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ يَقُولُ:
 اللَّهُمَّ! صَدَقِ الصَّادِقَ وَكَذَبِ الْكَاذِبَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ (١).
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾
 الْآيَةَ، أَيْ أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ حَادِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،
 أَيْ: شَاقَّةٌ وَحَارِبَةٌ وَخَالِفَةٌ، وَكَانَ فِي حَدِّ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي
 حَدِّ ﴿فَأَنْتُمْ لِمُ نَارِ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾ أَيْ: مُهَانًا مُعَذَّبًا،
 وَذَلِكَ الْخُرْزِيُّ الْعَظِيمُ ﴿أَيْ: وَهَذَا هُوَ الذَّلُّ الْعَظِيمُ
 وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ.

﴿يَحْدَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ
 قُلِ اسْتَزِرُّوْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْدَرُونَ﴾ (٦٤)

[وَمِنْهَا خَوْفُهُمْ مِنْ إِفْشَاءِ السَّرِّ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُونَ الْقَوْلَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَى اللَّهُ
 أَنْ لَا يُفْشِي عَلَيْنَا سِرَّنَا هَذَا (٢). وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿وَلِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْجِبْكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي
 أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ بَصُلُوتُهَا فَيَسِّرُ
 الْمَصِيرَ﴾ [المجادلة: ٨]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قُلِ اسْتَزِرُّوْا
 إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْدَرُونَ﴾ أَيْ: إِنَّ اللَّهَ سَيَنْزِلُ عَلَى
 رَسُولِهِ مَا يَبْضَحُكُمْ بِهِ وَيُبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ
 حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَسْغَنَهُمْ﴾ -
 إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الْآيَةَ،
 [محمد: ٢٩، ٣٠] وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ: كَانَتْ تُسَمَّى هَذِهِ السُّورَةُ
 الْفَاضِحَةَ: فَاضِحَةَ الْمُتَافِقِينَ (٣).

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ
 وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَتِّهِزُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ
 أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ
 مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْتُمْ لِمُ نَارِ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا
 ذَلِكَ الْخُرْزِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْدَرُ الْمُتَنَفِقُونَ
 أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوْا
 إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْدَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ
 لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ
 وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَتِّهِزُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ
 بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَافِقَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبُ طَافِقَةً
 يَأْتِيهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُتَنَفِقَاتُ
 بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ
 عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ
 إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ
 الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتُ وَالْكَافِرَاتُ جَاهِنَّمَ خَالِدِينَ
 فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿إِمْنِكُمْ إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَافِقَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبُ طَافِقَةً يَأْتِيهِمْ
 كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٦٦)

[وَمِنْهَا تَحَايِلُهُمْ وَاعْتِدَارُهُمْ بِالْبَاطِلِ]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي
 مَجْلِسٍ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَائِنَا هُوَ لَأَنْ أَرْغَبَ بَطُونًا، وَلَا
 أَكْذَبَ أَلْسِنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. فَقَالَ رَجُلٌ فِي
 الْمَسْجِدِ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُتَافِقٌ لِأَخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 [عَمْرٍو]: أَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنْكِبُهُ
 الْحِجَارَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ
 وَنَلْعَبُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ
 كُنْتُمْ سَتِّهِزُونَ﴾... الْآيَةَ (٤).

(١) الطبري: ٣٢٩/١٤ (٢) الطبري: ٣٣١/١٤ (٣) الطبري:
 ٣٣٢/١٤ (٤) الطبري: ٣٣٣/١٤

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَأَفِّفِينَ مِنْهُمْ
 وَرِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ أَخُو بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ،
 وَرَجُلٌ مِنْ أَشْجَعِ حَلِيفِ بَنِي سَلَمَةَ يُقَالُ لَهُ: [مُحْسَنٌ] بِنُ
 حُمَيْرٍ، يَسِيرُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى تَبُوكَ
 فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْتَحِسِبُونَ جِلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ كَقِتَالِ
 الْعَرَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؟ وَاللَّهِ! لَكَأَنَّ بَيْكُمُ عَدَا مُتَرَنِّينَ فِي
 الْجِبَالِ - إِرْجَافًا وَتَرْهيبًا لِلْمُؤْمِنِينَ - فَقَالَ [مُحْسَنٌ] بِنُ
 حُمَيْرٍ: وَاللَّهِ! لَوِِدِدْتُ أَنْ أَقَاضِي عَلَى أَنْ يُضْرَبَ كُلُّ رَجُلٍ
 مِثْلًا مِائَةَ جِلْدَةٍ، وَإِنَّا نَنْفَلِكُ أَنْ يَنْزَلَ فِيْنَا قُرْآنٌ - لِمَقَالَتِكُمْ
 هَذِهِ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فِيمَا بَلَغَنِي - لِعَمَارِ بْنِ
 يَاسِرٍ: «أَدْرِكُ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدِ احْتَرَفُوا، فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا
 قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَى، فُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا» فَانْطَلَقَ
 إِلَيْهِمْ عَمَارٌ فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَأَنُوتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَعَذَّرُونَ
 إِلَيْهِ، فَقَالَ وَرِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاقِفْ عَلَى
 رَاحِلَتِي - فَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ آخِذٌ بِحَقِيهَا -: يَا رَسُولَ اللَّهِ!
 إِنَّمَا كُنَّا نَحُوضُ وَنَلْعَبُ. فَقَالَ مُحْسَنُ بْنُ حُمَيْرٍ: يَا رَسُولَ
 اللَّهِ، قَعَدَ بِي إِسْمِي وَاسْمُ أَبِي. فَكَانَ الَّذِي غَفِيَ عَنْهُ فِي
 هَذِهِ الْآيَةِ: [مُحْسَنٌ] بِنُ حُمَيْرٍ، فَسَمِيَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ.
 وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُقْتَلَ شَهِيدًا لَا يُعْلَمُ مَكَانُهُ، فَقُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ
 وَلَمْ يُوجَدْ لَهُ أَتْرٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَعْتَدُوا﴾ قَدْ كَثُرَتْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿أَيُّ:﴾ بِهَذَا
 الْمَقَالِ الَّذِي اسْتَهْزَأْتُمْ بِهِ ﴿إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ
 تَعَذَّبَ طَائِفَةٌ﴾ أَيُّ: لَا يُعْنَى عَنْ جَمِيعِكُمْ، وَلَا بَدَّ مِنْ
 عَذَابِ بَعْضِكُمْ ﴿يَأْتُهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أَيُّ مُجْرِمِينَ
 بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الْفَاجِرَةِ الْخَاطِئَةِ.

﴿الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ
 إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ
 وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ
 وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾

[بَيَانُ بَعْضِ خِصَالِ الْمُتَأَفِّفِينَ الْآخَرَى]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُتَأَفِّفِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى خِلَافِ
 صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: وَلَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، كَانَ هَؤُلَاءِ: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أَيُّ: عَنِ الْإِنْفَاقِ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ: نَسُوا ذِكْرَ اللَّهِ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾

أَيُّ: عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةً مِنْ نَسِيهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ
 نَسَكُكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجنابة: ٣٤] ﴿إِنَّ
 الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَيُّ: الْخَارِجُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ
 الدَّاخِلُونَ فِي طَرِيقِ الضَّلَالَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ
 وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أَيُّ: عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي
 ذَكَرَ عَنْهُمْ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: مَا كَثُرَ فِيهَا مُخَلِّدِينَ، هُمْ
 وَالْكُفَّارُ ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أَيُّ: كَيْفَايَتُهُمْ فِي الْعَذَابِ
 ﴿وَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أَيُّ: طَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ
 مُقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ
 أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا
 اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِّمْتُمْ كَالَّذِي
 خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةَ آعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: أَصَابَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ كَمَا أَصَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ قَالَ

الْحَسَنَ [البُصْرِيُّ]: بِدِينِهِمْ^(١). وَقَوْلُهُ: «وَحُضِّمْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا» أَي فِي الْكُذْبِ وَالْبَاطِلِ «أَوَّلِيكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ» أَي: بَطَلَتْ مَسَاعِيَهُمْ فَلَا ثَوَابَ لَهُمْ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا فَاسِدَةٌ «فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوَّلِيكَ هُمُ الْخَدِيرُونَ» لِأَنَّهُمْ لَمْ يَحْضُلْ لَهُمْ عَلَيْهَا ثَوَابٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ! «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» هُوَ لِأَنَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ شَبَّهُوا بِهِمْ لَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَنَجِّعُنَّهُمْ حَتَّى لَوْ دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ جُحْرَ صَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»^(٢). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَنَجِّعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَدِرَاعًا بِدِرَاعٍ، وَبَاعًا بِبَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ صَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْلَ الْكِتَابِ؟ قَالَ «فَمَنْ؟»^(٣) وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ.

«أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَيْتُمْ رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾»

[نَصِيحَةُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنْ يَتَّعِبُوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى وَاعْظُوا لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الْمَكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أَي: أَلَمْ تُخْبِرُوا خَبَرَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ لِلرُّسُلِ «قَوْمٍ نُوحٍ» وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَرْقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بَعْدَهُ وَرَسُولُهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ «وَعَادٍ» كَيْفَ أَهْلَكُوا بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ لَمَّا كَذَّبُوا هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ «وَتَمُودَ» كَيْفَ أَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ لَمَّا كَذَّبُوا صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَقَرُوا النَّاقَةَ «وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ» كَيْفَ نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِمْ وَأَهْلَكَ مَلِكُهُمْ نُمْرُودَ ابْنَ كَنْعَانَ بْنِ كُوشِ الْكَنْعَانِيِّ لَعَنَهُ اللَّهُ «وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ» وَهُمْ قَوْمٌ شَعِبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَيْفَ أَصَابَتْهُمْ الرَّجْفَةُ وَعَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ «وَالْمُؤْتَفِكَةَ» قَوْمٌ لُوِطٌ وَقَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي مَدَائِنَ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى» [النجم: ٥٣] أَي: الْأُمَّةَ الْمُؤْتَفِكَةَ: وَقِيلَ: أَمْ قُرَاهُمْ، وَهِيَ سُدُومُ، وَالْعَرَضُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّ اللَّهِ لُوِطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِتْيَانِهِمْ الْفَاجِسَةَ الَّتِي لَمْ يَسْفِهُهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ «أَنَّهُمْ

رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أَي: بِالْحُجَجِ وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» أَي: يَا هَلَاكِيهِ يَا هُمْ لِأَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِزَاحَةِ الْعِلَلِ، «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أَي: بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ، فَضَارُوا إِلَى مَا ضَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالذَّمَارِ.

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حِكْمَةُ ﴿٧١﴾

[صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحْمُودَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الذَّمِيمَةَ عَطَفَ بِذِكْرِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحْمُودَةِ، فَقَالَ: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» أَي يَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاوَدُونَ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»^(٤). وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَسَنِيِّ وَالسَّهْرِ»^(٥). وَقَوْلُهُ: «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَنْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» الْآيَةُ [آل عمران: ١٠٤]، وَقَوْلُهُ: «يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» أَي: يُطِيعُونَ اللَّهَ وَيُحْسِنُونَ إِلَى خَلْقِهِ «وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أَي: فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» أَي: سَيَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ أَنْصَفَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ أَعِزٌّ» أَي: يُعِزُّ مَنْ أَطَاعَهُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ «حَكِيمٌ» فِي قِسْمَتِهِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَهُؤُلَاءِ، وَتَخْصِيصِهِ الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

«وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧١﴾»

[الْبَشَارَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْ

(١) الطبري: ٣٤٣/١٤ (٢) الطبري: ٣٤٢/١٤ (٣) الطبري:

٣٤٢/١٤ (٤) فتح الباري: ١٠/٤٦٤ (٥) فتح الباري: ١٠/

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٩

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٤﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ
 مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ
 وَهُمْ أَيُّمًا لَمْ يَنَالُوا أَوْ مَانَعُمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
 مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَكْذِبُوا
 اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ فِي الْأَرْضِ
 مِنْ وَرَى وَلَا نَصِيرَ ﴿٧٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ
 يَأْتِيَهُمْ جُنُودٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾
 فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
 ﴿٧٧﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا
 اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ
 الْغُيُوبِ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
 جِهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٠﴾

الْخَيْرَاتِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي «جَنَّتِ تَمْرِي مِنْ فَوْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَلِيدِينَ فِيهَا» أَي مَائِثِينَ فِيهَا أَبَدًا «وَسَكَرَ لَيْتِي» أَي: حَسَنَةً
 الْبِنَاءِ طَيِّبَةِ الْفَرَارِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
 «جَنَّانٍ مِنْ ذَهَبٍ آيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّانٍ مِنْ فِضَّةٍ
 آيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ
 إِلَّا رِذَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»^(١). وَيَبِي قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ
 وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُونَ مِيلًا فِي السَّمَاءِ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا
 أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ، لَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(٢). أَخْرَجَاهُ
 فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ
 رَمَضَانَ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ [جَلَسَ] فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا» قَالُوا: يَا
 رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نُخَبِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ
 دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ
 كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ
 الْفُرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ
 أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 قَالَ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَسَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ» قِيلَ: يَا
 رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَسِيلَةُ؟ قَالَ: «أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا
 يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»^(٤).

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي مُجَاهِدٍ
 الطَّائِيِّ عَنْ أَبِي الْمُدَلِّجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
 قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بَنَّاؤُهَا؟ قَالَ:
 «الْبِنَةُ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ،
 وَحَضْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّرْعَمَرَانُ. مَنْ
 يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ، لَا يَبْئَسُ، وَيَحْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى تِبَابُهُ
 وَلَا يَفْتَنُ سَبَابُهُ»^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» أَي رِضَا اللَّهِ
 عَنْهُمْ أَكْبَرُ وَأَجَلٌ وَأَعْظَمُ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، كَمَا قَالَ
 الْإِمَامُ مَالِكُ رَجَمَهُ اللَّهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ
 يَسَّارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ
 الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَيْتَكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ.

فَيَقُولُ: هَلْ رَضَيْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ!
 وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَلَا
 أُعْطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ! وَأَيُّ شَيْءٍ
 أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَجِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْحَطُ
 عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ^(١).

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٧٤﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ
 مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَيُّمًا لَمْ يَنَالُوا أَوْ مَانَعُمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَكْذِبُوا اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَرَى وَلَا نَصِيرَ ﴿٧٥﴾

(١) فتح الباري: ٤٩١/٨، ٤٩١/٨، ١٦٣/١ (٢) فتح الباري: ٤٩١/٨، ٤٩١/٨، ٢١٨٢/٤ (٣) فتح الباري: ١٤/٦ (٤) أحمد: ٢٦٥/٢ (٥) أحمد: ٣٠٤/٢ (٦) فتح الباري: ١١/٤٢٣، ٢١٧٦/٤

[الْأَمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْعُلَظَّةِ عَلَيْهِمْ]
أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْعُلَظَّةِ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَمَرَهُ بِأَنْ يَخْضِعَ جَنَاحَهُ لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ مَصِيرَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ إِلَى النَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ» قَالَ: يَدِيهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَكْفِهِمْ فِي وَجْهِهِ^(١).
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ، وَالْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ. وَأَذْهَبَ الرَّفُوعُ عَنْهُمْ^(٢). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: جَاهِدِ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ وَاعْلُظْ عَلَى الْمُنَافِقِينَ بِالْكَلَامِ وَهُوَ مُجَاهَدَتُهُمْ^(٣). وَعَنْ مَقَاتِلِ الرَّبِيعِ مِثْلَهُ^(٤).
وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: مُجَاهَدَتُهُمْ: إِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ^(٥).
وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، لِأَنَّهُ تَارَةً يُؤَاخِذُهُمْ بِهَذَا وَتَارَةً يَهَذَا، بِحَسَبِ الْأَحْوَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[سَبَبُ النَّزُولِ]

قَالَ الْأُمَوِيُّ فِي مَعَارِيزِهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ أَبِيهِ، عَنِ جَدِّهِ قَالَ: وَكَانَ مِمَّنْ تَخَلَّفَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَنَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ مِنْهُمْ، مِمَّنْ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، الْجُلَّاسُ بْنُ سُوَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَانَ عَلَى أُمَّ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ، وَكَانَ عُمَيْرٌ فِي حَجْرِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِمَا ذَكَرَ مِمَّا أَنْزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ. قَالَ الْجُلَّاسُ: وَاللَّهِ! لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ صَادِقًا فِيمَا يَقُولُ، لَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ. فَسَمِعَهَا عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ! يَا جُلَّاسُ! إِنَّكَ لِأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدِي بِلَاءٍ، وَأَعَزَّهُمْ عَلَيَّ أَنْ يَصِلَهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَقَدْ قُلْتُ مَقَالَةً لَئِنْ ذَكَرْتُنَّاهَا لَتَفْضَحُنِي وَلَئِنْ كَتَمْتُنَّاهَا لَتَهْلِكُنِي، وَإِلْحَادُهُمَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنَ الْأُخْرَى، فَمَشَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَ الْجُلَّاسُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْجُلَّاسُ خَرَجَ حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالَ مَا قَالَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ، وَلَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ»... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَوَقَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهَا، فَرَعَمُوا أَنَّ الْجُلَّاسَ تَابَ فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، وَنَزَعَ فَأَحْسَنَ النَّزْوِعَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فَقَالَ: «إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ فَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنِي الشَّيْطَانِ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ» فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ طَلَعَ رَجُلٌ أَرْزُقِي، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «عَلَامَ تَسْتَمْنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟» فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ فَبَجَّاهُ بِأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا بِاللَّهِ مَا قَالُوا حَتَّى تَجَاوَزَ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا»... الْآيَةَ.

[هَمُّ الْمُنَافِقِينَ بِقَتْلِهِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ: «وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَسْأَلُوا» قِيلَ: أَنْزَلْتِ فِي الْجُلَّاسِ ابْنَ سُوَيْدٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ هَمَّ بِقَتْلِ ابْنِ امْرَأَتِهِ حِينَ قَالَ: لِأَخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقِيلَ: فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، هَمَّ بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٦). وَقَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي أَنَاسٍ أَرَادُوا أَنْ يُتَوَجَّحُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَإِنْ لَمْ يَرْضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ هَمُّوا بِالْفَتْكِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي عَزْوَةِ تَبُوكَ، فِي بَعْضِ تِلْكَ اللَّيَالِي فِي حَالِ السَّيْرِ، وَكَانُوا بِضِعَةِ عَشَرَ رَجُلًا، قَالَ الضَّحَّاكُ: فَبِهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَذَلِكَ بَيْنَ فِيمَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ النَّبَيْهِيُّ فِي كِتَابِ «دَلَائِلِ النَّبُوَّةِ»، عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِخَطَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقُودُ بِهِ، وَعَمَّارٌ يَسُوقُ النَّاقَةَ، أَوْ أَنَا أَسُوقُهُ وَعَمَّارٌ يَقُودُهُ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْعَقَبَةِ فَإِذَا أَنَا بِإِثْنِي عَشَرَ رَاكِبًا قَدْ اعْتَرَصُوهُ فِيهَا، قَالَ: [فَأَنْبَهْتُ] رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ، فَصَرَخَ بِهِمْ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ عَرَفْتُمْ الْقَوْمَ؟» قُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ كَانُوا مُتَلَمِّجِينَ، وَلَكِنَّا قَدْ عَرَفْنَا الرِّكَّابَ قَالَ: «هُؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مَا أَرَادُوا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «أَرَادُوا أَنْ يُزَاحِمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَقَبَةِ فَيُلْقُوهُ مِنْهَا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تَبْعَثُ إِلَى عَشَائِرِهِمْ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْكَ كُلُّ قَوْمٍ بِرَأْسِ صَاحِبِهِمْ؟ قَالَ: «لَا، أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِبَيْتِهَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَاتِلَ يَقُومُ حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ، أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَفْتُلُهُمْ - ثُمَّ قَالَ - : اللَّهُمَّ! ارْمِهِم بِالذَّبَابِ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الذَّبَابُ؟ قَالَ: «شِهَابٌ مِنْ نَارٍ يَقَعُ عَلَى نِيَابِ قَلْبٍ أَحَدِهِمْ فَيَهْلِكُ»^(٧).

(١) الطبري: ٣٥٨/١٤ (٢) الطبري: ٣٥٩/١٤ (٣) الطبري:

٣٥٩/١٤ (٤) ابن أبي حاتم: ١٨٤٢/٦ (٥) الطبري: ١٤/

٣٥٩ (٦) الطبري: ٣٦٣/١٤ (٧) دلائل النبوة: ٥/٢٦٠

يَمَّا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٥﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ ﴿٧٦﴾

[مِنْ سِمَاتِ الْمُتَافِقِينَ طَلَبَ الْمَالِ ثُمَّ الْبُخْلِ بِالصَّدَقَةِ] يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ مَنْ أَعْطَى اللَّهُ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ لِنِئَانِهِ مِنْ فَضْلِهِ لِيَصَّدَّقَنَّ مِنْ مَالِهِ وَلِيَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَمَا وَفَى بِمَا قَالَ وَلَا صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى، فَأَعْقَبَهُمْ هَذَا الصَّنِيعَ نِفَاقًا سَكَنَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمَّا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الْآيَةُ، أَيَّ أَعْقَبَهُمُ النِّفَاقَ فِي قُلُوبِهِمْ بِسَبَبِ إِخْلَافِهِمُ الْوَعْدَ وَكَذِبِهِمْ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «آيَةُ الْمُتَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّيَمَنَ خَانَ»^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الْآيَةُ، يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِصِمَاتِهِمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا أَنَّهُ إِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَمْوَالٌ تَصَدَّقُوا مِنْهَا وَشَكَرُوا عَلَيْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى عَلَّامُ الْغُيُوبِ أَيَّ يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ، وَكُلَّ سِرٍّ وَنَجْوَى وَيَعْلَمُ مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَّنَ.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[وَمِنْهَا لَمَزَ الْمُطَّوِّعِينَ وَالسُّخْرِيَّةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ] وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْمُتَافِقِينَ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ عَيْبِهِمْ وَلَمَزَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ حَتَّى وَلَا الْمُتَصَدِّقُونَ يَسْلَمُونَ مِنْهُمْ، إِنْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَالٍ جَزِيلٍ قَالُوا هَذَا مُرَاءٍ، وَإِنْ جَاءَ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ الْبَصْرِيُّ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نَحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا: مُرَائِي، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ. فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا. فَنَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ

عَنْ أَبِي الطَّفِيلِ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعَقَبَةِ وَبَيْنَ حُذَيْفَةَ بَعْضُ مَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ: أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ كَمْ كَانَ أَصْحَابُ الْعَقَبَةِ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: أَخْبِرْهُ إِذْ سَأَلَكَ، فَقَالَ: كُنَّا نُخْبِرُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ، فَإِنْ كُنْتُ مِنْهُمْ فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ خَمْسَةَ عَشَرَ، وَأَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْهُمْ حَرَبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، وَعَدَرَ ثَلَاثَةٌ قَالُوا: مَا سَمِعْنَا مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا عَلِمْنَا بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ، وَقَدْ كَانَ فِي حَرَّةٍ فَمَشَى، فَقَالَ: «إِنَّ الْمَاءَ قَلِيلٌ فَلَا يَسْبِقُنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ». فَوَجَدَ قَوْمًا قَدْ سَبَقُوهُ فَلَعَنَهُمْ يَوْمئِذٍ^(١). وَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي حُذَيْفَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُتَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رَيْحَهَا حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ: ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكُهُمُ الدَّبِيلَةَ، سِرَاجٌ مِنْ نَارٍ يَظْهَرُ بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ حَتَّى يَنْجُمَ فِي صُدُورِهِمْ»^(٢). وَلِهَذَا كَانَ حُذَيْفَةُ يُقَالُ لَهُ: صَاحِبُ السَّرِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ أَيَّ: مِنْ تَعْيِينِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَافِقِينَ، وَهُمْ هُؤُلَاءِ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دُونَ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْتَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيَّ: وَمَا لِلرُّسُولِ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنْ اللَّهُ أَغْنَاهُمْ بِبَرَكَتِهِ وَيُؤَمِّنَ سَعَادَتِهِ، وَلَوْ تَمَّتْ عَلَيْهِ السَّعَادَةُ لَهَدَاهُمُ اللَّهُ لِمَا جَاءَ بِهِ كَمَا قَالَ ﷺ لِلْأَنْصَارِ: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْتَمَّكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي» كَلِمًا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَّنْ^(٣). وَهَذِهِ الصَّبِيغَةُ تُقَالُ حَيْثُ لَا ذَنْبَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤَمِّنُوا بِاللَّهِ﴾ الْآيَةُ.

ثُمَّ دَعَاهُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى التَّوْبَةِ فَقَالَ: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعدُّهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيَّ: وَإِنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقِهِمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا، أَيَّ: بِالْقَتْلِ وَالْهَمِّ وَالْعَمِّ، وَالْآخِرَةَ، أَيَّ: بِالْعَذَابِ وَالتَّكَالِ وَالْهُوَانِ وَالصَّعَارِ ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ لِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أَيَّ: وَلَيْسَ لَهُمْ أَحَدٌ يُسَعِّدُهُمْ وَلَا يُنْجِدُهُمْ، لَا يُحْصِلُ لَهُمْ خَيْرًا وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَرًّا.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَنْفِرُوا مِنْكُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ الَّذِينَ نَسُوا ذُنُبَهُمْ لَعْنَةً مِنْ رَبِّهِمْ لَعْنَةٌ قَدَرْنَا مَتَّعُوا بِهَا آلِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُؤْتِي﴾

(١) مسلم: ٢١٤٤/٤ (٢) مسلم: ٢١٤٣/٤ (٣) فتح الباري: ٦٤٤/٧ (٤) فتح الباري: ١١١/١ ومسلم: ٧٨/١

الْمَطْوَعِينَ... (الآية^(١)). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا فِي صَحِيحِهِ^(٢).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ يَوْمًا فَتَادَى فِيهِمْ أَنْ اجْتَمَعُوا صِدْقَاتِكُمْ، فَجَمَعَ النَّاسُ صِدْقَاتِيهِمْ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ آخِرِهِمْ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ، بَتُّ لَيْتَنِي أَجْرُ بِالْجَرِيرِ الْمَاءِ، حَتَّى يَلْتُكَ صَاعَيْنِ مِنْ تَمْرٍ، فَأَمْسَكْتُ أَحَدَهُمَا وَأَتَيْتُكَ بِالْآخَرِ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبْتُرَهُ فِي الصَّدَقَاتِ، فَسَخَّرَ مِنْهُ رَجَالٌ وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَغَيَّبَانِ عَنْ هَذَا، وَمَا يَصْنَعُونَ بِصَاعِكَ مِنْ شَيْءٍ، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرِكَ» فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: فَإِنَّ عِنْدِي بِمِائَةِ أُوقِيَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي الصَّدَقَاتِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمْجُوتُونَ أَنْتَ؟ قَالَ: لَيْسَ بِي جُتُونٌ، قَالَ: أَفَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ مَالِي ثَمَانِيَةَ آلافٍ، أَمَا أُرْبِعُهُ آلافٍ فَأُفْرِضُهَا رَبِّي، وَأَمَا أُرْبِعُهُ آلافٍ فلي. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا أَمْسَكْتُ وَفِيهَا أَعْطَيْتُ» وَلَمَرَهُ الْمُنَافِقُونَ فَقَالُوا: وَاللَّهِ! مَا أَعْطَى عَبْدَ الرَّحْمَنِ عَطِيَّتَهُ إِلَّا رِيَاءً وَهُمْ كاذِبُونَ، إِنَّمَا كَانَ بِهِ مُطْوَعًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِذْرَهُ وَعَذَرَ صَاحِبِهِ الْمُسْكِينِ الَّذِي جَاءَ بِالصَّاعِ مِنَ التَّمْرِ فَقَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوَعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ... (الآية^(٣))

وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَبْرٍ وَاجِدٍ وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ مِنَ الْمُطَّوَعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ، تَصَدَّقَ بِأَرْبَعَةِ آلافٍ دِرْهَمٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ أَخُو بَنِي الْعَجْلَانِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَغِبَ فِي الصَّدَقَةِ وَحَضَّ عَلَيْهَا، فَقَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَتَصَدَّقَ بِأَرْبَعَةِ آلافٍ، وَقَامَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ وَتَصَدَّقَ بِمِائَةِ وَسْتِيٍّ مِنْ تَمْرٍ فَلَمَزُوهُمَا وَقَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا رِيَاءً، وَكَانَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِجَهْدِهِ أَبُو عَقِيلٍ أَخُو بَنِي أُنَيْبِ الْأَرَاشِيِّ حَلِيفُ بَنِي عَمْرٍو ابْنِ عَوْفٍ، أَتَى بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ فَأَفْرَعَهُ فِي الصَّدَقَةِ فَتَضَاحَكُوا بِهِ وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَيْبٌ عَنْ صَاحِ أَبِي عَقِيلٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَيَسْحَرُونَ مِنْهُمْ سِحْرَ اللَّهِ مِنْهُمْ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةً مِّنْ سِحْرِ مِنْهُمْ

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَآئِن فُرِيقُوا فِي الْحَرْقِ لَنَارُ جَهَنَّمَ أَشَدَّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجٍ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْكٰفِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْعَامٍ بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْمُتَعَدِّينَ ﴿٨٦﴾

انْتِصَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا. وَأَعَدَّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا أَلِيمًا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٨٠﴾

[النتهي عن الاستغفار للمنافقين]

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا أَهْلًا لِلاِسْتِغْفَارِ، وَأَنَّهُ لَوْ اسْتَغْفَرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ السَّبْعِينَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ حَسْمًا لِمَادَةِ الْاِسْتِغْفَارِ لَهُمْ، لِأَنَّ الْعَرَبَ فِي أَصَالِبِ كَلَامِهَا تَذَكَّرُ السَّبْعِينَ فِي مُبَالَغَةِ كَلَامِهَا. وَلَا تُرِيدُ التَّحْدِيدَ بِهَا، وَلَا أَنْ يَكُونَ مَا زَادَ عَلَيْهَا بِخِلَافِهَا، وَقِيلَ: بَلْ لَهَا مَقْهُومٌ، كَمَا قَالَ الشَّعْبِيُّ: لَمَّا ثَقُلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي انْطَلَقَ ابْنُهُ إِلَى

(١) فتح الباري: ٣/٣٣٢ (٢) مسلم: ٧٠٦/٢ (٣) الطبري: ٣٨٣/١٤ عطية العوفي ضعيف كما تقدم

النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَبِي قَدْ اخْتَصَرَ فَأَجِبْ أَنْ تَشْهَدَهُ وَتُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا اسْمُكَ؟» قَالَ: الْحَبَابُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «بَلْ أَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّ الْحَبَابَ اسْمُ شَيْطَانٍ» فَانطَلَقَ مَعَهُ حَتَّى شَهِدَهُ وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَهُ وَهُوَ عَرَقٌ، وَصَلَّى عَلَيْهِ قَبِيلَ لَهُ: أَنْصَلِي عَلَيْهِ [وَهُوَ مُتَأَفِّقٌ؟] فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: «إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَا سَغْفَرَ لَهُمْ سَبْعِينَ وَ سَبْعِينَ وَسَبْعِينَ»^(١). وَكَذَا رَوَى عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِأَسَانِيدِهِ^(٢).

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا نَفِرُوا فِى الْحَرْفِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا فِىلَا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

[فَرِحَ الْمُتَأَفِّقِينَ عَلَى تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْغَزْوَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى ذَاتًا لِلْمُتَأَفِّقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَفَرِحُوا بِقُعُودِهِمْ بَعْدَ خُرُوجِهِ ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ مَعَهُ ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أَي: بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿لَا نَفِرُوا فِي الْحَرْفِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْخُرُوجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَانَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ عِنْدَ طَيْبِ الظَّلَالِ وَالشَّمَارِ، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَا نَفِرُوا فِي الْحَرْفِ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ الَّتِي تَصِيرُونَ إِلَيْهَا بِمُخَالَفَتِكُمْ﴾ أَشَدُّ حَرًّا ﴿مِمَّا فَرَزْتُمْ مِنْهُ مِنَ الْحَرْفِ بَلْ أَشَدُّ حَرًّا مِنَ النَّارِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي الزُّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَهَا، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ؟ فَقَالَ: «فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسِتِّينَ جُزْءًا»^(٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤). وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ نَارِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجَلُ، لَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْهُ، وَإِنَّهُ أَهْوَنُهُمْ عَذَابًا»^(٥). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٦). وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ النَّبَوِيَّةُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَطِيلٌ ﴿٨١﴾ نَزَاعَةٌ لِلنَّسْوَى﴾ [المعارج: ١٥، ١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٨٢﴾ يُصْهَرُ بِهِ-

مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٨٢﴾ وَهُمْ مَتَّعِعٌ مِنْ حَبِيدٍ ﴿٨٣﴾ كَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ عَجْرٍ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أَي: لَوْ أَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَيَفْهَمُونَ لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْحَرْفِ، لِيَتَّقُوا بِهِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ الَّذِي هُوَ أضعَافُ أضعَافِ هَذَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ مُتَوَعِّدًا هَؤُلَاءِ الْمُتَأَفِّقِينَ عَلَى صَنِيعِهِمْ هَذَا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا فِىلَا...﴾ الْآيَةِ، قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الدُّنْيَا قَلِيلٌ فَلْيَضْحَكُوا فِيهَا مَا سَأَلُوا، فَإِذَا انْقَطَعَتِ الدُّنْيَا وَصَارُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَأْنَفُوا بُكَاءً لَا يَنْقَطِعُ أَبَدًا.

﴿إِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لِيُخْرِجَهُمْ فَقُلْ لَنْ يَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفْلِتُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٢﴾﴾

[لَا يُؤَدِّنُ لِلْمُتَأَفِّقِينَ بِالْخُرُوجِ فِي الْحَرْبِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ﴾ أَي: رَدَّكَ اللَّهُ مِنْ غَزْوَتِكَ هَذِهِ ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرْنَا لَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا^(٧). ﴿فَاسْتَدْرَكَ لِيُخْرِجَهُمْ﴾ أَي: مَعَكَ إِلَى غَزْوَةِ أُخْرَى ﴿فَقُلْ لَنْ يَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفْلِتُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أَي: تَغْيِيرًا لَهُمْ وَعُقُوبَةً، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَقَلِبْ أَوْدَانَهُمْ وَانصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الْآيَةِ [الأنعام: ١١٠] فَإِنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، كَمَا أَنَّ ثَوَابَ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا، كَقَوْلِهِ فِي عُمَرَةَ الْخُدَيْبِيَّةِ: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَيَّ مَعَانِمَ لِتَأْخُذُوا بِهَا...﴾ الْآيَةِ [الفتح: ١٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ الرُّجَالِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزَاةِ^(٨).

(١) الطبري: ٣٩٦/١٤ (٢) الطبري: ٣٩٧، ٣٩٦/١٤ (٣) الموطأ: ٩٩٤/٢ (٤) فتح الباري: ٣٨٠/٦ ومسلم: ٤/٢١٨٤ (٥) الحاكم: ٥٨٠/٤ (٦) فتح الباري: ٤٢٥/١١ ومسلم: ١٩٦/١ (٧) الطبري: ٤٠٤/١٤ (٨) الطبري: ٤٠٤

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨٤)

[الْتَهْيِي عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ]

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبدالله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين كما روى البخاري عن ابن عمر قال: لما توفي عبدالله بن أبي جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قبضه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بتوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تُصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» [التوبة: ٨٠] وسأزيده على السبعين» قال: إنه منافق. قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].^(١)

وقد روي من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضا بنحو من هذا^(٢). وفيه: قال: ثم صلى عليه ومشي معه وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت من جزأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم. قال: فوالله! ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل^(٣). وهكذا رواه الترمذي في التفسير وقال: حسن صحيح^(٤). ورواه البخاري^(٥).

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥)

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، والله الحمد والمنة.

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَّاكَ أُولَ الْأَطْوَالِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْفَالِقِينَ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧)

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٦) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٧) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٨) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَوَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهُ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٨٩) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٠) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّأْتُمْ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتُمْ لَا أَحَدٌ مَّا أَجْمَلِكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٢)

[ذَمُّ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا وَذَمًّا لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ النَّكِلِينَ عَنْهُ - مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَوُجُودِ السَّعَةِ وَالطَّوْلِ - وَاسْتَأْذَنُوا الرَّسُولَ فِي الْقُعُودِ، وَقَالُوا: ﴿ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْفَالِقِينَ﴾ وَرَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِالْعَارِ وَالْقُعُودِ فِي الْبَلَدِ مَعَ النِّسَاءِ، وَهِنَّ الْخَوَالِفُ بَعْدَ خُرُوجِ الْجَيْشِ، فَإِذَا وَقَعَ الْحَرْبُ كَانُوا أَجْبَنَ النَّاسِ، وَإِذَا كَانَ أَمْنٌ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ كَلَامًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي آيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ لِقَافُ رَأَيْتَهُمْ يَبْطَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ لِقَافُ سَلَفُوكُمْ بِالنِّسَةِ جِدَا﴾ [الأحزاب: ١٩] أَيْ عَلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْكَلَامِ الْحَادِّ الْقَوِيِّ، فِي الْأَمْنِ. وَفِي الْحَرْبِ أَجْبَنُ شَيْءٍ.

(١) فتح الباري: ١٨٤/٨ (٢) فتح الباري: ١٨٥/٨ (٣) أحمد: ١٦/١ (٤) تحفة الأحوذني: ٤٩٥/٨ (٥) فتح الباري: ١٨٤/٨

وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْكَ لَهُمْ ﴿٦١﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَو صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ... الْآيَةُ [محمد: ٢٠، ٢١]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أَي: بِسَبَبِ نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ وَالْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَي: لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ صَلَاحٌ لَهُمْ فَيَفْعَلُوهُ، وَلَا مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ، فَيَجْتَنِبُوهُ.

﴿ لَكِنِ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّةً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى ذَنْبَ الْمُنَافِقِينَ وَبَيَّنَّ تَنَاءَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَمَا لَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿ لَكِنِ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ مِنْ بَيَانِ حَالِهِمْ وَمَالِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فِي جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ وَالذَّرَجَاتِ الْعُلَى.

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤدُّنَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٩٠﴾ ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ ذَوِي الْأَعْدَارِ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ الَّذِينَ جَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْتَدِرُونَ إِلَيْهِ وَيُبَيِّنُونَ لَهُ مَا هُمْ فِيهِ، مِنَ الضَّعْفِ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْخُرُوجِ، وَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، إِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ: (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ) بِالْتَّخْفِيفِ وَيَقُولُ: هُمْ أَهْلُ الْعُدْرِ. لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أَي لَمْ يَأْتُوا فَيَعْتَدِرُوا، ثُمَّ أَوْعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فَقَالَ: ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحْسَنُ مِمَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيِبُهُمْ فَبِغْضٍ مِنَ الدَّمْعِ حَرَكًا أَلَّا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ [بَيَانُ الْعُدْرِ الشَّرْعِيِّ لِعَدَمِ الْمُشَارَكَةِ فِي الْجِهَادِ]

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى الْأَعْدَارَ الَّتِي لَا حَرَجَ عَلَى مَنْ قَعَدَ مَعَهَا

عَنِ الْقِتَالِ، فَذَكَرَ مِنْهَا مَا هُوَ لَازِمٌ لِلشَّخْصِ لَا يَنْفُكُ عَنْهُ، وَهُوَ الضَّعْفُ فِي التَّرْكِيبِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ الْجِلَادَ فِي الْجِهَادِ، وَمِنَهُ الْعَمَى وَالْعَرَجُ وَنَحْوُهُمَا، وَلِهَذَا بَدَأَ بِهِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ عَارِضٌ بِسَبَبِ مَرَضٍ عَنْ لَهُ فِي يَدَيْهِ، شَعْلُهُ عَنِ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ بِسَبَبِ فَقْرِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّجْهِيزِ لِلْحَرْبِ، فَلَيْسَ عَلَى هَؤُلَاءِ حَرَجٌ إِذَا قَعَدُوا وَنَصَحُوا فِي حَالِ فُجُودِهِمْ، وَلَمْ يُرْجَفُوا بِالنَّاسِ وَلَمْ يُتَبَطَّوْهُمْ وَهُمْ مُحْسِنُونَ فِي حَالِهِمْ هَذَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: خَرَجَ النَّاسُ إِلَى الْاسْتِسْقَاءِ فَقَامَ فِيهِمْ بِلَالُ بْنُ سَعْدٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ مَنْ حَضَرَ! أَلَسْتُمْ مُقْرَبِينَ بِالْإِسَاءَةِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ! نَعَمْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ! إِنَّا نَسْمَعُكَ تَقُولُ: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ اللَّهُمَّ! وَقَدْ أَقْرَبْنَا بِالْإِسَاءَةِ، فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَاسْقِنَا، وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَرَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ فَسُقُوا^(١). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَّبِعُوا غَازِبِينَ مَعَهُ، فَجَاءَتْهُ عَصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْقِلِ بْنِ مَقْرِنِ الْمُزَنِيِّ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! احْمِلْنَا. فَقَالَ لَهُمْ: «وَاللَّهِ! لَا أَحِدٌ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ» فَتَوَلَّوْا وَهُمْ يَبْكُونَ، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْلِسُوا عَنِ الْجِهَادِ وَلَا يَجِدُونَ نَفَقَةً وَلَا مَحْمِلًا. فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ حِرْصَهُمْ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ أَنْزَلَ عُذْرَهُمْ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ إِلَى قَوْلِهِ ﴾ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ نَزَلَتْ فِي بَنِي مُقْرِنٍ مِنْ مُزَيْنَةَ^(٣).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ خَلَفْتُمْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا نَلِئْتُمْ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا، إِلَّا وَقَدْ شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ الْآيَةَ^(٤). وَأَصْلُ الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا سَبَرْتُمْ مَسِيرًا، إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ» قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟

(١) ابن أبي حاتم: ١٨٦٢/٦ (٢) الطبري: ٤٢٠/١٤ (٣) الطبري: ٤٢١/١٤ العوفي ضعيف كما مر (٤) ابن أبي حاتم: ١٨٦٣/٦ هذا مرسل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٢

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا

لَنْ تُوْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسِيرَى

اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ

وَالشَّهَادَةِ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ

بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا

عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ

تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا

حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمَنْ

الْأَعْرَابُ مِنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَابِرَ

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمَنْ

الْأَعْرَابُ مِنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ

مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ الْآلَاءِ قُرْبًا

لَهُمْ سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

[الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا]

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ فِي الْأَعْرَابِ كُفْرًا وَمُنَافِقِينَ وَمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ كُفْرَهُمْ وَنِفَاقَهُمْ أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَشَدُّ وَأَجْدَرُ، أَيُّ: أُخْرَى أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ كَمَا قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: جَلَسَ أَعْرَابِي إِلَى زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ وَكَانَتْ يَدُهُ قَدْ أَصْبَيْتَ يَوْمَ نَهَاوَنْدَ، فَقَالَ الْأَعْرَابِي: وَاللَّهِ! إِنَّ حَدِيثَكَ لَيُعْجِبُنِي، وَإِنَّ يَدَكَ لَتَرِيْبُنِي! فَقَالَ زَيْدٌ: مَا يَرِيْبُكَ مِنْ يَدِي إِنَّهَا الشَّمَالُ؟! فَقَالَ الْأَعْرَابِي: وَاللَّهِ! مَا أَدْرِي الْيَمِينَ يَقْطَعُونَ أَوْ الشَّمَالَ؟ فَقَالَ زَيْدٌ بَنُ صُوحَانَ: صَدَقَ اللَّهُ: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّبْدَ

قَالَ: «نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ»^(١). ثُمَّ رَدَّ تَعَالَى الْمَلَامَةَ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْفُجُودِ وَهُمْ غَنِيَاءُ، وَأَتْبَهُمْ فِي رِضَاهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ النَّسَاءِ الْخَوَالِفِ فِي الرَّحَالِ ﴿وَطَبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٩٦)

[بَيَانُ مَكْرِ الْمُنَافِقِينَ]

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِمْ ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أَيُّ لَنْ تَصُدِّقَكُمْ ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾ أَيُّ قَدْ أَعْلَمْنَا اللَّهُ أَحْوَالَكُمْ ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أَيُّ: سَيُظْهِرُ أَعْمَالَكُمْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: فَيُخْبِرُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا وَشَرِّهَا وَيُجْزِيكُمْ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ مُعْتَذِرِينَ لَتُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَلَا تُؤْبَهُوهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ احْتِفَارًا لَهُمْ، ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ أَيُّ خُبْتُ، نَجِسٌ بِوَأَطْنُهُمْ وَاعْتِقَادَاتُهُمْ، وَمَا وَاهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ جَهَنَّمَ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيُّ مِنَ الْآثَامِ وَالْخَطَايَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ رَضُوا عَنْهُمْ بِحَلْفِهِمْ لَهُمْ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيُّ: الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فَإِنَّ الْفُسُوقَ هُوَ الْخُرُوجُ، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْفَارَةُ فَوَيْسِقَةُ لِحُرُوجِهَا مِنْ جُحْرِهَا لِلْإِفْسَادِ. وَيُقَالُ: «فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ»: إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٩٧) وَمَنْ الْأَعْرَابُ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَابِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٩٨) وَمَنْ الْأَعْرَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ الْآلَاءِ قُرْبًا لَهُمْ سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٩٩)

(١) فتح الباري: ٧/٧٣٢ ومسلم: ١٩١١ (٢) الطبري: ١٤/٤٢٩ عند الطبراني بسند ضعيف لأن فيه جهالة شيخ المصنف لكن عند ابن سعد في الطبقات الكبرى بسند صحيح.

عَقَلٌ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتِنًا^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٢).
وَلَمَّا أَهْدَى ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ تِلْكَ الْهَدْيَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَدَّ عَلَيْهِ أَضْعَافَهَا حَتَّى رَضِيَ، قَالَ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَقْبَلَ هَدْيَةً إِلَّا مِنْ قُرَيْشِي أَوْ ثَقَفِي أَوْ أَنْصَارِي أَوْ دَوْسِي»^(٣).
لِأَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْمُدْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ وَالْمَدِينَةَ وَالْيَمَنَ، فَهُمْ أَلْطَفُ أَخْلَاقًا مِنَ الْأَعْرَابِ، لِمَا فِي طِبَاعِ الْأَعْرَابِ مِنَ الْجَفَاءِ.

وَقَوْلُهُ: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أَي: عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَلِّمَهُ الْإِيمَانَ وَالْعِلْمَ، حَكِيمٌ فِيمَا قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالنِّفَاقِ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنْ مِنْهُمْ «مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ» أَي: فِي سَبِيلِ اللَّهِ «مَغْرَمًا» أَي: غَرَامَةً وَخَسَارَةً «وَيَتَرَبَّصُ بِكُلِّ الدَّوَابِّ» أَي يَنْتَظِرُ بِكُمْ الْحَوَادِثَ وَالْآفَاتِ «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ» أَي هِيَ مُنْعَكِسَةٌ عَلَيْهِمْ، وَالسُّوءُ دَائِرَةٌ عَلَيْهِمْ «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أَي: سَمِيعٌ لِدَعَاءِ عِبَادِهِ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْجِدَالَ. وَقَوْلُهُ: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ» هَذَا هُوَ الْقِسْمُ الْمَمْدُوحُ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مَا يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَيَتَّبِعُونَ بِذَلِكَ دَعَاءَ الرَّسُولِ لَهُمْ «إِلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ» أَي: إِلَّا إِنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَهُمْ «سَيُذِئِبُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ.

وَالسَّيِّفُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَاحْسَنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٤)
[فَضَائِلُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالتَّعْلِيمِ الْمُتِمِّمِ. قَالَ الشَّعْبِيُّ: السَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: مَنْ أَدْرَكَ بَعَثَةَ الرَّضْوَانِ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ^(٥). وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هُمْ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوْلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَيَاوِيَلُ

وَالسَّيِّفُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَاحْسَنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٦) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعْلُبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَردُّونَ إِلَى عَذَابِ عَظِيمٍ^(٧) وَآخَرُونَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ^(٨) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٩) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ^(١٠) وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَردُّونَ إِلَى عِلِّيِّ الْعَالِينَ وَالشَّهَادَةُ فَيَتَعَلَّمُونَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ^(١١) وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَامًا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَامًا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١٢)

مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ سَهَّهمْ، أَوْ أَبْغَضَ أَوْ سَبَّ بَعْضَهُمْ، وَلَا سِيَّمَا سَيِّدَ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الرَّسُولِ وَخَيْرَهُمْ وَأَفْضَلَهُمْ أَعْنِي الصِّدِّيقَ الْأَكْبَرَ وَالْخَلِيفَةَ الْأَعْظَمَ أَبَا بَكْرٍ بْنَ أَبِي قُحَافَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمَخْدُولَةَ مِنَ الرَّافِضَةِ يُعَادُونَ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ وَيَبْغِضُونَهُمْ وَيَسُبُّونَهُمْ. عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَقُولَهُمْ مَعْكُوسَةٌ وَقُلُوبُهُمْ مَنكُوسَةٌ، فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ؟ إِذْ يُسُبُّونَ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ! وَأَمَّا أَهْلُ الشُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ يَتَرَضَّونَ عَمَّنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَسُبُّونَ مَنْ سَبَّهَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيُؤَالُونَ مَنْ يُؤَالِي اللَّهُ وَيُعَادُونَ مَنْ يُعَادِي اللَّهُ، وَهُمْ مُتَّبِعُونَ لَا مُتَّبِعُونَ، وَيَقْتَدُونَ وَلَا يُتَّبَدُونَ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ حِزْبُ اللَّهِ الْمُفْلِحُونَ وَعِبَادَةُ الْمُؤْمِنُونَ.

(١) أحمد: ٣٥٧/١ (٢) أبو داود: ٢٧٨/٣ وتحفة الأحوذى: ٥٣٢/٦ والنسائي: ١٩٥/٧ (٣) النسائي: ٢٨٠/٦ (٤) الطبري: ٤٣٥/١٤ (٥) الطبري: ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٣٦/١٤

﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ فَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَهُمُ سَعْدٌ بِهِمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

﴿مُتَّفِقُوا الْأَعْرَابِ وَالْمَدِينَةِ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ - أَنَّ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُتَّفِقُونَ، وَفِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا مُتَّفِقُونَ ﴿مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾ أَي: مَرُّوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ. وَيُقَالُ: تَمَرَّدَ فُلَانٌ عَلَى اللَّهِ، أَي: عَتَا وَتَجَبَّرَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَهُمْ﴾ لَا يُنَافِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأُزَيْنَنَّكُمْ فَلَتَعْلَمَهُمْ بِسْمِهِمْ وَلِتُؤْفِقَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّمِ فِيهِمْ بِصِفَاتٍ يَعْرِفُونَ بِهَا، لَا أَنَّهُ يَعْرِفُ جَمِيعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِنْفَاقِ وَالرَّيْبِ عَلَى التَّعْيِينِ، وَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي بَعْضِ مَنْ يُخَالِطُهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ نِفَاقًا، وَإِنْ كَانَ يَرَاهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَتَالَوْا﴾ أَنَّهُ ﷺ أَعْلَمَ حَذِيقَةَ بَاعِيَانِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَوْ خَمْسَةَ عَشَرَ مُنَافِقًا، وَهَذَا تَخْصِيصٌ لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ أَطَّلَعَ عَلَى أَسْمَائِهِمْ وَأَعْيَانِهِمْ كُلِّهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهُ قَالَ: مَا بَالَ أَقْوَامٌ يَتَكَلَّفُونَ عِلْمَ النَّاسِ، فَلَانَ فِي الْجَنَّةِ وَقَلَانَ فِي النَّارِ، فَإِذَا سَأَلَتْ أَحَدَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ: لَا أَدْرِي! لِعَمْرِي أَنْتَ [بِنَفْسِكَ] أَعْلَمُ مِنْكَ بِأَحْوَالِ النَّاسِ، وَلَقَدْ تَكَلَّفْتُ شَيْئًا مَا تَكَلَّفَهُ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَكَ، قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] وَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَهُمْ﴾ (١).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ ﴿سَعْدٌ بِهِمْ مَّرَّتَيْنِ﴾: يَعْنِي الْقَتْلَ وَالسَّبِيَّ، وَقَالَ فِي رَوَايَةٍ: بِالْجَمْعِ وَعَذَابُ الْقَبْرِ، ثُمَّ يُرَدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (٢). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: أَمَّا عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا فَالْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ، وَقَرَأَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥] فَهَذِهِ الْمَصَابِئُ لَهُمْ عَذَابٌ وَهِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَجْرٌ، وَعَذَابٌ فِي الْأَخْرَةِ فِي النَّارِ ثُمَّ

يُرَدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿ قَالَ: النَّارُ (٣).

﴿وَالْآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْجِهَادِ كَسَلًا﴾

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَىٰ حَالَ الْمُتَخَلِّفِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْعَزَاةِ رَغْبَةً عَنْهَا وَتَكْذِيبًا وَشَكًّا، شَرَعَ فِي بَيَانِ حَالِ الْمُذْنِبِينَ الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عَنِ الْجِهَادِ كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الرَّاحَةِ مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ بِالْحَقِّ، فَقَالَ: ﴿وَالْآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَي: أَقْرَبُوا بِهَا وَاعْتَرَفُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ أُخْرُ صَالِحَةٌ خَلَطُوا هَذِهِ بِتِلْكَ، فَهَؤُلَاءِ تَحْتَ غَفْوِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أَنَاسٍ مُّعَيَّنِينَ إِلَّا أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ الْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُخَلِّطِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَالْآخَرُونَ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَبُو لُبَابَةَ. وَخَمْسَةٌ مَعَهُ. وَقِيلَ: وَسَبْعَةٌ مَعَهُ. وَقِيلَ: وَتِسْعَةٌ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ، رَبَطُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَوَارِي الْمَسْجِدِ وَخَلَفُوا لَا يُحِلُّهُمْ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالْآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَطْلَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَفَا عَنْهُمْ (٤).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سُمْرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَنَا: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَاذْبَعَانِي، فَانْتَهَىٰ بِي إِلَىٰ مَدِينَةٍ مَّبْنِيَّةٍ بِلَبِنٍ ذَهَبٍ وَابْنِ فِضَّةٍ، فَتَلَقَانَا رِجَالٌ، شَطَرٌ مِنْ خَلْفِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَى، وَشَطَرٌ كَأَفْجَحِ مَا أَنْتَ رَأَى، قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَفَعَلُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ الشَّيْءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةٌ عَدْنٌ وَهَذَا مَنْزِلُكَ، قَالَا: وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطَرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطَرٌ مِنْهُمْ فَبِجِحْ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ» (٥). هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُخْتَصِرًا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

(١) عبد الرزاق: ٢/ ٢٨٥ (٢) الطبري: ٤٤٢/١٤ (٣) الطبري: ٤٤٤/١٤ (٤) الطبري: ٤٣٧/١٤ (٥) فتح الباري: ١٩٣/٨

الرَّجِيمُ ﴿١٠٤﴾

[الْأَمْرُ بِأَخْذِ الزَّكَاةِ وَبَيَانُ فَوَائِدِهَا]

أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً يُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا، وَهَذَا عَامٌّ وَإِنْ أَعَادَ بَعْضُهُمُ الضَّمِيرَ فِي «أَمْوَالِهِمْ» إِلَى الَّذِينَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَخَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، وَلِهَذَا اغْتَفَدَ بَعْضُ مَا يَعْبَى الزَّكَاةَ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ: أَنْ دَفَعَ الزَّكَاةَ إِلَى الْإِمَامِ لَا يَكُونُ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا خَاصًّا بِالرَّسُولِ ﷺ، وَلِهَذَا اخْتَجَّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾... الآية، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّأْوِيلَ وَالْفَهْمَ الْفَاسِدَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ، وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى أَدَّوْا الزَّكَاةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ كَمَا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى قَالَ الصَّدِيقُ: وَاللَّهِ! لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا قًا - وَفِي رِوَايَةٍ: عِقَالًا - كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَقَابِلَتْنَهُمْ عَلَى مَنْعِهِ^(١). وَقَوْلُهُ ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: ادْعُ لَهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَيْتْ بِصَدَقَةٍ قَوْمٍ صَلَّى عَلَيْهِمْ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ صَلَوَاتِكَ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (صَلَوَاتِكَ) عَلَى الْجَمْعِ، وَآخَرُونَ قَرَأُوا: ﴿إِنَّ صَلَوَاتِكَ﴾. عَلَى الْإِفْرَادِ ﴿سَكَنَ لَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَحْمَةٌ لَهُمْ^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أَي: لِذَعَاتِكَ ﴿عَلِيمٌ﴾ أَي: بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْكَ، وَمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ.

السَّائِلِ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]^(٥).

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَّيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسِرُّدُونَ إِلَى عَلِيٍّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةَ فَيَتَشَكَّرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾
[الْوَعِيدُ لِلْعَصَاةِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا وَعِيدٌ^(٦). يَعْنِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُخَالِفِينَ أَوَامِرَهُ بِأَنْ أَعْمَلَهُمْ سَتَعْرَضُ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَهَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ ثُلِي الثَّرَاتِ﴾ [الطارق: ٩] وَقَالَ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وَقَدْ يُظْهَرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَلِكَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِذَا أَعَجَبَكَ حَسَنٌ عَمَلِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ فَقُلْ: ﴿أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٧). وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ شَبِيهٌ بِهِذَا، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمِ يَخْتُمُ لَهُ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عَمْرِهِ - أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ - . يَعْمَلُ صَالِحًا لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ يَعْمَلُ سَيِّئًا، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ يَسْتَعْمَلُهُ؟ قَالَ: «يُوقِفُهُ لِعَمَلِ صَالِحٍ، ثُمَّ يَبْضِئُهُ عَلَيْهِ»^(٨). تَفَرَّدَ بِهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

﴿وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾

[إِرْجَاءُ أَمْرِ الْمُتَخَلِّفِينَ الثَّلَاثَةِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: هُمُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خَلَفُوا أَبِي: عَنِ التَّوْبَةِ، وَهُمْ مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَهَيْلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ، فَعَدَّوْا عَنْ غُرُورَةِ تَبُوكَ فِي جُمْلَةٍ مَن قَعَدَ كَسَلًا وَمَثَلًا إِلَى الدَّعْوَةِ وَالْحِفْظِ وَطَيْبِ الثَّمَارِ وَالظَّلَالِ، لَا شَكًّا وَنَفَاقًا، فَكَانَتْ

(١) فتح الباري: ١٣/٢٦٤ (٢) مسلم: ٧٥٦/٢ (٣) الطبري: ٤٥٧/١٤ (٤) الطبري: ٤٦١/١٤ (٥) الطبري: ٤٦٠/١٤ (٦) الطبري: ٤٦٣/١٤ (٧) فتح الباري: ٥١٢/١٣ (٨) أحمد: ١٢٠/٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٤

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِقًا بَيْنَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ
 وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
 ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
 يَوْمٍ أَلْحَقُ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّظَرُوا
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَمْ مَنْ أَسَسَ بَيْتَهُ
 عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرًا مِمَّنْ أَسَسَ بَيْتَهُ
 عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِيهٍ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُدِّعَهُمُ الَّذِينَ يَبْوَءُونَ
 فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾
 ﴿١١١﴾ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
 بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبِلُوكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
 وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّ عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
 بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٢﴾

مِنْهُمْ طَائِفَةٌ رَبَطُوا أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي كَمَا فَعَلَ أَبُو ثَابِتَةَ
 وَأَصْحَابُهُ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُفْعَلُوا ذَلِكَ وَهُمْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ
 الْمَذْكُورُونَ، فَتَزَلَّتْ تَوْبَةُ أَوْلَئِكَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ، وَأُرْجِيءُ
 هَؤُلَاءِ عَنِ التَّوْبَةِ، حَتَّى تَنْزَلِ الْآيَةُ الْآتِيَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ:
 ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الْآيَةُ، ﴿وَعَلَى
 الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِمَتْ﴾
 الْآيَةُ^(١). كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ.
 وَقَوْلُهُ: ﴿إِمَّا يَعِدُّهُمْ وَإِمَّا يُوْثِبُ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: هُمْ تَحْتَ عَفْوِ
 اللَّهِ إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ هَذَا وَإِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ
 رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَي عَلِيمٌ بِمَنْ
 يَسْتَحِقُّ الْعُفُوبَةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ، حَكِيمٌ فِي أَعْيَالِهِ
 وَأَقْوَالِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِقًا بَيْنَ

الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ
 إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ
 أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَلْحَقُ أَنْ تَقُومَ فِيهِ
 فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّظَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾

[مَسْجِدُ الضَّرَارِ وَمَسْجِدُ التَّقْوَىٰ]

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ: أَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ -
 قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهَا - رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ يُقَالُ
 لَهُ: «أَبُو عَامِرِ الرَّاهِبِ» وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَرَأَ
 عِلْمَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانَ فِيهِ عِبَادَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَهُ
 شَرَفٌ فِي الْخَزْرَجِ كَبِيرٌ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُهَاجِرًا
 إِلَى الْمَدِينَةِ وَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ وَصَارَتْ لِلْإِسْلَامِ
 كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ، وَأَظْهَرَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ، شَرِقَ اللَّعِينُ أَبُو عَامِرٍ
 بِرَيْقِهِ، وَبَارَزَ بِالْعِدَاوَةِ وَظَاهَرَ بِهَا، وَخَرَجَ فَارًا إِلَى كُفَّارِ
 مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، يُمَالِئُهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 فَاجْتَمَعُوا بِمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَقَدِمُوا عَامَ أُحُدٍ،
 فَكَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ مَا كَانَ، وَامْتَحَنَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،
 وَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَكَانَ هَذَا الْفَاسِقُ قَدْ حَفَرَ حَفَائِرَ
 فِيمَا بَيْنَ الصَّفَيْنِ، فَوَقَعَ فِي إِحْدَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 وَأُصِيبَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَجُرِحَ وَجْهُهُ وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ الْيُمْنَى
 السُّفْلَى، وَشَجَّ رَأْسُهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَتَقَدَّمَ
 أَبُو عَامِرٍ فِي أَوَّلِ الْمُبَارَاةِ إِلَى قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ،
 فَخَاطَبَهُمْ وَاسْتَمَأَلَهُمْ إِلَى نَصْرِهِ وَمُوَافَقَتِهِ، فَلَمَّا عَرَفُوا
 كَلَامَهُ قَالُوا: لَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ،

وَنَالُوا مِنْهُ وَسْبُوهُ، فَرَجَعَ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ! لَقَدْ أَصَابَ
 قَوْمِي بَعْدِي شَرًّا. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ دَعَاهُ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ
 فِرَارِهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ وَتَمَرَّدَ، فَدَعَا
 عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَمُوتَ بَعِيدًا طَرِيدًا، فَتَأَلَّتْ هَذِهِ
 الدَّعْوَةُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَعَ النَّاسُ مِنْ أُحُدٍ، وَرَأَى أَمْرَ
 الرَّسُولِ ﷺ فِي اِرْتِفَاعِ وَظُهُورِ، ذَهَبَ إِلَى هِرْقَلِ مَلِكِ
 الرُّومِ يَسْتَنْصِرُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَعَدَهُ وَمَنَاهُ وَأَقَامَ عِنْدَهُ،
 وَكَتَبَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ النَّقَاقِ
 وَالرَّبِيعِ يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ أَنَّهُ سَيَقْدُمُ بِجَيْشٍ يُقَاتِلُ بِهِ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ وَيُعَلِّبُهُ وَيُرُدُّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا لَهُ
 مَعْقِلًا يَتَّقِدُّ عَلَيْهِمْ فِيهِ مِنْ يَتَّقِدُّ مِنْ عِنْدِهِ لِأَدَاءِ كُتْبِهِ، وَيَكُونُ
 مَرَصِدًا لَهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَشَرَعُوا فِي بِنَاءِ مَسْجِدِ
 مُجَابِرٍ لِمَسْجِدِ قَبَاءَ فَبَنَوْهُ وَأَحْكَمُوهُ، وَقَرَعُوا مِنْهُ قَبْلَ
 خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى تَبُوكَ، وَجَاءُوا فَسَأَلُوا رَسُولَ

بَنَاهُ وَأَسَّسَهُ أَوَّلَ قُدُومِهِ وَنَزَلَهُ عَلَى بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ كَانَ جَبْرِيلُ، هُوَ الَّذِي عَيَّنَ لَهُ جِهَةَ الْقِبْلَةِ^(٤). فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُوْمَرِ بْنِ سَاعِدَةَ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ النَّتَاءَ فِي الطُّهُورِ فِي قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ، فَمَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي تَطَهَّرُونَ بِهِ؟» فَقَالُوا: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا نَعْلَمُ شَيْئًا، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَنَا جِيرَانٌ مِنَ الْيَهُودِ فَكَانُوا يَغْسِلُونَ أَذْيَارَهُمْ مِنَ الْغَائِطِ فَعَسَلْنَا كَمَا عَسَلُوا^(٥). وَرَوَاهُ ابْنُ خُرَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ^(٦). وَقَوْلُهُ:

﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ حُجُبَ الْمُطَهَّرِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ الْقَدِيمَةِ الْمُوَسَّسَةِ مِنْ أَوَّلِ بِنَائِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحُدَّةِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ الصَّالِحِينَ وَالْعِبَادِ الْعَامِلِينَ، الْمُحَافِظِينَ عَلَى إِسْبَاحِ الْوُضُوءِ وَالتَّنَزُّهِ عَنِ مَلَابَسَةِ الْقَادُورَاتِ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ فَقَرَأَ الرُّومَ فِيهَا فَأَوْهَمَهُمْ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «إِنَّهُ يُلَيِّسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ، إِنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يَصَلُّونَ مَعَنَا، لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ^(٧). فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ إِكْمَالَ الطَّهَارَةَ يُسَهِّلُ الْقِيَامَ فِي الْعِبَادَةِ، وَوَعَيْنُ عَلَى إِتْمَامِهَا وَإِكْمَالِهَا وَالْقِيَامَ بِمَشْرُوعَاتِهَا.

﴿أَقَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيُوتَهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ فَهَارٍ فَانْتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رَبِّبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿١١١﴾

[الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَا يَسْتَوِي مَنْ أُسِّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانٍ وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْضَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ،

اللَّهُ ﷻ أَنْ يَأْتِي إِلَيْهِمْ فَيُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِهِمْ لِيَحْتَجُّوا بِصَلَاتِهِ فِيهِ عَلَى تَفْرِيرِهِ وَإِبْتِغَائِهِ، وَذَكَرُوا: أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَنَوْهُ لِلضُّعْفَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ الْعِلَّةِ فِي اللَّيْلَةِ الشَّائِئَةِ، فَعَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَقَالَ: «إِنَّا عَلَى سَفَرٍ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا. إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فَلَمَّا قَفَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ تَبُوكَ وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ، نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ بِخَبَرِ مَسْجِدِ الضَّرَارِ، وَمَا اعْتَمَدَهُ بَانُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّفْرِيْقِ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَسْجِدِهِمْ مَسْجِدِ قُبَاءَ الَّذِي أُسِّسَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى التَّقْوَى. فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ مَنْ هَدَمَهُ قَبْلَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ. كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: هُمْ أَنَا مِنْ الْأَنْصَارِ بَنَوْا مَسْجِدًا فَقَالَ لَهُمْ أَبُو عَامِرٍ: ابْنُوا مَسْجِدًا وَاسْتَعِدُّوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ سِلَاحٍ، فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ، فَآتِي بِجُنُودٍ مِنَ الرُّومِ وَأُخْرِجُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، فَلَمَّا فَرَعُوا مِنْ مَسْجِدِهِمْ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: قَدْ فَرَعْنَا مِنْ بِنَاءِ مَسْجِدِنَا فَتُحِبُّ أَنْ تُصَلِّيَ فِيهِ وَتَدْعُوَ لَنَا بِالْبَرَكَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الظَّالِمِينَ﴾^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيُحْلِفَنَّ أَيْ الَّذِينَ بَنَوْهُ﴾ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أَي: مَا أَرَدْنَا بِنِيَّتَانِيهِ إِلَّا خَيْرًا وَرَفَقًا بِالنَّاسِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَي: فِيْمَا قَصَدُوا وَفِيْمَا نَوَّوْا. وَإِنَّمَا بَنَوْهُ ضِرَارًا لِمَسْجِدِ قُبَاءَ، وَكُفْرًا بِاللَّهِ وَتَفْرِيْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَإِرْضَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] وَهُوَ أَبُو عَامِرٍ النَّفْسِيُّ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: الرَّاهِبُ، لَعَنَهُ اللَّهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا﴾ نَهَى لَهُ ﷻ - وَالْأُمَّةُ تَبِعَ لَهُ فِي ذَلِكَ - عَنْ أَنْ يَقُومَ فِيهِ أَي: يُصَلِّيَ فِيهِ أَبَدًا.

[فَضْلُ مَسْجِدِ قُبَاءَ وَالصَّلَاةِ فِيهِ]

ثُمَّ حَتَّهَ عَلَى الصَّلَاةِ بِمَسْجِدِ قُبَاءَ الَّذِي أُسِّسَ - مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ - بُيُوتَهُ عَلَى التَّقْوَى، وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ وَجَمْعًا لِكَلِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعْفَلًا وَمَوْزِلًا لِلِإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ وَالسِّيَاقُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِضِ مَسْجِدِ قُبَاءَ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ كَعُمْرَةٍ»^(٢).

وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَزُورُ مَسْجِدَ قُبَاءَ رَاكِبًا وَمَأْشِيًا^(٣). وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا

(١) الطبري: ٤٧٠/١٤ (٢) ابن ماجه: ٤٥٢/١ والترمذي: ٣٢٤ (٣) فتح الباري: ٨٢/٣ ومسلم: ١٣٩٩ (٤) أبو داود: ٤٤ والترمذي: ٣١٠٠ وابن ماجه: ٣٥٧ (٥) أحمد: ٤٢٢/٣ (٦) ابن خزيمة: ٤٥/١ (٧) أحمد: ٤٧١/٣، ٤٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٥

سُورَةُ التَّوْبَةِ

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ
الرَّكَعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ
مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٢﴾ وَمَا كَانِ
أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ
فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى
يُبَيِّنَ لَهُمْ مَآبِقَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٥﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى
النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٦﴾

فَإِنَّمَا يَنْبَغِي هَؤُلَاءِ بَيِّنَاتُهُمْ ﴿عَلَى شَفَا جُرْفِي هَارٍ﴾، أَي: طَرَفَ حَفِيرَةٍ مِثَالُهُ ﴿*)﴾ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿أَي: لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: رَأَيْتُ الْمَسْجِدَ الَّذِي بَنَى ضِرَارًا يَخْرُجُ مِنْهُ الدُّخَانُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾ (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَزَالُ بُدِّئَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيءَهُ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أَي: شَكًّا وَنِفَاقًا، بِسَبَبِ إِفْدَائِهِمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ أَوْرَثَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ كَمَا أَشْرَبَ عَابِدُو الْعَجَلِ حَيْثُ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي: بِمَوْتِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالسُّدِّيُّ، وَحَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ، وَالضَّحَّاكُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَعَبْدُ وَاحِدٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ (٢). ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَي: بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي مُجَازَاتِهِمْ عَنْهَا مِنْ خَيْرٍ وَسَرٍّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْحَيَاةُ يَفْعَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣)

[اشْتَرَى اللَّهُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالْحَيَاةِ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَاوَضَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ - إِذْ بَدَّلَهَا فِي سَبِيلِهِ - بِالْحَيَاةِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَإِنَّهُ قَبِلَ الْعَوَاضَ عَمَّا يَمْلِكُهُ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَى عِبِيدِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ. وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: بَايَعَهُمُ وَاللَّهُ! فَأَعْلَى ثَمَنَهُمْ (٣). وَقَالَ شِمْرُ بْنُ عَطِيَّةٍ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، وَفِي يَمِينِهِ أَوْ مَاتَ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ آيَةَ (٤). وَلِهَذَا يُقَالُ: مَنْ حَمَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَايَعَ اللَّهَ. أَي: قَبِلَ هَذَا الْعَقْدَ وَوَفَّى بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أَي: سَوَاءٌ قُتِلُوا أَوْ قَتَلُوا، أَوْ اجْتَمَعَ لَهُمْ هَذَا وَهَذَا، فَقَدْ وَجِبَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ.

ولِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «وَتَكْفَلَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي، بِأَنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مِثْرَلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» (٥). وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تَأْكِيدٌ لِهَذَا الْوَعْدِ وَإِحْبَارٌ بِأَنَّهُ قَدْ كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى

رُسُلِهِ فِي كُتُبِهِ الْكِبَارِ، وَهِيَ التَّوْرَةُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى مُوسَى، وَالْإِنجِيلُ الْمُنَزَّلُ عَلَى عِيسَى، وَالْقُرْآنُ الْمُنَزَّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فَإِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ. هَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أَي: فَاسْتَبْشِرُوا مَنْ قَامَ بِمُقْتَضَى هَذَا الْعَقْدِ وَوَفَّى بِهِ هَذَا الْعَهْدَ بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالنَّجْمِ الْمَقِيمِ.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّكَعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٦)

(*) أي قامته وفي بعض النسخ: مُثَالَةٌ وهو غير واضح والله أعلم (١) الطبري: ٤٩٣/١٤ (٢) الطبري: ٤٩٥/١٤ (٣) الطبري: ٤٩٩/١٤ (٤) الطبري: ٤٩٩/١٤ (٥) فتح الباري: ٢٥٤/٦ ومسلم: ١٤٩٦/٣

هَذَا نَعَتْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اشْتَرَى اللَّهُ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِهَذِهِ الصَّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْخِلَالِ الْجَلِيلَةِ «التَّيْبُونِ» مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ «الْمُيْتِرِينَ» أَي: الْقَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا وَهِيَ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ، فَمِنْ أَحْصَى الْأَقْوَالَ الْحَمْدُ، فَلهَذَا قَالَ: «الْمُيْتِرِينَ» وَمِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الصِّيَامُ، وَهُوَ تَرْكُ الْمَلَاذِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْجِمَاعِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالسِّيَاخَةِ هَهُنَا، وَلهَذَا قَالَ: «السَّيِّئُونَ» كَمَا وَصَفَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «سَيِّئَاتِ» [التحریم: ٥] أَي: صَائِمَاتٍ، وَكَذَا الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ وَهُمَا عِبَارَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، وَلهَذَا قَالَ: «الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ» وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَّقُونَ خَلْقَ اللَّهِ وَيُرْشِدُونَ نَهْمَهُمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ بِأَمْرِهِم بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ الْعِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ وَيَجِبُ تَرْكُهُ، وَهُوَ حِفْظُ حُدُودِ اللَّهِ فِي تَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَقَامُوا بِعِبَادَةِ الْحَقِّ وَنُضِحَ الْخَلْتِي، وَلهَذَا قَالَ: «وَبَيَّرَ الْمُؤْمِنِينَ» لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ، وَالسَّعَادَةَ كُلَّ السَّعَادَةِ لِمَنْ اتَّصَفَ بِهِ.

﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَمَا كَانِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٣﴾

[النهي عن الدعاء للمُشركين]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنِ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةَ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ قُلٌّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! أَرْتَدِّعُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَقَالَ: أَنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُكِرْ عَنْكَ» فَتَرَلَّتْ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قَالَ: وَنَزَلَتْ فِيهِ. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١) [القصص: ٥٦] أَخْرَجَاهُ (٢).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنِ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، أَتَى رَسْمَ قَبْرِ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ

يُخَاطِبُ ثُمَّ قَامَ مُسْتَعْبِرًا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا رَأَيْنَا مَا صَنَعْتَ. قَالَ: «إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّي فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي الْاسْتِغْفَارِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي» فَمَا رُئِيَ بَاكِيًا أَكْثَرَ مِنْ يَوْمَيْدٍ (٣).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الْآيَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِأُمِّهِ فَتَهَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ ﷺ قَدِ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ...﴾ الْآيَةَ (٤). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَسْكَبُوا عَنِ الْاسْتِغْفَارِ لِأَمْوَاتِهِمْ وَلَمْ يُنْهَوْا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْأَحْيَاءِ حَتَّى يَمُوتُوا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الْآيَةَ (٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا زَالَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: لَمَّا مَاتَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ (٦). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ (٧). وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: إِنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَلْقَى أَبَاهُ، وَعَلَى وَجْهِ أَبِيهِ الْقَتْرَةَ وَالْعَبْرَةَ. فَيَقُولُ: يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنِّي كُنْتُ أَعْصِيكَ وَإِنِّي الْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ! أَلَمْ تَعُدَّنِي أَنْ لَا تُخْرِجَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْرَجَنِي مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ. فَيَقَالُ: انظُرْ إِلَى مَا وَرَاءَكَ فَإِذَا هُوَ بِدِيحٍ مُتَلَطِّحٍ، أَي: قَدْ مَسِخَ ضَبْعًا ثُمَّ يَسْحَبُ بِقَوَائِمِهِ وَيُلْقِي فِي النَّارِ (٨). وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: الْأَوَّاهُ: الدَّعَاءُ (٩). وَكَذَا رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ (١٠). وَقِيلَ: الْمُتَضَرِّعُ. وَقِيلَ: الرَّحِيمُ. وَقِيلَ: الْمُؤْفِقُ الْمُؤْمِنُ. وَقِيلَ: الْمُسِيحُ. وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ.

﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكٌ

(١) أحمد: ٤٣٣/٥ (٢) فتح الباري: ١٩٢/٨ ومسلم: ٥٤/١
 (٣) الطبري: ٤٨٩/٦ (٤) الطبري: ٥١٢/١٤ (٥) الطبري: ٥١٣/١٤
 (٦) الطبري: ٥١٩/١٤ (٧) الطبري: ١٤/١٤
 (٨) الطبري: ٥١٩، ٥١٨ (٩) الطبري: ٥٢١/١٤ (١٠) الطبري: ٥٢٤، ٥٢٣

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

[لَا مُؤَاخَذَةَ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَحُكْمِهِ الْعَادِلِ:
إِنَّهُ لَا يُضِلُّ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ إِبْلَاحِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ، حَتَّى يَكُونُوا
قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا نَمُودٌ
فَهَدَيْتَهُمْ﴾ [الآيَةُ انفصلت: ١٧]، وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾
الآيَةَ، قَالَ: بَيَانُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي تَرْكِ الْإِسْتِغْفَارِ
لِلْمُشْرِكِينَ خَاصَّةً، وَفِي بَيَانِهِ لَهُمْ مَعْصِيَتُهُ وَطَاعَتُهُ عَامَّةً.
فَأَفْعَلُوا أَوْ ذَرُّوا (١).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُقْضِيَ
عَلَيْكُمْ فِي اسْتِغْفَارِكُمْ لِمَوْتَاكُمْ الْمُشْرِكِينَ بِالضَّلَالِ بَعْدَ
[إِذْ] رَزَقَكُمْ الْهُدَايَةَ وَوَفَّقَكُمْ لِلْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، حَتَّى
يَتَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالنَّهْيِ عَنْهُ فَتَرْتُؤُوا. فَأَمَّا قَبْلَ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ
كِرَاهَةَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ، ثُمَّ تَعَدَّدُوا نَهْيَهُ إِلَى مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَإِنَّهُ لَا يَحْكُمُ عَلَيْهِنَّ بِالضَّلَالِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ إِنَّمَا
يَكُونَانِ مِنَ الْأُمُورِ وَالْمَنْهِيِّ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ [يُؤْمَرْ] وَلَمْ يَنْهَ
فَعَبْرٌ كَائِنٌ مُطِيعًا أَوْ عَاصِيًا فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ وَلَمْ يَنْهَ
عَنْهُ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَلِكٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قَالَ
ابْنُ جَرِيرٍ: هَذَا تَحْرِيسٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي
قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمُلُوكِ الْكُفْرِ، وَأَنْ يَقْتُلُوا بِنَصْرِ اللَّهِ مَالِكِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَرْهَبُوا مِنْ أَعْدَائِهِ، فَإِنَّهُ لَا وَلِيَّ
لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا نَصِيرَ لَهُمْ سِوَاهُ (٣).

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

[بَيَانُ عَزْوَةِ تَبُوكَ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ وَاحِدٌ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَزْوَةِ
تَبُوكَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا إِلَيْهَا فِي شِدَّةٍ مِنَ الْأَمْرِ، فِي
سَنَةِ مُجَدِّيَّةٍ وَحَرٍّ شَدِيدٍ وَعُسْرٍ مِنَ الرِّزَادِ وَالْمَاءِ (٤). قَالَ
قَتَادَةُ: خَرَجُوا إِلَى الشَّامِ عَامَ تَبُوكَ فِي لَهْبَانِ الْحَرِّ -عَلَى
مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنَ الْجُهْدِ- أَصَابَهُمْ فِيهَا جَهْدٌ شَدِيدٌ، حَتَّى
لَقَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ كَانَا يَشْقَانِ الثَّمَرَ بَيْنَهُمَا، وَكَانَ

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ
بِمَارِحَتِهَا وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ
مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
الصَّادِقِينَ ﴿١١٨﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ حَوْلِهِمْ
مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ
عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا لَأْ كُتِبَ لَهُمْ
بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٩﴾
وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا لَأْ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢١﴾

النَّفَرُ يَتَدَاوَلُونَ الثَّمَرَ بَيْنَهُمْ يُمْضُهَا هَذَا ثُمَّ يَشْرَبُ عَلَيْهَا،
ثُمَّ يُمْضُهَا هَذَا ثُمَّ يَشْرَبُ عَلَيْهَا، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَقْلَبَهُمْ
مِنْ عَزْوَتِهِمْ (٥). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ،
أَنَّهُ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي شَأْنِ الْعُسْرَةِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ
الْخَطَّابِ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ
شَدِيدٍ، فَتَرَلْنَا مَتْرَلًا فَأَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا
سَتَنْقَطِعُ، وَحَتَّى إِذَا كَانَ الرَّجُلُ لِيَذْهَبَ يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلَا
يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ سَتَنْقَطِعُ، وَحَتَّى إِذَا كَانَ الرَّجُلُ لِيَنْحُرَ
بَعِيرَهُ فَيَعْصُرُ فِرْقَتَهُ فَيَشْرَبُهَا، وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ، فَقَالَ
أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَوَّدَكَ
فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ لَنَا. فَقَالَ «تُحِبُّ ذَلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ،
فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَرْجِعْهُمَا حَتَّى سَأَلَتِ السَّمَاءُ فَأَهْطَلَتْ ثُمَّ
سَكَتَتْ، فَمَلَأُوا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا

(١) الطبري: ٥٣٧/١٤ (٢) الطبري: ٥٣٦/١٤ (٣) الطبري:
٥٣٨/١٤ (٤) الطبري: ٥٤٠/١٤ (٥) الطبري: ٥٤١/١٤

طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ، وَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعُرُ، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، فَأَقُولُ لِنَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادَى بِي حَتَّى [سَمَرًا] بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، وَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُ فَعَدَوْتُ بَعْدَ مَا فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ

فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا، وَتَفَارَطَ الْعَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَجِلَ فَالْحَقَهُمْ وَلَيْتَ أَنِّي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ ذَلِكَ لِي، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ [خُرُوجِ] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطَفِقْتُ فِيهِمْ [يُحْزِنُنِي أَنْ لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَعْمُوصًا عَلَيْهِ فِي الثُّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَذْكَرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ تَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: حَبَسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! بُرْدَاهُ وَالنَّظْرُ فِي عِطْفِيهِ، فَقَالَ لَهُ مَعَاذُ بُنْ جَبَلٍ: بِسْمَا قُلْتُ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ، حَضَرَنِي بَنِي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرَجُ مِنْ سَخَطِهِ عَدَا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجِ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى رُكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُتَخَلِّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَدِرُونَ إِلَيْهِ وَيَخْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضِعَّةٍ وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَيَقْبَلُ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلِمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ بِسْمِ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ لِي: «تَعَالَى» فَجِئْتُ أُمْسِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدِ اشْتَرَيْتَ ظَهْرًا؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتَ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ سَخَطِي بَعْدِي، لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلِكَيْيَ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ

جَاوَزْتَ الْعُسْكَرَ^(١). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَنْبَأُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ» أَيُّ مِنَ النَّفَقَةِ وَالظَّهْرِ وَالرَّزَادِ وَالْمَاءِ «وَمِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ قَرِيبِي مِنْهُمْ» أَيُّ عَنِ الْحَقِّ، وَيَشْكُ فِي دِينِ الرَّسُولِ ﷺ وَيَرْتَابُ لِلَّذِي نَالَهُمْ مِنْ الْمُسْقَاةِ وَالشَّدَّةِ فِي سَفَرِهِمْ وَعَزْوِهِمْ «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ» يَقُولُ: ثُمَّ رَزَقَهُمُ الْإِنَابَةَ إِلَى رَبِّهِمْ وَالرُّجُوعَ إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ «إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»^(٢).

«وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِمَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»^(٣) يَتَابَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ^(٤) [قِصَّةُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبٍ بِنَ مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِي حِينَ عَمِي. قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ ابْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عَزْوَةِ تَبُوكَ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: لَمْ أَتَخَلَّفَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عَزْوَةِ غَزَاةٍ قَطُّ إِلَّا فِي عَزَاةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي عَزَاةِ بَدْرِ وَلَمْ يُعَاتَبَ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهَا، وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعُقَبَةِ حِينَ تَوَاقَفْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أَحْبَبُ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدُ بَدْرِ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَرَ، وَكَانَ مِنْ خَبْرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عَزْوَةِ تَبُوكَ، أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْعَزَاةِ، وَاللَّهِ! مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاجِلَتَيْنِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْعَزَاةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَمًا يُرِيدُ عَزْوَةَ يَغْزُوها إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْعَزْوَةُ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرِّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَقَارًا، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا [فَجَلَى] لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرُهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ عَدُوِّهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ وَجْهَهُ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، لَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدُّيُونَ - قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَخَفَى عَلَيْهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَخِيَ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْعَزَاةَ حِينَ

(١) الطبري: ٥٣٩/١٤ (٢) الطبري: ٥٣٩/١٤

كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّى جَاءَ فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْكَ فِي دَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهُ: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، قَالَ: فَتَيَمَّمْتُ بِهِ التُّنُورَ فَسَجَرْتُهُ بِهِ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ، إِذَا بِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي يَقُولُ: يَا مُرْكُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَعْتَرِلَ أَمْرَاتِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ: أَطَلَقَهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ فَقَالَ: بَلِ اعْتَرِلَهَا وَلَا تَقْرُبَهَا، قَالَ: وَأَرْسَلَ إِلَيَّ صَاحِبِي بِمِثْلِ ذَلِكَ. قَالَ: فَقُلْتُ لِأَمْرَأَتِي: الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَا يَشَاءُ. قَالَ: فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ هَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ هَلَالَ بْنَ شِنْخِ ضَعِيفٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدِمَهُ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ [لَا يَفْرَبُكَ]» قَالَتْ: وَإِنَّهُ وَاللَّهِ! مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ! مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ، فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هَلَالَ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدِمَهُ. قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ! لَا اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا أَذْرِي مَا يَقُولُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتَهُ وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ.

قَالَ: فَلَبِثْنَا عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمَلْنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى عَن كَلَامِنَا. قَالَ: ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الصُّبْحِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بِيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَنَّا، قَدْ صَافَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَصَافَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، سَمِعْتُ صَارِحًا أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلَعُ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَبْشِرْ يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ! قَالَ: فَخَرَزْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْنَا، فَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الْفَجْرَ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُشِيرُونَ وَذَهَبَ قَيْلٌ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعَ مِنْ أَسْلَمَ، وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ نَوْبِي فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِسَارِيهِ، وَاللَّهِ! مَا أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَهُمَا، وَاسْتَعْرَتْ تَوْبَتَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَأَنْطَلَقْتُ أَوْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَلَقَانِي النَّاسُ

لِئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ بِحَدِيثٍ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخَطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ بِصِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو عَفْوِي ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهِ! مَا كَانَ لِي عُدْرٌ، وَاللَّهِ! مَا كُنْتُ قَطُّ أَفْرَعُ وَلَا أَيْسِرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَمَنْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ» فَقُمْتُ وَقَامَ إِلَيَّ رَجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَابْتَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ! مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَدَرْتَ إِلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَدَرَ بِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ مِنْ ذَنْبِكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَبِّوْنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ، فَأَكْذَبْتُ نَفْسِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِي مَعِيَ هَذَا أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: فَمَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا لِي فِيهِمَا أَسْوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي. قَالَ: وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَن كَلَامِنَا - أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ - مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَتَعَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بِيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ. وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَدَّ الْقَوْمِ وَأَجَلِدُهُمْ، فَكُنْتُ أَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ بِالْأَسْوَاقِ فَلَا يَكْلُمُنِي أَحَدٌ، وَاتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَسْلَمَ وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَحْرَكَ سَفْتِيهِ بَرْدَ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصْلَى قَرِيبًا مِنْهُ وَأَسَارِفُهُ النَّظْرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، فَإِذَا التَّمَّتْ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ حَائِطَ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ! مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ! أَنْشُدْكَ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أَحْبَبُّ إِلَيْكَ وَاللَّهِ وَرَسُولُهُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ، قَالَ: فَعَدْتُ لَهُ فَتَشَدَّدْتُ فَسَكَتَ، فَعَدْتُ لَهُ فَتَشَدَّدْتُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ. فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا أَنَا بِبَطْنِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى

عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿التوبة: ٩٥، ٩٦﴾ قَالَ: وَكُنَّا - أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ - خُلِفْنَا عَنْ أَمْرِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَلَفُوا قَبَائِعَهُمْ وَاسْتَعْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ أَمْرَنَا حَتَّىٰ قَضَىٰ اللَّهُ فِيهِ، فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ وَلَيْسَ تَخْلِيفُهُ إِبَانًا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرُنَا الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِفْنَا بِتَخْلِيفِنَا عَنِ الْعَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ (١).

هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ ثَابِتٌ مَتَّفِقٌ عَلَىٰ صِحَّتِهِ رَوَاهُ صَاحِبَا الصَّحِيحِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ بِنَحْوِهِ (٢). فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَبْسَطِهَا، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا، كَمَا رَوَاهُ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي سُوَيْبَانَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ قَالَ: هُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَهَيْلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ، وَمُرَاذَةُ بْنُ الرَّبِيعِ. وَكُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ (٣).

[الْأَمْرُ بِقَوْلِ الصَّدَقِ]

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فَرَجَ بِهِ عَنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الضِّيقِ وَالْكَرْبِ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ إِثْمَهُمْ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ لَيْلَةً بِأَيَّامِهَا، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، أَيْ مَعَ سَعَتِهَا: فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكُ وَالْمَذَاهِبُ فَلَا يَهْتَدُونَ مَا يَصْنَعُونَ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَاسْتَكَانُوا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَبَنَوْا حَتَّىٰ فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تَخْلِفِهِمْ، وَأَنَّهُ كَانَ عَنْ غَيْرِ عُدْرٍ فَعُوْقُوا عَلَىٰ ذَلِكَ هَذِهِ الْمُدَّةَ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ عَاقِبَةُ صِدْقِهِمْ خَيْرًا لَهُمْ وَتَوْبَةُ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيِ اضْدُقُوا وَالزُّمُوا الصَّدَقَ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ وَتَنْجُوا مِنَ الْمَهَالِكِ، وَيَجْعَلَ لَكُمْ فَرَجًا مِنْ أُمُورِكُمْ وَمَخْرَجًا، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّىٰ يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِيَّاكُمْ

فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بِتَوْبَةِ اللَّهِ، يَقُولُونَ: لِيَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَتَّىٰ دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يَهْرُولُ حَتَّىٰ صَافَحَنِي وَهَنَّائِي، وَاللَّهُ! مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ. قَالَ: فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَسْأَلُهَا لَطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُؤُ وَجْهَهُ مِنَ الشَّرُورِ: «أَبْشِرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ». قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قَطَعَهُ قَمَرٌ حَتَّىٰ يَعْرِفَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهَوَّ خَيْرٌ لَكَ» قَالَ: فَقُلْتُ: فَإِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا نَجَّانِي اللَّهُ بِالصَّدَقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أَحْدَثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَيْتُ، قَالَ: فَوَاللَّهِ! مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ مِنَ الصَّدَقِ فِي الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدْتُ كِذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا بَقِيَ.

قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ النُّشُورِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ. قَالَ كَعْبٌ: فَوَاللَّهِ! مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ، أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكُ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَّبُوهُ حِينَ أَنْزَلَ الرُّوحِيَّ شَرًّا مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِلُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا

(١) أحمد: ٤٥٧/٣ (٢) فتح الباري: ١٩٣/٨ ومسلم: ٤/

٢١٢١ (٣) الطبري: ٥٤٤/١٤

وَالْكَذِبِ، فَإِنَّ الْكُذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكُذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢).

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُوتُ مَوَاطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَأَلُوتُ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣)

[جَزَاءُ الْخُرُوجِ لِلْعُرُوفَةِ]

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، وَرَغِبْتَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُوَسَاتِيهِ فِيمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمَسْقَةِ، فَإِنَّهُمْ تَقْضُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ لِأَنَّهُمْ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وَهُوَ الْعَطَشُ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وَهُوَ التَّعَبُ ﴿وَلَا مَخَصَّةٌ﴾ وَهِيَ الْمَجَاعَةُ ﴿وَلَا يَطُوتُ مَوَاطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أَيْ يَنْزِلُونَ مَنْزِلًا يُرْهَبُ عَدُوَّهُمْ ﴿وَلَا يَأَلُوتُ﴾ مِنْهُ ظَفْرًا وَعَلَبَةً عَلَيْهِ ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ﴾ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَيْسَتْ دَاخِلَةً تَحْتَ قَدْرِهِمْ، وَإِنَّمَا هِيَ نَاشِئَةٌ عَنْ أَعْمَالِهِمْ أَعْمَالًا صَالِحَةً وَتَوَابًا جَزِيلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَمَا كَانَتْ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْئَةٍ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٤)

هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَا أَرَادَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْيَاءِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ التَّغْيِيرُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] وَقَالَ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ ... الْآيَةَ [التوبة: ١٢٠]، قَالَ: فَسَخَّ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِمُرَادِهِ تَعَالَى مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا، وَشِرْذِمَةٍ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ - إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا كُلُّهُمْ - لِيَتَفَقَّهُوا الْخَارِجُونَ مَعَ الرَّسُولِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ، وَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ، فَيَجْتَمِعَ لَهُمُ الْأُمْرَانِ فِي هَذَا التَّغْيِيرِ الْمُعَيَّنِ. وَبَعْدَهُ ﷺ تَكُونُ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ مِنَ الْحَيِّ، إِمَّا لِلتَّفَقُّهِ وَإِمَّا لِلجِهَادِ. فَإِنَّهُ فَرَضَ كِفَايَةَ عَلَى الْأَحْيَاءِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: ﴿وَمَا كَانَتْ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْئَةٍ﴾ يَقُولُ: مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا جَمِيعًا وَيَتْرَكُوا النَّبِيَّ ﷺ وَحْدَهُ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يَعْنِي عُضْبَةً، يَعْنِي السَّرَايَا. وَلَا يَسْرَوْنَ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَإِذَا رَجَعَتِ السَّرَايَا - وَقَدْ أَنْزَلَ بَعْدَهُمْ قُرْآنٌ تَعَلَّمَهُ الْقَاعِدُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - [قَالُوا]: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّكُمْ قُرْآنًا وَقَدْ تَعَلَّمْتَاهُ، فَتَمَكَّتِ السَّرَايَا بِتَعَلُّمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِمْ بَعْدَهُمْ، وَبَيَعَتْ سَرَايَا أُخْرَى، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يَقُولُ: [لِيَتَعَلَّمُوا] مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِمْ، وَلِيَتَعَلَّمُوا السَّرَايَا إِذَا رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٥).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَنْاسٍ مِنْ أَصْحَابِ

﴿وَلَا يُفْقَرُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦) يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُفْقَرُونَ﴾ هُوَ لَاءِ الْغَزَاةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أَيْ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أَيْ فِي السَّبْرِ إِلَى الْأَعْدَاءِ ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ هَهُنَا: ﴿بِهِ﴾ لِأَنَّ هَذِهِ أَفْعَالٌ صَادِرَةٌ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَقَدْ حَصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَظٌّ وَافِرٌ وَنَصِيبٌ عَظِيمٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فِي هَذِهِ الْعَزْوَةِ التَّفَقُّاتِ الْجَلِيلَةَ وَالْأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ. وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُمْرَةَ، قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي تَوْبِهِ حَتَّى جَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، قَالَ: فَصَبَّهَا فِي جِحْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْلِبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ: «مَا

(١) أحمد: ١/ ٣٨٤ (٢) فتح الباري: ١٠/ ٥٢٣ ومسلم: ٤/

٢٠١٢ (٣) أحمد: ٥/ ٦٣ (٤) الطبري: ١٤/ ٥٦٥ (٥)

الطبري: ١٤/ ٥٦٧

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
 وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
 وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
 ءِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ ءِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
 ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
 إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
 أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
 لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا
 سُورَةً نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ
 ثُمَّ انصَرَفُوا صَرْفَ قُلُوبِهِمْ بَأْتِمِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ
 ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
 عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
 رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ التَّوْبَةِ

النَّبِيِّ ﷺ، خَرَجُوا فِي الْبَوَادِي فَأَصَابُوا مِنَ النَّاسِ مَعْرُوفًا،
 وَمِنَ الْخِصْبِ مَا يَسْتَعْمُونَ بِهِ، وَدَعَوْا مَنْ وَجَدُوا مِنَ النَّاسِ
 إِلَى الْهُدَى، فَقَالَ النَّاسُ لَهُمْ: مَا تَرَاكُمْ إِلَّا وَقَدْ تَرَكْتُمْ
 أَصْحَابَكُمْ وَجِئْتُمُونَا؟ فَوَجَدُوا فِي أَنفُسِهِمْ مِنْ ذَلِكَ تَحَرُّجًا
 وَأَقْبَلُوا مِنَ الْبَادِيَةِ كُلُّهُمْ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَّخِذُوا
 الْخَبَرَ لِيُنَافِقُوهَا فِي الدِّينِ﴾ وَلَيْسْتَعْمِعُوا مَا فِي النَّاسِ وَمَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ بِعَدَمِهِمْ، ﴿وَلِيُذِكرُوا قَوْمَهُمْ﴾ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِذَا
 رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١).

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي الْآيَةِ: هَذَا إِذَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 الْجِيُوشَ أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَغْزُوا بِنَبِيِّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ طَائِفَةٌ مَعَ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ، وَتَنْطَلِقُ طَائِفَةٌ تَدْعُو قَوْمَهَا
 وَتَحْذَرُهُمْ وَقَائِعَ اللَّهِ فَيَمْنَنُ خَلَا قَبْلَهُمْ (٢).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَا
 كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسِيرُوا كَافَّةً﴾: إِنَّهَا لَيْسَتْ فِي الْجِهَادِ،
 وَلَكِنْ لَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مُضَرَ بِالسِّينِ، أَجْدَبَتْ
 بِلَادَهُمْ وَكَانَتِ الْقَبِيلَةُ مِنْهُمْ تُقْبَلُ بِأَسْرِهَا، حَتَّى يَجْلُوا
 بِالْمَدِينَةِ مِنَ الْجَهْدِ وَيَعْتَلُوا بِالْإِسْلَامِ وَهُمْ كَاذِبُونَ، فَضَيَّقُوا
 عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَجْهَدُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى
 يُخَيِّرُ رَسُولَهُ أُنَّهُمْ لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ، فَردَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى
 عَشَائِرِهِمْ وَحَدَّرَ قَوْمَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلَهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:
 ﴿وَلِيُذِكرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾... الْآيَةَ.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
 وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
 [الْأَمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ]

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا الْكُفَّارَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا،
 الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ إِلَى حُوزَةِ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا بَدَأَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُمْ
 وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ، وَالْيَمَنَ وَالْيَمَامَةَ
 وَهَجَرَ وَخَيَّرَ وَحَضْرَمَوْتَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَقَالِيمِ جَزِيرَةِ
 الْعَرَبِ، وَدَخَلَ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فِي دِينِ اللَّهِ
 أَفْوَاجًا، شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَتَحَّزَّزَ لِعِزْوِ الرُّومِ
 الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَوْلَى النَّاسِ
 بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَبَلَغَ تَبُوكَ ثُمَّ
 رَجَعَ لِأَجْلِ جَهْدِ النَّاسِ وَجَدِبِ الْبِلَادِ وَضَيْقِ الْحَالِ،
 وَذَلِكَ سَنَةٌ تَسَعُ مِنْ هِجْرَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ اسْتَعَلَّ فِي

السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ بِحِجَّةِ الْوُدَّاعِ، ثُمَّ عَاجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ - صَلَوَاتُ
 اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بَعْدَ حَاجَّتِهِ بِأَحَدٍ وَثَمَانِينَ يَوْمًا، فَاخْتَارَهُ
 اللَّهُ لَمَّا عِنْدَهُ وَقَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَزِيرَهُ وَصِدِّيقَهُ وَخَلِيفَتَهُ أَبُو
 بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ مَالَ الدِّينُ مَيْلَةً كَادَ أَنْ
 يَنْجِفَلَ، فَفَتَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، فَوَطَّدَ الْقَوَاعِدَ وَتَبَّتِ الدَّعَائِمُ،
 وَرَدَّ شَارِدَ الدِّينِ وَهُوَ رَاغِمٌ، وَرَدَّ أَهْلَ الرَّدَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ،
 وَأَخَذَ الرِّكَازَ مِمَّنْ مَنَعَهَا مِنَ الطَّعَامِ، وَبَيَّنَ الْحَقَّ لِمَنْ
 جَهَلَهُ، وَأَدَّى عَنِ الرَّسُولِ مَا حَمَلَهُ، ثُمَّ شَرَعَ فِي تَجْهِيْزِ
 الْجِيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى الرُّومِ عَبْدَةَ الصُّلْبَانِ، وَإِلَى الْفُرْسِ
 عَبْدَةَ النِّيرَانِ، فَفَتَحَ اللَّهُ بِرِكَاتِهِ سِفَارَتِهِ الْبِلَادَ، وَأَرْغَمَ أَنْفَ
 كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَمَنْ أَطَاعَهُمَا مِنَ الْعِبَادِ. وَأَنْفَقَ كُنُوزَهُمَا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَانَ تَمَامَ
 الْأَمْرِ عَلَى يَدَيْ وَصِيِّهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَوَلِيَّ عَهْدِهِ الْفَارُوقِ
 الْأَوَّابِ، شَهِيدِ الْمُخْرَابِ، أَبِي حَفْصِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

(١) الطبري: ٥٦٦/١٤ (٢) الطبري: ٥٦٨/١٤

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَأَرْعَمَ اللهُ بِهِ أُنُوفَ الْكُفْرَةِ الْمُلْحِدِينَ، وَقَمَعَ الطُّغَاةَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاسْتَوْلَى عَلَى الْمَمَالِكِ شَرْقًا وَغَرْبًا. وَحِمَلَتْ إِلَيْهِ خَزَائِنُ الْأَمْوَالِ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بَعْدًا وَقُرْبًا. فَفَرَّقَهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ، وَالسَّبِيلِ الْمَرْضِيِّ. ثُمَّ لَمَّا مَاتَ شَهِيدًا وَقَدْ عَاشَ حَيِّدًا، أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَى خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانَ بْنِ عَمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شَهِيدِ الدَّارِ.

فَكَسَى الْإِسْلَامُ حُلَّةَ سَابِعَةٍ. وَأَمِدَّتْ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ حُجَّةُ اللهِ الْبَالِغَةُ. فَظَهَرَ الْإِسْلَامُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. وَعَلَتْ كَلِمَةُ اللهِ وَظَهَرَ دِينُهُ. وَبَلَغَتِ الْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ غَايَةَ مَارِبِهَا. وَكَلَّمَا عَلُوا أُمَّةٌ انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْعَنَاءِ الْفَجَّارِ، امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قَتِيلُوا الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً﴾ أَيْ وَلَيَجِدِ الْكُفَّارُ مِنْكُمْ غِلظَةً عَلَيْهِمْ فِي قِتَالِكُمْ لَهُمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ رَيفًا لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ غِلظًا عَلَى عَدُوِّهِ الْكَافِرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلظَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ قَاتِلُوا الْكُفَّارَ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهُ مَعَكُمْ إِذَا اتَّقَيْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ، وَهَكَذَا الْأَمْرُ لَمَّا كَانَتِ الْقُرُونُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي غَايَةِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى لَمْ يَزَالُوا ظَاهِرِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ. وَلَمْ تَزَلِ الْفُتُوْحَاتُ كَثِيرَةً، وَلَمْ تَزَلِ الْأَعْدَاءُ فِي سَفَالٍ وَخَسَارٍ.

ثُمَّ لَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنُ وَالْأَهْوَاءُ وَالِاخْتِلَافَاتُ بَيْنَ الْمُمْلُوكِ، طَمِعَ الْأَعْدَاءُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ وَتَقَدَّمُوا إِلَيْهَا، فَلَمْ يُمَانَعُوا - لِشُغْلِ الْمُمْلُوكِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ - ثُمَّ تَقَدَّمُوا إِلَى حَوْرَةِ الْإِسْلَامِ فَأَخَذُوا مِنَ الْأَطْرَافِ بُلْدَانًا كَثِيرَةً، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا حَتَّى اسْتَحْوَذُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَاللهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدُ، فَكَلَّمَا قَامَ مَلِكٌ مِنْ مُمْلُوكِ الْإِسْلَامِ وَأَطَاعَ أَوْ أَمَرَ اللهُ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْبِلَادِ، وَاسْتَرْجَعَ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِحَسْبِهِ وَبِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْ وِلَايَةِ اللهِ.

وَاللهُ الْمَسْئُولُ الْمَأْمُورُ أَنْ يُمَكِّنَ الْمُسْلِمِينَ [مِنْ] نَوَاصِي أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يُعْلِي كَلِمَتَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ. إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

[إِيمَانُ الْمُؤْمِنِ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَالْمُنَافِقُونَ يَزِدُّونَ رِجْسًا] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً﴾ فَمِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ أَيْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ إِيمَانًا؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَكْبَرَ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ مِنَ أَيْمَةِ الْعُلَمَاءِ. بَلْ قَدْ حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ بَسَطَ الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ. ﴿وَإِنَّمَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أَيْ زَادَتْهُمْ شَكًّا إِلَى شَكِّهِمْ وَرَبِيًّا إِلَى رَبِيهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَمِيمًا﴾ [الآية: ١٨٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ شَفَائِهِمْ أَنَّ مَا يَهْدِي الْقُلُوبَ يَكُونُ سَبَبًا لِضَلَالِهِمْ وَدَمَارِهِمْ، كَمَا أَنَّ سَبَبَ الْمَرْجَحِ لَوْ غَدِي بِهِ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا خَبَالًا وَنَقْصًا.

﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

[ابْتِلَاءُ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَوْ لَا يَرَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أَيْ يُخْتَبَرُونَ ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: لَا يَتُوبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ. وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ: يُخْتَبَرُونَ بِالسَّيِّئَةِ وَالْجُوعِ (١).

(١) الطبري: ١٤/٥٨٠

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً تَنْظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَكُمُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ هَذَا أَيْضًا إِنْخَابٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿تَنْظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أَي تَلَفَّتُوا ﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أَي تَوَلَّوْا عَنِ الْحَقِّ وَانصَرَفُوا عَنْهُ، وَهَذَا حَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا لَا يَنْتَبِهُونَ عِنْدَ الْحَقِّ وَلَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَفْهَمُونَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْوَمَةٍ ﴿[المدثر: ٤٩-٥١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِينَ﴾ (٥١) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧] أَي مَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ يَتَفَلَّلُونَ عَنْكَ يَمِينًا وَشِمَالًا هُرُوبًا مِنَ الْحَقِّ وَذَهَابًا إِلَى الْبَاطِلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَكُمُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَعُوا أَرَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أَي: لَا يَفْهَمُونَ عَنِ اللَّهِ خِطَابَهُ، وَلَا يَتَّصِدُونَ لِفَهْمِهِ، وَلَا يُرِيدُونَهُ بَلْ هُمْ فِي شُغْلٍ عَنْهُ وَنُفُورٍ مِنْهُ، فَلِهَذَا صَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩)

[بِعِثَّةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْتَمًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَي: مِنْ جَنْسِهِمْ وَعَلَى لِعَيْبِهِمْ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَي مِنْكُمْ وَبَلَّغْتِكُمْ كَمَا قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّجَاشِيِّ وَالْمُعِيرَةَ ابْنِ شُعْبَةَ لِرَسُولٍ كَسَرَى: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِفَتَهُ، وَمَدَخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ^(١) . . . وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أَي يَعِزُّ عَلَيْهِ الشَّيْءُ الَّذِي يُعِثُّ أَمْتَهُ وَتَشُقُّ عَلَيْهِ. وَفِي الصَّحِيحِ «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ»^(٢). وَشَرِيعَتُهُ كُلُّهَا سَهْلَةٌ سَمْحَةٌ كَامِلَةٌ، يَسِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسْرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَي: عَلَى هِدَايَتِكُمْ وَوُضُوعِ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيِّ

وَالْأُخْرَوِيِّ إِلَيْكُمْ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَطَّلِعُهَا مِنْكُمْ مُطَّلِعٌ، أَلَا وَإِنِّي آخِذٌ بِحُجْرَتِكُمْ أَنْ تَهَافُتُوا فِي النَّارِ كَتَهَافَتِ الْفَرَّاسِ أَوْ الذَّبَابِ»^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٥) فَإِنَّ عَصْوَكُ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٧] وَهَكَذَا أَمَرَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي: تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْعَظِيمَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْكَامِلَةِ الشَّامِلَةِ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: اللَّهُ كَافِيٌّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أَي: هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ، لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُوَ سَفْهُ الْمَخْلُوقَاتِ. وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا تَحْتَ الْعَرْشِ، مَفْهُورُونَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَعَلِمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَقُدْرَتُهُ نَافِذٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: أَخْرَجَ آيَةَ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ . . . إِلَى آخِرِ السُّورَةِ^(٤). وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ زَيْدًا قَالَ: فَوَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ بَرَاءَةِ مَعَ حُرَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ أَوْ أَبِي حُرَيْمَةَ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ تَذَكَّرُوا ذَلِكَ [عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] - كَمَا قَالَ حُرَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ حِينَ ابْتَدَأَهُمْ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٥).

أَخْرَجَ سُورَةَ بَرَاءَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(١) أحمد: ٢٠٢/١ و ٢٩١/٥ (٢) فتح الباري: ١١٦/١

(٣) أحمد: ٣٩٠/١ (٤) أحمد: ١١٧/٥ (٥) فتح الباري:

تفسير سورة يونس عليه السلام - وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّيَّاكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾
أَمَّا الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾
أَيُّ هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُحْكَمِ الْمُبِينِ.

[لَا يَكُونُ الرَّسُولُ إِلَّا بَشَرًا]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾... الآية. يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ تَعَجَّبَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ إِزْسَالِ الْمُرْسَلِينَ مِنَ الْبَشَرِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وَقَالَ هُوْدٌ وَصَالِحٌ لِقَوْمِهِمَا: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْكُرُ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٤] وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ، أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ، فَقَالُوا: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا مِثْلَ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾... الآية^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ يَقُولُ: سَبَقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ^(٢). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يَقُولُ: أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ: صَلَاتُهُمْ وَصَوْمُهُمْ وَصَدَقَتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمْ - قَالَ -: وَمُحَمَّدٌ ﷺ يَسْفَعُ لَهُمْ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ

مَعَ أَنَّا بَعَثْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ جِنْسِهِمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ ظَاهِرٌ وَهُمْ الْكَافِرُونَ فِي ذَلِكَ.

﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٨

الرَّكَاتِ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾
﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكُمْ﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْإِقْسَاطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَدَّ ابَّ الْيَمِينِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾
إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

[اللَّهُ خَالِقُ الْكَوْنِ وَرَبُّهُ وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِ جَمِيعِهِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ. قِيلَ: كَهَذِهِ الْأَيَّامِ. وَقِيلَ: كُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَقْفُهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أَيُّ يُدِيرُ [أَمْرٌ] الْخَلَائِقِ ﴿لَا يُعْزُبُ عَنْهُ مِقْيَالٌ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣] وَلَا يُشْغِلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَا تُغْلِظُهُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِالْحَاحِ الْمُلْحِحِينَ، وَلَا يُلْهِمُهُ تَدْبِيرُ الْكَبِيرِ عَنِ الصَّغِيرِ، فِي الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْعُمُرَانِ وَالْقَفَارِ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾... الآية: [هود: ٦]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا فِي يَدَيْهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْهُ تَلْمِذَّتْ الْأَرْضَ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي

(١) الطبري: ١٣/١٥ الضحَّاك لم يسمع من ابن عباس كما تقدم

(٢) الطبري: ١٥/١٥ (٣) الطبري: ١٤/١٥ العوفي ضعيف -

خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ﴿٦﴾

[كُلُّ شَيْءٍ شَاهِدٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِيهِ، وَأَنَّهُ جَعَلَ الشُّعَاعَ الصَّادِرَ عَنْ جِزْمِ الشَّمْسِ ضِيَاءً، وَجَعَلَ شُعَاعَ الْقَمَرِ نُورًا، هَذَا فَنٌ وَهَذَا فَنٌ آخَرٌ، فَفَاوَرَتْ بَيْنَهُمَا لَيْلًا يَسْتَبِيهَا، وَجَعَلَ سُلْطَانَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ، وَسُلْطَانَ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ، وَقَدَّرَ الْقَمَرَ مَنَازِلَ: فَأَوَّلُ مَا يَبْدُو صَغِيرًا، ثُمَّ يَتَزَايِدُ نُورُهُ وَجِزْمُهُ حَتَّى يَسْتَوْسِقَ وَيَكْمُلُ إِبْدَارَهُ، ثُمَّ يَسْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حَالِهِ الْأُولَى فِي تَمَامِ شَهْرٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ ﴿٦٦﴾ لَا الشَّمْسُ يَبْعِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٦٧﴾ [يس: ٣٩، ٤٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ٩٦]. وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَقَدَرَهُ﴾ أَيِ الْقَمَرَ ﴿مَنَازِلَ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فَيَا الشَّمْسُ تُعْرِفُ الْأَيَّامَ، وَيَسِيرُ الْقَمَرَ تُعْرِفُ الشُّهُورَ وَالْأَعْوَامَ ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيِ لَمْ يَخْلُقْهُ عَبَثًا بَلْ لَهُ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي ذَلِكَ، وَحُجَّةٌ بِالْبَعَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْعَمَلِكِ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿المؤمنون: ١١٥، ١١٦﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فِيُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أَيِ يُبَيِّنُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيِ تَعَاثُفِهِمَا إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا، وَإِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ شَيْئًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَغِيثُ آيِلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا﴾ [الأعراف: ٥٤] وَقَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ...﴾ الْآيَةُ [يس: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاللَّيْلِ إِسْجَالٌ وَجَعَلَ اللَّيْلُ سَكَنًا﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ٩٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ: ﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ [يوسف: ١٠٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلِأَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ وَالْأَرْضِ﴾ [سبا: ٩]

كَيْتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَالَ الدِّرَّأَوْرِدِيُّ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: جِئْتُ نَزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿إِنِّي رَزَقْتُكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الْآيَةَ [الأعراف: ٥٤]، لِقَبِيهِمْ رُكْبٌ عَظِيمٌ لَا يُرَوْنَ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالُوا لَهُمْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنَ الْجِنِّ، خَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، أَخْرَجْتَنَا هَذِهِ الْآيَةُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْطَىٰ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَزَقَكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيِ أَفْرُدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيِ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ، تَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَهُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَقَرِّدُ بِالْخَلْقِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٦٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧] وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي قَبْلُهَا وَالَّتِي بَعْدُهَا.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾

[مَرْجِعُ الْجَمِيعِ إِلَى اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا حَتَّى يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَمَا بَدَأَ الْخَلْقَ كَذَلِكَ يُعِيدُهُ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أَيِ بِالْعَدْلِ وَالْجَزَاءِ الْأَوْفَى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أَيِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ مِنْ سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظُلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ ﴿٧١﴾ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَنْزَجٌ ﴿ص: ٥٧، ٥٨﴾، ﴿هَلَوَهُ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فَيُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا

وَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أَي الْعُقُولِ. وَقَالَ هُنَا: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَي عِقَابِ اللَّهِ وَسَخَطُهُ وَعَذَابُهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ نَارٌ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨)

[مَاؤَى مُنْكَرِي السَّاعَةِ جَهَنَّمُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَرْجُونَ فِي لِقَائِهِ سَيِّئًا، وَرَضُوا بِهِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاطْمَأَنَّنَتْ إِلَيْهَا نَفْسُهُمْ. قَالَ الْحَسَنُ: وَاللَّهُ! مَا زَيْتُوهَا وَلَا رَفَعُوهَا حَتَّى رَضُوا بِهَا وَهُمْ غَافِلُونَ عَنِ آيَاتِ اللَّهِ الْكُوفِيَّةِ - فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا، وَالشَّرْعِيَّةِ - فَلَا يَأْتِمِرُونَ بِهَا: بِأَنَّ مَاؤَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمُ النَّارَ، جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الْآثَامِ وَالْخَطَايَا وَالْأَجْرَامِ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِذْنِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي حَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ (٩) دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ مَا سَلَّمَ وَأَعِزُّ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لَمْ تُسَدِّدْ لَهُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

[الْحِزَاءُ الْحَسَنُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ]

هَذَا إِجْبَارٌ عَنِ حَالِ الشُّعَدَاءِ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ، وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ، وَامْتَنَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، بِأَنَّهُ سَيَهْدِيهِمْ بِإِيمَانِهِمْ، يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ هُنَا سَبَبِيَّةً، فَتَقْدِيرُهُ: بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ حَتَّى يَجُوزُوهُ وَيَخْلُصُوا إِلَى الْجَنَّةِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلِاسْتِعَانَةِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِذْنِهِمْ﴾ قَالَ: يَكُونُ لَهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ (١). وَقَوْلُهُ: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ مَا سَلَّمَ وَأَعِزُّ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لَمْ تُسَدِّدْ لَهُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: هَذَا حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا شَبُهٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بِحَمْدِكَ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾... الْآيَةُ [الأحزاب: ٤٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَأَوْ لَا تَأْتِيهَا﴾ (١٥) إِلَّا قِيلًا سَلَمْنَا سَلَمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٢) سَلَّمَ عَلَيْهِمْ... الْآيَةُ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعِزُّ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لَمْ تُسَدِّدْ لَهُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ نَارٌ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِذْنِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي حَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ مَا سَلَّمَ وَأَعِزُّ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لَمْ تُسَدِّدْ لَهُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَندَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذْ أَسَّأَ الْإِنْسَانُ الْأَضْرَدُ عَادًا لِحَبِيبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ، مَرَّكَ أَنْ لَوْ دَعَانَا إِلَى ضَرْمَسَةٍ، كَذَلِكَ زَيْنَ الْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ هَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَحْمُودُ أَبَدًا، الْمَعْبُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسُهُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ، وَفِي ابْتِدَاءِ كِتَابِهِ، وَعِنْدَ ابْتِدَاءِ تَنْزِيلِهِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَطُولُ بَسْطُهَا، وَأَنَّهُ الْمَحْمُودُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ [وَأَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهُمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهُمُونَ النَّفْسَ» (٢)]. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِمَا يَرُونَ مِنْ تَزَايُدِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَتَكَرَّرَ وَتَعَادَ وَتَزَادَادُ، فَلَيْسَ لَهَا انْقِصَاءٌ وَلَا أَمَدٌ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ

أَجَاهَهُمْ فَنَدَّرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

[لَا يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دُعَاءَ الشَّرِّ مِثْلَ اسْتِجَابَتِهِ دُعَاءَ الْخَيْرِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَلْمِهِ وَطُغْيِهِ بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَوْلَادِهِمْ بِالشَّرِّ فِي حَالِ ضَجْرِهِمْ وَغَضَبِهِمْ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْهُمْ عَدَمَ الْقَضْدِ [بِالشَّرِّ] إِلَى إِزَادَةِ ذَلِكَ، فَلِهَذَا لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ، وَالْحَالَةَ هَذِهِ، لُطْفًا وَرَحْمَةً، كَمَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَوْ لِأَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَوْلَادِهِمْ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ وَالنَّمَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ الآية، أَي لَوْ اسْتَجَابَ لَهُمْ كُلَّمَا دَعَوْهُ بِهِ فِي ذَلِكَ لِأَهْلِكَهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَبْغِي الْإِكْتَارَ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبِرَّازُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُؤَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١). وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾... الآية [الإسراء: ١١]، وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾... الآية: هُوَ قَوْلُ الْإِنْسَانِ لَوْلِيهِ أَوْ مَالِهِ إِذَا غَضِبَ عَلَيْهِ: اللَّهُمَّ! لَا تَبَارِكْ فِيهِ وَالْعَنَةُ^(٢). فَلَوْ يُعْجِلُ لَهُمُ الْإِسْتِجَابَةَ فِي ذَلِكَ، كَمَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ لِأَهْلِكَهُمْ.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَائِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرًّا كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ

زَيْنَ لِلْمُتْرَفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

[الْإِنْسَانُ يَذْكُرُ اللَّهَ عِنْدَ الشَّلَّةِ وَيَنْسَاهُ عِنْدَ الرَّخَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَضَجْرِهِ وَقَلْبِهِ إِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُو دُعَاؤِ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أَي كَثِيرٍ، وَهُمَا فِي مَعْنَى وَاحِدٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَلِقَ لَهَا، وَجَزَعَ مِنْهَا، وَأَكْثَرَ الدُّعَاءَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَدَعَا اللَّهَ فِي كَشْفِهَا وَرَفْعِهَا عَنْهُ فِي حَالِ اضْطِجَاعِهِ وَقُعُودِهِ وَقِيَامِهِ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. فَإِذَا فَرَجَ اللَّهُ شِدَّتَهُ وَكَشَفَ كُرْبَتَهُ أَغْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَذَهَبَ كَأَنَّهُ مَا كَانَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ ﴿مَرًّا كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾. ثُمَّ دَمَّ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ وَطَرِيقَتُهُ فَقَالَ:

﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُتْرَفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فَأَمَّا مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ الْهُدَايَةَ وَالسَّدَادَ وَالتَّوْفِيقَ وَالرِّشَادَ، فَإِنَّهُ مُسْتَشْفَىٰ مِنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] وَكَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا [لِأَمْرِ] الْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»^(٣).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

[الْعِبْرَةُ بِأَهْلَاكِ الْقُرُونِ الْأُولَى]

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا أَحَلَّ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي تَكْذِيبِهِمْ الرُّسُلَ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالتَّحْجِجِ الْوَاضِحَاتِ، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا لِيَنْظُرَ طَاعَتَهُمْ لَهُ، وَاتِّبَاعَهُمْ رَسُولَهُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ»^(٤). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى: أَنَّ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: رَأَيْتُ فِيمَا بَرَى النَّاسُ كَأَنَّ سَبَابًا ذُلِّي مِنْ السَّمَاءِ فَانْتَشِطَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أُعِيدَ، فَانْتَشِطَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ ذُرِعَ النَّاسُ حَوْلَ الْمِنْبَرِ، فَفَضَلَ عُمَرُ بِثَلَاثَةِ أَذْرُعٍ [إِلَى] الْمِنْبَرِ، فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنَا مِنْ رُؤْيَاكَ، لَا أَرَبَ لَنَا فِيهَا، فَلَمَّا اسْتَخْلَفَ عُمَرُ قَالَ: يَا عَوْفُ! رُؤْيَاكَ؟ قَالَ: وَهَلْ لَكَ فِي رُؤْيَايَ مِنْ حَاجَةٍ أَوْ لَمْ تَنْتَهزِنِي؟ قَالَ: وَيْحَكَ إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ تَنْعَى لِخَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ، فَقَصَّ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا... حَتَّى إِذَا بَلَغَ: ذُرِعَ النَّاسُ إِلَى الْمِنْبَرِ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ الْأَذْرُعِ. قَالَ: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ: فَإِنَّهُ كَانَ خَلِيفَةً. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لِأَيِّمٍ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنَّهُ شَهِيدٌ، قَالَ: فَقَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فَقَدْ اسْتَخْلَفْتَ يَا

(١) أبو داود: ١٨٥/٢ (٢) الطبري: ٣٤/١٥ (٣) مسلم: ٤/

٢٢٩٥ (٤) مسلم: ٤/٢٠٩٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٢١٠

سُورَةُ يُوسُفَ

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَىٰ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أُتِيعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَبْضُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَوَّلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئْتُمْ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

ابن أم عمر! فانظر كيف تعمل! وأما قوله: فإنني لا أخاف في الله لومة لائم فما شاء الله! وأما قوله: شهيد، فأني لعمر الشهادة والمسلمون مطيقون به؟^(١)

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَىٰ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أُتِيعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

[بيان تَعْتَتِ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ تَعْتَتِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ الْجَاهِلِينَ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ: أَنَّهُمْ إِذَا قَرَأَ عَلَيْهِمُ الرُّسُولَ ﷺ كِتَابَ اللَّهِ، وَحُجَّجَهُ الْوَاضِحَةَ قَالُوا لَهُ: أَيُّ بَقْرَانٍ غَيْرِ هَذَا، أَيْ رُدِّ هَذَا وَجِئْنَا بِغَيْرِهِ مِنْ نَمَطٍ آخَرَ، أَوْ بَدَّلَهُ إِلَىٰ وَضَعٍ آخَرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ أَيُّ: لَيْسَ هَذَا إِلَيَّ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ، وَرَسُولٌ مُبَلَّغٌ عَنِ اللَّهِ ﴿إِنْ أُتِيعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ثُمَّ قَالَ مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ فِي صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ:

[ثبوت صدق القرآن]

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أَيُّ: هَذَا إِنَّمَا جِئْتُمْ بِهِ عَنْ إِذْنِ اللَّهِ لِي فِي ذَلِكَ وَمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَالذَّلِيلُ عَلَىٰ أَنِّي لَسْتُ أَنْقُوْلَهُ مِنْ عِنْدِي وَلَا افْتَرَيْتُهُ: أَنَّكُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي وَأَمَانِي مُنْذُ نَسَأْتُ بَيْنَكُمْ إِلَىٰ حِينِ بَعَثْتَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَا تَتَّقِدُونَ عَلَيَّ شَيْئًا تَعْمُصُونِي بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيُّ أَفَلَيْسَ لَكُمْ عَقُولٌ تَعْرِفُونَ بِهَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؟ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ هِرْقُلُ مَلِكَ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ فِيمَا سَأَلَهُ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ هِرْقُلُ لِأَبِي سُفْيَانَ: هَلْ كُنْتُمْ تَنَّهُمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ:

فَقُلْتُ: لَا. وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ إِذْ ذَاكَ رَأْسَ الْكُفْرَةِ، وَزَعِيمَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَعَ هَذَا اعْتَرَفَ بِالْحَقِّ. وَالْفَضْلُ مَا شَهِدْتُ بِهِ الْأَعْدَاءَ. فَقَالَ لَهُ هِرْقُلُ: فَقَدْ أَعْرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدْعَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبُ عَلَىٰ اللَّهِ^(٢). وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِلتَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ: بَعَثَ اللَّهُ

فِينَا رَسُولًا نَعْرِفُ صِدْقَهُ وَنَسَبَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَقَدْ كَانَتْ مُدَّةُ مُقَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ أَظْهَرِنَا قَبْلَ النَّبُوَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً^(٣).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ وَلَا أَعْتَىٰ وَلَا أَشَدُّ إِجْرَامًا ﴿مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وَتَقُولُ عَلَى اللَّهِ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، فَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْبَرَ جُرْمًا وَلَا أَعْظَمَ ظُلْمًا مِنْ هَذَا، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَحْفَىٰ أَمْرُهُ عَلَى الْأَعْيَاءِ، فَكَيْفَ يَسْتَبِيهِ حَالُ هَذَا بِالْأَنْبِيَاءِ؟ فَإِنَّ مَنْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ صَادِقًا أَوْ كَادِبًا فَلَا بُدَّ أَنَّ اللَّهَ يُصِيبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَىٰ

(١) الطبري: ٣٩/١٥ [إسناده ضعيف جدًا فيه زيد بن عوف تركه عمرو بن علي الفلاس وسئل عنه أبو حاتم فقال: "تعرف وتتكبر" وحرك يده [الجرح والتعديل ٣/٥٧٠] قال البخاري: "سكتوا عنه" [التاريخ الكبير] وقد رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/٢٥٢-٢٥٣ بدون هذا اللفظ. (٢) فتح الباري: ٨٢/٨ (٣) أحمد: ٢٠٢/١

وَكَذِبُهُ، فَكَيْفَ بِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، وَأَصْحَابِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ وَالْحِجَى؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِتَايِيدِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُكْرِمُونَ﴾ وَكَذَلِكَ مَنْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ، لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُ.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧﴾ وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ إِلَّا أَمَةٌ وَاحِدَةٌ فَاتَّخَذُوا تَوَلَاءَ كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِقَضَى بَيْنَهُمْ فِيهَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٨﴾﴾ [مَا يَعْتَقِدُهُ الْمُشْرِكُونَ فِي آلِهَتِهِمْ]

يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ ظَانِينَ أَنَّ تِلْكَ الْأَلِهَةَ تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا، وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ مِمَّا يَزْعُمُونَ فِيهَا، وَلَا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتَشْفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ أَتُخْبِرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَكُونُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؟^(٤) ثُمَّ نَزَّ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَنْ شُرِكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

[الشُّرْكُ حَادِثٌ]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الشُّرْكَ حَادِثٌ فِي النَّاسِ، كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحَ عَشْرَةَ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ^(٥). ثُمَّ وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَ النَّاسِ، وَغَدِبَتِ الْأَضْيَانُ وَالْأَنْدَادُ وَالْأَوْثَانُ، فَبَعَثَ اللَّهُ الرُّسُلَ بِآيَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ وَحُجَجِهِ الْبَالِغَةِ وَبَرَاهِينِهِ الدَّامِغَةِ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنِ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ ... الْآيَةَ

(١) أحمد: ٤٥١/٥ (٢) انظر زاد المعاد: ٦٤٧/٣. وأصل القصة في البخاري: ٦٣ ومسلم: ١٢ وغيرهما. (٣) البداية والنهاية: ٣٢٦/٦ (٤) الطبري: ٤٦/١٥ (٥) البداية والنهاية: ١٠١/١ وقال: رواه البخاري.

بِرِّهِ أَوْ فُجُورِهِ، مَا هُوَ أَظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ، فَإِنَّ الْقُرْوَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَيْنَ مُسَيِّمَةَ الْكُذَّابِ لِمَنْ شَاهَدَهُمَا أَظْهَرَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ وَقْتِ الضُّحَى وَبَيْنَ نِصْفِ اللَّيْلِ فِي حِنْدِسِ الظُّلْمَاءِ، فَمَنْ شِيمَ كُلِّ مِنْهُمَا وَأَفْعَالِهِ وَكَلَامِهِ يَسْتَدِلُّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَذِبِ مُسَيِّمَةَ الْكُذَّابِ وَسَجَاحِ، وَالْأَسْوَدِ الْعُنَيْبِيِّ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ، فَكُنْتُ فِيْمَنْ انْجَفَلَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ رَجُلٍ كَذَّابٍ، قَالَ: فَكَانَ أَوَّلُ مَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامًا، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١). وَلَمَّا وَقَدَّ ضَمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْمِهِ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ - فِيمَا قَالَ لَهُ - مَنْ رَفَعَ هَذِهِ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: وَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ؟ قَالَ «اللَّهُ» قَالَ: وَمَنْ سَطَحَ هَذِهِ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: فَبِالَّذِي رَفَعَ هَذِهِ السَّمَاءَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَسَطَحَ هَذِهِ الْأَرْضَ اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ! نَعَمْ» ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ، وَيَحْلِفُ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدَةٍ هَذِهِ الْيَمِينِ، وَيَحْلِفُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: صَدَقْتَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أُرِيدُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا أَنْفُصُ، فَاتَّكَمْتِي هَذَا الرَّجُلُ بِمَجْرَدِ هَذَا، وَقَدْ آيَقَنَ بِصِدْقِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِمَا رَأَى وَشَاهَدَ مِنَ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ^(٢).

وَذَكَرُوا أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَقَدَّ عَلَى مُسَيِّمَةَ، وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ عَمْرُو لَمْ يُسْلِمْ بَعْدُ، فَقَالَ لَهُ مُسَيِّمَةُ: وَيْحَكَ، يَا عَمْرُو! مَاذَا أَنْزَلَ عَلَى صَاحِبِكُمْ، يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ؟ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ أَصْحَابَهُ يَقْرَأُونَ سُورَةَ عَظِيمَةَ قَصِيرَةً، فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: ﴿وَالنَّصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ حَسِيرٌ﴾ ... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَفَكَّرَ مُسَيِّمَةُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: وَأَنَا قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ مِثْلَهُ، فَقَالَ: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: يَا وَيْرُ، يَا وَيْرُ. إِنَّمَا أَنْتَ أُذُنَانِ وَصَدْرٌ. وَسَائِرُكَ حَفْرٌ نَقْرٌ. كَيْفَ تَرَى يَا عَمْرُو؟ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: وَاللَّهِ! إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ تَكْذِبُ^(٣). فَإِذَا كَانَ هَذَا مِنْ مُشْرِكٍ فِي حَالِ شُرْكِهِ، لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ حَالُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِدْقُهُ، وَحَالُ مُسَيِّمَةَ - لَعَنَهُ اللَّهُ -

[طه: ١٢٩]. أَي لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَجَلَ الْخَلْقَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ، لَقَضَى بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَاسْعَدَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْتَبَ الْكَافِرِينَ.

﴿وَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتُهُ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْعَتِيبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾
[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ آيَةً]

أَي يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةُ الْمُكَذَّبُونَ الْمُعَايِدُونَ: لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةً مِنْ رَبِّهِ، يَعْثُونَ كَمَا أَعْطَى اللَّهُ نُمُودَ النَّاقَةِ، أَوْ أَنْ يُحَوِّلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، أَوْ يُرِيحَ عَنْهُمْ جِبَالَ مَكَّةَ، وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا بَسَاتِينَ وَأَنْهَارًا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا اللَّهُ عَلَيْهِ قَادِرٌ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلَ لَكَ فُضُولًا ﴿١٠﴾﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿الفرقان: ١٠﴾، [١١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ﴾... الآية [الإسراء: ٥٩]، يَقُولُ تَعَالَى: إِنْ سْتَبِي فِي خَلْقِي: أَنِّي إِذَا أَنْتَبَهُمْ مَا سَأَلُوا، فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عَاجَلْتُهُمْ بِالعُقُوبَةِ. وَلِهَذَا لَمَّا خَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا، فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عُذِّبُوا، وَبَيْنَ إِنْظَارِهِمْ، اخْتَارَ إِنْظَارَهُمْ، كَمَا حَلَمَ عَنْهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِزْشَادًا لِلنَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْجَوَابِ عَمَّا سَأَلُوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْعَتِيبُ لِلَّهِ﴾ أَي الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَهُوَ يَعْلَمُ الْعَوَاقِبَ فِي الْأُمُورِ.

﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أَي إِنْ كُنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ حَتَّى تَشَاهِدُوا مَا سَأَلْتُمْ، فَانظُرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيَّ وَفِيكُمْ. هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ آيَاتِهِ ﷺ أَعْظَمَ مِمَّا سَأَلُوا حِينَ أُشَارَ بِحَضْرَتِهِمْ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ إِبْدَارِهِ فَانْشَقَّ [بِاسْتِثْنَاءِ] فِرْقَةٌ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ، وَفِرْقَةٌ مِنْ دُونِهِ. وَهَذَا أَعْظَمُ مِنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ مِمَّا سَأَلُوا وَمَا لَمْ يَسْأَلُوا، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ اسْتِزْشَادًا وَتَبَيَّنَّا لِأَجَابِهِمْ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عِنَادًا وَتَعَثُّتًا فَتَرَكَهُمْ فِيمَا زَالَهُمْ، وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْآيَاتِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ... الآية [يونس: ٩٦]، [٩٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمْ

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرَفٌ ﴿٦١﴾﴾
﴿إِنَّمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَائِكِ وَجَرِينَ بِيَمِينِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُجِيبْتُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٢﴾﴾
﴿فَلَمَّا أَجْنَحْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِأَيْمَانِهَا النَّاسَ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ لِيَسْأَلَنَّكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾﴾
﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا وَعَلَيْهَا أَتَتْهَا أَمْزَاجٌ بَاطِلًا أَوْ نُهَارًا فَيَجْعَلُهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَمْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

التَّوَقُّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ... الآية [الأنعام: ١١١]، وَلَمَّا فِيهِمْ مِنَ الْمُكَابِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ... الآية [الحجر: ١٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ الآية [الطور: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُجَابُوا إِلَى مَا سَأَلُوهُ، لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي جَوَابِهِمْ، لِأَنَّهُ دَائِرٌ عَلَى تَعَثُّبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، لِكَثْرَةِ فُجُورِهِمْ وَفَسَادِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرَفٌ فِي أَيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَائِكِ وَجَرِينَ بِيَمِينِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُجِيبْتُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٢﴾﴾ فَلَمَّا أَجْنَحْتُمْ إِذَا هُمْ

يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَرِيٍّ غَيْرٍ يُتَايَئُهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

[تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ حِينَ تَصِيْبُهُ الرَّحْمَةُ بَعْدَ الضَّرِّ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا أذَاقَ النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ
مَسَّتْهُمْ كَالرَّحَاءِ بَعْدَ الشَّدَةِ، وَالْخَضْبِ بَعْدَ الْجَذْبِ،
وَالْمَطْرِ بَعْدَ الْقَحْطِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾
قَالَ مُجَاهِدٌ: اسْتَهْزَاءٌ وَتَكْذِيبٌ^(١). كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ الضَّرُّ دَعَاكَ لِجَبِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾... الآية
[يونس: ١٢]، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِهِمْ
الصُّبْحَ عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، أَيْ مَطَرٍ، ثُمَّ قَالَ:
«هَلْ تَذُرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ قَالَ: «قَالَ: أَصَحَّ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا
مَنْ قَالَ: مُطْرُنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ
بِالْكُوكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطْرُنَا بِنُورِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ
بِي مُؤْمِنٌ بِالْكُوكِبِ»^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أَيْ
أَشَدُّ اسْتِدْرَاجًا وَإِمَهَالًا حَتَّى يَظُنُّ الطَّانُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُ
لَيْسَ بِمُعَذِّبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي مَهْلَةٍ، ثُمَّ يُؤْخَذُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ؛
وَالكَاثِبُونَ الكِرَامُ يَكْتُبُونَ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَقَعُهُ، وَيُحْصُونَهُ
عَلَيْهِ، ثُمَّ يَعْضُونَهُ عَلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَيَجَازِيهِ
عَلَى الْجَبِيلِ وَالْحَقِيرِ وَالنَّقِيرِ وَالْقَطِيمِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ «هُوَ الَّذِي يُسِرُّكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» أَيْ
يَحْفَظُكُمْ وَيَكْلُؤُكُمْ بِحِرَاسَتِهِ «حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَاحِ وَجَرَيْنَ
بِهِ رِيحٌ طَبِئَتْ وَفَرِحُوا بِهَا» أَيْ بِسُرْعَةِ سَيْرِهِمْ رَافِقِينَ،
فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ «جَاءَتْهَا» أَيْ تِلْكَ الشَّفَقُ «رِيحٌ
عَاصِفٌ» أَيْ شَدِيدَةٌ «وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» أَيْ
اغْتَلَمَ الْبَحْرُ عَلَيْهِمْ «وَطَلَّتْهَا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ» أَيْ هَلَكُوا
«دَعَا اللَّهُ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ» أَيْ: لَا يَدْعُونَ مَعَهُ صَمًا وَلَا
وَتْنَا، بَلْ يُفْرِدُونَهُ بِالِدُعَاءِ وَالِابْتِهَالِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
مَسَّكُمْ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا جَنَّكَ إِلَى الْبَرِّ
أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وَقَالَ هُنَا: «دَعَا
اللَّهُ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِيَنْ أَعْيَنَنَا مِنْ هَذِهِ» أَيْ هَذِهِ الْحَالِ
«لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» أَيْ لَا نَشْرُكَ بِكَ أَحَدًا، وَلَنُفْرِدَنَّكَ
بِالْعِبَادَةِ هُنَاكَ، كَمَا أَفْرَدَنَّكَ بِالِدُعَاءِ هُنَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿لَمَّا أَجَاهُمْ﴾ أَيْ مِنْ تِلْكَ الْوَرُطَةِ ﴿إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ
بِعَرِيٍّ غَيْرٍ﴾ أَيْ كَانَ لَهُمْ يَكُنُّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ «كَانَ لَوْ

يَدْعُنَا إِلَيْ صُرِيٍّ مَسْمُومٍ» [يونس: ١٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ
أَيِّ إِنَّمَا يَدُوقُ وَبَالَ هَذَا الْبَغْيِ أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ، وَلَا تَصْرُونَ
بِهِ أَحَدًا غَيْرَكُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ
أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْعُرُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ فِي
الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(٣). وَقَوْلُهُ: «مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أَيْ إِنَّمَا لَكُمْ مَتَاعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا
الْحَقِيرَةَ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيْ فَتُخْبِرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ، وَتُؤْفِكُمْ بِإِيَّاهَا،
فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا
يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَالْخَلْطُ بِهِ، تَبَّاتِ
الْأَرْضِ وَمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَارْتَوَتْ وَظَلَّتْ أهلكها أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَامَا لَيْلًا أَوْ
نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَيْ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

[مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]

صَرَبَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَثَلًا لِهَوَاةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا
وَسُرْعَةِ انْفِصَالِهَا وَزَوَالِهَا، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنَ
الْأَرْضِ، بِمَاءٍ أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنْ
زُرُوعٍ وَثَمَارٍ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، وَمَا تَأْكُلُ
الْأَنْعَامُ مِنْ أَبِّ وَقَضْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، «حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا» أَيْ زِينَتَهَا الْفَائِيَةَ «وَارْتَوَتْ» أَيْ حَسِنَتْ بِمَا خَرَجَ
مِنْ زُبَاهَا مِنْ زُهُورٍ نَضْرَةٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ
﴿وَظَلَّتْ أهلكها أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا وَعَرَسُوهَا﴾ أَنَّهُمْ قَدِرُونَ
عَلَيْهَا ﴿أَيْ عَلَى جُدَادِهَا وَحَصَادِهَا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ
جَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ أَوْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ، فَأَيَّسَتْ أَوْرَاقَهَا
وَأَتَلَّتْ ثِمَارَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «أَنهَامَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا» أَيْ يَابَسَا بَعْدَ الْخُضْرَةِ وَالنَّضَارَةِ ﴿كَانَ لَمْ
تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ أَيْ كَانَتْهَا مَا كَانَتْ حِينًا قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَالَ
قَتَادَةُ: «كَانَ لَمْ تَغْنَبِ» كَأَنَّ لَمْ تَتَّعَمَ. وَهَكَذَا الْأُمُورُ بَعْدَ
زَوَالِهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ.

(١) الطبري: ٤٩/١٥ (٢) فتح الباري: ٦٠٧/٢ (٣) أبو داود:

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُعْمَسُ فِي النَّارِ عَمْسَةً، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا، فَيُعْمَسُ فِي النَّعِيمِ عَمْسَةً، ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا»^(١). وَقَالَ تَعَالَى إِنْخَابًا عَنِ الْمُهْلَكِينَ: «فَأَصْبَحُوا فِي رِيحِهِمْ جَثِيمِينَ»^(٢) كَانَ لَمْ يَغْتَوُوا فِيهَا» [هود: ٦٧، ٦٨].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَأَيِّ نُبِينٍ الْحُجَجِ وَالْأَدَلَّةِ»^(٣) لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا الْمَثَلِ فِي زَوَالِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِهَا سَرِيعًا مَعَ اغْتِرَابِهِمْ بِهَا، وَتَمَكُّنِهِمْ وَتَقْتِيهِمْ بِمَوَاعِيدِهَا، وَتَفَلَّتِهَا عَنْهُمْ، فَإِنَّ مِنْ طَبْعِهَا الْهَرَبَ مِمَّنْ طَلَبَهَا، وَالطَّلَبَ لِمَنْ هَرَبَ مِنْهَا، وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلِ الدُّنْيَا بِنَبَاتِ الْأَرْضِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: «وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا» [الكهف: ٤٥] وَكَذَا فِي سُورَةِ الزُّمَرِ [الآية: ٢١] وَالْحَدِيدِ [الآية: ٢٠] يَضْرِبُ اللَّهُ بِذَلِكَ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

[التَّرغِيبُ فِي النِّعَمِ الدَّائِمَةِ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ» الْآيَةِ. لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا، رَغَّبَ فِي الْجَنَّةِ وَدَعَا إِلَيْهَا، وَسَمَّاَهَا دَارَ السَّلَامِ، أَيَّ مِنَ الْآفَاتِ وَالنَّقَاصِ وَالنَّكَاتِ فَقَالَ: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيْلَ عِنْدَ رَأْسِي، وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَضْرِبْ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: اسْمَعْ، سَمِعْتُ أَدُنُّكَ، وَاعْقِلْ، وَاعْقَلْ قَلْبُكَ، إِنَّمَا مَمْلُوكٌ وَمَثَلُ أَمْتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ، فَاللَّهُ الْمَلِكُ، وَالِدَارُ الْإِسْلَامُ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ! رَسُولٌ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١). وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَرْفُوعًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَبِحَبِيبِهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٢

سُورَةُ الْيُونُسِ

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيُرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَا كَانَكُمْ أَسْمَاءُ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَاعْبُدُونَ ﴿٦٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغُفْلِينَ ﴿٦٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكُمْ ﴿٧١﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصْرِفُونَ ﴿٧٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّقْتُ كَلِمَاتِ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٣﴾

[أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ]

التَّقْلِينَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، إِنَّ مَا قَلَّ وَكَثَىٰ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَهْلَى» قَالَ: وَأَنْزَلَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ» الْآيَةِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ^(٣).

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلَ الصَّالِحِ الْحُسْنَىٰ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» [الرحمن: ٦٠] وَقَوْلُهُ: «وَزِيَادَةٌ» هِيَ تَضْعِيفُ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ بِالْحَسَنَةِ: عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ وَزِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا،

(١) مسلم: ٢١٦٢/٤ (٢) الطبري: ٦١/١٥ إسناده منقطع سعيد ابن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبدالله ووصله الحاكم في المستدرک ٢/٣٣٨، ٣٣٩ فيه عبدالله بن صالح فيه ضعف من قبل حفظه. (٣) الطبري: ٦٠/١٥ وأحمد: ١٩٧/٥

كَمَا قَالَ: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْإِنسَانِ...﴾
 الآية [الشورى: ٤٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ
 عَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخُصُ فِيهِ
 الْأَبْصَارُ ﴿١٥﴾ مُطَاعِينَ مُقْبِلِينَ رُؤُوسِهِمْ...﴾ الآية [ابراهيم:
 ٤٢، ٤٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ﴾ أَي مَانِعٍ وَلَا
 وَاقٍ يَبْقِيهِمُ الْعَذَابَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ یَوْمَئِذٍ
 أَلَمْ أَكُنْ مِنَ الْفَرَى ﴿١٦﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١٧﴾ إِلَ رَبِّكَ یَوْمَئِذٍ التَّنْفِرُ﴾ [القيامة: ١٠-
 ١٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّمْنَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ﴾... الآية، إِخْبَارٌ
 عَنِ سَوَادٍ وَجُوهِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿یَوْمَ
 تَبَيَّنَ وَجُوهٌ وَسُودَ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ
 إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضتْ
 وَجُوهُهُمْ فَبِئْرَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦،
 ١٠٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ یَوْمَئِذٍ مُّشْفَرَةٌ ﴿٢٨﴾ صَاحِكَةٌ
 مُّشْتَبِرَةٌ ﴿٢٩﴾ وَجُوهٌ یَوْمَئِذٍ عَلْبَاءٌ غَیْرَةٌ...﴾ الآية [عبس: ٣٨-
 ٤٠].

﴿وَجُوهٌ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ
 وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارٌ تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾
 فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفَابِينَ ﴿٢٩﴾
 هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ
 وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا یَفْعَلُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[تَبْرِيّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ تَحْشُرُهُمْ﴾ أَي أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ
 مِنْ جَنِّ وَإِنْسٍ وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَشَرْتَنَّهُمْ فَلَمْ تَعْدُوا مِنْهُمْ
 أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ
 وَشُرَكَائِكُمْ﴾ أَي الزَّمُوا أَنْتُمْ وَهُمْ مَكَانًا مُّعَيَّنًا، امْتَارُوا فِيهِ
 عَنْ مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّنُوا يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ
 الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَجُوهٌ نَقُومُ السَّاعَةِ يَوْمَئِذٍ
 يَفْرُقُونَ﴾ [الروم: ١٤] وَفِي الْآيَةِ الْآخِرَى ﴿يَوْمَئِذٍ
 يَصَّدَعُونَ﴾ أَي يَصِيرُونَ صِدْعَيْنِ، وَهَذَا يَكُونُ إِذَا جَاءَ
 الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَلِهَذَا قِيلَ:
 ذَلِكَ... (٤) يَسْتَسْفِعُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَأْتِي
 لِفَضْلِ الْقَضَاءِ وَيُرِيحَنَا مِنْ مَقَامِنَا هَذَا، وَفِي الْحَدِيثِ

(١) الطبري: ٦٣/١٥-٦٨ (٢) أحمد: ٣٣٣/٤ (٣) مسلم:
 ١٦٣/١ ونحفة الأحوذبي: ٥٢٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/
 ٣٦١ وابن ماجه: ٦٧/١ (٤) هنا بياض في الأصل وانظر
 الحديث عند الآية ٣١ من تفسير البقرة.

وَيَسْمَلُ مَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ فِي الْجِنَانِ مِنَ الْفُصُورِ وَالْحُورِ
 وَالرِّضَا عَنْهُمْ، وَمَا أَخْفَاهُ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ
 ذَلِكَ وَأَعْلَاهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ
 جَمِيعِ مَا أُعْطُوا، لَا يَسْتَحِقُّونَهَا بِعَمَلِهِمْ، بَلْ بِفَضْلِهِ
 وَرَحْمَتِهِ. وَقَدْ رُوِيَ تَفْسِيرُ الزِّيَادَةِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ
 عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَخَدِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ
 عَبَّاسٍ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى
 وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ وَمُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ وَعَامِرَ بْنَ
 سَعْدٍ، وَعَطَاءَ وَالصَّحَّاحِ، وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ،
 وَمُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ وَغَيْرَهُمْ^(١). مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.
 وَقَدْ وَرَدَتْ فِيهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا
 رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صُهَيْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى ذُرِّيَّتُهُمْ وَزِيَادَةٌ﴾
 وَقَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى
 مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنْ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ
 يُنْجِرَكُمْوَهُ فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُقَلِّ مَوَازِينَنَا، أَلَمْ يَبْيَضْ
 وَجُوهَنَا، وَدَخَلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ - قَالَ -:
 فَيَكْشِفُ لَهُمُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ! مَا أُعْطَاهُمْ
 اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا أَقْرَبَ لِأَعْيُنِهِمْ»^(٢).
 وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرَوْنَ وَجُوهَهُمْ فَتَرٌ﴾ أَي قَتَامٌ وَسَوَادٌ
 فِي عَرَاصَاتِ الْمَحْشَرِ، كَمَا يَعْتَرِي وَجُوهَ الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ مِنْ
 الْفَتْرَةِ وَالْعَبْرَةِ ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أَي هَوَانٌ وَصَغَارٌ، أَي لَا يَحْضُلُ
 لَهُمْ إِهَانَةٌ فِي الْبَاطِنِ وَلَا فِي الظَّاهِرِ، بَلْ هُمْ كَمَا قَالَ
 تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ: ﴿فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ سَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمْ نَضْرَةً
 وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أَي نَضْرَةً فِي وَجُوهِهِمْ وَسُرُورًا فِي
 قُلُوبِهِمْ. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ آمِينَ.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سِنِينَ يَبْتَلِهَا وَرَهْمُهُمْ ذَلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنْ
 اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَلَّمْنَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ فَطَمًا مِنْ أَلِيلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ
 أَصْعَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

[جَزَاءُ الْمُجْرِمِينَ]

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ السَّعْدَاءِ الَّذِينَ يُضَاعَفُ لَهُمُ
 الْحَسَنَاتُ، وَيَزْدَادُونَ عَلَى ذَلِكَ، عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ
 الْأَشْقِيَاءِ، فَذَكَرَ تَعَالَى عَذْلَهُ فِيهِمْ، وَأَنَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى
 السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا، لَا يَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَرَهْمُهُمْ﴾ أَي
 تَعْتَرِيهِمْ وَتَعْلُوهُمْ ﴿ذَلَّةٌ﴾ مِنْ مَعَاصِيهِمْ وَخَوْفِهِمْ مِنْهَا،

الْآخِرِ «نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ فَوْقَ النَّاسِ»^(١). وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِخْبَارًا عَمَّا بَأْمُرُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْتَانَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿مَكَانَكُمْ أَسْفَرٌ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾... الْآيَةِ: أَنَّهُمْ أَكْرَهُوا عِبَادَتَهُمْ وَتَبَرُّوا مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الْآيَةِ [مریم: ٨٢].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وَإِذَا خَيْرَ النَّاسِ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً... الْآيَةِ [الاحقاف: ٥، ٦].

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِخْبَارًا عَنِ قَوْلِ الشُّرَكَاءِ فِيمَا رَاجِعُوا فِيهِ عَابِدِيهِمْ عِنْدَ ادْعَائِهِمْ عِبَادَتَهُمْ: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾... الْآيَةِ، أَيُّ مَا كُنَّا نَشْعُرُ بِهَا وَلَا نَعْلَمُ بِهَا، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي بِكُمْ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَنَّا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا، وَلَا أَمْرًا نَأْكُمُ بِهَا، وَلَا رِضِيْنَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰؤُلَاءِكَ تَلَوُا كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أَيُّ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُخْتَبَرُ كُلُّ نَفْسٍ وَتَعْلَمُ مَا سَلَفَ مِنْ عَمَلِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبَى السَّارِقُ﴾ [الطارق: ٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ يُؤْمِدُ بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ﴾ [القيامة: ١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [الإسراء: ١٣، ١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَانَهُمُ الْحَقُّ﴾ أَيُّ: وَرَجَعَتْ الْأُمُورُ كُلُّهَا إِلَى اللَّهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ، فَفَضَّلَهَا، وَأَدْخَلَ أَهْلَ الْحَجَّةِ الْحَجَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ ﴿وَمَسَدٌ عَنْهُمْ﴾ أَيُّ ذَهَبَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفْتِرَاءً عَلَيْهِ.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْفِقُونَ﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ [اعْتِرَافَ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي رَبُّوبِيَّتِهِ، وَإِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ]

يَحْتَجُّ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِاعْتِرَافِهِمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ [إِلَهِه]، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ مَنْ ذَا الَّذِي يُنَزِّلُ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً الْمَطَرِ فَيَسْقِي الْأَرْضَ شَقًّا يُقَدِّرْتَهُ وَمَيِّبِيَّتِهِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا ﴿حَبًّا﴾ وَنَبَاتًا وَفَضًّا ﴿وَأَنْجَابًا﴾ وَزَيْتُونًا وَخَلًّا ﴿وَمَدَائِنَ غَلًّا﴾ وَفِكَهَةً وَأَبَاةً [عيس: ٢٧-٣١] أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]؟ وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ أَيُّ الَّذِي وَهَبَكُمْ هَذِهِ الْقُوَّةَ السَّمِيعَةَ، وَالْقُوَّةَ الْبَاصِرَةَ، وَلَوْ شَاءَ لَذَهَبَ بِهَا وَلَسَلْبَكُمْ إِيَّاهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾... الْآيَةِ [الملك: ٢٣]. وَقَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾... الْآيَةِ [الأنعام: ٤٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَيُّ يَقَدِّرْتَهُ الْعَظِيمَةَ وَمَيِّبِيَّتَهُ الْعَمِيمَةَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أَيُّ مَنْ يَبْدِئُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿يَسْتَلِمُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فَالْمَلِكُ كُلُّهُ الْعُلُوِّيُّ وَالسُّفْلِيُّ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ مَلَائِكَةٍ وَإِنْسٍ وَجَانٍّ، فَيَقْبِرُونَ إِلَيْهِ، عَمِيدٌ لَهُ، خَاضِعُونَ لَدَيْهِ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْفِقُونَ﴾ أَيُّ أَفَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ بَارَائِكُمْ وَجَهْلِكُمْ؟

وَقَوْلُهُ: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾... الْآيَةِ، أَيُّ فَهَذَا الَّذِي اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ الْحَقُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أَيُّ فِكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ. ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أَيُّ فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنِ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ؟! وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾... الْآيَةِ، أَيُّ كَمَا كَفَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى شُرِكِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ وَحَدُّهُ، الَّذِي بَعَثَ رُسُلَهُ بِتَوْحِيدِهِ، فَالْهَذَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ أَنَّهُمْ أَشْقِيَاءُ مِنْ سَاكِبِي النَّارِ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٤

سُورَةُ الْيُونُسَ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأنتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَارَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أُنُوفًا وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ جِثَّةً يَوْمَ تَدْنُو السَّمَاءُ كَتُومٍ مَّقْبَضِيْنَ أُمَّةً رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْرَ لِي بِعَيْشِكُمْ إِن يَشَاءُ إِلَّا مَا فِي كِتَابِي أَمْرٌ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَسْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَنزَلْتُ عَلَيْكُم مَّاءً مِّمَّنْ لَدَيْ غَيْبَاتِنَا أَوْ نَزَلْتُ عَلَيْكُم مِّنْ سَمَوَاتِنَا مَا نَدَّبْتُم بِهِ أَوْ جَاءَتْكُمُ السَّاعَةُ الْغَائِبَةُ فَلَا تَدْرِكُهُمْ سَاعَةٌ وَلَا يَسْتَغِيثُونَ ﴿٥٠﴾ أَتَمُرُّونَ إِذَا مَآءٌ مِّنْهُمُ يَخِرُّ مِنْ تَحْتِهَا فَيَلْبَسُونَ مِنْهُ أَمْ لَكُمْ مَلَكٌ يَحْفَظُهُمْ إِن يَدْرِؤُهُمْ مِنَ الْمَضْجَعِ وَإِنَّ إِلَهَهُمْ لَشَدِيدُ الْحَقِّ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَحَقُّ هُوَ قَوْلُ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٢﴾

عَدَدَ سِنِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْفَاعِلِينَ ﴿٥٣﴾ قُلْ إِن لَّيْتَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿المؤمنون: ١١٢-١١٤﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أَي يَعْرِفُ الْأَبْنَاءُ الْأَبَاءَ، وَالْقَرَابَاتُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ كُلُّ مَشْغُولٍ بِنَفْسِهِ ﴿فَإِذَا فُجِعَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾... الآية [المؤمنون: ١٠١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾... الآيات [المعارج: ١١-١٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] لِأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، وَلَا خَسَارَةَ أَكْبَرُ مِنْ خَسَارَةِ مَنْ فُرِقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَجْبَتِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ.

﴿وَإِمَارَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أُنُوفًا وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ جِثَّةً يَوْمَ تَدْنُو السَّمَاءُ كَتُومٍ مَّقْبَضِيْنَ أُمَّةً رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

عَظِيمَةً، وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ إِسْمَاعِ الْأَصَمِّ - وَهُوَ الْأُطْرَشُ - فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ هِدَايَةِ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أَي يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ التَّوَدُّدِ، وَالسَّمْتِ الْحَسَنِ، وَالخَلْقِ الْعَظِيمِ، وَالذَّلَالَةِ الظَّاهِرَةَ عَلَىٰ نُجُوتِكَ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى. وَهَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ كَمَا يَنْظُرُ غَيْرُهُمْ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ كَمَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ، بَلِ الْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْوَقَارِ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْإِحْتِقَارِ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾... الآية [الفرقان: ٤١].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئًا وَإِنْ كَانَ قَدْ هَدَىٰ بِهِ مَنْ هَدَىٰ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى، وَفَتَحَ بِهِ أَغْمِيًا عُمِيًّا، وَأَدَانَا ضَمًّا، وَقَلُوبًا غُلْفًا، وَأَصْلٌ بِهِ عَنِ الْإِيمَانِ آخِرِينَ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مَلِكِهِ بِمَا يَشَاءُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا» - إِلَىٰ أَنْ قَالَ فِي آخِرِهِ - يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِطَوِيلِهِ (١).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾

[الشعور بقصر الحياة الدنيا عند الحشر]

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا لِلنَّاسِ قِيَامَ السَّاعَةِ وَحَشْرَهُمْ مِنْ أَجْدَانِهِمْ إِلَىٰ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾... الآية. كَقَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [الاحقاف: ٣٥] وَكَقَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَيْشَةً أَوْ حُجْلًا﴾ [النازعات: ٤٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُفْجِعُ فِي الصُّورِ وَيَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ رَبُّكَ﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٥٢﴾ تَحْنُ أَعْمٌ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْئَلُهُمْ طَرِيفَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿طه: ١٠٢-١٠٤﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾... الآيتين [الروم: ٥٥، ٥٦]، وَهَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَىٰ اسْتِقْصَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ

فِضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

[لِيُنْتَقَمَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ سِوَاءَ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ] يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلَيْمَّا زُيِّنَ لَكَ الَّذِي نَدَمْتَ﴾ أَي نَتَقَمُ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِكَ لِتَقَرَّ عَيْنُكَ مِنْهُمْ ﴿أَوْ نَتَوَقَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أَي مَصِيرُهُمْ وَمُنْقَلِبُهُمْ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ بِعَدْلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(١). ﴿فِضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾... الْآيَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾... الْآيَةُ [الزمر: ٦٩]، فَكُلُّ أُمَّةٍ تُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ بِحَضْرَةِ رَسُولِهَا، وَكِتَابِ أَعْمَالِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، مَوْضُوعٌ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ، وَحَفِظَتْهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شُهَدَاءُ أَيْضًا - أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ - وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الشَّرِيفَةُ وَإِنْ كَانَتْ آخِرَ الْأُمَمِ فِي الْخَلْقِ إِلَّا أَنَّهَا أَوَّلُ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ وَيُقْضَىٰ لَهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُقْضَىٰ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ» ^(٢). فَأَمَّتُهُ إِنَّمَا حَارَتْ قَصَبَ السَّبْقِ بِشَرَفِ رَسُولِهَا صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ آرَاءَ بَشَرٍ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أُنذِرْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَتُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعَجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

[اسْتَعْجَالُ الْمُنْكَرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَوَابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتَعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ وَسُؤَالِهِمْ عَنْ وَقْتِهِ قَبْلَ التَّعْيِينِ مِمَّا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِيهِ كَقَوْلِهِ: ﴿سَتَعْجَلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مَتَىٰ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] أَي كَائِنَتْ لَا مَحَالَةَ، وَوَاقِعَةً وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا وَقْتَهَا عَيْنًا، وَلِهَذَا أُرْسِدَ تَعَالَىٰ رَسُولُهُ ﷺ إِلَىٰ جَوَابِهِمْ فَقَالَ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾... الْآيَةُ، لَا أَقُولُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي، وَلَا أَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُطَّلِعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَنَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَيْكُمْ، وَقَدْ أَخْبَرْتُكُمْ بِمَجِيءِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا كَائِنَةٌ، وَلَمْ يُطَّلِعَنِي عَلَىٰ وَقْتِهَا وَلَكِنْ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أَي لِكُلِّ قَرْنٍ مُدَّةٌ مِنَ الْعُمُرِ مُقَدَّرَةٌ، فَإِذَا انْقَضَىٰ

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنِّ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٥﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ آرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلَا لِلَّهِ آدَابٌ لَكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ فَتَرَوْنَ ﴿٥٨﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَاتُكُونَ فِي شَأْنٍ وَمَا تَلَوْتُمْ مِنْ قُرْءَانٍ لِأَنْتُمْ لِمَنْ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾

أَجَلُهُمْ ﴿٦١﴾ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ ﴿٦٢﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾... الْآيَةُ [المنافقون: ١١].

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ سَبَابَتِهِمْ بَعْتَهُ فَقَالَ: ﴿قُلْ آرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا﴾ أَي: لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ أُنذِرْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَتُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعَجِلُونَ ﴿٥١﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَالُوا ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾... الْآيَةُ [السجدة: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ فَالَّذِينَ يَفْعَلُهُمْ بِإِيمَانِهِمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٥٤﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴿٥٥﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ هَذَا تَبْكِيَّتًا وَتَفْرِيعًا كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ﴿٥٦﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا

(١) الطبري: ٩٩/١٥ (٢) فتح الباري: ٥٩٥/٦ ومسلم: ٢/

بُصْرُونَ ﴿٥٦﴾ أَصْلُهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا إِمَّا تُعِزُّونَ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿الطور: ١٣-١٦﴾.

﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتَ

بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ
وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا

يُظَلَمُونَ ﴿٥٨﴾

[الْقِيَامَةُ حَقٌّ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَسَيَسْأَلُونَكَ ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أَيِ الْمَعَادِ
وَالْقِيَامَةِ مِنَ الْأَجْدَاثِ بَعْدَ صَيُورَةِ الْأَجْسَامِ تَرَابًا ﴿قُلْ إِي
رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيِ لَيْسَ صَيُورَتُكُمْ تَرَابًا
بِمُعْجِزِ اللَّهِ عَنِ إِعَادَتِكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ
إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وَهَذِهِ
الآيَةُ لَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا آيَاتَانِ أُخْرِيَانِ يَأْمُرُ اللَّهُ
تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يُشَمِّسَ بِهِ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْمَعَادَ فِي سُورَةِ
سَبَأٍ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾
[الآية: ٣] وَفِي التَّعَابِينِ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ الْكُفْرَاءُ أَنْ لَنْ يَبْعَثُ قُلُوبًا بَلَى وَرَبِّي
لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتَأْتِيَنَّكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الآية: ٧] ثُمَّ
أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ يَوْمَ الْكَافِرِ لَوْ افْتَدَى مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ بِجِلْدِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا
الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أَيِ بِالْحَقِّ ﴿وَهُمْ لَا
يُظَلَمُونَ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٌ وَإِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ

رُجِعُونَ ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّ وَعْدَهُ
حَقٌّ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ،
وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ، الْعَلِيمُ بِمَا تَفَرَّقَ مِنَ الْأَجْسَامِ
وَتَمَرَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبِحَارِ وَالْقِفَارِ.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي

الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ

فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٦٢﴾

[الْقُرْآنُ مَوْعِظَةٌ وَشِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ وَهُدًى]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى خَلْقِهِ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ
عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ
رَبِّكُمْ﴾ أَيِ زَاجِرٌ عَنِ الْفَوَاحِشِ ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾
أَيِ مِنَ الشُّبُهَةِ وَالشُّكُوكِ، وَهُوَ إِزَالَةٌ مَا فِيهَا مِنْ رِجْسٍ

وَدَنْسٍ، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أَيِ يَحْضُلُ بِهِ الْهُدَايَةُ وَالرَّحْمَةُ
مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُصَدِّقِينَ
الْمُؤْمِنِينَ بِمَا فِيهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
شِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]
وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً...﴾

الآيَةُ [فصلت: ٤٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أَيِ بِهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ الْهُدَى
وَوَيْبِ الْحَقِّ فَلْيَفْرَحُوا، فَإِنَّهُ أَوْلَى مَا يَفْرَحُونَ بِهِ ﴿هُوَ خَيْرٌ
مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيِ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزُّهْرَةِ
الْقَائِيَةِ الدَّاهِيَةِ لَا مَحَالَةَ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا
وَحَلَالًا قُلْ إِنَّهُ أَرْسَلَ لَكُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَقَارُوتَ ﴿٦٣﴾ وَمَا ظَنُّ
الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ

عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٤﴾

[لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ أَنْ يُحِلَّ أَوْ يُحَرِّمَ شَيْئًا]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ
وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَعَبْدُ اللَّهِ: نَزَلَتْ إِنْكَارًا
عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ مِنَ الْبِحَارِ
وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ^(١). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ وَمَا
دَرَأَ مِنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾... الْآيَاتِ
[الأنعام: ١٣٦]، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ
قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا رَثُّ الْهَيْبَةِ فَقَالَ: «هَلْ لَكَ
مَالٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: قُلْتُ:
مِنْ كُلِّ الْمَالِ: مِنَ الْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالخَيْلِ وَالغَنَمِ، فَقَالَ:
«إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرِّ عَلَيْكَ» - وَقَالَ: «هَلْ تَنْتَجِعُ إِبِلَكَ
صَحَابًا آذَانَهَا، فَتَعْمِدُ إِلَى مُوسَى فَتَقَطِّعَ آذَانَهَا، فَتَقُولُ:
هَذِهِ بَحْرٌ. وَتَشْقُ جُلُودَهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ صُرْمٌ. وَتَحْرِمُهَا
عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ
لَكَ حِلٌّ، سَاعِدَ اللَّهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَى اللَّهُ أَحَدٌ
مِنْ مُوسَاكَ»^(٢). وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. وَهَذَا حَدِيثٌ جَيِّدٌ
قَوِيٌّ الْإِسْنَادُ.

وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، أَوْ أَحَلَّ
مَا حَرَّمَ بِمُجَرَّدِ الْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ الَّتِي لَا مُسْتَنَدَ لَهَا وَلَا دَلِيلَ
عَلَيْهَا، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿وَمَا ظَنُّ

(١) الطبري: ١١٢/١٥، ١١٣ (٢) أحمد: ٤٧٣/٣، ٤٧٣/٤، ١٣٦/٤

سورة يونس

٢١٦

المؤمنين

الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦١﴾ أَلَيْسَ مَا ظَنُّهُمْ أَنْ يُضَعَّ بِهِمْ يَوْمَ مَرْجِعِهِمْ إِلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فِي تَرْكِهِ مُعَاجَلَتَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا^(١).

﴿قُلْتُ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِمَّا خَلَقَهُ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ أَوْ دِينِهِمْ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بَلْ يُحَرِّمُونَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَجْعَلُونَ بَعْضًا حَلَالًا وَبَعْضًا حَرَامًا. وَهَذَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا شَرَعُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ فِي دِينِهِمْ.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٢﴾﴾

﴿كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ أُمَّتِهِ وَجَمِيعَ الْخَلَائِقِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانٍ وَلَحْظَةٍ، وَأَنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي حَقَارَتِهَا وَصِغَرِهَا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْهَا وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا كِتَابٌ هُوَ يَعْلَمُهَا مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْتَشْطِرُ مِنْ رَوْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ حَرَكَةَ الْأَشْجَارِ وَغَيْرَهَا مِنَ الْجَمَادَاتِ، وَكَذَلِكَ الدَّوَابِّ السَّارِحَةِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّتُكُمْ﴾ ... الْآيَةَ [الأنعام: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ... الْآيَةَ [هود: ٦]، وَإِذَا كَانَ هَذَا عِلْمُهُ بِحَرَكَاتِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَكَيْفَ عِلْمُهُ بِحَرَكَاتِ الْمُكَلَّفِينَ الْمُأْمُورِينَ بِالْعِبَادَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُوَكَّلُ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ الَّذِي يَرْسُلُكَ جِئْنَا بِقَوْمٍ ﴿٦٤﴾ وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجْدِ ﴿٦٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أَيُّ إِذْ تَأْخُذُونَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ: نَحْنُ مُشَاهِدُونَ لَكُمْ، رَأَوْنَ سَامِعُونَ. وَلِهَذَا قَالَ ﷺ لَمَّا سَأَلَهُ جَبْرِيلُ عَنِ الْإِحْسَانِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ

كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٢).

﴿أَلَيْسَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

[مَعْرِفَةُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، كَمَا فَسَّرَ بِهِمْ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا فَ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا يُعْطِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ» قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَعَلَّنَا نَحِبُهُمْ؟ قَالَ: «هُمُ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ

(١) الطبري: ١٥/١١٣ (٢) مسلم: ١/٣٧

نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىٰ آلَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

[الْمُرَادُ بِالْبُشْرَى الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ]

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَهُمُ النَّشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» فَقَدْ عَرَفْنَا بُشْرَى الْآخِرَةِ، الْمَجَنَّةَ، فَمَا بُشْرَى الدُّنْيَا؟ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْعَبْدُ أَوْ تَرَى لَهُ. وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا أَوْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ»^(٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي دَرٍّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الرَّجُلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَيُشْنُونَ عَلَيْهِ بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤). وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَهُمُ النَّشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» - قَالَ: - «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يُبَشِّرُهَا الْمُؤْمِنُ، هِيَ جُزْءٌ مِنْ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ، فَمَنْ رَأَى ذَلِكَ فَلْيُخْبِرْ بِهَا، وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَلِكَ، فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَهُ، فَلْيَنْفُثْ عَنْ سِوَاهِ ثَلَاثًا، وَكَيْبَرٌ، وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا»^(٥). لَمْ يُخْرِجُوهُ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ بُشْرَى الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ بِالْحَيَاةِ وَالْمَغْفِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الذِّكْرَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٦) نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْلَامِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ^(٧) نَزَلًا مِنْ عَفْوِرٍ رَجِيمٍ [فصلت:

٣٠-٣٢] وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ جَاءَهُ مَلَائِكَةٌ يَبِضُّ الْوُجُوهُ يَبِضُّ الشَّيَابَ فَقَالُوا: اخْرِجِي أَيُّهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ: وَرَبٌّ غَيْرُ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فَمِ السَّقَاءِ»^(٨). وَأَمَّا بُشْرَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانِكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أَيُّ هَذَا الْوَعْدُ لَا يُبَدِّلُ وَلَا يُخْلَفُ وَلَا يُعَيَّرُ، بَلْ هُوَ

مُقَرَّرٌ مُثَبَّتٌ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْوَعْدَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٩) أَلَا إِنَّكَ اللَّهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ^(١٠) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِيَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ^(١١)

[الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْكُونِ دُونَ غَيْرِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ قَوْلٌ هُوَ لِأَيِّ الْمُشْرِكِينَ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فِي إِنْ الْوَعْدَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا أَيَّ جَمِيعَهَا لَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أَيُّ السَّمِيعِ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا لَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَىٰ عِبَادَتِهَا، بَلْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ ظُنُونَهُمْ وَتَحْرُسُهُمْ وَكُذِّبَهُمْ وَإِفْكَهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لِعِبَادِهِ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ، أَيَّ يَسْتَرِيحُونَ فِيهِ مِنْ نَصِيهِمْ وَكَلَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا أَيَّ مُضِيئًا لِمَعَاشِهِمْ وَسَعِيهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ أَيَّ يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ، فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَىٰ عَظَمَةِ خَلْقِهَا وَمُقَدَّرِهَا وَمُسَيَّرِهَا.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلٰطِنٍ بِهٰذَا أَنْقُلُوهُ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١٢) قُلْ إِنَّكَ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ^(١٣) مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا

(١) الطبري: ١٥٠/١٥ (٢) الطبري: ١٣٢/١٥ إسناده ضعيف فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف (تقريب) وأيوب بن خالد بن صفوان لا يعرف له رواية عن عبادة بن صامت رضي الله عنه والأحسن منه مارواه ابن جرير بطريق أبي حميد الحمصي عن عبادة رضي الله عنه وصححه الألباني في "الصحيحة" (١٧١٦) (٣) أحمد: ١٥٦/٥ (٤) مسلم: ٢٠٣٤/٤ (٥) أحمد: ٢١٩/٢ إسناده ضعيف: لضعف عبدالله بن لهيعة ودراج (٦) أحمد: ٢٨٧/٤

مَرَجَعَهُمْ ثُمَّ يُدْفِعُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

[الله مُنَزَّهٌ عَنِ الرُّوْبَةِ وَالْأَوْلَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ ادَّعَى أَنَّ لَهُ ﴿وَلَدًا﴾ سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴿أَيُّ تَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ، هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِمَّا خَلَقَ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَمْلُوكٌ لَهُ، عَبْدُهُ ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ يَهْدَا﴾ أَيُّ لَيْسَ عِنْدَكُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَا تَقُولُونَ مِنَ الْكُذْبِ وَالْبُهْتَانِ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِنَّكَارٌ وَوَعْدٌ أَكِيدٌ وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٧١﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٧٢﴾ تَكَاذُ السَّمَوَاتِ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٧٣﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٧٤﴾ وَمَا يَبْغِي الرَّحْمَنُ أَنْ يَنْجِدَ وَلَدًا ﴿٧٥﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٧٦﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٧٧﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٧٨﴾ [مریم: ٨٨-٩٥] ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْكَافِرِينَ عَلَيْهِ الْمُفْتَرِينَ - وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا - بِأَنَّهُمْ لَا يَفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ إِذَا اسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، مَتَّعَهُمْ قَلِيلًا. ﴿ثُمَّ نَضَّضْتُمُ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] كَمَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾ أَيُّ مُدَّةً قَرِيبَةً ﴿ثُمَّ إِنَّنَا مَرَجَعُهُمْ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ يُدْفِعُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أَيُّ الْمَوْجِعَ الْمُؤَلِمَ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أَيُّ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْا مِنَ الْإِفْكِ وَالزُّورِ.

﴿وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ تَبَا نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِمَا بَيَّنتَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِتَابِنَا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾

[قِصَّةُ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِتَبَيُّنِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامَتِهِ عَلَيْهِ: ﴿وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ أَخْبَرَهُمْ وَأَقْضَصَ عَلَيْهِمْ، أَيُّ عَلَى كُفْرَانِ مَكَّةَ الَّذِينَ يُكذِّبُونَكَ وَيُخَالِفُونَكَ ﴿تَبَا نُوحٍ﴾ أَيُّ خَبَرَهُ مَعَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَدَمَّرَهُمُ بِالْعَرَقِ أَجْمَعِينَ عَنْ

﴿وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ تَبَا نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِمَا بَيَّنتَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِتَابِنَا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِتَابِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَنْتَقُولُونَ لِحَقِّي لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ عَمَّا وَعَدَّ آبَاءُنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

أَجْرِهِمْ، لِيَحْذَرَ هُوْلَاءِ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالذَّمَّارِ مَا أَصَابَ أَوْلِيَّكَ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ عَظُمَ عَلَيْكُمْ ﴿مَقَامِي﴾ أَيُّ فِيكُمْ بَيْنَ أَطْهَرِكُمْ ﴿وَتَذَكِيرِي﴾ أَيُّ تَابِكُمْ ﴿بَيَّنتَ اللَّهُ﴾ أَيُّ بَحَّجَجْتَهُ وَبَرَّاهِيْبِهِ ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَيُّ فَإِنِّي لَا أَبَالِي وَلَا أَكْفُ عَنْكُمْ، سِوَاءَ عَظُمَ عَلَيْكُمْ أَوْ لَا ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أَيُّ فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ صَنَمٍ وَوَتْنٍ ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَيُّ وَلَا تَجْعَلُوا أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ مُتَنَسِّسًا، بَلِ افْصِلُوا خَالِكُمْ مَعِي، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ مُحِقُونَ فَأَقْضُوا إِلَيَّ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أَيُّ وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً، أَيُّ مَهْمَا قَدَّرْتُمْ فَافْعَلُوا، فَإِنِّي لَا أَبَالِيكُمْ وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ، لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ هُوْدٌ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآبَاءَهُمْ أَنَّى بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٨٠﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ... [الآية: هود: ٥٤-٥٦].

[الإسلام دين الأنبياء]

المُكذِّبِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَي كَذَّبْتُمْ وَأَذْبَرْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَي لَمْ أَطْلُبْ عَلَى نُصْحِي إِيَّاكُمْ شَيْئًا ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَي وَأَنَا مُمْتَلٍ مَا أَمَرْتُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مَنَاهِلُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَبِيلًا وَسُنَّةً^(١). فَهَذَا نُوحٌ يَقُولُ: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ: ﴿إِذْ قَالَ لِرَبِّهِ أَهْلِي أَتَيْتُكَ قَالَ أَسَلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بْنِي إِدْنَ اللَّهِ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١-١٣٢] وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّلَاحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وَقَالَ مُوسَى: ﴿يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ وَقَالَ السَّحَرَةُ:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَوَقِّنَا الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] وَقَالَتْ بَلْقِيسُ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَا وَآسَمَدًا وَإِنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]

﴿وَقَالَ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَسَيِّدُ النَّبِيِّينَ: ﴿إِنَّ صَلَاحِي وَسُخِّي وَصِحَّاحِي وَمَعَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَمْ وَيَذَلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] أَي: مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ عَنْهُ: «نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ. وَدِينُنَا وَاحِدٌ»^(٣). أَي هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُنَا، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «أَوْلَادُ عَلَاتٍ» وَهُمْ الْإِخْوَةُ مِنْ أُمَّهَاتٍ شَتَّى وَالْأَبُ وَاحِدٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أَي عَلَى دِينِهِ ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وَهِيَ السَّفِينَةُ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ﴾ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُذْذِبِينَ أَي يَا مُحَمَّدُ! كَيْفَ أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا

[عاقبة المجرمين السيئة]

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى اتَّقُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ سِخْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّخِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِتِلْفَانَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

(١) الطبري: ٣٨٨/١٠ (٢) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٣) البداية والنهاية: ١٠١/١ وقال: رواه البخاري.

[قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَدَأْنَا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الرَّسُلَ ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إِلَيْنَا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿أَيُّ قَوْمِهِ﴾ بِتَائِبِينَ ﴿أَيُّ حُجَجِنَا وَبَرَاهِينِنَا﴾ ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿أَيُّ اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْإِقْبَادِ لَهُ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ - قَبِيحُهُمْ اللَّهُ - أَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَالُوهُ كَذِبٌ وَوَهْتَانٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَمَدُوا بِهَا وَأَسْبَغْنَاهَا أَفْسُهَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ ﴿مُوسَى﴾ مُتَكَبِّرًا عَلَيْهِمْ ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا ﴿أَيُّ تَنْبِيئًا﴾ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴿أَيُّ الدِّينِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ﴾ وَتَكُونُ لَكُمْ ﴿أَيُّ لَكَ وَلِهَارُونَ﴾ ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ ﴿أَيُّ الْعِظَمَةُ وَالرِّيَاسَةُ﴾ ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا خَلَقْنَا لَكُمْ يُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُتْلِفُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

[بَيْنَ مُوسَى وَالسَّحْرَةَ]

ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قِصَّةَ السَّحْرَةِ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا هُنَاكَ، وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَفِي سُورَةِ طه وَفِي الشُّعَرَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - أَرَادَ أَنْ يُبْهَرَجَ عَلَى النَّاسِ، وَيُعَارِضَ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ. بِزُخْرَافِ السَّحْرَةِ وَالْمُشْعَبِذِينَ، فَانْعَكَسَ عَلَيْهِ النَّظَامُ، وَلَمْ يَحْضَلْ لَهُ ذَلِكَ الْمُرَامُ، وَظَهَرَتِ الْبَرَاهِينُ الْإِلَهِيَّةُ فِي ذَلِكَ الْمَحْفَلِ الْعَامِّ ﴿وَأَلْفَى السَّحْرَةَ سَجْدِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٢٠-١٢٢] فَظَنَّ فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يَسْتَنْصِرُ بِالسَّحَارِ، عَلَى رَسُولِ عَالِمِ الْأَسْرَارِ، فَخَابَ وَخَسِرَ الْحِجَّةَ وَاسْتَوْجَبَ النَّارَ﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُتْلِفُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا اضْطَفُّوا، وَقَدْ وَعِدُوا مِنْ فِرْعَوْنَ بِالتَّقْرِيبِ وَالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ﴿قَالُوا بِمُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْفَى وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَى﴾ ﴿٨٣﴾ قَالَ بَلِ الْقُوا ﴿٨٤﴾ فَأَرَادَ مُوسَى أَنْ تَكُونَ الْبِدَاءَةُ مِنْهُمْ، لِيَرَى النَّاسَ مَا صَنَعُوا، ثُمَّ يَأْتِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٨

سُورَةُ الْيُونُسِ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُتْلِفُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَأَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَأَمِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَوَسَّوْا الْقَوْمَ كَمَا بِمِصْرَ بِيوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَأْتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

بِالْحَقِّ بَعْدَهُ فَيَدْمَغَ بِاطْلَاهُمْ.

وَلِهَذَا لَمَّا الْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ ﴿٧٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٧٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى ﴿[طه: ٦٧-٦٩] فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَمَّا الْقُوا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

﴿فَمَا ءَأَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٨٣﴾

[لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ النَّبِيَّاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَاتِ، - إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ مِنَ الذُّرِّيَّةِ وَهُمْ الشُّبَّابُ - عَلَى وَجَلٍ وَخَوْفٍ مِنْهُ وَمِنْ مَلَئِهِ أَنْ يَرُدُّوهُمْ إِلَى

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ مُجَاهِدٍ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ﴾ لَا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَيَقْتُلُونَا^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَجِنَا
بِرَحْمَتِكَ﴾ أَي خَلَصْنَا بِرَحْمَةِ مِنْكَ وَإِحْسَانٍ ﴿مِنَ الْقَوْمِ
الْكٰفِرِينَ﴾ أَي الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَقَّ وَسَتَرُوهُ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا
بِكَ وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ مِمَّا رِئَاؤًا وَاجْعَلُوا
بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمْوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤٧)

[أَمْرُهُمْ بِالصَّلَاةِ فِي الْبُيُوتِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى سَبَبَ إِنْجَائِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِ، وَكَيْفِيَّةِ خَلَاصِهِمْ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ
مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنْ يَتَّبِعَا أَيَّ يَتَّخِذَا
لِقَوْمِهِمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ
قِبْلَةً﴾ وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ،
قَالَ: قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا نَسْتَطِيعُ
أَنْ نَظْهَرَ صَلَاتَنَا مَعَ الْفِرَاعَةِ. فَأَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ
يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ، وَأَمَرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتَهُمْ قِبَلَ
الْقِبْلَةِ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ لَمَّا
خَافَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ أَنْ يَقْتُلُوا فِي الْكِنَاسِ
الْجَامِعَةِ أَمَرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتَهُمْ مَسَاجِدَ مُسْتَقْبِلَةَ الْكَعْبَةِ،
يُصَلُّونَ فِيهَا سِرًّا^(٥). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ^(٦).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَنَّا أَمْوَالَهُمْ
وَأَشْدُدْ عَنَّا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٨٨) قَالَ قَدْ
أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

[دُعَاءُ مُوسَىٰ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا دَعَا بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ
عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ لَمَّا أَبَوْا قَبُولَ الْحَقِّ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ
صَلَابَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، مُعَارِضِينَ جَاحِدِينَ ظُلْمًا وَعُلُوًّا، وَتَكْبَرًا
وَعُتُوًّا. قَالَ مُوسَىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ
زِينَةً﴾ أَي مِنْ أَثَابِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أَي جَزِيلَةً
كَثِيرَةً ﴿فِي﴾ هَذِهِ (الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلُّوا عَن سَبِيلِكَ) -

مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، لِأَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - كَانَ
جَبَّارًا عَنِيدًا، مُسْرِفًا فِي التَّمَرُّدِ وَالْعُتُوِّ، وَكَانَتْ لَهُ سَطْوَةٌ
وَمَهَابَةٌ تَخَافُ رَعِيَّتَهُ مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ قَالَ: فَإِنَّ الذَّرِيَّةَ الَّتِي آمَنَتْ
لِمُوسَى - مِنْ أَنَاسِ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ
يَسِيرٌ، مِنْهُمْ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ، وَمُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ، وَخَازِنُ
فِرْعَوْنَ، وَامْرَأَةٌ خَازِنِهِ^(١).

وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَالْمَعْرُوفُ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ آمَنُوا بِمُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَبَشَرُوا بِهِ، وَقَدْ كَانُوا يَعْرِفُونَ نَعْتَهُ
وَصِفَتَهُ وَالْإِشَارَةَ بِهِ مِنْ كُتُبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
سَيَقْضِيهِمْ بِهِ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ، وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا لَمَّا
بَلَغَ هَذَا فِرْعَوْنَ حَدِيرَ كُلِّ الْحَدِيرِ، فَلَمْ يُجِدْ عَنْهُ شَيْئًا، وَلَمَّا
جَاءَ مُوسَىٰ آذَاهُمْ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْأَدَى، وَقَالُوا أُوذِينَا مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ
عَذَابُكُمْ وَتَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿
[الأعراف: ١٢٩] وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بَنِي
إِسْرَائِيلَ إِلَّا مُؤْمِنٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَآئِنًا بِاللَّهِ فَلْيَعْلَمِي تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ

مُسْلِمِينَ﴾^(٨٤) فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَجِنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

[تَحْرِيزُ مُوسَىٰ قَوْمَهُ عَلَىٰ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ مُوسَىٰ أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:

﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَآئِنًا بِاللَّهِ فَلْيَعْلَمِي تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أَي

﴿إِنِ اللَّهُ كَافٍ مَن تَوَكَّلَ عَلَيْهِ﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ﴿

[الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ﴿[الطلاق:

٣] وَكَثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ كَقَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ

الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبِّ الشَّرْقِ

وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] وَأَمَرَ اللَّهُ

تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي كُلِّ صَلَاةٍ مِنْ مَرَاتِ مُتَعَدِّدَةٍ

﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وَقَدْ امْتَثَلَ

بَنُو إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ فَقَالُوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً

لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَي لَا تُظْهِرْهُمْ بِنَا وَتُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا، فَيَطْفُونَا

أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَلَطُوا لِأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَنَحْنُ عَلَى الْبَاطِلِ،

فَيَقْتُلُونَا بِذَلِكَ. هَكَذَا رُوِيَ عَنِ أَبِي مَجَلِّزٍ وَأَبِي الضُّحَى^(٢).

(١) الطبري: ١٦٤/١٥ (٢) الطبري: ١٦٩/١٥ (٣) عبد

الرزاق: ٢٩٧/٢ (٤) الطبري: ١٧٤/١٥ (٥) الطبري: ١٥/

١٧٤ (٦) الطبري: ١٧٣/١٥

فَقَالَ قَدِ اجْتَبَيْتَ دَعْوَتَكُمْ فَاَسْتَقِيمَا وَلَا نَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِلْمُبُورِ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

فَلَجِحُوهُمْ وَفَتَّ شُرُوقِ الشَّمْسِ ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا انْتَهَوْا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَفِرْعَوْنُ وَرِءَاءَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَتَقَاتَلَ الْجَمْعَانِ، وَأَلْحَ أَصْحَابُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ كَيْفَ الْمَخْلُصُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَسْأَلَ هَهُنَا ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] فَعِنْدَمَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ. فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بَعْضَاهُ، فَضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ، أَيْ كَالجَبَلِ الْعَظِيمِ، وَصَارَ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا لِكُلِّ سَبْطٍ وَاحِدٍ، وَأَمَرَ اللَّهُ الرِّيحَ فَنَشَفَتْ أَرْضَهُ ﴿فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧] وَتَحَرَّقَ الْمَاءُ بَيْنَ الطَّرِيقِ كَهَيْئَةِ الشَّبَابِيكِ، لِيَرَى كُلُّ قَوْمٍ الْآخَرِينَ، لِئَلَّا يَطْنُوا أَنَّهُمْ هَلَكُوا. وَجَاوَزَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، فَلَمَّا خَرَجَ آخِرُهُمْ مِنْهُ انْتَهَى فِرْعَوْنُ

(١) الطبري: ١٨١/١٥ (٢) الطبري: ١٨٠/١٥ (٣) الطبري: ١٨١/١٥ (٤) الطبري: ١٨٧/١٥

يَفْتَحُ الْبَاءَ - أَيْ أَعْطَيْتَهُمْ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَرْسَلْتَنِي بِهِ إِلَيْهِمْ، اسْتِدْرَاجًا مِنْكَ لَهُمْ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَتْنِيهِمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿يُضَلُّوا﴾ - بِضَمِّ الْبَاءِ - أَيْ لِيَفْتَتِنَ بِمَا أَعْطَيْتَهُمْ مَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ، لِيُظَنَّ مِنْ أَعْوِيثِهِ أَنَّكَ إِنَّمَا أَعْطَيْتَهُمْ هَذَا لِجَبِّكَ إِيَّاهُمْ وَاعْتِنَايَكَ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: أَيْ أَهْلِكْهَا (١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: جَعَلَهَا اللَّهُ حِجَارَةً مُنْفُوشَةً كَهَيْئَةِ مَا كَانَتْ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ اطْمَع عَلَيْهَا (٣). ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ كَانَتْ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ غَضَبًا لِلَّهِ وَلِدِينِهِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ الَّذِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَلَا يَجِيءُ مِنْهُمْ شَيْءٌ، كَمَا دَعَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٤) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضَلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَجْرًا كَقَارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] وَلِهَذَا اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ الَّتِي آمَنَ عَلَيْهَا أَخُوهُ هَارُونُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ اجْتَبَيْتَ دَعْوَتَكُمْ﴾ أَيْ قَدْ أَجَبْنَا كَمَا فِيهَا سَأَلْتُمَا مِنْ تَدْمِيرِ آلِ فِرْعَوْنَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ اجْتَبَيْتَ دَعْوَتَكُمْ فَاَسْتَقِيمَا﴾ الْآيَةُ، أَيْ كَمَا أَجَبْتِ دَعْوَتَكُمْ فَاَسْتَقِيمَا عَلَى أَمْرِي. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَاَسْتَقِيمَا﴾ فَاْمُضِيَا لِأَمْرِي، وَهِيَ الْإِسْتِقَامَةُ (٥).

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾

[نَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَرَقُ آلِ فِرْعَوْنَ]

يُذَكِّرُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ إِغْرَاقِهِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ يَضْحَكُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمْ فِيمَا قَبْلَ: سِتْمَائَةٌ أَلْفَ مَقَاتِلِ سِوَى الدُّرِّيَّةِ، وَقَدْ كَانُوا اسْتَعَارُوا مِنَ الْقَبْطِ حُيْلًا كَثِيرًا، فَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ، فَاسْتَدَّ حَتَّى فِرْعَوْنُ عَلَيْهِمْ، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَجْمَعُونَ لَهُ جُنُودَهُ مِنْ أَقَالِيمِهِ، فَرَكِبَ وَرَاءَهُمْ فِي أَبْهَةِ عَظِيمَةٍ وَجِيُوشِ هَائِلَةٍ، لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ لَهُ دَوْلَةٌ وَسُلْطَانٌ فِي سَائِرِ مَمْلَكَتِهِ،

مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ لِيَتَحَقَّقُوا مَوْتَهُ وَهَلَاكَهُ^(٤). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أَي نَرْفَعُكَ عَلَى نَشْرٍ مِنَ الْأَرْضِ ﴿بِيَدَيْكَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: بِجَسَدِكَ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ أَي لِتَكُونَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ دَلِيلًا عَلَى مَوْتِكَ وَهَلَاكِكَ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي نَاصِبُهُ كُلُّ ذَايَةٍ بِيَدِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَقُومُ لِعَضْبِهِ شَيْءٌ، وَلِهَذَا قَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ [خَلَقَكَ] آيَةً﴾ ﴿وَلِإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَافْتُونَ﴾ أَي لَا يَتَعَوَّنُونَ بِهَا وَلَا يَتَعَبَّرُونَ بِهَا.

وَقَدْ كَانَ إِهْلَاكُهُمْ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَالْيَهُودُ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟» فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ»^(٦).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْرًا صَدَقَ وَرَفَقْتَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٧)

[تَمَكِينُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْأَرْضِ وَرِفْقُهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِثْرًا صَدَقَ﴾ قِيلَ: هُوَ بِلَادٌ مِصْرَ وَالشَّامُ مِمَّا يَلِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَتَوَاجِيَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ اسْتَقَرَّتْ يَدُ الدَّوْلَةِ الْمُوسَوِيَّةِ عَلَى بِلَادِ مِصْرَ بِكَمَالِهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(٨) وَكُنُوزٍ وَمَقَابِرَ كَرِيمٍ^(٩) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩]

وَقَالَ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾... الْآيَاتِ [الدخان: ٢٥-٢٩]، وَلَكِنْ اسْتَمَرُّوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ طَالِبِينَ إِلَى بِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَهِيَ بِلَادُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاسْتَمَرَّ مُوسَى بِمَنْ مَعَهُ طَالِبًا بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ فِيهِ قَوْمٌ

وَجُنُودُهُ إِلَى حَافِيَةِ مِنَ النَّاجِيَةِ الْآخِرَى، وَهُوَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ أَهَمَّ سِوَى بَقِيَّةِ الْأَلْوَانِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ هَالَهُ، وَأَحْجَمَ وَهَابَ، وَهَمَّ بِالرُّجُوعِ، وَهَيْهَاتَ، وَلَا تَحِينَ مَنَاصِ، نَفَذَ الْقُدْرَ، وَاسْتَجِيبَتِ الدَّعْوَةُ.

وَجَاءَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فَرَسٍ وَدِيقِ حَائِلٍ، فَمَرَّ إِلَى جَانِبِ حِصَانِ فِرْعَوْنَ، فَحَمَحَمَ إِلَيْهَا، وَافْتَحَمَ جَبْرِيلُ الْبَحْرَ فَافْتَحَمَ الْحِصَانَ وَرَاءَهُ، وَلَمْ يَبْقَ فِرْعَوْنَ يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا، فَتَجَلَّدَ لِأَمْرَائِهِ، وَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِأَحَقُّ بِالْبَحْرِ مِنَّا. فَافْتَحَمُوا كُلُّهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَمِيكَائِيلُ فِي سَاقَتِهِمْ، لَا يَبْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا أَلْحَقَهُ بِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَوْسَقُوا فِيهِ وَتَكَلَّمُوا، وَهَمَّ وَأَوْهَمُ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ أَمَرَ اللَّهُ الْفَلْدِيرُ الْبَحْرَ أَنْ يَتَوَطَّأَ عَلَيْهِمْ، فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَبْنُجْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَجَعَلَتِ الْأَمْوَاجُ تَرْفَعُهُمْ وَتُخَفِّضُهُمْ، وَتَرَكَمَتِ الْأَمْوَاجُ فَوْقَ فِرْعَوْنَ، وَعَشِيَّتُهُ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: ﴿ءَأَمَنْتُمْ لِي إِلَّا لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُمْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فَمَنْ حَيْثُ لَا يَتَفَعَّهُ الْإِيمَانُ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسَا قَالُوا ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَصَدَقَ وَعَدَهُمْ مَا كُنَّا بِهِ

مُشْرِكِينَ﴾^(١٠) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسَا سَنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكُفْرُونَ﴾ [عافر: ٨٤، ٨٥]

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ مَا قَالَ: ﴿ءَأَكْفُرُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أَي أَهَذَا الْوَقْتُ تَقُولُ، وَقَدْ عَصَيْتَ اللَّهَ قَبْلُ هَذَا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَي فِي الْأَرْضِ - الَّذِينَ أَضَلُّوا النَّاسَ.

﴿وَعَمَلَتْهُمْ أَجْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُصْرُونَ﴾ [القصص: ٤١] - وَهَذَا الَّذِي حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِهِ هَذَا، فِي حَالِهِ ذَلِكَ، مِنْ أَسْرَارِ الْعَيْبِ الَّتِي أَعْلَمَ اللَّهُ بِهَا رَسُولُهُ ﷺ، وَلِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ لِي جَبْرِيلُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَخِذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُهُ فِي فَمِ فِرْعَوْنَ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ»^(١١). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ^(١٢) وَابْنُ جَرِيرٍ^(١٣)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدَيْكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَكَّوا فِي مَوْتِ فِرْعَوْنَ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْبَحْرَ أَنْ يُلْقِيَهُ بِجَسَدِهِ سَوِيًّا بِلا رُوحٍ، وَعَلَيْهِ دِرْعُهُ الْمَعْرُوفَةُ، عَلَى نَجْوَةٍ

(١) مسند الطيالسي: ٣٤١ (٢) تحفة الأحوذى: ٥٢٦/٨ (٣)

الطبري: ١٩١، ١٩٠/١٥ (٤) الطبري: ١٩٦/١٥ (٥)

الطبري: ١٩٧/١٥ (٦) فتح الباري: ١٩٨/٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٢٢٠

سُورَةُ يُوسُفَ

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنْتَ فَفَنَعَمَهَا إِيْمَانَهَا إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّيحَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي تَوَفَّقَكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقْرِعَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

إِلَيْهِمُ الْمَلِيكَةَ وَكَلِمَهُمُ الْوَقْرَ وَحَسْرَتَنَا عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿الانعام: ١١١﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنْتَ فَفَنَعَمَهَا إِيْمَانَهَا إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٩٨﴾ [لَمْ يَنْفَعِ الْإِيْمَانَ أَحَدًا عِنْدَمَا جَاءَ الْعَذَابُ إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَهَلَّا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنْتَ بِكَمَالِهَا مِنَ الْأَمْرِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ بَعَثْنَا إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، بَلْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدًا! مِنْ رُسُولٍ إِلَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠] ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ بَحْثُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيْبَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُنْفَرِفًا إِنَّا وَمَجْدًا ءَاءَاءَنَا عَلَىٰ

مِنَ الْعَمَالِقَةِ، فَتَكَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ قِتَالِهِمْ، فَسَرَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي النَّبِيِّ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَمَاتَ فِيهِ هَارُونُ ثُمَّ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَخَرَجُوا بَعْدَهُمَا مَعَ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، وَاسْتَقَرَّتْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهَا حِينًا مِنَ الزَّمَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أَيِ الْحَلَالِ مِنَ الرِّزْقِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ الْمُسْتَطَابِ طَبْعًا وَشَرْعًا، وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أَيِ مَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَسَائِلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، أَيْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَخْتَلَفُوا، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُمْ وَأَزَالَ عَنْهُمْ اللَّبْسَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَىٰ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَىٰ اخْتَلَفُوا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَمَّيْتَرَقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا وَاحِدَةٌ فِي الْحَجَّةِ، وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ» قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١). رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أَيِ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ الْذِّبِ بِقِرْوَنَ الْكُتُبِ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٩٨﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٠١﴾

[تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ]

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ ... الْآيَةَ [الأعراف: ١٥٧]، ثُمَّ مَعَ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ يَلْبَسُونَ ذَلِكَ، وَيُحَرِّفُونَهُ وَيُبَدِّلُونَهُ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَيِ لَا يُؤْمِنُونَ إِيْمَانًا يَنْفَعُهُمْ، بَلْ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا، وَلِهَذَا لَمَّا دَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ قَالَ: ﴿رَبَّنَا أَنْطِقْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا

وَأَمَّا وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الْفِئَامُ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(١). ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَةَ أَتْبَاعِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَةَ أُمَّةٍ صَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كَثْرَةَ سَدَّتِ الْخَافِقِينَ الشَّرْقِيَّ وَالغَرْبِيَّ. وَالغَرَضُ: أَنَّهُ لَمْ تَوْجَدْ قَرْيَةً آمَنَتْ بِكَمَالِهَا بِنَبِيِّهِمْ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْقُرَىٰ إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ، وَهُمْ أَهْلُ يَنْبُوعِ، وَمَا كَانَ إِيمَانُهُمْ إِلَّا تَخَوُّفًا مِنْ وُضُوعِ الْعَذَابِ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ بَعْدَمَا عَايَنُوا أَسْبَابَهُ، وَخَرَجَ رَسُولُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، فَعِنْدَمَا جَارُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَعَاثُوا بِهِ، وَتَضَرَّعُوا لَهُ وَاسْتَكَانُوا، وَأَحْضَرُوا أَطْفَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ، وَسَأَلُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، فَعِنْدَهَا رَجِمَهُمُ اللَّهُ، وَكَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَأَخْرَجُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: لَمْ يَنْفَعِ قَرْيَةً كَفَرَتْ ثُمَّ آمَنَتْ حِينَ حَضَرَهَا الْعَذَابُ فَتَرَكَتْ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ، لَمَّا فَقَدُوا نَبِيَّهُمْ وَظَنُّوا أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ دَنَا مِنْهُمْ، فَذَفَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ التَّوْبَةَ، وَلَبَسُوا الْمُسُوحَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَهِيمَةٍ وَوَلَدِهَا، ثُمَّ عَجَّوْا إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا عَرَفَ اللَّهُ مِنْهُمْ الصِّدْقَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَالتَّوْبَةَ وَالتَّوَابَةَ عَلَىٰ مَا مَضَىٰ مِنْهُمْ، كَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ بَعْدَ أَنْ تَدَلَّىٰ عَلَيْهِمْ. قَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرَ أَنَّ قَوْمَ يُونُسَ بَيْنَ نَوَىٰ أَرْضِ الْمُؤَصِّلِ^(٢). وَكَذَا رَوَىٰ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ^(٣).

سُورَةُ الْيُونُسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّكْبَةُ أَحْكَمَتْ أَيْلَهُ ثُمَّ فَضِلْتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
الَّذِي تَعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُمَتِّعْكُم مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ إِلَّا أَنَّهُمْ يَلْمِزُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسَّ تَخَفُؤْمِنَهُ الْأَجِنَّ يَسْتَعْتُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴿الرعد: ٣١﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أَي تُلْزِمُهُمْ وَتُلْجِمُهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أَي لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَلَا إِلَيْكَ بَلِ اللَّهُ ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ آلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿فَلَمَّا عَلِكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكَّرْنَا بِمَا آتَتْ مَذَكَّرًا﴾ [الناسية: ٢١]، [٢٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ، الْمُضِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ، لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِيُنْفِيسَ أَنْ تُوْمِتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّيحَ عَلَىٰ الَّتِي يَشَاءُ لَا يَعْزِلُونَ﴾ [سورة: ١٣] [لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ يُكْرِهَ النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة: ١٣] وَمَا كَانَتْ لِيُنْفِيسَ أَنْ تُوْمِتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّيحَ عَلَى الَّتِي يَشَاءُ لَا يَعْزِلُونَ ﴿١٣﴾ [لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ يُكْرِهَ النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ! لِأَذْنِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْإِيمَانِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ، فَآمَنُوا كُلُّهُمْ، وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ تَعَالَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْلُفِينَ﴾ [سورة: ١١٨] إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿هود: ١١٨، ١١٩﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ

(١) فتح الباري: ١٠/٢٢٤ (٢) الطبري: ١٥/٢٠٧ (٣) الطبري: ١٥/٢٠٨-٢١٠

وَالضَّلَالِ ﴿١٠١﴾ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ أَي حُجَجِ اللَّهِ وَأَدِلَّتْهُ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ، فِي هِدَايَةِ مَنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ.

﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٣﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٤﴾ ثُمَّ نَتَجَىٰ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]

يُرِيدُ تَعَالَىٰ عِبَادَةَ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الآيَاتِ البَاهِرَةِ لِذَوِي الْأَلْبَابِ، مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ مِنْ كَوَاكِبِ نِيزَاتٍ، نُوَابِتٍ وَسَيَّارَاتٍ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاخْتِلَافِهِمَا، وَإِبْلَاجِ أَحَدِهِمَا فِي الْآخِرِ حَتَّىٰ يَطُولَ هَذَا وَيَقْصُرَ هَذَا، ثُمَّ يَقْصُرُ هَذَا وَيَطُولُ هَذَا، وَارْتِفَاعِ السَّمَاءِ وَاتِّسَاعِهَا وَحُسْنِهَا وَزِينَتِهَا، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْهَا مِنْ مَطَرٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَخْرَجَ فِيهَا مِنْ أَفَانِينَ الثَّمَارَ وَالزَّرْعَ وَالْأَزْهَارَ وَصُنُوفِ النَّبَاتِ، وَمَا ذَرَأَ فِيهَا مِنْ دَوَابِّ مُخْتَلِفَةِ الأشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَالْمَنَافِعِ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَسُهُولٍ وَقِفَارٍ وَعُمُرَانٍ وَخَرَابٍ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْأَمْوَاجِ، وَهُوَ مَعَ هَذَا مُسَخَّرٌ مُذَلَّلٌ لِلسَّالِكِينَ، يَحْمِلُ سُنْفُنَهُمْ وَيُجْرِي بِهَا بَرْقِي، بِسُخْبِرِ الْقَدِيرِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُعْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي: وَأَيُّ شَيْءٍ تُعْنِي الآيَاتُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ، وَالرُّسُلُ بآيَاتِهَا وَحُجَجِهَا وَبِرَاهِينِهَا الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِهَا عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ؟! كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾... الآية (يونس: ٩٦). وَقَوْلُهُ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي فَهَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُكذِّبُونَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ! مِنَ التَّقَمَةِ وَالْعَذَابِ: إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكذَّبَةِ لِرُسُلِهِمْ ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ ثُمَّ نَتَجَىٰ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَي وَنُهَيْكَ الْمُكذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حَقًّا أَوْجِبَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَكَّلُكُمْ وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ وَأَنْ أَقِدَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْبَشَرُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٩﴾﴾

[الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَنَا لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ كَمَا أَحْيَاكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، فَإِنْ كَانَتْ إِلَهَتُكُمْ الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَقًّا فَأَنَا لَا أَعْبُدُهَا، فَادْعُوهَا فَاتَّضُرِّي، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَإِنَّمَا الَّذِي بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالتَّنْفَعُ هُوَ: اللَّهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَقِدَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾... الآية أَي أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحَدَهُ حَنِيفًا، أَي مُنْحَرَفًا عَنِ الشَّرِكِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبْ﴾... الآية، فِيهِ بَيَانٌ لِأَنَّ الْحَيْرَ وَالسَّرَّ وَالتَّنْفَعِ وَالضَّرَّ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحَدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أَي لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَلَوْ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ، حَتَّىٰ مِنَ الشَّرِكِ بِهِ، فَإِنَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ.

﴿قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاقِعِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُخَبِّرَ النَّاسَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ الْإِتِّبَاعِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَي وَمَا أَنَا مُوَكَّلٌ بِكُمْ حَتَّىٰ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ. وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أَي تَمَسَّكْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ، وَاصْبِرْ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ مَنْ خَالَفَكَ

مِنَ النَّاسِ ﴿حَتَّىٰ يَمُوكُمْ اللَّهُ﴾ أَي يَفْتَحَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أَي خَيْرُ الْفَاتِحِينَ بَعْدَهُ وَحِكْمَتِهِ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[سُورَةُ هُودٍ مِمَّا شَبَّهَتِ النَّبِيَّ ﷺ]

رَوَى أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ شَبَّهْتَ. قَالَ: «شَبَّهْتَنِي هُودٌ وَالْوَالِقَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». وَفِي رِوَايَةٍ: «هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَيْبُ أَحْكَمْتُ بِإِنَّهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرَيْتُهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنِ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

[الْقُرْآنُ وَدَعْوَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُرُوفِ الْهَجَاءِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَحْكَمْتُ بِإِنَّهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ﴾ أَي هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي لَفْظِهَا مُفْضَلَةٌ فِي مَعْنَاهَا، فَهُوَ كَامِلٌ صُورَةً وَمَعْنَى. هَذَا مَعْنَى مَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ^(٢) وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مِن لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أَي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْحَكِيمِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَحْكَامِهِ، خَيْرٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ. ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أَي نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُحْكَمُ الْمُفْضَلُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّبِدُون﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَابْتَغِبُوا الطَّلَعُوتُ﴾ [النحل: ٣٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي لَكُرَيْتُهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أَي إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ، وَبَشِيرٌ بِالنَّوَابِ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَعَدَ الصَّفَا فَدَعَا بَطُونَ قُرَيْشِ الْأَقْرَبِ ثُمَّ الْأَقْرَبِ، فَاجْتَمَعُوا، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ! أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ حَيْلًا تُصْبِحُكُمْ أَلْسُنُكُمْ مُصْذِقِي؟» فَقَالُوا: مَا جَرَّبْنَا

عَلَيْكَ كَذِبًا قَالَ: ﴿فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنِ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أَي وَأَمْرُكُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ، وَأَنْ تَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿يُعْطِكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا﴾ أَي فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. قَالَه قَتَادَةُ^(٤). كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ . . . الْآيَةَ [النحل: ٩٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يَنَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَي مَعَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِ وَاتَّقِيَاهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَإِعَادَةِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا مَقَامُ التَّرْهيبِ كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ مَقَامُ تَرْغِيبِ.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَبْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَشْعُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يَأْتُونَهُ عَلَيْهِمْ بِيَدَاتٍ

الْصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

[اللَّهُ خَبِيرٌ بِكُلِّ شَيْءٍ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَقْبِلُوا السَّمَاءَ بِمُرُوجِهِمْ، وَحَالَ وَقَاعِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. رَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَنْتُونِي صُدُورُهُمْ﴾ الْآيَةَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ! مَا تَنْتُونِي صُدُورُهُمْ؟ قَالَ: الرَّجُلُ كَانَ يُجَامِعُ امْرَأَتَهُ فَيَسْتَحْيِي أَوْ: يَتَخَلَّى فَيَسْتَحْيِي. فَتَرَكْتُ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَنْتُونِي صُدُورُهُمْ﴾^(٥).

وَفِي لَفْظِ آخَرَ لَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَسَسْ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيَفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيَفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ. فَتَزَلَّ ذَلِكَ فِيهِمْ^(٦).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يَسْتَعْشُونَ﴾ يُعْطُونَ رُؤُوسَهُمْ^(٧).

(١) تحفة الأحوذى: ١٨٤/٩ (٢) الطبري: ٢٢٧/١٥ (٣) دلائل النبوة: ١٨١/٢ (٤) الطبري: ٢٣١/١٥ (٥) فتح الباري: ٢٠٠/٨ (٦) فتح الباري: ٢٠٠/٨ (٧) فتح الباري: ٢٠٠/٨

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

[اللهُ مُتَكَفِّلٌ بِأَرْزَاقِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ]

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر
دواب الأرض صغيرها وكبيرها بحريتها وبريها، وأنه يعلم
مستقرها ومستودعها، أي يعلم أين منتهى سيرها في
الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها.

وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس: ﴿ويعلم
مستقرها﴾ أي حيث تأوي ﴿ومستودعها﴾ حيث تموت^(١).

وأن جميع ذلك مكتوب في ﴿كتاب﴾ عند الله ﴿مبين﴾
عن جميع ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ
يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَسْخَلَكُمْ مَا فَرَطْنَا مِنْ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ
إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ
الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْفُطُ
مِنْ رِجْقِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا
يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان
عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولين قلن
إنكم مبغوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا
إلا سحر مبين﴾ (٧) ﴿ولين آخرا عنهم العذاب إلى أمة معدودة
ليقولن ما يحيسه، ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاف
بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ (٨)

[خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَأَنَّ عَرْشَهُ كَانَ عَلَى
الْمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ
حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي
تَيْمِمْ» قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا، فَأَعْطَيْتَنَا، قَالَ: «اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا
أَهْلَ الْيَمَنِ» قَالُوا: قَدْ قَبَلْنَا. فَأَخْبَرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ
كَيْفَ كَانَ؟ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ»
قَالَ: فَأَتَانِي أَبِي فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ! انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ
عِقَالِهَا، قَالَ: فَحَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا فَلَا أَذْرِي مَا كَانَ
بِعِلِّي^(٢). وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ
وَمُسْلِمٍ بِاللَّفَاطِ كَثِيرَةً^(٣).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٢

سُورَةُ هُودٍ

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦) ﴿وهو الذي خلق

السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه
على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولين قلن
إنكم مبغوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا

إن هذا إلا سحر مبين﴾ (٧) ﴿ولين آخرا عنهم العذاب إلى
أمة معدودة ليقولن ما يحيسه، ألا يوم يأتيهم ليس

مصروفا عنهم وحاف بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ (٨)

﴿ولين آذنا الإنسان متارحمة ثم نزعناها منه إنه
ليعوس كفور﴾ (٩) ﴿ولين آذنه نعمة بعد ضراء

مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح حور﴾ (١٠)

﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة
وأجر كبير﴾ (١١) ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك
وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كتابا وجاه

معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ (١٢)

قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلايق قبل
أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان
عرشه على الماء»^(٤). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفَقْتُ أَنْفَقْتُ عَلَيْكَ» وَقَالَ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى
لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» وَقَالَ: «أَفْرَأَيْتُمْ مَا
أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي
يَمِينِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ
وَيَرْفَعُ»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي خلق
السموات والأرض ليضع عباده الذين خلقهم ليعبدهم ولا
يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَلَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

(١) الطبري: ٢٤١/١٥ (٢) أحمد: ٤٣١/٤ (٣) فتح الباري:

٣٣٠/٦ ومسلم: ٢٠٤١/٤ (٤) مسلم: ٢٠٤٤/٤ (٥) فتح

الباري: ٢٠٢/٨

كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿ص: ٢٧﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿المؤمنون: ١١٥، ١١٦﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾... الآية (الذاريات: ٥٦) وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَلْبُوكُمْ﴾ أَي لِيُخْتَبِرَكُمْ ﴿أَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿لِيَلْبُوكُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَكْثَرَ عَمَلًا، بَلْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ حَسَنًا حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَعَى فَقَدْ الْعَمَلُ وَاجِدًا مِنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ حَيْطُ وَبَطَلُ.

﴿جِدَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَاسْتِعْجَالُهُمْ لِلْعَذَابِ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾... الآية. يَقُولُ تَعَالَى: وَلَكِنْ أَخْبَرْتُ يَا مُحَمَّدُ! هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ اللَّهَ سَيُعْتَبُهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ كَمَا بَدَأَهُمْ. مَعَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] وَهُمْ مَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ الْبُعْثَ وَالْمَعَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُدْرَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْبُدْءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَتِّفَسٍ وَجِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨].

وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَي يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا: مَا نُصَدِّقُكَ عَلَى وُفُوعِ الْبُعْثِ، وَمَا يَذْكُرُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ سَحَرَتْهُ فَهُوَ يَتَّبِعُكَ عَلَى مَا تَقُولُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى آخِرَةِ مَا مَعْدُودٌ﴾... الآية. يَقُولُ تَعَالَى: وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا الْعَذَابَ وَالْمُؤَاخَذَةَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَجْلِ مَعْدُودٍ وَأَمِدٍ مَحْضُورٍ، وَأَوْعَدْنَاَهُمْ إِلَى مِدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ تَكْذِيبًا وَاسْتِعْجَالًا، ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾ أَي يُؤَخِّرُ هَذَا الْعَذَابَ عَنَّا؟ فَإِنَّ سَجَايَاهُمْ قَدْ أَلْفَتِ التَّكْذِيبَ وَالشَّكَّ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَحِصٌّ عَنْهُ وَلَا مَحِيدٌ.

[معاني الأُمَّة]

وَالأُمَّةُ تُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي مَعَانِي مُتَعَدِّدَةٍ فَبَرَادُ بِهَا الْأَمَدُ، كَقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِلَى آخِرَةِ مَا مَعْدُودٌ﴾.

وَقَوْلِهِ فِي يُوسُفَ: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْإِمَامِ الْمُتَمَتِّدِي بِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْمِلَّةِ وَالذِّينِ كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْجَمَاعَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُ﴾ [القصص: ٢٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضَى بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يظْلُمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] وَالْمُرَادُ مِنَ الأُمَّةِ هَهُنَا: الَّذِينَ يَتَّبِعُ فِيهِمُ الرَّسُولَ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»^(١). وَأَمَّا أُمَّةُ الْأَتْبَاعِ فَهِيَ الْمُصَدِّقُونَ لِلرَّسُولِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِّبَ خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وَفِي الصَّحِيحِ: «فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي»^(٢). وَتُسْتَعْمَلُ الأُمَّةُ فِي الْفِرْقَةِ وَالطَّاغُوتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾... الآية [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾ ﴿١﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١١﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

[تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ حَصَلَ لَهُ بِأَسْنٍ وَقُتُوطٌ مِنَ الْخَيْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، وَكُفْرٌ وَجُحُودٌ لِمَا ضَيَّعَ الْحَالِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَ خَيْرًا وَلَمْ يَرِجْ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَجًا. وَهَكَذَا إِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِقْمَةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ أَي يَقُولُ: مَا يَنَالُنِي بَعْدَ هَذَا ضَيْمٌ وَلَا سُوءٌ ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ أَي فَرِحَ بِمَا فِي يَدِهِ بَطْرًا، فَخُورٌ عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَي

(١) مسلم: ١/١٣٤ (٢) مسلم: ١/١٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٣

سُورَةُ هُودٍ

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ
 وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَعْظَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
 فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَان لَّإِلَهِ
 إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا وَرَبِّهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُحْسِنُونَ
 ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
 مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ قَانِ
 عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَتَلَوُهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كَتَبَ
 مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
 مِنَ الْأَحْزَابِ فَآلْتَارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ
 عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
 رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصِدُّونَ
 عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

[بَيَانُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ]

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَىٰ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ
 يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ، وَلَا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، لِأَنَّ
 كَلَامَ الرَّبِّ تَعَالَىٰ لَا يُشْبِهُ كَلَامَ المَخْلُوقِينَ كَمَا أَنَّ صِفَاتِهِ
 لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ المُخْدَاتِ. وَذَاتُهُ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، تَعَالَىٰ
 وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ثُمَّ قَالَ
 تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِمُعَارِضَةٍ مَا
 دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ هَذَا
 الكَلَامَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُتَّصِمٌ عِلْمُهُ وَأَمْرُهُ وَنَهْيُهُ ﴿وَأَنَّ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا
 وَهُمْ فِيهَا لَا يُحْسِنُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا
 النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

عَلَى الشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: فِي
 الرَّخَاءِ وَالْعَاقِبَةِ ﴿أُولَئِكَ هُمْ مَقْبُورٌ﴾ أَي: بِمَا يُصِيبُهُمْ
 مِنَ الصَّرَاءِ ﴿وَأَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ بِمَا أَسْلَفُوهُ فِي زَمَنِ الرَّخَاءِ،
 كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ
 الْمُؤْمِنَ هَمٌّ، وَلَا عَمٌّ، وَلَا نَصَبٌ، وَلَا وَصَبٌ، وَلَا
 حَزَنٌ، حَتَّى الشُّوْكَهُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ
 حَطَايَاهُ» (١). وَفِي الصَّحِيحِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي
 اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ
 كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ
 ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ» (٢). وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿وَالنَّصْرُ لِلَّهِ﴾ إِنْ الْإِنْسَانُ لَبِي خَسِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿العصر: ١-٣﴾ وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ... الآيات [المعارج:
 ١٩-٢٢].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ
 يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ
 وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿٢٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا
 بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ. مُفْتَرِينَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَعْظَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ
 وَان لَّإِلَهِ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٤﴾

[تَضَائِقُ الرَّسُولِ عَنْ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَتَسْلِيَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ عَمَّا كَانَ يَتَّعَنَّتْ بِهِ
 الْمُشْرِكُونَ فِيمَا كَانُوا يَقُولُونَهُ عَنِ الرَّسُولِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَىٰ
 عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ
 وَيَسْقِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ
 نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ
 مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾
 [الفرقان: ٧، ٨] فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَأَرْشَدَهُ إِلَىٰ أَنْ لَا يَصِيقَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ
 صَدْرُهُ، وَلَا يَصِدَّنَّهُ ذَلِكَ وَلَا يَتَّبِعَنَّ عَنْ دُعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ
 نَعَلْنَاكَ أَنْ يَصِيقَ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ... الآية [الحجر: ٩٧]،
 وَقَالَ هُنَا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ
 بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا﴾ أَي: يَقُولُهُمْ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ،
 وَلَكَ أَسْوَةٌ بِأَخْوَانِكَ مِنَ الرُّسُلِ قَبْلَكَ، فَإِنَّهُمْ كَذَّبُوا وَأُودُوا
 فَصَبَرُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ حِطٌّ فِي الْآخِرَةِ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ أَهْلَ الرِّيَاءِ يُعْطَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ قَبْرًا يَقُولُ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا لِيَتَمَسَّ الدُّنْيَا صَوْمًا أَوْ صَلَاةً أَوْ تَهَجُّدًا بِاللَّيْلِ لَا يَعْمَلُهُ إِلَّا لِيَتَمَسَّ الدُّنْيَا، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْفِيهِ الَّذِي التَّمَسَّ فِي الدُّنْيَا: مِنَ الْمَثَابَةِ، وَحِطُّ عَمَلِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ لِإِيْتِمَاسِ الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ. (١) وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ (٢). وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَالْحَسَنُ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى (٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الرِّيَاءِ (٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ وَنِيَّتَهُ وَطَلِبَتَهُ جَزَاءَهُ اللَّهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا جَزَاءً، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَجَازِي بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُنَابِثُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ (٥). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (٦) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (٧) كُلَّا نُمِدُّ هُنُوَاءً وَهَنُوءًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَةٍ وَأَكْبَرُ فَضْلًا (الإسراء: ١٨-٢١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَتْ تُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ تُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠).

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّهِ وَتَوَلَّوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنْ الْأَحْزَابِ فَالتَّارُ مَوْعِدُهُ مِنْ رَبِّهِ وَمِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩)

[إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَكُونُ عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا عِبَادَهُ مِنَ الْإِعْتِرَافِ لَهُ: يَا أَيُّهَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوَفِّقْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾... الآية [الروم: ٣٠]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى فِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسِنَانِهِ كَمَا تَوَلَّدَ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْهَمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءِ؟»... الحديث. (١٠) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ

ابن حِمَارٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَمَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّتْ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا» (١١) فَالْمُؤْمِنُ بَاقٍ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَتَوَلَّوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أَي: وَجَاءَهُ شَاهِدٌ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُكْمَلَةِ الْمُعْظَمَةِ الْمُحْتَمَّةِ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَهُ مِنَ الْفِطْرَةِ مَا يَشْهَدُ لِلشَّرِيعَةِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ، وَالتَّفَاصِيلُ تُؤَخَّرُ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَالفِطْرَةُ تُصَدِّقُهَا وَتُؤْمِنُ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّهِ وَتَوَلَّوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ بَلَّغَهُ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَبَلَّغَهُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى أُمَّتِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ. كَتَبَ مُوسَى﴾ أَي: وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ كِتَابُ مُوسَى وَهُوَ التَّوْرَةُ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أَي: أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى تِلْكَ الْأُمَّةِ إِمَامًا لَهُمْ وَقُدُوةً يُقْتَدُونَ بِهَا، وَرَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِهِمْ، فَمَنْ آمَنَ بِهَا حَقَّ الْإِيمَانِ، قَادَهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَالتَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أَي: وَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مُشْرِكِيهِمْ وَكَافِرِيهِمْ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَمَنْ بَلَّغَهُ الْقُرْآنُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤْذِرْكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَّغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ مِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَالتَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ» (١٢).

(١) الطبري: ٢٦٣/١٥ العوفي معروف بالضعف كما تقدم (٢) الطبري: ٢٦٥، ٢٦٤/١٥ (٣) الطبري: ٢٦٥/١٥ (٤) الطبري: ٢٦٦/١٥ (٥) الطبري: ٢٦٤/١٥ (٦) فتح الباري: ٢٩٠/٣ ومسلم: ٢٠٤٧/٤ (٧) مسلم: ٢١٩٧/٤ (٨) مسلم: ١٣٥/١

[مُصَدِّقٌ كُلُّ حَدِيثٍ مُوجُودٌ فِي الْقُرْآنِ]

وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: كُنْتُ لَا أَسْمَعُ بِحَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ إِلَّا وَجَدْتُ مُصَدِّقَهُ - أَوْ قَالَ -: تَصَدِيقَهُ فِي الْقُرْآنِ، فَبَلَغَنِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ» فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَيْنَ مُصَدِّقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: وَقَلَّمَا سَمِعْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَجَدْتُ لَهُ تَصَدِيقًا فِي الْقُرْآنِ، حَتَّى وَجَدْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدُهُ» قَالَ: مِنَ الْجَلَلِ كُلِّهَا^(١). وَقَوْلُهُ: «فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ...» الْآيَةَ، أَيُّ الْقُرْآنِ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ لَا مِرْيَةَ وَلَا شَكَّ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْعَرَبُ ۝ تَرْتِلُ الْعِكْبَتِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْعَرَبُ ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢] وَقَوْلُهُ: «وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» [يوسف: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: «وَأَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» [الأنعام: ١١٦] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [سبأ: ٢٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ اتَّبَعَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [١٧] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [١٨] أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِرِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [٢٠] أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٢١] لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ [٢٢]

[الْمُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الصَّادُونَ عَنْ سَبِيلِهِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ] يَبِينُ تَعَالَى حَالَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ وَفَضِيحَتَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَسَائِرِ الْبَشَرِ وَالْجَانِّ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَرَّرٍ قَالَ: كُنْتُ أَخْذًا بِبَيْدِ ابْنِ عُمَرَ إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ قَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كِفَّتَهُ، وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَقْرُؤُهُ بِدُنُوبِهِ وَيَقُولُ لَهُ: أَعْرِفُ ذَنْبَكَ كَذَا؟ أَعْرِفُ ذَنْبَكَ كَذَا؟

الحجرات: ١٨-٢٢

٢٢٤

سورة هود

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِرِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [٢٠] أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٢١] لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ [٢٢] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [١٧] مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [١٤] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [١٥] أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسِفِ﴾ [١٦] فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ [١٧] قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبُوتَ مِنْ رَبِّي وَءَالِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ كُفَرْتُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾ [١٨]

أَتَعْرِفُ ذَنْبَكَ كَذَا؟ حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِدُنُوبِهِ وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَعْفُوهَا لَكَ الْيَوْمَ» ثُمَّ يُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» الْآيَةَ^(٢). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٣). وَقَوْلُهُ: «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» أَيُّ: يَرُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَشُلُوكِ طَرِيقِ الْهُدَى الْمَوْصِلَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَجْنِبُونَهُمُ الْجَنَّةَ «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» أَيُّ: وَيُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ طَرِيقُهُمْ عِوَجًا غَيْرَ مُعْتَدِلَةٍ «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» أَيُّ: جَاحِدُونَ بِهَا مُكْذِبُونَ بِوُفُوعِهَا وَكَوْنِهَا «أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِرِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» أَيُّ بَلْ كَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَعِظْمَتِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ

(١) الطبري (١٨٠٨٥) إسناده صحيح. (٢) أحمد: ٧٤/٢ (٣) فتح الباري: ٢٠٤/٨ ومسلم: ٢١٢٠/٤

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَاِمْتَنَّا قُلُوبُهُمْ وَعَمَلْنَا
جَوَارِحَهُمُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ قَوْلًا وَفِعْلًا، مِنَ الْإِنْبَانِ
بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَبِهَذَا وَرَثُوا الْجَنَّاتِ،
الْمُسْتَمْلَةَ عَلَى الْعُرْفِ الْعَالِيَاتِ، وَالشَّرْرِ الْمَصْفُوفَاتِ،
وَالْقُطُوفِ الدَّانِيَاتِ، وَالْفُرْشِ الْمُرْتَفَعَاتِ، وَالْحِسَانِ
الْمُخَبَّرَاتِ، وَالْفَوَاكِهِ الْمُنْتَوَعَاتِ، وَالْمَأْكِلِ الْمُسْتَهْتَبَاتِ
وَالْمَشَارِبِ الْمُسْتَلَذَّاتِ، وَالنَّظَرِ إِلَى خَالِقِ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ، لَا يَمُوتُونَ وَلَا
يَهْرَمُونَ، وَلَا يَمْرُضُونَ وَلَا يَنَامُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا
يَبْصُقُونَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، إِنَّ هُوَ إِلَّا رَشْحُ مِسْكِ يَعْرِفُونَ.

[مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ]

ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿مَثَلُ
الْفَرِيقَيْنِ﴾ أَيِ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ أَوْلًا بِالشَّقَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ
بِالسَّعَادَةِ، فَأُولَئِكَ ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى﴾ وَهَؤُلَاءِ كَالْبَصِيرِ
وَالسَّمِيعِ. فَالْكَافِرُ أَعْمَى عَنِ وَجْهِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُهُ. أَصَمُّ عَنِ سَمَاعِ الْحُجَجِ فَلَا
يَسْمَعُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾...
الآيَةَ [الأَنْفَالُ: ٢٣].

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَفَقِطْنٌ ذَكِيٌّ لَيْبِيبٌ، بَصِيرٌ بِالْحَقِّ يُمَيِّزُ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْبَاطِلِ، فَيَتَّبِعُ الْخَيْرَ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ، سَمِيعٌ لِلْحُجَّةِ يُفَرِّقُ
بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشُّبُهَةِ، فَلَا يَرُوجُ عَلَيْهِ بَاطِلٌ، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا
وَهَذَا؟ ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ، فَتَفْرَقُونَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ
وَهَؤُلَاءِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحْسَبُ
النَّارِ وَأَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَاعِلُونَ﴾ [الحشر:
٢٠]. وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (١٦) وَلَا الظُّلْمَتُ
وَلَا النُّورُ (١٧) وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا
الْمَيُوتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ (١٩)
إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٠) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ
إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩-٢٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٥) أَنْ لَا
تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسْرِ (٢٦) فَقَالَ
الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ
أَتَعْلَمُ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكَ عَلَيْنَا
مِن فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكَ كَذَّابًا (٢٧)

عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ﴿إِنَّمَا
يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وَفِي الصَّحِيحِينَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلطَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ
لَمْ يُقْلِنَهُ» (١) وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الْآيَةَ
أَيُّ: يُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ
لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفِيدَةً، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا
أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفِيدَتُهُمْ، بَلْ كَانُوا صُمًّا عَنِ سَمَاعِ الْحَقِّ
عُمِّيًّا عَنِ اتِّبَاعِهِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ حِينَ دُخُولِهِمُ النَّارَ
كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾
[الملك: ١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَن سَبِيلِ
اللَّهِ يَذُتَنَّهُمْ عَذَابًا قَرِيبًا فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الْآيَةَ [النحل: ٨٨]، وَلِهَذَا
يُعَذَّبُونَ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ تَرَكُوهُ، وَعَلَى كُلِّ نَهْيٍ ارْتَكَبُوهُ.
وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ﴾ أَيُّ: خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ أَدْخَلُوا نَارًا حَامِيَةً،
فَهُمْ مُعَذَّبُونَ فِيهَا لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا حَبَتِ ذُنُوبُهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَيُّ ذَهَبَ عَنْهُمْ ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ فَلَمْ تُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا، بَلْ
ضَرَبَتْهُمُ كُلَّ الضَّرْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا
لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحاف: ٦].

وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا
الْمَكَدَابَ وَنَقَطَعْتُمْ بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦] إِلَى غَيْرِ
ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى خَسِرِهِمْ وَدَمَارِهِمْ، وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ
مَالِهِمْ أَنَّهُمْ أَحْسَرُ النَّاسِ صَفَقَةً فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ
اسْتَبَدَلُوا الدَّرَكَاتِ عَنِ الدَّرَجَاتِ، وَاعْتَاضُوا عَنْ نَعِيمِ
الْجَنَانِ بِحَمِيمِ آنٍ، وَعَنْ شُرْبِ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ بِسُمُومِ
وَحَمِيمِ وَظَلٍّ مِنْ يَحْمُومِ، وَعَنْ الْخُورِ الْعَمِينِ بِطَعَامِ مِنْ
غِشْلِيلِينَ، وَعَنْ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ بِالنَّهَائِيَةِ، وَعَنْ قُرْبِ
الرَّحْمَنِ وَرُؤْيِيهِ بِغَضَبِ الدِّيَانِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَا جَرَمَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْسَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ
أَحْسَبُ الْجَنَّةَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٨) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى
وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا نَذَكَّرُونَ (٢٩)

[جَزَاءُ أَهْلِ الْإِيمَانِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْفِيَاءِ نَتَىٰ بِذِكْرِ الشُّعَدَاءِ، وَهُمْ

(١) فتح الباري: ٢٠٥/٨ ومسلم: ١٩٩٧/٤

[قِصَّةُ نُوحٍ وَجَوَارِهِ مَعَ قَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَبْدَهُ الْأَضْنَامَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَي ظَاهِرُ النَّذَارَةِ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِنْ أَنْتُمْ عَبْدْتُمْ غَيْرَ اللهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾ أَي: إِنْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ عَذَّبْتُكُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا شَاقًّا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وَالْمَلَأُ هُمُ السَّادَةُ وَالْكَبِرَاءُ مِنَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ﴿مَا تَزِدُكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلًا﴾ أَي: لَسْتَ بِمَلِكٍ وَلَكِنَّكَ بَشَرٌ فَكَيْفَ أَوْجِي إِلَيْكَ مِنْ دُونِنَا، ثُمَّ ﴿وَمَا تَزِدُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُواكَ كَالْبَعَةِ وَالْحَاكِمَةَ وَأَشْبَاهَهُمْ، وَلَمْ يَتَّبِعَكَ الْأَشْرَافُ وَلَا الرُّؤَسَاءُ مِتًّا، ثُمَّ هُوَ لِالَّذِينَ اتَّبَعُوكَ لَمْ يَكُنْ عَنْ تَرَوِّ مِنْهُمْ وَلَا فِكْرٍ وَلَا نَظَرٍ، بَلْ بِمَجْرَدِ مَا دَعَوْتَهُمْ أَحَابُوكَ فَاتَّبَعُوكَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَمَا تَزِدُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُواكَ بِادِي الرَّأْيِ﴾ أَي: فِي أَوَّلِ بَادِي [الرَّأْيِ] ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا لَكُمْ عَلَيْنَا فَضِيلَةً فِي خَلْقِي وَلَا خُلُقِي، وَلَا رِزْقِي، وَلَا حَالٍ لَمَا دَخَلْتُمْ فِي دِينِكُمْ هَذَا ﴿بَلْ تَنْظُرُونَ كَذِبًا﴾ أَي: فِيمَا تَدْعُونَهُ لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، إِذَا صِرْتُمْ إِلَيْهَا، هَذَا اغْتِرَاضُ الْكَافِرِينَ عَلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَتْبَاعِهِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِعَارٍ عَلَى الْحَقِّ رَدَالَهُ مَنْ اتَّبَعَهُ، فَإِنَّ الْحَقَّ فِي نَفْسِهِ صَحِيحٌ سَوَاءٌ اتَّبَعَهُ الْأَشْرَافُ أَوْ الْأَرَاذِلُ، بَلِ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ اتِّبَاعَ الْحَقِّ هُمُ الْأَشْرَافُ وَلَوْ كَانُوا فُقَرَاءَ، وَالَّذِينَ يَأْبُونَهُ هُمُ الْأَرَاذِلُ وَلَوْ كَانُوا أَعْيَاءَ، ثُمَّ الْوَاقِعُ غَالِبًا أَنَّ مَا يَتَّبِعُ الْحَقَّ ضَعْفَاءُ النَّاسِ، وَالغَالِبُ عَلَى الْأَشْرَافِ وَالْكَبِرَاءِ مُخَالَفَتُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وَلَمَّا سَأَلَ هِرْقُلُ مَلِكَ الرُّومِ أَبَا سَفْيَانَ صَحْرَ بْنَ حَرْبٍ عَنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَوْ ضَعْفَاءُ هُمْ؟ قَالَ: بَلْ ضَعْفَاءُ هُمْ، فَقَالَ هِرْقُلُ: هُمْ أَتْبَاعُ الرَّسُولِ ^(١). وَقَوْلُهُمْ ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ لَيْسَ بِمَذْمُومَةٍ وَلَا عَيْبٍ، لِأَنَّ الْحَقَّ إِذَا وَضِحَ لَا يَبْقَى لِلرَّأْيِ وَلَا لِلْفِكْرِ مَحَالٌ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ

لِكُلِّ ذِي زَكَاءٍ وَذَكَاءٍ - بَلْ لَا يُفَكِّرُ هَهُنَا إِلَّا عَيْبِي أَوْ عَيْبِي، وَالرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعُونَ إِنَّمَا جَاءُوا بِأَمْرِ جَلِيلٍ وَاضِحٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ هُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عُمِّي عَنْ الْحَقِّ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ، بَلْ هُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَفِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ يَعْمَهُونَ، وَهُمْ الْأَفْأَكُونَ الْكَاذِبُونَ الْأَقْلُونَ الْأَرْدُلُونَ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ.

﴿قَالَ يَتَوَرَّوْا رَبَّيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآلِنِي رَحْمَةً مِنْ

عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهَا وَأَنْشَرْنَا كَرِهُونَ﴾

[جَوَابُ نُوحٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ فِي ذَلِكَ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أَي: عَلَى يَقِينٍ وَأَمْرٍ جَلِيلٍ وَبُورَةٍ صَادِقَةٍ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ اللهِ بِهِ وَبِهِمْ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أَي: خَفِيَتْ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَهْتَدُوا إِلَيْهَا، وَلَا عَرَفْتُمْ قَدْرَهَا، بَلْ بَادَرْتُمْ إِلَى تَكْذِيبِهَا وَرَدَّهَا ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ أَي [انْغْصَبُكُمْ] بِقَبُولِهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ.

﴿وَيَتَوَرَّوْا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَحْرَىٰ إِلَّا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي قَوْمًا جَهْلُونَ﴾ وَيَتَوَرَّوْا مِنْ بَصُرِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفْلا

تَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ لِقَوْمِهِ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى نَضْحِي لَكُمْ مَا لَ: أَجْرَةَ أَخْذَهَا مِنْكُمْ، إِنَّمَا أَتَّبِعِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ احْتِشَامًا وَنَفَاسَةً مِنْهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ، كَمَا سَأَلَ أُمَّتْلُهُمْ خَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ أَنْ يَطْرُدَ عَنْهُمْ جَمَاعَةً مِنَ الضَّعَفَاءِ، وَيَجْلِسَ مَعَهُمْ مَجْلِسًا خَاصًّا فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ... [الآية: ٥٢ من سورة الانعام]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِثُّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ

بِالشَّاكِرِينَ﴾ ... [الآيات [سورة الانعام الآية: ٥٣ وما بعدها].

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْعَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي

مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ

أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ

لَا شَرِيكَ لَهُ، يَأْذِنُ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَا يَسْأَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا، بَلْ هُوَ يَدْعُو مَنْ لَقِيَهُ مِنْ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لَهُ فَقَدْ نَجَا، وَيُخَيِّرُهُمْ أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي خَزَائِنِ اللَّهِ، وَلَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا أَطَّلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ بِمَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بَلْ هُوَ بَشَرٌ مُرْسَلٌ مُؤَيَّدٌ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَلَا أَقُولُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَحْتَفِرُونَهُمْ وَتَزْدَرُونَهُمْ: إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بَاطِنًا كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ حَالِهِمْ، فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَى، وَلَوْ قَطَعَ لَهُمْ أَحَدٌ بِشَرٍّ بَعْدَ مَا آمَنُوا لَكَانَ ظَالِمًا فَإِنَّمَا مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ.

﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا تَوَدَّأَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ﴿٣٢﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٣﴾

[مُطَالَبَةُ قَوْمِ نُوحٍ بِالْعَذَابِ وَجَوَابُهُ لَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَيَّرًا عَنْ اسْتِجْعَالِ قَوْمِ نُوحٍ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ وَسَخَطَهُ - وَالْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ -: ﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ أَي: حَاجَجْنَا فَأَكْثَرْتَ مِنْ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَا تَنْبَغُكَ ﴿فَأَيْنَا بِنَا تَوَدَّأَ﴾ أَي مِنْ التَّقَمَّةِ وَالْعَذَابِ، أَدْعُ عَلَيْنَا بِمَا شِئْتَ، فَلْيَأْتِنَا مَا تَدْعُو بِهِ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ﴿أَي: إِنَّمَا الَّذِي يُعَاقِبُكُمْ وَيُعْجِلُهَا لَكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴿أَي: أَيُّ شَيْءٍ يُجِدِي عَلَيْكُمْ: إِنْ بَلَغِي لَكُمْ، وَإِنْ دَارِي إِيَّاكُمْ، وَنُصْحِي﴾ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴿أَي: إِغْوَاءَكُمْ وَدَمَارَكُمْ﴾ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿أَي: هُوَ مَالِكُ أَرْمَةِ الْأُمُورِ، الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، لَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ وَهُوَ الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ، مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ

مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾

[اسْتِطْرَادُ لِسَانِ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ]

هَذَا كَلَامٌ مُعْتَرَضٌ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مُؤَكَّدٌ لَهَا، مُقَرَّرٌ لَهَا يَقُولُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ: أَمْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الْجَاحِدُونَ أَفْتَرَىٰ هَذَا وَافْتَعَلَهُ مِنْ عِنْدِهِ ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ

وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَلِنِجْمَتِ رَبِّكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٣١﴾ وَيَقُولُوا مَنْ بَصُرْنَا مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا تَوَدَّأَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ﴿٣٥﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّسْنَا وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ ﴿٣٩﴾

إِجْرَامِي ﴿أَي: فَإِذَا ذَكَرْتُ عَلَيْكَ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أَي: لَيْسَ ذَلِكَ مُفْتَعَلًا وَلَا مُفْتَرَى، لِأَنِّي أَعْلَمُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِمَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّسْنَا وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ ﴿٣٩﴾ وَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا نَسَخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ بِأَيْدِي عَذَابٍ يُعْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾

[الْوَحْيُ إِلَىٰ نُوحٍ بِمَصِيرِ الْقَوْمِ وَالْأَمْرُ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ] يُخَيِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ - لَمَّا اسْتَعَجَلَ قَوْمُهُ نِقْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ، وَعَذَابَهُ لَهُمْ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ دَعْوَتَهُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَيَّرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكُفْرِينَ دِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ﴾ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهْمَنَّكَ أَمْرُهُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٦

سُورَةُ هُودٍ

وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكَعَمَا مَرَعَيْهِ مَلَأْمِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا
 مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ
 مُثْقِلٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
 مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
 وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا
 فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ حِمْرٌ بِهَا وَمَرَسَهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ
 تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
 فِي مَعْرَلٍ يَبْتَئِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
 قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
 الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
 مِنَ الْمُعْرَفِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسَّامَاةُ
 أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُصِّى الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ
 بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
 ابْنِي مِنَ أَهْلِي وَإِن وَعَدَك الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ﴾ بِغَيِّ السَّفِينَةِ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أَي: بِمَرَأَى مِنَّا
 ﴿وَوَحَيْنَا﴾ أَي: تَعْلِيمِنَا لَكَ مَا تَصْنَعُهُ ﴿وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ
 ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾ وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ التَّوْرَةِ:
 أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَصْنَعَهَا مِنْ خَشَبِ السَّاجِ، وَأَنْ يَجْعَلَ
 طُولَهَا ثَمَانِينَ ذِرَاعًا، وَعَرْضُهَا خَمْسِينَ ذِرَاعًا، وَأَنْ يُطْلِيَ
 بَاطِنَهَا وَظَاهِرَهَا بِالْقَارِ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهَا جُوجُؤًا أَوْزَرَ
 يَسُوقُ الْمَاءَ، وَكَانَ ارْتِفَاعُهَا فِي السَّمَاءِ ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا
 ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ، كُلُّ طَبَقَةٍ عَشْرَةُ أَذْرَعٍ، فَالسُّفْلَى لِلدَّوَابِّ
 وَالْوُحُوشِ، وَالْوُسْطَى لِلْإِنْسِ، وَالْعُلْيَا لِلطُّيُورِ، وَكَانَ
 بَابُهَا فِي عَرْضِهَا وَلَهَا غِطَاءٌ مِنْ فَوْقِهَا مُطْبِقٌ عَلَيْهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكَعَمَا مَرَعَيْهِ مَلَأْمِنْ قَوْمِهِ
 سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أَي يَهْزُونَ بِهِ وَيَكْذِبُونَ بِمَا يَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ مِنْ
 الْعَرَقِ ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾... الْآيَةِ:
 وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أَي يُهَيِّئُهُ
 فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ أَي دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ
 زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ
 مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٤٠﴾
 [بِدَايَةِ الطُّوفَانِ وَحَمْلِ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ
 زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ]

ادْخُلْ، فَيَنْهَضُ وَلَا يَقْدِرُ، فَقَالَ: ادْخُلْ وَإِنْ كَانَ إِبْلِيسُ
 مَعَكَ، فَدَخَلَ فِي السَّفِينَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أَي: وَاحْمِلْ
 فِيهَا أَهْلَكَ وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَقَرَابَتِهِ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
 مِنْهُمْ، مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ، فَكَانَ مِنْهُمْ ابْنُهُ الَّذِي انْعَزَلَ
 وَحَدَهُ، وَأَمْرَأَةُ نُوحٍ وَكَانَتْ كَافِرَةً بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقَوْلُهُ:
 ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أَي: مِنْ قَوْمِكَ ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾
 أَي: نَزَرَ يَبْسِرُ مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ وَالْمَقَامِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ أَلْفَ
 سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانُوا ثَمَانِينَ نَفْسًا
 مِنْهُمْ نِسَاؤُهُمْ^(١).

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ حِمْرٌ بِهَا وَمَرَسَهَا إِنْ رَبِّي
 لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ
 وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْتَئِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ
 الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا

هَذِهِ مَوْعِدَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا جَاءَ
 أَمْرُ اللَّهِ مِنَ الْأَمْطَارِ الْمُتَابِعَةِ وَالْهَيَّاتِ الَّذِي لَا يُفْلَعُ وَلَا
 يَنْتَرُ، بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ
 مُنْهَرٍ﴾ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَى الْمَاءَ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾
 وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ
 [القم: ١١-١٤] وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَفَارَ التَّنُورَ﴾ فَعَنِ ابْنِ
 عَبَّاسٍ: التَّنُورُ وَجْهُ الْأَرْضِ^(١). أَي: صَارَتِ الْأَرْضُ
 عُيُونًا تَقُورُ، حَتَّى فَارَ الْمَاءُ مِنَ التَّنَائِيرِ الَّتِي هِيَ مَكَانُ النَّارِ
 صَارَتْ تَقُورُ مَاءً، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ
 الْخَلْفِ، فَجَبْتَنِيذِ أَمْرِ اللَّهِ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ
 فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ صُنُوفِ الْمَخْلُوقَاتِ
 دَوَابِّ الْأَرْوَاحِ، قِيلَ: وَغَيْرِهَا مِنَ النَّبَاتَاتِ، اثْنَيْنِ: ذَكَرَا
 وَأَثْنَى. فَقِيلَ: كَانَ أَوَّلُ مَنْ ادْخَلَ مِنَ [الدَّوَابِّ]: الدَّرَّةُ
 وَأَجْرٌ مَنْ ادْخَلَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْحِمَارُ، فَتَعَلَّقَ إِبْلِيسُ
 بِذَنْبِهِ، وَجَعَلَ يُرِيدُ أَنْ يَنْهَضُ فَيُقْبِلُهُ إِبْلِيسُ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ
 بِذَنْبِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ لَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَالِكَ وَرَحِكَ!

(١) الطبري: ٣١٨/١٥ (٢) الطبري: ٣٢٦/١٥

عاصمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَمَا بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِضِينَ ﴿٤٤﴾

[الرُّكُوبُ فِي السَّفِينَةِ وَجَرِيهَا فِي الْأَمْوَاجِ الْهَائِلَةِ] يُقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ قَالَ لِلَّذِينَ أَمَرَ بِحَمْلِهِمْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَتُهَا﴾ أَي: بِسْمِ اللَّهِ يَكُونُ جَرِيهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَيَسْمُ اللَّهُ يَكُونُ مُتَهَيِّئًا سَبْرًا وَهُوَ رُسُومًا، وَقَرَأَ أَبُو رَجَاءٍ الْعَطَّارِيُّ: (بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا) ^(١) وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ أُنحِتْ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْ مِنَّا مَاءً مَبْرُكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَابِرِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩] وَلِهَذَا تَسْتَحَبُّ التَّسْمِيَةُ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ عِنْدَ الرُّكُوبِ عَلَى السَّفِينَةِ وَعَلَى الدَّابَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٦﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣]، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ بِالْحُثِّ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّدْبِ إِلَيْهِ، كَمَا سَيَأْتِي فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثَّقَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مُنَاسِبٌ عِنْدَ ذِكْرِ الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْكَافِرِينَ بِإِعْرَاقِهِمْ أَجْمَعِينَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يَقْرَأُ فِيهَا بَيْنَ رَحْمَتِهِ وَإِنْتِقَامِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُي تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أَي: السَّفِينَةُ سَائِرَةٌ بِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي قَدْ طَبَّقَ جَمِيعَ الْأَرْضِ حَتَّى طَفَّتْ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ وَارْتَفَعَتْ عَلَيْهَا بِخَمْسَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا، وَقِيلَ: بِثَمَانِينَ مِيلًا، وَهَذِهِ السَّفِينَةُ جَارِيَةٌ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ سَائِرَةٌ، يَأْذِنُ اللَّهُ وَتَحْتَ كَنَفِهِ، وَعِنَانِيَّتِهِ وَجِرَاسِيَّتِهِ وَامْتِنَانِيَّتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذْكَرَةً وَنَعِيمًا أَذُنٌ وَعِصَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَسُورِ ﴿١٢﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ﴾ [القمر: ١٣-١٥].

[قِصَّةُ عَرَقِ ابْنِ نُوحٍ الْكَافِرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ...﴾ [الآية] هَذَا هُوَ الْإِبْنُ الرَّابِعُ وَاسْمُهُ يَامٌ وَكَانَ كَافِرًا، دَعَاهُ أَبُوهُ عِنْدَ رُكُوبِ السَّفِينَةِ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَرْكَبَ مَعَهُمْ، وَلَا يَعْرِقُ مِثْلَ مَا يَعْرِقُ

الْكَافِرُونَ ﴿قَالَ سَنَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ إِعْتَمَدَ بِجَهْلِهِ أَنَّ الطُّوفَانَ لَا يَبْلُغُ إِلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَأَنَّهُ لَوْ تَعَلَّقَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ لَنَجَّاهُ ذَلِكَ مِنَ الْعَرَقِ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ﴾ أَي: لَيْسَ شَيْءٌ يَعْصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَمَا بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِضِينَ.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَاسْمَأْأِ أَلْبَعِي وَغِيصَ الْمَاءَ وَفِي السَّمَاءِ نُحُورٌ وَأَسْوَتٌ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾

[نَهَايَةُ الطُّوفَانِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَعْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ إِلَّا أَصْحَابَ السَّفِينَةِ أَمَرَ الْأَرْضُ أَنْ تَبْلُعَ مَاءَهَا الَّذِي نَبَعَ مِنْهَا وَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا، وَأَمَرَ السَّمَاءُ أَنْ تَقْلِعَ عَنِ الْمَطَرِ ﴿وَغِيصَ الْمَاءِ﴾ أَي: شَرَعَ فِي التَّقْصِصِ ﴿وَفِي السَّمَاءِ نُحُورٌ﴾ أَي: نُورٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً مِمَّنْ كَفَرَ بِاللَّهِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ دَيَّارٌ ﴿وَأَسْوَتٌ﴾ السَّفِينَةُ يَمُنْ فِيهَا ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهُوَ جَبَلٌ بِالْحِزْبَةِ، تَسَامَخَتْ الْجِبَالُ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْعَرَقِ وَتَطَاوَلَتْ، وَتَوَاضَعَ هُوَ اللَّهُ عَزَّ جَلَّ، فَلَمْ يَعْرِقْ، وَأُرْسَتْ عَلَيْهِ سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتَوَتْ عَلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى تَزَلُّوا مِنْهَا. قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ أَبَقِيَ اللَّهُ سَفِينَةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْجُودِيِّ مِنْ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ عِبْرَةً وَآيَةً. حَتَّى رَأَاهَا أَوَائِلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَمْ مِنْ سَفِينَةٍ قَدْ كَانَتْ بَعْدَهَا فَهَلَكَتْ وَصَارَتْ رَمَادًا ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: هَلَاكًا وَخَسَارًا لَهُمْ وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَاتَّهَمُوا قَدْ هَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَقِيَّةٌ.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَسْتَوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْشَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْطَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي

وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

(١) الطبري: ٣٢٨/١٥ (٢) الطبري: ٣٣٧/١٥ (٣) (٣٢٧٦١) (٣)

الطبري: ٣٣٨/١٥

[الْعُودُ إِلَى قِصَّةِ ابْنِ نُوحٍ وَذِكْرُ مَا دَارَ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوْلَ ابْنِهِ]

هَذَا سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَكَشْفٍ مِنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ حَالِ وَلَدِهِ الَّذِي غَرِقَ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ أَهْلِ﴾ أي: وَقَدْ وَعَدْتَنِي بِنَجَاةِ أَهْلِي، وَوَعَدْتُكَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُخْلَفُ، فَكَيْفَ غَرِقَ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ؟ ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الَّذِينَ وَعَدْتَ إِنْجَاءَهُمْ، لِأَنِّي إِنَّمَا وَعَدْتُكَ بِنَجَاةِ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فَكَانَ هَذَا الْوَلَدُ مِمَّنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بِالْغَرَقِ لِكُفْرِهِ وَمُخَالَفَتِهِ أَبَاهُ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أَيِ الَّذِينَ وَعَدْتُكَ نَجَاتَهُ.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُوَ ابْنُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خَالَفَهُ فِي الْعَمَلِ وَالنِّيَّةِ. قَالَ عِكْرِمَةُ: فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ: (إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ) ^(١). وَالْخِيَانَةُ تَكُونُ عَلَى غَيْرِ بَابٍ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ بِذَلِكَ: وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ زَيْدٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ: (إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ) ^(٢).

﴿قِيلَ يَنْوُحُ أَهِيظْ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُورٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمُ سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(٣)

[الْأَمْرُ بِالنُّزُولِ مِنَ السَّفِينَةِ بِالسَّلَامِ وَالْبَرَكَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا قِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُرْسِيَتِ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُرْدِيِّ مِنَ السَّلَامِ عَلَيْهِ، وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ دُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: دَخَلَ فِي هَذَا السَّلَامِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَذَلِكَ فِي الْعَذَابِ وَالْمَتَاعِ كُلِّ كَافِرٍ وَكَافِرَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ^(٤) وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكْفُفَ الطُّوفَانَ أَرْسَلَ رِيحًا عَلَى وَجْهِ

الْأَرْضِ، فَسَكَنَ الْمَاءُ وَأَنْسَدَتْ يَتَابِعُ الْأَرْضِ [الْعُوطِ] الْأَكْبَرَ ^(٥) وَأَبْوَابَ السَّمَاءِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ الْآيَةَ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْقُصُ وَيَغِيضُ وَيُدْبِرُ، وَكَانَ اسْتِوَاءُ الْفُلْكِ عَلَى الْجُرْدِيِّ - فِيمَا يَزْعَمُ أَهْلُ التَّوْرَةِ - فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ لِسَبْعِ عَشْرَةَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْهُ، وَفِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الشَّهْرِ الْعَاشِرِ رُئِيَ رُؤُوسُ الْجِبَالِ. فَلَمَّا مَضَى بَعْدَ ذَلِكَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا فَتَحَ نُوحٌ كُوَّةَ الْفُلْكِ الَّتِي رَكِبَ فِيهَا ثُمَّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٧

سُورَةُ هُودٍ

قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَنْبِ

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا

تَعَفَّرَ لِي وَتَرَحَّمْ عَلَيَّ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْوُحُ

أَهِيظْ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُورٍ مِمَّنْ مَعَكَ

وَأُمَّمُ سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ

مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ

مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَى عَادٍ

أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدْ وَاللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكَ عَلَيْهِ

أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا لَعَلَّ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾

وَيَنْقُورُ اسْتَعْفَرَ وَارْتَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبَّوْا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ

عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتْلُوا

مُحْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ

بِتَارِكِيكَ الْهِنَاءِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

أَرْسَلَ الْغُرَابَ لِيَنْظُرَ لَهُ مَا صَنَعَ الْمَاءُ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ، فَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ لَمْ تَجِدْ لِرِجْلِهَا مَوْضِعًا، فَبَسَطَ يَدَهُ لِلْحَمَامَةِ فَأَخَذَهَا، فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ مَضَى سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ أَرْسَلَهَا لِيَنْظُرَ لَهُ فَرَجَعَتْ حِينَ أَمْسَتْ، وَفِيهَا وَرَقٌ زَيْتُونٌ، فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْمَاءَ قَدْ قَلَّ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، ثُمَّ مَكَثَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ أَرْسَلَهَا فَلَمْ تَرْجِعْ فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْأَرْضَ قَدْ بَرَزَتْ، فَلَمَّا كَمَلَتْ السَّنَةَ فِيمَا بَيْنَ أَنْ أَرْسَلَ اللَّهُ الطُّوفَانَ إِلَى أَنْ أَرْسَلَ نُوحَ الْحَمَامَةَ، وَدَخَلَ يَوْمٌ وَاحِدٌ مِنَ الشَّهْرِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْ بَرَزَ وَجْهَ الْأَرْضِ، وَظَهَرَ الْبَرُّ،

(١) الطبري: ٣٤٣/١٥ (٢) مسند أحمد ٤٥٤/٦ والطبائسي (١٦٣١) أبو داود (٣٩٨٢) والمستدرک للحاکم ٢٤٩/٢ صحیح لشواهدہ. انظر الصحیحہ للالبانی (٢٨٠٩). (٣) الطبري: ١٥/٣٥٣ إسناده ضعيف فيه موسى بن عبيدة الربذي والضعف على رواياته بين كما قال ابن عدي [الكامل في ضعفاء الرجال ٦/٣٣٧] (٤) وفي اللسان لابن منظور: وانسدت يتابع الغوط الأكبر (مادة غوط، أي التنور) وهو أظهر، والله أعلم البداية والنهاية ١/١٣٢١.

وَكَشَفَ نُوحٌ غَطَاءَ الْفُلِّكَ، وَفِي الشَّهْرِ الثَّانِي مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ فِي سِتِّ وَعَشْرِينَ لَيْلَةً مِنْهُ ﴿قِيلَ يَتُوحُّ أَهْطُ بِسَلْمِهِ مَنَا﴾ ... الآية (١).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾
[قِصَصُ الْغَيْبِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: هَذِهِ الْوَعْدَةُ وَأَشْبَاهُهَا ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يَعْنِي مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّالِفَةِ، نُوحِيهَا إِلَيْكَ عَلَى وَجْهِهَا، كَأَنَّكَ شَاهِدُهَا ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أَي نَعْلَمُكَ بِهَا وَخَبَرًا مِثْلَ الْبَيِّنَاتِ ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أَي: لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا، حَتَّى يَقُولَ مَنْ يَكْذِبُكَ: إِنَّكَ تَعْلَمُهَا مِنْهُ، بَلْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا مُطَابِقَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الصَّحِيحُ، كَمَا تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، فَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَذَاهُمْ لَكَ، فَإِنَّا سَنَنْصُرُكَ وَنَحُوطُكَ بَعْنَانَيْنَا، وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَالْآخِرَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، كَمَا فَعَلْنَا بِالْمُرْسَلِينَ، حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ... الآية [عافر: ٥١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْغَرِيْبِ﴾ ﴿١٧٧﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ... الآية [الصافات: ١٧١، ١٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾.

﴿وَالَّذِي عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقْتُولُوا عَبْدًا اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْرَقُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ يَقْتُولُوا لَا اسْتَلْزَمُوا عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ وَيَقْتُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبَرِّدْكُمْ فَوْقَهُمْ إِلَى قَوْمِكُمْ وَلَا تَنْوَلُوا عُجْرًا مِنْكُمْ﴾ ﴿٥٢﴾

[قِصَّةُ هُودٍ وَقَوْمِهِ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِمَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أَمْرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي افْتَرَوْهَا، وَاخْتَلَفُوا لَهَا أَسْمَاءَ الْأَلْهَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْهُمْ أَجْرَةً عَلَى هَذَا النَّصْحِ وَالْبَلَاغِ مِنَ اللَّهِ، إِنَّمَا يَبْغِي تَوَابَةً مِنَ اللَّهِ الَّذِي فَطَرَهُ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يَصْلِحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَجْرَةٍ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي فِيهِ تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ وَبِالتَّوْبَةِ عَمَّا يَسْتَمْلِكُونَ، وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ بَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٨

سُورَةُ هُودٍ

إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَاكَ بَعْضَ الْهَيْئَاتِ بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَّلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْعَادِ قَوْمُ هُودٍ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقْتُولُوا عَبْدًا اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَإِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

رِزْقَهُ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَحَفِظَ شَأْنَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَاكَ بَعْضَ الْهَيْئَاتِ بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

[الْحَوَارِ بَيْنَ عَادٍ وَهُودٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أَي: بِحُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ عَلَى مَا نَدْعِيهِ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أَي بِمَجْرَدِ قَوْلِكَ: أُنْتَرَكُوهُمْ، تَنَرَكُّهُمْ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بِمُصْطَلِقِينَ ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَاكَ بَعْضَ الْهَيْئَاتِ بِسُوءٍ﴾ يَقُولُونَ: مَا نَنْظُرُ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْأَلْهَةِ أَصَابَكَ بِجُنُونٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَاسَىٰ
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي
غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَّكُمْ آيَةٌ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا سِوَاءَ مَا خَدَّكَ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ

أَمْرُنَا بِجَنَابِكُمْ صَلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جِثْمِينَ
كَانَ لَمْ يَخْتَفِ فِيهَا إِلَّا إِنْ شِئُوا كَفَرُوا إِنَّهُمْ الْآبِعَادُ
لِشُمُودٍ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا
سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا
رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿١٩﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ
فَضَحِكْتَ فَفَشَرْنَا بِأَسْحَقٍ وَمِنْ وَرَاءِ اسْحَقٍ يَعْقُوبُ ﴿٢٠﴾

الرَّشِيدِ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، فَلِهَذَا اتَّبَعُوا فِي الدُّنْيَا
لَعْنَةَ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّمَا ذُكِرُوا، وَبُنَادَى
عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا
كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾... الآية.

﴿وَإِلَىٰ شُمُودَ أَهْلَهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهِ غَيْرِهِ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ ﴿١١﴾

[قِصَّةُ صَالِحٍ وَشُمُودَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُرْسَلْنَا إِلَىٰ شُمُودَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ
كَانُوا يَسْكُنُونَ مَدَائِنَ الْحِجْرِ بَيْنَ تَبُوكَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانُوا
بَعْدَ عَادٍ قَبَعَتْ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴿أَهْلَهُمْ صَالِحًا﴾ فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ
اللَّهِ وَحْدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ: ابْتَدَأَ
خَلْقَكُمْ مِنْهَا: خَلَقَ مِنْهَا أَبَائَكُمْ آدَمَ ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أَيْ:
جَعَلَكُمْ عُمَرَاءَ تَعْمُرُونَهَا وَتَسْتَغْلِبُونَهَا ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لِسَالِفِ
ذُنُوبِكُمْ ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

وَحَبِيبٌ فِي عَفْوِكَ بِسَبِّ نَهْيِكَ عَنِ عِبَادَتِهَا وَعَيْبِكَ لَهَا﴾ قَالَ
إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِهِ﴾
يَقُولُ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ ﴿فَكَيْدُونِي
جَمِيعًا﴾ أَيْ: أَنْتُمْ وَالْهَيْكُلُكُمْ إِنْ كَانَتْ حَقًّا ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾
أَيْ: طَرْفَةَ عَيْنٍ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ
دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أَيْ: تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ،
وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ فِي حُكْمِهِ، فَإِنَّهُ عَلَىٰ
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْمَقَامُ حُجَّةً بِالْعَدَّةِ، وَدَلَالَةً قَاطِعَةً،
عَلَىٰ صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَبُطْلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ
الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا تَسْمَعُ
وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تُؤَلِّي وَلَا تُعَادِي، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ إِخْلَاصَ
الْعِبَادَةِ، اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَلَهُ
التَّصَرُّفُ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا تَحْتَ مُلْكِهِ وَقَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ،
فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إِلَيْكُمْ وَتَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا بِجَنَابِكُمْ هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبِحُسْنِهِمْ مِنْ عَذَابِ
غَلِيظٍ ﴿٢٢﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ
كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٣﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ
عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ لَهُمْ هُودٌ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ
اللَّهِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ
بِإِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ رَسُولَةَ اللَّهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا ﴿وَسَتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
غَيْرَكُمْ﴾ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ، وَلَا يُبَالِي بِكُمْ،
فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ، بَلْ يَعُودُ وَيَأَلُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ﴿إِنَّ
رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ أَيْ: شَاهِدٌ وَحَافِظٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ
وَأَفْعَالِهِمْ، وَبِحُزْبِهِمْ عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

[إِهْلَاكُ عَادٍ وَتَنْجِيَةُ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ]

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وَهُوَ الرِّيحُ الْعَقِيمُ فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَنِ
آخِرِهِمْ وَنَجَّى هُودًا وَاتَّبَاعَهُ مِنْ عَذَابِ غَلِيظٍ بِرَحْمَتِهِ تَعَالَى
وَلَطْفِهِ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كَفَرُوا بِهَا وَعَصَوْا
رُسُلَ اللَّهِ، وَذَلِكَ، أَنْ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ فَقَدْ كَفَرَ بِجَمِيعِ
الْأَنْبِيَاءِ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ
بِهِ، فَعَادُ كَفَرُوا بِهُودٍ فَتَزَلَّ كُفْرُهُمْ مَثْرَلَةً مِّنْ كَثَرِ بِجَمِيعِ
الرُّسُلِ ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تَرَكُوا اتِّبَاعَ رَسُولِهِمْ

أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّالِقِ إِذَا دَعَاكَ... الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا يَصْنَعُ قَدِّ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَسْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرِّي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرِ ﴿٦٧﴾﴾

[الحوار بين صالح وثمود]

يَذُكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ بَيْنَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿قَدِّ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أَيْ: كُنَّا نَرْجُوكَ فِي عَقْلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مَا قُلْتَ ﴿أَتَنْهَسْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ اسْتِغْنَاءٌ ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّ﴾ أَيْ: شَكٌّ كَثِيرٌ ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فِيمَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ عَلَىٰ بَيِّنٍ وَبُرْهَانٍ ﴿وَآتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرِّي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ وَتَرَكْتُ دَعْوَتَكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدُّهُ، فَلَوْ تَرَكْتُهُ لَمَا نَفَعْتُمُونِي وَلَمَا زِدْتُمُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ أَيْ خَسَارَةً.

﴿وَيَتَقَوَّمُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ اثْنَانَا بَجَيْتِنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْكَ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنَّ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا بِهِمْ إِلَّا بَعْدًا

ثَمُودَ ﴿٦٨﴾

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ هَذِهِ الْقِصَّةِ مُسْتَوْفَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ [الآية: ٧٣-٧٨] بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَىٰ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمًا فَمَا لِكَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَسِيدٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٦٧﴾ وَإِسْرَائِيلَ قَالِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٦٨﴾ قَالَتْ يَوْتَلِفْ عَأْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكَعْتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٠﴾

[مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَتَبْسِيرُهُمْ إِيَّاهُ بِإِسْحَاقَ

قَالَتْ يَوْتَلِفْ عَأْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكَعْتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٠﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ مُجْتَدِلِينَ فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧١﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٢﴾ تَبَّ إِبْرَاهِيمَ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رِيكٌ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧٣﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَبِأَقْصَىٰ مِنْهُمْ دَرَءًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٤﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَهُنَا بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٥﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٦﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْبَسْ مِنْكُمْ أَحَدًا إِلَّا أَمْرًا نَكْرًا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٧٨﴾

[وَيَعْقُوبُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَىٰ﴾ قِيلَ: نُبَشِّرُهُ بِإِسْحَاقَ وَقِيلَ: بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، وَيَشْهَدُ لِلأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ مُجْتَدِلِينَ فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] ﴿قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمًا﴾ أَيْ: عَلَيْنَكُمْ، قَالَ عَلَمَاءُ الْبَيَّانِ: هَذَا أَحْسَنُ مِمَّا حَيَّوهُ بِهِ، لِأَنَّ الرَّفْعَ يُدُلُّ عَلَى الثَّبُوتِ وَاللَّدَوَامِ ﴿فَمَا لِكَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَسِيدٍ﴾ أَيْ: ذَهَبَ سَرِيعًا فَأَتَاهُمْ بِالضَّيَافَةِ، وَهُوَ عَجَلٌ قَبِيَّ الْبَقْرِ، حَسِيدٌ: مَشُوبٌ عَلَى الرِّضْفِ وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْمُحْمَاةُ. هَذَا مَعْنَى مَا رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ^(١). كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعَجَلٍ سَيِّبٍ ﴿٦٦﴾ فَفَرَّقَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آدَابَ الضَّيَافَةِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ.

(١) الطبري: ١٥/٣٨٤، ٣٨٥

إِسْمَاعِيلَ . وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْإِسْتِدْلَالِ وَأَصَحِّهِ وَأَبْيَنِهِ وَ اللَّهِ الْحَمْدُ .

﴿قَالَتْ يَوْتِلُقِ مَاءِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ . . .
الآيَةُ حُكِي قَوْلُهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، كَمَا حُكِيَ فِعْلُهَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتِهِ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَحَهِمَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩] كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الشَّيْءِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ عِنْدَ التَّعَجُّبِ ﴿قَالُوا أَنْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أَي: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهَا: لَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ ، فَيَكُونُ . فَلَا تَعْجَبِي مِنْ هَذَا وَإِنْ كُنْتِ عَجُوزًا عَقِيمًا وَبِعَلِّكَ شَيْخًا كَبِيرًا ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ مَرْكَتَهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ أَي: هُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، مَحْمُودٌ مُمَجَّدٌ فِي صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ . وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُمْ قَالُوا: قَدْ عَلِمْنَا السَّلَامَ عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» (١) .

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْحُ وَجَاءَهُهُ الشَّيْطَانُ يُجَادِلُنَا فِي قَوْلِ لُوطٍ﴾ (٧٤) **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ** (٧٥) **إِبْرَاهِيمَ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا** **إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رِيكٌ وَإِيَّاهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (٧٦) **عَبْرٌ مَرْدُودٌ** (٧٦)

[مُجَادَلَةُ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْمِ لُوطٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْحُ - وَهُوَ مَا أُوجِسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ خِيفَةً حِينَ لَمْ يَأْكُلُوا - وَبَشَّرُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْوَلَدِ ، وَأَخْبَرُوهُ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، أَخَذَ يَقُولُ كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي الْآيَةِ ، قَالَ: لَمَّا جَاءَهُ جِبْرِيْلُ وَمَنْ مَعَهُ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قَالَ لَهُمْ: أَتَهْلِكُونَ قَرْيَةَ فِيهَا ثَلَاثِمِائَةٍ مُؤْمِنٍ؟ قَالُوا: لَا ، قَالَ: أَتَهْلِكُونَ قَرْيَةَ فِيهَا مِائَتَانِ مُؤْمِنٍ؟ قَالُوا: لَا ، قَالَ: أَتَهْلِكُونَ قَرْيَةَ فِيهَا أَرْبَعُونَ مُؤْمِنًا؟ قَالُوا: لَا ، قَالَ: ثَلَاثُونَ؟ قَالُوا: لَا ، حَتَّى بَلَغَ خَمْسَةَ قَالُوا: لَا ، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ وَاحِدٌ أَتَهْلِكُونَهَا؟ قَالُوا: لَا ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنِّي فِيهَا لُوطٌ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تَنَكَّرَهُمْ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ ، وَلَا يَشْتَهُونَهُ وَلَا يَأْكُلُونَهُ ، فَلِهَذَا رَأَى حَالَهُمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ ، فَارْغَبَ عَنْهُ بِالْكَلْبِيَّةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَكِرَهُمْ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قَالَ الشَّدَائِي: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ لِقَوْمِ لُوطٍ أَقْبَلَتْ تَمَشِي فِي صُورِ رِجَالِ شُبَّانٍ ، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ فَتَضَيَّفُوهُ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ أَجْلَهُمْ ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سِيمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٦] فَدَبَّحَهُ ، ثُمَّ شَوَّاهُ فِي الرَّضْفِ ، وَأَتَاهُمْ بِهِ ، فَفَعَدَ مَعَهُمْ . فَلَمَّا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ: أَلَا تَأْكُلُونَ؟ قَالُوا: يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّا لَا نَأْكُلُ طَعَامًا إِلَّا بِئْمَنٍ ، قَالَ: فَإِنَّ لِهَذَا ثَمَنًا ، قَالُوا: وَمَا ثَمَنُهُ؟ قَالَ: تَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَى أَوْلِيهِ ، وَتَحْمَدُونَهُ عَلَى آخِرِهِ ، فَنَظَرَ جِبْرِيْلُ إِلَى مِيكَائِيلَ فَقَالَ: حَقٌّ لِهَذَا أَنْ يَتَّخِذَهُ رَبُّهُ خَلِيلًا . ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يَقُولُ: فَلَمَّا رَأَاهُمْ لَا يَأْكُلُونَ ، فَنَزَعَ مِنْهُمْ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فَلَمَّا نَظَرَتْ سَارَةَ أَنَّهُ قَدْ أَكْرَمَهُمْ ، وَقَامَتْ هِيَ تَخْدِمُهُمْ صَحِيحَةً ، وَقَالَتْ: عَجَبًا لِأَضْيَافِنَا هَؤُلَاءِ ، نَخْدِمُهُمْ بِأَنْفُسِنَا كِرَامَةً لَهُمْ ، وَهُمْ لَا يَأْكُلُونَ طَعَامَنَا! (١) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ أَي قَالُوا: لَا تَخَفْ مِنَّا ﴿إِنَّا﴾ مَلَائِكَةٌ ﴿أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ لُوطٍ﴾ لِتَهْلِكُهُمْ ، فَضَحِكْتَ سَارَةُ اسْتِشَارًا بِهَلَاكِهِمْ ، لِكثْرَةِ فَسَادِهِمْ وَعِظَ كُفْرِهِمْ ، فَلِهَذَا جُوزِيَتْ بِالْبِشَارَةِ بِالْوَلَدِ بَعْدَ الْإِيَّاسِ . وَقَالَ قَتَادَةُ: ضَحِكْتَ وَعَجِبْتَ أَنَّ قَوْمًا يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ﴾ أَي: يَوْلَدُ لَهَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَعَقِبٌ وَنَسْلٌ ، فَإِنَّ يَعْقُوبَ وَلَدَ إِسْحَاقَ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَقُودُ إِلَهاتِكُمْ وَإِلَهُ آبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاتًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١١٣] .

وَمِنْ هُنَا اسْتَدَلَّ مَنْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةِ: عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ إِنَّمَا هُوَ إِسْمَاعِيلُ ، وَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْحَاقَ ، لِأَنَّهُ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ وَأَنَّهُ سَيَوْلَدُ لَهُ يَعْقُوبُ ، فَكَيْفَ يُؤْمَرُ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِهِ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ وَلَمْ يَوْلَدْ لَهُ - بَعْدُ - يَعْقُوبَ الْمَوْعُودُ بِوُجُودِهِ وَوَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ لَا خُلْفَ فِيهِ؟! فَيَمْتَنِعُ أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِ هَذَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ

(١) الطبري: ٣٨٩/١٥ (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٦ ومسلم: ١/

لَنَنْجِسَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ ﴿٣٧﴾... الآية [العنكبوت: ٣٧].
فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ
أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ مَدْحٌ لِإِبْرَاهِيمَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أُنثَى
رَبِّكَ﴾... الآية، أَي: أَنَّهُ قَدْ نَفَذَ فِيهِمُ الْقَضَاءَ وَحَقَّتْ
عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ بِالْهَلَاكِ وَحُلُولِ النَّاسِ الَّذِي لَا يَرُدُّ عَنْ
الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَسَأَقُ بِهِمْ ذِرَاعًا فَهَذَا
يَوْمَ عَصِيبٍ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوِرُ هُنَا لَأَنْبَاءُ يَأْتِيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالَّذِينَ لَا
يُحْزِنُونَ فِي صَاحِبِ آلِ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا
لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَتَّىٰ وَرَبِّكَ لَتَعْلَمَنَّ مَا رُيِدُ ﴿٧٩﴾﴾

[مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى لُوطٍ وَمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الضِّيقِ وَمَا
دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدُومِ رُسُلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بَعْدَ مَا
أَعْلَمُوا إِبْرَاهِيمَ بِهَلَاكِهِمْ، وَفَارَقُوهُ، وَأَخْبِرُوهُ بِهَلَاكِ اللَّهِ
قَوْمِ لُوطٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَاذْهَبُوا مِنْ عِنْدِهِ فَأَتَوْا لُوطًا عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَهُوَ - عَلَى مَا قِيلَ - فِي أَرْضٍ لَهُ. وَقِيلَ: فِي
مَنْزِلِهِ. وَوَرَدُوا عَلَيْهِ، وَهُمْ فِي أَجْمَلِ صُورَةٍ تَكُونُ، عَلَى
هَيْئَةِ شُبَّانِ حَسَنِ الْوُجُوهِ، ابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ
وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَسَاءَتْ سَأَلُهُمْ، وَصَافَتْ نَفْسُهُ بِسَبِّهِمْ،
وَخَشِيَ أَنْ لَمْ يُضَيِّقَهُمْ: أَنْ يُضَيِّقَهُمْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ فَيَنَالَهُمْ
بِسُوءٍ ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمَ عَصِيبٍ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْرٌ
وَاحِدٌ: شَدِيدٌ بِلَاوَةٍ^(٢). وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَدْفَعُ عَنْهُمْ
وَيَسْقُ عَلَيْهِ ذَلِكَ. وَذَكَرَ قَتَادَةُ: أَنَّهُمْ أَتَوْهُ وَهُوَ فِي أَرْضٍ
لَهُ^(٣) فَضَيَّقُوهُ فَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ فَانْطَلَقَ أَمَامَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ فِي
أَنْتَاءِ الطَّرِيقِ كَالْمُعْرِضِ لَهُمْ بِأَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُ: إِنَّهُ وَاللَّهِ! يَا
هَؤُلَاءِ، مَا أَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَهْلَ بَلَدٍ أَحَبَّتْ مِنْ
هَؤُلَاءِ. ثُمَّ مَشَى قَلِيلًا، ثُمَّ أَعَادَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حَتَّى كَرَّرَهُ
أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، قَالَ قَتَادَةُ: وَقَدْ كَانُوا أَمْرُوا أَنْ لَا يُهْلِكُوهُمْ
حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ بِذَلِكَ^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَي يُسْرِعُونَ وَيَهْرَوُلُونَ مِنْ
فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾
أَي: لَمْ يَزَلْ هَذَا مِنْ سَجِيَّتِهِمْ حَتَّى أُخِذُوا وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ
الْحَالِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ يَنْفَوِرُ هُنَا لَأَنْبَاءُ يَأْتِيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
يُرِيدُهُمْ إِلَى نِسَابِهِمْ، فَإِنَّ النَّبِيَّ لِلْأُمَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ،

فَأَرَسَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ
لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿آتَاوُنَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾
وَيَذُرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَعَمْرُؤٌ
[الشعراء: ١٦٥، ١٦٦] وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ
تَنْهَكْ عَنِ الْمَلَائِكِ﴾ أَي أَلَمْ تَنْهَكْ عَنِ صِيْفَةِ الرَّجَالِ
﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾ لَعَمْرُؤُا إِنَّهُمْ لَمِنَ سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٠-٧١] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:
﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قَالَ مَجَاهِدٌ: لَمْ يَكُنْ بَنَاتِي،
وَلَكِنْ كُنَّ مِنْ أُمَّتِي، وَكُلُّ نَبِيٍّ أَبُو أُمَّتِهِ^(٥). وَكَذَا رَوَى عَنْ
قَتَادَةَ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزِنُوا فِي صَاحِبِ﴾ أَيِ اقْبَلُوا مَا
أَمْرُكُمْ بِهِ مِنَ الْإِفْتِصَارِ عَلَى نِسَابِكُمْ ﴿الَّذِينَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ
رَشِيدٌ﴾ أَي: فِيهِ خَيْرٌ يَقْبَلُ مَا أَمَرَهُ بِهِ، وَيَتْرُكُ مَا أَنْهَاهُ عَنْهُ
﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَتَّى﴾ أَي: إِنَّكَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ
نِسَاءَنَا لَا أَرْبَ لَنَا فِيهِنَّ وَلَا تَشْتَهِيهِنَّ ﴿وَرَبِّكَ لَتَعْلَمَنَّ مَا رُيِدُ﴾
أَي: لَيْسَ لَنَا غَرَضٌ إِلَّا فِي الذُّكُورِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ،
فَأَيُّ حَاجَةٍ فِي تَكَرُّرِ الْقَوْلِ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ؟

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ
إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأُنْزِلْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا
يَلْمِزُكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكْرَهُ إِنَّهُ مَصِيبٌ مِمَّا آصَابَهُمْ إِنَّ
مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

[عَجَزَ لُوطٌ وَتَمَتَّتِ الْقُوَّةُ، وَإِخْبَارُ الْمَلَائِكَةِ لَهُ
بِالْحَقِيقَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ لُوطًا
تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾... الآية: أَي:
لَكُنْتُ نَكَلْتُ بِكُمْ وَفَعَلْتُ بِكُمْ الْأَفْعَالَ بِنَفْسِي وَعَشِيرَتِي،
وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَالَ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى لُوطٍ، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ»
- يَعْنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - «فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا فِي
ثُرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ»^(٧). فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخْبَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ رُسُلُ

(١) الطبري: ٤٠٣/١٥ إسناده ضعيف من أجل شيخ الطبري
محمد بن حميد الرازي قال ابن حجر: حافظ ضعيف (تقريب) قال
البخاري في حديثه نظر [التاريخ الصغير] (٢) الطبري: ١٥/
٤١١ (٣) الطبري: ٤٠٨/١٥ (٤) الطبري: ٤٠٨/١٥ (٥)
الطبري: ٤١٤/١٥ (٦) الطبري: ٤١٣/١٥ (٧) الترمذي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٢٣١

سُورَةُ هُودٍ

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدِينِ آخَاهُمْ
شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بَخِيرًا
وَأِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوَّمُ
أَوْقُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْرَافُوا الْأَرْضَ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَتْ اللَّهُ حَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعُوبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ
تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكمُ إِلَىٰ مَا أَنهَدَكمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْصُودٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْصُودَةٌ فِي السَّمَاءِ أَيْ
مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿مَنْصُودٍ﴾ أَيْ: يَتَّبِعُ بَعْضُهَا
بَعْضًا فِي نَزُولِهَا عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُسَوِّمَةً﴾ أَيْ: مُعَلِّمَةً مَّخْتُومَةً عَلَيْهَا أَسْمَاءُ
أَصْحَابِهَا، كُلُّ حَجَرٍ مَّكْتُوبٌ عَلَيْهِ اسْمُ الَّذِي يَنْزِلُ
عَلَيْهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ: ﴿مُسَوِّمَةً﴾ مُطَوِّقَةٌ، بِهَا نَضْحٌ
مِنْ حُمْرَةٍ^(٣). وَذَكَرُوا: أَنَّهَا نَزَلَتْ عَلَىٰ أَهْلِ الْبَلَدِ وَعَلَى
الْمُتَّفَرِّقِينَ فِي الْقَرْيَةِ مِمَّا حَوْلَهَا، فَبَيْنَا أَحَدُهُمْ يَكُونُ عِنْدَ
النَّاسِ يَتَحَدَّثُ إِذْ جَاءَهُ حَجَرٌ مِّنَ السَّمَاءِ فَسَقَطَ عَلَيْهِ مِنْ
بَيْنِ النَّاسِ، فَدَمَّرَهُ، فَتَبِعَهُمُ الْحِجَارَةُ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ
حَتَّىٰ أَهْلَكْتَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَقَوْلُهُ:
﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ﴾ أَيْ: وَمَا هَذِهِ التَّقْمَةُ مِمَّنْ
تَسَبَّ بِهَمْ فِي ظُلْمِهِمْ بِعِيدٍ عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ

اللَّهُ إِلَهُهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَا وُضُوءَ لَهُمْ إِلَيْهِ ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ
رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وَأَمْرُهُ أَنْ يُسْرِيَ بِأَهْلِهِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ،
وَأَنْ يَتَّبِعَ أَذْبَارَهُمْ أَيْ: يَكُونُ سَاقَةً لِأَهْلِهِ ﴿وَلَا يَلْفُتْ
مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أَيْ: إِذَا سَمِعَتْ مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَلَا تَهْوَلَنَّكُمْ
تِلْكَ الْأَصْوَاتُ الْمُزْعِجَةُ، وَلَكِنْ اسْتَمَرُّوا ذَاهِبِينَ ﴿إِلَّا
أَمْرًا لَّكَ﴾ قَالَ الْأَكْثَرُونَ مَعْنَاهُ: أَنَّهَا لَا تَسْرِي وَلَا تَذْهَبُ
مَعَكَ، بَلْ تَبْقَىٰ فِي بَيْتِهَا وَتُهْلِكُ. وَقِيلَ: بَلْ مَعْنَاهُ: أَنَّهَا
تَلْتَفِتُ، وَذَكَرَ هُوَ لَا: أَنَّهَا خَرَجَتْ مَعَهُمْ وَأَنَّهَا لَمَّا سَمِعَتْ
الْوَجِبَةَ انْتَفَتَتْ، وَقَالَتْ: وَاقُومُوا! فَجَاءَهَا حَجَرٌ مِّنَ السَّمَاءِ
فَقَتَّلَهَا.

ثُمَّ قَرَّبُوا لَهُ هَلَاكَ قَوْمِهِ تَبْسِيرًا لَهُ، لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ:
أَهْلِكُوهُمْ السَّاعَةَ، فَقَالُوا: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ الْبَيْتُ الصُّبْحُ
يَقْرِبُ﴾ هَذَا وَتَوَمُّ لُوطٌ وَوُفُوٌّ عَلَى الْبَابِ عُكُوفٌ، قَدْ
جَاءُوا وَيُهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلُوطٌ وَاقِفٌ عَلَى
الْبَابِ يُدَافِعُهُمْ وَيَرُدُّعُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، وَهُمْ لَا
يَقْبَلُونَ مِنْهُ، بَلْ يَتَوَعَّدُونَهُ وَيَتَهَدَّدُونَهُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ
عَلَيْهِمْ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْرَبَ وَجُوهُهُمْ بِجَنَاحِهِ،
فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ فَرَجَعُوا وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ الطَّرِيقَ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَادُوهُ عَن ضَيْفِيهِ. فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي
وَنُذْرِي﴾... الآية [القمر: ٣٧].

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً
مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ
بِعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

[قَلْبُ قُرَيْبَةٍ قَوْمِ لُوطٍ وَإِهْلَاكُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ طُلُوعِ
الشَّمْسِ ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ وَهِيَ سُدُومٌ ﴿سَافِلَهَا﴾ كَقَوْلِهِ:
﴿فَقَسَلْنَا مَا عَنَّا﴾ [النجم: ٥٤] أَيْ: أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً
مِّن سِجِّيلٍ وَهِيَ بِالْفَارِسِيَّةِ حِجَارَةٌ مِّن طِينٍ. قَالَهُ ابْنُ
عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ^(١). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَيْ مِّن «سَنِكَ» وَهُوَ
الْحَجَرُ، «وَكُلٌّ» وَهُوَ الطِّينُ، وَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى
﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾، أَيْ مُسْتَحْجَرَةً قَوِيَّةً شَدِيدَةً. وَقَالَ
بَعْضُهُمْ: مَسْوِيَّةٌ. وَقَالَ الْبَحَّارِيُّ: سِجِّيلٌ: الشَّدِيدُ الْكَبِيرُ.
سِجِّيلٌ، وَسِجِّينٌ: اللَّامُ وَالْتُونُ أُخْتَانِ^(٢). وَقَالَ تَمِيمٌ بَنُ
مُقَيْلٍ:

وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ صَاحِبَةً

ضَرْبًا تَوَاصَّتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِّينَا

(١) الطبري: ٤٣٤/١٥ (٢) فتح الباري: ٢٠٢/٨ (٣) نضح
من حمرة: أي أثر وبقية، الطبري: ٤٣٨/١٥

الْمُرُويِّ فِي الشَّنَنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلًا قَوْمِ لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»^(١).
 ﴿وَالَّذِينَ مَدِينٌ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾

[قِصَّةُ مَدِينٍ وَدَعْوَةُ شُعَيْبٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى مَدِينٍ، وَهُمْ قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ، كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ قَرِيبًا مِنْ مَعَانَ. بِلَدًا تُعْرَفُ بِهِمْ يُقَالُ لَهَا: مَدِينٌ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا، وَكَانَ مِنْ أَشْرَفِهِمْ نَسَبًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يَا مُرَّهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِنَهَاهُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ﴿إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أَيُّ: فِي مَعِيشَتِكُمْ وَرِزْقِكُمْ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَسْلُبُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ، بِانْتِهَاكُمْ مَحَارِمَ اللَّهِ ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ أَيُّ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

﴿وَيَتَقَوَّمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُتَّبِعِينَ﴾^(٢) بَيِّنَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ

بِحَفِيفٍ^(٣)

بِنَهَاهُمْ أَوْلَا عَنْ نَقْصِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِذَا أَعْطُوا النَّاسَ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ بِالْقِسْطِ، آخِذِينَ وَمُعْطِينَ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْعُتُوِّ فِي الْأَرْضِ بِالْفُسَادِ، وَقَدْ كَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ: ﴿بَيِّنَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أَيُّ: مَا يَفْضُلُ لَكُمْ مِنَ الرِّيحِ بَعْدَ وَفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ، خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ.^(٤) قَالَ: وَقَدْ رُوِيَ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٥). (قُلْتُ): وَنُسِبَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾... الْآيَةُ [المائدة: ١٠٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ أَيُّ: بِرَقِيبٍ وَلَا حَفِيفٍ، أَيُّ أَفْعَلُوا ذَلِكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا تَفْعَلُوهُ لِيَرَاكُمْ النَّاسُ بَلْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿قَالُوا يَسْئَعُكَ أَصْلَانُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكَّ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ

الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٦)

[جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ]

يَقُولُونَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ - فَبَحَّهْمُ اللَّهُ - :

﴿أَصْلَانُكَ﴾ قَالَ الْأَعْمَشُ: أَيُّ قِرَاءَتُكَ ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكَّ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ أَيُّ: الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فَتَتَّكَّ التَّطْفِيفَ عَلَى قَوْلِكَ، وَهِيَ أَمْوَالُنَا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نُرِيدُ. قَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصْلَانُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكَّ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ إِي وَاللَّهِ! إِنَّ صَلَاتَهُ لَتَأْمُرُهُمْ أَنْ يَتَّكُّوا مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ^(٧). وَقَالَ الثَّورِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يَعْنُونَ الرِّكَاتَةَ ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمِمَّنْ بَنُو مِهْرَانَ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ أَسْلَمَ وَابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُونَ ذَلِكَ - أَعْدَاءُ اللَّهِ - عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِهْزَاءِ، فَبَحَّهْمُ اللَّهُ وَلَعَنَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَقَدْ فَعَلَ^(٨).

﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ﴾^(٩)

[رَدُّ شُعَيْبٍ عَلَى قَوْمِهِ]

يَقُولُ لَهُمْ: هَلْ رَأَيْتُمْ يَا قَوْمُ! ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَتِهِ مِنْ رَبِّي﴾ أَيُّ: عَلَى بَصِيرَةٍ فِيمَا أَدْعُو إِلَيْهِ ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قِيلَ: أَرَادَ النُّبُوَّةَ. وَقِيلَ: أَرَادَ الرِّزْقَ الْحَلَالَ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ. وَقَالَ الثَّورِيُّ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ أَيُّ: لَا أَنْهَأَكُمُ عَنِ الشَّيْءِ وَأُخَالِفُ أَنَا فِي السَّرِّ فَأَفْعَلُهُ خُفْيَةً عَنْكُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ يَقُولُ: لَمْ أَكُنْ أَنْهَأَكُمُ عَنْ أَمْرٍ وَأُرْتَكِبُهُ^(١٠). ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أَيُّ: فِيمَا أَمُرُّكُمْ وَأَنْهَأَكُمُ إِنَّمَا أُرِيدُ إِصْلَاحَكُمْ جُهْدِي وَطَاقَتِي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أَيُّ: فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ فِيمَا أُرِيدُهُ ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فِي جَمِيعِ أُمُورِي ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَيُّ: أَرْجِعُ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ^(١١).

﴿وَيَتَقَوَّمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(١٢)
 وَاسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾^(١٣)
 يَقُولُ لَهُمْ: ﴿وَيَتَقَوَّمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أَيُّ: لَا

(١) أبو داود: ٤٤٦٢ و الترمذي: ١٤٥٦ وابن ماجه: ٢٥٦١

(٢) الطبري: ٤٤٧/١٥ (٣) الطبري: ٤٤٧/١٥ (٤) الطبري:

٤٥١/١٥ (٥) الطبري: ٤٥٣/١٥ (٦) الطبري: ٤٥٣/١٥ (٧)

الطبري: ٤٥٤/١٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٣٢

سُورَةُ هُودٍ

تَحْمِلَنَّكُمْ عِدَاوَتِي وَيُبْغِضِي عَلَى الْإِضْرَارِ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
 مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسَادِ، فَيُصِيبُكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ وَقَوْمَ
 هُودٍ وَقَوْمَ صَالِحٍ وَقَوْمَ لُوطٍ مِنَ النَّقْمَةِ وَالْعَذَابِ. وَقَالَ
 قَتَادَةُ: ﴿وَيَقْوَرُ لَا يَجْرَمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ يَقُولُ: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ
 فِرَاقِي^(١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: عِدَاوَتِي، عَلَى أَنْ تَمَادَوْا فِي
 الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ فَيُصِيبُكُمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا أَصَابَهُمْ. وَقَوْلُهُ:
 ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِثْلُكُمْ يَبْعِدُ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ فِي الزَّمَانِ،
 قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي إِنَّمَا هَلَكُوا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ بِالْأَمْسِ. وَقِيلَ:
 فِي الْمَكَانِ. وَيُحْتَمَلُ الْأَمْرَانِ. ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ مِنْ
 سَالِفِ الذُّنُوبِ ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ
 السَّيِّئَةِ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ رَبِّي رَجِمَ وَدُودٌ﴾ لِمَنْ تَابَ.
 ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا
 وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ قَالَ يَنْقَوِرُ
 أَهْطَى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ
 رَبِّي يَمَّا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ^(١٧)

[جَوَابُ قَوْمِ شَعِيبٍ]

يَقُولُونَ: ﴿يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ﴾ مَا نَفَقَهُمْ ﴿كَثِيرًا﴾ مِنْ
 قَوْلِكَ وَقَالَ الثَّورِيُّ: كَانَ يُقَالُ لَهُ: خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ^(٢).
 قَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قَالَ: أَنْتَ وَاحِدٌ،
 وَقَالَ أَبُو رُوَيْقٍ: يَعْنُونَ ذَلِيلًا، لِأَنَّ عَشِيرَتَكَ لَيْسُوا عَلَى
 دِينِكَ. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أَي: قَوْمُكَ لَوْلَا مَعَزَّتُهُمْ
 عَلَيْنَا لَرَجَمْنَاكَ. قِيلَ: بِالْحِجَارَةِ. وَقِيلَ: لَسَبْنَاكَ. ﴿وَمَا
 أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أَي: لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ مَعَزَةٌ.

[رَدُّ شَعِيبٍ عَلَى قَوْمِهِ]

﴿قَالَ يَنْقَوِرُ أَهْطَى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ﴾ يَقُولُ:
 أَتَرَكُونَنِي لِأَجْلِ قَوْمِي وَلَا تَتَرَكُونَنِي إِعْظَامًا لِجَنَابِ الرَّبِّ
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ تَتَّالُوا نَبِيَّهُ بِمَسَاءَةٍ، وَقَدْ اتَّخَذْتُمْ جَانِبَ
 اللَّهِ ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ أَي: نَبَذْتُمُوهُ خَلْفَكُمْ لَا تُطِيعُونَهُ وَلَا
 تُعْظَمُونَهُ ﴿إِنَّ رَبِّي يَمَّا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أَي: هُوَ يَعْلَمُ
 جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ بِهَا].

﴿وَيَقْوَرُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ
 يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُعْزِبُهُ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
 رَقِيبٌ﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
 جَنِينَ﴾ ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ
 سُمُودٌ﴾^(١٥)

[تَهْدِيدُ شَعِيبٍ قَوْمَهُ]

لِمَا يَسَسَ نَبِيُّ اللَّهِ شَعِيبٌ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ قَالَ: يَا قَوْمِ!
 ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أَي: طَرِيقَتِكُمْ. وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ
 ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾ عَلَى طَرِيقَتِي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ
 يُعْزِبُهُ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ أَي: مِنِّي وَمِنْكُمْ ﴿وَارْتَقِبُوا﴾
 أَي: انظَرُوا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينَ﴾
 وَقَوْلُهُ: ﴿جَنِينَ﴾ أَي: هَامِدِينَ لَا حَرَكَ بِيَهُمْ. وَذَكَرَ
 هَهُنَا أَنَّهُ أَتَتْهُمْ «صَيْحَةٌ» [الآية: ٩٤] وَفِي الْأَعْرَافِ: «رَجْفَةٌ»
 [الآية: ٩١] وَفِي الشُّعْرَاءِ: «عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ» [الآية: ١٨٩]
 وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ عَذَابِهِمْ هَذِهِ النِّقْمُ كُلُّهَا،
 وَإِنَّمَا ذَكَرَ فِي كُلِّ سِيَاقٍ مَا يَنَاسِبُهُ فِي الْأَعْرَافِ لَمَّا قَالُوا:
 ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا﴾ [الآية: ٨٨]

(١) الطبري: ٤٥٥/١٥ (٢) الطبري: ٤٥٨/١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٣

سُورَةُ هُودٍ

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ
 الْمُرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ
 الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ
 مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيئًا ﴿١٠١﴾
 وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ
 أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
 نُوحِرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتُ لَاتُ تَكَلَّمُ نَفْسٌ
 إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي
 النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَسَهيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ
 ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾

أي: أتبعناهم - زيادة على عذاب النار - لعنة في الدنيا
 ﴿ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة
 يوم القيامة فتلك لعنتان^(١). وقال علي بن أبي طلحة عن
 ابن عباس ﴿بئس الرفد المرفود﴾ قال: لعنة الدنيا
 والآخرة^(٢). وكذا قال الضحاك وقادة^(٣). وهو كقوله:
 ﴿وجعلت لهم آية يدعوهم إلى الكفر ويوم القيامة لا
 يصررون﴾^(٤) وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم
 من المقبوحين ﴿الفصص: ٤١، ٤٢﴾ وقال تعالى:
 ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا
 آل فرعون أشد العذاب﴾. [عافر: ٤٦].

﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾^(٥)
 وما ظلمتهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم
 التي يدعون من دون الله من شيء لَمَّا جاء أمر ربك وما زادهم غير
 تنبيئ^(٦)

نَاسَبَ أَنْ يُذَكَّرَ الرَّجْفَةَ، فَرُجِفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ الَّتِي ظَلَمُوا
 بِهَا وَأَرَادُوا إِخْرَاجَ نَبِيِّهِمْ مِنْهَا، وَهَهُنَا لَمَّا أَسَاءُوا الْأَدَبَ
 فِي مَقَالَتِهِمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ ذَكَرَ الصَّيْحَةَ الَّتِي اسْتَلَبْتَهُمْ
 وَأَحْمَدْتَهُمْ، وَفِي الشُّعْرَاءِ لَمَّا قَالُوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا
 مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الآية: ١٨٧] قَالَ:
 ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.
 وَهَذَا مِنَ الْأَسْرَارِ الدَّقِيقَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ كَثِيرًا دَائِمًا.
 وَقَوْلُهُ: ﴿كَانَ لَمْ يَتَوَّأ فِيهَا﴾ أَي: يَعِيشُوا فِي دَارِهِمْ
 قَبْلَ ذَلِكَ ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَنْ كَمَا بَعْدَتْ تَمُودُ﴾ وَكَانُوا جِيرَانَهُمْ
 قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي الدَّارِ، وَشَبَّهَهَا بِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَقَطَعَ الطَّرِيقَ،
 وَكَانُوا عَرَبًا مِثْلَهُمْ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَنِ ثَمِيمٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ
 وَمَلَائِكَةٍ فَأَقْبَحُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ
 قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ ﴿٩٨﴾
 وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾
 [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ إِسْرَائِيلَ مُوسَى بِآيَاتِهِ وَدَلَالَاتِهِ
 الْبَاهِرَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ الْقِبْطِ وَمَلِكِهِ ﴿فَأَقْبَحُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾
 أَي: مَنَحَهُ وَمَسَلَكَهُ وَطَرِيقَتَهُ فِي الْغَيِّ ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ
 بِرَشِيدٍ﴾ أَي: لَيْسَ فِيهِ رُشْدٌ وَلَا هُدًى. وَإِنَّمَا هُوَ جَهْلٌ
 وَضَلَالٌ وَكُفْرٌ وَعِنَادٌ، وَكَمَا أَنَّهُمْ أَتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ
 مُقَدِّمُهُمْ وَرَبِّسَهُمْ، كَذَلِكَ هُوَ يَقْدِمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ
 جَهَنَّمَ، فَأَوْرَدَهُمْ إِيَّاهَا، وَشَرِبُوا مِنْ حِيَاضِ رَدَاهَا، وَهِيَ فِي
 ذَلِكَ الْحِطِّ الْأَوْقُرِّ، مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمّل: ١٦] وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿كَذَّبَ وَعَصَى ﴿٩٦﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سِنِينَ ﴿٩٧﴾ فَحَسَرَ فَتَادَى ﴿٩٨﴾
 فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَخْلَى ﴿٩٩﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿١٠٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢١-٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ
 قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ﴾
 وَكَذَلِكَ شَأْنُ الْمُتَّبِعِينَ يَكُونُونَ مُوقَرِينَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
 [الأعراف: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْكُفْرَةِ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ
 فِي النَّارِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَلْعَنَّا سَادَتَنَا وَكِرِهْنَا فَاغْلِبْنَا فَاصْلُبْنَا السَّيْلًا ﴿٧٧﴾
 رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾... [الآية: الأحزاب:
 ٦٧، ٦٨].
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾... [الآية،

(١) الطبري: ٤٦٨/١٥ (٢) الطبري: ٤٦٩/١٥ (٣) الطبري:

٤٧٠، ٤٦٩/١٥

[الَاتِّعَاطُ بِالْقُرَى الْمُهْلَكَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَ أُمَّمِهِمْ، وَكَيْفَ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أي: أَخْبَارِهِمْ ﴿نَقَضُوكَ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمًا﴾ أي: غَامِرٌ ﴿وَخَصِيدًا﴾ أي: هَالِكًا. ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي: إِذْ أَهْلَكْنَا هُمْ ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا وَكُفْرِهِمْ بِهِمْ ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أَوْ تَأْتِيهِمْ النَّبِيُّ يَعْبُدُونَهَا وَيَدْعُونَهَا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مَا تَفْعَلُوهُمْ وَلَا أَنْفَعُوهُمْ [لَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ] بِإِهْلَاقِهِمْ ﴿وَمَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَلْيِيبٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: أَيُّ غَيْرٍ تَحْسِيرٍ، وَذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِاتِّبَاعِهِمْ تِلْكَ الْأَلِهَةَ، فَلِهَذَا حَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (١).

﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ﴾

شَرِيدٌ (١١٦)

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَهْلَكْنَا أَوْلِيكَ الْقُرُونَ الظَّالِمَةَ الْمُكَذَّبَةَ لِرُسُلِنَا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِأَشْبَاهِهِمْ ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَرِيدٌ﴾ وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» (٢). ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾... الآية.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ (١١٧) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ (١١٨) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١١٩) [إِهْلَاكُ الْقُرَى دَلِيلٌ عَلَى قِيَامِ السَّاعَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ فِي إِهْلَاقِنَا الْكَافِرِينَ وَإِنْجَانِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَآيَةً﴾ أي: عِظَةً وَاعْتِبَارًا عَلَى صِدْقِ مَوْعُودِنَا فِي الْآخِرَةِ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: أَوْلَاهُمْ وَآخِرُهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ أي: عَظِيمٍ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَيَجْتَمِعُ فِيهِ الرُّسُلُ، وَتُحْشَرُ الْخَلَائِقُ بِأَسْرِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالطَّيْرِ، وَالْوُحُوشِ وَالِدَّوَابِّ، وَيَحْكُمُ فِيهِ الْعَادِلُ الَّذِي ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ

الْمِثْقَالِ الْحَسَنَةِ

٢٣٤

سُورَةُ هُودٍ

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمُ بِصَبِيحِهِمْ غَيْرَ مَنْفُوسٍ (١١٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْرَفَ فِيهِ وُتُورًا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١١) وَإِن كَلَّمْنَا لَوْلِييْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمُ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١٢) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّعُونَا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٣) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٤) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٥) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٦) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٧) رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَحُونَ (١١٨)

مَعْدُودٍ﴾ أي: لِمُدَّةٍ مُوقَّتَةٍ لَا يَزَادُ عَلَيْهَا وَلَا يُنْقَصُ مِنْهَا ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: يَوْمَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وَقَالَ: ﴿وَحَشَعْتَ الْأَصْوَاتَ لِلرَّحْمَنِ﴾... الآية [طه: ١٠٨]. وَفِي الصَّحِيحِينَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ! سَلِّمْ سَلِّمْ» (٣) وَقَوْلُهُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فَمِنْ أَهْلِ الْجَمْعِ شَقِيٌّ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ كَمَا قَالَ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. [الشورى: ٧] وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَدِهِ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَمْرِو قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَلَامَ نَعْمَلُ؟ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فَرَعُ مِنْهُ أَمْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يُفْرَعُ مِنْهُ؟

(١) الطبري: ٤٧٣/١٥ (٢) فتح الباري: ٢٠٥/٨ ومسلم: ٤/

١٩٩٧ (٣) فتح الباري: ٣٤١/٢ ومسلم: ١٦٩/١

فَقَالَ: «عَلَىٰ شَيْءٍ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ يَا عُمْرًا! وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَلَكِنْ كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(١). ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَىٰ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ وَحَالَ السَّعْدَاءِ فَقَالَ:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُئِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ ﴿١٠٦﴾

[حَالَ السَّعْدَاءِ وَمَصِيرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُئِدُوا﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ أَيُّ فَمَا وَاهُمْ الْجَنَّةُ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ:

مَا كَيْسَ فِيهَا أَبَدًا ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾

مَعْنَى الْإِسْتِثْنَاءِ هُنَا أَنَّ دَوَامَهُمْ فِيهَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ لَيْسَ أَمْرًا وَاجِبًا بِذَاتِهِ بَلْ هُوَ مُوَكَّلٌ إِلَىٰ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَلَهُ

الْمِنَّةُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا، وَلِهَذَا يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّسَّ^(٥). وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ: هِيَ

فِي حَقِّ عَصَاةِ الْمُؤَحَّدِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّارِ ثُمَّ أُخْرِجُوا مِنْهَا. وَعَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ أَيُّ: غَيْرَ

مَقْطُوعٍ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٦). لَيْلًا يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِهِ الْمَشِيئَةِ: أَنْ تَمَّ

[انْقِطَاعًا أَوْ لَبْسًا أَوْ شَيْئًا] بَلْ حَتَمَ لَهُ بِالدَّوَامِ وَعَدَمِ الْإِنْقِطَاعِ، كَمَا بَيَّنَّ هُنَاكَ: أَنَّ عَذَابَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ

دَائِمًا مَرْدُودٌ إِلَىٰ مَشِيئَتِهِ، وَأَنَّهُ يَبْدُلُهُ وَحِكْمَتِهِ عَذَابَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَلْ

عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وَهَذَا طَيْبُ الْقُلُوبِ وَبَيَّتَ الْمَقْصُودَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ وَقَدْ جَاءَ فِي

الصَّحِيحِينَ: «يُوتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةٍ كَبِشٍ أَمْلَحُ فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! خُلُودٌ فَلَا

مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»^(٧). وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: «فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا

تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَمُوتُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعْمُوا فَلَا

تَبْأَسُوا أَبَدًا»^(٨).

﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِمَّا يَبْعُدُ هَتُولًا مَا يَبْعُدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْعُدُ

ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرِثًا لِمَوْتِهِمْ نَصِيحَةً غَيْرَ مَنُوصٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَقَدْ

ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَاتَّخَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ سُئِدُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَسَهْقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ

رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

[حَالَ الْأَشْقِيَاءِ وَمَصِيرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَسَهْقٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الزَّفِيرُ فِي الْحَلْقِ، وَالسَّهْقُ فِي الصَّدْرِ أَيُّ: تَنَفَّسُهُمْ زَفِيرٌ، وَأَخَذَهُمُ النَّفَسُ سَهْقٌ^(٩). لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ، عِبَادًا

بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ: مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ

تَصِفَ الشَّيْءَ بِالدَّوَامِ أَبَدًا قَالَتْ: «هَذَا دَائِمٌ دَوَامَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ: «هُوَ بَاقِي مَا اخْتَلَفَ

الَّيْلُ وَالنَّهَارُ»، «... وَمَا سَمَرَ ابْنَا سَمِيرٍ»، «... وَمَا لَأَلَاتٍ [العُفْرُ بِأَذْنَابِهَا]^(١٠) يَعْتَوْنَ بِذَلِكَ كُلُّهُ: أَبَدًا. فَخَاطَبَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِمَا يَتَعَارَفُونَهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿خَالِدِينَ

فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(١١).

(قُلْتُ): وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا دَامَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ: الْجِنْسُ، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي عَالَمِ الْآخِرَةِ مِنْ سَمَوَاتٍ وَأَرْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ البَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قَالَ: يَقُولُ: سَمَاءٌ

غَيْرُ هَذِهِ السَّمَاءِ وَأَرْضٌ غَيْرُ هَذِهِ: فَمَا دَامَتْ تِلْكَ السَّمَاءُ وَتِلْكَ الْأَرْضُ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا

يُرِيدُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿النَّارُ مَثْوِيَّتُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨] قِيلَ: إِنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ عَائِدٌ عَلَى الْعَصَاةِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ مِمَّنْ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ

بِسَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ: الْمَلَائِكَةِ وَالتَّيَّبِينَ وَالمُؤْمِنِينَ، حَتَّى يَسْفَعُونَ فِي أَصْحَابِ الْكِبَايِرِ، ثُمَّ تَأْتِي رَحْمَةُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، فَتُخْرِجُ [مِنَ النَّارِ] مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، وَقَالَ يَوْمًا مِنَ الذَّهْرِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ

الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَضْمُونِ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَجَابِرٍ وَأَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَا يَنْبَغِي بَعْدَ ذَلِكَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ

وَجِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ فِيهَا، وَلَا مَجِيدَ لَهُ عَنْهَا. وَهَذَا الَّذِي

(١) الترمذي: ٣١١١ (٢) الطبري: ٤٨٠/١٥ (٣) ووقع في

الأصل: وَمَا لَأَلَاتٍ الْعِبْرِيَّةُ بِأَذْنَابِهِمْ (٤) الطبري: ٤٨١/١٥ (٥)

مسلم: ٢١٨١/٤ (٦) الطبري: ٤٩٠/١٥ (٧) فتح الباري:

٢٨٢/٨ ومسلم: ٢١٨٨/٤ (٨) مسلم: ٢١٨٢/٤

لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مَنَّهُ مَرِيبٌ ﴿١١٠﴾ وَإِن كَلَّمَا لَقَوِيںهُم
رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾
[الشُّرُكُ ضَلَالٌ لَا شَكَّ فِيهِ]

الْبُعْيُ، فَإِنَّهُ مَصْرَعَةٌ حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ عَلَىٰ مُشْرِكٍ، وَأَعْلَمَ
تَعَالَىٰ أَنَّهُ بَصِيرٌ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ لَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَخْفَىٰ
عَلَيْهِ شَيْءٌ.

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾
الْمُشْرِكُونَ، إِنَّهُ بَاطِلٌ وَجْهٌ وَضَلَالٌ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ
مَا ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾، أَي لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا هُمْ
فِيهِ إِلَّا اتِّبَاعُ الْأَبَاءِ فِي الْجَهَالَاتِ، وَسَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ عَلَى
ذَلِكَ أَنْتُمْ الْجَرَءُ، فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا، وَإِن كَانَ
لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَقَدْ وَفَّاهُمْ اللَّهُ إِيَّاهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ.
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَا لَمَوْفُوهُمُ نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: لَمَوْفُوهُمُ مِنَ الْعَذَابِ نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ
مَنْقُوصٍ^(١). ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَتَىٰ مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ
النَّاسُ فِيهِ، فَمِنْ مُؤْمِنٍ بِهِ وَمِنْ كَافِرٍ بِهِ، فَلَكَ بِمَنْ سَلَفَ
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ! أَسُوَةٌ فَلَا يَغِيْبُتُكَ تَكْذِيْبُهُمْ لَكَ
وَلَا يَهْدِيْكَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا تَدَاهَنُوا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ: وَلَا تَمِيلُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا^(٣). وَهَذَا الْقَوْلُ
حَسَنٌ، أَي: لَا تَسْتَعِينُوا بِالظَّالِمَةِ فَتَكُونُوا كَأَنَّكُمْ قَدْ رَضِيْتُمْ
بِأَعْمَالِهِمْ ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ
ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ أَي: لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ يُنْقِذُكُمْ
وَلَا نَاصِرٍ يُخَلِّصُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ.

﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ
السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾^(٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيْعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

[الْأَمْرُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ
طَرَفِي النَّهَارِ﴾ قَالَ: يَعْنِي الصُّبْحَ وَالْمَغْرِبَ^(٤) وَكَذَا قَالَ
الْحَسَنُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ^(٥). وَقَالَ الْحَسَنُ -
فِي رِوَايَةٍ - [وَأَقْرِ الصَّلَاةَ وَالصُّحُوكَ وَغَيْرَهُمْ: هِيَ الصُّبْحُ
وَالْعَصْرُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الصُّبْحُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَالظُّهْرُ
وَالْعَصْرُ] مِنْ آخِرِهِ، وَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ
وَالصُّحُوكَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ] ﴿وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي صَلَاةَ الْعِشَاءِ. وَقَالَ
الْحَسَنُ فِي رِوَايَةٍ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ مُبَارَكِ بْنِ فَصَالَةَ، عَنْهُ:
﴿وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ يَعْنِي الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ. قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «هُمَا زُلْفَا اللَّيْلِ: الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ»^(٦). وَكَذَا
قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَقَتَادَةُ، وَالصُّحُوكَ: إِنَّهَا
صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ
نَزَلَتْ قَبْلَ فُرُوضِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ لِئَلَّا الْإِسْرَاءُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا
كَانَ يَجِبُ مِنَ الصَّلَاةِ صَلَاتَانِ: صَلَاةٌ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
وَصَلَاةٌ قَبْلَ غُرُوبِهَا، وَفِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ، قِيَامٌ عَلَيْهِ وَعَلَى
الْأُمَّةِ، ثُمَّ نَسِيخٌ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ وَبَيَّتْ وَجُوبُهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَسِيخٌ

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَمَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ قَالَ
ابْنُ جَرِيرٍ: لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَأْجِيلِهِ الْعَذَابَ إِلَىٰ أَجَلٍ
مَعْلُومٍ لَقَضَىٰ اللَّهُ بَيْنَهُمْ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ
أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِرْسَالِ
الرَّسُولِ إِلَيْهِ^(٢). كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٥] فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَىٰ:
﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَمَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلَ مَسْمُومًا﴾ فَأَصْبَرَ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿طه: ١٢٩، ١٣٠﴾ ثُمَّ أَحْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ سَيَجْعَلُ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الْأَمَمِ وَيَجْزِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا
فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَفَسَّرُ فَقَالَ: ﴿وَإِن كَلَّمَا لَقَوِيںهُمُ رَبُّكَ
أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي: عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ جَمِيعًا،
جَلِيلُهَا وَخَفِيْهَا، صَغِيرُهَا وَكَبِيْرُهَا. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ قِرَاءَاتٌ
كَثِيْرَةٌ يَرْجِعُ مَعْنَاهَا إِلَىٰ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:
﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ﴾. [يس: ٣٢]

(١) الطبري: ٤٩٢/١٥ (٢) الطبري: ٤٩٣/١٥ (٣) الطبري:
٥٠١/١٥ (٤) الطبري: ٥٠٣/١٥ (٥) الطبري: ٥٠٣/١٥

(٦) الطبري (١٨٦٤٧) إسناده ضعيف لإرسال الحسن البصري
وفوق الإرسال تدليس مبارك بن فضالة قال ابن حجر: صدوق
يدلس ويسوي (تقريب) ولم يصرح.

[الْأَمْرُ بِالِاسْتِقَامَةِ]

يَأْمُرُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَتَاتِ وَالذُّوَامِ
عَلَىٰ الْإِسْتِقَامَةِ، وَذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى النَّصْرِ عَلَى
الْأَعْدَاءِ وَمُخَالَفَةِ الْأَضْدَادِ، وَنَهَىٰ عَنِ الطُّغْيَانِ وَهُوَ

عنه أيضًا في قولٍ والله أعلم.

[إِنَّ الْحَسَنَاتِ تَمْحُو السَّيِّئَاتِ]

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ تَمْحُو السَّيِّئَاتِ﴾ يقول: إنَّ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ يَمْحُو الذُّنُوبَ السَّالِفَةَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ حَدِيثًا نَفَعَنِي اللَّهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعَنِي مِنْهُ، وَإِذَا حَدَّثَنِي عَنْهُ أَحَدٌ اسْتَحْلَفْتُهُ فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدَّقْتُهُ، وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ إِلَّا غُفِرَ لَهُ»^(١). وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانَ بْنِ عَفَّانَ: أَنَّهُ تَوَضَّأَ لَهُمْ كَوْضُوءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: هُكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ وَقَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يَحْدِثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٢). وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ بَابَ أَحَدِكُمْ نَهْرًا عَمْرًا، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يُبْقِي مِنْ ذَنْبِهِ شَيْئًا؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَكَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَ الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا»^(٣). وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ»^(٤).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَأَمِرَ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْ هَذَا؟ قَالَ: «لِيَجْمَعَ أُمَّتِي كُلَّهُمْ»^(٥). هَكَذَا رَوَاهُ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ وَأَخْرَجَهُ فِي التَّفْسِيرِ بِنَحْوِهِ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى عُمَرَ، فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ تَبَاعِيهُ فَأَدْخَلْتُهَا الدُّوْلَجَ، فَأَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ الْجَمَاعِ، فَقَالَ: وَيْحَكَ لَعَلَّهَا مَغِيْبَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: أَجَلْ، قَالَ: فَائْتِ أَبَا بَكْرٍ فَسَلُهُ. قَالَ: فَاتَّاهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: لَعَلَّهَا مَغِيْبَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: «فَلَعَلَّهَا مَغِيْبَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟» وَنَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿وَأَمِرَ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ: يَا

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَّ مَخْلَفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِلَاءِ أَيْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

رَسُولَ اللَّهِ، لِي خَاصَّةٌ أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ؟ فَصَرَّبَ يَعْنِي عَمَّرَ صَدْرَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ: لَا وَلَا نِعْمَةَ عَيْنٍ، بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ»^(٧).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٧﴾

[لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ جَمَاعَةٍ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَهَلَّا وَجِدَ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ بَقَايَا مِنْ

(١) أحمد: ٩/١ وأبو داود: ١٨٠/٢ وتحفة الأحوذى: ٣٥٧/٨ والنسائي في الكبرى: ١٠٩/٦ وابن ماجه: ٤٤٦/١ (٢) فتح الباري: ٣٢٠/١ ومسلم: ٢٦٠/١ (٣) البخاري: ٥٢٨ ومسلم: ٦٦٧ (٤) مسلم: ٢٠٩/١ (٥) فتح الباري: ١٢/٢ (٦) فتح الباري: ٢٠٦/٨ (٧) أحمد: ٢٤٥/١ إسناذه ضعيف من أجل علي بن زيد بن جُدعان وهو سَيِّءُ الْحِفْظِ وَاسْتَنَكَرَ ابْنُ عَدِي فِي "الكَامِلِ" هَذَا الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ لِعَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ - وَالْأَحَادِيثُ الْمَذْكُورَةُ مِنَ الصَّحِيحِينَ تَغْنِي عَنْهُ.

وَسَمْتَرَقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً» قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(٢). رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ بِهَذِهِ الزِّيَادَةِ^(٣). وَقَوْلُهُ: «وَمَتَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَجْمَعِينَ» يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ لِعِلْمِهِ التَّامِّ وَحِكْمَتِهِ النَّافِذَةِ: أَنَّ مِمَّنْ خَلَقَهُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّارَ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنْ هَذَيْنِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُكْمَةُ التَّامَّةُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اِخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهِمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: أَوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ! فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَنْتَقِمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ، حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا يُسْكِنُ فَضْلَ الْجَنَّةِ، وَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَزَالُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ»^(٤).

﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَيْنِكَ مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي

هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠)

[الْخَاتِمَةُ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكُلُّ أَحْبَابٍ تَقْصُّهَا عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ قَبْلِكَ مَعَ أَمْوِهِمْ، وَكَيْفَ جَرَى لَهُمْ مِنَ الْمُحَاجَّاتِ وَالْخُصُومَاتِ، وَمَا احْتَمَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَدَى، وَكَيْفَ نَصَرَ اللَّهُ جِزْبَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَخَذَلَ أَعْدَاءَهُ الْكَافِرِينَ. كُلُّ هَذَا مِمَّا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ أَيُّ: قَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ! لِيَكُونَ لَكَ بِمَنْ مَضَى مِنْ إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أَيُّ: هَذِهِ السُّورَةُ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ يَعْنِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَيْفَ أَنْجَاهُمُ اللَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ؛ جَاءَكَ فِيهَا قِصَصُ حَقِّ، وَبَيِّنَاتُ صِدْقِ، وَمَوْعِظَةٌ يَرْتَدِعُ بِهَا الْكَافِرُونَ، وَذِكْرٌ يَتَذَكَّرُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ.

(١) ابن ماجه: ١٣٢٧/٢ (٢) أحمد: ٣٣٢/٢ وأبو داود: ٤/٥

وتحفة الأحوذى: ٣٩٧/٧ وابن ماجه: ١٣٢٢/٢ (٣) الحاكم:

١٢٩/١ (٤) فتح الباري: ٤٤٤/١٣ ومسلم: ٤/١٨٦

أَهْلِ الْخَيْرِ يُنْهَوْنَ عَمَّا كَانَ يَفْعُ بَيْنَهُمْ مِنَ الشُّرُورِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيُّ قَدْ وَجَدَ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ قَلِيلٌ لَمْ يَكُونُوا كَثِيرًا، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْجَاهُمُ اللَّهُ عِنْدَ حُلُولِ غَضَبِهِ وَفَجَاءَهُ نِقْمَتِهِ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ الشَّرِيفَةَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَكُنَّ بَيْنَكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَهْتَدُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُعَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْزَمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَيْتَنَا مِنْهُمْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا آتَوْا فِيهِ﴾ أَيُّ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِتْكَارِ أَوْلِيكَ حَتَّى فَجَّاهُمُ الْعَذَابُ ﴿وَكَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ قَرْيَةٌ إِلَّا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا، وَلَمْ يَأْتِ قَرْيَةٌ مُصْلِحَةٌ بِأَسْئَرِهَا وَعَذَابُهَا قَطُّ حَتَّى يَكُونُوا هُمُ الظَّالِمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿رَوَى شَاءَ رَبُّكَ لِمَعَلَ النَّاسِ أُمَّةٌ وَجِدَّةٌ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانَ

جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٨)

[لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ الْإِيمَانَ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِ النَّاسِ كُلَّهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً مِنْ إِيْمَانٍ أَوْ كُفْرٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَوَى شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ أَيُّ: وَلَا يَزَالُ الْخُلْفُ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَدْبَانِهِمْ وَأَعْقَادَاتِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَرَائِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أَيُّ: إِلَّا الْمَرْحُومِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِمَا أَمُرُوا بِهِ مِنَ الدِّينِ، أَخْبَرْتَهُمْ بِهِ رُسُلُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَزَلْ ﷺ ذَلِكَ دَابُّهُمْ حَتَّى كَانَ النَّبِيُّ وَخَاتَمَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَاتَّبَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ وَوَارَوْهُ [فَقَارَوْا] بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ فِي الْمَسَائِدِ وَالسَّنَنِ مِنْ طَرَفِ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا: «إِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً،

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ آمِرًا رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ عَلَىٰ وَجْهِ التَّهْدِيدِ ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ أَيُّ عَلَىٰ طَرِيقَتِكُمْ وَمَنْهَجِكُمْ ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أَيُّ: عَلَىٰ طَرِيقَتِنَا وَمَنْهَجِنَا ﴿وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ أَيُّ: فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَقَدْ أَحْزَرَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَعَدَهُ، وَنَصَرَهُ وَأَيَّدَهُ، وَجَعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا، وَكَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

﴿وَلِلَّهِ عِثَابُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ عَالِمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهَ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَىٰ، وَسَيُوتِي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، فَأَمَرَ تَعَالَىٰ بِعِبَادَتِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: لَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ مُكْذِبُونَ يَا مُحَمَّدٌ، بَلْ هُوَ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَسَيَنْصُرُكَ وَجِزْبَكَ عَلَيْهِمْ فِي الدَّارَتَيْنِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّيَّاكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾

[أَوْصَافُ الْقُرْآنِ]

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيُّ: هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ، أَيُّ: الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ الَّذِي يُنْصَحُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُبْهَمَةِ، وَيُفَسِّرُهَا وَيُبَيِّنُهَا ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَبْيَنُهَا وَأَوْسَعُهَا وَأَكْثَرُهَا تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تُقَوِّمُ بِالتَّقْوَسِ، فَلِهَذَا أَنْزَلَ أَشْرَفَ الْكُتُبِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ، عَلَى

أَشْرَفِ الرُّسُلِ بِسَفَارَةِ أَشْرَفِ الْمَلَائِكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَشْرَفِ بِقَاعِ الْأَرْضِ، وَأَبْتَدَىٰ إِنْزَالَهُ فِي أَشْرَفِ شُهُورِ السَّنَةِ، وَهُوَ رَمَضَانُ. فَكَمَّلَ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بِسَبَبِ إِحْيَائِنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ.

[سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ]

وَقَدْ وَرَدَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا؟ فَتَزَلَّتْ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١).

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

[رُؤْيَا يُوسُفَ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ: أَدْرَكَ لِقَوْمِكَ يَا مُحَمَّدٌ، فِي قَصَصِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾، وَأَبُوهُ هُوَ يَعْقُوبُ ابْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ^(٢). وَقَدْ تَكَلَّمَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى تَغْيِيرِ هَذَا الْمَنَامِ أَنَّ الْأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا عِبَارَةٌ عَنْ إِخْوَتِهِ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا سِوَاهُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ عِبَارَةٌ عَنْ أُمَّهِ وَأَبِيهِ. رُوِيَ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالصَّحَّاحِ وَقَتَادَةَ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَدْ وَقَعَ تَفْسِيرُهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: ثَمَانِينَ سَنَةً، وَذَلِكَ حِينَ رَفَعَ أَبُوتَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَهُوَ سَرِيرُهُ، وَإِخْوَتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]^(٣).

﴿قَالَ يَبْنَؤُ لَا نَقُصُّ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾﴾

[أَمْرُ وَالِدِ يُوسُفَ بِإِخْفَاءِ الرُّؤْيَا حَذْرًا مِنْ كَيْدِ

الشَّيْطَانِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لِأَبْنَيْهِ يُوسُفَ حِينَ قَصَّرَ عَلَيْهِ مَا رَأَى مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي تَغْيِيرُهَا: خُضُوعُ إِخْوَتِهِ لَهُ، وَتَعْظِيمُهُمْ إِيَّاهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا بِحَيْثُ يَخْرُونَ لَهُ سَاجِدِينَ إِجْلَالًا وَاحْتِرَامًا وَإِكْرَامًا، فَحَسْبِيَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ

(١) الطبري: ٥٥٢/١٥ (٢) الطبري: ٥٥٤/١٥ (٣) الطبري:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٦

سُورَةُ يُوسُفَ

قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَإِسْحَاقَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِفِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالَ لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْدِيَنَا وَتَحَنُّنُ عَصَبَةٍ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْبَلُوا يُوسُفَ وَأَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخَلَ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا بِعَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَاظِدًا يَّرْتَعِ وَيَلْعَبُ وَانَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَبِئْسَ لِمَن أَن تَدْهَبُوا بِهِ وَآخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الدَّبُّ وَأَن تَسْأَعَهُ غَيَابَتُ اللَّيْلِ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَوِ إِن يَأْكُلَهُ الدَّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذَا لُخْصِرُونَ ﴿١٤﴾

شَقِيقَهُ لِأُمِّهِ، ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ أَيَّنَا مِنَّا وَتَحَنُّنُ عَصَبَةٍ﴾ أَي: جَمَاعَةٌ، فَكَيْفَ أَحَبَّ ذِيكَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ مِنَ الْجَمَاعَةِ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يَعْنُونَ فِي تَقْدِيرِهِمَا عَلَيْنَا، وَمَحَبَّتِهِ إِيَّاهُمَا أَكْثَرَ مِنَّا.

﴿أَقْبَلُوا يُوسُفَ وَأَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخَلَ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ يَقُولُونَ: هَذَا الَّذِي بَرَّاحِمُكُمْ فِي مَحَبَّةِ أَبِيكُمْ لَكُمْ أَعْدِمُوهُ مِن وَجْهِ أَبِيكُمْ، لِيَخْلُوَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ، إِمَّا بِأَن تَقْتُلُوهُ أَوْ تَلْقُوهُ فِي أَرْضٍ مِنَ الْأَرْضِ تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، وَتَخْلُوا أَنْتُمْ بِأَبِيكُمْ ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ فَأَضْمَرُوا التَّوْبَةَ

(١) مسلم: ١٧٧٢/٤ هذا الحديث ملفق من ثلاثة أحاديث. الأول: حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٦٩٨٥) والترمذي (٣٤٤٩) وأحمد ٨/٣ والثاني: حديث جابر بن عبد الله عند مسلم ٥/٢٢٦٢ وأبي داود (٥٠٢٢) وابن ماجه (٣٩٠٨) وأحمد ٣/٣٥٠ والثالث: حديث أبي قتادة عند البخاري (٣٢٩٢) ومسلم (٢٢١١) وأبي داود (٥٠٢١) والترمذي ٢٢٧٨ وأحمد ٥/٢٩٦. (٢) أحمد: ٤/١٠ وأبو داود: ٥/٢٨٣ وابن ماجه: ٢/١٢٨٨ (٣) الطبري: ١٥/٥٦٠

السَّلَامُ أَنْ يُحَدِّثَ بِهَذَا الْمَنَامِ أَحَدًا مِنْ إِخْوَتِهِ، فَيَحْسُدُونَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَيَبْنُونَ لَهُ الْغَوَائِلَ حَسَدًا مِنْهُمْ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: ﴿لَا نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أَي: يَحْتَالُوا لَكَ حِيلَةً يُرِيدُونَكَ فِيهَا، وَلِهَذَا تَبَتَّ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ، وَإِذَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَحَوَّلْ إِلَىٰ جَنْبِهِ الْآخَرَ، وَلْيَتَمَلَّ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تُضَرَّهُ» (١). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَبَعْضُ أَهْلِ السُّنَنِ مِنْ رِوَايَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ الْقُسَيْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرُّؤْيَا عَلَىٰ رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ» (٢).

﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

[تَعْبِيرُ رُؤْيَا يُوسُفَ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لَوْلَدِهِ يُوسُفَ: إِنَّهُ كَمَا اخْتَارَكَ رَبُّكَ وَأَرَاكَ هَذِهِ الْكَوَاكِبَ مَعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ سَاجِدَةً لَكَ: ﴿كَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ﴾ أَي: يَخْتَارُكَ وَيَصْطَفِيكَ لِتُبَوِّتَهُ ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ: يَعْنِي تَعْبِيرَ الرُّؤْيَا (٣). ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أَي: بِإِزْسَالِكَ وَالْإِيحَاءِ إِلَيْكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَهُوَ الْخَلِيلُ ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ وَلَدِهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَي: هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَىٰ [الأنعام: ١٢٤].

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِفِينَ﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيَّنَا مِنَّا وَتَحَنُّنُ عَصَبَةٍ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْبَلُوا يُوسُفَ وَأَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخَلَ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

[قِصَّةُ يُوسُفَ وَفِيهَا آيَاتٌ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ: لَقَدْ كَانَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَخَبْرِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ، أَي: عِبْرَةٌ وَمَوَاعِظٌ لِّلسَّالِفِينَ عَنْ ذَلِكَ، الْمُسْتَحْبِرِينَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ خَبَرَ عَجِيبٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهُ ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيَّنَا مِنَّا﴾ أَي: حَلَفُوا - فِيمَا يَطْنُونَ - وَاللَّهُ لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ، يَعْنُونَ بِنِيَامِينَ وَكَانَ

الْبُرُوقِ

٢٣٧

سُورَةُ يُوسُفَ

قَبْلِ الذَّنْبِ. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ وَاسْمُهُ رُوَيْبِلٌ^(١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: الَّذِي قَالَ ذَلِكَ، يَهُودًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ شَمْعُونَ الصَّفَا: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أَي: لَا تَصِلُوا فِي عِدَاوَتِهِ وَبُغْضِهِ إِلَى قَتْلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى قَتْلِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ يُرِيدُ مِنْهُ أَمْرًا لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهِ وَإِتْمَامِهِ مِنَ الْإِيحَاءِ إِلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ، وَمِنَ التَّمَكِينِ لَهُ بِبِلَادِ مِصْرَ وَالْحُكْمِ بِهَا، فَصَرَفَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ بِمَقَالَةِ رُوَيْبِلِ فِيهِ، وَإِشَارَتِهِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُلْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَهُوَ أَسْفَلُهُ. قَالَ قَتَادَةُ: وَهِيَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ﴿يَلْقُظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أَي الْمَارَّةُ مِنَ الْمَسَافِرِينَ، فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ بِهَذَا، وَلَا حَاجَةَ إِلَى قَتْلِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ أَي: إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَى مَا تَقُولُونَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارٍ: لَقَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَعُثُوقِ الْوَالِدِ، وَقَلَّةِ الرَّافِقَةِ بِالصَّغِيرِ الضَّرْعِ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ، وَبِالْكَبِيرِ الْفَانِي ذِي الْحَقِّ وَالْحُرْمَةِ وَالْفَضْلِ، وَخَطَرِهِ عِنْدَ اللَّهِ - مَعَ حَقِّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ لِيُقْرِفُوا بَيْتَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَحَبِيبِهِ عَلَى كِبَرِ سِنِّهِ وَرِقَّةِ عَظْمِهِ، مَعَ مَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ [فِيْمِنْ] أَحَبَّهُ طِفْلًا صَغِيرًا، وَبَيْنَ ابْنِهِ عَلَى ضَعْفِ قُوَّتِهِ وَصِغَرِ سِنِّهِ وَحَاجَتِهِ إِلَى لُطْفِ وَالِدِهِ وَسُكُونِهِ إِلَيْهِ - يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَقَدْ اخْتَمَلُوا أَمْرًا عَظِيمًا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ سَلْمَةَ ابْنِ الْفَضْلِ عَنْهُ^(٢).

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ﴾

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفَظُونَهُ﴾

[اسْتِثْنَانُ الْإِخْوَةِ بِدَهَابِ يُوسُفَ]

لَمَّا تَوَاطَؤُوا عَلَى أَخْذِهِ وَطَرْحِهِ فِي الْبُئْرِ كَمَا أَشَارَ بِهِ

عَلَيْهِمْ أَخُوهُمُ الْكَبِيرُ رُوَيْبِلُ، جَاءُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ

السَّلَامَ فَقَالُوا: مَا بِأَبِكَ ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَنْصِحُونَ﴾ وَهَذِهِ تَوَطُّطُهُ وَدَعْوَى، وَهُمْ يُرِيدُونَ خِلَافَ

ذَلِكَ؛ لِمَا لَهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ لِحُبِّ أَبِيهِ لَهُ ﴿أَرْسِلْهُ

مَعَنَا﴾ أَي: ابْعَثْهُ مَعَنَا (غَدًا نَرْتَعْ وَنَلْعَبُ) وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ

بِالْيَاءِ: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَسْعَى وَيَنْشُطُ^(٣)

وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ^(٤). ﴿وَإِنَّا لَهُ

لَنَحْفَظُونَهُ﴾ يَقُولُونَ: وَنَحْنُ نَحْفَظُهُ وَنَحُوطُهُ مِنْ أَجْلِكَ.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَدْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ

وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ يَعْقُوبَ أَنَّهُ قَالَ لَبَنِيهِ فِي

جَوَابِ مَا سَأَلُوا مِنْ إِزْسَالِ يُوسُفَ مَعَهُمْ إِلَى الرَّغِي فِي

الصَّخْرَاءِ ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَدْهَبُوا بِهِ﴾ أَي: يَشُقُّ عَلَيَّ

مُفَارَقَتَهُ مُدَّةَ ذَهَابِكُمْ بِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ، وَذَلِكَ لِقَرُطِ مَحَبَّتِهِ

لَهُ، لِمَا يَتَوَسَّمُ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ وَسَمَائِلِ النُّبُوَّةِ

وَالْكَمَالِ فِي الْخَلْقِ وَالْخَلْقِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾

يَقُولُ: وَأَخْشَى أَنْ تَشْتَعَلُوا عَنْهُ بِرَبِّكُمْ وَرَغِيكُمْ، فَيَأْتِيَهُ

ذَنْبٌ فَيَأْكُلُهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، فَأَخَذُوا مِنْ فَمِهِ هَذِهِ

الْكَلِمَةَ، وَجَعَلُوهَا عُذْرَهُمْ فِيمَا فَعَلُوهُ، وَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ

عَنْهَا فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ غَاصِبَةٌ

(١) الطبري: ٥٦٥، ٥٦٤/١٥. (٢) ابن أبي حاتم (١١٣٦٠)

وفيه سلمة بن الفضل صدوق كثير الخطأ (تقريب). (٣) الطبري:

٥٧٠/١٥ (٤) الطبري: ٥٧١/١٥

[جَوَابُ الْأَبِ]

إِنَّا إِذَا لَخِصْرُونا ﴿١٥﴾ يَقُولُونَ: لَئِن عَدَا عَلَيهِ الذُّبُّ فَأَكَلَهُ مِن بَيْنِنَا وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ، إِنَّا إِذَا لَهَالِكُونَ عَاجِزُونَ.
﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾

[إِلْقَاءُ يُوسُفَ فِي الْبُئْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَلَمَّا ذَهَبَ بِهِ إِخْوَتُهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ بَعْدَ مُرَاجَعَتِهِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ هَذَا فِيهِ تَعْظِيمٌ لِمَا فَعَلُوهُ، أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى الْإِلْقَاءِ فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الْجُبِّ، وَقَدْ أَخَذُوهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ، فِيمَا يُظْهِرُونَهُ لَهُ، إِكْرَامًا لَهُ وَبَسْطًا وَشَرْحًا لِصَدْرِهِ، وَإِدْخَالًا لِلشُّرُورِ عَلَيْهِ، فَيَقَالُ: إِنَّ يُعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَعَثَهُ مَعَهُمْ ضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَبَلَهُ وَدَعَا لَهُ. فَذَكَرَ الشُّدِّي وَغَيْرُهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ إِكْرَامِهِمْ لَهُ وَبَيْنَ إِظْهَارِ الْأَدَى لَهُ إِلَّا أَنَّ غَابُوا عَنْ عَيْنِ أَبِيهِ وَتَوَارَوْا عَنْهُ، ثُمَّ شَرَعُوا يُؤَدُّونَهُ بِالْقَوْلِ: مِنْ شَمِّهِ وَنَحْوِهِ، وَالْفِعْلُ: مِنْ ضَرْبٍ وَنَحْوِهِ. ثُمَّ جَاءُوا بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْجُبِّ الَّذِي اتَّفَقُوا عَلَى رَمِيهِ فِيهِ، فَرَبَطُوهُ بِحَبْلٍ وَدَلُّوهُ فِيهِ، فَكَانَ إِذَا لَجَأَ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَطَمَهُ وَشَتَمَهُ، وَإِذَا تَشَبَّتَ بِحَافَاتِ الْبُئْرِ ضَرَبُوا عَلَى يَدَيْهِ، ثُمَّ قَطَعُوا بِهِ الْحَبْلَ مِنْ نِصْفِ الْمَسَافَةِ، فَسَقَطَ فِي الْمَاءِ فَعَمَّرَهُ، فَصَعِدَ إِلَى صَخْرَةٍ تَكُونُ فِي وَسْطِهِ يُقَالُ لَهَا: «الرَّاعُوفَةُ»، فَقَامَ فَوْقَهَا (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذَاكِرًا لَطْفَهُ وَرَحْمَتَهُ وَعَائِدَتَهُ وَإِزْرَالَهُ الْبُئْرِ فِي حَالِ الْعُسْرِ: إِنَّهُ أَوْحَى إِلَى يُوسُفَ فِي ذَلِكَ الْحَالِ الصَّبِيحِ تَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ وَتَثْيِينًا لَهُ: إِنَّكَ لَا تَحْزَنُ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ، فَإِنَّ لَكَ مِنْ ذَلِكَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا حَسَنًا، وَسَيَنْصُرُكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَيُعَلِّبُكَ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَكَ، وَسَتُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا مَعَكَ مِنْ هَذَا الصَّبِيحِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَتُنَبِّئُهُمْ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا فِي حَقِّكَ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَكَ وَلَا يَشْعُرُونَ بِكَ (٢).

﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ﴿١٧﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهِ. يَدْمِرُ كَذِبًا قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ حَمِيدٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٩﴾

تَصِفُونَ ﴿١٩﴾

[مَكْرُ إِخْوَةَ يُوسُفَ مَعَ أَبِيهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الَّذِي اعْتَمَدَهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ بَعْدَ

مَا أَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ: أَنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَتَكُونُونَ، وَيُظْهِرُونَ الْأَسْفَ وَالْجَزَعَ عَلَى يُوسُفَ، وَيَتَعَمَّمُونَ لِأَبِيهِمْ، وَقَالُوا مُعْتَدِرِينَ عَمَّا وَقَعَ فِيمَا رَعِمُوا ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أَي: نَتَرَامَى ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا﴾ أَي: تِيَابِنَا وَأَمْتِعَتِنَا، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ جَزَعَ مِنْهُ وَحَذَرَ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ تَلَطَّفَ عَظِيمٌ فِي تَقْرِيرِ مَا يُحَاوِلُونَهُ. يَقُولُونَ: وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تُصَدِّقُنَا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - لَوْ كُنَّا عِنْدَكَ صَادِقِينَ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَتَّهَمُنَا فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّكَ خَشِيتَ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ، فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ، فَأَنْتَ مَعْدُورٌ فِي تَكْذِيبِكَ لَنَا لِغُرَابَةِ مَا وَقَعَ، وَعَجِيبٌ مَا اتَّفَقَ لَنَا فِي أَمْرِنَا هَذَا. ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهِ. يَدْمِرُ كَذِبًا﴾ أَي: مَكْدُوبٌ مُفْتَرِيٌّ، وَهَذَا مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُؤَكِّدُونَ بِهَا مَا تَمَالَثُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَكِيدَةِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى سَخْلَةٍ - فِيمَا ذَكَرَهُ مُجَاهِدٌ وَالشُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ - فَذَبَحُوهَا وَلَطَّخُوا ثَوْبَ يُوسُفَ بِدَمِهَا (٣). مُوهِمِينَ أَنَّ هَذَا قَيْصِيهِ الَّذِي أَكَلَهُ فِيهِ الذِّئْبُ، وَقَدْ أَصَابَهُ مِنْ دَمِهِ، وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا أَنْ يُخْرِقُوهُ، فَلِهَذَا لَمْ يَرُجْ هَذَا الصَّبِيحُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ يُعْقُوبَ، بَلْ قَالَ لَهُمْ مُعْرِضًا عَنْ كَلَامِهِمْ إِلَى مَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ لُبْسِهِمْ عَلَيْهِ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ حَمِيدٌ﴾ أَي: فَسَأَصْبِرُ صَبْرًا جَمِيلًا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي اتَّفَقْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفَرِّجَهُ اللَّهُ بِعُونِهِ وَلُطْفِهِ ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أَي: عَلَى مَا تَذَكَّرُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْمُحَالِ.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبِئْسَ هَذَا عِلْمٌ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ وَاثَلَةٍ وَعَلَيْهِمْ إِيْمَانٌ﴾ ﴿٢٠﴾ وَشَرُّهُ بِشْرٌ بَخْسِ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢١﴾

[إِخْرَاجُ يُوسُفَ مِنَ الْبُئْرِ وَبَيْعُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا جَرَى لِیُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ وَتَرَكَوهُ فِي ذَلِكَ الْجُبِّ وَجِدًا فَرِيدًا، فَمَكَثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْبُئْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِيمَا قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ جَلَسُوا حَوْلَ الْبُئْرِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، يَنْظُرُونَ مَاذَا يَصْنَعُ وَمَا يُصْنَعُ بِهِ، فَسَاقَ اللَّهُ لَهُ سَيَّارَةً، فَزَلُّوا قَرِيبًا مِنْ تِلْكَ الْبُئْرِ، وَأَرْسَلُوا

(١) الطبري: ٥٧٤/١٥ (٢) الطبري: ٥٧٧/١٥ (٣) الطبري:

وَعَلِمًا وَكَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾

[يُوسُفُ فِي مِصْرَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِالطَّافِيهِ يُيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قِيَصَ لَهُ
الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ حَتَّى اعْتَنَى بِهِ وَأَكْرَمَهُ، وَأَوْصَى أَهْلَهُ
بِهِ، وَتَوَسَّمَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالصَّلَاحَ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي
مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجِدَهُ وَلَدًا﴾ وَكَانَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ
مِصْرَ عَزِيزُهَا وَهُوَ الْوَزِيرُ بِهَا. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي
عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: أُرْسُ النَّاسُ ثَلَاثَةَ:
عَزِيزُ مِصْرَ حِينَ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾. وَالْمَرْأَةُ
الَّتِي قَالَتْ لِأَيِّهَا ﴿يَتَأْتِي أَسْتَجِرَّةً﴾... الْآيَةَ
[القصص: ٢٦]، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ حِينَ اسْتَخْلَفَ عَمَرَ بْنَ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٦). يَقُولُ تَعَالَى: كَمَا أَنْقَذْنَا
يُوسُفَ مِنْ إِخْوَتِهِ ﴿كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي
بِلَادِ مِصْرَ.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ:
هُوَ تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا^(٧). ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أَي: إِذَا أَرَادَ
شَيْئًا فَلَا يُرَدُّ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ، بَلْ هُوَ الْعَالِمُ لِمَا
سِوَاهُ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ
أَمْرِي﴾: أَي فَعَالَ لِمَا يَشَاءُ^(٨). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَقُولُ: لَا يَدْرُونَ حِكْمَتَهُ فِي خَلْقِهِ وَتَلَطُّفِهِ وَفِعْلِهِ
لِمَا يُرِيدُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أَي: يُيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
﴿أَشُدَّهُ﴾ أَي اسْتَكْمَلَ عَقْلَهُ وَتَمَّ خَلْقَهُ ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾
يَعْنِي النُّبُوَّةَ أَنَّهُ حَبَّأَ بِهَا بَيْنَ أَوْلِيكَ الْأَقْوَامِ ﴿وَكَذَلِكَ نَجْرِي
الْمُحْسِنِينَ﴾ أَي: إِنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا فِي عَمَلِهِ عَامِلًا بِطَاعَةِ اللَّهِ
تَعَالَى.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ
هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظَّالِمُونَ ﴿٢٢﴾

[حُبُّ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ وَمَكِيدَتُهَا بِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ الَّتِي كَانَتْ يُيُوسُفَ فِي بَيْتِهَا
بِمِصْرَ، وَقَدْ أَوْصَاهَا زَوْجُهَا بِهِ وَيَأْكُرَامِهِ، فَرَاوَدَتْهُ عَنْ
نَفْسِهِ، أَي: حَاوَلَتْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَدَعَتْهُ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا

وَأَرَادَهُمْ - وَهُوَ الَّذِي يَطَّلُبُ لَهُمُ الْمَاءَ - فَلَمَّا جَاءَ ذَلِكَ
الْبِئْرَ وَأَدْلَى دَلْوَهُ فِيهَا، تَشَبَّثَ يُيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا،
فَأَخْرَجَهُ وَاسْتَبَشَّرَ بِهِ، وَقَالَ: ﴿يَبْشُرِي هَذَا عِلْمٌ﴾.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةً﴾
يَعْنِي إِخْوَتَهُ يُيُوسُفَ أُسْرُوا شَأْنَهُ، وَكْتُمُوا أَنْ يَكُونَ أَحَاهُمْ،
وَكَتَمَ يُيُوسُفُ شَأْنَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَقْتُلَهُ إِخْوَتُهُ، وَاخْتَارَ الْبَيْعَ،
فَذَكَرَهُ إِخْوَتُهُ لِوَارِدِ الْقَوْمِ، فَنَادَى أَصْحَابَهُ ﴿يَبْشُرِي هَذَا
عِلْمٌ﴾ يَبَاعُ قَبَاعَةَ إِخْوَتِهِ^(٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ
إِخْوَتَهُ يُيُوسُفَ وَمُسْتَرُوهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِ ذَلِكَ وَدَفْعِهِ،
وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ وَقَدَرٌ سَابِقٌ، فَتَرَكَ ذَلِكَ لِيَنْصِبِي مَا قَدَرَهُ
وَقَضَاهُ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
[الأعراف: ٥٤] وَفِي هَذَا تَعْرِيفٌ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ
وَإِعْلَامٌ لَهُ بِأَنَّيْ عَالِمٌ بِأَدَى قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا قَادِرٌ عَلَى
الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنِّي سَأَمَلِي لَهُمْ ثُمَّ أَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ
وَالْحُكْمَ عَلَيْهِمْ، كَمَا جَعَلْتُ لِيُيُوسُفَ الْحُكْمَ وَالْعَاقِبَةَ عَلَى
إِخْوَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَرَّوَهُ بِمَنْعٍ بِحَسِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يَقُولُ
تَعَالَى: وَبَاعَهُ إِخْوَتُهُ بِبَعْدِ قَلِيلٍ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ.
وَالْبَحْسُ: هُوَ النِّقْصُ^(١٠). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ
بِخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣] أَي: إِغْتَاصَ عَنْهُ إِخْوَتُهُ بِبَعْدِ
دُونِ قَلِيلٍ، وَمَعَ ذَلِكَ ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ كَانُوا
فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ أَي: لَيْسَ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِيهِ، بَلْ لَوْ سِئِلُوهُ
بِلَا شَيْءٍ لَأَجَابُوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ:

إِنَّ الصُّمَيْرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَرَّوَهُ﴾ عَائِدٌ عَلَى إِخْوَةِ
يُيُوسُفَ^(١١). وَكَانُوا قَدْ بَاعُوهُ بِأَنْقِصِ الْأَثْمَانِ. وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ: بَاعُوهُ بِعِشْرِينَ دِرْهَمًا^(١٢). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
وَنُوفُّ الْبِكَالِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ، وَزَادَ:
إِفْتَسَمُوهَا دِرْهَمَيْنِ دِرْهَمَيْنِ^(١٣). وَقَالَ الصَّحَّاحُ فِي قَوْلِهِ:
﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا بُيُوتَهُ
وَمَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجِدَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا

(١) الطبري: ٦/١٦ مَرَّ حَكَمُ الْعَوْفِيِّ مَرَارًا (٢) الطبري: ١٦/

١٢ (٣) الطبري: ١٤-١٦/١٧ (٤) الطبري: ١٢/١٦ (٥)

الطبري: ١٤/١٦ (٦) الطبري: ١٩/١٦ صحيح بطرقة (٧)

الطبري: ٢٠/١٦ (٨) الطبري: ٢١/١٦

الْبَابُ الْخَامِسُ

٢٣٨

سُورَةُ يُوسُفَ

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا
الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ
قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن
أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِن الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِّن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
مِن كَيْدِكُنَّ إِن كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن
هَذَا وَاسْتَعْفَرَ لِدُنْيَاكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا
عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

الرَّجْرُ عَن ذَلِكَ، وَلَا حُجَّةَ قَاطِعَةً عَلَى تَعْيِينِ شَيْءٍ مِّن
ذَلِكَ، فَالضَّوَابُ أَن يُطْلَقَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى .

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ أَي
كَمَا أَرَاتَاهُ بُرْهَانًا صَرَفَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ، كَذَلِكَ تَقْوِيهِ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ﴿ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أَي:
مِن الْمُجْتَبِينَ الْمُطَهَّرِينَ الْمُخْتَارِينَ، الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ،
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ (٥).

﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾
قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن
أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِن الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِّن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
مِن كَيْدِكُنَّ إِن كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(١) الطبري: ٢٧/١٦ (٢) فتح الباري: ٢١٤/٨ (٣) البغوي:
٤٢٠/٢ (٤) فتح الباري: ٤٧٣/١٣ (٥) مسلم: ١١٧/١ (٥)
الطبري: ٤٩/١٦

أَحَبَّتَهُ حُبًّا شَدِيدًا، لِحَمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ، فَحَمَلَهَا ذَلِكَ
عَلَى أَن تَجَمَلَتْ لَهُ، وَغَلَقَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ، وَدَعَتْهُ إِلَى
نَفْسِهَا، ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ
الامْتِنَاعِ، ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ وَكَانُوا
يُطْلِقُونَ الرَّبَّ عَلَى السَّيِّدِ وَالْكَبِيرِ، أَي: إِن بَعْلَكَ رَبِّي
أَحْسَنَ مَثْوَايَ أَي: مَثْوَايَ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَلَا أَقَابِلُهُ
بِالْفَاحِشَةِ فِي أَهْلِهِ ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قَالَ ذَلِكَ مُجَاهِدٌ
وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَعَبْرُهُمْ. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ
فِي قَوْلِهِ: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ فَقَرَأَهُ كَثِيرُونَ بفتح الهاءِ وإسكانِ
الياءِ وَفَتْحِ النَّاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاحِد:
مَعْنَاهُ: أَنَّهَا تَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا (١). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ
عِكْرِمَةُ: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ أَي: هَلَمْ، لَكَ؛ بِالْحَوْرَانِيَّةِ.
وَهَكَذَا ذَكَرَهُ مُعَلَّقًا (٢). وَقَرَأَ آخَرُونَ: (هَيْتَ لَكَ) بِكسْرِ
الهاءِ وَالْهَمْزِ وَضَمِّ النَّاءِ، بِمَعْنَى تَهَيَّأْتُ لَكَ، مِنْ قَوْلِ
الْقَائِلِ: هَيْتُ بِالْأَمْرِ أَهْيءُ هَيْئَةً. وَمِمَّنْ رَوَى عَنْهُ هَذِهِ
الْقِرَاءَةُ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ وَأَبُو وَإِلِ
وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ، وَكُلُّهُمْ يُسَرِّهَا بِمَعْنَى تَهَيَّأْتُ لَكَ. قَالَ
أَبُو عُبَيْدٍ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى: ﴿ هَيْتَ ﴾ لَا تُتَنَّى، وَلَا تُجْمَعُ،
وَلَا تُؤَنَّثُ، بَلْ يُخَاطَبُ الْجَمِيعُ بِلَفْظِ وَاحِدٍ، فَيُقَالُ: هَيْتَ
لَكَ، وَهَيْتَ لَكُمْ، وَهَيْتَ لَكُمَا، وَهَيْتَ لَكُنَّ، وَهَيْتَ
لَهُنَّ.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ
لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣)
وقيل: المرادُ بِهِمُ بِهَا خَطَرَاتُ حَدِيثِ النَّفْسِ، حَكَاهُ
الْبَغَوِيُّ عَن بَعْضِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ، ثُمَّ أوردَ الْبَغَوِيُّ هَهُنَا
حَدِيثَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَن مَعْمَرٍ، عَن هَمَّامٍ، عَن أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ
تَعَالَى: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنِ عَمِلَهَا
فَاتَّكَبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِنِ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا
فَاتَّكَبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي، فَإِنِ عَمِلَهَا
فَاتَّكَبُوهَا بِمِثْلِهَا» (٤). وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ
وَلَهُ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ، هَذَا مِنْهَا (٥).

وَأَمَّا الْبُرْهَانُ الَّذِي رَأَاهُ فِيهِ أَقْوَالٌ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:
وَالضَّوَابُ أَن يُقَالَ: إِنَّهُ رَأَى آيَةً مِّن آيَاتِ اللَّهِ تَرْجُرُهُ عَمَّا
كَانَ هَمَّ بِهِ، وَجَائِزٌ أَن يَكُونَ صُورَةً يُعْقُوبُ، وَجَائِزٌ أَن
يَكُونَ صُورَةً الْمَلِكِ، وَجَائِزٌ أَن يَكُونَ مَا رَأَاهُ مَكْتُوبًا مِّن

عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا وَاسْتَعْفَرِي لِذُنُوبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمَا حِينَ خَرَجَا يَسْتَبِقَانِ إِلَى الْبَابِ: يُوسُفُ هَارِبٌ، وَالْمَرْأَةُ تَطْلُبُهُ لِيَرْجِعَ إِلَى الْبَيْتِ، فَلَحِقَتْهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ فَأَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ، فَقَدَتْهُ قَدًّا فَظِيغًا، يُقَالُ: إِنَّهُ سَقَطَ عَنْهُ، وَاسْتَمَرَّ يُوسُفُ هَارِبًا ذَاهِبًا، وَهِيَ فِي إِثْرِهِ، فَالْقِيَا سَيِّدَهَا وَهُوَ زَوْجُهَا عِنْدَ الْبَابِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَتْ مِمَّا هِيَ فِيهِ بِمَكْرَهَا وَكَيْدِهَا، وَقَالَتْ لِيَزْوَجَهَا مُتَّصِلَةً وَقَافِئَةً يُوسُفُ بِدَائِبِهَا ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أَي: فَاجِسْتَهُ ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ أَي: يُجَسَّنَ، ﴿أَوْ عَذَابُ الْعِيْلِ﴾ أَي: يُضْرَبُ ضَرْبًا شَدِيدًا مُوجِعًا. فَعِنْدَ ذَلِكَ انْتَصَرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَقِّ، وَتَبَرَّأَ مِمَّا رَمَتْهُ بِهِ مِنَ الْخِيَانَةِ، وَ﴿قَالَ﴾ بَارَأَ صَادِقًا ﴿هِيَ رَوَدْتَنِي عَنِ نَفْسِي﴾ وَذَكَرَ: أَنَّهَا اتَّبَعَتْهُ تَجِدْبُهُ إِلَيْهَا حَتَّى قَدَّتْ قَمِيصَهُ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلِي﴾ أَي: مِنْ قُدَامِي ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أَي: فِي قَوْلِهَا: إِنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَمَّا دَعَاهَا وَأَبَتْ عَلَيْهِ دَفَعَتْهُ فِي صَدْرِهِ، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ، فَيَصِحُّ مَا قَالَتْ. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَذَلِكَ يَكُونُ - كَمَا وَقَعَ - لَمَّا هَرَبَ مِنْهَا وَتَطَلَّبَتْهُ، أَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ لِيَرُدَّهُ إِلَيْهَا فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ وَرَائِهِ.

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الشَّاهِدِ: هَلْ هُوَ صَغِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ؟ فَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قَالَ: ذُو لَيْحِيَّةٍ ^(١). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ مِنْ خَاصَّةِ الْمَلِكِ ^(٢). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ: إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قَالَ: كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ ^(٣). وَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهَلَالِ بْنِ يَسَافٍ وَالْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكِ بْنِ مَرْجِمٍ: أَنَّهُ كَانَ صَبِيًّا فِي الدَّارِ ^(٤). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا رَمَا قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ أَي: لَمَّا تَحَقَّقَ زَوْجُهَا صِدْقَ يُوسُفَ وَكَيْدِهَا فِيمَا قَدَفَتْهُ وَرَمَتْهُ بِهِ ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكِ﴾ أَي: إِنَّ هَذَا الْبُهْتُ وَاللَّطْحُ الَّذِي لَطَّخْتَ عَرْضَ هَذَا الشَّابِّ بِهِ مِنْ جُمْلَةِ كَيْدِكِ ﴿إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ﴾

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوِءًا أَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَنَسَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِي فَاسْتَعْصَمْتُ وَلِئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمْرَةٍ لِّيُسَجَّنَنَّ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿٣٢﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٣﴾ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُنَّ، حَتَّى حِينٍ ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا لَبِئْسَ مَا تَكْتُمَا بِنَاءِؤَيْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾

ثُمَّ قَالَ أَمِيرًا لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَيْمَانٍ مَا وَقَعَ ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا﴾ أَي: إِضْرِبْ عَن هَذَا صَفْحًا، أَي: فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ.

﴿وَاسْتَعْفَرِي لِذُنُوبِكِ﴾ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ، وَقَدْ كَانَ لِيِنَّ الْعَرَبِيَّةَ سَهْلًا، أَوْ أَنَّهُ عَذَرَهَا لِأَنَّهَا رَأَتْ مَا لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ، فَقَالَ لَهَا: اسْتَعْفَرِي لِذُنُوبِكِ، أَي: الَّذِي وَقَعَ بَيْنَكَ مِنْ إِزَادَةِ السُّوءِ بِهَذَا الشَّابِّ، ثُمَّ قَدَفِيهِ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ ﴿وَإِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ

(١) عبدالرزاق ٣٢٢/٢ إسناده ضعيف رواية سماك عن عكرمة مضطربة كما مر. (٢) الطبري إسناده ضعيف لضعف جابر الجعفي. (٣) الطبري: ٥٦/١٦ العوفي ضعيف وفي سند آخر سعيد بن المرزبان ضعيف مدلس (٤) الطبري: ٥٥، ٥٤/١٦ عند الطبري رواية أبي هريرة أيضا ضعيفة فيها أبو بكر العدلي اخباري متروك الحديث انظر للتفصيل الضعيفة ٣/ ٨٨٠.

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُكْكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ
 أَخْرِجِي عَلَيَّ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَاكْرَهْتُهُ وَأَقَطَعْتُ يَأْيِدَيْهِنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا
 بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ
 وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَن نَّفْسِيهِ فَاستَعَصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَفْعَلَنِّي
 وَإِلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
 إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصَّرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾
 فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَّرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

[وَصُولُ الْخَبَرِ إِلَى نِسْوَةِ الْمَدِينَةِ وَمَكِيدَتُهُنَّ يُوْسُفَ]
 يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ خَبَرَ يُوْسُفَ وَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ شَاعَ فِي
 الْمَدِينَةِ، وَهِيَ مِصْرُ، حَتَّى تَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي
 الْمَدِينَةِ﴾ مِثْلُ نِسَاءِ الْكِبَرَاءِ وَالْأَمْرَاءِ، يُنَكِّرُونَ عَلَى امْرَأَةِ
 الْعَزِيزِ، وَهُوَ الْوَزِيرُ وَيَعِينُ ذَلِكَ عَلَيْهَا: ﴿أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تَرْوُدُ
 فَتَدْعُوهُ عَن نَّفْسِيهِ﴾ أَي: تُحَاوِلُ غُلَامَهَا عَن نَّفْسِهِ وَتَدْعُوهُ إِلَى
 نَفْسِهَا ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أَي: قَدْ وَصَلَ حُبُّهُ إِلَى شِعَافِ
 قَلْبِهَا وَهُوَ غِلَافُهُ. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الشَّغَفُ:
 الْحُبُّ الْقَاتِلُ. [وَالشَّغَفُ] دُونَ ذَلِكَ، وَالشَّغَافُ حِجَابُ
 الْقَلْبِ. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أَي: فِي صَنِيعِهَا هَذَا
 مِنْ حُبِّهَا فَتَاهَا، وَمُرَاوَدَتِهَا إِيَّاهُ عَن نَّفْسِيهِ، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ
 بِمَكْرِهِنَّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: بِقَوْلِهِنَّ: «ذَهَبَ الْحُبُّ بِهَا». وَقَالَ
 مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: بَلْ بَلَّغَهُنَّ حُسْنَ يُوْسُفَ، فَأَحْبَبْنَ أَنْ
 يَرِيئَهُ، فَقُلْنَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلْنَ إِلَى رُؤْيِيهِ وَمُشَاهَدَتِهِ، فَعِنْدَ
 ذَلِكَ ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أَي: دَعَتْهُنَّ إِلَى مَنَزِلِهَا لِتُصَيِّفَهُنَّ
 ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُكْكًا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ
 وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ: هُوَ الْمَجْلِسُ الْمَعْدُ
 فِيهِ مَفَارِشُ، وَمَحَادٌ، وَطَعَامٌ، فِيهِ مَا يُقَطَّعُ بِالسَّكَاكِينِ مِنْ
 أُتْرُجٍ وَنَحْوِهِ^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ
 سِكِّينًا﴾ وَكَانَ هَذَا مَكِيدَةً مِنْهَا، وَمُقَابَلَةً لَهُنَّ فِي احْتِيَالِهِنَّ
 عَلَى رُؤْيِيهِ ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجِي عَلَيَّ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ حَبَّأَتْهُ
 فِي مَكَانٍ آخَرَ ﴿فَلَمَّا﴾ خَرَجَ وَرَأَتْهُ أَكْرَهْتُهُ﴾ أَي: أَعْظَمْتُهُ
 أَي: أَعْظَمْتُمْ شَأْنَهُ، وَأَجْلَلْتُمْ قُدْرَهُ، وَجَعَلْتُمْ يَقْطَعْنَ
 أَيْدِيَهُنَّ دَهْشًا بِرُؤْيِيهِ، وَهِنَّ يَطْنُنَّ أَهْنَهُنَّ يَقْطَعْنَ الْأُتْرُجَ
 بِالسَّكَاكِينِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُنَّ حَزَزْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِهَا. قَالَهُ عَيْرُ
 وَاجِدٍ^(٢).

مِنْهُنَّ سِكِّينًا: هَلْ لَكُنَّ فِي النَّظَرِ إِلَى يُوْسُفَ؟ قُلْنَ: نَعَمْ،
 فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ تَأْمُرُهُ أَنْ أَخْرِجَ إِلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَتْهُ جَعَلْنَ يَقْطَعْنَ
 أَيْدِيَهُنَّ، ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَرْجِعَ لِيَرِيئَهُ مُقْبِلًا وَمُدْبِرًا، فَرَجَعَ
 وَهِنَّ يَحْزَنْنَ فِي أَيْدِيَهُنَّ، فَلَمَّا أَحْسَسْنَ بِالْأَلَمِ جَعَلْنَ
 يُؤَلُّوْنَ، فَقَالَتْ: أَتُنَّتْ مِنْ نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ فَعَلْتُنَّ هَذَا، فَكَيْفَ
 أَلَامَ أَنَا؟ ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾
 ثُمَّ قُلْنَ لَهَا: وَمَا نَرَى عَلَيْكَ مِنْ لُومٍ بَعْدَ هَذَا الَّذِي رَأَيْنَا،
 لِأَنَّهُنَّ لَمْ يَرَيْنَ فِي الْبَشَرِ شَيْبَهُهُ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ كَانَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي
 الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 مَرَّ بِيُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، قَالَ: «فَإِذَا هُوَ
 قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ»^(٣). وَعَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ رَبِيعَةَ
 الْجُرَشِيِّ قَالَ: قُسِمَ الْحُسْنُ بِنِصْفَيْنِ، فَأُعْطِيَ يُوْسُفُ وَأُمُّهُ
 سَارَةَ نِصْفَ الْحُسْنِ. وَالنِّصْفُ الْآخَرُ بَيْنَ سَائِرِ الْخَلْقِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ السَّهْلِيُّ: مَعْنَاهُ: أَنَّ يُوْسُفَ كَانَ
 عَلَى النِّصْفِ مِنْ حُسْنِ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ
 بِيَدِهِ عَلَى أَكْمَلِ صُورَةٍ وَأَحْسَنِهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذُرِّيَّتِهِ مَنْ
 يُوَازِيهِ فِي جَمَالِهِ. فَلِهَذَا قَالَ هُوَ لِآءِ النَّسْوَةِ عِنْدَ رُؤْيِيهِ:
 ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾: قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَيْرُ وَاجِدٍ: مَعَاذَ اللَّهِ^(٤). «مَا هَذَا
 بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ
 تَقُولُ هَذَا مُعْتَذِرَةً إِلَيْهِنَّ بِأَنَّ هَذَا حَقِيقٌ أَنْ يُحِبَّ لِجَمَالِهِ
 وَكَمَالِهِ، ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَن نَّفْسِيهِ فَاستَعَصَمَ﴾ أَي: فَاْمْتَنَعَ. قَالَ
 بَعْضُهُمْ: لَمَّا رَأَيْنَ جَمَالَهُ الظَّاهِرَ أَخْبِرْتُهُنَّ بِصِفَاتِهِ الْحَسَنَةِ
 الَّتِي تَخْفَى عَنْهُنَّ، وَهِيَ الْعِفَّةُ مَعَ هَذَا الْجَمَالِ.

ثُمَّ قَالَتْ تَتَوَعَّدُهُ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَفْعَلَنِّي
 مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَعَاذَ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ
 شَرِّهِنَّ وَكَيْدِهِنَّ، وَقَالَ: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
 إِلَيْهِ﴾ أَي: مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿وَإِلَّا نَصَّرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
 إِلَيْهِنَّ﴾ أَي: إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي فَلَيْسَ لِي مِنْهَا قُدْرَةٌ، وَلَا
 أَمْلِكُ لَهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، أَنْتَ
 الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التَّكْلَانُ، فَلَا تَكْلِنِي إِلَى نَفْسِي ﴿أَصْبُ
 إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ... الْآيَةُ،
 وَذَلِكَ أَنَّ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَمَهُ اللَّهُ عِصْمَةً عَظِيمَةً،

(١) الطبري: ٧٢، ٧١/١٦ (٢) الطبري: ٧٨-٧٦/١٦ (٣)

مسلم: ١٤٦/١ (٤) الطبري: ٨٤/١٦

وَقَدْ ذَكَرَ عَيْرُ وَاجِدٍ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُنَّ بَعْدَ مَا أَكَلْنَ وَطَابَتْ
 أَنْفُسُهُنَّ، ثُمَّ وَصَّعَتْ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ أُتْرُجًا، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٢٤٠

سُورَةُ يُوسُفَ

وَاتَّبَعْتُ مَلَائِكَةَ آدَمَ إِذْ هُمْ يُسَبِّحُونَ رَبَّهُمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَالِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ الْأَعْيَابَ وَالْإِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَءَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَسَيْقِي رَبِّيهِ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ لِلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مَتْنَهُمَا أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّيهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ حُضِرَ وَأُخْرُ يَأْسِتُ بَنَاتِيهَا الْمَلَأْتُ فُتُوكُنِي فِي رُءُوسِهَا إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءُوسِ يَاعْتَبِرُونَ ﴿٤٣﴾

[دَعْوَةُ يُوسُفَ السَّجِينِينَ إِلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ التَّعْبِيرِ]

يُخْبِرُهُمَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمَا مَهْمَا رَأَيَا فِي مَنَامِهِمَا مِنْ حُلْمٍ فَإِنَّهُ عَارِفٌ بِتَفْسِيرِهِ، يُخْبِرُهُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ وُفُوعِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُ: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ فِي يَوْمِكُمَا ﴿إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ (٣). ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّايَ، لِأَنِّي اجْتَبَيْتُ مَلَائِكَةَ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَرْجُونَ ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا فِي الْمَعَادِ ﴿وَاتَّبَعْتُ مَلَائِكَةَ آدَمَ إِذْ هُمْ يُسَبِّحُونَ رَبَّهُمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾. . . . الْآيَةُ. يَقُولُ: هَجَرْتُ طَرِيقَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَسَلَكْتُ طَرِيقَ هُؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَهَكَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى، وَاتَّبَعَ طَرِيقَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَعْرَضَ عَنِ طَرِيقِ

وَحَمَاهُ فَامْتَنَعَ مِنْهَا أَشَدَّ الْإِمْتِنَاعِ، وَاخْتَارَ السِّجْنَءَ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَقَامَاتِ الْكَمَالِ أَنَّهُ مَعَ سَبَابِهِ وَجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ تَدْعُوهُ سَيِّدَتُهُ، وَهِيَ امْرَأَةٌ عَزِيزٌ مِصْرَ، وَهِيَ مَعَ هَذَا فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ، وَيَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَخْتَارُ السِّجْنَءَ عَلَى ذَلِكَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ.

وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبَعَةُ يُظْلَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» (١).

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لِيَسْحُبْنَهُ حَتَّى جِيءَ بِهِ﴾

[الْقَرَارُ بِسَجْنِ يُوسُفَ وَتَنْفِيدُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ثُمَّ ظَهَرَ لَهُمْ مِنَ الْمُضْلِحَةِ فِيمَا رَأَوْهُ أَنَّهُمْ يَسْجُونُهُ إِلَى جِينِ، أَي: إِلَى مُدَّةٍ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا عَرَفُوا بَرَاءَتَهُ وَظَهَرَتِ الْآيَاتُ، وَهِيَ الْأَدْلَةُ عَلَى صِدْقِهِ فِي عَقْدِهِ وَنَزَاهَتِهِ، وَكَأَنَّهُمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - إِنَّمَا سَجَنُوهُ لَمَّا سَاعَ الْحَدِيثُ إِيَّاهُمَا أَنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا وَأَنَّهُمْ سَجَنُوهُ عَلَى ذَلِكَ. وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَهُ الْمَلِكُ الْكَبِيرُ فِي آخِرِ الْمُدَّةِ امْتَنَعَ مِنَ الْخُرُوجِ، حَتَّى تَتَبَّنَ بَرَاءَتُهُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ الْجِنَانَةِ. فَلَمَّا تَقَرَّرَ ذَلِكَ، خَرَجَ وَهُوَ نَقِي الْعُرْضِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَءَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢)

[سَجِينَانِ يَسْأَلَانِ يُوسُفَ عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُمَا]

قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَحَدُهُمَا سَاقِي الْمَلِكِ، وَالْآخَرُ خَبَّازَهُ (٣) ثُمَّ إِنَّهُمَا رَأَيَا مَنَامًا وَطَلَبَا تَعْبِيرَهُ.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مَلَائِكَةً قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مَلَائِكَةَ آدَمَ إِذْ هُمْ يُسَبِّحُونَ رَبَّهُمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

(١) فتح الباري: ١٦٨/٢، ١٦٥/٢، ٧١٥/٢ (٢) الطبري: ١/٦

٩٥ (٣) الطبري: ١٠٠/١٦

حَمْرًا ﴿ وَهُوَ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَعْبُرُ حَمْرًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعِيْنَهُ لِئَلَّا يَحْزَنَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا أَبْهَمَهُ فِي قَوْلِهِ. ﴿وَأَمَّا الْآخِرُ فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خُبْرًا، ثُمَّ أَعْلَمَهُمَا أَنَّ هَذَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، لِأَنَّ الرُّؤْيَا عَلَى رَجُلٍ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ فَإِذَا عُبِرَتْ وَقَعَتْ. وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَأَخْبَرَهُمَا، قَالَ: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا، فَقَالَ: ﴿فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(١). وَحَاصِلُهُ: أَنَّ مَنْ تَحَلَّمَ بِبَاطِلٍ، وَفَسَّرَهُ فَإِنَّهُ يَلْزَمُ بِنَاقِلِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الرُّؤْيَا عَلَى رَجُلٍ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ، فَإِذَا عُبِرَتْ وَقَعَتْ»^(٢).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضَعِّ سِينِ﴾

قَالَ يُوسُفُ لِلسَّاقِي اذْكُرْنِي عِنْدَ الْمَلِكِ

وَلَمَّا ظَنَّ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ السَّاقِي نَاجٍ، قَالَ لَهُ يُوسُفُ خُفِيَةً عَنِ الْآخِرِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِئَلَّا يُشْعِرَهُ أَنَّهُ الْمَضْلُوبُ قَالَ لَهُ: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يَقُولُ: اذْكُرْ قِصَّتِي عِنْدَ رَبِّكَ، وَهُوَ الْمَلِكُ، فَسَيَ ذَلِكَ الْمُوصَى أَنْ يُذَكَّرَ مَوْلَاهُ الْمَلِكُ بِذَلِكَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ لِئَلَّا يَطَّلِعَ نَبِيُّ اللَّهِ مِنَ السِّجْنِ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ: أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى النَّاجِي. كَمَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَعَيْرُ وَاجِدٌ^(٣).

وَأَمَّا الْبِضْعُ فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسْعِ^(٤). وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: مَكَتَ أَيُّوبُ فِي الْبَلَاءِ سَبْعًا، وَيُوسُفُ فِي السِّجْنِ سَبْعًا، وَعُذْبٌ بَخْتَنْصَرَ سَبْعًا^(٥).

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ حُضِرٍ وَأَخْرَجَ يَأْسِدًا بَنَاتًا مَلَأَ أَفْوَانِي فِي

الصَّالِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي قَلْبَهُ، وَيَعْلَمُهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، وَيَجْعَلُهُ إِمَامًا يُتَّبَعُ بِهِ فِي الْخَيْرِ، وَدَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ هَذَا التَّوْحِيدُ وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ: أَوْحَاهُ إِلَيْنَا وَأَمَرَنَا بِهِ. ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إِذْ جَعَلْنَا دَعَاةَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ: لَا يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، بَلْ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾. [إبراهيم: ٢٨]

﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَرِ اللَّهُ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾^(٦) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُقْبِلَ عَلَى الْفَتِيَّتَيْنِ بِالْمُخَاطَبَةِ وَالِدَعَاةِ لَهُمَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلَعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُمَا، فَقَالَ: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَرِ اللَّهُ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ أَيُّ: الَّذِي ذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِعِزِّ جَلَالِهِ وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمَا: أَنَّ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيُسَمُّونها إِلَهَةً إِنَّمَا هِيَ جَهْلٌ مِنْهُمْ، وَتَسْمِيَةٌ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، تَلَقَّاهَا خَلْفُهُمْ عَنْ سَلْفِهِمْ، وَلَيْسَ لِذَلِكَ مُسْتَنَدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَيُّ: حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْحُكْمَ وَالتَّصَرُّفَ وَالْمُشِيَّةَ وَالْمُلْكَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَقَدْ أَمَرَ عِبَادَةَ قَاطِبَةً أَنْ لَا يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَأَنْزَلَ بِهِ الْحُجَّةَ وَالبُرْهَانَ الَّذِي يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: فَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ، ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ لَوْ كَرِهَتْ يَمُومِينَ﴾. [يوسف: ١٠٣] وَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ دَعْوَتَيْهِمَا شَرَعَ فِي تَعْبِيرِ رُؤْيَاهُمَا فَقَالَ:

﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمْمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخِرُ فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ

تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٨﴾

[تعبير الرؤيا]

يَقُولُ لَهُمَا: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمْمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ

(١) الطبري: ١٠٨/١٦ إبراهيم لم يسمع من ابن مسعود هذا إسناد مرسل وقد ورد موصولاً عند الحاكم ٣٤٦/٢ وقال: حديث صحيح. (٢) أحمد: ١٠/٤ (٣) الطبري: ١٦/١١٣ (٤) الطبري: ١١٥/١٦ (٥) الطبري: ١١٤/١٦

رَبِّيَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّؤْيَا تَعْبُورًا ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَصْغَتْ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بَعْلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يُاسِنَتِ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾

[رُؤْيَا مَلِكٍ مِصْرًا]

هذه الرؤيا من ملك مِصرٍ مما قدَّر اللهُ تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام من السجن، مُعَزِّزًا مُكْرَمًا، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة [والْحِرَازَةَ] وكبار دولته وأمرأه فقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتدروا إليه بأنها «أصغت أحلم» أي: أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه «وما نحن بتأويل الأحلم بعلمين» أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها - وهو تعبيرها -

فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ الَّذِي نَجَا مِنْ ذَيْنِكَ الْفَتِينِ اللَّذَيْنِ كَانَا فِي السِّجْنِ مَعَ يُوسُفَ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ أَنْسَاهُ مَا وَصَّاهُ بِهِ يُوسُفُ مِنْ ذِكْرِ أَمْرِهِ لِلْمَلِكِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرُ ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، أَي مَدَّة، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (بَعْدَ أُمَّةٍ) أَي بَعْدَ نِسْيَانٍ، فَقَالَ لَهُمْ - أَي لِلْمَلِكِ وَالَّذِينَ جَمَعَهُمْ لِذَلِكَ -: «أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» أَي: بِتَأْوِيلِ هَذَا الْمَنَامِ، «فَأَرْسِلُونِ» أَي: فَابْعَثُونِ إِلَى يُوسُفَ الصِّدِّيقِ إِلَى السِّجْنِ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ فَبَعَثُوهُ فَبَجَاءَهُ [هُ] فَقَالَ: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا» وَذَكَرَ الْمَنَامَ الَّذِي رَأَاهُ الْمَلِكُ.

[تَعْبِيرُ رُؤْيَا الْمَلِكِ]

فَعِنْدَ ذَلِكَ ذَكَرَ لَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعْبِيرَهَا مِنْ غَيْرِ تَعْنِيفٍ لِلْفَتَى فِي نِسْيَانِهِ مَا وَصَّاهُ بِهِ، وَمِنْ غَيْرِ اشْتِرَاطٍ لِلخُرُوجِ قَبْلَ ذَلِكَ، بَلْ قَالَ: «تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا» أَي يَأْتِيكُمْ الْخُضْبُ وَالْمَطَرُ سَبْعَ سِنِينَ مُتَوَالِيَاتٍ، فَفَسَّرَ الْبَقَرِ بِالسِّنِينَ لِأَنَّهَا تُبَيِّرُ الْأَرْضَ الَّتِي [تُسْتَعْلَمُ] مِنْهَا الثَّمَرَاتُ وَالزَّرُوعُ، وَهِنَّ السُّنْبُلَاتُ الْخُضْرُ، ثُمَّ أَرشَدَهُمْ إِلَى مَا

٢٤١

الْبَقَرَاتُ الْعِجَافُ

السُّنْبُلَاتُ الْخُضْرُ

قَالُوا أَصْغَتْ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بَعْلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يُاسِنَتِ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ آيِدِيَهُنَّ إِنْ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ فُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾

[يَعْتَمِدُونَهُ] فِي تِلْكَ السِّنِينَ، فَقَالَ: «فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ» أَي: مَهْمَا اسْتَعْلَلْتُمْ فِي هَذِهِ السَّبْعِ السِّنِينَ الْخُضْبِ، فَادَّخِرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ، لِيَكُونَ أَبْقَى لَهُ، وَأَبْعَدَ عَنِ إِسْرَاعِ الْفَسَادِ إِلَيْهِ، إِلَّا الْمَقْدَارَ الَّذِي تَأْكُلُونَهُ، وَلِيَكُنْ قَلِيلًا قَلِيلًا، لَا تُسْرِفُوا فِيهِ، لِتَتَّقُوا فِي السَّبْعِ الشَّدَادِ، وَهِنَّ السَّبْعُ السِّنِينَ الْمُحَلُّ الَّتِي تَعْقُبُ هَذِهِ السَّبْعَ الْمُتَوَالِيَاتِ، وَهِنَّ الْبَقَرَاتُ الْعِجَافُ اللَّاتِي تَأْكُلُ السَّمَانَ، لِأَنَّ سِنِي الْجَدْبِ يُؤْكَلُ فِيهَا مَا جَمَعُوهُ فِي سِنِي الْخُضْبِ، وَهِنَّ السُّنْبُلَاتُ الْيَابِسَاتُ، وَأَخْبَرَهُمْ: أَنَّهُنَّ لَا يُبَيِّنَنَّ شَيْئًا، وَمَا بَدَرُوهُ فَلَا يَرْجِعُونَ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ: «يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ» ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بَعْدَ الْجَدْبِ الْعَامَ الْمُتَوَالِي بِأَنَّهُ يَعْفُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ، أَي: يَأْتِيهِمُ الْغَيْثُ وَهُوَ الْمَطَرُ وَتُعْلَى الْبِلَادُ، وَيَعْرِضُ النَّاسُ مَا كَانُوا يَعْرِضُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ مِنْ زَيْتٍ وَنَحْوِهِ، وَسَكَرٍ وَنَحْوِهِ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَالِبِينَ ﴿٥٣﴾﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

[تحقيق ما جرى بين يوسف وبين امرأة العزيز ونسوة مصر]

يَقُولُ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنِ الْمَلِكِ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِ بِتَغْيِيرِ رُؤْيَاہِ الَّتِي كَانَ رَأَاهَا بِمَا أَعْجَبَهُ، وَأَيَقَنَهُ، فَعَرَفَ فَضْلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَعِلْمَهُ وَحُسْنَ إِطْلَاعِهِ عَلَىٰ رُؤْيَاہِ، وَحُسْنَ أَخْلَاقِهِ عَلَىٰ مَنْ يَبْلِيهِ مِنْ رَعَايَاہِ، فَقَالَ: ﴿أَتُؤْتِي بِهٖ﴾ أَي: أخرجوه من السجن وأحضروه، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ بِذَلِكَ امْتَنَعَ مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّىٰ يَتَحَقَّقَ الْمَلِكُ وَرَعِيَّتُهُ بَرَاءَةَ سَاحِبِيهِ وَنَرَاهَا عِزُّوہِ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَأَنَّ هَذَا السِّجْنَ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ أَمْرِ يَفْتَضِيهِ، بَلْ كَانَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَقَالَ: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾... الآية. وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِمَدْحِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، وَعُلُوِّ قَدْرِهِ وَصَبْرِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فِيهِ الْمُسْتَدِّ وَالصَّحِيحِينَ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾... الآية [البقرة: ٢٦]، وَيُرْحَمُ اللَّهُ لَوْطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»^(١). وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ: عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَنَا، لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ وَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُدْرَةَ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾

﴿إِخْبَارًا عَنِ الْمَلِكِ حِينَ جَمَعَ النِّسْوَةَ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عِنْدَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ مُخَاطِبًا لَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَهُوَ بَرِيدُ امْرَأَةٍ وَرَبِيرِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ، قَالَ الْمَلِكُ لِلنِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾ أَي: شَأْنُكُمْ وَخَبْرُكُمْ ﴿إِذْ رَوَدْتُمُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الضِّيَافَةِ،

٢٤٢

سورة يوسف

سورة يوسف

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖ أَسْتَخْلِصُہُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهٖ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُمِنهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْ الْأَخْرَجُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِمَهَازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْآتُونَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهٖ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونَنِي ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَوِّدْ عَنهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِنَفْسِيهِ أَجْعَلُوا بَضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْبِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أَي: قَالَتِ النِّسْوَةُ جَوَابًا لِلْمَلِكِ: حَاشَ لِلَّهِ أَنْ يَكُونَ يُوسُفُ مَثْمَمَا، وَاللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: تَقُولُ: الْآنَ بَيَّنَّ الْحَقُّ^(١). وَظَهَرَ وَبَرَزَ، ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَي فِي قَوْلِهِ: ﴿هِيَ رَوَدْتَنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]. ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ تَقُولُ: إِنَّمَا اعْتَرَفْتُ بِهَذَا عَلَىٰ نَفْسِي لِيَعْلَمَ رَوْجِي أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَا وَقَعَ الْمَحْذُورُ الْأَكْبَرُ، وَإِنَّمَا رَاوَدْتُ هَذَا الشَّابَّ مَرَاوِدَةً فَاثْمَنَعَ، فَلِهَذَا اعْتَرَفْتُ لِيَعْلَمَ أَنِّي بَرِيئَةٌ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ تَقُولُ الْمَرْأَةُ: وَلَسْتُ أُبْرِئُ نَفْسِي، فَإِنَّ النَّفْسَ تَتَحَدَّثُ وَتَتَمَنَّى، وَلِهَذَا رَاوَدْتُهُ

(١) أحمد: ٣٢٦/٢ وفتح الباري: ٢١٦/٨ ومسلم: ١٣٣/١

(٢) أحمد: ٣٤٦/٢ (٣) الطبري: ١٦٦/١٣٨

خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

[حُكْمُ يُوسُفَ فِي مِصْرَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِينَ﴾ أي: أَرْضَ مِصْرَ، ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قَالَ الشُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ^(١). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَتَّخِذُ مِنْهَا مَنْزِلًا حَيْثُ يَشَاءُ بَعْدَ الضِّيْقِ وَالْحُسْبِ وَالْإِسَارِ^(٢). ﴿فَيُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وَمَا أَحْصَعْنَا صَبْرَ يُوسُفَ عَلَى أَدَى إِخْوَتِهِ، وَصَبْرَهُ عَلَى الْحُسْبِ بِسَبَبِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، فَلِهَذَا أَعْقَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ [السَّلَامَةَ] وَالنَّصْرَ وَالتَّائِيدَ.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٧) وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَا أَدَّخَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَأَجَلُ مِمَّا حَوَّلَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالتَّقْوَى فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ فِي حَقِّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣١) وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُكْلٌ وَسُكْلٌ وَمَا يَمْسِكُ [ص: ٣٩، ٤٠] وَالغَرَضُ: أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَّاهُ مَلِكُ مِصْرَ الرَّيَّانُ ابْنُ الْوَلِيدِ الْوَزَارَةَ فِي بِلَادِ مِصْرَ - مَكَانَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ - زَوْجَ النَّبِيِّ رَاوَدَتْهُ - وَأَسْلَمَ الْمَلِكُ عَلَى يَدَيْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

﴿وَجَاءَ إِخْوَتُهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨) وَلَمَّا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونَ بَآخَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآلَا تَرَوْتُمْ أَنِّي آوِيُ الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٥٩) فَإِنَّ لَكُمْ تَأْتُونَ بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٠) قَالُوا سَرَّوْدُ عَنْهُ آتَاهُ وَإِنَّا لَلْقَائِلُونَ﴾ (٦١) وَقَالَ لِيُنْفِيسَهُ أَجْعَلُوا بَعْضَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢)

[وَرُودُ إِخْوَةِ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ وَرُجُوعُهُمْ مَعَ الْمِيرَةِ وَتَعَهُدُهُمْ بِإِثْبَانِ أَحِبِّهِمُ الْأَصْغَرَ]

ذَكَرَ الشُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي أَقْدَمَ إِخْوَةَ يُوسُفَ بِبِلَادِ مِصْرَ، أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَاشَرَ الْوَزَارَةَ بِمِصْرَ وَمَضَتْ السَّبْعُ السِّنِينَ الْمُخْصِبَةُ، ثُمَّ تَلَتْهَا السَّبْعُ السِّنِينَ الْمُجْدِبَةُ، وَعَمَّ الْقَحْطُ بِبِلَادِ مِصْرَ بِكَمَالِهَا، وَوَصَلَ إِلَى بِلَادِ كُتْعَانَ، وَهِيَ الَّتِي فِيهَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوْلَادُهُ، وَحِينَئِذٍ اخْتَلَطَ يُوسُفُ

لِأَنَّ ﴿النَّفْسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَهُ رَبِّي﴾ أَي: إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَشْهُرُ وَالْأَلْيَقُ وَالْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْقِصَّةِ وَمَعَانِي الْكَلَامِ.

وَقَدْ حَكَاهُ الْمَاوَرِدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، وَانْتَدَبَ لِنَصْرِهِ الْإِمَامُ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَأَقْرَدَهُ بِتَضْيِيفِ عَلَى حِدَةٍ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ فِي زَوْجَتِهِ ﴿بِالْعَيْبِ﴾... الْآيَتَيْنِ أَي: إِثْمًا رَدَّدَتْ الرَّسُولَ لِيَعْلَمَ الْمَلِكُ بَرَاءَتِي، وَلِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ فِي زَوْجَتِهِ ﴿بِالْعَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَآئِسِينَ﴾... الْآيَةَ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي لَمْ يَحِكْ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ سِوَاهُ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْوَى وَأَظْهَرُ، لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ كُلُّهُ مِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بِحَضْرَةِ الْمَلِكِ، وَلَمْ يَكُنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَهُمْ، بَلْ بَعْدَ ذَلِكَ أَحْضَرَهُ الْمَلِكُ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا اسْتَخْلَفَهُ لِيُنْفِيسَ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٦١) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٢)

[مَكَانَةُ يُوسُفَ فِي عَيْنِ الْمَلِكِ]

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلِكِ حِينَ تَحَقَّقَ بَرَاءَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَزَاهَةُ عَرْضِهِ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ، قَالَ: ﴿أَتَأْتُونَ بِهَذَا اسْتَخْلَفَهُ لِيُنْفِيسَ﴾ أَي: أَجْعَلُهُ مِنْ خَاصَّتِي وَأَهْلِ مَشُورَتِي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أَي: خَاطَبَهُ الْمَلِكُ، وَعَرَفَهُ، وَرَأَى فَضْلَهُ وَبَرَاعَتَهُ، وَعَلِمَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقٍ وَخَلْقِي وَكَمَالٍ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أَي: إِنَّكَ عِنْدَنَا قَدْ بَقِيتَ ذَا مَكَانَةٍ وَأَمَانَةٍ، فَقَالَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَيَجُوزُ لِلرَّجُلِ ذَلِكَ - إِذَا جُهِلَ أَمْرُهُ - لِلْحَاجَةِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ ﴿حَفِيظٌ﴾ أَي: خَازِنٌ أَمِينٌ ﴿عَلِيمٌ﴾ ذُو عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ بِمَا يَتَوَلَّاهُ. وَإِنَّمَا سَأَلَهُ أَنْ يَجْعَلَهُ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْأَهْرَامُ الَّتِي يُجْمَعُ فِيهَا الْعُلَاثُ، لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ السِّنِينَ الَّتِي أَخْبَرَهُمْ بِشَأْنِهَا، فَيَتَصَرَّفُ لَهُمْ عَلَى الْوُجُوهِ الْأَحْوَطِ وَالْأُصْلَحِ وَالْأَرْسُدِ، فَأَجِيبَ إِلَى ذَلِكَ رَغْبَةً فِيهِ وَتَكْرِمَةً لَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٧) وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ

عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلنَّاسِ فِي غَلَاتِهِمْ، وَجَمَعَهَا أَحْسَنَ جَمْعٍ، فَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ مَبْلُغٌ عَظِيمٌ [أَهْرَاءُ] مُتَعَدِّدَةٌ هَائِلَةٌ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالْمَعَامَلَاتِ، يَمْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَعِيَالِهِمْ، فَكَانَ لَا يُعْطِي الرَّجُلَ أَكْثَرَ مِنْ جُمْلٍ بَعِيرٍ فِي السَّنَةِ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَا يُشْبِعُ نَفْسَهُ، وَلَا يَأْكُلُ هُوَ وَالْمَلِكُ وَجُنُودُهُمَا إِلَّا أَكَلَةً وَاحِدَةً فِي وَسْطِ النَّهَارِ، حَتَّى [يَتَكَلَّمَى] النَّاسُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مُدَّةَ السَّبْعِ سِنِينَ، وَكَانَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ.

فَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِنْ وَرَدَ لِلْمِيزَةِ إِخْوَهُ يُوسُفَ عَنْ أَمْرِ أَبِيهِمْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ بَلَغَهُمْ أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ يُعْطِي النَّاسَ الطَّعَامَ بِثَمَنِيهِ، فَأَخَذُوا مَعَهُمْ بِضَاعَةً يَتَعَاضُونَ بِهَا طَعَامًا، وَرَكِبُوا عَشْرَةَ نَفَرٍ، وَاحْتَسَبَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَهُ ابْنَهُ بَنِيَامِينَ شَقِيقَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ أَحَبَّ وَلَدِهِ إِلَيْهِ بَعْدَ يُوسُفَ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَبْنَيْتِهِ وَرِيَّاسَتِهِ وَسِيَادَتِهِ، عَرَفَهُمْ حِينَ نَظَرَ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ أَيْ: لَا يَعْرِفُونَهُ، لِأَنَّهُمْ فَارِقُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ، وَبَاعُوهُ لِلسَّيَّارَةِ وَلَمْ يَدْرُوا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهِ، وَلَا كَانُوا يَسْتَشْعِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ، فَلِهَذَا لَمْ يَعْرِفُوهُ، وَأَمَّا هُوَ فَعَرَفَهُمْ. فَذَكَرَ الشَّدِيدُ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ شَرَعَ يُحَاطِئُهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ كَالْمُنْكَرِ عَلَيْهِمْ: مَا أَقْدَمَكُمْ بِلَادِي؟ فَقَالُوا: أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّا قَدِمْنَا لِلْمِيزَةِ، قَالَ: فَلَعَلَّكُمْ عَيُونَ؟ قَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ. قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ، وَأَبُونَا يَعْقُوبُ نَبِيُّ اللَّهِ. قَالَ: وَلَهُ أَوْلَادٌ غَيْرُكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ كُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ، فَذَهَبَ أَصْغَرْنَا، هَلَكَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَكَانَ أَحْبَبْنَا إِلَى أَبِيهِ، وَبَيَّي شَقِيقَهُ فَاحْتَسَبَهُ أَبُوهُ لِيَسْتَلَى بِهِ عَنْهُ، فَأَمَرَ بِإِنزَالِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ أَيْ: أَوْفَى لَهُمْ كَيْلَهُمْ، وَحَمَلَ لَهُمْ أَحْمَالَهُمْ، قَالَ: اثْنُونِي بِأَخِيكُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ، لِأَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا ذَكَرْتُمْ ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يُرْعِبُهُمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَهَبَهُمْ فَقَالَ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي...﴾

الآيَةُ، أَيْ: إِنْ لَمْ تَقْدُمُوا بِهِ مَعَكُمْ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي مِيزَةٌ، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَنَقُولُونَ ﴿أَيْ: سَنَحْرِصُ عَلَى مَجِيئِهِ إِلَيْكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَلَا نُبْقِي مَجْهُودًا لِنَعْلَمَ صِدْقًا فِيمَا قُلْنَا، وَقَالَ لِفَتِيئِهِ﴾ أَيْ: غِلْمَانِيهِ ﴿اجْعَلُوا يَضَعَهُمْ﴾ أَيْ الَّتِي قَدِمُوا بِهَا - لِيَمْتَارُوا عَوَضًا عَنْهَا - ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أَيْ: فِي أَمْتِعَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا

يَسْعُرُونَ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بِهَا، قِيلَ: حَشِيي يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَهُمْ بِضَاعَةٌ أُخْرَى يُرْجِعُونَ لِلْمِيزَةِ بِهَا.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ أَمْسَكْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٤﴾

[طَلَبُهُمْ مِنْ يَعْقُوبَ أَنْ يَذْهَبُوا بِبَنِيَامِينَ وَجَوَانِبَهُ] يَقُولُ تَعَالَى عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ﴾ يَعْنُونَ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ. إِنْ لَمْ تُرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا بَنِيَامِينَ لَا نَكْتَلُ، فَأَرْسَلَهُ مَعَنَا نَكْتَلُ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْبَاءِ أَيْ: يَكْتَلُ هُوَ، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أَيْ لَا نَخَفُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَيْكَ، وَهَذَا كَمَا قَالُوا لَهُ فِي يُوسُفَ: ﴿أَرْسَلْنَا مَعَنَا عَدَا بَرْتَعَ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ: ﴿هَلْ أَمْسَكْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ﴾ أَيْ هَلْ أَنْتُمْ

حَشِيَّةُ الْعَيْنِ

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ يِعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ لَمَّا جَهَّزَهُمْ مَعَ أَخِيهِمْ بَنِيَامِينَ إِلَى مِصْرَ: أَنْ لَا يَدْخُلُوا كُلَّهُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَلِيَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبِيدُ بْنُ وَاحِدٍ: إِنَّهُ حَشَى عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي جَمَالٍ وَهَيْئَةٍ حَسَنَةٍ، وَمُنْظَرٍ وَبَهَاءٍ، فَحَشَى عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَهُمُ النَّاسُ بِعُيُونِهِمْ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَسْتَنْزِلُ الْفَارِسَ عَنْ فَرَسِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيُّ إِنَّ هَذَا الْإِخْتِرَازَ لَا يَزِيدُ قَدْرَ اللَّهِ وَقَضَاءَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَتْ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يِعْقُوبَ فَضَلَّهَا ﴿قَالُوا: هِيَ دَفْعُ إِصَابَةِ الْعَيْنِ لَهُمْ﴾ (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ) قَالَ قَتَادَةُ وَالتَّوْرِيُّ: لَذُو عَمَلٍ بَعْلِمِهِ (٣). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَذُو عِلْمٍ لِتَعْلِيمِنَا إِثَابُهُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ فَلَا تَبْتَسِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

[تَسْلِيَةُ يُوسُفَ لِبَنِيَامِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ، لَمَّا قَدِمُوا عَلَىٰ يُوسُفَ وَمَعَهُمْ أَخُوهُ شَقِيقُهُ بَنِيَامِينَ، وَأَدْخَلَهُمْ دَارَ كَرَامَتِهِ وَمَنْزِلَ ضِيافَتِهِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمُ الصَّلَةَ وَالْأَطْفَافَ وَالْإِحْسَانَ، وَاخْتَلَىٰ بِأَخِيهِ فَاطَّلَعَهُ عَلَىٰ شَأْنِهِ وَمَا جَرَىٰ لَهُ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ أَخُوهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿لَا تَبْتَسِ﴾ أَيُّ لَا تَأْسَفْ عَلَىٰ مَا صَنَعُوا بِي، وَأَمْرَهُ بِكَيْتَمَانِ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَأَنْ لَا يُطْلِعَهُمْ عَلَىٰ مَا أَطَّلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ أَخُوهُ، وَتَوَاطَأَ مَعَهُ أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَىٰ أَنْ يُبَيِّنَهُ عِنْدَهُ مُعْزَرًا مُكْرَمًا مُعْظَمًا.

﴿لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِمَهَارِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسِرُوقُونَ﴾ (١٧) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعَلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿١٩﴾

صَائِعُونَ بِهِ إِلَّا كَمَا صَنَعْتُمْ بِأَخِيهِ مِنْ قَبْلُ، تُعَيِّنُونَهُ عَنِّي، وَتَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؟ ﴿فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِظًا﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (حَفِظًا) ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَيُّ: هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِي، وَسَيَرَحْمُ كِبَرِي وَضَعْفِي وَوَجْدِي بَوْلَدِي، وَأَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يَزِدَّهُ عَلَيَّ وَيَجْمَعَ سَمْلِي بِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَابَانَا مَا بَغَىٰ هَذِهِ. بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلِنَا وَتَحْفَظُ أَخَانَا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ بَسِيرٌ﴾ (١٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾

[خُرُوجُ الْبِضَاعَةِ مِنَ الْمَتَاعِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَمَّا فَتَحَ إِخْوَةُ يُوسُفَ مَتَاعَهُمْ، وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، وَهِيَ الَّتِي كَانَ أَمَرَ يُوسُفَ فِتْيَانَهُ بِوَضْعِهَا فِي رِحَالِهِمْ، فَلَمَّا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعِهِمْ ﴿قَالُوا يَا بَابَانَا مَا بَغَىٰ﴾ أَيُّ: مَاذَا نُرِيدُ؟ ﴿هَذِهِ بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا؟﴾ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: مَا تَبَغَىٰ وَرَاءَ هَذَا، إِنَّ بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا، وَقَدْ أَوْفَىٰ لَنَا الْكَيْلُ (١٥) ﴿وَنَمِيرُ أَهْلِنَا﴾ أَيُّ: إِذَا أُرْسِلَتْ أَخَانَا مَعَنَا نَأْتِي بِالْمِيرَةِ إِلَىٰ أَهْلِنَا، وَتَحْفَظُ أَخَانَا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ﴿وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُعْطِي كُلَّ رَجُلٍ حِمْلَ بَعِيرٍ.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ بَسِيرٌ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ، أَيُّ: إِنَّ هَذَا بَسِيرٌ فِي مَقَابِلَةِ أَخِيهِمْ مَا يَغْدِلُ هَذَا ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: تَحْلِفُونَ بِالْمَوْثِقِ وَالْمَوْثِقِ ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا كُلُّكُمْ وَلَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ تَحْلِيصِهِ ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ أَكَدَهُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ بَعْضِهِمْ لِأَجْلِ الْمِيرَةِ الَّتِي لَا غِنَىٰ لَهُمْ عَنْهَا، فَجَعَلَهُ مَعَهُمْ (٢).

﴿وَقَالَ بَنِيُّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَتْ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يِعْقُوبَ فَضَلَّهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

﴿أَمْرُ يِعْقُوبَ بَنِيهِ أَنْ يَدْخُلُوا مِصْرَ إِلَّا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ

(١) الطبري: ١٦٢/١٦ (٢) الطبري: ١٦٤/١٦ (٣) الطبري:

١٦٨/١٦ (٤) الطبري: ١٦٨/١٦

[جَعَلَ صُوعَ الْمَلِكِ فِي رَحْلِ أَخِيهِ وَحَبَسَهُ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ]

لَمَّا جَهَّزَهُمْ وَحَمَلَ لَهُمْ أَبْعَرْتَهُمْ طَعَامًا، أَمَرَ بَعْضَ فِتْيَانِهِ أَنْ يَضَعَ السَّقَايَةَ، وَهِيَ إِنَاءٌ مِنْ فِضَّةٍ فِي قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ، وَقِيلَ: مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَ يَشْرَبُ فِيهِ^(١). وَيَكِيلُ لِلنَّاسِ بِهِ مِنْ عَزَّةِ الطَّعَامِ إِذْ ذَاكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ^(٢). وَقَالَ شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: صُوعَ الْمَلِكِ - قَالَ - : كَانَ مِنْ فِضَّةٍ يَشْرَبُونَ فِيهِ، وَكَانَ مِثْلَ الْمَكْوَلِ^(٣). فَوَضَعَهَا فِي مَتَاعِ بَنِيَامِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ بَيْنَهُمْ ﴿إِنْتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ﴾ فَالْتَفَتُوا إِلَى الْمُنَادِي وَقَالُوا: ﴿مَاذَا تَقْفِدُونَ﴾^(٤) قَالُوا فَقَفِدُ صُوعَ الْمَلِكِ ﴿أَيُّ: صَاعَهُ الَّذِي يَكِيلُ بِهِ﴾ وَلَمَنْ جَاءَهُ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَهَذَا مِنْ بَابِ الْجَعَالَةِ، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ الضَّمَانِ وَالْكَفَالَةِ.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾^(٥) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ؟ إِنْ كُنْتُمْ كَذِبِينَ^(٦) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(٧) قَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ^(٨)

لَمَّا اتَّهَمَهُمْ أُولَئِكَ الْفِتْيَانُ بِالسَّرِقَةِ، قَالَ لَهُمْ إِخْوَتُهُ يُوسُفَ: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾ أَيُّ: لَقَدْ تَحَقَّقْتُمْ وَعَلِمْتُمْ مِنْذُ عَرَفْتُمُونَا - لِأَنَّهُمْ شَاهَدُوا مِنْهُمْ سِيرَةَ حَسَنَةَ - أَنَا ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾ أَيُّ: لَيْسَتْ سَجَايَا نَا تَقْتَضِي هَذِهِ الصِّفَةَ، فَقَالَ لَهُمُ الْفِتْيَانُ: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ؟﴾ أَيُّ: السَّارِقُ إِنْ كَانَ فِيكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَذِبِينَ﴾ أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ عُقُوبَتُهُ إِنْ وَجَدْنَا فِيكُمْ مِنْ أَحَدِهِ؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وَهَكَذَا كَانَتْ شَرِيعَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ السَّارِقَ يُدْفَعُ إِلَى الْمَسْرُوقِ مِنْهُ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ، أَيُّ فَتَشَّاهَا قَبْلَهُ تَوْرِيَةً، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ فَأَخَذَهُ مِنْهُمْ بِحُكْمِ اعْتِرَافِهِمْ وَالْتِزَامِهِمْ، وَإِلْتِزَامًا لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ،

٢٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ يُوسُفَ

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَقْفِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَقْفِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَهُ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ؟ إِنْ كُنْتُمْ كَذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ قَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ سَرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ، مِنْ قَبْلِ فَاسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَمْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وَهَذَا مِنَ الْكَيْدِ - الْمُخْتَوَّبِ الْمُرَادِ - الَّذِي يُجِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمُصْلِحَةِ الْمَطْلُوبَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أَيُّ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْذُهُ فِي حُكْمِ مَلِكٍ مُضْرًا، قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ^(١). وَإِنَّمَا قِيَضَ اللَّهُ لَهُ أَنْ التَّرَمَّ لَهُ إِخْوَتُهُ بِمَا التَّرَمُوهُ، وَهُوَ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ شَرِيعَتِهِمْ، وَلِهَذَا مَدَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿رَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ الْآيَةَ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَيْسَ عَالِمٌ إِلَّا فَوْقَهُ عَالِمٌ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢). وَكَذَا رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَحَدَّثَ بِحَدِيثِ عَجِيبٍ، فَتَعَجَّبَ رَجُلٌ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي

(١) الطبري: ١٧٢/١٦ (٢) الطبري: ١٧٣/١٦ (٣) الطبري:

(٤) الطبري: ١٧٦/١٦ (٥) الطبري: ١٨٨/١٦ (٥) الطبري: ١٩٣/١٦

سورة يوسف

٢٤٥

سورة يوسف

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجْدِنَا مَتَّعَنَا عِنْدَهُ وَإِنَّا إِذَا لَطَلِمُوتٌ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونََّا نَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنَاتِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

[مُشَاوَرَتُهُمْ وَمَشُورَةُ كَبِيرِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ إِخْوَةَ يُوسُفَ أَنَّهُمْ لَمَّا بَيَّسُوا مِنْ تَخْلِيصِ أُخْيَاهُمْ بَنِيَامِينَ الَّذِي قَدِ التَّمُّوا لِأَبِيهِمْ بَرْدَهُ إِلَيْهِ، وَعَاهَدُوهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿حَلَصُوا﴾ أَي: انْفَرَدُوا عَنِ النَّاسِ ﴿نَجِيًّا﴾ يَتَنَجَّوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وَهُوَ رُوْبَيْلُ، وَقِيلَ: يَهُودَا، وَهُوَ الَّذِي أَسَارَ

(١) عبد الرزاق: ٣٢٧/٢ (٢) الطبري: ١٩٢/١٦ (٣) الطبري: ١٩٢/١٦ (٤) الطبري: ١٩٣/١٦ (٥) أمر العوفي مسين

عَلِمَ عَلَيْهِمْ. ﴿فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ: اللَّهُ لَعَلِيمٌ. [وَهُوَ] فَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ﴾ (١). وَكَذَلِكَ رَوَى سِمَاكُ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ عِلْمٌ﴾ قَالَ: يَكُونُ هَذَا أَعْلَمُ مِنْ هَذَا، وَهَذَا أَعْلَمُ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ فَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ (٢). وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ (٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْعِلْمُ إِلَى اللَّهِ، مِنْهُ بُدِئَ، وَتَعَلَّمَتِ الْعُلَمَاءُ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (وَفَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ عَلَيْهِمْ) (٤).

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أُنْتُمْ سَرَرْتُمْ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿٧٧﴾

[إِخْوَةُ يُوسُفَ أَتَهُمُوهُ بِالسَّرِقَةِ]

وَقَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَمَّا رَأَوْا الصُّوَاعَ قَدْ أُخْرِجَ مِنْ مَتَاعِ بَنِيَامِينَ ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يَتَنَصَّلُونَ إِلَى الْعَزِيزِ مِنَ التَّشْبِيهِ بِهِ، وَيَذْكُرُونَ: أَنَّ هَذَا فَعَلَ كَمَا فَعَلَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، يَعْنُونَ بِهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ﴾ يَعْنِي الْكَلِمَةَ الَّتِي بَعْدَهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أُنْتُمْ سَرَرْتُمْ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أَي: تَذْكُرُونَ، قَالَ هَذَا فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهِ لَهُمْ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِضْمَارِ قَبْلَ الذِّكْرِ، قَالَ الْعُوفِيُّ (٥) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ﴾، قَالَ: أَسْرَ فِي نَفْسِهِ: ﴿أُنْتُمْ سَرَرْتُمْ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجْدِنَا مَتَّعَنَا عِنْدَهُ وَإِنَّا إِذَا لَطَلِمُوتٌ﴾ ﴿٧٧﴾ [إِقْتِرَاحُ الْإِخْوَةِ أَخْذَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَدَلَ بَنِيَامِينَ وَالرَّدُّ عَلَىٰ هَذَا الْإِقْتِرَاحِ]

لَمَّا تَعَيَّنَ أَحَدُ بَنِيَامِينَ وَتَقَرَّرَ تَرْكُهُ عِنْدَ يُوسُفَ بِمُقْتَضَىٰ اغْتِرَافِهِمْ، سَرَعُوا بِتَرْقُقُونَ لَهُ وَيَعْطِفُونَهُ عَلَيْهِمْ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يَعْنُونَ وَهُوَ يُجِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا وَيَسْتَلِي بِهِ عَنْ وَلَدِهِ الَّذِي فَقَدَهُ ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أَي: بَدَلَهُ يَكُونُ عِنْدَكَ عَوَضًا عَنْهُ، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَي: الْعَادِلِينَ الْمُنْصِفِينَ الْقَائِلِينَ لِلْخَيْرِ، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجْدِنَا مَتَّعَنَا عِنْدَهُ﴾ أَي: كَمَا قُلْتُمْ وَاعْتَرَفْتُمْ ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوتٌ﴾ أَي: إِنْ أَحَدْنَا بَرِيئًا بِسْتَقِيمٍ.

الْحِكْمَةُ

٢٤٦

الْقُرْآنُ

عَلَيْهِمْ بِالْقَائِهِ فِي الْبُرِّ عِنْدَمَا هُمَا يَبْتَلِيهِ، قَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَرْدُنَّهُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ تَعَدَّرَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ مَعَ مَا تَقَدَّمْ لَكُمْ مِنْ إِضَاعَةِ يُوسُفَ عَنْهُ﴾ ﴿فَلَنْ أُنْبِجَ الْأَرْضُ﴾ أَي: لَنْ أَفَارِقَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي آيٌ﴾ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ رَاضِيًا عَنِّي ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قِيلَ: بِالسَّيْفِ، وَقِيلَ: بِأَنْ يُمْكِنَنِي مِنْ أَخِي أَحِي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا آبَاءَهُمْ بِبُصُورَةِ مَا وَقَعَ، حَتَّى يَكُونَ عَذْرًا لَهُمْ عِنْدَهُ، وَيَتَنَصَّلُوا إِلَيْهِ وَيَبْرَأُوا مِمَّا وَقَعَ بِقَوْلِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَعَكْرِمَةُ: مَا عَلِمْنَا أَنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ^(١). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: مَا عَلِمْنَا فِي الْغَيْبِ أَنَّهُ سَرَقَ لَهُ شَيْئًا، إِنَّمَا سَأَلْنَا مَا جَزَاءُ السَّارِقِ؟ ﴿وَسَلَّ الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾: قِيلَ: الْمُرَادُ مِصْرُ ^(٢). قَالَه قَتَادَةُ ^(٣). وَقِيلَ: غَيْرَهَا ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أَيِ النَّبِيِّ رَافِقِنَاهَا: عَنِ صِدْقِنَا وَأَمَانَتِنَا وَحَفِظْنَا وَجِرَاسَتِنَا، وَإِنَّا صَدِيقُونَ ﴿فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ سَرَقَ وَأَخَذُوهُ بِسِرْقَتِهِ﴾ قَالَ بَلَّ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ^(٤) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَقْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ^(٥) قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوْنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَصًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ^(٦) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^(٧) [جَوَابُ نَبِيِّ اللَّهِ وَحَالَهُ بَعْدَ سَمَاعِ الْخَبَرِ الْمُؤَلَّمِ]

قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ لَهُمْ حِينَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِ يُوسُفَ بِدَمٍ كَذِبٍ: ﴿بَلَّ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا جَاءُوا يَعْقُوبَ وَأَخْبَرُوهُ بِمَا جَرَى، إِنْتَهَمَهُمْ فَظَنَّ أَنَّهَا كَوَعَلْتَهُمْ بِيُوسُفَ، قَالَ: ﴿بَلَّ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَمَّا كَانَ صَنِيعُهُمْ هَذَا مُرْتَبًا عَلَى فِعْلِهِمُ الْأَوَّلِ، سُجِبَ حُكْمُ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ، وَصَحَّ قَوْلُهُ: ﴿بَلَّ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ثُمَّ تَرَجَّى مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ: يُوسُفَ وَأَخَاهُ بَنِيَامِينَ وَرُؤَيْبِلَ ^(٨) الَّذِي أَقَامَ بِدِيَارِ مِصْرَ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ، إِمَّا أَنْ يَرْضَى عَنْهُ أَبُوهُ، فَيَأْمُرَهُ بِالرَّجُوعِ إِلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ خَفِيَّةً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أَيِ: الْعَلِيمُ بِحَالِي، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَفْعَالِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ

يَسْبِقَ أَذْهُوًّا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُقُومُ الْكَافِرُونَ ^(٩) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَحَسْنَا بِضُدَّةٍ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ^(١٠) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ^(١١) قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ لَأَنْتَ يَا يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَحِي قَدَمَتْ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ بَنِي وَيَصْرِفَاتِ اللَّهِ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ^(١٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ^(١٣) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ^(١٤) أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ^(١٥) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ^(١٦) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ^(١٧)

يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أَي: أَعْرَضَ عَنِ بَنِيهِ، وَقَالَ مُتَدَكِّرًا حُزْنَ يُوسُفَ الْقَدِيمِ الْأَوَّلِ ﴿يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْنَ الْإِبْتِنِ الْحُزْنَ الدَّيْنِ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَتَيْنَا الثَّوْرِيَّ عَنِ سُفْيَانَ الْعُصْفَرِيِّ، عَنِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَسْتِرْجَاعَ، أَلَّا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ^(١٥) أَي: سَابَتْ لَا يَشْكُو أَمْرَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ، قَالَه قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ ^(١٦). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كَتِيبٌ حَزِينٌ ^(١٧).

فَعِنْدَ ذَلِكَ رَقَّ لَهُ بَنُوهُ، وَقَالُوا لَهُ عَلَى سَبِيلِ الرَّفْقِ بِهِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِ: ﴿تَاللَّهِ تَقْتَوْنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ أَي: لَا تَفَارِقْ تَذَكَّرُ يُوسُفَ ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَصًا﴾ أَي: ضَعِيفٌ

(١) الطبري: ٢١٢/١٦، ٢١٢، (٢) الطبري: ٢١٠/١٦ (٣) الطبري: ٢١٢/١٦ (٤) الطبري: ٢١٤/١٦ (٥) عبد الرزاق: ٢٢٧/٢ (٦) الطبري: ٢١٦/١٦ (٧) الطبري: ٢١٨/١٦

وَهَذَا أَحَى قَدْ مَرَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا تَأْتِيكَ لَقَدْ
ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ لَا تَتْرِبْ
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٧﴾
[تَعْرِفُ يُوسُفَ إِلَى إِخْوَتِهِ وَعَفْوَهُ عَنْهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ
لَهُ إِخْوَتُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالضِّيقِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ
وَعُمُومِ الْجَدْبِ، وَتَذَكَّرَ أَبَاهُ وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ لِفَقْدِ
وَلَدَيْهِ، مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالسَّعَةِ، فَعِنْدَ
ذَلِكَ أَحَدَهُ رِقَّةً وَرَأْفَةً وَرَحْمَةً وَسَفَقَةً عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ،
وَبَدَّرَهُ الْبُكَاءَ فَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ
يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ بِعَنِي كَيْفَ فَرَّقُوا بَيْنَهُ
وَبَيْنَ أَخِيهِ ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أَي: إِنَّمَا حَمَلْتُمْ عَلَى هَذَا
الْجَهْلِ بِمُقَدَّارِ هَذَا الَّذِي ارْتَكَبْتُمُوهُ، وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -
أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِتَسْمِيهِ بِإِذْنِ اللَّهِ
تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْفَى مِنْهُمْ نَفْسَهُ فِي
الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ،
وَلَكِنْ لَمَّا ضَاقَ الْحَالُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ، فَرَجَّحَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
ذَلِكَ الضِّيقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦٥﴾ إِنَّ مَعَ
الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦٥،] فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ
يُوسُفَ﴾ وَقَرَأَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ: (أَو أَنْتَ يُوسُفَ) وَقَرَأَ ابْنُ
مُحَيِّصِينَ: (إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ) وَالْقِرَاءَةُ الْمَشْهُورَةُ هِيَ
الْأُولَى، لِأَنَّ الْإِسْتِفْهَامَ يَدُلُّ عَلَى الْإِسْتِعْظَامِ، أَي: إِنَّهُمْ
تَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَتِّينَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ لَا
يَعْرِفُونَهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَعْرِفُهُمْ وَيَكْتُمُ نَفْسَهُ، فَلِهَذَا قَالُوا
عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ: ﴿أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ
وَهَذَا أَحَى﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ مَرَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أَي: بِجَمْعِهِ بَيْنَنَا بَعْدَ
التَّفَرُّقِ وَبَعْدَ الْمُدَّةِ ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا تَأْتِيكَ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ
عَلَيْنَا... الآية، يَقُولُونَ مُعْتَرِفِينَ لَهُ بِالْفَضْلِ وَالْأَثَرَةِ
عَلَيْهِمْ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ وَالسَّعَةِ وَالْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ
وَالنَّبُوَّةِ أَيْضًا، وَأَقْرَبُوا لَهُ بِأَنَّهُمْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَأَخْطَأُوا فِي

الْقُوَّةِ ﴿أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يَقُولُونَ: إِنَّ اسْتَمْرَارَ بِكَ
هَذَا الْحَالِ خَشِينَا عَلَيْكَ الْهَلَاكَ وَالتَّلَفَ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا
بِقِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: أَجَابَهُمْ عَمَّا قَالُوا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا
أَشْكُوا بِقِي وَحُزْنِي﴾ أَي: هَمِّي وَمَا أَنَا فِيهِ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾
وَحَدَّهُ، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: أَرْجُو مِنْهُ كُلَّ
خَيْرٍ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِعَنِي
رُؤْيَا يُوسُفَ أَنَّهَا صِدْقٌ ^(١). وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَدُّ أَنْ يَظْهَرَهَا.

﴿يَسْتَبِي أَدْبَهُوا فَتَحَسَّبُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ
رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٦٧﴾
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَحَسْنَا
يُضَعِّعُ مُرْجِعَهُ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي
الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٦٨﴾

[الْأَمْرُ بِتَحْسُسِ يُوسُفَ وَأَخِيهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ نَدَبَ
بَيْنَهُ عَلَى الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ يَسْتَعْلِمُونَ أَخْبَارَ يُوسُفَ
وَأَخِيهِ بِنِيَامَيْنِ، وَالتَّجَسُّسُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ، وَالتَّجَسُّسُ
يَكُونُ فِي الشَّرِّ، وَنَهَضَهُمْ وَبَسَّرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَنَاسُوا
مِنْ رُوحِ اللَّهِ، أَي لَا يَقْطَعُوا رِجَاءَهُمْ وَأَمَلَهُمْ مِنَ اللَّهِ
فِيمَا يَرُومُونَهُ وَيَقْصِدُونَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَقْطَعُ الرِّجَاءَ وَلَا يَنَاسُ
مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.

[إِخْوَةُ يُوسُفَ بَيْنَ يَدَيْهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: فَذَهَبُوا فَدَخَلُوا
مِصْرَ، وَدَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا
الضَّرُّ﴾ يَعْنُونَ مِنَ الْجَدْبِ وَالْفَقْطِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ، ﴿وَحَسْنَا
يُضَعِّعُ مُرْجِعَهُ﴾ أَي: وَمَعْنَا ثَمَنُ الطَّعَامِ الَّذِي نَمْتَارُهُ،
وَهُوَ ثَمَنٌ قَلِيلٌ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ^(٢).

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أَي: أَعْطَيْنَا بِهَذَا
الثَّمَنِ الْقَلِيلِ مَا كُنْتَ تُعْطِينَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ:
(فَأَوْفِرْ رِكَابَنَا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) ^(٣). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:
﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بِرَدِّ أَحِينَا إِلَيْنَا ^(٤).

وَسُئِلَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: هَلْ حَرَمَتِ الصَّدَقَةُ عَلَى أَحَدٍ
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ: ﴿فَأَوْفٍ
لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ رَوَاهُ ابْنُ
جُرَيْجٍ ^(٥).

(١) الطبري: ٢٢٧/١٦ (٢) الطبري: ٢٣٨/١٦ (٣) الطبري:
٢٣٨/١٦ (٤) الطبري: ٢٤٣/١٦ (٥) الطبري: ٢٤٢/١٦

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ
جَاهِلُونَ﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ

حَقَّهُ ﴿قَالَ لَا تَأْتِبَ عَلَيَّكَ الْيَوْمَ﴾ يَقُولُ: أَيُّ لَا تَأْتِبَ عَلَيْكَ وَلَا عَتَبَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، وَلَا أُعِيدُ عَلَيْكَ دَنْبَكُمْ فِي حَقِّي بَعْدَ الْيَوْمِ، ثُمَّ زَادَهُمُ الدُّعَاءَ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ فَقَالَ: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَنْتُمْ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

[قَمِيصُ يُوسُفَ وَوَجْدَانُ يَعْقُوبَ رِيحَ يُوسُفَ]

يَقُولُ: إِذْهَبُوا بِهِذَا الْقَمِيصِ ﴿فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وَكَانَ قَدْ عَمِيَ مِنْ كَثْرَةِ الْبُكَاءِ، ﴿وَأَنْتُمْ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَيُّ: بِجَمِيعِ بَنِي يَعْقُوبَ، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أَيُّ: خَرَجَتْ مِنْ مِصْرَ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يَعْنِي يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ بَنِيهِ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ تَنْسُونِي إِلَى الْفَنْدِ وَالْكِبْرِ، رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ، قَالَ: لَمَّا خَرَجَتِ الْعِيرُ هَاجَتْ رِيحٌ، فَجَاءَتْ بِعُقُوبَ بِرِيحِ قَمِيصِ يُوسُفَ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ قَالَ: فَوَجَدَ رِيحَهُ مِنْ مَسِيرَةِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ^(١). وَكَذَا رَوَاهُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَسُعْبَةُ وَعَبْدُ اللَّهِ عَنْ أَبِي سَيَّانٍ بِهِ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: تُسْفَهُونَ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا وَالْحَسَنُ: تُهَرِّمُونَ^(٤). وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَفِي حَطِّكَ الْقَدِيمِ^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيُّ: مِنْ حُبِّ يُوسُفَ لَا تَنْسَاهُ وَلَا تَنْسَاهُ، قَالُوا لِوَالِدِهِمْ كَلِمَةً غَلِيظَةً لَمْ يَكُنْ يَبْغِي لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا لِوَالِدِهِمْ وَلَا لِبَنِي اللَّهِ ﷺ^(٦). وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ^(٧).

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْ نَسْتَغْفِرَ لَنَا دُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

[جَاءَ يَهُودًا بِالْقَمِيصِ بَشِيرًا]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالصَّحَّاحُ: ﴿الْبَشِيرُ﴾ الْبَرِيدُ^(٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: كَانَ يَهُودًا بَنِي يَعْقُوبَ^(٩). قَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّمَا جَاءَ بِهِ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِالْقَمِيصِ وَهُوَ مُلَطَّحٌ يَدَمُ كَذِبٍ، فَأَحَبُّ أَنْ يَغْسِلَ ذَلِكَ بِهِذَا، فَجَاءَ بِالْقَمِيصِ فَأَلْقَاهُ

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْ نَسْتَغْفِرَ لَنَا دُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُويَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُويَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُورًا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَّابِتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ فَدَجَّلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ فَرَجَعَ بَصِيرًا^(١). وَقَالَ لَبْنِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: أَعْلَمُ: أَنَّ اللَّهَ سَيَرُدُّهُ إِلَيَّ، وَقُلْتُ لَكُمْ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾.

[نَدَامَةٌ إِخْوَةَ يُوسُفَ]

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا لِأَبِيهِمْ مُتْرَفِينَ لَهُ: ﴿يَتَّبِعُنَا أَنْ نَسْتَغْفِرَ لَنَا دُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ أَيُّ: مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَإِبْرَاهِيمُ التَّمِيمِيُّ وَعَمْرُو بْنُ قَيْسٍ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ: أَرْجَأَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحْرِ^(١١). ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُويَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا

(١) عبد الرزاق: ٣٢٩/٢ (٢) الطبري: ٢٥٠/١٦ (٣) الطبري: ٢٥٣/١٦ (٤) الطبري: ٢٥٥/١٦ (٥) الطبري: ٢٥٧/١٦ (٦) الطبري: ٢٥٧/١٦ (٧) الطبري: ٢٥٧/١٦ (٨) الطبري: ٢٥٨/١٦ (٩) الطبري: ٢٥٨/١٦ (١٠) الطبري: ٢٥٩/١٦ (١١) الطبري: ٢٦٢/١٦

لِاسْأَفِيَّتِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعَ سَجَدَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟» فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِاسْأَفِيَّتِهِمْ، وَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يُسْجَدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»^(٦). وَالْعَرَضُ: أَنَّ هَذَا كَانَ جَائِزًا فِي شَرِيعَتِهِمْ، وَلِهَذَا خَرُّوا لَهُ سُجْدًا، فَعِنْدَهَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُبِّي مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أَي: هَذَا مَا آلَ إِلَيْهِ الْأُمْرُ، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْأُمْرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتِيهِمْ مَا وَعَدُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أَي: صَحِيحَةً صِدْقًا - يَذْكُرُ نِعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ - ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أَي: الْبَادِيَةِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُ: كَانُوا أَهْلَ بَادِيَةِ وَمَأَشِيَةِ^(٧). وَقَالَ: كَانُوا يَسْكُنُونَ بِالْعَرَبَاتِ مِنْ أَرْضِ فَلَسْطِينَ مِنْ غَوْرِ الشَّامِ، ﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أَي: إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قِيضَ لَهُ أَسْبَابًا وَقَدَرَهُ وَيَسَّرَهُ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَمَا يَخْتَارُهُ وَرُبِيدُهُ.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفِي مُسْلِمًا وَالْحَقْفَى بِالصَّلَاحِينَ^(٨)

[الدُّعَاءُ بِالْحَاخِمَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ]

هَذَا دُعَاءٌ مِنْ يُوسُفَ الصَّدِيقِ، دَعَا بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا تَمَّتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِاجْتِمَاعِهِ بِأَبُوهِ وَإِخْوَتِهِ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ النُّورَةِ وَالْمُلْكِ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَسْتَمِرَّ بِهَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَتَوَفَّاهُ مُسْلِمًا حِينَ يَتَوَفَّاهُ - قَالَهُ الضَّحَّاكُ - وَأَنْ يُلْحَقَهُ بِالصَّالِحِينَ، وَهُمْ إِخْوَانُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ^(٩). وَهَذَا الدُّعَاءُ يَحْتَمِلُ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَهُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي

مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ^(١٠) وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُبِّي مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ^(١١)

[اِسْتِقْبَالُ يُوسُفَ أَبُوهُ وَصِدْقُ رُؤْيَاةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ وُرُودِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقُدُومِهِ بِلَادَ مِصْرَ - لَمَّا كَانَ يُوسُفُ قَدْ تَقَدَّمَ لِإِخْوَتِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِأَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ، فَتَحَمَّلُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَتَرَحَّلُوا مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ قَاصِدِينَ بِلَادَ مِصْرَ - فَلَمَّا أَخْبَرَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاقْتِرَابِهِمْ، خَرَجَ لِتَلْقَائِهِمْ وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَمْرَاءَهُ وَأَكَابِرَ النَّاسِ بِالْخُرُوجِ مَعَ يُوسُفَ لِتَلْقَائِهِ نَبِيَّ اللَّهِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُقَالُ: إِنَّ الْمَلِكَ خَرَجَ أَيْضًا لِتَلْقَائِهِ، وَهُوَ الْأَشْبَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ أَي: قَالَ لَهُمْ بَعْدَ مَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَأَوَاهُمُ إِلَيْهِ: ادْخُلُوا مِصْرَ، وَصَمَّنَتْ: اسْكُنُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ، أَي: مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْفَقْطِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَاوَيْتَ إِلَيْهِ أَبُوي﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِنَّمَا كَانَ أَبَاهُ وَخَالَتَهُ^(١٢). وَكَانَتْ أُمُّهُ قَدْ مَاتَتْ قَدِيمًا^(١٣). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ: كَانَ أَبُوهُ وَأُمُّهُ يَعْيشَانِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَلَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَوْتِ أُمِّهِ، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى حَيَاتِهَا، وَهَذَا الَّذِي نَصَرَهُ هُوَ الْمَنْصُورُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ^(١٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعَ أَبُوي عَلَى الْعَرْشِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْني السَّرِيرَ، أَي: أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ^(١٥).

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ أَي: سَجَدَ لَهُ أَبُوَاهُ وَإِخْوَتُهُ الْبَاقُونَ. وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا، ﴿وَقَالَ يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُبِّي مِنْ قَبْلِ﴾ أَي: الَّتِي كَانَ قَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ مِنْ قَبْلِ، ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾... الْآيَةُ [يوسف: ٤]، وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِعًا فِي شَرَائِعِهِمْ إِذَا سَلَّمُوا عَلَى الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى شَرِيعَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَحَرَّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ، وَجُعِلَ السُّجُودُ مُخْتَصًّا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَذَا مَضْمُونُ قَوْلِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ^(١٦).

وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ مُعَاذًا قَدِمَ الشَّامَ فَوَجَدَهُمْ يَسْجُدُونَ

(١) الطبري: ٢٦٧/١٦ (٢) الطبري: ٢٦٩/١٦ (٣) الطبري:

٢٦٧/١٦ (٤) الطبري: ٢٦٧/١٦ (٥) الطبري: ٢٦٩/١٦

(٦) ابن ماجه: ٥٩٥/١ (٧) الطبري: ٢٧٦/١٦ (٨) الطبري:

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٤٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
 وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
 وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا
 وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ
 أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي
 أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَنَ

اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
 إِلَّا رَجُلًا لَّا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى
 إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
 نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
 ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
 حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
 وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾
 أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
 وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

[عَدَمُ تَفَكُّرِ النَّاسِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غَفْلَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ
 اللَّهِ وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 مِنْ كَوَاكِبِ زَاهِرَاتِ نَوَابِتِ، وَسَيَّارَاتِ وَأَفْلَاقِ دَائِرَاتِ،
 وَالْجَمِيعِ مُسَخَّرَاتِ. وَكَمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قِطْعِ
 مُتَجَاوِرَاتِ، وَحَدَائِقِ وَجَنَّاتِ، وَجِبَالِ رَاسِيَّاتِ، وَبِحَارِ
 زَاخِرَاتِ، وَأَمْوَاجِ مُتَلَطِّمَاتِ، وَقَفَارِ شَاسِعَاتِ. وَكَمْ مِنْ
 أَحْيَاءِ وَأَمْوَاتِ، وَحَيَوَانَاتِ وَنَبَاتِ. وَشَمَرَاتِ مُتَشَابِهَةٍ
 وَمُخْتَلِفَاتِ فِي الطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْأَلْوَانِ وَالصِّفَاتِ.
 فَسُبْحَانَ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، خَالِقِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ، الْمُتَمَرِّدِ
 بِالذَّوَامِ وَالْبَقَاءِ، وَالصَّمَدِيِّ لِلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَغَيْرِ

الصَّحِيحِينَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 جَعَلَ يَرْفَعُ أَصْبَعَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ
 الْأَعْلَى ثَلَاثًا^(١). وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ سَأَلَ الْوَفَاءَ عَلَى الْإِسْلَامِ
 وَاللِّحَاقَ بِالصَّالِحِينَ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ، وَانْقَضَى عُمُرُهُ.
 ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَلِيِّ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا
 أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ
 بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

[مَا سَبَقَ مِنَ الْقِصَصِ هُوَ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ نَبَأَ إِخْوَةِ يُوسُفَ،
 وَكَيْفَ رَفَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ لَهُ الْعَاقِبَةَ وَالنَّصْرَ وَالْمُلْكَ
 وَالْحُكْمَ، مَعَ مَا أَرَادُوا بِهِ مِنَ السُّوءِ وَالْهَلَاكِ وَالْإِعْدَامِ،
 هَذَا وَأَمثَالُهُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّابِقَةِ ﴿نُوحِيهِ
 إِلَيْكَ﴾ وَتَعَلَّمْتُ بِهِ يَا مُحَمَّدُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعِبَرَةِ لَكَ،
 وَالِاتِّعَاطِ لِمَنْ خَالَفَكَ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حَاضِرًا عِنْدَهُمْ
 وَلَا مُشَاهِدًا لَهُمْ ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أَي: عَلَى الْإِقَائِهِ فِي
 الْجُبِّ ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بِهِ، وَلَكِنَّا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ وَحْيًا إِلَيْكَ
 وَإِنزَالًا عَلَيْكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ
 أَقْلَامَهُمْ﴾... الْآيَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْقَرْيَةِ
 إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾... الْآيَةَ [القصص: ٤٤]، إِلَى
 قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾...
 [القصص: ٤٦] الْآيَةَ، وَقَالَ: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ
 مَدْيَنَ تَتَلَوُا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾... الْآيَةَ [القصص: ٤٥]، يَقُولُ
 تَعَالَى: إِنَّهُ رَسُولُهُ وَإِنَّهُ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَىٰ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ،
 مِمَّا فِيهِ عِبْرَةٌ لِلنَّاسِ وَنَجَاةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَمَعَ
 هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرَ النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ
 وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي
 الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨] إِلَىٰ غَيْرِ
 ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَي:
 مَا تَسْأَلُهُمْ يَا مُحَمَّدُ، عَلَىٰ هَذَا التُّضْحِ وَالِدُّعَاءِ إِلَىٰ الْخَيْرِ
 وَالرُّشْدِ، مِنْ أَجْرٍ، أَي: مِنْ جُعَالَةٍ وَلَا أُجْرَةٍ عَلَىٰ ذَلِكَ،
 بَلْ تَفَعَّلَهُ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ وَنُصْحًا لِخَلْقِهِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعَالَمِينَ﴾ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ، وَيَنْجُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

(١) فتح الباري: ٧/ ٧٤٣

ذَلِكَ.

نَاطِمُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا صُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٧٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُؤْمِنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿الأعراف: ٩٧-٩٩﴾.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

وَسَبِّحَنَ اللَّهَ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾﴾

[سَبِيلُ الرَّسُولِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، أَمْرًا لَهُ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ أَنَّ هَذِهِ سَبِيلُهُ أَيْ طَرِيقَتُهُ وَمَسَلَكُهُ وَسُنَّتُهُ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِهَا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَيَقِينُ وَبُرْهَانًا: هُوَ وَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَهُ يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينُ وَبُرْهَانًا عَقْلِيًّا وَشَرْعِيًّا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَبِّحَنَ اللَّهَ﴾ أَيْ: وَأَنْزَرَهُ اللَّهُ وَأَجَلَّهُ وَأَعْظَمَهُ وَأَقْدَسَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ، أَوْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ، تَبَارَكَ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ عُلُوًّا كَبِيرًا، ﴿سُبْحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

[الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا بَشَرًا وَرِجَالًا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رَسُولَهُ مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِي آدَمَ وَحْيًا تَشْرِيحًا. وَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَشْعَرِيُّ عَنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي النِّسَاءِ نَبِيَّةٌ، وَإِنَّمَا فِيهِنَّ صِدِّيقَاتٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَشْرَفِهِنَّ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَمَا يَكْتُلَانِ الطَّعَامُ﴾ [المائدة: ٧٥] فَوَصَّفَهَا فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهَا بِالصِّدِّيقِيَّةِ، فَلَوْ كَانَتْ نَبِيَّةً

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ إِيمَانِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالَ؟ قَالُوا: اللَّهُ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ^(١). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَعِكْرَمَةُ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمٍ^(٢). وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَّتِهِمْ: لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ^(٣). وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَعْظَمُ يُعْبَدُ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ»^(٤).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قَالَ: ذَلِكَ الْمُنَافِقُ يَعْمَلُ إِذَا عَمِلَ رِبَاءَ النَّاسِ، وَهُوَ مُشْرِكٌ بِعَمَلِهِ ذَلِكَ يَعْني قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَفَيِّضِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُفَّاءً كُفَّاءُ الْبِرِّ وَالنَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وَتَمَّ شِرْكُ آخِرُ حَقِيقِي لَا يَشْعُرُ بِهِ غَالِبًا فَاعِلُهُ، كَمَا رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: دَخَلَ حَدِيثَهُ عَلَى مَرِيضٍ فَرَأَى فِي عَضْدِهِ سِيرًا فَقَطَعَهُ - أَوْ انْتَزَعَهُ - ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾. وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عُمَرَ^(٥). وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالْتِمَائِمَ وَالتَّوَلَّةَ شِرْكٌ»^(٦). وَفِي لَفْظٍ لَهَا: «الطَّيْرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِثْلُهَا... وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ...﴾ الْآيَةِ، أَيُّ أَفَامِنُ هُوَ لِإِثْمِ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرٌ يَغْشَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٨) أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٩﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ

(١) الطبري: ٢٩٢/١٦ (٢) الطبري: ٢٩٢/١٦ (٣) مسلم: ٨٤٣/٢ (٤) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩٠/١ (٥) تحفة الأحوذني: ١٣٥/٥ (٦) أحمد: ٣٨١/١ وأبو داود: ٢١٢/٤ وابن ماجه: ١١٦٧/٢ (٧) أحمد: ٣٨٩/١ وأبو داود: ٢٣٠/٤

لَذِكْرٍ ذَلِكَ فِي مَقَامِ التَّشْرِيفِ وَالْإِعْظَامِ، فَهِيَ صِدْقَةٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

[الأنبياء من البشر لا من الملائكة]

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا...﴾ الآية، أَي: لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا قُلْتُمْ^(١). وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْتَصِدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِتْمَانًا لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ الآية [الفرقان: ٢٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَجْنَحْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ [الأنبياء: ٩٠، ٨]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ الْمُرَادُ بِالْقُرَى: الْمُدُنُ. لَا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي، الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَجْفَى النَّاسِ طِبَاعًا وَأَخْلَاقًا.

[العبرة فيمن سبق]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي الْأَرْضِ ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: مِنَ الْأُمَمِ الْمُكْذِبَةِ لِلرُّسُلِ، كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا؟ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا...﴾ الآية [الحج: ٤٦]، فَإِذَا اسْتَمَعُوا خَيْرَ ذَلِكَ رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلِيزَ كَانَتْ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَي: وَكَمَا نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ كَتَبْنَا لَهُمُ النَّجَاةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَهِيَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِزَتُهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر: ٥١، ٥٢] وَأَضَافَ الدَّارَ إِلَى الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ كَمَا يُقَالُ: صَلَاةُ الْأُولَى وَمَسْجِدُ الْجَامِعِ، وَعَامٌ [الأول]، وَبَارِحَةُ الْأُولَى، وَيَوْمُ الْحَمِيْسِ.

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَتُحْيِي مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْفَوَاحِشِ الْمُجْرِمِينَ﴾

[النصر مع الصبر وضيق الحال]

يَذُكِّرُ تَعَالَى أَنَّ نَصْرَهُ يُنَزَّلُ عَلَى رُسُلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ عِنْدَ ضَيْقِ الْحَالِ وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ مِنَ اللَّهِ، فِي أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرُزِّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ...﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿كُذِّبُوا﴾ قِرَاءَتَانِ: إِحْدَاهُمَا بِالتَّشْدِيدِ (قَدْ كُذِّبُوا) وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقْرَأُهَا: رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ قَالَ: قُلْتُ: أَلَكُذِّبُوا؟ أَمْ (كُذِّبُوا)؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: (كُذِّبُوا). قُلْتُ: فَكَيْدَ اسْتَيْسَسُوا أَنْ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ؟ قَالَتْ: أَجَلٌ، لَعَمْرِي لَقَدْ اسْتَيْسَسُوا بِذَلِكَ. فَقُلْتُ لَهَا: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قَالَتْ: مَعَادَ اللَّهِ، لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَنْظُرُ ذَلِكَ بِرَبِّهَا قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ؟ قَالَتْ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النَّصْرُ ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ^(٢). قَالَ عُرْوَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: لَعَلَّهَا ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ مُحَقَّقَةٌ؟ قَالَتْ: مَعَادَ اللَّهِ. إِنْتَهَى مَا ذَكَرَهُ^(٣).

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ؛ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَهَا: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ خَفِيفَةً. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ هُوَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ ثُمَّ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا بَشَرًا، ثُمَّ تَلَا ﴿حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ...﴾ الْآيَةَ إِنَّ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ [البقرة: ٢١٤] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَقَالَ لِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: وَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّهَا خَالَفَتْ ذَلِكَ وَأَبْتَهُ، وَقَالَتْ: مَا وَعَدَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ حَتَّى مَاتَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْبَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ مَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ كَذَّبُوهُمْ. قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ فِي حَدِيثِ عُرْوَةَ، كَانَتْ عَائِشَةُ تَقْرَأُهَا: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مُثَقَّلَةً مِنَ التَّكْذِيبِ^(٤).

وَالْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ بِالتَّخْفِيفِ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِهَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا تَقَدَّمَ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِيمَا رَوَاهُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ

(١) الدر المنثور: ٤/٥٩٥ الضحاك لم يدرك ابن عباس (٢) فتح الباري: ٨/٢١٧ (٣) فتح الباري: ٨/٢١٨ (٤) الطبري: ١٦/٣٠٧

وَلَطَّنُوا أَتَمُّ قَدْ كَذَبُوا ﴿١﴾ مُحَقَّفَةً، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هُوَ الَّذِي تَكَرَّرَ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَوَلَّطْنَا أَتَمُّ قَدْ كَذَبُوا﴾ قَالَ: لَمَّا آيَسَتِ الرُّسُلُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ وَظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوهُمْ، جَاءَهُمُ النَّصْرُ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿فَنَجَّيْنَا مِنَ النَّشَاءِ﴾.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي [حُرَّة] الْجَزْرِيِّ قَالَ: سَأَلَ فَتَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ هَذَا الْحَرْفُ، فَإِنِّي إِذَا أَتَيْتُ عَلَيْهِ تَمَيَّنْتُ أَنْ لَا أَقْرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَوَلَّطْنَا أَتَمُّ قَدْ كَذَبُوا﴾؟ قَالَ: نَعَمْ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ مِنْ قَوْمِهِمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُمْ، وَظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوا. فَقَالَ الضُّحَّاكُ بْنُ مَزَّاحِمٍ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ رَجُلًا يُدْعَىٰ إِلَىٰ عِلْمٍ فَيَتَلَكَّأُ لَوْ رَحَلْتُ إِلَىٰ الْيَمَنِ فِي هَذِهِ كَانَ قَلِيلًا. ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ أَنَّ مُسْلِمَ بْنَ يَسَارٍ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ ذَلِكَ، فَأَجَابَهُ بِهَذَا الْجَوَابِ، فَقَامَ إِلَىٰ سَعِيدٍ فَاعْتَفَقَهُ وَقَالَ: فَارْحَمْكَ اللَّهُ عَنكَ كَمَا فَارَحَتْ عَنِّي ^(١). وَهَكَذَا رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ فَسَّرَهَا كَذَلِكَ، وَكَذَا فَسَّرَهَا مُجَاهِدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ مَنْ فَسَّرَهَا كَذَلِكَ يُعِيدُ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَطَّنُوا أَتَمُّ قَدْ كَذَبُوا﴾ إِلَىٰ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعِيدُهُ إِلَىٰ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ، أَيْ وَظَنَّ الْكُفَّارُ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوا مُحَقَّفَةً فِيمَا وَعَدُوا بِهِ مِنَ النَّصْرِ. وَأَمَّا ابْنُ مَسْعُودٍ، فَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ تميمِ بْنِ حَذَلَمٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ، وَظَنَّ قَوْمُهُمْ حِينَ أَبْطَأَ الْأَمْرُ: أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا بِالتَّخْفِيفِ ^(٢).

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

تفسير سورة الرعد وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّعْدَ تِلْكَ آيَاتُ الْكُتُبِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

[الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ]

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَقَدَّمْنَا أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ ابْتَدَأَتْ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ فَيَبْهَرُ الْإِنْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَيَبِينُ أَنَّ نَزُولَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ وَلَا رَيْبَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكُتُبِ﴾ أَي هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ عَطْفَ صِفَاتٍ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أَي يَا مُحَمَّدُ ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ خَيْرٌ تَقَدَّمَ مُبْتَدَأُهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ

[الْعِبْرَةُ لِمَنْ اعْتَبَرَ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَقَدْ كَانَ فِي خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ مَعَ قَوْمِهِمْ، وَكَيْفَ نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْكَافِرِينَ ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وَهِيَ الْعُقُولُ، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ أَي وَمَا كَانَ لِهَذَا الْقُرْآنِ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَيْ يُكذَّبُ وَيُخْتَلَقُ ﴿وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَي: مِنْ الْكُتُبِ

(١) الطبري: ٣٠٣/١٦ (٢) الطبري: ٣٠٤/١٦

(٣) الطبري: ٣٢٤/١٦ (٤) الطبري: ٣٢٤/١٦ (٥) الطبري:

النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣] أَي مَعَ هَذَا
الْبَيَانِ وَالْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ، لِمَا فِيهِمْ مِنَ
الشَّقَاقِ وَالْعِنَادِ وَالنَّفَاقِ .

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ لَعَلَّكُمْ يَلْقَآءَ رَبِّكُمْ تَوْفِيقُونَ ﴿١٠٢﴾﴾
[بَيَانُ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ أَنَّهُ
الَّذِي يَأْذِنُهُ وَأَمْرُهُ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، بَلْ يَأْذِنُهُ
وَأَمْرُهُ وَسَخِيرَهُ رَفَعَهَا عَنِ الْأَرْضِ بُعْدًا لَا تَبَالُ وَلَا يُدْرِكُ
مَدَاهَا، فَالسَّمَاءُ الدُّنْيَا مُحِيطَةٌ بِجَمِيعِ الْأَرْضِ وَمَا حَوْلَهَا
مِنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ مِنْ جَمِيعِ نَوَاجِحِهَا وَجِهَاتِهَا وَأَرْجَائِهَا،
مُرْتَفَعَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلَى السَّوَاءِ، وَبُعْدٌ مَا بَيْنَهَا
وَبَيْنَ الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةَ عَامٍ،
وَسَمَكُهَا فِي نَفْسِهَا مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةَ عَامٍ. ثُمَّ السَّمَاءُ
الثَّانِيَةُ مُحِيطَةٌ بِالسَّمَاءِ الدُّنْيَا وَمَا حَوْلَتْ، وَبَيْنَهُمَا مِنْ بُعْدِ
الْمَسِيرِ خَمْسِمِائَةَ عَامٍ، وَسَمَكُهَا خَمْسِمِائَةَ عَامٍ. وَهَكَذَا
السَّمَاءُ الثَّلَاثَةُ وَالرَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ وَالسَّابِعَةُ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ
مِثْلَهُنَّ﴾ [الْآيَةُ [الطَّلَاقُ: ١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ
وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَهَا عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا
تُرَى ^(١). وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُعَاوِيَةَ: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ
الْقُبَّةِ، يَعْنِي بِلَا عَمَدٍ ^(٢). وَكَذَا رُوِيَ عَنِ قَتَادَةَ، وَهَذَا هُوَ
اللَّائِقُ بِالسَّبَاقِ ^(٣) وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُمَسِّكُ
السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] فَعَلَى
هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تَأْكِيدًا لِنَقْيِ ذَلِكَ، أَي هِيَ
مَرْفُوعَةٌ بِغَيْرِ عَمَدٍ كَمَا تَرَوْنَهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي
الْقُدْرَةِ.

[الْأَسْتَوَاءُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي
سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَأَنَّهُ يُمَرُّ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ
وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَمْثِيلٍ، تَعَالَى اللَّهُ عُلُوًّا كَبِيرًا.

[تَسْخِيرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَجَرِيَانَهُمَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾
قِيلَ: الْمُرَادُ: أَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ إِلَى انْقِطَاعِهِمَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ،

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَآءَ
رَبِّكُمْ تَوْفِيقُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ الْأَرْضَ
الْيَوْمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ
قِطْعٌ مَّتَّجِرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَّرَعَ وَنَحِيلٌ صُنُونًا
وَغَيْرُ صُنُونٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾
﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِنَا خَلْقٌ
جَدِيدٌ أَوْلِيَّتِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوْلِيَّتِكَ الْأَعْمَلُ
فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨]
وَقِيلَ: الْمُرَادُ إِلَى مُسْتَقَرِّهِمَا وَهُوَ تَحْتَ الْعَرْشِ مِمَّا
يَلِي بَطْنَ الْأَرْضِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ، فَإِنَّهُمَا وَسَائِرُ
الْكَوَاكِبِ إِذَا وَصَلُوا هُنَاكَ يَكُونُونَ أَعْدَدٌ مَا يَكُونُ عَنِ
الْعَرْشِ، لِأَنَّهُ عَلَى الصَّحِيحِ - الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ -
قُبَّةٌ مِمَّا يَلِي الْعَالَمَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَيْسَ بِمُحِيطٍ كَسَائِرِ
الْأَفْلَاقِ، لِأَنَّ لَهُ قَوَائِمَ وَحَمَلَةً يَحْمِلُونَهُ، وَلَا يَتَّصِرُ
هَذَا فِي الْفُلْكِ الْمُسْتَدِيرِ، وَهَذَا وَاضِحٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ مَا
وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، وَ اللَّهُ الْحَمْدُ
وَالْمِنَّةُ.

وَذَكَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِأَنَّهُمَا أَظْهَرُ الْكَوَاكِبِ السَّارَّةِ
السَّبْعَةِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنَ الثَّوَابِتِ، فَإِذَا كَانَ قَدْ
سَخَّرَ هَذِهِ، فَلَأَنْ يَدْخُلَ فِي السَّخِيرِ سَائِرُ الْكَوَاكِبِ
بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى، كَمَا نَبَّهَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا
تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ
كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ مَعَ أَنَّهُ صَرَّحَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

﴿وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْحَرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْإِئْتِنَانُ﴾
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴿[الأعراف: ٥٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿يُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أَي يُوَضِّحُ الْآيَاتِ
وَالدَّلَالَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلْقَ
إِذَا شَاءَ كَمَا بَدَأَهُ.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَّجِرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَبِ
وَزَرْعٌ وَيَحْيَى صِنُونًا وَغَيْرَ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا
عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

[آيات الله في الأرض]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْعَالَمَ الْعُلُوبِيَّ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ قُدْرَتِهِ
وِحِكْمَتِهِ وَإِحْكَامِهِ لِلْعَالَمِ السُّفْلِيِّ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ
الْأَرْضَ﴾ أَي جَعَلَهَا مُتَّسِعَةً مُتَمَدَّةً فِي الطُّولِ - وَالْعَرْضِ،
وَأَرْسَاهَا بِجِبَالٍ رَاسِيَاتٍ شَامِخَاتٍ، وَأَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارَ
وَالْجُدَاوِلَ وَالْعَيُونَ، لِيَسْقِيَ مَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الثَّمَرَاتِ
الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ مِنْ كُلِّ
زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أَي مِنْ كُلِّ شَكْلِ صِنْفَانِ ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ
النَّهَارَ﴾ أَي جَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا، فَإِذَا
ذَهَبَ هَذَا غَشِيَ هَذَا، وَإِذَا انْقَضَى هَذَا جَاءَ الْآخَرُ،
فَيَتَصَرَّفُ أَيْضًا فِي الزَّمَانِ كَمَا يَتَصَرَّفُ فِي الْمَكَانِ
وَالسَّكَّانِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَي فِي آيَةِ
اللَّهِ وَحِكْمِهِ وَدَلَالَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَّجِرَاتٌ﴾ أَي أَرْضٌ يُجَاوِرُ
بَعْضُهَا بَعْضًا، مَعَ أَنَّ هَذِهِ طَبِئَةً تَنْبُتُ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَهَذِهِ
سَبِيحَةٌ مَالِحَةٌ لَا تَنْبُتُ شَيْئًا، هَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ^(١).

وَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اخْتِلَافُ الْأَوَانِ بِقَاعِ الْأَرْضِ: فَهَذِهِ
تُرْبَةٌ حَمْرَاءُ، وَهَذِهِ بَيْضَاءُ، وَهَذِهِ صَفْرَاءُ، وَهَذِهِ سُودَاءُ،
وَهَذِهِ مُسْجِرَةٌ، وَهَذِهِ سَهْلَةٌ، وَهَذِهِ مُرْمَلَةٌ، وَهَذِهِ سَمِيكَةٌ،
وَهَذِهِ رَقِيقَةٌ، وَالْكُلُّ مُتَّجَاوِرَاتٌ، فَهَذِهِ بِصِفَتِهَا، وَهَذِهِ
بِصِفَتِهَا الْآخَرَى، فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَبِ
وَزَرْعٌ وَيَحْيَى﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً عَلَى جَنَاتٍ، فَيَكُونُ
﴿وَزَرْعٌ وَيَحْيَى﴾ مَرْفُوعَيْنِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى

أَغْنَابٍ، فَيَكُونُ مَجْرُورًا. وَلِهَذَا قَرَأَ بِكُلِّ مِنْهُمَا طَائِفَةً مِنَ
الْأَيْمَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿صِنُونًا وَغَيْرَ صِنُونٍ﴾ الصَّنُونُ: هِيَ الْأُصُولُ
الْمُجْتَمِعَةُ فِي مَنَبَتٍ وَاحِدٍ، كَالرُّمَّانِ وَالتَّنِينِ، وَبَعْضُ
النَّخِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَغَيْرَ الصَّنُونِ: مَا كَانَ عَلَى أَصْلِ
وَاحِدٍ، كَسَائِرِ الْأَشْجَارِ، وَمِنْهُ: سُمِّيَ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُونًا
أَبِيهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ:
«أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُونٌ أَبِيهِ»^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي
الْأَكْلِ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
﴿يُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ قَالَ: «الدَّقْلُ،
وَالْفَارِسِيُّ، وَالْحَلُوقُ، وَالْحَمَاضُ»^(٣). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ
وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، أَي هَذَا الْاِخْتِلَافُ فِي أَجْناسِ
الثَّمَرَاتِ وَالزَّرُوعِ فِي أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا، وَطُعُومِهَا
وَرَوَائِحِهَا، وَأَوْرَاقِهَا وَأَزْهَارِهَا، فَهَذَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ،
وَهَذَا فِي غَايَةِ الْحُمُوضَةِ، وَذَا فِي غَايَةِ الْمَرَارَةِ، وَذَا
عَفِصٌ، وَهَذَا عَذْبٌ، وَهَذَا جَمَعَ هَذَا وَهَذَا، ثُمَّ يَسْتَحِيلُ
إِلَى طَعْمٍ آخَرَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا أَصْفَرٌ، وَهَذَا أَحْمَرٌ،
وَهَذَا أَبْيَضٌ، وَهَذَا أَسْوَدٌ، وَهَذَا أَزْرَقٌ، وَكَذَلِكَ
الرُّهُورَاتُ مَعَ أَنَّهَا كُلُّهَا تُسَمَّدُ مِنْ طَبِئَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ
الْمَاءُ، مَعَ الْاِخْتِلَافِ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا يَنْحَصِرُ وَلَا يَنْضَبُطُ،
فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَالَاتِ
عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ فَآوَتْ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ،
وَخَلَقَهَا عَلَى مَا يُرِيدُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيَّذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَنَحْنُ خَلْقُ
جَدِيدٍ أَوْلِيكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوْلِيكَ الْآغْلَابُ فِي
أَعْتَابِهِمْ وَأَوْلِيكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٥﴾

[إِنْكَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ عَجِيبٌ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَإِن تَعَجَبَ﴾ مِنْ
تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالْمَعَادِ، مَعَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَدَلَالِيهِ فِي خَلْقِهِ عَلَى أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا
يَشَاءُ، وَمَعَ مَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ فَكَوْنُهَا

١/٦ ٣٢٥ (١) الطبري: ٣٣١-٣٣٣ (٢) مسلم: ٢/٦
٦٧٧ (٣) تحفة الأحادي: ٥٤٤/٨

الْبُرْجَانِ الْكَبِيرِ

٢٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْأَمْثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْتَاذُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمَتَعَالِ ﴿٩﴾ سِوَاءَ مَنْكُمْ مَنْ أَسْرَعَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مَعْقِبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرَ أَمْرَهُمَا يَا نَفْسِمُ وَإِذْ أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْخِرُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةَ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

الآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أَيُّ إِنَّهُ تَعَالَى ذُو عَفْوٍ وَصَفْحٍ وَسَرِّ لِلنَّاسِ مَعَ أَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ وَيُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ثُمَّ قَرَنَ هَذَا الْحُكْمَ بِأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، لِيَعْتَدِلَ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٧] وَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وَقَالَ: ﴿تَبَتَّ عِبَادِي اتَّقِ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عِدَائِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَجْمَعُ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ

مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿٧﴾

[طَلَبَ الْمُشْرِكِينَ الْآيَةَ وَالرَّدَّ عَلَيْهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا: لَوْلَا يَا نَبِيَّ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّهِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ، كَمَا تَعَتَّبُوا عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُرِيحَ عَنْهُمْ

بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ هَذَا يُكْذِبُونَ خَبْرَهُ فِي أَنَّهُ سَبْعِيدُ الْعَالَمِ خَلْقًا جَدِيدًا، وَقَدْ اعْتَرَفُوا وَشَاهَدُوا مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا كَذَّبُوا بِهِ، فَأَلْعَجِبُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَوَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ عَالِمٍ وَعَاقِلٍ أَنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، وَأَنَّ مَنْ بَدَأَ الْخَلْقَ فَالْإِعَادَةُ عَلَيْهِ أَهْضَلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِمَنْدَرٍ عَلَى أَنْ يُجِئِيَ الْمَوْتَ بِلَيْلٍ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] ثُمَّ نَعَتْ الْمُكْذِبِينَ بِهَذَا فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْتَلُ فَاعْتَابِهِمْ﴾ أَيُّ يُسْحَبُونَ بِهَا فِي النَّارِ ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيُّ مَا كَانُوا فِيهَا أَبَدًا لَا يَحُولُونَ عَنْهَا وَلَا يَزُولُونَ.

﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْأَمْثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٦﴾

[إِسْتِعْجَالِ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ﴾ أَيُّ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ أَيُّ بِالْعُقُوبَةِ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿١﴾ لَوْ مَا تَأْتِنَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٧٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ... الْآيَاتِينَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وَقَالَ: ﴿وَسَتَعْلَمُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِقُونَ مِمَّا وُعِدُوا أَنَّهُمْ أَلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنَا﴾ ... الْآيَةَ [ص: ١٦]، أَيُّ عِقَابِنَا وَحِسَابِنَا، كَمَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ ... الْآيَةَ، [الأنفال: ٣٢] فَكَانُوا مِنْ شِدَّةِ تَكْلِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ يَطْلُبُونَ [مِنَ الرَّسُولِ] أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْأَمْثَلُ﴾ أَيُّ قَدْ أَوْفَعْنَا بِقَمْنَا بِالْأَمَمِ الْخَالِيَةِ، وَجَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً وَعِظَةً لِمَنْ اتَّعَظَ بِهِمْ:

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْلَا جُلْمُهُ وَعَفْوُهُ لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ

أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ
مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ^(٥). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:
﴿وَمَا تَعْبِضُ الْأَرْحَامُ﴾ يَعْنِي السَّقَطُ، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يَقُولُ: مَا
زَادَتْ الرَّحِمُ فِي الْحَمْلِ عَلَى مَا غَاضَتْ حَتَّى وَلَدَتْهُ تَمَامًا،
وَذَلِكَ أَنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَحْوِلُ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ، وَمَنْ تَحْوِلُ تِسْعَةَ
أَشْهُرٍ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَزِيدُ فِي الْحَمْلِ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَنْقُصُ، فَذَلِكَ
الْغَيْضُ وَالزِّيَادَةُ، الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلُّ ذَلِكَ يَعْلَمُهُ
تَعَالَى^(٦).

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أَيُّ بِأَجَلٍ،
حَفِظَ أَرْزَاقَ خَلْقِهِ وَأَجَالَهُمْ، وَجَعَلَ لِدَلِكِ أَجَلًا مَعْلُومًا.
وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بَعَثَتْ إِلَيْهِ
أَنَّ ابْنَاتَهَا فِي الْمَوْتِ، وَأَنَّهَا تُحِبُّ أَنْ يَحْضُرَهُ. فَبَعَثَتْ
إِلَيْهَا يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَحَدٌ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ
عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرُوهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»^(٧).
الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿عَلِمَ الْعَلِيمُ وَالشَّهِيدُ﴾ أَيُّ
يَعْلَمُ كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا يُشَاهِدُهُ الْعِبَادُ وَمِمَّا يَغِيبُ عَنْهُمْ، وَلَا
يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ ﴿الْكَبِيرُ﴾ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ، ﴿الْمُعْتَالُ﴾ أَيُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴿فَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وَفَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ، فَخَضَعَتْ لَهُ الرَّقَابُ
وَدَانَ لَهُ الْعِبَادُ طَوْعًا وَكَرْهًا.

﴿سَوَاءٌ يَنْكُرُ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ
مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [١٦] لَهُ مَعْقِدَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ
حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ
وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ [١٧]

[عَلِمَ اللَّهُ مَحِيطٌ بِكُلِّ ظَاهِرٍ وَخَفِيٍّ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ سَوَاءٌ
مِنْهُمْ مَنْ أَسَرَ قَوْلَهُ أَوْ جَهَرَ بِهِ، فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ
شَيْءٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِّرَ وَالْخَفِيَّ﴾
[طه: ٧] وَقَالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]
قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سُبْحَانَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ
الْأَصْوَاتَ، وَاللَّهُ! لَقَدْ جَاءَتِ الْمَجَادِلَةُ تُسْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى

الْجِبَالِ، وَيَجْعَلُ مَكَانَهَا مُرُوجًا وَأَنْهَارًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا
مَعْنَى أَنْ تُرْسِلَ بِالْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلِيَاءُ﴾... الآية
[الإسراء: ٥٩]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾. أَيُّ إِنَّمَا
عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ اللَّهِ الَّتِي أَمَرَكَ بِهَا، وَ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ
هُدْيُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ: أَيُّ لِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ^(١). كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا
خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ^(٢).

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [٨] عَلَيْهِ الْعَلِيمُ وَالشَّهِيدُ الْكَبِيرُ
الْمُعْتَالُ [٩]

[عَالِمُ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ،
وَأَنَّهُ مَحِيطٌ بِمَا تَحْمِلُهُ الْحَوَامِلُ مِنْ كُلِّ إِنَاثِ الْحَيَوَانَاتِ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أَيُّ مَا حَمَلَتْ مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، أَوْ حَسَنِ أَوْ قَبِيحٍ، أَوْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، أَوْ
طَوِيلِ الْعُمُرِ أَوْ قَصِيرِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ
أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾... الآية [النجم: ٣٢]،
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ
فِي ظُلُمَاتٍ لَدُنَّ﴾ [الزمر: ٦] أَيُّ خَلَقَكُمْ طَوْرًا مِنْ بَعْدِ
طَوْرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ
طِينٍ﴾ [٧] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [٨] ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفُوسَ
عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكُنُوسًا
الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ
الْخَالِقِينَ [المؤمنون: ١٢-١٤] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ

مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ
فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ
يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ
كَلِمَاتٍ، يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَعُمُرَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيًّا أَوْ
سَعِيدًا»^(٣). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «فَيَقُولُ الْمَلَكُ: أَيُّ رَبِّ
أَذَكَرَ أَمْ أُنْثَى؟ أَيُّ رَبِّ أَسْقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا
الْأَجَلُ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ»^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ
عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ
خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي عَدِيٍّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا
يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ،

(١) الطبري: ٣٥٧/١٦ (٢) الطبري: ٣٥٦/١٦ (٣) فتح
الباري: ٤٨٦/١١ (٤) مسلم: ٢٠٣٦/٤ (٥) فتح الباري: ١١/١١
٤٨٦ (٦) مسلم: ٢٠٣٨/٤ (٧) فتح الباري: ٢٢٥/٨ (٨)
الطبري: ٣٥٩/١٦ (٩) العوفي ضعيف (٧) فتح الباري: ٥٠٢/١١

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا فِي جَنْبِ الْبَيْتِ، وَإِنَّهُ لِيُحْفَى عَلَيَّ
بَعْضُ كَلَامِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي
زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ﴾^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ أَيْ مُخْتَفٍ
فِي قَعْرِ بَيْتِهِ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أَيْ ظَاهِرٌ
مَا شِ فِي بَيَاضِ النَّهَارِ وَضِيَائِهِ، فَإِنَّ كِلَيْهِمَا فِي عِلْمِ اللَّهِ
عَلَى السَّوَاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا جِنَّ يَسْتَشُونُ
نِيَابَهُمْ﴾... [الآية هود: ٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي
شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا
عَلَيْكُمْ شُهودًا إِذْ تُبَيِّضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ
ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

[الْمَلَائِكَةُ الْحَفِظَةُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ﴾ أَيْ لِلْعَبْدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَقَّبُونَ عَلَيْهِ، حَرَسَ بِاللَّيْلِ
وَحَرَسَ بِالنَّهَارِ، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْحَادِثَاتِ، كَمَا
يَتَعَقَّبُ مَلَائِكَةُ آخَرُونَ لِحِفْظِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ،
مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ، فَائْتَانَ عَنِ الْبَيْمِينِ وَالشَّمَالِ
يَكْتَبَانِ الْأَعْمَالَ: صَاحِبُ الْبَيْمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ،
وَصَاحِبُ الشَّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ. وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ
وَيَحْرُسَانِهِ، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِهِ وَآخَرٌ مِنْ قُدَامِهِ. فَهُوَ بَيْنَ
أَرْبَعَةِ أَمْلاكٍ بِالنَّهَارِ، وَأَرْبَعَةِ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ - بَدَلًا -
حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «يَتَعَقَّبُونَ فِيكُمْ
مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ
الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَضَعُدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ
فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ:
أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينُهُ
مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ» قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
قَالَ: «وَإِيَّايَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا
بِخَيْرٍ»^(٣). إِنَّفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٤). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ
عَنْ إِبرَاهِيمَ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي
إِسْرَائِيلَ: أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ قَرِيْبَةٍ وَلَا أَهْلِ
بَيْتٍ يَكُونُونَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَيَتَحَوَّلُونَ مِنْهَا إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ،
إِلَّا حَوْلَ اللَّهِ عَنْهُمْ مَا يُجِبُّونَ إِلَى مَا يَكْرَهُونَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ

تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُعِزُّ مَا يَقُومُ حَتَّى
يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ
الْقِثَالَ﴾^(٥) وَيَسْجِعُ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَكِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ
الْصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٦)

[السَّحَابُ وَالْبُرْقُ وَالرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ]
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ الْبُرْقَ، وَهُوَ مَا يَرَى مِنْ
النُّورِ اللَّامِعِ سَاطِعًا مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ
أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَتَبَ إِلَى أَبِي الْجَلْدِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْبُرْقِ، فَقَالَ:
الْبُرْقُ أَلْمَاءٌ^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: خَوْفًا
لِلْمَسَافِرِ يَخَافُ أَذَاهُ وَمَسَقَّتُهُ، وَطَمَعًا لِلْمَقِيمِ يَرْجُو بَرَكَتَهُ
وَمَنْفَعَتَهُ، وَيَطْمَعُ فِي رِزْقِ اللَّهِ، ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الْقِثَالَ﴾
أَيْ وَيَخْلُقُهَا مُنْشَأَةً جَدِيدَةً، وَهِيَ لِكَثْرَةِ مَا نَهَا ثَقِيلَةٌ قَرِيبَةٌ
إِلَى الْأَرْضِ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿السَّحَابُ الْقِثَالُ﴾ الَّذِي فِيهِ
الْمَاءُ^(٦). قَالَ: ﴿وَيَسْجِعُ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ
شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ إِبرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ: أَخْبَرَنِي
أَبِي، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا إِلَى جَنْبِ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
فِي الْمَسْجِدِ، فَمَرَّ شَيْخٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ حُمَيْدٌ،
فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! وَسِعَ [لَهُ] فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ،
فَإِنَّهُ قَدْ صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ فِيمَا بَيْنِي
وَبَيْنَهُ، فَقَالَ لَهُ حُمَيْدٌ: مَا الْحَدِيثُ الَّذِي حَدَّثْتَنِي عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: سَمِعْتُ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي
غِفَارٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ السَّحَابَ
فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النَّطْقِ، وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ»^(٧).
وَالْمُرَادُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ نَطَقَهَا الرَّعْدُ وَضَحِكَهَا الْبُرْقُ.
وَقَالَ مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبرَاهِيمَ قَالَ: يَبْعَثُ اللَّهُ
الْعَيْتَ فَلَا أَحْسَنَ مِنْهُ مَضْحَكًا، وَلَا أَنْسَ مِنْهُ مَنْطِقًا،
فَضَحِكُهُ الْبُرْقُ، وَمَنْطِقُهُ الرَّعْدُ.

[الدُّعَاءُ عِنْدَ الرَّعْدِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ

(١) البخاري: ٧٣٨٥ والنسائي في الكبرى: ١١٥٧٠ وابن ماجه: ١٨٨ والطبري: ٥/٢٨ (٢) فتح الباري: ٤٢٦/١٣ (٣) أحمد: ٤٠١/١ (٤) مسلم: ٢٨١٤ (٥) الطبري: ٣٨٧/١٦ (٦) الطبري: ٣٨٨/١٦ (٧) أحمد: ٤٣٥/٥

لَهُ دَعْوَةٌ لُغْوِيٌّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبْسَطُ كَيْبِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَلْبِغُهُ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ
 إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
 وَكَرْهًا وَظَلَمْنَا لَهُمُ الْبُغْدَ وَالْأَصَالَ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ
 فَنَعَا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
 الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُهُ الْخَلْقُ
 عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
 وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ
 يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا
 يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
 لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ
 لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ
 أَوْلِيَّكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ اللَّهُ
 لِيَأْتِيَكَ بِهَا

عَنْهُمَا، فَلَمَّا خَرَجَ عَامِرٌ وَأَزْبَدُ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى
 إِذَا كَانَا بِالْحَرَّةِ - حَرَّةٌ وَاقِمٌ - نَزَلَا، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا سَعْدُ بْنُ
 مُعَاذٍ وَأَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَقَالَا: إِشْحَصَا يَا عَدُوِّي اللَّهُ
 لَعَنَكُمَا اللَّهُ، فَقَالَ عَامِرٌ: مَنْ هَذَا يَا سَعْدُ؟ قَالَ: هَذَا أَسِيدُ
 ابْنُ حُضَيْرٍ الْكُتَّابِ، فَخَرَجَا حَتَّى إِذَا كَانَا بِالرَّقَمِ، أَرْسَلَ
 اللَّهُ عَلَى أَرْبَدٍ صَاعِقَةً فَفَتَلَتْهُ، وَخَرَجَ عَامِرٌ حَتَّى إِذَا كَانَ
 بِالْخَرِيمِ أَرْسَلَ اللَّهُ فُرْحَةَ فَأَخَذَتْهُ، فَأَذْرَكَ اللَّيْلُ فِي بَيْتِ
 امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي سُلُولٍ، فَجَعَلَ يَمَسُّ قَرْحَتَهُ فِي حَلْقِهِ وَيَقُولُ:
 غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْجَمَلِ فِي بَيْتِ سُلُولِيَّةٍ، تَرَعَّبُ أَنْ يَمُوتَ فِي
 بَيْتِهَا، ثُمَّ رَكِبَ فَرَسَهُ فَأَحْضَرَهُ حَتَّى مَاتَ عَلَيْهِ رَاجِعًا،
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمَا ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ - إِلَى قَوْلِهِ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ وَالصَّوَاعِقَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا
 تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ» (١).
 وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ، وَالنَّسَائِيُّ فِي
 الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَالحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٢). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 الزُّبَيْرِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ وَقَالَ: سُبْحَانَ
 الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيَقُولُ:
 إِنَّ هَذَا لَوْعِيدٌ شَدِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ. رَوَاهُ مَالِكٌ فِي
 الْمُوطَأِ، وَالبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ (٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 قَالَ: «قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ: لَوْ أَنَّ عِبِيدِي أَطَاعُونِي
 لَأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطْرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ،
 وَلَمَّا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ» (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُرْسِلُ
 الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي يُرْسِلُهَا نِقْمَةً يَنْتَقِمُ بِهَا
 مِمَّنْ يَشَاءُ، وَلِهَذَا تَكَثَّرَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ
 أَرْبَدَ ابْنَ قَيْسِ بْنِ جَزْءِ بْنِ جَلِيدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ كِلَابٍ،
 وَعَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ بْنِ مَالِكٍ، قَدِمَا الْمَدِينَةَ عَلَى رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ، فَأَتَتْهَا إِلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ فَجَلَسَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ
 عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ: يَا مُحَمَّدُ! مَا تَجْعَلُ لِي إِنْ أَسْلَمْتُ؟
 فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْكَ مَا
 عَلَيْهِمْ». قَالَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ: أَتَجْعَلُ لِي الْأَمْرَ إِنْ
 أَسْلَمْتُ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ
 وَلَا لِقَوْمِكَ، وَلَكِنْ لَكَ أَعْنَةُ الْحَيْلِ» قَالَ: أَنَا الْآنَ فِي
 أَعْنَةِ حَيْلٍ تَجِدُ، إِجْعَلْ لِي الْوَبْرَ وَلَكَ الْمُدْرَ. قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: «لَا». فَلَمَّا فَقَلَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَامِرٌ: أَمَا وَاللَّهِ
 لَأَمْلَأُهَا عَلَيْكَ خَيْلًا وَرِجَالًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
 «يَمْنَعُكَ اللَّهُ»: فَلَمَّا خَرَجَ أَرْبَدُ وَعَامِرٌ، قَالَ عَامِرٌ: يَا
 أَرْبَدُ، أَنَا أَشْغَلُ عَنْكَ مُحَمَّدًا بِالْحَدِيثِ فَاضْرِبْهُ بِالسَّيْفِ،
 فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا قَتَلَتْ مُحَمَّدًا لَمْ يَزِيدُوا عَلَيَّ أَنْ يَرْضُوا
 بِاللَّيَّةِ وَيَكْرَهُوا الْحَرْبَ، فَتُعْطِيهِمُ الدِّيَةَ. قَالَ أَرْبَدُ:
 أَفْعَلُ، فَأَقْبَلَا رَاجِعِينَ إِلَيْهِ، فَقَالَ عَامِرٌ: يَا مُحَمَّدُ، قُمْ
 مَعِيَ أَكَلِّمُكَ، فَقَامَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَا إِلَى الْجِدَارِ،
 وَوَقَفَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكَلِّمُهُ، وَسَلَّ أَرْبَدُ السَّيْفَ،
 فَلَمَّا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى السَّيْفِ بَيَّسَتْ يَدُهُ عَلَى قَائِمِ السَّيْفِ،
 فَلَمْ يَسْتَطِعْ سَلَّ السَّيْفِ، فَأَبْطَأَ أَرْبَدُ عَلَى عَامِرٍ بِالضَّرْبِ،
 فَالْتَقَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى أَرْبَدُ وَمَا يَصْنَعُ، فَانْصَرَفَ

(١) أحمد: ١٠٠/٢ إسناؤه ضعيف لجهالة أبي مطر (٢) تحفة
 الأحوذى: ٤١٢/٩ والأدب المفرد: ١٨٧ والنسائي في الكبرى:
 ٢٣٠/٦ والحاكم: ٢٨٦/٤ (٣) الموطأ: ٩٩٢/٢ والأدب
 المفرد: ٧٢٤ (٤) أحمد: ٣٥٩/٢ إسناؤه ضعيف فيه صدقة بن
 موسى قال الذهبي: واو.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ قَالَ: الْمُعْتَبَاتُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَحْفَظُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، ثُمَّ ذَكَرَ أَرْبَدَ وَمَا قَتَلَهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الْآيَةَ (١) [وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مُخْتَصَرًا: ٤٠٩١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يُعْدِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أَيُّ يَسْكُونُونَ فِي عَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: شَدِيدَةٌ مِمَّا حَلَّتْهُ فِي عُقُوبَتِهِ مَنْ طَعَى عَلَيْهِ، وَعَتَا وَتَمَادَى فِي كُفْرِهِ (٢). وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [النمل: ٥٠، ٥١] وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ أَيُّ شَدِيدُ الْإِخْذِ (٣).

﴿لَهُمْ دَعْوَةٌ لَمَّيًّا وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَهَيْئَةِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَلْبُغِيهِ وَمَا دَعَا الْكَاذِبِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٤)

﴿تَمْثِيلُ عَجْزِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَهُمْ دَعْوَةٌ لَمَّيًّا﴾ قَالَ: التَّوْحِيدُ (٥). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكَدِّرِ: ﴿لَهُمْ دَعْوَةٌ لَمَّيًّا﴾: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (٥). ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾... الْآيَةَ، أَيُّ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُعْبُدُونَ آلِهَةً غَيْرَ اللَّهِ ﴿كَبْسِطٍ كَهَيْئَةِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: كَمَثَلِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ الْمَاءَ مِنْ طَرَفِ الْبُئْرِ بِيَدِهِ وَهُوَ لَا يَتَأَلَّهُ أَبَدًا بِيَدِهِ، فَكَيْفَ يَبْلُغُ فَاهُ؟ (٦).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كَبْسِطٍ كَهَيْئَةِ﴾ يَدْعُو الْمَاءَ بِلِسَانِهِ وَيُشِيرُ إِلَيْهِ فَلَا يَأْتِيهِ أَبَدًا (٧). وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ أَنَّ الَّذِي يَسْطُرُ يَدَهُ إِلَى الْمَاءِ إِمَّا قَابِضًا وَإِمَّا مَتَنَاوِلًا لَهُ مِنْ بَعْدٍ: كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَى فِيهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَحَلًّا لِلشَّرْبِ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يُعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَهُ، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ أَبَدًا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا دَعَا الْكَاذِبِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلِيَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ﴾ (٨)

﴿كُلُّ شَيْءٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِيهِ، الَّذِي فَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ، وَدَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا يَسْجُدُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَكَرْهًا مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدْوِ﴾ أَيُّ الْبُكْرِ

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلِ افْتَحْتُمْ مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ لَا يَلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلِ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٩)

﴿إِبْرَاهِيمُ التَّوْحِيدِ﴾ يَقْرُرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ رَبُّهَا وَمَدَبُّهَا، وَهُمْ مَعَ هَذَا قَدِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ يُعْبُدُونَهُمْ، وَأُولَئِكَ الْآلِهَةُ لَا تَمْلِكُ لِأَنفُسِهَا - وَلَا لِعِبَادِيهَا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى - نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، أَيُّ لَا تُحْصِلُ لَهُمْ مَنَفْعَةً وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ مَضْرَّةً، فَهَلْ يَسْتَوِي مَنْ عَبَدَ هَذِهِ الْآلِهَةَ مَعَ اللَّهِ، وَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلِ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ أَجْعَلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً تَتَنَاوَلُ الرَّبَّ وَتَمَانِلُهُ فِي الْخَلْقِ، فَخَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَدْرُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مَخْلُوقٍ غَيْرِهِ؟ أَيُّ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يُشَابَهُ شَيْءًا، وَلَا يُمَانِلُهُ، وَلَا يَنْدُ لَهُ وَلَا عِدْلَ لَهُ، وَلَا وَزِيرَ لَهُ وَلَا وَلَدَ وَلَا صَاحِبَةَ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوقًا كَبِيرًا، وَإِنَّمَا عَبَدَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَ آلِهَتِهِمْ مُعْتَرِفُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ، عِبِيدَ لَهُ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيئِهِمْ: لَيْسَ لَكَ شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، وَكَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فَأَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ حَيْثُ اعْتَمَدُوا ذَلِكَ، وَهُوَ تَعَالَى لَا يَنْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (١٠)

(١) الطبراني: ٣٧٩/١٠ - إسناده ضعيف لضعف عبدالعزیز ابن عمران قال ابن حجر: متروك احترقت كتبه فحدث من حفظه فاشتد غلظه. [تقريب] (٢) الطبري: ٣٩٤/١٦ (٣) الطبري: ٣٩٦/١٦ إسناده واه فيه سيف بن عمر الضبي (٤) الطبري: ١٦/٣٩٨ فيه علة سابقة (٥) الطبري: ١٦/٣٩٨ إسناده ضعيف رواية سماك عن عكرمة وهي رواية مضطربة لكن أخرجه ابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات من طرق أخر وفيه انقطاع (٦) الطبري: ٤٠٠/١٦ (٧) الطبري: ٤٠٠/١٦

(١) الطبراني: ٣٨١-٣٧٩/١٠ إسناده ضعيف لضعف عبدالعزیز ابن عمران قال ابن حجر: متروك احترقت كتبه فحدث من حفظه فاشتد غلظه. [تقريب] (٢) الطبري: ٣٩٤/١٦ (٣) الطبري: ٣٩٦/١٦ إسناده واه فيه سيف بن عمر الضبي (٤) الطبري: ١٦/٣٩٨ فيه علة سابقة (٥) الطبري: ١٦/٣٩٨ إسناده ضعيف رواية سماك عن عكرمة وهي رواية مضطربة لكن أخرجه ابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات من طرق أخر وفيه انقطاع (٦) الطبري: ٤٠٠/١٦ (٧) الطبري: ٤٠٠/١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٥٢

﴿أَمَّن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ إِنَّمَا يَذْكُرُ
 أَوْلَا الْأَلْبَابِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْعَيْثَ
 ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
 وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ صَدَّوْا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدِرُّوْنَ
 بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ هُمُ عِبَادِي الدَّارِ ﴿٢٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢١﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ
 ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
 أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
 وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا
 بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٦﴾

قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَبْفَعُ النَّاسُ فِيمَكَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
 الْأَمْثَالَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا
 يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وقال بعض
 السلف: كُنْتُ إِذَا قَرَأْتُ مَثَلًا مِنَ الْقُرْآنِ فَلَمْ أَفْهَمْهُ، بَكَيْتُ
 عَلَى نَفْسِي، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا
 الْعَالِمُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾... الآية، هذا
 مثل ضربته الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها
 وشكها، فأما الشك فلا يتنفع معه العمل، وأما اليقين
 فيتنفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ وهو الشك،
 ﴿فَيَذْهَبُ حُفَاءً﴾ وأما ما يَبْفَعُ النَّاسُ فِيمَكَ فِي الْأَرْضِ وهو
 اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك
 خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك^(١).

[سباء: ٢٣] ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية [النجم: ٢٦]،
 وقال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ
 عَبْدًا﴾ ﴿١٧﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٨﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقَيْمَةِ
 فَرْدًا﴾ [مریم: ٩٣- ٩٥] فَإِذَا كَانَ الْجَمِيعُ عِبِيدًا، فَلِمَ يَعْبُدُ
 بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، بَلِ الْمُجْرَدُ الرَّأْيِ
 وَالِاخْتِرَاعُ وَالِابْتِدَاعُ، ثُمَّ قَدْ أُرْسِلَ رُسُلُهُ مِنْ أَوْلِيهِمْ إِلَى
 آخِرِهِمْ، تَرْجُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَتَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَى
 اللَّهِ، فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ لَا
 مَحَالَةَ ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا
 رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ
 كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا
 مَا يَبْفَعُ النَّاسُ فِيمَكَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
 الْأَمْثَالَ﴾ ﴿١٧﴾

[مَثَلان لِبَفَاءِ الْحَقِّ وَفَنَاءِ الْبَاطِلِ]

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى مَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ لِلْحَقِّ
 فِي ثَبَاتِهِ وَبَقَائِهِ، وَالْبَاطِلِ فِي اضْمِحْلَالِهِ وَفَنَائِهِ، فَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أَي مَطْرًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ
 بِقَدَرِهَا﴾ أَي أَحْذَ كُلُّ وَادٍ بِحَسَبِهِ، فَهَذَا كَبِيرٌ وَسِعَ كَثِيرًا مِنْ
 الْمَاءِ، وَهَذَا صَغِيرٌ وَسِعَ بَقْدَرِهِ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقُلُوبِ
 وَتَقَاوُيْهَا، فَمِنْهَا مَا يَسْعُ عِلْمًا كَثِيرًا، وَمِنْهَا مَنْ لَا يَسْعُ
 لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ بَلْ يَضِيقُ عَنْهَا ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾
 أَي فَجَاءَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي سَالَ فِي هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ زَبَدٌ
 عَالٍ عَلَيْهِ، هَذَا مَثَلٌ.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾...
 الآية، هَذَا هُوَ الْمَثَلُ الثَّانِي، وَهُوَ مَا يُسَبِّكُ فِي النَّارِ مِنْ
 ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ، أَي لِيَجْعَلَ حُلْيَةً نَحَاسٍ - أَوْ
 حَدِيدٍ، فَيَجْعَلُ مَتَاعًا - فَإِنَّهُ يَغْلُوهُ زَبَدٌ مِنْهُ كَمَا يَغْلُو ذَلِكَ زَبَدٌ
 مِنْهُ ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أَي إِذَا اجْتَمَعَا، لَا ثَبَاتَ
 لِلْبَاطِلِ وَلَا دَوَامَ لَهُ، كَمَا أَنَّ الزَّبَدَ لَا يَثْبُتُ مَعَ الْمَاءِ وَلَا مَعَ
 الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَنَحْوَهُمَا مِمَّا يُسَبِّكُ فِي النَّارِ، بَلْ يَذْهَبُ
 وَيَضْمَجُّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أَي لَا
 يُنْتَفَعُ بِهِ بَلْ يَتَفَرَّقُ وَيَتَمَرَّقُ، وَيَذْهَبُ فِي جَانِبِي الْوَادِي،
 وَيَعْلَقُ بِالشَّجَرِ، وَتَسْبِغُهُ الرِّيحُ، وَكَذَلِكَ خَبَثَ الذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ، يَذْهَبُ وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُ شَيْءٌ،
 وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْمَاءُ وَذَلِكَ الذَّهَبُ وَنَحْوُهُ. يُنْتَفَعُ بِهِ. وَلِهَذَا

(١) الطبري: ١٦/٤١٠

[ذَكَرَ مَرِيدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ]

وَقَدْ صَرَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لِلْمُتَنَافِقِينَ مَثَلَيْنِ: نَارِيًا وَمَائِيًا، وَهَمَا قَوْلُهُ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ...﴾ [الآية: ١٩]، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [الآية: ١٨]، وَهَكَذَا صَرَبَ لِلْكَافِرِينَ فِي سُورَةِ التَّوْرَةِ مَثَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كِكِرَابٍ...﴾ [الآية: ٣٩]، وَالسَّرَابُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ: فَيَقَالُ لِلنَّهْدِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: أَيُّ رَبِّنَا عَطِشْنَا فَاشْقِنَا. فَيَقَالُ: أَلَا تَرُدُونَ؟ فَيَرُدُونَ النَّارَ فَإِذَا هِيَ كَسَّرَابٍ يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي الْمَثَلِ الْآخَرِ: ﴿أَوْ كَهَلُمْلَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ [الآية: ٤٠] (١). وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قِيلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَسَرِبُوا، وَرَعَوْا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَتَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَعَّمَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَزِفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» (٢). فَهَذَا مَثَلُ مَا بَيَّنَّ. وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الْفَرَاسُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ - الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ - يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُرُهُنَّ وَيَغْلِبُنَّهُنَّ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قَالَ -: فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي، فَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا» (٣). وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ أَيْضًا، فَهَذَا مَثَلُ نَارِيٍّ (٤).

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالذِّبْنَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وَأُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلْهَادِثِ ﴿١٨﴾

[جَزَاءُ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَالِ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أَيُّ أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَأَنْقَادُوا

لِأَوَامِرِهِ، وَصَدَقُوا أَخْبَارَهُ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ، فَلَهُمْ ﴿الْحُسْنَى﴾ وَهُوَ الْجَزَاءُ الْحَسَنُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقُرْبَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿١٨﴾ وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنُ وَسَقَوْنَا لَهُ مِنْ أَمْرِنَا إِسْرًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أَيُّ لَمْ يُطِيعُوا اللَّهَ، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَوْ أَنَّ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَقْتَدُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِمِثْلِ الْأَرْضِ ذَهَابًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ، وَلَكِنْ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرَفًا وَلَا عَدْلًا ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. أَيُّ يُنَاقِشُونَ عَلَى التَّغْيِيرِ وَالْقَطْعِ، وَالْحَلِيلِ وَالْحَقِيرِ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذَّبَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا وَرَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلْهَادِثِ﴾.

﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذُرُ أَوْلِيَاءَهُ﴾

الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

[لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ]

يَقُولُ تَعَالَى لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَا مِرْيَةَ، وَلَا لُبْسَ فِيهِ، وَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ، بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، لَا يُضَادُّ شَيْءٌ مِنْهُ شَيْئًا آخَرَ، فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ، وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَدْلٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَسَّاتُ كَلِمَتِكَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَيُّ صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ، فَلَا يَسْتَوِي مَنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئْتُ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، وَمَنْ هُوَ أَعْمَى لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَفْهَمُهُ، وَلَوْ فَهَمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ وَلَا صَدَقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحْسَبُ النَّارِ وَأَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَحْسَبُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ أَيُّ أَفْهَدًا كَهَذَا؟ لَا اسْتِوَاءَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَنْذُرُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَنْعِظُ وَيَعْتَبِرُ وَيَعْقِلُ أَوْلُو الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الصَّحِيحَةِ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا

(١) فتح الباري: ٩٨/٨، ١٦٨/١ (٢) فتح الباري: ١/١

٢١١، ١٧٨٨/٤ (٣) أحمد: ٣١٢/٢ (٤) فتح

الباري: ٣٢٣/١١، ١٧٩٠/٤

يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ فِيهَا مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَهْلِيْنَ
وَالْأَبْنَاءِ، وَمَنْ هُوَ صَالِحٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لِنَقَرٍ
أَعْيَنُهُمْ بِهِمْ حَتَّى إِنَّهُ تَرُفَعُ دَرَجَةُ الْأَذْنَى إِلَى دَرَجَةِ الْأَعْلَى
إِمْتِنَانًا مِنَ اللَّهِ وَإِحْسَانًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِصٍ لِلأَعْلَى عَنْ دَرَجَتِهِ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ﴾... الآية [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (١٣) سَلَّمَ عَلَيْكَ
بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عَقْبَى الدَّارِ ﴿١٤﴾ أَيْ وَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ
هَهُنَا وَمِنْ هَهُنَا لِلتَّهَيُّتِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَعِنْدَ دُخُولِهِمْ أَيَّهَا
تَفِدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مُسْلِمِينَ، مُهَيِّئِينَ لَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ
مِنَ اللَّهِ مِنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِنْعَامِ، وَالْإِقَامَةَ فِي دَارِ السَّلَامِ، فِي
جَوَارِ الصُّدِّيقِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْكِرَامِ. وَرَوَى الْإِمَامُ
أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ
يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.
قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ: الْفُقَرَاءُ
الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تَسُدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتَتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ،
وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَّتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً،
فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: انْتَوَهُمْ فَحْيُوهُمْ،
فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَاوَاتِكِ، وَخَيْرُكَ مِنْ
خَلْقِكَ، أَفَتَأْمُرْنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ وَنَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ؟ فَيَقُولُ:
إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتَسُدُّ بِهِمُ
الثُّغُورُ، وَتَتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَّتُهُ فِي
صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً - قَالَ - : فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ
عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا
صَبَرْتُمْ فِعْمَ عَقْبَى الدَّارِ﴾ (١٤).

﴿وَالَّذِينَ يَقْضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ سُوءٌ

الدَّارِ ﴿١٥﴾

[أَوْصَافُ الْأَشْقِيَاءِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى اللَّعْنَةِ وَسُوءِ

الدَّارِ]

هَذَا حَالُ الْأَشْقِيَاءِ وَصِفَاتِهِمْ، وَذَكَرَ مَا لِيَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.
وَمَصِيرُهُمْ إِلَى خِلَافِ مَا صَارَ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا أَنَّهُمْ
انْتَصَفُوا بِخِلَافِ صِفَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَأُولَئِكَ كَانُوا يُؤْفُونَ

أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٧﴾
جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ
يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٨﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عَقْبَى
الدَّارِ ﴿١٩﴾

[أَوْصَافُ السُّعَدَاءِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْجَنَّةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ انْتَصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ
يَأَنَّ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ، وَهِيَ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْيَمِينَ﴾ وَلَيْسُوا
كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا عَاهَدَ أَحَدُهُمْ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ
فَجَرَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اتَّخَمْنَ خَانَ ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ مِنْ صَلَاةِ الْأَرْحَامِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ،
وَالِى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِجِ، وَبِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ، وَيَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ﴾ أَيِّ فِيمَا يَأْتُونَ وَمَا يَدْرُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، يُرَاقِبُونَ اللَّهَ
فِي ذَلِكَ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَلِهَذَا
أَمَرَهُمْ عَلَى السَّدَادِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ
وَسَكَنَاتِهِمْ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ الْقَاصِرَةِ وَالْمُتَعَلِّغَةِ ﴿وَالَّذِينَ
صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أَيِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتَمِ، فَطَمَّوْا
أَنْفُسَهُمْ عَنْهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ابْتِعَاءَ مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ
﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بِحُدُودِهَا وَمَوَاقِيتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا
وَخُشُوعِهَا، عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْصُومِ ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ﴾ أَيِّ عَلَى الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِنْفَاقُ لَهُمْ مِنْ
زَوْجَاتٍ وَقَرَابَاتٍ وَأَجَانِبَ، مِنْ فُقَرَاءٍ وَمَحَاوِجٍ وَمَسَاكِينٍ
﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أَيِّ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ، لَمْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ
ذَلِكَ حَالٌ مِنَ الْأَحْوَالِ، أَنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ
﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ النَّسِيئَةَ﴾ أَيِّ يَدْفَعُونَ الْقَبِيحَ بِالْحَسَنِ،
فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِالْجَمِيلِ صَبْرًا وَاحْتِمَالًا وَصَفْحًا
وَعَفْوًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٠) وَمَا يُقْنَهَا إِلَّا الَّذِينَ
صَبَرُوا وَمَا يُقْنَهَا إِلَّا ذُو حِظِّ عَظِيمٍ [فصلت: ٣٤، ٣٥]

وَلِهَذَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السُّعَدَاءِ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ
الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ يَأَنَّ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ يَقُولُهُ:
﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ وَالْعَدْنُ: الْإِقَامَةُ، أَيِّ جَنَّاتُ إِقَامَةٍ يَدْخُلُونَ
فِيهَا.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ
 مَا أَجْرُهُمْ ﴿٢٦﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ
 لِّتَسْتَلُوا عَلَيْهِمْ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ
 قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٢٧﴾
 وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا سَأَلُوا بِرَبِّهِمْ أَوْفُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرُوا
 بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِسَّ بِالَّذِينَ آمَنُوا
 أَنْ لَوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 تُصَلِّبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تُخَلِّقُ قُرْبَانًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ
 وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ
 مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
 عِقَابٌ ﴿٢٩﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
 لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ
 يَبْطِئُ عَنِ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ
 السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٠﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَعَذَابٌ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقِفٍ ﴿٣١﴾

بِعَهْدِ اللَّهِ، وَيَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَهَؤُلَاءِ
 ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ
 أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كَمَا نَبَتْ فِي الْحَدِيثِ: «أَيُّهُ
 الْمُنَافِقُ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا
 أُؤْتِيَ مَخَانًا»^(١). وَفِي رِوَايَةٍ: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ
 فَجَرَ»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وَهِيَ الْإِبْعَادُ عَنِ
 الرَّحْمَةِ، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وَهِيَ سُوءُ الْعَاقِبَةِ وَالْمَالِ،
 ﴿وَمَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِيَهَادَ﴾ [الرعد: ١٨].

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾^(٣)
 [السَّعَةِ فِي الرِّزْقِ وَالْقَتْرُ بِيَدِ اللَّهِ]

يَذُكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوسِعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ،
 وَيُقْتَرُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ،
 وَفَرَحَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - اسْتِدْرَاجًا
 لَهُمْ وَإِمْهَالًا - كَمَا قَالَ: ﴿يَحْتَسِبُونَ أَنَّمَا نُنْزِلُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ
 رَبِّنَا ﴿٥٥﴾ نَسَاجُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:
 ٥٦، ٥٥] ثُمَّ حَقَّرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا آذَرَهُ تَعَالَى
 لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ
 خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلًا﴾. [النساء: ٧٧] وَقَالَ: ﴿بَلْ
 تُؤْتِيهِمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:
 ١٧، ١٦]. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ أَبِي بَنِي فِهْرٍ
 قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا
 يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَنْ تَرَجِعُ»
 وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ^(٤). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ^(٥). وَفِي
 الْحَدِيثِ الْآخَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِجَدِي أَسْكَ مَيْتٍ
 - وَالْأَسْكَ: الصَّغِيرُ الْأُدُنْتَيْنِ - فَقَالَ: «وَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ
 عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَىٰ أَهْلِهِ حِينَ الْقَوْلِ»^(٥).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي. قُلْ إِنَّ اللَّهَ
 يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ مِنَ أَنْابٍ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُمْ ﴿١٩﴾﴾

[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِبَلِ الْمُشْرِكِينَ «لَوْلَا» أَيُّ هَلَا «أُنزِلَ
 عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي»، كَقَوْلِهِمْ «فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
 الْأَنْبِيَاءُ: ٥٠». وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ،

وَأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِجَابَةِ مَا سَأَلُوا، وَفِي الْحَدِيثِ: إِنَّ اللَّهَ
 أَوْحَىٰ إِلَىٰ رَسُولِهِ - لَمَّا سَأَلُوهُ أَنْ يُحَوَّلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا،
 وَأَنْ يُجْرِي لَهُمْ يَنْبُوعًا، وَأَنْ يُرِيحَ الْجِبَالَ مِنْ حَوْلِ مَكَّةَ،
 فَيَصِيرُ مَكَانَهَا مَرْوَجٌ وَبَسَاتِينٌ -: إِنَّ شَيْئًا يَا مُحَمَّدُ
 أُعْطِيَتْهُمْ ذَلِكَ، فَإِنْ كَفَرُوا أَعَذَّبْهُمْ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ
 الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ،
 فَقَالَ: «بَلْ تَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ»^(٦). وَلِهَذَا قَالَ
 لِرَسُولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ﴾
 أَيُّ هُوَ الْمُضِلُّ وَالْمُهَادِي سَوَاءٌ بَعَثَ الرُّسُولَ بِآيَةٍ عَلَىٰ وَفَىٰ
 مَا اقْتَرَحُوا أَوْ لَمْ يُجِبْهُمْ إِلَىٰ سُؤْلِهِمْ، فَإِنَّ الْهُدَايَةَ
 وَالْإِضْلَالَ لَيْسَ مَتَوَطًا بِذَلِكَ وَلَا عَدَمِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا
 تُعْنَىٰ الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وَقَالَ:
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ

(١) فتح الباري: ١١١/١ (٢) فتح الباري: ١١١/١ (٣)
 أحمد: ٢٢٨/٤ (٤) مسلم: ٢١٩٣/٤ (٥) مسلم: ٢٩٥٧
 (٦) أحمد: ٢٤٢/١

الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٠﴾
[مما بعث به نبينا ﷺ، تلاوة ما أوحى إليه، والدعوة إليه]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴿٣٠﴾ أَي تَبْلُغُهُمْ رَسُولَةَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي الْأُمَّةِ الْمَاضِيَةِ الْكَافِرَةِ بِاللَّهِ، وَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِكَ فَلَمَّا بِهِمْ أُسُوءٌ، وَكَمَا أَوْفَعْنَا بِأَسْنَا وَنَقَمْنَا بِأَوْلَانِكَ، فَلْيَحْذَرِ هَؤُلَاءِ مِنْ حُلُولِ النَّقَمِ بِهِمْ، فَإِنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَكَ أَشَدُّ مِنْ تَكْذِيبِ غَيْرِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثَالِثٌ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آمُرًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الْآيَةَ [النحل: ٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنَ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] أَي كَيْفَ نَصَرْنَاهُمْ، وَجَعَلْنَا الْعَاقِبَةَ لَهُمْ وَلَا تَبَاعِيَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أَي هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثْنَاكَ فِيهِمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ لَا يُعْرُونَ بِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتِفُونَ مِنْ وَصْفِ اللَّهِ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلِهَذَا أَتَفَوْا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْ يَكْتُبُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَقَالُوا: مَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. قَالَهُ قَتَادَةُ (٩). وَالْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (١٠). وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ». (١١) ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي هَذَا الَّذِي تَكْفُرُونَ بِهِ، أَنَا مُؤْمِنٌ بِهِ مُعْتَرِفٌ، مُقَرَّرٌ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِي، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ أَي إِلَيْهِ أَرْجِعُ وَأَتَيْبُ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ﴾ (١) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٢) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٣) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٤) البغوي: ١٨/٣ (٥) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٦) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٧) البخاري: ٦٥٥٢ ومسلم: ٢٨٢٧ (٨) مسلم: ١٩٩٤/٤ (٩) الطبري: ٤٤٦/١٦ (١٠) فتح الباري: ٣٩٠/٥ (١١) مسلم: ١٦٨٢/٣

جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣١﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا لِلَّهِمُ السَّلْبِيكَةَ وَكَلَّمَهُمُ التَّوْقَ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ أَي وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ إِلَى اللَّهِ وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَضَرَّعَ لَدَيْهِ.

[طَمَأْنِينَةً قَلْبَ الْمُؤْمِنِينَ بِذِكْرِ اللَّهِ] ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَي تَطْيِبُ وَتَرْتَكُنُ إِلَى جَانِبِ اللَّهِ، وَتَسْكُنُ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَرْضَى بِهِ مَوْلَى وَنَصِيرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أَي هُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ.

[بَيَانُ طُوبَى] وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَابَ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَرِحَ وَقُرَّةُ عَيْنٍ (١). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نَعَمْ مَا لَهُمْ (٢). وَقَالَ الصَّحَّاحُ: غِنَطَةٌ لَهُمْ (٣). وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: خَيْرٌ لَهُمْ (٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ، يَقُولُ الرَّجُلُ: طُوبَى لَكَ، أَي أَصَبْتَ خَيْرًا (٥). وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ: ﴿طُوبَى لَهُمْ حَسُنَ مَا تَابَ لَهُمْ﴾ (٦). ﴿وَحَسُنَ مَا تَابَ﴾ أَي مَرَجِعٌ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، لَا مُتَافَاةَ بَيْنَهَا.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ جَمِيعًا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةً يَسِيرُ الرَّابِئُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا» قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهِ التُّعْمَانَ بْنَ أَبِي عَبَّاسٍ الزُّرْقِيَّ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةً يَسِيرُ الرَّابِئُ الْجَوَادُ الْمُضَمَّرُ السَّرِيعُ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا» (٧).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا عَبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُذْخِلَ فِي الْبَحْرِ» (٨). . . . الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ، وَقَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةً يُقَالُ لَهَا: طُوبَى. لَهَا ضُرُوعٌ، كُلُّهَا تُرْضِعُ صَبِيَّانَ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ سِقْطَ الْمَرْأَةِ يَكُونُ فِي نَهْرٍ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يُتَقَلَّبُ فِيهِ حَتَّى تَقُومَ الْقِيَامَةَ، فَيُبْعَثُ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمْ

الْمَوْقِ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ
يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا
صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

[فَضْلُ الْقُرْآنِ وَجُحُودُ الْكُفَّارِ بِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مَا دِحَا لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ
وَمُفْضَلًا لَهُ عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ قَبْلَهُ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا
سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أَي لَوْ كَانَ فِي الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ كِتَابٌ
تُسَيَّرُ بِهِ الْجِبَالُ عَنِ أَمَاكِنِهَا، أَوْ تُقَطَّعُ بِهِ الْأَرْضُ وَتَنْسَقُ،
أَوْ تُكَلِّمُ بِهِ الْمَوْتَى فِي قُبُورِهَا، لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ
الْمُتَّصِفُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ، أَوْ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ
كَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِعْجَازِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ
وَالْحَيُّ عَنْ آخِرِهِمْ إِذَا اجْتَمَعُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَلَا بِسُورَةٍ
مِنْ مِثْلِهِ، وَمَعَ هَذَا فَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ كَافِرُونَ بِهِ،
جَاحِدُونَ لَهُ ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أَي مَرْجِعُ الْأُمُورِ كُلِّهَا
إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ،
وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
مُضِلٍّ.

وَقَدْ يُطْلَقُ اسْمُ الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ،
لِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْجَمِيعِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «خَفِفتُ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةَ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ
تُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ، وَكَانَ لَا
يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ»^(١). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ^(٢).
وَالْمُرَادُ بِالْقُرْآنِ هُوَ الزَّبُورُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي مِنْ إِيْمَانِ جَمِيعِ
الْخَلْقِ وَيَعْلَمُوا، أَوْ يَتَّبِعُوا ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ
جَمِيعًا فَإِنَّهُ لَيْسَ نَمَّ حُجَّةٌ وَلَا مُعْجِزَةٌ أَبْلَغُ وَلَا أَنْجَعُ فِي
الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ، مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي لَوْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى
جَبَلٍ لَرَأَيْتُهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ. وَبَيَّنَّتْ فِي
الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدَّ أَوْتِي
مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أَوْتَيْتُهُ وَحْيًا
أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ»^(٣). مَعْنَاهُ: أَنَّ مُعْجِزَةَ كُلِّ نَبِيٍّ انْفَرَضَتْ بِمَوْتِهِ،
وَهَذَا الْقُرْآنُ حُجَّةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى الْأَبَادِ، لَا تَنْقُضِي عَجَابَتَهُ،
وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَسْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، هُوَ

الْقَضْلُ، لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ
ابْتَعَى الْهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَي لَا
يَضَعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا شَاءَ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ^(٤). رَوَاهُ ابْنُ
إِسْحَاقَ بِسَنَدِهِ عَنْهُ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا
يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ
دَارِهِمْ﴾ أَي بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لَا تَزَالُ الْقَوَارِعُ تُصِيبُهُمْ فِي
الدُّنْيَا أَوْ تُصِيبُ مَنْ حَوْلَهُمْ، لِيَتَّعِظُوا وَيَعْتَبِرُوا، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٧] وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَافِلُونَ﴾. [الأنبياء: ٤٤]
[٤٤] قَالَ قَتَادَةُ عَنِ الْحَسَنِ: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ أَي
الْقَارِعَةَ^(٥) وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا
قَارِعَةً﴾ قَالَ: عَذَابٌ مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا
مِنْ دَارِهِمْ﴾ يَعْنِي نَزُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ وَقَالَهُ إِيَّاهُمْ.
وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ فِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ ﴿قَارِعَةً﴾ أَي نَكْبَةً. وَكُلُّهُمْ قَالَ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ
اللَّهِ﴾ يَعْنِي فَتْحَ مَكَّةَ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أَي لَا يَنْقُضُ وَعْدَهُ
لِرُسُلِهِ بِالنُّصْرَةِ لَهُمْ وَلَا تَبَاعُثُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿فَلَا
تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾

[إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ لِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَاَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْنَاهُمُ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣١﴾﴾

[تَسْلِيَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ
قَوْمِهِ: ﴿وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ لِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أَي فَلَكَ فِيهِمْ أُسُودَةٌ
﴿فَاَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي أَنْظَرْتَهُمْ وَأَجَلْتَهُمْ، ﴿ثُمَّ
أَخَذْنَاهُمْ﴾ أَخَذَةً رَاقِيَةً، فَكَيْفَ بَلَغَكَ مَا صَنَعْتَ بِهِمْ
وَعَاقِبَتُهُمْ وَأَمَلَيْتَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ آتَيْنَا
قَرِيَةَ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَّمْ نَأْخُذْهَا وَلَئِنَّا لَمَّصِيرٌ﴾
[الحج: ٤٨] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ

(١) أحمد: ٣١٤/٢ (٢) فتح الباري: ٢٤٨/٨ (٣) فتح
الباري: ٦١٩/٨ (٤) الطبري: ٤٤٧/١٦ (٥) الطبري: ١٦/٤٥٩

إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [هود: ١٠٢].^(١)

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبَهُمْ قُلْ أَمَّا تَتَّبِعُونَ فَمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظُهُرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَضُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [٣٢]

[لا اشتراك بين الله وبين الهة المشركين بوجه من الوجوه]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ أَي حَافِظٌ عَلَيْهِمْ رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَنفُوسَةٍ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَمَا تَسْطُفُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَسُوءَ مَقَرَّهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] وَقَالَ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِثْمِهِ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ الْغَيْبُ وَخَفِيُّ طُهُ: ٧] وَقَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠] أَفَمَنْ هُوَ كَذَلِكَ كَالْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، لَا تَسْمَعُ وَلَا تَبْصُرُ، وَلَا تَعْقِلُ، وَلَا تَمْلِكُ نَفْعًا لِأَنْفُسِهَا وَلَا لِعَابِدِيهَا، وَلَا كَشَفَ ضُرِّ عَنْهَا وَلَا عَنْ عَابِدِيهَا؟ وَحَذَفَ هَذَا الْجَوَابُ الْكَيْفَاءَ بِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أَي عَبْدَوْهَا مَعَهُ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَنْدَادٍ وَأَوْلِيَانٍ ﴿قُلْ سَمُوهُمْ﴾ أَي أَعْلَمُونَا بِهِمْ، وَاسْتَفْهَمُوا عَنْهُمْ حَتَّى يُعْرِفُوا، فَإِنَّهُمْ لَا حَقِيقَةَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ فَمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي لَا وُجُودَ لَهُ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ وُجُودٌ فِي الْأَرْضِ لَعَلِمَهَا، لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿أَمْ يَبْظُهُرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَظُنُّ مِنَ الْقَوْلِ^(٢).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: يَبْاطِلُ مِنَ الْقَوْلِ^(٣). أَي إِنَّمَا عَبْدتُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ يَظُنُّ مِنْكُمْ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ، وَسَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَتْمًا وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَبْعُوثُ إِلَّا الظَّنُّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] ﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: قَوْلُهُمْ^(٤) أَي مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ

سُورَةُ الرَّعْدِ ٢٥٤

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْثُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [٣٥] وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [٣٧] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِطَايِبَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفَيْتَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفَسُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ مَا يُعْقِبُ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلَهُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾

الضَّلَالِ وَالذُّعُورَةَ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَرَاتُوا لَهُمْ...﴾ [الآية فصلت: ٢٥]، ﴿وَضُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ مَنْ قَرَأَهَا يَفْتَحُ الصَّادَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمَّا زَيْنٌ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ: دَعَوْا إِلَيْهِ، وَضُدُّوا النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الرُّسُلِ. وَمَنْ قَرَأَهَا بِالضَّمِّ، أَي: بِمَا زَيْنٌ لَهُمْ مِنْ صِحَّةٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ، ضُدُّوا بِهِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يُرِيدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] وَقَالَ: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [٣٦] مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْثُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى

(١) فتح الباري: ٢٥٥/٨ ومسلم: ١٩٩٧/٤ (٢) الطبري: ٤٦٦/١٦ (٣) الطبري: ٤٦٦/١٦ (٤) الطبري: ٤٦٧/١٦

الْكٰفِرِيْنَ النَّارِ ﴿٣٦﴾

[بَيَانُ عِقَابِ الْكُفَّارِ وَجَزَاءِ الْأَبْرَارِ]

ذَكَرَ تَعَالَى عِقَابَ الْكُفَّارِ وَتَوَابَ الْأَبْرَارِ، فَقَالَ بَعْدَ إِخْبَارِهِ عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ ﴿هُمُ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ قَتْلًا وَأَسْرًا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أَي الْمُدْحَرَمُ مَعَ هَذَا الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا ﴿أَشَقُّ﴾ أَي مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِبِينَ: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»^(١). وَهُوَ كَمَا قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَهُ انْقِضَاءٌ، وَذَلِكَ دَائِمٌ أَبَدًا فِي نَارِ هِيَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ سَبْعُونَ ضِعْفًا، وَوَنَاقٌ لَا يَتَصَوَّرُ كِنَافَتَهُ وَشِدَّتَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لَّكَ يَا عَبْدُ اللَّهِ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿[الفجر: ٢٥، ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ يَسْعَوْنَ لَهَا تَعْطِطًا وَرَفِيرًا ﴿وَإِذَا الْآلُوفُ مِنْهَا مَكَانًا ضَعِيفًا مُتَقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١١-١٥] وَلِهَذَا قَرَنَ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أَي صِفَتُهَا وَنِعَتُهَا ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي سَارِحَةٌ فِي أَرْجَائِهَا وَجَوَائِبِهَا، وَحَيْثُ شَاءَ أَهْلُهَا يُفَجَّرُونَهَا تَفْجِيرًا، أَي يَصْرِفُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا وَأَيَّنَ شَاءُوا، كَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ... الْآيَةُ [محمد: ١٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَكُلُوهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أَي فِيهَا الْفَوَاحِشُ وَالْمَطَاعِمُ وَالْمَشَارِبُ لَا انْقِطَاعَ [لَهَا] وَلَا فَنَاءً، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي صَلَاةِ الْكُوفِ، وَفِيهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْتَكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْتَكَ تَكْتَعِكَتْ، فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ - أَوْ أَرَيْتُ الْجَنَّةَ - فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتَهُمْ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا»^(٢).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ [فِيهَا] وَيَسْرُبُونَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَلَا يَتَعَوَّطُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، طَعَامُهُمْ جُشَاءٌ كَرِيحِ الْمَسْكَ، وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ ثُمَامَةَ بْنِ عُقْبَةَ، سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، تَزْعُمُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَسْرُبُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالْجِمَاعِ وَالشَّهْوَةِ». قَالَ: إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَسْرُبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ، وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ أَدَى؟ قَالَ: «تَكُونُ حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رَشْحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ كَرِيحِ الْمَسْكَ فَيَضْمُرُ بَطْنَهُ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ^(٤).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَفَلَكُمُوهَا كَثِيرٌ﴾ ﴿٣٦﴾ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ﴿[الواقعة: ٣٢، ٣٣] وَقَالَ: ﴿وَدَائِبُهُمْ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ فُطُورُهَا نَدِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] وَكَذَلِكَ ظِلُّهَا لَا يَزُولُ وَلَا يَفْقِصُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدُّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَرْوَاحٌ مَطَهَّرَةٌ وَنَدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظِلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وَكَثِيرًا مَا يَقْرَنُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ صِفَةِ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ النَّارِ لِيُرْعَبَ فِي الْجَنَّةِ وَيُحَدَّرَ مِنَ النَّارِ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ صِفَةَ الْجَنَّةِ بِمَا ذَكَرَ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكٰفِرِيْنَ النَّارِ﴾. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَلَاحُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُرْسِلْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهٌ آدَعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَكِنْ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

وَأَبِ ﴿٣٧﴾

[يَفْرَحُ الصَّادِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِتَصْدِيقِ كُتُبِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وَهُمْ قَائِمُونَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أَي مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى صِدْقِهِ وَالْإِشَارَةِ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾... الْآيَةُ [البقرة: ١٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - «إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا» أَي إِنْ كَانَ مَا وَعَدْنَا

(١) مسلم: ١١٣١/٢ (٢) فتح الباري: ٢٧١/٢ ومسلم: ٢/

٦٢٦ (٣) مسلم: ٢٨٣٥ (٤) أحمد: ٣٦٧/٤

رَغِبَ عَنِ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

[الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ لَيْسَ مِنْ مُسْتَطَاعِ الرَّسُولِ]

وَقَوْلُهُ: «وَمَا كَانَ لِرَسُولِي أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» أَي لَمْ يَكُنْ يَأْتِي قَوْمَهُ بِخَارِقٍ إِلَّا إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، بَلْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» أَي لِكُلِّ مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ بِهَا، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» [الحج: ٧٠].

[مَا يُمَحَىٰ وَيُزَالُ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ]

«يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ» مِنْهَا «وَيُنِثُّ» يَعْنِي: حَتَّىٰ نُسَخَّتْ كُلُّهَا بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنِثُّ» إِلَّا الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، وَالشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ فَإِنَّهُمَا لَا يَتَغَيَّرَانِ^(٣). وَقَالَ مَنْصُورٌ: سَأَلْتُ مُجَاهِدًا، فَقُلْتُ: أَرَأَيْتَ دُعَاءَ أَحَدِنَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنْ كَانَ اسْمِي فِي السُّعْدَاءِ فَأَتِنْتُهُ فِيهِمْ، وَإِنْ كَانَ فِي الْأَشْقِيَاءِ فَامْحُهُ عَنْهُمْ، وَاجْعَلْهُ فِي السُّعْدَاءِ؟ فَقَالَ: حَسَنٌ. ثُمَّ لَقِيتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحَوْلٍ أَوْ أَكْثَرَ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ»... [الآيَتِينَ [الدخان: ٤٣، ٤٤]، قَالَ: يُقْضَىٰ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ مِنْ رِزْقٍ أَوْ مُصِيبَةٍ، ثُمَّ يُقَدَّمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخَّرُ مَا يَشَاءُ، فَأَمَّا كِتَابُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فَهُوَ ثَابِتٌ لَا يُعَيَّرُ^(٤).

وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ: «إِنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا أَشْقِيَاءَ، فَامْحُهُ وَارْتَبْنَا سَعْدَاءَ، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا سَعْدَاءَ فَأَتِنْنَا، فَإِنَّكَ تَمَحُو مَا تَشَاءُ وَتُنِثُّ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ^(٥). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَرَوَى نَحْوَهُ مِنْ هَذَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَابْنِ مَسْعُودٍ. وَمَعْنَىٰ هَذِهِ الْأَقْوَالِ: أَنَّ الْأَقْدَارَ يَنْسَخُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا، وَيُنِثُّ مِنْهَا مَا يَشَاءُ، وَقَدْ يُسْتَأْنَسُ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدْرَ إِلَّا

اللَّهُ بِهِ فِي كُتُبِنَا مِنْ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِحَقًّا وَصِدْقًا مَفْعُولًا لَا مَحَالَةَ، وَكَاتِبًا، فَسُبْحَانَهُ مَا أَصْدَقَ وَعَدَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَحْدَهُ» وَخَيْرُونَ لِلَّذِينَ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا» [الإسراء: ١٠٨، ١٠٩].

وَقَوْلُهُ: «وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ» أَي وَمِنَ الطَّوَائِفِ مَنْ يَكْذِبُ بِبَعْضِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «وَمِنَ الْأَخْرَابِ» أَي الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى «مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ» أَي بَعْضَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ^(١). وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ»... [الآيَةَ [آل عمران: ١٩٩]، «قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَتْ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ» أَي إِنَّمَا بُعِثْتُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا أُرْسِلُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي «إِلَيْهِ أَدْعُوا» أَي إِلَىٰ سَبِيلِهِ أَدْعُو النَّاسَ «وَالَيْهِ مَتَابٌ» أَي مَرْجِعِي وَمَصِيرِي.

وَقَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا» أَي وَكَمَا أُرْسَلْنَا قَبْلَكَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ مِنَ السَّمَاءِ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحْكَمًا مُعَرَّبًا، شَرَفْنَاكَ بِهِ، وَفَضَّلْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيلِيِّ الَّذِي «لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» [فصلت: ٤٢]. وَقَوْلُهُ: «وَلَكِنْ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ» أَي آرَاءَهُمْ «بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ» أَي مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ «مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ» وَهَذَا وَعِيدٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعُوا سُبُلَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ بَعْدَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ سُلوِكِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْمَحَجَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، عَلَىٰ مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» (٣٨) يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنِثُّ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)

[الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا بَشَرًا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولًا بَشَرِيًّا، كَذَلِكَ قَدْ بَعَثْنَا الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ بَشَرًا، يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَيَمْسُحُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَأْتُونَ الزَّوْجَاتِ، وَيُوَلِّدُ لَهُمْ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِأَشْرَفِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِهِمْ «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ» وَفِي الصَّحِيحِينَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَا مِمَّنْ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ

(١) الطبري: ٤٧٤/١٦ (٢) فتح الباري: ٥/٩ ومسلم: ٢/

١٠٢٠ (٣) الطبري: ٤٧٩/١٦ (٤) الطبري: ٤٨٠/١٦ في

إسناده محمد بن حميد الرازي تقدم حاله. لكن بدون هذا اللفظ

ثابت عن مجاهد وغيره عند الطبري (٥) الطبري: ٤٨١/١٦

الدُّعَاءِ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرَّ» وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(١).

وَبَيَّنْتُ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ صِلَةَ الرَّجْمِ تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ^(٢).
وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْقَضَاءَ لَيُعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِئُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» يَقُولُ: هُوَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ الزَّمَانَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ثُمَّ يَعُودُ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَيَمُوتُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَهُوَ الَّذِي يَمَحُو، وَالَّذِي يُنْبِئُ، الرَّجُلُ يَعْمَلُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَقَدْ كَانَ سَبَقَ لَهُ خَيْرٌ حَتَّى يَمُوتَ وَهُوَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَهُوَ الَّذِي يُنْبِئُ^(٣). وَرَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهَا بِمَعْنَى: «فَيَعْمُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٤) [البقرة: ٢٨٤].

«وَإِنَّمَا زُيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ نَوْفَيْتَكُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ»^(٥) أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا يُعْجَمُ لَمْ يُعْجَبْ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ^(٦) [على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: «وَإِنَّمَا زُيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّكُمْ أَغْدَاءَكُمْ مِنَ الْحَزْبِ وَالنَّكَالِ فِي الدُّنْيَا أَوْ نَتُوفَيْتَكُمْ» أَي قَبْلَ ذَلِكَ، «فَلَمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ» أَي إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ لِتُبَلِّغَهُمْ رِسَالَاتِ اللَّهِ، وَقَدْ فَعَلْتَ مَا أَمَرْتُ بِهِ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» أَي حِسَابُهُمْ وَجَزَائُهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

«فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ»^(٧) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ^(٨) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ^(٩) وَعِذَّةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ^(١٠) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ^(١١) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية: ٢١-٢٦] وَقَوْلُهُ: «أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَفْتَحُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ الْأَرْضَ بَعْدَ الْأَرْضِ^(٥). وَقَالَ الْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ ظُهُورُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ^(١). كَقَوْلِهِ: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى...» [الأنفال: ٢٧].

«وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ عِلْمُهُ الْكُفْرَ لِمَنْ عَفَى اللَّهُ الدَّارِ»^(٢)

[مكر الكفار والوعيد على ذلك]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» بِرُسُلِهِمْ، وَأَرَادُوا إِخْرَاجَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ، فَمَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، كَقَوْلِهِ: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُؤْثِرُواكَ

أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ» [الأنفال: ٣٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»^(٣) فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَا لَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ» [الأنفال: ٥٠، ٥١]. وَقَوْلُهُ: «يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ» أَي أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِجَمِيعِ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. (وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ)، وَالْفِرَاءَةُ الْأُخْرَى: «الْكُفْرُ» [لِمَنْ عَفَى الدَّارِ] أَي لِمَنْ تَكُونُ الدَّائِرَةُ وَالْعَاقِبَةُ، لَهُمْ أَوْ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ؟ كَلَّا، بَلْ هِيَ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

«وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»^(٤)

[الاستشهاد بعلم علماء أهل الكتاب للرسالة]

[المحمدية]

يَقُولُ تَعَالَى: يُكَذِّبُكَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ وَيَقُولُونَ: «لَسْتَ مُرْسَلًا» أَي مَا أَرْسَلَكَ اللَّهُ «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» أَي حَسْبِيَ اللَّهُ، هُوَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ. شَاهِدٌ عَلَيَّ فِيمَا بَلَّغْتُ عَنْهُ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَشَاهِدٌ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُكذِّبُونَ فِيمَا تَقْتُرُونَهُ مِنَ الْبُهْتَانِ. وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ». قِيلَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(٥). وَهَذَا الْقَوْلُ غَرِيبٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ إِنَّمَا أَسْلَمَ فِي أَوَّلِ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَالْأَطْهَرُ فِي هَذَا مَا قَالَهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: مِنْهُمْ ابْنُ سَلَامٍ وَسَلْمَانُ وَتَمِيمُ الدَّارِيُّ^(٧).

وَالصَّحِيحُ فِي هَذَا: أَنْ «وَمَنْ عِنْدَهُ» اسْمٌ جِنْسٍ يَشْمَلُ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَجِدُونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتَهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ بَشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَرِزْقِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ»^(٨) الَّذِينَ يَدْعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمْرَجَ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...» [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] وَقَالَ تَعَالَى:

(١) أحمد: ٢٧٧/٥، وابن ماجه: ٩٠ (٢) مسلم: ٢٥٥٧ (٣)

الطبري: ٤٨٣/١٦ حال العوفي تقدم (٤) القرطبي: ٣٣١/٩

(٥) الطبري: ٤٩٣/١٦ (٦) الطبري: ٤٩٤/١٦ (٧) الطبري:

٥٠٢/١٦ (٨) الطبري: ٥٠٢/١٦ (٩) الطبري: ٥٠٣/١٦

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٧]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ الْإِحْبَارُ عَنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِهِمُ الْمُتْرَلَةَ.
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّعْدِ، وَ اللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة إبراهيم - عليه السلام - وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ١ ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ٢ ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ﴾ ٣ ﴿[التَّعْرِيفُ بِالْقُرْآنِ وَمَقْصُودُهُ وَالْوَيْلُ لِمَنْ خَالَفَهُ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أَيْ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ، عَلَى أَشْرَفِ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِهَا عَرَبِيَهُمْ وَعَجَبِيَهُمْ ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَيْ إِنَّمَا بَعَثْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِهَذَا الْكِتَابِ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعَمَى إِلَى الْهُدَى وَالرُّشْدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَأَنبِتَ يَنْتَبِتَ لِيُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ الآية [الحديد: ٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ هُوَ الْهَادِي لِمَنْ قُدِّرَ لَهُ الْهُدَايَةُ عَلَى يَدَيْ رَسُولِهِ الْمُبْعُوثِ عَنْ أَمْرِهِ: يَهْدِيهِمْ ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ أَيْ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُعَالَبُ، بَلْ هُوَ الْفَاهِرُ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ ﴿الْحَمِيدِ﴾ أَيْ الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرَعِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ الصَّادِقِ فِي خَبْرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ مُسْتَأَنَفًا مَرْفُوعًا، وَقَرَأَ آخَرُونَ عَلَى الْإِتْبَاعِ، صِفَةً لِلْجَلَالَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِيَّيَ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ...﴾

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ اِبْرٰهِيْمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَانًا قَوْمِهِ لِتَبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

الآية [الأعراف: ١٥٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أَيْ وَتِلْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ خَالَفُواكَ يَا مُحَمَّدُ وَكَذَّبُوكَ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، أَيْ يَهْتَمُّونَهَا وَيُؤْزِرُونَهَا عَلَيْهَا وَيَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا، وَنَسُوا الْآخِرَةَ وَتَرَكُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿وَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَهِيَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ وَيُجِبُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُ اللَّهِ عِوَجًا: مَائِلَةً عَائِلَةً، وَهِيَ مُسْتَقِيمَةٌ فِي نَفْسِهَا لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا، وَلَا مَنْ خَذَلَهَا، فَهُمْ فِي اتِّبَاعِهَا ذَلِكَ فِي جَهْلِ وَضَلَالٍ بَعِيدٍ مِنَ الْحَقِّ، لَا يُرْجَى لَهُمْ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - صَلَاحٌ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَانًا قَوْمِهِ لِتَبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٤ ﴿كُلُّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِتَكُونَ الْهُدَايَةُ أَوْ الضَّلَالُ

بَعْدَ تَبْيِينِهِ]

هَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ، لِيَفْهَمُوا عَنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ، وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ،

وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي بَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الْهُدَى، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَعْمَالِهِ، فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِدَلِّكَ، وَقَدْ كَانَتْ هَدْيُهُ سُنَّتَهُ فِي خَلْقِهِ: أَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي أُمَّةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَلَّغْتِهِمْ، فَأَخْصَصَ كُلَّ نَبِيٍّ بِإِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ إِلَى أُمَّتِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَأَخْصَصَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِعُمُومِ الرِّسَالَةِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْطَيْتُ حُخْمًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ بِمَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأَجِلَّتْ لِي الْعَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ لِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٢)
[بِعِنَّةِ يُوسُفَ وَوَعظُهُ لِقَوْمِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِآيَاتِنَا، قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الشُّعُ الْآيَاتُ ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أَي أَمْرُنَا قَائِلِينَ لَهُ ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَي ادْعُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ لِتُخْرِجُوا مِنَ ظُلُمَاتٍ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَبَصِيرَةِ الْإِيمَانِ، وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ أَي بِآيَاتِهِ وَنِعْمِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ وَظَلْمِهِ وَعَشْمِهِ، وَإِنجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَذَابِهِمْ، وَفَلْقِهِ لَهُمُ الْبَحْرَ، وَتَطْيِيلِهِ إِيَّاهُمْ بِالْعَمَامِ، وَإِنزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ. قَالَ ذَلِكَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَي إِنَّ فِيهَا صَعْنًا بِأَوْلِيَّائِنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ أَنْقَذْنَاهُمْ مِنْ يَدِ فِرْعَوْنَ، وَأَنْجَيْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، لَعِبْرَةٌ لِّكُلِّ صَبَّارٍ أَي فِي الضَّرَاءِ ﴿شَكُورٍ﴾ أَي فِي

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا قَاتِلِينَ إِسْرَائِيلَ مُبِينٍ ﴿١٠﴾

السَّرَاءِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: نِعْمَ الْعَبْدُ عَبْدٌ إِذَا ابْتَلِيَ صَبْرًا، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرًا^(١). وَكَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لَا يُفْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبْرًا، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرًا، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَىٰ حِينَ ذَكَرَ قَوْمَهُ بِآيَاتِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ وَنِعْمِهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ أَنْجَاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَمَا كَانُوا

(١) فتح الباري: ١/١٩٥، ١/٣٧٠ (٢) الطبري: ١٦/

٥٢١ (٣) الطبري: ١٦/٥٢٣ (٤) مسلم: ٤/٢٢٩٥

يَسْؤُمُونَهُمْ بِهِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْإِذْلَالِ، حَيْثُ كَانُوا يَذُنُونَ مَنْ وَجَدَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ، وَيَتْرُكُونَ إِيَّاهُمْ، فَأَتَقَدَّهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أَي نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ، أَنْتُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا. وَقِيلَ: وَفِيمَا كَانَ يَضَعُهُ بِكُمْ قَوْمٌ فِرْعَوْنَ مِنْ تِلْكَ الْأَقَاعِيلِ ﴿بَلَاءٌ﴾ أَي اخْتِيارٌ عَظِيمٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هَذَا وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَلَوْنَهُمْ بِالْمَسْنَدِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ﴾ أَي آذَنُكُمْ وَأَعْلَمَكُم بِوَعْدِهِ لَكُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَإِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ وَاللَّيْلُ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمُ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أَي لَئِن شَكَرْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْهَا، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أَي كَفَرْتُمْ النِّعْمَ وَسَتَرْتُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا ﴿إِنَّ عَلَيَّ لَشَيْدٌ﴾ وَذَلِكَ يَسْأَلُهَا عَنْهُمْ، وَعَقَابِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَحْرُمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»^(١).

وقوله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَلَنَكَلِفَنَّ اللَّهُ لَعْنِي حَيْدٌ﴾ أَي هُوَ غَنِيٌّ عَنِ شُكْرِ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمَحْمُودُ، وَإِنْ كَفَرَهُ مِنْ كَفْرِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَلَنَكَلِفَنَّ اللَّهُ عَنِّي عَنْكُمْ﴾... الآية [الزمر: ٧]. وقوله: ﴿فَكفُرُوا وَلَوْلَا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَيْدٌ﴾ [التغابن: ٦]. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي دَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَرُويهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجَرَ قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاجِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْجِلَ الْبُحْرُ»^(٢).

فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَنِّي الْحَمِيدُ.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾^(١)
[تَكْذِيبُ الْأَمْرِ لِرُسُلِهِمْ وَمَا دَارَ بَيْنَهُمْ]

هَذَا خَبْرٌ مُسْتَأْنَفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأَمَّةِ، فَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ قَصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمَمِ الْمُكْذِبَةِ لِلرُّسُلِ مِمَّا لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي بِالْحُجَجِ وَالِدَلَالِ الْوَاضِحَاتِ الْبَاهِرَاتِ الْقَاطِعَاتِ. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ^(٣) عَنْ عَمْرِو بْنِ مَمُونٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ كَذَبَ النَّسَابُونَ^(٤). وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: مَا وَجَدْنَا أَحَدًا يَعْرِفُ مَا بَعْدَ مَعْدُ بِنِ عَدْنَانَ^(٥).

وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ أَشَارُوا إِلَى أَفْوَاهِ الرُّسُلِ بِأَمْرِهِمْ بِالسُّكُوتِ عَنْهُمْ لَمَّا دَعَوْهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقِيلَ: بَلْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ تَكْذِيبًا لَهُمْ. وَقِيلَ: بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ سُكُوتِهِمْ عَنْ جَوَابِ الرُّسُلِ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: عَضُّوا عَلَيْهَا غِظًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَقَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ كَذَّبُوهُمْ وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ^(٦). قُلْتُ: وَيُؤَيِّدُ مُجَاهِدًا تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِتَمَامِ الْكَلَامِ ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ عَجِبُوا وَرَجَعُوا بِأَيْدِيَهُمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ^(٧) ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾... الآية، يَقُولُونَ: لَا نَصَدُقُكُمْ فِيمَا جِئْتُمْ بِهِ، فَإِنَّ عِنْدَنَا فِيهِ شَكٌّ قَوِيًّا.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُقَفِّرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنُوتُنَا يَسْطَلِنُ مِثِينَ﴾^(٨) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ يَسْطَلِنُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٩) وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

(١) أحمد: ٥/٢٨٢ (٢) مسلم: ٤/١٩٩٤ (٣) والأصل ابو إسحاق كما عند الطبري (٢٠٥٩١) وابن سعد ٤٧/١ وأبو إسحاق مدلس لم يصرح (٤) الطبري: ١٦/٥٢٨ (٥) القرطبي: ٩/٣٤٤ (٦) الطبري: ١٦/٥٣٤ (٧) الطبري: ١٦/٥٣٣ إسناده ضعيف .

الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٣﴾

[الْمُجَادَلَةُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْكَفَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا دَارَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَبَيْنَ رُسُلِهِمْ مِنَ الْمُجَادَلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّهَتَهُمْ لَمَّا وَاجَهُوهُمْ بِالشُّكِّ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَتْ الرُّسُلُ: ﴿أَفَى اللَّهِ سَكُّ﴾ أَي: أَفَى إِلَهِيَّتِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِوُجُوبِ الْعِبَادَةِ لَهُ سَكُّ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ! فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَمِ كَانَتْ مُؤَمَّرَةً بِالصَّانِعِ، وَلَكِنْ تَعُدُّ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْوَسَائِطِ الَّتِي يَطْنُونَهَا تَفْتَعُهُمْ أَوْ تَقْرُبُهُمْ مِنَ اللَّهِ زُلْفَى، وَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَسْتَعَفُّوا رَبِّكَ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يَمِيعَكُمْ مَتْنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ...﴾ [الآية (هود: ٣)]، فَقَالَتْ لَهُمُ الْأُمَمُ مُحَاجِّجِينَ فِي مَقَامِ الرَّسَالَةِ بَعْدَ تَقْدِيرِ تَسْلِيمِهِمْ الْمَقَامَ الْأَوَّلَ.

[عَدَمُ اعْتِرَافِ الْكُفَّارِ بِرِسَالَةِ الرُّسُلِ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ بَشَرًا وَحَاصِلُ مَا قَالُوهُ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أَي كَيْفَ تَتَّبِعُكُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكُمْ وَلَمَّا نَرِ مِنْكُمْ مُعْجَزَةً، ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أَي خَارِقٍ نَقْتَرِحُهُ عَلَيْكُمْ] قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ أَي صَحِيحٌ إِنْ بَشَرٌ مِثْلَكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُدْعِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَي بِالرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ عَلَىٰ وَفْقِ مَا سَأَلْتُمْ﴾ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿أَي بَعْدَ سُؤَالِنَا إِيَّاهُ وَإِذْنِهِ لَنَا فِي ذَلِكَ﴾ وَعَلَى اللَّهِ فَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، ثُمَّ قَالَتْ الرُّسُلُ: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي وَمَا يَمْنَعُنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَقَدْ هَدَانَا لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحَهَا وَأَبْيَنَهَا ﴿وَلَنْصَرِيَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أَي مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ وَالْأَفْعَالِ السَّخِيفَةِ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُّوا فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٥﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٦﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٧﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيطٍ وَمِنْ

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمِ

٢٥٧

الْمُتَوَكِّلُونَ

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴿١٢﴾ وَلَنْصَرِيَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُّوا فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٥﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٦﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٧﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيطٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

وَرَأَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

[تَهْدِيدُ الْأُمَمِ رُسُلَهُمْ وَتَبَشِيرُ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الرُّسُلِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةَ رُسُلَهُمْ مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ وَالتَّنْفِي مِنَ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾... [الآية (الأعراف: ١٨٨)]. وَكَمَا قَالَ قَوْمُ لُوطٍ: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾... [الآية (النمل: ٥٦)]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَسُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمَكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُهْلِكَوكَ أَوْ يُقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ﴾ [الأفعال: ٣٠] وَكَانَ مِنْ صُنْعِهِ تَعَالَى أَنَّهُ أَظْهَرَ رَسُولَهُ وَنَصَرَهُ، وَجَعَلَ لَهُ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا، وَجُنْدًا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَمَّ يَزِلُّ بُرْيَقِيَهُ تَعَالَى مِنْ شَيْءٍ إِلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ، وَمَكَرَ لَهُ فِيهَا، وَأَرْغَمَ أَنْوْفَ أَعْدَائِهِ

يُؤْتِي بِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتُنَادِي الْخَلَائِقَ، فَتَقُولُ: إِنِّي
وَكُلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ^(٣). الْحَدِيثُ. أَيُّ خَابٍ وَخَسِيرٍ
حِينَ اجْتَهَدَ الْأَنْبِيَاءُ فِي الْإِنْتِهَالِ إِلَى رَبِّهَا الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ وِرَائِهِ جَهَنَّمَ﴾ وَرَاءَ هُنَا بِمَعْنَى أَمَامَ، كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾
[الكهف: ٧٩] وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرُؤُهَا: (وَكَانَ أَمَامَهُمْ
مَلِكٌ). أَيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ: جَهَنَّمَ، أَيُّ هِيَ لَهُ
بِالْمُرْصَادِ يَسْكُنُهَا مَحَلَّدًا يَوْمَ الْمَعَادِ، وَيُعْرَضُ عَلَيْهَا غَدَاً
وَعَشِيًّا إِلَى يَوْمِ النَّوَادِ ﴿وَسُقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ أَيُّ فِي
النَّارِ، لَيْسَ لَهُ شَرَابٌ إِلَّا مِنْ حَمِيمٍ وَعَسَاقٍ، فَهَذَا حَارٌّ فِي
غَايَةِ الْحَرَارَةِ، وَهَذَا بَارِدٌ فِي غَايَةِ الْبُرْدِ وَالسَّنَنِ، كَمَا قَالَ:
﴿هَذَا قَلِيدُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ^(٥٧)﴾ وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاحٌ
[ص: ٥٨، ٥٧] وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: الصَّدِيدُ مِنَ الْقَيْحِ
وَالدَّمِ^(٤).

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾
[محمد: ١٥] وَيَقُولُ: ﴿وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يَغَاثُوا يَمَاءً كَأَمْهَلِ
يَسْوَى الْوُجُوهِ﴾... الآية [الكهف: ٢٩]، وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ
جَرِيرٍ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أَيُّ يَتَعَصَّصُهُ وَيَتَكَرَّهُهُ، أَيُّ يُشْرِبُهُ
فَهَرًّا وَقَسْرًا لَا يَضَعُهُ فِي فَمِهِ حَتَّى يَضْرِبَهُ الْمَلِكُ بِمِطْرَاقٍ
مِنْ حَدِيدٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ مَقْبِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾
[الحج: ٢١]، ﴿وَلَا يَكَاذُ يُسَبِّحُ﴾ أَيُّ يَزِدُّرُدُهُ لِسُوءِ
طَعْمِهِ وَلَوْنِهِ وَرِيحِهِ وَحَرَارَتِهِ، أَوْ بَرْدِهِ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ
﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَيُّ يَأْتِيهِ لُهُ جَمِيعٌ بَدَنِهِ
وَجَوَارِحِهِ وَأَعْضَائِهِ. قَالَ عَمْرُو بْنُ مِيمُونٍ بِنِ مِهْرَانَ: مِنْ
كُلِّ عَظْمٍ وَعَصَبٍ وَعَعْرَقٍ^(٦).

وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ
كُلِّ مَكَانٍ﴾ قَالَ: أَنْوَاعُ الْعَذَابِ الَّذِي يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، لَيْسَ مِنْهَا نَوْعٌ إِلَّا يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْهُ لَوْ
كَانَ يَمُوتُ، وَلَكِنْ لَا يَمُوتُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَا
يُضْنَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾^(٧) [فاطر:
٢٦] وَمَعْنَى كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ مَا مِنْ

مِنْهُمْ وَمِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ
اللَّهِ أَقْوَابًا، وَظَهَرَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَدِينُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْبَانِ،
فِي مَسَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا فِي أُنْسَرِ زَمَانٍ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ^(١٣)﴾ وَلَنَسَخِّنَكُمْ
الْأَرْضَ مِنْ بَدِهِمْ﴾ وَكَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِيدَانَا
الْمُرْسَلِينَ^(١٤)﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُتَّصِرُونَ^(١٥) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْفَالِقُونَ
[الصافات: ١٧١-١٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلْأَعْرَابِ
أَنَّا وَرُسُلِي إِنْ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ فَوْقَ عَرَبٍ﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَالَ تَعَالَى:
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾... الآية
[الأنبياء: ١٠٥]، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا
إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ
الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَسْجِدَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا آلِي بَنِي إِسْرَائِيلَ
فِيمَا وَكَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمَّا صَبَرُوا
وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا
يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ لِئِنْ خَافَ
مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أَيُّ وَعِيدِي هَذَا لِئِنْ خَافَ مَقَامِي بَيْنَ
يَدَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَخَشِيَ مِنْ وَعِيدِي وَهُوَ تَخَوُّفِي وَعَذَابِي،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى^(١٧)﴾ وَأَتَى لِحْوَةَ الدُّنْيَا^(١٨) فَإِنَّ
الْحَبِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩] وَقَالَ: ﴿وَلَيْمَنْ خَافَ
مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أَيُّ اسْتَنْصَرَتِ الرُّسُلُ رَبَّهَا عَلَى
قَوْمِهَا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ^(١). وَقَالَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ: اسْتَفْتَحَتْ الْأُمَمُ عَلَى
أَنْفُسِهَا^(٢). كَمَا قَالُوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ
عِنْدِكَ فَأَمِطْ عَلَيْنَا جِسَارَةَ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُرَادًا وَهَذَا مُرَادًا، كَمَا أَنَّهُمْ
اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاسْتَفْتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
وَاسْتَنْصَرَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنْ تَسْفِيحُوا فَقَدْ
جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾... الآية
[الأنفال: ١٩]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أَيُّ مُتَجَبَّرٍ فِي نَفْسِهِ عَنِيدٌ
مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ^(٤)﴾ مُتَّعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ^(٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَأَلْفَيْاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤-٢٦] وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّهُ

(١) الطبري: ٥٤٤، ١٦/٥٤٥ (٢) الطبري: ٥٤٥/١٦ (٣)

الترمذي: ٢٥٧٣، ٢٥٧٤ (٤) الطبري: ٥٤٨/١٦ (٥)

الطبري: ٥٤٩/١٦ (٦) الدر المنثور: ١٦/٥ إسناده

ضعيف (٧) الدر المنثور: ١٦/٥

نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ اقْتَضَى أَنْ يَمُوتَ مِنْهُ لَوْ كَانَ يَمُوتُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَمُوتُ لِيُخَلَّدَ فِي دَوَامِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْعَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أَيُّ وَلَهُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْحَالِ عَذَابٌ آخَرَ غَلِيظٌ، أَيُّ مُؤَلِّمٌ صَعْبٌ شَدِيدٌ أَغْلَظَ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ، وَأَدَهَى وَأَمْرٌ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ شَجَرَةِ الرَّقُومِ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَمِيمِ﴾ (١٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (١٥) فَإِنَّهُمُ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا قَالُونَ مِنْهَا الظُّلْمُونَ (١٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (١٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَمِيمِ (١٨) [الصفات: ٦٤-٦٨] فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَارَةً يَكُونُونَ فِي أَكْلِ رَقُومٍ، وَتَارَةً فِي شُرْبِ حَمِيمٍ، وَتَارَةً يَرُدُّونَ إِلَى حَمِيمٍ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٤٦) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٧) [الرحمن: ٤٣، ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الرَّقُومِ﴾ (٤٨) طَلْعُهَا الْأَثِيرُ (٤٩) كَأَلْمُهْلِ يَغْلِي فِي الظُّلْمُونَ (٥٠) كَعَلَى الْحَمِيمِ (٥١) حُدُودُهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَّا سَوَاءَ الْحَمِيمِ (٥٢) ثُمَّ صُوبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٥٣) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَذِيبُ الْكَرِيمُ (٥٤) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٥) [الدخان: ٤٣-٥٠] وَقَالَ: ﴿وَاصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْعَبُ الشِّمَالُ﴾ (٥٦) فِي سُورِ وَحْمِيمٍ (٥٧) وَظِلٌّ مِنْ يَمِينِهِ (٥٨) لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ (٥٩) [الواقعة: ٤١-٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا وَابِقٌ لِلظَّالِمِينَ لَشَرِّ مَقَابِلٍ﴾ (٦٠) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَسَ الْمَهَادِ (٦١) هَذَا فَلْيُدْوَوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ (٦٢) وَآخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجٌ (٦٣) [ص: ٥٥-٥٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَنْوُوعِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ، وَتَكَرُّرِهِ وَأَنْوَاعِهِ، وَأَشْكَالِهِ وَمَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَزَاءً وَفَاقًا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

الَّتِي تَرَأَى اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْبَضْتُمُ الْأُمُورَ إِلَى اللَّهِ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلِمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِيَّيَّكَ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)

كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى شَيْءٍ فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا، وَلَا أَلْفُوا حَاصِلًا إِلَّا كَمَا يُتَحَصَّلُ مِنَ الرَّمَادِ إِذَا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أَيُّ ذِي رِيحٍ شَدِيدَةٍ عَاصِفَةٍ قَوِيَّةٍ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَسَبُوا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى جَمْعِ هَذِهِ الرَّمَادِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَّتِ قُوَّةً ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْنَاهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُلْبِطُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلْتُ الْعَبِيدُ﴾ أَيُّ سَعِيهِمْ وَعَمَلِهِمْ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ وَلَا اسْتِقَامَةٍ، حَتَّى فَقَدُوا

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ وَمَا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْتُ الْعَبِيدُ﴾ (١٨)

[مَثَلٌ لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ]

هَذَا مَثَلٌ صَرَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَبَنَوْا أَعْمَالَهُمْ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ صَحِيحٍ، فَانْهَارَتْ، وَعَدِمُوهَا أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أَيُّ مَثَلُ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا طَلَبُوا ثَوَابَهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُمْ

تَوَابُهُمْ أَوْجَحَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبَعِيدُ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

[بُرْهَانُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعَادِ الْأَبْدَانِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ

خَلْقِ النَّاسِ، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَوَاتِ

فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتْسَاعِهَا وَعَظَمَتِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ

النُّوَابِتِ وَالسِّيَّارَاتِ، وَالْحَرَكَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ، وَالْآيَاتِ

الْبَاهِرَاتِ، وَهَذِهِ الْأَرْضُ بِمَا فِيهَا مِنْ مَهَادٍ وَوَهَادٍ وَأَوْتَادٍ،

وَبَرَارِيٍّ وَصَحَارَى، وَقِفَارٍ وَبِحَارٍ، وَأَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ،

وَحَيَوَانٍ عَلَى اخْتِلَافٍ أَصْنَافِهَا وَمَنَافِعِهَا وَأَشْكَالِهَا

وَأَلْوَانِهَا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ

يَعَى بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرَ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿[الأحاف: ٣٣]﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا

خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا

وَسَيِّئَ خَلْقُهُ قَالِ مَنْ يُحْيِي الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي

أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم

مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتُمْ مِنْهُ نُفُوفُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ

الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى

وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ

كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسَخِّنِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ

تَرْجِعُونَ ﴿يس: ٧٧-٨٣﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ أَيُّ بَعْظِيمٍ وَلَا

مُتَنَبِّعٍ بَلْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ أَنْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

بِآخَرِينَ عَلَى غَيْرِ صِفَتِكُمْ كَمَا قَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْشُرَ

الْفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿فاطر: ١٥-

١٧﴾ وَقَالَ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا

أَمْثَلَكُمْ ﴿محمد: ٣٨﴾ وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَيْدٍ مِنْكُمْ

عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ ﴿[المائدة: ٥٤]

وَقَالَ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِصَاحِبٍ وَكَانَ

مُحِصٍ ﴿٢١﴾﴾

[مُجَادَلَةُ التَّابِعِينَ وَالْمُتَّبِعِينَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَبَرِّزُوا﴾ أَي بَرَزَتْ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا بِرُهَا

وَفَاجِرُهَا اللَّهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ، أَي اجْتَمَعُوا لَهُ فِي بَرَازٍ مِنْ

الْأَرْضِ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَسْتُرُ أَحَدًا

﴿فَقَالَ الصَّعْتُونَ﴾ وَهُمْ الْأَتْبَاعُ لِقَادَتِهِمْ وَسَادَتِهِمْ وَكِبَرَائِهِمْ

﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَنْ

مُؤَافَقَةِ الرُّسُلِ، قَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أَي مَهْمَا

أَمَرْتُمُونَا اتَّمَرْنَا وَفَعَلْنَا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ

مِنْ شَيْءٍ﴾ أَي فَهَلْ تَدْفَعُونَ عَنَّا شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ كَمَا كُنْتُمْ

تَعْدُونَنا وَتُمِئُونَا، فَقَالَتِ الْقَادَةُ لَهُمْ: ﴿لَوْ هَدَّسْنَا اللَّهُ

لَهْدَيْتِكُمْ﴾ وَلَكِنْ حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا، وَسَبَقَ فِينَا وَفِيكُمْ

قَدْرُ اللَّهِ، وَحَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿سَوَاءٌ

عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِيٍّ﴾ أَي لَيْسَ لَنَا

خَلَاصٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ، إِنْ صَبَرْنَا عَلَيْهِ أَوْ جَرَعْنَا مِنْهُ .

قُلْتُ: وَالظَّاهِرُ: أَنَّ هَذِهِ الْمُرَاجَعَةَ فِي النَّارِ بَعْدَ

دُخُولِهِمْ إِلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ

فَيَقُولُ الصَّعْتُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ

أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿

[غافر: ٤٧، ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ

قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا

حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبْتُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ

أَصْلُونَا فَجَاءَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا

تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلَادُهُمْ لِأُخْرِبْتُمْ فَمَا كُنَّا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ

فَضْلٍ فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿[الأعراف: ٣٨، ٣٩]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا

السَّبِيلَ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا

السَّبِيلَ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا

السَّبِيلَ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا

السَّبِيلَ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا

السَّبِيلَ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا

كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ [سبا: ٣١، ٣٣].
 ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ لَكُمْ
 وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
 فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا
 أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَنْتُمْ كَاذِبُونَ مِنْ قَبْلِ إِنْ الظَّالِمِينَ
 لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّئُهُمْ
 فِيهَا سَلَامٌ ﴿٣٣﴾

[خطاب إبليس أتباعه واعتذاره إليهم يوم القيامة]
 يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَاطَبَ بِهِ إِبْلِيسَ أَتْبَاعَهُ، بَعْدَ مَا قَضَى
 اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّاتِ، وَأَسْكَنَ
 الْكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ، فَقَامَ فِيهِمْ إِبْلِيسُ - لَعْنَهُ اللَّهُ - يَوْمَئِذٍ
 حَظِيظًا لِيَزِيدَهُمْ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ، وَعَبَثًا إِلَى غَيْبِهِمْ،
 وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ
 الْحَقُّ﴾ أَي عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَوَعَدْتُكُمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ النَّجَاةَ
 وَالسَّلَامَةَ، وَكَانَ وَعْدًا حَقًّا وَخَيْرًا صِدْقًا، وَأَمَّا أَنَا
 فَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَعِدُّهُمْ
 وَمُتَّعِهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]،
 ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَي مَا كَانَ لِي
 عَلَيْكُمْ فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ دَلِيلٌ وَلَا حُجَّةٌ فِيمَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ
 ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بِمَجْرَدِ ذَلِكَ، هَذَا وَقَدْ أَقَامَتْ
 عَلَيْكُمْ الرُّسُلَ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ عَلَى صِدْقِ مَا
 جَاءَكُمْ بِهِ، فَخَالَفْتُمُوهُمْ فَصَرْتُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿فَلَا
 تَلُمُونِي﴾ الْيَوْمَ ﴿وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ﴾ فَإِنَّ الذَّنْبَ لَكُمْ لَكُمْ لَكُمْ لَكُمْ
 خَالَفْتُمْ الْحُجَجَ، وَاتَّبَعْتُمُونِي بِمَجْرَدِ مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى
 الْبَاطِلِ ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أَي بِنَافِعِكُمْ وَمُنْفِذِكُمْ
 وَمُخْلِصِكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ أَي بِنَافِعِي
 بِإِنْقَادِي مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا
 أَنْتُمْ كَاذِبُونَ مِنْ قَبْلِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: أَي سَبَبِ مَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ
 قَبْلِ^(١). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: إِنِّي جَحَدْتُ أَنْ أَكُونَ
 شَرِيكًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ الرَّاجِحُ، كَمَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ
 لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ
 كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كافرين﴾ [الأحقاف: ٦٥، ٦٦]: قَالَ:
 ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].
 وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أَي فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ

تَوْتَى أَكُلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
 لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
 كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ
 ﴿٣٦﴾ يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ
 اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
 وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٣٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسُوا
 الْقَرَارَ ﴿٣٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ
 تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٤٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْتَلَى ﴿٤١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
 بِهِ مِنَ الشَّرَايِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
 فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَارَ ﴿٤٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٤٣﴾

وَاتَّبَاعِهِمُ الْبَاطِلِ، لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَالظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ
 الْآيَةِ: أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ تَكُونُ مِنْ إِبْلِيسَ بَعْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ
 كَمَا قَدَّمَ. وَقَالَ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ: يَقُومُ حَظِيظَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ:
 ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إِلَى
 قَوْلِهِ ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قَالَ: وَيَقُومُ
 إِبْلِيسُ - لَعْنَهُ اللَّهُ - يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
 إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الْآيَةَ^(٣).

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَالَ الْأَشْقِيَاءِ وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ
 الْخُزْيِ وَالنَّكَالِ، وَأَنَّ حَظِيظَهُمْ إِبْلِيسُ، عَطَفَ بِمَالِ
 السُّعْدَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ سَارِحَةً فِيهَا حَيْثُ سَارُوا
 وَأَيْنَ سَارُوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مَا كَيْسَ أَبَدًا لَا يُحَوَّلُونَ وَلَا

(١) الطبري: ٥٦٤/١٦ (٢) الطبري: ٥٦١/١٦ (٣) الطبري:

يُرْوُونَ ﴿يَاذِنَ رَبَّهُمْ خَبِيئَتُهُمْ فِيهَا سَلَّمَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَهَا وَتَوَحَّتْ أَبْوَدُهَا وَقَالَ لَهَا خَزَنَتُهَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّتِي كَفَرْتُمْ بِهَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلَّغْتُمْ فِيهَا خَبِيئَةَ سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿دَعَوْتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَخَبِيئَتُهُمْ فِيهَا سَلَّمَ وَعَاخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ لِمَعْنَدِ اللَّهِ رَبِّ الْمَلَأِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هَذَا مَثَلُ كُفْرِ الْكَافِرِ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا ثَبَاتَ، مُشَبَّهٌ بِشَجَرَةِ الْحَنْظَلِ، وَيُقَالُ لَهَا: الشَّرِيَانُ. رَوَاهُ شُعْبَةُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّهَا شَجَرَةُ الْحَنْظَلِ^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿أَجْتَنَّتْ﴾ أَي اسْتَوْصَلَتْ ﴿مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أَي لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا ثَبَاتَ، كَذَلِكَ الْكُفْرُ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا فَرْعَ، وَلَا يَصْعَدُ لِلْكَافِرِ عَمَلٌ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ شَيْءٌ.

﴿يَبِيئُ اللَّهُ الذَّبِيبَ﴾ أَمْثُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٧٦﴾ [تَنْبِيهُتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَبِيئُ اللَّهُ الذَّبِيبَ﴾ أَمْثُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ^(٦)» وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا وَبِقِيَّةِ الْجَمَاعَةِ كُلُّهُمْ^(٧).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَيْنَاهَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَرٌ مِنَ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ أَخْرَجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ - قَالَ - : فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ، كَمَا تَسِيلُ

يُرْوُونَ ﴿يَاذِنَ رَبَّهُمْ خَبِيئَتُهُمْ فِيهَا سَلَّمَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَهَا وَتَوَحَّتْ أَبْوَدُهَا وَقَالَ لَهَا خَزَنَتُهَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّتِي كَفَرْتُمْ بِهَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلَّغْتُمْ فِيهَا خَبِيئَةَ سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿دَعَوْتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَخَبِيئَتُهُمْ فِيهَا سَلَّمَ وَعَاخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ لِمَعْنَدِ اللَّهِ رَبِّ الْمَلَأِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٧٦﴾ تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ﴾ وَيَاذِنَ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٦﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٧٧﴾

[مَثَلُ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْقَوْلِ بِالْبَاطِلِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ. ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يَقُولُ: يُرْفَعُ بِهَا عَمَلُ الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ^(١). وَهَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٢): «إِنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ عَمَلِ الْمُؤْمِنِ، وَقَوْلِهِ الطَّيِّبِ، وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ. وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ كَشَجَرَةٍ مِنَ النَّخْلِ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي كُلِّ حِينٍ وَوَقْتٍ وَصَبَاحٍ وَمَسَاءٍ».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ - أَوْ كَالرَّجُلِ - الْمُسْلِمِ لَا يَتَحَاتُّ وَرَفْهَُا صَيْفًا وَلَا شِتَاءً، وَتُوِّبِي أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ». فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ، وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ. قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَكُمُ تَتَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا، قَالَ عُمَرُ: لِأَنَّ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا^(٣).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قَالَ: هِيَ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ﴾ قِيلَ: عُذُوةٌ وَعَشِيئًا، وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ لَا يَزَالُ يُوجَدُ مِنْهَا ثَمَرٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَيْفٍ أَوْ شِتَاءٍ أَوْ

(١) الطبري: ٥٦٧/١٦ (٢) الطبري: ٥٧٢/١٦، ٥٧٣ (٣) فتح الباري: ٢٢٨/٨ (٤) الطبري: ٥٧٣/١٦ (٥) الطبري: ٥٦٩/١٦ (٦) فتح الباري: ٢٢٩/٨ (٧) مسلم: ٢٢٠١/٤ وأبو داود: ١١٢/٥ وتحفة الأحوذني: ٥٤٧/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٧٢/٦

الْفَطْرَةَ مِنْ فِي السَّمَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطِيبٍ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَوَجِدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَضَعُدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يَعْنِي - عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَبْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفِيحُونَ لَهُ، فَيَفْتَحُ لَهُ فَيَسْبِعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُبْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِيهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرُسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَاللَّبْسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ - قَالَ -: فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيْبِهَا، وَيُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرُ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَاقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ سُودَ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّةَ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَخْرَجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَعَظَبٍ - قَالَ -: فَتَفْرُقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَبْتَرِعُهَا كَمَا يَبْتَرِعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُورِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وَجِدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَضَعُدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَفْجِحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَتْ

وَرَوَى الْإِمَامُ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قُرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُعْدَانِيهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالَ: فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا» قَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرْنَا أَنَّهُ يُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ بِهِ، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ يُونُسَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُؤَدَّبِ^(٢).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا فُيِّرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَنَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: مُنْكَرٌ وَالْآخَرُ نَكِيرٌ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ

(١) أحمد: ٢٨٧/٤ (٢) أبو داود: ٥٤٦/٣ والنسائي: ٧٨/٤

وابن ماجه: ٤٩٤/١ (٣) المنتخب لعبد بن حميد: ١١٧٨ (٤)

مسلم: ٢٨٧٠ والنسائي: ٩٧/٤

ذِرَاعًا وَيَنْوَرُ لَهُ فِيهِ، وَفُتِحَ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فَيَرْدَادُ غِنَطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ تُجْعَلُ نَسَمَتُهُ فِي النَّسَمِ الطَّيِّبِ، وَهِيَ طَيْرٌ خُضِرٌ تَعْلُقُ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ، وَيُعَادُ الْجَسَدُ إِلَى مَا بَدِءَ مِنَ التُّرَابِ» وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿يُبَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٣). رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ... فَذَكَرَ جَوَابَ الْكَافِرِ وَعَدَابَهُ^(٤).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ طَاوُسٍ ﴿يُبَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الْمَسْأَلَةُ فِي الْقَبْرِ^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَيُبَيِّتُهُم بِالْخَيْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: فِي الْقَبْرِ^(٦). وَكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْرٍ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ^(٧).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرِكُمْ إِلَى النَّارِ﴾^(٨)

[مَصِيرٌ مِنْ بَدَلِ نِعْمَةِ اللَّهِ كُفْرًا]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: أَلَمْ تَعْلَمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَزَّكَوْا﴾ [النحل: ١] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣] الْبَوَارِ الْهَلَكَ، بَارَ يُورُ بَوْرًا، ﴿قَوْمًا بَوْرًا﴾ [الفرقان: ١٨] هَالِكِينَ. حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَمْرٍو عَنْ عَطَاءٍ؛ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ: ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قَالَ: هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ^(٨).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الطَّفِيلِ أَنَّ ابْنَ الْكَوَّاءِ سَأَلَ عَلِيًّا عَنِ الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ قَالَ: هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ^(٩). وَقَالَ: مُشْرِكُو قُرَيْشٍ أَتَتْهُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ: الْإِيمَانُ، فَبَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. وَالْمَعْنَى يَعُمُّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ وَنِعْمَةً لِّلنَّاسِ، فَمَنْ قَبِلَهَا وَقَامَ بِشُكْرِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ رَدَّهَا وَكَفَّرَهَا دَخَلَ النَّارَ.

(١) الترمذي: ١٠٧١ (٢) الطبري: ٥٩٦/١٦ (٣) الطبري:

٥٩٦/١٦ (٤) ابن حبان: ٤٥/٥ (٥) عبد الرزاق: ٣٤٢/٢

(٦) الطبري: ٦٠٢/١٦ (٧) الطبري: ٦٠٢/١٦ (٨) فتح

الباري: ٢٢٩/٨ (٩) الطبري: ٦/١٧

فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يَفْسُخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، وَيَنْوَرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ نَوْمَةَ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قُلْتُ مِثْلَهُمْ، لَا أُدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، فَيَقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّبِيحِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَبِحِي عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ^(١). ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يُبَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ - قَالَ -: ذَلِكَ إِذَا قِيلَ لَهُ فِي الْقَبْرِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَقْتُ، فَيَقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ، عَلَى هَذَا عِشْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ^(٢). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ الْمَيِّتَ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ حِينَ يُؤَلَّوْنَ عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتْ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالصَّوْمُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قَبِلِي مَدْخَلَ، فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قَبِلِي مَدْخَلَ، فَيُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الصَّيَامُ: مَا قَبِلِي مَدْخَلَ، فَيُؤْتَى عِنْدَ رِجْلَيْهِ فَتَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ: مَا قَبِلِي مَدْخَلَ، فَيَقَالُ لَهُ: اجْلِسْ، فَيَجْلِسُ قَدْ مَثَلَتْ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ دَنَتْ لِلْعُرُوبِ، فَيَقَالُ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسَأَلُكَ، فَيَقُولُ: دَعْنِي حَتَّى أَصْلُبَ، فَيَقَالُ لَهُ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ فَأُخْبِرْنَا عَمَّا نَسَأَلُكَ، فَيَقُولُ: وَعَمَّ نَسَأَلُونِي؟ فَيَقَالُ: أَرَأَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَاذَا تَقُولُ بِهِ، وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: أُمُحَمَّدًا؟ فَيَقَالُ لَهُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَا، فَيَقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِّتْ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَفْسُخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ

سورة إبراهيم

٢٦٠

سورة إبراهيم

وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَأَتْمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا وَاجْعَلْنِي وَمَنْ يُبْتَغَىٰ مِنْ تَبِعِي فَآئِنَهُ مَعِيَ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَاتُحْفَىٰ وَمَا تَعَلَّمُ وَمَا يَحْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾

رَزَقْتَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة: ٢٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٤﴾ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَأَتْمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ

الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

[بَيَانُ نِعْمِ اللَّهِ الْعَدِيدَةِ]

يُعَدُّ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَى خَلْقِهِ بِأَنْ خَلَقَ لَهُمُ السَّمَوَاتِ سَفْعًا مَحْفُوظًا، وَالْأَرْضَ فِرَاشًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتِ شَيْءٍ، مَا بَيْنَ ثَمَارٍ وَزُرُوعٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطَّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْمَنَافِعِ. وَسَخَّرَ الْفُلْكَ بِأَنْ جَعَلَهَا طَافِيَةً عَلَى تَيَّارِ مَاءِ الْبَحْرِ تَجْرِي

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيَّ جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ عِبَادُهُمْ مَعَهُ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتُّوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أَيَّ مَهْمَا قَدَّرْتُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَافْعَلُوا، فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أَيَّ مَرْجِعِكُمْ وَمَوَالِكُمْ إِلَيْنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَمِتْهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَطِّرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ١٧٠].

﴿قُلْ لِيَبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [الأمر بالصلاة والإنفاق]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ بِطَاعَتِهِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ، بِأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يُؤْتُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ بِأَدَاءِ الزُّكُوتِ وَالتَّقِيَّةِ عَلَى الْفَرَابَاتِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَجَابِ، وَالْمُرَادُ بِإِقَامَتِهَا هُوَ الْمُحَافَظَةُ عَلَى وَقْتِهَا وَحُدُودِهَا وَرُكُوعِهَا وَخُشُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَأَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْفَاقِ بِمَا رَزَقَ: فِي السَّرِّ أَيْ فِي الْخُفْيَةِ، وَالْعَلَانِيَةِ وَهِيَ الْجَهْرُ. وَلِيَبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ لِخَلَاصِ أَنْفُسِهِمْ ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ أَيَّ وَلَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ فِدْيَةٌ بِأَنْ يُبَاعَ نَفْسُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤَخَّرُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: لَيْسَ هُنَاكَ مِثْلَهُ خَلِيلٍ فَيَضْمَحُ عَمَّنِ اسْتَوْجِبَ الْعُقُوبَةَ عَنِ الْعِقَابِ لِمُخَالَفَتِهِ، بَلْ هُنَاكَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ. وَالْخِلَالُ مُضَدُّ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: خَالَلتُ فَلَانًا فَإِنَّا أَخَالَهُ مِثْلَهُ وَخِلَالًا^(١).

وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ فِي الدُّنْيَا بَيُوعًا وَخِلَالًا يَتَخَالَتُونَ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَنْظُرُ رَجُلٌ مَنْ يُخَالِلُ، وَعَلَامٌ يُصَاحِبُ، فَإِنْ كَانَ اللَّهُ فَلْيَدَاوِمَ، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ اللَّهِ فَيَسْقِطُ عَنْهُ^(٢). قُلْتُ: وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا بَيْعٌ وَلَا فِدْيَةٌ، وَلَوْ افْتَدَى بِمِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَوْ وَجَدَهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ صِدَاقَةُ أَحَدٍ وَلَا شَفَاعَةُ أَحَدٍ إِذَا لَقِيَ اللَّهُ كَافِرًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا

(١) الطبري: ١٢/١٧ (٢) الطبري: ١٢/١٧

[العنكبوت: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ فَعَرَفَهُ لِأَنَّهُ دَعَا بِهِ بَعْدَ بِنَائِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَأَمَّا جِبْنَ ذَهَبَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمُّهُ وَهُوَ رَضِيَ إِلَى مَكَانٍ مَكَّةَ فَإِنَّهُ دَعَا أَيْضًا فَقَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ كَمَا ذَكَرْنَا هُنَاكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مُسْتَفْصًى مُطَوَّلًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ يَبْنِي لِكُلِّ دَاعٍ أَنْ يَدْعُو لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِدُرِّيَّتِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ افْتَتِنَ بِالْأَصْنَامِ خَلَاقٍ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَهَا، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذِبُهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ، كَقَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَقَرَّرْتُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وَلَيْسَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الرَّدِّ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَجْوِزُ وَفُوعَ ذَلِكَ. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ... الآية، وَقَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ... الآية﴾ [المائدة: ١١٨]، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي، اللَّهُمَّ أُمَّتِي، اللَّهُمَّ أُمَّتِي» وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ: إِذْهَبْ يَا جَبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبِّكَ أَعْلَمُ - وَسَلِّمْ مَا يُنَبِّئُكَ؟ فَأَتَاهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ: فَقَالَ اللَّهُ: إِذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسْؤُوكَ^(١).

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُيُوتًا بِغَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا دُعَاءً ثَانٍ بَعْدَ الدُّعَاءِ الْأَوَّلِ الَّذِي دَعَا بِهِ عِنْدَمَا وُلِّيَ عَنْ هَاجِرَ وَوَلَدَيْهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ بِنَائِهِ^(٢). تَأْكِيدًا وَرَغْبَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ

عَلَيْهِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسَخَّرَ الْبَحْرَ لِحَمَلِهَا لِيَطْفَعَ الْمَسَافِرُونَ بِهَا مِنْ إِفْلِيمَ إِلَى إِفْلِيمَ آخَرَ لِيَجْلِبَ مَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ، وَمَا هُنَاكَ إِلَى هُنَا، وَسَخَّرَ الْأَنْهَارَ تَشْقَى الْأَرْضَ مِنْ فُطْرٍ إِلَى فُطْرٍ رِزْقًا لِلْعِبَادِ مِنْ شَرْبٍ وَسَقْيٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ أَيَّ بَسِيرَانِ لَا يَفْتَرَانِ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] ﴿يُعْطَى الْبَيْتَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَتَعَاقَبَانِ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَتَعَاقَبَانِ، فَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا فَيَطُولُ، ثُمَّ يَأْخُذُ الْآخَرَ مِنْ هَذَا فَيَقْصُرُ ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [القصص: ٢٩] ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: ٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ كَلِمَةٍ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يَقُولُ: هَيَّا لَكُمْ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ مِمَّا تَسْأَلُونَهُ بِحَالِكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجْزِ الْعِبَادِ عَنْ تَعْدَادِ النِّعَمِ فَضْلًا عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلَا مَوْدِعٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ رَبَّنَا»^(١).

وَقَدْ رُوِيَ فِي الْأَثَرِ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَشْكُرُكَ وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مِنْكَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الْآنَ شُكْرَتِي يَا دَاوُدُ، أَيَّ جِبْنَ اعْتَرَفْتَ بِالْتَّقْصِيرِ عَنْ أَدَاءِ شُكْرِ الْمُنْعَمِ^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

[دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَكَّةَ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِدُرِّيَّتِهِ] يَذْكُرُ تَعَالَى فِي هَذَا الْمَقَامِ مُحْتَجًّا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ بِأَنَّ الْبَلَدَ الْحَرَامَ بِمَكَّةَ إِنَّمَا وُضِعَتْ أَوَّلَ مَا وُضِعَتْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحُدَّةَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ - الَّذِي كَانَتْ عَامِرَةً بِسَبِيهِ آهَلَةً - تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ دَعَا لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ الْآيَةَ

(١) فتح الباري: ٤٩٣/٩ (٢) شعب الإيمان للبيهقي ٤/٤٤١٤ وفي نسخة ٨/٣٦٠ إسناده ضعيف وفيه صالح المرعي ضعيف.

(٣) مسلم: ١/١٩١ (٤) يفيد بل يصرح حديث البخاري رقم:

(٣٣٦٤) أن إبراهيم دعا بهذا الدعاء حينما جاء مكة لأول وهلة وترك بها إسماعيل رضيًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ

٢٦١

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمَ

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
 هَوَاءٌ ﴿٤٦﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّجِعُ
 الرَّسُلَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم
 مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٧﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ وَبَنَيْنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
 لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٨﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
 مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
 ﴿٤٩﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 ذُو انْتِقَامٍ ﴿٥٠﴾ يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
 وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥١﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
 مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٢﴾ سَرَابِيعُهُمْ مَطْمِئِنٌّ
 وَجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
 إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٤﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا
 بِهِ وَيَلْعَلُوا آثَامَهُمْ وَاللَّهُ وَاحِدٌ وَلَيْدٌ كَرُّوا أَوْلَا الْأَلْبَابِ ﴿٥٥﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ
 لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٤٦﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ
 إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٧﴾

[إِمْهَالٌ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ عَنْ غَفْلَةٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ بِأَمْحَدٍ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
 الظَّالِمُونَ، أَي لَا تَحْسَبَنَّ إِذَا أَنْظَرَهُمْ وَأَجَلَّهُمْ أَنَّهُ غَافِلٌ
 عَنْهُمْ مُهْمِلٌ لَهُمْ، لَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَى صُنْعِهِمْ، بَلْ هُوَ يُحْصِي
 ذَلِكَ وَيَعُدُّهُ عَلَيْهِمْ عَدًّا ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
 الْأَبْصَارُ﴾ أَي مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى
 كَيْفِيَّةَ قِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَعَجَلَتُهُمْ إِلَى قِيَامِ الْمَحْشَرِ،
 فَقَالَ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أَي مُسْرِعِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ
 مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [الآية: القمر: ٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ
 يَدْعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَعَسَتْ أَلْوَجُوهُ لِلْحَيِّ
 الْقَبُورِ﴾ [طه: ١٠٨-١١١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْنَادِ

وَجَلٍّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا
 لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ ﴿الْمُحَرَّمَ﴾
 أَي إِنَّمَا جَعَلْتَهُ مُحَرَّمًا لِيَتَمَكَّنَ أَهْلُهُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ عِنْدَهُ
 ﴿فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
 وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ: لَوْ قَالَ [أَفئِدَةُ النَّاسِ]
 لَأَزْدَحَمَ عَلَيْهِ فَارِسُ وَالرُّومُ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالنَّاسُ
 كُلُّهُمْ ^(١) وَلَكِنْ قَالَ: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فَاخْتَصَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ.
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أَي لِيَكُونَ ذَلِكَ عَوْنًا
 لَهُمْ عَلَى طَاعَتِكَ، وَكَمَا أَنَّهُ وَاِدْ غَيْرُ ذِي زَرْعٍ فَاجْعَلْ لَهُ
 ثَمَارًا يَأْكُلُونَهَا، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ ذَلِكَ كَمَا قَالَ: ﴿أَوْلَمْ
 تَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾
 [القصص: ٥٧] وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ
 وَبَرَكَتِهِ، أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ مَكَّةَ شَجَرَةً مُثْمِرَةً، وَهِيَ
 تُجْبَىٰ إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ مَا حَوْلَهَا اسْتِجَابَةً لِدَعَايِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٤٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
 إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٤٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ
 الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴿٥٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي
 وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٥١﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ
 أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ أَي أَنْتَ تَعْلَمُ
 قَاضِي فِي دُعَائِي، وَمَا أَرَدْتُ بِدُعَائِي لِأَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ،
 وَإِنَّمَا هُوَ الْقَضَىٰ إِلَى رِضَاكَ وَالْإِحْلَاصِ لَكَ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ
 الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، لَا يُخْفِي عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ
 فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ حَمِدَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا
 رَزَقَهُ مِنَ الْوَلَدِ بَعْدَ الْكِبَرِ، فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي
 عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أَي إِنَّهُ
 يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ، وَقَدْ اسْتَجَابَ لِي فِيمَا سَأَلْتُهُ مِنْ
 الْوَلَدِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أَي مُحَافِظًا
 عَلَيْهَا مُقِيمًا لِحُدُودِهَا ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أَي وَاجْعَلْهُمْ كَذَلِكَ
 مُقِيمِينَ لَهَا ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾ أَي فِيمَا سَأَلْتُكَ فِيهِ كُلَّهُ
 ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ لَمَّا
 تَبَيَّنَ لَهُ عِدَاوَتُهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي كُلَّهُمْ ﴿يَوْمَ
 يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أَي يَوْمَ تَحَاسِبُ عِبَادَكَ فَتَجَازِيهِمْ
 بِأَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

بِالْأَمْسِ الْمَكْدَبَةِ قَبْلَكُمْ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِمْ مُعْتَبِرٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا أَوْعِنًا بِهِمْ لَكُمْ مُزْدَجِرٌ ﴿حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُعِنُّ الذُّدْرُ﴾ [القم: ٥] وَقَدْ رَوَى شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ [ابن دابيل] أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾ قَالَ: أَخَذَ ذَلِكَ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ نَسْرَيْنِ صَغِيرَيْنِ، فَرَبَّاهُمَا حَتَّى اسْتَعْلَطَا وَاسْتَفْحَلَا وَسَبَّأَا، قَالَ: فَأَوْتَقَى رَجُلٌ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَوْتِدَ إِلَى تَابُوتٍ وَجَوَّعَهُمَا، وَقَعَدَ هُوَ وَرَجُلٌ آخَرُ فِي التَّابُوتِ، قَالَ: وَرَفَعَ فِي التَّابُوتِ عَصَاً عَلَى رَأْسِهِ اللَّحْمُ فَطَارَا، وَجَعَلَ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: أَنْظِرْ مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى كَذَا وَكَذَا حَتَّى قَالَ: أَرَى الدُّنْيَا كُلَّهَا كَأَنَّهَا دُبَابٌ. قَالَ: فَصَوَّبَ الْعَصَا، فَصَوَّبَهَا فَهَيَّطَا جَبِيعًا، قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَإِنْ كَادَ مَكْرَهُمْ لَيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ) (١) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (وَإِنْ كَادَ مَكْرَهُمْ).

وَذَكَرَ مُجَاهِدٌ هَذِهِ الْقِصَّةَ عَنْ بُحْتَنَصَرَ، وَأَنَّهُ لَمَّا انْقَطَعَ بَصَرُهُ عَنِ الْأَرْضِ وَأَهْلَيْهَا، نُودِيَ: أَيُّهَا الطَّاعِيَةُ أَيْنَ تَرِيدُ؟ فَفَرَّقَ ثُمَّ سَمِعَ الصَّوْتِ فَوْقَهُ، فَصَوَّبَ الرِّمَاحَ فَصَوَّبَتِ النُّسُورُ، فَفَزَعَتِ الْجِبَالَ مِنْ هَدْيَتِهَا، وَكَادَتِ الْجِبَالَ أَنْ تَرْزُلُوا مِنْ جِسِّ ذَلِكَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لَيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾ (٥).

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا - (لَيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ) بِفَتْحِ اللَّامِ الْأُولَى وَصَمَّ الثَّانِيَةَ. وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لَيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾ يَقُولُ: مَا كَانَ مَكْرَهُمْ لَيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ. وَوَجَّهَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ شَرِكِهِمْ بِاللَّهِ وَكُفْرِهِمْ بِهِ، مَا ضَرَّ سَيِّئًا مِنَ الْجِبَالَ وَلَا غَيْرِهَا، وَإِنَّمَا عَادَ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، قُلْتُ: وَبُيِّنَ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِهَا مَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لَيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾ يَقُولُ: شَرِكُهُمْ. كَقَوْلِهِ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ

بِرُكَاةٍ﴾... الْآيَةُ [المعارج: ٤٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: رَافِعِي رُءُوسِهِمْ (١). ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أَيُّ أَبْصَارُهُمْ طَائِرَةٌ شَاحِصَةٌ يَدِيمُونَ النَّظَرَ، لَا يَطْرُقُونَ لِحِظَةً لِكَثْرَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْهَوَلِ وَالْفِكْرَةِ. وَالْمَخَافَةُ لِمَا يَحِلُّ بِهِمْ، عِبَادًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَفِيدَتْهُمْ مَوَاتٌ﴾ أَيُّ وَقُلُوبُهُمْ خَاوِيَةٌ خَالِيَةٌ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ لِكَثْرَةِ الْوَجَلِ وَالْخَوْفِ، وَلِهَذَا قَالَ فَتَادَةٌ وَجَمَاعَةٌ: إِنَّ أَمَكِنَّةَ أَفِيدَتِهِمْ خَالِيَةٌ لِأَنَّ الْقُلُوبَ لَدَى الْحَنَاجِرِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ أَمَاكِنِهَا مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ (٢). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ نَحْنُ نَدْعُوكَ وَنَسْتَجِيعُ الرُّسُلَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّن رَّوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لَيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ ﴿٤٦﴾﴾ [الآيَةُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعَذَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ قَبِيلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ: ﴿رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ نَحْنُ نَدْعُوكَ وَنَسْتَجِيعُ الرُّسُلَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿حَقِّقْ إِذَا جَاءَ أَعْدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾... الْآيَةُ [المؤمنون: ٩٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَأْتِيَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا لِيُكْفَرُوا مِنْكُمْ﴾ [الآيَاتِينَ [المنافقون: ٩-١٥]، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُخْرِبُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾... الْآيَةُ [السجدة: ١٢] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا بَلَيْنَا نَرُدُّ وَلَا نَكُذِّبُ بِإِذِنِ رَبِّنَا﴾... الْآيَةُ [الأنعام: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾... الْآيَةُ [فاطر: ٣٧]، قَالَ تَعَالَى رَادًا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا: ﴿أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ رَّوَالٍ﴾ أَيُّ أَوْ لَمْ تَكُونُوا تَحْلِفُونَ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ أَنَّهُ لَا رَوَالٍ لَكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا مَعَادَ وَلَا جَزَاءَ؟ فَذُقُوا هَذَا بِذَلِكَ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ رَّوَالٍ﴾ أَيُّ مَا لَكُمْ مِنْ انْتِقَالٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ (٣).

كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾... الْآيَةُ [النحل: ٣٨]، ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ أَيُّ قَدْ رَأَيْتُمْ وَبَلَّغْتُمْ مَا أَخْلَلْنَا

(١) الطبري: ٣٢، ٣١/١٧ (٢) الطبري: ٣٤/١٧ (٣)

الطبري: ٣٦/١٧ (٤) الطبري: ٣٩/١٧ إسناده ضعيف لجهالة

عبدالرحمن بن دابيل وقيل ابن أذنان (٥) الطبري: ٣٩/١٧

مِنَهُ... الآية [مريم: ٩٠] (١). وَهَكَذَا قَالَ الصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ (٢).

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعَدْوَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٧) **يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴿٨﴾

[لَا يُخْلِيفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرَّرًا لِعُدْوِهِ وَمَوْكِدًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعَدْوَهُ رُسُلَهُ﴾ أَي مِنْ نَصْرِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ذُو عِزَّةٍ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ، وَلَا يُعَالَبُ، وَذُو انْتِقَامٍ مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَجَحَدَهُ ﴿وَبُرِّزُوا لِلَّهِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المرسلات: ١٥]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ أَي وَعَدُوهُ هَذَا حَاصِلٌ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ، وَهِيَ هَذِهِ عَلَى غَيْرِ الصِّفَةِ الْمَأْلُوفَةِ الْمَعْرُوفَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ» (٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ قَالَتْ: قُلْتُ: أَيَّنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «عَلَى الصَّرَاطِ» (٤). رَوَاهُ مُسْلِمٌ مُتَّفَرِّدًا بِهِ دُونَ الْبُخَارِيِّ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ بِنَ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَهُ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا، فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدَعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي». فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْئًا إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنِي، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعُودَ مَعَهُ فَقَالَ: «سَلْ» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيَّنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ» قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَارَةً؟ فَقَالَ: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ». فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «زِيَادَةُ كَيْدِ الثُّونِ»

قَالَ: فَمَا غَدَاؤُهُمْ فِي إِنْرَاهَا؟ قَالَ: «يُنْحَرُ لَهُمْ نُورُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا» قَالَ: فَمَا سَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «مَنْ عَيْنَ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ. قَالَ: «أَيَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنِي. قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ، قَالَ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَيْضٌ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَضْفَرٌ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَيِّئُ الرَّجُلِ مَيِّئُ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا عَلَا مَيِّئُ الْمَرْأَةِ مَيِّئُ الرَّجُلِ، أَثْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ» قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ. وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ ثُمَّ أَنْصَرَفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِي اللَّهُ بِهِ» (٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أَي خَرَجَتْ الْخَلَائِقُ جَمِيعًا مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ ﴿الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أَي الَّذِي فَهَرَّ كُلَّ شَيْءٍ وَعَلَبَهُ وَدَانَتْ لَهُ الرِّقَابُ وَخَصَعَتْ لَهُ الْأَلْيَابُ.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٩) سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَعَنَّى وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿١٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾

[أَحْوَالُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ وَتَبَرَّرَ الْخَلَائِقُ لِدَيَانِهَا، تَرَى يَا مُحَمَّدُ يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمِينَ وَهُمْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ﴿مُقَرَّبِينَ﴾ أَي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَدْ جُمِعَ بَيْنَ النَّظَرَاءِ - أَوِ الْأَشْكَالِ - مِنْهُمْ، كُلُّ صِنْفٍ إِلَى صِنْفٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْرَجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢] وَقَالَ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] وَقَالَ: ﴿وَإِنَّا أَلْفَاؤٌ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وَقَالَ: ﴿وَاللَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ (١٢) وَآخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ [ص: ٣٧، ٣٨] وَالْأَصْفَادُ هِيَ الْقَيْدُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْأَعْمَشُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ (٧) وَهُوَ مَشْهُورٌ فِي اللُّغَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ أَي تِيَابُهُمُ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا مِنْ قَطْرَانٍ، وَهُوَ الَّذِي تُهَنَأُ بِهِ الْإِبِلُ أَيْ تُطْلَى. قَالَ قَتَادَةُ:

(١) الطبري: ٤١/١٧ (٢) الطبري: ٤١/١٧ (٣) فتح الباري:

٣٧٩/١١ ومسلم: ٤/٢١٥٠ (٤) أحمد: ٣٥/٦ (٥) مسلم:

٤/٢١٥٠ وتحفة الأحوذى: ٥٤٨/٨ وابن ماجه: ١٤٣٠/٢ (٦)

مسلم: ٣١٥ (٧) الطبري: ٥٤، ٥٣/١٧

وَهُوَ أَلَصَقُ شَيْءٍ بِالنَّارِ .

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: الْقَطْرَانُ هُنَا التُّحَاسُ الْمُدَابُّ (١). وَرَبَّمَا قَرَأَهَا: (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِيرِ أَنْ) أَيُّ مِنْ نُحَاسٍ حَارٌّ قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ (٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَعَسَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَجَمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ: أَنَّ أَبَانَ بْنَ يَزِيدٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي سَلَامٍ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهَا: الْفُحْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالتُّجُومِ، وَالتَّيَاحَةُ عَلَى الْمَيْتِ، وَالتَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ مَوْتِهَا، تَقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ وَدَرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» (٣). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ (٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عملُوا﴾... الآية [النجم: ٣١] ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ فِي حَالِ مُحَاسَبَتِهِ لِعِبْدِهِ سَرِيعُ التَّجَازِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَإِنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ بِالنَّسَبِ إِلَى قُدْرَتِهِ كَالْوَاحِدِ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْئِيسٌ وَاحِدٌ﴾ [القمان: ٢٨] وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إِخْصَاءً.

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥)

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا الْقُرْآنُ بَلَاغٌ لِلنَّاسِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَذَكَّرُ بِهِ وَمَنْ يَلِكْ﴾ [الانعام: ١٩] أَيُّ هُوَ بَلَاغٌ لِيَجْمَعَ الْخَلْقَ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية [إبراهيم: ١]، ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ أَيُّ لِيَعْتَظُوا بِهِ ﴿وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أَيُّ يَسْتَدِلُّوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالدَّلَالَاتِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيُّ ذُوو الْعُقُولِ. أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

سُورَةُ الْحَجَرِ

٢٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِلَكْ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَمَا كُنَّا بِمَعْلُومٍ ﴿٤﴾ مَا نَسِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا نَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نَزَّلَ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِجَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسَلُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَحَصْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ أَبْصُرْنَا بِهِنَّ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجَرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّتِلَكْ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١) رَبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا

وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ (٣)

﴿لِيَتَمَنَّى الْكُفَّارُ فِي وَقْتٍ مَا أَنْ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية، إِخْبَارٌ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَنْدُمُونَ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُسْلِمِينَ. وَقَالَ سَقِيَانُ الثَّوْرِيِّ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كَهَيْلٍ، عَنْ أَبِي الزَّرْعَاءِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قَالَ:

(١) الطبري: ٥٦/١٧ (٢) الطبري: ٥٦، ٥٥/١٧ (٣) أحمد:

٣٤٢/٥ (٤) مسلم: ٢/٤٤٤

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَتَّبْنَا اللَّيْلَ فِيهَا
 وَحَفِظْنَا بِهَا مِنَ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ
 فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
 رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا
 مَعْيِشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقَيْنِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
 خَزَائِنُهُ. وَمَا نُنزِلُ إِلَّا الْإِقْبَادَ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ
 لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُومَهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ
 بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
 وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ﴿٢٤﴾
 وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
 مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ تَارِ
 السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ
 صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَاذْأَسْوَيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ
 رُوحِي فَقَعْوَاهُ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
 أَجْمَعُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنَ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٠﴾

هَذَا فِي الْجَهَنَّمِيِّينَ إِذَا رَأَوْهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ ^(١). وَرَوَى
 ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَسْبَبَ بِنَ مَالِكٍ كَانَا يَتَأَوَّلَانِ هَذِهِ
 الْآيَةَ ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ يَتَأَوَّلَانِهَا:
 يَوْمَ يَحْسِبُ اللَّهُ أَهْلَ الْخَطَايَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ
 فِي النَّارِ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُمُ الْمُشْرِكُونَ: مَا أَعْنَى عُنْكُمْ مَا
 كُنْتُمْ تَعُدُّونَ فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَغْضَبُ اللَّهُ لَهُمْ بِفَضْلِ
 رَحْمَتِهِ فَيُخْرِجُهُمْ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ،
 وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى
 النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ
 تُجْرَمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلَ﴾ أَيِ
 عَنِ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ أَيِ عَاقِبَتِهِمْ أَمْرِهِمْ.
 ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَهَلَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ مَا تَسْقُ مِنْ
 أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْرُونَ ﴿٥﴾

[كُلُّ قَرِيْبَةٍ أَجَلٌ يَتِمُّ بِإِلَهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ قَرِيْبَةٍ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا
 وَانْتِهَاءِ أَجْلِهَا، وَأَنَّهُ لَا يُؤَخَّرُ أُمَّةٌ حَانَ هَلَاكُهَا عَنْ مِيقَاتِهِمْ
 وَلَا يَتَّقِدُّمُونَ عَنْ مُدَّتِهِمْ، وَهَذَا تَنْبِيْهُ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْسَادٌ لَهُمْ
 إِلَى الْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِلْحَادِ
 الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْهَلَاكَ.

﴿وَقَالُوا يَتَأَيَّأُ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿١﴾ لَوْ مَا
 تَأَيَّأْنَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ
 إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
 لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

[رَمَى الرَّسُولَ بِأَنَّهُ مَجْنُونٌ وَطَلَبَ نَزْلَ الْمَلَائِكَةِ
 وَالرَّدَّ عَلَيْهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِهِمْ وَعَتْوِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ:
 ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أَيِ الَّذِي يَدْعَى ذَلِكَ ﴿إِنَّكَ
 لَمَجْنُونٌ﴾ أَيِ فِي دُعَائِكَ إِيَّانَا إِلَى اتِّبَاعِكَ وَتَرْكِ مَا وَجَدْنَا
 عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿لَوْ مَا﴾ أَيِ هَلَا ﴿تَأَيَّأْنَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ أَيِ يَشْهَدُونَ
 لَكَ بِصِحَّةِ مَا جِئْتَ بِهِ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. كَمَا قَالَ
 فِرْعَوْنُ: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
 الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَجْرُمُونَ
 لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي
 أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿١١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ

لِلْمُجْرِمِينَ وَيُقُولُونَ جِئْنَا بِحُجْرٍ مَجْجُورٍ﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢] وَكَذَا قَالَ
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا
 مُنْظَرِينَ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا
 بِالْحَقِّ﴾ بِالرِّسَالَةِ وَالْعَذَابِ ^(٣). ثُمَّ قَرَّرَ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَهُوَ الْحَافِظُ لَهُ مِنَ التَّغْيِيرِ
 وَالتَّحْدِيلِ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٢﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ
 إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ
 الْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾
 [اسْتَهْزَاءُ مُشْرِكِي كُلِّ أُمَّةٍ بِرُسُلِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ
 كُفَّارِ قُرَيْشٍ: إِنَّهُ أَرْسَلَ مِنْ قَبْلِهِ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَإِنَّهُ مَا
 أَتَى أُمَّةً مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبُوهُ وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ

(١) الطبري: ١٧/٦٢ (٢) الطبري: ١٧/٦٢ (٣) الطبري:

سَلَكَ التَّكْذِيبَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ عَانَدُوا
وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَى. قَالَ أَنَسٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:
﴿كَذَلِكَ نَسَلَكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يَعْنِي الشُّرَكَ^(١).
وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي قَدْ عَلِمَ مَا فَعَلَ تَعَالَى
بِمَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ مِنَ الْهَالِكِ وَالذَّمَّارِ، وَكَيْفَ أَنْجَى اللَّهُ
الْأَنْبِيَاءَ وَاتَّبَاعَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾^(٢) لَقَالُوا
إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَنَّا قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ^(٣) ﴿
الْمُعَانِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ لَا يُؤْمِنُونَ مَهْمَا رَأَوْا

مِنَ الْآيَاتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُوَّةِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ
أَنَّهُ لَوْ فَتَحَ لَهُمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَجَعَلُوا يَصْعَدُونَ فِيهِ لَمَا
صَدَّقُوا بِذَلِكَ، بَلْ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ قَالَ
مُجَاهِدٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَالضَّحَّاكُ: سُدَّتْ أَبْصَارُنَا^(٤). وَقَالَ
قَتَادَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أُحْذِثْ أَبْصَارُنَا. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ
ابْنِ عَبَّاسٍ: شُبِّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّمَا سُحِرْنَا^(٥). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ:
﴿سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ السُّكْرَانُ الَّذِي لَا يَعْقِلُ.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبَّتْهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾^(٦) وَحَفِظْنَاهَا
مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ^(٧) ﴿إِلَّا مَن اسْتَرَفَّ اسْتَعْمَ فَأَنعَمَ شِهَابٌ
مُّبِينٌ^(٨)﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِيسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن
كُلِّ شَيْءٍ مَّوْرُوثٍ^(٩) ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ
بِرِزْقِينَ^(١٠)﴾

[قُدْرَةُ اللَّهِ وَآيَاتُهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ السَّمَاءِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَمَا رَبَّتْهَا بِهِ مِنْ
الْكُوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسِّيَّارَاتِ، لِمَنْ تَأَمَّلَ وَكَرَّرَ النَّظَرَ فِيهَا
يُرَى مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ، مَا يُحَارُ نَظْرُهُ فِيهِ،
وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: الْبُرُوجُ هُنَا هِيَ الْكُوَاكِبُ^(٤).
(قُلْتُ): وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي
السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾... الْآيَةُ [الفرقان: ٦١]. وَقَالَ عَطِيَّةُ
الْعَوْفِيُّ: الْبُرُوجُ هُنَا هِيَ قُصُورُ الْحَرَسِ^(٥). وَجَعَلَ
الشُّهْبَ حَرَسًا لَهَا مِنْ مَرَدَّةِ الشَّيَاطِينِ لِئَلَّا يَسْمَعُوا إِلَى
الْمَلَأِ الْأَعْلَى، فَمَنْ تَمَرَّدَ وَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ لِاسْتِزْوَاقِ السَّمْعِ
جَاءَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ فَأَنعَمَهُ، فَرُبَّمَا يَكُونُ قَدْ أَلْقَى الْكَلِمَةَ الَّتِي
سَمِعَهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ الشُّهَابُ إِلَى الَّذِي هُوَ دُونَهُ،
فَيَأْخُذُهَا الْآخَرُ وَيَأْتِي بِهَا إِلَى وِلِيِّهِ، كَمَا جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ
فِي الصَّحِيحِ.

كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ
ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ
عَلَى صَفْوَانٍ» قَالَ عَلِيُّ وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٌ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ،
فَإِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا - لِلَّذِي
قَالَ - الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مَسْتَرْفُونَ
السَّمْعَ، وَمُسْتَرْفُونَ السَّمْعَ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ، وَوَصَفَ
سُفْيَانٌ بِيَدِهِ، وَفَرَجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدَيْهِ الْيُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضَهَا
فَوْقَ بَعْضٍ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشُّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ
بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقُهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يَدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا
إِلَى الَّذِي يَلِيهِ إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقَوْهَا إِلَى
الْأَرْضِ، وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانٌ: حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ فَتُلْقَى
عَلَى فَمِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ
فَيَصُدِّقُ، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا
وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا - لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ^(٦).
ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَهُ الْأَرْضَ وَمَدَّهَ إِثَابَهَا وَتَوَسُّعَهَا وَبَسْطَهَا،
وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي، وَالْأَوْدِيَةِ،
وَالْأَرَاضِي، وَالرَّمَالِ، وَمَا أَنْبَتَ فِيهَا مِنَ الزَّرُوعِ وَالثَّمَارِ
الْمُنْتَسِبَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْرُوثٍ﴾ أَي مَعْلُومٌ،
وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَأَبُو مَالِكٍ وَمُجَاهِدٌ
وَالْحَكَمُ بْنُ عَتِيْبَةَ وَالْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَأَبُو صَالِحٍ
وَقَتَادَةُ^(٧). وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى
أَنَّهُ صَرَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ فِي صُنُوفِ الْأَشْيَابِ وَالْمَعَايِشِ
وَهِيَ جَمْعُ مَعْيِشَةٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ بِرِزْقِينَ﴾ قَالَ
مُجَاهِدٌ: هِيَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ^(٨). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُمْ
الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ وَالِدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ، وَالْقَصْدُ أَنَّهُ تَعَالَى يَمْتَنُّ
عَلَيْهِمْ بِمَا يَسَّرَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْمَكَايِبِ وَوُجُوهِ الْأَشْيَابِ
وَصُنُوفِ الْمَعَايِشِ، وَبِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي
يُرْكَبُونَهَا، وَالْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا، وَالْعَبِيدَ وَالْإِمَاءَ الَّتِي
يَسْتَحْدِمُونَهَا، وَرِزْقَهُمْ عَلَى خَالِقِهِمْ لَا عَلَيْهِمْ، فَلَهُمْ هُمْ
الْمَنْفَعَةُ، وَالرِّزْقُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى^(٩).

(١) الطبري: ٧٠/١٧ (٢) الطبري: ٧٤/١٧ (٣) الطبري:

٧٥/١٧ حكم العوفي تقدم (٤) الطبري: ٧٧/١٧ (٥) البغوي:

٤٥/٣ (٦) فتح الباري: ٢٣١/٨ (٧) الطبري: ٧٩/١٧-٨١

(٨) الطبري: ٨٢/١٧ (٩) الطبري: ٨٢/١٧

[الواقعة: ٦٨-٧٠] وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]. وقوله: ﴿وَمَا أَنْشَأْ لَكُمْ بَحْرَيْنِ﴾ أي وما أنتم له بحافظين، بل نحن أنزلناه وحفظناه عليكم، ونجعله معيناً ويتابع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزلناه وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، لينقي لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وبمازهم.

[بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ]

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾... الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الماستقدمون كل من هلك من لذن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة^(١). وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والسعبي وغيرهم وهو اختيار ابن جرير رحمه الله^(٢).

وروى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه أنه سمع عون بن عبد الله يذاكر محمد بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ وأنهما في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ ألميت والمقتول ﴿وَالْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ من يخلق بعد ﴿وَإِن رَّبِّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فقال عون بن عبد الله: وفكك الله وجزأك خيرا^(٣).
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الإنسان: ١٦] والجان خلقته من قبل من نار السمور^(٤).

(١) الطبري: ٨٤/١٧ إسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد (٢) الطبري: ٨٦/١٧ المعجم الكبير للطبراني ٩٠٨٠/٩
(٣) الطبري: ٨٨، ٨٧/١٧ (٤) الطبري: ٨٨/١٧ (٥) الطبري: ٨٨/١٧ (٦) الطبري: ٩١/١٧ (٧) الطبري: ١٧/٩٠-٩٢ (٨) الطبري: ٩٠/١٧ إسناده ضعيف لضعف أبي معشر نجح بن عبدالرحمن (تقريب)

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [١٦] وأرسلنا الريح لوفع فأزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنشأ لكم بحرين^(١) وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الأوتون^(٢) ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخريين^(٣) وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم^(٤).
[خزائن كل شيء عند الله]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، وَأَنَّ عِنْدَهُ خَزَائِنُ الْأَشْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الصُّنُوفِ ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ كَمَا نَشَاءُ وَكَمَا يُرِيدُ، وَلَمَّا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ لَا عَلَى جِهَةِ الْوُجُوبِ، بَلْ هُوَ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، قَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ عَنْ أَبِي جَحِيْفَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ: مَا مِنْ عَامٍ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنْ اللَّهُ يُسَمِّهُ بَيْنَهُمْ حَيْثُ شَاءَ عَامًا هَهُنَا وَعَامًا هَهُنَا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ الآية^(١). رواه ابن جرير.

[مَنْفَعَةُ الرِّيحِ]

وقوله تعالى: ﴿وَأرسلنا الريح لوفع﴾ أي تلعف السحاب فتدثر ماء، وتلعف الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردتها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج، لأنه لا يكون إلا من شئتين فصاعداً.

وعن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأرسلنا الريح لوفع﴾ قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة^(١). وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة^(٢). وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلعفها فيمتليء ماء^(٣). وقال عبيد بن عمير اللثبي: يبعث الله المبررة فتقم الأرض قما، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتولف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلعف الشجر، ثم تلا: ﴿وَأرسلنا الريح لوفع﴾^(٤).

[الْمَاءُ الْعَذْبُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ]

وقوله: ﴿فَأَسْقِينَاكُمْ﴾ أي أنزلناه لكم عذباً يميتكم أن تشربوا منه لو نشاء جعلناه أجاجاً، كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [١٨] ما أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون^(١) لو نشاء جعلناه أجاجاً فولا تشكرونا^(٢)

[مَادَّةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْجَنِّ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: الْمُرَادُ بِالصَّلْصَالِ هُهْنَا التَّرَابُ الْيَابِسُ^(١). وَالظَّاهِرُ: أَنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(٢) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ [الرحمن: ١٤، ١٥] وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا «صَلْصَلٍ» أَلْمُتَّيْنِ^(٣). وَتَفْسِيرُ الْآيَةِ بِالْآيَةِ أَوْلَى. قَوْلُهُ: «مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ» أَي الصَّلْصَالُ مِنْ حَمِيٍّ، وَهُوَ الطِّينُ. وَالْمَسْنُونُ: الْأَمْلَسُ. وَقَوْلُهُ: «وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ» أَي مِنْ قَبْلِ الْإِنْسَانِ «مِنْ نَارِ السَّمُومِ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ السَّمُومُ الَّتِي تَقْتُلُ^(٤). وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَمْرِ الْأَصَمِّ أَعُوذُهُ، فَقَالَ: أَلَا أَدْعُوكَ حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: هَذِهِ السَّمُومُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ السَّمُومِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا الْجَانُّ، ثُمَّ قَرَأَ: «وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ»^(٥): وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(٥). وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ التَّنْبِيهُ عَلَى شَرَفِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطَيْبِ عُنُورِهِ وَطَهَارَةِ مَخْتَبِهِ.

﴿وَأَدَّ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾^(١٨) فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ يَبْرَأِيلُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٣﴾

[خُلِقَ آدَمُ وَأَمْرُ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَتَمَرُّدُ إِبْلِيسَ] يَذْكُرُ تَعَالَى تَنْبِيْهُهُ بِذِكْرِ آدَمَ فِي مَلَائِكَتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ وَتَشْرِيفَهُ إِيَّاهُ بِأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَيَذْكُرُ تَخَلُّفَ إِبْلِيسَ عَدُوِّهِ عَنِ السُّجُودِ لَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا وَافْتِخَارًا بِالْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ كَقَوْلِهِ: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» [ص: ٧٦] وَقَوْلِهِ: «أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ... الْآيَةَ [الإسراء: ٦٢].

﴿قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِائِكَ رَجِيمًا﴾^(٢٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٨﴾

سُورَةُ الْحَجَرِ

٢٦٤

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿قَالَ يَبْرَأِيلُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢٣) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٣﴾ قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِائِكَ رَجِيمًا ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَرْسِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَالَوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ لِيَلْمُسُهُمْ فِيهَا نَضَبٌ وَمَاهُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٧﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٨﴾ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٤٩﴾ وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾

[إِخْرَاجُ إِبْلِيسَ مِنْ مَقَامِهِ عِنْدَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَإِمهَالُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَمَرَ إِبْلِيسَ أَمْرًا كَثِيرًا لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَأَنَّهُ «رَجِيمٌ» أَي مَرْجُومٌ، وَأَنَّهُ قَدْ أَتْبَعَهُ لَعْنَةً لَا تَزَالُ مُتَّصِلَةً بِهِ لِأَحِقَّةَ لَهُ، مُتَوَاتِرَةً عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا لَعَنَ اللَّهُ إِبْلِيسَ، تَغَيَّرَتْ صُورَتُهُ عَنْ صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ، وَرَدَّ رَتَّهُ، فَكُلَّ رَتَّهُ فِي الدُّنْيَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْهَا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَرْسِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَالَوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ

(١) الطبري: ٩٦/١٧ (٢) الطبري: ٩٧/١٧ (٣) الطبري: ٩٩/١٧ (٤) الطبري: ٢١/١٦ (٥) مسلم: ٤/٢٢٩٤

بَابِ مَنَّهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿١٧﴾

تَحَدِّيْ اِبْلِيسَ بِالْاِغْوَاءِ، وَوَعِيْدُ اللّٰهِ لَهُ

بِحُجَّتِهِمْ]

يَقُوْلُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اِبْلِيسَ وَتَمَرُّدِهِ وَعَوُوْهُ اَنَّهُ قَالَ لِلرَّبِّ: ﴿يَا اَعُوْبِيْنِيْ﴾ اَيُّ سَبَبٍ مَا اَعُوْبِيْنِيْ وَاَصْلَلْتَنِيْ ﴿لَا ذِيْنَ لَهُمْ﴾ اَيُّ لِيْذَرِيَّةِ اَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فِي الْاَرْضِ﴾ اَيُّ اَحَبُّ اِلَيْهِمُ الْمَعَاصِي وَارْعَاهُمْ فِيْهَا وَاُوْرْهُمْ اِلَيْهَا، وَاَزْعَجُهُمْ اِلَيْهَا اِذْعَاجًا ﴿وَلَا اَعُوْبِيْنَهُمْ اَجْمَعِيْنَ﴾ اَيُّ كَمَا اَعُوْبِيْنِيْ وَقَدَّرْتَ عَلَيَّ ذٰلِكَ ﴿اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِيْنَ﴾ ﴿كَقَوْلِهِ: ﴿اَرَبُّنَا هٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِيْنَ اَخْرَجْتَ اِلَى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لِاٰخِنِكَ ذَرِيَّتَهُ اِلَّا قَلِيْلًا﴾ [الاسراء: ٦٢] ﴿قَالَ﴾ اللّٰهُ تَعَالَى لَهُ مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعَّدًا ﴿هٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيْمٌ﴾ اَيُّ مَرَجِعُكُمْ كُلُّكُمْ اِلَيَّ، فَاُجَازِيْكُمْ بِاَعْمَالِكُمْ اِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَاِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اِنَّ رَدِّكَ لِيَا لَمِرْصَادٍ﴾ [النحل: ٩]. كَقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِيْلِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿اِنَّ عِبَادِيْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ﴾ اَيُّ الَّذِيْنَ قَدَّرْتُ لَهُمُ الْهٰدِيَّةَ فَلَا سَبِيْلَ لَكَ عَلَيْهِمْ وَلَا وُضُوْلَ لَكَ اِلَيْهِمْ ﴿اِلَّا مَنْ اَتٰكَ مِنَ الْعٰوِيْنَ﴾ اِسْتِثْنَاءٌ مُّقْطِعٌ. وَقَدْ اُوْرَدَ ابْنُ جَرِيْرٍ هُنَا عَنْ يَزِيْدِ بْنِ قُسَيْطٍ قَالَ: كَانَتْ الْاَنْبِيَاءُ يَكُوْنُ لَهُمْ مَسَاجِدُ خَارِجَةً مِنْ قُرَاهِمُ، فَاِذَا اَرَادَ النَّبِيُّ اَنْ يَسْتَنْبِيءَ رَبَّهُ عَنْ شَيْءٍ خَرَجَ اِلَى مَسْجِدِهِ فَصَلَّى مَا كَتَبَ اللّٰهُ لَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ مَا بَدَأَ لَهُ، فَيَبِيْنًا نَبِيًّا فِيْ مَسْجِدِهِ اِذْ جَاءَ عَدُوُّ اللّٰهِ - يَعْنِيْ اِبْلِيسَ - حَتَّى جَلَسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَبِيْلَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ: اَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيْمِ، [فَقَالَ عَدُوُّ اللّٰهِ: اَرَأَيْتَ الَّذِي تَعُوذُ مِنْهُ فَهُوَ هُوَ فَقَالَ النَّبِيُّ: اَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيْمِ] قَالَ: فَرَدَّدَ ذٰلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ عَدُوُّ اللّٰهِ: اٰخِرِيْنِيْ بِاَيِّ شَيْءٍ تَنْجُوْنِيْ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ: بَلْ اٰخِرِيْنِيْ بِاَيِّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ اَدَمَ [مَرَّتَيْنِ]؟ فَاَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَيَّ صَاحِبِيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ: اِنَّ اللّٰهُ تَعَالَى يَقُوْلُ: ﴿اِنَّ عِبَادِيْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ اِلَّا مَنْ اَتٰكَ مِنَ الْعٰوِيْنَ﴾. قَالَ عَدُوُّ اللّٰهِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذَا قَبْلَ اَنْ تُوْلَدَ. قَالَ النَّبِيُّ: وَيَقُوْلُ اللّٰهُ: ﴿وَاِنَّمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطٰنِ نَزْعٌ فَاَسْعُدْ بِاللّٰهِ اِنَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ﴾ [الاعراف: ٢٠٠] وَاِنِّيْ وَ اللّٰهُ مَا اَحْسَسْتُ بِكَ قَطُّ اِلَّا اسْتَعَدْتُ بِاللّٰهِ مِنْكَ. قَالَ عَدُوُّ اللّٰهِ: صَدَقْتَ بِهٰذَا تَنْجُوْنِيْ، فَقَالَ النَّبِيُّ: اٰخِرِيْنِيْ بِاَيِّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ اَدَمَ؟

قَالَ: اٰخَذُهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَالْهَوَىٰ (١).

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اَيُّ جَهَنَّمَ مَوْعِدٌ جَمِيْعٌ مِنَ اتِّبَاعِ اِبْلِيسَ، كَمَا قَالَ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِيَوْمِ مِنَ الْاٰخِرَاتِ فَاَلْتَارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

[اَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ]

ثُمَّ اٰخْبَرَ اَنْ لِحُجَّتِهِمْ سَبْعَةٌ اَبْوَابٌ ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ اَيُّ قَدْ كُتِبَ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ اتِّبَاعِ اِبْلِيسَ يَدْخُلُوْنَهُ لَا مَجِيْدَ لَهُمْ عَنْهُ، اَجَارَنَا اللّٰهُ مِنْهَا، وَكُلُّ يَدْخُلُ مِنْ بَابٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ، وَيَسْتَقِرُّ فِيْ ذَرِكٍ بِقَدْرِ عَمَلِهِ وَمَنَازِلُهُمْ بِاَعْمَالِهِمْ، فَذٰلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

﴿اِنَّ الْمُؤْمِنِيْنَ فِيْ جَنَّاتٍ وَعُوْبُوْنَ﴾ ﴿اَدْخُلُوْهَا سِلٰكٍ اَمِيْنِيْنَ﴾ ﴿١٨﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِيْ صُدُوْرِهِمْ مِنْ عِلٍّ اِخْوَانًا عَلَيَّ سُرُرٍ مُّقْتَبِلِيْنَ ﴿١٩﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيْهَا نَجَسٌ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِيْنَ﴾ ﴿٢٠﴾ نَجَىٰ عِبَادِيْ اَيُّ اَنَا الْعَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ ﴿٢١﴾ وَاَنْ عَذَابِيْ هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ﴾ ﴿٢٢﴾

[بَيَانُ اَهْلِ الْجَنَّةِ وَاَحْوَالِهِمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ اَهْلِ النَّارِ عَطَفَ عَلَيَّ ذِكْرُ اَهْلِ الْجَنَّةِ، وَاهْتَمَّ فِيْ جَنَاتٍ وَعُوْبُوْنَ. وَقَوْلُهُ: ﴿اَدْخُلُوْهَا سِلٰكٍ﴾ اَيُّ سَالِمِيْنَ مِنَ الْاَقَاتِ، مُسَلِّمٌ عَلَيْكُمْ ﴿ءَامِيْنِيْنَ﴾ اَيُّ مِنْ كُلِّ خَوْفٍ وَفَزَعٍ، وَلَا تَخَشُّوْا مِنْ اِخْرَاجٍ وَلَا اِنْقِطَاعٍ وَلَا فَنَاءٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِيْ صُدُوْرِهِمْ مِنْ عِلٍّ اِخْوَانًا عَلَيَّ سُرُرٍ مُّقْتَبِلِيْنَ﴾ رَوَى الْقَاسِمُ عَنْ اَبِيْ اَمَامَةَ قَالَ: يَدْخُلُ اَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَيَّ مَا فِيْ صُدُوْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشُّحْنَاءِ وَالضُّعَاغِيْنَ، حَتَّى اِذَا تَوَافَوْا وَقَابَلُوْا نَزَعَ اللّٰهُ مَا فِيْ صُدُوْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ عِلٍّ ﴿٢١﴾. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِيْ صُدُوْرِهِمْ مِنْ عِلٍّ﴾. هَكَذَا فِيْ هٰذِهِ الرَّوَايَةِ، وَالْقَاسِمُ بِنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ فِيْ رَوَايَتِهِ عَنْ اَبِيْ اَمَامَةَ ضَعِيْفٌ، وَلَكِنْ هٰذَا مُوَافِقٌ لِمَا فِي الصَّحِيْحِ مِنْ رَوَايَةِ قَتَادَةَ: حَدَّثَنَا اَبُو الْمُتَوَكَّلِ النَّاجِي اَنَّ اَبَا سَعِيْدٍ الْخُدْرِيَّ حَدَّثَهُمْ اَنَّ رَسُوْلَ اللّٰهِ ﷺ قَالَ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُوْنَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُوْنَ عَلَيَّ قَطْرَةً بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. فَيُقْتَصَّرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَطَالِمٍ كَانَتْ يَبِيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى اِذَا هُدُّبُوْا وَنُقُوْا، اُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُوْلِ الْجَنَّةِ» ﴿٢٢﴾.

(١) الطبري: ١٥٠/١٧ مرسل. (٢) الطبري: ١٠٧/١٧ إسناده ضعيف فيه بشر بن نمير البصري متروك منهم (تقريب) والمثنى شيخ الطبري مجهول الحال. (٣) البخاري: ٦٥٣٥

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يَعْنِي الْمَشَقَّةَ وَالْأَدَى، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَحْبَ فِيهِ وَلَا نَصَبٍ»^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنْ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَمْرَضُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشِيبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَقِيمُوا فَلَا تَطْعَمُوا أَبَدًا»^(٢). وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿بَيْتٌ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْعَفْوَурُ الرَّحِيمُ﴾^(٣) وَأَنْ عَدَايَ هُوَ الْعَدَابُ الْأَلِيمُ أَيُّ أَحْبَبْتُ يَا مُحَمَّدُ عِبَادِي أَنِّي ذُو رَحْمَةٍ وَذُو عَدَابٍ أَلِيمٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ تَطْيِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى مَقَامِي الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ.

﴿وَيَنْبِئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ^(٥) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ^(٦) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيهِ تَبَشِّرُونَ^(٧) قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ^(٨) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الصَّالُّونَ^(٩)

[ضَيْفٌ إِبْرَاهِيمَ وَتَبَشِيرُهُمْ إِيَّاهُ بِغُلَامٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَأَخْبِرُهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَنْ قِصَّةِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ وَالضَّيْفُ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ كَالرَّوْرِ وَالسَّفْرِ، وَكَيْفَ ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أَيُّ خَائِفُونَ، وَقَدْ ذَكَرَ سَبَبَ خَوْفِهِ مِنْهُمْ، لَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَى مَا قُرْبَهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الضَّيَافَةِ، وَهُوَ الْعَجَلُ السَّيِّئُ الْحَنِيدُ ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أَيُّ لَا تَخَفْ ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ﴾ أَيُّ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ هُودٍ ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ مُتَعَجِّبًا مِنْ كِبَرِهِ وَكِبَرِ زَوْجَتِهِ، وَمُتَحَقِّقًا لِلْوَعْدِ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيهِ تَبَشِّرُونَ﴾ فَاجَابُوهُ مُؤَكِّدِينَ لِمَا بَشَّرُوهُ بِهِ تَحْقِيقًا وَبِشَارَةً بَعْدَ بِشَارَةٍ ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٠) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ^(١١) إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ^(١٢) إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْعَادِيَاتِ^(١٣)

لَهُ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يَعْنُونَ قَوْمَ لُوطٍ، وَأَخْبِرُوهُ أَنَّهُمْ سَيُنَجُّونَ آلَ لُوطٍ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَّا أَمْرَاتَهُ فَأَنَّهَا مِنَ الْهَالِكِينَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْعَادِيَاتِ﴾ أَيُّ الْبَاقِينَ الْمُهْلَكِينَ.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٤) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ^(١٥) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ^(١٦) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

[مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ لُوطٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ لُوطٍ لَمَّا جَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حَسَنٍ الْوُجُوهُ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ دَارَهُ قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾^(١٦) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ يَعْنُونَ بَعْدَابِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ الَّذِي كَانُوا يَشْكُونَ فِي وُفُوهِ بِهِمْ وَحُلُولِهِ بِسَاحَتِهِمْ ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا

[سَبَبُ مَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى، أَنَّهُ شَرَعَ بِسَأْلِهِمْ عَمَّا جَاءُوا

(١) فتح الباري: ١٦٦/٧ ومسلم: ١٨٨٧/٤ (٢) مسلم: ٤/٤

سورة الحجر

٢٦٦

سورة الحجر

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٧﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّأُمَّتٍ وَسِيمٍ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا الْإِيمَانُ رَبِّيبٌ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَعَآلَيْنَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾
وَكَانُوا يُسْتَحْوَنَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْتَاءَ آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ
الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ
السَّاعَةَ لَأَنبِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْخَلِيقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ
الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي
أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

نَزَّلَ الْمَلَكُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿الحجر: ٨﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ﴾ تَأْكِيدٌ لِّخَبَرِهِمْ إِثَابُهُ بِمَا أَخْبَرُوهُ بِهِ مِنْ نَجَاتِهِ
وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ.

﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ يَفْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنْجَحَ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ
وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ
هَؤُلَاءِ مَفْطُوحٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٧٦﴾

[أمر لوطٍ بخروجه مع أسرته في الليل]

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهُ أَنْ يُسْرِيَ بِأَهْلِهِ
بَعْدَ مُضِيِّ جَانِبِ مِنَ اللَّيْلِ، وَأَنْ يَكُونَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ
يَمْشِي وَرَاءَهُمْ لِيَكُونَ أَحْفَظَ لَهُمْ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ يَمْشِي فِي الْعَزْوِ، إِنَّمَا يَكُونُ سَاقَةً يُرْجِي الضَّعِيفَ
وَيَحْمِلُ الْمُتَنَطِّعَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَلْفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أَيْ
إِذَا سَمِعْتُمْ الصَّيْحَةَ بِالْقَوْمِ فَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ، وَدَرَّوهُمْ فِيمَا
حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كَأَنَّهُ
كَانَ مَعَهُمْ مَنْ يَهْدِيهِمُ السَّبِيلَ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾
أَيْ تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَفْطُوحٌ مُّصْبِحِينَ﴾
أَيْ وَفَتْ الصَّبَاحَ كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ
الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿هود: ٨١﴾.

﴿وَمَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ صَبِيٌّ فَلَا
نَفْضِحُونَ ﴿٧٨﴾ وَأَقْوُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزِرُونَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ
الْعَلَمِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي
سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٦﴾

[مجيء أهل المدينة إلى الملائكة ظناً منهم أنهم
رجال]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ مَجِيءِ قَوْمِ لُوطٍ لَمَّا عَلِمُوا بِأَضْيَافِهِ
وَصَبَاحَةِ وُجُوهِهِمْ، وَأَنَّهُمْ جَاءُوا مُسْتَبْشِرِينَ بِهِمْ فَرَحِينَ
﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ صَبِيٌّ فَلَا نَفْضِحُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَأَقْوُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزِرُونَ ﴿٧٩﴾
وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ - كَمَا قَالَ
فِي سُورَةِ هُودٍ - وَأَمَّا هَهُنَا فَتَقَدَّمَ ذِكْرُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ
وَعُظِفَ بِذِكْرِ مَجِيءِ قَوْمِهِ وَمُحَاجَّجَتِهِ لَهُمْ، وَلَكِنَّ الْوَاوَ لَا
تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا دَلَّ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِهِ،
فَقَالُوا لَهُ مُجِيبِينَ: ﴿أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَلَمِينَ﴾ أَيْ أَوْ مَا
نَهَيْتَكَ أَنْ تُضَيِّفَ أَحَدًا؟ فَأَرَشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ وَمَا خَلَقَ
لَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْهُنَّ مِنَ الْفُرُوجِ الْمُبَاحَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ إِضْحَاحُ
الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. هَذَا كُلُّهُ وَهُمْ غَافِلُونَ
عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ، وَمَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ، وَمَاذَا

يُصَبِّحُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْمُسْتَوْتَرِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى
لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أَفَسَمَّ تَعَالَى
بِحَيَاةِ نَبِيِّ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَفِي هَذَا تَشْرِيفٌ
عَظِيمٌ وَمَقَامٌ رَفِيعٌ وَجَاهٌ عَرِضٌ. قَالَ عَمْرُو بْنُ مَالِكٍ
النُّكْرِيُّ عَنِ أَبِي الْجَوْزَاءِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا خَلَقَ
اللَّهُ وَمَا ذَرَأَ وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا
سَمِعْتُ اللَّهَ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ
إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يَقُولُ: وَحَيَاتِكَ وَعَمْرُكَ وَبِقَاتِكَ فِي
الدُّنْيَا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ
قَتَادَةُ: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أَيْ فِي ضَلَالِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أَيْ
يَلْعَبُونَ^(٢). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
﴿لَعَمْرُكَ﴾ لَعْنَتِكَ ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قَالَ: يَتَرَدَّدُونَ.
﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُمَّتٍ وَسِيمٍ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا

لِسَبِيلِ مُقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

[إِهْلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾ وَهِيَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ الصَّوْتِ الْقَاصِفِ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَهُوَ طُوعُهَا، وَذَلِكَ مَعَ قَلْبِ بِلَادِهِمْ وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَإِزْسَالِ حِجَارَةِ السَّجِيلِ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى السَّجِيلِ فِي هُودٍ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُنْتَوِيْنَ﴾ أَيُّ إِنَّ آثَارَ هَذِهِ التَّقَمِ الظَّاهِرَةِ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ لِمَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ وَتَوَسَّمَهُ بِعَيْنِ بَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلْمُنْتَوِيْنَ﴾ قَالَ: الْمُنْتَرِسِينَ^(١). وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ: لِلنَّاطِرِينَ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: لِلْمُعْتَبِرِينَ^(٣). وَقَالَ مَالِكٌ عَنِ بَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: ﴿لِلْمُنْتَوِيْنَ﴾. لِلْمُتَأَمِّلِينَ.

[قَرْيَةُ سُدُومَ عَلَى الطَّرِيقِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّمَا لِسَبِيلِ مُقِيمٍ﴾ أَيُّ وَإِنَّ قَرْيَةَ سُدُومَ الَّتِي أَصَابَهَا مَا أَصَابَهَا مِنَ الْقَلْبِ الصُّورِيِّ وَالْمَعْوِيِّ وَالْقَذْفِ بِالْحِجَارَةِ، حَتَّى صَارَتْ بَحِيرَةً مُنْتَنَةً خَبِيثَةً: بِطَرِيقِ مَهَبِ مَسَالِكِهِ مُسْتَوْرَةً إِلَى الْيَوْمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُكْرَهُ لِنُورٍ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَإِلَيْهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾ [الصفات: ١٣٧، ١٣٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ إِنَّ الَّذِي صَنَعْنَا بِقَوْمِ لُوطٍ مِنَ الْإِهْلَاكِ وَالذَّمَارِ وَإِنْبِجَاتِنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ لِدَلَالَةٍ وَاصِحَّةٍ جَلِيلَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ.

﴿وَإِنْ كَانَ أَحْسَبُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَأْمُرِ

مُتَّبِعِينَ ﴿٨٠﴾

[إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ: قَوْمِ شُعَيْبٍ]

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ هُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ، قَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: الْأَيْكَةُ الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ^(٤). وَكَانَ ظَلَمُهُمْ بِشُرُوكِهِمْ بِاللَّهِ وَقَطْعِهِمُ الطَّرِيقَ، وَنَقْصِهِمُ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، فَاتَّقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ بِالصَّيْحَةِ وَالرَّحْفَةِ وَعَذَابِ يَوْمِ الظَّلَّةِ، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنْ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَهُمْ - فِي الزَّمَانِ - ، وَمُسَامِتِينَ لَهُمْ فِي الْمَكَانِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا لِيَأْمُرِ مُتَّبِعِينَ﴾ أَيُّ طَرِيقِ مُبِينٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ: طَرِيقِ ظَاهِرٍ^(٥). وَلِهَذَا لَمَّا أَنْذَرَ شُعَيْبٌ قَوْمَهُ قَالَ فِي نَذَارَتِهِ إِنَّمَا هُمْ ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾

[هود: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحْسَبُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَءَايَاتُهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا

عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٢﴾ وَكَانُوا يَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا ءَامِينَ ﴿٨٣﴾

فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْحِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ ﴿٨٥﴾

[إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْحِجْرِ، وَهُمْ تَمُودٌ]

أَصْحَابُ الْحِجْرِ هُمْ تَمُودُ الَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا نَبِيَّهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، وَلِهَذَا أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ تَكْذِيبَ الْمُرْسَلِينَ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنَا هُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ صَالِحٌ كَالنَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لَهُمْ بِدَعَاءِ صَالِحٍ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءَ، وَكَانَتْ تَسْرُحُ فِي بِلَادِهِمْ لَهَا شِرْبٌ وَلَهُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ، فَلَمَّا عَنَوْا وَعَقَرُوهَا قَالَ لَهُمْ: ﴿تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ عَذْرٍ مَكْذُوبٍ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَأَمَّا تَمُودُ فَعَدَيْتَهُمْ فَاستَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ ﴿وَكَانُوا يَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا ءَامِينَ﴾ أَيُّ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا احْتِجَاجٍ إِلَيْهَا، بَلْ أَشْرًا وَطَرًّا وَعَبْتًا، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ مِنْ صَنِيعِهِمْ فِي بُيُوتِهِمْ بِوَادِي الْحِجْرِ الَّذِي مَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ، فَقَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ دَابَّتَهُ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْقَوْمِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا فَتَبَاكُوا خَشْيَةً أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»^(٦). وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْحِحِينَ﴾ أَيُّ وَقْتُ الصَّبَاحِ مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ ﴿فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيُّ مَا كَانُوا يَسْتَعْلِقُونَهُ مِنْ زُرُوعِهِمْ وَثَمَارِهِمُ الَّتِي ضَنُّوا بِمَائِهَا عَنِ النَّاقَةِ، حَتَّى عَقَرُوهَا، لِئَلَّا تُضَيِّقَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَيَاةِ، فَمَا دَفَعَتْ عَنْهُمْ تِلْكَ الْأَمْوَالَ وَلَا نَفَعَتْهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ فَاصِّحٌ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ﴾ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

[خُلِقَتِ الدُّنْيَا لِمَصْلَحَةٍ مَا، ثُمَّ تَقُومُ السَّاعَةُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ﴾ أَيُّ بِالْعَدْلِ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾... الْآيَةُ [النجم: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٣٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

(١) الطبري: ١٢٠/١٧ (٢) الطبري: ١٢١/١٧ (٣) الطبري: ١٢٥/١٧ (٤) الطبري: ١٢٥/١٧ (٥) الطبري: ١٢٥/١٧ (٦) أحمد: ٩١/٢

وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ وَعُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالْبَسْمَلَةُ هِيَ الْآيَةُ السَّابِعَةُ، وَقَدْ خَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَا^(٢). وَبِهِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمِيرٍ وَابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُجَاهِدٌ^(٣).

وَقَدْ أوردَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَهُنَا حَدِيثَيْنِ: (أَحَدُهُمَا): عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمَعْلَى قَالَ: مَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أَصْلِي فَدَعَانِي فَلَمَّ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «مَا مَعَكَ أَنْ تَأْتِينِي؟» فَقُلْتُ: كُنْتُ أَصْلِي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] أَلَا أَعْلَمُكُمْ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟» فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْرَجَ فَذَكَرْتُ فَقَالَ: «الْحَسْبُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ (الثَّانِي): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^(٤). فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ

الْفَاتِحَةَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ. وَلَكِنْ لَا يُنَافِي وَصَفَ غَيْرَهَا مِنَ السَّبْعِ الطَّوْلِ بِذَلِكَ، لِمَا فِيهَا مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، كَمَا لَا يُنَافِي وَصَفَ الْقُرْآنِ بِكَمَالِهِ بِذَلِكَ أَيْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّدًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣] فَهُوَ مَثَانِي مِنْ وَجْهِ وَمُتَشَدِّدٌ مِنْ وَجْهِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١] أَيِ إِسْتَعْنِ بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ.

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قَالَ: نَهَى الرَّجُلَ أَنْ يَتَمَنَّى مَا لِصَاحِبِهِ^(٥). وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١] هُمْ الْأَعْيَاءُ^(٦).

﴿وَقُلْ إِنْ آتَاكَ النَّذِيرُ الْمِيثُ^(٧) كَمَا آتَانَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ^(٨) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ^(٩) فَوَرِّكَ لَسَنَهُمْ أَجْمَعِينَ^(١٠) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(١١)﴾ [الرَّسُولُ نَذِيرٌ مُبِينٌ]

يَأْمُرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: ﴿إِنْ آتَاكَ النَّذِيرُ﴾ (١) الطبري: ١٣٠/١٧-١٣٢ (٢) الطبري: ١٣٣/١٧ (٣) الطبري: ١٣٥/١٧ (٤) فتح الباري: ٢٣٢/٨ (٥) الطبري: ١٤١/١٧ (٦) العوفي ضعيف (٦) الطبري: ١٤١/١٧

حَلَقْتُمْ عَيْنًا وَأَنْتُمْ إِيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكِ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ﴿المؤمنون: ١١٥، ١١٦﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا كَانَتْهُ لَا مَحَالَةَ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالصَّفْحِ الْجَوِيلِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَذَاهُمْ لَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ مَا جَاءَهُمْ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩] وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَفَتَادَةٌ وَعَبْرُهُمَا: كَانَ هَذَا قَبْلَ الْقِتَالِ. وَهُوَ كَمَا قَالَا، فَإِنَّ هَذِهِ مَكِّيَّةٌ وَالْقِتَالُ إِنَّمَا شُرِعَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ وَأَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِقَامَةِ السَّاعَةِ، فَإِنَّهُ الْخَلْقَ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ خَلْقُ شَيْءٍ، أَلْعَلِيمُ بِمَا تَمَرَّقَ مِنَ الْأَجْسَادِ وَتَفَرَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسَبَّحْنِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يس: ٨١-٨٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

[الْأَمْتَانِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَمْرَ بِالتَّرْكِيزِ عَلَى دَعْوَتِهِ] يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: كَمَا آتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فَلَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الدُّنْيَا، وَزِينَتِهَا، وَمَا مَتَّعْنَا بِهِ أَهْلَهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ لِغَيْبَتِهِمْ فِيهِ فَلَا تَغْطِطُهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ، وَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ حَزَنًا عَلَيْهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ وَمُخَالَفَتِهِمْ دِينَكَ ﴿وَلخَفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ أَيْنَ لَهُمْ جَانِبُكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي السَّبْعِ الْمَثَانِي مَا هِيَ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَعَبْرُهُمْ: هِيَ السَّبْعُ الطَّوَالُ، يَعْتَوْنَ: الْبَقْرَةَ، وَالْأَعْرَافَ، وَيُونُسَ، نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. وَقَالَ سَعِيدٌ: بَيَّنَّ فِيهِنَّ الْفَرَايِضَ وَالْحُدُودَ وَالْقِصَصَ وَالْأَحْكَامَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيَّنَّ الْأَمْثَالَ وَالْحَبَرَ وَالْعَبْرَ^(١). (وَالْقَوْلُ الثَّانِي): أَنَّهَا الْفَاتِحَةُ، وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ.

قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ قَوْلُوا لِأَسْمَعِ، قَالُوا: نَقُولُ: كَاهِنٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِكَاهِنٍ. قَالُوا: فَتَقُولُ: مَجْنُونٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ. قَالُوا: فَتَقُولُ: سَاحِرٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ. فَمَاذَا نَقُولُ؟ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لِحَلَاوَةً، فَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنْ أَقْرَبَ الْقَوْلِ أَنْ تَقُولُوا: هُوَ سَاحِرٌ. فَتَقَرَّفُوا عَنْهُ بِذَلِكَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ أَصْنَافًا ﴿فَوَرِيكَ لَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿أُولَئِكَ النَّفُّورُ الَّذِينَ قَالُوا [ذَلِكَ] لِرَسُولِ اللَّهِ﴾ (٣).

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَنِ الرَّبِيعِ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوَرِيكَ لَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿قَالَ: يَسْأَلُ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ عَنِ خَلْقَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَمَاذَا أَجَابُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٤). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوَرِيكَ لَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ثُمَّ قَالَ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] قَالَ: لَا يَسْأَلُهُمْ هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا؟ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟﴾ (٥).

﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَتَبْنَاكَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْكَ يَصْبِقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

[[الْأَمْرُ بِالصَّدْعِ بِالْحَقِّ]]

يَقُولُ تَعَالَىٰ آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِإِبْلَاحِ مَا بَعَثَهُ بِهِ وَيَبْإِنْفَادِهِ وَالصَّدْعِ بِهِ، وَهُوَ مُوَاجَهَةُ الْمُشْرِكِينَ بِهِ. كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ﴿٩٤﴾ أَيُّ أَمْرِهِ (٦). وَفِي رِوَايَةٍ: (افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْجَهْرُ بِالْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ (٧). وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: مَا

الْيَقِينُ ﴿الْيَقِينُ التَّذَارُءُ، تَذِيرٌ لِلنَّاسِ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ كَمَا حَلَّ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِهَا، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْإِنْتِقَامِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْتِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْتَجَاءَ النَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذَلُّجُوا وَأَنْظَلُّقُوا عَلَىٰ مَهْلِهِمْ فَجَبُّوا، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاَحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلٌ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلٌ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ» (١).

[[تَفْسِيرُ الْمُقْتَسِمِينَ]]

وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أَي الْمُتَحَالِفِينَ، أَي تَحَالَفُوا عَلَىٰ مُخَالَفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَكْذِيبِهِمْ وَأَذَاهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ قَوْمٍ صَالِحٍ إِنَّهُمْ قَالُوا ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ ... الآية [النمل: ٤٩]، أَي نَقْتُلُهُمْ لَيْلًا، قَالَ مُجَاهِدٌ: تَقَاسَمُوا وَتَحَالَفُوا ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِمَّن قَبِلُ﴾ ... الآية [إبراهيم: ٤٤] ﴿أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩] فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَكْذِبُونَ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَقْسَمُوا عَلَيْهِ فَسَمُوا مُقْتَسِمِينَ.

وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أَي جَزَّؤُوا كُتُبَهُمُ الْمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِمْ فَأَمَنُوا بِبَعْضِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ جَزَّؤُهُ أَجْزَاءً فَأَمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ (٢). وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُقْتَسِمِينَ قُرَيْشٌ، وَبِالْقُرْآنِ هُوَ هَذَا الْقُرْآنُ. وَمَعْنَىٰ جَعَلَهُ عِضِينَ هُوَ مَا قَالَهُ عَطَاءٌ: قَالَ بَعْضُهُمْ: سَاحِرٌ. وَقَالُوا: مَجْنُونٌ. وَقَالَ: كَاهِنٌ. فَذَلِكَ الْعِضِينَ. وَكَذَا رَوَى عَنِ الصَّحَّاحِ وَغَيْرِهِ.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِيهِمْ، وَقَدْ حَضَرَ الْمَوْسِمَ فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ هَذَا الْمَوْسِمَ، وَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ سَتَقْدُمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبِكُمْ هَذَا، فَأَجْمَعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَيَكْذِبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَيُرَدِّ قَوْلُكُمْ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَقَالُوا: وَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ فَقُلْ وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُولُ بِهِ،

(١) فتح الباري: ١٣/٢٦٤ ومسلم: ٤/١٧٨٨ (٢) فتح الباري: ٨/٢٣٣ (٣) ابن هشام: ١/٢٨٨ روى محمد بن إسحاق هذه الرواية عن محمد بن أبي محمد وهو مجهول كما مر. لكن تابعه أيوب السخيتاني عند البيهقي ٢/١٩٨ والحاكم ٢/٥٠٦ وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي وهو كما قال (٤). الطبري: ١٧/١٥٠ (٥) الطبري: ١٧/١٥٠ (٦) الطبري: ١٧/١٥١ (٧) الطبري: ١٧/١٥١

زَالَ النَّبِيُّ ﷺ مُسْتَحْفِيًا حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾
فَخَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ (١).

[الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَضَمَانِ كِفَايَةِ
الْمُسْتَهْزِئِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ
أَيُّ بَلَّغَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ
الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴿وَدُّوا لَوْ تَدُهُنَّ
فَيْدُهُنَّ﴾ [القلم: ٩] وَلَا تَحْفَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ إِيَّاهُمْ
وَحَافِظُكَ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمَّا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٣٥].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ عَظَمَاءُ الْمُسْتَهْزِئِينَ خَمْسَةٌ
نَفَرٌ، وَكَانُوا ذَوِي أَسْنَانٍ وَشَرَفٍ فِي قَوْمِهِمْ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ
عَبْدِ الْعَزَّى بْنِ قُصَيٍّ: الْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ أَبُو زَمْعَةَ، كَانَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيَمَا بَلَّغْنِي قَدْ دَعَا عَلَيْهِ لَمَّا كَانَ يَبْلُغُهُ مِنْ
أَذَاهُ وَاسْتِهْزَائِهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْمِ بَصْرَهُ، وَأَنْكِلِهِ وَلَدَهُ».

وَمِنْ بَنِي زُهْرَةَ: الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَعُوثَ بْنِ وَهْبِ بْنِ
عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ. وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ: الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةَ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِ بْنِ مَخْزُومٍ. وَمِنْ بَنِي سَهْمِ بْنِ عَمْرِو
ابْنِ هُضَيْمِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ: الْعَاصُ بْنُ وَائِلِ بْنِ هِشَامِ
ابْنِ سَعِيدِ بْنِ سَعْدٍ. وَمِنْ خِزَاعَةَ: الْحَارِثُ بْنُ الطَّلَاطِلَةَ
ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ عَمْرِو بْنِ مَلْكَانَ، فَلَمَّا
تَمَادَا فِي الشَّرِّ وَأَكْثَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْإِسْتِهْزَاءَ أَنْزَلَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا
كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ.

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ عَنْ عُرْوَةَ
ابْنِ الزُّبَيْرِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ (*) فَقَامَ وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
إِلَى جَنْبِهِ، فَمَرَّ بِهِ الْأَسْوَدُ [بْنُ الْمُطَّلِبِ] فَرَمَى فِي وَجْهِهِ
بِوَرْقَةٍ خَضْرَاءَ فَعَمِيَ. وَمَرَّ بِهِ الْأَسْوَدُ [بْنُ عَبْدِ يَعُوثَ] فَأَشَارَ
إِلَى بَطْنِهِ، فَاسْتَسْقَى بَطْنَهُ فَمَاتَ مِنْهُ [حَبْنًا]. وَمَرَّ بِهِ الْوَلِيدُ
ابْنُ الْمُغِيرَةَ، فَأَشَارَ إِلَى أَثَرِ جُرْحٍ بِأَسْفَلِ كَعْبِ رِجْلِهِ،
وَكَانَ أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِسِتِّينَ، وَهُوَ يَجْرُ إِزَارَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ
مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ خِزَاعَةَ يَرِيضُ نَبْلًا لَهُ، فَتَعَلَّقَ سَهْمٌ مِنْ نَبْلِهِ
بِإِزَارِهِ فَحَدَّشَ رِجْلَهُ ذَلِكَ الْحَدَّشَ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، فَانْتَقَضَ

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعَّمْنَا
أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
مِنَ السَّجِدِينَ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

سُورَةُ الْحَجَّالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَنْ أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١﴾ يَنْزِلُ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ
خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَبِيبٌ تَرْجُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

بِهِ فَقَتَلَهُ. وَمَرَّ بِهِ الْعَاصُ بْنُ وَائِلِ، فَأَشَارَ إِلَى أَحْمَصِ قَدَمِهِ
فَخَرَجَ عَلَى حِمَارٍ لَهُ يُرِيدُ الطَّائِفَ، فَرَبَضَ عَلَى شِبْرَقَةٍ
فَدَخَلَتْ فِي أَحْمَصِ قَدَمِهِ فَقَتَلَتْهُ. وَمَرَّ بِهِ الْحَارِثُ بْنُ
الطَّلَاطِلَةَ فَأَشَارَ إِلَى رَأْسِهِ فَامْتَخَطَ فَيَحَا فَقَتَلَهُ (١٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ
مَعْبُودًا آخَرَ.

[التَّشْجِيعُ عَلَى تَحْمِلِ الْمَشَاقِّ، وَالْأَمْرُ بِالتَّزَامِ التَّسْبِيحِ
وَالْعِبَادَةِ حَتَّى الْمَوْتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فَسَبِّحْ

(١) الطبري: ١٧/١٥٢ وعند الطبري موسى بن عبيدة عن أخيه
عبدالله بن عبيدة قال: مازال النبي ﷺ لا أبو عبيدة عن عبدالله
ابن مسعود ومع هذا إسناده ضعيف لإرساله وموسى بن عبيدة
ضعيف والتمنى شيخ الطبري مجهول الحال. (*) كذا في النسخ
والصواب: وهم يطوفون، انظر: السيرة (٤١٠/١) (٢) ابن
هشام: ٤٠٩/١، ٤١٠

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّحْلِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

[الْإِنذَارُ بِقُرْبِ السَّاعَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَدُنُوبِهَا مُعَبَّرًا بِصِيغَةِ الْمَاضِي الدَّالِّ عَلَى التَّحَقُّقِ وَالْوُقُوعِ لَا مَحَالَةَ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]. وَقَالَ: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الصَّمْرُ﴾ [القصص: ١]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أَي قُرْبَ مَا تَبَاعَدَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٢] سَتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَطَّلِعُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سُودَاءُ مِنَ الْمَغْرِبِ مِثْلُ الثُّرْسِ، فَمَا تَزَالُ تَرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِيهَا: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيَقْبِلُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: نَعَمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْكُ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّانِيَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَنْشُرَانِ الثُّوبَ فَمَا يَطْوِيَانِهِ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُدُّنَ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلُبُ نَاقَتَهُ فَمَا يَشْرِبُهُ أَبَدًا - قَالَ - وَيَسْتَعْجِلُ النَّاسُ»^(٦) ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَزَّهُ نَفْسَهُ عَنِ شَرِكِهِمْ بِهِ غَيْرُهُ، وَعِبَادَتِهِمْ مَعَهُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عُلُوقًا كَبِيرًا، وَهَوًّا لِهَيْبَتِهِ الْمُكْذِبُونَ بِالسَّاعَةِ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا

(١) أحمد: ٢٨٦/٥ (٢) فتح الباري: ٢٣٥/٨ (٣) الطبري:

١٦٠/١٧ (٤) فتح الباري: ١٣٧/٣ (٥) فتح الباري: ٦٨٤/٢

(٦) الحاكم: ٥٣٩/٤ وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم

يخرجاه ووافقه الذهبي.

يَحْمَدُ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أَي وَإِنَّا لَنَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ، أَنَّكَ يَحْضُلُ لَكَ مِنْ أَذَاهُمْ لَكَ ضَيْقُ صَدْرٍ وَأَنْقِيَاضٍ، فَلَا يَهْدِنَاكَ ذَلِكَ وَلَا يَنْبِيئُكَ عَنْ إِبْلَاغِكَ رَسُولَةَ اللَّهِ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، فَاسْتَعِزَّ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَعِبَادَتِهِ، الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ نَعِيمِ بْنِ هَمَّارٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَا تَعْجَزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفَكَ آخِرَهُ»^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ سَالِمٌ: الْمَوْتُ^(٢). وَسَالِمٌ هَذَا هُوَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، كَمَا رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قَالَ: الْمَوْتُ^(٣). وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ امْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ وَقَدْ مَاتَ، قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أبا السَّائِبِ، فَسَهَّادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟» فَقُلْتُ: يَا بَيْ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ؟ فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ»^(٤). وَيُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ كَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا وَاجِبَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا دَامَ عَقْلُهُ ثَابِتًا، فَيُصَلِّي بِحَسَبِ حَالِهِ.

كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِن لَمْ تَسْتَطِعْ فِقَاعِدًا، فَإِن لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(٥). وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى تَحْطِئَتِهِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمَلَايِدَةِ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَقِينِ الْمَعْرِفَةَ، فَمَتَى وَصَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ عِنْدَهُمْ. وَهَذَا كُفْرٌ وَضَلَالٌ وَجَهْلٌ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا هُمْ وَأَصْحَابُهُمْ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ وَأَعْرِفُهُمْ بِحَقُوقِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ التَّعْظِيمِ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا أَعْبُدُ وَأَكْثَرَ النَّاسِ عِبَادَةً وَمُؤَاطَبَةً عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْيَقِينِ هَهُنَا الْمَوْتُ، كَمَا قَدَّمَاهُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْهِدَايَةِ وَعَلَيْهِ الْإِسْتِعَانَةُ وَالتَّوَكُّلُ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يَتَوَقَّأَنَا عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ وَأَحْسَنِهَا، فَإِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّحْلِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

[يُرْسِلُ اللَّهُ مِنْ يَشَاءُ بِالرُّوحِ جَاءَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أَيِ الْوَحْيِ،

كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وَقَالَ: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وَقَالَ: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَافِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦، ١٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ أُنذِرُوا﴾ أَيِ لِيُنذِرُوا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أَيِ فَاتَّقُوا عِقُوبَتِي لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَعَبَدَ غَيْرِي.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُمِينٌ ﴿٤﴾﴾

[اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْإِنْسَانَ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ خَلْقِهِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَهُوَ السَّمَوَاتِ، وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ وَهُوَ الْأَرْضُ بِمَا حَوَتْ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ بِالْحَقِّ لَا لِلْعَبَثِ بَلْ ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَىٰ﴾ [النجم: ٣١] ثُمَّ نَرَاهُ نَفْسُهُ عَنْ شَرِيكَ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَهُوَ الْمُسْتَعْتَلُ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ بَنَىٰ عَلَىٰ خَلْقِ جِنْسِ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَيْ مَهِينَةٍ ضَعِيفَةٍ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ وَدَرَجَ إِذَا هُوَ يُحَاصِمُ رَبَّهُ تَعَالَىٰ وَيُكذِّبُهُ، وَيُحَارِبُ رُسُلَهُ، وَهُوَ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَكُونَ عَبْدًا لَا ضِدًّا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ وَيُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَاذِبُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُمِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْنِي الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُجِيبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩] وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ بُشَيْرِ بْنِ جَحَّاشٍ قَالَ: بَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ أَنِّي تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّىٰ إِذَا سَوَيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بَرْدَيْكَ

وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَيَدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّىٰ أَوَانُ الصَّدَقَةَ؟!﴾ (١).

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا

تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

وَتَحْمِيلٌ أَتَقَالُكُمْ إِنَّ بَدَلَكُمْ تَكُونُوا بِلَيْعِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ

إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

[الْأَنْعَامُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَنِعْمَةٌ مِنْهُ]

يَمْتَنُّ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالغَنَمُ، كَمَا فَصَّلَهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ، وَبِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ، مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا يَلْبَسُونَ وَيَفْرَشُونَ، وَمِنْ أَلْبَانِهَا يَشْرَبُونَ وَيَأْكُلُونَ مِنْ أَوْلَادِهَا، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ وَهُوَ الزَّيْنَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ﴾ وَهُوَ وَقْتُ رُجُوعِهَا عَشِيًّا مِنَ الْمَرْعَى، فَإِنَّهَا تَكُونُ أَمَدَهُ خَوَاصِرَ وَأَعْظَمَهُ ضُرُوعًا وَأَعْلَاهُ أَشْنِمَةً ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أَيِ غُدُوَّةٍ حِينَ تَبْعُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى ﴿وَتَحْمِيلٌ أَتَقَالُكُمْ﴾ وَهِيَ الْأَحْمَالُ الثَّقِيلَةُ الَّتِي تَعْجِزُونَ عَنْ نَقْلِهَا وَحَمْلِهَا ﴿إِنَّ بَدَلَكُمْ تَكُونُوا بِلَيْعِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ وَذَلِكَ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْعَزْوِ، وَالتَّجَارَةِ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ، تَسْتَعْمِلُونَهَا فِي أَنْوَاعِ الْاِسْتِعْمَالِ مِنْ رُكُوبٍ وَتَحْمِيلِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُدَّبَرَ بِهَا فِيهَا مَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٦﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَلِتَلْبَغُوا عَلَيْهَا حَامِجًا فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبِّكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَتَىٰ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا بَعْدَ تَعْدَادِ هَذِهِ النِّعَمِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ أَيِ رَبُّكُمْ الَّذِي قَبِضَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَنْعَامَ وَسَخَّرَهَا لَكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّاءٍ عَذْبًا آيِدِينَ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ ﴿٧٠﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٩-٨١] وَقَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٧٠﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ﴿٧١﴾ وَإِنَّا إِلَهُكُمُ الْمُسْلِمُونَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ﴾ أَي ثِيَابٌ ﴿وَمَنْعٌ﴾ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَالْأَشْرَبِ^(١).
﴿وَالخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لِرَكُوبِكُمْ وَأَزِينَهُ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿٨﴾

هَذَا صِنْفٌ آخَرَ مِمَّا خَلَقَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ يَمْتَنُّ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ الْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا لِلرُّكُوبِ وَالزَّيْتَةَ بِهَا، وَذَلِكَ أَكْبَرُ الْمَقَاصِدِ مِنْهَا، وَقَدْ بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ، وَأَذِنَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ^(٢). وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادَيْنِ، كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: ذَبَحْنَا يَوْمَ خَيْبَرَ الْخَيْلَ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرَ، فَتَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَلَمْ يَهْتِنَا عَنِ الْخَيْلِ^(٣). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَسًا فَأَكَلْنَاهُ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ^(٤).

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ﴾

﴿٩﴾

[بَيَانُ الطَّرِيقِ الدِّينِيَّةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَا يُسَارُ عَلَيْهِ فِي السَّبِيلِ الْحِسِّيَّةِ، بَنَى عَلَى الطَّرِيقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، وَكَثِيرًا مَا يَبْعُ فِي الْقُرْآنِ الْعُبُورَ مِنَ الْأُمُورِ الْحِسِّيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ النَّافِعَةِ الدِّينِيَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَكَرُودُوا فِرَاتٍ خَيْرَ الزَّادِ الْقَفُوقِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَدِّي سَوَاتِرَكُمْ وَرِيثًا وَلِبَاسَ الْقَفُوقِ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَعَبِيرِهَا الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةَ فِي صُدُورِهِمْ، وَتَحْوِيلُ أَثْقَالِهِمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبُعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَّةِ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مَا هِيَ مُوصِلَةٌ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وَقَالَ: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحجر: ٤١].

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قَالَ: طَرِيقُ الْحَقِّ عَلَى اللَّهِ^(٥). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يَقُولُ: وَعَلَى اللَّهِ الْبَيَانُ، أَي بَيِّنُ الْهُدَى وَالضَّلَالَةَ. وَكَذَا رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ

٢٦٨

سُورَةُ النُّحْلِ

الْمِائَةِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَدَلٍ لَمْ تَكُونُوا بِأَبْلَغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لِرَكُوبِكُمْ وَأَزِينَهُ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مِنْ أَيْلِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْلِيفًا لَوْنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ لِيَكُونَ لَكُمْ مَاءً حَامًا طَرِيقًا وَنَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرًا مِنْهُ لِيَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَالْجِبَلُ مَوَاجِرًا وَتَلْبَسُونَهَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ وَمِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ جِبَالٌ مَدِيدَةٌ ﴿١٤﴾

عَنْهُ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أَي حَائِدٌ مَائِلٌ زَائِعٌ عَنِ الْحَقِّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبَّاسٌ وَعَبْرَةُ: هِيَ الطَّرِيقُ الْمُخْلِيفَةُ^(١) وَالْأَرَاءُ وَالْأَهْوَاءُ الْمُتَفَرِّقَةُ، كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (وَمِنْكُمْ جَائِرٌ)^(٢). ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ كَائِنٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَقَالَ: ﴿لَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وَقَالَ: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ﴾ [١٣] إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ وَلِلَّذَلِكَ خَلْقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِحْتِةِ وَالنَّاسِ

(١) الطبري: ١٦٨/١٧ (٢) فتح الباري: ٥٧٠/٩ ومسلم: ٣/١٥٤١

(٣) أحمد: ٣/٣٥٦، ٣٦٢ وأبو داود: ٤/١٤٩، ١٥١

(٤) مسلم: ٣/١٥٤١ وقد كتب الإمام صلاح الدين العلائي كتابًا

مفيدًا على حلة الخيل باسم "توفية الكيل لمن حرم لحوم الخيل"

من شاء التفصيل فليراجعه. (٥) الطبري: ١٧٥/١٧ (٦)

الطبري: ١٧٦/١٧ (٧) الطبري: ١٧٦/١٧

أَجْمَعِينَ ﴿هود: ١١٨، ١١٩﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُبْتِغُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمَنْ كُلِّ الشَّجَرَةِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

[الْمَطَرُ وَفَوَائِدُهُ وَبَيَانُ أَنَّهُ آيَةٌ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالذَّلَوَاتِ شَرَعَ فِي ذِكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ الْعُلُو، مِمَّا لَهُمْ فِيهِ بُلْعَةٌ وَمَتَاعٌ لَهُمْ وَلَا تُعَامِيهِمْ، فَقَالَ: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أَي جَعَلَهُ عَذْبًا زُلَالًا يَسْوَعُ لَكُمْ شَرَابُهُ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أَسْجَا ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أَي وَأَخْرَجَ لَكُمْ مِنْهُ شَجَرًا تَرْعُونَ فِيهِ أَنْعَامَكُمْ. كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أَي تَرْعُونَ^(١). وَمِنْهُ: الْإِبِلُ السَّائِمَةُ، وَالسَّوْمُ: الرَّغْيُ.

وقوله: ﴿يُبْتِغُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمَنْ كُلِّ الشَّجَرَةِ﴾ أَي يُخْرِجُهَا مِنَ الْأَرْضِ بِهَذَا الْمَاءِ الْوَاحِدِ، عَلَى اخْتِلَافِ صُنُوفِهَا وَطُعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا وَرَوَائِحِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَي دَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ﴾ [النمل: ٦٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

[آيَاتٌ فِي تَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَفِيمَا يُخْرِجُ مِنَ الْأَرْضِ]

يُنْبِئُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى آيَاتِهِ الْعِظَامِ وَمِنْهُ الْجِسَامُ فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بَتَّاعِبَانِ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَدُورَانِ، وَالنَّجْمُ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، فِي أَرْجَاءِ السَّمَوَاتِ، نُورًا وَضِيَاءً لِيُهْتَدَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ، وَكُلٌّ مِنْهَا يَسِيرُ فِي فَلَكِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ، يَسِيرُ بِحَرَكَةٍ مُقَدَّرَةٍ لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا يَنْقُصُ عَنْهَا، وَالْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ

سورة النحل

٢٦٩

سورة النحل

وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَّسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِلهًا وَاحِدًا فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْأَسْطِيفُ الْأَوَّلِيُّ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُدْيَنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَعَ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَسَهْلِيهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى السَّمَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَي لَدَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ وَيَفْهَمُونَ حُجَّتَهُ.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا﴾ لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى عَلَى مَعَالِمِ السَّمَوَاتِ نَبَّهُ عَلَى مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ، وَالْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَعَادِنِ، وَالنَّبَاتَاتِ وَالْجَمَادَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْخَوَاصِّ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَي الْآءِ اللَّهُ وَنِعْمَهُ فَيَشْكُرُونَهَا.

هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ فِيهَا سُبُلًا أَي طُرُقًا يَسْلُكُ فِيهَا مِنْ بِلَادٍ إِلَى بِلَادٍ، حَتَّى إِنَّهُ تَعَالَى لَيَقْطَعُ الْجَبَلَ حَتَّى يَكُونَ مَا بَيْنَهُمَا مَمَرًا وَمَسْلَكًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾... الآية [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ أي دَلَّلْنَا مِنْ جِبَالِ كِبَارٍ وَأَكَامٍ صِعَارٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، يَسْتَدِلُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ بَرًّا وَبَحْرًا إِذَا ضَلُّوا الطَّرِيقَ. وقوله: ﴿وَيَا لَتَجَمَّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي فِي ظُلَامِ اللَّيْلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ^(١)

[الْعِبَادَةُ حَقٌّ لِلَّهِ]

ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى عَظَمَتِهِ وَأَنَّهُ لَا تَتَّبِعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ، الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا بَلْ هُمْ يُخْلَقُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثُمَّ تَبَهَّهُمْ عَلَى كَثْرَةِ نِعْمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي يَتَحَارَزُ عَنْكُمْ، وَلَوْ طَالَبَكُم بِشُكْرِ جَمِيعِ نِعْمِهِ لَعَجَزْتُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِذَلِكَ، وَلَوْ أَمَرَكُم بِهِ لَضَعَفْتُمْ وَتَرَكْتُمْ، وَلَوْ عَذَّبَكُم لَعَذَّبَكُم وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ، يَغْفِرُ الْكَثِيرَ وَيُجَازِي عَلَى الْيَسِيرِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ لِمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنْ تَقْصِيرٍ فِي شُكْرِ بَعْضِ ذَلِكَ إِذَا تُبِّمْتُمْ وَأَنْبِئْتُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ، رَحِيمٌ بِكُمْ، لَا يُعَذِّبُكُمْ بَعْدَ الْإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ ^(٢).

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُشْكُرُونَ وَمَا تَعْبُوثُمْ﴾ ^(٣) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ^(٤) أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ^(٥)

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ الضَّمَاوِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا.

[الهِئَةُ الْمُشْرِكِينَ مَخْلُوقَةٌ غَيْرُ خَالِقَةٍ]

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ﴾ ^(٦) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ^(٧) [الصفات: ٩٥، ٩٦]. وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءٍ﴾ أَي هِيَ جَمَادَاتٌ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا، فَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَعْقِلُ ^(٨) وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ^(٩) أَي لَا يَدْرُونَ مَتَى تَكُونُ السَّاعَةُ، فَكَيْفَ يَرْتَجَى

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَاحَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَمَتُّعُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلِلَّهِ كُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ^(١٠) وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ^(١١) وَتَهْتَدُونَ ^(١٢) وَعَلَّمَنَّا وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ^(١٣) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ^(١٤) وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١٥)

[آيَاتٌ فِي الْبِحَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالسُّبُلِ وَالنَّجْمِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ الْمُتَلَاطِمَ الْأَمْوَاجَ، وَيَمْتَنُّ عَلَى عِبَادِهِ بِتَدْلِيلِهِ لَهُمْ وَتَيْسِيرِهِمُ لِلرُّكُوبِ فِيهِ، وَجَعَلِهِ السَّمَكَ وَالْحَيْثَانَ فِيهِ، وَإِحْلَالَهِ لِعِبَادِهِ لَحْمَهَا حَيْثَا وَمَيْتَهَا فِي الْحِلِّ وَالْإِحْرَامِ، وَمَا يَخْلُقُهُ فِيهِ مِنَ اللَّائِيءِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ، وَتَسْهِيلِهِ لِلْعِبَادِ اسْتِخْرَاجَهُمْ مِنْ قَرَارِهِ حَلْيَةً يَلْبَسُونَهَا، وَتَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ لِحَمَلِ الشُّفْنِ الَّتِي تَمْخُرُهُ أَي تُشَقُّهُ. وَقِيلَ: تَمْخُرُ الرِّيَّاحُ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ. وَقِيلَ: تَمْخُرُهُ بِجَوْجُوحِهَا - وَهُوَ صَدْرُهَا الْمُسْنَمُ - الَّذِي أَرَشَدَ الْعِبَادَ إِلَى صَنْعَتِهَا، وَهَذَا هُمْ إِلَى ذَلِكَ إِزْنًا عَنْ أَبِيهِمْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَكِبَ الشُّفْنَ، وَلَهُ كَانَ تَعْلِيمُ صَنْعَتِهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا النَّاسُ عَنْهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، يَسِيرُونَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ، لِجَلْبِ مَا هُنَاكَ إِلَى مَا هُنَا، وَمَا هُنَا إِلَى مَا هُنَاكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِتَمَتُّعُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلِلَّهِ كُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَي نِعْمَةً وَإِحْسَانَهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا أَلْقَى فِيهَا مِنَ الرِّوَاسِي وَالشَّامِخَاتِ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ، لِتَقَرُّ الْأَرْضُ وَلَا تَمِيدُ - أَي تَضْطَرِبُ - بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَلَا يَهْتَأُّ لَهُمْ عَيْشٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢].

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، يَتَّبِعُ فِي مَوْضِعٍ، وَهُوَ رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقِفَارَ، وَيَخْتَرِقُ الْجِبَالَ وَالْأَكَامَ، فَيَصِلُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سُخِّرَ لِأَهْلِهِ، وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمَنَّةٌ وَيَسْرَةٌ، وَجَنُوبًا وَسَمَالًا. وَشَرْقًا وَغَرْبًا، مَا بَيْنَ صِعَارٍ وَكِبَارٍ، وَأُودِيَّةٍ تَجْرِي جِينًا وَتَنْقَطِعُ فِي وَقْتٍ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ، وَقَوِيَّ السَّيْرِ وَبُطِيهٍ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا

(١) الطبري: ١٧/١٨٥ (٢) الطبري: ١٧/١٨٧

عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يُرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

﴿إِنَّهُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢٢] لَا حَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

إِنَّهُ لَا يَحِثُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

[لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَرْدُ الصَّمَدُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ تَنَكَّرَ قُلُوبُهُمْ ذَلِكَ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ ذَلِكَ ﴿أَجَعَلَ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَّرَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أَي عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ مَعَ انْكَارِ قُلُوبِهِمْ لِتَوْحِيدِهِ كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿لَا حَرَمَ﴾ أَي حَقًّا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَي وَسَجَّزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَمَّ الْجَزَاءِ ﴿إِنَّهُ لَا يَحِثُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ

يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءُ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٤﴾

[إِعْرَاضِ الْكُفَّارِ عَنِ الْوَحْيِ وَمُضَاعَفَةِ عِقَابِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُوَلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي لَمْ يُنَزَّلْ شَيْئًا، إِنَّمَا هَذَا الَّذِي يُنْتَلَى عَلَيْنَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، أَي مَا خُودٌ مِنْ كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] أَي يَقْتَرُونَ عَلَى الرَّسُولِ وَيَقُولُونَ أَقْوَالًا مُضَادَّةً مُخْتَلَفَةً كُلُّهَا بَاطِلَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨] وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ فَهَهُمَا قَالَ أَخْطَأَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: سَاجِرٌ، وَشَاعِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَمَجْنُونٌ، ثُمَّ اسْتَفْرَأَ أَمْرَهُمْ إِلَى مَا اخْتَلَفَ لَهُمْ شَيْخُهُمُ الْوَجِيدُ الْمُسَمَّى بِالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ لَمَّا ﴿فَكَرَّ وَقَدَّرَ﴾ [٢٨] فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٣٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿[المدثر: ١٨-٢٤] أَي يُنْقَلُ وَيُحْكَى، فَتَقَرَّفُوا عَنْ قَوْلِهِ وَرَأَيْهِ

الْمُرَّةُ وَاللَّيْلُ عِنْدَ الْحَبِّ

٢٧٠

سُورَةُ النَّحْلِ

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ أَيَنْ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَشْوَى الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ تَابُوا رِزْقٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ الَّذِي يَتَوَفَّى مَن يَشَاءُ وَكَذَلِكَ يُخْرِجُ اللَّهُ الْمُنْتَقِينَ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

- قَبَّحَهُمُ اللَّهُ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَي إِنَّمَا قَدَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ لِيَحْتَمِلُوا أَوْزَارَهُمْ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَيُؤَافِقُونَهُمْ، أَي يَصِيرُ عَلَيْهِمْ حَظِيئَةٌ ضَلَالَتِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَحَظِيئَةٌ إِغْوَاتِهِمْ لِغَيْرِهِمْ، وَاقْتِدَاءٌ أَوْلِيائِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» (١). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣] وَهَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَنَّهَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (٢)

(١) مسلم: ٤/٢٠٦٠ (٢) الطبري: ١٧/١٩١ العوفي ضعيف.

العنكبوت: ١٣] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَحْمِلُونَ أَنْفَالَهُمْ: ذُنُوبَهُمْ وَذُنُوبَ مَنْ أَطَاعَهُمْ، وَلَا يُخَفَّفُ عَمَّنْ أَطَاعَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ شَيْئًا^(١).

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ فَحَرَ عَلَيْهِمْ السَّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَتْهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ ابْنَ شُرَكَائِكَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾

[بَيَانُ مَا فَعَلَهُ السَّابِقُونَ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قَالَ: هُوَ التَّمُرُّودُ الَّذِي بَنَى الصَّرْحَ^(٣). وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ بُخْتَنَصْرُ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَلِ لِإِطْطَالِ مَا صَنَعَهُ هُوَلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَأَشْرَكُوا فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ، كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كِبَارًا﴾ [نوح: ٢٢] أَيِ احْتَالُوا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ وَأَمَالُوهُمْ إِلَى شِرْكِهِمْ بِكُلِّ سَبِيلَةٍ، كَمَا يَقُولُ لَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾... الْآيَةُ [سبا: ٢٣].

وقوله: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ﴾ أَيِ إِجْتِنَاءِهِ مِنْ أَضْلِهِ وَأَبْطَلَ عَمَلَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَالًا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يَبُوتَهُمْ بِآيَاتِهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاصْتَبِرُوا يَأْكُلِ الْآفِئِدَةُ﴾ [الحشر: ٢]، وَقَالَ اللَّهُ هَهُنَا: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ فَحَرَ عَلَيْهِمْ السَّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَتْهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ أَيِ يُظْهِرُ فَضَائِحَهُمْ، وَمَا كَانَتْ تُجْنَةُ صَمَائِرُهُمْ فَيَجْعَلُهُ عَلَانِيَةً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَكِلُ السَّرَائِرَ﴾ [الطارق: ٩] أَيِ تُظْهِرُ وَتُشْهِرُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَايِرٍ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ عَدْرَتِهِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ عَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ»^(٥). وَهَكَذَا هُوَلَاءِ، يُظْهِرُ لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ مِنَ الْمَكْرِ، وَيُخْزِبُهُمُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ وَيَقُولُ لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَقْرَعًا لَهُمْ وَمُوتِحًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِكِ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ تُتَّحَارِبُونَ وَتُعَادُونَ فِي سَبِيلِهِمْ، أَيْنَ هُمْ عَنْ نَصْرِكُمْ وَخَلَاصِكُمْ هَهُنَا؟ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] «فَأَلَمْ مِنْ قُوَى وَلَا نَاصِرٍ»

[الطارق: ١٠] فَإِذَا تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَالَةُ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ، وَسَكَنُوا عَنِ الْإِعْتِدَارِ حِينَ لَا فِرَارَ ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وَهُمْ السَّادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمُخْزَبُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَيَقُولُونَ حَيْثُ: «إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ» أَيِ الْفُضِيحَةَ وَالْعَذَابَ مُحِيطًا الْيَوْمَ بِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا سَلَامًا مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٦) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٩﴾

[أَحْوَالُ الْكَافِرِينَ عِنْدَ وَفَاتِهِمْ وَبَعْدَهَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ اخْتِصَارِهِمْ وَمَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمُ الْحَيَّةِ ﴿فَأَلْفَوْا السَّلَامَ﴾ أَيِ أَظْهَرُوا السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ وَالْإِقْبَادَ قَائِلِينَ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كَمَا يَقُولُونَ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿وَاللَّهُ رَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَلْفُونَ لَهُمْ كَمَا يَلْفُونَ لِكُرٍّ﴾ [المجادلة: ١٨] قَالَ اللَّهُ مُكَذِّبًا لَهُمْ فِي قَلْبِهِمْ ذَلِكَ ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٧) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ أَيِ بِئْسَ الْمَقِيلُ وَالْمَقَامُ وَالْمَكَانُ مِنْ دَارِ هَوَانٍ لِمَنْ كَانَ مُتَكَبِّرًا عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَاتَّبَاعِ رُسُلِهِ، وَهُمْ يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ مِنْ يَوْمِ مَمَاتِهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَيَبَالُ أَجْسَادُهُمْ فِي قُبُورِهَا مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُلِّكَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ وَخَلَّدَتْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿لَا يَفْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾^(٨) جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا سَلِّمْ عَلَيْنَا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٢﴾

(١) الطبري: ١٧٠/١٧ (٢) الطبري: ١٩٣/١٧ العوفي ضعيف. (٣) فتح الباري: ١٠/٥٧٨ وسلم: ٣/١٣٦٠

قَوْلَ الْمُتَّقِينَ فِي الْوَحْيِ وَجَزَاؤُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ عِنْدَ الْوَفَاةِ وَبَعْدَهَا]

هَذَا خَبْرٌ عَنِ السُّعْدَاءِ بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْأَشْقِيَاءِ، فَإِنَّ أَوْلَئِكَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قَالُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ: لَمْ يُنْزَلْ شَيْئًا، إِنَّمَا هَذَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَهَؤُلَاءِ قَالُوا: ﴿خَيْرًا﴾، أَي أَنْزَلَ خَيْرًا، أَي رَحْمَةً وَبِرَكَّةً لِمَنْ أَتْبَعَهُ وَآمَنَ بِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا وَعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ فِيمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ... الْآيَةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] أَي مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّ دَارَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ أَي مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْجَزَاءُ فِيهَا أَتَمُّ مِنَ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ اللَّهُ خَيْرٌ﴾ الْآيَةَ [القصص: ٨٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ رَجَعُوا﴾ [آل عمران: ٩٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الاعلى: ١٧] وَقَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] ثُمَّ وَصَفَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَقَالَ: ﴿وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ «دَارِ الْمُتَّقِينَ» أَي لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ جَنَّاتٌ عَدْنٍ، أَي مَقَامٌ يَدْخُلُونَهَا «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أَي بَيْنَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّهِبَهُمُ الْإِنْسُ وَتَكَدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتَرُ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِالْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شَرَابِهِمْ، فَلَا يَسْتَهِي أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَمْطَرَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّى إِذَا مِنْهُمْ لَمَنْ يَقُولُ: أَمْطَرْنَا كَوَاعِبَ أَثْرَابًا، فَيَكُونُ ذَلِكَ» كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ» أَي كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَاهُ وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمْ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ أَنَّهُمْ طَيِّبُونَ، أَي مُخْلِصُونَ مِنَ الشُّرْكِ وَالذَّنْسِ وَكُلِّ سُوءٍ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَبُشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَأَنْزِلُنَّ عَلَيْهِنَّ أَنْبَاءٌ لَا تَخَافُونَ وَلَا تَحْزَنُونَ وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ حَتَّى أَوَّلًا وَكُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَكُنْتُمْ فِيهَا مَا شَتَّهِيَ

سورة النحل

٢٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّ عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَنُّوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

أَنْفُسِكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٥﴾ نَزَّلًا مِنْ عَشْوَرٍ نَجِيمٍ [فصلت: ٣٠-٣٢] وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي قُبُصِ رُوحِ الْمُؤْمِنِ وَرُوحِ الْكَافِرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٩﴾

[مَعْنَى تَأَخَّرِ الْكَافِرِينَ عَنِ الْإِيمَانِ انْتِظَارُهُمْ لِلْعَذَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُهْدِدًا لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي الْبَاطِلِ وَاعْتِرَازِهِمْ بِالذُّنُوبِ: هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ. قَالَهُ قَتَادَةُ^(١). «أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ

(١) الطبري: ١٧/١٩٩

بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَىٰ أَنْ خَتَمَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي طَلَعَتْ دَعْوَتُهُ الْإِنْسَانَ وَالْجِنَّ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَكُلُّهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ فَكَيْفَ يَسُوغُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَقُولَ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فَمَشِيئَتُهُ تَعَالَى الشَّرْعِيَّةُ عَنْهُمْ مُتَنَفِيَّةٌ، لِأَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَأَمَّا مَشِيئَتُهُ الْكُوْنِيَّةُ وَهِيَ تَمَكِينُهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَدْرًا، فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا، لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ وَأَهْلَهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْكَافِرَةِ، وَهُوَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بِالْبَعَةِ وَحِكْمَةٌ قَاطِعَةٌ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ إِذْ بَارَأَ الرُّسُلَ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ أَي إِسْأَلُوا عَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ مَنْ خَالَفَ الرُّسُلَ وَكَذَّبَ الْحَقَّ كَيْفَ ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠] فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]. ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنَّ جِرْصَهُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ لَا يَنْعُهُمْ إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَرَادَ إِضْلَالَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] وَقَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَفْعَلُوا نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصِحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ﴾ أَي شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أَي مَنْ أَضَلَّهُ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟ أَي لَا أَحَدٌ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ أَي يُتَّقِدُونَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَوَلَّاقِهِ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ

رَبِّكَ﴾ أَي يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَمَا يُعَابِنُونَهُ مِنَ الْأَهْوَالِ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي هَكَذَا تَمَادَى فِي شُرْكِهِمْ أَشْلَافُهُمْ وَنَظَرَاؤُهُمْ وَأَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسَنِ اللَّهِ وَحَلُّوا فِيهَا مِنْ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَعَذَّرَ إِلَيْهِمْ وَأَقَامَ حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ رُسُلِهِ وَإِنزَالِ كُتُبِهِ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَي بِمُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَالتَّكْذِيبِ بِمَا جَاءُوا بِهِ، فَلِهَذَا أَصَابَتْهُمْ عُقُوبَةُ اللَّهِ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿وَصَافٍ بِهِمْ﴾ أَي أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَي يَسْخَرُونَ مِنَ الرُّسُلِ إِذَا تَوَعَّدُوهُمْ بِعِقَابِ اللَّهِ، فَلِهَذَا يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿٣٧﴾﴾

[إِسْتِدْلَالُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى شُرْكِهِمْ بِالْقَدْرِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ اغْتِرَابِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْإِشْرَاقِ وَاعْتِدَارِهِمْ مُحْتَجِينَ بِالْقَدْرِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَي مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ابْتَدَعُوهُ وَاخْتَرَعُوهُ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَمَضْمُونُ كَلَامِهِمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ تَعَالَى كَارِهَا لِمَا فَعَلْنَا لَأَنْكَرَهُ عَلَيْنَا بِالْعُقُوبَةِ، وَلَكَمَا مَكَّنَّا مِنْهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ شُبُهَتَهُمْ: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَمْ يُنْجِرْهُ عَلَيْكُمْ، بَلْ قَدْ أَنْكَرَهُ عَلَيْكُمْ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ، وَنَهَانَهُمْ عَنْهُ أَكْثَرَ النَّهْيِ، وَبَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ أَي فِي كُلِّ قَرْنٍ وَطَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ رَسُولًا، وَكُلُّهُمْ يَدْعُونَ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ فَلَمْ يَزَلْ تَعَالَى يُرْسِلُ إِلَى النَّاسِ الرُّسُلَ بِذَلِكَ مُنْذُ حَدَثَ الشُّرْكُ فِي بَنِي آدَمَ فِي قَوْمِ نُوحٍ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نُوحٌ، وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ

اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ﴾

[جزاء المهاجرين]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ جَزَائِهِ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِهِ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِهِ، الَّذِينَ فَارَقُوا الدَّارَ، وَالْإِخْوَانَ وَالْخَلَائِنَ، رَجَاءَ
ثَوَابِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ نَزُولِهَا فِي

مُهَاجِرَةِ الْحَبَشَةِ الَّذِينَ اشْتَدَّ أذى قَوْمِهِمْ لَهُمْ بِمَكَّةَ، حَتَّى
خَرَجُوا مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ
عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَمِنْ أَشْرَافِهِمْ عُمَامُ بْنُ عَفَّانَ وَمَعَهُ رُوحَتُهُ
رُفَيْقَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّ
الرَّسُولِ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ فِي جَمَاعَةٍ قَرِيبٍ مِنْ
ثَمَانِينَ مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ صِدِّيقٍ وَصَدِيقَةٍ - رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَقَدْ فَعَلَ - فَوَعَدَهُمْ تَعَالَىٰ بِالْمُجَازَاةِ
الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿لَنُؤْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ: أَلْمَدِينَةَ^(١).

وَقِيلَ: الرِّزْقُ الطَّيِّبُ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(٢). وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ
الْقَوْلَيْنِ، فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا مَسَاكِنَهُمْ وَأَمَوَالَهُمْ فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ
خَيْرًا مِنْهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ بِمَا
هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُمْ مَكَرَنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي
الْبِلَادِ، وَحَكَمَهُمْ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ، وَصَارُوا أَمْرَاءَ
حُكَّامًا، وَكُلُّ مِنْهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، وَأَخْبَرَ أَنْ ثَوَابَهُ
لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِمَّا أُعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا،
فَقَالَ: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أَي مِمَّا أُعْطَيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا
﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَي لَوْ كَانَ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْهَجْرَةِ
مَعَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا أَدَّخَرَ اللَّهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ. ثُمَّ
وَصَفَهُمْ تَعَالَىٰ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾
أَي صَبَرُوا عَلَى الْأذى مِنْ قَوْمِهِمْ، مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ الَّذِي
أَحْسَنَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ فَمَا لَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ
إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ

لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

[مَا أُرْسِلَ رَسُولٌ إِلَّا مِنَ الْبَشَرِ]

قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَىٰ وَعَدَا
عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ
الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٥٩﴾
إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾﴾
[الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ، وَفِيهِ حِكْمَةٌ،

وَهُوَ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ حَلَفُوا فَأَقْسَمُوا
بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَي اجْتَهَدُوا فِي الْحَلْفِ، وَعَظَمُوا
الْأَيْمَانَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَىٰ أَي اسْتَبَعَدُوا
ذَلِكَ، وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ فِي إِخْبَارِهِمْ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَحَلَفُوا
عَلَى تَقْيِضِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ مُكَذِّبًا لَهُمْ وَرَادًا عَلَيْهِمْ: ﴿بَلَىٰ﴾
أَي بَلَى سَيَكُونُ ذَلِكَ ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أَي لَا بُدَّ مِنْهُ
﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي فليَجْهَلُهُمْ يُخَالِفُونَ الرُّسُلَ
وَيَقْعُونَ فِي الْكُفْرِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَىٰ حِكْمَتَهُ فِي الْمَعَادِ وَقِيَامِ
الْأَجْسَادِ يَوْمَ التَّنَادِ، فَقَالَ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أَي لِلنَّاسِ ﴿الَّذِي
يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أَي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَفْتُوا بِمَا عَمِلُوا
وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ٣١] ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ أَي فِي أَيْمَانِهِمْ وَأَقْسَامِهِمْ لَا
يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَىٰ، وَلِهَذَا يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ
جَهَنَّمَ دَعَا، وَتَقُولُ لَهُمُ الرَّبَّانِيَّةُ: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكذِّبُونَ ﴿٥٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَصَلُّوْهَا
فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا صَبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
[الطور: ١٤-١٦] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ،
وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَإِنَّمَا
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ - وَالْمَعَادُ مِنْ
ذَلِكَ: إِذَا أَرَادَ كَوْنَهُ فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَيَكُونُ كَمَا
يَشَاءُ - كَقَوْلِهِ: ﴿رَمَا أَمْرًا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَتٍ بِالبَصْرِ﴾
[القمر: ٥٥] وَقَالَ: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسَ
وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿إِنَّمَا
قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَي أَنْ نَأْمُرَ بِهِ
مَرَّةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ.

أَي أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، فَإِنَّهُ
تَعَالَىٰ لَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ، لِأَنَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الْعَظِيمُ
الَّذِي فَهَرَ سُلْطَانَهُ وَجَبْرُوتَهُ وَعِزَّتَهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

(١) الطبري: ٢٠٦، ٢٠٥/١٧ (٢) الطبري: ٢٠٦/١٧

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ لَتبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾
﴿٤٨﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِي تَقْلِيهِمْ فَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٠﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ
يَنْفِيوْا ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٥٢﴾
﴿٥٣﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ
وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٤﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلدِّينِ
أَشْنِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ فَاتَى فَآرَهُمْ ﴿٥٦﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ
نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرْفُ فَإِلَيْهِ تَجْرُؤُونَ ﴿٥٨﴾ ثُمَّ
إِذَا كُفِيَ الضَّرْفُ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿٤٨﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيهِمْ فَمَا لَهُمْ
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٠﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥١﴾
[كَيْفَ يَأْمَنُ الْمُجْرِمُونَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَإِنظَارِهِ الْعُصَاةَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ وَيَدْعُونَ إِلَيْهَا، وَيَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دُعَائِهِمْ
إِيَّاهُمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَيْهَا، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ
الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴿٤٩﴾ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ أَيُّ مِنْ
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ مَجِيئَهُ إِلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَأَنتُمْ مَنْ فِي
السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ ﴿٥١﴾ أَمْ أَأَنتُمْ مَنْ فِي
السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿٥٢﴾
[الملك: ١٦، ١٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيهِمْ﴾ أَيُّ فِي
تَقْلِيهِمْ فِي الْمَعَايِشِ وَاشْتِغَالِهِمْ بِهَا فِي أَسْفَارِهِمْ وَنَحْوِهَا

رَسُولًا، أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ وَقَالُوا: اللَّهُ
أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ
عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْتَ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الْآيَةَ
[يونس: ٢]، وَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي
إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي أَهْلَ
الْكِتَابِ الْمَاضِيَةِ: أَبَشَرًا كَانَتْ الرُّسُلُ إِلَيْهِمْ أَمْ مَلَائِكَةً؟ فَإِنْ
كَانُوا مَلَائِكَةً أَنْكَرْتُمْ، وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ
مُحَمَّدٌ ﷺ رَسُولًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا
رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْفَرْقِ﴾ [يوسف: ١٠٩] لَيْسُوا مِنْ
أَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا قُلْتُمْ ^(١). وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الذِّكْرِ أَهْلَ الْكِتَابِ ^(٢).

وَالْعَرَضُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَخْبَرَتْ بِأَنَّ الرُّسُلَ
الْمَاضِيَيْنِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ - ﷺ - كَانُوا بَشَرًا، كَمَا هُوَ بَشَرٌ كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٤٦﴾ وَمَا
مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا
رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٣، ٩٤]﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِيَّاهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا فِي
الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨] وَقَالَ:
﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩] وَقَالَ تَعَالَى:
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] ثُمَّ أَرْسَدَ
اللَّهُ تَعَالَى مِنْ شَكِّ فِي كَوْنِ الرُّسُلِ كَانُوا بَشَرًا إِلَى سُؤَالِ
أَصْحَابِ الْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَلَفُوا: هَلْ
كَانَ أَنْبِيَاؤُهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً؟

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَهُمْ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ بِالْحُجُجِ
وَالدَّلَائِلِ ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ
وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ ^(٣). وَالزُّبُرُ جَمْعُ زَبُورٍ. تَقُولُ الْعَرَبُ:
زَبُرْتُ الْكِتَابَ إِذَا كَتَبْتُهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي الزُّبُرِ﴾ [الغمر: ٥٢] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ
بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْتَ الْأَرْضَ بِرِثَتِهَا عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]
﴿لَتبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ مِنْ رَبِّهِمْ لِيَعْلَمَكَ بِمَعْنَى مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَحِزْبِكَ عَلَيْهِ وَاتَّبَاعِكَ لَهُ، وَلَعَلَّمَا بِأَنَّكَ
أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ وَسَيِّدُ وِلْدِ آدَمَ، فَتَفَضَّلَ لَهُمْ مَا أَجْمَلَ وَتَبَيَّنَ
لَهُمْ مَا أَشْكَلَ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيُّ يَنْظُرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
فَيَهْتَدُونَ، فَتَعْمُرُونَ بِالنَّجَاةِ فِي الدَّارَيْنِ.

(١) الطبري: ٢٠٨/١٧ الضحاک عن ابن عباس منقطع (٢)
الطبري: ٢٠٨/١٧ (٣) الطبري: ٢١١/١٧

مِنَ الْأَشْغَالِ الْمُلهِيَةِ. قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿تَقْلِبُهُمْ﴾ أَي أَسْفَارِهِمْ^(١)، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ﴾^(٢) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَي لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ كَانُوا عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أَي أَوْ يَأْخُذُهُمُ اللَّهُ فِي حَالِ خَوْفِهِمْ مِنْ أَخْذِهِ لَهُمْ، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَبْلَغَ وَأَشَدَّ، فَإِنَّ حُصُولَ مَا يَتَوَقَّعُ مَعَ الْخَوْفِ شَدِيدًا، وَلِهَذَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يَقُولُ: إِنْ شِئْتُ أَخَذْتُهُ عَلَىٰ أَثَرِ مَوْتِ صَاحِبِهِ وَخَوْفِهِ بِذَلِكَ^(٣). وَكَذَا رُوِيَ عَنِ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ^(٤). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن رَّيَكُم لَمَوْتٌ رَّجِيمٌ﴾ أَي حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ، كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَىٰ أَدَىٰ سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَزُرُّهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»^(٥) وَفِيهِمَا: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِبْهُ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْسَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ إِلَهٌ شَدِيدٌ﴾^(٥) [هود: ١٠٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرِيْبٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيْبِ﴾ [الحج: ٤٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيهِمْ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾^(٦) وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٧) بِحَافُونَ رَّبَّهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ وَيَتَعَلَّوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٨).

[سُجُودٌ كُلُّ شَيْءٍ لِلَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ الَّذِي خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَدَانَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ وَالْمَخْلُوقَاتُ بِأَسْرَهَا: جَمَادَاتُهَا وَحَيَوَانَاتُهَا، وَمُكَلَّفُوهَا مِنَ الْإِنْسِي وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ مَا لَهُ ظِلٌّ يَتَمَيَّنُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ، أَي بُكْرَةً وَعَشِيًّا فَإِنَّهُ سَاجِدٌ بِظِلِّهِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ. قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا زَالَتْ الشَّمْسُ سَجَدَ كُلُّ شَيْءٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٩). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ^(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أَي صَاغِرُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيضًا: سُجُودٌ كُلُّ شَيْءٍ قِيُوءُهُ^(١١). وَذَكَرَ الْجِبَالِ، قَالَ: سُجُودُهَا قِيُوءُهَا. وَقَالَ أَبُو غَالِبِ الشَّيْبَانِيُّ: أَمْوَاجُ الْبَحْرِ صَلَاتُهُ. وَنَزَلَتْ مِنْ مَثَلِ مَنْ يَغْفِلُ إِذْ أَسْنَدَ السُّجُودَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿وَاللَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ كَمَا قَالَ:

﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْعُدْوِ الْأَوْسَلِ﴾. [الرعد: ١٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَي تَسْجُدُ لِلَّهِ أَي غَيْرِ مُسْتَكْبِرِينَ عَنِ عِبَادَتِهِ ﴿بِحَافُونَ رَّبَّهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ﴾ أَي يَسْجُدُونَ خَائِفِينَ وَجَلِينَ مِنَ الرَّبِّ - جَلَّ جَلَالُهُ - ﴿وَيَتَعَلَّوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أَي مُتَابِعِينَ عَلَى طَاعَتِهِ تَعَالَىٰ وَامْتِنَالِ أَوْامِرِهِ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلَّهِينِ آتِنِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَحْدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾^(١٢) وَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَعَدَّ اللَّهُ نَفْسُونَ﴾^(١٣) وَمَا يَكُم مِّن يَمَعَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِيْتِهِ تَعْتَرُونُ﴾^(١٤) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ بِرِيسِمٍ يُشْرِكُونَ﴾^(١٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ فَمَتَّعُوا سَفُوفَ تَعَلَّمُونَ﴾^(١٦) [اللَّهُ وَحْدَهُ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَرَبُّهُ ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَمَيْمُونُ ابْنُ مِهْرَانَ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَي دَائِمًا^(١٧).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيضًا: أَي وَاجِبًا^(١٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَي خَالِصًا لَهُ، أَي لَهُ الْعِبَادَةُ وَحْدَهُ مِمَّن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَعَدَّ وَبَيْنَ اللَّهِ يَسْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِيْتِهِ يُرْجَمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] هَذَا عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ، أَي ارْهَبُوا أَنْ تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا وَأَخْلِصُوا لِي الطَّاعَةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١٣] ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَالِكُ النَّقْعِ وَالضَّرِّ، وَأَنَّ مَا بِالْعِبَادِ مِنْ رِزْقٍ وَنِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَنَصْرِ فَمِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِيْتِهِ تَعْتَرُونَ﴾ أَي لِيَعْلَمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ، فَإِنَّكُمْ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ تَلْجَأُونَ إِلَيْهِ، وَتَسْأَلُونَهُ وَتُلِحُّونَ فِي الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مُسْتَعِيثِينَ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا تَجَنَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وَقَالَ

(١) الطبري: ١٧/٢١٣ (٢) الطبري: ١٧/٢١٤ (٣) الطبري: ١٧/٢١٥ (٤) فتح الباري: ١٣/٣٧٢ ومسلم: ٤/٢١٦٠ (٥) فتح الباري: ٨/٢٠٥ ومسلم: ٤/١٩٩٧ (٦) الطبري: ١٧/٢١٧ (٧) الطبري: ١٧/٢١٧ (٨) الطبري: ١٧/٢١٧ (٩) الطبري: ١٧/٢٢٢ (١٠) الطبري: ١٧/٢٢٣

هَٰؤُلَاءِ: ﴿٥٦﴾ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِقَ بَيْنَكُمْ بَرِيحًا يَشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاءَيْنَهُمْ ﴿٥٦﴾ قِيلَ: اللَّامُ هَهُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ. وَقِيلَ: لَامُ التَّمْلِيلِ، بِمَعْنَى قِيضْنَا لَهُمْ ذَلِكَ لِيَكْفُرُوا أَيْ تَسْتُرُوا وَيَجْحَدُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ الْمُسْدِي إِلَيْهِمُ النِّعَمَ، الْكَاشِفُ عَنْهُمْ النِّقَمَ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ قَائِلًا ﴿فَتَسْتَوْا﴾ أَي اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ وَتَمَتَّعُوا بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ قَلِيلًا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَي عَاقِبَةُ ذَلِكَ.

﴿وَجَعَلُوا لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهُ لَشَتَّانَ عَمَّا كَتَبَ تَفَرُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ النَّبْتَ سَحْنَةً وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسِكِّمُهُ عَلَىٰ هَوِيٍّ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمِثْلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ [مِنْ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ النَّذْرُ لِلْآلِهَةِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ قَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَدَّوْا مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ مِنْ الْأَضْمَانِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَجَعَلُوا لِلْأَوْثَانِ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فَقَالُوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أَي جَعَلُوا لِآلِهَتِهِمْ نَصِيبًا مَعَ اللَّهِ وَفَضَّلُوهُمَا عَلَىٰ جَانِبِهِ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ لَيْسَ أَلَيْسَ لَهُمْ عَنِ ذَلِكَ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَاتَّفَكَوْهُ، وَيَقَابِلَتُهُمْ عَلَيْهِ، وَيَجَارِزَتُهُمْ أَوْفَرِ الْجَزَاءِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَقَالَ: ﴿تَاللهِ لَشَتَّانَ عَمَّا كَتَبَ تَفَرُّونَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاتًا، وَجَعَلُوا بَنَاتِ اللَّهِ فَعَبَدُوهُمَا مَعَهُ، فَأَخْطَأُوا خَطَأً كَبِيرًا فِي كُلِّ مَقَامٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ، فَتَسَبَّوْا إِلَيْهِ تَعَالَىٰ أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَلَا وَلَدَ لَهُ. ثُمَّ أَعْطَوْهُ أَحْسَنَ الْقِسْمَيْنِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَهُوَ الْبَنَاتُ. وَهُمْ لَا يَرْضُونَهَا لِأَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ﴿٦١﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمَ ضِرْبًا﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

وقوله ههنا: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ النَّبْتَ سَحْنَةً﴾ أَي عَنْ قَوْلِهِمْ وَإِفْكِهِمْ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِيَّاهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿٦٠﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿٦٠﴾ مَا لَكَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. [الصافات: ١٥١-١٥٤] وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أَي يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ وَيَأْتِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَنَاتِ الَّتِي نَسَبُوهَا إِلَى اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوقًا كَبِيرًا.

لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاءَيْنَهُمْ فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهُ لَشَتَّانَ عَمَّا كَتَبَ تَفَرُّونَ ﴿٥٧﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ النَّبْتَ سَحْنَةً، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسِكِّمُهُ عَلَىٰ هَوِيٍّ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمِثْلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ يَظْلِمُهُمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَأْبِهِ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْتِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُحْسِنِينَ لِأَجْرِمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِيقٍ لِمَنْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ يُلِيمُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

[نُفُورُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْبَنَاتِ]

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا﴾ أَي كَثِيبًا مِنْ أَلْهَمٍ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ سَاكَبَتْ مِنْ شِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزَنِ، ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ﴾ أَي يَكْرَهُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسِكِّمُهُ عَلَىٰ هَوِيٍّ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أَي إِنْ أَبْقَاهَا أَبْقَاهَا مُهَانَةً لَا يُورَثُهَا وَلَا يَبْعَثُ بِهَا، وَيَفْضَلُ أَوْلَادَهُ الذُّكُورَ عَلَيْهَا ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أَي يَبْذُلُهَا، وَهُوَ أَنْ يَبْذُلَهَا فِيهِ حِيَّةً، كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَمْ مَنْ يَكْرَهُونَهُ هَذِهِ الْكِرَاهَةَ وَيَأْتِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْهُ يَجْعَلُونَهُ لِلَّهِ؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَي بِئْسَ مَا قَالُوا، وَبِئْسَ مَا قَسَمُوا، وَبِئْسَ مَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]. وَقَوْلُهُ هَهُنَا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السَّوْءِ﴾ أَي النَّقْصُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ﴿وَلِلَّهِ الْمِثْلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أَي الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِدُّونَ ﴿١٦﴾ وَيَعْمَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَصَصَّفَ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنْ لَهُمُ الْمُسْتَقَىٰ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿١٧﴾﴾

[لَا يُؤَاخِذُ بِالْمَعَاصِي فَوْرًا]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ جَلْمِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ، أَيْ لَا أَهْلَكَ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَبَعًا لِإِهْلَاكِ بَنِي آدَمَ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ، وَيُنْظِرُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، أَيْ لَا يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، إِذْ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لَمَا أَبْقَىٰ أَحَدًا. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: سَمِعَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَجُلًا وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، قَالَ: فَالْتَمَسْتُ إِلَيْهِ. فَقَالَ: بَلَىٰ وَاللَّهِ! حَتَّىٰ إِنَّ الحَبَّارِیَ لَتَمُوتُ فِي وَكْرَهَا بِظُلْمِ الظَّالِمِ ^(١).

[نِسْبَةُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى اللَّهِ مَا يَكْرَهُونَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْمَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أَيْ مِنَ البَنَاتِ، وَمِنَ الشَّرَكَاءِ الَّذِينَ هُمْ عِبِيدُهُ، وَهُمْ يَأْتِفُونَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَحَدِهِمْ شَرِيكٌ لَهُ فِي مَالِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَصَصَّفَ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنْ لَهُمُ الْمُسْتَقَىٰ﴾
إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ، مَعَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَىٰ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ تَمَّ مَعَادٌ فِيهِه أَيْضًا لَهُمُ الحُسْنَىٰ، وَإِخْبَارٌ عَنِ قِبَلِ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ وَمَا رَحْمَةً تَمَّ نَزْعُهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَتُوسُّ كَفُورًا ﴿١٦﴾ وَلَكِنْ أَدَقْنَاهُ تَعَمَّأَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾ [هود: ١٠٩]. وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ أَدَقْنَاهُ رَحْمَةً مَتَا مِنْ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُدْفِقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]. وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِإِيَابِنَا وَقَالَ لَأَتُوبَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مریم: ٧٧] وَقَالَ إِخْبَارًا عَنِ أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ أَنَّهُ ﴿دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُؤِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] فَجَمَعَ هُوَ لَاءٌ بَيْنَ عَمَلِ الشُّوءِ وَتَمَنَّى البَاطِلِ بِأَنْ يُجَازُوا عَلَىٰ ذَلِكَ حُسْنًا، وَهَذَا مُسْتَحِيلٌ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي تَمَنِّيهِمْ ذَلِكَ: ﴿لَا

جَرَمَ﴾ أَيْ حَقًّا لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: مَنْسِيُونَ فِيهَا مُضِيِّعُونَ ^(٢). وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. وَعَنْ قَتَادَةَ أَيْضًا: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أَيْ مُعْجَلُونَ إِلَىٰ النَّارِ مِنَ الفَرَطِ ^(٣). وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الوَرْدِ، وَلَا مُتَافَاةَ لِأَنَّهُمْ يُعْجَلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ وَيُسُونُ فِيهَا أَيْ يُخَلَّدُونَ.

﴿وَاللَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِزَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٩﴾﴾

[التَّعْرِي بِمَنْ سَبَقَ]

يَذُكُرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْأُمَمِ الخَالِيَةِ رُسُلًا فَكَذَّبَتْ الرُّسُلَ، فَلَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُسُوءَةٌ، فَلَا يَهْدِيكَ تَكْذِيبُ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُمْ مَا فَعَلُوهُ. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أَيْ هُمْ تَحْتَ العُقُوبَةِ وَالتَّكَالِ، وَالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمْ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ خَلَاصًا، وَلَا صَرِيحَ لَهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

[الْقَصْدُ مِنْ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ: إِنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَالْقُرْآنُ فَاصِلٌ بَيْنَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ ﴿وَهُدًى﴾ أَيْ لِلْقُلُوبِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ أَيْ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وَكَمَا جَعَلَ سُبْحَانَ الْقُرْآنِ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ المَيِّتَةِ بِكُفْرِهَا، كَذَلِكَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَيْ يَهْتَمُونَ بِالْكَلامِ وَمَعْنَاهُ.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وَمِنْ بَيْنِ قَوْلِهِ وَدَمِيرٍ لَبَّأُ خَالِصًا سَابِقًا لِلشَّرِيدِينَ ﴿١٧﴾ وَمِنْ تَمَرَّتِ النَّخِيلِ وَالْأَخْضَبِ

(١) الطبري: ١٧/٢٣١ إسناده ضعيف محمد بن جابر اليمامي الحنفي وضعفه الجمهور وقال ابن حجر: صدوق ذهب كتبه فساء حفظه وخلط كثيرا وعمى فصار يلقن (تقريب) قال الإمام أحمد: لا يحدث عنه إلا شر منه [العلل ١/١١٧]. (٢) الطبري: ١٧/٢٣٣ (٣) الطبري: ١٧/٢٣٤

تَلْخُدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

[الْعِبْرَةُ وَالنَّعْمَةُ فِي الْأَنْعَامِ وَتَمْرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿لِعِبْرَةٍ﴾ أَيُّ لَآيَةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى حِكْمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلَطْفِهِ ﴿تُنْفِقُكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾ أَفْرَدَهَا هُنَا عَوْدًا عَلَى مَعْنَى التَّعَمُّ، أَوْ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْحَيَوَانَ، فَإِنَّ الْأَنْعَامَ حَيَوَانَاتٌ أَيُّ تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطْنِ هَذَا الْحَيَوَانَ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿مِمَّا فِي بَطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، وَيَجُوزُ هَذَا وَهَذَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا لَذِكْرُ اللَّهِ﴾ مَن شَاءَ ذَكَرْهُ [عبس: ١١، ١٢] وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ فَلَمَّا جَاءَ سَلِيمَنُ [النمل: ٣٥، ٣٦] أَيُّ الْمَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ بَيْنَ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا﴾ أَيُّ يَتَخَلَّصُ الدَّمُ بِيَاضِهِ وَطَعْمُهُ وَحَلَاوَتُهُ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ - فِي بَاطِنِ الْحَيَوَانَ - فَيَسْرِي كُلُّ إِلَى مَوْطِنِهِ، [فَإِذَا] نَضَجَ الْعِذَاءُ فِي مِعْدَتِهِ، [تَصْرَفَ] مِنْهُ دَمٌ إِلَى الْعُرُوفِ، وَلَبِنٌ إِلَى الضَّرْعِ، وَيَبُولُ إِلَى الْمَثَانَةِ، وَرَوْتُ إِلَى الْمَخْرَجِ، وَكُلُّ مِنْهَا لَا يَشُوبُ الْآخَرَ، وَلَا يُمَارِجُهُ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرْبِينَ﴾ أَيُّ لَا يَعْصُ بِهِ أَحَدٌ، وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّبَنَ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُ شَرَابًا لِلنَّاسِ سَائِغًا نَتَى بِذِكْرِ مَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَشْرِبَةِ مِنَ تَمْرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ، وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنَ النَّبِيذِ الْمُسْكِرِ قَبْلَ تَحْرِيمِهِ، وَلِهَذَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمِنْ تَمْرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَلْخُدُونَ مِنْهُ سَكْرًا﴾ دَلٌّ عَلَى إِبَاحَتِهِ شَرْعًا قَبْلَ تَحْرِيمِهِ، وَدَلٌّ عَلَى التَّشْبِيهِ بَيْنَ الْمُسْكِرِ الْمُتَّخِذِ مِنَ النَّخْلِ وَالْمُتَّخِذِ مِنَ الْعِنَبِ، وَكَذَا حُكْمُ سَائِرِ الْأَشْرِبَةِ الْمُتَّخِذَةِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالذَّرَّةِ وَالْعَسَلِ، كَمَا جَاءَتْ السُّنَّةُ بِتَفْصِيلِ ذَلِكَ.

كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ السَّكْرُ مَا حُرِّمَ مِنْ تَمْرَتَيْهِمَا، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا أُجِلَّ مِنْ تَمْرَتَيْهِمَا^(١). وَفِي رِوَايَةٍ: السَّكْرُ حَرَامُهُ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ حَلَالُهُ^(٢). يَعْنِي مَا يَسَّرَ مِنْهُمَا مِنْ تَمْرٍ وَزَيْبٍ، وَمَا عَمِلَ مِنْهُمَا مِنْ طَلَاءٍ وَهُوَ اللَّبْسُ وَحَلٌّ وَنَبِيذٌ، حَلَالٌ يُشْرَبُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَدَّ، كَمَا وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ نَاسَبٌ ذِكْرُ الْعُقْلِ هُنَا، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ مَا فِي

سُورَةُ النَّحْلِ

٢٧٤

سُورَةُ النَّحْلِ

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لِعِبْرَةً لِّتُنْفِقُكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرْبِينَ ﴿٦٩﴾ وَمِنْ تَمْرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَلْخُدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ نَوَّفَكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّكُمُ آذَانَ الْغَمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٤﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرِزْقَكُمْ مِنْ أَلْطَيْبَاتِ آفِيَا لِبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾

الْإِنْسَانَ، وَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَشْرِبَةَ الْمُسْكِرَةَ صِبَاغَةً لِعُقُولِهَا^(٣)، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجْرًا فِيهَا مِنَ الْعِنُونِ﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾ شَبَحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ.

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٢﴾

[وَفِي النَّحْلِ وَعَسَلِهَا نِعْمَةٌ وَعِبْرَةٌ]

الْمُرَادُ بِالْأَوْحَى هُنَا الْإِلْهَامُ وَالْهَدَايَةُ، وَالْإِرْشَادُ لِلنَّحْلِ أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا تَأْوِي إِلَيْهَا، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

(١) الطبري: ١٧/٢٤١ (٢) الطبري: ١٧/٢٤٢ (٣) الطبري:

اللَّهُ ﷻ كَانَ يُعْجِبُهُ الْحَلَوَاءُ وَالْعَسَلُ^(٥). هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشَّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرِبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيْتٍ بِنَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيْ»^(٦). وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيُّ إِنَّ فِي إِهَامِ اللَّهِ لِهَذِهِ الدَّوَابِّ الضَّعِيفَةِ الْخَلْقَةَ إِلَى السُّلُوكِ فِي هَذِهِ الْمَهَامَةِ، وَالِاجْتِنَاءِ مِنْ سَائِرِ الثَّمَارِ، ثُمَّ جَمْعُهَا لِلشَّمْعِ وَالْعَسَلِ، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الْأَشْيَاءِ، لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمَقْدَرِهَا وَمُسَخَّرِهَا وَمُسَرِّهَا، فَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْقَادِرُ، الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْكَرِيمُ الرَّحِيمُ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكُ إِلَى الْآزَلِ الْعُمُرَ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧١﴾﴾
 [وفي أطوارِ عمرِ الإنسانِ عبرة]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ تَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَوَفَّاهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْرُكُهُ حَتَّى يُذْرِكُهُ الْهَرَمَ، وَهُوَ الضَّعْفُ فِي الْخَلْقَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً... [الآية: الروم: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أَيُّ بَعْدَ مَا كَانَ عَالِمًا أَصْبَحَ لَا يَدْرِي شَيْئًا مِنَ الْقَدْرِ وَالْخَرَفِ، وَلِهَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَأَرْدَلِ الْعُمُرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ وَفِتْنَةِ الْمُحْيَا وَالْمَمَاتِ»^(٧). وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلْمَى فِي مُعَلَّقَتِهِ الْمَشْهُورَةِ.

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ
 تَمَانِينَ عَامًا - لَا أَبَا لَكَ - يَسْأَمُ
 رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ نُصِبَ
 ثَمَنُهُ وَمَنْ تُخْطِئُهُ يُعَمَّرَ فِيهِمْ
 ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا لِلزَّيْتِ فَضْلًا يَرَادِي
 رِزْقَهُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَمَةٍ اللَّهِ
 يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

(١) يتعلق بما قبله أي كما وردت السنة بذلك (٢) الطبري: ١٧ / ٢٤٩ (٣) الطبري: ١٧ / ٢٤٩ (٤) فتح الباري: ١٠ / ١٧٨ ومسلم: ٤ / ١٧٣٦ (٥) فتح الباري: ١٠ / ٨١ ومسلم: ٢ / ١١٠ (٦) فتح الباري: ١٠ / ١٤٣ (٧) فتح الباري: ٨ / ٢٣٩

بِعَرشُونَ، ثُمَّ هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ فِي تَسْدِيسِهَا وَرِصْفِهَا بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي بَيْنِهَا خَلَلٌ، ثُمَّ أَدْنَى لَهَا تَعَالَى إِذْنَا قَدْرِيًا تَسْخِيرِيًا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَنْ تَسْلُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مُذَلَّلَةً لَهَا، أَيُّ مُسَهَّلَةً عَلَيْهَا، حَيْثُ شَاءَتْ مِنْ هَذَا الْجَوِّ الْعَظِيمِ، وَالْبَرَارِي الشَّاسِعَةِ، وَالْأَوْدِيَةِ وَالْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ، ثُمَّ تَعَوَّدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَى بَيْنِهَا لَا تَجِدُ عَنْهُ يُمْنَةً وَلَا يَسْرَةَ، بَلْ إِلَى بَيْنِهَا وَمَا لَهَا فِيهِ مِنْ فِرَاحٍ وَعَسَلٍ، فَتَبْنِي الشَّمْعَ مِنْ أَجْنَحَيْهَا وَتَقِيءُ الْعَسَلَ مِنْ فِيهَا، وَتَبِيضُ الْفِرَاحَ مِنْ دُبُرِهَا، ثُمَّ تُصْبِحُ إِلَى مَرَاعِيهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿فَأَسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ أَيُّ مُطِيعَةً^(١). فَجَعَلَاهُ حَالًا مِنَ السَّالِكَةِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَهُوَ كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَمِنهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]^(٢) قَالَ: أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ النُّحْلَ بِنُيُوتِهِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَهُوَ يَضْحَكُهُمْ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ هُوَ الْأَظْهَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ حَالَ مِنَ الطَّرِيقِ، أَيُّ فَاسْلُكِيهَا مُذَلَّلَةً لَكَ، نَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: كِلَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ مَا بَيْنَ أَبْيَضَ، وَأَصْفَرَ، وَأَحْمَرَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْوَانِ الْحَسَنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاعِيهَا وَمَأْكَلِهَا مِنْهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أَيُّ فِي الْعَسَلِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، أَيُّ مِنْ أَدْوَاءِ تَعْرِضُ لَهُمْ. قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الطَّبِّ النَّبَوِيِّ: لَوْ قَالَ: فِيهِ الشَّفَاءُ لِلنَّاسِ، لَكَانَ دَوَاءً لِكُلِّ دَاءٍ، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، أَيُّ يَصْلُحُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ أَدْوَاءِ بَارِدَةٍ، فَإِنَّهُ حَارٌّ وَالشَّيْءُ يَدَاوِي بِضِدِّهِ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ عَلِيِّ بْنِ دَاوُدَ النَّاجِي عَنِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي اسْتَطَلَّقَ بَطْنَهُ، فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلًا» فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ، سَقَيْتَهُ عَسَلًا، فَمَا زَادَهُ إِلَّا اسْتَطَلَّاقًا، قَالَ: «إِذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا» فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ، مَا زَادَهُ إِلَّا اسْتَطَلَّاقًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَّبَ بَطْنُ أَخِيكَ، إِذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا» فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا فَبَرِيءٌ^(٤).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ

[وفي أمور معاش الإنسان آية ونعمة]

بِئْسَ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ جَهْلَهُمْ وَكُفْرُهُمْ فِيمَا زَعَمُوا لِيهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا عِبِيدٌ لَهُ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيهِهِمْ فِي حَجَّهِمْ: لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكَ هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. فَقَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: أَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ أَنْ تُسَاوُوا عِبِيدَكُمْ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ، فَكَيْفَ يَرْضَى هُوَ تَعَالَى بِمُساوَاةِ عِبِيدٍ لَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالتَّعْظِيمِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِمَّنْ أَنْفَسَكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾... الْآيَةُ [الرُّوم: ٢٨]. قَالَ التَّوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَقُولُ: لَمْ يَكُونُوا لِيُشْرِكُوا عِبِيدَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ عِبِيدِي مَعِي فِي سُلْطَانِي، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَفِينَعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(١). وَقَالَ فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى عَنْهُ: فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِي مَا لَا تَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِكُمْ.

وقوله: ﴿أَفِينَعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: إِنَّهُمْ جَعَلُوا لِيهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا، فَجَحَدُوا نِعْمَتَهُ، وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ. وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ... وَاقْتَعِ بَرزِقَكَ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الرَّحْمَنَ فَضَّلَ بَعْضَ عِبَادِهِ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ بِلَاءٍ يَتَّبِلِي بِهِ كَلًّا، فَيَتَّبِلِي مَنْ بَسَطَ لَهُ كَيْفَ شُكْرُهُ لِيهِ وَأَدَاؤُهُ الْحَقَّ الَّذِي افْتَرَضَ عَلَيْهِ فِيمَا رَزَقَهُ وَخَوْلَهُ؟ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٢).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيْبِ أَفِيَالِطِلٌ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾^(٧٢)

[وَمِنَ النِّعَمِ وَالْآيَاتِ الْأَرْوَاحُ وَالْأَوْلَادُ وَالْأَحْفَادُ]

يَذُكُرُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَى عِبِيدِهِ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِهِمْ وَشَخْلَهُمْ، وَلَوْ جَعَلَ الْأَزْوَاجَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ مَا حَصَلَ الْإِثْبَاتُ وَالْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ خَلَقَ مِنْ بَنِي آدَمَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَجَعَلَ الْإِنَاثَ أَزْوَاجًا لِلذُّكُورِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الْأَزْوَاجِ الْبَيْنِينَ وَالْحَفْدةَ وَهُمْ أَوْلَادُ الْبَيْنِينَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ^(٣). قَالَ شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿بَيْنٌ وَحَفْدةٌ﴾ وَهُمْ الْوَلَدُ وَوَلَدُ الْوَلَدِ^(٤). وَقِيلَ: الْخَدْمُ وَالْأَعْوَانُ. وَقِيلَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧٥

سُورَةُ النِّعَمِ

وَبَعْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضُرُّوهُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَسْمِعُ لَعَامُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مَنَارًا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْيَكُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لآيَاتٍ بَاطِنَةٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ رَبَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَبْرَأُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جِوَارِ السَّمَاءِ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

الْأَحْتَانُ. وَقِيلَ: الْأَضْهَارُ. قُلْتُ: فَمَنْ جَعَلَ وَحَفْدةٌ مُتَعَلِّقًا بِأَزْوَاجِكُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْأَوْلَادَ، وَأَوْلَادَ الْأَوْلَادِ، وَالْأَضْهَارُ - لِأَنَّهَا أَزْوَاجُ النَّبَاتِ - أَوْ: أَوْلَادُ الرُّوْجَةِ. كَمَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ، فَإِنَّهُمْ غَالِيًا يَكُونُونَ تَحْتَ أَزْفِ الرَّجُلِ وَفِي حِجْرِهِ وَفِي خِدْمَتِهِ.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيْبِ﴾ أَي مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ الْمُتَمَعِّعِ غَيْرَهُ: ﴿أَفِيَالِطِلٌ يُؤْمِنُونَ﴾ وَهُمْ الْأَنْدَادُ وَالْأَصْنَافُ وَبِعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ أَي يَسْتُرُونَ نِعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَيُضْفِئُونَهَا إِلَى غَيْرِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَمَتًا عَلَيْهِ: أَلَمْ أَرْزُقْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرَبُّعٌ؟»^(٥).

(١) الطبري: ٢٥٢/١٧ (٢) ابن أبي حاتم (١٢٥٨٣) ٧/٢٢٩١

مرسل منقطع (٣) الطبري: ٢٥٦/١٧، ٢٥٧ (٤) الطبري: ١٧/

٢٥٧ (٥) مسلم: ٢٢٧٩/٤

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَظِلُّونَ﴾ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

[الْتَكْبِيرُ عَلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى إِجْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا مَعَهُ
غَيْرَهُ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ الْمُتَضَلُّ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، وَخَدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ
وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أَي لَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِزْزَالِ مَطَرٍ، وَلَا إِثْبَاتِ زَرْعٍ
وَلَا شَجَرٍ، وَلَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ، أَي لَيْسَ لَهُمْ
ذَلِكَ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ لَوْ أَرَادُوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أَي لَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَشْبَاهًا
وَأَمْثَالَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: إِنَّهُ يَعْلَمُ وَيَشْهَدُ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنْتُمْ بِجَهْلِكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِن
رَّزْقِنَاهُ مِثْرًا رَّزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ
يَسْتَوِي الْمَعْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) ﴿

[مِثْلٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ أَوْ لِلْوَتَنِ وَالْحَقِّ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذَا مِثْلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْكَافِرِ
وَالْمُؤْمِنِ (١). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ (٢). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٣).
فَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِثْلُ الْكَافِرِ،
وَالْمَرْزُوقُ الرَّزْقُ الْحَسَنُ، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هُوَ
الْمُؤْمِنُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: هُوَ مِثْلُ
مَضْرُوبِ الْوَتَنِ وَلِلْحَقِّ تَعَالَى، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا! (٤)؟
وَلَمَّا كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرًا وَاضِحًا بَيَّنَّا لَا يَجْهَلُهُ إِلَّا كُلُّ
عَبِيٍّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى
شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْمًا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَبْرٍ هَلْ
يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦) ﴿

[مِثْلُ آخَرٍ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهَذَا أَيْضًا الْمُرَادُ بِهِ الْوَتَنُ وَالْحَقُّ
تَعَالَى. يَعْنِي أَنَّ الْوَتَنَ أَبْكَمٌ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَنْطِقُ بِخَيْرٍ وَلَا
بِشَيْءٍ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَا مَقَالَ وَلَا فَعَالَ،
وَهُوَ مَعَ هَذَا كُلُّ أَيِّ عِيَالٍ وَكُلْفَةٍ عَلَى مَوْلَاهُ ﴿أَيْمًا
يُوَجِّهُهُ﴾ أَي يَبْعَثُهُ ﴿لَا يَأْتِ بِخَبْرٍ﴾ وَلَا يَنْجِحُ مَسْعَاهُ ﴿هَلْ

يَسْتَوِي﴾ مَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أَي
بِالْقِسْطِ، فَمَقَالُهُ حَقٌّ وَفِعَالُهُ مُسْتَقِيمَةٌ ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ مِثْلُ الْكَافِرِ
وَالْمُؤْمِنِ أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ
الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧) ﴿وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى
الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩) ﴿

[الْغَيْبُ لِلَّهِ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كِمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ فِي
عِلْمِهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِصَاصِهِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ،
فَلَا أَطْلَاعَ لِأَحَدٍ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُطَّلِعَهُ تَعَالَى عَلَى مَا
يَشَاءُ، وَفِي قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ، وَأَنَّهُ
إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا
أَمْرًا إِلَّا وَحِدَةً كَلِمَاتٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمr: ٥٠] أَي فَيَكُونُ مَا
يُرِيدُ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ
إِلَّا كَلِمَاتٍ بِالْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْتَكُمُ إِلَّا كَفَيْسٍ
وَاحِدَةٍ﴾ [القمr: ٢٨].

[وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفْئِدَةُ]

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مِثَّةَ عَلَى عِبَادِهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ
بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَرِزُقُهُمُ السَّمْعَ
الَّذِي بِهِ يُدْرِكُونَ الْأَصْوَاتَ، وَالْأَبْصَارَ الَّتِي بِهَا يُجِسُّونَ
الْمُرْتَبَاتِ، وَالْأَفْئِدَةَ، وَهِيَ: الْعُقُولُ الَّتِي مَرْكَزُهَا الْقَلْبُ
عَلَى الصَّحِيحِ. وَقِيلَ: الدِّمَاغُ. وَالْعَقْلُ بِهِ يَمَيِّزُ بَيْنَ
الْأَشْيَاءِ ضَارِّهَا وَنَافِعِهَا، وَهَذِهِ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ تُحْصَلُ
لِلْإِنْسَانِ عَلَى التَّدْرِيجِ قَلِيلًا قَلِيلًا، كُلَّمَا كَبُرَ زَيْدٌ فِي سَمْعِهِ
وَبَصَرِهِ وَعَقْلِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ. وَإِنَّمَا جَعَلَ تَعَالَى هَذِهِ فِي
الْإِنْسَانِ لِيَتِمَّكَنَ بِهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَى، فَيَسْتَعِينُ بِكُلِّ
جَارِحَةٍ وَعَضْوٍ وَقُوَّةٍ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَاهُ.

كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ

(١) الطبري: ١٧/٢٦١ العوفي ضعيف (٢) الطبري: ١٧/٢٦١

(٣) الطبري: ١٧/٢٦٣ (٤) الطبري: ١٧/٢٦٣

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعَالٍ حِينَ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ تَعْرِينًا رَبُّنَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْنُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذْ آرَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذْ آرَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَنقُذْنَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

[الْبُيُوتُ وَالْأَثَانُ وَالثِيَابُ مِنْ نِعْمِ اللَّهِ]

يَذُكَّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَمَامَ نِعْمِهِ عَلَى عِبِيدِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي هِيَ سَكَنٌ لَهُمْ، يَاوُونَ إِلَيْهَا، وَيَسْتَتِرُونَ بِهَا، وَيَسْتَعْنُونَ بِهَا بِسَائِرِ وُجُوهِ الْإِنْتِفَاعِ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَيْضًا مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا أَيْ مِنَ الْأَدَمِ، يَسْتَخِفُّونَ حَمَلَهَا فِي أَسْفَارِهِمْ لِيَضْرِبُوهَا لَهُمْ فِي إِقَامَتِهِمْ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أَيْ الْعِنَمِ ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أَيْ الْإِبِلِ ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أَيْ الْمَعَزِ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْأَنْعَامِ ﴿أَثْنَا﴾ أَيْ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أَثْنَا وَهُوَ الْمَالُ. وَقِيلَ: الْمَتَاعُ. وَقِيلَ: الثِّيَابُ. وَالصَّحِيحُ أَعْمٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ فَإِنَّهُ يَتَّخَذُ مِنَ الْأَثَانِ الْبُسْطَ وَالثِّيَابَ وَعَيْرَ ذَلِكَ، وَيَتَّخَذُ مَا لَا وَبِجَارَةَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَثَانُ: الْمَتَاعُ^(٣). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ

اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَاءٍ مَا أَفْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالْتَوَافُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَكِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيئِهِ، وَلَكِنْ دَعَاَنِي لِأَحِبِّيئِهِ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَ بِي لِأَعْبِدْتُهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ بِكُرْهُ الْمَوْتِ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتِهِ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»^(١). فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْلَصَ الطَّاعَةَ صَارَتْ أَعْمَالُهُ كُلُّهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُبْصِرُ إِلَّا لِلَّهِ، أَيْ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، وَلَا يَبْطِشُ وَلَا يَمْشِي إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي بَعْضِ رَوَايَةِ الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ الصَّحِيحِ بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»: «فِي يَسْمَعُ، وَبِي يَبْصُرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿[الملك: ٢٣، ٢٤].

[وَفِي تَسْخِيرِ الطَّيْرِ فِي جَوْ السَّمَاءِ آيَةً]

ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى النَّظَرِ إِلَى الطَّيْرِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَيْفَ جَعَلَهُ يَطِيرُ بِنَجَاحَيْنِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي جَوْ السَّمَاءِ، مَا يُمَسِّكُهُ هُنَاكَ إِلَّا اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى، الَّتِي جَعَلَ فِيهَا قُوَى تَفْعَلُ ذَلِكَ، وَسَخَّرَ الْهَوَاءَ يَحْمِلُهَا وَيُسَيِّرُ الطَّيْرَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُلْكِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتٍ وَيَقِضُنَّ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩] وَقَالَ هُنَا: ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعَالٍ حِينَ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ تَعْرِينًا رَبُّنَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

(١) فتح الباري: ٣٤٨/١١ (٢) فتح الباري: ٣٥٣/١١ (٣) الطبري: ٢٦٨/١٧

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
 الْعَذَابِ يَمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ
 أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَيَّ
 هَؤُلَاءِ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيْسَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى
 وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
 وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
 وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾
 وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ
 بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَهَيْلًا إِنَّ
 اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ
 غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا
 بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ
 اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَفُونَ ﴿٩٢﴾
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ
 يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْلُتُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٨﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٨٨﴾ أَي الَّذِينَ أَشْرَكُوا
 ﴿٨٨﴾ الْعَذَابَ فَلَا يُخَفُّ عَنْهُمْ ﴿٨٨﴾ أَي لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً .
 ﴿٨٨﴾ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ أَي لَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ بَلْ يَأْخُذُهُمْ سَرِيعًا
 مِنَ الْمَوْقِفِ بِلَا حِسَابٍ، فَإِنَّهُ إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ تَقَادُّ سَبْعِينَ
 أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ، فَيُشْرِفُ عُتُقُ
 مِنْهَا عَلَى الْخَلَائِقِ، وَتَرْفُرُ زَفْرَةٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا جَثًا
 لِرُكْبَتَيْهِ، فَتَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، الَّذِي جَعَلَ
 مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ. وَبِكَذَا وَبِكَذَا، وَتَذَكَّرُ أَصْنَافًا مِنَ النَّاسِ،
 كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ تَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، وَتَلْتَقِطُهُمْ مِنْ
 الْمَوْقِفِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّائِرُ الْحَبَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا
 رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَرَفِيرًا ﴿٩٢﴾ وَإِذَا أَلْفَا مِنْهَا
 مَكَانًا ضَيْقًا مَقْرَبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٩٣﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا
 وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٩٣﴾ [الفرقان: ١٢-١٤] وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَهَا

وَسَعِيدٌ بِنُ جَبِيرٍ وَالْحَسَنُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ
 وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى
 وَوَقْتُ مَعْلُومٌ.

[الظَّلَالُ وَالْحِجَابُ وَسَرَابِيلُ الثُّوبِ، وَالْحَدِيدُ أَيْضًا مِنْ
 نِعَمِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ:
 بَعْضُ الشَّجَرِ (١). ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أَي
 حُصُونًا وَمَعَاوِلَ كَمَا ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ أَي
 وَهِيَ الثِّيَابُ مِنَ الْقَطَنِ وَالْكَتَّانِ وَالصُّوفِ ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ
 بَأْسَكُمْ﴾ كَالدَّرُوعِ مِنَ الْحَدِيدِ الْمُصَفَّحِ وَالزَّرْدِ وَغَيْرِ
 ذَلِكَ، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَي هَكَذَا يَجْعَلُ لَكُمْ
 مَا تَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَىٰ أَمْرِكُمْ وَمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، لِيَكُونَ عَوْنًا
 لَكُمْ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ (لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ) هَكَذَا فَسَّرَهُ
 الْجُمْهُورُ، وَقَرَأَهُ بِكَسْرِ اللَّامِ مِنْ «سَلِمْتُمْ» أَي مِنْ
 الْإِسْلَامِ.

[مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْإِمْتِنَانِ،
 فَلَا عَلَيْكَ مِنْهُمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وَقَدْ أَذْبَتُهُ إِلَيْهِمْ
 ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أَي يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
 هُوَ الْمُسَبِّدِي إِلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَهُوَ الْمُتَقَضَّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَمَعَ
 هَذَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَيُسَيِّدُونَ النَّصْرَ
 وَالرِّزْقَ إِلَىٰ غَيْرِهِ ﴿وَكَرِهْتُمُ الْكُفْرَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
 وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٨﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفُّ
 عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا
 رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ
 الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٩﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَصَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ يَمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

[حَالُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحَشْرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ فِي الدَّارِ
 الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا، وَهُوَ نَبِيُّهَا، يَشْهَدُ
 عَلَيْهَا بِمَا أَجَاتَتْهُ فِيمَا بَلَّغَهَا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤَدُّ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي فِي الْإِعْتِدَارِ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بِطُلَانَةِ
 وَكَيْدِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ
 فَعْتَدَرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا هُمْ

وَيَتَّبِعُونَ هُمْ مِنْهُ أَيْضًا ﴿٢٦﴾ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٧﴾
[الأنعام: ٢٦] وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَقَاوُتِ الْكُفَّارِ فِي عَذَابِهِمْ
كَمَا يَتَّفِقُونَ الْمُؤْمِنُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهِمْ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٤٠، ٣٩].

﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

[كُلُّ نَبِيٍّ يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ
نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا
عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ بِعَنِي أُمَّتِكَ، أَيُّ أَدَّكَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهَوْلَهُ، وَمَا
مَنَحَكَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ، وَهَذِهِ
الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ
قَرَأَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَدْرَ سُورَةِ النَّسَاءِ، فَلَمَّا وَصَلَ
إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ
عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«حَسْبُكَ» فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَالْتَفَتَ فَإِذَا
عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ^(٢).

[الْقُرْآنُ بَيِّنَاتٌ لِكُلِّ شَيْءٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قَالَ
ابْنُ مَسْعُودٍ: قَدْ بَيَّنَّ لَنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ كُلُّ عِلْمٍ وَكُلُّ
شَيْءٍ^(٣). فَإِنَّ الْقُرْآنَ اشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ مِنْ خَبْرٍ مَا
سَبَقَ وَعِلْمٍ مَا سَيَأْتِي، وَكُلِّ حَلَالٍ وَحَرَامٍ، وَمَا النَّاسُ إِلَيْهِ
مُحْتَاجُونَ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُمْ وَدِينِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ
﴿وَهُدًى﴾ أَيُّ لِلْقُلُوبِ ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وَقَالَ
الْأَوْزَاعِيُّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أَيُّ:
بِالْسُّنَّةِ^(٤). وَوَجْهٌ أُفْتِرَانٍ قَوْلُهُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مَعَ
قَوْلِهِ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أَنَّ الْمُرَادَ - وَاللَّهُ
أَعْلَمُ - إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ
عَلَيْكَ سَائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ
إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّكَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] ﴿فَوَرِّدْكَ
لِنَسْتَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(١) الطبري: ٢٧٦/١٧ (٢) فتح الباري: ٩٩/٨ (٣) الطبري:

٢٦٩/١٧ (٤) الدر المنثور: ١٥٨/٥

مَصْرَفًا﴾ [الكهف: ٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا
حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ أَنْتَارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُبْصَرُونَ﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَيَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠، ٣٩].

تَبَرَأَ إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا
ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَبَرِّي إِلَهُتِهِمْ مِنْهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ
إِلَيْهَا فَقَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أَيُّ الَّذِينَ
كَانُوا يُعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ
كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلَقُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيُّ
قَالَتْ لَهُمُ الْإِلَهَةُ: كَذَبْتُمْ مَا نَحْنُ أَمْرَانَاكُمْ بِعِبَادَتِنَا، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَسْأَلُ وَمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَنْصُرُهُ
لَهُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعْوَاهُمْ غَفْلُونَ﴾ وَإِذَا خَيْرَ النَّاسِ
كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦٥] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]
وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ... الْآيَةَ [العنكبوت: ٢٥]. وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾... الْآيَةَ [القصص: ٦٤]،
وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

[يَسْتَسْلِمُ الْجَمِيعُ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ
وَعِكْرَمَةُ: ذَلُّوا وَاسْتَسْلَمُوا يَوْمَئِذٍ^(١). أَيُّ اسْتَسْلَمُوا لِلَّهِ
جَمِيعُهُمْ، فَلَا أَحَدٌ إِلَّا سَامِعٌ مُطِيعٌ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اسْمِعْ
يَوْمَ وَأَنْصُرْ يَوْمَ يَا تَوَنُّتًا﴾ [مريم: ٣٨] أَيُّ مَا أَسْمَعُهُمْ وَمَا
أَبْصَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا
رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا... الْآيَةَ
[السجدة: ١٢]، وَقَالَ: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه:
١١١] أَيُّ خَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَكَانَتْ وَأَنَابَتْ وَاسْتَسْلَمَتْ.
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ﴾ أَيُّ ذَهَبَ وَاضْمَحَلَّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ أَفْتِرَاءً عَلَى
اللَّهِ، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ وَلَا مُعِينَ وَلَا مُجِيرَ.

[الزِّيَادَةُ فِي عَذَابِ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْكُفَّارِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
رَدَّتْهُمْ عَذَابًا... الْآيَةَ، أَيُّ عَذَابًا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَذَابًا
عَلَى صُدْهِمُ النَّاسِ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ
يَهْتَوُونَ عَنْهُ وَيَتَّوُونَ عَنْهُ﴾ أَيُّ يَهْتَوُونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِهِ

عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْنَاءَ بَيْتِهِ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ، فَكَثَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَجْلِسُ؟» فَقَالَ: بَلَى، قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَقْبِلَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُهُ إِذْ شَخَصَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَنَظَرَ سَاعَةً إِلَى السَّمَاءِ، فَأَخَذَ يَضَعُ بَصَرَهُ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى يَمِينِهِ فِي

الْأَرْضِ، فَتَحَرَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ جَلِيسِهِ عُثْمَانَ إِلَى حَيْثُ وَضَعَ بَصَرَهُ، فَأَخَذَ يُبْغِضُ رَأْسَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَنْفِقُهُ مَا يَقَالُ لَهُ، وَابْنُ مَطْعُونٍ يُنْظَرُ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ وَاسْتَنْفَقَهُ مَا يَقَالُ لَهُ، شَخَصَ بَصَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا شَخَصَ

أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَتْبَعَهُ بَصَرُهُ حَتَّى تَوَارَى إِلَى السَّمَاءِ، فَأَقْبَلَ إِلَى عُثْمَانَ بِجَلِيسَتِهِ الْأُولَى، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَا كُنْتَ أُجَالِسُكَ مَا رَأَيْتُكَ تَفْعَلُ كِفْعَلِكَ الْعِدَاءَةَ، فَقَالَ: «وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ؟» قَالَ: رَأَيْتُكَ شَخَصَ بَصَرُكَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعْتَهُ حَيْثُ وَضَعْتَهُ عَلَى يَمِينِكَ، فَتَحَرَّفْتَ إِلَيْهِ وَتَرَكَتَنِي، فَأَخَذْتَ تُبْغِضُ رَأْسَكَ كَأَنَّا تَسْتَنْفِقُهُ شَيْئًا يَقَالُ لَكَ، قَالَ:

«وَقَطِنْتُ لِذَلِكَ؟» فَقَالَ عُثْمَانُ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَأْتِي رَسُولُ اللَّهِ آتِفًا وَأَنْتَ جَالِسٌ» قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» الْآيَةَ، قَالَ عُثْمَانُ: فَذَلِكَ حِينَ اسْتَمَرَّ

الْإِيمَانَ فِي قَلْبِي وَأَحْبَبْتُ مُحَمَّدًا ﷺ^(٣). إسناده جيد متصل حسن، قد بين فيه السماع المتصل.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْفَالاً إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ عَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْهَا لِنَجْدِزُونَ إِيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١١﴾

[الْأَمْرُ بِإِيْقَاءِ الْعَهْدِ]

هَذَا مِمَّا يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَهُوَ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْمَوَائِقِ وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى الْأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وَلَا تَعَارِضَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾... الْآيَةَ

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِئِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أَيُّ إِنَّ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْقُرْآنِ لَرَادُّكَ إِلَيْهِ، وَمُعِيدُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَسَائِلُكَ عَنْ أَدَاءِ مَا فَرَضَ عَلَيْكَ. هَذَا أَحَدُ الْأَقْوَالِ، وَهُوَ مُتَّجِهٌ حَسَنٌ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٠)

[الْأَمْرُ بِالْإِنصَافِ وَالْإِحْسَانِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ الْقِسْطُ وَالْمُوازَنَةُ، وَيَنْدُبُ إِلَى الْإِحْسَانِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَرِّزُوا سِنَتَهُ سِنَتَهُ مِنْهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٦] وَقَالَ: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى شَرَعِيَّةِ الْعَدْلِ وَالنَّدْبِ إِلَى

الْفَضْلِ.

[الْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ أَيُّ يَأْمُرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا يَذُرُ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرُ بَذِيرًا﴾. [الإسراء: ٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فَالْقَوَاجِشُ: الْمُحْرَمَاتُ. وَالْمُنْكَرَاتُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا مِنْ فَاعِلِهَا، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْمَوْضِعِ الْآخَرَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وَأَمَّا

الْبَغْيُ فَهُوَ الْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ عِقَابَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَطَعْيَةِ الرَّحِمِ»^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أَيُّ يَأْمُرُكُمْ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ

عَنْ شُتَيْبِ بْنِ شَكْلٍ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنْ أَجْمَعَ آيَةَ فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ النَّحْلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الْآيَةَ^(٢). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

[وَأَيُّعَةُ عَيْنِ لِعُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وَقَدْ وَرَدَ فِي نَزْوِلِهَا حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ

(١) أبو داود: ٢٠٨/٥ (٢) الطبري: ٢٨٠/١٧ (٣) أحمد:

وَلَا تَنخَدُوا أَيَّمَانُكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ فَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ أُخْرَىٰ وَتَذَوُّوا السُّوءَ بِمَا صَدَدَتْكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَلَا تَشْرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَابَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلُّونَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ لِّبَلِّغْ كَثْرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾

كَانَ قَدْ نَهَىٰ عَنِ الْعُدْرِ وَالْحَالَةَ هَذِهِ، فَلَأَن يَنْهَىٰ عَنْهُ مَعَ التَّمَكُّنِ وَالْقُدْرَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَىٰ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا يُحَالِفُونَ الْخُلَفَاءَ فَيَجِدُونَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَعَزَّ، فَيَنْفُضُونَ حِلْفَ هَؤُلَاءِ وَيُحَالِفُونَ أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ وَأَعَزُّ، فَهُوَ عَنِ ذَلِكَ. وَقَالَ الصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ نَحْوَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي بِالْكَثْرَةِ ^(٨). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: أَيُّ بِأَمْرِهِ إِنَّا كُمْ بِالْقَوَاءِ بِالْعَهْدِ ﴿وَلِيُثَبِّتَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ^(٩).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَبْضُلُ مَن يَشَاءُ﴾

[البقرة: ٢٢٤]، وَيَبَيِّنُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أَيُّ لَا تَتَرَكُوهَا بِلَا كِفَارَةٍ، وَيَبَيِّنُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ إِن شَاءَ اللَّهُ لَا أُخْلِفُ عَلَىٰ بَيْمِينِ قَارَىٰ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا - وَفِي رِوَايَةٍ - وَكَفَرْتُ عَنْ بَيْمِينِي» ^(١١): لَا تَعَارُضُ بَيْنَ هَذَا كُلِّهِ وَلَا بَيْنَ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ هُنَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْآيْنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لِأَنَّ هَذِهِ الْإِيمَانَ الْمُرَادُ بِهَا الدَّخِيلَةَ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاطِئِ، لَا الْإِيمَانَ الَّتِي هِيَ وَارِدَةٌ عَلَىٰ حَتِّ أَوْ مَنَعٍ، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْآيْنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: يَعْنِي الْجِلْفَ، أَيُّ حِلْفَ الْجَاهِلِيَّةِ ^(١٢). وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيْمًا حِلْفَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً» ^(١٣) وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(١٤). وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَخْتَاجُ مَعَهُ إِلَىٰ الْجِلْفِ الَّذِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَهُ، فَإِنَّ فِي التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ كِفَايَةً عَمَّا كَانُوا فِيهِ.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: حَالَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي دُورِنَا ^(١٥). فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ أَخَىٰ بَيْنَهُمْ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهِ، حَتَّىٰ نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ نَقَضَ الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَالسُّدِّيُّ: هَذِهِ امْرَأَةٌ خَرَفَاءُ كَانَتْ بِمَكَّةَ كُلَّمَا غَزَلَتْ شَيْئًا نَقَضَتْهُ بَعْدَ إِبْرَامِهِ ^(١٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: هَذَا مَثَلٌ لِمَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِهِ ^(١٧). وَهَذَا الْقَوْلُ أَرْجَحُ وَأَظْهَرُ سِوَاهُ كَانَ بِمَكَّةَ امْرَأَةٌ تَنْقُضُ غَزْلَهَا أَمْ لَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْكَا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ مُضَدَّرٍ، نَقَضَتْ غَزْلَهَا أَنْكَانًا أَيُّ أَنْقَاصًا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا عَنْ خَبَرٍ كَانَ، أَيُّ لَا تَكُونُوا أَنْكَانًا جَمْعُ نَكَيْتٍ مِنْ نَاكَيْتٍ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿تَنخَدُونَ أَيَّمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ﴾ أَيُّ خَدِيعَةً وَمَكْرًا، «أَنَّ تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ» أَيُّ تَخْلِفُونَ لِلنَّاسِ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ لِيَطْمَئِنُّوا إِلَيْكُمْ، فَإِذَا أَمَكْتُمْ الْعُدْرَ بِهِمْ غَدَرْتُمْ، فَتَهَىٰ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ لِيُنَبِّهَ بِالْأَذْنَىٰ عَلَىٰ الْأَعْلَىٰ، إِذَا

(١) فتح الباري: ١١/٥٢٥ ومسلم: ٣/١٢٦٩ (٢) الطبري: ١٧/٢٨٢ (٣) أحمد: ٤/٨٣ (٤) مسلم: ٤/١٩٦١ (٥) فتح الباري: ٤/٥٥٢ ومسلم: ٤/١٩٦٠ (٦) الطبري: ١٧/٢٨٥ (٧) الطبري: ١٧/٢٨٥ (٨) الدر المنثور: ٥/١٦٣ (٩) الطبري: ١٧/٢٨٧

تَعَالَى مُؤَكَّدٌ بِاللَّامِ، أَنَّهُ يُجَازِي الصَّابِرِينَ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ، أَيْ وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئِهَا.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

[الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَجَزَاؤُهُ]

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا وَهُوَ الْعَمَلُ

الْمُتَّبِعُ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ

أُنْثَىٰ، مِنْ بَنِي آدَمَ وَقَلْبُهُ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنَّ هَذَا

الْعَمَلُ الْمَأْمُورُ بِهِ مَشْرُوعٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، بِأَنَّ يُحْيِيَهُ اللَّهُ

حَيٰوةً طَيِّبَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّ يُجْزِيَهُ بِأَحْسَنِ مَا عَمِلَهُ فِي

الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَالْحَيٰوةُ الطَّيِّبَةُ تَشْمَلُ وَجُوهَ الرَّاحَةِ مِنْ أَيْ

جِهَةٍ كَانَتْ. وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ أَنَّهُمْ

فَسَّرُوهَا بِالرُّزْقِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ. وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي

طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ فَسَّرَهَا بِالْقَاعَةِ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ

عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَوَهْبُ بْنُ مُنْبِيهِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّهَا هِيَ السَّعَادَةُ. وَقَالَ الْحَسَنُ

وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: لَا يَطِيبُ لِأَحَدٍ حَيٰوةٌ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هِيَ الرُّزْقُ الْحَلَالُ وَالْعِبَادَةُ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ أَيْضًا: هِيَ الْعَمَلُ بِالطَّاعَةِ وَالْإِنْشِرَاحُ

بِهَا. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحَيٰوةَ الطَّيِّبَةَ تَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ.

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ

عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كِفَافًا، وَقَتَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»^(١). وَرَوَاهُ

مُسْلِمٌ^(٢).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٨) إِنَّهُ لَيْسَ

لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٩) إِنَّمَا

سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (٢٠)

[الْأَمْرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ قَبْلَ التَّلَاوَةِ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِإِعْبَادِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ إِذَا

أَرَادُوا قِرَآةَ الْقُرْآنِ، أَنْ يَسْتَعِذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

الرَّجِيمِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْاسْتِعَاذَةِ

مَسْوَطَةً فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَالْمَعْنَى

فِي الْاسْتِعَاذَةِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْقِرَآةِ لِقَوْلِ الْفَارِسِيِّ عَلَى الْقَارِئِ

قِرَآةً، وَيُخْلَطُ عَلَيْهِ، وَيُمنَعُهُ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَلِهَذَا

وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسْتَلْزَمَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢١) وَلَا نُنَجِّدُوا

أَيُّنَّكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَدَوَّقُوا الشُّوْءَ بِمَا

صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢) وَلَا تَشْتَرُوا

بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ

صَدَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤)

[لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمُ أَيُّهَا النَّاسُ

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي

الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا». [يونس: ٩٩] أَيْ لَوْفَقَ بَيْنَكُمُ، وَلَمَّا

جَعَلَ اخْتِلَافًا وَلَا تَبَاغُضَ وَلَا شَحْنَاءَ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (٢٥) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ

وَلِذَلِكَ خَلَقْتُهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] وَهَكَذَا قَالَ هُنَيْنًا:

﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثُمَّ يَسْأَلُكُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ فَيُجَازِيكُمُ عَلَيْهَا عَلَى الْفَتِيلِ

وَالْقَطِيرِ وَالْفَطِيرِ.

[الْتَّهْمِيُّ عَنِ أَنْ يُخْلَفَ لِلْخِدَاعِ]

ثُمَّ حَدَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْإِيمَانِ دَخَلًا أَيْ

خَدِيعَةً وَمَكْرًا لِقَوْلِ تَرْقُ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا. مِثْلُ لِمَنْ كَانَ

عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ فَحَادَ عَنْهَا، وَزَلَّ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى

بِسَبَبِ الْإِيمَانِ الْحَايِنَةِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ

اللَّهِ، لِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا رَأَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ عَاهَدَهُ ثُمَّ عَدَرَ

بِهِ لَمْ يَبْسُ لَهُ وَتَوَقَّ بِالَّذِينَ، فَانْصَدَّ بِسَبَبِهِ عَنِ الدُّخُولِ

فِي الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَتَدَوَّقُوا الشُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

[لَا تَنْفَضُوا الْإِيمَانَ لِلدُّنْيَا]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أَيْ لَا

تَتَنَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَرَضَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَرَبِّتِهَا،

فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ، وَلَوْ حِيزَتْ لِابْنِ آدَمَ الدُّنْيَا بِحَدَائِيرِهَا لَكَانَ مَا

عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُ، أَيْ جَزَاءُ اللَّهِ وَثَوَابُهُ خَيْرٌ لِمَنْ رَجَاهُ

وَأَمَّنَ بِهِ وَطَلَبَهُ، وَحَفِظَ عَهْدَهُ، رَجَاءَ مَوْعُودِهِ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ أَيْ يَفْرُغُ

وَيَنْقُضِي، فَإِنَّهُ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ مَحْضُورٍ مُقَدَّرٍ مَتَّاءَ ﴿وَمَا

عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أَيْ وَثَوَابُهُ لَكُمْ فِي الْجَنَّةِ بَاقٍ لَا انْقِطَاعَ وَلَا

نَفَادَ لَهُ، فَإِنَّهُ دَائِمٌ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ

صَدَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قَسَمَ مِنَ الرَّبِّ

ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الْإِسْتِعَادَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التَّلَاوَةِ . وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ . قَالَ الثَّوْرِيُّ: لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ أَنْ يُوقِعَهُمْ فِي ذَنْبٍ لَا يَتُوبُونَ مِنْهُ^(١) . وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ لَا حُجَّةَ لَهُ عَلَيْهِمْ . وَقَالَ آخَرُونَ: كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] ، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يُطِيعُونَهُ^(٢) . وَقَالَ آخَرُونَ: اتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أَي أَسْرَكُوهُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ﴾
قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْذُوبٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٦﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ
الْقُدُّسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى
وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٧٧﴾

[رَهْمِي الْمُشْرِكِينَ الرَّسُولَ بِالْإِفْتِرَاءِ لِنَسْخِ بَعْضِ
الْآيَاتِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَعْفِ عُقُولِ الْمُشْرِكِينَ وَقِلَّةِ نَبَاتِهِمْ وَإِقْبَانِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُمْ الْإِيمَانَ وَقَدْ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الشَّقَاوَةُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا تَغْيِيرَ الْأَحْكَامِ نَاسِخَهَا بِمَنْسُوخِهَا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أَي كَذَّابٌ، وَإِنَّمَا هُوَ الرَّبُّ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بَدَأْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ أَي رَفَعْنَاهَا وَأَثَبْنَا غَيْرَهَا^(٣) . وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا﴾ الْآيَةُ^(٤) [البقرة: ١٠٦] . فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّسِ﴾ أَي جِبْرِيلُ ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أَي بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَيُصَدِّقُوا بِمَا أَنْزَلَ أَوَّلًا وَثَانِيًا، وَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أَي وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَبِشَارَةً لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ .

﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾
[نِسْبَةُ الْمُشْرِكِينَ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ إِلَى بَشَرٍ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ مِنْ الْكُذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ وَالثَّبْهَتِ: أَنَّ مُحَمَّدًا إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ هَذَا الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ بَشَرٌ، وَيُشِيرُونَ إِلَى رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ كَانَتْ بَيْنَ أَطْهَرِهِمْ غَلَامٌ لِيُحْضِيَ بَطُونَ قُرَيْشٍ، وَكَانَ بَيِّنًا عَمَّا يَبِيعُ عِنْدَ الصَّفَا، وَرُبَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ إِلَيْهِ

﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾
﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِنِسْبَةِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِنِسْبَةِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾
﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَقْلُونَ﴾
﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
﴿ثُمَّ لِيكَرِبَكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتِنَاؤُهُمْ جَاهِدُوا وَصَبِرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنَ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

وَيُكَلِّمُهُ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَذَلِكَ كَانَ أَعْجَمِيٍّ لِلسَّانِ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الشَّيْءَ الْيَسِيرَ بِقَدْرِ مَا يُرَدُّ جَوَابَ الْخِطَابِ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ، فَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي إِفْتِرَائِهِمْ ذَلِكَ ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أَي الْقُرْآنُ . أَي فَكَيْفَ يَتَعَلَّمُ مَنْ جَاءَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فِي فَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ وَمَعَانِيهِ النَّامَةِ الشَّامِلَةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ مِنْ مَعَانِي كُلِّ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى نَبِيٍّ أُرْسِلَ، كَيْفَ يَتَعَلَّمُ مِنْ رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ؟ لَا يَقُولُ هَذَا مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَاةٍ مِنَ الْعَقْلِ .

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُ قَبْلَنَا بِمَكَّةَ، وَكَانَ اسْمُهُ بِلَعَامٍ، وَكَانَ أَعْجَمِيٍّ لِلسَّانِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرَوْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِ، فَقَالُوا: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بِلَعَامٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ

(١) الطبري: ٢٩٤/١٧ (٢) الطبري: ٢٩٤/١٧ (٣) الطبري:

٢٩٧/١٧ (٤) الطبري: ٢٩٧/١٧

الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْكُمُ وَهَذَا لِسَانٌ عَكُوفٌ مُبِينٌ ﴿١٠٤﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَائِلِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٥﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِّبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَائِلِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ، وَتَعَاوَلَ عَمَّا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَصْدٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَهَذَا الْجِنْسُ مِنَ النَّاسِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِآيَاتِهِ وَمَا أُرْسِلَ بِهِ رُسُلُهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُوجِعٌ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ رَسُولَهُ ﷺ لَيْسَ بِمُفْتَرٍ وَلَا كَذَّابٍ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِّبَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ﷺ شِرَارَ الْخَلْقِ، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَائِلِ اللَّهِ﴾ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْمُلْحِدِينَ الْمَعْرُوفِينَ بِالْكَذِبِ عِنْدَ النَّاسِ، وَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ أَصْدَقَ النَّاسِ وَأَبْرَهُمْ وَأَكْمَلَهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِيمَانًا وَإِقَانًا، مَعْرُوفًا بِالصِّدْقِ فِي قَوْمِهِ، لَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِحَيْثُ لَا يُدْعَى بَيِّنُهُمْ إِلَّا بِالْإِيمَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ هِرْقُلُ مَلِكَ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الَّتِي سَأَلَهَا مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِيهَا قَالَ لَهُ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ هِرْقُلُ: فَمَا كَانَ لِيَدْعَ الْكُذِّبَ عَلَى النَّاسِ وَيَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَقِلُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾

[قَهَرُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ عَلَى الْمُرْتَدِّ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ عَلَى الْكُفْرِ] أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالتَّبَصُّرِ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ بِالْكَفْرِ وَاطْمَأَنَّ بِهِ: أَنَّهُ قَدْ غَضِبَ عَلَيْهِ لِعِلْمِهِمْ بِالْإِيمَانِ ثُمَّ عُدُّوْلِهِمْ عَنْهُ، وَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، فَأَقْدَمُوا عَلَى مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّدَّةِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَلَمْ يَهْدِ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَبَيَّنَّتْهُمْ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ، فَطَبَعَ عَلَى

قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَلَا يَتَفَعَّلُونَ بِهَا، وَلَا أَعْنَتْ عَنْهُمْ شَيْئًا فَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَزَادُ بِهِمْ ﴿لَا جَرَمَ﴾ أَي لَا بُدَّ وَلَا عَجَبَ أَنَّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ أَي الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِمَّنْ كَفَرَ بِلِسَانِهِ وَوَافَقَ الْمُشْرِكِينَ بِلَفْظِهِ مُكْرَهًا لِمَا نَالَهُ مِنْ ضَرْبٍ وَأَذَى، وَقَلْبُهُ يَأْبَى مَا يَقُولُ، وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.

[سَبَبُ نَزْوِلِ الْآيَةِ]

وَقَدْ رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ جِئِنَ عَذْبَةُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مُكْرَهًا، وَجَاءَ مُعْتَدِرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ (٢). وَهَكَذَا قَالَ الشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ وَأَبُو مَالِكٍ (٣). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَعَذَّبُوهُ حَتَّى قَارَبَهُمْ فِي بَعْضِ مَا أَرَادُوا فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ عَادُوا فَعُدُّ» (٤). وَرَوَاهُ التَّبِيهِيُّ بِأَبْسَطٍ مِنْ ذَلِكَ، وَفِيهِ: أَنَّهُ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ إِلَيْهِمْ بِخَيْرٍ؟ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُرَكُّتُ حَتَّى سَبَبْتُكَ وَذَكَرْتُ إِلَيْهِمْ بِخَيْرٍ، قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، فَقَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدُّ» وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (٥). وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُوَالِيَ إِتْقَاءَ لِمُهَجَّتِهِ. وَبِجُورٍ لَهُ أَنْ يَأْبَى، كَمَا كَانَ بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَهُمْ يَقْعَلُونَ بِهِ الْأَفَاعِيلَ، حَتَّى إِتْمَمُوا لِيَضْعُوا الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَيَأْمُرُونَهُ بِالشَّرِكِ بِاللَّهِ فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدُ، أَحَدُ. وَيَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمْتُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - . وَكَذَلِكَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ

(١) الطبري: ٢٩٨/١٧ إسناده ضعيف فيه مسلم بن كيسان الملائي الأعرور أبو عبدالله الكوفي ضعيف الحديث (٢) الطبري: ٣٠٤/١٧ العوفي ضعيف (٣) الطبري: ٣٠٤/١٧ (٤) الطبري: ٣٠٤/١٧ (٥) النسائي في الكبرى: ٢٠٩/٨

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِعَبْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَاتَى اللَّهَ عَفْوَ رَجِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَن قَبِلَ مِن وَّهْمِ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

بِالْهَجْرَةِ فَتَرَكُوا بِلَادَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ، وَانْتَظَمُوا فِي سِلْكِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَاهَدُوا مَعَهُمُ الْكَافِرِينَ، وَصَبَرُوا، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْ بَعْدِهَا، أَي تِلْكَ الْفِعْلَةِ - وَهِيَ الْإِجَابَةُ إِلَى الْفِتْنَةِ - لَعَفُورٌ لَهُمْ رَجِيمٌ بِهِمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أَي تُحَاجُّ وَلَا عَنْ نَفْسِهَا ﴿لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاجُّ عَنْهَا لَا أَبٌ وَلَا ابْنٌ وَلَا أَخٌ وَلَا زَوْجَةٌ﴾ وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ أَي مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أَي لَا يُقْتَصُّ مِنْ ثَوَابِ الْخَيْرِ، وَلَا يُزَادُ عَلَى ثَوَابِ الشَّرِّ، وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١١٣﴾

الْأَنْصَارِيُّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسْلِمَةٌ الْكَذَّابُ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَسْمَعُ. فَلَمْ يَزَلْ يَقَطِّعُهُ رِزْبًا إِرْبًا وَهُوَ تَابِتٌ عَلَى ذَلِكَ^(١). وَالْأَفْضَلُ وَالْأَوْلَى أَنْ يَتَّبَعَ الْمُسْلِمُ عَلَى دِينِهِ وَلَوْ أَفْضَى إِلَى قِتْلِهِ، كَمَا ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُدَافَةَ السَّهْمِيِّ أَحَدِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ أَسْرَتْهُ الرُّومُ، فَجَاءُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ فَقَالَ لَهُ: تَنْصَرُ وَأَنَا أَشْرِكُكَ فِي مُلْكِي وَأَرْوُجُكَ ابْنَتِي، فَقَالَ لَهُ: لَوْ أُعْطِيتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ وَجَمِيعَ مَا تَمْلِكُهُ الْعَرَبُ عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ طَرْفَةَ عَيْنٍ مَا فَعَلْتُ. فَقَالَ: إِذَا أَفْطَنُكَ، فَقَالَ: أَنْتَ وَذَلِكَ، قَالَ: فَأَمَرَ بِهِ فَصَلِبَ، وَأَمَرَ الرُّمَاءَ فَرَمَوْهُ قَرِيبًا مِنْ يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ وَهُوَ يَعْزُضُ عَلَيْهِ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ فَيَأْبَى، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأَنْزَلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِقَدْرٍ. وَفِي رِوَايَةٍ بِقَرَّةٍ مِنْ نَحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، وَجَاءَ بِأَسِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَلْقَاهُ وَهُوَ يَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ عِظَامٌ تَلَوُّحٌ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ فَأَبَى، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَى فِيهَا، فَرُفِعَ فِي الْبُكْرَةِ لِيُلْقَى فِيهَا، فَبَكَى فَطَمِعَ فِيهِ وَدَعَا، فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا بَكَيْتُ لِأَنَّ نَفْسِي إِنَّمَا هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ تُلْقَى فِي هَذِهِ الْقَدْرِ السَّاعَةِ فِي اللَّهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بَعْدِي كُلُّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِي نَفْسٌ تَعَذُّبُ هَذَا الْعَذَابَ فِي اللَّهِ. وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ سَجَنَهُ وَمَنَعَ مِنْهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ أَيَّامًا، ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَيْهِ بِخَمْرٍ وَلَحْمٍ خِنْزِيرٍ فَلَمْ يَقْرَبْهُ، ثُمَّ اسْتَدْعَاهُ فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْكُلَ؟ فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ حَلَّ لِي، وَلَكِنْ لَمْ أَكُنْ لِأَسْمِتِكَ بِي. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: فَقَبِلْ رَأْسِي وَأَنَا أَطْلُقُكَ، فَقَالَ: وَتُطْلِقُ مَعِيَ جَمِيعَ أَسَارِي الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَبِلَ رَأْسَهُ فَأَطْلَقَهُ وَأَطْلَقَ مَعَهُ جَمِيعَ أَسَارِي الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقْبَلَ رَأْسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُدَافَةَ، وَأَنَا أَبْدَأُ، فَنَامَ فَقَبِلَ رَأْسَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٢).

﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١١٦﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١١٧﴾

[يُغْفَرُ لِلْمُكْرِهِ إِذْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ بَعْدَ الْإِكْرَاهِ]

هُوَ لِأَنَّ صِنْفَ آخَرٍ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مَهَانِينَ فِي قَوْمِهِمْ فَوَافَقُوهُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَمَكْتَهُمُ الْخَلَاصُ

(١) أسد الغابة: ١٠٤٩ (٢) ذكر الحافظ هذه القصة في الإصابة (ت: ٤٦٤١) مختصراً وعزاه للبيهقي. وضعفه الألباني في الإرواء: ٢٥١٥.

[مَثَلٌ لِمَكَّةَ]

هَذَا مَثَلٌ أُرِيدُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً مُسْتَقَرَّةً وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهَا، وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِنًا لَا يَخَافُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْمَدْيَنِ مَعَكُمْ نُنَخِّطُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [الفصل: ٥٧] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أَي هَيْئًا سَهْلًا ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أَي جَحَدَتْ آيَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا وَأَعْظَمَهَا بَعْتَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا بَيْعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّ الْفَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩] وَلِهَذَا بَدَلَهُمُ اللَّهُ بِحَالِهِمْ الْأَوْلَيْنِ خِلَافَهُمَا، فَقَالَ: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أَي أَلْبَسَهَا وَأَذَقَهَا الْجُوعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُجِئُ إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَذَلِكَ لَمَّا اشْتَعَصُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبَوُا إِلَّا خِلَافَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبَعِ يُوْسُفَ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ، فَأَكَلُوا الْعُلْهَيْزَ وَهُوَ وَبِرُّ الْبَعِيرِ يُخْلَطُ بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بَدَلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ حِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَطْوَتِهِ وَسَرَايَاهُ وَجُبُوشِهِ، وَجَعَلَ كُلَّ مَا لَهُمْ فِي دِمَارٍ وَسَفَالٍ حَتَّى فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَذَلِكَ بِسَبَبِ صَنِيعِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ فِيهِمْ مِنْهُمْ، وَامْتَنَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ... الْآيَةُ [آل عمران: ١٦٤]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿٥﴾ رَسُولًا﴾ ... الْآيَةُ [الطلاق: ١٠، ١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢] وَكَمَا أَنَّهُ انْعَكَسَ عَلَى الْكَافِرِينَ حَالَهُمْ فَخَافُوا بَعْدَ الْأَمْنِ، وَجَاعُوا بَعْدَ الرَّغَدِ، فَبَدَّلَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، وَرَزَقَهُمْ بَعْدَ الْعَيْلَةِ، وَجَعَلَهُمْ أَمْرَاءَ النَّاسِ وَحُكَّامَهُمْ وَسَادَتَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَأَيْمَتَهُمْ. وَهَذَا الَّذِي قُلْنَا مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَثَلَ ضَرْبٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ: قَالَهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (١). وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ. وَحَكَاهُ مَالِكٌ عَنِ

الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ (٢).

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لَشَاكِرِينَ﴾ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ ﴿١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ

الْأَلِيمُ ﴿١٧﴾

[الْأَمْرُ بِأَكْلِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ وَبِالشُّكْرِ وَبَيَانِ الْحَرَامِ] يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَكْلِ رِزْقِهِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ، وَيَشْكُرِهِ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ بِهِ ابْتِدَاءً، الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴿وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أَي ذَبَحَ عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ، وَمَعَ هَذَا ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ إِلَيْهِ أَيِ احْتِيَاجٍ مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا عُذْوَانٍ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ عَنْ إِعَادَتِهِ. وَاللَّهُ الْحَمْدُ. ثُمَّ نَهَى تَعَالَى عَنِ سُلُوكِ سَبِيلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا بِمُجَرَّدِ مَا وَصَفُوهُ، وَاضْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ بِأَرَائِهِمْ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ، وَالْوَصِيلَةِ، وَالْحَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا كَانَ شَرْعًا لَهُمْ ابْتِدَاعُهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ مَنْ ابْتَدَعَ بِدَعَاةٍ لَيْسَ لَهُ فِيهَا مُسْتَدَدٌ شَرْعِيٌّ، أَوْ حَلَّلَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ، أَوْ حَرَّمَ شَيْئًا مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ بِمُجَرَّدِ رَأْيِهِ وَشَهْوَيْهِ، وَ«مَا» فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مُصْدَرِيَّةٌ، أَي وَلَا تَقُولُوا الْكَذِبَ لِيُوصَفَ أَلْسِنَتِكُمْ، ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فَمَتَاعٌ قَلِيلٌ، وَأَمَا فِي الْآخِرَةِ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، كَمَا قَالَ: ﴿تَمْتَعْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتَهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ ﴿١٦﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِتْنَا مَرَجَعْتَهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا الشُّرُوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٦﴾
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٧﴾
 شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آتِنَاهُ مِنْهُ حَيْثُ شَاءَ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٨﴾
 وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٩﴾
 ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
 إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
 اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
 كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢١﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
 وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ
 هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٢﴾
 وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
 لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٣﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَدْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ
 وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾
 إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٦﴾

[تَحْرِيمُ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ عَلَى الْيَهُودِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنَا الْمَيْتَةَ وَالِدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَإِنَّمَا أَرْحَضَ فِيهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ - وَفِي ذَلِكَ تَوْسِيعَةٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا الْبُسْرَى وَلَا يُرِيدُ بِهَا الْعُسْرَى - ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَانَ حَرَمَهُ عَلَى الْيَهُودِ فِي شَرِيْعَتِهِمْ قَبْلُ أَنْ يُسَخَّرَهَا، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْأَصَارِ وَالْتَضْيِيقِ وَالْأَغْلَالِ وَالْحَرْجِ، فَقَالَ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي طُفْرٍ وَبَنَ الْبَقْرِ وَالْفَعْرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿اصْلَبُوهُنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أَي فِيمَا ضَمَّيْنَا عَلَيْهِمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَي فَاسْتَحَقُّوا ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿فِيظَلُّوْا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَتٌ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبِصَدَّتْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى تَكَرُّمًا وَامْتِنَانًا فِي حَقِّ الْعَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أَي أَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ - مِنَ الْمَعَاصِي، وَأَقْبَلُوا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَي تِلْكَ الْفِعْلَةَ وَالزَّلَّةَ ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آتِنَاهُ مِنْهُ حَيْثُ شَاءَ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

[ذِكْرُ خَلِيلِ اللَّهِ]

يَمْدَحُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامَ الْحُنَفَاءِ وَوَالِدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُبْرِئُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ فَأَمَّا الْأُمَّةُ: فَهُوَ الْإِمَامُ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ. وَالْقَانِتُ: هُوَ الْخَاشِعُ الْمُطِيعُ. وَالْحَنِيفُ: الْمُتَنَحِرُ قَصْدًا عَنِ الشَّرِكِ

إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أُمَّةٌ﴾ أَي أُمَّةٌ وَحْدَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ أَي قَانِتًا بِشُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٢٧] أَي قَامَ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿آتَيْنَاهُ مِنْهُ حَيْثُ شَاءَ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أَي جَمَعْنَا لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ فِي إِكْمَالِ حَيَاتِهِ الطَّيِّبَةِ ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أَي لِسَانَ صِدْقٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أَي وَمِنْ كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَصِحَّةِ تَوْحِيدِهِ وَطَرِيقِهِ: أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ بِإِتِّخَاذِ الرُّسُلِ وَسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كَقَوْلِهِ فِي

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ﴾ (١٢٦)

[الْأَمْرُ بِالذِّعْوَةِ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ]
يقول تعالى أميرا رسوله محمدا ﷺ أن يدعوا الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعدة الحسنة. أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس^(٤). ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وَحَدِّلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن يرفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦]. فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم، إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، [القصص: ٥٦] ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٧) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٨) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٩)

[الْأَمْرُ بِالْمَسَاوَاةِ فِي الْقِصَاصِ]

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في الشفاء الحق، كما روى عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: ﴿عَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إن أخذ منكم رجل شيئا فخذوا مثله^(٥). وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم^(٦). واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم

الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَكَبِّرًا عَلَى الْيَهُودِ.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٧)
[جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الْيَهُودِ]

لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ يَوْمًا مِنَ الْأُسْبُوعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ فِيهِ لِلْعِبَادَةِ، فَشَرَعَ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، لِأَنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ وَتَمَّتِ النُّعْمَةُ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى فَعَدَلُوا عَنْهُ، وَاخْتَارُوا السَّبْتَ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ فِيهِ الرَّبُّ شَيْئًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي كَمَلَ خَلْقُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَلْزَمَهُمُ تَعَالَى بِهِ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ، وَوَصَّاهُمْ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَأَنْ يُحَافِظُوا عَلَيْهِ، مَعَ أَمْرِهِ إِثَابُهُمْ بِمَتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بَعَثَهُ، وَأَخَذَهُ مَوَاقِفَهُمْ وَعُهُودَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: اتَّبَعُوهُ وَتَرَكُوا الْجُمُعَةَ^(١) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ حَوَّلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ شَرِيعَةَ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا نَسَخَ مِنْ بَعْضِ أَحْكَامِهَا، وَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُحَافِظًا عَلَى السَّبْتِ حَتَّى رُفِعَ، وَإِنَّ النَّصَارَى بَعْدَهُ فِي زَمَنِ قُسْطَنْطِينِ، هُمُ الَّذِينَ حَوَّلُوا إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى الصَّلَاةِ شَرْفًا عَنِ الصَّخْرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا اللَّهُ لَهُ، فَالْتَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبِعَ: الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»^(٢). لَفْظُ الْبُخَارِيِّ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحَدِيثَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُضِلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا. فَهَذَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبِعَ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»^(٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(١) الطبري: ٣٢٠/١٧ (٢) فتح الباري: ٥٢٦/١١ ومسلم:

٥٨٦/٢ مسلم: ٥٨٦/٢ (٤) الطبري: ٣٢١/١٧ (٥)

عبد الرزاق: ٣٦١/٢ (٦) الطبري: ٥٢٤، ٥٢٥

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٢٨٢

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحٰنَ الَّذِي اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 اِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهٗ لَنُرِيَهٗ مِنۡ اَيْنَ نَّشَاءُ ۗ
 هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَاَتَيْنَا مُوسٰى الْكِتٰبَ وَجَعَلْنٰهُ
 هُدًى لِّبَنِي اِسْرٰىءٖلَ اَلَّا يَتَّخِذُوْا مِنْ دُوْنِيْ وَكِيْلًا ﴿٢﴾
 ذُرِّيَّةً مِّنۡ حَمَلِنَا مَعَ نُوْحٍ ۗ اِنَّهٗ كٰنَ عَبْدًا شَكُوْرًا ﴿٣﴾
 وَفَضَّلْنٰ اِلٰى بَنِي اِسْرٰىءٖلَ فِي الْكِتٰبِ لَنُفْسِدَنَّ فِي الْاَرْضِ
 مَرْتَبٰتٍ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيْرًا ﴿٤﴾ فَاِذَا جَآءَ وَعْدًا لَّهُمَا بَعَثْنَا
 عَلَيْهِمْ عِبَادًا لَّنَا اَوَّلٰى اَبْسَ شَدِيْدِيْنَ فَجَآسُوْا خِلَالَ الدِّيَارِ
 وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُوْلًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنٰ لَكُمْ الْكِرَّةَ عَلَيْهِمْ
 وَاَمَدَدْنٰكُمْ بِاَمْوَالٍ وَبَنِيْنَ وَجَعَلْنٰكُمْ اَكْثَرَنَفِيْرًا ﴿٦﴾
 اِنْ اَحْسَنْتُمْ اَحْسَنْتُمْ اَلْحَسَنَاتُ لَآ نَفْسِكُمْ وَاِنْ اَسَاْتُمْ فَلَهَا ۗ فَاِذَا جَآءَ
 وَعْدُ الْاٰخِرَةِ لِيَسْتَوْا وُجُوْهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوْا الْمَسْجِدَ
 كَمَا دَخَلُوْهُ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَّلِيَسْتَبْرُوا مَاعَلُوْا تَبٰسِيْرًا ﴿٧﴾

رَجَالَ ذُوُو مَنَعَةٍ فَقَالُوْا: يَا رَسُوْلَ اللهِ، لَوْ اَذِنَ اللهُ لَنَا لَاتَّصَّرْنَا مِنْ هٰؤُلَاءِ الْكِلَابِ. فَتَرَكْتَ هٰذِهِ الْاٰيَةَ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِالْجِهَادِ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تَأْكِيدٌ لِلأَمْرِ بِالصَّبْرِ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ وَإِعَاتِيهِ، وَحَوْلِهِ وَقَوْلِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ فَإِنَّ اللهَ قَدَّرَ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَلُكْ فِي صَبْتِكَ﴾ أَيُّ عَمَّ ﴿بِمَا يَمْكُرُونَ﴾ أَيُّ مِمَّا يُجَاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَاوَتِكَ وَإِيضًا الشَّرِّ إِلَيْكَ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ وَتَاصِرُكَ، وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظْفِرُكَ وَمُظْفِرُكَ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أَيُّ مَعَهُمْ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ وَمَعُونَتِهِ وَهَدْيِهِ وَسَعْيِهِ، وَهَذِهِ مَعْنَى خَاصَّةٌ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أِنِّي مَعَكُمْ فَتَيَّبُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأَنْفَال: ١١٢] وَقَوْلُهُ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِلصَّدِيقِ وَهُمَا فِي الْعَارِ: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا»^(٢). وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ فَبِالِاسْمَعِ وَالْبَصْرِ وَالْعِلْمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُوْنُ مِنْ نَجْوٰى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُوْنُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُوْنَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾... الْاٰيَةُ [يونس: ٦١]، وَمَعْنَى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أَيُّ تَرَكُوا الْمُحْرَمَاتِ، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أَيُّ فَعَلُوا الطَّاعَاتِ، فَهٰؤُلَاءِ اللهُ يَحْفَظُهُمْ وَيَكَلِّفُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ وَيُوَيِّدُهُمْ وَيُظْفِرُهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ وَمَخَالِفِيهِمْ.

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّحْلِ، وَ اللهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

تفسير سورة الإسراء وهي مكية

[فضل سورة الإسراء]

رَوَى الْإِمَامُ الْحَافِظُ الْمُتَّقِنُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ

فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرَمٍ: إِنَّهُمْ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ وَهُمْ مِنْ تِلَادِي^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى يَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْطِرَ، وَيَفْطِرُ حَتَّى يَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ، وَكَانَ يَقْرَأُ كُلَّ لَيْلَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالرُّمَّ^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحٰنَ الَّذِي اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهٗ لَنُرِيَهٗ مِنۡ اَيْنَ نَّشَاءُ ۗ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

[بيان الإسراء]

يُجَدُّ تَعَالَى نَفْسَهُ، وَيَعْظُمُ شَأْنَهُ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ﴿الَّذِي اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أَيُّ فِي

(١) الطبري: ٣٢٤/١٧ (٢) فتح الباري: ١١/٧ (٣) فتح الباري: ٦٥٥/٨ (٤) أحمد: ١٨٩/٦

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مریم: ٥٧] ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا وَرَفْهًا كَأَذَانِ الْفَيْلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَاقِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا.

قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَقَدْ فَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى، قَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَارْجِعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: أَيُّ رَبِّ خَفَّفَ عَنِّي أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَقَالَ: إِنْ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى وَيَحِطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَلَيْتَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ، فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ،

جُنْحَ اللَّيْلِ ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وَهُوَ مَسْجِدُ مَكَّةَ ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وَهُوَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ الَّذِي بِبَيْلِيَاءَ مَعْدِنِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ لُدُنَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا جُمِعُوا لَهُ هُنَاكَ كُلُّهُمْ، فَأَمَّهُمْ فِي مَحَلَّتِهِمْ وَدَارِهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ، وَالرَّيْسُ الْمُقَدَّمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أَيُّ فِي الزُّرُوعِ وَالتَّمَارِ ﴿لِزَيْبِهِ﴾ أَيُّ مُحَمَّدًا ﴿مِنْ عَائِدَاتٍ﴾ أَيُّ الْعِظَامِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّي الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨] وَسَدَدْتُكَ مِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَتْ بِهِ السَّنَةُ مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنْهُ ﷺ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَيُّ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، مُصَدِّقُهُمْ وَمُكَذِّبُهُمْ، الْبَصِيرُ بِهِمْ فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ذَكَرُ الْأَحَادِيثِ الْوَرَادَةِ فِي الْإِسْرَاءِ

رَوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَتَيْتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ ذَابَةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَعْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ، فَرَكِبْتُهُ فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَرَبِطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ. قَالَ: ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ.

فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَقُلْتُ: [لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ]»^(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ بِهَذَا السِّيَاقِ^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ مُسْرَجًا مُلْجَمًا لِرَبِّكَ، فَاسْتَضَعَبَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا؟ فَوَاللَّهِ مَا رَكِبَكَ قَطُّ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ قَالَ: فَارْتَضَى عَرَفًا، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ غَرِيبٌ^(٣). وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَطْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَحْمِشُونَ بِهَا وُجُوهُهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(٤) وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(٥) وَرَوَى أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّمَا يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ»^(٦). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٧).

رِوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ مَالِكَ بْنَ صَعْصَعَةَ حَدَّثَهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِهِ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَاطِمِ - وَرَبَّمَا قَالَ قَتَادَةُ: فِي الْحَجْرِ - مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: الْأَوْسَطُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ، قَالَ: فَأَتَانِي فَقَدْتُ - سَمِعْتُ قَتَادَةَ يَقُولُ: فَسَقَّ - مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ» وَقَالَ قَتَادَةُ: فَقُلْتُ: لِلجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنِّي: مَا يَعْنِي؟ قَالَ: مِنْ ثَغْرَةٍ نَحَرَهُ إِلَى شِعْرَتِهِ، وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مِنْ قَصْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ قَالَ: «فَاسْتُخْرِجْ قَلْبِي - قَالَ: - فَأَتَيْتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا وَحِكْمَةً فَعَسَلِ قَلْبِي ثُمَّ حَشِي، ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيَتْ بِدَابَّةٍ دُونَ البَعْلِ وَفَوْقَ الجِمَارِ أَيْضًا» قَالَ: فَقَالَ الجَارُودُ: هُوَ البُرَاقُ يَا أَبَا حَمْرَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ قَالَ: «فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَتَى بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمِ المَجِيءُ جَاءَ - قَالَ: - فَفُتِحَ لَنَا فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ [الْحَدِيثُ يَنْحُو مَا سَبَقَ، وَفِيهِ: فِي ذِكْرِ مُوسَى عَلَيْهِ

السَّلَامِ] - قَالَ: - فَلَمَّا تَجَاوَزْتُهُ بِكَيِّ، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بَعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الحِجَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي. قَالَ: ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوْ قَدْ بَعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمِ المَجِيءُ جَاءَ، قَالَ: فَفُتِحَ لَنَا، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ - قَالَ: - ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى فَإِذَا نَبَقُهَا مِثْلُ قِلَافِ هَجْرٍ، وَإِذَا وَرْفُهَا مِثْلُ آذَانِ الفَيْلَةِ، فَقَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، قَالَ: وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الحِجَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنَّيْلُ وَالفُرَاتُ» قَالَ: ثُمَّ رُفِعَ إِلَى البَيْتِ المَعْمُورِ.

قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَّثَنَا الحَسَنُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ رَأَى البَيْتَ المَعْمُورَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: «ثُمَّ أُتِيَتْ بِإِنَاءٍ مِنْ حَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ - قَالَ: - فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ قَالَ: هَذِهِ الفِطْرَةُ أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ - قَالَ: - ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَاةُ حَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ - قَالَ: - فَتَزَلْتُ حَتَّى أَتَيْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: حَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المَعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا - قَالَ: - فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: بِأَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المَعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخْرَى، فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: بِثَلَاثِينَ صَلَاةً، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ ثَلَاثِينَ

(١) أحمد: ١٤٨/٣ (٢) مسلم: ١٤٥/١ (٣) الترمذي:

٣١٣١ (٤) أحمد: ٢٢٤/٣ (٥) أبو داود: ٤٨٧٨ (٦)

أحمد: ١٢٠/٣ (٧) مسلم: ٢٣٧٥

شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ صَحَكَ، وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ بَكَى، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. قَالَ: «ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ». قَالَ الرَّهْرِيُّ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولَانِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ».

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَوَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ مُوسَى: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَوَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَوَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَوَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَوَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَوَاجِعْتُهُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، فَوَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، قُلْتُ: قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ، فَغَشِيَهَا الْوَرَانُ لَا أُدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُذْجِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللَّوْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ» وَهَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ، وَرَوَاهُ فِي ذِكْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي الْحَجِّ، وَفِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ طُرُقٍ أُخْرَى عَنْ يُونُسَ بِهِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْهُ نَحْوَهُ^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَسَأَلْتُهُ، قَالَ: وَمَا كُنْتُ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَى رَبَّهُ؟ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ سَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «قَدْ رَأَيْتُهُ نَوْرًا، أَنَّى أَرَاهُ؟! هَكَذَا قَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ^(٤). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟!»^(٥) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ

صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - فَوَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخْرَى، فَوَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتُ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِعِشْرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ عِشْرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - فَوَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخْرَى، فَوَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتُ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِعِشْرِينَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ لِعِشْرِينَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - فَوَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَوَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتُ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ لِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - قُلْتُ: قَدْ سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأَسْلَمُ، فَفَعَذْتُ فَنَادَى مُنَادٍ: قَدْ أَمْضَيْتُ فِرْيَضِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي^(١). وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِنَحْوِهِ^(٢).

رِوَايَةُ أَنَسٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَرَجَّحْتُ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ فَفَرَجَّحْتُ صَدْرِي ثُمَّ عَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَعَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ جِبْرِيْلُ لِحَاظِرِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيْلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَالَ: أُرْسِلْ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلُونَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ صَحَكَ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ - قَالَ: - قُلْتُ لِجِبْرِيْلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ النَّبِيُّ عَنْ

(١) أحمد: ٢٠٨/٤ (٢) فتح الباري: ٣٤٨/٦ ومسلم: ١/١

١٥١ (٣) فتح الباري: ٥٤٧/١ ٥٧٦/٣ ٤٣١/٦ ومسلم:

١٤٨/١ (٤) أحمد: ١٤٧/٥ (٥) مسلم: ١٦١/١

أَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبِّكَ؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُ فَقَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا»^(١).

رواية جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلَى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَطَفَعْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرُقٍ^(٣) وَعِنْدَ النَّبِيِّ قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: فَتَجَهَّزَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا: هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنَا أَشْهَدُ لِمَنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: فَتَصَدَّقْهُ بِأَنْ يَأْتِيَ الشَّامَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَرْجِعْ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ أَنَا أَصَدِّقُهُ بِأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ، أَصَدِّقُهُ بِخَيْرِ السَّمَاءِ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فِيهَا سَمِيَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّدِيقُ^(٤).

رواية عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، دَخَلَ الْجَنَّةَ فَسَمِعَ فِي جَانِبِهَا وَخْشًا^(٥) فَقَالَ: «يَا جَبْرِيلُ مَا هَذَا؟» قَالَ: «هَذَا بِلَالُ الْمُؤَدَّنِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ جَاءَ إِلَى النَّاسِ: «قَدْ أَلْفَحَ بِلَالٌ، رَأَيْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا» قَالَ: فَلَقِيَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ بِهِ وَقَالَ: «مَرَجَبًا بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ»، قَالَ: «وَهُوَ رَجُلٌ آدَمٌ طَوِيلٌ، سَبَطَ شَعْرُهُ مَعَ أَذُنَيْهِ أَوْ فَوْقَهُمَا» فَقَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا مُوسَى»، قَالَ: فَمَضَى فَلَقِيَهُ شَيْخٌ جَلِيلٌ مَتَّهَبٌ فَرَحَّبَ بِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَكَلَّمَهُمْ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، قَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمَ» - قَالَ - وَنَظَرَ فِي النَّارِ فَإِذَا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْجِيفَ، قَالَ: «مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ» وَرَأَى رَجُلًا أَحْمَرَ أَرْزَقَ جِدًّا قَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا عَاقِرُ النَّاقَةِ» قَالَ: فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، قَامَ يُصَلِّي فَإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يُصَلُّونَ مَعَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ جِيءَ بِقَدَحَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنِ الْيَمِينِ وَالْآخَرُ عَنِ الشَّمَالِ، فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ عَسَلٌ، فَأَخَذَ اللَّبَنَ فَشَرِبَ مِنْهُ، فَقَالَ الَّذِي كَانَ مَعَهُ

الْفُدْحُ: «أَصَبَتِ الْفِطْرَةَ»^(٦) إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخْرَجُوهُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ وَبِعِلَامَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَبِعَبِيرِهِمْ، فَقَالَ نَاسٌ: نَحْنُ لَا نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا بِمَا يَقُولُ، فَارْتَدُّوا كُفَّارًا، فَضَرَبَ اللَّهُ رِقَابَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِسَجَرَةِ الرَّقُومِ، هَانُوا تَمَرًا وَزَيْدًا فَتَزَقَمُوا، وَرَأَى الدَّجَالَ فِي صُورَتِهِ زُويًا عَيْنٍ، لَيْسَ بِرُويًا مَنَامٍ، وَعَيْسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ، وَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدَّجَالِ فَقَالَ: «رَأَيْتُهُ فَيَلْمَانِيًا أَفَمَرَّ هِجَانًا، إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ ذَرِّيٌّ، كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ، وَرَأَيْتُ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ [شَابًا] أَبْيَضَ، جَعَدَ الرَّأْسِ حَدِيدَ الْبَصْرِ، وَمُبْطَنَ الْخَلْقِ، وَرَأَيْتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْحَمَ آدَمَ، كَثِيرَ الشَّعْرِ، شَدِيدَ الْخَلْقِ، وَنَظَرْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى إِرْبٍ مِنْهُ إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنِّي، حَتَّى كَأَنَّهُ صَاحِبُكُمْ، قَالَ جَبْرِيلُ: سَلِّمْ عَلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ» وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي زَيْدٍ ثَابِتِ بْنِ [زَيْدٍ] عَنْ هِلَالٍ - وَهُوَ ابْنُ [حَبَابٍ] - بِهِ^(٦)، وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عَمِّ نَيْكُمُ ﷺ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ رَجُلًا طَوَالًا جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ سُئُوَّةَ، وَرَأَيْتُ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ سَبَطَ الرَّأْسِ» وَأَرَى مَالِكًا خَازِنَ جَهَنَّمَ وَالدَّجَالَ فِي آيَاتِ أَرَاهُنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ، قَالَ: «فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَمَ مِنْ لِقَائِي» فَكَانَ قِتَادَةً يُسَرُّهَا أَنْ نَبِيَ اللَّهِ ﷺ قَدْ لَقِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ «وَجَعَلَنَّهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» [السجدة: ٢٣] قَالَ: جَعَلَ اللَّهُ مُوسَى هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ^(٧). رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ، وَأَخْرَجَاهُ عَنْ قِتَادَةَ مُخْتَصَرًا^(٨).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَأُصْبَحْتُ بِمَكَّةَ

(١) مسلم: ١٦١/١ (٢) أحمد: ٣٧٧/٣ (٣) البخاري: ٤٧١٠، ومسلم: ١٧٠ (٤) دلائل النبوة: ٣٥٩/٢ (*) كذا في النسخ والظاهر كما في رواية لأحمد: وجسا (٥) أحمد: ١/٢٥٧ (٦) أحمد: ١/٣٧٤ والنسائي في الكبرى: ١١٤٨٤ (٧) دلائل النبوة: ٣٨٦/٢ (٨) البخاري: ٣٢٣٩، ومسلم: ١٦٥

إِنْ أَخَذَتْ عَنِّي صَلَّيْتَ خَلْفَ الصَّخْرَةِ، فَكَانَتْ الْقُدْسُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّةَ، وَلَكِنْ أَصْلِي حَيْثُ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَدَّمَمَ إِلَى الْقِبْلَةِ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَبَسَطَ رِداءَهُ وَكَسَسَ الْكُنَاسَةَ فِي رِداءِهِ، وَكَسَسَ النَّاسُ^(٣). فَلَمْ يُعْظَمِ الصَّخْرَةَ تَعْظِيمًا يُصَلِّي وَراءَهَا وَهِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ، كَمَا أَشَارَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ وَهُوَ مِنْ قَوْمِ يُعْظَمُونَهَا حَتَّى جَعَلُوهَا قِبْلَتَهُمْ، وَلَكِنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ فَهُدِيَ إِلَى الْحَقِّ، وَهَذَا لَمَّا أَشَارَ بِذَلِكَ، قَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ: ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّةَ. وَلَا أَهَانَهَا إِهَانَةَ النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا قَدْ جَعَلُوهَا مَزْبَلَةً مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا قِبْلَةُ الْيَهُودِ، وَلَكِنْ أَمَاطَ عَنْهَا الْأَذَى وَكَسَسَ عَنْهَا الْكُنَاسَةَ بِرِداءِهِ.

رَوَايَةُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جِئْتُ أُسْرِي بِي، لَقِيتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَتَعْتَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ حَبِيبُهُ قَالَ: - مُضْطَرِبٌ رَجُلُ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءَ، قَالَ: وَلَقِيتُ عِيسَى - فَتَعْتَهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ - رُبْعَةَ أَحْمَرَ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ - يَعْنِي حَمَامًا، قَالَ: - وَلَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ، قَالَ: وَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ حَمْرٌ، قِيلَ لِي: خُذْ أَتَيْتُهُمَا شَبْتًا، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ، فَقِيلَ لِي: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ - أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ - أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْحَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ»^(٤) وَأَخْرَجَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحَجْرِ وَفُرَيْشٍ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِئَتْ [كُرْبًا] مَا كُرِئَتْ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيَّ. أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا سَأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي، وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ شَبْهًا بِهِ عُرْوَةُ بِنْتُ مَسْعُودٍ التَّقِيَّةُ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمَ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ شَبْهًا بِهِ

فَطَعْتُ وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكْذِبِي» فَتَعَدَّ مُعْتَرِلًا حَزِينًا، فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ كَأَلْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ»، قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ» قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَيْنِنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَلَمْ يَرِ أَنْ يُكْذِبَهُ مَخَافَهُ أَنْ يَجْعَدَهُ الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ أَتَحَدِّثُهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، قَالَ: فَاَنْفَضْتُ إِلَيْهِ الْمَجَالِسَ وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ» فَقَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ». قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَيْنِنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مَصْفَقٍ وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعِ يَدِهِ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ - زَعَمَ قَالُوا-: وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَعْتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَا زِلْتُ أَنْتَعْتُ حَتَّى التَّبَسَّ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ - قَالَ: - فَجِئْتُ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عَقِيلٍ - أَوْ عَقَالٍ - فَتَعْتَهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ» قَالَ: وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتُ لَمْ أَحْفَظْهُ قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ فِيهِ»^(١). وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ^(٢).

رَوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا أُسْرِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيِّئِ وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُصْعَدُ بِهِ حَتَّى يُقْبَضَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، حَتَّى يُقْبَضَ مِنْهَا ﴿إِذْ يَعْنَى السِّدْرَةَ مَا يَعْنَى﴾ [النجم: ١٦] قَالَ: غَشِبَهَا فَرَأَتْ مِنْ ذَهَبٍ، وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغَفَرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا الْمُفْجِحَاتِ، يَعْنِي الْكِبَايِرَ.

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ.

رَوَايَةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ بِالْحِجَابِيَّةِ، فَذَكَرَ فَتَحَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ قَالَ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَحَدَّثَنِي أَبُو سَيَانَ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ آدَمَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِكَعْبِ: أَيْنَ تَرَى أَنْ أَصْلِي؟ فَقَالَ:

(١) أحمد: ٣٠٩/١ (٢) النسائي في الكبرى: ١١٢٨٥ ودلائل

النبوة: ٣٦٣/٢ (٣) أحمد: ٣٨/١ (٤) فتح الباري: ٤٩٣/٦

ومسلم: ١٥٤/١

صَاحِبُكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَعْتُ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدًا! هَذَا مَالِكٌ خَازِنٌ جَهَنَّمَ، [فَسَلَّمَ عَلَيْهِ] فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ^(١).

رَوَايَةٌ عَائِشَةُ أُمُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، أَصْبَحَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِذَلِكَ فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانُوا آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَوْا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يُزْعَمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَقَالَ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَيْنَ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَّقَ، قَالُوا: فَتَصَدَّقْهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لِأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَعْبَدُ مِنْ ذَلِكَ، أَصَدَّقُهُ فِي خَيْرِ السَّمَاءِ فِي عَذْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سَمَّيْتُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ^(٢).

[رَمَانَ الْإِسْرَاءِ وَأَنَّهُ كَانَ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ يَقْظَةَ لَا مَنَامًا]

قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ: كَانَ الْإِسْرَاءُ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِسَنَةِ^(٣) وَكَذَا قَالَ عُرْوَةُ^(٤). وَقَالَ السُّدِّيُّ: بِسَنَةِ عَشْرٍ شَهْرًا^(٥). وَالْحَقُّ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُسْرِيَ بِهِ يَقْظَةَ لَا مَنَامًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ رَاكِبًا الْبُرَاقَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، رَطَبَ الدَّابَّةَ عِنْدَ الْبَابِ وَدَخَلَهُ، فَصَلَّى فِي قِبْلَتِهِ تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ أَتَى بِالْمِعْرَاجِ - وَهُوَ كَالسَّلْمِ ذُو دَرَجٍ يَرْفَى فِيهَا - فَصَعِدَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَى بَقِيَّةِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، فَتَلَقَّاهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، وَسَلَّمَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ، حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى الْكَلِيمِ فِي السَّادِسَةِ، وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي السَّابِعَةِ، ثُمَّ جَاوَزَ مَنْرَلَيْتَهُمَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمَا وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ - حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُسْتَوَى يُسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفُ الْأَقْلَامِ - أَيِ أَقْلَامِ الْقَدَرِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ - وَرَأَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى وَعَشِيَّتَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَظَمَةَ عَظِيمَةً مِنْ فَرَاشٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَأَلْوَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَعَشِيَّتُهَا الْمَلَائِكَةُ، وَرَأَى هُنَاكَ جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ وَهُوَ سِتْمَائَةٌ جَنَاحٌ وَرَأَى رَفُوفًا أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ الْأَفُقَ، وَرَأَى الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ، وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ بَانِي الْكَعْبَةِ الْأَرْضِيَّةِ مُسْنِدَ ظَهْرِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ الْكَعْبَةُ السَّمَاوِيَّةُ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَرَأَى الْحِجَّةَ وَالنَّارَ وَفَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ هُنَاكَ

الصَّلَوَاتِ خَمْسِينَ، ثُمَّ خَفَّفَهَا إِلَى خَمْسٍ رَحْمَةً مِنْهُ وَلُطْفًا بِعِبَادِهِ، وَفِي هَذَا اعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ بِشَرَفِ الصَّلَاةِ وَعَظَمَتِهَا.

ثُمَّ هَبَطَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَهَبَطَ مَعَهُ الْأَنْبِيَاءُ فَصَلَّى بِهِمْ فِيهِ لَمَّا حَانَتِ الصَّلَاةُ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا الصُّبْحُ مِنْ يَوْمَيْدٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُزْعَمُ أَنَّهُ أَمَّهُمْ فِي السَّمَاءِ، وَالَّذِي تَطَاهَرَتْ بِهِ الرُّوَايَاتُ أَنَّهُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِهَا أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ دُخُولِهِ إِلَيْهِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ لَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ جَعَلَ يُسْأَلُ عَنْهُمْ جِبْرِيلُ وَاحِدًا وَاحِدًا، وَهُوَ يُخْبِرُهُ بِهِمْ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلًا مَطْلُوبًا إِلَى الْجَنَابِ الْعُلُويِّ لِيُفْرَضَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ مَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ لَمَّا فَرَعَ مِنَ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ، اجْتَمَعَ بِهِ هُوَ وَإِخْوَانُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ ثُمَّ أَظْهَرَ شَرَفَهُ وَفَضْلَهُ عَلَيْهِمْ بِتَقْدِيمِهِ فِي الْإِمَامَةِ، وَذَلِكَ عَنْ إِشَارَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ فِي ذَلِكَ.

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ فَرَكِبَ الْبُرَاقَ وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ بِعِلْسٍ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ، وَأَمَّا عَرْضُ الْآيَةِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَنِ وَالْعَسَلِ، أَوْ اللَّبَنِ وَالْحَمْرِ، أَوْ اللَّبَنِ وَالْمَاءِ أَوْ الْجَمِيعِ فَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَجَاءَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَهُنَا وَهَهُنَا، لِأَنَّهُ كَالضِّيَافَةِ لِلْقَادِمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّهُ أُسْرِيَ بِدِينِهِ وَرُوحِهِ يَقْظَةَ لَا مَنَامًا، وَالذَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحْنَى الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَاهِي إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَنْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ فَالتَّسْبِيحُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، فَلَوْ كَانَ مَنَامًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَبِيرُ شَيْءٍ، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعْظَمًا، وَلَمَّا بَادَرَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى تَكْذِيبِهِ، وَلَمَّا ارْتَدَّتْ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَبْدَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، وَقَدْ قَالَ [تَعَالَى]: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنِ أَرِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ، وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ هِيَ شَجَرَةُ الرَّقُومِ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٦). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرَ وَمَا لَطَنَ﴾

(١) مسلم: ١٥٦/١ عن زهير بن حرب. (٢) دلائل النبوة: ٢/ ٣٦٠ (٣) دلائل النبوة: ٢/ ٣٥٥ (٤) دلائل النبوة: ٢/ ٣٥٤ (٥) القرطبي: ١٠/ ٢١٠ (٦) فتح الباري: ٨/ ٢٥٠

[النجم: ١٧] وَالْبَصْرُ مِنَ الآتِ الذَّاتِ لَا الرُّوحَ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ حُمِلَ عَلَى البُرَاقِ وَهُوَ ذَابَةٌ بَيضاءَ بَرَاقَةً لَهَا لَمَعَانٌ، وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا لِلذَّنِّ لَا لِلرُّوحِ، لِأَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ فِي حَرَكَتِهَا إِلَى مَرْكَبٍ تَرَكَّبَ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(فَائِدَةٌ حَسَنَةٌ جَلِيلَةٌ)

رَوَى الحَافِظُ أَبُو نُعَيْمٍ الأَصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِ «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الوَاقِدِيِّ^(١): حَدَّثَنِي مَالِكُ ابْنُ أَبِي الرَّجَالِ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ القُرْطُبِيِّ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دِحْيَةَ بْنَ خَلِيفَةَ إِلَى قَبْصَرَ... فَذَكَرَ وُروُدَهُ عَلَيْهِ وَقُدُومَهُ إِلَيْهِ، وَفِي السِّيَاقِ دَلَالَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى وُفُورِ عَقْلِ هِرَقْلَ، ثُمَّ اسْتَدْعَى مَنْ بِالسَّامِ مِنَ التَّجَارِ، فَجِئَ بِأَبِي سُفْيَانَ صَحْرَ بْنَ حَرْبٍ وَأَصْحَابِهِ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ تِلْكَ المَسَائِلِ المَشْهُورَةِ الَّتِي رَوَاهَا البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ. وَجَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ يَجْهَدُ أَنْ يَحْفَرُ أَمْرَهُ وَيُصْعِرَهُ عِنْدَهُ. قَالَ فِي هَذَا السِّيَاقِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ: وَاللَّهِ مَا مَنَعَنِي مِنْ أَنْ أَقُولَ عَلَيْهِ قَوْلًا أَسْفِطُهُ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَكْذِبَ عِنْدَهُ كِذْبَةً يَأْخُذُهَا عَلَيَّ وَلَا يَصْدُقُنِي فِي شَيْءٍ - قَالَ: - حَتَّى ذَكَرْتُ قَوْلَهُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: أَيُّهَا المَلِكُ أَلَا أُخْبِرُكَ خَبْرًا تَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ كَذَبَ؟ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنَّهُ يَزْعُمُ لَنَا أَنَّهُ حَرَجَ مِنْ أَرْضِنَا، أَرْضِ الحَرَمِ، فِي لَيْلَةٍ فَجَاءَ مَسْجِدَكُمُ هَذَا مَسْجِدَ إِبِلِيَاءَ، وَرَجَعَ إِلَيْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَبْلَ الصَّبَاحِ: قَالَ، وَبَطْرِيقُ إِبِلِيَاءَ عِنْدَ رَأْسِ قَبْصَرَ، فَقَالَ بَطْرِيقُ إِبِلِيَاءَ: قَدْ عَلِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ قَبْصَرَ وَقَالَ: وَمَا عَلِمْتَ بِهِذَا؟ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ لَا أَنَامُ لَيْلَةً حَتَّى أُغْلِقَ أَبْوَابَ المَسْجِدِ، فَلَمَّا كَانَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ أُغْلِقْتُ الأَبْوَابَ كُلَّهَا غَيْرَ بَابِ وَاحِدٍ عَلَيْنِي، فَاسْتَعْنْتُ عَلَيْهِ بِعَمَالِي وَمَنْ يَحْضُرُنِي كُلَّهُمْ مُعَالَجَةً، فَعَلَبْنَا فَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نُحَرِّكَهُ كَأَنَّمَا نَزَاوُلُ بِهِ جَبَلًا، فَدَعَوْتُ إِلَيْهِ التَّجَارَةَ، فَظَنُّوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: إِنْ هَذَا البَابُ سَقَطَ عَلَيْهِ النِّجَافُ وَالتُّبْيَانُ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحَرِّكَهُ حَتَّى نُصْبِحَ فَنَنْظُرَ مِنْ أَيْنَ أَتَى. قَالَ: فَرَجَعْتُ وَتَرَكْتُ البَابَيْنِ مَفْتُوحَيْنِ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَيْهِمَا، فَإِذَا الحَجَرُ الَّذِي فِي زَاوِيَةِ المَسْجِدِ مَقْنُوبٌ، وَإِذَا فِيهِ أَثَرٌ مَرَبُطِ الدَّابَّةِ، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: مَا حُسِنَ هَذَا البَابُ اللَّيْلَةَ إِلَّا عَلَى نَبِيِّ، وَقَدْ صَلَّى اللَّيْلَةَ فِي مَسْجِدِنَا... وَذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيثِ.

فَائِدَةٌ: قَالَ الحَافِظُ أَبُو الحَطَّابِ عُمَرُ بْنُ دِحْيَةَ فِي كِتَابِهِ (التَّنْوِيرُ فِي مَوْلِدِ السَّرَاحِ المُنِيرِ) وَقَدْ ذَكَرَ حَدِيثَ الإِسْرَاءِ مِنْ طَرِيقِ أَنَسٍ وَتَكَلَّمَ عَلَيْهِ فَأَجَادَ وَأَفَادَ، ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الرِّوَايَاتُ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الحَطَّابِ وَعَلِيِّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي ذَرٍّ، وَمَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَشَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، وَأَبِي ابْنِ كَعْبٍ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قُرْطٍ، وَأَبِي حَبَةَ وَأَبِي لَيْلَى الأَنْصَارِيِّينَ. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو وَجَابِرٌ وَحَدِيفَةُ وَبُرَيْدَةُ، وَأَبِي أَيُّوبَ وَأَبِي أَمَامَةَ، وَسَمُرَةَ بْنُ جُنْدُبٍ وَأَبِي الحَمْرَاءِ، وَصُهَيْبُ الرُّومِيُّ وَأُمُّ هَانِيَةَ، وَعَائِشَةُ وَأَسْمَاءُ ابْنَتِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، مِنْهُمْ مَنْ سَأَفَهُ بِطَوْلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اخْتَصَرَهُ عَلَى مَا وَقَعَ فِي المَسَانِيدِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ رِوَايَةُ بَعْضِهِمْ عَلَى شَرْطِ الصَّحَّةِ، فَحَدِيثُ الإِسْرَاءِ أَجْمَعَ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ الزَّادِيُّ وَالمُلْجِدُونَ ﴿يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مِثْمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَحَمَلْنَاهُ هُدًى لِنَبِيٍّ إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٢﴾

[ذَكَرَ مُوسَى وَإِعْطَاهُ التَّوْرَةَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أُسْرِيَ بِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَطَفَ بِذِكْرِ مُوسَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِمِهِ أَيْضًا، فَإِنَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَفْرُقُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا مِنَ اللهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَبَيْنَ ذِكْرِ التَّوْرَةِ وَالقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الإِسْرَاءِ ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ أَيُّ الكِتَابِ ﴿هُدًى﴾ أَيُّ هَادِيًا ﴿لِنَبِيٍّ إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أَيُّ لِيَلَّا تَتَّخِذُوا ﴿مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ أَيُّ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَلَا مَعْبُودًا ذُرِّيَّةً، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تَقْدِيرُهُ: ﴿يَا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فِيهِ تَهْيِيجٌ وَتَنْبِيهُ عَلَى المِنَّةِ، أَيُّ يَا سَلَالَةَ مَنْ نَجَّيْنَا فَحَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، تَشَبُّهُوا بِأَبْيَكُمُ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فَادْكُرُوا أَنَّكُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ

(١) محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي متروك مع سعة علمه (تقريب) إسناده مرسل ضعيف جدًا.

يُرْسَلِي إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ . وَقَدْ وَرَدَتْ فِي هَذَا آثَارٌ كَثِيرَةٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ لَمْ أَرَ تَطْوِيلَ

الْكِتَابِ بِذِكْرِهَا، لِأَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤْضَعٌ، مِنْ وَضْعِ بَعْضِ زَنَاذِقِهِمْ، وَمِنْهَا مَا قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا، وَنَحْنُ فِي غَنِيَّةٍ عَنْهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَفِيمَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ غَنِيَّةٌ عَمَّا سِوَاهُ مِنْ بَقِيَّةِ الْكُتُبِ قَبْلَهُ، وَلَمْ يُحَوِّجْنَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ إِلَيْهِمْ. وَقَدْ أَخْبَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمَّا طَعَنُوا

وَعَنُوا، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عُدُوَّهُمْ فَاسْتَبَاحَ بِيضَتَهُمْ، وَسَلَكَ خِلَالَ بِيوتِهِمْ، وَأَذَلَّهُمْ وَقَهَرَهُمْ جَزَاءً وَفَاقًا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَمَرَّدُوا وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيْبِ يَقُولُ: ظَهَرَ بَخْتَصَرَ عَلَى الشَّامِ، فَخَرَبَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ وَقَتَلَهُمْ، ثُمَّ أَتَى دِمَشْقَ فَوَجَدَ بِهَا دَمًا يُغْلِي عَلَى كِبَا، فَسَأَلَهُمْ، مَا هَذَا الدَّمُ؟ فَقَالُوا: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذَا، وَكَلَّمَا ظَهَرَ عَلَيْهِ الْكِبَا ظَهَرَ، قَالَ: فَقَتَلَ عَلَى ذَلِكَ الدَّمِ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَسَكَنَ^(٤). وَهَذَا صَحِيحٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ، وَأَنَّهُ قَتَلَ أَشْرَافَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ يَحْفَظُ التُّورَةَ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا أُسْرَى مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَجَرَتْ أُمُورٌ وَكَوَائِنٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا، وَلَوْ وَجَدْنَا مَا هُوَ صَحِيحٌ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ لَجَازَ كِتَابَتُهُ وَرَوَاتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنٍ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (١) فَإِذَا جَاءَ وَعَدُّ أَوْلَهُمَا نَعْنًا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وُجُوهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَنِ رَبِّكَ أَنْ يَرْحَمْكُمْ وَإِنِ عُدْتُمْ عَدْنَاً وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ [ذِكْرٌ فِي التُّورَةِ أَنَّ الْيَهُودَ يَطْعُونُ مَرَّتَيْنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَضَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ، أَيِ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَيَعْلُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، أَيِ يَتَجَبَّرُونَ وَيَطْعُونَ وَيَفْجَرُونَ عَلَى النَّاسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُفْصِلِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] أَيِ تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ، وَأَخْبَرْنَاهُ بِذَلِكَ، وَأَعْلَمْنَاهُ

بِهِ .

[الْإِفْسَادُ الْأَوَّلُ مِنَ الْيَهُودِ وَجَزَاؤُهُمْ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ أَوْلَهُمَا﴾ أَيِ أَوْلَى الْإِفْسَادَتَيْنِ ﴿بَعْتْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أَيِ سَلَطْنَا عَلَيْكُمْ جُنْدًا مِنْ خَلْقِنَا أَوْلَى بَأْسٍ شَدِيدٍ؛ أَيِ قُوَّةٍ وَعُدَّةٍ وَسُلْطَنَةٍ شَدِيدَةٍ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، أَيِ تَمَلَّكُوا بِلَادَكُمْ وَسَلَكُوا خِلَالَ بِيوتِكُمْ، أَيِ بَيْنَتِهَا وَوَسَطَهَا، وَأَنْصَرَفُوا ذَاهِبِينَ وَجَائِزِينَ لَا يَخَافُونَ أَحَدًا وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي هَوْلَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ مَنْ هُمْ؟

(١) أحمد: ١١٧/٣ (٢) مسلم: ٢٠٩٥/٤ وتحفة الأحوذى: ٥٣٦/٥ والنسائي في الكبرى: ٢٠٢/٤ (٣) فتح الباري: ٦/٤٢٨ (٤) الطبري: ٣٦٩/١٧

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٨٣

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

عَسَىٰ رَبُّكُمْ اَنْ يَّرْحَمَكُمْ وَاِنْ عَدِثُمْ عَدَاوَةً جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ اِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ اَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ الصّٰلِحٰتِ اَنْ لَهُمْ اَجْرًا كَبِيْرًا ﴿٩﴾ وَاَنْ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالْاٰخِرَةِ اَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْاِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دَعْوَاهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْاِنْسَانُ عَجُوْلًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اَيْلًا وَالتَّهَارِ اَيَّتَيْنِ فَحَوْنًا اَيَّةَ الْاَيْلِ وَجَعَلْنَا اَيَّةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوْا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوْا عَدَدَ السِّنِّيْنَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيْلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ اِنْسَانٍ اَلَمْنَهُ طَلِيْرُهُ فِي عَقِبِهِ وَنُخْرِجْ لَهٗ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ كِتٰبًا يَلْقَاهُ مَنْشُوْرًا ﴿١٣﴾ اَقْرَأْ كِتٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيْبًا ﴿١٤﴾ مِّنْ اِهْتَدٰى فَاَتَمَّ اِهْتَدٰى لِنَفْسِهٖ وَمَنْ ضَلَّ فَاتَمَّ ضَلُّوْهُ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ اٰخَرٰى وَمَا كَفٰا مَعْدِيْنَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُوْلًا ﴿١٥﴾ وَاِذَا ارْتَدٰا اَنْ نَّهْلِكَ قَرِيْبَةً اَمْرًا مَّتَرَفِهٖا فَفَسَقُوْا فِيْهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰهَا تَدْمِيْرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ اَهْلَكْنٰا مِنَ الْقُرُوْنِ مِنْۢ بَعْدِ نُوْحٍ وَكَفٰى بِرَبِّكَ بِذُنُوْبِ عِبَادِهٖ خَبِيْرًا بَصِيْرًا ﴿١٧﴾

لَكُمْ فِي الْأَخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أَي مُسْتَقَرًّا وَمَحْضَرًا وَسِجْنًا لَا مَجِيْدَ لَهُمْ عَنْهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿حَصِيرًا﴾ أَي سِجْنًا^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُحْضَرُونَ فِيهَا^(٢). وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: فِرَاشًا وَمِهَادًا^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ عَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْحَيِّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ، يَأْخُذُونَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ^(٤).

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

[مَدْحُ الْقُرْآنِ]

يَمْدُحُ تَعَالَى كِتَابَهُ الْعَزِيْزِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُوْلِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ الْقُرْآنُ بِأَنَّهُ يَهْدِي لِأَقْوَمِ الطَّرِيْقِ وَأَوْضَحِ السَّبِيْلِ، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِهِ ﴿الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ الصّٰلِحٰتِ﴾ عَلَى مُقْتَضَاهُ، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيْرًا﴾ أَي يَوْمَ الْقِيٰمَةِ، ﴿وَأَنَّ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَي وَيُبَشِّرُ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالْآخِرَةِ أَنَّ ﴿لَهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا﴾ أَي يَوْمَ الْقِيٰمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ﴾. [الانشقاق: ٢٤]

﴿وَيَدْعُ الْاِنْسَانَ بِالشَّرِّ دَعْوَاهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْاِنْسَانُ عَجُوْلًا﴾ ﴿١١﴾

[عَجَلَةُ الْاِنْسَانِ وَدَعْوَاهُ عَلَى نَفْسِهٖ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ عَجَلَةِ الْاِنْسَانِ وَدَعْوَاهِ فِي بَعْضِ الْاَحْيَانِ عَلَى نَفْسِهٖ اَوْ وَلَدِهٖ اَوْ مَالِهٖ ﴿بِالشَّرِّ﴾ أَي بِالْمَوْتِ اَوْ الْاَهْلَاكِ وَالْاِمْرَارِ، وَاللَّغْتَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلَوْ اسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ لَهْلَكَ بِدَعْوَاهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ.. الْاَيَّةِ، وَكَذَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ^(٥). وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا تَدْعُوا عَلٰى اَنْفُسِكُمْ، وَلَا عَلٰى اَمْوَالِكُمْ، اَنْ تُوَافِقُوْا مِنْ اَللّٰهِ سَاعَةً اِجَابَةً يَسْتَجِيبُ فِيْهَا»^(٦). وَاِنَّمَا يَحْمِلُ ابْنُ اَدَمَ عَلٰى ذَلِكَ قَلْقَهُ وَعَجَلَتَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْاِنْسَانُ عَجُوْلًا﴾ وَقَدْ ذَكَرَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَاِبْنُ عَبَّاسٍ هَهُنَا قِصَّةَ اَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِيْنَ هَمَّ بِالنُّهُوسِ فَاِنَّمَا قَبِلَ اَنْ تَصِلَ الرُّوحُ اِلٰى رِجْلَيْهِ، وَذَلِكَ اَنَّهُ جَاءَتْهُ النُّفْحَةُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهٖ، فَلَمَّا وَصَلَتْ اِلٰى دِمَاقِهٖ عَطَسَ، فَقَالَ: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ، فَقَالَ اللهُ: يَّرْحَمَكَ رَبُّكَ يَا اَدَمَ. فَلَمَّا وَصَلَتْ اِلٰى عَيْنَيْهِ فَتَحَهُمَا، فَلَمَّا سَرَتْ اِلٰى اَعْضَائِهٖ وَجَسَدِهٖ، جَعَلَ يَنْظُرُ اِلَيْهِ وَيُعْجِبُهُ، فَهَمَّ

بِالنُّهُوسِ قَبْلَ اَنْ تَصِلَ اِلٰى رِجْلَيْهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، وَقَالَ: يَا رَبَّ عَجَّلْ قَبْلَ اللَّيْلِ^(٧).

﴿وَجَعَلْنَا اَيْلًا وَالتَّهَارِ اَيَّتَيْنِ فَحَوْنًا اَيَّةَ الْاَيْلِ وَجَعَلْنَا اَيَّةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوْا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوْا عَدَدَ السِّنِّيْنَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيْلًا﴾ ﴿١٢﴾

[الَلَّيْلِ وَالتَّهَارِ مِنْ آيَاتِ قُدْرَةِ اللهِ الْعِظَامِ]

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلٰى خَلْقِهٖ بِآيَاتِهِ الْعِظَامِ، فَمِنْهَا مُخَالَفَتُهُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ لِيَسْكُنُوْا فِي اللَّيْلِ، وَيَسْتَبَشِرُوْا فِي النَّهَارِ لِلْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ، وَالْاَعْمَالِ وَالْاَسْفَارِ، وَلِيَعْلَمُوْا عَدَدَ الْاَيَّامِ وَالْجُمُعِ وَالشُّهُورِ وَالْاَعْوَامِ، وَيَعْرِفُوْا مُضِيَّ الْاَجَالِ

(١) الطبري: ٣٩٠/١٧ (٢) الطبري: ٣٩٠/١٧ (٣) الطبري: ٣٩٠/١٧ (٤) الطبري: ٣٨٩/١٧ (٥) الطبري: ٣٩٤، ٣٩٣ (٦) مسلم: ٢٣٠٤/٤ (٧) الطبري: ٣٩٤، ٣٩٤ أثر سلمان الفارسي صحيح وأما اثر ابن عباس ضعيف منقطع، والضحاك لم يسمع من ابن عباس وبشر بن عمارة الخنعمي ضعيف.

لَيْلًا وَنَهَارًا، كَذَلِكَ خَلَقَهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٣).

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَّا طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ

حَسِيبًا ﴿١٤﴾

[مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابٌ أَعْمَالُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ الزَّمَانِ وَذِكْرِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَّا طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ وَطَائِرُهُ هُوَ مَا طَارَ عَنْهُ مِنْ عَمَلِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْرُهُمَا، مِنْ خَيْرٍ وَسَرٍّ وَبُزْمٍ بِهِ وَبُجَارَى عَلَيْهِ^(٤). ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨، ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَنِ الَّذِينَ وَعَنِ النَّجَالِ قَعِيدًا﴾ (٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨] وَقَالَ: ﴿وَرَأَى عَلَيْكُمْ كِتَابًا كَرِيمًا كَبِيرًا﴾ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] وَقَالَ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًىٰ يُجْزَىٰ بِهِ... الْآيَةَ [النساء: ١٢٣] وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ عَمَلَ ابْنِ آدَمَ مَحْفُوظٌ عَلَيْهِ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، صَبَاحًا وَمَسَاءً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ أَي نَجْمَعُ لَهُ عَمَلَهُ كُلَّهُ فِي كِتَابٍ يُعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِمَّا بِيَمِينِهِ إِنْ كَانَ سَعِيدًا، أَوْ بِشِمَالِهِ إِنْ كَانَ شَقِيًّا، ﴿مِنْشُورًا﴾ أَي مَفْتُوحًا يَقْرُؤُهُ هُوَ وَعَبْرُهُ، فِيهِ جَمِيعُ عَمَلِهِ مِنْ أَوَّلِ عُمُرِهِ إِلَى آخِرِهِ ﴿بِنُورِ الْإِنْسَانِ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ لَأَنَّ مَعَادِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣-١٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أَي إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُظَلِّمْ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكَ إِلَّا مَا عَمِلْتَ، لِأَنَّكَ ذَكَرْتَ جَمِيعَ مَا كَانَ مِنْكَ، وَلَا يَنْسَى أَحَدٌ شَيْئًا مِمَّا كَانَ مِنْهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَقْرَأُ كِتَابَهُ مِنْ كَاتِبٍ وَأُمِّيٍّ. وَقَوْلُهُ: ﴿الزَّمَنَةَ طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، إِنَّمَا ذَكَرَ الْعُنُقَ لِأَنَّهُ عَضْوٌ مِنَ الْأَعْضَاءِ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْجَسَدِ، وَمَنْ أَلْزَمَ شَيْءٌ فِيهِ فَلَا مَجِدَّ لَهُ عَنْهُ. وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿الزَّمَنَةَ طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قَالَ: عَمَلَهُ. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قَالَ: نُخْرِجُ ذَلِكَ الْعَمَلَ ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾: قَالَ مَعْمَرٌ، وَتَلَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:

(١) الطبري: ٣٩٦/١٧ (٢) الطبري: ٣٩٦/١٧ (٣) الطبري:

٣٩٧/١٧ (٤) الطبري: ٣٩٨/١٧، ٤٠٠

الْمَضْرُوبَةُ لِلذُّبُونِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْإِجَارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي فِي مَعَاشِيَتِكُمْ وَأَسْفَارِكُمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّيِّبِ وَالْحِسَابِ﴾ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الزَّمَانُ كُلُّهُ نَسْفًا وَاحِدًا وَأُسْلُوبًا مُتَسَاوِيًا لَمَا عُرِفَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ يُضِلُّهَا أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ يَلْبِسُ اللَّيْلَ تَسْكُونًا فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢) وَمَنْ رَحِمْتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِتَعْلَمُوا تُشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٣٧) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أُخْتَلِفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ وَقَالَ: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَحَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى آلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَاءٌ لَهُمْ أَيْلٌ نَسَلُخٌ مِنْهُ النَّهَارُ إِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨] ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ آيَةً، أَي عَلَامَةً يُعْرَفُ بِهَا، وَهِيَ الظَّلَامُ وَظُهُورُ الْقَمَرِ فِيهِ، وَلِلنَّهَارِ عَلَامَةٌ وَهِيَ الثُّورُ وَظُلُوعُ الشَّمْسِ النَّبِيْرَةِ فِيهِ، وَفَاوَتْ بَيْنَ نُورِ الْقَمَرِ وَضِيَاءِ الشَّمْسِ لِيُعْرَفَ هَذَا مِنْ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّيِّبِ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنْبَغُ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوْفِيقٌ لِلنَّاسِ وَالْحَقُّ﴾... الْآيَةَ [البقرة: ١٨٩].

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قَالَ: ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَشَدَفُ النَّهَارِ^(١). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: الشَّمْسُ آيَةُ النَّهَارِ وَالْقَمَرُ آيَةُ اللَّيْلِ ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قَالَ: السَّوَادُ الَّذِي فِي الْقَمَرِ، وَكَذَلِكَ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(٢). وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قَالَ:

فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾
[فاطر: ٣٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
لَا يَدْخُلُ أَحَدًا النَّارَ إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ .

[مَسْأَلَةٌ مِنْ مَاتَ مِنَ الْأَوْلَادِ الصَّغَارِ]

بَقِيَ هُنَا مَسْأَلَةٌ قَدْ اخْتَلَفَ الْأِئِمَّةُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى
فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهِيَ الْوُلْدَانُ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ صِغَارٌ
وَأَبَاؤُهُمْ كُفَّارٌ: مَاذَا حُكْمُهُمْ؟ وَكَذَا الْمَجْنُونُ وَالْأَصَمُّ
وَالسَّنْحُ الْخَرِفُ وَمَنْ مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ وَلَمْ تَبْلُغْ دَعْوَتُهُ؟ وَقَدْ
وَرَدَ فِي شَأْنِهِمْ أَحَادِيثٌ أَنَا أُذَكِّرُهَا لَكَ بَعُونَ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

فَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ: عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيحٍ . رَوَى الْإِمَامُ

أَحْمَدُ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيحٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«الرَّبْعَةُ يَحْتَجُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا،

وَرَجُلٌ أَحْمَقٌ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فِتْرَةٍ، فَأَمَّا

الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا

الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصَّبِيَّانُ يَحْذِفُونِي

بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ

شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا آتَانِي لَكَ

رَسُولٌ . فَيَأْخُذُ مَوَائِقَهُمْ لِيُطِيعُنَهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا

النَّارَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ

بَرْدًا وَسَلَامًا .» وَبِالْإِسْنَادِ عَنْ قَتَادَةَ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي

رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: «فَمَنْ

دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ

إِلَيْهَا»^(٢) . وَكَذَا رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ

هَشَامٍ^(٣) . وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الْإِغْتِقَادِ وَقَالَ: هَذَا

إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ هَمَّامٍ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . . . فَذَكَرَهُ مَوْقُوفًا، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:

فَأَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: «وَمَا كُنَّا مُعْذِبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا»^(٤) .

وَكَذَا رَوَاهُ مَعْمَرٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي

هُرَيْرَةَ مَوْقُوفًا^(٥) .

الْحَدِيثُ الثَّانِي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ

اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِيَهُ

أَوْ نَصْرَانِيَهُ أَوْ مَجْسَانِيَهُ، كَمَا تُنْتِجُ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْهَمَةٍ جَمْعًا،

هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاء؟» وَفِي رِوَايَةٍ قَالُوا: يَا رَسُولَ

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ مُعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] يَا ابْنَ آدَمَ بَسَطْتَ لَكَ

صَحيفَتَكَ، وَوَكَّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ: أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِكَ

وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِكَ، فَأَمَّا الَّذِي عَنْ يَمِينِكَ فَيَحْفَظُ

حَسَنَاتِكَ، وَأَمَّا الَّذِي عَنْ شِمَالِكَ فَيَحْفَظُ سَيِّئَاتِكَ، فَاعْمَلْ

مَا شِئْتَ، أَقْبَلْ أَوْ أَكْثِرْ، حَتَّى إِذَا مِتَّ طُوِيَتْ صَحيفَتَكَ

فَجُعِلَتْ فِي عُنُقِكَ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ، حَتَّى تَخْرُجَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

كِتَابًا تَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ . . . الْآيَةُ، فَقَدْ عَدَلَ -

وَاللَّهُ - مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ^(١) . هَذَا مِنْ أَحْسَنِ كَلَامِ

الْحَسَنِ، رَحِمَهُ اللَّهُ .

﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا

يُزِرُّ وَاِزْرَهُ وَذَرَّ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعْذِبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١٥)

[لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ اهْتَدَى وَاتَّبَعَ الْحَقَّ، وَاقْتَمَى أَثَرَ

النُّبُوَّةِ، فَإِنَّمَا يُحْصِلُ عَاقِبَةَ ذَلِكَ الْحَمِيدَةَ لِنَفْسِهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾

أَيُّ عَنِ الْحَقِّ، وَزَاغَ عَنِ سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَإِنَّمَا يَجْنِي عَلَى

نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يُعَوِّدُ وَيَأْتِ ذَلِكَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَلَا يُزِرُّ وَاِزْرَهُ

وَذَرَّ أُخْرَى﴾ أَيُّ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ، وَلَا يَجْنِي جَانِي إِلَّا

عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِهْلِهَا لَا

يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: ١٨] وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ:

﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وَقَوْلِهِ:

﴿وَمَنْ أُوْزِرْ أَلْذِيكَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النمل: ٢٥] فَإِنَّ

الدُّعَاةَ عَلَيْهِمْ إِثْمٌ ضَلَّاتِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَإِثْمٌ آخَرُ سَبَبِ مَا

أَضَلُّوا مَنْ أَضَلُّوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أُوْزَارِ أَوْلِيكَ، وَلَا

[يَحْمِلُوا] عَنْهُمْ شَيْئًا، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ وَكَذَا

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا كُنَّا مُعْذِبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا» .

[لَا عَذَابَ إِلَّا بَعْدَ بَعْتِ الرَّسُولِ]

إِخْبَارٌ عَنْ عَدْلِهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ

قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿كُلَّمَا أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ

جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَلْبَتْنَا وَقَلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَشَاءَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

كَبِيرٍ [الملك: ٨، ٩] وَكَذَا قَوْلُهُ: «وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ

جَهَنَّمَ رُجْرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفِيحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ

يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

[الزمر: ٧١] وَقَالَ تَعَالَى: «وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ

(١) الطبري: ٤٠٠/١٧ (٢) أحمد: ٢٤/٤ (٣) الطبراني: ١/

٢٨٧ (٤) الطبري: ٤٠٣/١٧ (٥) القرطبي: ١٠/٣٣٢

[قِرَاءَاتُ قَوْلِهِ "أَمَرْنَا" وَمَعَانِيهِ]

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهَا، فَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَّقُوا فِيهَا أَمْرًا قَدْرِيًّا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتْلَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤] فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، قَالُوا: مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَحَرَهُمْ إِلَى فِعْلِ الْفَوَاحِشِ، فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَاتِ فَفَعَلُوا الْفَوَاحِشَ، فَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ، رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(١). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَيْضًا ^(١١). قَالَ عَلِيُّ بْنُ طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَّقُوا فِيهَا﴾ يَقُولُ: سَلَطْنَا أَشْرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ آكِبْرًا مُجْرِمِينَ﴾ الْآيَةَ ^(١٢) [الأنعام: ١٢٣]. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ ^(١٣).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَّقُوا فِيهَا﴾ يَقُولُ: أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ ^(١٤)، وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَالصَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ ^(١٥). وَعَنْ مَالِكٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أَكْثَرْنَا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ

خَيْرًا بَصِيرًا﴾

[تَهْدِيدٌ لِقُرَيْشٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، بِأَنَّهُ قَدْ أَهْلَكَ أُمَّمًا مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْقُرُونَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَى الْإِسْلَامِ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ^(١٦). وَمَعْنَاهُ أَنْكُمْ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ لَسْتُمْ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ وَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَأَكْرَمَ الْخَلَائِقِ، فَعُقُوبَتُكُمْ أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ أَيُّ هُوَ عَلِيمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ: خَيْرِهَا وَسَرَّهَا لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ سُبْحَانَهُ

(١) البخاري: ١٣٨٥، ومسلم: ٢٦٥٨ (٢) أحمد: ٣٢٦/٢
والمجمع: ٢١٩/٧ (٣) مسلم: ٢٨٦٥ (٤) البخاري: ٧٠٤٧
(٥) المعجم الكبير: ٢٤٤/٧ والمجمع: ٢١٩/٧ (٦)
أحمد: ٥٨/٥ وفتح الباري: ٢٤٦/٣ (٧) أحمد: ٧٣/٥ (٨)
ابن حبان: ٢٥٦/٨ (٩) كشف الأستار: ٣٥/٣ (١٠)
الطبري: ٤٠٣/١٧ (١١) الطبري: ٤٠٣/١٧ (١٢) الطبري: ٤٠٤/١٧
(١٣) الطبري: ٤٠٤/١٧ (١٤) الطبري: ١٧/١٧
٤٠٤ (١٥) الطبري: ٤٠٥، ٤٠٤، ٤٠٤ (١٦) المجمع: ٣١٨/٦

اللَّهُ، أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا؟ قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ ^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيَمَا أَعْلَمُ - شَكَّ مُوسَى - قَالَ: «ذَرَارِيُّ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَنَّةِ، يَكْفُلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ» ^(٢). وَفِي صَحِيحِ لِمُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَتَفَاءً» ^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ لِغَيْرِهِ: «مُسْلِمِينَ».

الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ: عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبُرْقَانِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْمُسْتَخْرَجُ عَلَى الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ عَوْفِ الْأَعْرَابِيِّ. عَنْ أَبِي رَجَاءِ الْعَطَّارِيِّ عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَتَادَاهُ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: «وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ» ^(٤). وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ سَمُرَةَ قَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: «هُمْ خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ» ^(٥).

الْحَدِيثُ الرَّابِعُ: عَنْ عَمِّ حَسَنَاءَ رَوَى أَحْمَدُ عَنْ حَسَنَاءَ بِنْتِ مُعَاوِيَةَ، مِنْ بَنِي صُرَيْمٍ قَالَتْ: حَدَّثَنِي عَمِّي قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمَوْلُودُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْوَلِيدُ فِي الْجَنَّةِ» ^(٦).

[كَرَاهَةُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ]

وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَحْتَاجُ إِلَى دَلَائِلَ صَحِيحَةٍ جَيِّدَةٍ وَقَدْ بَتَكَلَّمُ فِيهَا مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ عَنِ الشَّارِعِ، كَرِهَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْكَلَامَ فِيهَا، رَوَى ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ وَمُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ^(٧)، وَأَخْرَجَ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ: سَمِعْتُ أَبَا رَجَاءَ الْعَطَّارِيَّ، سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُوَاتِنًا - أَوْ مُقَارِبًا - مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي الْوُلْدَانِ وَالْقَدَرِ» قَالَ ابْنُ حِبَّانَ: يَعْنِي أَطْفَالَ الْمُشْرِكِينَ ^(٨). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الْبُرَّارُ مِنْ طَرِيقِ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ بِهِ ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مُوَفَّقًا ^(٩).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَّقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

فَدَرَرْنَا نَدِيمًا﴾

وَتَعَالَى .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾
[جَزَاءً مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ يَحْضُلُ لَهُ، بَلْ إِنَّمَا يَحْضُلُ لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ وَمَا يَشَاءُ، وَهَذِهِ مَقِيدَةٌ لِإِطْلَاقِ مَا سِوَاهَا مِنَ الْآيَاتِ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿يَصَلُّهَا﴾ أَي يَدْخُلُهَا حَتَّى تَعْمُرَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ﴿مَذْمُومًا﴾ أَي فِي حَالِ كُؤُوبِهِ مَذْمُومًا عَلَى سُوءِ تَصَرُّفِهِ وَصَنِيعِهِ، إِذِ اخْتَارَ الْفَاقِي عَلَى الْبَاقِي ﴿مَدْحُورًا﴾ مُبْعَدًا مُفْصِلًا ذَلِيلًا مُهَانًا .

وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أَي أَرَادَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَالشُّرُورِ ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أَي طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِهِ وَهُوَ مُتَابِعَةُ الرَّسُولِ ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أَي قَلْبُهُ مُؤْمِنٌ، أَي مُصَدِّقٌ بِالثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ .

﴿كَلَّا نُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لِلْآخِرَةِ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرَ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ أَي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ: الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا وَالَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ نُبَدِّلُهُمْ فِيمَا فِيهِ ﴿وَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أَي هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ، فَيُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، فَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعَيَّرَ لِمَا أَرَادَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أَي لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ، وَلَا يَرُدُّهُ رَادًّا . قَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أَي مُنْقُوصًا ^(١) . وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: أَي مَمْنُوعًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظَرَ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا، فَمِنْهُمْ الْعَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا، وَمَنْ يَعْمُرُ حَتَّى يَبْقَى شَيْخًا كَبِيرًا، وَبَيْنَ ذَلِكَ ﴿وَالْآخِرَةَ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرَ تَفْضِيلًا﴾ أَي وَلْتَفَاوَتْهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ فِي جَهَنَّمَ وَسَلَسِيلِهَا وَأَعْلَالِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَنَعِيمِهَا وَسُرُورِهَا،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٤

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لِلْآخِرَةِ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرَ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغْنِ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَنْذِرْ يَنْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

ثُمَّ أَهْلُ الدَّرَكَاتِ يَتَفَاوَتْونَ فِي مَا هُمْ فِيهِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ يَتَفَاوَتْونَ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةٌ دَرَجَةٌ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . وَفِي الصَّحِيحِينَ: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرُونَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ، كَمَا تَرُونَ الْكُرُوكَ الْعَايِرَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ» ^(١) . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةَ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرَ تَفْضِيلًا﴾ .

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾﴾

[لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ أَحَدًا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَالْمُرَادُ الْمُكَلَّفُونَ مِنَ الْأُمَّةِ، لَا تَجْعَلْ أَيُّهَا الْمُكَلَّفُ فِي عِبَادَتِكَ رَبِّكَ لَهُ شَرِيكًا ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ أَي عَلَى إِشْرَاكِكَ بِهِ ﴿مَدْحُورًا﴾ لِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لَا يَنْصُرُكَ بَلْ يَكْفُلُكَ إِلَى الَّذِي عَدَدْتَ مَعَهُ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، لِأَنَّ مَالِكَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

(١) الطبري: ١٧/٤١٠ (٢) فتح الباري: ٦/٣٨٦ ومسلم: ٤/

لَهُ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدِّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ [أَوْشَكَ] اللَّهُ لَهُ بِالْعَنَى، إِمَّا [بِمَوْتِ عَاجِلٍ] وَإِمَّا غِنَى [عَاجِلٍ]»^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(٢).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيٌ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِحْسَانِ بِالْوَالِدَيْنِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ هَهُنَا بِمَعْنَى الْأَمْرِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يَعْني وَصَى^(٣). وَكَذَا قَرَأَ أَبُو بِنُ كَعْبٌ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَالضَّحَّاكُ بِنُ مُرَاجِمٍ: (وَوَصَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)^(٤) وَلِهَذَا قَرَنَ بِعِبَادَتِهِ بِرِ الْوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيِ وَأَمَرَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيٌ﴾ أَيِ لَا تُسْمِعُهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا، حَتَّىٰ وَلَا التَّأْيِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ

مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ ﴿وَلَا نَهْرُهُمَا﴾ أَيِ وَلَا يَصْدُرُ مِنْكَ إِلَيْهِمَا فِعْلٌ قَبِيحٌ، كَمَا قَالَ عَطَاءُ ابْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا نَهْرُهُمَا﴾ أَيِ لَا تَنْفُضْ يَدَكَ عَلَيْهِمَا^(٥). وَلَمَّا نَهَاهُ عَنِ الْقَوْلِ الْقَبِيحِ وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ، أَمَرَهُ بِالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَالْفِعْلِ الْحَسَنِ، فَقَالَ: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أَيِ لَيْتِنَا طَيِّبًا

حَسَنًا بِتَأْدِبٍ وَتَوْفِيرٍ وَتَعْظِيمٍ ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ﴾ أَيِ تَوَاضَعْ لَهُمَا بِفِعْلِكَ ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أَيِ فِي كِبَرِهِمَا وَعِنْدَ وَقَاتِهِمَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشُّرَكِيِّينَ﴾... الْآيَةُ [التوبة: ١١٣]^(٦).

وَقَدْ جَاءَ فِي بَرِّ الْوَالِدَيْنِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ مِنْ طَرِيقٍ عَنْ أَنَسٍ وَغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ [لَمَّا] صَدَعَ الْمَبْتَرُ ثُمَّ قَالَ: «آمِينَ آمِينَ آمِينَ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَلَامَ أَمَّنْتَ؟ قَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرٌ رَمَضَانَ، ثُمَّ خَرَجَ فَلَمْ يُعَفِّرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ:

رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»^(٧).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ أَحَدَ آبَوَيْهِ أَوْ [كِلَيْهِمَا] عِنْدَ الْكِبَرِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ»^(٨) صَحِيحٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ، سِوَى مُسْلِمٍ^(٩).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السَّلْمِيِّ أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَدْتُ الْعَزْوَ وَجِحَّتْكَ أَسْتَشِيرُكَ فَقَالَ: «فَهَلْ لَكَ مِنْ أُمَّ» قَالَ: نَعَمْ قَالَ: «فَالزَّمْنَهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رَجُلَيْهَا» ثُمَّ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ الثَّلَاثَةَ فِي مَقَاعِدِ شَيْءٍ، كَمَثَلِ هَذَا الْقَوْلِ^(١٠). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(١١).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّمِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، فَالْأَقْرَبُ»^(١٢). وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاشٍ بِهِ^(١٣).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي بَرْبُوعٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يُكَلِّمُ النَّاسَ يَقُولُ: «يَدُ الْمُعْطَى الْعُلْبَا، أُمَّكَ وَأَبَاكَ، وَأَخْتُكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَذْنَاكَ أَذْنَاكَ»^(١٤).

﴿رَبُّكُمْ أَغْلَرُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأُولَئِكَ عُقُورًا﴾^(١٥)

[عُفْرَانُ زَلَّةِ الْوَالِدِ فِي حَقِّ وَالِدَيْهِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى اللَّهِ] قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ مِنْهُ الْبَادِرَةُ إِلَىٰ آبَوَيْهِ، وَفِي نَبِيِّهِ وَقَلْبِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ بِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ: لَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ بِذَلِكَ^(١٥). فَقَالَ: ﴿رَبُّكُمْ أَغْلَرُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ

(١) أحمد: ٤٠٧/١ (٢) أبو داود: ٢٩٦/٢ وتحفة الأحوذى: ٦١٧/٦ (٣) الطبري: ٤١٤/١٧ (٤) الطبري: ١٧/٤١٤، ٤١٣ (٥) الطبري: ٤١٧/١٧ (٦) الطبري: ١٧/٤٢١ (٧) تحفة الأحوذى: ٥٥٠/٥ (٨) أحمد: ٣٤٦/٢ (٩) مسلم: ١٩٧٨/٤ (١٠) أحمد: ٤٢٩/٣ (١١) النسائي: ٦/١١ وابن ماجه: ٩٣٠/٢ (١٢) أحمد: ١٣٢/٤ (١٣) ابن ماجه: ١٢٠٧/٢ (١٤) أحمد: ٦٤/٤ (١٥) الطبري: ١٧/٤٢٢

تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴿٢٦﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: لِلْمُطِيعِينَ أَهْلَ الصَّلَاةِ ^(١). وَقَالَ شُعْبَةُ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ قَالَ: الَّذِينَ يُصِيبُونَ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُونَ، وَيُصِيبُونَ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُونَ ^(٢).

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَّارٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ: هُمُ الرَّاجِعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ فِي الْآيَةِ: هُوَ الَّذِي إِذَا ذَكَرَ ذُنُوبَهُ فِي الْخَلَاءِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهَا، وَوَافَقَهُ مُجَاهِدٌ فِي ذَلِكَ ^(٤). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَوْلَى فِي ذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ النَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، الرَّجَاعُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، مِمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ إِلَى مَا يَجِبُهُ وَيَرْضَاهُ ^(٥). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ الصَّوَابُ، لِأَنَّ الْأَوَّابَ مُسْتَقٌّ مِنَ الْأَوْبِ، وَهُوَ الرَّجُوعُ، يُقَالُ: أَبَّ فَلَانَ إِذَا رَجَعَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ قَالَ: «أَيُّوبُ تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبَّنَا حَامِدُونَ» ^(٦).

﴿وَعَاتِ ذَا الْفُرْقَيْنِ حَقَّهُ وَالْمَشْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْدُرُ تَبْدِيرًا﴾ ^(٧) إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كُفُورًا ^(٨) وَإِمَّا تَعْرِضُ عَنْهُمْ أِنْعَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ^(٩)

[الْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالنَّهْيُ عَنِ التَّبْدِيرِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى بِرَّ الْوَالِدِينَ، عَطَفَ بِذِكْرِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «أُمَّكَ وَأَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» وَفِي رِوَايَةٍ: «ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَلِأَقْرَبِ» ^(٧)، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَبَّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» ^(٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَبْدُرْ تَبْدِيرًا﴾ لَمَّا أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ، نَهَى عَنِ الْإِسْرَافِ فِيهِ، بَلْ يَكُونُ وَسَطًا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الْآيَةُ [الفرقان: ٦٧] ثُمَّ قَالَ مُتَمَرِّعًا عَنِ التَّبْدِيرِ وَالسَّرْفِ: ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ أَيَّ أَشْبَاهَهُمْ فِي ذَلِكَ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: التَّبْدِيرُ الْإِنْفَاقُ فِي غَيْرِ حَقٍّ ^(٩)، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ^(١٠)، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَوْ أَنْفَقَ إِنْسَانٌ مَالَهُ كُلَّهُ فِي الْحَقِّ لَمْ يَكُنْ مُبْدِرًا، وَلَوْ أَنْفَقَ مَدًّا فِي غَيْرِ حَقٍّ كَانَ مُبْدِرًا ^(١١). وَقَالَ قَتَادَةُ: التَّبْدِيرُ التَّفَقُّهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي غَيْرِ الْحَقِّ وَالْفَسَادِ ^(١٢).

وَأَمَّا تَعْرِضُ عَنْهُمْ أِنْعَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ^(٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ^(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ^(٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً أُمَّلَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ كَانَ خِطَابًا كَبِيرًا ^(٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ^(٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ^(٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَا لَيْسَ بِالِأَيْدِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْئُورًا ^(٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْمَعِيْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ^(٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُورًا ^(٣٦) وَلَا تَنْتَشِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ^(٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ^(٣٨)

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ، وَذُو أَهْلِ وَوَلَدٍ وَحَاضِرَةٍ، فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ أَنْفِقُ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ إِنْ كَانَ، فَإِنَّهَا طَهْرَةٌ تَطَهَّرُكَ، وَتَصِلُ أَقْرَبَاءَكَ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ وَالْجَارِ وَالْمُسْكِينِ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْلِيلَ لِي، قَالَ: ﴿وَعَاتِ ذَا الْفُرْقَيْنِ حَقَّهُ وَالْمَشْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْدُرْ تَبْدِيرًا﴾ فَقَالَ: حَسْبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذَا أَدَيْتَ الزَّكَاةَ إِلَى رَسُولِكَ فَقَدْ بَرَّتَ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، إِذَا أَدَيْتَهَا إِلَى رَسُولِي فَقَدْ بَرَّتَ مِنْهَا، وَلَكَ أَجْرُهَا، وَإِنَّهَا

(١) الطبري: ٤٢٢/١٧ (٢) الطبري: ٤٢٣/١٧ (٣) الطبري: ٤٢٤/١٧، ٤٢٥، ٤٢٤ (٤) الطبري: ٤٢٤/١٧ (٥) الطبري: ١٧/٤٢٥ (٦) فتح الباري: ٧٢٤/٣ (٧) أحمد: ٢٦٦/٢ (٨) مسلم: ١٩٨٢/٤ (٩) الطبري: ٤٢٨/١٧ (١٠) الطبري: ١٧/٤٢٩ (١١) الطبري: ٤٢٩/١٧ (١٢) الطبري: ٤٢٩/١٧

عَلَىٰ مَنْ بَدَّلَهَا»^(١).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِبْرَاحِيمَ الشَّيْطَانِ﴾ أي في التبدير والسفوه وترك طاعة الله وإرتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي جحودًا، لأنه أنكروا نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفتيه. وقوله: ﴿وَأَمَّا نُرْضِضَ عَنْهُمْ آيَاتَهُ رَحِمًا مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقيد الثقة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَنسُورًا﴾ أي عدوهم وعدا بسؤولته ولين: إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسّر قوله: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَنسُورًا﴾ بالوعيد - مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد^(٢).

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(٣) إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنك كان يعاوده. خيرًا بصيرًا^(٤).

[الْإِقْتِصَادُ فِي الْإِنْفَاقِ]

يقول تعالى أمرًا بالإقتصاد في العيش، ذمًا للبخل، ناهيًا عن السرف ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تكن بخيلًا منوعًا، لا تعطى أحدًا شيئًا، كما قالت اليهود - عليهم لعائن الله - ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي نسبوها إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب، وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملومًا محسورًا، وهذا من باب اللف والنسر، أي فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويدثونك ويستثنون عنك.

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفق، فتكون كالحيسير، وهو الدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحيسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾^(٥)

ثم أرجع البصر كزيتي يلقب إليك البصر حاسيًا وهو حسير أي كليل عن أن يرى عيبًا، هكذا فسّر هذه الآية - بأن المراد هنا البخل والسرف - ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم^(٦). وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما إلى تراقيههما، فأما

الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَعَتْ - أَوْ: وَفَرَّتْ - عَلَىٰ جِلْدِهِ حَتَّىٰ تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْمُوَ أَرْثُهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَرَقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مِنْهَا مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسَّعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ»^(٧) هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي الزَّكَاةِ.

وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مزرع عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُضْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا حَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُسْبِكًا تَلْفًا».

وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٨). وفي حديث أبي كثير عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمْرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَجَلُوا، وَأَمْرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمْرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا»^(٩).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إِنْخَابًا أَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الرَّزَاقُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُقْرِعُ مَنْ يَشَاءُ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي خيرًا بصيرًا بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجًا، والفقر عقوبة، عيادًا بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّىٰ إِمْلَئُوا مِنْ زُرْعِهِمْ وَإِنَّا لَنَنظُرُهُمْ

كَانَ خَطَاً كَبِيرًا﴾^(١٠)

[النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ الْأَوْلَادِ]

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدتهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلتها، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّىٰ إِمْلَئُوا مِنْ زُرْعِهِمْ﴾ أي خوف أن تقتلوا في ثاني الحال، ولهذا قدم الإهتمام برزقهم فقال: ﴿تَحْنُ زُرْعُهُمْ وَإِنَّا لَنَنظُرُهُمْ﴾ وفي الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَئُوا مِنْ زُرْعِهِمْ﴾ أي من فقر

(١) أحمد: ١٣٦/٣ (٢) الطبري: ٤٣١/١٧، ٤٣٢ (٣)

الطبري: ٤٣٤/١٧، ٤٣٥ (٤) فتح الباري: ٣٥٨/٣، ومسلم:

٧٠٨/٢ (٥) مسلم: ٢٠٠١/٤ (٦) أحمد: ١٥٩/٢

﴿عَنْ نَزْفِكُمْ وَإِسْأَتِهِمْ﴾ [الآية: ١٥١]. وَقَوْلُهُ ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أَي! ذَنْبًا عَظِيمًا، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (كَانَ خَطَأً كَبِيرًا) وَهُوَ بِمَعْنَاهُ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تُجْعَلَ لَكَ نِيَّةٌ وَهُوَ خَلْقُكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُقْتَلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحِلْيَةِ جَارِكَ»^(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٢)
[الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الرِّزْقِ وَأَسْبَابِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ الرِّزْقِ وَعَنْ مُقَارَبَتِهِ وَمُخَالَطَتِهِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ أَي ذَنْبًا عَظِيمًا ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أَي وَيَسُّسَ طَرِيقًا وَمَسْلَكًا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ: أَنَّ فَتَى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذْنٌ لِي بِالرِّزْقِ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَرَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: «أُذْنُهُ» فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، فَقَالَ «اجْلِسْ» فَجَلَسَ، فَقَالَ: «أَنْجِبُهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفْتَحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِابْنَتَيْهِمْ». قَالَ: «أَفْتَحِبُّهُ لِأَخِيكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفْتَحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفْتَحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ»، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَأَحْصِنْ فَرْجَهُ» قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَقِتُ إِلَى شَيْءٍ^(٣).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ

مَنْصُورًا﴾^(٤)

[النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ، كَمَا بَيَّنَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَجِلُّ دَمٌ إِسْرِيٍّ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِيَةُ الْمُحْصَنُ، وَالتَّارِكُ لِذِيئِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٥). وَفِي

السُّنَنِ: «لَرَوَّالِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ أَهْوَنُ مِنْ قَتْلِ مُسْلِمٍ»^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ أَي سُلْطَانَةً عَلَى الْقَاتِلِ، فَإِنَّهُ بِالْخِيَارِ فِيهِ إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ قُودًا، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ عَلَى الدِّيَةِ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ مَجَانًا، كَمَا ثَبَّتَتْ السُّنَّةُ بِذَلِكَ، وَقَدْ أَخَذَ الْإِمَامُ الْحَبْرُ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَآيَةِ مُعَاوِيَةَ: السُّلْطَانَةَ [وَ] أَنَّهُ سَمَّيْتُكَ، لِأَنَّهُ كَانَ وَلِيَّ عُثْمَانَ، وَقَدْ قُتِلَ مَظْلُومًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ تَمَكَّنَ مُعَاوِيَةُ وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَاسْتَبْتَبَهُ مِنْ هَذِهِ الْكَرِيمَةِ. وَهَذَا مِنَ الْأَمْرِ الْعَجَبِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ قَالُوا: مَعْنَاهُ: فَلَا يُسْرِفُ الْوَلِيُّ فِي قَتْلِ الْقَاتِلِ بِأَنْ يُمَثَّلَ بِهِ، أَوْ يَقْتَصَّ مِنْ غَيْرِ الْقَاتِلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أَي إِنْ الْوَلِيَّ مَنْصُورٌ عَلَى الْقَاتِلِ شَرْعًا وَعَالِيًا وَقَدْرًا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَشْهُورٌ﴾^(٥) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ زُرْعًا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٦)

[الْأَمْرُ بِالتَّصَرُّفِ الْحَسَنِ فِي مَالِ الْيَتِيمِ وَبِالْكَيْلِ الْأَوْفَى وَالْوَزْنَ الْمُسْتَقِيمِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أَي لَا تَتَصَرَّفُوا فِي مَالِ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْإِعْطَةِ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا إِنْشَرَفًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي: لَا تَأْمُرَنَّ عَلَيَّ اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلِّينَنَّ مَالَ الْيَتِيمِ»^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أَي الَّذِي تُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ النَّاسَ وَالْعُقُودَ الَّتِي تُعَامِلُونَ بِهَا، فَإِنَّ الْعَهْدَ وَالْعَقْدَ كُلُّ مِنْهُمَا يُسْأَلُ صَاحِبُهُ عَنْهُ ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَشْهُورٌ﴾ أَي عَنَّهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ﴾ أَي مِنْ غَيْرِ تَطْفِيفٍ وَلَا تَبَخُّسٍ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ الْقَافِ وَكَسْرِهَا، كَالْفِرْطَاسِ، وَهُوَ الْمِيزَانُ. وَقَوْلُهُ: ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ أَي الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ وَلَا

(١) فتح الباري: ١٣/٨

(٢) أحمد: ٢٥٦/٥ (٣) فتح الباري: ٢٠٩/١٢ ومسلم: ٣/

١٣٠٢ (٤) تحفة الأحوذى: ٢٥٦/٤ والنسائي: ٨٢/٧ وابن

ماجه: ٨٧٤/٢ (٥) مسلم: ١٤٥٨/٣

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٦﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ
 بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٧﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٨﴾
 قُلْ لَوْ كُنَّا مَعَهُ إِلهةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا ابْتِغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
 ﴿٣٩﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٠﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوٰتُ
 السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ
 لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ
 الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
 مَسْتُورًا ﴿٤٢﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
 وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّاعًا لِّذُرِّهِمْ نُفُورًا
 ﴿٤٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ بِحُجُورِ
 إِذِيقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْحَرًا ﴿٤٤﴾ أَنْظِرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٥﴾
 وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٦﴾

وقوله: ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أي بتمايلك وفحرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازي فاعل ذلك بتقيص قضيده، كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُردان يتختر فيهما، إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(١). وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وقوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أما من قرأ: (سَيِّئَةً)، أي فاحشته، فمعناه عنده: كل هذا - الذي نهيًا عنه - من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَسَبَ إِمْلَاقٍ﴾ إلى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها، مكروها عند الله لا يجبه ولا

(١) الطبري: ٤٤٦/١٧ (٢) الطبري: ٤٤٦/١٧ (٣) الطبري: ٤٤٧/١٧ (٤) الطبري: ٤٤٧/١٧ (٥) الطبري: ٤٤٦/١٧ (٦) فتح الباري: ١٠٦/٩ (٧) أبو داود: ٢٥٤/٥ (٨) فتح الباري: ٤٤٦/١٢ (٩) فتح الباري: ٤٤٦/١٢ (١٠) مسلم: ١٦٥٤/٣

اضطراب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي مالا ومثقلًا في آخرتكم، قال سعيد عن قتادة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي خير ثوابًا وأحسن عاقبة^(١). وابن عباس كان يقول: يا معشر الموالى إنكم وليتم أمرين، بهما هلك الناس قبلكم: هذا الحكيم، وهذا الميزان.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُورًا﴾ ﴿٣٦﴾

[لَا تَكَلِّمُوا إِلَّا بِالْعِلْمِ]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: لا تقل^(٢). وقال العوفي: لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم^(٣). وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور^(٤). وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله^(٥). ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهّم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَبِئُوا كِبْرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»^(٦). وفي سنن أبي داود: «بئس مطية الرجل: زعموا»^(٧). وفي الحديث الآخر: «إن أقرى القرى أن يري الرجل عينيه ما لم ترها»^(٨). وفي الصحيح: «من تحلّم حلّمًا كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، وليس بفاعل»^(٩).

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْفُورًا﴾ أي سبئال العبد عنها يوم القيامة، وتساءل عنه وعمّا عمل فيها. ويصح استعمال «أولئك» مكان «تلك».

﴿وَلَا تَشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمًا إِنَّكَ لَنْ تَخَرَّقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

[ذَمُّ مَشِيَةِ التَّبَخُّرِ]

يقول تعالى ناهيًا عباده عن التبخر والتبختر في المشية ﴿وَلَا تَشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمًا﴾ أي متبخترًا متميلاً مشيًا الجارين ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخَرَّقَ الْأَرْضَ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك. قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج:

وقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ خَاوِي [المُخْتَرِقِ]

وَالْمَوَاعِظِ، فَيَنْزَجِرُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرْكِ وَالظُّلْمِ
وَالْإِفْكِ ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أَي الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ ﴿إِلَّا نُقُورًا﴾ أَي
عَنِ الْحَقِّ وَبَعْدًا مِنْهُ .

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَنْبَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ

سَبِيلًا ﴿١٧١﴾ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عَلَؤًا كَبِيرًا ﴿١٧٢﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الرَّاعِمِينَ
أَنَّ اللَّهَ شَرِيكًا مِنْ خَلْقِهِ - الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ لِيُقَرَّبَهُمْ إِلَيْهِ
رُفْقَى - لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ، وَأَنَّ مَعَهُ آلِهَةٌ تُعْبَدُ
لِيُقَرَّبَ إِلَيْهِ وَتَشْفَعَ لَدَيْهِ، لَكَانَ أَوْلِيكَ الْمُعْبُدُونَ يَعْبُدُونَهُ
وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَعِينُونَ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَالْقُرْبَةَ، فَأَعْبُدُوهُ أَنْتُمْ
وَخُدْهُ كَمَا يَعْبُدُهُ مَنْ تَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ، وَلَا حَاجَةَ لَكُمْ إِلَى
مَعْبُودٍ يَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ وَلَا
يَرْضَاهُ، بَلْ يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَقَدْ نَهَىٰ عَنْ ذَلِكَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ
جَمِيعِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ وَقَدَّسَهَا فَقَالَ:
﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أَي هُؤَلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُعْتَدُونَ
الظَّالِمُونَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَىٰ ﴿عَلَؤًا كَبِيرًا﴾ أَي
تَعَالَىٰ كَبِيرًا، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ
يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

﴿سُبْحٌ لَهُ الَّذِي تَسْتَعِينُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسْبِحُ

بِحَمْدِهِ. وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غُفُورًا ﴿١٧٣﴾﴾

[كُلُّ شَيْءٍ يُسْبِحُ لِلَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ: تُقَدِّسُهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
فِيهِنَّ، أَي مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَتُنَزِّهُهُ وَتُعَظِّمُهُ وَتُسَبِّحُهُ
وَتُكَبِّرُهُ، عَمَّا يَقُولُ هُؤَلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، وَتَشْهَدُ لَهُ
بِالْوَحْدَانِيَّةِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهٗ آيَةٌ

تَنْدُلُ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ
الْأَرْضَ وَخَيْرُ الْمَجَالِ هَذَا ﴿١٧٤﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١٧٥﴾﴾ [مریم: ٩٠، ٩١].

وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسْبِحُ بِحَمْدِهِ﴾ أَي وَمَا مِنْ شَيْءٍ
مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا يُسْبِحُ بِحَمْدِ اللَّهِ ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ﴾ أَي لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، لِأَنَّهَا
بِخِلَافِ لِعَانَتِكُمْ، وَهَذَا عَامٌّ فِي الْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ

يَرْضَاهُ. وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: ﴿سَبِّحْهُ﴾ عَلَى الْإِضَافَةِ فَمَعْنَاهُ
عِنْدَهُ: كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَصَّ رَبُّكَ الْأَلْوَانَ
تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَاهًا﴾ إِلَىٰ هُنَا فَسَبِّحْهُ أَي فَسَبِّحْهُ مَكْرُوهٌ عِنْدَ اللَّهِ.
هَكَذَا وَجَّهَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿١٧٦﴾﴾

[كُلُّ مَا سَبَقَ وَحْيِي وَحِكْمَتِي]

يَقُولُ تَعَالَىٰ: هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكَ بِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ
الْجَمِيلَةِ، وَنَهَيْتَاكَ عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ، مِمَّا أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ لِتَأْمُرَ بِهِ النَّاسَ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أَي تَلُومُكَ نَفْسُكَ وَتَلُومُكَ اللَّهُ وَالْخَلْقُ
﴿مَدْحُورًا﴾ أَي مُبْعَدًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ:
مَطْرُودًا ^(١). وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْخِطَابِ الْأُمَّةَ بِوَاسِطَةِ
الرَّسُولِ ﷺ، فَإِنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، مَعْصُومٌ.

﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَالتَّوْحِيدِ مِنَ الْمَلَكِيَّةِ إِنشَاءً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

قَوْلًا عَظِيمًا ﴿١٧٧﴾﴾

[الرَّدُّ عَلَى الرَّاعِمِينَ أَنَّ الْمَلَكِيَّةَ بَنَاتُ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ رَادًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْكَاذِبِينَ الرَّاعِمِينَ -
عَلَيْهِمْ لِعَائِنِ اللَّهِ -: أَنَّ الْمَلَكِيَّةَ بَنَاتُ اللَّهِ، فَجَعَلُوا
الْمَلَكِيَّةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا، ثُمَّ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ
بَنَاتُ اللَّهِ، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ فَأَخْطَأُوا فِي كُلِّ مِنَ الْمَقَامَاتِ
الثَّلَاثِ خَطَأً عَظِيمًا، فَقَالَ تَعَالَىٰ مُتَكَبِّرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَفَأَصْفَكَ
رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ﴾ أَي خَصَّصَكُمْ بِالذُّكُورِ ﴿والتَّوْحِيدِ مِنَ الْمَلَكِيَّةِ
إِنشَاءً﴾ أَي وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ عَلَى زَعْمِكُمُ الْبَنَاتِ، ثُمَّ شَدَّدَ
الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أَي فِي
زَعْمِكُمْ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا، ثُمَّ جَعَلِكُمْ وَلَدَهُ الْإِنَاثَ الَّتِي تَأْتُونَ
أَنْ يَكُنَّ لَكُمْ، وَرَبِّمَا قَتَلْتُمُوهُنَّ بِالْوَادِ، فَتِلْكَ إِذَا قِسِمَةً
ضَيْرَىٰ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿١٧٨﴾ لَقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿١٧٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ
الْأَرْضَ وَخَيْرُ الْمَجَالِ هَذَا ﴿١٨٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١٨١﴾ وَمَا يَلْبِغِي
لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿١٨٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا
عِندَ الرَّحْمَنِ عَبْدٌ ﴿١٨٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٨٤﴾ وَكُلُّهُمْ عِندَهُ
بِیَوْمِ الْقِيَامَةِ قَرْدًا ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُقُورًا ﴿١٨٦﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أَي صَرَّفْنَا
فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ

وَالنَّبَاتَاتِ، وَهَذَا أَشْهُرُ الْقَوْلَيْنِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ
الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ
وَهُوَ يُؤْكَلُ^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ [مُعَاذِ بْنِ أَنَسِ
الْجُهَيْنِيِّ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى
قَوْمٍ وَهُمْ وَفُوفٌ عَلَى دَوَابِّ لَهُمْ وَرَوَاجِلٌ، فَقَالَ لَهُمْ:

«رَكِبُوهَا سَالِمَةً وَدَعُوهَا سَالِمَةً، وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ
لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطَّرْفِ وَالْأَسْوَاقِ، فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ
رَاكِبِهَا، وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ مِنْهُ»^(٢).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي
بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْتُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا
أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جَاءَتِ الْعَوْرَاءُ أُمَّ جَمِيلٍ وَلَهَا وَلَوْةٌ، وَفِي
يَدَيْهَا فِهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ: مَذْمَمًا أَتَيْنَا - أَوْ أُبَيْنَا - (قَالَ أَبُو
مُوسَى: الشُّكُّ مَبْنِي). وَدِينَهُ فَلَيْنَا، وَأَمْرُهُ عَصِينَا، وَرَسُولُ
اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَأَبُو بَكْرٍ إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ: لَقَدْ أَقْبَلْتُ هَذِهِ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ، فَقَالَ: «إِنَّهَا لَنْ
تَرَانِي» وَقَرَأَ قُرْآنًا اعْتَصَمَ بِهِ مِنْهَا: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا
بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ قَالَ:
فَجَاءَتْ حَتَّى قَامَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ تَرَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ:
يَا أَبَا بَكْرٍ، بَلَّغْنِي أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا
وَرَبَّ هَذَا النَّبِيِّ مَا هَجَاكَ، قَالَ: فَأَنْصَرَفَتْ وَهِيَ تَقُولُ:
لَقَدْ عَلِمْتُ فُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا^(٣).

وَفِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: نَهَى
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ الضَّفَدَعِ. وَقَالَ: نَقِيفُهَا تَسْبِيحٌ^(٤).
وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَمُورًا﴾ أَيُّ إِنَّهُ لَا يَعَاجِلُ مَنْ
عَصَاهُ بِالْعُقُوبَةِ، بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ، فَإِنْ اسْتَمَرَ عَلَى كُفْرِهِ
وَعِنَادِهِ أَخَذَهُ أَخَذَ عَزِيزٌ مُتْتَدِرٌ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ:
«إِنَّ اللَّهَ لِكَيْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُغْلِبْهُ»^(٥). ثُمَّ قَرَأَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْسَى وَهِيَ
ظَلِمَةٌ... الْآيَةُ [هود: ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايُنَ مِنْ
قَرِينَةٍ أَتَمَّيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ... الْآيَةُ [الحج: ٤٨]،
وَقَالَ: ﴿فَكَأَيُنَ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ...
الْآيَتَيْنِ [الحج: ٤٥، ٤٦]، وَمَنْ أَفْلَعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ
عِصْيَانٍ، وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ وَتَابَ إِلَيْهِ، تَابَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظِلِّمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ
الْآيَةُ [النساء: ١١٠]، وَقَالَ هُتَنَّا: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَمُورًا﴾
كَمَا قَالَ فِي آخِرِ فَاطِرٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ
تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
غَمُورًا﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ
[الآيات: ٤١-٤٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وَهِيَ جَمْعُ كِنَانِ الَّذِي
يَعْمَى الْقَلْبَ ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أَيُّ لِيَلَّا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ ﴿وَفِي
ءَادَانِهِمْ وَقَرَأَ﴾ وَهُوَ الثَّقُلُ الَّذِي يَمْتَعُهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ
سَمَاعًا يَفْعَعُهُمْ وَيَهْتَدُونَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ
فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثُمُ﴾ أَيُّ إِذَا وَحَدَّثَ اللَّهُ فِي تِلَاوَتِكَ، وَقُلْتَ:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿وَلَوْ﴾ أَيُّ أَذْبَرُوا رَاجِعِينَ ﴿عَلَى أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾
وَنُفُورٌ جَمْعُ نَافِرٍ، كَقَعُودٍ جَمْعُ قَاعِدٍ، وَجُورٌ أَنْ يَكُونَ

(١) فتح الباري: ٦/٦٧٩ (٢) أحمد: ٤٣٩/٣ إسناده ضعيف
وانفرد بهذا المتن زيان عن سهل وهذا الحديث ضعيف لا سيما
في سننه ابن لهيعة لكن أخرجه أحمد ٤٤٠/٣ والدارمي (٢٦٧١)
والطبراني ٣٠/١٩٣ وابن حبان ٥٦١٩ والحاكم ٤٤٤/١، ٣/١٠٠
من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن سهل بن
معاذ عن أنس رضي الله عنه دون قوله "مركوبة خير..."
وصححه الحاكم والذهبي. (٣) لم أجده في النسائي الصغيرى
والكبرى بهذا اللفظ وقد صحَّ النهي عن قتل الضفدع أخرجه أبو
داود (٣٨٧١، ٥٢٦٩) والنسائي (٤٣٦٠) أحمد ٤٥٣/٣ وصححه
الألباني في صحيح الجامع، وأخرجه بهذا اللفظ الطبراني في
الأوسط (٣٧١٦) وابن عدي في الكامل وغيرها من طريق
المسيب بن واضح عن عبدالله بن عمرو، والمسيب يخطي كثيرا
(٤) فتح الباري: ٨/٢٠٥ ومسلم: ٤/١٩٩٧ (٥) الطبري:
٤٥٧/١٧ (٦) مسند أبي يعلى: ١/٥٣ حسن بشواهد

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(٦) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَادَانِهِمْ
وَقَرَأَ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثُمُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا^(٧)

[الْحِجَابُ عَلَى قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَإِذَا قَرَأْتَ يَا مُحَمَّدُ
عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْقُرْآنَ، جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا
مَسْتُورًا. قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: هُوَ الْأَكِنَّةُ عَلَى قُلُوبِهِمْ^(٥).
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي
ءَادَانِنَا وَفَرُّوْا مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أَيُّ مَا نَبِغُ حَائِلٌ أَنْ يَصِلَ
إِلَيْنَا مِمَّا تَقُولُ شَيْءٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ بِمَعْنَى سَائِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٧

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿٤٧﴾ قُلْ كُونُوا حِبْرَةً وَاحِدًا ﴿٤٨﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَغْضَبُونَ إِلَيْكَ رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ﴿٤٩﴾ يوم يدعونكم فتستنحِبون بحمده وتظنون إن لئتم إلا قليلاً ﴿٥٠﴾ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسن عدوا مبيناً ﴿٥١﴾ وريكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعبذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴿٥٢﴾ وريكم أعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينادأود زبوراً ﴿٥٣﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٥﴾ وَإِنْ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٦﴾

حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا تبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأحنس بن شريك أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا نعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأحنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

(١) كما في الطبري: من "صاف القائد جنده" وفي الأصل:

صافها. (٢) الطبري: ٤٥٨/١٧

مصدراً من غير الفعل، والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾... الآية [غافر: ٤٥]. قال قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾... الآية، إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكرو ذلك المشركون، وكبرت عليهم، فصافها^(١) إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يُمصِيها ويعلِيها وينصُرُها ويظْهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فليج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الركب في ليلٍ قلائل، ويسير الدهر في فقام من الناس، لا يعرفونها ولا يعرفون بها^(٢).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ﴾ إذ يستمعون إليك وإذ هم تجوز إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴿٤٧﴾ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلاً فلا يستطيعون سبيلاً ﴿٤٨﴾

[تناجي قريش بعد سماع القرآن]

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِمَا يَتَنَاجَى بِهِ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ حِينَ جَاءُوا يَسْتَمِعُونَ قِرَاءَتَهُ ﷺ سِرًّا مِنْ قَوْمِهِمْ، بِمَا قَالُوا مِنْ أَنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ، مِنَ السَّحْرِ - عَلَى الْمَشْهُورِ - أَوْ مِنَ السَّحْرِ وَهُوَ الرَّثَّةُ، أَيْ إِنْ تَتَّبِعُونَ - إِنْ اتَّبَعْتُمْ مُحَمَّدًا - إِلَّا بَشْرًا يَأْكُلُ.

وفيه نظر لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور، له رأي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يثلوه، ومنهم من قال: شاعر. ومنهم من قال: كاهن. ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر، ولهذا قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً، قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأحنس بن شريك بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتكم في نسيه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له،

قَالَ: مَاذَا سَمِعْتُ؟ قَالَ: تَنَارَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ: أَطْعَمُوا فَاطِمَتَنَا، وَحَمَلُوا فَحْمَلَنَا، وَأَعْطَوْنَا فَاعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَاتَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ، وَكُنَّا كَمَفْرَسِي رَهَانٍ، قَالُوا: مَنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَتَى نُنْذِرُكَ هَذِهِ، وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْسَنُ وَتَرَكَهُ^(١).

﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنَا أَوَإِنَّا لَمَعْبُوثُونَ خَلَقْنَا حديدًا ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴿٥١﴾ أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُعْثُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٣﴾﴾

[الرَّدُّ عَلَى مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُسْتَجِيبِينَ وَوَقَعَ الْمَعَادِ، الْقَائِلِينَ اسْتِفْهَامَ انْكَارٍ مِنْهُمْ لِذَلِكَ: ﴿أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنَا﴾ أَي تَرَابًا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَبَارًا^(٢) ﴿أَوَإِنَّا لَمَعْبُوثُونَ خَلَقْنَا حديدًا﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَمَا بَلِينَا وَصِرْنَا عَدَمًا لَا نُذَكَّرُ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْمَوْضِعِ الْآخَرَ: ﴿يَقُولُونَ أَوَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ ﴿٥١﴾ أَوَإِنَّا كُنَّا عِظْمًا نَجْرَةً ﴿٥٢﴾﴾ قَالُوا بَلَىٰ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ [النَّازِعَاتُ: ١٠-١٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّىٰ خَلْقَهُ﴾ الْآيَتِينَ [يسن: ٨، ٧]، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجِيبَهُمْ فَقَالَ: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾. إِذْ هُمَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا مِنَ الْعِظَامِ وَالرَّفَاتِ ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: هُوَ الْمَوْتُ. وَرَوَى عَطِيَّةُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: لَوْ كُنْتُمْ مَوْتَى لِأَحْيَيْتُكُمْ^(٣).

وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو صَالِحٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ^(٤). وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّكُمْ لَوْ فَرَضْتُمْ أَنَّكُمْ لَوْ صِرْتُمْ إِلَى الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَيَاةِ، لِأَحْيَاكُمْ اللَّهُ إِذَا شَاءَ، فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يَعْنِي السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ. وَفِي رِوَايَةٍ: مَا شِئْتُمْ فَكُونُوا، فَسَيُعِيدُكُمْ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أَي مَن يُعِيدُنَا إِذَا كُنَّا حِجَارَةً أَوْ حديدًا أَوْ خَلَقْنَا آخَرَ شَدِيدًا ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ

أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَي الَّذِي خَلَقَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكَورًا، ثُمَّ صِرْتُمْ بَشَرًا تَشْتِيرُونَ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَتِكُمْ وَلَوْ صِرْتُمْ إِلَىٰ أَيِّ حَالٍ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتٌ عَلَيْهِ﴾ الْآيَةَ [الروم: ٢٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيُعْثُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: يُحَرِّكُونَهَا اسْتِهْزَاءً^(٥).

وَهَذَا الَّذِي قَالَاهُ هُوَ الَّذِي تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا، لِأَنَّ الْإِنْعَاصَ هُوَ التَّحْرُكُ مِنَ اسْفَلِ إِلَىٰ أَعْلَىٰ، أَوْ مِنْ أَعْلَىٰ إِلَىٰ اسْفَلِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلظُّلَيْمِ - وَهُوَ وَلَدُ النَّعْمَةِ - نَعْصُ، لِأَنَّهُ إِذَا مَسَىٰ عَجَلَ بِمَشِيئِهِ وَحَرَكَ رَأْسَهُ، وَيُقَالُ: نَعَصْتُ سِنَهُ، إِذَا تَحَرَّكَتْ وَازْتَفَعَتْ مِنْ [مَتَّبِعِهَا].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِالِاسْتِيعَادِ مِنْهُمْ لِيُفْرِعَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَتَسْعَلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أَيِ احْذَرُوا ذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَرِيبٌ إِلَيْكُمْ سَيَأْتِيكُمْ لَا مَحَالَةَ، فَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أَيِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةَ مَن الْأَرْضِ إِذَا أُنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أَيِ إِذَا أَمَرَكُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَا يُخَالَفُ وَلَا يَمَانَعُ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمُرُنَا إِلَّا وَجِدَةً كَلَجًا بِالْبَصَرِ﴾ [القمم: ٥٠] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلِنَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ﴿٥٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازِعَاتُ: ١٣، ١٤] أَيِ إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ بِانْتِهَارٍ، فَإِذَا النَّاسُ قَدْ خَرَجُوا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ إِلَىٰ ظَاهِرِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أَيِ تَقُومُونَ كُلُّكُمْ إِجَابَةً لِأَمْرِهِ وَطَاعَةً لِأَرَادَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أَيِ يَوْمَ تَقُومُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ ﴿إِن لَّبِئْتُمْ﴾ أَيِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رُبُّهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِثَّةً أَوْ حُكْمًا﴾ [النَّازِعَاتُ: ٤٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الْأَصُورِ وَيُخَشِّرُ الْمُتَجَرِّمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٥٤﴾ يَخْفَضُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا عَسَا ﴿٥٥﴾﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿طه: ١٠٢-١٠٤﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِدُ

(١) ابن هشام: ٣٣٧/١ (٢) الطبري: ٤٦٤/١٧ (٣) الطبري:

٤٦٣/١٧ (٤) الطبري: ٤٦٣/١٧ (٥) الطبري: ٤٦٧/١٧

الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا عِبْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ [الروم: ٥٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْمَادِينِ ﴿٥٧﴾ فَكَلَّ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٧﴾﴾

[لِتَتَكَلَّمُوا بِالْحُسْنِ وَالْأَدَبِ]

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي مُحَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ الْكَلَامَ الْأَحْسَنَ وَالْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ، فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ، وَأَخْرَجَ الْكَلَامَ إِلَى الْفَعَالِ، وَأَوْقَعَ الشَّرَّ وَالْمُخَاصَمَةَ وَالْمُقَاتَلَةَ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِأَدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ حِينِ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِأَدَمَ، وَعَدَاوَتُهُ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ، وَلِهَذَا نَهَى أَنْ يُشِيرَ الرَّجُلُ إِلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِحِدِيدَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، أَيْ فَرَبَّمَا أَصَابَهُ بِهَا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزِعَ فِي يَدِهِ، فَيَقِيعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»^(١) أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ^(٢).

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ رَحِمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٦﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَوَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴿٥٧﴾﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ: أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمْ الْهِدَايَةَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ﴿إِنْ يَشَأْ رَحِمَكُمْ﴾ بِأَنْ يُؤَفِّقَكُمْ لِطَاعَتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أَيُّ إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ نَذِيرًا، فَمَنْ أَطَاعَكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاكَ دَخَلَ النَّارَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ بِمَرَاتِبِهِمْ فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

[تَفْضِيلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ]

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ كَلِمَ اللَّهِ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٣). فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ التَّفْضِيلُ بِمُجَرَّدِ

التَّسْهِيِّ وَالْعَصِيَّةِ، لَا بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ، فَإِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى شَيْءٍ وَجَبَ تَبَاعُهُ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ، وَهُمْ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمَنْ نُفِجَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وَفِي الشُّورَى قَوْلُهُ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبِلُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَى ثُمَّ عِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَقَدْ بَسَطْنَاهُ بِدَلَالِيهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] تَنْبِيهُ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِهِ فَتَسْرَحُ، فَكَانَ يَقْرُؤُهُ قَبْلَ أَنْ يُفْرَغَ» يَعْنِي الْقُرْآنَ^(٤).

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ ذَوْنِهِ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

[اللَّهِ الْمَشْرِكِينَ لَا تَقْدِرُ عَلَى النَّفْعِ وَالضَّرْرِ بَلْ تَطْلُبُ الْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ ﴿ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ ذَوْنِهِ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ فَارْعَبُوا إِلَيْهِمْ (ف) إِنَّهُمْ ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾ أَيُّ بِالْكَفَالَةِ ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أَيُّ بِأَنْ يُحَوَّلُوهُ إِلَى غَيْرِكُمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ﴾... الْآلِيَةَ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الشَّرِكِ يَقُولُونَ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَالْمَسِيحَ وَغَيْرَآ، وَهُمْ الَّذِينَ يَدْعُونَ، يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ وَالْمَسِيحَ وَغَيْرَآ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الْآلِيَةَ، رَوَى

(١) أحمد: ٣١٧/٢ (٢) فتح الباري: ٢٦/١٣ ومسلم: ٤/ ٢٠٢٠ (٣) فتح الباري: ٥١٩/٦ ومسلم: ١٨٤٤/٤ (٤) فتح الباري: ٥٢٢/٦ (٥) الطبري: ٤٧١/١٧ العوفي معروف بالضعف

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ^{٥٩}
 وَءَاثِنَا نُمُودَ النَّاقَةِ فَطَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
 إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا
 جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
 فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفَهُمْ فَمَا يُرِيدُهُمْ إِلَّا طَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾
 وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
 قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
 كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
 ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
 جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ قَرَّبَهَا مُمُوفِرًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ
 مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ
 فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
 غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
 بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبِّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ
 فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

الْبَحَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ الْأَعْمَشِ، عَنْ
 إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَبَّهُمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قَالَ: نَاسٌ مِنَ الْجِنِّ
 كَانُوا يَعْبُدُونَ فَأَسْلَمُوا، وَفِي رَوَايَةٍ: قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ
 الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَّكَ
 هُوَ لَاءَ بَدِينِهِمْ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لَا تَبِمَّ
 الْعِبَادَةُ إِلَّا بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَبِالْخَوْفِ يَنْكَفُ عَنِ
 الْمُنَافِيهِ، وَبِالرَّجَاءِ يَكْثُرُ مِنَ الطَّاعَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ
 عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أَيُّ يَبْتَغِي أَنْ يُحْدَرَ مِنْهُ وَيَخَافُ مِنْ
 وُقُوعِهِ وَحُصُولِهِ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْهُ.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْنٍ إِلَّا تَحْتَهُ مَمْلُوكًا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ
 مُعَذِّبًا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ﴿٥٩﴾
 [تَهْلِكُ أَوْ تُعَذِّبُ قَرَى الْكُفَّارِ كُلَّهَا قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ]
 هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ قَدْ حَتَمَ وَقَضَى بِمَا
 عِنْدَهُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ: أَنَّهُ مَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا سَيَهْلِكُهَا بِأَنْ
 يُبِيدَ أَهْلَهَا جَمِيعًا أَوْ يُعَذِّبُهُمْ ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إِمَّا بِقَتْلِ أَوْ
 ائْتِلَاءِ بِمَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ
 وَخَطَايَاهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْأَمَمِ الْمَاضِينَ: ﴿وَمَا
 ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أُنْهَارِهَا وَكَانَ عِقَابَهُمْ أُنْهَارًا خَسِرًا﴾ وَقَالَ: ﴿وَكَايُنَ تِنَ قَرْنٍ
 عَنَّتْ عَزَّ أَمْرَ نَبِيَّهَا وَرُسُلِهِ﴾ الْآيَاتِ [الطلاق: ٧-٩].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَءَاثِنَا
 نُمُودَ النَّاقَةِ فَطَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ ﴿٥٩﴾
 [سَبَبُ عَدَمِ إِرْسَالِ الْآيَاتِ]

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: يَا مُحَمَّدُ!
 إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءُ فَمِنْهُمْ مَنْ سَخَّرَتْ لَهُ الرِّيحُ،
 وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى، فَإِنَّ سَرَّكَ أَنْ نُؤْمِنَ بِكَ
 وَنُصَدِّقَكَ، فَادْعُ رَبَّكَ أَنْ يَكُونَ لَنَا الصِّفَا ذَهَبًا، فَأَوْحَى
 اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ الَّذِي قَالُوا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ نَفْعَلَ
 الَّذِي قَالُوا، فَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا نَزَلَ الْعَذَابُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ
 نُزُولِ الْآيَةِ مَنَاطِرَةٌ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ نَسْتَأْنِي بِقَوْمِكَ اسْتَأْنَيْتُ
 بِهِمْ. قَالَ: «يَا رَبِّ اسْتَأْنِ بِهِمْ»^(٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ
 جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمَا^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
 قَالَ: سَأَلَ أَهْلَ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا،
 وَأَنْ يُنْحَى الْجِبَالُ عَنْهُمْ فَيَزْرَعُوا، فَقِيلَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ أَنْ

نَسْتَأْنِي بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا
 هَلَكُوا، كَمَا أَهْلَكْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَمَمِ. قَالَ: «لَا،
 بَلِ اسْتَأْنِ بِهِمْ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ
 بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ﴾... الْآيَةُ [الإسراء:
 ٥٩]^(٤). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ جُرَيْجٍ^(٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ
 لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يُجْعَلَ لَنَا الصِّفَا ذَهَبًا وَنُؤْمِنُ
 بِكَ. قَالَ: «وَتَمْتَلَعُونَ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَدَعَا، فَاتَاهُ
 جِبْرِيْلُ، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ
 شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
 عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أَعْدْبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ
 لَهُمْ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَقَالَ: «بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ

(١) فتح الباري: ٢٤٩/٨، ٢٥٠، (٢) الطبري: ٤٧٧/١٧، (٣)
 الطبري: ٤٧٧/١٧، (٤) أحمد: ٢٥٨/١، (٥) النسائي في
 الكبرى: ٣٨٠/٦، والطبري: ٤٧٦/١٧

وَالرَّحْمَةِ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَوِّفُ النَّاسَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَتَّعِبُونَ وَيَذْكُرُونَ وَيَرْجِعُونَ، ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْكُوفَةَ رُجِفَتْ عَلَى عَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ رَبِّكُمْ يَسْتَعْتِبُكُمْ فَأَعْيَبُوهُ^(٢). وَهَكَذَا رُوِيَ: أَنَّ الْمَدِينَةَ زُلْزِلَتْ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّاتٍ، فَقَالَ عُمَرُ: أَلْحَدْتُمْ، وَاللَّهِ لَئِنْ عَادَتْ لَأَفْعَلَنَّ وَلَا فَعَلَنَّ^(٣). وَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْرِعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ - ثُمَّ قَالَ: - يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرْزِي عَبْدَهُ أَوْ تَرْزِي أُمَّتَهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَّيْتُمْ كَثِيرًا»^(٤).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّبِّيَا الَّتِي آرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُوحِفُّهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طَعْنًا كَبِيرًا﴾^(٥)

[إِحَاطَةُ اللَّهِ بِالنَّاسِ وَجَعْلُهُ رُؤْيَا النَّبِيِّ فِتْنَةً لَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُحَرِّضًا عَلَى إِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ وَمُخْبِرًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتِ قَهْرِهِ وَعَلْبَتِهِ. [وَأَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعُرْوَةُ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أَيَّ عَصَمَكَ مِنْهُمْ^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّبِّيَا الَّتِي آرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾... الْآيَةَ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّبِّيَا الَّتِي آرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنِ أَرِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شَجَرَةُ الرُّقُومِ^(٦). وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَغَيْرُهُمَا^(٧). وَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٨).

وَهَكَذَا فَسَّرَ ذَلِكَ بِلَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالْحَسَنُ، وَمَسْرُوقٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَقَتَادَةُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرٌ وَاحِدٌ^(٩). وَقَدْ تَقَدَّمَتْ أَحَادِيثُ الْإِسْرَاءِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مُسْتَقْصَاةً، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ. وَتَقَدَّمَ أَنَّ نَاسًا رَجَعُوا عَنْ دِينِهِمْ بَعْدَ مَا كَانُوا عَلَى الْحَقِّ، لِأَنَّهُ لَمْ تَحْمِلْ قُلُوبُهُمْ وَعَقُولُهُمْ ذَلِكَ، فَكَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ،

وَجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا لِآخِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أَيَّ اخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِيهَا شَجَرَةُ الرُّقُومِ، لَمَّا أَخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ رَأَى الْحِجَّةَ وَالنَّارَ، وَرَأَى شَجَرَةَ الرُّقُومِ فَكَذَّبُوا بِذَلِكَ، حَتَّى قَالَ أَبُو جَهْلٍ عَلَيْهِ لَعْنَتُ اللَّهِ: هَاتُوا لَنَا ثَمَرًا وَزُبْدًا، وَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْ هَذَا بِهِدًا، وَيَقُولُ: تَرَفَّمُوا، فَلَا نَعْلَمُ الرُّقُومَ غَيْرَ هَذَا. حَكَى ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَأَبُو مَالِكٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ. وَكُلُّ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ، فَسَّرَهُ كَذَلِكَ بِشَجَرَةِ الرُّقُومِ^(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُوحِفُّهُمْ﴾ أَيَّ الْكُفَّارَ بِالْوَعِيدِ وَالْعَذَابِ وَالتَّكَالُفِ ﴿فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طَعْنًا كَبِيرًا﴾ أَيَّ تَمَادِيًا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَذَلِكَ مِنْ خِذْلَانِ اللَّهِ لَهُمْ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾^(١١) قَالَ آدَمُ يَتَكَبَّرُ عَلَى كَيْفِ أَعْرَضَ إِلَيَّ يَوْمَ الْفَيْصَمَةِ لِأَحْتِكَنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا^(١٢)

[قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، وَأَنَّهَا عِدَاوَةٌ قَدِيمَةٌ مُنْذُ خَلَقَ آدَمَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ فَاخْتَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِمَارًا لَهُ ﴿قَالَ عَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وَقَالَ أَيْضًا: ﴿أَرَأَيْتَ كَيْفَ يَتَوَلَّى لِلرَّبِّ جِرَاءَةً وَكُفْرًا وَالرَّبُّ يَحْلُمُ وَيُنْظِرُ﴾ قَالَ آدَمُ يَتَوَلَّى الَّذِي كَرِهَتْ عَلَيْهِ الْآيَةَ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لِأَسْتَوْلِيَنَّ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لِأَحْتَوِيَنَّ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لِأَضِلَّنَّهُمْ^(١١). وَكُلُّهَا مُتَّفَاقَةٌ، وَالْمَعْنَى: أَرَأَيْتَ كَيْفَ هَذَا الَّذِي شَرَفْتَهُ وَعَظَّمْتَهُ عَلَيَّ، لَئِنْ أَنْظَرْتَنِي لِأَضِلَّنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُلِّ جَزَاءٍ مَوْفُورًا﴾^(١٣) وَأَسْتَفْرَزَ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجَلِبَتْ عَلَيْهِمْ بِحَيْلِكَ وَرَجَلِكَ

(١) أحمد: ٢٤٢/١ (٢) الطبري: ٤٧٨/١٧ (٣) ابن أبي شيبة: ٤٧٣/٢ (٤) فتح الباري: ٦١٥/٢ ومسلم: ٦١٨/٢ (٥) الطبري: ٤٧٩/١٧، ٤٨٠ (٦) فتح الباري: ٢٥٠/٨ (٧) أحمد: ٢٢١/١ وعبد الرزاق: ٣٨٠/٢ (٨) الطبري: ٤٨١/١٧ (٩) الطبري: ٤٨٠/١٧، ٤٨١ و٤٨٢ (١٠) الطبري: ٤٨٤/١٧، ٤٨٥ و٤٨٦ (١١) الطبري: ٤٨٩/١٧

وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

لَمَّا سَأَلَ إِبْلِيسُ النَّظْرَةَ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿أَذْهَبَ﴾ فَقَدْ أَنْظَرْتُكَ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (٨) إِلَى يَوْمِ الْوَفَىٰ الْمَعْلُومِ ﴿[ص: ٨٠، ٨١] ثُمَّ أَوْعَدَهُ وَمَنْ آتَبَهُ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ جَهَنَّمَ، فَقَالَ: ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾ أَيْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَافِرًا^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: مَوْفُورًا عَلَيْكُمْ، لَا يُنْقَضُ لَكُمْ مِنْهُ^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَعْطَمَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ قِيلَ: هُوَ الْغِنَاءُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: بِاللَّهُوِ وَالْغِنَاءِ^(٣) أَيْ اسْتَحْفَهُمْ بِذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَعْطَمَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ قَالَ: كُلُّ دَاعٍ دَعَا إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ^(٥).

وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ لِجَبَلِكُمْ وَرَجِلًا﴾ يَقُولُ: وَاحْمِلْ عَلَيْهِمْ بِجُنُودِكَ خِيَالَتَهُمْ [وَرَجَالَتَهُمْ]، فَإِنَّ الرَّجُلَ جَمْعُ رَاجِلٍ، كَمَا أَنَّ الرَّكْبَ جَمْعُ رَاكِبٍ، وَصَحْبٌ جَمْعُ صَاحِبٍ، وَمَعْنَاهُ: تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْرِي كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوذُّهُمْ أَيُّ أَيُّ نَزَعْتَهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي إِذْ عَاجَا وَتَسُوْقُهُمْ إِلَيْهَا سَوْقًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ لِجَبَلِكُمْ وَرَجِلًا﴾ قَالَ كُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ لَهُ خِيَالَ وَرَجَالَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَهُمْ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ^(٧). تَقُولُ الْعَرَبُ: أَجْلَبَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ إِذَا صَاحَ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ: نَهَى فِي الْمُسَابَقَةِ عَنِ الْجَلْبِ وَالْجَنْبِ، وَمِنْهُ: اسْتِيفَاقُ الْجَلْبَةِ وَهِيَ ارْتِفَاعُ الْأَصْوَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: هُوَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ إِنْتِفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى^(٨). وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالصَّحَّاحُ بِنَعْنِي أَوْلَادَ الرِّثَا^(٩). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ مَا كَانُوا قَتَلُوهُ مِنْ أَوْلَادِهِمْ سَفَهًا بَعِيرٍ عِلْمٍ^(١٠). وَقَالَ قَتَادَةُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: قَدْ وَاللَّهِ شَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ مَجَسَّوْا وَهَوَّدُوا وَنَصَرُوا وَصَبَّغُوا [عَلَى] غَيْرِ صِبْغَةِ الْإِسْلَامِ، وَجَزَّوْا مِنْ أَمْوَالِهِمْ جُزْءًا لِلشَّيْطَانِ^(١١). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ سِوَاءً^(١٢). وَكَمْ يُحْصَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ مَعْنَى الشَّرِكَةِ فِيهِ بِمَعْنَى دُونَ مَعْنَى فُكُلٍ مَا عَصِي

اللَّهُ فِيهِ أَوْ بِهِ، أَوْ أَطِيعَ الشَّيْطَانُ فِيهِ أَوْ بِهِ، فَهَوَّ مُشَارَكَةً، لَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ»^(١٣). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ حَبِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَحَبِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»^(١٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ إِبْلِيسَ أَنَّهُ يَقُولُ: إِذَا حَضَرَ حَضَرَ الْحَقُّ يَوْمَ يُفْضَى بِالْحَقِّ: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَّتْكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَلَاخَفْتُمْ﴾... الْآيَةُ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إِخْبَارٌ بِتَأْيِيدِهِ تَعَالَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَحِفْظَهُ إِيَّاهُمْ وَجِرَاسَتِهِ لَهُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أَيْ حَافِظًا وَمُؤَيِّدًا وَنَصِيرًا.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾
إِنَّهُ كَاتِبٌ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٥﴾

[الْفُلْكَ مِنْ عِلَامَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ]

وَيُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لِعِبَادِهِ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ وَتَسْهِيلِهِ لِمَصَالِحِ عِبَادِهِ لِإِثْبَاتِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ فِي التَّجَارَةِ مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ كَاتِبٌ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أَيْ إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا بِكُمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتِهِ بِكُمْ.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مِّن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَمَا يَجَنُّكُمُ إِلَى

الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٦﴾

[الْكَفَّارُ لَا يَذْكُرُونَ عِنْدَ الضُّرِّ إِلَّا اللَّهَ]

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَّ النَّاسَ إِذَا مَسَّهُمْ ضُرٌّ دَعَوْهُ مُسَبِّحِينَ إِلَيْهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا

(١) الطبري: ٤٩٠/١٧ (٢) الطبري: ٤٩٠/١٧ (٣) الطبري:

٤٩٠/١٧ (٤) الطبري: ٤٩١/١٧ (٥) الطبري: ٤٩١/١٧

(٦) الطبري: ٤٩٢، ٤٩١/١٧ (٧) الطبري: ٤٩١/١٧ (٨)

الطبري: ٤٩٣/١٧ (٩) الطبري: ٤٩٤/١٧ (١٠) الطبري:

٤٩٤/١٧ (١١) الطبري: ٤٩٥/١٧ (١٢) الطبري: ١٧/

٤٩٥ (١٣) مسلم: ٢١٩٧/٤ (١٤) فتح الباري: ٣٨٦/٦

ومسلم: ١٠٥٨/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٩

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ أَيُّ ذَهَبَ عَنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ مَا تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَخَذُوا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أَي نَسِيتُمْ مَا عَرَفْتُمْ مِنْ تَوْحِيدِهِ فِي الْبَحْرِ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ دُعَائِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أَي سَجِيئَةً هَذَا، يَتَّبِعُ النِّعَمَ وَيَجْحَدُهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخِصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عُذْرًا﴾ ﴿٧٨﴾ وَكَيْلًا ﴿٧٩﴾

﴿أَلَا يَأْتِي عَذَابُ اللَّهِ فِي الْبَرِّ؟!﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَفَحَسِبْتُمْ بِخُرُوجِكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَمِنْتُمْ مِنْ انْتِقَامِهِ وَعَذَابِهِ؟! ﴿أَنْ يَخِصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي فِيهِ حِجَارَةٌ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ^(١). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكُمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ حَمِيْنَهُمْ بِسَحَرٍ﴾ ﴿٢٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا. [القمر: ٣٤، ٣٥] وَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُورٍ﴾ [هود: ٨٢] وَقَالَ: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ ﴿١١﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نُزِيرُكُمْ [الملك: ١٦، ١٧] وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عُذْرًا﴾ أَي نَاصِرًا يَرُدُّ ذَلِكَ عَنْكُمْ، وَيُبَدِّلُكُمْ مِنْهُ.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عُذْرًا بِهِ﴾

يَبِيعًا ﴿٧٩﴾

[وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِي الْبَحْرِ...]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُعْرِضُونَ عَنَّا بَعْدَ مَا اعْتَرَفُوا بِتَوْحِيدِنَا فِي الْبَحْرِ وَخَرَجُوا إِلَى الْبَرِّ ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ فِي الْبَحْرِ مَرَّةً ثَانِيَةً ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أَي يُخِصِفُ الصَّوَارِي وَيُغْرِقُ الْمَرَائِبَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْقَاصِفُ رِيحُ الْبَحَارِ الَّتِي تَكْبِسُ الْمَرَائِبَ وَتُغْرِقُهَا^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أَي بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَإِعْرَاضِكُمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عُذْرًا بِهِ يَبِيعًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَصِيرًا^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَصِيرًا ثَائِرًا أَي يَأْخُذُ بِثَائِرِكُمْ بَعْدَكُمْ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: وَلَا تَخَافُ أَحَدًا يَتَّبِعُنَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ^(٥).

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٩﴾

[بَيَانُ شَرَفِ الْإِنْسَانِ وَكَرَمِهِ]

[وَأَيُّهَا الْبَحْرِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَشْرِيفِهِ لِبَنِي آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ إِيَّاهُمْ فِي خَلْقِهِ لَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَأَكْمَلِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أَي يَمْشِي قَائِمًا مُتَّصِبًا عَلَى رِجْلَيْهِ، وَيَأْكُلُ بِيَدَيْهِ - وَغَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ وَيَأْكُلُ بِفَمِهِ - وَجَعَلَ لَهُ سَمْعًا وَبَصْرًا وَفُؤَادًا يَفْقَهُ بِذَلِكَ كُلَّهُ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَيَعْرِفُ مَنَافِعَهَا وَخَوَاصَّهَا، وَمَضَارَّهَا فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرِيَّةِ ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ أَي عَلَى الدَّوَابِّ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْخَيْلِ وَالْبَعَالِ ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أَي فِي الْبَحْرِ أَيْضًا عَلَى الشُّغْنِ الْكِبَارِ وَالصُّغَارِ ﴿وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أَي مِنْ زُرُوعٍ وَنَمَارٍ، وَلُحُومٍ وَأَلْبَانٍ، مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الطَّعُومِ وَالْأَلْوَانِ الْمُسْتَهْجَةِ اللَّذِيذَةِ، وَالْمَنَاطِرِ الْحَسَنَةِ، وَالْمَلَابِسِ الرَّفِيعَةِ مِنْ سَائِرِ

(١) الطبري: ١٧/٤٩٨ عن قتادة. (٢) الطبري: ١٧/٥٠٠

(٣) الطبري: ١٧/٥٠٠ (٤) الطبري: ١٧/٥٠٠ (٥) الطبري:

الأُنوع، عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَأَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا مِمَّا يَصْنَعُونَهُ لِأَنفُسِهِمْ، وَيَجْلِبُهُ إِلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ مِنْ أَطْفَارِ الْأَقَالِيمِ وَالتَّوَاجِي وَوَضَلَّتْهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا أَي مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَقَدْ اسْتَدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ جِنْسِ الْبَشَرِ عَلَى جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسِ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِبَيْمِينِهِ،

فَأُولَئِكَ يَفْرَوْنَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فِيهِمَا﴾ (٧١) وَمَنْ كَانَتْ

فِي هَذِهِ أَعْمَنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ وَأَضَلَّ سَبِيلًا﴾ (٧٢)

[كُلُّ أَحَدٍ يُدْعَى بِإِمَامِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: أَنَّهُ يُحَاسِبُ كُلَّ أُمَّةٍ بِإِمَامِهِمْ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ. فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَيُّ بَنِيهِمْ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هَذَا أَكْبَرُ شَرَفٍ لِأَصْحَابِ الْحَدِيثِ لِأَنَّ إِمَامَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ بِكِتَابِهِمُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ مِنَ التَّشْرِيعِ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَرَوَى عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنِ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: بِكِتَابِهِمْ. فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ هَذَا وَأَنْ يَكُونَ أَرَادَ مَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسِ بِإِمَامِهِمْ﴾ أَي بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ^(١). وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ^(٢). وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَرْجَحُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾... الْآيَةَ [الكهف: ٤٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ جَانِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْرَجُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هَذَا كِتَابًا يُطَوِّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩] وَهَذَا لَا يَنَافِي أَنْ يُجَاءَ بِالنَّبِيِّ إِذَا حَكَمَ اللَّهُ بَيْنَ أُمَّتِهِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِهِ بِأَعْمَالِهَا، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ هُنَا بِالإِمَامِ هُوَ كِتَابُ الْأَعْمَالِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسِ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِبَيْمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَفْرَوْنَ كِتَابَهُمْ﴾ أَي مِنْ فَرْحَتِهِ وَسُرُورِهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، يَفْرَوُهُ وَيُحِبُّ قِرَاءَتَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِبَيْمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُمٌ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِيهِ﴾... الْآيَاتِ [الحاقة: ١٩-٢٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فِيهِمَا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْفَتِيلَ هُوَ الْخَبِطُ الْمُسْتَطِيلُ فِي شِقِّ النَّوَاةِ. وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبُرَّارُ حَدِيثًا عَنْ

أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسِ بِإِمَامِهِمْ﴾ قَالَ: «يُدْعَى أَحَدُهُمْ فَيُعْطَى كِتَابَهُ بِبَيْمِينِهِ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ، وَيَبْيَضُّ وَجْهُهُ، وَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ تَبْلَأُهَا، فَيَنْطَلِقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيَرُونَهُ مِنْ بَعِيدٍ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اثْنَا بِهَذَا، وَتَبَارَكَ لَنَا فِي هَذَا. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ: أَتَيْتُمُونِي، فَإِنْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلُ هَذَا. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَسْوَدُ وَجْهُهُ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ، وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا، أَوْ مِنْ شَرِّ هَذَا، اللَّهُمَّ لَا تَأْتِنَا بِهِ، فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اخْرُجْ، فَيَقُولُ: أَبْعَدَكُمْ اللَّهُ، فَإِنْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلُ هَذَا»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَنَ﴾ الْآيَةَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ «وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا «أَعْمَنَ» أَي عَنْ حُجَّةِ اللَّهِ وَأَيَّاتِهِ وَيَسَّاتِرِهِ «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ» أَي كَذَلِكَ يَكُونُ «وَأَضَلَّ سَبِيلًا» أَي وَأَضَلَّ مِنْهُ، كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا. عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ»^(٤).

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِإِفْتِرَى عَلَيْكَ غَيْرُهُ وَإِذَا تَلَّحْتُمْ كِتَابًا﴾ (٧٣) ﴿وَلَوْلَا أَنْ كُنْتُمْ لَدَيْ كِتَابٍ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَدَفْتُمْ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ (٧٥) [شِدَّةُ عَقُوبَةِ النَّبِيِّ لَوْ رَكَنَ شَيْئًا قَلِيلًا إِلَى الْكُفَّارِ فِي مَطْلَبَتِهِمْ بِتَغْيِيرِ بَعْضِ الْوَحْيِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ تَأْيِيدِهِ رَسُولَهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، وَتَشْيِيبِهِ وَعِصْمَتِهِ، وَسَلَامَتِهِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ، وَكَفَيْدِ الْفُجَّارِ، وَأَنَّ تَعَالَى هُوَ الْمُتَوَلَّى أَمْرَهُ وَنَصْرَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَكْفُلُهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ وَلِيُّهُ وَحَافِظُهُ، وَنَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَمُظَفِّرُهُ، وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَى مَنْ عَادَاهُ وَخَالَفَهُ، وَنَاوَاهُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْفِرُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) سِنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧)

[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

نَزَلَتْ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ، لَمَّا هَمُّوا بِإِخْرَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، فَتَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ

(١) الطبري: ٥٠٢/١٧ (٢) الطبري: ٥٠٣، ٥٠٢/١٧ (٣) موارد الظمان: ٢٥٨٨ وصحيح ابن حبان: ٧٣٤٩ وسنن الترمذي: ٣١٣٦ (٤) الطبري: ٥٠٤، ٥٠٣/١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩٠

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

وَأَنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذَا لَا يَلِيكَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةٌ مَنْ قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَمَنْ
الصَّلَاةِ لِلذُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ
قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمَنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ
نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ
أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ
إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ هُوَ شِفَاءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَمَّنَ بِنَافِلَتِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا
﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى
سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِالَّذِي أُوحِيَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا نَجِدُكَ بِهِ عَلِيمًا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

أبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ في هذه الآية
﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ قال: تشهد
ملائكة الليل وملائكة النهار^(١). وروى البخاري عن أبي
هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة
الجميع على صلاة الواحد، خمس وعشرون درجة،
وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر»
يقول أبو هريرة: أقرءوا إن شئتم: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن
الفجر كان مشهودا﴾^(٧).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود وأبي هريرة، عن
النبي ﷺ في قوله: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان
مشهودا﴾ قال: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار^(٨).

(١) الطبري: ٥١٤/١٧ (٢) الطبري: ٥١٥/١٧ (٣) الطبري:
٥١٥/١٧ (٤) الطبري: ٥١٦، ٥١٥/١٧ (٥) الطبراني ١٧/
٥١٨ وفيه رجل لم يسم وآخر ضعيف لكن أصل القصة مخرج في
الصحيحين وغيرهما. (٦) الطبري: ٥٢٠/١٧ (٧) فتح
الباري: ٢٥١/٨ (٨) أحمد: ٤٧٤/٢

أَخْرَجُوهُ لَمَّا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا بِسِيرًا، وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُ
لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ - بَعْدَ مَا اشْتَدَّ آذَانُهُمْ
لَهُ - إِلَّا سَنَةٌ وَبِضْفٌ، حَتَّى جَمَعَهُمُ اللَّهُ وَإِيَّاهُ يَبْدُرُ عَلَى غَيْرِ
مِيعَادٍ، فَأَمَكَّتْهُ مِنْهُمْ، وَسَلَطَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَطْفَرَهُ بِهِمْ، فَقَتَلَ
أَشْرَافَهُمْ وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سُنَّةٌ مَنْ قَدْ
أَرْسَلْنَا... الآية، أَي هَكَذَا عَادْتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا
بِرُسُلِنَا، وَأَذَوْهُمْ - بِخُرُوجِ الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ -
يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ - وَلَوْلَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَسَلَّمَ رَسُولُ الرَّحْمَةِ، لَجَاءَهُمْ مِنَ النَّقْمِ فِي الدُّنْيَا مَا لَا
يَقْبَلُ لِأَحَدٍ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾... الآية [الأنفال: ٣٣].

﴿أَفَمَنْ الصَّلَاةِ لِلذُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ
قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿٧٨﴾ وَمَنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ
عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾

[الأمم بإقامة الصلوات في أوقاتها]

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿أَمَّا لَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ
الْمَكْتُوبَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا: ﴿أَفَمَنْ الصَّلَاةِ لِلذُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾.
وَقَالَ هُشَيْمٌ عَنْ مُغِيرَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:
ذُلُوكُهَا: زَوَالُهَا^(١). وَرَوَاهُ نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ^(٢). وَرَوَاهُ
مَالِكٌ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ^(٣). وَقَالَ أَبُو
بُرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ وَمُجَاهِدٌ. وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو
جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَقَتَادَةُ^(٤). وَمِمَّا اسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ ابْنُ
جَرِيرٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَعَوْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ
شَاءَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَطَعِمُوا عِنْدِي، ثُمَّ خَرَجُوا حِينَ زَالَتْ
الشَّمْسُ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «اُخْرُجْ يَا أَبَا بَكْرٍ فَهَذَا
حِينَ ذَلَكْتَ الشَّمْسُ»^(٥) فَعَلَى هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ دَخَلَ
فِيهَا أَوْقَاتُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ: فَمِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِلذُّلُوكِ الشَّمْسِ
إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ - وَهُوَ: ظِلَامُهُ، وَقِيلَ: غُرُوبُ الشَّمْسِ -
أَجِدْ مِنْهُ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ وَالْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ، وَقَوْلُهُ:
﴿وقرآن الفجر﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الْفَجْرِ. وَقَدْ تَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَوَاتُرًا: مِنْ أَعْيَالِهِ وَأَقْوَالِهِ بِتَفَاصِيلِ هَذِهِ
الْأَوْقَاتِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ، مِمَّا تَلَقَّوْهُ خَلْفًا
عَنْ سَلَفٍ، وَقُرْآنًا بَعْدَ قُرْنٍ، كَمَا هُوَ مُفْرَرٌ فِي مَوَاضِعِهِ. وَ
لِلَّهِ الْحَمْدُ.

[اجتماع الملائكة في صلاة الفجر والعصر]

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١). وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَالْمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(٢). وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يَجْتَمِعُ الْحَرَسَانُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَيُصْعَدُ هَوْلَاءٌ وَيُقِيمُ هَوْلَاءٌ^(٣). وَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ^(٤).

[الْأَمْرُ بِالتَّهَجُّدِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ أَمَرَ لَهُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ؟ قَالَ: «صَلَاةُ اللَّيْلِ»^(٥). وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَاتِ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّ التَّهَجُّدَ مَا كَانَ بَعْدَ نَوْمٍ. قَالَهُ عُلُقَمَةُ وَالْأَسْوَدُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٦). وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، وَكَذَلِكَ ثَبَتَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَتَهَجَّدُ بَعْدَ نَوْمِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٧) وَعَائِشَةَ^(٨) وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هُوَ مَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ^(٩) وَيُحْمَلُ عَلَى مَا كَانَ بَعْدَ النَّوْمِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ إِنَّمَا جُعِلَ قِيَامُ اللَّيْلِ فِي حَقِّهِ نَافِلَةً عَلَى الْخُصُوصِ، لِأَنَّهُ قَدْ غَفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَغَيْرُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِنَّمَا يَكْفُرُ عَنْهُ صَلَوَاتُهُ النَّوَافِلُ الذُّنُوبَ الَّتِي عَلَيْهِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(١٠). وَهُوَ فِي الْمُسْنَدِ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١١).

وَقَوْلُهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ أَيُّ إِفْعَلٍ هَذَا الَّذِي أَمَرْتَكُ بِهِ لِئُبَيِّنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُكَ فِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ وَخَالَفَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ذَلِكَ هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَقُومُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِشَفَاعَةِ النَّاسِ، لِيُرِيحَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ عَظِيمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ^(١٢).

(١) تحفة الأحوذني: ٥٦٩/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٨١/٦ وابن ماجه: ٢٢٠/١ (٢) فتح الباري: ٤١/٢ ومسلم: ١/٤٣٩ (٣) الطبري: ٥٢١/١٧ (٤) الطبري: ٥٢١/١٧ (٥) مسلم: ٨٢١/٢ (٦) الطبري: ٥٢٤/١٧ (٧) فتح الباري: ٨/٨٣ (٨) فتح الباري: ٣٩/٣ (٩) الطبري: ٥٢٤/١٧ (١٠) الطبري: ٥٢٥/١٧ (١١) أحمد: ٢٥٥/٥ (١٢) الطبري: ٥٢٦/١٧ (١٣) الطبري: ٥٢٦/١٧ (١٤) الطبري: ٥٢٧/١٧ (١٥) الطبري: ٥٢٧/١٧ (١٦) الطبري: ٥٢٨/١٧ (١٧) مسلم: ١٨٢/١

فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَفَتَحَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَعْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَعْنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَطُّ،

وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَعْنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. فَذَكَرَ كَذَابِيهِ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ

رَسُولُ اللَّهِ، اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَعْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَعْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

صَاحِبُ الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا تَلِيقُ إِلَّا لَهُ، وَإِذَا أَدْنَى اللَّهُ تَعَالَى فِي الشَّفَاعَةِ لِلْعَصَاةِ، شَفَعَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ، وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَشْفَعُ هُوَ فِي خَلَائِقَ لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ مِثْلَهُ وَلَا يُسَاوِيهِ فِي ذَلِكَ^(١). وَقَدْ بَسَطْتُ ذَلِكَ مُسْتَفْصِي فِي آخِرِ كِتَابِ «السِّيَرَةِ» فِي بَابِ الْخَصَائِصِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَلِنَذْكُرِ الْآنَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَمَرَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [جُنًّا]، كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فَلَانُ اشْفَعْ، يَا فَلَانُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا^(٢).

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَتَدْنُو حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ، فَيَبْتِنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَعَاثُوا بِآدَمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَمْنِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَوْمِئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الرَّكَاعِ. وَرَأَى: «فَيَوْمِئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ»^(٤).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: ثُمَّ يَأْذُنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الشَّفَاعَةِ فَيَقُومُ رُوحُ الْقُدُسِ جِبْرِيْلُ، ثُمَّ يَقُومُ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ يَقُومُ عِيسَى أَوْ مُوسَى، قَالَ أَبُو الرَّغْرَاءِ: لَا أَدْرِي أَيُّهُمَا، قَالَ: ثُمَّ يَقُومُ نَبِيُّكُمْ ﷺ رَابِعًا فَيَشْفَعُ لَا يُشْفَعُ أَحَدٌ بَعْدَهُ أَكْثَرَ مِمَّا شَفَعَ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا»^(٥).

حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِلَحْمٍ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذَّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَتَهَشُّ مِنْهَا نَهَشَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيَتَقَدَّمُهُمُ الْبَصْرَ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِمَّا قَدْ بَلَعْتُمْ؟ أَلَا تَنْتَظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ،

(١) الطبراني في الطول: ٣٦ (٢) فتح الباري: ٢٥١/٨ (٣)

الطبري: ٥٢٩/١٧ (٤) فتح الباري: ٣٩٦/٣ (٥) مسند

الطيالسي: ٥١ والنسائي في الكبرى: ١١٢٩٦

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٢٩١

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى
مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَأَقُومُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي
عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ
الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ،
ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلِّ نِعْطَهُ، وَاشْفَعْ تَشْفَعُ، فَارْفَعْ رَأْسِي
فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيَقَالُ:
يَا مُحَمَّدُ، أَدْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ
الْأَيْمَنِ مِنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيَمَا سِوَى
ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنَّ
مَا بَيْنَ الْمُضْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجْرَ،
أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُضْرَى^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢).

﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾^(٣) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ
كَانَ زَهُوقًا^(٤)

[الْأَمْرُ بِالْهَجْرَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ
بِمَكَّةَ ثُمَّ أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ
صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا
نَصِيرًا﴾^(٥) وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٦). وَقَالَ الْحَسَنُ
الْبُضْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ كُفَّارَ أَهْلِ مَكَّةَ لَمَّا
اتَّمَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يَطْرُدُوهُ أَوْ يُوْتِقُوهُ. فَأَرَادَ
اللَّهُ قِتَالَ أَهْلِ مَكَّةَ؛ أَمْرُهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهُوَ الَّذِي
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي
مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾... الْآيَةَ^(٧).

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يَعْنِي الْمَدِينَةَ
﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يَعْنِي مَكَّةَ^(٨). وَكَذَا قَالَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ^(٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ
الْبُضْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهَا: وَعَدَهُ رَبُّهُ لِيَنْزِعَنَّ مَلِكًا فَارِسًا وَعِزًّا
فَارِسًا وَلِيَجْعَلَنَّهُ لَهُ، وَمَلِكًا الرُّومِ وَعِزًّا الرُّومِ وَلِيَجْعَلَنَّهُ
لَهُ^(١٠). وَقَالَ قَتَادَةُ فِيهَا: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ عَلِمَ أَنَّ لَا طَاقَةَ لَهُ
بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ اللَّهِ،
وَلِحُدُودِ اللَّهِ، وَلِفَرَائِضِ اللَّهِ، وَلِلْقَامَةِ دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ
السُّلْطَانَ رَحِمَةً مِنَ اللَّهِ جَعَلَهُ بَيْنَ أَظْهُرِ عِبَادِهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ
لَأَغَارَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَكُلَّ شَدِيدُهُمْ ضَعِيفُهُمْ^(١١). فَلَا
بُدَّ مَعَ الْحَقِّ مِنْ قَهْرٍ لِمَنْ عَادَاهُ وَنَاوَاهُ، وَلِهَذَا يَقُولُ

تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ إِلَى قَوْمِهِ﴾ وَأَنْزَلْنَا
الْحَدِيدَ... الْآيَةَ [الحديد: ٢٥].

[وَعِيدٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾... الْآيَةَ، تَهْدِيدٌ
وَوَعِيدٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحَقُّ الَّذِي لَا
مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ، وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ
وَالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ التَّافِعِ، وَزَهَقَ بَاطِلُهُمْ أَيْ إِضْمَحَلَّ
وَهَلَكَ. فَإِنَّ الْبَاطِلَ لَا ثَبَاتَ لَهُ مَعَ الْحَقِّ وَلَا بَقَاءَ ﴿بَلْ
نَقَذْتُ يَأْمُقًا عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ رَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: دَخَلَ

(١) أحمد: ٤٣٥/٢ (٢) البخاري: ٤٧١٢ ومسلم: ٨٩٤ (٣)
أحمد: ٢٢٣/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٥٧٤/٨ إسناده ضعيف فيه
قابوس بن أبي طيبان - قال ابن حجر: فيه لين (تقريب) قال ابن
حبان: كان رديء الحفظ يفرد عن أبيه بما لا أصل له
[المجروحين ٢/٢١٥] وهذا الحديث يرويه عن أبيه (٥) الطبري:
١٧/٥٣٣ (٦) أحمد: ٢٢٣/١ (٧) الطبري: ١٧/٥٣٤ (٨)
الطبري: ١٧/٥٣٦ (٩) الطبري: ١٧/٥٣٦

النَّبِيِّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ النَّبِيِّ سِتُونَ وَثَلَاثُمِائَةَ نُصِبَ، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا. جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبِيدُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ»^(١).

﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ

الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢)

[الْقُرْآنُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، إِنَّهُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: يَذْهَبُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ أَمْرَاضٍ مِنْ شَكٍّ وَنِفَاقٍ وَشِرْكٍَ وَزَنْغٍ وَمَيْلٍ، فَالْقُرْآنُ يَشْفِي مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُوَ أَيْضًا رَحْمَةٌ يَحْصُلُ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْحِكْمَةُ وَطَلَبُ الْخَيْرِ وَالرَّغْبَةُ فِيهِ، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ شِفَاءً فِي حَقِّهِ وَرَحْمَةً، وَأَمَّا الْكَافِرُ الظَّالِمُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، فَلَا يَزِيدُهُ سَمَاعُهُ الْقُرْآنَ إِلَّا بُعْدًا وَكُفْرًا، وَالْآفَةُ مِنَ الْكُفْرِ لَا مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [افصلت: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنَهُمْ مَنْ يَقُولُ بَلْآئِنَّا لَمِثْلَ بَلِّغْنَا فَمَا لَمَّا آتَيْنَا وَمَا نُمِرُّ فَرَادَتِهِمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٧) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتِهِمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤، ١٢٥) وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ. قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إِذَا سَمِعَهُ الْمُؤْمِنُ انْتَفَعَ بِهِ وَحَفِظَهُ وَوَعَاهُ ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أَيْ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَلَا يَحْفَظُهُ وَلَا يَعْجِبُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ هَذَا الْقُرْآنَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِحَانِيهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُوسُفًا﴾ (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِيهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى

سَبِيلًا﴾ (٨٤)

[عَادَةُ الْإِنْسَانِ فِي حَالَتِي السَّرِّاءِ وَالضَّرِّاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَقْصِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ - إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي حَالَتِي السَّرِّاءِ وَالضَّرِّاءِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَالٍ وَعَاقِبَةٍ وَفَتْحٍ وَرِزْقٍ وَنَضْرٍ، وَنَالَ مَا

يُرِيدُ، ﴿أَعْرَضَ﴾ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَنَسَا بِحَانِيهِ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: بَعْدَ عَنَّا^(١). قُلْتُ: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُصَّتَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْبِ مَسْئَمٍ﴾ [يونس: ١٢] وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَاكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] وَإِنَّمَا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ - وَهُوَ الْمَصَائِبُ، وَالْحَوَادِثُ وَالتَّوَاتِبُ - ﴿كَانَ يُوسُفًا﴾ أَيْ قَطَطَ أَنْ يُعُودَ، يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكُفْرًا كَثِيرًا﴾ (١) وَلَمَّا أَذَقْتَهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبِهِ مَسْتَةً لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾ (١٣) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١) [هود: ٩-١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِيهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلَى نَاجِيَتِهِ^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَلَى جِدَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: عَلَى نَيْتِهِ^(٥). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: دِينِهِ^(٦). وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى وَهَذِهِ الْآيَةُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - تَهْدِيدٌ لِّلْمُشْرِكِينَ وَوَعِيدٌ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾... الْآيَةَ [هود: ١٢١]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِيهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أَيْ مِنَّا وَمِنْكُمْ، وَيَجْرِي كُلُّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ

إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)

[ذِكْرُ الرُّوحِ]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيَّنَّا أَنَا أَمْسِيهِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَسِيبٍ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ: مَا رَابِكُمْ إِلَيْهِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلَنَّكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالُوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾... الْآيَةَ. وَهَذَا السِّيَاقُ يَقْتَضِي فِيمَا يَطَّهَرُ بِأَدْبِ الرَّأْيِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَدْنِيَّةٌ، وَأَنَّهُ نَزَلَتْ جَبْنَ سَأَلَهُ الْيَهُودُ

(١) فتح الباري: ٢٥٢/٨ (٢) الطبري: ٥٣٩/١٧ (٣) الطبري: ٥٤١/١٧ (٤) الطبري: ٥٤١/١٧ (٥) الطبري: ٥٤١/١٧ (٦) الطبري: ٥٤١/١٧

الرُّوحَ هِيَ أَضَلُّ النَّفْسِ وَمَادَّتُهَا، وَالنَّفْسُ مُرَكَّبَةٌ مِنْهَا وَمِنْ اتِّصَالِهَا بِالْبَدَنِ، فَهِيَ هِيَ مِنْ وَجْهِ لَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ^(٣). وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قُلْتُ: وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي مَا هِيَ الرُّوحُ وَأَحْكَامُهَا، وَصَنَّفُوا فِي ذَلِكَ كُتُبًا، وَمِنْ أَحْسَنِ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ مَنَدَةَ فِي كِتَابِ سَمْعَانَا، فِي الرُّوحِ.

﴿وَلَيْنِ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَاكْبِلًا﴾ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفْرًا ﴿٨٩﴾

[لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِالْقُرْآنِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ وَفَضْلَهُ الْعَظِيمَ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَطْرُقُ النَّاسَ رِيحٌ حَمْرَاءُ، يَعْنِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ قَبْلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى فِي مُصْحَفِ رَجُلٍ وَلَا فِي قَلْبِهِ آيَةٌ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﴿وَلَيْنِ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾^(٤)... الآية.

[الَّتَحَدَّثُ بِالْقُرْآنِ]

ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى شَرَفِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ كُلُّهُمْ وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ مَا أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ لَمَا أَطَافُوا ذَلِكَ وَلَمَا اسْتَطَاعُوهُ، وَلَوْ تَعَاوَنُوا وَتَسَاعَدُوا وَتَطَافَرُوا فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا يُسْتَطَاعُ، وَكَيْفَ يُشْبِهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ كَلَامَ الْخَالِقِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مِثَالَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾... الآية، أَيُّ بَيِّنَاتٍ لَهُمُ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ، وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ وَشَرَحْنَاهُ وَبَسَطْنَا، وَمَعَ هَذَا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفْرًا﴾ أَيُّ جُحُودًا لِلْحَقِّ وَرَدًّا لِلصَّوَابِ.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ نَبَأٌ مِثْلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٩٠) تَكُونُ لَكَ حِجَّةٌ مِنْ تَحْتِهَا وَعَيْنٌ فَتَنْفِرُ الْأَنْهَارُ حَلَالَهَا

عَنْ ذَلِكَ بِالْمَدِينَةِ، مَعَ أَنَّ السُّورَةَ كُلَّهَا مَكِّيَّةٌ. وَقَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا بِأَنَّهُ قَدْ تَكُونُ نَزَلَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً، كَمَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ قَبْلَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِأَنْ يُجِيبَهُمْ عَمَّا سَأَلُوهُ بِالآيَةِ الْمُتَقَدِّمِ إِنْزَالُهَا عَلَيْهِ، وَهِيَ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: سَأَلَ أَهْلَ الْكِتَابِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرُّوحِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، فَقَالُوا: تَزْعُمُ أَنَّا لَمْ نُؤْتِ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا، وَقَدْ أُوتِينَا التَّوْرَةَ وَهِيَ الْحِكْمَةُ ﴿وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قَالَ: فَتَزَلَّتْ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾... الآية [لقمان: ٢٧]، قَالَ: «مَا أُوتِيتُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتَجَاكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَهُوَ كَثِيرٌ طَيِّبٌ، وَهُوَ فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ»^(١).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَخْبِرْنَا عَنِ الرُّوحِ وَكَيْفَ تُعَذِّبُ الرُّوحَ الَّتِي فِي الْجَسَدِ؟ وَإِنَّمَا الرُّوحُ مِنَ اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ نَزَلَ عَلَيْهِ فِيهِ شَيْءٌ، فَلَمْ يُجِرْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فَأَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالُوا: مَنْ جَاءَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «جَاءَنِي بِهِ جِبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، فَقَالُوا لَهُ: وَاللَّهِ مَا قَالَهُ لَكَ إِلَّا عَدْوَانًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ﴾ [البقرة: ٩٧]^(٢).

[الرُّوحُ وَالنَّفْسُ]

ذَكَرَ السَّهْبِيُّ الْخِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي أَنَّ الرُّوحَ هِيَ النَّفْسُ أَوْ غَيْرُهَا، وَقَرَّرَ: أَنَّهَا ذَاتُ لَطِيفَةٍ كَالهَوَاءِ، سَارِيَّةٌ فِي الْجَسَدِ كَسَرِيَّانِ الْمَاءِ فِي عُرُوقِ الشَّجَرِ، وَقَرَّرَ: أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي يَنْفُخُهَا الْمَلَكُ فِي الْجَنِينِ هِيَ النَّفْسُ بِشَرِطِ اتِّصَالِهَا بِالْبَدَنِ وَاتِّسَابِهَا بِسَبَبِهِ صِفَاتٍ مَدْحٍ أَوْ دَمٍّ، فَهِيَ إِمَّا نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ أَوْ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ، كَمَا أَنَّ الْمَاءَ هُوَ حَيَاةُ الشَّجَرِ ثُمَّ يَكْسِبُ بِسَبَبِ اخْتِلَاطِهِ مَعَهَا اسْمًا خَاصًّا، فَإِذَا انْتَصَلَ بِالْعَيْنَةِ وَعُصِرَ مِنْهَا صَارَ مَاءٌ مُصْطَفَرًا أَوْ خَمْرًا، وَلَا يُقَالُ لَهُ مَاءٌ جَيِّدٌ، إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، وَكَذَا لَا يُقَالُ لِلنَّفْسِ: رُوحٌ، إِلَّا عَلَى هَذَا النَّحْوِ، وَكَذَا لَا يُقَالُ لِلرُّوحِ: نَفْسٌ، إِلَّا بِإِعْتِبَارِ مَا تُؤُولُ إِلَيْهِ. فَحَاصِلُ مَا نَقُولُ: إِنَّ

(١) الطبري: ٥٤٢/١٧ (٢) الطبري: ٥٤٣/١٧ العوفي ضعيف (٣) الروض الأنف: ٦٢/٢ (٤) الطبري: ٥٤٦/١٧

تَفَجِّرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَسْفِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ
بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَسْأَلُ ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي
السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ
رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾

[طَلَبُ قُرَيْشِ آيَاتٍ مُّعَيَّنَةٍ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمَ]

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ
أَهْلِ مِصْرَ قَدِيمٍ مُنْذُ بَضِعَ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ أَنَّ عُبَيْهَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ، وَأَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ،
وَرَجُلًا مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَأَبَا الْبُخْتَرِيِّ أَخَا بَنِي أَسَدٍ،
وَالْأَسْوَدَ بْنَ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدٍ، وَزَمْعَةَ بْنَ الْأَسْوَدِ، وَالزُّلَيْدَ
بْنَ الْمُغِيرَةَ، وَأَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ،
وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ، وَالْعَاصِمَ بْنَ وَائِلٍ وَنِسْبَهَا وَمُنْبَهَا ابْنَيْ
الْحِجَّاجِ السَّهْمِيِّينَ، اجْتَمَعُوا - أَوْ: مَنِ اجْتَمَعَ مِنْهُمْ -
بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ عِنْدَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ: ابْعَثُوا إِلَى مُحَمَّدٍ فَكَلِّمُوهُ وَخَاصِمُوهُ حَتَّى تُعْذِرُوا
فِيهِ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ أَنَّ أَشْرَافَ قَوْمِكَ قَدِ اجْتَمَعُوا لَكَ
لِيَكَلِّمُوكَ، فَجَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيعًا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ
بَدَأَ لَهُمْ فِي أَمْرِهِ بَدَاءً، وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَرِيصًا يُحِبُّ رُشْدَهُمْ
وَيَعِزُّ عَلَيْهِ عَنَّتُهُمْ، حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا
قَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ لِتُعْذِرَ فَيْكَ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلًا مِنْ
الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مَا أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ، لَقَدْ
شَتَمْتَ الْأَبَاءَ، وَعَبْتَ الدِّينَ، وَسَفَهْتَ الْأَحْلَامَ، وَشَتَمْتَ
الْآلِهَةَ وَفَرَقْتَ الْجَمَاعَةَ، فَمَا بَقِيَ مِنْ فِسْحٍ إِلَّا وَقَدْ جِئْتَهُ
فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ. فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا جِئْتَ بِهَذَا الْحَدِيثِ تَطَلُّبُ
بِهِ مَا لَا جَمْعَنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرْنَا مَا لَا، وَإِنْ
كُنْتَ إِنَّمَا تَطَلُّبُ الشَّرْفَ فِينَا سَوْذَنَّاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ
مُلْكًا مَلِكُنَّاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ بِمَا يَأْتِيكَ
رَبِّيًّا تَرَاهُ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ - وَكَانُوا يُسْمُونَ التَّابِعَ مِنَ الْجِنِّ
الرَّبِّيَّ - فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ، بَدَلْنَا أَمْوَالِنَا فِي طَلَبِ الطُّبِّ
حَتَّى نُبْرِّكَ مِنْهُ أَوْ نُعْذَرَ فَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا
بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُمْكُمْ بِمَا جِئْتُمْكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالِكُمْ،
وَلَا الشَّرْفَ فَيْكُمْ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي
إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ
تَقَبَّلُوا مِنِّي مَا جِئْتُمْكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
وَإِنْ تَرَدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي

وَبَيْنَكُمْ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
تَسْلِيمًا.

فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا مَا عَرَضْنَا
عَلَيْكَ فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَضْيَقَ مِنَّا بِلَادًا،
وَلَا أَقْلَ مَا لَا، وَلَا أَشَدَّ عَيْشًا مِنَّا، فَاسْأَلْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي
بَعَثَكَ بِمَا بَعَثَكَ بِهِ، فَلَيْسَ عِنَّا هَذِهِ الْجِبَالُ الَّتِي قَدْ صَيَّقَتْ
عَلَيْنَا، وَلَيْسَ لَنَا بِلَادُنَا، وَلَيْفَجَزَّ فِيهَا أَنهَارًا كَأَنَّهَا الشَّامَ
وَالْعِرَاقَ، وَلَيْبَعَثَ لَنَا مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، وَلَيْكُنْ فِيمَنْ
يَبْعَثُ لَنَا مِنْهُمْ فُضِي بِنُ كِلَابٍ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخًا صَدُوقًا،
فَسَأَلَهُمْ عَمَّا تَقُولُ حَقٌّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ؟ فَإِنْ صَنَعْتَ مَا
سَأَلْنَاكَ وَصَدَّقُوكَ صَدَقْنَاكَ، وَعَرَفْنَا بِهِ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ،
وَأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«مَا يَهْدَا بُعِثْتُ، إِنَّمَا جِئْتُمْكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، فَقَدْ
بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنْ تَقَبَّلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرَدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ
اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

قَالُوا: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَنَا هَذَا فَخُذْ لِنَفْسِكَ، فَسَلْ رَبَّكَ أَنْ
يَبْعَثَ مَلَكًا يُصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ وَيُرَاجِعُنَا عَنْكَ، وَسَأَلُهُ
فَيَجْعَلَ لَكَ جَنَاتٍ، وَكُنُوزًا، وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ،
وَيُغْنِيكَ بِهَا عَمَّا تَرَكَ تَبْتَغِي، فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ
وَتَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا تَلْتَمِسُهُ، حَتَّى تَعْرِفَ فَضْلَ مَنْزِلَتِكَ
مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا كَمَا تَزْعُمُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، مَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا
بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِشِيرًا وَنَذِيرًا، فَإِنْ
تَقَبَّلُوا مَا جِئْتُمْكُمْ بِهِ، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ
تَرَدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»

قَالُوا: فَاسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ أَنْ رَبَّكَ إِنْ شَاءَ فَعَلَ
ذَلِكَ، فَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِكُمْ ذَلِكَ» فَقَالُوا: يَا
مُحَمَّدُ! أَمَا عَلِمَ رَبُّكَ، أَنَا سَنَجْلِسُ مَعَكَ، وَسَأَلْتُكَ عَمَّا
سَأَلْنَاكَ عَنْهُ، وَتَطَلُّبُ مِنْكَ مَا نَطَلُّبُ، فَيَقْدُمُ إِلَيْكَ وَنَعْلَمُكَ
مَا تُرَاجِعُنَا بِهِ، وَيُخْبِرُكَ مَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَا إِذَا لَمْ
تَقْبَلْ مِنْكَ مَا جِئْتَنَا بِهِ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْلَمُكَ هَذَا رَجُلٌ
بِالْيَمَامَةِ يُقَالُ لَهُ: الرَّحْمَنُ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِالرَّحْمَنِ
أَبَدًا، فَقَدْ أَعْذَرْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، أَمَا وَاللَّهِ لَا تَنْزُرُكَ وَمَا
فَعَلْتَ بِنَا، حَتَّى تُهْلِكَ أَوْ تُهْلِكَنَا. وَقَالَ قَائِلُهُمْ: نَحْنُ

تَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَهِيَ بَنَاتُ اللَّهِ. وَقَالَ قَانِلَهُمْ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا.

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ، وَقَامَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِهِ عَائِشَةَ ابْنَةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمْ تَقْبَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ لِأَنْفُسِهِمْ أُمُورًا لِيَعْرِفُوا بِهَا مَنَزَلَتَكَ مِنَ اللَّهِ، فَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ مَا تُحَوِّفُهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، فَوَاللَّهِ لَا أُوْمِنُ بِكَ أَبَدًا حَتَّى تَتَّخِذَ إِلَى السَّمَاءِ سُلْمًا، ثُمَّ تَرُقَى فِيهِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى تَأْتِيَهَا وَتَأْتِيَ مَعَكَ بِصَحِيفَةٍ مَشْهُورَةٍ، وَمَعَكَ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ أَنَّكَ كَمَا تَقُولُ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَطَنَنْتُ أَنْتَى لَا أَصْدُقُكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ حَزِينًا أَسِيفًا لِمَا فَاتَهُ مِمَّا كَانَ طَمَعَ فِيهِ مِنْ قَوْمِهِ حِينَ دَعَا، وَلَمَّا رَأَى مِنْ مَبَاعِدَتِهِمْ إِيَّاهُ^(١).

[سَبَبُ رَدِّ طَلِبَاتِ الْمُشْرِكِينَ]

وَهَذَا الْمَجْلِسُ الَّذِي اجْتَمَعَ هُوَ لِأَنَّ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ ذَلِكَ اسْتِزْشَادًا لِأَجِيبُوا إِلَيْهِ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَطْلُبُونَ ذَلِكَ كُفْرًا وَعِنَادًا [لَهُ] فَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْنَاهُمْ مَا سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا عَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا لَا أَعَذَّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةَ فَقَالَ: «بَلْ تَفْتَحُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةَ»^(٢). وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا نُمُودَ الْأَنَافَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا» [الإسراء: ٥٩]. وَقَالَ تَعَالَى: «وَقَالُوا مَا لَنَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا»^(٣) أَوْ يُلْقَى إِلَيْنَا كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا»^(٤)

أَنْظُرُ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا»^(٥) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا»^(٦) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا» [الفرقان: ٧-١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا» أَلْيَبُوعُ: أَلْعَيْنُ الْجَارِيَةُ، سَأَلُوهُ أَنْ يُجْرِيَ لَهُمْ عَيْنًا مَعِينًا فِي أَرْضِ

الْحِجَازِ هَهُنَا وَهَهُنَا وَذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَسِيرٌ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَهُ، وَلَا جَابَهُمْ إِلَى جَمِيعِ مَا سَأَلُوا وَطَلَبُوا، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ»^(١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [يونس: ٩٦، ٩٧] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَلَكَّمْهُمُ الْتَوَكُّنُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا»... [الأنعام: ١١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَوْ سَقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ» أَيَّ أَنَّكَ وَعَدْتَنَا أَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَنْشَقُّ فِيهِ السَّمَاءُ، وَتَهَيَّي وَتُدَلِّي أَطْرَافَهَا، فَعَجَّلَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَأَسْفَطَهَا كِسْفًا: أَيَّ قَطْعًا كَقَوْلِهِمْ: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَطْرُقْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ»... [الأنفال: ٣٢]، وَكَذَلِكَ سَأَلَ قَوْمٌ شُعَيْبَ مِنْهُمْ فَقَالُوا: «فَأَسْفِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»... [الشعراء: ١٨٧] فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِ يَوْمِ الظَّلَمَةِ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَسَأَلَ إِنْظَارَهُمْ وَتَأْجِيلَهُمْ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ وَقَعَ؛ فَإِنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ - الَّذِينَ ذَكَرُوا - مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ حَتَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ الَّذِي تَبَعَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ، أَسْلَمَ إِسْلَامًا تَامًا وَأَتَابَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرْبِي» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هُوَ الذَّهَبُ^(٣). وَكَذَلِكَ هُوَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ)^(٤) أَوْ تَرُقَى فِي السَّمَاءِ أَيَّ تَضَعُدُ فِي سَلْمٍ وَحُنْ نَنْظُرُ إِلَيْكَ» وَكَانَ يُؤْمِنُ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِنْبًا نَقْرُؤُهُ» قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيَّ مَكْتُوبٌ فِيهِ، إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ صَحِيفَةٌ: هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لِفُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ يُصْبِحُ مَوْضُوعَةً عِنْدَ رَأْسِهِ^(٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا سَوِيًّا» أَيَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ، أَنْ يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ سُلْطَانِيهِ وَمَلَكُوتِيهِ، بَلْ هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ، إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ إِلَى مَا سَأَلْتُمْ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُجِبْكُمْ، وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ إِلَيْكُمْ أَبْلُغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَقَدْ

(١) الطبري: ٥٥٧/١٧ إسناده ضعيف شيخ من أهل مصر مجهول (٢) أحمد: ٢٤٢/١ (٣) الطبري: ٥٥٣/١٧ (٤) الطبري: ٥٥٣/١٧ (٥) الطبري: ٥٥٤/١٧

فَعَلَتْ ذَلِكَ، وَأَمْرُكُمْ، وَمَا سَأَلْتُمْ، إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.
 ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ
 بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمْشُونَ
 مُطْمَئِنِّينَ لَنَرَيْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾
 [إِبَاءَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْإِيمَانِ لِكُونَ الرَّسُولِ بَشَرًا،
 وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ﴾ أَي أَكْثَرُهُمْ ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾
 وَيَتَابِعُوا الرَّسُلَ إِلَّا اسْتَعْجَابُهُمْ مِنْ بَعَثَةِ الْبَشَرِ رَسُولًا، كَمَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ
 أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾
 [يونس: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَدْعُونَنَا... الْآيَةَ [التغابن: ٦]. وَقَالَ
 فِرْعَوْنُ وَمَلُوهُ: ﴿تَأْتُونَنَا لِبَشَرٍ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾
 [المؤمنون: ٤٧] وَكَذَلِكَ قَالَتِ الْأُمَمُ لِرُسُلِهِمْ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا
 بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، ثُمَّ
 قَالَ تَعَالَى مُنْبَهًا عَلَى لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بَعَادِهِ: أَنَّهُ يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ
 الرَّسُولَ مِنْ جِنْسِهِمْ، لِيَفْقَهُوا عَنَّهُ وَيَهْتَمُّوا مِنْهُ، لِيَتَمَكَّنِيهِمْ
 مِنْ مَخَاطَبَتِهِ وَمُكَالَمَتِهِ، وَلَوْ بَعَثَ إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مِنْ
 الْمَلَائِكَةِ لَمَا اسْتَطَاعُوا مُوَابَهَتَهُ، وَلَا الْأَخَذَ عَنَّهُ، كَمَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ
 أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا
 أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ
 وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُؤْمِنُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾
 فَادْكُرُوا أَذْرَئِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]
 وَهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمْشُونَ
 مُطْمَئِنِّينَ﴾ أَي كَمَا أَنْتُمْ فِيهَا ﴿لَنَرَيْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
 مَلَكًا رَسُولًا﴾ أَي مِنْ جِنْسِهِمْ. وَلَمَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ بَشَرًا بَعَثْنَا
 فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ، لُطْفًا وَرَحْمَةً.
 ﴿قُلْ كَفَىٰ يَاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
 بَصِيرًا﴾ ﴿٩٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ ﷺ إِلَى الْحُجَّةِ عَلَى قَوْمِهِ فِي
 صَدَقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ: إِنَّهُ شَاهِدٌ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ، عَالِمٌ بِمَا
 جِئْتُمْ بِهِ، فَلَوْ كُنْتُمْ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَأَنْتَمُ مِنِّْي أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ،
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَابِ﴾ ﴿٩٨﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبِكَمَا
 وَصَّامًا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتِ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
 ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِنَّ ذَا كُنَّا عِظَمًا
 وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
 وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَارِبِّ فِيهِ فَبِأَيِّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٩٩﴾
 قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
 الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَقَدْ عَادَ آيِنَا مُوسَىٰ تَسْعَ
 آيَاتٍ بَلَّغَتْ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
 إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ
 هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَبِإِي لَأَظُنُّكَ
 يَنْفِرَعُونَ مَسْجُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْرِهَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ
 فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ
 اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

بِالْيَمِينِ ﴿١٠٥﴾ ثُمَّ لَقَعْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. وَقَوْلُهُ:
 ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أَي عَلِيمًا بِهِمْ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ
 الْإِنْعَامَ وَالْإِحْسَانَ وَالْهُدَايَةَ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الشَّقَاءَ
 وَالْإِضْلَالَ وَالْإِزَاعَةَ، وَهَذَا قَالَ:
 ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ
 دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبِكَمَا وَصَّامًا
 مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتِ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿٩٧﴾

[الْهُدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ بِيَدِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ تَصَرُّفِهِ فِي خَلْقِهِ وَتَفْوِذِ حُكْمِهِ،
 وَأَنَّهُ لَا مَعْقَبَ لَهُ: بِأَنَّهُ مَنْ يَهْدِيهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ
 فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَي يَهْدُونَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿مَنْ
 يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ لِيًّا مَرْشِدًا﴾
 [الكهف: ١٧].

[جَزَاءُ أَهْلِ الضَّلَالِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ رَوَى الْإِمَامُ
 أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ

يُحَسِّرُ النَّاسَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ؟ قَالَ: «الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ، قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُمَشِّبَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ»^(١). وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢).

وَقَوْلُهُ: «عَمِيًّا» أَي لَا يُبْصِرُونَ، «وَبُكْمًا» يَعْنِي لَا يَنْطَفِقُونَ، «وَصُمًّا» لَا يَسْمَعُونَ، وَهَذَا يَكُونُ فِي حَالِ دُونَ حَالِ، جَزَاءَ لَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بُكْمًا وَعَمِيًّا وَصُمًّا عَنِ الْحَقِّ، فَجُوزُوا فِي مَحْشَرِهِمْ بِذَلِكَ أَحْوَجَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ «وَأَوْبَهُمْ» أَي مُتَقَلِّبُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ «جَهَنَّمَ» كَمَا حَتَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَكَنَتْ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: طَفَيْتُ. «وَزِدْنَهُمْ سَعِيرًا» أَي لَهَبًا وَوَهَجًا وَجَمْرًا، كَمَا قَالَ: «فَذَوْقُوا فَلَنْ نَرِيَدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا» [النبا: ٣٠].

«ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا هَذَا كَمَا عَظَّمْنَا وَرَفَعْنَا أَيْمَانًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» ﴿٩٨﴾ «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفْرًا» ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ بِهِ مِنَ الْبُعْثِ عَلَى الْعَمَى، وَالْبُكْمِ، وَالصَّمِّمْ جَزَاؤَهُمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ، لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا «بِآيَاتِنَا» أَي بِأَدِلَّتِنَا وَحُجَّتِنَا، وَاسْتَبَعَدُوا وَفُوعَ الْبُعْثِ «وَقَالُوا أَوَآءَا كَمَا عَظَّمْنَا وَرَفَعْنَا» أَي بِالْيَةِ نَجْرَةً «أَوَآءَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» أَي بَعْدَ مَا صِرْنَا إِلَيْهِ: مِنَ الْبَلَى وَالْهَلَاكِ وَالتَّفَرُّقِ وَالذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ، تُعَادُ مَرَّةً ثَانِيَةً؟ فَاحْتَجَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَنَهَبَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَقُدْرَتُهُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ أَشْهَلُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: «لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ» [غافر: ٥٧]. وَقَالَ: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَفْعَلْ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتَى» [الأحاف: ٣٣] الْآيَةِ، وَقَالَ: «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [يس: ٨١-٨٣]. وَقَالَ هُيْنًا: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ» أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُ أَبْدَانَهُمْ وَيُنشِئُهُمْ نَشْأَةً أُخْرَى كَمَا بَدَأَهُمْ. وَقَوْلُهُ: «وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ» أَي جَعَلَ لِإِعَادَتِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَجَلًا مَضْرُوبًا وَمُدَّةً مُقَدَّرَةً لَا بُدَّ مِنْ انْقِضَائِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ» [هود: ١٠٤]. وَقَوْلُهُ: «فَأَبَى

الظَّالِمُونَ» أَي بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ «إِلَّا كُفْرًا» إِلَّا تَمَادِيًا فِي بَاطِلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ.

«قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ

الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا» ﴿١٠٣﴾

[الْإِنْسَانُ مِنَ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ لَوْ أَنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَمْلِكُونَ النَّصْرَةَ فِي خَزَائِنِ اللَّهِ «لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: أَي الْفَقْرِ^(٤). خَشْيَةَ أَنْ تَذْهَبُوهَا، مَعَ أَنَّهَا لَا تَفْرُغُ وَلَا تَنْقُذُ أَبَدًا، لِأَنَّ هَذَا مِنْ طَبَاعِكُمْ وَسَجَايَاكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: أَي بَحِيلًا مَنُوعًا^(٥).

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ إِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا» [النساء: ٥٣] أَي لَوْ أَنَّ لَهُمْ نَصِيبًا فِي مَلِكِ اللَّهِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا شَيْئًا وَلَا مِقْدَارَ نَقِيرٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَصِفُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ، إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَهَدَاهُ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَزَعَ وَالْهَلَعَ صِفَةٌ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿٦١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٦٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٦٣﴾ إِلَّا الْمُسْلِمِينَ» [المعارج: ١٩-٢٢] وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ، وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى كَرَمِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَعْضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَعْضُ مَا فِي يَمِينِهِ»^(٦).

«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ

جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ

عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي

لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُنْجُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ

فَاعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا

الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدَ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

[تِسْعَ آيَاتٍ لِمُوسَىٰ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ مُوسَىٰ بِتِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَهِيَ الدَّلَائِلُ الْقَاطِعَةُ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ، فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، عَمَّنْ أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَهِيَ: الْعَصَا وَالْيَدُ وَالسِّينُ وَالْبَحْرُ وَالطُّوفَانُ وَالْجِرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالِدَّمَ آيَاتُ

(١) أحمد: ١٦٧/٣ (٢) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٤/

٢١٦١ (٣) الطبري: ٥٦١/١٧ (٤) الطبري: ٥٦٣/١٧ (٥)

الطبري: ٥٦٣/١٧ (٦) فتح الباري: ٢٠٢/٨ ومسلم: ٦٩١/٢

مُفَضَّلَاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (١). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هِيَ
الْيَدُ، وَالْعَصَا، وَالْخَمْسُ فِي الْأَعْرَافِ، وَالطَّمْسَةُ
وَالْحَجَرُ (٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ
وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ: هِيَ يَدُهُ وَعَصَاهُ وَالسِّنِينَ وَتَقْصُ الثَّمَرَاتِ
وَالطُّوْفَانَ، وَالْجِرَادُ، وَالْقَمْلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالِدَّمَ (٣).

﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] أَيْ وَمَعَ
هَذِهِ الْآيَاتِ وَمُشَاهَدَتِهِمْ لَهَا، كَفَرُوا بِهَا ﴿وَجَمَدُوا بِهَا
وَاسْتَقْبَلَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وَمَا نَجَعَتْ فِيهِمْ: فَكَذَلِكَ لَوْ
أَجَبْنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَأَلُوا مِنْكَ مَا سَأَلُوا، وَقَالُوا: ﴿لَنْ
نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ إِلَى آخِرِهَا
[الإسراء: ٩٠-٩٤]، لَمَا اسْتَجَابُوا وَلَا آمَنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى - وَقَدْ شَاهَدَ مِنْهُ مَا شَاهَدَ
مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ -: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ بِمُوسَى مَسْحُورًا﴾ قِيلَ:
يَبْعَنِي سَاحِرٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

فَهَذِهِ الْآيَاتُ التَّسْعُ الَّتِي ذَكَرَهَا هَؤُلَاءِ الْأَيْمَةُ هِيَ
الْمُرَادَةُ هَهُنَا، وَهِيَ الْمَعْنِيَّةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ
فَلَمَّا رآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعِقِبُ يُمُوسَى لَا تَخَفْ
إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فِي نِسْعِ آيَاتِكِ إِكْفْرُوعُونَ وَقَوْمِهِ إِتْمَهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾
[النمل: ١١، ١٢] فَذَكَرَ هَاتَيْنِ الْآيَاتَيْنِ: الْعَصَا وَالْيَدَ، وَبَيَّنَّ
الْآيَاتِ الْبَاقِيَاتِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَفَصَّلَهَا. وَقَدْ أُوتِيَ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آيَاتٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ، مِنْهَا ضَرْبُهُ الْحَجَرَ
بِالْعَصَا وَخُرُوجُ الْمَاءِ مِنْهُ، وَمِنْهَا تَطْلِيلُهُمْ بِالْعَمَامِ، وَإِنْزَالُ
الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَعَبْرُ ذَلِكَ مِمَّا أُوتِيَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ
مُفَارَقَتِهِمْ بِلَادَ مِصْرَ، وَلَكِنْ ذَكَرَ هَهُنَا التَّسْعَ الْآيَاتِ الَّتِي
شَاهَدَهَا فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَكَانَتْ حُجَّةً
عَلَيْهِمْ، فَيَخَالِفُوهَا وَعَانِدُوهَا كُفْرًا وَجُحُودًا.

وَلِهَذَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلْتَهُ هَؤُلَاءِ إِلَّا
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ أَيْ حُجَجًا وَأَدِلَّةً عَلَى صِدْقِ
مَا جِئْتُكَ بِهِ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنَ مُشْبُورًا﴾ أَيْ هَالِكًا،
قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ (٤). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَلْعُونًا (٥). وَقَالَ
أَيْضًا هُوَ وَالضَّحَّاكُ ﴿مُشْبُورًا﴾ أَيْ مَغْلُوبًا (٦). وَالْهَالِكُ -
كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ - يَسْتَمِلُ هَذَا كُلَّهُ.

[إِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْرِغَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ يُخْلِيَهُمْ مِنْهَا
وَيَرْبِيَهُمْ عَنْهَا. ﴿فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (٧) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ
لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴿وَفِي هَذَا بَشَارَةٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٢٩٣

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾

وَقَوْمًا نَأَفَرْتَهُ لِفِرْعَوْنَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْتٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٦﴾

قُلْ آمَنَّا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى

عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ

عَدْرُ رَبِّنَا الْمَمْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ زِينَةً لَهُمْ

خُشُوعًا ﴿١٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَاسْتَعِزَّ

بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ

لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبُرَ تَكْبِيرًا ﴿٢١﴾

سُورَةُ الْكَافِرِينَ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾

فِيمَا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ

يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكَانِينَ

فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

يَفْتَحُ مَكَّةَ، مَعَ أَنَّ [هَذِهِ] السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ،
وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْهَا،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ
لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾... [الآيتين [الإسراء: ٧٦، ٧٧]، وَلِهَذَا
أُورِثَ اللَّهُ رَسُولَهُ مَكَّةَ، فَدَخَلَهَا عَنُوةً - عَلَى أَشْهُرِ الْقَوْلَيْنِ
- وَفَهَرَ أَهْلُهَا ثُمَّ أَطْلَقَهُمْ جِلْمًا وَكْرَمًا، كَمَا أُورِثَ اللَّهُ
الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَشَارِقَ
الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَأُورِثَهُمْ بِلَادَ فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُمْ
وَزُرُوعَهُمْ، وَيَمَارَهُمْ وَكُنُوزَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا
بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي
إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أَيْ
جَمِيعَكُمْ أَنْتُمْ وَعَدُوُّكُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ
وَالضَّحَّاكُ: ﴿لَفِيفًا﴾ أَيْ: جَمِيعًا (٧).

(١) الطبري: ٥٦٤/١٧ (٢) الطبري: ٥٦٥/١٧ (٣) الطبري: ٥٦٥/١٧ (٤) الطبري: ٥٧١/١٧ (٥) الطبري: ٥٧٣/١٧ (٦) الطبري: ٥٧٠/١٧ (٧) الطبري: ٥٧٣/١٧

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَرَأَى أَنَا
فَرْقَنَهُ لِنِقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّكَ وَزَلَّانَهُ لِنَزِيلِ ﴿١٠٦﴾﴾

[نَزَلَ بِالْحَقِّ مُتَفَرِّقًا]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ، أَنَّهُ بِالْحَقِّ نَزَلَ، أَيُّ مُتَضَمِّنًا لِلْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَنْهَدُ يَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ وَالْمَلَائِكَةُ شَاهِدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦] أَيُّ مُتَضَمِّنًا عِلْمَ اللَّهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُطَلِّعَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أَيُّ: وَنَزَلَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مَحْفُوظًا مَحْرُوسًا لَمْ يُسَبِّ بِغَيْرِهِ، وَلَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نُقِصَ مِنْهُ، بَلْ وَصَلَ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ، فَإِنَّهُ نَزَلَ بِهِ شَدِيدُ الْقُوَى، الْأَمِينُ الْمَكِينُ، الْمَطَّلَعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا يَا مُحَمَّدُ﴾ [إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا] مُبَشِّرًا لِمَنْ أَطَاعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَذِيرًا لِمَنْ عَصَاكَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَى أَنَا فَرْقَنَهُ﴾ أَمَا قِرَاءَةٌ مِنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ فَمَعْنَاهُ فَصَلَّنَاهُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ مُتَفَرِّقًا مُتَجَمًّا عَلَى الْوَقَائِعِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثَلَاثِ وَعِشْرِينَ سَنَةً، قَالَهُ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّهُ قَرَأَ: (فَرَقْنَاهُ) بِالتَّشْدِيدِ، أَيُّ أَنْزَلْنَاهُ آيَةً آيَةً مُبَيَّنًا وَمُفَسَّرًا^(٢). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِنِقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أَيُّ لِنُبَلِّغَهُ النَّاسَ وَتَلَوْنَاهُ عَلَيْهِمْ، أَيُّ عَلَى مَكِّكَ أَيُّ مَهَلٍ ﴿وَزَلَّانَهُ لِنَزِيلِ﴾ أَيُّ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ.

﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعَدَ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

[الْقُرْآنُ حَقٌّ يَعْتَرَفُ بِهِ السَّابِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ يَمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أَيُّ سِوَاءِ آمَنْتُمْ بِهِ أَمْ لَا، فَهُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَنُورَهُ يَذْكُرُهُ فِي سَالِفِ الْأَرْمَانِ، فِي كُتُبِهِ الْمُتَرْتِلَةِ عَلَى رُسُلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيُّ مِنْ صَالِحِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِكِتَابِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ، وَلَمْ يَبْدُلُوهُ وَلَا حَرَّفُوهُ. ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ﴾ جَمْعُ دَقْنٍ وَهُوَ اسْتَقْلُّ الْوُجْهِ ﴿سُجَّدًا﴾ أَيُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ: مِنْ جَعَلِهِ إِيَّاهُمْ أَهْلًا إِنْ أَدْرَكُوا هَذَا الرَّسُولَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذَا

الْكِتَابُ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أَيُّ تَعْظِيمًا وَتَوْقِيرًا عَلَى قُدْرَتِهِ النَّاتِمَةِ، وَأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ الَّذِي وَعَدَهُمْ، عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، عَنْ بَعْتِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعَدَ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ يَسْكُوتُونَ﴾ أَيُّ خُضُوعًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِيمَانًا وَتَضَدُّيقًا بِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أَيُّ إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا، كَمَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ آهْتَدُوا رَادَهُمْ هُدًى وَآلِنَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ عَطْفُ صِفَةٍ عَلَى صِفَةٍ لَا عَطْفُ السُّجُودِ عَلَى السُّجُودِ.

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّ مَا دَعَوْنَا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ لِدَا وَوَلَّرَ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

[لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ صِفَةَ الرَّحْمَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الْمَانِعِينَ مِنْ تَسْمِيَّتِهِ بِالرَّحْمَنِ ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّ مَا دَعَوْنَا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أَيُّ لَا فَرْقَ بَيْنَ دُعَائِكُمْ لَهُ بِاسْمِ اللَّهِ أَوْ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ، فَإِنَّهُ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، وَقَدْ رَوَى مَكْحُولٌ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ» فَقَالَ: إِنَّهُ يُزْعَمُ أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا وَهُوَ يَدْعُو اثْنَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. وَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ^(٣).

[الْأَمْرُ بِالْقِرَاءَةِ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمُخَافَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾... الْآيَةَ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا﴾ قَالَ: كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبَّوْا الْقُرْآنَ وَسَبَّوْا مَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، قَالَ: فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا

(١) الطبري: ١٧/٥٧٤ (٢) الطبري: ١٧/٥٧٤، ٥٧٤ (٣)

الطبري: ١٧/٥٨٠ هذا مرسل منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩٤

سُورَةُ الْكَهْفِ

يَصَلَاكَ ﴿١﴾ أَيُّ بِقِرَاءَتِكَ فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ
 ﴿٢﴾ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا عَنْ أَصْحَابِكَ - فَلَا تَسْمِعُهُمُ الْقُرْآنُ -
 حَتَّى يَأْخُذُوهُ عَنْكَ ﴿٣﴾ وَابْتِغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٤﴾ أَخْرَجَاهُ فِي
 الصَّحِيحِينَ ﴿٥﴾. وَكَذَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،
 وَزَادَ: فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ سَقَطَ ذَلِكَ، يَفْعَلُ أَيُّ ذَلِكَ
 شَاءَ ﴿٦﴾.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَهَرَ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ يُصَلِّي، تَفَرَّقُوا عَنْهُ
 وَأَبَوْا أَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ مَا يَتْلُو وَهُوَ يُصَلِّي، اسْتَرَقَ السَّمْعَ
 دُونَهُمْ فَرَفَا مِنْهُمْ، فَإِذَا رَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَسْمَعُ
 ذَهَبَ، خَشْيَةً إِذَا هُمْ فَلَمْ يَسْمَعْ، فَإِنْ خَفِضَ صَوْتَهُ ﷺ لَمْ
 يَسْمَعْ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ مِنْ قِرَاءَتِهِ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا
 تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فَيَتَفَرَّقُوا عَنْكَ ﴿٧﴾ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا ﴿٨﴾ فَلَا يَسْمَعُ
 مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ مَنْ يَسْتَرِقُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَلَعَلَّهُ يَرْعَوِي
 إِلَى بَعْضِ مَا يَسْمَعُ فَيَتَّبِعُ بِهِ، ﴿٩﴾ وَابْتِغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٠﴾
 وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ الْبُسْرِيُّ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ
 الْآيَةُ فِي الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ ﴿١١﴾. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿١٢﴾ وَلَا
 تُخَافَتْ بِهَا ﴿١٣﴾ مَنْ أَسْمَعَ أُذُنَيْهِ ﴿١٤﴾.

[بَيَانُ التَّوْحِيدِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا﴾ لَمَّا أُثْبِتَ
 تَعَالَى لِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ
 التَّقَاتِيصِ فَقَالَ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
 شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ ﴿١﴾ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ
 وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٢﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكِيلٌ مِنْ
 الدَّلِّ﴾ أَي لَيْسَ بِذَلِيلٍ فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ أَوْ وَزِيرٌ
 أَوْ مُشِيرٌ، بَلْ هُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،
 وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا بِمَشِيئَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ
 فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكِيلٌ مِنْ الدَّلِّ﴾ لَمْ يَخَالِفْ أَحَدًا وَلَمْ
 يَتَّبِعْ نَصْرًا أَحَدًا ﴿٣﴾ ﴿وَكِبْرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ أَي عَظَمَةٌ وَأَجَلَةٌ عَمَّا يَقُولُ
 الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْقُرْطُبِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
 ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا﴾... الْآيَةَ، قَالَ: إِنَّ
 الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَقَالَتِ الْعَرَبُ:
 لَيْبِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ.
 وَقَالَ الصَّابِقُونَ وَالْمَجُوسُ: لَوْلَا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَدَلَّ. فَأَنْزَلَ

اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
 شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكِيلٌ مِنَ الدَّلِّ وَكِبْرَةٌ تَكْبِيرًا ﴿٤﴾.
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سُبْحَانَ. وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْإِمْنَةُ

سُورَةُ الْكَهْفِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

(ذَكَرْنَا مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا وَالْعَشْرِ الْآيَاتِ مِنْ أَوْلَاهَا
 وَأَخْرَجَهَا وَأَنَهَا عِصْمَةً مِنَ الدَّلَّالِ)

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْبَرَاءِ يَقُولُ: قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ
 وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ، فَجَعَلَتْ تَفْرُقُ، فَظَنَرَ فَإِذَا صَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ
 قَدْ غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَفَرَأَ فُلَانٌ، فَإِنَّهَا
 السَّيْكِنَةُ تَنْزِلُ عِنْدَ الْقُرْآنِ، أَوْ تَنْزَلَتْ لِلْقُرْآنِ» ﴿١﴾ أَخْرَجَاهُ فِي

(١) أحمد: ٢٣/١ (٢) فتح الباري: ٢٥٧/٨ ومسلم: ١/٣٢٩ (٣) الطبري: ٥٨٤/١٧ (٤) الطبري: ٥٨٥/١٧ (٥) الطبري: ٥٨٧/١٧ (٦) الطبري: ٥٨٩/١٧ (٧) الطبري: ٥٩٠/١٧ (٨) الطبري: ٥٩٠/١٧ (٩) أحمد: ٢٨١/٤

الصَّحِيحِينَ^(١). وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ يَتْلُوهَا هُوَ أُسَيْدُ بْنُ
الْحَضِرِيِّ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَرَوَى الْإِمَامُ
أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ
عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عَصِمَ مِنَ الدَّجَالِ»^(٢)
رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَلَفِظُ
التِّرْمِذِيِّ: «مَنْ حَفِظَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ» وَقَالَ:
حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قَالَ ابْنُ
إِسْحَاقَ: وَهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ: نَحْنُ
نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ^(٦). «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أَيْ
بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَاتَّفَقُوا عَلَيْهِ وَلَا لِأَبَائِهِمْ» أَيْ
لِأَسْلَافِهِمْ ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ﴾ هَذَا تَبْنِيْعٌ لِمَقَالَتِهِمْ
وَاسْتِعْظَامٌ لِإِفْكِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ﴾ أَيْ لَيْسَ لَهَا مُسْتَنَدٌ سِوَى قَوْلِهِمْ، وَلَا دَلِيلٌ لَهُمْ
عَلَيْهَا إِلَّا كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا﴾.

[سَبَبُ نُزُولِ السُّورَةِ]

وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ
الْكُرَيْمَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْدُ
بِضْعٍ وَارْبَعِينَ سَنَةً عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَعَثَ
فَرِيْسُ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعْطُوبٍ إِلَى أَحْبَارِ
يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا لَهُمْ: سَلُّوهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ، وَصِفُوا
لَهُمْ صِفَتَهُ وَأَخْبِرُوهُمْ بِقَوْلِهِ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ،
وَعِنْدَهُمْ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَخَرَجَا حَتَّى آتَيْنَا
الْمَدِينَةَ فَسَأَلُوا أَحْبَارَ الْيَهُودِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَصَفُوا
لَهُمْ أَمْرَهُ وَبَعْضَ قَوْلِهِ، وَقَالَا: إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ وَقَدْ
جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا، قَالَ: فَقَالُوا لَهُمْ:
سَلُّوهُ عَنْ ثَلَاثِ نَأْمُرْكُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ أَخْبَرْتُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نَبِيُّ
مُرْسَلٍ، وَإِلَّا فَرَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ [فَرُوا] فِيهِ رَأْيُكُمْ: سَلُّوهُ عَنْ
فِتْنَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ، مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ؟ فَإِنَّهُمْ قَدْ
كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجِيبٌ. وَسَلُّوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ بَلَغَ
مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا مَا كَانَ نَبُوَّهُ؟ وَسَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ
مَا هُوَ؟ فَإِنْ أَخْبَرْتُمْ بِذَلِكَ فَهُوَ نَبِيُّ قَاتِبِعَوْه، وَإِنْ لَمْ
يُخْبِرْكُمْ فَإِنَّهُ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَأَ لَكُمْ،

وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قرَأ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ،
أَصَابَ لَهُ مِنَ الثَّوْرِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ» ثُمَّ قَالَ: هَذَا
حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٤). وَهَكَذَا رَوَاهُ
الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنِ الْحَاكِمِ، ثُمَّ رَوَى
الْبَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قرَأ سُورَةَ الْكَهْفِ
كَمَا نَزَلَتْ، كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمُنَادُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۝
يَمَّا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَتَكَلِّفِ فِيهِ
أَبْدًا ۝ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَا لَهُمْ بِهِ
عِلْمٌ وَلَا لِأَبَائِهِمْ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾

[أُنزِلَ الْقُرْآنُ بَشِيرًا وَنَذِيرًا]

قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ أَنَّهُ تَعَالَى يَحْمَدُ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ
عِنْدَ فَوَاتِحِ الْأُمُورِ وَخَوَاتِمِهَا، فَإِنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ
حَالٍ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسَهُ
عَلَى إِنزَالِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزِ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ صَلَّى
اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: فَإِنَّهُ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَى أَهْلِ
الْأَرْضِ، إِذْ أَخْرَجَهُمْ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، حَيْثُ
جَعَلَهُ كِتَابًا مُسْتَقِيمًا لَا اعْوَجَاجَ فِيهِ وَلَا زَيْغَ، بَلْ يَهْدِي إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَاضِحًا بَيِّنًا، جَلِيلًا نَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ، بَشِيرًا
لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ أَيْ لَمْ يَجْعَلْ
فِيهِ اعْوَجَاجًا وَلَا زَيْغًا وَلَا مِيلًا، بَلْ جَعَلَهُ مُعْتَدِلًا مُسْتَقِيمًا
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقِيمًا﴾ أَيْ مُسْتَقِيمًا ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ
لَدُنْهُ﴾ أَيْ لِمَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ: يُنذِرُهُ بَأْسًا
شَدِيدًا، عُقُوبَةً عَاجِلَةً فِي الدُّنْيَا وَآجِلَةً فِي الْآخِرَةِ ﴿مِمَّنْ
لَدُنْهُ﴾ أَيْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدًا، وَلَا

(١) فتح الباري: ٧١٩/٦ ومسلم: ٥٤٨/١ (٢) أحمد: ٥/١٩٦ (٣) مسلم: ٥٥٥/١ وأبو داود: ٤٩٧/٤ والنسائي في الكبرى: ٢٣٦/٦ وتحفة الأحوذى: ١٩٥/٨ (٤) الحاكم: ٢/٣٦٨ (٥) البيهقي: ٢٤٩/٣ (٦) الطبري: ٩٥/١٧

أَبُو مَسَلَمَةَ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ حَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَحْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَاطِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ»^(٤). ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِرَوَالِهَا وَفَنَائِهَا، وَفَرَاغِهَا، وَانْقِضَائِهَا، وَذَهَابِهَا وَخَرَابِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أَي: وَإِنَّا لَمُصَيِّرُوهَا بَعْدَ الزَّيْنَةِ إِلَى الْخَرَابِ وَالذَّمَارِ، فَنَجْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهَا هَالِكًا صَعِيدًا جُرُزًا لَا يَبْتُتُ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ.

كَمَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يَقُولُ: يَهْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَيَبِيدُ^(٥). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: صَعِيدًا جُرُزًا بَلْقَعًا^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: الصَّعِيدُ الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَجَرٌ وَلَا نَبَاتٌ^(٧).

﴿أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^(٨) إِذْ أَرَى الْيَتِيمَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رِسَدًا ﴿٩﴾ فَضَرَبْتَ عَلَيَّ آدَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١٠﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَيْسُوا أُمَّمًا ﴿١١﴾

[قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَالِاخْتِصَارِ، ثُمَّ بَسَطَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿أَمَّ حَسِبْتَ﴾ يَعْنِي يَا مُحَمَّدُ ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أَي لَيْسَ أَمْرُهُمْ عَجِيبًا فِي قُدْرَتِنَا وَسُلْطَانِنَا، فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَسْخِيرَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ - عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ - أَعْجَبُ مِنْ إِخْبَارِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يَقُولُ: قَدْ كَانَ مِنْ آيَاتِنَا مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ^(٨). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ

فَأَقْبَلَ النَّضْرُ وَعُقْبَةُ حَتَّى قَدِمَا عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَضْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، قَدْ أَمَرْنَا أَحْبَابَ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أُمُورٍ... فَأَخْبَرُوهُمْ بِهَا، فَجَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنَا، فَسَأَلُوهُ عَمَّا أَمَرُوهُمْ بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخْبِرْكُمْ غَدًا عَمَّا سَأَلْتُمْ عَنْهُ» وَلَمْ يَسْتَنْ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ، وَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَا يُحَدِّثُ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَيًّا، وَلَا بِأَيِّهِ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ وَقَالُوا: وَعَدْنَا مُحَمَّدًا غَدًا، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ قَدْ أَصْبَحْنَا فِيهَا، لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ عَمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ، وَحَتَّى أَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ الْوَحْيِ عَنْهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ، ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فِيهَا مُعَانَتُهُ إِيَّاهُ عَلَى حُزْنِهِ عَلَيْهِمْ، وَخَبَرَ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الْيَتِيمِ وَالرَّجُلِ الطَّوَّافِ، وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ... الْآيَةَ^(١١)».

﴿فَلَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ عَلَى عَائِدِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^(٦) وَإِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِمَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ [لَا تَأْسَفْ عَلَى عَدَمِ إِيمَانِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي حُزْنِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِتَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ وَبُعْدِهِمْ عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨] وَقَالَ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] وَقَالَ: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] بَاخِعٌ أَي: مُهْلِكٌ نَفْسَكَ بِحُزْنِكَ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ عَلَى عَائِدِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿أَسَفًا﴾ يَقُولُ: لَا تُهْلِكْ نَفْسَكَ أَسَفًا. قَالَ قَتَادَةُ: قَاتِلٌ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: جَزَعًا^(٣). وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ، أَي لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ، بَلْ أبلغُهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ، فَمَنْ اهْتَدَى فَلْيَتَّبِعْهُ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، [فَلَا] تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً.

[الدُّنْيَا دَارُ الْإِبْتِلَاءِ]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارًا فَإِنَّهُ مَرْيَتُهُ بَرِيَّةٌ زَائِلَةٌ، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا دَارَ اخْتِبَارٍ لَا دَارَ قَرَارٍ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِمَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قَالَ

(١) وفي الأصل وقع: قال: الروح بدل قوله: قل. الطبري: ١٧ / ٥٩٢ إسناده ضعيف لجهالة شيخ من أهل مصر (٢) الطبري: ١٧ / ٥٩٨، ٥٩٧ / ٥٩٨، (٣) الطبري: ١٧ / ٥٩٨ / (٤) أحمد: ٣ / ٢٢ / (٥) الطبري: ١٧ / ٥٩٩ / (٦) الطبري: ١٧ / ٥٩٩ / (٧) الطبري: ١٧ / ٦٠٠ / (٨) الطبري: ١٧ / ٦٠١

الْتَسَوْتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا
 شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ
 عَلَيْهِمْ يَسْأَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَطْلَمَ مِنْ أَقْرَبَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
 وَإِذْ اعْتَرَفْتَهُمْ وَمَا يَكْفُرُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّلًا إِلَى الْكَهْفِ بِشَرِّ لَكُمْ
 رَبِّكُمْ مِنَ رَحْمَتِهِ. وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾

[إِيمَانُهُمْ بِاللَّهِ وَاعْتِزَالُهُمُ الْقَوْمِ]

مِنْ هَهُنَا شَرَعَ فِي بَسْطِ الْقِصَّةِ وَشَرَحَهَا، فَذَكَرَ تَعَالَى
 أَنَّهُمْ فِتْنَةٌ وَهُمْ السَّبَابُ، وَهُمْ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ وَأَهْدَى لِلسَّبِيلِ
 مِنَ الشُّوْخِ الَّذِينَ قَدْ عَتَوْا وَانْعَمَسُوا فِي دِينِ الْبَاطِلِ،
 وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلرَسُولِهِ ﷺ سَبَابًا،
 وَأَمَّا الْمَشَايِخُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَعَامَّتُهُمْ بَقَا عَلَى دِينِهِمْ وَلَمْ
 يُسَلِّمْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ. وَهَكَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ
 الْكَهْفِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْنَةً سَبَابًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَلَغَنِي أَنَّهُ
 كَانَ فِي آدَانَ بَعْضُهُم الْفِرْطَةَ يَعْنِي الْحَلَقَ. فَالْتَمَهُمُ اللَّهُ
 رُشْدَهُمْ وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ، فَامْتُوا بِرَبِّهِمْ أَيْ اعْتَرَفُوا لَهُ
 بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَشَهِدُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَرِذْنَهُمْ هُدًى﴾.

إِسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيْمَةِ كَالْبُخَارِيِّ
 وَغَيْرِهِ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَقْاضِيهِ وَأَنَّهُ يَزِيدُ
 وَيَنْقُصُ ﴿٩﴾. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرِذْنَهُمْ هُدًى﴾ كَمَا

قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَانْتَهَمُ قَوْلَهُمْ﴾ [محمد:

١٧] وَقَالَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

[التوبة: ١٢٤] وَقَالَ: ﴿لِيُرَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِسْبَاهِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ

كَانُوا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاللَّهُ

أَعْلَمُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ بِالْكَلْبِيَّةِ،

فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ لَمَا اعْتَنَى أَحْبَابُ الْيَهُودِ

بِحِفْظِ خَبَرِهِمْ وَأَمْرِهِمْ لِمُبَابِيَّتِهِمْ لَهُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ أَنَّ قُرَيْشًا بَعَثُوا إِلَى أَحْبَابِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ يَطْلُبُونَ

مِنْهُمْ أَشْيَاءَ، يَمْتَحِنُونَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِمْ أَنْ

يَسْأَلُوهُ عَنْ خَبَرِ هَؤُلَاءِ، وَعَنْ خَبَرِ ذِي الْقُرَيْنِ، وَعَنْ

قَضَاءِ فَاجِعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشْدًا ﴿٨﴾.

الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴿١﴾ يَقُولُ: الَّذِي آتَيْتُكَ
 مِنَ الْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ وَالْكِتَابِ أَفْضَلُ مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ
 الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴿١﴾. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: مَا أَظْهَرَتْ
 مِنْ حُجْجِي عَلَى الْعِبَادِ أَعْجَبَ مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ
 وَالرَّقِيمِ ﴿٢﴾. وَأَمَّا الْكَهْفُ فَهُوَ الْعَارُ فِي الْجَبَلِ، وَهُوَ الَّذِي
 لَجَأَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْفِتْنَةُ الْمَذْكُورُونَ، وَأَمَّا الرَّقِيمُ فَقَالَ
 الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ وَادٍ قَرِيبٌ مِنْ أَيْلَةَ ﴿٣﴾. وَكَذَا
 قَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ الصَّحَّاحُ: أَمَّا الْكَهْفُ فَهُوَ
 عَارٌ فِي الْوَادِي ﴿٤﴾. وَالرَّقِيمُ اسْمُ الْوَادِي. وَقَالَ مُجَاهِدٌ:
 الرَّقِيمُ كَانَ بَنِيَانَهُمْ. وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْوَادِي الَّذِي فِيهِ
 كَهْفُهُمْ ﴿٥﴾.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿وَالرَّقِيمِ﴾:
 كَانَ يُزْعَمُ كَعْبٌ أَنَّهَا الْقَرْيَةُ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ
 عَبَّاسٍ: الرَّقِيمُ الْجَبَلُ الَّذِي فِيهِ الْكَهْفُ ﴿٦﴾. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ
 جُبَيْرٍ: الرَّقِيمُ لَوْحٌ مِنْ حِجَارَةٍ كَتَبُوا فِيهِ قِصَصَ أَصْحَابِ
 الْكَهْفِ، ثُمَّ وَضَعُوهُ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ ﴿٧﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْنَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَايِنَا مِنْ

لَذِكِ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أُولَئِكَ

الْفِتْنَةِ الَّذِينَ قَرَأُوا بِدِينِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، لِئَلَّا يَتَّبِعُوهُمْ عَنْهُ،

فَهَرَّبُوا مِنْهُمْ، فَلَجَأُوا إِلَى عَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَخْتَفُوا عَنْ

قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا حِينَ دَخَلُوا سَائِلِينَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى رَحْمَتَهُ

وَلُطْفَتَهُ بِهِمْ: ﴿رَبَّنَا ءَايِنَا مِنْ لَذِكِ رَحْمَةً﴾ أَيْ هَبْ لَنَا مِنْ

عِنْدِكَ رَحْمَةً تَرَحَّمْنَا بِهَا وَتَسْتُرْنَا عَنْ قَوْمِنَا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ

أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أَيْ وَقَدِّرْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا هَذَا رَشَدًا أَيْ: اجْعَلْ

عَاقِبَتَنَا رَشَدًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: ﴿وَمَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ

قَضَاءٍ فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا﴾ ﴿٨﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾

أَيِ أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حِينَ دَخَلُوا إِلَى الْكَهْفِ فَتَأَمَّوْا سِنِينَ

كثيرة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أَيْ مِنْ رَقَدَتِهِمْ تِلْكَ، وَخَرَجَ أَحَدُهُمْ

بِدِرَاهِمٍ مَعَهُ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ بِهَا طَعَامًا يَأْكُلُونَهُ، كَمَا سَيَأْتِي

بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِيُعْلَمَ أَيُّ الْمَرْجُوعِينَ﴾
 أَيِ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهِمْ ﴿أَحْصَى لِمَا لِيَتَّوْا أَمَدًا﴾ قِيلَ: عَدَدًا،
 وَقِيلَ: غَايَةً، فَإِنَّ الْأَمَدَ الْغَايَةَ، كَقَوْلِهِ:
 ﴿تَحَنَّنْ فَضُّ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ
 وَرِذْنَهُمْ هُدًى﴾ ﴿١٦﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ

(١) الطبري: ١٧/٦٠١ (٢) الطبري: ١٧/٦٠١ (٣) الطبري:

١٧/٦٠٢ العوفي وعائلته الضعفاء (٤) الطبري: ١٧/٦٠٢ (٥)

الطبري: ١٧/٦٠٢ (٦) ابن جريج مدلس لم يسمع من ابن

عباس والسند إليه ضعيف فيه الحسين بن داود المصيصي ضعيف

كان يلقن شيخه حجاج بن محمد (تقريب) (٧) الطبري: ١٧/٦٠٣

٦٠٣ (٨) أحمد: ٦/١٤٧ (٩) فتح الباري: ١/٦٠

الرُّوحَ، فَذَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مَحْفُوظٌ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنَّهُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَصَبَرْنَا هُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ، وَمُقَارَفَةَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالسَّعَادَةِ وَالنَّعْمَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَبْنَاءِ مُلُوكِ الرُّومِ وَسَادَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ خَرَجُوا يَوْمًا فِي بَعْضِ أَعْيَادِ قَوْمِهِمْ، وَكَانَ لَهُمْ مُجْتَمَعٌ فِي السَّنَةِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي ظَاهِرِ الْبَلَدِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالطَّوَاغِيتَ، وَيَذْبَحُونَ لَهَا، وَكَانَ لَهُمْ مَلِكٌ جَبَّارٌ غَنِيْدٌ يُقَالُ لَهُ: دَقْيَانُوسُ. وَكَانَ يَأْمُرُ النَّاسَ بِذَلِكَ وَيَحْتَنُطُهُمْ عَلَيْهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّاسُ لِمُجْتَمَعِهِمْ ذَلِكَ، وَخَرَجَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ مَعَ آبَائِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، وَنَظَرُوا إِلَى مَا يَصْنَعُ قَوْمُهُمْ بَعَيْنَ بَصِيرَتِهِمْ، عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي يَصْنَعُهُ قَوْمُهُمْ مِنَ السُّجُودِ لِأَصْنَامِهِمْ وَالذَّبْحِ لَهَا، لَا يَتَّبِعِي إِلَّا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَخَلَّصُ مِنْ قَوْمِهِ، وَيَتَحَارَزُ مِنْهُمْ، وَيَتَبَرَّرُ عَنْهُمْ نَاجِيَةً، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ جَلَسَ مِنْهُمْ وَحَدَهُ أَحَدُهُمْ، جَلَسَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ، فَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهَا عِنْدَهُ، وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، وَجَاءَ الْآخَرُ، وَجَاءَ الْآخَرُ، وَلَا يَعْرِفُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ الْآخَرَ، وَإِنَّمَا جَمَعَهُمْ هُنَاكَ الَّذِي جَمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ.

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيْقًا عَنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَازَرَ مِنْهَا ائْتَلَفَ»^(١). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ سُهَيْلٍ عَنِ أَبِيهِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢). وَالنَّاسُ يَقُولُونَ: الْجِنْسِيَّةُ عِلَّةُ الصَّمِّ. وَالْغَرَضُ أَنَّهُ جَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَكْتُمُ مَا هُوَ عَلَيْهِ عَنْ أَصْحَابِهِ خَوْفًا مِنْهُمْ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُمْ مِثْلُهُ حَتَّى قَالَ أَحَدُهُمْ: تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ يَا قَوْمِ إِنَّهُ مَا أَخْرَجَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَأَفْرَدَكُمْ عَنْهُمْ إِلَّا شَيْءٌ، فَلْيُظْهِرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا بِأَمْرِهِ، فَقَالَ آخَرُ: أَمَا أَنَا فَإِنِّي وَاللَّهِ رَأَيْتُ مَا قَوْمِي عَلَيْهِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحَدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ: السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا. وَقَالَ

الْآخَرُ: وَأَنَا وَاللَّهِ وَقَعَ لِي كَذَلِكَ، وَقَالَ الْآخَرُ كَذَلِكَ، حَتَّى تَوَافَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَصَارُوا يَدًا وَاحِدَةً، وَإِخْوَانٌ صَدِيقٌ، فَاتَّخَذُوا لَهُمْ مَعْبَدًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فِيهِ، فَعَرَفَ بِهِمْ قَوْمُهُمْ فَوَسَّوْا بِأَمْرِهِمْ إِلَى مَلِكِهِمْ فَاسْتَحْضَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ بِالْحَقِّ وَدَعَوْهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ يَقُولِهِ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوكَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا هَا﴾ وَلَنْ لِنَقِي التَّائِيْدِ أَيْ لَا يَبْعُ مِنَّا هَذَا أَبَدًا، لِأَنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَكَانَ بَاطِلًا، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا﴾ أَيْ بَاطِلًا وَهَيْئَانًا ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أَيْ هَلَّا أَقَامُوا عَلَى صِحَّةِ مَا دَهَبُوا إِلَيْهِ دَلِيلًا وَاضِحًا صَحِيحًا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يَقُولُونَ: بَلْ هُمْ ظَالِمُونَ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ، يَقَالُ: إِنَّ مَلِكَهُمْ لَمَّا دَعَوْهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَلْبَى عَلَيْهِمْ وَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ، وَأَمَرَ بِتَرْجِ لِبَاسِهِمْ عَنْهُمْ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ قَوْمِهِمْ، وَأَجْلَهُمْ لِيُنْظَرُوا فِي أَمْرِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ هَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِي تِلْكَ النَّظَرَةِ تَوَصَّلُوا إِلَى الْهَرْبِ مِنْهُ وَالْفَرَارِ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَ وُقُوعِ الْفِتْنِ فِي النَّاسِ أَنْ يَبْرَ الْعَبْدُ مِنْهُمْ خَوْفًا عَلَى دِينِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالٍ أَحَدِكُمْ غَنَمًا يَبْنَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَبْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتْنِ»^(٣). فَبِي هَذِهِ الْحَالِ تُشْرَعُ الْعُرْلَةُ عَنِ النَّاسِ وَلَا تُشْرَعُ فِيمَا عَدَاهَا، لِمَا يَقُوتُ بِهَا مِنْ تَرْكِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجَمْعِ، فَلَمَّا وَقَعَ عَزْمُهُمْ عَلَى الذَّهَابِ وَالْهَرْبِ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَاخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَعَزَّلْنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أَيْ: وَإِذْ فَارَقْتُمُوهُمْ وَخَالَفْتُمُوهُمْ بِأَذْيَابِكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ، فَفَارِقُوهُمْ أَيْضًا بِأَذْيَابِكُمْ، ﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ يَسْطُ عَلَيْكُمْ رَحْمَةً يَسْتُرْكُمْ بِهَا مِنْ قَوْمِكُمْ ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ﴿مِرْفَقًا﴾ أَيْ أَمْرًا تَرْتَقِقُونَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا هُرَابًا إِلَى الْكَهْفِ فَأَوَّا إِلَيْهِ، فَفَقَدَهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ

(١) فتح الباري: ٤٢٦/٦ (٢) مسلم: ٢٠٣١/٤ (٣) فتح الباري: ٨٧/١

بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَتَطَّلِبُهُمَّ الْمَلِكُ، فَيَقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَطْفُرْ بِهِمْ، وَعَمَى اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْرُهُمْ كَمَا فَعَلَ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَصَاحِبِهِ الصُّدِّيِّ حِينَ لَجَا إِلَى غَارِ نُورٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الطَّلَبِ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ مَعَ أَنَّهُمْ يَمُرُونَ عَلَيْهِ، وَعِنْدَهَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ رَأَى جَزَعَ الصُّدِّيِّ فِي قَوْلِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى مَوْضِعِ قَدَمِيهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِأَثْنَيْنِ اللَّهُ تَائِيَهُمَا؟»^(١). وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا نَضْرِبُهَا فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلْنَا اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلْنَا كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فَفِيصَةُ هَذَا الْغَارِ أَشْرَفٌ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمٌ وَأَعَجَبٌ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.

﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّرَ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مَهْتَدٍ وَمَن يَضِلْ فَلَن يُجِدْ لَهُ وِلِيًّا مُّرْسِدًا﴾ (١٧)

[موقع الكهف]

وَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَابَ هَذَا الْكَهْفِ كَانَ مِنْ نَحْوِ الشِّمَالِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا دَخَلَتْهُ عِنْدَ طُلُوعِهَا تَرَوُّرٌ عَنْهُ ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أَيَّ يَنْقَلِبُ الْفَيْءُ يَمِينَهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَفَتَاةٌ: ﴿تَرَوُّرٌ﴾ أَيَّ تَمِيلُ^(٢). وَذَلِكَ أَنَّهَا كَلَّمَا ارْتَفَعَتْ فِي الْأَفْقِ تَقَلَّصَ شِعَاعُهَا بِارْتِفَاعِهَا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ عِنْدَ الزَّوَالِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أَيَّ تَدْخُلُ إِلَى غَارِهِمْ مِنْ شِمَالِ بَابِهِ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ، فَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا، وَهَذَا بَيْنَ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وَكَانَ لَهُ عِلْمٌ بِمَعْرِفَةِ الْهَيْئَةِ وَسَبْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ. وَيَبَيِّنُهُ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ بَابُ الْغَارِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ لَمَا دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الْغُرُوبِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ نَاحِيَةِ الْقِبْلَةِ لَمَا دَخَلَ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الطُّلُوعِ وَلَا عِنْدَ الْغُرُوبِ، وَلَا تَرَوُّرُ الْفَيْءِ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَلَوْ كَانَ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِ لَمَا دَخَلَتْهُ وَقَتْ الطُّلُوعِ بَلْ بَعْدَ الزَّوَالِ، وَلَمْ تَزَلْ فِيهِ إِلَى الْغُرُوبِ، فَتَعَيَّنَ مَا ذَكَرْنَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَفَتَاةٌ: تَقْرِضُهُمْ تَتَرَكُهُمْ^(٣).

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَأَرَادَ مِنَّا فَهَمَهُ وَتَدَبُّرَهُ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِمَكَانِ هَذَا الْكَهْفِ فِي أَيِّ الْبِلَادِ مِنَ الْأَرْضِ، إِذْ لَا فَائِدَةَ لَنَا فِيهِ وَلَا قُصْدَ شَرْعِيٍّ، وَلَوْ كَانَ لَنَا فِيهِ مَضْلِحَةٌ دِينِيَّةٌ لَأَرْشَدْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ إِلَيْهِ، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ»^(٤). فَأَعْلَمْنَا تَعَالَى بِصِفَتِهِ، وَلَمْ يُعْلَمْنَا بِمَكَانِهِ، فَقَالَ: ﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّرَ عَن كَهْفِهِمْ﴾ قَالَ مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: تَمِيلُ ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أَيَّ فِي مَتَسَعٍ مِنْهُ دَاخِلًا بِحَيْثُ لَا تُصِيبُهُمْ، إِذْ لَوْ أَصَابَتْهُمْ لَأَخْرَقَتْ أَبْدَانَهُمْ وَيَتَابَهُمْ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٥). ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ حَيْثُ أَرْشَدَهُمْ تَعَالَى إِلَى هَذَا الْغَارِ الَّذِي جَعَلَهُمْ فِيهِ أَحْيَاءَ، وَالشَّمْسُ وَالرِّيحُ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِيهِ لِتَبْقَى أَبْدَانُهُمْ،

(١) فتح الباري: ١١/٧ (٢) الطبري: ١٧/٦٢٠ (٣) الطبري: ١٧/٦٢٢، ٦٢١ (٤) عبد الرزاق: ١١/١٢٥ (٥) الطبري: ١٧/٦٢٠

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾... الآية، أَي هُوَ الَّذِي أَرْشَدَهُ هُوَ لَا إِيَّاهُ إِلَى الْهُدَى، فَإِنَّهُ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

﴿وَتَحَسَّبُ أُنْقَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ وَيُقْبَلُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِينَ وَدَّاتِ السَّمَاءَ وَكَلْبَهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلِيَّتٌ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ (١٨)

[رُفُودُهُمْ فِي الْكُهْفِ]

ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ عَلَى آذَانِهِم بِالنُّوْمِ، لَمْ تَنْطَبِقْ أَعْيُنُهُمْ لِئَلَّا يُسْرِعَ إِلَيْهَا الْبَلْبَى، فَإِذَا بَقِيَتْ ظَاهِرَةٌ لِلْهَوَاءِ كَانَ أَبْقَى لَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحَسَّبُ أُنْقَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الذُّبِّ أَنَّهُ يَنَامُ فَيَطْبُقُ عَيْنًا وَيَنْفُتِحُ عَيْنًا، ثُمَّ يَفْتَحُ هَذِهِ وَيَطْبُقُ هَذِهِ وَهُوَ رَاقِدٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقِلُّهُمْ ذَلِكَ الَّذِينَ وَدَّاتِ السَّمَاءَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ لَمْ يُقْبَلُوا لَأَكَلَتْهُمْ الْأَرْضُ^(١). قَوْلُهُ: ﴿وَكَلْبَهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: الْوَصِيدُ: الْفِئَاءُ^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِالْبَابِ^(٣). وَقِيلَ: بِالصَّعِيدِ وَهُوَ التُّرَابُ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ بِالْفِئَاءِ وَهُوَ الْبَابُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ﴾ أَي مُطَبَّقَةٌ مُغْلَقَةٌ، وَيُقَالُ: وَصِيدٌ وَأَصِيدٌ. رِبِضٌ كَلْبُهُمْ عَلَى الْبَابِ كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْكِلَابِ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَحْرُسُ عَلَيْهِمُ الْبَابُ^(٤). وَهَذَا مِنْ سَجِيئَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ حَيْثُ يَرِيبُضُ بِنَابِهِمْ، كَأَنَّهُ يَحْرُسُهُمْ، وَكَانَ جُلُوسُهُ خَارِجَ الْبَابِ، لِأَنَّ الْمَلَايِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ - كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ - وَلَا صُورَةٌ وَلَا حَنْبٌ وَلَا كَافِرٌ. كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْحَسَنِ. وَسَمَلَتْ كَلْبُهُمْ بَرَكَّتُهُمْ فَأَصَابَتْهُمَا أَصَابُهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَهَذَا فَائِدَةٌ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ، فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبْرٌ وَسَانٌ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ كَلْبٌ صَوَّبٌ لِأَحَدِهِمْ، وَهُوَ الْأَشْبَةُ، وَقِيلَ: كَلْبٌ طَبَّاحُ الْمَلِكِ، وَقَدْ كَانَ وَاقِفُهُمْ عَلَى الدِّينِ [فَصَحْبُهُ] كَلْبُهُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلِيَّتٌ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ أَي إِنَّهُ تَعَالَى أَلْقَى عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرٌ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ، لِمَا أَلْسُوا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالذُّعْرِ، لِئَلَّا يَدْنُو مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَا تَمَسَّهُمْ يَدٌ لَامِسٍ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَتَنْقُضِي رُفُودُهُمُ الَّتِي

شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِمْ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ: مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ، وَالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءِهِمْ نِسَاءً لَوْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (١٩) ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ (٢٠)

[اسْتَيْقَاطُهُمْ وَبَعَثْتُهُمْ أَحَدَهُمْ لِشِرَاءِ الطَّعَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْقَدْنَاهُمْ بَعَثْنَاهُمْ صَاحِبَةً أَبْدَانُهُمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَأَبْشَارُهُمْ، لَمْ يَقْدِرُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَهَيَاتِهِمْ شَيْئًا وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَسِتِّ سِنِينَ، وَلِهَذَا نَسَاءُوا بَيْنَهُمْ ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ أَي كَمْ رَقَدْتُمْ؟ ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لِأَنَّهُ كَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى الْكُهْفِ فِي أَوَّلِ نَهَارٍ، وَاسْتَيْقَاطُهُمْ كَانَ فِي آخِرِ نَهَارٍ، وَلِهَذَا اسْتَدْرَكُوا فَقَالُوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ أَي اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَمْرِكُمْ، وَكَأَنَّهُ حَصَلَ لَهُمْ نَوْعٌ تَرَدَّدَ فِي كَثْرَةِ نَوْمِهِمْ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الْأَهَمِّ فِي أَمْرِهِمْ إِذْ ذَاكَ، وَهُوَ اخْتِيَاجُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَقَالُوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ اسْتَضْحَبُوا مَعَهُمْ دَرَاهِمَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا، فَتَصَدَّقُوا مِنْهَا وَبَقِيَ مِنْهَا، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾ إِلَى الْمَدِينَةِ أَي مَدِينَتِكُمْ الَّتِي خَرَجْتُمْ مِنْهَا، وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ لِلْعَهْدِ ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أَي أَطْيَبُ طَعَامًا. كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢٧] وَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] وَمِنْهُ الزَّكَاةُ الَّتِي تُطَيَّبُ الْمَالُ وَتُطَهَّرُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أَي فِي خُرُوجِهِ وَدَهَابِهِ وَسَرَائِهِ وَإِيَابِهِ، يَقُولُونَ: وَلْيَتَخَفَّ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أَي وَلَا يُعْلِمَنَّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ (٢٠) ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أَي إِنْ عَلِمُوا بِمَكَانِكُمْ ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يَعْنُونَ أَصْحَابَ دَقْيَانُوسَ، يَخَافُونَ مِنْهُمْ أَنْ

(١) الطبري: ١٧/٦٢٠ (٢) الطبري: ١٧/٦٢٤، ٦٢٥ (٣)

الطبري: ١٧/٦٢٥ (٤) الطبري: ١٧/٦٢٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا بِنِجَارِئِهِمْ لَعَلَّ بَعْضٌ لَنَا بِهِمْ غَلْبَةٌ وَعَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿١١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَحْمًا بَالِغِيٍّ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل ربي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمُ الْإِمْرَاءَ ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِي أَرَأَيْتَ إِنْ بَدَّلْتُكَ إِلَى بَيْتٍ آخَرَ مِنْ بَيْتِكَ لَتُفِيكُنَّ بِهَا بِرَبِّكَ إِذَا سَأَلْتَهُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِيَوْمِئِذٍ قُلْ إِنِّي أَخَذْتُ مِنَ اللَّهِ عَهْدًا ﴿١٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبُّكَ إِذَا اسْتَفْتَيْتَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَسْأَلُوكَ اللَّهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِمْ لَعَلَّ بَعْضٌ لِيَوْمِئِذٍ يَكْفُرُونَ لِيَوْمِئِذٍ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلُوا ضَلَالَةً وَآتَاهُ عَلَى ذَلِكَ ﴿١٤﴾ وَذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي شَرَاءِ شَيْءٍ لَهُمْ لِيَأْكُلُوا، تَنَكَّرَ وَخَرَجَ بِشَيْءٍ فِي غَيْرِ الْجَادَةِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَكَرُوا أَنَّ اسْمَهَا دُفُسُوسٌ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِهَا، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ تَبَدَّلُوا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَتَعَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا، فَجَعَلَ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا، وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا: لَا خَوَاصَّهَا وَلَا عَوَامَّهَا، فَجَعَلَ يَتَحَيَّرُ فِي نَفْسِهِ وَيَقُولُ: لَعَلَّ بِي جُنُونًا أَوْ مَسًا أَوْ أَنَا حَالِمٌ، وَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا بِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ عَهْدِي بِهَذِهِ الْبَلَدَةِ عَشِيَّةَ أَمْسٍ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصَّفَةِ. ثُمَّ قَالَ: إِنْ تَعَجَّلَ الْخُرُوجُ مِنْ هَهُنَا لِأَوْلَى لِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ التَّقْفِي، وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَهُ بِهَا طَعَامًا، فَلَمَّا رَأَاهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا، فَدَفَعَهَا إِلَى جَارِهِ، وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَقُولُونَ: لَعَلَّ هَذَا وَجَدَ كَثْرًا، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْرِهِ وَوَيْسَ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ التَّقْفِي؟ لَعَلَّهُ وَجَدَهَا مِنْ كَثْرٍ، وَمَنْ أَنْتَ؟ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدَةِ، وَعَهْدِي بِهَا عَشِيَّةَ أَمْسٍ وَفِيهَا دَقِيَانُوسٌ، فَسَبَّوهُ إِلَى الْجُنُونِ، فَحَمَلُوهُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهِمْ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَأْنِهِ وَخَبَرَهُ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ مُتَحَيَّرٌ فِي حَالِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ، فَلَمَّا

يَطَّلِعُوا عَلَى مَكَانِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ يُعَذِّبُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِلَى أَنْ يُعِيدُوهُمْ فِي مَلِيَّتِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، أَوْ يَمُوتُوا. وَإِنْ وَافَقْتُمُوهُمْ عَلَى الْعُودِ فِي الدِّينِ، فَلَا فَلَاحَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَنْ تُمْلِحُوا إِذَا أَكِدَّا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا بِنِجَارِئِهِمْ لَعَلَّ بَعْضٌ لَنَا بِهِمْ غَلْبَةٌ وَعَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿١١﴾﴾

اعترضوا أهل البلد عليهم وبنواؤهم تذكاراً على الكهف

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴿ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ حَصَلَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ شَكٌّ فِي الْبُعْثِ وَفِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: كَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ قَدْ قَالُوا: تُبْعَثُ الْأَرْوَاحُ وَلَا تُبْعَثُ الْأَجْسَادُ، فَبَعَثَ اللَّهُ أَهْلَ الْكُهْفِ حُجَّةً وَدَلَالَةً وَآيَةً عَلَى ذَلِكَ ^(١). وَذَكَرُوا: أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي شَرَاءِ شَيْءٍ لَهُمْ لِيَأْكُلُوا، تَنَكَّرَ وَخَرَجَ بِشَيْءٍ فِي غَيْرِ الْجَادَةِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَكَرُوا أَنَّ اسْمَهَا دُفُسُوسٌ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِهَا، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ تَبَدَّلُوا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَتَعَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا، فَجَعَلَ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا، وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا: لَا خَوَاصَّهَا وَلَا عَوَامَّهَا، فَجَعَلَ يَتَحَيَّرُ فِي نَفْسِهِ وَيَقُولُ: لَعَلَّ بِي جُنُونًا أَوْ مَسًا أَوْ أَنَا حَالِمٌ، وَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا بِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ عَهْدِي بِهَذِهِ الْبَلَدَةِ عَشِيَّةَ أَمْسٍ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصَّفَةِ. ثُمَّ قَالَ: إِنْ تَعَجَّلَ الْخُرُوجُ مِنْ هَهُنَا لِأَوْلَى لِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ التَّقْفِي، وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَهُ بِهَا طَعَامًا، فَلَمَّا رَأَاهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا، فَدَفَعَهَا إِلَى جَارِهِ، وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَقُولُونَ: لَعَلَّ هَذَا وَجَدَ كَثْرًا، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْرِهِ وَوَيْسَ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ التَّقْفِي؟ لَعَلَّهُ وَجَدَهَا مِنْ كَثْرٍ، وَمَنْ أَنْتَ؟ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدَةِ، وَعَهْدِي بِهَا عَشِيَّةَ أَمْسٍ وَفِيهَا دَقِيَانُوسٌ، فَسَبَّوهُ إِلَى الْجُنُونِ، فَحَمَلُوهُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهِمْ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَأْنِهِ وَخَبَرَهُ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ مُتَحَيَّرٌ فِي حَالِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ، فَلَمَّا

أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ فَأَمَرُوا مَعَهُ إِلَى الْكُهْفِ - مَلِكُ الْبَلَدِ وَأَهْلُهَا - حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْكُهْفِ فَقَالَ لَهُمْ: دَعُونِي حَتَّى أَتَقَدَّمَكُمْ فِي الدُّحُولِ لِأَعْلِمَ أَصْحَابِي فَدَخَلَ، فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ ذَهَبَ فِيهِ، وَأَخْفَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَبْرَهُمْ، وَيَقَالُ بَلْ دَخَلُوا عَلَيْهِمْ وَرَأَوْهُمْ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ وَاعْتَنَقَهُمْ، وَكَانَ مُسْلِمًا فِيمَا قِيلَ، وَأَسْمُهُ يَنْدُوسِيْسُ، فَفَرِحُوا بِهِ وَأَسْوَهُ بِالْكَلامِ، ثُمَّ وَدَّعُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، وَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَتَوَقَّاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(٢).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾ أي كما أرفقناهم وأيقظناهم بهياتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنزعون بينهم أمرهم ﴿أي في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف

(١) تاريخ الطبري: ٩/٢ (٢) تاريخ الطبري: ٩/٢

هَيْئًا، فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ كَبِيرٌ فَإِنَّهُ
 ﴿وَلَا سَتَفَتَ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أَيِّ فَإِنَّهُمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ
 بِذَلِكَ إِلَّا مَا يَقُولُونَهُ، مِنْ تَلْفَاءِ أَنْفُسِهِمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ، أَيِ
 مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَى كَلَامٍ مَعْصُومٍ، وَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ
 بِالْحَقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ فِيهِ، فَهُوَ الْمُقَدَّمُ الْحَاكِمُ
 عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَقْوَالِ.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ (١٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 وَأَذْكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا
 رَشَدًا﴾ (١٤)

[الاستِثْنَاءُ عِنْدَ الْعَزْمِ عَلَى فِعْلٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ]

هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ إِلَى الْأَدَبِ
 فِيمَا إِذَا عَزَمَ عَلَى شَيْءٍ لِيَفْعَلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَنْ يَرُدَّ ذَلِكَ
 إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَامُ الْغُيُوبِ الَّذِي يَعْلَمُ مَا كَانَ
 وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كُنْفَ يَكُونُ، كَمَا بَيَّنَّ فِي
 الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:
 «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لِأَطْوَفِ اللَّيْلَةِ عَلَى

سَبْعِينَ امْرَأَةً - وَفِي رِوَايَةٍ: تَسْعِينَ امْرَأَةً، وَفِي رِوَايَةٍ: مِائَةً
 امْرَأَةً - تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
 فَقِيلَ لَهُ: - وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ لَهُ الْمَلِكُ - : قُلْ: إِنْ شَاءَ
 اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً
 نِصْفَ إِنْسَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ
 قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَخْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ» وَفِي
 رِوَايَةٍ: «وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ» (٥). وَقَدْ
 تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْلِ
 النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكُهْفِ: «عَدَاً
 أُجِيبُكُمْ» فَتَأَخَّرَ الْوَحْيُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا (٦). وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ
 بِطَوِيلِهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، فَأَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

وقوله: ﴿وَأَذْكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ إِذَا نَسِيتَ
 الْإِسْتِثْنَاءَ، فَاسْتَشْنِ عِنْدَ ذِكْرِكَ لَهُ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ
 الْبَصْرِيُّ (٧). وَقَالَ هُشَيْمٌ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ
 عَبَّاسٍ فِي الرَّجُلِ يَحْلِفُ، قَالَ: لَهُ أَنْ يَسْتَنْتِي وَلَوْ إِلَى
 سَنَةٍ، وَكَانَ يَقُولُ: ﴿وَأَذْكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فِي ذَلِكَ.

(١) فتح الباري: ١/٦٣٤ (٢) البداية والنهاية: ٨٨/٧ (٣)
 الطبري: ١٧/٦٤٢ (٤) الطبري: ١٧/٦٤٢ (٥) فتح الباري:
 ٦/٤١ ومسلم: ٣/١٢٧٥ (٦) الطبري: ١٧/٥٩٢ (٧)
 الطبري: ١٧/٦٤٥

حُجَّةَ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ ﴿فَقَالُوا أَبْنَاؤُا عَلَيْهِمْ بُخْنًا رَزَيْنَاهُمْ أَنْعَلَمُ بِهِمْ﴾
 أَيِ شُدُوا عَلَيْهِمْ بَابَ كَهْفِهِمْ، وَذَرَوْهُمْ عَلَى حَالِهِمْ ﴿قَالَ
 الَّذِي عَلَيْهِمْ عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَنْحَدِثَكَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ الَّذِينَ قَالُوا
 ذَلِكَ هُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ وَالنَّفُودِ، وَلَكِنْ هَلْ هُمْ
 مَحْمُودُونَ أَمْ لَا؟ فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ
 الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ
 مَسَاجِدَ يُحَدِّثُونَ مَا فَعَلُوا» (١). وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا وَجَدَ قَبْرَ دَانِيَالِ فِي
 زَمَانِهِ بِالْعِرَاقِ، أَمَرَ أَنْ يُحْفَى عَنِ النَّاسِ، وَأَنْ تُذْفَنَ تِلْكَ
 الرَّفْعَةُ الَّتِي وَجَدُوهَا عِنْدَهُ (٢). فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَلَاحِمِ
 وَغَيْرِهَا.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
 كَذِبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُهُمْ كَذِبُهُمْ قُلْ رَبِّي
 أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ
 وَلَا سَتَفَتَ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (١٧)
 [عَدَّتُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي عِدَّةِ
 أَصْحَابِ الْكُهْفِ، فَحَكَى ثَلَاثَةً أَقْوَالٍ، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا
 قَائِلَ بِرَاجِحٍ، وَلَمَّا ضَعَفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَجْمًا
 بِالْغَيْبِ﴾ أَيِ قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ، كَمَنْ يَرْمِي إِلَى مَكَانٍ لَا
 يَعْرِفُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُصِيبُ وَإِنْ أَصَابَ فَبِلَا قُضْدٍ. ثُمَّ
 حَكَى الثَّلَاثَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَوْ قَرَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَثَامُهُمْ
 كَذِبُهُمْ﴾ فَذَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ
 الْأَمْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ
 الْأَحْسَنَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ لَا
 اخْتِيَاجَ إِلَى الْخَوْصِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ بِلَا عِلْمٍ، لَكِنْ إِذَا
 أُطْلِعْنَا عَلَى أَمْرٍ قُلْنَا بِهِ وَإِلَّا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا.

وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أَيِ مِنَ النَّاسِ. قَالَ
 قَتَادَةُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ الَّذِي اسْتَشَى اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ، كَانُوا سَبْعَةً (٣). وَكَذَا رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءِ
 الْخُرَّاسَانِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَنَا مِمَّنْ اسْتَشَى اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ، وَيَقُولُ: عَدَّتُهُمْ سَبْعَةٌ (٤). وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ
 عَبَّاسٍ: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قَالَ: أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ كَانُوا
 سَبْعَةً. فَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُمْ كَانُوا
 سَبْعَةً. وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا قَدَّمْنَاهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ﴾ أَيِ سَهْلًا

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَنَتِ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدِ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أَعْفُنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ
شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا اللَّهُ بِمَا
فَعَلُوا وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا
أَلْفَاظٌ وَلَا مَوَدَّةٌ وَلَا يُنصَرُونَ فِيهَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ
لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلُونَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣٠﴾ وَأَصْرَبَ
لَهُمْ مَثَلًا لِرَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣١﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ أَنْتَ أَكْثَمًا وَلَمْ
تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٢﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَا لِيَ وَأَعْرَضْنَا ﴿٣٣﴾

عبدالله: (وقالوا: ولئبوا)، يعني: أنه قاله الناس^(٤).
وهكذا قال مطرف بن عبيدالله^(٥). وفي هذا الذي رُغمه
فتأدُّ نظراً، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب: أنهم لبثوا
ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله
قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَأَزْدَادُوا سَعًا﴾ والظاهر من
الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم وهذا اختيار
ابن جرير رحمه الله، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي أنه بصير بهم سميع
لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح،
كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه^(٦). وتأويل الكلام: ما أبصر

(١) الطبري: ١٧/٦٤٥ تبين من هذا أن الأعمش دلس حيث
سمعه من ليث بن أبي سليم وهو مختلط ولم يتميز حديثه فترك
(تقريب) (٢) الطبري: ١٧/٦٤٦ (٣) الطبراني في الأوسط:
١٧/٤٥٥/٧ ضعيف إسناده فيه عبدالعزيز بن حصين وهو ضعيف (٤)
الطبري: ١٧/٦٤٧ (٥) الطبري: ١٧/٦٤٨ (٦) الطبري:
١٧/٦٥٠

قِيلَ لِلأَعْمَشِ: سَمِعْتَهُ عَنْ مُجَاهِدٍ؟ فَقَالَ: حَدَّثَنِي بِهِ لَيْثُ
ابْنُ أَبِي سَلِيمٍ يَرَى ذَهَبَ كَسَائِيهِ هَذَا^(١). وَمَعْنَى قَوْلِ ابْنِ
عَبَّاسٍ أَنَّهُ يَسْتَشْفِي وَلَوْ بَعْدَ سَنَةٍ، أَيْ إِذَا نَسِيَ أَنْ يَقُولَ فِي
حَلْفِهِ أَوْ فِي كَلَامِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ وَلَوْ بَعْدَ سَنَةٍ، فَالْسُّنَةُ
لَهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ، لِيَكُونَ آتِيًا بِسُنَّتِهِ الْإِسْتِثْنَاءِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ
بَعْدَ الْجَنُثِ - قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَنَصَّ عَلَى
ذَلِكَ^(٢) - لَا أَنْ يَكُونَ رَافِعًا لِجَنُثِ الْيَمِينِ وَمُسْقِطًا
لِلْكَفَّارَةِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ
الصَّحِيحُ، وَهُوَ الْأَلْتِنُ بِحَمَلِ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ
لِشَاءِي إِنْ فَعِلَ ذَلِكَ عَدَاً﴾^(٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكَرَ رَبِّكَ
إِذَا نَسِيتَ﴾ أَنْ تَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلْ عَسَى
أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أَيْ إِذَا سُئِلْتَ عَنْ شَيْءٍ
لَا تَعْلَمُهُ، فَاسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ، وَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُوفِّقَكَ
لِلصَّوَابِ وَالرُّشْدِ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ قُلِ
اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ
وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ، مِنْ وَلِيِّ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ
أَحَدًا ﴿٣٤﴾

[مُدَّة قِيَامِهِمْ فِي الْكَهْفِ]

هَذَا خَبْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِمِقْدَارِ مَا لَبِثَ
أَصْحَابُ الْكَهْفِ فِي كَهْفِهِمْ مُنْذُ أَرْقَدُوهُ إِلَى أَنْ بَعَثَهُمُ اللَّهُ
وَأَعَثَّرَ عَلَيْهِمْ أَهْلَ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَأَنَّهُ كَانَ مِقْدَارُهُ ثَلَاثِ مِائَةِ
سَنَةٍ تَزِيدُ تِسْعَ سِنِينَ بِالْهَلَالِيَّةِ، وَهِيَ الثَّلَاثُمِائَةُ سَنَةً
بِالْشَّمْسِيَّةِ، فَإِنَّ تَفَاوُتَ مَا بَيْنَ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ بِالْقَمَرِيَّةِ إِلَى
الشَّمْسِيَّةِ ثَلَاثُ سِنِينَ، فَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ الثَّلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ: ﴿وَأَزْدَادُوا
تِسْعًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ أَيْ إِذَا سُئِلْتَ عَنْ
لَيْسِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمٌ فِي ذَلِكَ، وَتَوَقَّفَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى،
فَلَا تَتَقَدَّمْ فِيهِ بِشَيْءٍ، بَلْ قُلْ فِي مِثْلِ هَذَا ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
لَيْسُوا لَهُمْ غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ
وَمَنْ أَطَّلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَهَذَا الَّذِي قُلْنَا، عَلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ
مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ كَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ
سِنِينَ﴾ الْآيَةِ، هَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ رَدَّهُ اللَّهُ
تَعَالَى يَقُولُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ قَالَ: وَفِي قِرَاءَةِ

صَحِيحِهِ عَنْ سَعْدِ هُوَ ابْنُ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نَقْرُ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَطْرُدُ هَؤُلَاءِ لَا يَجْرُؤُونَ عَلَيْنَا قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هَذِلِ وَبِلَالٍ، وَرَجُلَانِ نَسِيتُ اسْمَيْهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَسَاءُ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ دُونَ الْبَحَارِيِّ (٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تَرْيُدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلَا تُجَاوِزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ (٦). يَعْنِي تَطَلَّبُ بَدَلَهُمْ أَصْحَابَ الشَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ، ﴿وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَيُّ شَعُلٍ عَنِ الدِّينِ وَعِبَادَةِ رَبِّهِ بِالدُّنْيَا، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ أَيُّ أَعْمَالُهُ وَأَفْعَالُهُ سَفَهًا وَتَفْرِيطًا وَضَيَاعًا، وَلَا تَكُنْ مُطِيعًا وَلَا مُجَبِّئًا لِطَرِيقَتِهِ، وَلَا تَغْبِطُهُ بِمَا هُوَ فِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ حَيْرٌ وَابْتِئَانٌ﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُوا بِعُلَّتَائِهِمْ كَلْمُهُمْ يَسْوَى الْوُجُوهِ بِسُكِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الحق من الله وحجرا من لم يؤمن به]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَقُلِ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ مِنْ رَبِّكُمْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أَيُّ أَعْتَدْنَا لِظُلْمِ الْظَالِمِينَ ﴿وَهُمُ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ﴾ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقُهَا أَيُّ سُورِهَا.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقُهَا﴾ قَالَ: حَاطَ مِنْ نَارٍ (٧). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَسْتَعِثُوا بِعُلَّتَائِهِمْ كَلْمُهُمْ يَسْوَى الْوُجُوهِ﴾ الْآيَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلْمُهُلُ: الْمَاءُ الْعَلِيطُ مِثْلُ دُرُوبِ الرَّبِيعِ (٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ كَالدَّمَ وَالْقَيْحِ (٩). وَقَالَ عِكْرَمَةُ: هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي أَنْتَهَى حَرُّهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ كُلُّ شَيْءٍ أُذِيبَ (١٠). وَقَالَ قَتَادَةُ:

اللَّهُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَأَسْمَعُهُ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ. ثُمَّ رَوَى عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ﴾ فَلَا أَحَدٌ أَبْصَرَ مِنَ اللَّهِ وَلَا أَسْمَعُ (١١). وَقَوْلُهُ: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أَيُّ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يَسَّرَ لَهُ وَزِيرٌ، وَلَا نَصِيرٌ، وَلَا شَرِيكٌ، وَلَا مُشِيرٌ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ.

﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّلًا﴾ (١٢) وَأَصْبَرَ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تَرْيُدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَّعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا (١٣)

[الأمْرُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَبِالصَّبْرِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَإِبْلَاغِهِ إِلَى النَّاسِ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أَيُّ لَا مُعَيَّرَ لَهَا وَلَا مُحَرَّفَ وَلَا مُؤَوَّلَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّلًا﴾ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿مُتَعَدِّلًا﴾ قَالَ: مَلْجَأٌ (١٤). وَعَنْ قَتَادَةَ: وَلِيًّا وَلَا مَوْلَى (١٥). قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَقُولُ: إِنْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ لَمْ تَتَلَّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَكَ مِنَ اللَّهِ (١٦). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِأَيِّهَا الرَّسُولُ بَلَغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَقْضِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٤٧] وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [النقص: ٨٥] أَيُّ سَأَلْتُكَ عَمَّا فَرَضَ عَلَيْكَ مِنْ إِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيُّ اجْلِسْ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيُهَلِّلُونَهُ، وَيُحَمِّدُونَهُ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَيُكَبِّرُونَهُ، وَيَسْأَلُونَهُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، مِنْ عِبَادِ اللَّهِ سِوَاءِ كَانُوا فُقَرَاءَ أَوْ أَغْنِيَاءَ، أَوْ أَقْوِيَاءَ أَوْ ضَعَفَاءَ. يُقَالُ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ حِينَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْلِسَ مَعَهُمْ وَحْدَهُ، وَلَا يُجَالِسُهُمْ بِضِعْفَاءِ أَصْحَابِهِ، كِبَالٍ وَعَمَارٍ وَضَهَبٍ وَخَبَابٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَلِيُفْرِدَ أَوْلِيكَ بِمَجْلِسٍ عَلَى جِدَةٍ، فَتَهَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ فَسَالَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ... الْآيَةُ [الأنعام: ٥٢]، وَأَمْرُهُ أَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ فِي الْجُلُوسِ مَعَ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الْآيَةُ، وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي

(١) الطبري: ١٧/٦٥٠ (٢) الطبري: ١٧/٦٥١ (٣) الطبري: ١٧/٦٥١ (٤) الطبري: ١٧/٦٥١ (٥) مسلم: ٤/١٨٧٨ (٦) الطبري: ١٨/٦ (٧) الطبري: ١٨/١١ (٨) الطبري: ١٨/١١ (٩) الطبري: ١٨/١٣ (١٠) الطبري: ١٨/١٢

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ، وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ
 أَبَدًا ﴿٢٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي
 لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
 أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا
 ﴿٢٧﴾ لَيْكَأَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ
 دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا
 أَقْلَ مِنْكَ مَا لَوْلَا وَوَلَدًا ﴿٢٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ
 جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا
 زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَا وَهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾
 وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِحْ يَقْلِبُ كَتَبَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
 عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ
 فِتْنَةٌ يَبْصُرُوهَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ
 لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
 فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

﴿وَيَلْبَسُونَ نِيَابًا خَضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسُّندُسُ لباسٌ
 رفيعٌ رقيقٌ كالقَمِصَانِ وَمَا جَرَىٰ مَجْرَاهَا. وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَقُ
 فَعَلِيظُ الدِّيَابِجِ وَفِيهِ بَرِيْقٌ.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الْإِتِّكَاءُ قِيلَ:
 الْأَضْطِجَاعُ، وَقِيلَ: التَّرْتُّعُ فِي الْجُلُوسِ، وَهُوَ أَشْبَهُهُ
 بِالْمَرَادِ هَهُنَا، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «أَمَّا أَنَا فَلَا أَكُلُ
 مُتَّكِنًا»^(٤). وَالْأَرَائِكُ جَمْعُ أَرِيكَةٍ، وَهِيَ السَّرِيرُ تَحْتَ
 الْحِجَلَةِ، وَالْحِجَلَةُ كَمَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ فِي زَمَانِنَا هَذَا
 بِالْبَاشِيخَانَاةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قَالَ قَتَادَةَ: هِيَ
 الْحِجَالُ، قَالَ مَعْمَرٌ وَقَالَ غَيْرُهُ: السَّرُّرُ فِي الْحِجَالِ^(٥).

وقوله: ﴿يَعْمُ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أَي نَعِمَتِ الْحِجَّةُ
 ثَوَابًا عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا، أَي حَسُنَتْ مَنَزَلًا
 وَمَقِيلًا وَمُقَامًا، كَمَا قَالَ فِي النَّارِ: ﴿يَسُكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ

(١) الطبري: ١٣/١٨ (٢) الطبري: ١٣/١٨ (٣) الطبري: ١٤/١٨ (٤) تحفة الأحوذى: ٥٥٧/٥ (٥) الطبري: ٢٣/٦٣.

أَذَابَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَيْئًا مِنَ الذَّهَبِ فِي أُخْدُودٍ، فَلَمَّا انْمَاعَ
 وَأَزِيدَ، قَالَ: هَذَا أَشْبَهُهُ شَيْءٌ بِالْمُهْلِ^(١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ:
 مَاءٌ جَهَنَّمَ أَسْوَدٌ وَهِيَ سَوْدَاءٌ وَأَهْلُهَا سُودٌ^(٢). وَهَذِهِ
 الْأَقْوَالُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا يُبْنَى الْآخِرُ، فَإِنَّ الْمُهْلَ يَجْمَعُ
 هَذِهِ الْأَوْصَافَ الرَّذِيْلَةَ كُلَّهَا، فَهُوَ أَسْوَدٌ مُتَيَّنٌ غَلِيظٌ حَارٌّ،
 وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَسْقَى الْوُجُوهَ﴾ أَي مِنْ حَرِّهِ. إِذَا أَرَادَ الْكَافِرُ
 أَنْ يَشْرَبَهُ، وَقَرَّبَهُ مِنْ وَجْهِهِ شَوَاهُ حَتَّى تَسْقُطَ جِلْدُهُ وَجْهَهُ
 فِيهِ.

وقال سعيد بن جبيرة: إِذَا جَاعَ أَهْلُ النَّارِ اشْتَعَاثُوا،
 فَأَغِيثُوا بِشَجَرَةِ الرَّقُومِ فَيَأْكُلُونَ مِنْهَا، فَاجْتَنَّتْ جُلُودُ
 وَجُوهِهِمْ، فَلَوْ أَنَّ مَرًّا بِهِمْ يَعْرِفُهُمْ، لَعَرَفَ جُلُودَ
 وَجُوهِهِمْ فِيهَا، ثُمَّ يَصُبُّ عَلَيْهِمُ الْعَطَشُ فَيَسْتَعِينُونَ،
 فَيَعَاثُونَ بِمَاءِ كَالْمُهْلِ وَهُوَ الَّذِي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ، فَإِذَا أَدْنَوْهُ
 مِنْ أَفْوَاهِهِمْ اسْتَوَىٰ مِنْ حَرِّهِ لِحُومِ وَجُوهِهِمْ الَّتِي قَدْ
 سَقَطَتْ عَنْهَا الْجُلُودُ^(٣). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ بَعْدَ وَضْعِهِ هَذَا
 الشَّرَابَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الدَّمِيمَةِ الْفَيْحِيَّةِ: ﴿يَسُكُ الشَّرَابُ﴾
 أَي يَسُكُ هَذَا الشَّرَابُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَىٰ:
 ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وَقَالَ تَعَالَىٰ:
 ﴿تَشْقَىٰ مِنَ عَيْنِ عَائِنَةٍ﴾ [الناشئة: ٥] أَي حَارَّةً، كَمَا قَالَ
 تَعَالَىٰ: ﴿وَيَتَنَّبَعُ عَيْنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾
 أَي وَسَاءَتِ النَّارُ مَنَزَلًا وَمَقِيلًا وَمُجْتَمَعًا وَمَوْضِعًا
 لِلزَّرْفَاقِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَىٰ: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا
 وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الزَّرِيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ
 أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(٤) أَوْلَيْكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسْوَدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ نِيَابًا خَضْرًا مِنْ سُندُسٍ
 وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يَوْمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا^(٥) ﴿٣٦﴾
 [جزءاً من آمن وعمل الصالحات]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ، تَنَبَّأَ بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ الَّذِينَ
 آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ، وَعَمِلُوا بِمَا
 أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَلَهُمْ ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾
 وَالْعَدْنُ: الْإِقَامَةُ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي مِنْ تَحْتِ
 عَرَفِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ، قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِي﴾... الْآيَةُ [الزخرف: ٥١] ﴿يُحَلَوْنَ﴾ أَي مِنَ الْحِلْيَةِ
 ﴿فِيهَا مِنْ أَسْوَدٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وَقَالَ فِي الْمَكَانِ الْآخِرِ: ﴿رَتُلُوْا
 وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] وَفَصَّلَهُ هَهُنَا فَقَالَ:

تَتَلَفُ، وَذَلِكَ لِقَلَّةِ عَقْلِهِ، وَضَعْفِ بَقِيَّتِهِ بِاللَّهِ، وَإِعْجَابِهِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَكُفْرِهِ بِالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أَي كَائِنَةً ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَيَّ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أَي وَلَيْنَ كَانَ مَعَادٌ وَرَجَعْتُ وَمَرَدُّ إِلَى اللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِي هُنَاكَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا الْحَظِّ عِنْدَ رَبِّي، وَلَوْلَا كَرَامَتِي عَلَيْهِ مَا أَعْطَانِي هَذَا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:

﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [انفصلت: ٥٠] وَقَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ تَأْتِي عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكَانَ سَبَبَ نُزُولِهَا فِي الْعَاصِ بْنِ وَاثِلٍ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَبِهِ الثَّقَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ [٣٧] لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَسَمِعَ رَبِّي أَن يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاوًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

[جواب المؤمن الفقير]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَجَابَهُ بِهِ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ، وَاعْظَا لَهُ وَزَاجِرًا عَمَّا هُوَ فِيهِ، مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِعْتِرَافِ: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ الْآيَةَ، وَهَذَا إِتْكَارٌ وَتَعْظِيمٌ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ جُحُودِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَهُ، وَابْتِدَاءُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ وَهُوَ آدَمُ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾... الْآيَةَ [البقرة: ٢٨]، أَي كَيْفَ تَجْحَدُونَ رَبَّكُمْ وَدَلَالَتُهُ عَلَيْكُمْ ظَاهِرَةٌ جَلِيلَةٌ، كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُهَا مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مَعْدُومًا، ثُمَّ وُجِدَ، وَلَيْسَ وَجُودُهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا مُسْتَبَدًّا إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، لِأَنَّهُ بِمِثَابَتِهِ، فَعَلِمَ إِسْنَادُ إِبْجَادِهِ إِلَى خَالِقِهِ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ الْمُؤْمِنُ: ﴿لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أَي لَكِنَ أَنَا لَا أَقُولُ بِمَقَالَتِكَ، بَلْ اعْتَرَفْتُ لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أَي بَلْ هُوَ اللَّهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

مُرْتَفَقًا ﴿وَهَكَذَا قَابَلُ بَيْنَهُمَا فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] ثُمَّ ذَكَرَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ يَمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا جَنَّةَ وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٦﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَهُمَا وَلَمْ نَطْعَمْهُ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٧﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٨﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٩﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَيَّ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٤٠﴾

[مثل المشرك الغني والمسلم الفقير]

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهُ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ مُجَالَسَةِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَافْتَحَرُوا عَلَيْهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ، فَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا بِرَجُلَيْنِ جَعَلَ اللَّهُ لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ، أَي بُسْتَانَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ، مَحْضُوقَتَيْنِ بِالنَّخِيلِ، الْمُحَدَقَّةَ فِي جَنَّتَيْهِمَا، وَفِي خِلْفَيْهِمَا الزُّرُوعُ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ مُثْمِرٌ مُقْبَلٌ فِي غَايَةِ الْجُودَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَهُمَا﴾ أَي أَخْرَجْتَ ثَمَرَهَا ﴿وَلَمْ نَطْعَمْهُ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أَي وَلَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ أَي وَالْأَنْهَارُ مُتَفَرِّقَةٌ فِيهِمَا هَهُنَا وَهَهُنَا ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ الْمَالُ، وَقِيلَ: الثَّمَارُ، وَهُوَ أَظْهَرُ هَهُنَا، وَيُؤَيِّدُهُ الْوَرَاءَةُ الْأُخْرَى: (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) بِضَمِّ الثَّاءِ وَتَسْكِينِ الْمِيمِ، فَيَكُونُ جَمْعُ ثَمَرَةٍ كَحَشْبَةٍ وَحُشْبٍ. وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿ثَمَرٌ﴾ بَفَتْحِ الثَّاءِ وَالْمِيمِ ^(١). ﴿فَقَالَ﴾ أَي صَاحِبُ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ: ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أَي يُجَادِلُهُ، وَيُخَاصِمُهُ بِفَتْحِ عِلْيَةٍ، وَيَتَرَأَسُ: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أَي أَكْثَرُ خَدَمًا وَحَسَمًا وَوَلَدًا، قَالَ قَتَادَةُ: تِلْكَ - وَاللَّهُ - أَمْنِيَّةُ الْفَاجِرِ، كَثْرَةُ الْمَالِ وَعِزَّةُ النَّفَرِ ^(٢).

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أَي يَكْفُرُهُ وَتَمَرُّدُهُ وَتَكْبَرُهُ وَجَبْرُهُ وَإِتْكَارِ الْمَعَادِ ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وَذَلِكَ اعْتِرَافًا مِنْهُ لِمَا رَأَى فِيهَا مِنَ الزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ وَالْأَشْجَارِ، وَالْأَنْهَارِ الْمُطَّرَدَةِ فِي جَوَائِبِهَا وَأَرْجَائِهَا، ظَنَّ أَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَفْرُغُ وَلَا تَهْلِكُ وَلَا

(١) الطبري: ٢١/١٨ (٢) الطبري: ٢٢/١٨

أَمَلًا ﴿١٧﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ ﴿١٨﴾ أَيُّ عَشِيرَةٍ أَوْ وُلْدٍ، كَمَا افْتَحَرَ بِهِمْ وَاسْتَحَرَّ ﴿يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ ﴿١٩﴾ هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴿اِخْتَلَفَ الْقُرَاءُ هَهُنَا فَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ ﴿٢٠﴾ هُنَاكَ﴾ أَيُّ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ الَّذِي حَلَّ بِهِ عَذَابُ اللَّهِ، فَلَا مُنْقِذَ لَهُ مِنْهُ، وَيَتَّبِدَى بِقَوْلِهِ: ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى: ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ وَيَتَّبِدَى بِقَوْلِهِ: ﴿هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي قِرَاءَةِ ﴿الْوَلِيَّةُ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ فَتَحَ الْوَاوَ مِنَ الْوَلَايَةِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى هُنَاكَ: الْمَوَالَاةُ لِلَّهِ، أَيُّ هُنَاكَ كُلُّ أَحَدٍ [مِنْ] مُؤْمِنٍ أَوْ كَافِرٍ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُوَالَايَتِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ إِذَا وَقَعَ الْعَذَابُ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [عافر: ٨٤] وَكَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَجُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ هَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١] وَمِنْهُمْ مَنْ كَسَرَ الْوَاوَ مِنَ الْوَلَايَةِ، أَيُّ هُنَاكَ الْحُكْمُ لِلَّهِ الْحَقِّ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ (الْحَقِّ) عَلَى أَنَّهُ نَعَتْ لِلْوَلَايَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَضَ الْقَافَ عَلَى أَنَّهُ نَعَتْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ الْآيَةَ [الأنعام: ٦٢] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا﴾ أَيُّ جَزَاءٍ ﴿وَخَيْرٌ عَقَابًا﴾ أَيُّ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَكُونُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، نَوَابَهَا خَيْرٌ، وَعَاقِبَتُهَا حَمِيدَةٌ رَشِيدَةٌ، كُلُّهَا خَيْرٌ.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِحَيَوَاتِهِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ ﴿٢٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ نَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ﴿٢٦﴾

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ﴾ ﴿يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ مَثَلًا لِحَيَوَاتِهِ الدُّنْيَا﴾ فِي زَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَانْقِضَائِهَا ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أَيُّ مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ، فَسَبَّ وَحَسَنٌ، وَعَلَاهُ الرَّهْرُ وَالنُّورُ وَالنُّضْرَةُ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يَابِسًا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ أَيُّ تُفْرِقُهُ وَتَطْرَحُهُ

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَكْنَا أَفْعَالَكَ مَا لَنَا وَلَا لِدُنْيُنَا وَمَا لَنَا مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وَحَتَّى عَلَى ذَلِكَ، أَيُّ هَلَّا إِذَا أَعْجَبْتِكَ حِينَ دَخَلْتَهَا وَنَظَرْتَ إِلَيْهَا، حَمِدْتَ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ وَأَعْطَاكَ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ مَا لَمْ يُعْطِهِ غَيْرُكَ، وَقُلْتَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِنْ حَالِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ، فَلْيَقُلْ: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وَهَذَا مَاخُودٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا﴾ أَيُّ عَلَى جَنَّتِكَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي ظَنَنْتَ أَنَّهَا لَا تَبِيدُ وَلَا تَفْتَنُ ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ (٢) وَمَالِكُ عَنِ الزُّهْرِيِّ: أَيُّ عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَطَرٌ عَظِيمٌ مُزْعِجٌ يُفْلِعُ زَرْعَهَا وَأَشْجَارَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَنُصِصَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أَيُّ بَلَقًا تُرَابًا أَمَلَسَ، لَا يُثَبِّتُ فِيهِ قَدَمٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَالْجُرْزِ الَّذِي لَا يُثَبِّتُ شَيْئًا (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يُصِصْ مَاوَهَا عَوْرًا﴾ أَيُّ غَائِرًا فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ ضِدُّ النَّابِعِ الَّذِي يَطْلُبُ وَجْهَ الْأَرْضِ، فَالْغَائِرُ يَطْلُبُ أَسْفَلَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] أَيُّ جَارٍ وَسَائِحٍ، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿أَوْ يُصِصْ مَاوَهَا عَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾ وَالْعَوْرُ مُضَدَّرٌ بِمَعْنَى غَائِرٍ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ.

﴿وَأَحِطْ بِسَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يَبْلُغُ كَثْفَهُ عَلَيَّ مَا أَفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَمَلًا﴾ ﴿٢٦﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ ﴿٢٧﴾ هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عَقَابًا

النتيجة السنية للكتاب

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَحِطْ بِسَمَرِهِ﴾ بِأَمْوَالِهِ، أَوْ بِسَمَارِهِ عَلَى الْقَوْلِ الْأَخْرَجِيِّ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ وَقَعَ بِهَذَا الْكَافِرِ مَا كَانَ يَحْتَدِرُ، مِمَّا حَوَّفَهُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ إِسْرَالِ الْحُسْبَانِ عَلَى جَنَّتِهِ الَّتِي اغْتَرَّ بِهَا وَأَلْهَتَهُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَأَصْبَحَ يَبْلُغُ كَثْفَهُ عَلَيَّ مَا أَفَقَ فِيهَا﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: يَصْفِقُ كَثْفَهُ مَتَأَسِّفًا مَتَلَهِّفًا عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي أَذْهَبَهَا عَلَيْهَا ﴿وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي

(١) فتح الباري: ١١/٢١٧ ومسلم: ٤/٢٠٧٦ (٢) الطبري:

٢٥/١٨ (٣) الطبري: ١٨/٢٦ (٤) الطبري: ١٨/٢٧

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

٢٩٩

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾
 أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ وَهَذِهِ الْحَالِ، وَكَثِيرًا مَا
 يَضْرِبُ اللَّهُ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِهَذَا الْمَثَلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى
 فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ
 السَّمَاءِ فَأَخْطَلَتْ بِهِ تَبَاطُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ...
 [الآية: يونس: ٢٤]، وَقَالَ فِي الزُّمَرِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا
 أَلْوَانُهُ... [الآية: الزمر: ٢١]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ:
 ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهِيَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ
 فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَنْزِلٌ غَيْثٌ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ تَبَاهُهُ...
 [الآية: الحديد: ٢٠] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الدُّنْيَا حُلُوهُ
 خَضِرَةٌ»^(١).

[عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كَقَوْلِهِ:
 ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ
 الْمُتَمَطَّرَةِ مِنَ الْأَهْبِ... [الآية: آل عمران: ١٤] وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ
 عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أَيِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالتَّفَرُّغِ لِعِبَادَتِهِ،
 خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ اشْتِغَالِكُمْ بِهِمْ، وَالْجَمْعُ لَهُمْ، وَالشَّفَقَةُ
 الْمُفْرَطَةُ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ
 رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا﴾.

وَبِالْحِسَابِ»^(٥).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ:
 ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ﴾ قَالَ: هِيَ ذِكْرُ اللَّهِ، قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَبَارَكَ اللَّهُ،
 وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
 رَسُولِ اللَّهِ، وَالصَّبَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَالْحَجُّ، وَالصَّدَقَةُ،
 وَالْعَتَقُ، وَالْجِهَادُ، وَالصَّلَةُ، وَجَمِيعِ أَعْمَالِ الْحَسَنَاتِ.
 وَهِيَ الْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ الَّتِي تَبْقَى لِأَهْلِهَا فِي الْجَنَّةِ مَا
 دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ^(٦). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ
 عَبَّاسٍ: هِيَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ^(٧). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ
 ابْنُ أَسْلَمَ: هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا^(٨). وَاخْتَارَهُ ابْنُ
 جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَبْدُ وَاحِدٍ مِنَ
 السَّلَفِ: ﴿وَالْبَقِيَّاتُ الصَّالِحَةُ﴾ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ^(٩).
 وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَاحٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:
 ﴿وَالْبَقِيَّاتُ الصَّالِحَةُ﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ
 إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ^(١٠). وَهَكَذَا سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانُ
 ابْنُ عَفَّانَ عَنْ «وَالْبَقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ» مَا هِيَ؟ فَقَالَ:
 هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ،
 وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، رَوَاهُ الْإِمَامُ
 أَحْمَدُ^(١١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَوْلَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَخُ بَخٍ لِحَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا
 إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ
 الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فِي حَسْبَتِهِ وَالِدُهُ - وَقَالَ: - يَخُ بَخٍ لِحَمْسٍ
 مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسْتَقِيمًا يَهْنُ دَخَلَ الْجَنَّةَ. يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ، وَبِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيَبْلُغُ بَعْدَ الْمَوْتِ،

(١) مسلم: ٢٠٩٨/٤ (٢) الطبري: ٣٢/١٨ (٣) الطبري: ٣٣/١٨ (٤) أحمد: ٧١/١ (٥) أحمد: ٢٣٧/٤ (٦) الطبري: ٣٥/١٨ (٧) الطبري: ٣٥/١٨ (٨) ضعفاء (٨) الطبري: ٣٥/١٨

أَنَّ هَذَا كَائِنٌ .

وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقيير، والقييل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم الفسيحة ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا لَنَرَاهُ فِي غَدَابَةٍ﴾ أي لا يتذكرون ذنبنا صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي ضبطها وحفظها .

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي من خيرٍ وشرٍّ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْيَبُوتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْنَى السُّرَابِ﴾ [الطارق: ٩] أي تظهر المحبات والضمائر. روى الإمام أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به»^(٣) أخرجه في الصحيحين، وفي لفظ: «يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند اسمه بقدر قدرته، يقال: هذه عذرة فلان بن فلان»^(٤).

وقوله: ﴿وَلَا يَظِلُّ رُكْبًا أَحَدًا﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه بل يعلم ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعذله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجوز ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَإِن تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا﴾ الآية [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ إلى قوله ﴿حَسْبِيَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والآيات في هذا كثيرة، وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن محمد بن عقيب أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي ﷺ، فاشتريت بغيراً ثم شدت عليه رحلي، فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبدالله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبدالله؟ قلت نعم، فخرج يظاً

﴿وَيَوْمَ نُسِئُ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْتَنَّهُمْ فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ﴿٤٧﴾ وعرضوا على ربك صفًا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن نعمل لكم موعداً ﴿٤٨﴾ ووضع الكتاب فرى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يؤلئنا مال هذا الكتاب لا يعادُر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصناها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم رُكْبًا أَحَدًا﴾ ﴿٤٩﴾

[أهم أهوال الساعة]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ﴿٤٩﴾ وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠] أَيْ تَذْهَبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَتَزُولُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبًا جَازِمَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وَقَالَ: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقَلَّ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿٥٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٥٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ تَذْهَبُ الْجِبَالُ، وَتَسَاوَى الْمِهَادُ، وَتَبْقَى الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أَيْ سَطْحًا مُسْتَوِيًا لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا أَمْتًا، أَيْ لَا وَادِي وَلَا جَبَلٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أَيْ بَادِيَةً ظَاهِرَةً لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ، وَلَا مَكَانٌ يُوَارِي أَحَدًا، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ضَاخُونَ لِرَبِّهِمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لَا حَجْرَ فِيهَا وَلَا عِيَابَةً^(١). قَالَ قَتَادَةُ: لَا بِنَاءَ وَلَا شَجَرَ^(٢).

وقوله: ﴿وَحَشَرْتَنَّهُمْ فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أَيْ وَجَمَعْنَاهُمْ، الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ، فَلَمْ تَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحَدًا لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ لَيْتَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى يَفَيْتِ يَوْمَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٥٠، ٤٩] وَقَالَ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ صَفًّا وَاحِدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرِّعْنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ يَقُومُونَ صُفُوفًا صُفُوفًا، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفرج: ٢٢] وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هَذَا تَفْرِيعٌ لِلْمُنْكَرِينَ لِلْمَعَادِ، وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُحَاطِبًا لَهُمْ: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنْ نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ أَيْ مَا كَانَ ظَنُّكُمْ أَنَّ هَذَا وَاقِعٌ بِكُمْ، وَلَا

(١) الطبري: ٣٦/١٨ (٢) الطبري: ٣٦/١٨ (٣) أحمد: ٣/

١٤٢ (٤) فتح الباري: ٣٥٤/١٢ ومسلم: ٣/٣٦٦١

تَوْبَهُ فَاعْتَنَنِي وَاعْتَنُّهُ، قُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَّغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقِصَاصِ، فَخَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ أَوْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَحْشُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِبَادَ - عُرَاءَ غُرْلًا بِيَهُمَا» قُلْتُ: وَمَا بِيَهُمَا؟ قَالَ: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُتَادِيهِمْ بِصُوتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدِّيَانُ، لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقِصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَقٌّ حَتَّى أَقِصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ» قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّمَا تَأْتِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حِفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا بِيَهُمَا؟ قَالَ: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»^(١).

وَعَنْ شُعْبَةَ عَنِ الْعَوَّامِ بْنِ مَرْجَمٍ عَنْ أَبِي عُمَانَ عَنِ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْجَمَاءَ لَتَقْتَصَّ مِنَ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَلَهُ شَوَاهِدٌ مِنْ وُجُوهِ أُخَرَ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

[قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا بَنِي آدَمَ عَلَى عِدْوَةِ إِبْلِيسَ لَهُمْ وَلَا يَبِيهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمُفْرَعًا لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْهُمْ وَخَالَفَ خَالِقَهُ وَمَوْلَاهُ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُ وَابْتَدَأَهُ، وَبِالطَّافَةِ رَزَقَهُ وَعَدَاهُ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلُّهُ وَالِي إِبْلِيسَ وَعَادَى اللَّهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَيُّ لَجَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أَيُّ سُجُودٍ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ وَتَعْظِيمٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ نَسْتَوِينِ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أَيُّ خَانَهُ أَصْلُهُ، فَإِنَّهُ خَلِقَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَأَصْلُ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نُورٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(٣). فَعِنْدَ الْحَاجَةِ نَضَحَ كُلُّ وَعَاءٍ بِمَا فِيهِ، وَخَانَهُ الطَّبَعُ عِنْدَ

الْحَاجَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَوَسَّمَ بِأَفْعَالِ الْمَلَائِكَةِ وَتَسَبَّهَ بِهِمْ وَتَعَبَّدَ وَتَسَكَّ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي خَطَابِهِمْ وَعَصَى بِالْمُخَالَفَةِ، وَبَبَّ تَعَالَى هَهُنَا عَلَى أَنَّهُ ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أَيُّ عَلَى أَنَّهُ خَلِقٌ مِنْ نَارٍ، كَمَا قَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَطَلَقْتَنِي مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: مَا كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَطُّ، وَإِنَّهُ لِأَصْلُ الْجِنِّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَصْلُ الْبَشَرِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْهُ^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أَيُّ فَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْفَسْقَ هُوَ الْخُرُوجُ، يُقَالُ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا، وَفَسَقَتِ الْفَارَةُ مِنْ جُحْرِهَا إِذَا خَرَجَتْ مِنْهُ لِلْعَيْثِ وَالْفَسَادِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُفْرَعًا وَمُؤْتَحًا لِمَنْ اتَّبَعَهُ وَأَطَاعَهُ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي... الْآيَةَ، أَيُّ بَدَلًا عَنِّي، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ وَهَذَا الْمَقَامُ كَقَوْلِهِ بَعْدَ ذِكْرِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا وَعَصِيرِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ فِي سُورَةِ يَس: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩-٦٢].

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِينَ الْمُضِلِينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

[الهِتَةُ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَشْهَدُوا خَلْقَ شَيْءٍ حَتَّى أَنْفُسَهُمْ] يَقُولُ تَعَالَى: هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي عَيْدٌ أَمْثَالِكُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، وَلَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا كَانُوا إِذْ ذَلِكَ مَوْجُودِينَ، يَقُولُ تَعَالَى: أَنَا الْمُسْتَقْبَلُ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا وَخَدِي، لَيْسَ مَعِيَ فِي ذَلِكَ شَرِيكٌ، وَلَا وَزِيرٌ وَلَا مُشِيرٌ، وَلَا نَظِيرٌ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾... الْآيَةَ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِينَ الْمُضِلِينَ عَضُدًا﴾ قَالَ مَالِكٌ: أَعْوَانًا. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ رَزَعْتُمْ فِدْعُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَوَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ

(١) أحمد: ٤٩٥/٣ (٢) زوائد المسند ١/١٢ (٣) مسلم: ٤/

٢٢٩٤ (٤) الطبري: ١٨/٥٠٦

مُؤَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَلَيْهَا مَصْرَفًا ﴿٥٣﴾

[عَجَزُ الشُّرَكَاءِ عَنِ الْجَوَابِ وَحُضُورُ الْمُجْرِمِينَ النَّارِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُخَاطَبُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ تَقْرِيعًا لَهُمْ وَتَوْبِيخًا: ﴿نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَيُّ فِي دَارِ الدُّنْيَا أَدْعُوهُمْ الْيَوْمَ يُنْفَذُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَبِّكُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] وَقَوْلُهُ: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾... الْآيَةُ [القصص: ٦٤]، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَسْلَمُ مِنْ بَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ... الْآيَتِينَ [الأحاف: ٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مَهْلِكًا (١).

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُؤَلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا وُصُولَ لَهُمْ إِلَى آلِهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ يَفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا فِي الْأَجْرَةِ، فَلَا خَلَاصَ لِأَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخِرِ، بَلْ بَيْنَهُمَا مَهْلِكٌ وَهَوْلٌ عَظِيمٌ وَأَمْرٌ كَبِيرٌ. وَأَمَّا إِنْ جُعِلَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عَائِدًا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّهُ يَفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ بِهِ (٢). فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] وَقَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمْتَدُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُؤَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَلَيْهَا مَصْرَفًا﴾ أَيُّ أَنَّهُمْ لَمَّا عَايَنُوا جَهَنَّمَ حِينَ جِيءَ بِهَا تَفَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ تَحَقَّقُوا لَا مَحَالَةَ أَنََّّهُمْ مُؤَافِعُوهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ لَهُمْ، فَإِنَّ تَوَقُّعَ الْعَذَابِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ قَبْلَ وَقُوعِهِ، عَذَابٌ نَاجِزٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَلَيْهَا مَصْرَفًا﴾ أَيُّ لَيْسَ لَهُمْ طَرِيقٌ يَعْدِلُ بِهِمْ

سُورَةُ الْكَهْفِ

٣٠٠

سُورَةُ الْكَهْفِ

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمْ سُنَّةٌ الْأُولَى أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قَبْلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطِلِ لِيَدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا وَمَا أَنْذَرُوا هُزُومًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَايُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِقًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَتِلْعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَا سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

عَنْهَا، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ

الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

[تَصْرِيفُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ وَوَضَحْنَا لَهُمُ الْأُمُورَ وَفَضَّلْنَاها كَثِيرًا يَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ وَيَخْرُجُوا عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، وَمَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْفُرْقَانِ، الْإِنْسَانُ كَثِيرُ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ الْمُعَارَضَةِ لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، إِلَّا مَنْ هَدَى اللَّهُ وَبَصَّرَهُ لَطَرِيقِ النَّجَاةِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَفَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ! إِنَّمَا أَنْفُسَنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعْتَنَا، فَانصَرَفَ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلِّ يَضْرِبُ فِجَذَهُ وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ

(١) الطبري: ٤٦/١٨ ضعيف لانقطاعه (٢) الطبري: ٤٦/١٨

جَدَلًا ﴿١١﴾ أخرجاه في الصحيحين (٢).

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَسْتَغْفِرُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّلِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا عَائِي وَابْنِي وَمَا أُذْرُوا هُرُوا ﴿٥٦﴾﴾

[بَيَانُ تَمَرُّدِ الْكُفَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ تَمَرُّدِ الْكُفْرَةِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ، وَأَنَّهُ مَا مَتَّعَهُمْ مِنْ اتِّبَاعِ ذَلِكَ إِلَّا طَلَبُهُمْ أَنْ يُشَاهِدُوا الْعَذَابَ الَّذِي وَعَدُوا بِهِ عَيْنَانَا، كَمَا قَالَ أُولَئِكَ لِنَبِيِّهِمْ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وَأَخْرَوْنَ قَالُوا: ﴿أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: ﴿اللَّهِمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَطْرُقْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْتِنَا بِعَذَابِ الْبِرِّ﴾ [الأنفال: ١٣٢]، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦١﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِيَّةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧] إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ﴾ مِنْ غَشِيَانِهِمْ بِالْعَذَابِ وَأَخْلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أَيْ يَرَوْنَهُ عَيْنَانَا مُوَاجِهَةً وَمُقَابِلَةً، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَيْ قَبْلَ الْعَذَابِ مُبَشِّرِينَ مِنْ صَدَقَتِهِمْ وَأَمِنْ بِهِمْ، وَمُنذِرِينَ لِمَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ يُجَادِلُونَ ﴿وَالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أَيْ لِيُضْعِفُوا بِهِ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلِ لَهُمْ ﴿وَاتَّخَذُوا عَائِي وَمَا أُذْرُوا هُرُوا﴾ أَيْ اتَّخَذُوا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ وَخَوَارِقَ الْعَادَاتِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا الرُّسُلَ وَمَا أُذْرُوهُمْ وَخَوَفُوهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿هُرُوا﴾ أَيْ سَخِرُوا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَشَدُّ التَّكْذِيبِ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاہُ إِذَا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابُ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿لَوْ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنْبِ﴾ [فاطر: ٤٥] وَقَالَ: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَقْرَرٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لَمَا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٨﴾﴾

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ ٣٠١

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَايِنَا غَدَاةٌ نَأْتِي الْقَدْلِقِينَ مِمَّنْ سَفَرْنَا هَذَا نَصْبًا ﴿٦٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْغُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٧﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٨﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَايِنَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعِلْمَنَهُ مِنْ لَدُنَّا عَلِمًا ﴿٦٩﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧١﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٣﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَشْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٤﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٧﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا رَكِيَةً بَعِيرٍ نَقِيسٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٨﴾

[أَظْلَمُ النَّاسِ مَنْ أَعْرَضَ بَعْدَ التَّذْكِيرِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ: وَأَيُّ عِبَادِ اللَّهِ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا، أَيْ تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يُبْغِ لَهَا وَلَا أَلْفَىٰ إِلَيْهَا بَالًا، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاہُ﴾ أَيْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَالْأَفْعَالِ الْفَاسِقَةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ ﴿أَكِنَّةً﴾ أَيْ أَعْطِيَهُ وَغَشَاوَهُ ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أَيْ لِئَلَّا يَفْهَمُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْبَيَانَ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أَيْ صَمَمًا مَعْنَوِيًّا عَنِ الرَّشَادِ ﴿وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أَيْ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ غَفُورٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿لَوْ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنْبِ﴾ [فاطر: ٤٥] وَقَالَ: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَقْرَرٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

[الرعد: ١٣] وَالْآيَاتِ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ شَتَّى، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُّ وَيَغْفِرُ، وَرَبَّمَا هَدَى بَعْضَهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ، وَمَنْ اسْتَمَرَ مِنْهُمْ فَلَهُ يَوْمٌ يَتَسَبَّبُ فِيهِ الْوَلِيدُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا﴾ أَي لَيْسَ لَهُمْ عَنْهُ مَحِيصٌ وَلَا مَجِيدٌ وَلَا مَعْدِلٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتِلْكَ الْأَفْرُتُ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أَي الْأُمَمُ السَّالِفَةُ وَالْقُرُونُ الْخَالِيَةُ، أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿وَحَمَلْنَا لِهَلَاكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أَي جَعَلْنَاهُ إِلَى مَدَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ، لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، أَي وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، إِحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ رُسُلٍ وَأَعْظَمَ نَبِيِّ، وَلَسْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ، فَخَافُوا عَذَابِي وَتُذْرِي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آتِبِحَ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (١) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُرُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٢﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَايِنَا غَدَاةً نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٤﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَانَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٥﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَايِنَهُ رَحْمَةً مِنِّ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦﴾

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أَي الْمَكَانَ الَّذِي نَسِيَا الْحُوتَ فِيهِ، وَنَسِيَ الشَّيْطَانُ إِلَيْهِمَا، وَإِنْ كَانَ يُوشَعُ هُوَ الَّذِي نَسِيَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْثُ وَالْمَوتَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَالِحِ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، فَلَمَّا ذَهَبَا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي نَسِيَاهُ فِيهِ بِمَرَحَلَةٍ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿لِفَتْنِهِ ءَايِنَا غَدَاةً نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ أَي الَّذِي جَاوَزَا فِيهِ الْمَكَانَ ﴿نَصَبًا﴾ يَعْنِي تَعَبًا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أَي طَرِيقَهُ ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ أَي هَذَا هُوَ الَّذِي نَطْلُبُ ﴿فَارْتَدَّا﴾ أَي رَجَعَا ﴿عَلَىٰ ءَانَارِهِمَا﴾ أَي طَرِيقَيْهِمَا ﴿قَصَصًا﴾ أَي بِقِصَصَانِ آثَارِ مَشْيِهِمَا وَيَقْفَوَانِ آثَرَهُمَا ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَايِنَهُ رَحْمَةً مِنِّ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وَهَذَا هُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيِّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبُ الْخَضِرِ

(١) الطبري: ٥٦/١٨ (٢) الطبري: ٥٦/١٨ (٣) الطبري: ٥٦/١٨ (٤) الطبري: ٥٧/١٨ (٥) الطبري: ٥٧/١٨ (٦) الطبري: ٥٨/١٨ ابن جريج مدلس ولم يصرح وأيضاً فيه الحسين بن داود المصيصي كما تقدم (٧) الطبري (٢٣١٩٥) فيه تدليس ابن إسحاق والسند إليه ضعيف محمد بن حميد وشيخه سلمة بن الفضل ضعيفان.

﴿وَأَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قَالَ: ذَهَرًا﴾ (٤)، وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ مِثْلَ ذَلِكَ (٥).

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُرُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (٢) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَايِنَا غَدَاةً نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَانَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٥) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَايِنَهُ رَحْمَةً مِنِّ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦)

[قِصَّةُ مُوسَى وَالْخَضِرِ]

سَبَبُ قَوْلِ مُوسَى لِفَتْنِهِ وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، هَذَا الْكَلَامُ: أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ بِمَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ مُوسَى، فَأَحَبَّ الرَّجِيلَ إِلَيْهِ، وَقَالَ لِفَتْنِهِ ذَلِكَ: ﴿لَا آتِبِحَ﴾ أَي لَا أَزَالُ سَائِرًا ﴿حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أَي وَلَوْ أَنِّي أُسِيرُ حُقُبًا مِنَ الزَّمَانِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ أَنَّ الْحُقُبَ فِي لُغَةِ قَيْسِ سَنَةٌ (١). ثُمَّ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: الْحُقُبُ ثَمَانُونَ سَنَةً (٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سَبْعُونَ حَرْفًا (٣). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قَالَ: ذَهَرًا (٤)، وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ مِثْلَ ذَلِكَ (٥).

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُرُوتَهُمَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أَمَرَ بِحَمْلِ حُوتٍ مَمْلُوحٍ مَعَهُ، وَقِيلَ لَهُ: مَتَى فَقَدْتِ الْحُوتَ، فَهُوَ ثَمَّةٌ، فَسَارَا حَتَّىٰ بَلَغَا مَجْمَعَ

عُثْرًا ﴿٦٠﴾ - قَالَ: - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - : فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، قَالَ: وَجَاء عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَتَقَرَّرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ تَقَرَّتَيْنِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا تَقَصَّ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَيَبْتَغِيَانِ مَعًا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْعِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَفَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿أَفَلَيْتَ نَفْسًا زَكِيًّا يَغْتَرِبُ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٦١﴾﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٢﴾ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنْ الْأُولَى ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَبِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذَابًا ﴿٦٣﴾﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَلْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴿٦٤﴾ - أَيُّ مَا بِيْنَا - فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَلَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٦٥﴾﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأَلْتُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٦٦﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَوَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِمَا» قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنِينَ) (١).

ثُمَّ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ نَحْوَهُ، وَفِيهِ: فَخَرَجَ مُوسَى وَمَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ وَمَعَهُمَا الْحُوتُ، حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَتَزَلَّ عِنْدَهَا، قَالَ: فَوَضَعَ مُوسَى رَأْسَهُ فَتَامًا، قَالَ: وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا الْحَيَاةُ لَا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ فَأَصَابَ الْحُوتُ مِنْ مَاءِ تِلْكَ الْعَيْنِ، فَتَحَرَكَ وَأَنْسَلَّ مِنَ الْمَكْتَلِ فَدَخَلَ الْبَحْرَ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿إِنَّا غَدَاءُ نَا﴾ قَالَ: وَسَأَقُ الْحَدِيثَ، وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَعَمَسَ مِنْقَارُهُ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا عَمَسَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْقَارُهُ... وَذَكَرَ تَمَامَهُ بِنَحْوِهِ (٢).

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ اتَّبَعْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ بِمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ

عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حَدَّثَنَا أَبِي بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيْبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا، فَتَعَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدْ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ بِمَكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا قَعَدْتَ الْحُوتُ فَهُوَ ثَمَّ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ بِمَكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعَ ابْنُ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى إِذَا آتَى الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَتَامًا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمَكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ. فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرِيًّا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جَرِيَةَ الْمَاءِ، فَضَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَأَنْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِيدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿إِنَّا غَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَاذْتَدَا عَلَيَّ آثَارُهَا فَصَصًا﴾ قَالَ: فَرَجَعَا يُقْضِيَانِ أَمْرَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجَّى بِنُوبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ! فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي بِمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ. فَقَالَ مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْتَلْفِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فَأَنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَقْبَحَا إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ الْأَوْجِحِ السَّفِينَةَ بِالْقُدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي

أَمْرًا ﴿٦٦﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٦٧﴾

[لِقَاءُ مُوسَىٰ مَعَ الْخَضِرِ وَمُصَاحَبَتُهُ إِيَّاهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ قِيلِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الْعَالِمِ وَهُوَ الْخَضِرُ، الَّذِي حَصَّه اللَّهُ بِعِلْمٍ لَمْ يُطَّلِعْ عَلَيْهِ مُوسَىٰ، كَمَا أَنَّهُ أُعْطِيَ مُوسَىٰ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُعْطِهِ الْخَضِرُ ﴿قَالَ لَمْ يُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ سُؤَالَ تَلَطُّفٍ لَا عَلَىٰ وَجْهِ الْإِلْزَامِ وَالْإِجْبَارِ، وَهَكَذَا يَتَّبَعِي أَنْ يَكُونَ سُؤَالَ الْمُتَعَلِّمِ مِنَ الْعَالِمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَتَيْتُكَ﴾ أَيُّ أَصْحَبِكَ وَأَرَأَيْتُكَ ﴿عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنِّي مَا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ أَيُّ مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ شَيْئًا أُسْتَرِشِدُ بِهِ فِي أَمْرِي مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، فَعِنْدَهَا ﴿قَالَ﴾ الْخَضِرُ لِمُوسَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أَيُّ إِنَّكَ لَا تُقَدِّرُ عَلَىٰ مُصَاحَبَتِي لِمَا تَرَىٰ مِنِّي مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ، لِأَنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ، فَكُلُّ مِمَّا مُكَلِّفٌ بِأُمُورٍ مِنَ اللَّهِ دُونَ صَاحِبِهِ، وَأَنْتَ لَا تُقَدِّرُ عَلَىٰ صُحْبَتِي ﴿وَكَيْفَ نَصِيرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا﴾ فَإِنَّا أَعْرَفْنَا أَنَّكَ سَتُنَكِّرُ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مَعْدُورٌ فِيهِ، وَلَكِنْ مَا أَطَّلَعْتَ عَلَىٰ حِكْمَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي أَطَّلَعْتُ أَنَا عَلَيْهَا دُونَكَ ﴿قَالَ﴾ أَيُّ مُوسَىٰ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أَيُّ عَلَىٰ مَا أَرَىٰ مِنْ أُمُورِكَ ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أَيُّ وَلَا أُخَالِفُكَ فِي شَيْءٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ شَارَطَهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أَيُّ ابْتِدَاءً ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أَيُّ حَتَّىٰ أَبْدَأَكَ أَنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَا لِنُفْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ﴿٦٧﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي

عَسْرًا ﴿٦٩﴾

[قِصَّةُ خَرَقِ السَّفِينَةِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ مُوسَىٰ وَصَاحِبِهِ وَهُوَ الْخَضِرُ، أَنَّهُمَا انْطَلَقَا لِمَا تَوَافَقَا وَاصْطَحَبَا، وَاسْتَرْطَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ أَنْكَرَهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ بِسُرْجِهِ وَبِيَّانِهِ، فَرَكِبَا فِي السَّفِينَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ كَيْفَ رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ، وَأَنَّهَمْ عَرَفُوا الْخَضِرَ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوَلٍ، يَعْنِي بِغَيْرِ أُجْرَةٍ، تَكْرَمَةً لِلْخَضِرِ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فِي الْبَحْرِ وَلَجَجَتْ، أَيُّ دَخَلَتْ

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَدِّقْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا نَيَّيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأ أَن يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدَانِ أَنْ يُتَّقِصَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنُ بَيْتِكَ بِنَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا كَيْدًا فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَادِقًا فَأَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَنْبَغِيَهُمَا فَأَشَدَّهُمَا وَاسْتَخْرَجَهُمَا كَانَهُمَا كَرِمََةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

اللَّحَّةَ، فَمَ الْخَضِرُ فَخَرَقَهَا، وَاسْتَخْرَجَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَجِهَا ثُمَّ رَفَعَهَا، فَلَمْ يَمْلِكْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسَهُ أَنْ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِ: ﴿أَخْرَقْنَا لِنُفْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وَهَذِهِ اللَّامُ لَامُ الْعَاقِبَةِ لَا لَامُ التَّعْلِيلِ.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مُنْكَرًا ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: عَجَبًا ^(٢). فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُ الْخَضِرُ مُذْكَرًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ الشَّرْطِ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يَعْنِي وَهَذَا الصَّنِيعُ فَعَلْتَهُ قُصْدًا، وَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي اسْتَرْطَطَ مَعَكَ أَنْ لَا تُنَكِّرَ عَلَيَّ فِيهَا، لِأَنَّكَ لَمْ تُحِطْ بِهَا خَبْرًا وَلَهَا دَخَلٌ هُوَ مَصْلَحَةٌ، وَلَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ ﴿قَالَ﴾ أَيُّ مُوسَىٰ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ أَيُّ لَا تُضَيِّقْ عَلَيَّ وَلَا تُشَدِّدْ عَلَيَّ، وَلِهَذَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَتْ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نَسِيَانًا» ^(٣).

(١) الطبري: ٧٢/١٨ (٢) الطبري: ٧٢/١٨ (٣) فتح الباري:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَبَيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي سَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ مَتَى صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

[قِصَّةُ قَتْلِ الْغُلَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ أَي بَعْدَ ذَلِكَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَبَيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَامَانِ فِي قَرْيَةٍ مِنَ الْقَرْيِ، وَأَنَّهُ عَمِدَ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَكَانَ أَحْسَنَهُمْ وَأَجْمَلَهُمْ وَأَضْوَأَهُمْ فَقَتَلَهُ، فَلَمَّا شَاهَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا، أَنْكَرَهُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ، وَبَادَرَ فَقَالَ: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أَي صَغِيرَةً لَمْ تَعْمَلِ الْحِثَّ وَلَا عَمِلْتَ إِنَّمَا بَعْدُ، فَقَتَلْتَهُ؟ ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أَي بِغَيْرِ مُسْتَنَدٍ لِقَتْلِهِ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أَي ظَاهِرَ النُّكَارَةِ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ سَأَلْتُكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فَأَكَّدَ أَيْضًا فِي التَّنْكَارِ بِالشَّرْطِ الْأَوَّلِ، فَلِهَذَا قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أَي إِنْ اعْتَرَضْتُ عَلَيْكَ شَيْءٌ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أَي أَعْذَرْتُ إِلَيَّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا فَدَعَا لَهُ، بَدَأَ بِتَفْسِيهِ، فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لِأَبْصَرَ الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا»^(١) [مُثَقَّلَةٌ].

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَفْطَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقْسَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَحَدَّثْتَ عَلَيْهِ آجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْتِكَ سَأْنَيْتُكَ بِأَوْبِلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

[قِصَّةُ إِقَامَةِ الْجِدَارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمَا إِنَّهُمَا ﴿فَانطَلَقَا﴾ بَعْدَ الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ: أَنَّهَا الْأَيْلَةُ^(٢). وَفِي الْحَدِيثِ: «حَتَّىٰ إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِتَامًا»^(٣) أَي بِخَلَاءٍ ﴿اسْتَفْطَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ إِسْنَادُ الْإِرَادَةِ هُنَا إِلَى الْجِدَارِ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ فِي الْمُحَدَّثَاتِ بِمَعْنَى الْمَبِيلِ، وَالْإِنْقِضَاضُ هُوَ الشَّقُوطُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاقْسَامَهُ﴾ أَي فَرَدَّهُ إِلَى حَالَةِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَدَّهُ بِيَدَيْهِ وَدَعَمَهُ حَتَّىٰ رَدَّ مِثْلَهُ، وَهَذَا خَارِقٌ،

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَهُ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَحَدَّثْتَ عَلَيْهِ آجْرًا﴾ أَي لِأَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُضَيِّقُونَا، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَعْمَلَ لَهُمْ مَجَانًا ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْتِكَ﴾ أَي لِأَنَّكَ شَرَطْتَ عِنْدَ قَتْلِ الْغُلَامِ: أَنَّكَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، فَهُوَ فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْتِكَ ﴿سَأْنَيْتُكَ بِأَوْبِلٍ﴾ أَي بِتَفْسِيرٍ ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

[تَأْوِيلُ خَرْقِ السَّفِينَةِ]

هَذَا تَفْسِيرٌ مَا أَشْكَلَ أَمْرُهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا كَانَ أَنْكَرَ ظَاهِرَهُ، وَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى حِكْمَةٍ بَاطِنَةٍ، فَقَالَ: إِنَّ السَّفِينَةَ إِنَّمَا خَرَقْتَهَا لِأَعِيبَهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلِكٍ مِنَ الظَّالِمَةِ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صَالِحَةٍ أَي حَبَدَةٍ ﴿غَصْبًا﴾ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا لِأَرَدُّهُ عَنْهَا [بِعَيْبِهَا]، فَيَنْتَفِعُ بِهَا أَصْحَابُهَا الْمَسَاكِينُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ يَنْتَفِعُونَ بِهِ غَيْرَهَا. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُمْ آتَيْنَا.

﴿وَأَمَّا الْكَلْبُ فَكَانَ آبِوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَهْمًا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ

رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

[تَأْوِيلُ قَتْلِ الْغُلَامِ]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طَبِيعَ يَوْمٍ طَبِيعَ كَافِرًا» رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٤). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَانَ آبِوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أَي يَحْمِلُهُمَا حُبُّهُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ عَلَى الْكُفْرِ، قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ فَرِحَ بِهِ آبِوَاهُ حِينَ وُلِدَ، وَحَزِنَا عَلَيْهِ حِينَ قُتِلَ، وَلَوْ بَقِيَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهُمَا، فَلَيَرِضُ أَمْرًا بِقَضَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَكْرَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ قَضَائِهِ فِيمَا يُحِبُّ^(٥). وَصَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٦) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَهْمًا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ أَي وَلَدًا أَرْكِي مِنْ هَذَا، وَهَمَّا أَرْحَمَ بِهِ مِنْهُ.

(١) الطبري: ٧٧/١٨ إسناده ضعيف لتدليس أبي إسحاق

السيبي (٢) الطبري: ٧٨/١٨ (٣) أحمد: ١١٩/٥ (٤)

الطبري: ٨٥/١٨ (٥) الطبري: ٨٦/١٨ (٦) أحمد: ١١٧/٣

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ ^(١).

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

[تَأْوِيلُ إِقَامَةِ الْجِدَارِ بِغَيْرِ أُجْرَةٍ]

فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلَاقِ الْقُرَيْبَةِ عَلَى الْمَدِينَةِ، لِأَنَّهُ قَالَ أَوْلَا: ﴿حَقٌّ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وَقَالَ هُنَا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] بِعَيْنِي مَكَّةَ وَالطَّائِفَ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ هَذَا الْجِدَارَ إِنَّمَا أَصْلَحْتُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا. قَالَ عِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: وَكَانَ تَحْتَهُ مَالٌ مَدْفُونٌ لَهُمَا ^(٢). وَهُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جُرَيْجٍ رَحْمَةً اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يُحْفَظُ فِي دُرَيْبِهِ وَتَشْمَلُ بَرَكَةُ عِبَادَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِشَفَاعَتِهِ فِيهِمْ، وَرَفَعَ دَرَجَتِهِمْ إِلَىٰ أَعْلَىٰ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، لِيَقَرَّ عَيْنُهُ بِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَوَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: حَفِظًا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا، وَلَمْ يُذَكَّرْ لَهُمَا صِلَاحًا ^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ هُنَا أَسْنَدُ الْإِرَادَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ بُلُوغَهُمَا الْحُلْمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، وَقَالَ فِي الْعُلَامِ: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً﴾ وَقَالَ فِي السَّفِينَةِ: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[هَلْ كَانَ الْحَضْرُ نَبِيًّا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي فَعَلْتُهُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِمَنْ ذَكَرْنَا مِنْ أَصْحَابِ السَّفِينَةِ، وَوَالِدِي الْعُلَامِ، وَوَالِدِي الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، أَيُّ لِكَيْنِي أَمِرْتُ بِهِ وَوَقِفْتُ عَلَيْهِ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِمَنْ قَالَ بِنُبُوَّةِ الْحَضْرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

[وَجْهٌ تَسْمِيَةِ الْحَضْرِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ

النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَضْرِ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ حَضْرًا لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى قُرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَرُ مِنْ تَحْتِهِ حَضْرَاءَ» ^(٤). وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ ^(٥). وَقَدْ بَيَّنْتُ أَيْضًا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ هَمَّامٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْحَضْرُ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى قُرْوَةٍ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَرُ مِنْ تَحْتِهِ حَضْرَاءَ» ^(٦). وَالْمُرَادُ بِالْقُرْوَةِ هُنَا الْحَبَشِيُّ الْيَابِسُ وَهُوَ الْهَشِيمُ مِنَ النَّبَاتِ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ^(٧). وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ وَجْهَ الْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أَيُّ هَذَا تَفْسِيرُ مَا ضَفَّتْ بِهِ ذَرْعًا، وَلَمْ تَصْبِرْ حَتَّىٰ أَخْبِرَكَ بِهِ ابْتِدَاءً، وَلَمَّا أَنْ فَسَّرَهُ لَهُ وَبَيَّنَّهُ وَوَضَّحَهُ وَأَزَالَ الْمُشْكَلَ قَالَ: [﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ﴾] وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الْإِشْكَالُ قَوْلًا ثَقِيلًا، فَقَالَ: ﴿سَأْنَيْتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، فَقَابَلَ الْأَثْقَلَ بِالْأَثْقَلِ، وَالْأَخْفَ بِالْأَخْفِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وَهُوَ الصُّعُودُ إِلَىٰ أَغْلَاهُ ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ يَقْبَا﴾ وَهُوَ أَشَقُّ مِنْ ذَلِكَ، فَقَابَلَ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ لَفْظًا وَمَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا بَالُ فَتَىٰ مُوسَىٰ ذُكِرَ فِي أَوَّلِ الْقِصَّةِ ثُمَّ لَمْ يُذَكَّرْ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالسِّيَاقِ إِنَّمَا هُوَ قِصَّةُ مُوسَىٰ مَعَ الْحَضْرِ وَذِكْرُ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا، وَفَتَىٰ مُوسَىٰ مَعَهُ تَبَعٌ، وَقَدْ صُرِّحَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا أَنَّهُ يُوشِعُ بَنُ نُونٍ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَلِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْبَيْنِ فَلَّ سَأَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾

[قِصَّةُ ذِي الْقُرْبَيْنِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّ ﷺ: ﴿رَسْتَلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَنْ ذِي الْقُرْبَيْنِ﴾ أَيُّ عَنِ خَبْرِهِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ بَعَثَ كُفَّارُ مَكَّةَ إِلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَ مِنْهُمْ مَا يَمْتَحِنُونَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ فِي الْأَرْضِ، وَعَنْ فِتْنَةٍ لَا يُدْرَىٰ مَا صَنَعُوا، وَعَنِ الرُّوحِ، فَتَزَلَّتْ سُورَةُ الْكَهْفِ.

[كَانَ ذُو الْقُرْبَيْنِ صَاحِبَ سُلْطَنَةٍ كَبِيرَةٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ أَعْطَيْنَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا

(١) الطبري: ٨٦، ٨٧، ١٨ (٢) الطبري: ٩٠، ١٨ (٣)

الطبري: ٩٠، ١٨ (٤) أحمد: ٣١٢، ٢ (٥) أحمد: ٣١٨، ٢

(٦) فتح الباري: ٤٩٩، ٦ (٧) أحمد: ٣١٨، ٢

مُمْكِنًا فِيهِ مِنْ جَمِيعِ مَا يُؤْتَى الْمُلُوكَ مِنَ التَّمَكِينِ وَالْجُنُودِ وَالآيَاتِ الْحَرْبِ وَالْحَضَارَاتِ، وَلِهَذَا مَلَكَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ مِنَ الْأَرْضِ، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ، وَخَضَعَتْ لَهُ مُلُوكُ الْعِبَادِ، وَخَدَمَتْهُ الْأُمَمُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وَلِهَذَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْيَيْنِ، لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْيَةَ الشَّمْسِ مَشْرِقَهَا وَمَغْرِبَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَيَّتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَّأً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي عِلْمًا^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ أَيضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَيَّتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَّأً﴾ قَالَ: مَنَازِلُ الْأَرْضِ وَأَعْلَامُهَا^(٢).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّ بَلْقَيْسَ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أَي مِمَّا يُؤْتَى مِثْلَهَا مِنَ الْمُلُوكِ، وَهَكَذَا دُوَّ الْقَرْيَيْنِ، يَسِّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَسْبَابَ، أَيِ الطَّرِيقَ وَالْوَسَائِلَ إِلَى فَتْحِ الْأَقَالِيمِ وَالرَّسَائِيقِ وَالْبِلَادِ وَالْأَرْضِي، وَكَسْرِ الْأَعْدَاءِ، وَكَيْتِ مُلُوكِ الْأَرْضِ، وَإِذْلالِ أَهْلِ الشَّرْكِ، قَدْ أُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ سَبَّأً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَأَنْبَعِ سَبَّأً﴾^(٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَعْرُبُ فِي عَيْبٍ حِمَّةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا^(٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا^(٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَىٰ وَسَنُقَدِّمُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُؤْتِرًا^(٨٨)

[ذَهَابُهُ وَبُلُوغُهُ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَأَنْبَعِ سَبَّأً﴾ يَعْنِي بِالسَّبَبِ الْمَثْرُولِ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَأَنْبَعِ سَبَّأً﴾ مَنَزَلًا وَطَرِيقًا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ^(٤). وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ مُجَاهِدٍ: ﴿سَبَّأً﴾ قَالَ: طَرِيقًا فِي الْأَرْضِ^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيِ أَنْبَعِ مَنَازِلَ الْأَرْضِ وَمَعَالِمِهَا^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أَيِ فَسَلَّكَ طَرِيقًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْصَى مَا يُسَلَّكَ فِيهِ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ وَهُوَ مَغْرِبُ الْأَرْضِ، وَأَمَّا الْوُضُوءُ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ مِنَ السَّمَاءِ فَمَتَعَدَّرٌ، وَمَا يَذْكُرُهُ أَصْحَابُ الْفِيضِ وَالْأَخْبَارِ مِنْ أَنَّهُ سَارَ فِي الْأَرْضِ مُدَّةً، وَالشَّمْسُ تَعْرُبُ مِنْ وَرَائِهِ، فَسَيِّئٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَأَكْثَرُ ذَلِكَ مِنْ خُرَافَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْخِلَافِ زَانِدَاتِهِمْ وَكَيْدِيهِمْ وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَدَهَا تَعْرُبُ فِي عَيْبٍ حِمَّةٍ﴾ أَيِ رَأَى الشَّمْسَ فِي مَنْظَرِهِ تَعْرُبُ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ، وَهَذَا شَأْنٌ كُلٌّ مِنْ أَنْتَهَى إِلَى سَاحِلِهِ يَرَاهَا

إِنَّمَا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَايَّتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَّأً^(٨٤) فَأَنْبَعِ سَبَّأً^(٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَعْرُبُ فِي عَيْبٍ حِمَّةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا^(٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا^(٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَىٰ وَسَنُقَدِّمُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُؤْتِرًا^(٨٨) ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَّأً^(٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا^(٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا^(٩١) ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَّأً^(٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا^(٩٣) قَالُوا يَبْدَأُ الْقَرْيَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا^(٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا^(٩٥) ءَأَتُونِي رُبِّ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا^(٩٦) فَمَا اسْطُغْوُوا أَنْ يَطْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطْعَمُوهُ لَهُ نَقِبًا^(٩٧)

كَأَنَّهَا تَعْرُبُ فِيهِ، وَهِيَ لَا تَفَارِقُ الْفُلْكَ الرَّابِعَ الَّذِي هِيَ مُثَبَّتَةٌ فِيهِ لَا تَفَارِقُهُ، وَالْحِمَّةُ مُشْتَقَّةٌ عَلَىٰ إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ مِنَ الْحِمَاةِ وَهُوَ الطِّينُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] أَيِ طِينٍ أَمْلَسَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ أَيِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، ذَكَرُوا أَنَّهَا كَانَتْ أُمَّةً عَظِيمَةً مِنْ بَنِي آدَمَ. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ مَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ مَكَّنَهُ مِنْهُمْ، وَحَكَّمَهُ فِيهِمْ، وَأَطْفَرَهُ بِهِمْ، وَخَيْرَهُ إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَسَبَّى، وَإِنْ شَاءَ مَنْ أَوْ قَدَى، فَفَعَّرَ عَدْلُهُ وَإِيمَانُهُ فِيمَا أَبْدَاهُ عَدْلُهُ وَبَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أَيِ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ بِرَبِّهِ ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ:

(١) البداية والنهاية: ١٠٦/٢ والطبري: ٩٥، ٩٤/١٨ (٢) البداية والنهاية: ١٠٦/٢ والطبري: ٩٥، ٩٤/١٨ (٣) الطبري: ٩٩/١٨ (٤) الطبري: ٩٥/١٨ (٥) الطبري: ٩٥/١٨ (٦) الطبري: ٩٩/١٨

بِالْقَتْلِ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ يَرُدُّ إِيَّكَ رَبِّيَ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا مُّكْرَمًا﴾ أَي شَدِيدًا بَلِيغًا وَجِيمًا أَلِيمًا، وَفِي هَذَا إِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَمَنَّ﴾ أَي اتَّبَعْنَا عَلَى مَا نَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾ أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَسَقُولُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْرُوفًا^(٢).

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّابٌ^(٣) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا^(٤) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا^(٥)﴾

[ذَهَابُهُ إِلَىٰ جِهَةِ الْمَشْرِقِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا فَسَارَ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ إِلَىٰ مَطْلِعِهَا، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِأُمَّةٍ فَهَرَّمَهُمْ وَعَلَبَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ أَطَاعُوهُ وَإِلَّا أَذَلَّهُمْ وَأَرْعَمَ آتَانَهُمْ وَاسْتَبَاحَ أَمْوَالَهُمْ وَأَمْتَعَتَهُمْ، وَاسْتَحْدَمَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَا تَسْتَعِينُ بِهِ جُبُوشُهُ عَلَىٰ قِتَالِ الْإِقْلِيمِ الْمُتَآخِرِ لَهُمْ، وَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَطْلِعِ الشَّمْسِ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أَي أُمَّةٍ ﴿لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أَي لَيْسَ لَهُمْ بِنَاءٌ يَكْنِيهِمْ، وَلَا أَشْجَارٌ تُظَلِّهُمُ وَتَسْتُرُهُمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرْنَا لَنَا أَنَّهُمْ بَارِضٌ لَا تَبَتْ لَهُمْ شَيْئًا فَهُمْ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ دَخَلُوا فِي أَسْرَابٍ، حَتَّىٰ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ خَرَجُوا إِلَىٰ حُرُوبِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ^(٦). وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: عَلِمَا أَي نَحْنُ مَطْلُوعُونَ عَلَىٰ جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ جَيْشِهِ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْءٌ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أُمَّتُهُمْ وَتَفَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٧) [آل عمران: ٥١].

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّابٌ^(٨) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا^(٩)﴾ قَالُوا بِنْدَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ حَرَمًا عَلَا أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا^(١٠) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا^(١١) ﴿عَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ عَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا^(١٢)﴾

[ذَهَابُهُ إِلَىٰ أَرْضِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَبِنَاؤُهُ السَّدَّ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقَرْيَتَيْنِ: ﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّابٌ﴾ أَي ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا مِنْ مَسَارِقِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ

السَّدَّيْنِ وَهُمَا جَبَلَانِ مُتَنَاوِحَانِ بَيْنَهُمَا ثُغْرَةٌ يُخْرُجُ مِنْهَا يَأْجُوجٌ وَمَأْجُوجٌ عَلَىٰ بِلَادِ التُّرْكِ فَيَعِشُونَ فِيهَا فَسَادًا وَيُهْلِكُونَ الْحَرثَ وَالنَّسْلَ، وَيَأْجُوجٌ وَمَأْجُوجٌ مِنْ سُلَالَةٍ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ. يَقُولُ: ابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ، يَقُولُ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ يَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ. فَجَبْتِيذُ يَثِيبُ الصَّغِيرِ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا. فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ، مَا كَانَتْما فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثْرَتَاهُ: يَأْجُوجٌ وَمَأْجُوجٌ»^(١٣).

﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أَي لِاسْتِعْجَالِ كَلَامِهِمْ وَبُعْدِهِمْ عَنِ النَّاسِ ﴿قَالُوا بِنْدَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ حَرَمًا﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَحْرًا^(١٤) عَظِيمًا، يُعْنِي أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا لَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ مَا لَا يُعْطُونَهُ إِيَّاهُ حَتَّىٰ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. فَقَالَ ذُو الْقَرْيَتَيْنِ بِعِفَّةٍ وَوِيَانَةٍ وَصَلَاحٍ وَفَضْلِ لِلْخَيْرِ: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أَي إِنْ الَّذِي أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالتَّمَكِينِ خَيْرٌ لِي مِنَ الَّذِي تَجْمَعُونَهُ، كَمَا قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَانَكُمْ﴾... [الأنعام: ٣٦]، وَهَكَذَا قَالَ ذُو الْقَرْيَتَيْنِ: الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي تَبْدُلُونَهُ وَلَكِنْ سَاعِدُونِي بِقُوَّةٍ، أَي بِعَمَلِكُمْ وَآلَاتِ الْبِنَاءِ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا^(١٥)﴾ عَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ وَالزُّبُرُ جَمْعُ زُبْرَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنْهُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ^(١٦). وَهِيَ كَاللَّبَنَةِ، يُقَالُ: كُلُّ لَبَنَةٍ زَنْةٌ فَنُظَارُ بِالْذَّمِّ شَقِيٌّ أَوْ تَرِيدُ عَلَيْهِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أَي وَضَعَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ حَتَّىٰ إِذَا حَادَىٰ بِهِ رُؤُوسَ الْجَبَلَيْنِ طُولًا وَعَرْضًا.

-وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَاحَةِ عَرْضِهِ وَطُولِهِ عَلَىٰ أَقْوَالٍ - قَالَ انْفُخُوا أَي أَسْجَعْ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّىٰ صَارَ كُلُّهُ نَارًا ﴿قَالَ عَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: هُوَ النَّحَّاسُ زَادَ بَعْضُهُمْ

(١) الطبري: ٩٨/١٨ (٢) الطبري: ٩٩/١٨ (٣) الطبري: ١٠٠/١٨ (٤) الطبري: ١٠١/١٨ (٥) فتح الباري: ٢٩٥/٨ (٦) الطبري: ١١٢/١٨ إسناده ضعيف لتدليس ابن جريج وفيه أيضا الحسين بن داود المصيصي (٧) الطبري: ١١٤/١٨

الْمُذَابِ^(١) وَيُسْتَشْهَدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسَلْنَا لِمَ عَنِ الْقَطْرِ﴾
[سبأ: ١٢] وَلِهَذَا يُشَبَّهُ بِالْبُرْدِ الْمُحْبَرِ. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَمَا اسْطَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَلَعُوا لِمَ نَقَبُ^(٢)﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةً
مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَدَّ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا^(٣) ﴿١٨﴾ وَتَرَكَنَا
بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَهُمْ جَمَاعًا^(٤) ﴿١٩﴾

[صَارَ السَّدُّ مَانِعًا وَسَوَفَ يَدُكُ قُرْبَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، أَنَّهُمْ مَا قَدَرُوا
عَلَى أَنْ يَصْعَدُوا مِنْ فَوْقِ هَذَا السَّدِّ وَلَا قَدَرُوا عَلَى نَقْبِهِ
مِنْ أَسْفَلِهِ، وَلَمَّا كَانَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ أَسهَلُ مِنْ نَقْبِهِ قَابِلٌ كَلَّا
بِمَا يُنَاسِبُهُ فَقَالَ: ﴿فَمَا اسْطَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَلَعُوا لِمَ
نَقَبُ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبِهِ وَلَا عَلَى
شَيْءٍ مِنْهُ.

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشِ رُوَيْحِ
النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: اسْتَقْبَطَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ مُحَمَّرٌ
وَجْهَهُ وَهُوَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَيُلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ
اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا»
وَحَلَّقَ [بِإِضْبَاعِهِ الإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا] قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!
أَتَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ النَّحْبُ»^(٥)
هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ اتَّفَقَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى
إِخْرَاجِهِ^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي﴾ أَي لَمَّا بَنَاهُ ذُو الْقُرْنَيْنِ
﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي﴾ أَي بِالنَّاسِ حَيْثُ جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ حَائِلًا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَيْثِ فِي الأَرْضِ
وَالْفَسَادِ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدَّ رَبِّي﴾ أَي إِذَا اقْتَرَبَ الوَعْدُ الْحَقُّ
﴿جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾ أَي سَاوَاهُ بِالأَرْضِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: نَاقَةٌ دَكَّاءٌ
إِذَا كَانَ ظَهْرُهَا مُسْتَوِيًا لِإِسْتِمَامِ لَهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا
تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أَي
مُسَاوِيًا لِلأَرْضِ.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أَي كَانَتْهَا لَا مَحَالَةَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَرَكَنَا
بَعْضَهُمْ﴾ أَي النَّاسَ يَوْمَئِذٍ، أَي يَوْمَ يَدُكُ هَذَا السَّدِّ، وَيَخْرُجُ
هُؤُلَاءِ فَيَمُوجُونَ فِي النَّاسِ، وَيُفْسِدُونَ عَلَى النَّاسِ
أَمْوَالَهُمْ، وَيَتَلَفُونَ أَشْيَاءَهُمْ، وَهَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ:
﴿وَتَرَكَنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قَالَ: ذَلِكَ حِينَ يَخْرُجُونَ
عَلَى النَّاسِ^(٧). وَهَذَا كُلُّهُ قَبْلَ الْقِيَامَةِ وَبَعْدَ الدَّجَالِ، كَمَا
سَيَأْتِي بَيَانُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الْحَقُّ

سورة الكهف ٣٠٤
قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَدَّ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا ﴿١٨﴾ وَتَرَكَنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَمَجَعْنَهُمْ جَمَاعًا ﴿١٩﴾ وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٢٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَعَاءً ﴿٢١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي
أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿٢٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالًا ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ زَنًّا ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ
جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٢٧﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿٢٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿٢٩﴾ قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿٣٠﴾

الآية [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وَالصُّورُ كَمَا جَاءَ فِي
الْحَدِيثِ: قُرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ، وَالَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ إِسْرَائِيلُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ بِطَوِيلِهِ، وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ
كَثِيرَةٌ^(٥). وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٦) وَأَبِي
سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ النَّقَمِ
الْقُرْنِ، وَحَتَّى جِبْهَتُهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ؟» قَالُوا: كَيْفَ
نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ

(١) الطبري: ١١٦/١٨، ١١٧ والدر المنثور: ٤٦٠/٥ (٢)

أحمد: ٤٢٨/٦ (٣) فتح الباري: ٤٤٠/٦ ومسلم: ٢٢٠٨/٤

(٤) الدر المنثور: ٤٥٤/٤ (٥) تحفة الأحوذى: ١١٦/٩ (٦)

الطبري: ١٢٢/١٨ إسناده ضعيف لضعف عطية إلا أنه تابع عليه

أبو صالح عند أبي يعلى (١٠٨٤) وابن حبان (٨٢٣) والحاكم ٤/

٥٥٩ وابن أبي الدنيا في "الأهوال" (٤٩) أنظر موسوعة الإمام

ابن أبي الدنيا ١٥٤/٦ وورد ابن كثير عنه في البداية ١/١٧١

وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧٩)

تَوَكَّلْنَا»^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿جَمَعْتَهُمْ جَمَاعًا﴾ أَيْ أَحْضَرْنَا الْجَمِيعَ لِلْحِسَابِ ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. ﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٥١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿٥٢﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنْجُوْا عِبَادِي مِنْ دُوْفِ أُولَئِكَ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿٥٣﴾﴾

[عَرَضُ جَهَنَّمَ عَلَى الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ بِالْكَفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يَعْضُضُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ، أَيْ يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا لِيُرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي تَعْجِيلِ لَهُمْ وَالْحُزْنَ لَهُمْ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تَقَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زَمَامٍ، مَعَ كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ»^(٢) ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاةٍ عَنْ ذِكْرِي» أَي تَغَافَلُوا وَتَعَامَوْا وَتَصَامَمُوا عَنْ قَبُولِ الْهُدَى وَاتَّبَاعِ الْحَقِّ، كَمَا قَالَ: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصَ لَهُ سَطْرًا فَهُوَ لَمْ قَرِينٌ» [الزخرف: ٣٦] وَقَالَ هُنَا: «وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا» أَي لَا يَقْبَلُونَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنْجُوْا عِبَادِي مِنْ دُوْفِ أُولَئِكَ» أَي إِعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَصْلُحُ لَهُمْ ذَلِكَ وَيَتَنَفَعُونَ بِهِ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨٢] وَلِهَذَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْزِلًا. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٥٣﴾ الَّذِينَ صَدَّ سَعِيمٌ فِي لَحْيَوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٥٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿٥٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا ﴿٥٦﴾﴾

[الْأَخْسَرُونَ أَعْمَالًا وَجَزَاؤُهُمْ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْثَدٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي يَعْقُوبَ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أَلَمْ أَهْمُ الْحُرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا، هُمُ الْيَهُودُ وَالتَّصَارِيُّ، أَمَّا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ. وَأَمَّا التَّصَارِيُّ فَكَفَرُوا بِالْحَقِّ وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ. وَالتَّصَارِيُّ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، فَكَانَ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ^(٣). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٤) وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هُمُ الْحُرُورِيَّةُ،

وَمَعْنَى هَذَا عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تَشْمَلُ الْحُرُورِيَّةَ كَمَا تَشْمَلُ الْيَهُودَ وَالتَّصَارِي وَغَيْرُهُمْ، لَا إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي هُؤُلَاءِ - عَلَى الْخُصُوصِ - وَلَا هُؤُلَاءِ، بَلْ هِيَ أَعَمُّ مِنْ هَذَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ قَبْلَ خُطَابِ الْيَهُودِ وَالتَّصَارِي، وَقَبْلَ وُجُودِ الْخَوَارِجِ بِالْكَلْبَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ عَدَدَ اللَّهُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِيهَا، وَأَنَّ عَمَلَهُ مَقْبُولٌ، وَهُوَ مُخْطِئٌ، وَعَمَلُهُ مَرْدُودٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجُؤُا يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةً ﴿٥٦﴾ عَائِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٥٧﴾ صَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسْرًا يَفِيعَةً يَصْحَبُهُ الظَّنَانُ مَا هَ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ سَيِّئًا» [النور: ٣٩] وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أَي نُخْبِرُكُمْ ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُمْ، فَقَالَ: «الَّذِينَ صَدَّ سَعِيمٌ فِي لَحْيَوِّ الدُّنْيَا» أَي عَمِلُوا أَعْمَالًا بَاطِلَةً عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةٍ مَشْرُوعَةٍ مَرْضِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أَي يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَأَنَّهُمْ مَقْبُولُونَ مَحْبُوبُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أَي جَحَدُوا آيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَبَرَاهِينَهُ الَّتِي أَقَامَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَصَدَّقَ رُسُلَهُ، وَكَذَّبُوا بِالْآخِرَةِ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ أَي لَا نَقْبُلُ مَوَازِينَهُمْ، لِأَنَّهَا خَالِيَةٌ عَنِ الْحَيْرِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَرَى عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ - وَقَالَ: - إِقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾». وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا﴾ أَي إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهَذَا الْجَزَاءِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَاتَّخَاذِهِمْ آيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ هُزُولًا، إِسْتَهْزَؤًا بِهِمْ وَكَذَّبُوهُمْ أَشَدَّ التَّكْدِيبِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٥٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلًا ﴿٥٨﴾﴾

[جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الشُّعَدَاءِ وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

(١) تحفة الأحوذى: ١١٧/٧ (٢) مسلم: ٢١٨٤/٤ (٣) فتح الباري: ٢٧٨/٨ (٤) الطبري: ١٢٧/١٨ (٥) فتح الباري: ٨/٢٧٩ ومسلم: ٢١٤٧/٤

نَعِيمِ الدُّنْيَا وَأُولَئِهَا وَآخِرُهَا فِي نَعِيمِ الآخِرَةِ، كَحَبِّهِ مِنْ خَرْدَلٍ فِي خِلَالِ الأَرْضِ كُلِّهَا.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَمْ أَكْفَرًا ﴿١٠٩﴾﴾
[مُحَمَّدٌ ﷺ بَشَرٌ وَرَسُولٌ وَإِلَٰهٌ وَاحِدٌ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكذِّبِينَ بِرِسَالَتِكَ إِلَهُهُمْ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فَمَنْ رَعِمَ أَنِّي كاذِبٌ فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ العَيْبَ فِيمَا أُخْبِرْتُكُمْ بِهِ مِنَ المَاضِي عَمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الكَهْفِ وَخَبْرِ ذِي القُرْنَيْنِ مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ فِي نَفْسِ الأَمْرِ - لَوْلَا مَا أَطَّلَعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا أُخْبِرُكُمْ ﴿أَمَّا إِلَهُكُمْ﴾ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ ﴿إِلَهُهُ وَاحِدٌ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أَي تَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ الصَّالِحِ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أَي مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرَعِ اللَّهِ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَانِ رُكْنَا العَمَلِ المُتَقَبَّلِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، صَوَابًا عَلَى شَرِيعةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ لَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الأَضْعَرُّ» قَالُوا: وَمَا الشُّرْكَ الأَضْعَرُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»^(٥)

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ أَبِي فَصَالَةَ الأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالأَآخِرِينَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ اللَّهُ أَحَدًا، فَلْيَطْلُبْ تَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ»^(٦). وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٧).

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الكَهْفِ.

وَرَسُولِهِ، وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ، أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتِ الفِرْدَوْسِ. وَقَالَ أَبُو أَمَامَةَ: الفِرْدَوْسُ سُرَّةُ الجَنَّةِ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: الفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الجَنَّةِ، وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا^(٢). وَقَدْ رَوَى هَذَا مَرْفُوعًا عَنْ سُمَرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الجَنَّةِ، أَوْسَطُهَا وَأَحْسَنُهَا».

وَرَوَى عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ. رَوَى ذَلِكَ كُلُّهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٣). وَفِي الصَّحِيحِ: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الجَنَّةَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزَّلْنَا أَيُّ صِيْفَاةٍ، فَإِنَّ النُّزْلَ الصِّيْفَاةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿خَلْدِينَ فِيهَا﴾ أَي مُتَمِيمِينَ سَاكِنِينَ فِيهَا، لَا يَطْعَنُونَ عَنْهَا أَبَدًا ﴿لَا يَتَعَوَّنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أَي لَا يَخْتَارُونَ عَنْهَا غَيْرَهَا، وَلَا يُجِبُونَ سِوَاهَا.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَتَعَوَّنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ تَنْبِيهُ عَلَى رَغْبَتِهِمْ فِيهَا وَحُبِّهِمْ لَهَا، مَعَ أَنَّهُ قَدْ يَتَوَهَّمُ فِيمَنْ هُوَ مُقِيمٌ فِي المَكَانِ دَائِمًا أَنَّهُ قَدْ يَسْأَمُهُ أَوْ يَمَلُّهُ، فَأُخْبِرَ أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا الدَّوَامِ وَالخُلُودِ السَّرْمَدِيِّ لَا يَخْتَارُونَ عَنْ مَقَامِهِمْ ذَلِكَ مُتَحَوِّلًا وَلَا انْتِقَالًا، وَلَا ظَعْنًا، وَلَا رِحْلَةً، وَلَا بَدَلًا.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ

كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدادًا ﴿١١٠﴾﴾

[لَا تَفِدُّ كَلِمَاتُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَوْ كَانَ مَاءُ البَحْرِ مِدادًا لِلقَلَمِ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ كَلِمَاتُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ وَأَيَاتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ، لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ كِتَابَةُ ذَلِكَ ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أَي بِمِثْلِ البَحْرِ آخَرَ، ثُمَّ آخَرَ وَهَلُمَّ جَرًّا، بِحُورٍ تُمَدُّهُ وَيُكْتَبُ بِهَا، لَمَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالبَحْرُ يَمْدُؤُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] وَقَالَ الرِّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: إِنَّ مَثَلَ عِلْمِ العِبَادِ كُلِّهِمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ كَقَطْرَةٍ مِنْ مَاءِ البُحُورِ كُلِّهَا، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾ يَقُولُ: لَوْ كَانَتْ تِلْكَ البُحُورُ مِدادًا لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَالشَّجَرُ كُلُّهُ أَقْلَامٌ لَأَنْكَسَرَتْ الأَقْلَامُ، وَفِي مَاءِ البَحْرِ، وَبَقِيَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ قَائِمَةً لَا يُفْنِيهَا شَيْءٌ، لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْدِرَ قَدْرَهُ، وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِ كَمَا يُثْنِي، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُثْنِي نَفْسَهُ، إِنَّ رَبَّنَا كَمَا يَقُولُ وَفَوْقَ مَا نَقُولُ، إِنَّ مَثَلَ

(١) الطبري: ١٣٠/١٨ (٢) الطبري: ١٣٠/١٨ (٣) الطبري:

١٣٤/١٨ (٤) فتح الباري: ٤١٥/١٣ (٥) أحمد: ٤٢٨/٥

(٦) أحمد: ٢١٥/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٥٩٩/٨ وابن ماجه:

١٤٠٦/٢

سُورَةُ مَرْيَمَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيِّصَ ① ذَكَرْتُمْ رَبَّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ أَمَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥ يٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ تَكْفُرُ شَيْئًا ⑨ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪

وَقَدْ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ (١)، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَّةِ الْهَجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ مِنْ مَكَّةَ: أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿١﴾ كَهَيِّصَ ﴿٢﴾ ذَكَرْتُمْ رَبَّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٣﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَاءً خَفِيًّا ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٥﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٦﴾ يٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

[قِصَّةُ زَكَرِيَّا وَدُعَاؤُهُ لِلْوَلِيِّ]

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَكَرْتُمْ رَبَّكَ﴾ أَي هَذَا ذَكَرْتُ رَحِمَةَ اللَّهِ بِعَبْدِهِ زَكَرِيَّا، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ: (ذَكَرْتُ رَحِمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) (٣) وَزَكَرِيَّا بِيَمْدٍ وَتُفْصِرُ، قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ، وَكَانَ نَبِيًّا عَظِيمًا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ نَجَارًا يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ فِي النِّجَارَةِ (٤). وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَاءً خَفِيًّا﴾ إِنَّمَا أَحْفَاهُ لِأَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَاءً خَفِيًّا﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْقَلْبَ التَّقِيَّ، وَيَسْمَعُ الصَّوْتِ الْخَفِيِّ (٥). ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أَي ضَعُفَتْ وَخَارَتِ الْقُوَى ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، أَي إِضْطَرَمَّ الْمَشِيبُ فِي السَّوَادِ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا: الْإِخْبَارُ عَنِ الضَّعْفِ وَالْكَبَرِ وَدَلِيلُهُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أَي وَلَمْ أَعْهَدْ مِنْكَ إِلَّا الْإِجَابَةَ فِي الدُّعَاءِ، وَلَمْ تُرَدِّدْنِي قَطُّ فِيمَا سَأَلْتُكَ وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أَرَادَ بِالْمَوَالِيَ الْعَصَبَةَ (٦). وَوَجْهُ حَوْفِهِ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّصِرَفُوا مِنْ بَعْدِهِ فِي النَّاسِ تَصَرُّفًا سَيِّئًا، فَسَأَلَ اللَّهَ وَلَدًا، يَكُونُ نَبِيًّا مِنْ بَعْدِهِ لِيَسُوسَهُمْ بِبُتُوئِهِ وَمَا يُوحَى إِلَيْهِ، فَأَجِيبَ فِي ذَلِكَ، لَا أَنَّهُ خَشِيَ مِنْ وَرَائِهِمْ لَهُ مَالُهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ أَعْظَمَ مَنْزِلَةً وَأَجَلُ قَدْرًا مِنْ أَنْ يُشْفِقَ عَلَى مَالِهِ إِلَى مَا هَذَا حَدُّهُ، وَأَنْ يَأْتَفَ مِنْ وَرَائِهِ عَصَبَاتِهِ لَهُ، وَيَسْأَلَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لِيَحْوِزَ مِيرَاثَهُ دُونَهُمْ. هَذَا وَجْهُ.

(الثنائي) أَنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ، بَلْ كَانَ نَجَارًا يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدَيْهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَجْمَعُ مَالًا، وَلَا سِيمًا الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَزْهَدَ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا.
 (الثالث) أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا نُورُثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ» (٧).
 وَفِي رِوَايَةِ عِنْدَ الثِّرَمِذِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ: «نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورُثُ» (٨). وَعَلَى هَذَا فَتَعَيَّنَ حَمَلُ قَوْلِهِ: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِي﴾ عَلَى مِيرَاثِ النَّبُوَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَرِثُ مِنْ أَمَالِ يَعْقُوبَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أَي فِي النَّبُوَّةِ، إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْمَالِ لَمَا خَصَّهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ بِذَلِكَ، وَلَمَا كَانَ فِي الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ كَبِيرٌ فَائِدَةٌ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ الْمُسْتَقَرِّ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ

(١) ابن هشام: ٣٥٧/١ (٢) أحمد: ١: ٢٠١، ٤٦١ (٣) القرطبي: ٧٥/١١ (٤) مسلم: ١٨٤٧/٤ (٥) الطبري: ١٨/١٤٢ (٦) الطبري: ١٤٤/١٨ (٧) فتح الباري: ٦/٢٢٧ ومسلم: ٣/١٣٨٣ (٨) تحفة الأحمودي: ٥/٣٣٤

وَمِنْ زَوْجِكَ هَذِهِ، لَا مِنْ غَيْرِهَا، ﴿هَيْنٌ﴾ أَيَّ يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكِ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ تَلَكَّ لِسَالِ سَوِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَخِّبُوا بُكَرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٨﴾

[عَلَامَةُ الْحَمْلِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أَيَّ عِلْمًا وَدَلِيلًا عَلَى وُجُودِ مَا وَعَدْتَنِي، لِتَسْتَقِرَّ نَفْسِي وَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي بِمَا وَعَدْتَنِي، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَوُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطَمِينَ قَلْبِي﴾... الآية [البقرة: ٢٦٠].

﴿قَالَ آيَاتُكَ﴾ أَيَّ عِلْمًا تَلَكَّ لِسَالِ سَوِيًّا أَيَّ أَنْ تَحْسِبَ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَأَنْتَ صَحِيحٌ سَوِيٌّ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَوَهْبٌ وَالشَّدِيدِيُّ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ وَاحِدٍ: أُعْتِقِلَ لِسَانُهُ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ^(٥). قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَانَ يَقْرَأُ وَيُسْحِجُ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُكَلِّمَ قَوْمَهُ إِلَّا إِشَارَةً^(٦).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿تَلَكَّ لِسَالِ سَوِيًّا﴾ أَيَّ مُتَتَابِعَاتٍ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ عَنْهُ وَعَنِ الْجُمْهُورِ أَصَحُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ تَلَكَّ لِسَانًا إِلَّا رَمْرًا وَادُّرُّ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَخِّجَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١] وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ وَأَيَّامِهَا إِلَّا رَمْرًا أَيَّ إِشَارَةً، وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أَيَّ الَّذِي بَشَّرَ فِيهِ بِالْوَلَدِ ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أَيَّ أَشَارَ إِشَارَةً خَفِيَّةً سَرِيعةً ﴿أَنْ سَخِّبُوا بُكَرَةً وَعَشِيًّا﴾ أَيَّ مُوَافَقَةً لَهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ زِيَادَةً عَلَى أَعْمَالِهِ، شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُ. قَالَ

وَالْمَلَلِ أَنَّ الْوَلَدَ يَرِثُ أَبَاهُ، فَلَوْلَا أَنَّهَا وَرِاثَةٌ خَاصَّةٌ لَمَا أَخْبَرَ بِهَا، وَكُلُّ هَذَا يُبَرِّرُهُ وَيُثَبِّتُهُ مَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»^(١).

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ كَانَ وَرِاثَتُهُ عِلْمًا، وَكَانَ زَكَرِيَّا مِنْ ذُرِّيَّةِ يَعْقُوبَ^(٢). وَقَالَ هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قَالَ: يَكُونُ نَبِيًّا كَمَا كَانَتْ أَبَاؤُهُ أَنْبِيَاءً^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَعْلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أَيَّ مَرْضِيًّا عِنْدَكَ وَعِنْدَ خَلْقِكَ، نُحِبُّهُ وَنُحِبُّهُ إِلَى خَلْقِكَ فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ.

﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ

سَمِيًّا ﴿٧﴾

[قَبُولُ دُعَائِهِ]

هَذَا الْكَلَامُ يَنْصَمُنْ مَحْدُوفًا، وَهُوَ أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ فِي دُعَائِهِ، فَيَقِيلُ لَهُ: ﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿١٧﴾ فَتَادَتُهُ الْمَلَكِيَّةُ وَهُوَ قَائِمٌ بِصَلَاةٍ فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَتِكَ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران: ٣٨، ٣٩] وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ: أَيَّ لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ قَبْلَهُ بِهَذَا الْإِسْمِ^(٤). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ رَجِمَهُ اللَّهُ.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ لِي عَلِيمٌ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَكِ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ﴿٩﴾

[التَّعَجُّبُ بَعْدَ قَبُولِ الدُّعَاءِ]

هَذَا تَعَجُّبٌ مِنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ وَبُشِّرَ بِالْوَلَدِ، فَفَرِحَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَسَأَلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَا يُوَلَّدُ لَهُ، وَالْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْهُ الْوَلَدُ، مَعَ أَنَّ أَمْرَاتَهُ كَانَتْ عَاقِرًا لَمْ تَلِدْ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهَا، مَعَ كِبَرِهَا، وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ كَبُرَ وَعَتَا، أَيَّ: عَسَا عَظُمَتْهُ وَنَحَلَتْ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ لِقَاحٌ وَلَا جَمَاعٌ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْعُودِ إِذَا بَيَسَ: عَتَا يَعْتُو عِتِيًّا وَعُتُوًّا، وَعَسَا يَعْسُو عُسُوًّا وَعَسِيًّا.

[جَوَابُ الْمَلِكِ]

﴿قَالَ﴾ أَيَّ الْمَلِكِ مُجِيبًا لَزَكَرِيَّا عَمَّا اسْتَعَجَبَ مِنْهُ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أَيَّ إِيجَادُ الْوَلَدِ مِنْكَ

(١) تحفة الأحوذى: ٢٣٤/٥ (٢) الطبري: ١٤٦/١٨ (٣)

الطبري: ١٤٦/١٨ (٤) الطبري: ١٤٨/١٨ (٥) الطبري:

١٥٢/١٨ (٦) الطبري: ١٥٢/١٨

مُجَاهِدٌ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أَي أَسَارًا^(١). وَبِهِ قَالَ وَهَبٌ وَفَتَادَةٌ^(٢).

﴿يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا ١٧﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٨﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٩﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ٢٠﴾

[وِلَادَةُ الْغُلَامِ وَأَوْصَافُهُ]

وَهَذَا أَيْضًا تَصَمَّنَ مَخْدُوفًا، تَقْدِيرُهُ: أَنَّهُ وُجِدَ هَذَا الْغُلَامُ الْمُبَشَّرُ بِهِ وَهُوَ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْكِتَابَ، وَهُوَ التَّوَارَةُ الَّتِي كَانُوا يَتَدَارَسُونَهَا بَيْنَهُمْ، وَيَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ، وَقَدْ كَانَ سِنُهُ إِذْ ذَاكَ صَغِيرًا، فَلِهَذَا تَوَّه بِذِكْرِهِ وَبِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ وَالِدَيْهِ فَقَالَ: ﴿يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ﴾ أَي تَعَلَّمَ الْكِتَابَ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أَي بَجِدِّ وَجَرِّصٍ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ أَي الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ، وَالْجِدَّةَ وَالْعَزَمَ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْإِكْتِبَابَ عَلَيْهِ، وَالْاجْتِهَادَ فِيهِ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ يَقُولُ: وَرَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا^(٣). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَفَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَزَادَ: لَا يَتَدِرُّ عَلَيْهَا غَيْرِنَا، وَزَادَ فَتَادَةٌ: رَحِمَ اللَّهُ بِهَا زَكْرِيَّا^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ وَتَعَطُّفًا مِّنْ رَبِّهِ عَلَيْهِ^(٥). وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿وَحَنَانًا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ أَي وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ وَحَنَانًا وَزَكَاةً، أَي وَجَعَلْنَاهُ ذَا حَنَانٍ وَزَكَاةٍ، فَالْحَنَانُ هُوَ الْمَحَبَّةُ فِي شَفَقَةٍ وَمِثْلٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَزَكَاةً﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿وَحَنَانًا﴾ فَالزَّكَاةُ الطَّهَارَةُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْإِتَامِ وَالذُّنُوبِ. وَقَالَ فَتَادَةٌ: الزَّكَاةُ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ^(٦). وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ الزَّكِيُّ^(٧). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَزَكَاةً﴾ قَالَ: بَرَكَةٌ، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ طَهْرٌ، فَلَمْ يَهَمْ بِذَنْبٍ^(٨). وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَاعَتَهُ لِرَبِّهِ، وَأَنَّهُ خَلَقَهُ ذَا رَحْمَةٍ وَزَكَاةً وَتَقَى، عَطَفَ بِذِكْرِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ وَبَرِّهِ بِهِمَا، وَمُجَانِبَتِهِ عَقُوبَهُمَا قَوْلًا وَفِعْلًا، أَمْرًا وَنَهْيًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ جَزَاءً لَهُ عَلَى

يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا ١٧﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٨﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٩﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ٢٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ٢١﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ٢٢﴾ قَالَتْ إِنَّي فَأْتِيكَ آيَاتُ الْرَحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ٢٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ٢٤﴾ قَالَتْ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلِيُّ هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ٢٦﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ٢٧﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّوَدِيًّا ٢٨﴾ فَتَادَهَا مِنْ تَحْتِهَا الْآخِزِي فَدَجَّلَ رَبُّكِ تَحْتِكَ سَرِيًّا ٢٩﴾ وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ فَسَلْقَطَ عَلَيْكَ طَبْعًا حَبِيًّا ٣٠﴾

ذَلِكَ ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أَي لَهُ الْأَمَانُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ. وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: أَوْحَشُ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُوَلَّدُ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَايِنُهُمْ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ عَظِيمٍ، قَالَ: فَأَكْرَمَ اللَّهُ فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَّا فَخَصَّهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ أَحْمَدَ بْنِ مَنصُورِ الْمُرُوزِيِّ عَنِ صَدَقَةَ بْنِ الْفَضْلِ عَنْهُ

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ٢١﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ٢٢﴾ قَالَتْ إِنَّي فَأْتِيكَ آيَاتُ الْرَحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ٢٣﴾ قَالَ

(١) الطبري: ١٥٣/١٨ (٢) الطبري: ١٥٤/١٨ (٣) الطبري:

١٥٦/١٨ (٤) الطبري: ١٥٦/١٨ (٥) الطبري: ١٥٦/١٨

(٦) الطبري: ١٥٩/١٨ (٧) الطبري: ١٥٩/١٨ (٨) الطبري:

١٥٩/١٨ والدر المنثور: ٤٨٦/٥

إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

[قِصَّةُ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ أُوْحِدَ مِنْهُ
فِي حَالِ كِبَرِهِ وَعَقْمِ زَوْجِيهِ وَلَدَا زَكِيًّا طَاهِرًا مُبَارَكًا، عَطَفَ
بِذِكْرِ قِصَّةِ مَرْيَمَ فِي إِيجَادِهِ وَلَدَهَا عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَإِنَّ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ مُنَاسَبَةٌ وَمُشَابَهَةٌ،
وَلِهَذَا ذَكَرَهُمَا فِي آلِ عِمْرَانَ وَهَهُنَا، وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ
يَقْرُنُ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ لِتَقَارُبِ مَا بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى، لِيُذَكِّرَ
عِبَادَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظْمَةِ سُلْطَانِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ،
فَقَالَ: ﴿وَأَذَكَّرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وَهِيَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ مِنْ
سُلَالَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَكَانَتْ مِنْ بَيْتِ طَاهِرٍ طَيِّبٍ فِي
بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قِصَّةَ وِلَادَةِ أُمِّهَا لَهَا فِي
سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَأَنَّهَا نَذَرَتْهَا مُحَرَّرَةً، أَيَّ تَخْلُودِ مَسْجِدٍ
بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَكَانُوا يَتَّقَرَّبُونَ بِذَلِكَ ﴿فَنَقَبْنَا رُتْبَهَا بِعَبُودٍ
حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وَنَسَأَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نِسَاءً
عَظِيمَةً، فَكَانَتْ إِحْدَى الْعَابِدَاتِ النَّاسِكَاتِ، الْمَشْهُورَاتِ
بِالْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ، وَالنَّبْتِ وَالذُّوْبِ، وَكَانَتْ فِي كِفَالَةِ
زَوْجِ أَخْتِهَا [وَقِيلَ: خَالَتِهَا] زَكَرِيَّا نَبِيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ
ذَكَ، وَعَظِيمِهِمُ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ، وَرَأَى لَهَا
زَكَرِيَّا مِنَ الْكِرَامَاتِ الْهَائِلَةِ مَا بَهَّرَهُ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا
الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَبْرَمِمْ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]
فَذَكَرَ: أَنَّهُ كَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا ثَمَرَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَثَمَرَ
الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ،
فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، أَنْ يُوجِدَ
مِنْهَا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدَ الرُّسُلِ أُولِي
الْعِزْمِ الْحَمْسَةِ الْعِظَامِ ﴿انْتَبَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أَيَّ
إِعْتَرَلَتْهُمْ وَنَحَتْ عَنْهُمْ، وَذَهَبَتْ إِلَى شَرْفِيِّ الْمَسْجِدِ
الْمُقَدَّسِ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنِّي لَأَعْلَمُ خَلْقَ اللَّهِ لِأَيِّ شَيْءٍ
اتَّخَذَتْ النَّصَارَى الْمَشْرِقَ قِبْلَةً لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿انْتَبَدَّتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ وَاتَّخَذُوا مِيلَادَ عِيسَى قِبْلَةً^(١).
وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أَيَّ إِشْتَرَتْ مِنْهُمْ

وَتَوَارَتْ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أَيَّ عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ تَامٍ كَامِلٍ.
قَالَ مُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَوَهْبُ بْنُ
مُنَبِّهٍ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يَعْنِي
جِبْرَائِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢). ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ
كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أَيَّ لَمَّا تَبَدَّى لَهَا الْمَلَكُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ، وَهِيَ
فِي مَكَانٍ مُتَفَرِّدٍ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْمِهَا حِجَابٌ، خَافَتْهُ وَطَنَّتْ
أَنَّهُ يُرِيدُهَا عَلَى نَفْسِهَا، فَقَالَتْ: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ
كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أَيَّ إِنْ كُنْتُ تَخَافُ اللَّهَ -تَذَكِّرًا لَهُ بِاللَّهِ-،
وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي الدَّفْعِ، أَنْ يَكُونَ بِالْأَسْهَلِ
فَالْأَسْهَلِ، فَخَوَّفَتْهُ أَوْلًا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو وَائِلٍ - وَذَكَرَ
قِصَّةَ مَرْيَمَ، فَقَالَ - : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ذُو نَهْيَةٍ جِئَ
قَالَتْ: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا
رَسُولُ رَبِّكِ ﴿١٩﴾ أَيَّ فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ مُجِيبًا لَهَا، وَمُرِيلاً لَمَّا
حَصَلَ عِنْدَهَا؛ مِنَ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهَا: لَسْتُ وَمِمَّا تَطْمَئِنُّ،
وَلَكِنِّي رَسُولُ رَبِّكِ، أَيَّ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَيْكَ^(٣). وَيُقَالُ: إِتَّيَّهَا
لَمَّا ذَكَرَتْ الرَّحْمَنَ انْتَفَضَ جِبْرِيْلُ فَرَقًا وَعَادَ إِلَى هَيْئَتِهِ
وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ﴿قَالَتْ
أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أَيَّ فَتَعَجَّبَتْ مَرْيَمُ مِنْ هَذَا وَقَالَتْ: كَيْفَ
يَكُونُ لِي غُلَامٌ؟ أَيَّ عَلَى أَيِّ صِفَةٍ يُوجِدُ هَذَا الْغُلَامُ مِنِّي؟
وَلَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ، وَلَا يُتَّصَرُّ مِنِّي الْفُجُورُ، وَلِهَذَا
قَالَتْ: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ وَالْبَغِيُّ هِيَ
الرَّائِيَةُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ نَهْيٌ عَنْ مَهْرِ الْبَغِيِّ^(٤).
﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أَيَّ فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ
مُجِيبًا لَهَا عَمَّا سَأَلَتْ: إِنْ اللَّهَ قَدْ قَالَ: إِنَّهُ سَيُوجِدُ مِنْكَ
غُلَامًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بَعْلٌ، وَلَا يُوجِدُ مِنْكَ فَاحِشَةً، فَإِنَّهُ
عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾
أَيَّ دَلَالَةً وَعَلَامَةً لِلنَّاسِ عَلَى قُدْرَةِ بَارئِهِمْ وَخَالِقِهِمْ الَّذِي
نَوَّعَ فِي خَلْقِهِمْ، فَخَلَقَ آبَاءَهُمْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى،
وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ الذَّرِّيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنْثَى إِلَّا عِيسَى، فَإِنَّهُ أُوْحِدَهُ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، فَكَمَّتْ
الْقِسْمَةُ الرَّبَاعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ،

(١) الطبري: ١٦٢/١٨ (٢) الطبري: ١٦٣/١٨ (٣) الطبري:

١٦٤/١٨ (٤) أحمد: ١/٢٣٥

فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أَيُّ وَنَجْعَلُ هَذَا الْغُلَامَ رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ: نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْجِيدهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أَيُّ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ فِي مَهْدِهِ وَكَهْلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ جَبْرِيلَ لِمَرْيَمَ، يُخْبِرُهَا أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مُّقَدَّرٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أَيُّ إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَزَمَ عَلَى هَذَا فَلَيْسَ مِنْهُ بَدٌّ^(١).

﴿فَحَمَلَتْهَا فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢١﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْسِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

[إِسْتِفْرَارُ الْحَمَلِ ثُمَّ الْوِلَادَةُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ أَنَّهَا لَمَّا قَالَ لَهَا جَبْرِيلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا قَالَ، أَنَّهَا اسْتَسَلَمَتْ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، فَذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ أَنَّ الْمَلَكَ وَهُوَ جَبْرِائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ نَفَخَ فِي جَنِبِ دِرْعِهَا، فَتَزَلَّتِ النَّفْثَةُ حَتَّى وَلَجَتْ فِي الْفَرْجِ فَحَمَلَتْ بِالْوَلَدِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا حَمَلَتْ بِهِ وَمَلَأَتْ قَلْبُهَا وَرَجَعَتْ، اسْتَمْسَكَ عَنْهَا الدَّمُ، وَأَصَابَهَا مَا يُصِيبُ الْحَامِلَ عَلَى الْوَلَدِ، مِنَ الْوَصَبِ وَالنَّوْحِمِ وَتَغْيِيرِ اللَّوْنِ، حَتَّى فَطَرَ لِسَانَهَا، فَمَا دَخَلَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ مَا دَخَلَ عَلَى آلِ زَكَرِيَّا، وَسَمِعَ الْحَدِيثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: إِنَّمَا صَاحِبُهَا يَوْسُفُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا فِي الْكَنِيسَةِ غَيْرُهُ، وَتَوَارَتْ مِنَ النَّاسِ وَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَلَا يَرَاهَا أَحَدٌ وَلَا تَرَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أَيُّ فَاضْطَرَّهَا وَأَلْجَأَهَا الطَّلُقَ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ شَرْفِيٍّ مِحْرَابِهَا الَّذِي تُصَلِّي فِيهِ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ^(٢). وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مَيْبُ: ذَهَبَتْ هَارِيَّةَ، فَلَمَّا كَانَتْ بَيْنَ الشَّامِ وَبِلَادِ مِصْرَ ضَرَبَهَا الطَّلُقُ^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ وَهْبٍ: كَانَ ذَلِكَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ فِي قَرْيَةٍ هُنَاكَ يُقَالُ لَهَا: بَيْتَ لَحْمٍ^(٤). قُلْتُ: وَفِي أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ مِنْ رِوَايَةِ

النَّسَائِيِّ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥)، وَالْبَيْهَقِيِّ عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ ذَلِكَ بَيْتَ لَحْمٍ^(٦). فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَلَا يُشْكُ فِيهِ النَّصَارَى أَنَّهُ بَيْتَ لَحْمٍ، وَقَدْ تَلَقَّاهُ النَّاسُ، وَقَدْ وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ إِنْ صَحَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهَا: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْسِيًّا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَنِّي الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتَبَتَلَى وَتَمْتَحَنُ بِهِذَا الْمَوْلُودِ الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ، وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرِهَا، وَبَعْدَ مَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ فِيمَا يَطْنُونَ غَايِرَةَ زَانِيَةً، فَقَالَتْ: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ أَيُّ قَبْلَ هَذَا الْحَالِ، ﴿وَكَنْتُ نَسِيًّا مِّنْسِيًّا﴾ أَيُّ لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٧). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَكَنْتُ نَسِيًّا مِّنْسِيًّا﴾ أَيُّ شَيْئًا لَا يُعْرَفُ وَلَا يُذَكَّرُ، وَلَا يُذَرَى مِنْ أَنَا.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنُ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٣﴾ وَهَزَيْتِ الْبَيْتَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ سَقِطَ عَلَيْكَ رَطْبًا حَبِيًّا ﴿٢٤﴾ فَكَلِمًا وَأَشْرَى وَفَرَى عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

[مَا قِيلَ لَهَا بَعْدَ الْوِلَادَةِ]

قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (مَنْ تَحْتَهَا) بِمَعْنَى الَّذِي تَحْتَهَا، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ عَلَى أَنَّهُ حَرْفُ جَرٍّ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ الْعَوْفِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ جَبْرِيلُ^(٨). وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عِيسَى حَتَّى أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَعَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ: إِنَّهُ الْمَلَكُ جَبْرِائِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(٩). أَيُّ نَادَاهَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قَالَ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ ابْنُهَا. وَهُوَ إِحْدَى الرَّوَائِيَتَيْنِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّهُ ابْنُهَا، قَالَ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَأَشَارَتْ

(١) الطبري: ١٦٥/١٨ (٢) الطبري: ١٦١/١٨ (٣) الطبري:

١٧٠/١٨ (٤) الطبري: ١٧٠/١٨ (٥) النسائي في الكبرى:

٢٢١/١ (٦) دلائل النبوة: ٣٥٥/٢ (٧) الطبري: ١٧٢/١٨

(٨) الطبري: ١٧٣/١٨ (٩) الطبري: ١٧٣/١٨

إِلَيْهِ ١٩! وَاخْتَارَهُ ابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّا تَحْزَنِي﴾ أَي نَادَاهَا قَائِلًا لَا تَحْزَنِي ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَسُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا﴾ قَالَ: الْجَدُولُ (١). وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: السَّرِيُّ النَّهْرُ (٢). وَبِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ: نَهْرٌ تُشْرَبُ مِنْهُ (٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ النَّهْرُ بِالسَّرْيَانِيَّةِ (٤). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: السَّرِيُّ: النَّهْرُ الصَّغِيرُ بِالتَّبْطِئَةِ (٥). وَقَالَ آخَرُونَ: الْمُرَادُ بِالسَّرِيِّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ، وَهُوَ إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ عَنْ قَتَادَةَ، وَقَوْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمٍ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ. وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَجْنَعُ النَّخْلَةَ﴾ أَي وَحَذِي إِلَيْكَ يَجْدَعُ النَّخْلَةَ. فَامْتَنَّ عَلَيْهَا بِأَنَّهُ جَعَلَ عِنْدَهَا طَعَامًا وَشَرَابًا فَقَالَ: ﴿سَتُفِظُ عَلَيْكَ رَبُّكَ حَيًّا ٢٥﴾ فَكَلِمَةُ وَأَسْرِي وَفَرِي عَيْنًا أَي طَيْبِي نَفْسًا، وَلِهَذَا قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ: مَا مِنْ شَيْءٍ خَيْرٍ لِلنَّفْسَاءِ مِنَ الثَّمَرِ وَالرُّطْبِ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ (٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أَي مَهْمَا رَأَيْتِ مِنْ أَحَدٍ ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا الْقَوْلِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، لَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقَوْلُ اللَّفْظِيُّ لِئَلَّا يُتَافَى ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قَالَ: صَمَمْتُ (٧). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ (٨). وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا صَامُوا فِي شَرِيعَتِهِمْ يُحْرَمُ عَلَيْهِمُ الطَّعَامُ وَالْكَلَامُ. نَصَّ عَلَى ذَلِكَ الشَّدِيُّ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ (٩). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: لَمَّا قَالَ عَيْسَى لِمَرْيَمَ: ﴿لَا تَحْزَنِي﴾ قَالَتْ: وَكَيْفَ لَا أَحْزَنُ وَأَنْتَ مَعِي! لَا ذَاتُ زَوْجٍ وَلَا مَمْلُوكَةٌ، أَي شَيْءٍ عَذْرِي عِنْدَ النَّاسِ؟ ﴿لَيْتَنِي مِثْلُ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ قَالَ لَهَا عَيْسَى: أَنَا أَكْفِيكَ الْكَلَامَ ﴿فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قَالَ: هَذَا كُلُّهُ مِنْ كَلَامِ عَيْسَى لِأَمِّهِ. وَكَذَا قَالَ وَهَبٌ.

﴿فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ قَالُوا يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ٢٦ ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ٢٨﴾ فَاشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ٢٩ قَالَ

سورة مريم

البقرة

٣٠٧

فَكَلِمًا وَأَسْرِي وَفَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ٢٦ ﴿فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ قَالُوا يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ٢٧ ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ٢٨﴾ فَاشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ٢٩ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَي مَأْكُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلَنِي جَبَارًا شَقِيًّا ٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣ ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذِ اقْتَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٣٥ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٣٧ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٣٨﴾

إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠ وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَي مَأْكُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلَنِي جَبَارًا شَقِيًّا ٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣

[مَرْيَمُ مَعَ الْمَسِيحِ أَمَامَ الْقَوْمِ وَنَكِيرُهُمْ عَلَيْهَا وَرَدُّ

الْمَسِيحِ عَلَيْهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ حِينَ أَمَرْتُ أَنْ تَصُومَ يَوْمَهَا ذَلِكَ، وَأَنْ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ، فَإِنَّهَا سَتَكَلِمَى أَمْرَهَا وَيُقَامُ بِحُجَّتِهَا، فَسَلِمَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَسَلِمَتْ لِقَضَائِهِ، فَأَخَذَتْ وَلَدَهَا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، فَلَمَّا رَأَوْهَا كَذَلِكَ أَعْظَمُوا أَمْرَهَا وَاسْتَكْرَهُوا جِدًّا، وَ﴿قَالُوا يَمْرِيْمُ لَقَدْ

(١) الطبري: ١٧٥/١٨ (٢) الطبري: ١٧٦/١٨ (٣) الطبري:

١٧٦/١٨ (٤) الطبري: ١٧٦/١٨ (٥) الطبري: ١٧٦/١٨

(٦) الطبري: ١٧٩/١٨ (٧) الطبري: ١٨٣، ١٨٢/١٨ (٨)

الطبري: ١٨٣، ١٨٢/١٨ (٩) الطبري: ١٨٣/١٨ والقرطبي:

مَا قَالُوا، كَانَ يَرْتَضِعُ نَدِيَّهُ، فَنَزَعَ النَّدِيَّ مِنْ فَمِهِ، وَاتَّكَأَ عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْسَرِ وَقَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَمْرُو بْنُ قَيْسٍ وَالثَّوْرِيُّ: وَجَعَلَنِي مُعَلِّمًا لِلْخَيْرِ (٥). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: نَفَاعًا (٦). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ وَهْبِ ابْنِ الْوُرْدِ مَوْلَى بَنِي مَخْرُومٍ قَالَ: لَقِيَ عَالِمٌ عَالِمًا هُوَ فَوْقَهُ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ لَهُ: يَرَحِمُكَ اللَّهُ مَا الَّذِي أُعْلِنُ مِنْ عَمَلِي؟ قَالَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّهُ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ أَنْبِيََاءَهُ إِلَى عِبَادِهِ. وَقَدْ أَجْمَعَ (٧) الْمُفْقَهَاءُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وَقِيلَ: مَا بَرَكْتُهُ؟ قَالَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ أَيْنَمَا كَانَ (٨). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قَالَ: أَخْبَرَهُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَمُوتَ، مَا أَتْبَهَتْهَا لِأَهْلِ الْقَدْرِ (٨).

وقوله: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْ﴾ أَيُّ وَأَمْرِي بِيٍّ وَالِدَتِي، ذَكَرَهُ بَعْدَ طَاعَةِ اللَّهِ رَبِّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَهًا إِلَهُهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وَقَالَ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَالْوَالِدَيْنِ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [القصص: ١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أَيُّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَبِرًّا وَالِدَتِي، فَأَشَقَىٰ بِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ إِبْتِثَاتٌ مِنْهُ لِعِبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، يَحْيَى وَيَمُوتُ، وَيُبْعَثُ كَسَائِرِ الْخَلَائِقِ، وَلَكِنْ لَهُ السَّلَامَةُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَشَقُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

جَعَلَتْ شَيْئًا فَرِيًّا، أَيُّ أَمْرًا عَظِيمًا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبِيدُ بْنُ وَاسِعٍ (١). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ نُوْفِ الْبِكَالِيِّ قَالَ: وَخَرَجَ قَوْمُهَا فِي طَلِّهَا، قَالَ: وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نُبُوَّةٍ وَشَرَفٍ، فَلَمْ يُحْسُوا مِنْهَا شَيْئًا، فَلَقُوا رَاعِيًا بَقَرٍ فَقَالُوا: رَأَيْتَ فِتَاءَ كَذَا وَكَذَا نَعْتُهَا؟ قَالَ: لَا وَلَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ مِنْ بَقَرِي مَا لَمْ أَرَهُ مِنْهَا قَطُّ، قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُهَا اللَّيْلَةَ تَسْجُدُ نَحْوَ هَذَا الْوَادِي.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ: وَأَحْفَظُ عَنْ سَيَّارٍ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ نُورًا سَاطِعًا، فَتَوَجَّهْتُ حَيْثُ قَالَ لَهُمْ، فَاسْتَقْبَلْتُهُمْ مَرِيْمٌ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ قَعَدَتْ وَحَمَلَتْ ابْنَهَا فِي حِجْرِهَا، فَجَاؤُوا حَتَّىٰ قَامُوا عَلَيْهَا ﴿قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أَمْرًا عَظِيمًا ﴿يَتَّخَذُ هَرُونَ﴾ أَيُّ يَا شَيْبَةَ هَارُونَ فِي الْعِبَادَةِ ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ أَيُّ أَنْتِ مِنْ بَيْتِ طَيْبٍ طَاهِرٍ مَعْرُوفٍ بِالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ وَالزَّهَادَةِ، فَكَيْفَ صَدَرَ هَذَا مِنْكِ؟ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالسُّدِّيُّ: قِيلَ لَهَا: ﴿يَتَّخَذُ هَرُونَ﴾ أَيُّ أَخِي مُوسَى، وَكَانَتْ مِنْ نَسْلِهِ كَمَا يُقَالُ لِلنَّمِيمِيِّ: يَا أَخَا تَمِيمٍ، وَلِلْمُضَرِّيِّ يَا أَخَا مُضَرَ (٢). وَقِيلَ: نُسِبَتْ إِلَى رَجُلٍ صَالِحٍ كَانَ فِيهِمْ اسْمُهُ هَارُونَ، فَكَانَتْ تَقَاسَمُ بِهِ فِي الزَّهَادَةِ وَالْعِبَادَةِ.

وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أَيُّ إِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَرَابُوا فِي أَمْرِهَا وَاسْتَشْكَرُوا قَضِيَّتَهَا، وَقَالُوا لَهَا مَا قَالُوا مُعْرِضِينَ بِقَدْفِهَا وَرَمِيهَا بِالْبُرْيَةِ، وَقَدْ كَانَتْ يَوْمَها ذَلِكَ صَائِمَةً صَامِتَةً، فَأَحَالَتْ الْكَلَامَ عَلَيْهِ، وَأَشَارَتْ لَهُمْ إِلَى خِطَابِهِ وَكَلَامِهِ، فَقَالُوا مُتَهَكِّمِينَ بِهَا ظَانِينَ أَنَّهَا تَزْدَرِي بِهِمْ وَتَلْعَبُ بِهِمْ ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ قَالَتْ: كَلَّمُوهُ، فَقَالُوا: عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الدَّاهِيَةِ تَأْمُرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟ (٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ لَمَّا أَشَارَتْ إِلَيْهِ غَضِبُوا، وَقَالُوا: لَسُخِّرْتِنَهَا بِنَا - حَتَّىٰ تَأْمُرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ هَذَا الصَّبِيَّ - أَشَدُّ عَلَيْنَا مِنْ زَنَاها ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟ (٤). أَيُّ مَنْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي مَهْدِهِ فِي حَالِ صِبَاهٍ وَصِغَرِهِ، كَيْفَ يَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ نَزَّ جَنَابَ رَبِّهِ تَعَالَى، وَبِرَّاهُ عَنِ الْوَلَدِ، وَأَتَّبَعَتْ لِنَفْسِهِ الْعِبُودِيَّةَ لِرَبِّهِ.

وقوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تَبَرُّتَهُ لِأَمِّهِ مِمَّا نُسِبَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ. قَالَ نُوْفُ الْبِكَالِيِّ: لَمَّا قَالُوا لِأَمِّهِ

(١) الطبري: ١٨٥/١٨ (٢) الطبري: ١٨٧/١٨ (٣) الدر المنثور: ٥٠٨/٥ (٤) الطبري: ١٨٩/١٨ (٥) الطبري: ١٨/١٨١ (٦) الطبري: ١٩١/١٨ (*) قوله سابقاً "أعلن من عملي" وهنا: "أجمع". كذا وقع عندنا أما في المطبوع من الطبري: فعنده: علمي... واجتمع (٧) الطبري: ١٩١/١٨ (٨) القرطبي: ١٠٣/١١

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْجِدَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا فَضَّلَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمِ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

[عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَلَيْسَ بَوْلَدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي قَضَيْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْ خَيْرِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) أَيَّ يَخْتَلِفُ الْمُتَبَطِّلُونَ وَالْمُحَقِّقُونَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَكَفَرَ بِهِ، وَلِهَذَا قَرَأَ الْأَكْثَرُونَ: (قَوْلُ الْحَقِّ) بِرَفْعِ قَوْلٍ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَ: (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَالَ الْحَقُّ) (١). وَالرَّفْعُ أَظْهَرُ إِعْرَابًا، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى: أَنَّهُ خَلَقَهُ عَبْدًا نَبِيًّا نَزَّ نَفْسُهُ الْمُقَدَّسَةَ فَقَالَ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْجِدَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أَيَّ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿إِذَا فَضَّلَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَيَّ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ فَيَصِيرُ كَمَا يَشَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

[أَمَرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوْحِيدِ ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ

بَعْدَهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَيَّ وَمِمَّا أَمَرَ بِهِ عِيسَى قَوْمَهُ وَهُوَ فِي مَهْلِهِ أَنْ أُخْبِرَهُمْ إِذْ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ، فَقَالَ: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَيَّ هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ عَنِ اللَّهِ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، أَيَّ قَوْمٍ، مَنْ اتَّبَعَهُ رَسَدَ وَهُدًى، وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ وَعَوَى. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أَيَّ اخْتَلَفَ أَقْوَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي عِيسَى بَعْدَ بَيَانِ أَمْرِهِ وَوُضُوحِ حَالِهِ، وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ، فَصَمَّمَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَهُمْ جُمْهُورُ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنَاتُ اللَّهِ - عَلَى أَنَّهُ وَلَدٌ زَيْنِيَّةَ، وَقَالُوا: كَلَامُهُ هَذَا سِحْرٌ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: إِنَّمَا تَكَلَّمَ اللَّهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ ابْنُ اللَّهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الْحَقِّ

الَّذِي أَرشَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ عَمْرٍو بْنِ مَيْمُونٍ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمِ عَظِيمٍ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ، وَافْتَرَى، وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا، وَلَكِنْ أَنْظَرَهُمُ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَجَلَهُمْ، حِلْمًا وَثِقَةً بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ الَّذِي لَا يُعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ: «إِنَّ اللَّهَ لِكَيْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْسَى وَهِيَ ظَلَمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (٣). وَفِي الصَّحِيحِينَ أَيْضًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدٌ أَضْبُرُ عَلَى أَدَى سَمِعُهُ، مِنْ اللَّهِ، إِثْمَهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» (٤) وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَايِنِ مِنْ قَرِينَةٍ أَمَلْتِ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمِ عَظِيمٍ﴾ أَيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ، وَأَنَّ الْحِجَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْحِجَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» (٥).

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٦) وَأَلْذَرَهُمْ يَوْمَ النَّسْرِ إِذْ فَضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

[إِنذَارُ الْكُفَّارِ يَوْمِ الْحَسْرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنَّهُمْ يَكُونُونَ أَسْمَعَ شَيْءٍ وَأَبْصَرَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمَجْرُومُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا... الآية [السجدة: ١٢]، أَيَّ يَقُولُونَ ذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ هَذَا قَبْلَ مُعَايِنَتِهِ

(١) الطبري: ١٩٤/١٨ (٢) فتح الباري: ٢٠٥/٨ ومسلم: ٤/١٩٩٧ (٣) فتح الباري: ٥٢٧/١٠ ومسلم: ٢١٦٠/٤ (٤) فتح الباري: ٥٤٦/٦ ومسلم: ٥٧/١

العَذَابِ لَكَانَ نَافِعًا لَهُمْ وَمُنْقِذًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أَي مَا أَسْمَعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ ﴿يَوْمَ يَأْتُونَ﴾ بِعَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَي لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ، فَحَيْثُ يُطَلَّبُ مِنْهُمْ الْهُدَى لَا يَهْتَدُونَ وَيَكُونُونَ مُطِيعِينَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أَي أَنْذِرِ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَي فُصِّلَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَصَارَ كُلُّ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مُخَلَّدًا فِيهِ، ﴿وَهُمْ﴾ أَي الْيَوْمَ ﴿فِي عَقْلَةٍ﴾ عَمَّا أَنْذَرُوا بِهِ، يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالتَّوَدَّاعِ ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي لَا يُصَدِّقُونَ بِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، يُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبَشُ أَمْلَحٍ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَسْرِثُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَسْرِثُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - فَيُؤَمَّرُ بِهِ فَيُدْبَحُ، قَالَ: وَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي عَقْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَأَشَارَ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَهْلُ الدُّنْيَا فِي عَقْلَةٍ الدُّنْيَا»^(١) هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَقَدْ خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا^(٢) وَلَفْظُهُمَا قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَّةِ ذِكْرَهَا، قَالَ: فَلَمَّسَ نَفْسٌ إِلَّا وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى بَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ وَبَيْتٍ فِي النَّارِ، وَهُوَ يَوْمَ الْحَسْرَةِ، فَبَرَى أَهْلَ النَّارِ النَّارِ الَّذِي لَكَانَ قَدْ أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ لَوْ آمَنُوا، فَيَقَالُ لَهُمْ: لَوْ آمَنْتُمْ وَعَمِلْتُمْ صَالِحًا، كَانَ لَكُمْ هَذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ فِي الْجَنَّةِ [فَتَأْخُذُهُمُ الْحَسْرَةُ، قَالَ: وَبَرَى أَهْلَ الْجَنَّةِ النَّارِ الَّذِي فِي النَّارِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ مَنَّ عَلَيْكُمْ... (٣) وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ يَهْلِكُونَ وَيَبْقَى هُوَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَلَا أَحَدٌ يَدْعِي مَلِكًا وَلَا تَصَرُّفًا، بَلْ هُوَ الْوَارِثُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ الْبَاقِي بَعْدَهُمُ الْحَاكِمُ فِيهِمْ، فَلَا تَطَّلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا جَنَاحٌ بَعُوضَةٍ، وَلَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ. رَوَى

ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حَزْمِ بْنِ أَبِي حَزْمٍ الْقَطْعِيِّ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ صَاحِبِ الْكُوفَةِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيَّ خَلْقَهُ - جِبْنَ خَلْقَهُمْ - الْمَوْتَ، فَجَعَلَ مَصِيرَهُمْ إِلَيْهِ، وَقَالَ فِيمَا أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ الصَّادِقِ الَّذِي حَفِظَهُ بِعِلْمِهِ وَأَشْهَدَ مَلَائِكَتُهُ عَلَى حَفِظِهِ: إِنَّهُ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ^(٤).

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ (١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٢) يَتَابَت لِي قَدْ جَاءَ مِنْكَ الْعِلْمُ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٣) يَتَابَت لَأَتَعْبُدَ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤) يَتَابَت لِي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَليًّا (٥)

(١) أحمد: ٩/٣ (٢) فتح الباري: ٢٨٢/٨ ومسلم: ٤/٢١٨٨ (٣) الطبري: ٣٤٤/٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٤١٠/٧

[وَعَظُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لَبَنِيَّ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١) وَأَثَلُ عَلَى قَوْمِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبدُونَ الْأَصْنَامَ، وَأَذْكُرُ لَهُمْ مَا كَانَ مِنْ خَيْرِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ. الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ مِلَّتِيهِ، وَقَدْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا مَعَ أَبِيهِ، كَيْفَ نَهَاهُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ فَقَالَ: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أَيُّ لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَنْفَعُكَ مَا لَمْ يَدْفَعْ عَنْكَ ضَرَرًا ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يَقُولُ: وَإِنْ كُنْتُ مِنْ صُلْبِكَ وَتَرَانِي أَضْعُرُ مِنْكَ لِأَنِّي وَلَدُكَ، فَاعْلَمْ أَنِّي قَدْ أَطْلَعْتُ مِنَ الْعِلْمِ مِنَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا لَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ، وَ لَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ وَ لَا جَاءَكَ ﴿فَأَتَّبِعْنِي أَهْدِيكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أَيُّ طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا مُوصِلًا إِلَىٰ نَبْلِ الْمَطْلُوبِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْمَرْهُوبِ. ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أَيُّ لَا تُطِيعُهُ فِي عِبَادَتِكَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ، فَإِنَّهُ هُوَ الدَّاعِي إِلَىٰ ذَلِكَ وَالرَّاضِي بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِيَّ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مبینٌ﴾ [يس: ٦٠] وَقَالَ: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَهْتًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أَيُّ مُخَالَفًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، فَطَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ، فَلَا تَتَّبِعُهُ نَصْرًا مِثْلَهُ ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أَيُّ عَلَىٰ شِرْكِكَ، وَعَصِيَانِكَ لِمَا أَمَرُكَ بِهِ ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ لِيًا﴾ يَعْنِي فَلَا يَكُونُ لَكَ مَوْلَىٰ وَلَا نَاصِرًا وَلَا مُغْنِيًا إِلَّا إِبْلِيسُ، وَلَيْسَ إِلَيْهِ وَلَا إِلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلِ اتَّبَاعُكَ لَهُ مُوجِبٌ لِإِحَاطَةِ الْعَذَابِ بِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثَالِثًا لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آمُرًا مِنْ قِبَلِكُمْ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْحَفِيُّ الَّذِي يَهْتَمُّ بِأَمْرِهِ، وَقَدْ اسْتَعْفَرَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لِأَبِيهِ مَدَّةً طَوِيلَةً وَبَعْدَ أَنْ هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ، وَبَنَى الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَبَعْدَ أَنْ وُلِدَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] وَقَدْ اسْتَعْفَرَ الْمُسْلِمُونَ لِقَرَابَاتِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ اقْتِدَاءً بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي ذَلِكَ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُنَا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآية: الممتحنة: ٤]، يَعْنِي إِلَّا فِي هَذَا الْقَوْلِ، فَلَا تَتَأَسَّؤُوا بِهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَقْلَعَ عَنْ ذَلِكَ وَرَجَعَ

[جَوَابُ وَالِدِ إِبْرَاهِيمَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ لَوْلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ﴾ يَعْنِي إِنْ كُنْتُ لَا تُرِيدُ عِبَادَتَهَا وَلَا تَرْضَاهَا، فَأَنْتَ عَنْ سَبِّهَا وَسْتَمْوِهَا وَعَيْبِهَا، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَنْتَهَ عَنْ ذَلِكَ اقْتَصَصْتُ مِنْكَ

(١) الطبري: ٢٠٥/١٨ (٢) الطبري: ٢٠٦، ٢٠٥/١٨ (٣)

الطبري: ٢٠٥/١٨ (٤) الطبري: ٢٠٦/١٨ (٥) الطبري:

عَنهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانِ لِلنِّسِيِّ وَالزَّيْنِ عَامَتَا أَنْ يَسْتَعْفِفُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَا كَانِ اسْتِعْفَافُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا نَدَعُوتِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: أَجْتَبَيْكُمْ وَاتَّبَرَّأَ مِنْكُمْ وَمِنَ الْهَيْبَتِكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِن دُونِ اللَّهِ ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أَي: وَأَعْبُدْ رَبِّي وَخَدِّهِ لِشَرِيكَ لَهُ ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيحًا﴾ وَعَسَىٰ هَذِهِ مُوجِبَةٌ لَّا مَحَالَةَ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

﴿فَلَمَّا أَعْرَضْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا

[وَهَبُ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَلَمَّا اغْتَزَلَ الْخَلِيلُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ فِي اللَّهِ، أَبَدَلَهُ اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَوَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ - يَعْنِي ابْنَهُ وَابْنَ إِسْحَاقَ - كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ وَقَالَ: ﴿وَمِن دُونِ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وَلَا خِلَافَ أَنَّ إِسْحَاقَ وَالِدُ يَعْقُوبَ، وَهُوَ نَصُّ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْبُقُرَّةِ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا نُعْبُدُكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُنَا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وَلِهَذَا إِنَّمَا ذَكَرَ هَهُنَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، أَي جَعَلْنَا لَهُ نَسْلًا وَعَقِيًّا أَنْبِيَاءَ، أَقْرَّ اللَّهُ بِهِمْ عَيْتَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ نَبِيٌّ فِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ، لَمَا افْتَصَرَ عَلَيْهِ وَلَذِكْرَ وَلَدَهُ يُوسُفَ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ أَيْضًا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ حِينَ سُئِلَ عَنِ خَيْرِ النَّاسِ، فَقَالَ: «يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ يَعْقُوبَ» وَفِي اللَّفْظِ الْأُخْرَى: «إِنَّ الْكَرِيمَ بَنَ الْكَرِيمِ بَنَ الْكَرِيمِ بَنَ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بَنُ يَعْقُوبَ بَنُ إِسْحَاقَ بَنُ إِبْرَاهِيمَ».

﴿وَقَوْلُهُ﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الشَّاءَ الْحَسَنَ﴾. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّمَا قَالَ: ﴿عَلِيمًا﴾ لِأَنَّ جَمِيعَ الْجَمَلِ وَالْأَدْيَانِ يُثْبِتُونَ عَلَيْهِمْ وَتَمَدُّحُونَهُمْ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ (٤).

الْبُرُوقِ وَالنَّجْمِ

٣٠٩

سُورَةُ مَرْيَمَ

وَنَدَيْتَهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٢﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَكَانَ بِأَمْرِ أَهْلِهِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٤﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٥﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتِنَا إِذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ وَالرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا مِن رِّزْقِهِمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَاءٌ ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنَ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخَلَّصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ وَنَدَيْتَهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٢﴾

[ذَكَرَ مُوسَى وَهَارُونَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ وَأَتَى عَلَيْهِ، عَطَفَ بِذِكْرِ الْكَلِيمِ، فَقَالَ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ (مُخَلَّصًا)﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ، عَنِ أَبِي لُبَابَةَ قَالَ: قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: يَا رُوحَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا عَنِ الْمُخَلَّصِ هُوَ؟ قَالَ: الَّذِي يَعْمَلُ لِلَّهِ لَا يُحِبُّ أَنْ يَحْمَدَهُ النَّاسُ. وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِفَتْحِهَا بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ مُضْطَفًى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ الْوُضْعَيْنِ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْكِبَارِ أُولِي الْعِزْمِ الْخَمْسَةِ، وَهُمْ: نُوحٌ

(١) فتح الباري: ٢١٢/٨ (٢) فتح الباري: ٢١٢/٨ (٣) الطبري: ٢٠٨/١٨ (٤) الطبري: ٢٠٨/١٨

وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وَنَدَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي الجبل ﴿الْأَيْمَنِ﴾ من موسى حين ذهب يتبعي من تلك النار جذوة فراها تلوح، فقصدتها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غريبه، عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه وقرّبه فناجاه. وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبيا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأخِي هَارُونَ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْ أَحَافَ أَنْ يَكْذِبُونَ﴾ [القصص: ٣٤] وقال: ﴿قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ وقال: ﴿فَأَرْسِلْ لِي هَارُونَ﴾ ﴿وَلَمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيا، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

﴿وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾

﴿٥٥﴾

[ذُكِرَ إِسْمَاعِيلُ]

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جرير: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها^(١). يعني ما التزم عبادة قط بندر إلا قام بها ووفأها حقها.

وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فصدق في ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣، ٢] وقال رسول الله ﷺ: ﴿آيَةُ الْمُتَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ﴾^(٢). ولما كانت هذه صفات المتافقين، كان التائب بضدّها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضا، لا يعد أحدا شيئا إلا وفى له به، وقد

أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حدّثني فصدقني، ووعدني فوفى لي»^(٣). ولما توفى النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فلأنتي أنجز له، فجاء جابر بن عبد الله فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» يعني ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابرا فعرّف يديه من المال، ثم أمره بعهده، فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثليها معها^(٤).

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق، لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وُصف بالنبوة والرّسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ...» وذكر تمام الحديث^(٥). فدل على صحّة ما قلناه. وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ هذا أيضا من الثناء الجميل والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابرا على طاعة ربه عز وجل، أمرا بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾... الآية [طه: ١٣٢]، وقال: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] أي مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ولا تدعوهم هملا، فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيَّقُظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَجِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيَّقُظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِ الْمَاءِ» أخرجه أبو داود وابن ماجه^(٦).

﴿وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

﴿٥٧﴾

(١) الطبري: ١٨/٢١١ (٢) البخاري: ٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩

٦٠٩٥ (٣) فتح الباري: ٥/٣٨٠ (٤) فتح الباري: ٤/٥٥٤

(٥) مسلم: ٤/١٧٨٢ (٦) أبو داود: ٧٣/٢ وابن ماجه: ١/٤٢٤

[ذِكْرُ إِدْرِيسَ]

[هَذَا] ذِكْرُ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، وَأَنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِهِ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ وَهُوَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ. قَالَ سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قَالَ: السَّمَاءُ الرَّابِعَةُ^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ وَعِزُّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قَالَ: الْجَنَّةُ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتُنَا إِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ بِابْنٍ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

[أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ هُمُ الْمُجْتَبُونَ]

يَقُولُ تَعَالَى: هَؤُلَاءِ النَّبِيُّونَ - وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَقَطْ بَلْ جِنْسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، اسْتَطْرَدَ مِنْ ذِكْرِ الْأَشْخَاصِ إِلَى الْجِنْسِ - ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾... الآية، قَالَ الشَّدِيدُ وَابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَالَّذِي عُني بِهِ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ إِدْرِيسُ، وَالَّذِي عُني بِهِ مِنْ ذُرِّيَةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ: إِبْرَاهِيمُ، وَالَّذِي عُني بِهِ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ: إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَإِسْمَاعِيلُ، وَالَّذِي عُني بِهِ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْرَائِيلَ: مُوسَى، وَهَارُونَ وَزَكَرِيَّا، وَيَحْيَى، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَلِذَلِكَ فَرَّقَ أَنْسَابَهُمْ وَإِنْ كَانَ يَجْمَعُ جَمِيعَهُمْ آدَمَ: لِأَنَّ فِيهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْ وَلَدِ مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ وَهُوَ إِدْرِيسُ، فَإِنَّهُ جَدُّ نُوحٍ^(٢).

[قُلْتُ] هَذَا هُوَ الْأَطْهَرُ أَنَّ إِدْرِيسَ فِي عُمُودٍ نَسَبِ نُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ جِنْسُ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْسَدَهُ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ

نَقُصِّرَ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ: أَمَّا «ص» سَجْدَةٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْسَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] فَيَسْئَلُكَ مَنْ أَمْرٌ أَنْ يَتَّبِعِي بِهِمْ، قَالَ: وَهُوَ مِنْهُمْ، يَعْنِي دَاوُدَ^(٣). وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿إِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ابْنُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] أَي إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ الْمُتَمَضَّنَ حُجَّجَهُ وَدَلَالَتَهُ وَبَرَاهِينَهُ، سَجَدُوا لِرَبِّهِمْ خُضُوعًا وَاسْتِكَانَةً، وَحَمْدًا وَشُكْرًا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ، وَالْبُكْيُ جَمْعُ بَاكِ، فَلِهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى شَرَعِيَّةِ السُّجُودِ هَهُنَا اقْتِدَاءً بِهِمْ وَاتِّبَاعًا لِمَتَوَالِيهِمْ.

﴿خَلَفَ مِنْ بَينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّوْبَ فَسَوَفَ لِيَُقُونَ أَفْعًا﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٩١﴾

[خَلْفَهُمُ الشُّؤْمُ وَمَنْ صَلَحَ مِنْهُمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حِزْبَ السُّعْدَاءِ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْقَائِمِينَ بِحُدُودِ اللَّهِ وَأَوَامِرِهِ، الْمُؤَدِّينَ فَرَائِضَ اللَّهِ التَّارِكِينَ لِزَوَاجِرِهِ، ذَكَرَ: أَنَّهُ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَي قُرُونٌ أُخْرَى ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وَإِذَا أَضَاعُوهَا، فَهُمْ لِمَا سِوَاهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَضِغُّ، لِأَنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ وَقِيَامُهُ وَخَيْرُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَلَادَهَا، وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا، فَهَؤُلَاءِ سَيَلَمُونَ عَمَّا، أَي خَسَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ مُوسَى بْنِ سُلَيْمَانَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُخَيَّرَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ قَالَ: أَي أَضَاعُوا الْمَوَاقِفَ وَلَوْ كَانَ تَرْكًا كَانَ كُفْرًا^(٤). وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ يُكْثِرُ ذِكْرَ الصَّلَاةِ فِي الْقُرْآنِ^(٥) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] وَ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] وَ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يَخُوفُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: عَلَى مَوَاقِفِهَا. قَالُوا: مَا كُنَّا نَرَى ذَلِكَ إِلَّا عَلَى التَّرْكِ، قَالَ: ذَلِكَ الْكُفْرُ^(٦). قَالَ مَسْرُوقٌ: لَا يُحَافِظُ أَحَدٌ عَلَى الصَّلَاةِ الْخَمْسِ فَيُكْتَبُ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَفِي إِفْرَاطِئِنَّ الْهَلَكَةُ، وَ

(١) الطبري: ٢١٣/١٨ (٢) الطبري: ٢١٤/١٨ (٣) فتح

الباري: ١٤٤/٨ (٤) الطبري: ٢١٥/١٨ (٥) الطبري: ١٨/

٢١٦ (٦) الطبري: ٢١٦/١٨

إفراطهنَّ: إِضَاعَتُهُنَّ عَنْ وَفِيهِنَّ^(١). وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ
إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيدَ: أَنَّ عَمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَرَأَ: ﴿خَلَّفَ مِنْ
بَعْلِهِمْ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُوتَ فَسَوَّفَ يَلْقَوْنَ عِيًّا﴾
[مريم: ٥٩] ثُمَّ قَالَ: لَمْ تَكُنْ إِضَاعَتُهُمْ تَرْكَهَا وَلَكِنْ
أَضَاعُوا الْوَقْتَ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَوَّفَ يَلْقَوْنَ عِيًّا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَسَوَّفَ يَلْقَوْنَ عِيًّا﴾ أَي خُسْرَانًا^(٣). وَقَالَ
قَتَادَةُ: شُرًّا^(٤). وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَسَعْبَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ
إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِيِّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﴿فَسَوَّفَ يَلْقَوْنَ عِيًّا﴾ قَالَ: وَاذٍ فِي جَهَنَّمَ
بَعِيدُ الْفَعْرِ، حَيْثُ الطَّعْمُ^(٥). وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ زِيَادٍ عَنْ
أَبِي عِيَاضٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَوَّفَ يَلْقَوْنَ عِيًّا﴾ قَالَ: وَاذٍ فِي
جَهَنَّمَ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَي إِلَّا مَنْ
رَجَعَ عَنْ إِضَاعَةِ الصَّلَاةِ وَاتَّبَعَ الشُّهُوتَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ
تَوْبَتَهُ وَيُحَسِّنُ عَاقِبَتَهُ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ
التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «التَّائِبُ مِنَ
الدُّنْبِ كَمَنْ لَمْ يَدُنْبْ لَهُ»^(٦). وَلِهَذَا لَا يُفَصِّصُ هُؤُلَاءِ التَّائِبُونَ
مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا سَيِّئًا، وَلَا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ
قَبْلَهَا، فَيُنْفَصَ لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبَ
هَدْرًا وَتَرَكَ نَسِيًّا، وَذَهَبَ مَجَانًا مِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ وَجِلْمِ
الْحَلِيمِ، وَهَذَا الْإِسْتِنَاءُ هَهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[الفرقان: ٧٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَي إِلَّا مَنْ
رَجَعَ عَنْ إِضَاعَةِ الصَّلَاةِ وَاتَّبَعَ الشُّهُوتَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ
تَوْبَتَهُ وَيُحَسِّنُ عَاقِبَتَهُ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ
التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «التَّائِبُ مِنَ
الدُّنْبِ كَمَنْ لَمْ يَدُنْبْ لَهُ»^(٦). وَلِهَذَا لَا يُفَصِّصُ هُؤُلَاءِ التَّائِبُونَ
مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا سَيِّئًا، وَلَا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ
قَبْلَهَا، فَيُنْفَصَ لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبَ
هَدْرًا وَتَرَكَ نَسِيًّا، وَذَهَبَ مَجَانًا مِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ وَجِلْمِ
الْحَلِيمِ، وَهَذَا الْإِسْتِنَاءُ هَهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[الفرقان: ٧٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَي إِلَّا مَنْ
رَجَعَ عَنْ إِضَاعَةِ الصَّلَاةِ وَاتَّبَعَ الشُّهُوتَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ
تَوْبَتَهُ وَيُحَسِّنُ عَاقِبَتَهُ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ
التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «التَّائِبُ مِنَ
الدُّنْبِ كَمَنْ لَمْ يَدُنْبْ لَهُ»^(٦). وَلِهَذَا لَا يُفَصِّصُ هُؤُلَاءِ التَّائِبُونَ
مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا سَيِّئًا، وَلَا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ
قَبْلَهَا، فَيُنْفَصَ لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبَ
هَدْرًا وَتَرَكَ نَسِيًّا، وَذَهَبَ مَجَانًا مِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ وَجِلْمِ
الْحَلِيمِ، وَهَذَا الْإِسْتِنَاءُ هَهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[الفرقان: ٧٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَي إِلَّا مَنْ
رَجَعَ عَنْ إِضَاعَةِ الصَّلَاةِ وَاتَّبَعَ الشُّهُوتَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ
تَوْبَتَهُ وَيُحَسِّنُ عَاقِبَتَهُ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ
التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «التَّائِبُ مِنَ
الدُّنْبِ كَمَنْ لَمْ يَدُنْبْ لَهُ»^(٦). وَلِهَذَا لَا يُفَصِّصُ هُؤُلَاءِ التَّائِبُونَ
مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا سَيِّئًا، وَلَا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ
قَبْلَهَا، فَيُنْفَصَ لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبَ
هَدْرًا وَتَرَكَ نَسِيًّا، وَذَهَبَ مَجَانًا مِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ وَجِلْمِ
الْحَلِيمِ، وَهَذَا الْإِسْتِنَاءُ هَهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[الفرقان: ٧٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَي إِلَّا مَنْ
رَجَعَ عَنْ إِضَاعَةِ الصَّلَاةِ وَاتَّبَعَ الشُّهُوتَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ
تَوْبَتَهُ وَيُحَسِّنُ عَاقِبَتَهُ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ
التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «التَّائِبُ مِنَ
الدُّنْبِ كَمَنْ لَمْ يَدُنْبْ لَهُ»^(٦). وَلِهَذَا لَا يُفَصِّصُ هُؤُلَاءِ التَّائِبُونَ
مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا سَيِّئًا، وَلَا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ
قَبْلَهَا، فَيُنْفَصَ لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبَ
هَدْرًا وَتَرَكَ نَسِيًّا، وَذَهَبَ مَجَانًا مِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ وَجِلْمِ
الْحَلِيمِ، وَهَذَا الْإِسْتِنَاءُ هَهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[الفرقان: ٧٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَي إِلَّا مَنْ
رَجَعَ عَنْ إِضَاعَةِ الصَّلَاةِ وَاتَّبَعَ الشُّهُوتَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ
تَوْبَتَهُ وَيُحَسِّنُ عَاقِبَتَهُ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَلِهَذَا
قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ
التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «التَّائِبُ مِنَ
الدُّنْبِ كَمَنْ لَمْ يَدُنْبْ لَهُ»^(٦). وَلِهَذَا لَا يُفَصِّصُ هُؤُلَاءِ التَّائِبُونَ
مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا سَيِّئًا، وَلَا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ
قَبْلَهَا، فَيُنْفَصَ لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبَ
هَدْرًا وَتَرَكَ نَسِيًّا، وَذَهَبَ مَجَانًا مِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ وَجِلْمِ
الْحَلِيمِ، وَهَذَا الْإِسْتِنَاءُ هَهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[الفرقان: ٧٠].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَرْتُوبُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ﴿١٢﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ﴿١٣﴾

[لا تَنْتَزِلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَجْرَائِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» قَالَ: فَتَزَلْتُ: «وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ»^(١) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. أَنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ فَرَوَاهُ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ^(٢). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِحْتَسَبَ جِبْرَائِيلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَحَزَنَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ «وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» الْآيَةُ^(٣).

وَقَوْلُهُ: «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا» قِيلَ: الْمُرَادُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا: أَمْرُ الدُّنْيَا، وَمَا خَلْفَنَا: أَمْرُ الْآخِرَةِ، «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» مَا بَيْنَ التَّفَحُّتَيْنِ، هَذَا قَوْلُ أَبِي الْعَالِيَةِ وَعِزَّةٌ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُمَا، وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ^(٤). وَقِيلَ: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا» مَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الْآخِرَةِ «وَمَا خَلْفَنَا» أَيُّ مَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» أَيُّ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيُرْوَى نَحْوَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالصَّحَّاحِ وَقَتَادَةَ وَابْنَ جُرَيْجٍ وَالثَّوْرِيِّ^(٥). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ أَيْضًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» قَالَ مُجَاهِدٌ مَعْنَاهُ مَا نَسِيَكَ رَبُّكَ^(٦). وَقَوْلُهُ: «رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أَيُّ خَالِقِ ذَلِكَ وَمُلْبِئِهِ وَالْحَاكِمِ فِيهِ وَالْمُنْتَصِرُفِّ الَّذِي لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ «فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ» هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَلْ تَعْلَمُ لِلرَّبِّ مِثْلًا أَوْ شَيْئًا^(٧). وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ^(٨). وَقَالَ عِكْرَمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَيْسَ أَحَدٌ يُسَمِّي الرَّحْمَنَ غَيْرَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ اسْمُهُ^(٩).

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوَفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ﴿١٤﴾ أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ ﴿١٥﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ﴿١٨﴾

[تَعَجَّبُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَالرُّدُّ عَلَى

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ﴿١٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوَفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ﴿١٤﴾ أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ ﴿١٥﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ﴿١٨﴾ وَإِنْ مَنَعَكُمْ إِلَّا وَأَرْدَهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ﴿١٩﴾ ثُمَّ نَحْنُ الَّذِينَ أَتَقَوْنَا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا نَسِيتُ عَلَيْهِمْ أَيْتَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿٢١﴾ وَكَرِهْنَا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرِيًّا﴾ ﴿٢٢﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ﴿٢٣﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ هَتَدُوا هُدًىٰ وَالْبَلِيغَاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ﴿٢٤﴾

هَذَا التَّعَجُّبُ

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ وَيَسْتَبْعِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: «وَإِنْ تَعَجَّبَ فَجَعَبْ قَوْلُهُمْ أَإِذَا مَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّمَا لَمْ يَلْقَىٰ خَلْقِي جَدِيدًا» [الرعد: ٥] وَقَالَ: «أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيدٌ مِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨] وَقَالَ هُنَا: «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوَفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ﴿١٤﴾ أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ ﴿١٥﴾ يَسْتَدِلُّ تَعَالَىٰ بِالْبُدْءِ عَلَى الْإِعَادَةِ، يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَىٰ قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا، أَفَلَا يُعِيدُهُ وَقَدْ صَارَ شَيْئًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ

(١) أحمد: ٢٣١/١ (٢) فتح الباري: ٢٨٢/٨ (٣) الطبري: ٢٢٢/١٨ (٤) الطبري: ٢٢٤/١٨ (٥) الطبري: ٢٢٤/١٨ والقرطبي: ١٢٩/١١ (٦) الطبري: ٢٢٥/١٨ (٧) الطبري: ٢٢٦/١٨ (٨) الطبري: ٢٢٦/١٨ (٩) القرطبي: ١٣٠/١١

أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴿[الروم: ٢٧] وَفِي الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَأَذَانِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِنَنِي، أَمَا تَكْذِبُهُ إِتَابِي فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ، وَأَمَا أَذَاهُ إِتَابِي فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ [لِي] كُفْوًا أَحَدًا»^(١).

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم وَالشَّيْطَانَ﴾ أفسَمَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَحْشُرَهُمْ جَمِيعًا وَشَيْطَانِيَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: بِعَيْنِي فَعُودًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَانِيَةً﴾^(٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ جِثِيًا: بِعَيْنِي قِيَامًا. وَرَوَى عَنْ مَرَّةٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ بِعَيْنِي مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(٣). ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيًّا﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْأَقْمَرِ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: يُحْبَسُ الْأَوَّلُ عَلَى الْآخِرِ حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتِ الْعِدَّةُ أَتَاهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ بَدَأَ بِالْأَكْبَرِ فَأَلَاكَابِرَ جُرْمًا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيًّا﴾^(٤).

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَقَّ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِمَّنِ النَّارِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ثُمَّ هَهُنَا لِعَطْفِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ. وَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَصْلَىٰ بِنَارِ جَهَنَّمَ وَيَخْلُدَ فِيهَا، وَيَمَنْ يَسْتَحِقُّ تَضَعِيفَ الْعَذَابِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(٥) ثُمَّ نَتَجَىٰ

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا^(٦)

[كُلُّ يَرُدُّ عَلَىٰ جَهَنَّمَ ثُمَّ يَنْجُو الْمُتَّقُونَ]

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ: قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا﴾ قَالَ: الصَّرَاطُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ، فَمَرُّ الطَّبَقَةِ الْأُولَىٰ كَالْبُرْقِ، وَالثَّانِيَةُ كَالرَّيْحِ، وَالثَّلَاثَةُ كَأَجْوَدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعَةُ كَأَجْوَدِ النَّهَائِمِ. ثُمَّ يَمْرُونَ وَالْمَلَائِكَةُ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ^(٥). وَلِهَذَا شَوَاهِدُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ رِوَايَةِ أَنَسٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ،

وَجَابِرٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أُمِّ مَيْسَرٍ امْرَأَةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ فَقَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ» قَالَتْ حَفْصَةُ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا﴾؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ثُمَّ نَتَجَىٰ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الْآيَةَ^(٦). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ، تَمَسَّهُ النَّارُ إِلَّا تَحَلَّهَ الْقَسَمُ»^(٧).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدَهَا﴾ قَالَ: وَرُودُ الْمُسْلِمِينَ الْمُرُورُ عَلَى الْجِسْرِ بَيْنَ ظَهْرَانِيَّتَيْهَا، وَرُودُ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْخُلُوهَا. وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ مَرَّةٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قَالَ: قَسَمًا وَاجِبًا^(٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿حَتْمًا﴾. قَالَ: فَضَاءٌ^(٩). وَكَذَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ^(١٠).

وقوله: ﴿ثُمَّ نَتَجَىٰ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أَي إِذَا مَرَّ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَلَى النَّارِ وَسَقَطَ فِيهَا مَنْ سَقَطَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعَصَاةِ ذَوِي الْمَعَاصِي بِحَسَبِهِمْ، نَجَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِنْهَا بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَجَوَّزَهُمْ عَلَى الصَّرَاطِ وَسُرَعَتْهُمْ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُسْتَعْوَنَ فِي أَصْحَابِ الْكِبَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَسْفَعُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَكَلَتْهُمْ النَّارُ، إِلَّا دَارَاتٍ وَجُوهِهِمْ وَهِيَ مَوَاضِعُ السُّجُودِ، وَإِخْرَاجُهُمْ أَيَّاهُمْ مِنَ النَّارِ بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَيُخْرِجُونَ أَوْلَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالِ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، حَتَّى يُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، ثُمَّ يُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ [وَإِنْ] لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، وَلَا يَبْقَىٰ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ. كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ

(١) أحمد: ٣٥٠/٢ (٢) الطبري: ٢٢٧/١٨ (٣) الطبري:

٢٢٨/١٨ (٤) الدر المنثور: ٥٣٣/٥ (٥) الطبري: ٢٣٢/١٨

فيه تدليس أبي إسحاق السبيعي لكن صحيح لشواهده (٦) أحمد:

٣٦٢/٦ (٧) فتح الباري: ١٤٢/٣ ومسلم: ٢٠٢٨/٤ (٨)

الطبري: ٢٣٧/١٨ (٩) الطبري: ٢٣٧/١٨ (١٠) الطبري:

تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَنَدَّرْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا حِينًا﴾ (١).
 ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَالِيَهُمْ إِنَّنَا بِنْتِي قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ
 الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٦) وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مَن قَرْنٍ هُمْ
 أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾

[إِفْتِخَارُ الْكُفَّارِ عَلَى حُسْنِ حَظِّهِمْ مِنَ الدُّنْيَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ حِينَ تُثَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ
 ظَاهِرَةً الدَّلَالَةَ، بَيِّنَةً الْحُجَّةَ، وَاصْحَةً الْبُرْهَانَ: أَنَّهُمْ
 يَصُدُّونَ وَيُعْرَضُونَ عَنْ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا
 مُفْتَخِرِينَ عَلَيْهِمْ وَمُتَحَدِّثِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ
 الْبَاطِلِ بِأَنَّهُمْ ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أَيُّ أَحْسَنُ مَنَازِلَ،
 وَأَرْفَعُ دُورًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا، وَهُوَ مُجْتَمَعُ الرِّجَالِ لِلْحَدِيثِ،
 أَيُّ نَادِيهِمْ أَغْمَرُ وَأَكْثَرُ وَارِدًا وَطَارِقًا. يَعْنُونَ فَكَيْفَ نَكُونُ
 وَنَحْنُ بِهِدِيهِ الْمُنَاقِبَةِ، عَلَى بَاطِلٍ، وَأَوْلِيكَ الَّذِينَ هُمْ
 مُخْتَفُونَ مُسْتَبْرُونَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بِنِ أَبِي الْأَرْقَمِ وَنَحْوِهَا
 مِنَ الدُّوَرِ، عَلَى الْحَقِّ؟! كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ:
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾
 [الأحقاف: ١١] وَقَالَ قَوْمُ نُوحٍ: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَأَتَّبِعَكَ
 الْأَرْدُزُونَ﴾ [الشعرا: ١١١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا
 بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيُتْلَوْا أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ
 بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَى
 شُبُهَتِهِمْ ﴿وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مَن قَرْنٍ﴾ أَيُّ وَكَمْ مِنْ أُمَّةٍ وَقَرْنٍ
 مِنَ الْمُكذِّبِينَ قَدْ أَهْلَكْنَا هُمْ بِخُفْرِهِمْ ﴿هُمُ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾
 أَيُّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَمْوَالًا وَمَنَاطِرَ وَأَشْكَالًا
 وَأَمِّيَّةً. قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي ظِيَّانَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿خَيْرٌ
 مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قَالَ: الْمَقَامُ: الْمَنْزِلُ، وَالنَّدِيُّ:
 الْمَجْلِسُ، وَالْأَثْنُ: الْمَتَاعُ، وَالرِّيُّ: الْمُنْظَرُ (٢). وَقَالَ
 الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْمَقَامُ: الْمَسْكَنُ وَالنَّدِيُّ:
 الْمَجْلِسُ، وَالنُّعْمَةُ وَالنَّهْجَةُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا. وَهُوَ كَمَا قَالَ
 اللَّهُ لِقَوْمِ فِرْعَوْنَ حِينَ أَهْلَكْتَهُمْ وَقَصَّ شَأْنَهُمْ فِي الْقُرْآنِ:
 ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ
 [الدخان: ٢٥، ٢٦] فَالْمَقَامُ: الْمَسْكَنُ وَالنَّعِيمُ، وَالنَّدِيُّ:
 الْمَجْلِسُ وَالْمَجْمَعُ الَّذِي كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ. وَقَالَ تَعَالَى
 فِيمَا قَصَّ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْرِ قَوْمِ لُوطٍ: ﴿وَأَنذَرْتُكَ فِي
 كَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وَالْعَرَبُ تُسَمِّي
 الْمَجْلِسَ النَّادِي (٣).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا

يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ وَوَيْلًا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا
 وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٧٥)

[يَهْمِلُ الْمُتَمَرِّدُ وَلَا يَهْمِلُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ
 الْمُدْعِينَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَأَنْتُمْ عَلَى بَاطِلٍ: ﴿مَنْ كَانَ فِي
 الضَّلَالَةِ﴾ أَيُّ مَنَّا وَمِنْكُمْ ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أَيُّ فَاْمَهْلُهُ
 الرَّحْمَنُ فِيمَا هُوَ فِيهِ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ وَيَنْقِضِي أَجَلَهُ ﴿حَتَّى إِذَا
 رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ﴾ يُصِيبُهُ ﴿وَإِنَّمَا السَّاعَةُ﴾ بَعْتُهُ تَأْتِيهِ
 ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حِينَتِيذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ فِي
 مُقَابَلَةِ مَا اخْتَجَّوْا بِهِ مِنْ خَيْرِيَةِ الْمَقَامِ وَحُسْنِ النَّدِيِّ. وَهَذِهِ
 مُبَاهَلَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُزْعَمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى فِيمَا هُمْ
 فِيهِ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى مُبَاهِلَةً الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَأْتِيهِمُ الَّذِينَ
 هَادُوا وَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّعُوا بِالْوَرْتِ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦٢] أَيُّ ادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى
 الْمُظِلِّ مَنَّا، أَوْ مِنْكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تَدْعُونَ أَنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ،
 فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ الدُّعَاءُ، فَانْكَلُوا عَنْ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ
 ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [مبسوطًا]، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَكَمَا ذَكَرَ
 تَعَالَى الْمُبَاهَلَةَ مَعَ النَّصَارَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ حِينَ
 صَمَّمُوا عَلَى الْكُفْرِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الطُّغْيَانِ وَالْعُلُوِّ فِي
 دَعْوَاهُمْ: أَنْ عِيسَى وَلَدُ اللَّهِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ
 عَلَى عُيُودِيَّةِ عِيسَى، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ كَادَمَ، قَالَ تَعَالَى بَعْدَ
 ذَلِكَ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلْمِ فَقُلْ تَقَالُوا
 نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاكَرَ وَسِبْأَنَا وَسِبْأَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ
 نَبْتَلِ فَنَنْجِلِ لِمَنْتَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]
 فَانْكَلُوا أَيْضًا عَنْ ذَلِكَ.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلِغَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ

رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦)

[بِرَّادٌ فِي هِدَايَةِ الْمُهْتَدِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى إِمْدَادَ مَنْ هُوَ فِي الضَّلَالَةِ فِيمَا هُوَ فِيهِ
 وَرِبَادَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، أَخْبَرَ بِرِبَادَةِ الْمُهْتَدِينَ هُدًى، كَمَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمَنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ
 رَادَتْهُ هُدًىوَهُ يَمِينًا﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وَقَوْلُهُ:
 ﴿وَالْبَلِغَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا وَالْكَلامُ عَلَيْهَا،

(١) فتح الباري: ٤٨/١٣ (٢) الطبري: ٢٤١، ٢٣٩/١٨ (٣)

الْمُرْسَلِينَ

٣١١

سُورَةُ مَرْيَمَ

أَفْرَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِنَا وَقَالَ لَا وَتَيْتَ مَا لَا وُودًا ﴿٧٧﴾
 أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا
 سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِيهِ
 مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
 لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
 عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ
 تَوْرَهُمْ آرَاءَ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾
 يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ
 إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا ﴿٨٦﴾ لَأَيْمَلَأُكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا لِمَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ
 الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ
 جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ
 وَتَلَشُّ الْأَرْضُ وَتَحْزُرُ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا
 ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ
 وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

لَهُمْ عَذَابٌ

[يَكْفُرُ آلِهَةٌ مُمَشْرِكِينَ بِعِبَادَتِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لِيَكُونَ لَهُمْ تِلْكَ الْأَلِهَةُ ﴿عِزًّا﴾ يَعْتَزُونَ بِهَا
 وَيَسْتَنْصِرُونَهَا، ثُمَّ أُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَلَا
 يَكُونُ مَا طَمَعُوا فَقَالَ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيُّ يَوْمِ
 الْقِيَامَةِ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أَيُّ بِخِلَافٍ مَا ظَنُّوا فِيهِمْ كَمَا
 قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ
 لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ
 كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٥، ٦] وَقَالَ
 السُّدِّيُّ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيُّ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿٤﴾
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أَيُّ بِخِلَافٍ مَا رَجَّوْا
 مِنْهُمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قَالَ:

وَأِيرَادُ الْأَحَادِيثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ﴿خَيْرٌ عِنْدَ
 رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أَيُّ جَزَاءً ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أَيُّ عَاقِبَةً وَمَرَدًّا عَلَىٰ
 صَاحِبِهَا.

﴿أَفْرَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِنَا وَقَالَ لَا وَتَيْتَ مَا لَا وُودًا﴾ ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ
 الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ
 وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾
 [الرَّدُّ عَلَىٰ مَنْ يَزْعُمُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنَّهُ يُعْطَىٰ فِي الْآخِرَةِ
 مَا لَا وُودًا]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ: كُنْتُ
 رَجُلًا قَيْنًا، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَاثِلِ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ
 أَتْقَاضًا مِنْهُ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقْضِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ
 بِمُحَمَّدٍ، فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّىٰ تَمُوتَ
 ثُمَّ تَبَعْتُ. قَالَ: فَإِنِّي إِذَا مِتُّ ثُمَّ بَعُثْتُ، جِئْتَنِي وَلِيَّ ثُمَّ
 مَالٌ وَوَلَدٌ فَأَعْطَيْتُكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَفْرَيْتَ الَّذِي كَفَرَ
 بِبَيْنَاتِنَا وَقَالَ لَا وَتَيْتَ مَا لَا وُودًا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (١)
 أَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ وَغَيْرُهُمَا وَفِي لَفْظِ الْبُخَارِيِّ:
 كُنْتُ قَيْنًا بِمَكَّةَ فَعَمِلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَاثِلِ سَيْفًا، فَجِئْتُ
 أَتْقَاضًا فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ
 عَهْدًا﴾ قَالَ: مَوْثِقًا (٢).

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ إِنْكَارٌ عَلَىٰ هَذَا الْقَائِلِ ﴿لَا وَتَيْتَ﴾ مَا لَا
 وُودًا﴾ بِعُنَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَيُّ أَعْلِمَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ حَتَّىٰ
 تَأْتِي وَحَلَفَ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أَمْ لَهُ
 عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ سَبَّوْتِيهِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ: أَنَّهُ
 الْمَوْثِقُ (٣).

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ هِيَ حَرْفُ رَدْعٍ لِمَا قَبْلَهَا، وَتَأْكِيدٌ لِمَا
 بَعْدَهَا ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أَيُّ مِنْ طَلَبِهِ ذَلِكَ، وَحُكْمِهِ
 لِنَفْسِهِ بِمَا يَتَمَنَّا، وَكُفْرِهِ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ
 الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَىٰ قَوْلِهِ ذَلِكَ وَكُفْرِهِ
 بِاللَّهِ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ﴾ أَيُّ مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ، نَسَلْبُهُ
 مِنْهُ عَكْسًا مَا قَالَ: إِنَّهُ يُؤْتَىٰ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَا لَا وَوَلَدًا،
 زِيَادَةً عَلَىٰ الَّذِي لَهُ فِي الدُّنْيَا، بَلْ فِي الْآخِرَةِ يُسَلَبُ مِنْهُ
 الَّذِي كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾
 أَيُّ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨١﴾ كَلَّا
 سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا
 الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرَهُمْ آرَاءَ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ

(١) أحمد: ١١١/٥ (٢) فتح الباري: ٤/٣٧٢ ومسلم: ٤/٤

(٣) فتح الباري: ٤/٣٧٢ (٤) الطبري: ١٨/٢٥١

الْخَصْمَاءِ الْأَشْدَاءِ فِي الْخُصُومَةِ. وَقَالَ الصَّحَّاحُ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾ قَالَ: أَعْدَاءٌ^(١).

[تَسَلَّطَ الشَّيَاطِينُ عَلَى الْكَافِرِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُذُهُمْ أَدَاً﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَغْوِبُهُمْ إِغْوَاءً^(٢). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْهُ: تُحَرِّضُهُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: تُرْعِبُهُمْ إِزْعَاجًا إِلَى مَعَاصِي اللَّهِ^(٤). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ فَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تَعْجَلُ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي وُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أَيُّ إِنَّمَا نُؤَخِّرُهُمْ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ مَضْبُوطٍ، وَهُمْ صَائِرُونَ لَا مَحَالَةَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَنَكَالِهِ. وَقَالَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَظِيمًا عَلِيمًا يَمْلِكُ الظُّلُمُونَ﴾... آيَةٌ

[إبراهيم: ٤٢] ﴿فَهَبْ لِكُفْرَانِهِمْ رُؤْيَا﴾ [الطارق: ١٧] ﴿إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] ﴿لِنُعْجِبَهُمْ فَيَلَائِمُهُمْ نَضَطَّاهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيبِكُمْ إِنِّي أَنَارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٠] وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا: السِّنِينَ وَالشُّهُورَ وَالْأَيَّامَ وَالسَّاعَاتِ.

﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَاً﴾ ﴿٥٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدَاً ﴿٥٨﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٥٧﴾

[حَالُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ خَافُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، وَاتَّبَعُوا رُسُلَهُ وَصَدَّقُوهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ، وَأَطَاعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ، وَاتَّقَوْهُمَا عَمَّا عَنْهُ رَجَرُوهُمْ، أَنَّهُ يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفَدَاً إِلَيْهِ، وَالْوَفْدُ هُمُ الْقَادِمُونَ رُجُبَانًا، وَمِنَهُ الْوُفُودُ، وَرُجُوبُهُمْ عَلَى نَجَابٍ مِنْ نُورٍ مِنْ مَرَائِبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَهُمْ قَادِمُونَ عَلَى خَيْرِ مَوْفُودٍ إِلَيْهِ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَأَمَّا الْمُجْرِمُونَ الْمُكَذَّبُونَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالِفُونَ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُسَاقُونَ عُنْفًا إِلَى النَّارِ ﴿وَرَدَاً﴾ عِطَاشًا. قَالَهُ عَطَاءٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(٦). وَهَهُنَا يُقَالُ: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدْبًا﴾.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسِ الْمَلَائِيِّ عَنِ ابْنِ مَرْزُوقٍ ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَاً﴾ قَالَ: يَسْتَقْبِلُ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ قَبْرِهِ أَحْسَنَ صُورَةٍ رَأَاهَا وَأَطْيَبَهَا رِيحًا، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: لَا، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ قَدْ طَيَّبَ رِيحَكَ وَحَسَّنَ وَجْهَكَ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، وَهَكَذَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَ الْعَمَلِ طَيِّبَةً، فَطَالَمَا رَكِبْتُكَ فِي الدُّنْيَا فَهَلُمَّ ارْكَبْنِي فَيُرَكَّبُهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَاً﴾. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَاً﴾ قَالَ: رُجُبَانًا^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدَاً﴾ أَيُّ عِطَاشًا ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ كَمَا يَشْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَلَا صَبِيبٍ حَمِيمٍ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى لَكِنْ مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا، وَهُوَ شَهَادَةٌ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْقِيَامُ بِحَقِّهَا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قَالَ: الْعَهْدُ: شَهَادَةٌ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَبِرًّا إِلَى اللَّهِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَلَا يَرْجُو إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ^(٨). ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدَاً ﴿٥٩﴾ تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَنَجَّى الْجِبَالُ هَذَا ﴿٦٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٦١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٦٢﴾ إِنْ كُنَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٦٣﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٦٤﴾

[النَّكِيرُ الشَّدِيدُ عَلَى نِسْبَةِ الْوَالِدِ إِلَى اللَّهِ]

لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ عِبُودِيَّةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذَكَرَ خَلْقَهُ مِنْ مَرِيَمَ بِلَا أَبِي، شَرَعَ فِي مَقَامِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَقَالَ: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ ﴿أَيُّ فِي قَوْلِكُمْ هَذَا﴾ شَيْئًا إِدَاً ﴿٥٩﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ: أَيُّ عَظِيمًا. وَيُقَالُ ﴿إِدَاً﴾ يَكْمُرُ

(١) الطبري: ٢٥٠/١٨ (٢) الطبري: ٢٥١/١٨ (٣) الدر المنثور: ٥٣٨/٥ (٤) الطبري: ٢٥٢/١٨ (٥) الطبري: ١٨/١٨ (٦) الطبري: ٢٥٣/١٨ والدر المنثور: ٥٤١/٥ (٧) الطبري: ٣٨٠/٨ (٨) الطبري: ٢٥٧/١٨

الْهُمَزَةَ وَفَتَحَهَا، وَمَعَ مَدِّهَا أَيْضًا ثَلَاثُ لَعَاتٍ أَشْهَرُهَا الْأُولَى وَقَوْلُهُ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (٩٦) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلِدَاكَ أَيَّ بَكَادُ يَكُونُ ذَلِكَ، عِنْدَ سَمَاعِهِنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ فَجْرَةِ بَنِي آدَمَ إِعْظَامًا لِلرَّبِّ وَإِجْلَالًا، لِأَنَّهُنَّ مَخْلُوقَاتٌ وَمُؤَسَّسَاتٌ عَلَى تَوْجِيهِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا كُفَاءَ لَهُ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (٩٦) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلِدَاكَ قَالَ: إِنَّ الشُّرْكَ فَرَعَتْ مِنْهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْجِبَالُ، وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، وَكَادَتْ أَنْ تَزُولَ مِنْهُ لِعَظَمَةِ اللَّهِ - وَكَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشُّرْكِ إِحْسَانُ الْمُشْرِكِ، كَذَلِكَ تَرْجُو أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ ذُنُوبَ الْمُؤَحِّدِينَ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقِنَا مَوْتَاكُمْ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ قَالَهَا فِي صِحَّتِهِ؟ قَالَ: «بِتِلْكَ أُوجِبُ وَأُوجِبُ». ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ جِئَ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَمَا تَحْتَهُنَّ، فَوُضِعْنَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوُضِعَتْ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى لَرَجَحَتْ بِهِنَّ» هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ (١). وَيَشْهَدُ لَهُ حَدِيثُ الْبِطَاقَةِ (٢). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أَيَّ يَنْشَقُّنَّ فَرْقًا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾، أَيَّ غَضَبًا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هَذَا يَنْكَسِرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ مُتَابِعَاتٍ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ، مِنْ اللَّهِ. إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ وَيَجْعَلُ لَهُ وَدَدًا، وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ وَيَرْزُقُهُمْ» (٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَفِي لَفْظٍ: «إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَدَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» (٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أَيَّ لَا يَضْلُجُ لَهُ وَلَا يَلِيْقُ بِهِ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لِأَنَّهُ لَا كُفَاءَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ عِبِيدُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٥) لَقَدْ أَحْصَيْتُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا أَيَّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ٣١٢
 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَضِرْ بِهِ قَوْمًا لَدْنَا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مَن أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿٩٨﴾

سُورَةُ طٰهٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذَكْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّن خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِن يُجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَيُدَّبُهُ يَسِّرًا وَخَفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُوثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا أَلْعَلِّي أَنِيكُمْ مِنْهَا نَبَأٌ فَيَسِّرَ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هَدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنَّنَهَا تُوْدَى بِمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَارْخَعْ لِعَلَيْكَ إِكْرَامًا بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

قَدْ عَلِمَ عَدَدَهُمْ - مُنْذُ خَلَقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - ذَكَرَهُمْ وَأَتَانَهُمْ، صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ، ﴿وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا﴾ أَيَّ لَا نَاصِرَ لَهُ وَلَا مُجِيرَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلَا يَظْلُمُ أَحَدًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَضِرْ بِهِ قَوْمًا لَدْنَا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مَن أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا (٩٨)

[يُجْعَلُ حُبَّ الصَّالِحِينَ فِي الْقُلُوبِ] يُخْرِجُ تَعَالَى أَنَّهُ يَغْرُسُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الَّتِي تُرْضِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

(١) الطبري: ٢٥٨/١٨ (٢) تحفة الأحوذى: ٧/٣٩٥ أحمد ٢/٢١٣ وصححه الألباني (١٣٥) (٣) أحمد: ٤/٤٠٥ (٤) فتح الباري: ١٠/٥٢٧ ومسلم: ٤/٢١٦٠

سُورَةُ طه وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ ١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا نَذْكُرَكَ لِئَمْ
يَخْشَى ٣ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ٤ الرَّحْمَنُ عَلَى
الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَمَا تَحْتُ النُّجُومِ ٦ وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٧
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ٨ ﴿﴾

[الْقُرْآنُ تَذْكِرَةٌ وَتَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ
الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
لِتَشْقَى﴾ قَالَ جُوَيْرِيٌّ عَنِ الضَّحَّاكِ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ عَلَى
رَسُولِهِ ﷺ قَامَ بِهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ
قُرَيْشٍ: مَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ إِلَّا لِتَشْقَى، فَأَنْزَلَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿طه﴾ ١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا
نَذْكُرَكَ لِئَمْ يَخْشَى ٣ ﴿﴾ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَهُ الْمُبْطِلُونَ،
بَلْ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا كَثِيرًا، كَمَا نَبَتْ فِي
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَرِدْ
اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ» (٨).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾
هِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَقْرُدُوا مَا يَنْسَرُ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] وَكَانُوا
يُحِبُّونَ الْحِبَالَ بِضُورِهِمْ فِي الصَّلَاةِ (٩). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ لَا وَاللَّهِ مَا جَعَلَهُ شِقَاءً، وَلَكِنْ
جَعَلَهُ رَحْمَةً وَنُورًا وَدَلِيلًا إِلَى الْجَنَّةِ (١٠). ﴿إِلَّا نَذْكُرَكَ لِئَمْ
يَخْشَى﴾ إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ وَبَعَثَ رَسُولَهُ رَحْمَةً رَجِمَ بِهَا
عِبَادَهُ لِيَتَذَكَّرَ ذَاكِرًا، وَيَسْتَفْعَ رَجُلٌ بِمَا سَمِعَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ،
وَهُوَ ذِكْرٌ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ أَيُّ هَذَا
الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ، رَبِّ كُلِّ
شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ الْقَادِرِ عَلَى مَا يَشَاءُ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ

لِمَتَابَعَتِهَا الشَّرِيعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ - يَغْرَسُ لَهُمْ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ
الصَّالِحِينَ مَحَبَّةً وَمُودَةً، وَهَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدٌ
عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ
فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُحِبُّ فَلَانًا فَأَجِبْهُ، قَالَ: فَيَجِبُهُ
جِبْرِيلُ، قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
فُلَانًا فَأَجِبُوهُ، قَالَ: فَيَجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ
الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ
فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ
جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ فُلَانًا
فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ
الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ» (١). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ
نَحْوَهُ (٢).

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنِّي قَدْ
أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَجِبْهُ، فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُنْزَلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ
فِي أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً﴾ (٣). رَوَاهُ
مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٤).

[نَزَلَ الْقُرْآنُ لِلتَّبَشِيرِ وَالْإِنذَارِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنُ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أَيُّ
يَا مُحَمَّدُ وَهُوَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُسِينُ الْفَصِيحُ الْكَامِلُ
﴿لِيُنَبِّئَكَ بِهِ الْغَيْبَاتِ﴾ أَيُّ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ، الْمُصَدِّقِينَ
لِرَسُولِهِ، ﴿وَيُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَذًا﴾ أَيُّ عَوْجًا عَنِ الْحَقِّ مَا لَيْلِينَ
إِلَى الْبَاطِلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَرَّهْنَا قَوْلَهُمْ مِنْ قَرِينٍ﴾ أَيُّ مِنْ أُمَّةٍ كَفَرُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ ﴿هَلْ نَحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ
لَهُمْ رِكْدًا﴾ أَيُّ هَلْ تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْدًا.
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَعَكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ
وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي صَوْتًا (٥).
وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هَلْ تَرَى عَيْنًا أَوْ تَسْمَعُ صَوْتًا (٦).
وَالرُّكْدُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ هُوَ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ.

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ مَرْيَمَ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَيَتْلُوهُ إِنَّ
شَاءَ اللَّهُ تَفْسِيرَ سُورَةِ طه وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ.

(١) أحمد: ٤١٣/٢، ٥١٤ (٢) فتح الباري: ٤٧٦/١، ومسلم: ٢٠٣٠/٤
(٣) عبد الرزاق: ٤٥٠/١٠ (٤) مسلم: ١٠٣١/٤
وتحفة الأحوذى: ٦٠٨/٨ (٥) الطبري: ٢٦٥/١٨ (٦)
الطبري: ٢٦٥/١٨ (٧) القرطبي: ١٦٧/١١ (٨) فتح الباري:
١٩٧/١، ومسلم: ٧١٩/٢ (٩) الطبري: ٢٦٩/١٨ (١٠)
الطبري: ٢٦٩/١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٣

تِلْكَ آيَاتُهَا

وَأَنَا خَلَقْتُكَ فَاسْتَعِمْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تَلَكَ بِسَمِينِكَ يَمْوَسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنُوكَّ وَأُعَلِّمُهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مِثَارَبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدٌ هَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تَسْحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذُكَّرَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَاصِرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾

وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَرٌّ وَلَا شَيْءٌ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا، أُنِيَ ظَهَرَتْ لَهُ نَارٌ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ الَّذِي هُنَاكَ عَنْ يَمِينِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ يُبَشِّرُهُمْ: ﴿إِنِّي عَاسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أَيُّ شِهَابٍ مِنْ نَارٍ. وَفِي آيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾: [القصص: ٢٩] وَهِيَ الْجَمْرُ الَّذِي مَعَهُ لَهَبٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ دَلَّ عَلَى وُجُودِ الْبَرْدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دَلَّ عَلَى وُجُودِ الظَّلَامِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أَيُّ مَنْ يَهْدِيهِ الطَّرِيقَ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَنَاهَى عَنِ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْأَعْوَرِ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قَالَ: مَنْ يَهْدِيهِ إِلَى الطَّرِيقِ، وَكَانُوا شَاتِينَ وَصَلُّوا الطَّرِيقَ، فَلَمَّا رَأَى النَّارَ قَالَ: إِنَّ لَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَهْدِيهِ إِلَى الطَّرِيقِ أَتَيْتُكُمْ بِنَارٍ تُوقِدُونَ بِهَا^(٣).

بِإِنْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى فِي ارْتِفَاعِهَا وَلَطَافَتِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْمَرْشِ اسْتَوَى﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ أَيْضًا، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ الْأَسْلَمَ فِي ذَلِكَ طَرِيقَهُ السَّلَفِ: إِفْرَارُ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْتِيلٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ مِلْكُهُ، وَفِي قَبْضَتِهِ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَمَسْبُوتِهِ، وَإِرَادَتِهِ وَحُكْمِهِ، وَهُوَ خَالِقُ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ وَإِلَهُهُ، لَا إِلَهَ سِوَاهُ وَلَا رَبَّ غَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: أَيُّ مَا تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أَيُّ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦] قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قَالَ: السِّرُّ مَا أَسْرَهُ ابْنُ آدَمَ فِي نَفْسِهِ ﴿وَأَخْفَى﴾ مَا أَخْفَى عَلَى ابْنِ آدَمَ مِمَّا هُوَ فَاعِلُهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَهُ، فَاللَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَيَعْلَمُهُ فِيمَا مَضَى مِنْ ذَلِكَ وَمَا بَقِيَ عِلْمٌ وَاحِدٌ، وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ فِي ذَلِكَ عِنْدَهُ كَتَفَسٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَحْنُكُمْ إِلَّا كَتَفَسٍ وَجِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أَيُّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، هُوَ: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى. وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُتُوا إِنِّي عَاسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ

هُدًى ﴿١﴾

[حديث رسالة موسى]

مِنْ هُنَا شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءَ الْوَحْيِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمُهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِهْرِهِ فِي رِعَايَةِ الْغَنَمِ، وَسَارَ بِأَهْلِهِ قَيْلًا: قَاصِدًا بِلَادَ مِصْرَ بَعْدَ مَا طَالَتِ الْعَيْبَةُ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ، وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ، فَأَصَلَ الطَّرِيقَ وَكَانَتْ لَيْلَةً شَاتِيَةً، وَنَزَلَ مَنزَلًا بَيْنَ شِعَابٍ، وَجِبَالٍ فِي بَرْدٍ وَشِتَاءٍ، وَسَحَابٍ وَظِلَامٍ وَضَبَابٍ، وَجَعَلَ يَقْدَحُ بِرُؤْدِ مَعَهُ لِيُورِيَ نَارًا كَمَا جَرَتْ لَهُ الْعَادَةُ بِهِ، فَجَعَلَ لَا يَقْدَحُ شَيْئًا

(١) الطبري: ٢٧١/١٨ (٢) الطبري: ٢٧٢/١٨ (٣) الطبري:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُورِي بِمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾﴾

[أَوَّلُ الْوَحْيِ إِلَىٰ مُوسَى]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أَي النَّارَ، وَاقْتَرَبَ مِنْهَا ﴿نُورِي بِمُوسَى﴾ وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿نُورِيكَ مِنْ شَطِيئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْفَجْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ بِمُوسَى إِنْتَ أَنَا اللَّهُ﴾ وَقَالَ هُهْنَا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أَي الَّذِي يُكَلِّمُكَ وَيُخَاطِبُكَ ﴿فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو ذَرٍّ وَأَبُو أَيُّوبَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: كَانَتْ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ ذِكِّي، وَقِيلَ: إِنَّمَا أَمْرُهُ بِحَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا لِلْبَعْعَةِ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿طُوًى﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ اسْمٌ لِلْوَادِي^(٢). وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ، فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ عَطْفٌ بَيَانٍ، وَقِيلَ: عِبَارَةٌ عَنِ الْأَمْرِ بِالْوَطْءِ بِقَدَمَيْهِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ قُدِّسَ مَرَّتَيْنِ، وَطُوًى لَهُ الْبِرْكَةُ وَكُرِّرَتْ، وَالْأَوَّلُ أَصْحَحُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَ النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أَي عَلَىٰ جَمِيعِ النَّاسِ مِنَ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَانِهِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ: يَا مُوسَى أَتَدْرِي لِمَ خَصَّصْتُكَ بِالتَّكْلِيمِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: لِأَنِّي لَمْ يَتَوَاضَعْ إِلَيَّ أَحَدٌ تَوَاضَعَكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أَي اسْتَمِعِ الْآنَ مَا أَقُولُ لَكَ وَأَوْحِيهِ إِلَيْكَ ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هَذَا أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ أَنْ يَعْلَمُوا: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أَي وَحْدَنِي، وَفَمَّ بِعِبَادَتِي مِنْ غَيْرِ شَرِيكَ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ صَلِّ لِتَذْكُرَنِي وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ عِنْدَ ذِكْرِكَ لِي، وَتَشْهَدُ لِهَذَا الثَّانِي مَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿إِذَا رَفَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ، أَوْ غَفَلَ عَنْهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾﴾^(٣). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا، فَكُفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كُفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ﴾^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ

السَّاعَةَ آيَةٌ﴾ أَي قَائِمَةٌ لَا مَحَالَةَ وَكَائِنَتْ لَا بُدَّ مِنْهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:

أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهَا: (أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي)^(٥). يَقُولُ: لِأَنَّهَا لَا تَخْفَىٰ مِنْ نَفْسِ اللَّهِ أَبَدًا^(٦). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يَقُولُ: لَا أُطْلِعُ عَلَيْهَا أَحَدًا غَيْرِي^(٧). وَقَالَ: ﴿نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَعْنَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] أَي تُقَلُّ عَلِمَهَا عَلَىٰ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أَي أُقِيمَهَا لَا مَحَالَةَ لِأَجْزَىٰ كُلِّ غَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ٥٢] وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا...﴾ الْآيَةَ، الْمُرَادُ بِهَذَا الْخِطَابِ أَحَادُ الْمُكَلَّفِينَ. أَي لَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ مَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ مَلَادِهِ فِي دُنْيَاهُ، وَعَصَىٰ مَوْلَاهُ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَنْ وَاقَفَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أَي تَهْلِكَ وَتَعْتَطِبُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا يَنْبَغِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١].

﴿وَمَا تَلَكَ بِسَمِينِكَ بِمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلَيْهَا يَتَوَكَّأُ ﴿١٩﴾ فَالْقَنَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحَفَّ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

[قَلْبُ عَصَا مُوسَى حِيَةً]

هَذَا بُرْهَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمُعْجِزَةٌ عَظِيمَةٌ، وَخَرَقَ لِلْعَادَةِ بَاهِرٌ دَالٌّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَلَكَ بِسَمِينِكَ بِمُوسَى﴾ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِيْتِاسِ لَهُ. وَقِيلَ: وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّقْرِيرِ، أَي أَمَا هَذِهِ الَّتِي فِي يَمِينِكَ عَصَاكَ الَّتِي تَعْرِفُهَا، فَسَتَرْتِي مَا نَصْنَعُ بِهَا الْآنَ.

﴿وَمَا تَلَكَ بِسَمِينِكَ بِمُوسَى﴾ اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٌ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أَي أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي حَالِ الْمَشْيِ

(١) الطبري: ٢٧٨/١٨ (٢) الطبري: ٢٨١/١٨ (٣) أحمد: ٨٤/٣ (٤) فتح الباري: ٨٤/٢ ومسلم: ٤٧٧/١ (٥) فتح القدير: ٣٦١/٣ الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٦) الدر المشور: ٥٦٣/٥ (٧) الطبري: ٢٨٥/١٨

﴿وَأَهْسُ بِهَا عَلَى عَنِي﴾ أَي أَهْرُ بِهَا الشَّجَرَةَ لِيَسْقَاطَ وَرَقُهَا لِيَرَعَاهُ عَنِّي. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ: الْهَسُّ أَنْ يَضَعَ الرَّجُلُ الْمِحْجَنَ فِي الْعُضَنِ ثُمَّ يَحْرُكُهُ حَتَّى يَسْقُطَ وَرَقُهُ وَتَمْرُهُ وَلَا يَكْسِرُ الْعُودَ، فَهَذَا الْهَسُّ. وَلَا يَحِيطُ^(١). وَكَذَا قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ أَيْضًا.

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾ أَي مَصَالِحٌ وَمَنَافِعٌ وَحَاجَاتٌ أُخْرَى غَيْرَ ذَلِكَ، وَقَدْ تَكَلَّفَ بَعْضُهُمْ لِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَنَارِبِ الَّتِي أُبْهِمَتْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَتَيْهَا يُمُوسَى﴾ أَي هَذِهِ الْعَصَا الَّتِي فِي يَدِكَ يَا مُوسَى: أَلْقَهَا. ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَمْعَى﴾ أَي صَارَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةً عَظِيمَةً تُعْبَأُنَا طَوِيلًا يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً سَرِيعَةً، فَإِذَا هِيَ تَهْتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَيَّاتِ حَرَكَةً، وَلَكِنَّهُ صَغِيرٌ، فَهَذِهِ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ وَفِي غَايَةِ سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ، ﴿سَمْعَى﴾ أَي تَمَشَّى وَتَضَطَّرِبُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَتَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أَي إِلَى حَالِهَا الَّتِي تَعْرِفُ قَبْلَ ذَلِكَ.

[دَعَاءُ مُوسَى]

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وَيَبِّرْ لِي أَمْرِي ﴿هَذَا سُؤَالَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَسِيمٍ، بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَمِ مَلِكٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ، وَأَجْبَرَهُمْ وَأَسَدَّهُمْ كُفْرًا، وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا، وَأَعْمَرَهُمْ مُلْكًا، وَأَطْعَمَهُمْ وَأَبْلَغَهُمْ تَمَرْدًا، بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ، وَلَا يَعْلَمُ لِرِعَايَةِ إِلَهِهَا غَيْرَهُ، هَذَا وَقَدْ مَكَتَ مُوسَى فِي دَارِهِ مُدَّةً - وَوَلِيدًا - عِنْدَهُمْ فِي حِجْرِ فِرْعَوْنَ عَلَى فِرَاشِهِ، ثُمَّ قَتَلَ مِنْهُمْ نَفْسًا فَخَافَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا بَعَثَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ نَذِيرًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وَيَبِّرْ لِي أَمْرِي ﴿أَي إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عَوْنِي وَنَصِيرِي وَعَضِدِي وَظَهِيرِي، وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ﴾ وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي ﴿يَقْعَهُوا قَوْلِي﴾ وَذَلِكَ لِمَا كَانَ أَصَابَهُ، مِنْ اللَّغْنِ جِئَنَ عَرَضَ عَلَيْهِ التَّمْرَةُ وَالْجَمْرَةُ، فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، وَمَا سَأَلَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكَلْبِيِّ، بَلْ بِحَيْثُ يَزُولُ الْعَيْ، وَيَحْضُلُ لَهُمْ فَهَمَّ مَا يُرِيدُ مِنْهُ، وَهُوَ قَدْرُ الْحَاجَةِ، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ، وَلِهَذَا بَقِيَتْ بَقِيَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بُيُوتَ﴾ [الزخرف: ٥٢] أَي يُفْصِحُ بِالْكَلَامِ.

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْلَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ هَرُونَ أَخِي﴾ وَهَذَا أَيْضًا سُؤَالَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَمْرٍ خَارِجِيٍّ عَنْهُ،

﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَ مُوسَى مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [إِبْضِضْتُ يَدَ مُوسَى مِنْ غَيْرِ سُوءٍ] وَهَذَا بُرْهَانٌ ثَانٍ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهَهُنَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ وَقَالَ فِي مَكَانٍ آخَرَ: ﴿وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ كَفَكَ تَحْتَ عَضْدِكَ^(٢). وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا، تَخْرُجُ تَلَالُؤًا كَأَنَّهَا فَلَقَةٌ قَمَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَدَى وَمِنْ غَيْرِ شَيْنٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ^(٣). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَخْرَجَهَا وَاللَّهُ كَأَنَّهَا مُضْبَاحٌ، فَعَلِمَ مُوسَى أَنَّهُ قَدْ

﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ مَالَةً﴾
 أُخْرَى ﴿٢٦﴾ لِرَبِّكَ مِنْ ءَاتَيْنَا الْكُفْرَى ﴿٢٧﴾ أَهْبَتْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَعَنَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٩﴾ وَيَبِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣٠﴾ وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي ﴿٣١﴾ يَقْعَهُوا قَوْلِي ﴿٣٢﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٣٣﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٤﴾ أَشَدُّ بِهِ أَمْرِي ﴿٣٥﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٦﴾ كَى سَحَبَكَ كَثِيرًا ﴿٣٧﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٩﴾

[إِبْضِضْتُ يَدَ مُوسَى مِنْ غَيْرِ سُوءٍ]

وَهَذَا بُرْهَانٌ ثَانٍ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهَهُنَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ وَقَالَ فِي مَكَانٍ آخَرَ: ﴿وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ كَفَكَ تَحْتَ عَضْدِكَ^(٢). وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا، تَخْرُجُ تَلَالُؤًا كَأَنَّهَا فَلَقَةٌ قَمَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَدَى وَمِنْ غَيْرِ شَيْنٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ^(٣). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَخْرَجَهَا وَاللَّهُ كَأَنَّهَا مُضْبَاحٌ، فَعَلِمَ مُوسَى أَنَّهُ قَدْ

(١) الدر المنثور: ٥٦٤/٥ (٢) الطبري: ٢٩٧/١٨ (٣)

الطبري: ٢٩٨، ٢٩٧/١٨ (٤) الطبري: ٢٩٨/١٨

وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقِذِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ
 فِي الْبَرِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴿٣٩﴾ وَأَلْقَيْتُ
 عَلَيْكَ حَبَابَةً مِّنِّي وَلِنُصْنِعَ عَلَىٰ عَيْبِي ﴿٤٠﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
 فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴿٤١﴾ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
 عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤٢﴾ وَنَلَّكَ نَفْسًا فَجَنِينَكُمِنَ الْعَمِيرِ ﴿٤٣﴾ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا
 فَلَمَّ تَتَّيَّنَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ حِثَّتْ عَلَىٰ قَدْرِ يُمُوسَىٰ ﴿٤٤﴾
 وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٤٥﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُنَبِّئُ
 فِي ذِكْرِي ﴿٤٦﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٧﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لِيئًا
 لَّعَلَّهُ بَيِّنَاتٌ مِّنْ دُونِ آيَاتِنَا ﴿٤٨﴾ قَالَ لَرَبِّنَا إِنَّا خَافُ أَنْ يَقْرُبَ عَلَيْنَا
 أَوْ أَنْ يَطَّغَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَصْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٥٠﴾
 فَأَنبَأَهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
 وَلَا تَعَدِّمْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ تَابِعِ
 الْهُدَىٰ ﴿٥١﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذِبِ
 وَقَوْلِي ﴿٥٢﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٣﴾ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٤﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥٥﴾

وَحَزَنًا ﴿القصص: ٨﴾ أَي قَدْرًا مَقْدُورًا مِنْ اللَّهِ حَيْثُ كَانُوا
 هُمْ يَقْتُلُونَ الْعُلَمَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْرًا مِنْ وُجُودِ
 مُوسَى، فَحَكَّمَ اللَّهُ وَلَهُ السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ وَالْقُدْرَةُ التَّامَّةُ، أَنْ
 لَا يَرَى إِلَّا عَلَى فِرَاشِ فِرْعَوْنَ، وَيَعْدَى بِطَعَامِهِ وَسَرَابِهِ مَعَ
 مَحَبَّتِهِ وَرُوحِيَّتِهِ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ
 لَهُ﴾ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَابَةً مِّنِّي ﴿أَي عِنْدَ عَدُوِّكَ جَعَلْتَهُ يُحِبُّكَ.
 قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَابَةً مِّنِّي﴾ قَالَ: حَبَابَتُكَ
 إِلَى عِبَادِي ﴿٣٧﴾ ﴿وَلِنُصْنِعَ عَلَىٰ عَيْبِي﴾ قَالَ أَبُو عَمْرٍانَ الْجَوْنِيُّ:
 تُرَبِّي بَعِيْنِ اللَّهِ ﴿٤٠﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾
 فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنَهَا ﴿وَدَلَّكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَمَرَّ عِنْدَ آلِ
 فِرْعَوْنَ عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ فَأَبَاهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَمْنَا
 عَلَيْكَ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ فَجَاءَتْ أُخْتُهُ، وَقَالَتْ:

وَهُوَ مُسَاعِدُهُ أَخِيهِ هَارُونَ لَهُ. قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
 عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: فَتَبَّى هَارُونَ سَاعَتَيْدَ
 حِينَ نَبِيءِ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿١﴾. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ
 عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا حَرَجَتْ فِيمَا كَانَتْ تَعْتَمِرُ، فَتَرَكَتْ بَعْضَ
 الْأَعْرَابِ، فَسَمِعَتْ رَجُلًا يَقُولُ: أَيُّ أَخٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا
 أَنْفَعُ لِأَخِيهِ؟ قَالُوا: لَا نَدْرِي. قَالَ: أَنَا وَاللَّهِ أَدْرِي.
 قَالَتْ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: فِي حَلْفِي، لَا يَسْتَشِينِي! إِنَّهُ لَيَعْلَمُ
 أَيُّ أَخٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَنْفَعُ لِأَخِيهِ. قَالَ: مُوسَى، حِينَ
 سَأَلَ لِأَخِيهِ النَّبُوَّةَ، فَقُلْتُ: صَدَقَ وَاللَّهِ. قُلْتُ: وَمِنْ هَذَا
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى - فِي الشَّأْنِ عَلَىٰ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - :
 ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَشَدُّ بِهِ أَرَى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ظَهَرِي،
 وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ﴿أَي فِي مَشَاوَرَتِي﴾ كَمَا سَمِعْتَهُ كَثِيرًا ﴿٣٧﴾
 وَتَذَكَّرْتُ كَثِيرًا ﴿قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ النَّكَّارِينَ اللَّهُ
 كَثِيرًا حَتَّى يَذْكَرَ اللَّهُ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا﴾. وَقَوْلُهُ:
 ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أَي فِي اضْطِفَائِكَ لَنَا وَإِعْطَائِكَ إِيَّانَا
 النَّبُوَّةَ، وَبِعَيْتِكَ لَنَا إِلَىٰ عَدُوِّكَ فِرْعَوْنَ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ
 ذَلِكَ.

﴿قَالَ قَدِ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾
 إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقِذِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي
 الْبَرِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴿٣٩﴾ وَأَلْقَيْتُ
 عَلَيْكَ حَبَابَةً مِّنِّي وَلِنُصْنِعَ عَلَىٰ عَيْبِي ﴿٤٠﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ
 أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴿٤١﴾ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤٢﴾
 وَنَلَّكَ نَفْسًا فَجَنِينَكُمِنَ الْعَمِيرِ ﴿٤٣﴾

[الْبُشَارَةُ بِقَبُولِ الدُّعَاءِ وَالتَّذَكُّيرُ بِالْمِنِّ السَّابِقَةِ]
 هَذِهِ إِجَابَةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا سَأَلَ
 مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَذَكُّيرٌ لَهُ بِنِعْمَةِ السَّالِفَةِ عَلَيْهِ. فِيمَا كَانَ
 مِنْ أَمْرِ أُمَّهِ حِينَ كَانَتْ تُرْضِعُهُ وَتَحْذَرُ عَلَيْهِ مِنْ فِرْعَوْنَ
 وَمَلِيَّتِهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وُلِدَ فِي السَّنَةِ الَّتِي يَقْتُلُونَ
 فِيهَا الْعُلَمَانَ، فَاتَّخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا فَكَانَتْ تُرْضِعُهُ ثُمَّ تَضَعُهُ
 فِيهِ، وَتُرْسِلُهُ فِي الْبَحْرِ، وَهُوَ النَّيْلُ، وَتُمْسِكُهُ إِلَىٰ مَنْزِلِهَا
 بِحَبْلِ. فَذَهَبَتْ مَرَّةً لِتُرْبِطَ الْحَبْلَ فَانْقَلَبَتْ مِنْهَا، وَذَهَبَ بِهِ
 الْبَحْرُ، فَحَصَلَ لَهَا مِنَ الْعَمِّ وَالْهَمِّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهَا فِي
 قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ
 لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّمَهَا قَلْبَهَا﴾ [القصص: ١٠] فَذَهَبَ بِهِ الْبَحْرُ
 إِلَى دَارِ فِرْعَوْنَ ﴿فَالْقَطْعَةُ هَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا

(١) الدر المنثور: ٥٦٧/٥ (٢) القرطبي: ١٨٦/١٤ (٣)
 الطبري: ٣٠٣/١٨ (٤) فتح القدير: ٣٦٧/٣

عَبَّاسٍ: لَا تَضَعُفًا، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمَا لَا يَقْتَرَانِ فِي ذِكْرِ اللَّهِ، بَلْ يَذْكُرَانِ اللَّهَ فِي حَالِ مُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ، لِيَكُونَ ذِكْرُ اللَّهِ عَوْنًا لَهُمَا عَلَيْهِ، وَقُوَّةً لَهُمَا وَسُلْطَانًا كَاسِرًا لَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَذْهَبَا إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أَي تَمَرَّدَ وَعَتَا وَتَجَبَّرَ [تَجَهَّرَمَ] عَلَى اللَّهِ وَعَصَاهُ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالْإِسْتِكْبَارِ وَمُوسَى صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ، وَمَعَ هَذَا أَمَرَ أَنْ لَا يُخَاطَبَ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمَلَاظِفَةِ وَاللِّينِ فَدَعَوْهُمَا لَهُ تَكُونُ بِكَلَامِ رَفِيقٍ لَيْنٍ سَهْلٍ [قَرِيبٍ] رَفِيقٍ، لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ وَأَبْلَغَ وَأَنْجَعَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْزِلْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمُرْءُطَةِ الْمَحْسَنَةِ وَحَدِّلْهُمْ بِالنُّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أَي لَعَلَّهُ يَرْجِعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَكَةِ، ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ أَي يُوجِدُ طَاعَةَ مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] فَالَّذِي ذَكَرَ: الرَّجُوعُ عَنِ الْمُحْذَرِ، وَالْخَشْيَةُ: تَحْصِيلُ الطَّاعَةِ.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (٥٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٥٦) فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَمْرِ الْهَلَكَةِ (٥٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٥٨)

[خَوْفُ مُوسَى مِنْ فِرْعَوْنَ وَتَثْبِثُ اللَّهُ إِيَّاهُ] يَقُولُ تَعَالَى إِجْبَارًا عَنْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: أَنَّهُمَا قَالَا مُسْتَجِيرِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى شَاكِيَيْنِ إِلَيْهِ: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَقْرطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ يَعْنِيَانِ: أَنْ يَنْدِرَ إِلَيْهِمَا بِعُقُوبَةٍ أَوْ يَعْتَدِي عَلَيْهِمَا، فَيَعَارِفُهُمَا وَهُمَا لَا يَسْتَحِقَّانِ مِنْهُ ذَلِكَ. وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَوْ أَنَّ يَطْغَى: يَعْتَدِي (٥). ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أَي لَا تَخَافَا مِنْهُ، فَإِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ كَلَامَكُمَا وَكَلَامَهُ، وَأَرَى مَكَانَكُمَا وَمَكَانَهُ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ، وَاعْلَمْنَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي، فَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَتَنَفَّسُ وَلَا يَبْطِشُ إِلَّا بِإِذْنِي وَبَعْدَ أَمْرِي، وَأَنَا مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي.

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ [النقص: ١٢] تَعْنِي هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يُرْضِعُهُ لَكُمْ بِالْأَجْرَةِ، فَذَهَبَتْ بِهِ وَهُمْ مَعَهَا إِلَىٰ أُمِّهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَدْبَهَا، فَقبلَهُ فَفَرَحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَاسْتَأْجَرُوهَا عَلَىٰ إِزْضَاعِهِ فَتَالَهَا بِسَبَبِهِ سَعَادَةٌ وَرَفْعَةٌ وَرَاحَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَجْزَلُ. وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أَي عَلَيْكَ ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا يَعْزِمُ الْقُبْطِيُّ﴾ فَجِئْتِكَ مِنَ الْغَدْرِ وَهُوَ مَا حَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ عَزْمِ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ قَتْلِهِ، فَفَرَّ مِنْهُمْ هَارِبًا حَتَّىٰ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ: ﴿لَا تَخَفْ تَجُوتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [النقص: ٢٥].

﴿فَلَمَّا تَخَفْتُمْ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤِسُونَ﴾ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي (٥٩) أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِإِتْبَاعِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي (٦٠) أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٦١) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٦٢) [إِضْطِفَاءُ مُوسَى وَأَمْرُهُ بِالذَّهَابِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَبِدَعْوِيهِ بِاللِّينِ وَالرَّفْقِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاظِبًا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ لَبِتَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ فَارًا مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلِيئِهِ، يُرْعَى عَلَىٰ صَهْرِهِ حَتَّىٰ انْتَهَتْ الْمُدَّةُ وَأَنْقَضَى الْأَجَلُ، ثُمَّ جَاءَ مُوَافِقًا لِقَدْرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُوَ الْمُسَيِّرُ عِبَادَهُ وَخَلَقَهُ فِيمَا يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤِسُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَي عَلَىٰ مَوْعِدٍ (١). وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤِسُونَ﴾ قَالَ: عَلَىٰ قَدْرِ الرَّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ (٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾ أَي إِضْطَفَيْتَكَ وَاجْتَبَيْتَكَ رَسُولًا لِنَفْسِي أَي كَمَا أُرِيدُ وَأَشَاءُ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «النَّفْسُ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ الَّذِي أَشَقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ آدَمُ: وَأَنْتَ الَّذِي إِضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَأَصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّورَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَوَجَدْتَهُ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» أَخْرَجَاهُ (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِإِتْبَاعِي﴾ أَي بِحُجَّجِي وَبِرَاهِنِي وَمُعْجَزَاتِي ﴿وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا تُبْطِئَا (٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ ابْنِ

(١) الطبري: ٣١١/١٨ (٢) عبد الرزاق: ١٧/٣ (٣) فتح الباري: ٢٨٨/٨ ومسلم: ٢٠٤٣/٤، ٢٠٤٤ (٤) الطبري: ١٨/٣١٢ (٥) الدر المنثور: ٥٨٠/٥

[وَعَظُّ مُوسَىٰ أَمَامَ فِرْعَوْنَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ يَا بَئيرَ مَن رَّبِّكَ﴾ أَي بَدَلَالَةٍ وَمُعْجَزَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعِ الْهُدَىٰ﴾ أَي وَالسَّلَامُ عَلَيَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ الْهُدَىٰ، وَلِهَذَا لَمَّا كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ كِتَابًا كَانَ أَوَّلُهُ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَىٰ هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعِ الْهُدَىٰ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، فَاسْلِمْ تَسْلِمًا، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»^(١). وَلِهَذَا قَالَ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِفِرْعَوْنَ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعِ الْهُدَىٰ﴾ ﴿٧﴾ إِنَّا قَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أَي قَدْ أَجْبَرَنَا اللَّهُ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْنَا مِنَ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ: أَنَّ الْعَذَابَ مُتَمَحِّضٌ لِمَن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَوَلَّىٰ عَنْ طَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ ﴿٧﴾ وَاتَّزَىٰ الْعِوَةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٩] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثَأْنُكَ نَارًا تَلْقَىٰ﴾ ﴿٩﴾ لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] أَي كَذَّبَ بِقَلْبِهِ، وَتَوَلَّىٰ بِفِعْلِهِ.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ﴿١٩﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٢٠﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي

فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ ﴿٢١﴾

[الْحِوَارُ بَيْنَ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَىٰ مُنْجِرًا وَجُودَ الصَّانِعِ الْخَالِقِ إِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبِّهِ وَمَلِيكِهِ، قَالَ ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ أَي الَّذِي بَعَثَكَ وَأَرْسَلَكَ مَنْ هُوَ؟ فَإِنِّي لَا أَعْرِفُهُ وَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَقُولُ خَلَقَ لِكُلِّ شَيْءٍ زَوْجَهُ^(٢). وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَعَلَ الْإِنْسَانَ إِنْسَانًا، وَالْحِمَارَ حِمَارًا، وَالشَّاةَ شَاءَةً. وَقَالَ لَيْثُ ابْنُ أَبِي سَلِيمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: سَوَّىٰ خَلْقَ كُلِّ دَابَّةٍ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قَالَ: أَعْطَىٰ كُلَّ ذِي خَلْقٍ مَا يُضِلُّهُ مِنْ خَلْقِهِ^(٣). وَلَمْ يَجْعَلِ الْإِنْسَانَ مِنْ خَلْقِ الدَّابَّةِ، وَلَا لِلدَّابَّةِ مِنْ خَلْقِ الْكَلْبِ، وَلَا لِلْكََلْبِ مِنْ خَلْقِ الشَّاةِ، وَأَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ مَا يَتَّبِعِي لَهُ مِنَ النَّكَاحِ، وَهِيَ كُلُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٥

سُورَةُ طه

قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ ﴿٥١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ ﴿٥٢﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٥٤﴾ وَمِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْنَا لِنَتَخَّرَجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاكَ سِحْرَ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا﴾ ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَىٰ﴾ ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَاتَقْتِرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذَّابًا فَسِحْرُكُمْ بَعْدَ الَّذِي وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْتَرِي﴾ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ﴾ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَىٰ﴾ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّوَصَفُوا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ ﴿٦٤﴾

شَيْءٍ عَلَىٰ ذَلِكَ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا يُشَبِّهُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِ فِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالنَّكَاحِ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] أَي قَدَّرَ قَدْرًا وَهَدَىٰ الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، أَي كَتَبَ الْأَعْمَالَ وَالْأَجَالَ وَالْأَرْزَاقَ، ثُمَّ الْخَلَائِقَ مَا شُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ لَا يَجِدُونَ عَنْهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ الْخُرُوجِ مِنْهُ. يَقُولُ: رَبُّنَا الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَقَدَّرَ الْقَدْرَ وَجَبَلَ الْخَلِيقَةَ عَلَىٰ مَا أَرَادَ.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ أَصْحَحُ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَخْبَرَهُ مُوسَىٰ بِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ وَرَزَقَ، وَقَدَّرَ فَهَدَىٰ، سَرَعَ يَحْتَجُّ بِالْقُرُونِ الْأُولَىٰ، أَي الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ، أَي فَمَا بِالْهُمُ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، لَمْ يَعْبُدُوا رَبَّكَ بَلْ عَبَدُوا غَيْرَهُ؟ فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ فِي

(١) فتح الباري: ٤٢/١ (٢) الطبري: ٣١٦/١٨ (٣) القرطبي: ٢٠٤/١١

[أَرِي فِرْعَوْنَ كُلَّ الْآيَاتِ وَلَمْ يُؤْمِن]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي بَعَثْتُ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجُجُ وَالْآيَاتُ وَالذَّلَالَاتُ، وَعَايِنَ ذَلِكَ وَأَبْصَرَهُ، فَكَذَّبَ بِهَا وَأَبَاهَا كُفْرًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفْتِنَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾... الآية [النمل: ١٤].

﴿قَالَ آجِنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ يَا مُوسَى﴾ ﴿٥٣﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴿٥٤﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ

ضَحَى ﴿٥٥﴾

[وَصَفَّ فِرْعَوْنَ آيَاتِ مُوسَى بِالسِّحْرِ وَمَكْرُهُ وَتَدْبِيرُهُ فِي الْمَعَارِضَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى حِينَ أَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى، وَهِيَ الْإِقَاءُ عَصَاهُ فَصَارَتْ نُعْبَانًا عَظِيمًا، وَتَرَعَّ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ جَنَاحِهِ فَخَرَجَتْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ. فَقَالَ: هَذَا سِحْرٌ جِئْتُ بِهِ لِتَسْحَرَنَا وَتَسْتَوِلِي بِهِ عَلَيَّ النَّاسَ فَيَسْبِعُونَكَ، وَتُكَاثِرُنَا بِهِمْ، وَلَا يَتِيمٌ هَذَا مَعَكَ، فَإِنَّ عِنْدَنَا سِحْرًا مِثْلَ سِحْرِكَ، فَلَا يَغْرُبُكَ مَا أَنْتَ فِيهِ، ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أَيَّ يَوْمًا نَجْتَمِعُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِيهِ، فَتُعَارِضُ مَا جِئْتُ بِهِ بِمَا عِنْدَنَا مِنَ السِّحْرِ فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وَهُوَ يَوْمٌ عِيدُهُمْ [وَنُورُوزِهِمْ] وَتَفَرُّغُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَاجْتِمَاعِ جَمِيعِهِمْ، لِشَاهِدِ النَّاسِ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى مَا يَشَاءُ وَمُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَبُطْلَانِ مَعَارِضَةِ السِّحْرِ لِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ النَّبَوِيَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ﴾ أَيَّ جَمِيعُهُمْ ﴿ضَحَى﴾ أَيَّ ضَحْوَةٍ مِنَ النَّهَارِ، لِيَكُونَ أَظْهَرَ وَأَجْلَى وَأَبْيَنَ وَأَوْضَحَ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ، كُلُّ أَمْرِهِمْ بَيْنَ وَاضِحٍ لَيْسَ فِيهِ خَفَاءٌ وَلَا تَرْوِيجٌ، وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: لَيْلًا، وَلَكِنْ نَهَارًا ضَحَى. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ يَوْمَ الزَّيْنَةِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ^(١). وَقَالَ الشَّدِيدِيُّ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: كَانَ يَوْمَ عِيدِهِمْ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ يَوْمَ سُوقِهِمْ. وَلَا مُنَافَاةَ. (قُلْتُ): وَفِي مِثْلِهِ أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، كَمَا تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحِ^(٢).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾ مَسْتَوٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَا فِيهِ، لَا يَكُونُ [صَوْبًا] وَلَا شَيْءٌ يَتَعَبَّبُ

جَوَابِ ذَلِكَ: هُمْ وَإِنْ لَمْ يَبْعُدُوهُ فَإِنَّ عِلْمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَضْبُوطٌ عَلَيْهِمْ، وَسَجَّزِيهِمْ بِعَمَلِهِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ وَكِتَابُ [الْأَعْمَالِ] ﴿لَا يَصُدُّ رَيْبِي وَلَا يَنْسَى﴾ أَيَّ لَا يَشُدُّ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَقْوَتُهُ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ، وَلَا يَنْسَى شَيْئًا، يَصِفُ عِلْمَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ، وَأَنَّهُ لَا يَنْسَى شَيْئًا، تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، فَإِنَّ عِلْمَ الْمَخْلُوقِ يَعْتَرِيهِ نَقْصَانَانِ: أَحَدُهُمَا عَدَمُ الْإِحَاطَةِ بِالشَّيْءِ، وَالْآخَرُ نِسْيَانُهُ بَعْدَ عِلْمِهِ، فَتَزَهُ نَفْسُهُ عَنْ ذَلِكَ.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٥٦﴾ كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٧﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٥٩﴾

[اتِمَّةُ جَوَابِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ]

هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ مُوسَى فِيمَا وَصَفَ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ سَأَلَهُ فِرْعَوْنَ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿الَّذِي أَطْعَمَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ثُمَّ اغْتَرَضَ الْكَلَامَ بَيْنَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا) وَفِي قِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ ﴿مَهْدًا﴾ أَيَّ قَرَارًا تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا، وَتَقُومُونَ وَتَتَأَمُونَ عَلَيْهَا، وَتُسَافِرُونَ عَلَى ظَهْرِهَا ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أَيَّ جَعَلَ لَكُمْ طُرُقًا تَمْشُونَ فِي مَنَازِلِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١] ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ أَيَّ مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ مِنْ زُرُوعٍ وَتِمَارٍ، وَمِنْ حَامِضٍ وَحُلُوٍّ وَمُرٍّ وَسَائِرِ الْأَنْوَاعِ ﴿كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أَيَّ: شَيْءٍ لَطْعَامِكُمْ وَقَاحِكُمْ، وَشَيْءٍ لِأَنْعَامِكُمْ لِأَقْوَانِهَا خَضْرَاءَ وَيَبَسًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أَيَّ لِدَلَالَاتٍ وَحُجَجًا وَبَرَاهِينٍ ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَيَّ لِذَوِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أَيَّ مِنَ الْأَرْضِ مَبْدُوكُمْ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ آدَمَ مَخْلُوقٌ مِنْ تَرَابٍ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ أَيَّ وَإِلَيْهَا تَصِيرُونَ إِذَا مِتُّمْ وَبَلِيْتُمْ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾

[الأعراف: ٢٥].

الْبَيْتُ الْبَيْتُ

٣١٦

سُورَةُ طه

بَعْضُ ذَلِكَ عَنْ بَعْضٍ، مُسْتَوْحِينَ يُرَى (١). ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مِنْ آفَاتِي (٦١) فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا التَّجْوِي (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْعَلَى (٦٤)

[اجتماع الفريقين ودعوة موسى للسحرة]
يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولى، أي شرع في جمع السحرة من مدينتين مملكتيه، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيرًا نافيًا جدًا، كما قال تعالى: ﴿وقال فرعون اتقوني بكل سحر علي﴾ [يونس: ٧٩]

﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي اجتمع الناس ﴿ليفتت يوم معلوم﴾ وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واضطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمينه ويسرة، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئًا على عصاه ومعاه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صُفُوفًا، وهو يُحَرِّضُهُمْ وَيُحْتَنِمُهُمْ وَيُرْعَبُهُمْ فِي إِجَادَةِ عَمَلِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَتَمَتَّنُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُعَدُّهُمْ وَيُسَيِّمُهُمْ، يَقُولُونَ: ﴿أَيْنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا تحيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله ﴿فيسحيتكم بعذاب﴾ أي يهلككم بمعموية هلاكًا لا بقیة له ﴿وقد خاب من آفاتي﴾ (٦١) فتنازعوا أمرهم بينهم ﴿قيل معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وأسروا التجوى﴾ أي تناجوا فيما بينهم (قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ) وهذان لساحران) وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: ﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ﴾ وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه. والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون

موسى وهارون - ساحران عالمان، خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلا فرعون وجنوده، فينصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿ويذها بطريقكم المثلى﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتقردا بذلك وتمحصت لهما الرئاسة بها دونكم. وقال عبد الرحمن بن زيد: بطريقكم المثلى بالذي أنتم عليه. ﴿فاجمؤا كيدكم ثم آتوا صفا﴾ أي اجتمعوا كلكم صفا واحدا، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبتهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿وقد أفلح اليوم من أسعلا﴾ أي من آمن بالله، وأما نحن، فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرئاسة العظيمة.

[عَدَدُ السَّحَرَةِ]

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ السَّحَرَةُ سَبْعِينَ رَجُلًا، أَصْبَحُوا سَحَرَةً، وَأَمْسَوْا شُهَدَاءَ^(٢). رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ: لَمَّا خَرَّ السَّحَرَةُ سُجَّدًا، رُفِعَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهَا^(٣). قَالَ: وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَوْلُهُ: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قَالَ: رَأَوْا مَنَازِلَهُمْ تَبَيَّنَ لَهُمْ وَهُمْ فِي سُجُودِهِمْ. وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَالْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَرَّةَ^(٤).

﴿قَالَ ءَامَنْتُ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَادَنَّ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُطِيعُونَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصَقْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَلْقَى﴾^(٥) قَالُوا لَنْ نُؤَدِّكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ النَّيْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٦) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَلْقَى﴾^(٧)

[تَقَلَّبَ فِرْعَوْنُ عَلَى السَّحَرَةِ وَتَهْلِيدُهُ وَجَوَابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَعِنَادِهِ وَبَغْيِهِ وَمُكَابَرَتِهِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، حِينَ رَأَى مَا رَأَى مِنَ الْمُعْجَزَةِ الْبَاهِرَةِ وَالآيَةِ الْعَظِيمَةِ، وَرَأَى الَّذِينَ قَدِ اسْتَنْصَرَ بِهِمْ قَدْ آمَنُوا بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَغَلَبَ كُلَّ الْعَلْبِ، شَرَعَ فِي الْمُكَابَرَةِ وَالْبَهْتِ، وَعَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَسُلْطَانِيهِ فِي السَّحَرَةِ، فَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ وَقَالَ: ﴿ءَامَنْتُ لَكُمْ﴾ أَيَّ صَدَقْتُمُوهُ ﴿قَبْلَ أَنْ ءَادَنَّ لَكُمْ﴾ أَيَّ مَا أَمَرْتُمْ بِذَلِكَ وَأَفْتَيْتُمْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ - قَوْلًا يَعْلَمُ هُوَ وَالسَّحَرَةُ وَالنَّخْلُ كُلُّهُمْ أَنَّهُ بَهْتٌ وَكَذِبٌ - : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أَيَّ أَنْتُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمْ السِّحْرَ عَنْ مُوسَى، وَأَفْتَيْتُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُ عَلَيَّ وَعَلَى رَعِيَّتِي لِنُظْهُرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، ثُمَّ أَخَذَ يَهْدُدُهُمْ فَقَالَ: ﴿فَلَا تُطِيعُونَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصَقْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أَيَّ لَأَجْعَلَنَّكُمْ مِثْلَهُ، وَلَا أَفُتِّلَنَّكُمْ وَلَا شَهَرَتَنَّكُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٥).

وقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَلْقَى﴾ أَيَّ أَنْتُمْ تَقُولُونَ:

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾^(٦) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِئْتُمْ وَعَصِيْتُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّمَا نَسَعَى^(٧) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى^(٨) فَلَمَّا لَا تَخَفَ إِنْكَ أَنْتَ الْأَعْمَلُ^(٩) وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ لَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى^(١٠) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾^(١١)

[الْمُعَارَضَةُ وَعَلْبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحَرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السَّحَرَةِ حِينَ تَوَافَقُوا هُمُ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾ أَيَّ أَنْتَ أَوَّلًا ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾^(١٢) قَالَ بَلْ أَلْقُوا أَيَّ أَنْتُمْ أَوَّلًا لِيَتَرَى مَاذَا تَصْنَعُونَ مِنَ السِّحْرِ، وَيُظْهِرَ لِلنَّاسِ جَلِيلَتَهُ أَمْرِهِمْ ﴿فَإِذَا جِئْتُمْ وَعَصِيْتُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّمَا نَسَعَى﴾ وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى أَنَّهُمْ لَمَّا أَلْقُوا ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَاقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَحَرُوا عَيْنَ النَّاسِ وَأَسْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُو بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَإِذَا جِئْتُمْ وَعَصِيْتُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّمَا نَسَعَى﴾ وَكَانُوا جَمًّا غَفِيرًا وَجَمْعًا كَثِيرًا، فَأَلْقَى كُلُّ مِنْهُمْ عَصَا وَحَبْلًا، حَتَّى صَارَ الْوَادِي مَلَأَنَ حَيَاتٍ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أَيَّ خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتَنُوا بِسِحْرِهِمْ وَيَعْتَرُوا بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ أَنْ ﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يَعْنِي عَصَاكَ، فَإِذَا هِيَ ﴿لَلْقَفَ مَا صَنَعُوا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ بَيْنَنَا عَظِيمًا هَائِلًا ذَا قَوَائِمٍ وَعُنْتِي وَرَأْسٍ وَأَضْرَاسٍ، فَجَعَلَتْ تَتَّبِعُ تِلْكَ الْجِبَالَ وَالْعِصِيَّ، حَتَّى لَمْ تُبْقِ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا تَلَقَّفَتْهُ وَابْتَلَعَتْهُ، وَالسَّحَرَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى ذَلِكَ عِبَانًا جَهْرَةً نَهَارًا ضُحُوَّةً، فَقَامَتِ الْمُعْجَزَةُ وَأَنْصَحَ الْبُرْهَانُ، وَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ السِّحْرُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى﴾ فَلَمَّا عَايَنَ السَّحَرَةُ ذَلِكَ وَسَاهَدُوهُ، وَلَهُمْ خَبْرَةٌ يَفْنُونَ السِّحْرَ وَطُرُقَهُ وَوُجُوهُهُ، عَلِمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مُوسَى لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ وَالْحَيْلِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا إِلَّا الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَقَعُوا سُجَّدًا لِلَّهِ، وَقَالُوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٣) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدُ بْنُ عَمِيرٍ: كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ سَحَرَةً، وَفِي آخِرِ النَّهَارِ شُهَدَاءَ بَرَّةَ﴾^(١٤)

(١) الطبري: ٣٤٠/١٨ ٣٦/١٣ (٢) ابن أبي حاتم: ٧/

٢٤٢٨ (٣) ابن أبي حاتم ٢٤٢٨/٧ (٤) الطبري: ٣٣٤/١٨

(٥) الطبري: ٣٤/١٣

جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَفْضُنْ عَلَيْهِمْ فَيَسْؤُوا وَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦] وَقَالَ: ﴿وَتَجَنَّبْنَا الْآسْفَى﴾ (١) الَّذِي يَصَلُّ النَّارَ الْكُبْرَى ﴿٧٥﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿[الأعلى: ١١-١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَادَّأَ بِكَفَالِكِ لِيَقْضَى عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْرُومَاتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧] وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ أَنَا سٌ تُصِيبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ فَيَمِيتُهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا، أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ صَبَائِرَ صَبَائِرَ، فُبْتُوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَيْضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَبْتُونَ نَبَاتَ الْجَنَّةِ تَكُونُ فِي حَيْبِ السَّلْبِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بِالْبَلَادِيَةِ (٢). وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِهِ الصَّحِيحِ (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أَيِ وَمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ يَوْمَ الْمَعَادِ مُؤْمِنًا قَدْ صَدَّقَ صَمِيرَهُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أَيِ الْجَنَّةِ ذَاتِ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ، وَالْعُرْفِ الْأَمْنَاتِ، وَالْمَسَاكِينِ الطَّيِّبَاتِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْجَنَّةُ مِائَةٌ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ، وَالْعَرْشُ فَوْقَهَا، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ» (٤). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٥).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ فَوْقَهُمْ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْعَاظِرَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ - قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ: - «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رَجَالَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ» (٦). وَفِي السَّنَنِ: «وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَمَنْهُمُ وَأَنْعَمًا» (٧). وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ أَيِ إِقَامَةٍ، وَهِيَ بَدَلٌ مِنْ «الدَّرَجَاتِ الْعُلَى» ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيِ مَا كَيْسِينَ أَبَدًا ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أَيِ طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنْ

إِنِّي وَقَوِي عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ مَعَ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَلَى الْهُدَى، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَكُونُ لَهُ الْعَذَابُ وَيَبْقَى فِيهِ، فَلَمَّا صَالَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُمْ، هَانَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ«قَالُوا لَنْ نُؤْذِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ» أَيِ لَنْ نَخْتَارَكَ عَلَى مَا حَصَلَ لَنَا مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ، «وَالَّذِي فَطَرَنَا» يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْبَيِّنَاتِ، يَعْنُونَ لَا نَخْتَارَكَ عَلَى فَاطِرِنَا وَخَالِقِنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا مِنَ الْعَدَمِ، الْمُبْتَدِئِ خَلَقَنَا مِنَ الطِّينِ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَا أَنْتَ، «فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ» أَيِ فافْعَلْ مَا شِئْتَ، وَمَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ بِدُكَ، «إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» أَيِ إِنَّمَا لَكَ تَسَلُّطٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَهِيَ دَارُ الرِّوَالِ، وَنَحْنُ قَدْ رَغَبْنَا فِي دَارِ الْقَرَارِ «إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا» أَيِ مَا كَانَ مِنَّا مِنَ الْآثَامِ، خُصُوصًا «مَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ» لِتَعَارُضِ بِهِ آيَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمُعْجِزَةُ نَبِيِّهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قَالَ: أَخَذَ فِرْعَوْنُ أَرْبَعِينَ غُلَامًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَمَرَ أَنْ يُعَلِّمُوا السِّحْرَ بِالْقَمَرِ [مَا]، وَقَالَ: عَلِّمُوهُمْ تَعْلِيمًا لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَهُمْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى، وَهُمْ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: «أَمَّا رَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ» (١). وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْلَمَ (٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَيِ خَيْرٌ لَنَا مِنْكَ ﴿وَأَبْقَى﴾ أَيِ أَدْوَمُ ثَوَابًا مِمَّا كُنْتَ وَعَدْتَنَا وَمَتَيْتَنَا، وَالظَّاهِرُ أَنْ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - صَمَمَ عَلَى ذَلِكَ، وَفَعَلَهُ بِهِمْ رَحْمَةً لَهُمْ مِنَ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: أَضْبَحُوا سَحْرَةَ وَأَمْسُوا شُهَدَاءَ.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِيَهُ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ هُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

[وَعَظُ السَّحْرَةَ أَمَامَ فِرْعَوْنَ]

الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ مَا وَعَظَ بِهِ السَّحْرَةَ لِفِرْعَوْنَ، يُحَدِّثُونَهُ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ الدَّائِمِ السَّرْمَدِيِّ، وَيُرْعَبُونَهُ فِي ثَوَابِ الْأَبَدِيِّ الْمُحَلَّدِ، فَقَالُوا: «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا» أَيِ يَلْقَى اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ مُجْرِمٌ «فَإِنَّ لَهُ

(١) الدرر المنتور: ٥٨٧/٥ (٢) الطبري: ٣٤١/١٨ (٣) أحمد: ١١/٣ (٤) مسلم: ١٧٢/١، ١٧٣ (٥) أحمد: ٥/٣١٦ (٦) تحفة الأحوذى: ٢٣٨/٧ (٧) فتح الباري: ٦/٦٣٨ (٨) أبو داود: ٢٨٧/٤ وتحفة الأحوذى: ١٤١/١٠ وابن ماجه: ٣٧/١

الدَّسِّ وَالْخَبَثِ وَالشُّرْكِ، وَعَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَاتَّبَعَ الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَطَلَبَ.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَجُودُ. فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾﴾

[خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَمَرَ فِرْعَوْنَ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْرِى بِهِمْ فِي اللَّيْلِ، وَيَذْهَبَ بِهِمْ مِنْ قَبْضَةِ فِرْعَوْنَ، وَقَدْ بَسَطَ اللَّهُ هَذَا الْمَقَامَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكُرَيْمَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَضْبَحُوا وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِمِصْرَ لَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٍ، فَغَضِبَ فِرْعَوْنُ غَضَبًا شَدِيدًا، وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، أَيَّ مَنْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْجُنْدَ مِنْ بُلْدَانِهِ وَرَسَائِقِهِ، يَقُولُ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَرِذْمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَنْتُمْ لَنَا غَاطِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥]، ثُمَّ لَمَّا جُمِعَ جُنْدُهُ وَاسْتَوْسَقَ لَهُ حَيْشُهُ، سَاقَ فِي طَلَبِهِمْ ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَشَفِّعِينَ ﴿٥٦﴾ أَيَّ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانَ ﴿٥٧﴾ أَيَّ نَظَرَ كُلَّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ ﴿فَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢] وَوَقَفَ مُوسَى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ:

الْبَحْرَ أَمَامَهُمْ، وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ اضْرِبْ ﴿لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ فَضْرَبَ الْبَحْرَ بَعْضَاءً، وَقَالَ: انْفُلِقْ عَلَيَّ يَا بَدْنُ اللَّهِ، ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ أَيَّ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ الرِّيحَ عَلَى أَرْضِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ حَتَّى صَارَ يَبَسًا كَوَجْهِ الْأَرْضِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ أَيَّ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ يَعْنِي مِنَ الْبَحْرِ أَنْ يُعْرِقَ قَوْمَكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَجُودُ. فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾ أَيَّ الْبَحْرِ ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أَيَّ الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ، وَهَذَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَمْرِ الْمَعْرُوفِ الْمَشْهُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمَوْفِقَةَ آمَهُوٓا۟ ﴿٦١﴾ فَسَلَّمْنَا مَا عَشَى﴾ [النجم: ٥٤، ٥٣]

وَكَمَا تَقَدَّمَهُمْ فِرْعَوْنُ فَسَلَّمَ فِي الْيَمِّ فَأَصْلَهُمْ، وَمَا هَدَاهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، كَذَلِكَ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجِنتِكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٦٢﴾ كَلُوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا

بِالْبَحْرِ يَبَسًا

٣١٧

الْبَحْرِ يَبَسًا

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَجُودُ. فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجِنتِكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾ كَلُوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَعَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعَجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدَّ أَحْسَنًا أَطْفَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدَ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَتْهَا فَمَا كُنَّا نَدْرِكُهَا لَنَا لَمَّا خَلَفْنَا

تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾

[تَذْكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِظَامَ وَمِثْنَهُ الْجِسَامَ، حَيْثُ أَنْجَاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ، وَأَقْرَأَ أَعْيُنَهُمْ مِنْهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى جُنْدِهِ، قَدْ عَرَفُوا فِي صَبِيحَةِ وَاحِدَةٍ، لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَاعْرِفْنَا عَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَجَدَ الْيَهُودَ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي أَظْفَرَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ: «لَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى فَصُومُوهُ»^(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا فِي صَحِيحِهِ^(٢).

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى وَعَدَّ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ

(١) فتح الباري: ٢٨٨/٨ (٢) مسلم: ١/٧٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٨

تَبَارَكَ الَّذِي

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا آلِهَةً، خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَانِيعُوا فَلِيطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَأْمَنَكَ إِذْ أَرَأَيْتُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُونَ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَومُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلَفَهُ، وَإِنَّا نَظُرُ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

أَجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُم آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿٩٨﴾ إِنَّ هَذِهِ آيَاتٌ مُتَّبِعَةٌ مَا فِيهَا مِنْ نِعْمَةٍ وَلَا نُفْلِحُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ وَوَعَدَهُ رَبُّهُ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَنْبَأَهَا لَهُ [عَشْرًا، فَتَمَّتْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، أُنِي يَصُومُهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، فَسَارَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَادِرًا إِلَى الطُّورِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوسَىٰ﴾ ﴿١٠٠﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي ﴿١٠١﴾ أُنِي قَادِمُونَ يَنْزِلُونَ قَرِيبًا مِنَ الطُّورِ ﴿١٠٢﴾ وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿١٠٣﴾ أُنِي لَتَزْدَادُ عَنِّي رِضًا ﴿١٠٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿١٠٥﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُوسَى بِمَا كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْحَدِيثِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ الَّذِي عَمِلَهُ لَهُمْ ذَلِكَ السَّامِرِيُّ.

وَكَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْأَلْوَابِ الْمُتَضَمِّنَةَ لِلتَّوْرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ

تَعَالَى عَلَيْهِ، وَسَأَلَ فِيهِ الرُّؤْيَا، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ هُنَالِكَ، وَفِي غُضُونِ ذَلِكَ عَبْدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ كَمَا يَقُصُّهُ اللَّهُ تَعَالَى قَرِيبًا، وَأَمَّا الْمَنْ وَالسَّلْوَى فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهَا، فَالْمَنْ حَلْوَى كَانَتْ تَنْزُلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ، وَالسَّلْوَى طَائِرٌ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ. فَيَأْخُذُونَ مِنْ كُلِّ قَدْرٍ الْحَاجَةَ إِلَى الْعَيْدِ، لُطْفًا مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً بِهِمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أُنِي كُلُّوا مِنْ هَذَا الرِّزْقِ الَّذِي رَزَقْنَاكُمْ، وَلَا تَطْغَوْا فِي رِزْقِي فَتَأْخُذْهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَتَخَالِفُوا مَا أَمَرْنَاكُمْ بِهِ ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أُنِي أَغْضَبُ عَلَيْكُمْ ﴿وَمَنْ يَحِلِّدْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أُنِي قَدْ شَقِيْتُ ﴿١﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أُنِي كُلُّ مَنْ تَابَ إِلَيَّ، ثُبْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُنِي ذَنْبٌ كَانَ، حَتَّىٰ إِنَّهُ تَعَالَى تَابَ عَلَىٰ مَنْ عَبْدَ الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَابَ﴾ أُنِي رَجَعَ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شِرْكَ أَوْ مَعْصِيَةٍ أَوْ نِفَاقٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمِنَ﴾ أُنِي بَقَلْبِي. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أُنِي بِجَوَارِحِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَىٰ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أُنِي ثُمَّ لَمْ يَسْكُكْ ﴿٢﴾. وَقَالَ قَتَادَةُ ﴿ثُمَّ أَهْتَدَىٰ﴾ أُنِي لَزِمَ الْإِسْلَامَ حَتَّىٰ يَمُوتَ. ﴿ثُمَّ﴾ هَهُنَا لِتَرْتِيبِ الْخَيْرِ عَلَى الْخَيْرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصِّدْقِ وَوَوَّاصُوا بِالْمِرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوسَىٰ﴾ ﴿١٠٠﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿١٠١﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿١٠٢﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿١٠٣﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ وَمَلَكْنَا وَلَكِنَّا جَمَلْنَا أَوْارًا مِنْ رَبِّهِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَهَا فَكَذَلِكَ أَلْفَى السَّامِرِيُّ ﴿١٠٤﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿١٠٥﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿١٠٦﴾

[ذَهَابُ مُوسَىٰ إِلَى مَوْعِدِ اللَّهِ وَوُقُوعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ]

لَمَّا سَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿فَاتَوًّا عَلَى قَوْمٍ يَكْفُرُونَ عَلَىٰ أَصْنَابِهِمْ قَالُوا يَمْوسَىٰ

يَأْخُذُوا بِأَحْسَنهَا سَأْوِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ [الأعراف: ١٤٥] أَي عَاقِبَةُ الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَتِي الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِي.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَرَجَّ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أَي بَعْدَ مَا أَخْبَرَهُ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ، فِي غَايَةِ الْعُزْبِ وَالْحَتَّىٰ عَلَيْهِمْ - هُوَ فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْإِعْتِنَاءِ بِأَمْرِهِمْ، وَتَسَلَّمَ التَّوْرَةَ الَّتِي فِيهَا شَرِيْعَتُهُمْ، وَفِيهَا شَرَفٌ لَهُمْ، وَهُمْ قَوْمٌ قَدْ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، مَا يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ لَهُ لُبٌّ وَحَزَمٌ - يُطْلَانُ مَا هُمْ فِيهِ وَسَخَافَةٌ عَقُولُهُمْ وَأَذْهَابُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: رَجَعَ إِلَيْهِمْ ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ وَالْأَسْفُ شِدَّةُ الْعُزْبِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أَي جَزَعًا ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أَسَفًا حَزِينًا عَلَىٰ مَا صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ ^(٢). ﴿قَالَ يَقْوَمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدًّا حَسَسًا﴾ أَي أَمَا وَعَدْتُمْ عَلَىٰ لِسَانِي كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحَسَنَ الْعَاقِبَةِ، كَمَا شَاهَدْتُمْ مِنْ نُصْرَتِي إِيَّاكُمْ عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ وَإِظْهَارِكُمْ عَلَيْهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَيَادِي اللَّهِ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أَي فِي انْتِظَارِ مَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ، وَبَيَانَ مَا سَلَفَ مِنْ نِعَمِهِ وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ، ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَمْ هَهُنَا بِمَعْنَى بَلٍّ، وَهِيَ لِلْإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ وَعُدُولِ إِلَى الثَّانِي، كَأَنَّهُ يَقُولُ: بَلْ أَرَدْتُمْ بِصِنْعِكُمْ هَذَا أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي، ﴿قَالُوا﴾ أَي بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي جَوَابِ مَا أَتَيْهِمْ مُوسَىٰ وَقَرَعَهُمْ ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ أَي عَنِ قُدْرَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا، ثُمَّ شَرَعُوا يَعْتَذِرُونَ بِالْعُدْرِ الْبَارِدِ، يُخْبِرُونَهُ عَنْ تَوَرَّعِهِمْ عَمَّا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ حُلِيِّ الْقَبْطِ الَّذِي كَانُوا قَدْ اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ، حِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ، ﴿فَقَدَفْنَاهَا﴾ أَي أَلْقَيْنَاهَا عَنَّا.

وَفِي رِوَايَةِ السُّدِّيِّ عَنِ أَبِي مَالِكٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا أَرَادَ هَارُونَ أَنْ يَجْتَمَعَ الْحُلِيِّ كُلُّهُ فِي تِلْكَ الْحَفِيرَةِ، وَيَجْعَلَ حَجْرًا وَاحِدًا، حَتَّىٰ إِذَا رَجَعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَأَىٰ فِيهِ مَا يَسَاءُ، ثُمَّ جَاءَ ذَلِكَ السَّامِرِيُّ فَأَلْفَىٰ عَلَيْهَا تِلْكَ الْقَبْضَةَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ، وَسَأَلَ مِنْ هَارُونَ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ فِي دَعْوَتِهِ، فَدَعَا لَهُ هَارُونَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا يُرِيدُ. فَأُجِيبَ لَهُ، فَقَالَ السَّامِرِيُّ عِنْدَ ذَلِكَ: أَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ عِجْلًا، فَكَانَ عِجْلًا لَهُ حَوَارٌّ - أَي صَوْتٌ - اسْتِذْرَاجًا، وَإِمَهَالًا وَمِوَحْنَةً وَاخْتِيَارًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْفَىٰ السَّامِرِيُّ ﴿١٤٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ حَوَارٌّ﴾ ^(٣).

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ قَالَ: فَعَكَفُوا عَلَيْهِ وَأَحْبَبُوهُ حُبًّا لَمْ يُحِبُّوا شَيْئًا قَطُّ يَعْنِي مِثْلَهُ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿فَنَسِيَ﴾ أَي تَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ يَعْنِي السَّامِرِيُّ ^(٤). قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ رَدًّا عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ، وَيَبَانًا لِفُضِيحَتِهِمْ، وَسَخَافَةَ عَقُولِهِمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَي الْعِجْلُ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُمْ إِذَا سَأَلُوهُ وَلَا إِذَا خَاطَبُوهُ، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أَي فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا فِي أُخْرَاهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ حَوَارُّهُ إِلَّا أَنْ يَدْخُلَ الرِّيحُ فِي دُبُرِهِ، فَيَخْرُجُ مِنْ فِيهِ فَيَسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ ^(٥). وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّ هَذَا الْعِجْلَ اسْمُهُ بُهْمُوتٌ ^(٦). وَحَاصِلُ مَا اعْتَدَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنِ زِينَةِ الْقَبْطِ، فَأَلْفَوْهَا عَنْهُمْ وَعَبَدُوا الْعِجْلَ، فَتَوَرَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَفَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَأَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَنْ دَمِ الْبُعُوضِ إِذَا أَصَابَ الثُّوبَ، يَعْنِي هَلْ يُصَلِّي فِيهِ أَمْ لَا؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: انظُرُوا إِلَىٰ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَتَلَّوْا ابْنَ بَنِي رَسُولِ اللَّهِ، يَعْنِي الْحُسَيْنَ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ عَنِ دَمِ الْبُعُوضِ ^(٧).

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقْوَمِ إِنَّمَا قِينْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٤٨﴾﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عَكِيفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿١٤٩﴾﴾

[نَهَىٰ هَارُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ،

وَإِضْرَارُهُمْ عَلَيْهَا]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا كَانَ مِنْ نَهْيِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ عَنِ عِبَادَتِهِمْ الْعِجْلَ، وَإِخْبَارِهِ إِيَّاهُمْ: أَنَّمَا هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ الْفَعَّالِ لَمَّا يُرِيدُ ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أَي فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَاتْرُكُوا مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عَكِيفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أَي لَا نَتْرُكُ عِبَادَتَهُ حَتَّىٰ نَسْمَعَ

(١) الطبري: ٣٥٠/١٨ (٢) الطبري: ٣٥٠/١٨ (٣) النسائي في الكبرى: ٣٩٦/٦ (٤) تاريخ الطبري: ٤٢٢/١ والطبري: ٣٥٠/١٨ إسناده ضعيف فيه تدليس ابن إسحاق ولم يصرح (٥) تاريخ الطبري: ٤٢٥، ٤٢٤/١ (٦) النسائي في الكبرى: ٦/٣٩٦ فتح الباري: ٤٤٠/١٠

كَلَامَ مُوسَى فِيهِ، وَخَالَفُوا هَارُونَ فِي ذَلِكَ وَحَارَبُوهُ وَكَادُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ.

﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعْتِ أَفْعَصَيْتِ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾

[مَا حَصَلَ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ بَعْدَمَا رَجَعَ مُوسَى]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَرَأَى مَا قَدْ حَدَثَ فِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، فَامْتَلَأَ عِنْدَ ذَلِكَ غَضَبًا، وَأَلْقَى مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ الْأَلْوِاحِ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ بَجْرُهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بَسْطَ ذَلِكَ، وَذَكَرْنَا هُنَا حَدِيثَ: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمَعَابِيَةِ»^(١). وَشَرَحَ يَلُومُ أَخَاهُ هَارُونَ، فَقَالَ: «مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعْتِ ﴿٩٣﴾ أَيُّ فَتْحِخْرِي بِهِذَا الْأَمْرِ أَوَّلَ مَا وَقَعَ ﴿أَفْعَصَيْتِ أَمْرِي﴾ أَيُّ فِيمَا كُنْتَ قَدَّمْتَ إِلَيْكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَتْلَفْتَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ تَرَفَّقَ لَهُ بِذِكْرِ الْأُمِّ مَعَ أَنَّهُ شَقِيقُهُ لِأَبَوَيْهِ، لِأَنَّ ذِكْرَ الْأُمِّ هَهُنَا أَرْقُ وَأَبْلَغُ فِي الْحَنُوِّ وَالْعَطْفِ، وَلِهَذَا قَالَ: «يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي» الْآيَةِ، هَذَا اعْتِدَارٌ مِنْ هَارُونَ عِنْدَ مُوسَى فِي سَبَبِ تَأْخِرِهِ عَنْهُ حَيْثُ لَمْ يَلْحَقْهُ فَيُخْبِرُهُ بِمَا كَانَ مِنْ هَذَا الْخَطْبِ الْجَسِيمِ، قَالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إِنْ أَتَيْتُكَ فَأُخْبِرِكَ بِهِذَا، فَتَقُولُ لِي لِمَ تَرَكْتَهُمْ وَخَدَهُمْ وَفَرَّقْتَ بَيْنَهُمْ ﴿وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي﴾ أَيُّ وَمَا رَاعَيْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ حَيْثُ اسْتَخْلَفْتُكَ فِيهِمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ هَارُونَ هَائِبًا مُطِيعًا لَهُ^(٢).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ بِسَمْرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ. فَفَبَضَّتْ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَمَدَّتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ قَالَ فَادَّهَبَ فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِمًا لَنْفَرَقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّ فِي الْأَرْضِ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ إِنَّكَ إِلَى إِلَهِكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

[كَيْفَ نَحَتَ السَّامِرِيُّ الْعِجْلَ؟]

يَقُولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْسَّامِرِيِّ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ وَمَا الَّذِي عَرَضَ لَكَ حَتَّى فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ السَّامِرِيُّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ «بَاجِرْمَا»، وَكَانَ مِنْ قَوْمِ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ، وَكَانَ حُبَّ عِبَادَةِ الْبَقْرِ فِي نَفْسِهِ، وَكَانَ قَدْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ مَعَ بَنِي

إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ اسْمُهُ: مُوسَى بْنُ ظَفَرٍ^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ مِنْ قَوِيَّةِ سَامِرًا^(٤). ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أَيُّ رَأَيْتُ جَبْرِيْلَ حِينَ جَاءَ لِهَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿فَبَضَّتْ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أَيُّ مِنْ أَثَرِ فِرْعَوْنِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَوْ أَكْثَرِهِمْ.

﴿قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَبَضَّتْ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قَالَ: مِنْ تَحْتِ حَافِرِ فِرْسِ جَبْرِيْلَ^(٥). قَالَ: وَالْقَبْضَةُ يَلْءُ الْكَفِّ، وَالْقَبْضَةُ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: نَبَذَ السَّامِرِيُّ، أَيُّ أَلْقَى مَا كَانَ فِي يَدِهِ عَلَى حِلْيَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَانْسَبَكَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ - حَفِيفُ الرِّيحِ فِيهِ فَهُوَ خُوَارُهُ^(٦). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَبَضَّتُهَا﴾ أَيُّ أَلْقَيْتُهَا مَعَ مَنْ أَلْقَى ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أَيُّ حَسَنَتْهُ وَأَعْجَبَهَا إِذْ ذَاكَ.

[عِقَابُ السَّامِرِيِّ وَتَحْرِيقُ الْعِجْلِ]

﴿قَالَ فَادَّهَبَ فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ﴾ أَيُّ كَمَا أَخَذْتَ وَمَسِسْتَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ أَخْذُهُ، وَمَسَّهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَعُقُوبَتُكَ فِي الدُّنْيَا ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ﴾ أَيُّ لَا تَمَسَّ النَّاسَ وَلَا يَمَسُونَكَ ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أَيُّ لَا مَجِيدَ لَكَ عَنْهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ﴾ قَالَ: عُقُوبَةٌ لَهُمْ، وَبَقَايَاهُمْ الْيَوْمَ يَقُولُونَ: لَا مَسَاسَ.

﴿قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَأَبُو نَهْيَةَ: لَنْ تَعِيبَ عَنْهُ^(٧). وَقَوْلُهُ: ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ أَيُّ مَعْبُودِكَ ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِمًا﴾ أَيُّ أَقَمْتَ عَلَى عِبَادَتِهِ، يَعْنِي الْعِجْلَ.

﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ إِلَى إِلَهِكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يَقُولُ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَيْسَ هَذَا إِلَهِكُمْ، إِنَّمَا إِلَهِكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا تَتَّبِعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَعِيرٌ إِلَيْهِ عَبْدٌ لَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ، أَيُّ هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿عَاكِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَاحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، ﴿فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبا: ٣] ﴿وَمَا تَسْغُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي

(١) أحمد: ٢٧١/١ (٢) الطبري: ٣٥٩/١٨ (٣) تاريخ الطبري: ٤٢٤/١ (٤) الطبري: ٣٦٣/١٨ (٥) الطبري: ١٨/٣٦٢ (٦) الطبري: ٣٦٢/١٨ (٧) الطبري: ٣٦٤/١٨

ظَلَمْتِ الْأَرْضَ وَلَا رَظِي وَلَا يَابِسَ إِلَّا فِي كِتَابِ مُبِينٍ ﴿١٠٤﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابِ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٠١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٢﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠٣﴾﴾

[القرآن ذكّر الله الجامع وبيان عقوبة من أعرض عنه] يقول تعالى لبيبي محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجليّة والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت، من غير زيادٍ ولا نقص، هذا ﴿وقد آتيناك من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿ذكرًا﴾ وهو القرآن العظيم الذي ﴿لا يأتيه البطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ تنزيل من حكيم حميد [فصلت: ٤٢] الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ كتابًا مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفضل بين الناس منه.

ولهذا قال تعالى: ﴿من أعرض عنه﴾ أي كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء السبيل، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة ويزرًا﴾ أي إنما، كما قال تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ [هود: ١٧] وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: ﴿لا تدركهم به ومن بلغ﴾ [الأنعام: ١٩] فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه، ضلّ وسقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة ويزرًا﴾ ﴿خلدين فيه﴾ أي لا موجد لهم عنه ولا انفكاك ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي ينس الحمل حملهم.

﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا ﴿١٠٦﴾ يتخفتون بينهم إن لنتم إلا عسرًا ﴿١٠٧﴾ نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لنتم إلا يومًا ﴿١٠٨﴾﴾

[نفض الصور ويوم القيامة]

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: ﴿قرن ينفخ فيه﴾^(١). وقد جاء في حديث الصور من

بَيْنَ ظَلَمَاتٍ

٣١٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٠١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٢﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا ﴿١٠٤﴾ يتخفتون بينهم إن لنتم إلا عسرًا ﴿١٠٥﴾ نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لنتم إلا يومًا ﴿١٠٦﴾ وستلوناك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴿١٠٧﴾ فيذرها قاعاً صافصفاً ﴿١٠٨﴾ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴿١٠٩﴾ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴿١١٠﴾ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له، قولا ﴿١١١﴾ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به، علماً ﴿١١٢﴾ وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴿١١٣﴾ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴿١١٤﴾ وكذلك أنزلناه قرءاً أنا عربياً وصرفناه من الوجد لعلمهم يقون أو يحدث لهم ذكرًا ﴿١١٥﴾﴾

رواية أبي هريرة أنه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرائيلي عليه السلام^(٢). وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التئم القرن، وحتى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يا رسول الله، كيف تقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٣). وقوله: ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا﴾ قيل: معناه: زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال ﴿يتخفتون بينهم﴾ قال ابن عباس: يتسارون بينهم^(٤). أي يقول بعضهم لبعض: «إن لنتم إلا عسرًا﴾ أي في الدار الدنيا، لقد كان لبئكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها، قال الله تعالى: ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ أي في حال تتاجهم بينهم إذ يقول أمثلهم طريقة ﴿أي العاقل الكامل فيهم﴾ إن لنتم إلا يومًا ﴿أي يقصر مدة الدنيا في أنفسهم

(١) تحفة الأحوذى: ١١٦/٩ (٢) الطبراني في الطوال: ٣٦

(٣) تحفة الأحوذى: ١١٧/٩ (٤) الطبري: ٣٧١/١٨

إِلَى الدَّاعِ ﴿٨﴾ [الفرس: ٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَسَمَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَكَتَتْ^(٢). وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ: ﴿فَلَا سَمِعَ إِلَّا هَمْسًا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُعْنِي وَطْءَ الْأَقْدَامِ^(٣). وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ^(٤). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَلَا سَمِعَ إِلَّا هَمْسًا﴾ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ^(٥). وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالضَّحَّاكِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿فَلَا سَمِعَ إِلَّا هَمْسًا﴾ الْحَدِيثَ وَسِرَّهُ، وَوَطْءَ الْأَقْدَامِ.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ

قَوْلًا﴾ ﴿١٦٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ.

عَلِمًا ﴿١٧٠﴾ ﴿١٧١﴾ وَعَسَتْ أَوُجُوهٌ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٧٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْتِرٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا

وَلَا هَضْمًا ﴿١٧٣﴾

[الشَّفَاعَةُ وَالْجَزَاءُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَيُّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ﴾ أَيُّ عِنْدَهُ ﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ مِنْ تَلَكِّ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] وَقَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

[الأنبياء: ٢٨] وَقَالَ: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَى لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وَقَالَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٢٨]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ

آدَمَ، وَأَكْرَمُ الْخَلَائِقِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَيْتُ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَأَخْبَرْتُ اللَّهَ سَاجِدًا، وَبَفَتْحِ عَلَيَّ بِمَحَامِدِ لَا أُحْصِيهَا الْآنَ، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ أَنْ يَدْعُنِي، ثُمَّ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَيُحَدِّثُ لِي حَدًّا، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ»^(٦) فَذَكَرَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ،

صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ. وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: «يَقُولُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ

السَّلَفِ^(١).

يَوْمَ الْمَعَادِ، لِأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَإِنْ تَكَرَّرَتْ أَوْ قَانَتْهَا وَتَعَايَبَتْ لَيَالِيهَا وَأَيَّامُهَا وَسَاعَاتُهَا، كَأَنَّهَا يَوْمٌ وَاحِدٌ، وَلِهَذَا يَسْتَقْصِرُ الْكَافِرُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ عَرْضُهُمْ فِي ذَلِكَ ذَرْءَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لِقِصْرِ الْمُدَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِسْتُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَلَكِنَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْلَيْتُمْ نِعْمَتَكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾... الْآيَةَ [فاطر: ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عِدَّةٌ سِنِينَ﴾ ﴿١٧٤﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَلِ الْعَادِينَ ﴿١٧٥﴾ قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [المؤمنون: ١١٢-١١٤] أَيْ إِنَّمَا كَانَ لِبُنْيُنِكُمْ فِيهَا قَلِيلًا، لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لَا تَزِرُكُمْ الْبَاقِي عَلَى الْفَاقِي، وَلَكِنْ تَصَرَّفْتُمْ فَاسَأْتُمْ التَّصَرُّفَ، قَدَّمْتُمْ الْحَاضِرَ الْفَاقِي عَلَى الدَّائِمِ الْبَاقِي.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٧٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا

صَفْصَفًا ﴿١٧٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ

الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا

هَمْسًا ﴿١٧٨﴾

[تَنْسِفُ الْجِبَالَ وَتُصَيِّرُ الْأَرْضَ قَاعًا صَفْصَفًا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أَيُّ هَلْ تَبْقَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ تَزُولُ؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أَيُّ يَذْهَبُهَا عَنْ أَمَاكِنِهَا وَيَمْحَقُهَا وَيُسَيِّرُهَا تَسْيِيرًا ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أَيُّ الْأَرْضِ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أَيُّ بِسَاطًا وَاحِدًا، وَالْقَاعُ هُوَ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ، وَالصَّفْصَفُ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى ذَلِكَ، وَقِيلَ: الَّذِي لَا نَبَاتَ فِيهِ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، وَإِنْ كَانَ الْآخِرُ مُرَادًا أَيْضًا بِاللَّازِمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أَيُّ لَا تَرَى فِي الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ وَادِيًا وَلَا رَابِيَةً وَلَا مَكَانًا مُنْخَفِضًا وَلَا مُرْتَفِعًا، كَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ^(١).

[يَسْعَى النَّاسُ لَصَوْتِ الدَّاعِي]

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أَيُّ يَوْمَ يَرَوْنَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ وَالْأَهْوَالَ يَسْتَجِيبُونَ مُسَارِعِينَ إِلَى الدَّاعِي حَيْثُمَا أَمَرُوا بِأَدْرُوهُ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ أَنْفَعَ لَهُمْ وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَتَّبِعُ يَوْمَ وَأَبْصُرُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] وَقَالَ: ﴿مُهْطِعِينَ

(١) الطبري: ٣٧٢/١٨ والدر المنثور: ٥٩٨/٥ و٥٩٩ (٢)

الطبري: ٣٧٤/١٨ (٣) الطبري: ٣٧٤/١٨ (٤) الطبري:

٣٧٥/١٨ (٥) الطبري: ٣٧٥/١٨ (٦) فتح الباري: ٢٤٧/٨

ومسلم: ١٨٤/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢٠

سُورَةُ طه

فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٣﴾ وَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٥﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٦﴾ إِنَّ لَكَ الْأَجْمُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ﴿١١٧﴾ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٨﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَتُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَآبِلًا ﴿١١٩﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢١﴾ قَالَ أَهْطَأَ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ فَاتَّبِعُوا هُدَى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٣﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٤﴾

فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ: أَخْرَجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِصْفٌ مِثْقَالٍ مِنْ إِيْمَانٍ، أَخْرَجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَرُونَ ذَرَّةً، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى أَوْ أَذْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ... الْحَدِيثُ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿يَمَلِّمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَيُّ يُحِيطُ عِلْمًا بِالْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ عِلْمًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَسَى الْوَجُوهَ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: خَصَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَسَلَمَتْ الْخَلَائِقُ لِجَبَّارِهَا الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، الْقَيُّومُ الَّذِي لَا يَنَامُ^(٢). وَهُوَ قِيمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يُدَبِّرُهُ وَيَحْفَظُهُ، فَهُوَ الْكَامِلُ فِي نَفْسِهِ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ فَاقِرٌ إِلَيْهِ، لَا قِيَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي كُلَّ حَقٍّ إِلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يُقْتَصَرَ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يُجَاوِزُنِي الْيَوْمَ ظُلْمٌ ظَالِمٍ» وَفِي الصَّحِيحِ: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلَمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣)، وَالْخَبِيَّةُ كُلُّ الْخَبِيَّةِ مِنْ لَيْمِي اللَّهِ وَهُوَ بِهِ مُشْرِكٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَمَلِّمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لَمَّا ذَكَرَ الظَّالِمِينَ وَوَعِيدَهُمْ، نَتَى بِالْمُتَمَيِّنِّ وَحُكْمِهِمْ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يَطْلُمُونَ وَلَا يُهَضَمُونَ، أَيُّ لَا يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يُقْتَصَرُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٤). فَالظُّلْمُ الزِّيَادَةُ، بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ غَيْرُهُ، وَالْهَضْمُ النِّقْصُ.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٣﴾ فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

[أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِتَتَّقِي النَّاسَ وَتَذَكَّرُوا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَاقِعًا لَا مَحَالَهَ، أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ فَصِيحٍ لَا لُبْسَ فِيهِ وَلَا عَيْيٍ ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيُّ يَتْرُكُونَ الْمَأْتِمَ وَالْمَحَارِمَ

وَالْفَوَاحِشَ ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وَهُوَ إِجَادُ الطَّاعَةِ وَفِعْلُ الْقُرْبَاتِ ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ﴾ أَيُّ نَتَزَهُ وَنَقَدَسَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ حَقٌّ وَوَعْدُهُ حَقٌّ، وَوَعِيدُهُ حَقٌّ، وَرَسُولُهُ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ حَقٌّ، وَعَدْدُهُ تَعَالَى: أَنْ لَا يُعَذَّبَ أَحَدًا قَبْلَ الْإِنْذَارِ وَبَعْدَهُ الرُّسُلِ، وَالْإِعْذَارِ إِلَى خَلْقِهِ لَيْلًا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبُهَةٌ.

[أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ عِنْدَ النَّزُولِ دُونَ

الِاسْتِعْجَالِ لِقِرَاءَتِهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ: ﴿لَا تُخْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَآتِنَا قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿[القيامة: ١٦-١٩] وَتَبَّتْ فِي

(١) فتح الباري: ٤٨١/١٣ (٢) الطبري: ٣٧٨، ٣٧٧/١٨ (٣) مسلم: ١٩٩٦/٤ (٤) الطبري: ٣٧٩/١٨، ٣٨٠

فِي طَلَبِ رِزْقِكَ، فَإِنَّكَ هَهُنَا فِي عَيْشِ رَعِيدٍ هَنِيءٍ بِلَا كُفْلَةٍ وَلَا مَشَقَّةٍ ﴿١١٦﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٧﴾ إِنَّمَا قَرْنَ بَيْنَ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ، لِأَنَّ الْجُوعَ ذُلُّ الْبَاطِنِ، وَالْعُرْيُ ذُلُّ الظَّاهِرِ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ وَهَذَانِ أَيْضًا مُتَقَابِلَانِ، فَالظَّمَأُ حَرُّ الْبَاطِنِ وَهُوَ الْعَطْشُ، وَالصَّحَى حَرُّ الظَّاهِرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادَمُ هَلْ أَتُوكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلِكَ لِيَ يَلَىٰ﴾ ﴿١١٨﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ ذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَهْدَ إِلَى آدَمَ وَرَوْجِهِ أَنْ يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ الثَّمَارِ وَلَا يَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ الْمُعَيَّنَةَ فِي الْجَنَّةِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِمَا إِبْلِيسُ حَتَّى أَكَلَا مِنْهَا. وَكَانَتْ شَجَرَةَ الْخُلْدِ، يَعْنِي النَّبِيَّ مَنْ أَكَلَ مِنْهَا خَلَدَ وَدَامَ مُكْتَهُ. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ شَجَرَةِ الْخُلْدِ، فَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّبَالِسِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّابِطُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا، وَهِيَ شَجَرَةُ الْخُلْدِ»^(٥) وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهَا سُوءُ نَهْمَهَا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طَوَالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِيَأْسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَأَ مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَسْتَشُدُّ فِي الْجَنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةٌ فَتَارَعَهَا، فَتَادَاهُ الرَّحْمَنُ: يَا آدَمُ مِنِّي تَبَيَّرُ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ لَا، وَلَكِنْ اسْتَحْيَاءٌ، أَرَأَيْتَ إِنْ تَبَّتُ وَرَجَعْتُ أَعَانِدِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ»^(٧). فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وَهَذَا مُنْقَطِعٌ بَيْنَ الْحَسَنِ وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ، فَلَمْ يَسْمَعْهُ مِنْهُ، وَفِي رَفْعِهِ نَظَرٌ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَطَافَا بِحِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] قَالَ مُجَاهِدٌ: يَرَفَعَانِ كَهَيْئَةِ الثَّوْبِ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ^(٨). وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ

الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَالِجُ مِنَ الْوَحْيِ شِدَّةً، فَكَانَ مِمَّا يُحْرِكُ بِهِ لِسَانَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(١) يَعْنِي أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، كُلَّمَا قَالَ جِبْرِيلُ آيَةً قَالَهَا مَعَهُ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ، فَأَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا هُوَ الْأَسْهَلُ وَالْأَخْفُ فِي حَقِّهِ لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعَجَلَ بِهِ﴾ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿[القيامة: ١٦، ١٧] أَيْ أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ، ثُمَّ تَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْسَى مِنْهُ شَيْئًا﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْمِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿[القيامة: ١٨، ١٩] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَعَجَلَ بِالْقُرْآنِ مِنَ قَبْلِ أَنْ يُفْضَلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أَيْ بَلْ أَنْصِتْ، فَإِذَا قَرَعَ الْمَلَكُ مِنْ قِرَائَتِهِ عَلَيْكَ فَاقْرَأْهُ بَعْدَهُ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أَيْ زِدْنِي مِنْكَ عِلْمًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَمْ يَزَلْ ﷺ فِي زِيَادَةِ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يجدْ لَهُ عِزْمًا﴾ ﴿١٢٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٢٣﴾ فَلَمَّا يَتَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرِوَجِكَ فَلَا تُحْرَجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ﴿١٢٤﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٢٥﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٢٦﴾ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادَمُ هَلْ أَتُوكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلِكَ لِيَ يَلَىٰ ﴿١٢٧﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهَا سُوءُ نَهْمَهَا وَطَافَا بِحِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢٨﴾ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٩﴾

[قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ عَهْدَ إِلَيْهِ فَتَسَى^(٢). وَكَذَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: تَرَكَ^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى تَشْرِيفَ آدَمَ، وَتَكْرِيمَهُ وَمَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَفِي الْأَعْرَافِ وَفِي الْحَجْرِ وَالْكَهْفِ، وَسَيَاتِي فِي آخِرِ سُورَةِ ﴿ص﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى فِيهَا خَلْقَ آدَمَ وَأَمْرَهُ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا، وَبَيِّنُ عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِبَنِي آدَمَ وَلِإِبْهِيمَ قَدِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أَيْ امْتَنَعَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿فَلَمَّا يَتَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرِوَجِكَ﴾ يَعْنِي حَوَاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿فَلَا تُحْرَجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى﴾ أَيْ إِتَاكَ أَنْ [يَسْعَى] فِي إِخْرَاجِكَ مِنْهَا فَتَتَعَبَ وَتَتَعَى وَتَشْفَى

(١) فتح الباري: ١/٣٩ (٢) الطبري: ١٨/٣٨٣ (٣) الطبري:

١٨/٣٨٣ (٤) الطبري: ١٨/٣٨٣ (٥) مسند الطيالسي: ٣٣٢

تقدم حكمه (٦) أحمد: ٢/٤٥٥ (٧) الطبري: ١٢/٣٥٤ (٨)

الطبري: ١٨/٣٨٨

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشَقَيْتَهُمْ. قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى، أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرِ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي - أَوْ قَدْرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»^(١) وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ فِي الصَّحِيحِينَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْمَسَانِيدِ^(٢).

﴿قَالَ أَهْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^(٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^(٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾^(٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَمَا فَسَبَّحْتَ بِحَمْدِ رَبِّكَ اللَّيْلُ نَسِيَ﴾^(٦)

[إِنزَالُ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ وَوَعْدُ الْخَيْرِ لِمَنْ اهْتَدَى وَالشَّرُّ لِمَنْ بَغَى]

يَقُولُ تَعَالَى لِآدَمَ وَحَوَاءَ وَإِبْلِيسَ: اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا، أَيُّ مِنَ الْجَنَّةِ كُلُّكُمْ، وَقَدْ بَسَطْنَا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قَالَ: آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ، وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالْبَيَّانُ^(٧) ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ^(٨) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أَيُّ خَالَفَ أَمْرِي وَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي، أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ، وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هُدَاهُ ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أَيُّ ضَنْكًا فِي الدُّنْيَا، فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ وَلَا انْتِشَاحَ لِصَدْرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ ضَبِقَ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ، وَلَيْسَ مَا شَاءَ، وَأَكَلَ مَا شَاءَ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ، فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى فَهُوَ فِي قَلْبِي وَخَيْرَةٍ وَشَكٍّ، فَلَا يَزَالُ فِي رِيبَةٍ يَرَدُّدًا، فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ: لَا حُجَّةَ لَهُ^(٩). وَقَالَ عِكْرَمَةُ: عُمِّي عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَكُفًّا وَصُمًّا مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ﴾... الْآيَةُ [الإسراء: ٩٧]، وَلِهَذَا يَقُولُ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَمَا فَسَبَّحْتَ بِحَمْدِ رَبِّكَ اللَّيْلُ نَسِيَ﴾ أَيُّ لَمَّا أَعْرَضْتَ عَن آيَاتِ اللَّهِ وَعَامَلْتَهَا مُعَامَلَةً مَن لَمْ يَذْكُرْهَا بَعْدَ بِلَاغِهَا إِلَيْكَ، تَنَاسَيْتَهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢١

الطَّبَرِيُّ

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَمَا فَسَبَّحْتَ بِحَمْدِ رَبِّكَ اللَّيْلُ نَسِيَ﴾^(١٠) وَكَذَلِكَ نَحْزِي مِنْ أَسْرَفٍ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِبَابَتِ رَبِّهِ. وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾^(١١) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾^(١٢) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِرَأْمَا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾^(١٣) فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبَّحَ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾^(١٤) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقْنَاكَ مِنْ خَيْرٍ وَأَبْقَى﴾^(١٥) وَأَمَّا أَهْلُكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾^(١٦) وَقَالُوا لَوْلَا يَا أَبَتَنَا إِنَّا يَا بَنِيَّ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَمُ تَأْتِيهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾^(١٧) وَلَوْلَا أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَحْزِي﴾^(١٨) قُلْ كُلُّ مَرْتَبِصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾^(١٩)

وَأَعْرَضْتَ عَنْهَا وَأَغْفَلْتَهَا، كَذَلِكَ الْيَوْمَ نَعَامِلُكَ مُعَامَلَةً مَن يَنْسَاكَ ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسُوهُمْ كَمَا سُئُوا لِقَاءَ يَوْمِهِ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١] فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. فَأَمَّا نَسْيَانُ لَفْظِ الْقُرْآنِ مَعَ فَهْمِ مَعْنَاهُ وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ، فَلَيْسَ دَاجِلًا فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْخَاصِّ، وَإِنْ كَانَ مُتَوَعَّدًا عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى، فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالنُّهْيِ الْأَكِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ فِي ذَلِكَ.

﴿وَكَذَلِكَ نَحْزِي مِنْ أَسْرَفٍ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِبَابَتِ رَبِّهِ. وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾^(٢٠)

[الْعَذَابُ الشَّدِيدُ لِلْمُسْرِفِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَهَكَذَا نَحْزِي الْمُسْرِفِينَ الْمُكْذِبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

(١) فتح الباري: ٢٨٨/٨ (٢) فتح الباري: ٥٠٨/٦ (٣) فتح الباري: ٥١٣/١١
 (٤) فتح الباري: ٢٠٤٢/٤ (٥) فتح الباري: ٢٠٤٣ (٦) فتح الباري: ٢٠٤٤ (٧) فتح الباري: ٣١٤ (٨) فتح الباري: ٥٤٩/١ (٩) فتح الباري: ٣٨٩/١٨ (١٠) فتح الباري: ١٨
 ٣٩٥، ٣٩٤

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»^(٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤).

وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ عَانَائِي اللَّيْلِ فَسَبَّحْ» أَي مِنْ سَاعَاتِهِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، وَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ «وَأَطْرَافِ النَّهَارِ» فِي مُقَابَلَةِ آتَاءِ اللَّيْلِ «لَعَلَّكَ رَضِيَ» كَمَا قَالَ تَعَالَى:

«وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْتَضِ» [الضحى: ٥] وَفِي الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ نُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ:

إِنِّي أَعْطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَجَلٌ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْحَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(٥). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ:

فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يَبِيضْ وَجُوهَنَا وَيُنْقِلْ مَوَازِينَنَا وَيَزْخِرْخِرْنَا عَنِ النَّارِ وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ خَيْرًا مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ»^(٦).

«وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى»^(٧) وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْتَكْثِرْ رِزْقًا لِحَنِّ زُرْقِكَ وَالْعَقِيْبَةَ لِلتَّقْوَى»^(٨).

[لَا تَنْظُرْ إِلَى مُتَعَةِ الْأَغْنِيَاءِ وَأَصْبِرْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: لَا تَنْظُرْ إِلَى مَا هُوَ لِأَهْلِ الْمُتَرَفُونَ وَأَشْبَاهِهِمْ وَنُظْرَاؤُهُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، فَإِنَّمَا هُوَ زَهْرَةٌ زَائِلَةٌ وَنِعْمَةٌ حَائِلَةٌ، لِنَحْتَبِرَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّاكِرُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «أَزْوَاجًا مِنْهُمْ»، يَعْنِي الْأَغْنِيَاءَ^(٩). فَقَدْ آتَاكَ خَيْرًا مِمَّا آتَاهُمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَعَاةً مِنَ الْمَنَابِتِ وَالْقُرْآنَاتِ الْعَظِيمِ»^(١٠) لَا

تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ... الْآيَةُ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وَكَذَلِكَ مَا أَدْحَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ فِي الْآخِرَةِ، أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْتَضِ» [الضحى: ٥] وَلِهَذَا قَالَ: «وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى»

الْآخِرَةَ أَشَقُّ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» [الرعد: ٣٤] وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ الْآخِرَةَ أَشَدُّ وَأَبْقَى» أَي أَشَدُّ أَلْمًا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَأَدْوَمٌ عَلَيْهِمْ، فَهُمْ مُخَلَّدُونَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِنِينَ: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»^(١١).

«أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَى»^(١٢) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى»^(١٣) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى»^(١٤).

[فِي إِهْلَاكِ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ عِبْرَةٌ لِلْمُتَعَبِّرِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ لَهْزُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ، كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْأُمَّمِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرِّسَالِ قَبْلَهُمْ، فَبَادُوا فَلَيْسَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَتْرُ، كَمَا يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ مِنْ دِيَارِهِمُ الْخَالِيَةِ الَّتِي خَلَقُوهُمْ فِيهَا، يَمْشُونَ فِيهَا»^(١٥) «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَى» أَي الْعُقُولِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَلْبَابِ الْمُسْتَقِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»

[الحج: ٤٦] وَقَالَ فِي سُورَةِ آلمِ السَّجْدَةِ: «أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ»... الْآيَةُ [السجدة: ٢٦]... ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

«وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى» أَي لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ: أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ. وَالْأَجَلُ الْمُسَمًّى الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُزُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ إِلَى مَدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ: لِحَاجَتِهِمُ الْعَذَابَ بَعْتَهُ.

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَبِإِدَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ]

وَلِهَذَا قَالَ لِنَبِيِّهِ مُسَلِّيًا لَهُ: «فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ» أَي مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» يَعْنِي صَلَاةَ الْفَجْرِ «وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبُّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيِيهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ

الْآيَةَ^(١٦).

(١) مسلم: ١١٣١/٢ (٢) فتح الباري: ٤٠/٢ ومسلم: ١/٤٣٩ (٣) أحمد: ١٣٦/٤ (٤) مسلم: ٤٤٠/١ (٥) فتح الباري: ٤٢٣/١١ (٦) أحمد: ٣٣٢/٤ (٧) الطبري: ١٧/١٤١

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَمَّا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْمَشْرُوبَةِ الَّتِي كَانَ قَدْ اعْتَرَلَ فِيهَا نِسَاءَهُ حِينَ آلَى مِنْهُنَّ، فَرَأَهُ مُتَوَسِّدًا مُضْطَجِعًا عَلَى رُمَالٍ حَصِيرٍ، وَلَيْسَ فِي الْبَيْتِ إِلَّا صُبْرَةٌ مِنْ قَرِظٍ وَأَهْبَةٌ مَعْلَقَةٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَا عُمَرَ بِالْبُكَاءِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَبْكُكَ يَا عُمَرُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كِسْرَى وَفَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ؟ فَقَالَ: «أَوْ فِي شِكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَّلْتَ لَهُمْ طَيِّبَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ الدُّنْيَا»^(١) فَكَانَ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، إِذَا حَصَلَتْ لَهُ يُنْفِقُهَا هَكَذَا وَهَكَذَا فِي عِبَادِ اللَّهِ، وَلَمْ يَدَّخِرْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا لَعَدٍ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ، مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا» قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بَرَكَاتُ الْأَرْضِ»^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: «زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» بِعَيْهِ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: «لِيَفْتَحَهُمْ فِيهِ» لِيَتَبَلَّغَهُمْ^(٤).

وَقَوْلُهُ: «وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطِرَ عَلَيْهَا» أَيِ اسْتَفْتَدَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَاصْبِرِ أَنْتَ عَلَى فِعْلِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمًا أَنفَسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» [التحریم: ٦]. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَبِيتُ عِنْدَهُ أَنَا وَبِرِّقًا، وَكَانَ لَهُ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي فِيهَا، فَرُبَّمَا لَمْ يَقُمْ، فَتَقُولُ: لَا يَقُومُ اللَّيْلَةُ كَمَا كَانَ يَقُومُ، وَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ أَقَامَ بِعَيْهِ أَهْلَهُ، وَقَالَ: «وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطِرَ عَلَيْهَا»^(٥).

وَقَوْلُهُ: «لَا سَتَلَكَ رِزْقًا نَحْنُ زُرُوقٌ» بِعَيْهِ إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ أَتَاكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا»^(٦) وَرِزْقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [الطلاق: ٣، ٢] وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي»^(٧) - إِلَى قَوْلِهِ - «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزْقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ»^(٨) [الذاريات: ٥٦-٥٨] وَلِهَذَا قَالَ: «لَا سَتَلَكَ رِزْقًا نَحْنُ زُرُوقٌ». وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمَلًا صَدْرَكَ غِنَى، وَأَسَدًا فَفَرَّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسَدًا فَفَرَّكَ»^(٩).

وَرَوَى أَيْضًا عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فِقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ. وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ بَيْنَهُ، جَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاعِمَةٌ»^(١٠). وَقَوْلُهُ: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْقَوِي» أَيِ وَحُسْنُ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّ فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ، وَأَنَا أُتِينَا بِرُطْبٍ مِنْ رُطْبِ ابْنِ طَابٍ، فَأَوْلْتُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالرَّفِيعَةَ، وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ»^(١١).

«وَقَالُوا لَوْلَا يَا تَيْنَا يَا تَيْنَا مِنْ رَبِّهِ» أَوْلَمُ تَأْتِيهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصَّحُفِ الْأُولَى^(١٢) وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قِبَلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَنِّعَ إِلَيْنِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ وَنَخْرُجَ^(١٣) قُلْ كُلٌّ مَرْتَضٍ فَرْتَضُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الْأَصْرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ أَهْتَدَى^(١٤)

[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ آيَةٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ: «لَوْلَا» أَيِ هَلَا يَا تَيْنَا مُحَمَّدٌ بَابِي مِنْ رَبِّي، أَيِ بِعِلْمَةِ دَالِهِ عَلَى صِدْقِهِ فِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَوْلَمُ تَأْتِيهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصَّحُفِ الْأُولَى» بِعَيْهِ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ اللَّهُ، وَهُوَ أَمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، وَلَمْ يُدَارِسْ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ، بِمَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ الصَّحِيحَةُ مِنْهَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُهَيِّجٌ عَلَيْهَا، يُصَدِّقُ الصَّحِيحَ، وَيُبَيِّنُ خَطَأَ الْمَكْذُوبِ فِيهَا وَعَلَيْهَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: «وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ»^(١٥) أَوْلَمُ يَكْفُهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [العنكبوت: ٥١، ٥٠] وَفِي

(١) فتح الباري: ١٣٧/٥ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٤٤٢/٧ (٣) الطبري: ٤٠٤/١٨ (٤) الطبري: ٤٠٥/١٨ (٥) الطبري: ٤٠٦/١٨ إسناده ضعيف فيه هشام بن سعد أبو عباد المغربي قال الإمام أحمد ليس هو محكم الحديث. قال ابن سعد: كان كثير الحديث يستضعف وكان مشيعا [العلل/٢/٤٥٥]. (٦) تحفة الأحوذى: ١٦٦/٧ وابن ماجه: ١٣٧٦/٢ (٧) ابن ماجه: ٥١، ٥٠ / ٢ (٨) مسلم: ١٣٧٥ / ٤ (٩) مسلم: ١٣٧٥ / ٤

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ ٣٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
 مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
 يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
 هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ
 تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمِ بَلِ
 أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ بِأَيْدِيهِ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ
 ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ
 ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ
 الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
 لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ
 الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
 لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

قَالَ: بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ، وَمَرْيَمُ، وَطَهُ، وَالْأَنْبِيَاءُ، هُنَّ
 مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ
 مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾
 لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ
 مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ
 الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا
 أَضْغَثُ أَحْلَمِ بَلِ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ بِأَيْدِيهِ كَمَا
 أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ
 يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

[السَّاعَةَ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا]
 هَذَا تَنْبِيْهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَدُنُوْهَا،

الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا
 وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ النَّبِيُّ، وَإِنَّمَا كَانَ
 الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ
 تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١). وَإِنَّمَا ذَكَرَ هُنَا أَكْثَرَ الْآيَاتِ الَّتِي
 أُعْطِيَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَإِلَّا فَلَهُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ
 مَا لَا يُحَدِّدُ وَلَا يُحْصِرُ، كَمَا هُوَ مُودَعٌ فِي كُتُبِهِ وَمُقَرَّرٌ فِي
 مَوَاضِعِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا
 رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا أَيُّ لَوْ أَنَا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ
 الْمُكْذِبِينَ قَبْلَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَتُنزَلَ
 عَلَيْهِمْ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ، لَكَانُوا قَالُوا: «رَبَّنَا لَوْلَا
 أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا قَبْلَ أَنْ تُهْلِكَنَا حَتَّى نُؤْمِنَ بِهِ وَنَتَّبِعَهُ
 كَمَا قَالَ: «فَتَنْبِغْ أَيْنِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَحْزِي» بَيِّنٌ
 تَعَالَى أَنْ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ مُتَعَتِّتُونَ مُعَانِدُونَ لَا يُؤْمِنُونَ
 «وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [يونس:
 ٩٧] كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ
 وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» - إِلَى قَوْلِهِ - «يَمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ»
 [الأنعام: ١٥٥-١٥٧] وَقَالَ: «وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْتِنِهِمْ لِيَنْ
 جَاهَهُمْ يَذِرَ لِيَكُونَ أَهْدَى مِنَ الْهْدَى الْأَمْسُ»... الآية [فاطر:
 ٤٢]، وَقَالَ: «وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْتِنِهِمْ لِيَنْ جَاهَهُمْ آيَةً
 لِيُؤْمِنَنَّ بِهَا»... الْآيَتَيْنِ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠]، ثُمَّ قَالَ
 تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ، لِمَنْ كَذَبَكَ وَخَالَفَكَ وَاسْتَمَرَّ
 عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ «كُلُّ مُتْرِصٍّ» أَيُّ مِتًّا وَمِنْكُمْ
 «فَرَبِّصُوا» أَيُّ فَانظُرُوا «فَسَتَعْلَمُونَ» مَنْ أَصْحَابُ الصَّرِيطِ
 السَّوِيِّ «أَيُّ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ» وَمَنْ أَهْتَدَى «إِلَى الْحَقِّ
 وَسَبِيلِ الرَّشَادِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
 حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا» [الفرقان: ٤٢] وَقَالَ:
 «سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكُذَّابِ الْأَلْبِيسِ» [القم: ٢٦].

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ طه، وَ اللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ، وَيَتْلُوهُ إِنْ
 شَاءَ اللَّهُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَ اللَّهُ الْحَمْدُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -
 وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ بَرِيدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ

(١) فتح الباري: ٦١٩/٨، ١٣٤/١ (٢) فتح الباري: ٢٨٩/٤

وَأَنَّ النَّاسَ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا، أَي لَا يَعْمَلُونَ لَهَا وَلَا يَسْتَعِدُّونَ مِنْ أَجْلِهَا. وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ قَالَ: «فِي الدُّنْيَا»^(١). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وَقَالَ: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقَّ الْقَمَرِ﴾^(٢) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا...
الآية [القمر: ١، ٢].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يُضْعِفُونَ إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَالْخَطَابُ مَعَ قُرَيْشٍ وَمَنْ شَابَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، فَقَالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدِّثٍ أَوْ جَدِيدٍ إِنزَالُهُ﴾ [إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ] كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا لَكُمْ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَمَّا يَأْتِيهِمْ وَقَدْ حَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ، وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَضُوا مِنْهُ، وَكِتَابُكُمْ أَحَدُ الْكُتُبِ بِاللَّهِ تَقَرُّوهُ وَمَحْضًا لَمْ يُسَبِّ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِنَحْوِهِ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي قَائِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ خُفْيَةً ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمُ﴾ يَعْنُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَسْتَعِدُّونَ كَوْنَهُ نَبِيًّا لِأَنَّهُ بَشْرٌ مِثْلَهُمْ، فَكَيْفَ اخْتَصَرَ بِالْوَحْيِ دُونَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أَي أَتَيْتَبِعُونَهُ فَتَكُونُونَ كَمَنْ يَأْتِي السِّحْرَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سِحْرٌ، فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَمَّا افْتَرَوْهُ وَاخْتَلَفُوهُ مِنَ الْكَذِبِ: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي الَّذِي يَعْلَمُ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى خَبَرِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ - الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ، إِلَّا الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَي السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمْ، وَالْعَلِيمُ بِأَحْوَالِكُمْ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ.

قَوْلُ الْكُفَّارِ فِي الْقُرْآنِ وَالرُّسُولِ، وَطَلَبُهُمُ الْآيَاتِ،

وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاطٌ أَحْلَعِ بَلِ افْتَرَاهُ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ وَالْحَادِيهِمْ وَاجْتِلَافِهِمْ فِيمَا يَصِفُونَ بِهِ الْقُرْآنَ، وَخَيْرُهُمْ فِيهِ، وَضَلَالَتُهُمْ عَنْهُ، فَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ سِحْرًا، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ شِعْرًا، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ أَضْغَاتٍ أَحْلَامَ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ مُفْتَرَى، كَمَا قَالَ: ﴿انظُرْ كَيْفَ صَرُّوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨] وَقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَاتِهِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾... يَعْنُونَ

نَاقَةَ صَالِحٍ وَآيَاتِ مُوسَى وَعِيسَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾^(٤) الْآيَةُ [الإسراء: ٥٩]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا آمَنَتْ قَلْبُهُمْ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أَي مَا آتَيْنَا قَرِينَةً مِنَ الْقُرَى الَّتِي بُعِثَ فِيهِمُ الرُّسُلُ، آيَةً عَلَى يَدَيْ نَبِيِّهَا فَأَمَّنُوا بِهَا، بَلْ كَذَّبُوا، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذَلِكَ، أَفَهُؤُلَاءِ يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ لَوْ رَأَوْهَا دُونَ أَوْلَيْكَ؟ كَلَّا، بَلْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] هَذَا كُلُّهُ - وَقَدْ شَاهَدُوا - مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْحُجُجِ الْقَاطِعَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا هُوَ أَظْهَرُ وَأَجْلَى، وَأَبْهَرُ وَأَقْطَعُ وَأَقَهَرُ، مِمَّا شُوهِدَ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسَلَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾^(٧) ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَجْنَبْنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾^(٨)

[لَمْ يَكُنِ الرُّسُلُ إِلَّا بَشَرًا]

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ بَعثةَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أَي: جَمِيعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا، كَانُوا رِجَالًا مِنَ الْبَشَرِ، لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَمَّنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمَمِ، لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَقَالُوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَسَلَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: اسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ مِنَ الْأُمَمِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَسَائِرِ الطَّرَائِفِ: هَلْ كَانَ الرُّسُلُ الَّذِينَ أَتَوْهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً؟ وَإِنَّمَا كَانُوا بَشَرًا، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ تَنَاقُلِ الْبَلَاغِ مِنْهُمْ وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أَي: بَلْ قَدْ كَانُوا أَجْسَادًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ

(١) النسائي في الكبرى: ٤٠٧/٦ (٢) فتح الباري: ٥٠٥/١٣

وَيَسْتَوُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴿٢٠﴾ [الفرقان: ٢٠] أَي: قَدْ كَانُوا بَشَرًا مِنْ
الْبَشَرِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ مِثْلَ النَّاسِ، وَيَدْخُلُونَ الْأَسْوَاقَ
لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارٍّ لَهُمْ، وَلَا نَاقِصٍ
مِنْهُمْ شَيْئًا، كَمَا تَوَهَّمَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿بَالِ هَذَا
الرَّسُولِ بِأَكْلِ الطَّعَامِ وَيَشْرَبِ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ
مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِقُ إِلَيْهِ كَفْرًا أَوْ تَكُونُ
لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾... الآية [الفرقان: ٨، ٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا، بَلْ كَانُوا
يَعِيشُونَ ثُمَّ يَمُوتُونَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾
[الأنبياء: ٣٤] وَخَاصَّتْهُمْ: أَنَّهُمْ يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ، تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ عَنِ اللَّهِ بِمَا يَحْكُمُهُ فِي خَلْقِهِ
بِمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾
أَي: الَّذِي وَعَدْتَهُمْ رَبُّهُمْ لِيُهْلِكَ الظَّالِمِينَ، صَدَقْتَهُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ وَفَعَلَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَجْمَعِيْنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أَي:
أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أَي: الْمُكْذِبِينَ
بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَكَمْ
قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٨﴾
فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى
مَا أَنْزَلْنَا فِيهِ وَمَسْكِبِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا
خَمِيدِينَ ﴿٢٠﴾

[فَضْلُ الْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مِنْهَا عَلَى شَرَفِ الْقُرْآنِ وَمُحَرِّصًا لَهُمْ عَلَى
مَعْرِفَةِ قَدْرِهِ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ: شَرَفُكُمْ^(١). ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: هَذِهِ النُّعْمَةُ،
وَتَتَلَقَّوْنَهَا بِالْقَبُولِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تَسْتَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

[كَيْفَ أَهْلِكَ الظَّالِمُونَ؟]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هَذِهِ صِبْغَةٌ
تَكْبِيرٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾
[الإسراء: ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَلَّا بَيْنَ يَدَيْهِ أَهْلَكْنَاهَا
وَهُوَ ظَالِمٌ لَهَا فَوَيْلٌ لِلْعَالَمِينَ﴾... الآية [الحج: ٤٥].
﴿وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أَي: أُمَّةً
أُخْرَى بَعْدَهُمْ ﴿فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسَانَا﴾ أَي: تَيَقَّنُوا أَنَّ الْعَذَابَ
وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ كَمَا وَعَدْتَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾

٣٢٣

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
آخَرِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٧﴾
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَنْزَلْنَا فِيهِ وَمَسْكِبِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْتَلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ﴿٢١﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ
لَا تَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿٢٢﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٢٤﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرِكُونَ
﴿٢٦﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٧﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعَى
ذِكْرِكُمْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٩﴾

أَي: يَقْرُونَ هَارِبِينَ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَنْزَلْنَا فِيهِ
وَمَسْكِبِكُمْ﴾ هَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ [قَدْرًا]، أَي: قِيلَ لَهُمْ [قَدْرًا]:
لَا تَرْكُضُوا هَارِبِينَ مِنْ نَزْوِلِ الْعَذَابِ، وَارْجِعُوا إِلَى مَا
كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ النُّعْمَةِ وَالشُّرُورِ وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَسَاكِينِ الطَّيِّبَةِ.
قَالَ قَتَادَةُ: اسْتَهْزَاءٌ بِهِمْ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ﴾ أَي: عَمَّا كُنْتُمْ
فِيهِ مِنْ آدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ، ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ أَي: مَا زَالَتْ تِلْكَ
الْمَقَالَةُ، وَهِيَ الْإِعْتِرَافُ بِالظُّلْمِ، هَجِيرَاهُمْ حَتَّى
حَصَدْنَاهُمْ حَصْدًا، وَخَمَدَتْ حَرَكَاتُهُمْ وَأَصْوَاتُهُمْ خُمُودًا.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ﴿٢١﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ
نَتَّخِذَهُمْ لَاتَّخِذَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿٢٢﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا

يَسْتَحِيرُونَ ﴿١٩﴾ يَسْحَبُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢٠﴾

[خَلَقَ الْكَوْنُ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، أَي: بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١] وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا وَلَا لَعِبًا، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ بِعَنِي مِنْ عِنْدِنَا، يَقُولُ: وَمَا خَلَقْنَا جَنَّةً، وَلَا نَارًا وَلَا مَوْتًا، وَلَا بَعَثًا وَلَا حِسَابًا (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ (٢) وَالسُّدِّيُّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَمُغِيرَةُ بْنُ مِقْسَمٍ: أَي: مَا كُنَّا فَاعِلِينَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿إِنْ﴾ فَهُوَ إِنْكَارٌ (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أَي: نُبَيِّنُ الْحَقَّ فَيُدْحِضُ الْبَاطِلَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أَي: ذَاهِبٌ مُضْمَحِلٌ ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ﴾ أَي: أَيُّهَا الْقَائِلُونَ: لِلَّهِ وَلَدٌ ﴿وَمَا نَصِفُونَ﴾ أَي: تَقُولُونَ وَتَقْتَرُونَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ غُيُوبِيَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ، وَدَأْبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، فَقَالَ: [كُلُّ شَيْءٍ مِلْكٌ لِلَّهِ وَعَبْدٌ لَهُ]

﴿وَلَوْ لَمْ يَكُنِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ بِعَنِي الْمَلَائِكَةُ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أَي: لَا يَسْتَنْكِفُونَ عَنْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْمِلُهُ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَسْحَبُونَ﴾ أَي: لَا يَتَّبِعُونَ وَلَا يَمْلُونَ ﴿يَسْحَبُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فَهُمْ دَائِبُونَ فِي الْعَمَلِ لَيْلًا وَنَهَارًا، مُطِيعُونَ قَصْدًا وَعَمَلًا، فَادِرُونَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]

﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢١﴾ لَا يَسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَلِّتُونَ ﴿٢٢﴾

[الرَّدُّ عَلَى الْأَلِهَةِ الْكَاذِبَةِ]

يُنْكَرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً فَقَالَ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: أَهْمُ يُحْيُونَ

الْمَوْتَى وَيُنشِرُونَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، أَي: لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ جَعَلُوهَا لِلَّهِ نِدًّا وَعَبْدُوهَا مَعَهُ؟ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْوُجُودِ إِلَهَةٌ غَيْرُهُ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَقَالَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ﴾ أَي: فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعَثْنَاهُمْ عَلَى بَعْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أَي: عَمَّا يَقُولُونَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ الَّذِي يَقْتَرُونَ وَيَأْفِكُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَلِّتُونَ﴾ أَي: هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مَعْتَبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يَغْتَرِضُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَاةِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلَطْفِهِ، ﴿وَهُمْ يُسَلِّتُونَ﴾ أَي: وَهُوَ سَائِلٌ خَلَقَهُ عَمَّا يَعْمَلُونَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَأْتِنَهُمْ آجِمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُحْيِي عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَنِيَّ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَمَن لَقِيَ فَمَهُمْ مُعْرَضُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ إِلَهَةً قُلْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أَي: ذَلِيلَكُمْ عَلَى مَا تَقُولُونَ. ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَنِيَّ﴾ بِعَنِي الْقُرْآنِ ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ بِعَنِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى خِلَافِ مَا تَقُولُونَهُ وَتَزْعُمُونَ، فَكُلُّ كِتَابٍ أَنْزَلَ عَلَى كُلِّ نَبِيِّ أَرْسَلَ، نَاطِقٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ لَا تَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَانْتُمْ مُعْرَضُونَ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْلَمْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فَكَلَّمُ نَبِيِّ بَعَثَهُ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْفِطْرَةُ

(١) الطبري: ٤٢١/١٨ (٢) الطبري: ٤٢٠/١٨ (٣) الدر المنثور: ٢٢٠/٥

شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ أَيضًا، وَالْمُشْرِكُونَ لَا بُرْهَانَ لَهُمْ، وَحُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَالِيهِمْ غَضَبٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ. ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾

[الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ وَبَيَانُ

أَعْمَالِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَلَدًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ، كَمَنْ قَالَ ذَلِكَ مِنَ الْعَرَبِ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ عِبَادُ اللَّهِ مُّكْرَمُونَ عِنْدَهُ فِي مَنَازِلٍ عَالِيَةٍ وَمَقَامَاتٍ سَامِيَةٍ، وَهُمْ لَهُ فِي غَايَةِ الطَّاعَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أَي: لَا يَتَقَدَّمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَمْرٍ، وَلَا يُخَالِفُونَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، بَلْ يُبَادِرُونَ إِلَىٰ فِعْلِهِ، وَهُوَ تَعَالَىٰ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ الصَّلَاةَ﴾ [سبأ: ٢٣] فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أَي: مِنْ خَوْفِهِ وَرَهْبَتِهِ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: مَنْ ادَّعَىٰ مِنْهُمْ أَنَّهُ إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَي: مَعَ اللَّهِ ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أَي: كُلُّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ، وَهَذَا شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَلْزَمُ وَقُوْعُهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وَقَوْلُهُ: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِحَبِطٍ عَلَيْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ ﴿٣٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٤﴾

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٢٤

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٣٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ

بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٦﴾ لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ

بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ

﴿٣٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ

جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا

أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا

مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ

رَوَاسِيًّا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ

يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ

آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ ﴿٤٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٣﴾ وَجَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ

الْخَلْدَ أَفَّا يَنْمَتُ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٤٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾

[آيَاتُ اللَّهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءِ وَقَهْرِهِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَقَالَ: ﴿أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: الْجَاحِدُونَ لِإِلَهِيَّتِهِ، الْعَابِدُونَ مَعَهُ غَيْرُهُ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ، الْمُسْتَبَدُّ بِالتَّكْبِيرِ، فَكَيْفَ يَلِيْقُ أَنْ يُعْبَدَ مَعَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يُشْرَكَ بِهِ مَا سِوَاهُ، أَلَمْ يَرَوْا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أَي: كَانَ الْجَمِيعُ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، مُتَلَاصِقٌ مُتَرَاجِمٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ، فَفَتَقَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ، فَجَعَلَ السَّمَوَاتِ سَبْعًا، وَالْأَرْضَ سَبْعًا، وَفَصَلَ بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالْأَرْضِ بِالْهَوَاءِ، فَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَأَنْبَتَتِ الْأَرْضُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي: وَهُمْ يُشَاهِدُونَ الْمَخْلُوقَاتِ تَحَدُّثُ شَيْئًا فَشَيْئًا عِبَانًا، وَذَلِكَ كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِ الصَّانِعِ الْقَاعِلِ الْمُخْتَارِ الْقَادِرِ عَلَى مَا يَشَاءُ.

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ

تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وَأَقْلِمَ إِلَى إِقْلِيمٍ، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ فِي الْأَرْضِ يَكُونُ الْجَبَلُ حَائِلًا بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَهَذِهِ الْبِلَادِ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ فَجْوَةً - نَعْرَةً - لِيَسْلُكَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ هُنَا إِلَى هُنَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أَي: عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ كَالْقَبَّةِ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا بِأَيْدِي وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] وَالْبِنَاءُ هُوَ نَصْبُ الْقَبَّةِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»^(٤) أَي: [خَمْسٍ] دَعَائِمٍ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخِيَامِ، كَمَا تَعَهَّدَهُ الْعَرَبُ. ﴿مَحْفُوظًا﴾ أَي: عَالِيًا مَحْرُوسًا أَنْ يَنَالَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَرْفُوعًا^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ عَنِ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَاتِنَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] أَي: لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ الْإِتْسَاعِ الْعَظِيمِ وَالِازْتِفَاعِ الْبَاهِرِ، وَمَا زَيَّنَّتْ بِهِ مِنَ الْكُوكَبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ فِي لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي تَقْطَعُ الْفُلُكَ بِكَامِلِهِ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَتَسِيرُ غَايَةً لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا اللَّهُ الَّذِي قَدَّرَهَا وَسَخَّرَهَا وَسَيَّرَهَا. ثُمَّ قَالَ مُبَيَّنًا عَلَى بَعْضِ آيَاتِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَي: هَذَا فِي ظُلَامِهِ وَسُكُونِهِ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ وَأَنْبِسِهِ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ آخَرَى، وَعَكْسُهُ الْآخَرُ ﴿وَاللَّسَّمَسُ وَالْقَمَرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] هَذِهِ لَهَا نُورٌ يَخْضَعُهَا، وَفَلَكَ يَدَايِهِ، وَزَمَانٌ عَلَى حِدَّةٍ، وَحَرَكَةٌ وَسَيْرٌ خَاصٌّ، وَهَذَا بِنُورٍ آخَرَ، وَفَلَكَ آخَرَ، وَسَيْرٌ آخَرَ، وَتَقْدِيرٌ آخَرَ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكَ يَسْحُونُ﴾ أَي: يَدُورُونَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَدُورُونَ كَمَا يَدُورُ الْمُعْزَلُ فِي الْفَلَكَ^(٦) كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾^(٧) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُمُ بِاللَّسْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٧٥﴾

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَلَّيْلُ كَانَ قَبْلَ أَوِ النَّهَارِ؟ فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حِينَ كَانَتَا رَتْقًا هَلْ كَانَ بَيْنَهُمَا إِلَّا ظُلْمَةٌ؟ ذَلِكَ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّيْلَ قَبْلَ النَّهَارِ^(٨). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَلَقْنَهُمَا﴾. قَالَ: أَذْهَبَ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ فَاسْأَلَهُ، ثُمَّ تَعَالَ فَاخْبِرْنِي بِمَا قَالَ لَكَ، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلَهُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَعَمْ كَانَتِ السَّمَوَاتُ رَتْقًا لَا تُنْمَطُ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ رَتْقًا لَا تُنْبِتُ، فَلَمَّا خَلَقَ لِلْأَرْضِ أَهْلًا فَتَقَّ هَذِهِ بِالْمَطَرِ، وَفَتَقَّ هَذِهِ بِإِنْبَاتِ، فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى ابْنِ عُمَرَ فَاخْبَرَهُ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: الْآنَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَدْ أُوْتِيَ فِي الْقُرْآنِ عِلْمًا، صَدَقَ، هَكَذَا كَانَتْ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: قَدْ كُنْتُ أَقُولُ مَا يُعْجِبُنِي جِرَاءَةً ابْنَ عَبَّاسٍ عَلَى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، فَالآنَ عَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ أُوْتِيَ فِي الْقُرْآنِ عِلْمًا^(٩).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: بَلْ كَانَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ مُتَلْتَفَتَيْنِ، فَلَمَّا رُفِعَ السَّمَاءُ وَأُبْرَزَ مِنْهَا الْأَرْضُ، كَانَ ذَلِكَ فَتَقَّهُمَا الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَفَتَادَةُ: كَانَتَا جَمِيعًا فَفُصِّلَ بَيْنَهُمَا بِهَذَا الْهَوَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أَي: أَضَلُّ كُلُّ الْأَحْيَاءِ مِنْهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي، فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ» قَالَ: قُلْتُ: أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا عَمِلْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ قَالَ: «أَفْسُ السَّلَامِ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَكُنْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَّلَامٍ»^(١٠). وَهَذَا إِسْنَادٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحَيْنِ إِلَّا أَنَّ أَبَا مَيْمُونَةَ مِنْ رِجَالِ الشُّنَنِ وَاسْمُهُ سَلِيمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ يُصَحِّحُ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أَي: جِبَالًا أُرْسَى الْأَرْضَ بِهَا وَقَرَّرَهَا وَثَقَّلَهَا لِئَلَّا تَمِيدَ بِالنَّاسِ، أَي: تَضْطَرِبَ وَتَسْتَحْرَكَ، فَلَا يَحْضِلُ لَهُمْ قَرَارٌ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا غَامِرَةٌ فِي الْمَاءِ إِلَّا مِقْدَارَ الرَّبْعِ. فَإِنَّهُ بَادٍ لِلْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ لِيُشَاهِدَ أَهْلُهَا السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْحِكْمِ وَالِدَّلَالَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أَي: لِئَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أَي: نُفْرًا فِي الْجِبَالِ، يَسْلُكُونَ فِيهَا طُرُقًا مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ،

(١) الطبري: ٤٣٣/١٨ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٤٥٠/٨ (٣)

أحمد: ٢٩٥/٢، ٣٢٣، ٣٢٤ (٤) فتح الباري: ٦٤/١ (٥)

الطبري: ٤٣٦/١٨ (٦) الطبري: ٥٢١، ٥٢٠/٢٠

[لَيْسَ لِأَحَدٍ الْخُلُودُ فِي الدُّنْيَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ أَجْرًا: يَا مُحَمَّدُ ﴿٣٦﴾﴾ الْخُلُودُ أَي: فِي الدُّنْيَا بَلْ ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِنَا فَإِنَّ﴾ وَبَعَثَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [الرَّحْمَن: ٢٦، ٢٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَأَيْنَ مَتَّ﴾ أَي: يَا مُحَمَّدُ ﴿فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ أَي: يُؤْمَلُونَ أَنْ يَعِيشُوا بَعْدَكَ، لَا يَكُونُ هَذَا، بَلْ كُلُّ إِلَى الْفَنَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ أُنْشِدَ وَاسْتَشْهَدَ بِهِذَيْنِ الْبَيِّنِينَ:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ

فَتَلَكَ سَبِيلَ لَشْتٍ فِيهَا بِأَوْحِدٍ

فَقُلْ لِلَّذِي يَنْبَغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى

تَهَيَّأَ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدْ وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَلَوُّكُمْ بِالْغَيْرِ وَالْغَيْرِ فِتْنَةٌ﴾ أَي: نَخْتَبِرُكُمْ بِالْمَصَائِبِ تَارَةً وَبِالنَّعْمِ أُخْرَى، فَتَنْظُرُ مَنْ يَشْكُرُ وَمَنْ يَكْفُرُ، وَمَنْ يَصْبِرُ وَمَنْ يَقْنَطُ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَلَوُّكُمْ﴾ يَقُولُ: ﴿بِالْغَيْرِ وَالْغَيْرِ فِتْنَةٌ﴾ بِالشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَالصَّحَّةِ وَالسَّقْمِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَالطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ، وَالهُدَى وَالضَّلَالَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْيَتَا تَرْجَعُونَ﴾ أَي: فَتُجَارِبُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ^(١).

﴿وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخِذُّونَكَ إِلَّا هُزُوعًا﴾

الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ

كَفَرُونَ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا

تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

[اسْتَهْزَأَ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي كِفَارًا قُرَيْشِي كَأَبِي جَهْلٍ وَأَشْبَاهِهِ ﴿إِنْ يَخِذُّونَكَ إِلَّا هُزُوعًا﴾ أَي: يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ وَيَنْقُصُونَكَ، يَقُولُونَ: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يَعْنُونَ أَهَذَا الَّذِي يَسُبُّ آلِهَتَكُمْ وَيُسَفِّهُ أَعْلَامَكُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُونَ﴾ أَي: وَهُمْ كَافِرُونَ بِاللَّهِ، وَمَعَ هَذَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَخِذُّونَكَ إِلَّا هُزُوعًا﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٣٧﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَدَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا [الفرقان: ٤١، ٤٢].

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ ٣٢٥

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٢٥

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخِذُّونَكَ إِلَّا هُزُوعًا
أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ
هُم كَفَرُونَ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ
آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُم يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ
بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْفُرُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ
الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَتَّايِصُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعَاهَا قَوْلًا
وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ
الْأُخْرَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ جَمُولًا﴾ أَي: فِي الْأُمُورِ. وَالْحِكْمَةُ
فِي ذِكْرِ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ هُنَا: أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمُسْتَهْزِئِينَ
بِالرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَقَعَ فِي النَّفْسِ
سُرْعَةُ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ وَاسْتَعْجَلَتْ ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾. لِأَنَّهُ تَعَالَى يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا
أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، يُؤَجِّلُ ثُمَّ يُعَجِّلُ، وَيُنظَرُ ثُمَّ لَا يُؤَخَّرُ،
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أَي: نَقِمِي وَحُكْمِي
وَافْتِدَارِي عَلَى مَنْ عَصَانِي ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ

النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ

بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

يَعْنِي غَيْرَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾^(١)
أَي: لَا يَعْتَرِفُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، بَلْ
يُعْرِضُونَ عَنْ آيَاتِهِ وَآلَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ
مِنْ دُونِنَا﴾ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارٌ وَتَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ، أَي: أَلَهُمْ آلِهَةٌ
تَمْنَعُهُمْ وَتَكْلُؤُهُمْ غَيْرَنَا؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهَّمُوا، وَلَا كَمَا
رَعَمُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَنَّ هَذِهِ
الْآلِهَةُ الَّتِي اسْتَدُّوا إِلَيْهَا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا بِصَحْبُونَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ
ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا بِصَحْبُونَ﴾ أَي: يُجَارُونَ^(٢).

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا
يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمْ
الْقَلِيلُونَ﴾^(٣) قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرْتُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الضُّمُرُ
الدُّعَاءَ إِذَا مَا يَنْذَرُونَ^(٤) وَلَيْنِ مَسْتَهْمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَبُولُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(٥) وَضَعُ الْمَوْرِثِ الْقِسْطَ
لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
مَنْ حَرَدَلِ أَلِيسَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ^(٦)
[إِنْجَادُ الْمُشْرِكِينَ لِطَوْلِ اسْتِمْتَاعِهِمْ بِالْدُنْيَا
وَبَيَانِ الْحَقِّ لَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّمَا غَرَّهُمْ وَحَمَلَهُمْ
عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ، أَنَّهُمْ مَتَّعُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَعُمُّوا، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِيمَا هُمْ فِيهِ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ
عَلَى شَيْءٍ، ثُمَّ قَالَ وَاعْظُوا لَهُمْ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا
مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلَاتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف:
٢٧] وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْنِي بِذَلِكَ ظُهُورَ الْإِسْلَامِ
عَلَى الْكُفْرِ^(٧). وَالْمَعْنَى: أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ
عَلَى أَعْدَائِهِ، وَإِهْلَاكِهِ الْأُمَّمَ الْمُكذِّبَةَ، وَالْقُرَى الظَّالِمَةَ،
وَأَنْجَائِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَهُمُ الْقَلِيلُونَ﴾
يَعْنِي بَلْ هُمْ الْمَغْلُوبُونَ الْأَسْفَلُونَ الْأَخْسَرُونَ الْأَرْدَلُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرْتُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أَي: إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ
عَنِ اللَّهِ مَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكْلِيفِ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا
عَمَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، وَلَكِنْ لَا يُجِدِي هَذَا عَمَّنْ أَعْمَى اللَّهُ

[اسْتِعْجَالَ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضًا بِوُقُوعِ
الْعَذَابِ بِهِمْ تَكْذِيبًا وَجُحُودًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِعْجَادًا،
فَقَالَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء:
٣٨] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا
يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أَي: لَوْ
يَتَّقُونَ أَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ لَمَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ. وَلَوْ
يَعْلَمُونَ حِينَ يَعْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ ﴿لَهُمْ مَن فَوْقَهُمْ لَطُلُّ مِنَ النَّارِ وَمَن تَحْتَهُمْ لَطُلُّ﴾
[الزمر: ١٦] ﴿لَهُمْ مَن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمَن فَوْقَهُمْ غَوَاشٍ﴾
[الاعراف: ٤١] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ
عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وَقَالَ: ﴿سَرَابِلُهُمْ
مِنَ فِطْرَانِ وَتَشْتَبِي وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فَالْعَذَابُ
مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ أَي: لَا
نَاصِرَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاوٍ﴾ [الرعد:
٣٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أَي: تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً
أَي: فَجَاءَةً، ﴿فَتَهْتَهُمْ﴾ أَي: تَذَعُرُهُمْ، فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهَا
حَاثِرِينَ وَلَا يَذَرُونَ مَا يَصْنَعُونَ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أَي:
لَيْسَ لَهُمْ حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أَي: وَلَا يُؤَخَّرُ
عَنْهُمْ ذَلِكَ سَاعَةً وَاحِدَةً.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْرَيْتُ رَسُولًا مِنْ قِبَلِكَ فَحَاقَ بِاللَّيْلِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرَوْنَ﴾^(٨) قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ
بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ^(٩) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ
تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا
بِصَحْبُونَ^(١٠)

[الْعِبْرَةُ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْمُسْتَهْرَتِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ [صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ]
عَمَّا آذَاهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ: ﴿وَلَقَدْ
أَسْتَهْرَيْتُ رَسُولًا مِنْ قِبَلِكَ فَحَاقَ بِاللَّيْلِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرَوْنَ﴾ يَعْنِي مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَعْبِدُونَ
وُقُوعَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قِبَلِكَ
فَصَبْرًا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصْرًا وَلَا مِدَدًا لِكَلِمَتِ اللَّهِ
وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [الأنعام: ٣٤] ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى
نِعْمَتَهُ عَلَىٰ عِبِيدِهِ فِي حِفْظِهِ لَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَكِلَافَتِهِ
وَجِرَاسَتِهِ لَهُمْ بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢] أَي: بَدَلِ الرَّحْمَنِ،

(١) الطبري: ٤٤٨/١٨ إسناده ضعيف كما تقدم حال العوفي وعائلته. (٢) الطبري: ٩٤٤/١

بصيرته، وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَا إِنَّآ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَي: وَلَيْزَنَّ مَسَّ هَؤُلَاءِ الْمَكْدِبِينَ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لَيَعْتَرِفُنَّ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْتُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أَي: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْعَدْلَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. الْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مِيزَانٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا جُمِعَ بِإِيجَابٍ تَعَدُّدِ الْأَعْمَالِ الْمَوْزُونَةِ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً حَسَنَةٌ يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَقَالَ لِقَمَانُ: ﴿يَبْقَى إِنَّمَا إِنْ تَكُ وَثِقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَسْبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يَكْذِبُونَنِي وَيَحْوَنُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَضْرِبُهُمْ وَأَسْتَمْتُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَبُواكَ، وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِن كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ، كَانَ كَفَافًا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِن كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ، كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِن كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ، اقْتَصَصَ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ الَّذِي بَقِيَ بِنِكَالٍ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَهْتَفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَالَهُ لَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾» فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَجْدُ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ فِرَاقِ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي عِبِيدَهُ - إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ»^(٢).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٢٦

الْمِيزَانِ

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَا إِنَّآ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٩﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٥٢﴾ وَهَذَا ذِكْرُ مَبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٧﴾ قَالُوا أَحِثِّثْنَا بِالْحَقِّ أَمْ آتَتْ مِنَ اللَّعِينِ ﴿٥٨﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٩﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٦٠﴾

وَهَذَا ذِكْرُ مَبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٣﴾

[إِنزَالُ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ]

قَدْ تَقَدَّمَ التَّيْبِيُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا، وَبَيْنَ كِتَابَيْهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْكِتَابَ^(٣). وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: التَّوْرَةُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: التَّوْرَةُ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا، وَمَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ^(٤). وَجَامِعُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى التَّصْرِيفِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالنَّجَى وَالرَّشَادِ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَعَلَى مَا يَحْصُلُ نُورًا فِي الْقُلُوبِ وَهُدَايَةً وَخَوْفًا وَإِنَابَةً وَخَشْيَةً،

(١) فتح الباري: ٥٤٧/١٣ ومسلم: ٢٠٧٢/٤ (٢) أحمد: ٦/٢٨٠ والترمذي: ٣١٦٥ إسناده ضعيف عند أحمد له إسناده في أحدهما أبو نوح قراد له أفراد وهذا منها. والثاني ضعيف لإبهام بعض رواية ولا يقطعها قال الدار قطني في "غرائب مالك" ليس بمحفوظ" (٣) الطبري: ٤٥٣/١٨ (٤) الطبري: ٤٥٣/١٨

سورة الأنبياء

٢٢٧

سورة الأنبياء

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الْفِرْقَانِ وَصِيَّاهُ وَذَكَرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَي: تذكيراً لهم وَعِظَةً، ثُمَّ وَصَفَهُمْ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَخْتَشُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ حَتَّى الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْتَشُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أَي: خَائِفُونَ وَجُلُونَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أَي: أَتَنَكَّرُونَهُ وَهُوَ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالظُّهُورِ؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَتَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٣﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِمِلْحِقٍ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٥﴾

[قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ آتَاهُ رُشْدَهُ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أَي: مِنْ صَغَرِهِ أَلْهَمَهُ الْحَقَّ وَالْحُجَّةَ عَلَى قَوْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] وَالْمَقْصُودُ هَهُنَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ آتَى إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ، أَي: مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أَي: وَكَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَتَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هَذَا هُوَ الرُّشْدُ الَّذِي أُوتِيَهُ مِنْ صَغَرِهِ: الْإِنْكَارُ عَلَى قَوْمِهِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: ﴿مَا هَذِهِ الْقَتَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أَي: مُعْتَكِفُونَ عَلَى عِبَادَتِهَا. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ سِوَى صَنِيعِ آبَائِهِمُ الضَّلَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَي: الْكَلَامُ مَعَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ احْتَجَجْتُمْ بِصَنِيعِهِمْ كَالْكَلَامِ مَعَكُمْ، فَأَنْتُمْ وَهُمْ فِي ضَلَالٍ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، فَلَمَّا سَفَهَ أَخْلَامَهُمْ وَضَلَّلَ آبَاءَهُمْ وَاحْتَقَرَ إِلَهَتَهُمْ ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِمِلْحِقٍ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ يَقُولُونَ: هَذَا الْكَلَامُ الصَّادِرُ عَنْكَ، تَقَوْلُهُ لِأَبِيٍّ أَمْ مُحِقًّا فِيهِ، فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ بِهِ قَبْلَكَ ﴿قَالَ بَلْ زَكَّيْتُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ أَي: رَبُّكُمْ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا حَوَتْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي

ابْتَدَأَ خَلْقَهُنَّ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَي: وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَابَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَمْ يَعْلَمُوا إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَكَلْتُمْ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَعْلَمُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴿٦٣﴾

[كَسْرُ الْخَلِيلِ الْأَصْنَامِ]

ثُمَّ أَقْسَمَ الْخَلِيلُ قَسَمًا أَسْمَعَهُ بَعْضُ قَوْمِهِ: لَيَكِيدَنَّ أَصْنَامَهُمْ أَي: لَيَحْرِصَنَّ عَلَى إِذَاهُمْ وَتَكْسِيرِهِمْ بَعْدَ أَنْ يُولُوا مُدْبِرِينَ، أَي: إِلَى عِيدِهِمْ، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا خَرَجَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عِيدِهِمْ مَرُّوا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَلَا تَخْرُجُ مَعَنَا؟ قَالَ: إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَدْ كَانَ

بِالْأَمْسِ قَالَ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِبِينَ﴾
فَسَمِعَهُ نَاسٌ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَحَلَّهُمْ جُدَادًا﴾ أَي: حُطَامًا كَسَرَهَا كُلَّهَا،
﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ يَعْنِي إِلَّا الصَّنَمَ الْكَبِيرَ عِنْدَهُمْ، كَمَا
قَالَ: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرَبًا بِالْمِيزِ﴾ [الصفات: ٩٣]. وَقَوْلُهُ:
﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذَكَرُوا أَنَّهُ وَضَعَ الْقُدُومَ فِي يَدِ
كَبِيرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْتَفِدُونَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَارَ لِنَفْسِهِ، وَأَيْفَ أَنْ
تُعَدَّ مَعَهُ هَذِهِ الْأَصْنَامُ الصَّغَارُ فَكَسَرَهَا ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا
بِإِلَهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: حِينَ رَجَعُوا وَشَاهَدُوا مَا
فَعَلَهُ الْخَلِيلُ بِأَصْنَامِهِمْ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ الدَّالِّ عَلَى
عَدَمِ إِلَهِيَّتِهَا، وَعَلَى سَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ
هَذَا بِإِلَهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: فِي صَنِيعِهِ هَذَا ﴿قَالُوا
سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ أَي: قَالَ مَنْ سَمِعَهُ -
يُخْلِيفُ إِنَّهُ لَيَكِيدُهُمْ - ﴿سَمِعْنَا فَتَى﴾ أَي: شَابًا،
﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا فَأَنُؤُا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ﴾ أَي: عَلَى
رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي الْمَلَا الْأَكْبَرِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ،
وَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَكْبَرُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ
يُبَيِّنَ فِي هَذَا الْمَحْفَلِ الْعَظِيمِ كَثْرَةَ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةَ عَقْلِهِمْ فِي
عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ، الَّتِي لَا تَنْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا ضَرًّا، وَلَا
تَمْلِكُ لَهَا نَصْرًا، فَكَيْفَ يُطَلَّبُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؟ ﴿قَالُوا
أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كِبَرُهُمْ
هَذَا، يَعْنِي الَّذِي تَرَكَهُ - لَمْ يَكْسِرْهُ - ﴿فَسَتَلَوْهُمْ إِنْ
كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُبَادِرُوا مِنْ تَلْقَاءِ
أَنْفُسِهِمْ فَيَعْتَرِفُوا أَنَّهَمْ لَا يَنْطِقُونَ، وَأَنَّ هَذَا لَا يَصُدُّرُ عَنْ
هَذَا الصَّنَمِ لِأَنَّهُ جَمَادٌ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكْذِبْ غَيْرَ ثَلَاثٍ: نِسْتَيْنِ
فِي ذَاتِ اللَّهِ، قَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كِبَرُهُمْ هَذَا﴾، وَقَوْلُهُ:
﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ - قَالَ: - وَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ فِي أَرْضِ جَبَّارٍ مِنَ
الْجَبَابِرَةِ وَمَعَهُ سَارَةٌ، إِذْ نَزَلَ مِنْزَلًا، فَأَتَى الْجَبَّارَ رَجُلٌ
فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ هَهُنَا رَجُلٌ بِأَرْضِكَ مَعَهُ امْرَأَةٌ أَحْسَنُ
النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ؟
قَالَ: هِيَ أُخْتِي. قَالَ: فَادْهَبْ فَأَرْسِلْ بِهَا إِلَيَّ، فَانْطَلَقَ
إِلَى سَارَةَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ قَدْ سَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ
أَنَّكَ أُخْتِي، فَلَا تُكْذِبِينِي عِنْدَهُ، فَإِنَّكَ أُخْتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ،

وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، فَانْطَلَقَ بِهَا
إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ فَرَأَاهَا أَهْوَى
إِلَيْهَا فَتَنَاوَلَهَا فَأَخَذَ أَخْذًا شَدِيدًا، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا
أُضْرِكْ، فَدَعَتْ لَهُ فَأَرْسَلَ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا فَتَنَاوَلَهَا، فَأَخَذَ
بِمِثْلِهَا أَوْ أَشَدَّ، فَفَعَلَ ذَلِكَ الثَّلَاثَةَ فَأَخَذَ، فَذَكَرَ مِثْلَ
الْمَرْتَبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ فَلَا أُضْرِكْ، فَدَعَتْ لَهُ
فَأَرْسَلَ، ثُمَّ دَعَا أَدْنَى حُجَابِهِ فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ،
وَلَكِنَّكَ أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، أَخْرَجَهَا وَأَعْطَاهَا هَاجِرًا. فَأَخْرَجَتْ
وَأَعْطَيْتْ هَاجِرًا، فَأَقْبَلَتْ، فَلَمَّا أَحَسَّ إِبْرَاهِيمُ بِمَجِيئِهَا
انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَالَ: مَهْمٌ. قَالَتْ: كَفَى اللَّهُ كَيْدَ
الْكَافِرِ الْفَاجِرِ، وَأَخَذَنِي هَاجِرًا. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ:
فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ: تِلْكَ أُمَّكُمْ يَا
بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ ^(١).

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ثُمَّ
نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٩﴾ قَالَ
أَفْعَبُدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٢٠﴾ أَوِ
لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾

[اعتراف القوم بعجز الألهة ووعظ إبراهيم]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لَهُمْ مَا
قَالَ: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي: بِالْمَلَامَةِ فِي عَدَمِ
احْتِرَازِهِمْ وَحِرَاسَتِهِمْ لِإِلَهَتِهِمْ، ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ
الظَّالِمُونَ﴾ أَي: فِي تَرْكِكُمْ لَهَا مُهْمَلَةً لَا حَافِظَ عِنْدَهَا
﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أَي: ثُمَّ أَطْرَفُوا فِي الْأَرْضِ
فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. قَالَ قَتَادَةُ:
أَذْرَكَ الْقَوْمَ حَيْرَةً سَوْءًا، فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ
يَنْطِقُونَ﴾. وَقَالَ الشَّدِيدِيُّ: ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أَي
فِي الْفِتْنَةِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَي فِي الرَّأْيِ، وَقَوْلُ قَتَادَةَ
أَطْرَفُ فِي الْمَعْنَى، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ حَيْرَةً وَعَجْزًا،
وَلِهَذَا قَالُوا لَهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فَكَيْفَ
تَقُولُ لَنَا سَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَا
تَنْطِقُ؟ فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ:
﴿أَفْعَبُدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾
أَي: إِذَا كَانَتْ لَا تَنْطِقُ، وَهِيَ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، فَلِمَ
تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ ﴿أَوِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَوْطَاءُ آئِنْتُهُ حُكَمَا وَعِلْمًا وَنَجْنِيَّتُهُ مِنَ الْقُرْبَىٰ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ ﴿٧٧﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾ وَنُوْحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾ وَنَضْرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٠﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّ آئِنَاتِ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٨٢﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَسَلَيْمَانَ الَّرِيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨٤﴾

فَكَادَهُمُ اللَّهُ وَتَجَاهَهُ مِنَ النَّارِ، فَعَلُّبُوا هُنَالِكَ .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٧﴾ وَلَوْطَاءُ آئِنْتُهُ حُكَمَا وَعِلْمًا وَنَجْنِيَّتُهُ مِنَ الْقُرْبَىٰ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ ﴿٧٧﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾﴾

[هَجْرَةُ خَلِيلِ اللَّهِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَهُ لُوطٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ سَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ نَارِ قَوْمِهِ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُهَاجِرًا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قَالَ عَطَاءُ

(١) القرطبي: ٣٠٣/١١ (٢) الطبري: ٤٦٥/١٨ (٣) فتح الباري: ٧٧/٨ (٤) الطبري: ٤٦٦/١٨ (٥) الطبري: ١٨/١٨ (٦) الطبري: ٤٦٧/١٨ (٧) الطبري: ٤٦٧/١٨

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَي: أَفَلَا تَتَدَبَّرُونَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ الْعَلِيظِ الَّذِي لَا يَرُوجُ إِلَّا عَلَىٰ جَاهِلٍ ظَالِمٍ فَاجِرٍ . فَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَالزَّمَهُمْ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ... الْآيَةَ [الأنعام: ٨٣] .

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٧﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٨﴾﴾

[إِلْقَاءُ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ وَتَصَرُّفِ اللَّهِ فِيهَا]

لَمَّا دَخَسَتْ حُجَّتُهُمْ وَبَانَ عَجْزُهُمْ وَظَهَرَ الْحَقُّ وَانْدَفَعَ الْبَاطِلُ عَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِ مُلْكِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا جِدًّا، قَالَ السُّدِّيُّ: حَتَّىٰ إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمْرَضُ فَتَنْذِرُ إِنْ عُوِيَتْ أَنْ تَحْمِلَ حَطَبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي جَوْثِيٍّ مِنَ الْأَرْضِ وَأَصْرَمُوهَا نَارًا، فَكَانَ لَهَا شَرٌّ عَظِيمٌ وَلَهَبٌ مُرْتَفِعٌ لَمْ تُوقَدْ نَارٌ قَطُّ مِثْلَهَا، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِفَّةِ الْمُنْجِنِيِّ بِإِشَارَةِ رَجُلٍ مِنْ أَغْرَابِ فَارِسَ مِنَ الْأَكْرَادِ (١) . - قَالَ شُعَيْبُ الْجَبِّيُّ، اسْمُهُ هَيْزَلٌ - فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا أَلْقَوْهُ قَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (٢) . كَمَا رَوَاهُ الْحَارِثِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (٣) .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ - وَيُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا - قَالَ: لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ، جَعَلَ خَارِزِنَ الْمَطَرِ يَقُولُ: مَتَى أَوْمَرُ بِالْمَطَرِ فَأَرْسِلُهُ؟ قَالَ: فَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ أَسْرَعُ مِنْ أَمْرِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قَالَ: لَمْ يَبْقَ نَارٌ فِي الْأَرْضِ إِلَّا طُمِئَتْ (٤) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿وَسَلِّمًا﴾ لَأَدَّى إِبْرَاهِيمَ بَرْدَهَا (٥) .

وَقَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يَأْتِ يَوْمِيذِ دَابَّةٍ إِلَّا أَطْفَأَتْ عَنْهُ النَّارَ، إِلَّا الْوَرِغَ (٦) . وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِهِ، وَسَمَّاهُ فُؤَيْسِقًا (٧) . وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أَي: الْمَغْلُوبِينَ الْأَسْفَلِينَ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ كَيْدًا،

وَمُجَاهِدٌ: عَطِيَّةٌ^(١). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ^(٢) وَالْحَكَمُ بْنُ
 [عُتَيْبَةَ]^(٣): النَّافِلَةُ وَلَدُ الْوَالِدِ، يَعْنِي أَنَّ يَعْقُوبَ وَلَدُ
 إِسْحَاقَ، كَمَا قَالَ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ
 يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ:
 سَأَلَ وَاحِدًا، فَقَالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات:
 ١٠٠] فَأَعْطَاهُ اللَّهُ إِسْحَاقَ وَزَادَهُ يَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا
 صَالِحِينَ﴾ أَي: الْجَمِيعَ أَهْلَ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ
 أُمَّةً﴾ أَي: يُقَدِّدِي بِهِمْ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أَي: يَدْعُونَ إِلَى
 اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ
 وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ
 عَلَى الْعَامِّ ﴿وَكَانُوا لَنَا عَسِيدِينَ﴾ أَي: فَاعِلِينَ لِمَا يَأْمُرُونَ
 النَّاسَ بِهِ.

[ذِكْرُ لُوطٍ]

ثُمَّ عَطَفَ بِذِكْرِ لُوطٍ، وَهُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ. كَانَ
 قَدْ آمَنَ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّبَعَهُ وَهَاجَرَ مَعَهُ، كَمَا قَالَ
 تَعَالَى: ﴿فَتَمَنَّاهُ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾
 [العنكبوت: ٢٦] فَاتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَأَوْحَى إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ
 نَبِيًّا وَبَعَثَهُ إِلَى سُدُومَ وَأَعْمَالِيهَا، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، فَأَهْلَكَهُمْ
 اللَّهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَصَّ خَبْرَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ
 الْعَزِيزِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْفَرَجِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ
 الْفَجْرَةَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسَقِينَ﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا
 إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ
 الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾ وَصَرَّفْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَعْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

[ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِجَابَتِهِ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ حِينَ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ لَمَّا كَذَّبُوهُ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ
 فَأَنْصِرْ﴾ [القصص: ١٠] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ
 الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ ﴿٧٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا
 فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِذْ نَادَى
 مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أَي: الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ،
 كَمَا قَالَ: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا
 آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْكَرْبِ
 الْعَظِيمِ﴾ أَي: مِنَ الشَّدَةِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْأَدَى، فَإِنَّهُ لَبِثَ
 فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَكَانُوا يَتَّصِدُونَ لِأَدَاةِ
 وَيَتَوَاصُونَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ عَلَى خِلَافِهِ،
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَصَرَّفْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أَي: وَجَعَلْنَاهُ وَخَلَصْنَاهُ مُتَّصِرًا
 مِنَ الْقَوْمِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ
 فَأَعْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: أَهْلَكْنَاهُمْ اللَّهُ بِعَاقِبَةٍ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى
 وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدٌ، كَمَا دَعَا عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمٌ
 الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ فَهَمَّهَا سُلَيْمَانُ وَكُلًّا
 عَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ
 وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ
 بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ
 إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ
 الشَّيْطَانِ مَنْ يَعُوضُوكُمْ لَمْ يَعْمَلُوكُمْ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ

(١) الطبري: ٤٧١/١٨ (٢) الطبري: ٤٧١/١٨ (٣) الدر
 المشرور: ٦٤٣/٥

حَفِظْنَاهُ ﴿١٧﴾

[ذَكَرَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَمَا أوتِيَا مِنَ الْآيَاتِ وَذَكَرَ قِصَّةَ

نَفْسِ الْعَنَمِ فِي الزَّرْعِ]

قَالَ [أَبُو] إِسْحَاقُ عَنْ مَرَّةٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: كَانَ ذَلِكَ الْحَرْثُ كَرْمًا قَدْ تَدَلَّتْ عَنَاقِيدُهُ^(١). وَكَذَا قَالَ شُرَيْحُ^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّشْرُ الرَّغِي^(٣). وَقَالَ شُرَيْحٌ وَالزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ: النَّشْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللَّيْلِ^(٤). زَادَ قَتَادَةُ: وَالْهَمْلُ بِالنَّهَارِ^(٥). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ عَنَمٌ الْقَوْمِ﴾ قَالَ: كَرْمٌ قَدْ أُتْبِتَتْ عَنَاقِيدُهُ فَأَسَدَتْهُ، قَالَ: فَقَضَى دَاوُدُ بِالْعَنَمِ لِصَاحِبِ الْكُرْمِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: عَيْرٌ هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: تَدْفَعُ الْكُرْمَ إِلَى صَاحِبِ الْعَنَمِ فَيَقُومُ عَلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، وَتَدْفَعُ الْعَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْكُرْمِ فَيُصِيبُ مِنْهَا حَتَّى إِذَا كَانَ الْكُرْمُ كَمَا كَانَ، دَفَعْتَ الْكُرْمَ إِلَى صَاحِبِهِ، وَدَفَعْتَ الْعَنَمَ إِلَى صَاحِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾^(٦). وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَآءَنَا حُكْمًا وَعَلَّمَآءَ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ إِسْحَاقَ بْنَ مُعَاوِيَةَ لَمَّا اسْتَفْضَى أَنَاهُ الْحَسَنَ فَبَكَى، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ بَلَّغْنِي أَنَّ الْقَضَاةَ رَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَهُوَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ مَالَ بِهِ الْهُوَى، فَهُوَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ، فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ فِيمَا قَصَّ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَالْأَنْبِيَاءُ حُكْمًا يَرُدُّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ عَنْ قَوْلِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ عَنَمٌ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ فَأَنْتَى اللَّهُ عَلَى سُلَيْمَانَ وَلَمْ يَدْمِ دَاوُدَ، ثُمَّ قَالَ - يَعْنِي الْحَسَنُ -: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ عَلَى الْحُكْمِ ثَلَاثًا: لَا يَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَلَا يَتَّبِعُوا فِيهِ الْهُوَى، وَلَا يَخْشَوْنَ فِيهِ أَحَدًا، ثُمَّ ثَلَاثًا: ﴿يَبْدَأُ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهُوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُونَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِحَاثِيَتَيْكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤]^(٨).

قُلْتُ: أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَكُلُّهُمْ مَعْصُومُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ فَقَدْ تَبَّتْ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(٩). فَهَذَا الْحَدِيثُ يَرُدُّ نَصًّا مَا تَوَهَّمَهُ "إِيَّاسٌ" مِنْ أَنَّ الْقَاضِيَّ إِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِي الشَّنَنِ: «الْقَضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، وَقَاضِيَانِ فِي النَّارِ: رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى جَهْلِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِخِلَافِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ»^(١٠).

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ لُهُمَا، إِذْ جَاءَ الذُّبُّ فَأَخَذَ أَحَدَ الْإِبْنَيْنِ فَتَحَاكَمْتَا إِلَى دَاوُدَ، فَقَضَى بِهِ لِلْكَتْبِيِّ، فَخَرَجَتَا فَدَعَاهُمَا سُلَيْمَانُ فَقَالَ: هَاتُوا السُّكَيْنَ أَشَقُّهُ بَيْنَكُمَا: فَقَالَتِ الصُّغْرَى: يَرِحُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا لَا تَشَقُّهُ، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى»^(١١). وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا^(١٢)، وَتَوَبَّ عَلَيْهِ النَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ الْقَضَاةِ^(١٣): [بَابُ الْحَاكِمِ يُوهِمُ خِلَافَ الْحُكْمِ لِيَسْتَعْلِمَ الْحَقَّ].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾... وَالْآيَةُ، وَذَلِكَ لَطِيبٌ صَوْنُهُ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الزُّبُورِ، وَكَانَ إِذَا تَرْتَمَ بِهِ تَقَفَ الطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ فَتُحَاوِبُهُ، وَتَرُدُّ عَلَيْهِ الْجِبَالُ تَأْوِيًا، وَهَذَا لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَهُوَ يَتْلُو الْقُرْآنَ مِنَ اللَّيْلِ وَكَانَ لَهُ صَوْتٌ طَيِّبٌ جَدًّا، فَوَقَّفَ وَاسْتَمَعَ لِقِرَائَتِهِ، وَقَالَ: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لِحَبْرَتِهِ لَكَ تَحْيِيرًا^(١٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ

(١) الطبري: ٤٧٤/١٨ إسناده ضعيف أبو إسحاق مدلس ولم يصرح بالسماع (٢) الطبري: ٤٧٥/١٨ (٣) الطبري: ١٨/٤٧٧، ٤٧٨ (٤) الطبري: ٤٧٨، ٤٧٧/١٨ (٥) الطبري: ١٨/٤٧٧ (٦) الطبري: ٤٧٥/١٨ حكمه كسابقه (٧) الطبري: ١٨/٤٧٥ ضعيف كما مر. (٨) تهذيب تاريخ دمشق: ١٨٤/٣ وابن أبي حاتم: ٢٤٥٨/٨ (٩) البخاري: ٧٣٥٢ (فتح الباري ١٣/٣١٨) (١٠) أبو داود: ٣٥٧٣ في كتاب القضاء القاضي يخطيء وصححه الألباني (١١) أحمد: ٣٢٢/٢ (١٢) البخاري: ٦٧٦٩ ومسلم: ١٧٢٠ (١٣) النسائي في الكبرى: ٥٩٥٨ (١٤) فتح الباري: ٧١١/٨

وَمَنَازِلُ مُرْصِيَّةٍ، فَأَبْتَلِي فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ، ثُمَّ ابْتَلِي فِي جَسَدِهِ، وَأَفْرَدَ فِي نَاحِيَةِ مِنَ الْبَلَدِ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَخُونُ عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَتِهِ كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّهَا حَتَّاجَتْ، فَصَارَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلِأَمْثَلِ»^(١). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَاءِهِ»^(٢). وَقَدْ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَايَةً فِي الصَّبْرِ. وَبِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ

يَزِيدُ بْنُ مَيْسَرَةَ: لَمَّا ابْتَلَى اللَّهُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَهَابِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ لَهُ، أَحْسَنَ الذُّكْرَ، ثُمَّ قَالَ: أَحْمَدُكَ رَبُّ الْأَرْبَابِ، الَّذِي أَحْسَنْتَ إِلَيَّ، أَعْطَيْتَنِي الْمَالَ وَالْوَلَدَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ قَلْبِي شُعْبَةٌ إِلَّا قَدْ دَخَلَهُ ذَلِكَ، فَأَخَذْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنِّي، وَفَرَعْتَ قَلْبِي، فَلَيْسَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَيْءٌ، لَوْ يَعْلَمُ عَدُوِّي إِبْلِيسُ بِالَّذِي صَنَعْتَ حَسَنِي. قَالَ: فَلَقِيَّ إِبْلِيسُ مِنْ ذَلِكَ مُتَكْرِّمًا. قَالَ: وَقَالَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ أَعْطَيْتَنِي الْمَالَ وَالْوَلَدَ، فَلَمْ يَقُمْ عَلَيَّ بَابِي أَحَدٌ يَشْكُونِي لِظُلْمِ ظَلَمْتُهُ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، وَأَنْتَ كَانَ يُوطَأُ لِي الْفِرَاشُ فَأَتْرُكُهَا، وَأَقُولُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ، إِنَّكَ لَمْ تُخْلَقِي لِوَطْءِ الْفِرَاشِ. مَا تَرَكْتُ ذَلِكَ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهِكَ^(٣). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا عَافَى اللَّهُ أَيُّوبَ أَطْمَرَ عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ مِنْهُ بِيَدِهِ وَيَجْعَلُهُ فِي تَوْبِهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ أَمَا تَشْبَعُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَشْبَعُ مِنْ رَحْمَتِكَ». أَصْلُهُ فِي الصَّحِيحِينَ وَسَبَّأَتِي فِي مَوْضِعٍ آخَرَ^(٤).

وَقَوْلُهُ: «وَأَتَيْنَهُ أَهْلُهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: رُدُّوا عَلَيْهِ بِأَعْيَانِهِمْ^(٥). وَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا^(٦). وَرَوَى مِثْلَهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٍ، وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةَ^(٧). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ، إِنَّ أَهْلَكَ لَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ أَتَيْنَاكَ بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ تَرَكْنَاكَ لَكَ فِي الْجَنَّةِ وَعَوَضْنَاكَ مِنْهُمْ. قَالَ:

بِأَسْكُمُ ﴿ يَعْنِي صَنَعَةَ الدَّرُوعِ. قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّمَا كَانَتْ الدَّرُوعُ قَبْلَهُ صَفَائِحَ: وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَرَدَهَا حَلَقًا^(٨). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّاسُ لَهُ الْعَدِيدُ﴾ أَنْ أَمَلَّ سَيِّغَتِ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ ﴿سبأ: ١٠، ١١﴾ أَيُّ: لَا تَوْسَعُ الْحَلَقَةُ فَتَقْلِقُ الْمُسْمَارَةَ وَلَا تَغْلِظُ الْمُسْمَارَ فَتَقْدُ الْحَلَقَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يَعْنِي فِي الْقِتَالِ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أَيُّ: نِعِمَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، لِمَا أَلْهَمَ بِهِ عَبْدَهُ دَاوُدَ، فَعَلِمَهُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكُمْ؟

[سُلْطَنَةُ سُلَيْمَانَ لَا مِثَالَ لَهَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أَيُّ: وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ الْعَاصِفَةَ ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا﴾ يَعْنِي أَرْضَ الشَّامِ ﴿وَكُنَّا يَكُلُ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بِسَاطٌ مِنْ خَشَبٍ يُوضَعُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ وَالْحَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالْحَيَامِ وَالْجُنْدِ ثُمَّ يَأْمُرُ الرِّيحَ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَتَدْخُلُ تَحْتَهُ ثُمَّ تَحْمِلُهُ وَتَرْفَعُهُ وَتَسِيرُ بِهِ، وَتُظَلُّهُ الطَّيْرُ تَقِيهِ الْحَرَّ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَنْزِلُ وَتُوضَعُ آيَاتُهُ وَحَسْمُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجْمًا حَيْثُ أَسَابَ﴾ [ص: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَدُوَّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحَهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَعْصُونَكَ لَكُمْ﴾ أَيُّ: فِي الْمَاءِ يَسْتَخْرِجُونَ اللَّالِيَةَ وَالْجَوَاهِرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، ﴿وَيَعْلَمُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أَيُّ: غَيْرَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ [٣٧] وَمَاخِرِينَ مُفْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ [ص: ٣٧، ٣٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أَيُّ: يَحْرُسُهُ اللَّهُ أَنْ يَنَالَهُ أَحَدٌ مِنَ الشَّيْطَانِ بِسُوءٍ، بَلْ كُلُّ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتِ قَهْرِهِ، لَا يَتَجَسَّرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الدُّنُوِّ إِلَيْهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، بَلْ هُوَ يَحْكُمُ فِيهِمْ، إِنْ شَاءَ أَطْلَقَ، وَإِنْ شَاءَ حَبَسَ مِنْهُمْ مَنْ يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَاخِرِينَ مُفْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٢١] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَفَفْنَا مَا بِيَهُ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

[ذِكْرُ أَيُّوبَ]

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الدُّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأَوْلَادٌ كَثِيرَةٌ

(١) الطبري: ٤٨٠/١٨. (٢) الطبراني: ٢٤٦، ٢٤٥/٢٤ (٣) أحمد: ١٨٠/١ (٤) حلية الأولياء: ٢٣٩/٥ (٥) ابن أبي حاتم: ٢٤٦١/٨ (٦) الطبري: ٥٠٧، ٥٠٦/١٨ (٧) الطبري: ٥٠٧، ٥٠٦/١٨ (٨) الطبري: ٥٠٧، ٥٠٦/١٨

يُونُسَ فَأَبَوْا أَنْ يُلْفُوهُ، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا فَأَبَوْا، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفوات: ١٤١] أَيْ: وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ، فَقَامَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ، ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ - فِيمَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ - حُوتًا يَشُقُّ الْبِحَارَ حَتَّى جَاءَ فَالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا تَأْكُلْ لَهُ لَحْمًا وَلَا تَهْتُمُ لَهُ عَظْمًا، فَإِنَّ يُونُسَ لَيْسَ لَكَ رِزْقًا وَإِنَّمَا بَطْنُكَ يَكُونُ لَهُ سِجْنًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ بِعَنَى الْحُوتِ صَحَبَتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ بِهَذِهِ التَّسْبِيَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: لِقَوْمِهِ^(٢): ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: نُضَيِّقُ عَلَيْهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ. يُرْوَى نَحْوُ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِهِمْ^(٣). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَاسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ظَلَمْتُه بَطْنِ الْحُوتِ وَظَلَمْتُه الْبَحْرُ وَظَلَمْتُه اللَّيْلُ^(٤). وَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَمْرٍو بْنِ مَيْمُونٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَالضَّحَّاكِ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ^(٥). وَقَالَ سَالِمُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ: ظَلَمْتُه حُوتٍ فِي بَطْنِ حُوتٍ آخَرَ فِي ظَلَمَةُ الْبَحْرِ^(٦). قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُمَا: وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ الْحُوتُ فِي الْبِحَارِ يَشُقُّهَا حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ، فَسَمِعَ يُونُسُ تَسْبِيحَ الْحَصَى فِي قَرَارِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَهَذَا قَالَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧). وَقَالَ عَوْفُ الْأَعْرَابِيِّ: لَمَّا صَارَ يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ حَرَكَ رَجُلِيهِ، فَلَمَّا تَحَرَّكَتْ سَجَدَ مَكَانَهُ، ثُمَّ نَادَى يَا رَبِّ، انْتَحَذْتُ لَكَ مَسْجِدًا فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ^(٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أَيْ: أَخْرَجْنَاهُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ وَتِلْكَ الظُّلُمَاتِ ﴿وَكَذَلِكَ نُشِجِي

لَا، بَلْ أَتْرَكْنَاهُمْ لِي فِي الْجَنَّةِ، فَتَرَكُوا لَهُ فِي الْجَنَّةِ وَعَوَّضَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا. قَوْلُهُ: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أَيْ: فَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِهِ ﴿وَذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: وَجَعَلْنَاهُ فِي ذَلِكَ قُدُورَةً لِقَلَّا يَظُنُّ أَهْلَ الْبَلَاءِ إِنَّمَا فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِيَهْوَانِهِمْ عَلَيْنَا، وَلِيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَقْدُورَاتِ اللَّهِ وَابْتِلَائِهِ لِعِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ.

﴿وَأَسْمِعِمْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٩٥)

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٩٦)

[ذِكْرُ إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذِي الْكِفْلِ]

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَالْمُرَادُ بِهِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، وَكَذَا إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمَّا ذُو الْكِفْلِ، فَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَا قَرُنَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَهُوَ نَبِيٌّ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا، وَكَانَ مَلِكًا عَادِلًا، وَحَكَمًا مُقْسِطًا. وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ^(١). فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٩٧) فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٩٨)

[ذِكْرُ يُونُسَ]

هَذِهِ الْفِيضَةُ مَذْكُورَةٌ هَا هُنَا وَفِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ وَفِي سُورَةِ «ت»، وَذَلِكَ أَنَّ يُونُسَ بَنَ مَتَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةِ نِينَوَى، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَرْضِ الْمُؤَصِّلِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَتَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ، وَوَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ ثَلَاثِ، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذَلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْذِبُ، خَرَجُوا إِلَى الصَّخْرَاءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيَهُمْ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَأَوْلَادِهِنَّ، ثُمَّ تَصَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجَارُوا إِلَيْهِ، وَرَعَتِ الْإِبِلُ وَفُضِّلَتْهَا، وَحَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا، وَنَعَتِ الْعَنَمُ وَسَخَّلَتْهَا، فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَعَمْنَا لِإِعْتِبَارِهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وَأَمَّا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَكَرَبَ مَعَ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ فَلَجَجَتْ بِهِمْ، وَخَافُوا أَنْ يُعْرِقُوا فَاتَّقَرَعُوا عَلَى رَجُلٍ يُلْفُوهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَحَفَّمُونَ مِنْهُ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى

(١) الطبري: ٥٠٧/١٨ (٢) الطبري: ٥١١/١٨ (٣) الطبري:

١٨/٥١٤، ٥١٥ (٤) القرطبي: ٣٣٣/١١ (٥) الطبري: ١٨/٥١٦، ٥١٧ (٦) الطبري: ٥١٧/١٨ (٧) ابن أبي شيبة: ١١/٥٤١

٥٧٨/١٣ (٨) الطبري: ٥١٨/١٨

سُورَةَ مَرْيَمَ، وَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ أَيْضًا، وَهَهُنَا أَخْصَرُ مِنْهَا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أَيُّ: خَفِيَّةٌ عَنْ قَوْمِهِ ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أَيُّ: لَا وَلَدَ لِي وَلَا وَاِرْتَ يَقُومُ بَعْدِي فِي النَّاسِ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دَعَاءٌ وَتَنَاءٌ مُنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ رُوحَهُ﴾ أَيُّ: إِمْرَأَتُهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَتْ عَاقِرًا لَا تَلِدُ فَوَلَدَتْ (٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أَيُّ: فِي عَمَلِ الْقُرْبَاتِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ: رَغَبًا فِيمَا عِنْدَنَا، وَرَهَبًا مِمَّا عِنْدَنَا (٥). ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ مُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ (٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُؤْمِنِينَ حَقًّا (٧). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: خَائِفِينَ (٨). وَقَالَ أَبُو سَيَانَ: الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا: ﴿خَشِيعِينَ﴾ أَيُّ: مُتَوَاضِعِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: ﴿خَشِيعِينَ﴾ أَيُّ: مُتَذَلِّلِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (٩). وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ.

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا

وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

[ذَكَرَ عِيسَىٰ وَمَرْيَمَ الصَّادِقَةَ]

هَكَذَا يَذْكُرُ تَعَالَىٰ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا عِيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ زَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَيَذْكُرُ أَوَّلًا قِصَّةَ زَكَرِيَّا ثُمَّ يَتْبَعُهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ، لِأَنَّ تِلْكَ مَرْبُوطَةٌ بِهِذِهِ، فَإِنَّهَا إِيجَادٌ وَلَدٌ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ، وَمِنْ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ عَاقِرٍ لَمْ تَكُنْ تَلِدُ فِي حَالِ شَبَابِهَا، ثُمَّ يَذْكُرُ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَهِيَ أَعْجَبُ، فَإِنَّهَا إِيجَادٌ وَلَدٌ مِنْ أُنْثَىٰ بِلَا ذَكَرٍ، هَكَذَا وَقَعَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَفِي سُورَةِ مَرْيَمَ، وَهَهُنَا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا ثُمَّ أَتَبَعَهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ يَقُولُهُ: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا﴾ يَعْنِي مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التَّحْرِيمِ: ١٢].

الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ: إِذَا كَانُوا فِي الشَّدَائِدِ وَدَعَوْنَا مُبَيِّنِينَ لِنَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا دَعَوْا بِهَذَا الدُّعَاءِ فِي حَالِ الْبَلَاءِ، فَقَدْ جَاءَ التَّرغِيبُ فِي الدُّعَاءِ بِهِ عَنْ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ ابْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَمَلَأَ عَيْنِيهِ مِنِّي ثُمَّ لَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَأَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ حَدَّثَ فِي الْإِسْلَامِ شَيْءٌ - مَرَّتَيْنِ - قَالَ: لَا، وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: لَا، إِلَّا أَنِّي مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ أَنِفًا فِي الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلَأَ عَيْنِيهِ مِنِّي، ثُمَّ لَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، قَالَ: فَأَرْسَلَ عُمَرَ إِلَىٰ عُثْمَانَ فَدَعَا، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَكُونَ رَدَدْتَ عَلَيَّ أَحْيَاكَ السَّلَامَ؟ قَالَ: مَا فَعَلْتُ، قَالَ سَعْدٌ: قُلْتُ: بَلَى، حَتَّى حَلَفَ وَحَلَفْتُ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ ذَكَرَ فَقَالَ: بَلَى، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، إِنَّكَ مَرَرْتَ بِي أَنِفًا وَأَنَا أُحَدِّثُ نَفْسِي بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَا وَاللَّهِ مَا ذَكَرْتُهَا قَطُّ إِلَّا تَغَشَى بَصْرِي وَقَلْبِي غِشَاوَةٌ، قَالَ سَعْدٌ: فَأَنَا أَنْتَبْتُ بِهَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ لَنَا: أَوَّلَ دَعْوَةٍ... ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَشَعَلَهُ حَتَّى قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاتَّبَعْتُهُ، فَلَمَّا أَشْفَقْتُ أَنْ يَسْبِقَنِي إِلَىٰ مَنْزِلِهِ صَرَبْتُ بِقَدَمِي الْأَرْضَ، فَالْتَمَتُ إِلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟ أَبُو إِسْحَاقَ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَمَهْ؟» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ إِلَّا أَنْتَ ذَكَرْتَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ. ثُمَّ جَاءَ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ فَشَعَلَكَ، قَالَ: «نَعَمْ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ» (١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ (٢).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ دَعَا بِدُعَاءِ يُوسُفَ، اسْتَجِيبَ لَهُ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: يُرِيدُ بِهِ ﴿وَكَذَلِكَ نُنْفِخُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٤) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ رُوحَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (٥)

[ذَكَرَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا حِينَ طَلَبَ أَنْ يَهَبَهُ اللَّهُ وَلَدًا يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ

(١) أحمد: ١٧٠/١ (٢) تحفة الأحوزي: ٤٧٩/٩ والنسائي في الكبرى: ١٦٨/٦ مختصرًا (٣) الحاكم: ٥٨٤/٢ (٤) الطبري: ١٨/٥٢٠ (٥) تفسير الثوري: ٢٠٤ (٦) الطبري: ١٦/٢ (٧) الطبري: ١٦/٢ (٨) الطبري: ١٦/٢ (٩) الكشاف: ١٣٣/٣ والبعوي: ٢٦٧/٣ وابن أبي شيبه: ٥٨٠/١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٠

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أَي: دَلَالَةً عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِنَجْعَلُكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

﴿إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهًا بِمَا لَزِمَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَافِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَحَرَمٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٥﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْبِلُونَا فَذَكَّرْنَا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٦﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٧﴾ لَوْ كُنَّا هُنَّ أَوْآلَاءَ آلِهَةٍ مَا وَرَدُّوهُمَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَةُ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ ﴿١٠٠﴾

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْبِلُونَا فَذَكَّرْنَا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٦﴾ [لَا يَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ هَلَكٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَمٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَجَبَ، يَعْنِي قَدْ قَدَّرَ أَنَّ أَهْلَ كُلِّ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكُوا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. هَكَذَا صَرَّحَ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَقَتَادَةُ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ (٣).

[ذَكَرُوا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قَدْ قَدَّمْنَا: أَنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ هُمْ مِنْ نَسْلِ نُوحٍ أَيْضًا مِنْ أَوْلَادِ يَافَثَ، أَي: أَبِي الثَّرَكِ، وَالثَّرَكُ شِرْذِمَةٌ مِنْهُمْ، ثَرَكُوا مِنْ وَرَاءِ السِّدِّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ، وَقَالَ: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاهُ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي

يَضِيعُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ﴾. وَحَرَمٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾

[النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يَقُولُ: دِينُكُمْ دِينٌ وَاحِدٌ (١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: بَيَّنَّ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ وَمَا يَأْتُونَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: سُنَّتُكُمْ سُنَّةً وَاحِدَةً، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ هَذِهِ﴾ إِنْ وَأَسْمُهَا، وَ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خَيْرٌ إِنْ، أَي: هَذِهِ شَرِيعَتُكُمْ الَّتِي بَيَّنَّتْ لَكُمْ وَوَضَّحَتْ لَكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نَضَبٌ عَلَى الْحَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿بَنَاتِيَا أَرْسَلْنَا كَلْبًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَحَنُّنٌ مَعَاشِرِ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادٌ عِلَّالٌ، دِينُنَا وَاحِدٌ» (٢).

يَعْنِي أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ لَا شَرِيكَ لَهُ بِشَرَائِعَ مُتَوَعَّجَةٍ لِرُسُلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: ائْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ عَلَى رُسُلِهَا، فَمِنْ بَيْنِ مُصَدِّقٍ لَهُمْ وَمُكَذِّبٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كُلُّ إِلَهًا لِّنَسَائِكَ رَجِعُونَ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجَازِي كُلُّ بِحَسَبِ عَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أَي: قَلْبُهُ مُصَدِّقٌ، وَعَمَلُهُ عَمَلًا صَالِحًا ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] أَي: لَا يُكْفَرُ سَعِيهِ، وَهُوَ عَمَلُهُ، بَلْ يُشْكِرُ، فَلَا يُظْلَمُ بِمُقَالَ ذَرَّةً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَافِرُونَ﴾ أَي: يُكْتَبُ جَمِيعُ عَمَلِهِ فَلَا يَضِيعُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.

﴿وَحَرَمٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾

(١) الطبري: ٥٢٣/١٨ (٢) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٣) البغوي: ٢٦٨/٣ والطبري: ٥٢٥/١٨ والرازي: ١٩١/٢٢

حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ... الآية [الكهف: ٩٨، ٩٩] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكُرَيْمَةِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِمَّنْ كَلِمًا حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] أَي: يُسْرِعُونَ فِي الْمَسِي إِلَى الْفَسَادِ. وَالْحَدَبُ: هُوَ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ وَالثَّوْرِيُّ وَعَبْرُهُمْ^(١). وَهَلِيهِ صِفَتُهُمْ فِي حَالِ خُرُوجِهِمْ، كَأَنَّ السَّمْعَ مَشَاهِدٌ لِذَلِكَ ﴿وَلَا يَبْنُوكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] هَذَا إِجْبَارٌ غَالِمٌ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، الَّذِي يَعْلَمُ عَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدٍ قَالَ: رَأَى ابْنَ عَبَّاسٍ صَبِيحًا يَتَزَوَّدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَلْعَبُونَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَكَذَا يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ^(٢). وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ خُرُوجِهِمْ فِي أَحَادِيثَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الشَّيْئَةِ النَّبَوِيَّةِ.

(فَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُمْ مِمَّنْ كَلِمًا حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فَيَعْتَشُونَ النَّاسَ، وَيَنْحَازُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَضْمُونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الْأَرْضِ، حَتَّىٰ إِنْ بَعْضُهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهْرِ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّىٰ يَتْرُكُوهُ يَابِسًا، حَتَّىٰ إِنْ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهْرِ يَقُولُ: قَدْ كَانَ هَهُنَا مَاءٌ مَرَّةً، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ، قَالَ قَائِلُهُمْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَعْنَا مِنْهُمْ، بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يَهْرُ أَحَدُهُمْ حَرَبَتَهُ، ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فترجع إليه مَحْضَبَةً دَمًا لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ، فَيَبْنِمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُودًا فِي أَعْنَاقِهِمْ كَنَعْفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِ، فَيُضْبِحُونَ مَوْتًا، لَا يَسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ، يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرُ مَا فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ؟ قَالَ: فَيَجْرَدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ، قَدْ أَوْطَنَهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتًا، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيُنَادِي: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَلَا أَتَشْرَوْنَ، إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَسْرَحُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَمَا يَكُونُ لَهُمْ رَعْيٌ إِلَّا لِحُومِهِمْ، فَتَشْكُرُ عَنْهُمْ كَأَحْسَنِ مَا شَكَرْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطٌّ^(٣)، وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ^(٤).

(الْحَدِيثُ الثَّانِي) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ النَّوَّاسِ

ابْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ عَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَعَ، حَتَّىٰ ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، [فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِنَا، فَسَأَلَنَاهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ الْعَدَاةَ فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّىٰ ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ] فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفِي عَلَيْكُمْ. فَإِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَكُلُّ امْرَأَةٍ حَاجِبِ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنَّهُ شَابٌّ جَعْدٌ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ حَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاتٌ يَمِينًا وَشِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ اتَّبِعُوا» - قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ؟ - قَالَ: «أَرَبُونَ يَوْمًا، يَوْمَ كَسَنَتِهِ، وَيَوْمَ كَسَنِهِ، يَوْمَ كَجُمُعَتِهِ، وَسَائِرِ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ كَسَنَتِهِ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؟ قَالَ: «لَا، أَفَدُّوْا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْعَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ» قَالَ: «فَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتَمْطُرُ، وَالْأَرْضَ فَتَنْبِتُ، وَتَرَوْحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، وَهِيَ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ ذُرَى، وَأَمَدُهُ خَوَاصِرٌ، وَأَسْبَعُهُ ضُرُوعًا، وَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبْعُهُ أَمْوَالُهُمْ فَيُضْبِحُونَ مُمَجَّلِينَ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ، وَيَمُرُّ بِالْحَرَبِيَّةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ، فَتَبْعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِبِ النَّخْلَ - قَالَ: - وَيَأْمُرُ بِرَجُلٍ فَيَقْتُلُ، فَيَضْرِبُهُ بِالسِّيفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَةً الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبَلُ إِلَيْهِ، يَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ، فَيَبْنِمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّةٍ وَمَشَقِّ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَأَضْعَا يَدَيْهِ عَلَى أَجْنِحَتِهِ مَلَكَيْنِ، فَيَبْعُهُ فَيَدْرِكُهُ فَيَقْتُلُهُ عِنْدَ بَابِ لُدِّ الشَّرْقِيِّ - قَالَ: - فَيَبْنِمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا مِنْ عِبَادِي لَا يَدَانِ لَكَ بِقَتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ مِمَّنْ كَلِمًا حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فَيَرْعَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَعْفًا فِي رِقَابِهِمْ، فَيُضْبِحُونَ

(١) الطبري: ٥٣٢/١٨ (٢) الطبري: ٥٢٨/١٨ (٣) أحمد:

٧٧/٣ (٤) ابن ماجه: ١٣٦٣/٢

فَرَسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَيَهْطُ عَيْسَى وَأَصْحَابُهُ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ بَيْتًا إِلَّا قَدْ مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْعَبُ عَيْسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُحْبِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ. قَالَ ابْنُ جَابِرٍ: فَحَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ السَّكْسَكِيُّ عَنْ كَعْبِ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ: فَطَرَحَهُمْ بِالْمَهْبِيلِ. قَالَ ابْنُ جَابِرٍ: فَقُلْتُ: يَا أَبَا يَزِيدَ، وَأَيْنَ الْمَهْبِيلُ؟ قَالَ: مَطْلَعُ الشَّمْسِ. قَالَ: «وَيُرْسِلُ اللَّهُ مَطْرًا، لَا يَكُنْ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ، أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَبْرُكَهَا كَالرَّلَقَةِ، وَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبَتِي تَمْرُكَ وَرُدِّي بَرَكَتِكَ، قَالَ: فَيَوْمَئِذٍ يَأْكُلُ النَّفْرُ مِنَ الرَّمَانَةِ فَيَسْتَظِلُّونَ بِحُفْنِهَا، وَيَبَارِكُ فِي الرَّسْلِ حَتَّى إِنْ اللَّفْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِتَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ تَكْفِي الْفَيْخِدَ، وَالشَّاةَ مِنَ الْعَنَمِ تَكْفِي أَهْلَ النَّبْتِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيحًا طَيِّبَةً، فَأَخَذَهُمْ تَحْتَ آبَائِهِمْ فَتَمْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُسْلِمٍ - أَوْ قَالَ: كُلِّ مُؤْمِنٍ - وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ تَهَارُجَ الْحُمْرِ، وَعَلَيْهِمْ تَقَوْمُ السَّاعَةِ»^(١)، انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٢) دُونَ الْبُخَارِيِّ، وَرَوَاهُ مَعَ بَقِيَّةِ أَهْلِ الشُّنَنِ مِنْ طَرَفٍ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣).

(الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ حَزْمَلَةَ، عَنْ خَالَتِهِ قَالَتْ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَاصِبٌ أَضْبَعُهُ مِنْ لَدَغَةِ عَقْرَبٍ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: لَا عَدُوَّ لَكُمْ. وَإِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ تَقَاتِلُونَ عَدُوًّا، حَتَّى يَأْتِيَ بِأَجُوجَ وَمَاجُوجَ عِرَاضَ الْوُجُوهِ، صِغَارَ الْعُيُونِ، صُهْبَ الشَّعَافِ، مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمَطْرَقَةُ»^(٤). وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ ابْنِ عَمْرٍو عَنْ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَزْمَلَةَ الْمُدَلِجِيِّ، عَنْ خَالَتِهِ لَهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ... فَذَكَرَهُ مِثْلَهُ سِوَاهُ^(٥).

وَقَدْ بَيَّنَّتْ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ يَحْيَى النَّبِيِّ الْعَتِيقِ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيُحْجَنَّ هَذَا الْبَيْتُ، وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ» انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ^(٦). وَقَوْلُهُ: «وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ» يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْأَهْوَالُ وَالزَّلَازِلُ وَالْبَلَابُ، أَرَفَتِ السَّاعَةُ وَافْتَرَبَتْ، فَإِذَا كَانَتْ وَوَقَعَتْ، قَالَ الْكَاظِرُونَ: هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَإِذَا هِيَ شَخْصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا» أَي: مِنْ

شِدَّةٍ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ ﴿يُؤْتِلْنَا﴾ أَي: يَقُولُونَ يَا وَتِلْنَا ﴿قَدْ كُنَّا فِي عَفْوٍ مِنْ هَذَا﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يَعْتَرِفُونَ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ مَا وَرَدُوهَا وَكُلُّ فِيهَا خَلِيدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ هُنَا يَوْمَ يَوْمِكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(١) أحمد: ٤/ ١٨١ (٢) مسلم: ٤/ ٢٢٥٠ (٣) أبو داود: ٤/ ٤٩٦ وتحفة الأحوذى: ٦/ ٤٩٩ والنسائي في الكبرى: ٦/ ٢٣٥ وابن ماجه: ٢/ ١٣٥٦ (٤) أحمد: ٥/ ٢٧١ (٥) ابن أبي حاتم: ٨/ ٢٤٦٧ (٦) أحمد: ٣/ ٢٧ والبخاري: ١٥٩٣

[المُشْرِكُونَ وَاللَّهُنَّهُمْ وَفُودُ جَهَنَّمَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطَبًا لِأَهْلِ مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأوثَانِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ: وَفُودُهَا. ^(١) يَعْنِي كَقَوْلِهِ: ﴿وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] وَفِي رَوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يَعْنِي حَطَبُ جَهَنَّمَ، بِالزُّنْجِيَّةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: حَطَبُهَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أَيُّ: مَا يُرْمَى بِهِ فِيهَا ^(٢). وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ ^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ أَيُّ: دَاخِلُونَ ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ آلِ اللَّهِ مَا وَرَدُوهَا﴾ يَعْنِي لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ وَالْأوثَانُ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً صَاحِبَةً، لَمَا وَرَدُوا النَّارَ وَمَا دَخَلُوهَا ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيُّ: الْعَابِدُونَ وَمَعْبُودَاتُهُمْ كُلُّهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَسَهْقٌ﴾ وَالزُّفِيرُ خُرُوجُ أَنْفَاسِهِمْ، وَالسَّهْقُ وَلُجُجٌ أَنْفَاسِهِمْ ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

[ذِكْرُ حَالِ السَّعْدَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: الرَّحْمَةُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: السَّعَادَةُ ﴿أُولَئِكَ عِنْدَ مُبْعَدُونَ﴾ ^(٤). لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَهْلَ النَّارِ وَعَذَابَهُمْ بِسَبَبِ شُرِكِهِمْ بِاللَّهِ، عَطَفَ بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ، وَأَسْلَمُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وَقَالَ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] فَكَمَا أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا، أَحْسَنَ اللَّهُ مَا بِهِمْ وَنَوَابِهِمْ، وَنَجَّاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَحَصَلَ لَهُمْ جَزِيلُ الثَّوَابِ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ عِنْدَ مُبْعَدُونَ﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴿أَيُّ: حَرِيقَهَا فِي الْأَجْسَادِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ فَسَلَّمَهُمْ مِنَ الْمَحْذُورِ وَالْمَرْهُوبِ، وَحَصَلَ لَهُمْ الْمَطْلُوبُ وَالْمَحْجُوبُ. يُقَالُ: نَزَلَتْ اسْتِثْنَاءً مِنَ الْمُعْبُودِينَ، وَخَرَجَ مِنْهُمْ عَزِيزٌ وَالْمَسِيحُ، كَمَا قَالَ حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَعْوَرُ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ وَعُثْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ

لَهَا وَرِدُونَ﴾ ثُمَّ اسْتَشْنَى فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ فَيُقَالُ: هُمْ الْمَلَائِكَةُ وَعِيسَى، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَابْنُ جُرَيْجٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ: وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي يَوْمًا مَعَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ، وَفِي الْمَسْجِدِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَفْحَمَهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ السَّهْمِيُّ حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزُّبَيْرِ: وَاللَّهِ مَا قَامَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لِابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنَّمَا وَلَا قَعْدَ، وَقَدْ زَعَمَ مُحَمَّدٌ أَنَا وَمَا تَعْبُدُ مِنْ آلِهَتِنَا هَذِهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَخَصَمْتُهُ، فَسَلُوا مُحَمَّدًا: كُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عِبَادَتُهُ؟ فَتَحَنَّنَ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْيَهُودَ نَعْبُدُ عَزْرِيًّا، وَالنَّصَارَى نَعْبُدُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ! فَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَرَأَوْا أَنَّهُ قَدْ احْتَجَّ وَخَاصَمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَهُوَ مَعَ مَنْ عِبَادَتُهُ، إِنَّهُمْ إِنَّمَا يُعْبَدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عِنْدَ مُبْعَدُونَ﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أَيُّ: عِيسَى وَعَزْرِيٌّ وَمَنْ عَبَدُوا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ الَّذِينَ مَضَوْا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، فَاتَّخَذَهُمْ مَنْ يُعْبُدُهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ، أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ. وَنَزَلَ فِيمَا يَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ يُعْبَدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَأَنَّهَمْ بَنَاتُ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْيُكَلِّمْهُنَّ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩] وَنَزَلَ فِيمَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِ عِيسَى وَأَنَّهُ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ،

(١) القرطبي: ٣٤٣/١١ (٢) الطبري: ٥٣٦/١٨ (٣) الطبري:

٥٣٦/١٨ (٤) الطبري: ٥٤١/١٨

وَعَجِبَ الْوَلِيدَ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنْ حُجَّجِهِ وَحُضُومِيهِ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا يَا أَلْهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَلًّا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ الْلِسَانَ قَلًا تَمَّتْ رَبَّهَا: [الزخرف: ٥٧-٦١] أَيْ: مَا وَضَعْتَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَسْقَامِ، فَكَفَى بِهِ دَلِيلًا عَلَى عِلْمِ السَّاعَةِ، يَقُولُ: ﴿فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ، خَطَأٌ كَبِيرٌ، لِأَنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا نَزَلَتْ خِطَابًا لِأَهْلِ مَكَّةَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ الَّتِي هِيَ جَمَادٌ لَا تَعْقِلُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ تَقْرِيبًا وَتَوْبِيخًا لِعِبَادِيهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فَكَيْفَ يُوَرَّدُ عَلَى هَذَا، الْمَسِيحُ وَعَزْرِي وَنَحْوَهُمَا مِمَّنْ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَمْ يَرْضَ بِعِبَادَةِ مَنْ عَبَدَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمَوْتُ. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ يَحْيَى بْنِ رَبِيعَةَ عَنْ عَطَاءٍ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ: بِالْفَرْعِ الْأَكْبَرِ الشَّفْعَةُ فِي الصُّورِ. قَالَهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (٢). وَأَبُو سَيْنَانَ سَعِيدُ بْنُ سِنَانَ الشُّبَّانِيُّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلَكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، تُسْأَلُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَيْ: فَأَمَلُوا مَا يَسْرُكُمُ.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٦١)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا حَتَمَهُ وَقَضَاهُ لِإِعْبَادِهِ الصَّالِحِينَ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَوَرَاثَةِ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وَقَالَ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ [غافر: ٥١] وَقَالَ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾

(١) ابن هشام: ٣٨٤/١ (٢) الطبري: ٥٤٢/١٨ (٣) فتح الباري: ٤٠٤/١٣ (٤) الطبري: ٥٤٣/١٨ (٥) الطبري: ١٨/٥٤٣ (٦) الطبري: ٥٤٣/١٨ (٧) أحمد: ٢٣٥/١ (٨) فتح الباري: ٢٩٢/٨ ومسلم: ٢١٩٤/٤

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٦١)

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٦١)

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا كَائِنُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْيَوْمِ وَالسَّنَوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَمِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ» انفرد به الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّيْنَا السِّجْلَ لِلْكِتَابِ﴾ الْمُرَادُ بِالسِّجْلِ الْكِتَابُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: السِّجْلُ: مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالصُّحُفِ،

[النور: ٥٥] وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا مَسْطُورٌ فِي الْكُتُبِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾. قَالَ الْأَعْمَشُ: سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فَقَالَ: الزَّبُورُ: التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الزَّبُورُ الْكِتَابُ^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ: الزَّبُورُ: الَّذِي أُنزِلَ عَلَى دَاوُدَ، وَالذِّكْرُ: التَّوْرَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الزَّبُورُ: الْكُتُبُ بَعْدَ الذِّكْرِ، وَالذِّكْرُ: أُمُّ الْكِتَابِ عِنْدَ اللَّهِ^(٣). وَكَذَا قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: هُوَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: هُوَ اللُّوحُ الْمَحْفُوظُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرُثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ قَالَ: أَرْضُ الْجَنَّةِ^(٤). وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالشَّعْبِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ وَأَبُو صَالِحٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالثَّوْرِيُّ^(٥) رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَدًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أَي: إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿بَلَدًا﴾: لِمَنْفَعَةٍ وَكِفَايَةٍ ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ عَبَدُوا اللَّهَ بِمَا شَرَعَهُ وَأَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ، وَاتَّرَوْا طَاعَةَ اللَّهِ عَلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَشَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ.

[مُحَمَّدٌ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ أَي: أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لَهُمْ كُلِّهِمْ، فَمَنْ قَبِلَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ وَشَكَرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ، سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ رَدَّهَا وَجَحَدَهَا خَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُونَهَا وَيَسْكُنُ الْفَرَارِ ﴿[إبراهيم: ٢٨، ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْقُرْآنِ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُبَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ: حَدَّثَنَا مَرْوَانَ الْفَرَارِيُّ عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ ابْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَدْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً». اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٦).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي قُرَّةِ الْكِنْدِيِّ قَالَ: كَانَ حُدَيْفَةُ بِالْمَدَائِنِ فَكَانَ يَذْكُرُ أَشْيَاءَ قَالَهَا رَسُولُ

فَإِنْ قِيلَ: فَأَيُّ رَحْمَةٍ حَصَلَتْ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ؟ فَالْجَوَابُ مَا رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، كُتِبَ لَهُ الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، عُوفِيَ مِمَّا أَصَابَ الْأَمَمَ مِنَ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ^(٩).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجِدُّ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [١٧٨] فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنِ آذَرْتُ أَقْرَبَ أُمَّرٍ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿[١٧٩] إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [١٨٠] وَإِنِ آذَرْتُ لَعَلَّهُ يَتَسَنَّاهُ وَمَنْعَ إِلَيْنَا حِينٌ ﴿[١٨١] قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [١٨٢]

[خُلَاصَةُ الْوَحْيِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجِدُّ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَي: مُتَّبِعُونَ عَلَى ذَلِكَ، مُسْتَسْلِمُونَ مُتْقَادُونَ لَهُ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي: تَرَكُوا مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أَي: أَعْلَمْتُكُمْ أَنِّي حَرَبٌ لَكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ حَرَبٌ لِي، بَرِيءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنِّي، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيضُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وَقَالَ: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةٌ فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أَي: لِيَكُنْ عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِبِنْدِ الْعَهْدِ عَلَى السَّوَاءِ،

(١) الطبري: ٥٤٧/١٨ (٢) الطبري: ٥٤٧/١٨ (٣) الطبري: ٥٤٧/١٨ (٤) الطبري: ٥٤٩/١٨ (٥) الطبري: ٥٤٩/١٨ (٦) مسلم: ٢٠٠٦/٤ (٧) أحمد: ٤٣٧/٥ (٨) أبو داود: ٤٥/٥ (٩) الطبري: ٥٥٢/١٨ إسناده ضعيف فيه راو لم يسم والمسعودي اختلط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كَيْفَ إِتَتْ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُنَادِيهِمْ كُلُّ مَرْصُوعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُذِّبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجُمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿٦﴾ فَيُؤْمِنُ بِوَعْدِ الرَّاقِعَةِ ﴿٧﴾ الْآيَةُ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ ﴿٨﴾ وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا... الْآيَةُ [الواقعة: ٤، ٥]، فَقَالَ قَائِلُونَ: هَذِهِ الزَّلْزَلَةُ كَاتِبَتْ فِي آخِرِ عُمْرِ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ أَحْوَالِ السَّاعَةِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ عَلْقَمَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن زَلْزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قَالَ: قَبْلَ السَّاعَةِ ﴿٣﴾. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَلِكَ هَوَلٌ وَفَزَعٌ وَزِلْزَالٌ وَبَلْبَالٌ، كَائِنَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ بَعْدَ الْقِيَامِ مِنَ الْقُبُورِ، وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَاحْتَجَّوْا بِأَحَادِيثَ:

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي بَعْضِ أَشْفَارِهِ، وَقَدْ تَمَاقُوتَ بَيْنَ [

وَهَكَذَا هَهُنَا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ مَدَدْنَاهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أَي: أَغْلَمْنَاكُمْ بِبِرَاعَتِي مِنْكُمْ وَبِرَاءَتِكُمْ مِنِّي، لِيُعْلِمَ بِذَلِكَ.

[لَا يَعْلَمُ وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدَ مَا تُوعَدُونَ﴾ أَي: هُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لِي بِقُرْبِهِ وَلَا بِبُعْدِهِ ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ مِنْ أَلْفِ قَوْلٍ وَيَعْلَمُ مَا نَكْتُمُونَ﴾ أَي: إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعَهُ، وَيَعْلَمُ مَا يُظْهِرُهُ الْعِبَادُ وَمَا يُسْرُونَ، يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ وَالضَّمَائِرَ، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَيَعْلَمُ مَا الْعِبَادُ غَامِلُونَ فِي أَجْهَارِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْقَلِيلِ وَالْجَلِيلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَي: وَمَا أَدْرَىٰ لَعَلَّ هَذَا فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَعَلَّ تَأْخِيرَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ^(١). وَحَكَاهُ عَوْْنٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قَالَ رَبِّ أَمْكُرْ بِالْحَقِّ﴾ أَي: إِفْصَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ. قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ ^(٢). وَعَنْ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا شَهِدَ قِتَالًا قَالَ: ﴿رَبِّ أَمْكُرْ بِالْحَقِّ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا الرَّحْمَنُ أَلْسْتَعَانُ عَلَنَ مَا نَفْسُونَ﴾ أَي: عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ مِنَ الْكُذْبِ وَيَتَوَعَّوْنَ فِي مَقَامَاتِ التَّكْذِيبِ وَالْإِلْفِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ [وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كَيْفَ إِتَتْ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُنَادِيهِمْ كُلُّ مَرْصُوعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

[أَهْوَالِ السَّاعَةِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا عِبَادَهُ يَتَوَعَّاهُ وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَزَلْزِلَتِهَا وَأَحْوَالِهَا، كَمَا قَالَ

(١) الطبري: ٥٥٤/١٨ (٢) ابن أبي حاتم (١٣٧٦٦) إسناده ضعيف وذكر ابن أبي حاتم بدون سند (٣) الطبري: ٥٥٧/١٨

حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أَرَاهُ قَالَ: - تِسْعِمَائَةِ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَتَشَبَّهُ الْوَالِدُ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فَسَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وَجُوهُهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ تِسْعِمَائَةِ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السُّودَاءِ فِي جَنْبِ النَّوْرِ الْأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ النَّوْرِ الْأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ: «سَطَرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا^(٥). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ^(٦). وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ^(٧).

وَالْأَحَادِيثُ فِي أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْآثَارُ كَثِيرَةٌ جِدًّا لَهَا مَوْضِعٌ آخَرٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أَيُّ: أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَحَطْبٌ جَلِيلٌ، وَطَارِقٌ مُفْطَعٌ، وَحَادِثٌ هَائِلٌ، وَكَائِنٌ عَجِيبٌ، وَالزَّلْزَالُ هُوَ مَا يَحْصُلُ لِلنُّفُوسِ مِنَ الرَّعْبِ وَالْفَزَعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰلِكَ أَتَّبِلِي الْمَوْتُونَ وَزُلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الاحزاب: ١١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَوْرَنُهَا﴾ هَذَا مِنْ بَابِ ضَمِيرِ الشَّانِ، وَلِهَذَا قَالَ مُفَسِّرًا لَهُ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أَيُّ: فَتَسْتَعْلِلُ لِهَوْلِ مَا تَرَى عَنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهَا، وَالتِّي هِيَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ، تَذْهَسُ عَنْهُ فِي حَالِ إِرْضَاعِهَا لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ وَلَمْ يَقُلْ: مُرْضِعٍ. وَقَالَ: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أَيُّ: عَنْ رَضِيعِهَا قَبْلَ فِطَامِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ أَيُّ: قَبْلَ تَمَامِهِ لِشِدَّةِ الْهَوْلِ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾ وَفَرَى

أَصْحَابِهِ السَّيْرِ، رَفَعَ بِهَا تَيْنِ الْآيَتَيْنِ صَوْتَهُ. ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يَوْمَ تَوْرَنُهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فَلَمَّا سَمِعَ أَصْحَابُهُ بِذَلِكَ حَثُوا الْمَطْيَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ عِنْدَ قَوْلِ يَقُولُهُ، فَلَمَّا دَنَا حَوْلَهُ قَالَ: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَاكَ؟ ذَاكَ يَوْمٌ يُنَادَى آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقُولُ: يَا آدَمُ ابْعَثْ بَعَثَكَ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمَائَةِ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ» قَالَ: فَأَلْسَنَ أَصْحَابُهُ حَتَّى مَا أَوْضَحُوا بِضَاحِكَةٍ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: «أَبْشِرُوا وَعَمَلُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنِّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ، مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا كَثَرَتَا: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ» قَالَ: فَسَرِّي عَنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: «إِعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبُعْبُعِ أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ»^(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢).

(طَرِيقٌ أُخْرَى) لِهَذَا الْحَدِيثِ. رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - «وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَاكَ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: - ذَلِكَ يَوْمٌ يَقُولُ اللَّهُ لِآدَمَ: ابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: تِسْعِمَائَةِ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ» فَأَنْشَأَ الْمُسْلِمُونَ يَتَكُونُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةً قَطُّ إِلَّا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهَا جَاهِلِيَّةٌ، قَالَ: فَيُؤْخَذُ الْعَدَدُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنْ تَمَّتْ، وَإِلَّا كَمَلَتْ مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ، وَمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْأُمَّمِ إِلَّا كَمَثَلِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ، أَوْ كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبُعْبُعِ» ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرُوا ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرُوا ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرُوا - ثُمَّ قَالَ: وَلَا أُدْرِي أَقَالَ الثَّلَاثِينَ أَمْ لَا^(٣) - . وَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٤). ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا: هَذَا

(١) أحمد: ٤٣٥/٤ (٢) تحفة الأحوذى: ١٢/٩ والنسائي في الكبرى: ٤١٠/٦ (٣) تحفة الأحوذى: ٩/٩ إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان وله شواهد كما ذكر المؤلف بعده (٤) أحمد: ٤٣٢/٤ (٥) فتح الباري: ٢٩٥/٨ (٦) فتح الباري: ٤٤٠/٦ (٧) مسلم: ٢٠١/١ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٠٩

وَالْأَجْسَادِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلِنَا خَلَقْتَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أَي: أَضَلُّ بَرِيءُ لَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أَي: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ.

[تَطَوُّرُ النُّطْفَةِ وَالْحَنِينِ فِي الرَّحِمِ]

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ تُرٌّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتِ النُّطْفَةُ فِي رَحِمِ الْمَرْأَةِ، مَكَثَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَذَلِكَ، يُضَافُ إِلَيْهِ مَا يَجْتَمِعُ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَتَلَبَّبُ عَلَقَةً حَمْرَاءَ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَتَمُكُّ كَذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَسْتَحِيلُ فَتَصِيرُ مُضْغَةً: قِطْعَةً مِنْ لَحْمٍ لَا سَكَلٌ فِيهَا وَلَا تَحْطِيطٌ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي التَّشْكِيلِ وَالتَّحْطِيطِ فَيُصَوِّرُ مِنْهَا رَأْسَ وَبِدَانَ وَصَدْرًا وَبَطْنَ وَفَخْدَانِ وَرِجْلَانِ وَسَائِرُ الْأَعْضَاءِ، فَتَارَةً تُسْقِطُهَا الْمَرْأَةُ قَبْلَ التَّشْكِيلِ وَالتَّحْطِيطِ، وَتَارَةً تُلْقِيهَا وَقَدْ صَارَتْ ذَاتَ سَكَلٍ وَتَحْطِيطٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أَي: كَمَا تَشَاهَدُونَهَا ﴿لِنَسَبٍ لَكُمْ وَنَقِيرٍ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَكَ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أَي: وَتَارَةً نَسْتَوِّرُ فِي الرَّحِمِ لَا تُلْقِيهَا الْمَرْأَةُ وَلَا تُسْقِطُهَا، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قَالَ: هُوَ السَّقَطُ مَخْلُوقٌ وَغَيْرُ مَخْلُوقٍ. فَإِذَا مَضَى عَلَيْهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا وَهِيَ مُضْغَةٌ، أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكًا إِلَيْهَا فَفَتَحَ فِيهَا الرُّوحَ وَسَوَّاهَا كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنٍ وَقُبْحٍ، وَذَكَرَ وَأُنْثَى، وَكَتَبَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، وَسَقِيَّ أَوْ سَعِيدٌ.

كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيَوْمِرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ، وَسَقِيَّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ»^(١).

[تَطَوُّرُ الْإِنْسَانِ مِنَ الطُّفُولَةِ إِلَى الشَّبَابِ]

وقوله: ﴿ثُمَّ نُحْرِمُكُمْ طِفْلًا﴾ أَي: ضَعِيفًا فِي بَدَنِهِ وَسَمِعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَوَاسِيهِ وَبَطْنِهِ وَعَقْلِهِ، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللَّهُ الْقُوَّةَ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيُلْطَفُ بِهِ وَيُحَنِّنُ عَلَيْهِ وَالِدَيْهِ فِي آثَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لِنَسْبُلْكُمْ أَشْدَكُكُمْ﴾ أَي:

(سَكْرَى) أَي: مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ صَارُوا فِيهِ، قَدْ دَهَشَتْ عُقُولُهُمْ، وَغَابَتْ أَدْهَانُهُمْ، فَمَنْ رَأَهُمْ حَسِبَ أَنَّهُمْ سُكَارَى ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿١﴾ كَيْبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَاتَّهَ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ

السَّعِيرِ ﴿٢﴾

[دَمٌ مُتَّبِعِي الشَّيْطَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى ذَاتًا لِمَنْ كَذَبَ بِالْبَعْثِ وَأَنْكَرَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، مُعْرِضًا عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ، مُتَّبِعًا فِي قَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِ وَكُفْرِهِ كُلِّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْحِجْرِ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْحَقِّ، الْمُتَّبِعِينَ لِلْبَاطِلِ، يَتْرُكُونَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَيَتَّبِعُونَ أَقْوَالَ رُؤُوسِ الضَّلَالَةِ الدَّعَاةِ إِلَى الْبِدْعِ بِالْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي شَأْنِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَي: عِلْمٌ صَحِيحٌ ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٢﴾ كَيْبَ عَلَيْهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: الشَّيْطَانُ^(١). يَعْنِي كَيْبَ عَلَيْهِ كِتَابَةُ قُدْرَتِهِ ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ أَي: اتَّبَعَهُ وَقَلَّدَهُ ﴿فَاتَّهَ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أَي: يُضِلُّهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَهْدِيهِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ، وَهُوَ الْحَارُّ الْمُؤَلِّمُ الْمُفْلِقُ الْمُرْعِجُ، وَقَدْ قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي النَّصْرِ بْنِ الْحَارِثِ^(٢)، وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣).

﴿يَتَّأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَسَبٍ لَكُمْ وَنَقِيرٍ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَكَ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَسْبُلْكُمْ أَشْدَكُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدِّدُ إِلَى أَوَّلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُتْبِعَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْمَلِكُ وَأَتَّهَى بِحُجِيِّ الْمَوْتِ وَأَتَّهَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

[دَلَالَةُ الْبَعْثِ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالنَّبَاتِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْمُخَالَفَ لِلْبَعْثِ الْمُنْكَرِ لِلْمَعَادِ، ذَكَرَ تَعَالَى الدَّلِيلَ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِمَا يَشَاهَدُ مِنْ بَدَنِهِ لِلْخَلْقِ فَقَالَ: ﴿يَتَّأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أَي: فِي شَكِّ ﴿مَنْ الْبَعْثِ﴾ وَهُوَ الْمَعَادُ، وَقِيَامُ الْأَرْوَاحِ

(١) المحرر الوجيز: ١٠٧/٤ (٢) الدر المنثور: ٨/٦ (٣)

الطبري: ٥٦٦/١٨ (٤) فتح الباري: ٤١٨/٦ ومسلم: ٤/

يَكْمَلُ الْقُوَى وَيَتَزَايِدُ، وَيَصِلُ إِلَى عُثْمَانَ الشَّبَابِ وَحُسْنِ الْمَطَهْرِ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْفِكُ﴾ أي: في حال شبابه وقواه ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وَهُوَ الشَّيْخُوخَةُ وَالْهَرَمُ، وَضَعْفُ الْقُوَى وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، وَتَنَاقُصُ الْأَحْوَالِ مِنَ الْخَرَفِ وَضَعْفِ الْفِكْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

[مِثَالٌ آخَرَ لِلْبُعْثِ مِنَ النَّبَاتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَدَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هَذَا دَلِيلٌ آخَرَ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْهَامِدَةَ، وَهِيَ الْمُفْجَلَةُ الَّتِي لَا يَبْنُثُ فِيهَا شَيْءٌ. وَقَالَ فَتَاةُ: غَيْرَاءُ مَثْهَسْمَةٌ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَيْتَةٌ ﴿فَلِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾ أي: فَإِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمَطَرَ ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي: تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ، وَحَيَّتْ بَعْدَ مَوْتِهَا، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارْتَفَعَتْ لِمَا سَكَنَ فِيهَا التُّرَى، ثُمَّ أَنْبَتَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْفُتُونِ مِنْ ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وَأَشْنَابِ النَّبَاتِ، فِي اخْتِلَافِ الْأَوَانِهَا وَطُعُومِهَا، وَرَوَائِحِهَا، وَأَشْكَالِهَا وَمَنَافِعِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾ أي: حُسْنِ الْمَنْظَرِ، طَيِّبِ الرِّيحِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: كَمَا أَحْيَا الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ وَأَنْبَتَ مِنْهَا هَذِهِ الْأَنْوَاعَ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: كَائِنَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا مِرْيَةَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: يُعِيدُهُمْ بَعْدَ مَا صَارُوا فِي قُبُورِهِمْ رَمًا وَيُوجِدُهُمْ بَعْدَ الْعَدَمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَدَسَّى خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلْ بِحَيْثُمَا أَلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتَهُ مِنْهُ نُفُودٌ﴾ [يس: ٧٨-٨٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يظْلِمَ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفْعَةَ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ نَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمِدَّ ذِرْبَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

اللَّهُ لَيْسَ يظْلِمُ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

[بَيَانُ حَالِ رُؤَسَاءِ الْمُتَبَدِّعِينَ وَالضَّالِّينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الضَّالِّينَ الْجُهَالِ الْمُتَبَدِّعِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ﴾ ذَكَرَ فِي هَذِهِ حَالَ الدُّعَاةِ إِلَى الضَّالِّينَ مِنْ رُؤُوسِ الْكُفْرِ وَالْبِدْعِ فَقَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي: بِلَا عَقْلٍ صَحِيحٍ، وَلَا تَقْلٍ صَحِيحٍ صَرِيحٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالْهَوَى. وَقَوْلُهُ: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: مُسْتَكْبِرٌ عَنِ الْحَقِّ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَفَتَاةُ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ أي: لِأَوِيِّ عُنُقِهِ وَهِيَ رَقَبَتُهُ، يَعْنِي يُعْرِضُ عَمَّا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَيُثْبِتِي رَقَبَتَهُ اسْتِكْبَارًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي مَوْجٍ إِذْ أَرْسَلْتَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ يَسُطِّرُنُ ثِينٍ﴾ ﴿قَوْلِي بِرُكْبَتِهِ﴾ ... الْآيَةُ [الذاريات: ٣٨،

فَرَسُهُ مَهْرًا حَسَنًا وَوَلَدَتْ إِمْرَأَتَهُ غُلَامًا رَضِيَ بِهِ، وَاطْمَأَنَّ
إِلَيْهِ، وَقَالَ: مَا أَصَبْتُ مُنْذُ كُنْتُ عَلَى دِينِي هَذَا إِلَّا خَيْرًا،
﴿وَأَنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ وَالْفِتْنَةُ: الْبَلَاءُ، أَيْ: وَإِنْ أَصَابَهُ وَجَعُ
الْمَدِينَةِ، وَوَلَدَتْ إِمْرَأَتَهُ جَارِيَةً، وَتَأَخَّرَتْ عَنْهُ الصَّدَقَةُ،
أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَصَبْتُ مُنْذُ كُنْتُ عَلَى دِينِكَ
هَذَا إِلَّا شَرًّا، وَذَلِكَ الْفِتْنَةُ^(٣). وَهَكَذَا ذَكَرَ فَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ
وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ
الآيَةَ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهَهُ﴾
أَيْ: إِزْتَدَّ كَافِرًا^(٥).

وقوله: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيْ: فَلَا هُوَ حَصَلَ مِنْ
الدُّنْيَا عَلَى شَيْءٍ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَقَدْ كَفَّرَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ
فِيهَا فِي غَايَةِ الشَّقَاءِ وَالْإِهَانَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ
هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ: هَذِهِ هِيَ الْخُسْرَاءُ الْعَظِيمَةُ
وَالصَّفَقَةُ الْخَاسِرَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، يَسْتَعِينُ
بِهَا وَيَسْتَنْصِرُهَا وَيَسْتَرْزُقُهَا، وَهِيَ لَا تَنْفَعُهُ وَلَا تَضُرُّهُ
﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ
مِنْ نَفْعِهِ﴾ أَيْ: ضَرَّهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، أَقْرَبُ مِنْ
نَفْعِهِ فِيهَا، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَضَرُّهُ مُحَقَّقٌ مُتَبَيَّنٌ. وَقَوْلُهُ:
﴿لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي
الْوَتْنَ^(٦). يَعْنِي يَسَّرَ هَذَا الَّذِي دَعَاهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَوْلَى،
يَعْنِي وَلِيًّا وَنَاصِرًا ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ وَهُوَ الْمُخَالِطُ
وَالْمُعَاشِرُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٧)

[جَزَاءُ الصَّالِحِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ أَهْلَ الصَّلَاةِ الْأَشْفِيَاءَ عَطَفَ بِذِكْرِ الْأَبْرَارِ
السُّعْدَاءِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَصَدَّقُوا إِيمَانَهُمْ
بِأَفْعَالِهِمْ، فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ،
وَتَرَكُوا الْمُتَنَكَّرَاتِ، فَأَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ سُكْنَى الدَّرَجَاتِ
الْعَالِيَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَضَلُّ
أَوْلِيكَ، وَهَدَى هَؤُلَاءِ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

(١) الطبري: ٥٧٦/١٨ (٢) فتح الباري: ٢٩٦/٨ (٣)
الطبري: ٥٧٥/١٨ حكم العوفي مرارًا (٤) الطبري: ١٨/
٥٧٦ (٥) الطبري: ٥٧٦/١٨ (٦) الطبري: ٥٧٩/١٨

[٣٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
وَالِى الرُّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾
[النساء: ٦١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ اللَّهِ لَوْأَوْ رُسُلُهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يُصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾
[المنافقون: ٥] وَقَالَ لَقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾
[لقمان: ١٨] أَيْ: تُمِيلُهُ عَنْهُمْ اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ، وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نُنْتَلَى عَلَيْهِ ءَأَلِنَا وَلَنْ مُسْتَكْبِرًا﴾... الْآيَةَ
[لقمان: ٧].

وقوله: ﴿يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا
الْمُعَانِدِينَ، أَوْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا أَنْ هَذَا الْفَاعِلُ لِهَذَا، إِنَّمَا
جَعَلَنَاهُ عَلَى هَذَا الْخُلُقِ الدِّينِيِّ لِتَجْعَلَهُ مِمَّنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ﴾ وَهُوَ الْإِهَانَةُ
وَالذُّلُّ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ لَقَاهُ اللَّهُ الْمَذَلَّةَ
فِي الدُّنْيَا، وَعَاقِبَهُ فِيهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهَا أَكْبَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ
عِلْمِهِ ﴿وَيُدْفِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٨) ذَلِكَ يَمَا قَدِمَتْ
يَدَاكَ﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُ هَذَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيحًا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
يُظْلِمُ لِّلْعَالَمِينَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ
الْحَبِيبِ﴾^(٩) ثُمَّ صَبُّوا قَوْقُ رَأْسِهِ، مِنْ عَذَابِ الْحَبِيبِ^(١٠) ذُقْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(١١) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ
[الدخان: ٤٧-٥٠].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْغِدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ
أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(١٢) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا
يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ^(١٣) يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ
نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ^(١٤)

[مَعْنَى الْعِبَادَةِ عَلَى حَرْفٍ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَفَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ عَلَى
شَكِّ^(١). وَقَالَ غَيْرُهُمْ: عَلَى طَرْفٍ، وَمِنْهُ حَرْفُ الْجَبَلِ
أَيْ: طَرْفُهُ، أَيْ: دَخَلَ فِي الدِّينِ عَلَى طَرْفٍ، فَإِنْ وُجِدَ مَا
يُحِبُّهُ اسْتَقَرَّ، وَإِلَّا انْتَمَرَ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
قَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْغِدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ
يَقْدَمُ الْمَدِينَةَ، فَإِنْ وُلِدَتْ امْرَأَتُهُ غُلَامًا وَوَبِحَتْ خَيْلُهُ قَالَ:
هَذَا دِينٌ صَالِحٌ، وَإِنْ لَمْ تَلِدْ امْرَأَتَهُ وَلَمْ تُنْتِجْ خَيْلَهُ قَالَ:
هَذَا دِينٌ سَوْءٌ^(٢).

وقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا قَدِمَ
الْمَدِينَةَ [لَوْهِيَ أَرْضٌ وَبَيْتَةٌ] فَإِنْ صَحَّ بِهَا جِسْمُهُ وَنَبِحَتْ

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ بَنُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِنَ كَيْدُهُ مَا يَعِظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

[لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ مَهْمَا عَاظَ عَدُوَّهُ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أَي: بِحَبْلِ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أَي: سَمَاءِ بَيْتِهِ ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ يَقُولُ: ثُمَّ لِيَحْتَنِقْ بِهِ ^(١). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءٌ وَأَبُو الْجَوْزَاءِ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ ^(٢). فَالْمَعْنَى مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ، فَلْيَذْهَبْ فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ، إِنْ كَانَ ذَلِكَ غَائِظُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ لَا مَحَالَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ الْآيَةُ [غافر: ٥١] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِنُ كَيْدُهُ مَا يَعِظُ﴾ قَالَ الشُّدِّيُّ: يَعْنِي مِنْ شَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ ^(٣). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَشْفِي ذَلِكَ مَا يَجِدُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْعَيْظِ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَي: وَاضِحَاتٍ فِي لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا، حُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أَي: يُفْصِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ فِي ذَلِكَ ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١٣] أَمَّا هُوَ فَلِحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَقَهْرِهِ وَعَظَمَتِهِ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجْسِمِينَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

[إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَ الْفِرْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالصَّابِقِينَ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ التَّعْرِيفَ بِهِمْ وَاخْتِلَافَ النَّاسِ فِيهِمْ، وَالنَّصَارَى وَالْمُجْسِمِينَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا فَعَبَّلُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ، فَيَدْخُلُ مَنْ آمَنَ بِهِ الْحِجَّةَ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ النَّارَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَىٰ أَفْعَالِهِمْ، حَفِيزٌ لِأَقْوَالِهِمْ، عَلِيمٌ بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٤

سُورَةُ الْحَجِّ

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجْسِمِينَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَا خِصْمَانِ أَخْصَمُوا فِي رَيْبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَهُمْ مَقْنَعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿١٨﴾

[كُلُّ شَيْءٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ يَسْجُدُ لِعَظَمَتِهِ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَسُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتِنُوا ظُلْمَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] وَقَالَ هُنَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ، وَالْحَيَوَانَاتِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ﴾

(١) الطبري: ٥٨١/١٨ (٢) الطبري: ٥٨٠-٥٨٣ (٣) الرازي: ١٥/١٣

الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ عَنْ أَبِي الْجَهْمِ أَنَّ عُمَرَ سَجَدَ
سَجْدَتَيْنِ فِي الْحَجِّ وَهُوَ بِالْحَابِيَةِ، وَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ فَضَّلَتْ
بِسَجْدَتَيْنِ^(٧). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ عُمَرُو بْنِ
الْعَاصِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَقْرَأَهُ حَمْسَ عَشْرَةَ سَجْدَةً فِي
الْقُرْآنِ، مِنْهَا ثَلَاثٌ فِي الْمَفْضَلِ، وَفِي سُورَةِ الْحَجِّ
سَجْدَتَانِ، فَهَذِهِ شَوَاهِدُ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا^(٨).

﴿ هَذَانِ حَصَانِ أَخْصَمُوا فِي رِيحِهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ
لَهُمْ شِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾^(٩) يَصْهَرُ
بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْمُجْلُودُ^(١٠) وَهُمْ مَقْتَبِعٌ مِنْ حديدٍ^(١١) كَلِمًا
أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ عَصٍ أَعِيدُوا فِيهَا وَدُفِقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ



[سَبَبُ النُّزُولِ]

بَنَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ قَسَمًا
أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ هَذَانِ حَصَانِ أَخْصَمُوا فِي رِيحِهِمْ ﴾ نَزَلَتْ فِي
حَمْرَةَ وَصَاحِبِيهِ، وَعُتْبَةَ وَصَاحِبِيهِ يَوْمَ بَرَزُوا فِي بَدْرٍ. لَفْظُ
الْبُخَارِيِّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا^(٩). ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ
أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ
لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ قَيْسٌ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ: ﴿ هَذَانِ
حَصَانِ أَخْصَمُوا فِي رِيحِهِمْ ﴾ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ:
عَلِيٌّ وَحَمْرَةُ وَعُتْبَةُ وَسَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ
ابْنُ عُتْبَةَ. إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ^(١٠).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَثَلُ
الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ اخْتِصَامًا فِي الْعُبْثِ، وَقَالَ - فِي رِوَايَةٍ هُوَ
وَعَطَاءٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ -: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ.

وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْكَافِرُونَ
وَالْمُؤْمِنُونَ، يَشْمَلُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا، وَيَنْتَظِمُ فِيهِ قِصَّةُ يَوْمِ بَدْرٍ
وَعَبْرَتُهَا، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُرِيدُونَ نُصْرَةَ دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،
وَالْكَافِرِينَ يُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ الْإِيمَانِ وَخِذْلَانَ الْحَقِّ
وظُهُورَ الْبَاطِلِ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَهُوَ حَسَنٌ.

﴿ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ عَلَى
التَّنْصِيصِ، لِأَنَّهَا قَدْ عُذِّتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا تَسْجُدُ
لِخَالِقِهَا وَأَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ مُسَخَّرَةٌ ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾... الْآيَةَ. وَفِي
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ،
ثُمَّ تَسْتَأْمِرُ فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ
جِئْتِ»^(١١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ
إِنِّي رَأَيْتُنِي اللَّيْلَةَ وَأَنَا نَائِمٌ، كَأَنِّي أَصْلِي خَلْفَ شَجَرَةٍ
فَسَجَدْتُ، فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ
تَقُولُ: اَللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعَّ عَنِّي بِهَا
وِزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَقَبَّلَتْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلَتْهَا
مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
سَجْدَةَ ثُمَّ سَجَدَ، فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ
عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ حِبَّانَ فِي
صَحِيحِهِ^(١٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَالذُّوَابُ ﴾ أَيُّ: الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا، وَقَدْ جَاءَ
فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ
اتِّخَاذِ ظُهُورِ الذُّوَابِ مَنَابِرَ، «فَوَبَّ مَرْكُوبَةٌ خَيْرٌ وَأَكْثَرُ
ذِكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ رَاكِبِهَا»^(١٣). وَقَوْلُهُ: ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ
النَّاسِ ﴾ أَيُّ: يَسْجُدُ لِلَّهِ طَوْعًا مُخْتَارًا مُتَعَبِّدًا بِذَلِكَ ﴿ وَكَثِيرٌ
حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أَيُّ: مِمَّنْ امْتَنَعَ وَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴿ وَمَنْ
يُنِهِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأَ
ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أَمَرَ
ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأَمَرْتُ بِالسُّجُودِ
فَأَبَيْتُ، فَلِي النَّارُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ
عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفْضَلَتْ
سُورَةُ الْحَجِّ عَلَى سَائِرِ الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْنِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَمَنْ
لَمْ يَسْجُدْ بِهِمَا فَلَا يَقْرَأُهُمَا» وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ^(١٥).

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَرَايِيلِ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ
رَجِمَهُ اللَّهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ
عَلَى سَائِرِ الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْنِ». ثُمَّ قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَقَدْ أُسْنِدَ
هَذَا، يَعْنِي مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ وَلَا يَصِحُّ^(١٦). وَرَوَى

(١) فتح الباري: ٣٤٢/٦، ومسلم: ١٣٨/١ (٢) تحفة
الأحادي: ١٨١/٣، وابن ماجه: ٣٣٤/١، وابن حبان: ١٩١/٤
(٣) أحمد: ٤٤١/٣ (٤) مسلم: ٨٧/١ (٥) الترمذي: ٥٧٨
(٦) أبو داود في المراسيل: ٧٨ (٧) البيهقي: ٣١٧/٢ (٨) أبو
داود: ١٤٠١، وابن ماجه: ١٠٧٥ (٩) فتح الباري: ٢٩٧/٨
ومسلم: ٢٣٢٣/٤ (١٠) فتح الباري: ٢٩٧/٨

[جَزَاءُ الْكَفَّارِ]

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾^(١) أَي: فَصَلَّتْ لَهُمْ مُقَطَّعَاتٌ مِّنَ النَّارِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مِّنْ نَّحَاسٍ، وَهُوَ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ حَرَارَةً إِذَا حَوِيَتْ^(٢). ﴿يَصُبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾^(٣) يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ أَي: إِذَا صَبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْحَمِيمَ لِيَصُبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَيَنْفُذُ الْجُمُحِمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ»^(٤). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّرِيِّ قَالَ: يَأْتِيهِ الْمَلَكُ يَحْمِلُ الْإِنَاءَ بِكَلْبَتَيْنِ مِّنْ حَرَارَتِهِ، فَإِذَا أَدَّاهُ مِنْ وَجْهِهِ تَكَرَّهَهُ، قَالَ: فَيَرْفَعُ مِقْمَعَةً مَعَهُ فَيَضْرِبُ بِهَا رَأْسَهُ فَيَفْرَغُ دِمَاعَهُ، ثُمَّ يَفْرَغُ الْإِنَاءَ مِنْ دِمَاعِهِ فَيَصِلُ إِلَى جَوْفِهِ مِنْ دِمَاعِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾^(٦).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ مَقَلِّعٌ مِّنْ حديدٍ﴾ قَالَ: يُضْرَبُونَ بِهَا، فَيَقَعُ كُلُّ عَضْوٍ عَلَى حِيَالِهِ فَيَدْعُونَ بِالثُّبُورِ^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: النَّارُ سَوْدَاءٌ مُّظْلِمَةٌ، لَا يَبْصُرُ لَهَا وَلَا جَمْرُهَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] وَمَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّهُمْ يَهَانُونَ بِالْعَذَابِ قَوْلًا وَوِعْلًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٨) يَكُونُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلَا وَلباسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ^(٩) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ^(١٠).

[جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ]

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ النَّيَابِ مِنَ النَّارِ، ذَكَرَ حَالِ

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ^(١١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظَلَمِ نُذُوقَهُ مِنْ عَذَابِ الْيَمْرِ^(١٢) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ^(١٣) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ^(١٤) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْهِيمَةٍ أَنْ يَنْفَعُوا مِنْهَا وَطَاعِمُونَ الْبَائِسَ الْفَقِيرَ^(١٥) ثُمَّ لَيَقْبَسُوا نَفْسَهُمْ وَلِيُوَفُّوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ^(١٦) ذَلِكَ وَمَنْ يَعِظْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، عِنْدَ رَبِّهِ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْبَاطِنَاتُ إِلَّا مَا بَيَّنَّا عَلَيْكُمْ فَأَحْتَسِبُوا الرَّحْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَأَحْتَسِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(١٧)

أَهْلِ الْجَنَّةِ نَسَأَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَّمَهُ [أَنْ يَدْخُلَنَا الْجَنَّةَ] فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: تَسْخَرُ فِي أَكْثَانِهَا وَأَرْجَائِهَا وَجَوَانِبِهَا وَتَحْتَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا، يَصْرَفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا ﴿يَكُونُ فِيهَا﴾ مِنَ الْجَلِيلَةِ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلَا﴾ أَي: فِي أَيْدِيهِمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُنْتَقَى عَلَيْهِ: «تَبْلُغُ الْجَلِيلَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(١٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فِي مُقَابَلَةِ نِيَابِ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي فَصَّلَتْ لَهُمْ، لِبَاسٌ هُوَ لِأَهْلِ النَّارِ إِسْتَبْرَقُهُ وَسُدْسِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿عَلَيْهِمْ نِيَابٌ سُنْبُ حُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوهَا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَعَنُهُمْ رُءُوسُهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾^(١٩) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرِّ جَزَاءً وَكَانَ سَعَنُهُمْ مَشْكُورًا وَفِي الصَّحِيحِ: «لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ

(١) الطبري: ٥٩٠/١٨ (٢) الطبري: ٥٩١/١٨ (٣) تحفة الاحوذى: ٣٠١/٧ (٤) الدر المنثور: ٢١/٦ (٥) الطبري: ٥٩٣/١٨ (٦) مسلم: ٢١٩/١

عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَهَذَا التَّرْكِيبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَطَمَعْنُ قُلُوبَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَّا يَنْكَرَ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] أَيْ: وَمِنْ صِفَتِهِمْ: أَنَّهُمْ تَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ.

[مَسْأَلَةٌ إِجَارِ بَيْتِ مَكَّةَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أَيْ: يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْوُضُوءِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ شَرْعًا سَوَاءً، لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْمُقِيمِ فِيهِ وَالنَّائِي عَنْهُ الْبَعِيدِ الدَّارِ مِنْهُ ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِوَاءُ النَّاسِ فِي رِبَاعِ مَكَّةَ وَسُكْنَاهَا. كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قَالَ: يَنْزِلُ أَهْلُ مَكَّةَ وَعَظِيمُهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أَهْلُ مَكَّةَ وَعَظِيمُهُمْ فِيهِ سَوَاءً فِي الْمَنَازِلِ، وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَابِطٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ: سَوَاءً فِيهِ أَهْلُهُ وَعَظِيمُ أَهْلِهِ. وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ هِيَ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا الشَّافِعِيُّ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ بِمَسْجِدِ الْحَيْفِ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ حَاضِرٌ أَيْضًا، فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنَّ رِبَاعَ مَكَّةَ تَمْلُكٌ وَتَوْرَثٌ وَتَوْجُرٌ، وَاحْتَجَّ بِحَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَزَلَ غَدَاً فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟ فَقَالَ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ؟» ثُمَّ قَالَ: «لَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ، وَلَا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ». وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٥). وَيَمَا ثَبَّتَ أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ اشْتَرَى مِنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ دَارًا بِمَكَّةَ، فَجَعَلَهَا سِجْنًا، بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَبِهِ قَالَ طَاوُسٌ وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ. وَذَهَبَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ إِلَى أَنَّهَا لَا تَوْرَثُ وَلَا تَوْجُرُ، وَهُوَ مَذْهَبُ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَنَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ، وَاحْتَجَّ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ بِمَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ نَضْلَةَ قَالَ: تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا تَدَعَى رِبَاعَ مَكَّةَ إِلَّا السَّوَابِثُ، مَنْ احْتَجَّ سَكَنَ، وَمَنْ اسْتَعْنَى أَسْكَنَ^(٦). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ

وَلَا الدِّيَابِجَ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مَنْ لَبَسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ^(١). قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: مَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْحَرِيرَ فِي الْآخِرَةِ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَأْسَأُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَأْنَاكُمْ بِدُخَانٍ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾^(٣) سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِيمَنْ عَفَى الدَّارَ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا أَشْيَاءٌ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] فَهَدُوا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَسْمَعُونَ فِيهِ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَلْقَوْنَ فِيهَا حَبَنَةً وَسَلَامًا﴾ لَا كَمَا يُهَانُ أَهْلُ النَّارِ بِالْكَلَامِ الَّذِي يُوبِّخُونَ بِهِ وَيَفْرَعُونَ بِهِ، يُقَالُ لَهُمْ: ﴿دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ: إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَحْمَدُونَ فِيهِ رَبَّهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَأَنْعَمَ بِهِ وَأَسَدَاهُ إِلَيْهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّهُمْ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ»^(٤) وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أَيْ: الْقُرْآنَ. وَقِيلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقِيلَ: الْأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ: الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا. وَكُلُّ هَذَا لَا يَنَافِي مَا ذَكَرْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْإِكْبَادِ يُغْلَبْ يُدْرِكُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(٥)

[الْوَعِيدُ لِمَنْ صَدَّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْكُفَّارِ فِي صَدِّهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ إِيْتَانِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَقَضَاءِ مَنَاسِكِهِمْ فِيهِ، وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ ﴿الْآيَةَ [الأنفال: ٣٤]، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مَدِينَةٌ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَقَالَ فِيهِ قُلُوبٌ قَاتَلَتْ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرُوا بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَيْ: وَمِنْ صِفَتِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أَيْ: وَيَصُدُّونَ

(١) مسلم: ١٦٤٢/٣ و١٦٣٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٥/

٤٦٥ (٣) مسلم: ٤/٢١٨٠، ٢١٨١ (٤) الطبري: ١٨/٥٩٦

(٥) البخاري: ٦٧٦٤ ومسلم: ١٦١٤ (٦) ابن ماجه: ٣١٠٧

رَفَعُوهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: سَمَّيْتُ الْخَادِمَ ظَلَمَ فَمَا فَوْقَهُ.

وَقَالَ حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاةِ

يُظَلِّمُهُ» قَالَ: الْمُحْتَكِرُ بِمَكَّةَ. وَكَذَا قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ. وَقَالَ

ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاةِ يُظَلِّمُهُ»

قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَيْسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ

مَعَ رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا مُهَاجِرٌ، وَالْآخَرُ مِنَ الْأَنْصَارِ،

فَافْتَحَرُوا فِي الْأَنْسَابِ فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي نَيْسٍ فَفَتَلَ

الْأَنْصَارِيَّ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ،

فَنَزَلَتْ فِيهِ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاةِ يُظَلِّمُهُ» يَعْنِي مَنْ لَجَأَ

إِلَى الْحَرَمِ بِالْحَدَاةِ، يَعْنِي بِمِثْلِ عَنِ الْإِسْلَامِ. وَهَذِهِ الْأَثَارُ

وَإِنَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْإِلْحَادِ، وَلَكِنْ هُوَ أَعْمٌ

مِنْ ذَلِكَ، بَلْ فِيهَا تَنْبِيهُ عَلَى مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْهَا، وَلِهَذَا لَمَّا

هَمَّ أَصْحَابُ الْفِيلِ عَلَى تَخْرِيْبِ الْبَيْتِ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

طَيْرًا أَبَايِلَ «تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿١﴾ فَعَلَّمَهُمْ كَيْفَ

تَأْكُلُونَ ﴿٢﴾ [الفيل: ٤، ٥] أَيْ: دَمَرَهُمْ وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا

لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ، وَلِذَلِكَ ثَبَّتَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ

اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَغْزَوُ هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بَيْنِيَاءَ

مِنَ الْأَرْضِ حُصِفَ بِأَوْلِيهِمْ وَأَخْرَجَهُمْ»... الْحَدِيثُ (٨).

«وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا

وَطَهِّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٣﴾ وَأَذِّنْ فِي

النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ

فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١٧﴾

[بِنَاءِ الْكُفْبَةِ وَالتَّأْدِينِ بِالْحَجِّ]

هَذَا فِيهِ تَفْرِيعٌ وَتَوْيِيحٌ لِمَنْ عَبْدَ غَيْرِ اللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مِنْ

فُرَيْشٍ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي أُسِّسَتْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ

وَعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَوَّأَ إِبْرَاهِيمَ

مَكَانَ الْبَيْتِ، أَيْ: أَرَشَدَهُ إِلَيْهِ وَسَلَّمَهُ لَهُ وَأَذِنَ لَهُ فِي بِنَائِهِ.

وَاسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِمَّنْ قَالَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ

مَنْ بَنَى الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْنِ قَبْلَهُ، كَمَا ثَبَّتَ فِي

الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي دَرٍّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْ مَسْجِدِ

وَضِعَ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيْ؟

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: لَا يَحِلُّ بَيْعُ دُورٍ مَكَّةَ وَلَا

كِرَاؤُهَا. وَقَالَ أَيْضًا عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ: كَانَ عَطَاءٌ يَنْهَى عَنِ

الْكِرَاءِ فِي الْحَرَمِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَنْهَى

عَنْ تَبْوِيبِ دُورٍ مَكَّةَ لِأَنَّ يَنْزِلَ الْحَاجُّ فِي عَرَصَاتِهَا، فَكَانَ

أَوَّلُ مَنْ بَوَّبَ دَارَهُ سَهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ

الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَنْظِرْنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. إِنِّي

كُنْتُ امْرَأًا تَاجِرًا، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذَ بَابَيْنِ يَحْبِسَانِ لِي

ظَهْرِي، قَالَ: فَكَذَلِكَ إِذَا. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ

مُجَاهِدٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ لَا تَتَّخِذُوا

لِدُورِكُمْ أَبْوَابًا، لِيَنْزِلَ الْبَادِي حَيْثُ يَسَاءُ (١). قَالَ: وَأَخْبَرَنَا

مَعْمَرُ عَمْرٍو سَمِعَ عَطَاءً يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: «سَوَاءَ الْعَدْلِكَ فِيهِ

وَالْبَادِي» قَالَ: يَنْزِلُونَ حَيْثُ شَاؤُوا. وَرَوَى الدَّارِقُطَنِيُّ عَنْ

عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مَوْفُوفًا: مَنْ أَكَلَ كِرَاءَ بَيْوتِ مَكَّةَ، أَكَلَ

نَارًا (٢).

وَتَوَسَّطَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ [فِيْمَا نَقَلَهُ صَالِحُ ابْنُهُ] فَقَالَ:

تَمَلَّكَ وَتَوَرَّتْ، وَلَا تُؤَجَّرُ جَمْعًا بَيْنَ الْأَدِلَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْوَعِيدُ لِمَنْ أَرَادَ الْإِلْحَادَ فِي الْحَرَمِ]

وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاةِ يُظَلِّمُهُ نُدْفَهُ مِنْ عَذَابِ

الْبَرِّ» قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: الْبَاءُ هَهُنَا

زَائِدَةٌ، كَقَوْلِهِ: «ثَبَّتُ بِالذَّهْنِ» [المؤمنون: ٢٠] أَيْ: ثَبَّتُ

الذَّهْنَ. وَكَذَا قَوْلُهُ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاةِ» تَقْدِيرُهُ

الْإِلْحَادُ، أَيْ: يَهْمُ فِيهِ بِأَمْرِ فَظِيحٍ مِنَ الْمَعَاصِي الْكِبَارِ.

وَقَوْلُهُ: «يُظَلِّمُهُ» أَيْ: عَامِدًا قَاصِدًا أَنَّهُ ظَلَمَ لَيْسَ بِمَتَأَوِّلٍ.

كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ التَّعَمُّدُ (٣).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «يُظَلِّمُهُ»

بِشْرِكِ (٤). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «يُظَلِّمُهُ» هُوَ أَنْ

تَسْتَحِلَّ مِنَ الْحَرَمِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ إِسَاءَةٍ أَوْ قَتَلَ،

فَتَظْلِمُ مَنْ لَا يَظْلِمُكَ، وَتَتَّكِلُ مَنْ لَا يَتَّكِلُكَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ

فَقَدْ وَجَبَ لَهُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «يُظَلِّمُهُ»

يَعْمَلُ فِيهِ عَمَلًا سَيِّئًا. وَهَذَا مِنْ حُصُوصِيَّةِ الْحَرَمِ أَنَّهُ

يُعَاقَبُ الْبَادِي فِيهِ الشَّرُّ، إِذَا كَانَ عَارِضًا عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ

يُوقِعْهُ، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ

بِعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاةِ يُظَلِّمُهُ»

قَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ فِيهِ بِالْحَدَاةِ يَظْلِمُ وَهُوَ بَعْدَ أَنْ يَبْنِي،

لَأَذَاقَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٦). وَرَوَاهُ أَحْمَدُ (٧). قُلْتُ:

هَذَا الْإِسْنَادُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، وَوَقْفُهُ أَشْبَهُ مِنْ

(١) الدر المنثور: ٤/٦٣٣ (٢) الدارقطني: ٢/٣٠٠ (٣)

الطبري: ١٨/٦٠١ (٤) الطبري: ١٨/٦٠٠ (٥) الطبري:

١٨/٦٠٠ (٦) الطبري: ١٨/٦٠١ (٧) أحمد: ١/٤٢٨ (٨)

فتح الباري: ٤/٣٩٧

قَالَ: «بَيْتُ الْمَقْدِسِ». قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»^(١). وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا... الْآيَاتِينَ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» [البقرة: ١٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى هُنَا: «أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا» أَي: ابْنِهِ عَلِيٍّ إِسْمِي وَحَدِي «وَطَهِّرَا بَيْتِي» قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ: مِنْ الشُّرِكِ^(٢). «لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» أَي: إِجْعَلُهُ خَالِصًا لِلْهَلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَالطَّائِفُ بِهِ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ أَحْصَى الْعِبَادَاتِ عِنْدَ الْبَيْتِ، فَإِنَّهُ لَا يُفْعَلُ بِمَقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ سِوَاهَا «وَالْقَائِمِينَ» أَي: فِي الصَّلَاةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» فَفَرَنَ الطَّوَّافُ بِالصَّلَاةِ لِأَنَّهُمَا لَا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُتَخَصِّصِينَ بِالْبَيْتِ، فَالطَّوَّافُ عِنْدَهُ وَالصَّلَاةُ إِلَيْهِ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ، إِلَّا مَا اسْتُنْتَبِى مِنَ الصَّلَاةِ عِنْدَ اسْتِنَاةِ الْقِبْلَةِ، وَفِي الْحَرْبِ، وَفِي النَّاقِلَةِ فِي السَّفَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ» أَي: نَادِ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الْحَجِّ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَمْرُنَاكَ بِبِنَائِهِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَبْلَغُ النَّاسَ وَصَوْتِي لَا يَنْفَعُهُمْ؟ فَقَالَ: نَادِ وَعَلَيْنَا الْبَلَاغُ، فَقَامَ عَلَى مَقَامِهِ، وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ قَدْ اتَّخَذَ بَيْنَنَا فَحْجُوهَ، فَيُقَالُ: إِنَّ الْجِبَالَ تَوَاصَعَتْ حَتَّى بَلَغَ الصَّوْتُ أَرْجَاءَ الْأَرْضِ، وَأَسْمَعُ مَنْ فِي الْأَرْحَامِ وَالْأَصْلَابِ، وَأَجَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ سَمِعَهُ مِنْ حَجْرٍ وَمَدْرٍ وَسَجْرٍ، وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهُ يَحُجُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. وَهَذَا مَضْمُونُ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ^(٣) وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. أوردَهَا ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مَطْوَلَةً.

وَقَوْلُهُ: «يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ» الْآيَةَ، قَدْ يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْحَجَّ مَا شِئًا لِمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ أَفْضَلَ مِنَ الْحَجِّ رَاكِبًا، لِأَنَّهُ قَدَّمَهُمْ فِي الذِّكْرِ، فَدَلَّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِهِمْ، وَقُوَّةِ هِمْمِهِمْ وَشِدَّةِ عَزْمِهِمْ، وَقَالَ وَكَيْعٌ عَنْ أَبِي الْعَمِيَسِ، عَنْ أَبِي حَلْحَلَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا أَسَاءَ عَلَيَّ شَيْءٌ إِلَّا أَنِّي وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَاجِبًا مَا شِئًا، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: «يَأْتُوكَ رِجَالًا»^(٤). وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ: أَنَّ

الْحَجَّ رَاكِبًا أَفْضَلُ، إِفْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ حَجَّ رَاكِبًا مَعَ كَمَالِ قُوَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْلُهُ: «يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فِجٍّ» يَعْنِي طَرِيقًا، كَمَا قَالَ: «وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجْجًا سُبُلًا» [الأنبياء: ٣١] وَقَوْلُهُ: «عَمِيَقٍ» أَي: بَعِيدٍ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَالشُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالثَّوْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٥). وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ قَالَ فِي دُعَائِهِ: «فَاجْعَلْ أُمَّتِي مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» [إبراهيم: ٣٧] فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَهُوَ يَحِنُّ إِلَى رُؤْيَةِ الْكَعْبَةِ وَالطَّوَّافِ، فَالنَّاسُ يَقْصِدُونَهَا مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَفْطَارِ.

«لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَاطْعَمُوا السَّائِسَ الْفَقِيرَ»^(٦) ثُمَّ لَيْفَضُوا نَفْسَهُمْ وَلِيُفَوِّا نُدُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَمِيَقِ^(٧)

[في الحج منافع الدارين]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَ لَهُمْ» قَالَ: مَنَافِعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا مَنَافِعُ الْآخِرَةِ فِرِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا فَمَا يُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِعِ الْبَدَنِ، وَالذَّبَائِحِ وَالتَّجَارَاتِ^(٨). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّهَا مَنَافِعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٩). كَقَوْلِهِ: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ» [البقرة: ١٩٨]. وَقَوْلُهُ: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» قَالَ شُعْبَةُ وَهَشِيمٌ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عُبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ: أَيَّامُ الْعَشْرِ^(١٠). وَعَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ بِصِغَةِ الْجَزْمِ بِهِ^(١١). وَرَوَى بِمِثْلِهِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَعَطَاءَ، وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، وَالْحَسَنِ، وَالضَّحَّاكَ، وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيِّ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ^(١٢).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ» قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ فِي

(١) فتح الباري: ٦/٤٦٩، ٦/٣٧٠ (٢) الطبري: ١٨/٦٠٤ (٣) الطبري: ١٨/٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧ (٤) الدر المنثور: ٣٥/٦ (٥) الطبري: ١٨/٦٠٨ (٦) الطبري: ١٨/٦٠٩ (٧) الطبري: ١٨/٦٠٩ (٨) فتح الباري: ٢/٥٣١، ٢/٤ (٩) فتح الباري: ٢/٥٣١ (١٠) الطبري: ١٨/٦١٠ (١١) والرازي: ٢٦/٢٣

السَّحْبِ؟ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فَإِنَّ آخِرَ الْمَنَاسِكِ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ^(١٤).

قُلْتُ: وَهَكَذَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى مَنَى يَوْمَ النَّحْرِ بَدَأَ بِرِيْبِي الْجَمْرَةَ، فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ، ثُمَّ نَحَرَ هَدْيَهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ، ثُمَّ أَفَاضَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: أَمِيرُ النَّاسِ أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِهِمْ بِالْبَيْتِ الطَّوَافَ إِلَّا أَنَّهُ حُفَّتْ عَنِ الْمَرْأَةِ الْحَائِضِ^(١٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ، لِأَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنْ كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ أَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَيْتِ حِينَ قَصَرَتْ بِهِمُ التَّمَقُّةُ، وَلِهَذَا طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ وَأَخْبَرَ: أَنَّ الْحِجْرَ مِنَ الْبَيْتِ، وَلَمْ يَسْتَلِمِ الرُّكْنَيْنِ الشَّامِيَيْنِ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَتِمَّا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ الْعَتِيقَةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قَالَ: لِأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ^(١٦). وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ^(١٧). وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، لِأَنَّهُ أُعْتِقَ يَوْمَ الْغَرْقِيِّ زَمَانَ نُوحٍ. وَقَالَ خُصَيْفٌ: إِنَّمَا سُمِّيَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ لِأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ قَطُّ.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ حَرٌّ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا بَدَّلَ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَّتْ لَلَّهِ عَيْرٌ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣١﴾﴾

[الْأَجْرُ عَلَى اجْتِنَابِ الْمَعَاصِي]

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ فِي آدَاءِ الْمَنَاسِكِ وَمَا يَلْقَى عَلَيْهَا مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: وَمَنْ يَجْتَنِبْ مَعَاصِيَهُ، وَمَحَارِمَهُ

سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ يَخْرُجُ يُحَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ»^(١١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثَرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ»^(١٢). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَكَانَ ابْنُ عَمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ يَخْرُجَانِ إِلَى السُّوقِ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ فَيُكَبِّرَانِ وَيُكَبِّرُ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِمَا^(١٣).

وَهَذَا الْعَشْرُ مُشْتَمِلٌ عَلَى يَوْمِ عَرَفَةَ الَّذِي ثَبَتَ [فِي] صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ، فَقَالَ: «أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكْفَرَ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ»^(١٤). وَيَشْتَمِلُ عَلَى يَوْمِ النَّحْرِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْحُجِّ الْأَكْبَرِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ: أَنَّهُ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يَعْنِي الْإِبِلَ وَالْبَقَرُ وَالْعَنَمَ، كَمَا فَضَّلَهَا تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿تَمَكِّنِيهِ أَرْوِجِ﴾ الْآيَةَ [الأنعام: ١٤٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبِائِسَ الْفَقِيرَ﴾ كَمَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَحَرَ هَدْيَهُ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ فَطَبَخَ، فَأَكَلَ مِنْ لَحْمِهَا وَحَسَا مِنْ مَرَقِهَا^(١٥).

قَالَ هُشَيْمٌ عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قَالَ: هِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] ﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]^(١٦). وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْبِائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَيْهِ الْبُؤْسُ، وَهُوَ الْفَقِيرُ الْمُتَعَفِّفُ^(١٧). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ يَدَهُ^(١٨). وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا نَفْسَهُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ وَضِعَ الْإِحْرَامَ، مِنْ حَلَقِ الرَّأْسِ، وَبَسِ الثِّيَابِ، وَقَصَّ الْأُظْفَارِ، وَنَحَوَ ذَلِكَ^(١٩). وَهَكَذَا رَوَى عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ عَنْهُ^(٢٠). وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيُّ^(٢١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي نَحْرًا مَا نَدَّرَ مِنْ أَمْرِ الْبَدَنِ^(٢٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الطَّوَافَ الْوَاجِبَ يَوْمَ النَّحْرِ^(٢٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْتَرَأُ سُورَةَ

(١) فتح الباري: ٥٣٠/٢ (٢) أحمد: ٧٥/٢ (٣) البخاري: العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق. (٤) مسلم: ٢/ ٨١٩ (٥) أحمد: ٣١٤/١ (٦) الطبري: ٦١١/١٨ (٧) الطبري: ٦١٢/١٨ (٨) الطبري: ٦١٢/١٨ (٩) الطبري: ٦١٣/١٨ (١٠) الطبري: ٦١٠/١٨ (١١) الطبري: ٦١٠/١٨ (١٢) الطبري: ٦١٤/١٨ (١٣) الدر المنثور: ٦٤٣/٤ (١٤) ابن أبي حاتم: ٢٤٩٠/٨ (١٥) فتح الباري: ٦٨٤/٣ ومسلم: ٩٦٣/٢ (١٦) القرطبي: ٥٢/١٢ (١٧) الطبري: ٦١٥/١٨

وَيَكُونُ ارْتِكَابُهَا عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أَي: فَلَهُ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَتَوَابٌ جَزِيلٌ، فَكَمَا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ تَوَابٌ كَثِيرٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ، كَذَلِكَ عَلَى تَرْكِ الْمُحْرَمَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ.

[حَلَّةُ الْأَنْعَامِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أَي: أَحَلَّلْنَا لَكُمْ جَمِيعَ الْأَنْعَامِ ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْدِهِ وَلَا سَابِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أَي: مِنْ تَحْرِيمِ النَّمِيَّةِ وَالذَّمِّ وَلَحْمِ الْحَنْزِيرِ ﴿وَمَا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْحَقَةُ﴾... [الآية المائدة: ٣] قَالَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَحَكَاهُ عَنْ قَتَادَةَ (١).

[الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الشَّرِكِ وَالْكَذِبِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ مِنْ هُنَا لِيَبَانَ الْحَنْسِ، أَي: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ، وَقُرِنَ الشَّرِكُ بِاللَّهِ بِقَوْلِ الزُّورِ. كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وَمِنْهُ شَهَادَةُ الزُّورِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُتْبِعُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَايِرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَغُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مَتَكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ». فَمَا زَالَ يَكْرُرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ (٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُرَيْمِ بْنِ قَاتِكِ الْأَسَدِيِّ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِمًا فَقَالَ: «عَدِلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾ أَي: مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مُنْحَرِفِينَ عَنِ الْبَاطِلِ قُضْدًا إِلَى الْحَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ ثُمَّ ضَرَبَ لِلْمُشْرِكِ مَثَلًا فِي ضَلَالِهِ وَهَلَاكِهِ وَبُعْدهِ عَنِ الْهُدَى، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَي: سَقَطَ مِنْهَا ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطُّيُورُ﴾ أَي: تَقَطَّعَهُ الطُّيُورُ فِي الْهَوَاءِ ﴿أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ أَي: بَعِيدٍ مُهْلِكٍ لِمَنْ هَوَى فِيهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ: «إِنَّ الْكُفَّارَ إِذَا تَوَفَّتْهُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ وَصَعِدُوا بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَلَا

تُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بَلْ تُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا مِنْ هُنَاكَ». ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ (٤). وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ. وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ مَثَلًا آخَرَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَنْ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْفِتِنًا قُلْ إِنَّكُمْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٧١].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [البقرة: ١٧٣]

[بَيَانُ الْأَصْحَابِيِّ وَتَفْسِيرُ شَعَائِرِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ﴾ أَي: أَوَامِرَهُ ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُ الْهُدَايَا وَالْبَدَنِ، كَمَا قَالَ الْحَكَمُ عَنْ مِقْسَمِ بْنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:

(١) الطبري: ٦١٨/١٨ (٢) فتح الباري: ٤١٩/١٠ ومسلم: ٩١/١ (٣) أحمد: ٣٢١/٤ (٤) أحمد: ٢٨٧/٤

تَعْظِيمَهَا اسْتِسْمَانَهَا وَاسْتِحْسَانَهَا^(١). وَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ: كُنَّا نَسْمُنُ الْأَضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسْمِنُونَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٢).

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ عَنْ أَبِي رَافِعٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحَى بِكَبْشَيْنِ عَظِيمَيْنِ سَوِيَّتَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مَوْجُوعَيْنِ^(٣). وَكَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ جَابِرٍ: ضَحَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مَوْجُوعَيْنِ^(٤). وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالْأَذْنَ، وَأَنْ لَا نُضْحِيَ بِمَقَابِلَةٍ وَلَا مُدَابِرَةٍ، وَلَا شَرْقَاءَ، وَلَا خَرْقَاءَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(٥).

وَأَمَّا الْمَقَابِلَةُ: فَهِيَ الَّتِي قُطِعَ مَقْدَمُ أُذُنِهَا. وَالْمُدَابِرَةُ: مِنْ مُؤَخَّرِ أُذُنِهَا. وَالشَّرْقَاءُ: هِيَ الَّتِي قُطِعَتْ أُذُنُهَا طَوِيلًا، قَالَه الشَّافِعِيُّ وَالْأَصْمَعِيُّ. وَأَمَّا الْخَرْقَاءُ: فَهِيَ الَّتِي خَرَقَتْ السَّمَةَ أُذُنُهَا خَرْقًا مَدُورًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَعَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضْحَايِ: الْعَوْرَاءُ الْبَيْنُ عَوْرَهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيْنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرَجَاءُ الْبَيْنُ [ظَلْعُهَا]، وَالْكَبِيرَةُ الَّتِي لَا تَنْتَفِي». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(٦).

[مَنَافِعُ الْبَدَنِ]

وَقَوْلُهُ: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ» أَي: لَكُمْ فِي الْبَدَنِ مَنَافِعٌ مِنْ لَبَنِهَا، وَصُوفِهَا، وَأَوْبَارِهَا، وَأَشْعَارِهَا، وَرُكُوبِهَا إِلَى أَجْلِ مُسَكَى. قَالَ مِقْسَمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجْلِ مُسَكَى» قَالَ: مَا لَمْ تَسْمُ بُدْنًا^(٧). وَقِيلَ: لَهُ أَنْ يَنْتَفِعَ وَإِنْ كَانَتْ هَدِيًّا، إِذَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً قَالَ: «ارْكَبْهَا» قَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ. قَالَ: «ارْكَبْهَا وَنَحْكُ» فِي الثَّانِيَةِ أَوْ الثَّلَاثَةِ^(٨). وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إِذَا أَلْجِئْتَ إِلَيْهَا»^(٩).

وَقَوْلُهُ: «ثَرَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» أَي: مَحَلُّ الْهَدْيِ وَانْتِهَاؤُهُ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَهُوَ الْكَعْبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «هَدْيًا بَلَغَ أَلْكَمَةِ» [المائدة: ٩٥] وَقَالَ: «وَأَهْدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ» [الفتح: ٢٥].

«وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِتْقَانًا وَالْمُسْلِمُونَ»

(١) الطبري: ١٨/٦٢١ (٢) فتح الباري: ١٠/١١ (٣) أحمد: ٨/٦ وتفرده كذا قال المؤلف في جامع المسانيد والسنن: ١٤/٢١ (٤) أبو داود: ٣/٢٣١ وابن ماجه: ٢/١٠٤٣ (٥) أحمد: ١/١٠٨ وأبو داود: ٣/٢٣٧ وتحفة الأحوذى: ٥/٨٢ والنسائي: ٧/٢١٧ وابن ماجه: ٢/١٠٥٠ (٦) أحمد: ٤/٢٨٤ وأبو داود: ٢/٢٨٠٢ والترمذي: ١٤٩٧ والنسائي: ٧/٢١٥ وابن ماجه: ٤٤٤/٣١٤ (٧) الطبري: ١٨/٦٢٣ (٨) فتح الباري: ٥/٤٥٠ ومسلم: ٢/٩٦٠ (٩) مسلم: ٢/٩٦١ (١٠) الدر المنثور: ٦/٤٨ (١١) فتح الباري: ١٠/٢٥٠ ومسلم: ٣/١٥٥٦ (١٢) الطبري: ١٨/٦٢٨ (١٣) تفسير الثوري: ٢١٣

مَعَ مَحَافِظَتِهِمْ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، وَهَذِهِ بِخِلَافِ صِفَاتِ الْمُتَنَافِقِينَ، فَإِنَّهُمْ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِيتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَنَاعَ وَالْمَعْرَةَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

[الْأَمْرُ بِنَحْرِ الْبُدَنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْبُدَنِ وَجَعَلَهَا مِنْ شَعَائِرِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ جَعَلَهَا تُهْدَى إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ، بَلْ هِيَ أَفْضَلُ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آتَيْنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾... الآية [المائدة: ٢] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، قَالَ عَطَاءٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ﴾ قَالَ: الْبَقْرَةُ وَالْبَعِيرُ^(١). وَكَذَا رَوَى عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَإِنَّمَا الْبُدْنُ مِنَ الْإِبِلِ^(٢). وَفِي قَوْلٍ: يُطْلَقُ عَلَى الْبَقْرَةِ أَيْضًا: ثُمَّ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ تُجْرِي عَنْ سَبْعَةٍ كَمَا ثَبَتَ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الْأَصْحَابِ الْبُدْنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقْرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أَي: ثَوَابٌ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ وَعَنِ الْمُطَّلِبِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْطَبٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِيدَ الْأَضْحَى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَيْتُ بِكَبْشٍ فَدَبَحَهُ، فَقَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهِ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُصَحَّ مِنْ أُمَّتِي». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٤). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ [أَبِي عِيَّاشٍ] عَنْ جَابِرٍ قَالَ: ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَقَالَ حِينَ وَجَّهَهُمَا: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ» ثُمَّ سَمَى اللَّهُ وَكَبَّرَ وَدَبَحَ^(٥). وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِي رَافِعٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا ضَحَّى اشْتَرَى كَبْشَيْنِ سَمِيئَيْنِ أَقْرَبَيْنِ أَمْلَحَيْنِ، فَإِذَا صَلَّى وَخَطَبَ النَّاسَ، أَتَيْتُ بِأَحَدِهِمَا

وَهُوَ قَائِمٌ فِي مُصَلَّاهُ، فَدَبَحَهُ بِنَفْسِهِ بِالْمَدْيَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعًا: مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالتَّوْحِيدِ وَشَهِدَ لِي بِالْبَلَاغِ» ثُمَّ يُؤْتِي بِالْآخِرِ فَيَدْبَحُهُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ» فَيُطْعِمُهُمَا جَمِيعًا الْمَسَاكِينَ وَيَأْكُلُ هُوَ وَأَهْلُهُ مِنْهُمَا. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ^(٦).

وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ قَالَ: قِيَامًا عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ، مَعْقُولَةٌ يَدَهَا الْبُسْرَى، يَقُولُ: بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهِ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَنَاخَ بَدَنَتَهُ وَهُوَ يَنْحَرُهَا فَقَالَ: إِنَّعُهَا قِيَامًا مَقِيدَةً، سَنَّهَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا وَجِيتْ جُنُوبَهَا﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: يَعْنِي سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ^(٨). وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: فَإِذَا وَجِيتْ جُنُوبَهَا، يَعْنِي مَاتَتْ^(٩). وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مُرَادُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنَ الْبُدْنَةِ إِذَا نَحَرَتْ حَتَّى تَمُوتَ وَتَبْرُدَ حَرَكَتُهَا. وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ: «لَا تُعْجَلُوا النُّفُوسَ أَنْ تَرْهَقَ»^(١٠).

وَقَدْ رَوَاهُ التَّوْرِيُّ فِي جَوَابِهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا دَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الدَّبْحَةَ، وَلِئِذَا أَحَدَكُمْ شَفَرْتُهُ، وَلِيْرِحْ دَبْحَتَهُ»^(١١). وَعَنْ أَبِي وَقِيدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فُطِعَ مِنَ الْبَهِيمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ، فَهُوَ مَيْتَةٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ^(١٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَنَاعَ وَالْمَعْرَةَ﴾ أَمْرٌ بِإِبَاحَةِ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «الْقَنَاعُ» الْمُسْتَعْنِي بِمَا أُعْطِيَتْهُ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، «وَالْمَعْرَةَ» الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَكَ وَيَلِيْمُ

(١) الطبري: ٦٣٠/١٨ (٢) ابن أبي شيبة: الجزء المفقود/ ٣٦٧ (٣) مسلم: ٨٨٢/٢ (٤) أحمد: ٣٥٦/٣ وأبو داود: ٣/ ٢٣٠ وتحفة الأحوذى: ١١٣/٥ (٥) أبو داود: ٣/ ٢٣١، ٢٣٠ (٦) أحمد: ٨/٦ وابن ماجه: ١٠٤٤، ١٠٤٣/٢ (٧) البخاري: ١٧١٣ (٨) الطبري: ٦٣٥/١٨ (٩) الطبري: ٦٣٥/١٨ (١٠) البيهقي: ٢٧٨/٩ (١١) مسلم: ١٥٤٨/٣ (١٢) أحمد: ٥/ ٥١٨ وأبو داود: ٢٧٧/٣ وتحفة الأحوذى: ٥٥/٥

لِتَذْكُرُوهُ عِنْدَ ذَبْحِهَا، فَإِنَّهُ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ لَا يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنْ لُحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ وَقَدْ كَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ إِذَا ذَبَحُوهَا لِإِهْتِهِمْ وَضَعُوا عَلَيْهَا مِنْ لُحُومِ قَرَابِينِهِمْ، وَنَضَحُوا عَلَيْهَا مِنْ دِمَائِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائَهَا﴾. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْضَحُونَ النَّبِيَّ بِاللُّحُومِ الْإِبِلِ وَدِمَائِهَا، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَنْضَحَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّفْسُ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ: يَتَّجِلُ ذَلِكَ وَيَجْزِي عَلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أَيُّ: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَخَّرَ لَكُمْ الْبُذْنَ ﴿لِتُكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أَيُّ: لِتُعَظِّمُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ لِدِينِهِ وَسَخَّرَهُ مَا يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَنَهَاكُمْ عَنْ فِعْلِ مَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْرَأَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيُّ: وَيَبْرَأُ يَا مُحَمَّدُ الْمُحْسِنِينَ أَيُّ: فِي عَمَلِهِمْ، الْفَائِزِينَ بِحُدُودِ اللَّهِ الْمُتَّبِعِينَ مَا شَرَعَ لَهُمْ، الْمُصْذِقِينَ الرَّسُولَ فِيمَا أَوْلَعَهُمْ وَجَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(مسألة) الْأُضْحِيَّةُ سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ، وَتَكْفِي وَاحِدَةً مِنْهَا عَنْ جَمِيعِ أَهْلِ بَيْتٍ وَوَاحِدٍ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ يُضْحِي. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(١٢). وَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُضْحِي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَيَأْكُلُونَ وَيَطْعَمُونَ حَتَّى تَبَاهِيَ النَّاسُ، فَصَارَ كَمَا تَرَى. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ مَاجَةَ^(١٣). وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هِشَامٍ يُضْحِي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْ جَمِيعِ أَهْلِهِ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١٤). وَأَمَّا مِقْدَارُ سِنِّ الْأُضْحِيَّةِ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ [بِعُسْرًا] عَلَيْكُمْ،

بِكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنَ اللَّحْمِ وَلَا يَسْأَلُ»^(١١). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ^(١٢). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْفَانِغُ: الْمَتَعَفُّفُ، وَالْمُعْتَرُ السَّائِلُ^(١٣). وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَمُجَاهِدٍ فِي رِوَايَةِ عَنْهُ^(١٤).

وَقِيلَ: بِالْعَكْسِ. وَقَدْ اُحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْأُضْحِيَّةَ تُجْزَأُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: فَتُلْتُ لِصَاحِبِهَا بِأَكْلِهِ مِنْهَا. وَتُلْتُ يَهْدِيهِ لِأَصْحَابِهِ، وَتُلْتُ يَتَّصَدَّقُ بِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ. لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْفَانِغَ وَالْمُعْتَرَّ﴾^(١٥) وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلنَّاسِ: «إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ادِّخَارِ لُحُومِ الْأُضْحِيَّةِ فَوْقَ ثَلَاثِ، فَكُلُوا وَادِّخَرُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ»^(١٥). وَفِي رِوَايَةٍ: «فَكُلُوا وَادِّخَرُوا وَتَصَدَّقُوا»^(١٦). وَفِي رِوَايَةٍ: «فَكُلُوا وَأَطْعَمُوا وَتَصَدَّقُوا»^(١٧). وَأَمَّا الْجُلُودُ فَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ الثُّعْمَانَ فِي حَدِيثِ الْأُضْحِيَّةِ: «فَكُلُوا وَتَصَدَّقُوا، وَاسْتَمْتِعُوا بِجُلُودِهَا، وَلَا تَبِيعُوهَا»^(١٨).

(مسألة) عَنْ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا تَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ تَرْجِعَ فَتَنْحَرُ، فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ الشُّكِّ فِي شَيْءٍ». أَخْرَجَاهُ^(١٩). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: وَأَنْ لَا تَذْبَحُوا حَتَّى يَذْبَحَ الْإِمَامُ. وَيُسْرَعُ الذَّبْحُ يَوْمَ النَّحْرِ وَثَلَاثَةَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَهُ، لِحَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ جِبَانَ^(٢٠). وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ هَذَا: ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أَيُّ: ذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ، أَيُّ: جَعَلْنَاهَا مُنْقَادَةً لَكُمْ خَاصِعَةً، إِنْ شِئْتُمْ رَكِبْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ حَلَبْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَبَحْتُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» [يس: ٧١-٧٣] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّفْسُ مِنْكُمْ﴾ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيَبْرَأَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾

[الْمَقْصُودُ مِنَ الْأُضْحِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ إِخْلَاصُ الْعَبْدِ وَتَقْوَاهُ] يَقُولُ تَعَالَى: إِذَا شَرَعَ لَكُمْ نَحْرَ هَذِهِ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا

(١) الطبري: ٦٣٦/١٨ (٢) الطبري: ٦٣٦/١٨ (٣) الطبري: ٦٣٧، ٦٣٦/١٨ (٤) الطبري: ٦٣٧، ٦٣٦/١٨ (٥) النسائي: ٢٣٤/٧ (٦) النسائي: ٧/١٧٠ (٧) فتح الباري: ٢٩/١١ (٨) أحمد: ١٥/٤ (٩) فتح الباري: ٥٢٦/٢ ومسلم: ١٥٥٣/٣ وقوله بعده: وأن لا تذبحوا... قال الدكتور إبراهيم البنا: لم يقع لنا هذا في صحيح مسلم. (١٠) أحمد: ٨٢/٤ (١١) مسلم: ١٩٨٧/٤ (١٢) تحفة الأحوذى: ٩٦/٥ (١٣) أبو داود: ٩٠/٥ وابن ماجه: ٢/١٠٥١ (١٤) فتح الباري: ٢١٣/١٣

فَتَذْبَحُوا جَذَعَةَ مِنَ الضَّانِ»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَمُؤْمِرٍ﴾^(٢٨)

[بِشَارَةِ الدَّفَاعِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنِ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ، شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ، وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلُوهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأْتُوا لِلَّهِ بِلَهْفٍ عَلَيْهِمْ وَأُولَئِكَ يَكْفُرُ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالَّذِينَ هُمَا يُكْفَرُونَ لَهُمْ﴾ [الزمر: ٢٦] وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿الطلاق: ٣﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَمُؤْمِرٍ﴾ أَي: لَا يُحِبُّ مَنْ عِبَادِهِ مَنْ اتَّصَفَ بِهِذَا، وَهُوَ الْخِيَانَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَائِقِ لَا يَبْقَى بِمَا قَالَ، وَالْكَفْرُ: الْجَحْدُ لِلنَّعْمِ، فَلَا يُعْتَرَفُ بِهَا.

﴿أُوذُنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٢٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَكُنَّ عَالَمًا حَرًّا وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ

[الْإِدْنُ بِالْقِتَالِ، وَهِيَ أَوَّلُ آيَةِ الْجِهَادِ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ حِينَ أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ كَابْنِ عَبَّاسٍ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَرَبِيعُ بْنُ أَنْسَلَمٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَتَقَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: هَذِهِ أَوَّلُ آيَةِ نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ^(٣). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أُخْرِجُوا نَبِيَّكُمْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ لِيَهْلِكُنَّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أُوذُنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ. وَزَادَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ^(٤). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا^(٥). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أَي: هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ نَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، وَلَكِنْ هُوَ يُرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُمْ فِي طَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْفُ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ فَتُدُوا الرِّقَابَ فَمَاذَا مَتَابَعْدُ وَإِنَّمَا فَدَاةٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الرِّقَابَ أَوْ زَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ

أُوذُنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَكُنَّ عَالَمًا حَرًّا وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يَكِيدُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مَعْطَلَةٍ وَفَصَّرِ مَشِيدِ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

وَلَكِنْ لَبِلُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤١﴾ سَبِّحِينَمْ وَصَلِّحِ بِاللَّهِ ﴿٤٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا كَيْفَ ﴿محمد: ٤-٦﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَلَوَّهُمْ بِعِدَّتِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿٤١﴾ وَيُدْخِلُ قُلُوبَهُمْ وَسُوءَ بَدَنِ اللَّهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ١٤، ١٥﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَلَيُؤَلِّمُنَا أَعْيُنُكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وَقَدْ فَعَلَ^(١). وَإِنَّمَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْجِهَادَ فِي الْوَقْتِ الْأَلْتِي بِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا بِمَكَّةَ كَانُوا الْمُسْرُكُونَ أَكْثَرَ عَدَدًا، فَلَوْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ أَقَلُّ مِنَ الْعُسْرِيِّينَ بِقِتَالِ

(١) مسلم: ١٥٥٥/٣ (٢) الطبري: ٦٤٣/١٨ العوفي

ضعيف (٣) الطبري: ٦٤٤، ٦٤٣/١٨ والدر المشور: ٥٧/٦

(٤) أحمد: ٢١٦/١ (٥) تحفة الأحوذى: ١٥/٩ والنسائي في

الكبرى: ٤١١/٦ (٦) الطبري: ٦٤٣/١٨

لِأَهْلِ الْكِتَابِ وَلِأَهْلِ الْإِسْلَامِ بِالطَّرِيقِ^(٦). وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ فَبِئْسَ الْكُفْرَافِعُ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فَقَدْ قِيلَ: الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ عَائِدٌ إِلَى الْمَسَاجِدِ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ الْمَذْكُورَاتِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْجَمِيعُ، يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الصَّوَابُ: لَهَدِمَتْ صَوَامِعَ الرَّهْبَانِ، وَبِيعَ النَّصَارَى، وَصَلَوَاتُ الْيَهُودِ - وَهِيَ كَنَائِسُهُمْ - وَمَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمُسْتَعْمَلُ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ^(٧).

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هَذَا تَرَقُّ مِنَ الْأَقْلَى إِلَى الْأَكْثَرِ إِلَى أَنْ انْتَهَى إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَهِيَ أَكْثَرُ عِمَارًا وَأَكْثَرُ عِبَادًا وَهُمْ ذَوُو الْقَصْدِ الصَّحِيحِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُنِيبُ أقدامُكُمْ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ٨٤٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ، فَبِقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا، وَبِعِزَّتِهِ لَا يَهْرُهُ قَاهِرٌ وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ فَفَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ نَاصِرَهُ فَهُوَ الْمَنْصُورُ وَعَدُوُّهُ هُوَ الْمَفْهُورُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْغَرِيْبِ (٧٧) إِتْمَهُمْ لَمْ يَنْصُرُوهُ (٧٨) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وَبِهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾ [وَاجِبُ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ تَمَكِينِهِمْ مِنَ الْحُكْمِ]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَمَانَ، قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فَأَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا بَعْضَ حَقِّ إِلَّا أَنْ قُلْنَا: رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ مَكَّنَّا فِي الْأَرْضِ، فَأَقَمْنَا الصَّلَاةَ وَآتَيْنَا الزَّكَاةَ، وَأَمَرْنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْتْنَا عَنِ

الْبَاقِينَ لَسَقَّ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ بَيْتِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَكَانُوا نَبْهًا وَثَمَانِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَمِيلُ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، يَعْتُونَ أَهْلَ مِثْيَ، لِيَالِي مِثْيَ فَنَفْتُلَهُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُوَمِّرْ بِهَذَا»^(١). فَلَمَّا بَغَى الْمُشْرِكُونَ وَأَخْرَجُوا النَّبِيَّ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وَهَمُّوا بِقَيْلِهِ، وَشَرَدُوا أَصْحَابَهُ شَدْرَ مَدْرَ، فَذَهَبَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ إِلَى الْحَبَسَةِ وَأَخْرُورَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا اسْتَقَرُّوا بِالْمَدِينَةِ وَوَفَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَقَامُوا بِنَصْرِهِ وَصَارَتْ لَهُمْ دَارُ إِسْلَامٍ وَمَعْقَلًا يَلْجُؤُونَ إِلَيْهِ، شَرَعَ اللَّهُ جِهَادَ الْأَعْدَاءِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْدِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٦) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَعْضَ حَقِّ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَخْرَجُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْضَ حَقِّ، يَعْنِي مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ^(٢). ﴿إِلَّا أَنْتَ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أَي: مَا كَانَ لَهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ إِسَاءَةٌ، وَلَا كَانَ لَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنَّهُمْ وَحَدُّوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا اسْتِنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِالنَّسَبِ إِلَى مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَأَمَّا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَي: لَوْلَا أَنَّهُ يَدْفَعُ بِقَوْمٍ عَنْ قَوْمٍ، وَيَكْفُ شُرُورَ أَنَاسٍ عَنْ غَيْرِهِمْ بِمَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ، لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَا هَلَكَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفُ ﴿لَهَدِمَتْ صَوَامِعُ﴾ وَهِيَ الْمَعَابِدُ الصَّغَارُ لِلرَّهْبَانِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَعَابِدُ الصَّالِبِيِّينَ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: صَوَامِعُ الْمَجُوسِ. وَقَالَ مَقَاتِلُ ابْنُ حَيَّانَ: هِيَ الْبُيُوتُ الَّتِي عَلَى الطَّرِيقِ ﴿وَبِيعَ﴾ وَهِيَ أَوْسَعُ مِنْهَا، وَأَكْثَرُ عَابِدِينَ فِيهَا، وَهِيَ لِلنَّصَارَى أَيْضًا، قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ صَخْرٍ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَخَصِيفٌ وَغَيْرُهُمْ^(٤). وَحَكَى ابْنُ جَبْرِ عَنْ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ: أَنَّهَا كَنَائِسُ الْيَهُودِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَصَلَوَاتُ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الصَّلَوَاتُ: الْكَنَائِسُ^(٥). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: إِنَّهَا كَنَائِسُ الْيَهُودِ، وَهُمْ يُسَمُّونَهَا: صَلَوَاتُ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَغَيْرُهُ: الصَّلَوَاتُ: مَعَابِدُ الصَّالِبِيِّينَ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: الصَّلَوَاتُ: مَسَاجِدُ

(١) دلائل النبوة للأصبهاني: ٢٦٥ (٢) الطبري: ٦٤٣/١٨

(٣) الطبري: ٦٤٧/١٨ والدر المنثور: ٦/٥٩، ٦٠، والرازي: ٣/

٣٦ (٤) الطبري: ٦٤٨/١٨ (٥) الطبري: ٦٤٩/١٨ حكم

العوفي تقدم (٦) الطبري: ٦٥٠/١٨ (٧) الطبري: ٦٥٠/١٨

الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. فَهِيَ لِي وَلَا صَحَابِي (١). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَالَ الصَّبَّاحُ بْنُ سَوَادَةَ الْكِنْدِيُّ: سَمِعْتُ عَمْرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾... الآية، ثُمَّ قَالَ: أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى الْوَالِي وَحْدَهُ، وَلَكِنَّهَا عَلَى الْوَالِي وَالْمَوْلَى عَلَيْهِ، أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا لَكُمْ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلِكُمْ، وَبِمَا لِلْوَالِي عَلَيْكُمْ مِنْهُ؟ إِنْ لَكُمْ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلِكُمْ: أَنْ يُؤَاخِذَكُمْ بِحُقُوقِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَأَنْ يَأْخُذَ لِيَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَأَنْ يَهْدِيَكُمْ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ مَا اسْتَطَاعَ، وَإِنْ عَلَيْكُمْ مِنْ ذَلِكَ الطَّاعَةَ غَيْرَ الْمَبْزُورَةَ وَلَا الْمُسْتَكْرَهَ بِهَا، وَلَا الْمُخَالَفَ سِرَّهَا عَلَانِيَتَهَا. وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ مَا صَنَعُوا (٢).

﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٢﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٣﴾ فَكُلٌّ مِنْ قَرَابَةِ أَهْلِكُنَّهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٤﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٥﴾

[عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّمًا لِئِنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي تَكْذِيبٍ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ - إِلَى أَنْ قَالَ - ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾ أَي: مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْوَارِضَاتِ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَي: أَنْظَرْتُهُمْ وَأَخْرَجْتُهُمْ، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَي: فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقِبَتِي لَهُمْ؟! وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمَلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُعْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَلَيْسَ شَدِيدٌ؟﴾ [بوسف: ١٠٢]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّنَ مِنْ قَرَابَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَي: كَمْ مِنْ قَرَابَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أَي: مُكْذِبَةٌ لِرُسُلِهَا ﴿فِيهِ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ قَالَ

وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنَ مِنْ قَرَابَةٍ آمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا إِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبِهِمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

الصَّحَاكُ: سُخُوفُهَا (٤). أَي: قَدْ خَرَبَتْ مَنَازِلَهَا وَتَعَطَّلَتْ حَوَاضِرُهَا ﴿وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ﴾ أَي: لَا يُسْتَقَى مِنْهَا، وَلَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ بَعْدَ كَثْرَةِ وَارِدِيهَا وَالْأَزْدَحَامُ عَلَيْهَا ﴿وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ قَالَ عِكْرَمَةُ: يَعْنِي الْمُبَيْضَ بِالْجِصِّ (٥). وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي الْمَلِيحِ وَالصَّحَاكُ نَحْوُ ذَلِكَ (١). وَقَالَ آخِرُونَ: هُوَ الْمُنْبِيُّ الْمُرْتَفِعُ. وَقَالَ آخِرُونَ: الْمَشِيدُ: الْمُنْبِعُ الْحَصِينُ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَابِرَةٌ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَحْمِ أَهْلَهُ شِدَّةَ بِنَائِهِ، وَلَا ارْتِفَاعَهُ، وَلَا إِحْكَامَهُ، وَلَا حِصَانَتَهُ عَنْ حُلُولِ بَأْسِ اللَّهِ بِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: بِأَبْدَانِهِمْ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٤٩٦/٨، ٢٤٩٧/٨ (٢) ابن أبي حاتم: ٨/١٩٩٧ (٤) الطبري: ٦٥٣/١٨ (٥) الطبري: ٦٥٤/١٨ (٦) الطبري: ٦٥٥/١٨ والبغوي: ٢٩١/٣

وَيَفْكُرُهُمْ أَيْضًا، وَذَلِكَ كَافٍ كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ: قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَحْيَى قَلْبَكَ بِالْمَوَاعِظِ، وَنَوِّزُهُ بِالتَّفَكُّرِ، وَمَوْتُهُ بِالزُّهْدِ، وَقُوَّةُ بَالِغِيْنِ، وَذَلَّلُهُ بِالْمَوْتِ، وَقُدْرَةُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصْرُهُ فَجَائِعِ الدُّنْيَا، وَحَذْرُهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشُ تَقَلُّبِ الْأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَحْبَابَ الْمَاضِيْنَ، وَذَكِّرْهُ مَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَسَيِّرْهُ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ، وَأَنْظُرْ مَا فَعَلُوا وَأَيَّنَ حَلُّوًا وَعَمَّ أَنْقَلِبُوا. أَيْ: فَانظُرُوا مَا حَلَّ بِالْأُمَّمِ الْمُكَدَّبَةِ مِنَ النَّقْمِ وَالتَّكَالِ «فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ عَادَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا» أَيْ: فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» أَيْ: لَيْسَ الْعَمَى عَمَى الْبَصْرِ، وَإِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ، وَإِنْ كَانَتْ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةَ سَلِيمَةً - فَإِنَّهَا لَا تَنْفُذُ إِلَى الْعَجَبِ وَلَا تَدْرِي مَا الْخَبْرُ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ [سَارَةَ] الْأَنْدَلُسِيِّ الشَّنْتَرِيْنِي، وَقَدْ كَانَتْ وَفَاتَهُ سَنَةٌ سَبْعَ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةَ:

يَا مَنْ يَصِيحُ إِلَى دَاعِيِ الشَّقَاءِ وَقَدْ نَادَى بِهِ النَّاعِيَانِ: الشَّيْبُ وَالْكِبَرُ
إِنْ كُنْتَ لَا تَسْمَعُ الذِّكْرَى فَنَيْمٌ تَرَى
فِي رَأْسِكَ الْوَاعِيَانِ: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
لَيْسَ الْأَصَمُّ وَلَا الْأَعْمَى سِوَى رَجُلٍ
لَمْ يَهْدِهِ الْهَادِيَانِ: الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ
لَا الدَّهْرُ يَنْقَى وَلَا الدُّنْيَا وَلَا الْفُلُكُ الِ
أَعْلَى وَلَا النَّيِّرَانِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
لَيَرْحَلَنَّ عَنِ الدُّنْيَا وَإِنْ كَرِهَا
فِرَاقَهَا الثَّوَابِيَانِ: [الْبَدْوُ] وَالْحَضْرُ
«وَيَسْتَعِجَلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» ﴿٧٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَتَيْتُهَا لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِمَا أَخَذَتْهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٧٨﴾

[مُطَالَبَةُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «وَيَسْتَعِجَلُونَكَ بِالْعَذَابِ» أَيْ: هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الْمُكَدَّبُونَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَاطْرُقْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْتِنَا بِعَذَابِ الْآخِرِ» [الأنفال: ٣٢] «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَضَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» [ص: ١٦]. وَقَوْلُهُ: «وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ» أَيْ: الَّذِي قَدْ وَعَدَ مِنْ

إِقَامَةِ السَّاعَةِ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَالْإِكْرَامِ لِأَوْلِيَائِهِ. وَقَوْلُهُ: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» أَيْ: هُوَ تَعَالَى لَا يَعْجَلُ، فَإِنَّ مِقْدَارَ أَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ خَلْقِهِ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ عِنْدَهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى حُكْمِهِ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ قَادِرٌ، وَأَنَّهُ لَا يَقُوتُهُ شَيْءٌ وَإِنْ أُجِّلَ وَأَنْظَرَ وَأَمْلِي، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَتَيْتُهَا لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِمَا أَخَذَتْهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ» رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ فَقْرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، خَمْسِمِائَةَ عَامًا» وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ^(١).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي آخِرِ كِتَابِ الْمَلَا حِمٍ مِنْ سُنَنِهِ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَعْجَزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا، أَنْ يُؤَخَّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ» قِيلَ لِسَعْدٍ: وَمَا نِصْفُ يَوْمٍ؟ قَالَ: خَمْسِمِائَةَ سَنَةٍ ^(٢).

﴿قُلْ يَكْفُرُ النَّاسُ إِذْمَا آتَاهُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤١﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَائِنَتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٤٣﴾﴾

[جَزَاءُ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَأَهْلِ الْفَسَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ حِينَ طَلَبَ مِنْهُ الْكُفَّارُ وَقُوعَ الْعَذَابِ وَاسْتَعْجَلُوهُ بِهِ: «قُلْ يَكْفُرُ النَّاسُ إِذْمَا آتَاهُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤١﴾» أَيْ: إِذْمَا أُرْسَلَنِي اللَّهُ إِلَيْكُمْ نَذِيرًا لَكُمْ، بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنْ حِسَابِكُمْ مِنْ شَيْءٍ، أَمْرُكُمْ إِلَيَّ اللَّهُ: إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ الْعَذَابَ، وَإِنْ شَاءَ أَخَّرَهُ عَنْكُمْ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَيَّ مَنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ، وَإِنْ شَاءَ أَصَلَّ مِنْ كَتَبَ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ وَيُرِيدُ وَبِخْتَارٍ ﴿لَا مَعْزِبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» أَيْ: مَغْفِرَةٌ لِمَا سَلَفَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَمُجَازَاةٌ حَسَنَةٌ عَلَى

(١) الترمذي: ٢٣٥٤ والنسائي في الكبرى: ٤١٢/٦ (٢) أبو داود: ٥١٧/٤ إسناده منقطع شريح بن عبيد عن سعد بن أبي وقاص مرسل كما قال أبو حاتم الرازي [جامع التحصيل (٢٨٣)] ويغني عنه حديث أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم [ابوداود ٤٣٤٩] وصححه الحاكم والذهبي على شرط الشيخين [المستدرک مع تعليقات الذهبي في التلخيص (٨٣٠٦)].

الْقَلِيلِ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْفَرَزِيُّ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فَهُوَ الْجَنَّةُ (١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يُبْطِئُونَ النَّاسَ عَنْ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ (٢). وَكَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ: مُبْطِئِينَ (٣). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُعَاجِزِينَ مُرَاعِمِينَ (٤). ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَهِيَ النَّارُ الْحَارَّةُ الْمُوجَعَةُ، الشَّدِيدُ عَذَابُهَا وَنَكَالُهَا، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ رَدَّتْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُجْعَلُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧)

﴿يُدْخِلُ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّةِ الرُّسُلِ وَإِبْطَالِ اللَّهِ ذَلِكَ﴾ قَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ هَهُنَا قِصَّةَ الْغَرَائِبِ، وَمَا كَانَ مِنْ رُجُوعِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُهَاجِرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحِشَّةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَدْ أَسْلَمُوا، وَلِكَيْتَهَا مِنْ طَرَفِ كُلِّهَا مُرْسَلَةٌ، وَلَمْ أَرَهَا مُسْتَدَّةً مِنْ وَجْهِ صَاحِبِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ، فَيَبْطِلُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ [وَوُحْيِكُمْ آيَاتِهِ] (٨). قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِنَّا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يَقُولُ: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ (٩). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِنَّا تَمَعَّى﴾ بَعْضِي إِذَا قَالَ (١٠). وَيُقَالُ: أُمْنِيَّتُهُ قِرَاءَتُهُ ﴿إِلَّا آمَانِي﴾ يَقُولُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ. قَالَ الْبَغَوِيُّ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿تَمَعَّى﴾ أَي: تَلَا. وَقَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أَي: فِي تِلَاوَتِهِ (١١).

﴿وَقَالَ الضَّحَّاكُ﴾: ﴿إِنَّا تَمَعَّى﴾ إِذَا تَلَا (١٢). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهُ بِتَأْوِيلِ الْكَلَامِ (١٣). وَقَوْلُهُ: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ حَقِيقَةُ النَّسْخِ لَعْنَةُ الْإِلْزَالَةِ وَالرَّفْعِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَي: فَيَبْطِلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ (١٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَي:

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ (١٧) لِيَدْخِلَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٨) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَخْصِرَهُ اللَّهُ إِنَّهُ أَكْبَرُ الْعَاقِبِينَ (١٩) ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يَوْمَ لَحْيِهِ النُّهَارَ وَيُوَلِّجُ النُّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٠) ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢١) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٢٢) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَنُقُ الْحَمِيدُ (٢٣)

بِمَا يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ وَالْحَوَادِثِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَي: فِي تَقْدِيرِهِ وَخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَي: شَكٌّ وَشِرْكٌ وَكُفْرٌ وَنِفَاقٌ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هُمُ الْمُتَأَفِّقُونَ، وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ هُمُ الْمُشْرِكُونَ (٢٤).

﴿وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أَي: فِي ضَلَالٍ وَمُخَالَفَةٍ وَعِنَادٍ بَعِيدٍ، أَي: مِنَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أَي: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ النَّافِعَ الَّذِي يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هُوَ

(١) الدر المنثور: ٦٣/٦ (٢) الطبري: ١٨/٦٦٢ (٣) الدر المنثور: ٦٤/٦ (٤) الدر المنثور: ٦٤/٦ (٥) فتح الباري: ٨/٢٩٢ (٦) الطبري: ١٨/٦٦٧ (٧) الطبري: ١٨/٦٦٧ (٨) البغوي: ٣/٢٩٣ (٩) الطبري: ١٨/٦٦٨ (١٠) الطبري: ١٨/٦٦٨ (١١) الطبري: ١٨/٦٦٨ (١٢) الطبري: ١٨/٦٦٩

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِكَ سَيُدْخِلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [عافر: ٦٠] أي: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الْرَازِقِينَ﴾ (٥٨) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمُ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٥٩) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ عَفُوفٌ﴾ (٦٠) [الْأَجْرُ الْعَظِيمُ لِمَنْ هَاجَرَ لِلَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَطَلَبًا لِمَا عِنْدَهُ، وَتَرَكَ الْأَوْطَانَ وَالْأَهْلِيْنَ وَالْحِلَانَ، وَفَارَقَ بِلَادَهُ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَنُصْرَةَ لِدِينِ اللَّهِ ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾، أي: في الجهاد، ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أي: خَنَفَ أَنفُسُهُمْ أَي: مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، عَلَى فُرُشِهِمْ، فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالنَّوَاءِ الْجَمِيلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أَي: لَيُجْرِبَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ مَا تَقَرَّبَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الْرَازِقِينَ﴾ (٥٨) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ أَي: الْجَنَّةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٥٨) ﴿رُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتٌ بَعِيرٌ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْضُلُ لَهُ الرَّاحَةُ وَالرُّزُقُ وَجَنَّةُ النَّعِيمِ، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أَي: يَمَنْ يَهَاجِرُ وَيُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ وَيَمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ ﴿حَلِيمٌ﴾ أَي: يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ لَهُمُ الذُّنُوبَ، وَيُكْفِرُهَا عَنْهُمْ بِهَجْرَتِهِمْ إِلَيْهِ وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ.

فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ، فَإِنَّهُ حَتَّى عِنْدَ رَبِّهِ يُرْزَقُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ، وَأَمَّا مَنْ تُوُفِّيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ، فَقَدْ تَصَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَعَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِجْرَاءَ الرُّزُقِ عَلَيْهِ وَعَظِيمِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ

الْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَحَفِظَهُ وَحَرَسَهُ أَنْ يَخْتَلِطَ بِهِ غَيْرُهُ بَلْ هُوَ كِتَابٌ حَكِيمٌ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُؤْتُواوْا بِهِ﴾ أَي: يُصَدِّقُوهُ وَيَتَقَادُوا لَهُ ﴿فَتُحِبَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي: تَخَضَّعُوا وَتَذَلُّوا لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَيُوقِفُهُمْ لِمُخَالَفَةِ الْبَاطِلِ وَاجْتِنَابِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُوَصِّلِ إِلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّاتِ، وَيُرْزُقُهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالذَّرَكَاتِ.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (٥٥) ﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ لَبَّاءً لِيَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٥٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٥٧)

[لَا يَزَالُ الْكُفَّارُ فِي الشُّكِّ وَالتَّرَدُّدِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ فِي مِرْيَةٍ، أَي: فِي شُكٍّ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ (١). ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: فَجَاءَهُ (٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿بَغْتَةً﴾ بَعَثَ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغَرَبَتِهِمْ وَنَعْمَتِهِمْ، فَلَا تَعْتَرُوا بِاللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَ أَبُو بِنٍ كَعْبٌ: هُوَ يَوْمٌ بَدْرٌ، قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، لَا لَيْلَ لَهُ (٣). وَكَذَا قَالَ الصَّحَّاحُ وَالْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ (٤). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ لَبَّاءً لِيَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ لَبَّاءً لِيَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الفاتحة: ٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ لَبَّاءً لِيَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ عَسِيرًا [الفرقان: ٢٦] ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَى مَا عَلِمُوا، وَتَوَافَقَ قُلُوبُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ ﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ أَي: لَهُمُ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَبِيدُ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَي: كَفَرَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْحَقِّ وَجَحَدُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا بِهِ وَخَالَفُوا الرُّسُلَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهِمْ ﴿فَاُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أَي: فِي مُقَابَلَةِ اسْتِكْبَارِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

(١) الطبري: ١٨/٦٧٠ (٢) الطبري: ١١/٣٦٠ (٣) البغوي:

٢٩٥/٣ (٤) البغوي: ٢٩٥/٣

سُورَةُ الْحَجِّ
٢٤٠
الْحَجُّ الْمَعْرُوفُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَآ فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
يَأْمُرُهُ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ
فِي الْأَمْرِ وَادِّعِ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٧﴾
وَإِنْ جَدَلْتَهُمْ فَقُلْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ
فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذْ أَنْتَ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ
ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

كَمَا فِي الشِّتَاءِ، وَتَارَةً يَطُولُ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ كَمَا فِي
الصَّيْفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أَي: سَمِيعٌ بِأَقْوَالِ
عِبَادِهِ. بَصِيرٌ بِهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي أَحْوَالِهِمْ
وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَتَاتِهِمْ، وَلَمَّا بَيَّنَّ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي
الْوُجُودِ، الْحَاكِمُ الَّذِي لَمْ يَعْصِ لِحُكْمِهِ قَالَ: ﴿ذَلِكَ يَأَنَّ
اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أَي: الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْتَعِي الْعِبَادَةُ إِلَّا
لَهُ، لِأَنَّهُ ذُو السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ
يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَبِيرٌ إِلَيْهِ، دَلِيلٌ لَدَيْهِ ﴿وَأَنَّ مَا
يَكْفُرُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أَي: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ
وَالْأَوْثَانِ، وَكُلُّ مَا عِبِدَ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى فَهُوَ بَاطِلٌ، لِأَنَّهُ لَا
يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وَقَالَ:

سُرْحَيْبِلُ بْنُ السَّمْطِ قَالَ: طَالَ رَبَاطُنَا وَإِقَامَتُنَا عَلَى حِضْنِ
بِأَرْضِ الرُّومِ، فَمَرَّ بِي سَلْمَانٌ، يُعْنِي الْفَارِسِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ
مُرَابِطًا أَجْرَى اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَجْرِ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ
الرُّزْقُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفِتَانَيْنِ، وَافْرُؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ
رِزْقًا حَسَنًا وَأَنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ
مُدْخَلًا بِرِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ» (١).

وَرَوَى أَيْضًا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَدْحَمِ الْخَوْلَانِيِّ أَنَّهُ
حَضَرَ فَضَالَهَ بْنَ عُبَيْدٍ فِي الْبَحْرِ مَعَ جَنَازَتَيْنِ أَحَدُهُمَا
أُصِيبَ بِمِنْجَنِيٍّ، وَالْآخَرُ نُوفِيٍّ، فَجَلَسَ فَضَالَهَ بْنَ عُبَيْدٍ
عِنْدَ قَبْرِ الْمُتَوَفَّى فَقِيلَ لَهُ: تَرَكْتَ الشَّهيدَ فَلَمْ تَجْلِسْ عِنْدَهُ؟
فَقَالَ: مَا أَبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ:
﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا
لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا... الْآيَتِينَ. فَمَا تَبْتَعِي أَيُّهَا
الْعَبْدُ إِذَا أُدْخِلْتَ مُدْخَلًا تَرْضَاهُ، وَرَزَقْتَ رِزْقًا حَسَنًا، وَاللَّهُ
مَا أَبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ» (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ...﴾
الْآيَةَ، ذَكَرَ مَقَابِلُ بْنُ حَيَّانَ وَإِبْنُ جُرَيْجٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي سَرِيَّةٍ
مِنَ الصَّحَابَةِ لَقُوا جَمْعًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي شَهْرِ مُحَرَّمٍ،
فَنَاشَدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ لِيَلَّا يَقَاتِلُوهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَأَبَى
الْمُشْرِكُونَ إِلَّا قِتَالَهُمْ، وَبَعَوْا عَلَيْهِمْ، فَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ
فَنَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٣).

﴿ذَلِكَ يَأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ الْآيِلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ
فِي الْآيِلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
وَأَنَّ مَا يَكْفُرُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ ﴿٦٦﴾

[خَالِقِ الدُّنْيَا وَالْمُتَصَرِّفِ فِيهَا هُوَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مِنْهَا عَلَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ
بِمَا يَشَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ أَللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ
نَشَاءُ وَتَنْزِعِ الْمَلِكَ مَنْ نَشَاءُ وَتُورِ مَنْ نَشَاءُ وَتُدِلُّ مَنْ نَشَاءُ
بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٦٦﴾ يُوَلِّجُ الْآيِلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ
النَّهَارَ فِي الْآيِلِ وَتَخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ اللَّيْلِ وَتَخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ اللَّيْلِ
وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِعَبْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] وَمَعْنَى
إِبْلَاجِهِ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَالنَّهَارَ فِي اللَّيْلِ إِدْخَالَهُ مِنْ هَذَا فِي
هَذَا وَمِنْ هَذَا فِي هَذَا، فَتَارَةً يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٥٠٣/٨ (٢) الطبري: ١٨٢/٩ (٣)
الطبري: ٦٧٥/١٨

ثُمَّ يَنْزِلُ فِيهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعِلْمُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ اللَّهُ تَرَّ أَنْ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، الْعَالِي الَّذِي لَا أَعْلَى مِنْهُ، الْكَبِيرُ الَّذِي لَا أَكْبَرَ مِنْهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

﴿اللَّهُ تَرَّ أَنْ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعِلْمُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ اللَّهُ تَرَّ أَنْ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِيْذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٢٠﴾﴾

[آياتٌ على قُدْرَةِ اللَّهِ]

وهذا أيضًا من الدلالة على قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، فَإِنَّهُ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُبَيِّرُ سَحَابًا فَيُمْطِرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ النَّبِيِّ لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَهِيَ هَامِدَةٌ يَابِسَةٌ سُودَاءٌ مُمَجَّلَةٌ ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أَلْفَاءُ هَهُنَا لِلتَّعْيِيبِ - وَتَعْيِيبُ كُلُّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَزْنَا خَلْقَنَا الطُّفَّةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْمَكَةً﴾... آيَةُ [المؤمنون: ١٤] - وَقَدْ تَبَّتْ فِي الصَّاحِحِينَ أَنَّ بَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا^(١). وَمَعَ هَذَا هُوَ مُعْتَبَرٌ بِالْفَاءِ، وَهَكَذَا هَهُنَا قَالَ: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أَي: خَضْرَاءٌ بَعْدَ [يُبْسِهَا] وَمُحْوِلِهَا. وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْحِجَازِ: أَنَّهَا تُصْبِحُ عَقِبَ الْمَطَرِ خَضْرَاءً. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿اللَّهُ تَرَّ أَنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أَي: عَلِيمٌ بِمَا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا وَأَجْزَائِهَا مِنَ الْحَبِّ وَإِنْ صَغُرَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَيُوصِلُ إِلَى كُلِّ مِنْهُ فَيَسْقِيهِ مِنَ الْمَاءِ فَيُحْيِيهِ بِهِ، كَمَا قَالَ لُقْمَانُ: ﴿يَتَّقَى إِهْمًا إِنْ تَكَ وَشَقَالَ حَبَّةً مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وَقَالَ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَكْتُبُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَالَ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ

ثُمَّ يَنْزِلُ فِيهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعِلْمُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ اللَّهُ تَرَّ أَنْ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِيْذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٢٠﴾﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، فَإِنَّهُ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُبَيِّرُ سَحَابًا فَيُمْطِرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ النَّبِيِّ لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَهِيَ هَامِدَةٌ يَابِسَةٌ سُودَاءٌ مُمَجَّلَةٌ ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أَلْفَاءُ هَهُنَا لِلتَّعْيِيبِ - وَتَعْيِيبُ كُلُّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَزْنَا خَلْقَنَا الطُّفَّةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْمَكَةً﴾... آيَةُ [المؤمنون: ١٤] - وَقَدْ تَبَّتْ فِي الصَّاحِحِينَ أَنَّ بَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا^(١). وَمَعَ هَذَا هُوَ مُعْتَبَرٌ بِالْفَاءِ، وَهَكَذَا هَهُنَا قَالَ: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أَي: خَضْرَاءٌ بَعْدَ [يُبْسِهَا] وَمُحْوِلِهَا. وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْحِجَازِ: أَنَّهَا تُصْبِحُ عَقِبَ الْمَطَرِ خَضْرَاءً. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿اللَّهُ تَرَّ أَنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أَي: عَلِيمٌ بِمَا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا وَأَجْزَائِهَا مِنَ الْحَبِّ وَإِنْ صَغُرَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَيُوصِلُ إِلَى كُلِّ مِنْهُ فَيَسْقِيهِ مِنَ الْمَاءِ فَيُحْيِيهِ بِهِ، كَمَا قَالَ لُقْمَانُ: ﴿يَتَّقَى إِهْمًا إِنْ تَكَ وَشَقَالَ حَبَّةً مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وَقَالَ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَكْتُبُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَالَ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ

(١) فتح الباري: ٣٥٠/٦ ومسلم: ٢٠٣٦/٤

[لِكُلِّ قَوْمٍ مِّنْسَكٌ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ مِّنْسَكَ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يُعْنِي لِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ مِّنْسَكًا. قَالَ: وَأَصْلُ الْمُنْسَكِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَتَعَادَهُ الْإِنْسَانُ وَيَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ إِمَّا لِيَحْيِرَ أَوْ سُرًّا. قَالَ: وَلِهَذَا سُمِّيَتْ مَناسِكُ الْحَجِّ بِذَلِكَ لِتَرَدَادِ النَّاسِ إِلَيْهَا وَعُكُوفِهِمْ عَلَيْهَا^(١). فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ - مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ لِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ جَعَلْنَا مَنْسَكًا - فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ أَيُّ: هُوَ لِأَنَّ الْمَشْرُوكُونَ. وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا جَعَلْنَا قَدْرًا كَمَا قَالَ: **«وَلِكُلِّ وَجْهًا هُوَ مُوَلِّيًا»** [البقرة: ١٤٨] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: **«هُمْ نَاسِكُوهُ»** أَيُّ: فَاعِلُهُ، فَالضَّمِيرُ هُنَا عَائِدٌ عَلَى هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ لَهُمْ مَناسِكٌ وَطَرَائِقُ، أَيُّ: هُوَ لِأَنَّهَا يَتَعَلَّقُونَ هَذَا عَنْ قَدْرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ، فَلَا تَتَأَثَّرُ بِمَنَازِعَتِهِمْ لَكَ وَلَا يَصْرِفُكَ ذَلِكَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ: **«وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مُسْتَقِيمٌ»** أَيُّ: طَرِيقٌ وَاضِحٌ مُسْتَقِيمٌ مُوَصِّلٌ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: **«وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ»** [القصص: ٨٧].

وقوله: **«وَإِنْ جَدَلْتُمْ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ»**. كَقَوْلِهِ: **«وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ»**. [يونس: ٤١] وقوله: **«اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ»** تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، كَقَوْلِهِ: **«هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»** [الاحقاف: ٨] وَلِهَذَا قَالَ: **«اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»** وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **«فَلْيَذَلِكِ فَادْعُ وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمْسَتْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ...»** [الشورى: ١٥].

«أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» [٧٠] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عِلْمَ الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا، وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ**

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٍ مِثْلَ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنْ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٧﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الطُّبُّ مَبْتُورٌ

أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ^(٢). وَفِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ، الْقَلَمُ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**^(٣). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **«إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ»**.

«وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» [٧١] وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ نَعْرَفَ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ بِكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ بَتَلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَُ النَّارِ وَعَدَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ النَّصِيرُ ﴿٧٢﴾ **[عِبَادَةُ الْمُشْرِكِينَ غَيْرَ اللَّهِ وَشِدَّةُ انْكَارِهِمْ]**

(١) الطبري: ١٨/٦٧٨، ٦٧٩ (٢) مسلم: ٤/٢٠٤٤ (٣) أبو داود: ٥/٧٦ وتحفة الأحوذى: ٩/٢٣٢

عَلَى آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا جَهِلُوا وَكَفَرُوا وَعَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا، يَعْنِي حُجَّةً وَبُرْهَانًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَلْعَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أَيْ: وَلَا عِلْمَ لَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوهُ وَاتَّفَكَوْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ تَلَفَّوهُ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ، وَأَصْلُهُ مِمَّا سَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ وَزَيَّنَهُ لَهُمْ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أَيْ: مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللَّهِ فِيمَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ أَيْ: وَإِذَا ذُكِرَتْ لَهُمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَالْحُجَجِ وَالِدَلَالِ الْأَوَاضِحَاتِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ رُسُلَهُ الْكِرَامَ حَقٌّ وَصِدْقٌ ﴿بِكَادُونَ بِسَطَوَاتِ الْآيَاتِ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أَيْ: يَكَادُونَ بِبَيِّنَاتٍ يَحْتَجُونَ عَلَيْهِمْ بِالِدَلَالِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَسْطُونَ إِلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴿قُلْ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ ﴿أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَن ذَلِكُمْ النَّارِ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الذَّلِيلُ كَفَرُوا﴾ أَيْ: النَّارِ وَعَذَابُهَا وَنَكَالُهَا أَشَدُّ وَأَسْوَأُ، وَأَظْمٌ وَأَعْظَمُ، مِمَّا تَخَوَّفُونَ بِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ عَلَى صَنِيعِكُمْ هَذَا أَعْظَمُ مِمَّا تَتَلَوْنَ مِنْهُمْ إِنْ نَلْتُمْ بِرِعْمِكُمْ وَإِرَادَتِكُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيْسَ الْمَصِيدُ﴾ أَيْ: وَيَسُّ النَّارِ مَقِيلًا وَمَنْزِلًا وَمَرْجَعًا وَمَوْثَلًا وَمَقَامًا ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الذَّلِيلَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنْ اللَّهُ لَقَوِيٌّ

عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

[بَيَانُ حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَحِمَاقَةِ عَابِدِيهَا]

يَقُولُ تَعَالَى مِنْهَا عَلَى حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَسَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ﴾ أَيْ: لِمَا يَعْبُدُهُ الْجَاهِلُونَ بِاللَّهِ الْمُشْرِكُونَ بِهِ ﴿فَاستَمِعُوا لَهُ﴾ أَيْ: أَنْصِتُوا وَتَفَهَّمُوا ﴿إِنَّ الذَّلِيلَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أَيْ: لَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ

الْأَصْنَامِ وَالْأَتْدَادِ عَلَى أَنْ يَقْدِرُوا عَلَى خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ مَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا قَالَ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ خَلَقَ [خَلْقًا] كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا مِثْلَ خَلْقِي ذَرَّةً أَوْ ذُبَابَةً أَوْ حَبَّةً»^(١). وَأَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ مِنْ طَرِيقِ عُمَارَةَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَيْئًا شَيْئًا»^(٢). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أَيْ: هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ، بَلْ أُنْبَغُ مِنْ ذَلِكَ: عَاجِزُونَ عَنْ مَقَاوِمِيهِ وَالْإِنْتِصَارِ مِنْهُ لَوْ سَلَبَهَا شَيْئًا مِنَ الَّذِي عَلَيْهَا مِنَ الطَّيِّبِ، ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَنْقِذَهُ مِنْهُ لَمَّا قَدَّرَتْ عَلَى ذَلِكَ، هَذَا وَالذُّبَابُ مِنْ أَوْجَعِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَأَحْقَرِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «الطَّالِبُ الصَّغِيرُ، وَالْمَطْلُوبُ الذُّبَابُ»^(٣). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَهُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: الطَّالِبُ الْعَابِدُ، وَالْمَطْلُوبُ الصَّغِيرُ^(٤). ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أَيْ: مَا عَرَفُوا قَدْرَ اللَّهِ وَعَظَمَتَهُ حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ هَذِهِ النَّبِيِّ لَا تَقَاوِمِ الذُّبَابِ لِضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أَيْ: هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي يَقْدِرُهُ وَقُوَّتُهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿إِنَّ بَطْنَ رَيْكُ لَشَدِيدٌ ﴿٧٤﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أَيْ: قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَهَرَهُ وَعَلَبَهُ، فَلَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

[إِخْتِيَارُ اللَّهِ رُسُلًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَرُسُلًا

مِنَ النَّاسِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُخْتَارُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا فِيمَا يَشَاءُ مِنْ

(١) أحمد: ٣٩١/٢ (٢) فتح الباري: ٥٣٧/١٣ ومسلم: ٣/١٦٧١ (٣) الطبري: ٦٨٥/١٨ (٤) البغوي: ٢٩٨/٣ عن الضحاك.

وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»^(٣).
 وَقَالَ ﷺ لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى حِينَ بَعَثَهُمَا أَمِيرَيْنِ إِلَى
 الْيَمَنِ: «بَشْرًا وَلَا تُنْفَرَا، وَيَسْرًا وَلَا تُعَسِّرَا»^(٤).
 وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:
 «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» يَعْنِي مِنْ ضَيْقٍ^(٥).
 وَقَوْلُهُ: «يَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: نَصَبٌ
 عَلَى تَقْدِيرِ «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» أَي: مِنْ
 ضَيْقٍ بَلٍ وَسَعَهُ عَلَيْكُمْ كَمَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: وَيَحْتَمِلُ
 أَنَّهُ مُنْصَوِّبٌ عَلَى تَقْدِيرِ: الرَّزْمَا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ^(٦).
 (قُلْتُ): وَهَذَا الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَقَوْلِهِ: «قُلْ إِنِّي

هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...
 الْآيَةَ [الأنعام: ١٦١]، وَقَوْلُهُ: «هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ
 قَبْلُ وَفِي هَذَا» قَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنِ ابْنِ
 جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «هُوَ سَمَنُكُمْ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» قَالَ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٧). وَكَذَا قَالَ
 مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيَّانَ
 وَقَتَادَةُ^(٨).

قَالَ مُجَاهِدٌ: اللَّهُ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ فِي الْكُتُبِ
 الْمُنْقَدَّمَةِ وَفِي الذِّكْرِ، «وَفِي هَذَا» يَعْنِي الْقُرْآنَ^(٩). وَكَذَا
 قَالَ غَيْرُهُ. لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: «هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ
 فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» ثُمَّ حَثَّكُمْ وَأَغْرَاهُمْ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ
 الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، بِأَنَّهُ مِلَّةَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ
 الْخَلِيلِ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْتَهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِمَا نَوَّهَ بِهِ مِنْ
 ذِكْرِهَا وَالتَّنَائِي عَلَيْهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ وَقَلِيمِ الزَّمَانِ فِي
 كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ يُتْلَى عَلَى الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، فَقَالَ: «هُوَ
 سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» أَي: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ «وَفِي
 هَذَا» وَقَدْ قَالَ السَّائِي عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: عَنِ الْحَارِثِ
 الْأَشْعَرِيِّ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا بِدَعْوَى
 الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ مِنْ جُنَا جَهَنَّمَ» قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ
 اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى،
 فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللَّهِ الَّتِي دَعَاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ

شَرِّعِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَنْ النَّاسُ لِلْبَلَاغِ رِسَالَتِهِ» [إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
 بَصِيرٌ] أَي: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، بَصِيرٌ بِهِمْ، عَلِيمٌ بِمَنْ
 يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
 رِسَالَتَهُ» [الأنعام: ١٢٤] وَقَوْلُهُ: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
 خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» أَي: يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُ بِرُسُلِهِ
 فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ، كَمَا
 قَالَ: «عَلِمَ الْعَلِيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى عَيْبِهِ أَحَدًا» [الجن: ٢٦]
 إِلَى قَوْلِهِ «وَأَخَصَّنِي كُلَّ شَيْءٍ عَدْدًا» فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ،
 شَهِيدٌ عَلَى مَا يُقَالُ لَهُمْ، حَافِظٌ لَهُمْ، نَاصِرٌ لِحَبَاتِهِمْ «يَتَأْتِيهَا
 الرَّسُولُ بِبَيِّنَاتٍ مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ
 رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»... الْآيَةَ [المائدة: ٦٧].

«يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ﴿٧٧﴾ وَجَهْدُوا فِي اللَّهِ
 حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ
 مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا
 لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى
 وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

[الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ وَالْجِهَادِ]

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ
 بِسَجْدَتَيْنِ، فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يَمُرُّهُمَا»^(١). قَوْلُهُ:
 «وَجَهْدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» أَي: بِأَمْوَالِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ
 وَأَنْفُسِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِلِهِ» [آل
 عمران: ١٠٢]. وَقَوْلُهُ: «هُوَ أَحَبُّكُمْ» أَي: يَا هَذِهِ الْأُمَّةُ،
 اللَّهُ اضْطَفَاكُمْ وَاخْتَارَكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَفَضَّلَكُمْ
 وَشَرَّفَكُمْ وَخَصَّكُمْ بِأَكْرَمِ رَسُولٍ وَأَكْمَلِ شَرَعٍ «وَمَا جَعَلَ
 عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» أَي: مَا كَلَّفَكُمْ مَا لَا تُطِيقُونَ، وَمَا
 أَلَزَمَكُمْ بِشَيْءٍ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا
 وَمَخْرَجًا، فَالصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ
 الشَّهَادَتَيْنِ تَجِبُ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ تَقْصُرُ إِلَى
 اثْنَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ يُصَلِّيَهَا بَعْضُ الْأُمَّةِ رَكْعَةً، كَمَا وَرَدَ
 بِهِ الْحَدِيثُ^(٢). وَتُصَلَّى رَجُلًا وَرَجُلَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ
 وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا، وَكَذَا فِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ إِلَى الْقِبْلَةِ
 وَغَيْرِهَا، وَالْقِيَامُ فِيهَا يَنْقُطُ لِعُذْرِ الْمَرَضِ، فَيُصَلِّيهَا
 الْمَرِيضُ جَالِسًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
 مِنَ الرُّخْصِ وَالتَّخْفِيفَاتِ فِي سَائِرِ الْفَرَائِضِ وَالْوَأَاجِبَاتِ،

(١) الحاكم: ٢٢١/١ (٢) أبو داود: ٣٨/٢ (٣) أحمد: ٥/٥
 ٢٦٦ (٤) فتح الباري: ٦٥٧/٧ (٥) الطبري: ٦٨٩/١٨ (٦)
 الطبري: ٦٩١/١٨ (٧) الطبري: ٦٩١/١٨ (٨) الطبري:
 ١٠١/١٢ (٩) القرطبي: ٦٩٢، ٦٩١/١٨

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

٣٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
 وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
 فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى
 أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
 فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
 لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
 يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
 الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن
 سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْطَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
 خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
 الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا
 آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ
 لِمَن نَّوْنُ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا الْقَيْمَةَ تَبْعُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ
 خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

أبي طلحة عن ابن عباس «خاشعون» خائفون ساكنون (٢).
 وكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري (٣). وعن
 علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخشوع خشوع
 القلب (٤). وكذا قال إبراهيم النخعي (٥). وقال الحسن
 البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فعصوا بذلك
 أوصارهم وخفضوا الجناح. والخشوع في الصلاة إنما
 يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وأثرها
 على غيرها، وحيثئذ تكون راحة له وقرة عين، كما قال
 النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي
 عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبَّ إِلَيَّ الطَّيِّبُ
 وَالنِّسَاءُ، وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (٦).
 وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» أي: عن

الله (١). قوله: «إِذْ كُنَّ الرُّسُلُ شُهَدَاءَ عَلَيْكُمْ وَكُنتُمْ شُهَدَاءَ
 عَلَى النَّاسِ» أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً
 خياراً مشهوداً بعد اليك عند جميع الأمم، لتكونوا يوم
 القيامة «شهداء على الناس» لأن جميع الأمم معترفة يومئذ
 بسياذتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل
 شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة
 ربهم، والرسل يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

وقوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا» أي: فاقبلوا هذه
 النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فادأوا حتى الله عليكم في
 أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم، ومن أهم
 ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق
 الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من
 ماله في السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه
 وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة. وقوله: «وَاعْتَصِمُوا
 بِاللَّهِ» أي: اعتصموا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه
 وتأيدوا به «هو مولكم» أي: حافظكم وناصركم
 ومظفركم على أعدائكم «فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ» يعني
 نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء.

وهذا آخر تفسير سورة الحج. وصلى الله على سيدنا
 محمد وآله وصحبه وسلم وشرف وكرم. ورضي الله تعالى
 عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

تفسير سورة المؤمنون وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ
 هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ
 هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
 عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
 يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾
 [الْفَلَاحُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَذَكَرُ صِفَاتِهِمْ]

وقوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» أي: قد فازوا
 وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المُنْتَصِفُونَ
 بهذه الأوصاف «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» قال علي بن

(١) النسائي في الكبرى: ٤١٢/٦ وأحمد ٤/١٣٠ (٢) الطبري:

٩/١٩ (٣) الطبري: ٩٠٨/١٩ (٤) الطبري: ٩/١٩ (٥)

الطبري: ٩/١٩ (٦) أحمد: ٣/١٩٩ والنسائي: ٧/٦١، ٦٢

الصَّحِيحِينَ^(٣).

وَقَالَ قَتَادَةُ: عَلَى مَوَاقِبَتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا^(٤). وَقَدْ افْتَتَحَ اللَّهُ ذِكْرَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ بِالصَّلَاةِ وَاجْتَمَعَتْهَا بِالصَّلَاةِ فَدَلَّ عَلَى أَفْضَلِيَّتِهَا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَفِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمْ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(٥). وَلَمَّا وَصَفَهُمُ تَعَالَى بِالْقِيَامِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ وَالْأَفْعَالِ الرَّشِيدَةِ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^(٦).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنزِلَانِ: مَنزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِنْ مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرَثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنزِلَهُ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾»^(٧). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ اللَّيْثِ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ يَرِثُونَ مَنَازِلَ الْكُفَّارِ لِأَنَّهُمْ خَلِقُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَمَّا قَامَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا وَجِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَتَرَكَ أُولَئِكَ مَا أَمُرُوا بِهِ مِمَّا خَلِقُوا لَهُ، أَحْرَزَ هَؤُلَاءِ نَصِيبَ أُولَئِكَ، لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ بَلْ أَبْلَغَ مِنْ هَذَا أَيْضًا، وَهُوَ مَا تَبَّتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَذُنُونَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى»^(٨). وَفِي لَفْظِ لَهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيُقَالُ: هَذَا فِكَارُكَ مِنَ النَّارِ» فَاسْتَحْلَفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَبَا بُرْدَةَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ قَالَ: فَحَلَفَ لَهُ^(٩). قُلْتُ: وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ

الْبَاطِلِ، وَهُوَ يَشْمَلُ الشِّرْكَ وَالْمَعَاصِيَ، وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] قَالَ قَتَادَةُ: أَنَاهُمْ وَاللَّهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا وَقَدَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ^(١٠). وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكُوعَةِ قَانِعُونَ﴾ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالرَّكُوعَةِ هَهُنَا: زَكَاةَ الْأَمْوَالِ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَإِنَّمَا فُرِضَتِ الرَّكُوعَةُ بِالْمَدِينَةِ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فُرِضَتْ بِالْمَدِينَةِ إِنَّمَا هِيَ ذَاتُ الثُّنْبِ وَالْمَقَادِيرِ الْخَاصَّةِ، وَإِلَّا فَالظَّاهِرُ أَنَّ أَضْلَ الرَّكُوعَةِ كَانَ وَاجِبًا بِمَكَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالرَّكُوعَةِ هَهُنَا زَكَاةَ النَّفْسِ مِنَ الشِّرْكَ وَاللَّئْسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّاهَا وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنَّ يَكُونُ كِلَا الْأَمْرَيْنِ مُرَادًا، وَهُوَ زَكَاةُ النَّفْسِ وَزَكَاةُ الْأَمْوَالِ، فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ زَكَاةِ النَّفْسِ، وَالْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي [يَتَعَاطَى] هَذَا وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ يَحْفَظُونَ﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿١١﴾ فَمَنْ آتَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١٢﴾ أَيُّ: وَالَّذِينَ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ فَلَا يَتَعَمَّقُونَ فِيهَا نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ زِنَا وَلِوَاطِئٍ، لَا يَقْرُبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُمْ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِيِّ، وَمَنْ تَعَاطَى مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ﴿١٣﴾ فَمَنْ آتَى وَرَاءَ ذَلِكَ ﴿١٤﴾ أَيُّ: غَيْرِ الْأَزْوَاجِ وَالْإِمَاءِ ﴿١٥﴾ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١٦﴾ أَيُّ: الْمُعْتَدُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَصَدَقَتِهِمْ رَعُونَ﴾ أَيُّ: إِذَا أُوْتِمِنُوا لَمْ يَخُونُوا بَلْ يُؤَدُّونَهَا إِلَى أَهْلِهَا، وَإِذَا عَاهَدُوا أَوْ عَاقَدُوا أَوْفُوا بِذَلِكَ لَا كَصِفَاتِ الْمُتَافِقِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آيَةُ الْمُتَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُوتِمِنَ خَانَ»^(١٧). وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَيُّ: يُوَاطِئُونَ عَلَيْهَا فِي مَوَاقِبَتِهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الْصَّلَاةُ عَلَى وَفْيِهَا». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرِّ الْوَالِدَيْنِ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أَخْرَجَاهُ فِي

(١) الزهد لابن المبارك: ٥٥ (٢) فتح الباري: ٥٢٢/١٠ (٣) فتح الباري: ٤١٤/١٠ ومسلم: ٨٩/١ (٤) الدر المنثور: ٦/٨٩ (٥) ابن ماجه: ١٠١/٢ (٦) فتح الباري: ٤١٥/١٣ (٧) ابن ماجه: ١٤٥٣/٢ (٨) مسلم: ٢١٢٠/٤ (٩) مسلم: ٤/٢١١٩

عِبَادَنَا مَنْ كَانَ نَفِيًّا ﴿٦٣﴾ وَكَفَّوْهُ: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْيُطْرُقَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

[آية الله في تطوُّرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنَ التُّرَابِ ثُمَّ مِنَ النُّطْفَةِ إِلَى مَا بَعْدَهَا]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّمَا سُمِّيَ آدَمُ طِينًا لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْهُ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتَلَّ آدَمُ مِنَ الطِّينِ^(٢). وَهَذَا أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى وَأَقْرَبَ إِلَى السِّيَاقِ، فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِقَ مِنْ طِينٍ لَأَرْبٍ، وَهُوَ الصَّلْصَالُ مِنَ الْحَمَاءِ الْمَسْنُونِ، وَذَلِكَ مَخْلُوقٌ مِنَ التُّرَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»^(٣) وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ نَحْوَهُ^(٤). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى جِنْسِ الْإِنْسَانِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٦١﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٦٢﴾﴾ [السجدة: ٨، ٧].

أَيُّ: ضَعِيفٌ، كَمَا قَالَ: «أَلَمْ تَخْلُقْنَا مِنْ مَاءٍ مَهِينًا ﴿٦٢﴾ فَجَعَلْنَا فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٦٣﴾» يَعْنِي الرَّجْمُ مُعَدُّ لِذَلِكَ مَهِينًا لَهُ ﴿إِنَّ قَدْرَ مَعْلُومٍ ﴿٦٤﴾ فَفَدَرْنَا فَعَمَّ الْقَدِيرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

أَيُّ: مَدَّةٌ مَعْلُومَةٌ وَأَجَلٌ مُعَيَّنٌ، حَتَّى اسْتَحْكَمَ وَتَنَقَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَصِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أَيُّ: ثُمَّ صَيَّرْنَا النُّطْفَةَ، وَهِيَ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ وَهُوَ ظَهْرُهُ، وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ وَهِيَ عِظَامُ صَدْرِهَا مَا بَيْنَ التَّرْقُوتِ إِلَى التُّنْدُوءِ، فَصَارَتْ عَلَقَةً حَمْرَاءَ عَلَى شَكْلِ الْعَلَقَةِ مُسْتَطِيلَةً. قَالَ عِكْرَمَةُ: وَهِيَ دَمٌ ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وَهِيَ قِطْعَةٌ كَالْبُضْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ ﴿فَخَلَقْنَا

الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ يَعْنِي شَكْلُنَاهَا ذَاتَ رَأْسٍ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ بِعِظَامِهَا وَعَصَبِهَا وَعُرْوَقِهَا.

﴿فَكَسَوْنَا الْيُطْرُقَ لَحْمًا﴾ أَيُّ: وَجَعَلْنَا عَلَى ذَلِكَ مَا يَسْتُرُهُ وَيَشُدُّهُ وَيُؤَيِّدُهُ ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أَيُّ: ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ فَتَحَرَّكَ وَصَارَ خَلْقًا آخَرَ ذَا سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَإِذْرَاقٍ وَحَرَكَةٍ وَأَضْطِرَابٍ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يَعْنِي نَفَلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ إِلَى أَنْ خَرَجَ طِفْلًا ثُمَّ نَسَاءً صَغِيرًا، ثُمَّ ائْتَمَّتْ ثُمَّ صَارَ شَابًا، ثُمَّ كَهْلًا ثُمَّ شَيْخًا ثُمَّ هَرِمًا^(٥). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَجْمَعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»^(٦). أَخْرَجَاهُ^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يَعْنِي حِينَ ذَكَرَ قُدْرَتَهُ وَلُطْفَهُ فِي خَلْقِ هَذِهِ النُّطْفَةِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَسَكَلٍ إِلَى شَكْلٍ حَتَّى تَصَوَّرَتْ إِلَى مَا صَارَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْسَانِ السَّوِيِّ الْكَامِلِ الْخَلْقِيِّ، قَالَ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ﴾ يَعْنِي بَعْدَ هَذِهِ النُّشْأَةِ الْأُولَى مِنَ الْعَدَمِ تَصِيرُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يَعْنِي النُّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْمَعَادِ، وَيَقَامُ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ، فَيَحَاسِبُ الْخَلَائِقَ، وَيُؤَفِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ

(١) الطبري: ١٥/١٩ (٢) الطبري: ١٤/١٩ (٣) أحمد: ٤/٤٠٠ (٤) أبو داود: ٦٧/٥ وتحفة الأحوذى: ٢٩٠/٨ (٥) الطبري: ١٨/١٩ العوفي معروف بالضعف (٦) أحمد: ١/٣٨٢ (٧) فتح الباري: ٤١٨/٦ ومسلم: ٢٠٣٦/٤

عَفَلِينَ ﴿١٧﴾

[آيَتُهُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ الْإِنْسَانِ، عَطَفَ بِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَكَثِيرًا مَا يَذُكُرُ تَعَالَى خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَعَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥٧] وَهَكَذَا فِي أَوَّلِ آيَةِ السَّجْدَةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا صَبِيحَةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ. فِي أَوَّلِهَا: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ بَيَّنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، وَفِيهَا أَمْرُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَعَبَّرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَمِعَ طَرَائِقَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يُعْنِي السَّمَوَاتِ السَّبْعَ (١). وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَمِعَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّى خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَفِيهَا مِثْلُ مَنْزِلِ الْأَمْرِ يَنْزِلُ بَيْنَهُنَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أَي: وَنَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَهُوَ سُبحَانَهُ لَا يَحْجُبُ عَنْهُ سَمَاءُ سَمَاءٍ وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا، وَلَا جَبَلٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي وَعِوَرِهِ، وَلَا بَحْرٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي قَعْرِهِ، يَعْلَمُ عَدَدَ مَا فِي الْجِبَالِ وَالتَّلَالِ وَالرَّمَالِ وَالبِحَارِ وَالقَفَارِ وَالأشْجَارِ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ تُرْبٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا بَابٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَنِيعٍ لِلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِكَيْذِكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

[آيَاتُهُ فِي الْمَطَرِ وَالتَّبَاتِ وَالأشْجَارِ وَالأَنْعَامِ]

يَذُكُرُ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَى عِبِيدِهِ الَّتِي لَا تَعُدُّ وَلَا تُحْصَى فِي أَنْزَالِهِ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ﴿بِقَدَرٍ﴾ أَي: بِحَسَبِ الْحَاجَةِ لَا كَثِيرًا فَيَفْسِدُ الْأَرْضُ وَالعُمُرَانُ، وَلَا قَلِيلًا فَلَا يَكْفِي الزَّرْوَعُ وَالتَّمَارَ، بَلْ بِقَدَرٍ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنَ السَّقْيِ وَالشَّرْبِ

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

٣٤٣

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَنِيعٍ لِلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِكَيْذِكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا الْبَشَرُ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ فِيهِ جَنَّةٌ فَتَرَى صُورًا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنْتُ دُوبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفَالِكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَئِينَ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِطُ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

وَالتَّنْفَاعَ بِهِ، حَتَّى إِنْ الْأَرْضِي الَّتِي تَحْتَاجُ مَاءً كَثِيرًا لِرِزْقِهَا وَلَا تَحْتَمِلُ دِمَشْتَهَا إِتْرَالِ الْمَطَرِ عَلَيْهَا، يَسُوقُ إِلَيْهَا الْمَاءَ مِنْ بِلَادٍ أُخْرَى كَمَا فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَقَبَالَ لَهَا: الْأَرْضُ الْحُرُزُ، يَسُوقُ اللَّهُ إِلَيْهَا مَاءَ النَّبْلِ مَعَهُ طِينٌ أَحْمَرُ، يَجْتَرِفُهُ مِنْ بِلَادِ الْحَشَةِ فِي زَمَانِ أَمْطَارِهَا، فَيَأْتِي الْمَاءَ يَحْمِلُ طِينًا أَحْمَرَ فَيَسْقِي أَرْضَ مِصْرَ، وَيَقْرَأُ الطِّينَ عَلَى أَرْضِهِمْ لِيَزْدَرِعُوا فِيهِ، لِأَنَّ أَرْضَهُمْ سَبَاحٌ يَغْلِبُ عَلَيْهَا الرَّمَالُ فَسُبْحَانَ الطِّيفِ الْخَبِيرِ الرَّجِيمِ الْعُفُورِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: جَعَلْنَا الْمَاءَ إِذَا نَزَلَ مِنَ السَّحَابِ يَخْلُدُ فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ قَابِلِيَّةً لَهُ تَشْرِبُهُ وَيَتَغَدَّى بِهِ مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ وَالتَّوَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ﴾ أَي: لَوْ شِئْنَا أَنْ لَا تَمْطُرَ لَعَلْنَا. وَلَوْ شِئْنَا لَصَرَفْنَا عَنْكُمْ إِلَى السَّبَاحِ وَالتَّبَارِي وَالْقَفَارِ لَعَلْنَا. وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ لِشُرْبِ

تَحْمَلُونَ ﴿٧﴾ [النحل: ٧] يَذْكُرُ تَعَالَى مَا جَعَلَ لِيَخْلُقَهُ فِي الْأَنْعَامِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنَ الْأَبْيَانِ الْخَارِجَةِ مِنْ بَيْنِ فَرْثِ وَدَمٍ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ لُحْمَانِهَا وَيَلْبَسُونَ مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا، وَيَرْكَبُونَ ظُهُورَهَا، وَيَحْمِلُونَهَا الْأَحْمَالَ الثَّقَالَ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْمِلُ أَعْقَابَكُمْ إِلَى الْبَلَدِ النَّائِيَةِ بِلَا إِشْقَى الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلَاتٍ لِيُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِنَا وَلِيَحْمِلُوا حِمْلَنَا وَكُلُوا مِنَّا حَلَالًا وَبِرَاهِنًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [النحل: ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٧] فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَرِيدٌ أَن يَنْفِضَ عَلَيْكُمْ وَكَوَيْدِ اللَّهِ لَآتِيَنَّكُمْ مَلَائِكَةٌ مِّن سَمَائِنَا يَهْدُونَ فِي آيَاتِنَا الْأُولَى ﴿١١﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ غَافِلٌ يَدْعُو بِهِ كَذِبًا فَرَقَّبُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٥﴾

[قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ لِيُنذِرَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَبَأْسَهُ الشَّدِيدَ، وَإِنْتِقَامَهُ مِمَّنْ أَشْرَكَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَي: أَلَا تَتَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ فِي إِشْرَاكِكُمْ بِهِ؟ فَقَالَ الْمَلَأُ وَهُمْ السَّادَةُ وَالْأَكَابِرُ مِنْهُمْ ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَرِيدٌ أَن يَنْفِضَ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنُونَ: يَرْفَعُ عَلَيْكُمْ، وَتَتَعَاطَمُ بِدَعْوَى النَّبُوَّةِ وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، فَكَيْفَ أُوجِبَ إِلَيْهِ دُونُكُمْ؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِسَمِينٍ وَغَدَاةً جُرُفًا فَاسْتَغِثَ بِهِمُ مَن يَكْفُرُونَ﴾ أَي: لَوْ أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ نَبِيًّا لَبَعَثَ مَلَكًَا مِنْ عِنْدِهِ وَلَمْ يَكُنْ بَشَرًا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أَي: يَبْعَثُ الْبَشَرَ فِي آيَاتِنَا الْأُولَى، يَعْنُونَ بِهَذَا أَشْرَافَهُمْ وَأَجْدَادَهُمْ فِي الدُّهُورِ الْمَاضِيَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ غَافِلٌ يَدْعُو بِهِ كَذِبًا فَرَقَّبُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أَي: ائْتَنظَرُوا بِهِ رَبِّبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ مُدَّةً حَتَّىٰ تَسْتَرْيَحُوا مِنْهُ.

﴿قَالَ رَبِّ اضْرِبْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْبَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّسْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُفْ

وَلَا يَسْقِي لَفَعَلْنَا. وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ لَأَيُّزُلًا فِي الْأَرْضِ بَلْ يَنْجُرُ عَلَيَّ وَجْهَهَا لَفَعَلْنَا. وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ، إِذَا نَزَلَ فِيهَا، يَغُورُ إِلَى مَدَى لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِ وَلَا تَتَّبَعُونَ بِهِ لَفَعَلْنَا. وَلَكِنْ يُلْطِفُهُ وَرَحْمَتِي يُنْزِلُ عَلَيْكُمْ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ عَذْبًا فُرَاتًا زَلَالًا، فَيَسْكِنُهُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْلُكُهُ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ، فَيَفْتَحُ الْعُيُونَ وَالْأَنْهَارَ، وَيَسْقِي بِهِ الزَّرْعَ وَالشَّجَرَ، وَتَشْرَبُونَ مِنْهُ وَدَوَابُّكُمْ وَأَنْعَامُكُمْ، وَتَغْتَسِلُونَ مِنْهُ وَتَنْظُرُونَ وَتَنْتَظِرُونَ، فَالْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يَعْنِي فَأَخْرَجْنَا لَكُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ جَنَاتٍ أَيْ: بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ أَيْ: ذَاتَ مَنْظَرٍ حَسَنٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أَي: فِيهَا نَجِيلٌ وَأَعْنَابٌ، وَهَذَا مَا كَانَ يَأْلِفُ أَهْلَ الْحِجَازِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الشَّيْءِ وَبَيْنَ نَظِيرِهِ، وَكَذَلِكَ فِي حَقِّ كُلِّ أَهْلِ إِقْلِيمٍ عِنْدَهُمْ مِنَ الثَّمَارِ مِنَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، مَا يَعْجِزُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أَي: مِنْ جَمِيعِ الثَّمَارِ، كَمَا قَالَ: ﴿يُثْبِتُ لَكُمْ فِي الزَّيْتِ وَالزَّيْتُونِ وَالنَّجِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَمِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كَأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى شَيْءٍ مُّقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ، تَنْظُرُونَ إِلَى حُسْنِهِ وَنَضْجِهِ وَمِنْهُ تَأْكُلُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يَعْنِي الزَّيْتُونَةَ، وَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا يُسَمَّى طُورًا إِذَا كَانَ فِيهِ شَجَرٌ، فَإِنْ عُرِيَ عَنْهَا سُمِّيَ جَبَلًا لَا طُورًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَطُورُ سَيْنَاءَ هُوَ طُورُ سَيْنِينَ، وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمُ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا حَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي فِيهَا شَجَرُ الزَّيْتُونِ. وَقَوْلُهُ: (تُنْبِتُ بِالذَّهْنِ) قَالَ بَعْضُهُمْ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ، وَتَقْدِيرُهُ تُنْبِتُ الذَّهْنَ كَمَا فِي قَوْلِ الْعَرَبِ: أَلْقَى فَلَانٌ بِيَدِهِ، أَيْ: يَدَهُ، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَضْمُنُ الْفِعْلَ، فَتَقْدِيرُهُ تَخْرُجُ بِالذَّهْنِ أَوْ تَأْتِي بِالذَّهْنِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَصَبَّحَ﴾ أَي: أَدُمُ. قَالَه قَتَادَةُ^(١). ﴿لِلْأَكْلِينَ﴾ أَي: فِيهَا مَا يَنْتَفِعُ بِهِ مِنَ الذَّهْنِ وَالِاضْطِغَابِ.

وَرَوَى عَبْدُ بَنِّ حُمَيْدٍ فِي مُسْنَدِهِ وَتَفْسِيرِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اِئْتَدِمُوا بِالزَّيْتِ وَأَدْهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا بِطُغْيَانِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكَ

(١) الدر المنثور: ٩٥/٦ (٢) المنتخب لعبد بن حميد: ١٣ والترمذي: ١٨٥١ وابن ماجه: ٣٣١٩

فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَدٌ لِلَّهِ الَّذِي يَخْتَارُ خَيْرَ الْأَمْثَلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ دَعَا رَبَّهُ لِيَسْتَنْصِرَهُ عَلَى قَوْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِراً عَنْهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿دَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] وَقَالَ هُنَا: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِصُنْعَةِ السَّفِينَةِ وَإِحْكَامِهَا وَإِنْقَائِهَا، وَأَنْ يَحْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، أَيْ: ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ كُلِّ صَنْفٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتَاتِ وَالشَّجَرَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَنْ يَحْمَلَ فِيهَا أَهْلَهُ ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنَ اللَّهِ بِالْهَلَاكِ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهِ كَانِبِهِ وَزَوْجِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أَيْ: عِنْدَ مُعَابَاةِ إِزْثَالِ الْمَطَرِ الْعَظِيمِ لَا تَأْخُذْنِكَ رَافَةٌ بِقَوْمِكَ وَشَفَقَةٌ عَلَيْهِمْ، وَطَمَعٌ فِي تَأْخِيرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ، فَإِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أَنَّهُمْ مُعْرِضُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ هُودٍ بِمَا يُغْنِي عَنْ إِعَادَةِ ذَلِكَ هَهُنَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَدٌ لِلَّهِ الَّذِي يَخْتَارُ خَيْرَ الْأَمْثَلِينَ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكَ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِعَمَلِهِمْ وَإِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُفْرِقِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤] وَقَدْ امْتَثَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِدِيهَا وَاْمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١] فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ابْتِدَاءِ سَيْرِهِ وَعِنْدَ انْتِهَائِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أَيْ: إِنَّ فِي هَذَا الصَّنِيعِ وَهُوَ إِجْعَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِهْلَاكُ الْكَافِرِينَ لآيَاتٍ أَيْ: لِحُجَجًا وَدَلَالَاتٍ وَاضِحَاتٍ عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ تَعَالَى فَاعِلٌ لِمَا يَشَاءُ وَقَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أَيْ: لِمُخْتَبِرِينَ لِلْعِبَادَةِ بِإِرْسَالِ الْمُرْسَلِينَ.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ

سورة المؤمنون

سورة المؤمنون

٣٤٤

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَدٌ لِلَّهِ الَّذِي يَخْتَارُ خَيْرَ الْأَمْثَلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٤٤﴾ أَيْدِعْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْهُمْ أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٤٥﴾ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيحُنَّ لِرَبِّهِمْ ﴿٥٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِشَاءَ فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٥٢﴾

أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٤٤﴾ أَيْدِعْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْهُمْ أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٤٥﴾ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيحُنَّ لِرَبِّهِمْ ﴿٥٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِشَاءَ فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

[قِصَّةُ عَادٍ أَوْ ثَمُودَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ قَوْمًا آخَرِينَ، قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِمْ عَادٌ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَخْلِفِينَ بَعْدَهُمْ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِؤُلَاءِ ثَمُودُ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَعَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَأَبَوْا مِنْ اتِّبَاعِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِكُونِهِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، وَاسْتَنْكَفُوا عَنْ آتِبَاعِ رَسُولٍ بَشَرِيٍّ، وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ وَأَنْكَرُوا الْمَعَادَ الْجُمُنَانِيَّ وَقَالُوا: ﴿أَيُّدُّكُمْ أَكْبَرُ إِنَّا بِكُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظْنَا أَنْكُرْتُمْ حُجْرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ هَيْبَاتٌ هَيْبَاتٌ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٤٣﴾ أَيُّ: بَعِيدٌ بَعِيدٌ ذَلِكَ لِإِنَّهُ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٤٤﴾ أَيُّ: فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ، وَالْإِخْبَارِ بِالْمَعَادِ ﴿وَمَا تَعْنَى لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ أَضْرَفِي بِمَا كَذَّبْتُمْ ﴿٤٦﴾ أَيُّ: اسْتَفْتَحَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولَ وَاسْتَنْصَرَ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأَجَابَ دُعَاءَهُ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْحِحَنَّ نَدِيمِي﴾ ﴿٤٧﴾ أَيُّ: بِمُخَالَفَتِكَ وَعِنَادِكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ ﴿٤٨﴾ أَيُّ: وَكَانُوا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ صَيْحَةٌ مَعَ الرِّيحِ الصَّرْصَرِ الْعَاصِفِ الْقَوِيِّ الْبَارِدَةِ ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْتِرُ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أَيُّ: صَرَعَى هَلَكَى كُتْنَاءَ السَّيْلِ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْحَقِيرُ النَّافِةُ الْهَالِكُ الَّذِي لَا يَنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، ﴿فَبَعَدَا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أَيُّ: بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، فَلْيَحْذَرِ السَّامِعُونَ أَنْ يَكْذِبُوا رَسُولَهُمْ.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ فَبَعَدَا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٧﴾

[ذِكْرُ الْأُمَّةِ الْآخَرِيَّةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أَيُّ: أُمَّةً وَخَلَائِقَ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ﴾ يَعْنِي بَلْ يُؤْخَذُونَ عَلَى حَسْبِ مَا قَدَّرَ لَهُمْ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَحْضُوطِ، وَعَلِمِهِ قَبْلَ كُونِهِمْ أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ، وَقَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَخَلْقًا بَعْدَ سَلْفٍ، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ يَعْنِي يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ^(١). وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِئُوا بِحُجْرَاتِ اللَّهِ وَأَجْتَنِبُوا ظُلُمَاتِهَا فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يَعْنِي جُمُوهُورَهُمْ وَأَكْثَرَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْضَرُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يُبَيِّنُهُمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أَيُّ:

أَهْلَكْنَاهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الاسراء: ١٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ﴾ أَيُّ: أَخْبَارًا وَأَحَادِيثَ لِلنَّاسِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ وَمَرْقَمَهُمْ كُلَّ مَرْقَمَةٍ﴾ [سباء: ١٩].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَقَوْمُهُمْ لَنَا عِذُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

[قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخَاهُ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِالْآيَاتِ وَالْحُجُجِ الدَّامِغَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهِمَا وَالْإِنْقِيَادِ لِأَمْرِهِمَا لِكُونِهِمَا بَشَرَيْنِ، كَمَا أَنْكَرَتِ الْأُمَّةُ الْمَاضِيَةَ بِعَثَّةِ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ، تَسَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ

فَأَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ، وَأَعْرَفَهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَجْمَعِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَةُ، فِيهَا أَحْكَامُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا قَصَمَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَالْقِبْطَ وَأَخَذَهُمْ أَحْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ لَمْ يَهْلِكْ أُمَّةٌ بِعَامَّتِهِ بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ

وَمَعِينٍ﴾ (٥٠)

[ذِكْرُ عِيسَى وَمَرْيَمَ]

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) وَإِنَّ هَدْيَهُ أَشْكُرُ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَالْقَوِينَ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ذُرًّا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَفْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَحْسَبُونَ أَنَّمَا يُنذِرُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنِ (٥٥) شَاعِرٍ لَمْ يَفِي الْخَبْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)

[الْأَمْرُ بِأَكْلِ الْحَلَالِ وَبِالْعَمَلِ الصَّالِحِ]

يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَجْمَعِينَ بِالْأَكْلِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْقِيَامِ بِالصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَذَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّ الْحَلَالَ عَوْنٌ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَقَامَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِهِذَا أْتَمَّ الْقِيَامَ، وَجَمَعُوا بَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ قَوْلًا وَعَمَلًا وَدَلَالَةً وَنُصْحًا، فَجَزَّاهُمْ اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ خَيْرًا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ: ﴿كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يَعْنِي: الْحَلَالَ. وَفِي الصَّحِيحِ: «وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَى الْعَنَمَ» قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارٍ لَأَهْلٍ مَكَّةَ» (١). وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ» (٢). وَقَدْ نَبَتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ» فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّهُ جَعَلَهُمَا آيَةً لِلنَّاسِ، أَيُّ: حُجَّةً قَاطِعَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، فَإِنَّهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَلَا أُمٍّ، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، وَخَلَقَ بَيْتَةَ النَّاسِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرِّبْوَةُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِيهِ النَّبَاتُ (١). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ (٢).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يَقُولُ: ذَاتِ خِصْبٍ ﴿وَمَعِينٍ﴾ يَعْنِي مَاءً ظَاهِرًا (٣). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ (٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: رِبْوَةٌ مُسْتَوِيَةٌ (٥). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ اسْتَوَى الْمَاءُ فِيهَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الْمَاءُ الْجَارِي (٦).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَبِّبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَالَ: هِيَ دِمَشْقُ (٧). قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَالْحَسَنِ وَزَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ وَخَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ نَحْوَ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَالَ: أَنَّهُارُ دِمَشْقُ (٨). وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ﴾ قَالَ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ جِئْنَ أَوِيًّا إِلَى غُوْطَةِ دِمَشْقَ وَمَا حَوْلَهَا (٩). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَالَ: هِيَ الرِّمْلَةُ مِنْ فِلَسْطِينَ.

(١) الدر المنثور: ١٠٠/٦ إسناد منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٢) الطبري: ٥٣٧، ٥٣٦/٥ (٣) الطبري: ١٩/٣٨ (٤) الطبري: ٣٩/١٩ (٥) الطبري: ٣٨/١٩ (٦) الطبري: ٣٩/١٩ (٧) الطبري: ٣٧/١٩ (٨) القرطبي: ١٢/١٢٦ (٩) الدر المنثور: ١٠٠/٦ (١٠) البخاري: ٢٢٦٢ وابن ماجه: ٧٢٧/٢ (١١) فتح الباري: ٣٥٥/٤

[البقرة: ١٧٧] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، وَمَطَّعُهُ حَرَامًا، وَمَشْرَبُهُ حَرَامًا، وَمَلَسَتْهُ حَرَامًا، وَغَدَى بِالْحَرَامِ، يُمْدِدْ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ يَا رَبَّ، فَأَتَى يَسْتَجَابُ لِلذِّكْرِ^(١). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

[دين جميع الأنبياء هو التوحيد والوعيد للذين تفرقوا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: وَيُنْكُمُ يَا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينَ وَاحِدًا وَمِلَّةً وَاحِدَةً، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاقْبَلُوا﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أَي: الْأُمَمَ الَّذِينَ بُعِثَتْ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ﴿كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونٌ﴾ أَي: يَفْرَحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ لِأَنَّهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ، وَلِهَذَا قَالَ مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ﴾ أَي: فِي عَيْهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿حَقِّ حِينَ﴾ أَي: إِلَى حِينٍ حِينِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنهَلَهُمْ رَبُّنَا﴾ [الطارق: ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۞ شَايِعٌ لَمْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَعْنِي: أَيُّظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمَعْرُورُونَ أَنَّ مَا نُعْطِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِكِرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا وَمَعْرَبَتِهِمْ عِنْدَنَا؟ كَلَّا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] لَقَدْ أَخْطَأُوا فِي ذَلِكَ وَخَابَ رِجَاؤُهُمْ، بَلْ إِنَّمَا نَفَعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ اسْتِذْرَاجًا وَإِنظَارًا وَإِمْلَاءً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الآية [التوبة: ٥٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُحِلُّ لَهُمْ يَزِيدًا وَإِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ سَتَدْرِكُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿الآيَةَ [الغلم: ٤٤، ٤٥]، وَقَالَ: ﴿ذَرِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَبِيدًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾... الآية [سبأ: ٣٧]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَتَابَتِ

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

٣٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٠﴾
أُولَئِكَ يَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكْفُلْ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا كِتَابٌ يَطَّيَّرُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظْمُونَ ﴿١٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي عَمْرٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا
عَامِلُونَ ﴿١٣﴾ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ
﴿١٤﴾ لَا يَجْعَرُونَ أَلْفًا وَلَا يَنْصُرُونَ ﴿١٥﴾ فَكَانَتْ آيَاتِي
نُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعَقِيبُ كَمَا نَكِصُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
بِهِ سَمِعًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَرَجَاءُ هُمْ مَالَهُ يَأْتِ
آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ
﴿١٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ
كَذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ سَأَلْتَهُمُ خَرْجًا فَقَرَأَ عَلَيْكَ حَيْزٌ
وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الرِّزْقِ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٣﴾
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿٢٤﴾

رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا
آتَاوُا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٢٧﴾ أُولَئِكَ يَسْرِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴿٢٨﴾

[صفات أهل الخير]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾
أَي: هُمْ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ مُشْفِقُونَ
مِنَ اللَّهِ خَائِفُونَ مِنْهُ وَجُلُونَ مِنْ مَكْرِهِ بِهِمْ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَسَفَقَةً، وَإِنَّ الْكَافِرَ
جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا^(١). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَتَابَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أَي:
يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ الْكُؤُبِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ
مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا
أَقْبَلَتْ أَنْ مَا كَانَ، فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، وَمَا
شَرَعَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِنْ كَانَ أَمْرًا فَمِمَّا يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَإِنْ كَانَ

(١) مسلم: ٧٠٣/١ وتحفة الأحوذى: ٣٣٥/٨ وأحمد: ٣٢٨/٢

(٢) الطبري: ٤٥/١٩

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ قَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ﴾ أَي: سَيِّئَةٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ يَعْنِي الشَّرْكَ ﴿هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ قَالَ: لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا^(٤). كَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَعَبْرِ وَاحِدٍ^(٥). وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ

ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ أَي: قَدْ كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ أَعْمَالٌ سَيِّئَةٌ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ لَا مَحَالَةَ، لِيَتَحَقَّقَ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ. وَرُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَبَّانَ وَالسُّدِّيِّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ^(٦). وَهُوَ ظَاهِرٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «قَوَّ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّجْتِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ يَعْنِي حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ مُتْرَفِيهِمْ - وَهُمْ السُّعْدَاءُ الْمُتَعَمُّونَ فِي الدُّنْيَا - عَذَابُ اللَّهِ وَبَأْسُهُ وَنَقَمَتُهُ بِهِمْ ﴿إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ أَي: يَصْرُخُونَ وَيَسْتَعِيثُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَرَىٰ وَالْمُكَدِّبِينَ أُولَىٰ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَيْلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمَامًا﴾ الْآيَةَ [المرمل: ١١، ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَرَّ أَهْلُكَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَبْرِ قَادَرًا وَأَلَاتٍ حِينِ مَنَاسٍ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَخْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ يَتَنَا لَا تُصْرُونَ﴾ أَي: لَا يَجِيرُكُمْ أَحَدٌ مِّمَّا حَلَّ بِكُمْ سِوَاءِ جَارِئِكُمْ أَوْ سَكَنِكُمْ، لَا مَجِيدٍ وَلَا مَنَاصٍ وَلَا وَزَرَ، لَزِمَ الْأَمْرُ وَوَجَبَ الْعَذَابُ، ثُمَّ ذَكَرَ أَكْبَرَ ذُنُوبِهِمْ فَقَالَ: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفِيكُمْ نَكِصُونَ﴾ أَي: إِذَا دُعِيتُمْ أَنْبِئْتُمْ وَإِنْ طَلَبْتُمْ امْتَنَعْتُمْ: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعَمًا تَهَجَّرُونَ﴾ أَي: بِالْبَيْتِ، يَتَخَرَّجُونَ بِهِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَلَيْسُوا بِهِمْ، كَمَا قَالَ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى: أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يُحَدِّثُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا كُرِهَ

نَهْيًا فَهُوَ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَهُوَ حَقٌّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أَي: لَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، بَلْ يُوحِدُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَحَدًا صَمَدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفَّاءَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أَي: يُعْطُونَ الْعَطَاءَ وَهُمْ خَائِفُونَ وَجُلُونَ أَنْ لَا يَتَّقَبَلَ مِنْهُمْ لِحُوفِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَصُرُوا فِي الْقِيَامِ بِشَرْطِ الْإِعْطَاءِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِشْفَاقِ وَالِاخْتِيَاطِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْحَمْرَ وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «لَا، يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتُ الصَّادِقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيُصُومُ، وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»^(٨). وَهَكَذَا رَوَاهُ الثَّرَمِذِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِنَحْوِهِ. وَقَالَ: «لَا، يَا بِنْتُ الصَّادِقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يُصَلُّونَ وَيُصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ إِلَّا يُقْبَلُ مِنْهُمْ: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾»^(٩). وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ^(١٠).

﴿وَلَا تَكْلَفْ نَفْسًا وَلَا سَعَةً وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَطَّلِقُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿١٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ ﴿١٤﴾ لَا تَخْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ يَتَنَا لَا تُصْرُونَ ﴿١٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفِيكُمْ نَكِصُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعَمًا تَهَجَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

[بَيَانُ عَدْلِ اللَّهِ وَتَقَلُّبَاتِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ فِي شَرْعِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، أَي: إِلَّا مَا تُطِيقُ حِمْلَهُ وَالْقِيَامَ بِهِ، وَأَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحَاسِبُهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ لَا يَضِيعُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَطَّلِقُ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي: كِتَابُ الْأَعْمَالِ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أَي: لَا يَخْصَنُونَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا، وَأَمَّا السَّيِّئَاتُ فَيَعْفُو وَيَصْفَحُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا لِجِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَىٰ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ﴾ أَي: فِي غَفْلَةٍ وَضَلَالَةٍ ﴿مِنْ هَذَا﴾، أَي: الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ.

(١) أحمد: ١٥٩/٦ (٢) تحفة الأحوذني: ١٩/٩ (٣)

الطبري: ٤٦، ٤٥/١٩ (٤) الدر المنثور: ١٧/٦ (٥)

الطبري: ٤٩/١٩ والقرطبي: ١٣٤/١٢ (٦) الطبري: ٥٠/١٩

(٧) أحمد: ٣٨٢/١

سورة المؤمنون

٣٤٧

سورة المؤمنون

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ الْجَوِّ فِي طِينِهِمْ يَعْصَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ عَادٍ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِلرَّحْمِ وَمَا يَنْصُرُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْ هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوتُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِثْلُ يَدِيءِ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

السَّمَرِ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَخِرًا تَهْجُرُونَ﴾. فَقَالَ: مُسْتَكْبِرِينَ بِالْبَيْتِ، يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُهُ سَامِرًا قَالَ: كَانُوا يَتَكَبَّرُونَ وَيَسْمُرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْمُرُونَهُ وَيَهْجُرُونَهُ^(١).

﴿أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٥﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ﴿٧٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَانَتْهُمْ لِلْحَقِّ كَرْهُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنْتَهُمْ يَذْكُرُهُمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ لَكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الزَّرْعَيْنِ ﴿٧٩﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّتُونَ ﴿٨١﴾ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ الْجَوِّ فِي طِينِهِمْ يَعْصَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَذَمُّهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَكَبِّرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَدَمِ تَفَهُّمِهِمُ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَدْبِيرِهِمْ لَهُ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ خُصُّوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ عَلَى رَسُولٍ أَكْمَلَ مِنْهُ وَلَا أَشْرَفَ، لَا سِيَّمَا آبَاؤُهُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ لَمْ يَلْتَمِعْهُمْ كِتَابٌ وَلَا أَنَاهُمْ نَذِيرٌ، فَكَانَ اللَّاتِقُ بِهَوْلَاءِ أَنْ يُقَابِلُوا النُّعْمَةَ الَّتِي أَسَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَبُولِهَا وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهَا وَتَفَهُّمِهَا وَالْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهَا آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، كَمَا فَعَلَهُ النَّجْبَاءُ مِنْهُمْ وَمَنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ الرُّسُولَ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ﴾ إِذَا وَاللَّهِ يَجِدُونَ فِي الْقُرْآنِ زَاجِرًا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ لَوْ تَدَبَّرَهُ الْقَوْمُ وَعَقَلُوهُ، وَلَكِنَّهُمْ أَخَذُوا بِمَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَهَلَكُوا عِنْدَ ذَلِكَ^(١). ثُمَّ قَالَ مُتَكَبِّرًا عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ أَي: أَفَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَصِبَانَتَهُ الَّتِي نَشَأَ بِهَا فِيهِمْ أَي: أَفَيَقْدِرُونَ عَلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ وَالْمُبَاهَاةِ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ جَعْفَرُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ^(٢). وَهَكَذَا قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ لِثَابِتِ بْنِ كَسْرَى حِينَ بَارَزَهُمْ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ لِمَلِكِ الرُّومِ هِرْقَلٍ حِينَ سَأَلَهُ وَأَصْحَابَهُ عَنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَنَسَبِهِ وَصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ، وَكَانُوا بَعْدَ كُفْرَارًا لَمْ يُسَلِّمُوا، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُمَكِّنْهُمْ إِلَّا الصَّدُقَ فَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يَحْكِي قَوْلَ

الْمُشْرِكِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّهُ يَقُولُ الْقُرْآنَ، أَي: افْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِهِ، أَوْ إِنْ بِهِ جُنُونًا لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تُؤْمِنُ بِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَطْلَانَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَنَاهُمْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ مَا لَا يُطَاقُ وَلَا يُدَافَعُ، وَقَدْ تَحَدَّاهُمْ وَجَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ فَمَا اسْتَطَاعُوا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَبَدَ الْأَبَدِينَ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَانَتْهُمْ لِلْحَقِّ كَرْهُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ جُمْلَةً حَالِيَةً أَي: فِي حَالِ كَرَاهَاةٍ أَكْثَرِهِمْ لِلْحَقِّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً مُسْتَأْنَفَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْحَقُّ لَا يَتَّبِعُ الْهَوَى]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالشَّيْخُ: الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٥). وَالْمُرَادُ لَوْ أَحَابَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَا

(١) النسائي في الكبرى: ٤١٢/٦ (٢) الدر المنثور: ١١٠/٦
(٣) ابن هشام: ٣٥٧/١ (٤) فتح الباري: ٤٢/١ (٥) الطبري: ٥٧/١٩ والقرطبي: ١٤٠/١٢

لي إن وردت بكم رياضا مُعشبةً وحياضا رواءً أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه، وحياضا هي أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لتتبعته، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه^(٣).

[ذكر أحوال الكفار]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّهُمْ﴾ أي: لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاع عنها. وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَلَجَأُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غَلْظِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ بِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ عَنْهُمْ الضَّرَّ وَأَفْهَمَهُمُ الْقُرْآنَ لَمَا اتَّقَادُوا لَهُ وَلَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ بِهَيْمٍ خَيْرًا لَّاسْتَعْمَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَا عَلَى الْفُجُورِ لَآتَيْنَا نَارًا وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِنَا رَبَّنَا وَكَفُورًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُفْجُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿بِمَعْتُونٍ﴾ فَهَذَا مِنْ بَابِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَكُونُ وَلَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا فِيهِ ﴿لَوْ﴾ فَهُوَ مِمَّا لَا يَكُونُ أَبَدًا.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاؤُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا وَمِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَعْبُوثُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَادُوا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزٌ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا اسْتَكَاؤُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ أي: فما ردُّهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيرهم وضلالهم ﴿فَمَا اسْتَكَاؤُوا﴾، أي: ما

في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿لَوْ لَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ الآية [الأسراء: ١٠٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَالِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نِقِيًّا﴾ [النساء: ٥٣] فَفِي هَذَا كُلِّهِ تَبَيَّنَ عَجْزُ الْعِبَادِ وَاخْتِلَافُ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَشَرَعُوهُ وَقَدَرُوهُ، وَتَدَبَّرُوهُ لِخَلْقِهِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلْ أَلْبَسْنَاهُمْ لُكُومًا﴾ أي: القرآنِ ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

[النبي لا يسأل أجرا ويدعو إلى صراط مستقيم]

وقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خِزْيًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أَجْرًا^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: جُعْلًا^(٢). ﴿فَخَرَجَ بِكَ خَيْرٌ﴾ أَي: أَنْتَ لَا تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا وَلَا جُعْلًا وَلَا شَيْئًا عَلَى دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْهُدَى، بَلْ أَنْتَ فِي ذَلِكَ تَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ جَزِيلَ ثَوَابِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: ٤٧] وَقَالَ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ [ص: ٨٦] وَقَالَ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَ أَجْرًا﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَلَيْكَ لَدَعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّهُمْ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَاهُ فِيمَا يَرَى النَّاسَ، مَلَكًا، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَجُلَيْهِ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَجُلَيْهِ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِهِ: اضْرِبْ مِثْلَ هَذَا وَمِثْلَ أُمَّتِهِ، فَقَالَ: إِنَّ مِثْلَهُ وَمِثْلَ أُمَّتِهِ كَمِثْلِ قَوْمِ سَفَرِ انْتَهَوْا إِلَى رَأْسِ مَفَازَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنَ الرِّادِ مَا يَقْطَعُونَ بِهِ الْمَفَازَةَ، وَلَا مَا يَرْجِعُونَ بِهِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ أَنَا هُمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةِ حَبْرَةٍ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً وَحِيَاضًا رِوَاءً تَتَّبِعُونِي؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَانْطَلِقْ بِهِمْ فَأُورِدْهُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً وَحِيَاضًا رِوَاءً، فَأَكَلُوا وَشَرَبُوا وَسَمِنُوا، فَقَالَ لَهُمْ: أَلَمْ أَلْفَكُمُ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَالِ فَجَعَلْتُمْ

(١) الطبري: ٥٨/١٩ (٢) الدر المشور: ١١٠/٦ (٣) أحمد: ٢٦٧/١ إسناده ضعيف لضيف علي بن زيد بن جعدان ويوسف بن مهران لين الحديث لم يرو عنه إلا ابن جعدان [تقريب]

خَشَعُوا ﴿وَمَا يَنْضَعُونَ﴾ أَي: مَا دَعَوْا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾... الآية [الأنعام: ٤٣] وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْشُدْكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ، فَقَدْ أَكَلْنَا الْعُلْهَزَ - يَعْنِي الْوَبَرَ وَالِدَّمَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاؤُوا﴾... الآية، وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(١). وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا عَلَى قُرَيْشٍ حِينَ اسْتَعْصَمُوا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ سَبْعَ كَسْبَعٍ يَسْبِعُ كَسْبَعُ يُونُسَ»^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا تَنَحَّأَ عَلَيْهِمْ بَابُ ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أَي: حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَجَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَعَثَهُ، فَأَخَذَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أُبْلِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَأَبْسُوا مِنْ كُلِّ رَاحَةٍ، وَانْقَطَعَتْ أَمَانُهُمْ وَرَجَاؤُهُمْ.

[التَّذْكِيرُ بِنِعْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ]

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَى عِبَادِهِ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، وَهِيَ الْعُقُولُ وَالْفُهُومُ الَّتِي يُدْرِكُونَ بِهَا الْأَشْيَاءَ وَيَعْتَبِرُونَ بِمَا فِي الْكُتُوبِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ لِمَا يَشَاءُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أَي: مَا أَقَلَّ شُكْرَكُمْ لِهَيْبَةِ اللَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ فِي بَرِّيَّةِ الْخَلِيقَةِ وَدَرْزِيَّةِ لَهُمْ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوْلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، فَلَا يَبْتَئِزُّ مِنْهُمْ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، وَلَا ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى، وَلَا جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا، إِلَّا أَعَادَهُ كَمَا بَدَأَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَي: يُحْيِي الرَّمَمَ وَيُؤَيِّتُ الْأَمَمَ، ﴿وَلَهُ لَحَائِفٌ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَي: وَعَنْ أَمْرِهِ تَسْخِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، كُلُّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَقِيقًا، يَتَعاقَبَانِ لَا يَفْتَرَانِ وَلَا يَفْتَرِقَانِ بِرَمَانٍ غَيْرِهِمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا السَّمْسُ يَلْبِغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾... الآية [يس: ٣٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: أَفَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تَدُلُّكُمْ عَلَى الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الَّذِي قَدْ فَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ، وَعَزَّ كُلُّ شَيْءٍ، وَخَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ.

[اسْتِيعَادُ الْمُشْرِكِينَ الْبُعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ]

ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ مُكْرَمِي الْبُعْثِ الَّذِينَ أَشْبَهُوا مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكْذِبِينَ: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨٤) قَالُوا أَعْدَاءُ مِثْنَا وَكُنَّا قُرَابًا وَعِظْلًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يَعْنِي يَسْتَبْعِدُونَ وَفُوعَ ذَلِكَ بَعْدَ صَيْرُورَتِهِمْ إِلَى الْبِلَى، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنُونَ: الْإِعَادَةُ مُحَالٌ، إِنَّمَا يُخْبِرُ بِهَا مَنْ تَلَقَّاهَا عَنْ كُتُبِ الْأَوْلِينَ وَآخِلَافِهِمْ، وَهَذَا الْإِنْكَارُ وَالتَّكْذِيبُ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿أَعْدَا كُنَّا عِظْلًا نَحْرَهُ﴾ (٨٥) قَالُوا يَا كَرُةُ خَاسِرَةٌ (٨٦) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (٨٧) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات: ١١-١٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٨٨) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَسَيَّ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِي الْعَظْمَ وَهِيَ رَيْبَةٌ (٨٩) قُلْ مُجِيبًا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾... الآية [يس: ٧٧-٧٩].

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٠) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٩١) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٩٢) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْفَعُونَ﴾ (٩٣) قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٩٥) إِنَّهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

[إِقْرَارُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ وَالرَّاهِمِ بِذَلِكَ]

[بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ]

يَقْرُرُ تَعَالَى وَحْدَانِيَّتَهُ وَاسْتِقْلَالَهُ بِالْحَلْقِ وَالنَّصْرِفِ وَالْمَلِكِ لِيُرْشِدَ إِلَى أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا تَتَّبِعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ الْمُعْتَرِفِينَ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ أَشْرَكُوا مَعَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ مَعَهُ مَعَ اعْتِرَافِهِمْ أَنَّ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، وَلَا يَسْتَبِدُونَ بِشَيْءٍ، بَلْ اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَقْرُبُونَهُ إِلَيْهِ زُلْفَى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فَقَالَ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أَي: مَنْ مَالِكُهَا الَّذِي خَلَقَهَا وَمَنْ فِيهَا مِنْ

(١) النسائي في الكبرى: ٤١٣/٦ (٢) فتح الباري: ٤٣٥/٨
ومسلم: ٢١٥٦/٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤٨

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

بَلْ آتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٤﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٨٥﴾ عَلِيمٌ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨٦﴾ قُلْ رَبِّ
إِنَّمَا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ ﴿٨٧﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٨﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُزَيِّكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٨٩﴾
أَدْفَعْ بِاللَّيْلِ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٠﴾
وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩١﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ ﴿٩٢﴾ حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ارْجِعُونِ ﴿٩٣﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٩٤﴾ فَإِذَا نْفَخَ
فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٩٥﴾
فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩٦﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ
خَالِدُونَ ﴿٩٧﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿٩٨﴾

الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتَاتِ وَالشَّمَرَاتِ وَسَائِرِ صُنُوفِ
المُخْلُوقَاتِ؟ ﴿٨٤﴾ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
أَيُّ: فَيَعْتَرِفُونَ لَكَ بِأَنَّ ذَلِكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِذَا
كَانَ ذَلِكَ ﴿٨٥﴾ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾ أَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا
لِلْخَالِقِ الرَّزَاقِ لَا لِعَبِيدِهِ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّجْعِ وَرَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٨﴾ أَيُّ: مَنْ هُوَ خَالِقُ الْعَالَمِ الْعُلُوبِيِّ بِمَا فِيهِ
مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّبَرَاتِ وَالْمَلَائِكَةِ الْخَاضِعِينَ لَهُ فِي سَائِرِ
الْأَقْطَارِ مِنْهَا وَالْجِهَاتِ، وَمَنْ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ،
يَعْنِي الَّذِي هُوَ سَفَفَ الْمُخْلُوقَاتِ.

وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أَيُّ: الْكَبِيرِ.
وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ أَيُّ:
الْحَسَنِ الْبَهِيِّ، فَقَدْ جَمَعَ الْعَرْشُ بَيْنَ الْعُظْمَةِ فِي الْإِتْسَاعِ
وَالْعُلُوِّ وَالْحُسْنِ الْبَاهِرِ، وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مِنْ يَأْفُوتِيَّةِ
حَمْرَاءَ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ رَبِّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا
نَهَارٌ، نُورُ الْعَرْشِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ أَيُّ: إِذَا كُنْتُمْ
تَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَفَلَا
تَتَخَافُونَ عِقَابَهُ وَتَحْذَرُونَ عَذَابَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرُهُ
وَإِشْرَاكِكُمْ بِهِ.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَيُّ: بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴿مَا
مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أَيُّ: مُتَصَرِّفٌ فِيهَا وَكَانَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» وَكَانَ إِذَا
اجْتَهَدَ فِي التَّجَمُّعِ قَالَ: «لَا، وَمُقَلَّبُ الْقُلُوبِ» فَهُوَ سُبْحَانَهُ
الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ
إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كَانَتِ الْعَرَبُ، إِذَا كَانَ السَّيِّدُ فِيهِمْ
فَأَجَارَ أَحَدًا لَا يُخْفَرُ فِي جَوَارِهِ، وَلَيْسَ لِمَنْ دُونَهُ أَنْ يُجِيرَ
عَلَيْهِ لَيْلًا يَفْتَاتَ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا
يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: وَهُوَ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ،
الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، الَّذِي لَا يُمَانَعُ
وَلَا يُخَالَفُ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَقَالَ اللَّهُ:
﴿لَا يُسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] أَيُّ: لَا
يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيائِهِ وَعَلْبَتِهِ وَفَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ
وَعَدْلِهِ، فَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ يُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الحجر: ٩٢، ٩٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أَيُّ: سَيَعْتَرِفُونَ أَنَّ السَّيِّدَ

الْعَظِيمُ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا
شَرِيكَ لَهُ ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أَيُّ: فَكَيْفَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ
فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ مَعَ اغْتِرَابِكُمْ وَعِلْمِكُمْ بِذَلِكَ؟! ثُمَّ
قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ آتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ وَهُوَ الْإِعْلَامُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ، وَأَقْمِنَا الْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ الْوَاضِحَةَ الْقَاطِعَةَ عَلَى ذَلِكَ
﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيُّ: فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ وَلَا دَلِيلَ
لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا
يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فَالْمُشْرِكُونَ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَنْ دَلِيلٍ
قَادَهُمْ إِلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْإِفْكِ وَالضَّلَالِ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُونَ
ذَلِكَ اتِّبَاعًا لِأَبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ الْخَبِيرِ الْجَهَالِ، كَمَا قَالَ
اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِمْ

مُفْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ

إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٩٦﴾

[لَا شَرِيكَ لَهِ]

بُنْتُهُ تَعَالَى نَفْسُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَوْ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْعِبَادَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَمْ يَبْعَثْهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: لَوْ قَدَّرَ تَعَدُّدُ الْأَلِهَةِ لِانْفِرَادِ كُلِّ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقَ. فَمَا كَانَ يَنْتَظِمُ الْوُجُودَ - وَالْمُشَاهِدَةَ أَنَّ الْوُجُودَ مُنْتَظِمٌ مُتَّسِقٌ كُلُّ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مُرْتَبَطٌ بِبَعْضُهُ بِبَعْضٍ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ - ثُمَّ: لَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ يَطْلُبُ قَهْرَ الْآخَرِ وَخِلَافَهُ، فَيَعْلُو بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَالتَّمَكُّنُونَ ذَكَرُوا هَذَا الْمَعْنَى، وَعَبَّرُوا عَنْهُ بِدَلِيلِ التَّمَانُعِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ فُرِضَ صَانِعَانِ فَصَاعِدًا فَأَرَادَ وَاحِدٌ تَحْرِيكَ جِسْمِ الْآخَرِ أَرَادَ سَكُونَهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْضَلْ مُرَادُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَانَا عَاجِزَيْنِ، وَالتَّوَاجِبُ لَا يَكُونُ عَاجِزًا وَيَمْتَنِعُ اجْتِمَاعُ مُرَادَيْهِمَا لِلتَّضَادِ، وَمَا جَاءَ هَذَا الْمُحَالُ إِلَّا مِنْ فَرْضِ التَّعَدُّدِ، فَيَكُونُ مُحَالًا. فَأَمَّا إِنْ حَصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، كَانَ الْغَالِبُ هُوَ التَّوَاجِبُ وَالتَّضَادُ الْمَغْلُوبُ مُمَكِّنًا، لِأَنَّهُ لَا يَلِيْقُ بِصِفَةِ التَّوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ مَقْهُورًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَعَثْنَا عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ فِي دَعْوَاهُمْ الْوَلَدَ أَوْ الشَّرِيكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يَعْلَمُ مَا يَغِيبُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ ﴿فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تَفَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى وَعَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالتَّجَاحِدُونَ.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا رَبِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٨﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْبِكَ مَا نَعُدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٩﴾ أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٠١﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٠٢﴾

[أَلْأَمْرُ بِالدُّعَاءِ عِنْدَ حُلُولِ النِّقَمِ وَبِالدَّفْعِ الْحَسَنِ

وَبِالتَّعَوُّذِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ عِنْدَ حُلُولِ النِّقَمِ ﴿رَبِّ إِمَّا رَبِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إِنْ عَاقَبْتَهُمْ وَأَنَا شَاهِدٌ ذَلِكَ، فَلَا تَجْعَلْنِي فِيهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ: ﴿وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَقَّئِنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُفْتُونٍ﴾^(١). وَقَوْلُهُ

تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْبِكَ مَا نَعُدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ أي: لَوْ شِئْنَا لَأَرَيْنَاكَ مَا نُحِلُّ بِهَيْمٍ مِنَ النِّقَمِ وَالتَّبَلَاءِ وَالتَّوَالِيحِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا لَهُ إِلَى التَّرْبِيَاقِ النَّافِعِ فِي مُخَالَطَةِ النَّاسِ وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ يُسِيءُ إِلَيْهِ، لِيَسْتَجْلِبَ خَاطِرَهُ فَتَعُوذُ عِدَاوَتُهُ صِدَاقَةً وَبُغْضُهُ مَحَبَّةً، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ﴾ وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عِدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٢٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَرَفُوا... الْآيَةَ، أَي: وَمَا يُلْقِنُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ أَوْ هَذِهِ الْخَصْلَةَ أَوْ الصِّفَةَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَرَفُوا﴾ أَي: عَلَى أَدَى النَّاسِ فَعَامَلُوهُمْ بِالتَّجَمُّلِ مَعَ إِسْدَائِهِمْ إِلَيْهِمُ التَّصِيحِ ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] أَي: فِي الدُّنْيَا وَالتَّآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أَمْرُهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَعِيدَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهُمْ لَا تَنْفَعُ مَعَهُمُ الْحِيلُ وَلَا يَتَّقَادُونَ بِالتَّعَرُّوفِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا عِنْدَ الْإِسْتِعَاذَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أَي: فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي، وَلِهَذَا أَمَرَ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ، وَذَلِكَ لِطَرْدِ الشَّيْطَانِ عِنْدَ الْأَكْلِ وَالتَّجَمُّعِ وَالتَّذَنُّبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ، وَلِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ وَمِنَ الْغَرَقِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ يَتَّخِطَّنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ»^(٣).

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْحٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

[تَمَنَّى الْكُفَّارِ عِنْدَ الْإِحْضَارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُحْتَضِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ أَوْ الْمُفْرِطِينَ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ، وَسْئَالِهِمُ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُصْلِحَ مَا كَانَ أُنْفَسَهُ فِي مَدَّةِ حَيَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا

(١) أحمد: ٢٤٣/٥ وتحفة الأحوذى: ١٠٨/٩ (٢) أبو داود:

٤٩٠/١ (٣) أبو داود: ١٩٤/٢

رَفَعْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ أَحَدَكُمُ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُئِمُوا مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُعْمَاءَ فَيَسْمَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكَسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتْرَجْنَا فَاتَّعَلَّ صَلَاحًا مِنَّا مَوْفُوتًا﴾ [السجدة: ١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَلَيْتْنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لِي مِنْ مَرْرٍ مِنْ سَبِيلِ﴾ [الشورى: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَيْنِ وَأَمِيتْنَا أَتْنَيْنِ فَاعْرِضْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلِ﴾ [الزمر: ١١] وَالآيَةُ بَعْدَهَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا مَأْ لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيبِ﴾ [فاطر: ٣٧] فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ فَلَا يُجَابُونَ عِنْدَ الْإِحْضَارِ وَيَوْمَ النَّشُورِ وَوَقَّتَ الْعَرْضَ عَلَى الْجَبَّارِ، وَجِنِّ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ وَهُمْ فِي غَمْرَاتٍ عَذَابِ الْجَحِيمِ.

رَفَعْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ أَحَدَكُمُ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُئِمُوا مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُعْمَاءَ فَيَسْمَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكَسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتْرَجْنَا فَاتَّعَلَّ صَلَاحًا مِنَّا مَوْفُوتًا﴾ [السجدة: ١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَلَيْتْنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لِي مِنْ مَرْرٍ مِنْ سَبِيلِ﴾ [الشورى: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَيْنِ وَأَمِيتْنَا أَتْنَيْنِ فَاعْرِضْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلِ﴾ [الزمر: ١١] وَالآيَةُ بَعْدَهَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا مَأْ لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيبِ﴾ [فاطر: ٣٧] فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ فَلَا يُجَابُونَ عِنْدَ الْإِحْضَارِ وَيَوْمَ النَّشُورِ وَوَقَّتَ الْعَرْضَ عَلَى الْجَبَّارِ، وَجِنِّ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ وَهُمْ فِي غَمْرَاتٍ عَذَابِ الْجَحِيمِ.

مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: الْبُرْزُخُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَيْسُوا مَعَ أَهْلِ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَلَا مَعَ أَهْلِ الْآخِرَةِ يُجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ: الْبُرْزُخُ الْمَقَابِرُ لَا هُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا هُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَهُمْ مُقِيمُونَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ^(١). وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمُ بُرْزُخٌ يَتَذَكَّرُ فِيهَا لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمُ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أَيُّ: يَسْتَمِرُّ بِهِ الْعَذَابُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا» أَيُّ: فِي الْأَرْضِ^(٢).

مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: الْبُرْزُخُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَيْسُوا مَعَ أَهْلِ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَلَا مَعَ أَهْلِ الْآخِرَةِ يُجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ: الْبُرْزُخُ الْمَقَابِرُ لَا هُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا هُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَهُمْ مُقِيمُونَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ^(١). وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمُ بُرْزُخٌ يَتَذَكَّرُ فِيهَا لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمُ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أَيُّ: يَسْتَمِرُّ بِهِ الْعَذَابُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا» أَيُّ: فِي الْأَرْضِ^(٢).

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأنعام: ١١٦] وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ [الأنعام: ١١٦] تَلَفَحَ

النَّارِ. **[الْبُرْزُخُ وَعَذَابُهُ]** **﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمُ بُرْزُخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾** قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَغَيْرُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمُ﴾ يَعْنِي أَمَانَهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْبُرْزُخُ الْحَاجِزُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَالَ

(١) الدر المنثور: ١١٦/٦ (٢) تحفة الأحوذى: ٤/١٨٣

وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

[التلخ في الصور ووزن الأعمال]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا نَفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ الشُّورِ، وَقَامَ النَّاسُ مِنَ الْقُبُورِ ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ أَيْ: لَا تَنْفَعُ [الأنساب] يَوْمَئِذٍ وَلَا يَرَى وَالِدٌ لَوْلِيهِ وَلَا يَلْبِي عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠٦﴾ يَبْصُرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أَيْ: لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ، وَهُوَ يَبْصُرُهُ، وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْزَارِ مَا قَدَّ أَثْقَلَ ظَهْرَهُ، وَهُوَ كَانَ أَعَزَّ النَّاسِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مَا التَفَتَ إِلَيْهِ وَلَا حَمَلَ عَنْهُ وَزْنَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُعْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَيْدِيهِ ﴿٢١﴾ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَنِيْعِهِ وَوَيْدِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللَّهُ الْأَوْلِيْنَ وَالْآخِرِينَ، ثُمَّ تَادَى مُنَادٍ: أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ مَظْلِمَةٌ فَلْيَجِءْ فَلْيَأْخُذْ حَقَّهُ - قَالَ: فَيَفْرَحُ الْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْحَقُّ عَلَى وَالِدِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ زَوْجَتِهِ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا، وَمُضَادُّ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيْ: مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (٢). ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ فَازُوا فَتَجَوَّا مِنَ النَّارِ وَأَدْخَلُوا الْجَنَّةَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أُولَئِكَ الَّذِينَ فَازُوا بِمَا طَلَبُوا، وَنَجَوُوا مِنْ سَرِّ مَا مِنْهُ هَرَبُوا ﴿وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَيْ: ثَقُلَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَيْ: خَابُوا وَهَلَكُوا وَبَاءُوا بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أَيْ: مَا كَثُرَتْ فِيهَا دَائِمُونَ مُقِيمُونَ فَلَا يَطْعَمُونَ ﴿تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَقَشَّى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وَجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾... [الآية: ١١٠] [الأنبياء: ٣٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي عَابِسُونَ (٣).

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَلَيْسَ لِي النَّارُ تَلْفَحُ عَلَيْكَ فَمَكْتُرًا بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾

[تَوْبِيخُ أَهْلِ النَّارِ وَاعْتِرَافُهُمْ بِشِقْوَتِهِمْ وَطَلْبِهِمْ

الْخُرُوجِ مِنْهَا]

هَذَا تَفْرِيعٌ مِنَ اللَّهِ وَتَوْبِيخٌ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَأْتِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْعِظَائِمِ الَّتِي أَوْبَقَتْهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَلَيْسَ لِي النَّارُ تَلْفَحُ عَلَيْكَ فَمَكْتُرًا بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أَيْ: قَدْ أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكُمْ الْكُتُبَ، وَأَنْزَلْتُ شُبُهَاتَكُمْ، وَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ حُجَّةٌ تَدُلُّونَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّمْنَا أَلْفِي فِيهَا فَرَجَ سَالَمٌ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَسَحَقْنَا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١] وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أَيْ: قَدْ قَامَتْ عَلَيْنَا الْحُجَّةُ، وَلَكِنْ كُنَّا أَشَقَى مِنْ أَنْ نَقَادَ لَهَا وَنَتَّبِعَهَا، فَضَلَلْنَا عَنْهَا وَلَمْ نُزِفْهَا. ثُمَّ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أَيْ: أُرِدُّنَا إِلَى الدُّنْيَا، فَإِنْ عُدْنَا إِلَى مَا سَلَفَ مِنَّا فَنَحْنُ ظَالِمُونَ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعُقُوبَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَالْمُكْمَلُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [عافر: ١١، ١٢] أَيْ: لَا سَبِيلَ إِلَى الْخُرُوجِ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِاللَّهِ إِذَا وَحَدَهُ الْمُؤْمِنُونَ.

﴿قَالَ أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي

يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا مَا قَاتَفِرْنَا لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾

[جَوَابُ اللَّهِ وَرَدُّهُ عَلَى الْكُفَّارِ]

هَذَا جَوَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَفَّارِ إِذَا سَأَلُوا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ وَالرَّجْعَةَ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ. يَقُولُ: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا﴾ أَيْ: أَمْكَنُوا فِيهَا صَاحِرِينَ مُهَانِينَ أَدْلَاءَ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أَيْ: لَا تَعُودُوا إِلَى سُؤَالِكُمْ هَذَا، فَإِنَّهُ لَا جَوَابَ لَكُمْ عِنْدِي. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قَالَ: هَذَا قَوْلُ الرَّحْمَنِ حِينَ انْقَطَعَ كَلَامُهُمْ مِنْهُ (٤). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: إِنَّ أَهْلَ جَهَنَّمَ يَدْعُونَ مَا لَيْكَا فَلَا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قَالَ: هَانَتْ دَعْوَتُهُمْ وَاللَّهُ عَلَى "مَا لَيْك" وَرَبَّ

(١) الطبري: ٧٢/١٩ (٢) الدر المنثور: ٤١٨/٦ (٣) الطبري: ٧٤/١٩ (٤) الطبري: ٧٩/١٩ مَرَّ حَكْمَهُ مَرَارًا

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ صَفْوَانَ، عَنْ أَيُّفَعَ بْنِ عَبْدِ الْكَلْبِيِّ: أَنَّهُ سَمِعَهُ يَخُطُبُ النَّاسَ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَدَخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ كَمْ لَيْسْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ - قَالَ: - لَنْعَمَ مَا أَنْجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ: رَحْمَتِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، كَمْ لَيْسْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، نَارِي وَسَخَطِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ»^(١).

[إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقِ الْعِبَادَ عَبَثًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا؟ أَيْ: أَفَطَنْتُمْ أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ عَبَثًا بِلَا قُصْدٍ وَلَا إِزَادَةٍ مِنْكُمْ وَلَا حِكْمَةٍ لَنَا، وَقِيلَ: لِلْعَبَثِ، أَيْ: لِتَلْعَبُوا وَتَعْبُوا كَمَا خُلِقْتَ الْبَهَائِمُ لَا ثَوَابَ لَهَا وَلَا عِقَابَ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ لِلْعِبَادَةِ وَاقَامَةَ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَّكُمْ لَيُنَادُونَ لَنَا لَا تُرْجَعُونَ» أَيْ: لَا تَعُودُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى» [القيامة: ٣٦] بِعَنِي هَمَلًا. وَقَوْلُهُ: «فَلَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ» أَيْ: تَقَدَّسَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا عَبَثًا، فَإِنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُتَزَعُّ عَنْ ذَلِكَ «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ» فَذَكَرَ الْعَرْشَ لِأَنَّهُ سَقَفُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ أَيْ: حَسَنُ الْمَنْظَرِ بَهِي الشَّكْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَ«أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ» [الشعراء: ٤٧].

«وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» وَقَوْلُ رَبِّ أَغْفِرَ وَأَرْحَمَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ

[الشُّرْكُ ظُلْمٌ عَظِيمٌ لَا فَلَاحَ لِصَاحِبِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَنْ أَشْرَكَ بِهِ غَيْرَهُ وَعَبَدَ مَعَهُ سِوَاهُ، وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ «لَا بُرْهَانَ لَهُ» أَيْ: لَا دَلِيلَ لَهُ عَلَى قَوْلِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ» وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُعَرِّضَةٌ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» أَيْ: اللَّهُ يُحَاسِبُهُ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَ «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» أَيْ: لَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،

مَالِكٍ، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: «رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ» رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِن عَلْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ» قَالَ: فَيَسْكُتُ عَنْهُمْ قَدْرَ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: «أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ» قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا نَبَسَ الْقَوْمُ بَعْدَهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَا هُوَ إِلَّا الرَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، قَالَ: فَسُبِّهَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِأَصْوَاتِ الْحَوِيرِ، أَوْلَاهَا زَفِيرٌ وَأَخْرَجَهَا شَهِيقٌ^(١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لَهُمْ بِدُنُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلِيَائِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِرْحَانًا أَيْ: فَسَجَرْتُمْ مِنْهُمْ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّايَ وَتَضَرَّعْتُمْ إِلَيَّ «حَقِّقْ أَسْوَأَكُمْ ذِكْرِي» أَيْ: حَمَلْتُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنْ نَسِيتُمْ مُعَامَلَتِي «وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَمَّكُونَ» أَيْ: مِنْ صَنِيعِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكَوْنَ» وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أَيْ: يَلْمِزُونَهُمْ اسْتِهْزَاءً. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا جَارَى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الصَّالِحِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا» أَيْ: عَلَى أَذَانِكُمْ لَهُمْ وَاسْتَهْزَائِكُمْ بِهِمْ «أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ» جَعَلْتُهُمْ هُمُ الْفَاطِرِينَ بِالسَّعَادَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ.

«فَلَمْ يَلْبَسُوا فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ» قَالُوا لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَالَمِينَ «فَلَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِتِنَا لَا تُرْجَعُونَ» فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكِ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ

يَقُولُ تَعَالَى مُنْهَاهَا لَهُمْ عَلَى مَا أَصَاغُوهُ فِي عُمْرِهِمُ الْقَصِيرِ فِي الدُّنْيَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَحُدُّهُ، وَلَوْ صَبَرُوا فِي مُدَّةِ الدُّنْيَا الْقَصِيرَةِ لَفَارُوا كَمَا فَازَ أَوْلِيَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ «فَلَمْ يَلْبَسُوا فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ» أَيْ: كَمْ كَانَتْ إِقَامَتُكُمْ فِي الدُّنْيَا «قَالُوا لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَالَمِينَ» أَيْ: الْحَاسِبِينَ. «فَلَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا قَلِيلًا» أَيْ: مُدَّةَ بَيِّسْرَةٍ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أَيْ: لَمَا أَتْرَقْتُمْ الْفَنَائِي عَلَى الْبَاقِي، وَلَمَا تَصَرَّفْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ هَذَا التَّصَرُّفَ السَّيِّئَ، وَلَا اسْتَحَقَقْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَخَطَهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْبَيِّسْرَةِ، فَلَوْ أَنَّكُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ لَفَرَّزْتُمْ كَمَا فَارُوا.

لَا فَلَاحَ لَهُمْ وَلَا نَجَاةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى هَذَا الدُّعَاءِ، فَالغُفْرُ إِذَا أُطْلِقَ: مَعْنَاهُ: مَحْوُ الذَّنْبِ وَسُتْرُهُ عَنِ النَّاسِ، وَالرَّحْمَةُ مَعْنَاهَا: أَنْ يُسَدِّدَهُ وَيُوفِّقَهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ .
أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ .

تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ انزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)

[أَهَمِّيَّةُ سُورَةِ النُّورِ]

يَقُولُ تَعَالَى: هَذِهِ ﴿سُورَةُ انزَلْنَاهَا﴾ فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى الْإِغْتِيَاءِ بِهَا وَلَا يَنْفِي مَا عَذَابُهَا؛ (فَرَضْنَاهَا) قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَيُّ: بَيَّنَّا الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْحُدُودَ^(١) . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَمَنْ قَرَأَ: ﴿فَرَضْنَاهَا﴾ يَقُولُ: فَرَضْنَاهَا عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ^(٢) . ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ﴾ أَيُّ: مُفَسِّرَاتٍ وَاصْطِحَاتٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

[بَيَانُ حَدِّ الزَّانِي]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا حُكْمُ الزَّانِي فِي الْحَدِّ، وَفِيهِ تَفْصِيلٌ، فَإِنَّ الزَّانِيَّ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ بَكَرًا، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَتَزَوَّجَ . أَوْ مُحْصِنًا، وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَاحِبِ، وَهُوَ حُرٌّ بِأَبْلِغٍ عَاقِلٌ . فَأَمَّا إِذَا كَانَ بَكَرًا لَمْ يَتَزَوَّجَ، فَإِنَّ حَدَّ مِائَةِ جَلْدَةٍ كَمَا فِي الْآيَةِ، وَيَزَادُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُعْرَبَ عَامًّا عَنْ بَلَدِهِ كَمَا تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدِ الْجُهَنِيِّ: فِي الْأَعْرَابِيِّينَ الَّذِينَ أَنْبَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ عَسِيفًا - يَعْنِي أَجِيرًا - عَلَى هَذَا، فَزَنَى بِأَمْرَأَتِهِ، فَأُتِدَّتْ ابْنِي مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ، فَسَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلَى ابْنِي جَلْدَ مِائَةٍ وَتَعْرِيبَ عَامٍ، وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةٍ هَذَا الرَّجْمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، الْوَلِيدَةُ وَالْعَتَمُ رَدٌّ

سُورَةُ النُّورِ

الْمَدَنِيَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ انزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ

مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ

فَاجْلِدُوهُنَّ مِثْلَ جَلْدِ الْوَحْشِ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ

الْفٰسِقُونَ﴾^(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾^(٥) وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوْجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ

فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٦)

وَالْخَوَّسَةُ إِنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكٰذِبِينَ﴾^(٧) وَيَذَرُوا

عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكٰذِبِينَ﴾^(٨)

وَالْخَوَّسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٩)

وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾^(١٠)

عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدٌ مِائَةٌ وَتَعْرِيبٌ عَامٌ، وَاعْدُ يَا أُنَيْسُ - لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ - إِلَى امْرَأَةٍ هَذَا، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمُهَا» فَعَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَارْجَمَهَا^(٣) .

فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى تَعْرِيبِ الزَّانِي مَعَ جَلْدِ مِائَةٍ إِذَا كَانَ بَكَرًا لَمْ يَتَزَوَّجَ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مُحْصِنًا، وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَاحِبِ، وَهُوَ حُرٌّ بِأَبْلِغٍ عَاقِلٌ، فَإِنَّهُ يُرْجَمُ . كَمَا رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ أَنَّ عُمَرَ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قَامَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ فِيهَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةَ الرَّجْمِ، فَفَرَّأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: لَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيُضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ قَدْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، فَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ

(١) الطبري: ٨٩/١٩ والدر المنثور: ١٢٤/٦ (٢) فتح الباري:

٣٠١/٨ (٣) فتح الباري: ٣٥٥/٥ ومسلم: ١٣٢٤/٣

وَقَالَ فَتَادَةٌ وَمُقَاتِلٌ بِنُ حَيَّانَ: حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ نِكَاحَ
الْبَغَايَا^(١). وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ
مُسْفِهَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَحْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] وَقَوْلُهُ:
﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِهَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَحْدَانٍ﴾... الْآيَةُ
[المائدة: ٥].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا - أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي
امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ مَهْزُولٍ، كَانَتْ تُسَافِحُ وَتَشْتَرِطُ لَهُ أَنْ
تُتَّقِيَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْ ذَكَرَ لَهُ أَمْرَهَا
قَالَ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودَ إِلَّا مِثْلَهُ». وَهَكَذَا
أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ^(٨).

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَو يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَاجْلِدُوهُنَّ مِثْلَ
جَلْدِهِ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [١] إِلَّا الَّذِينَ
تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٢]

[بَيَانُ حَدِّ الْقَذْفِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا بَيَانُ حُكْمِ جَلْدِ الْقَازِفِ
لِلْمُحْصَنَةِ، وَهِيَ الْحَرَّةُ الْبَالِغَةُ الْعَظِيمَةُ، فَإِذَا كَانَ الْمَقْدُوفُ
رَجُلًا فَكَذَلِكَ يُجْلَدُ قَازِفُهُ أَيْضًا، فَإِنْ أَقَامَ الْقَازِفُ بَيِّنَةً عَلَى
صِحَّةِ مَا قَالَهُ ذَرَأَ عَنْهُ الْحَدَّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَوْ يَأْتُوا
بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَاجْلِدُوهُنَّ مِثْلَ جَلْدِهِ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فَأَوْجَبَ عَلَى الْقَازِفِ - إِذَا لَمْ يَهْمُ الْبَيِّنَةَ عَلَى
صِحَّةِ مَا قَالَ - ثَلَاثَةَ أَحْكَامٍ، (أَحَدُهَا): أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ
جَلْدَةً. (الثَّانِي): أَنَّهُ تُرَدُّ شَهَادَتُهُ أَبَدًا. (الثَّلَاثُ): أَنْ يَكُونَ
فَاسِقًا لَيْسَ بِعَدْلٍ لَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدَ النَّاسِ.

[بَيَانُ تَوْبَةِ الْقَازِفِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ
(١) الموطأ: ٨٢٣/٢ (*) ٦٨٣ ومن طريق مالك عند البخاري
٢٤٦٢ وغيره، ولم ترد من طريق مالك عند مسلم ١٦٩١، وانظر
الموطأ: ٨٢٣/٢ (٢) فتح الباري: ١٤٨/١٣ ومسلم: ٣/
١٣١٧ (٣) البغوي: ٣٢١/٣ (٤) أبو داود: ٥٤٠/٤ (٥)
أحمد: ٣٤/٥ (٦) الدر المنثور: ١٢٧/٦ (٧) أحمد: ٥٤٣/
١٥٨ والنسائي في الكبرى: ٤١٥/٦ (٨) أبو داود: ٥٤٣/٢

رَنَى، إِذَا أَحْصَنَ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ
الْحَبْلُ أَوْ الْإِعْتِرَافُ^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ
حَدِيثِ مَالِكٍ^(٢) مُطَوَّلًا، وَهَذِهِ قِطْعَةٌ مِنْهَا مَقْصُودًا
هُنَا^(٣).

[لَا تَكُنْ لَدَيْكُمْ رَافَةٌ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَافَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أَي: فِي
حُكْمِ اللَّهِ، أَي: لَا تَرَحُّمُوهُمَا وَتَرَأَفُوا بِهِمَا فِي شَرْعِ اللَّهِ،
وَلَيْسَ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ الرَّأْفَةُ الطَّبِيعِيَّةُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَدِّ، وَإِنَّمَا
هِيَ الرَّأْفَةُ الَّتِي تَحْمِلُ الْحَاكِمَ عَلَى تَرْكِ الْحَدِّ فَلَا يَجُوزُ
[لَهُ] ذَلِكَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَافَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾
قَالَ: إِقَامَةُ الْحُدُودِ إِذَا رُفِعَتْ إِلَى السُّلْطَانِ فَتَقَامُ وَلَا
تُعْطَلُ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي
رَبَاحٍ^(٣). وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «تَعَافُوا الْحُدُودَ فِيمَا
بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجِبَ»^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَي:
فَافْعَلُوا ذَلِكَ، وَأَقِيمُوا الْحُدُودَ عَلَى مَنْ زَنَى، وَشَدَّدُوا
عَلَيْهِ الضَّرْبَ وَلَكِنْ لَيْسَ مُبْرَحًا لِيَرْتَدِعَ هُوَ وَمَنْ يَضُنُّ
مِثْلَهُ، بِذَلِكَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْمُسْنَدِ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ
قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأُذْبِحُ الشَّاةَ وَأَنَا أَرْحَمُهَا. فَقَالَ:
«وَلَكَّ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ»^(٥).

[أَقِيمُوا الْحَدَّ بِحَضْرَةِ النَّاسِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا
فِيهِ تَنْكِيلٌ لِلزَّانِيَيْنِ، إِذَا جُلِدَا بِحَضْرَةِ النَّاسِ، فَإِنَّ ذَلِكَ
يَكُونُ أَبْلَغَ فِي زَجْرِهِمَا وَأَنْجَحَ فِي رَدْعِهِمَا، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ
تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَفَضِيحَةً، إِذَا كَانَ النَّاسُ حُضُورًا. قَالَ
الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: عَلَانِيَةً.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ
مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢]

هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ الزَّانِيَّ لَا يَطَأُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
مُشْرِكَةً، أَي: لَا يُطَاوَعُهُ عَلَى مُرَادِهِ مِنَ الزَّانِيَةِ إِلَّا زَانِيَةً
عَاصِيَةً، أَوْ مُشْرِكَةً لَا تَرَى حُرْمَةَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ «وَالزَّانِيَةُ لَا
يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ» أَي: عَاصِيَةٌ بِزَنَائِهِ «أَوْ مُشْرِكٌ» لَا يَعْتَقِدُ
تَحْرِيمَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: تَعَاطِيَهُ
وَالتَّزْوُجَ بِالْبَغَايَا، أَوْ تَزْوِجَ الْعَقَابِ بِالرِّجَالِ الْفُجَّارِ.

وَلَشَقَّ عَلَيْكُمْ كَثِيرٌ مِنْ أُمُورِكُمْ ﴿١٠﴾ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴿١١﴾ أَيْ: عَلَى عِبَادِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْحَلْفِ وَالْإِيمَانِ الْمُعْلَظَةِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا يَشْرَعُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَفِيمَا يَنْهَى عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِمُقْتَضَى الْعَمَلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَذَكَرَ سَبَبَ نُزُولِهَا، وَفِيمَنْ نَزَلَتْ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ.

[سَبَبُ نُزُولِ آيَةِ اللَّعَانِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَالْيَدُوهُنَّ فَنَمِينٌ جَلْدَهُ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْأَنْصَارِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَهَكَذَا أَنْزَلْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَلْمُهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ غَيُورٌ، وَاللَّهُ مَا تَزَوَّجَ امْرَأَةً قَطُّ إِلَّا بِكُرٍّ، وَمَا طَلَّقَ امْرَأَةً لَهُ قَطُّ، فَاجْتَزَأَ رَجُلٌ مِنَّا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا مِنْ شِدَّةِ غَيْرَتِهِ. فَقَالَ سَعْدُ: وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ وَأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنِّي قَدْ تَعَجَّبْتُ أَنِّي لَوْ وَجَدْتُ لِكَاعًا قَدْ تَفَخَّذَهَا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ لِي أَنْ أَهَيِّجَهُ وَلَا أُحْرِكُهُ حَتَّى آتِي بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَوَاللَّهِ لَا آتِي بِهِمْ حَتَّى يَقْضِي حَاجَتَهُ - قَالَ: فَمَا لَبِثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ هِلَالُ بْنُ أُمِيَّةَ - وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَيْبَ عَلَيْهِمْ - فَجَاءَ مِنْ أَرْضِهِ عِشَاءً، فَوَجَدَ عِنْدَ أَهْلِهِ رَجُلًا، فَرَأَى بَعْثِيهِ وَسَمِعَ بِأَذْنَبِهِ فَلَمْ يُهَيِّجْهُ حَتَّى أَصْبَحَ، فَعَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي جِئْتُ عَلَى أَهْلِي عِشَاءً فَوَجَدْتُ عِنْدَهَا رَجُلًا، فَرَأَيْتُ بَعْثِيهِ وَسَمِعْتُ بِأَذْنَبِي، فَكَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا جَاءَ بِهِ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأَنْصَارُ وَقَالُوا: قَدْ ابْتَلَيْنَا بِمَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، الْآنَ يَضْرِبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هِلَالُ بْنُ أُمِيَّةَ وَيَبْطُلُ شَهَادَتُهُ فِي النَّاسِ، فَقَالَ هِلَالُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِي مِنْهَا مَخْرَجًا.

وَقَالَ هِلَالُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنِّي قَدْ أَرَى مَا اشْتَدَّ عَلَيْكَ مِمَّا جِئْتُ بِهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَصَادِقٌ. فَوَاللَّهِ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَأْمُرَ بِضَرْبِهِ إِذْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ الْوَحْيَ، وَكَانَ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيَ عَرَفُوا ذَلِكَ فِي تَرْتُّبِ وَجْهِهِ - يَعْنِي فَاْمَسْكُوا عَنْهُ - حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْوَحْيِ، فَتَزَلَّتْ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ

اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هَذَا الْإِسْتِنَاءُ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَتَيْنِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ - أَمَّا الْجَلْدُ فَقَدْ ذَهَبَ وَانْقَضَى، سِوَاءِ تَابٍ أَوْ أَصْرٍ، وَلَا حُكْمَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَا خِلَافٍ، فَإِذَا تَابَ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، وَارْتَفَعَ عَنْهُ حُكْمُ الْفِسْقِ، نَصَّ عَلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ - سَيِّدُ التَّابِعِينَ - وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ أَيْضًا ^(١).

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ وَالصَّحَّاحُ: لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ وَإِنْ تَابَ، إِلَّا أَنْ يَعْتَرِفَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ قَالَ الْبُهْتَانَ، فَحِينَئِذٍ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ ^(٢). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٢﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٣﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

[بَيَانُ اللَّعَانِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا فَرَجٌ لِلْأَرْوَاحِ وَزِيَادَةٌ مَخْرَجٌ إِذَا قَدَفَ أَحَدُهُمْ زَوْجَتَهُ، وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ إِقَامَةُ النِّبْتَةِ أَنْ يَلَاعِنَهَا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَنْ يُحْضِرَهَا إِلَى الْإِمَامِ فَيَدْعِي عَلَيْهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ، فَيُحْلِفُهُ الْحَاكِمُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ فِي مُقَابَلَةِ أَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيْ: فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزُّنَا وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، بَانَتْ مِنْهُ بِنَفْسِ هَذَا اللَّعَانِ وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ أَبَدًا، وَيُعْطِيهَا مَهْرَهَا، وَيَتَوَجَّهُ عَلَيْهَا حَدُّ الزُّنَا، وَلَا يَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ إِلَّا أَنْ تُلَاعِنَ فَتَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، أَيْ: فِيمَا رَمَاهَا بِهِ ﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يَعْنِي الْحَدَّ ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٢﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فَحَصَّهَا بِالغَضَبِ، كَمَا أَنَّ الْعَالِبَ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَتَجَسَّمُ فَضِيحَةً أَهْلِيهِ وَرَمَيْهَا بِالزُّنَا إِلَّا وَهُوَ صَادِقٌ مَعْدُورٌ، وَهِيَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْخَامِسَةَ فِي حَقِّهَا أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَالْمَعْصُوبُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ الْحَقَّ ثُمَّ يَحِيدُ عَنْهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى رَأْفَتَهُ بِحَلْفِهِ وَطُفَافِهِ بِهِمْ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَكُونُ بِهِمْ مِنَ الصَّبْرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أَيْ: لَحَرِّجْتُمْ

(١) الطبري: ١٠٥/١٩ (٢) الطبري: ١٠٨، ١٠٣، ١٩

فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ... الآية، فَسَرَّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَبْتَيْزُ يَا هَلَالُ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا». فَقَالَ هَلَالٌ: قَدْ كُنْتُ أَرْجُو ذَلِكَ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْسِلُوا إِلَيْهَا» فَأَرْسَلُوا إِلَيْهَا فَجَاءَتْ، فَتَلَاها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمَا، فَذَكَرَهُمَا وَأَخْبَرَهُمَا أَنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، فَقَالَ هَلَالٌ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتَ عَلَيْنَا، فَقَالَتْ: كَذَبٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عُنُوبَ بَيْنَهُمَا» فَوَقِيلَ لِهَلَالٍ: إِشْهَدْ، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ قِيلَ لَهُ: يَا هَلَالُ اتَّقِ اللَّهَ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُوجِبَةُ الَّتِي تُوَجَّبُ عَلَيْكَ الْعَذَابَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يُعَذِّبُنِي اللَّهُ عَلَيْهَا كَمَا لَمْ يُجَلِّدْنِي عَلَيْهَا، فَشَهِدَ فِي الْخَامِسَةِ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. ثُمَّ قِيلَ لِلْمَرَأَةِ: اشْهَدِي أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، وَقِيلَ لَهَا عِنْدَ الْخَامِسَةِ: إِنِّي اللَّهُ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُوجِبَةُ الَّتِي تُوَجَّبُ عَلَيْكَ الْعَذَابَ، فَتَلَكَّأَتْ سَاعَةً وَهَمَّتْ بِالْإِعْتِرَافِ، ثُمَّ قَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَفْضَحُ قَوْلِي، فَشَهِدَتْ فِي الْخَامِسَةِ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَفَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وَقَضَى أَنْ لَا يُدْعَى وَلَدُهَا لِأَبٍ، وَلَا يُرْمَى وَلَدُهَا، وَمَنْ رَمَاهَا أَوْ رَمَى وَلَدَهَا فَعَلَيْهِ الْحُدُّ، وَقَضَى أَنْ لَا يَبْتَئَ لَهَا عَلَيْهِ وَلَا قُوَّةَ لَهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يُفْتَرَقًا مِنْ غَيْرِ طَلَاقٍ وَلَا مُتَوَقَّى عَنَّا، وَقَالَ: «إِنْ جَاءَتْ بِهِ أَصْنِيبُ [أَرْسِيحُ] حَمَشَ السَّاقِينَ، فَهُوَ لِهَلَالٍ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقُ جَعَدًا جُمَالِيًّا خَدَلَجَ السَّاقِينَ، سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ، فَهُوَ لِلَّذِي رَمَيْتَ بِهِ». فَجَاءَتْ بِهِ أَوْرَقُ جَعَدًا جُمَالِيًّا خَدَلَجَ السَّاقِينَ سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلَا الْأَيْمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ». قَالَ عِكْرِمَةُ: فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرَ، وَكَانَ يُدْعَى لِأُمِّهِ وَلَا يُدْعَى لِأَبٍ^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٢) نَحْوَهُ. مُخْتَصَرًا.

وَلِهَذَا الْحَدِيثِ شَوَاهِدٌ كَثِيرَةٌ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا مِنْ وُجُوهِ كَثِيرَةٍ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

[حَدِيثُ الْإِفْكِ]

هَذِهِ الْعَشْرُ الْآيَاتُ كُلُّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ رَمَاهَا أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا قَالُوهُ مِنَ الْكُذْبِ الْبَحْتِ وَالْفُرْيَةِ الَّتِي غَارَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهَا وَلَيْتَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهَا صِيَانَةَ لِعَرْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أَي: جَمَاعَةٌ مِّنْكُمْ يَعْنِي مَا هُوَ وَاحِدٌ وَلَا اثْنَانِ بَلْ جَمَاعَةٌ، فَكَانَ الْمُقَدَّمُ فِي هَذِهِ اللَّعْنَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنِي سُلُوكِ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، حَتَّى دَخَلَ ذَلِكَ فِي أَذْهَانِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فَتَكَلَّمُوا بِهِ، وَجَوَّزَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرِ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَسَيَاقُ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ

مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ
 قَدِمْنَاهَا شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُبْيَضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، وَلَا
 أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يُرِيئِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَرَى
 مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتُكِي،
 إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَسْلَمُ ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟»
 فَذَلِكَ الَّذِي يُرِيئِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا
 نَقَعْتُ، وَخَرَجْتُ مَعِي أُمُّ مَسْطَحٍ، قَبْلَ الْمَنَاصِحِ - وَهُوَ
 مُمْتَرِزْنَا - وَلَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ
 الْكُفْ قَرِيبًا مِنْ بَيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي التَّنَزُّو
 فِي الْبُرْيَةِ، وَكُنَّا نَتَأَدَّى بِالْكُفِّ أَنْ نَتَّخِذَهَا فِي بَيُوتِنَا،
 فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مَسْطَحٍ، وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُحْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ
 ابْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَهَ أَبِي بَكْرٍ
 الصَّدِيقِ، وَابْنُهَا مَسْطَحٌ بْنُ أُنْثَاءَةَ بْنِ عَدَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ،
 فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَابْنَةُ أَبِي رُحْمِ أُمُّ مَسْطَحٍ قَبْلَ بَيْتِي حِينَ فَرَعْنَا
 مِنْ شَأِنِنَا، فَعَثَرْتُ أُمُّ مَسْطَحٍ فِي مِرْطَها، فَقَالَتْ: تَعَسَ
 مَسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِسْمَا قُلْتِ، تَسْبِيحُ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟
 قَالَتْ: أَيْ: هُنَّاهُ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَاذَا
 قَالَ؟ قَالَتْ: فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا
 إِلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟» فَقُلْتُ لَهُ: أَنَا ذُنُ لِي
 أَنْ آتَيْتُ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَقَنَّ الْخَبَرَ مِنْ
 قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ
 لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ لِمَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهِ؟ فَقَالَتْ: أَيْ بِنِيَّةِ
 هَوْنِي عَلَيْكَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ
 يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرَنَ عَلَيْهَا. قَالَتْ: فَقُلْتُ:
 سُبْحَانَ اللَّهِ! وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَا، فَكَيْفَ تِلْكَ اللَّيْلَةُ
 حَتَّى أَصْبَحْتُ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَجِلُ بَنُومٌ، ثُمَّ
 أَصْبَحْتُ أَبِي، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ بِنُ أَبِي
 طَالِبٍ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيَ، يَسْتَشِيرُهُمَا
 فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ
 فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ، فَقَالَ أُسَامَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ [هُم]
 أَهْلُكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ:
 يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ،
 وَإِنْ تَسَأَلَ الْجَارِيَةَ تَصَدَّقُ الْخَبَرَ. قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يُرِيئُكَ

الْمُسِيَّبِ وَعَزْوُهُ بِنُ الزُّبَيْرِ وَعَلَقَمَةُ بِنُ وَقَاصٍ وَعَبِيدُ اللَّهِ بِنُ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْتَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ
 النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللَّهُ
 تَعَالَى، وَكُلُّهُمْ قَدْ حَدَّثَنِي بِطَائِفَةٍ مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ
 كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ وَأَثْبَتَ لَهُ أَفْصَاحًا، وَقَدْ
 وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ
 عَائِشَةَ وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، ذَكَرُوا: أَنَّ عَائِشَةَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَفْرَعُ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيْتَهُنَّ خَرَجَ
 سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهَا: فَأَفْرَعُ بَيْنَنَا فِي عَزْوَةِ غَزَاهَا، فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي،
 وَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ بَعْدَمَا أَنْزَلَ الْحِجَابَ،
 فَأَنَا أَحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنزَلُ فِيهِ، فَيَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عَزْوِيهِ تِلْكَ وَقَفَلْ وَدَنُونَا مِنَ الْمَدِينَةِ،
 آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّجِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنَ بِالرَّجِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى
 جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي
 فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ،
 فَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِعَاؤُهُ وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ
 الَّذِينَ كَانُوا يُرْحَلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى
 بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، قَالَتْ:
 وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خُفَافًا [لَمْ يُهْلَهُنَّ] وَلَمْ يَعْشَهُنَّ
 اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ
 خِصَّةَ الْهُودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةَ حَدِيثِ
 السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ
 الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٌ وَلَا مُجِيبٌ،
 فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَلَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ
 سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي
 غَلَبَتْني عَيْنَايَ فَيَمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ
 الذُّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَادَّلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ
 مَنْزِلِي فَرَأَى سِوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَيْتِي،
 وَقَدْ كَانَ رَأَيْتِي قَبْلَ [أَنْ يُضْرَبَ عَلَيَّ] الْحِجَابَ، فَاسْتَيْقِظْتُ
 بِاسْتِزْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَحَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَاللَّهِ مَا
 كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِزْجَاعِهِ [حَتَّى]
 أَنَاخَ رَاخَلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبَتْهَا، فَأَنْطَلَقَ يَقُودُ بِي
 الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْتَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوْعِرِينَ فِي نَخْرِ
 الظُّهَيْرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ

كثيرًا من القرآن: والله لقد عرفت، أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتكم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لصدقتي، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف «فصبر جميل» والله المستعان على ما تصفون» قالت: ثم تحولت فأضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي ينلي، ولشأني كان أخفر في نفسي من أن يتكلم الله في أمر ينلي، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ [من] مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدّر منه مثل العجمان من العرق، وهو في [اليوم الشتات] من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سرّني عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أمّا الله عزّ وجلّ فقد برأك» قالت: فقالت لي أمي: فومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عزّ وجلّ، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله [هذه الآيات] في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه، وكان يثوق على مسطح بن أثانة لقرابته منه وقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله ﴿أَلَا تَجِدُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: والله إنني لأحِبُّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح التّفَقّة التي كان يُنفِقُ عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع. وطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا،

من عائشة؟» فقالت له بريئة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أعصبه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يامعشر المسلمين، من يعدرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرُك منه يا رسول الله! إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد ابن معاذ: لعمر الله لا تقبله ولا تغدر على قلبه، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت! لعمر الله لثقتك، فإنك متافق تجادل عن المتافق، فتناور الحبان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يحفضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرفأ لي دمع ولا أكتحل بيوم، وأبوابي يطنان أن البكاء فالق كبدي، قال: فيبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، فيبيناً نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبت شهراً لا يوحى إلي في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أمّا بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبركك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أحب عني رسول الله ﷺ، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي أجيبي عني رسول الله ﷺ فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ

خَيْرًا ﴿١﴾ أَي: قَاسُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالْبِرَاءَةِ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأُخْرَى. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّأْسِيِّ بِقَوْلِ أَبِي أَيُّوبَ خَالِدِ بْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ وَأَمْرَاتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارَ: أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ خَالِدَ بْنَ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَتْ لَهُ أَمْرَاتُهُ أُمُّ أَيُّوبَ: يَا أَبَا أَيُّوبَ أَمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ وَذَلِكَ الْكُذْبُ، أَكُنْتُ فَاعِلَةٌ ذَلِكَ يَا أُمَّ أَيُّوبَ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْكَ. قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ قَالَ فِي الْفَاحِشَةِ مَا قَالَ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ وَذَلِكَ حَسَنٌ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ قَالُوا مَا قَالُوا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ... الْآيَةَ، أَي: كَمَا قَالَ أَبُو أَيُّوبَ وَصَاحِبَتُهُ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ إِنْخَ أَي: هَلَّا ظَنُّوا الْخَيْرَ فَإِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلُهُ وَأَوْلَى بِهِ. هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَاطِنِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا﴾ أَي: بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أَي: كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِيْبَةً، وَذَلِكَ أَنَّ مَجِيءَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَاكِبَةً جَهْرَةً عَلَى رَاحِلَةٍ صَفْوَانَ بْنِ الْمَعْطَلِ فِي وَقْتِ الطَّهْيِيرَةِ، وَالْجَيْشُ بِكَمَالِهِ يَشَاهِدُونَ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِيهِ رِيْبَةٌ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا جَهْرَةً وَلَا كَانَا يَقْدَمَانِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، بَلْ كَانَ يَكُونُ هَذَا لَوْ قُدِّرَ خُفْيَةً مَسْتَوْرًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ مِمَّا رَمَوْا بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْكُذْبُ الْبَحْثُ، وَالْقَوْلُ الزُّورُ، وَالرَّغْوَنَةُ الْفَاحِشَةُ الْفَاجِرَةُ، وَالصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا﴾ أَي: هَلَّا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ أَي: عَلَى مَا قَالُوهُ ﴿بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ﴾ يَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أَي: فِي حُكْمِ اللَّهِ كَاذِبُونَ فَاجِرُونَ.

﴿لَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا

(١) أحمد: ١٩٤/١ (٢) فتح الباري: ٣٠٦/٨ ومسلم: ٤/٢١٢٩ (٣) ابن هشام: ٣٠٩/٣ (٤) فتح الباري: ٣٤٠/٨ (٥) الطبري: ١٢٩/١٩ إسناده ضعيف فيه بعض رجال بني النجار! وتدليس محمد بن إسحاق وقد نعن ولم يصرح.

فَهَلَكْتَ فِيمَنْ هَلَكَ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَهَذَا مَا أَنْتَهُ إِلَيْنَا مِنْ أَمْرِ هَوْلَاءِ الرَّهْطِ^(١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ^(٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ^(٣) كَذَلِكَ. قَالَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمِ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ عَمْرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ. بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أَي: بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتِ وَالْإِفْتِرَاءِ ﴿عُصْبَةٌ﴾ أَي: جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ أَي: يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: لِسَانُ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا، وَرَفْعَةٌ مَنَازِلَ فِي الْآخِرَةِ، وَإِظْهَارُ شَرَفٍ لَهُمْ بِاعْتِنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بِعَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حَيْثُ أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾... الْآيَةَ [فصلت: ٤٢]، وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعَنْهَا وَهِيَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ، قَالَ لَهَا: أَبْشِرِي فَإِنَّكَ رُوحَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يُجْبِكُ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَكَ، وَنَزَلَتْ بَرَاءَتُكَ مِنْ السَّمَاءِ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ إِيْرِيْهِمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِنْعَامِ﴾ أَي: لِكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَرَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْفَاحِشَةِ نَصِبَ عَظِيمٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ قِيلَ: ابْتَدَأَ بِهِ. وَقِيلَ: الَّذِي كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ وَيُدْبِعُهُ وَيُسْبِعُهُ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أَي: عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولَ قَبَّحَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَعَنَهُ.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾

[تَأْدِيبُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِسَاعَةِ الْإِفْكِ]

هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ أَفَاضَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِ الْإِفْكِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا﴾ يَعْنِي هَلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أَي: ذَلِكَ الْكَلَامَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ

أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿٨﴾

هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبَعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا»^(٣).

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧﴾ يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ [التَّأْدِيبُ مَرَّةً أُخْرَى]

هَذَا تَأْدِيبٌ آخَرَ بَعْدَ الْأَوَّلِ الْأَمْرِ بِظَنِّ الْخَيْرِ، أَيْ: إِذَا ذَكَرَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْقَوْلِ فِي شَأْنِ الْخَيْرِ [فَأَوْلًا] يَنْبَغِي الظَّنُّ بِهِمْ خَيْرًا، وَأَنْ لَا يُشْعِرَ نَفْسَهُ سِوَى ذَلِكَ، ثُمَّ إِنْ عَلِقَ بِتَفْسِيرِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ - وَسُوسَةٌ أَوْ خِيَالًا - فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤). وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أَيْ: مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَقَوَّهَ بِهَذَا الْكَلَامِ وَلَا نَذْكُرَهُ لِأَحَدٍ ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يُقَالَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى زَوْجَةِ رَسُولِهِ وَحَلِيلَةِ حَلِيلِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أَيْ: يَنْهَاكُمْ اللَّهُ مَتَّوَعِدًا أَنْ يَفْعَلَ مِنْكُمْ مَا يُشَبِّهُ هَذَا أَبَدًا أَيْ: فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَشَرَعِهِ، وَتُعَظِّمُونَ رَسُولَهُ ﷺ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُصَفًّا بِالْكَفْرِ فَلَهُ حُكْمٌ آخَرَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتٌ﴾ أَيْ: يُوضِّحُ لَكُمْ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْحِكْمَ الْقُدْرِيَّةَ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ، حَكِيمٌ فِي شَرَعِهِ وَقُدْرِهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجْحُونَ أَنْ تَبِيعَ الْفَاحِشَةَ فِي الدِّينِ ؕ أَمْثَلُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧﴾ [تَأْدِيبٌ مِنْ حُجْبِ إِسَاعَةِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ]

هَذَا تَأْدِيبٌ ثَالِثٌ لِمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، فَقَامَ بِذَهْنِهِ شَيْءٌ مِنْهُ وَتَكَلَّمَ بِهِ فَلَا يَكْثُرُ مِنْهُ وَلَا يُشِيعُهُ

[فَضَّلَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْإِفْكِ بِتَوْفِيقٍ لِلتَّوْبَةِ لَهُمْ] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّهَا الْخَائِضُونَ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ بِأَنْ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ وَإِنَابَتَكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَعَفَا عَنْكُمْ لِيِيمَانِكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿لَسَكَّرَ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ مِنْ قَضِيَّةِ الْإِفْكِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿وَهَذَا فِيمَنْ عِنْدَهُ إِيْمَانٌ رَزَقَهُ اللَّهُ بِسَبَبِهِ التَّوْبَةَ إِلَيْهِ، كِمُسْطَحٍ وَحَسَّانٍ وَحَمْتَةَ بِنْتِ جَحْشِ أَخْتِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَأَمَّا مَنْ خَاصَ فِيهِ مِنَ الْمُتَأَفِّقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنْتِ سُلُوفٍ وَأَصْرَابِهِ، فَلَيْسَ أَوْلَيْكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يُعَادِلُ هَذَا وَلَا مَا يُعَارِضُهُ. وَهَكَذَا شَأْنٌ مَا يَرِدُ مِنَ التَّوْبَةِ عَلَى فِعْلٍ مُعَيَّنٍ يَكُونُ مُطْلَقًا مَشْرُوطًا بِعَدَمِ التَّوْبَةِ، أَوْ مَا يُقَابِلُهُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُوزَانُهُ أَوْ يَرْجَحُ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ: أَيْ: يَرُوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ^(٥). يَقُولُ هَذَا: سَمِعْتُهُ مِنْ فُلَانٍ، وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَذَا، وَقَرَأَ آخَرُونَ: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ) وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقْرُؤُهَا كَذَلِكَ^(٦). وَقَوْلُ: هُوَ مِنْ وَلَّى اللِّسَانَ: يُعْنِي الْكُذِّبَ الَّذِي يَسْتَوِرُ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: وَلَّى فُلَانٌ فِي السَّيْرِ إِذَا اسْتَمَرَ فِيهِ، وَالْقِرَاءَةُ الْأُولَى أَشْهَرُ وَعَلَيْهَا الْجُمْهُورُ، وَلَكِنَّ الثَّانِيَةَ مَرْوِيَّةٌ عَنْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أَيْ: تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ فِي شَأْنِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَتَحْسَبُونَ ذَلِكَ بَسِيرًا سَهْلًا وَلَوْ لَمْ تَكُنْ زَوْجَةَ النَّبِيِّ ﷺ لَمَا كَانَ هَيِّنًا، فَكَيْفَ وَهِيَ زَوْجَةُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ؟ فَعَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يُقَالَ فِي زَوْجَةِ رَسُولِهِ مَا قِيلَ! فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعَارِضُ لِهَذَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَقْدِرُ عَلَى زَوْجَةِ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ذَلِكَ - حَاشَا وَكَلَّا - وَلَكَمَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا فِي سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَزَوْجَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ

(١) الطبري: ١٩/١٣٢ (٢) فتح الباري: ٨/٣٤٠ (٣) فتح

الباري: ١١/٣١٤ ومسلم: ٤/٢٢٩٠ (٤) فتح الباري: ١١/

٥٥٧ ومسلم: ١/١١٦ و١١٧

وَيُذِيعُهُ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفِتْنَةُ فِي الْأَرْضِ ءَأَمِنُوا لَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ أي: يَخْتَارُونَ ظُهُورَ الْكَلَامِ عَنْهُمْ بِالْقَبِيحِ ﴿لَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: بِالْحَدِّ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فَرُدُّوا الْأُمُورَ إِلَيْهِ تَرَشُّدًا. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللَّهِ وَلَا تَعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مِنْ طَلَبِ عَوْرَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ» (١).
 ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾
 يَتَأَيَّمُ الَّذِينَ ءَأَمِنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

[التذكير بفضل الله والتحذير من خطوات الشيطان]
 يقول الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وإن الله رؤوف رحيم﴾ أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه، ثم قال تعالى: ﴿يتأيم الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ هذا تغيير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿خطوات الشيطان﴾ عمله (٢). وقال عكرمة: نزعاًيه. وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان (٣). وقال أبو مجلز: الندور في المعاصي من خطوات الشيطان (٤).

ثم قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكنا منكم من أحد أبداً﴾ أي: لولا هو يزكنا من يشاء التوبة والرجوع إليه ويؤزكنا النفوس من شركها، وفجورها وذنوبها، وما فيها من أخلاق رديئة - كل بحسبه - لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿ولكن الله يزكنا من يشاء﴾ أي: من خلفه، ويضل من يشاء ويؤزبه في مهالك الضلال والعي. وقوله: ﴿والله سميع﴾ أي: سميع لأقوال عباده ﴿عليم﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنَوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَتَأَيَّمُ الَّذِينَ ءَأَمِنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

بَغْفَرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

[حثاً لأولي الفضل على العطاء والسماح]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾ مِنَ الْأَلْيَةِ، وَهِيَ: الْحَلْفُ، أَيْ: لَا يَحْلِفُ ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ أَيْ: الطَّوَلُ وَالصَّدَقَةُ وَالْإِحْسَانُ ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أَيْ: الْجِدَّةُ ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيْ: لَا تَحْلِفُوا أَنْ لَا تَصَلُّوا قُرَابَاتِكُمْ الْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ. وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّرَفُّقِ وَالْعَطْفِ عَلَىٰ صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أَيْ: عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَدَى. وَهَذَا مِنْ حِلْمِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَلَطْفِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الصَّدِيقِ رَضِيِّ اللَّهِ عَنْهُ حِينَ حَلَفَ أَنْ لَا يَتَّبِعَ مِسْطَحَ بْنِ أَنَاثَةَ بِنَافِعَةٍ بَعْدَ مَا قَالَ فِي غَائِثَةٍ مَا قَالَ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ غَائِثَةَ، وَطَابَتِ النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ

(١) أحمد: ٢٧٩/٥ (٢) الطبري: ٣٠١/٣ (٣) الدر المنثور:

٤٠٤/١ (٤) الطبري: ٣٠١/٣

﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ

وَأَسْتَقَرَّتْ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَى مَنْ كَانَ تَكَلَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ، وَأَقِيمَ الْحَدُّ عَلَى مَنْ أَقِيمَ عَلَيْهِ، شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ - يُعْطِفُ الصِّدِّيقَ عَلَى قَرِيبِهِ وَسَيِّبِهِ وَهُوَ مُسَطَّحٌ بِنُ اثْنَاتَيْهِ، فَإِنَّهُ كَانَ ابْنُ خَالَةِ الصِّدِّيقِ، وَكَانَ مِسْكِينًا لَا مَالَ لَهُ إِلَّا مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ لَوَّى وَلَقَّه تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا وَضُرِبَ الْحَدُّ عَلَيْهَا، وَكَانَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْرُوفًا بِالْمَعْرُوفِ، لَهُ الْفَضْلُ وَالْأَيَادِي عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾... الْآيَةُ: فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا تَغْفِرُ عَنِ الْمُذْنِبِ إِلَيْكَ تَغْفِرُ لَكَ، وَكَمَا تَصْفَحُ تَصْفَحُ عَنْكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنَّا نَحُبُّ - يَا رَبَّنَا - أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُسَطَّحٍ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنَ التَّفَقُّةِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا - فِي مَقَابِلَةِ مَا كَانَ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْفَعُهُ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا - فَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ هُوَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ بَنِيهِ.

وَأَسْتَقَرَّتْ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَى مَنْ كَانَ تَكَلَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ، وَأَقِيمَ الْحَدُّ عَلَى مَنْ أَقِيمَ عَلَيْهِ، شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ - يُعْطِفُ الصِّدِّيقَ عَلَى قَرِيبِهِ وَسَيِّبِهِ وَهُوَ مُسَطَّحٌ بِنُ اثْنَاتَيْهِ، فَإِنَّهُ كَانَ ابْنُ خَالَةِ الصِّدِّيقِ، وَكَانَ مِسْكِينًا لَا مَالَ لَهُ إِلَّا مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ لَوَّى وَلَقَّه تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا وَضُرِبَ الْحَدُّ عَلَيْهَا، وَكَانَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْرُوفًا بِالْمَعْرُوفِ، لَهُ الْفَضْلُ وَالْأَيَادِي عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾... الْآيَةُ: فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا تَغْفِرُ عَنِ الْمُذْنِبِ إِلَيْكَ تَغْفِرُ لَكَ، وَكَمَا تَصْفَحُ تَصْفَحُ عَنْكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنَّا نَحُبُّ - يَا رَبَّنَا - أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُسَطَّحٍ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنَ التَّفَقُّةِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا - فِي مَقَابِلَةِ مَا كَانَ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْفَعُهُ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا - فَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ هُوَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ بَنِيهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاسِقَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لِعُنُوًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

[الْوَعِيدُ عَلَى رَمَى الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ] هَذَا وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، فَأَمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالذُّخُولِ فِي هَذَا مِنْ كُلِّ مُحْصَنَةٍ، وَلَا سِيَّمَا الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ التُّزُورِ، وَهِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فَاطِمَةَ عَلَى أَنَّ مِنْ سَبَبِهَا بَعْدَ هَذَا وَرَمَاهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ بَعْدَ هَذَا الَّذِي ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ لِأَنَّهُ مُعَايِدٌ لِلْقُرْآنِ. وَكَذَا الْحُكْمُ فِي جَمِيعِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿لِعُنُوًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾... الْآيَةُ، كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾... الْآيَةُ [الأحزاب: ٥٧]. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هَذَا فِي عَائِشَةَ وَمَنْ صَنَعَ مِثْلَ هَذَا أَيْضًا الْيَوْمَ فِي الْمُسْلِمَاتِ فَلَهُ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَكِنْ عَائِشَةُ كَانَتْ أُمًّا فِي ذَلِكَ (١).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤَبَقَاتِ» قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّهُمْ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ إِذْ رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَهْلُ الصَّلَاةِ قَالُوا: تَعَالَوْا حَتَّى نَجْعَدَ فَيَجْعِدُونَ، فَيُخْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَشْهَدُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٢).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مَجَادَلَةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْزِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ يَقُولُ: بَلَى، يَقُولُ: لَا أَجِيزُ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي، يَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ عَلَيْكَ شُهُودًا، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ: بَعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَرَنَّ كُنْتُ أَنْضِلُ» وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتَّسَائِي (٤).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿دِينَهُمْ﴾ أَي: حِسَابَهُمْ وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ: دِينَهُمْ أَي: حِسَابَهُمْ. وَكَذَا قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ (٥). وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أَي: وَعَدُهُ وَوَعِيدُهُ وَحِسَابُهُ هُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ.

﴿الطَّيِّبَاتُ لِلْخَيْرِيْنَ وَالْخَيْرِيَّاتُ لِلطَّيِّبَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٦)

[عَائِشَةُ طَيِّبَةٌ لِأَنَّهَا لِطَيِّبِ النَّبَرِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْخَيْرِيَّاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْخَيْرِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْخَيْرِيَّاتُ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَيْرِيَّاتِ مِنَ الْقَوْلِ. وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ - قَالَ: - وَنَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ

(١) الطبري: ١٩ / ١٣٩ (٢) فتح الباري: ٥ / ٤٦٢ ومسلم: ١ / ٩٢ (٣) الدر المنثور: ٧ / ٣١٩ والطبري: ٨ / ٣٧٣ (٤) مسلم: ٢٩٦٩ (٥) الطبري: ١٩ / ٤١١

سورة النور

٣٥٣

سورة النور

فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَاتِعُمْ لَكُمْ عِلْمَهُ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَيْصُرِهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا صَنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَيْصُرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ سَائِرِينَ مِنْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيْنَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرْ وَأَعْلَى عِوَرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

وَأَهْلِ الْإِنْفِكِ ^(١). وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيِّ وَالْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَحَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، وَالصَّحَّاحِ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ^(٢). وَوَجَّهَهُ بِأَنَّ الْكَلَامَ الْقَبِيحَ أَوْلَى بِأَهْلِ الْقُبْحِ مِنَ النَّاسِ، وَالْكَلَامَ الطَّيِّبَ أَوْلَى بِالطَّيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ، فَمَا نَسَبَهُ أَهْلُ النِّفَاقِ إِلَى عَائِشَةَ هُمْ أَوْلَى بِهِ، وَهِيَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ وَالنِّزَاهَةِ مِنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّوْنٌ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْخَيْثَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلخَيْثِينَ مِنَ الرِّجَالِ. وَالخَيْثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلخَيْثَاتِ مِنَ النِّسَاءِ، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ^(٣). وَهَذَا أَيْضًا يَرْجِعُ إِلَى مَا قَالَهُ أَوْلَيْكَ بِاللَّازِمِ، أَيُّ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَائِشَةَ زَوْجَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَهِيَ طَيِّبَةٌ لِأَنَّهُ أَطْيَبُ مِنْ كُلِّ طَيِّبٍ مِنَ النَّبِيِّ، وَلَوْ كَانَتْ خَيْثَةً لَمَا صَلَحَتْ لَهُ لَا شَرْعًا وَلَا قَدْرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّوْنٌ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيُّ: هُمْ بَعْدَاءُ عَمَّا يَقُولُهُ أَهْلُ الْإِنْفِكِ وَالْعُدْوَانِ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أَيُّ: بِسَبَبِ مَا قِيلَ فِيهِمْ مِنَ الْكُذْبِ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: عِنْدَ اللَّهِ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ، وَفِيهِ وَعَدَّ بِأَنْ تَكُونَ زَوْجَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ.

﴿بَنَاتِ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى

سَتَأْتُواهُمْ﴾ وَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَاتِعُمْ لَكُمْ عِلْمَهُ ﴿٧٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٧٩﴾

[الاستئذان وأداب الدخول في البيوت]

هَذِهِ آدَابُ شَرِيعَةٌ، آدَبُ اللَّهِ بِهَا عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَذَلِكَ فِي [الاستئذان]. أَمْرُهُمْ أَنْ لَا يَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا، أَيُّ: يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ، وَسَلَّمُوا بَعْدَهُ، وَيَتَّبِعِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَإِنْ أذِنَ لَهُ وَإِلَّا انصَرَفَ. كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا مُوسَى جِئِنِ اسْتَأْذَنَ عَلَى عَمْرِ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لَهُ انصَرَفَ، ثُمَّ قَالَ عَمْرٌ: أَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ يَسْتَأْذِنُ؟ ائذِنُوا لَهُ، فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ قَدْ ذَهَبَ، فَلَمَّا جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: مَا رَجَعْتُ؟ قَالَ: إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لِي، وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لَهُ

فَلْيَنْصَرِفْ». فَقَالَ عَمْرٌ: لِنَأْتِيَنِي عَلَىٰ هَذَا بَيْتِي وَإِلَّا أَوْجَعْتُكَ ضَرْبًا، فَذَهَبَ إِلَى مَلَأٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَذَكَرَ لَهُمْ مَا قَالَ عَمْرٌ: فَقَالُوا: لَا يَشْهَدُ لَكَ إِلَّا أَضْعُرْنَا، فَقَامَ مَعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فَأَخْبَرَ عَمْرٌ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالْأَشْوَاقِ ^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَوْ غَيْرِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَأْذَنَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ» فَقَالَ سَعْدٌ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، وَلَمْ يُسْمِعِ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى سَلَّمَ ثَلَاثًا، وَرَدَّ عَلَيْهِ سَعْدٌ ثَلَاثًا وَلَمْ يُسْمِعْهُ، فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا سَلَّمْتَ تَسْلِيمَةً إِلَّا وَهِيَ بِأُذُنِي، وَلَقَدْ رَدَدْتُ عَلَيْكَ وَلَمْ أَسْمِعْكَ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَسْتَكْتِرَ مِنْ سَلَامِكَ وَمِنَ الْبُرْكَاتِ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ الْبَيْتَ فَقَرَّبَ إِلَيْهِ زَبِيحًا فَأَكَلَ نَبِيُّ

(١) الطبري: ١٤٢/١٩، الدر المنثور: ١٦٧/٦ (٢) الطبري:

١٤٤، ١٤٣/١٩ (٣) الطبري: ١٤٤/١٩ (٤) فتح الباري:

الله، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «أَكَلْ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ»^(١).

ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ يَبْغِي لِلْمُسْتَأْذِنِ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ أَنْ لَا يَقِفَ تَلْقَاءَ الْبَابِ بِوَجْهِهِ، وَلَكِنْ لِيَكُنِ الْبَابُ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ يَسَارِهِ لِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تَلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْبَتَيْ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ، وَيَقُولُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ» وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سُورًا. فَفَرَدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ^(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَمْرًا أُطْلِعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَخَدَفْتَهُ بِحِصَاةٍ فَفَقَاتَ عَيْنَهُ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ»^(٣). وَأَخْرَجَ الْجَمَاعَةُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَى أَبِي فَذَقْتُ الْبَابَ، فَقَالَ: «مَنْ ذَا؟» فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: «أَنَا أَنَا» كَأَنَّهُ كَرِهَهُ^(٤).

وَأَمَّا كَرَاهَةُ ذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ لَا يُعْرَفُ صَاحِبُهَا حَتَّى يُفْصِحَ بِاسْمِهِ أَوْ كُنْيَتِهِ الَّتِي هُوَ مَشْهُورٌ بِهَا، وَإِلَّا فَكُلُّ أَحَدٍ يُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهَا، فَلَا يَحْضُرُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنَ الْإِسْتِثْنَانِ الَّذِي هُوَ الْإِسْتِثْنَانُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي الْآيَةِ، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْإِسْتِثْنَانُ: الْإِسْتِثْنَانُ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ^(٥).

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ كَلْدَةَ بِنِ الْحَنْبَلِ أَنَّ صَفْوَانَ ابْنَ أُمَيَّةَ بَعَثَهُ فِي الْفَتْحِ بَلِيًّا وَجَدَايَةً وَ[ضَعَايِسَ] وَالنَّبِيَّ ﷺ بِأَعْلَى الْوَادِي، قَالَ: فَذَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ أَسْلَمْ وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ، فَقَالَ [النَّبِيُّ] ﷺ: «ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُ؟» وَذَلِكَ بَعْدَمَا أَسْلَمَ صَفْوَانُ^(٦). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٧).

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: سَمِعْتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رِيَّاحٍ يُخْبِرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: ثَلَاثُ آيَاتٍ جَحَدَهُنَّ النَّاسُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْئَتُكُمْ» قَالَ: وَيَقُولُونَ: إِنَّ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُهُمْ بَيْتًا. قَالَ: وَالْإِذْنَ كَلُّهُ قَدْ جَحَدَهُ النَّاسُ. قَالَ: قُلْتُ: أَسْتَأْذِنُ عَلَى أَخَوَاتِي أَيَّامَ فِي حَجْرِي مَعِيَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ لِيُرْحِصَ لِي قَائِبِي، فَقَالَ: تُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَاسْتَأْذِنُ. قَالَ: فَارْجِعْتُهُ أَيْضًا. فَقَالَ: أَتُحِبُّ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْتَأْذِنُ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَخْبَرَنِي ابْنُ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا مِنْ أَمْرٍ أَوْ كَرِهَ إِلَيَّ أَنْ أَرَى عُرْيَتَهَا مِنْ ذَاتِ مَحْرَمٍ، قَالَ: وَكَانَ يُشَدِّدُ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ: سَمِعْتُ هُزَيْلَ بْنَ شَرْحَبِيلَ الْأَوْدِيِّ الْأَعْمَى أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ الْإِذْنَ عَلَى أُمَّهَاتِكُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَيْسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَى أَمْرَائِهِ قَالَ: لَا. وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى عَدَمِ الْجُوبِ، وَإِلَّا فَلَا أَوْلَى أَنْ يُعْلِمَهَا بِدُخُولِهِ وَلَا يُفَاجِئَهَا بِهِ، لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَيْئَةٍ لَا تُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا عَلَيَّهَا. وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ أَخِي زَيْنَبَ - إِمْرَأَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - عَنْ زَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إِلَى الْبَابِ تَنَحَّحَ وَبَرَّقَ كَرَاهَةً أَنْ يَهْجُمَ مِنَّا عَلَى أَمْرٍ يَكْرَهُهُ^(٨). إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ فِي قَوْلِهِ: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا لَقِيَ صَاحِبَهُ لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: حَيِّتْ صَبَاحًا وَحَيِّتْ مَسَاءً، وَكَانَ ذَلِكَ تَحِيَّةَ الْقَوْمِ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَنْطَلِقُ إِلَى صَاحِبِهِ فَلَا يَسْتَأْذِنُ حَتَّى يَقْتَحِمَ وَيَقُولُ: قَدْ دَخَلْتُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَيَسْئَلُ ذَلِكَ عَلَى الرَّجُلِ، وَلَعَلَّهُ يَكُونُ مَعَ أَهْلِهِ فَغَيَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ كَلُّهُ فِي سِرِّهِ وَعَفْوِهِ، وَجَعَلَهُ نِقْبًا نَزَاهًا مِنَ الدَّنَسِ وَالْقَذَرِ وَالذَّرَنِ، فَقَالَ تَعَالَى: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا»... الْآيَةَ^(٩). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُقَاتِلٌ، حَسَنٌ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ» يَعْنِي الْإِسْتِثْنَانُ خَيْرٌ لَكُمْ بِمَعْنَى هُوَ خَيْرٌ مِنَ الطَّرْفَيْنِ: لِلْمُسْتَأْذِنِ وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ» وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ النَّصْرِ فِي مِلْكِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، فَإِنْ شَاءَ أَذِنَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْذِنْ، «وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ

(١) أحمد: ١٣٨/٣ (٢) أبو داود: ٣٧٤/٥ (٣) فتح الباري:

٢٥٣/١٢ ومسلم: ١٦٩٩/٣ (٤) فتح الباري: ١١/٣٧

ومسلم: ١٦٩٧/٣ وأبو داود: ٣٧٤/٥ وتحفة الأحوذى: ٧/

٤٩١ والنسائي في الكبرى: ٩٠/٦ وابن ماجه: ١٢٢٢/٢ (٥)

الطبري: ١٤٦/١٩ إسناده ضعيف لأجل العوفي (٦) أحمد: ٣/

٤١٤ (٧) أبو داود: ٣٦٨/٥ وتحفة الأحوذى: ٧/٤٩٠

والنسائي في الكبرى: ٨٧/٦ (٨) الطبري: ١٤٨/١٩ (٩) الدر

اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴿٣٠﴾ أَي: إِذَا رَدُّوكُمْ مِنَ الْبَابِ قَبْلَ الْإِذْنِ أَوْ بَعْدَهُ ﴿فَاتَّجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أَي: رُجُوعُكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَ بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ: لَقَدْ طَلَبْتُ عُمَرَى كُلَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَمَا أَدْرَكْتُهَا: أَنْ أَسْتَأْذِنَ عَلَى بَعْضِ إِخْوَانِي فَيَقُولَ لِي: ارْجِعْ. فَارْجِعْ وَأَنَا مُعْتَبِطٌ [لِقَوْلِهِ] ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(١). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا﴾... الْآيَةَ أَي: لَا تَقْفُوا عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾... الْآيَةَ، هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَحْصَى مِنَ النَّبِيِّ قَبْلَهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا تَقْتَضِي جَوَازَ الدُّخُولِ إِلَى الْبُيُوتِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ إِذَا كَانَ لَهُ مَتَاعٌ فِيهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ، كَالْبَيْتِ الْمَعْدِيِّ لِلضَّيْفِ، إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَفَى. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ ثُمَّ نَسَخَ وَاسْتَنْتَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ^(٢) وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ آبَائِهِمْ وَبِحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٣)
[الْأَمْرُ بِبَعْضِ الْبَصْرِ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْغُضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَنْظُرُوا إِلَّا إِلَى مَا أَبَاحَ لَهُمْ النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ [يَبْغُضُوا] أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ، فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصْرُ عَلَى مُحَرَّمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَلْيَصْرِفْ بَصْرَهُ عَنْهُ سَرِيعًا، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجَاءَةِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصْرِي^(٣). وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَبِيْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «غَضُّ الْبَصْرِ، وَكَفُّ الْأَدَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(٤).

وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الْعَبَّاسِيُّ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اكْفُلُوا لِي سِتًّا، أَكْفُلْ لَكُمْ

بِالْحَيَّةِ: إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ، وَإِذَا اتَّخَمَ فَلَا يَخُنْ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ»^(٥). وَلَمَّا كَانَ النَّظْرُ دَاعِيَةً إِلَى فَسَادِ الْقَلْبِ أَمَرَ اللَّهُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ كَمَا أَمَرَ بِحِفْظِ الْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ بَوَاعِثٌ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ آبَائِهِمْ وَبِحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ وَحِفْظُ الْفُرُوجِ تَارَةٌ يَكُونُ بِمَنْعِهِ مِنَ الزُّنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ وَتَارَةٌ يَكُونُ بِحِفْظِهِ مِنَ النَّظْرِ إِلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَالسُّنَنِ: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»^(٦). ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أَي: أَطْهَرُ لِأَقْلُوبِهِمْ وَأَنْفَى لِدِينِهِمْ، كَمَا قِيلَ: مَنْ حَفِظَ بَصْرَهُ أَوْرَثَهُ اللَّهُ نُورًا فِي بَصِيرَتِهِ، وَيُرْوَى: فِي قَلْبِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزُّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرْنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرَ، وَرْنَا اللَّسَانَ النَّطْقَ، وَرْنَا الْأُذُنَيْنِ الْإِسْتِمَاعَ، وَرْنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشَ، وَرْنَا الرَّجْلَيْنِ الْخُطَى، وَالنَّفْسَ تَمَتَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفُرْجَ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيلًا^(٧)، وَمُسْلِمٌ مُسْتَدًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ يَنْخُو مَا تَقَدَّمَ^(٨). وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْهَوْنَ أَنْ يُجِدَّ الرَّجُلُ نَظْرَهُ إِلَى الْأَمْرَدِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ عَيْنٍ بَاكِئَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَيْنًا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَعَيْنًا سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنًا يَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذَّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٩).

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضَضْنَ مِنْ أَنْصُرِهِنَّ وَبِحَفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا

(١) الطبري: ١٥٠/١٩ (٢) الطبري: ١٥٣/١٩ (٣) مسلم: ١٦٩٩/٣ (٤) فتح الباري: ١٣٤/٥ (٥) تاريخ الخطيب: ٧/٣٩٢ والطبراني في المعجم الكبير ٣١٤/٨ وابن حبان في المجروحين: ٢٠٤/٢ إسناده ضعيف فيه ابن جبير قال ابن حبان لا يحل الاحتجاج به [المجروحين] (٦) أحمد: ٣/٥ وأبو داود: ٣٠٤/٤ والترمذي: ٥٣/٨ والنسائي في الكبرى: ٣١٣/٥ وابن ماجه: ٦١٨/١ (٧) فتح الباري: ٢٨/١١ (٨) مسلم: ٤/٢٠٤٧ (٩) الفردوس للدليمي: ٢٥٦/٣ والدر المنثور: ١٧٨/٦ إسناده وإياه فيه عمر بن محمد بن صهبان وهو منكر الحديث اتفق الأئمة على تضعيفه.

يُدْرِك زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ
وَلَا يُدْرِك زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَانِهِنَّ أَوْ إِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ
التَّيْبِعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ
يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ
مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمُوعُ السَّمِيعُ ﴿٣١﴾
تَفْخِيحُوتُ ﴿٣١﴾

[أَحْكَامُ الْحِجَابِ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَغَيْرِهِ مِنْهُ
لِأَزْوَاجِهِنَّ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَمْيِيزٌ لَهُنَّ عَنْ صِفَةِ نِسَاءِ
الْجَاهِلِيَّةِ وَفِعَالِ الْمُشْرَكَاتِ، وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ
مَا ذَكَرَهُ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ قَالَ: بَلَّغْنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ جَابِرَ
ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ حَدَّثَنَا أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ مُرَيْدَةَ كَانَتْ
فِي مَحَلٍّ لَهَا فِي بَنِي حَارِثَةَ، فَجَعَلَ النِّسَاءُ يَدْخُلْنَ عَلَيْهَا
غَيْرَ مُتَأَذَّرَاتٍ فَيَبْدُو مَا فِي أَرْجُلِهِنَّ مِنَ الْخَلَاخِلِ وَتَبْدُو
صُدُورَهُنَّ وَذَوَائِبَهُنَّ. فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: مَا أَفْبَحَ هَذَا! فَانزَلَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضَضْنَ مِنْ أَبْصَدِهِنَّ﴾ الْآيَةَ (١).
فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضَضْنَ مِنْ أَبْصَدِهِنَّ﴾ ...
أَيُّ: عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ أَرْوَاجِهِنَّ.
وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى جَوَازِ نَظَرِهِنَّ إِلَى
الْأَجَانِبِ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الْحَسَنَةِ وَهَمْ يَلْعَبُونَ بِحِجَابِهِمْ يَوْمَ
الْعِيدِ فِي الْمَسْجِدِ وَعَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ وَرَائِهِ
وَهُوَ يَسْتُرُهَا مِنْهُمْ حَتَّى مَلَتْ وَرَجَعَتْ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: عَنِ
الْفَوَاجِشِ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كُلُّ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقُرْآنِ يَذْكُرُ
فِيهَا حِفْظَ الْفُرُوجِ فَهُوَ مِنَ الرُّنَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ﴾ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ (٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُدْرِكُ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أَيُّ: لَا يَظْهَرُونَ شَيْئًا مِنَ الزَّيْنَةِ
لِلْأَجَانِبِ إِلَّا مَا لَا يُمَكِّنُ إِخْفَاؤُهُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ:
كَالرِّدَاءِ وَالثِّيَابِ (٤). يَعْنِي عَلَى مَا كَانَ يَتَعَانَاهُ نِسَاءُ الْعَرَبِ
مِنَ الْمُخْتَنَةِ الَّتِي تُجَلَّلُ ثِيَابَهَا وَمَا يَبْدُو مِنْ أَسْفَلِ الثِّيَابِ.
فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِيهِ، لِأَنَّ هَذَا لَا يُمَكِّنُهَا إِخْفَاؤُهُ، وَنَظِيرُهُ
فِي زِيِّ النِّسَاءِ مَا يَظْهَرُ مِنْ إِزَارِهَا وَمَا لَا يُمَكِّنُ إِخْفَاؤُهُ.
وَقَالَ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ الْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ وَأَبُو الْجَوَازِ

وَأَبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَغَيْرُهُمْ (٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يَعْنِي
الْمَقَانِعَ يُعْمَلُ لَهَا صِنْفَاتٌ ضَارِبَاتٌ عَلَى صُدُورِهِنَّ لِتُتَوَارَى
مَا تَحْتَهَا مِنْ صَدْرِهَا وَتَرَائِبِهَا لِئِخْفَالَ شِعَارِ نِسَاءِ أَهْلِ
الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنَّ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ، بَلْ كَانَتْ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ
تَمُرُّ بَيْنَ الرِّجَالِ مُسْفِحَةً بِصَدْرِهَا لَا يُوَارِيهِ شَيْءٌ، وَرَبَّمَا
أَظْهَرَتْ عَنْقَهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا وَأَفْرَطَةَ آذَانِهَا، فَأَمَرَ اللَّهُ
الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْتَرْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَأَحْوَالِهِنَّ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ
يُدْرِكْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَسِهِنَّ ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾ وَقَالَ
فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكُرَيْمِيَّةُ: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾
وَالْحُمْرُ جَمْعُ خِمَارٍ وَهُوَ مَا يُخَمَّرُ بِهِ أَيُّ: يُعْطَى بِهِ
الرَّأْسُ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا النَّاسُ الْمَقَانِعَ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ﴾ وَلْيَسُدُّدَنَّ ﴿بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ
جُيُوبِهِنَّ﴾ يَعْنِي عَلَى النَّحْرِ وَالصُّدْرِ فَلَا يَرَى مِنْهُ شَيْءٌ (٦).
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: يَرْحَمُ
اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأَوَّلِ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ
عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا (٧). وَرَوَى أَيْضًا
عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ:
لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أَخَذَنَ
أُزْرَهُنَّ فَشَقَقَتْهُنَّ مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بِهَا (٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُدْرِكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ
أَزْوَاجِهِنَّ﴾ (أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ
أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَانِهِنَّ) كَلَّ
هُؤُلَاءِ مَحَارِمُ لِلْمَرْأَةِ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِمْ بَزِيئَتِهَا
وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَبْرُجٍ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْمُنْذِرِ: عَنْ عِكْرِمَةَ فِي
هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا يُدْرِكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ
أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ حَتَّى فَرَعَ مِنْهَا وَقَالَ: لَمْ يَذْكُرِ الْعَمُّ
وَلَا الْخَالَ لِأَنَّهُمَا يُعْتَانِ لِأَبْنَائِهِمَا، وَلَا تَضَعُ خِمَارَهَا عِنْدَ
الْعَمِّ وَالْخَالِ (٩). فَأَمَّا الزَّوْجُ فَإِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ أَجْلِ
فَتَتَصَنَعُ لَهُ بِمَا لَا يَكُونُ بِحَضْرَةِ غَيْرِهِ.

(١) الدرر المشرور: ١٧٩/٦ هذا من بلاغات مقاتل ولم يدرك جابر بن عبدالله رضي الله عنه (٢) البخاري: ٤٥٤ وغيره. (٣) الطبري: ١٥٤/١٩ (٤) الطبري: ١٥٦/١٩ (٥) الطبري: ١٩/١٥٦ (٦) الدرر المشرور: ١٨٢/٦ (٧) فتح الباري: ٣٤٧/٨ (٨) فتح الباري: ٣٤٧/٨ (٩) ابن أبي شيبه: ٣٣٨/٤

[آداب مَسِي الْمَرْأَةِ فِي الطَّرِيقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾... الآية، كَانَتْ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ تَمَشِي فِي الطَّرِيقِ فِي رِجْلِهَا خَلْخَالَ صَامِتٌ لَا يُعْلَمُ صَوْتُهُ، ضَرَبَتْ بِرِجْلِهَا الْأَرْضَ، فَيَسْمَعُ الرَّجَالُ طِينَتَهُ. فَهِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ زِينَتِهَا مَسْتُورًا فَتَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ لِنُظْهِرَ مَا هُوَ خَفِيٌّ، دَخَلَ فِي هَذَا النَّهْيِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾... إِلَى آخِرِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ [أَيْضًا] أَنَّهَا تُنْهَى عَنِ التَّعَطُّرِ وَالتَّطْيِبِ عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنْ بَيْتِهَا فَيَسْمَعُ الرَّجَالُ طِيْبَهَا، فَقَدْ رَوَى أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ: عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ عَرِينِ زَانِيَةٍ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعَطَّرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فِيهَا كَذَا وَكَذَا» يَعْنِي زَانِيَةً. قَالَ: وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَهَذَا حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٧) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ^(٨).

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهُنَّ يُنْهَيْنَ عَنِ الْمَسِي فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّبَرُّجِ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَقَدْ اخْتَلَطَ الرَّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ: «اسْتَأْجِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْفَقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيَكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ». فَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تَلْصُقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِذَا تَوَبَّهَاتِ لَتَتَعَلَّقَنَّ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ^(٩). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَيُّ: إِفْعَلُوا مَا أَمَرَكُم بِهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَلِيلَةِ وَاتَّرَكُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ، فَإِنَّ الْفَلَاحَ كُلَّ الْفَلَاحِ فِي فِعْلٍ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَعَانُ.

﴿وَاتَّكِرُوا إِلَى اللَّهِ أَلَيْسَ بَيْنَكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ﴾^(١٠) وَلَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يَعْنِي تَطْهَرُ بِزِينَتِهَا أَيْضًا لِلنِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ دُونَ نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ لِئَلَّا تَصِفَهُنَّ لِرِجَالِهِنَّ. وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَشَدُّ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَمْتَعُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ، وَأَمَّا الْمُسْلِمَةُ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فَتَنْزِجُرُ عَنْهُ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُبَاشِرِ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ [فَتَنْعَتَهَا] لِزُوجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(١١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تَطْهَرَ زِينَتَهَا لَهَا، وَإِنْ كَانَتْ مُشْرِكَةً لِأَنَّهَا أُمَّتُهَا^(١٢). وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ^(١٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ النَّبِيعَاتِ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ يَعْنِي كَالْأَجْرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَكْفَاءٍ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي عُقُولِهِمْ وَلَهُ [وَخَوَاتُ]، وَلَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ وَلَا يَشْهَوْنَهُنَّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الْمُعْقَلُ الَّذِي لَا شَهْوَةَ لَهُ^(١٤).

وَقَالَ عِكْرَمَةُ: هُوَ الْمُخَنَّثُ الَّذِي لَا يَقُومُ ذَكَرُهُ. وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٌ مِنَ السَّلَفِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ مُخَنَّثًا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا يَدْعُونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابِ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً يَقُولُ: إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلْتُ بِأَرْبَعٍ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرْتُ بِثَمَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هُنَا، لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ» فَأَخْرَجَهُ، فَكَانَ بِالْبَيْدَاءِ يَدْخُلُ كُلَّ يَوْمٍ جُمُعَةً لَيْسْتَطِيعَ^(١٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ الطِّفْلِ الذَّيْبِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ يَعْنِي لِصِغَرِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ أَحْوَالَ النِّسَاءِ وَعَوْرَاتِهِنَّ، مِنْ كَلَامِهِنَّ الرَّخِيمِ وَتَعَطُّوهُنَّ فِي الْمِشْيَةِ وَحَرَكَاتِهِنَّ وَسَكَنَاتِهِنَّ، فَإِذَا كَانَ الطِّفْلُ صَغِيرًا لَا يَفْهَمُ ذَلِكَ، فَلَا بَأْسَ بِدُخُولِهِ عَلَى النِّسَاءِ، فَأَمَّا إِنْ كَانَ مُرَاهِقًا، أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ، بِحَيْثُ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَيَدْرِيهِ وَيَفْرُقُ بَيْنَ الشَّوَاهِدِ وَالْحَسَنَاءِ، فَلَا يُمْكِنُ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَأْتِكُمْ وَالِدُ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمْمُ؟ قَالَ: «الْحَمْمُ الْمَوْتُ»^(١٦).

(١) فتح الباري: ٢٥٠/٩ (٢) الطبري: ١٦٠/١٩ (٣) الدر المنثور: ١٨٣/٦ (٤) الطبري: ١٦١/١٩ (٥) مسلم: ٤/١٧١٦، ١٧١٥ (٦) فتح الباري: ٣٩٥/٥ (٧) تحفة الأحوذى: ٧٠/٨ (٨) أبو داود: ٤٢٤/٥ والنسائي: ١٧١١/٤ (٩) تحفة الأحوذى: ٧٠/٨ (١٠) أبو داود: ٤٠٠/٤ والنسائي: ٤٢٢/٨ (١١) أبو داود: ٤٢٢/٥

لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ
بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآثُوهُمْ مِنْ
مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيْنَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَ
تَحَصُّنًا لِيَبْنِعُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ
إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ أَرْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا
مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾

[الأمر بالنكاح]

إِشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكُرَيْمَاتُ الْمُبِينَةُ عَلَى جُمْلٍ مِنَ
الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالْأَوَامِرِ الْمُبْرَمَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾... إِلَى آخِرِهِ، هَذَا أَمْرٌ بِالتَّرْوِيجِ.
وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ
اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ
لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»،
أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(١). وَقَدْ
جَاءَ فِي الشُّنَنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
«تَزَوَّجُوا تَوَالِدُوا تَنَاسَلُوا، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ الْأُمَّمَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ»^(٢).

الْأَيَامَى جَمْعُ أَيْمٍ، وَيُقَالُ ذَلِكَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي لَا زَوْجَ
لَهَا، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي لَا زَوْجَةَ لَهُ، سَوَاءً كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ ثُمَّ
فَارَقَ أَوْ لَمْ يَتَزَوَّجْ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا. حَكَاهُ الْجَوْهَرِيُّ عَنْ
أَهْلِ اللُّغَةِ، يُقَالُ: رَجُلٌ أَيْمٌ وَامْرَأَةٌ أَيْمٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾...
الآية، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: رَغِبَهُمُ اللَّهُ
فِي التَّرْوِيجِ، وَأَمْرٌ بِهِ الْأَحْرَارُ وَالْعَبِيدُ، وَوَعَدَهُمْ عَلَيْهِ
الْغِنَى، فَقَالَ: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

وعن ابنِ مَسْعُودٍ: ائْتَمَسُوا الْغِنَى فِي النِّكَاحِ. يَقُولُ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ رَوَاهُ ابْنُ
جَرِيرٍ^(٤). وَذَكَرَ الْبَغَوِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ حَرْبٍ: وَعَنِ اللَّيْثِ

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجَلَانَ، عَنْ سَعِيدِ الْمُقْبَرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ حَقَّ عَلَى
اللَّهِ عَوْنُهُمْ: التَّائِكُحُ يُرِيدُ الْعَفَافَ، وَالْمُكَاتِبُ يُرِيدُ الْأَدَاءَ،
وَالْعَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ». رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ
وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٥). وَقَدْ زَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ الرَّجُلَ
الَّذِي لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِ إِلَّا إِزَارَهُ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى خَاتَمٍ مِنْ
حَدِيدٍ، وَمَعَ هَذَا فَرَّوَجَهُ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، وَجَعَلَ صَدَاقَهَا عَلَيْهِ
أَنْ يُعَلِّمَهَا مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ. وَالْمَعْمُودُ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ
يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلِيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ وَلَا
تُكْرَهُوا فَتَيْنَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْنِعُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَرْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ اللَّهُ نُورٌ أَسْمَوَاتٍ
وَالْأَرْضِ مِثْلَ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
نُورًا عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ
لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتِ الَّذِينَ تُرْفَعُ
وَيَذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ، فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾

وَلَطْفُهُ أَنْ يَرَزُقَهُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ لَهَا وَلَهُ.

[الأمر بالاستغفاف لمن لم يقدر على النكاح]

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ لَا يَجِدُ تَزْوِيجًا:
بِالتَّعْفُفِ عَنِ الْحَرَامِ كَمَا قَالَ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ
اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنُ
لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»...
الْحَدِيثِ^(٦). وَهَذِهِ الْآيَةُ مُطْلَقَةٌ، وَالتِّي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ
أَحْصَى مِنْهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا
أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأَنْ تَصْرِبُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾
[النساء: ٢٥] أَي: صَبْرُكُمْ عَنْ تَزْوِيجِ الْإِمَاءِ خَيْرٌ لَكُمْ، لِأَنَّ

(١) فتح الباري: ١٤/٩، ومسلم: ١٠١٩/٢ (٢) لم نثر على هذا اللفظ، وإنما رواه أبو داود والنسائي بلفظ قريب من هذا (٣) الطبري: ١٦٦/١٩ (٤) الطبري: ١٦٦/١٩ (٥) البغوي: ٣/٣٤٢ (٦) أحمد: ٢٥١/٢ وتحفة الأحوذى: ٢٩٦/٥ والنسائي: ٦١/٦ وابن ماجه: ٨٤١/٢ (٧) فتح الباري: ١٤/٩

كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أُمَّةٌ أَرْسَلَهَا تَرْبِيًا، وَجَعَلَ عَلَيْهَا ضَرِيَّةً يَأْخُذُهَا مِنْهَا كُلُّ وَفِيَتْ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ، وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ آيَةِ الْكُرْهَةِ، فِيمَا ذَكَرَهُ عَيْزٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سَلُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ لَهُ إِمَاءٌ، فَكَانَ يُكْرَهُنَّ عَلَى الْبِعَاءِ طَلَبًا لِخُرَاجِهِنَّ، وَرَغْبَةً فِي أَوْلَادِهِنَّ وَرِيَّاسَةً مِنْهُ - فِيمَا يَزَعُمُ - .

ذِكْرُ الْأَثَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْخَالِقِ الْبَزَّازُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: كَانَتْ جَارِيَّةً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سَلُولَ، يُقَالُ لَهَا: مُعَادَةٌ يُكْرَهُهَا عَلَى الرِّثَا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِينَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ...﴾ آيَةِ (٥). وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ فِي هَذِهِ آيَةِ. قَالَ: نَزَلَتْ فِي أُمَّةٍ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سَلُولَ يُقَالُ لَهَا: مُسْبِكَةٌ، كَانَ يُكْرَهُهَا عَلَى الْفُجُورِ، وَكَانَتْ لَا بَأْسَ بِهَا فَتَأْتِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ آيَةَ: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِينَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَنْ يُكْرَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦). وَرَوَى النَّسَائِيُّ نَحْوَهُ (٧).

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: بَلَغَنِي - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذِهِ آيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ كَانَا يُكْرَهُانِ أُمَّتَيْنِ لُهُمَا إِحْدَاهُمَا اسْمُهَا مُسْبِكَةٌ وَكَانَتْ [لِلْأَنْصَارِيِّ]، وَكَانَتْ أُمِّيَّةً أُمَّ مُسْبِكَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ: وَكَانَتْ مُعَادَةٌ وَأَزْوَى بَيْتِكَ الْمَنْزِلَةَ، فَأَثَتْ مُسْبِكَةَ وَأُمَّهَا النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِينَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ﴾ بِعْنِي الرِّثَا (٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ نَحْصُنَا﴾ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ فَلَا مَقْهُومَ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَتَّبِعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي: مِنْ خُرَاجِهِنَّ وَمُهَوَّرِهِنَّ وَأَوْلَادِهِنَّ، وَقَدْ نَهَى

الْوَالِدَ بِجِيءٍ رَفِيقًا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَسْتَ تَوَفِّى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يَرَى الْمَرْأَةَ فَكَأَنَّهُ يَشْتَهِي، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ فَلْيَدْهَبْ إِلَيْهَا وَلْيَفْضِ حَاجَتَهُ مِنْهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ امْرَأَةٌ فَلْيَنْظُرْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى يُعِينَهُ اللَّهُ.

[الْأَمْرُ بِمُكَاتِبَةِ الْعَبِيدِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكَلْبَ مِنْمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْسَادَةِ إِذَا طَلَبَ عِبْدَهُمْ مِنْهُمْ الْكِتَابَةَ أَنْ يُكَاتِبُوهُمْ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ حِيلَةٌ وَكَسْبٌ يُؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الْمَالِ الَّذِي شَارَطَهُ عَلَى آدَائِهِ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ رُوْحٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَوَاجِبٌ عَلَيَّ إِذَا عَلِمْتُ لَهُ مَالًا أَنْ أَكَاتِبَهُ، قَالَ: مَا أَرَاهُ إِلَّا وَاجِبًا. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ دِينَارٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَتَأْتُرُهُ عَنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: لَا، ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَنَّ مُوسَى بْنَ أَنَسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ سِيرِينَ سَأَلَ أَنَسَ الْمُكَاتِبَةَ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ فَأَبَى، فَاَنْطَلَقَ إِلَى عُمَرَ [بِنِ الْخَطَّابِ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: كَاتِبُهُ، فَأَبَى فَضَرَبَهُ بِاللِّدْرَةِ، وَيَتَلَوُّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فَكَاتِبَهُ. هَكَذَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيْقًا (١).

وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَوَاجِبٌ عَلَيَّ إِذَا عَلِمْتُ لَهُ مَالًا أَنْ أَكَاتِبَهُ؟ قَالَ: مَا أَرَاهُ إِلَّا وَاجِبًا (٢). وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ سِيرِينَ أَرَادَ أَنْ يُكَاتِبَهُ، فَتَلَكَّأَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَتُكَاتِبْتَهُ. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَانَةٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: صِدْقًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَالًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حِيلَةٌ وَكَسْبًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾. هُوَ النَّصِيبُ الَّذِي فَضَّضَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الرِّكَاءِ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَأَبِيهِ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ (٤). وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾ قَالَ: حَتَّى النَّاسِ عَلَيْهِ - مَوْلَاهُ وَغَيْرُهُ - وَكَذَا قَالَ بُرَيْدَةُ بْنُ الْمُصَنَّبِ الْأَسْلَمِيُّ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعِينُوا فِي الرِّقَابِ.

[الْتِهَانُ عَنْ إِجْرَاهِ الْإِمَاءِ عَلَى الرِّثَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِينَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ...﴾ آيَةِ،

(١) فتح الباري: ٢١٩/٥ (٢) عبد الرزاق: ٣٧١/٨ (٣)

الطبري: ١٦٧/١٩ (٤) الطبري: ١٧٣/١٩ والبغوي: ٣٤٣/٣

(٥) كشف الاستار: ٦١/٣ موضوع فيه محمد بن الحجاج أبو

عمرو اللخمي قال الهيثمي وهو كذاب [مجمع الزوائد ٨٣/٧] قال

الذهبي: قال أبو حاتم والدارقطني: كذاب [ديوان الضعفاء

والمترولين ٣٦٤٢ ميزان الاعتدال ٥٠٩/٣ المغني في الضعفاء

٥٦٥/٢] ومحمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح وأيضًا من

مرسلات الزهري. (٦) الطبري: ١٧٤/١٩ (٧) النسائي في

الكبرى: ٤١٩/٦ مسلم ٣٠٢٩/٢٦ (٨) الدر المنثور: ١٩٣/٦

(أَحَدُهُمَا): أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّ: مَثَلُ هَذَا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ - قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - (٩): كَمِشْكَاةٍ.

(وَالثَّانِي): أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ تَقْدِيرُهُ: مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ كَمِشْكَاةٍ، فَسَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ مِنْ الْهُدَى وَمَا يَنْلَقَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَطَابِقِ لِمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَتَيْنِ مِنَ رَبِّهِءَ وَتَوَلَّوهُمَا شَاهِدًا مِنْهُ﴾ [هود: ١٧] فَسَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ فِي صِفَاتِهِ فِي نَفْسِهِ بِالْقِنْدِيلِ مِنَ الرَّجَاحِ الشَّفَافِ الْجَوْهَرِيِّ، وَمَا يَسْتَهْدِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالشَّرْعِ بِالزُّبَيْتِ الْجَبَدِ الصَّافِي الْمُسْرِقِ الْمُعْتَدِلِ الَّذِي لَا كَدْرَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ، فَقَوْلُهُ: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: هُوَ مَوْضِعُ الْقِنْدِيلِ مِنَ الْقِنْدِيلِ (١٠). هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وَهُوَ الذُّبَابَةُ الَّتِي تُضِيءُ. وَقِيلَ: الْمِشْكَاةُ كُوَّةٌ فِي النَّبْتِ، وَهُوَ مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ فَسَمَّى اللَّهُ طَاعَتَهُ نُورًا ثُمَّ سَمَّاهَا أَنْوَاعًا سَمَّتِي، قَالَ أَبِي ابْنُ كَعْبٍ: الْمِصْبَاحُ النُّورُ - وَهُوَ الْقُرْآنُ - وَالْإِيمَانُ الَّذِي فِي صَدْرِهِ (١١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ السَّرَاحُ ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾

أَيُّ: هَذَا الضَّوُّ مُسْرِقٌ فِي زُجَاجَةٍ صَافِيَةٍ. وَقَالَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: وَهِيَ نَظِيرُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ (١٢). ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوَكَبٌ دَرِّيٌّ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِضَمِّ الدَّالِ مِنْ غَيْرِ هَمْزَةٍ مِنَ الدَّرِّ أَيُّ: كَأَنَّهَا كَوَكَبٌ مِنْ دُرٍّ. وَقَرَأَ آخَرُونَ: (دَرِّيٌّ) وَ(دَرِّيٌّ) يَكْسِرُ الدَّالَ وَضَمَّهَا مَعَ الْهَمْزَةِ مِنَ الدَّرِّ وَهُوَ الدَّفْعُ. وَذَلِكَ أَنَّ النَّجْمَ إِذَا رَمِيَ بِهِ يَكُونُ أَشَدَّ اسْتِنَارَةً مِنْ سَائِرِ الْأَحْوَالِ، وَالْعَرَبُ تَسْمِي مَا لَا يَعْرِفُ مِنَ الْكَوَاكِبِ: دَرَارِيٌّ. قَالَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ: كَوَكَبٌ مُضِيءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُضِيءٌ مَبِينٌ ضَخْمٌ ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾ أَيُّ: يُسْتَمَدُّ مِنْ زَيْتِ زَيْتُونٍ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴿زَيْتُونٌ﴾ بَدَلٌ أَوْ عَطْفٌ بَيَانٌ ﴿لَا شَرْفِيَّةٌ وَلَا غَرَبِيَّةٌ﴾ أَيُّ: لَيْسَتْ فِي شَرْقِيٍّ بَقَعَتِهَا فَلَا تَصِلُ إِلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ وَلَا فِي غَرَبِيَّتِهَا فَيَقْلُصُ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَسْبِ الْحَجَّامِ وَمَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلُوبِ الْكَاثِنِ (١). وَفِي رِوَايَةٍ: «مَهْرُ الْبَغِيِّ حَيْثُ، وَكَسْبُ الْحَجَّامِ حَيْثُ، وَتَمَنُّ الْكَلْبِ حَيْثُ» (٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ: لَهْنٌ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ جَابِرٍ (٣). وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنَّهُنَّ عَلَىٰ مَنْ أَكْرَهَنَّ (٤). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالْأَعْمَشُ وَقَتَادَةُ (٥).

وَلَمَّا فَضَّلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَّهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، فِيهِ آيَاتٌ وَاصِحَاتٌ مُفَسَّرَاتٌ ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أَيُّ: خَبَرًا عَنِ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ وَمَا حَلَّ بِهِمْ فِي مُخَالَفَتِهِمْ وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَحَمَلْنَهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أَيُّ: زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَأْتِمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ: لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَهُ.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوَكَبٌ دَرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونٌ لَا شَرْفِيَّةٌ وَلَا غَرَبِيَّةٌ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ، وَلَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ لِلَّذِينَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ ﴿٢٤﴾

[مَثَلُ نُورِ اللَّهِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَقُولُ: هَادِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (١). قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِيهِمَا نُجُومِهِمَا وَسَمْسِيهِمَا وَقَمَرِهِمَا (٢).

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَبُورِهِ أَضَاءَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ». أَلْحَدِيثُ (٣). وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نُورُ الْعَرْشِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فِي هَذَا الضَّمِيرِ قَوْلَانِ

(١) مسلم: ١١٩٨/٣ (٢) مسلم: ١١٩٩/٣ (٣) النسائي في الكبرى: ٤١٩/٦ (٤) الطبري: ١٧٥/١٩ (٥) الطبري: ١٩/١٧٥ (٦) الطبري: ١٧٧/١٩ (٧) الطبري: ١٧٧/١٩ (٨) فتح الباري: ٥/٣ ومسلم: ١/٥٣٢ (٩) الطبري: ١٧٩/١٩ (١٠) الطبري: ١٨٠/١٩ (١١) الطبري: ١٨١/١٩ (١٢) الطبري: ١٧٨/١٩

عَنْهَا الْفَيْءُ قَبْلَ الْغُرُوبِ بَلْ هِيَ فِي مَكَانٍ وَسَطٍ تَفْرَعُهُ الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ، فَيَجِيءُ زَيْتُهَا صَافِيًا مُعْتَدِلًا مُشْرِقًا.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿زَيْتُونَهُ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قَالَ: هِيَ شَجَرَةٌ بِالصَّخْرَاءِ لَا يُظْلَمُهَا شَجَرٌ وَلَا جَبَلٌ وَلَا كَهْفٌ وَلَا يُوَارِيهَا شَيْءٌ وَهُوَ أَجْوَدُ لَزَيْتِيهَا^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قَالَ: لَيْسَتْ بِشَرْقِيَّةٍ لَا تُصَيِّهَا الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ، وَلَا غَرْبِيَّةٍ لَا تُصَيِّهَا الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ، وَلَكِنَّهَا شَرْقِيَّةٌ وَغَرْبِيَّةٌ تُصَيِّهَا إِذَا طَلَعَتْ وَإِذَا غَرَبَتْ^(٢).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿زَيْتُونَهُ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ بِكَادَ زَيْتُهَا بَيْضٌ﴾ قَالَ: هُوَ أَجْوَدُ الزَّيْتِ، قَالَ: إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ أَصَابَتْهَا مِنْ صَوْبِ الْمَشْرِقِ، فَإِذَا أَخَذَتْ فِي الْغُرُوبِ أَصَابَتْهَا الشَّمْسُ، فَالْشَّمْسُ تُصَيِّهَا بِالْغَدَاةِ وَالْعِشِيِّ، فَيُكَلِّ لَا تُعَدُّ شَرْقِيَّةً وَلَا غَرْبِيَّةً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿بِكَادَ زَيْتُهَا بَيْضٌ وَلَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَعْنِي لِضَوْءِ إِشْرَاقِ الزَّيْتِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي بِذَلِكَ إِيْمَانَ الْعَبْدِ وَعَمَلَهُ^(٤). وَقَالَ الشُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قَالَ: نُورُ النَّارِ وَنُورُ الزَّيْتِ جِئْنَ اجْتَمَعَا أَضَاءً وَلَا بَيْضِيَّةً وَاحِدٌ بَغَيْرِ صَاحِبِهِ كَذَلِكَ نُورُ الْقُرْآنِ وَنُورُ الْإِيْمَانِ جِئْنَ اجْتَمَعَا، فَلَا يَكُونُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ: يُرْشِدُ اللَّهُ إِلَى هِدَايَتِهِ مَنْ يَخْتَارُهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ] ضَلَّ، فَيَذَلِكِ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى هَذَا مَثَلًا لِتُورِ هَذَا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ خَمَمَ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ: هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ.

﴿فِي بُيُوتٍ إِذْنٌ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

رِجَالٌ لَا لِيَهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كِسَابًا يَقْبِعُهُ يَحْسَبُ الظُّلْمَانَ مَاءً حَيًّا إِذَا جَاءَهُ، لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ، فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ. وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَطَلَمَتْ فِي بَحْرِ لَيْحِي يَعْشُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ. مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ. سَعَابٌ طَلَمَتْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ، لَمْ يَكْدِرْ بِهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَفَتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ، وَتَسْبِيحُهُ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ مَلِكٌ أَلْسِنَاتٍ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي سَعَابٍ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ. وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ، عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سُنْبُورُ قَبْرِهُ يَدَّهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾

يَأْتِدُونَ وَالْأَصَالُ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لِيَهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

[فَضَائِلُ الْمَسَاجِدِ وَأَدَابُهَا وَفَضَائِلُ الْمُتَعَاهِدِينَ لَهَا] لَمَّا صَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلِ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ: بِالْمُضْبَاحِ فِي الرُّجَاجَةِ الصَّافِيَةِ الْمُتَوَقِّدِ مِنْ زَيْتِ طَيِّبٍ، وَذَلِكَ كَالْقَيْدِيلِ، ذَكَرَ مَحَلَّهَا، وَهِيَ الْمَسَاجِدُ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَرْضِ، وَهِيَ بُيُوتُهُ الَّتِي يُعْبَدُ فِيهَا وَيُؤَخَذُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ إِذْنٌ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ أَيُّ: أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعَاهُذِهَا وَتَطْهِيرِهَا مِنْ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٦٠٠/٨ إسناده ضعيف فيه سماك بن حرب وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة كما مرَّ (٢) الطبري: ١٩/١٨٦ (٣) الطبري: ١٨٣/١٩ (٤) الطبري: ١٨٢/١٩ تقدم حكم العوفي مرَّات (٥) الدر المنثور: ٢٠٢/٦ (٦) أحمد: ٢/١٧٦

عَرِيبٌ^(١١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ الْكِنْدِيِّ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ فَطَرْتُ، فَإِذَا عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: أَهَبْ فَأَتَيْتَنِي بِهِذَيْنِ فَجِئْتُهُ بِهِمَا فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالَا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ. قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١٢). وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنِ إِبرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: سَمِعَ عُمَرَ صَوْتَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: أَنْتَ بِي أَيْنَ أَنْتَ؟ وَهَذَا أَيْضًا صَحِيحٌ^(١٣).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ عَنِ ابْنِ عَمَرَ: أَنَّ عَمَرَ كَانَ يَحْرَمُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّ جُمُعَةٍ. إِسْنَادُهُ حَسَنٌ لَا بَأْسَ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١٤). وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تَضَعُفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعَشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وَضُوءَهُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رَفَعُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ. فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَاةٍ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمَهُ. وَلَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ»^(١٥). وَفِي الشُّنَنِ: «بَشِّرِ الْمَسَائِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ، بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١٦). وَيُسْتَحَبُّ لِمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ أَنْ يَبْدَأَ بِرَجْلِهِ الْيُمْنَى، وَأَنْ يَقُولَ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ [عَمْرٍو] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَيُوجِّهُهُ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». قَالَ: فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ

الدَّنَسِ وَاللَّعْنُ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَلِيقُ فِيهَا. كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ قَالَ: نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ اللَّعْنِ فِيهَا^(١٧). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ وَالضَّحَّاكُ وَنَافِعُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي حَتْمَةَ وَسُفْيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُفَسِّرِينَ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَاحْتِرَامِهَا وَتَوْقِيرِهَا وَتَطْيِيبِهَا وَتَبْخِيرِهَا، وَذَلِكَ لَهُ مَحَلٌّ مُفْرَدٌ يُذَكَّرُ فِيهِ، وَقَدْ كَتَبْتُ فِي ذَلِكَ جُرْءًا عَلَى حِدَةٍ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَنَحْنُ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى نَذَكُرُ هَاهُنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ: فَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَتَّبِعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١٨).

وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُذَكَّرُ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»^(١٩). وَلِلنَّسَائِيِّ مِثْلُهُ^(٢٠). وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ وَأَنْ تُنْظَفَ وَتُطَيَّبَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشُّنَنِ إِلَّا النَّسَائِيَّ^(٢١). وَلَا أَحْمَدُ وَأَبِي دَاوُدَ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ نَحْوَهُ^(٢٢). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ عُمَرُ: ابْنُ لِلنَّاسِ مَا يَكُونُهُمْ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمَّرَ أَوْ تُصَفَّرَ فَتَفْتِنَ النَّاسَ^(٢٣).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: [لَتَرْخِفْنَهَا] كَمَا زُحِرَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى^(٢٤). وَعَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَّاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشُّنَنِ إِلَّا التِّرْمِذِيَّ^(٢٥). وَعَنْ بُرَيْدَةَ أَنَّ رَجُلًا أُنْسِدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا وَجَدْتُ، إِنَّمَا بُنِيَتْ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢٦).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَتَّاعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرَبَ إِلَّا اللَّهُ تَجَارَتِكَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَشْتَدُّ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا: لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ

(١) الطبري: ١٩١/١٩ (٢) فتح الباري: ١/٦٤٨ ومسلم: ١/٣٧٨ (٣) ابن ماجه: ١/٢٤٣ (٤) النسائي: ٣١/٢ (٥) أحمد: ٢٧٩/٦ وتحفة الأحوذى: ٣/٢٠٦ وابن ماجه: ١/٢٥٠ (٦) أحمد: ١٧/٥ وأبو داود: ١/٣١٥ (٧) فتح الباري: ١/٦٤٢ (٨) أبو داود: ١/٣١٠ (٩) أحمد: ٣/١٣٤ وأبو داود: ١/٣١١ والنسائي: ٢/٣٢ وابن ماجه: ١/٢٤٤ (١٠) مسلم: ١/٣٩٧ (١١) تحفة الأحوذى: ٤/٥٥٠ (١٢) فتح الباري: ١/٦٦٧ (١٣) تحفة الأشراف: ٤/٨ (١٤) مسند أبي يعلى: ١/١٧٠ (١٥) البخاري: ١/٦٤٧ ومسلم: ١/٦٤٩ (١٦) أبو داود: ٥٦١ والترمذي: ٢٢٣

مِنِّي سَائِرِ الْيَوْمِ»^(١).
 وَرَوَى مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ أَوْ أَبِي أُسَيْدٍ قَالَ:
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ:
 اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ
 إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»^(٢). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْهُمَا عَنْ
 النَّبِيِّ ﷺ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَسَلِّمْ عَلَى
 النَّبِيِّ ﷺ. وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا
 خَرَجَ فَلْيَسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَيَقُلْ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ
 الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٣). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ وَابْنُ حُزَيْمَةَ وَابْنُ
 حِبَّانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ أَي: إِسْمُ اللَّهِ. كَقَوْلِهِ:
 ﴿يَبْنِي مَادِمَ خُدُودِ زَيْنَتِكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]
 وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ
 لِلَّهِ... آيَاتِهِ [الجن: ١٨]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَكَّرَ فِيهَا
 أَسْمُهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُعْنِي فِيهَا يَتْلُو كِتَابَهُ^(٥). وَقَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿سَيَسْجُدُ لَكَ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أَي: فِي الْبُكْرَاتِ
 وَالْعِشْيَاتِ. ﴿وَالْآصَالِ﴾ جَمْعُ أَصِيلٍ وَهُوَ آخِرُ النَّهَارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رِجَالٌ لَا لِيَهُمْ بَعْدَ عَذَابٍ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ أَنفُسُهُمْ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ
 أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَكْبَرُ﴾... آيَاتِهِ [المنافقون: ٩]. وَقَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ
 فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾... آيَاتِهِ [الجمعة: ٩].
 يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَشْغَلُهُمُ الدُّنْيَا وَرُخْرُفُهَا وَزِينَتُهَا وَمَلَأَتْ
 بَيْعَهَا وَرَبِيعَهَا عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمُ الَّذِي هُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ،
 وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَنْفَعُ مِمَّا
 بَأْيَدِيهِمْ، لِأَنَّ مَا عِنْدَهُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ، وَلِهَذَا قَالَ
 تَعَالَى: ﴿لَا لِيَهُمْ بَعْدَ عَذَابٍ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَالِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
 الزَّكَاةِ﴾ أَي: يُقَدِّمُونَ طَاعَتَهُ وَمُرَادَهُ وَمَحَبَّتَهُ عَلَى مُرَادِهِمْ
 وَمَحَبَّتِهِمْ.

وَرَوَى سَالِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ
 كَانَ فِي السُّوقِ فَأَقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَأَعْلَقُوا حَوَائِثَهُمْ
 وَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: فِيهِمْ نَزَلَتْ: ﴿رِجَالٌ لَا
 لِيَهُمْ بَعْدَ عَذَابٍ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ
 جَرِيرٍ^(٦).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا لِيَهُمْ
 بَعْدَ عَذَابٍ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] يَقُولُ: عَنْ
 الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ^(٧). وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانَ وَالرَّبِيعُ بْنُ
 أَنَسٍ. وَقَالَ الشَّيْخُ: عَنِ الصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ. وَقَالَ مُقَاتِلُ
 ابْنُ حَبَّانَ: لَا لِيَهُمْ ذَلِكَ عَنْ حُضُورِ الصَّلَاةِ وَأَنَّ
 يُقِيمُوهَا كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَأَنَّ يُحَافِظُوا عَلَى مَوَاقِيتِهَا وَمَا
 اسْتَحْفَظْتَهُمُ اللَّهُ فِيهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ
 الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَتَقَلَّبُ فِيهِ
 الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ، أَي: مِنْ شِدَّةِ الْفَرَعِ وَعَظَمَةِ الْأَهْوَالِ،
 كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾... آيَاتِهِ [غافر: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾
 [إبراهيم: ٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكَّاتٍ
 وَبَيْبَاتٍ وَآسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا طَعَمَكُمُ لِيَوْمِهِ اللَّهُ لَا تَزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا
 شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا فَطِيرًا (١٠) وَفَوَيْتَهُمُ اللَّهُ سَرَّ
 ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَّهْمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)
 [الإنسان: ٨-١٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ
 مَا عَمِلُوا﴾ أَي: هُوَ لِأَنَّ مِنَ الَّذِينَ يَتَّقِلُ حَسَنَاتِهِمْ وَيَتَجَاوَزُ
 عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: يَقْبَلُ
 مِنْهُمْ الْحَسَنَ وَيُضَاعِفُهُ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
 يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾... آيَاتِهِ [النساء: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾... آيَاتِهِ
 [الأنعام: ١٦٠]، وَقَالَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا
 حَسَنًا﴾... آيَاتِهِ [البقرة: ٢٤٥]، وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ
 يَشَاءُ﴾ وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كُفْرًا يَجْعَلُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًا
 إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابًا وَاللَّهُ
 سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٣) أَوْ كَطَلَمْتِ فِي بَحْرِ لُبِّي بَعْسْتَهُ مَوْجٌ مِنْ
 قَوْعِهِ مَوْجٌ مِنْ قَوْعِهِ سَحَابٌ طَلَمْتِ بَعْضًا قَوْعٍ إِذَا أَرَجَ
 بَكَدُهُ لَمْ يَكْدِ يَرْبَهُ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (١٤)

[مَثَلَانِ لِنَوْعِي الْكُفَّارِ]

هَذَانِ مَثَلَانِ ضَرَبَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَوْعِي الْكُفَّارِ كَمَا

(١) كذا عزاه إلى البخاري وإنما هو عند أبي داود: ٣١٨/٢ (٢) مسلم: ٤٩٤/١ (٣) النسائي: ٥٣/٢ (٤) ابن ماجه: ٢٥٤/١ وابن حزيمة: ٢٣١/١ وابن حبان: ٢٤٧، ٢٤٦/٣ (٥) الطبري: ١٩١/١٩ (٦) ابن أبي حاتم: ٢٦٠٧/٨ [إسناده ضعيف فيه عمرو بن دينار البصري الأعمور ضعيف [تقريب] (٧) الطبري: ١٩٣/١٩

أَيَّنْ يَذْهَبُ، بَلْ كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِلْجَاهِلِ: أَيَّنْ تَذْهَبُ؟ قَالَ: مَعَهُمْ، قِيلَ: فَإِلَى أَيَّنْ يَذْهَبُونَ؟ قَالَ: لَا أَذْرِي.

وَقَالَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظَلَمْتُ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خُمُسَةِ مِنَ الظُّلْمِ فَكَلَامُهُ ظُلْمَةٌ، وَعَمَلُهُ ظُلْمَةٌ، وَمَدْحَلُهُ ظُلْمَةٌ، وَمَحْرَجُهُ ظُلْمَةٌ، وَمَصِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الظُّلْمَاتِ إِلَى النَّارِ^(١). وَقَالَ الشُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ نَحْوَ ذَلِكَ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] أَي: مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَهُوَ هَالِكٌ جَاهِلٌ، حَائِلٌ، بَائِسٌ، كَافِرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَمْ يَكُنْ فِي مُقَابَلَةِ مَا قَالَ فِي مَثَلِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَنْ يَجْعَلَ فِي قُلُوبِنَا نُورًا، وَعَنْ أَيْمَانِنَا نُورًا، وَعَنْ شِمَائِلِنَا نُورًا، وَأَنْ يُعْظِمَ لَنَا نُورًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخِرُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظُّلُمِ صَدَقَتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُمْ وَسَبِّحُهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) **وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** (٤٢)

[كُلُّ يُسْخِرُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَهُ الْمُلْكُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسْخِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَي: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْجِنِّ وَالْحَيَوَانَ حَتَّى الْجَمَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُسْخِرُ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾... الآية، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالظُّلُمِ صَدَقَتْ﴾ أَي: فِي حَالِ طَيْرَانِهَا تُسَبِّحُ رَبَّهَا وَتَعْبُدُهُ بِتَسْبِيحِ أَلْهَمَهَا وَأَرْشَدَهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا هِيَ فَاعِلَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُمْ وَسَبِّحُهُمُ﴾ أَي: كُلُّ قَدِّ أَرْشَدَهُ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَمَسَلِكِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الْإِلَهَ الْمُعْبُودَ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُحْكَمُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمَلُوا﴾... الآية [النجم: ٣١]. فَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ.

ضَرَبَ لِلْمُتَأَفِّقِينَ فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ مَثَلَيْنِ: نَارِيًا وَمَائِيًا، وَكَمَا ضَرَبَ لِمَا يَقْرُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ مَثَلَيْنِ: مَائِيًا وَنَارِيًا، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعِهِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنَ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ، فَهُوَ لِلْكَفَّارِ الدُّعَاةِ إِلَى كُفْرِهِمُ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ، وَلَيْسُوا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى شَيْءٍ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى فِي الْقِيَعَانِ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ كَانَهُ بَحْرًا طَامًا، وَالْقَيْعَةُ: جَمْعُ قَاعٍ كَجَارٍ وَجِرَّةٍ، وَالْقَاعُ أَيْضًا وَاحِدُ الْقِيَعَانِ، كَمَا يُقَالُ: جَارٌ وَجِرَانٌ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْمُتَسَيِّعَةُ الْمُتَبَسِّطَةُ وَفِيهِ يَكُونُ السَّرَابُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ نِصْفِ النَّهَارِ، وَأَمَّا الْآلُ فَإِنَّمَا يَكُونُ أَوَّلَ النَّهَارِ يُرَى كَأَنَّهُ مَاءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا رَأَى السَّرَابَ مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَاءِ يَحْسَبُهُ مَاءً، فَصَدَهُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ شَيْئًا، فَإِذَا وَافَى اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحَاسِبُهُ عَلَيْهَا، وَتَوَقَّشَ عَلَى أَفْعَالِهِ، لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا بِالْكَلْبِيَّةِ قَدْ قُبِلَ، إِذَا لَعَدِمَ الْإِخْلَاصَ أَوْ لَعَدِمَ سُلُوكَ الشَّرْعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ^(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ عَزْرِيًّا ابْنَ اللَّهِ. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ، مَاذَا تَبْعُونَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ عَطِشْنَا فَاسْقِنَا، فَيُقَالُ: أَلَا تَرَوْنَ؟ فَتَمَثَّلَ لَهُمُ النَّارُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحِطُّ بِبَعْضِهَا بَعْضًا، فَيَطْلِقُونَ فَيَتَهافتُونَ فِيهَا^(٢). وَهَذَا الْمَثَلُ مِثَالٌ لِذَوِي الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ، فَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَهْلِ الْبَسِيطِ وَهُمْ الطَّمَّاطِمُ الْأَعْتَامُ الْمُقَلَّدُونَ لِأَيْمَةِ الْكُفْرِ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَفْعَلُونَ، فَمَثَلُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَطَلْمَتٍ فِي بَحْرِ لَيْجٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ﴿لَيْجٍ﴾ هُوَ الْعَمِيقُ ﴿يَعْتَشُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَابُّ ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ بِرَبِّهَا﴾ أَي: لَمْ يُقَارِبْ رُؤْيَتَهَا مِنْ شِدَّةِ الظُّلَامِ، فَهَذَا مِثْلُ قَلْبِ الْكَافِرِ الْجَاهِلِ الْبَسِيطِ، الْمُقَلَّدِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ حَالَ مَنْ يَقُودُهُ، وَلَا يَدْرِي

(١) الطبري: ١٩٦/١٩ (٢) فتح الباري: ٤٣١/١٣ ومسلم:

١٦٨/١ (٣) الطبري: ١٩٨/١٩

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾﴾

الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾

[التَّنبِيهُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ بِخَلْقِ السَّحَابِ وَمَا يَتَّبِعُهُ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَوِّقُ السَّحَابَ بِقُدْرَتِهِ أَوَّلَ مَا يُنْشِئُهَا وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، وَهُوَ الْإِزْجَاءُ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أَي: يَجْمَعُهُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أَي: مُتْرَاكِمًا، أَي: يَرْكُبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ﴾ أَي: الْمَطَرُ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أَي: (مِنْ خِلَالِهِ). وَكَذَا قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ (١).

قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عَمِيرٍ اللَّيْثِيُّ: يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُثِيرَةَ فَتَنْمُ الْأَرْضَ فَمَا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ النَّاشِئَةَ فَتَنْشِئُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُؤَلِّفَةَ فَتَوَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ اللَّوْفَاجِحَ فَتُلْفِحُ السَّحَابَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿يُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ قَالَ بَعْضُ النُّحَاةِ ﴿مِنْ﴾ الْأُولَى لِابْتِدَاءِ الْعَايَةِ، وَالثَّانِيَةِ لِلتَّبَعِضِ، وَالثَّلَاثَةِ لِيَبَانَ الْجَنَسِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلٍ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ مَعْنَاهُ: أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالَ بَرَدٍ يُنزِلُ اللَّهُ مِنْهَا الْبَرَدَ. وَأَمَا مَنْ جَعَلَ الْجِبَالَ هَهُنَا كِتَابَةً عَنِ السَّحَابِ، فَإِنَّ ﴿مِنْ﴾ الثَّانِيَةَ عِنْدَ هَذَا لِابْتِدَاءِ الْعَايَةِ أَيْضًا، لِكِتَابَتِهَا بَدَلًا مِنَ الْأُولَى، وَاللَّهُ

أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أَي: بِمَا يُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَوْعِي الْمَطَرِ وَالْبَرَدِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ رَحْمَةً لَهُمْ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي: يُؤَخِّرُ عَنْهُمْ الْعَيْتَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أَي: بِالْبَرَدِ نِقْمَةً عَلَى مَنْ يَشَاءُ لِمَا فِيهِ مِنْ تَثَرُّ

يُثَارِهِمْ وَإِتْلَافٍ زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ رَحْمَةً بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَرِ﴾ أَي: يَكَادُ صَوْءُ بَرْقِهِ مِنْ شِدَّتِهِ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ إِذَا اتَّبَعَتْهُ وَتَرَاءَتْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَي: يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا فَيَأْخُذُ مِنْ طَوْلٍ هَذَا فِي قِصَرٍ هَذَا حَتَّى يَعْتَدِلَا، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا، وَاللَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥٦

سُورَةُ النُّورِ

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ

ءِ أُمَّتًا بِاللَّهِ وَيَأْتِي الرُّسُولَ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ

ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْتُكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ

يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ رَأَوْا آيَاتِنَا أَنْ

يُحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أَوْلَيْتُكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

أَنْ يَقُولُوا أَسْمِعْنَا وَأَطِعْنَا وَأَوْلَيْتُكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ

يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ

لَا تَقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

وَعَلِمِهِ ﴿٥٣﴾ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾ أَي: لَدَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

[قُدْرَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِ الدَّوَابِّ]

يَذْكُرُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ الثَّامَةَ وَسُلْطَانَهُ الْعَظِيمَ فِي خَلْقِهِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كَالْحَيَّةِ وَمَا سَاكِلُهَا، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كَالْأَنْعَامِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ،

تَعَالَى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾... الآية، يُعْنِي لَا يَخْرُجُ أَمْرُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُلُوبِ مَرَضٌ لَازِمٌ لَهَا أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهَا شَكٌّ فِي الدِّينِ، أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَجُورَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحُكْمِ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كُفْرٌ مَخْصُصٌ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مِنْهُمْ وَمَا هُوَ مُنْظِرٌ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَي: بَلْ هُمْ الظَّالِمُونَ الفَاجِرُونَ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ مُبْرَأَانِ مِمَّا يَنْظُنُونَ وَيَتَوَهَّمُونَ مِنَ الْحَيْفِ وَالْجَوْرِ، تَعَالَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الَّذِينَ لَا يَسْتَعِينُونَ دِينًا سِوَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أَي: سَمِعْنَا وَطَاعَةً. وَلِهَذَا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِالْفَلَاحِ، وَهُوَ نَبْلُ الْمَطْلُوبِ وَالسَّلَامَةُ مِنَ الْمُرْهُوبِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عِبَادَةَ بَنِ الصَّامِتِ، وَكَانَ عَقِيْبًا بَدْرِيًّا أَحَدَ ثَقَبَاءِ الْأَنْصَارِ، أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِابْنِ أَخِيهِ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمِيَّةٍ: أَلَا أَنْبُؤُكَ بِمَاذَا عَلَيْكَ وَمَاذَا لَكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشِطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةَ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُقِيمَ لِسَانَكَ بِالْعَدْلِ، وَأَنْ لَا تُتَنَاعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَكَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ بِوَأْحَا، فَمَا أُمِرْتَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ يُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ، فَاتَّبِعْ كِتَابَ اللَّهِ^(١).

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ قَالَ: لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا فِي جَمَاعَةٍ، وَالنَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْخَلِيفَةِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَامَةً، قَالَ: وَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ: عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَالطَّاعَةُ لِمَنْ وُلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٢). وَالْأَحَادِيثُ وَالْأَثَارُ فِي وُجُوبِ الطَّاعَةِ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَلِلْخَلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَيْمَةِ إِذَا أَمَرُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ فِي هَذَا الْمَكَانِ.

(١) ابن أبي حاتم: ٢٦٢٣/٨ إسناد ضعيف قتادة بدلس ويرسل ولم يذكر الوساطة بينه وبين عبادة بن الصامت. (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦٢٣/٨، ٢٦٢٤.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أَي: بِقُدْرَتِهِ، لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤٦)

يُقَرَّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْحِكْمِ وَالْأَمْثَالِ اللَّبِيْنَةَ الْمُحْكَمَةَ كَثِيرًا جَدًّا، وَأَنَّهُ يُرْشِدُ إِلَى تَفْهَمِهَا وَتَعَمُّلِهَا أُولَى الْأَلْبَابِ وَالْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَكَّفُونَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ^(٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ^(٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ^(٥٢)

[حِيلُ الْمُنَافِقِينَ وَحَالُ الْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ، يَقُولُونَ قَوْلًا بِاللَّسْتِيْمَةِ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَكَّفُونَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أَي: يُخَالِفُونَ أَقْوَالَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾... الآية. أَي: إِذَا طُلبُوا إِلَى اتِّبَاعِ الْهُدَى فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ﴾ أَي: وَإِذَا كَانَتْ الْحُكُومَةُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ جَاؤُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مُذْعِبِينَ﴾ وَإِذَا كَانَتْ الْحُكُومَةُ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَدَعَا إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَأَحَبَّ أَنْ يَتَّحَاكَمَ إِلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِيُرَوجَ بِاطِلَّةِ تَمِّ، فَإِذْعَانُهُ أَوْلَا لَمْ يَكُنْ عَيْنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ، بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِقَهْوَاهُ، وَلِهَذَا لَمَّا خَالَفَ الْحَقُّ قَصْدَهُ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٣﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن نَّارٍ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَذِينَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٥﴾

الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٢﴾

[وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِخْلَافِ]

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ، أَي: أَيْمَةَ النَّاسِ وَالْوَلَاةَ عَلَيْهِمْ، وَبِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ، وَتَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادَةُ. وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ، وَقَدْ فَعَلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَمُتْ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَخَبَرَ وَالْبَحْرَيْنِ وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَرْضَ الْيَمَنِ بِكَمَالِهَا، وَأَخَذَ الْجَزِيَّةَ مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ، وَمِنْ بَعْضِ أَطْرَافِ الشَّامِ، وَهَادَاهُ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ وَصَاحِبُ بَصْرَةَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَهُوَ الْمَقْرُوسُ، وَمُلُوكُ عَمَانَ وَالنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ الَّذِي تَمَلَّكَ بَعْدَ أَضْحَمَةَ رَجَمَهُ اللَّهُ وَأَكْرَمَهُ. ثُمَّ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنْ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَي: فِيمَا أَمَرَاهُ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ، ﴿وَيَحْسَبَنَّ اللَّهُ﴾ فِيمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ ﴿وَيَسْتَقْبِلُ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ قَارَؤُوا بِكُلِّ خَيْرٍ وَأَمِنُوا مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لَيْزِنَ أَمْرَهُمْ بِالْخُرُوجِ فِي الْعَزْوِ لِيُخْرِجَنَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا تَقْسِمُوا﴾ أَي: لَا تَحْلِفُوا. وَقَوْلُهُ ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ طَاعَتُكُمْ طَاعَةً مَّعْرُوفَةً، أَي: قَدْ عَلِمَ طَاعَتُكُمْ أَنَّمَا هِيَ قَوْلٌ لَا فِعْلَ مَعَهُ، وَكَلَّمَا حَلَفْتُمْ كَذَبْتُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِ عَنَتِهِمْ﴾... الْآيَةُ [النُّبُوَّةُ: ٩٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾... الْآيَةُ [الْمَجَادَلَةُ: ١٦]، فَهُمُ مِنْ سَجِيَّتِهِمُ الْكُذْبِ حَتَّى فِيمَا يَخْتَارُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَتِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنْدِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَعْدَاءَ أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لِيِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أَي: اتَّبِعُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلْتُمْ وَمَا عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أَي: تَوَلَّوْا عَنْهُ وَتَتْرَكُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أَي: إِبْلَاغُ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أَي: بِقَبُولِ ذَلِكَ وَتَعْطِيهِهِ وَالْقِيَامَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ [الشورى: ٥٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
 اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى
 لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا... الآية، قَالَ: كَانَ
 النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِّنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى
 اللَّهِ وَحَدِّهِ وَإِلَى عِبَادَتِهِ وَحَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ سِرًّا، وَهُمْ
 خَائِفُونَ لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ حَتَّى أَمُرُوا بِعَدْوٍ بِالْهَجْرَةِ إِلَى
 الْمَدِينَةِ، فَقَدِمُوهَا فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ، فَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ
 يُمَسُونَ فِي السَّلَاحِ وَيُضَبِّحُونَ فِي السَّلَاحِ، فَغَبِرُوا بِذَلِكَ
 مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِّنَ الصَّحَابَةِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
 أَبَدَ الدَّهْرَ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا؟ أَمَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ

وَنَضَعُ عَنَّا السَّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ تَصْبِرُوا إِلَّا
 بَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِثْلَكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا
 لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ (٢). فَأَظْهَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ
 عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السَّلَاحَ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى قَبِضَ نَبِيَّهُ ﷺ، فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِينَ فِي إِمَارَةِ أَبِي
 بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فِيهَا وَقَعُوا فِيهِ، فَأَدْخَلَ
 عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ فَاتَّخَذُوا الْحِجْرَةَ وَالشَّرْطَ وَعَبَّرُوا فَغَبِرَ
 بِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا حَقٌّ فِي كِتَابِ اللَّهِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ.

وَقَالَ الْبِرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَنَحْنُ فِي
 خَوْفٍ شَدِيدٍ (٣). وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ
 ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأفصاح: ٢٦]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا
 اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ
 السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
 وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [الأعراف: ١٢٩]، وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَرُبُّدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا فِي
 الْأَرْضِ﴾... الآية [القصص: ٦٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى
 لَهُمْ﴾... الآية، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِإِعْدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ
 جِينٍ وَفَدَّ عَلَيْهِ: «أَتَعْرِفُ الْحِجْرَةَ؟» قَالَ: لَمْ أَعْرِفْهَا، وَلَكِنْ
 قَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَيُبَيِّنَنَّ اللَّهُ هَذَا

الْكَرَامَةَ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ خَلِيفَتُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، فَلَمْ
 شَعَتْ مَا وَهَى بَعْدَ مَوْتِهِ ﷺ، وَأَطْلَدَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ
 وَمَهَّدَهَا، وَبَعَثَ الْجَبُوشَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَى بِلَادِ فَارِسَ صُحْبَةَ
 خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَفَتَحُوا طَرَفًا مِنْهَا، وَقَتَلُوا
 خَلْقًا مِنْ أَهْلِهَا. وَجَبْنَا آخَرَ صُحْبَةَ أَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْأَمْرَاءِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، وَثَالِثًا صُحْبَةَ
 عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ، فَفَتَحَ اللَّهُ
 لِلْجَيْشِ الشَّامِيِّ فِي أَيَّامِهِ بُصْرَى وَدِمَشْقَ وَمَخَالِيقَهُمَا مِنْ
 بِلَادِ حُورَانَ وَمَا وَالَاهَا، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاخْتَارَ لَهُ مَا
 عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ.

وَمَنْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِأَنَّ أَلْهَمَ الصِّدِّيقُ أَنْ يَسْتَخْلِفَ
 عَمْرَ الْفَارُوقِ، فَقَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ قِيَامًا تَامًا، لَمْ يَدْرِ الْفُلْكَ
 بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مِثْلِهِ فِي قُوَّةِ سِيرَتِهِ وَكَمَالِ عَدْلِهِ. وَتَمَّ فِي
 أَيَّامِهِ فَتْحُ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ بِكَمَالِهَا وَدَبَّارِ مِصْرَ إِلَى آخِرِهَا،
 وَأَكْثَرَ إِقْلِيمِ فَارِسَ. وَكَسَرَ كِسْرَى وَأَهَانَهُ غَايَةَ الْهَوَانِ
 وَتَقَهَّرَ إِلَى أَقْصَى مَمْلَكَتِهِ، وَقَصَرَ قَيْصَرَ، وَانْتَزَعَ يَدَهُ عَنِ
 بِلَادِ الشَّامِ، وَانْحَدَرَ إِلَى الْفُسْطَاطِيَّةِ، وَأَنْفَقَ أَمْوَالَهُمَا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أُخْبِرَ بِذَلِكَ وَعَدَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، عَلَيْهِ مِنْ
 رَبِّهِ أَمُّ سَلَامٍ وَأَرْكَى صَلَاقًا.

ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ امْتَدَّتْ الْمَمَالِكُ
 الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَى أَقْصَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَفُتِحَتْ
 بِلَادُ الْمَغْرِبِ إِلَى أَقْصَى مَا هُنَالِكَ الْأَنْدَلُسُ وَقَيْصَرَ، وَمِنْ
 وَبِلَادِ الْفَيْرَوَانَ، وَبِلَادِ سَبْتَةَ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ الْمُحِيطَ، وَمِنْ
 نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ إِلَى أَقْصَى بِلَادِ الصِّينِ، وَقَتِلَ كِسْرَى وَبَادَ
 مُلْكُهُ بِالْكَلْبَةِ، وَفُتِحَتْ مَدَائِنُ الْعِرَاقِ، وَحُرَّاسَانَ،
 وَالْأَهْوَاذَ. وَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ التُّرْكِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جِدًّا،
 وَخَذَلَ اللَّهُ مَلِكَهُمُ الْأَعْظَمَ خَاقَانَ، وَجَبِيَ الْخَرَاجَ مِنْ
 الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِلَى حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ
 عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ بِبِرْكَةِ تِلَاوَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ وَجَمْعِهِ
 الْأُمَّةَ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَزَأَيْتُ
 مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَلُّعُ مَلِكِ أُمَّتِي مَا زَوَى لِي
 مِنْهَا» (١). فَهَا نَحْنُ نَتَقَلَّبُ فِيهَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَّقَ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَسَأَلَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِهِ وَرَسُولِهِ، وَالْقِيَامَ
 بِشُكْرِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ

(١) مسلم: ٢٢١٥/٤ (٢) الطبري: ٢٠٩/١٩ (٣) الدر

المشور: ٢١٥/٦

وإذا بلغ الأطفال منكم الحام فما يستندوا كما استندنا
الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله
عليهم حكيم ﴿٥٩﴾ والقواعد من النساء التي لا يرجون
نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن
غير متبرجات بزينة وأن يستعفين خير لهن والله
سميعٌ عليم ﴿٦٠﴾ ليس على الأعشى حرج ولا على الأعرج
حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا
من ثيوبكم أو ثيابكم أو بيوتكم أو بيوتكم
أو بيوت إخوتكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت
أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم
أو بيوت خالاتكم أو ما ملكت أيمانكم
أوصديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا
جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا
على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة
كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿٦١﴾

«حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون» (٧). وكل هذا
الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرحَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ لا تحسن الدين كفروا معجزات في الأرض وماؤنهم
النار وليتص المصير ﴿٥٧﴾

[الأمر بالصلاة والزكاة والطاعة، وبيان عجز الكفار
ومصيرهم]

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وهي
عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي
الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا
في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أي: سالكين وراهه فيما
به أمرهم، و[تاركين] ما عنه رجزهم، لعل الله يرحمهم
بذلك، ولا شك أن من فعل هذا، أن الله سيرحمهم، كما

(١) أحمد: ٢٥٧/٤ (٢) أحمد: ٢٤٢/٥ (٣) فتح الباري: ٤١٢/١٠
ومسلم: ٥٨/١ (٤) مسلم: ١٣٧/١ (٥) مسلم: ١٥٢٣/٣
أحمد: ٤٣٧/٤ (٦) فتح الباري: ٣٠٦/١٣

الأمر حتى تخرج الطيبة من الحيرة حتى تطوف بالبيت
في غير جوار أحد، ولتستن كنوز كسرى بن هرمز قلت:
كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليبدلن
المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه
الطيبة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار
أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز،
والذي نفسي بيده لتكون الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد
قالها (١).

وقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ روى
الإمام أحمد عن أنس: أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا
أنا زيف النبي ﷺ على جمار ليس بيني وبينه إلا آخرة
الرجل، قال: «يا معاذ». قلت: لبيك يا رسول الله
وسعدنيك، قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن
جبل». قلت: لبيك يا رسول الله وسعدنيك، ثم سار
ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل». قلت: لبيك يا رسول
الله وسعدنيك. قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟»
قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «[فإن] حق الله على العباد
أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً». قال: ثم سار ساعة، ثم
قال: «يا معاذ بن جبل». قلت: لبيك يا رسول الله
وسعدنيك. قال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا
فعلوا ذلك؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «[فإن]
حق العباد على الله أن لا يعذبهم» (٢). أخرجه في
الصحيحين (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ﴾ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج
عن أمر ربي، وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابه رضي الله
عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز
وجل وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله
في المشارق والمغرب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا
في سائر العباد والبلاد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض
الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في
الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا
ترأل طائفة من أممي ظاهرين على الحق، لا يضرمهم من
خذلهم، ولا من خالفهم إلى يوم القيامة» (٤) - وفي
رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم [كذلك]» (٥) - وفي
رواية: - «حتى يقاتلوا الدجال» (٦) - وفي رواية: -

كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُحْكَمَةً وَلَمْ تُنْسَخْ بِشَيْءٍ وَكَانَ عَمَلُ النَّاسِ بِهَا قَلِيلًا جِدًّا، أَنْكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا أَكْثَرَ النَّاسِ: آيَةُ الْإِذْنِ، وَإِنِّي لَأَمُرُّ جَارِيَتِي هَذِهِ تَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَأْمُرُ بِهِ^(١). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ: سَأَلْتُ الشَّعْبِيَّ: ﴿لَيْسَتْ لَكُمْ الْمَلَائِكَةُ أَيْمَانُكُمْ؟﴾ قَالَ: لَمْ تُنْسَخْ. قُلْتُ: فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَعْمَلُونَ بِهَا. فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ^(٢).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بِعَنِي إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ إِنَّمَا كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ، إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا عَلَى كُلِّ حَالٍ، بِعَنِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَجَانِبِهِمْ وَإِلَى الْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُ الرَّجُلُ عَلَى أَمْرٍ أَوْ بَعْضٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثِ.

[لَا جُنَاحَ عَلَى الْعَجَائِزِ إِنْ لَمْ يَحْتَجِبْنَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيبٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: هُنَّ اللَّوَاتِي انْقَطَعَ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ وَيَسْنَنَ مِنَ الْوَلَدِ ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أَيْ: لَمْ يَبْقَ لَهُنَّ تَشَوُّفٌ إِلَى التَّرْوِجِ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِرِبَاشٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ عَلَيْهَا مِنَ الْحَجْرِ فِي التَّسْتَرِّ كَمَا عَلَى غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ^(٣).

رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾... الْآيَةُ، فَنَسَخَ وَاسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ ﴿وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾... الْآيَةُ^(٤).

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قَالَ: الْجَلْبَابُ أَوْ الرِّدَاءُ^(٥). وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنَ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي الشَّعْبَانِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالزُّهْرِيَّ وَالْأَوْزَاعِيَّ وَغَيْرِهِمْ^(٦).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي الْآيَةِ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِرِبَاشٍ﴾ يَقُولُ: لَا يَتَبَرَّجْنَ بِوَضْعِ الْجَلْبَابِ لِئَلَّا يَرَى مَا عَلَيْهِنَّ مِنَ الزِّيْنَةِ.

قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَوَلَيْكَ سِرْمَهُمُ اللَّهُ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أَيْ: لَا تَنْظُنْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ: خَالَفُوا وَكَذَّبُوا ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ، بَلِ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ وَسَيُعَذِّبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَوْهَبُ﴾ أَيْ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿الْتَّارَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ: بِسُنِّ الْمَالِ مَالِ الْكَافِرِينَ، وَيَسُنُّ الْفَرَارَ وَيَسُنُّ الْجِهَادَ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُوا الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظُّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِرِبَاشٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

[أَوْقَاتُ اسْتِئْذَانِ الْمَمْلُوكِينَ وَالصَّغَارِ]

هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ اسْتَمَلَتْ عَلَى اسْتِئْذَانِ الْأَقْرَابِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فَهُوَ اسْتِئْذَانُ الْأَجَانِبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُمْ خَدَمُهُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَطْفَالُهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: الْأَوَّلُ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْعِدَاةِ، لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا ذَاكَ يَكُونُونَ نِيَامًا فِي فُرُشِهِمْ ﴿وَبَيْنَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظُّهْرِ﴾ أَيْ: فِي وَقْتِ الْقِيْلُولَةِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَضَعُ ثِيَابَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ مَعَ أَهْلِهِ ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لِأَنَّهُ وَقْتُ النَّوْمِ، فَيُؤَمَّرُ الْخَدَمُ وَالْأَطْفَالُ أَنْ لَا يَهْجُمُوا عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ لِمَا يُخْشَى مِنْ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أَيْ: إِذَا دَخَلُوا فِي حَالِ غَيْرِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي تَمَكِّيْنِكُمْ إِيَّاهُمْ [مِنْ ذَلِكَ] وَلَا عَلَيْهِمْ إِنْ رَأَوْا شَيْئًا فِي غَيْرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ. لِأَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهَجُومِ، وَلِأَنَّهُمْ طَوَّفُونَ عَلَيْكُمْ أَيْ: فِي الْخِدْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَيُعْتَمَرُ فِي الطَّوَائِفِ مَا لَا يُعْتَمَرُ فِي غَيْرِهِمْ. وَلَمَّا

(١) أبو داود: ٣٧٧/٥ (٢) الطبري: ٢١٣/١٩ (٣) الدر

المثور: ٢٢٢/٦ والطبري: ٢١٦/١٩ (٤) أبو داود: ٣٦١/٤

(٥) الطبري: ٢١٧/١٩ (٦) الطبري: ٢١٨، ٢١٧/١٩

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أَي: وَتَرَكَ وَضَعِهِنَّ لِثِيَابِهِنَّ - وَإِنْ كَانَ جَائِزًا - خَيْرٌ وَأَفْضَلُ لَهُنَّ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

[الأكل من بيوت الأقرباء]

الْمُرَادُ هَا هُنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ الْأَعْمَى لِأَنَّهُ لَا يَرَى الطَّعَامَ وَمَا فِيهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، فَرُبَّمَا سَبَقَهُ غَيْرُهُ إِلَى ذَلِكَ. وَلَا مَعَ الْأَعْرَجِ، لِأَنَّهُ لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْجُلُوسِ فَيَقْتَاتُ عَلَيْهِ جَلِيسُهُ. وَالْمَرِيضُ لَا يَسْتَوْفِي مِنَ الطَّعَامِ كَثِيرَهُ. فَكَرِهُوا أَنْ يُؤَاكِلُوهُمْ لِئَلَّا يَظْلِمُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، رُخْصَةً فِي ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُقَسِّمٍ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أَي: بُيُوتِ أَصْدِقَائِكُمْ وَأَصْحَابِكُمْ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي الْأَكْلِ مِنْهَا إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ وَلَا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَذَلِكَ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قَالَ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَانَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَالطَّعَامُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِمَّا أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ، فَكَتَّفَ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وَكَانُوا أَيْضًا يَأْتِفُونَ وَيَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ الطَّعَامَ وَحْدَهُ حَتَّى يَكُونَ مَعَهُ غَيْرُهُ، فَرُخِّصَ اللَّهُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يَرَى أَحَدَهُمْ أَنْ مَخْرَآةً عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ وَحْدَهُ - فِي الْجَاهِلِيَّةِ - حَتَّى إِذَا كَانَ الرَّجُلُ لَيَسُوقُ الدَّوْدَ الْحَقْلَ وَهُوَ جَائِعٌ حَتَّى يَجِدَ مَنْ يُؤَاكِلُهُ وَيُسَارِبُهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

[الأكل من بيوت الأقرباء]

الْمُرَادُ هَا هُنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ الْأَعْمَى لِأَنَّهُ لَا يَرَى الطَّعَامَ وَمَا فِيهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، فَرُبَّمَا سَبَقَهُ غَيْرُهُ إِلَى ذَلِكَ. وَلَا مَعَ الْأَعْرَجِ، لِأَنَّهُ لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْجُلُوسِ فَيَقْتَاتُ عَلَيْهِ جَلِيسُهُ. وَالْمَرِيضُ لَا يَسْتَوْفِي مِنَ الطَّعَامِ كَثِيرَهُ. فَكَرِهُوا أَنْ يُؤَاكِلُوهُمْ لِئَلَّا يَظْلِمُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، رُخْصَةً فِي ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُقَسِّمٍ^(١).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: كَانُوا قَبْلَ الْبِعْثَةِ يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ هَؤُلَاءِ تَقَدَّرًا وَتَعَزُّزًا، وَلِئَلَّا يَتَفَضَّلُوا عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(٢). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾... الْآيَةَ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِالْأَعْمَى أَوْ بِالْأَعْرَجِ أَوْ بِالْمَرِيضِ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ أُخِيهِ أَوْ بَيْتِ أُخْتِهِ أَوْ بَيْتِ عَمَّتِهِ أَوْ بَيْتِ خَالَتِهِ، فَكَانَ الزَّمَنِي يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَلِكَ يَقُولُونَ: إِنَّمَا يَذْهَبُونَ بِنَا إِلَى بُيُوتِ غَيْرِهِمْ، فَتَرَكْتَ هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً لَهُمْ^(٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ بَيْتَ أَبِيهِ أَوْ أُخِيهِ أَوْ ابْنِهِ، فَتَسْتَحِفُّ الْمَرْأَةُ بَشِيءًا مِنَ الطَّعَامِ، فَلَا يَأْكُلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ رَبَّ الْبَيْتِ لَيْسَ تَمَّ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾... الْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا وَهُوَ مَعْلُومٌ لِيُعْطَفَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فِي اللَّفْظِ، وَلِيُسَاوِيَ بِهِ مَا بَعْدَهُ فِي الْحُكْمِ، وَتَضَمَّنَ هَذَا بُيُوتَ الْأَبْنَاءِ لِأَنَّهُ لَمْ يُنَصَّ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِهِذَا مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ

(١) الدر المنثور: ٢٢٣/٦ والطبري: ٢٢١/١٩ (٢) الطبري:

٢١٩/١٩ (٣) عبد الرزاق: ٦٤/٣ (٤) أحمد: ٢/

٢٧٩، ٢٠٤، ٢١٤، وابن ماجه: ٧٦٩/٢ (٥) كشف الأستار: ٣/

٦٢، ٦١ (٦) الطبري: ٢٢٤/١٩

أَسْتَأْتَاكَ^(١). فَهَذِهِ رُحْصَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ وَخَدَّهُ وَمَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِنْ كَانَ الْأَكْلُ مَعَ الْجَمَاعَةِ أَبْرَكَ وَأَفْضَلَ.

كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَسْبَعُ. قَالَ: «لَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ، اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ» وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ^(٢). وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَةَ أَيْضًا عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُوا جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا، فَإِنَّ الْبَرَكَهَ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^(٣).

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» قَالَ سَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ: يُعْنِي فَلْيَسَلِّمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ^(٤). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ تَجِدَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةً طَيِّبَةً، قَالَ: مَا رَأَيْتُهُ إِلَّا يُوجِبُهُ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَخْبَرَنِي زَيْدٌ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ بَيْتَهُ فَلْيَسَلِّمْ^(٥).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَإِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ^(٦). فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْمَرُ بِذَلِكَ، وَحَدَّثَنَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَرُدُّ عَلَيْهِ^(٧).

وَقَوْلُهُ: «كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالشَّرَائِعِ الْمُتَقَنَةِ الْمُتَّبِعَةِ، نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى أَنَّهُ يَبَيِّنُ لِعِبَادِهِ الْآيَاتِ بَيَانًا شَافِيًا لِيَتَدَبَّرُوهَا وَيَتَعَقَّلُوهَا، لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٦)

[الْأَسْتِذْنَانُ عِنْدَ الْإِنْصِرَافِ إِذَا مَا كَانُوا عَلَى أَمْرٍ

جَامِعٍ

وَهَذَا أَيْضًا أَدَبٌ أَرْشَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، فَكَمَا أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِذْنَانِ عِنْدَ الدُّخُولِ، كَذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِذْنَانِ

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٦) لَاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَادٍ أَلْيَحْذَرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١٧) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ تَرجِعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١٨)

سُورَةُ الْمُرُوفَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَفَعَدْرَهُ يُفْقَدِيرًا ﴿٢﴾

عِنْدَ الْإِنْصِرَافِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا فِي أَمْرٍ جَامِعٍ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةِ جُمُعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ، أَوْ اجْتِمَاعٍ فِي مَشُورَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ وَالْحَالَةَ هَذِهِ إِلَّا بَعْدَ اسْتِذْنَانِهِ وَمُسَاوَرَتِهِ وَإِنْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِذَا اسْتَأْذَنَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ إِنْ شَاءَ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ»^(١٦). وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَنْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيَسَلِّمْ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيَسَلِّمْ، فَلَيْسَتْ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ»^(١٨). وَهَكَذَا

(١) الطبري: ٢٢٤/١٩ (٢) أحمد: ٥٠١/٣ وأبو داود: ٣٧٦٤ وابن ماجه: ٣٢٨٦ (٣) ابن ماجه: ٣٢٨٧ وقال البوصيري في الزوائد: ٧٧/٣ (٤) البغوي: ٣٥٨/٣ والطبري: ٢٢٦/١٩ (٥) الطبري: ٢٢٥/١٩ (٦) عبد الرزاق: ٦٦/٣ (٧) الدر المنثور: ٢٢٨/٦ (٨) أبو داود: ٣٨٦/٥

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١).
 ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ
 يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِيُحَدِّثَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ
 عَنْ أَمْرِهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢)

[بَيَانُ الْأَدَبِ فِي مُحَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ]

قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانُوا يَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَهَاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ إِعْظَامًا لِنَبِيِّهِ ﷺ، قَالَ: فَقُولُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ^(٣). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُهَابَ نَبِيُّهُ ﷺ، وَأَنْ يُجَلَّ وَأَنْ يُعْظَمَ وَأَنْ يُسَوَّدَ^(٥). وَقَالَ مِقَاتِيلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يَقُولُ: لَا تَسْمُوهُ إِذَا دَعَوْتُمُوهُ: يَا مُحَمَّدُ، وَلَا تَقُولُوا يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، وَلَكِنْ شَرَّفُوهُ فَقُولُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى فِي ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أَيْ: لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ دُعَاءَهُ عَلَى غَيْرِهِ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ، فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُسْتَجَابٌ فَاحْذَرُوا أَنْ يَدْعُو عَلَيْكُمْ فَتَهْلِكُوا. حَكَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعَطِيَّةِ الْعُوفِيِّ^(٥)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِيُؤَادًا﴾ قَالَ مِقَاتِيلُ بْنُ حَيَّانَ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ كَانُوا يَتَّقِلُ عَلَيْهِمُ الْحَدِيثُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَتَعْنِي بِالْحَدِيثِ الْخُطْبَةَ، فَيَلُودُونَ بِبَعْضِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ لَا يَصْلُحُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ مَا يَأْخُذُ فِي الْخُطْبَةِ، وَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ أَشَارَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَأْذُنُ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ، لِأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانُوا إِذَا تَكَلَّمُوا وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ بَطَلَتْ جُمُعَتُهُ^(٦). وَقَالَ الشُّدِّيُّ: كَانُوا إِذَا كَانُوا مَعَهُ فِي جَمَاعَةٍ لَا ذَبَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ حَتَّى يَنْعَبُوا عَنْهُ فَلَا يَرَاهُمْ.

[الْتِهَانِي عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أَيْ: عَنِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَبِيلُهُ وَمِنْهَاجُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَسُنَّتُهُ وَشَرِيعَتُهُ، فَتُوزَنُ الْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ بِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، فَمَا وَافَقَ ذَلِكَ قُبُلًا، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى قَائِلِهِ وَفَاعِلِهِ

كَائِنًا مَنْ كَانَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٧) أَيْ: فَلْيَحْذَرِ وَلْيَخَشْ مَنْ خَالَفَ شَرِيعَةَ الرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا. «أَنْ يُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ» أَيْ: فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ كُفْرٍ أَوْ يَفَاقِي أَوْ يَدْعُو ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا يَبْقَلُ أَوْ حَدٌّ أَوْ حَسِبٌ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدُّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ، يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَعْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قَالَ - فَذَلِكَ مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ، أَنَا أَخِذْ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَعْلَبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا» أَخْرَجَاهُ^(٨).

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
 وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٩)
 [يَعْلَمُ اللَّهُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ عَالِمٌ بِمَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ فِي سِرِّهِمْ وَجَهْرِهِمْ، فَقَالَ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وَقَدْ لِلتَّحْقِيقِ، كَمَا قَالَ قَبْلَهَا: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِيُؤَادًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ...﴾
 الْآيَةُ [الاحزاب: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ...﴾ الْآيَةُ [المجادلة: ١]، وَقَالَ: «قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبَايَنُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ» [الأنعام: ٣٣] وَقَالَ: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ...﴾ الْآيَةُ [البقرة: ١٤٤]، فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا تَحْقِيقُ الْفِعْلِ بِقَدِّ، كَقَوْلِ الْمُؤَدِّنِ تَحْقِيقًا وَتُبُونًا: قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: هُوَ عَالِمٌ بِهِ مُشَاهِدٌ لَهُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ

(١) تحفة الأحوذني: ٤٨٥/٧ والنسائي في الكبرى: ١٠٠/٦

(٢) الدر المنثور: ٢٣٠/٦ إسناده ضعيف منقطع كما مر (٣) الطبري: ٢٣٠/١٩ (٤) الطبري: ٢٣٠/١٩ (٥) الطبري:

٢٣٠/١٩ (٦) الدر المنثور: ٢٣١/٦ (٧) فتح الباري: ٤/٤١٦

٤١٦ ومسلم: ١٣٤٣/٣ (٨) أحمد: ٣١٢/٢ ومسلم: ٢٢٨٤

سورة الفرقان

٣٦٠

سورة الفرقان

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا آفَاكُ
أَفْتَرِيهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُورًا
﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْطِيزُوا لَنَا وَلِيًّا أَكْتَبَهَا فَهِيَ تَمْلِكُ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا
مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ
لَوْلَا أَنْزَلِ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقِي
إِلَيْهِ كِتَابًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنشِرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْشُونَ
الصَّلَاحَاتِ ﴿الآية [الكهف: ٢٠١]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿تَبَارَكَ﴾
وَهُوَ تَفَاعُلٌ مِنَ الْبَرَكَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ الثَّابِتَةِ الدَّائِمَةِ ﴿الَّذِي نَزَلَ
الْفُرْقَانَ﴾ نَزَلَ فِعْلٌ مِنَ التَّكْرَرِ وَالتَّكْرَرِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْكِتَابِ
الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ لِأَنَّ
الْكِتَابَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَالْفُرْقَانَ نَزَلَ
مُنْجَمًا مُفْرَقًا مُفْضَلًا آيَاتٍ بَعْدَ آيَاتٍ، وَأَحْكَامًا بَعْدَ
أَحْكَامٍ، وَسُورًا بَعْدَ سُورٍ، وَهَذَا أَشَدُّ وَأَبْلَغُ وَأَشَدُّ اِغْتِنَاءً
بِمَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ فِي أُنْتَاءِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ
بِهِ قُلُوبَكُمْ وَوَعَلْنَا لِقَابِيكَ ﴿١١﴾ وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جُنْدَلَفٌ
يَالْعَنَى وَاحْسَنَ تَقْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣] وَلِهَذَا سَمَّاهُ هَهُنَا
الْفُرْقَانَ لِأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ،
وَالْعَيِّ وَالرَّشَادِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى عَبْدِي﴾ هَذِهِ صِفَةٌ مُدْحٍ وَتَنَاءٍ لِأَنَّهُ أَضَافَهُ
إِلَى عِبَادِيَّتِهِ، كَمَا وَصَفَهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ أَحْوَالِهِ وَهِيَ لَيْلَةُ

عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ
مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا
أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿[يونس: ٦١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ
قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أَيْ: هُوَ شَهِيدٌ
عَلَى عِبَادِهِ بِمَا هُمْ فَاعِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَقَالَ تَعَالَى:
﴿أَلَا حِينَ يَسْتَشْفُونَ لِيَأْبَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُمِرُّونَ وَمَا يُعْلُونَ﴾
[هود: ٥٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ مَنكُم مَن أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ
بِهِ...﴾ [الآية [الرعد: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَسُوْدَعَهَا كُلٌّ فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] وَقَالَ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا
يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِزْقِهِ
إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِصَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَالآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا
كَثِيرَةٌ جَدًّا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَيْ: وَيَوْمَ يَرْجَعُ الْخَلَائِقُ
إِلَى اللَّهِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿فَيُنْفِثُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَيْ:
يُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ جَلِيلٍ وَخَفِيرٍ وَصَغِيرٍ
وَكَبِيرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُنْفِثُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾
[القيامة: ١٣] وَقَالَ: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ
مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾
[الكهف: ٤٩] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْفِثُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَسَأَلُهُ التَّمَامَ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النُّورِ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة الفرقان [وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾
الَّذِي لَمْ يَكُنْ مَلِكًا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخُذْ وَكَلًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ
شَرِيكًا فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿١﴾

[تَبَارَكَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى حَامِدًا لِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ عَلَى مَا نَزَّلَهُ عَلَى
رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَسًا ﴿١﴾ قِيمًا

الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا وَكَمَا وَصَفَهُ بِذَلِكَ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ﴿١٩﴾ وَوَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ وَصَفَهُ عِنْدَ إِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ وَنَزُولِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿٢١﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنَّما خصَّه بهذا الكتابِ الْمُفْصَلِ الْعَظِيمِ الْمُبِينِ الْمُحْكَمِ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿فصلت: ٤٢﴾ الَّذِي جَعَلَهُ فُرْقَانًا عَظِيمًا [إنَّما خصَّه به] لِيُخَصِّصَهُ بِالرَّسَالَةِ إِلَى مَنْ يَسْتَنْظِلُ بِالْخَضْرَاءِ وَيَسْتَقْبِلُ عَلَى الْعَبْرَاءِ، كَمَا قَالَ ﷺ: ﴿بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ﴾^(١). وَقَالَ: «إِنِّي أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» فَذَكَرَ مِنْهُنَّ أَنَّهُ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٢). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾... الْآيَةُ [الأعراف: ١٥٨]، أَي:

الَّذِي أَرْسَلْتَنِي هُوَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَلَمْ يَخُذْ وَكَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الْوَالِدِ وَعَنِ الشَّرِيكِ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ أَي: كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ مَرْبُوبٌ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾^(٣)

[بَيَانُ سَفَاهَةِ الْمُشْرِكِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ الْخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْمَالِكِ لِأَرْزَمَةِ الْأُمُورِ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَمَعَ هَذَا عَبَدُوا مَعَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ جَنَاحٍ بَعُوضَةٍ، بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ، لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لِعِبَادِيهِمْ؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ أَي: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ مَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ الَّذِي يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْلَهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا

كَفَّيْسٍ وَحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨] كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَحِدَةً كَلِمَاتٍ بِالنَّبْرِ﴾ [الفرق: ٥٠] وَقَوْلِهِ: ﴿فَالَمَّا هِيَ زَجْرًا وَحِدَةً ﴿١٤﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] ﴿فَالَمَّا هِيَ زَجْرًا وَحِدَةً ﴿١٥﴾ فَإِذَا هُمْ بِظُرُونٍ﴾ [الصفات: ١٩] ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَحِدَةً ﴿١٦﴾ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، فَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَا تَتَّبِعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ، وَلَا عَدِيلَ وَلَا بَدِيلَ وَلَا نَدِيدَ، وَلَا وَزِيرَ وَلَا نَظِيرَ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَهُ ظُلْمًا وَرُذُولًا﴾^(٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

[أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ سَخَافَةِ عُقُولِ الْجَهْلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ أَي: كَذِبٌ ﴿افْتَرَاهُ﴾ يَعْنُونَ النَّبِيَّ ﷺ ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أَي: وَاسْتَعَانَ عَلَى جَمْعِهِمْ بِقَوْمٍ آخَرِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ جَاءَهُ ظُلْمًا وَرُذُولًا﴾ أَي: فَقَدْ افْتَرَوْا هُمْ قَوْلًا بَاطِلًا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَيَعْرِفُونَ كَذِبَ أَنْفُسِهِمْ فِيمَا رَعَمُوهُ ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا﴾ يَعْنُونَ كُتِبَ الْأَوَائِلُ أَي: اسْتَنْسَخَهَا ﴿فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أَي: تَقْرَأُ عَلَيْهِ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَي: فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، وَهَذَا الْكَلَامُ لِسَخَافَتِهِ وَكُذْبِهِ وَبَهْتِهِ مِنْهُمْ كُلِّ أَحَدٍ يَعْلَمُ بَطْلَانَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِالتَّوَاتُرِ وَبِالضَّرُورَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يُعَانِي شَيْئًا مِنَ الْكِتَابَةِ لَا فِي أَوَّلِ عُمُرِهِ وَلَا فِي آخِرِهِ، وَقَدْ نَشَأَ بَيْنَ أَطْرَافِهِمْ مِنْ أَوَّلِ مَوْلِدِهِ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَهُمْ يَعْرِفُونَ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ وَصِدْقَهُ وَنَزَاهَتَهُ وَبِرَّهُ وَأَمَانَتَهُ، وَبُعْدَهُ عَنِ الْكُذْبِ وَالفُجُورِ، وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرُّذِيلَةِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي صَغَرِهِ وَإِلَى أَنْ بُعِثَ: الْأَمِينِ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِدْقِهِ وَبِرِّهِ، فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ نَصَبُوا لَهُ الْعِدَاوَةَ وَرَمَوْهُ بِهِذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ بَرَاءَتَهُ مِنْهَا،

وَحَارُوا فِيمَا يَفْذِفُونَهُ بِهِ، فَتَارَةً مِنْ إِفْكِهِمْ يَقُولُونَ: سَاجِرٌ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: شَاعِرٌ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: مَجْنُونٌ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: كَذَّابٌ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِ مَا عَانَدُوا هَهُنَا وَافْتَرَوْا: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الْآيَةِ، أَيْ: أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْمُسْتَمِيلَ عَلَى أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِخْبَارًا حَقًّا صِدْقًا مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ فِي الْخَارِجِ مَاضِيًا وَمُسْتَقْبَلًا ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أَيْ: اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ السَّرَائِرَ كَعِلْمِهِ بِالظَّوَاهِرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا غَفُورًا رَحِيمًا﴾ دُعَاءٌ لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَإِخْبَارٌ لَهُمْ بِأَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْهُ، وَأَنَّ حِلْمَهُ عَظِيمٌ مَعَ أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، فَهَؤُلَاءِ مَعَ كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَفُجُورِهِمْ وَبُهْتَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَقَوْلِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ مَا قَالُوا يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْهُدَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[المائدة: ٧٣، ٧٤]﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ ﴿[البروج: ١٠]﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَنْظَرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ.

﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِئُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧٨﴾﴾ أَوْ يُفَلِّحَ إِلَيْهِ كَثْرًا أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٧٩﴾﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٨٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِذَا شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُضُورًا ﴿٨١﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿٨٢﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿٨٣﴾ وَإِذَا أَلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرَبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٨٤﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٨٥﴾﴾

[أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الرَّسُولِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ وَبَيَانُ

مصيرهم

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ تَعَتُّبِ الْكُفَّارِ وَعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لِلْحَقِّ بِلَا حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا تَعَلَّلُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ يَعْنُونَ كَمَا نَأْكُلُهُ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَمَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿وَيَنْشِئُ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أَيْ: يَتَرَدَّدُ فِيهَا وَإِلَيْهَا، طَلَبًا لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يَقُولُونَ: هَلَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَكُونُ لَهُ شَاهِدًا عَلَى صِدْقِ مَا يَدْعِيهِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿فَلَوْلَا أَلْفَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِمَّنْ ذَهَبَ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلِكُ مَقْرَبِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] وَكَذَلِكَ قَالَ هَؤُلَاءِ عَلَى السَّوَاءِ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَوْ يُفَلِّحَ إِلَيْهِ كَثْرًا﴾ أَيْ: عَلِمَ كَثْرًا يُفَلِّحُ مِنْهُ ﴿أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أَيْ: تَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ، وَهَذَا كُلُّهُ سَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي تَرْكِ ذَلِكَ وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ أَيْ: جَاءُوا بِمَا يَفْذِفُونَكَ بِهِ وَيَكْذِبُونَ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: سَاجِرٌ، مَسْحُورٌ، مَجْنُونٌ، كَذَّابٌ، شَاعِرٌ، وَكُلُّهَا أَقْوَالٌ بَاطِلَةٌ، كُلُّ أَحَدٍ مِمَّنْ لَهُ أَدْنَى فَهَمٌ وَعَقْلٌ يَعْرِفُ كَذِبَهُمْ وَافْتِرَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَضَلُّوا﴾ عَنِ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الْهُدَى، فَإِنَّهُ ضَالٌّ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَمَنْهَجُهُ مُتَّحِدٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا نَبِيَّهُ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ لَأَتَاهُ خَيْرًا مِمَّا يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا وَأَفْضَلَ وَأَحْسَنَ، فَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِذَا شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾... الْآيَةِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي فِي الدُّنْيَا، قَالَ: وَقُرَيْشٌ يُسْمُونَ كُلَّ بَيْتٍ مِنْ حِجَارَةٍ قَصْرًا كَبِيرًا كَانَ أَوْ صَغِيرًا (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ هَكَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا لَا أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ ذَلِكَ تَبْصُرًا وَاسْتِزْشَادًا بَلْ تَكْذِيبُهُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى قَوْلِ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أَيْ: أَرْصَدْنَا ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أَيْ: عَذَابًا أَلِيمًا حَارًّا، لَا يُطَاقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ أَيْ: جَهَنَّمَ ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾

الْبُرْجَانِ

٣٦١

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

يَعْنِي فِي مَقَامِ الْمُحْشَرِ. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ أَيْ: حَقًّا عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَمُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمُورٌ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨، ٧]. أَيْ: يَكَادُ يَنْفِصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَتَنْزَوِي وَتَنْقِيضُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَيَقُولُ لَهَا الرَّحْمَنُ: مَا لَكَ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ يَسْتَجِيرُ مِنِّي، فَيَقُولُ: أَرْسِلُوا عَبْدِي. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا كَانَ هَذَا الظَّنُّ بِكَ، فَيَقُولُ: فَمَا كَانَ ظَنُّكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْ تَسْعَنِي رَحْمَتُكَ، فَيَقُولُ: أَرْسِلُوا عَبْدِي. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَتَشْهَقُ إِلَيْهِ النَّارُ شَهَقَةً الْبُعْلَةِ إِلَى الشَّعِيرِ، وَتَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا خَافَ ^(١). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَبْدِ بْنِ عَمِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ قَالَ: إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا خَرَّ لَوَجْهِهِ تَرْتَعِدُ فَرَانِصُهُ، حَتَّى إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيَجْتُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَيَقُولُ: رَبِّ لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي ^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ عَنْ أَبِي أُيُوبَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: مِثْلُ الرَّجُلِ فِي الرُّمْحِ، أَيْ مِنْ ضَيْقِهِ ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿مُقَرَّبِينَ﴾ قَالَ أَبُو صَالِحٍ: يَعْنِي مُكْتَبِينَ ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أَيْ: بِالْوَيْلِ وَالْحَسْرَةِ وَالْخَيْبَةِ ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا﴾... الْآيَةَ.

﴿قُلْ أَدْلَاكُ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ عَلَى رِبِّكَ وَعَدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾

[النَّارُ خَيْرٌ أَمْ الْجَنَّةُ]

يَقُولُ تَعَالَى: يَا مُحَمَّدُ هَذَا الَّذِي وَصَفْنَاهُ لَكَ مِنْ حَالِ [أَوْلِيكَ] الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ، فَتَلْقَاهُمْ بِوَجْهِ عِبُوسٍ وَتَغِيظٍ وَزَفِيرٍ، وَيَلْقَوْنَ فِيهَا أَمَاكِنَهَا [الضَّيِّقَةَ] مُقَرَّبِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حَرَآكًا وَلَا اسْتِنصَارًا وَلَا فِكَآكًا مِمَّا هُمْ فِيهِ، أَهَذَا خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَهَا اللَّهُ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ، الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُمْ وَجَعَلَهَا لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا عَلَى مَا أَطَاعُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَجَعَلَ مَالَهُمْ إِلَيْهَا ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ مِنَ الْمَلَادِ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَسَاكِينٍ، وَمَرَآكِبٍ وَمَنَاظِرٍ،

وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ أَبَدًا دَائِمًا سَرْمَدًا بِلَا انْقِطَاعٍ وَلَا زَوَالٍ وَلَا انْقِصَاءٍ، وَلَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا، وَهَذَا مِنْ وَعْدِ اللَّهِ، الَّذِي تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَأَحْسَنَ بِهِ إِلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَانَتْ عَلَى رِبِّكَ وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ أَيْ: لَا بَدَّ أَنْ يَقَعَ وَأَنْ يَكُونَ كَمَا حَكَاهُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ أَيْ: وَعَدًا وَاجِبًا ^(٤).

وَهَذَا الْمَقَامُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ ذِكْرِ النَّارِ، ثُمَّ التَّنْبِيهُ عَلَى حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّصْرَةِ وَالْحُبُورِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَدْلَاكُ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ سَجْرَةُ الزُّرُوقِ ﴿١٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهَا سَجْرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ طَلْعُهَا

(١) الطبري: ٣٧٠/٩ (٢) عبد الرزاق: ٦٧/٣ (٣) الدر المنثور: ٢٤٠/٦ (٤) الزهد لابن المبارك في الزوائد: ٨٦ (٤) الطبري: ٢٤٧/١٩

كَانَهُ رُءُوسَ الشَّيَاطِينِ ﴿١٥﴾ فَاتَّبَعَتْ لَآكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ تَوْنٌ مِنْهَا
الْبَطُونِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَيْمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ
لَكِلَى الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ الْفَوَاقِرُ أَهْبَاءُ هُمْ صَالِينَ ﴿١٩﴾ فَمَنْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ
يُهْرَعُونَ ﴿[الصافات: ٦٢-٧٠]﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ
أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٧﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ
مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ
وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿٨﴾﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
بِمَا نَقُولُ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا تَنْصُرُونَ وَمَنْ يُظْلِمِ مِنْكُمْ
نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾

[تَبْرِي إِلَهَةَ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَفْرِيعِ الْكُفَّارِ
فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ،
فَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ
مُجَاهِدٌ: هُوَ عِيسَىٰ وَعَزِيرٌ وَالْمَلَائِكَةُ^(١). ﴿فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ

أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾... الآية أي: فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ
لِلْمَعْبُودِينَ: أَأَنْتُمْ دَعَوْتُمْ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ عِبَادَتِكُمْ مِنْ دُونِي، أَمْ
هُمْ عَبَدُوكُمْ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ؟ كَمَا
قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَسِي أَبْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ
لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي لِلْهَيْتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ
لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي
نَفْسِي وَلَا أَكَلْتُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْعُيُوبِ ﴿١١﴾﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ

إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴿الآية [المائدة: ١١٦، ١١٧]﴾، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّا يُجِيبُ بِهِ الْمَعْبُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿قَالُوا
سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ قَرَأَ
الْأَكْثَرُونَ بِفَتْحِ التَّوْنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿نَتَّخِذُ مِنْ دُونِكَ مِنْ

أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لَيْسَ لِلْخَلَائِقِ كُلُّهُمْ أَنْ يَعْبُدُوا أَحَدًا سِوَاكَ لَا
نَحْنُ وَلَا هُمْ، فَحَنُّ مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ، بَلْ هُمْ فَعَلُوا
ذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَمْرِنَا وَلَا رِضَانَا، وَنَحْنُ
بِرَاءٌ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كَرِهْنَا عِبَادَتَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ قَالُوا

سُبْحَانَكَ ﴿... الآية﴾ وَقَرَأَ آخَرُونَ: (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ
نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ) أي: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَنَا
فَإِنَّا عِبِيدُكَ فَفَرَّاءُ إِلَيْكَ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ الْمَعْنَىٰ مِنَ الْأُولَىٰ.

﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ﴾ أي: طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ حَتَّىٰ
نَسُوا الذِّكْرَ، أي: نَسُوا مَا أَنْزَلْتَهُ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِ رُسُلِكَ

مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ عِبَادَتِكَ وَحَدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ﴿وَكَانُوا قَوْمًا
بُورًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ هَلَكَىٰ^(٢). وَقَالَ الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ وَمَالِكٌ عَنِ الرَّهْرِيِّ: أَيُّ لَا خَيْرَ فِيهِمْ^(٣).

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُ﴾ أي:

فَقَدْ كَذَّبْتُمْ الَّذِينَ عَبَدْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيمَا زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ لَكُمْ
أَوْلِيَاءُ وَأَنَّكُمْ يَقْرَبُونَكُمْ إِلَىٰ اللَّهِ زُلْفَىٰ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ
أَضَلَّ مِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا
بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿[الأحاف: ٦٠، ٥٥]﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ
صَرْفًا وَلَا تَنْصُرُونَ﴾ أي: لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ صَرْفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ
وَلَا الْإِنْتِصَارِ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿وَمَنْ يُظْلِمِ مِنْكُمْ﴾ أي: يَشْرِكُ

بِاللَّهِ ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ
وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَحَمَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ صَاحِبُونَ
وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

[كُلُّ مَنْ سَبَقَ مِنَ الرُّسُلِ كَانَ بَشْرًا]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ جَمِيعِ مَنْ بَعَثَهُ مِنَ الرُّسُلِ
الْمُنْقَدِّمِينَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَحْتَاجُونَ إِلَىٰ
التَّغْدِي بِهِ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ،

وَلَيْسَ ذَلِكَ يُمْنًا فَيَحَالِيهِمْ وَمَنْصِبُهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ
لَهُمْ مِنَ السَّمَاتِ الْحَسَنَةَ وَالصَّغَاتِ الْجَمِيلَةَ وَالْأَقْوَالِ
الْفَاضِلَةَ وَالْأَعْمَالِ الْكَامِلَةَ وَالْخَوَارِقِ الْبَاهِرَةَ وَالْأَدِلَّةَ
الظَّاهِرَةَ، مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ كُلُّ ذِي لُبٍّ سَلِيمٍ وَبَصِيرَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ

عَلَىٰ صِدْقِ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ اللَّهِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ
قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ
أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا
يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾... الآية [الأنبياء: ٨]. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَحَمَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ صَاحِبُونَ﴾ أي: اخْتَبَرْنَا
بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ، وَبَلَّوْنَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ، لِنَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُ
وَمَنْ يَعْصِي، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْتُمْ صَاحِبُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

أي: بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٣] وَمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ
يَهْدِيَهُ اللَّهُ لِمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ.

(١) الطبري: ٢٤٧/١٩ (٢) الطبري: ٢٤٨/١٩ (٣) الطبري:

بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ حَالَ اخْتِصَارِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَبْشُرُونَ بِالْخَيْرَاتِ، وَحُضُورِ الْمَسْرَاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَحْفَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْشُرُوا بِالْمَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢١﴾ تَعْنُ أَوْلِيَاؤَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢٢﴾ تَزَلُّوا مِنْ عَفْوِرٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]. وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ: أَخْرِجِي أَتَيْتَهَا النَّفْسَ الطَّيِّبَةَ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ إِنَّ كُنْتَ تَعْمُرِيهِ، أَخْرِجِي إِلَى رُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانٍ»^(٤).

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ﴾ بِعَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمَا، وَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ: يَوْمَ الْمَمَاتِ وَيَوْمَ الْمَعَادِ، تَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ وَاللَّكَّافِرِينَ، فَتَبْشُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ، وَتُخْبِرُ الْكَافِرِينَ بِالْخَبِيَةِ وَالنُّحْشِرَانِ، فَلَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿وَيَقُولُونَ جِئْنَا نَحْمَدُكَ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِينَ: حَرَامٌ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ الْفَلَاحُ الْيَوْمَ. وَأَصْلُ الْحَجْرِ: الْمَنْعُ. وَمِنْهُ يُقَالُ: حَجَرَ الْقَاضِي عَلَى فُلَانٍ إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ، إِذَا لَفَسَ أَوْ سَفِهَ أَوْ صَغَرَ، أَوْ نَحَوَ ذَلِكَ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْحَجَرُ عِنْدَ النَّبِيِّ الْحَرَامَ، لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الطَّوْفَ أَنْ يَطُوفُوا فِيهِ، وَإِنَّمَا يَطُوفُ مِنْ وَرَائِهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْعُقْلِ: حَجَرٌ. لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ عَنِ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيْقُ. وَالْعَرَضُ أَنْ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ. هَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَالْحَسَنَ وَالضَّحَّاكَ وَقَتَادَةَ وَعَطِيَّةَ الْعَوْفِيَّ وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيَّ وَحُصَيْنِيفَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ»^(٥).

وَقَدْ حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ: ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْمُشْرِكِينَ^(٦) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أَيُّ: يَتَعَوَّدُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا نَزَلَ بِأَحَدِهِمْ نَارٌ أَوْ شِدَّةٌ يَقُولُ: ﴿جِئْنَا نَحْمَدُكَ﴾ وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَا خَذَ وَجْهَهُ، وَلَكِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السِّيَاقِ بَعِيدٌ لَا سِيَمًا وَقَدْ نَصَّ

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَوْمَئِذٍ أَنْصَبُونَ﴾ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ: لَوْ شِئْتُ أَنْ أَجْعَلَ الدُّنْيَا مَعَ رُسُلِي فَلَا يَخَالِفُونَ، لَفَعَلْتُ، وَلَكِنِّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُبْتَلِيَ الْعِبَادَ بِهِمْ وَأُبْتَلِيَهُمْ بِهِمْ^(٧). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُتَّبِلُكَ»^(٨). وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ عَبْدًا رَسُولًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا^(٩).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جِئْنَا نَحْمَدُكَ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

[بَيَانُ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فَرَأَاهُمْ عِينًا فَيُخْبِرُونَا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا﴾ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُونَ...﴾ [الأنعام: ١١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جِئْنَا نَحْمَدُكَ﴾ أَيُّ: هُمْ لَا يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ فِي يَوْمٍ خَيْرٍ لَهُمْ، بَلْ يَوْمَ يَرَوْنَهُمْ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ، وَذَلِكَ بِضِدْقٍ عَلَى وَقْتِ الْإِخْتِصَارِ حِينَ تَبْشُرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالنَّارِ، وَالغَضَبِ مِنَ الْجَبَّارِ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ، أَخْرِجِي أَتَيْتَهَا النَّفْسَ الْخَبِيثَةَ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، أَخْرِجِي إِلَى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، فَتَأْتِي الْخُرُوجَ وَتَتَفَرَّقُ فِي الْبَدَنِ فَيَضْرِبُونَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ...﴾ [الأنفال: ٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُوبُ أُنزِلَتْ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أَيُّ: بِالضَّرْبِ ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ يَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عِزًّا لَقَدْ كُنْتُمْ عَنْ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وَهَذَا

(١) الطبري: ٣٧٧/١٩ (٢) مسلم: ٢٨٦٥ (٣) أحمد: ٢/

٢٣١ (٤) مسلم: ٢٢٠٢/٤ (٥) الطبري: ٢٥٦/١٩ والمحرم

الوجيز: ٢٠٦/٤ (٦) الطبري: ٢٥٤/١٩

الْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ...﴾
 الْآيَةِ، هَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ حِينَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَى مَا
 عَمِلُوهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُوْلَاءُ
 الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا مَنْجَاةٌ لَهُمْ شَيْءٌ،
 وَذَلِكَ لِأَنَّهَا فَقَدَتِ الشَّرْطَ الشَّرْعِيَّ إِمَّا الْإِخْلَاصَ فِيهَا وَإِمَّا
 الْمُتَابَعَةَ لِشَرْعِ اللَّهِ. فَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ خَالِصًا وَعَلَى
 الشَّرِيعَةِ الْمَرْضِيَّةِ فَهَوَّ بَاطِلٌ، فَأَعْمَالُ الْكُفَّارِ لَا تَخْلُو مِنْ
 وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ، وَهَذَا تَجْمَعُهُمَا مَعًا فَتَكُونُ أَبْعَدَ مِنَ الْقَبُولِ
 حَيْثُيذِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
 فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ قَالَ سُفْيَانُ
 الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ قَالَ: شِعَاعُ الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَ
 الْكُوَّةَ^(١). وَكَذَا رُوِيَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ عَنْ عَلِيٍّ وَرُوِيَ
 مِثْلُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ
 وَالسُّدِّيِّ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِهِمْ^(٢). وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ
 الْبَصْرِيُّ: هُوَ الشِّعَاعُ فِي كُوَّةِ أَحَدِهِمْ، وَلَوْ ذَهَبَ بَقِيضُ
 عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعْ^(٣). وَقَالَ أَبُو الْأَحْوَسِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ
 عَنِ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ: ﴿هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ قَالَ: الْهَبَاءُ [رَهْمَجُ]
 الدُّوَابِّ^(٤). وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَالضَّحَّاكِ.
 وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ قَالَ: أَمَا رَأَيْتَ
 يَبِيسَ الشَّجَرِ إِذَا ذَرَّتْهُ الرِّيحُ؟ فَهَوَّ ذَلِكَ الْوَرَقُ^(٥). وَعَنْ
 يُعْلَى بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ: وَإِنَّ الْهَبَاءَ الرَّمَادُ إِذَا ذَرَّتْهُ الرِّيحُ،
 وَحَاصِلُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ الْكُفَّارِ تَكُونُ
 كَالشَّيْءِ النَّافِئِ الْحَقِيرِ الْمُتَفَرِّقِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ صَاحِبُهُ مِنْهُ
 عَلَى شَيْءٍ بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِثْلَ الذُّبَابِ كَفَرُوا
 بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ...﴾ الْآيَةَ
 [إبراهيم: ١٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلْطَفُوا
 بِصَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَفْدُرُونَ عَلَى سَعْيِ
 وَمَا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 أَعْمَالُهُمْ كَرَابٍ رِيحِيَّةٍ يَحْسبُهُ الْظَّالِمَانُ مَاءً حَافً إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ
 يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

﴿مُسْتَقَرًّا أَهْلَ الْجَنَّةِ﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

٣٦٢

الْجَنَّةِ الْمَأْوَى

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ
 أَوْ نُرِي رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا
 ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
 حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ
 هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا
 وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاةُ بِالْعِظَمِ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ
 تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
 الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظُّلُمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
 يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ
 فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
 وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ
 يُرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ
 جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا
 وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
 وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ
 وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]
 وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ
 وَالْعُرْفَاتِ الْأَمْنِيَّةِ، فَهُمْ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ حَسَنٍ الْمُنْتَظَرِ طَيِّبِ
 الْمَقَامِ ﴿حَلَايِكُ فِيهَا حُسْنٌ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا﴾
 [الفرقان: ٧٦] وَأَهْلُ النَّارِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَكَاتِ
 السَّافِلَاتِ، وَالْحَسَرَاتِ الْمُتَنَابِعَاتِ، وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ
 وَالْعُقُوبَاتِ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]
 أَي: يَسُنُّ الْمُنْزِلُ مُنْتَظَرًا، وَيَسُنُّ الْمُقِيلُ مَقَامًا، وَلِهَذَا قَالَ
 تَعَالَى: ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾
 أَي: بِمَا عَمِلُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَبَّلَةِ نَالُوا مَا نَالُوا،
 وَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، بِخِلَافِ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُمْ لَيْسَ

(١) هذا إسناد ضعيف فيه تدليس أبي إسحاق وحارث بن عبدالله
 الأعور صاحب علي كذبه الشعبي في رأيه وروى بالرفض في حديثه
 ضعف [تقريب] (٢) الطبري: ٢٥٧/١٩، ٢٥٨ (٣) الطبري:

الْمُؤْمِنُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَخْرُجُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْثَرُ﴾... [الآية: [الأنبياء: ١٠٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ بَدْيِهِ يَكْفُرُ بِبَلِيَّتِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَدَمِ الظَّالِمِ الَّذِي فَارَقَ طَرِيقَ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَسَلَكَ طَرِيقًا أُخْرَىٰ غَيْرَ سَبِيلِ الرَّسُولِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَدِمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ، وَعَصَصَ عَلَىٰ يَدَيْهِ حَسْرَةً وَأَسْفًا. وَسَوَاءٌ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا فِي عُقْبَةِ بَنِ أَبِي مُعَيْطٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ، فَإِنَّهَا عَامَةٌ فِي كُلِّ ظَالِمٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الآيتين [الأحزاب: ٦٦، ٦٧]، فَكُلُّ ظَالِمٍ يَنْدَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَايَةَ النَّدَمِ، وَيَعْصُ عَلَىٰ يَدَيْهِ قَاتِلًا: ﴿بَلِيَّتِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ ﴿يَوَلِّيَ لِيَّتِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا﴾ يَعْنِي مَنْ صَرَفَهُ عَنِ الْهُدَىٰ وَعَدَلَّ بِهِ إِلَىٰ طَرِيقِ الضَّلَالِ مِنْ دُعَاةِ الضَّلَالَةِ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أُمَّةٌ بِنُ خَلْفٍ أَوْ أُخُوهُ أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ أَوْ غَيْرُهُمَا، ﴿لَقَدْ أَهَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أَيُّ: بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَاثَ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ أَيُّ: يَخْذُلُهُ عَنِ الْحَقِّ وَيَضْرِفُهُ عَنْهُ، وَيَسْتَعْمِلُهُ فِي الْبَاطِلِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا

وَصَبِيرًا ﴿١٧﴾

[الرَّسُولُ يَشْكُو مَخَالِفِيهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ رَسُولِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ [صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ] أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُصْعِقُونَ لِلْقُرْآنِ وَلَا يَسْتَمِعُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقُرْآنَ فِيهِ﴾... [الآية [فصلت: ٢٦]، فَكَانُوا إِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ أَكْثَرُوا اللَّغَطَ وَالْكَلامَ فِي غَيْرِهِ حَتَّىٰ لَا يَسْمَعُوهُ]. فَهَذَا مِنْ هَجْرَانِهِ. [وَتَرَكَ عِلْمَهُ وَحَفِظَهُ أَيْضًا مِنْ هَجْرَانِهِ]. وَتَرَكَ الْإِيمَانَ بِهِ، وَتَرَكَ تَصْدِيقَهُ مِنْ هَجْرَانِهِ. وَتَرَكَ تَدْبِيرَهُ وَفَهْمَهُ مِنْ هَجْرَانِهِ. وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ وَامْتِنَالَ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ

لَهُمْ عَمَلٌ وَاحِدٌ يَقْتَضِي دُخُولَ الْجَنَّةِ لَهُمْ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، فَتَبَّ تَعَالَى بِحَالِ السُّعْدَاءِ عَلَىٰ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ، وَأَنَّهُ لَا خَيْرَ عِنْدَهُمْ بِالْكَلْبِيَّةِ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْجِسَابِ نِصْفَ النَّهَارِ، فَيَقْبِلُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: إِنِّي لَأَعْرِفُ السَّاعَةَ الَّتِي يَدْخُلُ فِيهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ اِرْتِفَاعِ الضُّحَى الْأَكْبَرِ إِذَا انْقَلَبَ النَّاسُ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ لِلْقَبُولَةِ، فَيُنْصَرَفُ أَهْلُ النَّارِ إِلَىٰ النَّارِ، وَأَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ فَكَانَتْ قَبُولَتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَأَطْعَمُوا كَبِدَ حَوْبٍ فَأَشْبَعَهُمْ كُلَّهُمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَزُلَّ اللَّيْلُكَ تَرْبِيًا﴾ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ بَدْيِهِ يَكْفُرُ بِبَلِيَّتِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿١٩﴾ يَوَلِّيَ لِيَّتِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ أَهَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَاتَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢١﴾

[أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتَمَنَّى الظَّالِمِ اتِّخَاذَ سَبِيلِ الرَّسُولِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ، فَمِنْهَا انْتِفَاقُ السَّمَاءِ وَتَفْطُرُهَا، وَانْفِرَاجُهَا بِالْغَمِّ، وَهُوَ ظُلْمُ النُّورِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَبْهَرُ الْأَبْصَارَ، وَنُزُولُ مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ يَوْمَئِذٍ فَيَحِيطُونَ بِالْخَلَائِقِ فِي مَقَامِ الْمُحْشَرِّ، ثُمَّ يَجِيءُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِفَضْلِ الْقَضَاءِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾... [الآية (١) [البقرة: ٢١٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الآية]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، وَيَأْخُذُ الْأَرْضِينَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» (٢) وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أَيُّ: شَدِيدًا صَعْبًا، لِأَنَّهُ يَوْمٌ عَدَلٍ وَقَضَاءِ فَضْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٢١﴾ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَيْدٌ يَسِيرٌ﴾ [الطور: ٩، ١٠] فَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَأَمَّا

(١) الطبري: ٢٦٠/١٩ (٢) فتح الباري: ٣٧٩/١١ ومسلم:

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
 الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُورًا
 مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ
 وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى
 الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
 نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ
 آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا
 وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا صَبَرْنَا
 لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَوْنَا عَلَىٰ لِقَابِهِ
 آلِيَّ أَمْطَرْتَ مَطَرًا سَوِيًّا أَكَلَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ
 كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ سُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا بُدِّعُوا وَنَجَّوْكَ
 إِلَّا هُرُونَ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنَّ كَادَ
 لِيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ
 يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ
 مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ أَي: وَلَا يَقُولُونَ قَوْلًا يُعَارِضُونَ بِهِ الْحَقَّ،
 إِلَّا أَجَبْنَاهُمْ بِمَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَأَبَيْنَا وَأَوْضَحْنَا
 وَأَفْصَحْنَا مِنْ مَقَالَتِهِمْ.

وَرَوَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:
 أَنْزَلَ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ
 نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عَشْرِينَ سَنَةً ^(١). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ
 بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُرْآنًا
 فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكَّةَ وَرَزَلْنَاهُ نَزْلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ سُوءِ حَالِ الْكُفَّارِ فِي مَعَادِهِمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحَشَرِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ فِي أَسْوَأِ الْحَالَاتِ وَأَفْبَحِ
 الصِّفَاتِ: ﴿الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ
 سُورًا مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ
 رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ، قَادِرٌ أَنْ

رَوَّاجِرُهُ مِنْ هِجْرَانِهِ. وَالْعَدُولُ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ شِعْرِ أَوْ
 قَوْلٍ أَوْ غِنَاءٍ أَوْ لَهْوٍ أَوْ كَلَامٍ أَوْ طَرِيقَةٍ مَأْخُودَةٍ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ
 هِجْرَانِهِ. فَسَأَلَ اللَّهُ الْكَرِيمَ الْأَمْتَانَ الْقَادِرَ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، أَنْ
 يُخَلِّصَنَا مِمَّا يُسْخِطُهُ، وَيَسْتَعْمِلَنَا فِيمَا يُرِضِيهِ مِنْ حَفِظِ
 كِتَابِهِ وَفَهْمِهِ، وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ
 عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَابٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾
 أَي: كَمَا حَصَلَ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي قَوْمِكَ مِنَ الَّذِينَ هَجَرُوا
 الْقُرْآنَ، كَذَلِكَ كَانَ فِي الْأُمَّمِ الْمَاضِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ
 لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ، يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَىٰ ضَلَالِهِمْ
 وَكُفْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
 شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ... الْآيَاتِينَ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أَي:
 لِمَنْ اتَّبَعَ رَسُولَهُ وَأَمَّنَ بِكِتَابِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ هَادِيَهُ
 وَنَاصِرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾
 لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُصَدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ لِئَلَّا
 يَهْتَدِيَ أَحَدٌ بِهِ، وَلِتَغْلِبَ طَرِيقَتُهُمْ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، فَلِهَذَا
 قَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾... الْآيَةَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ
 لِنُتَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَزَلْنَاهُ نَزْلِيلًا﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا
 جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ
 إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُورًا مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾
 [الْحِكْمَةُ فِي انزَالِ الْقُرْآنِ مُتَّفَرِّقًا وَالرَّدُّ عَلَى الْكُفَّارِ
 وَبَيَانُ سُوءِ مَصِيرِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كَثْرَةِ اغْتِرَاضِ الْكُفَّارِ وَتَعَتُّبِهِمْ
 وَكَلَامِهِمْ فِيمَا لَا يَغْنِيهِمْ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ
 الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أَي: هَلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي
 أُوجِبَ إِلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَمَا نَزَلَتْ الْكُتُبُ قَبْلَهُ جُمْلَةً
 وَاحِدَةً، كَالْتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ
 الْإِلَهِيَّةِ، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنَّمَا نَزَلَ مُنْجَمًا
 فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ، وَمَا

يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ لِيُنَبِّتَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، كَقَوْلِهِ:
 ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ آيَاتِنَا فَكَرَهُهُ﴾... الْآيَةَ [الإسراء: ١٠٦]. وَلِهَذَا قَالَ:
 ﴿لِنُتَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَزَلْنَاهُ نَزْلِيلًا﴾، قَالَ قَتَادَةُ: بَيَّنَّاهُ تَبْيِينًا.
 وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: وَفَسَّرْنَاهُ تَفْسِيرًا ^(١).

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أَي: بِحُجَّةٍ وَسُبْهَةٍ ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

(١) الطبري: ٢٦٦/١٩ (٢) النسائي في الكبرى: ٤٢١/٦

يُشْبِهُهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ زَويِرًا ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْرتَهُمْ نَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا صَرْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَوْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَرْوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ شُورًا ﴿٤٠﴾﴾

[تخويف مُشركي قريش]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَن كَذَبَ رَسُوْلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ وَمَن خَالَفَهُ، وَمُحَذِّرُهُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمَ عَذَابِهِ مِمَّا أَحَلَّهُ بِالْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْذُوبِينَ لِرُسُلِهِ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ مُوسَى [عَلَيْهِ السَّلَامُ] وَأَنَّهُ بَعَثَهُ وَجَعَلَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَويِرًا، أَي: نَبِيًّا مَوَازِرًا وَمُوَيْدًا وَنَاصِرًا، فَكَذَّبَهُمَا فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ: ف ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠] وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِقَوْمِ نُوْحٍ حِينَ كَذَبُوا رَسُوْلَهُ نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَن كَذَبَ بِرَسُوْلٍ فَقَدْ كَذَبَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ رَسُوْلٍ وَرَسُوْلٍ، وَلَوْ فَرَضَ أَنَّ اللهُ تَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهِمْ كُلَّ رَسُوْلٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُكْذِبُونَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ وَلَمْ يَبْعَثْ إِلَيْهِمْ إِلَّا نُوْحًا فَقَطْ، وَقَدْ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُحَذِّرُهُمْ قَوْمَهُ ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وَلِهَذَا أَعْرَقَهُمُ اللهُ جَمِيعًا وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَمْ يَبْرُكْ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ سِوَى أَصْحَابِ السَّفِينَةِ فَقَطْ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أَي: عِبْرَةً يَعْتَبِرُونَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجَلِيَنَّاهَا لَكُمْ ذِكْرًا وَنَعِيَّاهَا أَدْنَىٰ وَعِيَّاهُ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢] أَي: وَأَبْعَيْنَا لَكُمْ مِنَ السُّفْنِ مَا تَرْكَبُونَ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ لِتَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ [فِي] إِنْجَائِكُمْ مِنَ الْغَرَقِ، وَجَعَلِكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ مَن آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ أَمْرَهُ.

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى فَصْتِيهِمَا فِي غَيْرِ مَا سُورَةٍ، كَسُورَةِ الْأَعْرَافِ، بِمَا أَعْنَى عَنِ الْإِعَادَةِ. وَأَمَّا أَصْحَابُ الرَّسِّ، فَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمُ أَهْلُ قَرْيَةٍ مِنْ فَرَى ثَمُودَ^(٢). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنِ أَبِي بُكَيْرٍ، عَنِ عِكْرِمَةَ: الرَّسُّ بئرُ رَشْوَا

فِيهَا نَبِيَّهُمْ، أَي: دَفَنُوهُ بِهَا^(٣).

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أَي: وَأَمَمًا - [بَيْنَ] أَصْعَافٍ مَن ذَكَرَ أَهْلَكْنَاهُمْ - كَثِيرَةً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَلًّا صَرْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ﴾ أَي: بَيَّنَّا لَهُمُ الْحُجَجَ وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْأَدْلَةَ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: وَأَرْحَنَّا الْأَعْدَارَ عَنْهُمْ^(٤). ﴿وَكَلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا﴾ أَي: أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] وَالْقُرُونُ هُوَ الْأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثَمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢] وَحَدَّثَهُ بَعْضُهُمْ بِمِائَةِ وَعِشْرِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: بِمِائَةٍ. وَقِيلَ: بِثَمَانِينَ، وَقِيلَ: أَرْبَعِينَ، وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْقُرْنَ هُوَ الْأُمَّةُ الْمُتَعَاَصِرُونَ فِي الزَّمَنِ الْوَاحِدِ، وَإِذَا ذَهَبُوا وَخَلَفَهُمْ جِيلٌ فَهُوَ قَرْنٌ آخَرٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»... الْحَدِيثِ^(٥). ﴿وَلَقَدْ آتَوْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ﴾

يَعْنِي قَرْيَةَ قَوْمِ لُوطٍ، وَهِيَ سَدُومُ وَمَعَامَلَتْهَا الَّتِي أَهْلَكَهَا اللهُ بِالْقَلْبِ وَبِالْمَطَرِ مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي مِنْ سِجِّيلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣] وَقَالَ: ﴿وَلَيْكُمُ الْمَثُورُونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ ﴿١٧٧﴾ وَبِالْبَيْتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَاتِنَّا لِنَسِيبَ مَقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦] وَقَالَ: ﴿وَلَاتِنَّمَا لِيَامِرِ مِثِينَ﴾ [الحجر: ٧٩] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرْوْنَهَا﴾ أَي: فَيَعْتَبِرُوا بِمَا حَلَّ بِأَهْلِهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ بِالرُّسُولِ وَبِمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللهِ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ شُورًا﴾ يَعْنِي الْمَارِينَ بِهَا مِنَ الْكُفَّارِ لَا يَعْتَبِرُونَ لِأَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ شُورًا، أَي: مَعَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُوكَ إِلَّا هُرُورًا أَلَدًا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُوْلًا ﴿١١﴾ إِنَّ كَادَ لِيُصَلِّنَا عَنْ الْهَرْتَنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿١٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٤﴾﴾

(١) أحمد: ٣/٢٢٩ (٢) الطبري: ١٩/٢٦٩ (٣) البغوي: ٣/٣٦٩ والمقرطبي: ١٣/٣٢ (٤) الطبري: ١٩/٢٧٢ (٥) فتح الباري: ٥/٣٠٦ ومسلم: ٤/١٩٦٣ لا يوجد في الصحيحين "خير القرون" بل فيهما "خيركم" أو خير الناس".

[استهزاء الكافرين بالرَّسُولِ ﷺ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالرَّسُولِ ﷺ إِذَا رَأَوْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَدُّونَكَ إِلَّا هُزُوًا...﴾ الآية، يُعْنُونَهُ بِالْغَيْبِ وَالنَّقْصِ. وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَخَدُّونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: عَلَى سَبِيلِ التَّنْقِصِ وَالْإِزْدِرَاءِ فَجَبَّحَهُمُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية [الأنعام: ١٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ يُعْنَوْنَ أَنَّهُ كَادَ يَتَّبِعُهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ لَوْلَا أَنْ صَبَرُوا وَتَجَلَّدُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمَتَّهِدًا: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ...﴾ الآية.

[اتخاذهم أهواءهم الهية وكوْنهم أضل من الأنعام]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُنْبَهَا أَنْ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَالضَّلَالَ، فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ لِلْهِمِ هَوًى﴾ أي: مَهْمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ شَيْءٍ وَرَأَاهُ حَسَنًا فِي هَوَى نَفْسِهِ كَانَ دِينَهُ وَمَذْهَبُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءٌ عَلَيْهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية [فاطر: ٨]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَفَأَنْتَ تَكْفُرُونَ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَعْجُدُ الْحَجَرَ الْأَبْيَضَ زَمَانًا، فَإِذَا رَأَى غَيْرَهُ أَحْسَنَ مِنْهُ عَبْدَ الثَّانِي وَتَرَكَ الْأَوَّلَ^(١). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ...﴾ الآية، أي: هُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ، فَإِنَّ تِلْكَ تَفْعُلُ مَا خُلِقْتَ لَهُ، وَهَوْلَاءُ خُلِقُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَهُمْ يَعْجُدُونَ غَيْرَهُ وَيُسْرِكُونَ بِهِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِزْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضَتْهُ إِلَيْنَا قَبْضًا بَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِبَاسًا وَالنُّومَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

[الدلائل على وجود الباري وسعة قدرته]

مِنْ هَهُنَا شَرَعَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمُتَضَادَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عَمْرٍ وَابْنُ الْعَالِيَّةِ، وَأَبُو مَالِكٍ

٣٦٤
﴿أَلَمْ تَحْسَبْ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضَتْهُ إِلَيْنَا قَبْضًا بَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِبَاسًا وَالنُّومَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

وَمَسْرُوقٌ وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالنَّخَعِيُّ وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ [وَالسُّدِّيُّ] وَغَيْرُهُمْ: هُوَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ^(٢). ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أَي: دَائِمًا لَا يَزُولُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَيْلَ سَرْمَدًا...﴾ الآية [القصص: ٧١-٧٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أَي: لَوْلَا أَنَّ الشَّمْسَ تَطَّلَعُ عَلَيْهِ لَمَا عُرِفَ، فَإِنَّ الضِّدَّ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِضِدِّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: دَلِيلًا تَتْلُوهُ وَتَتَّبِعُهُ حَتَّى تَأْتِيَ عَلَيْهِ كُلُّهُ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَبَضَتْهُ إِلَيْنَا قَبْضًا بَسِيرًا﴾ أَي: الظِّلَّ. ﴿بَسِيرًا﴾ أَي: سَهْلًا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَبْضًا خَفِيًّا حَتَّى لَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ ظِلٌّ إِلَّا تَحْتَ سَفْتٍ أَوْ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَقَدْ أَظَلَّتِ الشَّمْسُ مَا فَوْقَهُ. وَقَالَ أَيُّوبُ بْنُ

(١) الدر المنثور: ٦/٢٦٠ (٢) الطبري: ١٩/٢٧٥ والقرطبي:

٣٧/١٣ (٣) الدر المنثور: ٦/٢٦٢

مُوسَى فِي الْآيَةِ: ﴿قَبْضًا بَسِيرًا﴾ قَلِيلًا قَلِيلًا^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَأْسًا﴾ أَي: يَلْبَسُ الْوُجُودَ وَيَعْشَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١] ﴿وَالنُّوْمَ سُبَاتًا﴾ أَي: قَاطِعًا لِلْحَرَكَةِ لِرَاحَةِ الْأَبْدَانِ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ وَالْجَوَارِحَ تَكِلُ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَةِ فِي الْإِنْتِشَارِ بِالنَّهَارِ فِي الْمَعَاشِ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَسَكَنَ، سَكَنَتِ الْحَرَكَاتُ فَاسْتَرَحَّتْ، فَحَصَلَ النُّوْمُ الَّذِي فِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ وَالرُّوحُ مَعًا ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أَي: يَنْتَشِرُ النَّاسُ فِيهِ لِمَعَايِشِهِمْ وَمَكَاسِبِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ تَحَمَّاهُ جَعَلَ لَكَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِشُكُوكَا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾... الآية [الفصل: ٧٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(٢) لِيُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَيُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرًا^(٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا^(٤)

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى يُرْسِلُ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ، أَي: بِمَجِيءِ السَّحَابِ بَعْدَهَا، وَالرِّيحَ أَنْوَاعٍ فِي صِفَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّشْخِيرِ، فَمِنْهَا مَا يُبَيِّرُ السَّحَابَ، وَمِنْهَا مَا يَحْمِلُهُ، وَمِنْهَا مَا يَسُوقُهُ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ مُبَشِّرًا، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ يَشُمُّ الْأَرْضَ، وَمِنْهَا مَا يَلْقَحُ السَّحَابَ لِئُمُطَّرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أَي: آلَهُ يُنْظَرُ بِهَا كَالسَّحُورِ وَالْوُفُودِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَوَضُّ مِنْ بُرِّ بَضَاعَةٍ، وَهِيَ بُرٌّ يُلْقَى فِيهَا التَّنُّ وَلُحُومُ الْكِلَابِ؟ فَقَالَ: «إِنَّ الْمَاءَ طَهُورٌ لَا يَنْجُسُهُ شَيْءٌ». رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ وَالنَّسَائِيُّ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا﴾ أَي: أَرْضًا قَدْ طَالَ انْتِظَارُهَا لِلْعَيْثِ، فَهِيَ هَامِدَةٌ لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ فَلَمَّا جَاءَهَا الْحَيَاءُ عَاشَتْ وَانْحَسَتْ رُبَاهَا أَنْوَاعَ الْأَزْهَابِ وَالْأَلْوَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ﴾... الآية [فصلت: ٣٩]، ﴿وَيُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرًا﴾ أَي: وَلِيَشْرَبَ مِنْهُ الْحَيَوَانَ مِنْ أَنْعَامِ وَأَنْبِيَاءِ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْحَاجَةِ لِشُرْبِهِمْ وَرُزُوعِهِمْ وَنَمَارِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ

مَا قَنَطُوا﴾... الآية [الشورى: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾... الآية [الروم: ٥٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ أَي: أَمْطَرْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ دُونَ هَذِهِ، وَسُقْنَا السَّحَابَ يُمْرًا عَلَى الْأَرْضِ وَيَعْدَهَا وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى الْأَرْضِ الْأُخْرَى، فَيُمْطَرُهَا وَيُكْفِيهَا وَيَجْعَلُهَا عَدَقًا، وَالتِّي وَرَاءَهَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهَا قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحِكْمَةُ الْقَاطِعَةُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَيْسَ عَامٌ بِأَكْثَرَ مَطَرًا مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَصْرِفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾^(٦). أَي لِيَذَكَّرُوا بِأَحْيَاءِ اللَّهِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ: أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ وَالْعِظَامِ الرُّفَاتِ. أَوْ لِيَذَكَّرَ مَنْ مَنَعَ الْمَطَرَ: أَنَّ مَا أَصَابَهُ ذَلِكَ بِدَنْبِ أَصَابِهِ، فَيُقْلِعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي الَّذِينَ يَقُولُونَ: مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا^(٧). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ عِكْرِمَةُ كَمَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ الْمُخْرَجِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا عَلَى أَثَرِ سَمَاءٍ أَصَابَتْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ: «أَنْذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكُوكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكُوكِبِ»^(٨).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَكُنْتَنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾^(٩) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا^(١٠) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا^(١١) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا^(١٢)

(١) الدر المشور: ٢٦٢/٦ (٢) مسند الشافعي: ٢١/١ وأحمد: ٣١/٣ وأبو داود: ٥٣/١ وتحفة الأحوذني: ٢٠٣/١ والنسائي: ١٧٤/١ (٣) الطبري: ٢٨٠/١٩ (٤) الطبري: ٢٨٠/١٩ (٥) مسلم: ٨٣/١

[عُمُومُ رِسَالَتِهِ ﷺ وَتَنْبِيئِهِ عَلَيْهِ وَذِكْرُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ نَذِيرًا﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنَّا خَصَّصْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْبَعْثَةِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَأَمْرًا أَنْ تَبْلُغَهُمُ الْقُرْآنَ ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١١٩] ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَخْرَابِ فَأَلْنَا زُمَّ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧] ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»، وَفِيهِمَا: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَبِعَدْلِهِمْ بِهِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢). ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾... الآية [التوبة: ٧٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أَي: خَلَقَ الْمَاءَيْنِ: الْحُلُوَّ وَالْمِلْحَ. فَالْحُلُوُّ كَالْأَنْهَارِ وَالْعُيُونِ وَالْآبَارِ، وَهَذَا هُوَ الْبَحْرُ الْحُلُوُّ الْعَذْبُ الْفُرَاتُ الرَّالُ. قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَهَذَا الْمَعْنَى لَا شَكَّ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ بَحْرٌ سَائِئٌ وَهُوَ عَذْبٌ فُرَاتٌ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا أَخْبَرَ بِالْوَاقِعِ لِنُبَيْتَةِ الْعِبَادَةِ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ لِيَشْكُرُوهُ، فَالْبَحْرُ الْعَذْبُ هُوَ هَذَا السَّارِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ خَلْقِهِ لِاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ أَنْهَارًا وَعُيُونًا فِي كُلِّ أَرْضٍ، بِحَسَبِ حَاجَتِهِمْ وَكَيْفَاتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَرْضِيهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أَي: مَالِحٌ مَرُّ زَعَاقٌ لَا يُسْتَسَاعُ، وَذَلِكَ كَالْبَحَارِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ: الْبَحْرُ الْمُحِيطُ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الرِّقَاقِ، وَبَحْرُ الْقَلْزَمِ، وَبَحْرُ الْيَمَنِ، وَبَحْرُ الْبَصْرَةِ، وَبَحْرُ فَارِسَ، وَبَحْرُ الصِّينِ وَالْهِنْدِ، وَبَحْرُ الرُّومِ، وَبَحْرُ الْخَزَرِ، وَمَا شَاكَلَهَا وَشَابَهَهَا مِنَ الْبَحَارِ السَّائِكَةِ الَّتِي لَا تَجْرِي، وَلَكِنْ تَمُوجُ وَتَضْطَرِبُ وَتَلْتَطِمُ فِي زَمَنِ السَّتَاءِ وَشِدَّةِ الرِّيَّاحِ، وَمِنْهَا مَا فِيهِ مَدٌّ وَجَزْرٌ، فَفِي أَوَّلِ كُلِّ شَهْرٍ يَحْضُلُ مِنْهَا مَدٌّ وَفَيْضٌ، فَإِذَا شَرَعَ الشَّهْرُ فِي النَّقْصَانِ جَزْرَتْ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى عَائِيَّتِهَا الْأُولَى، فَإِذَا اسْتَهَلَّ الْهَلَالُ مِنَ الشَّهْرِ الْآخِرِ شَرَعَتْ فِي الْمَدِّ إِلَى اللَّيْلِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ، ثُمَّ تَشْرُعُ فِي النَّقْصِ،

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

فَأَجْرِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَهُوَ ذُو الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ - الْعَادَةُ بِذَلِكَ، فَكُلُّ هَذِهِ الْبَحَارِ السَّائِكَةِ، خَلَقَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِحَةً لِئَلَّا يَحْضُلَ بِسَبَبِهَا تَنُّنُ الْهَوَاءِ، فَيَسْتَدُّ الْوُجُودَ بِذَلِكَ، وَلِكَلَّا تَجُورِ الْأَرْضُ بِمَا يَمُوتُ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانِ، وَلَمَّا كَانَ مَاؤُهَا [مَالِحًا]: كَانَ هَوَاؤُهَا صَاحِحًا وَمَمِئْتِهَا طَيِّبَةً. وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ: أَنْتَوَضُّأُ بِهِ؟ فَقَالَ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْجِلُّ مَمِئَتُهُ». رَوَاهُ الْأَيْمَةُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا﴾ أَي: بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ ﴿بَرْزًا﴾ أَي: حَاجِزًا وَهُوَ الْبَيْسُ مِنَ الْأَرْضِ، ﴿وَحِجْرًا تَحْجُرًا﴾ أَي: مَا نَعَا مِنْ أَنْ يَصِلَ

(١) مسلم: ٣٧٠/١ وفتح الباري: ١/٦٣٤ (٢) الطبري: ١٩/٢٨١ (٣) الموطأ: ١/٢٢٢ ومسند الشافعي: ١/٢٣ وأحمد: ٢/٣٦١ وأبو داود: ١/٦٤ وتحفة الأحوزي: ١/٢٢٤ والنسائي: ١/٥٠ وابن ماجه: ١/١٣٦

[الرَّسُولُ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي: بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ، مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَي: عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا الْإِنذَارِ مِنْ أَجْرَةٍ أَطْلُبُهَا مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨] ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أَي: طَرِيقًا وَمَسْلَكًا وَمَنْهَجًا يَقْتَدِي فِيهَا بِمَا حِثَّتْ بِهِ.

[أمر الرسول بالتوكل على الله وذكر بعض صفاته]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِيَّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أَي: فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا كُنْ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا، الَّذِي ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ يَكِلُ شَيْءًا عَليمٌ﴾ [الحديد: ٣] الدَّائِمِ الْبَاقِي السَّرْمَدِيُّ الْأَبَدِيُّ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ اجْعَلْهُ دُخْرَكَ وَمَلْجَأَكَ، وَهُوَ الَّذِي يُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيُفْرَعُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظْفِرُكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أَي: افْرَنْ بَيْنَ حَمْدِهِ وَتَسْبِيحِهِ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ»^(١). أَي: أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ وَالتَّوَكُّلَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ اللَّشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذُّبُ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أَي: يَعْلَمُهُ النَّامُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الْآيَةَ. أَي: هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، الَّذِي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي سُفُولِهَا وَكَثَافَتِهَا ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أَي:

أَحَدَهُمَا إِلَى الْآخَرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٦﴾ بَيْنَهُمَا بَرْخٌ لَا يَبِيغَانِ ﴿١٧﴾ فَإِنِّي آتَاكِ رَبَّكُمَا نَكْرَبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلْفَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا...﴾ الْآيَةَ، أَي: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ فَسَوَّاهُ وَعَدَلَّهُ، وَجَعَلَهُ كَامِلَ الْخِلْقَةِ ذَكَرًا وَأُنْثَى، كَمَا يَشَاءُ، ﴿فَجَعَلَهُ نَسًا وَصِهْرًا﴾ فَهُوَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ وَلَدٌ نَسِيبٌ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُ فَيَصِيرُ صِهْرًا، ثُمَّ يَصِيرُ لَهُ أَصْهَارٌ وَأَخْتَانٌ وَقَرَابَاتٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِيَّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُّبُ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِرَبِّهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

[جَهَالَةُ الْمُشْرِكِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَمْلِكُ لَهُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، بِلَا دَلِيلٍ قَادِمٍ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا حُجَّةٍ أَذْنُهُمْ إِلَيْهِ بَلْ بِمُجَرَّدِ الْأَرَاءِ وَالتَّشْبِهِي وَالْأَهْوَاءِ، فَهُمْ يُؤَالُونَهُمْ وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِمْ، وَيَعَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أَي: عَوْنَا فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ حِزْبِ اللَّهِ، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] أَي: إِلَهَتُهُمْ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَصْرًا، وَهَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ لِلْأَصْنَامِ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ يُقَاتِلُونَ عَنْهُمْ، وَيَذُبُّونَ عَنْ حَوَازِيئِهِمْ، وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ وَالتَّصَرُّفَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ قَالَ: يُظَاهِرُ الشَّيْطَانَ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَيُعِينُهُ.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، وَيَفْضِي الْحَقَّ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ.

﴿قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ أَي: اسْتَعْلِمَ عَنْهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ بِهِ عَالِمٌ بِهِ، فَاتَّبَعَهُ وَاقْتَدَىٰ بِهِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمَ بِاللَّهِ وَلَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، سَيِّدٍ وَلَدٍ أَدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، فَمَا قَالَ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ الصِّدْقُ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُحْكَمُ الَّذِي إِذَا تَنَازَعَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ وَجَبَ رَدُّ نِزَاعِهِمْ إِلَيْهِ، فَمَا وَافَقَ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالُهُ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ مُرَدُّودٌ عَلَى قَائِلِهِ وَفَاعِلِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن نَنزَعْنَاهُ مِن شَيْءٍ﴾ الْآيَةُ [النساء: ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَي: صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾.

[ذَمُّ الْمُشْرِكِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، وَكَانُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنُ، كَمَا أَنْكَرُوا ذَلِكَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْكَاتِبِ: «اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَقَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. (١) وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] أَي: هُوَ اللَّهُ وَهُوَ الرَّحْمَنُ وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لَا نَعْرِفُهُ وَلَا نَفْقَهُ بِهِ «اسْجُدْ لِمَا تَأْمُرُنَا» أَيْ: لِمَجْرَدِ قَوْلِكَ «وَادِّعْهُمُ نُفُورًا» فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَيُقَرِّدُونَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَيَسْجُدُونَ لَهُ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ رَجْمَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَنْ هَذِهِ السَّجْدَةُ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ مَشْرُوعُ السُّجُودِ عِنْدَهَا لِقَارِئِهَا وَمُسْتَمْعِهَا، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ أَيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ

يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا ﴿١١﴾

[بَيَانُ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُمَجَّدًا نَفْسَهُ وَمُعْظَمًا عَلَى جَمِيلٍ مَا خَلَقَ فِي السَّمَوَاتِ مِنَ الْبُرُوجِ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْعِظَامُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي صَالِحٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ (٢). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ ... الْآيَةُ [الملك: ٥]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَهِيَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ الَّتِي هِيَ كَالسَّرَاجِ فِي الْوُجُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجِبًا﴾ [النبا: ١٣] ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أَي: مُشْرِقًا مُضِيئًا بِنُورٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِ نُورِ الشَّمْسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ وَقَالَ مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (٣) ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ أَيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً﴾ أَي: يَخْلُفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، يَتَعَابَقَانِ لَا يَفْتَرَانِ، إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَحَّرَ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ ... الْآيَةُ [إبراهيم: ٣٣]، وَقَالَ: ﴿يَغِيثُ أَيْلَ النَّهَارِ بِطَلْبِهِ حَيْثُ﴾ ... الْآيَةُ [الأعراف: ٥٤]، وَقَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ ... الْآيَةُ [يس: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا﴾ أَي: جَعَلَهُمَا يَتَعَابَقَانِ تَوْقِيئًا لِعِبَادَةِ عِبَادِهِ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي اللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ فِي النَّهَارِ، وَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي النَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ فِي اللَّيْلِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ» (٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿خَلْفَةً﴾ أَي: مُخْتَلِفِينَ، أَي: هَذَا بِسَوَادِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ (٤).

﴿وَعَسَاءَ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَسْتَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (١) وَالَّذِينَ يَبْسُطُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا (٢) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٣) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٤) وَالَّذِينَ

(١) أحمد: ٢٦٨/٣ (٢) الطبري: ٢٨٩/١٩ والبغوي: ٣/٣٧٤ (٣) مسلم: ٢١١٣/٤ (٤) الطبري: ٢٩١/١٩

إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا

﴿٧٧﴾

[بَيَانُ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ]

هَذِهِ صِفَاتُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أَي: بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ مِنْ غَيْرِ جَبَرِيَّةٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمًا﴾ الْآيَةُ [الْإِسْرَاءُ: ٣٧]، فَأَمَّا هُوَاءٌ فَإِنَّهُمْ يَمْشُونَ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْبَارٍ وَلَا مَرَحٍ، وَلَا أَشْرٍ وَلَا بَطَرٍ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ كَالْمَرْضَى تَضَعًا وَرَبَاءً، فَقَدْ كَانَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ﷺ إِذَا مَسَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، وَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ تَطْوِي لَهُ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْهَوْنِ هُنَا السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتَوْهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتَوْهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ مِنْهَا فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتُوا»^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أَي: إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمُ الْجَهَالُ بِالْقَوْلِ السَّيِّئِ لَمْ يَقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ، بَلْ يَغْفَوْنَ وَيَضْفَحُونَ وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَرِيدُهُ شِدَّةُ الْجَاهِلِ عَلَيْهِ إِلَّا جِلْمًا، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ...

الآيَةُ [الْقَصَصُ: ٥٥]. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ مُقْرِنٍ الْمُرِّيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَسَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ الْمُسْتُوبُ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَدُبُّ عَنْكَ، كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قُلْتَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا، بَلْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ». إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ^(٢).

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَيْلَهُمْ خَيْرٌ لَيْلٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَفِينَا﴾ ﴿٧٨﴾ أَي: فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَوْ قِيلًا مِنْ آيَاتِ مَا يَهْجُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَيَأْتِي حَرْفُ هَمْ يَسْتَنْفِرُونَ [الذَّارِيَاتُ: ١٧، ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿تَسْجَافِي جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَصَابِحِ﴾... الْآيَةُ [السَّجْدَةُ: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَلْبِي أَنَا أَلَيْلٌ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾... الْآيَةُ [الزُّمَرُ: ٩]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أَي: مُلَازِمًا دَائِمًا.

وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٧٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مَهْلَكًا ﴿٧٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٨٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا لَبَسَتْ رِيهًا لَمْ تَجِرْ أَعْيُنُهُمْ فَوَاسِقًا ﴿٨٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا طَيِّبَةً وَآعِنَّا وَأَجْعَلْنَا لِلْمُنْفِقِينَ إِمَامًا ﴿٨٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٨٥﴾ خَلَدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٨٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٨٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

كُلُّ شَيْءٍ يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ وَيَزُولُ عَنْهُ، فَلَيْسَ بِغَرَامٍ، وَإِنَّمَا الْغَرَامُ الْمَلَاذِمُ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ^(٣). وَكَذَا قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ^(٤): «إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا» أَي: بِئْسَ الْمَنْزِلُ مُنْظَرًا، وَبِئْسَ الْمَقِيلُ مَقَامًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾... الْآيَةُ، أَي: لَبَسُوا بِمُبْدَرِينَ فِي إِتْفَاقِهِمْ، فَيَصْرِفُونَ فَوْقَ الْحَاجَةِ، وَلَا يُخَلَّاءُ عَلَى أَهْلِيهِمْ فَيَقْصُرُونَ فِي حَقِّهِمْ فَلَا يَكْفُونَهُمْ، بَلْ عَدَلًا خَيْرًا، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا، لَا هَذَا وَلَا هَذَا، «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾... الْآيَةُ [الْإِسْرَاءُ: ٢٩].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿٧٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مَهْلَكًا ﴿٧٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ

(١) فتح الباري: ٤٥٣/٢ (٢) أحمد: ٤٤٥/٥ (٣) الطبري:

٢٩٧/١٩ (٤) عبد الرزاق: ٧٢/٣

تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُوءُ إِلَى اللَّهِ مَنَابًا ﴿٧٢﴾

[مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ اجْتِنَابُ الشَّرِكِ وَالْقَتْلِ وَالزُّنَا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ... الآية (١)﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٢). وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٣).

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَدِّثُ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشَّرِكِ قَتَلُوا فَأَكْتَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْتَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لِحَسَنٍ، لَوْ نُخْبِرُنَا أَنْ لِمَا عَمَلْنَا كَفَّارَةً، فَتَزَلْتِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ... الآية﴾. وَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ يَجْعَلُونَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ... الآية (٤)﴾ [الزمر: ٥٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَثَامًا﴾: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ (٥). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ أَوْدِيَةٌ فِي جَهَنَّمَ يُعَذَّبُ فِيهَا الزُّنَاةُ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ (٦). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ جَزَاءً. وَهَذَا أَشْبَهَ بِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَبِهَذَا فَسَّرَهُ بِمَا بَعْدَهُ مُبَدَلًا مِنْهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُضَعَّفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيُّ: يُكْرَّرُ عَلَيْهِ وَيُعَلِّطُ وَيَعْلَدُ فِيهِ مَهَانًا أَيُّ: حَقِيرًا ذَلِيلًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أَيُّ: جَزَاؤُهُ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ مَا ذَكَرَ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُبُوءُ عَلَيْهِ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ وَبَيْنَ آيَةِ النَّسَاءِ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا... الآية﴾ [النساء: ٩٣]، فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مَدِينَةً إِلَّا أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ، فَتَحْمَلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ لِأَنَّ هَذِهِ مُقَدَّمَةٌ بِالتَّوْبَةِ، ثُمَّ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾... الآية﴾ [النساء: ١١٦].

وَقَدْ بَيَّنَّتِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِصِحَّةِ تَوْبَةِ

الْقَاتِلِ، كَمَا ذَكَرَ مُقَرَّرًا مِنْ قِصَّةِ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ رَجُلٍ ثُمَّ تَابَ، فَقَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ. وَعَزَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَى الْجَنَّةِ، يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُولُ: نَحُوا عَنْهُ كِبَارُ ذُنُوبِهِ وَسَلُّوهُ عَنْ صِغَارِهَا، قَالَ: فَيَقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَيَقَالُ: فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَهُنَا» قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ (٧). اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ (٨).

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي جَابِرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ مَكْحُولًا يُحَدِّثُ قَالَ: جَاءَ شَيْخٌ كَبِيرٌ هَرِمٌ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ غَدَرَ وَفَجَرَ وَلَمْ يَدْعُ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً إِلَّا ائْتَفَقَهَا بِبَيْنِيهِ، لَوْ قَسِمْتَ حَظِيَّتَهُ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَوْبَقْتُهُمْ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَأَسْلَمْتَ؟» فَقَالَ: أَمَا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرٌ لَكَ مَا كُنْتَ كَذَلِكَ، وَمُبَدِّلُ سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ فَقَالَ: «وَوَغَدَرَاتِكَ وَفَجَرَاتِكَ» فَوَلَّى الرَّجُلُ يَهْلُلُ وَيُكَبِّرُ (٩).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عُمُومِ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا، كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُوءُ إِلَى اللَّهِ مَنَابًا﴾ أَيُّ: فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظِلْمَ نَفْسَهُ... الآية﴾ [النساء: ١١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ... الآية﴾ [التوبة: ١٠٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَجْعَلُونَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾

(١) أحمد: ٣٨٠/١ (٢) النسائي في الكبرى: ٤٢٠/٦ (٣)

فتح الباري: ١١٦/١٢ ومسلم: ٩١، ٩٠/١ (٤) الطبري: ٩/

٤١٤ (٥) الطبري: ٣٠٨/١٩ (٦) الطبري: ٣٠٨/١٩ (٧)

أحمد: ١٧٠/٥ (٨) مسلم: ١٧٧/١ (٩) الدر المشور: ٦/

٢٨١ وأحمد: ٣٨٥/٤ ومجمع الزوائد: ٣٢/١

اللَّيْلِ... الآية [الزمر: ٥٣]، أَي: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ٧٢﴾
وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا
وَعَمِيَانًا ٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَدِّرِّيِّنَا
قِرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْفِقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾

[بَعْضُ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ]

وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ
الزُّورَ، وَهُوَ الْكُذِبُ وَالْفُسْقُ وَاللُّغْوُ وَالْبَاطِلُ،
وَقَالَ عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ: هِيَ مَجَالِسُ الشُّؤْمِ وَالْخَنَا. وَقِيلَ:
الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أَي: شَهَادَةَ
الزُّورِ، وَهِيَ الْكُذِبُ مُتَعَمِّدًا عَلَى غَيْرِهِ، كَمَا فِي
الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا
أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» ثَلَاثًا، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.
قَالَ: «الشُّرْكَ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مَتَّكِئًا، فَجَلَسَ
فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ
يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ^(١). وَالْأَطْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ
الْمُرَادَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أَي: لَا يَحْضُرُونَهُ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أَي: لَا يَحْضُرُونَ
الزُّورَ، وَإِذَا اتَّفَقَ مُرُورُهُمْ بِهِ مَرُّوا وَلَمْ يَتَذَنَّبُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ،
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ
يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعَمِيَانًا﴾ وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ
﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ
إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] بِخِلَافِ الْكَافِرِ،
فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ وَلَا يَتَغَيَّرُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ
بَلْ يَبْقَى مُسْتَمِرًّا عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجَهْلِهِ وَضَلَالِهِ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْسُرُ
زَادَتْهُمْ هَلْوَءَ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ٧٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] فَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَخِرُّوا
عَلَيْهَا صُمًّا وَعَمِيَانًا﴾ أَي: بِخِلَافِ الْكَافِرِ الَّذِي إِذَا سَمِعَ
آيَاتِ اللَّهِ فَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ، فَيَسْتَمِرُّ عَلَى حَالِهِ- كَأَنَّ لَمْ
يَسْمَعْهَا- أَصَمُّ أَعْمَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا
وَدِّرِّيِّنَا قِرَّةً أَعْيُنَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ يَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ
مِنْ أَضْلَابِهِمْ مِنْ دُرِّيَّاتِهِمْ مَنْ يُطِيعُهُ وَيَعْبُدُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

لَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنُونَ مَنْ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَتَقَرَّرَ بِهِ
أَعْيُنُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ: جَلَسْنَا إِلَى
الْمُقَدِّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ يَوْمًا، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ
الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ [رَأَتَا] رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَوَدِدْنَا أَنَا رَأَيْنَا مَا
رَأَيْتَ وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ، فَاسْتَعْصَبَ الْمُقَدِّادُ، فَجَعَلْتُ
أَعَجِبُ لِأَنَّهُ مَا قَالَ إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا يَحْمِلُ
الرَّجُلَ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيْبَهُ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَدْرِي لَوْ
شَهِدَهُ كَيْفَ يَكُونُ فِيهِ وَاللَّهِ لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْوَامٌ
أَكْبَهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاجِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ
يُصَدِّقُوهُ، أَوْ لَا تَحْمَدُونَ اللَّهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ قَدْ كُفَيْتُمْ
الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ؟ لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى [أَشَدِّ] حَالٍ
بَعَثَ عَلَيْهَا نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي فِتْرَةٍ [مِنْ] جَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرُونَ
أَنْ دِينًا أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفَرَقَانِ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ
الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ
لَيَرَى وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ قُلُوبَهُ
لِلْإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ
يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيئَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّمَا الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَدِّرِّيِّنَا قِرَّةً أَعْيُنَ﴾.

وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ^(٣).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْفِقِينَ إِمَامًا﴾ قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: أَيْمَةٌ
يُقْتَدَى بِهَا فِي الْخَيْرِ^(٤). وَقَالَ غَيْرُهُمْ: هُدَاةٌ مُهْتَدِينَ دُعَاةٌ
إِلَى الْخَيْرِ، فَأَحْبَبُوا أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُمْ مُتَّصِلَةً بِعِبَادَةِ
أَوْلَادِهِمْ وَدُرِّيَّاتِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ مُتَّعِدًّا إِلَى غَيْرِهِمْ
بِالتَّفْعِ، وَذَلِكَ أَكْثَرُ ثَوَابًا، وَأَحْسَنُ مَالًا، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي
صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ
ثَلَاثٍ: وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٍ يُتَّبَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ
صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ»^(٥).

﴿أُولَئِكَ يَجْزِيكَ الْعَرْشُكَ بِمَا صَبَرُوا وَيَقُولُونَ فِيهَا حِجَّةً
وَسَلَامًا ٧٥﴾ حَكِيدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦﴾ قُلْ مَا

(١) فتح الباري: ٣٠٩/٥، مسلم: ٩١/١ (٢) الطبري: ١٩

٣١٨ (٣) أحمد: ٢/٦ (٤) الطبري: ٣١٩/١٩ (٥) مسلم:

يَعْبُؤْا بِكَ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

[حِزَاءُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ وَالْوَعِيدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَوْصَافِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا ذَكَرَ مِنْ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْجَلِيلَةِ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كَلِمَةً: ﴿أُولَئِكَ﴾ أَي: الْمُتَّصِفُونَ بِهِ. ﴿يُحْتَرَمُونَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿الْفَرْقَةَ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَرْتِفَاعِهَا ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أَي: عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا﴾ أَي: فِي الْجَنَّةِ ﴿حَيْثُ وَسَلَّمَا﴾ أَي: يُبْتَدَرُونَ فِيهَا بِالْحَيَّةِ وَالْإِكْرَامِ، وَيُلْقَوْنَ التَّوْقِيرَ وَالِاحْتِرَامَ، فَلَهُمُ السَّلَامُ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أَي: مُقِيمِينَ لَا يَطْعَنُونَ وَلَا يَحُولُونَ، وَلَا يَمُوتُونَ وَلَا يَزُولُونَ عَنْهَا، وَلَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ...﴾ [الآية هود: ١٠٨]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أَي: حَسَنَتْ مُنْظَرًا وَطَابَتْ مَقِيلًا وَمَنْزِلًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكَ رَبِّي﴾ أَي: لَا يِيَالِي وَلَا يَكْتَرِبُ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ وَيُوحِدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أَي: فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْلِيفِيكُمْ لِزَامًا لَكُمْ، يَعْنِي مُقْتَضِيًا لِعَذَابِكُمْ وَهَلَاكِكُمْ وَدِمَارِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ يَوْمٌ بَدْرٌ، كَمَا فَسَّرَهُ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَأَبِيُّ بَنْ كَعْبٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ وَمُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٢). وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا.

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْفُرْقَانِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦٧

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِذَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنَّ شَأْنَ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهَتْ أَنْبَاءَهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ آتِ الْقَوْمَ الْأَعْزَمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَبَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَابِ شَيْئَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعْمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

(وَوَقَعَ فِي تَفْسِيرِ مَالِكِ الْمَرْوِيِّ عَنْهُ، تَسْمِيَّتُهَا: سُورَةُ الْجَامِعَةِ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّرَ﴾ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِذَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنَّ شَأْنَ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهَتْ أَنْبَاءَهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَالْقُرْآنُ وَإِعْرَاضُ الْكُفَّارِ عَنْهُ وَقَهْرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ لَوْ

(١) الطبري: ٣٢٤/١٩ وعبد الرزاق: ٧٢/٣ (٢) الدر المنثور:

شَاءَ اللَّهُ

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْغَيْبِ﴾ أَي: هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ، أَي: الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْغَيْبِ وَالرَّشَادِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمَّا كَذَبْتُمْ﴾ أَي: مَهْلِكٌ ﴿نَفْسِكَ﴾ أَي: مِمَّا تَحْرُصُ وَتَحْزَنُ عَلَيْهِمْ ﴿أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي عَدَمِ إِيْمَانِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَهَبِّ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] كَقَوْلِهِ: ﴿لَمَّا كَذَبْتُمْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ أَي: لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَصْفًا [الكهف: ٦]. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةٌ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمْ: ﴿لَمَّا كَذَبْتُمْ نَفْسَكَ﴾ أَي: قَاتِلِ نَفْسَكَ^(١).

الْقَاهِرُ الْعَظِيمُ الْقَادِرُ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَأَنْبَتَ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَحَيَوَانٍ. قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ رَجُلٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ: النَّاسُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَهُوَ كَرِيمٌ، وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ لَيْسٌ^(٢). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أَي: دَلَالَةً عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ، الَّذِي بَسَطَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بِنَاءَ السَّمَاءِ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرَ النَّاسِ، بَلْ كَذَّبُوا بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَكُتِبَ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، وَارْتَكَبُوا نَهْيَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ﴾ أَي: الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ وَعَلَبَهُ ﴿الرَّحِيمُ﴾ أَي: يَخْلُقُهُ، فَلَا يُعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ، ثُمَّ يَأْخُذُهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَابْنُ إِسْحَاقَ: الْعَزِيزُ فِي نَفْسِهِ وَانْتِصَارِهِ مِمَّنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَعَبَدَ غَيْرَهُ^(٣). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الرَّحِيمُ بِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْمَقْلُوبِينَ﴾ (١٠) قَوْمٌ فَرَعُونَ آلَا يَنْفُونَ (١١) قَالَ رَبِّي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبْ بِرَبِّكَ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأَنبَأَ فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ تَرَ لِي فِئَةً لَبِذًا وَلِئْسَتْ فِئَةً مِنْ عَمْرِكُ سِينِ (١٨) وَقَلْتُمْ لَقَدْ كَلَّمْنَاكَ إِنِّي فَكَلَّمْتُ وَآتَتْ مِنْ الْكَبِيرَاتِ (١٩) قَالَ فَهَلْ عَلَّمْنَا إِذَا وَآتَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَرَّخْتُ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَلَيْكُمُ نِعْمَةٌ مَعَهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)

[بَيْنَ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَمَرَ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَتَهُ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ نَادَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وَكَلِمَتَهُ وَنَاجَاهُ، وَأَرْسَلَهُ وَاصْطَفَاهُ، وَأَمْرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِيئِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) قَوْمٌ فَرَعُونَ آلَا يَنْفُونَ (١١) قَالَ رَبِّي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) هَذِهِ أَعْدَاؤُ سَأَلَ اللَّهُ إِزَاحَتَهَا عَنْهُ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي

تَمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنَاهُمْ﴾ أَي: لَوْ نَشَأْ لَأَنْزَلْنَا آيَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ الْإِيْمَانِ قَهْرًا، وَلَكِنْ لَا نَفْعُ ذَلِكَ لِأَنَّا لَا نُرِيدُ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْإِيْمَانَ الْإِخْتِيَارِيَّ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا فَأَفَاتَتْ تِكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً... الْآيَةَ [هود: ١١٨]، فَتَمَدَّدَ قَدْرُهُ، وَمَضَتْ حُكْمَتُهُ، وَقَامَتْ حُجَّتُهُ الْبَالِغَةُ عَلَىٰ خَلْقِهِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، وَإِنزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَلِّئًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥] أَي: كُلَّمَا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ أَعْرَضَ عَنْهُ أَكْثَرَ النَّاسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَرَةً عَلَىٰ الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرًا كُلَّ مَا جَاءَهُمْ مِنْهُمُ رَسُولًا كَذِبًا... الْآيَةَ [المؤمنون: ٤٤]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ أَنْتَهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٦] أَي: فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، فَسَيَعْلَمُونَ نَبَأَ هَذَا التَّكْذِيبِ بَعْدَ حِينَ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

(١) الطبري: ٣٣٠/١٩ والدر المنثور: ٣٦٠/٦ (٢) الدر المنثور: ٢٨٩/٦ (٣) الطبري: ٣٠٤/٢٣ و٢٦٠/٣ و٥١١/٥

تَمَّ بَنَى تَعَالَى عَلَى عَظَمَةِ سُلْطَانِهِ وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَشَأْيِهِ، الَّذِينَ اجْتَرَأُوا عَلَىٰ مُخَالَفَةِ رَسُولِهِ وَتَكْذِيبِ كِتَابِهِ، وَهُوَ

صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَزِي لِ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَوَيْتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٢٥-٣٦].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ أَي: بِسَبَبِ قَتْلِ ذَلِكَ الْقَبْطِيِّ الَّذِي كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أَي: قَالَ اللَّهُ لَهُ: لَا تَخَفْ مِنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَنًا﴾ [القصص: ٣٥] أَي: بُرْهَانًا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتَا وَمَنْ أَتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، ﴿فَأَذَهَبَا بِأَيِّتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مَسْعَمٌ وَأَرْوَى﴾ [طه: ٤٦] أَي: إِنِّي مَعَكُمْ بِحِفْظِي وَكِلَافَتِي وَنَضْرِي وَتَأْيِيدِي ﴿فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أَي: كُلُّ مَنَا أُرْسِلُ إِلَيْكَ ﴿أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ١٧] أَي: أَطْلِقُهُمْ مِنْ إِسَارِكَ وَقَبَضَتِكَ وَقَهْرِكَ وَتَعْدِيْبِكَ، فَإِنَّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ وَجِزْبَةُ الْمُخْلِصُونَ، وَهُمْ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى ذَلِكَ أَعْرَضَ فِرْعَوْنُ عَمَّا هُنَالِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بَعَيْنِ الْإِزْدِرَاءِ وَالْغَمَصِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ نُزِكَ فِينَا وَوَلِيدًا...﴾ الْآيَةَ، أَي: أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّبْنَا فِينَا وَفِي بَيْتِنَا وَعَلَى فِرَاشِنَا، [وَعَدَيْتَانَا] وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مَدَّةً مِنَ السِّنِينَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا قَابَلْتَ ذَلِكَ الْإِحْسَانَ بِتِلْكَ الْفِعْلَةِ: أَنْ قَتَلْتَ مِنَّا رَجُلًا، وَجَحَدْتَ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ أَي: الْجَاحِدِينَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ^(١). ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا﴾ أَي: فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَي: قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ، وَنُيْعِمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِالرَّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَي: انْفَصَلَ الْحَالُ الْأَوَّلُ وَجَاءَ أَمْرٌ آخَرُ، فَقَدْ أُرْسَلَنِي اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ أَطَعْتَهُ سَلِمْتَ، وَإِنْ خَالَفْتَهُ عَطِيتَ، ثُمَّ قَالَ مُوسَى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَي: وَمَا أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَرَبَّبْتَنِي مُقَابِلَ مَا أَسَأْتُ إِلَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَجَعَلْتَهُمْ عِبِيدًا وَخَدَمًا نَصْرُفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَشَاقِّ رَعِيَّتِكَ، أَفِيْفِي إِحْسَانِكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَأْتُ إِلَيَّ مَجْمُوعِهِمْ، أَي: لَيْسَ مَا ذَكَرْتَهُ سَيِّئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَعَلْتَ بِهِمْ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿قَالَ

٣٦٨

سورة الشعراء

الجزء الثاني

قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٣﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾ قَالَ لَنْ آتِيَنَّكَ إِلَهًا غَيْرِي لِجَعَلْنَاكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٥﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ إِذِهَا بِبِضَاءٍ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ أَوْ رَجِهَ وَأَخَاهُ وَأَعْتَبَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٩﴾ يَا أَيُّكَ بِكُلِّ صَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٤٠﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لَمِيقَتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴿٤١﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٤٢﴾

رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَتَمَرُّدِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجُحُودِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٥] وَكَانُوا يَجْحَدُونَ الصَّانِعَ جَلَّ وَعَلَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَهُمْ سِوَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: وَمَنْ هَذَا الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ غَيْرِي؟ هَكَذَا فَسَّرَهُ عُلَمَاءُ السَّلَفِ وَأَيْمَةُ الْخَلْفِ، حَتَّى قَالَ السُّدِّيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] وَمَنْ رَزَعَمَ مِنْ أَهْلِ الْمُنْطِقِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ هَذَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦٩

سُورَةُ الشُّعْرَاءِ

لَعَلَّنَا نَنْجِي السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ
 قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا أَجْرُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنِّكُمْ إِذَا لِمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوْمَا أَنْتُمْ مَلْفُونٌ
 ﴿٤٣﴾ فَالْقَوْمُ اجْبَاهُمْ وَعَصِيَّتْهُمْ وَقَالُوا بَعْزَةُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
 الْعَالِمُونَ ﴿٤٤﴾ فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
 ﴿٤٥﴾ فَالْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَمْ آتَى الرَّبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾
 رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ أءِمْسْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ
 لَكَبِيرٌ كَمَا الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
 وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَاصْبِرْنَا
 إِلَى رَبِّنَا مُقْرَبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا
 أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ
 مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ
 لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَاظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ
 ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

الْصَّادِقِينَ ﴿٦١﴾ فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُنِينٌ ﴿٦٢﴾ وَنَزَّ بِدُؤُهَا إِذَا هِيَ
 بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ بَرِيدٌ
 أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ
 وَأَخَاهُ وَأَمْنَتْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٦٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ
 عَلِيمٍ ﴿٦٧﴾

لَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى فِرْعَوْنَ بِالْبَيَانِ وَالْعَقْلِ، عَدَلَ إِلَى
 أَنْ يُفْهَرَ مُوسَى بِيَدِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ هَذَا
 الْمَقَامِ مَقَالٌ، فَقَالَ: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنْ
 السَّمْعِيِّينَ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ
 مِنْ رَبِّكَ مُنِينٍ﴾ أَيْ: بِبُرْهَانٍ قَاطِعٍ وَاضِحٍ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٦١﴾ فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُنِينٌ ﴿٦٢﴾ أَيْ: ظَاهِرٌ
 وَاضِحٌ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ وَالْعِظَمَةِ، ذَاتُ قَوَائِمٍ،
 وَقَمٍ كَبِيرٍ، وَسُكُلٍ هَائِلٍ مُزْعِجٍ ﴿وَنَزَّ بِدُؤُهَا﴾ أَيْ: مِنْ جَبِيهِ
 ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ أَيْ: تَتَلَأَلُ كَقِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَرِ،
 فَبَادَرَ فِرْعَوْنَ بِشَقَاوَتِهِ إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ، فَقَالَ لِلْمَلَأِ
 حَوْلَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: فَاضِلٌ بَارِعٌ فِي

سُؤَالٍ عَنِ الْمَاهِيَةِ فَقَدْ غَلَطَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُفْرًا بِالصَّانِعِ
 حَتَّى يَسْأَلَ عَنِ الْمَاهِيَةِ، بَلْ كَانَ جَاحِدًا لَهُ بِالْكَلْبَةِ فِيمَا
 يَظْهَرُ، وَإِنْ كَانَتْ الْحُجُجُ وَالْبُرَاهِينُ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ، فَعِنْدَ
 ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿قَالَ رَبُّ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيْ: خَالِقُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ
 وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ، وَإِلَهُهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ
 الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا، الْعَالَمَ الْعُلُوبِيَّ وَمَا فِيهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ
 النَّوَابِتِ وَالسِّيَّارَاتِ النَّبْرَاتِ، وَالْعَالَمَ السُّفْلِيَّ وَمَا فِيهِ مِنْ
 بَحَارٍ وَقِفَارٍ وَجِبَالٍ وَأَشْجَارٍ وَحَيَوَانَاتٍ وَنَبَاتٍ وَثَمَارٍ، وَمَا
 بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْهَوَاءِ وَالطَّيْرِ، وَمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ الْجَوْ،
 الْجَمِيعُ عِبْدٌ لَهُ خَاضِعُونَ ذَلِيلُونَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أَيْ:
 إِنْ كَانَتْ لَكُمْ قُلُوبٌ مُوقِنَةٌ وَأَبْصَارٌ نَافِذَةٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ التَّفَتُّ
 فِرْعَوْنَ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ مِنْ مَلَكِهِ وَرُؤَسَاءِ ذَوْلِهِ قَائِلًا لَهُمْ -
 عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُوسَى فِيمَا قَالَه
 -: ﴿أَلَا تَسْتَعِينُونَ﴾ أَيْ: أَلَا تَتَعَجَّبُونَ [مِمَّا يَقُولُ] هَذَا فِي
 رَعْمِي: أَنْ لَكُمْ إِلَهًا غَيْرِي؟! فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ
 آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: خَالِقُكُمْ وَخَالِقُ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ -
 الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ فِرْعَوْنَ وَرَمَائِهِ - ﴿قَالَ﴾ أَيْ فِرْعَوْنَ
 لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُ
 عَقْلٌ فِي دَعْوَاهُ: أَنْ تَمَّ رَبَّنَا غَيْرِي. ﴿قَالَ﴾: أَيْ: مُوسَى
 لِأَوْلِيكِ الَّذِينَ أُوْعِزَ إِلَيْهِمْ فِرْعَوْنَ مَا أُوْعِزَ مِنَ الشُّهَةِ،
 فَاجَابَ مُوسَى بِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ
 كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَشْرِقَ مَشْرِقًا تَطْلُعُ مِنْهُ
 الْكَوَاكِبُ، وَالْمَغْرِبَ مَغْرِبًا تَغْرُبُ فِيهِ الْكَوَاكِبُ: فَوَابِئُهَا
 وَسَيَّارَاتُهَا، مَعَ هَذَا النِّظَامِ الَّذِي سَخَّرَهَا فِيهِ وَقَدَّرَهَا، فَإِنْ
 كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ صَادِقًا، فَلْيَعْكِسِ
 الْأَمْرَ وَلْيَجْعَلِ الْمَشْرِقَ مَغْرِبًا وَالْمَغْرِبَ مَشْرِقًا، كَمَا قَالَ
 تَعَالَى عَنْ: ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاكُفَهُ اللَّهُ الْمُلُوكَ
 إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُعْبَدُ قَالَ أَنَا أُخِيَّ وَأُؤَيِّتُ
 قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ
 الْمَغْرِبِ﴾... الآية [البقرة: ٢٥٨]. وَلِهَذَا لَمَّا غَلِبَ فِرْعَوْنَ
 وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ، عَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَقُوَّتِهِ
 وَسُلْطَانِهِ، وَاعْتَمَدَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ وَنَافِذٌ فِي مُوسَى، عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، فَقَالَ مَا أَحْبَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ:
 ﴿قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ السَّمْعِيِّينَ﴾ قَالِ أَوَّلُو
 جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُنِينٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنْ

السَّحَرِ، فَرَوَّجَ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ أَنَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ لَا مِنْ قَبِيلِ الْمُعْجِزَةِ، ثُمَّ هَبَّجَهُمْ وَحَرَضَهُمْ عَلَى مُخَالَفَتِهِ وَالْكَفْرِ بِهِ، فَقَالَ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾... الآية، أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعداؤه وأنصاره وأتباعه، ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليّ فيه ماذا أصنع به؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَيْهِ فِي الدَّلَائِنِ حَشِيرِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ أي: أخره وأخاه حتى تجتمع له من مدائن مملكته وأقاليم دولته كل سحار عليم يقابلونه، ويأتون بتطير ما جاء به، فتغلبه أنت، وتكون لك الضرّة والتأييد، فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك؛ ليجمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِيَقْدَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُتَّعِمُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنا نَنْبَغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْفَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا يَا مَرْءَ رَبِّ الْغَالِبِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

[بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسَّحَرَةَ]

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمُنَاطَرَةَ الْعُغْلِيَّةَ بَيْنَ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْقَبِطِ، فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ طه، وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَبِطَ أَرَادُوا أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَهَذَا شَأْنُ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ مَا تَوَاجَهَا وَتَقَابَلَا إِلَّا غَلَبَهُ الْإِيمَانُ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ﴾... الآية [الإسراء: ٨١]، وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ وَقَدْ جَمَعُوهُمْ مِنْ أَقَالِيمِ بِلَادِ مِصْرَ، وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ أَسْحَرَ النَّاسِ وَأَضْعَفَهُمْ وَأَشَدَّهُمْ تَخْيِيلًا فِي ذَلِكَ، وَكَانَ السَّحَرَةُ جَمْعًا كَثِيرًا وَجَمًّا غَفِيرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ. وَاجْتَهَدَ النَّاسُ فِي الْاجْتِمَاعِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ: ﴿لَعَلَّنا نَنْبَغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ وَلَمْ يَقُولُوا نَنْبَغُ الْحَقُّ، سِوَاءَ كَانَ مِنَ السَّحَرَةِ أَوْ مِنْ مُوسَى، بَلِ الرَّعِيَّةُ

بِسِحْرِ عَظِيمٍ [الأعراف: ١١٦]. وَقَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿فَإِذَا جِئْتُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِمِثْلِ آلِيهِ مِنْ سِحْرِهِمْ آتَاهَا تَسْعَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْ﴾ [طه: ٦٦-٦٩] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أَي: تَخْتِطِفُهُ وَتَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ بُعْثَةٍ وَتَبْتَلِعُهُ فَلَمْ تَدْعُ مِنْهُ شَيْئًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢] فَكَانَ هَذَا أَمْرًا عَظِيمًا جَدًّا، وَبُرْهَانًا قَاطِعًا لِلْعُدْرِ، وَحُجَّةً دَامِعَةً، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي اسْتَنْصَرَ بِهِمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَعْلُبُوا، غَلِبُوا وَخَصَعُوا، وَأَمَّنُوا بِمُوسَى فِي السَّاعَةِ الرَّاهِتَةِ، وَسَجَدُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي أَرْسَلَ مُوسَى وَهَارُونَ بِالْحَقِّ وَبِالْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ، فَغَلِبَ فِرْعَوْنُ غَلَبًا لَمْ يُشَاهِدِ الْعَالَمُ مِثْلَهُ، وَكَانَ وَقِحًا جَرِيئًا، عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَعَدَلَ إِلَى الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ وَدَعَا إِلَى الْبَاطِلِ، فَسَرَعَ يَتَهَدَّدُهُمْ وَيَتَوَعَّدُهُمْ وَيَقُولُ: ﴿إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ﴾ وَقَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ﴾... الآية.

﴿قَالَ أَمْسِرْ لَمْ قَبَلْ أَنْ آدَنْ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأَقْطَعَنَّ إِلَيْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ وَإِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا حَطَلِينَا أَنْ كُنَّا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾

[بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ]

تَهَدَّدُهُمْ فَلَمْ يَتَفَعَّ ذَلِكَ فِيهِمْ، وَتَوَعَّدَهُمْ فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا
إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ كُشِفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حِجَابُ
الْكُفْرِ، وَظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ بِعُلُوبِهِمْ مَا جَهِلَ قَوْمُهُمْ مِنْ: أَنَّ
هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَا يَصُدُّرُ عَنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ
قَدْ أَيْدَهُ بِهِ، وَجَعَلَهُ لَهُ حُجَّةً وَدَلَالَةً عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ
مِنْ رَبِّهِ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَأَمَّنتُمْ لِمَ قَبْلَ آءَادَنَّا
لَكُمْ﴾ أَي: كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي فِيمَا فَعَلْتُمْ، وَلَا
تَفْتَأُوا عَلَيَّ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ أَذِنْتُ لَكُمْ فَعَلْتُمْ، وَإِنْ مَنَعْتُكُمْ
امْتَنَعْتُمْ فَإِنِّي أَنَا الْحَاكِمُ الْمُطَاعُ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ
السِّحْرَ﴾ وَهَذِهِ مُكَابَرَةٌ يَغْلُمُ كُلَّ أَحَدٍ بَطْلَانَتَهَا، فَإِنَّهُمْ لَمْ
يَجْتَمِعُوا بِمُوسَى قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرُهُمْ
الَّذِي أَفَادَهُمْ صِنَاعَةَ السِّحْرِ؟ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ.

ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصَّلْبِ
فَقَالُوا: ﴿لَا صَبْرَ﴾ أَي: لَأَخْرَجَ، وَلَا يَصْرُنَا ذَلِكَ، وَلَا
نُبَالِي بِهِ ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أَي: الْمَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ، وَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَلَا يَخْفَى
عَلَيْهِ مَا فَعَلْتَ بِنَا، وَسَيَجْزِينَا عَلَى ذَلِكَ أَنَّمُ الْجَزَاءِ، وَلِهَذَا
قَالُوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾ أَي: مَا قَارَفْنَا مِنْ
الذُّنُوبِ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: بِسَبَبِ أَنَّا بَادَرْنَا قَوْمَنَا مِنَ الْقَبْطِ إِلَى
الْإِيمَانِ - فَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ - .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكَ مُتَّبِعُونَ﴾ (٥٢) فَأَرْسَلَ
فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَكَيْنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا
لَغَائِطُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِلُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧)
وَكُدُورٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)

[خُرُوجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ]

لَمَّا طَالَ مَقَامُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبِلَادِ مِصْرَ، وَأَقَامَ،
بِهَا حُجَّجَ اللَّهُ وَبَرَاهِينُهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ
يَكَابِرُونَ وَيُعَانِدُونَ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الْعَذَابُ وَالتَّكَالُ، فَأَمَرَ
اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا
مِنْ مِصْرَ، وَأَنْ يَمْضِيَ بِهِمْ حَيْثُ يُؤْمَرُ، فَفَعَلَ مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، خَرَجَ بِهِمْ بَعْدَ مَا
اسْتَعَارُوا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ حُلِيًّا كَثِيرًا، وَكَانَ خُرُوجُهُ بِهِمْ
فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَقَتَ طُلُوعِ الْقَمَرِ،
وَذَكَرَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كَيْفَ قَمَرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ (١).

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

٣٧٠

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ (٦١) قَالَ
كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)
وَأَرْسَلْنَا تَمِيمَ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَجْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥)
ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظَةٌ لِرَبِّهِمْ (٦٨) وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا
نَعْبُدُ آصْنَامًا فَظَنَلْهَا عَتَكِنِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَبْصُرُونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ الْآرَبِ الْعَالَمِينَ
الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يَحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ
رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّي بِالصَّلَاحِ كَيْفَ (٨٢)

فَاللهُ أَعْلَمُ، وَأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ عَنْ قَبْرِ يُوسُفَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَدَلَّتْهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ،
فَاخْتَمَلَ تَابُوتَهُ مَعَهُمْ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ بِنَفْسِهِ
عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَوْصَى
بِذَلِكَ: إِذَا خَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ يَحْمِلُوهُ مَعَهُمْ (٢). فَلَمَّا
أَصْبَحُوا وَلَيْسَ فِي نَادِيهِمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، غَاطَ ذَلِكَ
فِرْعَوْنَ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ مِنْ
الدَّمَارِ، فَأَرْسَلَ سَرِيعًا فِي بِلَادِهِ حَاشِرِينَ، أَي: مَنْ يَحْشُرُ
الْجُنْدَ وَيَجْمَعُهُ كَالْقَبَاءِ وَالْحُجَابِ، وَنَادَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ
هَؤُلَاءِ﴾ بَعْضُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أَي: لَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ
﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ﴾ أَي: كُلُّ وَفَتْ يَصِلُ مِنْهُمْ إِلَيْنَا مَا يَغِطُنَا
﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِلُونَ﴾ أَي: نَحْنُ كُلُّ وَفَتْ نَحْذَرُ مِنْ
غَائِلَتِيهِمْ، وَقَرَأَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ: (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِلُونَ)
أَي: مُسْتَعْدُونَ بِالسَّلَاحِ. وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ،

وَجُنُودُهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَضْرِبَ بَعْضَهُ الْبَحْرُ، فَضْرَبَهُ وَقَالَ: انْفَلِقْ بِإِذْنِ اللَّهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَانْفَلِقْ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ﴾^(١) أَي: كَالجَبَلِ الْكَبِيرِ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالصَّحَّاحُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمْ^(٢). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: هُوَ الْفَجُّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ صَارَ الْبَحْرُ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا لِكُلِّ سَبِيحٍ طَرِيقٌ^(٣). وَزَادَ السُّدِّيُّ: وَصَارَ فِيهِ طَاقَاتٌ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَقَامَ الْمَاءُ عَلَى حَيْلِهِ كَالْحَيَّاطَانِ^(٤). وَبَعَثَ اللَّهُ الرِّيحَ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ، فَصَارَ يَبَسًا كَوَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]. وَقَالَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: ﴿وَأَرْسَلْنَا نَمَّ الْأَخْرَيْنِ﴾ أَي: هُنَالِكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ أَي: قَرَّبْنَا مِنَ الْبَحْرِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، وَأَذْنَبْنَا لَهُمْ إِلَيْهِ^(٥). ﴿وَاجْتَبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾^(٦) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرَيْنِ^(٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ^(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(٩) [مطابقة فرعون بنى إسرائيل وإغراقه وإغراق قومه]

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ فِرْعَوْنَ خَرَجَ فِي مَحْفَلٍ عَظِيمٍ وَجَمَعَ كَبِيرٍ - هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي زَمَانِهِ: أُولِي الْحُلِّ وَالْعَقْدِ، وَالذُّوَلِ، مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْجُنُودِ، ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَفَرِّقِينَ﴾ أَي: وَصَلُوا إِلَيْهِمْ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَهُوَ طُلُوعُهَا، ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَحَانَ﴾ أَي: رَأَى كُلَّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ انْتَهَى بِهِمُ السَّبِيْرُ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ، وَهُوَ بَحْرُ الْقَلْزَمِ، فَصَارَ أَمَامَهُمُ الْبَحْرُ وَقَدْ أَدْرَكَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾^(١٠) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَزِيدُنِي^(١١) أَي: لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ شَيْءٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أُسَبِّرَ هَهُنَا بِكُمْ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ، وَكَانَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَقْدَمَةِ، وَمَعَهُ يُوْسَعُ بْنُ نُونٍ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّاقَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ وَفَّقُوا لَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ، وَجَعَلَ يُوْسَعُ بْنُ نُونٍ أَوْ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، يَقُولُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَهُنَا أَمْرَكَ رَبُّكَ أَنْ تَسِيرَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَاقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾^(١٢) إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ^(١٣) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَظْمِينَ^(١٤) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ^(١٥) أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ^(١٦) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ^(١٧) قَالَ أَوَلَيْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ^(١٨) أَنْتُمْ وَإِبَادَتُكُمْ الْأَقْلَامُونَ^(١٩) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ^(٢٠) [وَعظ خليل الله إبراهيم عليه السلام في رد الشرك]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِمَامِ الْحَقَنَاءِ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتْلُوهُ عَلَى أُمَّتِهِ لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي الْإِخْلَاصِ وَالتَّوَكُّلِ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالتَّبَرُّي مِنَ

(١) الطبري: ٣٥٨/١٩ (٢) الدر المنثور: ٢٩٩/٦ (٣)

الطبري: ٣٥٧/١٩ (٤) الطبري: ٣٥٩/١٩

وَأَيْدٍ خَضْرَاءَ هُمْ، فَجُوزِي فِي نَفْسِهِ وَجُنُودِهِ بِمَا أَرَادَ لَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَابِرَ كَرِيمٍ أَي: فَخَرَجُوا مِنْ هَذَا النَّعِيمِ إِلَى الْجَحِيمِ، وَتَرَكُوا تِلْكَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ وَالْبَسَائِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْأَمْوَالَ وَالْأَرْزَاقَ، وَالْمُلْكَ وَالْحِجَاةَ الْوَافِرَ، فِي الدُّنْيَا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا﴾... [الآية: الاعراف: ١٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أُيمَةً وَجَعَلْنَاهُمْ آلُورَثِينَ﴾... [الآيتين: القصص: ٦٥].

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَفَرِّقِينَ﴾^(١١) فَلَمَّا تَرَى الْجَحَانَ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ^(١٠) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَزِيدُنِي^(١١) فَاتَّوَسَّأَ إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاَنْفَلِقْ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ^(١٢) وَأَرْسَلْنَا نَمَّ الْأَخْرَيْنِ^(١٣) وَاجْتَبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ^(١٤) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرَيْنِ^(١٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ^(١٦) وَإِنَّ رَبَّكَ لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(١٧)

[مطابقة فرعون بنى إسرائيل وإغراقه وإغراق قومه]

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ فِرْعَوْنَ خَرَجَ فِي مَحْفَلٍ عَظِيمٍ وَجَمَعَ كَبِيرٍ - هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي زَمَانِهِ: أُولِي الْحُلِّ وَالْعَقْدِ، وَالذُّوَلِ، مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْجُنُودِ، ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَفَرِّقِينَ﴾ أَي: وَصَلُوا إِلَيْهِمْ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَهُوَ طُلُوعُهَا، ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَحَانَ﴾ أَي: رَأَى كُلَّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ انْتَهَى بِهِمُ السَّبِيْرُ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ، وَهُوَ بَحْرُ الْقَلْزَمِ، فَصَارَ أَمَامَهُمُ الْبَحْرُ وَقَدْ أَدْرَكَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾^(١٠) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَزِيدُنِي^(١١) أَي: لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ شَيْءٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أُسَبِّرَ هَهُنَا بِكُمْ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ، وَكَانَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَقْدَمَةِ، وَمَعَهُ يُوْسَعُ بْنُ نُونٍ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّاقَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ وَفَّقُوا لَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ، وَجَعَلَ يُوْسَعُ بْنُ نُونٍ أَوْ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، يَقُولُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَهُنَا أَمْرَكَ رَبُّكَ أَنْ تَسِيرَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَاقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٧١

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِي إِنِّي أَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَرْزُقْ الْجَنَّةَ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْحُجُجُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَيْبُرُوا فِيهَاهُمْ وَأَغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَحُودٍ لَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّبُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدْقٍ جَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَنْتُمْ أَنْ يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٧﴾ وَمَا اسْتَأْذَنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٩﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاللَّهِ مَا تَدْعُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاللَّهِ مَا تَدْعُونَ ﴿١١١﴾

الشِّرْكَ وَأَهْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى آتَى إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ، أَي: مِنْ صِغَرِهِ إِلَى كِبَرِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ وَفْتٍ نَشَأَ وَشَبَّ أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أَي: مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاجِفُونَ؟ ﴿قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُرُ لَهَا عَاجِظِينَ﴾ أَي: مُقْبِلِينَ عَلَى عِبَادَتِهَا وَدُعَائِهَا ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالُوا بَلَى وَجِدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يَعْنِي اعْتَرَفُوا بِأَنَّ أَصْنَامَهُمْ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا رَأَوْا آبَاءَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، فَهَمَّ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أَشْتَرٌ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ شَيْئًا وَلَهَا تَأْوِيلٌ، فَلْتَخْلُصْ إِلَيَّ بِالْمَسَاءَةِ، فَإِنِّي عَدُوٌّ لَهَا لَا أَبَالِي بِهَا وَلَا أَفْكَرُ فِيهَا، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ . . . الْآيَةُ [يونس: ٧١]، وَقَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدِي جِيئًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِيَاصْبِيحًا إِنْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] وَهَكَذَا تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمُ بِاللَّهِ﴾ . . . الْآيَةُ [الأنعام: ٨١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى تَوَكَّلْتُمْ بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [المتحة: ٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي﴾ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] يَعْنِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِي﴾ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْعَمَ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٨٢﴾

[ذِكْرُهُ كَرَمَ اللَّهِ وَلَطْفَهُ بِهِ]

يَعْنِي لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي يُفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أَي: هُوَ الْخَالِقُ الَّذِي قَدَّرَ قَدْرًا، وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، فَكُلُّ يَجْرِي عَلَى مَا قَدَّرَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أَي: هُوَ خَالِقِي وَرَازِقِي بِمَا سَخَّرَ وَيَسَّرَ مِنَ الْأَسْبَابِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، فَسَاقَ الْمُزْنَ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ وَأَحْيَا بِهِ

الْأَرْضَ، وَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ عَذْبًا زَلَالًا يُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ أَسْنَدَ الْمَرَضَ إِلَى نَفْسِهِ، وَإِنْ كَانَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ، وَلَكِنْ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ أَدْبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِلْمُصَلِّي أَنْ يَقُولَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [الفاتحة: ٦، ٧]، فَاسْتَدَّ الْإِنْعَامَ وَالْهُدَايَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعُضْبُ حَذْفٌ فَاعِلُهُ أَدْبًا، وَأَسْنَدَ الضَّلَالَ إِلَى الْعَبِيدِ، كَمَا قَالَتْ الْجُرُ: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] وَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ أَي: إِذَا وَقَعْتُ فِي مَرَضٍ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شِفَائِي أَحَدٌ غَيْرُهُ بِمَا يَقْدِرُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِ. ﴿وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِي﴾ أَي: هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُيَبِّسُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُبْدِي وَيُعِيدُ ﴿وَالَّذِي أَطْعَمَ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَي: لَا يَقْدِرُ عَلَى غُفْرَانِ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا هُوَ، وَمَنْ يَغْفِرُ

الذُّنُوبِ إِلَّا اللَّهَ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلِي مِنْ رِزْقِي جَنَّةَ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِي مَا بَيْنَ يَدَيْكَ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

[دُعَاءُ الْخَلِيلِ لِنَفْسِهِ وَأَبِيهِ]

وَهَذَا سُؤَالَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُؤْتِيَهُ رَبُّهُ حُكْمًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ الْعِلْمُ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أَي: اجْعَلِي مَعَ الصَّالِحِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى» قَالَهَا ثَلَاثًا^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أَي: وَاجْعَلْ لِي ذِكْرًا جَمِيلًا بَعْدِي، أَذْكَرُ بِهِ وَيُقْتَدَى بِي فِي الْخَيْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٨) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٩٤﴾ كَذَلِكَ تَجْزِي الْمُتَحَسِّنِينَ [الصفات: ١٠٨-١١٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلِي مِنْ رِزْقِي جَنَّةَ النَّعِيمِ﴾ أَي: أَنْعِمْ عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا بِبِقَاءِ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ بَعْدِي، وَفِي الْآخِرَةِ بِأَنْ تَجْعَلِي مِنْ رِزْقِي جَنَّةَ النَّعِيمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَغْفِرْ لِي مَا بَيْنَ يَدَيْكَ﴾... الْآيَةِ. كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] وَهَذَا مِمَّا رَجَعَ عَنْهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارًا لِإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وَقَدْ قَطَعَ [الله] تَعَالَى الْإِلْحَاقَ فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَتَيْتُكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المتحنة: ٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أَي: أَجْزِنِي مِنَ الْجُزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَوْمَ يَبْعَثُ الْخَلَائِقَ أَوْلَهُمْ وَأَخْرَهُمْ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ رَأَى أَبَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ الْغَبْرَةُ وَالْفَتْرَةُ»^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنَّكَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ»^(٤). هَكَذَا رَوَاهُ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ. وَفِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَلْفُظُهُ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرَزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَرَزٌ فَتْرَةٌ وَغَبْرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا

أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، انْظُرْ تَحْتَ رَجْلِكَ، فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ، فَيُؤَخِّدُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقِي فِي النَّارِ»^(٥). وَرَوَاهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِ الْكُبْرَى^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أَي: لَا يَبْقَى الْمَرْءُ مِنْ عَدَابِ اللَّهِ مَالُهُ وَلَوْ افْتَدَى بِجِلْدِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أَي: وَلَوْ افْتَدَى بِمَنْ عَلَى الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَإِحْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالْتِبَرُ مِنَ الشَّرِكِ وَأَهْلِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أَي: سَالِمٍ مِنَ الدَّنَسِ وَالشَّرِكِ. قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: الْقَلْبُ السَّلِيمُ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ^(٧). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: الْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الْقَلْبُ الصَّحِيحُ^(٨). وَهُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، لِأَنَّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مَرِيضٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. قَالَ أَبُو عُمَانَ النَّسَائُورِيُّ: هُوَ الْقَلْبُ السَّالِمُ مِنَ الْبِدْعَةِ، الْمُطْمَئِنُّ إِلَى السُّنَّةِ.

﴿وَأَرْزَلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٩٠) وَوَرِثَتْ الْجَنَّةُ الْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْزِلُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصِفُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَكُمْ ﴿٩٣﴾ فَكُنْجُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُودٌ يُبْسِ أَعْجَمُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كَنَّا لَنِفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نَسُوا اللَّهَ رَبَّهُمْ وَأَنْبِيَاءَهُمْ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَاحِبِي حِجِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِزٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٤﴾

[الْمُتَّقُونَ وَالْغَاوُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجِدَالُ الْغَاوِينَ

وَحَسْرَتُهُمْ]

﴿وَأَرْزَلَتْ الْجَنَّةُ﴾ أَي: قُرِئَتْ وَأُذِنَتْ مِنْ أَهْلِهَا مُرَحَّرَةً مُرْتَبَةً لِتَنْظِيرِهَا، وَهُمْ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ رَغَبُوا فِيهَا عَلَى مَا فِي الدُّنْيَا، وَعَمِلُوا لَهَا فِي الدُّنْيَا ﴿وَوَرِثَتْ الْجَنَّةُ لِلْغَاوِينَ﴾ أَي:

(١) البغوي: ٣٩٠/٣ (٢) فتح الباري: ٧/٤٤٣ (٣) فتح الباري: ٨/٣٥٧ (٤) فتح الباري: ٨/٣٥٧ (٥) فتح الباري: ٦/٤٤٥ (٦) النسائي في الكبرى: ٦/٤٢٢ (٧) الطبري: ١٩/٣٦٦ (٨) البغوي: ٣/٣٩٠

أَطْهَرَتْ وَكَيْفَ عَثَا، وَبَدَتْ مِنْهَا عُنُقٌ فَرَقَرَتْ زَفْرَةً بَلَعَتْ مِنْهَا الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ. وَقِيلَ لِأَهْلِهَا تَقْرِيحًا وَتَوْبِيحًا: **﴿أَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْبَصِرُونَ ﴿٩٧﴾﴾** أَي: لَيْسَتْ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، مِنْ بَلْكَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، تُغْنِي عَنْكُمْ الْيَوْمَ شَيْئًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْ أَنْفُسِهَا، فَإِنَّكُمْ وَإِيَّاهَا الْيَوْمَ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ.

وَقَوْلُهُ: **﴿فَكَيْفَ كُفِرْتُمْ فِيهَا هُمْ وَالْقَائِنُونَ ﴿٩٨﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْني فَدَهْرُوهَا فِيهَا (١).﴾** وَقَالَ غَيْرُهُ: كُتِبُوا فِيهَا، وَالْكَافُ مُكْرَرَةٌ، كَمَا يُقَالُ: صُرِّصِرَ، وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ أَلْقَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ: مِنَ الْكُفَّارِ وَقَادَتِهِمُ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلَى الشُّرْكِ **﴿وَحُدُودٌ يُبَاسِلُ أَجْمَعُونَ ﴿٩٩﴾﴾** أَي: أَلْفُوا فِيهَا عَنْ آخِرِهِمْ **﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾** إِذْ سُئِبْتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ **﴿أَي: يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ؟ وَيَقُولُونَ وَذَرُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ بِالْمَلَأَمَةِ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾** إِذْ سُئِبْتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ **﴿أَي: نَجْعَلُ أَمْرَكُمْ مَطَاعًا كَمَا يُطَاعُ أَمْرُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَبَدْنَاكُمْ مَعَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٠٠﴾﴾** أَي: مَا دَعَانَا إِلَى ذَلِكَ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ **﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠١﴾ كَمَا يَقُولُونَ: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَافِعَةٍ فَتَشْفَعُ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿١٠٢﴾﴾﴾** [الأعراف: ٥٣] وَكَذَا قَالُوا: **﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٣﴾ وَلَا صِدْقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠٤﴾﴾** أَي: قَرِيبٍ.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَمَتَّنُونَ أَنَّهُمْ يَرُدُّونَ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ - فِيمَا يَزْعُمُونَ - وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَى دَارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَادِبُونَ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ تَخَاضُعِ أَهْلِ النَّارِ فِي سُورَةِ (ص) **﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضَعُ أَهْلُ النَّارِ ﴿ص: ٦٤﴾﴾** ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾﴾** أَي: إِنَّ فِي مَحَاجَةِ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ وَإِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْحِيدِ لَآيَةً، أَي: لِدَلَالَةِ وَاضِحَةٍ جَلِيَّةٍ عَلَى أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ **﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾**.

﴿كَلِمَاتٍ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ **﴿أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾** إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ **﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾﴾**

﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ **﴿١١٢﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾﴾** إِنَّ أَنَا إِلَّا أَنْذِرُ مُبِينٌ **﴿١١٥﴾﴾** قَالُوا لَو لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ بِسُوءِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ **﴿١١٦﴾﴾** قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ **﴿١١٧﴾﴾** فَأَفْخِعْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَاوِيحِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ **﴿١١٨﴾﴾** فَأَفْخِجْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ **﴿١١٩﴾﴾** ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ **﴿١٢٠﴾﴾** إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ **﴿١٢١﴾﴾** وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ **﴿١٢٢﴾﴾** كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ **﴿١٢٣﴾﴾** إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ **﴿أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾** إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ **﴿١٢٥﴾﴾** فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا **﴿١٢٦﴾﴾** وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ **﴿١٢٧﴾﴾** أَتَجْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ **﴿١٢٨﴾﴾** وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ **﴿١٢٩﴾﴾** وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ **﴿١٣٠﴾﴾** فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا **﴿١٣١﴾﴾** وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ **﴿١٣٢﴾﴾** أَمَدَّكُمْ بِأَعْيُنِنَا **﴿١٣٣﴾﴾** وَحَنَّتْ وَعْيُونُ **﴿١٣٤﴾﴾** إِنَّ أَخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ **﴿١٣٥﴾﴾** قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ **﴿١٣٦﴾﴾**

[ذَكَرَ نُوحٌ وَوَعَّظَهُ لِقَوْمِهِ وَحَوَاهِبُهُمْ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَا عِيدَتِ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ نَاهِيًا عَنْ ذَلِكَ وَمُحَذِّرًا مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، فَكَذَّبَهُ قَوْمُهُ، فَاسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِعَالِ الْخَبِيثَةِ فِي عِبَادَتِهِمْ أَصْنَامَهُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبَهُمْ لَهُ مَنزِلَةً تَكْذِيبَهُمْ جَمِيعَ الرُّسُلِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **﴿كَلِمَاتٍ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾** إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ **﴿أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾** أَي: أَلَا تَخَافُونَ اللَّهَ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ **﴿إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾** أَي: إِنَّي رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، أَمِينٌ فِيمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَلَا أَزِيدُ فِيهَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهَا **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾﴾** وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ... الْآيَةَ. أَي: لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جِزَاءً عَلَى نُصْحِي لَكُمْ، بَلْ أَدْخِرُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾﴾**

وَالْأَزْوَاجَ الَّتِي حُوِّلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، أَي: أَنْجَبْنَا نَوْحًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ كُلَّهُمْ، وَأَعْرَفْنَا مَنْ كَفَرَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَحُوهُمْ هُوْدُ أَلَا نَنْفُوْنَ ﴿١١٦﴾ إِلَىٰ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٥﴾ فَاقْبَلُوا إِلَهَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴿١١٤﴾ وَمَا أَسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ ﴿١١٣﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَأَيَّةَ تَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١١١﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١١٠﴾ فَاقْبَلُوا إِلَهَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴿١٠٩﴾ وَأَتَقُوا لِلَّهِ الَّذِي أَمَّاكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٨﴾ أَمَّاكُمْ بِأَنفُسِكُمْ وَبِئْسَ وَجِيهًا ﴿١٠٧﴾ وَجَنَّتْ وَعِيُونٌ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ فِي آخَافِ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٥﴾ ﴾

[وَعَظُ هُوْدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ عَادٍ]

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَنِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ هُوْدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ عَادًا، وَكَانَ قَوْمُهُ يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، وَهِيَ جِبَالُ الرَّمْلِ قَرِيبًا مِنْ حَضْرَمَوْتِ، مُتَاخِمَةٌ بِلَادِ الْيَمَنِ، وَكَانَ زَمَانُهُمْ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ مِنْ قُوَّةِ التَّرْكِيبِ وَالْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ الشَّدِيدِ، وَالطُّوْلِ الْمَدِيدِ، وَالْأَزْرَاقِ الدَّارَةِ، وَالْأُمُورِ وَالْجَنَاتِ وَالْأَنْهَارِ، وَالْأَبْنَاءِ وَالزَّرُوعِ وَالنَّمَارِ، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ مَعَهُ، فَبَعَثَ اللَّهُ هُوْدًا إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ رَسُولًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَحَذَّرَهُمْ بِقَمَّتِهِ وَعَذَابِهِ فِي مُخَالَفَتِهِ وَبَطْشِهِ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَأَيَّةَ تَصْنَعُونَ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الرَّيْعِ بِمَا حَاصِلُهُ: أَنَّهُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ عِنْدَ جَوَادِّ الطَّرِيقِ الْمَشْهُورَةِ، يَبْنُونَ هُنَاكَ بُيُوتًا مُحْكَمًا هَائِلًا بَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَأَيَّةَ﴾ أَي: مَعْلَمًا بِنَاءٍ مَشْهُورًا ﴿تَصْنَعُونَ﴾ أَي: وَإِنَّمَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَبَثًا لَا لِلْإِحْتِيَاجِ إِلَيْهِ بَلْ لِمَجْرَدِ اللَّعْبِ وَاللَّهُوِ وَإِظْهَارِ الْقُوَّةِ، وَلِهَذَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ تَضْيِيعٌ لِلزَّمَانِ وَإِنْعَابٌ لِلْأَبْدَانِ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَاشْتِعَالٌ بِمَا لَا يُجْدِي فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَالْمَصَانِعُ: الْبُرُوجُ الْمُسَيِّدَةُ وَالْبُيُوتَانِ الْمُخَلَّدُ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أَي: لِكَيْ

فَقَدْ وَصَحَ لَكُمْ وَبَانَ صِدْقِي وَنُصْحِي وَأَمَانِي فِيمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ وَاتَّمَنَّنِي عَلَيْهِ.

﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٠٩﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يَقُولُونَ: لَا نُؤْمِنُ لَكَ، وَلَا نَتَّبِعُكَ وَنَتَأَسَىٰ فِي ذَلِكَ بِهَؤُلَاءِ الْأَرَاذِلِ، الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ وَصَدَقُوكَ وَهُمْ أَرَادِلُنَا، وَلِهَذَا ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: وَأَيُّ شَيْءٍ يَلْزُمُنِي مِنْ اتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ لِي؟ وَلَوْ كَانُوا عَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ كَانُوا عَلَيْهِ، لَا يَلْزُمُنِي التَّنْقِيبُ عَنْهُمْ وَالتَّبَحُّثُ وَالْفَحْصُ، إِنَّمَا عَلَيَّ أَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ تَصَدِيقَهُمْ إِيَّايَ، وَأَكْلَ سَرَائِرِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٠٩﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَأَنَّهُمْ سَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنْهُ وَيَتَابِعُوهُ، فَأَبَىٰ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَقَالَ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أَي: إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا، فَمَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَنِي وَصَدَّقَنِي كَانَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، سِوَاءَ كَانَ شَرِيفًا أَوْ وَضِيعًا، أَوْ جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا.

﴿ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ بِنُوحٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٠﴾ فَأَفْضَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّاجِحِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٩﴾ فَأَلْحَيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ ﴿١٠٨﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾ ﴾

[تَهْدِيدُ الْقَوْمِ وَدُعَاءُ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَيْهِمْ

وَإِهْلَاكُهُمْ]

لَمَّا طَالَ مَقَامَ نَبِيِّ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجَهَارًا، وَكُلَّمَا كَرَّرَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ صَمَّمُوا عَلَى الْكُفْرِ الْعَلِيظِ وَالْإِمْتِنَاعِ الشَّدِيدِ، وَقَالُوا فِي الْآخِرِ: ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ بِنُوحٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أَي: لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ مِنْ دَعْوَتِكَ إِنَّمَا إِلَىٰ دِينِكَ، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أَي: لَتَرْجُمَنَّكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا عَلَيْهِمْ دَعْوَةً اسْتَجَابَ اللَّهُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٠﴾ فَأَفْضَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّاجِحِي... الْآيَةَ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [القم: ١٠-١٢]. وَقَالَ هُنَا: ﴿فَأَلْحَيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ ﴿١٠٨﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ وَالْمَشْحُونُ هُوَ الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتِعَةِ

تَقِيمُوا فِيهَا أَبَدًا، وَذَلِكَ لَيْسَ بِحَاصِلٍ لَكُمْ بَلْ زَائِلٌ عَنْكُمْ، كَمَا زَالَ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَائِنَ﴾ أَي: يَصِفُهُمْ بِالْقُوَّةِ وَالْغَلْظَةِ وَالْجَبْرُوتِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أَي: اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَطِيعُوا رَسُولَكُمْ.

ثُمَّ شَرَعَ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣٦) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِهِ وَبَيْنَ (١٣٧) وَحَدَّتْ وَعَيْونَ (١٣٨) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ أَي: إِنَّ كَذِبْتُمْ وَخَالَفْتُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ بِالرَّغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، فَمَا نَفَعَ فِيهِمْ:

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظمت أم لم تكن من الوعظيت﴾ (١٣٩) إِنَّ هَذَا إِلا خَلْقَ الْأَوَّلِينَ (١٤٠) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)

[جَوَابُ قَوْمِ هُودٍ وَعَذَابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَوْمِ هُودٍ لَهُ بَعْدَ مَا حَذَرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، وَرَعَّيَهُمْ وَرَهَّبَهُمْ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ الْحَقَّ وَوَضَّحَهُ: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظمت أم لم تكن من الوعظيت﴾ أَي: لَا نَرْجِعُ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ ﴿وَمَا نَحْنُ بِبَارِكِي الْهَلِينَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣] وَهَكَذَا الْأَمْرُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦] الْآيَةَ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلا خَلْقَ الْأَوَّلِينَ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (إِنَّ هَذَا إِلا خَلْقَ الْأَوَّلِينَ) يَفْتَحُ الْخَاءِ وَتَسْكِينِ اللَّامِ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَعَلْقَمَةَ وَمُجَاهِدٍ: يَعْنُونَ مَا هَذَا الَّذِي جِئْنَا بِهِ إِلا أَخْلَاقَ الْأَوَّلِينَ^(١) كَمَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ كَتَبْنَاهَا فَحَى ثَمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةَ وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٠] وَقَالَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلا إفاك أَقْرَبْتَهُ وَأَمَانَةً عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَآخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (١٤١) وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٥٠، ٤] وَقَالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]

وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلا خَلْقَ الْأَوَّلِينَ﴾ بِضَمِّ الْخَاءِ وَاللَّامِ، يَعْنُونَ دِينَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ دِينُ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَنَحْنُ تَابِعُونَ لَهُمْ سَالِكُونَ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ ٣٧٣

إِنَّ هَذَا إِلا خَلْقَ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَالْتَأْتُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ وَاطِيعُونَ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنِّي أَلاَعْلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعَيْونَ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَيْضًا (١٤٨) وَتَنْجُوتٍ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا تَقْدِرُ هِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ وَاطِيعُونَ (١٥٠) وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا آتَيْنَا مِنَ الْمُسْحَرِينَ (١٥٣) مَا آتَيْنَا إِلَّا بَشْرًا مِثْلًا فَأْتِ بِبَيِّنَاتٍ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

وَرَأَهُمْ، نَعِيشُ كَمَا عَاشُوا، وَتَمُوتُ كَمَا مَاتُوا، وَلَا بَعَثَ وَلَا مَعَادَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أَي: اسْتَمَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِ نَبِيِّ اللَّهِ هُودٍ وَمُخَالَفَتِهِ وَعِثَادِهِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَقَدْ بَيَّنَّ سَبَبَ إِهْلَاكِهِمْ بِإِيَّاهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرَّصَرًا عَاقِبَتَهُ، [الحاقة: ٦] أَي: رِيحًا شَدِيدَةً الْهَبُوبِ، ذَاتَ بَرْدٍ شَدِيدٍ جَدًّا، فَكَانَ سَبَبَ إِهْلَاكِهِمْ مِنْ جِسْمِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَعْتَى شَيْءٍ وَأَجْبَرَهُ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَعْتَى مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (١) إِذِمَّ ذَاتِ الْعِمَادِ [الفجر: ٧، ٦] وَهُمْ عَادُ الْأَوَّلَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا﴾ [النجم: ٥٠] وَهُمْ مِنْ نَسْلِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْعَمَدَ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ إِرَمَ مَدِينَتَهُ، فَإِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ مِنْ كَلَامِ

(١) الطبري: ٣٧٨/١٩ العوفي وعائلته تقدم حكمهم مرارًا

﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلُّونَ ﴾ (١٥٧)

[تَذَكِيرُهُمْ بِأَحْوَالِهِمْ وَنِعْمِهِمْ]

يَقُولُ لَهُمْ وَاعِظُوا لَهُمْ، وَمُحَذَّرُهُمْ يَقَمُ اللَّهُ أَنْ تَحُلَّ بِهِمْ، وَمُذَكَّرًا بِأَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيمَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ الدَّارَةِ وَجَعَلَهُمْ فِي أَمْنٍ مِنَ الْمُحَذَّرَاتِ، وَأَنْبَتَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَابَاتِ، وَفَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعُيُونِ الْجَارِيَاتِ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الزُّرُوعِ وَالشَّمْرَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَتَحَلَّى طَلْعُهَا هَضِيمًا ﴾. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْعَ وَبَلَّغَ، فَهُوَ هَضِيمٌ^(٢). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ وَتَحَلَّى طَلْعُهَا هَضِيمًا ﴾ يَقُولُ: مُعْشِبَةً. وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو - وَقَدْ أَدْرَكَ الصَّحَابَةَ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَتَحَلَّى طَلْعُهَا هَضِيمًا ﴾ إِذَا رَطَّبَ وَاشْتَرَحَى. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ أَبِي صَالِحٍ نَحْوَهُ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَنَحَّوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَرِهِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ: يَغْنِي حَادِقِينَ^(٣). وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: شَرِهِينَ أَشْرِينَ، وَهُوَ اخْتِيَارٌ مُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ^(٤). وَلَا مُتَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَتَنَحَّوْنَ تِلْكَ التُّبُوتِ الْمُتَحَوِّتَةَ فِي الْجِبَالِ أَشْرًا وَطَطْرًا وَعَبْتًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى سُكْنَاهَا، وَكَانُوا حَادِقِينَ مُتَقِينِينَ لِنَحْتِهَا وَنَقَشِهَا، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ مِنْ حَالِهِمْ لِمَنْ رَأَى مَنَارَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أَي: أَقْبِلُوا عَلَى مَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ لَتَعْبُدُوهُ وَتُوحِّدُوهُ وَتَسْبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلُّونَ ﴿ يَغْنِي رُؤْسَاءَهُمْ وَكَبِيرَاءَهُمْ، الدَّعَاةَ لَهُمْ إِلَى الشِّرْكِ وَالْكَفْرِ وَمُخَالَفَةَ الْحَقِّ.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِنَايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ يَوْمٍ مَمْلُوءٍ ﴿ وَلَا تَسْوَأُوا يَوْمَ يَأْتِيكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿ فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ مِثْوِينَ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿

كَغَبٍ وَوَهْبٍ، وَلَيْسَ لِدَلِّكَ أَضَلُّ أَصِيلٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ أَلَيْ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: ٨] أَي: لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ فِي قُورِيهِمْ وَشِدْبَتِيهِمْ وَجَبْرُوتِيهِمْ، وَلَوْ كَانِ الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَدِينَةً لَقَالَ: الَّتِي لَمْ يَبْنِ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥] قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا عَادَ فَأَتَوْا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ [الحاقة: ٦] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ حُسُومًا ﴾ أَي: كَامِلَةً ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغًا كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلِ حَاوِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٧] أَي: يَقُولُوا أَبَدَانًا بِلَا رُؤُوسٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَقْتُلِعُهُ وَتَرْفَعُهُ فِي الْهَوَاءِ، ثُمَّ تَنْكِسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، فَتَشْدُخُ دِمَاعَهُ وَتَكْسِرُ رَأْسَهُ وَتَلْقِيهِ، كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلِ مُنْفَعِرٍ، وَقَدْ كَانُوا تَحَصَّنُوا فِي الْجِبَالِ وَالْكَهُوفِ وَالْمَعَارَاتِ، وَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْصَافِهِمْ، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْئًا ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح: ٤] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾... الْآيَةَ.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا لَنُقَوِّنَ ﴿ إِلَى لَكُمْ رَسُولًا أَمِينًا ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿

[ذَكَرَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودَ]

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ ثَمُودَ، وَكَانُوا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَةَ الْحِجْرِ - الَّتِي بَيْنَ وَادِي الْقَرَى وَبِلَادِ الشَّامِ - وَمَسَاكِنُهُمْ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ الْأَحَادِيثَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مُرُورِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ حِينَ أَرَادَ عَزْوُ الشَّامِ، فَوَصَلَ إِلَى تَبُوكَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَتَأَهَّبَ لِذَلِكَ^(١). وَكَانُوا بَعْدَ عَادِ وَقَبْلِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَدَعَاهُمْ نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يُطِيعُوهُ فِيمَا بَلَّغَهُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَتَّبِعِي بِدَعْوَتِهِمْ أَجْرًا مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا يُطَلَّبُ ثَوَابُ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ آلاءَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ:

﴿ أَنْتُمْ كُونُوا فِي مَا هَمَّنَا ءَامِنِينَ ﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿ وَرُزُوعٍ وَتَحَلَّى طَلْعُهَا هَضِيمًا ﴿ وَتَنَحَّوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَرِهِينَ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ

(١) فتح الباري: ٧٣١/٧ (٢) الطبري: ٣٨٠/١٩ (٣) الطبري: ٣٨٢/١٩ (٤) الطبري: ٣٨٣/١٩

[جَوَابٌ نُمُودَ وَطَلَبْتَهُمُ الْآيَةَ وَمَجِيئَهُمُ الْعَذَابُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُمُودَ فِي جَوَابِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ ﴿١٦١﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿١٦٢﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَعْنُونَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ (١). ثُمَّ قَالُوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يَعْنِي فَكَيْفَ أُوجِبِي إِلَيْكَ دُونَنَا؟ كَمَا قَالُوا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَلَيْكَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَثِيرٌ﴾ ﴿١٦٥﴾ سَمِعْتُمُونَ عَدَا مِنْ الْكُذَّابِ الْآثِيرِ ﴿[الفرس: ٢٥، ٢٦]﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ افْتَرَحُوا عَلَيْهِ آيَةَ يَأْتِيهِمْ بِهَا لِيَعْلَمُوا صِدْقَهُ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ، وَقَدْ اجْتَمَعَ مَلُؤُهُمْ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمُ الْآنَ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةَ عَشْرَاءَ وَأَشَارُوا إِلَى صَخْرَةٍ عِنْدَهُمْ - مِنْ صِفَتِهَا كَذَا وَكَذَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللَّهِ صَالِحٌ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِفَ لِنِ اجْتِهَابِهِمْ إِلَى مَا سَأَلُوا لِيُؤْمِنُوا بِهِ [وَلِيَصَدِّقُنَا] وَلِيَتَّبِعُنَا، فَأَعطَوْهُ ذَلِكَ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّى، ثُمَّ دَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَى سُؤْلِهِمْ، فَانْفَطَرَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ - الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا - عَنْ نَاقَةِ عَشْرَاءَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي وَصَفُوهَا، فَامَنَّ بَعْضُهُمْ وَكَفَرَ أَكْثَرُهُمْ ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَذَا شَرِبْتُ وَلَكِنْ شَرِبْتُ يَوْمَ مَثُورٍ﴾ يَعْنِي تَرَدُّ مَاءِ كُمْ يَوْمًا، وَيَوْمًا تَرَدُّونَهُ أَنْتُمْ ﴿وَلَا تَسْوَاهَا يَسْوَاهُ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ فَحَذَرَهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ إِنْ أَصَابُوهَا بِسُوءٍ، فَمَكَتَبَتِ النَّاقَةُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ، تَرَدُّ الْمَاءِ وَتَأْكُلُ الْوَرَقَ وَالْمَرْعَى - وَيَتَّبِعُونَ بِلَيْبِهَا يَحِلُّونَ مِنْهَا مَا يَكْفِيهِمْ شُرْبًا وَرِيًّا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ وَحَضَرَ شِقَاؤُهُمْ، تَمَاتَلَوْا عَلَى قَتْلِهَا وَعَقَرُوهَا ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ ﴿١٦٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿وَهُوَ أَنَّ أَرْضَهُمْ زُلْزَلَتْ زَلْزَالًا شَدِيدًا، وَجَاءَتْهُمْ صَحْحَةٌ عَظِيمَةٌ افْتَلَعَتْ الْقُلُوبَ مِنْ مَحَالِّهَا، وَأَتَاهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، وَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٩﴾

كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٠﴾

[ذَكَرَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعْوَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَارَ وَهُوَ ابْنُ أُخْيَ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَعَثَهُ إِلَى أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ فِي

كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٠﴾

أَتَاتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧١﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا لَيْن لَمْ نَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٧٣﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٧٤﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٥﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٦﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧٧﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨٠﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٨٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٥﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨٦﴾ زِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْأَلُ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَحَوَّنَ فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ ﴿١٨٨﴾

حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانُوا يَسْكُنُونَ سَدُومَ وَأَعْمَالَهَا الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ بِهَا، وَجَعَلَ مَكَانَهَا بَحِيرَةً مُمْتَنَةً خَبِيثَةً، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ بِيَلَادِ الْعُورِ بِنَاجِيَةٍ مُتَاجِمَةٍ لِجِبَالِ النَّبْتِ الْمُقَدَّسِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ بِلَادِ الْكُرْكِ وَالشُّوتَبِكِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يُطِيعُوا رَسُولَهُمُ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَارْتِكَابِ مَا كَانُوا قَدْ ابْتَدَعُوهُ فِي الْعَالَمِ مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَى فِعْلِهِ، مِنْ إِثْبَانِ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿أَتَاتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا لَيْن لَمْ نَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٧٣﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٧٤﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٥﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٦﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧٧﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكَ نَبِيُّهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعْدَا إِنَّا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

التُّكَّةِ، فَظَنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ غَيْرُ أَهْلِ مَدِينٍ، فَرَعَمَ أَنْ شَعَبِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى الْأُمْتِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ثَلَاثَ أُمَّم.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَصْحَابُ تَيْكَةِ﴾ قَوْمُ شُعَيْبٍ. وَقَالَ [إِسْحَاقُ] ابْنُ بَشِيرٍ: وَقَالَ غَيْرُ جُوَيْرٍ^(١): أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَمَدِينٍ هُمَا وَاحِدٌ^(٢). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَصُفُّوا فِي كُلِّ مَقَامٍ بِشَيْءٍ، وَلِهَذَا وَعِظَ هُوَ لَاءٌ وَأَمْرُهُمْ بِوَفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، كَمَا فِي قِصَّةِ مَدِينٍ سَوَاءٍ بِسَوَاءٍ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٧١﴾ وَزِنُوا بِالْقَنطَارِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٧٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٧٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٧٤﴾﴾

(١) كذا عندنا، وفي نسخة د/الينا: وقال إسحاق بن بشر: وقال غير جوير. وهو أقرب لاستقامة العبارة (٢) الطبري: ١٩/٣٩٠

الْمُنذِرِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٣﴾

[تَكْبِيرُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِعْلِ قَوْمِهِ، وَجَوَابُهُمْ وَعَذَابُهُمْ]

لَمَّا نَهَاهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ، وَغَشْيَانِهِمُ الذُّكُورَ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِثْبَانِ نِسَائِهِمُ اللَّاتِي خَلَقَهُنَّ اللَّهُ لَهُمْ، مَا كَانَ جَوَابُهُمْ لَهُ إِلَّا أَنْ قَالُوا: ﴿لَيْنَ لَّمْ تَنْهَ بِلُوطٍ﴾ أَي: عَمَّا جِئْنَا بِهِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمَخْرُجِينَ﴾ أَي: تَنْفِيكَ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِغُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَزِيدُوعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ، وَأَنَّهُمْ مُّسْتَمِرُّونَ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ، تَبَرَّأَ مِنْهُمْ وَقَالَ: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْفَالِقِينَ﴾ أَي: الْمُفْضِيضِينَ، لَا أَحِبُّهُ وَلَا أَرْضَى بِهِ، وَإِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ، ثُمَّ دَعَا اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿رَبِّ بِنَجِّي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: كُلَّهُمْ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ وَهِيَ امْرَأَتُهُ، وَكَانَتْ عَجُوزًا سَوِيءَ بَقِيَّتٍ، فَهَلَكَتْ مَعَ مَنْ بَقِيَ مِنْ قَوْمِهَا، وَذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهُودٍ، وَكَذَا فِي الْحَجْرِ جِئْنَا أَمْرَهُ اللَّهُ أَنْ يُسْرِيَ بِأَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ، وَأَنَّهُمْ لَا يَلْتَفِتُونَ إِذَا سَمِعُوا الصَّيْحَةَ جِئْنَا نَنْزِلَ عَلَى قَوْمِهِ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَاسْتَمَرُّوا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَوْلِيكَ الْعَذَابَ الَّذِي عَمَّ جَمِيعَهُمْ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْصُودٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ تَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ آلا تَتَّقُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ [شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعِظُ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ]

هُوَ لَاءٌ - بَعْثِي أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ - هُمْ أَهْلُ مَدِينٍ عَلَى الصَّحِيحِ وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ هَهُنَا أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ لِأَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَيْكَةِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ. وَقِيلَ: شَجَرٌ مُّثَلَّثٌ كَالْعَيْصَةِ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، فَلهَذَا لَمَّا قَالَ: كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ لَمْ يَقُلْ: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فَتَقَطَّ نَسَبُ الْأَخُوَّةِ بَيْنَهُمْ لِلْمَعْنَى الَّتِي نَسَبُوا إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَحَاهُمْ نَسَبًا. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَقْطُنْ لِهَذِهِ

[الْأَمْرُ بِإِيْمَانِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ]

يَأْمُرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِيْمَانِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّطْوِيفِ فِيهِمَا، فَقَالَ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أَي: إِذَا دَفَعْتُمْ لِلنَّاسِ فَكَمَلُوا الْكَيْلَ لَهُمْ، وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْلَ فَتَعْطَوْهُ نَاقِصًا، وَتَأْخُذُوهُ - إِذَا كَانَ لَكُمْ - تَامًا وَإِيْمًا، وَلَكِنْ خُذُوا كَمَا تُعْطُونَ، وَأَعْطُوا كَمَا تَأْخُذُونَ ﴿وَرَبُّنَا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وَالْقِسْطَاسُ هُوَ: الْمِيزَانُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أَي: لَا تَنْقُصُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يَعْنِي فَطَعَ الطَّرِيقَ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ يُخَوِّفُهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى﴾ [الشعراء: ٢٦]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ يَقُولُ: خُلِقَ الْأَوَّلِينَ. وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ (١) [يس: ٦٢].

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (٢) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّنُكَ لِمَنِ الْكَذِبِينَ (٣) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٤) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٦) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٨)

[جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ وَتَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ وَمَجِيئُهُمُ الْعَذَابُ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَوَابِ قَوْمِهِ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَجَابَتْ بِهِ تُمُودُ لِرَسُولِهَا - تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ - حَيْثُ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يَعْنُونَ مِنَ الْمُسَحُورِينَ كَمَا تَقَدَّمَ ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّنُكَ لِمَنِ الْكَذِبِينَ﴾ أَي: تَتَعَمَّدُ الْكُذْبَ فِيمَا تَقُولُهُ، لَا أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ إِلَيْنَا ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. قَالَ الضَّحَّاكُ: جَائِيًا مِنَ السَّمَاءِ. (٢) وَقَالَ فَتَادَةُ: قَطْعًا مِنَ السَّمَاءِ (٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ. وَهَذَا شَبِيهُ مَا قَالَتْ قُرَيْشٌ فِيمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ إِلَى أَنْ قَالُوا: ﴿أَوْ سَقِطْ السَّمَاءَ كَمَا رَعَمْتَ عَلَيْنَا كَيْفًا أَوْ تَأْتِي بِلَهُ وَالْمَلَكِ قَيْلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢] وَقَوْلُهُ:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾... الْآيَةُ [الأنفال: ٣٢]. وَهَكَذَا قَالَ هُوَلَاءِ الْكُفَّارُ الْجَهْلَةُ: ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾... الْآيَةُ، ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَسْتَحْقُونَ ذَلِكَ جَزَاءَكُمْ بِهِ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَكُمْ، وَهَكَذَا وَقَعَ بِهِمْ جَزَاءٌ - كَمَا سَأَلُوا - جَزَاءً وَفَقَاً، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وَهَذَا مِنْ جِنْسِ مَا سَأَلُوهُ مِنْ إِسْقَاطِ الْكِسْفِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ عُقُوبَتَهُمْ أَنْ أَصَابَهُمْ حَرٌّ عَظِيمٌ مَدَّةً سَبْعَةَ أَيَّامٍ، لَا يَكْتُمُهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَيْهِمْ سَحَابَةٌ أَظْلَمَتْهُمْ، فَجَعَلُوا يَنْظِلُّونَ إِلَيْهَا يَسْتَنْظِلُونَ بِظِلِّهَا مِنَ الْحَرِّ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ تَحْتَهَا، أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَرْرًا مِنْ نَارٍ وَلَهَا وَوَهَجًا عَظِيمًا، وَرَجَعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ أَزْهَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى صِفَةَ إِهْلَاكِهِمْ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ، كُلُّ مَوْطِنٍ بِصِفَةٍ تُنَاسِبُ ذَلِكَ السِّيَاقَ فِي الْأَعْرَافِ ذَكَرَ أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشِعْمِكَ وَاللَّبَيْنِ ءَامِنًا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] فَارْجَفُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَهُ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ، وَفِي سُورَةِ هُودٍ قَالَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ﴾ (١) وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اسْتَهْزَؤُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَصَلُّوا تِلْكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكِفَ مَا يَعْبُدُونَ ءَابَاءَنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالْإِزْدِرَاءِ، فَنَاسَبَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ صَيْحَةٌ تُسَكِّتُهُمْ، فَقَالَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ﴾ الْآيَةُ (٢). وَهُنَا قَالُوا: ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾... الْآيَةُ، عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُحَقِّقَ عَلَيْهِمْ مَا اسْتَبَعَدُوا وَوَقَّعَهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ زَيْدِ الْبَاهِلِيِّ، سَأَلْتُ ابْنَ الطَّبْرِيِّ: (١) الطَّبْرِيُّ: ٣٩٢/١٩ (٢) الطَّبْرِيُّ: ٣٩٣/١٩ (٣) الطَّبْرِيُّ: ٤٨٥/٢٢ (*) كَذَا وَرَدَ فِي النِّسْخَةِ، وَهِيَ آيَةُ الْحَجْرِ: ٨٣ تَتَلَقَّ بِقَوْمٍ لَوْطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (*) وَأَمَّا الَّتِي تَتَلَقَّ بِقَوْمِ شُعَيْبِ الْمَشَارِ لِبِهَا فِيهِ: ﴿وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ الْآيَةُ ٩٤.

عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ...﴾
 الْآيَةِ، قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَعْدَةً وَحَرًّا شَدِيدًا، فَأَخَذَ
 بِأَنفُسِهِمْ [فَدَخَلُوا الْبُيُوتَ فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَجْوَابُ الْبُيُوتِ
 فَأَخَذَ بِأَنفُسِهِمْ] فَخَرَجُوا مِنَ الْبُيُوتِ هَرَابًا إِلَى الْبَرِّيَّةِ،
 فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَحَابَةً فَأَطَلَّتْهُمْ مِنَ الشَّمْسِ، فَوَجَدُوا لَهَا
 بَرْدًا وَلَذَّةً، فَتَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا
 أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَارًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَذَلِكَ عَذَابٌ يَوْمَ
 الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿أَيُّ: الْعَزِيزُ فِي
 تَقِيَامِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ، الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.
 ﴿وَلَهُ نَزْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿عَلَى قَلْبِكَ
 لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٥٥﴾
 [الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ
 وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ
 فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ
 مُخْبِرٍ...﴾ الْآيَةِ ﴿لِنُنزِلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ
 وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ
 ابْنُ كَعْبٍ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ
 وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ^(٢). وَهَذَا مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ. قَالَ
 الزُّهْرِيُّ: وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدْوًا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ
 نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]
 ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالرِّيَازَةِ
 وَالنَّقْصِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَيُّ: لِتُنذِرَ بِهِ بِأَسْمِ اللَّهِ
 وَبِقَمَّتِهِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ
 لَهُ.

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ
 وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ
 فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ
 مُخْبِرٍ...﴾ الْآيَةِ ﴿لِنُنزِلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ
 وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ
 ابْنُ كَعْبٍ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ
 وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ^(٢). وَهَذَا مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ. قَالَ
 الزُّهْرِيُّ: وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدْوًا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ
 نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]
 ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالرِّيَازَةِ
 وَالنَّقْصِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَيُّ: لِتُنذِرَ بِهِ بِأَسْمِ اللَّهِ
 وَبِقَمَّتِهِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ
 لَهُ.

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ
 وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ
 فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ
 مُخْبِرٍ...﴾ الْآيَةِ ﴿لِنُنزِلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ
 وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ
 ابْنُ كَعْبٍ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ
 وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ^(٢). وَهَذَا مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ. قَالَ
 الزُّهْرِيُّ: وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدْوًا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ
 نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]
 ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالرِّيَازَةِ
 وَالنَّقْصِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَيُّ: لِتُنذِرَ بِهِ بِأَسْمِ اللَّهِ
 وَبِقَمَّتِهِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ
 لَهُ.

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ
 وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ
 فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ
 مُخْبِرٍ...﴾ الْآيَةِ ﴿لِنُنزِلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ
 وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ
 ابْنُ كَعْبٍ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ
 وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ^(٢). وَهَذَا مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ. قَالَ
 الزُّهْرِيُّ: وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدْوًا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ
 نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]
 ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالرِّيَازَةِ
 وَالنَّقْصِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَيُّ: لِتُنذِرَ بِهِ بِأَسْمِ اللَّهِ
 وَبِقَمَّتِهِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ
 لَهُ.

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ
 وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ
 فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ
 مُخْبِرٍ...﴾ الْآيَةِ ﴿لِنُنزِلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ
 وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ
 ابْنُ كَعْبٍ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ
 وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ^(٢). وَهَذَا مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ. قَالَ
 الزُّهْرِيُّ: وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدْوًا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ
 نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]
 ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالرِّيَازَةِ
 وَالنَّقْصِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَيُّ: لِتُنذِرَ بِهِ بِأَسْمِ اللَّهِ
 وَبِقَمَّتِهِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ
 لَهُ.

(١) الطبري: ٣٩٤/١٩. يزيد الباهلي لا يُدْرَى من هو. (٢)
 الطبري: ٣٩٦/١٩

كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٦﴾
 [ذِكْرُ الْقُرْآنِ مُوجُودٌ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ]
 يَقُولُ تَعَالَى: وَإِنَّ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ وَالتَّنْوِيهِ بِهِ لَمَوْجُودٌ

ذَكَرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

[الْمُكَذِّبُونَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ]

يَسْأَلُونَ تَعَالَىٰ: كَذَلِكَ سَلَكْنَا لِكُلِّ قَوْمٍ سَبِيلًا وَالْكَافِرُونَ وَالْجَاهِلُونَ وَالْعِبَادَةُ، أَيُّ: أَدْخَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿٢١٠﴾ أَيُّ: بِالْحَقِّ ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَيُّ: حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أَيُّ: عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢١١﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿أَيُّ: يَتَمَنُونَ حِينَ يُشَاهِدُونَ الْعَذَابَ أَنْ لَوْ أَنظَرُوا قَلِيلًا لَعَمِلُوا - فِي زَعْمِهِمْ - بِطَاعَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فَكُلُّ ظَالِمٍ وَفَاجِرٍ إِذَا شَاهَدَ عِقَابَهُ نَدِمَ نَدَمًا شَدِيدًا، هَذَا فِرْعَوْنُ لَمَّا دَعَا عَلَيْهِ الْكَلِيمُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ رَبِّهِ وَأَمْلَأْتَ فِي حَيْوَتِهِ الدُّنْيَا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩] فَاتَّزَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي فِرْعَوْنَ، فَمَا آمَنَ حَتَّىٰ رَأَى الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُسْهِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَحَدِيثِهِ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ
٣٧٦
سُورَةُ الشُّعَرَاءِ
مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ وَذَكَرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمَعْذِيْبِ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الْأَقْرَبِ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنِ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّي ءَأَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيْزِ الرَّحِيْمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِيْكَ حِيْنَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلِبُ فِي السَّجِيْدِ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَنْبَيْتُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٢٢١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيْمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَتْهُمْ كَذِبَاتٌ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَلْبِغُهُمُ الْعَاوِنُ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيْرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِيْنَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

سُورَةُ النَّاسِ
٣٧٧
سُورَةُ النَّاسِ

كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيَضْبَعُ فِي الْحِجَّةِ صَبْعَةً، ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ أَيُّ: مَا كَانَ شَيْئًا كَانَ^(١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَذَلِهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، وَالْإِنْدَارِ لَهُمْ، وَبِعْتَهُ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ، وَبِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ﴿٢٠٨﴾ وَذَكَرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَلْقَا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَهْلَاهَا ظَلِمْتُمْ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيْحِ: «يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُعْمَسُ فِي النَّارِ عَمْسَةً ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيْمًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا

[نَزَلَ بِالْقُرْآنِ جَبْرِيْلٌ لَا الشَّيْطَانَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ: أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللَّهِ ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: أَحَدُهَا أَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ، أَيُّ: لَيْسَ هُوَ مِنْ بَعْثِهِمْ وَلَا مِنْ طَلَبِهِمْ، لِأَنَّ مِنْ سَجَايَاهُمْ الْفَسَادَ وَإِضْلَالَ الْعِبَادِ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنُورٌ وَهُدًى وَبُرْهَانٌ عَظِيمٌ، فَبَيَّنَهُ وَبَيَّنَ الشَّيَاطِينُ مُنَافَاةَ عَظِيمَةً. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أَيُّ: وَلَوْ اتَّبَعِي لَهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْ اتَّبَعِي لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ وَتَأْدِيبَتَهُ، لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ بِعَمَلِهِمْ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَالَ نُزُولِهِ، لِأَنَّ السَّمَاءَ مِلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا، فِي مَدَّةِ إِنزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِمَاعِ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُ لِثَلَاثَةِ سَبَبَاتٍ: وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَحِفْظِهِ لِشَرْعِهِ، وَتَأْيِيدِهِ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْتَهَا مُلْتَمَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكْفَرُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١١٦﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١١٧﴾ الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١١٨﴾ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدِ ﴿١١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٠﴾

[الْأَمْرُ بِإِنذَارِ الْأَقْرَبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ عَذَّبَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُنذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ، أَيُّ: الْأَذْدَنِينَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْلُصُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا إِيمَانُهُ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَأَمْرُهُ أَنْ يُلَيِّنَ جَانِبَهُ لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ عَصَاهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَانَتْ أُمَّةٌ مِنْ كَانَتْ فَلْيَتَّبِعُوا مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي

بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وَهَذِهِ النَّدَارَةُ الْخَاصَّةُ لَا تَنَافِي الْعَامَّةُ بَلْ هِيَ قَرْدٌ مِنْ أَجْزَائِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [طه: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، [الأنعام: ١٩] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلَنَّا مُوعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧]. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِئِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»^(١). وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَلَنَذْكُرُ بَعْضًا مِنْهَا:

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ آتَى النَّبِيَّ ﷺ الصَّمَا، فَصَعِدَ عَلَيْهِ ثُمَّ نَادَى: «يَا صَبَاحَاهُ» فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ بَيْنَ رَجُلٍ يَجِيءُ إِلَيْهِ وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُمْ أَنَّ خَيْلًا يَسْفَحُ هَذَا الْجَبَلَ تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، صَدَقْتُمْوَنِي؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَّ لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَمَا دَعَوْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟! وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]^(٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ ابْنَةُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ»^(٤) انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ قَبِيصَةَ بِنِ مُخَارِقٍ وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَا: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ

(١) مسلم: ١٣٤/١ (٢) أحمد: ٣٠٧/١ (٣) فتح الباري: ٦٠٩/٨ ومسلم: ١٩٣/١ وتحفة الأحوذني: ٢٩٦/٩ والنسائي في الكبرى: ٥٢٦/٦ (٤) أحمد: ١٨٧/٦ (٥) مسلم: ١/١

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَضَمَةً مِنْ جَبَلٍ [فَعَلًا] أَعْلَاهَا [حَجَرًا]، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ، وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلِكُمْ كَرَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ فَذَهَبَ يَرْتَابُ أَهْلَهُ [يُحْشَى] أَنْ يَسْفُوهُ، فَجَعَلَ يُنَادِي وَيَهْتَفُ: يَا صَبَاحَا»^(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّهُ مُؤَيَّدٌ وَحَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ، وَمُظَفَّرُكَ وَمُعَلِّي كَلِمَتِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ مِنْ تَقْوَمٍ﴾ أَي: هُوَ مُعْتَنِي بِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقْوَمُ﴾ يَعْنِي إِلَى الصَّلَاةِ^(٣). وَقَالَ عِكْرَمَةُ: يَرَى قِيَامَهُ وَرُكُوعَهُ وَسُجُودَهُ^(٤). وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقْوَمُ﴾ إِذَا صَلَّيْتَ وَحَدِّكَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقْوَمُ﴾ أَي: مِنْ فِرَاشِكَ أَوْ مَجْلِسِكَ^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ﴾ فَائِمًا وَجَالِسًا وَعَلَى حَالَاتِكَ^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقْوَمُ﴾ [١٧] وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ قَالَ: فِي الصَّلَاةِ - يَرَاكَ وَحَدِّكَ وَيَرَاكَ فِي الْجَمْعِ^(٧) - وَهَذَا قَوْلُ عِكْرَمَةَ وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ^(٨). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَي: السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ...﴾ [الآية: يونس: ٦١].

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ﴾ [١٧] نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [١٨] يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كِبْرًا [١٩] وَالشَّعْرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ [٢٠] أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ [٢١] وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ [٢٢] إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ وَأَسْتَصِرُّوهُ مِنْ عَدَا مُظْلِمًا وَسِعَعَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْفِلُونَ [٢٣]

[الرَّدُّ عَلَىٰ أَفْتِرَاءِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِمَنْ زَعَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ لَيْسَ بِحَقٍّ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ افْتَعَلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، أَوْ أَنَّهُ آتَاهُ بِهِ رَبِّي مِنَ الْجَانِّ، فَتَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَنَابَ رَسُولِهِ عَنْ قَوْلِهِمْ وَأَفْتِرَائِهِمْ، وَنَبَّهَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ تَنْزِيلُهُ وَوَحْيُهُ، نَزَلَ بِهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ أَمِينٌ عَظِيمٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قِبَلِ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَيْسَ

لَهُمْ رَغَبٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُونَ عَلَىٰ مَنْ يُشَاكِلُهُمْ وَيُشَابِهُهُمْ مِنَ الْكُفَّانِ الْكَذْبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أَي: أُخْبِرْكُمْ ﴿عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ﴾ [١٧] نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ أَي: كَذُوبٍ فِي قَوْلِهِ وَهُوَ الْأَفَّاكُ ﴿أَثِيمٍ﴾ وَهُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ. فَهَذَا هُوَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْكُفَّانِ، وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمْ مِنَ الْكَذْبَةِ الْفَسَقَةِ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينُ أَيْضًا كَذِبَةٌ فَسَقَةٌ ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أَي: يَسْتَرْفِقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، ثُمَّ يُلْقُونَهَا إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ، فَيَحَدِّثُونَ بِهَا فَيُضَدِّقُهُم النَّاسُ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ فِي تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ، كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ. كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلَ نَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْكُفَّانِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ، يَخْطِفُهَا الْجَنِّيُّ فَيَقْرُفُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْفَرَةِ الدَّجَاجِ، فَيَخْلُطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ»^(٩). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْرَانٍ، فَإِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا [لِلَّذِي قَالَ]: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْفِقُوا السَّمْعَ، وَمُسْتَرْفِقُوا السَّمْعَ هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِيَدَيْهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاجِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَا، وَرُبَّمَا أَلْفَاها قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُضَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ» فَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ^(١٠).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ

(١) أحمد: ٦٠/٥ (٢) مسلم: ١٩٣/١ والنسائي في الكبرى: ٤٢٣/٦ (٣) القرطبي: ١٤٤/١٣ (٤) الطبري: ٤١٢/١٩ (٥) الدر المنثور: ٣٣٠/٦ (٦) عبد الرزاق: ٧٧/٣ (٧) الدر المنثور: ٣٣١/٦ (٨) الطبري: ٤١٣/١٩ (٩) فتح الباري: ٥٤٥/١٣ (١٠) فتح الباري: ٣٩٨/٨

المَلَائِكَةُ تَحَدَّثُ فِي الْعَنَانِ - وَالْعَنَانُ: الغَمَامُ - بِالْأَمْرِ [يَكُونُ] فِي الْأَرْضِ، فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ، فَتَقْرُأُ فِي أُذُنِ الْكَاهِنِ، كَمَا تَقْرَأُ الْقَارُورَةُ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَيْدِيَّةٍ^(١).

[الرَّدُّ عَلَى قَوْلِهِمْ فِي النَّبِيِّ ﷺ إِنَّهُ شَاعِرٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْكُفَّارَ يَتَّبِعُهُمْ ضَلَالًا الْإِنْسِ وَالْحِجْنَ^(٢). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَعَبْدُ اللَّهِ^(٣). وَقَالَ عِكْرَمَةُ: كَانَ الشَّاعِرَانِ يَتَهَاجِيَانِ فَيَنْتَصِرُ لِهَذَا فِقَامَ مِنَ النَّاسِ، وَلِهَذَا فِقَامَ مِنَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي كُلِّ لَعْوٍ يَخْوَضُونَ^(٥). وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ الْكَلَامِ^(٦). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ^(٧). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ أَحَدُهُمَا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَالْآخَرُ مِنْ قَوْمِ آخَرِينَ، وَإِنَّهُمَا تَهَاجَا، فَكَانَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَوَاةٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَهُمُ الشُّهَاءُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾^(٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ^(٩) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ^(١٠).

وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ بِكَاهِنٍ وَلَا بِشَاعِرٍ، لِأَنَّ حَالَهُ مُنَافٍ لِحَالِهِمْ مِنْ وُجُوهِ ظَاهِرَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ؛ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^(١١) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْتَوْنَهُ^(١٢) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ^(١٣) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣]

[اسْتِثْنَاءُ شُعْرَاءِ الْإِسْلَامِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَسِيطٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ سَالِمِ الْبُرَادِ مَوْلَى تَمِيمِ الدَّارِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ جَاءَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ يَبْكُونَ، قَالُوا: قَدْ عَلِمَ اللَّهُ جِئِينَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ أَنَا شُعْرَاءُ، فَتَلَا النَّبِيُّ:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قَالَ: «أَنْتُمْ» ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قَالَ: «أَنْتُمْ» ﴿وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قَالَ: «أَنْتُمْ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ^(١٤). وَلَكِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ شُعْرَاءِ الْأَنْصَارِ؟ [فِي] ذَلِكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يَتَقَدَّمَ إِلَّا مُرْسَلَاتٌ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلَكِنَّ هَذَا الْاسْتِثْنَاءَ يَدْخُلُ فِيهِ شُعْرَاءُ الْأَنْصَارِ وَغَيْرُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ فِيهِ مَنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ بِدَمِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ، ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ وَرَجَعَ وَأَقْلَعَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا فِي مُقَابَلَةٍ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ. فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ، وَامْتَدَحَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ فِي مُقَابَلَةٍ مَا كَانَ يُدْمُهُ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ جِئِينَ أَنْزَلَ:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي

رَاتِقٌ مَا فَتَفْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَدُوِّ

ي وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مُتَّبُورٌ

وَكَذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، كَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهِ وَأَكْثَرُهُمْ لَهُ هَجْوًا، فَلَمَّا أَسْلَمَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يَمْدَحُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا كَانَ يَهْجُوهُ، وَيَتَوَلَّاهُ بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ عَادَاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَزِيدُونَ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ^(١٥). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(١٦).

وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِحَسَّانَ: «اهْجُهُمْ» - أَوْ قَالَ - «هَاجِهِمْ وَجَبْرِيلُ مَعَكَ»^(١٧). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشُّعْرَاءِ مَا أَنْزَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ

(١) البخاري: ٣٢٨٨ (٢) الطبري: ٤١٦/١٩ (٣) الطبري:

٤١٦، ٤١٥/١٩ (٤) الدر المنثور: ٣٢٣/٦ (٥) الطبري:

٤١٧/١٩ (٦) الدر المنثور: ٣٣٤/٦ (٧) الطبري: ١٩/

٤١٧ (٨) الطبري: ٤١٦/١٩ (٩) الطبري: ٤٢٠/١٩ (١٠)

الطبري: ٤٢٠/١٩ (١١) الطبري: ٤٢٠، ٤١٩/١٩ (١٢) فتح

الباري: ٣٥١/٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٧٧

سُورَةُ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى
 لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
 أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
 وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ
 لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِغًا تِيكُمُ
 مِنْهَا يُخْبِرُونَ أَوْ أَمَّا تِيكُمُ بِشَاهِبٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
 جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْسُجُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ
 فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِكًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُجُ لَأَخْفَفَ
 لِي إِذْ لَأَخْفَأُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ
 سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ
 مِنْ عَيْرٍ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فَاتَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ
 ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: في الدنيا والآخرة
 ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾ أي: ليس يخسر أنفسهم
 وأموالهم سواهم من أهل المحسر. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ
 لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: ﴿وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ
 لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: لتأخذ القرآن من لدن حكيم
 عليهما السلام. ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
 أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: حكيما في أمره
 ونهيه، عليهما السلام بالأمر: جليليها وحقيرها، فخبيرها هو الصدق
 المحض، وحكمها هو العدل التام، كما قال تعالى:
 ﴿وَنَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِغًا تِيكُمُ مِنْهَا يُخْبِرُونَ أَوْ أَمَّا تِيكُمُ
 بِشَاهِبٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿٧﴾ فلما جاءها نورى أن بورك من في
 النار ومن حولها وسبحن الله رب العالمين ﴿٨﴾ يمسج إننا الله العزيز الحكيم ﴿٩﴾ وألق عصاك
 ولما رآها تهتز كأنها جان ولما مدركا ولم يعقب يمسج لآخفف لي إذ
 لأخفأ لدى المرسلون ﴿١٠﴾ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد
 سوء فإنني غفور رحيم ﴿١١﴾ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء
 من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه فاتهم كانوا قوما فاسقين
 ﴿١٢﴾ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴿١٣﴾

وَلَسَانِيهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ
 النَّبْلِ» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَعُدُّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلِبٍ بِنَفْسِي﴾،
 كقولهِ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ﴾ الآية
 [غافر: ٥٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّا كُنْمُ
 وَالظُّلْمُ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلْمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢).
 قال قتادة بن دعامه في قوله تعالى: ﴿وَسِعَعُدُّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 أَيْ مُنْقَلِبٍ بِنَفْسِي﴾ يعني من الشعراء وغيرهم، آخر تفسير
 سورة الشعراء، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النمل وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى
 لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
 يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ
 يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
 الْآخِسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾
 [القرآن هدى وبشرى للمؤمنين، وهو نذير للكافرين]
 قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ
 فِي أَوَائِلِ السُّورِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ أي:
 هَذِهِ آيَاتُ ﴿الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ﴾ أي: بَيِّنَ وَاضِحٍ ﴿هُدًى
 وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إِنَّمَا تَحْضُلُ الْهَدَايَةَ وَالْبِشَارَةَ مِنْ
 الْقُرْآنِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، وَأَقَامَ
 الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَأَيَّقَنَ بِالذَّارِ
 الْآخِرَةِ، وَابْتَعَثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ:
 خَيْرَهَا وَسَرَّهَا، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ
 لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ
 وَقْرٌ... الْآيَةُ [صَلت: ٤٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ
 الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى
 هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يُكذِّبُونَ بِهَا
 وَيَسْتَعْبِدُونَ وَقَوْمَهَا ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي:
 حَسَّنَّا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، وَمَدَدْنَا لَهُمْ فِي غِيْبِهِمْ فَهُمْ يَتَّبِعُونَ فِي
 ضَلَالِهِمْ، وَكَانَ هَذَا جَزَاءً عَلَى مَا كَذَّبُوا مِنَ الدَّارِ
 الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَهْلَهُمْ وَابْنَدْنَهُمْ كَمَا لَمْ
 يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾... الْآيَةُ [الأنعام: ١١٠].

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا
وَقَالَ أَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ

وَأُوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ
لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَعَلُوا وَإِذَا التَّمَلُّقُ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
أُولَٰئِكَ إِنِّي بَسُلْطَنٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾ فَمَكَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ
أَحْطَتْ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

ظَلَّمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي
جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَصْفَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾

[قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَصِيرُ فِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُذَكَّرًا لَّهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَيْفَ اضْطَفَأَهُ اللَّهُ وَكَلَّمَهُ وَتَاجَاهُ
وَأَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدْوِلَّةِ الْقَاهِرَةِ،
وَابْتَعَتْهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِيئِهِ، فَجَحَدُوا بِهَا وَكَفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا
عَنِ اتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِيَادِ لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾
أَي: اذْكُرْ حِينَ سَارَ مُوسَىٰ بِأَهْلِهِ فَاصْطَلَّ الطَّرِيقَ، وَذَلِكَ
فِي لَيْلٍ وَظُلَامٍ، فَانْسَمَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا، أَي: رَأَى
نَارًا تَأْجُجُ وَتَضْطَرُّمُ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: ﴿إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا سَتَابِئِكُمْ
مِنْهَا بِغَيْرِ﴾ أَي: عَنِ الطَّرِيقِ ﴿أَوْ مَا يَكُمُ بِسَهَابٍ مِّمَّنْ لَمَّا كَرِهَ
تَصَلُّوكُ﴾ أَي: تَشْتَدُّونَ بِهِ، وَكَانَ كَمَا قَالَ، فَإِنَّهُ رَجَعَ
مِنْهَا بِغَيْرِ عَظِيمٍ، وَافْتَبَسَ مِنْهَا نُورًا عَظِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنَ النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَي:
فَلَمَّا أَنَاهَا وَرَأَى مَظْطَرًا هَائِلًا عَظِيمًا حَيْثُ انْتَهَى إِلَيْهَا
وَالنَّارُ تَضْطَرُّمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ لَا تَزْدَادُ النَّارُ إِلَّا تَوَقُّدًا،
وَلَا تَزْدَادُ الشَّجَرَةُ إِلَّا خُضْرَةً وَنَضْرَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا
نُورٌهَا مُتَّصِلٌ بِعَنَانِ السَّمَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: لَمْ
تَكُنْ نَارًا، وَإِنَّمَا كَانَتْ نُورًا يَتَوَهَّجُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ: نُورٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١). فَوَقَّفَ مُوسَىٰ مُتَعَجِّبًا مِمَّا
رَأَى فَ﴿نُورِي أَنْ يُورِكَ مِنَ النَّارِ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:
تَقْدَسُ^(٢). ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَي: مِنَ الْمَلَائِكَةِ. قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ، وَعِكْرَمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَالْحَسَنُ، وَفَتَاةُ^(٣).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الَّذِي يَفْعَلُ مَا
يَشَاءُ، وَلَا يَسْبَهُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ
مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمُبِينُ لِجَمِيعِ
الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا يَكْتَنِفُهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، بَلْ هُوَ
الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الْمُتَنَزِّهُ عَنْ مِمَّاثِلَةِ الْمُحَدَّثَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْمُوعِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَعْلَمُهُ
أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبُهُ وَيُنَاجِيهِ هُوَ رَبُّهُ اللَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي عَزَّ كُلَّ
شَيْءٍ وَفَهَرَهُ وَعَلَبَهُ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ
يُلْقِيَ عَصَاهُ مِنْ يَدِهِ لِيُظْهِرَ لَهُ ذَلِيلًا وَاضِحًا عَلَىٰ أَنَّهُ الْفَاعِلُ

الْمُخْتَارُ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَمَّا أَلْقَىٰ مُوسَىٰ تِلْكَ
الْعَصَا مِنْ يَدِهِ انْقَلَبَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ هَائِلَةٌ فِي غَايَةِ
الْكِبَرِ وَسُرْعَةِ الْحَرَكَةِ - مَعَ ذَلِكَ -، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ وَالْجَانُّ ضَرْبٌ مِنَ الْحَيَّاتِ،
أَسْرَعُهُ حَرَكَةٌ، وَأَكْثَرُهُ اضْطِرَابًا. فَلَمَّا عَايَنَ مُوسَىٰ ذَلِكَ:
﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَنَرَىٰ يُعَقِّبُ﴾ أَي: لَمْ يَلْتَفِتْ مِنْ شِدَّةِ فَرَقِهِ ﴿يَسْمُوعِي
لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ أَي: لَا تَخَفْ مِمَّا تَرَى،
فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَضْطَفِئَكَ رَسُولًا وَأَجْعَلَكَ نَبِيًّا وَجِهًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَّمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي
غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ وَفِيهِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِلنَّبَسْرِ،
وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَىٰ عَمَلٍ سَيِّئٍ ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهُ وَرَجَعَ
وَتَابَ وَأَتَابَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي
لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ ... الْآيَةُ

(١) الطبري: ٤٢٨/١٩ (٢) الطبري: ٤٢٨/١٩ (٣) الطبري:

٤٢٩/١٩ والمحرم الوجيز: ٢٥٠/٤ والدر المشور: ٣٤١/٦

إِذْ كُرِّدَاوُدَ وَسَلِيمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ وَتَرْتَبِيَهُ جُنُودَهُ
وَمُرُورَهُ عَلَى وَادِي التَّنَمْلِ

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدَيْهِ وَنَبِيَّهِ: دَاوُدَ وَابْنِهِ
سَلِيمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، مِنَ النِّعَمِ الْجَزِيلَةِ وَالْمَوَاهِبِ
الْجَلِيلَةِ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، وَمَا جَمَعَ لَهُمَا بَيْنَ سَعَادَةِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمُلْكِ وَالتَّمَكُّينِ التَّامِّ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّبُوَّةِ
وَالرِّسَالَةِ فِي الدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ
مُسْلِمًا عَلِيمًا وَقَالَ لَمَعَدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ
الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أَي: فِي الْمُلْكِ
وَالنَّبُوَّةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ وِرَاثَةَ الْأَمَالِ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ
يُحْصَ سُلَيْمَانُ وَحْدَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَوْلَادِ دَاوُدَ، فَإِنَّهُ قَدْ
كَانَ لِدَاوُدَ بِنَاتُهُ امْرَأَةٌ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ وِرَاثَةَ الْمُلْكِ
وَالنَّبُوَّةِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا تُوْرَثُ أَمْوَالُهُمْ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لَحْنُ مَعَاشِرِ الْأَنْبِيَاءِ لَا تُوْرَثُ،
مَا تَرَكَنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ»^(١). وَقَالَ: ﴿يَتَّخِذُ النَّاسُ عَلَمَنَا مَنَظِقَ
الطَّيْرِ وَأُوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَي: أَخْبَرَ سُلَيْمَانَ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ
فِيمَا وَهَبَهُ لَهُ مِنَ الْمُلْكِ التَّامِّ وَالتَّمَكُّينِ الْعَظِيمِ، حَتَّى إِنَّهُ
سَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالطَّيْرَ، وَكَانَ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ
وَالْحَيَوَانَاتِ أَيْضًا، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ - فِيمَا
عَلِمْنَاهُ مِمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ - فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ كَانَ قَدْ
أَفْهَمَ سُلَيْمَانَ مَا يَتَخَاطَبُ بِهِ الطُّيُورُ فِي الْهَوَاءِ، وَمَا تَنْطِقُ
بِهِ الْحَيَوَانَاتُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَّمْنَا
مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَي: مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ
﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أَي: الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ لِلَّهِ عَلَيْنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحِشْرَ لِسَلِيمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُرْضُونَ﴾ أَي: وَجَمِيعَ لِسَلِيمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ، يَعْنِي رَكِبَ فِيهِمْ فِي أُنْهَى وَعَظْمَةِ كَبِيرَةٍ فِي
الْإِنْسِ: وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَلُونَهُ، وَالْجِنُّ: وَهُمْ بَعْدَهُمْ فِي
الْمَنْزِلَةِ، وَالطَّيْرُ وَمَنْزِلَتُهَا فَوْقَ رَأْسِهِ، فَإِنْ كَانَ حَرًّا أَظْلَمَتْهُ
مِنْهُ بِأَجْنِحَتِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَهُمْ يُرْضُونَ﴾ أَي: يَكْفُ أَوْلَهُمْ
عَلَى آخِرِهِمْ لِئَلَّا يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ عَنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هِيَ مَرْتَبَتُهُ لَهُ.
قَالَ مُجَاهِدٌ: جُعِلَ عَلَى كُلِّ صَنْبٍ وَرَعَةٌ يَرُدُّونَ أَوْلَاهَا
عَلَى أُخْرَاهَا لِئَلَّا يَتَقَدَّمُوا فِي الْمَسِيرِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ

[النساء: ١١٠]، وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَةٍ مِنْ غَيْرِ مُسَوِّءٍ﴾ هَذِهِ آيَةٌ
أُخْرَى وَدَلِيلٌ بَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِدْقِ
مَنْ جَعَلَ لَهُ مُعْجِزَةً، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ
يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِهِ، فَإِذَا أَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا خَرَجَتْ بَيْضَاءَ
سَاطِعَةً كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ قَمَرٍ لَهَا لَمَعَانٌ تَلَالُفٌ كَالْبُرْقِ الْخَاطِفِ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي يَتَبَعُ آيَاتِكَ﴾ أَي: هَاتَانِ يَتَبَعَانِ مِنْ تَبَعِ
آيَاتِ أَوْ يَتَّبِعُ بَيْنَ وَأَجْعَلُهُنَّ بُرْهَانًا لَكَ ﴿إِلَى رِضْوَانٍ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

وَهَذِهِ هِيَ الْآيَاتُ الشُّعُ الثَّلَاثُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ هُنَاكَ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أَي: بَيِّنَةً وَاضِحَةً
ظَاهِرَةً ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَأَرَادُوا مُعَارَضَتَهُ
بِسِحْرِهِمْ، فَغَلَبُوا وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿وَحَمَدُوا بِهَا﴾ فِي
ظَاهِرِ أَمْرِهِمْ ﴿وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَي: عَلِمُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
أَنَّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَكِنْ جَحَدُوا وَعَانَدُوا وَكَابَرُواهَا
﴿ظَلَمُوا وَعَلَوْا﴾ أَي: ظَلَمُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ سَجِيَّةً مَلْعُونَةً، وَعَلَوْا
أَي: اسْتِكْبَارًا عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَانظُرْ
كَيْفَ كَاتَبَ عَلَيْهِ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَي: انظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ فِي إِهْلَاكِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وَإِعْرَاقِهِمْ عَنْ
آخِرِهِمْ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ. وَفَحْوَى الْخَطَابِ يَقُولُ:
أَحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُكْذِبُونَ لِمُحَمَّدٍ، الْحَاجِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ
رَبِّهِ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأُخْرَى، فَإِنَّ
مُحَمَّدًا ﷺ أَشْرَفَ وَأَعْظَمَ مِنْ مُوسَى، وَبُرْهَانُهُ أَدَلُّ وَأَقْوَى
مِنْ بُرْهَانِ مُوسَى بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الدَّلَائِلِ الْمُفْتَرِيَةِ بِوُجُودِهِ
فِي نَفْسِهِ وَسَمَائِلِهِ، وَمَا سَبَقَهُ مِنَ الْبَشَارَاتِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ،
وَأَخَذِ الْمَوَاتِيقَ لَهُ، عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا وَقَالَ لَمَعَدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى
كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَّخِذُ النَّاسُ
عَلَمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ
الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحِشْرَ لِسَلِيمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ
يُرْضُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا تَوَلَّى وَاوَّ التَّمَلَّقَتْ قَالَتَ لِمَلَكَةٍ يَتَّخِذُهَا التَّمَلُّ
أَدْخَلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَتَعَرَّوْنَ ﴿١٨﴾
فَنَسَسَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْرِثْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي

بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

اليوم^(١).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَازَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أي: حتى إذا مرَّ سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحِطَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها ﴿فَنَسَرَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تلييبي منطلق الطير والحيوان. وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: عملاً تُجبه وترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكِ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرائقين الأعلى من أوليائك.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ

الطَّيْرِينَ﴾ ﴿لَأَعِدَّتَنِي عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي

سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢٠﴾

[غِيَابُ الْهَدْهَدِ]

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه، فظن له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحته بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه، أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الطَّيْرِينَ﴾.

حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس غلبت اليوم، قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويخنو على الفخ تراباً، فيجئ الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي! فقال ابن عباس، لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبته، ثم قال له: ويحك، إنه إذا نزل القدر عمي البصر وذهب

إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء وهما عرش عظيم ﴿٢١﴾ ووجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴿٢٢﴾ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴿٢٣﴾ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴿٢٤﴾ قال سنظر أصدقت أم كنت من الكذابين ﴿٢٥﴾ أذهب بكتبي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴿٢٦﴾ قالت يا أيها الملأ أئني أئني إلى كذب كريم ﴿٢٧﴾ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿٢٨﴾ ألا تعلموا على وأتوني مسلمين ﴿٢٩﴾ قالت يا أيها الملأ أئني في أمري ما كنت قاطعة أمر حتى تشهدون ﴿٣٠﴾ قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد وأمر إليك فانظري ماذا أمرين ﴿٣١﴾ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴿٣٢﴾ وإني مرسله إليهم بهدي فأنظروا يوم يرجع المرسلون ﴿٣٣﴾

الحدز، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً^(٢).

وقوله: ﴿لَأَعِدَّتَنِي عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال الأعمش عن

المنهال بن عمرو عن سعيد بن عيسى عن ابن عباس: يعني تنف ريشه^(٣). وقال عبد الله بن شداد: تنف ريشه وتشمسه^(٤).

وكذا قال غير واحد من السلف: إنه تنف ريشه وتركه ملقى يأكله الدر والنمل. وقوله: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ يعني قتله

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ بعذر بين واضح. وقال شيطان ابن عيسى وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد قالت له

الطير: ما خلقت؟ فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استنتي؟ قالوا: نعم. قال: ﴿لَأَعِدَّتَنِي عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ

لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ قال: نجوت إذا.

﴿فمكك غير بعيد فقال أحط بما لم تحط به. وحيثك من

(١) الطبري: ١٩/٥٠٠، ٥٠١ (٢) القرطبي: ١٣/١٧٧، ١٧٨

(٣) الطبري: ١٩/٤٤٣ (٤) الطبري: ١٩/٤٤٣

جَبِيرٍ وَقَتَادَةَ وَعَبْرَ وَاحِدٍ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أَي: يَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ الْعِبَادُ وَمَا يُعْلِنُونَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ يَسْكُرُ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أَي: هُوَ الْمَدْعُودُ: اللَّهُ، وَهُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَلَمَّا كَانَ الْهُدْهُدُ دَاعِيًا إِلَى الْخَيْرِ، وَعِبَادَةَ اللَّهِ وَحَدَهُ وَالسُّجُودَ لَهُ نَهَى عَنْ قَتْلِهِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: التَّمَلَّةُ وَالتَّلْحَلَةُ وَالْهُدْهُدُ وَالصُّرْدُ. وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ^(٤).

﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ١٧ ﴿أَذْهَبَ

بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ١٨ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِلَى آلِي إِلَٰكٍ كُنْتُ كَرِيمًا﴾ ١٩ ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ

يَسِرُّهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٢٠ ﴿أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَاتُوفِي مُسْلِمِينَ﴾ ٢١ ﴿

كِتَابٌ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ بَلْقَيْسٍ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قِيلِ سُلَيْمَانَ لِلْهُدْهُدِ حِينَ أَخْبَرَهُ عَنْ أَهْلِ سَبَأٍ وَمَلَكَتِهِمْ: ﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَي: أَصَدَقْتَ فِي إِخْبَارِكَ هَذَا؟ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ؟ فِي مَقَالَتِكَ لِتَتَخَلَّصَ مِنَ الْوَعِيدِ الَّذِي أَوْعَدْتِكَ؟ ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَتَبَ كِتَابًا إِلَىٰ بَلْقَيْسٍ وَقَوْمِهَا. وَأَعْطَاهُ ذَلِكَ الْهُدْهُدُ فَحَمَلَهُ. قِيلَ: فِي جَنَاحِهِ كَمَا هِيَ عَادَةُ الطَّيْرِ. وَقِيلَ: بِمِثْقَالِهِ. وَذَهَبَ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ، فَجَاءَ إِلَىٰ قَصْرِ بَلْقَيْسٍ إِلَىٰ الْخَلْوَةِ الَّتِي كَانَتْ تَخْلِي فِيهَا بِنَفْسِهَا، فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهَا مِنْ كَوَّةِ هُنَالِكَ بَيْنَ يَدَيْهَا، ثُمَّ تَوَلَّى نَاجِيَةً أَدْبَا وَرِيَّاسَةً، فَتَحِيرَتْ مِمَّا رَأَتْ، وَهَالَهَا ذَلِكَ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَىٰ الْكِتَابِ فَأَخَذَتْهُ فَفَتَحَتْ حَتَّمَهُ وَقَرَأَتْهُ، فإِذَا فِيهِ: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ يَسِرُّهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٢٠ ﴿أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَاتُوفِي مُسْلِمِينَ﴾ ٢١ ﴿فَجَمَعَتْ عِنْدَ ذَلِكَ

سَبَأَ بِنْتُ بَقِيصَ﴾ ٢٢ ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ٢٣ ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ٢٤ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ٢٥ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٢٦ ﴿

الْهُدْهُدُ بَيْنَ يَدَيْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَإِخْبَارُهُ عَنْ سَبَأٍ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَمَكَتْ﴾ الْهُدْهُدُ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أَي: غَابَ زَمَانًا يَسِيرًا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ: ﴿أَحْطَطُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ﴾ أَي: أَطْلَعْتُ عَلَىٰ مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَنْتَ وَلَا جُنُودُكَ ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنْتُ بَقِيصَ﴾ أَي: بِخَبْرٍ صَدِيقٍ حَقٍّ يَقِينٍ، وَسَبَأٌ، هُمْ: جَمِيرٌ وَهُمْ مُلُوكُ الْيَمَنِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: وَهِيَ بَلْقَيْسُ بِنْتُ شَرَاذِبِيلَ مَلَكَتُ سَبَأً^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَي: مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ الْمُتَمَكِّنُ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يَعْنِي سَرِيرٌ - تَجْلِسُ عَلَيْهِ - عَظِيمٌ هَائِلٌ مُزَخْرَفٌ بِالذَّهَبِ وَأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ وَاللَّالِئِءِ. قَالَ عُلَمَاءُ التَّارِيخِ: وَكَانَ هَذَا السَّرِيرُ فِي قَصْرِ عَظِيمٍ مُشِيدٍ رَفِيعِ الْبِنَاءِ مُحْكَمٍ، وَكَانَ فِيهِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ طَاقَةً مِنْ مَشْرِقِهِ وَمِثْلَهَا مِنْ مَغْرِبِهِ، قَدْ وُضِعَ بِنَاؤُهُ عَلَىٰ أَنْ تَدْخُلَ الشَّمْسُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ طَاقَةٍ، وَتَعْرُبُ مِنْ مُقَابَلَتِهَا فَيَسْجُدُونَ لَهَا صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَي: عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ مَعْنَاهُ ﴿وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ٢٤ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أَي: لَا يَعْرِفُونَ سَبِيلَ الْحَقِّ الَّتِي هِيَ إِخْلَاصُ السُّجُودِ لِلَّهِ وَحَدَهُ دُونَ مَا خَلَقَ مِنَ الْكُفُورِ وَغَيْرِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَمْعُهُمَا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْلَمُ كُلَّ خَبِيئَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ^(٢). وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ

(١) الدر المنثور: ٣٥١/٦ (٢) الدر المنثور: ٣٥٢/٦ (٣)

الطبري: ٤٤٥/١٩ وعبد الرزاق: ٨١/٣ والدر المنثور: ٣٥٢/٦

(٤) أحمد: ٣٣٢/١ وأبو داود: ٤١٨/٥ وابن ماجه: ١٠٧٤/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٨٠

سُورَةُ النَّمْلِ

أَمْرًا هَا وَوُزْرَاءَهَا وَكِبْرَاءَ دَوْلَتِهَا وَمَمْلَكَتِهَا، ثُمَّ قَالَتْ لَهُمْ: ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْفِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، تَعْنِي بِكَرَمِهِ مَا رَأَتْهُ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ: كَوْنُ طَائِرٍ أَتَى بِهِ قَالِقَاهُ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَبًا، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ قَرَأَتْهُ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٦﴾ أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَأَتُوْنِي مُسْلِمِينَ﴾ فَعَرَفُوْا أَنَّهُ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ، وَهَذَا الْكِتَابُ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْوَجَازَةِ وَالْفَصَاحَةِ، فَإِنَّهُ حَصَلَ الْمَعْنَى بِأَيْسَرِ عِبَارَةٍ وَأَحْسَنِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ: لَا تَجْبُرُوا عَلَيَّ ﴿وَأَتُوْنِي مُسْلِمِينَ﴾ (١). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: لَا تَمْتَنِعُوا وَلَا تَتَكَبَّرُوا عَلَيَّ ﴿وَأَتُوْنِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢).

﴿قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُوْنِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ﴾ (٣٦) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بَأْسَ شَدِيْدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوْا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوْا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴿٣٨﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ بَرِيْعِ الْمُرْسَلُوْنَ ﴿٣٩﴾﴾

[مُشَاوَرَةٌ بَلْقَيْسَ مَعَ مَلِكِهَا]

لَمَّا قَرَأَتْ عَلَيْهِمْ كِتَابَ سُلَيْمَانَ، اسْتَشَارَتْهُمْ فِي أَمْرِهَا وَمَا قَدْ نَزَلَ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَتْ: ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُوْنِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ﴾ أَي: حَتَّى تَحْضُرُوْنَ وَتُشِيرُوْنَ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بَأْسَ شَدِيْدٍ﴾ أَي: مَثُوْا إِلَيْهَا بِعَدَدِهِمْ وَعَدَدِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، ثُمَّ فَوَّضُوا إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرَ فَقَالُوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أَي: نَحْنُ لَيْسَ لَنَا عَاقِفَةٌ وَلَا بِنَا بَأْسَ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَقْضِيَهُ وَتَحَارِيْبِهِ، فَمَا لَنَا عَاقِفَةٌ عَنْهُ. وَبَعْدَ هَذَا فَالْأَمْرُ إِلَيْكَ مَرِي فِينَا رَأَيْكَ نَمْتَبِّلُهُ وَنُطِيعُهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَتْ بَلْقَيْسُ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوْا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوْا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ﴾ (٣). ثُمَّ عَدَلَتْ إِلَى الْمُصَالِحَةِ وَالْمُهَادَاةِ وَالْمُسَالَمَةِ وَالْمُخَادَعَةِ وَالْمُضَانَعَةِ، فَقَالَتْ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ بَرِيْعِ الْمُرْسَلُوْنَ﴾ أَي: سَأَبْعَثُ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ تَلِيْقُ بِمِثْلِهِ، وَأَنْظُرُ مَاذَا يَكُوْنُ جَوَابُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَعَلَّهُ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنِّي وَيَكْتَفِ عَنَّا، أَوْ يَضْرِبُ عَلَيْنَا خَرَاجًا نَحْمِلُهُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ، وَنَلْتَزِمُ لَهُ بِذَلِكَ وَنَشْرُكُ قِتَالَنَا وَمُحَارَبَتَنَا. قَالَ قَتَادَةُ: رَجَمَهَا اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهَا مَا كَانَ أَغْمَلَهَا فِي إِسْلَامِهَا وَشِرْكِهَا، عَلِمَتْ

أَنَّ الْهَدِيَّةَ تَفْعُ مَوْفِعًا مِنَ النَّاسِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: قَالَتْ لِقَوْمِهَا: إِنْ قَبِلَ الْهَدِيَّةَ فَهُوَ مَلِكٌ فَقَاتِلُوهُ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ فَاتَّبِعُوهُ (٤).

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَيْدُوْنَ بِيَالِ فَمَا آتَيْنِيَّ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ فَفَرِحْتُمْ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلِنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُودٍ لَا يَجُودُونَ إِلَّا قَبْلَ لَمْ يَأْتِيَنَّهُمْ مِمَّا آتَيْنِيَّ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ﴾ (٣٧)

[الْهَدِيَّةُ وَجَوَابُ سُلَيْمَانَ]

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهَا بَعَثَتْ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرٍ وَلَاأَلَى وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَا جَاءُوا بِهِ بِالْكَتِيَّةِ، وَلَا اعْتَنَى بِهِ، بَلْ أَعْرَضَ عَنْهُ. وَقَالَ مُتَكَبِّرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَتَيْدُوْنَ بِيَالِ﴾ أَي: أَتَصَانِعُونِي بِمِالٍ لِأَتْرُكْكُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ وَمَمْلَكَتِكُمْ؟! ﴿فَمَا آتَيْنِيَّ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا

(١) الدر المنثور: ٣٥٤/٦ (٢) الطبري: ٤٥٣/١٩ (٣) الطبري: ٤٥٥/١٩ (٤) الطبري: ٤٥٥/١٩

الْحِجْرِ. قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَكَانَ كَأَنَّهُ جَبَلٌ^(٢). ﴿أَنَا عَائِلِكُ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يُعْنِي قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ^(٣).

وَقَالَ السُّدِّيُّ وَعِزُّرُهُ: كَانَ يَجْلِسُ لِلنَّاسِ لِلْقَضَاءِ وَالْحُكُومَاتِ وَلِلطَّعَامِ، مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ ﴿وَلِيَّ عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ: قَوِيٌّ عَلَى حَمْلِهِ أَمِينٌ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ^(٤). وَمِنْ هَهُنَا يَظْهَرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ أَرَادَ بِإِحْضَارِ هَذَا السَّرِيرِ إِطْهَارَ عَظْمَةِ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمُلْكِ، وَمَا سَخَّرَ لَهُ مِنَ الْجُنُودِ، الَّذِي لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَلِيَتَّخِذَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَى بُبُوتِهِ عِنْدَ بَلْقَيْسَ وَقَوْمِهَا، لِأَنَّ هَذَا خَارِقٌ عَظِيمٌ أَنْ يَأْتِيَ بِعَرْشِهَا كَمَا هُوَ مِنْ بِلَادِهَا قَبْلَ أَنْ يَقْدُمُوا عَلَيْهِ.

هَذَا، وَقَدْ حَجَبْتَهُ بِالْأَغْلَاقِ وَالْأَقْفَالِ وَالْحَفِظَةِ! فَلََمَّا قَالَ سُلَيْمَانُ: أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهُوَ أَصْفُ كَاتِبِ سُلَيْمَانَ، وَكَذَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ أَنَّهُ أَصْفُ بْنُ بَرْخِيَاءَ. وَكَانَ صِدِّيقًا يَعْلَمُ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ^(٥).

وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ مُؤْمِنًا مِنَ الْإِنْسِ وَاسْمُهُ أَصْفُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَا عَائِلِكُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أَيُّ: اذْفَعُ بَصْرَكَ وَانظُرْ مَدَّ بَصْرِكَ، مِمَّا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ لَا يَكِلُ بَصْرَكَ إِلَّا وَهُوَ حَاضِرٌ عِنْدَكَ، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ، وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى. قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَ: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(٦). فَلََمَّا عَايَنَ سُلَيْمَانَ وَمَلُؤُهُ ذَلِكَ، وَرَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أَيُّ: هَذَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ ﴿لِيَبْلُغَنِي﴾ أَيُّ: لِيُخْتَبِرَنِي ﴿أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَفِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: هُوَ غَفِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ وَعِبَادَتِهِمْ ﴿كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدْهُ أَحَدٌ، فَإِنَّ عَظَمَتَهُ لَيْسَتْ مُفْتَقِرَةً إِلَى أَحَدٍ، وَهَذَا كَمَا

عَاتَنَكُمْ أَيُّ: الَّذِي أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَالْجُنُودِ خَيْرٌ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ فَرَحُونُ﴾ أَيُّ: أَنْتُمْ الَّذِينَ تَتَفَادُونَ لِلْهُدَايَا وَالْتِحْفِ، وَأَمَّا أَنَا، فَلَا أَقْبَلُ مِنْكُمْ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوْ السَّيْفَ.

﴿اتَّبِعِ الْإِيمَانَ﴾ أَيُّ: بِهَدْيَتِهِمْ ﴿فَلَنَأْيِسَّنَهُمْ يُجْئُونَ لَا قَيْلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أَيُّ: لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِهِمْ ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ نَبْأًا أُذِلَّةً﴾ أَيُّ: وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ بِلَدَتِهِمْ أُذِلَّةً ﴿وَمَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: مُهَانُونَ مَذْخُورُونَ. فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهَا رُسُلُهَا بِهَدْيَتِهَا، وَبِمَا قَالَ سُلَيْمَانُ، سَمِعَتْ، وَأَطَاعَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا، وَأَقْبَلَتْ تَسِيرُ إِلَيْهِ فِي جُنُودِهَا خَاضِعَةً ذَلِيلَةً، مُعْظَمَةً لِسُلَيْمَانَ نَاوِيَةً مُتَابِعَتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمَّا تَحَقَّقَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدُومَهُمْ عَلَيْهِ، وَوَفُودَهُمْ إِلَيْهِ فَرِحَ بِذَلِكَ وَسَرَّهُ.

﴿قَالَ بَيِّنَاتٌ لِّلْمَلَأِ أَيْتِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ قَالَ عَفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا عَائِلِكُ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا عَائِلِكُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ لَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُغَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَفِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٦﴾

[إِحْضَارُ عَرْشِ بَلْقَيْسَ فِي لِحْظَةٍ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ قَالَ: فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهَا الرُّسُلُ بِمَا قَالَ سُلَيْمَانُ، قَالَتْ: قَدْ وَاللَّهِ عَرَفْتُ مَا هَذَا بِمَلِكٍ، وَمَا لَنَا بِهِ مِنْ طَاقَةٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِمَكَابِرَتِهِ شَيْئًا، وَرَبَعْتُ إِلَيْهِ: إِنِّي قَادِمَةٌ عَلَيْكَ بِمُلُوكِ قَوْمِي لِأَنْظُرَ مَا أَمْرُكَ وَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ دِينِكَ، ثُمَّ أَمَرَتْ بِسَرِيرِ مُلْكِهَا الَّذِي كَانَتْ تَجْلِسُ عَلَيْهِ. وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ مُفْصَّصٍ بِالنَّيْفُوتِ وَالرَّبْرَجِدِ وَاللُّؤْلُؤِ، فَجَعَلَ فِي سَبْعَةِ آيَاتٍ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، ثُمَّ أَقْفَلَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ، ثُمَّ قَالَتْ لِمَنْ خَلَفْتُ عَلَى سُلْطَانِهَا: اخْتِظْ بِمَا قَبْلَكَ وَسَرِيرِ مُلْكِي، فَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَلَا يَرِيئُهُ أَحَدٌ حَتَّى آتِيكَ.

ثُمَّ شَخَّصَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ، تَحْتَ يَدَيْ كُلِّ قَيْلٍ مِنْهُمْ أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ، فَجَعَلَ سُلَيْمَانُ يَبْعَثُ الْجِنَّ يَأْتُونَهُ بِمَسِيرِهَا وَمُسْتَهَابِهَا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ حَتَّى إِذَا دَنَّتْ جَمَعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مِمَّنْ تَحْتَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿بَيِّنَاتٌ لِّلْمَلَأِ أَيْتِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾^(١).

﴿قَالَ عَفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ: مَارِدٌ مِنْ

(١) الطبري: ٥٢٠/٩ (٢) الدر المنثور: ٣٥٩/٦ (٣) البغوي: ٤٢٠/٣ (٤) البغوي: ٤٢٠/٣ (٥) البغوي: ٣/٤٢٠ (٦) الطبري: ٤٦٦/١٩

سورة النمل

٣٨١

سورة النمل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آلَ السَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَعْفِفُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَیرْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَفَاسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرًا وَمَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَادِ مَرْنَتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ يُمْظِلُمُونَ آتٍ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَجْبَنَاءُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ءَاتَاؤُنَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾

قَالَ مُوسَى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفِيْرٌ حَمِيْدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وفي صحيح مسلم: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَجْتُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبٍ رَّجُلٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَجْتُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبٍ رَّجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» (١).

﴿قَالَ تَكَرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قِبَلِهَا وَكُلًّا مُسْلِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَفَّتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ [إِخْتِيَارُ بَلْقَيْسِ]

لَمَّا جِيءَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَرْشِ بَلْقَيْسٍ قَبْلَ قُدُومِهَا أَمَرَ بِهِ أَنْ يُعَيَّرَ بَعْضُ صِفَاتِهِ لِيُخْتَبِرَ مَعْرِفَتَهَا وَتَبَاتُهَا عِنْدَ رُؤْيَيْهِ هَلْ تُقَدِّمُ عَلَىٰ أَنَّهُ عَرْشُهَا، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ بِعَرْشِهَا فَقَالَ: ﴿تَكَرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَعَ مِنْهُ فُصُوصُهُ وَمَرَافِقُهُ (٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَمَرَ بِهِ فَعَيَّرَ مَا كَانَ فِيهِ أَحْمَرٌ جُعِلَ أَصْفَرًا، وَمَا كَانَ أَصْفَرًا جُعِلَ أَحْمَرًا، وَمَا كَانَ أَحْمَرًا جُعِلَ أَصْفَرًا. غَيْرَ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ حَالِهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: زَادُوا فِيهِ وَتَقْصُوا. وَقَالَ قَتَادَةُ: جُعِلَ أَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ، وَمُقَدَّمُهُ مُؤَخَّرُهُ، وَزَادُوا فِيهِ وَتَقْصُوا (٣). ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ أَيُّ: عَرِضَ عَلَيْهَا عَرْشُهَا وَقَدْ غَيَّرَ وَكُتِرَ وَزِيدَ فِيهِ وَتَقْصَ مِنْهُ، فَكَانَ فِيهَا نُبَاتٌ وَعَقْلٌ، وَلَهَا لُبٌّ وَدَهَاءٌ وَحَزْمٌ، فَلَمْ تُقَدِّمِ عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ؛ لِيُعِدَّ مَسَافَتِيهِ عَنْهَا، وَلَا أَنَّهُ غَيْرُهُ لِمَا رَأَتْ مِنْ آثَارِهِ وَصِفَاتِهِ - وَإِنْ غَيَّرَ وَبَدَّلَ وَكُتِرَ - فَقَالَتْ: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أَيُّ: يُشَبِّهُهُ وَيُقَارِبُهُ. وَهَذَا غَايَةٌ فِي الدَّلَاةِ وَالْحَزْمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قِبَلِهَا وَكُلًّا مُسْلِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُهُ سُلَيْمَانُ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ - أَيُّ: قَالَ سُلَيْمَانُ: ﴿وَأَوَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قِبَلِهَا وَكُلًّا مُسْلِينَ﴾

وَهِيَ كَانَتْ قَدْ صَدَّهَا أَيُّ: مَنَعَهَا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ وَحَسَنٌ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا (٥). ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَىٰ سُلَيْمَانَ أَوْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَقْدِيرُهُ: وَمَنَعَهَا ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: صَدَّهَا عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

(قُلْتُ): وَيُؤَيِّدُ قَوْلَ مُجَاهِدٍ أَنَّهَا إِنَّمَا أَظْهَرَتْ الْإِسْلَامَ بَعْدَ دُخُولِهَا إِلَى الصَّرْحِ كَمَا سَبَّأَتِي.

وَقَوْلُهُ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَفَّتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ الشَّيَاطِينَ فَبَنَوْا لَهَا قَصْرًا عَظِيمًا مِنْ قَوَارِيرٍ، أَيُّ: مِنْ زُجَاجٍ، وَأَجْرَى تَحْتَهُ الْمَاءَ، فَالَّذِي لَا يَعْرِفُ أَمْرَهُ يَحْسَبُ أَنَّهُ مَاءٌ،

(١) مسلم: ١٩٩٤/٤ (٢) الطبري: ٤٦٩/١٩ (٣) الطبري:

٤٦٩/١٩ (٤) الطبري: ٤٧١/١٩ (٥) الطبري: ٤٧٢/١٩

وَلَكِنَّ الرُّجَاجَ يَحُولُ بَيْنَ المَاشِي وَبَيْنَهُ .

[قَالَ: إِنَّهُ صَرَحَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ]

أَصْلُ الصَّرْحِ فِي كَلَامِ العَرَبِ هُوَ النُّقْضُ، وَكُلُّ بِنَاءٍ مُرْتَفِعٍ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ فِرْعَوْنَ - لَعْنَهُ اللهُ - أَنَّهُ قَالَ لِيُوزِيرِهِ هَامَانَ: ﴿أَبِنِ لِي صَرْمًا لَعَلِّي أَتْلُعَ الأَسْبَكُ﴾ ... الآية [عافر: ٣٦]. وَالصَّرْحُ: قَضْرٌ فِي البَيْتِ عَالِي البِنَاءِ، وَالْمُمَرَّدُ: المُنْبِي بِنَاءٍ مُحْكَمًا أَمْلَسَ ﴿مِنْ قَوَارِيرٍ﴾ أَي: زُجَاجٍ، وَتَمْرِيدُ البِنَاءِ: تَمْلِيسُهُ. وَمَارِدٌ: حِصْنٌ بِدُومَةِ الجَنْدَلِ. وَالغَرَضُ: أَنْ سَلِمَ مَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اتَّخَذَ قَضْرًا عَظِيمًا مُنِيفًا مِنْ زُجَاجٍ لِهَدْيِهِ المَلِكَةَ؛ لِيرِيهَا عَظَمَةَ سُلْطَانِهِ وَتَمَكُّبِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا آتَاهُ اللهُ وَجَلَالَةَ مَا هُوَ فِيهِ وَبَصَّرَتْ فِي أَمْرِهِ، انْقَادَتْ لِأَمْرِ اللهُ تَعَالَى وَعَرَفَتْ أَنَّهُ نَبِيُّ كَرِيمٍ، وَمَلِكٌ عَظِيمٌ، وَأَسْلَمَتْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أَي: بِمَا سَلَفَ مِنْ كُفْرِهَا وَشِرْكِهَا، وَعِبَادَتِهَا وَقَوْمِهَا لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهُ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ أَي: مُتَابِعَةً لِذِي السُّلْطَانِ فِي عِبَادَتِهِ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللهُ فَإِذَا هُمْ فِرْعَانٍ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٥٦) قَالَ يَنْقُورٌ لِمَ سَتَعَجَلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ لَوْلَا سَتَغْفِرُونَ اللهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَّيَّرَكُمْ عِنْدَ اللهُ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُتَعَتُونَ﴾ (٥٧)

[بَيْنَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ ثَمُودَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا مَعَ نَبِيِّهَا صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَإِذَا هُمْ فِرْعَانٍ يَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ^(١). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ المَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنَ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنِ امْلِكُوا كِتَابَ صَالِحًا فَرَسُولٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٥٧) قَالَ الأَذْيَبُ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

﴿قَالَ يَنْقُورٌ لِمَ سَتَعَجَلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ أَي: لِمَ تَدْعُونَ بِحُضُورِ العَذَابِ وَلَا تَطْلُبُونَ مِنَ اللهُ رَحْمَتَهُ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْلَا سَتَغْفِرُونَ اللهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أَي: مَا رَأَيْنَا عَلَى وَجْهِكَ وَوُجُوهَ مَنْ اتَّبَعَكَ خَيْرًا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ - لِشَقَائِهِمْ - كَانَ لَا يُصِيبُ

أَحَدًا مِنْهُمْ سُوءٌ إِلَّا قَالَ: هَذَا مِنْ قِبَلِ صَالِحٍ وَأَصْحَابِهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: تَشَاءُوا بِهِمْ^(٢). وَهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٣١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُنَا حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهُ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهُ﴾ [النساء: ٧٩] أَي: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ أَهْلِ القُرَيْبَةِ إِذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ: ﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنُرْجِمَنَّكُمْ وِلْيَسَنَّا مَتَانِ عَذَابِ المِثْلِ﴾ (٥٨) قَالُوا طَّيَّرَكُمْ مَعَكُمْ﴾ ... الآية [يس: ١٨، ١٩]، وَقَالَ هُوَ لِأَي: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَّيَّرَكُمْ عِنْدَ اللهُ﴾ أَي: اللهُ يُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُتَعَتُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: تُتَلَوْنَ بِالطَّاعَةِ وَالمُعَصِيَةِ^(٣). وَالظَّاهِرُ أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿تَتَعَتُونَ﴾ أَي: تُسْتَدْرَجُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ.

﴿وَكَانَ فِي المَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٥٨) قَالُوا تَنَاسَوُا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٥٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩) فَانظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَقِبَهُ مَكْرَهُمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٩) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩) وَأَفْجِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُورُونَ﴾ (٥٧) [مَكْرٌ طَائِفَةٌ المُفْسِدِينَ وَمَصِيرٌ قَوْمِ ثَمُودَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ طُعَاةِ ثَمُودَ وَرُؤُوسِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا دُعَاةَ قَوْمِهِمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالكُفْرِ وَتَكْذِيبِ صَالِحٍ، وَآلِ بِهِمْ الحَالِ إِلَى أَنَّهُمْ عَقَرُوا النَّاقَةَ وَهَمُّوا بِقَتْلِ صَالِحٍ أَيْضًا، بِأَنْ يَبِيئُوهُ فِي أَهْلِهِ لِيَلَّا يَقْتُلُوهُ غِيْلَةً، ثُمَّ يَقُولُوا لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَقْرَبِيهِ: إِنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَإِنَّهُمْ لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرُواهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِي المَدِينَةِ﴾ أَي: مَدِينَةِ ثَمُودَ ﴿سَعَةُ رَهْطٍ﴾ أَي: سَعَةُ نَفَرٍ ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وَإِنَّمَا غَلَبَ هُوَ عَلَى أَمْرِ ثَمُودَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كِبَرَاءَهُمْ وَرُؤُسَاءَهُمْ. قَالَ العَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ لِأَنَّ هُمُ الَّذِينَ عَقَرُوا النَّاقَةَ^(٤). أَي: الَّذِينَ صَدَرَ ذَلِكَ عَنْ رَأْيِهِمْ وَمَشُورَتِهِمْ

(١) الطبري: ٤٧٥/١٩ (٢) الدر المنثور: ٣٦٩/٦ (٣) الدر

المنثور: ٣٦٩/٦ (٤) الطبري: ٤٧٧/١٩ حكم العوفي مر

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلْ لُوطِ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْعَنِيدِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ وَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا وَأَنْزَلَ الْغُلُقُوتَ أَن تَنْبِتُوا شَجَرَهَا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُحْيِبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

﴿تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ أَيُنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُواْنَا أَلْ لُوطِ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْعَنِيدِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٥٨﴾

[ذَكَرَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ نِقْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ فِي فِعْلِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِي لَمْ يَسْفِهْهُمُ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِّن بَنِي آدَمَ، وَهِيَ إِثْبَانُ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَذَلِكَ فَاحِشَةٌ عَظِيمَةٌ اسْتَعْنَى الرَّجَالُ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ فَقَالَ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أَي: بَرَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ ﴿أَيُنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ﴾ أَي: لَا

فَبَحُّهُمُ اللَّهُ وَلَعَنَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَادَاؤًا صَاحِبًا فَنَطَأَى مَقَرًّا﴾ [القمر: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَنْبَأْتَ شَخْفَهَا﴾ [الشمس: ١٢].

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أُنْبَأْنَا [يَحْيَى] بِنُ رَبِيعَةَ الصَّنَعَانِي: سَمِعْتُ عَطَاءَ - هُوَ: ابْنُ أَبِي رَبَاحٍ - يَقُولُ: ﴿وَكَانَ فِي اللَّيْلَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُسَدُّونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ قَالَ: كَانُوا يُفْرَضُونَ الدَّرَاهِمَ ^(١). يَعْنِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهَا، وَكَانَتْهُمْ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِهَا عَدَدًا كَمَا كَانَ الْعَرَبُ يَتَعَامَلُونَ. وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ: قَطَعَ الذَّهَبُ وَالْوَرِقُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَالْعَرَضُ: أَنَّ هُوَ لِإِثْمِ الْكُفْرَةِ الْفَسَقَةِ كَانَ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ، بِكُلِّ طَرِيقٍ يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا، فَمِنْهَا مَا ذَكَرَهُ هُوَ لِإِثْمِ الْأَيْمَةِ وَعَبَّرَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أَي: تَحَالَفُوا وَتَبَايَعُوا عَلَى قَتْلِ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ لِقِيهِ لَيْلًا غَيْبَةً، فَكَادَهُمُ اللَّهُ وَجَعَلَ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ، قَالَ مُجَاهِدٌ: تَقَاسَمُوا وَتَحَالَفُوا عَلَى هَلَاكِهِ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ حَتَّى هَلَكُوا وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ ^(٢).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ، قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: ﴿تَسْمَعُونَ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ قَالُوا: زَعَمَ صَالِحٌ أَنَّهُ يُفْرَعُ مِنَّا إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَتَحْنُ نَفْرَعُ مِنْهُ وَأَهْلُهُ قَبْلَ ثَلَاثِ، وَكَانَ لِصَالِحٍ مَسْجِدٌ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ شَيْبٍ هُنَاكَ، يُصَلِّي فِيهِ، فَخَرَجُوا إِلَى كَهْفٍ - أَي: غَارٍ هُنَاكَ - لَيْلًا فَقَالُوا: إِذَا جَاءَ يُصَلِّي قَتَلْنَاهُ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِذَا فَرَعْنَا مِنْهُ إِلَى أَهْلِهِ، فَفَرَعْنَا مِنْهُمْ. فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَخْرَةً مِنَ الْهَضْبِ جِيَالَهُمْ، فَخَشُوا أَنْ تَشْدَحَهُمْ فَتَبَادَرُوا، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ وَهُمْ فِي ذَلِكَ الْغَارِ، فَلَا يَدْرِي قَوْمُهُمْ أَيُّنَ هُمْ، وَلَا يَدْرُونَ مَا فِعْلُ بِقَوْمِهِمْ، فَعَذَّبَ اللَّهُ هُوَ لِأَهْلِهِ هُنَا، وَهُوَ لِأَهْلِهِ هُنَا، وَأَنْجَى اللَّهُ صَالِحًا وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ فَتَلَّكَ بُرُوتُهُمْ خَاوِبَةً﴾ أَي: فَارَعَةً لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ﴿بِمَا ظَلَمُوا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لِآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَأَجْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ

(١) عبد الرزاق: ٨٣/٣ يحيى بن ربيعة ذكره ابن أبي حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً (٢) الطبري: ٤٧٨/١٩

فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ، فَلَأَنْبِيَاءَ
يَطْرُقُ الْأُولَىٰ وَالْآخِرَىٰ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَالَمٌ خَيْرٌ أَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ
اللَّهِ إِلَهَةَ أُخْرَىٰ.

بَعْضُ أَدَلَّةِ التَّوْحِيدِ

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَىٰ بَيِّنٌ أَنَّهُ الْمُتَمَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّنْذِيرِ
دُونَ غَيْرِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ أَي: خَلَقَ
تِلْكَ السَّمَوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَصَفَائِهَا، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ
الْكَوَاكِبِ الثِّبَرَةِ وَالتَّجُومِ الرَّاهِرَةِ وَالْأَفْلَاقِ الدَّائِرَةِ. وَخَلَقَ
الْأَرْضَ فِي اسْتِفَالِهَا وَكثَافَتِهَا، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ
وَالْأَطْوَادِ، وَالسُّهُولِ وَالْأَوْعَارِ، وَالْفَيَافِي وَالْفُجَارِ،
وَالزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ، وَالتَّمَارِ وَالْحَارِ، وَالْحَيَوَانَ عَلَى
اِخْتِلَافِ الْأَصْنَافِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أَي:

جَعَلَهُ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ حُدُودًا﴾ أَي: بَسَاتِينَ
﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أَي: مَنْظَرَ حَسَنٍ وَشَكْلَ بَهِيٍّ ﴿مَا
كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أَي: لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ
عَلَىٰ إنبَاتِ أَشْجَارِهَا. وَإِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْخَالِقُ
الرَّازِقُ الْمُسْتَقِيلُ بِذَلِكَ، الْمُتَمَرِّدُ بِهِ، دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ
الْأَصْنَافِ وَالْأَنْدَادِ كَمَا يَعْتَرَفُ بِهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]
أَي: هُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْفَاعِلُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ، ثُمَّ هُمْ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا
يَرْزُقُ، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ مَنْ هُوَ الْمُتَمَرِّدُ
بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أَي:
إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ يُعْبَدُ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ وَلِكُلِّ ذِي لُبٍّ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ
بِهِ أَيْضًا أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ؟!.

ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أَي: يَجْعَلُونَ لِلَّهِ عِدْلًا
وَنَظِيرًا.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا

رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أَي: قَارَةً سَائِئَةً
ثَابِتَةً لَا تَمِيدُ وَلَا تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا وَلَا تَرْجُفُ بِهِمْ؛ فَإِنَّهَا لَوْ

تَعْرِفُونَ شَيْئًا لَا طَبْعًا وَلَا شَرْعًا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ
الْآخِرَى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ
رَبُّكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ
قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَهُرُونَ﴾ أَي: يَتَحَرَّجُونَ مِنْ فِعْلِ مَا
تَفْعَلُونَهُ، وَمِنْ إِفْرَارِكُمْ عَلَى صَنِيعِكُمْ، فَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ بَيْنِ
أَطْرَافِكُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَصْلُحُونَ لِمَجَاوَرَتِكُمْ فِي بِلَادِكُمْ،
فَعَزَمُوا عَلَىٰ ذَلِكَ، فَدَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا،
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْيَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ فَعَدَّهَا مِنْ
الْعَادِيَاتِ﴾ أَي: مِنَ الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ رِدَاءً
لَهُمْ عَلَىٰ دِينِهِمْ وَعَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، فِي رِضَاهَا بِأَفْعَالِهِمْ
الْقَبِيحَةِ، فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَىٰ ضِيْفَانِ لُوطٍ؛ لِيَأْتُوا إِلَيْهِمْ
- لَا أَنَّهَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْفَوَاحِشَ؛ تَكْرِمَةً لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، لَا
كِرَامَةً لَهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أَي: حِجَارَةً مِنْ
سِجِّيلٍ مَنْصُودٍ، مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ
بِيعِيدٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُتَدِينِ﴾ أَي: الَّذِينَ قَامَتْ
عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمُ الْإِنذَارُ، فَخَافُوا الرَّسُولَ،
وَكَذَّبُوهُ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ.

﴿قُلِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَسَلِّمُوا عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ عَالَمٌ خَيْرٌ أَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدُودًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ
تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾

[الْأَمْرُ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَىٰ رُسُلِهِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾
أَي: عَلَى نِعْمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا
تُحْصَى، وَعَلَىٰ مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْعُلَىٰ وَالْأَسْمَاءِ
الْحُسْنَى، وَأَنْ يُسَلِّمَ عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ
وَاخْتَارَهُمْ، وَهُمْ رُسُلُهُ وَأَنْبِيَؤُهُ الْكِرَامُ، عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ
أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، هَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ
أَسْلَمَ وَغَيْرُهُ: إِنَّ الْمُرَادَ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى: هُمْ
الْأَنْبِيَاءُ. قَالَ: وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَوْرَةِ عَمَّا
يَصِفُونَ﴾ وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[الصافات: ١٨٠-١٨٢]. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: هُمْ
أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَضِيَ عَنْهُمْ
أَجْمَعِينَ. وَرَوِي نَحْوُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا. وَلَا مُنَافَاةَ؛

كَانَتْ كَذَلِكَ لَمَا طَابَ عَلَيْهَا الْعَيْشُ وَالْحَيَاةُ - بَلْ جَعَلَهَا مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ مَهَادًا بِسَاطَا نَابِتَةً لَا تَنْزَلُ وَلَا تَتَحَرَّكُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر: ٦٤].

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جَعَلَ فِيهَا الْأَنْهَارَ الْعَذْبَةَ الطَّيِّبَةَ، شَدَّهَا فِي خِلَالِهَا وَصَرَّفَهَا فِيهَا مَا بَيْنَ أَنْهَارِ كِبَارٍ وَصِغَارٍ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَسَبَّرَهَا شَرْقًا وَغَرْبًا، وَجَنُوبًا وَشِمَالًا، بِحَسَبِ مَصَالِحِ عِبَادِهِ فِي أَقْلِيهِمْ وَأَقْطَارِهِمْ - حَيْثُ ذَرَأَهُمْ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَسَبَّرَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جِبَالًا شَامِيحَةً تُرْسِي الْأَرْضَ وَتُبْتَتِهَا؛ لِئَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جَعَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ وَالْمَالِحَةِ حَاجِزًا، أي: مَا نَعَا يَمْنَعُهَا مِنَ الْإِخْتِلَاطِ؛ لِئَلَّا يَفْسُدَ هَذَا يَهَذَا، وَهَذَا يَهَذَا، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ تَقْتَضِي بَقَاءَ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى صِفَتِهِ الْمَقْصُودَةِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْبَحْرَ الْحُلُوَّ هُوَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ الْجَارِيَةُ بَيْنَ النَّاسِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا: أَنْ تَكُونَ عَذْبَةً زَلَالًا تَسْقِي الْحَيَوَانَ وَالنبَاتَ وَالثَّمَارَ مِنْهَا. وَالْبَحَارُ الْمَالِحَةُ هِيَ الْمُحِيطَةُ بِالْأَرْجَاءِ وَالْأَقْطَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ مَاؤُهَا مِلْحًا أَسَاجًا؛ لِئَلَّا يَفْسُدَ الْهَوَاءُ بِرِيحِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣] وَلهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعِ اللَّهُ﴾ أي: فَعَلَ هَذَا، أَوْ يُعْبَدُ؟ - عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ صَحِيحٌ - ﴿بَلْ أَكْذَبْتُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي:

فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرُهُ.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٧﴾

يُنَبِّئُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الْمُدْعُوُّ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، الْمُرْجُوُّ عِنْدَ التَّوَارِيحِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ يَجْعَرُونَ﴾ [النمل: ٥٣]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: مَنْ هُوَ الَّذِي لَا يَلْجَأُ الْمُضْطَرُّ إِلَّا إِلَيْهِ، وَالَّذِي لَا يَكْشِفُ ضُرَّ الْمُضْطَرُّوْرِينَ سِوَاهُ؟ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَلْهَجِيمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا مَا تَدْعُو؟ قَالَ: «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَخَدِّهِ الَّذِي إِنْ مَسَّكَ ضُرٌّ، فَدَعَوْتُهُ، كَشَفَ عَنْكَ، وَالَّذِي

إِنْ أَضَلَّتْ بِأَرْضٍ قَفَرٍ، فَدَعَوْتُهُ، رَدَّ عَلَيْكَ، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَتْكَ سَنَةٌ، فَدَعَوْتُهُ، أَنْبَتَ لَكَ». قَالَ: قُلْتُ: أَوْصِنِي. قَالَ: «لَا تَسْبَنَّ أَحَدًا، وَلَا تَرْهَدَنَّ فِي الْمَعْرُوفِ، وَلَوْ أَنْ تَلْمَى أَحَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهَكَ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِعَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَقِيِّ، وَاتَّرَزَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ؛ فَإِنَّ أَيْتَ فِالِي الْكُعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ؛ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ»^(١).

[قِصَّةُ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

وَذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحَسَنِ أُمِّ أَحْمَدَ الْعَجَلِيَّةِ قَالَتْ: هَزَمَ الْكُفَّارُ يَوْمًا الْمُسْلِمِينَ فِي غَزَاةٍ، فَوَقَفَ جَوَادٌ جَدِّ بَصَاحِيهِ، وَكَانَ مِنْ ذَوِي النِّسَارِ وَمِنَ الصُّلَحَاءِ، فَقَالَ لِلْجَوَادِ: مَا لَكَ؟ وَتِلْكَ! إِنَّمَا كُنْتُ أَعِدُّكَ لِمِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ؟ فَقَالَ لَهُ الْجَوَادُ: وَمَا لِي لَا أَقْصُرُ وَأَنْتَ تَكُلُّ الْعُلُوفَةَ إِلَى السُّوَّاسِ فَيُظَلِّمُونَنِي، وَلَا يُطْعِمُونَنِي إِلَّا الْقَلِيلَ!! فَقَالَ: لَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ أَنِّي لَا أَعْلِفُكَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ إِلَّا فِي حِجْرِي، فَجَرَى الْجَوَادُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَنَجَّى صَاحِبَهُ، وَكَانَ لَا يَعْلِفُهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا فِي حِجْرِهِ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَجَعَلُوا يَقْصِدُونَهُ؛ لِيَسْمَعُوا مِنْهُ ذَلِكَ، وَبَلَغَ مَلِكُ الرُّومِ أَمْرُهُ، فَقَالَ: مَا تَضَامُ بِلْدَةٌ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ فِيهَا. وَاحْتَالَ لِيُحْصِلَهُ فِي بَلَدِهِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلًا مِنَ الْمُرْتَدِّينَ عِنْدَهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ، أَظْهَرَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ فِي الْإِسْلَامِ وَقَوِّمِهِ حَتَّى اسْتَوْتَقَ، ثُمَّ خَرَجَا يَوْمًا يَمْسِينَانِ عَلَى جَنْبِ السَّاحِلِ، وَقَدْ وَاعَدَ شَخْصًا آخَرَ مِنْ جِهَةِ مَلِكِ الرُّومِ؛ لِيَسَاعَدَا عَلَى أُشْرِهِ، فَلَمَّا اكْتَفَاهُ لِيَأْخُذَاهُ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اَللَّهُمَّ! إِنَّهُ

(١) أحمد: ٦٤/٥ (٢) تاريخ دمشق: ٤٨٩/١٩ المخطوط ٧٤/٩٠٨ ط. دار أحياء التراث العربي.

بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿١٦٥﴾ [الأنعام: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] أَيْ: قَوْمًا يَخْلُقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا قَدَّمْنَا تَفْصِيْرَهُ، وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ: أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَجِيْلًا بَعْدَ جِيْلٍ، وَقَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ، وَلَوْ شَاءَ لَأَوْجَدَهُمْ كُلَّهُمْ فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَعْضُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ، بَلْ لَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ، كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ بَعْضُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ، وَلَكِنْ لَا يُمِيتُ أَحَدًا حَتَّى تَكُونَ وَفَاةُ الْجَمِيعِ فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ، فَكَأَنْتَ تَصِفُ عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ، وَتَصِفُ عَلَيْهِمْ مَعَايِشَهُمْ وَأَكْسَابَهُمْ، وَيَبْصُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَلَكِنْ افْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَقُدْرَتُهُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يُكَيِّرُهُمْ غَايَةَ الْكَثْرَةِ، وَيَذَرُهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَيَجْعَلُهُمْ قُرُونًا بَعْدَ قُرُونٍ، وَأَمَّا بَعْدَ أَمَمٍ، حَتَّى يَنْقُضِيَ الْأَجَلَ، وَتَفْرُغَ التَّرِيْثُ، كَمَا قَدَّرَ ذَلِكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَمَا أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، ثُمَّ يَقِيْمُ الْقِيَامَةَ، وَيُؤَفِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُؤَيِّبُ الْمُنْتَظِرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أَيْ: يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَعْدَ هَذَا [يُعْبَدُ] - وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْتَرَدُ بِفِعْلِ ذَلِكَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؟ ﴿فَلَيْلًا مَا نَذْكُرُونُ﴾ أَيْ: مَا أَقَلَّ تَذْكُرَهُمْ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أَيْ: بِمَا خَلَقَ مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْبَالَغَةَ وَالْقَمَاطَةَ وَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أَيْ: بِمَا خَلَقَ مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾... الآية [الأنعام: ٩٧].

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ: بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ الَّذِي فِيهِ مَطَرٌ يُمِيتُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُجْرِبِينَ الْأَرْلِينَ الْقَطِينِ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ﴿أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَكَأُو بُرْهَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٦٧﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي يَقْدِرُهُ وَسُلْطَانِهِ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنْ بَطَشَ رَبُّكَ لِشَيْءٍ﴾

بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿١٦٥﴾ [الأنعام: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] أَيْ: قَوْمًا يَخْلُقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا قَدَّمْنَا تَفْصِيْرَهُ، وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ: أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَجِيْلًا بَعْدَ جِيْلٍ، وَقَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ، وَلَوْ شَاءَ لَأَوْجَدَهُمْ كُلَّهُمْ فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَعْضُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ، بَلْ لَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ، كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ بَعْضُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ، وَلَكِنْ لَا يُمِيتُ أَحَدًا حَتَّى تَكُونَ وَفَاةُ الْجَمِيعِ فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ، فَكَأَنْتَ تَصِفُ عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ، وَتَصِفُ عَلَيْهِمْ مَعَايِشَهُمْ وَأَكْسَابَهُمْ، وَيَبْصُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَلَكِنْ افْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَقُدْرَتُهُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يُكَيِّرُهُمْ غَايَةَ الْكَثْرَةِ، وَيَذَرُهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَيَجْعَلُهُمْ قُرُونًا بَعْدَ قُرُونٍ، وَأَمَّا بَعْدَ أَمَمٍ، حَتَّى يَنْقُضِيَ الْأَجَلَ، وَتَفْرُغَ التَّرِيْثُ، كَمَا قَدَّرَ ذَلِكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَمَا أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، ثُمَّ يَقِيْمُ الْقِيَامَةَ، وَيُؤَفِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُؤَيِّبُ الْمُنْتَظِرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أَيْ: يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَعْدَ هَذَا [يُعْبَدُ] - وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْتَرَدُ بِفِعْلِ ذَلِكَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؟ ﴿فَلَيْلًا مَا نَذْكُرُونُ﴾ أَيْ: مَا أَقَلَّ تَذْكُرَهُمْ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أَيْ: بِمَا خَلَقَ مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْبَالَغَةَ وَالْقَمَاطَةَ وَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أَيْ: بِمَا خَلَقَ مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾... الآية [الأنعام: ٩٧].

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ: بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ الَّذِي فِيهِ مَطَرٌ يُمِيتُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُجْرِبِينَ الْأَرْلِينَ الْقَطِينِ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ﴿أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَكَأُو بُرْهَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٦٧﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي يَقْدِرُهُ وَسُلْطَانِهِ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنْ بَطَشَ رَبُّكَ لِشَيْءٍ﴾

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ: بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ الَّذِي فِيهِ مَطَرٌ يُمِيتُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُجْرِبِينَ الْأَرْلِينَ الْقَطِينِ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ بَلِ ادْرِكْ عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكِّ

مِنَّا بَلْ هُمْ مَتَهَا عَمُونَ ﴿١١٦﴾

[عَالِمُ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ - مُعْلِمًا لِجَمِيعِ الْخَلْقِ: إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْفَطِحٌ أَي: لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾... الآية [الأنعام: ٥٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [لقمان: ٣٤]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أَي: وَمَا يَشْعُرُ الْخَلَائِقُ السَّاكِنُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنَزَّلُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] أَي: تَقُلُّ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ: (بَلِ ادْرِكْ عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنْهَا) أَي: انْتَهَى عِلْمُهُمْ، وَعَجَزَ عَنْ مَعْرِفَةِ وَقْتِهَا، وَقَرَأَ آخِرُونَ: ﴿بَلِ ادْرِكْ عِلْمَهُمْ﴾ أَي: تَسَاوَى عِلْمُهُمْ فِي ذَلِكَ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ لِمُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِجِبْرِيلَ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»^(١). أَي: تَسَاوَى فِي الْعَجْزِ عَنْ دَرِكِ ذَلِكَ، عِلْمُ الْمَسْئُولِ وَالسَّائِلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنَّا﴾ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ، وَالْمُرَادُ: الْكَافِرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨] أَي: الْكَافِرُونَ مِنْكُمْ. وَهَكَذَا قَالَ هُنَا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنَّا﴾ أَي: شَاكُونَ فِي وُجُودِهَا وَوُقُوعِهَا ﴿بَلْ هُمْ مَتَهَا عَمُونَ﴾ أَي: فِي عِمَائَةٍ وَجَهْلٍ كَبِيرٍ فِي أَمْرِهَا وَشَأْنِهَا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لِلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١١٧﴾

لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ

الْأَوَّلِينَ ﴿١١٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا

يَمَكُرُونَ ﴿١٢٠﴾

[اسْتِعَادَ الْبُعْثَ وَالرَّدَّ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُنْكَرِي الْبُعْثِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ اسْتَعَادُوا إِعَادَةَ الْأَجْسَادِ بَعْدَ صَيُورِهَا عِظَامًا وَرُفَاتًا وَتُرَابًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَي:

مَا زِلْنَا نَسْمَعُ بِهَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا، وَلَا نَرَى لَهُ حَقِيقَةَ وَلَا وُقُوعًا، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنُونَ مَا هَذَا الْوَعْدُ بِإِعَادَةِ الْأَبْدَانِ ﴿إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي: أَخَذَهُ قَوْمٌ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ مِنْ كُتُبِ يَتْلَقَاهُ بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ، وَلَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَمَّا ظَنُّوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَعَدَمِ الْمَعَادِ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ: لِهَؤُلَاءِ: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَي: الْمُكْذِبِينَ بِالرُّسُلِ وَمِمَّا جَاءُوا وَهُمْ بِهِ: مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَعَجْزِهِ، كَيْفَ حَلَّتْ بِهِمْ نِقْمَةُ اللَّهِ وَوَعْدَاؤُهُ وَنَكَالُهُ، وَنَجَّى اللَّهُ مِنَ بَيْنِهِمْ رُسُلَهُ الْكِرَامَ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَصِحَّتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسْتَلِيمًا لِنَبِيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: الْمُكْذِبِينَ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَلَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ وَتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمَكُرُونَ﴾ أَي: فِي كَيْدِكَ، وَرَدَّ مَا جِئْتَ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ مُؤَيِّدُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُظْهِرُ دِينِكَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَعَانَدَهُ، فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ

يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ

صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي سَوَالِهِمْ عَنْ يَوْمِ

الْقِيَامَةِ وَاسْتِعَادِهِمْ وَوُقُوعِ ذَلِكَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿قُلْ﴾ يَا

مُحَمَّدُ! ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قَالَ

ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْ يَكُونَ قُرْبٌ أَوْ أَنْ يُقْرَبَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي

تَسْتَعْجِلُونَ^(٢). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ

الْخُرَّاسَانِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ^(٣). وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ

(١) مسلم: ٣٦/١ (٢) الطبري: ٤٩٢/١٩ (٣) الطبري: ١٩/

٤٩٢ والدر المنثور: ٣٧٥/٦

تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤] وَإِنَّمَا دَخَلْتَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى: عَجِلَ لَكُمْ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾: عَجِلَ لَكُمْ^(١).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أَي: فِي إِسْبَاغِهِ نِعْمَةً عَلَيْهِمْ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَي: يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ﴿سَوَاءٌ مِنْكَ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿أَلَا حِينٌ يَسْتَعْتُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا يَئُورُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الْعِيَادِ وَمَا شَاهَدُوهُ - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ عَلَيْكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: وَمَا مِنْ شَيْءٍ^(٢) ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: هُدًى لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَرَحْمَةً لَهُمْ فِي الْعَمَلِيَّاتِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿بِحُكْمِهِ﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴿أَي: فِي اتِّقَائِهِ﴾ الْعَلِيمُ ﴿بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ﴾.

[الْأَمْرُ بِالتَّوَكُّلِ فِي الْبَلَاغِ]

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، وَبَلِّغْ رِسَالَاتَهُ رَبَّكَ ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أَي: أَنْتَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَإِنْ خَالَفَكَ مَنْ خَالَفَكَ مِنْ مَنِّ كَيْتَبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ أَي: لَا تَسْمَعُهُمْ شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ، فَكَذَلِكَ هُوَ لِأَنَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ غِشَاوَةً، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ الْكُفْرُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ

تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤] وَإِنَّمَا دَخَلْتَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى: عَجِلَ لَكُمْ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾: عَجِلَ لَكُمْ^(١).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أَي: فِي إِسْبَاغِهِ نِعْمَةً عَلَيْهِمْ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَي: يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ﴿سَوَاءٌ مِنْكَ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿أَلَا حِينٌ يَسْتَعْتُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا يَئُورُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الْعِيَادِ وَمَا شَاهَدُوهُ - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ عَلَيْكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: وَمَا مِنْ شَيْءٍ^(٢) ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْصُحُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[الْقُرْآنُ يَقْضِي أَكْثَرَ اخْتِلَافِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ وَالْفُرْقَانِ: أَنَّهُ يَقْضِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي عَيْسَى وَبَنَائِهِمْ فِيهِ، فَالْيَهُودُ افْتَرَوْا، وَالنَّصَارَى غَلَّوْا، فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْوَسْطِ الْحَقِّ الْعَدْلِ: إِنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ الْكِرَامُ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مریم: ٣٤]،

(حَدِيثٌ آخَرَ) رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَخْرُجُ دَابَّةُ الْأَرْضِ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - فَتَخْطُمُ أُنْفَ الْكَافِرِ بِالْعَصَا، وَتُجْلِي وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْخَاتَمِ، حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى الْخِوَانِ يُعْرِفُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ»^(١).

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ وَصَفَ الدَّابَّةَ فَقَالَ: رَأْسُهَا رَأْسُ نَوْرٍ، وَعَيْنُهَا عَيْنُ خَنْزِيرٍ وَأُذُنُهَا أُذُنُ فِيلٍ، وَفَرْجُهَا قَرْنُ أَيْلٍ، وَعُنُقُهَا عُنُقُ نَعَامَةٍ، وَصَدْرُهَا صَدْرُ أُسْدٍ، وَلَوْحُهَا لَوْحُ نَمِرٍ، وَخَاصِرَتُهَا خَاصِرَةٌ هِرٍّ، وَذَنْبُهَا ذَنْبُ كَبْشٍ، وَقَوَائِمُهَا قَوَائِمُ بَعِيرٍ، بَيْنَ كُلِّ مَفْصَلَيْنِ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا، تَخْرُجُ مَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ، فَلَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ إِلَّا نَكَتَتْ فِي وَجْهِهِ بَعْصًا مُوسَى نُكْتَةً بَيْضَاءَ، فَتَفْشُو تِلْكَ النُّكْتَةُ حَتَّى يَبْيَضَ لَهَا وَجْهُهُ، وَلَا يَبْقَى كَافِرٌ إِلَّا نَكَتَتْ فِي وَجْهِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ بِخَاتَمِ سُلَيْمَانَ، فَتَفْشُو تِلْكَ النُّكْتَةُ حَتَّى يَسْوَدَ بِهَا وَجْهُهُ، حَتَّى إِنَّ النَّاسَ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ: بِكُمْ ذَا يَا مُؤْمِنٌ؟ بِكُمْ ذَا يَا كَافِرٌ؟ وَحَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ يَجْلِسُونَ عَلَى مَائِدَتِهِمْ فَيَعْرِفُونَ مُؤْمِنَهُمْ مِنْ كَافِرِهِمْ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمُ الدَّابَّةُ: يَا فَلَانُ! أَيْشِرُ؟ أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيَا فَلَانُ! أَنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَلَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾^(٢).

﴿يَوْمَ نَخْتَرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا وَمَنْ يَكْذِبْ بَيَّاتِنَا فَهُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٣) حَتَّى إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْقُوتُونَ^(٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لَيْسَ كُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(٦)

[حَشْرُ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَحَشْرِ الظَّالِمِينَ مِنْ

(١) الطبري: ٥٠٠/١٩ (٢) أحمد: ٦/٤ (٣) مسلم: ٤/٢٢٢٥ وأبو داود: ٤٩١/٤ وتحفة الأحوذى: ٤١٣/٦ والنسائي في الكبرى: ٤٥٦/٦ وابن ماجه: ١٣٤١/٢ (٤) مسلم: ٤/٢٢٢٧ (٥) مسلم: ٤/٢٢٦٠ (٦) مسلم: ٤/٢٢٦٧ (٧) مسند الطيالسي: ٣٣٤ إسناده ضعيف فيه علي بن زيد بن جعدان تقدم حكمه (٨) البغوي: ٤٢٩/٣ ابن أبي حاتم (١٦٥٩٧) ٩/٢٩٢٤ إسناده ضعيف ابن جريج ثقة مدلس ولم يصرح انظر (تقريب ٤٦٩٥) وأيضا الحسين بن يحيى لم أجد فيه جرحا ولا تعديلا.

تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ أَي: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكَ مَنْ هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ - أَلَسْمَعُ وَالْبَصَرُ التَّافِعُ فِي الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةُ - الْخَاضِعُ لِلَّهِ وَلَمَّا جَاءَ عَنْهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾^(١)

[خُرُوجُ دَابَّةِ الْأَرْضِ]

هَذِهِ الدَّابَّةُ تَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ وَتَرْكِبِهِمْ أَوْامِرَ اللَّهِ وَتَبْدِيلِهِمُ الدِّينَ الْحَقَّ. يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ، قِيلَ: مِنْ مَكَّةَ، وَقِيلَ: مِنْ غَيْرِهَا، كَمَا سَبَّأِي تَفْصِيلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَتُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَيُرْوَى عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تُكَلِّمُهُمْ كَلَامًا، أَي: تُحَاطِبُهُمْ مُحَاطَبَةً^(١). وَقَدْ وَرَدَ فِي ذِكْرِ الدَّابَّةِ أَحَادِيثٌ وَأَنَارٌ كَثِيرَةٌ، فَلَنَذْكُرُ مِنْهَا مَا تيسَّرَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ أَسِيدِ الْغِفَارِيِّ قَالَ: أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكُرُ أَمْرَ السَّاعَةِ، فَقَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالِدَّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالِدَّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسَفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسَفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسَفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ، تَبَيَّتْ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقْبَلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا»^(٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ الشُّنَنِ عَنْ حُدَيْفَةَ مَرْفُوعًا. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْهُ مَوْقُوفًا^(٤). فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(حَدِيثٌ آخَرَ) رَوَى مُسْلِمٌ بِنِ الْحَجَّاجِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحَى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتَيْهَا فَأَلْأُخْرَى عَلَى إِثْرَهَا قَرِيبًا»^(٥).

(حَدِيثٌ آخَرَ) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَيِّئًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالِدَّخَانُ، وَالِدَّجَالُ، وَالدَّابَّةُ، وَخَاصَّةً أَحَدِكُمْ، وَأَمْرُ الْعَامَةِ». تَفَرَّدَ بِهِ^(٦).

الْمُكَذِّبِينَ بآياتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ إِلَىٰ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ لَهُمْ عَمَّا فَعَلُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا، وَتَضْعِيفًا وَتَحْقِيرًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَخْتُمُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَرْجًا﴾ أَي: مِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَفَرْجٍ فَوْجًا أَي: جَمَاعَةً ﴿مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ يُورَعُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يُذَفَعُونَ^(١). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يُسَافُونَ^(٢).

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ﴾ وَوَفَّقُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَقَامِ الْمُسَاءَلَةِ ﴿قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّادًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: فَيَسْأَلُونَ عَنْ اِعْتِقَادِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، فَلَمَّا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾^(٣) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿[القيامة: ٣١، ٣٢] فَحَيِّتِيذُ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُدْرٌ يَعْتَدِرُونَ بِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفِقُونَ﴾^(٤) وَلَا يُؤَدُّ لَهُمْ فَعْتَدِرُونَ... الآية [المسرات: ٣٥، ٣٦]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أَي: بُهِتُوا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ظَلَمَةً لِأَنْفُسِهِمْ، وَقَدَّرُوا إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الَّتِي لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْبِئًا عَلَىٰ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ، وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، وَسَأْيِهِ الرَّفِيعِ الَّتِي تَجِبُ طَاعَتُهُ وَالْاِتِّبَادُ لِأَمْرِهِ وَتَضْدِيقُ أَنْبِيَائِهِ بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ الَّتِي لَا مَجِدَدَ عَنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ﴾ أَي: فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ لَيْسَكُنْ حَرَكَاتُهُمْ بِسَبَبِهِ وَتَهْدَأُ أَنْفُسُهُمْ، وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ نَصَبِ النَّعْبِ فِي نَهَارِهِمْ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أَي: مُبِيرًا مُشْرِقًا، فَسَبَبَ ذَلِكَ يَبْصُرُونَ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَكَايِبِ وَالْأَسْفَارِ وَالتَّجَارَاتِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ شُؤْنِهِمُ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَمُّهُ دَٰخِرُونَ﴾^(٥) وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ نَارٌ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفَكَّرُونَ^(٦) مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فِرْعَ بَوْمِيذٍ عَامُونَ^(٧) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ
٣٨٥
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فِرْعَ بَوْمِيذٍ عَامُونَ^(٨) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجَزَّوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(٩) إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَهُ: كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(١٠) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ^(١١) وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ وَأَيْنَهُ فَفَعَرَفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(١٢)

سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طَسَمَ^(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ^(٢) تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يُدْبِحُ بِأَسْمَاءِهِمْ وَيَسْتَسْخِيءُ لِنِسَاءِهِمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ^(٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ^(٥)

تُجَزَّوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(٦)

[أهوال يوم القيامة وجزاء الحسنه والسيئه فيه]
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَوْلِ يَوْمِ نَفْخَةِ الْفَرْعِ فِي الصُّورِ، وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «فَرْنَ يُنْفَخُ فِيهِ». وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ: إِنَّ إِسْرَافِيلَ هُوَ الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَنْفَخُ فِيهِ أَوَّلًا نَفْخَةَ الْفَرْعِ وَطَوَّلُهَا، وَذَلِكَ فِي آخِرِ عُمُرِ الدُّنْيَا حِينَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شِرَارِ النَّاسِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، فَيَفْرَعُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وَهُمْ الشُّهَدَاءُ، فَإِنَّهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ^(٣). رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ بْنُ الْحَجَّاجِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ أَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، أَوْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا

(١) الطبري: ٥٠١/١٩ (٢) الطبري: ٤٣٨/١٩ (٣) الطبراني في الطوال: ٣٦

فِيهِ بَعْدَ مَا تَنَبَّتُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا وَأَمَّا كَيْفِهَا، فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ طَارَتِ الْأَرْوَاحُ: تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ نُورًا، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ ظُلْمَةً، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا. فَتَجِيءُ الْأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا فَتَدِبُّ فِيهَا كَمَا يَدِبُّ الشَّمُ فِي اللَّدِيغِ، ثُمَّ يَقُومُونَ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ مِنْ قُبُورِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ لَكِنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبِ يُوفِصُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَىٰ الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أَي: تَرَاهَا كَأَنَّهَا نَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ أَي: تَزُولُ عَنْ أَمَاكِينِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ① وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا [الطور: ١٠، ٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَمَّكَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقَدْ بَنَسَفَهَا رَبِّي سَسَفًا﴾ ② فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ③ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ④ [طه: ١٠٥-١٠٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَىٰ الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الْذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أَي: يَفْعَلُ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ﴿الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أَي: أَنْفَنَ كُلَّ مَا خَلَقَ، وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا أَوْدَعَ، ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أَي: هُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ أَمَّ الْجَزَاءِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَتَّعَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: بِالْإِخْلَاصِ ⑤. وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ أَنَّ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ﴿وَهُمْ مِمَّنْ فَتَحَ يَوْمَئِذٍ عَامِنُونَ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿لَا يَخْرُجُوهُمْ فَالْفَرْعِ الْأَكْبَرِ﴾ [الانبيا: ١٠٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنُ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَبِيرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَّ عَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ فِي الْعَرْشَاتِ عَامِنُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَبُكَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أَي: مَن لَقِيَ اللَّهَ مُسِيئًا لَا حَسَنَةَ لَهُ، أَوْ قَدْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَىٰ حَسَنَاتِهِ، كُلٌّ بِحَسَبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنِ أَتَىٰ رِبِّيَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنِ أَكْرَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ⑥ وَأَنَّ أَتَلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقَدْ ضَلَّ إِنَّمَا أَنَا مِنَ

أَحَدَتْ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا، يُخَرَّبُ النَّبِيَّ، وَيَكُونُ وَيَكُونُ - ثُمَّ قَالَ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمُكُّتُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بَنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمُكُّتُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَيْدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تَقْبِضَهُ» قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَمْتَلِئُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَضْعَىٰ لِيْنَا وَرَفَعَ لِيْنَا - قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ: الطَّلُّ، نُعْمَانُ الشَّاكُ - فَتَبْتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يَقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ: هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴿وَقَفُوهُمْ إِتْمَهُمْ سَمْعًا﴾ [الصافات: ٢٤] ثُمَّ يَقَالُ: أَخْرَجُوا بَعَثَ النَّارَ، فَيَقَالُ: مِنْ كَم؟ فَيَقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمَائَةِ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ ﴿يَجْمَلُ الْوَالِدَانَ شِبَابًا﴾ [المزمل: ١٧]. وَذَلِكَ يَوْمٌ ﴿يُكْتَفَىٰ عَنْ سَائِي﴾ ⑦ [القلم: ٤٢].

وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَضْعَىٰ لِيْنَا وَرَفَعَ لِيْنَا». اللَّيْتُ: هُوَ صَفْحَةُ الْعُنُقِ، أَي: أَمَالُ عُنُقِهِ، لِيَسْتَمِعَهُ مِنَ السَّمَاءِ جِدًّا، فَهَذِهِ نَفْحَةُ الْفَرْعِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْحَةُ الصَّعْقِ وَهُوَ الْمَوْتُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْحَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ الشُّورُ مِنَ الْقُبُورِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ أُنُوفِهِمْ دَخِرِينَ﴾ قُرِئَ بِالْمَدِّ وَبِغَيْرِهِ عَلَى الْفِعْلِ، وَكُلٌُّ بِمَعْنَىٰ وَاحِدٍ، وَ«دَخِرِينَ» أَي: صَاحِرِينَ مُطْبِعِينَ، لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنْ أَمْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الاسراء: ٥٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]. وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ ⑧ أَنَّهُ فِي النَّفْحَةِ الثَّلَاثَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ فَتَوْضَعُ فِي نُفُوسِ فِي الصُّورِ، ثُمَّ يُنْفَخُ إِسْرَائِيلُ

(١) مسلم: ٢٢٥٨/٤ (٢) الطبراني في الطوال: ٣٦ (٣) الطبراني: ٥٠٨/١٩

الْمُنذِرِينَ ﴿١٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِرِّيكُمْ ؕ عَلَيْكُمْ فَعَرَفُونَهَا وَمَا رَبُّكُمْ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

[الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالِدَعْوَةَ بِالْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ وَأَمْرًا لَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤] وَإِضَافَةُ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَى الْبَلَدَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ لَهَا وَالِإِعْتِنَاءِ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤، ٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي حَرَمَهَا﴾ أَي: الَّذِي إِنَّمَا صَارَتْ حَرَامًا شَرْعًا وَقَدَرًا، بِتَخْرِيمِهِ لَهَا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُفْرَصُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْقَطُ لِقَطَطَتِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا» الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ^(١). وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَالْحَسَانِ وَالْمَسَانِيدِ مِنْ طُرُقٍ جَمَاعَةً تَفِيدُ الْقَطْعَ^(٢). كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌّ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ كِتَابِ الْأَحْكَامِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ، أَي: هُوَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَي: الْمُوَحَّدِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُتَمَادِينَ لِأَمْرِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ أَي: عَلَى النَّاسِ أُلْبَعُغُهُمْ إِيَّاهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ...﴾ [القصص: ٣]، أَي: أَنَا مُبْلَغٌ وَمُنذِرٌ، ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَي: لِي أَسْوَةٌ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ، وَقَامُوا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ آدَاءِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ، وَخَلَصُوا مِنْ عَهْدَتَيْهِمْ. وَحَسَابٌ أُمِّيهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِرِّيكُمْ ؕ عَلَيْكُمْ فَعَرَفُونَهَا﴾ أَي: اللَّهُ الْحَمْدُ الَّذِي لَا يُعَدُّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَالْإِنذَارِ

إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سِرِّيكُمْ ؕ عَلَيْكُمْ فَعَرَفُونَهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَرِّيهِمْ ؕ عَلَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَي: بَلْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ. وَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ كَانَ يُنْشِدُ هَذَيْنِ الْبَيِّنَتَيْنِ - إِمَّا لَهُ وَإِمَّا لِغَيْرِهِ -

إِذَا مَا خَلَوْتُ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ، وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَىٰ، عَلَيْهِ يَغِيبُ آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّمْلِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَصَصِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ مُعَدْيِكَرِبَ قَالَ: أَتَيْتَا عَبْدَ اللَّهِ فَسَأَلْنَاهُ أَنْ يُقْرَأَ عَلَيْنَا ﴿طَسَرَ﴾ الْمَائَتَيْنِ، فَقَالَ: مَا هِيَ مَعِيَ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمَنْ أَخَذَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ، قَالَ: فَأَتَيْتَا خَبَابَ بْنَ الْأَرْتِّ فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي، بِنِسَاءِهِمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

[نَبَأُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنُ وَمَا أَرَادَ اللَّهُ لِقَوْمِهِمَا] قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَقَوْلُهُ:

(١) فتح الباري: ٥٦/٤ (٢) مسلم: ٩٨٦/٢ وأبو داود: ٢/٥١٨ والنسائي: ٢٠٣/٥ وابن ماجه: ١٠٣٨/٢ وأحمد: ٢٥٣/١ (٣) أحمد: ٤١٩/١ إسناده ضعيف فيه معديكراب الهمداني لم يرو عنه إلا أبو إسحاق السبيعي ترجمه البخاري في التاريخ الكبير وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ولم يذكر في جرح ولا تعديلا وذكره ابن حبان في الثقات ولم يؤثر توثيقه عن غيره وأبو إسحاق مدلس مختلط.

﴿تِلْكَ﴾ أَي: هَذِهِ ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أَي: الْوَاضِحِ الْجَلِيلِيِّ الْكَاشِفِ عَنِ حَقَائِقِ الْأُمُورِ، وَعَلِمَ مَا قَدْ كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَحْوِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ . . . الْآيَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَعْنُ نَفْسُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أَي: نَذَكُرُ لَكَ الْأَمْرَ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ كَأَنَّكَ تَشَاهِدُ وَكَأَنَّكَ حَاضِرٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَطَعَى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ أَي: أَضْغَا فَا قَدْ صَرَفَ كُلَّ صِنْفٍ فِيمَا يُرِيدُ مِنْ أُمُورٍ دَوْلِيَّةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَضِعُّنَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ بَعْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ خِيَارَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، هَذَا وَقَدْ سَلَطَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ الْعَيْدُ سَيَسْعَمُولُهُمْ فِي أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ، وَيَكْدُهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي أَشْغَالِهِ وَأَشْغَالِ رَعِيَّتِهِ، وَيَقْتُلُ مَعَ هَذَا أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ؛ إِهَانَةً لَهُمْ وَاحْتِقَارًا، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ الْعُلَامُ الَّذِي كَانَ قَدْ تَخَوَّفَ هُوَ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ مِنْهُ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ غُلَامٌ، يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِ وَذَهَابِ دَوْلَتِهِ عَلَى يَدَيْهِ. فَاحْتَرَزَ فِرْعَوْنُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَنْ يَنْفَعَ حَذْرٌ مِنْ قَدْرِ؛ لِأَنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرُئِدَ أَنْ تَتَمَنَّيَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَحْذَرُونَ﴾ وَقَدْ فَعَلَ تَعَالَى ذَلِكَ بِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] أَرَادَ فِرْعَوْنُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ أَنْ يَنْجُوَ مِنْ مُوسَى، فَمَا نَفَعَهُ ذَلِكَ مَعَ قُدْرَةِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ أَمْرُهُ الْقَدْرِيَّ وَلَا يُغْلَبُ، بَلْ نَفَذَ حُكْمَهُ، وَجَرَى قَلْمُهُ فِي الْقَدَمِ بِأَنْ يَكُونَ هَلَاكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدَيْهِ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذًا خَفِتَ عَلَيْهِ فَكَلِمَتِهِ فِي الْبَيْتِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٧ فَالْقِطْعَةُ: ٧: أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرِيْبًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنْ وَخُوْدُهُمَا كَانُوا خَطِيْبِينَ ٨ وَقَالَتْ أُمَّرَاتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنٌ لِي وَلَكِ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَسْخَرَهُ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٩

[إِيحَاءُ التَّدْبِيرِ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ]

ذَكَرُوا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَكْثَرَ مِنْ قَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،

خَافَتْ الْقَيْطُ أَنْ يَفْتَىٰ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَيَلُونَهُمْ مَا كَانُوا يَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّقَاةِ، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: إِنَّهُ يُوشِكُ - إِنْ اسْتَمَرَّ هَذَا الْحَالُ - أَنْ يَمُوتَ شَيْوُخُهُمْ، وَعِلْمَانُهُمْ يُقْتَلُونَ. وَنِسَاؤُهُمْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ [يَقْمَنَ] بِمَا تَقُومُ بِهِ رِجَالُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ - فَيُخَلِّصَ إِلَيْنَا ذَلِكَ، فَأَمَرَ بِقَتْلِ الْوُلْدَانِ عَامًا وَتَرْكِهِمْ عَامًا، فَوُلِدَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّنَةِ الَّتِي يَتْرَكُونَ فِيهَا الْوُلْدَانَ، وَوُلِدَ مُوسَى فِي السَّنَةِ الَّتِي يَقْتُلُونَ فِيهَا الْوُلْدَانَ، وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ نَاسٌ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ، وَقَوَائِلُ يَدْرُونَ عَلَى النَّسَاءِ، فَمَنْ رَأَيْتَهَا قَدْ حَمَلَتْ أَحْضُوا اسْمَهَا، فَإِذَا كَانَ وَقْتُ وِلَادَتِهَا لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا نِسَاءُ الْقَيْطِ، فَإِنْ وُلِدَتْ الْمَرْأَةُ جَارِيَّةً تَرَكْتَهَا وَذَهَبْنَ، وَإِنْ وُلِدَتْ غُلَامًا دَخَلَ أَوْلِيكَ الدَّبَّاحُونَ، بِأَيْدِيهِمُ الشُّفَارُ الْمُرْهَقَةُ فَفَقَتُوهُ وَمَضُوا. فَجَبَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

فَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ مُوسَىٰ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهَا مَحَابِلُ الْحَمْلِ كَعَبْرِيهَا، وَلَمْ تَقْطُنْ لَهَا الدَّيَّاتُ، وَلَكِنْ لَمَّا وَضَعَتْهُ ذَكَرًا ضَاقَتْ بِهِ دَرْعًا، وَخَافَتْ عَلَيْهِ خَوْفًا شَدِيدًا، وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا زَائِدًا، وَكَانَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ، فَالْسَّعِيدُ مِنْ أَحَبِّهِ طَبْعًا وَشَرْعًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩].

[مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَارِ فِرْعَوْنَ]

فَلَمَّا ضَاقَتْ بِهِ دَرْعًا، أَلْهَمَتْ فِي سِرِّهَا، وَأَلْقَيْتُ فِي خَلْدِهَا، وَوَيْتُ فِي رُوعِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذًا خَفِتَ عَلَيْهِ فَكَلِمَتِهِ فِي الْبَيْتِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ دَارُهَا عَلَى حَافَةِ النَّيْلِ، فَاتَّخَذَتْ تَابُوتًا، وَمَهَّدَتْ فِيهِ مَهْدًا، وَجَعَلَتْ تُرْضِعُ وَلَدَهَا، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُهُ ذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ، وَسَيَّرَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَرَبَطَتْهُ بِجَبَلٍ عِنْدَهَا، فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَيْهَا مِنْ تَخَافُهُ، فَذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ وَأَرْسَلَتْهُ فِي الْبَحْرِ، وَذَهَلَتْ عَنْ أَنْ تَرْبِطَهُ، فَذَهَبَ مَعَ الْمَاءِ، وَاحْتَمَلَهُ حَتَّىٰ مَرَّ بِهِ عَلَىٰ دَارِ فِرْعَوْنَ، فَالْتَقَطَهُ الْجَوَارِي فَاحْتَمَلْنَهُ، فَذَهَبْنَ بِهِ إِلَىٰ امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ، وَلَا يَدْرِينَ مَا فِيهِ، وَحَشِينَ أَنْ يَفْتَنَّ عَلَيْهَا فِي فَتْحِهِ دُونَهَا، فَلَمَّا كُشِفَ عَنْهُ إِذَا هُوَ غُلَامٌ مِنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ وَأَجْمَلِهِ، وَأَحْلَاهُ وَأَبْنَاهُ، فَأَوْقَعَ اللَّهُ مَحَبَّتَهُ فِي قَلْبِهَا حِينَ نَظَرَتْ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ لِسَعَادَتِهَا وَمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ كَرَامَتِهَا وَسَقَاوَةِ

وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقِطْعَةُ دَاءُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ لَأَنْقُصَنَّكَ عُسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأُخْتِيهِ فَصِيحَةٌ فَصُرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

وَقَالَتِ لِأُخْتِيهِ فَصِيحَةٌ ﴿٩﴾ أَي: أَمَرْتُ ابْنَتَهَا وَكَانَتْ كَبِيرَةً تَعِي مَا يُقَالُ لَهَا، فَقَالَتْ لَهَا: ﴿فُصِيحَةٌ﴾ أَي: اتَّبِعِي أَمْرَهُ، وَخُذِي خَيْرَهُ، وَتَطَلِّي شَأْنَهُ مِنْ نَوَاجِي الْبَلَدِ، فَخَرَجَتْ لِذَلِكَ ﴿فُصُرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَنْ جَانِبٍ. (٢) وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَصُرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ: عَنْ بَعْدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: جَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهَا لَا تَرِيدُهُ. (٣)

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَارِ فِرْعَوْنَ وَأَحْبَبَتْهُ امْرَأَةُ الْمَلِكِ وَاسْتَطْلَقَتْهُ مِنْهُ، عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ الَّتِي فِي دَارِهِمْ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا ثَدْيًا، وَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجُوا بِهِ إِلَى السُّوقِ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ امْرَأَةً تَضْلُحُ لِرِضَاعَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ بِأَيْدِيهِمْ عَرَفَتْهُ، وَلَمْ تَظْهَرْ ذَلِكَ وَلَمْ يَشْعُرُوا بِهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ﴾ أَي: تَحْرِيمًا قَدْرِيًّا، وَذَلِكَ لِكِرَامَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَصِيَانَتِهِ

(١) الطبري: ٥٢٩/١٩ (٢) الطبري: ٥٣٢/١٩ (٣) الطبري:

بِعَلِّيَّهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَالْقِطْعَةُ دَاءُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ الْآيَةَ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: الْأَلَامُ هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ، لَا لَامُ التَّعْلِيلِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرِيدُوا بِالْقِطَاعِ ذَلِكَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ ظَاهِرَ اللَّفْظِ يَقْتَضِي مَا قَالُوهُ، وَلَكِنْ إِذَا نُظِرَ إِلَىٰ مَعْنَى السِّيَاقِ، فَإِنَّهُ تَبَقَى اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَيَّضَهُمْ لِالْقِطَاعِ لِيَجْعَلَهُ عَدُوًّا لَهُمْ وَحَزَنًا فَيَكُونَ أَبْلَغَ فِي إِبْطَالِ حُدْرِهِمْ مِنْهُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ...﴾ الْآيَةَ، يَعْنِي أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا رَأَاهُ هَمَّ بِقِتْلِهِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَشَرَعَتْ امْرَأَتُهُ أَسِيئَةً بِنْتُ مَزَاجِمَ تُخَاصِمُ عَنْهُ وَتَذُبُّ دُونَهُ وَتُحِبُّهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ﴾ فَقَالَ فِرْعَوْنُ: أَمَا لَكَ فَتَعْمَ، وَأَمَا لِي فَلَا، فَكَانَ كَذَلِكَ، وَهَذَا مَا اللَّهُ بِسَبِيهِ وَأَهْلِكَهُ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿عُسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ وَقَدْ حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ، وَهَذَا مَا اللَّهُ بِهِ وَأَسْكَنَهَا الْجَنَّةَ بِسَبِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أَي: أَرَادَتْ أَنْ تَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَتَسْتَبَاهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي: لَا يَدْرُونَ مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْهُ بِالْقِطَاعِ مِنْهُ مِنَ الْجَحْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْحُجْبَةِ الْقَاطِعَةِ.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأُخْتِيهِ فَصِيحَةٌ فَصُرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

[شِدَّةُ حُزْنٍ أُمَّ مُوسَىٰ وَرُجُوعُهُ إِلَيْهَا]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ فُؤَادِ أُمِّ مُوسَىٰ جِئِن ذَهَبَ وَلَدُهَا فِي الْبَحْرِ أَنَّهُ أَصْبَحَ فَارِعًا، أَي: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ مُوسَىٰ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ، وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ^(١). ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أَي: إِنْ كَادَتْ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِهَا وَحُزْنِهَا وَأَسْفَافِهَا لِتَظْهَرْ أَنَّهُ ذَهَبَ لَهَا وَلَدٌ، وَتُخْبِرُ بِحَالِهَا لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَبَيَّنَهَا وَصَبَّرَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾

لَهُ أَنْ يَرْتَضِعَ غَيْرَ نَدِيٍّ أُمِّهِ، وَلَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ ذَلِكَ سَبِيلاً إِلَى رُجُوعِهِ إِلَى أُمِّهِ لِيَرْضِعَهُ، وَهِيَ أَمِينَةٌ بَعْدَ مَا كَانَتْ خَائِفَةً، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ [أُخْتَهُ] حَائِرِينَ فِيمَنْ يَرْضِعُهُ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ، أَخَذَوْهَا وَشَكُّوا فِي أَمْرِهَا، وَقَالُوا لَهَا: وَمَا يُدْرِيكَ بِنُصِحَتِهِمْ لَهُ وَسَفَقَتِهِمْ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ لَهُمْ: نُصِحُّهُمْ لَهُ وَسَفَقْتُهُمْ عَلَيْهِ: رَعِبْتُهُمْ فِي سُرُورِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءِ مَنَفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوها.

فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَلِكَ وَخَلَصَتْ مِنْ أَذَاهُمْ، ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنَزِلِهِمْ فَدَخَلُوا بِهِ عَلَىٰ أُمِّهِ فَأَعْطَتْهُ نَدِيَّهَا فَالْتَقَمَتْهُ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرِحًا شَدِيدًا، وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَىٰ امْرَأَةِ الْمَلِكِ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَىٰ وَأَحْسَنْتَ إِلَيْهَا وَأَعْطَتْهَا عَطَاءً جَزِيلًا، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ وَافِقٌ نَدِيَّهَا، ثُمَّ سَأَلَتْهَا أَسِيئَةً أَنْ تَقِيمَ عِنْدَهَا فَرَضِعَهُ، فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنَّ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا، وَلَا أَقْدِرُ عَلَىٰ الْمَقَامِ عِنْدِكَ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أُرَضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ، فَأَجَابَتْهَا امْرَأَةٌ فَرَعُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النَّفَقَةَ وَالصَّلَاتِ وَالْكَسَاوِي، وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ، فَرَجَعَتْ أُمَّ مُوسَىٰ بِوَلَدِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَدْ أَبْدَلَهَا اللَّهُ بَعْدَ خَوْفِهَا أَمْنًا فِي عِزٍّ وَجَاهٍ، وَرِزْقٍ دَارٍ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الشُّدَّةِ وَالْفَرَجِ إِلَّا الْقَلِيلُ: يَوْمٌ وَآيَةٌ أَوْ نَحْوُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَسُبْحَانَ مَنْ بِيَدِهِ الْأُمُورُ، مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَسَأْ لَمْ يَكُنْ، الَّذِي يَجْعَلُ لِمَنْ اتَّقَاهُ بَعْدَ كُلِّ فَرَجٍ وَبَعْدَ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آيَتِهِ كَي تَفَرَّ عَيْنُهَا﴾ أَي: بِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ أَي: عَلَيْهِ ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أَي: فِيمَا وَعَدَهَا مِنْ رَدِّهِ إِلَيْهَا وَجَعْلِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَحِينَئِذٍ تَحَقَّقَتْ بَرْدَهُ إِلَيْهَا أَنَّهُ كَائِنٌ مِنْهُ رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَعَامَلَتْهُ فِي تَرْبِيَّتِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ طَبْعًا وَشُرْعًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: جِئَكَ اللَّهُ فِي أَعْمَالِهِ وَعَوَاقِبِهَا الْمَحْمُودَةِ الَّتِي هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَرَوَّمَا يَقَعُ الْأَمْرُ كَرِيحًا إِلَى النَّفُوسِ وَعَاقِبَتُهُ مَحْمُودَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

الْبُرُوقِ

٣٨٧

بَيِّنَاتٍ

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْتَوَىٰ ءَايَاتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجِزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا

فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ

فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ

فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ

﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ

ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا

الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَنَوِيٌّ

مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ

يَعْمُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ لِتَنِي كَمَا قَمَلْتُمْ نَفْسًا يَا لَأَمْسٍ إِنْ تَرِيدُ إِلَّا

أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ

يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا

رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ

شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَذَا مِنْ

عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

[قَتَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِنَ الْقَبِطِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَبْدَأَ أَمْرِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذَكَرَ أَنَّهُ

لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَأَسْتَوَىٰ، آتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا. قَالَ

مُجَاهِدٌ: بِعَنِي النَّبُوَّةُ ^(١) وَكَذَلِكَ نَجِزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ ذَكَرَ

تَعَالَى سَبَبَ وَضُؤْلِهِ إِلَىٰ مَا كَانَ تَعَالَى قَدْرَهُ لَهُ مِنَ النَّبُوَّةِ

وَالتَّكْلِيمِ فِي قَضِيَّةٍ قَتَلَهُ ذَلِكَ الْقَبِطِيُّ الَّذِي كَانَ سَبَبَ

خُرُوجِهِ مِنَ الدِّيَارِ الْمُضَرِّيَّةِ إِلَى بِلَادِ مَدْيَنَ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ وَأَبْرَأَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ ابْنِي يَأْتِيكُم بِالْحَبِّ ذُو قُرْبَىٰ وَأَجْرُهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ فَاسْتَنْصِرُوا بِنَجْوَى الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْبَاهُ إِنَّ نَجْوَى الظَّالِمِينَ لَأَبْسُ إِنَّهُمَا يُؤَمِّرُونَ مَبْدِئَهُمْ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ يَا أباي اسْتَجِرْهُ إِنَّ ظَنِّي لَهُ خَيْرٌ مِنَ الظَّنِّ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أَنَا كَاهِنٌ كَمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٧﴾ فَاتَّخَذُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُ فَجَدَّتْ يُوسَىٰ لَهَا الْكُفْرَانَ وَأَسْرَبَتْ بِهِ فَمُرَوِّضًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ يَدَيْهَا فَكَفَّرْنَاهَا بَوَالِحٍ ﴿٢٨﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِهَا أَنْ يَأْتِيَنَّهَا أُولَئِكَ فِي آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٩﴾

لِذَلِكَ .

﴿رَجَاءَ رَجُلٍ مِنْ أَقْصَا الْمَدْيَنَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْشِي ابْنُ الْمَلَأَ يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِيَّكَ مِنَ النَّصِيحِينَ﴾ ﴿٢٢﴾
 قَالَ تَعَالَى: ﴿رَجَاءَ رَجُلٍ﴾ وَصَفَهُ بِالرَّجُولِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ، فَسَلَّكَ طَرِيقًا أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِ الَّذِينَ بَعُثُوا وَرَاءَهُ، فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ لَهُ: يَا مُوسَى: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتِرُونَ بِكَ﴾ أَي: يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ أَي: مِنْ الْبَلَدِ ﴿إِيَّكَ مِنَ النَّصِيحِينَ﴾ .

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

(١) الطبري: ٥٣٨/١٩ إسناده ضعيف ابن جريج مدلس ولم يصرح بالسماع والسند إليه ضعيف فيه الحسين بن داود المصيصي الذي كان يلحق شيخه الحجاج مَرَّ ذَكَرَهُ (٢) الطبري: ٥٣٨/١٩ إسناده ضعيف ابن جريج مدلس ولم يصرح بالسماع والسند إليه ضعيف فيه الحسين بن داود المصيصي الذي كان يلحق شيخه الحجاج مَرَّ ذَكَرَهُ قَبْلُ (٣) الطبري: ٥٣٩/١٩ (٤) الطبري: ٥٤٠، ٥٣٩/١٩ (٥) الطبري: ٥٤٠/١٩

عَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَذَلِكَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ (١). وَقَالَ ابْنُ الْمُثَنَّبِيِّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَّارٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ ذَلِكَ يَصِفُ النَّهَارَ (٢). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يُتَمَلَّانِ﴾ أَي: يَتَضَارَبَانِ وَيَتَنَازَعَانِ ﴿هَذَا مِنْ شِعْبِهِ﴾ أَي: إِسْرَائِيلِيِّ ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أَي: قِبْطِيٍّ (٣). قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ (٤). فَاسْتَحْتَأَتِ الْإِسْرَائِيلِيُّ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوَجَدَ مُوسَى فُرْصَةً، وَهِيَ غَفْلَةُ النَّاسِ، فَعَمَدَ إِلَى الْقِبْطِيِّ ﴿فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَوَكَّرَهُ﴾ أَي: طَعَنَهُ بِجُمُوعِ كَفِّهِ (٥). ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أَي: كَانَ فِيهَا حَقُّهُ، فَمَاتَ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ يَا أَنعَمْتَ عَلَيَّ أَي: يَا جَعَلْتَ لِي مِنَ الْجَاهِ وَالْعِزِّ وَالنَّعْمَةِ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا﴾ أَي: مُعِينًا ﴿لِلْمُتَّعِمِينَ﴾ أَي: الْكَافِرِينَ بِكَ، الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِكَ.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدْيَنَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُبِينٌ﴾ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْشِي أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ

النَّصِيحِينَ ﴿٢٧﴾

[فَشَوْ سِرُّ الْقَتْلِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَتَلَ ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ أَنَّهُ أَصْبَحَ ﴿فِي الْمَدْيَنَةِ خَائِفًا﴾ أَي: مِنْ مَعْرَةِ مَا فَعَلَ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أَي: يَتَلَمَّسُ وَيَتَوَقَّعُ مَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَمَرَّ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، فَإِذَا ذَلِكَ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ عَلَى ذَلِكَ الْقِبْطِيِّ يُقَاتِلُ آخَرَ، فَلَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ مُوسَى اسْتَصْرَحَهُ عَلَى الْآخَرَ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُبِينٌ﴾ أَي: ظَاهِرُ الْعَوَايَةِ كَثِيرُ الشَّرِّ، ثُمَّ عَزَمَ مُوسَى عَلَى الْبَطْشِ بِذَلِكَ الْقِبْطِيِّ، فَاعْتَمَدَ الْإِسْرَائِيلِيُّ لِخَوْرِهِ وَضَعْفِهِ وَذَلَّتِهِ أَنَّ مُوسَى إِنَّمَا يُرِيدُ قَضَاءَهُ لَمَّا سَمِعَهُ يَقُولُ ذَلِكَ، فَقَالَ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿يَمْشِي أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْزَمْ بِهِ إِلَّا هُوَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا سَمِعَهَا ذَلِكَ الْقِبْطِيُّ لَفَفَهَا مِنْ فِيهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ وَالْقَاهَا عِنْدَهُ، فَعَلِمَ فِرْعَوْنَ بِذَلِكَ، فَاسْتَدَّ حَقْنَهُ، وَعَزَمَ عَلَى قَتْلِ مُوسَى، فَطَلَبُوهُ فَبَعُثُوا وَرَاءَهُ لِيُحْضَرُوهُ

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا
سَقَىٰ حَتَّىٰ يَصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا
ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
فَعِيرٌ ﴿٢٤﴾

حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْقَىٰ
عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ ذَلِكَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾

[مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَدْيَنَ وَسَقَىٰهُ أَعْنَامَ امْرَأَتَيْنِ]
لَمَّا أَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِمَا تَمَّ لَهُ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَدَوَّلْتُهُ فِي

أَمْرِهِ، خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَحَدَهُ، وَلَمْ يَأْلَفْ ذَلِكَ قَبْلَهُ بَلْ كَانَ
فِي رِفَاهِيَّةٍ وَنَعْمَةٍ وَرِيَّاسَةٍ ﴿هَجَرَ مِنْهَا حَافِيًا يَرْقُبُ﴾ أَيُّ:
يَتَلَفَّتُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: مِنْ فِرْعَوْنَ
وَمَلِكَيْهِ، فَذَكَرُوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا عَلَى
فَرَسٍ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى الطَّرِيقِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ بِلِقَاءِ
مَدْيَنَ﴾ أَيُّ: أَخَذَ طَرِيقًا سَالِكًا مَهْيَعًا، فَرِحَ بِذَلِكَ ﴿قَالَ
عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أَيُّ: الطَّرِيقِ الْأَقْوَمَ،
فَفَعَلَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ وَهَدَاهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، فَجَعَلَهُ هَادِيًا مَهْدِيًا ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أَيُّ:
لَمَّا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ وَوَرَدَ مَاءَهَا، وَكَانَ لَهَا بئْرٌ يَرِدُهُ رِعَاءُ
الشَّاءِ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أَيُّ: جَمَاعَةٌ
يَسْقُونَ، ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أَيُّ:
تُكْفِكِفَانِ عَمَهُمَا أَنْ تَرُدَّ مَعَ عَمِّهِ أَوْلِيَاكَ الرَّعَاءِ؛ لِئَلَّا
يُؤَدِّيَا^(*)، فَلَمَّا رَأَاهُمَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَقَّ لَهُمَا
وَرَجَمَهُمَا ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ أَيُّ: مَا خَبَرُكُمَا لَا تَرِدَانِ مَعَ
هُؤُلَاءِ؟ ﴿قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يَصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أَيُّ: لَا يَحْضُلُ
لَنَا سَقَىٰ إِلَّا بَعْدَ فِرَاقِ هؤُلَاءِ ﴿وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أَيُّ:
فَهَذَا الْحَالُ الْمُلْجِئُ لَنَا إِلَىٰ مَا تَرَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَعِيرٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
وَإِبْنُ مَسْعُودٍ وَالشَّدِيُّ: جَلَسَ تَحْتَ شَجَرَةٍ^(١). وَقَالَ عَطَاءُ
ابْنُ السَّائِبِ لَمَّا قَالَ مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ
خَيْرٍ فَعِيرٌ﴾ أَسْمَعَ الْمَرْأَةَ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتَا إِحْدَاهُمَا يَتَّابِئِ اسْتَجِرْهُ إِيَّاكَ خَيْرٌ
مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: قَالَتْ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَذَا الرَّجُلِ.
قِيلَ: هِيَ الَّتِي ذَهَبَتْ وَرَاءَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَتْ
لِأُيُوبَ: ﴿يَتَّابِئِ اسْتَجِرْهُ﴾ أَيُّ: لِرِغْبَةِ هَذِهِ الْعَنَمِ. قَالَ عُمَرُ
وَإِبْنُ عَبَّاسٍ وَشُرَيْحُ الْقَاضِي وَأَبُو مَالِكٍ وَقَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ

(*) كذا عندنا في النسخ: يُؤَدِّيَا، والأصل أن يكون: تُؤَدِّيَا
برجوع الضمير إلى المرأتين (١) الطبري: ٥٥٦/١٩ (٢)

الطبري: ٥٥٧/١٩ (٣) الطبري: ٥٥٨/١٩ (٤) الطبري: ٥٥٩/١٩

﴿لِقَاءَتِهِ إِحْدَاهُمَا تَمَشَّىٰ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِيَّاكَ أَبِي يَدْعُوكَ
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ
قَالَ لَا تَحْفَظْ بَحَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا
يَتَّابِئِ اسْتَجِرْهُ إِيَّاكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ
إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي كَمَا

الْقَصَصُ

٣٨٩

سُورَةُ الْقَصَصِ

﴿١٦﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوَسِ إِذْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسِئَ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿١٩﴾ أَسْأَلُكَ بِدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيَضَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٢١﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٢٢﴾ قَالَ سَنُنصِّرُكَ يَا أَخِي إِنَّكَ مَعَهُ السُّلْطَانُ فَفَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتَمَا وَمِن أَتْبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٢٣﴾

أَذْرِي حَتَّىٰ أَقْدَمَ عَلَىٰ حَبْرِ الْعَرَبِ فَاسْأَلُهُ، فَقَدِمْتُ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: قَضَىٰ أَكْثَرُهُمَا وَأَطْيَبُهُمَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِذَا قَالَ فَعَلَ. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٤).

﴿١٦﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوَسِئَ إِذْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسِئَ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿١٩﴾ أَسْأَلُكَ بِدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيَضَاءً

(١) الطبري: ٥٦٤/١٩-٥٦٤ (٢) ابن أبي شيبة: ٥٧٤/١٤
المستدرک (٣٣٧٣) فيه مدلسان سفيان الثوري وأبو إسحاق السبيعي ولم يصرحا بالسماع وأبو عبيدة لا يصح سماعه من أبيه على الراجح كما قال ابن حجر في التقریب (٣) أحمد: ٤٩٣/٣ والنسائي: ١٨٥/٤ (٤) فتح الباري: ٣٤٢/٥

إِسْحَاقَ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ: لَمَّا قَالَتْ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْغَوِيَّ الْأَيْمَنُ﴾ قَالَ لَهَا أَبُوهَا: وَمَا عَلِمْتُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ لَهُ: إِنَّهُ رَفَعَ الصَّخْرَةَ الَّتِي لَا يُطِيقُ حَمْلَهَا إِلَّا عَشْرَةُ رِجَالٍ، وَإِنِّي لَمَّا جِئْتُ مَعَهُ تَقَدَّمْتُ أَمَامَهُ فَقَالَ لِي: كُونِي مِنْ وَرَائِي، فَإِذَا اخْتَلَفَ عَلَيَّ الطَّرِيقُ فَأَخِذِي لِي بِحِصَاةٍ، أَعْلَمُ بِهَا كَيْفَ الطَّرِيقُ لِأَهْتَدِي إِلَيْهِ^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - قَالَ: أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ: أَبُو بَكْرٍ حِينَ تَفْرَسَ فِي عَمْرٍ، وَصَاحِبُ يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿أَكْرَمِي مَوْتَهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وَصَاحِبَةُ مُوسَى حِينَ قَالَتْ: ﴿يَتَأْتِبِ اسْتَجْرَةٌ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْغَوِيَّ الْأَيْمَنُ﴾^(٢).

قَالَ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لِحَدِي ابْنَيْ هَتَيْنِ﴾ أَي: طَلَبَ إِلَيْهِ هَذَا الرَّجُلُ الشَّيْخَ الْكَبِيرُ أَنْ يَرَعَىٰ غَنَمَهُ وَيُرَوِّجَهُ إِحْدَى ابْنَيْهِ هَاتَيْنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنِ اتَّمَمْتَ عَشْرًا فَمِنَ عِنْدِكَ﴾ أَي: عَلَىٰ أَنْ تَرَعَىٰ غَنَمِي ثَمَانِي سِنِينَ، فَإِنِ تَبَرَّعْتَ بِزِيَادَةِ سَنَتَيْنِ فَهُوَ إِلَيْكَ، وَإِلَّا فَمِنِي الثَّمَانِ كِفَايَةً ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَنَدِيذٍ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَي: لَا أَشُفَاكَ وَلَا أُوَادِيكَ وَلَا أَمَارِيكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتَ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يَقُولُ: إِنَّ مُوسَى قَالَ لِصَهْرِهِ: الْأَمْرُ عَلَىٰ مَا قُلْتُ مِنْ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَىٰ ثَمَانِ سِنِينَ، فَإِنِ اتَّمَمْتُ عَشْرًا فَمِنَ عِنْدِي، فَإِنَّا مَتَىٰ فَعَلْتُ أَفْلَهُمَا فَقَدْ بَرِئْتُ مِنَ الْعَهْدِ، وَخَرَجْتُ مِنَ الشَّرْطِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتَ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ﴾ أَي: فَلَا خَرَجَ عَلَيَّ، مَعَ أَنَّ الْكَامِلَ وَإِن كَانَ مُبَاحًا لَكِنَّهُ فَاضِلٌ مِنْ جِهَةِ أُخْرَىٰ بِدَلِيلٍ مِنْ خَارِجٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَمْرَةَ بِنِ عَمْرِو الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ كَثِيرَ الصِّيَامِ، وَسَأَلَهُ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ: «إِن شِئْتَ فَصُمْ، وَإِن شِئْتَ فَافْطِرْ»^(٣). مَعَ أَنَّ فَعَلَ الصِّيَامِ رَاجِعٌ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ، هَذَا، وَقَدْ ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَىٰ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا فَعَلَ أَكْمَلَ الْأَجْلَيْنِ وَأَتَمَّهُمَا.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْحَبِيرَةِ: أَيُّ الْأَجْلَيْنِ قَضَىٰ مُوسَى؟ فَقُلْتُ: لَا

مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ
بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

رُجُوعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مِصْرَ وَتَكْرِيمُهُ بِالرَّسَالَةِ
وَالْمُعْجَزَاتِ فِي الطَّرِيقِ [

فَدَ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَبْلَهَا أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
قَضَى أُمَّتَ الْأَجْلَيْنِ وَأَوْفَاهُمَا وَأَبْرَهَمًا وَأَكْمَلَهُمَا وَأَبْقَاهُمَا،
وَقَدْ اسْتَفَادَ هَذَا أَيْضًا مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى:
﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴿٣١﴾ أَي: الْأَكْمَلَ مِنْهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالُوا: كَانَ مُوسَى قَدِ اشْتَقَ إِلَى
بِلَادِهِ وَأَهْلِهِ، فَعَزَمَ عَلَى زِيَارَتِهِمْ فِي خِيفَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِ، فَتَحَمَّلَ بِأَهْلِهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْغَنَمِ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ
صَهْرُهُ، فَسَلَّكَ بِهِمْ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ مُظْلِمَةٍ بَارِدَةٍ، فَتَزَلَّ
مَنْزِلًا، فَجَعَلَ كُلَّمَا أَوْرَى زَنْدَهُ لَا يُضِيءُ شَيْئًا، فَتَعَجَّبَ مِنْ
ذَلِكَ، فَتَيْنَّمَا هُوَ كَذَلِكَ ﴿عَاسَكَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ كَارًا﴾ أَي:
رَأَى نَارًا تُضِيءُ عَلَى بَعْدٍ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَأَسْتُ
نَارًا﴾ أَي: حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهَا ﴿لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ [كَانَ] قَدْ أَضَلَّ الطَّرِيقَ ﴿أَوْ جَذُوهُ مِنْ
النَّارِ﴾ أَي: قَطَعَهُ مِنْهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أَي:
تَسْتَدْفِنُونَ بِهَا مِنَ الْبُرْدِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَنْهَا
تُودِي مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أَي: مِنْ جَانِبِ الْوَادِي مِمَّا
يَلِي الْجَبَلَ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرِ﴾ فَهَذَا مِمَّا
يُزِيدُ إِلَى أَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جَهَةِ الْقِبْلَةِ، وَالْجَبَلُ
الْغَرْبِيُّ عَنْ يَمِينِهِ، وَالنَّارُ وَجَدَهَا تَضَطَّرُّمْ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ
فِي لِحْفِ الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِي، فَوَقَّفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا،
فَتَادَاهُ رَبُّهُ ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ
الشَّجَرَةِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ يُسْمِعَ إِنْتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
أَي: الَّذِي يُخَاطِبُكَ وَيُكَلِّمُكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الْفَعَالُ
لِمَا يَشَاءُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ
عَنْ مُمَثَّلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ
سُبْحَانَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أَي: الَّتِي فِي يَدِكَ كَمَا قَرَّرَهُ
عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يُسْمِعُ﴾ ﴿٣٧﴾
قَالَ هِيَ عَصَاكَ أَوَّكَعْتُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا

مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨] وَالْمَعْنَى أَمَا هَذِهِ عَصَاكَ الَّتِي
تَعْرِفُهَا ﴿أَلْفَهَا﴾ ﴿فَأَلْقِنَهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠]
فَعَرَفَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِي يُكَلِّمُهُ وَيَخَاطِبُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ
لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ. كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ طهَ،
وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أَي: تَضَطَّرِبُ ﴿كَأَنَّهَا جَاءَتْ
وَلَى مُذِرًا﴾ أَي: فِي حَرَكَتِهَا السَّرِيعَةِ مَعَ عِظَمِ خَلْقَتِهَا
وَقَوَائِمِهَا، وَاسْتَسَاعَ فِيهَا وَاضْطَرَّكَ أَنْبَاطُهَا وَأَضْرَاسِهَا،
بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا، تَتَحَدَّرُ فِيهَا تَتَفَعَّفُ
كَأَنَّهَا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿وَلَى مُذِرًا وَلَوْ يَعْقَبُ﴾ أَي:
وَلَمْ يَكُنْ يَلْتَمِثُ؛ لِأَنَّ طَبْعَ الْبَشَرِيَّةِ يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا قَالَ
اللَّهُ لَهُ: ﴿يَسْمِعُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ رَجَعَ
فَوَقَّفَ فِي مَقَامِهِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَسْأَلُكَ بِذِكِّ فِي
جَنَبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَي: إِذَا أَدْخَلْتَ بِذِكِّ فِي
جَنَبِ دِرْعِكَ ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا، فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَتَلَأَلُ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ
قَمَرٍ فِي لَمَعَانِ الْبُرْقِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَي: مِنْ
غَيْرِ بَرَصٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قَالَ
مُجَاهِدٌ: مِنَ الْفَزَعِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مِنَ الرَّعْبِ^(١). وَهُوَ أَنَّهُ
أَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ مِنَ
الرَّهْبِ؛ وَهُوَ يَدُهُ. فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ
الْخَوْفِ، وَرُبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدٌ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِقْتِدَاءِ
فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ، فَإِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ أَوْ يَخْفُ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّمَّةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَلِكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي الْفَاءَ
الْعَصَا وَجَعَلَهَا حِيَّةً تَسْعَى، وَإِذْخَالَ يَدَهُ فِي جَنَبِهِ فَتَخْرُجُ
بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ
الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِحَّةِ بُرْهَانِ مَنْ جَرَى هَذَا الْخَارِقُ عَلَى
يَدَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أَي: وَقَوْمِهِ
مِنَ الرَّؤُسَاءِ وَالْكِبْرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أَي:
خَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، مُحَالَفِينَ لِأَمْرِهِ وَدِينِهِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿٣٧﴾ وَأَخَى
هَكَوْتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي
أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٨﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجِجَعَدُ
لَكُمْ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنسَا وَمَنْ أَنْعَمْنَا

الغُلَيُّونَ ﴿٣٥﴾

[سؤال موسى مؤازرته بأخيه هارون
وقبول ذلك من الله]

لَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ الَّذِي إِنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ فِرَارًا مِنْهُ وَخَوْفًا مِنْ سَطْوَتِهِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا، يَعْنِي ذَلِكَ الْقُبْطِيَّ ﴿٣٦﴾ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٧﴾ أَيُّ: إِذَا رَأَوْنِي ﴿٣٨﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴿٣٩﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي لِسَانِهِ لُغَةً بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاوَلَ تِلْكَ الْحِجْمَةَ حِينَ خُيِّرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الثَّمَرَةِ أَوْ الدَّرَّةِ، فَأَخَذَ الْحِجْمَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَحْمَلْتُ عَقْدَهُ بَيْنَ لِسَانِي ﴿٣٥﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٣٦﴾ وَأَحْمَلُ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٣٧﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٨﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرَى ﴿٣٩﴾ وَأَشْرَكَ فِي أَمْرِي ﴿٤٠﴾ طه: [٢٧-٣٢] أَيُّ: يُؤْنِسُنِي فِيمَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْقِيَامُ بِأَعْبَاءِ النَّبِيِّ وَالرَّسَالَةِ إِلَى هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِي رِدْعًا ﴿٤٠﴾ أَيُّ: وَزِيرًا وَمُعِينًا وَمَقْوِيًّا لِأَمْرِي، يُصَدِّقُنِي فِيمَا أَقُولُهُ وَأُخِيرُ بِهِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّ خَيْرَ الْأَثْنَيْنِ أَنْجَعُ فِي النَّفْسِ مِنْ خَيْرِ الْوَاحِدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكْذِبُونِ﴾.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ﴿رِدْعًا يُصَدِّقُ﴾ أَيُّ: بَيِّنُ لَهُمْ عَنِّي مَا أَكَلَّمَهُمْ بِهِ، فَإِنَّهُ يَنْهَمُ عَنِّي مَا لَا يَنْهَمُونَ^(١). فَلَمَّا سَأَلَ ذَلِكَ مُوسَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴿٣٦﴾ أَيُّ: سَنَقْوِي أَمْرَكَ، وَنَعُزُّ جَانِبَكَ بِأَخِيكَ الَّذِي سَأَلْتَ لَهُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَعَكَ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَدْ أَوْتَيْنَا سُؤْلَكَ بِمُوسَى ﴿٣٦﴾ طه: [٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَهْلًا هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٣٧﴾ مريم: [٥٣] وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنِّي عَلَى أَخِيهِ مِنْ مُوسَى عَلَى هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُ شَفَعَ فِيهِ حَتَّى جَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا مَعَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ مُوسَى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٣٧﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَنًا﴾ أَيُّ: حُجَّةً قَاهِرَةً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ بِإِذْنِنَا﴾ أَيُّ: لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْوُضُوعِ إِلَى أَدَاكُمَا بِسَبَبِ إِبْلَاجِكُمَا آيَاتِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِنَائِبِنَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿٣٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ يَصِصُّكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٣٧﴾ [المائدة: ٦٧] وَقَالَ تَعَالَى:

الْمُؤْمِنِينَ

٣٩٠

سُورَةُ الْقَصَصِ

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْلِكُنَّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَحُجُوذُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَحْذَنَّهُ وَحُجُوذُهُ، فَسَدَّ لَهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] أَيُّ: وَكَفَى بِاللَّهِ نَاصِرًا وَمُعِينًا وَمُؤَيَّدًا، وَلِهَذَا أُخْبِرَهُمَا أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمَا وَلَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنشَأْ وَمَنْ أَتَّبَعْنَا الْغُلَيُّونَ ﴿٣٦﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [غافر: ٥١].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

[موسى عليه السلام بين يدي فرعون وقومه]
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَجِيءِ مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ وَعَرَضِهِ مَا آتَاهُمَا اللَّهُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ،

إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَنكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿الشعراء: ٢٩﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَوْقَدَ لِي يَهْتَمُنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَيْكَ إِلَهَ مُوسَى﴾ يَعْني أَمَرَ وَزِيرَهُ هَامَانَ وَمُدَبِّرَ رَعِيَّتِهِ وَمُشِيرَ دَوْلَتِهِ أَنْ يُوقِدَ لَهُ عَلَى الطَّيْنِ، يَعْني: يَتَّخِذَ لَهُ أَجْرًا لِبِنَاءِ الصَّرْحِ وَهُوَ الْقَصْرُ الْمُنِيفُ الرَّفِيعُ الْعَالِي، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْتَمُنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَتْبَغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَكَاتِ فَاطْلُعُ إِلَيْكَ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لِأَطْنُفُهُ كَكِذْبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سَوَّاهُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَعَبْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] وَذَلِكَ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ بَنَى هَذَا الصَّرْحَ الَّذِي لَمْ يَرِ فِي الدُّنْيَا بِنَاءً أَعْلَى مِنْهُ، إِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُظْهِرَ لِرَعِيَّتِهِ تَكْذِيبَ مُوسَى فِيمَا زَعَمَهُ مِنْ دَعْوَى إِلِهِ غَيْرِ فِرْعَوْنَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنِّي لِأَطْنُفُهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَي: فِي قَوْلِهِ: إِنَّ نَمَّ رَبًّا غَيْرِي، لَا أَنَّهُ كَذَّبَهُ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْترِفُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ جَلَّ وَعَلَا، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟﴾ [الشعراء: ٢٣] وَقَالَ: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَنكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَحُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِعَظِيمٍ الْحَقِّ وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِيَّانَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أَي: طَعَوْا وَتَجَبَّرُوا، وَأَكْتَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، وَاعْتَدُوا أَنَّهُ لَا قِيَامَةَ وَلَا مَعَادَ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمُرْسِدِينَ﴾ [الفجر: ١٣، ١٤] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَأَحْذَرْتَهُ وَحُودُهُ فَسَدَّتْهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً كَذَّبْتُمْ فِي الْبَحْرِ فِي صَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً كَذَّبْتُمْ إِلَى الْبَحْرِ﴾ أَي: لِمَنْ سَلَكَ وَرَاءَهُمْ وَأَخَذَ بِطَرِيقَتِهِمْ فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَتَعْطِيلِ الصَّانِعِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ﴾ أَي: فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذَلِّ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أَي: وَسَرَعَ اللَّهُ لَعْنَتَهُمْ وَلَعْنَةَ مَلَائِكَتِهِمْ فِرْعَوْنَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّبِعِينَ لِرُسُلِهِ، كَمَا أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مَلْعُونُونَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ كَذَلِكَ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ

وَالدَّلَالَةُ الْقَاهِرَةُ عَلَى صِدْفِهِمَا فِيمَا أَخْبَرَا بِهِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ تَوْجِيهِهِ وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ، فَلَمَّا عَابَنَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ ذَلِكَ، وَشَاهَدُوهُ، وَتَحَقَّقُوهُ، وَأَيَقَنُوا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، عَدَلُوا بِكُفْرِهِمْ وَبَعِيهِمْ إِلَى الْجِنَادِ وَالْمُبَاهَتَةِ، وَذَلِكَ لِطُعْيَانِهِمْ وَتَكْبِيرِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ فَقَالُوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ﴾ أَي: مُفْتَعَلٌ مَضْنُوعٌ، وَأَرَادُوا مُعَارَضَتَهُ بِالْحِيلَةِ وَالْجَوَاهِ فَمَا صَدَّ مَعَهُمْ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا سَعَيْنَا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ يَعْنُونَ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْ آيَاتِنَا عَلَى هَذَا الدِّينِ، وَلَمْ نَرَ النَّاسَ إِلَّا يُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ يَعْني مِنِّي وَمِنْكُمْ، وَسَيَفْصِلُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أَي: مِنَ النَّصْرَةِ وَالظَّفَرِ وَالتَّائِيدِ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أَي: الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ فَأَوْقَدَ لِي يَهْتَمُنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَيْكَ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لِأَطْنُفُهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَحُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِعَظِيمٍ الْحَقِّ وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِيَّانَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَحْذَرْتَهُ وَحُودُهُ فَسَدَّتْهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً كَذَّبْتُمْ إِلَى الْبَحْرِ وَبِئْسَ الْيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَبِئْسَ الْيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ [استبصاراً فِرْعَوْنَ وَمَصِيرَهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَطُعْيَانِهِ وَافْتِرَائِهِ فِي دَعْوَاهُ إِلَى الْإِلَهِيَّةِ لِنَفْسِهِ الْقَيْحِيَّةِ، لَعْنَةُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَسْحَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾... الْآيَةُ [الزخرف: ٥٤] - وَذَلِكَ لِأَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِعْتِرَافِ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ بِقَلْبِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَسَخَافَةَ أَدْبَانِهِمْ - وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٣٢﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٣٣﴾ فَأَنذَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿٣٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٦] يَعْني أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ، وَنَادَى فِيهِمْ بِصَوْتِهِ الْعَالِي مُصْرَحًا لَهُمْ بِذَلِكَ، فَأَجَابُوهُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَلِهَذَا انْتَقَمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ، فَجَعَلَهُ عِبْرَةً لِعَبْرَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحَتَّى إِنَّهُ وَاجَهَ مُوسَى الْكَلِيمَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ

مِنَ الْمُقْبُولِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ قَادَةُ: وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّزْقُ الْمَرْفُودُ﴾ (١)

[هود: ٩٩].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٤)

[بَيَانُ نَعْمِ اللَّهِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ، عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلِيمِ، مِنْ أَنْزَالِ التَّوْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يَعْنِي أَنَّهُ بَعْدَ أَنْزَالِ التَّوْرَةِ لَمْ يُعَذِّبْ أُمَّةً بِعَامَةٍ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَجَاءَ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُتَّفِكَتِ بِالطَّاغُوتِ﴾ (٤٥) فَصَوَّرَ رَسُولُ رَبِّهِمْ فَاحْذَرُوهُمْ أَخْذَةَ رَأْيِيَّةٍ [الحاقة: ٩، ١٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أَي: مِنَ الْعَمَى وَالْعَمَى، وَهُدًى إِلَى الْحَقِّ وَرَحْمَةً، أَي: إِرْشَادًا إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: لَعَلَّ النَّاسَ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ بِسَبِيلِهِ.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلُ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَابِئِنَّا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَابِئِنكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

[التَّنْبِيهُ عَلَى بُرْهَانِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبِّهًا عَلَى بُرْهَانِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَ بِالْعُيُوبِ الْمَاضِيَةِ خَيْرًا كَأَنَّ سَامِعَهُ شَاهِدٌ وَرَاءَهُ؛ لِمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ، نَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ مَرِيَمَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَحَ مَرِيَمُ أَيُّهَا يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ... الْآيَةَ، أَي: وَمَا كُنْتَ حَاضِرًا لِذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَوْحَاهُ إِلَيْكَ، وَهَكَذَا لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ نُوحٍ وَقَوْمِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ إِنْجَاءِ اللَّهِ لَهُ وَإِعْرَاقِ قَوْمِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا

سُورَةُ الْقَصَصِ
٣٩١
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلُ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَابِئِنَّا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَابِئِنكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ مِّن قَبْلِكَ نَدْعُكَ فَآتُوا بِآيَاتِكُمْ مِّن عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنِ تَعْبَهُ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾

قَوْمِكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ... الْآيَةَ [هود: ٤٩]، وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَرْبِيِّ نَفْثُهُ عَلَيْكَ﴾ [هود: ١٠٠] وَقَالَ هُنَا بَعْدَ مَا أَخْبَرَ عَنْ قِصَّةِ مُوسَى مِنْ أَوْلِيَّهَا إِلَى آخِرِهَا: وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ إِبْحَاءِ اللَّهِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمِهِ لَهُ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يَعْنِي مَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ بِجَانِبِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي هِيَ شَرْقِيَّةٌ عَلَى شَاطِئِ الْوَادِي ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لِذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَيْكَ ذَلِكَ، لِيَكُونَ حُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُرُونٍ قَدْ تَطَاوَلَ عَهْدُهَا، وَنَسُوا حُجَجَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ.

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَابِئِنَّا﴾ أَي: وَمَا كُنْتَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا حِينَ أَخْبَرْتَ عَنْ نَبِيِّهَا شُعَيْبٍ، وَمَا قَالَ لِقَوْمِهِ

الْبُرْجَانِ

٣٩٢

سُورَةُ الْقَصَصِ

﴿٥١﴾ الَّذِينَ
 وَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
 آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنزلُ عَلَيْهِمْ
 قَالُوا أَمْ آتَانَا بِهِ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
 أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَدَرُوا وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ
 السَّيِّئَةِ وَمَمَارَزَاتِهِمْ يُفْقَهُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
 أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنْ أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ
 لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
 اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن
 نَبَّعِ الْمُدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ
 حَرَمَاءُ مِمَّا يَجِبُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ
 بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنِلَّكَ مَسْكِنَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
 إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
 الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمَارِئِهَا رِجَالًا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَمَا
 كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

[تَعْنَتْ الْكُفَّارِ وَجَوَابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَوْ عَذَّبَهُمْ قَبْلَ قِيَامِ
 الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ: أَنَّهُمْ لَمَّا
 جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِهِ عَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالُوا عَلَىٰ
 وَجْهِ التَّعْنُتِ وَالْعِنَادِ وَالْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالْإِنْحَادِ: ﴿لَوْلَا
 أُوقِفُ مِثْلَ مَا أُوقِفُ مُوسَىٰ﴾... الآية، يَعْنُونَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 - مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ، مِثْلُ: الْعَصَا وَالْيَدِ وَالطُّورِ وَالنَّارِ
 وَالْجُرَادِ، وَالْقَمَلِ، وَالضَّفَادِعِ وَالِدَّمِ، وَتَقْصِصِ الزُّرُوعِ
 وَالشَّمَارِ - مِمَّا يُضَيِّقُ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ - وَكَفَلَقِ الْبَحْرِ
 وَتَطْيِيلِ الْعَمَامِ وَإِنزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ
 الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحُجُجِ الْقَاهِرَةِ، الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ
 عَلَىٰ يَدَيْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حُجَّةً وَبُرْهَانًا لَهُ عَلَىٰ
 فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْجَعْ فِي
 فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ، بَلْ كَفَرُوا بِمُوسَىٰ وَأَخِيهِ هَارُونَ، كَمَا قَالُوا
 لَهُمَا: ﴿أَجْتَنَّا لِنُلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَكُنَّا لَكُمْ كُفْرًا
 فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] وَقَالَ تَعَالَىٰ:

وَمَا رَدُّوا عَلَيْهِ. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أَي: وَلَكِنْ نَحْنُ
 أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى النَّاسِ رَسُولًا.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَا﴾:
 مُوسَى. وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَشْبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا
 كُنْتَ بِجَانِبِ النَّبِيِّ إِذْ قَضَيْتَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤].
 ثُمَّ أَخْبَرَ هَهُنَا بِصِغَةِ أُخْرَى أَحْصَى مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ النَّدَاءُ،
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠] وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْأَيْمَنِ الَّذِي يَمُنُّ مِنْ
 تَحْتِ الْأَنْبُوتِ﴾ [النارعات: ١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَرَيْنَاهُ جَبَّ
 [مریم: ٥٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَي: مَا كُنْتُ
 مُشَاهِدًا لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَاهُ إِلَيْكَ
 وَأَخْبَرَكَ بِهِ رَحْمَةً مِنْهُ بِكَ وَبِالْعِبَادِ وَبِإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ
 ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ﴾. أَي: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ ﴿لَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ لَفَقَدُوا
 رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾... الآية، أَي: وَأَرْسَلْنَاكَ
 إِلَيْهِمْ؛ لِنُقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَلِنَقْطَعَ عُذْرَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ
 عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ، فَيَحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ
 وَلَا نَذِيرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهِ إِنزَالَ كِتَابِهِ الْمُبَارَكِ،
 وَهُوَ الْقُرْآنُ: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ
 قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا
 عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكَأَأْهْدِيكُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا
 مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾
 [النساء: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْخَذُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا
 يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا
 نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾... الآية [المائدة: ١٩]،
 وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوقِفُ مِثْلَ مَا أُوقِفُ
 مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوقِفُ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا
 وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ قُلْ فَأَنوَأُ يَكْتَلِبُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ
 أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ
 فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ
 هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٤﴾
 وَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨].

[لَا يُؤْمِنُ الْمُتَمَرِّدُونَ بِالْمُعْجَزَاتِ]

وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ﴾
 أَي: أَوْ لَمْ يَكْفُرِ النَّبِيُّ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ
 الْعَظِيمَةِ ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظْهَرَا﴾ أَي: تَعَاوَنَا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ
 كَيْفُونٍ﴾ أَي: بِكُلِّ مِنْهُمَا كَافِرُونَ، وَلِشِدَّةِ التَّلَازُمِ
 وَالتَّصَاحِبِ وَالمُقَارَبَةِ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ، دَلَّ ذِكْرُ
 أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ.

[الْإِفْتِرَاءُ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالسَّحْرِ]
 قَالَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ: أَمَرَتِ الْيَهُودُ قُرَيْشًا أَنْ يَقُولُوا
 لِمُحَمَّدٍ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ: (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
 مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظْهَرَا) قَالَ: يَعْنِي مُوسَى
 وَهَارُونَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ ﴿تَظْهَرَا﴾ أَي: تَعَاوَنَا
 وَتَنَاصَرَا وَصَدَّقَ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ^(١). وَبِهَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ
 جُبَيْرٍ وَأَبُو رَزِينٍ فِي قَوْلِهِ: (سَاحِرَانِ) يَعْنُونَ مُوسَى
 وَهَارُونَ^(٢). وَهَذَا قَوْلٌ جَيْدٌ قَوِيٌّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[جَوَابُ الْإِفْتِرَاءِ]

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: ﴿سِحْرَانِ تَظْهَرَا﴾ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي
 طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنُونَ التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ^(٣)؛
 لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿قُلْ فَاتَّوَأَى بِكِتَابِ رَبِّهِ الَّذِي هُوَ أَوْهَى
 مِنْهُمَا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ وَكثيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ بَيْنَ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ، كَمَا
 فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا
 وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿وَهَذَا كِتَابُنَا الَّذِي نُبَارِكُ﴾ وَقَالَ
 فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
 أَحْسَنَ﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ٩٢، ٩٣، ١٥٤]، وَقَالَ: ﴿وَهَذَا
 كِتَابُنَا الَّذِي نُبَارِكُ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
 [الأنعام: ١٥٥] وَقَالَتِ الْجِنُّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ
 بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: هَذَا
 التَّامُّوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى. وَقَدْ عَلِمَ بِالضَّرُورَةِ
 لِذَوِي الْأَلْبَابِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُنَزِّلْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فِيمَا
 أَنْزَلَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَعَدِّدَةِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ أَكْمَلُ وَلَا أَشْمَلُ وَلَا
 أَفْضَحُ وَلَا أَعْظَمُ وَلَا أَشْرَفُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى
 مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرْفِ وَالْعَظَمَةِ:

الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
 وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
 هُدًى وَنُورٌ يَخْتَصِمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آسَلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا

وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا
 عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤] وَالْإِنْجِيلُ إِنَّمَا أَنْزَلَ مُتَمَمًّا
 لِلتَّوْرَةِ، وَمُجَلًّا لِبَعْضِ مَا حَرَّمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلِهَذَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَاتَّوَأَى بِكِتَابِ رَبِّهِ الَّذِي هُوَ أَوْهَى مِنْهُمَا
 أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أَي: فِيمَا تَدَافَعُونَ بِهِ الْحَقَّ
 وَتَعَارِضُونَ بِهِ مِنَ البَاطِلِ.

[ضَلَالٌ مِنَ اتِّبَاعِ هَوَاهُ]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أَي: فَإِنْ لَمْ
 يُجِيبُوكَ عَمَّا قُلْتَ لَهُمْ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا
 يُعْبِرُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَي: بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ
 اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: بِغَيْرِ حُجَّةٍ مَأْخُودَةٍ
 مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ:
 فَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ^(٤). وَقَالَ السُّدِّيُّ: بَيَّنَّا لَهُمُ الْقَوْلَ^(٥).
 وَقَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ تَعَالَى: أَخْبِرُهُمْ كَيْفَ صُنِعَ بِمَنْ مَضَى،
 وَكَيْفَ هُوَ صَانِعٌ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٦) قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ:
 ﴿وَصَّلْنَا لَهُمْ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا^(٧).

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا بَدَأَ
 عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ
 مُسْلِمِينَ﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَعْرَابَهُمْ مَرَاتِبَ بِمَا صَدَقُوا وَيَدْرُءُونَ
 بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
 أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي
 الْجَهْلِيلِينَ﴾

[الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْعُلَمَاءِ الْأُولِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ
 يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
 يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ
 إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ
 لِأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا
 [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً

(١) الطبري: ٥٨٨/١٩ (٢) الطبري: ٥٨٩/١٩ (٣) الطبري:

٥٨٩/١٩ (٤) الطبري: ٥٩٣/١٩ (٥) ابن أبي حاتم: ٩/

٢٩٨٧ (٦) الطبري: ٥٩٣/١٩ (٧) الطبري: ٥٩٤/١٩

الْكَلَامِ الْقَبِيحِ، وَلَا يَصُدُّرُ عَنْهُمْ إِلَّا كَلَامٌ طَيِّبٌ، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنَعِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لَا تُرِيدُ طَرِيقَ الْجَاهِلِينَ وَلَا نُحِبُّهَا.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنَّ نَتِيجَ الْهُدَى مَعَكَ تَنَحَّطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا عَامِنًا يَجِيءُ إِلَيْهِ نَمْرَتْ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

[يَهْدِي اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ! لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: لَيْسَ إِلَيْكَ ذَلِكَ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَهَذِهِ الْآيَةُ أَحْصَتْ مِنْ هَذَا كُلَّهُ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي:

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَايَةَ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ كَانَ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَقُومُ فِي صَفِّهِ، وَيُجِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا طَبِيعِيًّا لَا شَرْعِيًّا، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَحَانَ أَجَلُهُ، دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ وَاللَّدْخُولِ فِي الْإِسْلَامِ. فَسَبَقَ الْقَدْرُ فِيهِ، وَاحْطَفَ مِنْ يَدِهِ، فَاسْتَمَرَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَلِلَّهِ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، وَهُوَ الْمُسَيَّبُ بْنُ حَزْنِ الْمُخَزُومِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُعْبِرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَمَّ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةَ أَحْسَنَ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! أَنْزَعُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزُضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ لَهُ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى كَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ

لِلَّذِينَ آمَنُوا الذَّلِيلَ قَالُوا إِنَّا نَصَدَّقُكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]. قَالَ سَعِيدُ ابْنُ جُبَيْرٍ: نَزَلَتْ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْقِسْيَسِيِّينَ بَعَثَهُمُ النَّجَاشِيُّ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَجَعَلُوا يَبْكُونَ وَأَسْلَمُوا، وَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ الْأُخْرَى^(١): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ يَعْنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ كُنَّا مُسْلِمِينَ، أَي: مُوحِّدِينَ مُخْلِصِينَ لِلَّهِ مُسْتَجِيبِينَ لَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أَي: هَؤُلَاءِ الْمُتَصَفُّونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ ثُمَّ الثَّانِي [يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِإِيمَانِهِمْ بِالرَّسُولِ الْأَوَّلِ ثُمَّ بِالثَّانِي]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أَي: عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ، فَإِنَّ تَجَشُّمَ مِثْلِ هَذَا شَدِيدٌ عَلَى النَّفْسِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِي، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ آدَى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ فَأَدَبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا»^(٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ قَالَ: إِنِّي لَتَحْتَ رَاحِلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَقَالَ قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا، وَقَالَ يَمِينًا قَالَ: «مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَلَهُ أَجْرُهُ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرُهُمْ بِالْمَسْئَةِ السَّيِّئَةِ﴾ أَي: لَا يُقَابِلُونَ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، وَلَكِنْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُعْفُونَ﴾ أَي: وَمِنَ الَّذِي رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْحَلَالِ يُعْفُونَ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ فِي التَّمَقَّاتِ الْوَاجِبَةِ لِأَهْلِيهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ، وَالرِّزَاةِ الْمُثْرُوضَةِ، وَالْمُسْتَحَبَّةِ مِنَ الطَّوْعَاتِ، وَصَدَقَاتِ الثَّمَلِ وَالْقُرْبَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلُواكَ أَلْفُ عَرَضُوا عَنْهُ﴾ أَي: لَا يُخَالِطُونَ أَهْلَهُ وَلَا يُعَاشِرُونَهُمْ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كَرْهًا﴾ [الفرقان: ٨٢] ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنَعِي الْجَاهِلِينَ﴾ أَي: إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمْ سَفِيهًا وَكَلَّمَهُمْ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمُ الْجَوَابُ عَنْهُ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنْ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٩٨٨/٩ (٢) فتح الباري: ٢٢٩/١ (٣) أحمد: ٢٥٩/٥

مَا لَمْ أَنَّهُ عَنكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾
[التوبة: ١١٣] وَأَنْزَلَ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ
أَخْبَتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ
الزُّهْرِيِّ^(٢).

[عَذُرُ أَهْلِ مَكَّةَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ
أَرْضِنَا﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اغْتِنَادِ بَعْضِ الْكُفَّارِ فِي عَدَمِ
اتِّبَاعِ الْهُدَىٰ حَيْثُ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنْ نَجَّيْنَاكَ
مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أَي: نَخْشَىٰ إِنْ اتَّبَعْنَا مَا جِئَ بِهِ
مِنَ الْهُدَىٰ، وَخَالَفْنَا مَنْ حَوَّلَنَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ
الْمُشْرِكِينَ، أَنْ يَفْصِدُونَا بِالْأَدَىٰ وَالْمَحَارِبِ، وَيَنْخَطِفُونَا
أَيْنَمَا كُنَّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ
حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يَعْني: هَذَا الَّذِي اغْتَدَرُوا بِهِ كَذِبٌ وَبَاطِلٌ،
لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُمْ فِي بَلَدٍ أَمِينٍ، وَحَرَّمَ مُعْظَمَ آمِنٍ مُنْذُ
وُضِعَ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْحَرَمُ آمِنًا لَهُمْ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ
وَشِرْكِهِمْ، وَلَا يَكُونُ آمِنًا لَهُمْ وَقَدْ أَسْلَمُوا وَتَابَعُوا الْحَقَّ؟!
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجِيئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أَي: مِنْ
سَائِرِ الثَّمَارِ مِمَّا حَوْلَهُ مِنَ الطَّائِفِ وَغَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ الْمَتَاجِرُ
وَالْأُمَيْعَةُ زَرْقًا مِنْ لُدُنَا﴾ أَي: مِنْ عِنْدِنَا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ وَهَذَا قَالُوا مَا قَالُوا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قُرَيْبٍ بَطَرْتَ مَيْسَتَهَا فَيَاكَ مَسَاكِنُهُمْ
لَمْ تُسْكِنْ مِنْ بَدِيهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَرِثِيُّنَ﴾^(٣) وَمَا كَانَ
رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْتَوُوا عَلَيْهِنَّ
ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا
ظَالِمُونَ﴾^(٤)

[التَّعْرِيزُ بِإِهْلَاكِ الْقُرَىٰ وَأَنَّهَا تُهْلِكُ بَعْدَ إِقَامَةِ

الْحُجَّةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُرَضًا بِأَهْلِ مَكَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِنْ قُرَيْبٍ بَطَرْتَ مَيْسَتَهَا﴾ أَي: طَعَتْ وَأَشْرَتْ
وَكَفَرَتْ نِعْمَةَ اللَّهِ فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ، كَمَا قَالَ
فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً
مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ
﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣]
وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَاكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكِنْ مِنْ بَدِيهِ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ أَي: ذَرَبْتَ دِيَارَهُمْ فَلَا تُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ. وَقَوْلُهُ

الْمُحْضَرِينَ ٣٩٣ سُوْرَةُ الْقَصَصِ
وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَاعِنَدَ
اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَّا حَسَنًا
فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَاءِ الَّذِينَ
كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَلْهُنَا
الَّذِينَ آغْوَيْنَا آغْوَيْنَاهُمْ كَمَا عَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كُنَّا إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿١٩﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لَهُمْ كَأْوَابَهُمْ لَدُونِ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ فَعِمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٢٣﴾ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ
اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ
الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٦﴾

تَعَالَى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَرِثِيُّنَ﴾ أَي: رَجَعْتَ خَرَابًا لَيْسَ
فِيهَا أَحَدٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُهْلِكُ أَحَدًا
ظَالِمًا لَهُ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُ مَنْ أَهْلَكَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ،
وَهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ
وَهِيَ مَكَّةُ رُسُلًا يَلْتَوُوا عَلَيْهِنَّ ءَايَاتِنَا﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ
النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، الْمُبْعُوثُ مِنْ أُمَّ الْقُرَىٰ
رَسُولٌ إِلَىٰ جَمِيعِ الْقُرَىٰ مِنْ عَرَبٍ وَأَعْجَامٍ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾
[الأعراف: ١٥٨] وَقَالَ: ﴿لَا نُؤْتِكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْعَبْ﴾ [الأنعام: ١١٩]
وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾
[هود: ١٧] وَتَمَامُ الدَّلِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ

(١) الطبري: ٥٩٩/١٩ (٢) فتح الباري: ٣٦٥/٨ ومسلم: ٨/١

الدَّرَجَاتِ، وَذَٰكَ فِي الدَّرَكَاتِ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْمُنْتَهَىٰ مِنْهُم لَمَحَضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١٧) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَآئِكُمْ فَعَذَّبْنَاهُمْ لِمَا كَانُوا يَسْتَجِيرُونَ ﴿١٩﴾ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَعَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٢٣﴾

[تَبَرُّوُ الْمُشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهِمْ كُلَّ عَنِ الْآخِرِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُؤْتِيهِ بِهِ الْكُفَّارَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني أَيْنَ الْأِلَهَةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، هَلْ بَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟ وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُنْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآؤُا لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني: الشَّيَاطِينَ وَالْمَرَدَّةَ وَالدَّعَاةَ إِلَى الْكُفْرِ ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَشْكُرُونَ﴾ فَشَهِدُوا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَغْوَوْهُمْ فَاتَّبَعُوهُمْ، ثُمَّ تَبَرَّأُوا مِنْ عِبَادَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٢٤) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: ٨١، ٨٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٢٥) وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحزاب: ٦٥] وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَلَّغْتُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ ... الْآيَةُ [العنكبوت: ٢٥]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا

مُهْلِكُومًا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُومًا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الْآيَةُ [الإسراء: ٥٨]، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَهِّلَكَ كُلَّ قَرِيَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فَجَعَلَ تَعَالَى بَعَثَةَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْقُرَى؛ لِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى أُمَّهَا وَأَصْلِهَا الَّتِي تَرْجِعُ إِلَيْهَا. وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»^(١). وَلِهَذَا حُتِمَ بِهِ النُّبُوَّةُ وَالرَّسَالَةُ، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ، بَلْ شَرَعُهُ بَاقٍ بَقَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢٦) أَفَمَنْ وَعَدْتُهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَفِيهِ كَمَنْ مَتَّعْتَهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٢٧﴾

[الدُّنْيَا فَانِيَةٌ لَا يَسْتَوِي صَاحِبُهَا وَصَاحِبُ الْآخِرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ حَقَارَةِ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الزِينَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَالزُّهْرَةِ الْفَانِيَّةِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَبْذُرُهُمَا وَعِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٩٦] وَقَالَ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وَقَالَ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾ [الرعد: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿[الأعلى: ١٦، ١٧] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا أَحْيَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي اليمِّ، فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: أَفَلَا يَعْقِلُ مَنْ يَتَدَبَّرُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْتُهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَفِيهِ كَمَنْ مَتَّعْتَهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ يَقُولُ: أَفَمَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَا مَحَالَةَ، كَمَنْ هُوَ كَافِرٌ مُكَذِّبٌ بِلِقَاءِ اللَّهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَهُوَ مُتَّعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيَّامًا قَلِيلًا ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: مِنَ الْمُعَذِّبِينَ.

ثُمَّ قَدْ قِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي أَبِي جَهْلٍ. وَقِيلَ: فِي حَمْرَةَ وَعَلِيٍّ وَأَبِي جَهْلٍ^(٣). وَكِلَاهُمَا عَنْ مُجَاهِدٍ^(٤). وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا عَامَّةٌ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِ حِينَ أَشْرَفَ عَلَى صَاحِبِهِ وَهُوَ فِي

(١) مسلم: ٣٧٠/١ (٢) أحمد: ٢٣٠/٤ (٣) الطبري: ١٩/

٦٥٥، ٦٥٤ (٤) الطبري: ١٩/٦٥٥، ٦٥٤

الْبُرْجَانِ

٣٩٤

سُورَةُ الْقَصَصِ

تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْكَذَابَ وَتَفَلَّتْ بِهِمُ الْأَنْسَابُ ﴿١٦٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَا هُمْ بِخَوَّجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ أَيُّ: لِيُخْضِبُوكُمْ وَمِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، كَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أَيُّ: وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى النَّارِ لَا مَحَالَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أَيُّ: فَوَدُّوا حِينَ عَايَنُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٦﴾ وَرَوَّاءَ الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

[مَوْفِقُهُمْ عَنِ الرَّسُولِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ النَّدَاءُ الْأَوَّلُ عَنِ سُؤَالِ التَّوَجِيدِ، وَهَذَا فِيهِ إِبْتِثَاتُ النَّبَاتِ، مَاذَا كَانَ جَوَابُكُمْ لِلْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ، وَكَيْفَ كَانَ حَالُكُمْ مَعَهُمْ؟ وَهَذَا كَمَا يُسْأَلُ الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، وَلِهَذَا لَا جَوَابَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَ السُّكُوتِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلَّ سَبِيلًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ (١). فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ بِالْأَنْسَابِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ نَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَعَسَىٰ مِنْ اللَّهِ مُوجِبَةٌ، فَإِنَّ هَذَا وَاقَعَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَمِثْنِهِ لَا مَحَالَةَ.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي رُحِمُونَ ﴿٢٠﴾

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنْ قَدَرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُوسَىٰ فَعَنَى عَلَيْهِمْ وَعَآئِنُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِن مَفَاتِحَهُ، لِنَسْأَلُ بِالْعَصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ، لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبِعْ فِيمَا أَنْتَ لِكُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٧﴾

إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾ نَفْيٌ عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَيُّ: يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ الصُّمَائِرُ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ، كَمَا يَعْلَمُ مَا تُبْدِيهِ الظُّوَاهِرُ مِنْ سَائِرِ الْخَلَائِقِ ﴿سَوَاءٌ مِمَّا مَنَّا مِنَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ: هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْإِلَهِيَّةِ، فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، كَمَا لَا رَبَّ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ سِوَاهُ ﴿لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ: فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أَيُّ: الَّذِي لَا مَعْقَبَ لَهُ لِقَهْرِهِ وَعَظَمِيَّتِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿وَلِلَّهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ:

[اللَّهُ مُتَفَرِّدٌ بِالْخَلْقِ وَالْعِلْمِ بِالضَّمَائِرِ وَالْإِخْتِيَارِ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالْإِخْتِيَارِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ مُتَانِعٌ وَلَا مَعْقَبٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أَيُّ: مَا يَشَاءُ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ، وَمَرَجَعُهَا

لِلَّهِ مُتَفَرِّدٌ بِالْخَلْقِ وَالْعِلْمِ بِالضَّمَائِرِ وَالْإِخْتِيَارِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ مُتَانِعٌ وَلَا مَعْقَبٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أَيُّ: مَا يَشَاءُ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ، وَمَرَجَعُهَا

لِلَّهِ مُتَفَرِّدٌ بِالْخَلْقِ وَالْعِلْمِ بِالضَّمَائِرِ وَالْإِخْتِيَارِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ مُتَانِعٌ وَلَا مَعْقَبٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أَيُّ: مَا يَشَاءُ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ، وَمَرَجَعُهَا

لِلَّهِ مُتَفَرِّدٌ بِالْخَلْقِ وَالْعِلْمِ بِالضَّمَائِرِ وَالْإِخْتِيَارِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ مُتَانِعٌ وَلَا مَعْقَبٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أَيُّ: مَا يَشَاءُ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ، وَمَرَجَعُهَا

جَمِيعِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣)

[الَلَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُثَمَّنًا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذَيْنِ لَا قِيَامَ لَهُمَا بَدُونَهُمَا وَيَبِينُ أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ اللَّيْلُ دَائِمًا عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَأَضْرَّ ذَلِكَ بِهِمْ، وَلَسَيَّمَتُهُ النَّفْسُ وَانْحَصَرَتْ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أَي: تُبْصِرُونَ بِهِ وَتَسْتَأْنِسُونَ بِسَبَبِهِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ؟﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ النَّهَارَ سَرْمَدًا، أَي: دَائِمًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَأَضْرَّ ذَلِكَ بِهِمْ، وَتَلَعَبَتِ الْأَبْدَانُ، وَكَلَّتْ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُ فِيهِ﴾ أَي: تَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِكُمْ وَأَشْغَالِكُمْ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﴿أَي: بِكُمْ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَي: خَلَقَ هَذَا وَهَذَا لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴿أَي: فِي اللَّيْلِ وَتَلْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: فِي النَّهَارِ بِالْأَشْفَارِ وَالتَّرْحَالِ، وَالْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالتَّنْسِيرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَي: تَشْكُرُونَ اللَّهَ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ بِاللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ بِالنَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ سُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤) وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقَلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥)

[التَّوْبِيخِ وَالرَّجْرُ لِلْمُشْرِكِينَ]

وَهَذَا أَيْضًا نِدَاءٌ ثَانٍ عَلَى سَبِيلِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ لِمَنْ عَبَدَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، يُنَادِيهِمُ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فَيَقُولُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أَي:

سُورَةُ الْقَصَصِ

٣٩٥

سُورَةُ الْقَصَصِ

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ، عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِيَلْتَنَالُنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُورَيْشٌ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُقْلِقُهَا إِلَّا الَّذِينَ أَصَابَتْهُمُ فَحَسْفَانَا بِهِمْ وَيَدْرِهَ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَبْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يَفِيحُ الْكُفْرُونَ﴾ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَتُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤)

فِي دَارِ الدُّنْيَا ﴿وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي رَسُولًا^(١) ﴿فَقَلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أَي: عَلَى صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتُمُوهُ مِنْ أَنَّ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أَي: لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَلَمْ يَنْطَفِقُوا [وَلَا] يُجِيرُوا جَوَابًا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أَي: ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ.

﴿إِنَّ قُورَيْشًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَيَّنَّا عَلَيْهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاحَهُ لَسَوْأٌ بِالْعَصَّةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْحُشْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧)

[ذِكْرُ قَارُونَ وَوَعظُ قَوْمِهِ لَهُ]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿إِنَّ قُورَيْشًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ قَالَ: كَانَ ابْنُ عَمِّهِ^(٢). وَهَكَذَا قَالَ إِبرَاهِيمُ السَّخَعِيُّ

(١) الطبري: ١٩/٦١٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٩/٣٠٠٥

أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ لِعَلِمِهِ بِأَنِّي أَسْتَحِقُّهُ وَلِمَحَبَّتِهِ لِي، فَتَقْدِيرُهُ: إِنَّمَا أُعْطِيْتُهُ لِعَلِمِ اللَّهِ فِيَّ أَنِّي أَهْلٌ لَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ ضُرًّا دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] أي: على علم من الله بي، وكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنِ أَذْقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠] أي: هذا أَسْتَحِقُّهُ.

وَقَدْ أَجَادَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِمَامَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قَالَ: لَوْلَا رِضَا اللَّهِ عَنِّي وَمَعْرِفَتُهُ بِفَضْلِي مَا أُعْطَانِي هَذَا الْمَالَ، وَقَرَأَ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾... الْآيَةَ^(٦). وَهَكَذَا يَقُولُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ إِذَا رَأَى مِنْ وَسَّعِ اللَّهُ عَلَيْهِ: لَوْلَا أَنْ يَسْتَحِقَّ ذَلِكَ لِمَا أُعْطِيَ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتْرُونَ إِنَّمَا لَدُو حَظٌّ عَظِيمٌ﴾^(٧)
 وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ﴾^(٨)

[خُرُوجُ قَارُونَ فِي الزَّيْنَةِ وَتَغْلِيْقُ الْقَوْمِ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَةٍ عَظِيمَةٍ، وَتَجَمَّلَ بَاهِرًا، مِنْ مَرَائِبَ وَمَلَابِسَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ خَدْمِهِ وَحَشَمِهِ، فَلَمَّا رَأَهُ مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَبْغِي إِلَى زَخَارِفِهَا وَزِينَتِهَا، تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ كَانَ لَهُمْ مِثْلُ الَّذِي أُعْطِيَ قَالُوا: ﴿بَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتْرُونَ إِنَّمَا لَدُو حَظٌّ عَظِيمٌ﴾ أي: ذُو حَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ النَّافِعِ قَالُوا لَهُمْ: ﴿وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: جَزَاءُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَوْنَ. كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَاقْرُؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾» [السجدة: ١٧]^(٧). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: وَلَا يُفْلِحُ

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ وَسَمَّاكَ بْنُ حَرْبٍ وَفَتَادَةَ وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ: أَنَّهُ كَانَ ابْنُ عَمِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١). قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هُوَ قَارُونُ بْنُ يَظْهَرَ بْنِ قَاهَتْ، وَمُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ قَاهَتْ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَاللَّيْنَةَ مِنَ الْكُؤُوبِ﴾ أَي: الْأَمْوَالِ ﴿مَا إِنْ مَفَاحَهُ لَنُنَوِّا بِالْمَصْبَكَةِ أُولَى الْقُؤُوبِ﴾ أَي: لَيَنْقَلِبُ جَمْلُهَا الْفِتَامَ مِنَ النَّاسِ؛ لِكَثْرَتِهَا. قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ حَيْثَمَةَ: كَانَتْ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ قَارُونَ مِنْ جُلُودٍ، كُلُّ مِفْتَاحٍ مِثْلُ الْإِصْبَعِ، كُلُّ مِفْتَاحٍ عَلَى خِزَانَةٍ عَلَى حِدَّتِهِ، فَإِذَا رَكِبَ حُمَلَتْ عَلَى سِتِّينَ بَغْلًا أَعْرَ مَحْجَلًا^(٣). وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أَي: وَعَظَّمُ فِيمَا هُوَ فِيهِ صَالِحُو قَوْمِهِ، فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ النَّصِيحِ وَالْإِزْشَادِ: لَا تَفْرَحْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ، يَعْشُونَ: لَا تَبْطُرْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْمَالِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: الْمَرْحِجِينَ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: الْأَشْرِينَ الْبَطْرِينَ الَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أُعْطَاهُمْ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أَي: اسْتَعْمِلْ مَا وَهَبَكَ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ الْجَزِيلِ، وَالنِّعْمَةَ الطَّائِلَةَ فِي طَاعَةِ رَبِّكَ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ، الَّتِي يَحْضُلُ لَكَ بِهَا الثَّوَابُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أَي: مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَتَاكِحِ، فَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلَا أَهْلَكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزُورِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَاتِّ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَي: أَحْسِنْ إِلَى خَلْقِهِ، كَمَا أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْكَ ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: لَا تَكُنْ هِمَّتَكَ بِمَا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تُفْسِدَ بِهِ فِي الْأَرْضِ، وَنُيْسِيءَ إِلَى خَلْقِ اللَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ

عَنْ دُونِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٨)

(١) الطبري: ٦١٦/١٩ (٢) الطبري: ٦١٥/١٩ (٣) الطبري:

٦١٧/١٩ (٤) الطبري: ٦٢٢/١٩ (٥) الطبري: ٦٢٣/١٩

(٦) الطبري: ٦٢٦/١٩ (٧) فتح الباري: ٣٧٥/٨

يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ»^(٥). ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا أَيُّ: لَوْلَا لَطَفَ اللَّهُ بِنَا وَإِحْسَانُهُ إِلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا كَمَا خَسَفَ بِهِ، لِأَنَّا وَدَدْنَا أَنْ نَكُونَ مِثْلَهُ ﴿وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ يَعْنُونَ أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا، وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ عِنْدَ اللَّهِ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وَقَدْ اِخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ هَهُنَا: «وَيَكَاذِبُ» فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ «وَيْتَلُكْ اَعْلَمُ أَنْ» وَلَكِنْ حُفِّفَ، فَقِيلَ: «وَيْتَلُكْ» وَدَلَّ فَتَحَ «أَنَّ» عَلَى حَذْفِ «اعْلَمُ». وَقِيلَ: مَعْنَاهَا «وَيَكَاذِبُ»، أَيُّ: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ»، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهَا «وَيِي كَانُ» فَفَصَّلَهَا وَجَعَلَ حَرْفَ وَيِي لِلتَّعْجُبِ أَوْ لِلتَّنْبِيهِ، وَكَأَنَّ بِمَعْنَى «أَظُنُّ وَأَحْسِبُ».

﴿بَلَاكُ الدَّارِ الْآخِرَةِ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٨٢) مِنْ جَاءَ بِالْمُسْتَعْتَبِ فَلَهُ حَبْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِي الذَّرِيَّةَ عَمَلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾

[نِعْمَ الْآخِرَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَنِعْمَتَهَا الْمُقِيمَةَ الَّتِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، جَعَلَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ أَيُّ: تَرَفُّعًا عَلَى خَلْقِ اللَّهِ وَتَعَاظُمًا عَلَيْهِمْ وَتَجَبُّرًا بِهِمْ وَلَا فَسَادًا فِيهِمْ، كَمَا قَالَ عِكْرَمَةُ: الْعُلُوُّ: التَّجَبُّرُ^(١). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ تَعَاظُمًا وَتَجَبُّرًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عَمَلًا بِالْمَعَاصِي^(٧). وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ مِنْ شِرَاكٍ نَعْلُهُ أَنْ يَكُونَ أَحْوَدَ مِنْ شِرَاكٍ نَعْلٍ صَاحِبِهِ، فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَاكُ الدَّارِ الْآخِرَةِ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٨) وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا أَرَادَ بِذَلِكَ الْفَخْرَ وَالتَّطَاوُلَ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَذْمُومٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٠١٦/٩ (٢) الطبري: ٦٢٩/١٩ (٣) فتح الباري: ٢٦٩/١٠ (٤) أحمد: ٤٠/٣ (٥) أحمد: ٣٨٧/١ إسناده ضعيف لضعف الصباح بن محمد البجلي قال الحافظ بن حجر: ضعيف (تقريب) (٦) الطبري: ٦٣٧/١٩ (٧) الطبري: ٦٣٧/١٩ إسناده ضعيف الحسين بن داود المصيصي ضعيف تقدم (٨) الطبري: ٦٣٨/١٩ إسناده ضعيف فيه أشعث بن سعيد البصري أبو الربيع السمان ضعيف وأبو سلمان الأعرج عن علي رضي الله عنه مرسل.

الْجَنَّةَ إِلَّا الصَّابِرُونَ»^(١). كَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَلَا يُلْقَى هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا الصَّابِرُونَ عَنِ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، الرَّاعِمُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَكَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مَقْطُوعًا مِنْ كَلَامِ أَوْلِيكَ، وَجَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِخْبَارِهِ بِذَلِكَ^(٢).

﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ﴾^(٨٤) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُكُ اللَّهُ بِسَطِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

[خَسَفَ قَارُونَ فِي الْأَرْضِ مَعَ دَارِهِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اخْتِيَالَ قَارُونَ فِي زِينَتِهِ وَفَخْرَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَبَغْيِهِ عَلَيْهِمْ عَقَّبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَسَفَ بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَالِمٍ: أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجْرُ إِزَارَهُ إِذْ خَسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَهُ^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ فِي مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ أَحْضَرَيْنِ يَخْتَالُ فِيهِمَا، أَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ، فَإِنَّهُ لَيَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ﴾ أَيُّ: مَا أَعْنَى عَنْهُ مَالُهُ، وَلَا جَعْمُهُ، وَلَا خِدْمَتُهُ وَحَسْمُهُ، وَلَا دَفْعُوا عَنْهُ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ وَنَكَالَهُ، وَلَا كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَّصِرًا لِنَفْسِهِ، فَلَا نَاصِرَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ.

[إِتْعَاظُ الْقَوْمِ بِخَسْفِهِ]

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ لَمَّا رَأَوْهُ فِي زِينَتِهِ قَالُوا: «بَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أَوْفَكَ قَدَرُونَ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظٌّ عَظِيمٌ﴾ فَلَمَّا خَسِفَ بِهِ أَصْبَحُوا يَقُولُونَ: ﴿وَيَكَافُكُ اللَّهُ بِسَطِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أَيُّ: لَيْسَ الْمَالُ بِدَالٍ عَلَى رِضَا اللَّهِ عَنْ صَاحِبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُضَيِّقُ وَيُوسِّعُ، وَيُخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ النَّامَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَهَذَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي
أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتُ
تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي رَبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ
اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَنْدِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتَذَكَّرُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا
يَفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ أَنْ نَسْبِقُونَهُمْ أَمْ حَسِبُوا أَنَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾
لَفَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ
جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ
عَلَىٰ أَحَدٍ^(١). وَأَمَّا إِذَا أَحَبَّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ التَّجَمُّلِ، فَهَذَا
لَا بَأْسَ بِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي
أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ رِدَائِي حَسَنًا وَتَعْلِي حَسَنَةً، أَفَمِنَ الْكَبِيرِ
ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «لَا، إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٢). وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾
أَي: ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةِ الْعَبْدِ، فَكَيْفَ وَاللَّهُ يُضَاعِفُهُ
أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْرَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُنْتِ
وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجِزُّوكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
[النمل: ٩٠]. وَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ
مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَنْ
يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ
وَأَنْدِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

[الأمْرُ بِالْبَلَاغِ وَالتَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا رَسُولُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِبَلَاغِ
الرِّسَالَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ، وَمُخْبِرًا لَهُ بِأَنَّهُ سَيُرَدُّهُ
إِلَىٰ مَعَادٍ، وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَسْأَلُهُ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ مِنْ أَعْبَاءِ
النَّبُوَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أَي: افْتَرَضَ عَلَيْكَ آدَاءَهُ إِلَى النَّاسِ
﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أَي: إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَسْأَلُكَ عَنْ ذَلِكَ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ
الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ
الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِّبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] وَقَالَ: ﴿وَوَاقِعٌ
بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ: إِلَى مَكَّةَ^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ
فِي تَفْسِيرِ سَنِينِهِ^(٤)، وَابْنُ جَرِيرٍ^(٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أَي: لَرَادُّكَ إِلَى مَكَّةَ
كَمَا أُخْرِجَكَ مِنْهَا^(٦). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُجَاهِدٍ
فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إِلَىٰ مَوْلِدِكَ بِمَكَّةَ^(٧). وَفَسَّرَ

(١) مسلم: ٤/٢١٩٩ (٢) مسلم: ١/٩٣ (٣) فتح الباري: ٨/٣٩٦
(٤) السنائي في الكبرى: ٦/٤٢٥ (٥) الطبري: ١٩/٦٤١
(٦) الطبري: ١٩/٦٤١ (٧) الطبري: ١٩/٦٤١

سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] اسْتَفْهَامُ انْكَارٍ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلِأَمْثَلِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ لَهُ فِي الْبَلَاءِ»^(٢). وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وَمِثْلَهَا فِي «سُورَةِ بَرَاءَةِ» [الآية: ١٦٦]. وَقَالَ فِي «الْبَقَرَةِ»: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الآية: ٢١٤] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ أَي: الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ مِمَّنْ هُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ وَدَعْوَاهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ. وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَيْمَةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَبِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لَيَعْلَمَنَّ﴾ إِلَّا لَيَرَى، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّؤْيِيَّةَ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْجُودِ، وَالْعِلْمُ أَعْمٌ مِنَ الرُّؤْيِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْدُومِ وَالْمَوْجُودِ.

[الْمُؤْمِنُونَ لَا يَقُوتُونَ اللَّهَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَي: لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِيمَانِ أَنَّهُمْ يَتَخَلَّصُونَ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَالْإِمْتِحَانِ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْ هَذَا وَأَطْمَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا؟ أَي: يَقُوتُوا؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَي: بِشَسِّ مَا يَظُنُّونَ. ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ^(٤) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٥)

إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أَي: مَا كُنْتُ تَطُنُّ قَبْلَ أَنْزَالِ الْوَحْيِ إِلَيْكَ أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَيْكَ، وَلَكِنْ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَي: إِنَّمَا أَنْزَلَ الْوَحْيَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ رَحْمَتِهِ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِسَبِّكَ، فَإِذَا مَنَحَكَ بِهَذِهِ النُّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهْرًا﴾ أَي: مُعِينًا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، وَلَكِنْ فَارْقُهُمْ وَتَابِدُهُمْ وَخَالَفَهُمْ ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ﴾ أَي: لَا تَتَأَثَّرْ لِمُخَالَفَتِهِمْ لَكَ وَصَدَّهُمُ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِكَ، لَا تَلُوبِي عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُبَالِهِي، فَإِنَّ اللَّهَ مُعَلِّمُتَاكَ، وَمُؤَيِّدُ دِينِكَ، وَمُظَهِّرُ مَا أُرْسَلْتَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أَي: إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ، وَحَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: لَا تَلْبِقُ الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ، وَلَا تَتَّبِعِي الْإِلَهِيَّةَ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إِجْبَارٌ بِأَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي، الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الَّذِي تَمُوتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٦) وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] فَعَبَّرَ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ هَهُنَا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أَي: إِلَّا إِيَّاهُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ لَيْبِدُ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهُ بَاطِلٌ»^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أَي: الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ، وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴿وَأَيُّهُ رُجْعُونَ﴾ أَي: يَوْمَ مَعَادِكُمْ، فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْقُصَصِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة العنكبوت وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿المر﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

[اِخْتِيَارُ النَّاسِ حَتَّى يُعْرَفَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ] أَمَا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، فَقَدْ تَدَدَّ فِي أَوَّلِ

(١) فتح الباري: ١٨٣/٧ (٢) الترمذي: ٣٢٩٨ وأحمد: ١/

[يُحَقِّقُ اللَّهُ رَجَاءَ الصَّالِحِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: في الدارِ الآخِرَةِ، وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ وَرَجَا مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُحَقِّقُ لَهُ رَجَاءَهُ، وَيُوفِّيهِ عَمَلَهُ كَامِلًا مُؤَفَّرًا، فَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهُ سَمِعَ الدُّعَاءَ بِصَبْرٍ بِكُلِّ الْكَائِنَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ لِاتِّ وَهُوَ السَّكِيمُ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦] أي: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ عَمَلِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ عَلَى أُنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مَعَ غِنَاةٍ عَنِ الْخَلَائِقِ جَمِيعِهِمْ، وَمَعَ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ بِهِمْ، يُجَازِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ، وَهُوَ أَنْ يَكْفِرَ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَيَقْبَلُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَيُثِيبُ عَلَيْهَا الْوَاحِدَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَعِمَاتِهِ ضِعْفٍ، وَيَجْزِي عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعُفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَى مَرَجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدِينَ بَعْدَ الْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِتَوْجِيدِهِ، فَإِنَّ الْوَالِدَيْنِ هُمَا سَبَبُ وُجُودِ الْإِنْسَانِ، وَلَهُمَا عَلَيْهِ غَايَةُ الْإِحْسَانِ، فَالْوَالِدُ بِالْإِنْفَاقِ، وَالْوَالِدَةُ بِالْإِشْفَاقِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّى رَبُّكَ الْأَبْعَادُ إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَلْفَعْنَ عُنُقَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا آفَى وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] وَمَعَ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَى مَرَجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

هَذِهِ الْوَصِيَّةُ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا فِي مُقَابَلَةِ إِحْسَانِهِمَا الْمُتَقَدِّمِ، قَالَ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: وَإِنْ حَرَصَا عَلَيْكَ أَنْ تُتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا إِذَا كَانَا مُشْرِكَيْنِ، فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُمَا، فَلَا تُطِعْهُمَا فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ مَرَجِعَكُمْ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاجْزِيكَ بِإِحْسَانِكَ إِلَيْهِمَا وَصَبْرِكَ عَلَى دِينِكَ، وَأَحْشُرْكَ مَعَ الصَّالِحِينَ لَا فِي زُمْرَةِ الْوَالِدَيْنِ - وَإِنْ كُنْتَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا - فَإِنَّ الْمَرْءَ إِنَّمَا يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ أَيُّ: حُبًّا دِينِيًّا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ سَعْدِ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ، فَذَكَرَ وَصَّتَهُ وَقَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَعْدِ: أَلَيْسَ اللَّهُ قَدْ أَمَرَكَ بِالرَّبِّ؟ وَاللَّهُ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا، وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تُخْفَرَ. قَالَ: فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعَمُوا شَجَرُوا فَاهَا، فَنَزَلَتْ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ...

الآية^(١). وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ أَيْضًا^(٢). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾

[عَادَاتُ الْمُنَافِقِينَ وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي الْإِخْتِيَارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ صِفَاتِ قَوْمٍ مِّنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِالْإِسْتِثْمِ، وَلَمْ يَثْبُتِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ مَخْتَهُ وَفْتَنَةٌ فِي الدُّنْيَا اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: فِتْنَتُهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنِ دِينِهِ، إِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ^(٣). وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١١، ١٢] ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أَي: وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ قَرِيبٌ مِّن رَّبِّكَ يَا مُحَمَّدٌ، وَفُتِحَ وَمَعَانِيهِ، لَيَقُولُنَّ هُوَ لِأَنَّ لَكُمْ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَي: إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَدَّبَّرُوا بِكُمُ فَلِئِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَتَمَنَعْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْحِحُوا عَلَى مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ هَهُنَا: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَمَا نَجَّيْتُهُ صَمَايِرُهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لَكُمْ الْمُوَافَقَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أَي: وَلَيُخْتَبِرَنَّ اللَّهُ النَّاسَ بِالضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ، لِيَتَمَيَّزَ هُوَ لَاءِ مِنْ هُوَ لَاءِ: مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ فِي الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ، [وَأ] مَنْ إِنَّمَا يُطِيعُهُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَجْرًا﴾ [محمد: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَتَعَةِ أُحُدِ الَّتِي كَانَ

فِيهَا مَا كَانَ مِنَ الْإِخْتِيَارِ وَالْإِمْتِحَانِ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾... الْآيَةُ [آل عمران: ١٧٩].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْتَنَّ يَوْمَ أَلْفَيْكُمْ أَلْفَيْكُمْ عَمَّا كَانُوا يَقْتُلُونَ ﴿١٨﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الْهُدَى: ازْجِعُوا عَنْ دِينِكُمْ إِلَى دِينِنَا، وَاتَّبِعُوا سَبِيلَنَا: ﴿وَلنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ أَي: أَنَا مَعَكُمْ، إِنْ كَانَتْ لَكُمْ آثَامٌ فِي ذَلِكَ: عَلَيْنَا وَفِي رِقَابِنَا. كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: أَفْعَلْ هَذَا وَخَطِيئَتُكَ فِي رِقَبَتِي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَي: فِيمَا قَالُوهُ إِنَّهُمْ يَحْتَمِلُونَ عَنْ أَوْلِيكَ خَطَايَاهُمْ، فَإِنَّهُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وَزَرَ أَحَدٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِهْلِهَا لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ [يس: ١٠] يُصْرَوْنَهُمْ. [المعارج: ١٠، ١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الدَّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ: أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْزَارَ أَنْفُسِهِمْ وَأَوْزَارًا أُخْرَى سَبَبٌ مَا أَضَلُّوا مِنْ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِ أَوْلِيكَ شَيْئًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَحْمِلُنَّ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِمَّنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾... الْآيَةُ [النمل: ٢٥]، وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا». وَفِي الصَّحِيحِ: «مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَسْتَلْتَنَّ يَوْمَ أَلْفَيْكُمْ يَوْمَ أَلْفَيْكُمْ عَمَّا كَانُوا

(١) تحفة الأحوذى: ٤٨/٩ (٢) أحمد: ١٨١/١ ومسلم: ٤/

١٨٧٧ وأبو داود: ١٧٧/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦

(٣) الطبري: ١٣/٢٠ (٤) مسلم: ٢٠٦/٤

سورة العنكبوت

٣٩٨

سورة العنكبوت

فَأَجْنَحْنُهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذْ هَمَزَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتَوُوهُ ذَلِكَ كُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَعَدَّ كَذِبَ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ وَمَا كَفَرُوا إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْرُقُونَ ﴿٢٣﴾

يَفْرُقُونَ ﴿٢٣﴾ أَي: يَكْذِبُونَ وَيَخْتَلِفُونَ مِنَ الْهُتَانِ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَهُنَا حَدِيثًا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْزِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: وَعِزِّي وَجَلَالِي لَا يَجُوزُنِي الْيَوْمَ ظُلْمٌ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فَيَقُولُ: أَيْنَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ؟ فَيَأْتِي بِنَبْعِهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيُشَخَّصُ النَّاسُ إِلَيْهَا أَبْصَارَهُمْ، حَتَّى يَقُومَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ عِزٌّ وَجَلٌّ، ثُمَّ يَأْمُرُ الْمُنَادِي فَيُنَادِي: مَنْ كَانَتْ لَهُ بِيَاعَةٌ أَوْ ظَلَامَةٌ عِنْدَ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ فَهَلُمَّ، فَيَقْبُلُونَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا فَيَأْتِي بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ، فَيَقُولُ الرَّحْمَنُ: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: كَيْفَ نَقْضِي عَنْهُ؟ فَيَقُولُ: خُذُوا لَهُمْ مِنْ حَسَنَاتِي. فَلَا يَزَالُونَ يَأْخُذُونَ مِنْهَا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهَا حَسَنَةٌ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ الظَّلَامَاتِ، فَيَقُولُ: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: لَمْ يَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ، فَيَقُولُ: خُذُوا مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَاحْمِلُوهَا عَلَيْهِ» ثُمَّ نَزَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَلِيَحْلِكْ أَفْئَلَهُمْ وَأَفْئَالَ مَعَ أَفْئَالِهِمْ وَلِيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْرُقُونَ﴾ (١). وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، وَأَخَذَ مِنْ عِرْضِ هَذَا، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا لَمْ تَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ» (٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فَأَجْنَحْنُهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

[ذَكَرَ نُوحٌ وَقَوْمَهُ]

هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، يُخْبِرُهُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجَهَارًا، وَمَعَ هَذَا مَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضًا عَنْهُ وَتَكْذِيبًا لَهُ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أَي: بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَا نَجَعَ فِيهِمُ الْبَلَاغُ وَالْإِنذَارُ، فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ! لَا تَأْسَفْ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَبْدُو الْأَمْرَ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ... الآية [يونس: ٩٦، ٩٧]، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سَيُظْهِرُكَ وَيَنْصُرُكَ وَوَيُؤَيِّدُكَ، وَيَذِلُّ عَدُوَّكَ وَيَكْتُمُهُمْ، وَيَجْعَلُهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بُعِثَ نُوحٌ وَهُوَ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِّينَ عَامًا حَتَّى كَثُرَ النَّاسُ وَفَشُوا (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَجْنَحْنُهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ﴾ أَي: الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ مُفْصَلًا فِي سُورَةِ هُودٍ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أَي: وَجَعَلْنَا تِلْكَ السَّفِينَةَ بَاقِيَةً: إِمَّا عَيْنَهَا، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّهَا بَقِيَتْ إِلَى أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ، أَوْ نَوْعَهَا جَعَلَهُ

(١) فتح الباري: ٤١٩/٦ (٢) الدرر المشور: ٢٧٢/٥ (٣) مسلم: ١٩٩٧/٤

لِلنَّاسِ تَذِكْرَةً لِيَعْمَرَ عَلَى الْخَلْقِ كَيْفَ أَنْجَاهُمْ مِنْ الطُّوفَانِ^(١). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَالِكِ الْمَسْحُورِ^(٢)﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَتَعْنَا إِلَى حِينٍ﴾ [يس: ٤١-٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ^(٣)﴾ لِيَجْعَلَ لِكُلِّ نَذْرَةٍ نَسِيحًا أَذُنٌ وَصِيَّةٌ

[الحاقة: ١١، ١٢] وَقَالَ هَهُنَا: فَأَجْبَنَتْهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفَةَ

وَجَعَلْنَهَا عَاسِيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥] وَهَذَا مِنْ بَابِ

التَّدرِجِ مِنَ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ الذَّنْبَانَ بِمَنْسُوحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥]

أَيُّ: وَجَعَلْنَا نَوْعَهَا رُجُومًا فَإِنَّ الَّتِي يُرْمَى بِهَا لَيْسَتْ هِيَ

زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ^(٤)﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ

[المؤمنون: ١٢، ١٣] وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ.

﴿وإِذْ يَهَيِّئُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُضُوا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٥)﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا

وَتَخْلُقُونَ أَفْكَارًا لِتُرْسِلُوا بِهَا الرُّسُلَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاشْكُرُوا لَّهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٦)﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى

الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ^(٧)﴾

الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ^(٨)﴾

وَعَظُّ إِبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ [

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبرَاهِيمَ إِمَامَ

الْحَقَّاءِ، أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

وَالْإِخْلَاصَ لَهُ فِي التَّقْوَى، وَطَلَبَ الرِّزْقَ مِنْهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَوَجَّهَ فِي الشُّكْرِ، فَإِنَّهُ الْمَشْكُورُ عَلَى النِّعَمِ

لَا مُسَدِّي لَهَا غَيْرُهُ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُضُوا

أَيُّ: أَخْلَصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ وَالْخَوْفَ﴾ [ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ] إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ حَصَلَ لَكُمْ الْخَيْرُ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَانْدَفَعَ عَنْكُمْ الشَّرَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا لَا تَنْصُرُ وَلَا تَنْفَعُ،

وَإِنَّمَا اخْتَلَقْتُمْ أَنْتُمْ لَهَا أَسْمَاءَ فَسَيَّبْتُمُوهَا إِلَيْهَا، وَإِنَّمَا هِيَ

مَخْلُوقَةٌ مِثْلَكُمْ، هَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٩). وَبِهِ

قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ. وَرَوَى الْوَالِيبِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:

﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَارًا﴾ أَيُّ: تَنْحَتُونَهَا أَصْنَامًا^(١٠). وَهِيَ لَا

تَمْلِكُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [فَاتَّبِعُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ] وَهَذَا أُلْبَغُ فِي

الْحَضَرِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

[الفاتحة: ٥] رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

التَّحْرِيمِ: [١١] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ أَيُّ: فَاطَّبِعُوا﴾ عِنْدَ

اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أَيُّ: لَا عِزَّةَ غَيْرِهِ، فَإِنَّ عِزَّتَهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاشْكُرُوا لَّهُ﴾ أَيُّ: كُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ وَاعْبُدُوا

وَحَدَهُ، وَاشْكُرُوا لَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ﴾ [إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾

أَيُّ: قَبْلَكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكْذَابِ فِي مُخَالَفَةِ

الرُّسُلِ﴾ وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ يَعْنِي إِنَّمَا عَلَى

الرُّسُولِ أَنْ يُبَلِّغَكُمْ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَاللَّهُ

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَاحْرِصُوا لِأَنْفُسِكُمْ أَنْ

تَكُونُوا مِنَ السَّعْدَاءِ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ

كَذَّبَ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قَالَ: يُعْزِي نَبِيَّهُ ﷺ، وَهَذَا مِنْ

قَتَادَةَ يَفْتَضِي أَنَّهُ قَدْ انْقَطَعَ الْكَلَامُ الْأَوَّلُ، وَاعْتَرَضَ بِهَذَا

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وَهَكَذَا نَصَّ عَلَى

ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا. وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ كُلَّ هَذَا مِنْ

كَلَامِ إِبرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ لِإِثْبَاتِ

الْمَعَادِ؛ لِقَوْلِهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾

وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَيَّدَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى

اللَّهِ يَسِيرٌ^(١١)﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ

ثُمَّ اللَّهُ يُسَوِّئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١٢)﴾

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ^(١٣)﴾ وَمَا أَشَدَّ

بِمُعْجِزَاتِهِ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(١٤)﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَائِدَتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ

أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١٥)﴾

[أَدِلَّةُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَرَشَدَهُمْ

إِلَى إِثْبَاتِ الْمَعَادِ الَّذِي يُبْكَرُونَهُ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ

مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَهُهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكَورًا، ثُمَّ

وَجَدُوا وَصَارُوا أَنَا سَامِعِينَ مُبْصِرِينَ، فَالَّذِي بَدَأَ هَذَا

قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ

إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِمَا فِي الْأَفَاقِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُسَاهِدَةِ مِنْ خَلْقِ

اللَّهِ الْأَشْيَاءِ: السَّمَوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّبِيرَةِ

(١) الدر المشور: ٢٧٣/٥ (٢) الطبري: ١٨/٢٠ العوفي: تقدم

حكمه مرارًا (٣) الطبري: ١٩/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩٩

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَيْثِ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَاطَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتونَ الْفَاحِشَةَ مَآسِقَكُمْ يهَكَم مِّنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ أَيُّكُمْ لَأنتونَ الرَّجَالِ وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾

النَّوَابِغِ وَالسِّيَّارَاتِ، وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهَا مِنْ مِهَادٍ وَجِبَالٍ، وَأُودِيَّةٍ، وَبَرَارِيٍّ وَقَفَّارٍ، وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ، وَثَمَارٍ وَبِحَارٍ، كُلُّ ذَلِكَ دَالٌ عَلَى حُدُوثِهَا فِي أَنْفُسِهَا، وَعَلَى وُجُودِ صَانِعِهَا الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُونُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ أَيُّ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أَيُّ: هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الَّذِي يَقَعُلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَهُوَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ مَهْمَا فَعَلَ فَعَدْلٌ؛ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ»^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أَيُّ: تُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، فَكُلُّ شَيْءٍ خَائِفٌ مِنْهُ، فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَأَتِ اللَّهُ وَلِقَائِهِ أَيُّ: جَحَدُوا وَكَفَرُوا بِالْمَعَادِ ﴿أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ رَحْمَتِي﴾ أَيُّ: لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ: مُوجِعٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿١٥﴾

[وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ آيَةً فِي النَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ وَدَفْعِهِمْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، أَنَّهُمْ مَا كَانَ لَهُمْ جَوَابٌ بَعْدَ مَقَالَةِ إِبْرَاهِيمَ هَذِهِ الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى الْهُدَى وَالْبَيَانِ

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَامَ عَلَيْهِمُ الْبُرْهَانُ وَتَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، فَعَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِمْ وَقُوَّةِ مُلْكِهِمْ ﴿قَالُوا أَيُّنَا لَهُ بَيْنُنَا قَائِمَةٌ فِي الْجَبْرِ﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَعَلَّنَهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿[الصفات: ٩٧، ٩٨، ٩٩]﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَسَدُوا فِي جَمْعِ أَحْطَابٍ عَظِيمَةٍ مُدَّةً طَوِيلَةً، وَحَوَّطُوا حَوْلَهَا، ثُمَّ أَضْرَمُوا فِيهَا النَّارَ، فَارْتَفَعَتْ لَهَا لَهَبٌ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، وَلَمْ تَوْقَدْ نَارًا فَطَّ أَعْظَمُ مِنْهَا، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَكَتَمُوهُ وَأَلْقَوْهُ فِي كَيْفِ السُّجُنِيِّ، ثُمَّ قَدَفُوهُ فِيهَا، فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَخَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا بَعْدَ مَا مَكَتَ فِيهَا أَيَّامًا، وَلِهَذَا وَأَمْثَالِهِ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا، فَإِنَّهُ بَدَّلَ نَفْسَهُ لِلرَّحْمَنِ، وَجَسَدَهُ لِلتَّيْرَانِ، وَسَخَا بِوَلَدِهِ لِلتَّيْرَانِ، وَجَعَلَ مَالَهُ لِلصِّيفَانِ، وَلِهَذَا اجْتَمَعَ عَلَى مَحَبَّتِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَدْيَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ﴾ أَيُّ: سَلَّمَهُ مِنْهَا

بِأَنْ جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

[وَعَظَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ]

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَقُولُ لِقَوْمِهِ مُفْرَعًا لَهُمْ وَمُؤَبِّحًا عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ لِلْأَوْثَانِ: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ هَذِهِ لِتَجْتَمِعُوا عَلَى عِبَادَتِهَا فِي الدُّنْيَا صِدَاقَةً وَأَلْفَةً مِنْكُمْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يَنْعَكِسُ هَذَا الْحَالُ، فَتَبْقَى هَذِهِ الصِّدَاقَةُ وَالْمَوَدَّةُ بَعْضًا وَسَنَانًا ثُمَّ ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَي: تَتَجَاحَدُونَ مَا كَانَ بَيْنَكُمْ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿أَي: يَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْمُنْتَبِعِينَ، وَالْمُنْتَبِعُونَ الْأَتْبَاعَ﴾ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا أُخْتًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمْ النَّارُ...﴾ الْآيَةَ. أَي: وَمَصِيرُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ بَعْدَ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرٍ يُنصِّرُكُمْ، وَلَا مُنْقِذٍ يُنقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَخْلَافُ ذَلِكَ.

﴿فَمَنْ لَّمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَمَأْوَيْنَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾

[إِيمَانُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَجْرَتُهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ

السَّلَامُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ آمَنَ لَهُ لُوطٌ، يُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ. يَقُولُونَ: هُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ أَرْزَرٍ، يَعْنِي وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ سِوَاهُ، وَسَارَةَ امْرَأَةَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، لَكِنْ يُقَالُ: كَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ مَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْجَبَّارِ فَسَأَلَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ سَارَةَ مَا هِيَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: أُخْتِي. ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَكَ: إِنَّكَ أُخْتِي فَلَا تُكذِّبِينِي، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، فَأَنْتِ أُخْتِي فِي الدِّينِ. وَكَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ زَوْجَانِ عَلَى الْإِسْلَامِ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، فَإِنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ آمَنَ بِهِ مِنْ

قَوْمِهِ، وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، ثُمَّ أُرْسِلَ فِي حَيَاةِ الْخَلِيلِ إِلَى أَهْلِ «سُدُومَ» وَإِفْلِيمَهَا (١). وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا سَيَأْتِي.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يَحْتَمِلُ عَوْدَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ﴾ عَلَى لُوطٍ؛ لِأَنَّهُ هُوَ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ. [قَالَ] ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: وَهُوَ الْمَكْنِيُّ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ لَّمْ لُوطٌ﴾ أَي: مِنْ قَوْمِهِ، ثُمَّ أُخْبِرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ اخْتَارَ الْمُهَاجِرَةَ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ؛ ابْتِغَاءَ إِظْهَارِ الدِّينِ وَالْتِمَاسِ مِنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَي: لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَأَحْكَامِهِ الْقَدْرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هَاجَرَ جَمِيعًا مِنْ «كُوْنَى» - وَهِيَ مِنْ سَوَادِ الْكُوفَةِ - إِلَى الشَّامِ. قَالَ: وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّهَا سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مُهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ، لَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ إِلَّا شِرَارُ أَهْلِهَا، فَتَلْفُظُهُمْ أَرْضُهُمْ، تَقْدِرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمَنِ، تَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْفِرْدَوْسِ وَالْخَنَازِيرِ، فَتَيْبُتُ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا، وَتَقْبَلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَتَأْكُلُ مَنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ. وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةِ فَخِيارِ أَهْلِ الْأَرْضِ أَلَزَمَهُمْ مُهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ. وَقَدْ أَسْنَدَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ هَذَا الْحَدِيثَ مُطَوَّلًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

[مَا وَهَبَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ، وَمَا جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ

مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ﴾ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿وَلَا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [سرم: ٤٩] أَي: أَنَّهُ لَمَّا فَارَقَ قَوْمَهُ، أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ نَبِيٍّ، وَوُلِدَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ نَبِيٌّ فِي حَيَاةِ جَدِّهِ، وَكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] أَي: زِيَادَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبَسَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أَي: يُوَلِّدُ لِهَذَا الْوَلَدِ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُما، تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُكُما.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ هَذِهِ خِلْعَةٌ سَنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ مَعَ اتِّخَاذِ اللَّهِ إِلَاهًا خَلِيلًا، وَجَعَلَهُ لِلنَّاسِ

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّمَا هَلِكُوا
 أَهْل هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾
 قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا
 أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
 وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ
 كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا مَزَلُونَ عَلَىٰ أَهْلٍ
 هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرَاءً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
 ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِثْلَهَا آيَةً يَنْتَهِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
 ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادًا
 لِلَّهِ وَارْجُوا أَيُّومَ الْآخِرِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
 ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
 دَارِهِمْ جثِيمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادَا وَثُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ
 لَكُمْ مِنْ مَسْئَلِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
 أَعْمَلَهُمْ فُصِّدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

لَا يَلِيْقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ فِي مَجَالِسِهِمُ الَّتِي
 يَجْتَمِعُونَ، فِيهَا، لَا يُكْبِرُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ شَيْئًا مِنْ
 ذَلِكَ، فَمَنْ قَائِلٌ: كَانُوا يَأْتُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْمَلَأِ،
 قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(١). وَمِنْ قَائِلٍ: كَانُوا يَتَضَارَطُونَ
 وَيَتَضَاكُونَ. قَالَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَالْقَاسِمُ^(٢).
 وَمِنْ قَائِلٍ: كَانُوا يُنَاطِحُونَ بَيْنَ الْكِبَاشِ وَيُنَاقِرُونَ بَيْنَ
 الدُّبُوكِ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَصُدُّ عَنْهُمْ وَكَانُوا شَرًّا مِنْ ذَلِكَ.
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
 أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَهَذَا مِنْ
 كُفْرِهِمْ وَاسْتَهْزَائِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَلِهَذَا اسْتَنْصَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ
 اللَّهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّمَا هَلِكُوا أَهْل
 هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا

إِمَامًا: أَنْ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، فَلَمْ يُوجَدْ نَبِيُّ
 بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ، فَجَمِيعُ أَنْبِيَاءِ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ سُلَالَةِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ،
 حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَقَامَ فِي مَلْئِكِهِمْ مُبَشِّرًا
 بِالنَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرْشِيِّ الْهَاشِمِيِّ خَاتَمِ الرُّسُلِ عَلَى
 الْإِطْلَاقِ، وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الَّذِي
 اضْطَفَّاهُ اللَّهُ مِنْ صَمِيمِ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ
 ابْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَلَمْ يُوجَدْ نَبِيُّ مِنْ سُلَالَةِ
 إِسْمَاعِيلَ سِوَاهُ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَتَيْنَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
 الصَّالِحِينَ﴾ أَي: جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا الْمُؤْصَلَةِ
 بِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ، فَكَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا الرِّزْقُ الْوَاسِعُ الْهَيْئِي،
 وَالْمَنْزِلُ الرَّحْبُ، وَالْمُورِدُ الْعَذْبُ، وَالزَّوْجَةُ الْحَسَنَةُ
 الصَّالِحَةُ، وَالنِّسَاءُ الْجَمِيلُ، وَالذِّكْرُ الْحَسَنُ، وَكُلُّ أَحَدٍ
 يُحِبُّهُ وَيَتَوَلَّاهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ
 وَغَيْرُهُمْ: مَعَ الْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ^(١). كَمَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] أَي: قَامَ
 بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ بِهِ وَكَمَّلَ طَاعَةَ رَبِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَأَتَيْنَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾
 وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَوْ
 يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
 الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتُنَّ الْفَاحِشَةُ مَا
 سَكَنْتُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣١﴾ أَيُّكُمْ لَأَنْتُنَّ
 الرِّجَالُ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُتَكَرِّفَ فَمَا
 كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ
 كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ
 الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

[وَعُظُّ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ]
 يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ أَنْكَرَ
 عَلَى قَوْمِهِ سُوءَ صَنِيعِهِمْ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ قَبِيحِ
 الْأَعْمَالِ فِي إِيْتَابِهِمُ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَلَمْ يَسْبِقْهُمْ
 إِلَى هَذِهِ الْفِعْلَةِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَهُمْ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا
 يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَيُكْذِبُونَ رَسُولَهُ، وَيَخَالِفُونَ وَيَقْطَعُونَ
 السَّبِيلَ، أَي: يَقْفُونَ فِي طَرِيقِ النَّاسِ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْخُذُونَ
 أَمْوَالَهُمْ ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُتَكَرِّفَ﴾ أَي: يَفْعَلُونَ مَا

(١) الطبري: ٢٠/٢٧، ٢٨ (٢) الطبري: ٢٠/٢٩، والبغوي: ٣/

٤٦٦ (٣) الطبري: ٢٠/٣٠

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

٤٠١

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى
بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ
(٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) مَثَلُ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ
الْأَمْثَلُ نُصْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ
(٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) أَتَى مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

وَبِأَيِّ آفَاتٍ يَتَغَلَّبُونَ ﴿١﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ شُرَكَاءُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُغْتَابُونَ عَنْهُمْ وَيَمْنَعُونَ النَّاصِيَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٥].
﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ شُرَكَاءُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُغْتَابُونَ عَنْهُمْ وَيَمْنَعُونَ النَّاصِيَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٥].
﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ شُرَكَاءُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُغْتَابُونَ عَنْهُمْ وَيَمْنَعُونَ النَّاصِيَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٥].

[ذَكَرَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ
أَنْذَرَ قَوْمَهُ أَهْلَ مَدْيَنَ، فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ، وَأَنْ يَخَافُوا بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَيَقِمُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
فَقَالَ: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا اللَّهَ الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قَالَ ابْنُ
جَرِيرٍ: قَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: وَارْحَسُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ^(١).
وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نَهَاهُمْ عَنِ
الْعَيْثِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، وَهُوَ السَّعْيُ فِيهَا وَالْبُعْيُ عَلَى

لُوطًا قَالُوا تَحَنُّنٌ أَعَزُّ مِنْ فَيْئًا لِنَسِجَتِهِ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ
وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ
وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٣٩﴾

[اسْتِنصَارُ لُوطٍ وَمَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ إِلَى
لُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ]

لَمَّا اسْتَنْصَرَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ،
بَعَثَ اللَّهُ لِنُصْرَتِهِ مَلَائِكَةً فَمَرُّوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي هَيْئَةِ أَضْيَافٍ، فَجَاءَهُمْ بِمَا يَتَّبِعِي لِلضَّيْفِ، فَلَمَّا رَأَى
إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ، نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً، فَشَرَعُوا يُؤَانِسُونَهُ وَيُشِيرُونَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ مِنْ
امْرَأَتِهِ سَارَةَ، وَكَانَتْ حَاضِرَةً، فَتَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ
بَيَّانُهُ فِي سُورَةِ «هُودٍ» وَ«الْحَجَرِ» فَلَمَّا جَاءَتْ إِبْرَاهِيمَ
بِالْبَشْرَى وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، أَخَذَ
يُدَافِعُ لَعَلَّهُمْ يُنظَرُونَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَلَمَّا قَالُوا: إِنَّا
مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴿٣٦﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا تَحَنُّنٌ
أَعَزُّ مِنْ فَيْئًا لِنَسِجَتِهِ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ
الْغَيْرِينَ ﴿٣٧﴾ أَيُّ: مِنَ الْهَالِكِينَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تُمَالِئُهُمْ عَلَى
كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَدَثْرِهِمْ، ثُمَّ سَارُوا مِنْ عِنْدِهِ فَدَخَلُوا عَلَى
لُوطٍ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حَسَنٍ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ كَذَلِكَ ﴿سِيقَهُمْ
وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ أَيُّ: اغْتَمَّ بِأَمْرِهِمْ إِنَّهُ هُوَ أَضْفَاهُمْ خَافَ
عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَإِنْ لَمْ يُضْفَهُمْ خَشِيَ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ، وَلَمْ
يَعْلَمْ بِأَمْرِهِمْ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِمَةِ ﴿وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تَحْزَنْ
إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّا
مُنْزِلُونَ عَلَيْكُمْ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿٣٨﴾ وَذَلِكَ أَنَّ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ افْتَلَعَ قُرَاهِمَ مِنْ
قَرَارِ الْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَلَبَهَا
عَلَيْهِمْ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ مَنْصُودٍ
مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ، وَجَعَلَ اللَّهُ
مَكَانَهَا بَحِيرَةً خَبِيثَةً مُتَبَتَّةً، وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً إِلَى يَوْمِ النَّادِ،
وَهُمْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْمَعَادِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أَيُّ: وَاضِحَةً ﴿لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنُكْرُ لِنُكْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ﴾ ﴿٣٧﴾

أَهْلِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّقُونَ الْمَكِيَالَ وَالْمِيزَانَ، وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى النَّاسِ، هَذَا مَعَ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِرَجْفَةٍ عَظِيمَةٍ رَزَلَتْ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ، وَصَبْحَةَ أَخْرَجَتِ الْقُلُوبَ مِنْ حَنَاجِرِهَا، وَعَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ الَّذِي أَزْهَقَ الْأَرْوَاحَ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّتُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ «الْأَعْرَافِ» وَ«هُودٍ» وَ«الشُّعْرَاءِ». وَقَوْلُهُ: «فَأَصْحَبُوا فِي دَارِهِمْ جَحِشِينَ» قَالَ قَتَادَةُ: مَيِّتِينَ^(١). وَقَالَ غَيْرُهُ: قَدْ أَلْقَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ^(٢).

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ النَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨) ﴿وَقُدْرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ﴾ (٣٩) ﴿فَلَمَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْطِيَهُمُ الْغَفْلَةَ إِنْ كَانُوا لَيَّادِبِينَ﴾ (٤٠) ﴿يَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

[ذِكْرُ مَا تَمَّ بِهِ إِهْلَاكُ أَقْوَامٍ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَّةِ الْمَكْدُوبَةِ لِلرُّسُلِ كَيْفَ أَبَادَهُمْ وَتَنَوَّعَ فِي عَذَابِهِمْ، وَأَخَذَهُمْ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ، فَعَادُ قَوْمٌ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ حَضْرَمَوْتِ بِلَادِ الْيَمَنِ، وَثَمُودُ قَوْمٌ صَالِحٌ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ قَرِيبًا مِنْ وَادِي الْقُرَى، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَسَاكِنَهُمَا جَيِّدًا، وَتَمَرُّ عَلَيْهَا كَثِيرًا، وَقَارُونَ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ وَمَعَاتِيحُ الْكُنُوزِ الثَّقِيلَةِ، وَفِرْعَوْنُ مَلِكٌ مِصْرَ فِي زَمَانِ مُوسَى وَوَزِيرُهُ هَامَانَ الْفِيضِيَّانِ الْكَافِرَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ ﴿فَلَمَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ (٤٠) أَيُّ: كَانَتْ عُقُوبَتُهُ بِمَا يُنَاسِبُهُ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَهُمْ عَادٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ فَجَاءَهُمْ رِيحٌ صَرَصَرَ بَارِدَةً شديدة البرد، عَاتِيَةُ الْهُبوبِ جِدًّا، تَحْمِلُ عَلَيْهِمْ حَصْبَاءَ الْأَرْضِ فَتَلْقِيهَا عَلَيْهِمْ، وَتَقْتَلِعُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَرْفَعُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَنْكُشُهُ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدُحُهُ، فَيَنْقِي بَدَنًا بِلَا رَأْسٍ، كَأَنَّهُمْ أَعْمَازُ نَحْلِ مُتَعِيرٍ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وَهُمْ ثَمُودٌ، قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَظَهَرَتْ لَهُمُ الدَّلَالَةُ مِنْ تِلْكَ النَّاقَةِ الَّتِي انْفَلَقَتْ عَنْهَا الصَّخْرَةُ مِثْلَ مَا

سَأَلُوا سِوَاءَ سِوَاءٍ بِسِوَاءٍ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى طُعْيَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَتَهَدَّدُوا نَبِيَّ اللَّهِ صَالِحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِأَنْ يُخْرِجُوهُمْ وَيَرْجُمُوهُمْ، فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَخْحَدَتِ الْأَصْوَاتَ مِنْهُمْ وَالْحَرَكَاتِ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وَهُوَ قَارُونَ الَّذِي طَعَى وَبَغَى وَعَتَا، وَعَصَى الرَّبَّ الْأَعْلَى، وَمَشَى فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، وَفَرِحَ وَمَرِحَ وَتَاهَ بِنَفْسِهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ، وَاخْتَالَ فِي مَشِيئِهِ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وَهُوَ فِرْعَوْنُ وَوَزِيرُهُ هَامَانُ وَجُنُودُهُمَا عَنْ آخِرِهِمْ أَغْرَقُوا فِي صَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَمَّ يَنْجُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْطِيَهُمُ الْغَفْلَةَ﴾ أَيُّ: فِيمَا فَعَلَ بِهِمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ جَزَاءً وَفَاقًا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيَهُمْ.

﴿مِثْلَ الَّذِي أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْعَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤٢) ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣)

[تَمَثِيلُ الْهَيْئَةِ الْمُشْرِكِينَ بَيْنَتِ الْعَنْكَبُوتِ]

هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمُ الْهَيْئَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَرْجُونَ نَصْرَهُمْ وَرِزْقَهُمْ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ فِي ضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ، فَلَيْسَ فِي أَيْدِي هَؤُلَاءِ مِنَ الْهَيْئَةِ إِلَّا كَمَنْ يَتَمَسَّكُ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، فَإِنَّهُ لَا يُجْرِي عَنْهُ شَيْئًا، فَلَوْ عَلِمُوا هَذَا الْحَالَ لَمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ قَلْبُهُ لِلَّهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُحْسِنُ الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرْعِ، فَإِنَّهُ تَمَسَّكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا؛ لِقُوَّتِهَا وَثَبَاتِهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعَّدًا لِمَنْ عَدَّ غَيْرَهُ وَأَشْرَكَ بِهِ، إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَيَعْلَمُ مَا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ، وَسَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أَيُّ: وَمَا يَفْهَمُهَا وَيَتَدَبَّرُهَا إِلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ الْمُتَضَلِّعُونَ مِنْهُ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ

سورة العنكبوت

٤٠٢

سورة العنكبوت

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤١)
 وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا الْوَجْهَ الْحَقَّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْلَ الْكُفْرِ إِنَّكُمْ لَعِنْدَهُ لَمَعْلُومُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَهْتِكُهُ بِسَمِيِّكُم إِذَا أَرْتَابَ الْمُبْطُلُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يُحَاكِمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الظَّالِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٥﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٤٧﴾

وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤١﴾

[مُجَادِلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ]

المعنى: أَنْ مَنْ أَرَادَ الْأَسْتِصَارَ مِنْهُمْ فِي الدِّينِ، فَيُجَادِلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ لِيَكُونَ أَنْجَعَ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾...
 الْآيَةُ [النحل: ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أَيُّ: حَادُوا عَنْ وَجْهِ الْحَقِّ، وَعَمُوا عَنْ وَاضِحِ الْمَحَجَّةِ، وَعَانَدُوا وَكَابَرُوا، فَحَبِيبٌ يَتَّقِلُ مِنَ الْجِدَالِ إِلَى الْجِدَالِ وَيَقَاتِلُونَ بِمَا يَمْتَنِعُهُمْ وَيَرُدُّعُهُمْ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] قَالَ جَابِرٌ: أَمَرْنَا مَنْ خَالَفَ كِتَابَ

مُرَّةً قَالَ: مَا مَرَزْتُ بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنْتَنِي؛ لِأَنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (١).

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمُؤْمِنِينَ﴾ (٤١) أَتَى مَا أَوْجَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْبَرِ الصَّلَاةِ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، بِعِنْيِ لَاعَلَى وَجْهِ الْعَيْثِ وَاللَّيْبِ ﴿يُخْرِجِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥٠] ﴿يُخْرِجِي الَّذِينَ اسْتَفْهَمُوا بِمَا عَمِلُوا وَيُخْرِجِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ: لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ تَعَالَى الْمُتَمَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّذْيِيرِ وَالْإِلَهِيَّةِ.

[الْأَمْرُ بِالْبَلَاغِ وَالتَّلَاوَةِ وَالتَّوَاتُؤِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ قِرَاءَتُهُ وَإِبْلَاغُهُ لِلنَّاسِ ﴿وَأَقْبَرِ الصَّلَاةِ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بِعِنْيِ أَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عَلَى تَرْكِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ. أَيُّ: مُوَاطَّئُهَا تَحْمِلُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فَلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَضْبَحَ سَرَقَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ سَيِّئُهُمَا مَا يَقُولُ﴾ (٢).

وَتَشْتَمِلُ الصَّلَاةُ أَيْضًا عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ الْأَكْبَرُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أَيُّ: أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أَيُّ: يَعْلَمُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قَالَ: إِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا ثَلَاثُ خِصَالٍ، فَكُلُّ صَلَاةٍ لَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ فَلَيْسَتْ بِصَلَاةٍ: الْإِخْلَاصُ، وَالْحَشْيَةُ، وَذِكْرُ اللَّهِ، فَالْإِخْلَاصُ بِأَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالْحَشْيَةُ نَهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَذِكْرُ اللَّهِ: الْقُرْآنُ بِأَمْرِهِ وَنَهَاهُ. وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ الْأَنْصَارِيُّ: إِذَا كُنْتَ فِي صَلَاةٍ، فَأَنْتَ فِي مَعْرُوفٍ، وَقَدْ حَجَزَتْكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالَّذِي أَنْتَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ

(١) الدر المنثور: ٦/٤٦٤ (٢) أحمد: ٢/٤٤٧

اللَّهُ أَنْ نُضْرِبَهُ بِالسِّنْبِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: إِذَا أَخْبَرُوا بِمَا لَا تَعْلَمُ صِدْقَهُ وَلَا كَذِبَهُ، فَهَذَا لَا تَقْدَمُ عَلَى تَكْذِيبِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ حَقًّا، وَلَا تُصَدِّقُهُ فَالْعَلَّةُ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا، وَلَكِنْ نُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانًا مُجْمَلًا مُعَلَّقًا عَلَى شَرْطٍ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُتْرَا، لَا مُبَدَّلًا وَلَا مُؤَوَّلًا.

رَوَى الْبُخَارِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» وَهَذَا الْحَدِيثُ تَقَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ^(١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمْ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدٌ تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لَمْ يَشِبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا [كِتَابَ اللَّهِ] وَغَيَّرُوا وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِيَسْتُرُوا بِهِ نَمَنًا قَلِيلًا، أَلَا يَنْهَأَكُم مَّا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْكُمْ^(٢).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ يُحَدِّثُ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ بِالْمَدِينَةِ، وَذَكَرَ كَعْبَ الْأَخْبَارِ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ مِنْ أَصْدَقِ هَؤُلَاءِ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَإِنْ كُنَّا مَعَ ذَلِكَ لَتَبَلَّوْا عَلَيْهِ الْكُذْبَ^(٣).

(قُلْتُ): مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقَعُ مِنْهُ الْكُذْبُ لَعَنَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ؛ لِأَنَّهُ يُحَدِّثُ عَنْ صُحُفٍ يُحْسِنُ بِهَا الظَّنَّ، وَفِيهَا أَشْيَاءٌ مَوْضُوعَةٌ وَمَكْذُوبَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي مِلَّتِهِمْ حِفَاطٌ مُتَّقِنُونَ كَهَذِهِ الْأُمَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ وَقُرْبَ الْعَهْدِ، وَضَعَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ مَنَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمًا بِذَلِكَ كُلِّ بِحَسْبِهِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾^(٤)
وَمَا كُنْتَ تَسْتَلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِصْرِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ^(٥) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوْفُوا الْعَهْدَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ^(٦)﴾

[كُونُ هَذَا الْقُرْآنُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَالذَّلِيلُ عَلَيْهِ] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الرُّسُلِ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْكِتَابَ^(١). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ وَمُنَاسِبَةٌ وَارْتِبَاطُهُ جَيِّدٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَي: الَّذِينَ أَخَذُوهُ فَتَلَوَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ مِنْ أَحْبَابِهِمُ الْعُلَمَاءِ الْأَذْكِيَاءِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَأَشْبَاهِهِمَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يَعْنِي: الْعَرَبَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ «وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ» أَي: مَا يَكْذِبُ بِهَا وَيَجْحَدُ حَقَّهَا إِلَّا مَنْ يَسْتُرُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُعْطِي ضَوْءَ الشَّمْسِ بِالْوَصَائِلِ وَهَيْهَاتَ!

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْتَلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِصْرِكَ﴾ أَي: قَدْ لَبِثْتَ فِي قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَ بِهَذَا الْقُرْآنِ عُمَرًا لَا تَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا تُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ وَغَيْرِهِمْ يَعْرِفُ أَنَّكَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ، وَهَكَذَا صِفَتُهُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ١٥٧]، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، وَلَا يَخْطُ سَطْرًا وَلَا حَرْفًا بِيَدِهِ، بَلْ كَانَ لَهُ كُتَابٌ يَكْتُبُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْوَحْيَ وَالرَّسَائِلَ إِلَى الْأَقْلَامِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أَي: لَوْ كُنْتَ تُحْسِنُهَا لَارْتَابَ بَعْضُ الْجَهْلَةِ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ: إِنَّمَا تَعَلَّمَ هَذَا مِنْ كُتُبٍ قَبْلَهُ مَأْتُورَةٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ «وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تَمَثَّلُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» [الفرقان: ٥] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ، [الفرقان: ٦] وَقَالَ هُنَا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوْفُوا الْعَهْدَ﴾ أَي: هَذَا الْقُرْآنُ آيَاتٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ: أَمْرًا وَنَهْيًا وَحَبْرًا، يَحْفَظُهُ الْعُلَمَاءُ، يَسْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِفْظًا وَتِلَاوَةً وَتَفْسِيرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ

(١) فتح الباري: ٢٠/٨ (٢) البخاري: ٧٣٦٣ (٣) فتح الباري: ٣٤٥/١٣ (٤) الطبري: ٥٠/٢٠

مُذَكِّرٍ ﴿[القمر: ١٧] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أَوْتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا»^(١).
 وَفِي حَدِيثِ عِبَاصِ بْنِ حِمَارٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي مُبْتَلِكُ وَمُبْتَلِ بِكَ، وَمُنزَلُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُؤُهُ تَابِعًا وَيَقْطَانًا»^(٢). أَيُّ: لَوْ غَسَلَ الْمَاءُ الْمَحَلَّ الْمَكْتُوبَ فِيهِ لَمَا اخْتَبِجَ إِلَى ذَلِكَ الْمَحَلِّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أَحْرَقَتْهُ النَّارُ»^(٣). وَلَا أَنَّهُ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، مُسَرَّرٌ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، مُهَيَّبٌ عَلَى الْقُلُوبِ، مُعْجَزٌ لَفْظًا وَمَعْنَى، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: أَنَا جَلِبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ: مَا يَكْذِبُ بِهَا وَيَبْحَسُ حَقَّهَا وَيَرُدُّهَا إِلَّا الظَّالِمُونَ، أَيُّ: الْمُعْتَدُونَ الْمُكَابِرُونَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَجِدُونَ عَنَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ آيَاتِنا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿[يونس: ٩٦، ٩٧].

وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بِنَبِيِّ وَسَيِّدِكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾
 [طَب: ١٣٣].
 وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أَوْتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤). أَخْرَجَاهُ^(٥). وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لَرَحْمَةً أَيُّ: بَيَانًا لِلْحَقِّ وَإِزَاحَةً لِلْبَاطِلِ، وَذِكْرَى بِمَا فِيهِ حُلُولُ الثَّقَمَاتِ وَنَزُولُ الْعِقَابِ بِالْمُكذِّبِينَ وَالْعَاصِينَ: لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بِنَبِيِّ وَسَيِّدِكُمْ شَهِيدًا﴾ أَيُّ: هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِضُونَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَيَعْلَمُ مَا أَقُولُ لَكُمْ مِنْ إِخْبَارِي عَنْهُ بِأَنَّهُ أَرْسَلَنِي، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَأَنْتَمَ مِنِّي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾ فَمَا سَكَرَ مِنْ لَمَدٍ عَنْهُ حَازِرِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] وَإِنَّمَا أَنَا صَادِقٌ

(١) فتح الباري: ٦١٩/٨ (٢) مسلم: ٢١٩٧/٤ (٣) أحمد: ١٥٥/٤
 (٤) ضعيف فيه حجاج بن محمد المصيصي الأعرور (٤) أحمد: ٣٤١/٢ (٥) فتح الباري: ٦١٩/٨ ومسلم: ١٣٤/١

مُذَكِّرٍ ﴿[القمر: ١٧] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أَوْتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا»^(١).

وَفِي حَدِيثِ عِبَاصِ بْنِ حِمَارٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي مُبْتَلِكُ وَمُبْتَلِ بِكَ، وَمُنزَلُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُؤُهُ تَابِعًا وَيَقْطَانًا»^(٢). أَيُّ: لَوْ غَسَلَ الْمَاءُ الْمَحَلَّ الْمَكْتُوبَ فِيهِ لَمَا اخْتَبِجَ إِلَى ذَلِكَ الْمَحَلِّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أَحْرَقَتْهُ النَّارُ»^(٣). وَلَا أَنَّهُ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، مُسَرَّرٌ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، مُهَيَّبٌ عَلَى الْقُلُوبِ، مُعْجَزٌ لَفْظًا وَمَعْنَى، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: أَنَا جَلِبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ: مَا يَكْذِبُ بِهَا وَيَبْحَسُ حَقَّهَا وَيَرُدُّهَا إِلَّا الظَّالِمُونَ، أَيُّ: الْمُعْتَدُونَ الْمُكَابِرُونَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَجِدُونَ عَنَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ آيَاتِنا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿[يونس: ٩٦، ٩٧].

وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بِنَبِيِّ وَسَيِّدِكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

[طَب: ١٣٣].
 وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أَوْتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤). أَخْرَجَاهُ^(٥). وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لَرَحْمَةً أَيُّ: بَيَانًا لِلْحَقِّ وَإِزَاحَةً لِلْبَاطِلِ، وَذِكْرَى بِمَا فِيهِ حُلُولُ الثَّقَمَاتِ وَنَزُولُ الْعِقَابِ بِالْمُكذِّبِينَ وَالْعَاصِينَ: لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بِنَبِيِّ وَسَيِّدِكُمْ شَهِيدًا﴾ أَيُّ: هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِضُونَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَيَعْلَمُ مَا أَقُولُ لَكُمْ مِنْ إِخْبَارِي عَنْهُ بِأَنَّهُ أَرْسَلَنِي، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَأَنْتَمَ مِنِّي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾ فَمَا سَكَرَ مِنْ لَمَدٍ عَنْهُ حَازِرِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] وَإِنَّمَا أَنَا صَادِقٌ

(١) فتح الباري: ٦١٩/٨ (٢) مسلم: ٢١٩٧/٤ (٣) أحمد: ١٥٥/٤
 (٤) ضعيف فيه حجاج بن محمد المصيصي الأعرور (٤) أحمد: ٣٤١/٢ (٥) فتح الباري: ٦١٩/٨ ومسلم: ١٣٤/١

لَكُمْ بَيْنَ النَّادِرَةِ، فَعَلَيْ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ رَسُولَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَ﴿مَنْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٤٠٣

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ

وَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ

عَلَيْهِ فِيمَا أَخْبَرَ تُكْرِمُ بِهِ، وَلِهَذَا أَيْدِي بِالْمُعْجَزَاتِ
الْوَاضِحَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أَي: لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أَي: يَوْمَ
الْقِيَامَةِ، سَيَجْزِيهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوا وَيَقَابِلُهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا
فِي تَكْلِيبِهِمْ بِالْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ، كَذَّبُوا بِرُسُلِ اللَّهِ مَعَ
قِيَامِ الْأَدِلَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ، وَآمَنُوا بِالطَّوَاغِيَةِ وَالْأَوْثَانِ بِلَا
دَلِيلٍ، فَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

﴿وَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ
بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ
وَيَقُولُ دُوفُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

[اسْتَعْجَالُ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِعْجَالِهِمْ
عَذَابَ اللَّهِ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ، وَيَأْسَ اللَّهُ أَنْ يَحُلَّ عَلَيْهِمْ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ
عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَنْتِنَا بِالْعَذَابِ
أَلْسِرْ﴾ [الأنفال: ٣٢] وَقَالَ هُنَا: ﴿وَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا
أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أَي: لَوْلَا مَا حَتَمَ اللَّهُ مِنْ تَأْخِيرِ
الْعَذَابِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَرِيبًا سَرِيعًا كَمَا
اسْتَعْجَلُوهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ أَي: فَجَاءَةً ﴿وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾
أَي: يَسْتَغْفِرُونَ الْعَذَابَ وَهُوَ وَقَعَ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ
فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
ظُلُلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلُلٌ﴾ [الزمر: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى:
﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ
وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾... الآية [الأنبياء: ٣٩]، فَالنَّارُ تَغْشَاهُمْ
مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْعَذَابِ الْحَسِيِّ. وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ دُوفُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تَهْدِيدٌ وَتَقْرِيعٌ
وَتَوْبِيخٌ، وَهَذَا عَذَابٌ مَعْنَوِيٌّ عَلَى النَّفْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُوفُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٥٨﴾ إِنْ كُنَّ
شَيْءٌ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ
يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعْوًا ﴿٥٩﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكْفِرُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورَةَ ﴿٦٠﴾ أَصْلُهَا

فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا صَبْرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْرَمُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِدُونَ ﴿٥٦﴾ كُلُّ
نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُجْرُونَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾
وَكَانَ مِنْ دَابَّتِهِمْ لَا حِمْلَ لِرِزْقِهَا اللَّهُ بِرِزْقِهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

[الْأَمْرُ بِالْهَجْرَةِ وَالْوَعْدُ عَلَيْهَا بِالرِّزْقِ وَالْجَزَاءِ الْحَسَنِ]
هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْهَجْرَةِ مِنَ الْبَلَدِ
الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ إِلَى أَرْضِ اللَّهِ
الْوَاسِعَةِ حَيْثُ يُمْكِنُ إِقَامَةُ الدِّينِ، بَأَنَّ يُوحَدُوا اللَّهُ وَيَعْبُدُوهُ
كَمَا أَمَرَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ
أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِدُونَ﴾ وَلِهَذَا لَمَّا ضَافَ عَلَى
الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مَقَامَهُمْ بِهَا، خَرَجُوا مَهَاجِرِينَ إِلَى
أَرْضِ الْحَبَشَةِ؛ لِأَمْنِهَا عَلَى دِينِهِمْ هُنَاكَ، فَوَجَدُوا خَيْرَ

الْمُرَلِّينَ هُنَاكَ: أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، فَأَوَاهُمْ وَأَيَّدُهُمْ بِنَصْرِهِ، وَجَعَلَهُمْ سُيُومًا بِيَلَادِهِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالصَّحَابَةُ الْبَاقُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَتْرَبُ الْمَطَهَّرَةَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أَي: أَيُّنَمَا كُنْتُمْ يُدْرِكُكُمْ الْمَوْتُ، فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللهِ وَحَيْثُ أَمَرَكَ اللهُ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ، ثُمَّ إِلَى اللهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ، فَمَنْ كَانَ مُطِيعًا لَهُ جَازَاهُ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ، وَوَفَاهُ أَمَّ التَّوَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: لَنُسَكِّنَهُمْ مَنَازِلَ عَالِيَةً فِي الْجَنَّةِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ مَاءٍ وَخَمْرٍ وَعَسَلٍ وَلَبَنٍ، يُصْرَفُونَهَا وَيُجْرُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي: مَا كَيْفَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿يَعْمُ أَجْرَ الْعَمِلِينَ﴾ يَغْمَثُ هَذِهِ الْعُرْفُ أَجْرًا عَلَى أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَي: عَلَى دِينِهِمْ. وَهَاجَرُوا إِلَى اللهِ وَنَابَدُوا الْأَعْدَاءَ، وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْأَقْرِبَاءَ، ابْتِعَاءً وَجْهَ اللهِ وَرَجَاءَ مَا عِنْدَهُ وَتَضَدِيقِ مَوْعُودِهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ [أَبِي مُعَاوِيَةَ] الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ أَبَا مَالِكٍ الْأَشْعَرِيَّ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُ: أَنَّ فِي الْجَنَّةِ عُرْفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَطَابَ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ، وَقَامَ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسَ نِيَامًا^(١). ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فِي أَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، ثُمَّ أَحْبَرَهُمْ تَعَالَى أَنَّ الرَّزْقَ لَا يَخْتَصُّ بِشَيْءٍ، بَلْ رِزْقُهُ تَعَالَى عَامٌّ لِيَخْلُقَهُ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا، بَلْ كَانَتْ أَرْزَاقُ الْمُهَاجِرِينَ حَيْثُ هَاجَرُوا أَكْثَرَ وَأَوْسَعَ وَأَطْيَبَ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ صَارُوا حُكَّامَ الْبِلَادِ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أَي: لَا تَطِيقُ جَمْعَهُ وَتَحْصِيلَهُ وَلَا تَدْخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أَي: اللهُ يُقَيِّضُ لَهَا رِزْقَهَا عَلَى ضَعْفِهَا وَيُسِّرُهُ عَلَيْهَا، فَيَبْعَثُ إِلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ الرَّزْقِ مَا يَضِلُّحُهُ حَتَّى الذَّرِّ فِي قَرَارِ الْأَرْضِ، وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ وَالْحَيْتَانِ فِي الْمَاءِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَسُوءَ عَمَلِهَا كُلِّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

٤٠٤

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعُوا إِلَى اللهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَدْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتِعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِمَّةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقْرَأَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَأَكْذَبَ بِالْحَقِّ لَمَآ جَاءَهُهُ آيَاتُ الْبُرْهُانِ فِي جَهَنَّمَ مَتَوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَرَبِ ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومَ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَقْعُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَي: السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَاتِهِمْ.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٦١﴾ اللهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

[أَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرَّرًا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْمُسْتَقِيلُ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَتَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ وَمُقَدِّرُ آجَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهَا، وَاخْتِلَافِ أَرْزَاقِهِمْ فَتَفَاوَتَ بَيْنَهُمْ: فَمِنْهُمْ

(١) الطبراني: ٣٠١/٣ مسند أحمد ٣٤٣/٥ أبو معاذ لم يشبه سماعه من أبي مالك الأشعري

الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَصْلُحُ كُلًّا مِنْهُمْ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَنَى مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ الْمُسْتَقْبَلُ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ، الْمُنْفَرِدُ بِتَدْيِيرِهَا، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلِمَ يُعْبَدُ غَيْرُهُ؟ وَلِمَ يُتَوَكَّلُ عَلَى غَيْرِهِ؟ فَكَمَا أَنَّهُ الْوَاحِدُ فِي مَلِكِهِ فَلْيَكُنِ الْوَاحِدُ فِي عِبَادَتِهِ، وَكَثِيرًا مَا يُفَرِّزُ تَعَالَى مَقَامَ الْإِلَهِيَّةِ بِالْإِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ. وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيهِمْ: لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [١٧] فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَائِكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَعْمُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ حَقَارَةِ الدُّنْيَا وَزَوَالِهَا وَإِنْفِصَائِهَا، وَأَنَّهَا لَا دَوَامَ لَهَا، وَغَايَةُ مَا فِيهَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أَي: الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الْحَقُّ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْفِصَاءَ، بَلْ هِيَ مُسْتَمِرَّةٌ أَبَدَ الْأَبَادِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: لَأَتَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ عِنْدَ الْإِضْطِرَارِ يَدْعُونَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهَلَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ دَائِمًا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَائِكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ...﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٧]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. فَذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ هَهُنَا قِصَّةَ إِسْلَامِ عِكْرَمَةَ بِنِ أَبِي جَهْلٍ تَقْدِيمَ تَخْرِيجِهَا] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَعْمُوا﴾ هَذِهِ الْأَمْ يُسَمِّيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِ وَعُلَمَاءِ الْأُصُولِ: «لَا مَ الْعَاقِبَةِ» لِأَنَّهُمْ لَا يَقْضُونَ ذَلِكَ. وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَتَقْيِضِهِ إِيَّاهُمْ لِذَلِكَ فَهِيَ لَا مَ التَّغْلِيلِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا تَقْرِيرَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عُدُوًّا وَحَرًّا﴾ [الْقِصَصُ: ٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَعْرُوفًا وَيَحْطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِئَابًا لِبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [٧] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

[كُفِّرُوا قُرَيْشٍ مَعَ مَا خُصُّوا بِنِعْمَةِ الْحَرَمِ حَوْلَهُمْ!]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنِّتًا عَلَى قُرَيْشٍ فِيمَا أَحْلَاهُمْ مِنْ حَرَمِهِ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سِوَاءِ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، فَهُمْ فِي أَمْنٍ عَظِيمٍ، وَالْأَعْرَابُ حَوْلَهُ يَنْهَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿لِيَلْبِغَ قُرَيْشٍ﴾ [١] إِيْلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ

وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: ١-٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفِئَابًا لِبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أَي: أَفَكَانَ شُكْرُهُمْ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ أَشْرَكُوا بِهِ وَعَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿وَبَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وَكَفَرُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ وَعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ؟ فَكَانَ اللَّاتِقُ بِهِمْ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَأَنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ، وَتَصَدِيقَ الرَّسُولِ وَتَعْظِيمَهُ وَتَوْفِيرَهُ، فَكَذَّبُوهُ وَقَاتَلُوهُ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَلِهَذَا سَلَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مَا كَانَ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ بِدَرٍ، ثُمَّ صَارَتِ الدُّوْلَةُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مَكَّةَ، وَأَرْعَمَ آتَافَهُمْ وَأَدَّلَ رِقَابَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أَي: لَا أَحَدَ أَشَدَّ عُقُوبَةً مِمَّنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ. وَمَنْ قَالَ: سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَهَكَذَا لَا أَحَدَ أَشَدَّ عُقُوبَةً مِمَّنْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ، فَالْأَوَّلُ مُتَمَرِّدٌ، وَالثَّانِي مُكَذِّبٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يَعْنِي الرَّسُولَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ وَأَتْبَاعَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أَي: لَنُبَصِّرَنَّهُمْ سُبُلَنَا، أَي: طُرُقَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبَّاسِ الْهَمْدَانِيِّ أَبِي أَحْمَدَ - مِنْ أَهْلِ عَمَّا - فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قَالَ: الَّذِينَ يَعْلَمُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ وَيَهْدِيَهُمُ اللَّهُ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ. قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ: فَحَدَّثْتُ بِهِ أَبَا سَلِيمَانَ الدَّارَانِيَّ، فَأَعْجَبَهُ وَقَالَ: لَيْسَ يَتَّبِعِي لِمَنْ أُلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ حَتَّى يَسْمَعَهُ فِي الْأَثَرِ، فَإِذَا سَمِعَهُ فِي الْأَثَرِ عَمِلَ بِهِ، وَحَمِدَ اللَّهَ حَتَّى وَافَقَ مَا فِي قَلْبِهِ ^(١).

(١) ابن أبي حاتم (١٧٤٥١) ٩/٣٠٨٤ هذا مقطع

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، لَيْسَ الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ^(١). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعُنُكُبُوتِ. وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الرُّومِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي عَلَّمَ الرُّومَ﴾ (٢) فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِينَتِ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ بِبَصَرِ اللَّهِ بِنَصْرِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿٤﴾

[التَّبَسُّؤُ بِغَلْبَةِ الرُّومِ]

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ حِينَ غَلَبَ سَابُورُ مَلِكُ الْفَرَسِ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمَا وَالَاهَا مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَأَقَاصِي بِلَادِ الرُّومِ. وَأَضْطَرَّ هِرَقْلُ مَلِكِ الرُّومِ حَتَّى أَلْجَأَهُ إِلَى الْفُسْطَاطِيَّةِ وَحَاصِرَهُ فِيهَا مَدَّةَ طَوِيلَةٍ، ثُمَّ عَادَتِ الدَّوْلَةُ لِهِرَقْلٍ كَمَا سَيَأْتِي. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ الرُّومَ﴾ (٢) فِي آدَى الْأَرْضِ ﴿٣﴾ قَالَ: عَلِمْتُ وَعَلِمْتُ. قَالَ: كَانَ الْأُمَشَرُّونَ يُجِبُونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ، لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ أَوْتَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُجِبُونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُمْ سَيَعْلِبُونَ» فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ، فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا، فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمَّ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُونَ - أَرَاهُ قَالَ: الْعَشْرَ -» قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَلْبَضُّ مَا دُونَ الْعَشْرِ، ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدَ. قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِي عَلَّمَ الرُّومَ﴾ (٢) فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِينَتِ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ بِبَصَرِ اللَّهِ بِنَصْرِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ

وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ. وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوْلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ يُظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوءَاتِ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا إِشْرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ بِتَفَرُّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

الرَّحِيمِ ﴿[الروم: ١-٥]﴾ هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٣).

(حَدِيثٌ آخَرُ): رَوَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ نِبَارِ بْنِ مُكْرَمِ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِي عَلَّمَ الرُّومَ﴾ (٢) فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِينَتِ اللَّهِ فَأَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَاهْرَبِينَ لِلرُّومِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُجِبُونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ بِبَصَرِ اللَّهِ بِنَصْرِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسٍ، لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ، وَلَا إِيمَانُ بِعَيْتِ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بِصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ: ﴿الَّذِي عَلَّمَ الرُّومَ﴾ (٢) فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ

(١) ابن أبي حاتم (١٧٤٥٦) ٩/٣٠٨٥ (٢) أحمد: ١/٢٧٦

(٣) تحفة الأحودى: ٩/٥١ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٢٦

السَّلَامَ، وَزَادُوا فِيهِ وَتَقَصُّوا مِنْهُ، فَصَلُّوا إِلَى الْمَشْرِقِ، وَاعْتَاضُوا عَنِ السَّبْتِ بِالْأَحَدِ، وَعَبَدُوا الصَّلِيبَ وَأَحَلُّوا الْحِنْزِيرَ، وَاتَّخَذُوا أَعْيَادًا أَحَدَتْوَهَا كَعِبَادِ الصَّلِيبِ وَالْقَدَّاسِ وَالْغَطَّاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْبُتُوعِثِ [وَالشَّعَائِنِ]، وَجَعَلُوا لَهُ الْبَابَ، وَهُوَ كَبِيرُهُمْ، ثُمَّ الْبَتَّارِكَةَ، ثُمَّ الْمَطَّارَةَ، ثُمَّ الْأَسَافَةَ وَالْقَسَاقِسَةَ، ثُمَّ الشَّمَامِسَةَ، وَابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ، وَبَنَى لَهُمُ الْمَلِكُ الْكُنَائِسَ وَالْمَعَابِدَ، وَأَسَّسَ الْمَدِينَةَ الْمَسْنُوبَةَ إِلَيْهِ وَهِيَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، يُقَالُ: إِنَّهُ بَنَى فِي أَيَّامِهِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ كَنِيسَةٍ، وَبَنَى بَيْتَ لَحْمٍ بِثَلَاثِ مَحَارِبٍ، وَبَنَتْ أُمُّهُ الْقِمَامَةَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَلِكِيَّةُ، يَعْنُونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ.

ثُمَّ حَدَّثَتْ بَعْدَهُمُ الْيَعْقُوبِيَّةُ، أَتْبَاعُ يَعْقُوبَ الْإِسْكَافِ، ثُمَّ الشُّطُورِيَّةُ أَصْحَابُ نَسْطُورًا، وَهُمْ فِرْقٌ وَطَوَائِفُ كَثِيرَةٌ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُمْ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»^(٢). وَالْغَرَضُ: أَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ، كُلَّمَا هَلَكَ قَيْصَرٌ خَلَفَهُ آخَرٌ بَعْدَهُ حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ هِرْقُلُ، وَكَانَ مِنْ عَقْلَاءِ الرُّجَالِ، وَوَمِنْ أَحْرَمِ الْمُلُوكِ وَأَذَاهُمْ، وَأَبْعَدِهِمْ غُزْرًا، وَأَقْصَاهُمْ رَأْيًا، فَتَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ فِي رِيَّاسَةِ عَظِيمَةٍ وَأَبْهَةِ [كَبِيرَةٍ]، فَنَاوَأَهُ كِسْرَى مَلِكُ الْفَرَسِ وَمَلِكُ الْبِلَادِ كَالْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ وَالرِّيَّ وَجَمِيعِ بِلَادِ الْعَجَمِ، وَهُوَ سَابُورُ ذُو الْأَكْتَابِ، وَكَانَتْ مَمْلَكَتُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَمْلَكَةِ قَيْصَرَ، وَلَهُ رِيَّاسَةُ الْعَجَمِ، وَحَمَاقَةُ الْفَرَسِ، وَكَانُوا مَجُوسًا يَعْبُدُونَ النَّارَ.

[كَيْفَ غَلَبَ قَيْصَرُ عَلَى كِسْرَى؟]

وَعَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ إِلَيْهِ نُوَابَهُ وَجَيْشَهُ فَقَاتَلُوهُ. وَالْمَشْهُورُ أَنَّ كِسْرَى غَزَاهُ بِنَفْسِهِ فِي بِلَادِهِ، فَقَهَرَهُ وَكَسَرَهُ وَقَصَّرَهُ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُ سِوَى مَدِينَةِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَحَاصَرَهُ بِهَا مَدَّةَ طَوِيلَةٍ، حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ النَّصْرَانِيَّةُ تُعْظِمُهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا، وَلَمْ يَقْدِرْ كِسْرَى عَلَى فَتْحِ الْبَلَدِ، وَلَا أَمَكْنَتُهُ ذَلِكَ لِحِصَانَتِهَا؛ لِأَنَّ نِصْفَهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْبَرِّ، وَنِصْفَهَا الْآخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَحْرِ، فَكَانَتْ تَأْتِيهِمُ الْوَيْبَةُ وَالْمَدَدُ مِنْ هُنَاكَ، فَلَمَّا طَالَ الْأَمْرُ، دَبَّرَ قَيْصَرٌ مَكِيدَةً، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ خَدِيعَةً، فَطَلَبَ مِنْ كِسْرَى أَنْ يُفْلِحَ عَنْ بِلَادِهِ عَلَى مَالٍ يُصَالِحُهُ عَلَيْهِ، وَيَسْتَرِطُ عَلَيْهِ مَا شَاءَ، فَأَجَابَهُ إِلَى

سَكْعَلُوبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِينٍ ﴿٤﴾ قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ: فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، زَعَمَ صَاحِبُكُمْ أَنَّ الرُّومَ سَتَعْلَبُ فَارِسَ فِي بَضْعِ سِينٍ، أَفَلَا نَرَاهُنْكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرَّهَانِ، فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ، وَتَوَاضَعُوا الرَّهَانَ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ: كَمْ نَجْعَلُ - الْبَضْعُ: ثَلَاثُ سِينٍ إِلَى تِسْعِ سِينٍ -؟ فَسَمَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ. قَالَ: فَسَمُّوا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِينٍ، قَالَ: فَصَصَّتْ سِتَّ السِّنِينَ قَبْلَ أَنْ يَطْهَرُوا، فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةَ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ قَالَ: فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَتَهُ سِتَّ سِينٍ، قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿فِي بَضْعِ سِينٍ﴾ قَالَ: فَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ. هَكَذَا سَأَفَهُ التِّرْمِذِيُّ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١).

[مَنْ هُمُ الرُّومُ؟]

وَلْتَتَكَلَّمْ عَلَى كَلِمَاتِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿التَّوْحِيدُ﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٥﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ: فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَأَمَّا الرُّومُ فَهُمْ مِنْ سَلَالَةِ الْعَيْصِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَمِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيُقَالُ لَهُمْ: بَنُو الْأَصْفَرِ، وَكَانُوا عَلَى دِينِ الْيُونَانِ، وَالْيُونَانُ مِنْ سَلَالَةِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ أَبْنَاءُ عَمِّ التُّرْكِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْكُوكِبَ السَّيَّارَةَ السَّعْتَةَ، وَيُقَالُ لَهَا: الْمُتَحَيَّرَةُ، وَيُصَلُّونَ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وَهُمْ الَّذِينَ أَسَّسُوا دِمَشْقَ، وَبَنَوْا مَعْبَدَهَا، وَفِيهِ مَحَارِبٌ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ، فَكَانَ الرُّومُ عَلَى دِينِهِمْ إِلَى بَعْدِ مَبْعَثِ الْمَسِيحِ بِنَحْوِ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ مِنْ مَلِكِ الشَّامِ مَعَ الْجَزِيرَةِ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ قَيْصَرٌ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنَ الْمُلُوكِ قُسْطَنْطِينُ بْنُ قُسْطَسَ وَأُمُّهُ مَرْيَمُ الْهَلْبَانِيَّةُ [الشَّدَقَانِيَّةُ] مِنْ أَرْضِ حِرَّانَ، كَانَتْ قَدْ تَنَصَّرَتْ قَبْلَهُ، فَدَعَّاهُ إِلَى دِينِهَا، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِيلَسُوفًا فَتَابَعَهَا - يُقَالُ: تَقَبَّاهُ - وَاجْتَمَعَتْ بِهِ النَّصْرَانِيَّةُ وَتَنَاطَرُوا فِي زَمَانِهِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَرْيُوسَ، وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا مُتَشَبِّهًا مُتَشَبِّهًا لَا يَنْضَبِطُ، إِلَّا أَنَّهُ اتَّفَقَ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ ثَلَاثِمِائَةً وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَسْقَفًا، فَوَضَعُوا لِقُسْطَنْطِينِ الْعَقِيدَةَ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ، وَإِنَّمَا هِيَ الْخِيَانَةُ الْحَقِيرَةُ، وَوَضَعُوا لَهُ الْقَوَائِنَ يَعْنُونَ كُتُبَ الْأَحْكَامِ مِنْ تَحْرِيمِ وَتَحْلِيلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَغَيْرُوا دِينَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ

عِنْدَ النَّصَارَى، وَيَقِي كِسْرَى وَجُوشَهُ حَائِرِينَ لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَصْنَعُونَ، لَمْ يَحْضُلُوا عَلَى بِلَادِ قَيْصَرَ، وَبِلَادِهِمْ قَدْ خَرَبَتْهَا الرُّومُ، وَأَخَذُوا حَوَاصِلَهُمْ، وَسَبَّوْا ذُرَارِيَهُمْ، وَنَسَاءَهُمْ، فَكَانَ هَذَا مِنْ غَلَبِ الرُّومِ لِفَارِسَ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ تِسْعِ سِنِينَ مِنْ غَلَبِ فَارِسَ لِلرُّومِ، وَكَانَتْ الْوَفْعَةُ الْكَائِنَةُ بَيْنَ فَارِسَ وَالرُّومِ حِينَ غَلَبَتْ الرُّومُ بَيْنَ أَذْرَعَاتِ وَيْضَرَى عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَغَيْرُهُمَا، وَهِيَ طَرْفُ بِلَادِ الشَّامِ مِمَّا يَلِي بِلَادَ الْحِجَازِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ ذَلِكَ فِي الْجَزِيرَةِ، وَهِيَ أَقْرَبُ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ فَارِسَ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أَيُّ مِنْ قَبْلُ ذَلِكَ وَمِنْ بَعْدِهِ، فَبَيَّنَّ عَلَى الصَّمِّ لَمَّا قُطِعَ الْمُصَافُ - وَهُوَ قَوْلُهُ قَبْلُ - عَنِ الْإِصَافَةِ وَتَوَيْتُ ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بِتَصْرِ اللَّهِ أَيُّ لِلرُّومِ أَصْحَابِ قَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ عَلَى فَارِسَ أَصْحَابِ كِسْرَى، وَهُمْ الْمَجْرُسُ، وَكَانَتْ نُصْرَةُ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ يَوْمَ وَفْعَةَ بَدْرٍ فِي قَوْلِ طَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، كَابْنِ عَبَّاسٍ وَالثَّوْرِيِّ وَالشَّيْخِ وَغَيْرِهِمْ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الثَّرِيمِي وَأَبْنُ جَرِيرٍ وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، ظَهَرَتْ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ فَفَرِحُوا بِهِ، وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بِتَصْرِ اللَّهِ بِتَصْرِ مَنْ يَسَاءُ وَهُوَ الْعَكِيزُ الرَّحِيمُ^(١).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الزُّبَيْرِ الْكِلَابِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ غَلَبَةَ فَارِسَ الرُّومَ، ثُمَّ رَأَيْتُ غَلَبَةَ الرُّومِ فَارِسَ، ثُمَّ رَأَيْتُ غَلَبَةَ الْمُسْلِمِينَ فَارِسَ وَالرُّومَ، كُلُّ ذَلِكَ فِي خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَكِيزُ﴾ أَيُّ: فِي انْتِصَارِهِ وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَّ اللهُ لَا يُخْلَفُ اللهُ وَعَدَّهُ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ! مِنْ أَنَا سَنَنْصُرُ الرُّومَ عَلَى فَارِسَ وَعَدُّ مِنَ اللهِ حَقٌّ، وَخَبِرَ صِدْقٌ لَا يُخْلَفُ، وَلَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِ وَوُقُوعِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ جَرَتْ سُنَّتُهُ أَنْ يَنْصُرَ أَقْرَبَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَلَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ، وَيَجْعَلَ لَهَا الْعَاقِبَةَ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

ذَلِكَ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَمْوَالًا عَظِيمَةً لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرٍ وَأَقْمِشَةٍ وَجَوَارِحٍ وَخُدَامٍ وَأَصْنَافٍ كَثِيرَةٍ، فَطَاوَعَهُ قَيْصَرٌ وَأَوْهَمَهُ أَنَّ عِنْدَهُ جَمِيعَ مَا طَلَبَ، وَاسْتَقَلَّ عَقْلُهُ لَمَّا طَلَبَ مِنْهُ مَا طَلَبَ، وَلَوْ اجْتَمَعَ هُوَ وَإِيَّاهُ لَعَجَزَتْ قُدْرَتُهُمَا عَنْ جَمْعِ عَشْرِهِ، وَسَأَلَ كِسْرَى أَنْ يَمَكِّنَهُ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ وَأَقَالِيمِ مَمْلَكَتِهِ؛ لِيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ مِنْ ذَخَائِرِهِ وَحَوَاصِلِهِ وَدَفَائِنِهِ، فَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ، فَلَمَّا عَزَمَ قَيْصَرٌ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَدِينَتِهِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَجَمَعَ أَهْلَ مِلَّتِهِ وَقَالَ: إِنِّي خَارِجٌ فِي أَمْرٍ قَدْ أْبْرَمْتُهُ فِي جُنْدٍ قَدْ عَيْتُهُ مِنْ جَيْشِي، فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَيْكُمْ قَبْلَ الْحَوْلِ، فَأَنَا مَلِكُكُمْ، وَإِنْ لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ قَبْلَهَا، فَأَنْتُمْ بِالْخِيَارِ: إِنْ شِئْتُمْ اسْتَمْرَزْتُمْ عَلَيَّ بِنِعْتِي، وَإِنْ شِئْتُمْ وَلَيْتُمْ عَلَيْكُمْ غَيْرِي، فَأَجَابُوهُ بِأَنَّكَ مَلِكُنَا مَا دُمْتَ حَيًّا، وَلَوْ غَبَتْ عَشْرَةُ أَعْوَامٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خَرَجَ جَرِيدَةً فِي جَيْشٍ مُتَوَسِّطٍ هَذَا، وَكِسْرَى مُحَيِّمٌ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَنْتَظِرُهُ لِيَرْجِعَ، فَرَكِبَ قَيْصَرٌ مِنْ فُورِهِ وَسَارَ مُسْرِعًا حَتَّى انْتَهَى إِلَى بِلَادِ فَارِسَ، فَعَاتَ فِي بِلَادِهِمْ قَتْلًا لِرِجَالِهَا وَمَنْ بِهَا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ أَوْلًا فَأَوْلًا، وَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَدَائِنِ وَهِيَ كُرْسِيُّ مَمْلَكَةِ كِسْرَى، فَفَقَتَلَ مَنْ بِهَا وَأَخَذَ جَمِيعَ حَوَاصِلِهِ وَأَمْوَالِهِ، وَأَسْرَ نِسَاءَهُ وَحَرِيمَهُ، وَحَلَقَ رَأْسَ وَلَدِهِ وَرَكَّبَهُ عَلَى حِمَارِهِ، وَبَعَثَ مَعَهُ مِنَ الْأَسَاوِرَةِ مِنْ قَوْمِهِ فِي غَايَةِ الْهَوَانِ وَالذَّلَّةِ، وَكَتَبَ إِلَى كِسْرَى يَقُولُ: هَذَا مَا طَلَبْتَ فَخُذْهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ كِسْرَى أَخَذَهُ مِنَ الْعَمِّ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَاسْتَدَّ حَنْقَهُ عَلَى الْبَلَدِ، فَجَدَّ فِي حِصَارِهَا بِكُلِّ مُمْكِنٍ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا عَجَزَ رَكِبَ لِيَأْخُذَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ مِنْ مَخَاضَةِ جَيْحُونَ الَّتِي لَا سَبِيلَ لِقَيْصَرَ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَّا مِنْهَا، فَلَمَّا عَلِمَ قَيْصَرٌ بِذَلِكَ، اخْتَالَ بِحِيلَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ يُسَبِّحْ إِلَيْهَا، وَهُوَ أَنَّهُ أَرْصَدَ جُنْدَهُ وَحَوَاصِلَهُ الَّتِي مَعَهُ عِنْدَ فَمِ الْمَخَاضَةِ، وَرَكَّبَ فِي بَعْضِ الْجَيْشِ، وَأَمَرَ بِأَحْمَالِ مِنَ التَّنِّينِ وَالْبَعْرِ وَالرَّوْثِ، فَحَمَلَتْ مَعَهُ، وَسَارَ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ يَوْمٍ فِي الْمَاءِ مُضْعَدًا، ثُمَّ أَمَرَ بِالْقَاءِ تِلْكَ الْأَحْمَالِ فِي التَّهَرِّ، فَلَمَّا مَرَّتْ بِكِسْرَى وَجُنْدِهِ ظَنَّ أَنَّهُمْ قَدْ حَاضُوا مِنْ هُنَالِكَ، فَرَكِبُوا فِي طَلَبِهِمْ فَشَعَرَتْ الْمَخَاضَةُ عَنِ الْفَرَسِ، وَقَدِمَ قَيْصَرٌ فَأَمَرَهُمُ بِالنُّهُوضِ وَالْحَوْضِ، فَحَاضُوا وَأَسْرَعُوا السَّيْرَ، فَفَاتُوا كِسْرَى وَجُنُودَهُ، وَدَخَلُوا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَكَانَ ذَلِكَ يَوْمًا مَشْهُودًا

(١) تحفة الأحوذى: ٥٠/٩ والطبري: ٧٣/٢٠

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ أَي: بِحُكْمِ اللَّهِ فِي كُوزِهِ، وَأَفْعَالِهِ الْمُحْكَمَةِ الْجَارِيَةِ، عَلَى وَفْقِ الْعَدْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ أَي أَكْثَرُ النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ إِلَّا بِالذُّنْيَا وَأَكْسَابِهَا وَشُؤْنِهَا وَمَا فِيهَا، فَهُمْ حُدَاقٌ أَذْكِيَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا وَوُجُوهَ مَكَاسِبِهَا، وَهُمْ غَافِلُونَ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَمَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَأَنَّ أَحَدَهُمْ مَعْقِلٌ، لَا ذَهْنَ لَهُ وَلَا فِكْرَةَ. قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: وَاللَّهِ لَيَبْلُغُ مِنْ أَحَدِهِمْ بِذُنْبَاهُ أَنْ يَغْلِبَ الدَّرْهَمَ عَلَى ظَفَرِهِ، فَيُخْرِكَ بِوَزْنِهِ وَمَا يُحْسِنُ أَنْ يُصَلِّيَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ يَعْنِي: الْكُفَّارَ يَعْرِفُونَ عُمُرَانَ الدُّنْيَا، وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَالٌ (١).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (١٠) أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ وَمَا عَمَرُوهَا وَحَمَلَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى السُّورَاتِ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٢)

[دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَّبِعًا عَلَى التَّفَكُّرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّلَالَةَ عَلَى وُجُودِهِ وَإِنْفِرَادِهِ بِخَلْقِهَا، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، فَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يَعْنِي بِهِ النَّظَرَ وَالتَّدَبُّرَ وَالتَّامُّلَ لِيَخْلُقَ اللَّهُ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُوبِيِّ وَالسُّفْلِيِّ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَوَعَّجَةِ وَالْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَيَعْلَمُوا أَنَّهَا مَا خَلَقَتْ سُدًى وَلَا بَاطِلًا، بَلْ بِالْحَقِّ، وَأَنَّهَا مُوجَّهَةٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ثُمَّ نَهَهُمْ عَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ عَنْهُ، بِمَا أَيْدَهُمْ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَنَجَاةِ مَنْ صَدَقَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: بِأَفْعَالِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَنَظَرِهِمْ وَسَمَاعِ أَخْبَارِ الْمَاضِيْنَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أَي: كَانَتْ الْأُمَمُ الْمَاضِيَّةُ وَالْقُرُونُ السَّالِفَةُ أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَكْثَرَ

أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، وَمَا أُوْتِيتُمْ مِعْشَارَ مَا أُوتُوا، وَمُكَّنُوا فِي الدُّنْيَا تَمْكِينًا لَمْ تَلْعَنُوا إِلَيْهِ، وَعَمَرُوا فِيهَا أَعْمَارًا طَوَالًا، فَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِنْكُمْ، وَاسْتَعْلَمُوهَا أَكْثَرَ مِنْ اسْتِعْلَامِكُمْ، وَمَعَ هَذَا فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا، أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ، وَلَا حَالَتْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بُاسِ اللَّهِ، وَلَا دَعُوا عَنْهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ فِيمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكْوَالِ ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَي: وَإِنَّمَا أُوتُوا مِنْ أَنفُسِهِمْ حَيْثُ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاسْتَهْزَؤُوا بِهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْمُتَقَدِّمِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى السُّورَاتِ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَقَلَّبَ أَفْتِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدَرْتَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا آيَاتِ اللَّهِ قَلْبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] وَقِيلَ: بَلِ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى السُّورَاتِ﴾ [الروم: ١٠] أَي: كَانَتْ السُّورَاتُ عَاقِبَتَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ. هَذَا تَوْجِيهُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَتَقَلَّبَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ (١). وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُمَا وَعَنِ الصَّحَّاحِ بْنِ مَرَّاجٍ، وَهُوَ الظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْسِئُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا إِشْرَاكِيَهُمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِدُ يُنْفِرُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ (١٦)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أَي: كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى بَدْءِهِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْسِئُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَبْسِئُ الْمُجْرِمُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَنْتَضِحُ الْمُجْرِمُونَ، وَفِي

رواية: يَكْتَبُ الْمُجْرِمُونَ^(١). ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، وكفروا بهم وحاتونهم أحوج ما كانوا إليهم. ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُفِرُّونَ﴾ قَالَ قَتَادَةَ: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها^(٢). يعني أنه إذا رُفِعَ هذا إلى عليين، وخُفِضَ هذا إلى أسفل سافلين، فذلك آخر العهد بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قَالَ مجاهد وقَتَادَةَ: يتعمون^(٣).

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

[الأمر بالصلوات الخمس]

هذا تسييح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد عباده إلى تسييحِهِ وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه: عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح، وهو إسفار النهار [عن] ضيائه. ثم اعترض بحمده مناسبة للتسييح وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ أي: هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض، ثم قال تعالى: ﴿وعشياً وحين تظهرون﴾ فالعشاء هو شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء، فسبحان خالق هذا وهذا، فالنهار الإضباح، وجاعل الليل سكتنا، كما قال تعالى: ﴿والنهار إذا جلتها﴾ وأليل إذا يمشها [الشمس: ٤، ٣] وقال تعالى: ﴿وأليل إذا بعثنا﴾ والنهار إذا تجل [الليل: ٢١، ٢٠] وقال تعالى: ﴿والضحى﴾ وأليل إذا سجد [الضحى: ١، ٢] والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتعاقبة، وهذه الآيات المتتالية الكريمة كلها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها؛ ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج التبات من الحب، والحب من التبات، والتبضع من الدجاج والدجاج من التبضع، والإنسان من التطفة والتطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، وقوله

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٨﴾ وَلهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٩﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ وَاللَّوْنُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَا مَكَّرَ بِالنَّارِ وَالنَّهَارِ وَأَبْغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾

تعالى: ﴿ويحي الأرض بعد موتها﴾ كقوله تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها ماءً فجعلنا من ذلك حيا فآية لهم﴾ إلى قوله ﴿وفجرنا فيها من العيون﴾ [يس: ٣٣، ٣٤] وقال تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنتنت من كل زوج بهيج﴾ إلى قوله ﴿وأرسل الله ببعث من في القبور﴾ [الحج: ٥-٧] وقال تعالى: ﴿وهو الذي يرسل الريح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا﴾ إلى قوله ﴿لعلكم تذكرون﴾ [الاعراف: ٥٧] ولهذا قال ههنا: ﴿وكذلك تخرجون﴾.

﴿ومِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

(١) الطبري: ٨٠/٢٠ (٢) الطبري: ٨١/٢٠ (٣) الطبري: ٨٢/٢٠

[مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، أَنَّهُ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ﴿ثُمَّ إِذَا أَشْرَ بَشَرٌ تَنْشَرُونَ﴾ فَأَصْلُكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ تَصَوَّرَ فَكَانَ عَلاَقَةً ثُمَّ مَضْغَةً، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا، شَكْلُهُ عَلَى شَكْلِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ كَسَا اللَّهُ تِلْكَ الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَإِذَا هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ صَغِيرًا ضَعِيفَ الْقُوَى وَالْحَرَكَةِ، ثُمَّ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُهُ تَكَامَلَتْ قُوَاهُ وَحَرَكَاتُهُ حَتَّى آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ صَارَ بَيْنِي الْمَدَائِنِ وَالْحُصُونِ، وَيُسَافِرُ فِي أَقْطَارِ الْأَقَالِيمِ، وَيَرْكُبُ مَتَنَ الْبُحُورِ، وَيَدُورُ أَقْطَارَ الْأَرْضِ، وَيَتَكَسَّبُ وَيَجْمَعُ الْأَمْوَالَ، وَلَهُ فِكْرَةٌ وَعُزُورٌ وَدَهَاءٌ وَمَكْرٌ، وَرَأْيٌ وَعِلْمٌ، وَاتِّسَاعٌ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كُلِّ بِحَسْبِهِ، فَسَبَّحَانَ مَنْ أَقْدَرَهُمْ وَسَيَّرَهُمْ وَسَخَّرَهُمْ وَصَرَّفَهُمْ فِي فُنُونِ الْمَعَايِشِ وَالْمَكَايِيبِ، وَفَاوَرَتْ بَيْنَهُمْ فِي الْعُلُومِ وَالْفِكْرِ، وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ، وَالسَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَشْرَ بَشَرٌ تَنْشَرُونَ﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيبُ وَالطَّيِّبُ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أَيَّ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ جِنْسِكُمْ إِنَانًا يَكُنْ لَكُمْ أَزْوَاجًا ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ حَوَاءَ، خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ آدَمَ مِنْ صَلْبِهِ الْأَقْصَرَ الْأَيْسَرَ، وَلَوْ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ بَنِي آدَمَ كُلَّهُمْ ذُكُورًا وَجَعَلَ إِنَانَهُمْ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ إِثْمًا مِنْ جَانٍ أَوْ حَيَّوَانٍ، لَمَا حَصَلَ هَذَا الْإِثْلَافُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَزْوَاجِ، بَلْ كَانَتْ تَحْصُلُ نَفْرَةً لَوْ كَانَتْ الْأَزْوَاجُ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ، ثُمَّ مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بِبَنِي آدَمَ أَنْ جَعَلَ أَزْوَاجَهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ مَوَدَّةً وَهِيَ الْمَحَبَّةُ، وَرَحْمَةً وَهِيَ الرَّافَةُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُمْسِكُ الْمَرْأَةَ إِثْمًا لِمَحَبَّتِهِ لَهَا أَوْ لِرَحْمَتِهِ بِهَا، بِأَنْ يَكُونَ لَهَا مِنْهُ

وَلَدٌ، أَوْ مُحْتَاجَةً إِلَيْهِ فِي الْإِنْفَاقِ، أَوْ لِلْأَلْفَةِ بَيْنَهُمَا، وَعَبَّرَ ذَلِكَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السِّنِّكُمْ وَالْوَالِدِينَ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيَّ: خَلَقَ السَّمَوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَشَفُوفِ أَجْرَامِهَا، وَزَهْرَةَ كَوَاكِبِهَا وَتُجُومِهَا الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي انْحِفَاضِهَا وَكثَافَتِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأُودِيَةٍ وَبِحَارٍ، وَفَنَاجٍ وَحَيَّوَانٍ وَأَشْجَارٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَلْقَ السِّنِّكُمْ﴾ يَعْنِي اللُّغَاتِ، فَهَوْلَاءِ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَهَوْلَاءِ تَنَزَّلَ لَهُمْ لُغَةٌ أُخْرَى، وَهَوْلَاءِ كُرْجٍ، وَهَوْلَاءِ رُومٍ، وَهَوْلَاءِ فِرْنَجٍ، وَهَوْلَاءِ بَرْبَرٍ، وَهَوْلَاءِ تَكُرُورٍ، وَهَوْلَاءِ حَبَشَةَ، وَهَوْلَاءِ هُنُودٍ، وَهَوْلَاءِ عَجَمٍ، وَهَوْلَاءِ صَقَالِيَةَ، وَهَوْلَاءِ حَزْرٍ، وَهَوْلَاءِ أَرْمَنٍ، وَهَوْلَاءِ أَكْرَادٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ اخْتِلَافِ لُغَاتِ بَنِي آدَمَ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ، وَهِيَ: حُلَاهُمْ، فَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ، بَلْ أَهْلُ الدُّنْيَا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كُلُّ لَهُ عَيْنَانِ وَحَاجِبَانِ وَأَنْفٌ وَجَبِينٌ وَقَمٌّ وَخَدَّانِ، وَلَيْسَ يُشْبِهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ الْآخَرَ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَفَارِقَهُ بِشَيْءٍ مِنَ السَّمْتِ أَوْ الْهَيْئَةِ أَوْ الْكَلَامِ ظَاهِرًا كَانَ أَوْ خَفِيًّا يَظْهَرُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ، كُلُّ وَجْهِ مِنْهُمْ أُسْلُوبٌ بِذَاتِهِ وَهَيْئَةٌ لَا تُشْبِهُ أُخْرَى، وَلَوْ تَوَافَقَ جَمَاعَةٌ فِي صِفَةٍ مِنْ جَمَالٍ أَوْ قُبْحٍ لَا بُدَّ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَ الْآخَرَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيَّ وَمِنْ الْآيَاتِ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ صِفَةِ النَّوْمِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِيهِ تَحْصُلُ الرَّاحَةُ وَسُكُونُ الْحَرَكََةِ وَدَهَابُ الْكَلَالِ وَالتَّعَبِ. وَجَعَلَ لَكُمْ الْإِنْتِشَارَ وَالسَّعْيَ فِي الْأَشْبَابِ، وَالْأَشْفَارَ فِي النَّهَارِ، وَهَذَا ضِدُّ النَّوْمِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ أَيَّ: يَعُونَ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرْسِكُمْ الْبَرْقَ حَقَاقًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ

(١) أحمد: ٤٠٦، ٤٠١/٤ (٢) أبو داود: ٦٧/٥ وتحفة

وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَلْبٌ وَفَنِينُونَ ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْتِكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَ هُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَالَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَقْرُبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَأَنْتَهُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٢﴾

عَلَيْهِ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْإِعَادَةُ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنَ الْبِدَاءِ، وَالْبِدَاءُ عَلَيْهِ هَيْئَةً^(٢). وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ^(٣). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدًا». انْفَرَدَ بِإِحْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ^(٤).

وَقَوْلُهُ: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى: ١١] وَقَالَ قَتَادَةُ: مِثْلُهُ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ غَيْرُهُ.

[إِعَادَةُ الْخَلْقِ أَهْوَنُ]

مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٤٦﴾ يَقُولُ تَعَالَى: «وَمِنَ آيَاتِهِ» الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ أَنَّهُ «يُرِيكُمْ الْآيَاتِ حَقْوًا وَطَمَعًا» أَي: تَارَةً تَخَافُونَ مِمَّا يَخْدُتُ بَعْدَهُ مِنْ أَمْطَارٍ مُّزْجِجَةٍ وَصَوَاعِقَ مُتَلَفِّعَةٍ، وَتَارَةً تَرْجُونَ وَمِيضَهُ وَمَا يَأْتِي بَعْدَهُ مِنَ الْمَطَرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أَي: بَعْدَ مَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ، فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ «أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ» [الحج: ٥٥] وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى الْمَعَادِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَتَسْكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ» [الحج: ٦٥] وَقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ يُسْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا» [فاطر: ٤١]. وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْبَيِّنِ يَقُولُ: [لَا] وَالَّذِي تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ، أَي: هِيَ قَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ، بِأَمْرِهِ لَهَا وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهَا، ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَدَلَتْ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، وَخَرَجَتْ الْأَمْوَاتُ مِنْ قُبُورِهَا أَحْيَاءَ بِأَمْرِهِ تَعَالَى وَدَعَائِهِ إِيَّاهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» أَي: مِنْ الْأَرْضِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا» [الإسراء: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا هِيَ بِحَزَرَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿٤٦﴾ فَإِذَا هُمْ بِالنَّازِعَاتِ ﴿١٣﴾ وَ١٤] وَقَالَ تَعَالَى: «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَبْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُخْضَرُونَ» [يس: ٥٣].

«وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَلْبٌ» وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٧﴾ يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أَي: مُلْكُهُ وَغَيْبُهُ «كُلُّ لَهٌ قَلْبٌ» أَي: خَاضِعُونَ خَاشِعُونَ طَوْعًا وَكَرْهًا.

(١) الطبري: ٩٢/٢٠ (٢) الطبري: ٩٢/٢٠ (٣) الطبري: ٩٢/٢٠ (٤) فتح الباري: ٦١١/٨

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ جَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾
[الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَسَدَّدْ وَجْهَكَ وَاسْتَمِرَّ عَلَى الدِّينِ الَّذِي
شَرَعَهُ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْحَيَاةِ بِلَاةِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي هَدَاكَ اللَّهُ لَهَا
وَكَمَلَهَا لَكَ غَايَةَ الْكَمَالِ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَا زِمَ فِطْرَتِكَ
السَّالِمَةَ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ
عَلَى مَعْرِفِهِ وَتَوْجِيدهِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾
[الأعراف: ١٧٢]. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي
حُفَاءً، فَاجْتَلَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ»^(١). وَسَدَّدُ فِي
الْأَحَادِيثِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ طَرَأَ
عَلَى بَعْضِهِمُ الْأَذْيَانُ الْفَاسِدَةُ كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ
وَالْمَجُوسِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ:
مَعْنَاهُ: لَا يُبَدَّلُوا خَلْقَ اللَّهِ فَتَعَيَّرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي
فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا، فَيَكُونُ خَبْرًا بِمَعْنَى الطَّلَبِ، كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وَهُوَ مَعْنَى
حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ خَبْرٌ عَلَى بَابِهِ، وَمَعْنَاهُ
أَنَّهُ تَعَالَى سَاوَى بَيْنَ خَلْقِهِ كُلِّهِمْ فِي الْفِطْرَةِ عَلَى الْجِلَّةِ
الْمُسْتَقِيمَةِ، لَا يُؤَلَّدُ أَحَدٌ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تَفَاوُتَ بَيْنَ
النَّاسِ فِي ذَلِكَ. وَهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَإِبْرَاهِيمُ التَّخَمِي
وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ
زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أَي: لِدِينِ اللَّهِ^(٢).
وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾: لِدِينِ اللَّهِ،
(خَلْقُ الْأَوَّلِينَ): دِينُ الْأَوَّلِينَ، الدِّينُ وَالْفِطْرَةُ: الْإِسْلَامُ.
ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ
مَوْلُودٍ إِلَّا يُؤَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِيَّةً أَوْ نَصْرَانِيَّةً أَوْ
مَجُوسِيَّةً، كَمَا تَنْتُجُ الْبَهْمَةُ بِبَهْمَةٍ جَمْعًا، هَلْ تَحْسُونُ
فِيهَا مِنْ جَدْعَاءِ؟» ثُمَّ يَقُولُ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ﴾ وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ
أَيْضًا^(٣).

﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا
لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٩﴾﴾

[مَثَلٌ يَدُلُّ عَلَى التَّوْحِيدِ]

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ
غَيْرَهُ، الْجَاعِلِينَ لَهُ شُرَكَاءَ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُعْتَرِفُونَ أَنَّ
شُرَكَاءَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِبِيدٌ لَهُ، مُلْكٌ لَهُ، كَمَا كَانُوا
[فِي تَلْبِيَّتِهِمْ] يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ
لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ
أَنفُسِكُمْ﴾ أَي: تَشْهَدُونَ وَتَقْضُونَ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾
أَي: [أ] يَرْضَى أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ شَرِيكًا لَهُ فِي مَالِهِ فَهُوَ
وَهُوَ فِيهِ عَلَى السَّوَاءِ ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أَي:
تَخَافُونَ أَنْ يُقَاسِمُوكُمُ الْأَمْوَالَ؟ قَالَ أَبُو عَجَلَانَ: إِنَّ
مَمْلُوكَكَ لَا تَخَافُ أَنْ يُقَاسِمَكَ مَالَكَ، وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ،
كَذَلِكَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ^(١). وَالْمَعْنَى: إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِفُ مِنْ
ذَلِكَ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْأَنْدَادَ مِنْ خَلْقِهِ؟

رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ يُلَبِّي أَهْلَ
الشُّرُوكِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ
لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ
تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾^(٢). وَلَمَّا كَانَ التَّنْبِيهُ بِهَذَا
الْمَثَلِ عَلَى بَرَاءَةِ تَعَالَى وَزَوَّاهِهِ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى
وَالْآخَرَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَبِينًا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا عَبَدُوا غَيْرَهُ
سَفَهًا مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجَهْلًا ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي:
الْمُشْرِكُونَ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَي: فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَنْدَادَ بِغَيْرِ عِلْمٍ
﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أَي: فَلَا أَحَدَ يَهْدِيهِمْ إِذَا كَتَبَ
اللَّهُ صَلا لَهُمْ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أَي: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ
قُدْرَةِ اللَّهِ مُنْقِذٌ وَلَا مُجِيرٌ وَلَا مَحِيذٌ لَهُمْ عَنْهُ، لِأَنَّهُ مَا شَاءَ
كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَأَقْفُوهُ وَأَقْسِمُوا الصَّلَاةَ

(١) الطبري: ٩٦/٢٠ (٢) الطبراني: ٢٠/١٢ قال الهيثمي في
المجمع ٢٢٣/٣ وفي حماد بن شعيب وهو ضعيف (٣) مسلم:
٢١٩٧/٤ (٤) الطبري: ٩٩/٢٠ (٥) فتح الباري: ٣٧٢/٨
٥١٢/١١ ومسلم: ٢٠٤٧/٤، ٢٠٤٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَمُوا﴾ أَي: التَّمَسُّكُ بِالشَّرِيعَةِ وَالْفِطْرَةَ السَّالِمَةَ هُوَ الدِّينُ الْقِيمُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: فَلِهَذَا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، فَهَمْ عَنْهُ نَاجِبُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ قُطِعَ أَعْزَمُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِصُلُوكِ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [الأنعام: ١١٦]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُبِينٌ إِلَيْهِ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جُرَيْجٍ: أَي: رَاجِعِينَ إِلَيْهِ ^(١). ﴿وَأَتَقَوْهُ﴾ أَي: خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وَهِيَ الطَّاعَةُ الْعَظِيمَةُ، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَي: بَلْ كُونُوا مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الْعِبَادَةَ، لَا يُرِيدُونَ بِهَا سِوَاهُ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: مَرَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فَقَالَ: مَا قِيَامُ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالَ مُعَاذٌ: ثَلَاثٌ، وَهِيَ الْمُنْجِيَاتُ: الْإِحْلَاصُ، وَهِيَ الْفِطْرَةُ ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلِي فَطَرَ النَّاسِ عَلَيَّهَا﴾، وَالصَّلَاةُ، وَهِيَ: الْمِلَّةُ، وَالطَّاعَةُ، وَهِيَ: الْعِصْمَةُ، فَقَالَ عُمَرُ: صَدَقْتَ ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ جَزِئٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِئْحُونَ﴾ أَي: لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَدَّ فَرَقُوا دِينَهُمْ أَي: بَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ، وَأَمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (فَارَقُوا دِينَهُمْ)، أَي: تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَعَبْدَةَ الْأوثَانِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ مِمَّا عَدَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أُنزِلَتْ إِلَى اللَّهِ...﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فَأَهْلُ الْأَدْيَانِ قَبْلَنَا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى آراءٍ [وإملا] بَاطِلَةٍ، وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تَزْعُمُ أَنَّهَا عَلَى شَيْءٍ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَيْضًا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى كُلِّهَا ضَلَالَةً إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، الْمَتَمَسِّكُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِمَا كَانَ عَلَيْهِ الصِّدْقُ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ، كَمَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ: أَنَّهُ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ مِنْهُمْ فَقَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» ^(٣).

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ^(٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ^(٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُونَ

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ^(٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ^(٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ^(٣٥) وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ^(٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ^(٣٧) فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(٣٨) وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رَبِّ لِيُرِيُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ^(٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مَن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ^(٤٠) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(٤١)

بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ^(٣٥) وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ^(٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ^(٣٧)

[تَقَلَّبَ الْإِنْسَانُ مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الشَّرْكِ وَمِنَ الْفَرَحِ إِلَى الْيَأْسِ حَسَبَ الظَّرُوفِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ النَّاسِ أَنَّهُمْ فِي حَالِ الْأَضْطِرَارِ يَدْعُونَ اللَّهَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ إِذَا قَرِيبٌ مِنْهُمْ فِي حَالِهِ الْأَخْيَارِ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ، وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ هِيَ لَامُ الْعَاقِبَةِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَلَا مِ التَّغْلِيلِ عِنْدَ آخَرِينَ، وَلِكَيْتَها تَغْلِيلٌ لِتَقْيِيزِ اللَّهِ لَهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللَّهِ! لَوْ تَوَعَّدَنِي حَارِسُ دَرْبِ

(١) الطبري: ١٠٠/٢٠ (٢) الطبري: ٩٨/٢٠ إسناده ضعيف شيخ الطبري محمد بن حميد الرازي ضعيف جدا وفي سند آخر أبو قلابه عن عمر ومعاذ مرسل. (٣) الحاكم: ١٢٩/١

لَخِيفَتْ مِنْهُ، فَكَيْفَ وَالْمَتَوَعَّدُ هَهُنَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ عِبَادَةٍ غَيْرِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أَيُّ: حُجَّةً ﴿يَهُوَ بِتِلْكَ﴾ أَيُّ: يَنْطِقُ ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ وَهَذَا اسْتِنْفَاهُ إِنْكَارٍ، أَيُّ: لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِلَّا مِنْ عَصَمَةِ اللَّهِ وَوَقْفِهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَطِرَ وَقَالَ: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ إِنَّهُمْ لَفَرِحَ فَخُورٌ [هود: ١٠] أَيُّ: يَفْرَحُ فِي نَفْسِهِ وَيَفْخَرُ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَطَطَ وَأَيْسَأَنَ أَنْ يَحْضَلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ بِالْكَافِيَّةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] أَيُّ: صَبَرُوا فِي الصَّرَاءِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي الرَّخَاءِ. كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَيُّ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْفَاعِلُ لِلذِّكْرِ بِحُكْمِيَّتِهِ وَعَدْلِهِ، فَيُوسِّعُ عَلَى قَوْمٍ وَيَضَيِّقُ عَلَى آخَرِينَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَاتَّابَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْيَتِيمَ وَالَّذِينَ يَحْتَضِرُ الْوَيْلَ يَدْعُونَ﴾ وَمَا عَاتَيْتَهُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا عَاتَيْتَهُمْ مِنْ ذِكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَمَا اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٢٦﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعْسِكُمْ ثُمَّ يُعْجِبُكُمْ هَدًى مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٧﴾

[الْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَمَا وَرَدَ فِي رِبَا الْهَدْيَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِإِعْطَاءِ ﴿ذِي الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أَيُّ: مِنْ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ ﴿وَالْيَتِيمَ﴾ وَهُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، أَوْ لَهُ شَيْءٌ لَا يَقُومُ بِكَفَالَتِهِ ﴿وَأَنَّ السَّبِيلَ﴾ وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُحْتَاجُ إِلَى نَفَقَةٍ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهِ، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: النَّظَرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الْعَايَةُ الْقُضْوَى، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَاتَيْتَهُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: مَنْ أُعْطِيَ عَطِيَّةً يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ

[الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْإِمَامَةُ وَالْإِحْيَاءُ بِيَدِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أَيُّ: هُوَ الْخَالِقُ الرَّزَاقُ، يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ عُرْيَانًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ وَلَا قُوَّةَ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ جَمِيعَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ وَالرِّيَاسَ وَاللِّبَاسَ وَالنَّمَالَ، وَالْأَمْلَاقَ وَالْمَكَاسِبَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُعْسِكُمْ﴾ أَيُّ: بَعْدَ هَذِهِ النِّحَايَةِ، ﴿ثُمَّ يُعْجِبُكُمْ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿مَنْ يَقْعَلْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيُّ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَقْبَلُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَامَةِ، ثُمَّ يَبْعَثُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَيُّ: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاطَمَ وَجَلَّ وَعَزَّ عَنِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ تَطْيِيرٌ أَوْ مُسَاوٍ أَوْ وُلْدٌ أَوْ وَالِدٌ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٢٨﴾

[آثَارُ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكرِمَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ: الْأَمْزَادُ بِالْبُرِّ هَهُنَا: الْفِيَّافِي، وَبِالْبَحْرِ: الْأَمْصَارُ وَالْقُرَى^(٤). وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكرِمَةَ: الْبَحْرُ: الْأَمْصَارُ وَالْقُرَى، مَا كَانَ مِنْهَا عَلَى جَانِبِ نَهْرٍ^(٥). وَقَالَ

(١) مسلم: ٤/٢٢٩٥ (٢) الطبري: ١٠٥، ١٠٤/٢٠ (٣)

مسلم: ٢/٧٠٢ (٤) الطبري: ١٠٨/٢٠ (٥) الطبري: ٢٠/

سورة الروم

٤٠٩

سورة الروم

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ
 كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾ فَأَقْرَجَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن
 قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ، مِن اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٤﴾ مَن
 كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِم بِمَهْدُونَ ﴿٤٥﴾
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَمِن ءَايَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ
 مِن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُشِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ
 فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فترى الودق يخرج من
 خلفه فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴿٤٩﴾
 وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قِبَلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٥٠﴾
 فَأَنْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴿٤٣﴾ أَي: مِن قَبْلِكُمْ ﴿٤٣﴾ كَانَ
 أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٤﴾ أَي: فَانظُرُوا مَا حَلَّ بِهِمْ مِن تَكْذِيبِ
 الرُّسُلِ وَكُفْرِ النِّعَمِ.

﴿٤٤﴾ فَأَقْرَجَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِن اللَّهِ
 يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٥﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا
 فَلَا نَفْسِهِم بِمَهْدُونَ ﴿٤٦﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن
 فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾

[الْأُمَرَاءُ بِالْإِسْتِقَامَةِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ فِي
 طَاعَتِهِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ: ﴿فَأَقْرَجَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ
 مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِن اللَّهِ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا
 أَرَادَ كَوْنَهُ فَلَا رَادَّ لَهُ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أَي: يَبْتَفِرُّونَ،
 فَفَرِّقْ فِي الْحَتَّةِ وَفَرِّقْ فِي السَّعِيرِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن

(١) النسائي: ٧٥/٨ إسناده ضعيف فيه جرير بن يزيد وهو ضعيف
 كما في التقريب ولم أجده في سنن أبي داود (٢) البخاري:
 ٦٥١٢ (٣) أحمد: ٢٩٦/٢

آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ بِالْبَرِّ هُوَ: الْبَرُّ الْمَعْرُوفُ، وَبِالْبَحْرِ هُوَ:
 الْبَحْرُ الْمَعْرُوفُ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ رَيْفٍ: ﴿طَهَرَ الْفَسَادُ﴾
 يَعْنِي: انْقِطَاعُ الْمَطَرِ عَنِ الْبَرِّ يَعْتَبُهُ الْقَحْطُ، وَعَنِ الْبَحْرِ
 تَعَمَّى دَوَابُّهُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْمُقْرِي عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ قَيْسِ
 الْأَعْرَجِ، عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿طَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قَالَ:
 فَسَادَ الْبَرِّ: قَتْلُ ابْنِ آدَمَ، وَفَسَادُ الْبَحْرِ: أَخْذُ السَّفِينَةِ غَضْبًا.
 وَ[عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ] مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طَهَرَ الْفَسَادُ
 فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أَي: بِأَنَّ النِّقْصَ فِي
 الزُّرُوعِ وَالنَّمَارِ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَن
 غَصَى اللَّهُ فِي الْأَرْضِ فَقَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ صَلَاحَ
 الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِالطَّاعَةِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي
 رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: «لِحَدِّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ
 أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»^(١). وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ
 الْحُدُودَ إِذَا أُقِيمَتِ انْكَفَتْ النَّاسُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ
 عَنِ تَعَاطِي الْمَحْرَمَاتِ، وَإِذَا تَرَكْتَ الْمَعَاصِيَ كَانَ سَبَبًا فِي
 حُصُولِ الْبَرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَلِهَذَا إِذَا نَزَلَ
 عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَحْكُمُ بِهِذِهِ
 الشَّرِيعَةَ الْمُطَهَّرَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ: مِنْ قَتْلِ الْخِنْزِيرِ وَكَسْرِ
 الصَّلِيبِ، وَوَضْعِ الْجُزْيَةِ، وَهُوَ تَرْكُهَا، فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا
 الْإِسْلَامَ أَوْ السَّنَةَ، فَإِذَا أَهْلَكَ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الدُّجَالَ
 وَأَتْبَاعَهُ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، قَبِلَ لِلْأَرْضِ: أَخْرَجِي
 بَرَكَاتِكَ، فَيَأْكُلُ مِنَ الرَّمَاةِ الْفِتَامَ مِنَ النَّاسِ وَيَسْتَظِلُّونَ
 بِقِحْفِهَا، وَيَكْفِي لَبِنُ اللَّفْحَةِ الْجَمَاعَةَ مِنَ النَّاسِ، وَمَا ذَاكَ
 إِلَّا بِبَرَكََةِ تَنْفِيذِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَلَّمَا أُقِيمَ الْعَدْلُ كَثُرَتْ
 الْبَرَكَاتُ وَالْخَيْرُ. وَلِهَذَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحِ أَنْ: «الْفَاجِرُ إِذَا
 مَاتَ تَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالِدَوَابُّ»^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِي قُحْدَمٍ قَالَ: وَجَدَ
 رَجُلٌ فِي زَمَانِ زِيَادِ أَوْ ابْنِ زِيَادٍ صُرَّةً فِيهَا حَبٌّ - يَعْنِي:
 مِنْ بُرِّ - أَمْثَالُ النَّوَى، مَكْتُوبٌ فِيهَا: هَذَا نَبَتْ فِي زَمَانِ
 كَانَ يَعْمَلُ فِيهِ بِالْعَدْلِ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
 الَّذِي عَمِلُوا...﴾ الْآيَةُ، أَي: يَبْتَلِيهِمْ بِنَقْصِ الْأَمْوَالِ
 وَالْأَنْفُسِ وَالنَّمَرَاتِ؛ اخْتِيارًا مِنْهُ لَهُمْ، وَمُجَازَاةً عَلَى
 صَنِيعِهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَي: عَنِ الْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَيَلْوَنُهُمْ بِالْمَسْئَلِ وَاللَّيْسَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
 [الأعراف: ١٦٨] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

سورة الروم

٤١٠

سورة الروم

كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُنْفِئُهُمْ بِمَهْدُونٍ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٤٥﴾ أُنَى: يُجَازِيهِمْ مُجَازَاةً
الْقَضَلِ، الْحَسَنَةُ بَعْسَرُ أُمَّتَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى
مَا يَشَاءُ اللَّهُ ﴿٤٦﴾ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَعَ هَذَا هُوَ الْعَادِلُ
فِيهِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ.
﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَيُذَيِّقُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ. وَلِيَجْزِيَ
الْفَالِكُ بِأَمْرِهِ. وَلِيَتَنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَوْهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

[مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الرَّيَّاحِ]

يَذُكُرُ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي إِزْسَالِ الرِّيحِ مُبَشِّرَاتٍ
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ بِمَجِيءِ الْغَيْثِ عَقِبَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَلِيُذَيِّقُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أَي: الْمَطَرِ الَّذِي يُنْزِلُهُ فَيُحْيِي بِهِ
الْعِبَادَةَ وَالْبِلَادَ ﴿وَلِيَجْزِيَ الْفَالِكُ بِأَمْرِهِ﴾ أَي: فِي الْبَحْرِ وَإِنَّمَا
سَبَّرَهَا بِالرِّيحِ ﴿وَلِيَتَنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: فِي التَّجَارَاتِ
وَالْمَعَايِشِ وَالسَّيْرِ مِنْ إِفْلِيمٍ إِلَى إِفْلِيمٍ، وَفَطَّرَ إِلَى فَطَّرَ
﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَي: تَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ
عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا
تُحْصَى. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ
فَأَمَّوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى لِعِبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ وَإِنْ كَذَّبَهُ كَثِيرٌ مِنْ قَوْمِهِ
وَمِنَ النَّاسِ، فَقَدْ كَذَّبَتِ الرُّسُلُ الْمُتَقَدِّمُونَ مَعَ مَا جَاؤُوا
أَمَمَّهُمْ بِهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ. وَلَكِنْ أَنْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ
كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ، وَأَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: هُوَ حَقٌّ أَوْجِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ؛
تَكَرُّمًا وَتَفَضُّلاً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا﴾ إِذَا مِنْ
الْبَحْرِ كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ، أَوْ مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَي: يَمُدُّهُ فَيَكثُرُهُ وَيُنَمِّيهِ،
وَيَجْعَلُ مِنَ الْقَلِيلِ كَثِيرًا، يُنْشِئُ سَحَابَةً تَرَى فِي رَأْيِ الْعَيْنِ
مِثْلَ الثَّرَسِ، ثُمَّ يَبْسُطُهَا حَتَّى تَمَلَأَ أَرْجَاءَ الْأَفْقِ، وَتَارَةً
يَأْتِي السَّحَابُ مِنَ نَحْوِ الْبَحْرِ ثِقَالًا مَمْلُوءَةً [ماء]، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ
﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]
وَكَذَلِكَ قَالَ هَهُنَا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا
فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ
وَأَبُو عَمْرٍو بَنُ الْعَلَاءِ، وَمَطَرُ الْوَرَّاقِ وَقَتَادَةُ: يَغْنِي
قِطْعًا^(١). وَقَالَ غَيْرُهُ: مُتْرَاكِمًا، كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ. وَقَالَ
غَيْرُهُ: أَسْوَدٌ مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ، تَرَاهُ مُدْلِهَمًا ثَقِيلًا قَرِيبًا مِنْ

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ
يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ﴾ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ
مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادَةٍ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ
يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آتَائِهِ رَحْمَتِ اللَّهِ
كَيْفَ يَجِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْجَى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ
بَعْدِهِ. يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

[إِحْيَاءِ الْأَرْضِ دَلِيلُ الْبَعْثِ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى كَيْفَ يَخْلُقُ السَّحَابَ الَّذِي يُنْزِلُ مِنْهُ الْمَاءَ،

(١) الطبري: ١١٤/٢٠

الأرض. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ جِلْدِهِ﴾ أَي: فَتَرَى الْمَطَرُ وَهُوَ الْقَطْرُ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ السَّحَابِ ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ أَي: لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ يَفْرَحُونَ بِزُورِهِ عَلَيْهِمْ وَوُضُوعِهِ إِلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّكَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَلِيْسِينَ﴾ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَصَابَهُمْ هَذَا الْمَطَرُ، كَانُوا قَانِطِينَ أَرْلِينَ مِنْ زُورِ الْمَطَرِ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ، جَاءَهُمْ عَلَى فَاقَةٍ، فَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعًا عَظِيمًا، وَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُمْ كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ قَبْلَ زُورِهِ، وَمِنْ قَبْلِهِ أَيْضًا قَدْ فَاتَ عِنْدَهُمْ زُورُهُ وَقَدْ فَاتَ بَعْدَ وَفَاتٍ، فَتَرَقَّبُوهُ فِي إِبَانِهِ، فَتَأَخَّرَ، ثُمَّ مَضَتْ مُدَّةٌ فَتَرَقَّبُوهُ فَتَأَخَّرَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَعَثَةٌ بَعْدَ الْإِيَّاسِ مِنْهُ وَالْقُنُوطِ، فَبَعْدَ مَا كَانَتْ أَرْضُهُمْ مُشْعِرَةً هَامِدَةً، أَضْبَحَتْ وَقَدْ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي الْمَطَرُ ﴿كَكَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ثُمَّ تَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَفْرِيفِهَا وَتَمَرُّفِهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: إِنَّ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ لِقَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِيحًا يَابِسَةً عَلَى الزَّرْعِ الَّذِي زَرَعُوهُ وَنَبَتَ وَشَبَّ وَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا، أَي: قَدْ اصْفَرَ وَشَرَعَ فِي الْفَسَادِ ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَي: بَعْدَ هَذَا الْحَالِ، ﴿يَكْفُرُونَ﴾ أَي: يَجْحَدُونَ مَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿بَلْ تَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٧].

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمِيِّ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

[ذِكْرُ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ الْمُخْتَلِفَةِ]

يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى تَنَقُّلِ الْإِنْسَانِ فِي أَطْوَارِ الْخَلْقِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، فَأَصْلُهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مِضْغَةٍ، ثُمَّ يَصِيرُ عِظَامًا، ثُمَّ تُكْسَى الْعِظَامُ لَحْمًا، وَيُنْتَجَخُ فِيهِ الرُّوحُ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ضَعِيفًا نَحِيفًا وَاهِنَ الْقُوَى، ثُمَّ يَشْبُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَكُونَ صَغِيرًا، ثُمَّ حَدَثًا ثُمَّ مَرَاهِقًا شَابًا. وَهُوَ الْقُوَّةُ بَعْدَ الضَّعْفِ، ثُمَّ يَسْرَعُ فِي النَّفْسِ، فَيَكْتَهِلُ ثُمَّ يَشِيخُ ثُمَّ يَهْرَمُ، وَهُوَ الضَّعْفُ بَعْدَ الْقُوَّةِ، فَتَضَعُفُ الْهَمَّةُ وَالْحَرَكَةُ وَالْبَطْشُ، وَتَشِيْبُ اللَّمَّةُ، وَتَتَغَيَّرُ الصَّنَاتُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَي: يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَتَصَرَّفُ فِي عِبِيدِهِ بِمَا يُرِيدُ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْقَدِيرُ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِسُنَا عِبْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ

يَقُولُ تَعَالَى: كَمَا أَنَّكَ لَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَسْمِعَ الْأَمْوَاتِ فِي أَجْدَانِهَا، وَلَا تَبْلُغَ كَلَامَكَ الضَّمَّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُدْبِرُونَ عَنكَ، كَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ الْعُمَيَّانِ عَنِ الْحَقِّ وَرَدِّهِمْ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَقْدِرُ بِهِ يُسْمِعُ الْأَمْوَاتِ أَصْوَاتَ

(١) فتح الباري: ٣٥١/٧ (٢) فتح الباري: ٣٥١/٧ (٣) فتح الباري: ٣٥١/٧

لَيْتَنُرِّ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيْ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُتِبَ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

[جَهَالَةُ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَبِالدُّنْيَا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَكُونُ مِنْهُمْ جَهْلٌ عَظِيمٌ أَيْضًا، فَمِنْهُ إِفْسَامُهُمْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ عَدَمَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَهُمْ لَمْ يُنْظَرُوا حَتَّى يُعْذَرَ إِلَيْهِمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيْ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴿٥٧﴾ أَيْ: فَبَرُدِّ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ الْعُلَمَاءُ، فِي الْآخِرَةِ كَمَا أَقَامُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ لَهُمْ حِينَ يَخْلِفُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ ﴿٥٧﴾ أَيْ: فِي كِتَابِ الْأَعْمَالِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ ﴿٥٧﴾ أَيْ: مِنْ يَوْمِ خُلِقْتُمْ إِلَى أَنْ بَعِثْتُمْ ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُتِبَ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ﴾ أَيْ: اِعْتِدَارُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أَيْ: وَلَا هُمْ يُرْجَعُونَ إِلَى الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

مُنْجَزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنْ نَصْرِهِ إِيَّاكَ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَهُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنْ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَسْتَحْفَنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَيْ: بَلِ ابْتُئِ عَلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، وَلَا تُعَدِّلُ عَنْهُ، وَلَيْسَ فِيمَا سِوَاهُ هُدًى يَتَّبِعُ، بَلِ الْحَقُّ كُلُّهُ مُنْحَصَرٌّ فِيهِ.

[أَمَّا رُؤْيِي فِي فَضْلِ هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ وَاسْتِحْبَابِ قِرَائَتِهَا فِي الْفَجْرِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ فَقَرَأَ فِيهَا الرُّومَ فَأَوْهَمَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ يَلْسُنُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ: أَنْ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ»^(١). وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ، وَمَتْنٌ حَسَنٌ، وَفِيهِ سِرٌّ عَجِيبٌ، وَنَبَأٌ غَرِيبٌ، وَهُوَ أَنَّهُ ﷺ تَأَثَّرَ بِنُقْضَانِ وُضُوءِ مَنْ اتَّيَمَّ بِهِ، فَذَلَّلَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ صَلَاةَ الْمَأْمُومِ مُتَعَلِّقَةٌ بِصَلَاةِ الْإِمَامِ. أَخْرَجُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرُّومِ. وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ لُقْمَانَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً

لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

هُمْ يُؤْفِكُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَامَّةُ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِصَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ هَذَا الْقُرْآنَ هُدًى وَشِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ، فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ بِحُدُودِهَا وَأَوْقَاتِهَا، وَمَا يُتَّبِعُهَا مِنْ تَوَافُلِ رَاتِيَةٍ وَغَيْرِ رَاتِيَةٍ، وَأَتَوْا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ إِلَى مُسْتَحَقِّيهَا، وَوَصَلُوا أَرْحَامَهُمْ وَقَرَابَاتِيَهُمْ، وَأَيْقَنُوا بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَرَعَبُوا إِلَى اللَّهِ فِي ثَوَابِ ذَلِكَ لَمْ يَرَاؤُوا بِهِ، وَلَا أَرَادُوا جَزَاءً مِنَ النَّاسِ وَلَا شُكُورًا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى

﴿وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَاتٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أُنزِلَ إِلَّا مِطْلُونٌ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَحْفَنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِكُونَ ﴿٦٠﴾

[صَرَّبُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ وَعَدَمُ اعْتِبَارِ الْكُفَّارِ بِهَا] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أَيْ: قَدْ بَيَّنَّا لَهُمُ الْحَقَّ، وَوَضَّحْنَا لَهُمْ، وَصَرَّبْنَا لَهُمْ فِيهِ الْأَمْثَالَ؛ لِيَسْتَبَيِّنُوا الْحَقَّ؛ وَيَتَّبِعُوهُ ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَاتٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أُنزِلَ إِلَّا مِطْلُونٌ﴾ أَيْ: لَوْ رَأَوْا أَيْ آيَةً كَانَتْ، سَوَاءً كَانَتْ بِإِفْتِرَاحِهِمْ أَوْ غَيْرِهِ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا سِحْرٌ وَبَاطِلٌ، كَمَا قَالُوا فِي انْتِفَاقِ الْقَمَرِ وَنَحْوِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦: ٩٧] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٦٠﴾ أَيْ: اصْبِرْ عَلَى مُخَالَفَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

سُورَةُ الْقَمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَى مُسْتَكْبِرًا
كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ الْإِيمِ ﴿٧﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَقَلَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن نَمِيدَ
بِكُمْ وَبَتْ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوْهُ مَاذَا
خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

مِّن رَّبِّهِمْ ﴿١﴾ أَي عَلَى بَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ وَمَنْهَجٍ وَاصِحٍ جَلِيلٍ
﴿٢﴾ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣﴾ أَي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِ
آيَاتُنَا وَلَى مُسْتَكْبِرًا كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ
بِعَذَابِ الْإِيمِ ﴿٦﴾

﴿٧﴾ مِنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْإِسْتِغَالِ بِلَهْوِ الْحَدِيثِ وَالْإِعْرَاضِ
عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴿٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعْدَاءِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ
بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ بِسْمَاعِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ
أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مّتَفَاتٍ فَتَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ . . .
الآيَةُ [الزمر: ٢٣]. عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ
أَعْرَضُوا عَنِ الْإِنْفَاعِ بِسْمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى
اسْتِمَاعِ الْمُزَامِيرِ وَالْغِنَاءِ، بِالْأَلْحَانِ وَالآيَاتِ الطَّرِبِ، كَمَا
قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ
الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قَالَ: هُوَ وَاللَّهُ الْغِنَاءُ ^(١).

﴿٩﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وَاللَّهُ، لَعَلَّهُ لَا يُنْفِقُ فِيهِ مَالًا،
وَلَكِنَّ شِرَاؤُهُ: اسْتِحْبَابُهُ. بِحَسَبِ الْمَرْءِ مِنَ الضَّلَالَةِ أَنْ
يَخْتَارَ حَدِيثَ الْبَاطِلِ عَلَى حَدِيثِ الْحَقِّ، وَمَا يَضُرُّ عَلَى مَا
يَنْفَعُ ^(٢). وَقِيلَ: أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾
اشْتِرَاءَ الْمُعْتَبَاتِ مِنَ الْجَوَارِي. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ كُلُّ
كَلَامٍ يَصُدُّ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ سَبِيلِهِ ^(٣). وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُضِلَّ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: إِنَّمَا يَصْنَعُ هَذَا لِلتَّخَالُفِ لِلْإِسْلَامِ
وَأَهْلِيهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ:
وَيَتَّخِذُ سَبِيلَ اللَّهِ هُزُوًا يَسْتَهْزِئُ بِهَا ^(٤).

﴿٥﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أَي: كَمَا اسْتَهَانُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ وَسَبِيلِهِ أَهِنُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَذَابِ الدَّائِمِ
الْمُسْتَوِرِّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَنْتَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَى
مُسْتَكْبِرًا كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أَي هَذَا الْمُقْبِلِ
عَلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالطَّرِبِ إِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
وَلَى عَنهَا، وَأَعْرَضَ وَأَذْبَرَ وَتَصَامَمَ، وَمَا بِهِ مِنْ صَمَمٍ،
كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا؛ لِأَنَّهُ يَتَأَدَّى بِسْمَاعِيهَا؛ إِذْ لَا انْتِفَاعَ لَهُ بِهَا
وَلَا أَرْبَ لَهُ فِيهَا، ﴿فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ الْإِيمِ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
يُؤْلِمُهُ، كَمَا تَأَلَّمَ بِسْمَاعِ كِتَابِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ.

﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾

[ذِكْرُ مَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنِ]

هَذَا ذِكْرُ مَالِ الْأَبْرَارِ مِنَ السُّعْدَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ،
الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ
الصَّالِحَةَ التَّائِبَةَ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أَي يَتَنَعَّمُونَ
فِيهَا بِأَنْوَاعِ الْمَلَادِّ وَالْمَسَارِّ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ
وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَرَاجِبِ، وَالنِّسَاءِ وَالنَّصْرَةِ
وَالسَّمَاعِ، الَّذِي لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدٍ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ
مُقِيمُونَ دَائِمًا لَا يَطْعَمُونَ دَائِمًا، وَلَا يَبْعُونَ عَنْهَا جَوْلًا.
﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أَي: هَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَه؛
لِأَنَّهُ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ؛ لِأَنَّهُ الْكَرِيمُ
الْمُتَّانُ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ وَهُوَ

(١) الطبري: ١٢٧/٢٠ (٢) الطبري: ١٢٧/٢٠ (٣) الطبري:
١٣٠/٢٠ (٤) الطبري: ١٣١/٢٠

[ذَكَرَ لُقْمَانَ]

اِخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي لُقْمَانَ: هَلْ كَانَ نَبِيًّا أَوْ عَبْدًا صَالِحًا مِنْ غَيْرِ نَبُوَّةٍ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، الْأَكْثَرُونَ عَلَى الثَّانِي. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ الْأَشْعَثِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ لُقْمَانُ عَبْدًا حَبَشِيًّا نَجَارًا^(٢). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: مَا أَنْتَهَى إِلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِ لُقْمَانَ؟ قَالَ: كَانَ قَصِيرًا أَفْطَسَ الْأَنْفَ مِنَ النَّبُوَّةِ^(٣).

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ قَالَ: كَانَ لُقْمَانُ مِنْ سُودَانَ مِصْرَ، ذَا مَسَافِرَ، أَعْطَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، وَمَنْعَهُ النَّبُوَّةَ^(٤). وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَرْمَلَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ أَسْوَدٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ لَهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ: لَا تَحْزَنْ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ أَسْوَدٌ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَحْخِيرِ النَّاسِ ثَلَاثَةَ مِنْ الشُّدَدَانَ: بِلَالٌ، وَمِهْجَعٌ مَوْلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ، وَلُقْمَانُ الْحَكِيمُ، كَانَ أَسْوَدٌ نَبِيًّا ذَا مَسَافِرَ^(٥).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ خَالِدِ الرَّبِيعِيِّ قَالَ: كَانَ لُقْمَانُ عَبْدًا حَبَشِيًّا نَجَارًا، فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: اذْبَحْ لَنَا هَذِهِ الشَّاةَ. فَذَبَحَهَا، قَالَ: أَخْرِجْ أَطْيَبَ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا. فَأَخْرَجَ اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ، ثُمَّ مَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: اذْبَحْ لَنَا هَذِهِ الشَّاةَ. فَذَبَحَهَا، قَالَ: أَخْرِجْ أَحْبَثَ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا. فَأَخْرَجَ اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ، فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: أَمْرُتُكَ أَنْ تُخْرِجَ أَطْيَبَ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا، فَأَخْرَجْتَهُمَا، وَأَمْرُتُكَ أَنْ تُخْرِجَ أَحْبَثَ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا، فَأَخْرَجْتَهُمَا؟ فَقَالَ لُقْمَانُ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ أَطْيَبَ مِنْهُمَا إِذَا طَابَا، وَلَا أَحْبَثَ مِنْهُمَا إِذَا خَبَّتَا^(٦). وَقَالَ شُعْبَةُ عَنِ الْحَكَمِ، عَنْ مُجَاهِدٍ: كَانَ لُقْمَانُ عَبْدًا صَالِحًا، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا^(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أَي: الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالتَّعْبِيرَ ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ أَي: أَمْرَانَاهُ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ وَمَنْحَهُ وَوَهَبَهُ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي خَصَّصَهُ بِهِ

الْعَزِيزُ الَّذِي فَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَدَانَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، الَّذِي جَعَلَ الْقُرْآنَ هُدًى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾... الآية [فصلت: ٤٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِعَبْرِ عَمِدٍ تَرَوْنَهَا وَالْفَنَى فِي الْأَرْضِ رَوَيْسَى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَيَبَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُوفٌ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

[أدلة التوحيد]

يُبَيِّنُ سُبحَانَهُ بِهَذَا قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِعَبْرِ عَمِدٍ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: لَيْسَ لَهَا عَمَدٌ مَرْئِيَّةٌ وَلَا غَيْرَ مَرْئِيَّةٍ^(١). ﴿وَالْفَنَى فِي الْأَرْضِ رَوَيْسَى﴾ يَعْنِي: الْجِبَالَ أَرْضَتِ الْأَرْضَ وَتَقَلَّتْهَا؛ لِثَلَا تَضْطَرِبَ بِأَهْلِهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أَي: لِثَلَا تَمِيدَ بِكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أَي: وَذَرَأَ فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانَاتِ مِمَّا لَا يَعْلَمُ عَدَدَ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا إِلَّا الَّذِي خَلَقَهَا، وَلَمَّا قَرَّرَ سُبحَانَهُ أَنَّهُ الْخَالِقُ، نَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ الرَّازِقُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أَي: مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِنَ النَّبَاتِ كَرِيمٍ، أَي: حَسَنِ الْمَنْظَرِ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: وَالنَّاسُ أَيْضًا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَهُوَ كَرِيمٌ، وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ لَيْسَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا صَادِرٌ عَنْ فِعْلِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ، وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرُوفٌ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: مِمَّا تَعْبُدُونَ وَتَدْعُونَ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْأَنْدَادِ ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَي: جَهْلٍ وَعَمَى ﴿مُبِينٍ﴾ أَي: وَاضِحٍ ظَاهِرٍ لَا خَفَاءَ بِهِ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَلِإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

(١) الطبري: ١٣٢/٢٠ (٢) الطبري: ١٣٥/٢٠ إسناده ضعيف فيه أشعث بن سوار وابن وكيع ضعيفان وسفيان الثوري مدلس ولم يصرح بالسماع (٣) ابن أبي حاتم ٣٠٩٧/٩ والدر المنثور: ٥/٣١٠ (٤) الطبري: ١٣٥/٢٠ (٥) الطبري: ١٣٥/٢٠ (٦) الطبري: ١٣٥/٢٠ إسناده ضعيف لكن الرواية صحيحة بطريق عبدالله بن أحمد بن حنبل قال حدثنا أبي حدثنا وكيع وهذا إسناده صحيح انظر زوائد الزهد لعبد الله بن أحمد بن حنبل. (٧) الطبري: ١٣٤/٢٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٤١٢

سُورَةُ لُقْمَانَ

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعَلِّمُهُ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَمَلٍ أُنْشُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٥﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَمُرٍّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَمُرٍّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

[وَصِيَّتُهُ لِقْمَانَ لِابْنِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ وَصِيَّتِهِ لِقْمَانَ لِوَلَدِهِ، وَهُوَ لِقْمَانُ بْنُ عَفَّاءَ بْنِ سَدُونَ، وَاسْمُ ابْنِهِ ثَارَانُ فِي قَوْلِ حَكَاهُ السُّهَيْلِيُّ. وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَأَنَّهُ آتَاهُ الْحِكْمَةَ، وَهُوَ يُوصِي وَلَدَهُ الَّذِي هُوَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يَمْتَحَهُ أَفْضَلَ مَا يَعْرِفُ، وَلِهَذَا أَوْصَاهُ أَوْ لَا يَأْنِ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ مُحَدِّثًا لَهُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أَيُّ هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] سَمِعَ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لِقْمَانَ: ﴿يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»^(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ. ثُمَّ قَرَنَ بِوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ الْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَفَضْنَا رَيْكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وَكَثِيرًا مَا يَقْرَنُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَشَقَّةٌ وَهْنُ الْوَالِدِ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: جَهْدًا عَلَى جَهْدِ^(٣). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ.

عَمَّنْ سِوَاهُ مِنْ أَوْلَادِهِ وَوَالِدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ وَتَوَابُهُ عَلَى الشَّاكِرِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَانَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أَيُّ: غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ لَا يَتَضَرَّرُ بِذَلِكَ وَلَوْ كَفَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ.

وَلِإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعَلِّمُهُ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَمَلٍ أُنْشُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَمُرٍّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

[وَصِيَّتُهُ لِقْمَانَ لِابْنِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ وَصِيَّتِهِ لِقْمَانَ لِوَلَدِهِ، وَهُوَ لِقْمَانُ بْنُ عَفَّاءَ بْنِ سَدُونَ، وَاسْمُ ابْنِهِ ثَارَانُ فِي قَوْلِ حَكَاهُ السُّهَيْلِيُّ. وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَأَنَّهُ آتَاهُ الْحِكْمَةَ، وَهُوَ يُوصِي وَلَدَهُ الَّذِي هُوَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يَمْتَحَهُ أَفْضَلَ مَا يَعْرِفُ، وَلِهَذَا أَوْصَاهُ أَوْ لَا يَأْنِ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ مُحَدِّثًا لَهُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أَيُّ هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] سَمِعَ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لِقْمَانَ: ﴿يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»^(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ. ثُمَّ قَرَنَ بِوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ الْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَفَضْنَا رَيْكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وَكَثِيرًا مَا يَقْرَنُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَشَقَّةٌ وَهْنُ الْوَالِدِ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: جَهْدًا عَلَى جَهْدِ^(٣). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفَصَّلَهُ فِي عَمَلٍ أُنْشُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أَيُّ: تَرْبِيَّتُهُ وَإِرْضَاعُهُ بَعْدَ وَضْعِهِ فِي عَمَلَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾ ... الْآيَةُ

[البقرة: ٢٣٣]، وَمِنْ هَهُنَا اسْتَنْبَطَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأَيْمَةِ أَنَّ أَقَلَّ مَدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَحَمَلُهُ وَصَلَامُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾،

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ تَعَالَى تَرْبِيَةَ الْوَالِدَةِ وَتَعَبَهَا وَمَشَقَّتَهَا فِي سَهْرٍهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، لِيُذَكِّرَ الْوَالِدَ بِإِحْسَانِهَا الْمُتَقَدِّمِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِيمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أَيُّ: فَإِنِّي سَأَجْزِيكَ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ جَزَاءٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أَيُّ: إِنْ حَرَصَا عَلَيْكَ كُلَّ الْحَرْصِ عَلَى أَنْ تَتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا، فَلَا تَقْبَلْ مِنْهُمَا ذَلِكَ، وَلَا يَمْتَعَكَ ذَلِكَ مِنْ أَنْ تُصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا، أَيُّ: مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يَعْنِي: الْمُؤْمِنِينَ، ﴿ثُمَّ

(١) فتح الباري: ٣٧٢/٨ (٢) الطبري: ١٣٧/٢٠ (٣) الطبري: ١٣٧/٢٠

الْأَرْضِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أَي: لَطِيفُ الْعِلْمِ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ وَإِنْ دَقَّتْ وَلَطَفَتْ وَتَضَاءَلَتْ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بِدَيْبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿يَسْتَبِقُ أَقْرَبَ الصَّلَاةِ﴾ أَي: بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا وَأَوْقَاتِهَا ﴿وَأَمُرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أَي: بِحَسَبِ طَائِقَتِكَ وَجُهْدِكَ ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ عِلْمٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ النَّاسِ أَدَى، فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أَي: إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى أَدَى النَّاسِ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يَقُولُ: لَا تُعْرِضْ بِوَجْهِكَ عَنِ النَّاسِ إِذَا كَلَّمْتَهُمْ أَوْ كَلَّمُوكَ احْتِقَارًا مِنْكَ لَهُمْ، وَاسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ أَلِنْ جَانِبَكَ وَابْسُطْ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «وَلَوْ أَنَّ تَلَقَى أَحَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَالْمَخِيلَةُ لَا يُجِئُهَا اللَّهُ»^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَي: حَيْلَاءً مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَيْنِدَا، لَا تَفْعَلْ ذَلِكَ يُبْغِضُكَ اللَّهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أَي: مُخْتَالٍ مُعْجَبٍ فِي نَفْسِهِ، فَخُورٍ أَي: عَلَى غَيْرِهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخَرْقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ آلِجَالًا طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ.

[الْأَمْرُ بِالْإِقْتِصَادِ فِي الْمَشْيِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أَي: امشِ مُقْتَصِدًا مَشْيًا لَيْسَ بِالْبَطِيءِ الْمُسْتَبِطِ، وَلَا بِالسَّرِيعِ الْمُمْرِطِ، بَلْ عَدْلًا وَسَطًا بَيْنَ بَيْنَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أَي: لَا تُبَالِغْ فِي الْكَلَامِ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَايِدَةَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ، أَي: غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعِهِ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَعْضُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا الشُّبُهَةُ فِي هَذَا بِالْحَمِيرِ، يَفْتَضِي تَحْرِيمَهُ وَدَمَهُ غَايَةَ الدَّمِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْرِ، الْعَانِدُ فِي هَبْتِهِ

إِلَى مَرَجِعِكُمْ فَأَنْبِئِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي كِتَابِ الْعِشْرَةِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: أَنْزَلَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَأَنْ جَهْدَكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمَهُمَا﴾... الْآيَةِ، قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا بَرًّا بِأُمِّي، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ قَالَتْ: يَا سَعْدُ! مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكَ قَدْ أَحَدْتُمْ؟ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذَا أَوْ لَا أَكُلُ وَلَا أَشْرَبُ حَتَّى أَمُوتَ فَتَعْبِرَ بِي! فَيَقَالَ: يَا قَاتِلَ أُمِّهِ، فَقُلْتُ: لَا تَعْلَمِي يَا أُمَّهُ، فَإِنِّي لَا أَدْعُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ. فَمَكَثْتُ يَوْمًا وَلَيْلَةً لَمْ تَأْكُلْ، فَأَضْبَحَتْ قَدْ جَهَدَتْ، فَمَكَثْتُ يَوْمًا آخَرَ وَلَيْلَةً لَمْ تَأْكُلْ، فَأَضْبَحَتْ قَدْ جَهَدَتْ، فَمَكَثْتُ يَوْمًا وَلَيْلَةً آخَرَى لَا تَأْكُلْ، فَأَضْبَحَتْ قَدْ اشْتَدَّ جَهْدُهَا، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ: يَا أُمَّهُ! تَعْلَمِينَ - وَاللَّهُ - لَوْ كَانَتْ لَكَ مِائَةٌ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا مَا تَرَكْتُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ، فَإِنْ شِئْتَ فَكُلِي، وَإِنْ شِئْتَ لَا تَأْكُلِي، فَأَكَلْتُ^(١).

﴿يَسْتَبِقُ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(١٦) يَسْتَبِقُ أَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ^(١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ^(١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ

الْحَمِيرِ^(١٩)

هَذِهِ وَصَايَا نَافِعَةٌ قَدْ حَكَاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ، لِيَمْتَثِلَهَا النَّاسُ وَيَتَّقُوا بِهَا، فَقَالَ: ﴿يَسْتَبِقُ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أَي: إِنْ الْمِثْقَالَةُ أَوْ الْحَطِيبَةُ لَوْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ [مِنْ] خَرْدَلٍ، وَجَوَزَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ الصُّوِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿إِنَّهَا﴾ صُمَيْرُ الشَّانِ وَالْقِصَّةِ، وَجَوَزَ عَلَى هَذَا رَفَعُ مِثْقَالٍ. وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾: أَي: أَحْضَرَهَا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَصْعُقُ الْمَوَازِينَ الْقَسِطُ، وَجَازَى عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُضِعُّ الْمَوَازِينَ الْقَسِطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾... الْآيَةُ [الأنبياء: ٤٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٢٠) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٢١) [الزلزلة: ٨، ٧] وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الذَّرَّةُ مُحْصَنَةً مُحَجَّبَةً فِي دَاخِلِ صَخْرَةٍ صَمَاءٍ، أَوْ غَايِبَةً ذَاهِبَةً فِي أَرْجَاءِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِهَا؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي

(١) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة: ٢/٢١٦ أسباب النزول للواحدي (٦٧٠) [وسنده حسن (٢) أبو داود: ٤/٣٤٥]

كَالْكَلْبِ بَيْعِي ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ» (١).

[نصائح لقمان]

فَهَذِهِ وَصَايَا نَافِعَةٌ جِدًّا، وَهِيَ مِنْ قِصَصِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ
عَنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ مِنَ الْحِكْمِ وَالْمَوَاعِظِ
أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ، فَلْنَذَكُرْ مِنْهَا أَمْوَدَجًا وَدُسْتُورًا إِلَى ذَلِكَ.
رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَخْبَرَنَا رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ إِذَا
اسْتَوْدَعَ شَيْئًا حِفْظَهُ» (٢). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ [عَنْ أَبِي
مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ] أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ لُقْمَانُ
لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: يَا بُنَيَّ! يَا بُنَيَّ! يَا بُنَيَّ! فَإِنَّهُ مَخُوفَةٌ بِاللَّيْلِ
مَدْمَةٌ بِالنَّهَارِ» (٣).

وَرَوَى عَنْ [السَّرِيِّ] بْنِ يَحْيَى قَالَ: قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ:
يَا بُنَيَّ! إِنَّ الْحِكْمَةَ أَجْلَسَتِ الْمَسَاكِينَ مَجَالِسَ الْمُلُوكِ» (٤).
وَرَوَى أَيْضًا عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ لُقْمَانُ
لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ! إِذَا أَتَيْتَ نَادِي قَوْمٍ فَارْزُقْهُمْ بِسَهْمِ الْإِسْلَامِ
يَعْنِي السَّلَامَ - ثُمَّ اجْلِسْ فِي نَاحِيَّتِهِمْ فَلَا تَنْطِقْ حَتَّى تَرَاهُمْ
قَدْ نَطَفُوا، فَإِنْ أَفَاضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ، فَأَجَلْ سَهْمَكَ مَعَهُمْ،
وَإِنْ أَفَاضُوا فِي غَيْرِ ذَلِكَ فَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ» (٥).

«الَّذِي تَرَوْنَا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كُنَّا الشَّيْطَانَ
يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٧)»

[التذكير بالنعم]

يَقُولُ تَعَالَى مُبْتَدَأًا خَلَقَهُ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ بِأَنَّهُ سَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ
فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كُنَّا الشَّيْطَانَ
يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٧)»

يَقُولُ تَعَالَى: «وَمَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَرَارٍ وَأَنْهَارٍ
وَأَشْجَارٍ، وَزُرُوعٍ وَنَمَارٍ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعْمَهُ الظَّاهِرَةَ
وَالْبَاطِنَةَ مِنْ إِسْرَائِلِ الرُّسُلِ، وَإِنزَالِ الْكُتُبِ، وَإِزَاحَةِ الشُّبُهَةِ
وَالْعِلَلِ، ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ مَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ
يُجَادِلُ فِي اللَّهِ، أَيْ: فِي تَوْجِيهِهِ وَإِرْسَالِهِ الرُّسُلِ؛
وَمُجَادَلَتُهُ فِي ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ حُجَّةٍ
صَحِيحَةٍ، وَلَا كِتَابٍ مَأْتُورٍ صَحِيحٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ

الَّذِي تَرَوْنَا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كُنَّا
الشَّيْطَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٧) وَمَنْ يُسَلِّمْ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
وَالِلَّهِ عِزَّةُ الْأُمُورِ (٨) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَزِّلُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
(٩) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (١٠)
وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١١) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٢) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرِ يَمْدَةٌ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٣) مَا خَلَقَكُمْ
وَلَا يَعْبُدُكُمْ إِلَّا الْكَافِرُونَ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١٤)

مُبِينٍ أَيْ: مُبِينٍ مُضِيٍّ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَيْ: لَهُوْلَاءِ
الْمُجَادِلِينَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أَيْ: عَلَى
رَسُولِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُنْطَهَرَةِ ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا﴾ أَيْ: لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا اتِّبَاعُ الْأَبْيَادِ الْأَقْدَمِينَ،
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] أَيْ: فَمَا ظَنُّكُمْ أَيُّهَا الْمُحْتَجُونَ
بِصْنِيعِ آبَائِهِمْ! أَنَّهُمْ ﴿كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ خَلَفْتُمْ لَهُمْ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ

(١) تحفة الأحوذى: ٥٢٢/٤ (٢) أحمد: ٨٧/٢ (٣)
الحاكم: ٤١١/٢ (٤) الدر المنثور: ٣١٦/٥ هذا من بلاغات
السري بن يحيى عن لقمان ومثله لا يقبل عند أهل النقد ولا يصح
الخبر عن لقمان ومن في طبقة الأنبياء والصالحين إلا ما كان من
قول رسول الله ﷺ عن رب العالمين جل وعلا (٥) الزهد لابن
المبارك: ٣٣٢ فيه عبدالرحمن بن عبدالله المسعودي اختلط قبل
موته وضابطه أن من سمع منه ببغداد فبعد الاختلاط (تقريب)
(*) كذا في جميع النسخ المطبوعة؛ ولعل صوابه: لو أنهم كانوا
فسقط حرف «لو» والله أعلم

يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ .

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عِيقَبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ أَيُّ: أَخْلَصَ لَهُ الْعَمَلُ وَانْقَادَ لِأَمْرِهِ وَاتَّبَعَ شَرْعَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيُّ: فِي عَمَلِهِ بِاتِّبَاعِ مَا بِهِ أَمْرٌ، وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زُجْرٌ ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أَيُّ: فَقَدْ أَخَذَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ مَبْتِئًا أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُ ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عِيقَبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ أَيُّ: لَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدٌ فِي كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَإِنَّ قَدَرَ اللَّهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، وَإِلَى اللَّهِ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا، أَيُّ: فَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أَيُّ: نُلْجِئُهُمْ ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أَيُّ: فَطِيعٌ صَعِبٌ [يَشْقَى] عَلَى النَّفْسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿ [يونس: ٦٩، ٧٠] .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

[إِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ: إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ شُرَكَاءَ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا خَلَقَ لَهُ وَمِلْكٌ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ: إِذْ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ بِإِعْتِرَافِكُمْ ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ هُوَ خَلَقَهُ وَمِلْكُهُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أَيُّ: الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَبِيرٌ إِلَيْهِ، الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ، لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَىٰ مَا خَلَقَ وَشَرَعَ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسَ وَجِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

[كَلِمَاتُ اللَّهِ لَا تُحْصَى وَلَا تَنْفَدُ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَجَلَالِهِ، وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ، وَلَا أُطْلِعَ لِشَرِّهِ عَلَىٰ كُنْهَيْهَا وَإِحْصَانِهَا، كَمَا قَالَ سَيِّدُ الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»^(١) . فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أَيُّ: وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ أَشْجَارِ الْأَرْضِ جُعِلَتْ أَقْلَامًا، وَجُعِلَ الْبَحْرُ مِدَادًا، وَأَمَدَهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَعَهُ، فَكُنَيْتَ بِهَا كَلِمَاتُ اللَّهِ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَلَالِهِ لَتَكَسَّرَتْ الْأَقْلَامُ، وَنَفِدَ مَاءُ الْبَحْرِ، وَلَوْ جَاءَ أَمْثَالُهَا [مِدَادًا]، وَإِنَّمَا ذُكِرَتِ السَّبْعَةُ عَلَى وَجْهِ الْمَثَالِغَةِ، وَلَمْ يَرِدِ الْحَضْرُ، وَلَا أَنَّ ثَمَّ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَوْجُودَةٌ مُحِيطَةٌ بِالْعَالَمِ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ تَلَفَّاهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا تُصَدِّقُ وَلَا تَكْذِبُ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدَادًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿ بِمِثْلِهِ ﴾: آخَرَ فَقَطْ، بَلْ بِمِثْلِهِ ثُمَّ بِمِثْلِهِ، ثُمَّ بِمِثْلِهِ ثُمَّ هَلُمَّ جَرًّا؛ لِأَنَّهُ لَا حَصْرَ لِآيَاتِ اللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ: عَزِيزٌ قَدْ عَزَّ كُلُّ شَيْءٍ وَفَهْرَهُ وَغَلْبَهُ، فَلَا مَانِعَ لِمَا أَرَادَ، وَلَا مُخَالِفَ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَأَفْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَجَمِيعِ شُؤْنِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسَ وَجِدَةً ﴾ أَيُّ: مَا خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ وَيُعْتَنُهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ بِالنَّبَسِ إِلَى قُدْرَتِهِ إِلَّا كَنَسَبِهِ خَلَقَ نَفْسَ وَاحِدَةٍ، الْجَمِيعُ هَبْنُ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿ وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجِدَةً كَلِمَاجٍ بِالْبَصْرِ ﴾ [القمر: ٥٠] أَيُّ: لَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ، لَا يَخْتِاجُ إِلَى تَكَرُّرِهِ وَتَوَكُّيدِهِ ﴿ وَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿ [النازعات: ١٣، ١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أَيُّ: كَمَا هُوَ سَمِيعٌ لِأَقْوَابِهِمْ،

بَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ كَسَمِعِهِ وَبَصَرِهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ،
كَذَلِكَ قُدْرَتُهُ عَلَيْهِمْ كَقُدْرَتِهِ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَاحِدٍ﴾...
الآية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

[ذَكَرَ قُدْرَةَ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يَعْنِي: يَأْخُذُ
مِنْهُ فِي النَّهَارِ قَيْطُولُ ذَاكَ، وَيَقْصُرُ هَذَا، وَهَذَا يَكُونُ زَمَنَ
الصَّبْفِ، يَطُولُ النَّهَارُ إِلَى الْغَايَةِ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَقْصِ،
فَيَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ، وَهَذَا يَكُونُ فِي الشِّتَاءِ ﴿وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قِيلَ: إِلَىٰ غَايَةِ
مَحْدُودَةٍ، وَقِيلَ: إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكِلَا الْمَعْنَيْنِ صَحِيحٌ،
وَيُسْتَشْهَدُ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ بِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي
فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ!
أَتَذَرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ. قَالَ: «فَأَيْنَ تَذْهَبُ فَسَجُدْ تَحْتَ الْعَرْشِ، ثُمَّ
تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ
جِئْتِ»^(١). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:
الشَّمْسُ بِمَنْزِلَةِ السَّاقِيَةِ تَجْرِي بِالنَّهَارِ فِي السَّمَاءِ فِي
فَلَكَهَا، فَإِذَا غَرَبَتْ جَرَتْ بِاللَّيْلِ فِي فَلَكَهَا تَحْتَ الْأَرْضِ
حَتَّى تَطْلُعَ مِنْ مَشْرِقِهَا، قَالَ: وَكَذَلِكَ الْقَمَرُ. إِسْنَادُهُ
صَحِيحٌ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠] وَمَعْنَى هَذَا
أَنَّ تَعَالَى الْخَالِقَ الْعَالِمَ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الْآيَةَ
[الطلاق: ١٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾ أَي: إِنَّمَا يُظْهِرُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِتَسْتَدِلُّوا
بِهَا عَلَىٰ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَي: الْمَوْجُودُ الْحَقُّ الْإِلَهَ الْحَقُّ، وَأَنَّ
كُلَّ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَإِنَّهُ الْعِنْيُ عَمَّا سِوَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ قَبِيرٌ
إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، الْجَمِيعُ خَلَقَهُ
وَعَبِيدُهُ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى تَحْرِيكِ دَرَّةٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَوْ
اجْتَمَعَ كُلُّ أَهْلِ الْأَرْضِ عَلَى أَنْ يَخْلُقُوا دُبَابًا لَعَجَزُوا عَنْ

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ
كَأظْلَمِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَلَغْتَهُمُ إِلَى الْبَرِّ
فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ
﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقَارًا يَكْفُرُونَ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ
عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارِعٌ عَنِ الْوَالِدِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ
الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ
وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

سُورَةُ السَّجْدَةِ

ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أَي:
الْعَلِيُّ الَّذِي لَا أَعْلَىٰ مِنْهُ، الْكَبِيرُ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ، فَكُلُّ خَاضِعٍ خَقِيرٍ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ
آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ
مَوْجٌ كَأظْلَمِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَلَغْتَهُمُ إِلَى الْبَرِّ
فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ فِيهِ الْفَلَكَ
بِأَمْرِهِ، أَي بِلُطْفِهِ وَسَخِيخِيرِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ لَا مَا جَعَلَ فِي الْمَاءِ
مِنْ قُوَّةٍ يَحْمِلُ بِهَا الشُّفْنَ لَمَا جَرَتْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيُرِيَكُمْ
مِنْ آيَاتِهِ﴾ أَي: مِنْ قُدْرَتِهِ ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَي: صَبَّارٍ فِي الضَّرَاءِ شَكُورٍ فِي الرَّخَاءِ،

(١) البخاري: ٨٠٣، ومسلم: ١٥٩ (٢) فيه ابن جريج وإن كان ثقة لكنه مدلس ولم يصرح

عَنْ سَيِّدِهِ، وَلَا يَهْتَمُّ أَحَدٌ [بِهِمْ] غَيْرِهِ، وَلَا يَحْزَنُ لِحُزْنِهِ، وَلَا أَحَدٌ يَرْحَمُهُ، كُلُّ مُشْفِقٍ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يُؤْخَذُ إِنْسَانٌ عَنْ إِنْسَانٍ، كُلُّ يَهْمُهُ هَمُّهُ، وَيَبْكِي عَوْلَهُ، وَيَحْمِلُ وِزْرَهُ، وَلَا يَحْمِلُ وِزْرَهُ مَعَهُ غَيْرُهُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ

تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

[عَالِمِ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ]

هَذِهِ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ الَّتِي اسْتَأْتَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهَا، فَلَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ إِعْلَامِهِ تَعَالَى بِهَا، فَعِلْمُ وَقْتِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوقِيًّا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَكَذَلِكَ أَنْزَالَ الْغَيْثَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ بِهِ عِلْمَتُهُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ وَمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَكَذَلِكَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِمَّا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَهُ تَعَالَى سِوَاهُ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ بِكَوْنِهِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، أَوْ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا، عِلْمُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَكَذَا لَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا فِي دُنْيَاهَا وَأُخْرَاهَا ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فِي بَلَدِهَا أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَيِّ بِلَادِ اللَّهِ كَانَ، لَا عِلْمَ لِأَحَدٍ بِذَلِكَ، وَهَذِهِ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾... [الأنعام: ٥٩] وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِتَسْمِيَةِ هَذِهِ الْخَمْسِ مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (٥). هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يَحْرَجُوهُ.

(حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ) وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾»

(١) الطبري: ١٥٧/٢٠ (٢) الطبري: ١٥٧/٢٠ (٣) الطبري: ١٥٩/٢٠ (٤) ما وجدت في تفسير ابن أبي حاتم المطبوع وهذا من قول وهب بن منبه اليماني وهو ثقة (٥) أحمد: ٣٥٣/٥

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أَي: كَالْجِبَالِ وَالْعَمَامِ ﴿دَعَاؤُا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَآءَ﴾ [الإسراء: ٦٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِ﴾... [الأنبياء: ٦٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَا مَجْمَأَنَا إِلَى الْبَحْرِ مَنِّعْتُمُ الْمُنْتَهَى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَي كَافِرٌ، كَأَنَّهُ فَسَّرَ الْمُنْتَهَى هَهُنَا بِالْبَجَائِدِ (١). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَا إِلَى الْبَحْرِ إِذَا هُمْ يَمْرُكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَحْمِلُكُمْ إِلَّا كُلُّ حَنَاقٍ كَافُورٍ﴾ فَالْحَنَاقُ هُوَ الْعُدَاؤُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ (٢). وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَا عَاهَدَ تَقَضَّى عَهْدَهُ، وَالْحَنَرُ أَمَّ الْعُدْرِ وَأَبْلَغُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَافُورٍ﴾ أَي: جَحُودٍ لِلنَّعَمِ لَا يَشْكُرُهَا، بَلْ يَتَنَاسَاهَا وَلَا يَذْكُرُهَا.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْفُوسَ رَبِّكُمْ وَأَخْمَسُوا يَوْمًا لَا يُجْرَىٰ أَلْبَانًا وَلَا يَكْفُورُ هُوَ جَارٍ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الأنبياء: ١٠١]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا لِلنَّاسِ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَأَمْرًا لَهُمْ بِتَقْوَاهُ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَالْخَشْيَةِ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ ﴿لَا يُجْرَىٰ أَلْبَانًا عَنِ اللَّهِ﴾ أَي: لَوْ أَرَادَ أَنْ يَقْدِرَهُ بِنَفْسِهِ لَمَا قُبِلَ مِنْهُ. وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ لَوْ أَرَادَ فِدَاءَ وَالِدِهِ بِنَفْسِهِ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ. ثُمَّ عَادَ بِالْمَوْعِظَةِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أَي: لَا تُغْلِبَنَّكُمْ بِالطَّمَأِينَةِ فِيهَا عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يَعْنِي الشُّبُهَانَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضُّحَاكُ وَقَتَادَةُ (٣). فَإِنَّهُ يَغُرُّ ابْنَ آدَمَ وَيَعِدُّهُ وَيَمْنِيهِ وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ كَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ إِلَّا غُرُورًا﴾

[النساء: ١٢٠] قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: قَالَ عَزِيزٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمَّا رَأَيْتُ بَلَاءَ قَوْمِي اسْتَدَّ حُزْنِي، وَكَثُرَ هَمِّي، وَأَرْقَى نَوْمِي، فَتَضَرَّعْتُ إِلَى رَبِّي وَصَلَبْتُ وَصُمْتُ، فَأَنَا فِي ذَلِكَ التَّضَرُّعِ أَبْكِي، إِذْ أَنَانِي الْمَلِكُ، فَقُلْتُ لَهُ: خَبْرَنِي هَلْ تَسْفَعُ أَرْوَاحَ الصَّادِقِينَ لِلظَّالِمَةِ أَوْ الْآبَاءَ لِأَبْنَائِهِمْ؟ قَالَ: إِنَّ الْقِيَامَةَ فِيهَا فَضْلُ الْقَضَاءِ، وَمُلْكُ ظَاهِرٌ لَيْسَ فِيهِ رُحْصَةٌ، لَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ، وَلَا يُؤْخَذُ فِيهِ وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلَا وَلَدٌ عَنْ وَالِدِهِ، وَلَا أَخٌ عَنْ أُخِيهِ، وَلَا عَبْدٌ

تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»^(١). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ، فَرَوَاهُ فِي كِتَابِ الْأَسْتِثْقَاءِ فِي صَحِيحِهِ^(٢). وَرَوَاهُ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ» ثُمَّ قَرَأَ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرَكَّبُ الْعُنْتُ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ»^(٣). انْفَرَدَ بِهِ أَيْضًا.

(حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَيْتِ الْآخِرِ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ بِيْرَاكٌ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأَحْدِثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَ الْحَفَاةُ الْعَرَاءُ رُؤُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرَكَّبُ الْعُنْتُ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ»... الْآيَةَ، ثُمَّ انصَرَفَ الرَّجُلُ فَقَالَ: «رُدُّوهُ عَلَيَّ» فَأَخَذُوا لِيُرُدُّوهُ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جَبْرِيْلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ»^(٤). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ، وَمُسْلِمٌ مِنْ طَرَفٍ^(٥).

وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَذَكَرْنَا نَمَّ حَدِيثِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ بِطَوِيلِهِ، وَهُوَ مِنْ أَفْرَادِ مُسْلِمٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» قَالَ قَتَادَةُ: أَشْيَاءُ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِنَّ، فَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِنَّ مَلَكًا مَقْرَبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» فَلَا يَدْرِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ فِي أَيِّ سَنَةٍ، أَوْ فِي أَيِّ شَهْرٍ، أَوْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ «وَيُرَكَّبُ الْعُنْتُ» فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى يَنْزِلُ الْعُنْتُ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا «وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ» فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا فِي الْأَرْحَامِ أَذَكَرَّ أَمْ أُنْثَى، أَحْمَرُ أَوْ أَسْوَدُ، وَمَا هُوَ «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا» أَخْيَرُ أَمْ شَرُّ، وَلَا تَدْرِي يَا ابْنَ آدَمَ! مَتَى تَمُوتُ، لَعَلَّكَ الْمَيِّتُ غَدًا، لَعَلَّكَ

الْمُصَابُ غَدًا. «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» أَي: لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَدْرِي أَيْنَ مَضْجَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ، أَيْ بَحْرٍ أَمْ بَرٍّ أَوْ سَهْلٍ أَوْ جَبَلٍ^(٦). وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً»^(٧). رَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ الْكَبِيرِ فِي مُسْنَدِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِيتَةَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ إِلَّا جَعَلَ لَهُ فِيهَا حَاجَةً»^(٨).

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ لُقْمَانَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمِ السَّجْدَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الْمِ السَّجْدَةِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْجُمُعَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا^(١٠). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَتَامُ حَتَّى يَقْرَأَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ وَتَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلَكُوتُ^(١١). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١﴾

[الْقُرْآنُ كِتَابُ اللَّهِ لَا شَكَّ فِيهِ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا. وَقَوْلُهُ: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ» أَي: لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ «أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ» بَلْ يَقُولُونَ: «أَفْتَرْتَهُ» أَي: ااخْتَلَفَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» أَي: يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ.

(١) أحمد: ٢٤/٢ (٢) فتح الباري: ٦٠٩/٢ (٣) فتح الباري: ٣٧٣/٨ (٤) فتح الباري: ٣٧٣/٨ (٥) فتح الباري: ١٤٠/١ (٦) الطبري: ٣٩/١ (٧) الحاكم: ٤٢/١ (٨) الطبراني: ١٧٨/١ (٩) فتح الباري: ٤٣٨/٢ (١٠) مسلم: ٥٩٩/٢ (١١) أحمد: ٣٤٠/٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٥

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ نَزَلَ الْكِتَابَ لِارْتِبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَبُهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا

مَا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ

الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ

إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ

عَلَيْمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ

نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ

مِنْ رُوحِهِ، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا

مَا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَنَّى نَأْتِي

خَلْقَ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوبُ فِكُمْ

مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

[تَطْوِيرُهُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ الَّذِي أَحْسَنَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ

وَأَتَقَنَهَا وَأَحْكَمَهَا. وَقَالَ مَالِكٌ عَنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿الَّذِي

أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قَالَ: أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ كَأَنَّهُ

جَعَلَهُ مِنَ الْمَقْدَمِ وَالْمُؤَخَّرِ، ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَقَالَ

تَعَالَى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ يَعْنِي: خَلَقَ أَبَا الْبَشَرِ

آدَمَ مِنْ طِينٍ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أَي:

يَتَنَاسَلُونَ كَذَلِكَ مِنْ نُطْفَةٍ: تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صُلْبِ الرَّجُلِ

وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يَعْنِي آدَمَ لَمَّا خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ،

خَلَقَهُ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يَعْنِي: الْعُقُولَ ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أَي:

بِهَذِهِ الْقُوَى الَّتِي رَزَقَكُمُوهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَالْسَّعِيدُ مَنْ

اسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَنَّى نَأْتِي خَلْقَ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوبُ فِكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي

يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ

وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

[اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ لِلْكَوْنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقٌ لِلْأَشْيَاءِ فَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، وَقَدْ

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾

أَي: بَلْ هُوَ الْمَالِكُ لِأُمُورِ الْعَالَمِ لِكُلِّ شَيْءٍ،

الْمُدَبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا وَلِيَّ لِيُخَلِّفَهُ

سِوَاهُ، وَلَا شَفِيعَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يَعْنِي:

أَيُّهَا الْعَابِدُونَ غَيْرُهُ الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى مَنْ عَدَاهُ، تَعَالَى

وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَظِيرٌ أَوْ شَرِيكٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ نَدِيدٌ

أَوْ عَدِيلٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ

يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أَي: يَنْزِلُ أَمْرُهُ مِنْ أَعْلَى السَّمَوَاتِ إِلَى أَقْصَى

تُحُومِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

سَعَةَ السَّمَوَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَمَنْ لَهَا مِنْ نَزْلِ الْأُمُورِ يَنْهَنُ... الْآيَةَ

[الطلاق: ١٢]، وَتَرْفَعُ الْأَعْمَالُ إِلَى دِيْوَانِهَا فَوْقَ سَمَاءِ

الدُّنْيَا وَمَسَافَةِ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ،

وَسُمُكُ السَّمَاءِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ

وَالضَّحَّاكُ: التَّرْوُلُ مِنَ الْمَلِكِ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ،

وَصُوعُودُهُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَلَكِنَّهُ يَقْطَعُهَا فِي طَرْفَةِ

عَيْنٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ

مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَي: الْمُدَبِّرُ لِهَذِهِ

الْأُمُورِ، الَّذِي هُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ

جَلِيلُهَا وَحَقِيرُهَا، وَصَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، هُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ

عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَفَهَرَهُ وَعَلَبَهُ، وَكَانَتْ لَهُ الْعِبَادُ وَالرَّقَابُ،

الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ عَزِيزٌ فِي رَحْمَتِهِ رَحِيمٌ فِي

عَزَّتِهِ. وَهَذَا هُوَ الْكَمَالُ، الْعِزَّةُ مَعَ الرَّحْمَةِ وَالرَّحْمَةُ مَعَ

الْعِزَّةِ، فَهُوَ رَحِيمٌ بِلَا دُلٍّ.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾﴾

إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

[الرُّدُّ عَلَى اسْتِعَادِ الْبُعْثِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِعَادِهِمُ الْمَعَادَ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَوَدَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: تَمَزَقَتْ أَجْسَامُنَا وَتَفَرَّقَتْ فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَدَهَبَتْ ﴿أَمَّا لِي فِي خَلْقِ جَدِيدٍ﴾ أَي: أَيْنَا لِنَعُودَ بَعْدَ تِلْكَ الْحَالِ؟ يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعِيدٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى [فُدْرِهِمْ] الْعَاجِزَةِ، لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الَّذِي بَدَأَهُمْ وَخَلَقَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، الَّذِي إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَمْ يَلْفَءْ رَبِّهِمْ كُفْرُونُ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بَنَوْكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ الظَّاهِرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ شَخْصٌ مُعَيَّنٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَمَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ سُمِّيَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ بِعِزْرَائِيلَ وَهُوَ الْمَشْهُورُ. قَالَه قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَلَهُ أَعْوَانٌ (١). وَهَكَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَعْوَانَهُ يَنْتَزِعُونَ الْأَرْوَاحَ مِنْ سَائِرِ الْجَسَدِ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلُقُومَ تَنَاقَلَهَا مَلَكَ الْمَوْتِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: حُوِّتَ لَهُ الْأَرْضُ فَجُعِلَتْ مِثْلَ الطَّنْبِ يَتَنَاقَلُ مِنْهَا مَتَى يَشَاءُ (٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أَي: يَوْمَ مَعَادِكُمْ وَيَوْمِ قِيَامِكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ لِحِزَائِكُمْ.

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسَوُا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِعَاقِبَتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَلَّأُنِي جَنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مَن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴿١٢﴾ أَي: إِلَى دَارِ الدُّنْيَا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أَي: قَدْ أَبْقَيْنَا وَتَحَقَّقْنَا فِيهَا أَنْ وَعْدَكَ حَقٌّ، وَلِقَاءَكَ حَقٌّ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ تَعَالَى مِنْهُمْ أَنَّهُ لَوْ أَعَادَهُمْ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا لَكَانُوا كَمَا كَانُوا فِيهَا كَفَّارًا يَكْذِبُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُخَالِفُونَ رُسُلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ ذُوقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا بَلَيْنَا نَرُّهُ وَلَا نَكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾... الْآيَةُ [الأنعام: ٢٨]. وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: مِنَ الصَّنَفَيْنِ فَذَارُهُمُ النَّارُ لَا مَجِيدَ لَهُمْ عِنهَا، وَلَا مَحِيصَ لَهُمْ مِنْهَا، نَعُودُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ النَّامِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ، ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَي: يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِكُمْ بِهِ،

تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

[بَيَانُ حَالِ الْمُشْرِكِينَ السَّيِّئِ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَالَهُمْ حِينَ عَايَنُوا الْبُعْثَ، وَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ نَاكِسِي رُؤُوسِهِمْ، أَي: مِنَ الْحَيَاءِ وَالْخَجَلِ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أَي: نَحْنُ الْآنَ نَسْمَعُ قَوْلَكَ، وَنُطِيعُ أَمْرَكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] وَكَذَلِكَ يَعُودُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ إِذَا دَخَلُوا النَّارَ يَقُولُهُمْ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وَهَكَذَا هُوَ لِأَنَّ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا

(١) الطبري: ١٧٥/٢٠ (٢) الطبري: ١٧٥/٢٠

وَاشْتِعَادِكُمْ وَفُوعَهُ، وَتَنَاسِيكِكُمْ لَهُ؛ إِذْ عَامَلْتُمُوهُ مُعَامَلَةً مِنْ هُوَ نَاسٍ لَهُ، ﴿إِنَّا نَسِيكُكُمْ﴾ أَي: سَنُعَامَلُكُمْ مُعَامَلَةَ النَّاسِي؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَنْسَى شَيْئًا وَلَا يَضِلُّ عَنْهُ شَيْءٌ، بَلْ مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَنْسِكُكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجمانية: ٣٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [٢٤] إِلَّا حِيمًا وَعَسَاقًا إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَلَنْ تَرِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٢٤-٣٠].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [١٥] نَسَجَانِي جُنُودَهُمْ عَنِ الْمَصَاحِبِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ [١٦] فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٧]

[حَالُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَجَزَاؤُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أَي: إِنَّمَا يُصَدِّقُ بِهَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا أَي: اسْتَمَعُوا لَهَا، وَأَطَاعُوهَا قَوْلًا وَفِعْلًا، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَي: عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالْإِنْفِيَادِ لَهَا كَمَا نَفَعَلُهُ الْجَهْلَةُ مِنَ الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿نَسَجَانِي جُنُودَهُمْ عَنِ الْمَصَاحِبِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: قِيَامَ اللَّيْلِ وَتَرْكَ النَّوْمِ وَالِاضْطِجَاعَ عَلَى الْفُرْشِ الْوَطِئَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَسَجَانِي جُنُودَهُمْ عَنِ الْمَصَاحِبِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: قِيَامَ اللَّيْلِ^(١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ فِي جَمَاعَةٍ، وَصَلَاةُ الْعَدَاةِ فِي جَمَاعَةٍ. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَي: خَوْفًا مِنْ وَبَالِ عِقَابِهِ، وَطَمَعًا فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ فِعْلِ الْقُرْبَاتِ الْإِلَازِمَةِ وَالْمَتَعَدِيَةِ، وَمَقْدَمُ هُوَ لَا يَسْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَدْخُلُنِي الْجَنَّةَ، وَيَبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ

الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ - ثُمَّ قَالَ: - أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الْاَصْوَمُ حُجَّتُهُ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ - ثُمَّ قَرَأَ: - ﴿نَسَجَانِي جُنُودَهُمْ عَنِ الْمَصَاحِبِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُفْلُهُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، يَا نَبِيَّ اللَّهِ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فَقَالَ: «تَكَلَّمَ أَمُكُ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَا نَجَّاهِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِمْ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾... الْآيَةَ، أَي: فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ عَظَمَةَ مَا أُخْفِيَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ وَاللَّذَاتِ الَّتِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى مِثْلِهَا أَحَدٌ - لَمَّا أَخْفَوْا أَعْمَالَهُمْ كَذَلِكَ أَخْفَى اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ - جَزَاءً وَفَاقًا، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَخْفَى قَوْمٌ عَمَلَهُمْ، فَأَخْفَى اللَّهُ لَهُمْ مَا لَمْ تَرَوْا عَيْنًا وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾... الْآيَةَ، وَذَكَرَ تَحْتَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَدْنُ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٤). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٥). وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، دُخْرًا مِنْ بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ»^(٦). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيضًا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا

(١) الطبري: ١٨٠/٢٠ (٢) أحمد: ٢٣١/٥ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٦٢/٧ والنسائي في الكبرى: ٤٢٨/٦ وابن ماجه: ١٣١٤/٢ (٤) فتح الباري: ٣٧٥/٨ (٥) مسلم: ٢١٧٤/٤ وتحفة الأحوذى: ٥٦/٩ (٦) فتح الباري: ٣٧٥/٨

تَبَلَىٰ ثِيَابَهُ، وَلَا يُغْنِي شَبَابُهُ، فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبٍ بَشَرٍ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

﴿أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكِيدُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

[لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْفَاسِقُ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ عَذَلِهِ وَكَرَمِهِ أَنَّهُ لَا يَسَاوِي فِي حُكْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِآيَاتِهِ مُتَّبِعًا لِرُسُلِهِ، بِمَنْ كَانَ فَاسِقًا أَوْ خَارِجًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، مُكْدِّبًا رُسُلَ اللَّهِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أُجْرِحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَخْلُوفَةً وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَا يَكْفُرُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَعْتَبَ النَّارِ وَأَعْتَبَ الْجَنَّةِ﴾... [الاحقر: ٢٠]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ أَي: عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعُثْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ^(٢). وَلِهَذَا فَضَّلَ حُكْمَهُمْ فَقَالَ: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي صَدَقَتْ قُلُوبُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهَا وَهِيَ الصَّالِحَاتُ ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أَي: الَّتِي فِيهَا الْمَسَاكِنُ وَالذُّورُ وَالْعُرُفُ الْعَالِيَةُ ﴿نُزُلًا﴾ أَي: ضِيَافَةٌ وَكَرَامَةٌ ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا أَي: خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ [فَمَا وَاهُمْ النَّارُ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا] كَقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾... [الحج: ٢٢]. قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ: وَاللَّهِ! إِنَّ الْأَيْدِيَ لَمُوتِقَةٌ، وَإِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَبَّدَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَبَ لَيَرْفَعُهُمْ، وَالْمَلَائِكَةُ تَقْمَعُهُمْ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكِيدُونَ﴾ أَي: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ، تَفْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ

٤١٧
سُورَةُ الْحَجَّةِ
وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿١٩﴾ وَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بَيِّنَاتٍ يُوقِنُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٢﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا هَدَيْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَسْتَأْذِنُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِونِ ﴿٢٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْحُرَّىٰ فَنُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَأَنْظَرَ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٢٧﴾

سُورَةُ الْاِحْتِجَابِ

الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُعْنِي بِالْعَذَابِ الْأَذَىٰ مَصَابِيبَ الدُّنْيَا وَأَسْقَامَهَا وَأَفَاتِهَا، وَمَا يَحُلُّ بِأَهْلِهَا مِمَّا يَنْتَلِي اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ لِيَتَوَبُوا إِلَيْهِ^(٣). وَرَوَى مُثْلَهُ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَالْحَسَنِ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَالضُّحَّاكِ، وَعَلْقَمَةَ، وَعَطِيَّةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَعَبْدَ الْكَرِيمِ الْجَزْرِيَّ، وَخُصَنَفَ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أَي لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَهُ اللَّهُ بِآيَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهَا لَهُ وَوَضَّحَهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَهَا وَجَحَدَهَا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَتَنَاسَاهَا كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا. قَالَ قَتَادَةَ: إِنَّا كُنَّا وَالْإِعْرَاضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ فَقَدْ اغْتَرَّ أَكْبَرَ الْغِرَّةِ، وَأَعْوَزَ أَشَدَّ الْعَوَزِ، وَعَظَمَ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُتَّهَدًا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾

(١) الطبري: ١٨٦/٢٠ ومسلم: ٤/٢١٨١ (٢) الطبري: ٢٠/١٨٨
١٨٨ (٣) الطبري: ١٨٩/٢٠ (٤) الطبري: ٢٠/١٨٩، ١٩٠

أَي: سَأْتِقُم مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ
يَا مَرْيَمُ لِمَا صَبَرْتِ لِمَا بَيْنَا يَوْفُوْتُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[كِتَابُ مُوسَى وَإِمَامَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ: أَنَّهُ آتَاهُ الْكِتَابَ، وَهُوَ التَّوْرَةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي بِهِ لَيْلَةَ
الْإِسْرَاءِ^(١). ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ الرَّيَّاحِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي
ابْنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ، يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «أَرَيْتَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ رَجُلًا أَدَمَ
طَوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَوْعَةَ، وَرَأَيْتَ عَيْسَى رَجُلًا
مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبِيَاضِ، سَبَطَ الرَّأْسِ، وَرَأَيْتَ
مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالذَّجَالَ فِي آيَاتِ أَرَاهُنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ: ﴿فَلَا
تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أَنَّهُ قَدْ رَأَى مُوسَى، وَلَقِيَ مُوسَى
لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أَي الْكِتَابَ الَّذِي آتَيْنَاهُ
﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ
﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا نَسْجُدُوا
مِن دُونِ وَصِيْلًا﴾ [الاسراء: ٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ يَا مَرْيَمُ لِمَا
صَبَرْتِ لِمَا بَيْنَا يَوْفُوْتُ﴾ أَي لِمَا كَانُوا صَابِرِينَ عَلَى
أَوْامِرِ اللَّهِ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، وَتَصَدِيقِ رُسُلِهِ وَاتِّبَاعِهِمْ فِيمَا
جَاؤُوهُمْ بِهِ، كَانَ مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ بِأَمْرِ اللَّهِ،
وَيَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ، ثُمَّ لَمَّا بَدَّلُوا وَحَرَفُوا وَأَوَّلُوا، سَلِبُوا ذَلِكَ الْمَقَامَ،
وَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَلَا
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا اعْتِقَادًا صَاحِبِحًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ يَا مَرْيَمُ لِمَا صَبَرْتِ﴾ [قَالَ قَتَادَةُ
وَسُفْيَانُ: لَمَّا صَبَرُوا عَنِ الدُّنْيَا. وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ
صَالِحٍ. قَالَ سُفْيَانُ: هَكَذَا كَانَ هُوَ لَاءِ، وَلَا يَبْتَغِي لِلرَّجُلِ
أَنْ يَكُونَ إِمَامًا يُفْتَدَى بِهِ حَتَّى يَنْحَاسِيَ عَنِ الدُّنْيَا. وَلِهَذَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
وَوَرَفَقْتَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾﴾ وَأَيُّهُمْ يَنْتَدِبُ
مِنَ الْأَمْرِ﴾... الْآيَةُ [الجنانية: ١٦، ١٧]. كَمَا قَالَ هُنَا:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ﴾ أَي مِنَ الْإِعْتِقَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ.

﴿أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ آهَلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْفُرُونِ يَمْشُونَ فِي
مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا
نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ
أَنعَمُهُمْ وَأَنفُسَهُمْ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾
[خُذُوا الْعِبْرَةَ بِالْمَاضِيْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُوْلَاءِ الْمُكذِّبِينَ بِالرُّسُلِ مَا
أَهْلَكَ اللَّهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ،
وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنْ قَوِيمِ السُّبُلِ، فَلَمْ
يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أُنْثَى هَلْ تُحْسِنُ مِنْتَهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ
تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مریم: ٩٨] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَمْشُونَ فِي
مَسْجِدِهِمْ﴾ أَي: هُوْلَاءِ الْمُكذِّبُونَ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِ أَوْلِيكِ
الْمُكذِّبِينَ، فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا
وَيَعْمُرُهَا، ذَهَبُوا مِنْهَا ﴿كَأَن لَّمْ يَنْوَأْ فِيهَا﴾ [هود: ٩٥] كَمَا
قَالَ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]
وَقَالَ: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرَابَةِ أَهْلِكُنَّهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَعَسَى
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَكِن نَعَى الْقَلْبُ آبِئِي فِي
الْصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ﴾ أَي إِنَّ فِي ذَهَابِ أَوْلِيكِ الْقَوْمِ وَدِمَارِهِمْ وَمَا حَلَّ
بِهِمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وَنَجَاةِ مَنْ آمَنَ بِهِمْ، لآيَاتٍ
وَعِبْرًا وَمَوَاعِظَ وَدَلَائِلَ مُتَنَاطِرَةً ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أَي:
أَخْبَارَ مَنْ تَقَدَّمَ كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُمْ.

[إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بِالْمَاءِ دَلِيلُ الْبَعَثِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ
الْجُرُزِ﴾ يَبِينُ تَعَالَى لُطْفَهُ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ فِي إِسْرَائِلِهِ
الْمَاءَ إِمَّا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ السَّيْحِ، وَهُوَ مَا تَحْمِلُهُ
الْأَنْهَارُ، وَيَتَحَدَّرُ مِنَ الْجِبَالِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُحْتَاجَةِ إِلَيْهِ
فِي أَوْقَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وَهِيَ
الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨] أَي: يَسَا لَا تُنْبِتُ شَيْئًا، وَلِهَذَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ
فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنعَمُهُمْ وَأَنفُسَهُمْ أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾ كَمَا

(١) الطبري: ٢٠/١٩٣ (٢) الطبري: ٢٠/١٩٤

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا... الآية [عبس: ٢٤، ٢٥]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

[اسْتَعْجَالَ الْكُفَّارِ لِلْعَذَابِ وَجَوَابِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتَعْجَالِ الْكُفَّارِ وَفُوعِ بَأْسِ اللَّهِ بِهِمْ، وَحُلُولِ غَضَبِهِ وَيَقَمَّتِهِ عَلَيْهِمْ، اسْتِعْجَادًا وَتَكْذِيبًا وَعِنَادًا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي: متى تُنْصَرُ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدٌ؟ كَمَا تَزْعُمُ أَنَّ لَكَ وَقْتًا تَدُلُّ عَلَيْنَا وَيُتِمُّمُ لَكَ مِتًّا، فَمَتَى يَكُونُ هَذَا؟ مَا تَرَكَ أَنْتَ وَأَصْحَابَكَ إِلَّا مُخْتَفِينَ خَائِفِينَ ذَلِيلِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إِذَا حَلَّ بِكُمْ بَأْسُ اللَّهِ وَسَخَطَهُ وَعَظَمَهُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَى ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ نَهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ﴾... [عافر: ٨٣-٨٥]. وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ فَتْحَ مَكَّةَ فَقَدْ أَبْعَدَ النُّجْمَةَ، وَأَخْطَأَ فَأَفْحَشَ، فَإِنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ قَدْ قَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِسْلَامَ الطُّلَقَاءِ، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنَ الْقُبُورِ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ فَتْحَ مَكَّةَ لَمَا قَبِلَ إِسْلَامَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْفَتْحُ الَّذِي هُوَ الْقَضَاءُ وَالْفُضْلُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾... الآية [الشعراء: ١١٨]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾... الآية [سبأ: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ سِتْنِينَ حَتًّا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمَّا جَاءَ كُفُّوا أَلْفَتْحًا﴾ [الأَنْفَال: ١٩].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي أَعْرَضَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَبَلَغَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾... الآية [الأنعام: ١٠٦]، وَانظُرْ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُنْزِلُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، وَسَيَنْصُرُكَ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي: أَنْتَ مُنْتَظَرٌ وَهُمْ مُنْتَظَرُونَ وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ الدَّوَائِرَ ﴿أَمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٨

سُورَةُ الْاِنْشَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ. وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي تَنْظَهُرُونَ مِنْ مِثْنِ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُ بِهِ رَبِّ الْمُنُونِ [الطور: ٣٠] وَسَتَرَى أَنْتَ عَاقِبَةَ صَبْرِكَ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ آدَاءِ رِسَالَةِ اللَّهِ: فِي نُصْرَتِكَ وَتَأْيِيدِكَ، وَسَيَجِدُونَ غَيْبَ مَا يَنْتَظِرُونَهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِ اللَّهِ لَهُمْ، وَحُلُولِ عَذَابِهِ بِهِمْ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ السَّجْدَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَخْزَابِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

[الْأَمْرُ بِالصُّمُودِ فِي وَجْهِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، مَتَبَعًا

وَحْيِ اللَّهِ، وَمَتَوَكَّلًا عَلَيْهِ

هَذَا تَنْبِيهٌ بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَأْمُرُ عِبْدَهُ وَرَسُولَهُ بِهَذَا، فَلَأَنْ يَأْتِيَ مَنْ دُونَهُ بِذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى. وَقَدْ قَالَ طَلْحُ بْنُ حَبِيبٍ: التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَأَنْ تَتْرَكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، مَخَافَةَ عَذَابِ اللَّهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أَي لَا تَسْمَعْ مِنْهُمْ وَلَا تَسْتَشِيرْهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَي فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ أَوَامِرَهُ وَتَطِيعَهُ، فَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَي: مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أَي: فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَحْوَالِكَ ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَي: وَكَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَتَىٰ إِلَيْهِ.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَتِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهَا أَمْهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾^(١) أَدْعُوهُمْ لِأَبْنَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاغْتَابِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(٢)

[إِنطال التَّبَنِّي]

يَقُولُ تَعَالَى مُوطَّأً قَبْلَ الْمُفْصُودِ الْمُعْتَوِيَّ أَمْرًا مَعْرُوفًا حَسَنًا، وَهُوَ أَنَّهُ كَمَا لَا يَكُونُ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ فِي جَوْفِهِ وَلَا تَصِيرُ زَوْجَتُهُ النَّبِيَّ يُظَاهِرُ مِنْهَا يَقُولُهُ: أَنْتَ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي أَمَا لَهُ، كَذَلِكَ لَا يَصِيرُ الدَّعِيُّ وَلَدًا لِلرَّجُلِ إِذَا تَبَنَّاهُ فَدَعَاهُ ابْنًا لَهُ، فَقَالَ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَتِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهَا أَمْهَاتِكُمْ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا هُنَّ أَمْهَاتُهُمْ إِنْ أَمْهَتْهُمُ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ﴾... [الآية [المجادلة]: ٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ هَذَا هُوَ الْمُفْصُودُ بِالنَّبِيِّ، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ تَبَنَّاهُ قَبْلَ النَّبُوَّةِ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقْطَعَ هَذَا الْإِلْحَاقَ وَهَذِهِ النُّسْبَةَ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَنْبَاءِ السُّورَةِ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

[الأحزاب: ٤٠] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يُعْنِي: تَبَنَيْتُمْ لَهُمْ قَوْلًا لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ابْنًا حَقِيقًا، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ صُلْبِ رَجُلٍ آخَرَ، فَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبَوَانِ كَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلْبَشَرِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أَي: الْعَدْلَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أَي: الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنٌ: حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ عَنْ قَابُوسٍ يُعْنِي ابْنَ أَبِي ظَلْبَانَ، قَالَ: إِنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَتِ فِي جَوْفِهِ﴾ مَا عَنَى بِذَلِكَ؟ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا يُصَلِّي فَخَطَرَ خَطْرَةً، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ مَعَهُ: أَلَا تَرَوْنَ لَهُ قَلْبَيْنِ: قَلْبًا مَعَكُمْ وَقَلْبًا مَعَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَتِ فِي جَوْفِهِ﴾^(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٢). وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ زُهَيْرِ بِهِ^(٣).

[يُنْسَبُ الْمُتَنَبِّي إِلَى أَبِيهِ الْحَقِيقِيِّ]

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبْنَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هَذَا أَمْرٌ نَاسِخٌ لِمَا كَانَ فِي الْبَدَايَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ جَوَازِ ادِّعَاءِ الْأَبْنَاءِ الْأَجَانِبِ وَهُمْ الْأَدْعِيَاءُ، فَأَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَدِّ نَسَبِهِمْ إِلَى آبَائِهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ وَالْبِرُّ. رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: إِنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبْنَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤) وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٥). وَقَدْ كَانُوا يُعَامِلُونَهُمْ مُعَامَلَةَ الْأَبْنَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ فِي الْخَلْوَةِ بِالْمَحَارِمِ وَعَظِيمِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سَهْلٍ امْرَأَةُ أَبِي حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا كُنَّا نَدْعُو سَالِمًا ابْنًا، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ مَا أَنْزَلَ، وَإِنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيَّ وَإِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِ أَبِي حُدَيْفَةَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَقَالَ ﷺ: «أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ»...

(١) أحمد: ٢٦٧/١ قابوس بن أبي ظبيان تقدم حكمه (٢) تحفة الأحودي: ٥٨/٩ (٣) الطبري: ٢٠٤/٢٠ (٤) فتح الباري: ٣٧٧/٨ (٥) مسلم: ١٨٨٤/٤ وتحفة الأحودي: ٧٢/٩ والنسائي: ٤٢٩/٦

الْحَدِيثِ^(١). وَلِهَذَا لَمَّا نُسِخَ هَذَا الْحُكْمَ أَبَاحَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى زَوْجَةَ الدَّعِيِّ، وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ مُطَّلَقَةَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا» [الأحزاب: ٣٧] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ: «وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ» [النساء: ٢٣] إِخْتِرَارًا عَنِ زَوْجَةِ الدَّعِيِّ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الصُّلْبِ، فَأَمَّا الْإِبْنُ مِنَ الرِّضَاعَةِ فَمَنْزِلٌ مَنْزِلَةُ ابْنِ الصُّلْبِ شَرْعًا بِقَوْلِهِ ﷺ فِي الصَّحِيحِينَ: «حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»^(٢). فَأَمَّا دَعْوَةُ الْغَيْرِ ابْنًا عَلَى سَبِيلِ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْيِيبِ، فَلَيْسَ مِمَّا نَهَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا التَّرْمِذِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلِيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى [حُمْرَاتٍ] لَنَا مِنْ جَمْعٍ، فَجَعَلَ يَطْلُحُ أَفْحَادَنَا وَيَقُولُ: «[أَبْنَيْ] لَا تَزُمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ»^(٣). قَالَ أَبُو عَبْدِ [عَبِيدٍ] وَغَيْرُهُ: [أَبْنَيْ] تَضْيِئُ بَنِي. وَهَذَا ظَاهِرُ الدَّلَالَةِ، فَإِنَّ هَذَا كَانَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ سَنَةَ عَشْرٍ.

وَقَوْلُهُ: «أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ» فِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ قُتِلَ فِي يَوْمِ مُؤْتَةَ سَنَةَ ثَمَانٍ، وَأَيْضًا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَابُنِي»^(٤). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّرْمِذِيُّ^(٥). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلْيَخَوِّكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلِيكُمْ» أَمَرَ تَعَالَى بِرَدِّ أَنْسَابِ الْأَدْعِيَاءِ إِلَى آبَائِهِمْ إِنْ عَرَفُوا، فَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوا فَهَمَّ إِخْوَانُهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيهِمْ، أَيْ عَوْضًا عَمَّا فَاتَهُمْ مِنَ النَّسَبِ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حَرَجٍ مِنْ مَكَّةَ عَامَ عُمَرَةَ الْقَضَاءِ وَبَعَثَهُمْ ابْنَهُ حَمْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُنَادِي، يَا عَمَّ، يَا عَمَّ! فَأَخَذَهَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ لِطَائِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دُونَكَ ابْنَةُ عَمِّكَ، فَأَخْتَمَلْتُهَا، فَأَخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي أَبِيهِمْ يَكْفُلُهَا، فَكُلُّ أَدْلَى بِحُجَّتِهِ. فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي. وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أُخِي، وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي، يَعْنِي: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا وَقَالَ: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ». وَقَالَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ مَيِّ وَأَنَا مِنْكَ». وَقَالَ

لِجَعْفَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي». وَقَالَ لَزَيْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»^(٦). فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَحْسَنَهَا أَنَّهُ ﷺ حَكَمَ بِالْحَقِّ، وَأَرْضَى كُلًّا مِنَ الْمُتَنَازِعِينَ. وَقَالَ لَزَيْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا». كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَلْيَخَوِّكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلِيكُمْ».

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ» أَي: إِذَا نَسَبْتُمْ بَعْضَهُمْ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فِي الْحَقِيقَةِ خَطَأً بَعْدَ الْجِتْهَادِ وَاسْتِيفَاعِ الْوُسْعِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَضَعَ الْحَرَجَ فِي الْخَطَأِ وَرَفَعَ إِثْمَهُ، كَمَا أَرَشَدَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ أَنْ يَقُولُوا: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ سَيَّئْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا» [البقرة: ٢٨٦] وَبَيَّنَّتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ فَعَلْتُ»^(٧). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(٨). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالتَّسْبِيحَ [وَمَا] يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ»^(٩). وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» أَي: وَإِنَّمَا الْإِثْمُ عَلَى مَنْ تَعَمَّدَ الْبَاطِلَ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْنَتِكُمْ»... الْآيَةُ [المائدة: ٨٩].

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ مَعَهُ الْكِتَابَ، فَكَانَ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، ثُمَّ قَالَ قَدْ كُنَّا نَقْرَأُ: (وَلَا تَرْعَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَإِنَّهُ كَفَرَ بِكُمْ أَنْ تَرْعَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ). وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلَامُ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ، فَقُولُوا: عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» وَرَبَّمَا قَالَ مَعْمَرٌ: «كَمَا أُطْرِي

(١) مسلم: ١٠٧٦/٢ (٢) فتح الباري: ٣٩٢/٨ ومسلم: ٢/١٠٦٩ (٣) أحمد: ٢٣٤/١ وأبو داود: ٤٨٠/٢ والنسائي: ٥/٢٧١ وابن ماجه: ١٠٠٧/٢ (٤) مسلم: ١٦٩٣/٣ (٥) أبو داود: ٢٤٧/٥ وتحفة الأحوذى: ١٢٠/٨ (٦) فتح الباري: ٧/٥٧٠ (٧) مسلم: ١١٦/١ (٨) فتح الباري: ٣٣٠/١٣ (٩) تحفة الأحوذى: ٦٥٩/١

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنَّا وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
 وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
 لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا يَشَاءُ اللَّهُ فَإِنِ بَدَّلَهُ إِثْمًا
 لِمَا تَشَاءُ أَلَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ جَاءَهُمْ
 جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٨﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
 مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
 وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿٩﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
 زِلْزَلًا شَدِيدًا ﴿١٠﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
 مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ
 مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
 مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا
 فِرَارًا ﴿١٢﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ آفَاطِرِهَا ثُمَّ سَمِعُوا لَفِئْتَنَةً
 لَأَنهَارًا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا لَيْسِيرًا ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا
 اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ إِلَّا عَدُوًّا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٤﴾

النَّصَارَى ابْنِ مَرْيَمَ^(١). وَرَوَاهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ:
 «ثَلَاثٌ فِي النَّاسِ كُفَّرَ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى
 الْمَيِّتِ، وَالْإِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»^(٢).
 ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ
 بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ
 إِلَّا أَنْ تَعْلَمُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ
 مَسْطُورًا ﴿٦﴾

[وَلَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأُمُومَةُ أَرْوَاجِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ]
 قَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى شَفَقَةَ رَسُولِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ وَنُصْحَهُ
 لَهُمْ، فَجَعَلَهُ أَوْلَىٰ بِهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ، وَحُكْمُهُ فِيهِمْ كَانَ
 مُقَدِّمًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ لِأَنفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا
 وَرَيْكَ لَا يَوْمُوتُ حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا
 يَجْعَلُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرْبًا مِمَّا قَضَيْتَ وَمَنْ يَمْلِكُ تَسْلِيمًا﴾
 [النساء: ٦٥] وَفِي الصَّحِيحِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ
 أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ
 أَجْمَعِينَ»^(٣). وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا
 مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ ﷺ: «لَا، يَا عَمْرُ! حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ
 إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ
 إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ ﷺ: «إِلَّا أَنْ
 يَأْخُذَ»^(٤). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ
 بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا
 أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَقْرَبُوا إِنْ شِئْتُمْ:
 ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَا لَا
 فَلَئِنَّهُ عَصَبْتُهُ مَنْ كَانُوا، وَإِنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلْيَأْتِنِي
 فَأَنَا مَوْلَاهُ، تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ وَرَوَاهُ أَيْضًا فِي
 الْإِسْتِغْرَاضِ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أَي: فِي الْحُرْمَةِ
 وَالْإِحْتِرَامِ، وَالنُّوْقِيرِ وَالْإِكْرَامِ وَالْإِعْظَامِ، وَلَكِنْ لَا تَجُوزُ
 الْخُلُوعَةُ بِهِنَّ، وَلَا يَتَشَبَّهُنَّ التَّحْرِيمَ إِلَى بَنَاتِهِنَّ وَأَخَوَاتِهِنَّ
 بِالْإِجْمَاعِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي
 كِتَابِ اللَّهِ﴾ أَي: فِي حُكْمِ اللَّهِ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾
 أَي: الْقَرَابَاتِ أَوْلَىٰ بِالنَّوَارِثِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،

وَهَذِهِ نَاسِخَةٌ لِمَا كَانَ قَبْلَهَا مِنَ النَّوَارِثِ بِالْحَلْفِ
 وَالْمُؤَاخَاةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ:
 كَانَ الْمُهَاجِرِيُّ يَرِثُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ قَرَابَاتِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ،
 لِأَخْوَرَةِ النَّبِيِّ آخَى بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٦). وَكَذَا قَالَ
 سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَعْلَمُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾
 أَي: ذَهَبَ الْجِمَارِثُ، وَبَقِيَ النَّصْرُ وَالْبُرُّ وَالصَّلَةُ وَالْإِحْسَانُ
 وَالْوَصِيَّةُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أَي:
 هَذَا الْحُكْمُ، وَهُوَ أَنَّ أَوْلَى الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ،
 حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ مُقَدَّرٌ مَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَا
 يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى
 قَدْ شَرَعَ خِلَافَهُ فِي وَقْتٍ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ

(١) أحمد: ٤٧/١ (٢) مسلم: ٩٣٤ وأحمد: ٣٤٢/٥ (٣)
 فتح الباري: ٧٥/١ (٤) فتح الباري: ٥٣٢/١١ (٥) فتح
 الباري: ٣٧٦/٨ ٧٥/٥ (٦) البخاري: ٢٢٩٢ و٤٥٨٠
 ٦٧٤٧

وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَنْسَخُهُ إِلَى مَا هُوَ جَارٍ فِي قَدَرِهِ الْأَزَلِيِّ وَقَضَائِهِ الْقَدَرِيِّ الشَّرْعِيِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْتَلَّ الضَّالِّينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

[العهد والميثاق من الأنبياء]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ أُولَى الْعِزْمِ الْخَمْسَةِ وَبَيِّنَةً الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ فِي إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ وَالتَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ وَالتَّاتِقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٨١] فَهَذَا الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أُخِذَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ إِزْسَالِهِمْ، وَكَذَلِكَ هَذَا، وَنَصَّ مِنْ بَيْنِهِمْ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةِ وَهُمْ أُولُو الْعِزْمِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذِكْرِهِمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فَذَكَرَ الطَّرْفَيْنِ، وَالْوَسْطَ: الْفَاتِحَ، وَالْخَاتِمَ، وَمَنْ بَيْنَهُمَا عَلَى التَّرْتِيبِ، فَهَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الَّتِي أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴿٧﴾ فَبَدَأَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْخَاتِمِ؛ لِشَرَفِهِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَبَّهْمُ بِحَسَبِ وُجُودِهِمْ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمِيثَاقُ الْغَلِيظُ: الْعَهْدُ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَسْتَلَّ الضَّالِّينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: الْمُبْلَغِينَ الْمُؤَدِّينَ عَنِ الرُّسُلِ^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ: مِنْ أَمِيمِهِمْ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيُّ: مُوجِعًا. فَحَنَّ نَشَهُدُ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَنَصَّحُوا الْأُمَّمَ، وَأَفْصَحُوا لَهُمْ عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي لَا لَبْسَ فِيهِ، وَلَا شَكَّ، وَلَا امْتِرَاءَ، وَإِنْ كَذَّبَهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنَ الْجَهْلَةِ وَالْمُعَانِدِينَ وَالْمَارِقِينَ وَالْقَاسِطِينَ، فَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ هُوَ الْحَقُّ، وَمَنْ خَالَفَهُمْ فَهُوَ عَلَى الضَّلَالِ. كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾﴾

[ذِكْرُ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ نِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَرْفِهِ أَعْدَاءَهُمْ وَهَزْمِهِ إِيَّاهُمْ عَامَ تَأَلَّبُوا عَلَيْهِمْ وَتَحَزَّبُوا، وَذَلِكَ عَامَ الْحَنْدِ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالِ سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهَجْرَةِ عَلَى الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ. وَقَالَ مُوسَى ابْنُ عُقْبَةَ وَغَيْرُهُ: كَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ^(٣). وَكَانَ سَبَبُ قُدُومِ الْأَحْزَابِ أَنْ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَجْلَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ، مِنْهُمْ سَلَامٌ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ وَسَلَامٌ بْنُ مَشْكَمٍ وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ، خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ فَاجْتَمَعُوا بِأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَأَلْبُوهُمْ عَلَى حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَوَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمُ النَّصْرَ وَالْإِعَانَةَ، فَأَجَابُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى عَطْفَانَ فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ أَيْضًا، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَحَابِيشِهَا وَمَنْ تَابَعَهَا، وَقَاتِلَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَعَلَى عَطْفَانَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ بَدْرِ، وَالْحَمِيعُ قَرِيبٌ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَسِيرِهِمْ، أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِحَفْرِ الْحَنْدِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ، وَذَلِكَ بِإِشَارَةِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ وَاجْتَهَدُوا، وَنَقَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الثَّرَابَ وَحَفَرَهُ، وَكَانَ فِي حَفْرِهِ ذَلِكَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ وَدَلَائِلٌ وَاضِحَاتٌ. وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَتَزَلُّوا شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ قَرِيبًا مِنْ أَحُدٍ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَعْلَى أَرْضِ الْمَدِينَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَقِيلَ: سَبْعُمِائَةٍ، فَاسْتَدُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ وَوُجُوهُهُمْ إِلَى نَحْوِ الْعُدُوِّ، وَالْحَنْدُ حَفِيرٌ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ يَحْجُبُ الْحَيَالَةَ وَالرَّجَالَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِمْ، وَجَعَلَ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ فِي أَطَامِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَهُمْ حِصْنٌ شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ، وَلَهُمْ عَهْدٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَذِمَّةٌ،

(١) الطبري: ٢١٣/٢٠ (٢) الطبري: ٢١٤/٢٠ (٣) فتح الباري: ٤٥٣/٧

سَهْمًا فِي كَيْدِ قَوْسِي وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لِأَصْبَتُهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ كَأَنَّمَا أُمْسِي فِي حَمَامٍ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَصَابَنِي الْبُرْدُ حِينَ فَرَعْتُ وَفُرُزْتُ، فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَلْبَسَنِي مِنْ فَضْلِ عِبَاءَةَ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى الصُّبْحِ، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أَي: الْأَحْزَابُ ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ عَنْ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أَي: مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ ﴿وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ظَنَّ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الدَّائِرَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَعْمَلُ ذَلِكَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾: ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ ظَنٍّ، وَنَجَمَ النَّفَاقُ، حَتَّى قَالَ مُعْتَبُ بْنُ قُشَيْرٍ أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ: كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَفَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْعَاظِ^(٢).

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ظُنُونٌ مُخْتَلِفَةٌ، ظَنَّ الْمُتَافِقُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ يُسْتَأْصَلُونَ، وَأَيَّقَنَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا وَعَدَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقٌّ، وَأَنَّهُ سَيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ^(٤). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُ، فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، قُولُوا: اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رُوعَاتِنَا» قَالَ: فَضَرَبَ وَجْهَهُ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَرَمَهُمُ بِالرِّيحِ. وَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِي عَائِزِ الْعَدَدِيِّ.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾^(١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا^(٢) وَإِذْ قَالَتْ طَلَيْفَةُ مِنْهُمْ بِتَاهَلْ يَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَسْتَعِزِّنْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاقًا^(٣)

وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَمَانِيَةِ مَقَاتِلٍ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ حِيَّتِي بِنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى نَقَضُوا الْعَهْدَ وَمَالَوُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَظُمَ الْخَطْبُ، وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ، وَصَاقَ الْحَالُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ وَمَكَّنُوا مُحَاصِرِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ، إِلَّا أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدِّ الْعَامِرِيِّ وَكَانَ مِنَ الْفُرْسَانِ الشُّجْعَانَ الْمَشْهُورِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، رَكِبَ وَمَعَهُ فَوَارِسٌ، فَاقْتَحَمُوا الْخَنْدَقَ وَخَلَصُوا إِلَى نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَدَنَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ، فَيَقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَبِزْزُ أَحَدٌ، فَأَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً، ثُمَّ قَتَلَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ عَلَامَةً عَلَى النَّضْرِ.

ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْأَحْزَابِ رِيحًا شَدِيدَةً الْهُبوبِ قَوِيَّةً حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ خَيْمَةٌ وَلَا شَيْءٌ، وَلَا تَوَقَّدَ لَهُمْ نَارٌ وَلَا يَقَرُّ لَهُمْ فَرَارٌ، حَتَّى ارْتَحَلُوا خَائِبِينَ خَاسِرِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهِيَ الصَّبَا، وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الْآخَرُ: «نَصَرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادَ بِالذُّبُورِ»^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ زَلْزَلَتْهُمْ وَأَلْقَتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ، فَكَانَ رَيْسُ كُلِّ قَبِيلَةٍ يَقُولُ: يَا بَنِي فُلَانِ! إِلَيَّ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ: النَّجَاءُ، النَّجَاءُ؛ لِمَا أَلْقَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ.

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَكَلْتُ، فَقَالَ لَهُ حُدَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟! لَقَدْ رَأَيْتَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ فِي لَيْلَةِ ذَاتِ رِيحٍ شَدِيدَةٍ وَقَرَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَكُونُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ الثَّالِثَةَ وَمِثْلَهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «يَا حُدَيْفَةُ! قُمْ فَأَتِنَا بِخَبَرِ مِنَ الْقَوْمِ». فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ فَقَالَ: «ابْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ». قَالَ: فَمَضَيْتُ كَأَنَّمَا أُمْسِي فِي حَمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَإِذَا أَبُو سُفْيَانَ يُصَلِّي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ

(١) فتح الباري: ٦٠٤/٢ (٢) مسلم: ١٤١٤/٣ (٣) ابن هشام: ٥٢٢/١ (٤) الطبري: ٢٠/٢١

[إِبْلَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَاقِفَ الْمُنَافِقِينَ

فِي وَقْعَةِ الْأَحْزَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ذَلِكَ الْحَالِ حِينَ نَزَلَتْ الْأَحْزَابُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَالْمُسْلِمُونَ مُحْضَرُونَ فِي غَايَةِ الْجَهْدِ وَالصِّبْقِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، أَنَّهُمْ ابْتَلُوا وَاخْتَبَرُوا وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا، فَحَيِّتِيذَ ظَهَرَ التَّقَافُ، وَتَكَلَّمَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿١٤﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٥﴾ أَمَا الْمُنَافِقُ فَجَمَّ نِفَاقُهُ، وَالَّذِي فِي قَلْبِهِ شُبُهَةٌ أَوْ حَسَكَةٌ ضَعَفَ حَالُهُ فَتَنَسَّ بِمَا يَجِدُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي نَفْسِهِ لِيُضَعِفَ إِيمَانَهُ وَشِدَّةَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ صِبْقِ الْحَالِ، وَقَوْمٌ آخَرُونَ قَالُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَافِقَةٌ مِّنْهُم بِتَاهَلٍ يَثْرِبُ﴾ بَعْضِي: الْمَدِينَةُ. كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «أُرِيَتْ فِي الْمَنَامِ دَارَ هَجْرَتِكُمْ، أَرْضٌ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ، فَذَهَبَ وَهَلِيَ أَنَّهَا هَجْرٌ، فَإِذَا هِيَ يَثْرِبُ»^(١). وَفِي لَفْظِ: الْمَدِينَةُ. وَيُقَالُ: إِنَّمَا كَانَ أَضَلُّ تَسْمِيَّتِهَا يَثْرِبُ بِرَجُلٍ نَزَلَهَا مِنْ الْعَمَالِيْقِ يُقَالُ لَهُ: يَثْرِبُ بْنُ عَبْدِ بْنِ مَهْلَابِ بْنِ عَوْصِ بْنِ عَمَلِقِ بْنِ لَؤِذِ بْنِ إِدْمِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. قَالَهُ الشَّيْخِيُّ. قَالَ: وَرَوِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ لَهَا فِي التَّوْرَةِ أَحَدَ عَشَرَ اسْمًا: الْمَدِينَةُ، وَطَابَةُ، وَطَيْبَةُ، وَالْمَسْكِينَةُ، وَالْجَابِرَةُ، وَالْمَحَبَّةُ، وَالْمَحْبُوبَةُ، وَالْقَاصِمَةُ، وَالْمَجْبُورَةُ، وَالْعُدْرَاءُ، وَالْمَرْحُومَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أَي: هَهُنَا يَعْنُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَقَامِ الْمُرَابَاطَةِ ﴿فَارْجِعُوا﴾ أَي: إِلَى بِيُوتِكُمْ وَمَنَازِلِكُمْ ﴿وَيَسْتَنْدِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُمْ بَنُو حَارِثَةَ قَالُوا: بِيُوتُنَا نَخَافُ عَلَيْهَا السَّرَاقَ^(٢). وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ الْقَائِلَ لِذَلِكَ هُوَ أَوْسُ بْنُ قُطَيْبِي^(٣). بَعْضِي: اعْتَذَرُوا فِي الرَّجُوعِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ بِأَنَّهَا عَوْرَةٌ أَي: لَيْسَ دُونَهَا مَا يَحْجُبُهَا مِنَ الْعَدُوِّ، فَهُمْ يَخْشَوْنَ عَلَيْهَا مِنْهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أَي: لَيْسَتْ كَمَا يَزْعُمُونَ ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أَي: هَرَبًا مِنَ الرَّحْفِ.

﴿وَلَوْ دَجَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَلُوا الْفِتْسَةَ لِأَنِّي وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا سَيْرًا﴾^(٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤَلِّفُونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾ قُلْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢٠

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْفَيْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَلْقَوْا أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَسُورَةُ الْأَحْزَابِ لَمْ يَدْهَبُوا وَإِنْ بَاتِ الْأَحْزَابُ يَوْمَئِذٍ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ سَأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿١٩﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٠﴾

مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ: ﴿يَقُولُونَ إِنْ بِيُوتُنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أَنَّهُمْ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْمَدِينَةِ وَقَطَّرَ مِنْ أَقْطَارِهَا، ثُمَّ سَبَلُوا الْفِتْسَةَ، وَهِيَ الدُّخُولُ فِي الْكُفْرِ لَكَفَرُوا سَرِيعًا، وَهُمْ لَا يُحَافِظُونَ عَلَى الْإِيمَانِ وَلَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مَعَ أَدْنَى خَوْفٍ وَفَرَعٍ، هَكَذَا فَسَّرَهَا قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ^(٤). وَهَذَا ذَمٌّ لَهُمْ فِي غَايَةِ الذَّمِّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْخَوْفِ أَنْ ﴿لَا يُؤَلِّفُوا الْأَدْبَرَ﴾ وَلَا يُفِرُّونَ مِنَ الرَّحْفِ ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أَي: وَإِنَّ اللَّهَ سَبَّلَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ فِرَارَهُمْ ذَلِكَ لَا يُؤَخِّرُ أَجَالَهُمْ وَلَا

(١) فتح الباري: ٤٣٩/١٢ (٢) الطبري: ٢٢٦/٢٠ تقدم مرارا
حكم العوفي (٣) الطبري: ٢٢٥/٢٠ (٤) الطبري: ٢٢٧/٢٠

مِنْهُمْ، وَأَنَّ لَهُمْ عَوْدَةً إِلَيْهِمْ ﴿وَلِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْتَ فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَلُوتَ عَنْ أَنبِيَائِكُمْ﴾ أَي: وَيَوَدُّوْنَ إِذَا جَاءتِ الْأَحْزَابُ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُوْنَ حَاضِرِينَ مَعَكُمْ فِي الْمَدِينَةِ، بَلْ فِي الْبَادِيَةِ، يَسْأَلُوْنَ عَنْ أَحْبَابِكُمْ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي: وَلَوْ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَمَا قَاتَلُوا مَعَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا، لِكثْرَةِ جُبْنِهِمْ وَذَلْتِهِمْ وَضَعْفِ يَقِينِهِمْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَالَمِ بِهِمْ.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿١٨﴾ ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا

إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٩﴾

[الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَضَلَّ كَثِيرٌ فِي النَّاسِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَلِهَذَا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ بِالنَّاسِي بِالنَّبِيِّ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ وَمُصَابِرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ، وَانْتِظَارِهِ الْقَرَجِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ذَاتِمَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِلَّذِينَ تَقَلَّبُوا وَتَضَجَّرُوا وَتَزَلَّزَلُوا وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أَي: هَلَّا اتَّقَدَّمْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِسَمَائِلِهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾.

[مَوْفِقُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَحْزَابِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ وَجَعَلَهُ الْعَاقِبَةَ حَاصِلَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ: يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمِ الْبِئْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] (٣) أَي: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْإِتِّبَاءِ

يُطَوِّلُ أَعْمَارَهُمْ، بَلْ رَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَعْجِيلِ أَخْذِهِمْ غَرَّةً، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي: بَعْدَ هَرَبِكُمْ وَفِرَارِكُمْ ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أَي: يَمْنَعُكُمْ ﴿إِنِ ارْتَدَّ بِكُمْ سُوءًا أَوْ ارْتَدَّ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحْدُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أَي: لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لِعَبْرِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مُجِيرٌ وَلَا مُغِيثٌ.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٩﴾ أَشْحَهَ عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ أُشِحَّتْ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُوْثِقُوا فَلَاحِبَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْمُعَوِّقِينَ لِعَبْرِهِمْ عَنْ شُهُودِ الْحَرْبِ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ أَي: أَصْحَابِهِمْ وَعَشْرَائِهِمْ وَخُلَطَائِهِمْ: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أَي: إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الظَّلَالِ وَالشُّمَارِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢٠﴾ أَشْحَهَ عَلَيْكُمْ أَي: بُخَلَاءَ بِالْمَوَدَّةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿أَشْحَهَ عَلَيْكُمْ﴾ أَي: فِي الْغَنَائِمِ، ﴿وَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أَي: مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَجَزَعِهِ، وَهَكَذَا خَوْفُ هَؤُلَاءِ الْجُنْبَاءِ مِنَ الْقِتَالِ ﴿وَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ﴾ أَي: إِذَا كَانَ الْأَمْنُ تَكَلَّمُوا كَلَامًا بَلِيغًا فَصِيحًا عَالِيًا، وَادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةَ فِي الشُّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ، وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿سَلَفُوكُمْ﴾ أَي: اسْتَفْلِكُوكُمْ (١).

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا عِنْدَ الْغَنِيمَةِ فَاشْتَرَحَ قَوْمٌ وَأَسْوَأَهُ مَقَاسِمَةً: أَعْطُونَا، أَعْطُونَا، قَدْ شَهِدْنَا مَعَكُمْ. وَأَمَّا عِنْدَ الْبَاسِ فَاجْتَبَنَ قَوْمٌ وَأَخَذَهُ لِلْحَقِّ (٢). وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشْحَهَ عَلَى الْخَيْرِ، أَي: لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ قَدْ جَمَعُوا الْجُبْنَ وَالْكَذِبَ وَقَلَّةَ الْخَيْرِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُوْثِقُوا فَلَاحِبَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أَي: سَهْلًا هَيِّئًا عِنْدَهُ.

﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْتَ فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَلُوتَ عَنْ أَنبِيَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢١﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِهِمُ الْمَيْسِحَةِ فِي الْجُبْنِ وَالْخَوْرِ وَالْخَوْفِ ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾، بَلْ هُمْ قَرِيبٌ

(١) الطبري: ٢٣٢/٢٠ (٢) الطبري: ٢٣٢/٢٠ (٣) الطبري: ٢٣٦/٢٠

فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَبَا عَمْرٍو! أَيْنَ؟ وَهَا لِرِيحِ الْحَبَّةِ، إِنِّي أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ. قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَتَمَانُونَ بَيْنَ ضَرْبِي وَطَعْنِي وَرَمِيَّةٍ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرَّبِيعُ ابْنَةُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِنَبَاهِهِ، قَالَ: فَتَرَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ قَالَ: فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ، وَفِي أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٥). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ^(٦).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ قَالَ: قَامَ مَعَاوِيَةُ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ». وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ بِعَنِي: عَهْدَهُ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ قَالَ: يَوْمًا فِيهِ الْقِتَالُ فَيَصْطَلِقُ فِي اللِّقَاءِ^(٧). وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ بِعَنِي: مَوْتُهُ عَلَى الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَبْدُلْ تَبْدِيلًا^(٨). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَحْبُهُ: نَذْرُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ أَي: وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَهُمْ وَبَدَلُوا الْوَفَاءَ بِالْعَدْرِ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَمَا نَقَضُوهُ كَنِعْلِ الْمُتَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ يَوْمَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْآدِنَةَ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: إِنَّمَا يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْخَوْفِ وَالزُّلْزَالِ لِيَمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، فَيَطْهَرُ أَمْرٌ هَذَا بِالْفِعْلِ، وَأَمْرٌ هَذَا بِالْفِعْلِ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ، وَلَكِنْ لَا يُعَذِّبُ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ فِيهِمْ حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْهُمْ، كَمَا

وَالْإِخْتِبَارِ وَالْإِمْتِحَانِ الَّذِي يَعْتَبُهُ النَّصْرُ الْقَرِيبُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَسَلِيمًا﴾ دَلِيلٌ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَقُوَّتِهِ بِالنَّسَبِ إِلَى النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ، كَمَا قَالَ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ: إِنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَقَدْ قَرَرْنَا ذَلِكَ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أَي: ذَلِكَ الْحَالُ وَالصِّيقُ وَالشَّدَّةُ ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بِاللَّهِ ﴿وَسَلِيمًا﴾ أَي: انْقِيَادًا لِأَمْرِهِ وَطَاعَةً لِرَسُولِهِ ﷺ.

﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾^(٩) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ عَاقِبَةً ذَاتًا وَجْهًا^(١٠).

[مَدْحُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَوْفِقِهِمْ وَإِرْجَاءُ أَمْرِ الْمُتَافِقِينَ] لَمَّا ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْمُتَافِقِينَ أَنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ لَا يُولُونَ الْأَذْبَانَ، وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَصَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَجَلُهُ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: عَهْدُهُ وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ^(١١). ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ أَي: وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَلَا نَقَضُوهُ، وَلَا بَدَلُوهُ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: لَمَّا نَسَخْنَا الْمُصْحَفَ فَقَدْتُ آيَةَ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُهَا، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(١٢). تَقَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١٣).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَرَى هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾... الْآيَةَ^(١٤). انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ وَلَهُ شَوَاهِدٌ مِنْ طُرُقٍ أُخْرَى. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ قَالَ: عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سُمِّيَتْ بِهِ - لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ فَسَقَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَوَّلَ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [عَيْتٌ] عَنْهُ، لَئِنْ أَرَانِي اللَّهُ تَعَالَى مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَيْنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا أَصْنَعُ. قَالَ:

(١) فتح الباري: ٣٧٧/٨ (٢) فتح الباري: ٣٧٧/٨ (٣) أحمد: ١٨٨/٥ وتحفة الأحوذى: ٥٢٠/٨ والنسائي في الكبرى: ٤٣٠/٦ (٤) فتح الباري: ٣٧٧/٨ (٥) أحمد: ١٩٤/٣ (٦) مسلم: ١٥١٢/٣ وتحفة الأحوذى: ٦٠/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٣٠/٦ (٧) الطبري: ٢٣٨/٢٠ فيه إسحاق بن يحيى بن طلحة التيمي وهو ضعيف كما في التقريب (٨) الطبري: ٢٣٩/٢٠

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَيَتْلَوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فَهَذَا عِلْمٌ بِالشَّيْءِ بَعْدَ كَوْنِهِ، وَإِنْ كَانَ الْعِلْمُ السَّابِقُ حَاصِلًا بِهِ قَبْلَ وُجُودِهِ، وَكَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿لَيَجْزِيَنَّ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أَيْ: بِصَبْرِهِمْ عَلَى مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَيَقَامِهِمْ بِهِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهِ ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ﴾ وَهُمْ التَّافِضُونَ لِعَهْدِ اللَّهِ، الْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِهِ، فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، وَلَكِنْ هُمْ تَحْتَ مَسِيئَتِهِ فِي الدُّنْيَا، إِنْ شَاءَ اسْتَمَرَ بِهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوا حَتَّى يُلْقَوْهُ فَيُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَرْضَهُمْ إِلَى التَّرُوعِ عَنِ النِّفَاقِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ الْفُسُوقِ وَالْعِضْيَانِ، وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَتُهُ وَرَأْفَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِحَلْفِهِ فِيهَا الْعَالِيَةَ لِعِصْبِهِ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ [٢٥]

رَدَّ اللَّهُ الْأَحْزَابَ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَحْزَابِ لَمَّا أَجْلَاهُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ بِمَا أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ وَالْجُنُودِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، لَكَانَتْ هَذِهِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ الَّتِي أُرْسَلَهَا عَلَى عَادٍ، وَلَكِنْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فَسَلَطَ عَلَيْهِمْ هَوَاءَ فَرَقٍ شَمَلَهُمْ كَمَا كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْهَوَى، وَهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ قِبَالِ شَتَّى، أَحْزَابٌ وَأَرَائِ، فَتَأَسَّبَ أَنْ يُرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْهَوَاءُ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَهُمْ، وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بِغَيْظِهِمْ وَحَقِيقِهِمْ، وَلَمْ يَنَالُوا خَيْرًا لَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالْمَغْتَمِّ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ بِمَا تَحَمَّلُوهُ مِنَ الْأَثَامِ فِي مُبَارَزَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْعِدَاوَةِ وَهَمَّهُمْ بِقِتْلِهِ وَاسْتِثْصَالَ جَيْشِهِ. وَمَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ وَصَدَّقَ هَمَّهُ بِفِعْلِهِ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَفَاعِلِهِ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أَيْ: لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَى مُنَازَلَتِهِمْ وَمُبَارَزَتِهِمْ حَتَّى يُجْلَوْهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ، بَلْ كَفَى اللَّهُ وَحْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَصَدَّقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ

٤٢١

سُورَةُ الْاِحْزَابِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَى نَجْبَةً، وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لَيَجْزِيَنَّ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقَاتَلُوا وَتَأَسَّرُوا مِنْهَا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَوَدَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَ تَرُدُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّتَهَا فَنِعَالَيْنِ أَمْ تَحْسَبُنَّ أَنْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللِّدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مَّبِينَةٍ يَضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

وَخَدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ». أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْأَحْزَابِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ مَنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ»^(٢). وَفِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى وَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، وَهَكَذَا وَقَعَ بَعْدَهَا لَمْ يَغْزُهُمُ الْمُشْرِكُونَ، بَلْ غَزَاهُمْ الْمُسْلِمُونَ فِي بِلَادِهِمْ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا»^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ أَيْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ رَدَّهُمْ خَائِبِينَ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَأَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَصَدَّقَ

(١) فتح الباري: ٤٦٩/٧ ومسلم: ٢٠٨٩/٣ (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٧ ومسلم: ١٣٦٣/٣ (٣) أحمد: ١٦٢/٤ (٤) فتح الباري: ٤٦٧/٧

وَعَدُهُ، وَنَصَرَ رَسُولَهُ وَعَبْدَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقَاتَلُوا وَتَأْسُرُوا فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَدْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَاتَبَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ فَرِيقٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

[ذِكْرُ عَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ]

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ - لَمَّا قَدِمَتْ جُنُودُ الْأَحْزَابِ وَنَزَلُوا عَلَى الْمَدِينَةِ - نَقَضُوا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَهْدِ، وَكَانَ ذَلِكَ بِسِفَارَةِ حَيِّ بْنِ أَخْطَبِ النَّضْرِيِّ - لَعَنَهُ اللَّهُ - دَخَلَ حِصْنَهُمْ، وَلَمْ يَزَلْ يَسِيدُهُمْ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ حَتَّى تَقَضَّ الْعَهْدُ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: وَيْحَكَ قَدْ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ، أَتَيْتُكَ بِمُرِيثٍ وَأَحَابِيْشَهَا، وَعَظْفَانَ وَأَتْبَاعَهَا، وَلَا يَزَالُونَ هَهُنَا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ: بَلْ وَاللَّهِ أَتَيْتَنِي بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَيْحَكَ يَا حَيِّ! إِنَّكَ مَشْؤُومٌ، فَدَعْنَا مِنْكَ، فَلَمْ يَزَلْ يَقِفُ فِي الدَّرْوَةِ وَالْعَارِبِ حَتَّى أَجَابَهُ، وَاشْتَرَطَ لَهُ حَيِّ إِنْ ذَهَبَ الْأَحْزَابُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُمْ فِي الْحِصْنِ، فَيَكُونُ لَهُ أَسْوَأُهُمْ، فَلَمَّا نَقَضَتْ قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، سَاءَهُ وَشَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ جَدًّا، فَلَمَّا أَيْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَصَرَهُ وَكَبَتِ الْأَعْدَاءُ وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ بِأَخْسَرِ صَفْقَةٍ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا، وَوَضَعَ النَّاسُ السَّلَاحَ، فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْتَسِلُ مِنْ وَعْثَاءِ تِلْكَ الْمُرَابَطَةِ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إِذْ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ عَلَى بَعْلَةٍ عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ، فَقَالَ: أَوْضَعْتَ السَّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ». قَالَ: لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا، وَهَذَا الْآنَ رُجُوعِي مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَضَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَفِي رِوَايَةٍ، فَقَالَ لَهُ: عَذِيرُكَ مِنْ مِقَاتِلِ، أَوْضَعْتُمْ السَّلَاحَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: لَكِنَّا لَمْ نَضَعْ أَسْلِحَتَنَا بَعْدَ، إِنَّهَضَ إِلَى هَؤُلَاءِ. قَالَ ﷺ: «أَيْنَ؟». قَالَ: بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أُزَلِّلَ عَلَيْهِمْ.

فَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فُورِهِ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَتْ عَلَى أَمِّئَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَذَلِكَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَقَالَ ﷺ: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا

فِي بَنِي قُرَيْظَةَ». فَسَارَ النَّاسُ فَأَذْرَكْتَهُمُ الصَّلَاةَ فِي الطَّرِيقِ، فَصَلَّى بَعْضُهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَقَالُوا: لَمْ يَرُدْ مِنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِلَّا تَعَجُّبُ الْمَسِيرِ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا نُصَلِّيْهَا إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَلَمْ يُعَنَّ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَنِعَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَعْطَى الرَّايَةَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ نَارَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعَشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ، نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ سَيِّدِ الْأَوْسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ [يُحْسِنُ] إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، كَمَا فَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ ابْنُ سَلُوكٍ فِي مَوَالِيهِ بَنِي قَيْنِقَاعَ، حِينَ اسْتَطْلَقَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنَّ سَعْدًا سَيَفْعَلُ فِيهِمْ كَمَا فَعَلَ ابْنُ أُبَيِّ فِي أَوْلِيكٍ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ فِي أَكْحَلِهِ أَيَّامَ الْخَنْدَقِ، فَكَوَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَكْحَلِهِ، وَأَنْزَلَهُ فِي قُبَّةٍ فِي الْمَسْجِدِ؛ لِيَعُوذَهُ مِنْ قَرِيبٍ. وَقَالَ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا دَعَا بِهِ: أَلَلَّهُمْ إِنْ كُنْتُ أَبْقَيْتُ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقَيْتُ لَهَا، وَإِنْ كُنْتُ وَضَعْتُ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَأَفْجُرُهَا، وَلَا تُمِئْتِي حَتَّى تَقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.

فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى دُعَاءَهُ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِمْ أَنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ بِاخْتِيَارِهِمْ؛ طَلَبًا مِنْ بَلَاءٍ أُنْفُسِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ؛ لِيَحْكُمَ فِيهِمْ، فَلَمَّا أَقْبَلَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وَطِئُوا لَهُ عَلَيْهِ، جَعَلَ الْأَوْسُ يَلُودُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ: يَا سَعْدُ! إِنَّهُمْ مَوَالِيكَ فَأَحْسِنْ فِيهِمْ، وَرَبُّرَقُونَهُ عَلَيْهِمْ، وَيُعْطُونَهُ، وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ آتَى لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. فَعَرَفُوا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَقْبِهِمْ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْخِيْمَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَيَّ سَيِّدُكُمْ». فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، فَأَنْزَلُوهُ؛ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا لَهُ فِي مَحَلِّ وَلايَتِهِ؛ لِيَكُونَ أُنْفَدَ لِيَحْكُمَهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَؤُلَاءِ - وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ - قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ، فَأَحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ». فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَحُكْمِي نَافِذٌ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ». قَالَ: وَعَلَى مَنْ فِي هَذِهِ الْخِيْمَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَعَلَى مَنْ هَهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُعْرِضٌ

تَطَوُّهُمَا ﴿٦﴾ قِيلَ: خَيْرٌ. وَقِيلَ: مَكَّةُ. رَوَاهُ مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمٍ. وَقِيلَ: فَارِسٌ وَالرُّومُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادًا ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَبِيرًا﴾ (٦).

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيَا لَهَا كُنْتَنَ تَرُدُّكَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّتَهَا فَمَعَالِيكَ أَمَعَكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ سِرًّا جَمِيلًا ﴿٧٨﴾ وَلَئِن كُنْتَنَ تَرُدُّكَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالَّذَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ

أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٩﴾

[تَخْيِيرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنْ يُخَيَّرَ نِسَاءَهُ بَيْنَ أَنْ يُفَارِقَهُنَّ فَيَذِهَبْنَ إِلَى غَيْرِهِ وَمَنْ يَحْضُلْ لَهُنَّ عِنْدَهُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّتَهَا، وَبَيْنَ الصَّبْرِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ ضَيْقِ الْحَالِ، وَلَهُنَّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ، فَاخْتَرَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذَارَ الْآخِرَةَ، فَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ؛ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَهَا حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُخَيَّرَ أَزْوَاجَهُ، قَالَتْ: فَبَدَأَ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبِيكَ» وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبِيَّ لَمْ يَكُنْ بِأَمْرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيَا لَهَا﴾ إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ، فَقُلْتُ لَهُ: فَبَيْنَ أَيْ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبِيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذَارَ الْآخِرَةَ (٧).

وَكَلَّا رَوَاهُ مُعَلَّقًا وَزَادَ: قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ (٨).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: خَيْرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاخْتَرَنَاهُ، فَلَمْ يَعْذِبْنَا عَلَيْنَا شَيْئًا (٩). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ (١٠). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالنَّاسُ يَبَايَهُ جُلُوسًا، وَالنَّبِيُّ ﷺ

(١) الطبري: ٢٤٧/٢٠ (٢) الطبري: ٢٤٩/٢٠ (٣) أحمد: ٣٨٣/٤ (٤) أبو داود: ٥٦١/٤ وتحفة الأحوذني: ٢٠٧/٥ والنسائي في الكبرى: ١٨٥/٥ وابن ماجه: ٨٤٩/٢ (٥) النسائي في الكبرى: ١٨٥/٥ (٦) الطبري: ٢٥٠/٢٠ (٧) فتح الباري: ٣٧٩/٨ (٨) فتح الباري: ٣٨٠/٨ (٩) أحمد: ٦/٤٥ (١٠) فتح الباري: ٢٨٠/٩ ومسلم: ١١٠٤/٢

بِوَجْهِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ إِجْلَالًا وَإِكْرَامًا وَإِعْظَامًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ». فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مَقَاتِلَتُهُمْ وَتُسَبَّى ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سِنَعِ أَرْفَعَةٍ». وَفِي رَوَايَةٍ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ». ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَحَادِيدِ فَحُدَّتْ فِي الْأَرْضِ، وَجِيءَ بِهِمْ مُكْتَفَيْنَ، فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ، وَكَانُوا مَا بَيْنَ السَّبْعِمِائَةِ إِلَى الثَّمَانِمِائَةِ، وَسَبَى مَنْ لَمْ يُنَبِّثْ مِنْهُمْ مَعَ النِّسَاءِ وَأَمْوَالِهِمْ (١). وَهَذَا كُلُّهُ مُقَرَّرٌ مَفْضَلٌ بِأَدْلِيَّتِهِ وَأَحَادِيثِهِ وَبَسْطِهِ فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ الَّذِي أَفْرَدْنَاهُ مُوجَزًا وَبَسِيطًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَهُوهُمْ﴾ أَي: عَاوَنُوا الْأَحْزَابَ وَسَاعَدُوهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي بَنِي قُرَيْظَةَ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَعْضِ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ قَدْ نَزَلَ آبَاؤُهُمُ الْحِجَازَ قَدِيمًا؛ طَمَعًا فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] فَعَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ صِبْيَانِهِمْ﴾ يَعْنِي: حُضُونَهُمْ. كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ السَّلَفِ (٢). ﴿وَقَفَدَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وَهُوَ الْخَوْفُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَالُؤُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ، وَأَخَافُوا الْمُسْلِمِينَ وَرَأَوْا قَتْلَهُمْ؛ لِيَجْزُوا فِي الدُّنْيَا، فَانْعَكَسَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ، وَانْقَلَبَ إِلَيْهِمُ الْقَالَ، انْتَشَرَ الْمُشْرِكُونَ فَفَارَزُوا بِصَفْقَةِ الْمُغْبُورِينَ، فَكَمَا رَأَوْا الْعِزَّ ذُلُّوا، وَأَزَادُوا اسْتِئْصَالَ الْمُسْلِمِينَ فَاسْتَوْصَلُوا، وَأَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ شَقَاوَةُ الْآخِرَةِ، فَصَارَتْ الْجُمْلَةُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فَالَّذِينَ قَتَلُوا هُمُ الْمُقَاتِلَةُ، وَالْأَسْرَاءُ هُمُ [الْأَصَاغِرُ] وَالنِّسَاءُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ قَالَ: عَرَضْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ، فَشَكَوْتُ فِيَّ، فَأَمَرَ بِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْظُرُوا هَلْ أَتَيْتُ بَعْدُ، فَنَظَرُونِي فَلَمْ يَجِدُونِي أَتَيْتُ، فَحَلَّى عَنِّي وَالْحَقَنِي بِالسَّبِي (٣). وَكَذَا رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٤). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا عَنْ عَطِيَّةَ بِنَحْوِهِ (٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَرِيْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أَي: جَعَلَهَا لَكُمْ مِنْ قَتْلِكُمْ لَهُمْ ﴿وَأَرْضًا لَمْ

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾ وَالتَّبْرِجُ: أَنَّهَا تُلْتَمِجُ الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا وَلَا تَشُدُّهُ^(٦) فَيُورِي فَلَا يَدْهَا وَقُرْطَهَا وَعَمَّتْهَا، وَيَدُو ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْهَا، وَذَلِكَ التَّبْرِجُ، ثُمَّ عَمَّت نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّبْرِجِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نَهَاهُنَّ أَوْلَا عَنِ الشَّرِّ، ثُمَّ أَمَرَهُنَّ بِالْخَيْرِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ.

[أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نَصٌّ فِي دُخُولِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ هَهُنَا؛ لِأَنَّهُنَّ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَسَبَبُ النُّزُولِ دَاخِلٌ فِيهِ قَوْلًا وَاحِدًا، إِنَّمَا وَحَدَهُ

عَلَى قَوْلِي، أَوْ مَعَ غَيْرِهِ عَلَى الصَّحِيحِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّهُ كَانَ يُنَادِي فِي السُّوقِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نَزَلَتْ فِي نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً^(٧). وَهَكَذَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: مَنْ شَاءَ بَاهَلْتُهُ أَهْلًا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ^(٨). [فَهُنَّ] سَبَبُ النُّزُولِ دُونَ غَيْرِهِنَّ، لَكِنْ يَدْخُلُ فِيهِ غَيْرُهُنَّ عَلَى سَبِيلِ التَّوَسُّعِ وَالْعُمُومِ].

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ قَالَتْ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرِ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَأَدْخَلَهَا مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٩).

مُجَاهِدٍ مِثْلُهُ ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أَيُّ: سَهْلًا هَيِّنًا، ثُمَّ ذَكَرَ عَدْلَهُ وَفَضْلَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ جِدًّا فَعَلَى اللَّهِ يَرْجِعُ﴾ أَيُّ: يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْتَجِبُ ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أَيُّ: فِي الْجَنَّةِ فَإِنَّهُنَّ فِي مَنَازِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، فَوْقَ مَنَازِلِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ.

﴿نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسَدُنَّ كَالْحَمْرِ مِنَ النَّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(١٠) وَقَرْنَ فِي بِيوتِكُنَّ وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١١) وَأَذْكَرَنَّ مَا بَسَلَى فِي بِيوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنْ اللَّهُ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا^(١٢).

[الْأَمْرُ بِآدَابِ تَكُونُ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا أَسْوَةٌ]

هَذِهِ آدَابُ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنِسَاءِ الْأُمَّةِ تَبِعَ لَهُنَّ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُنَّ إِذَا اتَّقَيْنَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَمَرَهُنَّ، فَإِنَّهُ لَا يُشَبِّهُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا يَلْحَقُهُنَّ فِي الْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بِذَلِكَ: تَرْقِيقَ الْكَلَامِ إِذَا خَاطَبَ الرِّجَالَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أَيُّ: دَعَلَ ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا مَعْرُوفًا فِي الْخَيْرِ^(١٣). وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّهَا تُخَاطَبُ الْأَجَانِبَ بِكَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيمٌ، أَيُّ: لَا تُخَاطَبُ الْمَرْأَةُ الْأَجَانِبَ كَمَا تُخَاطَبُ رُؤُوسُهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَرْنَ فِي بِيوتِكُنَّ﴾ أَيُّ: الزَّمْنَ بِيوتِكُنَّ فَلَا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَمِنْ الْحَوَائِجِ الشَّرْعِيَّةِ الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ بِسَرَطِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَلِيَخْرُجَنَّ وَهُنَّ تَقَلَّاتٌ﴾^(١٤). وَفِي رِوَايَةٍ: «وَبِيوتِهِنَّ خَيْرٌ لِهِنَّ»^(١٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَخْرُجُ تَمَشِي بَيْنَ يَدَيْ الرِّجَالِ، فَذَلِكَ تَبْرِجُ الْجَاهِلِيَّةِ^(١٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾ يَقُولُ: إِذَا خَرَجْتُنَّ مِنْ بِيوتِكُنَّ - وَكَانَتْ لِهِنَّ مِثْبَةٌ وَتَكَسَّرَ وَتَعَجَّجَ - فَهِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ^(١٧).

(١) الطبري: ٢٥٨/٢٠ (٢) أبو داود: ٣٨١/١ (٣) أبو داود:

٣٨٢/١ (٤) الدر المنثور: ٦٠٢/٦ (٥) الطبري: ٢٥٩/٢٠

(٦) الدر المنثور: ٦٠٢/٦ (٧) الطبري: ٢٦٧/٢٠ (٨)

أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساکر. الدر المنثور: ٣٧٦/٥

(٩) الطبري: ٢٦١/٢٠ ومسلم: ٢٠٨١

فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ وَاللَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَاللَّكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٥﴾

[بَيَانُ سَبَبِ التَّزْوِيلِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا لَنَا لَا نَذْكُرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجَالُ؟ قَالَتْ: فَلَمْ يُرْعِنِي مِنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَّا وَبِدَاؤُهُ عَلَى الْمُنْبِرِ، قَالَتْ: وَأَنَا أَسْرُحُ شَعْرِي، فَلَقَفْتُ شَعْرِي ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَتِي حُجْرَةَ بَيْتِي، فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عِنْدَ الْمُنْبِرِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ جَبْرِ^(٢).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ غَيْرُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَحْصَى مِنْهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٣). فَيَسْأَلُهُ الْإِيمَانُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كُفْرُهُ بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَحْصَى مِنْهُ. كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُحَارِيِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَنِينِ وَالْقَنِينَاتِ﴾ الْقَنُوتُ هُوَ الطَّاعَةُ فِي سُكُونٍ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ عَائَةَ ابْنِ لَاحِقٍ وَفَأَيَّمَا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّي﴾ [الزمر: ٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَنِينُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، «يَمْرُؤٌ أَقْبَتِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ» [آل عمران: ٤٣]، ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فَالْإِسْلَامُ بَعْدَهُ مَرْتَبَةٌ يَرْتَقِي إِلَيْهَا وَهُوَ الْإِيمَانُ، ثُمَّ الْقَنُوتُ نَاشِئٌ عَنْهُمَا ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هَذَا فِي الْأَقْوَالِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ خِصْلَةٌ مَحْمُودَةٌ، وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ تُجَرَّبَ عَلَيْهِ كَذِبُهُ لَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي الْإِسْلَامِ، وَهُوَ عَلَامَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّ الْكُذِبَ أَمَارَةٌ عَلَى النَّسَاقِ، وَمَنْ صَدَقَ نَجَا: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكُذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ

وَيَتَحَرَّى الْكُذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(٤). وَالأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ جِدًّا. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هَذِهِ سَجِيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَهِيَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّ الْمَقْدَرُ كَائِنْ لَمْ يَحَالَه وَتَلَقَّى ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ. وَإِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى، أَيْ أَصْعَبُهُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ، ثُمَّ مَا بَعْدَهُ أَسهَلُ مِنْهُ، وَهُوَ صِدْقُ السَّجِيَّةِ وَثَبَاتُهَا ﴿وَالْحَشِيصِينَ وَالْحَشِيعَاتِ﴾ الْخُشُوعُ: السُّكُونُ وَالطَّمَأِينَةُ، وَالشُّؤدَةُ وَالْوَقَارُ، وَالنَّوَاضِعُ. وَالْحَامِلُ عَلَيْهِ: الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمُرَاقَبَتُهُ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «أَعْبُدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٥). ﴿وَالْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ الصَّدَقَةُ هِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ الْمَحَاطِبِ الضَّعْفَاءِ الَّذِينَ لَا كَسْبَ لَهُمْ وَلَا كَاسِبَ، يُعْطُونَ مِنْ فُضُولِ الْأَمْوَالِ؛ طَاعَةً لِلَّهِ وَإِحْسَانًا إِلَى خَلْقِهِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - فَذَكَرَ مِنْهُمْ - وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ بِيَمِينِهِ»^(٦). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»^(٧). وَالأَحَادِيثُ فِي الْحَثِّ عَلَيْهَا كَثِيرَةٌ جِدًّا، لَهُ مَوْضِعٌ بِذَاتِهِ. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ: «وَالصَّوْمُ زَكَاةُ الْبَدَنِ»^(٨). أَيْ: يُزَكِّيهِ وَيُطَهِّرُهُ وَيَنْقِيهِ مِنَ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ طَبْعًا وَشَرْعًا، كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ دَخَلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾^(٩). وَلَمَّا كَانَ الصَّوْمُ مِنْ أَكْبَرِ الْعُيُونِ عَلَى كَسْرِ الشَّهْوَةِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِأَمْعَشَرَ الشَّبَابِ! مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنَ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»^(١٠). نَاسَبَ أَنْ يَذْكَرَ بَعْدَهُ: ﴿وَالْحَفِظَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ﴾ أَيْ: عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ إِلَّا عَنِ الْمُبَاحِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَفِظُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ ﴿٢٧﴾﴾ فَمَنْ ابْتَنَى وَرَثَةَ ذَلِكَ فَأَوْلِيكَ هُمْ

(١) أحمد: ٣٥٠/٦ (٢) النسائي في الكبرى: ٤٣١/٦ والطبري: ٢٧٠/٢٠ (٣) فتح الباري: ٣٣/١٠ ومسلم: ١/٧٧ (٤) مسلم: ٢٠١٣/٤ (٥) فتح الباري: ١٤٠/١ (٦) فتح الباري: ١٦٨/٢ ومسلم: ٧١٥/٢ (٧) تحفة الأحوذى: ٣/٢٣٧ (٨) ابن ماجه: ٥٥٥/١ (٩) روى ابن أبي حاتم نحوه والدر المنثور: ٣٨٠/٥ (١٠) فتح الباري: ١٤/٩

الْعَادُونَ ﴿المعارج: ٢٩-٣١﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرِينَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَقْبَضَ الرَّجُلُ أَمْرًا مِنْ اللَّيْلِ فَصَلِّ يَا رَكَعَتَيْنِ [كُنَيَا] تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ». وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِمِثْلِهِ (١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَأَتَى عَلَى جُمْدَانَ فَقَالَ: «هَذَا جُمْدَانُ، سِيرُوا فَقَدْ سَقَى الْمُفْرَدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ؟ قَالَ ﷺ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ» ثُمَّ قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ». قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ» قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: «وَالْمُقَصِّرِينَ» تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْجَوْه (٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ دُونَ آخِرِهِ (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ خَيْرٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ كُلِّهِمْ أَيْ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ أَيْ: هَيَأَ لَهُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ لِذُنُوبِهِمْ وَأَجْرًا عَظِيمًا، وَهُوَ الْجَنَّةُ.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾

[بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: إِنَّ جُلَيْبِيًّا كَانَ امْرَأَةً يَدْخُلُ عَلَى النِّسَاءِ يَمُرُّ بِهِنَّ وَيُلَاعِبُهُنَّ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: لَا تَدْخُلِي عَلَيْهِنَّ جُلَيْبِيًّا؛ فَإِنَّهُ إِنْ دَخَلَ عَلَيْكُنَّ لَا فَعَلْنَ وَلَا فَعَلْنَ. [قَالَ]: وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَيْمٌ لَمْ يُزَوِّجْهَا حَتَّى يَعْلَمَ هَلْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهَا حَاجَةٌ أَمْ لَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: «زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ». قَالَ: نَعَمْ وَكَرَامَةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَنِعْمَةٌ عَيْنٌ، فَقَالَ ﷺ: «إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي». قَالَ: فَلِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «لِجُلَيْبِيٍّ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَشَاوِرُ أُمَّهَا. فَأَتَى أُمَّهَا، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكَ! فَقَالَتْ: نَعَمْ وَنِعْمَةٌ عَيْنٌ. فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ إِنَّمَا يَخْطُبُهَا لِجُلَيْبِيٍّ. فَقَالَتْ: أَجُلَيْبِيٌّ [إِنِّيهِ]؟

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا لِلَّهِ مَبْدِيُّهُ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِمَّنْهَا وَطَرَازُ وَجَنَّتْ كَهَذَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَازًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مُقَدَّرًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ وَيَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

أَجَلْبِيْب [إِنِّيهِ]؟ لَا لَعَمْرُ اللَّهِ لَا نَزَوْجُهُ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ لِأَيَّتِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُخْبِرَهُ بِمَا قَالَتْ أُمَّهَا، قَالَتْ الْجَارِيَةُ: مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمْ؟ فَأَخْبَرَتْهَا أُمَّهَا، قَالَتْ: أَتَرُدُّونَ عَلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْرُهُ؟ اذْفَعُونِي إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يُضَيِّعَنِي. فَاذْفَعُوا أَبُوهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: شَأْنُكَ بِهَا، فَزَوِّجْهَا جُلَيْبِيًّا، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ لَهُ، فَلَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «هَلْ تَقْفِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» قَالُوا: نَقْفِدُ فَلَانًا وَنَقْفِدُ فَلَانًا، قَالَ ﷺ: «انظُرُوا هَلْ تَقْفِدُونَ مِنْ أَحَدٍ» قَالُوا: لَا. قَالَ ﷺ: «لَكُنْتِي أَفْقِدُ جُلَيْبِيًّا». قَالَ ﷺ: «فَاطَبُؤُهُ فِي الْقَتْلَى» فَطَلَبُوهُ، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَعْدَةَ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَا هُوَ ذَا إِلَى جَنْبِ سَعْدَةَ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «قَتَلَ

(١) أبو داود: ٧٤/٢ والنسائي في الكبرى: ٤٣٣/٦ وابن ماجه: ٤٢٣/١ (٢) أحمد: ٤١١/٢ (٣) مسلم: ٩٤٦/٢

بِالْعَيْتِ مِنَ الرَّقِّ، وَكَانَ سَيْدًا كَبِيرَ الشَّانِ جَلِيلِ الْقَدْرِ حَبِيبًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: الْحُبُّ، وَيُقَالُ لِابْنِهِ أَسَامَةَ: الْحُبُّ ابْنُ الْحُبِّ. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ إِلَّا أَمَرَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ عَاشَ بَعْدَهُ لَأَسْتَحْلَفَهُ. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٥).

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ زَوَّجَهُ بِابْنَةِ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشِ الْأَسَدِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَأُمُّهَا أُمِّمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَصْدَقَهَا عَشْرَةَ دَنَائِرٍ وَسِتِّينَ دِرْهَمًا، وَحِمَارًا وَمِلْحَفَةً وَدِرْعًا، وَخَمْسِينَ مَدًا مِنْ طَعَامٍ وَعَشْرَةَ أَمْدَادٍ مِنْ تَمْرٍ. قَالَهُ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ. فَمَكَثَتْ عِنْدَهُ قَرِيبًا مِنْ سَنَةٍ أَوْ فَوْقَهَا، ثُمَّ وَقَعَ بَيْنَهُمَا، فَجَاءَ زَيْدٌ يُشْكُوهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ». قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: لَوْ كَتَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ شَيْئًا مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى لَكُنْتُ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾^(٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا فَضَيَّ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ الْوَطْرُ هُوَ الْحَاجَةُ وَالْأَرْبُ، أَيُّ: لَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا وَفَارَقَهَا زَوَّجْنَاكَهَا، وَكَانَ الَّذِي وَلِيَّ تَزْوِيجَهَا مِنْهُ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَعْنَى: أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا بِلَا وَلِيٍّ وَلَا عَقْدٍ وَلَا مَهْرٍ وَلَا شُهُودٍ مِنَ الْبَشَرِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ: «أَذْهَبْ فَادْكُرْهَا عَلَيَّ». فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَاهَا وَهِيَ تُحْمَرُ عَجِينَهَا، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي - حَتَّى مَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا وَأَقُولَ - أَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَهَا. فَوَلَّيْتُهَا طَهْرِي وَنَكَحْتُ عَلَى عَقْبِي، وَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ! أَبْشِرِي أُرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُدْكُرُكَ. قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَائِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَقَامَتْ إِلَيَّ مَسْجِدَهَا، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهَا بَعِيرٍ إِذْ بِي، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا جِئْنَا دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَطَعَمَنَا عَلَيْهَا الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ، فَخَرَجَ

سَبْعَةً وَقَتْلُوهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ وَضَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى سَاعِدَيْهِ وَحَفَرَ لَهُ، مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدُ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ وَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ - وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ غَسَلَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ ثَابِتٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيُّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا. وَحَدَّثَ إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ثَابِتًا: هَلْ تَعْلَمُ مَا دَعَا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: قَالَ: «اللَّهُمَّ صَبِّ عَلَيْنَا [الْحَبْرَةَ] صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا». وَكَذَا كَانَ، فَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيُّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا. هَكَذَا أَوْزَدَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِطَوْلِهِ^(١). وَأَخْرَجَ مِنْهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ فِي الْفَضَائِلِ وَصَةَ قَتْلِهِ^(٢). وَذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي الْأَسْتِعَابِ أَنَّ الْجَارِيَةَ لَمَّا قَالَتْ فِي خِدْرِهَا: أَتُرَدُّونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ؟ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٣).

وَعَنْ طَاوُسٍ قَالَ: إِنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ فَتَهَا، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٤). فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا حَكَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِشَيْءٍ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مَخَالَفَتُهُ، وَلَا اخْتِيَارَ لِأَحَدٍ هَهُنَا، وَلَا رَأْيَ وَلَا قَوْلَ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُوْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وَلِهَذَا شَدَّدَ فِي خِلَافِ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا فَضَيَّ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَعْيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٧٧﴾﴾

[عِتَابُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي فَصَّةِ زَيْدٍ وَزَيْنَبَ وَتَزْوِيجُهُ إِيَّاهَا بَعْدَ الطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ لِإِبْطَالِ التَّنْبِيِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِمَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَيُّ: بِالْإِسْلَامِ وَمَتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ:

(١) أحمد: ٤٢٢/٤ (٢) مسلم: ٢٤٨٢ والنسائي في الكبرى:

٨٢٤٦ (٣) الاستيعاب: ٢٥٩/١ (٤) عبد الرزاق: ٤٣٣/٢

(٥) أحمد: ٢٢٧/٦، ٢٨١ (٦) الطبري: ٢٧٤/٢٠

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾^(١) أَي: فِيمَا أَحَلَّ لَهُ وَأَمَرَهُ بِهِ مِنْ تَرْوِيجِ زَيْنَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتِي طَلَّقَهَا دَعِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: هَذَا حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرْهُمْ بِشَيْءٍ وَعَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ تَوَهَّمَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَقْضًا فِي تَرْوِيجِهِ امْرَأَةَ زَيْدِ مَوْلَاهُ وَدَعِيَّةِ الَّذِي كَانَ قَدْ تَبَّأَهُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ أَي: وَكَانَ أَمْرُهُ الَّذِي يُقَدَّرُهُ كَاتِبُنَا لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعًا، لَا مَجِيدَ عَنْهُ وَلَا مَعْدِلَ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنُوا بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(٢) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٤﴾

[مَدْحُ الْمُبْلِغِينَ لِرِسَالَاتِ اللَّهِ]

يَمْدَحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أَي: إِلَى خَلْقِهِ وَيُؤَدُّونَهَا بِأَمَانَتِهَا ﴿وَيَحْشَوْنَ اللَّهَ﴾ أَي: يَخَافُونَهُ، وَلَا يَخَافُونَ أَحَدًا سِوَاهُ، فَلَا تَمْنَعُهُمْ سَطْوَةُ أَحَدٍ عَنْ إِبْلَاجِ رِسَالَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَكَانُوا بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أَي: وَكَفَى بِاللَّهِ نَاصِرًا وَمُعِينًا، وَسَيِّدَ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ - بَلْ وَفِي كُلِّ مَقَامٍ - مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ قَامَ بِإِدَاءِ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاجِهَا إِلَى أَهْلِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ بَنِي آدَمَ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى كَلِمَتَهُ وَدِينَهُ وَسَرَعَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ النَّبِيُّ - قَبْلَهُ - إِنَّمَا يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَأَمَّا هُوَ ﷺ فَإِنَّهُ بُعِثَ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ عَرَبِيَّهِمْ وَعَجَبِيَّهِمْ ﴿قَدْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ثُمَّ وَرثَ مَقَامَ الْبَلَاغِ عَنْهُ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَانَ أَعْلَى مَنْ قَامَ بِهَا بَعْدَهُ أَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بَلَّغُوا عَنْهُ كَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَحَضْرِهِ وَسَفَرِهِ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ ثُمَّ وَرِثَهُ كُلُّ خَلْفٍ عَنْ سَلَفِهِمْ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا، فَيَنْبُورُهُمْ يَتَّقِدِي الْمُهْتَدُونَ، وَعَلَى مَنْهَجِهِمْ يَسْلُكُ الْمُؤَقَّفُونَ، فَسَأَلَ اللَّهُ الْكَرِيمَ الْمَنَّانَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ خَلْفِهِمْ.

النَّاسُ وَبَقِيَ رَجَالٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي النَّبِيِّ بَعْدَ الطَّعَامِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاتَّبَعْتُهُ، فَجَعَلَ ﷺ يَتَّبِعُ حُجْرَ نِسَائِهِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَيَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟ فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ خَرَجُوا أَوْ أُخِيرَ، فَاذْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ النَّبِيَّتُ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ مَعَهُ، فَالْقَى السُّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَنَزَلَ الْحِجَابُ، وَوَعِظَ الْقَوْمَ بِمَا وَعِظُوا بِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾^(١) الْآيَةَ كُلَّهَا [الأحزاب: ٥٣]. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(٢).

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ رِجْمَةَ اللَّهِ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَقُولُ: زَوَّجَكُنْ أَهَالِيكُنْ وَرَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ^(٣). وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ الثُّورِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ قَالَ: تَفَاخَرَتْ زَيْنَبُ وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَتْ زَيْنَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَا الَّتِي نَزَلَ تَرْوِيجِي مِنَ السَّمَاءِ. وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَا الَّتِي نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ. فَاعْتَرَفَتْ لَهَا زَيْنَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أَي: إِنَّمَا أَبْحَنَّا لَكَ تَرْوِيجَهَا، وَفَعَلْنَا ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَبْقَى حَرَجٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرْوِيجِ مَطْلَقَاتِ الْأَدْعِيَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَبْلَ النَّبُوَّةِ قَدْ تَبَّأَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ النَّسَبَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَوْلِيَاءَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا بِوُقُوعِ تَرْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَابِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] لِيُحْتَرَزَ مِنَ الْإِبْنِ الدَّعِيِّ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أَي: وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي وَقَعَ قَدْ قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَحَتَّمَهُ وَهُوَ كَاتِبٌ لَا مَحَالَةَ: كَانَتْ زَيْنَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي عِلْمِ اللَّهِ سَتَصِيرُ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ

خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾^(٥)

(١) أحمد: ١٩٥/٣ ومسلم: ١٤٢٨ والنسائي: ٧٩/٦ (٢) فتح الباري: ٤١٥/١٣ (٣) الطبري: ١١٨/١٩

[الرَّسُولُ لَيْسَ أَبَا أَحَدٍ مِّنَ الرَّجَالِ]

مَوْضِعَ لَبَنَةٍ، فَكَانَ مَنْ دَخَلَهَا فَظَنَّرَ إِلَيْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَتَهَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبَنَةِ، فَأَنَا مَوْضِعَ اللَّبَنَةِ، خُتِمَ بِي الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»^(٥) وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ^(٦).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ النَّبِيِّنَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّتْهَا إِلَّا لَبَنَةً وَاحِدَةً، فَجِئْتُ أَنَا فَأَتَمَمْتُ تِلْكَ اللَّبَنَةَ»^(٧) انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ^(٨).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَائِيهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبَيْتَانِ وَيَقُولُونَ: أَلَا وَضَعْتَ هَهُنَا لَبَنَةً فَيَمَّ بَيْتَانِكَ. - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: - فَكُنْتُ أَنَا اللَّبَنَةَ»^(٩) أَخْرَجَاهُ^(١٠).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْعَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ»^(١١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١٢).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّتْهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ وَاحِدَةٍ، فَجِئْتُ أَنَا فَأَتَمَمْتُ تِلْكَ اللَّبَنَةَ»^(١٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١٤).

(حَدِيثٌ آخَرُ) عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ،

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنَ رِّجَالِكُمْ» نَهَى أَنْ يَقَالَ بَعْدَ هَذَا: زَيْدٌ بِنُ مُحَمَّدٍ، أَيْ: لَمْ يَكُنْ أَبَاهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ بَنَاهُ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَعِشْ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرَ حَتَّى بَلَغَ الْحُلُمَ، فَإِنَّهُ ﷺ وُلِدَ لَهُ الْقَاسِمُ وَالطَّيِّبُ وَالطَّاهِرُ مِنْ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَمَاتُوا صِبَاغًا وَوُلِدَ لَهُ ﷺ إِبْرَاهِيمُ مِنْ مَارِيَةَ الْفَيْطِيَّةِ، فَمَاتَ أَيْضًا رَضِيعًا، وَكَانَ لَهُ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ أَرْبَعُ بَنَاتٍ: زَيْنَبُ وَرَفِيَّةُ وَأُمُّ كُلثُومُ وَفَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ، فَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ ﷺ ثَلَاثٌ، وَتَأَخَّرَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَتَّى أُصِيبَتْ بِهِ ﷺ، ثُمَّ مَاتَتْ بَعْدَهُ لَيْسَتْهُ أَشْهُرٌ.

[هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» [الأنعام: ١٢٤] فَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَإِذَا كَانَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ فَلَا رَسُولَ بَعْدَهُ بِالطَّرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى؛ لِأَنَّ مَقَامَ الرَّسَالَةِ أَحْصَى مِنْ مَقَامِ النَّبُوءَةِ، فَإِنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَا يَتَعَكَّسُ، وَبِذَلِكَ وَرَدَّتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي إِبْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا، وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ لَمْ يَضَعَهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتَانِ وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ: لَوْ تَمَّ مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبَنَةِ، فَأَنَا فِي النَّبِيِّينَ مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبَنَةِ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّسَالَةَ وَالنَّبُوءَةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ». قَالَ: فَسَوَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «وَلَكِنَّ الْمُبَشِّرَاتِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْمُبَشِّرَاتِ؟ قَالَ: «رُؤْيَا الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النَّبُوءَةِ»^(٣) وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(٤).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا

(١) أحمد: ١٣٦/٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٨١/١٠ (٣) أحمد: ٢٦٧/٣ (٤) تحفة الأحوذى: ٥٥١/٦ (٥) مسند الطيالسي: ٢٤٧ (٦) فتح الباري: ٦٤٥/٦ (٧) أحمد: ١٥٨/٨ (٨) مسلم: ١٧٩١/٤ (٩) أحمد: ٣١٢/٢ (١٠) البخاري: ٣٥٣٥ (١١) مسلم: ٣٧١/١ (١٢) تحفة الأحوذى: ١٦٠/٥ (١٣) أحمد: ٩/٣ (١٤) مسلم: ١٧٩١/٤

وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ تَعَالَى بِي الْكُفْرَ،
وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ
الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢).
وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَرَسُولُهُ ﷺ فِي
السَّنَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْهُ: أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ
ادَّعَى هَذَا الْمَقَامَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَذَّابٌ وَأَفَّاكٌ دَجَّالٌ ضَالٌّ
مُضِلٌّ، وَلَوْ تَخَرَّقَ وَشَعَبَدَ وَأَتَى بِأَنْوَاعِ السَّحْرِ وَالطَّلَاسِيمِ
وَالنَّيْرِ نَجِيَّاتٍ فَكُلُّهَا مُحَالٌ وَضَلَالٌ عِنْدَ أَوْلِي الْأَلْبَابِ. كَمَا
أَجْرَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى يَدِ الْأَسْوَدِ الْعَنَسِيِّ بِالْيَمَنِ،
وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ بِالْيَمَامَةِ مِنَ الْأَحْوَالِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَقْوَالِ
الْبَارِدَةِ، مَا عَلِمَ كُلُّ ذِي لُبٍّ وَفَهْمٍ وَحِجَى أَنَّهُمَا كَاذِبَانِ
ضَالَّانِ لَعَنَهُمَا اللَّهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُدَّعٍ لِذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
حَتَّى يُخْتَمُوا بِالمَسِيحِ الدَّجَّالِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ
الْكُذَّابِينَ يَخْلُقُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَهُ مِنَ الْأُمُورِ مَا يَشْهَدُ الْعُلَمَاءُ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِكَذِبِ مَنْ جَاءَ بِهَا. وَهَذَا مِنْ تَمَامِ لُطْفِ اللَّهِ
تَعَالَى بِخَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ بِضُرُورَةِ الْوَاقِعِ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ
وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْإِتِّفَاقِ، أَوْ لِمَا لَهُمْ
فِيهِ مِنَ الْمَقَاصِدِ إِلَى غَيْرِهِ. وَيَكُونُ فِي غَايَةِ الْإِفْكَ
وَالْفُجُورِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا
أُتِيخْتُمْ عَنْ مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيْطَانُ﴾ تَنَزَّلَ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ...
الْآيَةُ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْأَنْبِيَاءِ

عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّهُمْ فِي غَايَةِ الْبِرِّ وَالصَّدْقِ
وَالرُّشْدِ وَالْإِسْتِقَامَةِ وَالْعَدْلِ، فِيمَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ
وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ، مَعَ مَا يُؤَيِّدُونَ بِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ
لِلْعَادَاتِ، وَالْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَاتِ،
فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا مُسْتَمِرًّا مَا دَامَتِ
الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾ وَسَيَعُوهُ بَكْرَةٌ
وَأَصِيلًا ﴿٤١﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٢﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ
يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٣﴾

[فَضِيلَةٌ كَثْرَةٌ ذَكَرَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِمْ لِرَبِّهِمْ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَصُنُوفِ الْيَمِينِ،
لِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَجَمِيلِ الْمَأْتَبِ.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤١﴾ يَتَأَيَّأُ
النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ
مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذْ أَنْكَرَ كَثَرَتِ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتَهُنَّ
مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ
فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ إِنَّا
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّا ءَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّاتِكَ
وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً
مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا
خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ عَافِيًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ قَالَ: جَاءَ
أَعْرَابِيَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ!
أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ ﷺ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ».
وَقَالَ الْآخَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ
عَلَيْنَا، فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَنْتَبْتُ بِهِ، قَالَ ﷺ: «لَا يَزَالُ لِسَانَكَ
رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى»^(٣). وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ
الْفَضْلَ الثَّانِي، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا
مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ إِلَّا رَأَوْهُ حَسْرَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ»^(٥). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾: إِنَّ اللَّهَ

(١) أحمد: ٨٠/٤ (٢) فتح الباري: ٥٠٩/٨ ومسلم: ٤/

١٨٢٨ (٣) أحمد: ١٩٠/٤ (٤) تحفة الأحوذني: ٦/٢٢١

وابن ماجه: ١٢٤٦/٢ (٥) أحمد: ٢٢٤/٢

[غافر: ٧-٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَي بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ بِكُمْ وَثَنَائِهِ عَلَيْكُمْ وَدُعَايِهِ مَلَائِكَتِهِ لَكُمْ، يُخْرِجُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ هَدَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي جَهَلَهُ غَيْرُهُمْ، وَبَصَّرَهُمُ الطَّرِيقَ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ وَحَادَ عَنْهُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ الْبِدْعَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الطَّغَامِ، وَأَمَا رَحْمَتُهُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ فَامْتَنَهُمْ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ بِتَلْقُونَهُمْ بِالْبِشَارَةِ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَصَبِيٌّ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّ الْقَوْمِ حَشِيَّتَ عَلَى وَلَدِهَا أَنْ يُوطَأَ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَتَقُولُ: ابْنِي، ابْنِي، وَسَعَتْ فَأَخَذَتْهُ، فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا كَانَتْ هَذِهِ لِيُتَلَقَى ابْنَهَا فِي النَّارِ، قَالَ: فَحَفَضَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «[وَلَا] اللَّهُ لَا يُتَلَقَى حَبِيبُهُ فِي النَّارِ»^(٣). إِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْكُتُبِ السَّنَةِ. وَلَكِنْ فِي صَحِيحِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّنِيِّ قَدْ أَخَذَتْ صَبِيًّا لَهَا، فَأَلْصَقَتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُورُونَ هَذِهِ تُلَقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟». قَالُوا: لَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَوَاللَّهِ! اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْيِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - ﴿يَحْيِيَّتُهُمْ﴾ أَي: مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أَي: يَوْمَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَلِّمٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [س: ٥٨] وَزَعَمَ قَتَادَةُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ يُحْيِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ يَوْمَ يَلْقَوْنَ اللَّهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ^(٥). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَمَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

تَعَالَى لَمْ يَفْرَضْ عَلَى عِبَادِهِ فَرِيضَةً إِلَّا جَعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا، ثُمَّ عَدَرَ أَهْلِهَا فِي حَالِ الْعُدْرِ غَيْرِ الذِّكْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يُنْتَهَى إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْدِرْ أَحَدًا فِي تَرْكِهِ إِلَّا مَعْلُوبًا عَلَى تَرْكِهِ، فَقَالَ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيمًا وَفَعُولًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَفِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَالْيَعْنَى وَالْفَقْرَ، وَالسَّقَمَ وَالصَّحَّةَ، وَالسَّرَّ وَالْعَلَانِيَةَ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ صَلَّى عَلَيْكُمْ هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ^(١). وَالْأَحَادِيثُ وَالآيَاتُ وَالْأَثَارُ فِي الْحَثِّ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْحَثُّ عَلَى الْإِكْتِنَارِ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ صَنَّفَ النَّاسُ فِي الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِآثَارِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَالنَّسَائِيِّ وَالْمُعَمَّرِيِّ وَغَيْرِهِمَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَي: عِنْدَ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَبِّحْ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾^(٢) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ هَذَا تَهَيِّجُ إِلَى الذِّكْرِ، أَي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرْكُمْ فَاذْكُرُوهُ أَنْتُمْ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَرُكُوعًا وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَا حَبِيرٍ مِنْهُ». وَالصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تَنَاوُهُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ. حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ^(٤). وَرَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الرَّحْمَةُ. وَقَدْ يُقَالُ: لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَا الصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَمَعْنَى الدُّعَاءِ لِلنَّاسِ وَالِاسْتِعْفَارِ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(٥) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٦) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ ... الْآيَةَ

(١) الطبري: ٢٨٠/٢٠ (٢) البخاري: التفسير، الأحزاب، باب ١٠ (٣) أحمد: ١٠٤/٣ (٤) فتح الباري: ٤٤٠/١٠ (٥) الطبري: ٢٨٠/٢٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يَعْنِي: الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَائِكِ وَالْمَسَاكِينِ، وَالْمَنَاجِحِ وَالْمَلَادِّ وَالْمَنَاطِرِ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَنَذِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَا نَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعَّ اذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

[صفات رسول الله ﷺ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوَرَاةِ، قَالَ: أَجَلُ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمْ يَوْصَفْ فِي التَّوَرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحُرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَسْتَ بِفَطْرٍ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَنْفَحَ بِهَا أَغْيُنًا عُمَيًّا، وَأَدَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا) (١). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّبْيُوعِ وَالتَّفْسِيرِ (٢).

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُبَيَّبٍ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ سَعْيَاءُ: أَنْ قُمْ فِي قَوْمِكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنِّي مُنْطِقٌ لِسَانَكَ بِوَحْيٍ وَأَبْعَثْ أُمَيًّا مِنَ الْأُمِّيِّينَ، أَبْعَثْهُ لَيْسَ بِفَطْرٍ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، لَوْ يَمُرُّ إِلَى جَنْبِ سِرَاجٍ لَمْ يُطْفِئْهُ مِنْ سَكِينَتِهِ، وَلَوْ يَمْسِيهِ عَلَى الْقَصَبِ لَمْ يُسْمَعْ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، أَبْعَثْهُ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لَا يَقُولُ الْخَنَا، أَفْتَحْ بِهِ أَغْيُنًا كُمْهَا وَأَدَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا، أَسَدَّهُ لِكُلِّ أَمْرٍ جَمِيلٍ، وَأَهَبْ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ، وَأَجْعَلْ السَّكِينَةَ لِيَأْسَهُ، وَالرِّبَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالْحِكْمَةَ مَنْطِقَهُ، وَالصَّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْعَفْرَ وَالْمَعْرُوفَ خُلُقَهُ، وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالهُدَى إِمَامَتَهُ، وَالْإِسْلَامَ مِلَّتَهُ، وَأَحْمَدَ اسْمَهُ، أَهْدِي بِهِ بَعْدَ الضَّلَالِ، وَأَعْلَمْ بِهِ بَعْدَ الْجَهَالَةِ، وَأَرْزُقْ بِهِ بَعْدَ الْخَمَالَةِ، وَأَعْرِفْ بِهِ بَعْدَ النُّكْرَةِ، وَأَكْثِرْ بِهِ بَعْدَ الْفَلَقَةِ، وَأَغْنِي بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ، وَأَجْمَعْ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ، وَأُؤَلِّفْ بِهِ بَيْنَ أُمَّمٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَقُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَهْوَأِ مُتَشَتَّتَةٍ، وَأَسْتَقْبِدْ بِهِ فِقَامًا مِنَ النَّاسِ

عَظِيمَةً مِنَ الْهَلَكَةِ، وَأَجْعَلْ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَا مُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، مُؤَحِّدِينَ مُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلِي، أَلْهِمَّهُمُ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، وَالتَّنَاءَ وَالتَّكْبِيرَ وَالتَّوْحِيدَ، فِي مَسَاجِدِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ وَمَصَاجِعِهِمْ، وَمُنْقَلِبِهِمْ وَمَثْوَاهُمْ يُصَلُّونَ لِي قِيَامًا وَقُعُودًا، وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صُفُوفًا وَرُحُوفًا، وَيَخْرُجُونَ مِنْ دِيَارِهِمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي الْوَقَا، يُطَهَّرُونَ الْوُجُوهَ وَالْأَطْرَافَ، وَيَسُدُّونَ الثِّيَابَ فِي الْأَنْصَافِ، قُرْبَانُهُمْ دِمَاؤُهُمْ، وَأَنَاجِلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، رُهْبَانُ اللَّيْلِ، لَيْوُثُ النَّهَارِ، وَأَجْعَلْ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ السَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ، أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَأَعِزُّ مَنْ نَصَرَهُمْ، وَأُوذِّدْ مَنْ دَعَا لَهُمْ، وَأَجْعَلْ دَائِرَةَ الشُّؤْمِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، أَوْ بَعَى عَلَيْهِمْ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَرِعَ شَيْئًا مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، أَجْعَلُهُمْ وَرَثَةً لِنَبِيِّهِمْ، وَالدَّاعِيَةَ إِلَى رَبِّهِمْ، يَا مُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ، أَخْتُمْ بِهِمُ الْخَيْرَ الَّذِي بَدَأْتَهُ بِأَوْلِيهِمْ، ذَلِكَ فَضْلِي أَوْتِيهِ مَنْ أَسَاءَ، وَأَنَا ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٣).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَا﴾ أَي: اللَّهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَعَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَجَنَانَا بِكَ عَلَى هَذُلَاءِ شَهِيدَا﴾ [النساء: ٤١] كَقَوْلِهِ: ﴿لِتَكُونُوا شَهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي: بِبَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِجَزَائِلِ الثَّوَابِ، وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ مِنْ وَبِيلِ الْعِقَابِ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أَي: دَاعِيًا لِلْخُلُقِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ عَنْ أَمْرِهِ لِكَ بِذَلِكَ ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أَي: وَأَمْرًا ظَاهِرًا فِيمَا جَنَّتْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ كَالشَّمْسِ فِي إِسْرَافِهَا وَإِضَاعَتِهَا؛ لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعَّ اذْنَهُمْ﴾ أَي: لَا تُطِعُهُمْ وَتَسْمَعُ مِنْهُمْ فِي الَّذِي يَقُولُونَهُ: ﴿وَدَعَّ اذْنَهُمْ﴾ أَي: اِضْفَحْ وَتَجَاوَزْ عَنْهُمْ، وَكُلَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ فِيهِ كِفَايَةَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

(١) أحمد: ١٧٤/٢ (٢) فتح الباري: ٤٠٢/٤، ٤٤٩/٨ (٣) ابن أبي حاتم

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعَدُّوهُنَّأَ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَخَّرُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾^(١)

[الْمُتَمَّعَةُ وَعَدَمُ الْاِغْتِدَادِ لِلْمُطَلَّقةِ قَبْلَ الْمَسِيَسِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا إِطْلَاقُ النِّكَاحِ عَلَى الْعَقْدِ وَحُدُّهُ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَصْرَحُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا، وَفِيهَا دَلَالَةٌ لِإِبَاحَةِ طَلَاقِ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ الْعَالِبِ؛ إِذْ لَا فَرْقَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْكَافِيَّةِ فِي ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ إِلَّا إِذَا تَقَدَّمَ نِكَاحٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فَعَقِبَ النِّكَاحَ بِالطَّلَاقِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ وَلَا يَقَعُ قَبْلَهُ^(٢).

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: إِذَا قَالَ: كُلُّ امْرَأَةٍ أَتَزَوَّجُهَا فِيهِ طَالِقٌ، قَالَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الْآيَةَ^(٣). عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيضًا قَالَ: إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّلَاقَ بَعْدَ النِّكَاحِ. وَقَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِذَلِكَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا طَلَاقَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَهُوَ أَحْسَنُ شَيْءٍ رُوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ^(٤). وَهَكَذَا رَوَى ابْنُ مَاجَهَ عَنْ عَلِيِّ وَالْمُسَوِّرِ بْنِ مَحْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا طَلَاقَ قَبْلَ نِكَاحٍ»^(٥).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعَدُّوهُنَّ﴾ هَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا طَلَّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا لَا عَدَّةَ عَلَيْهَا، فَتَذْهَبُ فَتَزَوَّجُ فِي فَوْرِهَا مِنْ شَاءَتْ، وَلَا يُسْتَنْتَى مِنْ هَذَا إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، فَإِنَّهَا تَعُدُّ مِنْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا - بِالْإِجْمَاعِ أَيضًا - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَخَّرُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ الْمُتَمَّعَةُ هُنَا أَعْمٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ نِصْفَ الصِّدَاقِ الْمُسَمَّى أَوْ الْمُتَمَّعَةُ

الْخَاصَّةُ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ سُمِّيَ لَهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لهنَّ فَرِيضَةً فَصِغْتُمْ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْاُتُوسِيعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: إِنْ رَسُوَ اللَّهُ ﷺ تَزَوَّجَ أُمَيْمَةَ بِنْتَ سَرَّاجِيلَ، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ ﷺ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَكَأَنَّهُا كَرِهَتْ ذَلِكَ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا وَيُخَسِّمَهَا تَوْبِينَ رَازِقِيْنِ^(٦). قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنْ كَانَ سُمِّيَ لَهَا صَدَاقًا فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النِّصْفُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سُمِّيَ لَهَا صَدَاقًا أَمْتَعَهَا عَلَى قَدْرِ عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَهُوَ السَّرَّاحُ الْجَمِيلُ^(٧).

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَمْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي ءَأْتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ يَمَا ءَأَفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عَيْكَ وَنَبَاتٍ عَنَيْكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَلْنِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَدْرَأَهُ مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِيَكِلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ عَافُوًا رَحِيمًا﴾^(٨)

[بَيَانُ النَّسَاءِ اللَّاتِي أُخْلِنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنَّهُ قَدْ أَحَلَّ لَهُ مِنَ النَّسَاءِ أَزْوَاجَهُ اللَّاتِي أُعْطَاهُنَّ مَهْرَهُنَّ، وَهِيَ الْأَجُورُ هُنَا، كَمَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٩). وَقَدْ كَانَ مَهْرُهُ لِنِسَائِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً [وَنَشَأُ]، وَهُوَ نِصْفُ أُوقِيَّةٍ، فَالْجَمِيعُ خَمْسُمِائَةٍ دِرْهَمٍ إِلَّا أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، فَإِنَّهُ أَمهرَهَا عَنْهُ النَّجَاشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَرْبَعَمِائَةَ دِينَارًا، وَإِلَّا صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ فَإِنَّهُ اصْطَفَاهَا مِنْ سَبِي حَبِيبٍ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَجَعَلَ عَتَقَهَا صَدَاقَهَا، وَكَذَلِكَ جُوزِيْرَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْمُصْطَلِقِيَّةِ أَدَّى عَنْهَا كِتَابَتَهَا إِلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ وَتَزَوَّجَهَا -

(١) الطبري: ٢٨٣/٢٠ (٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم: الدر المنثور: ٣٩٢/٥ (٣) أحمد: ٢٠٧/٢ وأبو داود: ٦٤٠/٢ وتحفة الأحوذني: ٣٥٥/٤ وابن ماجه: ٦٦٠/١ (٤) ابن ماجه: ٦٦٠/١ فتح الباري: ٢٦٩/٩ (٦) الطبري: ٢٨٣/٢٠ (٧) الطبري: ٢٨٤/٢٠

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾^(١) أَيْ: وَأَبَاحَ لَكَ التَّسَرُّيَ مِمَّا أَخَذْتَ مِنَ الْمَغَانِمِ، وَقَدْ مَلَكَ صَفِيَّةَ وَجُوَيْرِيَةَ فَأَعْتَمَهُمَا وَتَزَوَّجَهُمَا، وَمَلَكَ رَيْحَانَةَ بِنْتَ شَمْعُونَ النَّضْرِيَّةَ، وَمَارِيَةَ الْقُبَيْطِيَّةَ أُمَّ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَتَا مِنَ السَّرَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَقَالَ: مَا عِنْدِي إِلَّا إِزَارِي هَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسَتْ لَا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمِسْ شَيْئًا». فَقَالَ: لَا أَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ: «الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حديدٍ». فَالْتَمَسَ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟». قَالَ: نَعَمْ سُورَةٌ كَذَا وَسُورَةٌ كَذَا - السُّورَةُ يُسَمِّيهَا - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «رَوِّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٣). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ مَا لِكَ^(٤).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: الَّتِي وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ حَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ^(٥). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَعَارُ مِنَ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَقُولُ: أَتَهَبُ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا؟ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تُرْجَى مِنْ نَفْسِهِ مِثْنُ وَتُورَى إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَنْ أَنْعَيْتَ مِنْ عَزَلَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١] قُلْتُ: مَا أَرَى رَبِّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ^(٦).

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ! قَالَ: لَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةٌ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٧). عَنْ يُونُسَ بْنِ بَكِيرٍ، أَيْ أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ وَاحِدَةً مِمَّنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَهُ، وَإِنْ [كَانَ] ذَلِكَ مُبَاحًا لَهُ وَمَخْصُوصًا بِهِ؛ لِأَنَّهُ مُرَدُّودٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أَيْ: إِنْ اخْتَارَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: أَيْ: لَا تَحِلُّ الْمُؤَهَّبَةُ لِغَيْرِكَ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ لَمْ تَحِلَّ لَهُ حَتَّى يُعْطِيَهَا شَيْئًا^(٨). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُمَا^(٩). أَيْ: إِنَّهَا إِذَا فَوَّضَتْ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا إِلَى رَجُلٍ، فَإِنَّهُ مَتَى دَخَلَ بِهَا وَجَبَ عَلَيْهِ لَهَا مَهْرٌ مِثْلِهَا، كَمَا حَكَّمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي [بِرْوَع] بِنْتِ وَاشِقٍ لَمَّا فَوَّضَتْ، فَحَكَّمَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصَدَاقٍ مِثْلِهَا لَمَّا تُوَفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا، وَالْمَوْتُ وَالِدُخُولِ سَوَاءً فِي تَقْرِيرِ الْمَهْرِ وَتَوْبِ مَهْرٍ الْمِثْلِ فِي الْمَفْوضَةِ لِغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَّا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَاتَ عَمَكُ وَبَاتَ عَمَتُكَ وَبَاتَ خَالُكَ وَبَاتَ خَلَتُكَ﴾... الْآيَةَ. هَذَا عَدْلٌ وَسَطٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّقْرِيطِ، فَإِنَّ النَّصَارَى لَا يَتَزَوَّجُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا سَبْعَةُ أَجْدَادٍ فَصَاعِدًا، وَالْيَهُودُ يَتَزَوَّجُونَ أَحَدَهُمْ بِنْتِ أَخِيهِ وَبِنْتِ أُخْتِهِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ الطَّاهِرَةُ بِهَدْمِ إِفْرَاطِ النَّصَارَى، فَأَبَاحَ بِنْتِ الْعَمِّ وَالْعَمَّةِ، وَبِنْتِ الْخَالَ وَالْخَالَةِ، وَتَحْرِيمَ مَا فَرَطَتْ فِيهِ الْيَهُودُ مِنْ إِبَاحَةِ بِنْتِ الْأَخِ وَالْأُخْتِ، وَهَذَا شَنِيعٌ فَطِيعٌ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَبَاتَ عَمَكُ وَبَاتَ عَمَتُكَ وَبَاتَ خَالُكَ وَبَاتَ خَلَتُكَ﴾ فَوَحَّدَ لَفْظَ الذَّكْرِ لِشَرْفِهِ، وَجَمَعَ الْإِنَاثَ لِتَقْصِيصِ كَقَوْلِهِ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الطُّلُوعِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿وَجَعَلَ الطُّلُوعَ وَالنُّورَ﴾ [الانعام: ١] وَلَهُ نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ.

عَنْ أُمِّ هَانِيَةَ قَالَتْ: خَطَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَعْتَدَرْتُ إِلَيْهِ فَعَدَّرَنِي، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَائِبَاتٍ أُجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَاتَ عَمَكُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾، قَالَتْ: فَلَمْ أَكُنْ أَجِلُّ لَهُ، وَلَمْ أَكُنْ مِمَّنْ هَاجَرَ مَعَهُ، كُنْتُ مِنَ الطُّلُوعِ^(١١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ وَقَالَ الضَّحَّاكُ: قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (وَاللَّاتِي هَاجَرَ مَعَكَ)^(١٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ﴾... الْآيَةَ، أَيْ: وَيَحِلُّ لَكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ الْمَرْأَةُ الْمُؤْمِنَةُ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ مَهْرٍ إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَوَالَى فِيهَا شَرْطَانِ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ، فَقَامَتْ قِيَامًا طَوِيلًا، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَوِّجِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصَدِّقُهَا بِإِيَّاهُ؟».

(١) الترمذي: ٣٢١٤ وقال الألباني ضعيف جدًا غير أن لأصل الحديث بعض الشواهد الحسنة في طبقات ابن سعد كما قال الشيخ عبد الرزاق المهدي (٢) الطبري: ٢٨٥/٢٠ (٣) أحمد: ٣٣٦/٥ (٤) فتح الباري: ٩٧/٩ ومسلم: ١٠٤٠/٢ (٥) البيهقي: ٥٥/٧ (٦) فتح الباري: ٣٨٥/٨ (٧) الطبري: ٢٠/٢٨٨ (٨) الدر المنثور: ٦٣١/٦ (٩) الطبري: ٢٠/٢٨٧، ٢٨٦

﴿ تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ وَمِمَّنْ بَغِيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّىٰ أَن تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُحِزْنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَاءِ أَيْتِهِنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِمَّنْ بَعَدَ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْهُنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهَا إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَانْدُخُلُوا يُوتُونَ النَّبِيَّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَّظِيرٍ لِإِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِجَدِثٍ إِنْ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِءَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِءَ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلَ لِمَوَهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ تَبَدُّوا أَسِيًّا أَوْ يُخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلْمَوْضِعَةِ شَيْءٌ وَلَوْ دَخَلَ بِهَا؛ لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ صَدَاقٍ وَلَا وَلِيٍّ، وَلَا شُهُودٍ، كَمَا فِي قِصَّةِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ: لَيْسَ لِامْرَأَةٍ تَهَبُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ بِغَيْرِ وَلِيٍّ وَلَا مَهْرٍ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قَالَ أَبُو بِنُ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أَيِّ مِنْ حَضْرِهِمْ فِي أَرْبَعِ نِسْوَةٍ حَرَائِرٍ (٢). وَمَا سَأَلُوا مِنَ الْإِمَاءِ، وَاشْتِرَاطِ الْوَلِيِّ وَالْمَهْرِ وَالشُّهُودِ عَلَيْهِمْ. وَهُمْ الْأُمَّةُ وَقَدْ رَحَّصْنَا لَكَ فِي ذَلِكَ، فَلَمْ نُوجِبْ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْهُ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿ تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ وَمِمَّنْ بَغِيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّىٰ أَن تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُحِزْنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَاءِ أَيْتِهِنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

[تَخْيِيرُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَبُولِ الْوَاهِبَاتِ نَفْسَهَا أَوْ رَدِّهَا عَلَى قَوْلٍ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَعْبِيرُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: أَلَا تَسْتَحْيِ الْمَرْءَةَ أَنْ تَعْرِضَ نَفْسَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ﴾... الآية، قَالَتْ: إِنِّي أَرَى رَبَّكَ يُسَارِعُ لَكَ فِي هَذَا (٣). وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَاهُ أَيْضًا (٤). فَذَلِكَ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿تَرْجِي﴾ أَيُّ: تُؤَخِّرُ ﴿مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أَيُّ: مِنَ الْوَاهِبَاتِ ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ﴾ أَيُّ: مَنْ شِئْتَ قَبْلَتَهَا وَمَنْ شِئْتَ رَدَدْتَهَا، وَمَنْ رَدَدْتَهَا فَأَنْتَ فِيهَا أَيْضًا بِالْخِيَارِ بَعْدَ ذَلِكَ، إِنْ شِئْتَ عُدْتَ فِيهَا فَأَوَيْتَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمِمَّنْ بَغِيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

[الْقَوْلُ الْأَخْرَفِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ]

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ﴾... الآية، أَيُّ: مِنْ أَزْوَاجِكَ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرَكَ الْقِسْمَ لَهُنَّ، فَتَقَدَّمَ مَنْ شِئْتَ وَتَوَخَّرَ مَنْ شِئْتَ، وَتَجَامَعَ مَنْ شِئْتَ وَتَتْرَكَ مَنْ شِئْتَ، هَكَذَا يُرَوَى عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَأَبِي رَزِينٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرِهِمْ، وَمَعَ هَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُقْسِمُ لَهُنَّ، وَلِهَذَا ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْقِسْمُ وَاجِبًا عَلَيْهِ ﷺ، وَاحْتَجُّوا بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي الْيَوْمِ الْمَرْءَةَ مَتَا بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ وَمِمَّنْ بَغِيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فَقُلْتُ لَهَا: مَا كُنْتَ تَقُولِينَ؟ فَقَالَتْ: كُنْتُ أَقُولُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أُؤَيِّرَ عَلَيْكَ أَحَدًا (٥). فَهَذَا الْحَدِيثُ عَنْهَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ عَدَمَ [وُجُوبِ] الْقِسْمِ، وَحَدِيثُهَا الْأَوَّلُ يَقْتَضِي أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَاهِبَاتِ، وَمِنْ هَهُنَا اخْتَارَ ابْنُ

(١) الطبري: ٢٠٨/٢٠٨ (٢) الطبري: ٢٠٨/٢٠ (٣) أحمد: ١٥٨/٦ (٤) فتح الباري: ٣٨٥/٨ (٥) فتح الباري: ٣٨٥/٨

جَرِيرٍ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْوَاهِبَاتِ وَفِي النَّسَاءِ اللَّاتِي عِنْدَهُ أَنَّهُ مُخَيَّرَ فِيهِنَّ إِنْ شَاءَ قَسَمَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسِمْ^(١). وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَفِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَذْفَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَمِيئُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْكَ بِمَا آيَأْتَهُنَّ كَلَهُنَّ﴾ أَيُّ: إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَصَّعَ عَنكَ الْحَرَجَ فِي الْقَسَمِ، فَإِنْ شِئْتَ قَسَمْتَ، وَإِنْ شِئْتَ لَمْ يَقْسِمِ، لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي أَيِّ ذَلِكِ فَعَلْتَ، ثُمَّ مَعَ هَذَا أَنَّ تَقْسِيمَ لَهُنَّ اخْتِيَارًا مِنْكَ، لَا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْوَجُوبِ، فَرَحَنَ بِذَلِكَ وَاسْتَبَشَّرَنَ بِهِ، وَحَمَلْنَا جَمِيلَكَ فِي ذَلِكِ، وَاعْتَرَفْنَا بِمَيْتِكَ عَلَيْهِنَّ فِي قِسْمَتِكَ لَهُنَّ وَتَسْوِيَتِكَ بَيْنَهُنَّ وَإِنْصَافِكَ لَهُنَّ وَعَدْلِكَ فِيهِنَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ وَمَا لَا يُمَكِّنُ دَعْوَهُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمَلْتُ، فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمَلَّكَ وَلَا أَمَلْتُ»^(٢). وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ، وَزَادَ أَبُو دَاوُدَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمَلَّكَ وَلَا أَمَلْتُ». يَعْنِي: الْقَلْبُ^(٣). وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَرِجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ، وَلِهَذَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أَيُّ: بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ ﴿حَلِيمًا﴾ أَيُّ: يَحْلُمُ وَيَعْفِرُ. ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَنْزَلِجَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَظِيمًا﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ وَمَا لَا يُمَكِّنُ دَعْوَهُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمَلْتُ، فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمَلَّكَ وَلَا أَمَلْتُ»^(٢). وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ، وَزَادَ أَبُو دَاوُدَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمَلَّكَ وَلَا أَمَلْتُ». يَعْنِي: الْقَلْبُ^(٣). وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَرِجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ، وَلِهَذَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أَيُّ: بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ ﴿حَلِيمًا﴾ أَيُّ: يَحْلُمُ وَيَعْفِرُ. ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَنْزَلِجَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَظِيمًا﴾

وَأَخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِيمَنْ ذُكِرَ مِنْ أَصْنَافِ النِّسَاءِ، وَفِي النِّسَاءِ اللَّوَاتِي فِي عِضْمَتِهِ وَكُنَّ تِسْعًا. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَيِّدٌ، وَعَلَّاهُ مُرَادٌ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ رَوَى عَنْهُ هَذَا وَهَذَا، وَلَا مُتَافَاةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَنْزَلِجَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ فَفَهَاهُ عَنِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِنَّ - إِنْ طَلَّقَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ^(٤) - وَاسْتَبَدَّ بِغَيْرِهَا بِهَا، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْزِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَجِبِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَجِيبُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ

(١) الطبري: ٣٠٤/٢٠ (٢) أحمد: ١٤٤/٦ (٣) أبو داود: ٢/٦٠١ وتحفة الأحوذى: ٢٩٤/٤ والنسائي: ٦٣/٧ وابن ماجه: ٦٣٣/١ (٤) الطبري: ٢٩٧/٢٠ (٥) أحمد: ٤١/٦ (٦) تحفة الأحوذى: ٧٨/٩ والنسائي: ٥٦/٦ (٧) تحفة الأحوذى: ٧٧/٩ (*) كذا في الأصل، وفي بعض النسخ الأخرى: ففناه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ وَمَا لَا يُمَكِّنُ دَعْوَهُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمَلْتُ، فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمَلَّكَ وَلَا أَمَلْتُ»^(٢). وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ، وَزَادَ أَبُو دَاوُدَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمَلَّكَ وَلَا أَمَلْتُ». يَعْنِي: الْقَلْبُ^(٣). وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَرِجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ، وَلِهَذَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أَيُّ: بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ ﴿حَلِيمًا﴾ أَيُّ: يَحْلُمُ وَيَعْفِرُ. ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَنْزَلِجَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَظِيمًا﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ وَمَا لَا يُمَكِّنُ دَعْوَهُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمَلْتُ، فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمَلَّكَ وَلَا أَمَلْتُ»^(٢). وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ، وَزَادَ أَبُو دَاوُدَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمَلَّكَ وَلَا أَمَلْتُ». يَعْنِي: الْقَلْبُ^(٣). وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَرِجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ، وَلِهَذَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أَيُّ: بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ ﴿حَلِيمًا﴾ أَيُّ: يَحْلُمُ وَيَعْفِرُ. ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَنْزَلِجَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَظِيمًا﴾

رَفِيبًا ﴿٥﴾
[مُجَازَاةُ الْأَرْوَاجِ عَلَى اخْتِيَارِهِنَّ ضُحْبَةَ الرَّسُولِ]
ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ كَابِنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَابْنَ زَيْدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَغَيْرِهِمْ^(٤): أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ مُجَازَاةً لِأَرْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَرِضَا عَنْهُنَّ عَلَى حُسْنِ صَنِيعِهِنَّ فِي اخْتِيَارِهِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارِ الْأَاجِرَةَ لَمَّا خَيَّرَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ، فَلَمَّا اخْتَرَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَزَاؤُهُنَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَصَرَهُ عَلَيْهِنَّ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِهِنَّ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِنَّ أَرْوَاجًا غَيْرَهُنَّ، وَلَوْ أَعْجَبَهُ حُسْنُهُنَّ إِلَّا الْإِمَاءَ وَالسَّرَارِي فَلا حَرَجَ عَلَيْهِ فِيهِنَّ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى رَفَعَ عَنْهُ الْحَرَجَ فِي ذَلِكِ وَنَسَخَ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَبَاحَ لَهُ التَّزَوُّجَ، وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَزَوُّجٌ لِيَتَكُونَ الْإِمْنَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِنَّ.
رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

وَقُلُوبَهُنَّ وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا سَبِيًّا أَوْ أَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

[آداب الدُّخُولِ فِي بُيُوتِ النَّبِيِّ وَالْأَمْرِ بِالْحِجَابِ]

هَذِهِ آيَةُ الْحِجَابِ وَفِيهَا أَحْكَامٌ وَآدَابٌ شَرْعِيَّةٌ، وَهِيَ مِمَّا وَافَقَ تَنْزِيلُهَا قَوْلَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَاقِفْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي ثَلَاثٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ نِسَاءُكَ يَدْخُلْنَ عَلَيْكَ الْبُرِّ وَالْفَاجِرِ فَلَوْ حَجَبْتَهُنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ. وَقُلْتُ لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا تَمَالَأْنَ عَلَيْهِ فِي الْعَيْرَةِ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُنَّ آزْوَاجًا خَيْرًا مِمَّنْ كُنَّ﴾ [التَّحْرِيمِ: ٥] فَتَزَلَّتْ كَذَلِكَ ^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ ذُكِرَ أَسَارَى بَدْرٍ وَهِيَ قَضِيَّةٌ رَابِعَةٌ ^(٢).

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبُرِّ وَالْفَاجِرِ، فَلَوْ أَمَرْتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ ^(٣).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، دَعَا الْقَوْمَ فَطَعَمُوا، ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَإِذَا هُوَ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُمْ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ، قَامَ مِنْ قَامٍ وَقَعَدَ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ، فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا، فَحِثُّ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبَتْ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظْرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ الْآيَةَ ^(٤). وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ^(٥)، وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ ^(٦).

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَنَى النَّبِيُّ ﷺ بَرْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ بِغَيْرِ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلَتْ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أُجِدُّ أَحَدًا

أَدْعُوهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أُجِدُّ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: «ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ». وَبَقِيَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» قَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ! فَتَقَرَّى حُجْرَ نِسَائِهِ كُلَّهُنَّ يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُطْلَقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَمَا أَذْرِي أَخْبَرْتُهُ أَمْ أَخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أَسْكَفَةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَالْآخَرَى خَارِجَةً، أَرَحَى السُّرَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأَنْزَلَتْ آيَةَ الْحِجَابِ ^(٧). انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ السُّتَّةِ سِوَى النَّسَائِيِّ: فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ^(٨).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ حُظْرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ، كَمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَصْنَعُونَ فِي بُيُوتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَابْتِدَاءَ الْإِسْلَامِ، حَتَّى غَارَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ مِنْ إِكْرَامِهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ. وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النَّسَاءِ» الْحَدِيثَ ^(٩). ثُمَّ اسْتَشْتَى مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظْرِينَ إِنَّهُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: أَيُّ غَيْرِ مُتَحَبِّبِينَ نَضِجُهُ وَاسْتَوَاءُ ^(١٠). أَيُّ: لَا تَرْفُؤُوا الطَّعَامَ إِذَا طُبِخَ حَتَّى إِذَا قَارَبَ الْأَسْتَوَاءَ تَعَرَّضْتُمْ لِلدُّخُولِ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَذْمُهُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ التَّطْفِيلِ وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ الصَّيْفَنَ، وَقَدْ صَنَّفَ الْخَطِيبُ الْبُعْدَادِيُّ فِي ذَلِكَ كِتَابًا فِي ذَمِّ الطُّفْلِيِّينَ، وَذَكَرَ مِنْ أَحْبَابِهِمْ أَشْيَاءَ يَطُولُ إيرادُهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا

(١) فتح الباري: ٦٠١/١ ومسلم: ١٨٦٥/٤ (٢) مسلم: ٤/

١٨٦٥ (٣) فتح الباري: ٣٨٧/٨ (٤) فتح الباري: ٣٨٧/٨

(٥) فتح الباري: ٢٤/١١ (٦) مسلم: ١٠٥٠/٢ والنسائي في

الكبرى: ٤٣٥/٦ (٧) فتح الباري: ٣٨٨/٨ (٨) النسائي في

الكبرى: ٧٥/٦ (٩) مسلم: ١٧١١/٤ (١٠) الطبري: ٢٠/

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِءِءَابِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا بَنَاتِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَهُنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾
وَأَقْرَبِينَ اللَّهُ إِلَيْكَ اللَّهُ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

[مَنْ لَا تَحْتَجِبُ الْمَرْءَةُ مِنْهُ مِنَ الْأَقْرَابِ]

لَمَّا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النِّسَاءَ بِالْحِجَابِ مِنَ الْأَجَانِبِ، بَيْنَ أَنْ هُوَ لِأَقْرَابِ لَا يَجِبُ الْإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ، كَمَا اسْتَنْتَاهُمْ فِي سُورَةِ النُّورِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِلَاحَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِ الَّذِي لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١] وَفِيهَا زِيَادَاتٌ عَلَى هَذِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا، بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ وَعِكْرَمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِءَابَائِهِنَّ﴾... الْآيَةَ. قُلْتُ: مَا شَأْنُ الْعَمِّ وَالْحَالِ لَمْ يُذَكَّرْ؟ قَالَ: لِأَنَّهُمَا يَنْتَعِنَانِهَا لِأَبْنَائِهِمَا، وَكَرِهًا أَنْ تَضَعَ حِمَارَهَا عِنْدَ خَالِهَا وَعَمَّهَا^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ عَدَمَ الْإِحْتِجَابِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يَعْنِي بِهِ أَرْقَاءَهُنَّ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الْإِمَاءَ فَقَطْ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقْرَبِينَ اللَّهُ إِلَيْكَ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أَيُّ: وَاحْتِشِينَهُ فِي الْخَلْوَةِ وَالْعَلَايَةِ، فَإِنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَرَأَيْنَ الرَّقِيبَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٥٦﴾

[الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: صَلَاةُ اللَّهِ تَعَالَى: تَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ: الدُّعَاءُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُصَلُّونَ يُرْكُونَ^(٥). هَكَذَا عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُمَا، وَقَالَ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ: وَرَوَى عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَعَبْرَ وَاحِدٍ مِنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالُوا: صَلَاةُ الرَّبِّ الرَّحْمَةُ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الْأَشْتِغَارُ^(٦).

دَعَا أَحَدَكُمْ أَحَاهُ فَلْيَجِبْ عُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا مُسْتَفْسِدِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أَيُّ كَمَا وَقَعَ لِأُولَئِكَ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ اسْتَرْسَلُوا بِهِمُ الْحَدِيثَ، وَنَسُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ بُدْوِي النَّبِيِّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ وَقِيلَ: الْمُرَادُ إِنَّ دُخُولَكُمْ مَنْزِلَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ كَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِ وَيَتَأَذَى بِهِ، وَلَكِنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حَيَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أَيُّ وَلِهَذَا نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَزَجَرَكُمْ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أَيُّ: وَكَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنِ الدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ، كَذَلِكَ لَا تَنْظُرُوا إِلَيْهِنَّ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدِكُمْ حَاجَةٌ يُرِيدُ تَنَاوُلَهَا مِنْهُنَّ، فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ وَلَا يَسْأَلُهُنَّ حَاجَةً إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

[النَّهْيُ عَنْ إِذْيَاءِ الرَّسُولِ وَبَيَانُ حُرْمَةِ أَرْوَاحِهِ عَلَى

الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا أَرْوَاحَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ هَمَّ أَنْ يَنْزُوجَ بَعْضَ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَهُ، قَالَ رَجُلٌ لِسُفْيَانَ: أَهْيَ عَائِشَةُ؟ قَالَ: قَدْ ذَكَرُوا ذَلِكَ^(٢). وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ^(٣). وَذَكَرَ بِسَنَدِهِ عَنِ السُّدِّيِّ: أَنَّ الَّذِي عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ طَلَحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى نَزَلَ التَّنْبِيهُ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ قَاطِبَةً عَلَى: أَنَّ مَنْ تُؤْفَى عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَرْوَاحِهِ؛ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى غَيْرِهِ تَرْوُجُهَا مِنْ بَعْدِهِ، لِأَنَّهُنَّ أَرْوَاحُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ - كَمَا تَقَدَّمَ -.

وَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ، وَشَدَّدَ فِيهِ وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ بُدِدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أَيُّ مَهْمَا تَكُنْتُمْ صَمَائِرُكُمْ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

(١) مسلم: ١٠٥٣/٢ (٢) الدر المنثور: ٦٤٣/٦ (٣) الطبري: ٣١٦/٢٠ (٤) الطبري: ٣١٨/٢٠ تقدم حكمه (٥) فتح الباري: ٣٩٢/٨ (٦) تحفة الأحوذى: ٦١٠/٢

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي عَاقِبَتِهِمْ وَلَا أَنْبَاءِهِمْ وَلَا إِيْحَانِهِمْ وَلَا أَنْبَاءِ إِيْحَانِهِمْ وَلَا مَمْلَكَةٍ
أَمْنَهُمْ وَأَتَقِينِ اللَّهَ رَبَّكَ اللَّهُ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا
(٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨)
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِي وَبَنَاتِي وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ
عَلَيْهِمْ مِنْ جَلَسِيهِمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنُ وَكَانَ
اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَنْ لَرَيْنَهُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمَرْجُوفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَنَنْجُوهُنَّ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ
أَيُّهَا نَفَقُوا أَخْذُوا وَفُتِلُوا نَفْتِيلًا (٦١) سِنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

وَقَدْ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
بِأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَكَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ
مِنْهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا تيسَّرَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ
قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمَا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَا،
فَكَيْفَ الصَّلَاةُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى
آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ،
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى
آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(١). وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ:
وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى يَقُولُ: وَعَلَيْنَا مَعَهُمْ»^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: لَقِيتُ كَعْبَ
ابْنِ عُجْرَةَ فَقَالَ: أَلَا أُهْدِي لَكَ هِدْيَةً؟ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ عَلِمْنَا أَوْ عَرَفْنَا كَيْفَ
السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ؟ فَقَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ
عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ،
إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ
مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ
مَجِيدٌ»^(٣). وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ
مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا السَّلَامُ
عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ
عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ،
وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ
إِبْرَاهِيمَ» قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ اللَّيْثِ: «عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ
مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ». حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ
حَمْرَةَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي حَازِمٍ وَالذَّرَاوَرْدِيُّ عَنْ يَزِيدَ - يَعْنِي
ابْنَ الْهَادِ - قَالَ: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارَكْتَ عَلَى
مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ
إِبْرَاهِيمَ»^(٤). وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٥).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ
السَّاعِدِيِّ: أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟
قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَوَدَّيَّتِهِ،
كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ
وَوَدَّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(٦).
وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ سِوَى التِّرْمِذِيِّ^(٧).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ
قَالَ: أَنَا نَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ
عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: أَمَرْنَا اللَّهُ أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ! فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ
حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا:
اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى
آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا
بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ،
وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ»^(٨). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ،
وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٩).

(١) فتح الباري: ٣٩٢/٨ (٢) الترمذي: ٤٨٣ (٣) أحمد: ٤/٢٤١
(٤) فتح الباري: ٣٩٢/٨ (٥) النسائي: ٤٩/٣ وابن
ماجه: ٢٩٢/١ (٦) أحمد: ٤٢٤/٥ (٧) فتح الباري: ١١/١٥٧
ومسلم: ٣٠٦/١ وأبو داود: ٦٠٠/١ والنسائي: ٤٩/٣
وابن ماجه: ٢٩٣/١ (٨) مسلم: ٣٠٥/١ (٩) أبو داود: ١/٦٠٠
وتحفة الأحوذني: ٨٤/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٣٦/٦

[وَجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ الدُّعَاءِ] وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ خُرَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُعْجِدِ اللَّهَ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَلْ هَذَا» ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِعَبْرِهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدَ مَا شَاءَ»^(١).

[فَضْلُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ]

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَوَجَّهَ نَحْوَ صَدَقَتِهِ، فَدَخَلَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَمَحَّرَ سَاجِدًا، فَأَطَالَ السُّجُودَ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ قَبِضَ نَفْسَهُ فِيهَا، فَذَنُوتُ مِنْهُ ثُمَّ جَلَسْتُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» قُلْتُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ. قَالَ: «مَا شَأْنُكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سَجَدْتُ سَجْدَةً خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - قَبِضَ نَفْسَكَ فِيهَا. فَقَالَ: «إِنَّ جِبْرِيْلَ أَنَانِي فَبَشَّرَنِي أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ. فَسَجَدْتُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - - شُكْرًا»^(٢). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنْ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً^(٣).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثَلَاثًا اللَّيْلِ، قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ» قَالَ أَبِي: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ» قُلْتُ: «مَا شِئْتَ؟» قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: فَالْتَصِفْ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: فَالتَّثْنِيْنُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: «إِذَنْ تُكْفَى هَمَّكَ، وَيَعْفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ» ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ [صحيح]^(٤).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالشُّرُورُ يُرَى فِي وَجْهِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا لَنَرَى الشُّرُورَ فِي وَجْهِكَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ أَنَانِي الْمَلَكُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَمَا يُرِضِيكَ أَنَّ رَبَّكَ عَزَّ

وَجَلَّ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، قُلْتُ: بَلَى»^(٥). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٦).

(طَرِيقٌ أُخْرَى) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا طَيَّبَ النَّفْسَ يُرَى فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَصْبَحْتَ الْيَوْمَ طَيَّبَ النَّفْسَ يُرَى فِي وَجْهِكَ الْبِشْرُ، قَالَ: «أَجَلْ، أَنَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا»^(٧). وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، وَعَمَّارِ، وَأَبِي طَلْحَةَ، وَأَنْسِ، وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ^(٨).

[وَجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ كُلَّمَا ذُكِرَ]

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عَنْدهُ ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ» وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: «فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»^(٩). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ^(١٠). (حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ

والطبري: ٣٢١/٢٠ (١) أحمد: ١٨/٦ وأبو داود: ١٦٢/٢ وتحفة الأحوذى: ٤٥٠/٩ والنسائي: ٤٤/٣ وابن خزيمة: ١/٣٥١ وابن حبان: ٣٠٨/٣ (٢) أحمد: ١٩١/١ وهو حسن لغيره كما في تحقيق المسند (٣) الترمذي ٤٨٤ (٤) تحفة الأحوذى: ٧/١٥٢ فيه عبدالله بن محمد بن عقيل وثقه بعضهم وضعفه الأكترون قال ابن حجر: صدوق في حديثه لين ويقال تغير بآخره [تقريب] وعنه سفيان الثوري وهو مدلس لم يصرح. (٥) أحمد: ٣٠/٤ (٦) النسائي: ٤٤/٣ (١٢٨٤) إسناده ضعيف فيه سليمان مولى الحسن بن علي لم يوثقه غير ابن حبان وله شواهد بها يرتقي إلى درجة الحسن. (٧) أحمد: ٢٩/٤ فيه إسحاق بن كعب بن عجرة، قال الحافظ في التقريب: مجهول الحال، والحديث أخرجه النسائي والحاكم والطبراني وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي وجوده المؤلف (٨) مسلم: ٣٠٦/١ وأبو داود: ١٨٤/٢ وتحفة الأحوذى: ٦٠٨/٢ والنسائي: ٥٠/٣ (٩) أحمد: ٢٠١/١ (١٠) تحفة الأحوذى: ٥٣١/٩

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ثُمَّ اسْتَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ فَلَمْ يُدْخِلْهُ الْجَنَّةَ» ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(١). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ خَطِيءٌ طَرِيقَ الْجَنَّةِ^(٢).

[الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي ذَلِكَ]

فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ كُلَّمَا ذُكِرَ وَهُوَ مَذْهَبٌ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ الطَّحَاوِيُّ وَالْحَلِيمِيُّ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ تَجِبُ الصَّلَاةُ فِي الْمَجْلِسِ مَرَّةً وَاحِدَةً. ثُمَّ لَا تَجِبُ فِي بَقِيَّةِ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، بَلْ تُسْتَحَبُّ. كَمَا رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَيَّ نَبِيَّهُمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ، فَإِنْ شَاءَ عَذِبُهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»^(٣).

[مَوَاقِعُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ]

فَدَوَّرَ الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَمِنَهُ بَعْدَ النَّدَاءِ لِلصَّلَاةِ لِلْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذَّنًا فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيِ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيِ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ»^(٤). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٥).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مُحَمَّدٌ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْزِلْهُ الْمَقْعَدَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي». وَهَذَا إِسْنَادٌ لَا بَأْسَ بِهِ وَلَمْ يُخْرِجُوهُ^(٦).

[أَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ]

وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ شَفَاعَةَ مُحَمَّدٍ الْكُبْرَى، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ الْعُلْيَا، وَأَعْطِهِ سُؤْلَهُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، كَمَا آتَيْتَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ» إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ صَحِيحٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ لِلْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَيَّ

مُحَمَّدٍ وَسَلِّمَ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ» وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَسَلِّمَ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»^(٧).

وَمِنْ ذَلِكَ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْجَنَازَةِ، فَإِنَّ السُّنَّةَ أَنْ يَقْرَأَ فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي الثَّلَاثَةِ يَدْعُو لِمَيِّتٍ، وَفِي الرَّابِعَةِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تَفْتِنْنَا بَعْدَهُ.

رَوَى الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ السُّنَّةَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ أَنْ يُكَبِّرَ الْإِمَامُ، ثُمَّ يَقْرَأُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ بَعْدَ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى سِرًّا فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ يُصَلِّيَ عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُخْلِصُ الدُّعَاءَ لِلْجَنَازَةِ، وَفِي التَّكْبِيرَاتِ لَا يَقْرَأُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، ثُمَّ يُسَلِّمُ سِرًّا فِي نَفْسِهِ^(٨). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ نَفْسِهِ أَنَّهُ قَالَ مِنَ السُّنَّةِ... فَذَكَرَهُ^(٩). وَهَذَا مِنَ الصَّحَابِيِّ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ عَلَى الصَّحِيحِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ حَتْمُ الدُّعَاءِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: الدُّعَاءُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَيَّ نَبِيِّكَ^(١٠). وَرَوَاهُ مُعَاذُ بْنُ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي قُرَّةَ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ عُمَرَ مَرْفُوعًا^(١١).

وَمِنْ أَكْدِ ذَلِكَ دُعَاءُ الْقُنُوتِ، لِمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ وَابْنُ خُرَيْمَةَ وَابْنُ جِبَّانَ وَالْحَاكِمُ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوُتْرِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَفِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعْزُ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ». وَزَادَ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ بَعْدَ هَذَا

(١) تحفة الأحوذى: ١٥٣/٩ (٢) ابن ماجه: ٩٠٨ (٣) الترمذى: ٣٣٨٠ (٤) أحمد: ١٦٨/٢ (٥) مسلم: ٢٨٨/١ وأبو داود: ٣٥٩/١ وتحفة الأحوذى: ٨٣/١ والنسائي: ٢٥/٢ (٦) مسند أحمد: ١٠٨/٤ إسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة وهو ضعيف لا اختلاطه، ووفاء الحضرمي مقبول (تقريب) (٧) أحمد: ٢٨٢/٦ فيه لبيث بن أبي سليم صدوق اختلف جدًا ولم يتميز حديثه فترك، ويغني عنه حديث مسلم ٧١٣ (٨) مسند الشافعي: ٢١٠ (٩) النسائي: ٧٥/٤ (١٠) تحفة الأحوذى: ٦١٠/٢ (١١) تخریج الکشف لابن حجر: ص ١٣٧

«وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ»^(١).

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الْإِكْتِنَارُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النُّفُخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ تُعْرَضُ عَلَيْكَ صَلَاتُنَا وَقَدْ أَرَمْتَ؟ - يَعْنِي وَقَدْ بَلَيْتَ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْأَرْضَ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ جِبَانَ وَالدَّارِقُطْنِيُّ وَالتَّوَوِيُّ فِي الْأَذْكَارِ^(٣). وَعَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَأْكُلُ النَّارُ جَسَدَ مَنْ كَلَّمَهُ رُوحُ الْقُدْسِ» مُرْسَلٌ حَسَنٌ.

[تَبْلِيغُ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ ﷺ عَنْ أَيِّ مَكَانٍ مِنْ أُمَّتِهِ]

عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَأْتِي كُلَّ غَدَاةٍ فَيُزِيرُ قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ وَيُصَلِّي عَلَيْهِ، وَيَصْنَعُ مِنْ ذَلِكَ مَا اسْتَهْرَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: أَحَبُّ السَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: هَلْ لَكَ أَنْ أُحَدِّثَكَ حَدِيثًا عَنْ أَبِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: أَخْبِرْنِي أَبِي عَنْ جَدِّي أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَسَتَبْلُغُنِي صَلَاتُكُمْ وَسَلَامُكُمْ». فِي إِسْنَادِهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ لَمْ يُسَمَّ. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ مُرْسَلًا. وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَتَنَابُ الْقَبْرَ فَقَالَ: يَا هَذَا، مَا أَنْتَ وَرَجُلٌ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْهُ إِلَّا سَوَاءٌ، أَيُّ الْجَمِيعِ يَبْلُغُهُ، صَلَّوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ، يُبْلِغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»^(٤). وَرَوَى الْقَاضِي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِذَا قَدِمْتُمْ فَطُوفُوا بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلُّوا عِنْدَ الْمَقَامِ رُغْبَتَيْنِ، ثُمَّ اثْبُتُوا الصَّفَا فَقُومُوا عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ تَرَوْنَ الْبَيْتَ، فَكَبِّرُوا سَبْعَ تَكْبِيرَاتٍ، تَكْبِيرًا بَيْنَ حَمْدِ اللَّهِ وَتَنَاءٍ عَلَيْهِ وَصَلَاةٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَمَسْأَلَةٍ لِنَفْسِكَ،

وَعَلَى الْمَرْوَةِ مِثْلَ ذَلِكَ». إِسْنَادٌ جَيِّدٌ حَسَنٌ قَوِيٌّ.

وَقَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: لَا يَجُوزُ إِفْرَادُ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ بِالصَّلَاةِ، لِأَنَّ هَذَا قَدْ صَارَ شِعَارًا لِلْأَنْبِيَاءِ إِذَا ذُكِرُوا، فَلَا يُلْحَقُ بِهِمْ غَيْرُهُمْ، فَلَا يُقَالُ: «قَالَ أَبُو بَكْرٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ». أَوْ «قَالَ عَلِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ». وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى صَحِيحًا، كَمَا لَا يُقَالُ: «قَالَ مُحَمَّدٌ عَزَّ وَجَلَّ»، وَإِنْ كَانَ عَزِيمًا جَلِيلًا، لِأَنَّ هَذَا مِنْ شِعَارِ ذِكْرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَحَمَلُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ عَلَى الدُّعَاءِ لَهُمْ. وَلِهَذَا لَمْ يَثْبُتْ شِعَارًا لِأَبِي أَوْفَى، وَلَا لِجَابِرٍ وَأَمْرَأَتِهِ. وَهَذَا مُسَلِّكٌ حَسَنٌ.

وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو زَكَرِيَّا التَّوَوِيُّ فِي كِتَابِ الْأَذْكَارِ: «وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ كَرَاهَةٌ تَنْزِيهًا، لِأَنَّهُ شِعَارُ أَهْلِ الْبَدْعِ، وَقَدْ نَهَيْتَنَا عَنْ شِعَارِهِمْ، وَالْمَكْرُوهُ: هُوَ مَا وَرَدَ فِيهِ نَهْيٌ مُقْصُودٌ. وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ بَرْقَانَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَجِمَهُ اللَّهُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَنَا سَأَلْتُ مِنَ النَّاسِ قَدِ التَّمَسُّوا الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَإِنَّ نَاسًا مِنَ الْفُضَّاصِ قَدْ أَحَدَّثُوا فِي الصَّلَاةِ عَلَى خُلَفَائِهِمْ وَأَمْرَائِهِمْ عِدْلَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَمُرَّهُمْ أَنْ تَكُونَ صَلَاتُهُمْ عَلَى النَّبِيِّينَ وَدُعَاؤُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، وَدَعَاؤُهُمْ مَا سِوَى ذَلِكَ». أَتْرَحَسَنُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٥) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَسَبُوا فَتَعَذَّبْنَا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا شَيْبَانُ ﴿٥٨﴾

[مَنْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَهُوَ مُلْعُونٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] يَقُولُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا مَنْ آذَاهُ بِمُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَارْتِكَابِ زَوَاجِرِهِ، وَإِضْرَارِهِ عَلَى ذَلِكَ، وَإِبْدَاءِ رَسُولِهِ بِعَيْبٍ أَوْ بِتَقْصِيرٍ - عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نَزَلَتْ فِي الْمُصَوِّرِينَ^(٥). وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ،

(١) أحمد: ١/١٩٩ وأبو داود: ١٣٣/٢ وتحفة الأحوذى: ٢/٥٦٢ والنسائي: ٣/٢٤٨ وابن ماجه: ١/٣٧٢ وابن خزيمة: ٢/١٥١ وابن حبان: ٢/١٤٨ والحاكم: ٣/١٧٢ (٢) أحمد: ٤/٨ (٣) أبو داود: ١/٦٣٥ والنسائي: ٣/٩١ وابن ماجه: ١/٥٢٤ وابن خزيمة: ٣/١١٨ وابن حبان: ٢/١٣٢ والنووي: ٩٧ (٤) مسند أحمد: ١/٤٤١ (٥) الطبري: ٢٠/٣٢٢

سورة الأحزاب

٤٢٧

سورة الأحزاب

يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ أَقْلَبُ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ^(١). وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يَسُبُّونَ: يَا حَيَّةَ الدَّهْرِ! فَعَلَّ بِنَا كَذَا وَكَذَا، فَيَسْتَدُونَ أَفْعَالَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الدَّهْرِ وَيَسُبُّونَهُ، وَإِنَّمَا الْفَاعِلُ لِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ طَعَنُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي تَرْوِيحِهِ صَفِيَّةَ بِنْتِ حَيِّ بْنِ أَخْطَبٍ^(٢). وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ آذَاهُ بِشَيْءٍ. وَمَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَى اللَّهُ كَمَا أَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.

[الْوَعِيدُ لِلْمُفْتَرِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أَي يَسُبُّونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بِرَاءٍ مِنْهُ، لَمْ يَعْمَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا﴾ وَهَذَا هُوَ الْبُهْتُ الْكَبِيرُ أَنْ يُحْكَى أَوْ يُنْقَلُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ، عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّنْقِصِ لَهُمْ، وَمِنْ أَكْثَرِ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْكُفْرَةُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ الرَّافِضَةُ الَّذِينَ يَنْتَقِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَعْبُونَهُمْ بِمَا قَدْ بَرَّاهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، وَيَصِفُونَهُمْ بِبَقِيضِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَدَحَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ الْأَعْيَاءُ يَسُبُّونَهُمْ وَيَنْتَقِضُونَهُمْ وَيَذْكُرُونَ عَنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ، وَلَا فَعَلُوهُ أَبَدًا، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ [مَنْكُوسُوا] الْقُلُوبِ: يَذْمُونَ الْمَمْدُوحِينَ وَيَمْدَحُونَ الْمَذْمُومِينَ.

يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ أَقْلَبُ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ^(١). وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يَسُبُّونَ: يَا حَيَّةَ الدَّهْرِ! فَعَلَّ بِنَا كَذَا وَكَذَا، فَيَسْتَدُونَ أَفْعَالَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الدَّهْرِ وَيَسُبُّونَهُ، وَإِنَّمَا الْفَاعِلُ لِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ طَعَنُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي تَرْوِيحِهِ صَفِيَّةَ بِنْتِ حَيِّ بْنِ أَخْطَبٍ^(٢). وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ آذَاهُ بِشَيْءٍ. وَمَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَى اللَّهُ كَمَا أَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.

[الْوَعِيدُ لِلْمُفْتَرِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أَي يَسُبُّونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بِرَاءٍ مِنْهُ، لَمْ يَعْمَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا﴾ وَهَذَا هُوَ الْبُهْتُ الْكَبِيرُ أَنْ يُحْكَى أَوْ يُنْقَلُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ، عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّنْقِصِ لَهُمْ، وَمِنْ أَكْثَرِ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْكُفْرَةُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ الرَّافِضَةُ الَّذِينَ يَنْتَقِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَعْبُونَهُمْ بِمَا قَدْ بَرَّاهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، وَيَصِفُونَهُمْ بِبَقِيضِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَدَحَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ الْأَعْيَاءُ يَسُبُّونَهُمْ وَيَنْتَقِضُونَهُمْ وَيَذْكُرُونَ عَنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ، وَلَا فَعَلُوهُ أَبَدًا، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ [مَنْكُوسُوا] الْقُلُوبِ: يَذْمُونَ الْمَمْدُوحِينَ وَيَمْدَحُونَ الْمَذْمُومِينَ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْغَيْبَةُ؟ قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٤).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَأُزْجِكَ وَبَنَاتِكَ وَيَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يَدِينَنَ عَلَيْنَ مِنْ جَلِيلِيهِنَّ ذَلِكَ أَدُلُّهُ أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا^(٥)﴾ لَيْنَ لَمْ يَنْتَهَ الْمُنْتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَتُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا^(٦) مَلْعُونِينَ أَيْمَانًا نَقُفُوا أُخْذُوا وَقُتِلُوا تَقْنِيلًا^(٦) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

تَبْدِيلًا^(٦)

[الْأَمْرُ بِالْحِجَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَسْلِيمًا أَنْ يَأْمُرَ النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ - خَاصَّةً أَزْوَاجَهُ وَبَنَاتَهُ لِشَرَفِهِنَّ - بِأَنْ يُدْنِينَ عَلَنَهُنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ، لِتَمَيِّزَنَ عَنْ سِمَاتِ نِسَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَسِمَاتِ الْإِمَاءِ. وَالْجِلْبَابُ: هُوَ الرِّدَاءُ فَوْقَ الْخِمَارِ، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَعَبِيدَةُ وَقَتَادَةُ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمُ التَّخَعِيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَعَبَّرَ وَاحِدٌ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْإِزَارِ الْيَوْمَ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْجِلْبَابُ؛ الْمَلْحَقَةُ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَمَرَ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا خَرَجْنَ مِنْ بَيْوتِهِنَّ فِي حَاجَةٍ، أَنْ يُعْطِينَ وَجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِنَّ بِالْجِلْبَابِ وَيُدْنِينَ عَيْنَا وَاحِدَةً^(٥). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: سَأَلْتُ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيَّ

(١) فتح الباري: ٤٣٧/٨ ومسلم: ١٧٦٢/٤ (٢) الطبري:

٢٢٣/٢٠ العوفي ضعيف كما مر مرارًا (٣) أبو داود: ١٩٢/٥

(٤) تحفة الأحوذى: ٦٣/٦ (٥) الطبري: ٢٠٤/٢٠

عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَذَرِكْ عَلَيْكَ مِنَ جَلْبِيهِنَّ؟﴾ فَغَطَّى وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ وَأَبْرَزَ عَيْنَهُ الْمُسْرَى^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ أَذَقَ أَنْ يُصْرَفْنَ فَلَا يُؤَدِّنَنَّ﴾ أَي إِذَا فَعَلْنَ ذَلِكَ غُرِفْنَ أَنَّهُنَّ حَرَائِرٌ، لَسْنَ بِإِمَاءٍ وَلَا عَوَاهِرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَي: لِمَا سَلَفَ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِذَلِكَ.

[الْتَنِيهِ وَالتَّهْدِيدُ لِلْمُنَافِقِينَ الْأَشْرَارِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْمُنَافِقِينَ وَهُمْ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قَالَ عِكْرَمَةُ وَعَبْرُهُ: هُمُ الرُّنَاةُ ههنا^(٢). ﴿وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ يَقُولُونَ جَاءَ الْأَعْدَاءُ وَجَاءَتِ الْحُرُوبُ. وَهُوَ كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ. لَئِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ ذَلِكَ وَيَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَي: لَنَسْلُطَنَّكَ عَلَيْهِمْ^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: لَنُحْرَسَنَّكَ بِهِمْ^(٤). وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَنُعَلِّمَنَّكَ بِهِمْ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أَي: فِي الْمَدِينَةِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿مَلْعُونِينَ﴾ حَالٌ مِنْهُمْ فِي مَدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ مَدَّةً قَرِيبَةً، مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ ﴿أَيْنَمَا تُفْتَمُوا﴾ أَي: وَجِدُوا ﴿أُحْذَرُوا﴾ لِذَلِيلِهِمْ وَقَلْبِهِمْ وَتَقِيلاً.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ، إِذَا تَمَرَّدُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ، أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يُسْلُطُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقْهَرُونَهُمْ ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أَي: وَسُنَّةَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُعَيَّرُ.

﴿يَسْأَلُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أٰبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٥﴾ يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرٰنَنَا فَاصْلُبْنَا السَّبِيحَ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ ضَعْفَتَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَّا لَعْنَا كَبِيرًا ﴿١٨﴾

[لَا يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِالسَّاعَةِ وَإِنْ سَأَلَهُ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَرْشَدَهُ أَنْ يَزِدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ وَهَذِهِ مَدِينِيَّةٌ، فَاسْتَمَرَ الْحَالُ فِي رَدِّ

عِلْمِهَا إِلَى الَّذِي يُقِيمُهَا لَكِنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتَرَبَّ السَّاعَةَ وَالنَّشَقَ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وَقَالَ: ﴿أَفَتَرَبَّ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] وَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَأْمُرُ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

[لَعْنُ الْكٰفِرِ وَخُلُودُهُمْ فِي النَّارِ وَحَسْرَتُهُمْ]

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ﴾ أَي: أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِي ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أَي: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿خٰلِدِينَ فِيهَا أٰبَدًا﴾ أَي: مَا كَثِيرِينَ مُسْتَمْرِرِينَ فَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَهُمْ عَنْهَا ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أَي: وَلَيْسَ لَهُمْ مُعِيَتْ وَلَا مُعِينٌ يُفْقَدُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَوْمَ تُقْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أَي: يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَتَلْوَى وَجُوهُهُمْ عَلَى جِهَتِهِمْ، يَقُولُونَ وَهُمْ كَذَلِكَ يَتَمَنُّونَ: أَنْ لَوْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِمَّنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَطَاعَ الرَّسُولَ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي حَالِ الْعَرَصَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَعْصُرُ الظَّلْمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٧﴾ يَقُولُ لَيْتَنِي لَوْ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلْإِنْسٰنِ خَدُوْلًا ﴿٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رُبَّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] وَهَكَذَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالَتِهِمْ هَذِهِ أَنَّهُمْ يُوَدُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا اللَّهَ وَأَطَاعُوا الرَّسُولَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرٰنَنَا فَاصْلُبْنَا السَّبِيحَ﴾. وَقَالَ طَاوُسٌ: ﴿سَادَتَنَا﴾ يَعْنِي الْأَشْرَافَ، ﴿وَكِبْرٰنَنَا﴾ يَعْنِي الْعُلَمَاءَ. ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ ضَعْفَتَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أَي: بِكُفْرِهِمْ وَإِعْوَابِهِمْ إِنَّا نَا.

وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ أَبِي رَافِعٍ فِي تَسْمِيَةِ مَنْ شَهِدَ مَعَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْحَجَّاجُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَزْرَةَ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقُولُ عِنْدَ اللَّقَاءِ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا لِرَبَّنَا إِذَا لَقِينَا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرٰنَنَا فَاصْلُبْنَا السَّبِيحَ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ ضَعْفَتَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَّا لَعْنَا كَبِيرًا ﴿٥﴾.

(١) الطبري: ٣٢٥/٢٠ (٢) الطبري: ٣٢٦/٢٠ (٣) الطبري:

٣٢٨/٢٠ (٤) الطبري: ٣٢٨/٢٠ (٥) المعجم الكبير

للطبراني: ٢٢٣/٣

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكَفُّوا كَالَّذِينَ إِذَا دُؤِبُوا مَوَسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (٦٩)
[افترَاء اليهود على موسى]

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَيِّرًا لَا يُرَىٰ مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءَ مِنْهُ، فَآذَاهُ مِنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَنْتَسِرُ هَذَا التَّنَسُّرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ فِي جِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُذْرَةٌ، وَإِمَّا آفَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَىٰ حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَّغَ أَقْبَلَ إِلَىٰ ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِتَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَىٰ عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: تَوْبِي حَجْرٌ، تَوْبِي حَجْرٌ! حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مِثْلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجْرُ، فَأَخَذَ تَوْبَهُ فَلَبَسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْضَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنْ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا - قَالَ: - فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكَفُّوا كَالَّذِينَ إِذَا دُؤِبُوا مَوَسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (١). وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَفْرَادِ الْبُخَارِيِّ دُونَ مُسْلِمٍ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - أَبِي: ابْنِ مَسْعُودٍ - قَالَ: فَسَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ قَسَمًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ! أَمَا لِأَخِيرِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا قُلْتُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ: «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَىٰ مُوسَىٰ، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا، فَصَبَرَ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: له وجهه وجهه عند ربه عز وجل. قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله (٣). وقال بعضهم: من وجهه العظيمة عند الله: أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه فأجاب الله سؤاله فقال: ﴿ووهبنا له من رحمنا أخاه هرون نبيًا﴾ [مريم: ٥٣].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَعُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)

[أمر المؤمنين بالتقوى والصدق]

يَقُولُ تَعَالَىٰ آمِرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَأَنْ يَعْبُدُوهُ عِبَادَةً مِنْ كَأَنَّهُ بَرَاهُ وَأَنْ يَقُولُوا ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠): مُسْتَقِيمًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ. وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَابَهُمْ عَلَيْهِ: بِأَنْ يُصْلِحَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ - أَي: يُوقِفَهُمْ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ - وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ الذُّنُوبَ الْمَاضِيَةَ. وَمَا قَدْ بَقِيَ مِنْهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يُلْهِمُهُمُ التَّوْبَةَ مِنْهَا ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ يُجَارُ مِنْ نَارِ الْحَجِيمِ وَيَصِيرُ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧١)
لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٢)

[حمل الإنسان الأمانة]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِالْأَمَانَةِ الطَّاعَةَ. وَعَرَضَهَا عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يَعْرضَهَا عَلَى آدَمَ فَلَمْ يُطِيعَهَا، فَقَالَ لِآدَمَ: إِنِّي قَدْ عَرَضْتُ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَلَمْ يُطِيعَهَا، فَهَلْ أَنْتَ آخِذٌ بِمَا فِيهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ! وَمَا فِيهَا؟ قَالَ: إِنَّ أَحْسَنَتْ جُرْبَتِي، وَإِنْ أَسَأَتْ عُوقِبْتُ. فَأَخَذَهَا آدَمُ فَتَحَمَّلَهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٤). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَمَانَةُ: الْفَرَائِضُ، عَرَضَهَا اللَّهُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ. إِنْ آدَوْهَا أَنَابَهُمْ وَإِنْ ضَيَعُوهَا عَذَّبَهُمْ فَكَرَهُوا ذَلِكَ، وَأَشْفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَلَكِنْ تَعْظِيمًا لِدِينِ اللَّهِ أَنْ لَا يَقُومُوا بِهَا، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ فَحَمَّلَهَا بِمَا فِيهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يَعْنِي غَرًّا بِأَمْرِ اللَّهِ (٥).

وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض (٦). وقال آخرون: هي الطاعة. وقال الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: قال أبيُّ بن كعب: مِنَ الْأَمَانَةِ أَنَّ الْمَرْأَةَ أُؤْتِمِنَتْ عَلَى فَرْجِهَا (٧). وَقَالَ قَتَادَةُ: الْأَمَانَةُ: الدِّينُ

(١) فتح الباري: ٥٠٢/٦ (٢) أحمد: ٣٨٠/١ والبخاري: ٣٤٠٥

ومسلم: ١٠٦٢ (٣) البغوي: ٥٤٥/٣ (٤) الطبري: ٣٣٨/٢٠

العوفي تقدم حكمه مرارًا (٥) الطبري: ٣٣٧/٢٠

(٦) الطبري: ٣٣٧/٢٠ (٧) الطبري: ٣٣٨/٢٠

بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْزَابِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
 الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ
 مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ
 الْغَفُورُ ﴿٢﴾

[الْحَمْدُ وَعِلْمُ الْغَيْبِ لِلَّهِ فَقَطْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ لَهُ الْحَمْدَ الْمُطْلَقَ فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ، الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ، الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ،
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
 وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْمُلْكُ وَلِلَّهِ تَرْجُوعُونَ﴾ [الفصص: ٧٠] وَلِهَذَا قَالَ
 تَعَالَى هَهُنَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ﴾ أَي: الْجَمِيعُ مِلْكُهُ وَعَبِيدُهُ، وَتَحَتَ تَصَرُّفِهِ
 وَفَهْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا لَنَا لَلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣]،
 ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ فَهُوَ الْمَعْبُودُ
 أَبَدًا، الْمَحْمُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْخَبِيرُ﴾ أَي: فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ
 وَشَرَعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿الْخَبِيرُ﴾ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ وَلَا
 يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ. وَقَالَ مَالِكٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ: خَبِيرٌ بِخَلْقِهِ،
 حَكِيمٌ بِأَمْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
 وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أَي: يَعْلَمُ عَدَدَ الْقَطْرِ النَّازِلِ فِي أَجْزَاءِ
 الْأَرْضِ، وَالْحَبَّ الْمُبْدُورَ، وَالْكَامِينَ فِيهَا، وَيَعْلَمُ مَا
 يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ عَدَدَهُ وَكَيْفِيَّتَهُ وَصِفَاتِهِ ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
 السَّمَاءِ﴾ أَي: مِنْ قَطْرِ وَرِزْقٍ ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أَي: مِنْ
 الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَعَبْرٍ ذَلِكَ، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أَي:
 الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ، فَلَا يُعَاجِلُ عُصَاتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ، الْغَفُورُ عَنْ

وَالْفَرَائِضِ وَالْحُدُودِ^(١). وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ
 قَالَ: الْأَمَانَةُ ثَلَاثَةٌ: الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالْإِعْتِسَالُ مِنَ
 الْجَنَابَةِ .

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا تَنَافِيَّ بَيْنَهَا، بَلْ هِيَ مُتَّفِقَةٌ وَرَاجِعَةٌ
 إِلَى أَنَّهَا: التَّكْلِيفُ، وَقَبُولُ الْأَوَامِرِ وَالتَّوَاهِي بِشَرْطِهَا،
 وَهُوَ أَنَّهُ إِنْ قَامَ بِذَلِكَ أُتِيبَ وَإِنْ تَرَكَهَا عُوقِبَ، فَحَقِيلُهَا
 الْإِنْسَانُ عَلَى ضَعْفِهِ وَجَهْلِهِ وَظُلْمِهِ، إِلَّا مَنْ وَفَّقَ اللَّهُ، وَبِاللَّهِ
 الْمُسْتَعَانُ .

وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْأَمَانَةِ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ
 عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا: أَنَّ
 الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ
 فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ. ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفَعِ
 الْأَمَانَةَ فَقَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ،
 فَيَطَّلُ أَثَرُهَا مِثْلُ أَثَرِ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَخَرْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ،
 تَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ - قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ حَصَى فَدَخَرَجَهُ
 عَلَى رِجْلِهِ قَالَ -: فَيُضْحِكُ النَّاسُ يَبْتَاعُونَ لَا يَكَادُ أَحَدٌ
 يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يُفَالَ: إِنْ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا،
 حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجَلَدُهُ وَأَطْرَفُهُ وَأَعْقَلُهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ
 حَبَّةٌ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ
 بَايَعْتُ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا لِيُرِدَّنِي عَلَيَّ دِينَهُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ
 يَهُودِيًّا لِيُرِدَّنِي عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ مِنْكُمْ
 إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا^(٢). وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ
 الْأَعْمَشِ بِهِ^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا
 عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَتِهِ، وَصِدْقُ حَدِيثِهِ،
 وَحَسَنُ خَلِيقَتِهِ، وَعِفَّةُ طُعْمَتِهِ»^(٤).

[نَتِيجَةُ حَمْلِ الْأَمَانَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
 وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أَي: إِنَّمَا حُمِلَ بَنِي آدَمَ الْأَمَانَةُ وَهِيَ:
 التَّكَالِيفُ، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَهُمْ
 الَّذِينَ يَظْهَرُونَ الْإِيْمَانَ خَوْفًا مِنْ أَهْلِهِ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ مُتَابِعَةً
 لِأَهْلِهِ ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ ظَاهَرَهُمْ وَبَاطَنَهُمْ
 عَلَى الشَّرْكِ بِاللَّهِ، وَمُخَالَفَةَ رُسُلِهِ ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَي: وَيَرْحَمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) الطبري: ٢٠/٢٣٩ (٢) أحمد: ٥/٣٨٣ فيه ابن لهيعة (٣)
 فتح الباري: ١١/٣٤١ ومسلم: ١/١٢٦ (٤) أحمد: ٢/١٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢٨

سُبْحَانَ رَبِّيَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقٍ إِنَّا لَمَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

ذُنُوبِ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ، الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
 ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾
 ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾
 ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾

الحَمِيدِ ﴿٦﴾

[إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيَّةٌ لِّيُجْزَىٰ كُلُّ حَسَبٍ عَمَلِهِ]

هَذِهِ إِحْدَى الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي لَا رَابِعَ لَهُنَّ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقَسِّمَ بِرَبِّهِ الْعَظِيمِ عَلَىٰ وَفُوعِ الْمَعَادِ، لَمَّا أَنْكَرَهُ مِنْ أَنْكَرِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ: فَأِخْدَاهُنَّ فِي سُورَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وَالثَّانِيَةُ هَذِهِ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وَالثَّلَاثَةُ فِي سُورَةِ التَّغَابُنِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَن يُعَذِّبَهُنَّ اللَّهُ وَرَبِّي لَتُعَذِّبُنَّهُنَّ لَيُبَدِّلَنَّهُنَّ مَكَامَهُنَّ أَلْوَنًا وَأَلْوَنًا﴾ [التغابن: ٧٠] فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثُمَّ وَصَفَهُ بِمَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ وَيُقَرِّرُهُ، فَقَالَ: ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لَا يَغِيبُ عَنْهُ^(١). أَيْ: الْجَمِيعُ مُنْدَرَجٌ تَحْتَ عِلْمِهِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَالْعِظَامُ وَإِنْ تَلَاشَتْ وَتَفَرَّقَتْ وَتَمَرَّقَتْ، فَهُوَ عَالِمٌ أَيْنَ ذَهَبَتْ، وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ، ثُمَّ يَعِيدُهَا كَمَا بَدَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَإِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ثُمَّ بَيَّنَّ حِكْمَتَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ وَوَقَامِ السَّاعَةِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٢) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ﴾ أَيْ: سَعَوْا فِي الصَّدْعِ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾ أَيْ: لِيُنْعِمَ السَّعْدَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيُعَذِّبَ الْأَشْقِيَاءَ مِنَ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَلَاحُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ هَذِهِ حِكْمَةٌ أُخْرَى مَعْطُوفَةٌ عَلَى التِّي قِيلَهَا، وَهِيَ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى الرَّسُولِ: إِذَا شَاهَدُوا قِيَامَ السَّاعَةِ وَمُجَازَاةَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، بِالَّذِي كَانُوا قَدْ عَلِمُوهُ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا، رَأَوْهُ حِينَئِذٍ عَيْنَ الْبَقِيَّةِ، وَيَقُولُونَ يُؤْمِنُونَ أَيضًا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣] يُقَالُ أَيضًا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ الْعَزِيزُ: هُوَ: الْمُنْتَعِبُ الْجَنَابِ الَّذِي لَا يُعَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ، بَلْ قَدْ فَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ وَعَلَبَهُ، ﴿الْحَمِيدُ﴾ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَسَمِعِهِ وَقَدْرِهِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ جَلَّ وَعَلَا.

(١) الطبري: ٢٠/٣٥٠

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُّرُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئِكُمْ إِذَا مُرِفْتُمْ كُلَّ مَمَرٍ لَكُمْ لِنِي خَلَقَ جَدِيدًا﴾ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأًا نَحْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقُطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ [إِنْكَارَ الْكُفَّارِ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَالرُّدَّ عَلَيْهِمْ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ اسْتِعَادِ الْكُفْرَةِ الْمُلْحِدِينَ قِيَامَ السَّاعَةِ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِالرَّسُولِ ﷺ فِي إِخْبَارِهِ بِذَلِكَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُّرُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئِكُمْ إِذَا مُرِفْتُمْ كُلَّ مَمَرٍ﴾ أَيُّ: تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ فِي الْأَرْضِ وَذَهَبَتْ فِيهَا كُلُّ مَذْهَبٍ وَتَمَرَّقَتْ كُلُّ مَمَرٍ ﴿إِنَّكُمْ﴾ أَيُّ: بَعْدَ هَذَا الْحَالِ ﴿لِنِي خَلَقَ جَدِيدًا﴾ أَيُّ: تَعُودُونَ أَحْيَاءَ تُرْزَقُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهُوَ فِي هَذَا الْإِخْبَارِ لَا يَخْلُو أَمْرُهُ مِنْ قِسْمِينَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ تَعَمَّدَ الْإِفْتِرَاءَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنَّهُ قَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْهِ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ، لَكِنْ لُبَسَ عَلَيْهِ كَمَا يُلْبَسُ عَلَى الْمَعْتُوهِ وَالْمَجْنُونِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَادًّا عَلَيْهِمْ ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أَيُّ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَلَا كَمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، بَلِ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الصَّادِقُ الْبَارُ الرَّاشِدُ، الَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ، وَهُمْ الْكاذِبَةُ الْجَهْلَةُ الْأَعْيَاءُ ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ أَيُّ: الْكُفْرِ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَىٰ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ مِنَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُنْبِئًا لَهُمْ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ: حَيْثُمَا تَوَجَّهُوا وَذَهَبُوا، فَالسَّمَاءُ مُظَلَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَالْأَرْضُ تَحْتَهُمْ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِآبِيَابٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَعَمَّ الْمَهْدُونَ ﴿[الذاريات: ٤٧، ٤٨].

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِن نَسْأًا نَحْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقُطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: لَوْ شِئْنَا لَفَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ بِظُلْمِهِمْ وَقُدْرَتِنَا عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ نُوَخِّرُ ذَلِكَ لِجِلْمِنَا وَعَفْوِنَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ قَالَ مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿مُنِيبٌ﴾ تَائِبٌ ^(١). وَقَالَ سُفْيَانٌ عَنْ قَتَادَةَ: الْمُنِيبُ الْمُقْبِلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ ^(٢). أَيُّ: إِنَّ فِي النَّظَرِ إِلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِدَلَالَةٍ لِكُلِّ عَبْدٍ فَطِنٍ لِيَسِبَ رَجَاعًا إِلَىٰ

أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأًا نَحْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقُطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِيَّ مَعَهُ، وَالطَّيْرَ وَأَننَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ﴿١٠﴾ أَن أَعْمَلَ سَبِغَتْ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صِلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَاسْلَمِنَ الرِّيحُ غُدُوها شَهْرٌ وَوَحْشًا شَهْرٌ وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ذُقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورِ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تِينَتِ الْجِنِّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

اللَّهُ، عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَى بَعَثِ الْأَجْسَادِ وَوُقُوعِ الْمَعَادِ، لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَهَذِهِ الْأَرْضِينَ فِي انْخِفَاضِهَا، وَأَطْوَالِهَا وَأَعْرَاضِهَا: إِنَّهُ لَقَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ وَنَشْرِ الرِّيمِ مِنَ الْعِظَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْبَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِيَّ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَننَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ﴿١٠﴾ أَيْ أَعْمَلَ سَبِغَتْ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صِلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ [بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى دَاوُدَ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِمَّا آتَاهُ مِنَ الْفَضْلِ الْمُبِينِ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ

(١) عبد الرزاق: ١٢٦/٣ (٢) الطبري: ٣٥٦/٢٠

[فَضَّلَ اللَّهُ عَلَى سُلَيْمَانَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى دَاوُدَ، عَطَفَ بِذِكْرِ مَا أَعْطَى ابْنَهُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ لَهُ: تَحْوِيلُ بِسَاطِهِ غَدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانَ يَغْدُو عَلَى بِسَاطِهِ مِنْ دِمَشْقَ، فَيَنْزِلُ بِإِصْطِخْرٍ يَتَغَدَى بِهَا، وَيَذْهَبُ رَائِحًا مِنْ إِصْطِخْرٍ فَيَبِيتُ بِكَابِلٍ^(٧). وَبَيْنَ دِمَشْقَ وَإِصْطِخْرَ شَهْرٌ كَامِلٌ لِلْمُسْرِعِ، وَبَيْنَ إِصْطِخْرَ وَكَابِلَ شَهْرٌ كَامِلٌ لِلْمُسْرِعِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَعَبْدُ وَاحِدٍ: الْقِطْرُ: النَّحَاسُ^(٨). قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَتْ بِالْيَمَنِ^(٩). فَكُلُّ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ مِمَّا أُخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُادِنُ رَبَّهُ﴾ أَي: وَسَخَرْنَا لَهُ الْجِنَّ يَعْمَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ يُادِنُ رَبَّهُ. أَي: بِقَدْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ لَهُمْ بِمَشِيئَتِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ النَّبَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَمَن يَبِزْغِ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا﴾ أَي: وَمَن يَعْدِلُ وَيَخْرُجُ مِنْهُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وَهُوَ الْحَرِيقُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ﴾ أَمَّا الْمَحْرِبُ فِيهِ الْبِنَاءُ الْحَسَنُ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَيْءٍ فِي الْمَسْكَنِ وَصَدْرُهُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هِيَ الْمَسَاكِينُ^(١٠). وَأَمَّا التَّمَثِيلُ، فَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: التَّمَثِيلُ: الصُّورُ^(١١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَفَانِ كَلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ الْجَوَابُ جَمْعُ جَابِيَةٍ، وَهِيَ الْحَوْضُ الَّذِي يُجْبَى فِيهِ الْمَاءُ. وَالْقُدُورُ الرَّاسِيَاتُ: أَي: الثَّابِتَاتُ فِي أَمَاكِينِهَا، لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَتَحَوَّلُ عَنْ أَمَاكِينِهَا لِعِظَمِهَا، كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمَا^(١٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أَي: وَقَلْنَا لَهُمْ: اْعْمَلُوا شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا. وَشُكْرًا مَصْدَرٌ

النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ الْمُتَمَكِّنِ، وَالْمُنُودِ ذَوِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ، وَمَا أَعْطَاهُ وَمَنَحَهُ مِنَ الصَّوْتِ الْعَظِيمِ، الَّذِي كَانَ إِذَا سَجَّ بِهِ تُسَجُّ مَعَهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ، الصَّمُّ الشَّامِخَاتُ، وَتَقَفَ لَهُ الطَّيْرُ السَّارِحَاتُ: وَالْعَادِيَاتُ، وَالرَّائِحَاتُ، وَتَجَاوَبُهُ بِأَنْوَاعِ اللُّغَاتِ. وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ صَوْتَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ، فَوَقَفَ فَاسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِرْمَارًا مِنْ مَرَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»^(١٣). وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ التَّهْدِيُّ: مَا سَمِعْتُ صَوْتَ صَنْجٍ وَلَا بَرَبِطٍ وَلَا وَتْرٍ أَحْسَنَ مِنْ صَوْتِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١٤). وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَبُو﴾ أَي: سَبَّحِي، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْدُ وَاحِدٍ^(١٥). وَالتَّأْوِيبُ فِي اللُّغَةِ هُوَ التَّرْجِيعُ، فَأَمْرٌ مِنَ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ أَنْ تَرْجِعَ مَعَهُ بِأَصْوَاتِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَالْأَعْمَشُ وَغَيْرُهُمْ: كَانَ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُدْخِلَهُ نَارًا وَلَا يَضْرِبُهُ بِمِطْرَقَةٍ، بَلْ كَانَ يَفْتَلُهُ بِيَدِهِ مِثْلَ الْخُبُوطِ^(١٦). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَن أَعْمَلَ سَدِغَتٍ﴾ وَهِيَ الدَّرُوعُ. قَالَ قَتَادَةُ: وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَهَا مِنَ الْحَلْقِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ صَفَائِحَ^(١٧). ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَعْلِيمِهِ صَنْعَةَ الدَّرُوعِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ لَا تُدِقُّ الْمَسْمَارَ فَيَتَلَقَّ فِي الْحَلْفَةِ، وَلَا تُعَاطَهُ فَيُخَصِّمَهَا وَاجْعَلُهُ بِقَدْرِ^(١٨). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: السَّرْدُ حَلْقُ الْحَدِيدِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُقَالُ: دَرَعٌ مَسْرُودَةٌ إِذَا كَانَتْ مَسْمُورَةَ الْحَلْقِ، وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا

دَاوُدُ أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغَ تَبَّعَ
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أَي: فِي الَّذِي أَعْطَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النِّعَمِ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَي: مُرَاقِبٌ لَكُمْ بِصِيرٍ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُادِنُ رَبَّهُ وَمَن يَبِزْغِ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(١٩) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانِ كَلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ اْعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورِ ﴿٢٠﴾

(١) مسلم: ٥٤٦/١ (٢) فضائل القرآن لأبي عبيد: ص ٧٩
(٣) الطبري: ٣٥٧/٢٠ (٤) الطبري: ٣٥٩/٢٠ (٥) الطبري: ٣٥٩/٢٠
(٦) الطبري: ٣٦١/٢٠ (٧) الطبري: ٣٦٢/٢٠ (٨)
الطبري: ٣٦٤، ٣٦٣/٢٠ (٩) الطبري: ٣٦٣/٢٠ (١٠)
الطبري: ٣٦٥/٢٠ (١١) الطبري: ٣٦٦/٢٠ (١٢) الطبري: ٣٦٧/٢٠

مِنْ غَيْرِ الْفِعْلِ، أَوْ أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ يَكُونُ بِالْفِعْلِ كَمَا يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفَادَتْكُمْ النُّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً

يَدِي وَلِسَانِي وَالصَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا
قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ [الْحَلِيلِيُّ]: الصَّلَاةُ شُكْرٌ، وَالصِّيَامُ شُكْرٌ، وَكُلُّ خَيْرٍ تَعْمَلُهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شُكْرٌ، وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ الْحَمْدُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ: كَانَ يَتَامُ يَصِفُ اللَّيْلَ، وَيَقُومُ ثَلَاثَةً، وَيَتَامُ سُدُسَهُ. وَأَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ: كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا. وَلَا يَبْرَأُ إِذَا لَاقَى»^(٢).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ فُضَيْلٍ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ قَالَ دَاوُدُ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَشْكُرُكَ وَالشُّكْرُ نِعْمَةٌ مِنْكَ؟ قَالَ: «الآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ النُّعْمَةَ مِنِّي»^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ.

﴿فَلَمَّا فَصَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْنَا عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

[وَفَاةُ سُلَيْمَانَ]

يَذْكُرُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ مَوْتِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَيْفَ عَمِيَ اللَّهُ مَوْتَهُ عَلَى الْجَانِّ الْمُسَخَّرِينَ لَهُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، فَإِنَّهُ مَكَتَ مَتَوَكَّنًا عَلَى عَصَاهُ، وَهِيَ مِئْسَأَتُهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٤)، مُدَّةً طَوِيلَةً نَحْوًا مِنْ سَنَةٍ، فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دَابَّةُ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْأَرْضُ، وَهِيَ الْأَرْضُ، ضَعُفَتْ وَسَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ. وَتَبَيَّنَتْ - الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَيْضًا - أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوَهِّمُونَ النَّاسَ ذَلِكَ. وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا دَلَّمْنَا عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ يَقُولُ: تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكْذِبُونَهُمْ.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورًا﴾^(٥)
فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٠

سُبْحَانَكَ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورًا
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ حَمْطٍ وَأُتْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَلِكَ جزيتهم بما كفروا وهل تجزي إلا الكفور ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةَ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِوَا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَأْتِيهِمْ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

أُكُلٍ حَمْطٍ وَأُتْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جزيتهم بما كفروا وهل تجزي إلا الكفور ﴿١٧﴾

[كُفْرَانُ سَبَأٍ وَعَذَابُهُمْ]

كَانَتْ سَبَأٌ مَمْلُوكٌ الْيَمَنِ وَأَهْلِهَا، وَكَانَتْ التَّبَاعَةُ مِنْهُمْ وَبَلْقَيْسُ صَاحِبَةُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ جُمَّلِيَّتِهِمْ، وَكَانُوا فِي نَعْمَةٍ وَغِنَطَةٍ فِي بِلَادِهِمْ وَعَيْشِهِمْ وَأَتْسَاعِ أَرْزَاقِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ، وَبَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَيَشْكُرُوهُ بِتَوْجِيهِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَكَانُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ أَعْرَضُوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ، فَعُوقِبُوا بِإِرْسَالِ السَّيْلِ وَالتَّفَرُّقِ فِي الْبِلَادِ أَيْدِي سَبَأٍ، شَدَرَ مَذَرَ. كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى تَفْصِيلُهُ وَبَيَّانُهُ قَرِيبًا، وَبِهِ الثَّقَةُ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ فَرُوقَةَ بْنِ مُسَيْكٍ الْغَطْفَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ

(١) الطبري: ٢٠/٣٦٩ (٢) فتح الباري: ٦/٥٢٥ مسلم: ٢/٨١٦ (٣) الدر المشهور: ٦/٦٨٠ (٤) الطبري: ٢٠/٣٧٠

عَنهُ:

إِنَّمَا سَأَلْتِ فَأَيُّ مَعْشَرَ نَجَبٍ

الْأَزْدُ نَسَبْتُنَا وَالْمَاءُ غَسَانُ

وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «وُلِدَ لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْعَرَبِ» أَي: كَانَ

مِنْ نَسْلِهِ هَؤُلَاءِ الْعَشْرَةُ الَّذِينَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَصُولُ الْقَبَائِلِ

مِنْ عَرَبِ الْيَمَنِ، لَا أَنَّهُمْ وُلِدُوا مِنْ ضَلْبِهِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ

بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ الْأَبْوَانُ وَالثَّلَاثَةُ، وَالْأَقْلُ وَالْأَكْثَرُ، كَمَا هُوَ مَقْرَّرٌ

مُبَيَّنٌ فِي مَوَاضِعِهِ مِنْ كُتُبِ النَّسَبِ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ:

«فَتَيَّامَنَ مِنْهُمْ سِبْئٌ وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ» أَي: بَعْدَ مَا أُرْسِلَ

اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ سَبَلُ الْعَرَمِ، مِنْهُمْ مَنْ أَقَامَ بِبِلَادِهِمْ،

وَمِنْهُمْ مَنْ نَزَحَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا.

[سَدُّ مَأْرَبٍ وَسَيْلُ الْعَرَمِ]

وَكَانَ مِنْ أَمْرِ السَّدِّ أَنَّهُ كَانَ الْمَاءُ يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْنِ

جَبَلَيْنِ، وَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَيْضًا سُيُولُ أَمْطَارِهِمْ وَأَوْدِيَّتِهِمْ،

فَعَمِدَ مُلُوكُهُمُ الْأَقَادِمُ، فَبَنَوْا بَيْنَهُمَا سَدًّا عَظِيمًا مُحْكَمًا،

حَتَّى ارْتَفَعَ الْمَاءُ وَحُكِمَ عَلَى حَافَاتِ ذَيْنِكَ الْجَبَلَيْنِ،

فَعَرَسُوا الْأَشْجَارَ وَاسْتَعْمَلُوا الثَّمَارَ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ

الْكَثْرَةِ وَالْحُسْنِ، كَمَا ذَكَرَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ - مِنْهُمْ

فَتَادَةُ - : أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَمْشِي تَحْتَ الْأَشْجَارِ، وَعَلَى

رَأْسِهَا مِكَتَلٌ أَوْ زَنْبِيلٌ وَهُوَ الَّذِي تُخْتَرَفُ فِيهِ الثَّمَارُ،

فَيَسَاقَطُ مِنَ الْأَشْجَارِ فِي ذَلِكَ مَا يَمْلُؤُهُ مِنْ غَيْرٍ أَنْ يُحْتَاجَ

إِلَى كَلْفَةٍ، وَلَا قَطَافٍ لِكَثْرَتِهِ وَنُضْجِهِ وَاسْتَوَائِهِ^(٤). وَكَانَ

هَذَا السَّدُّ بِمَأْرَبٍ. بَلْدَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ ثَلَاثَ مَرَاجِلَ،

وَيَعْرِفُ بِسَدِّ مَأْرَبٍ، وَذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَبْلَدِهِمْ شَيْءٌ

مِنَ الذَّبَابِ وَلَا الْبُعُوضِ وَلَا الْبَرَاغِيثِ، وَلَا شَيْءٌ مِنَ

الْهُوَامِ، وَذَلِكَ لِإِعْتِدَالِ الْهُوَاءِ وَصِحَّةِ الْمِرْزَاجِ، وَعِنَايَةِ اللَّهِ

بِهِمْ لِيُوحِدُوهُ وَيَعْبُدُوهُ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «لَقَدْ كَانَ

لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنَتِهِمْ آيَةٌ ﴿ ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿جَعَلْنَا عَنْ يَمِينِ وَشِمَالِ﴾ أَي: مِنْ نَاحِيَّتِي الْجَبَلَيْنِ،

وَالْبَلْدَةُ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمُ بَلْدَةَ

طَيْبَةَ رَبِّكُمْ غَفُورٌ﴾ أَي: غَفُورٌ لَكُمْ إِنْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى

التَّوْحِيدِ.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْرُضُوا﴾ أَي: عَنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ

عَنهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي عَنْ سَبِإٍ مَا هُوَ: أَرْضٌ أَمْ امْرَأَةٌ؟ قَالَ ﷺ: «لَيْسَ بِأَرْضٍ وَلَا امْرَأَةً، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ وُلِدَ لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْوَلَدِ، فَتَيَّامَنَ سِبْئٌ وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءَمُوا: فَلَحْمٌ، وَجُدَامٌ، وَعَامِلَةٌ، وَعَسَانٌ، وَأَمَّا الَّذِينَ تَيَّامَنُوا: فَكِنْدَةٌ وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَالْأَزْدُ، وَمَذْحِجٌ وَحَمِيرٌ وَأَنْمَارٌ» فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أَنْمَارٌ؟ قَالَ ﷺ: «الَّذِينَ مِنْهُمْ خُثْعَمٌ وَبَجِيلَةٌ»^(١) وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَابِعِهِ بِأَبْسَطٍ مِنْ هَذَا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٢).

قَالَ عُلَمَاءُ النَّسَبِ - مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ -: إِسْمُ سَبِإٍ عَبْدُ شَمْسٍ بْنُ يَشْجُبَ بْنِ يَعْزُبَ بْنِ قَحْطَانَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ سَبِإً لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَبَأَ فِي الْعَرَبِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: الرَّائِثُ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَتَمَ فِي الْعَرُوقِ، فَأَعْطَى قَوْمَهُ قِسْمِي الرَّائِثِ، وَالْعَرَبُ تُسَمَّى الْمَالَ رَيْشًا وَرِيَاشًا. وَاخْتَلَفُوا فِي قَحْطَانَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ (أَحَدُهَا) أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ اتِّصَالِ نَسَبِهِ بِهِ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقٍ. (وَالثَّانِي) أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ عَابِرٍ، وَهُوَ هُوْدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي كَيْفِيَّةِ اتِّصَالِ نَسَبِهِ بِهِ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقٍ أَيْضًا. (وَالثَّلَاثُ) أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ اتِّصَالِ نَسَبِهِ بِهِ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقٍ أَيْضًا. وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ مُسْتَفْصِي الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ النَّمِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى «الْإِنْبَاءَ عَلَى ذِكْرِ أَصُولِ الْقَبَائِلِ الرَّوَّاءِ».

وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «كَانَ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ» يَعْنِي الْعَرَبَ الْعَارِبَةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ سُلَالَةِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّلَاثِ كَانَ مِنْ سُلَالَةِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَيْسَ هَذَا بِالْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَكِنْ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِنَعْرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَّصِلُونَ، فَقَالَ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ آبَاءَكُمْ كَانُوا رَامِيًا». (٣) فَأَسْلَمَ قَبِيلَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - وَالْأَنْصَارُ أَوْسَهَا وَخَزْرَجُهَا مِنْ عَسَانٍ، مِنْ عَرَبِ الْيَمَنِ مِنْ سَبِإٍ - نَزَلُوا بِبَثْرَبَ لَمَّا تَفَرَّقَتْ سَبِإٌ فِي الْبِلَادِ، حِينَ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ سَبِيلَ الْعَرَمِ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِالسَّامِ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ: عَسَانُ بِمَاءِ نَزَلُوا عَلَيْهِ قَيْلٌ: بِالْيَمَنِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُسَلَّلِ، كَمَا قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ

(١) الطبري: ٢٠/٣٧٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٨٨/٩ (٣) فتح

الباري: ٦/٦٢١ (٤) الطبري: ٢٠/٣٧٦

وَشُكْرِهِ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَدَلُوا إِلَىٰ عِبَادَةِ السَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ الْهُدُودُ لِإِسْلِيمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ﴾ (٢٢) إِنِّي وَدِدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمَا عَرِشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾. [النمل: ٢٢، ٢٣]

﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ﴾ (٢٢) إِنِّي وَدِدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمَا عَرِشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾. [النمل: ٢٢، ٢٣]

﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ﴾ (٢٢) إِنِّي وَدِدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمَا عَرِشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾. [النمل: ٢٢، ٢٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الْمَرَادُ بِالْعَرِمِ الْيَمَاءُ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْأِسْمِ إِلَى صِفَتِهِ مِثْلُ مَسْجِدِ الْجَمَاعِ وَسَعِيدِ كُرْزٍ، حَكَى ذَلِكَ الشَّهْبَلِيُّ. وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ وَوَهْبُ بْنُ مُثَنَّى وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَرَادَ عُقُوبَتَهُمْ بِإِرْسَالِ الْعَرِمِ عَلَيْهِمْ، بَعَثَ عَلَى السَّدِّ ذَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ يُقَالُ لَهَا: الْجُرْدُ، نَقَبَتُهُ^(١). قَالَ وَهْبُ بْنُ مُثَنَّى: وَقَدْ كَانُوا يَجِدُونَ فِي كُنُوبِهِمْ أَنَّ سَبَبَ خَرَابِ هَذَا السَّدِّ هُوَ الْجُرْدُ، فَكَانُوا يِرْضُدُونَ عِنْدَهُ السَّنَائِرَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ، فَلَمَّا جَاءَ الْقُدْرُ غَلَبَتِ الْقَارُ السَّنَائِرُ، وَوَلَجَتْ إِلَى السَّدِّ فَنَقَبَتُهُ فَأَنهَارَ عَلَيْهِمْ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: الْجُرْدُ هُوَ الْحَلْدُ، نَقَبَتْ أَسَافِلُهُ حَتَّى إِذَا ضَعُفَ وَوَهَى، وَجَاءَتْ أَيَّامُ السُّيُولِ صَدَمَ الْمَاءِ الْبِنَاءِ فَسَقَطَ، فَأَنسَابَ الْمَاءِ فِي أَسْفَلِ الْوَادِي، وَخَرَّبَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَبْنِيَةِ وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ^(٣). وَنَضَبَ الْمَاءُ عَنِ الْأَشْجَارِ الَّتِي فِي الْجَبَلَيْنِ عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، فَيَسْتُ وَتَحَطَّمَتْ وَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَشْجَارُ الْمُثْمِرَةَ الْأَيْقَمَةَ النَّصْرَةَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ حِجَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْصُلٍ خَمَطٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: وَهُوَ الْأَرَاكُ وَأُكْلُهُ: الْبَرِيرُ^(٤). ﴿وَأَقْلِي﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الطَّرْفَاءُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ شَجَرٌ يُسَبِّهُ الطَّرْفَاءَ، وَقِيلَ: هُوَ السَّمُرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لَمَّا كَانَ أَجُودَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُتَبَدِّلِ بِهَا هُوَ السَّدْرُ قَالَ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَتَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْدَ الثَّمَارِ النَّضِيجَةِ، وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ، وَالظَّلَالِ الْعَمِيقَةِ، وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسَّدْرِ ذِي الشُّوكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمْ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لَمَّا كَانَ أَجُودَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُتَبَدِّلِ بِهَا هُوَ السَّدْرُ قَالَ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَتَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْدَ الثَّمَارِ النَّضِيجَةِ، وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ، وَالظَّلَالِ الْعَمِيقَةِ، وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسَّدْرِ ذِي الشُّوكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمْ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لَمَّا كَانَ أَجُودَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُتَبَدِّلِ بِهَا هُوَ السَّدْرُ قَالَ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَتَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْدَ الثَّمَارِ النَّضِيجَةِ، وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ، وَالظَّلَالِ الْعَمِيقَةِ، وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسَّدْرِ ذِي الشُّوكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمْ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لَمَّا كَانَ أَجُودَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُتَبَدِّلِ بِهَا هُوَ السَّدْرُ قَالَ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَتَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْدَ الثَّمَارِ النَّضِيجَةِ، وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ، وَالظَّلَالِ الْعَمِيقَةِ، وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسَّدْرِ ذِي الشُّوكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمْ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لَمَّا كَانَ أَجُودَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُتَبَدِّلِ بِهَا هُوَ السَّدْرُ قَالَ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَتَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْدَ الثَّمَارِ النَّضِيجَةِ، وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ، وَالظَّلَالِ الْعَمِيقَةِ، وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسَّدْرِ ذِي الشُّوكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمْ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لَمَّا كَانَ أَجُودَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُتَبَدِّلِ بِهَا هُوَ السَّدْرُ قَالَ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَتَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْدَ الثَّمَارِ النَّضِيجَةِ، وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ، وَالظَّلَالِ الْعَمِيقَةِ، وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسَّدْرِ ذِي الشُّوكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمْ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لَمَّا كَانَ أَجُودَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُتَبَدِّلِ بِهَا هُوَ السَّدْرُ قَالَ: ﴿وَسَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَتَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْدَ الثَّمَارِ النَّضِيجَةِ، وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ، وَالظَّلَالِ الْعَمِيقَةِ، وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسَّدْرِ ذِي الشُّوكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمْ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾

(١) الطبري: ٣٨٠، ٣٧٨/٢٠ (٢) الطبري: ٣٨١/٢٠ (٣)

الطبري: ٣٨١/٢٠ (٤) الطبري: ٣٨٣، ٣٨٢/٢٠ (٥)

الغبوي: ٥٥٥/٣ (٦) الطبري: ٣٨٧، ٣٨٦/٢٠ (٧) الطبري:

وَالْأَلْفَةَ وَالْعَيْشَ الْهَنِيءَ، تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ هَهُنَا وَهَهُنَا، وَلِهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ فِي الْقَوْمِ إِذَا تَفَرَّقُوا: تَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَأٍ وَأَيْدِي سَبَأٍ، وَتَفَرَّقُوا شَدْرَ مَدْرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَي: إِنَّ فِي هَذَا الَّذِي حَلَّ بِهِؤُلَاءِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْعُدَابِ وَتَبْدِيلِ النِّعْمَةِ وَتَحْوِيلِ الْعَاقِبَةِ، عُقُوبَةً عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْآثَامِ لَعِبْرَةً وَدَلَالَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ صَبَّارٍ عَلَى الْمَصَائِبِ شَكُورٍ عَلَى النِّعَمِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ ابْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ، يُؤَجَّرُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِيهِ أَمْرَانِهِ»^(١). وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»^(٢). وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَجِبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ تَعَالَى لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»^(٣). وَعَنْ قَتَادَةَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قَالَ: كَانَ مُطْرَفٌ يَقُولُ: نِعْمَ الْعَبْدُ الصَّبَّارُ الشُّكُورُ الَّذِي إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ»^(٤).

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

حَفِيطٌ ﴿١١﴾

[تَصْدِيقُ إِبْلِيسَ ظَنَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ سَبَأٍ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ الْهَوَى وَالشَّيْطَانَ، أَخْبَرَ عَنْهُمْ وَعَنْ أُمَّتَالِهِمْ مِمَّنِ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ وَالْهَوَى وَخَالَفَ الرَّشَادَ وَالْهُدَى، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعِزَّةٌ^(٥): هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ حِينَ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِأَدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْبَبِكُنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] وَقَالَ: ﴿ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَي: مِنْ حُجَّةٍ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أَي: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ لِيُظْهَرَ أَمْرٌ مِنْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِالْآخِرَةِ وَقِيَامُهَا وَالْحِسَابِ فِيهَا وَالْجَزَاءِ، فَيُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ﴾ أَي: وَمَعَ حِفْظِهِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ، وَيَحْفَظُهُ وَكَلَّاتِهِ سَلِيمٌ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْبٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَهُ حَقٌّ إِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾

[عَجَزُ الْهَيْهَةِ الْمُشْرِكِينَ]

بَيْنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَا نُظِيرُ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ هُوَ الْمُسْتَقْبَلُ بِالْأَمْرِ وَحْدَهُ، مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ وَلَا مُنَازِعٍ وَلَا مُعَارِضٍ، فَقَالَ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: مِنَ الْإِلَهَةِ الَّتِي عِبَدْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْبٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْرِهِ﴾ [فاطر: ١٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أَي: لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا اسْتِغْلَالًا وَلَا عَلَى سَبِيلِ الشَّرْكَةِ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أَي: وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْ هُدَيْهِ الْأَنْدَادِ مِنْ ظَهِيرٍ يُسْتَنْظَرُ بِهِ فِي الْأُمُورِ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فُقَرَاءٌ إِلَيْهِ عَبِيدٌ لَدَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَهُ﴾ أَي: لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَاوِهِ لَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ تَعَالَى فِي شَيْءٍ، إِلَّا بَعْدَ إِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضِيَ﴾ [النجم: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وَلِهَذَا تَبَتَّ فِي

(١) أحمد: ١٧٣/١ (٢) النسائي في الكبرى: ٢٦٣/٦ (٣)

فتح الباري: ١٠٧/١٠ (٤) مسلم: ١٩٩٢/٤ (٥) الطبري:

الصَّٰحِحِّينَ مِنْ غَيْرٍ وَجِئَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَيِّدٌ وَلَدِ
 آدَمَ، وَأَكْبَرُ شَفِيعٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ حِينَ يَقُومُ الْمَقَامَ
 الْمُحْمُودَ، لِيَشْفَعَ فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، أَنْ يَأْتِيَ رَبَّهُمْ لِفَضْلِ
 الْقَضَاءِ قَالَ: «فَأَسْجُدْ لِلَّهِ تَعَالَى فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ
 يَدْعَنِي، وَيَفْتَحَ عَلَيَّ بِمَحَامِدٍ لَا أَحْصِيهَا الْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ:
 يَا مُحَمَّدُ! ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تُسْمَعُ، وَقُلْ تُنْعَمُ، وَاشْفَعْ
 تُشْفَعُ»^(١) الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ
 رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مَقَامٌ رَفِيعٌ فِي الْعِظَمَةِ، وَهُوَ
 أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ فَسَمِعَ أَهْلَ السَّمَوَاتِ كَلَامَهُ،
 أُرْعِدُوا مِنَ الْهَيْبَةِ حَتَّىٰ يَلْحَقَهُمْ مِثْلُ الْعَشِيِّ. قَالَه ابْنُ
 مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَسْرُوقٌ وَغَيْرُهُمَا^(٢). ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ
 عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أَيُّ: زَالَ الْفَزَعُ عَنْهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ
 عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ،
 وَالشَّعْبِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ،
 وَقَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا
 قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ يَقُولُ: خُلِّيَ عَنْ قُلُوبِهِمْ. وَقَرَأَ بَعْضُ
 السَّلَفِ، وَجَاءَ مَرْفُوعًا: (إِذَا فُزِعَ) بِالغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَيَرْجِعُ
 إِلَى الْأَوَّلِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَاذَا قَالَ
 رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُ بِذَلِكَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِلَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ
 يَلُونَهُمْ - لِمَنْ تَحْتَهُمْ - حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ الْخَبْرُ إِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ
 الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ أَيُّ: أَخْبَرُوا بِمَا
 قَالَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي
 صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ نَبِيَّ
 اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ
 الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى
 صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا
 لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ
 السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ
 سُفْيَانُ بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا، وَنَسَرَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ
 فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ
 يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ
 قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا
 مِائَةً كَذِبَةً فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا
 وَكَذَا؟ فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ
 قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ
 ﴿٢٣﴾ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ
 وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾ قُلْ
 لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ
 بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ
 أَحَقُّتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّابٍ هُمْ أَوْلَىٰ بِهِنَّ مِنَ النَّاسِ أَذُنًا
 ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِّلنَّاسِ
 بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾
 قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْتِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ
 ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا
 بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِندَ
 رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ
 اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَوْلَىٰ أَنْتُمْ لَكُمْ أُمُومِينُ ﴿٣١﴾

إِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ ذُونَ مُسْلِمٍ^(٣) مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ
 رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٤). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ وَإِنَّا أَوْلَىٰ
 لَكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ
 عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ
 بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾
 قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقُّتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّابٍ هُمْ أَوْلَىٰ بِهِنَّ مِنَ النَّاسِ
 أَذُنًا ﴿٢٧﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لِلَّهِ فِي أَمْرٍ مَا﴾

(١) فتح الباري: ٢٤٨/٨، ومسلم: ١٨٥/١ (٢) الطبري: ٢٠ / ٣٩٦
 (٣) فتح الباري: ٣٩٨/٨ (٤) أبو داود: ٢٨٨/٤ وتحفة
 الأحودي: ٩٠/٩ وابن ماجه: ٦٩/١

هَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ أَيْ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مُبْطَلٌ، وَالْآخَرُ مُحِقٌّ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ وَنَحْنُ عَلَى الْهُدَى أَوْ عَلَى الضَّلَالِ، بَلْ وَاحِدٌ مِمَّا مُصِيبٌ، وَنَحْنُ قَدْ أَقَمْنَا الْبُرْهَانَ عَلَى التَّوْحِيدِ فَدَلَّ عَلَى بُطْلَانِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَيْتَا أَوْ يَتَاكُمْ لَعَلَّ هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. قَالَ قَتَادَةَ: قَدْ قَالَ ذَلِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْمُشْرِكِينَ: وَاللَّهِ مَا نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ، إِنْ أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ لَمُهْتَدٍ^(١). وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَرِيَادُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ: مَعْنَاهَا إِنَّا نَحْنُ لَعَلَى هُدَى وَإِنَّكُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا تُفْلِحُونَ عَمَّا أَرْمَنَّا وَلَا سُتَلُّ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مَعْنَاهُ التَّيْرِيُّ مِنْهُمْ، أَيْ: لَسْتُمْ مِمَّا وَلَا نَحْنُ مِنْكُمْ، بَلْ نَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى تَوْحِيدِهِ وَإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ، فَإِنْ أَجَبْتُمْ فَأَنْتُمْ مِمَّا وَنَحْنُ مِنْكُمْ، وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَتَحْنُ بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ بُرَاءٌ مِنَّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَتْلُواهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، أَيْ: يَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَسَتَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ لِمَنِ الْعِزَّةُ وَالنُّصْرَةُ وَالسَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَفَآسَى الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤-١٦] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الْفَتْخُ الْعَلِيمُ﴾ أَيْ: الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْصَبْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أَيْ أَرُونِي هَذِهِ الْأِلَهَةَ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَصَيَّرْتُمُوهَا لَهُ عِدْلًا ﴿كَلَّا﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ، وَلَا نِدِيدٌ، وَلَا شَرِيكٌ، وَلَا عَدِيلٌ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَيْ: الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيْ: ذُو الْعِزَّةِ الَّذِي قَدْ فَهَرَ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ وَعَلَّيَتْ كُلَّ

شَيْءٍ، الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَقَدَّسَ عَمَّا يَقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِنَاسٍ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٨] وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ لَكُمْ وَمِعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَفِيدُونَ ﴿٢٠﴾

[بَعَثَ النَّبِيَّ ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً]

يَقُولُ تَعَالَى لِعَبِيدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِنَاسٍ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيْ: إِلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَتْلُواهَا النَّاسُ إِنْ رَشِدُوا إِلَىكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيْ: تُبَشِّرُ مَنْ أَطَاعَكَ بِالْجَنَّةِ، وَتُنذِرُ مَنْ عَصَاكَ بِالنَّارِ ﴿وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خَلَفُوا مِنْكُمْ إِلَّا لَمَنْ يَخِفُّ عَلَيْكُمْ لِحُبِّهِ غُلُوبًا﴾ [الأنعام: ١١٦].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِنَاسٍ﴾ يَعْنِي إِلَى النَّاسِ عَامَّةً. وَقَالَ قَتَادَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَطْوَعَهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٣). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْطَيْتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصْرَتٌ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأَجِلْتُ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَجَلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُرْعَتٌ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٤). وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بُرْعَتٌ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ» قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ^(٥). وَقَالَ غَيْرُهُ: يَعْنِي الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ، وَالْكُلَّ صَحِيحٌ.

(١) الطبري: ٤٠١/٢٠ (٢) الطبري: ٤٠١/٢٠ (٣) الطبري: ٤٠٥/٢٠ (٤) فتح الباري: ٥١٩/١ ومسلم: ٣٧٠/١ (٥) أحمد: ١٤٥/٥

[سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنِ وَقْتِ الْقِيَامَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي اسْتِيعَادِهِمْ قِيَامَ السَّاعَةِ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾... [الشورى: ١٨]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ﴾ أَي: لَكُمْ مِيعَادُ مُوجَلٍّ مَعْدُودٍ مُحَرَّرٍ، لَا يُزَادُ وَلَا يُنْقَصُ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا يُؤَخَّرُ سَاعَةً وَلَا يُقَدَّمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ [١٦] يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ النَّفْسُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ [هود: ١٠٤، ١٠٥]

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِبَلِّ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلِّ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَصْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا أَنَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّتُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَآءَمِنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الْوَسِيعُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُوبِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ، لِشَهْوَتِكُمْ وَاخْتِيَارِكُمْ لِذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿بَلِّ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلِّ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَي: بَلِّ كُنْتُمْ تَمْكُرُونَ بِنَا لَيْلًا وَنَهَارًا وَتَعْرُونَا وَتُمَثِّنُونَا وَتُخَيِّرُونَا أَنَّا عَلَىٰ هُدًى وَأَنَا عَلَىٰ شَيْءٍ، فَإِذَا جَمِيعُ ذَلِكَ بَاطِلٌ وَكَذِبٌ وَمَبِينٌ. قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿بَلِّ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يَقُولُ: بَلِّ مَكْرُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ^(١). وَكَذَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: مَكْرُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ^(٢). [إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا] أَي: نُظَرَاءَ وَالْهَيْهَ مَعَهُ، وَتُؤَيِّمُونَ لَنَا شُبُهَاتٍ وَأَشْيَاءَ مِنَ الْمَحَالِ تُضِلُّونَهَا بِهَا [وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ] أَي: الْجَمِيعُ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَتْبَاعِ كُلُّ نَدِيمٍ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُ [وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَصْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا] وَهِيَ السَّلَاسِلُ الَّتِي تَجْمَعُ أَيْدِيَهُمْ مَعَ أَغْنَاقِهِمْ [هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] أَي: إِنَّمَا نُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ: كُلُّ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِي الْغُلُوبِ مَوْفُوتٍ﴾ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِبَلِّ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلِّ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَصْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

[إِتِّفَاقُ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ إِنْكَارِ الْحَقِّ وَمُشَاجَرَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخَيِّرُ تَعَالَىٰ عَنِ تَمَادِي الْكُفَّارِ فِي طُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِضْرَارِهِمْ عَلَىٰ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا، وَمُخْبِرًا عَنْ مَوَاقِفِهِمُ الدَّلِيلَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَالِ تَخَاصُّمِهِمْ وَتَحَاجُّجِهِمْ. [يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا] وَهُمْ الْأَتْبَاعُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْهُمْ وَهُمْ قَادَتُهُمْ وَسَادَتُهُمْ [لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ] أَي: لَوْلَا أَنْتُمْ تَضُدُّونَنَا لَكُنَّا اتَّبَعْنَا الرُّسُلَ وَأَمَّنَّا بِمَا جَاءُونَا بِهِ، فَقَالَ لَهُمُ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَهُمْ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: [أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ] أَي: نَحْنُ مَا فَعَلْنَا بِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّا دَعَوْنَاكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَا مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، وَخَالَفْتُمُ الْأَوْلَةَ وَالْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَّ

(١) الطبري: ٤٠٨/٢٠ (٢) الطبري: ٤٠٨/٢٠

يَحْسِبُهُ لِقَادَةَ عَذَابٍ يَحْسِبُهُمْ، وَلِلْآتِبَاعِ بِحْسِبِهِمْ ﴿٣٤﴾ قَالَ لِكُلِّ
ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿[الأعراف: ٣٨] رَوَى ابْنُ أَبِي
حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا سَبَقَ إِلَيْهَا أَهْلُهَا تَلَقَّاهُمْ لَهَيْهَا، ثُمَّ
لَفَحَتْهُمْ لَفْحَةً فَلَمْ يَبْقَ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَى الْعُرُوبِ»^(١).
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ
أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالْبِئْسِ تَقْرِيْرِكُمْ
عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْغَيْبِ
بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِنَاتِنَا
مُعْجِزِينَ أَوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْتَضِرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْتُمْ بِشَيْءٍ فَعُوْ
يُخَلِّفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٣٩﴾﴾
[تَكْذِيبِ الْمُتْرِفِينَ بِالرُّسُلِ وَاعْتِرَازِهِمْ بِالْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ]

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أَي:
افْتَحَرُوا بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَاعْتَمَدُوا أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ
عَلَىٰ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ وَاعْتِنَائِهِ بِهِمْ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ
لِيُعْطِيَهُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَهَيْهَاتَ
لَهُمْ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ مِنْ مَالٍ
وَبَنِينَ ﴿٣٥﴾ سُورًا لَّهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿[المؤمنون: ٥٥، ٥٦]﴾
وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُصِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ ﴿[التوبة: ٥٥]﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَرَىٰ وَمَنْ خَلَقْتَ
وَجِدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتَ لَهُ مَالًا مَتَدَوْدًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُوبًا ﴿١٣﴾ وَمَهْدَتْ لَهُ
نَهْجًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِنْتِنَا عِنْدًا ﴿١٦﴾
سَائِرُهُمْ صَوْدًا ﴿[المدثر: ١١-١٧]﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ
صَاحِبِ تَيْنِكَ الْجَنَّتَيْنِ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ وَتَمَرٍ وَوَلَدٍ، ثُمَّ لَمْ
يُعْنِ عَنْهُ شَيْئًا، بَلْ سَلِبَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ،
وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ
يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَي: يُعْطِي الْمَالَ لِمَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ،
فَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعْنِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ النَّبْلِغَةُ،
وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ الدَّامِغَةُ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالْبِئْسِ تَقْرِيْرِكُمْ
عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ أَي: لَيْسَتْ هَذِهِ دَلِيلًا عَلَىٰ مَحَبَّتِنَا لَكُمْ وَلَا
اعْتِنَائِنَا بِكُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَا
يَنْظُرُ إِلَىٰ صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ
وَأَعْمَالِكُمْ»^(٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهَ^(٤). وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ
تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَي: إِنَّمَا يَقْرَبُكُمْ
عِنْدَنَا زُلْفَىٰ: الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ
الْغَيْبِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَي: تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرَةِ أَثْمَالِهَا
إِلَىٰ سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ أَي: فِي
مَنَازِلِ الْجَنَّةِ الْعَالِيَةِ ءَامِنُونَ: مِنْ كُلِّ بَأْسٍ، وَخَوْفٍ، وَأَدَىٰ،
وَمِنْ كُلِّ شَرٍّ يُحْذَرُ مِنْهُ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ

(١) الحلية: ٣٦٣/٤ إسناده ضعيف المعجم الأوسط للطبراني (٩٣٦٥، ٢٧٨) فيه محمد بن سليمان الأصبهاني قال الهيثمي في
المجمع ٣٨٩/١٠ "وفيه محمد بن سليمان الأصبهاني وهو
ضعيف" (٢) الطبري: ٤٠٩/٢٠ (٣) أحمد: ٥٣٩/٢ (٤)
مسلم: ١٩٨٧/٤ وابن ماجه: ١٣٨٨/٢

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُسَلِّمًا لِئِيَّاهُ ﷻ وَأَمْرًا لَهُ بِالنَّاسِ بِمَنْ قَبْلَهُ
مِنَ الرُّسُلِ، وَمُخْبِرَهُ بِأَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي قَرِيْبَةٍ إِلَّا كَذَّبَتْهُ
مُتْرَفُوهَا وَاتَّبَعَتْهُ ضَعْفًا وَهُمْ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ «أَتُومِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴿[الشعراء: ١١١]﴾
﴿وَمَا زَيْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾
[هود: ٢٧] وَقَالَ الْكُبْرَاءُ مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ: ﴿لِلَّذِينَ أَنْتَضِعُوا
لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَعَمُونَ أَنْتَ صَالِحًا تُرْسِلُ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ الَّذِينَ أَنْتَكِرُوا إِنَّا
بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿[الأعراف: ٧٥، ٧٦]﴾ وَقَالَ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَلْوَالِدًا مِنَ اللَّهِ
عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّكِرِينَ ﴿[الأنعام: ٥٣]﴾
وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرِيْبَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا
لِيَسْكَرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا
أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرِيْبَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
فَدَمَّرْنَا بِنَادٍ﴾ [الإسراء: ١٦] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هُنَا:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أَي: نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ ﴿إِلَّا قَالَ
مُتْرَفُوهَا﴾ وَهُمْ أَوْلُوا النِّعْمَةِ وَالْحَسْمَةِ، وَالتَّرْوَةِ وَالرِّيَاسَةِ.
قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ جَبَابِرَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وَرَعُوسُهُمْ فِي الشَّرِّ^(١).
﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أَي: لَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَتَّبِعُهُ.
وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَجَازًا عَنِ الْمُتْرِفِينَ الْمُكْذِبِينَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٣

سُورَةُ سَبَأٍ

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمْعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُرْهًا
 يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا
 يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَوْلَا لَأَمْلِكُ
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ
 النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نزلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَدِيتُ
 قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَإِنَّا
 وَكُنَّا قَالُوا لَوْلَا مَا هَذَا إِلَّا آفَاكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَّا
 جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُومِينَ ﴿٤٣﴾ وَمَاءَ أَيْنَسْتُمْ مِنْ كُتُبِ
 يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي
 فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِيُوحٍ إِيَّايَ أَنْ
 تَقُولُوا لِلَّهِ مِثْلَ شَيْءٍ وَفِرْدَوْى نَعْمَ نُنْفَكِرُوا مَا يَصَاحِبِكُمْ
 مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
 قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجِنَّةِ لَعُرْفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ
 بَطُونِهَا، وَبَطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: لِمَنْ هِيَ؟
 قَالَ ﷺ: «لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ
 الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(١).

«وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ» أَي: يَسْعَوْنَ فِي
 الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ وَالتَّصْدِيقِ بِآيَاتِهِ «قَالُوا لَيْسَ
 فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ» أَي: جَمِيعُهُمْ مُجْرَبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ فِيهَا
 بِحَسَبِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ» أَي: بِحَسَبِ مَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ
 الْحِكْمَةِ، يَسْطُرُ عَلَى هَذَا مِنَ الْمَالِ كَثِيرًا، وَيَضِيقُ عَلَى
 هَذَا، وَيَقْتَرُّ عَلَى هَذَا رِزْقَهُ جِدًّا. وَلَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ
 مَا لَا يُدْرِكُهَا غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
 بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا»
 [الاسراء: ٢١] أَي: كَمَا هُمْ مُتَّفَاوِتُونَ فِي الدُّنْيَا: هَذَا فَضِيلٌ
 مُدْفِعٌ، وَهَذَا غَنِيٌّ مُوسِعٌ عَلَيْهِ، فَكَذَلِكَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ:
 هَذَا فِي الْعُرْفَاتِ فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، وَهَذَا فِي الْعَمْرَاتِ
 فِي أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ. وَأَطْيَبَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا كَمَا
 قَالَ ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كَفَافًا، وَقَتَّعَهُ اللَّهُ بِمَا
 آتَاهُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ» أَي:
 مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَأَبَاحَهُ لَكُمْ، فَهُوَ
 يُخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْبَدْلِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَزَاءِ
 وَالتَّوَابِ، كَمَا تَبَيَّنَ فِي الْحَدِيثِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْفِقْ،
 أَنْفِقْ عَلَيْكَ»^(٣). وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَلَكَئِن يُصْبِحَانِ كُلُّ يَوْمٍ
 يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا تَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ:
 اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا^(٤). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْفِقْ
 بِلَالًا! وَلَا تَحْشُرْ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَالًا»^(٥).

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمْعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُرْهًا
 كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ
 الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَوْلَا لَأَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
 نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا
 تَكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾»

[بِرَاءَةُ الْمَلَائِكَةِ مِنْ عَابِدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَمْرُقُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ
 الْخَلَائِقِ، فَيَسْأَلُ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ كَانُوا الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ

أَتَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِهِمْ، لِيَمْرُقُوهُمْ إِلَى
 اللَّهِ زُلْفَى، فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: «أَهْلُوا لِي إِنَّا كُرْهًا كَانُوا يَعْبُدُونَ»
 أَي: أَنْتُمْ أَمَرْتُمْ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَتِكُمْ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ
 الْفُرْقَانِ: «مَأْتَتْ أَصْلَابُكُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صُلُوبًا
 السَّيْلِ» وَكَمَا يَقُولُ لِيَعْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنْتَ
 قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخُذُونِي وَأُنِجِ إِلَهِي مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا
 يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» [المائدة: ١١٦] وَهَكَذَا
 تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «سُبْحَانَكَ» أَي: تَعَالَيْتَ وَتَقَدَّسْتَ عَنْ أَنْ
 يَكُونَ مَعَكَ إِلَهٌ «أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ» أَي: نَحْنُ عِبِيدُكَ،

(١) ابن أبي شيبة: ٤٣٧/٨ فيه عبدالرحمن بن إسحاق الكوفي وهو ضعيف لكن الحديث حسن لشواهد فيها حديث أبي مالك الأشعري عند أحمد ٣٤٣/٥ وحديث عبدالله بن عمرو عند الحاكم ٨٠/١. (٢) مسلم: ٧٣٠/٢ (٣) مسلم: ٦٩١/١ (٤) مسلم: ٧٠٠/١ (٥) الطبراني: ١٩١/١٠ عند الطبراني من حديث ابن مسعود فيه قيس بن الربيع ضعوفه وعند الطبراني الكبير وأبي يعلى في مسنده وأبي نعيم في الحلية من حديث بلال فيه ابن زبالة وهو ضعيف.

وَنَبْرًا إِلَيْكَ مِنْ هُوْلَاءِ ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ زَيَّنُوا لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأَصْلُوهُمْ ﴿أَكْفَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧، ١١٨] قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالِيمٌ لَا يَمُكُّ بِعَضْكَ لِعِضِّ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أَي: لَا يَفْعُ لَكُمْ نَفْعٌ وَمِمَّنْ كُنْتُمْ تَرْجُونَ نَفْعَهُ الْيَوْمَ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي ادَّخَرْتُمْ عِبَادَتَهَا لِشِدَائِدِكُمْ وَكُرْبِكُمْ، الْيَوْمَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أَي: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَفْرِيحًا وَتَوْبِيحًا.

﴿وَإِذَا نَقَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَبِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ مَفْتَرٍ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَمَا آيَاتِنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿١٩﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْتَارَ مَا آيَاتِنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٠﴾

عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢١﴾

[طَرِيقُ الْفَضْلِ فِيمَا رَمَوْا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْجُنُونِ] يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ! لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الرَّاعِمِينَ أَنَّكَ مَجْنُونٌ: ﴿إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أَي: إِنَّمَا أَمَرُكُمْ بِوَاحِدَةٍ وَهِيَ ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مثنًى وَفَرْدًا ثُمَّ تَنفَكُّرُوا مَا يَصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أَي: تَقُومُوا قِيَامًا خَالِصًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ غَيْرِ هَوًى وَلَا عَصِيَّةٍ، فَيَسْأَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا هَلْ بِمُحَمَّدٍ مِنْ جُنُونٍ. فَيَنْصَحُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿ثُمَّ تَنفَكُّرُوا﴾ أَي: يَنْظُرُ الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَسْأَلُ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ عَنْ شَأْنِهِ إِنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ، وَتَتَفَكَّرُ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مثنًى وَفَرْدًا ثُمَّ تَنفَكُّرُوا مَا يَصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ هَذَا مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ ابْنُ كَعْبٍ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ^(٣). وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا صَبَاحَا!» فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ ﷺ: «فَلَيْ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَّ لَكَ أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٤) وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

﴿وَإِذَا نَقَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَبِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ مَفْتَرٍ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَمَا آيَاتِنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿١٩﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْتَارَ مَا آيَاتِنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٠﴾

[أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يُخْبِرُ اللَّهُ عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يَسْتَحْقُونَ مِنْهُ الْعُقُوبَةَ وَالْأَلِيمَ مِنَ الْعَذَابِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ يَبْتَابُ يَسْمَعُونَهَا غَضَبَ طَرِيَّةٍ مِنْ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ يَعْبُدُونَ أَنَّ دِينَ آبَائِهِمْ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ عِنْدَهُمْ بَاطِلٌ، عَلَيْهِمْ وَعَلَى آبَائِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ مَفْتَرٍ﴾ يَعْبُدُونَ الْقُرْآنَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آيَاتِنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أَي: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى الْعَرَبِ مِنْ كِتَابٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ وَمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقَدْ كَانُوا يُوَدُّونَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ: لَوْ جَاءَنَا نَذِيرٌ أَوْ أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا لَكُنَّا أَهْدَى مِنْ غَيْرِنَا، فَلَمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كَذَّبُوهُ وَجَحَدُوهُ وَعَانَدُوهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: مِنْ الْأُمَمِ ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعْتَارَ مَا آيَاتِنَاهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَي: مِنَ الْقُوَّةِ فِي الدُّنْيَا^(١). وَكَذَلِكَ قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ^(٢). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا

(١) الطبري: ٤١٦/٢٠ (٢) الطبري: ٤١٧، ٤١٦/٢٠ (٣) الطبري: ٤١٨/٢٠ (٤) فتح الباري: ٤٠٠/٨

[الشعرا: ٢١٤].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥٠)

[لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا عَلَى الْبَلَاغِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أَي: لَا أُرِيدُ مِنْكُمْ جُعْلًا وَلَا عَطَاءً عَلَىٰ آدَاءٍ رِسَالَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكُمْ وَنُضْجِي إِيَّاكُمْ وَأَمْرُكُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أَي: إِنَّمَا أَطْلُبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَي: عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ إِجْبَارِي عَنْهُ بِإِرْسَالِهِ إِلَيَّي إِيَّاكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [عافر: ١٥] أَي: يُرْسِلُ الْمَلَكَ إِلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهُوَ عَلَامُ الْغُيُوبِ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ أَي: جَاءَ الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ وَالشَّرْعُ الْعَظِيمُ، وَذَهَبَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ وَاضْمَحَلَّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَوَجَدَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ مَنصُوبَةً حَوْلَ الْكُتُبَةِ، جَعَلَ يَطْعَنُ الصَّنَمَ مِنْهَا بِسِيَةِ قَوْسِهِ وَيَقْرَأُ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَحَدَّثَهُ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ (١).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ أَي: الْخَيْرُ كُلُّهُ مِنْ [عِنْدِ اللَّهِ]، وَفِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْوَحْيِ وَالْحَقُّ الْمُسْتَبِينُ؛ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالْبَيَانُ وَالرَّشَادُ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سُئِلَ عَنْ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ فِي الْمَوْصُوعَةِ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ (٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾

٤٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبُورَةُ صَبَأٍ

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٧) ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغْنَا فَلَا فُوتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١) ﴿وَقَالُوا لَأَمْنًا بِئِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ وَيَقْذِفُونَ بِالْأَعْيَابِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣) ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ﴾ (٥٤)

سُبُورَةُ صَبَأٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةَ رُسُلًا أُولِي أَلْسِنَةٍ مَّتَنِيٍّ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَزِفُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَهُ الْأَهْوَاءِ فَان تَوْفُوكُمْ (٣)

أَي: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ، وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ هَاهُنَا حَدِيثَ أَبِي مُوسَى الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَحَصَمَ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا مُجِيبًا» (٣).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغْنَا فَلَا فُوتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١) ﴿وَقَالُوا لَأَمْنًا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ وَيَقْذِفُونَ بِالْأَعْيَابِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣) ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ﴾ (٥٤)

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَلَوْ تَرَى يَا مُحَمَّدُ، إِذْ فَرَغَ هَؤُلَاءِ الْمَكْدُوبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا فُوتَ أَي: فَلَا مَقَرَّ لَهُمْ وَلَا وَرَرَ

(١) فتح الباري: ٢٥٢/٨، ومسلم: ١٤٠٩/٣، وتحفة الأحوذى: ٥٧٣/٨ والنسائي في الكبرى: ٤٨٣/٦ (٢) أبو داود: ٥٨٩/٢ (٢١١٦) مسند أحمد ٤٤٧/١ ابن حبان (٤١٠١) ليست فيه علة دون تدليس قتادة (٣) النسائي في الكبرى: ٤٣٨/٦ وفتح الباري: ١٥٧/٩، ومسلم: ٢٠٧٦/٤

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، فَإِنَّهُ قَدْ جَبَلَ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا طَلَبُوهُ فِي الْآخِرَةِ فَمُنِعُوا
مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا قَوْلَ بِأَسْبَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ أَيْ: كَمَا
جَرَى لِلْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذَّبَةِ بِالرُّسُلِ لَمَّا جَاءَهُمْ بِأَسْمِ اللَّهِ
تَمَنُّوا أَنْ لَوْ آمَنُوا فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْمًا قَالُوا أَمَّا
بِاللَّهِ وَحَدَمُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ
إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْمًا سَكَتَ اللَّهُ أَلَيْ قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ الْكُفْرُونَ﴾. [غافر: ٨٥] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ
كَانُوا فِي شَكِّ مُشْرِكِينَ﴾ أَيْ: كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي شَكِّ وَرَيْبَةٍ،
فَلِهَذَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ الْإِيمَانَ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ، قَالَ
قَتَادَةَ: إِنَّا كُنَّا وَالشُّكَّ وَالرَّيْبَةَ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى شَكِّ بُعِثَ
عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى يَقِينٍ بُعِثَ عَلَيْهِ.

أَخْرَجُ تَفْسِيرَ سُورَةِ سَبَأٍ، وَاللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤَفَّقُ
لِلصَّوَابِ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ زَبِيدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

[ذِكْرُ قُدْرَةِ اللَّهِ]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ لَا أَذْرِي مَا
فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَانِ يَخْتَصِمَانِ
فِي بَيْتِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَنَا فَطَرْتُهَا أَيْ بَدَأْتُهَا^(١).
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيضًا: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: بَدِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٢). وَقَالَ
الصَّحَّاحُ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ،
فَهُوَ: خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ

لَهُمْ وَلَا مَلْجَأَ ﴿وَأُخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أَيْ: لَمْ يُمَكِّنُوا أَنْ
يُفْعَلُوا فِي الْهَرَبِ، بَلْ أُخَذُوا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ. قَالَ الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ: حِينَ خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ^(١). ﴿وَقَالُوا أَمَّا بِهِ﴾
أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ: أَمَّا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكَشُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾
[السجدة: ١٢]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ لَهُمُ النَّشْأَةَ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ: وَكَيْفَ لَهُمْ تَعَاطِي الْإِيمَانَ وَقَدْ بَعُدُوا
عَنْ مَحَلِّ قُبُولِهِ مِنْهُمْ، وَصَارُوا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَهِيَ دَارُ
الْجَزَاءِ لَا دَارَ الْإِتِّلَاءِ، فَلَوْ كَانُوا آمَنُوا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ
ذَلِكَ نَافِعَهُمْ وَلَكِنْ بَعْدَ مَصِيرِهِمْ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، لَا
سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى قُبُولِ الْإِيمَانَ، كَمَا لَا سَبِيلَ إِلَى حُصُولِ
الشَّيْءِ لِمَنْ يَتَنَاوَلُهُ مِنْ بَعِيدٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَأَنَّ لَهُمُ النَّشْأَةَ﴾ قَالَ: التَّنَاقُلُ
لِذَلِكَ^(٢). وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: التَّنَاقُلُ: تَنَاقُلُهُمُ الْإِيمَانَ وَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ وَقَدْ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ الدُّنْيَا. وَقَالَ الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ: أَمَا إِنَّهُمْ طَلَبُوا الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ لَا يُتَالُ، تَعَاطُوا
الْإِيمَانَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: كَيْفَ
يَحْصُلُ لَهُمُ الْإِيمَانُ فِي الْآخِرَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ فِي الدُّنْيَا
وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قَالَ
مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قَالَ: بِالظَّنِّ،
(قُلْتُ): كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَجِمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]
فِتَارَةٌ يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، وَتَارَةٌ يَقُولُونَ: كَاهِنٌ، وَتَارَةٌ
يَقُولُونَ: سَاحِرٌ، وَتَارَةٌ يَقُولُونَ: مَجْنُونٌ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ
الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْمَعَادِ
وَيَقُولُونَ: ﴿إِنْ نَطُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينٍ﴾ [الجنانية: ٣٢]
قَالَ قَتَادَةَ وَمُجَاهِدٌ: يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ لَا بَعَثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا
نَارَ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجِبَلٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ وَالصَّحَّاحُ وَغَيْرُهُمَا: يَعْنِي الْإِيمَانَ^(٤). وَقَالَ
السُّدِّيُّ: ﴿وَجِبَلٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وَهِيَ التَّوْبَةُ^(٥).
وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَجَمَهُ اللَّهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَجِبَلٍ
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَزَهْرَةٍ
وَأَهْلِ^(٦). وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَالرَّبِيعِ
ابْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ الْبُخَارِيِّ وَجَمَاعَةٍ،

(١) الطبري: ٤٢٣/٢٠ (٢) الدر المنثور: ٧١٤/٦ (٣)
الطبري: ٤٢٩/٢٠ (٤) الطبري: ٤٣٠/٢٠ (٥) الدر المنثور:
٧١٥/٦ (٦) الطبري: ٤٣١/٢٠ (٧) الدر المنثور: ٣/٧ (٨)
الدر المنثور: ٣/٧ رواه أبو عبيد في فضائله (٣٤٥) والبيهقي في
الشعب (١٦٨٢) فيه سفيان الثوري وهو مدلس ولم يصح
إبراهيم بن مهاجر ضعيف يعتبر به انظر [تحرير تقريب التهذيب]
(٩) الدر المنثور: ٣/٧

الْمَلَكَةِ رَسُولًا ﴿١﴾ أَي: بَيَّنَّهُ وَبَيَّنَ أُنْيَابِهِ ﴿أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ﴾ أَي: يَطِيرُونَ بِهَا لِيَلْعَنُوا مَا أَمَرُوا بِهِ سَرِيعًا ﴿مَتْنٌ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ﴾ أَي: مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَهُوَ سَبْمَاثَةٌ جَنَاحٍ، بَيْنَ كُلِّ جَنَاحَيْنِ كَمَا بَيَّنَّ الْمَشْرِقِيُّ وَالْمَغْرِبِيُّ (١). وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَزِيدُ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَزِيدُ فِي الْأَجْنِحَةِ وَخَلْقِهِمْ مَا يَشَاءُ (٢).

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُرْسِلُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢)

[لَا مُمْسِكَ لِرَحْمَةِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَرَادٍ مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: أَكْتُبْ لِي بِمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَعَانِي الْمُغِيرَةُ فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» وَسَمِعْتُهُ يَنْهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَعَنْ وَادٍ الْبَنَاتِ، وَعُقُوقِ الْأُمَّهَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ (٣). وَأَخْرَجَاهُ مِنْ طُرُقٍ (٤). وَبَيَّنَّ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ بِلَاءِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَبِلَاءِ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللَّهُمَّ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ! أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكَلَّمْنَا لَكَ عَبْدًا، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» (٥) وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَن يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] وَلَهَا نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَدْعَاؤُهُمْ نَعَمْتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ عَدُوٌّ لِلَّهِ يُرْفِقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ﴾

﴿تُؤَفِّكُونَ﴾ (٦)

وَأَن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَبُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيْحَ فَتَنِّي رَسْعَابًا فَاسْفَنَهَا إِلَى بَلَدٍ مَّتَّي فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يَرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

[أَدْلِيلُ التَّوْحِيدِ]

بَيَّنَّهُ تَعَالَى عِبَادَةَ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى تَوْحِيدِهِ فِي إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ، كَمَا أَنَّهُ الْمُسْتَقْبَلُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، فَكَذَلِكَ فَلْيُفْرَدُ بِالْعِبَادَةِ وَلَا يُشْرَكُ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْتَانِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤَفِّكُونَ﴾ أَي: فَكَيْفَ تُؤَفِّكُونَ بَعْدَ هَذَا الْبَيِّنَانِ، وَوُضِّحَ هَذَا الْبُرْهَانِ، وَأَنْتُمْ بَعْدَ هَذَا تَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْتَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَأَن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤) يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَبُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾

(١) فتح الباري: ٦/٣٦١ (٢) الدر المنثور: ٤/٧ (٣) أحمد: ٤/٢٥٠ (٤) فتح الباري: ٢/٣٧٨، ١١/١٣٧، ٥٢١ ومسلم: ٤١٤، ٤١٥ (٥) مسلم: ١/٣٤٧

[التَّسْلِيَةَ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِ وَالنَّبِيَّةِ عَلَى الْمَعَادِ] يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَإِنْ يُكذِّبُوكَ يَا مُحَمَّدًا! هُوَ لَا إِيْمَانًا بِاللهِ وَبِإِخْلَافِ الْوَعْدِ فِي مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، فَلَمَّا جَاءُوا مِنْ سَلَفِ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ أَسْوَةً، فَإِنَّهُمْ كَذَلِكَ جَاءُوا قَوْمَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَمَرُوهُمْ بِالتَّوْحِيدِ فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ ﴿وَالَى اللهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ أَي: وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أَي: الْمَعَادَ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ ﴿فَلَا تَعْرِضْكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَي: الْعَيْشَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ بِالنَّبِيَّةِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَاتَّبَاعِ رُسُلِهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، فَلَا تَتَلَهَّؤْا عَنْ ذَلِكَ الْبَاقِي بِهَذِهِ الزَّهْرَةَ الْفَانِيَّةِ ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وَهُوَ الشَّيْطَانُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا^(١): أَي: لَا يَفْتِنْتِكُمُ الشَّيْطَانُ وَيَضُرُّفَتِكُمْ عَنِ اتِّبَاعِ رُسُلِ اللهِ وَتَصْدِيقِ كَلِمَاتِهِ، فَإِنَّهُ عَرَّارٌ كَذَّابٌ أَفَّاكٌ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالْآيَةِ الَّتِي فِي آخِرِ لَقْمَانَ ﴿فَلَا تَعْرِضْكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِابْنِ آدَمَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أَي: هُوَ مُبَارِزٌ لَكُمْ بِالْعِدَاوَةِ فَعَادُوهُ أَنْتُمْ أَشَدُّ الْعِدَاوَةَ، وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ فِيمَا يَغُرُّكُمْ بِهِ ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أَي: إِنَّمَا يَقْضُدُ أَنْ يُضِلَّكُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا مَعَهُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ، فَهَذَا هُوَ الْعَدُوُّ الْمُبِينُ نَسَأَلُ اللهُ الْقَوِيَّ الْعَزِيزُ أَنْ يَجْعَلَنَا أَعْدَاءَ الشَّيْطَانِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَ كِتَابِ اللهِ، وَالْإِقْتِفَاءَ بِطَرِيقِ رِسُولِهِ، إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ كَافِرُونَ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٧﴾ أَقْمَنَ زَيْنَ لَمْ سُوِّ عَمَلِهِ، فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

[جَزَاءُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْمَعَادِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ اتِّبَاعَ إِبْلِيسَ مَصِيرُهُمْ إِلَى السَّعِيرِ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ: أَنَّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ وَعَصَوْا الرَّحْمَنَ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أَي: لِمَا كَانَ

مِنْهُمْ مِنْ ذَنْبٍ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ عَلَى مَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْمَنَ زَيْنَ لَمْ سُوِّ عَمَلِهِ، فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾ يَعْنِي كَالْكَافِرِ وَالْمُفْجَرِ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا سَيِّئَةً، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْتَقِدُونَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أَي: أَقْمَنَ كَانَ هَكَذَا قَدْ أَضَلَّهُ اللهُ أَلَيْسَ فِيهِ حِيلَةٌ؟ لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِ ﴿فَإِنَّ اللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي: يَقْدِرُ كَانَ ذَلِكَ ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ أَي: لَا تَأْسَفْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ اللهُ حَكِيمٌ فِي قَدَرِهِ، إِنَّمَا يُضِلُّ مَنْ يُضِلُّ وَيَهْدِي مَنْ يَهْدِي، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ وَالْعِلْمِ التَّامِّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِي سَعَابًا فَسَفَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ ﴿١﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوْنَ ﴿٢﴾ وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴿٣﴾

[دَلِيلُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

كَثِيرًا مَا يَسْتَدِلُّ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِإِحْيَائِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا - كَمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَجِّ - يُبَيِّنُهُ عِبَادَةُ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِهَذَا عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ مَيِّتَةً هَامِدَةً لَا تَبَاتُ فِيهَا، فَإِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهَا السَّحَابُ تَحْمِلُ الْمَاءَ وَأَنْزَلَهُ عَلَيْهَا ﴿أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهيجٍ﴾ [الحج: ٥] كَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بَعْثَهَا وَشُورَهَا، أَنْزَلَ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مَطَرًا يَعْمُ الْأَرْضَ جَمِيعًا، وَنَبَتَتْ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا تَبَتُّ الْحَبَّةُ فِي الْأَرْضِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبُ الدُّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرْكَبُ»^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ وَفِي حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ ﷺ: «يَا أَبَا رَزِينٍ! أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ مُمَجَّلًا، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَرُ خَضْرَاءَ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ ﷺ: «فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى»^(٢).

(١) الطبري: ٤٣٨/٢٠ (٢) مسلم: ٤/٢٢٧١ (٣) أحمد: ٤/١٢ فيه وكيع بن عدس مجهول الحال

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ رُدَّ كَلَامُهُ عَلَى عَمَلِهِ، فَكَانَ أَوْلَى بِهِ^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ اللَّيْلَاتِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: هُمُ الْمُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ^(٧). يَعْنِي يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ يُوْهِمُونَ أَنَّهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ بُعْضَاءُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾ أَي: يَفْسُدُ وَيَبْطُلُ وَيَطْهَرُ زَيْفُهُمْ عَنْ قَرِيبٍ لِأَوْلِييِ الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، فَإِنَّهُ مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى صَفْحَاتٍ وَجْهِهِ وَقَلَنَاتٍ لِسَانِهِ، وَمَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ تَعَالَى رِدَاءَهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَالْمُرَائِي لَا يَرُوجُ أَمْرُهُ وَتَسْتَمِرُّ إِلَّا عَلَى غَيْبٍ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَمَرِّسُونَ فَلَا يَرُوجُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، بَلْ يَنْكَشِفُ لَهُمْ عَنْ قَرِيبٍ. وَعَالِمُ الْغَيْبِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

[اللَّهُ خَالِقُ وَعَلَامٌ لِلْغُيُوبِ]

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أَي: ذَكَرًا وَأُنْثَى، لُطْفًا مِنْهُ وَرَحْمَةً أَنْ جَعَلَ لَكُمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِكُمْ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أَي: هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا زَلَّةٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيظُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ⑧ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالَى [الرعد: ٨، ٩].

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَمُرُّ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يُقْضَى مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أَي: مَا يُعْطَى بَعْضُ النَّطْفِ مِنَ الْعُمْرِ الطَّوِيلِ يَعْلَمُهُ وَهُوَ عِنْدَهُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ﴿وَلَا يُقْضَى مِنْ عُمْرِهِ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ لَا عَلَى الْعَيْنِ، لِأَنَّ

[مَنْ يُرِدِ الْعِزَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَبْطِغِ الْعَرِيزَ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أَي: مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَرِيزًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلْيَلْزَمْ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ يَحْضُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَبْخِذُونَ أَلْفَافِينَ أُولِيَّةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنَبُوعَتٍ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥] وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَفَقِفِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ بِعِبَادَةِ الْأَوْلِيَانِ﴾ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا^(٨). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أَي: فَلْيَتَعَزَّزْ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٩).

[الْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ يَرْفَعُ إِلَى اللَّهِ]

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يَعْنِي الذِّكْرَ وَالنَّالَاةَ وَالِدُّعَاءَ. قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْمُخَارِقِ بْنِ سُلَيْمٍ قَالَ: قَالَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِذَا حَدَّثْنَاكُمْ بِحَدِيثٍ أَتَيْنَاكُمْ بِتَضْيِيقِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: إِنْ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ إِذَا قَالَ: شُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ، أَخَذَهُنَّ مَلَكٌ فَجَعَلَهُنَّ تَحْتَ جَنَاحِهِ ثُمَّ صَعِدَ بِهِنَّ إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يَمُرُّ بِهِنَّ عَلَى جَمْعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا اسْتَعْفَرُوا لِقَائِلِهِنَّ حَتَّى يَجِيءَ بِهِنَّ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١٠).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَهْلِيلِهِ، يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ لَهُنَّ دَوِيُّ كَدْرِيِّ النَّحْلِ، يُذَكَّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَرَالَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ شَيْءٌ يُذَكَّرُ بِهِ»^(١١) وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ^(١٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، يُصْعَدُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ أَدَاءُ الْفَرِيضَةِ، فَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى فِي أَدَاءِ فَرَائِضِهِ حَمَلَ عَمَلَهُ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى يَصْعَدُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ

(١) الطبري: ٤٤٣/٢٠ (٢) الطبري: ٤٤٤/٢٠ (٣) الطبري: ٤٤٤/٢٠ إسناده ضعيف فيه مخارق بن سليمان الشيباني وابنه مجهولا الحال (٤) أحمد: ٢٦٨/٤ (٥) ابن ماجه: ٢/١٢٥٢ (٦) الطبري: ٤٤٥/٢٠ (٧) الطبري: ٤٤٧/٢٠

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ سَابِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا
 مِلْحٌ أُجَاجٌ **﴿١٦﴾** وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
 حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ **﴿١٧﴾** يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
 النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
 لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ **﴿١٨﴾** إِنْ
 تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا يَسْمَعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
 وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ
﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ **﴿٢٠﴾** إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ **﴿٢١﴾**
 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ **﴿٢٢﴾** وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ
 تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
 إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتْرِكْ لِنَفْسِهِ ۗ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ **﴿٢٣﴾**

السُّفْنُ الْكِبَارُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَالِحَةً زُعَافًا مَرَّةً، وَلِهَذَا قَالَ:
﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مر. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **﴿وَمِنْ كُلِّ
 تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾** يَعْنِي السَّمَكُ **﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً
 تَلْبَسُونَهَا﴾** كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ
 وَالْمَرْجَانُ﴾** **﴿فَبِأَيِّ آيَاتِنَا تُكذِّبَان﴾** [الرحمن: ٢٢، ٢٣]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: **﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ﴾** أَي:
 تَمَحَّرُهُ وَتَشَقُّهُ بِحَيْرُومِهَا وَهُوَ مُقَدَّمُهَا الْمُسَمَّى الَّذِي يُشْبِهُ
 جَوْجَجَ الطَّيْرِ وَهُوَ صَدْرُهُ، وَقَالَ مَجَاهِدٌ: تَمَحَّرُ الرِّيحُ
 السُّفْنَ وَلَا يَمَحَّرُ الرِّيحُ مِنَ السُّفْنِ إِلَّا الْعِظَامُ وَقَوْلُهُ جَلَّ
 وَعَلَا: **﴿لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾** أَي: بِأَسْفَارِكُمْ بِالتَّجَارَةِ مِنْ قُطْرِ
 إِلَى قُطْرِ وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ **﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** أَي:
 تَشْكُرُونَ رَبَّكُمْ عَلَى تَسْخِيرِهِ لَكُمْ هَذَا الْخَلْقَ الْعَظِيمَ، وَهُوَ

الطَّوِيلَ الْعُمُرَ فِي الْكِتَابِ وَفِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُنْقِصُ مِنْ
 عُمُرِهِ. وَرَوَى مِنْ طَرِيقِ الْعُوفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ
 عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** يَقُولُ: لَيْسَ أَحَدٌ
 قَضَيْتُ لَهُ بِطُولِ الْعُمُرِ وَالْحَيَاةِ إِلَّا وَهُوَ بَالِغٌ مَا قَدَّرْتُ لَهُ
 مِنَ الْعُمُرِ، وَقَدْ قَضَيْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَإِنَّمَا يَنْتَهِي إِلَى الْكِتَابِ
 الَّذِي قَدَّرْتُ لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ قَدَّرْتُ لَهُ أَنَّهُ قَصِيرُ
 الْعُمُرِ وَالْحَيَاةِ بِبَالِغِ الْعُمُرِ، وَلَكِنْ يَنْتَهِي إِلَى الْكِتَابِ الَّذِي
 كَتَبْتُ لَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ إِلَّا فِي
 كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** يَقُولُ: كُلُّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ
 عِنْدَهُ ^(١). وَهَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مَرْزُوحٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ مَعْنَاهُ **﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾** أَي: مَا
 يُكْتَبُ مِنَ الْأَجَلِ **﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾** وَهُوَ ذَهَابُهُ قَلِيلًا
 قَلِيلًا، أَلْجَمِيعُ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى سَنَةٌ بَعْدَ سَنَةٍ، وَشَهْرًا
 بَعْدَ شَهْرٍ، وَجُمُعَةً بَعْدَ جُمُعَةٍ، وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَسَاعَةً بَعْدَ
 سَاعَةٍ، أَلْجَمِيعُ مَكْتُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ. نَقَلَهُ ابْنُ
 جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مَالِكٍ ^(٢)، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّدِيثُ وَعَطَاءُ
 الْخُرَّاسَانِيُّ.

وَرَوَى السَّنَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ أَنَسِ
 ابْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 يَقُولُ: **﴿مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي آثَرِهِ
 فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ﴾** ^(٣). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ ^(٤).
 وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** أَي: سَهْلٌ
 عَلَيْهِ يَسِيرٌ، لَدَيْهِ عِلْمُهُ بِذَلِكَ وَبِتَفْصِيلِهِ فِي جَمِيعِ
 مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ شَامِلٌ لِلْجَمِيعِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ
 مِنْهَا.

**﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ سَابِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ
 أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا
 وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** **﴿١٧﴾**
 [مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءِ
 الْمُخْتَلِفَةِ. خَلَقَ الْبَحْرَيْنِ: الْعَذْبَ الرَّزَّالَ، وَهُوَ هَذِهِ
 الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ كِبَارٍ وَصِغَارٍ بِحَسَبِ
 الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فِي الْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ وَالْعُمُرَانِ وَالْبَرَارِي
 وَالْقِفَارِ، وَهِيَ عَذْبَةٌ سَابِغٌ شَرَابُهَا لَمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ **﴿وَهَذَا
 مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾** أَي: مَرٌّ وَهُوَ الْبَحْرُ السَّاكِنُ الَّذِي تَسِيرُ فِيهِ

(١) الطبري: ٤٤٧/٢٠ إسناده ضعيف العوفي ضعيف والضحاك
 لم يسمع من ابن عباس (٢) الطبري: ٤٤٧/٢٠ (٣) السنائي
 في الكبرى: ٤٣٨/٦ (٤) فتح الباري: ٥٥٣/٤ ومسلم: ٤/
 ١٩٨٢ وأبو داود: ٣٢١/٢

الْبَحْرِ، تَتَصَرَّفُونَ فِيهِ كَيْفَ شِئْتُمْ، وَتَذْهَبُونَ أَيْنَ أَرَدْتُمْ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنْهُ، بَلْ بِقُدْرَتِهِ قَدْ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، الْجَمِيعِ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَلَا يَسْمَعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

[الهِئَةُ الْمُشْرِكِينَ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ]

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلَ بِظِلَامِهِ، وَالنَّهَارَ بِضِيَائِهِ، وَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فَيَزِيدُهُ فِي قِصْرِ هَذَا فَيَعْتَدِلَانِ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا، فَيَطْوِلُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا، ثُمَّ يَتَفَارَضَانِ صَيْفًا وَشِتَاءً ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أَي: وَالنَّجُومَ السَّيَّارَاتِ، وَالنَّوَابِتِ - الثَّاقِبَاتِ بِأَضْوَائِهِنَّ أَجْرَامَ السَّمَوَاتِ - الْجَمِيعِ يَسِيرُونَ بِمِقْدَارٍ [مُعَيَّنٍ] وَعَلَى مَنَهاجٍ مُقَدَّرٍ مُحَرَّرٍ، تَقْدِيرًا مِنْ عَزِيزٍ عَلِيمٍ ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَي: الَّذِي فَعَلَ هَذَا هُوَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورَةٍ مَنْ تَزْعُمُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُتَقَرَّبِينَ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ، وَعَطَاءٌ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: الْفِطْمِيرُ، هُوَ: اللَّفَافَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى نَوَازِ الثَّمَرَةِ^(١). أَي: لَا يَمْلِكُونَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا بِمِقْدَارِ هَذَا الْفِطْمِيرِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ﴾ يَعْنِي الْأِلَهَةَ الَّتِي تَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَسْمَعُ دَعْوَكُمْ، لِأَنَّهَا جَمَادٌ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أَي: لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا تَطْلُبُونَ مِنْهَا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أَي: يَنْبَرُّوْنَ مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَسْنَدُ وَمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دَعْوَاهُمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾ وَإِذَا حُجِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿الْأَحْقَافُ: ٦٥﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿مَرِيَمُ: ٨١، ٨٢﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أُنْتَهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ إِنَّ بَشَأَ يُذْهَبِكُمْ وَيَأْتِي بَخْلَقِي جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِئْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنْمَّا نُذِِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

[النَّاسُ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ وَكُلٌّ يَحْمِلُ أَوْزَارَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِغَنَائِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَبِافْتِقَارِ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَيْهِ كُلِّهَا وَتَذَلُّلِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أُنْتَهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: هُمْ مُخْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ، وَهُوَ تَعَالَى الْعَنِيُّ عَنْهُمْ بِالذَّلَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أَي: هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْعَنِيِّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ وَيَقُولُهُ وَيَقْدِرُهُ وَيَشْرَعُهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَشَأَ يُذْهَبِكُمْ وَيَأْتِي بَخْلَقِي جَدِيدٍ﴾ أَي: لَوْ شَاءَ لَأَذْهَبَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ؛ وَأَتَى بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ، وَمَا هَذَا عَلَيْهِ بِصَعْبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وَزِدَ أُخْرَىٰ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِئْلِهَا﴾ أَي: وَإِنْ تَدْعُ نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ بِأَوْزَارِهَا إِلَىٰ أَنْ تُسَاعِدَ عَلَىٰ حَمْلِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْأَوْزَارِ أَوْ بَعْضِهِ ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أَي: وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا إِلَيْهَا، حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ أَبَاهَا أَوْ ابْنَهَا، كُلٌّ مَسْغُولٌ بِنَفْسِهِ وَحَالِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُذِِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي: إِنَّمَا يَنْبَغُ بِمَا جِئْتُ بِهِ أَوْلُوا الْبَصَائِرِ وَاللُّهَى، الْخَائِفُونَ مِنْ رَبِّهِمْ، الْفَاعِلُونَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ﴿وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ﴾ أَي: وَمَنْ عَمِلَ ضَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي: وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَأُ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَسَرٌّ.

(١) الطبري: ٤٥٣/٢٠ (٢) الطبري: ٥٤٤/٢٠

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ٢٨ ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ٢٩ ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ﴾ ٣٠ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ ٣١ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ٣٢ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ٣٣ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ٣٤ ﴿لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ﴾ ٣٥

﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ: كَمَا لَا تَسْتَوِي هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُتْبَانِيَةُ الْمُخْتَلِفَةُ كَالأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرِ لَا يَسْتَوِيَانِ، بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَتَوْنٌ كَثِيرٌ، وَكَمَا لَا تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ، كَذَلِكَ لَا تَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الْأَحْيَاءُ وَالْكَافِرِينَ وَهُمْ الْأَمْوَاتُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أُنزِلَتْ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] فَالْمُؤْمِنُ بَصِيرٌ سَمِيعٌ فِي نُورٍ يَمْشِي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِهِ الْحَالُ فِي الْجَنَّةِ ذَاتِ الظَّلَالِ وَالْعُيُونِ، وَالْكَافِرُ أَعْمَىٰ وَأَصْمٌ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشِي لَا خُرُوجَ لَهُ مِنْهَا، بَلْ هُوَ يَتِيهَ فِي غَيْبِهِ وَضَلَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يُفْضِيَ بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْحُرُورِ وَالسَّمُومِ وَالْحَمِيمِ، وَظَلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ٢٨ ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ٢٩ ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ﴾ ٣٠ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ ٣١ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ٣٢ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ٣٣ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ٣٤

[لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ]

﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ: كَمَا لَا تَسْتَوِي هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُتْبَانِيَةُ الْمُخْتَلِفَةُ كَالأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرِ لَا يَسْتَوِيَانِ، بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَتَوْنٌ كَثِيرٌ، وَكَمَا لَا تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ، كَذَلِكَ لَا تَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الْأَحْيَاءُ وَالْكَافِرِينَ وَهُمْ الْأَمْوَاتُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أُنزِلَتْ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] فَالْمُؤْمِنُ بَصِيرٌ سَمِيعٌ فِي نُورٍ يَمْشِي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِهِ الْحَالُ فِي الْجَنَّةِ ذَاتِ الظَّلَالِ وَالْعُيُونِ، وَالْكَافِرُ أَعْمَىٰ وَأَصْمٌ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشِي لَا خُرُوجَ لَهُ مِنْهَا، بَلْ هُوَ يَتِيهَ فِي غَيْبِهِ وَضَلَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يُفْضِيَ بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْحُرُورِ وَالسَّمُومِ وَالْحَمِيمِ، وَظَلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ.

﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي: يَهْدِيهِمْ إِلَى سَمَاعِ الْحُجَّةِ وَقَبُولِهَا وَالْإِنْفِادِ لَهَا. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّن فِي الْقُبُورِ﴾ أَي: كَمَا لَا يَنْتَفِعُ الْأَمْوَاتُ، بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَصُرُورِهِمْ إِلَى قُبُورِهِمْ وَهُمْ كَفَّارٌ بِالْهَدَايَةِ وَاللِّدْعَاةِ إِلَيْهَا، كَذَلِكَ هُوَ لِأَنَّ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةَ لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِمْ وَلَا تَسْتَطِيعُ هِدَايَتَهُمْ ﴿إِن أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أَي: إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْإِنذَارُ، وَاللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي: بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أَي: وَمَا مِنْ أُمَّةٍ خَلَّتْ مِنْ نَبِيِّ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِمُ النَّذِيرَ، وَأَرَاخَ عَنْهُمْ الْعِلَالَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وَكَمَا قَالَ

تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الآية [النحل: ٣٦]. وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وَهِيَ الْمُعْجَزَاتُ الْبَاهِرَاتُ وَالْأَدِلَّةُ الْقَاطِعَاتُ ﴿وَبِالزَّبْرِ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَي: الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ كَذَّبَ أَوْلِيَاكَ رُسُلَهُمْ فِيمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ، فَأَخَذْتَهُمْ أَي: بِالْعِقَابِ وَالتَّكَالِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَي: فَكَيْفَ رَأَيْتَ إِنكَارِي عَلَيْهِمْ عَظِيمًا شَدِيدًا بَلِيغًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ٣٧ ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ٣٨ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ٣٩ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ٤٠ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ٤١ ﴿لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ﴾ ٤٢ ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ: كَمَا لَا تَسْتَوِي هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُتْبَانِيَةُ الْمُخْتَلِفَةُ كَالأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرِ لَا يَسْتَوِيَانِ، بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَتَوْنٌ كَثِيرٌ، وَكَمَا لَا تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ، كَذَلِكَ لَا تَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الْأَحْيَاءُ وَالْكَافِرِينَ وَهُمْ الْأَمْوَاتُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أُنزِلَتْ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] فَالْمُؤْمِنُ بَصِيرٌ سَمِيعٌ فِي نُورٍ يَمْشِي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِهِ الْحَالُ فِي الْجَنَّةِ ذَاتِ الظَّلَالِ وَالْعُيُونِ، وَالْكَافِرُ أَعْمَىٰ وَأَصْمٌ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشِي لَا خُرُوجَ لَهُ مِنْهَا، بَلْ هُوَ يَتِيهَ فِي غَيْبِهِ وَضَلَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يُفْضِيَ بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْحُرُورِ وَالسَّمُومِ وَالْحَمِيمِ، وَظَلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ.

[بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ]

كَلَّمَا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ: كَانَتْ
الْحَشِيَّةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ.

يَقُولُ تَعَالَى مُتَّبِعًا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءِ
الْمُنْتَوَعَةِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي
يُبْرُكُ مِنَ السَّمَاءِ، يُخْرَجُ بِهِ ثَمَرَاتٌ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا مِنْ
أَضْفَرٍ وَأَحْمَرَ وَأَخْضَرَ وَأَبْيَضَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْوَانِ
الَّتَمَارِ، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ مِنْ تَنَوُّعِ أَلْوَانِهَا وَطُعُومِهَا
وَرَوَائِحِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿رَفِي الْأَرْضِ
فَطَعٌ مُتَجَوِّرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَبٍ وَرَزَّعَ وَيَجِيءُ صِنُونٌ وَغَيْرُ
صِنُونٍ يَسْتَقِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَيَفْضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أَي: وَخَلَقَ الْجِبَالَ كَذَلِكَ مُخْتَلِفَةً

الْأَلْوَانِ، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ أَيْضًا مِنْ بِيضٍ وَحُمْرٍ، وَفِي
بَعْضِهَا طَرَائِقُ وَهِيَ الْجُدُدُ جَمْعُ جُدَّةٍ، مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ
أَيْضًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَلْجُدُدُ: الطَّرَائِقُ.
وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَمِنْهَا
غَرَابِيبُ سُودٍ. قَالَ عِكْرَمَةُ: الْغَرَابِيبُ: الْجِبَالُ الطُّوَالُ
السُّودُ. وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَقَتَادَةُ^(١):
وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَرَبُ إِذَا وَصَفُوا الْأَسْوَدَ بِكَثْرَةِ السَّوَادِ
قَالُوا: أَسْوَدٌ غَرِيبٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أَي: كَذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ
وَالذَّوَابِّ، وَهُوَ كُلُّ مَا دَبَّ عَلَى الْقَرَائِمِ، ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾، مِنْ
بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ كَذَلِكَ هِيَ مُخْتَلِفَةٌ أَيْضًا،
فَالنَّاسُ مِنْهُمْ بَرَبْرٌ وَحُبُوشٌ وَطَمَاظِمٌ فِي غَايَةِ السَّوَادِ،
وَصَفَالِيَّةٌ وَرُومٌ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ، وَالْعَرَبُ بَيْنَ ذَلِكَ وَالْهُنُودُ
دُونَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَأَخْتَلَفُ
أَسْنِيَكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ وَكَذَلِكَ
الذَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ حَتَّى فِي الْجِنْسِ
الْوَاحِدِ، بَلِ النَّوعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مُخْتَلِفٌ الْأَلْوَانِ، بَلِ
الْحَيَوَانُ الْوَاحِدُ يَكُونُ أُنْثَى، فِيهِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ وَهَذَا
اللَّوْنِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ﴾ أَي: إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ
بِهِ، لِأَنَّهُ كَلَّمَا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ
الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، الْمُنْتَوَعِ بِالْأَسْمَاءِ الْخُسْنَى،

كَلَّمَا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ: كَانَتْ
الْحَشِيَّةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قَالَ: الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٢). وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْعَالِمُ
بِالرَّحْمَنِ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَأَحْلَلَ حَلَالَهُ،
وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، وَحَفِظَ وَصِيَّتَهُ، وَأَيَقَنَ أَنَّهُ مُلَاقِيهِ وَمُحَاسَبٌ
بِعَمَلِهِ^(٣). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْحَشِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَحُولُ
بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:
الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغِبَ اللَّهُ
فِيهِ، وَزَهَدَ فِيمَا سَخَطَ اللَّهُ فِيهِ، ثُمَّ تَلَا الْحَسَنُ: ﴿إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي حَيَّانَ التَّمِيمِيِّ عَنْ رَجُلٍ
قَالَ: كَانَ يُقَالُ: الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بِاللَّهِ، عَالِمٌ بِأَمْرِ
اللَّهِ، وَعَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ
بِعَالِمٍ بِاللَّهِ، فَالْعَالِمُ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِ اللَّهِ: الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى
وَيَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ. وَالْعَالِمُ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ
اللَّهِ: الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ وَلَا يَعْلَمُ الْحُدُودَ وَلَا الْفَرَائِضَ.
وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ الْعَالِمُ بِاللَّهِ: الَّذِي يَعْلَمُ الْحُدُودَ
وَالْفَرَائِضَ وَلَا يَخْشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (٦٦)
لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ
شَكُورٌ (٦٧)

[الْمُسْلِمُونَ هُمْ تِجَارُ الْأَخِرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَهُ
وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَوْقَاتِ الْمَشْرُوعَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا،
سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أَي: يَرْجُونَ
ثَوَابًا عِنْدَ اللَّهِ لَا بُدَّ مِنْ حُصُولِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: لِيُؤْفِقَهُمْ
ثَوَابَ مَا عَمِلُوهُ وَيُضَاعِفَهُ لَهُمْ بِزِيَادَاتٍ لَمْ تَحْطُرْ لَهُمْ ﴿إِنَّهُ
غَفُورٌ﴾ أَي: لِيُدْنُوهُمْ ﴿شَكُورٌ﴾ لِلْقَلِيلِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

(١) الطبري: ٤٦١/٢٠ (٢) الطبري: ٤٦٢/٢٠ (٣) فيه ابن
لهيعة والسند إليه لم يذكر

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾
 إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾
 [الْقُرْآنُ كِتَابُ اللَّهِ الْحَقُّ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَي: مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ يُصَدِّقُهَا - كَمَا شَهِدَتْ هِيَ لَهُ بِالتَّنْوِيهِ، وَأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ - ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أَي: هُوَ خَبِيرٌ بِهِمْ بَصِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مَا يُفَضِّلُهُ بِهِ عَلَى مَنْ سِوَاهُ، وَلِهَذَا فَضَّلَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ، وَفَضَّلَ النَّبِيِّينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ، وَجَعَلَ مُنْزَلَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوْقَ جَمِيعِهِمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٣٢﴾
 [وَرَثَهُ الْقُرْآنُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ثُمَّ جَعَلْنَا الْقَائِمِينَ بِالْكِتَابِ الْعَظِيمِ الْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ، ثُمَّ قَسَمَهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ: فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وَهُوَ الْمُفْرَطُ فِي فِعْلِ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ الْمُرتَكِبِ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وَهُوَ الْمُؤَدِّي لِلْوَاجِبَاتِ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ، وَقَدْ يَتْرُكُ بَعْضُ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَيَفْعَلُ بَعْضَ الْمَكْرُوهَاتِ، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ﴾ وَهُوَ الْفَاعِلُ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضِ الْمُبَاحَاتِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قَالَ: هُمُ الْأُمَّةُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَرَثَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ، فَظَالِمُهُمْ يُعْفَرُ لَهُ، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(١). وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «سَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَايَرِ مِنْ أُمَّتِي». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْمُقْتَصِدُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ وَأَصْحَابُ الْأَعْرَافِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٢).

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّتُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ وَذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيموتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّكَ اللَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

وَكَذَا رَوَى عَنْ غَيْرٍ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْمُصْطَفِينَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عِوَجٍ وَتَقْصِيرٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا مِنَ الْمُصْطَفِينَ الْوَارِثِينَ لِلْكِتَابِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ أَيْضًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

[فَضْلُ الْعُلَمَاءِ]

وَالْعُلَمَاءُ أَغْبَطُ النَّاسِ بِهَذِهِ التَّعْمَةِ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ، فَإِنَّهُمْ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَيْسِ ابْنِ كَثِيرٍ قَالَ: قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِدِمَشْقَ، فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكَ أَيُّ أَخِي؟ قَالَ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا

(١) الطبري: ٤٦٥/٢٠ (٢) الطبراني: ١٨٩/١١ إسناده ضعيف جدًا: فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو وضاع [مجمع الروايات ٣٧٨/١٠]

وَاللُّغُوبُ كُلُّ مَنْهُمَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَبِ. وَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِتَنِي هَذَا وَهَذَا عَنْهُمْ: أَنَّهُمْ لَا تَعَبَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ وَلَا أَرْوَاحِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُدْبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْعِبَادَةِ فِي الدُّنْيَا، فَسَقَطَ عَنْهُمْ التَّكْلِيفُ بِدُخُولِهَا، وَصَارُوا فِي رَاحَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا آسَأْتُمْ فِي الْآيَاتِ الْفَالِغَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

[جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَحَالُهُمْ فِي جَهَنَّمَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَالَ السُّعْدَاءِ، شَرَعَ فِي بَيَانِ مَا لِلْأَشْقِيَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] وَتَبَّتْ فِي صَاحِبِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيُونَ»^(١). وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَادُوا بِكُنُوكَ لِيقُضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مُكِنُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧] فَهُمْ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ يَرَوْنَ مَوْتَهُمْ رَاحَةً لَهُمْ، وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُتَجَرِّبِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلَّمَا حَتَّ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الاسراء: ٩٧] ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أَي: هَذَا جَزَاءُ كُلِّ مَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ وَكَذَّبَ الْحَقَّ.

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ أَي: يُتَادُونَ فِيهَا يَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَصْوَاتِهِمْ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

الْحَدِيثُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهَا عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لَطَلَبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْجِنَّاتِ فِي الْمَاءِ، وَفَضَّلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(١). وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٢).

﴿جَدَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٧﴾ الَّذِي أَلْطَمَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ. لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٨﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُصْطَفَيْنِ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أُوْرثُوا الْكِتَابَ الْمُتَزَّلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَاوَاهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ، أَي: جَنَّاتُ الْإِقَامَةِ يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَقُدُومِهِمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يُحَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ كَمَا تَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَبْلُغُ الْجَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(٣). ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وَلِهَذَا كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَأَبَاحَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»^(٤) وَقَالَ: «هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ»^(٥).

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وَهُوَ الْخَوْفُ مِنَ الْمُحْدَرِ، أَرَاخَهُ عَنَّا وَأَرَاخَنَا مِمَّا كُنَّا نَتَخَوَّفُهُ وَنَحْذَرُهُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُهُ: غَفَّرَ لَهُمْ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَشَكَرَ لَهُمُ الْبَسِيرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ ﴿الَّذِي أَلْطَمَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يَقُولُونَ: الَّذِي أَعْطَانَا هَذِهِ الْمَثَلَةَ وَهَذَا الْمَقَامَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ، لَمْ تَكُنْ أَعْمَالَنَا تُسَاوِي ذَلِكَ، كَمَا تَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ تَعَالَىٰ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(٦). ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أَي: لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا عَنَاءٌ وَلَا إِغْيَاءٌ. وَالنَّصَبُ

(١) أحمد: ١٩٦/٥ إسناده ضعيف أبو داود ٢٢٣ ترمذي ٢٦٨٢ وقال: وليس إسناده عندي بمتصل فيه داود بن جميل وشيخه كثير بن قيس ضعيفان (٢) أبو داود: ١٥٧/٤ وتحفة الأحوذى: ٧/ ٤٥٠ وابن ماجه: ٨١/١ (٣) مسلم: ٢١٩/١ (٤) فتح الباري: ٢٩٦/١٠ (٥) فتح الباري: ٢٩٦/١٠ (٦) فتح الباري: ١٣٢/١٠ (٧) مسلم: ١٧٢/١

نَعْمَلْ صَلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٤٤﴾ أَي: يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ عَمَلِهِمُ الْأَوَّلِ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ لَوْ رَدَّهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، فَلِهَذَا لَا يُجِيبُهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿هَلْ إِلَى مَرَرٍ مِنْ سَبِيلِ﴾ [الشورى: ٤٤]، ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُتْرَكَ يَهْتَئِمُّوا﴾ [غافر: ١٢] أَي: لَا يُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ، وَلَوْ رُدُّدْتُمْ لَعُدْتُمْ إِلَى مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ، وَلِذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مِمَّا يَبْدَعُ فِيهِ مَنْ نَذَرَ وَأَعَمَّكُمْ النَّذِيرُ﴾ أَي: أَوْ مَا عَشْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَعْمَارًا لَوْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يَنْتَفِعُ بِالْحَقِّ لَأَنْتَفَعْتُمْ بِهِ فِي مَدَّةِ عُمْرِكُمْ؟

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عَدِيدِ أَحْيَاءِهِ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً، لَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، لَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ» (١). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الرُّقَاقِ مِنْ صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى امْرِئٍ أَحَرَ عُمُرُهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً» (٢). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَمَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعَدَّ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ» (٣). وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتَّسَائِيُّ فِي الرُّقَاقِ (٤).

وَلَمَّا كَانَ هَذَا هُوَ الْعُمُرُ الَّذِي يُعَذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عِبَادِهِ بِهِ وَيُزِيحُ بِهِ عَنْهُمْ الْعِلَلَ، كَانَ هُوَ الْعَالِبَ عَلَى أَعْمَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقْلَهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ». وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ جَمِيعًا فِي كِتَابِ الزُّهْدِ (٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَمَّكُمْ النَّذِيرُ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعِكْرَمَةَ وَأَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَتَادَةَ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَعْنِي الشَّيْبَ (٦). وَقَالَ السُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَعْنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأَوَّلِ» (٧) [النجم: ٥٦]. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عَنْ قَتَادَةَ فِيمَا رَوَاهُ شَيْبَانُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالْعُمُرِ وَالرُّسُلِ (٨). وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدَا يَمَكِّتُكُمُ

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ كَفَرَفَعَلِيهِ كُفْرَهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أُمَمٌ بَيْنَهُمْ كُنُوزٌ لَهُمْ عَلَى بَيْتِنَا مِنْ بَلَدٍ بَلَدٍ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٦﴾ إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِبْذَى مِنَ الْأَمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٨﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٩﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٥٠﴾

يَقْضِ عَيْنًا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْرُوتُونَ ﴿٥١﴾ لَقَدْ جَحَنَّاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٥٢﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨] أَي: لَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ فَأَبَيْتُمْ وَخَالَفْتُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّمَآ أَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَلَّمْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَشَاءَ إِلَّا فِي صَلْوَةٍ كَبِيرَةٍ ﴿٩﴾ [الملك: ٨، ٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَرُونَا أَهْدِنَا لِنَجْمِ اللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أَي: فَذَرُونَا عَذَابَ النَّارِ جَزَاءً عَلَىٰ مُخَالَفَتِكُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ فِي مَدَّةِ أَعْمَالِكُمْ، فَمَا لَكُمْ الْيَوْمَ نَاصِرٌ يُنْقِذُكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ وَالْأَغْلَالِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ كَفَرَفَعَلِيهِ كُفْرَهُ

(١) أحمد: ٢/٢٧٥ (٢) فتح الباري: ١١/٢٤٣ (٣) الطبري: ٢٠/٤٧٨ (٤) أحمد: ٢/٤١٧ وتحفة الأشراف: ٩/٤٧٢ (٥) الترمذي: ٣٥٥٠ وابن ماجه: ٤٢٣٦ (٦) البغوي: ٣/٥٧٣ (٧) الطبري: ٢٠/٤٧٨ (٨) الدر المشهور: ٧/٣٢

كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿١٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ السَّرَائِرُ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الصَّمَائِرُ، وَسَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: يَخْلُقُ قَوْمًا لِأَخْرِين قَبْلَهُمْ وَجِيلٌ لِجِيلٍ قَبْلَهُمْ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أَي: فَإِنَّمَا يَعُودُ وَيَبَالُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ دُونَ غَيْرِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أَي: كُلَّمَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ أَبْغَضَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلَّمَا اسْتَمَرُّوا فِيهِ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُ أَحَدِهِمْ وَحَسَنَ عَمَلُهُ، إِزْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ وَمَثَلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَزَادَ أَجْرُهُ، وَأَحْبَبَهُ خَالِفُهُ وَبَارَأَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْوِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مَنَّهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [١٦٧] إِنْ اللَّهُ يُسِيكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٦٨﴾

[التَنْبِيهِ عَلَى عَجْزِ الشُّرَكَاءِ وَقُدْرَةِ اللَّهِ الْعَالِيَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرُسُلِهِ ﷺ أَنْ يَقُولُوا لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿أَرْوِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أَي: لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعِيرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مَنَّهُ﴾ أَي: أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ كِتَابًا بِمَا يَقُولُونَ مِنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أَي: بَلْ إِنَّمَا اتَّبَعُوا فِي ذَلِكَ أَهْوَاءَهُمْ وَأَرَآءَهُمْ وَأَمَانِيَهُمُ الَّتِي تَمَنَّوْهَا لِأَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ غُرُورٌ وَبَاطِلٌ وَزُورٌ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بِهَا تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَنْ أَمْرِهِ، وَمَا جَعَلَ فِيهِمَا مِنَ الْقُوَّةِ الْمَاسِكَةِ لَهُمَا، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسِيكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أَي: أَنْ تَضْطَرِبَا عَنْ أَمَاكِنِهِمَا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُسِيكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. ﴿وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾

أَي: لَا يَقْدِرُ عَلَى دَوَامِهِمَا وَبِقَائِهِمَا إِلَّا هُوَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حَلِيمٌ غَفُورٌ أَي: يَرَى عِبَادَهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَعْصُونَ، وَهُوَ يَحْلُمُ فَيُؤَخِّرُ، وَيُنْظِرُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يَعْجَلُ، وَيَسْتُرُ آخِرِينَ وَيَغْفِرُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ الْإِنْسَانِ الْأُمِّيِّ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [١٦٩] اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِيهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ يَحْدِلَ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٧٠﴾

[تَمَّتْ الْكُفَّارِ مَجِيءَ نَذِيرٍ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ كَفَرُوا بِهِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ، أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ قَبْلَ إِزْسَالِ الرُّسُولِ إِلَيْهِمْ: ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ الْإِنْسَانِ الْأُمِّيِّ﴾، أَي: مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ. قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَنَنْفِكُ﴾ [١٧١] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةٌ فَهَلْ أَظْهَرُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ [١٧٢] لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولَىٰ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ فَكَفَرُوا بِهِ سَمُوقٌ يَعْلَمُونَ [الصافات: ١٥٦-١٧٠] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَا أَنْزَلَ مَعَهُ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ﴾ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أَي: مَا اِزْدَادُوا إِلَّا كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أَي: وَمَكْرُوا بِالنَّاسِ فِي صَدِّهِمْ إِيَّاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِيهِ﴾ أَي: وَمَا يَعُودُ وَيَبَالُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ﴾ يَعْنِي عُثُوبَةَ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ ﴿وَلَنْ يَحْدِلَ إِسْنَةٌ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أَي: لَا تُغَيِّرُ وَلَا تُبَدِّلُ، بَلْ هِيَ جَارِيَةٌ كَذَلِكَ فِي كُلِّ مَكْدَبٍ ﴿وَلَنْ يَحْدِلَ إِسْنَتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أَي ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١] وَلَا يَكْشِفُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُحَوِّلُهُ عَنْهُمْ أَحَدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

[ذَكَرَ النَّتَائِجَ السَّيِّئَةَ لِتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ! لِهَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ، كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا، فَخَلَّتْ مِنْهُمْ مَنَازِلُهُمْ، وَسَلِبُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ بَعْدَ كَمَالِ الْقُوَّةِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعَدَدِ، وَكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، فَمَا أَعْنَى ذَلِكَ شَيْئًا، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، لِإِنَّهُ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَ كُونَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أَي: عَلِيمٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ قَدِيرٌ عَلَى مَجْمُوعِهَا.

[حِكْمَةُ تَأْجِيلِ الْمَوْاعِظَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أَي: لَوْ أَخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لِأَهْلَكَ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَمَا يَمْلِكُونَهُ مِنْ دَوَابٍّ وَأَرْزَاقٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أَي: لَمَّا سَفَاهُمُ الْمَطَرُ فَمَاتَتْ جَمِيعُ الدَّوَابِّ، ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: وَلَكِنْ يُنْظِرُهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَحَاسِبُهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَيُؤَفِّي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، فَيَجَازِي بِالنَّوَابِ أَهْلَ الطَّاعَةِ وَبِالْعِقَابِ أَهْلَ الْمُعْصِيَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾. أَخْرَجُ تَفْسِيرَ سُورَةِ فَاطِرٍ وَ اللَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ يَسٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسٍ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلِ الْعَزِيمِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ

﴿وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

سُورَةُ الْيَسِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسٍ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلِ الْعَزِيمِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعِقِهِمْ أَغْلًا لَا فَهَىٰ إِلَىٰ الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَيُنَكِّتُ مَا قَدَّمُوا وَآخِرُهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ [الرَّسُولُ بَعَثَ مُنْذِرًا]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ أَي: الْمُحْكَمِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴿إِنَّكَ﴾ أَي: يَا مُحَمَّدُ! ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ أَي: عَلَى مَنَهِجٍ وَدِينٍ قَوِيمٍ وَشَرَعٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿نَزِيلِ الْعَزِيمِ الرَّحِيمِ﴾ أَي: هَذَا الصِّرَاطُ وَالْمَنَهِجُ وَالَّذِينَ الَّذِينَ جِئْتُ بِهِ تَنْزِيلٍ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ الرَّحِيمِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ آلَا إِلَى اللَّهِ تَصَدَّرَ الْأُمُورُ ﴿[الشورى: ٥٢، ٥٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ يَعْنِي بِهِمُ الْعَرَبَ، فَإِنَّهُ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ. وَذَكَرَهُمْ وَخَذَهُمْ لَا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ، كَمَا أَنَّ ذَكَرَ بَعْضَ الْأَفْرَادِ لَا يَنْفِي الْعُمُومَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ فِي عُمُومِ بَعْثِهِ ﷺ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَكْفُرُ النَّاسُ

أَسْلَمَ: جَعَلَ اللهُ تَعَالَى هَذَا السَّدَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ
وَالْإِيمَانِ، فَهُمْ لَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ، وَقَرَأَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ
آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ثُمَّ قَالَ: مَنْ
مَنَعَهُ اللهُ تَعَالَى لَا يَسْتَطِيعُ^(٨). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: قَالَ أَبُو
جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا لَأَفْعَلَنَّ وَلَا فَعَلَنْ، فَأَنْزَلَتْ ﴿إِنَّا
جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قَالَ:
وَكُنَّا يَقُولُونَ: هَذَا مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: أَيْنَ هُوَ؟ أَيْنَ هُوَ؟ لَا
يُبْصِرُهُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٩).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَوْءَ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي: فَقَدْ خَتَمَ اللهُ عَلَيْهِمُ بِالضَّلَالَةِ فَمَا
يُفِيدُ فِيهِمُ الْإِنذَارُ وَلَا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُهَا فِي
أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَكَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ
آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧، ٩٨] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ
اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أَي: إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنذَارِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ الذِّكْرَ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ﴿وَخَوَّيْنَا الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾
أَي: حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يَعْلَمُ أَنَّ اللهُ
مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُ ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أَي: لِدُنُوبِهِ
﴿وَأَجْرٍ كَبِيرٍ﴾ أَي: كَثِيرٍ وَاسِعٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ، كَمَا قَالَ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ رَبِّهِمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
الْمَوْتَ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللهُ تَعَالَى
يُحْيِي قَلْبَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ، الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ
بِالضَّلَالَةِ فَهَيِّدِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ
ذِكْرِ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أَي: مِنَ الْأَعْمَالِ،
﴿وَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ أَي: نَكُتُبُ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي بَاشَرُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ،
وَأَتَّارَهُمُ الَّتِي اتَّروها مِنْ بَعْدِهِمْ فَتَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا:
إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، كَقَوْلِهِ ﷻ: «مَنْ سَنَّ فِي
الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ

إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَقَدْ
وَجِبَ الْعَذَابُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ حَتَمَ عَلَيْهِمْ
فِي أُمَّ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِاللَّهِ وَلَا
يُصَدِّقُونَ رَسُولَهُ^(١١).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ
مُتَمَحِّوْنَ ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَعْشَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ وَسَوْءَ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوَّيْنَا
الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَبِيرٍ ﴿٢١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَأَنْذَرْتَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ
مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

[حَالٌ مِنْ كَيْتَبِ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّا جَعَلْنَا هُؤُلَاءِ الْمُتَمَحِّوْنَ عَلَيْهِمْ بِالشَّقَاوَةِ
نِسْبَتَهُمْ إِلَى الْوُضُوعِ إِلَى الْهَدْيِ كَنِسْبَةِ مَنْ جُعِلَ فِي عُنُقِهِ
عُلٌّ، فَجَمَعَ يَدِيهِ مَعَ عُنُقِهِ تَحْتَ ذَقْنِهِ، فَارْتَفَعَ رَأْسُهُ فَصَارَ
مُتَمَحِّيًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ مُتَمَحِّوْنَ﴾ وَالْمُتَمَحِّحُ هُوَ
الرَّافِعُ رَأْسَهُ. كَمَا قَالَتْ أُمُّ زَرْعٍ فِي كَلَامِهَا: وَأَشْرَبُ
فَأَتَمَّحُ^(٢). أَي: أَشْرَبُ فَارْوَى، وَأَرَفَعُ رَأْسِي تَهْنِئَةً
وَتَرَوُّيًا. وَانْكَفَى بِذِكْرِ الْعُلِّ فِي الْعُنُقِ عَنْ ذِكْرِ الْيَدَيْنِ وَإِنْ
كَانَتْ مُرَادَتَيْنِ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهِيَ إِلَى
الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُتَمَحِّوْنَ﴾ قَالَ: هُوَ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ
يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ أَيْدِيَهُمْ
مُوثَقَةٌ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْطُوهَا بِخَيْرٍ^(٣).
وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَهُمْ مُتَمَحِّوْنَ﴾ قَالَ: [رَافِعُوا] رُؤُوسِهِمْ،
وَأَيْدِيَهُمْ مَوْضُوعَةٌ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ^(٤). فَهُمْ مَغْلُوبُونَ عَنْ كُلِّ
خَيْرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ قَالَ
مُجَاهِدٌ: عَنِ الْحَقِّ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: عَنِ
الْحَقِّ فَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي الضَّلَالَاتِ^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْشَيْنَهُمْ﴾ أَي: أَعْشَيْنَا أَبْصَارَهُمْ عَنِ
الْحَقِّ ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أَي: لَا يَنْتَفِعُونَ بِخَيْرٍ وَلَا يَهْتَدُونَ
إِلَيْهِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ
عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ ﴿فَأَعْشَيْنَهُمْ﴾ بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ مِنَ الْعُشَا،
وَهُوَ دَاءٌ فِي الْعَيْنِ^(٧). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ

(١) الطبري: ٤٩٢/٢٠ (٢) البخاري: ٥١٨٩. ومسلم: ٢٤٤٨

(٣) الطبري: ٤٩٤/٢٠ (٤) الطبري: ٤٩٤/٢٠ (٥) الطبري:

٤٩٥/٢٠ (٦) الطبري: ٤٩٥/٢٠ (٧) الطبري: ٤٩٦/٢٠

(٨) الطبري: ٤٩٥/٢٠ (٩) الطبري: ٤٩٥/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤١

سُورَةُ يَسٍ

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٧﴾
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعُزَّزْنَا بِنَاثِلِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
 إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ
 الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا
 إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٤٠﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٤١﴾
 قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَنَمَسِّنَنَكُم
 وَمِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ
 بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٤٣﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
 يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٤﴾ اتَّبِعُوا مَنْ
 لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَالِيَ لَا أُعْبِدُ إِلَّا اللَّهَ
 فَنُفِرَ فِيهِ وَلِيَّهِ تَرْجِعُونَ ﴿٤٦﴾ أَتَأْخُذُونَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ
 يُرِيدِنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا
 يُنْقِذُونَهُ إِذْ إِذَا لِي ضَلَالِ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ إِنِّي أَمِنْتُ
 بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٤٨﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي
 يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٥٠﴾

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ثَابِتٍ قَالَ: مَشَيْتُ مَعَ أَنَسِ بْنِ رَضِيٍّ اللَّهُ
 عَنْهُ فَأَسْرَعْتُ الْمَشْيَ فَأَخَذَ بِيَدِي فَمَشَيْتُنَا رُوَيْدًا، فَلَمَّا
 فَصَيْنَا الصَّلَاةَ قَالَ أَنَسُ: مَشَيْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فَأَسْرَعْتُ
 الْمَشْيَ، فَقَالَ: يَا أَنَسُ! أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ الْأَنْبَاءَ تُكْتَبُ؟^(١)
 وَهَذَا الْقَوْلُ لَا تُنَافِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَوَّلِ، بَلْ فِي هَذَا تَنْبِيهُ
 وَدَلَالَةٌ عَلَى ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأُخْرَى، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ
 هَذِهِ الْأَنْبَاءُ تُكْتَبُ، فَلَأَنْ تُكْتَبَ تِلْكَ الَّتِي فِيهَا قُدُوءٌ بِهِمْ مِنْ
 خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ:
 وَجَمِيعِ الْكُتَائِبَاتِ مَكْتُوبَةٍ فِي كِتَابِ مَسْطُورٍ، مَضْبُوطٍ فِي

بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي
 الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ
 بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ
 جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِيهِ قِصَّةُ مُجْتَابِي
 النَّبَارِ الْمُضْرَبِينَ^(١). وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ، ثُمَّ تَلَا
 هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ﴾ وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ
 مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ^(٢).

وَهَكَذَا الْحَدِيثُ الْآخَرُ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي
 هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ
 ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ عِلْمٍ يُتْتَعَبُ بِهِ، أَوْ
 وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ»^(٣). وَقَالَ
 سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ
 مُجَاهِدًا يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُوتَ
 وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ﴾ قَالَ: مَا أَوْرَثُوا مِنَ الصَّلَاةِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ وَغَيْرُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ «مَا قَدَّمُوا»
 أَعْمَالَهُمْ «وَآخَرَهُمْ» قَالَ: خُطَاهُمْ بِأَرْجُلِهِمْ^(٤). وَكَذَا
 قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: «وَآخَرَهُمْ» يَعْنِي خُطَاهُمْ^(٥). وَقَالَ
 قَتَادَةُ: لَوْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُغْفِلًا شَيْئًا مِنْ شَأْنِكَ يَا ابْنَ
 آدَمَ، أَغْفَلَ مَا تُعْنِي الرِّيَاحُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْبَاءِ^(٦). وَلَكِنْ
 أَحْصَى عَلَى ابْنِ آدَمَ أَثَرَهُ وَعَمَلَهُ كُلَّهُ، حَتَّى أَحْصَى هَذَا
 الْأَثَرَ فِيمَا هُوَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، فَمَنْ
 اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُكْتَبَ أَثَرُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَلْيَفْعَلْ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا، قَالَ: خَلَبَ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ
 أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ
 لَهُمْ: «إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟»
 قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «يَا بَنِي
 سَلَمَةَ! دِيَارَكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ»^(٧).
 وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ^(٨).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا، قَالَ: تُوُفِّيَ رَجُلٌ فِي الْمَدِينَةِ فَصَلَّى عَلَيْهِ
 النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: «يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ»، فَقَالَ
 رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ: وَلِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
 «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا تُوُفِّيَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ، فَيَسَّرَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى
 مُنْقَطِعِ أَثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ»^(٩). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(١٠).

(١) مسلم: ٧٠٤/٢ (٢) مسلم: ٧٠٦/٢ (٣) مسلم: ٣/

١٢٥٥ (٤) الطبري: ٤٩٧/٢٠ (٥) الطبري: ٤٩٩/٢٠ (٦)

الطبري: ٤٩٩/٢٠ (٧) أحمد: ٣٣٢/٣ (٨) مسلم: ١/

٤٦٢ (٩) أحمد: ١٧٧/٢ (١٠) النسائي: ٧/٤ وابن ماجه:

٥١٥/١ (١١) الطبري: ٤٩٨/٢٠ إسناده ضعيف شيخ الطبراني

ابن حميد أقرب إلى الترك منه إلى الضعف

لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ، وَالْإِمَامُ الْمُيَسَّرُ هَهُنَا هُوَ أُمُّ الْكِتَابِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ^(١). وَكَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أَيْ: بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ وَجَاءَهُ بِالْيَقِينِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٦٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ فَدَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوقِلْنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٢) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿٣٣﴾ قَالُوا مَا آتَانَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتَ إِلَّا تَكْوِينٌ ﴿٣٤﴾ قَالُوا رَبَّنَا بَعَلُّ إِيَّاكَ لَمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٣٦﴾

[قِصَّةُ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ مَعَ الرُّسُلِ، وَهِيَ تُفِيدُ إِهْلَاكَ الْمُكذِّبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَاضْرِبْ يَا مُحَمَّدٌ لِقَوْمِكَ الَّذِينَ كَذَّبوكَ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٢﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِيمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَكَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ ابْنِ مُثَنَّبٍ: إِنَّهَا مَدِينَةُ أَنْطَاكِيَّةَ وَكَانَ بِهَا مَلِكٌ يُقَالُ لَهُ: أَنْطَاخَسُ بْنُ أَنْطَاخَسِ بْنِ أَنْطَاخَسِ وَكَانَ يَعْْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ ثَلَاثَةً مِنَ الرُّسُلِ، وَهُمْ صَادِقٌ وَصَدُوقٌ وَسَلُومٌ، فَكَذَّبَهُمْ^(١). وَهَكَذَا رَوَى عَنْ بُرَيْدَةَ بِنِ الْحُصَيْبِ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَالزُّهْرِيَّ: أَنَّهَا أَنْطَاكِيَّةُ^(٢). وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ الْأَيِّمَةِ كَوْنَهَا أَنْطَاكِيَّةَ، بِمَا سَنَدُّوهُ بَعْدَ تَمَامِ الْقِصَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أَيْ: بَادَرُوهُمَا بِالتَّكْذِيبِ ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أَيْ: قَوَّيْنَاهُمَا وَشَدَدْنَا أَرْزَهُمَا بِرَسُولٍ ثَالِثٍ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ وَهْبِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ شُعَيْبِ الْجُبَايِّيِّ قَالَ: كَانَ اسْمُ الرُّسُولَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ شَمْعُونَ وَيُوحَنَّا، وَاسْمُ الثَّلَاثِ بُولُصَ، وَالْقَرْيَةُ أَنْطَاكِيَّةُ ﴿فَقَالُوا﴾ أَيْ: لِأَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ أَيْ: مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ، يَا مُرْكُمُ بَعْبَادِيهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ. وَرَعَمَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ أَنَّهُمْ كَانُوا رُسُلَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَهْلِ أَنْطَاكِيَّةَ ﴿قَالُوا مَا آتَانَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أَيْ: فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكُمْ

وَأَنْتُمْ بَشَرٌ وَنَحْنُ بَشَرٌ، فَلِمَ لَا أُوحِيَ إِلَيْنَا مِثْلَكُمْ، وَلَوْ كُنْتُمْ رُسُلًا لَكُنْتُمْ مَلَائِكَةً. وَهَذِهِ شُبُهَةٌ كَثِيرٌ مِنَ الْأَسْمِ الْمُكذَّبِيَّةِ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِثْلُ دُونِنَا﴾ [التغابن: ٦] أَيْ: اسْتَعْجَبُوا مِنْ ذَلِكَ وَأَنْكَرُوهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَدْعُنَا آبَاءُنَا قَاتِلِينَ إِسْلَامِيْنَ مُبِينِينَ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمُ إِنَّكُمْ لِرِجَالٍ لَخَيْرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتَ إِلَّا تَكْوِينٌ﴾ ﴿٣٤﴾ قَالُوا رَبَّنَا بَعَلُّ إِيَّاكَ لَمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَيْ: أَجَابَتْهُمْ رُسُلُهُمُ الثَّلَاثَةُ قَائِلِينَ: اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ رُسُلَهُ إِلَيْكُمْ، وَلَوْ كُنَّا كَذِبَةً عَلَيْهِ لَأَنْتَمَ مِنَّا أَشَدُّ الْإِنْتِقَامِ، وَلَكِنَّهُ سَمِعَظْنَا وَنَبَضَرْنَا عَلَيْكُمْ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ يَقُولُونَ: إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسَلْنَا بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِذَا أَطَعْتُمْ كَانَتْ لَكُمْ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ لَمْ تُجِيبُوا فَسَتَعْلَمُونَ غَيْبَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَرَّحْمَنُكَرُ وَلِمَسَّكَرُ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾ قَالُوا طَيَّرْنَا بِكُمْ أَيْ دَكَّرْنَا بِكُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ ﴿٣٧﴾

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أَيْ: لَمْ نَرِ عَلَىٰ وُجُوهِكُمْ خَيْرًا فِي عَيْشِنَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُونَ: إِنْ أَصَابَنَا شَرٌّ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِكُمْ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُونَ: لَمْ يَدْخُلْ مِثْلُكُمْ إِلَىٰ قَرْيَةٍ إِلَّا عَذَّبَ أَهْلَهُ ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَرَّحْمَنُكَرُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: بِالْحِجَارَةِ^(٥).

(١) الطبري: ٤٩٩/٢٠ (٢) الطبري: ٥٠٠/٢٠ إسناده ضعيف لوجوه: الأول- هو من بلاغات ابن إسحاق وهو مدلس الثاني - والسند إليه ضعيف فيه سلمة بن الفضل ومحمد بن حميد ضعيفان (٣) الطبري: ٥٠٠/٢٠ (٤) الطبري: ٥٠٢/٢٠ (٥) الطبري: ٥٠٢/٢٠

﴿إِنْ يُرِيدَنَّ الرَّحْمَنُ يُضِرَّ لَا تَنْعِنَ عَنِّي شَفَعَتْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُقَدِّرُونَ﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئًا، فإن الله تعالى لو أرادني بسوءٍ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا يُقَدِّرُونِي مِمَّا أَنَا فِيهِ ﴿إِنِّي إِذَا لِي صَلَاتِي مُبِينٌ﴾ أي: إن اتَّخَذْتُهَا إِلَهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب وهب: يقول لقومه: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي كَفَرْتُمْ بِهِ ﴿فَاسْمَعُون﴾ أي: فاسمعوا قولي^(٣). ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خِطَابَهُ لِلرُّسُلِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: الذي أَرْسَلْتُمْ ﴿فَاسْمَعُون﴾ أي: فاشهدوا لي بذلك عنده. وقد حكاها ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ، وَابْتَعْتُمْ. وهذا القول الذي حكاها عن هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب وهب: فلما قال ذلك، ونبوا عليه ونبه رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه^(٤). وقال قتادة: جعلوا يَرْجُمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَفْعَصُوهُ، وَهُوَ يَقُولُ كَذَلِكَ، فَقتلوه رجماً لله^(٥).

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَا عَفْرَى لِي رَيْبٌ وَجَلَّتْ لِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خاكِدُونَ﴾

قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّهُمْ وَطِئُوهُ بِأَرْجُلِهِمْ حَتَّى خَرَجَ قُضْبُهُ مِنْ دُبُرِهِ، وَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فَدَخَلَهَا فَهُوَ يَرْزُقُ فِيهَا، قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُ سُقْمَ الدُّنْيَا وَحَزْنَهَا وَنَصَبَهَا^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قِيلَ لِحَبِيبِ النَّجَّارِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قِيلَ فَوَجَبَتْ لَهُ، فَلَمَّا رَأَى الثَّوَابَ ﴿قَالَ

﴿وَلَيْسَ لَكُمْ مِنَّا عِدَاكُ الْبِرِّ﴾ أي: عُقُوبَةُ شَدِيدَةٌ، فَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ: ﴿طَلَبْنَاكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: مَرَدُّودٌ عَلَيْكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] وَقَالَ قَوْمٌ صَالِحٌ: ﴿الْمَكْرَنَاتُ بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَلَبْنَاكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكْفُرُونَ بِقُلُوبِهِمْ حَتَّى﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿إِن دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ﴾ أي: مِنْ أَجْلِ أَنَّا دَكَّرْنَاكُمْ وَأَمْرَانَا بِتَوْجِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، قَابِلْتُمُونَا بِهَذَا الْكَلَامِ وَتَوَعَّدْتُمُونَا وَتَهَدَّدْتُمُونَا، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَي: إِنْ دَكَّرْنَاكُمْ بِاللَّهِ تَطَيَّرْتُمْ بِنَا، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ^(٧).

﴿وَجَاءَ مِنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلِكُ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجُوعِي﴾ ﴿أَتَأْتِدُّ مِنْ دُونِهِ﴾ الْعَاهَةَ إِنْ يُرِيدَنَّ الرَّحْمَنُ يُضِرَّ لَا تَنْعِنَ عَنِّي شَفَعَتْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُقَدِّرُونَ ﴿إِنِّي إِذَا لِي صَلَاتِي مُبِينٌ﴾ ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأخباري وهب بن ميثم: إِنْ أَهْلَ الْقَرْيَةِ هَمُّوا بِقَتْلِ رُسُلِهِمْ، فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَفْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، أَي: لِيَنْصُرَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ، قَالُوا: وَهُوَ حَبِيبٌ، وَكَانَ يَعْمَلُ الْحَرِيرَ، وَهُوَ الْحَبَالُ، وَكَانَ رَجُلًا سَقِيمًا قَدْ أَسْرَعَ فِيهِ الْجُدَامُ. وَكَانَ كَثِيرَ الصَّدَقَةِ يَتَصَدَّقُ بِنِصْفِ كَسْبِهِ، مُسْتَقِيمَ الْفِطْرَةِ^(٨). وَقَالَ سَيْبُ بْنُ يَشْرٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: اسْمُ صَاحِبِ لَيْسَ حَبِيبِ النَّجَّارِ، فَقتلَهُ قَوْمُهُ. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يُحِضُّ قَوْمَهُ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ اتَّوَّهُمُ ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلِكُ أَجْرًا﴾ أَي: عَلَى إِبْلَاحِ الرِّسَالَةِ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ فِيمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أَي: وَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّذِي خَلَقَنِي وَخَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَإِلَيْهِ رُجُوعُونَ﴾ أَي: يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيَجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ﴿أَتَأْتِدُّ مِنْ دُونِهِ الْعَاهَةَ﴾ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٌ وَتَوْبِيخٌ وَتَفْرِيعٌ

(١) الطبري: ٥٠٤/٢٠ وهذا أيضا من بلاغات ابن إسحاق انظر ما قبله (٢) الطبري: ٥٠٤/٢٠ (٣) الطبري: ٥٠٧/٢٠ (٤) الطبري: ٥٠٨/٢٠ انظر حكم ما تقدم من بلاغات ابن إسحاق (٥) الطبري: ٥٠١/٢٠ (٦) الطبري: ٥٠٨/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٢

سُورَةُ يَسٍ

بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ^(١). قَالَ فَتَادَةُ: لَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا نَاصِحًا لَا تَلْقَاهُ غَاشًا. لَمَّا عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ^(٢)﴾ بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿عَلَى﴾ اللَّهُ أَنْ يُعْلِمَ قَوْمَهُ بِمَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ وَمَا هَجَمَ عَلَيْهِ^(٣). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَصَحَ قَوْمَهُ فِي حَيَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَقْوَمُوا أُنْتُمْ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ^(٤)﴾ بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ عَنْ أَبِي مَجَلِزٍ ﴿بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ بِإِيمَانِي بِرَبِّي وَتَصْدِيقِي الْمُرْسَلِينَ^(٥). وَمَقْصُودُهُ: أَنَّهُمْ لَوْ أُطْلِعُوا عَلَى مَا حَصَلَ لِي مِنْ هَذَا الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، لَفَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ فَرَجِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ، فَلَقَدْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ يَعْني ابْنَ عَمِيرٍ قَالَ: قَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ التَّقْفِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ابْعَثْنِي إِلَى قَوْمِي أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَفْتُلُوكَ». فَقَالَ: لَوْ وَجَدُونِي نَائِمًا مَا أَتَيْتُوَنِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْطَلِقْ» فَانْطَلَقَ، فَمَرَّ عَلَى اللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ: لِأَصْبِحَنَّكَ عَدَا بِمَا يَسُؤُوكَ، فَغَضِبَتْ تَقِيْفٌ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ تَقِيْفٍ! إِنَّ اللَّاتَ لَا آتَ، وَإِنَّ الْعُزَّى لَا عُرَى، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا، يَا مَعْشَرَ الْأَخْلَافِ! إِنَّ الْعُزَّى لَا عُرَى، وَإِنَّ اللَّاتَ لَا آتَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا، قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ فَأَصَابَ أَحْمَلَهُ فَفَتَلَهُ، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «هَذَا مِثْلُهُ كَمِثْلِ صَاحِبِ يَسَ» ﴿قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ^(٦)﴾ بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ^(٧).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَجِدَةً﴾ وَأَهْلُكَ أَهْلُ أَنْطَاكِيَّةَ، فَبَادُوا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ^(٨). وَقِيلَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أَيُّ: وَمَا كُنَّا نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى الْأُمَّمِ إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ، بَلْ تَبَعَتْ عَلَيْهِمْ عَدَا بَا يُدْمِرُهُمْ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: مِنْ رِسَالَةٍ أُخْرَى إِلَيْهِمْ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَتَادَةُ^(٩). قَالَ فَتَادَةُ: فَلَا وَاللَّهِ مَا عَاتَبَ اللَّهُ قَوْمَهُ بَعْدَ قَتْلِهِ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَجِدَةً﴾ فَإِذَا هُمْ

(١) الطبري: ٥٠٩/٢٠ (٢) الطبري: ٥٠٩/٢٠ (٣) الطبري (٤) الطبري: ٢٩١٧٨ ليست فيه علة سوى تدليس الثوري وهو مدلس ولم يصرح (٥) الحاكم: ٦١٥/٣ مرسل ضعيف وأيضا فيه ابن لهيعة وعند ابن أبي حاتم (٦٠٤٧) فيه محمد بن جابر وهو ضعيف كما تقدم (٧) الطبري: ٥١٠/٢٠ إسناده ضعيف لإبهام رجلين بين ابن مسعود وابن إسحاق والسند إلى ابن إسحاق لم يثبت فيه ضعيفان سلمة بن الفضل ومحمد بن حميد كما تقدم قريبا (٨) الطبري: ٥١٠/٢٠

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُ غَضَبًا مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَقَتَلُوا وَلِيَّهُ، وَيَذْكُرُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ وَمَا اخْتِجَ فِي إِهْلَاكِهِمْ إِيَّاهُمْ إِلَى أَنْزَالِ جُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ، بَلِ الْأَمْرُ كَانَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ فِيْمَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ [عَنْهُ] أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أَيُّ: مَا كَانَتْ نَاهُمْ بِالْجُمُوعِ،

يَقْتَالِ الْمُشْرِكِينَ، ذَكَرُوهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣].

فَعَلَى هَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ هَذِهِ الْقُرْيَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْقُرْآنِ قُرْيَةٌ أُخْرَى غَيْرَ أَنْطَاكِيَّةٍ، كَمَا أُطْلِقَ ذَلِكَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَيْضًا. أَوْ تَكُونُ أَنْطَاكِيَّةً - إِنْ كَانَ لَفْظُهَا مَحْفُوظًا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ - مَدِينَةٌ أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ الْمَشْهُورَةِ الْمَعْرُوفَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّهَا أَهْلِكْتَ، لَا فِي الْمِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَلَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ مِنَّا لِيَأْتِيَهُمْ لَآئِنَّمَا يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾ [يَا حَسْرَةَ عَلَى الْمُكذِبِينَ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ أَي: يَا وَيْلَ الْعِبَادِ ﴿١٥﴾. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ أَي: يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَلَى مَا صَبَّحَتْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَفَوَّطَتْ فِي حُجُبِ اللَّهِ، وَفِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ: (يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ) (١). وَمَعْنَى هَذَا: يَا حَسْرَتُهُمْ وَتَدَامَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا عَابَتْهُمُ الْعَذَابُ، كَيْفَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ وَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا الْمُكذِّبُونَ مِنْهُمْ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَي: يَكذِّبُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، وَيَجْحَدُونَ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنْ الْحَقِّ.

[الرَّدُّ عَلَى عَقِيدَةِ التَّنَاسُخِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ لِلَّيْتُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أَي: أَلَمْ يَتَّعِظُوا بِمَنْ أَهْلَكَ اللَّهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكذِّبِينَ لِلرُّسُلِ، كَيْفَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا كَرَّةٌ وَلَا رَجْعَةٌ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ كَثِيرٌ مِنْ جَهْلَتِهِمْ وَفَجْرَتِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الدُّنْيَا تَمُوتُ وَتَحْيَا﴾ [الجنانية: ٢٣] وَهُمْ الْقَائِلُونَ بِالذُّورِ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ جَهْلًا مِنْهُمْ: أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى الدُّنْيَا، كَمَا كَانُوا فِيهَا، فَرَدَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ بِاطْلِقِهِمْ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ

حَكْمِدُونَ﴾ (١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَوَّلُ أَصْحَحُ، لِأَنَّ الرِّسَالَةَ لَا تُسَمَّى جُنْدًا (٢). قَالَ الْمُفَسِّرُونَ. بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي بَابِ بَلَدِهِمْ، ثُمَّ صَاحَ بِهِمْ صَاحَةً وَاحِدَةً، فَإِذَا هُمْ حَامِدُونَ عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ يَتَّبِعْ بِهِمْ رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي جَسَدِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ هَذِهِ الْقُرْيَةَ هِيَ أَنْطَاكِيَّةٌ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ كَانُوا رُسُلًا مِنْ عِنْدِ الْمَسِيحِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَذْكُرْ عَنْ وَاحِدٍ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْمُفَسِّرِينَ غَيْرَهُ، وَفِي ذَلِكَ نَظَرٌ مِنْ وَجْهِهِ:

(أَحَدُهَا): أَنَّ ظَاهِرَ الْقِصَّةِ يُدَلُّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا رُسُلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا مِنْ جِهَةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ إِلَى أَنْ قَالُوا ﴿رَبَّنَا بَعَلُّوْنَا إِنَّا وَجَدْنَا لِمُرْسَلِينَا ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْخَوَارِجِيِّينَ لَقَالُوا عِبَارَةً تَنَاسِبُ أَنَّهُمْ مِنْ عِنْدِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، ثُمَّ لَوْ كَانُوا رُسُلَ الْمَسِيحِ لَمَا قَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ (٣) [إبراهيم: ١٠].

(الثَّانِي): أَنَّ أَهْلَ أَنْطَاكِيَّةِ آمَنُوا بِرُسُلِ الْمَسِيحِ إِلَيْهِمْ، وَكَانُوا أَوَّلَ مَدِينَةٍ آمَنَتْ بِالْمَسِيحِ، وَلِهَذَا كَانَتْ عِنْدَ النَّصَارَى إِحْدَى الْمَدَائِنِ الْأَرْبَعَةِ اللَّاتِي فِيهِنَّ تَبَارَكَةُ، وَهُنَّ: الْقُدْسُ لِأَنَّهَا بَلَدُ الْمَسِيحِ. وَأَنْطَاكِيَّةٌ لِأَنَّهَا أَوَّلُ بَلَدَةٍ آمَنَتْ بِالْمَسِيحِ عَنْ آخِرِ أَهْلِهَا. وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةُ، لِأَنَّ فِيهَا اضْطَلَحُوا عَلَى اتِّخَاذِ التَّبَارِكَةِ وَالْمَطَارِنَةِ وَالْأَسَافِقَةِ وَالْقَسَاوِسَةِ وَالشَّمَاوِسَةِ وَالرَّهَابِينَ. ثُمَّ رُومِيَّةٌ لِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينِ الَّذِي نَصَرَ دِينَهُمْ وَأَوْطَدَهُ، وَلَمَّا ابْتَنَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ نَقَلُوا التَّبَارِكَةَ مِنْ رُومِيَّةِ إِلَيْهَا. كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ ذَكَرِ تَوَارِيخِهِمْ، كَسَعِيدِ بْنِ بَطْرِيْقٍ - وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ - فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ أَنْطَاكِيَّةَ أَوَّلَ مَدِينَةٍ آمَنَتْ، فَأَهْلُ هَذِهِ الْقُرْيَةِ، ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِصَاحَةٍ وَاحِدَةٍ أَحْمَدَتْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(الثَّالِثُ): أَنَّ قِصَّةَ أَنْطَاكِيَّةِ مَعَ الْخَوَارِجِيِّينَ أَصْحَابِ الْمَسِيحِ بَعْدَ نُزُولِ الثُّورَاةِ، وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ إِنزَالِهِ الثُّورَاةِ لَمْ يُهْلِكْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَّةِ عَنْ آخِرِهِمْ بِعَذَابٍ يَبْعَثُهُ عَلَيْهِمْ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ ذَلِكَ

(١) الطبري: ٥١٠/٢٠ (٢) الطبري: ٥١١/٢٠ (*) كذا ورد في النسخ وآية يس تبدأ من "ما أنتم إلا بشر" التي يشير إليها (٣) الطبري: ٥١٢/٢٠ (٤) الطبري: ٥١٢/٢٠

﴿وَمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من مخلوقات شئى لا يعرفونها، كما قال جلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُجُوجِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٢٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوَنِ الْقَدِيرِ (٢٩) لَا الشَّمْسُ يَلْبِغِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْحَحُونَ﴾ (٣٠)

[وَمِن قُدْرَةِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ]

يقول تعالى: وَمِن الدَّلَالَةِ لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - العُظِيمَةِ، خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، هَذَا بظَلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ، وَجَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ يَجِيءُ هَذَا فَيَذْهَبُ هَذَا، وَيَذْهَبُ هَذَا فَيَجِيءُ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نَضَرُمُهُ مِنْهُ، فَيَذْهَبُ فَيَقْبَلُ اللَّيْلُ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هُنَا، وَأَذْبَرَ النَّهَارَ مِنْ هُنَا، وَعَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ (١).

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالَتُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قَوْلَانِ، (أَحَدُهُمَا): أَنَّ الْمُرَادَ مُسْتَقَرَّهَا الْمَكَانِيَّ، وَهُوَ تَحْتَ الْعَرْشِ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ، وَهِيَ أَيْنَمَا كَانَتْ، فَهِيَ تَحْتَ الْعَرْشِ هِيَ وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، لِأَنَّهُ سَقْفُهَا، وَلَيْسَ بَكْرَةً كَمَا يَزْعُمُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ الْهَيْئَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ قُبَّةٌ، ذَاتُ قَوَائِمٍ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ مِمَّا يَلِي رُؤُوسَ النَّاسِ، فَالشَّمْسُ إِذَا كَانَتْ فِي قُبَّةِ الْفَلَكَ وَقَتَ الظَّهِيرَةِ، تَكُونُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَى الْعَرْشِ، فَإِذَا اسْتَدَارَتْ فِي فَلَكِهَا الرَّابِعِ إِلَى مُقَابَلَةِ هَذَا الْمَقَامِ وَهُوَ وَقْتُ نِصْفِ اللَّيْلِ، صَارَتْ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ إِلَى الْعَرْشِ، فَجَبِيذٌ تَسْجُدُ وَتَسْتَأْذِنُ فِي الطَّلُوعِ كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ ﷺ: «يَا

الْقُرُونِ أَهْمَ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ». وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: وَإِنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْآيَةِ سَتُحْضَرُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كُلَّهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا، وَمَعْنَى هَذَا كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُؤْتِيهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣١) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٢) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٣) سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤)

[ثُبُوتُ الصَّانِعِ لِلْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾ أي: دَلَالَةٌ لَهُمْ عَلَى وَجُودِ الصَّانِعِ وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ أي: إِذَا كَانَتْ مَيْتَةً هَامِدَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِنَ النَّبَاتِ، فَإِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا الْمَاءَ، اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: جَعَلْنَاهُ رِزْقًا لَهُمْ وَلِنِعَامِهِمْ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي: جَعَلْنَا فِيهَا أَنْهَارًا سَارِحَةً فِي أَمْكِنَتِهَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾. لَمَّا امْتَنَّ عَلَى خَلْقِهِ بِإِجَادِ الزُّرُوعِ لَهُمْ، عَطَفَ بِذِكْرِ الثَّمَارِ وَتَنَوَّعِهَا وَأَصْنَافِهَا.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وَمَا ذَاكَ كُلُّهُ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ لَا بِسَعْيِهِمْ وَلَا كَدِّهِمْ وَلَا بِحَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: فَهَلَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ - بَلْ جَزَمَ بِهِ، وَلَمْ يَحْكُ غَيْرُهُ إِلَّا اخْتِمَالًا - أَنَّ «مَا» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بِمَعْنَى «الَّذِي» تَقْدِيرُهُ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أي: غَرَسُوهُ وَنَبَّوهُ، قَالَ: وَهِيَ كَذَلِكَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ). ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي: مِنْ زُرُوعٍ وَثَمَارٍ وَنَبَاتٍ ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فَجَعَلَهُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى

تَقْصِيلاً ﴿[الإسراء: ١٢] فَجَعَلَ الشَّمْسُ لَهَا ضَوْءَ يَخْضُهَا،
وَالْقَمَرَ لَهُ نُورٌ يَخْضُهُ، وَفَاوَتْ بَيْنَ سَبْرِ هَذِهِ وَهَذَا،
فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْرُبُ فِي آخِرِهِ عَلَى ضَوْءٍ وَاحِدٍ،
وَلَكِنْ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا وَمَغَارِبِهَا صَبْغًا وَشِتَاءً، يَطُولُ
بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ، ثُمَّ يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ
النَّهَارُ، وَجَعَلَ سُلْطَانَهَا بِالنَّهَارِ فَهِيَ كَوَكْبَ نَهَارِيٍّ، وَأَمَّا
القَمَرُ فَقَدَرَهُ مَنَازِلَ يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ صَبْغًا قَلِيلَ
النُّورِ، ثُمَّ يَزِيدُ نُورًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ وَيَزِيدُ نُورًا فِي اللَّيْلِ
كُلَّمَا ارْتَفَعَ أَرْدَادَ ضِيَاءٍ وَإِنْ كَانَ مُقْتَسِمًا مِنَ الشَّمْسِ، حَتَّى
يَتَكَامَلَ نُورُهُ فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ، ثُمَّ يَسْرِعُ فِي النَّقْصِ
إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ حَتَّى يَصِيرَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَهُوَ أَصْلُ الْعُدْقِ^(٤). وَالْعَرَبُ
تُسَمِّي كُلَّ ثَلَاثِ لَيَالٍ مِنَ الشَّهْرِ بِاسْمِ بَاغْتِبَارِ الْقَمَرِ،
فَيُسَمُّونَ الثَّلَاثَ الْأَوَّلَ «عُرْرًا»، وَاللَّوَاتِيَّ بَعْدَهَا [تُنْفَلُ]
وَاللَّوَاتِيَّ بَعْدَهَا «تُسَعٌ»، لِأَنَّ أُخْرَاهُنَّ الثَّاسِعَةَ، وَاللَّوَاتِيَّ
بَعْدَهَا «عَشْرًا»، لِأَنَّ أَوْلَاهُنَّ الْعَاشِرَةَ، وَاللَّوَاتِيَّ بَعْدَهَا
«الْبَيْضُ»، لِأَنَّ ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهِنَّ إِلَى آخِرِهِنَّ، وَاللَّوَاتِيَّ
بَعْدَهُنَّ «دُرْعًا»، جَمْعُ دُرْعَاءَ، لِأَنَّ أَوْلَاهُنَّ أَسْوَدًا، لِتَأْخِرِ
القَمَرِ فِي أَوْلَاهُنَّ مِنْهُ، وَمِنْهُ الشَّأُ الدَّرْعَاءُ وَهِيَ الَّتِي رَأْسُهَا
أَسْوَدٌ، وَبَعْدَهُنَّ ثَلَاثُ «ظُلْمٍ»، ثُمَّ ثَلَاثُ «حَنَادِسُ»،
وَثَلَاثُ «دَادِيٍّ»، وَثَلَاثُ «مَحَاقٍ»، لِأَنَّمَحَاقِ الْقَمَرِ
[أَوْ آخِرِ الشَّهْرِ فِيهِنَّ. وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكَبِّرُ
التُّسَعُ وَالْعَشْرَ. كَذَا قَالَ فِي كِتَابِ غَرِيبِ الْمُصْتَفَى.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ بَلْبَعِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ
القَمَرَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لِكُلِّ مِنْهُمَا حُدٌّ لَا يَبْغُوهُ وَلَا يَبْغُرُ
دُونَهُ، إِذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا ذَهَبَ هَذَا، وَإِذَا ذَهَبَ سُلْطَانُ
هَذَا، جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا^(٥). وَقَالَ عِكْرَمَةُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿لَا الشَّمْسُ بَلْبَعِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ يَعْنِي أَنَّ لِكُلِّ
مِنْهُمَا سُلْطَانًا، فَلَا يَبْغِي لِلشَّمْسِ أَنْ تَطْلُعَ بِاللَّيْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يَقُولُ: لَا يَبْغِي
إِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَنْ يَكُونَ لَيْلٌ آخَرُ، حَتَّى يَكُونَ النَّهَارُ،
فَسُلْطَانُ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ، وَسُلْطَانُ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ. وَقَالَ
الصَّحَّاحُ: لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا حَتَّى يَجِيءَ النَّهَارُ مِنْ

أَبَا ذَرٍّ! أُنْدَرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ،
فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(١).

وَأَيْضًا رَوَى الْحَمِيدِيُّ [وَبَطْرِيْقُهُ الْبُخَارِيُّ] عَنْ أَبِي ذَرٍّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾؟ قَالَ ﷺ:
«مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ»^(٢).

(وَالْقَوْلُ الثَّانِي): أَنَّ الْمُرَادَ بِمُسْتَقَرِّهَا هُوَ مُتَهَيِّئٌ سَبِيحًا
وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَبْطُلُ سَبِيحًا وَتَسْكُنُ حَرَكَتُهَا وَتُكْوَرُ،
وَيَنْتَهِي هَذَا الْعَالَمُ إِلَى غَايَتِهِ، وَهَذَا هُوَ مُسْتَقَرُّهَا الزَّمَانِيُّ.
قَالَ قَتَادَةُ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أَيُّ: لِيُوفِّيَهَا وَلَا جَلَّ لَا
تَعْدُوهُ^(٣). وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا
الصَّفِيئِيَّةِ إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِ الشِّتَاءِ
إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا، يُرْوَى هَذَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا) أَيُّ: لَا قَرَارَ لَهَا وَلَا سُكُونَ، بَلْ هِيَ
سَائِرَةٌ لَيْلًا وَنَهَارًا، لَا تَقْتَرُ وَلَا تَقْفُ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٢٣]
أَيُّ: لَا يَقْفِرَانِ وَلَا يَقْفَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ
العَزِيزِ﴾ أَيُّ: الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ ﴿العَلِيمِ﴾ بِجَمِيعِ
الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ، وَقَدْ قَدَّرَ ذَلِكَ وَوَقَّفَهُ عَلَى مَنَوَالٍ لَا
اِخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَعَاكُسَ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالقَمَرُ إِضْبَاحٌ
وَجَعَلَ أَيْلٌ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
العَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] وَهَكَذَا خَتَمَ آيَةَ «حَمِّ السَّجْدَةِ» بِقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ أَيُّ:
جَعَلْنَاهُ يَسِيرُ سَبْرًا آخَرَ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ، كَمَا
أَنَّ الشَّمْسَ يُعْرَفُ بِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:
﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوْقِفٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ﴾
[البقرة: ١٨٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً
وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحَسَابِ﴾ . . .

الآيَةُ [يونس: ٥]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
عَيْنَيْنِ فَحَوَّنَا عَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا عَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فَضْلًا
مِنْ رَبِّكُمُ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحَسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلِنَاهُ

(١) فتح الباري: ٤٠٢/٨ (٢) فتح الباري: ٤٠٢/٨ (٣)
الطبري: ٥١٧/٢٠ (٤) الطبري: ٥١٨/٢٠ (٥) الطبري:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٣

سُورَةُ يَسٍ

هَهُنَا، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَا
 الْبَلَّ سَابِقَ النَّهَارِ﴾ يَطْلُبَانِ حَيْثَيْنِ، يَنْسَلِخُ أَحَدُهُمَا مِنْ
 الْآخَرِ ^(٢). وَالْمَعْنَى فِي هَذَا: أَنَّهُ لَا فِتْرَةَ بَيْنَ اللَّيْلِ
 وَالنَّهَارِ، بَلْ كُلُّ مِنْهُمَا يَعْقُبُ الْآخَرَ بِلَا مَهَلَةٍ وَلَا تَرَاخٍ،
 لِأَنَّهُمَا مُسْحَرَانِ ذَاتَيْنِ يَطْلُبَانِ طَلْبًا حَيْثِيًّا.
 وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يَعْنِي
 اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، كُلُّهُمْ يَسْبَحُونَ أَيُّ:
 يَدُورُونَ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ
 وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعَطَاءُ الْخَرَّاسَانِيُّ ^(٣). قَالَ ابْنُ
 عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: فِي فَلَكَةٍ
 كَفَلَكَةِ الْمَغْزَلِ.
 ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ
 مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ
 يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾
 [وَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ حَمْلُهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ]
 يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَدَلَالَةٌ لَهُمْ أَيْضًا عَلَى قُدْرَتِهِ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِيَحْمِلَ السُّفْنَ، فَمِنْ ذَلِكَ - بَلْ
 أَوَّلِهِ - سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الَّتِي أَنْجَاهُ اللَّهُ
 تَعَالَى فِيهَا يَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَتَّقِ عَلَى وَجْهِ
 الْأَرْضِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَيْرُهُمْ، وَلِهَذَا
 قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أَيُّ: آبَاءَهُمْ
 ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ أَيُّ: فِي السَّفِينَةِ الْمَمْلُوءَةِ مِنْ
 الْأُمِّيَّةِ وَالْحَيْرَانَاتِ، الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ
 يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا: الْمَشْحُونُ: الْمَوْقُورُ ^(٤). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ
 وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ ^(٥). وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ
 زَيْدٍ: وَهِيَ سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ^(٦).
 وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قَالَ
 الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي بِذَلِكَ
 الْإِبِلَ، فَإِنَّهَا سُفُنُ الْبَرِّ يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا وَيَرْكَبُونَهَا ^(٧). وَرَوَى
 ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَتَذَرُونَ
 مَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قُلْنَا: لَا،
 قَالَ: هِيَ السُّفُنُ، جُعِلَتْ مِنْ بَعْدِ سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
 وَالسَّلَامُ عَلَى مِثْلِهَا ^(٨). وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ وَالضَّحَّاكُ،
 وَقَتَادَةُ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالسُّدِّيُّ أَيْضًا، الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أَيُّ السُّفُنِ ^(٩).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ فِي
 السُّفُنِ ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ أَيُّ: فَلَا مُعِينَتَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ
 ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أَيُّ: مِمَّا أَصَابَهُمْ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ أَيُّ:
 وَلَكِنْ بِرَحْمَتِنَا نَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَنَسَلَّمَكُمْ إِلَى
 أَجَلٍ مُسَمًّى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ أَيُّ:
 إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
 وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ أَلَمْ تَقَالُوا لِلَّذِينَ
 آمَنُوا أَنْطَعِمُوا مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَلْعَمَهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٤٧﴾

(١) الطبري: ٥٢٠/٢٠ (٢) الطبري: ٥١٩/٢٠ (٣) الطبري:
 ٥٢٠/٢٠ (٤) الطبري: ٥٢٢/٢٠ (٥) الطبري: ٥٢٢/٢٠
 (٦) الطبري: ٥٢٣، ٥٢٢/٢٠ (٧) الطبري: ٥٢٤/٢٠ (٨)
 الطبري: ٥٢٣/٢٠ (٩) الطبري: ٥٢٢-٥٢٤

[بَيَانُ ضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ تَمَادِي الْمُشْرِكِينَ فِي عَيْبِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَعَدَمِ اكْتِرَائِهِمْ بِذُنُوبِهِمُ الَّتِي أَسْأَلُوهَا، وَمَا يَسْتَقْبِلُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مِنَ الذُّنُوبِ. وَقَالَ غَيْرُهُ بِالْعَكْسِ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أَيْ: لَعَلَّ اللَّهَ بِاتِّقَائِكُمْ ذَلِكَ، يَرْحَمَكُمُ وَيُؤْمِنَكُمُ مِنْ عَذَابِهِ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: أَنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَ إِلَى ذَلِكَ بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ، وَاتَّعَمَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: عَلَى التَّوْحِيدِ وَصِدْقِ الرُّسُلِ ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أَيْ: لَا يَتَأَمَّلُونَهَا وَلَا يَقْبَلُونَهَا وَلَا يَتَفَعَّلُونَ بِهَا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ أَيْ: وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِجِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ: عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْفُقَرَاءِ، أَيْ: قَالُوا لِمَنْ أَمَرَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ - مُحَاجِّينَ لَهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ - : ﴿أَنْطَلِعُمْ مِنْ لَوْ يَسَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أَيْ: هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ أَمَرْتُمُونَا بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ، لَوْ شَاءَ اللَّهُ لِأَعْنَاهُمْ وَلَا طَعْمَهُمْ مِنْ رِزْقِهِ، فَتَحْنُ نُوَافِقُ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ: فِي أَمْرِكُمْ لَنَا بِذَلِكَ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

[اِسْتِعَادَةُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْبُعْثِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِعَادَةِ الْكُفَّرَةِ لِقِيَامِ السَّاعَةِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أَيْ: مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً، وَهَذِهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - نَفْخَةُ الْفَرْعِ، يَنْفُخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ الْفَرْعِ، وَالنَّاسُ فِي أَسْرَاقِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ يَخِصِّمُونَ وَيَتَسَاجِرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِسْرَافِيلَ فَتَفَخَّخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ يَطْوُلُهَا وَيَمُدُّهَا، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا - وَهِيَ صَفْحَةُ الْعُتْقِ - يَسْمَعُ الصَّوْتِ مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُسَاقُ الْمَوْجُودُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَحْسَرِ الْقِيَامَةِ بِالنَّارِ تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَوَانِحِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أَيْ: عَلَى مَا يَمْلِكُونَهُ، الْأَمْرُ أَهْمٌ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ هَهُنَا آثَارٌ وَأَحَادِيثٌ ذَكَرْنَاهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ هَذَا نَفْخَةُ الصَّعِقِ الَّتِي تَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ كُلُّهُمْ مَا عَدَا الْحَيَّ الْقَيُّومَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْبُعْثِ.

﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْلُوتُ﴾ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثْنَا مِنْ مَرْقِدَاتِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تَنْظَلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ وَلَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

[نَفْخَةُ الْبُعْثِ]

هَذِهِ هِيَ النَّفْخَةُ الثَّلَاثَةُ، وَهِيَ نَفْخَةُ الْبُعْثِ وَالنُّشُورِ لِقِيَامِ مِنَ الْأَجْدَاثِ وَالْقُبُورِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْلُوتُ﴾ وَالسَّلَانُ هُوَ الْمَشْيُ السَّرِيعُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَمْزِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ ضُجْبٍ يُوقِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] ﴿قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثْنَا مِنْ مَرْقِدَاتِنَا﴾ يَعْنُونَ قُبُورَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ مِنْهَا، فَلَمَّا عَابَتُوا مَا كَذَّبُوا بِهِ فِي مَحْسَرِهِمْ ﴿قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثْنَا مِنْ مَرْقِدَاتِنَا﴾ وَهَذَا لَا يُبْنِي عَدَابَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ، لِأَنَّهُ بِالسَّيْبَةِ إِلَىٰ مَا بَعْدَهُ فِي الشَّدَّةِ كَالرُّقَادِ. قَالَ أَبِي بُرٍّ كَتَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: يَنَامُونَ نَوْمَةً قَبْلَ الْبُعْثِ ^(١). قَالَ قَتَادَةُ: وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، فَلِذَلِكَ يَقُولُونَ ﴿مَنْ بَعْثْنَا مِنْ مَرْقِدَاتِنَا﴾ ^(٢). فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ أَجَابَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ - قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ -: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّمَا يُجِيبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ. وَلَا مَنَافَاةَ إِذِ الْجَمْعُ مُمَكِّنٌ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿٥٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] وَقَالَ جَلَّتْ عِظَمَتُهُ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلُجِّ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَنْظُرُونَ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَيْلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] أَيْ: إِنَّمَا نَأْمُرُهُمْ أَمْرًا وَاحِدًا، فَإِذَا الْجَمِيعُ مُحْضَرُونَ ﴿فَالْيَوْمَ لَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٤

سُورَةُ يَسٍ

إِنَّا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِينُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ تُعْصِرْهُ نَجْسُهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

بِقُرْءَاتِهِمْ ﴿ [الروم: ١٤] ﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴿ [الروم: ٤٣] ﴾ أَيُّ: يَصِيرُونَ صَدَعَيْنِ فِرْقَتَيْنِ ﴿ ائْتَمَرُوا الْبَيْنَ طَلَمُوا وَأَزْجَعَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿ [٢٢] ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿ [الصافات: ٢٢، ٢٣] ﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ هَذَا تَقْرِيعٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَافِرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ، الَّذِينَ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ وَهُوَ عَدُوٌّ لَهُمْ مُبِينٌ، وَعَصَوْا الرَّحْمَنَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أَيُّ: قَدْ أَمَرْتُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا بَعْضِيانِ الشَّيْطَانَ، وَأَمَرْتُمْ بِعِبَادَتِي، وَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، فَسَلَكْتُمْ غَيْرَ ذَلِكَ وَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا ﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ الْخَلْقُ الْكَثِيرُ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ.

(١) الطبري: ٥٣٥/٢٠ (٢) الطبري: ٥٣٨/٢٠ (٣) الطبري: ٥٤٠، ٥٣٩/٢٠

تُظَلِّمُ نَفْسٌ سَيِّئًا ﴿ أَيُّ: مِنْ عَمَلِهَا ﴾ وَلَا تُجَدُّونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿

﴿ إِنَّا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِينُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾

[بَيَانُ عَيْشِ أَهْلِ الْجَنَّةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا ارْتَحَلُوا مِنَ الْعَرَصَاتِ، فَتَزَلُّوا فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ، أَنَّهُمْ فِي شُغْلٍ عَنْ غَيْرِهِمْ، بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ: ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ عَمَّا فِيهِ أَهْلُ النَّارِ مِنَ الْعَذَابِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴾ أَيُّ: فِي نَعِيمٍ مُعْجِبُونَ، أَيُّ: بِهِ ^(١). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ فَكَاهُونَ ﴾ أَيُّ: فَرِحُونَ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَحَلَالُهُمْ، ﴿ فِي ظِلِّلٍ ﴾ أَيُّ: فِي ظِلَالِ الْأَشْجَارِ ^(٢). ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِينُونَ ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَخُصَيْفٌ: ﴿ الْأَرَائِكِ ﴾ هِيَ السَّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ ^(٣). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أَيُّ: مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهَا ﴿ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ أَيُّ: مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَلَادِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفْسَهُ سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَجِئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [الاحزاب: ٤٤].

﴿ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

[مَكَانُ الْكُفَّارِ بِالْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَجْرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُؤُولُ إِلَيْهِ حَالُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَمْرِ لَهُمْ أَنْ يَمْتَارُوا بِمَعْنَى يَتَمَيَّزُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوْقِفِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِرُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: أَفَمَا كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ فِي مَخَالَفَةِ رَبِّكُمْ فِيمَا أَمَرَكُم بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَدُولِكُمْ إِلَى اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ.
 ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٦٣) أَصْلُهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَضَلُّوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾
 يُقَالُ لِلْكَافِرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ بَرَزَتْ الْحَجِيمُ لَهُمْ تَقْرِيحًا وَتَوْبِيخًا: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَي: هَذِهِ الَّتِي حَدَرْتُمْ الرُّسُلَ، فَكَذَّبْتُمُوهُمْ ﴿أَصْلُهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعْوًا﴾ (٦٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٦٤﴾ أَفِصْحَرُوا هَذَا أَمْ أَتَشَرُّ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ [الطور: ١٣-١٥].

﴿الْحَتْمُ عَلَى أَفْوَاهِ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هَذَا حَالُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يُنْكَرُونَ مَا اجْتَرَمُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَيُخْلِفُونَ: مَا فَعَلُوهُ، فَيُخْتِمُ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَيَسْتَنْطِقُ جَوَارِحَهُمْ بِمَا عَمِلَتْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرِهِمَا: يَقُولُ: وَلَوْ نَشَاءُ لَأَضَلَّلْنَا هُمْ عَنِ الْهُدَى، فَكَيْفَ يَهْتَدُونَ؟ وَقَالَ مَرَّةً: أَعْمَيْنَاهُمْ^(١): وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَطَمَسَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَجَعَلَهُمْ عُمَيَّا يَتَرَدَّدُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ يَعْنِي الطَّرِيقَ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي بِالصِّرَاطِ هَهُنَا: الْحَقُّ. ﴿فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ﴾ وَقَدْ طَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ؟! وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ﴾ لَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ^(٢).

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَضَجَّكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» فَلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ: «مَنْ مُجَادِلَةَ الْعَبْدِ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: رَبِّ! أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ يَقُولُ: بَلَى، يَقُولُ: لَا أَجِيزُ عَلَيَّ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي، يَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي فَتَنْطِقِ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، يَقُولُ: بَعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَاضِلُ» وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(١).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَهْلَكْنَاهُمْ^(٥). وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي لَعَيَّرْنَا خَلْقَهُمْ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: لَجَعَلْنَاهُمْ حِجَارَةً. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: لَأَعَدَّهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ^(٦). وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَضَلُّوا مُضِيًّا﴾ أَي: إِلَى أَمَامٍ ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إِلَى وِرَاءٍ، بَلْ يَلْزَمُونَ حَالًا وَاحِدًا، لَا يَتَقَدَّمُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ.

﴿وَمَنْ تُعَذِّبْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٤) وَمَا عَلَّمْتَهُ الشِّعْرَ وَمَا يَلْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٥﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ كَلَّمَا طَالَ عُمْرُهُ، رُدَّ إِلَى الضَّعْفِ بَعْدَ الْقُوَّةِ، وَالْعَجْرِ بَعْدَ النَّشَاطِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ

(١) مسلم: ٤/٢٢٨٠ والنسائي في الكبرى: ٥٠٨/٦ (٢) الطبري: ٥٤٤/٢٠ (٣) الطبري: ٥٤٥/٢٠ (٤) الطبري: ٥٤٧/٢٠ (٥) الطبري: ٥٤٧/٢٠ (٦) الطبري: ٥٤٧/٢٠

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مُوسَى، هُوَ الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يُدْعَى الْمُؤْمِنُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَعْرَضُ عَلَيْهِ رَبُّهُ عَمَلَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَيَعْتَرِفُ يَقُولُ: نَعَمْ، أَي رَبِّ! عَمِلْتُ عَمِلْتُ عَمِلْتُ، قَالَ: فَيَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ ذُنُوبَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنْهَا، قَالَ: فَمَا عَلَى الْأَرْضِ خَلِيقَةٌ تَرَى مِنْ تِلْكَ الذُّنُوبِ شَيْئًا، وَتَبْدُو حَسَنَاتُهُ، فَوَدَّ أَنَّ النَّاسَ

وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَ خَلْقٍ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْغَفِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥] وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الْإِخْبَارُ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ بِأَنَّهَا دَارُ زَوَالٍ وَانْتِقَالٍ، لَا دَارُ دَوَامٍ وَاسْتِقْرَارٍ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أَي: يَتَفَكَّرُونَ يَعْقِلُهُمْ فِي ابْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ، ثُمَّ صَبَرُوا رَتَبَهُمْ إِلَىٰ سِنِّ الشَّيْبَةِ، ثُمَّ إِلَىٰ الشَّيْخُوخَةِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ خَلَقُوا لِدَارٍ أُخْرَىٰ لَا زَوَالٍ لَهَا وَلَا انْتِقَالَ مِنْهَا، وَلَا مَجِيدَ عِنَّا، وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ.

[إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُعَلِّمْ رَسُولَهُ الشُّعْرَ]
وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ مَا عَلَّمَهُ الشُّعْرَ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أَي: مَا هُوَ فِي طَبْعِهِ، فَلَا يُحْسِنُهُ وَلَا يُجِبُّهُ وَلَا تَقْضِيهِ جِبَلْتُهُ، وَلِهَذَا وَرَدَّ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَحْفَظُ بَيْتًا عَلَىٰ وَرَنٍ مُنْتَظَمٍ، بَلْ إِنْ أُنْشِدَهُ رَحَفَهُ، أَوْ لَمْ يَمِئَهُ. وَرَوَى النَّبَيْهِيُّ فِي الدَّلَائِلِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ الْقَائِلُ: أَنْتَجَعَلَ نَهْيِي وَنَهَبَ الْعَبِيدَ بَيْنَ الْأَفْرَعِ وَعَيْنَيْهِ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ «عَيْنَيْهِ وَالْأَفْرَعِ»، فَقَالَ ﷺ: «الْكُلُّ سَوَاءٌ» بَعْضِي فِي الْمَعْنَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ^(١). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ عَلَّمَهُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] وَلَيْسَ هُوَ بِشِعْرٍ، كَمَا زَعَمَهُ طَائِفَةٌ مِنْ جَهْلَةٍ كُفَّارٍ فَرِيضٍ، وَلَا كَهَاتَيْهِ، وَلَا مُفْتَعَلٍ، وَلَا سِحْرٍ يُؤْتَرُ، كَمَا تَتَوَعَّتُ فِيهِ أَقْوَالُ الضُّلَّالِ وَأَرَاءُ الْجُهَّالِ، وَقَدْ كَانَتْ سَجِيئَتُهُ ﷺ تَأْتِي صِنَاعَةَ الشُّعْرِ طَبْعًا وَشُرْعًا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أَي: مَا هَذَا الَّذِي عَلَّمْنَاهُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أَي: بَيِّنٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وَتَدَبَّرَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أَي: لِيُنذِرَ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُبِينُ كُلَّ حَيٍّ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِيُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١١٩] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِنِذَارَتِهِ مَنْ هُوَ حَيٌّ الْقَلْبُ مُسْتَبِيرٌ الْبَصِيرَةُ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: حَيٌّ الْقَلْبُ حَيٌّ الْبَصَرِ^(٢). وَقَالَ

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

الصَّحَّاحُ: بَعْضِي عَاقِلًا^(٣). ﴿وَحَقُّ الْقَوْلِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَي: هُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَحُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلتَ أَيْدِينَا أَنْعَمَا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

[الْأَنْعَامُ آيَةٌ وَنِعْمَةٌ]

يَذَكُرُ تَعَالَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ الَّتِي سَخَّرَهَا لَهُمْ ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مُطِيقُونَ، أَي: جَعَلَهُمْ يُشْهَرُونَهَا وَهِيَ ذَلِيلَةٌ لَهُمْ، لَا تَمْتَنِعُ مِنْهُمْ، بَلْ لَوْ جَاءَ صَغِيرٌ إِلَىٰ بَعِيرٍ لِأَنَاحِهِ، وَلَوْ شَاءَ لَأَقَامَهُ وَسَاقَهُ، وَذَلِكَ ذَلِيلٌ مُتَقَادٌ مَعَهُ، وَكَذَا لَوْ كَانَ الْقِطَارُ مِائَةَ بَعِيرٍ أَوْ أَكْثَرَ، لَسَارَ الْجَمِيعُ بِسِيرِ الصَّغِيرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أَي: مِنْهَا مَا يَرْكَبُونَ فِي الْأَسْفَارِ، وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِ الْأَثْقَالَ إِلَىٰ سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَقْطَارِ ﴿وَمِنْهَا

(١) دلائل النبوة: ١٨١/٥ (٢) الطبري: ٥٥٠/٢٠ (٣) الطبري: ٥٥٠/٢٠

عَلَيْهِمُ ﴿٧٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ
مِنَهُ تُوقِدُونَ ﴿٧٧﴾

[إِنْكَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَالرَّدُّ عَلَى ذَلِكَ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ:
جَاءَ أَبِي بَنُ خَلْفٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي
يَدِهِ عَظْمٌ رَّيْمٍ، وَهُوَ يَفْتُهُ وَيَدْرُوهُ فِي الْهَوَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ:
يَا مُحَمَّدُ! أَتَزْعَمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ،
يُمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ» وَنَزَلَتْ
هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ لَيْسَ ﴿أَوْلَدَ بَرَّ الْإِنْسَانِ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ
نُطْفَةٍ﴾ إِلَى آخِرِهِنَّ ﴿٣﴾. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ الْعَاصِمَ بْنَ وَائِلٍ أَخَذَ
عَظْمًا مِنَ الطُّحَاءِ فَفَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:
أَيُّحِي اللَّهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ،
يُمِيتُكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يَدْخُلُكَ جَهَنَّمَ» قَالَ: وَنَزَلَتْ
الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ لَيْسَ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ
جُبَيْرٍ (٤).

وَهَذِهِ الْآيَاتُ سَوَاءٌ كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَنُ خَلْفٍ أَوْ
الْعَاصِمِ بْنِ وَائِلٍ أَوْ فِيهِمَا، فَيَبِي عَامَةً فِي كُلِّ مَنْ أَنْكَرَ
الْبَعْثَ. وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْلَدَ بَرَّ
الْإِنْسَانِ﴾ لِلْجِنْسِ، يَعْمُ كُلُّ مُنْكَرٍ لِلْبَعْثِ ﴿أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ
نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أَيُّ: أَوْلَمَ يَسْتَدِلُّ مَنْ أَنْكَرَ
الْبَعْثَ بِالْبَدْءِ عَلَى الْإِعَادَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ
سَلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، فَخَلَقَهُ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَهِينٍ،
كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَخْلُقْكَ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ ﴿١٦﴾ فَجَعَلْتَهُ فِي
قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٍ ﴿[المسرات: ٢٠-٢٢]﴾ وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الدهر: ٢] أَيُّ:
مِنْ نُطْفَةٍ مِنْ أَخْلَاطٍ مُتَّفَرِّقَةٍ، فَالَّذِي خَلَقَهُ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ
الضَّعِيفَةَ، أَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى إِعَادَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ بَشْرِ بْنِ جِحَاشٍ
قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا
أَصْبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ!
أَتَى نُعْجُزِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ
وَعَدَلْتُكَ، مَسَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَيُدُّ،

يَأْكُلُونَ﴾ إِذَا شَاؤُوا نَحَرُوا وَاجْتَرَرُوا ﴿وَلَمْ يَمَسَّ فِيهَا مِنْ فَنٍّ﴾ أَيُّ:
مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَنَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى جِنِّ
﴿وَمَسَارِبٍ﴾ أَيُّ: مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا - لِمَنْ يَدَاوَى -
وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ أَفَلَا يُؤْحَدُونَ خَالِقَ ذَلِكَ
وَمُسَخَّرَهُ، وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ؟.

﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَجِدْ مُنْصُرُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ
مَا يُبْشُرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٨﴾

[الْهَيْهَاتَهُ الْمُشْرِكِينَ لَا تَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمُ الْأَنْدَادَ
الْهَيْهَاتَهُ مَعَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ بِذَلِكَ أَنْ تَنْصُرَهُمْ تِلْكَ الْأَلِهَةُ وَتَرْزُقَهُمْ
وَتَقْرُبَهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ﴾ أَيُّ: لَا تَقْدِرُ الْأَلِهَةُ عَلَى نَصْرِ عَابِدِيهَا، بَلْ هِيَ
أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقْلُّ وَأَحْقَرُ وَأَذْحَرُ، بَلْ لَا تَقْدِرُ عَلَى
الْإِسْتِنصَارِ لِأَنْفُسِهَا، وَلَا الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ،
لِأَنَّهَا جَمَادٌ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَعْقِلُ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَمْ يَجِدْ مُنْصُرُونَ﴾ قَالَ
مُجَاهِدٌ: يَعْنِي عِنْدَ الْحِسَابِ (١). بُرِيدٌ: أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ
مُحْشُورَةٌ مَجْمُوعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مُحْضَرَةٌ عِنْدَ حِسَابِ
عَابِدِيهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَلْبَغَ فِي حُزْنِهِمْ، وَأَدَلَّ عَلَيْهِمْ فِي
إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾
يَعْنِي الْأَلِهَةَ ﴿وَهُمْ لَمْ يَجِدْ مُنْصُرُونَ﴾ وَالْمُشْرِكُونَ يَعْضَبُونَ
لِلْأَلِهَةِ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ لَا تَسُوقُ إِلَيْهِمْ خَيْرًا، وَلَا تَدْفَعُ
عَنْهُمْ شَرًّا، إِنَّمَا هِيَ أَصْنَامٌ (٢). وَهَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ. وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَجَمَهُ
اللَّهُ تَعَالَى.

[سَلْيَةُ الرَّسُولِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ أَيُّ: تَكْذِيبُهُمْ لَكَ
وَكَفْرُهُمْ بِاللَّهِ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْشُرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَيُّ: نَحْنُ
نَعْلَمُ جَمِيعَ مَا هُمْ فِيهِ، وَسَنَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ وَنُعَامِلُهُمْ عَلَى
ذَلِكَ، يَوْمَ لَا يَفْقِدُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا، وَلَا
صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، بَلْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ جَمِيعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

﴿أَوْلَدَ بَرَّ الْإِنْسَانِ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
مُبِينٌ﴾ ﴿٧٦﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظْمَ وَهِيَ
رَيْمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ

(١) الطبري: ٥٥٢/٢٠ (٢) أيضًا الطبري: ٢٩٢٣٩ (٣)

الطبري: ٥٥٤/٢٠ (٤) الطبري: ٥٥٤/٢٠

وَالْعَفَارِ، يَبُثُّ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ، فَيَأْتِي مَنْ أَرَادَ قَدْحَ نَارٍ
وَلَيْسَ مَعَهُ زَنَادٌ، فَيَأْخُذُ مِنْهُ عُودَيْنِ أَخْضَرَيْنِ، وَيَقْدَحُ
أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ، فَتَتَوَلَّدُ النَّارُ مِنْ بَيْنَهُمَا، كَالزَّنَادِ سِوَاءِ.
وَرَوَى هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَفِي الْمَثَلِ:
لِكُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ. وَقَالَ
الْحُكَمَاءُ: فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ إِلَّا [الْعُنَابَ].

﴿أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ فَسَخَّنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا مَنَّهَا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالنُّوَابِثِ
وَالْأَرْضِيْنَ السَّبْعِ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَرِمَالٍ، وَبِحَارٍ
وَقَفَارٍ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَمُرْشِدًا إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى إِعَادَةِ
الْأَجْسَادِ بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾
[غافر: ٥٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا: ﴿أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أَي: مِثْلَ
النَّبِيِّ، فَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:

وهذه الآية الكريمة كقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ أَجْرًا
يُجْرَىٰ لَهَا مَوْجِبًا بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٢٣] وَقَالَ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُنَا: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ
إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ أَي: إِنَّمَا يَأْمُرُ
بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّرٍ أَوْ تَأْكِيدٍ:
إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا

يَقُولُ لَهُ: كُنْ - قَوْلَهُ - فَيَكُونُ
وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ
مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَكُلُّكُمْ
فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَعْتَيْتُ، إِنِّي جَوَادٌ مَا جِدَّ وَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ،
عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَلِنَّمَا أَقُولُ
لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ»^(٥).

(١) أحمد: ٢١٠/٤ (٢) ابن ماجه: ٩٠٣/٢ (٣) أحمد: ٥/٣٩٥
(٤) فتح الباري: ٥٩٤/٦ ومسلم: ٢١١٠/٤ (٥) أحمد: ١٥٤/٥

فَجَمَعْتُ وَمَنَعْتُ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِي قُلْتُ: أَتَصَدَّقُ.
وَأَتَى أَوَانَ الصَّدَقَةِ؟^(١) وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ^(٢). وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَمِثْلًا خَلَقَهُمُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ
رِيمٌ﴾ أَي: اسْتَبَعَدَ إِعَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى - ذِي الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ
الَّتِي خَلَقَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - لِلْأَجْسَامِ وَالْعِظَامِ
الرَّيْمِيَّةِ، وَنَسِيَ نَفْسَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى
الْوُجُودِ: فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا اسْتَبَعَدَهُ وَأَنْكَرَهُ
وَجَحَدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مُجِيبًا لِّذِي أَسْأَلَهَا أَوْلَى
مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَي: يَعْلَمُ الْعِظَامَ فِي سَائِرِ
أَفْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا، أَيْنَ ذَهَبَتْ، وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ
وَتَمَزَّقَتْ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَبِيعِي قَالَ: قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو
لِحَدِيثَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَلَا تَحَدَّثُنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ
الْمَوْتُ، فَلَمَّا أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ: إِذَا أَنَا مِتُّ
فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزَلًا، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّى
إِذَا أَكَلْتُ لَحْمِي، وَخَلَصْتُ إِلَى عَظْمِي فَامْتَحِشْتُ،
فَخُدُّوهَا فِدُّوهَا فِدُّوهَا فِي النَّيْمِ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ
تَعَالَى إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ
خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ» فَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو: وَأَنَا
سَمِعْتُهُ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ، وَكَانَ نَبَأًا^(٣). وَقَدْ أُخْرِجَاهُ فِي
الصَّحِيحَيْنِ بِالْفَاطِظِ كَثِيرَةٍ مِنْهَا أَنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ أَنْ يُحْرِقُوهُ ثُمَّ
يَسْحُقُوهُ ثُمَّ يَذَرُوهُ نِصْفَهُ فِي الْبُرِّ، وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ
رَاحٍ، أَي: كَثِيرِ الْهَوَاءِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
الْبَحْرَ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبُرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:
كُنْ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَانِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا
صَنَعْتَ؟ قَالَ: مُخَافَتُكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَمَا تَلَا فَا هُ أَنْ غَفَرَ
لَهُ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا
فَإِذَا أَنشَأْتُم مِّنْهُ ثَوْدُونَ﴾ أَي: الَّذِي بَدَأَ خَلَقَ هَذَا الشَّجَرَ مِنْ
مَاءٍ، حَتَّى صَارَ خَضِرًا نَضْرًا ذَا ثَمَرٍ وَنَبْعٍ، ثُمَّ إِعَادَهُ إِلَى أَنْ
صَارَ حَطَبًا يَابِسًا تَوْقَدُ بِهِ النَّارُ، كَذَلِكَ هُوَ فَعَالَ لِمَا يَشَاءُ،
قَادِرٌ عَلَى مَا يُرِيدُ لَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ. قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ:
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنشَأْتُم مِّنْهُ
ثَوْدُونَ﴾ يَقُولُ: الَّذِي أَخْرَجَ هَذِهِ النَّارَ مِنْ هَذَا الشَّجَرِ،
قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَهُ، وَيَقِيلُ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ شَجَرُ الْمَرْخِ

سُورَةُ الصَّافَّاتِ
٤٤٦
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالْتَجَرَّتْ زَحْرًا ۝٢ فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥ إِنَّا نَتَنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةً الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَاسَمَّعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ لَأَمِنْ خِطْفًا الْخِطْفَةَ فَانْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِرُوا لِوَالِدَيْكَ يُكْفَرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ۝١٤ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝١٥ أَمْ دَامِنَا وَكَانُوا آبَاءَ عَظَمَاءَ أَمْ نَالَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَمْ آوَيْنَا الْآلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُوا ابْنُوا لَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۝٢٠ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ ۝٢١ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْجُهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقَفُوهُمْ إِتْمَامًا فَهُمْ يَشْأَلُونَ ۝٢٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَبْدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَي: تَنْزِيهِهِ وَتَقْدِيسِ وَتَبَرُّتِهِ مِنَ الشُّؤْمِ، لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ الَّذِي يَبْدِيهِ مَقَالِيدَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَكَهَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْعِبَادُ يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْمُنْعَمُ الْمُتَّفَضِّلُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَبْدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] فَالْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى، كَرَحْمَةِ وَرَحْمُوتٍ، وَرَهْمَةٍ وَرَهْمُوتٍ، وَجَبْرٍ وَجَبْرُوتٍ. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُلْكَ هُوَ عَالَمُ الْأَجْسَادِ، وَالْمَلَكُوتُ هُوَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمُتَسَرِّينَ وَغَيْرِهِمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ - وَهُوَ ابْنُ الْيَمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَرَأَ السَّبْعَ الطُّوَالَ فِي سَبْعِ رَكَعَاتٍ، وَكَانَ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبْرُوتِ، وَالْكَبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ» وَكَانَ رُكُوعُهُ مِثْلَ قِيَامِهِ، وَسُجُودُهُ مِثْلَ رُكُوعِهِ، فَانصَرَفَ وَقَدْ كَادَتْ تَنْكَبِرُ رِجْلَايَ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالْتَجَرَّتْ زَحْرًا ۝٢ فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾

[تَشَهُدُ الْمَلَائِكَةُ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِ]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ ﴿فَالْتَجَرَّتْ زَحْرًا﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ ﴿فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ^(٥). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمَسْرُوقٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعُكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ^(٦). قَالَ قَتَادَةُ: الْمَلَائِكَةُ صُفُوفٌ فِي السَّمَاءِ^(٧). وَرَوَى مُسْلِمٌ

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَامَ، فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ لَا يَمُرُّ بِآيَةٍ رَحْمَةً إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ وَتَعَوَّدَ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ يَقْدِرُ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبْرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكَبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ» ثُمَّ سَجَدَ يَقْدِرُ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ ثُمَّ قَرَأَ سُورَةَ سُورَةَ^(٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «السَّمَائِلِ» وَالنَّسَائِيُّ^(٣). أَحْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ يَسَّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ]

رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنَا بِالتَّخْفِيفِ وَيَوْمُنَا بِالصَّافَّاتِ^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ النَّسَائِيُّ.

(١) أحمد: ٣٩٦/٥ (٢) أبو داود: ٥٤٤/١ (٣) شمائل الترمذي: ١٦٤ والنسائي: ٢٢٣/٢ (٤) النسائي: ٩٥/٢ (٥) الطبري: ٧/٢١ (٦) القرطبي: ٦٢، ٦١/١٥ (٧) الطبري: ٧/٢١

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَ لَنَا تَرَابُهَا طَهْرًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»^(١). وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَتَّصِفُونَ كَمَا تَتَّصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قُلْنَا: وَكَيْفَ تَتَّصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ ﷺ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ»^(٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ تَزَجَّجُوا الْفَخْرَ﴾ أَنَّهَا تَزَجُّ السَّحَابَ ﴿فَالَّذِينَ تَزَجَّجُوا الْفَخْرَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: الْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بِالْكِتَابِ وَالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ.

[الْمَعْبُودُ الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿هَذَا هُوَ الْمُفْسَمُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أَيُّ: هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَّصِفُ فِي الْخَلْقِ بِسَخِيحِهِ بِمَا فِيهِ مِنْ كَوَاكِبٍ قَوَائِمٍ وَسَيَّارَاتٍ تَبْدُو مِنَ الْمَشْرِقِ وَتَعْرُبُ مِنَ الْمَغْرِبِ. وَاکْتَفَى بِذِكْرِ الْمَشَارِقِ عَنِ الْمَغَارِبِ لِذَلَالَتِهَا عَلَيْهِ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا أَمِمْ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَنَقْدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠] وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] يَعْنِي فِي الشَّمَاةِ وَالصُّفُوفِ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

﴿إِنَّا رَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيَّةَ الْكُوكِبِ﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿لَا يَسْتَمِعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

[تَرْزِينُ السَّمَاءِ وَحِفْظُهَا مِنْ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ رَزَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا لِلنَّاطِرِينَ إِلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿بَرِيَّةَ الْكُوكِبِ﴾ قُرِئَ بِالْإِضَافَةِ وَبِالْبَدَلِ وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَالْكُوكِبُ السَّيَّارَةُ وَالتَّوَابِتُ يَتَّقُبُ ضَوْءَهَا جُزْمَ السَّمَاءِ الشُّغَافِ فَتُضِيءُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَمِصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَزَقْنَا بِالنَّظِيرِ﴾ وَحِفْظُهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيءٍ ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾

[الحجر: ١٦-١٨] فَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تَقْدِيرُهُ: وَحِفْظُنَاهَا حِفْظًا ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ يَعْنِي الْمُمَرَّدَ الْعَانِيَّ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَرِقَّ السَّمْعَ أَنَاهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ فَأَحْرَقُهُ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿لَا يَسْتَمِعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أَيُّ: لِئَلَّا يَصِلُوا إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَهِيَ السَّمَوَاتُ وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِذَا تَكَلَّمُوا بِمَا يُوجِبُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِمَّا يَقُولُهُ مِنْ شَرِّعِهِ وَقَدَرِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي أوردناها عِنْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُقَدِّفُونَ﴾ أَيُّ: يُرْمُونَ ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أَيُّ: مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَقْضُدُونَ السَّمَاءَ مِنْهَا ﴿دُحُورًا﴾ أَيُّ: رَجْمًا يُدْحَرُونَ بِهِ وَيُزَجَّرُونَ، وَيُتَمَعُونَ مِنْ الْوُضُوءِ إِلَى ذَلِكَ، وَيُزَجَّمُونَ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أَيُّ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، لَهُمْ عَذَابٌ دَائِمٌ مُوجِعٌ مُسْتَمِرٌّ، كَمَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أَيُّ: إِلَّا مَنْ اخْتَطَفَ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْخَطْفَةَ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ يَسْمَعُهَا مِنَ السَّمَاءِ فَيَلْقِيهَا إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ، وَيَلْقِيهَا الْآخِرُ إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا - بِقَدْرِ اللَّهِ تَعَالَى - قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الشَّهَابُ فَيَحْرِقُهُ، فَيَذْهَبُ بِهَا الْآخِرُ إِلَى الْكَاهِنِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أَيُّ: مُسْتَبِيرٌ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ لِلشَّيَاطِينِ مَقَاعِدُ فِي السَّمَاءِ. قَالَ: فَكَانُوا يَسْتَمِعُونَ الْوَحْيَ، قَالَ: وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا تَجْرِي، وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ لَا تَرْمِي، قَالَ: فَإِذَا سَمِعُوا الْوَحْيَ نَزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ، فَرَادُوا فِي الْكَلِمَةِ تَسْعًا. قَالَ: فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ الشَّيْطَانُ إِذَا قَصَدَ مَقْعَدَهُ جَاءَهُ شِهَابٌ فَلَمْ يُخْطِئْهُ حَتَّى يُحْرِقَهُ، قَالَ: فَشَكُّوا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مِنْ أَمْرِ حَدَثَ، قَالَ: فَبَعَثَ جُودَهُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْنِ نَحْلَةَ - قَالَ وَكَيْعُ: يَعْنِي بَطْنَ نَحْلَةَ - قَالَ: فَارْجِعُوا إِلَى إِبْلِيسَ فَأَخْبِرُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الَّذِي حَدَّثَ^(٣).

(١) مسلم: ٣٧١/١ (٢) مسلم: ٢٢٣/١ وأبو داود: ٤٣١/١ والنسائي: ٩٢/٢ وابن ماجه: ٣١٧/١ (٣) الطبري: ١٢/٢١

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَهْمَ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (١١) ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذَكَّرُونَ﴾ (١٣) ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِهِ يَسْتَسْخِرُونَ﴾ (١٤) ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) ﴿هَذَا مِنَّا وَكَأَنَّا زُرَّابٌ وَصَلَمْنَا إِنَّا لَبَعُوثُونَ﴾ (١٦) ﴿أَوْ مَا بَأْسُنَا بِالْأَوَّلِينَ﴾ (١٧) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ (١٨) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٩) ﴿ثُبُوتِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: فَسَلْ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِلْبُعْثِ، أَيُّهُمَا أَشَدُّ خَلْقًا، هُمُ أَمْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ؟ وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَمْ مَنْ عَدَدْنَا) فَإِنَّهُمْ يَقْرَأُونَ أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْهُمْ^(١). وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِمَ يَتَكَبَّرُونَ الْبُعْثُ؟ وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرُوا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ خَلِفُوا مِنْ شَيْءٍ ضَعِيفٍ فَقَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ الْحَيْدُ الَّذِي يَلْتَزِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعِكْرِمَةُ: هُوَ اللَّزْجُ الْحَيْدُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الَّذِي يَلْتَزِقُ بِالْيَدِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أَيُّ: بَلْ عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِلْبُعْثِ، وَأَنْتَ مُؤَقِّنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ، وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَجْسَامِ بَعْدَ فَنَائِهَا، وَهُمْ بِخِلَافِ أَمْرِكَ مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ: يَسْخَرُونَ مِمَّا تَقُولُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَهْمَ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (١١) ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذَكَّرُونَ﴾ (١٣) ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِهِ يَسْتَسْخِرُونَ﴾ (١٤) ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) ﴿هَذَا مِنَّا وَكَأَنَّا زُرَّابٌ وَصَلَمْنَا إِنَّا لَبَعُوثُونَ﴾ (١٦) ﴿أَوْ مَا بَأْسُنَا بِالْأَوَّلِينَ﴾ (١٧) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ (١٨) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٩) ﴿ثُبُوتِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: فَسَلْ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِلْبُعْثِ، أَيُّهُمَا أَشَدُّ خَلْقًا، هُمُ أَمْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ؟ وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَمْ مَنْ عَدَدْنَا) فَإِنَّهُمْ يَقْرَأُونَ أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْهُمْ^(١). وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِمَ يَتَكَبَّرُونَ الْبُعْثُ؟ وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرُوا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ خَلِفُوا مِنْ شَيْءٍ ضَعِيفٍ فَقَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ الْحَيْدُ الَّذِي يَلْتَزِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعِكْرِمَةُ: هُوَ اللَّزْجُ الْحَيْدُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الَّذِي يَلْتَزِقُ بِالْيَدِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أَيُّ: بَلْ عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِلْبُعْثِ، وَأَنْتَ مُؤَقِّنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ، وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَجْسَامِ بَعْدَ فَنَائِهَا، وَهُمْ بِخِلَافِ أَمْرِكَ مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ: يَسْخَرُونَ مِمَّا تَقُولُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ قَتَادَةُ: عَجِبَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَسَخَرَ ضَلَّالُ بَنِي آدَمَ^(٣). ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِهِ﴾ أَيُّ: دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى ذَلِكَ ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَسْتَهْزِئُونَ^(٤). ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أَيُّ: إِن هَذَا الَّذِي جِئْتُ بِهِ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿أَوْ مَا بَأْسُنَا بِالْأَوَّلِينَ﴾ يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ وَيَكْذِبُونَ بِهِ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أَيُّ: قُلْ لَهُمْ: يَا مُحَمَّدُ! نَعَمْ تُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَمَا تَصِيرُونَ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أَيُّ: حَقِيرُونَ تَحْتَ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلُّ أُنثَى دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ الْأَيْدِيَ سَيَتَكَبَّرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْحَلُونَ جِهَتَهُمْ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ثُمَّ قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أَيُّ: فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ مِنَ اللَّهِ

عَزَّ وَجَلَّ، يَدْعُوهُمْ دَعْوَةً وَاحِدَةً أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْأَرْضِ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢٠) ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ (٢١) ﴿احْمَرُّوا الدِّينَ ظُلْمًا وَأَرْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (٢٣) ﴿وَقَفَّوْهُ لِحِمِّهِمْ﴾ (٢٤) ﴿مَسْئُولُونَ﴾ (٢٥) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ (٢٦) ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (٢٧)

[أَهْوَالِ يَوْمِ الدِّينِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِيَلِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ، وَبِعَتْرَتِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، فَإِذَا عَايَنُوا أَهْوَالَ الْقِيَامَةِ نَدِمُوا كُلَّ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

(١) الطبري: ١٩/٢١ (٢) القرطبي: ٦٩/١٥ والطبري: ٢١/٢٤
 (٣) الطبري: ٢٣/٢١ (٤) الطبري: ٢٤/٢١

تُكذِّبُونَ ﴿٣٧﴾ وَهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، وَيَأْتِي اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ أَنْ تُمَيِّزَ الْكُفَّارَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَوْقِفِ فِي مَحْشَرِهِمْ وَمَنْشَرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قَالَ التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَعْنِي بِأَزْوَاجِهِمْ: أَشْبَاهَهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ^(١). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَأَبُو صَالِحٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ^(٢). وَقَالَ شَرِيكٌ عَنْ سِمَاكِ عَنِ التُّعْمَانِ قَالَ: سَمِعْتُ عَمْرَ يَقُولُ: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قَالَ: أَشْبَاهَهُمْ. قَالَ: يَجِيءُ أَصْحَابَ الرِّبَا مَعَ أَصْحَابِ الرِّبَا، وَأَصْحَابِ الْخَمْرِ مَعَ أَصْحَابِ الْخَمْرِ.

وَرَوَى مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ قُرْآنَهُمْ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيُّ: مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْأَنْدَادِ تُحْشَرُ مَعَهُمْ فِي أَمَاكِينِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَلْدُودُهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَيْمِ﴾ أَيُّ: أَرْشِدُوهُمْ إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُنُقًا وَبِيكُمَا رَسْمًا مَأْرَبُهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الاسراء: ٩٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَفُّوهُمْ بِلَيْتِهِمْ مَسْجُورِينَ﴾ أَيُّ: قَفُّوهُمْ حَتَّى يُسْأَلُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَحْسِبُوهُمْ إِنَّهُمْ مُحَاسَبُونَ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْمُبَارَكِ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ زَائِدَةَ يَقُولُ: إِنْ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الرَّجُلُ: جُلَسَاؤُهُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّفْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أَيُّ: كَمَا زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ جَمِيعٌ مُتَّصِرٌ ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ﴾ أَيُّ: مُتَقَادُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يُخَالِفُونَهُ وَلَا يُجَادُونَ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٤) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٧٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِعِينَ ﴿٨٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٨١﴾ فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَتَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٨٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُونَ إِلَهِنَا إِلَّا سَاعَةَ نَحْمَدُ ﴿٨٦﴾ بَلْ جَاءَهُ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٧﴾

[تَخَاصُمُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَذُكَّرُ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ يَتَلَاوَمُونَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، كَمَا يَتَخَاصَمُونَ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ ﴿فَيَقُولُ الصَّعِقَتُوا لِلَّذِينَ

اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُفُوتًا عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لَأَنزِعَنَّ صَدَدَنَّاكَ عَنِ الْمُنَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ رَبِّ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُمْ آدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ رِجَعْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَصْحَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُعْزِرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١-٣٣] وَهَكَذَا قَالُوا لَهُمْ هُنَا: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾: قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَقُولُونَ: كُنْتُمْ تَهْتَرُونَ بِالْقُدْرَةِ مِنْكُمْ عَلَيْنَا، لِأَنَّا كُنَّا أَذْلَاءَ وَكُنْتُمْ أَعْرَاءَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَتِ الْإِنْسُ لِلْجِنِّ: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالَ: مِنْ قِبَلِ الْخَيْرِ، فَتَهْتَرُونَ عَنْهُ وَتَبْطِئُونَ عَنْهُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَأْتُونَنَا مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ، وَتُرْتَبُونَ لَنَا الْبَاطِلَ، وَتَصْدُونَا عَنِ الْحَقِّ^(٥). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ تَحُولُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْخَيْرِ، وَرَدَدْتُمُونَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ بِالْخَيْرِ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ^(٦). وَقَالَ زَيْدُ الرَّشْكِ: مِنْ قِبَلِ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تَقُولُ الْقَادَةُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِلْإِتْبَاعِ: مَا الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ، بَلْ كَانَتْ قُلُوبِكُمْ مُنْكَرَةً لِلْإِيمَانِ، قَابِلَةً لِلْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَيُّ: مِنْ حُجَّةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِعِينَ﴾ أَيُّ: بَلْ كَانَ فِيكُمْ طُعْيَانٌ وَمُجَاوِزَةٌ لِلْحَقِّ، فَلِهَذَا اسْتَجَبْتُمْ لَنَا، وَتَرَكْتُمْ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَأَقَامُوا لَكُمْ الْحُجَجَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ، فَخَالَفْتُمُوهُمْ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾^(٧) فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٨٢﴾ يَفْسُورُ الْكِبْرَاءَ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ: حَقَّتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ اللَّهِ: إِنَّا مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الدَّائِقِينَ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَأَعْوَبْتَكُمْ﴾ أَيُّ: دَعَوْنَاكُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أَيُّ: فَدَعَوْنَاكُمْ إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَاتَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي

(١) الطبري: ٢٧/٢١ (٢) الطبري: ٢٨، ٢٧/٢١ (٣) الطبري: ٢٢/٢١ إسناده لا يصح الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٤) الطبري: ٣٢/٢١

العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٧﴾ أَي: الْجَمِيعِ فِي النَّارِ كُلِّ بِحَسَبِهِ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا ﴿أَي: فِي الدَّارِ الدُّنْيَا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَي: يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَقُولُوا كَمَا يَقُولُهَا الْمُؤْمِنُونَ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمِرتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١). وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ - وَذَكَرَ قَوْمًا اسْتَكْبَرُوا - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرِ مَجْنُونٍ﴾ أَي: أَنْحُنْ نَتْرُكُ عِبَادَةَ إِلَهَيْنَا وَإِلَهَةَ آبَائِنَا عَنْ قَوْلِ هَذَا الشَّاعِرِ الْمَجْنُونِ، يَعْنُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَ بِالْحَقِّ فِي جَمِيعِ شُرْعَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ الْإِخْبَارِ وَالطَّلَبِ ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَي: صَدَقْتَهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوا عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَالْمَتَاهِجِ السَّيِّدَةِ، وَأَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شُرْعِهِ وَأَمْرِهِ كَمَا أَخْبَرُوا ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ... الْآيَةُ [فصلت: ٤٣].

﴿إِنَّكُمْ لَدَأَبُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤١﴾ أَوْلَيْكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤٢﴾ فَوَيْلٌ لَهُمْ مَكْرُمُونَ ﴿٤٣﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٤﴾ عَلَى سُورٍ مُتَقَلِّبِينَ ﴿٤٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٦﴾ بِيضَاءَ لَذْوٍ لِلشَّرِيبِينَ ﴿٤٧﴾ لَا فِيهَا عَوَّلٌ وَلَا لَهُمْ عَنْهَا يُزْفَوْنَ ﴿٤٨﴾ وَصَدَقَهُمْ فَنَصَّرَتْهُمْ أَلْفَافٍ عِزٍّ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٥٠﴾

[جزء المشرِّكين وعباد الله المخلصين]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلنَّاسِ: ﴿إِنَّكُمْ لَدَأَبُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ ذَلِكَ عِبَادَةَ الْمُخْلِصِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمَصْرُ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿العصر: ٣-١﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿١﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿التين: ٤-٦﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُوا إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ نَسِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَنَدَّرَ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا ﴿مریم: ٧١، ٧٢﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينًا﴾ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَنْصَبَ الَّذِينَ [المدرثر: ٣٨، ٣٩] وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ

الْمُخْلِصِينَ﴾ أَي: لَيْسُوا يَدُوْفُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، وَلَا يُنَاقَشُونَ فِي الْحِسَابِ، بَلْ يَتَجَاوَزُونَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ إِنْ كَانَ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ، وَجُزْءٌ مِنَ الْحَسَنَةِ بِعَشْرِ أَثْمَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعِيفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ التَّضْعِيفِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوْلَيْكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي الْجَنَّةَ^(١). ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ أَي: مُتَتَوِّعَةٌ ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أَي: يُخْدَمُونَ وَيُرْفَهُونَ وَيَتَعَمَّوْنَ ﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٤٢﴾ عَلَى سُورٍ مُتَقَلِّبِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ لَذْوٍ لِلشَّرِيبِينَ ﴿٤٧﴾ لَا فِيهَا عَوَّلٌ وَلَا لَهُمْ عَنْهَا يُزْفَوْنَ ﴿٤٨﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ ﴿٧﴾ بِأَكْوَابِ وَالْأَرْبَابِ بِكُأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفَوْنَ ﴿٩﴾ نَزَّهَ اللَّهُ سُحْحَانَهُ وَتَعَالَى خَمْرُ الْجَنَّةِ عَنِ الْآفَاتِ الَّتِي فِي خَمْرِ الدُّنْيَا، مِنْ صُدَاعِ الرَّأْسِ وَوَجَعِ الْبَطْنِ - وَهُوَ الْعَوَّلُ - وَذَهَابِهَا بِالْعُقْلِ جُمْلَةً، فَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ أَي: بِخَمْرٍ مِنْ أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ، لَا يَخَافُونَ انْقِطَاعَهَا وَلَا فَرَاعَهَا، قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: خَمْرٌ جَارِيَةٌ بِيضَاءَ، أَي: لَوْنُهَا مُشْرِقٌ حَسَنٌ بَهِيٍّ، لَا كَخَمْرِ الدُّنْيَا فِي مَنْظَرِهَا الْبِشْعِ الرَّدِيِّ مِنْ حُمْرَةٍ أَوْ سَوَادٍ أَوْ أَصْفَرَارٍ أَوْ كُدُورَةٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُتَمَرُّ الطَّعْمُ السَّلِيمُ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَذْوٍ لِلشَّرِيبِينَ﴾ أَي: طَعْمُهَا طَيِّبٌ كَلُونُهَا، وَطَيِّبُ الطَّعْمِ دَلِيلٌ عَلَى طَيِّبِ الرِّيحِ، بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا فِي جَمِيعِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا فِيهَا عَوَّلٌ﴾ يَعْنِي لَا تَوَثَّرُ فِيهِمْ عَوَّلًا - وَهُوَ وَجَعُ الْبَطْنِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ^(٤). كَمَا تَفَعَّلَهُ خَمْرُ الدُّنْيَا مِنَ الْقَوْلِجِ وَنَحْوِهِ لِكَثْرَةِ مَا يَبِيَّتُهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا لَهُمْ عَنْهَا يُزْفَوْنَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تُذْهِبُ عُقُولَهُمْ^(٥). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالْحَسَنُ، وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي الْخَمْرِ أَرْبَعٌ خِصَالٌ: الْأَسْكُرُ وَالصُّدَاعُ، وَالْقَيْءُ، وَالْبَوْلُ. فَذَكَرَ اللَّهُ خَمْرَ الْجَنَّةِ فَتَرَهَّهَا عَنْ هَذِهِ الْخِصَالِ^(٦) كَمَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ

(١) ابن أبي حاتم: ٨١٧١، مسلم مختصراً: ٥٢/١ (٢) الطبري: ٣٥/٢١ (٣) القرطبي: ٧٧/١٥ (٤) الطبري: ٢١/٣٨ (٥) الطبري: ٤٠/٢١ (٦) ابن أبي حاتم: ٨١٧٧٠، القرطبي: ٧٩/١٥

الصَّافَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ﴾ أَي: عَفِيفَاتٌ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى غَيْرِ أَرْوَاجِهِنَّ. كَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَرَبِذُ بْنُ أَسْلَمَ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ^(١). وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿عَيْنٌ﴾ أَي: حَسَانُ الْأَعْيُنِ. وَقِيلَ: صِخَامُ الْأَعْيُنِ وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ، وَهِيَ النَّجْلَاءُ الْعَيْنَاءُ، فَوَصَفَ عِيُونَهُنَّ بِالْحُسْنِ وَالْعِفَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ عَيْنٌ﴾ وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ وَصَفَهُنَّ بِتَرَافِقِ الْأَبْدَانِ بِأَحْسَنِ الْأَلْوَانِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يَقُولُ: اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ^(٢).

وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يَعْنِي مَحْضُونٌ لَمْ تَمَسَّهُ الْأَيْدِي. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْبَيْضُ فِي عَشْوِهِ مَكْنُونٌ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يَعْنِي بَطْنَ الْبَيْضِ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: هُوَ السَّحَاءُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ قَشْرَتَيْ الْعُلْيَا وَلُبَّابِ الْبَيْضَةِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يَقُولُ: بِيَاضِ الْبَيْضِ حِينَ نُرْعَقُ قَشْرَتَهُ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ لِقَوْلِهِ: ﴿مَكْنُونٌ﴾ قَالَ: وَالْقَشْرَةُ الْعُلْيَا يَمْسُهَا جَنَاحُ الطَّيْرِ، وَالْعُشُّ، وَتَنَالَهَا الْأَيْدِي بِخِلَافِ دَاخِلِهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٥١) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ^(٥٢) يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ^(٥٣) أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَهْنَا لَمَدِينُونَ^(٥٤) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ^(٥٥) فَاطَّلَعَ قِرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيمِ^(٥٦) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَرِينَ^(٥٧) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ^(٥٨) أَمَا نَحْنُ بِمَسِيئِينَ^(٥٩) إِلَّا مَوَلَّنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ^(٦٠) إِنَّ هَذَا لَمَوْءُودٌ الْعَظِيمُ^(٦١) لِيُمِثِلَ هَذَا فَيَلْعَمَلِ الْعَمَلُونَ^(٦٢)

[الْجَمَاعُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَحَوَارِ أَحَدِهِمْ مَعَ صَاحِبِهِ الْمُشْرِكِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ يُعَذَّبُ فِي جَهَنَّمَ. . . وَشُكْرُهُ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ أَي: عَنْ أَحْوَالِهِمْ، وَكَيْفَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَمَاذَا كَانُوا يُعَانُونَ فِيهَا؟ وَذَلِكَ مِنْ حَدِيثِهِمْ عَلَى شَرَابِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي تَنَادُؤِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى السَّرْرِ، وَالْخَدَمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَسْعَوْنَ وَيَجِيئُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشْرَابٍ وَمَلَابِسٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ

يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ^(٥١) أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَهْنَا لَمَدِينُونَ^(٥٢) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ^(٥٣) فَاطَّلَعَ قِرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيمِ^(٥٤) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَرِينَ^(٥٥) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ^(٥٦) أَمَا نَحْنُ بِمَسِيئِينَ^(٥٧) إِلَّا مَوَلَّنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ^(٥٨) إِنَّ هَذَا لَمَوْءُودٌ الْعَظِيمُ^(٥٩) لِيُمِثِلَ هَذَا فَيَلْعَمَلِ الْعَمَلُونَ^(٦٠) أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ^(٦١) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ^(٦٢) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ^(٦٣) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ^(٦٤) فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا لِقْوَنٌ مِنْهَا الْبُطُونَ^(٦٥) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِمِّمٍ^(٦٦) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيمِ^(٦٧) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آيَاءَهُمْ ضَالِّينَ^(٦٨) فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ مُرْعُونَ^(٦٩) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ^(٧٠) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ^(٧١) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ^(٧٢) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ^(٧٣) وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلِعَمْرٍ الْمُجِيبُونَ^(٧٤) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ^(٧٥)

بَشِيرٍ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ الرَّجُلُ الْمُشْرِكُ يَكُونُ لَهُ صَاحِبٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا^(٣). ﴿يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أَي: أَنْتَ تُصَدِّقُ بِالْبُعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ؟! يَعْنِي يَقُولُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَجُّبِ وَالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِعْجَادِ وَالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ ﴿أَهْنَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَهْنَا لَمَدِينُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: لَمَحَاسِبُونَ^(٤). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ: لَمَجْرِيُونَ بِأَعْمَالِنَا^(٥). وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ أَي: مُشْرِفُونَ - يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِأَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ - ﴿فَاطَّلَعَ قِرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيمِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَخَلِيدُ الْعَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: يَعْنِي

(١) الطبري: ٤٢، ٤١/٢١ (٢) الطبري: ٤٣/٢١ (٣) الطبري: ٤٥/٢١ العوفي مع عائلته من الضعفاء كما ذكرنا مرارًا (٤) الطبري: ٤٧/٢١ (٥) الطبري: ٤٧/٢١

فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ كَأَنَّهُ شَهَابٌ يَنْقُدُ^(٢). ﴿قَالَ تَالَهُ إِنْ كِدْتَ لَتُرِينَ^(٣)﴾ يَقُولُ الْمُؤْمِنُ مُحَاوِبًا لِلْكَافِرِ: وَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتَهْلِكُنِي لَوْ أَطَعْتَكَ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أَي: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيَّ لَكُنْتُ مِثْلَكَ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ حَيْثُ أَنْتَ، مُحْضَرٌ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ، وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيَّ وَرَحِمَنِي؛ فَهَدَانِي لِلْإِيمَانِ وَأَرْشَدَنِي إِلَى تَوْحِيدِهِ ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ^(٤)﴾ إِلَّا مَوَلَّنَا الْأَوْلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿هَذَا مِنْ كَلَامِ الْمُؤْمِنِ مُعْتَبِطًا نَفْسَهُ لِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْخُلْدِ فِي الْجَنَّةِ، وَالْإِقَامَةَ فِي دَارِ الْكِرَامَةِ بِلَا مَوْتٍ فِيهَا وَلَا عَذَابٍ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ فَإِنَّ الْمَوْتَ يَقْطَعُهُ فَقَالُوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ^(٥)﴾ إِلَّا مَوَلَّنَا الْأَوْلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿قِيلَ: لَا، قَالُوا: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٦). وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لِيُثَلَّ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَالِمُونَ﴾ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُوَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ لِيُثَلَّ هَذَا النَّعِيمَ وَهَذَا الْفَوْزَ فليَعْمَلِ الْعَالِمُونَ فِي الدُّنْيَا، لِيَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ^(٧).

[قِصَّةُ إِسْرَائِيلِيِّينَ]

وَقَدْ ذَكَرُوا قِصَّةَ رَجُلَيْنِ كَانَا شَرِيكَيْنِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ تَدَخَّلَ فِي ضَمْنِ عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكُرْبِمَةَ، رَوَى أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ فُرَاتِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْبَهْرَانِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي كَانُ لِي قَوْسَيْنِ﴾ قَالَ: إِنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا شَرِيكَيْنِ فَاجْتَمَعَ لهُمَا نَمَانِيَةُ آلَافِ دِينَارٍ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا لَهُ حِرْفَةٌ وَالْآخَرُ لَيْسَ لَهُ حِرْفَةٌ، فَقَالَ الَّذِي لَهُ حِرْفَةٌ لِلْآخَرِ: لَيْسَ عِنْدَكَ حِرْفَةٌ، مَا أَرَانِي إِلَّا مُفَارِقَكَ وَمُقَاسِمَكَ فَقَاسَمَهُ وَقَارَقَهُ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ اشْتَرَى دَارًا بِأَلْفِ دِينَارٍ كَانَتْ لِمَلِكٍ مَاتَ، فَدَعَا صَاحِبَهُ فَأَرَاهُ فَقَالَ: كَيْفَ تَرَى هَذِهِ الدَّارَ ابْتِغَتْهَا بِأَلْفِ دِينَارٍ؟ قَالَ مَا أَحْسَنَهَا! فَلَمَّا حَرَجَ قَالَ: أَللَّهُمَّ إِنَّ صَاحِبِي هَذَا ابْتِغَى هَذِهِ الدَّارَ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ دَارًا مِنْ دُورِ الْجَنَّةِ فَتَصَدَّقْ بِأَلْفِ دِينَارٍ، ثُمَّ مَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَمُكَّتَ، ثُمَّ إِنَّهُ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ بِأَلْفِ دِينَارٍ فَدَعَاهُ وَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَلَمَّا أَنَاهُ قَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ بِأَلْفِ دِينَارٍ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: يَا رَبِّ! إِنَّ صَاحِبِي تَزَوَّجَ امْرَأَةً بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ امْرَأَةً مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ فَتَصَدَّقْ

بِأَلْفِ دِينَارٍ، ثُمَّ إِنَّهُ مَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَمُكَّتَ، ثُمَّ اشْتَرَى بُسْتَانَيْنِ بِأَلْفِي دِينَارٍ، ثُمَّ دَعَاهُ فَأَرَاهُ فَقَالَ: إِنِّي ابْتِغْتُ هَذَيْنِ الْبُسْتَانَيْنِ بِأَلْفِي دِينَارٍ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَلَمَّا حَرَجَ قَالَ: يَا رَبِّ! إِنَّ صَاحِبِي قَدْ اشْتَرَى بُسْتَانَيْنِ بِأَلْفِي دِينَارٍ وَأَنَا أَسْأَلُكَ بُسْتَانَيْنِ فِي الْجَنَّةِ فَتَصَدَّقْ بِأَلْفِي دِينَارٍ، ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ أَنَاهُمَا فَتَوَقَّاهُمَا ثُمَّ انْطَلَقَ بِهَذَا الْمُتَصَدِّقِ فَأَدْخَلَهُ دَارًا تُعْجِبُهُ، وَإِذَا بِامْرَأَةٍ تَطْلُعُ بُضِيءٌ مَا تَحْتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، ثُمَّ أَدْخَلَهُ بُسْتَانَيْنِ وَشَبَّتَا اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمُ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: مَا أَشْبَهَ هَذَا بِرَجُلٍ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَإِنَّهُ ذَاكَ، وَلَكَ هَذَا الْمَنْزِلُ وَالْبُسْتَانَانِ وَالْمَرْأَةُ، قَالَ: فَإِنَّهُ كَانَ لِي صَاحِبٌ ﴿يَقُولُ لَأَنْتَ لَيْنَ الْمَصْدِقِينَ﴾ قِيلَ لَهُ: فَإِنَّهُ فِي الْجَحِيمِ. قَالَ: ﴿هَلْ أَنتَ مُطْلِعُونَ^(٨)﴾ فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿تَالَهُ إِنْ كِدْتَ لَتُرِينَ^(٩)﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾^(١٠). [الآيات].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا يَقْوِي قِرَاءَةَ مَنْ قَرَأَ (أَنْتَ لَمِنْ الْمَصْدِقِينَ)، بِالتَّشْدِيدِ. وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَذَكَرَ الْقِصَّةَ بِطَوْلِهَا وَفِيهَا: كَانَ شَرِيكَانِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَحَدُهُمَا مُؤْمِنٌ وَالْآخَرُ كَافِرٌ - إِلَى أَنْ اجْتَمَعَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ (أَيُّ الْكَافِرِ)-: مَا صَنَعْتَ فِي مَا لَيْكَ قَالَ: أَفْرَضْتُهُ قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: الْمَلِيءُ الْوَفِيِّ قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: اللَّهُ رَبِّي. قَالَ وَهُوَ مُصَافِحُهُ، فَانْتَرَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ ثُمَّ قَالَ: ﴿لَأَنْتَ لَمِنْ الْمَصْدِقِينَ^(١١)﴾ أَلَا مَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَنَدِينُونَ. قَالَ الشَّدِيدِيُّ مُحَاسِبُونَ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الْكَافِرُ وَتَرَكَهُ... إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ^(١٢).

﴿أَدَلِكْ حَيْرٌ تَرُؤَا أُمَّ سَجْرَةَ الرَّقِيمِ^(١٣)﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ^(١٤)﴾ إِنَّهَا سَجْرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ^(١٥) طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ السَّيِّطِينَ^(١٦) فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا قَمَالُونَ وَمِنَهَا الْبُظُونُ^(١٧) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيرٍ^(١٨) ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ^(١٩)﴾ إِنَّهُمْ

(١) الطبري: ٤٨/٢١ (٢) الطبري: ٤٨/٢١ (٣) الدر المنثور: ٩٥/٧ (٤) الطبري: ٥٢/٢١ (٥) الطبري: ٤٥/٢١
إسناده ضعيف فيه خصيف بن عبدالرحمن الجزري سيع الحفظ وروى عنه عتاب بن بشير وقال الجوزجاني أحاديث عتاب عن خصيف منكرة [أحوال الرجال: ٦١] قال ابن عدي روى عن خصيف نسخة فيها أحاديث أنكرت [الكامل ٣٥٦/٥] (٦) ابن أبي حاتم: ١٨١٩١ وهذه الرواية يستنير بها المراد بأن الفارق الحقيقي بينهما هو: الإيمان وعدم الإيمان، لا الصدقة بمال فحسب. كما يظهر في الرواية المتقدمة. الناشر.

أَلْعَاذَآءِآءَهُمْ صَالِينَ ﴿٦٦﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُرْتَدُونَ ﴿٦٧﴾
ذَكَرَ شَجَرَةَ الرَّقُومِ وَأَصْحَابَهَا]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَنَآجِحٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَلَادُ خَيْرٌ ضِيَافَةٍ وَعَطَاءٍ ﴿أَمْ شَجَرَةُ الرَّقُومِ﴾ أَي: الَّتِي فِي جَهَنَّمَ. الْمُرَادُ بِذَلِكَ جِنْسُ شَجَرٍ يُقَالُ لَهُ: الرَّقُومُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَلْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] يَعْنِي الرِّثْوَةَ، وَيُوَدُّ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الصَّالُونَ الْمَكْتُوبُونَ﴾ ﴿لَاكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢] وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَتْ شَجَرَةُ الرَّقُومِ فَافْتِنَ بِهَا أَهْلُ الصَّلَاةِ وَقَالُوا: صَاحِبِكُمْ يُنَبِّئُكُمْ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غَذِيَتْ مِنَ النَّارِ وَمِنْهَا خُلِقَتْ ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قَالَ أَبُو جَهْلٍ - لَعْنَهُ اللَّهُ -: إِنَّمَا الرَّقُومُ: الشَّمْرُ وَالزُّبْدُ أَرْقَمُهُ ^(٢). قُلْتُ: وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِنَّمَا أَخْبَرْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِشَجَرَةِ الرَّقُومِ إِخْتِيَارًا نَخْتَبِرُ بِهِ النَّاسَ، مَنْ يَصْدُقُ مِنْهُمْ وَمَنْ يَكْذِبُ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَخُوفُهُمْ مِمَّا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أَي: أَضْلُ مَنَبَتِهَا فِي قَرَارِ النَّارِ ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تَبَشِيرٌ لَهَا وَتَكْرِيبٌ لِدُكْرَهَا. وَإِنَّمَا شَبَّهَهَا بِرُؤُوسِ الشَّيَاطِينِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ الْمُحَاطَبِينَ، لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي النُّفُوسِ أَنَّ الشَّيَاطِينَ قَبِيحَةُ الْمُنْظَرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَأَكُلُونَ مِنْهَا مَقَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾. ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَبْشَعُ مِنْهَا وَلَا أَقْبِحُ مِنْ مَنَظَرِهَا، مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّعْمِ وَالرَّيْحِ وَالطَّبْعِ، فَإِنَّهُمْ لَيُضْطَرُّونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا، لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ إِلَّا إِيَّاهَا وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ ﴿لَا يَسُونَ وَلَا يُعْنَى مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَكًا مِّنْ حِمِيمٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي شُرْبَ الْحَمِيمِ عَلَى الرَّقُومِ ^(٣). وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: شَوْكًا مِنْ حَمِيمٍ: مَرْجًا مِنْ حَمِيمٍ ^(٤). وَقَالَ غَزْبَةُ: يَعْنِي يُمْرِجُ لَهُمْ

وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴿وَإِن مِنْ شَيْعَةٍ إِلَّا بَرَاهِيمَ﴾ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيِفْكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرُظْرَةً فِي التُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْتُونَ كُوفِينَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونِ مَا نَعْبُدُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهَا فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَرَادُوا بِوَيْهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَمِيعِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأَبَّأُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾

الْحَمِيمُ بِصَدِيدٍ وَعَسَاقٍ، مِمَّا يَسِيلُ مِنْ فُرُوجِهِمْ وَعُيُونِهِمْ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: إِذَا جَاعَ أَهْلُ النَّارِ اسْتَعَانُوا بِشَجَرَةِ الرَّقُومِ فَأَكَلُوا مِنْهَا، فَاخْتَلَسَتْ جُلُودُ وَجُوهِهِمْ، فَلَوْ أَنَّ مَرًا مَرَّ بِهِمْ يَعْرِفُهُمْ لَعَرَفَهُمْ بِوُجُوهِهِمْ فِيهَا، ثُمَّ يَصَّبُ عَلَيْهِمُ الْعَطَشُ فَيَسْتَعِينُونَ فَيُعَانُونَ بِمَاءٍ كَالْمُهَلِّ - وَهُوَ الَّذِي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ - فَإِذَا أَذْنُوهُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ اشْتَوَى مِنْ حَرِّهِ لُحُومُ وَجُوهِهِمُ الَّتِي قَدْ سَقَطَتْ عَنْهَا الْجُلُودُ وَيُضَهَّرُ مَا فِي بُطُونِهِمْ، فَيَمْسُونَ تَسِيلُ أَمْعَاؤُهُمْ وَتَسَاقُطُ جُلُودُهُمْ، ثُمَّ يُضْرَبُونَ بِمَقَامِعٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَسْقُطُ كُلُّ عَضْوٍ عَلَى حَبَالِهِ يَدْعُو بِالشُّبُورِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أَي: ثُمَّ إِنَّ مَرَدَّهُمْ بَعْدَ هَذَا النَّصْلِ لِأَلَى نَارِ تَتَّجِعُ، وَجَحِيمٍ تَتَوَقَّدُ، وَسَعِيرٍ تَتَوَهَّجُ، فَتَارَةٌ فِي هَذَا، وَتَارَةٌ فِي هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

(١) الطبري: ٥٢/٢١ (٢) الطبري: ٥٣/٢١ (٣) الطبري: ٥٥/٢١ (٤) الطبري: ٥٢/٢١

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرِ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] هَكَذَا تَلَا قَتَادَةَ هَذِهِ الْآيَةَ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ^(١). وَهُوَ تَفْسِيرٌ حَسَنٌ قَوِيٌّ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لِأَيِّ الْجَحِيمِ) وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَنْصَبُ النَّهَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٢) [الفرقان: ٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا بآبَاءَهُمْ صَالِينَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا جَارَيْنَاهُمْ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ فَاتَّبَعُوهُمْ فِيهَا بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِهَرْمُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: شَبِيهَةٌ بِالْهَرْوَلَةِ^(٣). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَسْفَهُونَ.

﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَلْبُهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧١﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا صَالِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ فِيهِمْ مُنذِرِينَ يُنذِرُونَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَيُحذِرُونَهُمْ سَطْوَتَهُ وَنِقْمَتَهُ وَمَنْ كَفَرَ بِهِ وَعَبَدَ غَيْرَهُ. وَأَنَّهُمْ تَمَادَوْا عَلَىٰ مُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ فَأَهْلَكَ الْمُكْذِبِينَ وَدَمَّرَهُمْ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ وَنَصَّرَهُمْ وَظَفَّرَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ﴾^(٥) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلَعِمَ الْمُجِيبُونَ﴾^(٦) وَوَجَّهَتْهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَوَعَلْنَا دُرَيْتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ ﴿٧٥﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٦﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٠﴾ [ذِكْرُ نُوْحٍ وَقَوْمِهِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى عَنِ أَكْثَرِ الْأَوَّلِينَ أَنَّهُمْ صَلُّوا عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ، شَرَعَ يَبِينُ ذَلِكَ مُفْصَلًا، فَذَكَرَ نُوْحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ؛ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ تَكْذِيبُهُمْ، وَكُلَّمَا دَعَاهُمْ أَرَادُوا نَفْرَةً ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانصُرْ﴾ [الزمر: ١٠]. فَغَضِبَ اللَّهُ تَعَالَى لِعِصْيَانِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلَعِمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أَيُّ: فَلَعِمَ الْمُجِيبُونَ لَهُ ﴿وَجَّهَتْهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وَهُوَ

التَّكْذِيبُ وَالْأَدَى ﴿وَوَعَلْنَا دُرَيْتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: لَمْ يَبْقَ إِلَّا دُرَيْتُهُ نُوْحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٧). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَوَعَلْنَا دُرَيْتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ قَالَ: النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ دُرَيْتِهِ نُوْحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٨).

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَعَلْنَا دُرَيْتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ قَالَ: سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثُ^(٩). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامٌ أَبُو الْحَسَنِ، وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ»^(١٠). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(١١). وَالْمُرَادُ بِالرُّومِ هَهُنَا، هُمُ الرُّومُ الْأَوَّلُ وَهُمْ الْيُونَانُ الْمُتَسَبِّبُونَ إِلَى رُومِيٍّ بِنِ لَيْطِيٍّ بِنِ يُونَانَ بِنِ يَافِثِ بْنِ نُوْحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يُذَكَّرُ بِخَيْرٍ^(١٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي لِسَانَ صِدْقٍ لِلْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ^(١٣). وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ فِي الْآخِرِينَ^(١٤). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: السَّلَامُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مُفَسَّرٌ لِمَا أَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ: أَنَّهُ سَلَّمَ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الطَّوَائِفِ وَالْأَمَمِ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيُّ: هَكَذَا نَجْرِي مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَادِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَجْعَلُ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ يُذَكَّرُ بِهِ بَعْدَهُ بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ: الْمُصَدِّقِينَ الْمُؤَحِّدِينَ الْمُؤَقِّتِينَ ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ﴾ أَيُّ: أَهْلَكْنَا هُمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ تَطْرُقُ، وَلَا ذِكْرٌ [لَهُمْ]، وَلَا عَيْنٌ، وَلَا أُنْثَى، وَلَا يُعْرَفُونَ إِلَّا بِهَذِهِ الصِّفَةِ الْقَيِّحَةِ.

﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾^(١٥) إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨١﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِمْ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٢﴾ أَيْفَاكَ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٣﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾

(١) الطبري: ٥٦/٢١ (٢) الطبري: ٥٦/٢١ (٣) الطبري: ٥٧/٢١ (٤) الطبري: ٥٩/٢١ (٥) الطبري: ٥٩/٢١ (٦) تحفة الأحوذني: ٣٦٥/٥ والطبري: ٥٩/٢١ إسناده ضعيف فيه تدلس الحسن البصري وكان يرسل كثيرًا ويدلس كما في التقريب (٧) أحمد: ٩/٥ (٨) تحفة الأحوذني: ٩٨/٩ (٩) الطبري: ٦٠/٢١ (١٠) الطبري: ٦٠/٢١ (١١) الطبري: ٦٠/٢١

[قصة إبراهيم وقومه]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿وَإِذْ مِنْ شَيْعِهِمْ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ يَقُولُ: مِنْ أَهْلِ دِينِهِ ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسُنَّتِهِ ^(٢). ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ^(٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَوْفٍ قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: مَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ؟ قَالَ: يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ^(٤). وَقَالَ الْحَسَنُ: سَلِيمٌ مِنَ الشَّرِكِ ^(٥). وَقَالَ عَزُورَةُ: لَا يَكُونُ لِعَانًا ^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أُنْكَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفِيكًا إِلَهَهُ دُونَ اللَّهِ تَرْيُدُونَ﴾ ^(٧) فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي مَا ظَنُّكُمْ أَنَّهُ فَاعِلٌ بِكُمْ إِذَا لَا قِيَمَتُمُوهُ وَقَدْ عَبْدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ ^(٨).

﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ^(٩) فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ^(١٠) فَنَوَلَّوْا عَنْهُ

مُذْرِبِينَ ^(١١) ﴿فَرَأَى إِلَهَ الْآلِهِينَ﴾ ^(١٢) فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ^(١٣) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ^(١٤) ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ ^(١٥) فَقَالَ لِيُتْرِكُوا مَا تَعْبُدُونَ مَا تَنْحُوتُونَ ^(١٦) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ^(١٧) قَالُوا إِنَّمَا لَمْ بَدَيْنَا مَا فَالِقُوا فِي الْجَبْرِ ^(١٨) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ

الْأَسْفَلِينَ ^(١٩)

إِنَّمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْمِهِ ذَلِكَ، لِيُتِمِّمَ فِي الْبَلَدِ إِذَا ذَهَبُوا إِلَى عِيدِهِمْ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَرَفَ خُرُوجَهُمْ إِلَى عِيدِهِمْ فَأَحَبَّ أَنْ يَحْتَلِيَ بِالْهَيْبَةِ لِيُكْسِرَهَا، فَقَالَ لَهُمْ كَلَامًا هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَهَمُّوا مِنْهُ أَنَّهُ سَقِيمٌ عَلَى مُفْتَضَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ ﴿فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُذْرِبِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ: نَظَرَ فِي النُّجُومِ ^(٨). يَعْنِي قَتَادَةُ: أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ مُتَفَكِّرًا فِيمَا يُلْهِيهِمْ بِهِ، فَقَالَ: ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ أَيْ ضَعِيفٌ. فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَهُنَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَيْرَ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ: يَثْبُتُ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، قَوْلُهُ: ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ ^(١٠) وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ وَقَوْلُهُ فِي سَارَةَ: «هِيَ أُخْتِي» فَهُوَ حَدِيثٌ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحَاحِ وَالسُّنَنِ مِنْ طَرَفٍ ^(٩). وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْكُذْبِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يُذَمُّ فَاعِلُهُ، حَاشَا وَكَلَّا وَلَكِنَّا، وَإِنَّمَا أُطْلِقَ الْكُذْبُ عَلَى

هَذَا تَجَوُّزًا، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمَعَارِضِ فِي الْكَلَامِ لِمَقْصِدِ شَرْعِيٍّ دِينِيٍّ. قِيلَ: أَرَادَ ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ أَيْ: مَرِيضُ الْقَلْبِ مِنْ عِبَادَتِكُمْ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: خَرَجَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عِيدِهِمْ فَأَرَادُوهُ عَلَى الْخُرُوجِ فَاضْطَجَعَ عَلَى ظَهْرِهِ، وَقَالَ: ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾.

وَجَعَلَ يَنْظُرُ فِي السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَرَجُوا، أَقْبَلَ إِلَى الْهَيْبَةِ فَكَسَرَهَا ^(١٠). وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُذْرِبِينَ﴾ إِلَى عِيدِهِمْ ﴿فَرَأَى إِلَهَ الْآلِهِينَ﴾ أَيْ: ذَهَبَ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا خَرَجُوا فِي سُرْعَةٍ وَاخْتِصَاءٍ ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا بَيْنَ أَيْدِيهَا طَعَامًا قُرْبَانًا لِتُبَارِكَ لَهُمْ فِيهِ. فَلَمَّا نَظَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَامُ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الطَّعَامِ قَالَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ^(١١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ مَالَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالْجَوْهَرِيُّ: فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ^(١٢). وَإِنَّمَا ضَرْبُهُم بِالْيَمِينِ، لِأَنَّهَا أَشَدُّ وَأَنْكَى، وَلِهَذَا تَرَكَهُمْ جُدَادًا

إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيْ: يُسْرِعُونَ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ هَهُنَا مُخْتَصَرَةٌ، وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ مَبْسُوطَةٌ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَجَعُوا مَا عَرَفُوا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنْ فَعَلٍ ذَلِكَ، حَتَّى كَشَفُوا وَاسْتَعْلَمُوا، فَعَرَفُوا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ. فَلَمَّا جَاءُوا لِإِعْيَابِهِ

أَحَذَ فِي تَأْيِيهِمْ وَعَيْبِهِمْ فَقَالَ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحُوتُونَ﴾ أَيْ: أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا أَنْتُمْ تَنْحُوتُونَهَا وَتَعْمَلُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مَا مَصْدَرِيَّةٌ فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الَّذِي تَقْدِيرُهُ: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَالَّذِي تَعْمَلُونَهُ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ مُتَلَازِمٌ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ «أَفْعَالِ الْعِبَادِ» عَنْ حُدَيْفَةَ رَضِيَ

عَنْهُ

(١) الطبري: ٦١/٢١ (٢) الطبري: ٦١/٢١ (٣) القرطبي:

٩١/١٥ (٤) القرطبي: ٩١/١٥ (٥) الطبري: ٦٢/٢١ (٦)

الطبري: ٦٢/٢١ (٧) الطبري: ٦٣/٢١ (٨) الدر المنثور: ٧/

١٠٠ (٩) فتح الباري: ٤٤٧/٦ مسلم: ١٨٤٠/٤ وأبو داود: ٢/

٦٥٩ وتحتة الأحوذبي: ٥/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٤٠/٦

(١٠) الطبري: ٦٣/٢١ (١١) الطبري: ٦٧/٢١

الله عنه مرفوعاً قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعْتَهُ» [وَتَلَا بَعْضُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ]: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ عَدَلُوا إِلَى أَخِيهِ بِالْيَدِ وَالْقَهْرِ فَقَالُوا: ﴿أَبْنَا لَمْ بَيِّنَّا فَالْقَوَّةُ فِي الْحَجِيمِ﴾ وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ وَأَظْهَرَهُ عَلَيْهِمْ وَأَعْلَى حُجَّتِهِ وَنَصَرَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبِّحِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَتَّبِعْ إِنِّي آتِي فِي الْمَسَارِ إِنِّي أَذْجُكُ فَاطْفُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَجَّذِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَّيَّرَ بِهِمُ (١٠٤) قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَى إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتَأُ الْمُنِينُ (١٠٦) وَقَدَيْتَهُ يَذْبِجُ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

[هَجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ وَابْتِلَاؤُهُ يَذْبِجُ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْمُ اللَّهُ عَلَيْهِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ بَعْدَ مَا نَصَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَوْمِهِ وَأَيْسَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بَعْدَ مَا شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، هَاجَرَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ وَقَالَ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبِّحِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) يَعْنِي أَوْلَادًا مُطِيعِينَ عَوْضًا مِنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الَّذِينَ فَارَقَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وَهَذَا الْغُلَامُ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ وَلَدٍ بَشَّرَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، بَلْ فِي نَصِّ كِتَابِهِمْ: أَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَدٌ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِتٌّ وَتَمَانُونَ سَنَةً، وَوُلِدَ إِسْحَاقَ وَعَمَّرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تِسْعَ وَتِسْعُونَ سَنَةً، وَعِنْدَهُمْ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ وَجِيدَهُ، وَفِي نُسَخَةٍ أُخْرَى: بِكْرَهُ - فَأَقْحَمُوا هَهُنَا كَذِبًا وَبُهْتَانًا - «إِسْحَاقَ»، وَلَا يَجُوزُ هَذَا لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِنَصِّ كِتَابِهِمْ، وَإِنَّمَا أَقْحَمُوا إِسْحَاقَ لِأَنَّهُ أَبُوهُمْ، وَإِسْمَاعِيلُ أَبُو الْعَرَبِ، فَحَسَدُوهُمْ، فَزَادُوا ذَلِكَ وَحَرَّفُوا «وَجِيدَكَ»

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَّيَّرَ بِهِمُ (١٠٤) قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْيَى إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتَأُ الْمُنِينُ (١٠٦) وَقَدَيْتَهُ يَذْبِجُ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنِّي لِيَاسٍ لِمَنْ أُرْسِلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلَاءً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى (١٢٦)

بِمَعْنَى الَّذِي لَيْسَ عِنْدَكَ غَيْرُهُ، فَإِنَّ إِسْمَاعِيلَ كَانَ ذَهَبَ بِهِ وَيَأْمُرُهُ إِلَى مَكَّةَ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ وَتَحْرِيفٌ بَاطِلٌ فَإِنَّهُ لَا يُقَالُ: وَجِيدُكَ إِلَّا لِمَنْ لَيْسَ لَهُ غَيْرُهُ، وَأَيْضًا فَإِنَّ أَوَّلَ وَلَدٍ لَهُ مَعْرُوفٌ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ، فَالْأَمْرُ بِذْبِجِهِ أَبْلَغُ فِي الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِخْتِبَارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ أَي: كَبُرَ وَتَرَعَرَغَ وَصَارَ يَذْهَبُ مَعَ أَبِيهِ وَيَمْشِي مَعَهُ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَذْهَبُ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَمْفَقْدُ وَلَدَهُ وَأُمَّ وَوَلَدِهِ بِيَلَادِ «فَارَانَ» وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِهِمَا. وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَرْكَبُ عَلَى الْبُرَاقِ سَرِيعًا إِلَى هُنَاكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَرَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرِهِمْ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ بِمَعْنَى سَبَّ وَارْتَجَلَ وَأَطَاقَ مَا يَفْعَلُهُ أَبُوهُ مِنَ السَّعْيِ

(١) خلق أفعال العباد: ١١٧ بإسناد صحيح أي السنة: ١٥٨/١

وَالْعَمَلُ ^(١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَازِرِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عَمْرٍو: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحَيٍّ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَازِرِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ ^(٢). وَإِنَّمَا أَعْلَمَ ابْنَهُ بِذَلِكَ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ، وَلِيخْتَبِرَ صَبْرَهُ وَجَلَدَهُ وَعَزَمَهُ فِي صَغَرِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ أَبِيهِ ﴿قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أَي: امض لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ مِنْ ذُبْحِي ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَي: سَأَصْبِرُ وَأَحْسِبُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَصَدَقَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِيمَا وَعَدَ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ^(٣) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزُّكُوفِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿مريم: ٥٤، ٥٥﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَكُنَّا لِلْجِبِينِ﴾ أَي: فَلَمَّا تَشَهَّدَا وَذَكَرَا اللَّهَ تَعَالَى: إِبْرَاهِيمَ عَلَى الذَّبْحِ وَالْوَلَدِ [عَلَى] شَهَادَةِ الْمَوْتِ. وَقِيلَ: أَسْلَمَا يَعْنِي اسْتَسْلَمَا وَانْقَادَا: إِبْرَاهِيمَ امْتَثَلَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِسْمَاعِيلَ طَاعَةَ اللَّهِ وَلِأَبِيهِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ ^(٤) وَعَبْرُهُمْ. وَمَعْنَى ﴿وَكُنَّا لِلْجِبِينِ﴾ أَي: صَرَغَهُ عَلَى وَجْهِهِ لِيَذْبَحَهُ مِنْ قَفَاهُ، وَلَا يُشَاهِدُ وَجْهَهُ عِنْدَ ذُبْحِهِ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: ﴿وَكُنَّا لِلْجِبِينِ﴾ أَكْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ ^(٥). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى، فَسَابَقَهُ فَسَبَقَهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جَبْرِيْلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ حَتَّى ذَهَبَ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ، وَنَمَّ تَلَّهُ لِلْجِبِينِ وَعَلَى إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَمِصُّ أَيْبُضُ فَقَالَ: يَا أَبَتِ إِنَّهُ لَيْسَ لِي نَوْبٌ تُكْفِنُنِي فِيهِ غَيْرُهُ فَاخْلَعُهُ حَتَّى تُكْفِنُنِي فِيهِ، فَعَالَجَهُ لِيَخْلَعَهُ فَوَدِي مِنْ خَلْفِهِ: ﴿أَنْ يَتَابَرَهُسُ﴾ ^(٦) قَدْ صَدَقَتْ الرُّؤْيَا ﴿فَالْتَمَتِ إِبْرَاهِيمُ فَإِذَا بِكَبْشٍ أَيْبُضٍ أَقْرَنَ أَغْيَرَ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَقَدْ رَأَيْنَا [تَتَّبَعُ] ذَلِكَ الضَّرْبَ مِنَ الْكِبَاشِ﴾ ^(٧). وَذَكَرَ هِشَامُ الْحَدِيثَ فِي الْمَنَاسِكِ بِطَوْلِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَابَرَهُسُ﴾ ^(٨) قَدْ صَدَقَتْ الرُّؤْيَا ﴿أَي: قَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنْ رُؤْيَاكَ وَيَبَاضِجَاعِكَ

وَلَدَكَ لِلذَّبْحِ. وَذَكَرَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّهُ أَمَرَ السُّكَيْنَ عَلَى رَقَبَتِهِ فَلَمْ تَقْطَعْ شَيْئًا، بَلْ حَالَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ صَفْحَةٌ مِنْ نُحَاسٍ، وَنُودِيَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا﴾ ^(٩). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أَي: هَكَذَا نُصْرِفُ عَمَّنْ أَطَاعَنَا الْمَكَارَةَ وَالشَّدَائِدَ، وَنَجْعَلُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ^(١٠) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿[الطلاق: ٢، ٣] وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ وَالْقِصَّةَ جَمَاعَةً مِنْ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ عَلَى صِحَّةِ النَّسْخِ قَبْلَ التَّمَكُّنِ مِنَ الْفِعْلِ، خِلَافًا لِطَائِفَةٍ مِنَ الْمُعْتَرِلَةِ، وَالِدَّلَالَةِ مِنْ هَذِهِ ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَبْحَ وَلَدِهِ، ثُمَّ نَسَخَهُ عَنْهُ وَصَرَفَهُ إِلَى الْفِدَاءِ، وَإِنَّمَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ شَرْعِهِ أَوَّلًا إِثَابَةَ الْخَلِيلِ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى ذَبْحِ وَلَدِهِ وَعَزْمِهِ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَذَا لَمُرٌّ الْبَلْتُوا لِلْبَيْنِ﴾ أَي: الْإِخْتِيَارُ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ حَيْثُ أَمَرَ بِذَبْحِ وَلَدِهِ فَسَارَعَ إِلَى ذَلِكَ مُسْتَسْلِمًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، مُتَقَادًا لِطَاعَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبَعَهُ الَّذِي وُفِّيَ﴾ [النجم: ٣٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَدَّعَيْنَهُ يَذْبَحُ عَظِيمًا﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ قَدْ رُعِي فِي الْجَنَّةِ أَرْبَعِينَ حَرِيْفًا ^(١١). وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ قَالَتْ: أَخْبَرْتَنِي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ - وَوَدَّتْ عَامَةً أَهْلِي دَارِنَا - أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَالَتْ مَرَّةً: إِنَّهَا سَأَلَتْ عَثْمَانَ لِمَ دَعَاكَ النَّبِيُّ ﷺ؟ - قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَوْمِي الْكَنْسِ حِينَ دَخَلْتُ الْبَيْتَ، فَسَيْتُ أَنْ أَمْرَكَ أَنْ تُحْمَرَهُمَا فَحْمَرَهُمَا، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغَلُ الْمُصَلِّيَّ» قَالَ سُفْيَانُ: لَمْ يَزَلْ قَوْمَنَا الْكَنْسِ مُعْلَقِينَ فِي الْبَيْتِ حَتَّى اخْتَرَقَ الْبَيْتَ فَاحْتَرَقَا ^(١٢). وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقَلٌّ عَلَى أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّ قَوْمَنَا تَوَارَثُوا قَوْمِي الْكَنْسِ الَّذِي قَدَى بِهِ إِبْرَاهِيمَ خَلْفًا عَنْ

(١) الطبري: ٧٣، ٧٢/٢١ (٢) الطبري: ٧٥/٢١ (٣) الطبري: ٧٧/٢١ (٤) الطبري: ٧٨، ٧٧/٢١ (٥) أحمد: ١/٢٩٧ (٦) الطبري: ٧٤/٢١ (٧) الطبري: ٩٠/٢١ (٨) أحمد:

سَلَفٍ، وَجِيلاً بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[ذَكَرَ الْأَثَارَ الْوَارِدَةَ بِأَنَّ الدَّبِيحَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَقْطُوعُ بِهِ]

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَيُوسُفُ بْنُ مِهْرَانَ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْمَقْدِيُّ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَزَعَمَتِ الْيَهُودُ أَنَّهُ إِسْحَاقُ وَكَذَّبَتِ الْيَهُودُ^(٢). عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: الدَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ^(٣). وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤).

وَكَذَا قَالَ يُوسُفُ بْنُ مِهْرَانَ^(٥). وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ رَأَيْتُ قَرْنِي الكَبْشِ فِي الكَعْبَةِ^(٦). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ دِينَارٍ وَعُمَرُو بْنُ عُبَيْدٍ، عَنِ الْحَسَنِ الْبُصْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ لَا يَشُكُّ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الَّذِي أُمِرَ بِذَبْحِهِ مِنْ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٧). قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِهِ مِنْ ابْنَيْهِ: إِسْمَاعِيلُ، وَإِنَّا لَنَجِدُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جِئِنَ فَرَعَ مِنْ قِصَّةِ الْمَذْبُوحِ مِنَ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَشَرَّتَنَّهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] يَقُولُ بَابُنِ وَابْنِ ابْنِ، فَلَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرَهُ بِذَبْحِ إِسْحَاقَ وَلَهُ فِيهِ مِنَ الْمُؤَعَّدِ بِمَا وَعَدَهُ، وَمَا الَّذِي أُمِرَ بِذَبْحِهِ إِلَّا إِسْمَاعِيلُ^(٨). قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ كَثِيرًا^(٩). وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ بُرَيْدَةَ بْنِ سَفْيَانَ بْنِ فَرُوقَةَ الْأَسْلَمِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ أَنَّهُ حَدَّثَنَهُمْ: أَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ خَلِيفَةٌ - إِذْ كَانَ مَعَهُ بِالشَّامِ - فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا كُنْتُ أَنْظُرُ فِيهِ، وَإِنِّي لَأَرَاهُ كَمَا قُلْتُ، ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى رَجُلٍ كَانَ عِنْدَهُ بِالشَّامِ، كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، وَكَانَ يَرَى أَنَّهُ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ ذَلِكَ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: وَأَنَا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيُّ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ أُمِرَ بِذَبْحِهِ؟ فَقَالَ: إِسْمَاعِيلُ وَاللَّهِ! يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ يَهُودَ لَتَعْلَمَنَّ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ عَلَى أَنْ يَكُونَ

أَبَاكُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ، وَالْفَضْلَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ لِيَصْبِرَ لِمَا أُمِرَ بِهِ، فَهُمْ يَجْحَدُونَ ذَلِكَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِسْحَاقُ لِيَكُونَ إِسْحَاقَ آبَاهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّهُمَا كَانَ، وَكُلُّ قَدْ كَانَ طَاهِرًا طَيِّبًا مُطِيعًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١٠). وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ بْنُ حَبْلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ سَأَلْتُ أَبِي عَنِ الدَّبِيحِ؟ هَلْ هُوَ إِسْمَاعِيلُ أَوْ إِسْحَاقُ؟ فَقَالَ: إِسْمَاعِيلُ. ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ^(١١). وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: الصَّحِيحُ أَنَّ الدَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي الطَّفَيْلِ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَالشَّعْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ وَأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وَأَبِي صَالِحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَ أَنَّهُمْ قَالُوا: الدَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ^(١٢). وَقَالَ الْبُغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: وَإِلَيْهِ ذَهَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالسُّدِّيُّ وَالْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ وَمُجَاهِدُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيُّ وَالْكَلْبِيُّ^(١٣). وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَحَكَاهُ أَيْضًا عَنْ أَبِي عُمَرَ بْنِ الْعَلَاءِ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الصُّنَابِيحِيِّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَذَكَرُوا الدَّبِيحَ: إِسْمَاعِيلُ أَوْ إِسْحَاقُ؟ فَقَالَ: عَلَى الْخَيْرِ سَقَطْتُمْ، كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! عُدَّ عَلَيَّ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيَّ يَا ابْنَ الدَّبِيحِينَ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَمَا الدَّبِيحَانِ؟ فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا أُمِرَ بِحَفْرِ زَمْرَمَ نَذَرَ لِلَّهِ أَنْ يَسْهَلَ اللَّهُ لَهُ أَمْرًا عَلَيْهِ، لِيَذْبَحَنَّ أَحَدَ وَلَدَيْهِ، قَالَ: فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ أَحْوَالُهُ وَقَالُوا: إِفِدِ ابْنَكَ بِمَاتَةٍ مِنَ الْإِبِلِ فَعَدَاهُ بِمَاتَةٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَالثَّانِي: إِسْمَاعِيلُ^(١٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَرَّتَنَّهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لَمَّا تَقَدَّمَ الشِّرَارَةُ بِالدَّبِيحِ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ عَطَفَ بِذِكْرِ الشِّرَارَةِ

(١) الطبري: ٨٣/٢١ (٢) الطبري: ٨٣/٢١ (٣) الطبري: ٨٢/٢١ (٤) الطبري: ٨٤/٢١ (٥) الطبري: ٨٤/٢١ (٦) الطبري: ٨٤/٢١ (٧) الطبري: ٨٥/٢١ (٨) الطبري: ٨٥/٢١ (٩) الطبري: ٨٥/٢١ (١٠) الطبري: ٨٥/٢١ (١١) الزهد لعبد الله ابن أحمد: ٨٠ (١٢) الطبري: ٨٤-٨٢/٢١ (١٣) البغوي: ٣٢/٤ (١٤) الطبري (٢٩٥٩٧) إسناده ضعيف لوجه فيه عبدالله بن سعد بن فروة ضعيف وعمر بن عبدالرحيم الخطابي وعبدالله بن محمد العتيبي وأبوه مجاهيل.

بِأَخِيهِ إِسْحَاقَ، وَقَدْ ذُكِرَتْ فِي سُورَتِي هُودٍ وَالْحَجْرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَيْنَا﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ أَيْ سَيَصِيرُ مِنْهُ نَبِيٌّ صَالِحٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُرَكِّنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قِيلَ يَتَّخِذُ أَهْلِيكَ بِسُلْطَانٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْنَا مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٧﴾ وَصَرَّفْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمُ الْفَالِقِينَ ﴿١١٨﴾ وَءَايَيْنَاهُمَا الْكُتُبَ الْمُنِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٢٠﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢١﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

[ذِكْرُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ]

يَذُكُرُ تَعَالَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالنَّجَاةِ بِمَنْ آمَنَ مَعَهُمَا، مِنْ قَهْرٍ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَمَا كَانَ يَعْتَمِدُ فِي حَقِّهِمْ - مِنَ الْإِسَاءَةِ الْعَظِيمَةِ - مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَاسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ وَاسْتِعْمَالِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْأَشْيَاءِ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ نَصَرَهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَقْرَبَ أَعْيُنَهُمْ مِنْهُمْ، فَعَلَّبُوهُمْ وَأَخَذُوا أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَا كَانُوا جَمَعُوهُ طَوْلَ حَيَاتِهِمْ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ مُوسَىٰ الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الْوَاضِحَ الْجَلِيلِيَّ الْمُسْتَبِينِ، وَهُوَ التَّوْرَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء: ٤٨] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هَهُنَا: ﴿وَءَايَيْنَاهُمَا الْكُتُبَ الْمُنِيرِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أَي: فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أَي: أَبْقَيْنَا لَهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ذِكْرًا جَمِيلًا وَنَاءً حَسَنًا، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٣﴾ أَنْتُمْ عِبَادٌ لِلَّهِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْتَ لِمُحْضَرُونَ ﴿١٢٥﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٦﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٧﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

[ذِكْرُ إِبْرَاهِيمَ]

قَالَ قَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: يُقَالُ: إِلْيَاسُ هُوَ إِدْرِيسُ ^(١). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِلْيَاسُ هُوَ إِدْرِيسُ ^(٢). وَكَذَلِكَ قَالَ

الضَّحَّاكُ ^(٣). وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: هُوَ إِلْيَاسُ بْنُ [يَاسِينَ] ابْنِ فِنْحَاصِ بْنِ الْعِزَّارِ بْنِ هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ ^(٤). بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ حَزَقِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَكَانُوا قَدْ عَبَدُوا صَنَمًا يُقَالُ لَهُ: بَعْلٌ فَدَعَاَهُمُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ وَنَهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَكَانَ قَدْ آمَنَ بِهِ مَلِكُهُمْ ثُمَّ ارْتَدَّ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ ضَلَالَتِهِمْ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَدَعَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَحَسَّ عَنْهُمْ الْقَطْرُ ثَلَاثَ سِنِينَ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَكْشِفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَوَعَدُوهُ الْإِيمَانَ بِهِ، إِنْ هُمْ أَصَابَهُمُ الْمَطَرُ، فَدَعَا اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ فَجَاءَهُمُ الْغَيْثُ، فَاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ أَحْبَبَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَقْبِضَهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ قَدْ نَسَأَ عَلَىٰ يَدَيْهِ الْيَسَعَ بْنَ أَخْطُوبَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ، فَأَمَرَ إِلْيَاسَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَىٰ مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، فَهَمَّمَا جَاءَهُ فَلْيَرَّكِبُهُ وَلَا يَهَبُهُ، فَجَاءَتْهُ فَرَسٌ مِنْ نَارٍ فَرَكِبَ، وَأَلْبَسَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ التَّوْرَ وَكَسَاهُ الرِّيشَ، وَكَانَ يُطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ مَلَكًا إِنْشِيًا سَمَويًا أَرْضِيًّا. هَكَذَا حَكَاهُ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهِ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَي: أَلَا تَخَافُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ ﴿أَنْتُمْ عِبَادٌ لِلَّهِ الْأَوَّلِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَالشَّيْخَانِيُّ: بَعْلًا يَعْنِي رَبًّا ^(٥). قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: وَهِيَ لَعْنَةُ أَهْلِ الْيَمَنِ ^(٦). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: وَهِيَ لَعْنَةُ أُرْدُ شَوْءَةٍ ^(٧). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ: هُوَ اسْمٌ صَنَمٌ كَانَ يَعْْبُدُهُ أَهْلُ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: بَعْلَبُكُ غَرْبِي دِمَشْقَ ^(٨). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ صَنَمٌ كَانُوا يَعْْبُدُونَهُ ^(٩). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْتُمْ عِبَادٌ لِلَّهِ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي: أَنْتُمْ عِبَادُونَ صَنَمًا ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي: هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْتَ لِمُحْضَرُونَ﴾ أَي: لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أَيِ الْمُؤَحَّدِينَ مِنْهُمْ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ

(١) الطبري: ٩٥/٢١ (٢) القرطبي: ١١٥/١٥ فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس مختلط كما مر (٣) الطبري: ٩٧/٢١ (٤) الطبري: ٩٧/٢١ (٥) الطبري: ٩٦/٢١ (٦) الطبري: ٢١/٩٦ (٧) الدر المنثور: ١١٩/٧ (٨) الطبري: ٩٧/٢١ رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ضعيفة وهو يروي عن أبيه الموضوعات كما قال الحاكم في المدخل إلى الصحيح (٩) الطبري: ٩٧/٢١

مُتَّقِعٍ مِنَ مُنْبِتٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾
 أَي: ثَنَاءً جَمِيلًا ﴿سَلَّمَ عَلَآ إِلَى يَاسِينَ﴾ كَمَا يُقَالُ فِي
 إِسْمَاعِيلَ: إِسْمَاعِيلُ، إِسْمَاعِيلِيْنَ، وَهِيَ لُغَةٌ نَبِيٍّ أَسَدِيٍّ، وَيُقَالُ: مِيكَالٌ،
 وَمِيكَائِيلُ وَمِيكَائِيْنُ، وَإِبْرَاهِيْمُ وَإِبْرَاهِيْمُ، وَإِسْرَائِيْلُ
 وَإِسْرَائِيْنُ، وَطُورٌ سَيْنَاءُ وَطُورٌ سَيْنِيْنُ، وَهُوَ مُوَضِعٌ وَاحِدٌ،
 وَكُلُّ هَذَا سَائِعٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَذَّبْنَاكَ بِعَجْرَى
 الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٦) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيْرُهُ، وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ.
 ﴿وَإِن لُّوْمًا لِّمَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٧) إِذْ جَنَيْنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِيْنَ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا
 عَجْرًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ (١٣٦) وَإِنَّا لَنُرَوُّهُمْ عَلَيْهِمْ
 مُصْبِحِينَ﴾ (١٣٧) وَيَأْتِيْلُ أَفَلًا تَعْقِلُونَ﴾ (١٣٨) وَإِن يَؤُوسٌ لِّمَنْ
 الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَتَى إِلَى الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ
 مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (١٤١) فَالْقَمْعَةُ الْحُوْتُ وَهُوَ مِلْمٌ﴾ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ
 كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤)
 ﴿فَبَدَّدْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيْمٌ﴾ (١٤٥) وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
 مِنْ يَظْيِنٍ﴾ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيْدُونَ﴾ (١٤٧)
 فَجَاءَتْهُمْ تَعْنَتُهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (١٤٨) فَاسْتَفْتَاهُمُ الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ
 وَلَهُمُ الْبَنَاتُ﴾ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ
 شَاهِدُونَ﴾ (١٥٠) أَلَا إِنَّمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لِيَقُولُونَ﴾ (١٥١) وَوَلَدَ
 اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتَ عَلَى الْبَنِيْنِ﴾ (١٥٣)

[ذَكَرَ إِهْلَاكَ قَوْمِ لُوطٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَن عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ بَعَثَهُ
 إِلَى قَوْمِهِ فَكَذَّبُوهُ، فَجَاءَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ أظْهَرِهِمْ هُوَ
 وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ، فَإِنهَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا،
 فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُثُوبَاتِ، وَجَعَلَ
 مَحَلَّتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَحِيرَةً مُتَّيْنَةً قَيْحَةَ الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ
 وَالرِّيحِ، وَجَعَلَهَا بِسَبِيلِ مُقِيمٍ يَمُرُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ لَيْلًا
 وَنَهَارًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنُرَوُّهُمْ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾
 وَيَأْتِيْلُ أَفَلًا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: أَفَلًا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا.

﴿وَإِن يَؤُوسٌ لِّمَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٨) إِذْ أَتَى إِلَى الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ (١٤٠)
 فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (١٤١) فَالْقَمْعَةُ الْحُوْتُ وَهُوَ مِلْمٌ﴾ (١٤٢) فَلَوْلَا
 أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤)
 ﴿فَبَدَّدْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيْمٌ﴾ (١٤٥) وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ
 يَظْيِنٍ﴾ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيْدُونَ﴾ (١٤٧) فَجَاءَتْهُمْ
 تَعْنَتُهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (١٤٨) فَاسْتَفْتَاهُمُ الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ
 وَلَهُمُ الْبَنَاتُ﴾ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ
 شَاهِدُونَ﴾ (١٥٠) أَلَا إِنَّمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لِيَقُولُونَ﴾ (١٥١) وَوَلَدَ
 اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتَ عَلَى الْبَنِيْنِ﴾ (١٥٣)

[ذَكَرَ قِصَّةَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

قَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّةُ يُونُسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي سُورَةِ
 الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي الصَّحِيْحِيْنِ عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا
 يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» (١). وَقَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ الْمُؤَقَّرُ، أَي: الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتِغَةِ ﴿فَسَاهَمَ﴾
 أَي: قَارَعَ. (٢) ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أَي الْمَغْلُوبِيْنَ، وَذَلِكَ
 أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَلَعَّبَتْ بِهَا الْأَمْوَاجُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَشْرَفُوا عَلَى
 الْعَرَقِ، فَسَاهَمُوا عَلَى مَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ يَلْقَى فِي

الْبَحْرِ، لِيَتَخَفَّ بِهِمُ السَّفِيْنَةُ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ
 يُونُسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَهُمْ يَضُّوْنَ بِهِ
 أَنْ يَلْقَى مِنْ بَيْنِهِمْ، فَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ لِيَلْقَى نَفْسَهُ وَهُمْ يَأْبُونَ
 عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى حُوتًا مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ أَنْ
 يَشُقَّ الْحَارَ وَأَنْ يَلْتَقِمَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَا يَهْشِمُ لَهُ
 لَحْمًا، وَلَا يَكْسِرُ لَهُ عَظْمًا، فَجَاءَ ذَلِكَ الْحُوْتُ، وَأَلْقَى
 يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسَهُ فَالْتَقَمَهُ الْحُوْتُ وَذَهَبَ بِهِ فَطَافَ بِهِ
 الْبِحَارَ كُلَّهَا. وَلَمَّا اسْتَقَرَّ يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوْتُ حَسِبَ أَنَّهُ
 قَدْ مَاتَ ثُمَّ حَرَّكَ رَأْسَهُ وَرِجْلَيْهِ وَأَطْرَافَهُ، فَإِذَا هُوَ حَيٌّ،
 فَجَاءَ فَصَلَّى فِي بَطْنِ الْحُوْتُ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ دُعَائِهِ: يَا
 رَبِّ! اتَّخَذْتُ لَكَ مَسْجِدًا فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنَ
 النَّاسِ، وَاخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ مَا لَبِثَ فِي بَطْنِ الْحُوْتُ فَقِيلَ:
 ثَلَاثَةٌ أَيَّامٍ قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: سَبْعَةٌ. قَالَهُ جَعْفَرُ الصَّادِقُ

(١) فتح الباري: ١٩٣/٤ ومسلم: ١٨٤٦/٤ (٢) الطبري:

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وَقِيلَ: أَرْبَعِينَ يَوْمًا. قَالَ أَبُو مَالِكٍ^(١).
وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ: لِنَقْمَتِهِ ضُحَى وَلَفْظُهُ عَشِيَّةٌ،
وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٧﴾ لَلَّيْتُ فِي
بَطْنِيهِ إِيَّاكَ يَوْمَ تُنْعَثُونَ﴾ قِيلَ: لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ الْعَمَلِ فِي
الرِّحَاءِ. قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَوَهْبُ بْنُ مُتَبِّهِ
وَقَتَادَةُ وَعَبْرٌ وَوَاحِدٌ^(٢). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣). وَقَدْ وَرَدَ فِي
الْحَدِيثِ الَّذِي سَنَدُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ
إِنْ صَحَّ الْخَبَرُ، وَفِي حَدِيثٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «تَعَرَّفَ إِلَى
اللهِ فِي الرِّحَاءِ، يَعْرِفُكَ فِي الشُّدَّةِ»^(٤).

وَقِيلَ: الْمُرَادُ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هُوَ قَوْلُهُ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ
إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْعَذِّ
وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨] قَالَه سَعِيدُ بْنُ
جُبَيْرٍ وَعَبْرٌ^(٥). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَلَا أَعْلَمُ أَنَسًا إِلَّا يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى
رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إِنَّ يُونُسَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
حِينَ بَدَأَ لَهُ أَنْ يَدْعُو بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ
فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ، فَأَقْبَلَتِ الدَّعْوَةَ تَحْفُ بِالْعَرْشِ، قَالَتْ
الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ! هَذَا صَوْتُ ضَعِيفٍ مَعْرُوفٍ مِنْ بِلَادٍ
بَعِيدَةٍ غَرِيبَةٍ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: أَمَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: يَا
رَبِّ! وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي يُونُسُ، قَالُوا: عَبْدُكَ
يُونُسُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ مُتَقَبَّلٌ وَدَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ؟
قَالُوا: يَا رَبِّ! أَوْ لَا تَرْحَمَ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِي الرِّحَاءِ فَتَنَجَّيْهُ
فِي الْبَلَاءِ، قَالَ: بَلَى، فَأَمَرَ الْحُوتَ فَطَرَحَهُ بِالْعَرَاءِ»^(٦).

زَادَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ:
طَرِحَ بِالْعَرَاءِ وَأَنْبَتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ التُّبْطِينَةَ، فُلْنَا: يَا
أَبَا هُرَيْرَةَ! وَمَا التُّبْطِينَةُ؟ قَالَ: شَجَرَةُ الدُّبَابِ. قَالَ أَبُو
هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهِيَ اللهُ لَهُ أُرْوِيَةٌ وَخَشِيَّةٌ تَأْكُلُ مِنْ
خَشَاشِ الْأَرْضِ - أَوْ قَالَ: هَشَاشِ الْأَرْضِ - قَالَ:
فَتَمَسَّحَ عَلَيْهِ قُتْرُوبِهِ مِنْ لَبَنِهَا كُلِّ عَشِيَّةٍ وَبُكَرَةِ حَتَّى نَبَتْ.
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَذَرْنَاهُ﴾ أَيُّ: أَلْقَيْنَاهُ ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قَالَ
ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَعَبْرٌ: هُوَ الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ
بِهَا نَبْتُ وَلَا بِنَاءٌ ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أَيُّ: ضَعِيفُ الْبَدَنِ.
﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَوَهْبُ
ابْنُ مُنَبِّهِ وَهِيَ هَيْلَالُ بْنُ يَسَافٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ طَاوُسٍ وَالشُّدْيُ
وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَعَبْرٌ وَوَاحِدٌ قَالُوا
كُلُّهُمْ: التُّبْطِينُ هُوَ الْقُرْعُ^(٧). وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ فِي الْقُرْعِ
فَوَائِدٌ، مِنْهَا: شُرْعَةُ نَبَاتِهِ وَتَطْلِيلُ وَرَفِّهِ لِكِبْرِهِ وَتُعْمُومَتِهِ،
وَأَنَّهُ لَا يَفْرُبُهَا الدُّبَابُ، وَجَوْدَةٌ تَغْذِيَّةٌ تَمْرُو، وَأَنَّهُ يُؤْكَلُ نَبْتًا
وَمَطْبُوحًا بَلْبُهُ وَقِسْرُهُ أَيْضًا، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ
كَانَ يُحِبُّ الدُّبَابَ وَيَسْتَعْمُهُ مِنْ نَوَاحِي الصَّحْفَةِ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِيَّاكَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ابْنَ مَرْيَمَ إِذْ
أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ آيَاتِنَا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاسْتَجَبُوا لِحُكْمِي﴾ كَأَنَّ
الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَوْلَا أَمْرًا بِالْعُقُودِ إِلَيْهِمْ، بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ
الْحُوتِ، فَصَدَّقُوهُ كُلُّهُمْ وَأَمَنُوا بِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ
يُرِيدُونَ﴾ قَالَ مَكْحُولٌ: كَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَعِشْرَةَ أَلْفٍ.
رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ
الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَقُولُ فِي ذَلِكَ: مَعْنَاهُ إِلَى الْمِائَةِ
الْأَلْفِ أَوْ كَانُوا يَزِيدُونَ عِنْدَكُمْ. يَقُولُ^(٩): كَذَلِكَ كَانُوا
عِنْدَكُمْ^(٩). [هَكَذَا] سَلَكَ ابْنُ جَرِيرٍ هَهُنَا مَا سَلَكَهُ عِنْدَ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ
قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا رُفِقَ مِنْتَهُمْ يَمْسِكُونَ النَّاسَ
كَخَشِيَّةِ إِلَهٍ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَّةً﴾ [النساء: ٧٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [هود: ٩٨] الْمُرَادُ لَيْسَ أَنْقَصَ مِنْ
ذَلِكَ بَلْ أَزِيدَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَأْتُوا﴾ أَيُّ: فَامَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ
أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يُؤْنَسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمِيعُهُمْ ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى
حِينٍ﴾ أَيُّ: إِلَى وَفَاتِ أَجَالِهِمْ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿فَلَوْلَا
كَانَتْ قَرِيبَةً مِمَّا نَمَتْنَا فَنَفَعْنَا إِيْمَانًا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا
عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. [يونس: ٩٨]

﴿فَأَسْتَفْهِمُوا أَلْرَبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُورُ﴾^(١٠) أَمْ خَلَقْنَا
الْمَلَائِكَةَ إِنْسَانًا وَهُمْ شَاهِدُونَ^(١١) أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ
لَيَقُولُونَ^(١٢) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ^(١٣) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى

(١) الطبري: ١١١/٢١ (٢) الطبري: ١٠٩، ١٠٨/٢١ (٣)
الطبري: ١٠٨/٢١ (٤) أحمد: ٣٠٧/١ (٥) الطبري: ٢١/١١٠
(٦) الطبري: ١٠٩/٢١ إسناده ضعيف فيه أبو صخر حميد
بن زياد بن أبي المخارق المدني ضعيف (٧) الطبري: ٢١/١١٣
١١٤، ١١٣ والدر المنثور: ١٣١، ١٣٠/٧ (٨) البخاري: ٢٠٩٢
(*) والقاتل ابن جرير رحمه الله (٩) الطبري: ١١٦/٢١

الْبَسِينِ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَنَّا يَكْتُمِكُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾

[الرَّدُّ عَلَى مَنْ يُثْبِتُ لِلَّهِ الْوَلَدَ وَيَجْعَلُ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٍ لَهُ] يَقُولُ تَعَالَى مُكْرِمًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَعْلِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَسْتَهْوُونَ أَيَّ مِنَ الذُّكُورِ، أَيُّ: يُوَدُّونَ لِأَنفُسِهِمُ الْحَبِيدَ ﴿١٥٦﴾ وَإِنَّا بَشَرٌ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهَهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَطِيمٍ ﴿النحل: ٥٨﴾ أَيُّ: يَسُوُّهُ ذَلِكَ، وَلَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ إِلَّا الْبَنِينَ، يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: فَكَيْفَ نَسَبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْقِسْمَ الَّذِي لَا يَخْتَارُونَهُ لِأَنفُسِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْفَهْتِهِنَّ﴾ أَيُّ: سَلَّهْمَ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ﴿الزُّبُرِ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُورُ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْكَمِّ الذُّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ تِلْكَ إِذَا فَسَمَةُ ضَيْرِيَّةٌ ﴿النجم: ٢١، ٢٢﴾. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شٰهِدُونَ﴾ أَيُّ: كَيْفَ حَكَمْتُمَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ إِنَاتٌ وَمَا شَاهَدُوا خَلْقَهُمْ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْتَلُونَ﴾ [الرحرف: ١٩] أَيُّ: يُسْأَلُونَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكٰرِكُمْ﴾ أَيُّ: مِنْ كَذِبِهِمْ ﴿يَقُولُونَ﴾ ﴿١٥٤﴾ وَلَدَ اللَّهِ ﴿أَيُّ: صَدَرَ مِنْهُ الْوَلَدُ﴾ ﴿وَأِنَّهُمْ لَكٰذِبُونَ﴾ فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي الْمَلَائِكَةِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ فِي غَايَةِ الْكُفْرِ وَالْكَذِبِ.

فَأَوَّلًا، جَعَلُوهُمْ بَنَاتٍ لِلَّهِ - فَجَعَلُوا لِلَّهِ وَلَدًا تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ الْوَلَدَ أَنْثَى - ثُمَّ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ. وَكُلٌّ مِنْهَا كَافٍ فِي التَّخْلِيدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُكْرِمًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَسِينِ﴾ أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَخْتَارَ الْبَنَاتِ دُونَ الْبَنِينَ؟ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَصْفَنَاكُمْ رُيُوكُمْ بِالْبَنِينَ وَأَفْغَدَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ: مَا لَكُمْ عَقُولٌ تَتَدَبَّرُونَ بِهَا مَا تَقُولُونَ؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ؟ أَيُّ: حُجَّةٌ عَلَى مَا تَقُولُونَهُ ﴿فَأَنَّا يَكْتُمِكُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ أَيُّ: هَآثُوا بُرْهَانًا عَلَى ذَلِكَ يَكُونُ مُسْتَبَدًّا إِلَى كِتَابٍ مُنَزَّلٍ مِنَ السَّمَاءِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنَّهُ اتَّخَذَ مَا تَقُولُونَهُ، فَإِنَّ مَا تَقُولُونَهُ لَا يُمَكِّنُ اسْتِنَادَهُ إِلَى عَقْلِ، بَلْ لَا

سُورَةُ الصَّٰفٰتِ ٤٥٢
مَّا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَنَّا يَكْتُمِكُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَاذْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِحٌ جَمِيمٌ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مَتَّأِ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّٰفِرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْنًا عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفُرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِن جُنَدًا لَهُمْ لَئَلَّيُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنُؤَلِّهِمْ هَوٰنَ جِبٰنٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْبَادًا يٰٓأَسْتَحْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَآحِطِهِمْ سَآءٌ صَبَآحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِآءَ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سُورَةُ الصَّٰفٰتِ
سُورَةُ الصَّٰفٰتِ

يُجَوِّزُهُ الْعَقْلُ بِالْكَلِيَّةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَنْ أَمَّهَاتُهُنَّ؟ قَالُوا: بَنَاتُ سُرَوَاتِ الْجِنِّ^(١). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ نَسَبُوا إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أَيُّ: إِنْ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمُحْضَرُونَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ لِيَكْذِبَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَفْزِئَهُمْ، وَقَوْلِهِمُ الْبَاطِلُ بِلَا عِلْمٍ، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أَيُّ: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَعَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الظَّالِمُونَ الْمُتَلَجِدُونَ عُلُومًا كَبِيرًا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُتَفَطِّعٌ وَهُوَ مِنْ مُثَبِّتٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عَائِدًا إِلَى النَّاسِ جَمِيعِهِمْ، ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْهُمْ

(١) الطبري: ١٢١/٢١

الْمُخْلِصِينَ وَهُمْ الْمُتَّبِعُونَ لِلْحَقِّ الْمُنَزَّلِ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ.

﴿وَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا آتَتْ عَلَيْهِ بَقِيَّتَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا يَتَّوَلَّيْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِمْ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

[لَا يُؤْمِنُ بِكَلَامِ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ أَضَلُّ مِنْهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿وَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا آتَتْ عَلَيْهِ بَقِيَّتَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَنْقَادُ لِمَقَالَتِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْعِبَادَةِ الْبَاطِلَةِ مَنْ هُوَ أَضَلُّ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذُرَى النَّارِ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي يَنْقَادُ لِبَيْتِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ وَالضَّلَالَةِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَمِنَ الْقَوْمِ الْخَافِلِينَ ﴿٨﴾ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴿[الذاريات: ٩، ٨]﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَصِلُ بِهِ مَنْ هُوَ مَا فُوكٌ وَمُطْبَلٌ.

[مَقَامَ الْمَلَائِكَةِ وَتَسْبِيحُهُمْ صُفُوفًا]

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَرَهِّمًا لِلْمَلَائِكَةِ مِمَّا نَسَبُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِمْ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ: أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ: ﴿وَمَا يَتَّوَلَّيْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ أَيُّ: لَهُ مَوْضِعٌ مَّخْصُوصٌ فِي السَّمَوَاتِ وَمَقَامَاتِ الْعِبَادَاتِ لَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿وَمَا يَتَّوَلَّيْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ قَالَ: كَانَ مَسْرُوقٌ يَزُورُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا مَوْضِعٌ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ» فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَّوَلَّيْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١).

عَنِ ابْنِ [مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قَالَ: إِنْ فِي السَّمَوَاتِ لَسَّمَاءٌ مَا فِيهَا مَوْضِعٌ شَيْءٍ إِلَّا عَلَيْهِ جَبْهَةٌ مَلَكٌ أَوْ قَدَمَاءٌ، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَمَا يَتَّوَلَّيْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (٢). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ أَيُّ: نَقَفَ صُفُوفًا فِي الطَّاعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ [الصفات: ١] وَقَالَ أَبُو نَضْرَةَ: كَانَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ اسْتَقْبَلَ النَّاسَ بِوَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: أُقِيمُوا صُفُوفَكُمْ، اسْتَوُوا قِيَامًا، يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى بِكُمْ هَدْيَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾

تَأَخَّرَ يَا فُلَانٌ، تَقَدَّمَ يَا فُلَانٌ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ فَيَكْبُرُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ (٣). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جَعَلْنَا صُفُوفَنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجَعَلْنَا لَنَا الْأَرْضَ مَسْجِدًا، وَتُرْبَتَهَا طَهْرًا» (٤). الْحَدِيثُ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أَيُّ: نَصَطَفَ فَتَسْبِّحُ الرَّبَّ وَنُتَمِّجُهُ وَنُقَدِّسُهُ، وَنُزَّهَهُ عَنِ النَّقَائِصِ، فَتَحْنُ عِبِيدَ لَهُ، فُقَرَاءَ إِلَيْهِ، خَاصِعُونَ لَدَيْهِ.

[أَتَمَنِي قُرَيْشٍ لَوْ كَانَ عِنْدَهَا ذِكْرٌ مِنَ الْأُولِينَ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ﴾ أَيُّ: قَدْ كَانُوا يَتَمَنُونَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ مِّنْ يَذْكُرُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْقُرُونِ الْأُولَى، وَيَأْتِيهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَّالَهُ: ﴿وَاسْمِعُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَعَلَّ يَكُونَ لَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِّنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٦٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَعَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَدَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا: ﴿فَكَفَرُوا بِهِمْ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ وَعِيدَ أَكِيدُ وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٧﴾ إِلَيْهِمْ لَهُمُ النَّصُورُونَ ﴿١٦٨﴾ وَإِنَّا جُنْدًا لَهُمُ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾ قَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّى جِبِينَ ﴿١٧٠﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فَسُوفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧١﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٢﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَلَا صَبَاحَ الْمُتَنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى جِبِينَ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرَ فَسُوفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾

[الْوَعْدُ بِالنَّصْرِ وَالْأَمْرُ بِالتَّوَلَّى عَنِ قُرَيْشٍ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ أَيُّ: تَقَدَّمَ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْعَاقِبَةَ

(١) الطبري: ١٢٧/٢١ [إسناده ضعيف الحسين بن الفرج الخياط أبو علي متروك وقال ابن معين: يسرق الحديث [ديوان الضعفاء للذهبي: ١٠٠٧] ثم إنه من معلقات الطبري (٢) الطبري: ٢١/ ١٢٧ (٣) الطبري: ١٢٨/٢١ هذا من مراسيل أبي نضرة (٤) مسلم: ٣٧١/١

رَبِّ الْعَزَّةِ ﴿١٧١﴾ أَي: ذِي الْعَزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾
 أَي: عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ الْمُفْتَرِينَ ﴿وَسَلَّمْ عَلَى
 الْمُرْسَلِينَ﴾ أَي: سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
 لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ فِي رَبِّهِمْ وَصِحَّتِهِ وَحَقِّيَّتِهِ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ﴾ أَي: لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ فِي كُلِّ حَالٍ،
 وَلَمَّا كَانَ التَّشْيِيحُ يَتَضَمَّنُ التَّنْزِيهَ مِنَ النَّقْصِ، قَرَنَ بَيْنَهُمَا
 فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا
 قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾
 وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٣﴾ وَقَالَ سَعِيدُ
 ابْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا
 سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ، فَسَلِّمُوا عَلَيَّ الْمُرْسَلِينَ، فَأَنَا رَسُولٌ مِنَ
 الْمُرْسَلِينَ». هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١).
 وَرَوَى أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 قَالَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمَكِّيَّاتِ الْأَوْفَى مِنَ الْأَجْرِ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ، فَلْيَكُنْ آخِرَ كَلَامِهِ فِي مَجْلِسِهِ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ
 الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٣﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٤﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٧٥﴾ (٢). وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي كَفَّارَةِ الْمَجْلِسِ:
 «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ
 وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». وَقَدْ أُرِدَتْ لَهَا جُزْءًا عَلَى حِدَةٍ.
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الصَّافَاتِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

سُورَةُ ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِ (٢) كَرِ
 أَهْلِكَأَمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ قَرِنَ فَأَدَاؤُا وَلَاتِ جِنِّ مَنَاصِحِ (٣)
 أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ
 سُورَةِ الْبُقَرَةِ، بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
 ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أَي: وَالْقُرْآنِ الْمُسْتَجْمَلِ عَلَى مَا فِيهِ ذِكْرٌ
 لِلْعِبَادِ، وَنَفَعٌ لَهُمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ. قَالَ الضَّحَّاكُ فِي

لِلرُّسُلِ وَأَتَّبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَكْفِرَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
 [المجادلة: ٢١] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ
 آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١] وَلِهَذَا
 قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِيعَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) إِنَّهُمْ
 لَهُمُ الْمَتَّصِرُونَ ﴿١٧٦﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ
 نُصْرَتِهِمْ عَلَى قَوْمِهِمْ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ، كَيْفَ أَهْلَكَ
 اللَّهُ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَإِن جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾
 أَي: تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَوَلَّ عَنْهُمْ حَيَّ
 جِينٌ﴾ أَي: اضْبُرْ عَلَى أَدَاهُمْ لَكَ، وَانظُرْ إِلَى وَقْتِ
 مُؤَجَّلٍ، فَإِنَّا سَنَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ وَالظَّفَرَ، وَقَوْلُهُ
 جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أَي: أَنْظِرْهُمْ
 وَارْتَقِبْ مَاذَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِمُخَالَفَتِكَ
 وَتَكْذِيبِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعْدِ
 ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾
 أَي: هُمْ إِنَّمَا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ لِتَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِكَ،
 فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضَبُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَيُعَجِّلُ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ،
 وَمَعَ هَذَا أَيْضًا كَانُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ يَسْتَعْجِلُونَ
 الْعَذَابَ وَالْعُقُوبَةَ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِحِهِمْ
 فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أَي: فَإِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِمَحَلَّتِهِمْ فَيُسِّنُ
 ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَهُمْ بِأَهْلَابِهِمْ وَدَمَارِهِمْ. وَقَالَ الشَّيْخُ:
 ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِحِهِمْ﴾ يَعْنِي بِدَارِهِمْ ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾
 أَي: فَيُسِّنُ مَا يُصِيحُونَ، أَي: يَسِّنُ الصَّبَاحَ صَبَاحَهُمْ.
 وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
 صَبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَبِيبَ، فَلَمَّا خَرَجُوا بِفُؤُوسِهِمْ
 وَمَسَاحِيهِمْ وَرَأَوْا الْجَيْشَ رَجَعُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ وَاللَّهُ
 مُحَمَّدٌ وَالْحَمِيسُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ
 حَبِيبٌ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ» (١).
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَوَلَّ عَنْهُمْ حَيَّ جِينٍ﴾ (٢) وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ
 يُبْصِرُونَ ﴿١٧٧﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١) وَسَلِّمْ عَلَى

الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٨﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٩﴾

يُنزَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَفْسَهُ وَيُقَدِّسُهَا وَيُبْرِئُهَا عَمَّا يَقُولُ
 الظَّالِمُونَ الْمُكْذِبُونَ الْمُعْتَدُونَ، تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ
 قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ

(١) فتح الباري: ١٠٧/٢ ومسلم: ١٠٤٣/٢ (٢) الطبري: ١٣٤/٢١ هذا من مراسيل قتادة (٣) البغوي: ٤٦/٤ إسناده ضعيف فيه الأصمغ بن نباتة قال ابن حجر: متروك رمى بالرفض [تقريب ٦١٢] قال النسائي متروك الحديث وقال الدار قطني منكر الحديث [الضعفاء والمتروكين ٦٤] وأيضا الضعفاء للدار قطني

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أَيْ تَذَكِيرُكُمْ^(١). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ وَابْنُ عُيَيْنَةَ، وَأَبُو حُصَيْنٍ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذِي الشَّرَفِ، أَيْ: ذِي الشَّانِ وَالْمَكَانَةِ^(٣). وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ فَإِنَّهُ كِتَابٌ شَرِيفٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى التَّذَكِيرِ وَالْإِعْدَارِ وَالْإِنذَارِ - جَوَابٌ هَذَا الْقِسْمِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ أَرْسَلْنَا فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ [ص: ١٤] وَقَالَ قَتَادَةُ: جَوَابُهُ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي﴾^(٤) وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي﴾ أَيْ: إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لَذِكْرِي لِمَنْ يَتَذَكَّرُ، وَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَتَعَبَّرُ، وَإِنَّمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ الْكَافِرُونَ لِأَنَّهُمْ ﴿فِي عِزِّهِ﴾ أَيْ: اسْتِكْبَارَ عَنهُ وَحِمِيَّةٍ ﴿وَشِقَاقِي﴾ أَيْ: وَمُخَالَفَةً لَهُ وَمُعَانَدَةً وَمُفَارَقَةً - ثُمَّ خَوَّفَهُمْ مَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَّةَ الْمُكَذِّبَةَ قَبْلَهُمْ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِلرُّسُلِ، وَتَكْذِيبِهِمُ الْكُتُبَ الْمُنزَّلَةَ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أَيْ: مِنْ أُمَّةٍ مُكَذِّبَةٍ ﴿فَنَادَوْا﴾ أَيْ: جِئْنَا بِجَاءِهِمُ الْعَذَابُ اسْتَعَاثُوا وَجَارُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُجِدِّعٍ عَنْهُمْ شَيْئًا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَآئِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] أَيْ: يَهْرَبُونَ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ﴾ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلْتُونَ ﴿رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنِ التَّمِيمِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَنَادَوْا وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قَالَ: لَيْسَ بِحِينَ نِدَاءٍ، وَلَا نَزْوٍ وَلَا فِرَارٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَادَوْا وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يَقُولُ: نَادَاوُ بِالِاتِّوَجِيدِ حِينَ تَوَلَّتِ الدُّنْيَا عَنْهُمْ، وَاسْتَنَاصُوا لِلتَّوْبَةِ حِينَ تَوَلَّتِ الدُّنْيَا عَنْهُمْ^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ أَرَادُوا التَّوْبَةَ فِي غَيْرِ حِينَ النَّدَاءِ - وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَنَادَوْا وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ لَيْسَ بِحِينَ فِرَارٍ وَلَا إِجَابَةٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْحِينُ حِينَ فِرَارٍ وَلَا ذَهَابٍ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤْتَقُّ لِلصَّوَابِ.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾^(١) أَجْعَلِ الْأَلٰهَةَ إِلٰهًا وَحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْسُوا وَأَصْبِرُوا عَلٰى إِلٰهَيْكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا أَنْخِلِقُ ﴿٧﴾ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٤٥٣

ص وَالْقُرْءَانَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾ كَرَاهِلِكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْأَلٰهَةَ إِلٰهًا وَحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْسُوا وَأَصْبِرُوا عَلٰى إِلٰهَيْكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا أَنْخِلِقُ ﴿٧﴾ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلِّ فِي شَكِّ مِنْ ذِكْرِي بَلِّ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَاكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هُلُوًّا إِلَّا الْاِصْحٰهَ وَحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قُنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

هُم فِي شَكِّ مِنْ ذِكْرِي بَلِّ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَاكَ مَهْرُومٌ مِنْ

التَّوَجُّبِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الرَّسَالَةِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقُرْآنِ [يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَعَجُّبِهِمْ مِنْ بَعْثَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: بَشَّرْ مِثْلَهُمْ ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ أَجْعَلِ الْأَلٰهَةَ إِلٰهًا وَحِدًا ﴿١﴾ أَيْ: أَرْعَمَ أَنْ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ؟ أُنَكَّرُ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ - فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ

(١) الطبري: ١٤٠/٢١ (٢) الطبري: ١٤٠/٢١ (٣) الطبري: ١٤٠/٢١ (٤) الطبري: ١٤٠/٢١ (٥) الطبري: ١٤٠/٢١ (٦) الدر المنثور: ١٤٥/٧

تَعَالَى - وَتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشُّرْكِ بِاللَّهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَلَفُوا عَنْ آبَائِهِمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأَشْرَبَتْهُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمَّا دَعَاهُمْ الرَّسُولَ ﷺ إِلَى خَلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِفْرَادِ الْإِلَهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، أَغْضَبُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا وَقَالُوا: ﴿اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَجِدًا إِنْ هَذَا لَنفَىٰ مُجَابٍ ۖ﴾ (٥) وَأُتْلِقَ الْكَلَامَ مِنْهُمْ وَهُمْ سَادَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ، وَرُؤِسَاؤُهُمْ وَكِبْرَاؤُهُمْ قَائِلِينَ: ﴿أَنْشُرَا أَيْ: اسْتَمِرُّوا عَلَىٰ دِينِكُمْ وَأَمِرُّوا عَلَىٰ الْهَيْكَلِ وَلَا تَسْتَجِيبُوا لِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هَذَا لَنفَىٰ يُرَادُ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّ هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ التَّوْحِيدِ، لَشَيْءٍ يُرِيدُ بِهِ الشَّرْفَ عَلَيْكُمْ وَالِاسْتِعْلَاءَ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْكُمْ أَتْبَاعٌ، وَلَسْنَا نَجِيبُهُ إِلَيْهِ ۙ﴾ (١).

[ذَكَرَ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ]

رَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا مَرَضَ أَبُو طَالِبٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِيهِمْ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَحِيكَ يَشْتِمُ إِلَهَنَا وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ، وَيَقُولُ وَيَقُولُ، فَلَمَّا بَعَثَتْ إِلَيْهِ فَتَيْتُهُ، فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ الْبَيْتَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْرُ مَجْلِسِ رَجُلٍ، قَالَ: فَخَشِيَ أَبُو جَهْلٍ لَعْنَةَ اللَّهِ إِنْ جَلَسَ إِلَىٰ جَنْبِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَكُونَ أَرْقَ لَهُ عَلَيْهِ، فَوَتَبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَلَمْ يَجِدْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسًا قُرْبَ عَمِّهِ، فَجَلَسَ عِنْدَ الْبَابِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: أَيُّ ابْنِ أَحِي! مَا بَالَ قَوْمِكَ يَشْكُونَكَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَشْتِمُ إِلَهَهُمْ وَتَقُولُ وَتَقُولُ؟ قَالَ: وَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ. وَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمُّ! إِنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَقُولُونَهَا تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُوَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجَزْيَةَ» فَفَزِعُوا لِكَلِمَتِهِ وَقَوْلِهِ، فَقَالَ الْقَوْمُ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ: نَعَمْ وَأَبِيكَ عَشْرًا، فَقَالُوا: وَمَا هِيَ؟ وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَأَيُّ كَلِمَةٍ هِيَ يَا ابْنَ أَحِي؟ قَالَ ﷺ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فَقَامُوا فَرَعِينَ يَنْفُضُونَ بِيَابَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَجِدًا إِنْ هَذَا لَنفَىٰ مُجَابٍ ۖ﴾ قَالَ: وَنَزَلَتْ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿بَلْ لَمَّا يَدْفَعُوا عَنَابَ﴾ لَفْظَ أَبِي كُرَيْبٍ (٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ نَحْوَهُ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ (٣). وَقَوْلُهُمْ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ اللَّهِ الْأَخْرَىٰ﴾ أَيُّ: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ، فِي آلِ اللَّهِ الْأَخْرَىٰ.

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿مَا سَمِعْنَا

يَهَذَا فِي آلِ اللَّهِ الْأَخْرَىٰ﴾ بِعَنَى النَّصْرَانِيَّةِ، قَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنَ حَقًّا لَأَخْبَرْتَنَا بِهِ النَّصَارَىٰ (٤). ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَنْخِلُوكَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: كَذِبٌ (٥). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَحْرُصُ (٦). وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ بِعَنَى أَنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَ تَخْصِيصَهُ بِإِنزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ كُلِّهِمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الرَّحْف: ٣١] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَيسِرَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الرَّحْف: ٣٤] وَلِهَذَا لَمَّا قَالُوا هَذَا الَّذِي دَلَّ عَلَىٰ جَهْلِهِمْ وَقَلَّةِ عَقْلِهِمْ، فِي اسْتِعْجَادِهِمْ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِهِمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدْفَعُوا عَنَابَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا لِأَنَّهُمْ مَا ذَافُوا إِلَىٰ حِينِ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَنَفَمَتَهُ، سَبَعَلْمُونَ غِبَّ مَا قَالُوا، وَمَا كَذَّبُوا بِهِ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ، الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، الَّذِي يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُنزِلُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَخْتُمُ عَلَىٰ قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ، فَلَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، وَإِنَّ الْعِبَادَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، وَلَيْسَ إِلَيْهِمْ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْمُلْكِ وَلَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَطْمِيرٍ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُكْرِمًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أَيُّ: الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ، الْوَهَّابُ الَّذِي يُعْطِي مَا يُرِيدُ لِمَنْ يُرِيدُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٦) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَأَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٧) فَيَوْمَ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمَنْ مَن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا [النِّسَاء: ٥٣-٥٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

(١) الطبري: ١٥٢/٢١ (٢) الطبري: ١٤٩/٢١ ليست فيه علة دون عننة الأعمش وضعف إسناده الألباني انظر سنن الترمذي ط. مكتبة المعارف (٣) أحمد: ١/٣٦٢ والنسائي في الكبرى: ٤٤٢/٦ وتحفة الأحادي: ٩٩/٩ (٤) الطبري: ١٥٢/٢١ العوفي مع عائلته ضعفاء (٥) الطبري: ١٥٥/٢١ (٦) الطبري: ١٥٤/٢١

قَتَرُوا ﴿١٠﴾ [الإسراء: ١٠٠] وَذَلِكَ بَعْدَ الْحِكَايَةِ عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ
أَتَكَّرُوا بِعَقَّةِ الرَّسُولِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَمَا أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ
قَوْمٍ صَلَّحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا: ﴿أَلَيْحِ الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ
بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَثِيرٌ ﴿١٥﴾ سَمِعَافُونَ غَدًا مِنْ الْكَذَّابِ الْأَثِيرِ ﴿١٦﴾
[القمر: ٢٥، ٢٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا
فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٧﴾ أَي: إِنْ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلْيُصْعِدُوا فِي الْأَسْبَابِ.
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ
وَقَتَادَةُ وَعَبْرُهُمْ: بِعَنِي طُرُقَ السَّمَاءِ (١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ رَحِمَهُ
اللَّهُ تَعَالَى: فَلْيُصْعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ (٢).

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١٨﴾
أَي: هَؤُلَاءِ الْجُنْدُ الْمُكَذَّبُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ،
سَيَهْرَمُونَ وَيُعْلَبُونَ وَيَكْتَبُونَ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ
الْأَحْزَابِ الْمُكَلَّبِينَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿أَمْ
يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُتَّصِرٌ ﴿١٩﴾ سَبَّيْهِمُ الْجَمْعُ وَيُقُولُونَ الذُّبُرُ ﴿٢٠﴾ كَانَ
ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ ﴿٢١﴾
[القمر: ٤٤-٤٦].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْبَانِ ﴿٢٢﴾ وَمُؤَدُّوهُمْ
لُوطٌ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ ﴿٢٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّابٌ
الرُّسُلُ فَحَقَّ عُقَابٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا
مِنْ فَوْاقٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا فَمَنْ يَسْتَعِزُّ بِنَا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾
[التَّذْكِيرُ بِمَنْ أَهْلِكَ مِنَ الْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا حَلَّ
بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِيفِ وَالتَّقَاتِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ
والتَّكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَقَدْ تَقَدَّمَتْ
فِيصْنُهُمْ مَبْسُوطَةٌ فِي أَمَّاكِنَ مُتَعَدَّدَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ
الْأَحْزَابُ ﴿٢٧﴾ أَي: كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا
وَأَوْلَادًا، فَمَا دَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا
جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّابٌ
الرُّسُلُ فَحَقَّ عُقَابٌ ﴿٢٨﴾ فَجَعَلَ عَلَيْهِمْ هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ
فَوْاقٍ ﴿٢٩﴾ فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَذَرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ
فَوْاقٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَي: لَيْسَ لَهَا مَثْنِيَةٌ (٣)
أَي: مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِعَقَّةٍ فَقَدْ جَاءَ
أَسْرَاطُهَا، أَي: فَقَدْ اقْتَرَبَتْ وَدَنَتْ وَأَرَفَتْ، وَهَذِهِ الصَّيْحَةُ
هِيَ نَفْخَةُ الْفَرْعِ الَّتِي يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ أَنْ يُطَوِّفَ بِهَا،

٤٥٤
أَصْرِي عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكَرَ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِي إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسِخِّنُ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَوَعَيْنَهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا
الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَظْ
خَصْمَانِ بَعْنَى بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً
وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى تَجَافِيهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْخَطِيئَةِ لَيْبِنِي
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَكَابٍ
﴿٢٥﴾ يَدَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

فَلَا يَتَّقِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فَرَعَ، إِلَّا
مَنْ اسْتَشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَّالَهُ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا فَمَنْ يَسْتَعِزُّ بِنَا يَوْمَ
الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ هَذَا إِتْكَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي
دُعَائِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ، فَإِنَّ «الْقَطْعَ» هُوَ
الْكِتَابُ. وَقِيلَ: هُوَ الْحِطُّ وَالتَّصِيبُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَالتَّصِيبُ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ:
سَأَلُوا تَعْجِيلَ الْعَذَابِ (٤). زَادَ قَتَادَةُ: كَمَا قَالُوا: ﴿اللَّهُمَّ
إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ
السَّمَاءِ أَوْ أَقْبِنَا بِعَذَابِ الْبَرِّ ﴿٢٨﴾ [الأنفال: ٣٤] (٥) وَقِيلَ:
سَأَلُوا تَعْجِيلَ نَصِيهِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً، لِيَلْقُوا
ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا خَرَجَ هَذَا مِنْهُمْ مَخْرَجَ الْأَسْتِيعَادِ
والتَّكْذِيبِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: سَأَلُوا تَعْجِيلَ مَا يَسْتَحْفُونَهُ

(١) الطبري: ١٥٦/٢١ (٢) الطبري: ١٥٧/٢١ (٣) عبد
الرزاق: ١٦١/٣ (٤) الطبري: ١٦٤/٢١ (٥) الدر المنثور: ٧/١٤٨
الطبري: ١٦٤/٢١

مِنَ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا^(١). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَبِذٌ، وَعَلَيْهِ يَدُورُ كَلَامُ الضَّحَّاكِ وَإِسْمَاعِيلِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢). وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِهْزَاءِ وَالْإِسْتِعَادِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ أَمْرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى آذَانِهِمْ، وَمُبَشِّرًا لَهُ عَلَى صَبْرِهِ بِالْعَاقِبَةِ وَالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ.

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَذُكِّرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْسُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَأَيَّاتِنَا الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ ﴿١٠﴾

[ذِكْرُ دَاوُدَ]

يَذُكُّرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ ذَا أَيْدٍ، وَالْأَيْدُ: الْقُوَّةُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: الْأَيْدُ الْقُوَّةُ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَيْدُ: الْقُوَّةُ فِي الطَّاعَةِ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: أَعْطَى دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ وَفَقَّهًا فِي الْإِسْلَامِ^(٥). وَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَقُومُ ثَلَاثَ اللَّيْلِ، وَيَصُومُ يَصِفُ الدَّهْرَ. وَهَذَا نَائِبٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَتَامُ يَصِفُ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَسُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَبْرُ إِذَا لَاقَى، وَأَنَّهُ كَانَ أَوَّابًا^(٦)» وَهُوَ الرَّجَاعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَشُؤُونِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أَيُّ أَنَّهُ تَعَالَى سَخَّرَ الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ عِنْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ وَأَخِيرِ النَّهَارِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَجَالُ أَوْبٍ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠] وَكَذَلِكَ كَانَتِ الطَّيْرُ تُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ وَتُرْجَعُ بِتَرْجِيْعِهِ، إِذَا مَرَّ بِهِ الطَّيْرُ وَهُوَ سَابِحٌ فِي الْهَوَاءِ، فَسَمِعَهُ وَهُوَ يَتَرْتَمُ بِقِرَاعَةِ الزُّبُورِ، لَا يَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ، بَلْ يَقِفُ فِي الْهَوَاءِ وَيُسَبِّحُ مَعَهُ، وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ الشَّامِخَاتُ تُرْجَعُ مَعَهُ وَتُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ لَا يُصَلِّي الصُّحَى، فَأَدْخَلْتُهُ عَلَى أُمَّ هَانِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقُلْتُ: أَخْبِرِي هَذَا مَا أَخْبَرْتِي بِهِ، فَقَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فِي بَيْتِي، ثُمَّ أَمَرَ بِمَاءٍ صُبَّ فِي قَضَعَةٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِنُوبٍ فَأَخَذَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَأَغْتَسَلَ ثُمَّ رَشَّ نَاحِيَةَ الْبَيْتِ، فَصَلَّى ثَمَانَ رَكَعَاتٍ، وَذَلِكَ مِنَ الصُّحَى،

فِيأْمَهُنَّ وَرُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ وَجُلُوسَهُنَّ سَوَاءً، قَرِيبٌ بَعْضُهُنَّ مِنْ بَعْضٍ، فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ يَقُولُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ مَا عَرَفْتُ صَلَاةَ الصُّحَى إِلَّا الْآنَ: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وَكُنْتُ أَقُولُ: أَيْنَ صَلَاةُ الْإِشْرَاقِ؟ وَكَانَ بَعْدُ يَقُولُ: صَلَاةُ الْإِشْرَاقِ^(٧).

وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْسُورَةً﴾ أَيُّ: مَحْبُوسَةً فِي الْهَوَاءِ ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أَيُّ: مُطِيعٌ يُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَابْنِ زَيْدٍ: ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أَيُّ: مُطِيعٌ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ﴾ أَيُّ: جَعَلْنَا لَهُ مُلْكًا كَامِلًا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ، قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: كَانَ أَشَدَّ أَهْلَ الدُّنْيَا سُلْطَانًا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَيَّاتِنَا الْحِكْمَةَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْفَهْمَ وَالْعَقْلَ وَالْفِطْنَةَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كِتَابَ اللَّهِ وَاتِّبَاعَ مَا فِيهِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿الْحِكْمَةَ﴾ النُّبُوَّةُ^(٩). وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ﴾ قَالَ شُرَيْحُ الْقَاضِي وَالشَّعْبِيُّ: فَضَّلْنَا الْخِطَابَ: الشُّهُودَ وَالْأَيْمَانَ^(١٠). وَقَالَ قَتَادَةُ: شَاهِدَانِ عَلَى الْمُدَّعِي، أَوْ يَمِينِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، هُوَ فَضْلُ الْخِطَابِ^(١١) الَّذِي فَضَّلَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ، أَوْ قَالَ الْمُؤْمِنُونَ وَالصَّالِحُونَ، وَهُوَ قَضَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَكَذَا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: هُوَ إِصَابَةُ الْقَضَاءِ وَفَهْمُ ذَلِكَ^(١٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: هُوَ الْفَضْلُ فِي الْكَلَامِ وَفِي الْحُكْمِ. وَهَذَا يُشْمَلُ هَذَا كُلُّهُ، وَهُوَ الْمُرَادُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١٣).

﴿وَهَلْ آتَاكَ بُرْءُ الْخَصْمِ إِذْ سَأَرُوا الْمَحْرَابَ﴾ (١١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ (١٢) إِنَّ هَذَا أَيْ لَمْ يَسَعْ وَسَعُونَ تَجَمُّعًا وَلِي تَجَمُّعًا وَجِدَّةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيَّ نِعَاجِيَّةً وَإِنَّ كِبِيرًا مَن

(١) الطبري: ١٦٥/٢١ (٢) الطبري: ١٩٥/٢١ (٣) الطبري:

١٦٧، ١٦٦/٢١ (٤) الطبري: ١٦٦/٢١ (٥) الطبري: ٢١/

١٦٧ (٦) فتح الباري: ٢٠/٣ ومسلم: ٨١٦/٢ (٧) الطبري:

١٦٩/٢١ إسناد الطبري ضعيف مداره على أيوب بن صفوان

البصري وهو مجهول وصلاة الإشراف ثابتة من الأحاديث

الصحيحة (٨) الطبري: ١٦٩/٢١ (٩) الطبري: ١٧١/٢١

(١٠) الطبري: ١٧٣/٢١ (١١) الطبري: ١٧٣/٢١ (١٢)

الطبري: ١٧٢/٢١ (١٣) الطبري: ١٧٣/٢١

الْمُطَلَّاءِ لِيُنْفِي عَنْهُمْ عَلَى بَعْضِ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَقِيلَ مَا هُمْ وَطَنَّ دَاوُدُ أَمَّا فَتَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَنَابٍ ﴿٢٥﴾

[قِصَّةُ الْخُضَمِيِّنَ]

قَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَا هُنَا قِصَّةَ أَكْثَرِهَا مَاخُودٌ مِنَ
الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِيهَا عَنِ الْمُعْصُومِ حَدِيثٌ يَجِبُ
اتِّبَاعُهُ، وَلَكِنْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ حَدِيثًا لَا يَصِحُّ سَنَدُهُ لِأَنَّهُ
مِنْ رِوَايَةِ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَيَزِيدُ وَإِنْ
كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ - لَكِنَّهُ ضَعِيفُ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْأَيْمَةِ،
فَالْأَوْلَىٰ أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَىٰ مُجَرَّدِ تِلَاوَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَأَنْ يُرَدَّ
عِلْمُهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ - وَمَا تَضَمَّنَ فَهُوَ
حَقٌّ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَفَرَّجْنَا مِنْهُمْ﴾ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ
كَانَ فِي مِحْرَابِهِ وَهُوَ أَشْرَفُ مَكَانٍ فِي دَارِهِ، وَكَانَ قَدْ أَمَرَ
أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا بِشَخْصَيْنِ
قَدْ تَسَوَّرَا عَلَيْهِ الْمِحْرَابَ، أَيْ إِخْتِطَا بِهِ بِسَأَلَانِهِ عَنْ
شَأْنَيْهِمَا وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَزَيْنِي فِي الْخُطَابِ﴾ أَيْ: غَلَّبَنِي.
يُقَالُ: عَزَّ يَعِزُّ إِذَا فَهَرَ وَغَلَّبَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَطَنَّ دَاوُدُ
أَمَّا فَتَنَّهُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا: أَيْ: إِخْتَبَرْنَاهُ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا﴾ أَيْ:
سَاجِدًا ﴿وَأَنَابَ﴾. ﴿فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أَيْ: مَا كَانَ مِنْهُ مِمَّا
يُقَالُ فِيهِ: إِنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُفْرَبِينَ.

[سَجْدَةُ ص]

سَجْدَةُ ﴿ص﴾ لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، بَلْ هِيَ سَجْدَةُ
شُكْرِ، وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: السَّجْدَةُ فِي ﴿ص﴾ لَيْسَتْ
مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْجُدُ
فِيهَا^(٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي
تَفْسِيرِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣). وَرَوَى النَّسَائِيُّ
أَيْضًا عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ فِي ﴿ص﴾ وَقَالَ: «سَجَدَهَا دَاوُدُ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَوْبَةً، وَنَسَجَدُهَا شُكْرًا» تَفَرَّدَ بِرِوَايَتِهِ
النَّسَائِيُّ^(٤). وَرَجَالَ إِسْنَادِهِ كُلُّهُمْ نَقَاتٌ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا أَيْضًا عَنِ الْعَوَّامِ قَالَ:
سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنْ سَجْدَةِ ﴿ص﴾ فَقَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ
- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مِنْ أَيْنَ سَجَدْتَ؟ فَقَالَ: أَوْ مَا تَفَرَّدُ:

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
فَيَهْدِيهِمْ أَفْئِدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠] فَكَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ مِمَّنْ أَمَرَ نَبِيِّكُمْ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ، فَسَجَدَهَا دَاوُدُ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٥).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿ص﴾، فَلَمَّا
بَلَغَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ، وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ
آخَرَ قَرَأَهَا، فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ تَشَرَّنَ النَّاسُ لِلسُّجُودِ،
فَقَالَ ﷺ: «إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةٌ نَبِيٍّ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَرَّنْتُمْ فَتَزَلَّ
وَسَجَدَ^(٦). وَتَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ
الصَّحِيحِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَنَابٍ﴾ أَيْ:
وَإِنَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَقُرْبَةً يَقْرَبُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا، وَحُسْنَ
مَرْجِعٍ، وَهُوَ الدَّرَجَاتُ الْعَالِيَةُ فِي الْجَنَّةِ، لِتَوْبَتِهِ وَعَدْلِهِ
التَّامِّ فِي مُلْكِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «الْمُقْسِطُونَ عَلَى
مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ
يُقْسِطُونَ فِي أَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»^(٧).

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا
تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْحِسَابُ﴾ ﴿٣٦﴾

[الْوَصِيَّةُ لِلْحُكَّامِ وَالسَّلَاطِينِ]

هَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِوَلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يَحْكُمُوا
بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ الْمُتَزَلِّ مِنَ عِنْدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا
يَعْدِلُوا عَنْهُ فَيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ تَوَعَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَتَنَاسَى يَوْمَ الْحِسَابِ، بِالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ
وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَبِي
زُرْعَةَ - وَكَانَ قَدْ قَرَأَ الْكِتَابَ - أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ
قَالَ لَهُ: أَيَحَاسِبُ الْخَلِيفَةَ، فَإِنَّكَ قَدْ قَرَأْتَ الْكِتَابَ
الْأَوَّلَ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَفَقِهْتَهُ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ!
أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ فِي أَمَانِ اللَّهِ، قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ!
أَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ أَوْ دَاوُدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ إِنَّ اللَّهَ
تَعَالَى جَمَعَ لَهُ النُّبُوَّةَ وَالْخَلِيفَةَ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ

(١) الطبري: ١٨١/٢١ (٢) أحمد: ٣٥٩/١ (٣) فتح الباري:
٦٤٣/٢ وأبو داود: ١٢٣/٢ وتحفة الأحوزي: ١٧٦/٣ والنسائي في
الكبرى: ٣٤٢/٦ (٤) النسائي: ١٥٩/٢ (٥) فتح الباري: ٨/
٤٠٥ (٦) أبو داود: ١٤١٠ (٧) مسلم: ١٤٥٨/٣

تَعَالَى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾... الآية .
 وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾
 هَذَا مِنَ الْمُقَدَّمِ وَالْمُؤَخَّرِ: لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ
 يَمَا نَسُوا^(١). وَقَالَ الشَّدِيُّ: لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا تَرَكُوا
 أَنْ يَعْمَلُوا لِيَوْمِ الْحِسَابِ^(٢).
 وَهَذَا الْقَوْلُ أَمْشَى عَلَى ظَاهِرِ الْآيَةِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلُ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلَهُ
 إِلَيْكَ مَبْرُكٌ لِيَذْبُرُوا آيَاتِهِ. وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾
 [الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الدُّنْيَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا خَلَقَ الْخَلْقَ عَتَبًا، وَإِنَّمَا خَلَقَهُمْ
 لِيَعْبُدُوهُ وَيُوحِّدُوهُ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ فَيُنْبِئُ الْمُطِيعِ
 وَيُعَذِّبُ الْكَافِرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ
 وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: الَّذِينَ لَا
 يَرَوْنَ بَعْدًا وَلَا مَعَادًا، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ هَذِهِ الدَّارَ فَقَطْ ﴿قَوْلُ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أَي: وَيَلُ لَّهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنُشُورِهِمْ
 مِنَ النَّارِ الْمُعَذِّبَةِ لَهُمْ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَذَلِهِ
 وَحُكْمَتِهِ لَا يَسَاوِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ
 تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أَي: لَا نَفْعَ ذَلِكَ، وَلَا يَسْتَوُونَ
 عِنْدَ اللَّهِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى يَثَابُ
 فِيهَا هَذَا الْمُطِيعُ وَيُعَاقَبُ فِيهَا هَذَا الْفَاجِرُ، وَهَذَا الْإِرْشَادُ
 يَدُلُّ عَلَى الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْفِطْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ
 مِنْ مَعَادٍ وَجَزَاءٍ، فَإِنَّا نَرَى الظَّالِمَ الْبَاطِلَ الْبَاطِلَ الْبَاطِلَ الْبَاطِلَ الْبَاطِلَ
 وَنَعِيمُهُ وَيَمُوتُ كَذَلِكَ، وَنَرَى الْمُطِيعَ الْمَطْلُومَ يَمُوتُ
 بِكَمِيدِهِ، فَلَا بُدَّ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْعَادِلِ الَّذِي لَا
 يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، مِنْ إِنْصَافٍ هَذَا مِنْ هَذَا، وَإِذَا لَمْ يَقَعْ
 هَذَا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَى لِهَذَا الْجَزَاءِ
 وَالْمُوَاسَاةِ. وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ يُرْشِدُ إِلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ
 وَالْمَآخِذِ الْعُقُولِيَّةِ الصَّرِيحَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ
 مَبْرُكٌ لِيَذْبُرُوا آيَاتِهِ. وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَي: دَوُو الْعُقُولِ،
 وَهِيَ الْأَلْبَابُ جَمْعُ لَبٍّ، وَهُوَ الْعَقْلُ.

﴿وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 قَوْلُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
 ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مَبْرُكٌ لِيَذْبُرُوا آيَاتِهِ. وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
 الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ
 ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَةَ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي
 أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عِنْدَ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
 رُدُّهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
 سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَانَ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
 لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِبْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
 فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجْحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانَ
 كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخِرِينَ مَقْرَبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا
 عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُقْفٌ وَمَضْنٌ
 مَعَابٍ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ
 بِنُصُوبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَةَ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عِنْدَ رَبِّي
 حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
 وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

[ذِكْرُ سُلَيْمَانَ بْنِ داوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ وَهَبَ لِداوُدَ سُلَيْمَانَ - أَي نَبِيًّا،
 كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ داوُدَ﴾ أَي: فِي النُّبُوَّةِ -
 وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ لَهُ بَنُونَ غَيْرُهُ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ عِنْدَهُ مِائَةٌ امْرَأَةً
 حَرَائِرُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثَنَاءٌ عَلَى
 سُلَيْمَانَ بِأَنَّهُ كَثِيرُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَةَ الْجِيَادُ﴾ أَي:
 إِذْ عَرَضَ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَالِ مَمْلَكَتِهِ
 وَسُلْطَانِهِ، الْحَيْلُ الصَّافِيَاتُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهِيَ النَّبِيُّ تَقِفُ
 عَلَى ثَلَاثٍ وَطَرْفِ حَافِرِ الرَّابِعَةِ، وَالْجِيَادُ: السَّرَاعُ^(٣).

(١) الطبري: ١٨٩/٢١ (٢) الطبري: ١٨٩/٢١ (٣) الطبري:

وَكَذَا قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ - أَوْ خَيْبَرَ - وَفِي سَهْوَتِهَا سَبْرٌ، فَهَبَّتِ الرِّيحُ، فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السَّبْرِ، عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لُعِبَ. فَقَالَ ﷺ: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟» قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بَنَاتِي. وَرَأَى بَنِيَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِفَاعٍ، فَقَالَ ﷺ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ؟» قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَرَسٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟» قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: جَنَاحَانِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟» قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَمَا سَمِعْتِ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَتْ لَهُ حَيْلٌ لَهَا أَجْحِيحَةٌ؟ قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَصَحَّحَكَ ﷺ حَتَّى رَأَيْتِ نَوَاجِذَهُ (١).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ﴾ ذَكَرَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ اشْتَعَلَ بِعَرْضِهَا حَتَّى فَاتَتْ وَقْتُ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَالَّذِي يُقَطَّعُ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْهَا عَمْدًا بَلْ نِسْيَانًا، كَمَا شَغَلَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنِ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى صَلَّاهَا بَعْدَ الْغُرُوبِ، وَذَلِكَ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، مِنْ ذَلِكَ عَنِ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَمَا عَرَبَتِ الشَّمْسُ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا كِدْتُ أُصَلِّيَ الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا» فَقَالَ: فَمُنَّمْنَا إِلَى بَطْحَانَ فَتَوَضَّأَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ لِلصَّلَاةِ، وَتَوَضَّأْنَا لَهَا، فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا عَرَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ (٢). «رَدُّهَا عَلَى فَطْفِقٍ مَسْكًا بِالسُّوقِ وَالْأَفْئَاتِ» قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: قَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا تَسْغَلِينِي عَنِ عِبَادَةِ رَبِّي آخِرَ مَا عَلَيْكَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَعَفَّرَتْ (٣). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ الشَّدِيدِيُّ: ضَرَبَ أَعْنَاقَهَا وَعَرَاقِيهَا بِالسُّيُوفِ (٤).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: جَعَلَ يَمَسُّحُ أَعْرَافَ الْخَيْلِ وَعَرَاقِيهَا حُبًّا لَهَا (٥). وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُعَذَّبَ حَيَوَانًا بِالْعُرْقَبَةِ، وَهُهْلِكَ مَا لَا مِنْ مَالِهِ بِلَا سَبَبٍ سِوَى أَنَّهُ اشْتَعَلَ عَنِ صَلَاتِهِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا، وَلَا ذَنْبَ لَهَا (٦). وَهَذَا الَّذِي رَجَّحَ بِهِ ابْنُ جَرِيرٍ، فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي شَرَعِهِمْ جَوَازٌ وَمِثْلُ هَذَا، وَلَا سِيَّمًا إِذَا كَانَ غَضَبًا لِلَّهِ

تَعَالَى بِسَبَبِ أَنَّهُ اشْتَعَلَ بِهَا حَتَّى خَرَجَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، وَلِهَذَا لَمَّا خَرَجَ عَنْهَا اللَّهُ تَعَالَى عَوَّضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا، وَهُوَ الرِّيحُ الَّتِي ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَّةً حَيْثُ أَصَابَ﴾: غَدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ، فَهَذَا أَسْرَعُ وَخَيْرٌ مِنَ الْخَيْلِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ وَأَبِي الدَّهْمَاءِ - وَكَانَا يُكْثِرَانِ السَّفَرَ نَحْوَ الْبَيْتِ - قَالَا: أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ لَنَا الْبُدَوِيُّ: أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَ: «إِنَّكَ لَا تَدَعُ شَيْئًا اتَّقَاءَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهُ» (٧).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٨) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٩) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَّةً حَيْثُ أَصَابَ (١٠) وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ (١١) وَآخِرِينَ مَقْرَبِينَ فِي الْأَصْفَادِ (١٢) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٣) وَإِنْ لَمْ يَنْدَلِكْ لَئِنَّمَا لَئِيْقٌ وَمَنْ مَنَابٍ (١٤)

[إِبْتِلَاءُ سُلَيْمَانَ ثُمَّ التَّقْضِيلُ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أَي: اخْتَبَرْنَاهُ ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ (٨) ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أَي: بَعْدَ هَذَا الْاِخْتِيَارِ أَنَابَ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَدَعَا وَطَلَبَ مِنْهُ الْمَغْفِرَةَ، وَطَلَبَ حُكْمًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ بَعْدَهُ. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، أَي: إِنَّهُ سَأَلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُلْكًا لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلُهُ، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ، وَبِذَلِكَ وَرَدَّتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ مِنْ طُرُقٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عَفْرِيئًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لِيَقَطَّعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمَكَّنَنِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرِيظَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُضْبِحُوا، وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَحِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ

(١) أبو داود: ٢٢٧/٥ (٢) فتح الباري: ٨٢/٢ ومسلم: ١/٤٣٨ (٣) الطبري: ١٩٥/٢١ (٤) الطبري: ١٩٥/٢١ (٥) الطبري: ١٩٦/٢١ (٦) الطبري: ١٩٦/٢١ (٧) أحمد: ٥/٧٨ (٨) لَمْ يَبَيِّنِ اللَّهُ تَعَالَى حَقِيقَةَ هَذَا الْجَسَدِ الَّذِي أَلْفَاهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ، فَحَسْبُ نُؤْمِنُ أَنَّ اللَّهَ اخْتَبَرَهُ بِإِلْقَاءِ الْجَسَدِ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَلَا نَعْرِفُ مَا هُوَ؟ وَكُلُّ مَا قِيلَ حَوْلَهُ، فَهُوَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، لَا نَعْرِفُ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَفْرِزْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَدْعِي» قَالَ رَوْحٌ: فَرَدَّهُ حَاسِيًا^(١). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(٢). وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فَسَمِعَنَاهُ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ - ثُمَّ قَالَ: - أَلْعَنَكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ» ثَلَاثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشَهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِ فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنَكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَتَأَخَّرْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَخْذَهُ، وَاللَّهِ لَوْ لَا دَعْوَةُ أَحِبَّنَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوتِقًا، يَلْعَبُ بِهِ صَبِيَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ. لَمَّا عَقَرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الخَيْلَ غَضَبًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَوَّضَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَأَسْرَعُ، الرِّيحَ الَّتِي عُذُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ^(٤).

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أَي: حَيْثُ أَرَادَ مِنَ الْبِلَادِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَّالَهُ: ﴿وَالسَّيِّطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ أَي: مِنْهُمْ مَا هُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْأَبْنِيَةِ الْهَائِلَةِ، مِنْ: مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ - إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ. وَطَائِفَةٌ غَوَّاصُونَ فِي الْبِحَارِ، يَسْتَخْرِجُونَ مَا فِيهَا مِنَ اللَّالِئِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ الَّتِي لَا تَوْجَدُ إِلَّا فِيهَا ﴿وَبِأَخْرَجَ مُقْرَبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أَي: مَوْثُوقُونَ فِي الْأَغْلَالِ وَالْأَكْبَالِ، مِمَّنْ قَدْ تَمَرَّدَ وَعَصَى، وَامْتَنَعَ مِنَ الْعَمَلِ وَأَبَى، أَوْ قَدْ أَسَاءَ فِي صَنِيعِهِ وَاعْتَدَى.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي أُعْطَيْنَاكَ مِنَ الْمُلْكِ التَّامِّ وَالسُّلْطَانِ الْكَامِلِ كَمَا سَأَلْتَنَا: فَأَعْطِ مَنْ شِئْتَ وَاحْرُمِ مَنْ شِئْتَ، لَا حِسَابَ عَلَيْكَ، أَي: مَهْمَا فَعَلْتَ فَهُوَ جَائِزٌ لَكَ، أَحْكَمُ بِمَا شِئْتَ فَهُوَ صَوَابٌ، وَقَدْ تَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَيْرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا - وَهُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ قَاسِمٌ بِنَفْسِهِ بَيْنَ النَّاسِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ - وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مُلْكًا يُعْطَى مِنْ بِنَاءٍ وَيَمْنَعُ مَنْ بِنَاءٍ بِلَا حِسَابٍ وَلَا جُنَاحٍ: إِخْتَارَ الْمُنَزَّلَةَ الْأُولَى

بَعْدَمَا اسْتَشَارَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ: تَوَاضَعْ، فَاخْتَارَ الْمُنَزَّلَةَ الْأُولَى لِأَنَّهَا أَرْفَعُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَعْلَى مَنْزِلَةً فِي الْمَعَادِ، وَإِنْ كَانَتْ الْمُنَزَّلَةُ الثَّانِيَّةُ، وَهِيَ النُّبُوَّةُ مَعَ الْمُلْكِ، عَظِيمَةً أَيْضًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا أُعْطِيَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الدُّنْيَا، بَيَّنَّ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ ذُو حِطِّ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْضًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْفٌ وَحُسْنُ مَنَاقِبٍ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٤١) أَلْزَمَ بِرِحْلِكَ هَذَا مُفْتَسِلًا بَارِدًا وَسَرَبًا (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَنْبِيَاءِ (٤٣) وَخَذَ بِيَدِكَ صِفْنَا فَأَضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحَنَّنْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴿

ذِكْرُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ وَرَسُولُهُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَا كَانَ ابْتِلَاءُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الضَّرِّ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي جَسَدِهِ مَعْرُورٌ إِلَّا بَرَةٌ سَلِيمًا سِوَى قَلْبِهِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَرَضِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ، غَيْرَ أَنَّ زَوْجَتَهُ حَفِظَتْ وَدَّهُ لِإِيمَانِهَا بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، فَكَانَتْ تَخْدِمُ النَّاسَ بِالْأَجْرَةِ وَتُطْعِمُهُ وَتَخْدُمُهُ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي مَالٍ جَزِيلٍ وَأَوْلَادٍ وَسَعَةٍ طَائِلَةٍ فِي الدُّنْيَا، فَسَلِبَ جَمِيعَ ذَلِكَ، حَتَّى آَلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ أَلْفَى عَلَى مَرْبَلَةٍ مِنْ مَرَابِلِ الْبَلْدَةِ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا، وَرَفَضَهُ الْقُرَيْبُ وَالْبَعِيدُ، سِوَى زَوْجَتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ لَا تَفَارِقُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَّا بِسَبَبِ خِدْمَةِ النَّاسِ، ثُمَّ تَعَوَّدَ إِلَيْهِ قَرِيبًا، فَلَمَّا طَالَ الْمُطَالُ، وَاشْتَدَّ الْحَالُ، وَأَنْتَهَى الْقُدْرُ، وَتَمَّ الْأَجَلُ الْمُقَدَّرُ، تَضَرَّعَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِلَيْهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَالَ: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قِيلَ: يُنْصَبُ فِي بَدَنِ، وَعَذَابٌ فِي مَالِي وَوَلَدِي، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَجَابَ لَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقَامِهِ وَأَنْ يَرْكُضَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ، فَفَعَلَ فَاتَّبَعَ اللَّهُ تَعَالَى عَيْنًا، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهَا فَأَذْهَبَتْ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي بَدَنِهِ

(١) فتح الباري: ١/٦٦٠ (٢) مسلم: ١/٣٨٤ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٤٣ (٣) مسلم: ١/٣٨٥ (٤) الطبري: ٢١/٢٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْأَدَى، ثُمَّ أَمَرَهُ فَصَرَبَ الْأَرْضَ فِي مَكَانٍ آخَرَ فَأَنْبَعَ لَهُ عَيْنًا أُخْرَى وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهَا فَأَذْهَبَتْ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي بَاطِنِهِ مِنَ السُّوءِ، وَتَكَامَلَتِ الْعَاقِبَةُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اِرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغَسَّلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ جَمِيعًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَبِثَ بِهِ بِلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَخْصِ إِخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيُرْوِحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعَلَّمْ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرَحِمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرٌ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ تَعَالَى، فَأَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي فَانْكُرْ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا فِي حَقِّ، قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَاهَا أَسْكَبَتْ أَمْرًا تَبِيدهُ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ ﴿اِرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغَسَّلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فَاسْتَبَطَّاهُ [فَتَلَقَّاهُ] تَنْظُرًا، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيُّ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا الْمُتَبَلِّغِ، فَوَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَاحِبِيًّا. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرٌ لِلْفَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْفَمْحِ، أَفْرَعَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَعَتْ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّى فَاضَ» هَذَا لَفْظُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤١﴾ وَحُدِّبِيكَ ضَعْفًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْتِثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدَ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٢﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصِرِ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَا الدَّارِ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٥﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٦﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحَسَنَ مَثَابٍ ﴿٤٧﴾ جَنَّتٍ عَرْضُهَا مِثْلُ سَمَاءِ الْأَبْوَابِ ﴿٤٨﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٤٩﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرِاتٌ مُتَّوِّفَاتٌ أَرْبَابٌ ﴿٥٠﴾ هَذَا مَا تَوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ إِنَّ هَذَا الرِّزْقُ مَالُهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٢﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِعِينَ لِشَرْمَاتٍ ﴿٥٣﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفْنَ الْهَادِثَ ﴿٥٤﴾ هَذَا فَلْيَدْعُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٥﴾ وَآخِرُ مَنْ شَكَلَهُ أَزْوَاجٌ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَوْجٌ مُتَّفِحٌ مَعَكُمْ لَأَمْرَجَابِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٧﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْرَجَابِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَنَّمُوهُ لَنَا فَيَنْسِفْنَ الْقَرَارَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَدَابًا ضَعْفًا فِي النَّارِ ﴿٥٩﴾

تَعَالَى لَهُ بِأَعْيَانِهِمْ، وَزَادَهُمْ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ^(٣). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أَيُّ: بِهِ عَلَى صَبْرِهِ وَتَبَاتِيهِ وَإِنَابَتِهِ وَتَوَاضُعِهِ وَاسْتِحْيَانَتِهِ ﴿وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أَيُّ: لِذَوِي الْعُقُولِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ الْفَرْجُ وَالْمَخْرَجُ وَالرَّاحَةُ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَحُدِّبِيكَ ضَعْفًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْتِثْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قَدْ غَضِبَ عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَجَدَ عَلَيْهَا فِي أَمْرِ فَعَلْتُهُ، وَخَلَفَ إِنْ شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِيَضْرِبَتْهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ، فَلَمَّا شَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَافَاهُ مَا كَانَ جَزَاؤُهَا مَعَ هَذِهِ الْجَدْمَةِ النَّاتِمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانَ أَنْ تُقَابَلَ بِالضَّرْبِ، فَأَفْتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَأْخُذَ ضَعْفًا وَهُوَ الشَّمْرَاخُ فِيهِ مِائَةُ قَضِيبٍ، فَيَضْرِبُهَا بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، وَقَدْ بَرَّتْ يَمِينُهُ، وَخَرَجَ مِنْ جَنَّتِهِ، وَوَفَّى بِنَدْرِهِ، وَهَذَا مِنَ الْفَرْجِ وَالْمَخْرَجِ لِمَنْ اتَّقَى

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ غُرْبَانًا خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخْتُو فِي نَوْبِهِ، فَتَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا أَيُّوبُ! أَلَمْ أَكُنْ أَعْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: بَلَى يَا رَبَّ! وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ». انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَحْيَاهُمْ اللَّهُ

(١) الطبري: ٢١١/٢١ (٢) البخاري: ٢٧٩، ٣٣٩١، ٧٤٩٣

(٣) الطبري: ٢١٢/٢١

اللَّهُ تَعَالَى وَأَنَابَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجاء منيب، ولهذا قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ويزفقه من حيث لا يحسب ومن يؤكل على الله فهو حسبه إن الله يبلغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً [الطلاق: ٢، ٣].

﴿وَأَذَكَّرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾^(٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّمْ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذَكَّرْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكُفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذَكَرَ

[ذِكْرُ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ فِضَائِلِ عِبَادِهِ الْمُرْسَلِينَ وَأَنْبِيَائِهِ الْعَابِدِينَ: ﴿وَأَذَكَّرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ يقول: أولي القوة والعبادة ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه في الدين^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أُعْطُوا قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ وَبَصَرًا فِي الدِّينِ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ: جَعَلْنَاهُمْ يَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُهَا^(٢). وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ: ذَكَرَهُمْ لِلْآخِرَةِ وَعَمَلُهُمْ لَهَا^(٣). وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: نَزَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الدُّنْيَا وَذَكَرَهَا، وَأَخْلَصَهُمْ بِحُبِّ الْآخِرَةِ وَذَكَرَهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا يَذْكُرُونَ النَّاسَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَالْعَمَلَ لَهَا^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمْ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أَيُّ: لِمَنْ الْمُخْتَارِينَ الْمُجْتَبِينَ الْأَخْيَارِ، فَهُمُ الْأَخْيَارُ مُخْتَارُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذَكَّرْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكُفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قِصَصِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ مُسْتَقْصَاةً فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِمَا أَعْنَى عَنِ إِعَادَتِهِ هُنَا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أَيُّ: هَذَا فَضْلٌ فِيهِ ذِكْرٌ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ. قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ^(٥).

﴿وَإِنَّا لَمُتَّقِينَ لِحَسَنِ مَتَابِ﴾^(٤٩) حَسَنَتِ عَدْنٍ مُنْعَمَةٌ لِمَنْ الْأَوْبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّقِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَمٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ

الطَّرِيفِ أَرْبَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾

[بَيَانُ مَابِ السُّعْدَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ السُّعْدَاءِ أَنَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لِحَسَنِ مَابٍ، وَهُوَ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ. ثُمَّ فَسَّرَهُ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿حَسَنَتِ عَدْنٍ﴾ أَيُّ: حَسَنَاتِ إِقَامَةِ مُنْعَمَةٍ لِمَنْ الْأَوْبُ ﴿٤٩﴾ وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ هُنَا بِمَعْنَى الْإِضَافَةِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مُنْعَمَةٌ لَهُمْ أَبْوَابُهَا، أَيُّ: إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مُتَّقِينَ فِيهَا﴾ قِيلَ: مُتَرَبِّعِينَ عَلَى سُورٍ تَحْتَ الْحِجَابِ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَمٍ كَثِيرَةٍ﴾ أَيُّ: مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، وَأَخْصَرَ كَمَا أَرَادُوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أَيُّ: مِنْ أَيِّ أَنْوَاعِهِ شَاءُوا أَتَتْهُمْ بِهِ الْخُدَّامُ ﴿بِالْكَوَابِ وَالْبَارِقِ وَكُلِّ نَبِئٍ مَعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨] ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ الطَّرِيفِ﴾ أَيُّ: عَنْ غَيْرِ أَرْوَاجِهِمْ فَلَا يَلْتَمِسْنَ إِلَى غَيْرِ بُعُولَتِهِمْ ﴿أَرْبَابٌ﴾ أَيُّ: مُتَسَاوِيَاتٍ فِي الشَّنِّ وَالْعُمْرِ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَالسُّدِّيُّ^(٦). ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ:

هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ صِفَةِ الْجَنَّةِ، هِيَ الَّتِي وَعَدَهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، الَّتِي يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ نُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ مِنَ النَّارِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ لَا فِرَاقَ لَهَا وَلَا زَوَالَ وَلَا انْقِضَاءَ وَلَا انْتِهَاءَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَا: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مُجْدُوفٍ﴾ [هود: ١٠٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرٌ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أَيُّ: غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَكُلْهَا ذَائِبٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَتَقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٢٥] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا.

﴿هَذَا وَرِثَ اللَّطِيفِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ﴾^(٥٥) جَهَنَّمَ يَسْلَوْنَهَا فَيَسَّ إِلَيْهَا^(٥٦) هَذَا قَلْبُوهُمْ حَمِيدٌ وَعَسَاقُ^(٥٧) وَخَاحِرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاحٌ^(٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحٌ مَعَكُمْ لَا مَرَحًا يَوْمَ إِنَّهُمْ صَلَّوْا النَّارَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتَ لَا مَرَحًا بِكُورٍ أَنْتَ قَدْ مَسَّمُوهُ لَنَا فَيَسَّ الْفَرَارُ^(٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ

(١) الطبري: ٢١٥/٢١ (٢) الطبري: ٢١٨/٢١ (٣) الطبري:

٢١٨/٢١ (٤) الطبري: ٢١٧/٢١ (٥) الطبري: ٢٢٠/٢١

(٦) الطبري: ٢٢٣/٢١

لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا
كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ رَاغَتْ عَنْهُمْ
الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾

[بَيَانُ مَالِ الْأَشْقِيَاءِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَالَ السُّعْدَاءِ ثَمَّ يَذْكَرُ حَالِ
الْأَشْقِيَاءِ وَمَرْجِعَهُمْ وَمَا يَهُمْ فِي دَارِ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ فَقَالَ
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا وَرَثَ اللَّطِيفِينَ﴾ وَهُمْ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الْمُخَالِفُونَ لِرُسُلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
﴿لَشَرِّ مَتَابٍ﴾ أَي: لِسُوءِ مُتَقَلِّبٍ وَمَرْجِعٍ. ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ
جَلَّ وَعَلَا: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾ أَي: يَدْخُلُونَهَا فَتَعْمُرُهُمْ مِنْ
جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ ﴿فَيَسُّنُ الْهَادُونَ﴾ هَذَا فَلْيَدْرُفُوهُ جِسْمٌ وَعَسَاقٌ
أَمَّا الْحَمِيمُ فَهُوَ الْحَارُّ الَّذِي قَدِ انْتَهَىٰ حَرُّهُ، وَأَمَّا الْعَسَاقُ
فَهُوَ صِدْهُ وَهُوَ الْبَارِدُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهِ
الْمُؤَلِّم.

وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجٌ﴾ أَي:
وَأَشْيَاءٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ: الشَّيْءُ وَصِدْهُ يُعَاقِبُونَ بِهَا. وَقَالَ
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجٌ﴾
أَلْوَانٌ مِنَ الْعَذَابِ^(١). وَقَالَ غَيْرُهُ: كَالزَّمْهَرِيرِ وَالسَّمُومِ،
وَشَرْبِ الْحَمِيمِ وَأَكْلِ الزُّقُومِ، وَالصُّعُودِ وَالْهَوِيِّ، إِلَىٰ غَيْرِ
ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَضَادَّةِ، وَالْجَمِيعِ مِمَّا
يُعَذَّبُونَ بِهِ، وَيُهَيِّئُونَ بِسَبَبِهِ.

[تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَضِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا بَيْنَهُمْ
إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَنْ قِيلِ أَهْلِ
النَّارِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ
لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] بِغَيْرِ بَدَلِ السَّلَامِ يَتَلَاعَنُونَ
وَيَتَكَادِبُونَ وَيَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَتَقُولُ الطَّائِفَةُ الَّتِي
تَدْخُلُ قَبْلَ الْأُخْرَىٰ إِذَا أَقْبَلَتِ الَّتِي بَعْدَهَا مَعَ الْخَزْرَةِ مِنْ
الرَّبَابِيَّةِ: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَضِمٌ﴾ أَي: دَاخِلٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا
بَيْنَهُمْ صَلَاةٌ صَالُوا النَّارِ أَي: لَا تُنْفَعُ مِنْ أَهْلِ جَهَنَّمَ ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ
لَا مَرَجًا بَيْنَكُمْ﴾ أَي: فَيَقُولُ لَهُمُ الدَّاخِلُونَ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَجًا
بَيْنَكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أَي: أَنْتُمْ دَعَوْتُمُونَا إِلَىٰ مَا أَفْضَىٰ بِنَا
إِلَىٰ هَذَا الْمَصِيرِ ﴿فَيَسُّنُ الْفَرَاذُ﴾ أَي: فَيَسُّنُ الْمَنْزِلُ
وَالْمُسْتَقَرُّ وَالْمَصِيرُ ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا
فِي النَّارِ﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَتْ أُخْرَتُهُمْ لِأَوْلَتْهُمْ رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ أَصْلَوْنَا فَنَجَّيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦١﴾ أَخَذْتَهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ رَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٢﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمَ أَهْلِ
النَّارِ ﴿٦٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٤﴾
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٥﴾ قُلْ هُوَنُوعًا
عَظِيمٌ ﴿٦٦﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٧﴾ مَا كَانَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٨﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْتُمْ أَنْتُمْ مُرْسِلُونَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧٠﴾ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧١﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٢﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٣﴾ قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ
مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ
﴿٧٥﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَحِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ
الَّذِينِ ﴿٧٧﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ ﴿٧٩﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٠﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأَعُونِيهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٢﴾

لَا تَلْمِزُوهُمُ [الأعراف: ٣٨] أَي: لِكُلِّ مِنْكُمْ عَذَابٌ بِحَسَبِهِ
﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ أَخَذْتَهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ رَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٢﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْكُفَّارِ فِي
النَّارِ، أَنَّهُمْ يَقْدِرُونَ رِجَالًا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى
الصَّلَاةِ - وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ فِي زَعْمِهِمْ - قَالُوا: مَا لَنَا لَا
تَرَاهُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا قَوْلُ أَبِي جَهْلٍ
يَقُولُ: مَا لِي لَا أَرَىٰ بِلَالًا وَعَمَارًا وَصَهْبِيًّا، وَقُلَانًا
وَقُلَانًا^(٢). وَهَذَا ضَرْبٌ مَثَلٍ، وَإِلَّا فَكُلُّ الْكُفَّارِ هَذَا
حَالُهُمْ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ، فَلَمَّا دَخَلَ
الْكُفَّارُ النَّارَ افْتَقَدُوهُمْ فَلَمْ يَجِدُوهُمْ، فَقَالُوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ
رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ أَخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا ﴿٦٢﴾ فِي الدَّارِ
الدُّنْيَا ﴿أَمْ رَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ يُسَلِّطُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَحَالِ،
يَقُولُونَ: أَوْ لَعَلَّهُمْ مَعَنَا فِي جَهَنَّمَ، وَلَكِنْ لَمْ يَبْقَعْ بَصَرُنَا
عَلَيْهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ،

(١) الطبري: ٢١/٢٣٠ (٢) الطبري: ٢١/٢٣٢

وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَدَّيْ أَحَصَبَ الْجَنَّةِ أَحَصَبَ النَّارِ أَنْ فَدَّ
وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ
لَا حَوْفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٩] وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أَي: إِنَّ هَذَا الَّذِي
أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ فِي
بَعْضٍ وَلَعْنِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، لِحَقِّ، لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي أَوْحَى الْفَهَارَ﴾ (٦٥) رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧)
أَنْتُمْ مَعْرُضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَغْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)
إِنْ يُرِجَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)

[رسالة الرسول ﷺ نبأ عظيم]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْكَفَّارِ بِاللَّهِ،
الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْمُكذِّبِينَ لِرَسُولِهِ: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ لَسْتُ
كَمَا تَزْعُمُونَ ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي أَوْحَى الْفَهَارَ﴾ أَي: هُوَ
وَحْدَهُ قَدْ فَهَرَّ كُلُّ شَيْءٍ وَعَلَيْهِ ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا﴾ أَي: هُوَ مَالِكٌ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمُتَّصِرٌ فِيهِ ﴿الْعَزِيزُ
الْغَفُورُ﴾ أَي: غَفَّارٌ مَعَ عَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾
أَي: خَبِيرٌ عَظِيمٌ وَشَأْنٌ بَلِيغٌ، وَهُوَ إِزْسَالُ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّايَ
إِلَيْكُمْ ﴿أَنْتُمْ مَعْرُضُونَ﴾ أَي: غَافِلُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَغْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾
أَي: لَوْلَا الْوَحْيُ مِنْ أَيْنَ كُنْتُ أَدْرِي بِاخْتِلَافِ الْمَلَائِكَةِ
الْأَعْلَى؟ يَعْني فِي شَأْنِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَامْتِنَاعِ
إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُودِ لَهُ، وَمُحَاجَّجَتِهِ رَبَّهُ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِ.
وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَكَةَ
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)
قَالَ فَانْخُرْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لعنتي إِلَى يَوْمِ
الذِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ
أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)

سُورَةُ الصَّ وَالْحَقُّ

سُورَةُ الصَّ وَالْحَقُّ

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ
مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ
(٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلِلْعَالَمِينَ نَأْمُهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا
لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ (٤) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَسَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٥)
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ أَيْلٌ عَلَى النَّهَارِ
وَيَكُونُ النَّهَارَ عَلَى أَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٦)

[قصّة آدم وإبليس]

هَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ،
وَفِي أَوَّلِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ الْحَجْرِ، وَسُبْحَانَ،
وَالْكَهْفِ وَهَاطَا، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمَ
الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ
بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالْأَمْرِ
مَتَى فَرَعَ مِنْ خَلْقِهِ وَتَسْوِيَتِهِ فَلْيَسْجُدُوا لَهُ - إِكْرَامًا وَإِعْظَامًا
وَاخْتِرَامًا وَامْتِنَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -، فَاُمْتَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ
كُلُّهُنَّ ذَلِكَ سِوَى إِبْلِيسَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ جِنْسًا. كَانَ مِنَ
الْجِنِّ فَخَانَهُ طَعْنُهُ وَجِلْبَتُهُ أُحْوجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ، فَاسْتَكْبَفَ
عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ وَخَاصَمَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، وَادَّعَى أَنَّهُ
خَيْرٌ مِنْ آدَمَ، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وَآدَمُ خَلِيقٌ مِنْ طِينٍ،
وَالنَّارُ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ - فِي رُغْمِهِ، وَقَدْ أَخْطَأَ فِي ذَلِكَ -
وَخَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَكَفَرَ بِذَلِكَ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
وَأَرْعَمَ أَنْفَهُ، وَطَرَدَهُ عَنِ بَابِ رَحْمَتِهِ، وَمَحَلُّ أُنْسِهِ،
وَخَضْرَاءَ قُدْسِهِ، وَسَمَّاهُ إِبْلِيسَ إِعْلَامًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أَبْلَسَ مِنْ

الرَّحْمَةِ، وَأَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مَذْمُومًا مَذْهُورًا إِلَى الْأَرْضِ، فَسَأَلَ اللَّهُ النَّظِيرَةَ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَأَنْظَرَهُ الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يُعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ. فَلَمَّا آمَنَ الْهَلَاكُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَمَرَّدَ وَطَعَى.

وَقَالَ: ﴿فِعْرِيكَ لَأَعْقِبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُسْتَشْتُونَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٧﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن يَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قَرَأَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مُجَاهِدٌ: بَرَفَعِ الْحَقَّ الْأَوَّلَ، وَفَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ بِأَنَّ مَعْنَاهُ: أَنَا الْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: الْحَقُّ مِنِّي وَأَقُولُ الْحَقَّ ^(١). وَقَرَأَ آخَرُونَ بِتَضَمُّنِهِمَا. قَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ قَسَمٌ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ ^(٢).

(قُلْتُ): وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١١٣] وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كَفْرًا مُؤَفَّرًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا النُّصْحِ، أَجْرًا تُعْطَوْنِيهِ مِنْ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ أَيُّ: وَمَا أُرِيدُ عَلَى مَا أُرْسَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَلَا أُبْتَغِي زِيَادَةَ عَلَيْهِ، بَلْ مَا أُمِرْتُ بِهِ أَدَيْتُهُ، لَا أُرِيدُ عَلَيْهِ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا أُبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ الْأَعْمَشِ وَمَنْصُورٍ عَنِ أَبِي الصُّحَى عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: أَتَيْتَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ أَخْرَجَاهُ ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ذِكْرٌ لِيَجْمَعَ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمَا. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكُرَيْمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١١٩] وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَخْرَابِ فَأَلْنَا تَارَ مَوْعِدَهُمْ﴾ [هود: ١٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ أَيُّ: خَبْرَهُ وَصِدْقَهُ﴾ بِعَدِّ حِينٍ أَيُّ: عَنْ قَرِيبٍ. قَالَ قَتَادَةُ: بَعْدَ الْمَوْتِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَا مُتَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ فَقَدْ دَخَلَ فِي حُكْمِ الْقِيَامَةِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ص، وَ اللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزَّمَرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الزَّمَرِ]

رَوَى الشَّيْخِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِطِرَ، وَيُنْفِطِرُ حَتَّى نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ، وَكَانَ ﷺ يَقْرَأُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالزَّمَرَ ^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ لِكُلِّ أَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَسَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالرُّدُّ عَلَى الشِّرْكِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ تَنْزِيلَ هَذَا الْكِتَابِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ - مِنْ عِنْدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٧﴾ عَلَيَّ قَلْبِكَ لِئَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٦٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَزِيزٌ ﴿١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ

(١) الطبري: ٢٤٢/٢١ (٢) الطبري: ٢٤٢/٢١ (٣) فتح الباري: ٤٠٩/٨ ومسلم: ٢/٢١٥٥ (٤) النسائي في الكبرى: ٤٤٤/٦

مِن حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿فصلت: ٤١، ٤٢﴾ وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَا هُنَا:
﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أَي: الْمُنِيعِ الْجَنَابِ
﴿الْحَكِيمِ﴾ أَي: فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَسُرْعِهِ وَقَدْرِهِ ﴿إِنَّا
أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ تَلْخِصًا لَهُ الَّذِيكَ﴾ أَي:
فَاعْبُدِ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَادْعُ الْخَلْقَ إِلَى ذَلِكَ،
وَأَعْلِمُهُمْ أَنَّهُ لَا تَنْصُلِحُ الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ
شَرِيكَ وَلَا عَدِيلٌ وَلَا نَدِيدٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا لِلَّهِ
الَّذِينَ خَالَصُوا﴾ أَي: لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا أَخْلَصَ فِيهِ
الْعَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عُبَادِ الْأَصْنَامِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أَي: إِنَّمَا
يَحْمِلُهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى أَصْنَامِ
اتَّخَذُوهَا عَلَى صُورِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي زَعْمِهِمْ، فَعَبَدُوا
تِلْكَ الصُّورَ تَنْزِيلًا لِذَلِكَ مَنْزِلَةِ عِبَادَتِهِمْ الْمَلَائِكَةَ، لِيَسْمَعُوا
لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَصْرِهِمْ وَرِزْقِهِمْ وَمَا يُتُوبُهُمْ مِنْ أُمُورِ
الدُّنْيَا، فَأَمَّا الْعَمَادُ فَكَانُوا جَاهِلِينَ لَهُ كَافِرِينَ بِهِ. قَالَ
قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَابْنِ زَيْدٍ: ﴿إِلَّا
لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أَي: لِيَسْمَعُوا لَنَا وَيُقَرِّبُونَا عِنْدَهُ
مَنْزِلَةً^(١). وَلِهَذَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَّتِهِمْ إِذَا حَجَّوْا فِي
جَاهِلِيَّتِهِمْ: لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ،
تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. وَهَذِهِ الشُّبُهَةُ هِيَ الَّتِي اعْتَمَدَهَا
الْمُشْرِكُونَ قَدِيمَ الدَّهْرِ وَحَدِيثَهُ، وَجَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ -
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - بِرَدِّهَا وَالنَّهْيَ عَنْهَا،
وَالدَّعْوَةَ إِلَى إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ هَذَا
شَيْءٌ اخْتَرَعَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ فِيهِ
وَلَا رَضِيَ بِهِ، بَلْ أَبْغَضَهُ وَنَهَى عَنْهُ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ
أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٧] وَأَخْبَرَ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي فِي
السَّمَوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَغَيْرِهِمْ، كُلُّهُمْ عِبِيدٌ
خَاصِعُونَ لِلَّهِ، لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنْ ارْتَضَى،
وَلَيْسُوا عِنْدَهُ كَالْأَمْوَاءِ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ، يَشْفَعُونَ عِنْدَهُمْ بِغَيْرِ
إِذْنِهِمْ فِيمَا أَحَبَّ الْمُلُوكُ وَأَبْوَهُ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾
[النحل: ٧٤] تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَي: سَيَفْصِلُ بَيْنَ

الْخَالِقِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، وَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿يَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُنَّا بِعَبْدُونِ﴾
قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا بِعَبْدُونَ الْجِنَّ
أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [سبأ: ٤٠، ٤١] وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أَي: لَا يُرْشِدُ إِلَى
الْهُدَايَةِ مَنْ قَصَدَهُ الْكُذِبُ وَالْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَلْبُهُ
كَافِرٌ بِآيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ، ثُمَّ يَبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ
كَمَا يُزْعِمُهُ جَهْلَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَالْمُعَايِدُونَ مِنْ
الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي الْعَزِيرِ وَعِيسَى، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾
أَي: لَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا يُزْعَمُونَ، وَهَذَا شَرْطٌ لَا
يَلْزَمُ وَقَوْلُهُ وَلَا جَوْازُهُ، بَلْ هُوَ مُحَالٌ، وَإِنَّمَا قَصَدَ
تَخْهِيلَهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ وَزَعَمُوهُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْ
أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَخْتَذُنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾
[الأنبياء: ١٧] ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾
[الزخرف: ٨١] كُلُّ هَذَا مِنْ بَابِ الشَّرْطِ، وَيَجُوزُ تَعْلِيلُ
الشَّرْطِ عَلَى الْمُسْتَحِيلِ لِمَقْصِدِ الْمُتَكَلِّمِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَكَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أَي:
تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، فَإِنَّهُ الْوَاحِدُ
الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ عَبْدٌ لَدَيْهِ، فَصِيرٌ إِلَيْهِ،
وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، الَّذِي قَدْ فَهَرَ الْأَشْيَاءَ فَذَانَتْ لَهُ
وَذَلَّتْ وَخَضَعَتْ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ
وَالْجَاهِلُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ
وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَجَدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةً
أَرْوَجَ يَخْلَقُكُمْ فِي بَطْنِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَتٍ
تَلَدَّتْ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا

نُصْرُونَ ﴿١﴾

[الاستشهاد عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَأَنَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ الْمُتَصَرِّفِ فِيهِ،
يُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ

سُورَةُ الزَّمْرِ
٤٥٩

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ
مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بَطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ
خَلْقًا مِمَّنْ بَعْدَ خَلْقِ فِي ظَلَمْتِ ثَلَاثٌ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَالِي تَصْرُفُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ تَكْفُرًا فَإِنَّ
اللَّهَ عَنَى عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
فِيُنْتَشِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾
❖ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ
نِعْمَةً مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا
لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَنْ هُوَ قِنِيَتْ آتَاءَ النَّبْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا نَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْفُورًا تَكْفُومٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ ءَامِنًا فِي الصَّبْرِ وَنَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

مَرْجِعُكُمْ فَيُنْتَشِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ❖ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا
حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ
أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ ﴿٨﴾

[يَغْضَبُ اللَّهُ مِنَ الْكُفْرِ وَيَرْضَى مِنَ الشُّكْرِ]
يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ
الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ
اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «يَا
عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَحْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى
أَفْجَرِ قَلْبٍ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا» (٣).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أَي: لَا يُجِبُهُ وَلَا

عَلَى النَّبْلِ ﴿أَي: سَخَّرَهُمَا يَجْرَبَانِ مُتَعَايِنِينَ لَا يَفْتُرَانِ، كُلُّ
مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْأَخْرَ طَلْبًا حَيْثِيًّا، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
﴿يُعْشَى آيِلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثِيًّا﴾ [الأعراف: ٥٤] هَذَا مَعْنَى مَا
رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ
وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِهِمْ (١). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أَي: إِلَىٰ مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ عِنْدَ اللَّهِ
تَعَالَى، ثُمَّ يَنْقُضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَلَا هُوَ الصَّرِيحُ الْفَطْرُ﴾ أَي:
مَعَ عِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَايِهِ هُوَ عَفَّارٌ لِمَنْ عَصَاهُ ثُمَّ تَابَ أَوْ
أَنَابَ إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أَي:
خَلَقَكُمْ مَعَ اخْتِلَافٍ أَجْنَاسِيكُمْ وَأَصْنَافِكُمْ، وَالسَّبْتِيكُمْ
وَالْوَالِيكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ أَدَمٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وَهِيَ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْفُورًا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ
مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أَي: خَلَقَ
لَكُمْ مِنْ ظُهُورِ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي
سُورَةِ الْأَنْعَامِ، ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ: مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ
الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿يَخْلُقَكُمْ فِي بَطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ﴾ أَي: قَدَّرَكُمْ فِي بَطُونٍ
أَمْهَاتِكُمْ ﴿خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِي﴾ يَكُونُ أَحَدَكُمْ أَوْلَا نُطْقَةً، ثُمَّ
يَكُونُ عِلْقَةً، ثُمَّ يَكُونُ مُضْعَةً، ثُمَّ يَخْلُقُ فَيَكُونُ لَحْمًا
وَعَظْمًا وَعَصَبًا وَعُرُوقًا، وَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ فَيَصِيرُ خَلْقًا آخَرَ
﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فِي ظَلَمْتِ ثَلَاثٌ﴾ يَعْنِي فِي ظَلَمَةِ
الرَّجْمِ وَظَلَمَةِ الْمَسِيْمَةِ - الَّتِي هِيَ كَالْغَسَاوَةِ وَالْوَقَايَةِ عَلَى
الْوَلَدِ - وَظَلَمَةِ الْبَطْنِ. كَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَأَبُو مَالِكٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ
وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ (٢). وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ
رَبُّكُمْ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا، وَخَلَقَكُمْ وَخَلَقَ آبَاءَكُمْ هُوَ الرَّبُّ، لَهُ الْمُلْكُ
وَالتَّصَرُّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: الَّذِي لَا
تَتَّبِعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿قَالِي تَصْرُفُونَ﴾
أَي: فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ أَيْنَ يَذْهَبُ بِعُقُوبِكُمْ؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَى عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ
تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ

(١) القرطبي: ٢٣٥/١٥ (٢) الطبري: ٢٥٨/٢١ و٢٥٩، والدر المنثور: ٢٣٦/٧ (٣) مسلم: ١٩٩٤/٤

يَأْمُرُ بِهِ ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أَي: يُجِبُهُ لَكُمْ وَيَزِدُّكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أَي: لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، بَلْ كُلُّ مُطَلَّبٍ بِأَمْرِ نَفْسِهِ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مُرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَي: فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

[مِنْ كُفْرِ الْإِنْسَانِ: ذِكْرُهُ اللَّهُ فِي الشَّدَّةِ، وَالشَّرْكَ بِهِ بَعْدَ الْفِرَاحِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أَي: عِنْدَ الْحَاجَةِ يَتَضَرَّعُ وَيَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٧] وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُ نِعْمَةٌ مَتَّه سَوَّىٰ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: فِي حَالِ الرَّفَاحِيَّةِ يَنْسَىٰ ذَلِكَ الدُّعَاءَ وَالْتَضَرُّعَ كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا كَافِرًا يَدْعُوا الْقَائِمَ أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَاثِرًا بِرَبِّهِ فَكَانَ مِنَ الْقَائِمِينَ﴾ [يُونُسُ: ١٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنِ سَبِيلِهِ﴾ أَي: فِي حَالِ الْعَاقِبَةِ يُشْرِكُ بِاللَّهِ وَيَجْعَلُ لَهُ أَنْدَادًا ﴿فَلِئَلَّا تَمْتَعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أَي: قُلْ لِمَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَمَسَلْكُهُ: تَمْتَعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا، وَهُوَ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِئَلَّا تَمْتَعُوا فَإِن مَّصِرْكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنَمُنَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [الْقَمَانُ: ٣٤].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتَ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

[لَا يَسْتَوِي الْمَطِيعُ وَالْعَاصِي]

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: أَمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَجَعَلَ لَهُ أَنْدَادًا؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مَن أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١١٣] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتَ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أَي: خَاشِعٌ فِي حَالِ سُجُودِهِ وَفِي حَالِ قِيَامِهِ. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الْقَائِمُ: الْمَطِيعُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ

أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدْ وَأَمَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ

قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ

وَمِنْ خَلْفِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يَخَوْفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يِعْبُدُونَ فَانْقُورُونَ ﴿١٦﴾

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ

فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَهْلُ الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّبْنِيَةٌ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الْآبَهُرُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ

أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ

يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

وَالْحَسَنُ وَالشَّدِيدُ وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ جَوْفَ اللَّيْلِ^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أَي: فِي حَالِ عِبَادَتِهِ خَائِفٌ رَاجٍ، وَلَا بُدَّ فِي الْعِبَادَةِ مِنْ هَذَا وَهَذَا، وَأَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ فِي مُدَّةِ الْحَيَاةِ هُوَ الْغَالِبُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ فَلْيَكُنِ الرَّجَاءُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ عَبْدُ بَنِ حُمَيْدٍ فِي مُسْتَدْرِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» فَقَالَ: أَرْجُو وَأَخَافُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي يَرْجُو، وَأَمَّنَّهُ الَّذِي يَخَافُهُ»^(٣). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ سَيَّارِ بْنِ حَاتِمٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ بِهِ.

(١) القرطبي: ٢٣٩/١٥ (٢) القرطبي: ٢٣٩/١٥ (٣) مسند عبد بن حميد: ٤٠٤

وَقَالَ التَّرْمِذِيُّ غَرِيبٌ ^(١).

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قرَأَ بِجَاهَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قُتُوبٌ لَيْلَةٍ» وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي التَّوْمِ وَاللَّيْلَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» أَي: هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مِمَّنْ جَعَلَ اللهُ أُنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ؟! «إِنَّمَا يَنْدَكُرُ أَوْلُوا الْأَلْتَبِ» أَي: إِنَّمَا يَعْلَمُ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا مَنْ لَهُ لُبٌّ وَهُوَ الْعَقْلُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

«قُلْ يَجْعِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّوَا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» ^(١٧) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ^(١٨) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ^(١٩)

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالتَّهَجُّرِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِمْرَارِ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَقْوَاهُ: «قُلْ يَجْعِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّوَا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً» أَي: لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، وَقَوْلُهُ: «وَأَرْضُ اللهِ وَسِعَةٌ» قَالَ مُجَاهِدٌ: فَهَاجِرُوا فِيهَا وَجَاهِدُوا وَاعْتَرَلُوا الْأَوْثَانَ ^(٢٠).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: لَيْسَ يُوزَنُ لَهُمْ وَلَا يُكَالُ لَهُمْ، إِنَّمَا يُعْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ ^(٢١). وَقَوْلُهُ: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» أَي: إِنَّمَا أُمِرْتُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ «وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ».

«قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» ^(٢٢) قُلْ اللهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ^(٢٣) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْكَلْبَسِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ^(٢٤) لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُمْ يَجْعِدِ فَأَنْتَوْنَ ^(٢٥)

[التَّخَوِّيفُ مِنْ عَذَابِ اللهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: «قُلْ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ: «إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا شَرْطٌ وَمَعْنَاهُ التَّعْرِضُ بِغَيْرِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى «قُلْ اللهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي» ^(٢٤) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي» وَهَذَا أَيْضًا تَهْدِيدٌ وَتَبَرُّ مِنْهُمْ «قُلْ إِنَّ الْكَلْبَسِينَ» أَي: إِنَّمَا الْخَاسِرُونَ كُلَّ الْخُسْرَانِ «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ» أَي تَفَارَقُوا فَلَا الْجَمَاعَةَ لَهُمْ أَبَدًا، وَسَوَاءٌ ذَهَبَ أَهْلُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ ذَهَبُوا هُمْ إِلَى النَّارِ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أُسْكِنُوا النَّارَ، وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُرُورَ «أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ» أَي: هَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ، ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُمْ فِي النَّارِ فَقَالَ: «لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ» كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ» وَكَذَلِكَ تَجْرَى الظَّلْمِلِينَ [الأعراف: ٤١]. وَقَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يَشْنُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [العنكبوت: ٥٥]

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: «ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُمْ» أَي: إِنَّمَا يُخَوِّفُ خَبَرَ هَذَا الْكَاثِرِ لَا مَحَالَةَ، لِيُخَوِّفَ بِهِ عِبَادَهُ، لِيَنْزَجِرُوا عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَجْعِدِ فَأَنْتَوْنَ» أَي: أَحْشُوا بِأَسِي وَسَطَوْتِي وَعَذَابِي وَنِقْمَتِي.

«وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظَّنْمُوتَ أَنْ يَعْبُدُوا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ هُمْ الْبَشَرُ الْبَشِيرُ عِبَادُ» ^(٢٦) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَوْلُوا الْأَلْتَبِ ^(٢٧)

[الْبَشَارَةُ لِلصَّالِحِينَ]

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ: «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظَّنْمُوتَ أَنْ يَعْبُدُوا» نَزَلَتْ فِي زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ وَأَبِي ذَرٍّ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ^(٢٨). وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا شَامِلَةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ اجْتَنَبَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ، وَأَنَابَ إِلَى عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «فَيَبْشِرُ عِبَادُ» ^(٢٩) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» أَي: يُفْهَمُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ آتَاهُ التَّوْرَةَ: «فَخُذْهَا يَقْوَةً وَأَمْرًا قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِيهَا» [الأعراف: ١٤٥]. «وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ» أَي: الْمُتَّبِعُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، هُمُ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ «وَأُولَئِكَ هُمُ أَوْلُوا الْأَلْتَبِ»

أَي: ذُوو الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْفِطْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ. «وَأَمَّنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ» ^(٣٠) لَكِنْ

(١) تحفة الأحوذى: ٥٧/٧ والنسائي في الكبرى: ٢٦٢/٦ وابن ماجه: ١٤٢٣/٢ الطبري: ٢٦٩/٢١ (٢) الطبري: ٢٦٩/٢١ (٣) الطبري: ٢١/٢٧٠ (٤) الطبري: ٢٧٤/٢١ إسناده ضعيف جداً عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه يروي الموضوعات

الَّذِينَ انْقَرَوْا بِرَبِّهِمْ لَمْ يَخْفَوْا مِنْ قَوْلِهَا عُرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى: أَفَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهُ شَقِيٌّ قَدِيرٌ تَقْدِرُهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ؟ أَيْ: لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عِبَادِهِ السُّعْدَاءِ أَنَّ لَهُمْ عُرْفًا فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْقُصُورُ أَيْ الشَّاهِقَةُ ﴿مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَبْنِيَةٌ﴾ طِبَاقٌ فَوْقَ طِبَاقٍ، مَبْنِيَّاتٌ مُحْكَمَاتٌ مُزَخْرَفَاتٌ عَالِيَّاتٌ. رَوَى عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا يُرَى بِطُونِهَا مِنْ ظَهْرِهَا، وَظَهْرُهَا مِنْ بَطُونِهَا» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْعُرْفَةِ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ» قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ الثُّعْمَانَ بْنَ أَبِي عَيَّاشٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الَّذِي فِي الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ أَوْ الْغَرْبِيِّ»^(٣) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْجَنَّةِ أَهْلَ الْعُرْفِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الدَّرَجَاتِ الْغَارِبِ فِي الْأَفْقِ الطَّالِعِ، فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْلَيْكَ النَّيُّونَ؟ فَقَالَ ﷺ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الرَّسُولَ»^(٥). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ: تُسَلِّكُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِ ذَلِكَ، كَمَا يَشَاوِرُونَ وَأَيُّنَ ارْتَادُوا ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَعَدَّ وَعَدَّهُ اللَّهُ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ
ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُضْمَكًا ثَمَّ
يَجْعَلُهُ حَبْلًا عِنْدَ ذَلِكَ لِذِكْرِي لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ
شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِلْقَلْبِ
قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

[مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]

يُخْرِجُ تَعَالَى أَنَّ أَصْلَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ كَمَا قَالَ عَزَّ

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ
لِلْقَلْبِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾
اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ نَفْسُكُمْ مِنْهُ
جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سَوْءَ
الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاذْقُوا فَمَا لَهُمْ الْخِزْيُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ
الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي
هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ ﴿٢٧﴾ قَرَأَ أَنَا عَرَبِيًّا
عَرَبِيًّا عَوِجَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَابِهُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

وَجَلَّ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ فَإِذَا أَنْزَلَ الْمَاءَ مِنَ
السَّمَاءِ كَمَنْ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يَصْرِفُهُ تَعَالَى فِي أَجْزَاءِ
الْأَرْضِ كَمَا يَسَاءُ، وَيُنْبِئُهُ عَيْونًا مَا بَيْنَ صَعَارٍ وَكِبَارٍ بِحَسَبِ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ
فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ: أَنَّ كُلَّ مَاءٍ
فِي الْأَرْضِ فَاضِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ^(١). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:
أَصْلُهُ مِنَ التَّلْجِ، يَعْنِي أَنَّ التَّلْجَ يَتَرَاكُمُ عَلَى الْجِبَالِ فَيَسْكُنُ
فِي قَرَارِهَا، فَتَنْبِئُ الْعَيْونُ مِنْ أَسْفَلِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ
يُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أَيْ: ثُمَّ يُخْرِجُ بِالْمَاءِ النَّارِلَ مِنَ
السَّمَاءِ وَالنَّابِعِ مِنَ الْأَرْضِ ﴿زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أَيْ: أَشْكَالُهُ
وَطُوعُهُ وَرَوَائِحُهُ وَمَنَافِعُهُ ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾ أَيْ: بَعْدَ نَضَارَتِهِ
وَسَبَابِهِ يَكْتَهِلُ ﴿فَتَرَاهُ مُضْمَكًا﴾ قَدْ خَالَطَهُ النَّيْسُ ﴿ثُمَّ

(١) أحمد: ١٥٥/١ (٢) تحفة الأحوذى: ٢٣١/٧ (٣)
أحمد: ٣٤٠/٥ (٤) فتح الباري: ٤٢٤/١١ ومسلم: ٤/
٢١٧٧ (٥) أحمد: ٣٣٩/٢ (٦) تحفة الأحوذى: ٢٧٢/٧
(٧) الدر المنثور: ٢١٩/٧

يَجْعَلُهُ حُطْمًا ﴿١٤﴾ أَي: ثُمَّ يَعُودُ يَابِسًا يَنْحَطِّمُ ﴿١٥﴾ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾ أَي: الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ بِهَذَا فَيَعْتَبِرُونَ إِلَى أَنَّ الدُّنْيَا هَكَذَا تَكُونُ خَضِرَةً نَضِرَةً حَسَنَاءَ، ثُمَّ تَعُودُ عَجُوزًا شَوْهَاءَ، وَالشَّابُّ يَعُودُ شَيْخًا هَرِمًا كَبِيرًا ضَعِيفًا، وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلُّهُ الْمَوْتُ، فَالسَّعِيدُ مَنْ كَانَ حَالَهُ بَعْدَهُ إِلَى خَيْرٍ، وَكَثِيرًا مَا يَضْرِبُ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمَا يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ، وَيُنْبِتُ بِهِ زُرْعًا وَنَمَارًا، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ حُطَامًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِحَيَوَاتِهِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَيْبًا تَدْرُهُ الرَّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

[لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْحَقِّ وَأَهْلُ الضَّلَالِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ سَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أَي: هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ هُوَ قَاسِي الْقَلْبِ بَعِيدٌ مِنَ الْحَقِّ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ مِنَ الْبَنَاتِ وَأَخِيضَتُهُنَّ وَجَعَلْنَا لَهُنَّ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَا كُنَّ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَي: فَلَا تَلِينُ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَلَا تَخَشَعُ وَلَا تَعْبِي وَلَا تَقْهَمُ ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [٢٣]

[وَصَفُفِ الْقُرْآنِ]

هَذَا مَدْحٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الْمُنَزَّلِ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ مَثَانِي ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: الْآيَةُ تُشْبِهُ الْآيَةَ وَالْحَرْفُ يُشْبِهُ الْحَرْفَ ^(٢). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَثَانِي: تَرْبِيدُ الْقَوْلِ لِيَفْهَمُوا عَنْ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَقَالَ عِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ: نَتَى اللَّهُ فِيهِ الْقَضَاءَ. زَادَ الْحَسَنُ: تَكُونُ السُّورَةُ فِيهَا آيَةٌ، وَفِي السُّورَةِ الْأُخْرَى آيَةٌ تُشْبِهُهَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَثَانِي﴾ قَالَ: الْقُرْآنُ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُرَدُّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ^(٣). وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: وَيُرْوَى عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ أَنَّ سِيَاقَاتِ الْقُرْآنِ تَارَةً تَكُونُ فِي مَعْنَى

وَاجِدٍ، فَهَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَتَارَةً تَكُونُ يَذْكُرُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ، كَذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ الْكَافِرِينَ، وَكَصِفَةِ الْجَنَّةِ ثُمَّ صِفَةِ النَّارِ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا، فَهَذَا مِنَ الْمَثَانِي كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفطار: ١٣، ١٤] وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: ٧-١٨] هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَابٍ ﴿٧﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرَّ مَنَابٍ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٤٩-٥٥] وَنَحْوُ هَذَا مِنَ السِّيَاقَاتِ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْمَثَانِي، أَي: فِي مَعْنِيَيْنِ اثْنَيْنِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ السِّيَاقُ كُلُّهُ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَهُوَ الْمُتَشَابِهُ. وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ آتَيْتَ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكَيْلِ وَأَنْتُمْ مُسْتَهْجَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] ذَلِكَ مَعْنَى آخَرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَي: هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ، عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْحَبَّارِ، الْمَهَيِّبِينَ الْعَزِيزِ الْعَقَّارِ، لِمَا يَفْهَمُونَ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ: تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْحَشْيَةِ وَالْخَوْفِ ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤْمَلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلَطْفِهِ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْفُجَّارِ مِنْ وَجْهِ (أَحَدُهَا): أَنَّ سَمَاعَ هَؤُلَاءِ هُوَ تِلَاوَةُ الْآيَاتِ، وَسَمَاعَ أُولَئِكَ نَعْمَاتُ الْآيَاتِ مِنْ أَصْوَاتِ الْقِيَمَاتِ (الثَّانِي): أَنَّهُمْ إِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُوا سَجْدًا وَبُكِيًا، بِأَدَبٍ وَخَشْيَةٍ وَرَجَاءٍ وَمَحَبَّةٍ وَفَهْمٍ وَعِلْمٍ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ رَأَوْنَهَا بِإِيمَانٍ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أَي: لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ سَمَاعِهَا مُتَسَاعِلِينَ لَاهِينَ عَنْهَا، بَلْ مُضْغِينَ إِلَيْهَا، فَاهْمِينَ بِصِيرِنَ بِمَعَانِيهَا، فَلِهَذَا إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِهَا، وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهَا عَنْ بَصِيرَةٍ لَا عَنْ جَهْلِ وَمَتَابَعَةِ لِغَيْرِهِمْ.

(١) الطبري: ٢٧٩/٢١ (٢) الطبري: ٢٧٩/٢١ (٣) الطبري:

لَهُمْ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، أَعْظَمُ مِمَّا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا عَرَبِيٌّ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٥﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٢٨﴾

[مَثَلُ الشَّرِكِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِيهِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ فَإِنَّ الْمَثَلَ يُقَرَّبُ الْمَعْنَى إِلَى الْأَذْهَانِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: تَعَلَّمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا عَرَبِيٌّ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: هُوَ قُرْآنٌ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، لَا اغْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْجِرَافَ وَلَا لُبْسَ، بَلْ هُوَ بَيِّنٌ وَوَضُوحٌ وَبُرْهَانٌ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَلِكَ، وَأَنْزَلَهُ بِذَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٥﴾ أي: يَحْذَرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: يَتَنَازَعُونَ فِي ذَلِكَ الْعَبْدِ الْمُشْرِكِ بَيْنَهُمْ ﴿٢٦﴾ وَرَجُلًا سَلَمًا ﴿٢٧﴾ أي: سَالِمًا ﴿لِرَجُلٍ﴾ أي: خَالِصًا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: لَا يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا. كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُشْرِكُ الَّذِي يَعْبُدُ إِلَهَةً مَعَ اللَّهِ، وَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَأَيُّ هَذَا مِنْ هَذَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هَذِهِ الْآيَةُ ضَرَبَتْ مَثَلًا لِلْمُشْرِكِ وَالْمُخْلِصِ ^(١). وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ ظَاهِرًا بَيِّنًا جَلِيًّا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فَلِهَذَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ.

[مَوْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقُرَيْشٍ وَاخْتِصَامُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَشْهَدَ بِهَا الصُّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(الثَّالِثُ): أَنَّهُمْ يَلْزُمُونَ الْأَدَبَ عِنْدَ سَمَاعِهَا، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تِلَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَشْعُرُ جُلُودَهُمْ، ثُمَّ تَلِينَ مَعَ قُلُوبِهِمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ. وَلَمْ يَكُونُوا يَتَصَارَحُونَ وَلَا يَتَكَلَّفُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، بَلْ عِنْدَهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ وَالشُّكُونِ وَالْأَدَبِ وَالْخَشْيَةِ مَا لَا يَلْحَقُهُمْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا فَازُوا بِالْمَدْحِ مِنَ الرَّبِّ الْأَعْلَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ قَالَ: تَلَا فَتَادَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿تَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قَالَ: هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، نَعْتُهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ تَشْعُرَ جُلُودُهُمْ وَتَبْكِي أَعْيُنُهُمْ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وَلَمْ يَنْعَتُهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ وَالْعَشْيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدْعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ عِبَادِهِ أَيْ هَذِهِ صِفَةٌ مِنْ هَدَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ ﴿وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

[مَالُ الْمَكْذِبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَيُقَرَّعُ فَيُقَالُ لَهُ وَلَا مِثْلَهُ مِنَ الظَّالِمِينَ: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كَمَنْ يَأْتِي آيِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ مِثْلًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَتَّبِعِ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَبِيرًا مِمَّنْ يَأْتِي آيِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَاسْتَمْتَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الْآخَرِ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَعْنِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْذِبَةَ لِلرُّسُلِ، أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ، وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بِمَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَتَشْفِي الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَالَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ

عِنْدَ مَوْتِ الرُّسُولِ ﷺ حَتَّى تَحَقَّقَ النَّاسُ مَوْتَهُ، مَعَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: أَنْكُمْ سَتَنْقَلِبُونَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ لَا مَحَالَةَ، وَسَتَجْتَمِعُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَخْتَصِمُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشَّرْكِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، وَيَفْتَحُ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ، فَيُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُؤَحَّدِينَ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِلِينَ الْمُشْرِكِينَ الْمُكذِّبِينَ. ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ - وَإِنْ كَانَ سَبَاقُهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَذِكْرُ الْخُصُومَةِ بَيْنَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ - فَإِنَّهَا شَامِلَةٌ لِكُلِّ الْمُتَنَازِعِينَ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ تَعَادُ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَجَمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَكْرَهُ عَلَيْنَا الْخُصُومَةَ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الْأَمْرَ إِذَا لَسَدِيدٌ. ^(١) وَكَمَا رَوَى أَحْمَدُ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَيْضًا - قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ مِثٌّ وَإِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ ^(٢) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ! أَتَكْرَهُ عَلَيْنَا مَا كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا مَعَ خَوَاصِّ الذُّنُوبِ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ» لِيَكْرَهَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى يُوَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لَسَدِيدٌ ^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يَقُولُ: بِخَاصِّ الصَّادِقِ الْكَاذِبِ، وَالْمُظْلُومِ الظَّالِمِ، وَالْمُهْتَدِي الضَّالِّ، وَالضَّعِيفِ الْمُسْتَكْبِرِ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَنْدَهٍ فِي كِتَابِ الرُّوحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: يَخْتَصِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تَخْتَصِمَ الرُّوحُ مَعَ الْجَسَدِ، فَتَقُولُ الرُّوحُ لِلْجَسَدِ: أَنْتَ فَعَلْتَ وَيَقُولُ الْجَسَدُ لِلرُّوحِ: أَنْتِ أَمَرْتِ وَأَنْتِ سَوَّلْتِ، فَيَنْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا فَيَقُولُ لَهُمَا: إِنَّ مِثْلَكُمَا كَمَثَلِ رَجُلٍ مُعَدِّ بَصِيرٍ وَالْآخَرُ ضَرِيرٌ، دَخَلَا بُسْتَانًا فَقَالَ الْمُعَدُّ لِلضَّرِيرِ: إِنِّي أَرَى هَهُنَا بُسْتَانًا، وَلَكِنْ لَا أَصِلُ إِلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ الضَّرِيرُ: إِرْكَبْنِي فَتَنَاوَلَهَا. فَرَكِبَهُ

عِنْدَ مَوْتِ الرُّسُولِ ﷺ حَتَّى تَحَقَّقَ النَّاسُ مَوْتَهُ، مَعَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: أَنْكُمْ سَتَنْقَلِبُونَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ لَا مَحَالَةَ، وَسَتَجْتَمِعُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَخْتَصِمُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشَّرْكِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، وَيَفْتَحُ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ، فَيُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُؤَحَّدِينَ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِلِينَ الْمُشْرِكِينَ الْمُكذِّبِينَ. ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ - وَإِنْ كَانَ سَبَاقُهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَذِكْرُ الْخُصُومَةِ بَيْنَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ - فَإِنَّهَا شَامِلَةٌ لِكُلِّ الْمُتَنَازِعِينَ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ تَعَادُ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَجَمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَكْرَهُ عَلَيْنَا الْخُصُومَةَ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الْأَمْرَ إِذَا لَسَدِيدٌ. ^(١) وَكَمَا رَوَى أَحْمَدُ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَيْضًا - قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ مِثٌّ وَإِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ ^(٢) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ! أَتَكْرَهُ عَلَيْنَا مَا كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا مَعَ خَوَاصِّ الذُّنُوبِ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ» لِيَكْرَهَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى يُوَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لَسَدِيدٌ ^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يَقُولُ: بِخَاصِّ الصَّادِقِ الْكَاذِبِ، وَالْمُظْلُومِ الظَّالِمِ، وَالْمُهْتَدِي الضَّالِّ، وَالضَّعِيفِ الْمُسْتَكْبِرِ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَنْدَهٍ فِي كِتَابِ الرُّوحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: يَخْتَصِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تَخْتَصِمَ الرُّوحُ مَعَ الْجَسَدِ، فَتَقُولُ الرُّوحُ لِلْجَسَدِ: أَنْتَ فَعَلْتَ وَيَقُولُ الْجَسَدُ لِلرُّوحِ: أَنْتِ أَمَرْتِ وَأَنْتِ سَوَّلْتِ، فَيَنْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا فَيَقُولُ لَهُمَا: إِنَّ مِثْلَكُمَا كَمَثَلِ رَجُلٍ مُعَدِّ بَصِيرٍ وَالْآخَرُ ضَرِيرٌ، دَخَلَا بُسْتَانًا فَقَالَ الْمُعَدُّ لِلضَّرِيرِ: إِنِّي أَرَى هَهُنَا بُسْتَانًا، وَلَكِنْ لَا أَصِلُ إِلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ الضَّرِيرُ: إِرْكَبْنِي فَتَنَاوَلَهَا. فَرَكِبَهُ

فَتَنَاوَلَهَا، فَأَيُّهُمَا الْمُعْتَدِي؟ فَيَقُولَانِ: كِلَاهُمَا، فَيَقُولُ لَهُمَا الْمَلِكُ: فَإِنَّكُمَا قَدْ حَكَمْتُمَا عَلَى أَنْفُسِكُمَا. يَعْنِي أَنَّ الْجَسَدَ لِلرُّوحِ كَالْمَطِيَّةِ وَهُوَ رَاكِبُهُ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا نَعْلَمُ فِي أَيِّ شَيْءٍ نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ: قُلْنَا: مَنْ نُخَاصِمُ؟ لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ خُصُومَةٌ فَمَنْ نُخَاصِمُ؟ حَتَّى وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هَذَا الَّذِي وَعَدْنَا رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ نَخْتَصِمُ فِيهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ ^(٤).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٧﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ

(١) الدر المنثور: ٦١٤/٥ (٢) أحمد: ١٦٤/١ (٣) تحفة الأحوذى: ٢٨٩/٩ (٤) النسائي في الكبرى: ١١٤٤٧ إسناده ضعيف فيه جعفر بن أبي مغيرة ليس بالقوي عن سعيد بن جبيرة كما قال ابن مند

رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾
[جَزَاءُ الْكَافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ وَالصَّادِقِينَ الْمُصَدِّقِينَ]

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَمَّدًا طَبِيبًا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ وَجَعَلُوا مَعَهُ إِلَهَةً أُخْرَى، وَادَّعَوْا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَجَعَلُوا اللَّهَ وَلَدًا - تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ طَرَفِي الْبَاطِلِ، كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ رَسُولَ اللَّهِ - قَالُوا الْبَاطِلَ وَرَدُّوا الْحَقَّ - وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وَهُمْ الْجَاحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ. ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَابْنُ زَيْدٍ: الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ^(١). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: اتَّقُوا الشَّرْكَ^(٢) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحاف: ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِّكْرِ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ ﴿٣٧﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرُوبِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِ بِعَدَابٍ يُجْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَدَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿٤٠﴾

[اللَّهُ كَافٍ لِعَبْدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ:

(عِبَادَهُ) يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يَكْفِي مَنْ عَبْدَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِّكْرِ مِنْ دُونِهِ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ يُخَوِّفُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَيَتَوَعَّدُونَهُ بِأَضْمَانِهِمْ وَاللَّهْتَهُمُ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، جَهْلًا مِنْهُمْ وَضَلَالًا، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أَي: مَنِعِ الْجَنَابِ، لَا يُضَامُ مِنَ اسْتِنْدَادِ إِلَىٰ جَنَابِهِ وَلَجَأِ إِلَىٰ بَابِهِ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا أَعَزَّ مِنْهُ، وَلَا أَشَدَّ انْتِقَامًا مِنْهُ، مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَأَشْرَكَ وَعَادَدَ رَسُولَهُ ﷺ.

[اعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْكَوْنِ وَإِفْرَارُهُمْ بِعَجْزِ آلِهَتِهِمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْخَالِقُ لِأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَمِمَّا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرُوبِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨] أَي: لَا تَسْتَطِيعُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَهُنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «إِحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، إِحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنِ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ، جَمَعَتِ الصُّحُفُ وَرَفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَاعْمَلِ لِلَّهِ بِالشُّكْرِ فِي الْيَقِينِ. وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكُرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(٤). ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أَي: اللَّهُ كَافِيٌّ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كَمَا قَالَ هُوْدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ قَالَ [لَهُ] قَوْمُهُ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبْنَا بَعْضَ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون﴾ ﴿٤١﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ

(١) الطبري: ٢٨٩/٢١ والقرطبي: ٢٥٦/١٥ (٢) الطبري:

٢٩٠/٢١ (٣) الطبري: ٢٩٢/٢١ (٤) أحمد: ٣٠٧/١

عَاجِزًا يَنَاصِبُنَهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ [هود: ٥٤-٥٦].
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلَكُمْ عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ أَي: عَلَىٰ طَرِيقَتِكُمْ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ﴿إِنِّي عَسِيرٌ﴾ أَي: عَلَىٰ طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَي: سَتَعْلَمُونَ غَيْبَ ذَلِكَ وَوَبَالَه ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّؤِيبٌ ﴿أَي: دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، لَا مَجِيدَ عَنْهُ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَعَادَنَا اللَّهُ مِنْهَا.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾
 يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ بِعُنَى الْقُرْآنِ ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أَي: لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِتُنذِرَهُمْ بِهِ ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أَي: فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ إِلَىٰ نَفْسِهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا﴾ أَي: إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَي: بِمُوكَلِّ أَنْ يَهْتَدُوا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾. [الرعد: ٤٠]

[اللَّهُ الَّذِي يُمِيتُ وَيُحْيِي]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْوُجُودِ بِمَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ الْوَفَاةَ الْكُبْرَى - بِمَا يُرْسِلُ مِنَ الْحَفَظَةِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَهَا مِنَ الْأَبْدَانِ - وَالْوَفَاةَ الصُّغْرَىٰ عِنْدَ الْمَنَامِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿[الأنعام: ٦٠، ٦١] فَذَكَرَ الْوَفَاتَيْنِ: الصُّغْرَىٰ ثُمَّ الْكُبْرَى، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرَ الْكُبْرَى ثُمَّ الصُّغْرَى، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا تَجْتَمِعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَنذُومٍ وَغَيْرُهُ. وَفِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآيِمًا لِّمَنْ لَمْ يَأْتِ شَيْعًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فِئْدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَلَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاحِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِإِسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»^(١). ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ الَّتِي قَدْ مَاتَتْ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى. قَالَ الشُّدِّيُّ: إِلَىٰ بَقِيَّةِ أَجْلِهَا^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يُمْسِكُ أَنْفُسَ الْأَمْوَاتِ وَيُرْسِلُ أَنْفُسَ الْأَحْيَاءِ، وَلَا يَغْلُظُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآيِمًا لِّمَنْ لَمْ يَأْتِ شَيْعًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ

(١) فتح الباري: ١١/١٣٠ ومسلم: ٤/٢٠٨٤ (٢) الطبري: ٢٩٨/٢١

مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴿٤٦﴾

[لَا شَفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَأَشْمِزَازُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ ذِكْرِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ]

يَقُولُ تَعَالَى دَامًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ شَفَعَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهُمْ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ حَدَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، بَلْ وَلَيْسَ لَهَا عَقْلٌ تَعْقِلُ بِهِ، وَلَا سَمْعٌ تَسْمَعُ بِهِ، وَلَا بَصَرٌ تُبْصِرُ بِهِ، بَلْ هِيَ جَمَادَاتٌ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَيَوَانِ بِكَثِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَيُّ يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟﴾ أَيْ يَأْمُرُكُمْ بِمَا تَفْعَلُونَ مِنْ الشَّفَاعَةِ لَا تَفْعَلُونَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَاهُ وَأَذِنَ لَهُ، فَمَرْجِعُهَا كُلُّهَا إِلَيْهِ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. [البقرة: ٢٥٥] ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَحُكْمُ بَيْنِكُمْ بَعْدَهِ وَيَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى دَامًا لِلْمُشْرِكِينَ أَيْضًا: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أَيْ إِذَا قِيلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ﴿أَشْمَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَشْمَزَتْ﴾ انْقَبَضَتْ ^(١) كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] أَيْ: عَنِ الْمَتَابَعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهَا، فَقُلُوبُهُمْ لَا تَقْبَلُ الْخَيْرَ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْخَيْرَ يَقْبَلِ الشَّرَّ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَبَارَكَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ - قَالَهُ مُجَاهِدٌ - ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ أَيْ: يَفْرَحُونَ وَتُسْرُونَ.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَلَوْ أَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمَثَلَهُ مَعَهُ لَأَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِمْ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٩﴾

[تَفْوِيضُ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ مَا ذَكَرَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا ذَكَرَ، مِنَ الْمَدْمَةِ لَهُمْ فِي حُبِّهِمُ الشَّرْكَ، وَتَفَرُّتِهِمْ عَنِ التَّوْحِيدِ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيْ: ادْعُ أَنْتَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَفَطَّرَهَا، أَيْ: جَعَلَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦٤

سُورَةُ الزَّمْرِ

وَيَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالُوا إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ فَذَالِهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّصِبْهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾

سَبَقَ ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيْ: السَّرَّ وَالْعَلَانِيَةَ ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَيْ: فِي دُنْيَاهُمْ: سَتَقْبَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَتُسَوِّرُهُمْ وَيَقَامُهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ. رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْتَحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ! فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ! عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ! أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، إِهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ^(٢).

[لَا تَقْبَلُ فِدْيَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَهُمْ

(١) الطبري: ٣٠١/٢١ (٢) مسلم: ٥٣٤/٢

الْمُشْرِكُونَ ﴿٥٧﴾ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ ﴿٥٨﴾ أَيْ: وَلَوْ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ وَضَعْفَهُ مَعَهُ ﴿لَأَفْتَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أَيْ: الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَ هَذَا لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ الْفِدَاءُ، وَلَوْ كَانَ مِثْلَ الْأَرْضِ ذَهَبًا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أَيْ: وَظَهَرَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِهِمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي بَالِهِمْ وَلَا فِي حِسَابِهِمْ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أَيْ: وَظَهَرَ لَهُمْ جَزَاءُ مَا كَسَبُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتَمِ ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيْ: وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَحْمًا إِذَا حَوْلَتْهُ نِعْمَةٌ مِمَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِن لَّا أَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٩﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

[تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ الضَّرِّ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ فِي حَالِ الضَّرِّاءِ يَبْضَعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنِيبُ إِلَيْهِ وَيَدْعُوهُ، وَإِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ بَعَى وَطَغَى وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أَيْ: لِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ اسْتِحْقَاقِي لَهُ، وَلَوْ لَّا أَنِّي عِنْدَ اللَّهِ خِصِيصٌ لَمَا حَوَّلَنِي هَذَا. قَالَ فَتَادَةُ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عِنْدِي: عَلَىٰ خَيْرٍ عِنْدِي^(١). قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ، بَلْ إِنَّمَا أُنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِهِ لِهُدَى النَّعْمَةِ لِتَخْتِيبِهِ فِيمَا أُنْعَمْنَا عَلَيْهِ، أَيُّطِيعُ أَمْ يَعْصِي؟ مَعَ عِلْمِنَا الْمَتَّقِدْمَ بِذَلِكَ، فَهِيَ فِتْنَةٌ، أَيْ: اخْتِبَارٌ ﴿وَلَكِن لَّا أَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُونَ وَيَدْعُونَ مَا يَدْعُونَ ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: قَدْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ وَزَعَمَ هَذَا الزَّعَمَ وَادَّعَىٰ هَذِهِ الدَّعْوَى، كَثِيرٌ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْأُمَّمِ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ: فَمَا صَحَّ قَوْلُهُمْ وَلَا مَنَعَهُمْ جَمْعُهُمْ وَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أَيْ: مِنَ الْمُخَاطَبِينَ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أَيْ: كَمَا أَصَابَ أَوْلِيكَ ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا

(١) الطبري: ٣٠١/٢١

أَوْ يَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ يَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءٍ آيَتِي فَكَذَّبَتْ بِهَا وَأَسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَٰيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرِي أَعْبَادِيهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوٰتُ مَطْوِيٰتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿لَا تَفْعَلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفٰرِحِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتٰتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوْلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمُتْرَمِينَ ﴿٦٨﴾ [الفصص: ٧٦-٧٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْذِبِينَ﴾ [سبا: ٣٥] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ: يُوسِعُهُ عَلَى قَوْمٍ وَيُضَيِّقُهُ عَلَى آخَرِينَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: لِعِبْرًا وَحُجَجًا.

﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ آسَرُوا عَنْ أَنفُسِهِمْ لَّا تَقْطُلُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٩﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ

لَا تُصْرُوكَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَيَّ مَا فَرَقْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ اسْتَحْرَيْتَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ عَائِنِي فَكَلِّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

[الدعوة إلى التوبة قبل أن يأتي العذاب]

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يعجز الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يعجز لمن لم يتب منه. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فآكثروا، وزنوا فآكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿والذين لا يدعون مع الله الهاة آخرة ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ [الفرقان: ٦٨] ونزل: ﴿قل يعبادي الذين أشرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي^(١). والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إلا من تاب وعمل عملاً صالحاً﴾... الآية [الفرقان: ٧٠].

وقال الإمام أحمد عن عمرو بن عسة قال: «جاء رجل إلى النبي - ﷺ -، شخ كبير يدعهم على عصاه، فقال: يا رسول الله! إن لي عذرات وفجرات، فهل يعجز لي؟ فقال: «ألسنت تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك عذراتك وفجراتك»^(٢). فترد به أحمد.

وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ وسمعتة ﷺ يقول: ﴿قل يا عبادي الذين أشرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يعجز الذنوب جميعاً ولا يبالي، إنه هو العفور الرحيم﴾^(٣). ورواه أبو داود والترمذي^(٤). فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يعجز جميع ذلك مع التوبة. ولا يقنطن عبد من رحمة الله

وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال الله تعالى: ﴿الذين يعلمون أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ [التوبة: ١٠٤] وقال عز وجل: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله عفوراً رحماً﴾ [النساء: ١١٠] وقال جل وعلا في حق المنافقين: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن نجد لهم نصيراً﴾ [١٥] إلا الذين تابوا وأصلحوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦] وقال جل جلاله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا الله وحده وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسز الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ثم قال جل جلالته: ﴿أفلا يتوبون إلى الله يستغفروا والله عفور رحيم﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿إن الذين قتلوا المؤمنين والمؤمنات ثم لا يتوبوا﴾ [البروج: ١٠] قال الحسن البصري رحمه الله عليه: أنظروا إلى هذا الكرم والجود فتلوا أوليائه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. والآيات في هذا كثيرة جداً. وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم ندِمَ وسأل عبداً من عباد بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة، ثم سأل عالماً من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير، فقبضته ملائكة الرحمة، وذكر: أنه نأى بضربه عند الموت، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الحيرة أن تقرب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد^(٥). هذا معنى الحديث وقد كتبتاه في موضع آخر بلفظه.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿قل يعبادي الذين أشرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يعجز الذنوب جميعاً﴾... إلى

(١) فتح الباري: ٤١١/٨ ومسلم: ١١٣/١ وأبو داود: ٤/١٦٦ والنسائي في الكبرى: ٤٤٦ (٢) أحمد: ٤/٣٨٥ وهو صحيح بشواهده (٣) أحمد: ٤٥٤/٦ (٤) أبو داود: ٤/٢٨٥ وتحفة الأحاديث: ١١١/٩ (٥) فتح الباري: ٥٩١/٦

آخِرِ الْآيَةِ، قَالَ: قَدْ دَعَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَغْفِرَتِهِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللَّهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ عَزْرِيَّا ابْنُ اللَّهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فَفِيرٌ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مَعْلُوقَةٌ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُوْلَاءِ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثُمَّ دَعَا إِلَى التَّوْبَةِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ قَوْلًا مِنْ هُوْلَاءِ، مَنْ قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَقُ﴾ [النازعات: ٢٤] وَقَالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: مَنْ آسَى عِبَادَ اللَّهِ مِنَ التَّوْبَةِ بَعْدَ هَذَا فَقَدْ جَحَدَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ أَنْ يَتُوبَ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ (١).

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ شُتَيْرِ بْنِ شَكْلٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَإِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وَإِنَّ أَكْثَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَرْجًا فِي سُورَةِ الزَّمْرِ ﴿قُلْ يَعْجَبُونَ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وَإِنَّ أَشَدَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَفْوِيضًا ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١٧﴾ وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فَقَالَ لَهُ مَسْرُوقٌ: صَدَقْتَ (٢).

[ذَكَرُ أَحَادِيثَ فِيهَا نَفْيَ الْقُنُوطِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَمَلَّأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمْ اللَّهَ تَعَالَى لَعَفَرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِيَدِهِ! لَوْ لَمْ تُحْطِثُوا لَجَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» (٣). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُيُوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ جِئْتُ حَضْرَتَهُ الْوَفَاءَةَ: قَدْ كُنْتُ كَتَمْتُ مِنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذَيَّبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْمًا يُذَيَّبُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ» هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ (٤).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: إِنَّ إِبْلِيسَ - عَلَيْهِ لَعَائِنُ اللَّهِ - قَالَ: يَا رَبِّ! إِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ أَجْلِ آدَمَ، وَإِنِّي لَا أَسْتَطِيعُهُ إِلَّا

سِئْلَانِكَ. قَالَ: فَأَنْتَ مُسَلِّطٌ، قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: لَا يُولَدُ لَهُ وَلَدٌ إِلَّا وَوَلَدٌ لَكَ مِثْلُهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: أَجْعَلُ صُدُورَهُمْ مَسَاكِينَ لَكُمْ، وَتَجْرُونَ مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِ. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: ﴿وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ جَنَابَكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٥). فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ! قَدْ سَلَطْتَهُ عَلَيَّ، وَإِنِّي لَا أَمْتِنُ إِلَّا بِكَ. قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لَا يُولَدُ لَكَ وَلَدٌ إِلَّا وَوَلَدٌ لَكَ وَوَلَدٌ لَكَ مِثْلُهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: الْحَسَنَةُ عَشْرٌ أَوْ أَرْبَعٌ، وَالسَّيِّئَةُ وَاحِدَةٌ أَوْ أَمْحُوهَا. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مَا كَانَ الرُّوحُ فِي الْجَسَدِ. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: ﴿يَعْجَبُونَ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٦).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَدِيثِهِ قَالَ: وَكُنَّا نَقُولُ: مَا اللَّهُ بِقَابِلٍ مِمَّنْ أَفْتِنَ صَرَفًا وَلَا عَدْلًا وَلَا تَوْبَةً، عَرَفُوا اللَّهَ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ لِبَلَاءٍ أَصَابَهُمْ. قَالَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِأَنفُسِهِمْ. قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْمَدِينَةَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ وَفِي قَوْلِنَا وَقَوْلِهِمْ لِأَنفُسِهِمْ: ﴿قُلْ يَعْجَبُونَ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٧) وَيَأْتِيَا بِكُمْ رَيْبِكُمْ وَأَسْلِمُوا لَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَاكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُشْعِرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَتَيْمُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَيْبِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَاكُمْ الْعَذَابُ بَعَثَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ قَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : فَكَبَّهْتُ بِيَدِي فِي صَحِيفَةٍ، بَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامِ بْنِ الْعَاصِ قَالَ: فَقَالَ هِشَامُ: لَمَّا أَتَيْتَنِي جَعَلْتُ أَقْرُوهَا بِدِي طُوى أضعُدُ بِهَا فِيهِ وَأَصَوْتُ وَلَا أَفْهَمُهَا، حَتَّى قُلْتُ: اللَّهُمَّ أَفْهَمْنِيهَا. قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِي أَنَّهَا إِنَّمَا أَنْزَلْتُ فِيْنَا، وَفِيمَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنفُسِنَا، وَيُقَالُ فِيْنَا. قَالَ: فَارْجَعْتُ إِلَى بَعِيرِي فَجَلَسْتُ عَلَيْهِ، فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِالْمَدِينَةِ (٧).

(١) أخرجه ابن جرير وابن المنذر، الدر المنثور: ٦٢١/٥ (٢) الطبراني: ١٤٢/٩ (٣) أحمد: ٢٣٨/٣ إسناده ضعيف فيه أحسن السدوسي هو مجهول ذكره البخاري وابن أبي حاتم ولم يذكر في جرح ولا تعديلاً (٤) أحمد: ٤١٤/٥ ومسلم: ٤/٢١٠٥ وتحفة الأحوذى: ٢٢٣/٩ (٥) الطبري: ٣١٦/٢١ هذا مرسل (٦) ابن أبي حاتم ١٨٤٠٤ مقطوع صحيح (٧) السيرة لابن هشام ٤٧٢/٢ سند صحيح

ثُمَّ اسْتَحْتَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ فَقَالَ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾... الآية، أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول العقوبة ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِعَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، وَيُودُّ لَوْ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساجر مستهزئ غير موافق لمصدق ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: تودُّ لَوْ أُعِيدَتْ إِلَى الدُّنْيَا لِتُحْسِنَ الْعَمَلَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا الْعِبَادُ قَائِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَقُولُوا، وَعَمَلُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهُ، وَقَالَ تَعَالَى: - ﴿وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ - [فاطر: ١٤]: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي! فَتَكُونُ عَلَيْهِ حَسْرَةً» قَالَ: «وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي؛ قَالَ: فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا» (٢). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٣). وَلَمَّا تَمَّتْ أَهْلُ الْجَزَائِمِ الْعُودَ إِلَى الدُّنْيَا وَتَحَسَّرُوا عَلَى تَصَدِيقِ آيَاتِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَ نَكَأً بِآيَاتِي فَاكْذَبْتُمْ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ أي: قد جاءتك آياتي فكذبت بها والتأدب - على ما كان منه - آياتي في الدار الدنيا، وقامت حجج عليك، فكذبت بها واشتكرت عن اتباعها، وَكُنْتُ مِنَ الْكٰفِرِينَ بِهَا الْجٰحِدِينَ لَهَا.

﴿وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ

الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (١١) وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارِبِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ السُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١) [عاقبة الكاذبين على الله وعاقبة المتقين]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ تَسَوَّدَ فِيهِ وُجُوهُ وَبَيَّضُ فِيهِ وُجُوهُ، تَسَوَّدَ وَجُوهُ أَهْلِ الْفِرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ، وَبَيَّضُ وَجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكاً وكذلك ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: يكذبهم وأفترائهم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أَلَيْسَتْ جَهَنَّمَ كَافِيَةً لَهُمْ سِجْنًا وَمَوْئِلًا، لَهُمْ فِيهَا الْخِزْيُ وَالْهَوَانُ بِسَبَبِ تَكْبُرِهِمْ وَتَجَبُّرِهِمْ وَإِبَانِهِمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِلْحَقِّ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارِبِهِمْ﴾ أي: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَمْسُهُمُ السُّوْءُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: وَلَا يَحْزَنُهُمُ الْفِرْعُ الْأَكْبَرُ، بَلْ هُمْ آمِنُونَ مِنْ كُلِّ فِرْعٍ، مُرْخِضُونَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ، نَائِلُونَ كُلَّ خَيْرٍ.

﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ (١٢) قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَامُرًا مَوْزًا أَعَدَّ إِنَّا الْجٰهِلُونَ﴾ (١٣) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِیَحْطَرَ عَلَيْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ (١٤) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ

السَّٰكِرِينَ﴾ (١٥)

[الله هو الخالق المتصرف، والإشراك به يَحِطُّ

العمل]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَرَبُّهَا وَمَلِيكُهَا وَالْمُتَّصِرُ فِيهَا، وَكُلُّ تَحْتِ تَدْبِيرِهِ وَفَهْرِهِ وَكَلَامَتِهِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَقَالِيدُ هِيَ الْمَفَاتِيحُ بِالْفَارِسِيَّةِ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ (٤). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خزائن السموات والأرض (٥). وَالْمَعْنَى عَلَى كِلَا الْقَوْلَيْنِ أَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: حُجِّجِهِ

(١) الطبري: ٣١٦/٢١ (٢) أحمد: ٥١٢/٢ (٣) النسائي في الكبرى: ٤٤٧/٦ (٤) الدرر المنتور: ٢٤٣/٧ والطبري: ٢١/٢١

٣٢١ (٥) الطبري: ٣٢١/٢١

سُورَةُ الزُّمَرِ

٤٦٦

سُورَةُ الزُّمَرِ

وَبَرَاهِينِهِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَامُرَوْفِيَّ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ذَكَرُوا فِي سَبَبِ نَزُولِهَا مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَوَعَدُوا مَعَهُ إِلَهُهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَامُرَوْفِيَّ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿١﴾. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاغْبَثْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَي: أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَخُذْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَنْتَ وَمَنْ اتَّبَعَكَ وَصَدَقَكَ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَعَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٧﴾

[مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أَي: مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَا عَظُمَ حَقُّ تَعَظِيمِهِ ﴿٢﴾. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَوْ قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَا كَذَّبُوا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. فَمَنْ آمَنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَقَدْ قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَقْدِرِ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٣﴾.

وَبَرَاهِينِهِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَامُرَوْفِيَّ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ذَكَرُوا فِي سَبَبِ نَزُولِهَا مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَوَعَدُوا مَعَهُ إِلَهُهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَامُرَوْفِيَّ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿١﴾. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاغْبَثْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَي: أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَخُذْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَنْتَ وَمَنْ اتَّبَعَكَ وَصَدَقَكَ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَعَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٧﴾

[مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أَي: مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَا عَظُمَ حَقُّ تَعَظِيمِهِ ﴿٢﴾. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَوْ قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَا كَذَّبُوا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. فَمَنْ آمَنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَقَدْ قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَقْدِرِ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٣﴾.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَالطَّرِيقُ فِيهَا وَفِي أَمْثَالِهَا: مَذْهَبُ السَّلَفِ وَهُوَ: إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ. رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى أَصْبُعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى أَصْبُعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى أَصْبُعٍ، وَالْمَاءَ وَالتُّرَى عَلَى أَصْبُعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أَصْبُعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَجَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قرَأَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾... (الآية: ٤). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ صَحِيحِهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا (٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنْ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟» (٦). تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ (٧). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضِينَ عَلَى أَصْبُعٍ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ:

(١) انظر الطبري: تفسير سورة الكافرون (٢) الطبري: ٢١

٣٢١ (٣) الطبري: ٣٢١/٢١ (٤) فتح الباري: ٨/١٢٤

(٥) فتح الباري: ١٣/٤٠٤ وأحمد: ١/٤٢٩ ومسلم: ٤/٢١٤٧

وتحفة الأحوذى ٩/١١٢، ١١٣ والنسائي في الكبرى ٦/٤٤٦

(٦) فتح الباري: ٨/٤١٣ (٧) مسلم: ٤/٢١٤٨

أَنَا الْمَلِكُ». تَفَرَّدَ بِهِ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّكَ تَقُولُ: السَّاعَةُ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا، قَالَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَحَدُنْكُمْ شَيْئًا، إِنَّمَا قُلْتُ: سَتَرُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا. ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُتُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ - لَا أُدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً - فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَأَنَّهُ عُرُوهُ بْنُ مَسْعُودٍ التَّقْفِيُّ، فَيُظَهِّرُ فِيهِلْكَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَلْبَسُ النَّاسُ بَعْدَهُ سِنِينَ سَبْعًا، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ إِلَّا قَبِضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْ عَلَيْهِ» قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِيفَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُكْبِرُونَ مُنْكَرًا، قَالَ: فَيَمْتَلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَيَعْبُدُونَهَا، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارَةٌ أَرْزَاقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَهُ، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُلُوطُ حَوْضَهُ فَيَصْعَقُ، ثُمَّ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا صَعِقَ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى - أَوْ يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ الظَّلُّ شَكَّ نَعْمَانَ - فَتَنْتَبِثُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يُنْظَرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: فَيُقَالُ: كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، فَيَوْمئِذٍ تُبْعَثُ الْوِلْدَانُ شِيبًا، وَيَوْمئِذٍ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ^(٤).

انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ^(٥). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ التَّفَخْتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَيْبَتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَيْبَتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَيْبَتُ، «وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

أَنَا الْمَلِكُ». تَفَرَّدَ بِهِ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمُنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَكَ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، يُحَرِّكُهَا يَقْبَلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: «يُمَجِّدُ الرَّبَّ نَفْسُهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ» فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمُنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا لِيَخْرُجَ بِهِ^(٢). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتَّنَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٣).

﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يُنْظَرُونَ﴾ وَأَشْرَقَتْ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالنَّبِيِّتِ وَالشَّهَدَاءِ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَوَقِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

[النَّفْخُ فِي الصُّورِ وَالْقَضَاءُ وَالْجَزَاءُ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالزَّلَازِلِ الْهَائِلَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هَذِهِ النَّفْخَةُ هِيَ الثَّانِيَةُ، وَهِيَ نَفْخَةُ الصُّعْقِ، وَهِيَ الَّتِي يَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، كَمَا جَاءَ مُصْرَحًا بِهِ مُفَسِّرًا فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ: ثُمَّ يُقْبَضُ أَرْوَاحُ الْبَاقِينَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ مَنْ يَمُوتُ مَلِكُ الْمَوْتِ، وَيَتَفَرَّدُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا، وَهُوَ الْبَاقِي آخِرًا بِالذَّمُومَةِ وَالْبَقَاءِ، وَيَقُولُ: ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يُجِيبُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ يَقُولُ: ﴿لِلَّهِ الْوَالِدِ الْقَهَّارِ﴾ أَنَا الَّذِي كُنْتُ وَحْدِي، وَقَدْ فَهَرْتُ كُلَّ شَيْءٍ، وَحَكَمْتُ بِالْقَنَاءِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ يُجِيبِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيبِي إِسْرَافِيلُ، وَيَأْمُرُهُ أَنْ يَنْفُخَ بِالصُّورِ مَرَّةً أُخْرَى، وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّلَاثَةُ نَفْخَةُ الْبُعْثِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نَفِخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يُنْظَرُونَ﴾ أَيُّ أَحْيَاءٍ بَعْدَمَا كَانُوا عَظَمًا وَرَفَاتًا، صَارُوا أَحْيَاءً يُنْظَرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرًا وَجْدَةً﴾ ﴿١٧﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِئْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا

(١) فتح الباري: ٤٠٤/١٣ (٢) أحمد: ٧٢/٢ (٣) النسائي في الكبرى: ٤٠٠/٤ وابن ماجه: ١٤٢٩/٢ (٤) أحمد: ٢/٢ (٥) مسلم: ٢٢٥٨/٤

إِلَّا عَجِبُ ذَنبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ»^(١).

وَالنَّوْبِخِ وَالتَّنْكِيلِ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أَي: مِنْ جَنسِكُمْ تَتَمَكَّنُونَ مِنْ مُحَاطَبَتِهِمْ وَالْأَخَذِ عَنْهُمْ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أَي: يُقِيمُونَ عَلَيْكُمْ الْحُجَجَ وَالتَّبْرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْكُمْ إِلَيْهِ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَي: وَيُحَدِّثُونَكُمْ مِنْ شَرِّ هَذَا الْيَوْمِ، فَيَقُولُ الْكُفَّارُ لَهُمْ: ﴿بَلَى﴾ أَي: قَدْ جَاءُونَا وَأَنْذَرُونَا وَأَقَامُوا عَلَيْنَا الْحُجَجَ وَالتَّبْرَاهِينَ ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَي: وَلَكِنْ كَذَبْنَاهُمْ وَخَالَفْنَاهُمْ لِمَا سَبَقَ لَنَا مِنَ الشُّقُورَةِ الَّتِي كُنَّا نَسْتَحِقُّهَا حَيْثُ عَدَلْنَا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ فِيهَا فَوْجًا سَالِمًا خَرَنَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَشَاءَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾^(٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أَي: رَجَعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ وَالتَّنَادِمَةِ ﴿فَاعْرِفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١] أَي: بُعِدَا لَهُمْ وَخَسَارًا.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَرَقَتِ الْأَرْضُ بُبُورَ رَبِّي﴾ أَي: أَضَاعَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا تَجَلَّى الْحَقُّ جَلًّا وَعَلَا لِلْخَلَائِقِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَرُوضِ الْكَلْبِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: كِتَابُ الْأَعْمَالِ^(٢). ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَّمِ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا رَسُولَاتِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ^(٣). ﴿وَالشَّهَدَاءِ﴾ أَي: الشَّهَدَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْحَفِظَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَوَضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَي: بِالْعَدْلِ ﴿وَهُمْ لَا يظَلُمُونَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أُنْسِيَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يظَلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعِفْهَا وَتُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أَي: مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي: كُلُّ مَنْ رَاهُمْ وَعَلِمَ حَالَهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعَذَابِ، وَلِهَذَا لَمْ يُسْنَدْ هَذَا الْقَوْلُ إِلَى قَائِلٍ مُعَيَّنٍ، بَلْ أُطْلِقَهُ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْكُفُونَ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مَا هُمْ فِيهِ بِمَا حَكَمَ الْعَدْلُ الْخَيْرُ عَلَيْهِمْ بِهِ. وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي: مَا كَيْفَ فِيهَا لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا، وَلَا زَوَالَ لَكُمْ عَنْهَا ﴿فِيَسَسَ مَوَى الْمُكْرَبِينَ﴾ أَي: فِيَسَسَ الْمَصِيرُ وَيَسَسَ الْمَقِيلُ لَكُمْ، بِسَبَبِ تَكْبَرِكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِبَانِكُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ فَهُوَ الَّذِي صَيَّرَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، فَيَسَسَ الْحَالُ وَيَسَسَ الْمَالُ.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ رُمًّا حَيْثُ إِذَا جَاءَهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١٠) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَيَسَسَ مَوَى الْمُكْرَبِينَ﴾^(١١)
[يُسَاقُ الْكُفَّارُ إِلَى جَهَنَّمَ]

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْحَنَّةِ رُمًّا حَيْثُ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(١٢) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَبِيًّا مِنْ الْحَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾^(١٣)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ كَيْفَ يُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّمَا يُسَاقُونَ سَوْقًا عَنيفًا، بِزَجْرٍ وَتَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: ١٣] أَي: يُدْفَعُونَ إِلَيْهَا دَفْعًا، [هَذَا] وَهُمْ عَطَاشٌ ظَمَاءٌ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾^(١٤) وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًّا [مريم: ٨٥، ٨٦] وَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ صُمَّ وَنُكْمٌ وَعُمُيٌّ، مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكًّا وَصُمًَّّا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حَيْثُ إِذَا جَاءَهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أَي: بِمَجْرَدِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا فَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا سَرِيعًا، لِتُعَجَّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ خَرَنَتْهَا مِنَ الزَّبَانِيَةِ الَّذِينَ هُمْ غِلَاطُ الْأَخْلَاقِ، شِدَادُ الْقُوَى، عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيعِ

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حَيْثُ إِذَا جَاءَهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أَي: بِمَجْرَدِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا فَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا سَرِيعًا، لِتُعَجَّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ خَرَنَتْهَا مِنَ الزَّبَانِيَةِ الَّذِينَ هُمْ غِلَاطُ الْأَخْلَاقِ، شِدَادُ الْقُوَى، عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيعِ

(١) فتح الباري: ٤١٤/٨ (٢) الطبري: ٣٣٥/٢١ (٣) الطبري: ٣٣٦/٢١

عَلَى النَّجَائِبِ وَفَذَا إِلَى الْجَنَّةِ ﴿زُمَرًا﴾ أَي: جَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ: الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ الْأَبْرَارُ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كُلُّ طَائِفَةٍ مَعَ مَنْ يُنَاسِبُهُمْ: الْأَنْبِيَاءُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالصَّادِقُونَ مَعَ أَشْكَالِهِمْ، وَالشَّهَدَاءُ مَعَ أَضْرَابِهِمْ، وَالْعُلَمَاءُ مَعَ أَقْرَانِهِمْ، وَكُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفٍ، كُلُّ زُمَرَةٍ تُنَاسِبُ بَعْضَهَا بَعْضًا ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهَا﴾ أَي: وَصَلُوا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ بَعْدَ مُجَاوَزَةِ الصِّرَاطِ، حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَاقْتَصَرَ لَهُمْ مَظَالِمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّوا وَتَقَوَّأْوا أَدْنَى لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا انْتَهَوْا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ تَشَاوَرُوا فِيمَنْ يَسْتَأْذِنُ لَهُمْ فِي الدُّخُولِ، فَيَقْصِدُونَ آدَمَ، ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْعَبِينَ، كَمَا فَعَلُوا فِي الْعَرَصَاتِ عِنْدَ اسْتِشْفَاعِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَأْتِي لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، لِيُظَهَّرَ شَرَفُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ رَضِيٍّ أَنَّ اللَّهَ عَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ»^(١) وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ»^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبِي بَابِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْضِحْ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ - قَالَ: - فَيَقُولُ: بِكَ أَمْرٌ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»^(٣).

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمَرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ، صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَعَوَّطُونَ فِيهَا، آيَتُهُمْ وَأَمْسَاطُهُمْ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مِثْقُ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، فُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ، يَسْجُحُونَ اللَّهُ تَعَالَى بِكُرَّةٍ وَعَشِيئًا»^(٥).

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٦). وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمَرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى صَوِّءِ أَشَدِّ كَوَكَبِ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يُولُونَ، وَلَا يَتَعَوَّطُونَ، وَلَا يَتَغَلَّبُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ،

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَفُتِحَتْ

أَبْوَابُهَا﴾ وَأَوُّ الثَّمَانِيَةِ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ

(١) مسلم: ١٨٨/١ (٢) مسلم: ١٨٨/١ (٣) أحمد: ٣/١٣٦

(٤) مسلم: ١٨٨/١ (٥) أحمد: ٣١٦/٢ (٦) فتح

الباري: ٣٦٧/٦ (٧) مسند أبي يعلى: ١٠/٤٧٠

(٨) فتح الباري: ٤١٧/٤ (٩) فتح الباري: ١١/٤١٣

(١٠) فتح الباري: ١١/٤١٤ (١١) فتح الباري: ١١/٤١٤

١٩٨/١

وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ فَاطِمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يَجِدُكَ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَدِ ﴿٤﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَحَدِّثُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾

تَمَائِيَّةً، فَقَدْ أَبْعَدَ الشُّجْعَةَ، وَأَغْرَقَ فِي النَّزْعِ، وَإِنَّمَا يُسْتَفَادُ كَوْنُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ:

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ ضُرُورَةٍ دُعِيَ مِنْ أَيِّهَا دُعِيَ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلُّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ بِنَحْوِهِ^(٢). وَفِيهِمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، بَابٌ مِنْهَا يُسَمَّى الرِّيَّانَ، لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ»^(٣). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيَبْلُغُ - أَوْ يَسْبِغُ - الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فَتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةَ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(٤).

[ذَكَرَ سَعَةَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ - نَسَأَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهَا]

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ: «فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا مُحَمَّدُ! أَدْخُلْ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي الْأَبْوَابِ الْأُخْرَى، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَضْرَعَيْنِ مِنْ مَضَارِعِ الْجَنَّةِ - مَا بَيْنَ عِضَادَتَيْ الْبَابِ - لَكُمْ بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ - أَوْ هَجَرَ وَمَكَّةَ - وَفِي رِوَايَةٍ - مَكَّةَ وَبُضْرَى»^(٥) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عَرْوَانَ أَنَّهُ خَطَبَهُمْ خُطْبَةً فَقَالَ فِيهَا: وَلَقَدْ ذَكَرْنَا أَنْ مَا بَيْنَ مِضْرَاعَيْنِ مِنْ مَضَارِعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَطِيطٍ مِنَ الرَّحَامِ^(٦). وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَقَالَ لَهُمْ خُزَنَةُ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ» أَي: طَابَتْ أَعْمَالُكُمْ وَأَقْوَالُكُمْ، وَطَابَ سَعْيُكُمْ وَطَابَ جَزَاؤُكُمْ، كَمَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُنَادَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»

(١) أحمد: ٢٦٨/٢ (٢) فتح الباري: ١٣٣/٤ ومسلم: ٧١١ (٣) فتح الباري: ٣٧٨/٦ ومسلم: ٨٠٨/٢ (٤) مسلم: ٢٠٩/١ (٥) فتح الباري: ٢٤٧/٨ ومسلم: ١٨٤/١ (٦) مسلم: ٢٢٧٨/٤ (٧) فتح الباري: ٣٨٥/١١

لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَفْسٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» [فاطر: ٣٤، ٣٥] وَقَوْلُهُ: «وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَنْبَأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَأُ» فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَالِمِينَ». قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: أَيُّ: أَرْضِ الْجَنَّةِ^(١). فَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ» [الأنبياء: ١٠٥] وَلِهَذَا قَالُوا: «نَنْبَأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَأُ» أَيُّ: أَيْنَ شِئْنَا حَلَلْنَا، فَنِعَمَ الْأَجْرُ أَجْرُنَا عَلَى عَمَلِنَا. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ الْمُعْرَاجِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِدُ اللَّوْلُؤِ، وَإِذَا تُرَاهِنَا الْمِسْكُ»^(٢).

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِئَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفِيضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنَّهُ نَزَلَ كُلًّا فِي الْمَحَلِّ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَيُصْلِحُ لَهُ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجُورُ، أَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ مُخَدِّقُونَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ الْمَجِيدِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيَمَجِّدُونَهُ وَيُعْظِمُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيُبْرِزُونَهُ عَنِ النَّفَائِصِ وَالْجُورِ، وَقَدْ فَضَّلَ الْقُضَيْبِيُّ، وَقَضَى الْأَمْرُ، وَحَكَّمَ بِالْعَدْلِ. وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «وَفِيضَى بَيْنَهُمْ» أَيُّ: بَيْنَ الْخَلَائِقِ بِالْحَقِّ. ثُمَّ قَالَ: «وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أَيُّ: نَطَقَ الْكُونُ أَجْمَعُ - نَاطِقُهُ وَبَهِيمُهُ - اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، بِالْحَمْدِ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا لَمْ يُسَيِّدِ الْقَوْلَ إِلَى قَائِلٍ، بَلْ أَطْلَقَهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ شَهِدَتْ لَهُ بِالْحَمْدِ. قَالَ قَتَادَةُ: اِنْتَفَحَ الْخَلْقُ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» [الأنعام: ١] وَاخْتَتَمَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَفِيضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٣).

تفسير سورة المؤمن وهي مكية

[فضل آل حم]

قَدْ كَرِهَ بَعْضُ السَّلَفِ مِنْهُمْ مُحَمَّدٌ بْنُ سِيرِينَ أَنْ يُقَالَ: الْحَوَامِيمُ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: آلُ حَمٍّ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آلُ حَمٍّ دِيْبَاجُ الْقُرْآنِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا وَلُبَابُ الْقُرْآنِ آلُ حَمٍّ

- أَوْ قَالَ: الْحَوَامِيمُ^(٤). وَقَالَ مِسْعَرُ بْنُ كِدَامٍ: كَانَ يُقَالُ لَهُنَّ: الْعَرَائِسُ^(٥). رَوَى ذَلِكَ كُتْلَةُ الْإِمَامِ الْعَالِمِ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمِ بْنُ سَلَامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ»^(٦). وَرَوَى حُمَيْدُ بْنُ زَنْجُوْبَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ انْطَلَقَ يَرْتَادُ لِأَهْلِهِ مَنْزِلًا، فَمَرَّ بِأَثَرِ غَيْبٍ، فَبَيَّنَمَا هُوَ يَسِيرُ فِيهِ وَتَوَجَّحَتْ مِنْهُ، إِذْ هَبَطَ عَلَى رَوْضَاتٍ دَمِيئَاتٍ فَقَالَ: عَجِبْتُ مِنَ الْغَيْبِ الْأَوَّلِ، فَهَذَا أَعْجَبٌ وَأَعْجَبُ. فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ مَثَلَ الْغَيْبِ الْأَوَّلِ مَثَلُ عَظْمِ الْقُرْآنِ، وَإِنَّ مَثَلَ هَؤُلَاءِ الرِّوْضَاتِ الدَّمِيئَاتِ، مَثَلُ آلِ حَمٍّ فِي الْقُرْآنِ. أَوْرَدَهُ الْبَغَوِيُّ^(٧). وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا وَغَعَتْ فِي آلِ حَمٍّ فَقَدْ وَغَعَتْ فِي رَوْضَاتٍ أَتَانَتْ فِيهِنَّ^(٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمٍّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهًا مَبْصُورًا﴾^(٩)

الْمَبْصُورُ ﴿١﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْخُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، بِمَا أَعْتَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَمَّنْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ بُيُوتَ اللَّيْلَةِ فَقُولُوا: حَمٍّ لَا يُبْصُرُونَ»^(٩). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أَيُّ: تَنْزِيلُ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ مِنَ اللَّهِ ذِي الْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ، فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ، وَلَا يَحْفَى عَلَيْهِ الذُّرُّ وَإِنْ تَكَافَأَ جَبَابُهُ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أَيُّ: يَغْفِرُ مَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أَيُّ: لِمَنْ تَمَرَّدَ وَطَعَى وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَعَنَّا عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَعَى، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿نَبِيٍّ عِبَادِي إِلَيْهِ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١٠) وَأَنَّ عَدَائِي هُوَ الْعَدَابُ الْأَلِيمُ ﴿الحجر: ٤٩، ٥٠﴾ يَثْرُنُ هَذَيْنِ الْوُضْعَيْنِ كَثِيرًا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ

(١) القرطبي: ٢٨٧/١٥ (٢) فتح الباري: ٥٤٧/١ ومسلم: ١/١٤٨ (٣) الطبري: ٣٤٤/٢١ (٤) الدر المنثور: ٢٦٨/٧ (٥) القرطبي: ٢٨٨/١٥ (٦) فضائل القرآن: ١٣٧، ١٣٨ (٧) البغوي: ٩٠/٤ (٨) البغوي: ٩٠/٤ (٩) أبو داود: ٧٤/٣ وتحفة الأحوذى: ٣٢٩/٥

الْقُرْآنَ، لِيُنْفِىَ الْعُبْدَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذِي الظُّلُمِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي السَّعَةَ وَالْغِنَى^(١). وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ الْمُتَمَفِّضُ عَلَى عِبَادِهِ، الْمُتَمَطِّطُ عَلَيْهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمُنَنِ وَالْإِنْعَامِ، الَّتِي لَا يُطِيقُونَ الْقِيَامَ بِشُكْرِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾... الآية [إبراهيم: ٣٤]. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي لَانْتِظِرَ لَهُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَى، فَيُجَازِي كُلَّ غَايِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ﴿مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَاحْذَرْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

[مِنْ صِفَاتِ الْكُفَّارِ الْحَدَالِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَبَيَانِ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: مَا يَدْفَعُ الْحَقَّ وَيُجَادِلُ فِيهِ بَعْدَ الْبَيَانِ وَظُهُورِ الْبُرْهَانِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي الْجَاحِدُونَ لِآيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿فَلَا يَعْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾ أَي فِي أُمُورِهَا وَتَعْيِيبِهَا وَزَهْرَتِهَا، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا يَعْرُوكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلْدَادِ﴾ مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ لَهُمُهَا ﴿[آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَمَتْنَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتَهُمْ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [لقمان: ٢٤] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّمًا لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، بِأَنَّ لَهُ أَسْوَأَ فِيمَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ قَدْ كَذَّبَهُمْ أُمَّتُهُمْ وَخَالَفُوهُمُ وَمَا آمَنَ بِهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَقَالَ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَنْهَى عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَي مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أَي حَرَّضُوا عَلَى قَتْلِهِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ رَسُولَهُ ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أَي مَاحَلُّوا بِالشُّبُهَةِ لِيَرُدُّوا الْحَقَّ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ.

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿فَأَحْذَرْتَهُمْ﴾ أَي أَهْلَكْتَهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا مِنْ هَذِهِ الْأَثَامِ وَالذُّنُوبِ الْعِظَامِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أَي فَكَيْفَ بَلَغْتَ عَذَابِي لَهُمْ وَتَكَالِي بِهِمْ؟ قَدْ كَانَ

شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا. قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ شَدِيدًا وَاللَّهُ^(٢). وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أَي كَمَا حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ كَذَلِكَ حَقَّتْ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُواكَ وَخَالَفُواكَ يَا مُحَمَّدُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْآخَرَى، لِأَنَّ مَنْ كَذَّبَكَ فَلَا وَثُوقَ لَهُ بِتَصْدِيقِ غَيْرِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿الَّذِينَ يَجْلِسُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٨) وَقِهِمُ السَّعْيَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّعْيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٩)

[حَمَلَةُ الْعَرْشِ يَحْمَدُونَ اللَّهَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكُرُوبِيِّينَ بِأَنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أَي يَقْرَأُونَ بَيْنَ التَّسْبِيحِ الدَّلَالِ عَلَى نَفِي النَّقَائِصِ وَالتَّحْمِيدِ الْمُتَمَتُّصِي لِإِثْبَاتِ صِفَاتِ الْمَدْحِ ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَي خَاشِعُونَ لَهُ أَذْلَاءَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنَّهُمْ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَي مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ مِمَّنْ آمَنُوا بِالْغَيْبِ فَقَضَى اللَّهُ تَعَالَى مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ أَنْ يَدْعُوا لِلْمُؤْمِنِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا مِنْ سَجَايَا الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانُوا يُؤْمِنُونَ عَلَى دَعَاءِ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، كَمَا بَيَّنَّ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ»^(٣). قَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثَمَانِيَّةٌ: أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى جَلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَأَرْبَعَةٌ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ إِذَا اسْتَغْفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أَي رَحِمْتَنَا تَسْعَ ذُنُوبَهُمْ وَخَطَايَاهُمْ وَعِلْمَكَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ

(١) الطبري: ٢١/٣٥١ (٢) الطبري: ٢١/٣٥٣ (٣) مسلم: ٤/

سورة غافر

٤٦٨

سورة غافر

وَسَكَنَاتِهِمْ ﴿١٠﴾ فَأَعِزَّ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴿١١﴾. أَيِ
فَاصْفَحَ عَنِ الْمُسِيئِينَ إِذَا تَابُوا وَأَتَابُوا وَأَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا
فِيهِ، وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكِ
الْمُنْكَرَاتِ ﴿١٢﴾ وَفِيهِمْ عَذَابٌ لَاحِظٌ ﴿١٣﴾ أَيِ وَرَحْزِحُهُمْ عَنْ عَذَابِ
الْحَجِيمِ، وَهُوَ الْعَذَابُ الْمَوْجِعُ الْأَلِيمُ ﴿١٤﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ
جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
وَدُرِّيَّتِهِمْ ﴿١٥﴾ أَيِ إِجْمَعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ لِتَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْيُنُهُمْ
بِالْاجْتِمَاعِ فِي مَنَازِلٍ مُتَجَاوِرَةٍ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ فَأَلَمْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَمْنَاهُمْ
مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أَيِ سَاوَيْنَا بَيْنَ الْكُلِّ فِي
الْمَنْزِلَةِ لِتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَمَا نَقَضْنَا الْعَالِي حَتَّى يُسَاوِيَ الدَّانِي
بَلْ رَفَعْنَا نَاقِصَ الْعَمَلِ فَسَاوَيْنَاهُ بِكَبِيرِ الْعَمَلِ تَفْضُلًا مِمَّا
وَمِنَهُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ
سَأَلَ عَنْ أَبِيهِ وَابْنِهِ وَأَخِيهِ أَيْنَ هُمْ؟ فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا
طَبَقَتَكَ فِي الْعَمَلِ فَيَقُولُ: إِنِّي إِنَّمَا عَمِلْتُ لِي وَلَهُمْ.
فَيَلْحَقُونَ بِهِ فِي الدَّرَجَةِ، ثُمَّ ثَلَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ هَذِهِ الْآيَةَ:
﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَدُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ (١٦). قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ: أَنْصَحُ
عِبَادَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَلَائِكَةَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ... الْآيَةَ، وَأَعَشُ
عِبَادِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الشَّيَاطِينَ (١٧). وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيِ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُعَالَبُ، وَمَا
شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، الْحَكِيمُ فِي أَوَّلِ الْكَلِمَةِ
وَأَفْعَالِكَ مِنْ شَرِّكَ وَقَدْرِكَ ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أَيِ فِعْلَهَا
أَوْ وَبَالَهَا يَمُنُّ وَقَعَتْ مِنْهُ ﴿وَمَنْ تَقَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَقَدَرْتَهُمْ﴾ أَيِ لَطَفْتَ بِهِ وَنَجَّيْتَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ
﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

[نَدَامَةُ الْكُفَّارِ بَعْدَ دُخُولِ النَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ يُنَادُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَهُمْ فِي غَمْرَاتِ النَّيرانِ يَتَلَطَّوْنَ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا بَاشَرُوا مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ، فَمَقَتُوا عِنْدَ ذَلِكَ
أَنْفُسَهُمْ وَأَبْغَضُوهَا غَايَةَ الْبُغْضِ بِسَبَبِ مَا أَسْلَفُوا مِنْ
الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ دُخُولِهِمْ إِلَى النَّارِ،
فَأَخْبَرْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ إِجْبَارًا عَالِيًا نَادَوْهُمْ نِدَاءً بِأَنَّ
مَقَّتَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِينَ كَانَ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ
الْإِيمَانُ فَكَفَرُوا أَشَدَّ مِنْ مَقْتِكُمْ - أَيُّهَا الْمُعْتَدُونَ -
أَنْفُسِكُمْ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ. قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ دُعِيتُمْ إِلَى
الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ﴾ يَقُولُ: لَمَقَّتْ اللَّهُ أَهْلَ الضَّلَالَةِ حِينَ
عُرِضَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ فِي الدُّنْيَا فَتَرَكُوهُ وَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوهُ أَكْبَرَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ
أَنْفُسَكُمْ إِذْ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ﴾ (١٨) قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا
أَنَّا كُنَّا مِنْ أَتَابِعِ اللَّهِ وَإِنَّا نَكْفُرُ بِمَا كَفَرْنَا وَإِنَّا لَمِنَ الْكَافِرِينَ
سَبِيلِ (١٩) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ
بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (٢٠) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ
آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ
يُؤْتِي (٢١) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ (٢٢)

(١) البغوي: ٩٣/٤ (٢) الطبري: ٣٥٧/٢١ (٣) القرطبي:

مِمَّا مَتَّوُوا أَنفُسَهُمْ حِينَ عَايَنُوا عَذَابَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١).
 وَهَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَدَرُّ بْنُ عَبْدِ
 اللَّهِ الْهَمْدَانِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَابْنُ جَرِيرِ
 الطَّبْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا
 آمَنَّا أَتَيْنَاكَ وَأَحْبَبْنَا أَتَيْنَاكَ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ
 أَبِي الْأَحْوَصِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذِهِ الْآيَةُ
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أُمَّتًا
 فَأَحْبَبْتُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُصَيِّبُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾^(٣)
 [البقرة: ٢٨] وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَأَبُو
 مَالِكٍ^(٤). وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرْتَبَةٌ.
 وَالْمَفْضُودُ مِنْ هَذَا كُلُّهُ: أَنَّ الْكُفَّارَ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ وَهُمْ
 وَفُوفٌ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، كَمَا
 قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ
 رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾
 [السجدة: ١٢] فَلَا يَجَابُونَ، ثُمَّ إِذَا رَأَوْا النَّارَ وَعَايَنُوهَا،
 وَوَفُوفُوا عَلَيْهَا، وَنَظَرُوا إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ
 سَأَلُوا الرَّجْعَةَ أَشَدَّ مِمَّا سَأَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَلَا يَجَابُونَ. قَالَ
 اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْوُفُوءِ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا
 نَسْأَلُكَ بِآيَاتِكَ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَوْنَ
 مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾
 [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فَإِذَا دَخَلُوا النَّارَ وَذَاقُوا مَسَهَا وَحَسِسَهَا
 وَمَقَامِعَهَا وَأَعْلَالَهَا كَانَ سُؤْلُهُمْ لِلرَّجْعَةِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ ﴿وَهُمْ
 يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
 نَعْمَلُ أَوَّلَ نَعْمَرْتُمْ مَا يَنْذَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ
 فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا
 فَإِنَّا عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾
 [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨] وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَلَطَّفُوا فِي
 السُّؤَالِ وَقَلَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ كَلَامِهِمْ مُقَدِّمَةً وَهِيَ قَوْلُهُمْ:
 ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَاكَ وَأَحْبَبْنَا أَتَيْنَاكَ﴾ أَي قَدَّرْنَاكَ عَظِيمَةً، فَإِنَّكَ
 أَحْبَبْتَنَا بَعْدَ مَا كُنَّا أُمَّتًا ثُمَّ آمَنَّا ثُمَّ أَحْبَبْتَنَا، فَأَنْتَ قَادِرٌ
 عَلَى مَا تَشَاءُ، وَقَدْ اعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا، وَإِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ
 لِأَنْفُسِنَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أَي
 فَهَلْ أَنْتَ مُجِيبُنَا إِلَى أَنْ نُعِيدَنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ قَادِرٌ
 عَلَى ذَلِكَ لِتَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، فَإِنَّ عُدْنَا إِلَى مَا كُنَّا
 فِيهِ فَإِنَّا ظَالِمُونَ، فَأَجِيبُوا أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى عَوْدِكُمْ
 وَمَرْجِعِكُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، ثُمَّ عِلَلَّ الْمُنْعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّ

سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُ الْحَقَّ وَلَا تَقْتَضِيهِ بَلْ تَمُجُّهُ وَتَنْفِيهِ،
 وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا نَدَّعَى إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحَدُّهُ
 كَفَّرْتَهُ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أَي أَنْتُمْ هَكَذَا تَكْفُرُونَ وَإِنْ
 رُدُّدْتُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا
 لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا:
 ﴿فَالْحُكْمَ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أَي هُوَ الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ الْعَادِلُ
 الَّذِي لَا يَجُورُ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ
 مَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَقَوْلُهُ جَلَّ
 جَلَّالَهُ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أَي يُظْهِرُ قُدْرَتَهُ لِخَلْقِهِ
 بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي خَلْقِهِ الْعُلُوبِيِّ وَالسُّفْلِيِّ مِنَ الْآيَاتِ
 الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ خَلْقِهَا وَمُبْدِعِهَا وَمُشِئِهَا
 ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يُخْرِجُ بِهِ
 مِنَ الزَّرْعِ وَالثَّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ بِالْحِسِّ مِنْ اخْتِلَافِ
 أَلْوَانِهِ وَطَعُومِهِ وَرَوَائِحِهِ وَأَشْكَالِهِ، وَهُوَ مَاءٌ وَاحِدٌ فَإِنَّا لَقَدَّرَةُ
 الْعَظِيمَةِ فَآوَتْ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿وَمَا يَنْذَكُرُ﴾ أَي يَعْتَبِرُ
 وَيَتَفَكَّرُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَيَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى عَظَمَةِ خَلْقِهَا
 ﴿إِلَّا مَنْ يُبْصِرُ﴾ أَي مَنْ هُوَ بِبَصِيرٍ مُنِيبٍ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى.

[أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ مَهْمَا كَانَ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ
 الْكُفْرُونَ﴾ أَي فَاحْلُصُوا لِلَّهِ وَحَدَهُ الْعِبَادَةَ وَالذُّعَاءَ وَخَالِفُوا
 الْمُشْرِكِينَ فِي مَسَلِكِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ كَانَ
 عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يَقُولُ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: «لَا
 إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ
 الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ
 الْكَاْفِرُونَ». قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَهْتَلِ بِهِنَّ ذُبُرَ كُلِّ
 صَلَاةٍ^(٥). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِي بِنَحْوِهِ^(٦). وَقَدْ
 ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوباتِ: «لَا
 إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ

(١) الطبري: ٢١/٣٥٩ (٢) الطبري: ٢١/٣٥٩ (٣)
 الطبري: ٢١/٣٦٠ (٤) الطبري: ٢١/٣٦٠ (٥) أحمد: ٤/
 ٤ (٦) مسلم: ١/٤١٦ وأبو داود ٢/١٧٣ والنسائي ٣/٧٨، ٧٩

أَلَيْسَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمِ إِنَّ
 اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ
 لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
 يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾
 وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
 بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ
 قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
 وَسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنَ وَفَرَّوْنَ
 فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ
 عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
 نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾

أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» (٣). وفي حديث الصور أنه عزَّ وجلَّ إذا
 قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له
 حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات ثم يجيب
 نفسه قائلاً: «لله الواحد القهار» (٤). أي الذي هو وحده
 قد فهر كل شيء وعلمه. وقوله جلَّتْ عَظَمَتُهُ: «اليوم تجزى
 كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب»
 يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم
 مثقال ذرة من خير ولا من شر بل يجزي بالحسنة عشر
 أمثالها وبالسيئة واحدة، ولهذا قال تبارك وتعالى: «لا
 ظلم اليوم» كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي
 الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عزَّ وجلَّ أنه
 قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته
 بينكم محرماً فلا تظالموا» - إلى أن قال - يا عبادي إنما

على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا
 الله، ولا تعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء
 الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره
 الكافرون» (١).

﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
 مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٧﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُوعٌ لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ
 مِنْهُمْ شَيْئٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٨﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى
 كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

[وَحْيِي اللَّهِ لِإِنذَارِ عِبَادِهِ يَوْمَ التَّلَاقِ]

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه
 العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالشقب لها، كما قال
 تعالى: ﴿مَنْ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿١٧﴾ تَرْجِعُ الْمَلَكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ
 فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤، ٣]. وسيتأني
 إن شاء الله تعالى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى
 الأرض السابعة في قول جماعة من السلف والخلف،
 وهو الأرجح إن شاء الله، وقد ذكر غير واحد أن العرش
 من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطبيه مسيرة خمسين ألف
 سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف
 سنة. وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ﴾ كقوليه جلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ
 عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾
 [النحل: ٢]. وكقوليه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ نَزَّلْنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ نَزَّلَ بِهِ
 الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٨﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-
 ١٩٤] ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال علي
 ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يوم التلاقي اسم من أسماء
 يوم القيامة حذر الله منه عباده (٢). وذلك أن كل عامل
 سيلقى ما عمل من خير وشر.

وقوله جلَّ جلاله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُوعٌ لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ
 شَيْئٌ﴾ أي ظاهرون بادون كلهم لا شيء يخبئهم ولا يظلمهم
 ولا يستترهم ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُوعٌ لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ
 شَيْئٌ﴾ أي الجميع في علمه على السواء. وقوله تبارك
 وتعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم في
 حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه تعالى يطوي
 السموات والأرض بيده ثم يقول: «أنا الملك، أنا
 الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟

(١) مسلم: ٤١٥/١ (٢) الطبري: ٣٦٤/٢١ (٣) الطبري: ٢١

٣٢٧ (٤) الطبراني في الطوال: ص ٢٧٠

هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا عَلَيْكُمْ ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ^(١).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ كَمَا يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَوَجِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨] وَقَالَ جَلَّ جَلَّالَهُ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّجْنَا بِالنَّصْرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمَةً مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسْمٍ وَلَا سَفِيحٍ يَطَّاعُ﴾ ﴿٧٧﴾ يَعْلَمُ حَاطَبَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٧٨﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٧٩﴾ [الأنذارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَضَاءِ اللَّهِ فِيهِ]

يَوْمَ الْآزِفَةِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِاقْتِرَابِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتِ الْآزِفَةَ﴾ ﴿٧٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿النجم: ٥٨، ٥٧﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْتَقَى الْعَمْرُ﴾ [القمر: ١] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَقْرَبَتْ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وَقَالَ: ﴿أَفَأَنْتُمْ أَتْرُ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِينُونَ﴾ [النحل: ١] وَقَالَ جَلَّ جَلَّالَهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية [الملك: ٢٧]. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمَةً﴾ قَالَ قَتَادَةَ: وَقَفَّتِ الْقُلُوبُ فِي الْحَنَاجِرِ مِنَ الْخَوْفِ، فَلَا تَخْرُجُ وَلَا تَعُودُ إِلَى أَمَاكِنِهَا^(٢). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَالشَّدِيدِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَمَعْنَى ﴿كَظِيمَةً﴾ أَيُّ سَاكِنِينَ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِأُذُنِهِ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرِّجْزُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿كَظِيمَةً﴾ أَيُّ بَاكِينَ^(٣). وَقَوْلُهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسْمٍ وَلَا سَفِيحٍ يَطَّاعُ﴾ أَيُّ لَيْسَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّرِكِ بِاللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ مِنْهُمْ يَنْفَعُهُمْ وَلَا سَفِيحٍ يَشْفَعُ فِيهِمْ، بَلْ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ حَاطَبَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يُخْبِرُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عِلْمِهِ النَّامِ الْمُحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ جَلِيلِهَا وَخَفِيرِهَا، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، دَقِيقِهَا وَلَطِيفِهَا لِخَدَرِ النَّاسِ عِلْمَهُ فِيهِمْ فَيَسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ الْحَيَاءِ وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تَقْوَاهُ، وَيُرَاقِبُوهُ مُرَاقَبَةً مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ الْعَيْنِ الْخَاطِئَةَ وَإِنْ أَبَدَتْ أَمَانَةً، وَيَعْلَمُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ حَبَايَا

الصُّدُورِ مِنَ الصَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿حَاطَبَةُ الْأَعْيُنِ﴾ هُوَ الْعَمْرُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: رَأَيْتُ وَلَمْ يَرَ. أَوْ لَمْ أَرَ. وَقَدْ رَأَى^(٤). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَيْنِ فِي نَظَرِهَا: هَلْ تُرِيدُ الْحَيَاتَةَ أَمْ لَا^(٥)؟ وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ^(٦). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يَعْلَمُ إِذَا أَنْتَ فَدَرْتَ عَلَيْهَا هَلْ تُزَيِّنُ بِهَا أَمْ لَا^(٧)؟ وَقَالَ الشَّدِيدِيُّ: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أَيُّ مِنْ أَلْسُونَةٍ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ. قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْزِيَ بِالْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ وَبِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٨). وَهَذَا الَّذِي فَسَّرَ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هَذِهِ الْآيَةَ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ اسْتَفْؤا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أَيُّ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَحْكُمُونَ بِشَيْءٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَيُّ سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ خَلْقِهِ، بَصِيرٌ بِهِمْ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَلْحَمَهُمُ اللَّهُ يَدْعُونَهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ﴿٧٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْيِيهِمْ رُسُلَهُمْ بِالْكَذِبِ فَكَفَرُوا فَأَلْحَمَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ

شَدِيدٌ الْعِقَابِ ﴿٨٠﴾
[عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ السَّيِّئَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ هُوَ لِإِذْ الْكَافِرُونَ بِرِسَالَتِكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكْذِبَةِ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ هُوَلاءِ قُوَّةً ﴿وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ أَتْرُوا فِي

(١) مسلم: ١٩٩٤/٤ (٢) الطبري: ٣٦٨/٢١ (٣) الدر المنثور: ٢٨١/٧ (٤) القرطبي: ٣٠٣/١٥ (٥) الطبري: ٢١/٣٦٩ (٦) الطبري: ٣٧٠/٢١ (٧) الطبري: ٣٦٩/٢١ (٨) الطبري: ٣٦٩/٢١

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أَي بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ ﴿فَقَالُوا أَأَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحَبُّوا نِسَاءَهُمْ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ مِنْ فِرْعَوْنَ يَقْتُلُ ذُكُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. أَمَّا الْأَوَّلُ فَكَانَ لِأَجْلِ الْإِحْتِرَازِ مِنْ وُجُودِ مُوسَى أَوْ لِإِذْلَالِ هَذَا الشَّعْبِ وَتَقْلِيلِ عَدَدِهِمْ أَوْ لِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ. وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي فَلِقِلْعَةِ الثَّانِيَةِ: [لِبَاهَانَةٍ] هَذَا الشَّعْبِ، وَلِكَيْ يَنْتَسَأَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أُودِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] قَالَ قَتَادَةَ: هَذَا أَمْرٌ بَعْدَ أَمْرٍ^(١). قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰكٍ﴾ أَي وَمَا مَكْرُهُمْ وَقَصْدُهُمْ الَّذِي هُوَ تَقْلِيلُ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - لِئَلَّا يُنْصَرُوا عَلَيْهِمْ - إِلَّا ذَاهِبٌ وَهَالِكٌ فِي ضَلَالٍ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وَهَذَا عَزْمٌ مِنْ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَتْلِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَي قَالَ لِقَوْمِهِ:

دَعُونِي حَتَّى أَقْتُلَ لَكُمْ هَذَا ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أَي لَا أَبَالِي بِهِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْجَحْدِ وَالتَّجْهَرِ* ﴿وَالْعِنَادِ، وَقَوْلُهُ قَبْحَهُ اللَّهُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ بَيْنَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يَعْنِي مُوسَى. يَخْشَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُضِلَّ مُوسَى النَّاسَ وَيُعَيِّرَ رُسُومَهُمْ وَعَادَاتِهِمْ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ: صَارَ فِرْعَوْنُ مُذَكَّرًا! يَعْنِي وَأَعْطَا يُشْفِقُ عَلَى النَّاسِ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ! وَقَرَأَ الْأَكْثَرُونَ: (أَنْ يُبَدِّلَ بَيْنَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) وَقَرَأَ الْآخَرُونَ: ﴿أَنْ يُبَدِّلَ بَيْنَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (بِظَهْرٍ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) بِالضَّمِّ ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّومِ الْحِسَابِ﴾ أَي لَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: اسْتَعَجَزْتُ بِاللَّهِ وَعُدْتُ بِهِ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ أَمْثَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أَيَّهَا الْمُخَاطَبُونَ ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أَي عَنِ الْحَقِّ مُجْرِمٍ ﴿لَا يُؤْمِنُ بَيُّومِ الْحِسَابِ﴾ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ

الْأَرْضِ مِنَ الْبِنَايَاتِ وَالْمَعَالِمِ، وَالذِّيَارَاتِ مَا لَا يَبْدُرُ هُوَ لَاءَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحاف: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أَي مَعَ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالْبَأْسِ الشَّدِيدِ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَهِيَ كُفْرُهُمْ بِرُسُلِهِمْ ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أَي وَمَا دَفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ، وَلَا وَقَاهُمْ وَاقٍ، ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ أَخْذِهِ إِيَّاهُمْ وَذُنُوبَهُمُ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا وَاجْتَرَمُوهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنٰتِ﴾ أَي بِالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ وَالْبُرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ ﴿فَكَفَرُوا﴾ أَي مَعَ هَذَا الْبَيِّنَاتِ وَالْبُرْهَانِ كَفَرُوا وَجَحَدُوا ﴿فَلَاخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ تَعَالَى أَي أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿إِنَّهُ قُوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَي دُو قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَبَطْشٍ شَدِيدٍ ﴿إِنَّهُ قُوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَي عِقَابُهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ وَجِيعٌ، أَعَادَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْدَنَ وَقَدْرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَأَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحَبُّوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰكٍ﴾ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ بَيْنَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّومِ الْحِسَابِ﴾ (٢٧)

[فِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّمًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَمُبَشِّرًا لَهُ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا جَرَى لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ. وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وَالسُّلْطَانُ هُوَ الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وَهُوَ مَلِكُ الْقُبْطِ بِالذِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ﴿وَهَمْدَنَ﴾ وَهُوَ زَبِيرُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ ﴿وَقَدْرُونَ﴾ وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَالًا وَتِجَارَةً ﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ أَي كَذَّبُوهُ وَجَعَلُوهُ سَاحِرًا مَجْنُونًا، مُمَوَّهًا، كَذَّابًا فِي أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذٰلِكَ مَا أَنَا مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رُسُلِي إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٢٧) أَنْوَاصًا بِمَاءِ بَلِّ هُمْ قَوْمٌ طٰغُوْنَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]

(١) الطبري: ٢٧٣/٢١ (*) كذا وجدنا في جميع النسخ المطبوعة الحاضرة: التجهرم، ولم نجد له أمثالا في اللغة. والجهرية نوع من الثياب وجهرم واد بفارس وقرية هناك (اللسان وتاج العروس)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٠

سُورَةُ غَافِرٍ

عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ، وَنَدْرَأُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ»^(١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(٢) يَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٣) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُورُ إِنِّي خَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾^(٤) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ﴾^(٥) وَيَنْقُورُ إِنِّي خَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾^(٦) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدِينٍ مَالَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لِئَمْ هَادٍ﴾^(٧)

سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٣)

[تَأْيِيدُ مُوسَى بِرَجُلٍ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَخِطَابُ هَذَا الرَّجُلِ]

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيًا من آل فرعون. قال السدقي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام^(٢). وقال ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَمُوسَى إِنَّكَ أَمَلًا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] رواه ابن أبي حاتم^(٣). وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ فأخذت الرجل غضبه لله عز وجل. وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، كما ثبت بذلك الحديث^(٤). ولا أعظم من هذه الكلمة - عند فرعون - وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أخبرني بأشد شيء صنعته المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بيناء الكعبة إذ أقبل غفبه بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فحنقه حنقًا شديدًا فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ انقرد به البخاري^(٥).

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(٢) يَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٣)

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(٢) يَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٣) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُورُ إِنِّي خَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾^(٤) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ﴾^(٥) وَيَنْقُورُ إِنِّي خَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾^(٦) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدِينٍ مَالَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لِئَمْ هَادٍ﴾^(٧)

يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صيحة ما جاءكم به فيمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤدوه، فإن يك كاذبًا فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يكن صادقًا وقد آذنتموه يصيبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعباد في الدنيا والآخرة، فيمن الجائر عندكم أن يكون صادقًا فيبغى على هذا أن لا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه. وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه المودعة في قوله: ﴿وَلَقَدْ قَتَلْنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾^(١) أَنْ أَدْوَأَ إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾^(٢) وَإِنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾^(٣) وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾^(٤) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لِي﴾^(٥)

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: ربِّي الله، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم نزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ

(١) النسائي في الكبرى: ١٨٨/٥ (٢) الطبري: ٣٧٥/٢١ (٣)

القرطبي: ٣٠٦/١٥ (٤) تحفة الأحوزي: ٣٩٥/٦ (٥) فتح

الباري: ٤١٦/٨

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى آلِهَةِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُورُوا تَتَّبِعُونَ أَهْدَاكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُورُوا إِنَّمَا هَذَا وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

من إمام يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته، إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مائة عام^(١). والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿وقال الذين آمنوا يتقوروا يتقوروا يتقوروا﴾ مثل يوم

الآحزاب ﴿٣٥﴾ مثل ذاب قور نوح وعاد وتمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ﴿٣٦﴾ ولتقوروا يتقوروا يتقوروا يوم التناد ﴿٣٧﴾ يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصي ومن يضلل الله فإله من هاد ﴿٣٨﴾ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴿٣٩﴾ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقنا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴿٤٠﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح

[الدخان: ١٧-٢١] وَهَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقُرَيْشٍ أَنْ يَرْكُوهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عِبَادَ اللَّهِ، وَلَا يَمْسُوهُ بِسُوءٍ وَيَصِلُوا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ فِي تَرْكِ أَدْبَتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي - فيما بيني وبينكم من القرابة، فلا تؤذوني وتتركوها بيني وبين الناس، وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً ميبثاً.

وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ أي لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم: كاذباً - كما تزعمون - لكان أمره بيننا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سيدنا ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المفسرين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعليه، ثم قال المؤمن محدثاً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نعمة الله بهم: ﴿يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهْرِي فِي الْأَرْضِ﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض فرأعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ وأخذوا نعمة الله إن كذبتم رسوله ﴿فَمَنْ يَصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء. قال فزعون لقومه -راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد، الذي كان أحق بالملك من فزعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه نفسي وقد كذب فزعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَحَمْدًا لَهَا وَأَسْتَقْبَلَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كذب فيه وافتري وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته فغشهم، وما نصحتهم، وكذا قوله: ﴿وَمَا أهديك إلا سبيل الرشاد﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريقي الحق والصدق والرشيد. وقد كذب أيضاً في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] وقال جلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩] وفي الحديث: ﴿مَا

أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا
وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ. وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

[استهزاء فرعون برب موسى]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ فِرْعَوْنَ وَعُتُوهُ وَتَمَرُّدِهِ وَافْتِرَائِهِ
فِي تَكْذِيبِهِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ أَمَرَ وَزِيْرَهُ
هَامَانَ أَنْ يَبْنِي لَهُ صَرْحًا، وَهُوَ الْقَصْرُ الْعَالِي الْمُنِيفُ
الشَّاهِقُ، وَكَانَ اتِّخَاذَهُ مِنَ الْأَجْرِ الْمَضْرُوبِ مِنَ الطَّيْنِ
الْمَسْوِيِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطَّيْنِ
فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨] وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلِّي أَتْلُعُ
الْأَسْبَبَ﴾ ﴿٣٧﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ... الآية. قَالَ سَعِيدُ بْنُ
جُبَيْرٍ وَأَبُو صَالِحٍ: أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ (١). وَقِيلَ: طُرُقُ
السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا
وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِ وَتَمَرُّدِهِ أَنَّهُ كَذَّبَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ فِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ. وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَي
[بصنيعه] هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُرْهِمَ بِهِ الرَّعِيَّةَ أَنَّهُ يَعْمَلُ شَيْئًا
يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى تَكْذِيبِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهَذَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ يَعْنِي: إِلَّا فِي خَسَارٍ (٢).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقَوْمِ أَتَعْبُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ

الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ
هِيَ دَارُ الْفِرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا نِسْجًا وَمَنْ
عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْزِلَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِعَبْرٍ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

[مواصلة خطاب مؤمن آل فرعون]

يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِقَوْمِهِ مِمَّنْ تَمَرَّدَ وَطَعَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَنَسِيَ الْجَزَاءَ الْأَعْلَى، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿يَقَوْمِ أَتَعْبُونِ أَهْدِيكُمْ
سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لَا كَمَا كَذَّبَ فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا
أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ثُمَّ زَهَدَهُمْ فِي الدُّنْيَا الَّتِي قَدْ
آثَرُوهَا عَلَى الْآخِرَى وَصَدَّوْنَهُمْ عَنِ التَّصَدِيقِ بِرَسُولِ اللَّهِ
مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ
الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ﴾ أَي: قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ فَانِيَةٌ عَنِ قَرِيبِ تَذَهَبُ
وَتَضْمَحِلُّ ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفِرَارِ﴾ أَي: الدَّارُ الَّتِي

مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ حَذَرَ قَوْمَهُ بِأَسْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ﴾
أَي: الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَتَمُودَ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْمُكَذَّبَةِ كَيْفَ حَلَّ
بِهِمْ بِأَسْرِ اللَّهِ وَمَا رَدَّ عَنْهُمْ رَادًّا، وَلَا صَدَّهُ عَنْهُمْ صَادًّا ﴿وَمَا
اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أَي: إِنَّمَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِمْ
وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ، فَأَنْقَذَ فِيهِمْ قَدْرَهُ ثُمَّ
قَالَ: ﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ
الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ أَي ذَاهِبِينَ
هَارِبِينَ ﴿كَلَّا لَا وَوَدَّ اللَّهُ أَنْ يَرِيكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقْرَ﴾
[القيامة: ١١، ١٢] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
عَاصِيٍّ﴾ أَي: لَا مَانِعَ يَمْنَعُكُمْ مِنْ بِأَسْرِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ ﴿وَمَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أَي: مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ
غَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى مِنْ قَبْلُ
بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ مِصْرَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ
قَبْلِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ يُوسُفُ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ عَزِيزَ أَهْلِ مِصْرَ، وَكَانَ رَسُولًا يَدْعُو
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِالْقِسْطِ فَمَا أَطَاعُوهُ تِلْكَ الطَّاعَةَ إِلَّا
بِمَجْرَدِ الْوَرَاةِ وَالْجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا
رَلْتُمْ فِي سَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقًّا إِذَا هَلَكَ فُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ
اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أَي: يَسْتَشْمُ قُلْتُمْ طَامِعِينَ: ﴿لَنْ
يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وَذَلِكَ لِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ
﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ﴾ أَي: كَحَالِكُمْ
هَذَا يَكُونُ حَالٌ مَنْ يُضِلُّهُ اللَّهُ لِإِسْرَافِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَارْتِيَابِ
قَلْبِهِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَنٍ أَنْتَهُمْ﴾ أَي: الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيُجَادِلُونَ
الْحُجَجَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَحُجَّةٍ مَعَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ يَمُقَّتْ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْمُقَّتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
﴿كَرَّ مَقَّتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي وَالْمُؤْمِنُونَ
أَيْضًا يُبْغِضُونَ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ صِفَتُهُ فَإِنَّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ
صِفَتُهُ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْرِفُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعْرُوفًا، وَلَا
يُنْجِرُ مُنْكَرًا وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ﴾ أَي: عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿جِبَارٍ﴾
قَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ وَقَتَادَةَ: آيَةُ الْجِبَابِرَةِ الْقَتْلُ بِغَيْرِ
الْحَقِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنِ بَنِي صَرْحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ الْأَسْبَبَ﴾ ﴿٣٧﴾

(١) القرطبي: ٣١٤/١٥ (٢) الطبري: ٣٨٨/٢١

لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْتِقَالَ، مِنْهَا وَلَا ظَنَنْ عَنْهَا إِلَىٰ غَيْرِهَا،
بَلْ إِمَّا نَعِيمٌ، وَإِمَّا جَحِيمٌ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿مَنْ
عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أَيُّ: وَاحِدَةً مِثْلَهَا ﴿وَمَنْ
عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَيُّ لَا يَقْدَرُ
بِحِزَاءٍ، بَلْ يُبَيِّئُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ثَوَابًا كَثِيرًا لَا انْقِصَاءَ لَهُ وَلَا
نَقَادَ. وَاللَّهُ تَعَالَىٰ الْمُؤْتَقِ لِلصَّوَابِ.

﴿وَيَقَوْمَ مَا لِيِ ادْعُوكُمْ إِلَى النِّجْوَةِ وَيَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾
تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا
ادْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقْبَرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ
لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْ
الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ
وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهُ اللَّهُ
سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِغَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

[نَهَايَةُ الْخُطَابِ وَمَصِيرُ الْفَرِيقَيْنِ]

يَقُولُ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ: مَا بَالِي ادْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ، وَهِيَ
عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَتَضَدُّيقُ رَسُولِهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ
﴿وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤٢﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴿٤٣﴾ أَيُّ: عَلَى جَهْلِ بِلَا دَلِيلٍ ﴿وَأَنَا ادْعُوكُمْ
إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقْبَرِ﴾ أَيُّ هُوَ فِي عِزَّتِهِ وَكِبْرِيَايِهِ يَنْفِرُ ذَنْبَ مَنْ
تَابَ إِلَيْهِ ﴿لَا جَرَمَ﴾ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴿يَقُولُ: حَقًّا. قَالَ
السُّدِّيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حَقًّا. وَقَالَ
الصَّحَّاحُ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ لَا كِذْبَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ،
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يَقُولُ: بَلَى، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونِي
إِلَيْهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي
الْآخِرَةِ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: الْوَتْنُ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ ^(١). وَقَالَ
قَتَادَةُ: يَعْنِي الْوَتْنُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَا
يُجِيبُ دَاعِيَهُ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ^(٢). وَهَذَا كَقَوْلِهِ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا
يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَإِذَا
خِشِيَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾
[الاحقاف: ٦، ٥]، إِنْ تَدْعُوهُمْ لَّا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا
مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴿٧﴾ [فاطر: ١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾
أَيُّ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيُحَازِي كَلِمًا بِعَمَلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿وَيَقَوْمَ مَا لِي ادْعُوكُمْ إِلَى النِّجْوَةِ وَيَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾
تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا
ادْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقْبَرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ
لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْ
الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ
وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهُ اللَّهُ
سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِغَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أَيُّ: خَالِدِينَ فِيهَا
بِإِسْرَافِهِمْ، وَهُوَ شِرْكُهُمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ
لَكُمْ﴾ أَيُّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ صِدْقَ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَنَهَيْتُكُمْ
عَنْهُ، وَنَصَحْتُكُمْ، وَوَضَّحْتُ لَكُمْ، وَتَذَكَّرْتُمْ وَتَنذَرْتُمْ
حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدْمُ ﴿وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ: وَأَتَوَكَّلُ
عَلَى اللَّهِ وَأَسْتَعِينُهُ وَأَقَاطِعُكُمْ وَأَبَاعِدُكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ﴾ أَيُّ: هُوَ بَصِيرٌ بِهِمْ تَعَالَى وَنَقَدَّسَ، فَيَهْدِي مَنْ
يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ، وَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، وَلَهُ الْحُجَّةُ
الْبَالِغَةُ وَالْحُكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْقَدْرُ التَّافِؤُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: ﴿فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَنَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَيَأْتِيهِ جَنَّةً.

[ثُبُوتُ عَذَابِ الْقَبْرِ]
﴿وَحَاقَ بِغَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وَهُوَ الْعَرَقُ فِي الِئِيمِ ثُمَّ

(١) الطبري: ٣٩٢/٢١ (٢) الطبري: ٣٩٢/٢١

فِي قُبُورِكُمْ، فَارْتَاعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّمَا يُفْتَنُ يَهُودُ» قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَلَمَّا لَبَيْتُ نَبِيَّ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا إِنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ». وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ يَسْتَعِيدُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ^(٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى عَذَابِ الْأَرْوَاحِ فِي الْبُرْزَخِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَّصِلَ فِي الْأَجْسَادِ فِي قُبُورِهَا، فَلَمَّا أُوجِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ بِخُصُوصِهِ اسْتَعَاذَ مِنْهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ. وَأَحَادِيثُ عَذَابِ الْقَبْرِ كَثِيرَةٌ جَدًّا.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عُدُّوا وَعَشِيًّا﴾ صَبَاحًا وَمَسَاءً مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا، يُقَالُ لَهُمْ: يَا آلَ فِرْعَوْنَ، هَذِهِ مَنَازِلُكُمْ؛ تَوْبِيخًا وَرَفْئَةً وَصَعَارًا لَهُمْ^(٤). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُمْ فِيهَا الْيَوْمَ يُغْدَى بِهِمْ، وَيُرَاحُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وَأَلَّ فِرْعَوْنَ كَاللَّيْلِ الْمُسَوِّمَةِ يَخْطُونَ الْحِجَارَةَ وَالشَّجَرَ وَلَا يَعْقِلُونَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْعِدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّجْتِ فَمِنْ أَهْلِ النَّجْتِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». ^(٥) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٦).

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَهَبْنَا مِنَ النَّارِ ﴿٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْبِغَادِ ﴿٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُحْثِفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعْتُوا إِلَّا الْكٰفِرِينَ

إِلَّا فِي صَلَاتِ ﴿١٠﴾

[تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَحَاوُرِ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ وَتَخَاصُّمِهِمْ وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مِنْ جُمَّلَتِهِمْ، فَيَقُولُ الضَّعِيفَاءُ وَهُمْ الْأَتْبَاعُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وَهُمْ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَالْكَبِرَاءُ ﴿١٠﴾ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

النَّمْلَةَ مِنْهُ إِلَى الْجَحِيمِ، فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أَيْ أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلُ كَبِيرٍ فِي اسْتِذْلَالِ أَهْلِ الشُّبُهَةِ عَلَى عَذَابِ الْبُرْزَخِ فِي الْقُبُورِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وَلَكِنْ هُنَا سُؤَالٌ وَهُوَ أَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَقَدْ اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ فِي الْبُرْزَخِ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ يَهُودِيَّةً كَانَتْ تَخْدُمُهَا، فَلَا تَصْنَعُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَيْهَا شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ إِلَّا قَالَتْ لَهَا الْيَهُودِيَّةُ: وَقَالَ اللَّهُ عَذَابُ الْقَبْرِ، قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِلْقَبْرِ عَذَابٌ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ ﷺ: «لَا، مَنْ زَعَمَ ذَلِكَ؟». قَالَتْ: هَذِهِ الْيَهُودِيَّةُ لَا أَصْنَعُ إِلَيْهَا شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ إِلَّا قَالَتْ: وَقَالَ اللَّهُ عَذَابُ الْقَبْرِ. قَالَ ﷺ: «كَذَبَتْ يَهُودُ، وَهُمْ عَلَى اللَّهِ أَكْذَبُ، لَا عَذَابَ دُونَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». ثُمَّ مَكَتَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُكَّتَ فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ يَصِفُ النَّهَارَ مُشْتَمِلًا بِرُؤْيِهِ مُحَمَّرَةً عَيْنَاهُ وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ «الْقَبْرُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَصَحَّحْتُمْ قَلِيلًا، أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ»^(١). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، فَيُقَالُ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ كَوْنِ الْآيَةِ مَكِّيَّةً وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى عَذَابِ الْبُرْزَخِ؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى عَرْضِ الْأَرْوَاحِ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا فِي الْبُرْزَخِ، وَلَيْسَ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى اتِّصَالِ تَأْلِمِهَا بِأَجْسَادِهَا فِي الْقُبُورِ، إِذْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُخْتَصًّا بِالرُّوحِ، فَأَمَّا حُضُورُ ذَلِكَ لِلْجَسَدِ فِي الْبُرْزَخِ وَتَأْلِمُهُ بِسَبَبِهِ فَلَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ إِلَّا السُّنَّةُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَرْصُومَةِ الْآتِيَةِ ذِكْرُهَا.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى عَذَابِ الْكُفَّارِ فِي الْبُرْزَخِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعَذَّبَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ بِذَنْبٍ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ وَهِيَ تَقُولُ: أَشَعْرَتِ أَنْتُمْ تُفْتَنُونَ

(١) أحمد: ٨١/٦ (٢) أحمد: ٢٤٨/٦ (٣) مسلم: ٤١٠/١

(٤) الطبري: ٣٩٦/٢١ (٥) أحمد: ١١٣/٢ (٦) فتح الباري:

٢٨٦/٣ ومسلم: ٢١٩٩/٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٣

سُورَةُ الْاٰنۡبِيَاۡءِ

قَالُوا اَوْلَمۡ تَاۡتِيۡكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنٰتِ قَالُوا بَلٰى قَالُوا فَاَدْعُوۡا وَاِمَّا دَعَوُۡا الْكٰفِرِيۡنَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ
 ﴿٥١﴾ اِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَاَلَّذِيۡنَ ءَامَنُوۡا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا
 وَيَوْمَ يَقُوۡمُ الَّاَشْهَادُ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِيۡنَ مَعٰذِرَتُهُمْ
 وَلَهُمُ الْعَنَةُ وَاَلَهُمۡ سُوۡءُ الدَّارِ ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسٰى
 الْهُدٰى وَاَوْرَثْنَا بَنِيۡ اِسْرٰءِيۡلَ الْكِتٰبَ ﴿٥٤﴾ هٰدِيۡ
 وَذِكْرٰى لِاُولٰٓئِىۡ الَّاَلْبٰبِ ﴿٥٥﴾ فَاَصْبِرْ وَاَعِدْ لِهٰٓؤُلٰٓئِىۡ
 حَقًّا وَاَسْتَغْفِرْ لِذٰنِبِكۡ وَسَيِّحۡ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
 وَاَلْبَكْرِ ﴿٥٦﴾ اِنَّا لَنَدْعُوۡا الْكٰفِرِيۡنَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ
 اَللّٰهُ يَغْيِرُ سُلٰطِنَ اٰتَمُهُمْ اِنۡ فِيۡ صُدُوۡرِهِمۡ اِلَّا كِبٰرٌ
 مَّا هُمْ بِبٰلِغِيۡهِ فَاَسْتَعِذۡ بِاللّٰهِ اِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيۡرُ ﴿٥٧﴾ لَخَلَقُ السَّمٰوٰتِ وَاَلْاَرْضِ اَكْبَرَۤ اَمۡرًا
 خَلَقَ النَّاسَ وَلٰكِنۡ اَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوۡنَ ﴿٥٨﴾
 وَمَا يَسْتَوِيۡ الَّاَعْمٰى وَاَلْبَصِيۡرُ وَاَلَّذِيۡنَ ءَامَنُوۡا وَعَمِلُوا
 الصّٰلِحٰتِ وَلَا الْمُسِيۡقَ قَلِيۡلًا مَّا تَذَكَّرُوۡنَ ﴿٥٩﴾

منصورون فيها^(١). وهكذا نصر الله نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناراه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وحذلهم وقتل صناديدهم، وأسر سرائهم، فاستاقهم مقرنين في الأضفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقررت عينه ببليده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأقذته الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز

(١) الطبري: ٤٠١/٢١

تبعًا أي: أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿فهل أنشد مغنوتك عنا نصيبًا من النار﴾ أي: قسطًا تتحملونه عنا ﴿قال الذين استكبروا إنا كل فيها﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئًا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿إنا لله قد حكم بين العباد﴾ أي: فقسمت بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وقال الذين في النار ليخرننه جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم، ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿انصتوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة وهم كالسجانيين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب، فقالت لهم الخزانة رادين عليهم: ﴿اولم تآتكم رسلكم بالبينت﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الراسل ﴿قالوا بلى قالوا فادعوا﴾ أي: أنتم لأنفسكم، فتحن لا ندعو لكم، ولا نسمع منكم، ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء. ثم نخبركم: أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا: ﴿وما دعاة الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: إلا في ذهاب ولا يتقبل ولا يستجاب.

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ ﴿وقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ ﴿هدى وذكرى لأولي الألباب﴾ ﴿فأصبر إنا وبالعشي والإبكر﴾ ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتتهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾ ﴿نصرة الرسل والمؤمنين﴾

قوله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ قال السدسي: لم يبعث الله عز وجل رسولًا قط إلى قوم يقتلونه أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم

إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّنٌ لَّارِيْبٌ فِيهَا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٥٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرَاتٍ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُؤْفِكُونَ ﴿٦٠﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَابَعُونَ اللَّهَ بِحُجَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي السِّبْتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾

يَحَاصِلُ لَهُمْ، بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْمَرْفُوعُ وَقَوْلُهُمْ وَقَضَاهُمْ هُوَ الْمَوْضُوعُ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أَي: مِنْ حَالٍ مِثْلَ هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿أَوْ مِنْ شَرِّ مِثْلَ هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الشُّمُوكُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّنٌ لَّارِيْبٌ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

[الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا عَلَى أَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَهُمَا أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ بَدَأَةً وَإِعَادَةً، فَمَنْ قَدَرَ عَلَى

وَجَلٍّ، وَدَعَا عِبَادَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى اللَّهِ جَلٍّ وَعَلَا، وَفَتَحُوا الْبِلَادَ وَالرَّسَاتِيْقَ، وَالْأَقَالِيْمَ، وَالْمَدَائِنَ، وَالْقُرَى، وَالْقُلُوبَ، حَتَّى انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. ثُمَّ لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا مَنْصُورًا ظَاهِرًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ النُّصْرَةُ أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ وَأَجَلَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَشْهُادُ: الْمَلَائِكَةُ (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ وَقَرَأَ آخَرُونَ: (يَوْمَ) بِالرَّفْعِ كَأَنَّهُ فَسَّرَهُ بِهِ (وَيَوْمَ) يَقُومُ الْأَشْهُادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ (٢) وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ﴿مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أَي: لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عُدْرٌ وَلَا فِدْيَةٌ ﴿وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ﴾ أَي: الْإِبْعَادُ وَالطَّرْدُ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وَهِيَ النَّارُ. قَالَهُ الشُّدِّيُّ.

[الإشارة إلى نجاح الرسول والمؤمنين بمثل موسى

وبني إسرائيل]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالنُّورِ ﴿وَأَوْثَقْنَا بِتِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أَي: جَعَلْنَا لَهُمُ الْعَاقِبَةَ وَأَوْثَقْنَا لَهُمْ بِلَادَ فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُ وَحَوَاصِلَهُ وَأَرْضَهُ بِمَا صَبَرُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاتَّبَعَ رَسُولُهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أَوْثَقَهُ وَهُوَ التَّوْرَةُ: ﴿هُدًى وَكَرِّمًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وَهِيَ الْعُقُوبُ الصَّحِيحَةُ السَّلِيمَةُ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَصْرًا﴾ أَي: يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أَي: وَعْدَانَا أَنَا سَتُعَلِّي كَلِمَتَكَ وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنِ اتَّبَعَكَ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَهَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاسْتَفْهِرْ لِذُنُوبِكَ﴾ هَذَا تَهَيُّجٌ لِلْأُمَّةِ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ ﴿وَسَيِّحٌ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَمِيِّ﴾ أَي: فِي أَوَاخِرِ النَّهَارِ وَأَوَائِلِ اللَّيْلِ ﴿وَالْإِكْرَارِ﴾ وَهِيَ أَوَائِلُ النَّهَارِ وَأَوَاخِرُ اللَّيْلِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْتَرِ سُلْطَنَ اتْنَهُمْ﴾ أَي: يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيَرُدُّونَ الْحُجَجَ الصَّحِيحَةَ بِالشُّبُهَةِ الْفَاسِدةِ بِلا بُرْهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ مِنَ اللَّهِ ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْقِيهِ﴾ أَي: مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَاحْتِقَارَ لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهِ، وَلَيْسَ مَا يُرُومُونَهُ مِنْ إِحْمَادِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الْبَاطِلِ

(١) الطبري: ٤٠٢/٢١ (*): قوله: بالرفع أي بتنوين الرفع هذا، ولم نجد في كتب القراءة الميسرة. والله أعلم.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ». ثُمَّ قَرَأَ: «أَدْعُوهُ اسْتَجِبْ لَكُمْ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»^(٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ أَصْحَابُ السَّنَنِ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ^(٤). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي» أَي: عَنْ دُعَائِي وَتَوْحِيدِي «سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» أَي: صَاغِرِينَ حَقِيرِينَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ شَعِيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُحَسِّرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الدَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ، يَلْعَلُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولَسٌ، تَلْعَلُهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ، عُصَاةَ أَهْلِ النَّارِ»^(٥).

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِيَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٦) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تَوْفِكُونَ ﴿٧﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْمَدُونَ ﴿٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

[آيَاتُ اللَّهِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى خَلْقِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ الَّذِي يَسْكُنُونَ فِيهِ وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِ تَرْدُدِهِمْ فِي الْمَعَاشِ بِالنَّهَارِ، وَجَعَلَ النَّهَارَ مُبْصِرًا أَي: مُضِيئًا لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ بِالْأَشْفَارِ وَقَطَعَ الْأَقْطَارِ وَالتَّمَكَّنَ مِنَ الصَّنَاعَاتِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أَي: لَا يَشْكُرُونَ بِشُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ،

ذَلِكَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يُقَدِّرْ عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وَقَالَ هُنَا: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَلِهَذَا لَا يَتَذَكَّرُونَ هَذِهِ الْحُجَّةَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَهَا، كَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَيُنْكِرُونَ الْمَعَادَ اسْتِيعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا، وَقَدْ اعْتَرَفُوا بِمَا هُوَ أَوْلَىٰ مِمَّا أَنْكَرُوا ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: كَمَا لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَيْئًا. وَالْبَصِيرُ: الَّذِي يَرَىٰ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ، بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ الْأَبْرَارُ وَالْكَافِرَةُ الْفَجَّارُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: مَا أَقَلَّ مَا يَتَذَكَّرُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ﴾ أَي: لَكَائِبَةٌ وَوَاقِعَةٌ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي: لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا بَلْ يُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١٠)
[الْأَمْرُ بِالِدُّعَاءِ]

هَذَا مِنْ فَضْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَرَمِهِ أَنَّهُ نَدَبَ عِبَادَهُ إِلَىٰ دُعَائِهِ، وَتَكَمَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، كَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: يَا مَنْ أَحَبَّ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤَالَهُ، وَيَا مَنْ أَبْغَضُ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرَكَ يَا رَبَّ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّاعِرُ:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ

وَبُنِيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ
وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ: أُعْطِيتَ هَذِهِ الْأُمَّةُ ثَلَاثًا لَمْ تُعْطَهُنَّ أُمَّةٌ قَبْلَهَا [إِلَّا] نَبِيٌّ: كَانَ إِذَا أَرْسَلَ اللَّهُ نَبِيًّا قَالَ لَهُ: أَنْتَ شَاهِدٌ عَلَىٰ أُمَّتِكَ، وَ[جَعَلْتُمْ] شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: لَيْسَ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَرَجٍ، وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: ادْعُنِي اسْتَجِبْ لَكَ، وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(١١).

(١) القرطبي: ٣٢٧/١٥ (٢) أحمد: ٢٧١/٤ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٠٨/٨ والنسائي في الكبرى: ٤٠٥/٦ وابن ماجه: ١٢٥٨/٢ والطبري: ٤٠٧، ٤٠٦/٢١ (٤) أبو داود: ١٦١/٢ وتحفة الأحوذى: ١٢١/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٥٠/٦ (٥) أحمد: ١٧٩/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلِ وَلْيَبْلُغُوا أَجْلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا فَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يَصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيِنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُن نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَصِلُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا تِرْيَاقُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْتَوْفِيكَ فَإِنَّمَا يَرْتَعُونَ ﴿٧٧﴾

وَالنَّسَائِي (٢).

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأَمُرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلِ وَلْيَبْلُغُوا أَجْلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا فَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

[النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ وَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ] يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَى أَنْ يُعْبَدَ أَحَدٌ سِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالأَنْدَادِ وَالأَوْتَانِ، وَقَدْ بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ سِوَاهُ فِي قَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿فَأَنْ تُوَفَّقُونَ﴾ أَي: فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا، بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ مَنْحُوَّةٌ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَابَعُوا اللَّهَ يُجَاهِدُونَ﴾ أَي: كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ كَذَلِكَ أَفِكُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، بَلْ بِمَجْرَدِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى. وَجَحَدُوا حُجَجَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرًا﴾ أَي: جَعَلَهَا لَكُمْ مُسْتَقْرًا بِسَاطِئِ مَهَادَا تَعِيشُونَ عَلَيْهَا، وَتَنْصَرِفُونَ فِيهَا، وَتَمُتُونَ فِي مَنَازِلِهَا، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ؛ لِئَلَّا تَبِيدَ بِكُمْ ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أَي: سَقَفًا لِلْعَالَمِ مَحْظُوظًا ﴿وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أَي: فَخَلَقَكُمْ فِي أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ، وَمَنْحَكُمْ أَكْمَلَ الصُّورِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ النَّبَاتِ﴾ أَي: مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَابِ فِي الدُّنْيَا، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَالِقُ الدَّارِ وَالسَّكَّانِ وَالأَرْزَاقِ، فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]. وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا بَعْدَ خَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: فَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلَّهُمْ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: هُوَ الْحَيُّ أَرْزَلًا وَأَبَدًا لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، وَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ ﴿فَكَادَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ مِنَ الْيَدِ﴾ أَي: مُؤَحِّدِينَ لَهُ مُؤَيَّرِينَ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يَقُولُ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النُّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَهْتَدِي بِهِنَّ ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ (١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ

(١) أحمد: ٤/٤ (٢) مسلم: ٤١٥، ٤١٦، وأبو داود: ٢/

١٧٤، ١٧٣ والنسائي: ٣/٦٩، ٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٦

سُورَةُ الْغَافِرِ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
 وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
 بِشَايِئَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ
 هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ
 لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
 مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
 الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَثِيرِكُمْ ءَايَتِهِ ءَايَاتٍ
 اللَّهُ تَنْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرًا مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
 قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آخَرَهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
 ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ
 مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
 رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
 مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعِهِمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلَتْ
 اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوسٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
 لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوعًا ﴿٧٨﴾ أَيُّ: هُوَ الَّذِي
 يُغَلِّبُكُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلِّهَا، وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَنْ
 أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ ﴿٧٩﴾ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ
 قَبْلِ ﴿٨٠﴾ أَيُّ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوجَدَ وَيَخْرُجَ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ، بَلْ
 تُسْقِطُهُ أُمُّهُ سَقَطًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُتَوَفَّى صَغِيرًا وَشَابًا وَكَهْلًا
 قَبْلَ الشَّيْخُوخَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِنَسِيبِنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي
 الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَبَجَلُ مَسْمَى﴾. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا:
 ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلَ مَسْمَى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:
 تَتَذَكَّرُونَ النَّبْتَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾
 أَيُّ: هُوَ الْمُتَمَرِّدُ بِذَلِكَ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ
 ﴿فَإِذَا فَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَيُّ لَا يُخَالَفُ وَلَا
 يُمَانِعُ، بَلْ مَا شَاءَ كَانَ لَا مَحَالَةَ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ
 يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٦﴾
 فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا
 كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ
 نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ ذَلِكَ بِمَا
 كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾
 ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
 الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

[مَصِيرُ الْمُجَادِلِينَ الْمُكْذِبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَلَا تَتَجَبَّبُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَبِجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ كَيْفَ تُصْرَفُ
 عُقُولُهُمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ إِلَى الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ
 وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴿٧٦﴾ أَيُّ: مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ ﴿سَوْفَ
 يَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، مِنَ الرَّبِّ جَلَّ
 جَلَالُهُ لِهَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِئَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكْذِبِينَ﴾
 [المرسلات: ١٥]، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَعْتَقِهِمْ
 وَالسَّلْسِلُ﴾ أَيُّ: مُتَّصِلَةٌ بِالْأَعْلَالِ بِأَيْدِي الرِّبَانِيَّةِ يُسْحَبُونَهُمْ
 عَلَى وُجُوهِهِمْ، تَارَةً إِلَى الْحَمِيمِ وَتَارَةً إِلَى الْجَحِيمِ،
 وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
 يُسْجَرُونَ ﴿٧٦﴾ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هَلْوَيْهَ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ
 بِهَا الْمُكْرِمُونَ﴾ ﴿١٢﴾ يَطْرُقُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمِ آدَمَ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]،
 وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ أَكْلِهِمُ الرَّقُومَ وَشُرْبِهِمُ الْحَمِيمِ: ﴿ثُمَّ

إِنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاصْبِرْ السَّيِّئَاتِ مَا
 اصْبَحَتْ السَّيِّئَاتِ﴾ فِي سُورَةِ وَحْمٍ ﴿١٢﴾ وَطِيلَ مِنْ مَجْمُوعِ ﴿١٢﴾ لَا بَأْسَ
 وَلَا كَرِيمٍ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ﴾
 لَا كُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُؤْمٍ ﴿١٢﴾ قَالُونَ مِمَّا الْبَطُونَ ﴿١٢﴾ فَتَرْوُونَ عَلَيْهِ مِنْ
 اللَّيْمِ ﴿١٢﴾ فَتَرْوُونَ شَرِبَ اللَّيْمِ ﴿١٢﴾ هَذَا نَزْلُكُمْ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٢﴾
 [الواقعة: ٤١-٥٦]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ
 الرَّقُومِ﴾ طَعَامُ الْأَيْبِ ﴿١٢﴾ كَالْمَهْلِ يُغْلَى فِي الْبَطُونَ ﴿١٢﴾
 كَعَلِ الْحَمِيمِ ﴿١٢﴾ حُدُوهُ قَاتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ صُوبُوا
 قَوْقُ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿١٢﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْكَرِيمُ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْرُونَ ﴿الدخان: ٤٣-٥٠﴾
 أَيُّ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّحْقِيرِ
 وَالتَّضْغِيرِ وَالتَّهْكُمْ وَالإِسْتِهْزَاءِ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ
 قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ الْأَصْنَامُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ قِيلَ
 لَهُمْ: أَيْنَ الْأَصْنَامُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ
 يَنْصُرُونَكُمْ الْيَوْمَ ﴿١٢﴾ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴿١٢﴾ أَيُّ: ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُونَا
 ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أَيُّ: جَحَدُوا عِبَادَتَهُمْ

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَسَلِّطُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ وَرَبِّكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

[الْأَنْعَامُ أَيْضًا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُثَمِّنًا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالغَنَمُ، فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ، فَالْإِبِلُ تُرَكَّبُ وَتُؤَكَّلُ وَتُحَلَبُ، وَيُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَثْقَالُ فِي الْأَسْفَارِ وَالرَّحَالُ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ وَالْأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ. وَالْبَقَرُ تُؤَكَّلُ وَيُشْرَبُ لَبْنُهَا، وَتُحَرَّثُ عَلَيْهَا الْأَرْضُ. وَالغَنَمُ تُؤَكَّلُ وَيُشْرَبُ لَبْنُهَا وَالْجَمِيعُ تُحْرَسُ أَصْوَابُهَا وَأَشْعَارُهَا وَأَوْبَارُهَا، فَيَتَّخِذُ مِنْهَا الْأَثَاثُ وَالثِّيَابُ وَالْأَمْنِيعَةُ كَمَا فَضَّلَ وَبَيَّنَّ فِي أَمَاكِنَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَسُورَةِ النَّحْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلِذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هَهُنَا ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَسَلِّطُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٧٧﴾. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَرَبِّكُمْ آيَاتِهِ﴾ ﴿أَيُّ: حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ ﴿أَيُّ: لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ إِنْكَارِ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِهِ إِلَّا أَنْ تُعَادِبُوا وَتُكَابِرُوا﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَسَاقَا فِي الْأَرْضِ فَمَا آخَرُهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧٩﴾﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٠﴾﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلْنَا اللَّهُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتٌ فَتَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ فَجَاءَتْكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْحَبَّ وَالذُّرَّ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَ وَالسَّكَاكُوتَ وَبَارَكْنَا فِي الْأَرْضِ لِيُنْزِلَ فِيهَا مِنْهَا حَبًّا وَالزُّبْنَ وَالسَّيِّدَاتِ وَمِنْهَا جَبَلٌ مَسْبُورٌ ﴿٨٢﴾﴾ فَجَاءَتْكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْحَبَّ وَالذُّرَّ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَ وَالسَّكَاكُوتَ وَبَارَكْنَا فِي الْأَرْضِ لِيُنْزِلَ فِيهَا مِنْهَا حَبًّا وَالزُّبْنَ وَالسَّيِّدَاتِ وَمِنْهَا جَبَلٌ مَسْبُورٌ ﴿٨٣﴾﴾ فَجَاءَتْكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْحَبَّ وَالذُّرَّ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَ وَالسَّكَاكُوتَ وَبَارَكْنَا فِي الْأَرْضِ لِيُنْزِلَ فِيهَا مِنْهَا حَبًّا وَالزُّبْنَ وَالسَّيِّدَاتِ وَمِنْهَا جَبَلٌ مَسْبُورٌ ﴿٨٤﴾﴾ فَجَاءَتْكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْحَبَّ وَالذُّرَّ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَ وَالسَّكَاكُوتَ وَبَارَكْنَا فِي الْأَرْضِ لِيُنْزِلَ فِيهَا مِنْهَا حَبًّا وَالزُّبْنَ وَالسَّيِّدَاتِ وَمِنْهَا جَبَلٌ مَسْبُورٌ ﴿٨٥﴾﴾

[الْعِبْرَةُ بِحَالِ مَنْ سَبَقَ]

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنِ الْأُمَّمِ الْمُكَلَّبَةِ بِالرُّسُلِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ، وَمَاذَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ مَعَ شِدَّةِ قُوَّاهُمْ وَمَا أَتْرَوْهُ فِي الْأَرْضِ وَجَمَعُوهُ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَلَا رَدَّ عَنْهُمْ ذَرَّةً مِنْ بَأْسِ اللَّهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ بِالْبَيِّنَاتِ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَاتِ، لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِنَّ، وَلَا أَقْبَلُوا عَلَيْهِنَّ، وَاسْتَعْتَبُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فِي زَعْمِهِمْ عَمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ لَنْ نُبْعَثَ،

كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿ثُمَّ لَوْ فَكَّنْ فَنَتْنَبَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ ﴿أَيُّ: تَقُولُ لَهُمْ الْمَلَائِكَةُ: هَذَا الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ: جَزَاءٌ عَلَىٰ فَرْحِكُمْ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ حَقٍّ وَمَرَحِكُمْ وَأَشْرِكِكُمْ وَبَطْرِكِكُمْ﴾ ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَمَنْ قَبَسَ مَوْىِ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿أَيُّ: فَبَسَسَ الْمَنْزِلُ وَالْمَقِيلُ الَّذِي فِيهِ الْهَوَانُ، وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ، لِمَنْ اسْتَكْبَرَ عَنِ آيَاتِ اللَّهِ وَاتَّبَعَ دَلَالِيهِ وَحُجَجِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَأَيَّمَا لِرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي يَعْدِلُهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَأَلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بَيِّنَاتٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَصُوعًا بِالْحَقِّ وَخَيْرًا هُنَالِكَ الْمَبْطُلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالْبِشَارَةِ بِالْفَتْحِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنْ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَىٰ قَوْمِكَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنْ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿فَكَأَيَّمَا لِرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي يَعْدِلُهُمْ﴾ ﴿أَيُّ: فِي الدُّنْيَا. وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَفَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْ كِبْرَائِهِمْ وَعَظَمَاتِهِمْ أُبِيدُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ، ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي حَيَاتِهِ ﷺ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ تَوَفِّيكَ فَأَلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿أَيُّ فَتَدْبِقُهُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسْلِمًا لَهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ سِوَاءِ [الآية: ١٦٤] ﴿أَيُّ: مِنْهُمْ مَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبْرَهُمْ وَقَصَصَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ، كَيْفَ كَذَّبُوهُمْ ثُمَّ كَانَتْ لِلرُّسُلِ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ﴾ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ ذَكَرَ بِأَضْعَافٍ أَضْعَافٍ، كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِرُسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بَيِّنَاتٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ ﴿أَيُّ: وَلَمْ يَكُنْ لِيُؤَادِجِدِ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمَهُ بِخَارِقٍ لِلْعَادَاتِ إِلَّا أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَبَدُلْ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وَهُوَ عَذَابُهُ وَتَكَالُفُهُ الْمُحِيطُ بِالْمُكَلَّبِينَ ﴿فَصُوعًا بِالْحَقِّ﴾ فَيُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ، وَيُهْلِكُ الْكَافِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَخَيْرٌ هُنَالِكَ الْمَبْطُلُونَ﴾.

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ
 آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
 أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ
 مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
 فَأَعْمَلْنَا عَمَلُومُنَا ۝٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ
 أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ
 لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
 هُمْ كَافِرُونَ ۝٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ قُلْ أَيُّكُمْ لَكَ ذِي خَلْقٍ
 الْأَرْضُ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩
 وَجَعَلْ فِيهَا رِوْسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكٌ فِيهَا وَقَدَّرْ فِيهَا أَقْوَامًا فِي
 أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
 فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١

وَلَنْ نُعْذِبَ ۝١. وَقَالَ السُّدِّيُّ: فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ
 بِجَهَاتِهِمْ ۝٢. فَأَتَاهُمْ مِنْ بَاسِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ
 ﴿وَحَافٍ بِهِمْ﴾ أَيُّ: أَحَاطَ بِهِمْ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾
 أَيُّ: يُكْذِبُونَ وَيَسْتَبْعِدُونَ وَفُوعُهُ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أَيُّ:
 عَابَتُوا وَفُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿قَالُوا أَمَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا
 بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أَيُّ: وَحَدُّوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَفَرُوا
 بِالطَّاعُونَ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا تَقَالُ الْعَثْرَاتُ، وَلَا تَنْفَعُ
 الْمَعْذِرَةُ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ جِئِ أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ:
 ﴿أَمَسَتْ أَنفُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا كُنْ وَوَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ
 وَكُنْتَ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١] أَيُّ: فَلَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ
 مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ قَدِ اسْتَجَابَ لِتَبِيئِهِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
 دُعَاؤَهُ جِئِ قَالَ: ﴿وَأَسَدَّدْتُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَلَمَّا
 يَكُ يَفْعُهُمْ إِيْمَانَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي
 عِبَادَتِهِ﴾ أَيُّ: هَذَا حُكْمُ اللَّهِ فِي جَمِيعِ مَنْ تَابَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ
 الْعَذَابِ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِزْ» ۝٣. أَيُّ فَإِذَا عَرَّعَ،
 وَبَلَغَتْ الرُّوحُ الْحَنْجَرَةَ، وَعَايَنَ الْمَلِكُ فَلَا تَوْبَةَ جِئِي،
 وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾
 [آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُؤْمِنِ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ].

تَفْسِيرُ سُورَةِ فَصَّلَتْ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
 قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
 لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي
 آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُومُنَا ۝٥
 [صِفَةُ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالُ الْمُعْرِضِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بِعِنْيِ
 الْقُرْآنِ مُنْزَلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ
 الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ٥٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُ ۝١﴾

لِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١١ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٢ عَلَ قَلْبِكَ لِتَكُونَ
 مِنَ الْمُنذِرِينَ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
 ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أَيُّ: بَيَّنَّتْ مَعَانِيهِ وَأَحْكَمَتْ
 أَحْكَامَهُ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أَيُّ: فِي حَالِ كَوْنِهِ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا بَيِّنًا
 وَاضِحًا، فَمَعَانِيهِ مُفْصَّلَةٌ، وَالْفَاظُ وَاضِحَةٌ غَيْرُ مُشْكَلَةٍ،
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ
 خَبِيرٍ﴾ أَيُّ: هُوَ مُعْجَزٌ مِنْ حَيْثُ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ ﴿لَا يَأْتِيهِ
 الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ جَمِيدٍ
 [فصلت: ٤٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا
 يَعْرِفُ هَذَا الْبَيَانَ وَالْوُضُوحَ الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ ﴿بَشِيرًا
 وَنَذِيرًا﴾ أَيُّ: تَارَةً يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَارَةً يُنذِرُ الْكَافِرِينَ
 ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أَيُّ: أَكْثَرُ قُرَيْشٍ فَهُمْ لَا
 يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا مَعَ بَيَانِهِ وَوُضُوحِهِ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي

(١) الطبري: ٤٢٢/٢١ (٢) الطبري: ٤٢٢/٢١ (٣) ابن
 ماجه: ١٤٢٠/٢

فَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
 وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
 الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ
 عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِن
 خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
 فَاِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
 الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
 ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسُوتٍ لِنُذِقَهُمْ
 عَذَابَ الْغُرْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأُخْرَىٰ لَهُمْ وَلَهُمْ
 لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى
 الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ لَهْوًا كَانُوا كَالْحِيزِ
 ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ
 أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ هَاشِدٌ
 عَلَيْهِمْ سَمِعَتْهُمْ وَأَبْصُرَتْهُمْ جَلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

بِسَنَةِ وَيَضْفِ فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ الصَّلَوَاتِ
 الْخَمْسَ وَفَضَّلَ شُرُوطَهَا وَأَرْكَانَهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ
 شَيْئًا فَشَيْئًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: غَيْرُ
 مَقْطُوعٍ وَلَا مَجْبُوبٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُكَلِّمُنَا فِيهِ أَبَدًا﴾
 [الكهف: ٣] وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوفٍ﴾
 [هود: ٨].

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ
 لَهُمْ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا مِنْ قُوَّتِهَا وَنَزَلَ
 فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّالِكِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
 إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَيَلَا أَرْضِ انثينا طَرَعًا أَوْ كَرِهًا قَالَتَا
 أَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٣﴾ فَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ

أَكِنَّةٍ ﴿١٤﴾ أَي: فِي غُلْفٍ مُغَطَّاةٍ ﴿وَمَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَادَانَا
 وَقُرْ﴾ أَي: صَمَّمْ عَمَّا جِئْنَا بِهِ ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾
 فَلَا يَصِلُ إِلَيْنَا شَيْءٌ مِمَّا نَقُولُهُ ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ﴾ أَي:
 اعْمَلْ أَنْتَ عَلَى طَرِيقَتِكَ، وَنَحْنُ عَلَى طَرِيقَتِنَا لَا تَتَابَعُكَ .
 ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ
 فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا﴾ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ
 الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١٨﴾
 [الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُكذِّبِينَ
 الْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ
 وَاحِدٌ﴾ لَا كَمَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَرْبَابِ
 الْمُتَفَرِّقِينَ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أَي:
 أَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ عَلَىٰ مَنَوَالٍ مَا أَمَرَكُم بِهِ عَلَى السَّبِيلَةِ
 الرُّسُلِ ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾ أَي لِسَالِفِ الذُّنُوبِ ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾
 أَي: ذَمَّارٌ لَهُمْ وَهَلَاكٌ عَلَيْهِمْ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾
 قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الَّذِينَ لَا
 يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(١) . وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ^(٢) . وَهَذَا
 كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ حَابَ مَنْ
 دَسَّاهَا [الشمس: ١٠، ٩]، وَكَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ
 مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَذَكَرَ اسَدُ رَبِيهِ فَصَلَّىٰ ﴿[الأعلى: ١٤، ١٥]، وَقَوْلِهِ
 عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن زَكَّاهَا﴾ [النازعات: ١٨] وَالْمُرَادُ
 بِالزَّكَاةِ هَهُنَا طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَمِنْ أَمِّهِمْ
 ذَلِكَ طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الشَّرْكِ، وَزَكَاةُ الْمَالِ إِنَّمَا سُمِّيَتْ
 زَكَاةً لِأَنَّهَا تُطَهَّرُهُ مِنَ الْحَرَامِ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِيَزِيدَتْهُ وَبِرَّكِيهِ،
 وَكَثْرَةَ نَفْعِهِ وَتَوْفِيقًا إِلَى اسْتِعْمَالِهِ فِي الطَّاعَاتِ .

وَقَالَ قَتَادَةُ: يَمْنَعُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ . وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ
 عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣) . وَفِيهِ نَظَرٌ؛
 لِأَنَّ إِجْبَابَ الزَّكَاةِ إِنَّمَا كَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ إِلَى
 الْمَدِينَةِ، عَلَى مَا ذَكَرَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ، وَهَذِهِ الْأَيَّةُ مَكِّيَّةٌ اللَّهُمَّ
 إِلَّا أَنْ يُقَالَ: لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ أَصْلُ الصَّدَقَةِ وَالزَّكَاةِ كَانَ
 مَأْمُورًا بِهِ فِي ابْتِدَاءِ الْبِعْثَةِ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَتُوا
 حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِمْ﴾ . فَأَمَّا الزَّكَاةُ ذَاتُ النَّصْبِ وَالْمَقَادِيرِ
 فَلَمَّا بَيَّنَّ أَمْرَهَا بِالْمَدِينَةِ، وَيَكُونُ هَذَا جَمْعًا بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ .
 كَمَا أَنَّ أَصْلَ الصَّلَاةِ كَانَ وَاجِبًا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
 غُرُوبِهَا فِي ابْتِدَاءِ الْبِعْثَةِ، فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ

(١) الطبري: ٢١/٤٣٠ (٢) الطبري: ٢١/٤٣٠ (٣) الطبري:

سَمَاءٍ أَمْرًا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿٢٧﴾

[بعضُ تفاصيلِ خلقِ هذا الكونِ]

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا
مَعَهُ غَيْرَهُ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ،
الْمُقْتَدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي
خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا أَيُّ نَظْرَاءَ وَأَمْثَلًا
تَعْبُدُونَهَا مَعَهُ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ هُوَ
رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلُّهُمْ. وَهَذَا الْمَكَانُ فِيهِ تَفْصِيلُ لِقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فَفَصَّلَ هُنَا
مَا يَخْتَصُّ بِالْأَرْضِ مِمَّا اخْتَصَّ بِالسَّمَاءِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ
الْأَرْضَ أَوَّلًا؛ لِأَنَّهَا كَأَسَاسٍ، وَالْأَصْلُ أَنْ يُبْدَأَ
بِالْأَسَاسِ ثُمَّ بَعْدَهُ بِالسَّقْفِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ
الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ
فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾... الآية [البقرة: ٢٩]. فَأَمَّا قَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾
وَأَغَطَّسَ لِبِلْهَا وَأَخْرَجَ ضُعْفَهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ
مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾
[النازعات: ٢٧-٣٣] فَبَيَّنَ هَذِهِ الْآيَةَ أَنَّ [دُحُوًّا] الْأَرْضِ
كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، فَأَمَّا خَلْقُ الْأَرْضِ فَقَبْلَ خَلْقِ
السَّمَاءِ بِالْبَصْرِ، وَبِهَذَا أَجَابَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
فِيمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ صَحِيحِهِ، فَإِنَّهُ
رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنِّي لِأَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ، قَالَ:
﴿فَلَا أَتَسَابَّ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]،
﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا
يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ رِيئًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾
[الأنعام: ٢٣] فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ
أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾
[النازعات: ٢٧-٣٠] فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ الْأَرْضِ، ثُمَّ
قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي
يَوْمَيْنِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿طَائِفِينَ﴾ فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ
قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ، قَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[النساء: ١٠٠] ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] ﴿سَمِيمًا بَصِيرًا﴾
[النساء: ١٣٤] فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَلَا أَتَسَابَّ بَيْنَهُمْ

يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فِي التَّفْخَةِ الْأُولَى،
ثُمَّ نَفِخَ فِي الصُّورِ ﴿فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فَلَا أَتَسَابَّ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا
يَتَسَاءَلُونَ بَيْنَهُمْ، [ثُمَّ] فِي التَّفْخَةِ الْآخِرَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧]، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ رِيئًا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]
فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَيِّرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ، فَيَقُولُ
الْمُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولَ: لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ فَيُخْتَمَ عَلَى
أَفْوَاهِهِمْ، فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُعْرَفُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا، وَعِنْدَهُ ﴿يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية
[النساء: ٤٢]، وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ثُمَّ
اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ثُمَّ دَحَى
الْأَرْضَ، وَدَحَاهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرَعَى وَخَلَقَ
الْجِبَالَ وَالرَّمَالَ وَالْجَمَادَ وَالْأَكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ
آخَرَيْنِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]
وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فَخَلَقَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا مِنْ
شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] سَمَّى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ،
أَيُّ: لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَزِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ
بِهِ الَّذِي أَرَادَ. فَلَا يَخْتَلِفَنَّ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ، فَإِنَّ كَلَامًا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْأَحَدِ وَيَوْمَ
الْاِثْنَيْنِ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا مِنْ قَوْفِهَا وَبَرَكَ فِيهَا﴾ أَيُّ: جَعَلَهَا
مُبَارَكَةً قَابِلَةً لِلْخَبْرِ وَالْبَدْرِ وَالْغُرَاسِ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا،
وَهُوَ مَا يَخْتَاجُ أَهْلُهَا إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَمَاجِنِ الَّتِي تُزْرَعُ
وَتُغْرَسُ يَعْنِي يَوْمَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَاءِ، فَهَمَا مَعَ الْيَوْمَيْنِ
السَّابِقَيْنِ أَرْبَعَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّابِقِينَ
أَيُّ: لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ لِيَعْلَمَهُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ
وَمُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ جَعَلَ فِي
كُلِّ أَرْضٍ مَا لَا يَضِلُّ فِي غَيْرِهَا وَمِنْهُ الْعَضْبُ بِالْيَمَنِ
وَالسَّابُورِيُّ بِسَابُورٍ وَالطَّيْلَانِسَةُ بِالرِّيِّ^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَاءً لِلْسَّابِقِينَ﴾ أَيُّ: لِمَنْ
أَرَادَ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ^(٣). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ ﴿وَقَدَّرَ

(١) فتح الباري: ٤١٨/٨ (٢) الطبري: ٤٣٦/٢١ (٣)

فِيهَا أَقْوَمَتْ فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءً لِلْمَسْأَلِينَ ﴿١٣﴾ أَي: عَلَى وَفَى [مُرَادٍ] مَنْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى رِزْقٍ أَوْ حَاجَةٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ مَا هُوَ مُنْتَجِحٌ إِلَيْهِ ^(١). وَهَذَا الْقَوْلُ يُشْبِهُ مَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وَهُوَ بَخَارُ الْمَاءِ الْمُتَصَاعِدِ مِنْهُ جِبِنٌ خُلِقَتْ الْأَرْضُ ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أَي: اسْتَجَبْنَا لِأَمْرِي وَأَنْفَعِلَا لِغَلْبِي طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكْرَهَتَيْنِ ﴿قَالَتَا أَنْتَانَا طَائِعَتَيْنِ﴾ أَي: بَلْ نَسْتَجِيبُ لَكَ مُطِيعِينَ بِمَا فِينَا مِمَّا تُرِيدُ خَلْقَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَمِيعًا مُطِيعِينَ لَكَ، ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أَي: فَفَرَّغَ مِنْ تَسْوِيَتِهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ أَي: آخَرَيْنِ وَهُمَا يَوْمُ الْخَيْبِ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أَي: وَرَتَّبَ مَقَرًّا فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴿وَرَبَّنَا اسْمَاءَ الدُّنْيَا بِصَبِيحٍ﴾ وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْمُنِيرَةُ الْمُشْرِقَةُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿وَجَفْظًا﴾ أَي حَرَسًا مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ تَسْتَوِيَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أَي: الْعَزِيزِ الَّذِي قَدَّ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَعَلَبَهُ وَقَهَرَهُ، الْعَلِيمُ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَكَتَاتِهِنَّ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [١٤] إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبَّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا بَرَاءً أَنْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِبَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهَلُونَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٨﴾ وَبَيَّنَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٩﴾

[تَنْبِيهُ لِلْمُكْدِبِينَ وَتَذَكِيرٌ لَهُمْ بِقِصَّةِ عَادٍ وَثَمُودَ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكْدِبِينَ بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ إِنْ أَعْرَضْتُمْ عَمَّا جِئْتُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنِّي أَنْذَرُكُمْ حُلُولَ نِقْمَةِ اللَّهِ بِكُمْ كَمَا حَلَّتْ بِالْأَمَمِ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُكْدِبِينَ بِالْمُرْسَلِينَ ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أَي: وَمَنْ شَاكَلَهُمَا مِمَّنْ فَعَلَ كَفِعْلِهِمَا إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴿كَقَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿وَأَذَكَّرْنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أَي: فِي الْفَرَى الْمُجَاوِرَةِ لِبِلَادِهِمْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ يَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَمُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، [وَرَأَوْا] مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النِّقْمِ، وَمَا أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ النِّعَمِ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا وَلَا صَدَّقُوا، بَلْ كَذَّبُوا وَجَحَدُوا وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبَّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أَي: لَوْ أَرْسَلَ اللَّهُ رُسُلًا لَكَانُوا مَلَائِكَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أَي: أَيُّهَا الْبَشَرُ ﴿كَافِرُونَ﴾ أَي: لَا تَتَّبِعُوا وَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَي: بَعَاوًا وَعَتَاوًا وَعَصَوْا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أَي: مَتَا بِشِدَّةِ تَرْكِيبِهِمْ وَقَوَاهُمْ وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ بِهَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أَي: أَفَمَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَنْ يُبَارِزُونَ بِالْعَدَاوَةِ فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَرَكَّبَ فِيهَا قَوَاهَا الْحَامِلَةَ لَهَا وَأَنْ بَطَّشَهُ شَدِيدًا كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] فَبَارِزُوا الْجَبَّارَ بِالْعَدَاوَةِ وَجَحَدُوا بِآيَاتِهِ وَعَصَوْا رُسُلَهُ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَهِيَ شَدِيدَةٌ الْهُبُوبِ. وَقِيلَ: الْبَارِدَةُ. وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي لَهَا صَوْتٌ وَالْحَقُّ أَنَّهَا مُتَّصِفَةٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ فَإِنَّهَا كَانَتْ رِيحًا شَدِيدَةً قُوَّتُهُ لِيَتَكُونَ عُقُوبَتُهُمْ مِنْ جِنْسِ مَا اغْتَرَوْا بِهِ مِنْ قَوَاهُمْ وَكَانَتْ بَارِدَةً شَدِيدَةً الْبُرْدِ جِدًّا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَلَيْهِتٌ﴾ [الحاقة: ٦٠] أَي بَارِدَةً شَدِيدَةً وَكَانَتْ ذَاتَ صَوْتٍ مُرْجِعٍ، وَمِنْهُ سُمِّيَ النَّهْرُ الْمَشْهُورُ بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ "صَرْصَرًا" لِقُوَّةِ صَوْتِ جَرِيهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ أَي: مُتَّابِعَاتٍ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَكُنُيَّةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أَي: ائْتَدُوا بِهَذَا الْعَذَابِ فِي يَوْمٍ نَحْسٍ عَلَيْهِمْ وَاسْتَمَرَ بِهِمْ هَذَا النَّحْسُ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَكُنُيَّةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ حَتَّى أَبَادَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَأَتَّصَلَ بِهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِنُدِبَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أَي: أَشَدُّ خِزْيًا لَهُمْ ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أَي فِي الْآخِرَةِ كَمَا لَمْ يُبْصِرُوا فِي الدُّنْيَا، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ يَبْقِيهِمُ الْعَذَابَ، وَيَذَرُهُمْ عَنِ النَّكَالِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: بَيَّنَّا لَهُمْ ^(١). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: دَعَوْنَاهُمْ ﴿فَاسْتَجَبُوا أَلَمَى عَلَى الْهَدْيِ﴾ أَيُّ: بَصَرْنَاهُمْ، وَبَيَّنَّا لَهُمْ وَوَضَحْنَا لَهُمْ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَقَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي جَعَلَهَا آيَةً وَعَلَامَةً عَلَى صِدْقِ نَبِيِّهِمْ ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَوْعَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أَيُّ: بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَرَجْفَةً وَذَلًّا وَهَوَانًا وَعَذَابًا وَنَكَالًا ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيُّ: مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْجُمُودِ ﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيُّ: مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَلَا نَالَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ، بَلْ نَجَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِتَقْوَاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا لِمَ جُودِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدْتُمْكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَإِنْ بَصُرُوا فَأَلْتَارُ مَتَوَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٣٠﴾

صَحَّحْتُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ أَيِّ شَيْءٍ صَحَّحْتُ؟ قَالَ ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: أَيُّ رَبِّي، أَلَيْسَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تَطْلُبَنِي، قَالَ: بَلَى. يَقُولُ: فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَوْلَيْسَ كَفَى بِي شَهِيدًا وَبِالْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ - قَالَ - فَيَرُدُّ هَذَا الْكَلَامَ مِرَارًا - قَالَ - فَيُحْتَمُّ عَلَى فِيهِ، وَتَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ يَمَا كَانَ يَعْمَلُ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكَرٌّ وَسُحْقًا، عَنَّا كُنْتُ أُجَادِلُ» ^(١). رَوَاهُ هُوَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ^(٢). وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتَّسَائُفِيُّ ^(٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو مُوسَى: وَيُدْعَى الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ لِلْحِسَابِ فَعَرِضُ عَلَيْهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلَهُ، فَيَجْحَدُ وَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ كَتَبَ عَلَيَّ هَذَا الْمَلَكُ مَا لَمْ أَعْمَلْ. فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ: أَمَا عَمِلْتَ كَذَا

﴿يَوْمَ الْحَشْرِ تَشْهَدُ أَعْضَاءُ الْمُجْرِمِينَ عَلَيْهِمْ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أَيُّ: أَذْكَرُ لَهُوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ يُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ يُوزَعُونَ أَيُّ: تَجْمَعُ الزَّبَانِيَةُ أَوْلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدَا﴾ [مریم: ٨٦] أَيُّ: عَطَاشًا. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أَيُّ: وَقَفُّوا عَلَيْهَا ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: بِأَعْمَالِهِمْ مِمَّا قَدَّمُوهُ وَأَخْرُوهُ لَا يَكْتُمُ مِنْهُ حَرْفٌ ﴿وَقَالُوا لِمَ جُودِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ: لَأَمَّا أَعْضَاءُهُمْ وَجُلُودُهُمْ جِئْنَ شَهِدُوا عَلَيْهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَجَابَتْهُمْ الْأَعْضَاءُ ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيُّ: فَهَوُ لَا يُخَالَفُ، وَلَا يُمَانَعُ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبُرَّازُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَحَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَتَبَسَّمَ فَقَالَ ﷺ: «أَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ

(١) الطبري: ٤٤٨/٢١ (٢) الحاكم: ٦٠١/٤ (٣) الطبري: ٤٥٢/٢١ (٤) مسلم: ٢٢٨٠/٤ والنسائي في الكبرى: ٥٠٨/٦

فِي يَوْمٍ كَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ أَيُّ رَبِّ مَا عَمِلْتَهُ. قَالَ: فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ حُجِمَ عَلَى فِيهِ. قَالَ الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِنِّي لَأَحْسِبُ أَوَّلَ مَا يَنْطِقُ مِنْهُ فَخِذُهُ الْيُمْنَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَبْرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أَي: تَقُولُ لَهُمُ الْأَعْضَاءُ وَالْجُلُودُ حِينَ يَلُومُونَهَا عَلَى الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ مِنَّا الَّذِي كُنْتُمْ تَفْعَلُونَهُ، بَلْ كُنْتُمْ تَجَاهِرُونَ اللَّهَ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَلَا تَبَالُونَ مِنْهُ فِي زَعْمِكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَفْعَالِكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِن طَلَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١) وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَلَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أَي: هَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ، وَهُوَ اغْتِقَادُكُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ، هُوَ الَّذِي أَتْلَفَكُمْ وَأَرْدَاكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَي: فِي مَوَاقِفِ الْفِيَامَةِ خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مُسْتَبْرًا بِأَسْتَارِ الْكُعْبَةِ فَجَاءَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ فُرْشِي وَخَتْنَاهُ ثَقْفِيَانِ - أَوْ ثَقْفِي وَخَتْنَاهُ فُرْشِيَانِ - كَثِيرٌ سَحْمٌ بَطُونُهُمْ، قَلِيلٌ فَفَهَ قُلُوبُهُمْ فَكَلَّمُوا بِكَلَامٍ لَمْ أَسْمَعُهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا هَذَا، فَقَالَ الْآخَرُ: إِنَّا إِذَا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا سَمِعَهُ، وَإِذَا لَمْ نَرْفَعْهُ لَمْ يَسْمَعْهُ فَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا سَمِعَهُ كُلَّهُ - قَالَ - فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَبْرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١) وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢). وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ أَيْضًا بِنَحْوِهِ (٣). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِن يَسْتَعِيبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أَي: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ صَبَرُوا أَمْ لَمْ يَصْبِرُوا هُمْ فِي النَّارِ لَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا، وَإِن طَلَبُوا أَنْ يُسْتَعْتَبُوا وَيَبْدُوا أَعْدَارًا فَمَا لَهُمْ أَعْدَارٌ وَلَا تُقَالُ لَهُمْ عَثْرَاتٌ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَسْتَعِيبُوا﴾ أَي: يَسْأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا فَلَا جَوَابَ لَهُمْ قَالَ: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَبْنَا عَاقِبَتَنَا شَقَوْنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (٥) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (٦) قَالَ أَخْشَوْنَا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون (٥) [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدِ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ (٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوَى فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٦) فَلْيَدْرِغَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَثَرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنَّا مِن الْإِنْسِ وَالْجِنِّ نَجْعَلُهُمَا طَبَقًا لِأَقْدَامِنَا لِيَكُونَ مِنَ الْآسِفِينَ (٩)

[قُرْآنَةُ الْمُشْرِكِينَ يُزَيِّنُونَ لَهُمْ سُوءَ الْأَعْمَالِ]

يَذُكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَصْلَ الْمُشْرِكِينَ وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ وَكَوْنِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ بِمَا قَبِضَ لَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ شِبَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَي: حَسَّنُوا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فِي الْمَاضِي وَالنَّشِئَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، فَلَمْ يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا مُحْسِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (١٠) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ [الرحرف: ٣٦، ٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أَي: كَلِمَةُ الْعَذَابِ كَمَا حَقَّ عَلَى أُمَّ قَدِ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ فَعَلَ كَفْعَهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أَي: اسْتَوُوا هُمْ وَإِيَّاهُمْ فِي الْخَسَارِ وَاللِّدْمَارِ.

[تَوَاصِي الْكُفَّارِ بِالْإِمْتِنَاعِ عَنِ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَجَزَاءِ ذَلِكَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أَي: تَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ لَا يُطِيعُوا لِلْقُرْآنِ، وَلَا يُتْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ ﴿وَالنَّوَى فِيهِ﴾ أَي: إِذَا تَلَّى لَا تَسْمَعُوا لَهُ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿وَالنَّوَى فِيهِ﴾ يَعْنِي بِالْمَكَاءِ وَالصَّفِيرِ وَالتَّخْلِيضِ فِي الْمَنْطِقِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ - فُرِشٌ تَفْعَلُهُ. وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالنَّوَى فِيهِ﴾ عَيَّبُوا فِيهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا حَالٌ هُوَ لِأَجْهَلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَمَنْ سَلَكَ مَسَلَكَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَلِلَّذِي أَمَرَ اللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِخِلَافِ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ثُمَّ قَالَ

(١) أحمد: ٣٨١/١ (٢) تحفة الأحوذى: ١٢٣/٩ (٣) أحمد: ٤٠٨/١ (٤) فتح الباري: ٤٢٥، ٤٢٤/٨ (٥) الطبري: ٤٥٨/٢١

﴿وَقَبِضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨٠

سُورَةُ الْفَصَلَاتِ

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ
 الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنفُسُكُمْ
 وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٢٢﴾
 وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
 إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
 ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
 وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا يَلْقَئُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَئُهَا
 إِلَّا الذُّوْحُ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّمَا يَرْتَدَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ
 فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ
 اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
 وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
 إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ
 رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾

تَقُولُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
 اسْتَقَمُوا﴾ قَالَ: فَقَالُوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ مِنْ
 ذَنْبٍ فَقَالَ: لَقَدْ حَمَلْتُمُوهُ عَلَى غَيْرِ الْمَحْمُولِ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ
 ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِلَهٍ غَيْرِهِ^(٥). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ
 وَعِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٦).

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّقْفِيِّ قَالَ: قُلْتُ:
 يَا رَسُولَ اللَّهِ! حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ ﷺ: ﴿قُلْ: رَبِّي
 اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ﴾ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَكْثَرَ مَا تَخَافُ
 عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِطَرْفِ لِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ:
 «هَذَا»^(٧). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ
 التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٨). وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي
 صَحِيحِهِ وَالتَّنَائِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّقْفِيِّ قَالَ: قُلْتُ

(١) الطبري: ٤٦٢/٢١ (٢) الطبري: ٤٦٢/٢١ (٣) فتح
 الباري: ٤١٩/٦ (٤) الطبري: ٤٦٤/٢١ (٥) الطبري: ٢١/
 ٤٦٤ (٦) الطبري: ٤٦٥/٢١ (٧) أحمد: ٤١٣/٣ (٨) تحفة
 الأحوذى: ٩١/٧ وابن ماجه: ١٣١٤/٢

عَزَّ وَجَلَّ مُتَّصِرًا لِقُرْآنٍ وَمُتَّقِمًا مِمَّنْ عَادَاهُ مِنْ أَهْلِ
 الْكُفْرَانِ ﴿فَلْيَذِخَّرْهُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا سَدِيدًا﴾ أَي: فِي
 مُقَابَلَةِ مَا اعْتَمَدُوهُ فِي الْقُرْآنِ عِنْدَ سَمَاعِهِ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا
 الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ وَسَيِّئِ أَعْمَالِهِمْ ﴿ذَلِكَ
 جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا
 يَجْحَدُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ أَلْجَنَ
 وَالْإِنْسِ يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿قَالَ سُفْيَانُ
 عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أُضْلَلْنَا﴾
 قَالَ: إِبْلِيسُ وَابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ^(١). وَقَالَ السُّدِّيُّ،
 عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِبْلِيسُ يَدْعُو بِهِ كُلُّ صَاحِبِ
 شِرْكَ، وَابْنُ آدَمَ يَدْعُو بِهِ كُلُّ صَاحِبِ كَبِيرَةٍ، فَإِبْلِيسُ [هُوَ]
 الدَّاعِي إِلَى كُلِّ شَرٍّ مِنْ شِرْكَ فَمَا دُونَهُ وَابْنُ آدَمَ [أَوَّلُ]^(٢).
 كَمَا بَيَّنَّ فِي الْحَدِيثِ: «مَا قِيلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى
 ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ ذَمِّهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(٣).

وَقَوْلُهُمْ: ﴿يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا﴾ أَي: أَسْفَلَ مِنَّا فِي
 الْعَذَابِ لِيَكُونَا أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ
 الْأَسْفَلِينَ﴾ أَي: فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي
 الْأَعْرَافِ فِي سُؤَالِ الْأَتْبَاعِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعَذِّبَ قَادَتَهُمْ
 أَضْعَافَ عَذَابِهِمْ ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
 [الأعراف: ٣٨] أَي: أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمْ مَا
 يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ بِحَسَبِ عَمَلِهِ وَإِفْسَادِهِ كَمَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ رَدَّتْهُمْ
 عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ
 تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
 وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾
 نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

[الْإِشَارَةُ لِلْمُوحِدِينَ ذَوِي الْإِسْتِقَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾
 أَي: أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لِلَّهِ وَعَمِلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا
 شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عِمْرَانَ،
 قَالَ: قَرَأْتُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذِهِ
 الْآيَةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قَالَ: هُمْ
 الَّذِينَ لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا^(٤). ثُمَّ رَوَى مِنْ حَدِيثِ الْأَسْوَدِ
 ابْنِ هِلَالٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا

[فَضْلُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ]

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾^(١) أَي: دَعَا عِبَادَ اللَّهِ إِلَيْهِ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَي: هُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ بِمَا يَقُولُهُ فَفَعَلَهُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ لَأَزِمَ وَمَتَّعَدٌ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَأْتُونَهُ، بَلْ يَأْتُرُوا بِالْخَيْرِ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ، وَيَدْعُوا الْخَلْقَ إِلَى الْخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهَذِهِ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ دَعَا إِلَى الْخَيْرِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ، وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ^(٥). وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا الْمُؤَدِّثُونَ الصُّلَحَاءَ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «الْمُؤَدِّثُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْتَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٦). وَفِي السُّنَنِ مَرْفُوعًا: «الإمام ضامن، والمؤدِّث مؤتمن»، فَأَرشَدَ اللَّهُ الْأَيِّمَةَ وَغَفَرَ لِمُؤَدِّثِينَ^(٧). وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْمُؤَدِّثِينَ وَفِي غَيْرِهِمْ، فَأَمَّا حَالُ تَزْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْأَذَانُ مَشْرُوعًا بِالْكَلِمَةِ؛ لِأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ، وَالْأَذَانُ إِنَّمَا شُرِعَ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ حِينَ أَرَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَنَامِهِ فَقَصَّصَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَهُ أَنْ يُلْقِيَهُ عَلَى بِلَالِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ أُنْدَى صَوْتًا، كَمَا هُوَ مُفَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ. فَالصَّحِيحُ: إِذَا أَتَتْهَا عَامَّةٌ كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فَقَالَ: هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ، هَذَا وَلِيُّ اللَّهِ، هَذَا صَفْوَةُ اللَّهِ، هَذَا خَيْرُهُ اللَّهُ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، أَحَابُّ اللَّهِ فِي دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَحَابَّ اللَّهُ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ، وَقَالَ: إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا خَلِيفَةُ اللَّهِ^(٨).

[الْحِكْمَةُ فِي الدَّعْوَةِ وَغَيْرِهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا سَتْوَى الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ﴾ أَي: فَرَّقْ عَظِيمَ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَي: مَنْ

يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ ﷺ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمَّ...» وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَابْنَةُ: يُعْنِي عِنْدَ الْمَوْتِ قَائِلِينَ: ﴿أَلَا تَحْفَافُوا﴾^(٢). قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: أَي مِمَّا تُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ^(٣). ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ عَلَى مَا خَلَقْتُمُوهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا مِنْ وَلَدٍ وَأَهْلِ وَمَالٍ أَوْ دِينٍ فَإِنَّا نَخْلُقُكُمْ فِيهِ ﴿وَابْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فَيُبَشِّرُونَهُمْ بِذَهَابِ الشَّرِّ وَحُضُورِ الْخَيْرِ. وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ: اخْرُجِي أَيُّهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتَ تَعْمُرِينَهُ، اخْرُجِي إِلَى رُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ»^(٤). وَقِيلَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزَّلُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: يُبَشِّرُونَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ وَفِي قَبْرِهِ وَحِينَ يُبْعَثُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا، وَهُوَ حَسَنٌ جِدًّا، وَهُوَ الْوَاقِعُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَحْنُ أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَي: تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ: نَحْنُ كُنَّا أَوْلِيَائِكُمْ أَي: قُرْنَاءِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نُسَدِّدُكُمْ وَنُؤَفِّقُكُمْ وَنُحَفِّظُكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ نَكُونُ مَعَكُمْ فِي الْآخِرَةِ؛ نُؤَيِّسُ مِنْكُمْ الْوَحْشَةَ فِي الْقُبُورِ وَعِنْدَ النُّفُخَةِ فِي الصُّورِ وَنُؤَمِّنُكُمْ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَنُجَاوِزُ بِكُمْ الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَنُؤَصِّلُكُمْ إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا دَشْتَهُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أَي: فِي الْجَنَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَا تَحْتَارُونَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ وَتَقْرُبُ بِهِ الْعَيْبُونَ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أَي: مَهْمَا طَلَبْتُمْ وَجَدْتُمْ وَحَضَرَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ كَمَا اخْتَرْتُمْ ﴿تَزَلَّ مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ أَي: ضِيَاةً وَعَطَاءً وَإِنْعَامًا مِنْ عَفْوَ لِدُنُوبِكُمْ، رَحِيمٍ بِكُمْ رُؤُوفٍ، حَيْثُ غَفَرَ وَسَّرَ وَرَجِمَ وَلَطَّفَ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَا سَتْوَى الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَمَا يُلْقِدْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِدْهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّمَا يَرْغَبَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٨﴾

(١) مسلم: ٦٥/١ (٢) الطبري: ٤٦٦/٢١ والقرطبي: ١٥/١

(٣) الطبري: ٤٦٧/٢١ (٤) أحمد: ٢٨٧/٤ (٥)

القرطبي: ٣٦٠/١٥ (٦) مسلم: ٢٩٠/١ (٧) أبو داود: ١/١

٣٥٦ وتحفة الأحوذى: ٦١٤/١ (٨) عبد الرزاق: ١٨٧/٢

أَسَاءَ إِلَيْكَ فَاذْفَعُهُ عَنكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ عُمَرُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِيكَ بِعِثْلٍ أَنْ تُطِيعَ
اللَّهُ فِيهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيُّ حَمِيمٌ﴾ وَهُوَ الصَّدِيقُ أَيُّ إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ
إِلَيْكَ فَادْفَعْتَهُ تِلْكَ الْحَسَنَةَ إِلَيْهِ إِلَى مُصَافَاتِكَ وَمَحَبَّتِكَ وَالْحُسُو
عَلَيْكَ حَتَّى يَبْصُرَ كَأَنَّهُ وَلِيُّ لَكَ حَمِيمٌ، أَيُّ: قَرِيبٌ إِلَيْكَ
مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَيْكَ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْكَ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا
يُقَلِّدُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَيُّ: وَمَا يَقْبَلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ وَيَعْمَلُ
بِهَا إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ ﴿وَمَا
يُقَلِّدُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ: ذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنَ
السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ
ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ
عِنْدَ الْعُضْبِ، وَالْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ،
فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَخَصَّصَ لَهُمْ
عَدْوُهُمْ كَأَنَّهُ وَلِيُّ حَمِيمٍ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ﴾ أَيُّ: إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ
فَأَمَّا شَيْطَانُ الْجِنِّ فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ إِذَا وَسَّوسَ إِلَّا
الِاسْتِعَاذَةَ بِخَالِقِهِ الَّذِي سَلَطَهُ عَلَيْكَ، فَإِذَا اسْتَعَدْتَ بِاللَّهِ
والتَّجَأْتَ إِلَيْهِ كَفَّهُ عَنكَ وَرَدَّ كَيْدَهُ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»^(٢). وَقَدْ قَدَّمْنَا
أَنَّ هَذَا الْمَقَامَ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ
عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ﴾^(٣) وَإِنَّمَا يَزْعُمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ
إِنَّهُمْ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿[الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠] وَفِي سُورَةِ
الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّنِيئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَصِفُونَ﴾^(٤) وَقَالَ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿[٥٧]﴾
وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَصْحُرُونِ ﴿[المؤمنون: ٩٦-٩٨].

[مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا خَلْقَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَأَنَّهُ الَّذِي
لَا نَظِيرَ لَهُ، عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أَيُّ: أَنَّهُ خَلَقَ اللَّيْلَ بِظُلَامِهِ وَالنَّهَارَ
بِضْيَائِهِ - وَهَمَّا مُعَاقِبَانِ لَا يَفْتَرَانِ - وَالشَّمْسُ نُورَهَا
وَإِشْرَاقَهَا، وَالْقَمَرُ وَضْيَاءَهُ وَتَقْدِيرَ مَنَازِلِهِ فِي فَلَكِهِ،
وَإِخْتِلَافَ سِيرِهِ فِي سَمَائِهِ؛ لِيَعْرِفَ بِإِخْتِلَافِ سِيرِهِ وَسِيرِ
الشَّمْسِ مَقَادِيرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْجُمُعِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ،
وَيَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ حُلُولُ الْحُقُوقِ وَأَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ
وَالْمُعَامَلَاتِ. ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أَحْسَنَ الْأَجْرَامِ
الْمُشَاهِدَةَ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ تَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُمَا
مَخْلُوقَانِ عِبْدَانِ مِنْ عِبِيدِهِ، تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ فَقَالَ:
﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أَيُّ: وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ، فَمَا

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا
لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٦) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ
لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ ﴿[٢٨]﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى
الْأَرْضَ خَضِيعةً فَإِذَا أُنزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا
لَمُعِجِي الْمَوْقِفِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[٣٩]﴾

تَتَفَعَّلُكُمْ عِبَادَتُكُمْ لَهُ مَعَ عِبَادَتِكُمْ لِعَبْرِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾: أي: عن أفراد العبادة له، وأبوا إلا أن يُشْرِكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿يَسْتَحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا بِكَفِيرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ أي: على قُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَةِ الْمُوتَى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاسِيَةً﴾ أي: هَامِدَةٌ لَا نَبَاتَ فِيهَا، بَلْ هِيَ مَيِّتَةٌ ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ أي: أَخْرَجَتْ مِنْ جَمِيعِ الْأَوَانِ الزُّرُوعَ وَالشَّمَارَ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْنَا أَمَّنْ يُلْفَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَرِيضٌ (٤٢) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٣) مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٤)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْنَا أَمَّنْ يُلْفَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَرِيضٌ (٤٢) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٣) مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٤)

﴿عِقَابِ الْمُؤَلِّحِينَ وَوَصَفِ الْقُرْآنِ بِكُونِهِ مَضُونًا مَحْرُوسًا مِنَ الْبَاطِلِ﴾
قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْإِلْحَادُ وَضَعُ الْكَلَامِ عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهِ (١). وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْنَا﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ أَي: أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِمَنْ يُلْحِدُ فِي آيَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَسَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ بِالْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُلْفَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَي: أَيَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا؟ لَا يَسْتَوِيَانِ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ تَهْدِيدًا لِلْكَافِرَةِ: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: وَعِيدٌ (٢). أَي: مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، إِنَّهُ عَالِمٌ بِكُمْ وَبَصِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ: وَهُوَ الْقُرْآنُ (٣). ﴿وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَرِيضٌ﴾ أَي: مَتِيعُ الْجَنَابِ، لَا يُرَامُ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ بِمِثْلِهِ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أَي: لَيْسَ لِلْبَطْلَانِ إِلَيْهِ سَبِيلٌ؛ لِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أَي: حَكِيمٍ

﴿عِقَابِ الْمُؤَلِّحِينَ وَوَصَفِ الْقُرْآنِ بِكُونِهِ مَضُونًا مَحْرُوسًا مِنَ الْبَاطِلِ﴾

(١) الطبري: ٤٧٨/٢١ (٢) الطبري: ٤٧٨/٢١ (٣) الطبري: ٤٧٨/٢١

(٤) الطبري: ٤٨١/٢١ (٥) الطبري: ٤٨٢/٢١

خَسَارًا ﴿الإِسْرَاءُ: ٨٢﴾ ﴿أُولَئِكَ يَتَدَوَّنُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: بَعِيدٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ^(١). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ كَأَنَّ مَنْ يُخَاطِبُهُمْ يُتَادِيهِمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ لَا يَفْهَمُونَ مَا يَقُولُ^(٢). قُلْتُ: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بِكُمُ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

[الإِشَارَةُ إِلَى النَّاسِي بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أَي: كُذِّبَ وَأُوذِيَ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُلَا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى بِنَاقِحِ الْحِسَابِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَفَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا ﴿وَأَيُّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَابٌ﴾ أَي: وَمَا كَانَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ مِنْهُمْ لِمَا قَالُوا، بَلْ كَانُوا شَاكِينَ فِيمَا قَالُوهُ غَيْرَ مُحَقِّقِينَ لِشَيْءٍ كَانُوا فِيهِ. هَكَذَا وَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَهُوَ مُحْتَمِلٌ^(٣). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ

لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَّتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُتَادِيهِمْ آئِنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَاذَنْتَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ ﴿٤٨﴾

[كُلُّ بُجَارَى حَسَبَ عَمَلِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أَي: إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أَي: إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبِأَلِّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أَي: لَا يَعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ وَلَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِزْسَالِ الرُّسُولِ إِلَيْهِ.

[عِلْمُ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ]

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أَي: لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ سَيِّدُ النَّسْرِ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ مِنْ سَادَاتِ الْمَلَائِكَةِ حِينَ سَأَلَهُ عَنِ السَّاعَةِ فَقَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»^(٤). وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَبَهَا﴾ [النازعات: ٤٤] وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَا يُحِيطُ بِوَقْفَىٰ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَّتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أَي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨٢

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَّتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُتَادِيهِمْ آئِنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَاذَنْتَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوسُ قَنُوطٌ﴾ ﴿٤٩﴾ وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَّاجِنِيهِ. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

الْجَمِيعَ بِعِلْمِهِ لَا يُغْرَبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَقَدْ قَالَ سُجَّانُهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا بِعِلْمِنَا﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١] وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يُتَادِيهِمْ آئِنَ شُرَكَاءِى﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُتَادِي اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: آئِنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ عَبْدْتُمُوهُمْ مَعِيَ ﴿قَالُوا ءَاذَنْتَكَ﴾ أَي: أَعْلَمْنَاكَ ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أَي: لَيْسَ أَحَدٌ مِنَّا يَشْهَدُ الْيَوْمَ أَنَّ مَعَكَ شَرِيكًا ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ ﴿وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ﴾ أَي: وَظَنَّ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَذَا

(١) الطبري: ٤٨٥/٢١ (٢) الطبري: ٤٨٤/٢١ (٣) الطبري:

٤٨٧/٢١ (٤) فتح الباري: ١٤٠/١

بِمَعْنَى الْيَقِينِ ﴿مَا لَهُمْ مِنْ حَيٍّ﴾ أَيْ: لَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَهَا مَصْرَفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسُ قَنُوطًا﴾ (٤١) وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا أْتَمَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بَاجِبِيهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥٣﴾

[تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ حِينَ تُصِيبُهُ السَّرَّاءُ بَعْدَ الضَّرَّاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى لَا يَمَلُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ رَبِّهِ بِالْخَيْرِ، وَهُوَ الْمَالُ وَصِحَّةُ الْجِسْمِ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ، وَهُوَ الْبَلَاءُ أَوْ الْفَقْرُ ﴿فَيَئُوسُ قَنُوطًا﴾ أَيْ: يَبْقَعُ فِي ذَهَبِهِ أَنَّهُ لَا يَنْهَيَا لَهُ بَعْدَ هَذَا خَيْرٍ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أَيْ: إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ وَرَزَقٌ بَعْدَ مَا كَانَ فِي شِدَّةٍ لَيَقُولَنَّ: هَذَا لِي، إِنِّي كُنْتُ أَسْتَحِقُّهُ عِنْدَ رَبِّي ﴿وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أَيْ: يَكْفُرُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ، أَيْ: لِأَجْلِ أَنَّهُ خَوَّلَ نِعْمَةً يَبْطُرُ وَيَفْخَرُ وَيَكْفُرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَيطِغُ ﴿٦١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَحَقَّ﴾ [العلق: ٧، ٦]

﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ أَيْ: وَلَئِنْ كَانَ ثُمَّ مَعَادٌ فَلْيُحْسِنَنَّ إِلَيَّ رَبِّي كَمَا أَحْسَنَ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ، يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ إِسَاءَةِ الْعَمَلِ وَعَدَمِ الْيَقِينِ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يَتَهَدَّدُ تَعَالَى مَنْ كَانَ هَذَا عَمَلُهُ وَاعْتِقَادُهُ: بِالْعِقَابِ وَالتَّكَالُفِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أْتَمَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بَاجِبِيهِ﴾ أَيْ: أَعْرَضَ عَنِ الطَّاعَةِ وَاسْتَكْبَرَ عَنِ الْإِنْفِيَادِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ﴾ [الدَّارِيَات: ٣٩] ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أَيْ: الشِّدَّةُ ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أَيْ: يُطِيلُ الْمَسْأَلَةَ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ، فَالتَّكْلَامُ الْعَرِيضُ: مَا طَالَ لَفْظُهُ وَقَلَّ مَعْنَاهُ، وَالْوَجِيزُ عَكْسُهُ، وَهُوَ مَا قَلَّ وَدَلَّ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ ... الآية [يونس: ١٢].

وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ ﴿٥٥﴾

[الْقُرْآنُ وَدَلَائِلُ صَدَقِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أَيْ: كَيْفَ تَرَوْنَ حَالَكُمْ عِنْدَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ أَيْ فِي كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَمُسَاقَفَةٍ لِلْحَقِّ وَمَسَلِكِ بَعِيدٍ مِنَ الْهُدَىٰ ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أَيْ: سَطَّهَرُ لَهُمْ دَلَالَاتِنَا وَحُجَجَنَا عَلَىٰ كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا مُتَزَلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِدَلَائِلِ خَارِجِيَّةٍ ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ مِنْ الْفَتْوحَاتِ وَظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَقْلَامِ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: وَدَلَائِلُ فِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا: وَقَعَهُ بَدْرٌ وَفَتَحَ مَكَّةَ وَنَحُوَ ذَلِكَ مِنَ الْوَقَائِعِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِمْ، نَصَرَ اللَّهُ فِيهَا مُحَمَّدًا ﷺ وَصَحْبَهُ، وَخَذَلَ فِيهَا الْبَاطِلَ وَجِزْبَهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ مَا الْإِنْسَانُ مُرَكَّبٌ مِنْهُ، وَفِيهِ وَعَلَيْهِ مِنَ الْمَوَادِّ [وَالْأَخْلَاطِ] وَالْهَيْئَاتِ الْعَجِيبَةِ كَمَا هُوَ مُسَوِّطٌ فِي عِلْمِ التَّشْرِيحِ الدَّلَالِ عَلَى حِكْمَةِ الصَّانِعِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَذَلِكَ مَا هُوَ مُجْبُوتٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمُنْبَائِيَّةِ مِنْ حُسْنٍ وَفُجْحٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا هُوَ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ تَحْتَ الْأَقْدَارِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَجِيلِهِ وَحَدْرِهِ أَنْ يَجُوزَهَا وَلَا يَتَعَدَّهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيْ: كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَىٰ أَعْمَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ صَادِقٌ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ كَمَا قَالَ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ... الآية. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: فِي شَكٍّ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ، وَلَا يَعْمَلُونَ لَهُ وَلَا يَحْذَرُونَ مِنْهُ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ هَدْرٌ، لَا يَعْبَأُونَ بِهِ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَقْرَّرًا أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ، وَإِقَامَةُ السَّاعَةِ لَدَيْهِ يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ﴾ أَيْ: الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَحْتَ قَهْرِهِ، وَفِي قُبْضَتِهِ،

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ (٥٤) سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ

سُورَةُ الشُّورَى
٤٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ
وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ
﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْبَبٍ فِيهِ فِرْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقٌ فِي
السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ
مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾
أَرَأَيْتُمْ أَيُّهَا الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

وَتَحَّتْ طَيِّ عِلْمِهِ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا كُلَّهَا بِحُكْمِهِ، فَمَا
شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ فَصَلتْ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة الشورى وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ
يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ
عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾
[الْوَحْيُ وَعَظْمَةُ اللَّهِ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ كَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ كَذَلِكَ أَنْزَلَ الْكُتُبَ
وَالصُّحُفَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ
أَيُّ: فِي انْتِقَامِهِ﴾ الْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا
قَالَتْ: إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَا نَبِيَّكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«أَحْيَانًا يَا نَبِيَّيْ مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ
فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَا نَبِيَّيْ الْمَلَكُ
رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأُعِي مَا يَقُولُ». قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ،
فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ ﷺ لَيَنْفَصِدُ عَرَقًا^(١). أَخْرَجَاهُ فِي
الصَّحِيحَيْنِ وَلَفْظُهُ لِلْبُخَارِيِّ^(٢). وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَهُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: الْجَمِيعُ عِبْدٌ لَهُ وَمَلَكٌ لَهُ
تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَضَرِيفِهِ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩] ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾
[سبأ: ٢٣] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَكَادُ
السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا وَالصُّحَاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَكَعْبُ الْأَخْبَارِ أَيُّ: فَرَقًا
مِنَ الْعَظْمَةِ^(٣). ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ

لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ
حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وَقَوْلُهُ جَلَّ
جَلَالُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إِغْلَامٌ بِذَلِكَ وَتَنْوِيهٌ
بِهِ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ﴾ يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: شَهِيدٌ
عَلَى أَعْمَالِهِمْ يُحْصِيهَا وَيُعْذِبُهَا عَذَابًا، وَسَيَجْزِيهِمْ بِهَا أَوْفَرَ
الْجَزَاءِ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿[هود: ١٢].

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْبَبٍ فِيهِ فِرْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقٌ فِي السَّعِيرِ﴾
﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٨﴾

(١) الموطأ: ٢٠٢/١ (٢) فتح الباري: ٢٥/١ ومسلم: ٤/١٨١٦ (٣) الطبري: ٥٠١/٢١

[أَوْحِيَ الْقُرْآنَ لِلْإِنْسَانِ بِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أَي: وَاضْحًا جَبَلِيًّا بَيِّنًا ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وَهِيَ مَكَّةُ ﴿وَمَنْ حَوْمَلَا﴾ أَي: مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَسُمِّيَتْ مَكَّةُ أُمَّ الْقُرَىٰ؛ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ؛ لِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ مَذْكُورَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا، وَمِنْ أَوْجَزِ ذَلِكَ وَأَدَلُّهُ مَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْحَمْرَاءِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ فِي سُوقِ مَكَّةَ: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ» (١).

هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٢). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي: لَا شَكَّ فِي وُقُوعِهِ وَأَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَاقِ﴾ [التغابن: ٩٠] أَي يَجْمَعُ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ، وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفَىٰ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥] رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: «أَتَذَرُونَ مَا هَذَا الْكِتَابَانِ؟». قُلْنَا: لَا، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ ﷺ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا» ثُمَّ قَالَ ﷺ لِلَّذِي فِي يَسَارِهِ: «هَذَا كِتَابٌ أَهْلِ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَلِأَيِّ شَيْءٍ نَعْمَلُ إِنْ كَانَ هَذَا أَمْرٌ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَدُّوْا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ، وَإِنْ صَاحِبُ النَّارِ يُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ». ثُمَّ قَالَ ﷺ بِيَدِهِ فَخَبَّضَهَا ثُمَّ قَالَ: «فَرَعَرْتُ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعِبَادِ - ثُمَّ قَالَ بِالْيَمْنَى فَنَبَذَ بِهَا، فَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ». وَنَبَذَ بِالْيُسْرَى

وَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» (٣) وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ (٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: إِنْ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يُعْنِي: يَزُورُونَهُ فَوَجَدُوهُ يُبْكِي، فَقَالُوا لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ مِنْ شَارِبِكَ ثُمَّ أَقْرَهُ حَتَّى تَلْقَانِي». قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبَضَ بِيَمِينِهِ قَبْضَةً وَأُخْرَى بِأَيْدِي الْأُخْرَى، قَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أَبَالِي». فَلَا أُدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا» (٥). وَأَحَادِيثُ الْقَدْرِ فِي الصَّحاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ كَثِيرَةٌ جَدًّا؛ مِنْهَا حَدِيثٌ عَلِيُّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَعَائِشَةُ وَجَمَاعَةٌ جَمَّةٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: إِمَامًا عَلَى الْهَدَايَةِ أَوْ عَلَى الضَّلَالَةِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى فَأَوْتَّ بَيْنَهُمْ، فَهَدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ، وَأَصْلٌ مَنْ يَشَاءُ عَنْهُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ

يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ ﴿١١﴾

[اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَاكِمُ الْخَالِقُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمُ الْهَيْهَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمُخْبِرًا أَنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: هُوَ الْحَاكِمُ

(١) أحمد: ٣٠٥/٤ (٢) تحفة الأحوذى: ٤٢٦/١٠ والنسائي في الكبرى: ٤٧٩/٢ وابن ماجه: ١٠٣٧/٢ (٣) أحمد: ٢/١٦٧ (٤) تحفة الأحوذى: ٣٥٠/٦ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٥٢ (٥) أحمد: ١٧٦/٤

فِيهِ بِكِتَابِهِ وَسَنَّهُ نَبِيِّهِ ﷺ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي﴾ أَي: الْحَاكِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَي: أَرْجِعُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: خَالِقُهُمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أَي: مِنْ جِنْسِكُمْ وَشَكْلِكُمْ مِثَّةً عَلَيْكُمْ وَتَفَضُّلاً جَعَلَ مِنْ جِنْسِكُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿وَمَنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أَي: وَخَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أَي: يَخْلُقُكُمْ فِيهِ أَي: فِي ذَلِكَ الْخَلْقِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَزَالُ يَذَرُوكُمْ فِيهِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِي وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَنَسَلًا بَعْدَ نَسْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أَي: لَيْسَ كَخَالِقِي الْأَزْوَاجِ كُلِّهَا شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الزَّمَرِ وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَي: يُوسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ وَالْعَدْلُ التَّامُّ ﴿إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّبَتْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادَعُ مَا اسْتَقَمَ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَأُحْجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: «نَحْنُ مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ» (١). أَي: الْقَدَرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ وَمَنَاهِجُهُمْ كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أَي: وَصَّى اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْإِتِّفَاقِ وَالْجَمَاعَةِ. وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِفْتِرَاقِ وَالْإِخْتِلَافِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أَي: سَقَى عَلَيْهِمْ وَأَنْكَرُوا مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ مِنَ التَّوْحِيدِ. ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أَي: هُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ الْهُدَايَةَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَيَكْتُبُ الصَّلَاةَ عَلَى مَنْ آتَرَهَا عَلَى طَرِيقِ الرُّشْدِ.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّبَتْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ (١٤)

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّبَتْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ (١٤)

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّبَتْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ (١٤)

[دِينُ الرُّسُلِ وَاحِدٌ]

يَقُولُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فَذَكَرَ أَوَّلَ الرُّسُلِ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَخْرَجَهُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِي الْعُرْمِ [وَهُمْ] إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَهَتْ ذِكْرَ الْخَمْسَةِ كَمَا اشْتَمَلَتْ آيَةُ الْأَحْزَابِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾... [الآية: الأحزاب: ٧]. وَالَّذِينَ الَّذِينَ جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ

[وَجْهَ الْأَخْتِلافِ]

وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا^(١) إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: إِنَّمَا كَانَ مُخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيْهِمْ وَيَتَامُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ وَالْعِنَادُ وَالْمُشَاقَّةَ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْنَا لَأَجَلْنَا مُسْمًى﴾ أي: لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِإِنظَارِ الْعِبَادِ بِإِقَامَةِ حِسَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَعَجَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا سَرِيعًا. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَلَيْدَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الْجِيلَ الْمُتَأَخَّرَ بَعْدَ الْقُرُونِ الْأَوَّلِ الْمَكْدُوبِ لِلْحَقِّ ﴿لَفِي شَكِّ مِنْهُ مَرِيبٌ﴾ أي: لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، وَإِنَّمَا هُمْ مُقْلِدُونَ لِأَبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانَ، وَهُمْ فِي خَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَشَكِّ مَرِيبٍ وَشِقَاقِي بَعِيدٍ.

﴿فَلِلذَلِكَ فَادَعُ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ^(٢)﴾

اِسْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى عَشْرِ كَلِمَاتٍ مُسْتَقْلَلَاتٍ كُلُّ مِنْهَا مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، حِكْمٌ بِرَأْسِهَا، قَالُوا: وَلَا نَظِيرَ لَهَا سِوَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ، فَإِنَّهَا أَيْضًا عَشْرَةُ فُضُولٍ كَهَذِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلِلذَلِكَ فَادَعُ﴾ أي: فَلِلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي وَصَّيْنَا بِهِ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ، أَصْحَابَ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ الْمُتَّبَعَةِ كَأُولِي الْعَزْمِ وَغَيْرِهِمْ فَادَعُ النَّاسَ إِلَيْهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي: وَأَسْتَقِمْ أَنْتَ وَمَنْ اتَّبَعَكَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَكَذَّبُوهُ وَافْتَرَوْهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: صَدَقْتُ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُتَزَلَّةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: فِي الْحُكْمِ كَمَا أَمَرَنِي اللَّهُ، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هُوَ الْمَعْبُودُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَتَحْنُ نَقْرُ بِذَلِكَ اخْتِيَارًا، وَأَنْتُمْ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ اخْتِيَارًا، فَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي الْعَالَمِينَ طَوْعًا وَاخْتِيَارًا. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾ أي: نَحْنُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨٥

سُورَةُ الشُّورَى

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحْمُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

بُرَاءٍ مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيحُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أي: لَا خُصُومَةَ^(٣). قَالَ السُّدِّيُّ: وَذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ السِّيفِ، وَهَذَا مُتَّبَعٌ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَآيَةُ السِّيفِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦] وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا:

﴿وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: الْمَرْجِعُ وَالْمَأْتَبُ يَوْمَ الْحِسَابِ. ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحْمُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ

(١) وقع في جميع النسخ «وما اختلفوا» (٢) الطبري: ٥١٨/٢١

بَعِيدٌ ﴿١٧﴾

[تَنْبِيهُ لِمَنْ جَادَلَ فِي الدِّينِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ أَيْ يُجَادِلُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ لِيَصُدُّوهُمْ عَمَّا سَلَكَوهُ مِنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿مُجْتَنِّهِمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: بَاطِلَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴿وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ﴾ أَيْ: مِنْهُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ: جَادَلُوا الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ مَا اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ الْهُدَى وَطَمَعُوا أَنْ تَعُودَ الْجَاهِلِيَّةُ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالُوا لَهُمْ: دِينُنَا خَيْرٌ مِنْ دِينِكُمْ وَبَيَّنَّا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ وَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَأَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ^(٢). وَقَدْ كَذَبُوا فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي: الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وَهُوَ الْعَدْلُ وَالْإِنصَافُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ^(٣). وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَالسَّمَاةَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أَيْ: تَطَفَّعُوا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْوِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فِيهِ تَرْغِيبٌ فِيهَا وَتَرْهيبٌ مِنْهَا وَتَرْهِيدٌ فِي الدُّنْيَا، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْتَعْجِلْ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أَيْ: يَقُولُونَ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ تَكْدِيبًا وَاسْتِنْعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أَيْ: خَائِفُونَ وَجِلُونَ مِنْ وَفُوعِهَا ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أَيْ: كَانَتْ لَهَا مَحَالَةٌ، فَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لَهَا عَامِلُونَ مِنْ أَجْلِهَا. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طَرَفٍ تَبْلُغُ دَرَجَةَ التَّوَاتُرِ فِي الصَّحَاحِ وَالْحِسَانِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ، وَفِي بَعْضِ أَفْظَاظِهِ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ وَهُوَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَتَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: «هَاؤُمْ»، فَقَالَ لَهُ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيَحِكُ إِنَّهَا كَانَتْ»، فَمَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟ فَقَالَ: حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»^(٤). فَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(٥) هَذَا مُتَوَاتِرٌ لَا مَحَالَةَ، وَالْعَرَضُ أَنَّهُ لَمْ يُجِبْهُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ بَلْ أَمَرَهُ بِالِاسْتِعْدَادِ

لَهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أَيْ: يُجَادِلُونَ فِي وَجُودِهَا وَيَدْفَعُونَ وَفُوعَهَا ﴿لِي صَلَكَ بَعِيدٌ﴾ أَيْ: فِي جَهْلِ بَيْنٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى إِخْيَاءِ الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْآخِرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ. يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿١٨﴾ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الْآخِرَةِ تَرَدُّ لَمْ فِي حَرَّتِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الدُّنْيَا تَوَيَّبَهُ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٩﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا لَمْ يَأْتُوا بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢١﴾

[رَزَقَ اللَّهُ وَعَطَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ لَطِيفِهِ بِخَلْقِهِ فِي رِزْقِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ لَا يَنْسَى أَحَدًا مِنْهُمْ، سَوَاءً فِي رِزْقِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَمًا وَمُسْتَوْدَعًا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] وَلَهَا نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ، وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ: يُوسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أَيْ: لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الْآخِرَةِ﴾ أَيْ: عَمِلَ الْآخِرَةَ ﴿تَرَدُّ لَمْ فِي حَرَّتِهِ﴾ أَيْ: تَقْوِيَهُ وَنَعِيْنَهُ عَلَى مَا هُوَ يَصُدُّوهُ، وَتَكْرُرُ نَمَاءً وَنَجْزِيَهُ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ ﴿وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الدُّنْيَا تَوَيَّبَهُ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أَيْ: وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الدُّنْيَا لِيَحْضُرَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لَهُ إِلَى الْآخِرَةِ هَمُّ الْبَيْتَةِ بِالْكَالِيَّةِ: حَرَمَهُ اللَّهُ الْآخِرَةَ وَالْدُّنْيَا، إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَحْضُرْ لَهُ هَذِهِ وَلَا هَذِهِ، وَفَازَ السَّاعِي بِهَذِهِ النَّبِيَّةِ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالذَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنْ هَذِهِ الْآيَةُ هُنَا مُتَبَدِّئَةٌ بِالآيَةِ الَّتِي فِي سُبْحَانَ وَهِيَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ

(١) الطبري: ٥١٩، ٥١٨/٢١ (٢) الطبري: ٥١٩/٢١ (٣) الطبري: ٥٢٠/٢١ (٤) فتح الباري: ٥٧٣/١٠ ومسلم: ٤/٢٠٣٣ (٥) مسلم: ٢٠٣٤/٤

يَصَلِّهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿[الإسراء: ١٨-٢١].﴾

وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرَّفْعَةِ وَالنَّصْرِ وَالْتَّمُكِينَ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلٌ الْآخِرَةَ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»^(١).

[تَشْرِيعُ الْعِبَادِ شَرْكَ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: «أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ تَسْعَوْنَ لَهُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا لَكُمْ بِيَدُنْهُمْ مِنْ شَيْءٍ لِيُتَّبِعُوا مَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ شَيْطَانِيهِمْ مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، وَتَحْلِيلِ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَاللِّمِّ وَالْقِمَارِ إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الصَّلَاتِ وَالْجَهَالَةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي كَانُوا قَدْ اخْتَرَعُوهَا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَالْعِبَادَاتِ الْبَاطِلَةِ [وَالْأَقْوَالِ] الْفَاسِدَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُمْ عَمْرُو بْنَ لُحَيٍّ بِنَ قَمْعَةٍ يَجْرُ قُضْبُهُ فِي النَّارِ»^(٢). لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ أَحَدَ مُلُوكِ خِزَاعَةَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، وَهُوَ الَّذِي حَمَلَ قُرَيْشًا عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ - لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَبَّحَهُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ» أي: لَعُوجِلُوا بِالْمَعْتُوبَةِ لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِنْظَارِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ «وَلِإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي: شَدِيدٌ مُوجِعٌ فِي جَهَنَّمَ وَيُسَسِّ الْمَصِيرُ.

[فَرَعُ الْمُشْرِكِينَ فِي مَيْدَانِ الْحَشْرِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا» أي: فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ «وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ» أي: الَّذِي يَخَافُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ، هَذَا حَالُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ - وَهُمْ فِي هَذَا الْخَوْفِ وَالْوَجَلِ - «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟ أي: أَيْنَ مَنْ هُوَ فِي الْعَرَصَاتِ فِي الدَّلِّ وَالْهَوَانِ وَالْخَوْفِ الْمُحَقِّقِ عَلَيْهِ يَظْلَمُوهُ، مِمَّنْ هُوَ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ فِيمَا يَشَاءُ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَسَاكِينٍ، وَمَنَاطِرٍ، وَمَنَاجِحٍ وَمَلَادٍ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا

ذَلِكَ الَّذِي بَشَّرَ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا اسْتَكْبَرُ عَلَيْهٖ أَجْرًا إِلَّا الْعَمُودَةُ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كِبًا فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعُ لَكُمْ ﴿١٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ وَلَوْ سِطَّ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذْ يَأْمُرُ بِالْعِزَّةِ ﴿١٩﴾ وَمَا أَصْدَبَكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَمَا أُنْتَمِرُكُمْ جَزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢١﴾

أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» أي: الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالنِّعْمَةُ التَّامَّةُ، السَّابِغَةُ الشَّامِلَةُ الْعَامَّةُ.

«ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا اسْتَكْبَرُ عَلَيْهٖ أَجْرًا إِلَّا الْعَمُودَةُ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كِبًا فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٤﴾»

[الْبَشَارَةُ بِنِعْمِ الْجَنَّةِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ، لِعِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ «ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أي: هَذَا حَاصِلُ لَهُمْ كَائِنَ لَا مَحَالَةَ بِبَشَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «قُلْ لَا اسْتَكْبَرُ عَلَيْهٖ أَجْرًا إِلَّا الْعَمُودَةُ فِي الْقُرْبَىٰ» أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ

[الله يقبل التوبة ويستجيب الدعاء]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ يَقْبُولُ تَوْبَتَهُمْ إِلَيْهِ إِذَا تَابُوا وَرَجَعُوا إِلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ كَرَمِهِ وَجَلَمِهِ أَنْ يَعْفُو وَيَصْفَحَ وَيَسْتُرَ وَيَغْفِرَ، وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ - حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ - مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَتْ رَاحِلَتُهُ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَسَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخَطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عِدِّي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»^(١). وَقَدْ ثَبَتَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَحْوَهُ^(٢).

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَخَافُ أَنْ يَقْتُلَهُ فِيهِ الْعَطَشُ»^(٣). وَقَالَ هَمَّامُ بْنُ الْحَارِثِ: سُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الرَّجُلِ يَفْجُرُ بِالْمَرْأَةِ ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، وَقَرَأَ: ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾... الْآيَةَ^(٤). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أَيُّ: يَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ فِي الْمَاضِي ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا فَعَلْتُمْ وَصَنَعْتُمْ وَقُلْتُمْ، وَمَعَ هَذَا يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي يَسْتَجِيبُ لَهُمْ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ: يَسْتَجِيبُ لَهُمُ الدَّعَاءَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَصْحَابِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ^(٥). ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيُّ: يَسْتَجِيبُ دَعَاءَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ

الْمُشْرِكِينَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَالنُّصْحِ لَكُمْ مَا لَا تُعْطَوْنِيهِ، وَإِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَكْفُوا شَرِّكُمْ عَنِّي وَتَدْرُونِي أَبْلُغُ رِسَالَاتِ رَبِّي إِنْ لَمْ تَنْصُرُونِي فَلَا تُؤْذُونِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجَلْتُ، إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصَلُّوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ. انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ^(٦). وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ^(٧).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَفْرَفِ حَسَنَةً زِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ أَيُّ: وَمَنْ يَعْمَلْ حَسَنَةً ﴿زِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ أَيُّ: أَجْرًا وَتَوَابًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أَيُّ: يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَيُكْثِرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، فَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ وَيُضَاعِفُ فَيَسْكُرُ.

[رَمَى النَّبِيُّ بِاخْتِلَاقِ الْقُرْآنِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَدَّيْنَاهُ اللَّهُ يَحْتَمِلْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أَيُّ: لَوْ افْتَرَيْتَ عَلَيْهِ كَذِبًا كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ ﴿يَحْتَمِلْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أَيُّ: يَطْعُ عَلَى قَلْبِكَ [وَيَسْتَلْبِكُ] مَا كَانَ آتَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآيَاتِ ﴿١٦﴾ فَمَا يَسْكُرُ مِنْ أَمْرِ عَنَّا حَزِينٍ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] أَيُّ: لَا نَتَقَمَّنَا مِنْهُ أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ، وَمَا قَدَّرَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَحْجِزَ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيُحِبُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتٍ﴾ أَيُّ: يُحَقِّقُهُ وَيُثَبِّتُهُ وَيَبَيِّنُهُ وَيُوضِّحُهُ بِكَلِمَاتِهِ، أَيُّ: يَحْجِجُهُ وَبَرَاهِينِهِ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ: بِمَا تُكِنُّهُ الصَّمَائِرُ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ.

﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ. وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾^(٨) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(٩) ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(١٠) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ^(١١)

(١) فتح الباري: ٤٢٦/٨ (٢) أحمد: ٢٢٩/١ (٣) مسلم:

٢١٠٤/٤ (٤) مسلم: ٢١٠٣/٤ (٥) عبد الرزاق: ١٩١/٣

(٦) الطبري: ٥٢٣/٢١ إسناده ضعيف، فيه شريك بن عبدالله

الكوفي سعي الحفظ وشيخه إبراهيم بن مهاجر ضعيف يعتبر به (٧)

الطبري: ٥٣٤/٢١

﴿وَالْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٤٨٧

سُورَةُ الشُّورَى

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ يَسْأَلُ سِكِّينَ الرِّيحِ
فَيَطَّلِنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِنُ هُنَّ يَمَّا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ
يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحْصِيٍّ ﴿٣٥﴾ فَمَا أَوْيَدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنْعَ
الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَمَاعِنَدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبِيرَ الْأَثَمِ وَالْفَوْحَشِ وَإِذَا مَا
عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ
الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَحِزْبٌ أَسِئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا فَمَنْ عَصَا
وَأَصْلَحَ فَاجْرَهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ
﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَادٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ
لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

الْحَيَوَانَاتِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ وَالْوَانِيهِمْ وَلَعَانَتِهِمْ
وَطِبَاعِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَأَنْوَاعِهِمْ، وَقَدْ فَرَّقَهُمْ فِي أَرْجَاءِ
أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَهُوَ﴾ مَعَ هَذَا كُلِّهِ ﴿عَلَىٰ جَمِيعِهِمْ
إِذَا بَشَاةٌ قَدِيرٌ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ
وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيُنْفِذُهُمُ
الْبَصْرَ فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الْحَقِّ.

[سَبَبُ الْمَصَائِبِ الْعُضْيَانُ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ﴾ أَي: مَهْمَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الْمَصَائِبِ
فَاتِّمَّا هِيَ عَنْ سَبَبَاتٍ تَقَدَّمَتْ لَكُمْ ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أَي:
مِنَ السَّيِّئَاتِ فَلَا يُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا، بَلْ يَغْفُو عَنْهَا ﴿وَلَوْ
يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنَ
دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «وَالَّذِي نَفْسِي

[اللَّحْمِيَّ] فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَتَجِدُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ قَالَ: يَشْفَعُونَ فِي إِخْوَانِهِمْ ﴿وَيُرِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾
قَالَ: يَشْفَعُونَ فِي إِخْوَانِ إِخْوَانِهِمْ^(١). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:
﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَالَهُمْ مِنَ
الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ذَكَرَ الْكَافِرِينَ وَمَالَهُمْ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ
العَذَابِ الشَّدِيدِ الْمُوجِعِ الْمُؤْلِمِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ.

[الْحِكْمَةُ فِي عَدَمِ بَسْطِ الرِّزْقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي
الْأَرْضِ﴾ أَي: لَوْ أَعْطَاهُمْ فَوْقَ حَاجَتِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ لَحَمَلَهُمْ
ذَلِكَ عَلَى الْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ أَشْرًا
وَبَطْرًا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ
خَبِيرٌ صَبِيرٌ﴾ أَي: وَلَكِنْ يَرْزُقُهُمْ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَخْتَارُهُ مِمَّا
فِيهِ صَلَاحُهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ، فَيَغْنِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَنَى
وَيَقْفِرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾
أَي: مِنْ بَعْدِ إِيَّاسِ النَّاسِ مِنْ نُزُولِ الْمَطَرِ يَنْزِلُهُ عَلَيْهِمْ فِي
وَقْتِ حَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَلْبِهِ لَمَلِيسِينَ﴾ [الروم: ٤٩] وَقَوْلُهُ
جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أَي: يَعْمُ بِهَا الْوُجُودُ عَلَى
أَهْلِ ذَلِكَ الْقَطْرِ وَيَتَلَكَّ النَّاجِيَةَ. قَالَ قَتَادَةَ: ذَكَرَ لَنَا أَنَّ
رَجُلًا قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ، فَحَطَّ الْمَطَرُ وَقَطَّ النَّاسُ. فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ: مُطِرْتُمْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا
قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢). أَي: هُوَ
الْمُتَصَرِّفُ لِخَلْقِهِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ، وَهُوَ
الْمَحْمُودُ الْعَاقِبِيَّةُ فِي جَمِيعِ مَا يَقْدَرُهُ وَيَعْمَلُهُ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ
عَلَىٰ جَمِيعِهِمْ إِذَا بَشَاةٌ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا
كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٣٦﴾

[مِنْ آيَاتِ اللَّهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ
الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِيهِ الْقَاهِرِ ﴿خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾
فِيهِمَا أَي: دَرَأَ فِيهِمَا أَي: فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَمِنْ
كَابَّةٍ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَسَائِرَ

(١) الطبري: ٥٣٤/٢١ (٢) الطبري: ٥٣٧/٢١ إسناده مرسل
قتادة لم يدرك عمر.

يَدِهِ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٌّ وَلَا حُزْنَ، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُّهَا»^(١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاوِيَةَ - هُوَ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ فِي جَسَدِهِ يُؤْذِيهِ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»^(٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكْفِرُهَا، ابْتَلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْحُزَنِ لِيُكْفِرَهَا»^(٣).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) إِنْ بِنَا يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيَظَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقُهُنَّ يَمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِجْبٍ ﴿٣٥﴾

[السُّفُنُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ: تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِتَجْرِي فِيهِ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ، وَهِيَ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ أَي: كَالجِبَالِ. قَالَه مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ. أَي: هَذِهِ فِي الْبَحْرِ كَالجِبَالِ فِي الْبَرِّ^(٤). ﴿إِنْ بِنَا يُسْكِنُ الرِّيحَ﴾ أَي: الَّتِي تَسِيرُ فِي الْبَحْرِ بِالسُّفُنِ لَوْ شَاءَ لَسَكَّنَهَا حَتَّى لَا تَتَحَرَّكَ السُّفُنُ، بَلْ تَبْقَى رَاكِدَةً لَا تَجِيءُ وَلَا تَذْهَبُ، بَلْ وَاقِفَةً عَلَى ظَهْرِهِ أَي: عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَي: فِي الشَّدَائِدِ ﴿شَكُورٍ﴾ أَي: إِنْ فِي تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ وَإِجْرَائِهِ فِي الْهَوَاءِ بِقَدْرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لِسَيْرِهِمْ لَدَلَالَاتٍ عَلَى نِعْمَةِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ لِكُلِّ صَبَّارٍ أَي: فِي الشَّدَائِدِ شَكُورٌ فِي الرَّخَاءِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ يُوبِقُهُنَّ يَمَا كَسَبُوا﴾ أَي: وَلَوْ شَاءَ لَأَهْلَكَ الشُّمْنَ وَعَرَفَهَا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا الَّذِينَ هُمْ رَاكِبُونَ فِيهَا ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أَي: مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَلَوْ أَخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ كُلَّ مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ.

وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يُوبِقُهُنَّ يَمَا كَسَبُوا﴾ أَي: لَوْ شَاءَ لَأَرْسَلَ الرِّيحَ قَوِيَّةً عَاتِيَةً فَأَخَذَتْ الشُّمْنَ وَأَحَالَتْهَا عَنْ سَيْرِهَا الْمُسْتَقِيمِ فَصَرَفَتْهَا ذَاتَ الْيَمِينِ أَوْ ذَاتَ الشَّمَالِ أَبَقَةً لَا تَسِيرُ عَلَى طَرِيقٍ وَلَا إِلَى جِهَةٍ مُقْصِدٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ يَتَضَمَّنُ هَلَاكَهَا، وَهُوَ

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَّ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦) وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَعْضَ الْإِيمَانِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُرُكِي بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبِرُونَ ﴿٣٩﴾

[صِفَاتٌ مِنْ يَسْتَحِقُّ مَا عِنْدَ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَقَّرًا لِشَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَبِيبَتِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الرَّهْرَةِ وَالنَّعِيمِ الْفَانِي بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَّ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ أَي: مَهْمَا حَصَلْتُمْ وَجَمَعْتُمْ فَلَا تَعْتَرُوا بِهِ، فَإِنَّمَا هُوَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهِيَ دَارٌ دُنَيْتُهُ فَايَتُهُ زَائِلَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَي: وَثَوَابُ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ بَاقٍ سَرْمَدِيٌّ، فَلَا تُقَدِّمُوا الْفَانِيَّ عَلَى الْبَاقِي، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: لِلَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَرْكِ الْمَلَاذِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أَي: لِيُعِينَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي آدَاءِ الْوَأَجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَعْضَ الْإِيمَانِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْفَوَاحِشَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أَي: سَجَّيْتُهُمْ تَقْتَضِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ عَنِ النَّاسِ لَيْسَ سَجَّيْتُهُمُ الْإِنْتِقَامَ مِنَ النَّاسِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا انْتَمَ لِنَفْسِهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ^(٥).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أَي: اتَّبَعُوا

(١) أحمد: ٣٠٣/٢ (٢) أحمد: ٩٨/٤ (٣) أحمد: ١٥٧/٦

إسناده ضعيف فيه الليث بن أبي سليم وهو ضعيف لكن له شواهد

كما سبق (٤) الطبري: ٥٤١/٢١ (٥) فتح الباري: ٥٤١/١٠

تَعَالَى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾... الآية [النحل: ١٢٦]، فَشَرَعَ الْعَدْلَ، وَهُوَ الْفِصَاصُ، وَنُذِبَ إِلَى الْفَضْلِ، وَهُوَ الْعَفْوُ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْجُرُوحُ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي: لَا يَبْضِعُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ: «وَمَا زَادَ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا»^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: الْمُعْتَدِينَ وَهُوَ الْمُتَبَدِّيءُ بِالسِّيَةِ.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ سَبِيلٍ﴾ أَي: لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ فِي الْأَنْصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أَي: إِنَّمَا الْحَرْجُ وَالْعَنْتُ ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَي: يَبْدُؤُونَ النَّاسَ بِالظُّلْمِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الْمُسْتَبَانَ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِيءِ، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ»^(٢). ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي: شَدِيدٌ مُوجِعٌ.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ، قَالَ: قَدِمْتُ [مِن] مَكَّةَ، فَإِذَا عَلَى الْخَنْدَقِ قَنْطَرَةٌ^(٣)، فَأَخِذْتُ فَأَنْطَلِقُ بِهَا إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى الْبُصْرَةِ فَقَالَ: مَا حَاجَتُكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: حَاجَتِي إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ كَمَا كَانَ أَخُو بَنِي عَدِيٍّ، قَالَ: وَمَنْ أَخُو بَنِي عَدِيٍّ؟ قَالَ: الْعَلَاءُ ابْنُ زِيَادٍ، اسْتَعْمَلَ صَدِيقًا لَهُ مَرَّةً عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَبِيَّتَ إِلَّا وَظَهْرُكَ خَفِيفٌ، وَبَطْنُكَ حَمِيمٌ، وَكَفُّكَ نَقِيَّةٌ: مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ سَبِيلٌ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فَقَالَ مَرْوَانُ: صَدَقَ - وَاللَّهِ - وَصَحَّ، ثُمَّ قَالَ: مَا حَاجَتُكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: حَاجَتِي أَنْ تُلْحِقَنِي بِأَهْلِي، قَالَ: نَعَمْ^(٤). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، لَمَّا ذَمَّ الظُّلْمَ وَأَهْلَهُ وَشَرَعَ

رُسُلَهُ، وَأَطَاعُوا أَمْرَهُ، وَاجْتَنَبُوا زَجْرَهُ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وَهِيَ أَعْظَمُ الْعِبَادَاتِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أَي: لَا يُبْرِمُونَ أَمْرًا حَتَّى يَتَشَاوَرُوا فِيهِ؛ لِيَتَسَاعَدُوا بِأَرْأْسِهِمْ فِي مِثْلِ الْحُرُوبِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾... الآية، وَلِهَذَا كَانَ ﷺ يُشَاوَرُهُمْ فِي الْحُرُوبِ وَنَحْوِهَا؛ لِيُطِيبَ بِذَلِكَ قُلُوبَهُمْ، وَهَكَذَا لَمَّا حَضَرَتْ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْوَفَاةَ حِينَ طُعِنَ جَعَلَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ شُورَى فِي سِتِّهِ نَفْرٍ، وَهُمْ عُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَاجْتَمَعَ رَأْيُ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ عَلَيْهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿وَمِمَّا رَفَقْتُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] وَذَلِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِ اللَّهِ، الْأَقْرَبِ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ، فَلَا اقْرَبَ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أَي: فِيهِمْ قُوَّةُ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ لَيْسُوا بِالْعَاجِزِينَ وَلَا الْأَذَلِينَ، بَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى الْأَنْتِقَامِ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا مَعَ هَذَا إِذَا قَدَرُوا عَفْوًا، كَمَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِعُفْرِ اللَّهِ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مُؤَاخَذَتِهِمْ وَمُقَابَلَتِهِمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ إِلَيْهِ، وَكَمَا عَفَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَوْلِيكَ النَّفَرِ الثَّمَانِينَ الَّذِينَ قَصَدُوهُ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَنَزَلُوا مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ، فَلَمَّا قَدَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ عَلَيْهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَنْتِقَامِ، وَكَذَلِكَ عَفُوهُ ﷺ عَنْ غَوْرَتِ بْنِ الْحَارِثِ الَّذِي أَرَادَ الْفَتْكَ بِهِ حِينَ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَهُوَ نَائِمٌ فَاسْتَبَقَطَ ﷺ وَهُوَ فِي يَدِهِ مُضَلَّتًا، فَانْتَهَرَهُ فَوَضَعَهُ مِنْ يَدِهِ، وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّيْفَ فِي يَدِهِ وَدَعَا أَصْحَابَهُ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرَ هَذَا الرَّجُلِ وَعَفَا عَنْهُ. وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿وَحَرَّأَوْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ سَبِيلٍ^(٦) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٧) وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ^(٨)

[فَضِيلَةُ الْعَفْوِ وَخِيَارُ الْأَنْتِقَامِ مِنَ الظَّالِمِ]

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَحَرَّأَوْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا﴾ كَقَوْلِهِ

(١) مسلم: ٢٠٠١/٤ (٢) مسلم: ٢٠٠٠/٤ (*) كذا عندنا وفي مطبوع ابن أبي شيبة «المنظرة» وهي موضع الحرس على رأس العجل (رقم ٣٥٤١٧) ويمكن الجمع بينها (٣) ابن أبي شيبة:

الْقِصَاصِ، قَالَ نَادِبًا إِلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ: ﴿وَلَمَنْ صَدَرَ وَعَفَرَ﴾ أي: صَبَرَ عَلَى الْأَدَى، وَسَتَرَ السَّيِّئَةَ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي لِمَنْ حَقَّ الْأُمُورِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، أَيْ: لِمَنْ الْأُمُورِ الْمُشْكُورَةِ، وَالْأَفْعَالِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي عَلَيْهَا ثَوَابٌ جَزِيلٌ، وَثَنَاءٌ جَمِيلٌ.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَدْيٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ﴾ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ حَيْفِي وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبْنَا بِهَا وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِيبَةً يَمَاقِذَ مِنْ آيَاتِنَا فَحَسْبُ الْإِنْسَانِ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مَلَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِمَّا يَسَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِ شَاءَ وَبِهِبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْزَوْجَهُمْ ذَكَرْنَا وَإِنَّا نَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ ذَوِي عَرْقٍ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾

[حَالِ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَلَا رَادَّ لَهُ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَلَا مُوجِدَ لَهُ، وَأَنَّهُ مَنْ هَدَاهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنِ الظَّالِمِينَ، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ: ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَمَتُّوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يُوْفَّوْا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِمَا كُنَّا رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أَيْ: عَلَى النَّارِ ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ قَدْ اغْتَرَاهُمْ بِمَا أَسْلَفُوا مِنْ عُضْيَانِ اللَّهِ تَعَالَى﴾ يُنظَرُونَ مِنْ طَرْفِ حَيْفِي﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي ذَلِيلٌ ^(١) أَيْ: يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا مُسَارِقَةً؛ خَوْفًا مِنْهَا، وَالَّذِي يَحْذَرُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا فِي نَفْسِهِمْ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيْ: يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِنَّ الْخَسِرِينَ﴾ أَيْ: الْخَسَارَ الْأَكْبَرَ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ: ذَهَبَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ فَعَدِمُوا لَدَتَهُمْ فِي دَارِ الْأَبَدِ وَخَسِرُوا أَنفُسَهُمْ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ، فَخَسِرُوهُمْ ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أَيْ: دَائِمٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا مُجِدَّ لَهُمْ عَنْهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيْ: يُنْفِقُونَ مِنْهَا مِنْهُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أَيْ لَيْسَ لَهُ خَلَاصٌ.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبْنَا بِهَا وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِيبَةً يَمَاقِذَ مِنْ آيَاتِنَا فَحَسْبُ الْإِنْسَانِ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

[الْحَثُّ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا يَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْأُمُورِ الْعَظِيمِ الْهَائِلَةِ، حَذَرَ مِنْهُ وَأَمَرَ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، فَقَالَ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيْ: إِذَا أَمَرَ بِكَوْنِهِ فَإِنَّهُ كَلَّمَحُ الْبَصَرِ يَكُونُ، وَلَيْسَ لَهُ دَافِعٌ وَلَا مَانِعٌ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَكُمْ حِصْنٌ تَتَحَصَّنُونَ فِيهِ، وَلَا مَكَانٌ يَسْتُرْكُمْ، وَتَتَكَبَّرُونَ فِيهِ فَتَغْيِبُونَ عَنْ بَصَرِهِ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ بِعَلْمِهِ وَبَصِيرِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ ﴿١١٠﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ بِيَمِينِهِ الْقُرْآنَ ﴿١١١﴾ كَلَّا لَا وَرَدَّ ﴿١١٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ بِبُيُوتِ الْمُنَافِقِينَ ﴿القيامة: ١٠، ١١﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ بِعَنِي: الْمُشْرِكِينَ ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠] أُنِي: لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالَمَّا عَلِكَ أَلْبَلَعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ أُنِي: إِنَّمَا كَلَّفْنَاكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ رَسُولَةَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبْنَا بِهَا﴾ أُنِي: إِذَا أَصَابَهُ رَحَاءٌ وَنِعْمَةٌ فَحَرَبْنَا بِذَلِكَ ﴿وَأِنْ نَضَّيْنَاهُمْ﴾ بِعَنِي: النَّاسَ ﴿سَيِّئَةً﴾ أُنِي: جَذَبْتُ وَنِقَمْتُ وَبَلَاءٌ وَشِدَّةٌ ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أُنِي: يَجْحَدُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ النِّعَمِ، وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا السَّاعَةَ الرَّاهِنَةَ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ أَشِيرَ وَبَطِرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مِحْنَةٌ يَيْسُ وَقَطَطَ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: وَلِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «لِأَنَّكُمْ تَكْثُرُونَ الشُّكَايَةَ وَتَكْفُرُونَ الْعَشِيرَ، لَوْ أَحْسَنْتُمْ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ تَرَكْتُمْ يَوْمًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»^(١). وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ النِّسَاءِ، إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَالْهَمَّةُ رُشِدُهُ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَالْمُؤْمِنُ كَمَا قَالَ ﷺ: «إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»^(٢).

سُورَةُ الْحُرُوفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 حَمْ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

وَالأُنثَى أُنِي: هَذَا وَهَذَا. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿٥﴾: ﴿وَيَجْعَلُ مِنْ نِسَاءٍ عَقِيمًا﴾ أُنِي: لَا يُؤَلِّدُ لَهُ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَيَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(١). فَجَعَلَ النَّاسَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ النَّبَاتَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ النَّبِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ مِنَ النَّوْعَيْنِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ هَذَا وَهَذَا فَيَجْعَلُهُ عَقِيمًا لَا نَسْلَ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أُنِي: يَمْنُ يَسْتَحِقُّ كُلَّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ ﴿فَقَدِيرٌ﴾ أُنِي: عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أُنِي دَلَالَةٌ لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَتَقَدُّسِ، حَيْثُ خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ، فَأَدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ لَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى، وَحَوَّاهُ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَخْلُوقَةٌ

﴿اللَّهُ مُلَكُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ﴿١١﴾ أَوْ بِرُؤُوسِهِمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لِكُهُمَا وَالْمُنْصَرَفُ فِيهِمَا، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعَ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً﴾ أُنِي: يَرْزُقُهُ النَّبَاتَ فَقَطَّ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: وَمِنْهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(٣). ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أُنِي يَرْزُقُهُ النَّبِينَ فَقَطَّ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَأَبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُؤَلِّدْ لَهُ أُنْثَى^(٤). ﴿أَوْ بِرُؤُوسِهِمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً﴾ أُنِي: يُعْطِي لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الرُّؤُوسَيْنِ الذُّكْرَ

(١) مسلم: ٨٦/١ (٢) مسلم: ٢٢٩٥/٤ (٣) البغوي: ٤/١٣٢ (٤) البغوي: ١٣٢/٤ (٥) البغوي: ١٣٢/٤ (٦) البغوي: ١٣٢/٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أَي: يَا مُحَمَّدُ ﴿لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَهُوَ الْخَلْقُ الْقَوِيمُ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ أَي: شَرَعِهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ اللَّهُ ﴿الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: رَبُّهُمَا وَمَا لِكُلُّهُمَا وَالْمُنْتَصِرُ فِيهِمَا، وَالْحَاكِمُ الَّذِي لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾ أَي: تَرْجِعُ الْأُمُورُ فَيُقْضَىٰ لَهَا وَحُكْمُ فِيهَا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْحَاجِدُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا.

تفسير سورة الزخرف وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّا فِي أَرْكِ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٣﴾ أَنْضَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٤﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾ وَمَا بَأْسِهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿حَمْدٌ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ أَي: الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْجَلِيلِ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي هِيَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ لِلتَّخاطُبِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أَي: أَنْزَلْنَاهُ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أَي: بِلُغَةِ الْعَرَبِ فَصِيحًا وَاضِحًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَي: تَفْهَمُونَهُ وَتَتَدَبَّرُونَهُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَلِسَانِ عَرَفِي مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا فِي أَرْكِ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ بَيْنَ شَرْفِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى لِشُرْفِهِ وَبِعَظَمَتِهِ وَيُطِيعُهُ أَهْلُ الْأَرْضِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا فِي أَرْكِ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ أَي: اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ^(١). ﴿لَدِينَا﴾ أَي: عِنْدَنَا، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ^(٢). ﴿لَعَلِّي﴾ أَي: دُونَ مَكَانَتِهِ وَشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ.

(١) مسند الشهاب: ١٨٥/٢ لم أجده في صحيح ابن حبان بل روى البغوي في شرح السنة (٤١١١) عن ابن مسعود بنحوه لكنه منقطع زيد اليامي لم يسمع من ابن مسعود وله شاهد صحيح عن جابر بن عبد الله عند ابن ماجه (٢١٤٤) وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٠) وابن حبان (الموارد ١٠٨٤، ١٠٨٥) (٢) تحفة الأحوذى: ٣٦٠/٨ (٣) الرازي: ١٦٧/٢٧ (٤) البغوي: ٤/١٣٣

مِنْ ذَكَرَ بِلَا أَنْتَى، وَسَائِرُ الْخَلْقِ سِوَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَكَرَ وَأَنْتَى. وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْتَى بِلَا ذَكَرَ. فَتَمَّتِ الدَّلَالَةُ بِخَلْقِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فَهَذَا الْمَقَامُ فِي الْأَبَاءِ وَالْمَقَامُ الْأَوَّلُ فِي الْأَبْنَاءِ، وَكُلُّ مِنْهُمَا أَرْبَعَةٌ أَقْسَامٌ، فَسُبْحَانَ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ. ﴿وَمَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدَىٰ بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ ﴿٦﴾

إِبَانُ كَيْفِيَّةِ الْوَحْيِ

هَذِهِ مَقَامَاتُ الْوَحْيِ بِالنَّبِيَّةِ إِلَى جَنَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَارَةً يَدْفَعُ فِي رُوحِ النَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا لَا يَتِمَّارَى فِيهِ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ ابْنِ جِبَانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوحِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ»^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّهُ سَأَلَ الرَّؤْيِيَّةَ بَعْدَ التَّكْلِيمِ فَحُجِبَ عَنْهَا.

وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كَيْفَاخًا»^(٢). كَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ، وَكَانَ قَدْ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَكِنَّ هَذَا فِي عَالَمِ الْبُرْزُخِ، وَالآيَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كَمَا يَنْزِلُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ فَهُوَ عَلِيُّ عَلِيمٌ خَيْرٌ حَكِيمٌ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أَي: عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي شَرَعَ لَكَ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ... الآية [فصلت: ٤٤].

قَالَ فَتَادَةٌ^(١). ﴿حَكِيمٌ﴾ أَي: مُحْكَمٌ بَرِيءٌ مِنَ اللَّبْسِ وَالزَّيْغِ. وَهَذَا كُلُّهُ تَنْبِيهُ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الواقعة: ٧٧-٨٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنَذْكُرُهُ (١١) مِنْ شَأْنِ ذِكْرِهِ (١٧) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٢) مُرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَضْرِبَ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ أَي: أَنْتَحَسِبُونَ أَنْ نَضْفَحَ عَنْكُمُ فَلَا نَعُدُّبِكُمْ وَلَمْ تَعْمَلُوا مَا أَمَرْتُمْ بِهِ؟ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَبُو الصَّالِحِ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٢). وَقَالَ فَتَادَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَضْرِبَ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ رُفِعَ حِينَ رَدَّتْهُ أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَهَلَكُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَادَ بِعَائِدَتِهِ وَرَحْمَتِهِ فَكَّرَهُ عَلَيْهِمْ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ^(٣). وَقَوْلُ فَتَادَةَ لَطِيفُ الْمَعْنَى جِدًّا، وَحَاصِلُهُ: أَنَّهُ يَقُولُ فِي مَعْنَاهُ: إِنَّهُ تَعَالَى مِنْ لَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ لَا يَتْرُكُ دُعَاءَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ وَإِلَى الذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَإِنْ كَانُوا مُسْرِفِينَ مُعْرِضِينَ عَنْهُ، بَلْ أَمْرٌ بِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهِ مَنْ قُدِّرَ هِدَايَتُهُ، وَتَقْوَمُ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ كُتِبَ شِقَاؤُهُ.

قَالَ فَتَادَةٌ^(١). ﴿حَكِيمٌ﴾ أَي: مُحْكَمٌ بَرِيءٌ مِنَ اللَّبْسِ وَالزَّيْغِ. وَهَذَا كُلُّهُ تَنْبِيهُ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الواقعة: ٧٧-٨٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنَذْكُرُهُ (١١) مِنْ شَأْنِ ذِكْرِهِ (١٧) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٢) مُرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَضْرِبَ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ أَي: أَنْتَحَسِبُونَ أَنْ نَضْفَحَ عَنْكُمُ فَلَا نَعُدُّبِكُمْ وَلَمْ تَعْمَلُوا مَا أَمَرْتُمْ بِهِ؟ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَبُو الصَّالِحِ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٢). وَقَالَ فَتَادَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَضْرِبَ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ رُفِعَ حِينَ رَدَّتْهُ أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَهَلَكُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَادَ بِعَائِدَتِهِ وَرَحْمَتِهِ فَكَّرَهُ عَلَيْهِمْ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ^(٣). وَقَوْلُ فَتَادَةَ لَطِيفُ الْمَعْنَى جِدًّا، وَحَاصِلُهُ: أَنَّهُ يَقُولُ فِي مَعْنَاهُ: إِنَّهُ تَعَالَى مِنْ لَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ لَا يَتْرُكُ دُعَاءَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ وَإِلَى الذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَإِنْ كَانُوا مُسْرِفِينَ مُعْرِضِينَ عَنْهُ، بَلْ أَمْرٌ بِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهِ مَنْ قُدِّرَ هِدَايَتُهُ، وَتَقْوَمُ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ كُتِبَ شِقَاؤُهُ.

[غافر: ٨٥]، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿سَنَّتَ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادَتِهِ﴾ [الزخرف: ٥٦] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسِنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٢) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ (٣) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (٤) لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (٥) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (٦)

[إِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ الْخَلْقِ وَمَزِيدُ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ] يَقُولُ تَعَالَى: وَلَيْنَ سَأَلْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ

[إِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ الْخَلْقِ وَمَزِيدُ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ] يَقُولُ تَعَالَى: وَلَيْنَ سَأَلْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ

(١) الطبري: ٥٦٧/٢١ (٢) الطبري: ٥٦٨، ٥٦٧/٢١ (٣) الطبري: ٥٦٨/٢١ (٤) الطبري: ٥٧١/٢١ (٥) الطبري: ٥٧١/٢١

أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَانِكُمْ **الْبَيْنِينَ** ﴿١٥﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٦﴾
أَوْ مَن يُنْسَوُا فِي الْجَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ وَجَعَلُوا
الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَوَّكُنُتُ
سَهْدَهُمْ **وَسْتَلُونَ** ﴿١٨﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ
بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٩﴾

الْكَتِيرُ عَلَى جَعْلِ الْمُشْرِكِينَ لِلَّهِ وَلَدًا

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا افْتَرَوْهُ وَكَذَّبُوهُ
فِي جَعْلِهِمْ بَعْضَ الْأَنْعَامِ لَطَوَافِيهِمْ وَبَعْضَهَا لِلَّهِ تَعَالَى،
كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ
وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
فَمَا كَانُوا لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانُوا
لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾
[الأنعام: ١٣٦] وَكَذَلِكَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ قِسْمِي الْبِنَاتِ وَالْبَيْنِينَ
أَحْسَهُمَا وَأَرَادَاهُمَا وَهُوَ الْبِنَاتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْكُفْرُ
الَّذِي لَهُ الْأُنثَى **الْبَيْنَى** ﴿١٦﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]
وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا
يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَانِكُمْ **الْبَيْنِينَ**﴾ وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ غَايَةَ
الْإِنْكَارِ. ثُمَّ ذَكَرَ تَمَامَ الْإِنْكَارِ، فَقَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَإِذَا
بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
كَظِيمٌ﴾ أَيْ: إِذَا بُشِّرَ أَحَدٌ هُوَ لَاءٍ بِمَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ مِنَ الْبِنَاتِ
يَأْتَفُ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الْأَنْفَةِ، وَتَعْلُوهُ كَابَهُ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ
بِهِ، وَيَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ حَجَلِهِ مِنْ ذَلِكَ، يَقُولُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: فَكَيْفَ تَأْتَفُونَ أَنْتُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَنْسِيُونَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ؟! ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهِ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ مَن يُنْسَوُا فِي الْجَلِيَةِ
وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾ أَيْ: الْمَرَأَةُ نَاقِصَةٌ يَكْمَلُ نَقْصَهَا
بِلِبْسِ الْحُلِيِّ مُنْذُ تَكُونُ طِفْلَةً، وَإِذَا خَاصَمْتَ فَلَا عِبَارَةَ
لَهَا، بَلْ هِيَ عَاجِزَةٌ عَيْبَةٌ، أَوْ مَن يَكُونُ هَكَذَا يُنْسَبُ إِلَى
جَنَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ؟ فَالْأُنثَى نَاقِصَةُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فِي
الصُّورَةِ وَالْمَعْنَى، فَيَكْمَلُ نَقْصَ ظَاهِرِهَا وَصُورَتِهَا بِلِبْسِ
الْحُلِيِّ وَمَا فِي مَعْنَاهُ لِيَجْبَرَ مَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ. وَأَمَّا نَقْصُ
مَعْنَاهَا فَإِنَّهَا ضَعِيفَةٌ عَاجِزَةٌ عَنِ الْإِنْتِصَارِ عِنْدَ الْإِنْتِصَارِ، لَا

بِاللَّهِ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ
خَلَقْنَاهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أَيْ: لِيَعْتَرِفْنَ بِأَنَّ الْخَالِقَ لِذَلِكَ هُوَ
اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ
الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
مَهْدًا﴾ أَيْ: فِرَاشًا قَرَارًا ثَابِتَةً تَسِيرُونَ عَلَيْهَا، وَتَقُومُونَ
وَتَنَامُونَ وَتَنْصَرِفُونَ، مَعَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ عَلَى تَبَارِ الْمَاءِ، لَكِنَّهُ
أَرَسَاهَا بِالْجِبَالِ؛ لِئَلَّا تَمِيدَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ
فِيهَا سُبُلًا﴾ أَيْ: طُرُقًا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ﴾ أَيْ: فِي سَبِيلِكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَقَطَّرَ إِلَى قَطْرِ،
وَإِفْلِيمٍ إِلَى إِفْلِيمٍ ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ أَيْ:
بِحَسَبِ الْكِفَايَةِ لِرُزُوعِكُمْ وَتِمَارِكُمْ وَشُرْبِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا﴾ أَيْ:
أَرْضًا مَيْتَةً، فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ
كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ، ثُمَّ تَبَّهَ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ عَلَى إِحْيَاءِ
الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَقَالَ: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾
ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أَيْ: مِمَّا
تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ مِنْ بِنَاتٍ وَزُرُوعٍ وَتِمَارٍ
وَأَزَاهِيرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمِنْ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ
أَجْنَاسِهَا وَأَصْنَافِهَا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَكَ﴾ أَيْ: الشُّفَنِ
﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أَيْ: ذَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا وَبَسَّرَهَا:
لَأَكَلِكُمْ لِحُومَهَا وَشُرْبِكُمْ أَلْبَانَهَا وَرُكُوبِكُمْ ظُهُورَهَا، وَلِهَذَا
قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أَيْ: لَيْسَتُوا
مُتَمَكِّنِينَ مُرْتَفِعِينَ ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أَيْ: عَلَى ظُهُورِ هَذَا
الْجِنْسِ ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ: فِيمَا سَخَّرَ لَكُمْ ﴿إِذَا
أَسْوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ
مُقْرِنِينَ﴾ أَيْ: مُقَاوِمِينَ، وَلَوْلَا تَسْخِيرُ اللَّهِ لَنَا هَذَا مَا قَدَرْنَا
عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ
وَأَبْنُ زَيْدٍ: مُقْرِنِينَ أَيْ: مُطِيقِينَ ^(١). ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا لَمَقُولُونَ﴾
أَيْ: لَصَائِرُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَمَاتِنَا وَإِلَيْهِ سَيْرُنَا الْأَكْبَرُ، وَهَذَا
مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ بِسَيْرِ الدُّنْيَا عَلَى سَيْرِ الْآخِرَةِ، كَمَا تَبَّهَ بِالرَّادِ
الدُّنْيَوِيِّ عَلَى الرَّادِ الْأُخْرَوِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَزَرَدُوا
فَارِكٌ حَرَّ الرَّادِ النَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] وَبِالْبَلَّاسِ الدُّنْيَوِيِّ
عَلَى الْأُخْرَوِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَيْسًا وَبِلَّاسِ النَّقْوَى ذَلِكَ
حَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

عِبَارَةً لَهَا وَلَا هِمَّةَ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ وَقَدْ بُشِّرَ بِنِسْتِ: مَا هِيَ بِنِعْمِ الْوَلَدِ: نَضْرُهَا بَكَاءٍ، وَبُرْهَا سَرَفَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبُدُ الرَّحْمَنِ إِنَّتًا﴾ أَي: اعْتَقَدُوا فِيهِمْ ذَلِكَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَالَى قَوْلَهُمْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أَي: شَاهَدُوهُ وَقَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ إِنَانًا ﴿سَخَّكِبُ سَخَّكِبُهُمْ﴾ أَي: بِذَلِكَ ﴿وَيُسَخَّرُونَ﴾ عَنِ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أَي: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ لِحَالِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي هِيَ بَنَاتُ اللَّهِ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَهُوَ يُقَرِّرُنَا عَلَيْهِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْخَطِيئَةِ:

(أَحَدَهَا): جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَكَذَا، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ ذَلِكَ عَلْوًا كَبِيرًا.

(الثَّانِي): دَعَوَاهُمْ أَنَّهُ اضْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ، فَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا.

(الثَّلَاثُ): عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ كَلُهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانَ وَلَا إِذْنَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ، وَالتَّقْلِيدِ لِلْأَسْلَافِ وَالْكَفَرَاءِ وَالْأَبَاءِ، وَالْخَبْطِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ.

(الرَّابِعُ): اِخْتِجَاجُهُمْ بِتَقْدِيرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْرًا، وَقَدْ جَهِلُوا فِي هَذَا الْاِخْتِجَاجِ جَهْلًا كَبِيرًا، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ، فَإِنَّهُ مُنْذُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ يَأْمُرُ بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَنْهَى عَنِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوبَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَسَلَّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حُجَّتَهُمْ هَذِهِ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِن عِلْمٍ﴾ أَي:

بِصِحَّةِ مَا قَالُوهُ وَاجْتَحَجُّوا بِهِ ﴿وَلَئِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] أَي: يَكْذِبُونَ وَيَقْوَلُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِن عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

يَعْنِي: مَا يَعْلَمُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ^(١).

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِن قَبْلِهِ فَمُضُوا بِهِ مُتَشَكِّبِينَ﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ وَكَذَلِكَ

سُورَةُ الزُّخْرَفِ

٤٩١

سُورَةُ الزُّخْرَفِ

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ أَوْلُوا حُجَّتُهُمْ بآهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ فَانظُرْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمهٗ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَهُنَاءَ وَهِيَ آبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٤٤﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لِنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرَاءً وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمُ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٤٦﴾

مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ أَوْلُوا حُجَّتُهُمْ بآهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ فَانظُرْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٨﴾

[بَيَانُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا حُجَّةَ لَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَكْرِمًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ بِلَا بُرْهَانَ وَلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِن قَبْلِهِ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ شِرْكِهِمْ ﴿فَهُمْ بِهِ مُتَشَكِّبُونَ﴾ أَي: فِيمَا هُمْ فِيهِ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أَي: لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أَي: لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرِكِ سِوَى تَقْلِيدِ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

وَلْيُسْوِتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ
كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَفِيضًا لَهُ شَيْطَانًا
فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ نَاقَالُ يَبْلُغُ بَيْنِي وَيَبْئُكَ
بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَاءَلُ الْقَرِينُ ﴿٣٠﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ
إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣١﴾ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ
الْصُّرُورَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾
فَأَمَّا نَذِيرٌ يَكُ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ﴿٣٣﴾ أَوْ تَرِيكَ الَّذِي
وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ يَنْسَوْنَ ﴿٣٦﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِعَازِلَتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٣٩﴾

أَيُّ: هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،
وَحَلُّعٌ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَيُّ:
جَعَلَهَا دَائِمَةً فِي ذُرِّيَّتِي يَقْتَدِي بِهِ فِيهَا مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَيُّ:
إِلَيْهَا.

قَالَ عِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ
فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ بِغَيْبِ:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَزَالُ فِي ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَقُولُهَا ^(١). وَرُوي نَحْوُهُ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَلِمَةُ
الإِسْلَامِ ^(٢). وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا قَالَهُ الْجَمَاعَةُ.

[إِعْتِرَاضُ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى اللَّهِ فِي إِنْزَالِ الْقُرْآنِ وَجَوَابُهُ]
ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾ بِغَيْبِ الْمُشْرِكِينَ

(*) كَذَا الظاهر من نسخة المؤلف رحمه الله أنه أمر من قال،
وقراءة حفص وابن عامر ﴿قَالَ﴾ بِالْألف على الخبر. والله

أعلم (١) الطبري: ٥٨٩/٢١ والقرطبي: ٧٧/١٦ (٢)
القرطبي: ٧٧/١٦

عَلَى أُمَّةٍ وَالْمُرَادُ بِهَا الدِّينُ هَهُنَا. وَفِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنعام: ٩٢]. وَقَوْلُهُمْ:
﴿وَلِنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ أَيُّ: وَرَأَاهُمْ ﴿مُهْتَدُونَ﴾ دَعَوَى مِنْهُمْ
بِلا دَلِيلٍ. ثُمَّ بَيَّنَّ جَلَّ وَعَلَا أَنَّ مَقَالَةَ هَؤُلَاءِ قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَيْهَا
أَشْبَاهُهُمْ وَنَظَرَاؤُهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ الْمَكْذِبَةِ لِلرُّسُلِ،
تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ فَقَالُوا مِثْلَ مَقَالَتِهِمْ: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿١﴾ أَنْوَاصًا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيْبٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفًا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:
﴿قُلْ﴾ (*) أَيُّ: يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿أَوْلَوْ جِئْتَهُمْ
بِأَهْدَىٰ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ عِبَادَةً قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾
أَيُّ: وَلَوْ عَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا صِحَّةَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ لَمَا انْقَادُوا
لِذَلِكَ؛ لِسُوءِ قُضْدِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ. قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَكْذِبَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ
الْعَذَابِ، كَمَا فَضَّلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي قِصَصِهِمْ ﴿فَأَنْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكذِبِينَ﴾ أَيُّ: كَيْفَ بَادُوا وَهَلَكُوا
وَكَيفَ نَجَّى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ إِلَّا
الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٣﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ
وَرُسُولٌ يُبَيِّنُ ﴿٥﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ
كَافِرُونَ ﴿٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
عَظِيمٍ ﴿٧﴾ أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ حَتَّىٰ نَقَسْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي
الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوسِعَهُمْ سَفْعًا مِنْ
فَضْلِهِ وَمَعَاجِرَ عَلَيْهِمْ يَظْهَرُونَ ﴿٩﴾ وَلْيُسْوِتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا
يَتَكَبَّرُونَ ﴿١٠﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾

[إِعْلَانُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبِرَاءَةِ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ]
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَقْبِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِمَامِ
الْحَقِّقَاءِ وَوَالِدِ مَنْ بَعَثَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِي تَنَسَّبَ إِلَيْهِ
قُرَيْشٌ فِي نَسَبِهَا وَمَذْهَبِهَا أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي
عِبَادَتِهِمْ الْأَوْثَانِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ إِلَّا
الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿١٣﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾

صَيَّاصِهِمْ! هَذَا مَعْنَى قَوْلِ السُّدِّيِّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (١).

[الْحُتُّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْقُرْآنِ]

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَأَسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّاكَ عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَي: حُذِّ بِالْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى قَلْبِكَ، فَإِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُنْفِصِي إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُوَصِّلِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالْخَيْرِ الدَّائِمِ الْمُقِيمِ. ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

قِيلَ: مَعْنَاهُ: لَشَرَّفَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ (٢). وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ شَرَّفَ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ أَنْزَلَ بِلُغَتِهِمْ، فَهُمْ أَفْهَمُ النَّاسِ لَهُ، فَيَبْغِي أَنْ يَكُونُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بِهِ وَأَعْمَلَهُمْ بِمُقْتَضَاهُ، وَهَكَذَا كَانَ خِيَارَهُمْ وَصَفْوَتُهُمْ مِنَ الْخُلَاصِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ وَمَنْ شَابَهُمْ وَتَابَعَهُمْ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أَي: لَتَذَكِيرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ. وَتَخْصِيصُهُم بِالذِّكْرِ لَا يَنْبَغِي مِنْ سِوَاهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]. وَكَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ﴿وَسَوْفَ نُسْتَلُونَ﴾ أَي: عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ، وَكَيْفَ كُنْتُمْ فِي الْعَمَلِ بِهِ وَالْإِسْتِجَابَةِ لَهُ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَلِّ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءِالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أَي: جَمِيعِ الرُّسُلِ دَعَا إِلَى مَا دَعَوْتَ النَّاسَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَهَوْا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَاسْأَلِ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ [مِنْ] رُسُلِنَا) (٣). وَهَكَذَا حَكَاهُ قَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ

وَالسُّدِّيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٤). وَهَذَا كَأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَا تِلَاوَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَذَلَّلْنَا فِي سُلُوفٍ مَبِينَةٍ﴾ [١٧]

رَسُولٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (١٩) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْأَعْنَاقِ فَجَنَحْنَا بِرُءُوسِهِمْ وَجَعَلْنَاهُمْ دَابَّةً يَسْرِعُونَ (٢٠) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ

تُسْمِعُ الصَّمَّةَ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢١) فَإِنَّمَا نَذَبْنَاهُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْ يُمْنِعُونَ (٢٢) أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٢٣) فَأَسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّاكَ عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٤) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ نُسْتَلُونَ (٢٥) وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءِالِهَةً يُعْبَدُونَ (٢٦)

الْأَلِهَةَ يُعْبَدُونَ (٢٧)

[الشَّيْطَانُ قَرِينٌ الْمُعْرِضُ عَنِ الرَّحْمَنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ أَي يَتَعَامَى وَيَتَغَافَلُ وَيُعْرِضُ ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وَالْعَشَا فِي الْعَيْنِ ضَعْفُ بَصَرِهَا، وَالْمُرَادُ هَهُنَا عَشَا الْبَصِيرَةِ ﴿فَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ . . . الْآيَةُ [النساء: ١١٥]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وَكَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَّالُهُ:

﴿وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ . . . الْآيَةُ [فصلت: ٢٥]. وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ﴾ (٢٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ أَي: هَذَا الَّذِي تَغَافَلَ عَنْ الْهُدَىٰ نَقِيضَ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِ الْحَجِيمِ. فَإِذَا وَفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَّبِرُ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي وَكَّلَ بِهِ ﴿قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسِفَ الْقَرِينُ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا) يَعْجِي: الْقَرِينُ وَالْمُقَارَنُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَكْثَرًا فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أَي: لَا يَعْجِي عَنْكُمْ اجْتِمَاعُكُمْ فِي النَّارِ وَاشْتِرَاكُكُمْ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

[لَا يَهْدِي مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ]

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّةَ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَي: لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَلَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْحَكْمُ الْعَدْلُ فِي ذَلِكَ.

[إِنْتِقَامُ اللَّهِ مِنْ أَعْدَاءِ الرَّسُولِ وَأَقِيع]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا نَذَبْنَاهُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْ يُمْنِعُونَ﴾ أَي لَا بُدَّ أَنْ نَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَنُعَاقِبَهُمْ وَلَوْ ذَهَبَتْ أَنْتَ ﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ أَي: نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا، وَلَمْ يَقْبِضِ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ حَتَّى أَقَرَّ عَيْنَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَحَكَّمَهُ فِي نَوَاصِيهِمْ، وَمَلَكَهُ مَا تَضَمَّنَتْهُ

(١) الطبري: ٦٠٩/٢١ (٢) الطبري: ٦١٠/٢١

(٣) الطبري: ٦١١/٢١ (٤) الطبري: ٦١٢/٢١

عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ
يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾

[آيَاتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَحْبِكَ آلِ فِرْعَوْنَ
وَتَنَاكُثُهُمْ عَهْوَدُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ اتَّبَعْتَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَيْتِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ
وَالْوُزَرَءِ وَالْقَادَةِ وَالْأَتْبَاعِ وَالرَّعَايَا مِنَ الْفِئْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ
يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيُنْهَاهُمْ عَنْ
عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَأَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ آيَاتٍ عِظَامًا كَبِيدَةً وَعَصَاهُ،
وَمَا أَرْسَلَ مَعَهُ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ
وَالدَّمِّ، وَمِنْ نَقْصِ الزُّرُوعِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرَاتِ، وَمَعَ هَذَا
كُلِّهِ اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالْإِنْقَادِ لَهَا، وَكَذَّبُوهَا وَسَخَرُوا
مِنْهَا وَصَحَّحُوا وَمِنْ جَاءَهُمْ بِهَا ﴿وَمَا تُرِيهِمْ﴾ ^(١) مِنْ آيَةِ إِلَّا
هِيَ أَكْبَرَ مِنْ أُخْتِهَا ﴿وَمَعَ هَذَا مَا رَجَعُوا عَنْ غَيْبِهِمْ
وَصَلَالِيهِمْ، وَجَهْلِيهِمْ وَخَبَالِيهِمْ، وَكُلَّمَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ مِنْ هَذِهِ
الْآيَاتِ بَصُرَعَوْا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،
وَيَتَلَطَّفُونَ لَهُ فِي الْعِبَارَةِ يَقُولِيهِمْ: ﴿يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ﴾ أَي:
الْعَالِمُ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ^(٢). وَكَانَ عُلَمَاءُ زَمَانِهِمْ هُمُ
السَّحَرَةُ. وَلَمْ يَكُنِ السَّحْرُ فِي زَمَانِهِمْ مَذْمُومًا عِنْدَهُمْ،
فَلَيْسَ هَذَا مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْتِقَاصِ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ الْحَالَ
حَالُ ضَرُورَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِ لَا تَنَاسُبُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْظِيمٌ
فِي زَعْمِهِمْ، فَبِي كُلِّ مَرَّةٍ يَدْعُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْ
كُتِفَ عَنْهُمْ هَذَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُرْسِلُوا مَعَهُ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ،
وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَنْكُثُونَ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ
آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٥١﴾ وَلَمَّا وَقَعَ
عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَكْفُرُ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَيْسَ
كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا
هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٣﴾ [الأعراف: ١٣٣-١٣٥].

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ

وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ
هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٥﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَدَةٌ مِنْ
ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٦﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا
مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٨﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

٤٩٣

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ
بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا تَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا
رَبِّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ
قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَدَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ
مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا
انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ
مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا يَا أَلِهُنَا
حَيْرًا أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ لِجَدَلٍ أَمْ لَبَّاهُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ
﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾

لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

[خِطَابُ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ وَمُواخَذَةُ اللَّهِ إِيَّاهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ فِرْعَوْنَ وَتَمَرُّدِهِ وَعُتُوِّهِ وَكُفْرِهِ
وَعِنَادِهِ، أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ فَتَنَادَى فِيهِمْ مُتَّبِعًا مُتَّخِرًا بِمُلْكِ
مِصْرَ وَنَصْرِهِ فِيهَا: ﴿الَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ قَالَ فَتَادَهُ: قَدْ كَانَتْ لَهُمْ جَنَاتٌ وَأَنْهَارُ
مَاءٍ ^(٣). ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أَي: أَفَلَا تَرَوْنَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ
الْعِظَمَةِ وَالْمُلْكِ. يُعْنِي: مُوسَى وَاتِّبَاعَهُ فُقَرَاءَ ضَعْفَاءَ،
وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَحَسْرَتِي لَأَنَّكَ كَفَرْتُمْ أَزْوَاجًا
فَاعْتَدَى اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قَالَ
السُّدِّيُّ: يَقُولُ: بَلْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ^(٤).
وَهَكَذَا قَالَ بَعْضُ نَحْوَةِ الْبُصْرَةِ: إِنَّ «أُمَّ» هُنَا بِمَعْنَى:

(١) وقع في الأصل هنا: «وما تأتيهم» وهو خطأ. (٢) الطبري:

٦١٥/٢١ (٣) الطبري: ٦١٦/٢١ (٤) الطبري: ٦١٦/٢١

بَلْ (١). وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا حَكَاهُ الْفَرَاءُ عَنْ بَعْضِ الْفَرَاءِ أَنَّهُ قَرَأَهَا: (أَمَا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) (٢). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَلَوْ صَحَّتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ لَكَانَ مَعْنَاهَا صَحِيحًا وَاضِحًا، وَلَكِنَّهَا خِلَافُ قِرَاءَةِ الْأَمْصَارِ فَإِنَّهُمْ قَرَأُوا ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ عَلَى الْأَشْتِفَاهَامِ (٣). (قُلْتُ:) وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَإِنَّمَا يَعْنِي فِرْعَوْنَ - لَعْنَةُ اللَّهِ - بِذَلِكَ: أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ كَذَبَ فِي قَوْلِهِ هَذَا كَذِبًا بَيِّنًا وَاضِحًا، فَعَلَيْهِ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿مَهِينٌ﴾ كَمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَقِيرٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي: ضَعِيفٌ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي: لَا مَلِكَ لَهُ وَلَا سُلْطَانَ وَلَا مَالَ. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يَعْنِي: لَا يَكَادُ يُفْصِحُ عَنْ كَلَامِهِ، فَهُوَ عَمِيٌّ حَصِرٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَهِينٌ﴾: كَذِبٌ، بَلْ هُوَ الْمَهِينُ الْحَقِيرُ خِلْفَةٌ وَخُلُقًا وَدِينًا، وَمُوسَى هُوَ الشَّرِيفُ الصَّادِقُ الْبَارُ الرَّاشِدُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إِفْتِرَاءٌ أَيْضًا؛ فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَصَابَ لِسَانَهُ فِي حَالِ صَغَرِهِ شَيْءٌ مِنْ جِهَةِ تِلْكَ الْجُمْرَةِ، فَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُحَلَّ عُقْدَةٌ مِنْ لِسَانِهِ؛ لِيَقْفَهُوا قَوْلَهُ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وَيَتَقَدَّرُ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ لَمْ يَسْأَلْ إِزَالَتَهُ، كَمَا قَالَه الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ. وَإِنَّمَا سَأَلَ زَوَالَ مَا يَخْضَلُ مَعَهُ الْإِبْلَاحُ وَالْإِفْهَامُ، فَالْأَشْيَاءُ الْخَلْقِيَّةُ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ لَا يُعَابُ بِهَا، وَلَا يُدْمُ عَلَيْهَا، وَفِرْعَوْنُ وَإِنْ كَانَ يَفْهَمُ وَلَهُ عَقْلٌ، فَهُوَ يَدْرِي هَذَا، وَإِنَّمَا أَرَادَ التَّرْوِيجَ عَلَى رَعِيَّتِهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا جَهْلَةً أَغْيَاءَ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أُسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وَهِيَ مَا يُجْعَلُ فِي الْأَيْدِي مِنَ الْحَلِيِّ. قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٤). ﴿أَزْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِبِينَ﴾ أَي: يَكْتَفِيونَهُ خِدْمَةً لَهُ، وَيَسْهَدُونَ بِتَضَدِّيقِهِ، نَظَرَ إِلَى الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وَلَمْ يَفْهَمْ السَّرَّ الْمَعْنَوِي الَّذِي هُوَ أَظْهَرُ مِمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ لَوْ كَانَ يَفْهَمُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ أَي: اسْتَحَفَّ عَقُولَهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أَسْخَطُونَا (٥). وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنْهُ: أَعْضَبُونَا، وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ

جُبَيْرٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ (٦).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُقْمَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ لَهُ»، ثُمَّ تَلَا ﷻ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧). وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَذَكَرَ عِنْدَهُ مَوْتُ الْعَجَاةِ، فَقَالَ: تَخْفِيفٌ عَلَى الْمُؤْمِنِ وَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨) وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَجِدْتُ النِّقْمَةَ مَعَ الْعُقْلَةِ، يَعْنِي قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ قَالَ أَبُو مِجَلَزٍ: ﴿سَلَفًا﴾: لِيُمَثِّلَ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِهِمْ (٩). وَقَالَ هُوَ وَمُجَاهِدٌ: ﴿وَمَثَلًا﴾ أَي عِبْرَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ (١٠). وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُوقِفُ لِلصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأَبُ.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمَنَّتْ بِهَا وَتَأْسِفُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٦٣) إِنْ اللَّهُ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاتَّخَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْآلِيمِ (٦٥)

[اسْتِخْفَافٌ قُرَيْشٍ لِابْنِ مَرْيَمَ، وَدَرَجَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَعَنُّتِ قُرَيْشٍ فِي كُفْرِهِمْ

(١) الطبري: ٦١٨/٢١ (٢) الطبري: ٦١٨/٢١ (٣) الطبري: ٦١٨/٢١ (٤) الطبري: ٦١٩/٢١ (٥) الطبري: ٦٢٢/٢١ (٦) الطبري: ٦٢٢/٢١ والدر المنثور: ٣٨٣/٧ (٧) أحمد: ٤/١٤٥ باختلاف يسير. (٨) الدر المنثور: ٣٨٤/٧ (٩) القرطبي: ١٠٢/١٦ (١٠) الطبري: ٦٢٤/٢١ والقرطبي: ١٠٢

وَتَعْمُدُهُمُ الْعِنَادَ وَالْجَدَلَ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالضُّحَّاكُ: يَضْحَكُونَ أَيُّ: أَعْجَبُوا بِذَلِكَ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: يَجْزَعُونَ وَيَضْحَكُونَ^(٢). وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: يُعْرِضُونَ^(٣).

وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ حَيْثُ قَالَ: وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِيمَا بَلَغَنِي، يَوْمًا مَعَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةَ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ، وَفِي الْمَجْلِسِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَفْحَمَهُ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّوكُمْ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠] الْآيَاتِ.

ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ التَّمِيمِيُّ حَتَّى جَلَسَ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةَ لَهُ: وَاللَّهِ مَا قَامَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لِابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَمَا قَعَدَ، وَقَدْ زَعَمَ مُحَمَّدٌ أَنَا وَمَا تَعْبُدُ مِنَ الْيَهْتِنَا هَذِهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتَهُ لَخَصَمْتُهُ، سَلُوا مُحَمَّدًا أَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ، فَتَحْنُ تَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْيَهُودُ تَعْبُدُ عَزْرِيًّا، وَالنَّصَارَى تَعْبُدُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَرَأَوْا أَنَّهُ قَدْ احْتَجَّ وَخَاصَمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يُعْبَدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أَيُّ: عِيسَى وَعَزْرِيٌّ وَمَنْ عُبِدَ مَعَهُمَا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، الَّذِينَ مَضَوْا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاتَّخَذَهُمْ مَنْ بَعَدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَنَزَلَ فِيمَا يُذَكِّرُ مِنْ أَنَّهُمْ يُعْبَدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَأَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩] الْآيَاتِ، وَنَزَلَ فِيمَا يُذَكِّرُ مِنْ أَمْرِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنَّهُ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنْ حُجَّتِهِ وَخُصُومَتِهِ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أَيُّ: يَصِدُّونَ عَنْ أَمْرِكَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

فَقَالَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ ﴿وَإِنَّكُمْ لَعَلَمٌ لِسَاعَةِ﴾ أَيُّ: مَا وَضِعَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَسْقَامِ فَكَفَى بِهِ دَلِيلًا عَلَى عِلْمِ السَّاعَةِ، يَقُولُ: ﴿فَلَا تَمْتَرْتُمْ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٤).

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ رِوَايَةِ الْعَوْفِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قَالَ: بِعِنْيِ: قُرَيْشًا، لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّوكُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]. فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: فَمَا ابْنُ مَرْيَمَ؟ قَالَ: «ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يُرِيدُ هَذَا إِلَّا أَنْ تَتَّخِذَهُ رَبًّا كَمَا اتَّخَذَتْ

(١) القرطبي: ١٠٣/١٦ (٢) الطبري: ٦٢٧/٢١ (٣) القرطبي: ١٠٣/١٦ (٤) ابن هشام: ٣٩٦-٣٩٨

هُرَيْرَةَ وَابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَأَبِي مَالِكٍ وَعِكْرِمَةَ
وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالصَّحَّاحَ وَغَيْرَهُمْ^(٨). وَقَدْ تَوَاتَرَتْ
الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِمَامًا عَادِلًا وَحَكَمًا مُسْطَبًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَمَتَّرْتُمْ بِهَا﴾ أَي: لَا تَشْكُرُوا فِيهَا
أَنَّهَا وَاقِعَةٌ وَكَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿وَأَتَّبِعُون﴾ أَي: فِيمَا أُخْبِرْكُمْ
بِهِ ﴿هَذَا صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٩) وَلَا يَصُدَّنْكُمْ الشَّيْطَانُ أَي: عَنْ
اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿إِنَّهُ لَكُلُّ عَدُوٍّ مُبِينٌ﴾^(١٠) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ
قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ أَي: بِالنَّبُوءَةِ ﴿وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ
الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي مِنَ الْأُمُورِ الدِّيْنِيَّةِ
لَا الدُّنْيَوِيَّةِ^(١١). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ جِدًّا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي: فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ
﴿وَأَطِيعُوا﴾ فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾
هَذَا صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ أَي: أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِيدُ لَهُ، فَقَرَأَ إِلَيْهِ،
مُسْتَرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿هَذَا صِرْطٌ
مُسْتَقِيمٌ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ
وَهُوَ عِبَادَةُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا وَحْدَهُ. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أَي: اخْتَلَفَتِ الْفِرْقُ، وَصَارُوا
شِيْعًا فِيهِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ الْحَقُّ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعِي أَنَّهُ وَلَدُ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ اللَّهُ.
تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلِيلٌ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ السَّيْرِ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ﴾^(١٢) الْأَحْيَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا
الْمُتَّقِينَ^(١٣) يَعْبَادُ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ^(١٤) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ^(١٥) ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ مُحْبَبِينَ^(١٦) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ
ذَهَبٍ وَأَكْرَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِبَهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ^(١٧) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ^(١٨) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ^(١٩)

النَّصَارَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَبَّنَا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا
صَرَفُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(٢٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا ءَأَلِهِنَّا خَيْرٌ أَمِ هُوَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ:
يَقُولُونَ: أَلِهِنَّا خَيْرٌ مِنْهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ (وَقَالُوا أَلِهِنَّا خَيْرٌ أَمْ هَذَا؟) يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا صَرَفُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أَي:
مِرَاءً، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَى الْآيَةِ؛ لِأَنَّهَا لِمَا لَا
يَعْقِلُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ثُمَّ هِيَ خِطَابٌ لِلرَّيْسِ، وَهُمْ إِنَّمَا
كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ
الْمَسِيحَ حَتَّى يُورِدُوهُ. فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَقَالَتَهُمْ إِنَّمَا كَانَتْ جَدَلًا
مِنْهُمْ لَيْسُوا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدَى كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا
أُورِثُوا الْجَدَلَ﴾. ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا
صَرَفُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(٢١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ
وَإِبْنُ مَاجَهَ، وَابْنُ جَرِيرٍ ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ لَا
نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ^(٢٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي:
عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. مَا هُوَ إِلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالنَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي
إِسْرَائِيلَ﴾ أَي: ذِلَالَةً وَحُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُدْرَتِنَا عَلَى مَا
نَشَاءُ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أَي:
بَدَلَكُمْ ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَخْلَفُونَكُمْ
فِيهَا^(٢٣). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ: يَخْلَفُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا يَخْلَفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا^(٢٤). وَهَذَا الْقَوْلُ
يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْمُرُونَ الْأَرْضَ بِدَلْكُمْ^(٢٥).

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ﴾ الصَّحِيحُ
فِيهِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ نَزُولُهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ
مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] أَي: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَامُ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ سَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]
وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى الْقِرَاءَةُ الْأُخْرَى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ﴾
أَي: أَمَارَةً وَدَلِيلًا عَلَى وُقُوعِ السَّاعَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَإِنَّهُ
لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ﴾ أَي: آيَةً لِلْسَّاعَةِ: حُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢٦). وَهَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي

(١) الطبري: ٢١/٦٢٥ العوفي ضعيف كما سبق (٢) أحمد: ٥/

٢٥٦ (٣) تحفة الأحوذى: ٩/١٣٠ وابن ماجه: ١/١٩١

والطبري: ٢١/٦٢٩ (٤) الطبري: ٢١/٦٣١ (٥) الطبري:

٢١/٦٣٠ (٦) الطبري: ٢١/٦٣٠ (٧) الطبري: ٢١/٦٣٢

(٨) الطبري: ٢١/٦٣٢ والقرطبي: ١٦/١٠٦ (٩) الطبري:

[تَأْتِي الْقِيَامَةُ بِعَتَّةٍ وَتَقَعُ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْأَحْلَاءِ مِنَ

الْكَفَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى: هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ
لِلرُّسُلِ ﴿٧٤﴾ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٥﴾ أَيْ
فَإِنَّهَا كَأَنَّهَا لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعَةٌ، وَهَؤُلَاءِ غَافِلُونَ عَنْهَا غَيْرَ
مُسْتَعِدِّينَ، فَإِذَا جَاءَتْ إِنَّمَا تَجِيءُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا،
فَحَيِّتِلِ يَنْدُمُونَ كُلَّ اللَّذَّةِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَا يَدْفَعُ
عَنْهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَيْ كُلُّ صَدَاقَةٍ وَصَحَابَةٍ لِغَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا
تَتَّقِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدَاوَةً، إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَإِنَّهُ
دَائِمٌ بِدَوَامِهِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

[بِشَارَةِ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَدُخُولِهِمُ الْجَنَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَعْبَادُ لَا حَاقَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ
تَحْزَنُونَ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ وَانْقَادَتْ لِشَرَعِ اللَّهِ
جَوَارِحُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ. قَالَ الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ:
إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ النَّاسَ جِينٌ يَبْعَثُونَ، لَا يَبْقَى أَحَدٌ
مِنْهُمْ إِلَّا فَرَحٌ، فَيُنَادِي مُنَادٌ ﴿يَعْبَادُ لَا حَاقَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا
أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فَيَرْجُوها النَّاسُ كُلُّهُمْ، قَالَ: فَيُبْعَثُهَا
﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قَالَ: فَيَأْسُ النَّاسُ
مِنْهَا غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ^(١). ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ﴿٧٨﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ:
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ ﴿٧٩﴾ أَيْ: نَظَرَاؤُكُمْ
﴿تُحْبَرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ أَيْ: تَتَعَمَّوْنَ وَتُسْعَدُونَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا
فِي سُورَةِ الرُّومِ. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أَيْ
زِيَادِي - آيَةُ الطَّعَامِ - ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وَهِيَ آيَةُ الشَّرَابِ أَيْ:
مِن ذَهَبٍ لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا عُرَى (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي
الْأَنْفُسُ) وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ ﴿وَتَلَذُّ
الْأَعْيُنُ﴾ ﴿٨١﴾ أَيْ: طَيَّبَ الطَّعَامَ وَالرَّبِيحَ وَحَسَّنَ الْمَنْظَرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾ ﴿٨٢﴾ أَيْ: فِي الْجَنَّةِ
﴿خَالِدُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ أَيْ: لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَلَا تَبْعُونَ عَنْهَا

جَوْلًا.

إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ
فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾
وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنكِتُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
جَحَنَكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْرَمَكُم لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا
فَأَنَّا مَبْرُمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى
وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفِبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ
الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ
الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ
إِلَهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَن
شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ
لَيَقُولنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لِرَبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ
لَّا يَوْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْتُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّفَضُّلِ وَالْإِمْتِنَانِ: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ
الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ أَيْ: أَعْمَالُكُمْ الصَّالِحَةُ
كَانَتْ سَبَبًا لِشُمُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِإِيَّاكُمْ، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا
عَمَلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَكِنْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وَإِنَّمَا الدَّرَجَاتُ
يُنَالُ تَفَاوُثُهَا بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ ﴿٨٧﴾ أَيْ: مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ ﴿مِنْهَا
تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ أَيْ: مَهْمَا اخْتَرْتُمْ وَأَرَدْتُمْ. وَلَمَّا ذَكَرَ الطَّعَامَ
وَالشَّرَابَ ذَكَرَ بَعْدَهُ الْفَاكِهَةَ؛ لِتَمَّتِ النِّعْمَةُ وَالْغِنَةُ، وَاللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ
مُبْسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادُوا بِمَلِكِكَ
لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنكِتُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جَحَنَكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنْ
أَكْرَمَكُم لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَأَنَّا مَبْرُمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ
أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفِبُونَ ﴿٨٠﴾

[عاقبة الأشقياء السيئة]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعْدَاءِ نَتَى بِذِكْرِ الْأَشْقِيَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) لَا يَغْتَرُّ عَنْهُمْ ﴿أَيُّ: سَاعَةً وَاحِدَةً﴾ ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ أَيُّ: آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ﴿وَمَا ظَنَنْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوا وَعَصَوْا فَجُوزُوا بِذَلِكَ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ﴾ وَهُوَ حَارِزُ النَّارِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَعْلَى، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى الْمَنِيِّ: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (١) أَيُّ: يَقْبِضُ أَرْوَاحَنَا فَيُرِيحُنَا بِمَا نَحْنُ فِيهِ، فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَفْضِلُ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْيِيهِمْ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَجَّجْنَا السَّمَاةَ﴾ (١١) الَّتِي يَصَلُّ النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿[الاعلى: ١١-١٣] فَلَمَّا سَأَلُوا أَنْ يُمُوتُوا أَجَابَهُمْ مَلِكٌ: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُومٌ﴾ أَيُّ: لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا وَلَا مَجِيدَ لَكُمْ عَنْهَا، ثُمَّ ذَكَرَ سَبَبَ شِقْوَتِهِمْ، وَهُوَ: مُخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ وَمُعَانَدَتُهُمْ لَهُ، فَقَالَ: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ: بَيِّنَاتٍ لَكُمْ وَوَضَّحْنَا وَفَسَّرْنَا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ أَيُّ: وَلَكِنْ كَانَتْ سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُهُ، وَلَا تَقْبَلُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا تَتَّقَادُ لِلْبَاطِلِ وَتُعْظَمُهُ، وَتَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَتَأْبَاهُ وَتُبْغِضُ أَهْلَهُ. فَعُودُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِالْمَلَامَةِ، وَانْدَمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُكُمُ النَّدَامَةُ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ آتَيْنَا أَمْرًا فَإِنَّا مُرْسِلُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادُوا كَيْدَ شَرٍّ، فَكَذَّبْنَاهُمْ (١٣). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَحَيَّلُونَ فِي رَدِّ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ بِحِيلٍ وَمَكْرٍ يَسْلُكُونَهُ، فَكَادَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَدَّ وَيَاكَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أَيُّ: سِرَّهُمْ وَعَلَانِيَتَهُمْ ﴿بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أَيُّ: نَحْنُ نَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَالْمَلَائِكَةُ أَيْضًا يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وِلْدٌ فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَحْوِضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْفُقُوا بِوَجْهِهِ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ

سَمِيَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّا هَتَوَلَاءَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨)

فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

[لَيْسَ لِلَّهِ وِلْدٌ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وِلْدٌ فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: لَوْ فُرِضَ هَذَا لَعَبَدْتُهُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنِّي عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِهِ، مُطِيعٌ لِجَمِيعِ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ، لَيْسَ عِنْدِي اسْتِكْبَارٌ وَلَا إِبَاءٌ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَلَوْ فُرِضَ هَذَا لَكَانَ هَذَا، وَلَكِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى وَالشَّرْطُ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الْوُقُوعُ وَلَا الْجَوَازُ أَيْضًا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وِلْدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْتُلِقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أَيُّ: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وِلْدٌ، فَإِنَّهُ فَرَّدَ أَحَدَ صَمَدٌ، لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفْءَ لَهُ، فَلَا وِلْدَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَرَهُمْ يَحْوِضُوا﴾ أَيُّ: فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فِي ذُنُوبِهِمْ ﴿حَتَّى يَلْفُقُوا بِوَجْهِهِ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَيُّ: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ وَمَالُهُمْ وَحَالُهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

[بَيَانُ تَفَرُّدِ الرَّبِّ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ أَيُّ: هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ، يَعْبُدُهُ أَهْلُهُمَا، وَكُلُّهُمْ خَاضِعُونَ لَهُ، أَدْلَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] أَيُّ: هُوَ الْمَدْعُوُّ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيُّ: هُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِلَا مَدْفَاعَةٍ وَلَا مُمَانَعَةٍ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْوَالِدِ وَتَبَارَكَ، أَيُّ: اسْتَقَرَّ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ؛ لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمَالِكُ لِلْأَشْيَاءِ الَّذِي بِيَدِهِ أَرْمَةُ الْأُمُورِ نَقْضًا وَإِبْرَامًا.

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوزَ مَقْنُونٍ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدَّوْا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْأَجَالِ وَالْأَرْزَاقِ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا إِلَى آخِرِهَا. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ ^(١). وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: **حَكِيمٌ** أَي: مُحْكَمٌ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُعَيَّرُ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: **أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا** أَي: جَمِيعٌ مَا يَكُونُ وَيُقَدَّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا يُوجِبُهُ، فَبِأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ وَعِلْمِهِ **إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** أَي: إِلَى النَّاسِ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ كَانَتْ مَاسَةً إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا **أَي: الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُوَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَمَا فِيهِمَا** **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** أَي: إِنْ كُنْتُمْ مُتَّحِقِينَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ** وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **قُلْ يَتَّبِعُنِي النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ** ... الآية [الأعراف: ١٥٨].

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** ﴿١٠﴾ **يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿١١﴾ **رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ** ﴿١٢﴾ **أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ** ﴿١٣﴾ **ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ** ﴿١٤﴾ **إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** ﴿١٥﴾ **يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ** ﴿١٦﴾

[تَحْوِيفُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي تَأْتِي السَّمَاءُ بِالدُّخَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: **بَلْ هُوَ لَاءِ الْمُشْرِكُونَ** **فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ** أَي: قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْبَيِّنُ، وَهُمْ يَشْكُونَ فِيهِ وَيَمْتَرُونَ وَلَا يُصَدِّقُونَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُتَّوَعِدًا لَهُمْ وَمُهَدِّدًا: **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** عَنِ مَسْرُوقٍ، قَالَ: دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، يَعْنِي: مَسْجِدَ الْكُوفَةِ عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ، فَإِذَا رَجُلٌ يَقْضُ عَلَى أَصْحَابِهِ: **يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** تَدْرُونَ مَا ذَلِكَ الدُّخَانُ؟ ذَلِكَ دُخَانٌ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ شِبْهُ الرُّكَامِ، قَالَ: فَأَتَيْنَا ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَكَانَ مُضْطَجِعًا، فَفَرَعَ فَقَعَدَ وَقَالَ: **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ» [ص: ٨٦] إِنْ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ. سَأَحْدُثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، إِنْ قُرَيْشًا**

لَمَّا أَبْطَأَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَعَصَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسَبَى يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْمَيْتَةَ، وَجَعَلُوا يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا الدُّخَانَ ^(٢). وَفِي رِوَايَةٍ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** **يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ اسْتَسْقَى اللَّهُ لِمُضَرَ؛ فَأْتِيهَا قَدْ هَلَكْتَ، فَاسْتَسْقَى ﷺ لَهُمْ فَسَقُوا، فَتَرَلَّتْ **إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَيَكْشِفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَلَمَّا أَصَابَهُمُ الرَّقَابِيبَةُ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ** قَالَ: يَعْنِي: يَوْمَ بَدْرٍ ^(٣). قَالَ

(١) الطبري: ٩/٢٢ (٢) مسلم: ٢١٥٥/٤ (٣) فتح الباري: ٤٣٤/٨

عَبَّاسٍ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: مَا نِمْتُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ. فُلْتُ؟ لِمَ؟ قَالَ: قَالُوا طَلَعَ الْكُوكُبُ ذُو الدَّنَبِ، فَخَشِيْتُ أَنْ يَكُونَ الدُّخَانُ قَدْ طَرَقَ، فَمَا نِمْتُ حَتَّى أَصْبَحْتُ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَرَ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ... فَذَكَرَهُ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ حَبْرَ الْأُمَّةِ وَتَرْجُمَانَ الْقُرْآنِ. وَهَكَذَا قَوْلُ مَنْ وَافَقَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَجْمَعِينَ مَعَ الْأَحَادِيثِ الْمُرَوِّعَةِ وَالْمَوْثُوقَةِ مِنَ الصَّحَّاحِ وَالْحَسَنِينَ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا فِيهِ مَقْتَعٌ، وَدَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى أَنَّ الدُّخَانَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُنْتَظَرَةِ، مَعَ أَنَّهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنْقَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أَي: بَيِّنٍ وَاضِحٍ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَعَلَى مَا فَسَّرَ بِهِ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ خَيَالٌ رَأَوْهُ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْجَهْدِ. وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْنَى النَّاسَ﴾ أَي يَتَعَشَّاهُمْ وَيَعْمَهُمْ، وَلَوْ كَانَ أَمْرًا خَيَالِيًّا يَخْصُ أَهْلَ مَكَّةَ الْمُشْرِكِينَ لَمَا قِيلَ فِيهِ: ﴿يَعْنَى النَّاسَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ؛ تَفْرِيعًا وَتَوْبِيخًا، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ١٤١٣. هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا تُكَلِّمُونَ ﴿[الطور: ١٤١٣] أَوْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أَي يَقُولُ الْكَافِرُونَ إِذَا عَانَيْتُوا عَذَابَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ، سَائِلِينَ رَفَعَهُ وَكَشَفَهُ عَنْهُمْ كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَلَوْ رَدُّهُ إِذْ وَفَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْلِنَا فَرُدَّ وَلَا تُكَلِّبْ بِآيَاتِ رَبِّنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] وَكَذَا قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرًا إِلَيْكَ أَجَلِي قَرِيبٌ حُبِّبَ دَعْوَتِكَ وَتَسَبَّحَ الرَّسُولُ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَفْسَمْتُمْ مِمَّن قَبْلَ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وَهَكَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ يُقُولُ: كَيْفَ لَهُمْ بِالتَّذَكُّرِ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَيْنَ الرَّسَالَةِ وَالتَّذَاذِرَةِ، وَمَعَ هَذَا تَوَلَّوْا عَنْهُ،

ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقَدْ مَضَى حَمْسَةٌ: الدُّخَانُ وَالرُّومُ وَالْقَمَرُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١). وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَهُوَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ فِي تَفْسِيرِيهِمَا، وَعِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ^(٢). وَقَدْ وَافَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ، بِهَذَا وَأَنَّ الدُّخَانَ مَضَى: جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ كُمُجَاهِدٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالضَّحَّاكَ وَعَطِيَّةَ الْعَوْفِيَّ^(٣). وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

[القول الثاني في تفسير الدخان]

قَالَ آخَرُونَ: لَمْ تَمْضِ الدُّخَانُ بَعْدُ، بَلْ هُوَ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَرِيحَةَ حَدِيقَةَ بْنِ أَبِي سَيْدٍ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكُرُ السَّاعَةَ فَقَالَ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالدَّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَنَارًا تَخْرُجُ مِنْ فَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ النَّاسَ - أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ - تَبِيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقْبَلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا». فَتَرَدُّ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ^(٤). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِابْنِ صَبَّادٍ: «إِنِّي خَبَأْتُ لَكَ خَبَاءً» قَالَ: هُوَ الدُّخَانُ، قَالَ ﷺ: «أَحْسَأُ، فَلَنْ تَعُدُّوا قَدْرَكَ» قَالَ: وَخَبَاءٌ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَأَنْقَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾^(٥). وَهَذَا فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُنْتَظَرِ الْمُرْتَقِبِ، وَابْنُ صَبَّادٍ كَاشِفٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْكُهَّانِ بِلِسَانِ الْجَانِّ، وَهُمْ [يَقْرَءُونَ] الْعِبَارَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: هُوَ الدُّخَانُ، يَعْنِي: الدُّخَانَ. فَعِنْدَهَا عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا دَعَتْهُ، وَأَنَّهَا شَيْطَانِيَّةٌ، فَقَالَ ﷺ: «أَحْسَأُ فَلَنْ تَعُدُّوا قَدْرَكَ».

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ أَنْذَرَكُمْ ثَلَاثًا: الدُّخَانَ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ كَالرُّكْمَةِ، وَيَأْخُذُ الْكَافِرَ فَيَنْفِخُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مَسْمَعٍ مِنْهُ، وَالثَّانِيَةَ: الدَّابَّةَ، وَالثَّلَاثَةَ: الدَّجَالَ». وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ^(٦). وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَيَدْخُلُ فِي مَسَامِعِ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ حَتَّى يَكُونَ كَالرَّأْسِ الْحَنِيذِ، أَي: الْمَشْوِيِّ عَلَى الرِّضْفِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: عَدُوْتُ عَلَى ابْنِ

(١) فتح الباري: ٤٣٤/٨ (٢) أحمد: ٣٨٠/١ وتحفة الأحرادي: ١٣٣/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٥٥/٦ والطبري: ١٤٠١٣/٢٢ (٣) الطبري: ١٦/٢٢ (٤) مسلم: ٢٢٢٥/٤ (٥) فتح الباري: ٢٥٨/٣ ومسلم: ٢٢٤٠/٤ (٦) الطبري: ٣١٠٦٠

وَمَا وَافَقُوهُ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَقَالُوا: ﴿مَعَاذَ نَجُونُ﴾. وَهَذَا كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْدَكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾. ... الآية [الفجر: ٢٣]، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرَعُونَ فَلَاقَ فَوْسَ وَأَخْذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٤١) وَقَالُوا أَمَا نَسَا بِهٖ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاسُوتُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [سبأ: ٥١-٥٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ مَعْنَاهُ: أَنَا لَوْ كَشَفْنَا عَنْكُمْ الْعَذَابَ وَرَجَعْنَاكُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، لَعُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ النَّجْوَى فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْهَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

[تفسير البطحاء الكبرى]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَبِطُشُ الطُّشَّةَ الْكُبْرَى﴾ إِنَّا مُنْفِئُونَ ﴿فَسَرَّ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ بَدْرٍ﴾. وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنْ وَافِقِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى تَفْسِيرِهِ الدُّخَانَ بِمَا تَقَدَّمَ، وَرُوي أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ رِوَايَةِ الْعَوْفِيِّ عَنْهُ^(١). وَعَنْ أَبِي بِنِي كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢). وَهُوَ مُحْتَمِلٌ. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ ذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ كَانَ يَوْمَ بَدْرِ يَوْمَ بَطْشَةِ أَيْضًا. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى يَوْمَ بَدْرِ. وَأَنَا أَقُولُ: هِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَنْهُ، وَبِهِ يَقُولُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَعِكْرِمَةُ فِي أَصَحِّ الرَّوَايَتَيْنِ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (٧) أَن أَدْوَأَ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُرْ رَسُولٌ آمِينٌ ﴿٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩﴾ وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونَ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّونَ ﴿١١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُوْلَاءَ قَوْمَ ثَجْرُمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَسْرِعِبَادِي لَيْلًا لِإِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿١٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَفُونَ ﴿١٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْبُونَ ﴿١٥﴾ وَرُذُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَرِهِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿١٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَءَايَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتْوَأُمِّينٌ ﴿٢٣﴾

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونَ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّونَ ﴿١١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُوْلَاءَ قَوْمَ ثَجْرُمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَسْرِعِبَادِي لَيْلًا لِإِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿١٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَفُونَ ﴿١٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْبُونَ ﴿١٥﴾ وَرُذُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَرِهِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿١٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَءَايَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتْوَأُمِّينٌ ﴿٢٣﴾

[قصّة موسى وفرعون ونجاة بني إسرائيل]

يقول تعالى: وَلَقَدْ اخْتَرْنَا قَبْلَ هَؤُلاءِ الْمُسْرِكِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ، وَهُمْ قَبْطٌ مِصْرٌ ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كليمه عليه الصلاة والسلام ﴿أَنْ أَدْوَأَ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧]. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مَأْمُونٌ عَلَى مَا أَبْلَغَكُمْوهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ، وَالْإِنْفِيَادِ لِحُجَجِهِ، وَالْإِيمَانِ بِبِرَاهِينِهِ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ وَاضِحَةٍ، وَهِيَ مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَاتِ. ﴿وَإِنِّي

(١) الطبري: ٢٢/٢٢ (٢) الطبري: ٢٢/٢٢ قد عرفتم حكم رواية العوفي فيما مضى (٣) الطبري: ٢٣/٢٢

وَالْجَاهَاتِ وَالْحُكْمِ فِي الْبِلَادِ، فَسَلُّوْا ذَلِكَ جَمِيعُهُ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفَارَقُوا الدُّنْيَا، وَصَارُوا إِلَى جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ.

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أَي: لَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَصْعَدُ فِي أَبْوَابِ السَّمَاءِ، فَتَبْكِي عَلَى قَدِيمِهِمْ، وَلَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِقَاعٌ عَبْدُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا فَقَدْتَهُمْ، فَلِهَذَا اسْتَحْضَرُوا أَنْ لَا يُنظَرُوا وَلَا يُؤَخَّرُوا؛ لِكُفْرِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ وَعَثْوِهِمْ وَعِنَادِهِمْ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: أَتَى ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ، أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ فَهَلْ تَبْكِي السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَلَى أَحَدٍ؟ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَعَمْ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا وَلَهُ بَابٌ فِي السَّمَاءِ، مِنْهُ يَنْزِلُ رِزْقُهُ، وَفِيهِ يَصْعَدُ عَمَلُهُ، فَإِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فَأَعْلَقَ بَابُهُ مِنَ السَّمَاءِ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ وَيَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ، فَفَقَدَهُ، بَكَى عَلَيْهِ، وَإِذَا فَقَدَهُ مُصَلِّاهُ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ يُصَلِّي فِيهَا وَيَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا بَكَتْ عَلَيْهِ، وَإِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ آثَارٌ صَالِحَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ خَيْرٌ، فَلَمْ تَبْكْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ^(٧). وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نَحْوَ هَذَا^(٨).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(٩) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ تَعَالَى بِذَلِكَ حَيْثُ أَنْقَذَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ إِهَانَتِهِ فِرْعَوْنَ وَإِذْلَالِهِ لَهُمْ، وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْأَعْمَالِ الْمُهِينَةِ الشَّاقَّةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ أَي: مُسْتَكْبِرًا جَبَّارًا عَنِيدًا، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦].

﴿وَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أَي: مُسْرِفٌ فِي أَمْرِهِ، سَخِيفُ الرَّأْيِ

عَدْتُ بَرِيٍّ وَرَبِّيكَ أَنْ تَرْجُمُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَبُو صَالِحٍ: هُوَ الرَّجْمُ بِاللِّسَانِ وَهُوَ الشَّتْمُ^(١٠). وَقَالَ قَتَادَةُ: الرَّجْمُ بِالْحِجَارَةِ أَي: أَعُوذُ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ مِنْ أَنْ تَصَلُّوا إِلَيَّ بِسُوءٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ^(١١) ﴿وَإِنْ لَمْ تُوَفُّوا لِي فَأَعْتَبُون﴾ أَي: فَلَا تَعَرَّضُوا لِي، وَدَعُوا الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مُسَالَمَةً إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَنَا. فَلَمَّا طَالَ مَقَامُهُ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَأَقَامَ حُجَجَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ... كُلُّ ذَلِكَ، وَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا كُفْرًا وَعِنَادًا، دَعَا رَبَّهُ عَلَيْهِمْ دَعْوَةً نَفَذَتْ فِيهِمْ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّنَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشدَّدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا [يونس: ٨٨، ٨٩] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَلَمَّا دَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتَلَاهُ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَخْرُجَ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ فِرْعَوْنَ وَمُشَاوَرَتِهِ وَاسْتِثْنَائِهِ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَأَنْسِرْ بِعِبَادِي لِيَلَّا إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا فَتْنًا﴾ [طه: ١٧٧].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ هَهُنَا: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا جَاوَزَ هُوَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، أَرَادَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، لِيَصِيرَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَيَبِينُ فِرْعَوْنَ فَلَا يَصِلَ إِلَيْهِمْ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَتْرُكَهُ عَلَى حَالِهِ سَاكِنًا، وَيَسْرَهُ بِأَنْفِهِمْ ﴿جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخَافُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كَهَيْئَتِهِ وَأَمْضِيهِ^(١٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رَهْوًا﴾ طَرِيقًا يَبَسًا كَهَيْئَتِهِ. يَقُولُ: لَا تَأْمُرُهُ بِرُجْعٍ، انْتَرَكُهُ حَتَّى يَرْجِعَ آخِرُهُمْ^(١٣). وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ، وَكَعْبُ الْأَخْبَارِ وَسِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(١٤). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَفَرْتُمْ لَكُمْ مِنْ جَنَّتِي﴾ وَهِيَ الْبَسَاتِينُ ﴿وَعُيُونٌ﴾^(١٥) وَزُرُوعٌ وَالْمُرَادُ بِهَا الْأَنْهَارُ وَالْأَبَارُ ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وَهِيَ الْمَسَاكِينُ الْأَيْقَةُ وَالْأَمَّاكِينُ الْحَسَنَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ الْمَتَابِرُ^(١٦). ﴿وَتَمَعَّمُوا كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنٌ﴾ أَي: عَيْشُهُ كَانُوا يَتَمَكَّهُونَ فِيهَا، فَيَأْكُلُونَ مَا شَاءُوا وَيَلْبَسُونَ مَا أَحْبَبُوا، مَعَ الْأَمْوَالِ

(١) الطبري: ٢٦/٢٢ (٢) الطبري: ٢٧/٢٢ (٣) الدر

المشور: ٤١٠/٧ (٤) الطبري: ٣٠/٢٢ (٥) الطبري: ٣٠/٢٢

(٦) الطبري: ٣٢/٢٢ الطبري: ٣١٠٦٢ وإسناده حسن بالشواهد

(٧) الطبري: ٣٤/٢٢ (٨) الطبري: ٣٥/٢٢ تقدم حكم العوفي

عَلَى نَفْسِهِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿اخْتَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عَلَى مَنْ هُمْ بَيْنَ ظَهْرِيهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: اخْتِيرُوا عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِمْ ذَلِكَ، وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالِمًا. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أَي: أَهْلُ زَمَانِهِ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَأَمْطَفْنَاكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أَي: فِي زَمَانِهَا؛ فَإِنَّ حَدِيثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِنَّمَا أَفْضَلُ مِنْهَا أَوْ مُسَاوِيَةٌ لَهَا فِي الْفَضْلِ، وَكَذَا أَسِيَّةُ بِنْتُ مَرْجَانٍ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنُ، وَفَضْلٌ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنَ آلِ آدَمَ﴾ أَي الْحُجَجِ وَالْبِرَاهِمِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ﴿مَا فِيهِ بَلَتْوَأُثْمِيثٌ﴾ أَي اخْتِيَارُ ظَاهِرٍ جَلِيٍّ لِمَنْ اهْتَدَى بِهِ.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ [٣٤] إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [٣٥] فَأَنُؤُا بِيَابَانِيَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٦] أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَلْبِهِمْ أَهْلُكُمُ أَيُّهُمْ كَانُوا نَجْمِينَ﴾ [٣٧] [الرَّدُّ عَلَى مُنْجَرِي الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ، وَأَنَّهُ مَا تَمَّ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا حَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَلَا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ، وَيَحْتَجُّونَ بِآبَائِهِمُ الْمَاضِينَ الَّذِينَ ذَهَبُوا فَلَمْ يَرْجِعُوا، فَإِنْ كَانَ الْبَعْثُ حَقًّا ﴿فَأَنُؤُا بِيَابَانِيَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ وَشُبْهَةٌ فَاسِدَةٌ، فَإِنَّ الْمَعَادَ إِنَّمَا هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، بَلْ بَعْدَ انْقِضَائِهَا وَذَهَابِهَا وَفِرَاقِهَا، يُعِيدُ اللَّهُ الْعَالَمِينَ خَلْقًا جَدِيدًا، وَيَجْعَلُ الظَّالِمِينَ لِنَارِ جَهَنَّمَ وَقُودًا، يَوْمَ [تَكُونُونَ] شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَهْدِدًا لَهُمْ وَمَتَّوِّعًا وَمُنذِرًا لَهُمْ بِأَسْءَلِ الَّذِي لَا يُرَدُّ، كَمَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَظَنَرَاتِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ كَقَوْمِ تَبِعَ، وَهُمْ سَبَأٌ، حَيْثُ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَخَرَّبَ بِلَادَهُمْ، وَشَرَدَّهُمْ فِي الْبِلَادِ، وَفَرَّقَهُمْ شَدْرَ مَدْرٍ، كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ سَبَأٍ - وَهِيَ مُصَدَّرَةٌ بِإِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ لِلْمَعَادِ - وَكَذَلِكَ هُنَا شَهَّهُمْ بِأَوْلِيكَ، وَقَدْ كَانُوا عَرَبًا مِنْ قَحْطَانَ، كَمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ عَرَبٌ مِنْ عَدْنَانَ، وَقَدْ كَانَتْ جَمِيرٌ وَهُمْ سَبَأٌ كُلَّمَا مَلَكَ فِيهِمْ رَجُلٌ سَمَّوَهُ بُعَا، كَمَا يُقَالُ: كِسْرَى، لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ، وَفَيْصَرَ لِمَنْ

٤٩٨
 ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٤٠] يَوْمَ لَا يَغْنَى مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْعًا وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ﴾ [٤١] إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٢] إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ﴾ [٤٣] طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [٤٤] كَالْمَهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ [٤٥] كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ [٤٦] خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [٤٧] ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [٤٨] ذُقْ إِتَاكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [٤٩] إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [٥٠] إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [٥١] فِي حِجَّتِ وَعِيُونَ﴾ [٥٢] يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [٥٣] كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [٥٤] يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [٥٥] لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعَهُمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ﴾ [٥٦] فَضَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٥٧] فَاِنَّمَا سَرْتَنَهُ يَلْسَانَكَ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [٥٨] فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ [٥٩]

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

مَلِكُ الرُّومِ، وَفِرْعَوْنُ لِمَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا، وَالنَّجَاشِيُّ لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ الْأَجْنَاسِ. وَلَكِنْ اتَّفَقَ أَنَّ بَعْضَ تَبَاعِيهِمْ خَرَجَ مِنَ الْيَمَنِ وَسَارَ فِي الْبِلَادِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ، وَاشْتَدَّ مُلْكُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَجَيْشُهُ، وَاتَّسَعَتْ مَمْلَكَتُهُ وَبِلَادُهُ وَكَثُرَتْ رِعَايَاها، وَهُوَ الَّذِي مِصْرَ الْحِيرَةَ، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ مَرَّ بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَرَادَ قِتَالَ أَهْلِهَا فَمَانَعُوهُ وَقَاتَلُوهُ بِالنَّهَارِ، وَجَعَلُوا يَفْرُونَهُ بِاللَّيْلِ، فَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ، وَكَفَّ عَنْهُمْ، وَاسْتَضْحَبَ مَعَهُ حَبْرَيْنِ مِنْ أَحْبَارِ يَهُودَ كَانَا قَدْ نَصَحَاهُ وَأَخْبَرَاهُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُ عَلَى هَذِهِ الْبَلَدَةِ، فَإِنَّهَا مُهَاجِرُ نَبِيِّ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَرَجَعَ عَنْهَا، وَأَخَذَهَا مَعَهُ إِلَى بِلَادِ الْيَمَنِ، فَلَمَّا اجْتَاَزَ بِمَكَّةَ أَرَادَ هَدْمَ الْكَعْبَةِ فَهَيَّاهُ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا، وَأَخْبَرَاهُ بِعِظَمَةِ هَذَا الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ مِنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ عَلَى يَدَيْ ذَلِكَ النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَعَظَّمَهَا وَطَافَ بِهَا وَكَسَاهَا الْمَلَاءَ وَالْوَصَائِلَ وَالْحَجِيرَ، ثُمَّ

تَمْرُونَ ﴿٥١﴾

[حَالُ الْمُشْرِكِينَ وَعَذَابُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُعَذِّبُ بِهِ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ لِقَائِهِ: ﴿إِنَّ سَجَرَتَ الرَّقْمِومِ ﴿٥٢﴾ طَعَامُ الْأَثِيرِ ﴿٥٣﴾ وَالْأَثِيمِ أَيْ: فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَهُوَ الْكَافِرُ، وَذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ أَنَّهُ أَبُو جَهْلٍ، وَلَا شَكَّ فِي دُخُولِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِهِ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ كَانَ يَقْرَأُ رَجُلًا ﴿إِنَّ سَجَرَتَ الرَّقْمِومِ ﴿٥٢﴾ طَعَامُ الْأَثِيرِ ﴿٥٣﴾ فَقَالَ: طَعَامُ الْأَثِيمِ، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْ: (إِنَّ سَجَرَةَ الرَّقْمِومِ طَعَامُ الْفَاجِرِ) ﴿٥٣﴾. أَيْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ مِنْ غَيْرِهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَلَوْ وَفَعَتْ قَطْرَةٌ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَالِيَهُمْ ﴿٥٤﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ نَحْوُهُ مَرْفُوعًا، وَقَوْلُهُ: ﴿كَالْمُهْلِ ﴿٥٥﴾﴾ قَالُوا: كَعَكْرِ الزَّيْتِ ﴿٥٥﴾ بَعْلَى فِي الْبَطْنِ ﴿٥٦﴾ كَعَلَى الْحَمِيرِ ﴿٥٧﴾ أَيْ: مِنْ حَرَارَتِهَا وَرَدَائِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿خُدُّوهُ ﴿٥٨﴾﴾ أَيْ: الْكَافِرُ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا قَالَ لِلرَّبَّانِيَّةِ: ﴿خُدُّوهُ﴾ ابْتَدَرَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْتَلَوْهُ ﴿٥٩﴾﴾ أَيْ: سُوقُوهُ سَخَبًا وَدَفْعًا فِي ظَهْرِهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿خُدُّوهُ فَاعْتَلَوْهُ ﴿٥٩﴾﴾ أَيْ: خُدُّوهُ فَاذْفَعُوهُ، ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٦٠﴾﴾ أَيْ: وَسَطِهَا ﴿٦٠﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيرِ ﴿٦١﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٦١﴾ يُضَعَّرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ١٩، ٢٠] وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَ يُضْرِبُهُ بِمِقْمَعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَتَفْتَحُ دِمَاعَهُ، ثُمَّ يُصَبُّ الْحَمِيمَ عَلَى رَأْسِهِ فَيَنْزِلُ فِي بَدَنِهِ، فَسَلَّتْ مَا فِي بَطْنِهِ مِنْ أَمْعَائِهِ حَتَّى تَمْرُقَ مِنْ كَعْبِيهِ، أَعَادَانَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ أَيْ: قُولُوا لَهُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّهْكُمِ وَالتَّوْبِيخِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَيْ: لَسْتَ بِعَزِيزٍ وَلَا كَرِيمٍ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿٦٥﴾﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَلِّدُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أَسِحَّرَ هَذَا أُمَّ أُمَّتَ لَا بُصْرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الطور: ١٣-١٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمَتَّيِّينَ فِي مَقَارِ أَمِينِ ﴿٥١﴾﴾ فِي جَنَّتِ وَعُيُوبِ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ

كَرَّ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ وَدَعَا أَهْلَهَا إِلَى التَّهْوُدِ مَعَهُ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ دِينَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فِيهِ - مَنْ يَكُونُ عَلَى الْهِدَايَةِ قَبْلَ بَعَثَةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَتَهْوَدَ مَعَهُ عَامَةٌ أَهْلُ الْيَمَنِ. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَدْرِي تَبِعَ نَبِيًّا كَانَ، أَمْ غَيْرَ نَبِيٍّ» ﴿١﴾. وَرَوَى عَنْ تَمِيمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِبَاحٍ: لَا تَسُبُّوا تَبِعًا؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ سَبِّهِ ﴿٢﴾. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبِ ﴿٦٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ ﴿٧١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٢﴾

[خُلِقَتِ الدُّنْيَا لِحِكْمَةٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَذَابِهِ وَتَنْزِيهِهِ نَفْسَهُ عَنِ اللَّعِبِ وَالْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ فَتَعَدَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿٧٤﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٥﴾﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُفَصِّلُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، فَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ وَيُنِيبُ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أَيْ: يَجْمَعُهُمْ كُلَّهُمْ أَوْلَهُمْ وَأَخْرَهُمْ ﴿٧٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴿٧٦﴾ أَيْ: لَا يَنْفَعُ قَرِيبٌ قَرِيبًا كَقَوْلِهِ سُحْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وَكَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَلَا يَسْتَلْ جِيمٌ جِيمًا يُبْصَرُونَ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أَيْ: لَا يَسْأَلُ أَحَا لَهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ عَيْنَانَا. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ﴾ أَيْ لَا يَنْصُرُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ، وَلَا يَأْتِيهِ نَصْرُهُ مِنْ خَارِجٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ أَيْ: لَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِخَلْقِهِ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ أَيْ: هُوَ عَزِيزٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ.

﴿إِنَّ سَجَرَتَ الرَّقْمِومِ ﴿٥٢﴾ طَعَامُ الْأَثِيرِ ﴿٥٣﴾ كَالْمُهْلِ بَعْلَى فِي الْبَطْنِ ﴿٥٤﴾ كَعَلَى الْحَمِيرِ ﴿٥٥﴾ خُدُّوهُ فَاعْتَلَوْهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيرِ ﴿٥٧﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٥٨﴾﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ

(١) البغوي: ١٥٤/٤ (٢) عبد الرزاق: ٢٠٩/٣ هذا من مراسيل عطاء (٣) الطبري: ٤٣/٢٢ (٤) الطبري: ٤٣/٢٢

أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرُمُوا أَبَدًا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اتَّقَى اللَّهَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، يَتَعَمُّ فِيهَا وَلَا يَبْأَسُ، وَيَحْيَا فِيهَا فَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»^(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أَي: مَعَ هَذَا النَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ، قَدْ وَقَاهُمْ وَسَلَّمَهُمْ وَنَجَّاهُمْ وَرَحَزَحَهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي ذَرَكَاتِ الْجَحِيمِ، فَحَصَلَ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ، وَنَجَّاهُمْ مِنَ الْمَرْهُوبِ. وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ أَي: إِنَّمَا كَانَ هَذَا بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اغْمَلُوا وَسَدَّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَدْخُلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(٤). وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَسَّرْتَهُ بِسَائِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: إِنَّمَا بَسَّرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ سَهْلًا وَوَاضِحًا، بَيِّنًا جَلِيًّا ﴿بِسَائِكَ﴾ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ اللَّغَاتِ وَأَجْلَاهَا، وَأَخْلَاهَا وَأَعْلَاهَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: يَتَفَهَّمُونَ وَيَعْلَمُونَ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَعَ هَذَا الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَفَرَ وَخَالَفَ وَعَانَدَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُسَلِّيًا لَهُ وَوَاعِدًا لَهُ بِالنَّصْرِ، وَمُتَوَعِدًا لِمَنْ كَذَبَهُ بِالْعَطَبِ وَالْهَلَاكِ: ﴿فَأَرْقَبْتُ﴾ أَي: أَنْتَظِرُ ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أَي: فَسَيَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ النَّصْرَةُ وَالظَّفَرُ وَعَلُوُّ الْكَلِمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّهَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ وَلِإِخْوَانِكَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَنْ اتَّبَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلْعَلْبِيِّ أَنَا وَرَسُولِي﴾... الْآيَةُ [المجادلة: ٢١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾^(٥) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر: ٥١، ٥٢]. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الدُّخَانِ، وَ اللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

مِنْ سُنْدِينَ وَإِسْتَرْقِي مُتَقَبِّلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِكَهَةٍ ءَامِينٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْوُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا بَسَّرْتَهُ بِسَائِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْقَبْتُ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ [حَالِ الْمُتَّقِينَ وَنَعِيمِهِمْ فِي الْجَنَّةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ، وَلِهَذَا سُمِّيَ الْقُرْآنُ مَنَائِي، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أَي: اللَّهُ فِي الدُّنْيَا ﴿فِي مَكَارِئِ آمِينَ﴾ أَي: فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ، قَدْ آمَنُوا فِيهَا مِنَ الْمَوْتِ وَالْخُرُوجِ، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ وَحَزَنِ وَجَزَعٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ، وَمِنْ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ، وَسَائِرِ الْأَفَاتِ وَالْمَصَائِبِ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ﴾ وَهَذَا فِي مُقَابَلَةِ مَا أَوْلَيْتَ فِيهِ مِنْ شَجَرَةِ الرُّقُومِ وَشَرْبِ الْحَمِيمِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدِينٍ﴾ وَهُوَ: رَفِيعُ الْحَرِيرِ كَالْقَمِيصَانِ وَنَحْوَهَا، ﴿وَإِسْتَرْقِي﴾ وَهُوَ مَا فِيهِ بَرِيْقٌ وَلَمَعَانٌ وَذَلِكَ كَالرِّيشِ، وَمَا يُلْبَسُ عَلَى أَعَالِي الْقَمَاشِ ﴿مُتَقَبِّلِينَ﴾ أَي: عَلَى الشَّرْرِ. لَا يَجْلِسُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَظَهْرُهُ إِلَى غَيْرِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أَي: هَذَا الْعَطَاءُ مَعَ مَا قَدْ مَنَحْنَاهُمْ مِنَ الرُّوْجَاتِ الْحَسَنَةِ الْحُورِ الْعِينِ اللَّائِي ﴿لَمْ يَطْمِئَنَّتْ إِسْنٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٥٨-٦٠].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِكَهَةٍ ءَامِينٍ﴾ أَي: مَهْمَا طَلَبُوا مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ أَحْضَرُ لَهُمْ، وَهُمْ آمِنُونَ مِنْ انْقِطَاعِهِ وَامْتِنَاعِهِ، بَلْ يَحْضُرُ إِلَيْهِمْ كُلَّمَا أَرَادُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَدْوُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ يُؤَكِّدُ النَّفْيَ فَإِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ لَا يَدْوُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ أَبَدًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»^(١). وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَتَعَمَّوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ

(١) فتح الباري: ٢٨٢/٨ ومسلم: ٢١٨٨/٤ (٢) مسلم: ٤/

٢١٨٢ (٣) الطبراني (الأوسط): ٤٨٩٥ (٤) فتح الباري: ١١/

٣٠٠ ومسلم: ٢١٧٠/٤

تفسير سورة الجاثية وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾

[الإرشاد إلى التفكر في آيات الله]

يُرِيدُ تَعَالَى خَلْقَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَنِعْمِهِ، وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَ بِهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَجْنَاسِ، وَالْأَنْوَاعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْجِنِّ، وَالْإِنْسِ، وَالذَّبَّابِ، وَالطُّيُورِ، وَالْوُحُوشِ، وَالسَّبَاعِ، وَالْحَشْرَاتِ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمُتَوَعَّةِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي تَعَاقُبِهِمَا دَائِبِينَ لَا يَفْتَرَانِ، هَذَا بِظِلَامِهِ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ. وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ السَّحَابِ مِنَ الْمَطَرِ فِي وَفْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَسَمَاءَهُ رِزْقًا؛ لِأَنَّ بِهِ يَحْصُلُ الرِّزْقُ ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَي: بَعْدَ مَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا تَبَاتُ فِيهَا وَلَا شَيْءٌ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ أَي: جَنُوبًا وَشِمَالًا وَدُبُورًا وَصَبَا، بَرِّيَّةً وَبَحْرِيَّةً، لَيْلِيَّةً وَنَهَارِيَّةً. وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْمَطَرِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْقَاحِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ غِذَاءٌ لِلْأَرْوَاحِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَقِيمٌ لَا يَبْتِجُ.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْلَا: ﴿لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ ثُمَّ ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثُمَّ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ وَهُوَ تَرَفُّقٌ مِنْ حَالٍ شَرِيفٍ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى، وَهَذِهِ الْآيَاتُ شَبِيهَةٌ بِآيَةِ الْبَقْرَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيِّنَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ. يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ سَمِعَ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلِّ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ لِّعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُرُوًّا أُولَئِكَ هُمُ عَدَابُ مُهِينٍ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ. يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ سَمِعَ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلِّ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ لِّعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُرُوًّا أُولَئِكَ هُمُ عَدَابُ مُهِينٍ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ هُمُ عَذَابُ مَنْ رَجَزَ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِي الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَعَلَّمَكُم شُكْرَكُمْ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّنَّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ هُمُ عَذَابُ مَنْ رَجَزَ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

[صِفَاتُ الْأَفَّاكِ الْأَثِيمِ وَجَزَاؤُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أَي: مُتَمَسِّمَةً الْحَقُّ مِنَ الْحَقِّ، فَإِذَا كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَلَا يَتَّقَادُونَ لَهَا، فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أَي: أَفَّاكٍ فِي قَوْلِهِ كَذَّابٌ حَلَّافٌ مُهِينٌ، أَثِيمٌ فِي فِعْلِهِ وَقَلْبُهُ كَافِرٌ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَمِعَ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلِّ عَلَيْهِ﴾ أَي: تَفَرَّقَ عَلَيْهِ ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أَي: عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أَي: كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا ﴿فَبَشِيرَةٌ لِّعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أَي: فَأَخْبِرُهُ أَنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُرُوًّا﴾ أَي: إِذَا حَفِظَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَفَرَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ سُخْرِيًّا وَحُرُوًّا ﴿أُولَئِكَ هُمُ عَدَابُ مُهِينٍ﴾ أَي: فِي مَقَابَلَةِ مَا اسْتَهَانَ بِالْقُرْآنِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، وَلِهَذَا رَوَى

مُسْلِمٌ فِي صَاحِبِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ^(١). ثُمَّ فَسَّرَ الْعَذَابَ الْحَاصِلَ لَهُ يَوْمَ مَعَادِهِ فَقَالَ: ﴿مِنْ رِزْقِهِمْ جَهَنَّمَ﴾ أَي: كُلُّ مَنْ انْتَصَفَ بِذَلِكَ سَيَصِيرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أَي: لَا تَنْفَعُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أَي: وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَذَابُ رِيحِهِمْ مِنْ عَذَابٍ مِنْ بَحْرِ أَيْلَمٍ﴾ وَهُوَ الْمَوْلُومُ الْمَوْجِعُ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَجْرَى أَلَيْكُمُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَسْبِغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٤﴾

[فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ وَغَيْرِهِ آيَاتٌ]

يَذُكُرُ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَىٰ عِبِيدِهِ فِيمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ ﴿لِيَجْرَى أَلَيْكُمُ﴾ وَهِيَ السُّفُنُ ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ تَعَالَى. فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَ الْبَحْرَ بِحَمْلِهَا ﴿وَلِيَسْبِغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: فِي الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَي: عَلَىٰ حُصُولِ الْمَنَافِعِ الْمَجْلُوبَةِ إِلَيْكُمْ مِنَ [الْأَقَالِيمِ] النَّاسِيَةِ وَالْأَفَاقِ الْقَاصِيَةِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: مِنَ الْكَوَاكِبِ، وَالْجِبَالِ، وَالْبِحَارِ، وَالْأَنْهَارِ، وَجَمِيعِ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ، أَي: الْجَمِيعِ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾ أَي: مِنْ عِنْدِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ يَمَمٍ فَمِنْ اللَّهِ تَدْرُ إِذَا مَسَّكُمْ الظُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ، تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ كُلُّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ اللَّهِ. وَذَلِكَ الْأِسْمُ، فِيهِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ. فَذَلِكَ جَمِيعًا مِنْهُ. وَلَا يَنَازِعُهُ فِيهِ الْمُنَازِعُونَ، وَاسْتَيْقِنُوا أَنَّهُ كَذَلِكَ^(٢). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ أَدَى الْمُشْرِكِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أَي: لِيُصْفَحُوا عَنْهُمْ وَيَتَحَمَّلُوا الْأَدَى مِنْهُمْ. وَكَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، أَمِرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَىٰ أَدَى الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالتَّأْلِيفِ لَهُمْ، ثُمَّ لَمَّا أَصْرُوا عَلَى الْعِنَادِ شَرَعَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْجِلَادَ وَالْجِهَادَ. هَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةَ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لَا يَتَأَلَوْنَ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى^(٤). وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَي: إِذَا صَفَحُوا عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ﴾ أَي: تَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتُعْرَضُونَ

(١) مسلم: ١٤٩١/٣ (٢) الطبري: ٦٥/٢٢ أنظروا حكم العوفي فيما تقدم (٣) الطبري: ٦٧، ٦٦/٢٢ (٤) الطبري:

بِأَعْمَالِكُمْ عَلَيْهِ فَيَجْزِيكُمْ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ
الطَّبِيبِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَأَيَّدْنَاهُمْ بِبَنَاتٍ مِنَ الْأُمَمِ فَمَا
اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إِنَّ رَبَّكَ
بِقَضَى بَيْنِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

[فضل الله على بني إسرائيل واختلافهم بعد ذلك]
يَذَكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: مِنْ أَنْزَالِ
الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ، وَإِزْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَجَعْلِهِ الْمَلِكُ فِيهِمْ،
وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّبِيبِ ﴿١٦﴾ أَي: مِنَ الْمَآكِلِ
وَالْمَشَارِبِ ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَي: فِي زَمَانِهِمْ
﴿وَأَيَّدْنَاهُمْ بِبَنَاتٍ مِنَ الْأُمَمِ ﴿١٨﴾ أَي: حُجَجًا وَبِرَاهِينَ وَأِدْلَةً
فَاطْعَاتٍ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ، ثُمَّ اختلفوا بعد ذلك من
بعد قيام الحجة، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَغْيًا مِنْهُمْ عَلَى بَعْضِهِمْ
بَعْضًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ ﴿١٩﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِقَضَى بَيْنِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَي سَيُفْصَلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ .

[تَحْذِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ سُلوِكِ مَنْهَجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ]
وَهَذَا فِيهِ تَحْذِيرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَسْلُكَ سُلُوكَهُمْ، وَأَنْ
تَقْصِدَ مَنْهَجَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى
شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴿١٦﴾ أَي: أَلْبَسْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿الأنعام: ١٠٦﴾
وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ هَهُنَا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ ﴿١٩﴾ أَي: وَمَاذَا تُعْنِي عَنْهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا،
فَأِنَّهُمْ لَا يَزِيدُونَهُمْ إِلَّا خَسَارًا وَدَمَارًا وَهَلَاكًا ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَهُوَ تَعَالَى يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ،
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى
الظُّلُمَاتِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ
الْقُرْآنَ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَعَهُمْ وَمَعَهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

سُورَةُ الْبَجَائِيَةِ

٥٠١

سُورَةُ الْبَجَائِيَةِ

أَفْرَعَيْتَ مِنَ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَمَّ عَلَى سَمْعِهِ
وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْدِي لَنَا
إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا نُنزِلُ
عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا حُجِّجَتْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا آيَاتِنَا إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ مَلِكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ
﴿٢٥﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِسَةٍ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْجَرُونَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢٨﴾ وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
مُجْرِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ
مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَنُّ إِلَّا أَنْظَانَا وَمَنْ لَنَا بِمُسْتَقْبَلِهَا

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿٢١﴾ أَفْرَعَيْتَ مِنَ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ
وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَمَّ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى
بَصَرِهِ غَشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾

[لَا تَسْتَوِي حَيَاةُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَمَمَاتُهُمَا]
يَقُولُ تَعَالَى: لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ، كَمَا قَالَ
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحْسَبُ النَّارِ وَأَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ الْفَلَاحُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
هَهُنَا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴿٢١﴾ أَي: عَمِلُواهَا
وَكَسَبُوهَا ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً
مَعَهُمْ وَمَعَهُمْ﴾ أَي: نُسَائِيهِمْ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٢﴾ أَي: سَاءَ مَا ظَنُّوا بِنَا وَبِعَدْلِنَا أَنْ نُسَائِي
بَيْنَ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَفِي هَذِهِ الدَّارِ .
وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ مَسْرُوقٍ أَنَّ تَيْمِمًا الدَّارِيَّ قَامَ لَيْلَةً
حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا

السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْتَخْلِفَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١١﴾ .
 وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:
 ﴿وَمَلَئَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَي: بِالْعَدْلِ ﴿وَلِئَلَّيْزِي
 كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ أَي:
 إِنَّمَا يَأْتُمِرُ بِهَوَاهُ، فَمَهْمَا رَأَهُ حَسَنًا فَعَلَهُ وَمَهْمَا رَأَهُ قَبِيحًا
 تَرَكَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾ أَي: أَصَلَّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ أَنَّهُ
 يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ، أَوْ أَصَلَّهُ اللَّهُ بَعْدَ بُلُوغِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ وَيَقَامُ
 الْحُجَّةَ عَلَيْهِ. وَالثَّانِي يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ، وَلَا يَتَعَكَّسُ ﴿وَحَتَمَ
 عَلَىٰ سَمِيْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِشْوَةَ﴾ أَي: فَلَا يَسْمَعُ مَا
 يَنْفَعُهُ، وَلَا يَبْصُرُ شَيْئًا يَهْتَدِي بِهِ، وَلَا يَرَىٰ حُجَّةً يَسْتَضِيءُ
 بِهَا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَمْ يَدْرِكْهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
 يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيَاتُنَا مَا هِيَ إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا
 لَمْ يَدِكُمْ مِنْ عِلْمٍ إِنَّمَا هِيَ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا نَكَلَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ مَا
 كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا مَا بَابِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ
 يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ لِكِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾

[مُعْتَقِدُ الْكَافِرِ وَحُجَّتُهُ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الدَّهْرِيَّةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ
 مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي انْتِكَارِ الْمَعَادِ ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيَاتُنَا﴾ أَي: مَا نَمَّ إِلَّا هَذِهِ الدَّارُ، يَمُوتُ قَوْمٌ
 وَيَعِيشُ آخَرُونَ، وَمَا نَمَّ مَعَادٌ وَلَا قِيَامَةٌ، وَهَذَا يَقُولُهُ
 مُشْرِكُو الْعَرَبِ الْمُتَكَبِّرُونَ لِلْمَعَادِ. وَتَقُولُهُ الْفَلَسَافَةُ
 الْإِلَهِيُونَ مِنْهُمْ، وَهُمْ يُنْكِرُونَ الْبِدْءَةَ وَالرَّجْعَةَ، وَتَقُولُهُ
 الْفَلَسَافَةُ الدَّهْرِيَّةُ [الدَّوْرِيَّةُ] الْمُتَكَبِّرُونَ لِلصَّانِعِ، الْمُعْتَقِدُونَ
 أَنَّ فِي كُلِّ سِنَةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ يَعُودُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَا كَانَ
 عَلَيْهِ. وَرَزَعُوا أَنَّ هَذَا قَدْ تَكَرَّرَ مَرَّاتٍ لَا تَنَاهَى. فَكَابَرُوا
 [الْمَعْقُولِ]، وَكَذَّبُوا الْمُتَقُولَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَمَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا
 الدَّهْرُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَمْ يَدِكُمْ مِنْ عِلْمٍ إِنَّمَا هِيَ إِلَّا
 يَظُنُّونَ﴾ أَي: يَتَوَهَّمُونَ وَيَتَخَيَّلُونَ، فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي
 أَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ، عَنْ أَبِي
 هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ
 تَعَالَى: يُؤَدِّبُنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي
 الْأَمْرُ، أَقْلُبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ» (١). وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسْبُوا

الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ» (٣). قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو
 عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَيْمَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَسْبُوا
 الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»: كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا إِذَا
 أَصَابَهُمْ شِدَّةٌ، أَوْ بَلَاءٌ، أَوْ نَكْبَةٌ قَالُوا: يَا حَيَّةَ الدَّهْرِ.
 فَيُسْنِدُونَ تِلْكَ الْأَفْعَالَ إِلَى الدَّهْرِ وَيَسْتَوْنَهُ، وَإِنَّمَا فَاعِلُهَا
 هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، فَكَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَبُّوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ فَاعِلُ
 ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ، فَلِهَذَا نَهَى عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ بِهَذَا
 الْأَعْتَابِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ الَّذِي يَعْنُونَهُ وَيُسْنِدُونَ
 إِلَيْهِ تِلْكَ الْأَفْعَالَ؛ هَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِهِ، وَهُوَ
 الْمُرَادُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ غَلِطَ ابْنُ حَزْمٍ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُ مِنْ
 الظَّاهِرِيَّةِ فِي عَدَمِهِ الدَّهْرَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى؛ أَخَذًا مِنْ
 هَذَا الْحَدِيثِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَنَكَّلَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ﴾ أَي: إِذَا
 اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى
 إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ بَعْدَ فَنَائِهَا وَتَفْرِيفِهَا ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا
 اتَّبَعْنَا مَا بَابِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي: أَحْبَبْنَاهُمْ إِنْ كَانَ مَا
 تَقُولُونَهُ حَقًّا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ
 أَي: كَمَا تُشَاهِدُونَ ذَلِكَ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ
 ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَامُونَ﴾ فَأَخْبَرَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ
 ثُمَّ يَحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أَي: الَّذِي قَدَرَ عَلَى الْبِدْءَةِ قَادِرٌ
 عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ
 لِكِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أَي: إِنَّمَا يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 لَا يُعِيدُكُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَقُولُوا: ﴿اتَّبَعْنَا مَا بَابِنَا إِن كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ﴾: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِیَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا
 أَنَا﴾ [الأنعام: ١٠٢] ﴿لِیَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المرسلات: ١٢، ١٣] ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا
 لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ لِكِ يَوْمِ
 الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أَي: لَا شَكَّ فِيهِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ﴾ أَي: فَلِهَذَا يُنْكِرُونَ الْمَعَادَ، وَيَسْتَبْعِدُونَ قِيَامَ
 الْأَجْسَادِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿١٥﴾ وَزَنَّهُ قَرِيبًا﴾
 [المعارج: ٦، ٧] أَي: يَرَوْنَ وَقَوْلُهُ بَعِيدًا، وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ
 ذَلِكَ سَهْلًا قَرِيبًا.

(١) الطبراني: ٥٠/٢ فتح الباري: ٤٣٧/٨ مسلم: ٤/٤
 ١٧٦٢ وأبو داود: ٤٢٣/٥ والنسائي في الكبرى: ٤٥٧/٦ (٣)
 مسلم: ٤/١٧٦٣

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٧) وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعِي إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

إِبْعَاضُ أَحْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحَاكِمُ فِيهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وَهُمْ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ الْجَا حِدُونَ بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً﴾ أَي: عَلَىٰ رُكْبَتِهَا مِنَ الشَّدَةِ وَالْعَظْمَةِ، وَيُقَالُ: إِنَّ هَذَا إِذَا جِيَءَ بِجَهَنَّمَ فَإِنَّهَا تَزْفِرُ زَفْرَةً، لَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ إِلَّا جَنًّا لِرُكْبَتَيْهِ، حَتَّىٰ إِذَا هَيَّبَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَيَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي! لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي. وَحَتَّىٰ إِنْ عَيْسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يَقُولُ: لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي، لَا أَسْأَلُكَ مَرِيَمَ الَّتِي وَلَدْتَنِي!

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعِي إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ يَعْنِي: كِتَابَ أَعْمَالِهَا، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهُدَاءِ﴾ [الزمر: ٧٠] وَلِهَذَا قَالَ سُحَّانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: تُجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَبْنُو الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [بل الإنسان على نفسه بصيرة] ﴿لَوْ لَقِيَ مَا دَبَّرُوهُ﴾ [القيامة: ١٣-١٥] وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَي: يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ فَقرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُؤْتِنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدْنَا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ الْحَفِظَةَ أَنْ تَكْتُبَ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْكُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

وَعِيره: تَكْتُبُ الْمَلَائِكَةُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ، ثُمَّ تَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَقَابِلُونَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ فِي دِيَارِ الْأَعْمَالِ عَلَى مَا بَأْيَدِي الْكُتُبِ، مِمَّا قَدْ أُبْرِزَ لَهُمْ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قَدْرٌ، مِمَّا كَتَبَهُ اللَّهُ فِي الْقَدَمِ عَلَى الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، فَلَا يَزِيدُ حَرْفًا وَلَا يَنْقُصُ حَرْفًا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا كُنَّا

وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِإِيْسَاهُمْ ﴿٢٧﴾

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُ مَا كُنْ سِتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿٢٨﴾ ذِكْرُ بَأْسِكُمْ أَنْتُمْ عَائِتُ اللَّهِ هُرُوا وَعَرَّتْكُمْ

الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُجْرِحُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَرُونَ ﴿٢٩﴾

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾

سُورَةُ الْحَقْفَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُوهُمَا مَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَثْنُوهُ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرٍ قَوْمٌ عُلِمَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٦) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَنَّهُمْ كُنَّ عَائِتِي تَمَلُّ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ (٧) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُحْسِنِينَ﴾ (٨) وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْرُونَ﴾ (٩) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُ مَا كُنْ سِتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ (١٠) ذِكْرُ بَأْسِكُمْ أَنْتُمْ عَائِتُ اللَّهِ هُرُوا وَعَرَّتْكُمْ

الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُجْرِحُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَرُونَ﴾ (١١) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٣)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَن حُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَهِيَ الْخَالِصَةُ الْمُوَافِقَةُ لِلشَّرْعِ ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلْجَنَّةِ:

يُدْخِلُ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُحْسِنِينَ﴾ (٨) وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْرُونَ﴾ (٩) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُ مَا كُنْ سِتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ (١٠) ذِكْرُ بَأْسِكُمْ أَنْتُمْ عَائِتُ اللَّهِ هُرُوا وَعَرَّتْكُمْ

الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُجْرِحُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَرُونَ﴾ (١١) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٣)

يُدْخِلُ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُحْسِنِينَ﴾ (٨) وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْرُونَ﴾ (٩) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُ مَا كُنْ سِتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ (١٠) ذِكْرُ بَأْسِكُمْ أَنْتُمْ عَائِتُ اللَّهِ هُرُوا وَعَرَّتْكُمْ

الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُجْرِحُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَرُونَ﴾ (١١) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٣)

يُدْخِلُ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُحْسِنِينَ﴾ (٨) وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْرُونَ﴾ (٩) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُ مَا كُنْ سِتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ (١٠) ذِكْرُ بَأْسِكُمْ أَنْتُمْ عَائِتُ اللَّهِ هُرُوا وَعَرَّتْكُمْ

أَنْتَ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَسَاءَ»^(١). ﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ
الَّذِينَ﴾ أَي: الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْهِمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أَي: يُقَالُ لَهُمْ
ذَلِكَ، تَقْرِيعًا وَتَوْبِيحًا: أَمَا قُرِئْتُ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ تَعَالَى
فَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ آيَاتِهَا، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ سَمَاعِهَا ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا
مُجْرِمِينَ﴾ فِي أَفْعَالِكُمْ مَعَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ مِنْ
التَّكْذِيبِ؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾
أَي: إِذَا قَالَ لَكُمْ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ ﴿فَلْتُمْ مَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾
أَي: لَا تَعْرِفُهَا ﴿إِنْ نَظَلُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أَي: إِنْ تَنَوَّهَتْ وَقُوعَهَا
إِلَّا تَوَهُمًا أَي: مَرْجُوحًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا عَنُ بِمُسْتَفِيقِينَ﴾
أَي بِمُتَحَقِّقِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا﴾
أَي وَظَهَرَ لَهُمْ عَقُوبَةُ أَعْمَالِهِمْ السَّيِّئَةِ ﴿وَكَافَّ بِهِمْ﴾ أَي:
أَحَاطَ بِهِمْ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَي: مِنَ الْعَذَابِ
وَالنَّكَالِ ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْتَكْفُرُ﴾ أَي: نَعَامِلُكُمْ مَعَامَلَةَ النَّاسِي
لَكُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿كَأَنِّي لَفَاءٌ يُومَكُمُ هَذَا﴾ أَي فَلَمْ تَعْمَلُوا
لَهُ لِأَنَّكُمْ لَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ ﴿وَمَا وَوَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
تَنْصِيرٍ﴾. وَقَدْ تَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ
لِيَعْضِ الْعَبِيدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَمْ أُزَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ
أَسْخُرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْزِيعُ؟ فَيَقُولُ:
بَلَى يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا.
فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ أَفْعَدْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُرُوفًا﴾ أَي
إِنَّمَا جَارَيْنَاكُمْ هَذَا الْجَزَاءَ؛ لِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ حُجَجَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ سُخْرِيًّا، تَسْخَرُونَ وَتَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ﴿وَمَرَّتْكَ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا﴾ أَي: خَدَعَتْكُمْ، فَاطْمَأْنَنْتُمْ إِلَيْهَا فَاصْبَحْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا﴾
أَي مِنَ النَّارِ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أَي: لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ
الْعُتْبَى، بَلْ يُعَذَّبُونَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عِتَابٍ، كَمَا تَدْخُلُ
طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَذَابٍ وَلَا حِسَابٍ. ثُمَّ لَمَّا
ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، قَالَ: ﴿فَلِلَّهِ
الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أَي: الْمَالِكِ لَهُمَا وَمَا
فِيهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا:
﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: بَعْضُ
السُّلْطَانِ أَي: هُوَ الْعَظِيمُ الْمُمَجَّدُ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ
لَدَيْهِ قَوِيْرٌ إِلَيْهِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ
تَعَالَى: الْعَظْمَةُ إِزَارِي، وَالْكَبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَارَعَنِي

سُورَةُ الْأَحْقَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا
عَمَّا أُنزِلُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ آتَيْنَاهُم مَّا تَدْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيُّ
مَادَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
هَذَا أَوْ أَنْزَلْنَا مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ آيَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ
عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا

بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

[الْقُرْآنُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ وَالْكَوْنُ مَخْلُوقٌ لَهُ بِالْحَقِّ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ
مُحَمَّدٍ ﷺ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ،
وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْجِزَةِ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةِ فِي الْأَقْوَالِ
وَالْأَفْعَالِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَي: لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ ﴿وَأَجَلٍ
مُسَمًّى﴾ أَي: وَإِلَى مَدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مُضْرُوبَةٍ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنزِلُوا مُعْرِضُونَ﴾ أَي:
لَاهُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ كِتَابًا
وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَي:
وَسَيَعْلَمُونَ غِيبَ ذَلِكَ.

[الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أَي: لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ
مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ ﴿آتَيْنَاهُمْ مَّا تَدْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيُّ مَادَا خَلَقُوا مِنَ
الْأَرْضِ﴾ أَي: أَرشِدُونِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي اسْتَقَلُّوا بِخَلْقِهِ

(١) فتح الباري: ٤٦٠/٨ (٢) مسلم: ٢٢٧٩/٤ (٣) أبو

داود: ٣٥٠/٤ (٤) مسلم: ٢٠٢٣/٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٣

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٧﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا قُلْ إِنْ أَفَرَبْتُمْ هَذَا فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاؤِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ أَنْ يُعْجِلَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَتَمَنَّوْا أَنْ يُكْفِرَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي كَفَرْتُمْ بِهَا وَإِذَا تَمَنَّوْا لَوِ كَانُوا يَكْفُرُونَ لَأَرْسَلْنَا بِكُمْ آيَاتِنَا أَنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ الْإِنشَاءُ عَلَيْنَا فَرِحْنَا بِحُجْرَتِنَا وَالَّذِينَ لَا مُؤْمِنِينَ فِي بُقْعَتِنَا سَأَلْنَا لَوْلَا أُنزِلَ الْإِنشَاءُ عَلَيْنَا لَكُنَّا أَمْتًا مِّنَ الْأُمَمِ الْأَقْبَمِينَ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ الْإِنشَاءُ عَلَيْنَا لَكُنَّا أَمْتًا مِّنَ الْأُمَمِ الْأَقْبَمِينَ ﴿١٤﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا﴾ يعنون محمداً ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَبْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقلد أحد من أهل الأرض: لا أنتم ولا غيركم، أن يجبرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِيَّيْنا نَحْمَدُ وَإِلَيْهِ نَعُودُ﴾ [الحج: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُلْ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِ لِلَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ إِلَّا نِقْمًا مِّنَّا لَقَدْ أَفْرَقْنَا بِهِمُ الْقُلُوبَ لَوْلَا أَنَّا لَمَّصْنَا لُجُجَهُمُ بِاللِّسَانِ أَذِلَّةٌ مَّا أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكُتُبَ وَالْحِزْبَ وَكُلَّ سِجِّينٍ لِّمَن كَفَرَ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُلْ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِ لِلَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ إِلَّا نِقْمًا مِّنَّا لَقَدْ أَفْرَقْنَا بِهِمُ الْقُلُوبَ لَوْلَا أَنَّا لَمَّصْنَا لُجُجَهُمُ بِاللِّسَانِ أَذِلَّةٌ مَّا أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكُتُبَ وَالْحِزْبَ وَكُلَّ سِجِّينٍ لِّمَن كَفَرَ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُلْ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِ لِلَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ إِلَّا نِقْمًا مِّنَّا لَقَدْ أَفْرَقْنَا بِهِمُ الْقُلُوبَ لَوْلَا أَنَّا لَمَّصْنَا لُجُجَهُمُ بِاللِّسَانِ أَذِلَّةٌ مَّا أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكُتُبَ وَالْحِزْبَ وَكُلَّ سِجِّينٍ لِّمَن كَفَرَ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]

﴿قُلْ إِنْ أَفَرَبْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقلد أحد من أهل الأرض: لا أنتم ولا غيركم، أن يجبرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِيَّيْنا نَحْمَدُ وَإِلَيْهِ نَعُودُ﴾ [الحج: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُلْ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِ لِلَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ إِلَّا نِقْمًا مِّنَّا لَقَدْ أَفْرَقْنَا بِهِمُ الْقُلُوبَ لَوْلَا أَنَّا لَمَّصْنَا لُجُجَهُمُ بِاللِّسَانِ أَذِلَّةٌ مَّا أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكُتُبَ وَالْحِزْبَ وَكُلَّ سِجِّينٍ لِّمَن كَفَرَ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]

﴿قُلْ إِنْ أَفَرَبْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقلد أحد من أهل الأرض: لا أنتم ولا غيركم، أن يجبرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِيَّيْنا نَحْمَدُ وَإِلَيْهِ نَعُودُ﴾ [الحج: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُلْ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِ لِلَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ إِلَّا نِقْمًا مِّنَّا لَقَدْ أَفْرَقْنَا بِهِمُ الْقُلُوبَ لَوْلَا أَنَّا لَمَّصْنَا لُجُجَهُمُ بِاللِّسَانِ أَذِلَّةٌ مَّا أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكُتُبَ وَالْحِزْبَ وَكُلَّ سِجِّينٍ لِّمَن كَفَرَ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]

مِنَ الْأَرْضِ ﴿٧﴾ أَمْ لَكُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴿٨﴾ أَمْ لِي شِرْكٌ لَّهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ، إِنْ أَمْلَكُ وَالْتَصَّرُفُ كُلُّهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ وَتُشْرِكُونَ بِهِ؟ مَنْ أَرَادَكُمْ إِلَىٰ هَذَا؟ مَنْ دَعَاكُمْ إِلَيْهِ؟ أَهْوَىٰ أَمْرُكُمْ بِهِ؟ أَمْ هُوَ شَيْءٌ أَفْتَرْتُمُوهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتَدْعُونِي بِكُتُبٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتاباً مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَمْرِكُمْ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ ﴿أَوْ أَتَدْعُونِي بِعِلْمٍ﴾ أي: دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم لا ثقيلًا ولا عقليًا على ذلك. وَلِهَذَا قَرَأَ آخَرُونَ: (أَوْ أَتَدْعُونِي بِعِلْمٍ) أي: أو علم صحيح تُؤثِرُونَهُ عَنْ أَحَدٍ مَعَكُمْ قِتْلَكُمْ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ أَتَدْعُونِي بِعِلْمٍ﴾. أَوْ أَحَدٌ يَأْتِرُ عِلْمًا^(١).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي لا أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَضْنَامًا، وَيَطْلُبُ مِنْهَا مَا لَا تَسْتَطِيعُهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ غَافِلَةٌ عَمَّا يَقُولُ، لَا تَسْمَعُ، وَلَا تَبْصُرُ، وَلَا تَبْطِشُ، لِأَنَّهَا جَمَادٌ حَجَارَةٌ صَمٌّ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَعْدَاؤُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَلَهَةٌ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [٨١، ٨٢] أي: سَيُحْشَرُونَ لَهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِمْ. وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُ مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِيَتُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا قُلْ إِنْ أَفَرَبْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاؤِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ أَنْ يُعْجِلَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ [أَقْوَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ وَالرُّسُولِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ: أَنَّهُمْ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ بَيِّنَاتٍ أَيْ فِي حَالِ بَيَانِهَا وَوُضُوحِهَا وَجَلَانِهَا يَقُولُونَ: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: سِحْرٌ وَاضِحٌ، وَقَدْ كَذَّبُوا وَافْتَرَوْا، وَضَلُّوا وَكَفَرُوا

تَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ وَغَفَرَ وَرَحِمَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ التُّرُقَاتِ: ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأُولَىٰ أَكْتَنَهَا فِيهِ ثَمَلِي عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ١٠. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿[الفرقان: ٦٥]﴾. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مِنِ الرَّسُولِ أَيْ: لَسْتُ بِأَوَّلِ رَسُولٍ طَرَقَ الْعَالَمَ، بَلْ جَاءَتِ الرَّسُولُ مِن قِبَلِي، فَمَا أَنَا بِالْأَمْرِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، حَتَّى تَسْتَكْبِرُونِي﴾ [وَتَسْتَبْعِدُوا] بِعِثِّي إِلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا قِبَلِي جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْأُمَمِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: نَزَلَ بَعْدَهَا ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ١١. وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: إِنَّهَا مَسْخُوحَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قَالُوا: وَلَكَمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ رَجُلٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ: هَذَا قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ فَاعِلٌ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا هُوَ فَاعِلٌ بِنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ٥] ١٢. هَكَذَا قَالَ، وَالَّذِي هُوَ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: هَيْئًا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ١٣.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ خَارِجَةَ بِنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ، وَهِيَ امْرَأَةٌ مِّنْ نِّسَائِهِمْ أَخْبَرَتْهُ، وَكَانَتْ بَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: طَارَ لَهُمْ فِي السُّكْنَى - جَيْنٍ افْتَرَعَتِ الْأَنْصَارُ عَلَى سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ - عُمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَاسْتَكَى عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَنَا فَمَرَّضَانَهُ، حَتَّى إِذَا تُوَفِّيَ أَدْرَجْنَاهُ فِي أَنْوَابِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، شَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْرَمُهُ؟» فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ. وَاللَّهُ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يُفْعَلُ بِي». قَالَتْ: وَاللَّهُ لَا أُرْكَبُ أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا، وَأَخْرَجْتَنِي ذَلِكَ، فَمِثْتُ قَرَأَيْتُ لِعُمْتَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَيْنًا تَجْرِي، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ عَمَلُهُ» ١٤.

انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْخَارِئِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ ١٥. وَفِي لَفْظِ لَهُ: «مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يُفْعَلُ بِهِ» ١٦. وَفِي هَذَا وَأَمْثَالِهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَفْطَعُ لِمُعَيَّنٍ بِالْجَنَّةِ إِلَّا الَّذِي نَصَّ الشَّارِعُ عَلَى تَعْيِينِهِمْ، كَالْعَشْرَةِ وَابْنِ سَلَامٍ وَالْعُمَيْيَاءِ وَبِلَالِ، وَسُرَاقَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرَامِ بْنِ الْوَدِيِّ جَابِرِ، وَالْقُرَّاءِ السَّبْعِينَ الَّذِينَ قَاتَلُوا بِبَيْتِ مَعُونَةَ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَجَعْفَرَ، وَابْنَ رَوَاحَةَ، وَمَا أَشْبَهَ هَؤُلَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِن أَتَيْعَ إِلَّا مَا يَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَتَيْعَ مَا يُنَزِّلُهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: بَيْنَ النَّذَارَةِ، أُمْرِي ظَاهِرٌ لِكُلِّ ذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِن عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَيْتِ إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ. فَأَمَنَ وَأَسْكَنْتُمُ اسْمَ اللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ١٧. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِيَّاكَ قَدِيمٌ ١٨ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحِمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيٍّ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنذِرَ لِمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ نَبَأٌ ١٩ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٠ أُولَئِكَ أَحْسَبُ لِحَنَّةِ خَلِيدٍ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢١

[القرآن كَلَامُ اللَّهِ الْحَقُّ وَمَوْقِفُ الْكُفَّارِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهُ] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿مِن عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أَيْ: مَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ صَانِعٌ بِكُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ، قَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيَّ لِأُبَلِّغُكُمْوَهُ، وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ وَكَذَّبْتُمُوهُ. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَيْتِ إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أَيْ: وَقَدْ شَهِدْتُ بِصِدْقِهِ وَصَحِّهِ الْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمُهُ الْمُنَزَّلَةَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قِبَلِي، بَشَّرْتُ بِهِ وَأَخْبَرْتُ بِمِثْلِ مَا أَخْبَرَ هَذَا الْقُرْآنُ بِهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَنَ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي شَهِدَ بِصِدْقِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَعْرِفَتِهِ بِحَقِيقَتِهِ ﴿وَأَسْكَنْتُمُ اسْمَ اللَّهِ عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَقَالَ مَسْرُوقٌ: فَأَمَنَ هَذَا الشَّاهِدُ بِنَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ، وَكَفَرْتُمْ أَنْتُمْ بِنَبِيِّكُمْ وَكِتَابِكُمْ﴾ [إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] ٢١. وَهَذَا الشَّاهِدُ اسْمُ جِنْسٍ يُعْمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعِيرُهُ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ إِسْلَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

(١) الطبري: ٩٩/٢٢ (٢) الطبري: ٩٩/٢٢، ١٠٠، ١٠٠ (٣) فتح الباري: ٥١٦/٧ (٤) أحمد: ٤٣٦/٦ (٥) فتح الباري: ٧/٣١٠ (٦) فتح الباري: ١٣٧/٣ (٧) الطبري: ١٠٣/٢٢، ١٠٤

الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴿٣٠﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ حَمَّ السَّجْدَةِ [الآية: ٣٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَي فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا خَلَفُوا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَغْنَةِ خَلِيدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: الْأَعْمَالُ سَبَبٌ لِتَبِيلِ الرَّحْمَةِ لَهُمْ وَسُبُوغِهَا عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ اأَسَدُ مَ وَبَلَغَ اأَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ اأَرْبَعِينَ أَن اأَشْكُرُ لِمَعْنِكَ اأَلَيْحِ اأَعَمَّتْ عَلَيَّ وَعَلَى وَاوَالِدَيَّ وَأَنَّ اأَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنَيْتُكَ وَإِنِّي مِنَ اأَلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلَ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْمَغْنَةِ وَعَدَّ الصَّدَقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦)

[وَصِيَّةُ اللَّهِ بِالْوَالِدِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى التَّوْحِيدَ لَهُ وَإِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِقَامَةَ إِلَيْهِ، عَطَفَ بِالْوَصِيَّةِ بِالْوَالِدِينَ كَمَا هُوَ مَقْرُونٌ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَصْنِي رَبُّكَ اأَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَن اأَشْكُرْ لِي وِلْوَالِدَيْكَ إِلَى اأَلْبَصِيرِ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هَهُنَا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أَي: اأَمْرَانَهُ بِالِإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَالْحُنُوِّ عَلَيْهِمَا، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّبَالِسِيُّ، عَنْ سَعْدِ رَضِيِّ اللَّهِ عَنْهُ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَعْدِ لِسَعْدٍ: اأَلَيْسَ قَدْ اأَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ، فَلَا اأَكُلُ طَعَامًا، وَلَا اأَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَاأَمْتَنَعْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّىٰ جَعَلُوا يَفْتَحُونَ فَاأَهَا بِالْعَصَا، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ الْآيَةَ (٥). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ (٦). ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أَي: قَاسَتْ بِسَبَبِهِ فِي حَالِ حَمَلِهِ مَشَقَّةً وَتَعَبًا مِنْ [وِحَامٍ] وَعَثْيَانٍ وَيَقْبَلٍ وَكُرْبٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَنَالُ الْحَوَامِلُ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أَي: بِمَشَقَّةٍ أَيْضًا مِنَ الطَّلَقِ وَشِدْدَتِهِ ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

سَلَامٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُنِيَ عَلَيْهِمْ قَالُوا اأَمْنَا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بُسُّوا عَلَيْهِمْ يَحْزَنُونَ لِأَلْدَقَانِ سُجْدًا﴾ (١٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانُوا وَعَدَّ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] وَعَنْ سَعْدِ قَالَ: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّجَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ (١).

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (٢). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَعِكْرِمَةُ، وَيُوسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَهَلَالُ بْنُ يَسَافٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَالثَّوْرِيُّ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَابْنُ زَيْدٍ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ (٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أَي: قَالُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ: لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا هُوَ لِإِيَّاهُ، يَعْنُونَ بِأَلَّا وَعَمَّارًا وَصَهْبًا وَحَبَابًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَأَشْبَاهَهُمْ وَأَصْرَابَهُمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَجَاهَةً، وَلَهُ بِهِمْ عِنَايَةٌ. وَقَدْ غَلَطُوا فِي ذَلِكَ غَلَطًا فَاحِشًا، وَأَخْطَأُوا خَطَأً بَيِّنًا، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أَي يَتَعَجَّبُونَ كَيْفَ اهْتَدَى هُوَ لِإِيَّاهُ دُونَنَا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَيَقُولُونَ فِي كُلِّ فِعْلٍ وَقَوْلٍ لَمْ يَبْتُثْ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: هُوَ بِدْعَةٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا خِصْلَةً مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ إِلَّا وَقَدْ بَادَرُوا إِلَيْهَا.

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أَي: بِالْقُرْآنِ ﴿سَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أَي: كَذِبٌ قَدِيمٌ أَي مَأْتُورٌ عَنِ النَّاسِ الْأَقْدَمِينَ، فَيَتَّقِصُونَ الْقُرْآنَ وَأَهْلَهُ، وَهَذَا هُوَ الْكِبْرُ الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَطَرُ الْحَقِّ وَعَمُطُ النَّاسِ» (٤).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ وَهُوَ التَّوْرَةُ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أَي: لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أَي: فَصِيحًا بَيِّنًا وَاضِحًا ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنشِئَ لِمُحْسِنِينَ﴾ أَي: مُشْتَمِلٌ عَلَى النَّذَارَةِ لِلْكَافِرِينَ وَالنِّسَارَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ

(١) الطبري: ١٠٤/٢٢ (٢) فتح الباري: ١٦٠/٧ ومسلم: ٤/

١٩٣٠ والنسائي في الكبرى: ٧٠/٥ (٣) الطبري: ١٠٤/٢٢

و١٠٥ والقرطبي: ١٨٨/١٦ (٤) مسلم: ٩٣/١ (٥) مسند

الطيالسي: ٢٨ (٦) مسلم: ١٨٧٨/٤ وأبو داود: ١٧٧/٣

وتحفة الأحوذى: ٤٨/٩ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦

[أَسْتَبْطِطُ الْحُكْمَ عَلَى مَدَّةِ الْحَمْلِ: سِتَّةَ أَشْهُرٍ]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهِذِهِ الْآيَةِ مَعَ الَّتِي فِي لُقْمَانَ ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، وَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِئَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: عَلَى أَنَّ أَقْلَ مَدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، وَهُوَ اسْتِبْطِطٌ قَوِيٌّ وَصَحِيحٌ، وَوَافِقُهُ عَلَيْهِ عُثْمَانُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ [بَعْجَةَ] بِنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُهَنِيِّ قَالَ: تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنَّا امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ، فَوَلَدَتْ لَهُ لِتَمَامِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَاَنْطَلَقَ زَوْجُهَا إِلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا قَامَتْ لِتَلْبَسَ تِيَابَهَا بَكَتْ أُخْتَهَا فَقَالَتْ: وَمَا يُبْكِيكِ؟ فَوَاللَّهِ مَا التَّبَسُّبِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُهُ قَطُّ، فَمِضِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيَّ مَا شَاءَ، فَلَمَّا أَتَيْتُ بِهَا عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَرَ بِرَجِيمِهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: مَا تَضَعُ؟ قَالَ: وَلَدْتُ تَمَامًا لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وَقَالَ: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فَلَمْ نَجِدْهُ بَقِيَّ إِلَّا سِتَّةَ أَشْهُرٍ. قَالَ: فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ مَا فَطَنْتُ بِهَذَا، عَلِيٌّ بِالْمَرْأَةِ. فَوَجَدُوهَا قَدْ فَرَّغَ مِنْهَا قَالَ: فَقَالَ [بَعْجَةُ]: فَوَاللَّهِ مَا الْغُرَابُ بِالْغُرَابِ، وَلَا الْبَيْضَةُ بِالْبَيْضَةِ بِأَشْبَهَ مِنْهُ بِأَبِيهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُوهُ قَالَ: ابْنِي وَاللَّهِ لَا أَشْكُ فِيهِ. قَالَ: وَابْتِلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْفَرْحَةِ بِوَجْهِهِ: [فَرْحَةَ] الْأَكِلَةِ، فَمَا زَالَتْ تَأْكُلُهُ حَتَّى مَاتَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ: إِذَا وَضَعَتِ الْمَرْأَةُ لِشِعَةِ أَشْهُرٍ كَفَّاهُ مِنَ الرِّضَاعِ أَحَدًا وَعِشْرُونَ شَهْرًا، وَإِذَا وَضَعَتْهُ لِسَعَةِ أَشْهُرٍ كَفَّاهُ مِنَ الرِّضَاعِ ثَلَاثَةَ وَعِشْرُونَ شَهْرًا، وَإِذَا وَضَعَتْهُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ فَحَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ (٢). أَيُّ: قَوِيٌّ وَسَبَّ وَارْتَجَلَ. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أَيُّ: تَنَاهَى عَقْلُهُ، وَكَمَلَ فَهْمُهُ وَجَلْمُهُ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَتَغَيَّرُ غَالِيًا عَمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ ابْنُ الْأَرْبَعِينَ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْرَعِي﴾ أَيُّ: أَلْهَمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أَيُّ: فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أَيُّ نَسْلِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٤

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْرَعِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقَاتُ الَّتِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ إِفْ لَكُمْمَا اتَّعَدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبَيْتَكَ أَمِنْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ ﴿١٧﴾ أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ ظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ لَكُمْ دِينًا فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

وَعَقِبِي ﴿إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَهَذَا فِيهِ إِشْرَافٌ لِمَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ أَنْ يُجَدِّدَ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَعَزِّمَ عَلَيْهَا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أَيُّ: هُوَ لِأَنَّ الْمُتَصِفُونَ بِمَا ذَكَرْنَا، التَّائِبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْمُتَيْبُونَ إِلَيْهِ، الْمُسْتَدْرِكُونَ مَا قَاتَ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ، هُمْ ﴿الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فَيَغْفِرُ لَهُمْ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، وَنَقَبْلُ مِنْهُمْ الْبَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ.

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أَيُّ هُمْ فِي جُمْلَةِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، وَهَذَا حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا وَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَّ الصَّدَقَاتُ الَّتِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر، الدر المنثور: ٩/٦ إسناده ضعيف لتدليس ابن إسحاق ولم يصرح بالسماع (٢) البيهقي:

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَتِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا
فِيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَهُمْ لَا
يُظَاهَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ لَكُمْ فِي
حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا قَالِيَوْمَ نُجَزُّونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾
[ذِكْرُ الْأَوْلَادِ الْعَاقِينَ وَمَصِيرِهِمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الدَّاعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ الْبَارِينَ بِهِمَا وَمَا
لَهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْقُوزِ، وَالنَّجَاةِ، عَطَفَ بِحَالِ الْأَشْقِيَاءِ
الْعَاقِينَ لِلْوَالِدَيْنِ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمَا﴾
وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ قَالَ هَذَا، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَوْلُهُ ضَعِيفٌ
مَرْدُودٌ، لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ وَكَانَ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ
زَمَانِهِ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهِكٍ قَالَ: كَانَ مَرْوَانَ
عَلَى الْحِجَازِ، اسْتَعْمَلَهُ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا، فَحَطَبَ وَجَعَلَ يَذْكُرُ زَيْدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ؛ لِكَيْ يَبَايَعَ لَهُ
بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا شَيْئًا، فَقَالَ: خُذُوهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ
﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ وَرَاءِ
الْحِجَابِ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِينَا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ
اللَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ عُذْرِي ^(١).

(طَرِيقُ أُخْرَى) رَوَى النَّسَائِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:
لَمَّا بَايَعَ مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَبِيهِ، قَالَ مَرْوَانُ: سُنَّهَ أَبِي
بَكْرٍ وَعَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سُنَّهَ هِرْقَلٍ وَقَيْصَرَ. فَقَالَ مَرْوَانُ: هَذَا
الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمَا﴾
الْآيَةَ. فَبَلَغَ ذَلِكَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: كَذَبَ
مَرْوَانُ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِهِ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَمِّيَ الَّذِي أَنْزَلَتْ
فِيهِ لَسَمَّيْتُهُ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ أَبَا مَرْوَانَ وَمَرْوَانَ
فِي صَلْبِهِ، فَمَرْوَانُ فَضَضَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ ^(٢).

﴿وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾
أَيُّ لِكُلِّ عَذَابٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ﴿وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَهُمْ لَا
يُظَلَمُونَ﴾ أَيُّ: لَا يُظَلِمُهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَمَا دُونَهَا. قَالَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: دَرَجَاتُ النَّارِ تَذْهَبُ
سِفَالًا، وَدَرَجَاتُ الْجَنَّةِ تَذْهَبُ عَلْوًا ^(٤). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:
﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ لَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا
وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أَيُّ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيحًا وَتَوْبِيحًا، وَقَدْ
تَوَرَّعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ
كَثِيرٍ مِنْ طَيِّبَاتِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ. وَتَوَرَّعَ عَنْهَا وَيَقُولُ:
إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ كَالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ، وَبَخَّهْمُ
وَقَرَّعَهُمْ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾.
وَقَالَ أَبُو مِجَلَزٍ: لِيَفْقِدَنَّ أَقْوَامَ حَسَنَاتٍ كَانَتْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا
فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾. وَقَوْلُهُ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿قَالِيَوْمَ نُجَزُّونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فَجُوزُوا مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ، فَكَمَا
مَتَّعُوا أَنْفُسَهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَتَعَاطَوْا الْفُسُوقَ
وَالْمَعَاصِيَةَ، جَارَاهُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعَذَابِ الْهُونِ،
وَهُوَ الْإِهَانَةُ وَالْحِزْبِيُّ، وَالْأَلَامُ الْمَوْجِعَةُ وَالْحَسْرَاتُ
الْمُتَبَاعِثَةُ، وَالْمَنَارِلُ فِي الدَّرَكَاتِ الْمُفْطَعَةِ، أَجَارَنَا اللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

﴿وَأَذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّجُودُ مِنْ

(١) فتح الباري: ٤٣٩/٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٤٥٨/٦
(٣) الطبري: ١١٨/٢٢ (٤) الطبري: ١١٩/٢٢

سورة الأحقاف

٥٥

سورة الأحقاف

﴿وَأَذْكُرَ آخَاعًا إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَ عَنْ ءَاهِلِنَا فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا مَجْهُلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

[قِصَّةٌ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّمًا لِئِنَّهُ لَكَنَّا فِي تَكْذِيبٍ مَنْ كَذَّبَ مِنْ قَوْمِهِ ﴿وَأَذْكُرُ آخَاعًا عَادٍ﴾ وَهُوَ هُوْدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ [وَالسَّلَامُ]، بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عَادِ الْأُولَى وَكَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، جَمْعُ حَقْفٍ، وَهُوَ الْجَبَلُ مِنَ الرَّمْلِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ ^(١). وَقَالَ عِكْرَمَةُ: الْأَحْقَافُ: الْجَبَلُ وَالْغَارُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرْنَا أَنَّ عَادًا كَانُوا حَيًّا بِالْيَمَنِ، أَهْلُ رَمْلِ، مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الشَّحْرُ ^(٢). قَالَ ابْنُ مَاجَةَ: بَابٌ إِذَا دَعَا فَلْيَبْدَأُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَآخَا عَادٍ» ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يَعْنِي: وَقَدْ أُرْسِلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ حَوْلَ بِلَادِهِمْ فِي الْقُرَى مُرْسِلِينَ وَمُنْذِرِينَ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَيْعَةً مِثْلَ صَيْعَةِ عَادٍ وَتَمُودَ﴾ ﴿٢٧﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ: قَالَ لَهُمْ هُوْدٌ ذَلِكَ فَأَجَابَهُ قَوْمُهُ قَائِلِينَ: ﴿أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَ عَنْ ءَاهِلِنَا﴾ أَيُّ: لِنَتَّصِدَّنَا ﴿عَنْ ءَاهِلِنَا﴾ ﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ اسْتَعْجَلُوا عَذَابَ اللَّهِ وَعُقُوبَتَهُ اسْتِعَادًا مِنْهُمْ وَوُقُوعَهُ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿سَتَسْعَلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعْجِلِينَ لَتَعْجِيلِ الْعَذَابِ، فَسَتَعْلَمُ ذَلِكَ بِكُمْ، وَأَمَّا أَنَا فَمِنْ شَأْنِي أَنِّي أَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا مَجْهُلُونَ﴾ أَيُّ لَا تَعْقِلُونَ وَلَا تَفْهَمُونَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أَيُّ: لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ مُسْتَقْبِلَهُمْ، اِعْتَقَدُوا أَنَّهُ عَارِضٌ مُمْطِرٌ، فَفَرَّحُوا وَاسْتَبَشَرُوا بِهِ، وَقَدْ كَانُوا مُمَجِّلِينَ مُحْتَاجِينَ إِلَى

[قِصَّةٌ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّمًا لِئِنَّهُ لَكَنَّا فِي تَكْذِيبٍ مَنْ كَذَّبَ مِنْ قَوْمِهِ ﴿وَأَذْكُرُ آخَاعًا عَادٍ﴾ وَهُوَ هُوْدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ [وَالسَّلَامُ]، بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عَادِ الْأُولَى وَكَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، جَمْعُ حَقْفٍ، وَهُوَ الْجَبَلُ مِنَ الرَّمْلِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ ^(١). وَقَالَ عِكْرَمَةُ: الْأَحْقَافُ: الْجَبَلُ وَالْغَارُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرْنَا أَنَّ عَادًا كَانُوا حَيًّا بِالْيَمَنِ، أَهْلُ رَمْلِ، مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الشَّحْرُ ^(٢). قَالَ ابْنُ مَاجَةَ: بَابٌ إِذَا دَعَا فَلْيَبْدَأُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَآخَا عَادٍ» ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يَعْنِي: وَقَدْ أُرْسِلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ حَوْلَ بِلَادِهِمْ فِي الْقُرَى مُرْسِلِينَ وَمُنْذِرِينَ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَيْعَةً مِثْلَ صَيْعَةِ عَادٍ وَتَمُودَ﴾ ﴿٢٧﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ: قَالَ لَهُمْ هُوْدٌ ذَلِكَ فَأَجَابَهُ قَوْمُهُ قَائِلِينَ: ﴿أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَ عَنْ ءَاهِلِنَا﴾ أَيُّ: لِنَتَّصِدَّنَا ﴿عَنْ ءَاهِلِنَا﴾ ﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ اسْتَعْجَلُوا عَذَابَ اللَّهِ وَعُقُوبَتَهُ اسْتِعَادًا مِنْهُمْ وَوُقُوعَهُ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿سَتَسْعَلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعْجِلِينَ لَتَعْجِيلِ الْعَذَابِ، فَسَتَعْلَمُ ذَلِكَ بِكُمْ، وَأَمَّا أَنَا فَمِنْ شَأْنِي أَنِّي أَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا مَجْهُلُونَ﴾ أَيُّ لَا تَعْقِلُونَ وَلَا تَفْهَمُونَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أَيُّ: لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ مُسْتَقْبِلَهُمْ، اِعْتَقَدُوا أَنَّهُ عَارِضٌ مُمْطِرٌ، فَفَرَّحُوا وَاسْتَبَشَرُوا بِهِ، وَقَدْ كَانُوا مُمَجِّلِينَ مُحْتَاجِينَ إِلَى

الْمَطَرِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ: هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي قُتِمْتُمْ ﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿تَدْمِرُ﴾ أَيُّ: تُخَرِّبُ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِنْ بِلَادِهِمْ مِمَّا مِنْ شَأْنِهِ الْخَرَابُ ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أَيُّ: بِإِذْنِ اللَّهِ لَهَا فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا نَدَّرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أَيُّ: كَالشَّيْءِ الْبَالِي وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أَيُّ: قَدْ بَادُوا كُلَّهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ تَبْقَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيُّ: هَذَا حُكْمُنَا فِيمَنْ كَذَّبَ رُسُلَنَا، وَخَالَفَ أَمْرَنَا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا صَاحِبًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَبْتَسِمُ وَقَالَتْ: كَانَ رَسُولُ

(١) الطبري: ١٢٥/٢٢ (٢) الطبري: ١٢٤/٢٢ (٣) ابن ماجه: ١٢٦٦/٢ فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس ولم يصرح بالسمع وضعفه الألباني [ضعيف الجامع وضعيف ابن ماجه]

اللَّهُ ﷻ إِذَا رَأَىٰ غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرَحُوا؛ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتُهُ عُرِفَتْ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَّةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ: يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤْمِنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عَذَّبَ قَوْمَ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَىٰ قَوْمٌ الْعَذَابَ وَقَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرٌ^(١). وَأَخْرَجَاهُ^(٢).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷻ كَانَ إِذَا رَأَىٰ نَائِثًا فِي أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِ السَّمَاءِ تَرَكَ عَمَلَهُ وَإِنْ كَانَ فِي صَلَاتِهِ ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ» فَإِنْ كَشَفَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ حَمِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ أَطْفَرَ قَالَ: «اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا»^(٣).

وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ». قَالَتْ: وَإِذَا تَحَيَّلَتِ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا أَطْفَرَ سَرِي عَنَّهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ: «لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرٌ﴾»^(٤). وَقَدْ ذَكَرْنَا قِصَّةَ هَلَاكِ قَوْمِ عَادٍ فِي سُورَتِي: الْأَعْرَافِ وَهُوَ بِمَا أَعْنَىٰ عَنِ إِعَادَتِهِ هُنَا، وَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ بِمِثْلَ مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٥) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٦) ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٧) ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ: وَلَقَدْ مَكَّنَّا الْأُمَّمَ السَّالِفَةَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ مِنْهَا مَا لَمْ نُعْطِكُمْ مِثْلَهُ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٨) أَي: وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَالتَّكَاثُلُ الَّذِي كَانُوا يَكْذِبُونَ بِهِ وَيَسْتَبْعِدُونَ وَقُوْعُهُ، أَي: فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ،

﴿وَأَذْصَرْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِبْنِ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَبُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾^(٩) ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مَوْسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١٠) ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ إِلِيمًا﴾^(١١) ﴿وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١٢) ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِقْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٣) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(١٤) ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعُرْوَةِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١٥)

سُورَةُ الْحَجِّ مِثْلًا

فَيُصِيبُكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ بِعَنِي: أَهْلَ مَكَّةَ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْأُمَّمَ الْمَكْدَبَةَ بِالرُّسُلِ مِمَّا حَوْلَهَا كَعَادٍ، وَكَانُوا بِالْأَحْقَافِ بِحَضْرَمَوْتَ عِنْدَ الْيَمَنِ. وَتَمُودَ وَكَانَتْ مَنَارِلُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّامِ. وَكَذَلِكَ سَيَأْتِيهِمْ أَهْلُ الْيَمَنِ. وَمَدْيَنَ وَكَانَتْ فِي طَرِيقِهِمْ وَمَمَرِهِمْ إِلَىٰ غَزَّةَ. وَكَذَلِكَ بُحَيْرَةُ قَوْمِ لُوطٍ كَانُوا يَمْشُونَ بِهَا أَيْضًا، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أَي: بَيَّنَّاها وَأَوْضَحْنَاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١٦) ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أَي: فَهَلْ نَصَرُوهُمْ عِنْدَ احْتِجَاجِهِمْ إِلَيْهِمْ. ﴿بَلْ صَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أَي: بَلْ ذَهَبُوا عَنْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ ﴿وَذَلِكُمْ إِفْكَهُمُ﴾ أَي: كَذِبُهُمْ ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أَي: وَافْتَرَأُوهُمْ فِي اتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُمْ آلِهَةً، وَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا

(١) أحمد: ٦٦/٦ (٢) فتح الباري: ٤٤١/٨ ومسلم: ٦/٦٦٦ (٣) أحمد: ١٩٠/٦ (٤) مسلم: ٦٦٦/٢

فِي عِبَادَتِهِمْ لَهَا وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٧﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِّمَنَّ مِنْ عَذَابِ الْبَلَاءِ ﴿٣٨﴾ وَمَنْ لَا يُجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَٰئِكَ فِي سَلَاطِنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٩﴾﴾

[قِصَّةُ اسْتِمَاعِ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الزُّبَيْرِ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قَالَ: بَنَخْلَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الْجِشَاءَ الْآخِرَةَ ﴿كَأَدْوَا بِكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا﴾ [الجن: ١٩] قَالَ سَفِيَانُ: أَلْبَدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَاللَّبِيدِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْإِمَامُ الشَّيْخُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِهِ «دَلَالِيلُ النَّبُوَّةِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَلَا رَأَاهُمْ، انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِّنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا، وَأَنْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَانظَلَّتُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا، يَنْتَعُونَ مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَانصرفت أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخله عامدا إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك جين رجعوا إلى قومهم قالوا: يا قومنا إننا سمعنا قرءانا عجبا يهدي إلى الرشيد فامتا به ولكن نشارك برئنا أحدا وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١، ٢] وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ^(٢). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِنَحْوِهِ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ^(٣).

عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ يَطْنُ نَخْلَةَ فَلَمَّا سَمِعُوهُ ﴿قَالُوا أَنصِتُوا﴾ قَالَ: صَدٌّ، وَكَانُوا تِسْعَةً أَحَدُهُمْ زَوْبَعَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ إِلَى ﴿سَلَاطِنٍ مُّبِينٍ﴾^(٤). فَهَذَا مَعَ الْأَوَّلِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقْتَضِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَشْعُرْ بِحُضُورِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، وَإِنَّمَا اسْتَمَعُوا قِرَاءَتَهُ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدُوا إِلَيْهِ أَرْسَالًا قَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ وَفَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْأ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ أَي: رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَنْذَرُوهُمْ مَا سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِيَسْفَقَهُمَا فِي الدِّينِ وَيَلْبِسُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] وَقَدْ اشْتَدَّ بِهِدِيهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ فِي الْجِنِّ نَذْرٌ، وَلَيْسَ فِيهِمْ رُسُلٌ، وَلَا شَكٌّ أَنَّ الْجِنَّ لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ مِنْهُمْ رَسُولًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ﴾ [يوسف: ١٠٢]. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وَقَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الشُّبُورَةَ وَالْكَتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَسَلَّالِهِ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْأَنْعَامِ: ﴿يَمْعَسِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فَالْمُرَادُ هُنَا مَجْمُوعُ الْجِنِّسَيْنِ فَيَصْدُقُ عَلَى أَحَدِهِمَا. وَهُوَ الْإِنْسُ كَقَوْلِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الذُّلُومُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أَي أَحَدِهِمَا .

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى فَسَّرَ إِندَارَ الْجِنِّ لِقَوْمِهِمْ فَقَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وَلَمْ يَذْكُرُوا عَيْسَى؛ لِأَنَّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُنزِلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلُ، فِيهِ مَوَاعِظٌ وَتَرْفِيفَاتٌ وَقَلِيلٌ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْمُتَمِّمِ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَةِ،

(١) أحمد: ١٦٧/١ إسناده ضعيف عكرمة لم يسمع من ابن الزبير
(٢) أحمد: ٢٥٢/١ ودلائل النبوة: ٢٢٥/٢ (٣) البخاري: ٧٧٣، ٤٩٢١ ومسلم: ٣٣١/١ وتحفة الأحمدي: ١٦٨/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٩٩/٦ (٤) الحاكم: ٥٥٦/٢

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: هَبَطُوا

فَالْعَمْدَةُ هُوَ التَّوْرَةُ، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وَهَكَذَا قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نُوفَلٍ حِينَ أُخْبِرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقِصَّةِ نَزُولِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ: بَخِ بَخِ! هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَىٰ يَا لَيْتَنِي أَكُونُ فِيهِ جَدْعًا^(١). ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّتَ يَدَيْهِ﴾ أَي: مِنَ الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أَي: فِي الْأَعْيَادِ وَالْإِعْتِقَادِ وَالْأَخْبَارِ ﴿وَالِكِ طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ فِي الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَتَّى خَيْرٍ وَطَلَبٍ، فَخَبْرُهُ صِدْقٌ وَطَلَبُهُ عَدْلٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الصف: ٩] فَالْهُدَىٰ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَدِينِ الْحَقِّ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهَكَذَا قَالَتِ الْجِنَّ: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فِي الْأَعْيَادِ ﴿وَالِكِ طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَي: فِي الْعَمَلِيَّاتِ ﴿تَقْوَمَاتٍ آجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿آجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَعَاقِبُوا بِهِ﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قِيلَ: إِنَّ (مِنْ) هُنَا زَائِدَةٌ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ زِيَادَتَهَا فِي الْإِثْبَاتِ قَلِيلٌ، وَقِيلَ: إِنَّهَا عَلَى بَابِهَا لِلتَّبَعِيضِ ﴿وَمُجْرِمَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْبَرِّ﴾ أَي وَيَقِيحُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿وَمَنْ لَا يُعِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: بَلْ قُدْرَةُ اللَّهِ شَامِلَةٌ لَهُ وَمُحِيطَةٌ بِهِ ﴿وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ آيَاتٌ﴾ أَي: لَا يُجِيرُهُمْ مِنْهُ أَحَدٌ ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وَهَذَا مَقَامٌ تَهْدِيدٍ وَتَرْهيبٍ، فَدَعَا قَوْمَهُمْ بِالْتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ، وَلِهَذَا نَجَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفُودًا وَفُودًا. وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَوْلَىٰ رِوَا أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عِلْمٍ أَن يَخْتِي أَلْمُونَ بَلَّحَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ؟ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَّحَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُهَدِّدًا وَمُتَّعِدًا لِمَنْ كَفَرَ بِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ؟ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَّحَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُهَدِّدًا وَمُتَّعِدًا لِمَنْ كَفَرَ بِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ؟ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَّحَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُهَدِّدًا وَمُتَّعِدًا لِمَنْ كَفَرَ بِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ؟ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَّحَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ]

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أَي: عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ لَهُمْ. وَأُولُو الْعَرْشِ هُمْ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، قَدْ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَسْمَائِهِمْ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ فِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَتَيْ الْأَحْزَابِ وَالتَّحْوِيلِ. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أَي: لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ حُلُولَ الْعُقُوبَةِ بِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَدَرْجِي وَالْمُكذِّبِينَ أُولِي النَّعْتَةِ وَمَهْلِكُمْ قِيلًا﴾ [المزمل: ١١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ رُؤْيَا﴾ [الطارق: ١٧] ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦] وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ... [الآية: يونس: ٤٥]. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلَّحَ﴾ أَي: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ بَلَّحٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أَي: لَا يُهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَجْرٌ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

﴿أَوْلَىٰ رِوَا أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عِلْمٍ أَن يَخْتِي أَلْمُونَ بَلَّحَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ؟ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَّحَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُهَدِّدًا وَمُتَّعِدًا لِمَنْ كَفَرَ بِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ؟ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَّحَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[دَلِيلُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَوْلَمْ يَرَ هَؤُلَاءِ الْمُتَجَرِّبُونَ لِلنَّبْعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُسْتَبْعِدُونَ لِقِيَامِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي

(١) فتح الباري: ٣٠/١ بدون قوله: «بخ بخ»

تفسير سورة القتال وهي مدنيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى
إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِمَامًا بَعْدَ وَإِمَامًا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ
أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

[جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ]

أَوْ رَاهَا ذَلِكَ وَلَوْ بَشَاءَ اللَّهِ لَانْتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ
بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ
وَيُضِلُّ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا اللَّهُ ﴿٦﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَإِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَسَاءَلُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأَحْطَبُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: بآيات الله
﴿وَصَدُّوا﴾ غَيْرُهُمْ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أَي: أظْلَمَهَا
وَأَذْهَبَهَا، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا ثَوَابًا وَلَا جَزَاءً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾
[الفرقان: ٢٣] ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: آمَنْتُمْ قُلُوبُهُمْ وَسَرَائِرُهُمْ، وَأَنْقَادَتْ لِشَرَعِ
اللَّهِ جَوَارِحُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى
مُحَمَّدٍ﴾ عَطَفَ خَاصًّا عَلَى عَامٍّ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ شَرَطٌ فِي
صِحَّةِ الْإِيمَانِ بَعْدَ بَعْثِهِ ﷺ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جُمْلَةٌ مُعَرَّضَةٌ حَسَنَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ
جَلَالُهُ: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَي أَمْرُهُمْ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ:
شَأْنُهُمْ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: حَالَهُمْ^(٣). وَالْكُلُّ
مُقْتَارِبٌ. وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ تَسْمِيَتِ الْعَاطِسِ: «يَهْدِيكُمْ
اللَّهُ وَيُضِلُّ بِالْكُلِّ»^(٤). ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أَي: إِنَّمَا أَضَلَّنَا أَعْمَالُ الْكُفَّارِ.
وَتَجَاوَزْنَا عَنْ سَيِّئَاتِ الْأَبْرَارِ، وَأَصْلَحْنَا شُؤْنَهُمْ؛ لِأَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ، أَي: اخْتَارُوا الْبَاطِلَ عَلَى
الْحَقِّ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ
أَمْثَلَهُمْ﴾ أَي: يَبَيِّنُ لَهُمْ مَالَ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي
مَعَادِهِمْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ
فِإِمَامًا بَعْدَ وَإِمَامًا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَاهَا ذَلِكَ وَلَوْ بَشَاءَ اللَّهِ
لَانْتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُضِلُّ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا
لَهُمْ ﴿٦﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْطَبُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾
[الْأَمْرُ بِضَرْبِ رِقَابِ الْعَدُوِّ وَشُدِّ وَتَأَقُّبِهِ ثُمَّ الْمَنْ
أَوْ الْفِدَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يَعْتَمِدُونَهُ فِي
حُرُوبِهِمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ﴾
أَي: إِذَا وَاجَهْتُمُوهُمْ فَاحْضُدُوهُمْ حَضْدًا بِالسُّيُوفِ ﴿حَتَّى
إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أَي: أَهْلَكْتُمُوهُمْ قَتْلًا ﴿فَشُدُّوا الْوَتَانَ﴾
الْأَسَارَى الَّذِينَ تَأْمُرُونَهُمْ، ثُمَّ أَنْتُمْ - بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ
وَانْفِصَالِ الْمَعْرَكَةِ - مُخَيَّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ، إِنْ شِئْتُمْ مَنِّتُمْ
عَلَيْهِمْ فَأَطَقْتُمْ أَسَارَهُمْ مَجَانًا، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ بِمَالٍ
تَأْخُذُونَهُ مِنْهُمْ وَتُشَارِطُونَهُمْ عَلَيْهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ
نَزَلَتْ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَاتَبَ

(١) الطبري: ١٥٢/٢٢ (٢) الطبري: ١٥٢/٢٢ (٣) الطبري:

١٥٢/٢٢ (٤) تحفة الأحوذى: ١١/٨

اللَّهُ ﷺ: «يُعْطَى الشَّهِيدُ سِتَّ خِصَالٍ: عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ تَكْفُرُ عَنْهُ كُلُّ حَاطِيَةٍ. وَيَرَى مَفْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ. وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ. وَيَأْمُنُ مِنَ الْفَرَجِ الْأَكْبَرِ. وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. وَتُحَلَّى حِلَّةَ الْإِيمَانِ». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٥).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُسْفَعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٦). وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضْلِ الشَّهِيدِ كَثِيرَةٌ جَدًّا.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «سَيِّدِيهِمْ» أَي: إِلَى الْجَنَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَحَلَمُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي حَنَّتِ النَّعِيمِ» [يونس: ٩]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ «وَيُضِيحُ بِاللَّيْلِ» أَي: أَمْرُهُمْ وَحَالُهُمْ «وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَافًا لَهُمْ» أَي: عَرَفَهُمْ بِهَا وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَهْتَدِي أَهْلُهَا إِلَى بَيْوتِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ، وَحَيْثُ قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهَا، لَا يُخْطِئُونَ، كَأَنَّهُمْ سَاكِنُوهَا مُنْذُ خُلِقُوا، لَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهَا أَحَدًا^(٧). رَوَى الْبُخَارِيُّ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسْبُوا بِقَطْرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَتَفَاصُونَ مَطَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ أَحَدُهُمْ يَمْنُرِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَهْدَى مِنْهُ يَمْنُرِلِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(٨).

[أُنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُنَيِّتْ أَقْدَامَكُمْ» كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَيُنَيِّتْ أَقْدَامَكُمْ» كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ بَلَغَ ذَا سُلْطَانٍ حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاعَهَا، ثَبَّتَ اللَّهُ تَعَالَى قَدَمَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٩).

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَا لَهُمْ» عَكْسَ تَثْبِيثِ الْأَقْدَامِ لِلْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ،

(١) الطبري: ١٥٧/٢٢ (٢) أبو داود: ١١/٣ (٣) أحمد: ٤/١٠٤ (٤) النسائي: ٢١٤/٦ والنسائي في الكبرى: ٢١٨/٥ (٥) أحمد: ٤/٢٠٠ (٦) أبو داود: ٢٥٢٢ (٧) الطبري: ٢٢/١٦٠ (٨) البخاري: ٦٥٣٥ (٩) ضعيف ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٥٩٤) وقد ذكر الشيخ الألباني حديثاً آخر في الصحيحة (٩٠٤) وفيه: "ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تنهيا له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام" وهذا يغني عنه.

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِسْتِكْنَارِ مِنَ الْأَسَارَى يَوْمَئِذٍ - لِيَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْفِدَاءَ - وَالتَّقْلِيلِ مِنَ الْقَتْلِ يَوْمَئِذٍ فَقَالَ: «مَا كَانَتْ لِيَنْبِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخَعُ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «حَتَّى تَصَعَ لِمَرْبِئِ أَوْزَارَهَا» قَالَ مُجَاهِدٌ: حَتَّى يَنْزِلَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١١). وَكَأَنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَالُ»^(١٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ قَالَ: إِنْ سَلِمَ بَنُ نَفِيلٍ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ أَمَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي [سَبَّيْتُ] الْخَيْلَ، وَالْقَيْثُ السَّلَاحَ، وَوَضَعْتَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا، وَقُلْتُ: لَا قِتَالَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، لَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، يَبْرِغُ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبَ أَقْوَامٍ، فَيَمَاتِلُونَهُمْ وَيَزُورُهُمْ وَاللَّهُ مِنْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، أَلَا إِنْ عَفَرَ دَارَ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ، وَالْخَيْلُ مَعْفُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(١٤).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ» أَي: هَذَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِعُقُوبَةٍ وَنَكَالٍ مِنْ عِنْدِهِ «وَلَكِنْ لَبَلَّوْا بِعَصَمِكُمْ بِعَيْنٍ» أَي: وَلَكِنْ سَرَعَ لَكُمْ الْجِهَادُ وَقِتَالُ الْأَعْدَاءِ لِيُخَيَّرَكُمْ، وَيَبْلُغُوا خَبَارَكُمْ، كَمَا ذَكَرَ حِكْمَتَهُ فِي سُرْعَةِ الْجِهَادِ فِي سُورَتِي آلِ عِمْرَانَ وَبَرَاءَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الْقَادِرِينَ» [آل عمران: ١٤٢]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ: «قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخَيِّرُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُدْهِبُ عُيُظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» [التوبة: ١٤، ١٥].

[فَضْلُ الشَّهَادَةِ]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْقِتَالِ أَنْ يُقْتَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ» أَي: لَنْ يُذْهِبَهَا، بَلْ يُكَبِّرُهَا وَيُثَمِّبُهَا وَيُضَاعِفُهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ طَوَّلَ بَرَزَجِهِ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ كَثِيرِ بْنِ مَرَّةٍ، عَنْ قَيْسِ الْجُدَامِيِّ - رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٨

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمْعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمُعَقَّرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ قَالَ إِنَّمَا أُوْتِيتُكَ الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ آهَتُوا وَزَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُثَوِّبِكُمْ ﴿١٩﴾

وَقَدْ تَبَّتْ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَعَسَّ عِنْدَ الدُّبَّارِ، تَعَسَّ عِنْدَ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عِنْدَ الْقَطِيفَةِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَكَسَ»^(١). أَيْ: فَلَا شَفَاةَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ» أَيْ: أَحْبَطَهَا وَأَبْطَلَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» أَيْ: لَا يُرِيدُونَهُ وَلَا يُجِبُونَهُ «فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ».

«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرُوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلكَفَرِينَ آمَنَّا لَهُمْ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمْعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٥﴾

[النَّارُ لِلْكَافِرِ وَالْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا» يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ «فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرُوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ» أَيْ: عَاقَبَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، أَيْ: وَنَحَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَلِلْكَافِرِينَ آمَنَّا لَهُمْ». ثُمَّ قَالَ: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ» وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ صَحْرُ بْنُ حَرْبٍ رَئِيسُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، حِينَ سَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَلَمْ يُجِبْ، وَقَالَ: «أَمَّا هُوَ لَا يَفْقَهُ هَلْ كَوَا. وَأَجَابَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: كَذَّبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ! بَلْ أَبَقِيَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ مَا يَسُوءُكَ، وَإِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لِأَحْيَاءٍ. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ يَوْمٍ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سَجَالٌ، أَمَا إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ مِثْلَهُ لَمْ أَمُرْ بِهَا، وَلَمْ أَنَّهُ عَنْهَا، ثُمَّ ذَهَبَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ: «أَعْلُ هُبَلٌ أَعْلُ هُبَلٌ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا نَقُولُ؟ قَالَ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ». ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُرَى وَلَا عُرَى لَكُمْ، فَقَالَ ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟» قَالُوا: وَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قُولُوا: «اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»^(٢).

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمْعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ» أَيْ: فِي دُنْيَاهُمْ يَسْتَمْعُونَ بِهَا وَيَأْكُلُونَ مِنْهَا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ حَضْمًا وَقَضْمًا، وَلَيْسَ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا تَبَّتْ فِي

الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»^(٣). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ» أَيْ: يَوْمَ جَزَائِهِمْ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ» وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ فِي تَكْذِيبِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ سَيِّدُ الرُّسُلِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَهْلَكَ الْأُمَّمَ الَّتِي كَذَّبُوا الرُّسُلَ قَبْلَهُ بِسَبَبِهِمْ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ هُوَ لَا، فَمَاذَا ظَنُّ هُوَ لَا أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ فَإِنَّ رَفَعَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا لِيَرْكَبَهُ وَجُودَ الرُّسُلِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يُوقَفُ عَلَى الْكَافِرِينَ بِهِ فِي مَعَادِهِمْ «يَضْمَعُفْ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَظِيمُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ» [هود: ٢٠].

(١) فتح الباري: ٩٥/٦ وابن ماجه: ١٣٨٦/٢ (٢) فتح الباري: ١٨٨/٦ (٣) فتح الباري: ٤٤٦/٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِن قَرْنِكَ أَلْتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ أَي: الَّذِينَ أَخْرَجُوكَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْعَارِ وَأَتَاهُ فَالْتَمَتَ إِلَى مَكَّةَ وَقَالَ: «أَنْتِ أَحَبُّ بِلَادٍ إِلَى اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْتِ أَحَبُّ بِلَادٍ إِلَى اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْ لَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَخْرَجُونِي لَمْ أَخْرُجْ مِنْكَ»^(١). [فَأَعْتَى] الْأَعْدَاءِ مَنْ [عَنَا]^(٢) عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي حَرَمِهِ، أَوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، أَوْ قَتَلَ بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَكَايِنَ مِنْ قَرْنِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ أَلْتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾^(٣).

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيمَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ. وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ عَائِسٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِمَّن رَزِقَهُمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ (١٥)

[لَا يَسْتَوِي عَابِدُ الْحَقِّ وَعَابِدُ الْهُوَى]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيمَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أَي: عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَدِينِهِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، وَبِمَا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ. وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَي: لَيْسَ هَذَا كَهَذَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هُوَ آخِزًا﴾ [الرعد: ١٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

[نَعَتْ الْجَنَّةَ بِأَنْهَارِهَا]

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أَي: نَعْتَهَا ﴿فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ عَائِسٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: يَعْنِي غَيْرَ مُتَغَيَّرٍ^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: غَيْرَ مُتَبَيِّنٍ^(٤). وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَسِنَ الْمَاءُ إِذَا تَغَيَّرَ رِيحُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ أَي: بَلْ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ وَالْحَلَاوَةِ وَالذُّسُومَةِ، وَفِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ: «لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضُرُوعِ الْمَاشِيَةِ»^(٥). وَأَنْهَرُ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ أَي: لَيْسَتْ كَرِيهَةَ الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ كَحَمْرِ الدُّنْيَا، بَلْ حَسَنَةُ الْمُنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ وَالْفِعْلِ ﴿لَا فِيهَا عَوَلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُذْفَرُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا

يُذْفَرُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦] وَفِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ: «لَمْ يَعْصِرْهَا الرَّجَالُ بِأَفْدَائِهِمْ» ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أَي وَهُوَ فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ وَحُسْنِ اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالرَّيْحِ. وَفِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ: «لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ»^(٦).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «فِي الْجَنَّةِ بَحْرُ اللَّبَنِ وَبَحْرُ الْمَاءِ وَبَحْرُ الْعَسَلِ وَبَحْرُ الْخَمْرِ، ثُمَّ تَشَقُّقُ الْأَنْهَارُ مِنْهَا بَعْدُ»^(٧). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٨). وَفِي الصَّحِيحِ: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ تَعَالَى فَاسْأَلُوهُ لِقُرْدُوسٍ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَمَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^(٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ غَايِبَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانٌ﴾ [الرحمن: ٥٢] وَقَوْلُهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِمَّن رَزِقَهُمْ﴾ أَي: مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَقَوْلُهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أَي: أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا مَنْزِلَتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ؟ لَيْسَ هَؤُلَاءِ كَهَؤُلَاءِ، وَلَيْسَ مَنْ هُوَ فِي الدَّرَجَاتِ كَمَنْ هُوَ فِي الدَّرَكَاتِ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أَي: حَارًّا شَدِيدَ الْحَرِّ لَا يُسْتَطَاعُ ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ أَي: قَطَّعَ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الْأَمْعَاءِ وَالْأَحْشَاءِ - عِيَادًا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٦) وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا رَادَهُمْ هُدًى وَءَانَلَهُمْ قُلُوبُهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ (١٨) فَأَعْلَزَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)

(١) وفي إسناده حش لا يدري من هو؟ ولعله يكون حش بن المعتمر وهو مختلف فيه. (**) في النسخة فأعدى الأعداء من عدا على الله. و المثبت من الطبري. (٢) الطبري: ١٦٥/٢٢ (٣) الطبري: ١٦٦/٢٢ (٤) الطبري: ١٦٧/٢٢ (٥) ضعيف جدًا كما قال الشيخ الألباني [ضعيف الترغيب والترهيب (٣١٨١)] (٦) روى هذا ومعنى ما قبله ابن المنذر عن سعيد بن جبير موقوفًا عليه، الدر المنثور: ٢٥/٦ (٧) أحمد: ٥/٥ (٨) تحفة الأحوذى: ٢٨٧/٧ (٩) فتح الباري: ١٤/٦

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

٥٠٩

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢١﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢٢﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٤﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿٢٥﴾ إِنْ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَيَّ ادَّبْتُهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِيعَكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٩﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ ﴿٣٠﴾

أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي» (٢١). وفي الصحيح أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» (٢٢). وفي الصحيح أَنَّهُ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» (٢٣).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُقَبَّلَكُمْ وَمُؤْتَكِرَكُمْ» أَي: يَعْلَمُ تَصَرُّفَكُمْ فِي نَهَارِكُمْ وَمُسْتَقَرَّكُمْ فِي لَيْلِكُمْ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ» [الأنعام: ٦٠] وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ

[بَيَانُ حَالِ الْمُتَأَفِّفِينَ وَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُتَأَفِّفِينَ فِي بِلَادِهِمْ وَقَلَّةِ فَهَيْبِهِمْ، حَيْثُ كَانُوا يَجْلِسُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَسْتَمِعُونَ كَلَامَهُ فَلَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿مَاذَا قَالَ آدَمًا﴾ أَي: السَّاعَةَ. لَا يَعْقِلُونَ مَا قَالَ وَلَا يَكْتَرِبُونَ لَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَنْعَمُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَي: فَلَا فَهْمَ صَحِيحَ وَلَا قَصْدَ صَحِيحَ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أَي: وَالَّذِينَ قَصَدُوا الْهُدَايَةَ وَقَفَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا، فَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا وَتَبَّتْهُمْ عَلَيْهَا وَزَادَهُمْ مِنْهَا ﴿وَمَا نَدَّاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أَي: أَلْهَمَهُمْ رُشْدَهُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أَي: وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْهَا ﴿فَقَدْ جَاءَ أَسْرَاطُهَا﴾ أَي: أَمَارَاتُ اقْتِرَابِهَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولِ﴾ [الأنبياء: ٥٦، ٥٧]، وَكَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْدَقَ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فَبِعِثَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَسْرَاطِ السَّاعَةِ؛ لِأَنَّهُ خَاتَمَ الرُّسُلِ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الدِّينَ، وَأَقَامَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَى الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ بِأَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَسْرَاطِهَا، وَأَبَانَ عَنْ ذَلِكَ وَأَوْضَحَهُ بِمَا لَمْ يُوْتَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ بِأَصْعَبِي هَكَذَا بِالْوُسْطَى وَالتِّي تَلِيهَا: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» (١). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أَي: فَكَيْفَ لِلْكَافِرِينَ بِالتَّذَكُّرِ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْقِيَامَةُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [البلد: ٢٣].

﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُوسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [سبأ: ٥٢]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَتَأْتَى كَوْنُهُ أَمْرًا يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي

(١) فتح الباري: ٥٦٠/٨ (٢) فتح الباري: ٢٠٠/١١ (٣) فتح الباري: ٤٧٣/١٣ (٤) فتح الباري: ١٠٤/١١

فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ [هود: ٦٠].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۗ﴾^(١)
 فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۗ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۗ ﴿٢١﴾

[حَالِ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ وَمَرِيضِ الْقَلْبِ عِنْدَ نُزُولِ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا شَرْعِيَّةَ الْجِهَادِ، فَلَمَّا فَرَضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَرَ بِهِ نَجَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآمِنُوا بِالزُّكُوفِ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أَي: مُشْتَمَلَةٌ عَلَىٰ حُكْمِ الْقِتَالِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أَي: مِنْ فِرْعِهِمْ وَرَغْبِهِمْ وَجُبْنِهِمْ مِنْ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ، ثُمَّ قَالَ مُشْجَعًا لَهُمْ: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أَي: وَكَانَ الْأَوْلَىٰ بِهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا وَيَطِيعُوا أَي فِي الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أَي: جَدَّ الْحَالُ، وَحَضَرَ الْقِتَالُ ﴿فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ﴾ أَي أَخْلَصُوا لَهُ النَّيَّةَ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَي: عَنِ الْجِهَادِ وَنَكَلْتُمْ عَنْهُ ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أَي تَعُودُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ، تَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ وَتَقَطَّعُونَ الْأَرْحَامَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾

[محمد: ٢٣] وَهَذَا نَهَىٰ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ عُمُومًا، وَعَنْ قَطْعِ الْأَرْحَامِ خُصُوصًا، بَلْ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْأَقَارِبِ فِي الْمَقَالِ وَالْأَفْعَالِ وَبَدَلِ الْأَمْوَالِ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ وَالْحِسَانُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ

طُرُقٍ عَدِيدَةٍ وَوُجُوهُ كَثِيرَةٍ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَعَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: مَهْ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»^(١). ثُمَّ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِلَفْظٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»^(٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أُخْرَى أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِقَابَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ: مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(٤). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ^(٥). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ النِّسَاءُ فِي الْأَجَلِ وَالزِّيَادَةُ فِي الرِّزْقِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». فَتَرَدَّدَ بِهِ أَحْمَدُ وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ^(٦).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّحِمَ مَعْلَقَةٌ بِالْعَرْشِ، وَلَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِيءِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»^(٧). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٨). وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَوَضَّعَ الرَّحِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا [حُجَّتُهُ كَحُجَّتِ] الْمِغْزَلِ تَكَلَّمُ بِلِسَانِ طَلِقٍ ذُلِقٍ، فَتَقْطَعُ مَنْ قَطَعَهَا وَتَصِلُ مَنْ وَصَلَهَا»^(٩). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، أَرْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّحِمُ شُجَّتُهُ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ

(١) فتح الباري: ٤٤٣/٨ (٢) فتح الباري: ٤٤٣/٨ (٣) مسلم: ١٩٨٠/٤ (٤) أحمد: ٣٨/٥ (٥) أبو داود: ٢٠٨/٥ و تحفة الأحوذى: ٢١٣/٧ وابن ماجه: ١٤٠٨/٢ (٦) أحمد: ٢٧٩/٥ (٧) أحمد: ١٦٣/٢ (٨) فتح الباري: ٤٣٧/١٠ (٩) أحمد: ١٨٩/٢

وَصَلَّهَا وَصَلَّتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّةً^(١). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُرْوَى بِسَلْسُلِ الْأَوَّلِيَّةِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢). وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ^(٣)﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ^(٤) ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيئَتِكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ^(٥) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ^(٦) ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ اتَّبَعُوا مَا اسْحَطَّ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ^(٧)

[الأمم يتدبر القرآن]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا يَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ وَتَفْهَمُهُ وَنَاهِيًا عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ﴾ أَيُّ: بَلْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَا، فِيهِ مُطَبَّعَةٌ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ مَعَانِيهِ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ﴾ فَقَالَ شَابٌّ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ: بَلْ عَلَيْهَا أَفْقَالُهَا حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ يَفْتَحُهَا أَوْ يَفْرَجُهَا، فَمَا زَالَ الشَّابُّ فِي نَفْسِ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى وُلِّيَ، فَاسْتَعَانَ بِهِ^(٨).

[ذم الأرتداد]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أَيُّ: فَارْقُوا الْإِيمَانَ وَرَجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أَيُّ: زَيَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ وَحَسَّنَهُ ﴿وَأَمَلَّ لَهُمْ﴾ أَيُّ: عَرَّهْمُ وَخَدَعَهُمْ ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيئَتِكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾ أَيُّ مَا لَوْوَهُمْ وَنَاصَحُوهُمْ فِي الْبَاطِنِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ. وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أَيُّ: مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُخْفُونَ، اللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْسِتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ أَيُّ: كَيْفَ حَالُهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ، وَتَعَاصَبِ الْأَرْوَاحِ فِي أَجْسَادِهِمْ

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ^(١) وَلَسَبَلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ^(٢) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَلُهُمْ^(٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ^(٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا تَوَّأهُمْ كَفَارًا لَنْ يَعْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ^(٥) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَلَكُمْ^(٦) إِنَّمَا لِحْيَتُهُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَأْذِنُكُمْ أَمْوَالَكُمْ^(٧) إِنْ سَأَلْتُمْهُمْ فاحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ حَتَّى تُدْعَوْا تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ^(٨)

وَاسْتَخْرَجَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِالْعُنْفِ وَالْقَهْرِ وَالضَّرْبِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أَيُّ: بِالضَّرْبِ ﴿أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ اتَّبَعُوا مَا اسْحَطَّ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَفَهُمْ﴾^(٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ

(١) أحمد: ١٦٠/٢ (٢) أبو داود: ٢٣١/٥ وتحفة الأحوذى: ٥١/٦ (٣) الطبري: ١٨٠/٢٢ إسناده ضعيف عروة عن عمر والنبي ﷺ مرسل وله شاهد ضعيف عند اللالكائي في أصول الاعتقاد (٧٧٢) عن سهل بن سعد وفيه مقدار بن داود الرعيني ضعيف الحديث.

فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلِتَبْلُوكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ
الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُؤُوا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾
[كَشَفُ سِرِّ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ أَي: أَيْتَقَدُّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَكْشِفُ أَمْرَهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ سَيُوضِّحُ أَمْرَهُمْ وَيُجَلِّبُهُ حَتَّى يَهْتَمَّهُمْ ذُووُ الْبَصَائِرِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ سُورَةَ بَرَاءةٍ فَيَبِّينُ فِيهَا فُضَائِحَهُمْ، وَمَا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى نِفَاقِهِمْ، وَلِهَذَا كَانَتْ تُسَمَّى الْفَاضِحَةَ. وَالْأَضْعَانُ: جَمْعُ ضِعْنٍ وَهُوَ مَا فِي الثُّمُوسِ مِنَ الْحَسِدِ وَالْحَقْدِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَالْقَائِمِينَ بِنَصْرِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَكُمُ فَعْرَفَتُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: وَلَوْ نَشَاءُ يَا مُحَمَّدُ لَأَرَيْنَاكَ أَشْخَاصَهُمْ فَعَرَفْتُهُمْ عِيَانًا، وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ تَعَالَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ سِتْرًا مِنْهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَحَمَلًا لِلْأُمُورِ عَلَى ظَاهِرِ السَّلَامَةِ وَرَدًّا لِلْسَّرَائِرِ إِلَى عَالِمِهَا ﴿وَلِتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أَي: فِيمَا يَبْدُو مِنْ كَلَامِهِمُ الدَّلَالِ عَلَى مَقَاصِدِهِمْ، يَهْتَمُّ الْمُتَكَلِّمُ مِنْ أَيِّ الْجِزْبَيْنِ هُوَ، بِمَعَانِي كَلَامِهِ وَفَحْوَاهُ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ لَحْنِ الْقَوْلِ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ عَلَى صَفْحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِتَبْلُوكُمْ﴾ أَي: لِنُخْبِرَنَّكُمْ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُؤُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ وَلَيْسَ فِي تَقْدِيمِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى - بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَنَّهُ سَيَكُونُ - شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ، فَالْمُرَادُ حَتَّى نَعْلَمَ وَفُوعَهُ، وَلِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي مِثْلِ هَذَا: إِلَّا لِنَعْلَمَ أَي: لِنَرَى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَصُرُوا اللَّهُ سَنِيًّا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾ بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرِيَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٥﴾

[إِحْبَاطُ عَمَلِ الْكُفَّارِ وَالْأَمْرُ بِمِلْحَاقَتِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَخَالَفَ الرَّسُولَ وَشَاقَهُ، وَأَزْتَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ

الْهُدَى أَنَّهُ لَنْ يَصُرَّ اللَّهُ سَنِيًّا، وَإِنَّمَا يَصُرُ نَفْسَهُ وَيَحْسَرُهَا يَوْمَ مَعَادِهَا، وَسَيُحْبِطُ اللَّهُ عَمَلَهُ فَلَا يُبْقِيهِ عَلَى سَالِفِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ - الَّذِي عَقَبَهُ بِرَدِّهِ - مِثْقَالَ بَعُوضَةٍ مِنْ خَيْرٍ، بَلْ يُحْبِطُهُ وَيَمْحَقُهُ بِالْكَلْبَةِ كَمَا أَنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ [مُحَمَّدُ] بْنُ نَصْرِ الْمَرْوَزِيُّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرُونَ أَنَّهُ لَا يَصُرُّ مَعَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ذَنْبٌ كَمَا لَا يَنْقَعُ مَعَ الشَّرِكِ عَمَلٌ فَتَزَلَّتْ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فَخَافُوا أَنْ يُبْطِلَ الذَّنْبُ الْعَمَلَ ^(١). ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَشَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَرَى أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْحَسَنَاتِ إِلَّا مَقْبُولٌ حَتَّى تَزَلَّتْ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فَقُلْنَا: مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؟ فَقُلْنَا: الْكِبَائِرُ الْمُوجِبَاتُ وَالْفَوَاحِشُ حَتَّى تَزَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] فَلَمَّا تَزَلَّتْ كَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ، فَكُنَّا نَخَافُ عَلَى مَنْ أَصَابَ الْكِبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ، وَتَرَجُّو لِمَنْ لَمْ يُصِبْهَا ^(٢).

ثُمَّ أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الَّتِي هِيَ سَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِزْتِدَادِ الَّذِي هُوَ مُبْطِلٌ لِلْأَعْمَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أَي: بِالرَّدَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾... الآية [النساء: ١١٦]. ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ أَي: لَا تَضْعَفُوا عَنِ الْأَعْدَاءِ ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ﴾ أَي: الْمَهَادَنَةِ، وَالْمُسَالَمَةِ، وَوَضَعَ الْقِتَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ، فِي حَالِ قُوَّتِكُمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ وَعَدُوَّتِكُمْ - وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أَي: فِي حَالِ غُلُوبِكُمْ عَلَى عَدُوَّتِكُمْ - فَمَا إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ فِيهِمْ قُوَّةً وَكَثْرَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَأَى الْإِمَامُ فِي الْمَهَادَنَةِ، وَالْمُعَاهَدَةِ مَضْلِحَةً فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَدَّهُ كُفَّارٌ قُرَيْشِيٌّ عَنْ مَكَّةَ وَدَعَا إِلَى الصُّلْحِ. وَوَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَشْرَ سِنِينَ؟ فَجَابَهُمْ ﷺ إِلَى ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فِيهِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ
بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ﴿وَلَنْ يَرْكُزَ أَعْمَلَكُمْ﴾ أَي:
وَلَنْ يُحِطَّهَا وَيُبْطِلَهَا وَيَسْلُبَكُمْ إِيَّاهَا، بَلْ يُوفِّقُكُمْ ثَوَابَهَا،
وَلَا يَنْقُصُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّمَا الْمَعْيُورَةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ
وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (٣٦) إِنْ سَأَلْتُمْ هُنَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخُلُوا وَيُخْرِجُ
أَصْعَدَكُمْ (٣٧) هُنَا تَدْعُونَ لِتُسْفِهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنِ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ
الْعَنَى وَأَسَدَ الْفُقَرَاءِ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا
يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٨)

[بَيَانُ حَقَارَةِ الدُّنْيَا وَالْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ]

يَقُولُ تَعَالَى تَخْفِيرًا لِأَمْرِ الدُّنْيَا وَتَهْوِينًا لِشَأْنِهَا ﴿إِنَّمَا
الْمَعْيُورَةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أَي: حَاصِلُهَا ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا
لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ
أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أَي: هُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ لَا يَطْلُبُ
مِنْكُمْ شَيْئًا، وَإِنَّمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ
مُؤَاسَاةً لِإِخْوَانِكُمُ الْفُقَرَاءِ، لِيُعَوِّدَ نَفْعَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، وَيَرْجِعَ
ثَوَابُهُ إِلَيْكُمْ، ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنْ سَأَلْتُمْ هُنَا فَيُخْفِكُمْ
تَبَخُلُوا﴾ أَي: يُخْرِجُكُمْ تَبَخُلُوا ﴿وَيُخْرِجُ أَصْعَدَكُمْ﴾ قَالَ
قَتَادَةَ: قَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ فِي إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ إِخْرَاجِ
الْأَصْعَانِ (١). وَصَدَقَ قَتَادَةُ؛ فَإِنَّ الْمَالَ مَحْبُوبٌ، وَلَا
يُضْرَفُ إِلَّا فِيمَا هُوَ أَحَبُّ إِلَى الشَّخْصِ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿هَاتِسْتُمْ هُنُوْلًا تَدْعُونَ لِتُسْفِهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ
يَبْخُلُ﴾ أَي: لَا يُجِبُّ إِلَى ذَلِكَ ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ
عَنِ نَفْسِهِ﴾ أَي: إِنَّمَا نَقَصَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَجْرِ وَإِنَّمَا يُعَوِّدُ
وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿وَاللَّهُ الْعَنَى﴾ أَي: عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلُّ
شَيْءٍ فَيَقِيرُ إِلَيْهِ دَائِمًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسَدَ الْفُقَرَاءِ﴾
أَي بِالذَّاتِ إِلَيْهِ، فَوَضَعَهُ بِالْعَنَى وَضَفَّ لَارِمٌ لَهُ، وَوَضَفَّ
الْخَلْقُ بِالْفَقْرِ وَضَفَّ لَارِمٌ لَهُمْ لَا يَنْفَكُونَ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ أَي: عَنْ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ
شَرْعِهِ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أَي:
وَلَكِنْ يَكُونُونَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَهُ وَلَا أَمِيرِهِ.
أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقِتَالِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

سُورَةُ الْفَتْحِ ٥١١

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾
وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا فِي أَيْمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ
بِاللَّهِ طَرَفَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةً السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَهِيدًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَيَعِزُّوهُ وَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ
وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الْفَتْحِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَلَّلٍ يَقُولُ: قَرَأَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فِي مَسِيرِهِ سُورَةَ الْفَتْحِ عَلَى
رَاجِلَيْهِ فَرَجَعَ فِيهَا. قَالَ مُعَاوِيَةُ: لَوْلَا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَجْتَمِعَ
النَّاسُ عَلَيْنَا لَحَكَيْتُ قِرَاءَتَهُ (٢). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ
بِهِ (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا
تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ
نَصْرًا عَزِيمًا (٣)

(١) عبد الرزاق: ٣/ ٢٢٤ (٢) أحمد: ٥٤/١ (٣) فتح
الباري: ٨/ ٤٤٧ ومسلم: ١/ ٥٤٧

[سَبَبُ نُزُولِ سُورَةِ الْفَتْحِ]

عَنْهُ قَالَ: نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجِعُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ» ثُمَّ قَرَأَهَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: هَيِّنَا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، [لَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَفْعَلُ بِكَ، فَمَاذَا يَفْعَلُ بِنَا؟ فَتَزَلَّتْ عَلَيْهِ ﷺ ﴿لِيَنْظُرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ - حَتَّى بَلَغَ - ﴿فَوَرَأَى عَظِيمًا﴾^(٥) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٦).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُغْبِرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ فَيَقِيلُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ ﷺ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»^(٧) أَخْرَجَاهُ وَبَيَّنَّهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ^(٨).

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أَي: بَيَّنَّا ظَاهِرًا، وَالْمُرَادُ بِهِ صَلُحُ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَإِنَّهُ حَصَلَ بِسَبَبِهِ خَيْرٌ جَزِيلٌ، وَأَمَنَ النَّاسُ وَاجْتَمَعَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَتَكَلَّمَ الْمُؤْمِنُونَ مَعَ الْكَافِرِ، وَأَنْشَرَ الْعِلْمُ النَّافِعَ وَالْإِيمَانَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هَذَا مِنْ خِصَائِصِهِ ﷺ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، وَلَيْسَ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ - فِي تَوَابِ الْأَعْمَالِ - لِعَيْبِهِ: وَهَذَا فِيهِ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ ﷺ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبِرِّ وَالْإِسْتِقَامَةِ الَّتِي لَمْ يَتَلْهَا بَشَرٌ سِوَاهُ لَا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الْآخِرِينَ، وَهُوَ ﷺ أَكْمَلَ النَّبِيَّ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَسَيَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَلَمَّا كَانَ أَطْوَعَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى [لِللَّهِ] وَأَشَدَّهُمْ تَعْظِيمًا لِأَمْرِهِ وَتَوَاهِيهِ قَالَ جِبْنَ بَرَكْتَ بِهِ النَّاقَةُ: «حَبَسَهَا حَابِسُ الْفَيْلِ» ثُمَّ قَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا يُعْظَمُونَ بِهِ حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا»^(٩). فَلَمَّا أَطَاعَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ وَأَجَابَ إِلَى الصُّلْحِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُرِيَهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ أَي: فِي

نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ، حِينَ صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [الْيَقُصِي] عُمُرَتُهُ فِيهِ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَالُوا إِلَى الْمُصَالِحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَامَهُ هَذَا، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ قَابِلٍ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ عَلَى تَكْرُوهٍ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَمَّا نَحَرَ هَدْيَهُ حَيْثُ أُحْصِرَ وَرَجَعَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ السُّورَةَ يَمِينًا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِهِمْ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الصُّلْحَ فَتْحًا بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَمَا آَلَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ، كَمَا رَوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّكُمْ تَعْدُونَ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ صَلْحَ الْحُدَيْبِيَّةِ. وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كُنَّا نَعُدُّ الْفَتْحَ إِلَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ^(١٠). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَعْدُونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ وَقَدْ كَانَ فَتْحَ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً. وَالْحُدَيْبِيَّةُ بِئْرٌ فَتَرَحَّنَا، فَلَمْ تَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَنَانَا فَجَلَسَ عَلَيَّ شَفِيرَهَا ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَرَضَّأَ ثُمَّ تَمَضَّمَصَّ وَدَعَا ثُمَّ صَبَّ فِيهَا فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرْتَنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرَكَابِنَا^(١١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ، قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: تُكِلْنِيكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلْحَحْتَ كَرَّرْتَ عَلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ. قَالَ: فَرَكِبْتُ رَاجِلِي فَحَرَكْتُ بَعِيرِي، فَتَقَدَّمْتُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ، قَالَ: فَإِذَا أَنَا بِمَتَادٍ يَا عُمَرُ، قَالَ: فَوَجَعْتُ وَأَنَا أَطْنُ أَنَّهُ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَزَلَ عَلَيَّ الْبَارِحَةُ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ^(١٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ عَنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١٣). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ هَذَا إِسْنَادٌ مَدِينِيٌّ جَيِّدٌ لَمْ نَجِدْهُ إِلَّا عَنْهُمْ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ

(١) الطبري: ٢٠١/٢٢ (٢) فتح الباري: ٥٠٥/٧ (٣) أحمد: ٣١/٨ (٤) فتح الباري: ٦٧٥/٨ ونحفة الأحوذى: ١٤٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٦١/٦ (٥) أحمد: ١٩٧/٣ (٦) فتح الباري: ٥١٦/٧ ومسلم: ١٤١٣/٣ (٧) أحمد: ٥٥/٤ (٨) البخاري: ٤٨٣٦ ومسلم: ٢٨١٩ والترمذي: ٤١٢ والنسائي: ٣/٢١٩ وابن ماجه: ١٤١٩ (٩) فتح الباري: ٣٨٨/٥

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَي: بِمَا يَشْرَعُهُ لَكَ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ وَالَّذِينَ الْقُومِ ﴿وَبَصُرَكَ اللَّهُ تَصَرًّا عَزِيزًا﴾ أَي: بِسَبَبِ حُضُوعِكَ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُرْفَعُكَ اللَّهُ وَيَبْصُرُكَ عَلَى أَعْدَانِكَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ﴿وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى﴾^(١). وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا عَاقَبْتَ أَحَدًا عَصَى اللَّهَ تَعَالَى فِيكَ، بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢) لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فُورًا عَظِيمًا^(٣) وَيُعَذِّبُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِنَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ طَلَعَ السَّوُّءُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةً السَّوِّءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(٤) وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا^(٥)

[نُزُولُ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أَي: جَعَلَ الطَّمَأِنِينَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْوَقَارُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَانْقَادُوا لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ وَاسْتَقَرَّتْ رَأْسُهُمْ إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَا الْبَحَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَيْمَةِ عَلَى تَفَاضُلِ الْإِيْمَانِ فِي الْقُلُوبِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَأَنْتَصَرَ مِنَ الْكَافِرِينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: وَلَوْ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مَلَكَ وَاحِدًا لَأَبَادَ خَضِرَاءَهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْجِهَادَ وَالْقِتَالَ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ وَالرَّيْهِينِ الدَّامِغَةِ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا نَحْيًا الْأَنْهَارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جِئْنَا قَالُوا: هَيِّنَا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لَكَ فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾^(٦) أَي: مَا كَيْفِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أَي: حَطَّأَيَاهُمْ وَذُنُوبَهُمْ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا،

بَلْ يَغْفُو وَيُغْفِرُ وَيَضْمَحُ وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ وَيَرْحَمُ وَيَشْكُرُ ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فُورًا عَظِيمًا﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾... الْآيَةَ [آل عمران: ١٨٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِنَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ طَلَعَ السَّوُّءُ﴾ أَي: يَتَّهَمُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِي حُكْمِهِ وَيَطْنُونَ بِالرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنْ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكَلْبِيَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أَي: أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُؤَكِّدًا لِفُذْرِيهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْأَعْدَاءِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَمِنَ الْكُفْرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٧) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا^(٨) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ. وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا^(٩)

[صِفَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا﴾ أَي: عَلَى الْخَلْقِ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أَي: لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَنَذِيرًا﴾ أَي: لِلْكَافِرِينَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ^(١٠) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُ وَاحِدٍ: تُعَظَّمُوهُ^(١١) ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ مِنَ التَّوَقِيرِ وَهُوَ الْإِحْتِرَامُ وَالْإِجْلَالُ وَالْإِعْظَامُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أَي: تُسَبِّحُونَ اللَّهَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَي: أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ.

[بَيَعَةُ الرِّضْوَانِ]

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ تَشْرِيفًا لَهُ وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَي: هُوَ حَاضِرٌ مَعَهُمْ يَسْمَعُ أَقْوَالَهُمْ وَيَرَى مَكَانَهُمْ وَيَعْلَمُ صَمَائِرَهُمْ وَطَوَاهِرَهُمْ فَهُوَ تَعَالَى هُوَ الْمُبَايِعُ بِوِاسِطَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْبَلُونَ فِي

(١) مسلم: ٢٠٠١/٤ (٢) فتح الباري: ٥١٦/٧ (٣) الطبري: ٢٠٧/٢٢

إِيَّاهَا وَغَلَطِي عَلَيْهَا، وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ أَعَزَّ بِهَا مِنِّي
عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تَبِعْتُهُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ
وَأَشْرَافَ قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ
رَازِئًا لِهَذَا النَّبِيِّ وَمُعْظَمًا لِحُرْمَتِهِ. فَخَرَجَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ إِلَى مَكَّةَ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ حِينَ دَخَلَ
مَكَّةَ أَوْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ أَجَارَهُ حَتَّى
بَلَغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْطَلَقَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظْمَاءَ قُرَيْشٍ، فَبَلَّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ، فَقَالُوا لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ فَرَغَ
مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالنَّبِيِّ
فَطُفْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ. وَاحْتَسَنَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ قُتِلَ. قَالَ ابْنُ
إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَالَ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ: «لَا تَبْرَحْ حَتَّى تُنَاجِرَ
الْقَوْمَ».

وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى النَّبِيعَةِ، فَكَانَتْ بَيْعَةُ
الرِّضْوَانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: بَايَعَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَوْتِ، وَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَبَايِعُهُمْ عَلَى
الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعَنَا عَلَى أَنْ لَا نَفِرَ، فَبَايَعَ النَّاسُ، وَلَمْ
يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَضْرَهَا، إِلَّا الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ
أَخُو بَنِي سَلِيمَةَ، فَكَانَ جَابِرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: وَاللَّهِ
لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ لِأَصِيقًا يَأْبِطُ نَاقِيَهُ قَدْ صَبَأَ إِلَيْهَا يَسْتَرِبُّ بِهَا
مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ
عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَاطِلٌ^(٨).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ النَّبْهَقِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ كَانَ
عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى
أَهْلِ مَكَّةَ، فَبَايَعَ النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّ
عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَاجَةِ رَسُولِهِ» فَضَرَبَ بِأُحْدَى

سِكِّيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوَرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْرَأْ
بِيعْتِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٩)
[التوبة: ١١١].

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَي:
ثَوَابًا جَزِيلًا. وَهَذِهِ النَّبِيعَةُ هِيَ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ، وَكَانَتْ
تَحْتَ شَجَرَةٍ سَمْرَةٍ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ قِيلَ: أَلْفًا
وَتَلَاثِمِائَةٍ، وَقِيلَ: وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَقِيلَ: وَخَمْسِمِائَةٍ،
وَالْأَوْسَطُ أَصْحَحُ.

ذَكَرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ

رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ
الْحُدَيْبِيَّةِ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢). وَأَخْرَجَاهُ
أَيْضًا عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا يَوْمَئِذٍ أَلْفًا
وَأَرْبَعِمِائَةٍ. وَوَضَعَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الْمَاءِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَتَّبِعُ مِنْ
بَيْنِ أَصَابِعِهِ حَتَّى رَوَّاهُ كُلُّهُمْ^(٣). وَهَذَا مُخْتَصَرٌ مِنْ سِيَاقِ
آخَرَ حِينَ ذَكَرَ قِصَّةَ عَطِيَّتِهِمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَأَنَّ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ أَعْطَاهُمْ سَهْمًا مِنْ كِتَابَتِهِ فَوَضَعُوهُ فِي بَثْرِ الْحُدَيْبِيَّةِ،
فَجَاشَتْ بِالْمَاءِ حَتَّى كَفَتْهُمْ، فَقِيلَ لَجَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: كُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَلَوْ كُنَّا مِائَةً
أَلْفٌ لَكِفْنَا^(٤). وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً^(٥).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ
الْمُسَيْبِ: كَمْ كَانَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ؟ قَالَ:
خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً، قُلْتُ: فَإِنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا قَالَ: كَانُوا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً؟ قَالَ: رَجِمَهُ اللَّهُ،
وَهُمْ، هُوَ حَدَّثَنِي أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً^(٦). قَالَ
النَّبْهَقِيُّ: هَذِهِ الرِّوَايَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي الْقَدِيمِ يَقُولُ:
خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً، ثُمَّ ذَكَرَ الْوَهْمَ فَقَالَ: أَرْبَعَ عَشْرَةَ
مِائَةً^(٧).

ذَكَرُ سَبَبِ هَذِهِ النَّبِيعَةِ الْعَظِيمَةِ

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارٍ فِي السِّيَرَةِ: ثُمَّ دَعَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَتَّبِعَهُ إِلَى
مَكَّةَ، لِيُبَلِّغَ عَنْهُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مَا جَاءَ لَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ مِنْ بَنِي
عَدِيٍّ بِنِ كَعْبٍ مَنْ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشٌ عَدَاوَتِي

(١) فتح الباري: ٤٥١/٨ (٢) مسلم: ١٤٨٤/٣ (٣) فتح
الباري: ٥٠٥/٧ ومسلم: ١٤٨٤/٣ (٤) فتح الباري: ٥٠٤/٧
(٥) فتح الباري: ٥٠٧/٧ ومسلم: ١٤٨٤/٣ (٦) فتح الباري:
٥٠٧/٧ (٧) دلائل النبوة: ٩٧/٤ (٨) ابن هشام: ٣

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، وَعَلَيْهَا حَمْسُونَ شَاةً لَا تَرُوبِهَا، فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَبَاهَا يَعْنِي: الرِّكْبِيَّ، فِيمَا دَعَا وَإِمًا بَصَقَ فِيهَا فَجَاشَتْ، فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا إِلَى الْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ، ثُمَّ بَاعَ وَبَايَعَ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسْطِ النَّاسِ قَالَ ﷺ: «بَايِعِي يَا سَلَمَةُ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ بَايَعْتُكَ فِي أَوَّلِ النَّاسِ. قَالَ ﷺ: «وَأَيْضًا». قَالَ وَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَزَلًا، فَأَعطَانِي حَجَفَةً أَوْ دَرَقَةً، ثُمَّ بَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ، قَالَ ﷺ: «أَلَا تَبَايِعُ يَا سَلَمَةُ؟». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ بَايَعْتُكَ فِي أَوَّلِ النَّاسِ وَأَوْسَطِهِمْ. قَالَ ﷺ: «وَأَيْضًا». فَبَايَعْتُهُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا سَلَمَةُ، أَيْنَ حَجَمْتُكَ أَوْ دَرَقْتُكَ الَّتِي أَعْطَيْتُكَ؟». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقِينِي عَامِرٌ عَزَلًا فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الْأَوَّلُ: اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي».

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ رَاسَلُونَا فِي الصُّلْحِ حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ فَاصْطَلَحْنَا. قَالَ: وَكُنْتُ خَادِمًا لِبَطْنِ لَطْلَحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْقَى فَرَسَهُ وَأَجَبْتُهُ^(١) وَأَكُلُ مِنْ طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي -مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ- فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَاصْطَلَطَ بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجَرَةَ [فَكَسَحْتُ] شَوْكَهَا، ثُمَّ اصْطَلَجْتُ فِي أَصْلِهَا فِي ظِلِّهَا، فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنْ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقْعُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَبْغَضْتُهُمْ وَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى فَعَلَقُوا سِلَاحَهُمْ وَاصْطَلَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ نَادَى مُنَادٌ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ قِيلَ ابْنُ زَيْنِمٍ. فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، فَسَدَدْتُ عَلَى

يَدِيهِ عَلَى الْأُخْرَى، فَكَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَيْرًا مِنْ أَيْدِيهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ^(١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ نَافِعٍ قَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَسْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَرْسَلَ عَبْدَ اللَّهِ إِلَى فَرَسٍ لَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَأْتِي بِهِ، لِيُقَاتِلَ عَلَيْهِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ عِنْدَ الشَّجَرَةِ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَدْرِي بِذَلِكَ، فَبَايَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْفَرَسِ فَجَاءَ بِهِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَلِّمْتُ لِقَاتِلًا، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَانْطَلَقَ فَذَهَبَ مَعَهُ حَتَّى بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ أَسْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٢). ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ النَّاسَ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَفَرَّقُوا فِي ظِلَالِ الشَّجَرِ، فَإِذَا النَّاسُ مُحَدِّقُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ - يَعْنِي عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: يَا عَبْدَ اللَّهِ، انْظُرْ مَا شَأْنُ النَّاسِ قَدْ أَحَدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَهُمْ يُبَايِعُونَ فَبَايَعَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَخَرَجَ فَبَايَعَ^(٣). وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةً فَبَايَعْنَاهُ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخَذَ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ - وَهِيَ سَمْرَةٌ - وَقَالَ: بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَ، وَلَمْ تَبَايِعُهُ عَلَى الْمَوْتِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤).

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ مَعْتَلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ وَالنَّبِيَّ ﷺ يُبَايِعُ النَّاسَ، وَأَنَا رَافِعٌ غُضُنًا مِنْ أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ، وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: وَلَمْ تَبَايِعُهُ عَلَى الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَ^(٥). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ. قَالَ يَزِيدُ: قُلْتُ: يَا أَبَا مُسَلَّمَةَ، عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تَبَايِعُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ^(٦). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا: عَنْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، ثُمَّ تَنَحَّيْتُ فَقَالَ ﷺ: «يَا سَلَمَةُ، أَلَا تَبَايِعُ؟». قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُ. قَالَ ﷺ: «أَقْبِلْ فَبَايِعْ». فَذَنُوتُ فَبَايَعْتُهُ، قُلْتُ: عَلَامَ بَايَعْتُهُ يَا سَلَمَةُ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ^(٧). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٨). وَكَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبَادِ بْنِ تَمِيمٍ: أَنَّهُمْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ^(٩).

(١) لم أجده في السنن الكبرى ولا في دلائل النبوة للبيهقي بل وجدت نحو هذا المعنى عند أبي داود ٢٧٢٦ والمزي في تهذيب الكمال ١٣٥/٤ عن ابن عمر وله طريق آخر صححه الحاكم والذهبي المستدرک مع التلخیص ٩٨/٣ وإسناده حسن. (٢) فتح الباري: ٥٢١/٧ (٣) فتح الباري: ٥٢١/٧ (٤) مسلم: ٣/١٤٨٣ (٥) مسلم: ١٤٨٥ (٦) فتح الباري: ١٣٦/٦ (٧) فتح الباري: ٢١١/١٣ (٨) مسلم: ١٤٨٦/٣ (٩) فتح الباري: ١٣٦ (١٠) أي أمشي إلى جنبه وفي رواية أحسّه وفي لفظ: أحلّ ظهره بالمحسّة - أفاده د/ البنا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٢

سُورَةُ الْفَتْحِ

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ
اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِالْأَسْتِثْمَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَلٌّ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يُمَاتِعُكُمْ
خَيْرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَّ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا
وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا
أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ
مَعَانِمِ لَتَأْخُذُوا هَذَا وَرَوَانَا نَذِيرًا لَكُمْ بَرِيدًا أَنَّ يُسَدِّلُوا
كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَسْعُونَكَ كَذِبًا لَكُمْ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسَدُونَنا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا أَحَدًا. قَالَتْ:
بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَنْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا﴾. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَحِيَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾»
[مريم: ٧٢] رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١). وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ قَالَ: إِنَّ عَبْدًا لِحَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ جَاءَ بِشَكْوَى حَاطِبًا
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِيَدْخُلَنَّ حَاطِبُ النَّارَ. فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «كَذَبْتَ لَا يَدْخُلُهَا فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا
وَالْحُدَيْبِيَّةَ»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي التَّنْأَةِ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ

أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةَ، وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذَتْ سِلَاحَهُمْ، وَجَعَلَتْهُ
ضِعْفًا فِي يَدِي ثُمَّ قُلْتُ: وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا
يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ قَالَ: ثُمَّ
جِئْتُ بِهِمْ أَسُوفُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَجَاءَ عَمِّي
غَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَلَابِ يُقَالُ لَهُ مَكْرَزٌ، مِنَ الْمُشْرِكِينَ
يَقُودُهُ حَتَّى وَفَقْنَا بِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَبْعِينَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «دَعَوْهُمْ يَكُنْ
لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَرِثَانَهُ». فَعَمَّا عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنْزَلَ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ
يَبْتَغِنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣)... الْآيَةَ
[الفتح: ٢٣]، وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ نَحْوَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ^(٤).

وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: كَانَ
أَبِي وَمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَانطَلَقْنَا
مِنْ قَابِلٍ حَاجِبِينَ فَخَفِي عَلَيْنَا مَكَانَهَا، فَإِنْ كَانَ بَيِّنَتْ لَكُمْ
فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ^(٥). وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ الْحَمِيدِيُّ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ
وَجَدْنَا رَجُلًا مِتًّا يُقَالُ لَهُ الْجَدُّ ابْنُ قَيْسٍ مُخْتَبِتًا تَحْتَ إِبطِ
بَعِيرِهِ^(٦) رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٧). وَرَوَى الْحَمِيدِيُّ أَيْضًا عَنْ عَمْرٍو
أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَلْفًا
وَأَرْبَعِمِائَةً فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ
الْيَوْمَ» قَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كُنْتُ أَبْصُرُ لَأَرَيْتُكُمْ
مَوْضِعَ الشَّجَرَةِ^(٨). قَالَ سُفْيَانُ: إِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي
مَوْضِعِهَا. أَخْرَجَاهُ^(٩). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ
أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»^(١٠).

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ
النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ يَصْعَدُ الشَّيْبَةَ نَيْبَةَ الْمُرَارِ فَإِنَّهُ يُحِطُّ
عَنْهُ مَا حُطُّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ صَعِدَ حَيْلُ
بَنِي الْخَزْرَجِ، ثُمَّ تَبَادَرَ النَّاسُ بَعْدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«كُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ». فَقُلْنَا:
تَعَالَى يَسْتَغْفِرُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: وَاللَّهِ، لَأَنْ أَحَدٌ
ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ، فَإِذَا هُوَ
رَجُلٌ يُنْشِدُ ضَالَّةً. رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بِهِ^(١١).

وَعَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:
أَخْبَرْتَنِي أُمُّ مُبَشَّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ
حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

(١) دلائل النبوة: ١٣٨/٤ (٢) مسلم: ١٨٠٧ (٣) فتح
الباري: ٥١٢/٧ ومسلم: ١٤٨٥/٣ (٤) مسند الحميدي: ٢/٢
٥٣٧ (٥) مسلم: ١٤٨٣/٣ (٦) مسند الحميدي: ٥١٤/٢
(٧) فتح الباري: ٥٠٧/٧ ومسلم: ١٤٨٤/٣ (٨) أحمد: ٣/٣
٣٥٠ (٩) مسلم: ٢١٤٤/٤ ولم يوجد في المسند
وزوائده (١٠) مسلم: ١٩٤٢/٤ (١١) مسلم: ١٩٤٢/٤

يَسَاءَ وَيَعْدِبُ مَنْ يَسَاءُ وَكَاتَ اللَّهُ عَفْوَراً رَجِيماً ﴿١٨﴾ أَي لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ وَخَضَعَ لَدَيْهِ .

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَعَانِهِمْ لِنَأْخُذْهُمْ ذُرُوعاً وَنَضْحَةً يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ نَتَّبِعُوهُنَّ كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُدُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِراً عَنِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، إِذْ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى خَيْبَرَ يَفْتَحُونَهَا: أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُمْ إِلَى الْمَغَنَمِ، وَقَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ وَقْتِ مُحَارَبَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ وَمُصَابَرَتِهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَأْذَنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ مُعَاقِبَةً لَهُمْ مِنْ جِنْسِ ذَنْبِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ بِمَعَانِمِ خَيْبَرَ وَحَدَثِهِمْ، لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ الْمُتَخَلِّفِينَ، فَلَا يَقَعُ غَيْرُ ذَلِكَ شَرْعاً وَلَا قَدْرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَجُوَيْرِ: وَهُوَ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ . وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ^(٣) . ﴿قُلْ لَنْ نَتَّبِعُوهُنَّ كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ قَبْلَ سُؤْلِكُمْ الْخُرُوجَ مَعَهُمْ ﴿سَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُدُونَ﴾ أَي: أَنْ نَشْرَكَكُمْ فِي الْمَعَانِمِ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَلَكِنْ لَا فَعَاهُ لَهُمْ .

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُنْعَتُنَا بِكُمْ أَلْوَىٰ مِنْكُمْ سَابِقَةَ الْحَدِيثِ لَكُمْ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِكُمْ فَتَمَحَّيْزُوا فَزِيغُوا فَذَلِكُمْ الَّذِي نَبهتُمْ عَلَيْهِ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾

﴿الْمُتَخَلِّفِينَ﴾

[الْإِخْبَارُ بِمَزِيدِ الْجِهَادِ وَأَنَّهُ يَكُونُ فُرْقَانًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ]

اِخْتَلَفَ الْمُتَمَسِّرُونَ فِي هَوْلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَيْهِمْ، الَّذِينَ هُمْ أَوْلُو بَأْسِ شَدِيدٍ، عَلَى أَقْوَالٍ؛ (أَحَدُهَا): أَنَّهُمْ هَوَازِنُ . رَوَاهُ شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَوْ

فَاتِمَا يَنْكُحُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسْئَلُهُمْ جَزَاءً عَظِيمًا ﴿١٩﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] .

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِيهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِحَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَعْيُنُهُمْ أَغْرَبُوا ﴿٢١﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَاتَ اللَّهُ عَفْوَراً رَجِيماً ﴿٢٣﴾﴾

[الْعُذْرُ الْمَكْدُوبُ مِمَّنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَوَعِدَ اللَّهُ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِراً رَسُولَهُ ﷺ بِمَا يَعْتَدِرُ بِهِ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْمَقَامَ فِي أَهْلِيهِمْ وَشُغْلِهِمْ، وَتَرَكَوا الْمَسِيرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاعْتَدَرُوا بِشُغْلِهِمْ بِذَلِكَ وَسَأَلُوا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ، وَذَلِكَ قَوْلُ مِنْهُمْ لَا عَلَى سَبِيلِ الْأَعْتِقَادِ، بَلْ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ وَالْمُضَانَعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِآلِسِيهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا﴾ أَي: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ فِيكُمْ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِسِرَائِرِكُمْ وَصَمَائِرِكُمْ، وَإِنْ صَانَعْتُمُونَا وَنَافَقْتُمُونَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِحَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَعْيُنُهُمْ أَغْرَبُوا﴾ أَي: لَمْ يَكُنْ تَخَلُّفُكُمْ تَخَلَّفَ مَعْدُورٍ وَلَا عَاصٍ، بَلْ تَخَلَّفَ نِفَاقٍ وَاعْتَقَدْتُمْ أَنَّهُمْ يُفْتَلُونَ، وَتَسْتَأْصِلُ شَأْنَهُمْ، وَتُسْتَبَادُ خَضْرَاؤُهُمْ، وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿وَظَنَنْتُمْ طَرَفَ السَّوَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أَي: هَلَكَى . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ^(١) . وَقَالَ قَتَادَةُ: فَاسِدِينَ ^(٢) . وَقِيلَ: هِيَ لَعْنَةُ عُمَانَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَي: مَنْ لَمْ يُخْلِصِ الْعَمَلَ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُعَذِّبُهُ فِي السَّعِيرِ، وَإِنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ مَا يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ

(١) الطبري: ٢٢/٢١٤ (٢) الطبري: ٢٢/٢١٤ (٣) الطبري:

عِكْرَمَةً أَوْ جَمِيعًا^(١). وَرَوَاهُ هُشَيْمٌ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ عَنْهُمَا^(٢).
 وَبِهِ يَقُولُ قَتَادَةُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ^(٣). (الثَّانِي): تَقِيْفٌ. قَالَهُ
 الصَّحَّاحُ. (الثَّالِثُ): بَنُو حَنِيْفَةَ. قَالَهُ جُوَيْرِيٌّ، وَرَوَاهُ
 مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الرَّهْرِيِّ^(٤). وَرَوِيْ مِنْهُ عَنْ سَعِيْدِ
 وَعِكْرَمَةَ^(٥). (الرَّابِعُ): هُمْ أَهْلُ فَارِسَ. رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي
 طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَبِهِ يَقُولُ عَطَاءٌ
 وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ فِي إِحْدَى الرَّوَايَاتِ عَنْهُ^(٦). وَقَالَ كَعْبُ
 الْأَخْبَارِ: هُمْ الرُّومُ^(٧). وَعَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى وَعَطَاءِ
 وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ: هُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ^(٨). وَعَنْ مُجَاهِدٍ: هُمْ
 أَهْلُ الْأَوْثَانِ^(٩). وَعَنْهُ أَيْضًا: هُمْ رِجَالُ أَوْلُو بَاسِ شَدِيْدِ،
 وَلَمْ يُعَيِّنْ فِرْقَةً. وَبِهِ يَقُولُ ابْنُ جُرَيْجٍ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ
 جُرَيْجٍ.
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَقْبَلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾ يَعْني: شَرَعَ لَكُمْ
 جِهَادَهُمْ وَقِتَالَهُمْ، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِمْ، وَلَكُمْ
 النُّصْرَةُ عَلَيْهِمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِكُمْ بِلا قِتَالٍ، بَلْ
 بِاخْتِيَارٍ.
 ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ طَطِئُوا﴾ أَي: تَسْتَجِيبُوا وَتَتَّبِعُوا
 فِي الْجِهَادِ وَتُؤَدُّوا الَّذِي عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿يُؤْتِكُمْ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾
 وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْني: زَمَنَ الْحُدُودِ، حَيْثُ
 دُعِيْتُمْ فَتَخَلَّفْتُمْ ﴿بِعَدْبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.
 [الْأَعْدَارُ الشَّرْعِيَّةُ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ مَعَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ]
 ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَعْدَارَ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ، فَمِنْهَا لَازِمٌ
 كَالْعَمَى وَالْعَرَجَ الْمُسْتَمِرَّ، وَعَارِضٌ كَالْمَرَضِ الَّذِي يَطْرَأُ
 أَيْامًا ثُمَّ يَزُولُ، فَهُوَ فِي حَالِ مَرَضِهِ مُلْحَقٌ بِذَوِي الْأَعْدَارِ
 اللَّازِمَةِ حَتَّى يَبْرَأَ. ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُرَعِبًا فِي الْجِهَادِ
 وَطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللهُ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أَي: يَنْكُلْ عَنِ الْجِهَادِ، وَيُقْبِلْ
 عَلَى الْمَعَاشِ ﴿عَدْبَهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فِي الدُّنْيَا بِالْمَدَلَّةِ وَفِي
 الْآخِرَةِ بِالنَّارِ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.
 ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ
 فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾
 وَمَعَانِيهِ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾
 [الْبِشَارَةُ بِالرِّضَا وَالْمَعَانِمِ لِأَهْلِ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ]
 يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَاةِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ
 اللهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ عِدَّتِهِمْ، وَأَنَّهَمْ كَانُوا
 أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ كَانَتْ سَمْرَةَ بَارِضِ الْحُدَيْبِيَّةِ،

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ أُولَى بَاسِ شَدِيدٍ
 يُقْبَلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ طَطِئُوا يُؤْتِكُمْ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا
 وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يَعْدِبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ أَيْسَ
 عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ
 وَمَنْ يُطِيعِ اللهُ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْدِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ
 الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
 فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِمِ
 كَثِيرَةً يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللهُ
 مَعَانِمِ كَثِيرَةً يَأْخُذُوهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
 النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا
 مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا
 وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَوَلَّوْا الْأَذْذِرْتُمْ لَا يُجِدُونَ وَليًا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
 اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ طَارِقٍ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ
 قَالَ: انْطَلَقْتُ حَاجًّا، فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ فَقُلْتُ: مَا هَذَا
 الْمَسْجِدُ؟ قَالُوا: هَذِهِ الشَّجَرَةُ حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ
 بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ، فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيْبِ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ
 سَعِيدٌ: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَحْتَ
 الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ نَسِينَاهَا فَلَمْ
 نَقْدِرْ عَلَيْهَا. فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ
 يَعْلَمُوهَا وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ، فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ^(١٠).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أَي: مِنَ الصِّدْقِ
 وَالْوَفَاءِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وَهِيَ الطَّمَأِينَةُ
 عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وَهُوَ مَا أَجْرَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ

(١) الطبري: ٢٢٠/٢٢ (٢) الطبري: ٢٢٠/٢٢ (٣) الطبري:
 ٢٢٠/٢٢ (٤) الطبري: ٢٢٠/٢٢ (٥) الطبري: ٢٢٠/٢٢
 (٦) الطبري: ٢١٩/٢٢ والقرطبي: ٢٧٢/١٦ (٧) الطبري:
 ٢٢١/٢٢ (٨) الطبري: ٢١٩/٢٢ (٩) الدر المنثور: ٧/
 ٥٢٠ (١٠) فتح الباري: ٥١٢/٧

(١) الطبري: ٢٢٠/٢٢ (٢) الطبري: ٢٢٠/٢٢ (٣) الطبري:
 ٢٢٠/٢٢ (٤) الطبري: ٢٢٠/٢٢ (٥) الطبري: ٢٢٠/٢٢
 (٦) الطبري: ٢١٩/٢٢ والقرطبي: ٢٧٢/١٦ (٧) الطبري:
 ٢٢١/٢٢ (٨) الطبري: ٢١٩/٢٢ (٩) الدر المنثور: ٧/
 ٥٢٠ (١٠) فتح الباري: ٥١٢/٧

عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الصُّلْحِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ، وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ الْعَامِّ الْمُسْتَمِرِّ الْمُتَّصِلِ بِفَتْحِ خَيْرٍ وَفَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ فَتْحِ سَائِرِ الْبِلَادِ وَالْأَقَالِيمِ عَلَيْهِمْ، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْعَزِّ وَالنَّصْرِ وَالرَّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيَاءً وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَبْعِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)

[البشارة بالمغانم الكثيرة]

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هِيَ جَمِيعُ الْمَغَانِمِ إِلَى الْيَوْمِ ﴿فَعَجَلَكُمْ هَذِهِ﴾ يَعْنِي: فَتَحَ خَيْرٍ (١). وَرَوَى الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿فَعَجَلَكُمْ هَذِهِ﴾ يَعْنِي: صُلْحَ الْحُدَيْبِيَّةِ (٢). ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أَي: لَمْ يَنْكُرْكُمْ سُوءَ مِمَّا كَانَ أَعْدَاؤُكُمْ أَضْمَرُوهُ لَكُمْ مِنَ الْمُحَارَبَةِ وَالْقِتَالِ، وَكَذَلِكَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ الَّذِينَ خَلَقْتُمُوهُمْ وَرَأَى ظُهُورَكُمْ عَنْ عِيَالِكُمْ وَحَرِيمِكُمْ ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: يَعْتَبِرُونَ بِذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ عَلَى سَائِرِ الْأَعْدَاءِ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَلِيَعْلَمُوا بِصَنِيعِ اللَّهِ هَذَا بِهِمْ أَنَّهُ الْعَالِمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَأَنَّ الْخَيْرَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ كَرِهَهُ فِي الظَّاهِرِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَي: بِسَبَبِ انْقِيَادِكُمْ لِأَمْرِهِ وَاتِّبَاعِكُمْ طَاعَتَهُ، وَمُؤَافَقَتِكُمْ رَسُولَهُ ﷺ.

[البشارة بجميع الفتوحات إلى يوم القيامة]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أَي: وَغَنِيمَةً أُخْرَى وَفَتْحًا آخَرَ مُعِينًا لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَيْهَا، قَدْ يَسَّرَهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَحَاطَ بِهَا لَكُمْ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ لَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْغَنِيمَةِ، مَا الْمُرَادُ بِهَا؟ فَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَبْعِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ، وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمَ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ شَيْءٍ لَوْ تَزَيَّلُوا الْعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءُوبَ يَا آلِ الْحَقِّ لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)

اللَّهُ عَنْهُمَا: هِيَ خَيْرٌ (٣). وَهَذَا، عَلَى قَوْلِهِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَعَجَلَكُمْ هَذِهِ﴾: إِنَّهَا صُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ. وَقَالَهُ الضَّحَّاكُ وَابْنُ إِسْحَاقَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ (٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَكَّةُ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٥). وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هِيَ فَارِسُ وَالرُّومُ (٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ كُلُّ فَتْحٍ وَغَنِيمَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٧). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قَالَ: هَذِهِ الْفَتْوحُ الَّتِي تُفْتَحُ إِلَى الْيَوْمِ (٨).

[لَوْ قَاتَلَ كُفَّارُ مَكَّةَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ لَفَرُّوا وَلَمْ يَضْمُدُوا] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا

(١) الطبري: ٢٢/٢٣٠ (٢) الطبري: ٢٢/٢٣٠ ضعف العوفي مبين (٣) الطبري: ٢٢/٢٣٣ العوفي تقدم حكمه (٤) الطبري: ٢٢/٢٣٤، ٢٣٣/٢٣٤ (٥) الطبري: ٢٢/٢٣٤ (٦) الطبري: ٢٢/٢٣٣ (٧) الطبري: ٢٢/٢٣٣ عند الطبري بهذا الطريق قال: فارس والروم وعن مجاهد: فافتحوا حتى اليوم: ٢٢/٢٣٣

يَجِدُونَ وِلْيَاءَ وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٥﴾ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ مُبَشِّرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، بَأَنَّهُ لَوْ نَاجَزَهُمُ الْمُشْرِكُونَ لَنَصَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَهَزَمَ جَيْشُ الْكُفْرِ فَارًا مُدِيرًا لَا يَجِدُونَ وِلْيَاءَ وَلَا نَصِيرًا؛ لِأَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أَي: هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ وَعَادَتُهُ فِي خَلْقِهِ، مَا تَقَابَلِ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ فِي مَوْطِنٍ فَفِضِلُ، إِلَّا نَصَرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ، فَرَفَعَ الْحَقُّ وَوَضَعَ الْبَاطِلُ، كَمَا فَعَلَ تَعَالَى يَوْمَ بَدْرَ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ: نَصَرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعُدْدِهِمْ وَكَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ وَعُدْدِهِمْ.

[حِكْمَةُ اللَّهِ فِي كَيْفِ الْقِتَالِ]

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هَذَا اثْتِنَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ كَفَّ أَيْدِيِ الْمُشْرِكِينَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ سُوءٌ، وَكَفَّ أَيْدِيِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بَلْ صَانَ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَأَوْجَدَ بَيْنَهُمْ ضَلْحًا فِيهِ خَيْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَعَاقِبَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ جَاؤُوا بِأَوْلِيَكِ السَّبْعِينَ الْأَسَارَى، فَأَوْثَقُوهُمْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَظَنَرُ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أُرْسِلُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَنِثَاءٌ». قَالَ وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ... الْآيَةَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ هَبَطَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِالسَّلَاحِ، مِنْ قِبَلِ جَبَلِ التَّعْجِيمِ، يُرِيدُونَ غَرَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأَخَذُوا. قَالَ عَفَّانُ: فَعَمَّا عَنْهُمْ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَّتَيْهِمَا^(٢).

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ يَغْيِرُ عَلَيْهِمُ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَسَاءٍ لَوْ تَزَلَّوْا لَعَدَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا

اليساء ﴿٢٦﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اللَّيْمَةَ حِمَّةً لِمُجَاهِدَةٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

[وَفَعَّ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، مَعَ كَوْنِ الْمُؤْمِنِينَ أَصْحَابِ الْحَقِّ وَالْعَلِيَّةِ، وَذِكْرِ مَصَالِحِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَمَنْ مَالَاهُمْ عَلَى نُصْرَتِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: هُمُ الْكُفَّارُ دُونَ غَيْرِهِمْ ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي: وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿وَالَّذِينَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ﴾ أَي: وَصَدُّوا الْهَدْيَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَحَلِّهِ، وَهَذَا مِنْ بَعْضِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَكَانَ الْهَدْيُ سَبْعِينَ بَدَنَةً كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ أَي: بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ وَمَنْ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ، وَخُفْيَهُ مِنْهُمْ خَيْفَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، لَكُنَّا سَلْطَنَاتُكُمْ عَلَيْهِمْ فَكَتَلْتُمُوهُمْ وَأَبَدْتُمْ خَضِرَاءَهُمْ، وَلَكِنْ بَيْنَ أَفْئِدَتِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَقْوَامٌ لَا تَعْرِفُونَهُمْ حَالَةَ الْقَتْلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ﴾ أَي: إِثْمٌ وَعَرَامَةٌ ﴿يَغْيِرُ عَلَيْهِمُ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَسَاءٍ﴾ أَي: يُؤَخِّرُ عُقُوبَتَهُمْ لِيُخَلِّصَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَرْجِعُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ تَزَلَّوْا﴾ أَي: لَوْ تَمَيَّرَ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ﴿لَعَدَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَي: لَسَلْطَنَاتُكُمْ عَلَيْهِمْ فَلَقَتَلْتُمُوهُمْ قِتَالًا ذَرِيعًا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اللَّيْمَةَ حِمَّةً لِمُجَاهِدَةٍ﴾ وَذَلِكَ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَأَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾.

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَلِمَةُ التَّقْوَى: الْإِخْلَاصُ^(٣). وَقَالَ عَطَاءُ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ: هِيَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٤). وَقَالَ هُ

(١) أحمد: ١٢٢/٣ (٢) مسلم: ١٤٤٢/٣ وأبو داود: ١٣٧/٣

وتحفة الأحوذبي: ١٤٩/٩ والنسائي في الكبرى: ٦٤٤/٦

(٣) الطبري: ٢٥٥/٢٢ (٤) الطبري: ٢٥٦/٢٢

يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ،
عَنِ الْمُسَوِّرِ: «وَأَرْهَمَهُمْ كَلِمَةَ النَّفْوَى» قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

[وَهَذَا ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَّةِ

وَقِصَّةِ الصُّلْحِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الشُّرُوطِ
عَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، يُصَدِّقُ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا أَتَى
ذَا الْحُلَيْفَةَ قَلَّدَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ، وَبَعَثَ
عَيْنًا لَهُ مِنْ خِرَاعَةٍ، وَسَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ
أَتَاهُ عَيْنُهُ فَقَالَ: إِنَّ فُرَيْسًا قَدْ جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا وَقَدْ
جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيثَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ وَمَانِعُوكَ.
فَقَالَ ﷺ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرُونَ أَنْ نَمِيلَ عَلَى
عِبَالِهِمْ وَذَرَازِي هَوْلَاءِ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ
الْبَيْتِ؟». وَفِي لَفْظٍ: «[أ]تَرُونَ أَنْ نَمِيلَ عَلَى ذَرَازِي هَوْلَاءِ
الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ قَدْ قَطَعَ عُنُقًا مِنْ
الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْزُونِينَ». وَفِي لَفْظٍ: «فَإِنْ
فَعَدُوا فَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَجْهُودِينَ مَحْزُونِينَ، وَإِنْ نَجَّوْا يَكُنْ
عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. أَمْ تَرُونَ أَنْ نُؤْمَ الْبَيْتِ فَمَنْ
صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَا».

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ
عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبًا، فَتَوَجَّهَ لَهُ
فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَا، وَفِي لَفْظٍ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَلَمْ نَجِءْ
لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ مِنْ حَالِ بَيْنِنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتَلْنَا، فَقَالَ
النَّبِيُّ ﷺ: «فَرُوحُوا إِذْنَ». وَفِي لَفْظٍ: «فَامْضُوا عَلَى اسْمِ
اللَّهِ تَعَالَى». حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي خَيْلٍ لِفُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخَذُوا ذَاتَ
الْيَمِينِ». فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةِ الْجَبِشِ
فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَدِيرًا لِفُرَيْشِ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ
بِالنَّبِيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ
النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَالْحَتْ، فَقَالُوا: خَلَّاتِ الْقِصْوَاءِ،
خَلَّاتِ الْقِصْوَاءِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقِصْوَاءِ
وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخَلْقِي، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ - ثُمَّ
قَالَ ﷺ: - «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي حِطَّةَ يُعْظَمُونَ

فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». ثُمَّ زَجَرَهَا
فَوَيْتَتْ فَعَدَلَتْ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى ثَمَدٍ
قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يَلْبَثِ النَّاسُ حَتَّى
نَزَحُوا، وَشَكِيَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ ﷺ مِنْ
كِنَانَتِهِ سَهْمًا ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ
لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخَزَاعِيُّ فِي
نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خِرَاعَةٍ - وَكَانُوا عَيْنَةَ نُضْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ - فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ
لُؤَيٍّ نَزَلُوا [أَعْدَادًا] مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ، مَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ
وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا
لَمْ نَجِءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ فُرَيْسًا قَدْ
نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ، وَأَصْرَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتَهُمْ مُدَّةً
وَيُخَلُّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُ، فَإِنْ شَاءُوا أَنْ
يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمَعُوا، وَإِنْ
هُمُ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَأَقَاتِلَنَّكُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى
تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ لَيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ». قَالَ بُدَيْلٌ: سَأَبْلَغُهُمْ مَا
تَقُولُ. فَاَنْطَلَقَ حَتَّى أَتَى فُرَيْسًا فَقَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَا مِنْ عِنْدِ
هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ
عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سَفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ
بِشَيْءٍ. وَقَالَ ذُو الرَّاْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ.
قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثْتُهُمْ بِمَا قَالَهُ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ. فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمِ الْأَسْتُمِ
بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوْلَسْتُ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى،
قَالَ: فَهَلْ تَتَّهَمُونَنِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: الْأَسْتُمُ تَعْلَمُونَ أَنِّي
اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عَكَاظِ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُمْ بِأَهْلِي
وَوَالِدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ
عَرَضَ عَلَيْنَا حِطَّةً رُشِدًا فَاقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيَةً. قَالُوا:
أَيْتِي، فَأَتَاهَا فَجَعَلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ ﷺ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ نَحْوًا
مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيُّ
مُحَمَّدٌ، أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ [أَمْرًا] قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ
بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتِنَاحَ أَصْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكَ الْأُخْرَى
فَأِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَشْرَابًا مِنَ النَّاسِ
خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
امْضُصْ بَطْرَ اللَّابِ، أَنْحُنْ نَفْرًا وَنَدْعُكَ؟ قَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا
أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ [كَانَتْ] لَكَ

عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا جَاءَ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ». قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الرَّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ أَكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا. فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: «أَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». فَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ أَكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ». فَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ النَّبِيِّ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ أَكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ [النَّبِيُّ ﷺ]: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، أَكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ». قَالَ الرَّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «وَاللَّهِ لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَعْظَمْتُهُمْ بِآيَاهَا». فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّبِيِّ فَتَطُوفَ بِهِ». فَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَا أُحِذْنَا ضِعْفَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو: وَعَلَى أَنْ لَا يَأْتِيكَ مَنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ يَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سَهْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُبُورِهِ قَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَطْهَرِ الْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَنْ أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَا أَصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَجِزْهُ لِي». قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزٍ ذَلِكَ لَكَ قَالَ: «بَلَى فَاغْلُظْ». قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ مَكْرَزٌ: بَلَى قَدْ أَجَزْنَاكَ لَكَ. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيُّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَرَدَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عُدَّ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَآتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ ﷺ: «بَلَى» قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ ﷺ: «بَلَى» قُلْتُ: فَلِمَ نَعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَغْضِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي» قُلْتُ: أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي

عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْنَبِكَ. قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَلَّمَا كَلَّمَهُ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ ﷺ، وَالْمُعِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السِّنْفُ وَعَلَيْهِ الْمِعْفَرُ، وَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةَ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السِّنْفِ وَقَالَ: أَخْرَجْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَفَرَعَ عُرْوَةَ رَأْسَهُ وَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: الْمُعِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. قَالَ: أَيُّ عُدْرٍ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي عُدْرَتِكَ؟ وَكَانَ الْمُعِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَحْبًا قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَاسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلْ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُو أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنْحَمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكْ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ ﷺ، فَجَرَعَ عُرْوَةَ إِلَى أَصْحَابِهِ. فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ! وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى كِشْرَى وَقَيْصَرَ وَالتَّجَاشِي، وَاللَّهِ، إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا فَطُ يَعْظَمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظَمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنْحَمَ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكْ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ؛ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ حُطَّةَ رُشْدٍ فَأَقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِهِ. فَقَالُوا: آتِيهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْبُذْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ». فَبَعِثَتْ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ بِلُتُونٍ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَنْبَغِي لَهُؤْلَاءِ أَنْ يَصُدُّوا عَنِ النَّبِيِّ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُذْنَ قَدْ قُلِدْتُ وَأَشْعِرْتُ فَمَا أَرَى أَنْ يَصُدُّوا عَنِ النَّبِيِّ. فَفَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: مَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِهِ. فَقَالُوا: آتِيهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا مَكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ» فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَقَالَ مَعْمَرٌ: أَخْبَرَنِي أَبُو

وَاللَّهُ - صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ. فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ نَجَانِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلِئَلَّامُهُ مَسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ أَحَدٌ».

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبُحَيْرِ قَالَ: وَتَمَلَّتْ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سَهْلٍ، فَلِحَقِّ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ فُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لِحَقِّ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرِ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اغْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ. فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَنَادِيَهُ اللَّهُ وَالرَّحِمَ لَمَّا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ: فَمَنْ أَنَاهُ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ - حَتَّى بَلَغَ - ﴿حِيَمَةَ الْجَبَلِيَّةِ﴾ وَكَانَتْ حِمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ (١). هَكَذَا سَأَفَهُ الْبُخَارِيُّ هَهُنَا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ فِي التَّفْسِيرِ (٢)، وَفِي عُمَرَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ (٣)، وَفِي الْحَجِّ وَعَبَّرَ ذَلِكَ (٤). وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا وَائِلٍ أَسْأَلُهُ، فَقَالَ: كُنَّا بِصَفِينٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَعَمْ. فَقَالَ سَهْلُ بْنُ حُبَيْبٍ: اتَّهَمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْنَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ - يَعْنِي: الصُّلْحَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُشْرِكِينَ - وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ أَلَيْسَ قِتَالَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقِتَالَهُمْ فِي النَّارِ؟ فَقَالَ: «بَلَى». قَالَ: فَيَسِمُ نَعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا وَتَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا؟ فَقَالَ ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضْعِعَنِي اللَّهُ أَبَدًا». فَرَجَعَ مُتَعِظًا، فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى جَاءَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضْعِعَهُ اللَّهُ أَبَدًا، فَتَرَكْتُ

النَّبِيَّ وَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ ﷺ: «بَلَى أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟». قُلْتُ: لَا. قَالَ ﷺ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطُوفٌ بِهِ». قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَلِمَ تُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَيْسَ يَعْبُدِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِعَزْوِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ. قُلْتُ: أَوْلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَأْتِي النَّبِيَّ وَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنَّكَ تَأْتِيهِ وَتَطُوفُ بِهِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا. قَالَ فَلَمَّا فَرَعُ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «فُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ اخْلِقُوا». قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ﷺ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ ﷺ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، قَالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتَجِبُ ذَلِكَ؟ أَخْرَجُ ثُمَّ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بِذَنْكَ وَتَدْعُو خَالِقَكَ فَيُحَلِّقَكَ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بِذَنْهُ، وَدَعَا خَالِقَهُ فَحَلَقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا عَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿بَعْضُ الْمُكَافِرِ﴾ [المتنحة: ١٠] فَطَلَّقَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ أَمْرَاتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرِكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ فُرَيْشٍ - وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ فَقَالُوا: الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَتَزَلُّوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَفْكَ هَذَا يَا فَلَانَ جَيْدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرَ فَقَالَ: أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيْدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ مِنْهُ ثُمَّ جَرَّبْتُ. فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَأَمَكْنَهُ مِنْهُ فَضْرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَ الْآخَرَ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يُعْذُو فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَاهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُغْرًا». فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ -

(١) فتح الباري: ١/٨٨٨ (٢) فتح الباري: ٨/٤٥١ (٣) فتح الباري: ٧/٥١٨ (٤) فتح الباري: ٣/٦٣٤

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ سَهِيْدًا ﴿٢٨﴾

[بَيَانُ صِدْقِ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ]

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَأَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ
وَطَافَ بِالْبَيْتِ فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا
سَارُوا عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمْ يَشُكَّ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا
تَتَفَسَّرُ هَذَا الْعَامَ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قَضِيَّةِ الصُّلْحِ،
وَرَجَعُوا عَامَهُمْ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِلٍ، وَقَعَ فِي
نَفْسِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رَضِيَّ اللَّهِ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، حَتَّىٰ
سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ
فِيمَا قَالَ: أَلَمْ تَكُنْ تُخْبِرُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتِ وَتَطُوفُ بِهِ؟
قَالَ: «بَلَىٰ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ عَامَكَ هَذَا؟». قَالَ: لَا.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ». وَبِهَذَا أَجَابَ
الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا حَذْوَ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ (١). وَلِهَذَا
قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ
لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» هَذَا لِتَحْقِيقِ الْخَبَرِ
وَتَوْكِيدِهِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْأَسْتِثْنَاءِ فِي شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أَي: فِي حَالِ دُخُولِكُمْ. وَقَوْلُهُ:
﴿مُخْلِفينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ وَمِنْهُمْ
مَنْ قَصَرَهُ، وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«رَحِمَ اللَّهُ الْمُحْلِقِينَ». قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
قَالَ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحْلِقِينَ». قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحْلِقِينَ». قَالُوا:
وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «وَالْمُقَصِّرِينَ». فِي
الثَّلَاثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ (٢). وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا
خَافُونَ﴾ أَثْبَتَ لَهُمُ الْأَمْنَ حَالِ الدُّخُولِ، وَنَفَىٰ عَنْهُمْ
الْخَوْفَ حَالِ اسْتِقْرَارِهِمْ فِي الْبَلَدِ، لَا يَخَافُونَ مِنْ أَحَدٍ،
وَهَذَا كَانَ فِي عُمَرَةَ الْقَضَاءِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ سَبْعٍ، فَإِنَّ
النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ رَجَعَ إِلَى
الْمَدِينَةِ. فَأَقَامَ بِهَا ذَا الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمَ، وَخَرَجَ فِي صَفَرٍ
إِلَى خَيْبَرَ، فَمَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْضَهَا عَنُوةً وَبَعْضَهَا صُلْحًا،
وَهِيَ إِقْلِيمٌ عَظِيمٌ كَثِيرُ النَّخْلِ وَالرُّوزِجِ، فَاسْتَخْدَمَ مِنْ فِيهَا

سُورَةَ الْفَتْحِ. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ
وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ أُخَرَ عَنْ أَبِي وَائِلٍ سُفْيَانَ بْنِ
سَلَمَةَ، عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ بِهِ، وَفِي بَعْضِ أَقْطَابِهِ: يَا أَيُّهَا
النَّاسُ! اتَّهَمُوا الرَّأْيِي، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ
أَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ أُرَدَّ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُهُ. وَفِي
رِوَايَةٍ: فَتَرَكْتُ سُورَةَ الْفَتْحِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَرَ بْنَ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ (٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ
فُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ وَفِيهِمْ سَهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ
النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اكْتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ». فَقَالَ سَهَيْلُ: لَا تَدْرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكْتُبْ [مَا نَعْرِفُ] بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ.
فَقَالَ ﷺ: «اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ» قَالَ: لَوْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا نُبْتَغِيكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ اسْمَكَ وَاسْمَ
أَبِيكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ»
وَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَا نَرُدُّهُ عَلَيْكُمْ،
وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْنَاهُ عَلَيْنَا. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
أَنْتَ كُنْتُ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبَعَهُ
اللَّهُ» (٤). رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا خَرَجَتِ الْحُرُورِيَّةُ اعْتَزَلُوا فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ صَالِحُ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لِعَلِيِّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ» قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاكَ،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «امْحُ يَا عَلِيُّ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَيُّ
رَسُولِكَ، امْحُ يَا عَلِيُّ وَاكْتُبْ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ
ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ». وَاللَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ وَقَدْ مَحَا
نَفْسَهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَحُوهُ ذَلِكَ يَمُوحُهُ مِنَ النَّبُوَّةِ، أَخْرَجَتْ مِنْ
هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ (٦). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِنَحْوِهِ (٧). وَرَوَى
الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَحَرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ سَبْعِينَ بُدْنَةً فِيهَا جَمَلٌ لِأَبِي
جَهْلٍ، فَلَمَّا صُدَّتْ عَنِ الْبَيْتِ حَنَّتْ كَمَا تَحِنُّ إِلَى
أَوْلَادِهَا (٨).

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِفينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ فَعَلِمَ
مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي

(١) فتح الباري: ٤٥١/٨ (٢) أحمد: ٢٦٨/٣ (٣) مسلم: ١٤١١/٣ (٤) أحمد: ٣٤٢/١ (٥) أبو داود: ٣١٧/٣ (٦) أحمد: ٣١٤/١ (٧) فتح الباري: ٣٩٠/٥ (٨) فتح الباري: ٦٥٦/٣ ومسلم: ٩٤٦/٢

مِنَ الْيَهُودِ عَلَيْهَا عَلَى الشَّطْرِ، وَقَسَمَهَا بَيْنَ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَحَدُّهُمْ، وَلَمْ يَشْهَدَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ إِلَّا الَّذِينَ قَدِمُوا مِنْ الْحَبَشَةِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُهُ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَغِبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: إِلَّا أَبَا دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خُرْشَةَ^(١). كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

فَلَمَّا كَانَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سَبْعِ خَرَجَ ﷺ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا هُوَ وَأَهْلُ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَأَحْرَمَ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ وَسَاقَ مَعَ الْهَدْيِ، قِيلَ: كَانَ سِتِينَ بَدَنَةً، فَلَبَّى وَسَارَ أَصْحَابُهُ يَلْبُونَ. فَلَمَّا كَانَ ﷺ قَرِيبًا مِنْ مَرِّ الظَّهْرَانِ بَعَثَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بِالْخَيْلِ وَالسَّلَاحِ أَمَامَهُ. فَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ رُعبًا شَدِيدًا، وَظَنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَغْزُوهُمْ، وَأَنَّهُ قَدْ نَكَثَ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مِنْ وَضْعِ الْقِتَالِ عَشْرَ سِنِينَ، فَذَهَبُوا فَأَخْبَرُوا أَهْلَ مَكَّةَ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ حَيْثُ يَنْظُرُ إِلَى أَنْصَابِ الْحَرَمِ، بَعَثَ السَّلَاحَ مِنَ الْقَيْسِيِّ وَالتَّبَلِيِّ وَالرَّمَاحَ إِلَى بَطْنِ يَاجِجٍ، وَسَارَ إِلَى مَكَّةَ بِالسِّيُوفِ مُعَمَدَةً فِي قُرْبِهَا كَمَا شَارَطَهُمْ عَلَيْهِ. فَلَمَّا كَانَ فِي أُنْتَاءِ الطَّرِيقِ بَعَثَ قُرَيْشٌ مَكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا عَرَفْنَاكَ تَنْقُضُ الْعَهْدَ، فَقَالَ ﷺ: «وَمَا ذَلِكَ؟» قَالَ: دَخَلْتَ عَلَيْنَا بِالسَّلَاحِ وَالْقَيْسِيِّ وَالرَّمَاحِ. فَقَالَ ﷺ: «لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، وَقَدْ بَعَثْنَا بِهِ إِلَى يَاجِجٍ». فَقَالَ: بِهِذَا عَرَفْنَاكَ بِالْبِرِّ وَالْوَفَاءِ، وَخَرَجْتَ رُءُوسَ الْكُفَّارِ مِنْ مَكَّةَ؛ لِئَلَّا يَنْظُرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غَيْظًا وَحَقًّا. وَأَمَّا بَقِيَّةُ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ، فَجَلَسُوا فِي الطَّرِيقِ وَعَلَى الْبُيُوتِ يَنْظُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَأَصْحَابِهِ، فَدَخَلَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَصْحَابُهُ يَلْبُونَ، وَالْهَدْيُ قَدْ بَعَثَهُ إِلَى ذِي طُوًى، وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ الْقُضْوَاءَ الَّتِي كَانَ رَاكِبَهَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الْأَنْصَارِيُّ آخِذٌ بِرِمَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ يَقُودُهَا وَهُوَ يَقُولُ:

بِاسْمِ الَّذِي لَا دِينَ إِلَّا دِينُهُ

بِاسْمِ الَّذِي مُحَمَّدٌ رَسُولُهُ

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ

الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

ضَرَبْنَا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ

وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ
قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ
فِي صُحُفٍ تُنَلَى عَلَى رَسُولِهِ
بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ
يَارَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ
فَهَذَا مَجْمُوعٌ مِنْ رَوَايَاتٍ مُتَّفَقَةٍ.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ وَقَدْ وَهَتَّتْهُمْ حُمَى يَثْرِبَ وَلَقُوا مِنْهَا سُوءًا، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يُقَدِّمُ عَلَيْكُمْ قَوْمٌ قَدْ وَهَتَّتْهُمْ حُمَى يَثْرِبَ، وَلَقُوا مِنْهَا شَرًّا، وَجَلَسَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ التَّاجِيَةِ الَّتِي تَلِي الْحَجْرَ، فَأَطَّلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى مَا قَالُوا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جِلْدَهُمْ، قَالَ: فَرَمَلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَمْشُوا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ حَيْثُ لَا يَرَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَلَمْ يَمْنَعْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِبْقَاءَ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَى قَدْ وَهَتَّتْهُمْ هَؤُلَاءِ أَجْلُدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٣).

وَفِي لَفْظٍ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ يَعْنِي: مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يُقَدِّمُ عَلَيْكُمْ وَقَدْ قَدْ وَهَتَّتْهُمْ حُمَى يَثْرِبَ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِبْقَاءَ عَلَيْهِمْ^(٤). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَامِهِ الَّذِي اسْتَأْمَنَ قَالَ: «ارْمُلُوا». لِيُرِيَ الْمُشْرِكِينَ قُوَّتَهُمُ وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ قَبْلِ فُعَيْقَعَانَ^(٥). وَأَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّمَا سَعَى النَّبِيُّ ﷺ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ قُوَّتَهُ^(٦). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، فَحَالَ كُفَّارٌ قُرَيْشِيٌّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَتَحَرَ هَدْيُهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحُدَيْبِيَّةِ وَقَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يَعْتَمِرَ الْعَامَ الْمُقْبِلَ، وَلَا يَحْمِلُ سِلَاحًا عَلَيْهِمْ إِلَّا سُيُوفًا، وَلَا يُقِيمُ بِهَا إِلَّا مَا أَحْبَبُوا. فَاعْتَمَرَ ﷺ مِنَ الْعَامِ

(١) الطبري: ٢٥٩/٢٢ (٢) أحمد: ٢٩٤/١ (٣) فتح الباري:

٥٨١/٧ مسلم: ٩٢٣/٢ (٤) فتح الباري: ٥٤٨/٣ (٥) فتح

الباري: ٥٨١/٧ (٦) فتح الباري: ٥٨١/٧

الْمُقْبِلِ فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالِحَهُمْ، فَلَمَّا أَنْ أَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا
أَمْرُوهُ أَنْ يُخْرِجَ فَخَرَجَ ﷺ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ
فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أَي: فَعَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْخَيْرِ وَالْمُصْلِحَةِ
فِي صَرْفِكُمْ عَنْ مَكَّةَ وَدُخُولِكُمْ إِلَيْهَا عَامَكُمْ ذَلِكَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أَي: قَبْلَ دُخُولِكُمْ
الَّذِي وَعَدْتُمْ بِهِ فِي رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ فَتَحًا قَرِيبًا، وَهُوَ الصُّلْحُ
الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

[الْبَشَارَةُ بِغَلْبَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْعَالَمِ]

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِبُصْرَةِ
الرُّسُولِ ﷺ عَلَى عَدُوِّهِ، وَعَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ: ﴿هُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أَي: بِالْعِلْمِ
النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَسْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ:
عِلْمٍ وَعَمَلٍ، فَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ الشَّرْعِيُّ
مَقْبُولٌ، فَإِخْبَارَاتُهَا حَقٌّ وَإِنْشَاءَاتُهَا عَدْلٌ ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ﴾ أَي: عَلَى أَهْلِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، مِنْ سَائِرِ الْأَرْضِ
مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ، وَمَلِيَّينَ وَمُشْرِكِينَ ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أَي:
أَنَّ رَسُولَهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ
رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ
أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيعٌ أَخْرَجَ
سَطَطَهُ فَتَأَرَّزَهُ فَاستَغْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ يُمْسِكُ الزَّرْعَ لِيُعِطَ
بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً
وَاجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢)

[صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ رَسُولُهُ حَقًّا بِإِلَافَةِ شَكِّ وَلَا
رَيْبٍ فَقَالَ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وَهَذَا مُبْتَدَأٌ وَخَبْرٌ، وَهُوَ
مُسْتَمِلٌ عَلَى كُلِّ وَصْفٍ جَمِيلٍ، ثُمَّ نَتَى بِالْإِنْشَاءِ عَلَى
أَصْحَابِهِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى
الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ
يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]
وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ شَدِيدًا عَنِيفًا عَلَى
الْكُفَّارِ، رَحِيمًا بَرًّا بِالْأَخْيَارِ، غَضُوبًا غَبُوشًا فِي وَجْهِ
الْكَافِرِ ضَحُوكًا بِشُوشًا فِي وَجْهِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ
الْكُفَّارِ وَلَاجِدُوا فِيكُمْ غُلَقَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وَقَالَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٥١٥
سُورَةُ الْفَتْحِ
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ
تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ
فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيعٌ أَخْرَجَ سَطَطَهُ فَتَأَرَّزَهُ فَاستَغْلَطَ فَاسْتَوَى
عَلَى سَوْفِهِ يَعْجِبُ الزَّرْعَ لِيُعِطَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَاجْرًا عَظِيمًا^(٣)

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقِدُوا يَدَيَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَأَنْقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(١) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ
فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ^(٢) إِنَّ الَّذِينَ
يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَاجْرٌ عَظِيمٌ^(٣) إِنَّ الَّذِينَ
يَبْادُونَكَ مِنْ وِرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ^(٤)

النَّبِيِّ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ
الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ
الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهْرِ»^(٢). وَقَالَ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ
كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا». وَسَبَّكَ ﷺ بَيْنَ أَصَابِعِهِ^(٣)،
كِلَا الْحَدِيثَيْنِ فِي الصَّحِيحِ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ
اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وَصَفَهُمْ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ وَكَثْرَةِ الصَّلَاةِ، وَهِيَ
خَيْرُ الْأَعْمَالِ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَالْأَخْتِسَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ
الْمُسْتَمْلَةُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ سَعَةُ الرَّزْقِ عَلَيْهِمْ.
وَرِضَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَوَّلِ كَمَا قَالَ جَلَّ
وَعَلَا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وَقَوْلُهُ جَلَّ
جَلَالُهُ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ

(١) فتح الباري: ٥٧١/٧ (٢) مسلم: ١٩٩٩/٤ (٣) فتح
الباري: ١١٩/٥

أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَيِّمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ يَعْنِي: السَّمْتُ الْحَسَنُ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي: الْخُشُوعَ وَالْتَوَاضَعَ^(٢). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ لِلْحَسَنَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ النَّاسِ.

وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سِرِيرَةً إِلَّا أَبَدَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى صَفْحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ.

مَنْ افْتَقَى أَثَرَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَهُوَ فِي حُكْمِهِمْ، وَلَهُمُ الْفَضْلُ وَالسَّبْقُ وَالْكَمَالُ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلَ جَنَاتِ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُمْ، وَقَدْ فَعَلَ. رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَذْرَكَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(٥).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحُجْرَاتِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحُجْرَاتِ وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُغَضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفُورِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَآجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

[النَّهْيُ عَنِ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْأَمْرُ بِتَعْظِيمِهِ وَالتَّأَدُّبِ مَعَهُ]

هَذِهِ آيَاتُ آدَبِ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ، فِيمَا يُعَامِلُونَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالْإِحْتِرَامِ، وَالتَّسْبِيحِ وَالْإِعْظَامِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَي: لَا تُسَارِعُوا فِي الْأَشْيَاءِ بَيْنَ يَدَيْهِ أَيْ قَبْلَهُ، بَلْ كُونُوا تَبَعًا لَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لَا تَقُولُوا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرْنَا أَنَّ نَاسًا كَانُوا يَقُولُونَ: لَوْ أَنْزَلَ فِي كَذَا وَكَذَا، لَوْ صَحَّ كَذَا، فَكَرِهَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ^(٧). وَتَقَدَّمَ فِيهِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي: لِأَقْوَالِكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِنِيَّاتِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالْإِقْتِصَادَ، جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ»^(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٤). فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خَلَصَتْ نِيَّاتُهُمْ وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُمْ فَكُلُّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ أَعْجَبُوهُ فِي سَمْتِهِمْ وَهَدْيِهِمْ. وَقَالَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَّغَنِي أَنَّ النَّصَارَى كَانُوا إِذَا رَأَوْا الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ فَتَحُوا الشَّامَ يَقُولُونَ: وَاللَّهِ لَهُمْ لَهْؤَلَاءِ خَيْرٌ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ فِيمَا بَلَّغْنَا، وَصَدَقُوا فِي ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُعْظَمَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَأَعْظَمُهَا وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ نَوَّهَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذِكْرِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَدَاوِلَةِ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَهُنَا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَرَجٍ أَخْرَجَ شَطَطَهُ﴾ أَي: فِرَاحَهُ ﴿فَأَزِيدُهُ﴾ أَي شَدَّهُ ﴿فَأَسْتَغْلِظُهُ﴾ أَي شَبَّ وَطَالَ ﴿فَأَسْتَوِي عَلَى سَوْقِهِ﴾ يَعْجِبُ الْزَّرْعُ أَي: فَكَذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آزَرُوهُ وَأَيَّدُوهُ وَنَصَرُوهُ، فَهُمْ مَعَهُ كَالشُّطَاءِ مَعَ الزَّرْعِ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ انْتَزَعَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، بِتَكْفِيرِ الرُّوَافِضِ الَّذِينَ يُغَضُونَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: لِأَنَّهُمْ يَغِيظُونَهُمْ وَمَنْ غَاظَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ. وَوَافَقَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ. وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضْلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُمْ بِمَسَاوِيهِمْ كَثِيرَةٌ، وَيَكْفِيهِمْ ثَنَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ عَنْهُمْ: ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ أَي: لِدُنُوبِهِمْ ﴿وَآجْرًا عَظِيمًا﴾ أَي: ثَوَابًا جَزِيلًا وَرِزْقًا كَرِيمًا. وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَصِدْقًا لَا يُخْلَفُ وَلَا يُبَدَّلُ، وَكُلُّ

(١) الطبري: ٢٦٣/٢٢ (٢) الطبري: ٢٦٣/٢٢ (٣) أحمد: ٢٩٦/١ (٤) أبو داود: ١٣٦/٥ (٥) مسلم: ١٩٦٧/٤ (٦) الطبري: ٢٧٥/٢٢ (٧) الطبري: ٢٧٦/٢٢

الله ﷺ، مَا لَكَ؟ قَالَ: أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَجْهَرُ لَهُ بِالْقَوْلِ حَيْطَ عَمَلِي، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَوْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكَأَنَّ تَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَطْهَرِنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ كَانَ فِيْنَا بَعْضَ الْإِنْكَشَافِ، فَجَاءَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، وَقَدْ تَحَطَّ وَلَيْسَ كَفَنُهُ فَقَالَ: بِسْمَا نَعُودُونَ أَقْرَانِكُمْ، فَقَاتَلْتَهُمْ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤).

ثُمَّ نَهَى عَنِ الْجَهْرِ لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ الرَّجُلُ لِمُحَاطَبِهِ مِمَّنْ عَدَاهُ، بَلْ يُحَاطَبُ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَتَعْظِيمٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ لِيُغْضِبَ اللَّهُ مَا كَانَ عُمُرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ. وَلَمْ يَذْكَرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١). انْفَرَدَ بِهِ دُونَ مُسْلِمٍ.

وَفِي رِوَايَةِ اللَّبْحَارِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمْرٌ الْقَفْعَاءُ ابْنُ مَعْبُدٍ، وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلْ أَمْرٌ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، الْحَدِيثُ^(٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ هَهُنَا مُتَّفِرِدًا بِهِ أَيْضًا. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ فِي بَيْتِهِ مُتَّكِسًا رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا سَأَلْتُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَيْطَ عَمَلُهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ مُوسَى: فَوَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْأَخْرَجَةَ بِشَارَةِ عَظِيمَةٍ فَقَالَ: «أَذْهَبَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ وَكَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ رَفِيعَ الصَّوْتِ فَقَالَ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَيْطَ عَمَلِي، وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينًا فَفَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاذْطَلَقَ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَيْهِ فَقَالُوا لَهُ: تَفَقَّدَكَ رَسُولُ

اللَّهُ ﷺ، مَا لَكَ؟ قَالَ: أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَجْهَرُ لَهُ بِالْقَوْلِ حَيْطَ عَمَلِي، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَوْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكَأَنَّ تَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَطْهَرِنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ كَانَ فِيْنَا بَعْضَ الْإِنْكَشَافِ، فَجَاءَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، وَقَدْ تَحَطَّ وَلَيْسَ كَفَنُهُ فَقَالَ: بِسْمَا نَعُودُونَ أَقْرَانِكُمْ، فَقَاتَلْتَهُمْ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤).

ثُمَّ نَهَى عَنِ الْجَهْرِ لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ الرَّجُلُ لِمُحَاطَبِهِ مِمَّنْ عَدَاهُ، بَلْ يُحَاطَبُ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَتَعْظِيمٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ لِيُغْضِبَ اللَّهُ مَا كَانَ عُمُرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ. وَلَمْ يَذْكَرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١). انْفَرَدَ بِهِ دُونَ مُسْلِمٍ.

وَفِي رِوَايَةِ اللَّبْحَارِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمْرٌ الْقَفْعَاءُ ابْنُ مَعْبُدٍ، وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلْ أَمْرٌ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، الْحَدِيثُ^(٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ هَهُنَا مُتَّفِرِدًا بِهِ أَيْضًا. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ فِي بَيْتِهِ مُتَّكِسًا رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا سَأَلْتُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَيْطَ عَمَلُهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ مُوسَى: فَوَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْأَخْرَجَةَ بِشَارَةِ عَظِيمَةٍ فَقَالَ: «أَذْهَبَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ^(٣).

(١) فتح الباري: ٤٥٤/٨ (٢) فتح الباري: ٤٥٧/٨ (٣) فتح الباري: ٤٥٤/٨ (٤) أحمد: ١٣٧/٣ (٥) فتح الباري: ١١/١١

يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ
وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

[ذَمٌّ مِنْ يُنَادِي النَّبِيَّ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ]
ثُمَّ إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَمُّ الَّذِينَ يُنَادُونَهُ مِنْ وَرَاءِ
الْحُجْرَاتِ، وَهِيَ بَيْوتُ نِسَائِهِ، كَمَا يَصْنَعُ أَجْلَافُ
الْأَعْرَابِ فَقَالَ: ﴿كَذَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ثُمَّ أَرْشَدَ تَعَالَى إِلَى
الْأَدَبِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أَيْ:
لَكَانَ لَّهُمْ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَةُ وَالْمُصْلِحَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ
رَّحِيمٌ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَفْرَعِ بْنِ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا أوردَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ
الْأَفْرَعِ بْنِ حَابِسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ نَادَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ
وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. وَفِي رِوَايَةٍ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ حَمْدِي لَرَيْنٌ،
وَأَنَّ دَمِي لَشَيْنٌ، فَقَالَ ﷺ: «ذَلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (١).

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْهُمْ فَنَبِّئُوهُمْ أَنَّ نُصِيبُوا قَوْمًا
بِجَهْلَةٍ فَنُصِّحُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولٌ
اللَّهُ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِعْصِيَانَ
أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٨﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّثَبُّتِ إِنْ جَاءَ فَاسِقٌ مِّنْهُمْ]

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالتَّثَبُّتِ فِي خَبَرِ الْفَاسِقِ لِيُحْتَاطَ لَهُ؛ لِئَلَّا
يُحْكَمَ بِقَوْلِهِ، فَيَكُونُ - فِي نَفْسِ الْأَمْرِ - كَادِبًا أَوْ مُخْطِئًا،
فَيَكُونُ الْحَاكِمُ بِقَوْلِهِ قَدِ افْتَقَى وَرَاءَهُ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ عَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُفْسِدِينَ، وَمِنْ هَاهُنَا امْتَنَعَ طَوَائِفُ
مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَبُولِ رِوَايَةِ مَجْهُولِ الْحَالِ لِاحْتِمَالِ فُسُوقِهِ
فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَقَدْ رُوِيَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ قِصَّةٌ
مِنْ طَرَفٍ مِنْ أَحْسَنِهَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ
رِوَايَةِ مَلِكِ بْنِ الْمُصْطَلِقِ، وَهُوَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ
وَالِدُ جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
قَالَ الْحَارِثُ بْنُ ضِرَارٍ الْخَزَاعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمْتُ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ فَدَخَلْتُ فِيهِ وَأَقْرَرْتُ
بِهِ. وَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاةِ فَأَقْرَرْتُ بِهَا وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!
أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَدِّءِ الزَّكَاةَ فَمَنْ

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْهُمْ فَنَبِّئُوهُمْ
أَنَّ نُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَنُصِّحُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿٦﴾
وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولٌ لِّلَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِعْصِيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ ﴿٧﴾
فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَافْنَا بِكُمْ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلِمُوا فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا إِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَى فَغَنِّبُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتِ
فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاسِخِرَ قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ
عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا
مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَابِ بِغَدِّ شَتَّىٰ
الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَبْأُؤْ لِكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ. وَرُسِلَ إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ،
رَسُولًا إِيَّانَ كَذَا وَكَذَا* لِيَأْتِيكَ بِمَا جَمَعْتُ مِنَ الزَّكَاةِ.

فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لَهُ، وَبَلَغَ
الإِبَانَ الَّذِي أَرَادَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ، احْتَبَسَ
عَلَيْهِ الرَّسُولُ لَمْ يَأْتِهِ، وَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ
سَخَطُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، فَدَعَا بِسَرَوَاتِ قَوْمِهِ فَقَالَ
لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ
رَسُولَهُ لِيَقْضَىٰ مَا كَانَ عِنْدِي مِنَ الزَّكَاةِ وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ الْخُلْفُ، وَلَا أَرَى حَسْبَ رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ سَخَطِي،
فَانْطَلِقُوا بِنَا نَاتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَبَعَثَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْضَىٰ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ

(١) أحمد: ٤٨٨/٣ إسناده حسن. إن كان أبو سلمة بن
عبد الرحمن سمع من الأقرع بن حابس وإلا فهو مرسل وله شاهد
من حديث البراء الآتي بعده(*) أي في موسم وقت كذا وكذا،
وقوله: أراد رسول الله أي أراد من رسول الله، فهو على نزع
الخافض

الرَّاشِدُونَ الَّذِينَ قَدَّاتَاهُمْ اللَّهُ رُشْدَهُمْ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رِفَاعَةَ الزُّرْقِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْكَمَّ الْمُشْرِكُونَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَوْوَا حَتَّى أَتِيَّ عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا فَقَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَّ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرَّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ. اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ التَّيَمُّنَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ التَّيَمُّنَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنِ يَوْمَ الْخَوْفِ. اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِدُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَمِنْ شَرِّ مَا مَنَعْتَنَا. اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَرَيْبَهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ. اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرِ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهُ الْحَقِّ»^(٣) وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ^(٤). ثُمَّ قَالَ:

«فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً» أَيُّ هَذَا الْعَطَاءُ الَّذِي مَنَحَكُمْوهُ هُوَ فَضْلٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ وَنِعْمَةٌ مِنْ لَدُنْهُ «وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ» أَيُّ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَابَةَ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرَعِهِ وَقَدَرِهِ.

«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَتْ حَتَّى تَقْبَلَ إِلَهُ أَمْرٍ اللَّهُ فَإِنْ قَاتَلَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»^(٥)

ترجمون ﴿١٠﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِقِتَالِ الْبَغِيَّةِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ الْبَاغِيَّتَيْنِ بَعْضُهُمْ

مِنَ الزُّكَاةِ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرَّقَ - أَيُّ خَافَ - فَرَجَعَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ الْحَارِثَ قَدْ مَنَعَنِي الزُّكَاةَ وَأَرَادَ قَتْلِي، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبَعَثَ الْبُعْثَ إِلَى الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَتَى الْحَارِثَ بِأَصْحَابِهِ... حَتَّى إِذَا اسْتَقْبَلَ الْبُعْثَ وَفَصَلَ عَنِ الْمَدِينَةِ لَقِيَهُمُ الْحَارِثُ فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ بَعْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بِنَ عَقْبَةَ فَرَعَمَ أَنْتَ مَنَعْتَهُ الزُّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ: مَا رَأَيْتُهُ بَنَةً وَلَا أَنَابِي.

فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: «مَنَعْتَ الزُّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟» قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلَا أَنَابِي وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ اخْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ كَانَتْ سَخَطَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ. قَالَ: فَتَزَلَّتِ الْحُجْرَاتُ «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا» إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بَنِيًّا» إِلَى قَوْلِهِ «حَكِيمٌ»^(١) وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالتَّبْرَانِيُّ^(٢).

[حُكْمُ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ الْأَصْلَحُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» أَيُّ اعْلَمُوا أَنَّ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فَعَظُمُوهُ وَوَقُرُّوهُ وَتَأَدَّبُوا مَعَهُ وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ وَأَشْفَقَ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ، وَرَأْيُهُ فِيكُمْ أَمُّ مِنْ رَأْيِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «الَّذِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ رَأْيَهُمْ سَخِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُرَاعَاةِ مَصَالِحِهِمْ فَقَالَ: «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنِعِمَّتْ» أَيُّ لَوْ أَطَاعَكُمْ فِي جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَهُ لِأَدَى ذَلِكَ إِلَى عَنَتِكُمْ وَحَرَجِكُمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «لَوْ أَتَّبَعِ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ» بَلْ أَيْبَنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهَمَّ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُتَوَسِّرًا [المؤمنون: ٧١] وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلِيمَنَ وَرَيْبَهُ فِي قُلُوبِكُمْ» أَيُّ حَبِيبٌ إِلَى نَفْسِكُمْ وَحَسَنَةٌ فِي قُلُوبِكُمْ.

[الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ]

«وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ» أَيُّ وَبَعْضُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَهِيَ الذُّنُوبُ الْكِبَارُ وَالْعِصْيَانَ، وَهِيَ جَمِيعُ الْمَعَاصِي وَهَذَا تَدْرِيجٌ لِكَمَالِ النِّعْمَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ» أَيُّ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ

(١) أحمد: ٢٧٩/٤ (٢) الطبراني: ٢٧٤/٢٢ وتسمية الوليد بن عتبة في هذه القصة وهم، لأن القصة وقعت بعد غزوة بني المصطلق قريبًا. وكانت غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ٥هـ أو سنة ٦هـ بينما أسلم الوليد بن عتبة بعد الفتح أي في رمضان سنة ٥هـ. (٣) أحمد: ٤٢٤/٣ (٤) النسائي في الكبرى: ١٥٦/٦

عَلَى بَعْضٍ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فَسَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مَعَ الْإِقْتِتَالِ، وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَعَيْرُهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْمَعْصِيَةِ وَإِنْ عَظُمَتْ، لَا كَمَا يَقُولُهُ الْخَوَارِجُ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنْ الْمُعْتَرِلَةِ وَنَحْوِهِمْ، وَهَكَذَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ يَوْمًا، وَمَعَهُ عَلَى الْمُنْبَرِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مَرَّةً، وَإِلَى النَّاسِ أُخْرَى وَيَقُولُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١). فَكَانَ كَمَا قَالَ ﷺ، أَصْلَحَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ بَعْدَ الْحُرُوبِ الطَّوِيلَةِ، وَالْوَأِقِعَاتِ الْمُهَوَّلَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أَي حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَسْمَعَ لِلْحَقِّ وَتُطِيعَهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «انْصُرْ أَهْلَكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا نَصْرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ ﷺ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَاكَ نَصْرُكَ يَا»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يَعْنِي الْفِتْنَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ «وَاتَّقُوا اللَّهَ» أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ وَهَذَا تَحْقِيقٌ مِنْ تَعَالَى لِلرَّحْمَةِ لِمَنْ اتَّقَاهُ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ يَسَسَ الْأَسْمُ الْقَسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَنْبَأْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾

[النهى عن السخرية والاحتقار]

يَنْهَى تَعَالَى عَنِ السُّخْرِيَّةِ بِالنَّاسِ وَهُوَ احْتِقَارُهُمْ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَدْوُ النَّاسِ - وَيُرْوَى - وَعَدْوُ النَّاسِ»^(١). وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ احْتِقَارُهُمْ وَاسْتِهْزَاؤُهُمْ، وَهَذَا حَرَامٌ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمُحْتَقَرُ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ السَّخِرِ مِنْهُ الْمُحْتَقِرُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ فَصَّ عَلَى نَهْيِ الرَّجَالِ، وَعَطَفَ بِنَهْيِ النِّسَاءِ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي لَا تَلْمِزُوا النَّاسَ. وَالْهَمَّازُ: اللَّمَّازُ مِنَ الرَّجَالِ مَذْمُومٌ مَلْعُونٌ، كَمَا

وَدَكَرَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ كَانَ بَيْنَهُمَا فِتَالٌ بِالسَّعْفِ وَالتَّعَالِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ فَأَمَرَ بِالِصُّلْحِ بَيْنَهُمَا^(٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: عِمْرَانُ، كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ تُدْعَى أُمُّ زَيْدٍ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ أَرَادَتْ أَنْ تَزُورَ أَهْلَهَا، فَحَبَسَهَا زَوْجُهَا وَجَعَلَهَا فِي عِلْيَةٍ لَهُ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا. وَإِنَّ الْمَرْأَةَ بَعَثَتْ إِلَى أَهْلِهَا، فَجَاءَ قَوْمُهَا وَأَنْزَلُوهَا لِيَنْطَلِقُوا بِهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ كَانَ قَدْ خَرَجَ، فَاسْتَعَانَ أَهْلَ الرَّجُلِ، فَجَاءَ بَنُو عَمِّهِ لِيُحَوِّلُوا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ أَهْلِهَا، فَتَدَاعَوْا وَاجْتَلَدُوا بِالتَّعَالِ فَتَزَلَّتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَبَعَثَتْ إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ وَقَاوَرُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى^(٤). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أَي اءَدِلُوا بَيْنَهُمَا - فِيمَا كَانَ أَصَابَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ - بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ لَوْلُوٍ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا

(١) فتح الباري: ٣٦١/٥ (٢) فتح الباري: ١١٨/٥ (٣) الدر المنثور: ٥٦٠/٧ (٤) الطبري: ٢٩٤/٢٢ (٥) النسائي في الكبرى: ٥٩١٧ (٦) فتح الباري: ١١٦/٥ (٧) مسلم: ٤/٢٠٧٤ (٨) مسلم: ٢٠٩٤/٤ (٩) مسلم: ١٩٩٩/٤ (١٠) فتح الباري: ١١٩/٥ (١١) مسلم: ٩٣/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٧

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَن
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنٰكُمْ
شُعوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُوبُكُمْ لَمْ تَتَوَسَّسُوا وَلَكِن
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
﴿١٦﴾ يٰمُنُونَ عَلَيْكُمُ ءَانُؤُا قُلْ لَا تَمُنُّوْا عَلٰى إِسْلٰمِكُمْ بَلِ ٱللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَن هَدٰىكُمْ لِلْإِيمٰنِ إِن كُنتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِصِرَاطِ بِنَاتِ عَمَلُونَ ﴿١٨﴾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] وَالْهُمَزُ بِالْفِعْلِ وَاللُّمَزُ بِالْقَوْلِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَٰذَا مَثَلٌ بَيِّنٌ﴾ [القم: ١١] أَي يَحْقِرُ النَّاسَ وَيَهْمِزُهُمْ طَٰغِيًا عَلَيْهِمْ وَيَمْشِي بَيْنَهُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَهِيَ اللَّمَزُ بِالْمَقَالِ، وَلِهَٰذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ ابْنُ حَيَّانَ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي لَا يُطْعَنُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ﴾ أَي لَا تَدَاعُوا بِاللِّقَابِ، وَهِيَ الَّتِي يَسُوءُ الشَّخْصَ سَمَاعُهَا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي جَبْرِةَ بْنِ الصَّحَّاحِ، قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ فِي بَنِي سَلَمَةَ ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ﴾ قَالَ: قَدِيمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةِ، وَلَيْسَ فِينَا رَجُلٌ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، فَكَانَ إِذَا دَعَا وَاحِدًا مِنْهُمْ بِاسْمٍ مِنْ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَٰذَا، فَتَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ﴾^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٢). وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أَي يَسُّ الصِّفَةُ وَالِاسْمُ الْفُسُوقُ، وَهُوَ التَّنَابُرُ بِاللِّقَابِ - كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَنَاعَتُونَ - بَعْدَ مَا دَخَلْتُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَعَقَلْتُمُوهُ ﴿وَمَنْ لَمْ يَبْ﴾ أَي مِنْ هَٰذَا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾

[التَّهْيُّ عَنِ الظَّنِّ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الظَّنِّ، وَهُوَ التُّهْمَةُ وَالتَّخُونُ لِلْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَالنَّاسِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، لِأَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ يَكُونُ إِثْمًا مَحْضًا، فَلْيَتَجَنَّبْ كَثِيرٌ مِنْهُ احْتِياطًا. وَرَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أُخْبِكَ الْمُؤْمِنَ إِلَّا خَيْرًا، وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمِلًا^(٣). وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْتَاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ^(٥).

وَعَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا

تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَجُلُ لِْمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ^(٦). ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أَي عَلَى بَعْضِكُمْ بَعْضًا وَالتَّجَسُّسُ غَالِيًا يُطْلَقُ فِي الشَّرِّ وَمِنْهُ الْجَاسُوسُ. وَأَمَّا التَّحَسُّسُ فَيَكُونُ غَالِيًا فِي الْخَيْرِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَكْفِيكَ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ كُلُّ مِنْهُمَا فِي الشَّرِّ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(٧). وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: التَّجَسُّسُ: الْبَحْثُ عَنِ الشَّيْءِ. وَالتَّحَسُّسُ: الْإِسْتِمَاعُ إِلَى حَدِيثِ الْقَوْمِ وَهُمْ لَهُ

(١) أحمد: ٤٦٠/٤ (٢) أبو داود: ٢٤٦/٥ (٣) أخرجه أحمد في الزهد، الدر المنثور: ٩٩/٦ (٤) الموطأ: ٩٠٧/٢ (٥) فتح الباري: ٤٩٩/١٠ (٦) مسلم: ١٩٨٣/٤ وتحفة الأحوزي: ٦٤/٦ (٧) فتح الباري: ٤٩٦/١٠

كَارَهُونَ أَوْ يَسْمَعُ عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ، وَالتَّذَابُرُ: الصَّرْمُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْبَغُ بِمَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فِيهِ نَهْيٌ عَنِ الْغِيْبَةِ، وَقَدْ فَسَّرَهَا الشَّارِعُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْغِيْبَةُ؟ قَالَ ﷺ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ ﷺ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اِعْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢). وَقَدْ وَرَدَ فِي الْغِيْبَةِ الرَّجْرُ الْأَكِيدُ، وَلِهَذَا سَبَّهَهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَكْلِ اللَّحْمِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أَيْ كَمَا تَكْرَهُونَ هَذَا طَبْعًا فَكَرِهُوا ذَلِكَ شَرْعًا، فَإِنَّ عَقُوبَتَهُ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، وَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا كَمَا قَالَ ﷺ فِي الْعَائِدِ فِي هَيْبَتِهِ: «كَالْكَلْبِ يَبْقَى ثُمَّ يَرْجِعُ فِي قَيْبِهِ» وَقَدْ قَالَ: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السُّوءِ»^(٣) وَتَبَّتْ فِي الصَّحَاحِ وَالْحَسَانِ وَالْمَسَانِيدِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٌ أَنَّهُ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَةِ الْوُدَاعِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(٤).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعِرْضُهُ وَدَمُهُ، حَسَبَ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْفَرُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»^(٥). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٦).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنِ ابْنِ عَمٍّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ مَا عَزَا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى قَالَهَا أَرْبَعًا، فَلَمَّا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ قَالَ: «زَنَيْتَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «وَتَلَدِي مَا الزَّانِي؟» قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُ مِنْهَا حَرَامًا مَا يَأْتِي الرَّجُلُ مِنَ امْرِئِهِ حَلَالًا. قَالَ: «مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؟» قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَدْخَلْتَ ذَلِكَ مِثْلَكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَا كَمَا يَغِيبُ الْمَيْلُ فِي الْمُكْحَلَةِ وَالرِّشَا فِي الْمَيْتِ؟» قَالَ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَمَرَ بِرَجْمِهِ، فَرَجِمَ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلَيْنِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَلَمْ تَر إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ تَدْعُهُ نَفْسُهُ حَتَّى رَجِمَ رَجْمَ الْكَلْبِ، ثُمَّ سَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى مَرَّ بِجِيفَةِ حِمَارٍ فَقَالَ: «أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟ انزِلَا فَكَلَا مِنْ جِيفَةِ هَذَا

الْحِمَارِ» قَالَا: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يُؤْكَلُ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «فَمَا يَلْتُمَا مِنْ أَحْيِكُمَا أَيُّمَا أَشَدُّ أَكْلًا مِنْهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّهُ الْآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْعَمَسُ فِيهَا»^(٧). إِنْشَادٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَارْتَفَعَتْ رِيحٌ جِيفَةً مُنْتَبِهَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّذَرُونْ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ»^(٨).

[طَرِيقَةُ تَوْبَةِ الْمُغْتَابِ وَالنَّمَامِ]

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ فَرَأَيْتُمْ فِي ذَلِكَ وَاحْتَسَبُوا مِنْهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ تَوَّابٌ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، رَحِيمٌ لِمَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ. قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: طَرِيقُ الْمُغْتَابِ لِلنَّاسِ فِي تَوْبَتِهِ أَنْ يُقْلِعَ عَنِ ذَلِكَ وَيَعَزِمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ. وَهَلْ يُشْتَرَطُ التَّدَمُّ عَلَى مَا فَاتَ؟ فِيهِ زِيَاعٌ، وَأَنْ يَتَحَلَّلَ مِنَ الَّذِي اغْتَابَهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَتَحَلَّلَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا أَعْلَمَهُ بِذَلِكَ رَبَّمَا تَأَدَّى أَشَدَّ مِمَّا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ بِمَا كَانَ مِنْهُ، فَطَرِيقُهُ إِذَا: أَنْ يُنْبِئَ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ فِي الْمَجَالِسِ الَّتِي كَانَ يَدْخُلُ فِيهَا، وَأَنْ يَرُدَّ عَنْهُ الْغِيْبَةَ بِحَسْبِهِ وَطَاقَتِهِ، لِتَكُونَ تِلْكَ بَيْتَكَ.

﴿يَتَأْتِي النَّاسَ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٩)

[كُلُّ النَّاسِ بَنُو آدَمَ وَحَوَّاءَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِلنَّاسِ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَهَمَّا آدَمُ وَحَوَّاءُ، وَجَعَلَهُمْ شُعُوبًا وَهِيَ أَعْمٌ مِنَ الْقَبَائِلِ، وَبَعْدَ الْقَبَائِلِ مَرَاتِبُ أُخْرَى كَالْفِصَائِلِ، وَالْعَسَائِرِ، وَالْعَمَائِرِ، وَالْأَفْحَادِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالشُّعُوبِ بَطُونُ الْعَجَمِ، وَبِالْقَبَائِلِ بَطُونُ الْعَرَبِ، كَمَا أَنَّ الْأَسْبَاطَ بَطُونُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ لَحِضَتْ

(١) أبو داود: ١٩١/٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٦٣/٦ (٣) فتح الباري: ٢٧٨/٥ (٤) فتح الباري: ٦٧٠/٣ ومسلم: ١٣٠٦/٣ وتحفة الأحوذى: ٤٨١/٨ وأحمد: ٢٣٠/١ (٥) أبو داود: ١٩٥ (٦) تحفة الأحوذى: ٥٤/٦ (٧) مسند أبي يعلى: ٦/٥٢٤ إسناده ضعيف من أجل ابن عم أبي هريرة وهو عبد الرحمن الصامت وقال البخاري لا أراه محفوظا نصب الراية ٣٠٨/٣ - ٣٠٩ وضعفه الألباني [الإرواء: ٢٣٥٤] (٨) أحمد: ٣٥١/٣

هَذَا فِي مُدْمَمَةٍ مُرَدَّةٍ جَمَعْتَهَا مِنْ كِتَابِ الْأَشْبَاهِ لِأَبِي عُمَرَ
ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ، وَمِنْ كِتَابِ «الْقَصْدِ وَالْأَمَمِ فِي مَعْرِفَةِ
أَنْسَابِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ» فَجَمِيعُ النَّاسِ فِي الشَّرَفِ بِالنَّسَبِ
الطَّبِئِيَّةِ إِلَى آدَمَ وَحَوَاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ سَوَاءً، وَإِنَّمَا
يَتَفَاضَلُونَ بِالْأُمُورِ الدِّيْنِيَّةِ وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمُتَابَعَةُ
رَسُولِهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الْغِيْبَةِ وَاحْتِقَارِ
بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا، مُثَبِّهًا عَلَى تَسَاوِيهِمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾
أَيُّ لِيَحْتَضِلَ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمْ، كُلُّ يَرْجِعُ إِلَى قَبِيلَتِهِ. وَقَالَ
مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ كَمَا يُقَالُ: فَلَانَ بَنُ
فُلَانٍ مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَيْ مِنْ قَبِيلَةٍ كَذَا وَكَذَا^(١). وَقَالَ
سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: كَانَتْ جَمِيزٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَى مَخَالِيفِهَا،
وَكَانَتْ عَرَبُ الْحِجَابِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى قَبَائِلِهَا.

[الْكُرْمُ بِالتَّقْوَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ أَيْ إِنَّمَا
تَتَفَاضَلُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّقْوَى لَا بِالْأَحْسَابِ، وَقَدْ
وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. رَوَى
الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ
النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» قَالُوا: لَيْسَ
عَنْ هَذَا نَسَأَلُكَ. قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ
نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا
نَسَأَلُكَ. قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسَأَلُونِي؟» قَالُوا:
نَعَمْ. قَالَ: «فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا
فَقَّهُوا»^(٢) وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ^(٣) وَرَوَاهُ
النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ^(٤).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى مُسْلِمٌ رَجِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ
إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ
وَأَعْمَالِكُمْ»^(٥) وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ^(٦).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى
نَاقَتِهِ الْفُقُوءَاءِ يَسْتَلِمُ الْأَرْكَانَ بِمِخْجَنِ فِي يَدِهِ، فَمَا وَجَدَ
لَهَا مَنَاحًا فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى نَزَلَ ﷺ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ،
فَخَرَجَ بِهَا إِلَى بَطْنِ الْمَسِيلِ فَأَنِيحَتْ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
خَطَبَهُمْ عَلَى رِجْلَيْهِ فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ
أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا
يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ
أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ^(١٥) قُلْ أَتَسْلِمُونَ لِلَّهِ بِرِيبِكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءًا
عَلَيْهِ^(١٦) يَسْتَوُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَسْمَعُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ
يَعْمُرُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(١٨)

[الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُسْلِمِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَوَّلَ مَا دَخَلُوا
فِي الْإِسْلَامِ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَتِمَّ كُنْ
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ بَعْدُ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا
وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وَقَدْ اسْتَفِيدَ
مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ أَحْصَى مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا
هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الشُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَبَدُلَ عَلَيْهِ حَدِيثٌ

(١) الطبري: ٣١٢/٢٢ (٢) فتح الباري: ٢١٢/٨ (٣) فتح
الباري: ٤٧٧/٦ و٤٨١ (٤) النسائي في الكبرى: ٣٦٧/٦ (٥)
مسلم: ١٩٨٧/٤ (٦) ابن ماجه: ١٣٨٨/٢ (٧) المنتخب لعبد
ابن حميد: ٧٩٣ إسناذه ضعيف فيه موسى بن عبيدة عن عبدالله بن
دينار وقال ابن حجر: ضعيف ولا سيما في عبدالله بن دينار
[تقريب]

السَّمَاءِ وَلَا أَصْعُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ يَعْنِي الْأَعْرَابَ الَّذِينَ يُمُنُونَ بِإِسْلَامِهِمْ وَمَتَابِعِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ فَإِنَّ نَفْعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعُودُ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ الْمُنَّةُ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي فِي دَعْوَاكُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ يَوْمَ حُنَيْنٍ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَّقِرِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَعَانَاكُمْ اللَّهُ بِي؟» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ^(٣).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَرَاءُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَتْ بَنُو أَسَدٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَسْلَمْنَا وَقَاتَلْنَاكَ الْعَرَبُ وَلَمْ نَقَاتِلْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فَهْمَهُمْ قَلِيلٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ». وَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ: ﴿يُمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤). ثُمَّ كَرَّرَ الْإِنْخَابَ بِعِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ وَبَصَرِهِ بِأَعْمَالِ الْمَخْلُوقَاتِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحُجْرَاتِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ قٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[بِدَايَةُ الْمَفْصَلِ]

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ أَوَّلُ الْحِزْبِ الْمَفْصَلِ عَلَى الصَّحِيحِ، وَقِيلَ: مِنَ الْحُجْرَاتِ. وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ الْعَوَامُّ: إِنَّهُ مِنْ «عَمٍ» فَلَا أَصْلَ لَهُ وَلَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْمُعْتَبَرِينَ -فِيمَا نَعْلَمُ-. إِذَا عَلِمَ هَذَا، فَإِذَا عَدَدَتْ ثَمَانِيًا وَأَرْبَعِينَ سُورَةً فَالْتَمِي بَعْدَهُنَّ سُورَةَ قٍ. بَيَانُهُ: ثَلَاثٌ: الْبَقْرَةُ وَأَلْ عِمْرَانُ وَالنِّسَاءُ. وَخَمْسٌ: الْمَائِدَةُ وَالْأَنْعَامُ وَالْأَعْرَافُ وَالْأَنْفَالُ وَبَرَاءَةُ.

جَبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ سَأَلَ عَنِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَنِ الْإِيمَانِ ثُمَّ عَنِ الْإِحْسَانِ، فَتَرَفَى مِنَ الْأَعْمِ إِلَى الْأَخْصِ ثُمَّ لِلْأَخْصِ مِنْهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا وَلَمْ يُعْطِ رَجُلًا مِنْهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعْطَيْتَ فَلَانًا وَفُلَانًا وَلَمْ تُعْطِ فَلَانًا شَيْئًا، وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ؟» حَتَّى أَعَادَهَا سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَلَاثًا وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَوْ مُسْلِمٌ؟» ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْطِي رَجُلًا وَأَدْعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ، فَلَمْ أُعْطِهِ شَيْئًا مَخَافَةَ أَنْ يُكْبِتُوا فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ»^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢). فَقَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُسْلِمِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ أَخْصَرَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ قَرَرْنَا ذَلِكَ بِإِدْلَالِهِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابَ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ آيَةِ لَيْسُوا بِمُنَافِقِينَ وَإِنَّمَا هُمْ مُسْلِمُونَ لَمْ يُسْتَحْكَمْ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامًا أَعْلَى مِمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ فَأَدَّبُوا فِي ذَلِكَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَقَتَادَةَ وَآخِرَةَ ابْنِ جَرِيرٍ. وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُؤُلَاءِ تَأْدِيبًا: ﴿قُلْ لَمْ تَمُنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَي لَمْ تَصِلُوا إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بَعْدَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أَي لَا يُفْتَضِلْكُمْ مِنْ أَجُورِكُمْ شَيْئًا كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا آَلَتْهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الْكَمَلُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أَي لَمْ يَشْكُوا وَلَا تَزَلُّوا بَلْ ثَبَّتُوا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ هِيَ التَّصَدِيقُ الْمَحْضُ ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي وَبَدَلُوا مُهَجَّهُمْ وَنَفَائِسَ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أَي فِي قَوْلِهِمْ إِذَا قَالُوا إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، لَا كَبَعْضِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا الْكَلِمَةُ الظَّاهِرَةُ.

وَقَوْلُهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ بِدِينِكُمْ﴾ أَي أَتَخَيَّرُونَهُ بِمَا فِي ضَمَائِرِكُمْ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

(١) أحمد: ١٧٦/١ (٢) فتح الباري: ٩٩/١ ومسلم: ١٣٢/١

(٣) فتح الباري: ٦٤٤/٧ (٤) النسائي في الكبرى: ١١٥١٩

سُورَةُ قٍ
٥١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ لَئِنْ دَامْتُمْ مُكٰفِرًا نَّابِئًا بِذٰلِكَ رَجِعَ عَيْدٌ ﴿٣﴾ فَذَعَلْنَا مَا نَقُصُّ الْأَرْضِ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتٰبٌ حَفِیْظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِیْحٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْبَسْنَا فِيهَا رِیْسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْعِیْحٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرُوا وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عَبْدٍ مِّنْهُمْ مِّنْ نَّعْمٍ ﴿٨﴾ وَتَرَكْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَاتَّبَعْنَاهُ مِنْ جَنَّتِ وَحَتَّى الْخِیْطِ الْبَسِیْطِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلِ بَأْسَقَتِ لَهَا طَلْعٌ نَّضِیْدٌ ﴿١٠﴾ رَرِيقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَاهُ بِلَدَّةٍ مِّیْتًا كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّیْسِ وَشَمُودٌ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنٌ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَنْبِیَکَةِ وَقَوْمِ تُبٰعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِیْدٌ ﴿١٤﴾ أَفَعِیْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِیْدٍ ﴿١٥﴾

وَسَبْعٌ: يُوسُفُ وَهُودٌ وَيُوسُفُ وَالرَّعْدُ وَإِبْرَاهِيمُ وَالْحِجْرُ وَالنَّحْلُ.

وَتَسْعٌ: سُبْحَانَ وَالْكَهْفِ وَمَرِيْمٌ وَطَهَ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْحَجُّ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالنُّورُ وَالْفُرْقَانُ.

وَإِحْدَى عَشْرَةَ: الشُّعْرَاءُ وَالشَّمْلُ، وَالْقَصَصُ، وَالْعَنْكَبُوتُ وَالرُّومُ، وَلُقْمَانُ، وَالْمَسْجِدَةُ وَالْأَحْزَابُ وَسَبَأٌ وَفَاطِمَةٌ وَيَسَ.

وَتَلَاثَ عَشْرَةَ: الصَّافَّاتُ وَصَ وَالرُّمُّ وَعَافِرٌ وَحَمَّ السَّجْدَةُ وَحَمَّ عَسَقٌ، وَالرُّخْرُفُ، وَالذُّخَانُ وَالْجَائِيَّةُ وَالْأَحْقَافُ، وَالْقِتَالُ وَالْفَتْحُ، وَالْحُجْرَاتُ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْحِزْبُ الْمُتَّصِلُ. كَمَا قَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فَتَعَيَّنَ أَنَّ أَوَّلَهُ سُورَةُ ق. وَهُوَ الَّذِي قُلْنَا. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

[فَضْلُ سُورَةِ ق]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ أَبَا وَائِدٍ اللَّيْثِيَّ: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدِ؟ قَالَ: يَقَافُ وَاقْتَرَبْتُ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السَّنَنِ الْأَرْبَعَةُ (١).

(حديث آخر) وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ هِشَامِ بِنْتِ حَارِثَةَ قَالَتْ: لَقَدْ كَانَ تَتُورُنَا وَتَتُورُ النَّبِيِّ ﷺ وَاحِدًا سَتَيْنِ أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ سَنَةٍ، وَمَا أَخَذْتُ «قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» إِلَّا

عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يَقْرُوهَا كُلَّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ (٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٣). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنِ ابْنَةِ الْحَارِثِ بْنِ الثُّعْمَانِ، قَالَتْ: مَا حَفِظْتُ قَ إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ. قَالَتْ:

وَكَانَ تَتُورُنَا وَتَتُورُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاحِدًا (٤). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (٥). وَالْقَصْدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ

بِهَذِهِ السُّورَةِ فِي الْمَجَامِعِ الْكِبَارِ، كَالْعِيدِ وَالْجُمُعِ لِأَشْتِمَالِهَا عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ، وَالْبُعْثِ وَالتَّشْوِيرِ وَالْمَعَادِ وَالْقِيَامِ وَالْحِسَابِ، وَالْحِجَّةِ وَالتَّارِ وَالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالتَّرغِيبِ وَالتَّرهيبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ لَئِنْ دَامْتُمْ مُكٰفِرًا نَّابِئًا بِذٰلِكَ رَجِعَ عَيْدٌ ﴿٣﴾ فَذَعَلْنَا مَا نَقُصُّ الْأَرْضِ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتٰبٌ حَفِیْظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِیْحٍ ﴿٥﴾

«قَ»: حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الْهَجَاءِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ

السُّورِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صَ﴾ وَ ﴿تَ﴾ وَ ﴿المر﴾ وَ ﴿حم﴾ وَ ﴿طس﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ وَقَدْ أَسْلَفْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

[تَعْجَبُ الْكُفَّارِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْمَعَادِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» أَيِ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ الَّذِي «لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [افصلت: ٤٢] وَجَوَابُ الْقَسَمِ هُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقَسَمِ، وَهُوَ إِثْبَاتُ التَّوْبَةِ وَإِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَتَقْرِيرُهُ وَتَحْقِيقُهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْقَسَمُ يُتْلَقُ لَفْظًا، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: «صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشَقَاقِهِ» [ص: ١، ٢]

(١) أحمد: ٢١٧/٥ ومسلم: ٦٠٧/٢ وأبو داود: ٦٨٣/١ وتحفة الأحوذى: ٧٩/٣ والنسائي: ١٨٢/٣ وابن ماجه: ٤٠٨/١ (٢) أحمد: ٤٣٥/٦ (٣) مسلم: ٥٩٥/٢ (٤) أبو داود: ٦٦٠/١ (٥) مسلم: ٥٩٥/٢ والنسائي: ١٠٧/٣

وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿قَبَّ وَالْفَرْهَ إِنْ الْمَجِيدِ﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿أَيُّ تَعَجَّبُوا مِنْ إِرْسَالِ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَشَرِ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِن كَانَ لِلنَّاسِ عِجَابٌ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أَيُّ وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي تَعَجُّبِهِمْ أَيْضًا مِنَ الْمَعَادِ وَاسْتِنْعَادِهِمْ لَوْفُوعِهِ: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا زُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أَيُّ يَقُولُونَ: أَيْدًا مِنَّا وَبَلِينَا وَتَقَطَّعَتِ الْأَوْصَالُ مِنَّا وَصِرْنَا تُرَابًا، كَيْفَ يُمَكِّنُ الرَّجُوعُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ هَذِهِ الْبَيْتَةِ وَالتَّرْكِيبِ؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أَيُّ بَعِيدُ الْوُفُوعِ . وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ اسْتِحَالَتَهُ وَعَدَمَ إِمكَانِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أَيُّ مَا تَأْكُلُ مِنْ أَحْسَادِهِمْ فِي الْبِلَى نَعْلَمُ ذَلِكَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْنَا، أَيْنَ تَفَرَّقَتِ الْأَبْدَانُ وَأَيْنَ ذَهَبَتْ، وَإِلَىٰ أَيْنَ صَارَتْ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَافِظٌ﴾ أَيُّ حَافِظٌ لِذَلِكَ فَالْعِلْمُ شَامِلٌ وَالكِتَابُ أَيْضًا فِيهِ كُلُّ الْأَشْيَاءِ مَضْبُوتَةٌ . قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أَيُّ مَا تَأْكُلُ مِنْ لُحُومِهِمْ وَأَبْسَارِهِمْ، وَعِظَامِهِمْ وَأَسْعَارِهِمْ^(١) . وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ^(٢) . ثُمَّ بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَبَبَ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِنْعَادِهِمْ مَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ، فَقَالَ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٌ﴾ أَيُّ وَهَذَا حَالٌ كُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ، مَهْمَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بَاطِلٌ . وَالْمَرِيجُ: الْمُخْتَلِفُ الْمُضْطَرِبُ الْمُتَمَيِّسُ الْمُتَكْرِرُ جَلَالُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ **(٨)** يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿[الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ **(٩)** وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوْسًا وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ **(١٠)** وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ **(١١)** وَوَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَلْبَسْنَا بِهٖ حَبَّتَ وَحَبَّ الْحَصِيدِ **(١٢)** وَالنَّخْلَ بَاسِقَدٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ **(١٣)** رِزْقًا لِعِبَادٍ وَأَحْيَيْنَا بِهٖ بَلَدَةً مَيْتًا

كَذَلِكَ الْخُرُوجُ **(١٤)**

[الاحقاف: ٣٣] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِذِ الَّذِينَ أَحْيَاهَا

(١) الطبري: ٣٢٨/٢٢ (٢) الطبري: ٣٢٩/٢٢ (٣) الطبري: ٣٣٢/٢٢ (٤) الطبري: ٣٣٥/٢٢

بَيَانٌ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْمَعَادِ يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا لِلْعِبَادِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَظْهَرَ بِهَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا تَعَجَّبُوا مُسْتَعِيدِينَ لَوْفُوعِهِ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا﴾ أَيُّ بِالْمَصَابِيحِ وَمَا

[بَيَانٌ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْمَعَادِ]

بَيَانٌ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْمَعَادِ يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا لِلْعِبَادِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَظْهَرَ بِهَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا تَعَجَّبُوا مُسْتَعِيدِينَ لَوْفُوعِهِ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا﴾ أَيُّ بِالْمَصَابِيحِ وَمَا

لَمَجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فصلت: ٣٩].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ (١٢) وَعَادٌ وَرَعُونَ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَنْعَيْنَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلَ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ حَدِيدٍ ﴿١٥﴾

[تذكير قريش بهلاك الأمم السابقة]

يَقُولُ تَعَالَى مُهْدِدًا كَيْفَارٍ قُرَيْشٍ، بِمَا أَحَلَّهُ بِأَسْبَابِهِمْ وَنُظْرَانِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكذِّبِينَ قَبْلَهُمْ، مِنَ النَّفَمَاتِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا كَقَوْمِ نُوحٍ وَمَا عَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْعَرْقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّتُهُمْ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ. ﴿ وَثَمُودُ ﴾ (١٢) وَعَادٌ وَرَعُونَ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿ وَهُمْ أُمَّتُهُ الَّذِينَ بَعِثَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ سَدُومَ وَمُعَامَلَتَيْهَا مِنَ الْعَوْرِ، وَكَيْفَ حَسَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمُ الْأَرْضَ، وَأَحَالَ أَرْضَهُمْ بَحِيرَةً مُنْتِنَةً حَبِيئَةً يَكْفُرُهُمْ وَطُعْيَانِيهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ وَهُمْ قَوْمٌ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ وَهُوَ الْيَمَانِيُّ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ شَأْنِهِ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ مَا أُغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ.

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ أَي كُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّمِ وَهَؤُلَاءِ الْقُرُونِ كَذَّبَ رُسُلَهُمْ، وَمَنْ كَذَّبَ رَسُولًا فَكَأَنَّمَا كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَاحِدٌ، فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَوْ جَاءَهُمْ جَمِيعُ الرُّسُلِ كَذَّبُوهُمْ ﴿ حَقَّ وَعِيدِ ﴾ أَي فَحَقَّ عَلَيْهِمْ مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى التَّكْذِيبِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ كَمَا كَذَّبَ أَوْلِيكَ.

[الإعادة أسهل]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنْعَيْنَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلَ ﴾ أَي أَفَاعَجَزْنَا ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ حَتَّى هُمْ فِي شَكٍّ مِنَ الْإِعَادَةِ ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ حَدِيدٍ ﴾ وَالْمَعْنَى: أَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ لَمْ يُعْجِزْنَا وَالْإِعَادَةُ أَسْهَلُ مِنْهُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِيبُ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (١٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٨، ٧٩] وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ: « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤدِّبُنِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلَ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ » (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ ق

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمْنَاهُ مَا نُوسِسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَحَنَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ بَلَغَى الْمَتَلَقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عِيدِ ﴿٢٣﴾ أَلَيْفَا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قَالِقِيًّا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطِغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانِ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوهُ لَدَى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُرْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ حَسْبِيَ الرَّحْمَنُ بِالْعَيْبِ وَجَاءَهُ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ آدَخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمْنَاهُ مَا نُوسِسُ بِهِ نَفْسَهُ وَحَنَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (١٦) إِذْ بَلَغَى الْمَتَلَقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

[إحاطته تعالى وحفظه لكل ما عند الإنسان]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ خَالِقُهُ، وَعَلِمُهُ مُجِيطٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِ، حَتَّى إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا نُوسِسُ بِهِ نَفْسُ بَنِي آدَمَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَقَدْ بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ» (١). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَحَنَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يَعْنِي مَلَائِكَتَهُ تَعَالَى أَقْرَبَ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ، وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى

(١) فتح الباري: ١/٨، ٦١١ (٢) فتح الباري: ١١/٥٥٧

الْعِلْمِ، فَإِنَّمَا فَرَّ لَيْلًا يَلْزَمَ حُلُوقَ أَوْ اتِّحَادًا وَهُمَا مَتَفَيَّانٍ بِالْإِجْمَاعِ، تَعَالَى اللَّهُ وَتَقَدَّسَ، وَلَكِنَّ اللَّفْظَ لَا يَفْتَضِيهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْمُحْتَضِرِ ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] بَعْنِي مَلَائِكَتُهُ وَكَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فَالْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ بِالذِّكْرِ وَهُوَ الْقُرْآنُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ، بِإِقْدَارِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. فَلِلْمَلِكِ لَمَّةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، كَمَا أُخْبِرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمَلَائِكَةُ﴾ بَعْنِي الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ عَمَلِ الْإِنْسَانِ.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَائِدًا﴾ أَيُّ مُتْرَصِّدًا ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أَيُّ ابْنِ آدَمَ ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أَيُّ مَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ أَيُّ إِلَّا وَلَهَا مَنْ يَرْقُبُهَا مَعِدٌ لِذَلِكَ يَكْتُبُهَا لَا يَتْرُكُ كَلِمَةً وَلَا حَرَكَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرِثَ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَثِيرِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] فَيَكْتُبُ الْمَلِكُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ، هَلْ يَكْتُبُ الْمَلِكُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ^(١). أَوْ إِنَّمَا يَكْتُبُ مَا فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ كَمَا هُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى قَوْلَيْنِ، وَظَاهِرُ آيَةِ الْأَوَّلِ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُرَبِّيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ». فَكَانَ عَاقِبَتُهُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَتَّعْنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ^(٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالسَّائِغِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣). وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ.

﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْمُحْتَضِرِ ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] بَعْنِي مَلَائِكَتُهُ وَكَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فَالْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ بِالذِّكْرِ وَهُوَ الْقُرْآنُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ، بِإِقْدَارِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. فَلِلْمَلِكِ لَمَّةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، كَمَا أُخْبِرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمَلَائِكَةُ﴾ بَعْنِي الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ عَمَلِ الْإِنْسَانِ.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَائِدًا﴾ أَيُّ مُتْرَصِّدًا ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أَيُّ ابْنِ آدَمَ ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أَيُّ مَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ أَيُّ إِلَّا وَلَهَا مَنْ يَرْقُبُهَا مَعِدٌ لِذَلِكَ يَكْتُبُهَا لَا يَتْرُكُ كَلِمَةً وَلَا حَرَكَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرِثَ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَثِيرِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] فَيَكْتُبُ الْمَلِكُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ، هَلْ يَكْتُبُ الْمَلِكُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ^(١). أَوْ إِنَّمَا يَكْتُبُ مَا فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ كَمَا هُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى قَوْلَيْنِ، وَظَاهِرُ آيَةِ الْأَوَّلِ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُرَبِّيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ». فَكَانَ عَاقِبَتُهُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَتَّعْنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ^(٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالسَّائِغِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣). وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ.

﴿التَّذْكِيرُ بِسَكْرَةِ الْمَوْتِ وَنَفْخِ الصُّورِ وَمَا يَلِيهِ مِنَ

الْحَشْرِ﴾

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَيِّدًا﴾ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: وَجَاءَتْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَفْخِ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حَدِيثِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَالْفَرْعِ وَالصَّعْقِ وَالْبُعْثِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ انْقَمَ الْقُرْنُ، وَحَتَّى جَهَنَّمَةُ، وَانْتَظَرُ أَنْ يُؤَدَّنَ لَهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ ﷺ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» فَقَالَ الْقَوْمُ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(٦). ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أَيُّ مَلِكٌ يَسْأَلُهُ إِلَى الْمُحْشَرِ وَمَلِكٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ آيَةِ الْكُرَيْمَةِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ^(٧). ثُمَّ رَوَى عَنْ يَحْيَى بْنِ زَائِعٍ مَوْلَى لَتَيْفِيفٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ

(١) الطبري: ٣٤٥/٢٢ (٢) أحمد: ٤٦٩/٣ (٣) تحفة الأحوذني: ٦١٠/٦ وتحفة الأشراف: ٥٥٥/٢ وابن ماجه: ٢/١٣١٢ (٤) فتح الباري: ٣٦٩/١١ (٥) الطبراني: ٢٢٢/٧ إسناده ضعيف فيه معاذ بن محمد الهذلي لا يتابع على رفع حديثه وأيضاً الحسن البصري مدلس ولم يصرح وعنده: فجعل يسعى... حتى إذا أعبى وانبر. (٦) تحفة الأحوذني: ١١٧/٧ (٧) الطبري: ٣٤٧/٢٢

قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَتَنْطَوِي عَلَيْهِمْ فَتَقْدِفُهُمْ فِي عَمْرَاتِ جَهَنَّمَ»^(٣).

[اِخْتِصَامُ الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ عِنْدَ اللَّهِ]

﴿قَالَ رَبُّهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَعَبْرُهُمْ: هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي وَكَّلَ بِهِ^(٤). ﴿رَبَّنَا مَا أَطَقْنَاهُ﴾ أَي يَقُولُ عَنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَدْ وَافَى الْقِيَامَةَ كَأَفْرًا يَبْرَأُ مِنْهُ شَيْطَانُهُ يَقُولُ: ﴿رَبَّنَا مَا أَطَقْنَاهُ﴾ أَي مَا أَضَلَّنَاهُ ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أَي بَلْ كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ ضَالًّا قَابِلًا لِلْبَاطِلِ مُعَانِدًا لِلْحَقِّ، كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَمَا أَنْفَسْتُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِي إِيَّيْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ﴾ يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ لِلْإِنْسَانِيِّ وَقَرِينِهِ مِنَ الْجِنِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا يَخْتَصِمَانِ بَيْنَ يَدَيِ الْحَقِّ تَعَالَى، يَقُولُ الْإِنْسَانِيُّ: يَا رَبِّ! هَذَا أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: ﴿رَبَّنَا مَا أَطَقْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أَي عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ، يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمَا: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ﴾ أَي عِنْدِي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ أَي قَدْ أَعْدَرْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، وَأَنْزَلْتُ الْكُتُبَ، وَقَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَجُ وَالْبَيِّنَاتُ وَالْبُرَاهِينُ ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يُعْنِي قَدْ قَضَيْتُ مَا أَنَا قَاضٍ^(٥) ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أَي لَسْتُ أَعْدَبُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ لَا أَعْدَبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُسْلِمِينَ عِنْدَ بَعِيدٍ ﴿هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِكُلِّ آوَابٍ حَافِظٍ﴾ مَنْ حَافِظِ الرَّحْمَنِ وَالنَّبِيِّ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُبِينٍ ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٢٣﴾

[أَحْوَالُ جَهَنَّمَ وَالْحِجَّةُ وَأَهْلِهَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَلِ امْتَلَأْتِ؟

(١) الطبري: ٣٤٧/٢٢ (٢) الطبري: ٣٥٦/٢٢ (٣) أحمد: ٤٠/٣ [إسناده ضعيف فيه عطية العوفي يخطيء كثيرا كان شعبا مدلسا [تقريب] (٤) الطبري: ٣٥٧/٢٢ (٥) الطبري: ٢٢/٢٢

عَنْهُ يَحْطُبُ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَحَاتَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فَقَالَ سَائِقٌ يُسَوِّفُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَشَهِيدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِمَا عَمِلَتْ^(١). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي عَفْوَةٍ مِنْ هَذَا فَكُنْتُمْ عَنْكَ غِطَاءً فَفَصَّرَكُمُ الْيَوْمَ حَيْدٌ﴾ الْخِطَابُ مَعَ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ - وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي عَفْوَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يُعْنِي مِنْ هَذَا الْيَوْمِ ﴿فَكُنْتُمْ عَنْكَ غِطَاءً فَفَصَّرَكُمُ الْيَوْمَ حَيْدٌ﴾ أَي قَوِيٌّ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مُسْتَبْصِرًا حَتَّى الْكُفَّارَ فِي الدُّنْيَا، يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ، لَكِنْ لَا يَتَفَعَّلُونَ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَنْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٢٣٨] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجَعْنَا لَعَمَلٍ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ رَبُّنَا هَذَا مَا لَدَيْ عَيْنِدُ﴾ أَيَا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَيْنِدُ ﴿٢٤﴾ مَتَّاعٌ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٌ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَالْقِيَامَةُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا مَا أَطَقْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿٢٧﴾ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٨﴾

[شَهَادَةُ الْمَلِكِ وَأَمْرُ اللَّهِ بِالْقَاءِ الْكَافِرِ فِي جَهَنَّمَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمَلِكِ الْمُؤَكَّلِ بِعَمَلِ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا فَعَلَ وَيَقُولُ: ﴿هَذَا مَا لَدَيْ عَيْنِدُ﴾ أَي مُعْتَدٌ مُخْصَرٌ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْكُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْخَلِيقَةِ بِالْعَدْلِ يَقُولُ: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عَيْنِدُ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهَا مُخَاطَبَةٌ مَعَ السَّائِقِ وَالشَّهِيدِ، فَالسَّائِقُ أَحْضَرَهُ إِلَى عَرْصَةِ الْحِسَابِ، فَلَمَّا أَدَّى الشَّهِيدُ عَلَيْهِ أَمْرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَائِيَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَبُسْنَ الْمَصِيرِ: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عَيْنِدُ﴾ أَي كَثِيرِ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، عَيْنِدُ مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ، مُعَارِضٌ لَهُ بِالْبَاطِلِ مَعَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ ﴿مَتَّاعٌ لِلخَيْرِ﴾ أَي لَا يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ وَلَا بَرٍّ فِيهِ، وَلَا صِلَةَ، وَلَا صَدَقَةَ ﴿مُعْتَدٍ﴾ أَي فِيمَا يُنْفِقُهُ وَيَصْرِفُهُ يَتَجَاوَزُ فِيهِ الْحَدَّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُعْتَدٍ فِي مَنَاطِقِهِ وَسَبْرِهِ وَأَمْرِهِ^(٢). ﴿مُرِيبٌ﴾ أَي شَاكٌ فِي أَمْرِهِ مُرِيبٌ لِمَنْ نَظَرَ فِي أَمْرِهِ ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أَي أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿فَالْقِيَامَةُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَخْرُجُ عَنِّي مِنَ النَّارِ يَتَكَلَّمُ يَقُولُ: وَكُلْتُ الْيَوْمَ بِتِلَاثَةٍ: بِكُلِّ جِبَارٍ عَيْنِدُ، وَمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَمَنْ

وَدَلِكْ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَعَدَهَا أَنْ سَيَمْلُؤُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَمْرٍ بِمَنْ يَأْمُرُ بِهِ إِلَيْهَا وَيُلْقِي وَهِيَ تَقُولُ: ﴿هَلْ مِنْ مَرِيدٍ﴾ أَي هَلْ بَقِيَ شَيْءٌ تَزِيدُونِي؟ هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ. وَعَلَيْهِ تَدُلُّ الْأَحَادِيثُ: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَرِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةُ قَدَمَهُ فِيهَا، فَيَنْزِي بِبَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ فَيَسْكِنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي فُضُولِ الْجَنَّةِ»^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَفَعَهُ - وَأَكْثَرَ مَا كَانَ يُوفِّقُهُ أَبُو سَفْيَانَ - «يُقَالُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَرِيدٍ؟ فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ عَلَيْهَا فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ»^(٣).

(طَرِيقٌ أُخْرَى) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَرِّبِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَالِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْلِئِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فِيهَا فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهُنَالِكَ تَمْلِئِي وَتَنْزِي بِبَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ»^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِمُتَّقِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَأَبُو مَالِكٍ وَالسُّدِّيُّ ﴿وَأَزَلَّتْ﴾ أذْيَبَتْ وَقُرْبَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ^(٥) ﴿غَيْرِ بَعِيدٍ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ لِأَنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أَي رَاجِعٍ تَائِبٍ مُقْبِلٍ ﴿حَافِظٍ﴾ أَي يَحْفَظُ الْعَهْدَ فَلَا يَنْقُضُهُ وَلَا يَنْكُتُهُ، ﴿مَنْ حَتَّى الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ﴾ أَي مَنْ خَافَ اللَّهُ فِي سِرِّهِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَقَوْلِهِ ﷺ: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(٦). ﴿وَمَاءٌ يِقَلِّبُ مُنِيبٍ﴾ أَي وَلَقِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ سَلِيمٍ إِلَيْهِ خَاضِعٌ لَدَيْهِ ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ أَي الْجَنَّةَ ﴿يَسْلَمُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَلِمَ عَلَيْهِمْ

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهُمْ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَسْفِقُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سَرْعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا أَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْنَا الْقُرْآنَ مِنْ خِيفٍ وَعَيْدٍ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الدَّارَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

مَلَائِكَةُ اللَّهِ^(٧). وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَي يَخْلُدُونَ فِي الْجَنَّةِ فَلَا يَمُوتُونَ أَبَدًا، وَلَا يَطْعَمُونَ أَبَدًا، وَلَا يَبْعَثُونَ عَنْهَا جَوْلًا، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أَي مَهْمَا اخْتَارُوا وَجَدُوا، مِنْ أَيِّ أَصْنَافِ الْمَلَأَدِ طَلَبُوا، أُخْضِرَ لَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا مَرِيدٌ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّيٍّ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ صُهَيْبِ بْنِ سَيَانَ الرُّومِيِّ: أَنَّهَا التَّنَطُّرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ^(٨).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

(١) أحمد: ٣/٢٣٤ (٢) مسلم: ٤/٢١٨٧، ٢١٨٨ (٣) فتح الباري: ٨/٤٦٠ (٤) فتح الباري: ٨/٤٦٠ (٥) الطبري: ٢٢/٣٦٣ (٦) فتح الباري: ٢/١٦٨ (٧) الطبري: ٢٢/٣٦٦ (٨) مسلم: ١/١٦٣

وَمَا يَنْتَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٦﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٧﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٣٨﴾
[تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ وَأَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَلْهَكْنَا﴾ قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿مِنَ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أَي كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَتَقَبَّلُوا فِي الْبَلَدِ هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَثَرُوا فِيهَا^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ أَي سَارُوا فِيهَا يَتَعَمَّقُونَ الْأَرْزَاقَ وَالْمَتَاجِرَ وَالْمَكَاسِبَ أَكْثَرَ مِمَّا طَفَعْتُمْ بِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ﴾ أَي هَلْ مِنْ مَفَرٍّ كَانَ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَهَلْ نَفَعَهُمْ مَا جَمَعُوهُ وَرَدَّ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ إِذْ جَاءَهُمْ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَأَنْتُمْ أَيضًا لَا مَفَرَّ لَكُمْ وَلَا مَجِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا مَجِيصَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾ أَي لِعِبْرَةٍ ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أَي لُبٌّ يَبْعِي بِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَقْلٌ ﴿أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أَي اسْتَمَعَ الْكَلَامَ فَوَعَاهُ وَتَعَقَّلَهُ بِعَقْلِهِ وَنَفَهَهُمْ بِلُبِّهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ﴾ يَعْنِي لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فِي هَذَا بِقَلْبٍ^(٢). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْعَرَبُ تَقُولُ: أَلْفَى فُلَانٌ سَمِعَهُ إِذَا اسْتَمَعَ بِأَذْنِهِ، وَهُوَ شَاهِدٌ بِقَلْبٍ غَيْرِ غَائِبٍ^(٣). وَهَكَذَا قَالَ الثَّوْرِيُّ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ^(٤). وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فِيهِ تَفْرِيرٌ لِلْمَعَادِ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْنِ بِخَلْقِهِنَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْأُخْرَى. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَتِ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ - خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَهُمْ يُسَمُّونَهُ يَوْمَ الرَّاحَةِ فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْلِيبَهُمْ فِيهَا قَالُوهُ وَتَأَوَّلُوهُ ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(٥). أَي مِنْ إغْيَاءٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣] وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ

النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يَعْنِي الْمُكَذِّبِينَ اصْبِرْ عَلَيْهِمْ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وَكَانَتِ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ نَتَيْنِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ الْفَجْرِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فِي وَقْتِ الْعَصْرِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ كَانَ وَاجِبًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى أُتَمِّهِ حَوْلًا ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ وَجُوبُهُ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ كُلَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ، وَلَكِنْ مِنْهُنَّ صَلَاةُ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ فَهَمَّا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَتَنَظَّرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّكُمْ سَتُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّكُمْ فَتَرَوْنَهُ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِيهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(٦) وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَبِقِيَّةِ الْجَمَاعَةِ مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلِ بِهِ^(٧).

[الْأَمْرُ بِالتَّسْبِيحِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أَي فَصَلِّ لَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَهَجِّدْ بِهِ نَافِلَةَ لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ﴿وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ التَّسْبِيحُ بَعْدَ الصَّلَاةِ^(٨). وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ قُرَاءَةُ الْمُهَاجِرِينَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِالدرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نَصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَّصِدُّونَ وَلَا تَنْصَدُقُ، وَيُعْتَقُونَ وَلَا نَعْتَقُ. قَالَ ﷺ: «أَفَلَا أَعْلَمُكُمْ شَيْئًا إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ

(١) الطبري: ٣٧١/٢٢ (٢) الطبري: ٣٧٣/٢٢ (٣) الطبري:

٣٧٤/٢٢ (٤) الطبري: ٣٧٤/٢٢ (٥) الطبري: ٣٧٦/٢٢

(٦) أحمد: ٣٦٥/٤ (٧) فتح الباري: ٤٦٢/٨ ومسلم: ١/

٤٣٩ وأبو داود: ٩٧/٥ وتحفة الأحوذى: ٢٦٥/٧ والنسائي في

الكبرى: ٤٦٩/٦ وابن ماجه: ٦٣/١ (٨) الطبري: ٣٨١/٢٢

إِلَّا مَنْ فَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتُمْ؟ تَسْبُحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ
ذُبِّرَ كُلُّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ قَالَ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ!
سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ.
فَقَالَ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» (١).

وَالْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذِّنْ الشُّجُرَ﴾
هُمَا الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ. وَرُويَ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ
وَأَبْنَيْهِ الْحَسَنِ، وَأَبْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَبِهِ يَقُولُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ وَالنَّخَعِيُّ
وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ
بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾
يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَا سَبِّحُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ
أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

التذكير ببعض ما يكون يوم القيامة

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ
مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أَنْ تَجْتَمِعُوا لِفَضْلِ الْقَضَاءِ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ
الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ بِعِنِي النَّفْحَةِ فِي الصُّورِ الَّتِي تَأْتِي بِالْحَقِّ
الَّذِي كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ أَيِ مِنَ
الْأَجْدَاثِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أَيِ هُوَ الَّذِي
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَإِلَيْهِ مَصِيرُ الْخَلَائِقِ
كُلُّهُمْ، فَيَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْزِلُ مَطَرًا مِنَ السَّمَاءِ يَنْبُتُ بِهِ أَجْسَادُ
الْخَلَائِقِ كُلُّهَا فِي جُبُورِهَا، كَمَا يَنْبُتُ الْحَبُّ فِي التُّرَى
بِالْمَاءِ، فَإِذَا تَكَامَلَتِ الْأَجْسَادُ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ
فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَقَدْ أُوْدِعَتِ الْأَرْوَاحُ فِي ثَقْبٍ فِي الصُّورِ
فَإِذَا نَفَخَ إِسْرَافِيلُ فِيهِ خَرَجَتِ الْأَرْوَاحُ تَتَوَهَّجُ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزِّي وَجَلَالِي لَتَرْجِعَنَّ
كُلُّ رُوحٍ إِلَى الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ، فَتَرْجِعُ كُلُّ رُوحٍ
إِلَى جَسَدِهَا، فَتَدْبُ فِيهِ كَمَا يَدْبُ السَّمُّ فِي اللَّدْبِغِ وَتَشْتَقُّ
الْأَرْضُ عَنْهُمْ فَيَقُومُونَ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ سِرَاعًا مُبَادِرِينَ
إِلَى أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّعَاءِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ
عَرَبٌ﴾ [الفرق: ٨] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ
بِحَمْدِهِمْ وَنُظِّفُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] وَفِي صَحِيحِ
مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَشْتَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ» (٢). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:
﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَا سَبِّحُ﴾ أَيِ تِلْكَ إِعَادَةُ سَهْلَةً عَلَيْنَا، بَسِيرَةً
لَدُنُنَا كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ
بِالْبَصَرِ﴾. [الفرق: ٥٠]

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا
كَلِمَاتٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. [لقمان: ٢٨]

[تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أَيِ نَحْنُ
عَلِمْنَا مُحِيطًا بِمَا يَقُولُ لَكَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ التَّكْذِيبِ، فَلَا
يُؤْمَلُكَ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا
يَقُولُونَ ﴿٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ
حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أَيِ وَلَسْتَ بِالَّذِي تُجَبِّرُ
هَؤُلَاءِ عَلَى الْهُدَى، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا كَلَّمْتَ بِهِ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أَيِ بَلَّغَ أَنْتَ رِسَالَةَ
رَبِّكَ فَإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ وَوَعِيدَهُ وَيَرْجُو وَعْدَهُ،
كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَمَّ عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:
٤٠] وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَذَكَرَ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ
عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، [البقرة: ٢٧٢] ﴿إِنَّكَ لَا
تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ
مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ
يَخَافُ وَعِيدَكَ وَيَرْجُو مَوْعُودَكَ، يَا بَارَأُ يَا رَحِيمٌ (٣).

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ق وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

تفسير سورة الذاريات وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمَقْمِرَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْآلِينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَأَسْمَاءُ

(١) فتح الباري: ٣٧٨/٢ (٢) مسلم: ١٧٨٢/٤ (٣)
القرطبي: ٢٩/١٧

ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُفِّكُ ﴿٩﴾ قُلِ
الْحَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمٍ
الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ
بِهِ، تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٤﴾

[التأكيد على صدق وقوع المعاد والحساب]

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه،
أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب
الله تعالى، ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم
بذلك، فقام إليه ابن الكواء، فقال: يا أمير المؤمنين! ما
معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُوا﴾ قال علي رضي الله
عنه: الریح. قال: ﴿فَالَّذِينَ تَدْعُوا﴾ قال رضي الله عنه:
السحاب. قال: ﴿فَالَّذِينَ تَدْعُوا﴾ قال رضي الله عنه:
السنن. قال: ﴿فَالَّذِينَ تَدْعُوا﴾ قال رضي الله عنه:
الملائكة^(١).

وقال بعضهم: الجاربات يسرا هي النجوم تجري يسرا
في أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى إلى
ما هو أعلى منه: فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق
ذلك، والمسمات أمرا: الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر
الله الشرعية والكونية، وهذا قسم من الله عز وجل على
وُفُوعِ الْمَعَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أي
لخبر صدق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ﴾ وهو الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أي لكائن
لا محالة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قال ابن عباس
رضي الله عنهما: ذات الجمال والبهاء والحسن
والاستواء^(٢). وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبیر،
وأبو مالك، وأبو صالح والسدي وقادة، وعطية العوفي
والربيع بن أنس وغيرهم^(٣). وقال الضحاك والمنهال بن
عمرو وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والرزع، إذا
ضربت الریح فینسج بعضه بعضا طرائق طرائق، فذلك
الحبک.

وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن
والبهاء، فإنها من حسنها مرتفعة شفاقة صفيقة شديدة البناء
متسعة الأرجاء أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت
والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب
الزاهرات.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ
أُفِّكُ ﴿٩﴾ قُلِ الْحَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١١﴾
يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمٍ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا
فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آجِزِينَ مَاءً نَّهْمًا لَهُمْ مِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْسِئِينَ
﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْآسَاءِ هُمْ يَسْتَعِجِرُونَ
﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّالِبِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا
وَمَا تَوْعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ
نَاطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ
أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْتُونَ
﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِعَلِيمٍ
﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَاقَتِهَا وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجْزٌ عَجِيمٌ
﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

[اختلاف أقوال المشركين]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أي إنكم أيها
المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب لا
يلتئم ولا يجتمع. وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف ما
بين مصدق بالقرآن ومكذب به^(٤). ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي
إنما يروج على من هو ضال في نفسه، لأنه قول باطل إنما
ينقاد له ويصل بسببه، ويؤفك عنه: من هو مأفوك ضال
عمر لا فهم له كما قال تعالى: ﴿فَلْيَكْفُرُوا وَمَا يُكْفُرُونَ﴾ ﴿مَا أَنْتَ
عَلَيْهِ بِفَتِينٍ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣]
قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي: ﴿يؤفك عنه من أفك﴾
﴿قُلِ الْحَرَّاصُونَ﴾ قال مجاهد: الكذابين، قال: وهي مثل التي في عبس
﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ [الآية: ١٧] والخراصون الذين

(١) الطبري: ٢٢/٣٨٩-٣٩٢ عبد الرزاق: ٣/٢٤١ (٢)

الطبري: ٢٢/٣٩٥، ٣٩٦ (٣) الطبري: ٢٢/٣٩٦، ٣٩٧ (٤)

تَفَكَّرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ - وَلَيْتَ مَفَاصِلَهُ -
لِلْعِبَادَةِ^(١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ ﴿وَمَا تُوَعَّدُونَ﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ، وَهُوَ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، فَلَا تَشْكُوا فِيهِ كَمَا لَا تَشْكُونَ فِي نُطْقِكُمْ جِئْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تُنطِقُونَ. وَكَانَ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا حَدَّثَ بِالشَّيْءِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: إِنَّ هَذَا لِحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ هُنَا.

﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَيْبٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(٣) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ^(٤) فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ جَعَلَهُ بِعَجَلٍ سَمِينًا^(٥) فَفَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ^(٦) فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا نَحْفَ وَنَشْرُوهُ يُعَلِّمُ عَلَيْهِ^(٧) فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ^(٨) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ^(٩)

[حَدِيثُ صَيْبٍ إِبْرَاهِيمَ]

هَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ هُودٍ وَالْحَجْرِ أَيْضًا فَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَيْبٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أَيِ الَّذِينَ أُرْصِدَ لَهُمُ الْكَرَامَةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ الرَّفْعُ أَقْوَى وَأَثْبَتُ مِنَ النَّصْبِ، فَرُدُّهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْلِيمِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُجِّمُ بِبِحَجَةٍ فِئْوًا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّهَا﴾ [النساء: ٨٦] فَالْحَلِيلُ اخْتَارَ الْأَفْضَلَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ جِبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيْلُ قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي صُورَةِ شُبَّانٍ حَسَنَانِ عَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ عَظِيمَةٌ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ أَيِ انْسَلَّ خُفْيَةً فِي سُرْعَةٍ فَجَاءَهُ بِعَجَلٍ سَمِينًا أَيِ مِنْ خِيَارِ مَالِهِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعَجَلٍ حَنِينًا﴾ [هود: ٦٩] أَيِ مَشْوِيٍّ عَلَى

﴿وَالسُّنْبُوتِ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] فَإِنْ كَانَ الْإِسْتِغْفَارُ فِي صَلَاةٍ فَهُوَ أَحْسَنُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَعَبْرٌ هَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبُ عَلَيْهِ. هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرُ لَهُ. هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلُهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»^(١). وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ أَنَّهُ قَالَ لِيْنِيهِ: ﴿سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قَالُوا: أَخْرَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحْرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ لَمَّا وَصَفَهُم بِالصَّلَاةِ تَنَّى بِوَضْفِهِمُ بِالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ وَالصَّلَاةِ فَقَالَ: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أَيِ جُزْءٍ مَقْسُومٍ قَدْ أَفْرَزُوهُ ﴿لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. أَمَّا السَّائِلُ فَمَعْرُوفٌ وَهُوَ الَّذِي يَبْتَدِيءُ بِالسُّؤَالِ وَلَهُ حَقٌّ، وَأَمَّا الْمَحْرُومُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَجَاهِدٌ: هُوَ الْمُحَارَفُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ سَهْمٌ^(٢). يَعْنِي لَا سَهْمَ لَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ وَلَا كَسْبَ لَهُ وَلَا حِرْفَةً يَتَقَوَّتُ مِنْهَا. وَقَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هُوَ الْمُحَارَفُ الَّذِي لَا يَكَادُ يَتَبَسَّرُ لَهُ مَكْسَبُهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ: الْمَحْرُومُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا^(٣).

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ وَالثَّمْرَةُ وَالثَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنَى يُغْنِيهِ، وَلَا يَفْطَنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ»^(٤). وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ أَسْنَدَهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ^(٥).

[آيَاتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَالتَّنْفِيسِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أَيِ فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ مِمَّا قَدْ ذَرَأَ فِيهَا مِنْ صُنُوفِ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْمُهَادِ وَالْجِبَالِ وَالْفِجَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ، وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَالْوَاهِيَمِ وَمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالْقُوَى، وَمَا بَيَّنَّهُمْ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْعُمُورِ وَالْفُهُومِ وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَمَا فِي تَرْكِيبِهِمْ مِنَ الْحِكْمِ فِي وَضْعِ كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ، فِي الْمَحَلِّ الَّذِي هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَنْ

(١) فتح الباري: ٣٥/٣، ١٣٣/١١، ٤٧٣/١٣، ومسلم: ١/ ٥٢١-٥٢٣ وأبو داود: ٧٧/٢، ١٠١/٥، وتحفة الأحوذى: ٩/ ٤٧١ والنسائي في الكبرى: ٢٤/٤، وابن ماجه: ٤٣٥/١ (٢) الطبري: ٤١٤/٢٢ (٣) الطبري: ٤١٦/٢٢ (٤) النسائي: ٥/ ٨٥ فتح الباري: ٣٩٩/٣، ومسلم: ٧١٩/٢ (٦) القرطبي: ٤٠/١٧ (٧) الطبري: ٤٢/٢٢

الرَّضْفِ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أَي أَدْنَاهُ مِنْهُمْ ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تَلَطَّفَ فِي الْعِبَارَةِ وَعَرَضَ حَسَنًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَضَمَتْ آدَابَ الضَّيَافَةِ فَإِنَّهُ جَاءَ بِطَعَامٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ بِسُرْعَةِ، وَلَمْ يَمْتَنِّ عَلَيْهِمْ أَوْ لَا فَقَالَ: نَأْتِيكُمْ بِطَعَامٍ؟ بَلْ جَاءَ بِهِ بِسُرْعَةٍ وَخَفَاءً، وَأَتَى بِأَفْضَلِ مَا وَجَدَ مِنْ مَالِهِ، وَهُوَ عَجَلٌ فَتَيَّ سَمِينٌ مَشْوِيُّ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ - لَمْ يَضَعُهُ وَقَالَ: اقْتَرِبُوا - بَلْ وَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمُ أَمْرًا يَسْقُ عَلَى سَامِعِهِ بِصِغَةِ الْجَزْمِ، بَلْ قَالَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْعَرَضِ وَالتَّلَطُّفِ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ الْيَوْمَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَفَضَّلَ وَتُحْسِنَ وَتَتَصَدَّقَ فَافْعَلْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هَذَا مُحَالٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٧﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةً فَصَجَّكَ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أَي اسْتَبَشَّرَتْ بِهَلَاكِهِمْ لِتَمَرُّدِهِمْ وَعَتُوهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَعِنْدَ ذَلِكَ بَشَّرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿قَالَتْ يَبْئُوتَنِي أَلِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣] وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُنَا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ فَالْبَشَارَةُ لَهُ هِيَ بَشَارَةُ لَهَا. لِأَنَّ الْوَلَدَ مِنْهُمَا، فَكُلُّ مِنْهُمَا بُشِّرَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَلَكْتَ أَمْرَانَهُ فِي صَرَفٍ﴾ أَي فِي صَرْخَةٍ [وَعِطِيَّةٍ] وَرَبَّةٍ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ وَالضَّحَّاكُ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَالثَّوْرِيُّ، وَالسُّدِّيُّ ^(١). وَهِيَ قَوْلُهَا: ﴿يَبْئُوتَنِي﴾ [هود: ٧٢]. ﴿فَصَجَّكَ وَجْهَهَا﴾ أَي صَرَبَتْ يَدَيْهَا عَلَى جَبِينِهَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ سَابِطٍ ^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَطَمَتْ، أَي تَعَجَّبًا كَمَا تَتَعَجَّبُ النِّسَاءُ مِنَ الْأَمْرِ الْغَرِيبِ ^(٣). ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أَي كَيْفَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَقَدْ كُنْتُ فِي حَالِ الصَّبَا عَقِيمًا لَا أَحْبَلُ؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أَي عَلِيمٌ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْكِرَامَةِ حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴿٣٦﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٨﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤١﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٢﴾ فَتَوَلَّىٰ رَبَّكَهُ وَقَالَ سِحْرٌ وَأَجْمُونٌ ﴿٤٣﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٥﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٦﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٧﴾ فَمَتَّعُوهُمْ رَمَرًا يَمْشُونَ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٨﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٤٩﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَن يَبْلُغَ أَكْمَالَهُمْ فَسَيِّفِينَ ﴿٥٠﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهُ بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٥١﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْهُدُونَ ﴿٥٢﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُجُومًا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٣﴾ وَفِرْعَوْنَ إِذْ أَتَى اللَّهُ فِي لَحْمِهِ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٤﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾

الْأَلِيمِ ﴿٣٧﴾

[شأن الملائكة إهلاك قوم لوط]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْحَ وَجَاءَهُ الشُّرَىٰ مُجْبَدًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَسَلِمٌ آوَاهُ مَبِيثٌ ﴿٧٥﴾ يَتَذَكَّرُهُمْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ عَذَابٍ عَدِيبٍ مَرْدُودٍ﴾ وَقَالَ هُنَا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أَي مَا شَأْنُكُمْ وَفِيمَ جِئْتُمْ؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ ثَمُودَ﴾ يَعْنُونَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٦﴾ مُسَوِّمَةً﴾ أَي مُعَلِّمَةً ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أَي مُكْتَتَبَةً عِنْدَهُ بِأَسْمَائِهِمْ كُلِّ حَجَرٍ عَلَيْهِ اسْمٌ صَاحِبِهِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا تَحَرُّبٌ أَعْلَمُ يَمُنْ فِيهَا لِنُسَخِّتَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيرِينَ﴾ [الآية: ٣٢] وَقَالَ تَعَالَى

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴿٣٦﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٨﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤١﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٢﴾ فَتَوَلَّىٰ رَبَّكَهُ وَقَالَ سِحْرٌ وَأَجْمُونٌ ﴿٤٣﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٥﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٦﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٧﴾ فَمَتَّعُوهُمْ رَمَرًا يَمْشُونَ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٨﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٤٩﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَن يَبْلُغَ أَكْمَالَهُمْ فَسَيِّفِينَ ﴿٥٠﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهُ بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٥١﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْهُدُونَ ﴿٥٢﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُجُومًا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٣﴾ وَفِرْعَوْنَ إِذْ أَتَى اللَّهُ فِي لَحْمِهِ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٤﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴿٣٦﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٨﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤١﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٢﴾ فَتَوَلَّىٰ رَبَّكَهُ وَقَالَ سِحْرٌ وَأَجْمُونٌ ﴿٤٣﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٥﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٦﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٧﴾ فَمَتَّعُوهُمْ رَمَرًا يَمْشُونَ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٨﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٤٩﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَن يَبْلُغَ أَكْمَالَهُمْ فَسَيِّفِينَ ﴿٥٠﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهُ بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٥١﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْهُدُونَ ﴿٥٢﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُجُومًا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٣﴾ وَفِرْعَوْنَ إِذْ أَتَى اللَّهُ فِي لَحْمِهِ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٤﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴿٣٦﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٨﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤١﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٢﴾ فَتَوَلَّىٰ رَبَّكَهُ وَقَالَ سِحْرٌ وَأَجْمُونٌ ﴿٤٣﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٥﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٦﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٧﴾ فَمَتَّعُوهُمْ رَمَرًا يَمْشُونَ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٨﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٤٩﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَن يَبْلُغَ أَكْمَالَهُمْ فَسَيِّفِينَ ﴿٥٠﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهُ بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٥١﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْهُدُونَ ﴿٥٢﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُجُومًا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٣﴾ وَفِرْعَوْنَ إِذْ أَتَى اللَّهُ فِي لَحْمِهِ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٤﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾

(١) الطبري: ٤٢٦/٢٢ والفريسي: ٤٦/١٧ (٢) الطبري: ٢٢/

٤٢٨ (٣) الطبري: ٤٢٧/٢٢

هُنَا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَهُمْ لَوْطٌ وَأَهْلُ بَيْتِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴿فَمَا وَحَدَّثَنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرْكَبُوا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَي جَعَلْنَاهَا عِبْرَةً بِمَا أَنْزَلْنَا بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَالنَّكَالِ، وَجِحَارَةِ السَّجِيلِ. وَجَعَلْنَا مَحَلَّتَهُمْ بَحِيرَةً مُتَبِنَةً حَبِيبَةً، فَبَيَّ ذَلِكَ عِبْرَةً لِمُؤْمِنِينَ ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكُوبَهُ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٢٩﴾ فَأَلْحَمْتُهُ وَوَعَدْتُهُ فَبَدَّوهُمْ فِي آيَةٍ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٣٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٣١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٣٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَمَا اسْتَسْقَمُوا مِنْ قِيَارِهِ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٣٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[الْعِبْرُ مِنْ قِصَّةِ فِرْعَوْنَ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ نُوحٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أَي بِدَلِيلٍ بَاهِرٍ وَحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكُوبَهُ﴾ أَي فَأَعْرَضَ فِرْعَوْنُ عَمَّا جَاءَهُ بِهِ مُوسَى مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّىٰ عِطْفِيهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩٠] أَي مُعْرِضٌ عَنِ الْحَقِّ مُسْتَكْبِرٌ ﴿وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أَي لَا يَخْلُو أَمْرُكَ فِيمَا جِئْتَنِي بِهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا أَوْ مَجْنُونًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذْتَهُ وَوَعَدْتُهُ فَبَدَّوهُمْ﴾ وَهُوَ الْبَحْرُ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أَي وَهُوَ مُلِيمٌ كَافِرٌ جَاحِدٌ فَاجِرٌ مُعَادِيٌّ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أَي الْمُفْسِدَةَ الَّتِي لَا تُنْتِجُ شَيْئًا. قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا ^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ أَي مِمَّا تُفْسِدُهُ الرِّيحُ ﴿إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أَي كَالشَّيْءِ الْهَالِكِ الْبَالِي. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَغَيْرُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قَالُوا: هِيَ الْجَنُوبُ ^(٢). وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ شُعْبَةَ عَنِ الْحَكَمِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلِكْتُ عَادٌ بِالذُّبُورِ» ^(٣). ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧] وَهَكَذَا قَالَ

كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ ﴿٥١﴾ تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٢﴾ فَنَوَّلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٣﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٥﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٦﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٥٩﴾

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالتُّورِ ﴿١﴾ وَكُنْتَ مَسْطُورًا ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَشْهُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ قَعٌ ﴿٧﴾ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي حُوزٍ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٢﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٣﴾

هُنَا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿وَذَلِكَ أَنَّهُمْ انْتَهَرُوا الْعَذَابَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَجَاءَهُمْ فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ بُكْرَةَ النَّهَارِ ﴿فَمَا اسْتَسْقَمُوا مِنْ قِيَارِهِ﴾ أَي مِنْ هَرَبٍ وَلَا نُهْوضٍ ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ﴾ أَي لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يَنْتَصِرُوا وَمِمَّا هُمْ فِيهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وَكُلُّ هَذِهِ الْقِصَصِ قَدْ تَقَدَّمَتْ مُبَسَّوطةً فِي آمَازِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ سُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدِينَا وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ أَنْهَدُونَ ﴿٥٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فَيَرَوْنَ إِلَى اللَّهِ إِيَّاكُمْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِيَّاكُمْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦١﴾﴾

(١) الطبري: ٤٣٤/٢٢ (٢) الطبري: ٤٣٣/٢٢ (٣) فتح الباري: ٦٠٤/٢ ومسلم: ٦١٧/٢

إِدْلَالِ التَّوْحِيدِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَخَلَقِي زَوْجَيْنِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيَّنًا عَلَى خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلُوبِيِّ وَالسُّفْلِيِّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا﴾ أَيَّ جَعَلْنَاهَا سَفْعًا مَحْفُوظًا رَفِيعًا ﴿بِأَيْدِي﴾ أَيَّ بِقُوَّةٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالتَّوْرِيُّ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(١). ﴿وَأَنَا لَمُوسِعُونَ﴾ أَيَّ قَدْ وَسَعْنَا أَرْجَاءَهَا فَرَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أَيَّ جَعَلْنَاهَا فِرَاشًا لِلْمَخْلُوقَاتِ ﴿فَنِعَمَ الْكَيْدُونَ﴾ أَيَّ وَجَعَلْنَاهَا مَهْدًا لِأَهْلِهَا ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أَيَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ أَزْوَاجَ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ وَلَيْلٍ وَنَهَارٍ، وَسَمْسٍ وَقَمَرٍ، وَبَرٍّ وَبَحْرٍ، وَضِيَاءٍ وَظِلَامٍ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ، وَمَوْتٍ وَحَيَاةٍ وَسُقْمَاءٍ وَسَعَادَةٍ، وَجَنَّةٍ وَنَارٍ، حَتَّى الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَيَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿يَقْرَأُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أَيَّ الْجَاوِا إِلَيْهِ وَاعْتَمِدُوا فِي أُمُورِكُمْ عَلَيْهِ ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٢) وَلَا تَحْمَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿أَيَّ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ جَحْمٌ﴾^(٣) أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ^(٤) فَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ^(٥) وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ^(٦) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(٧) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ^(٨) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ^(٩) فَإِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَحْسَبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ^(١٠) قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ^(١١)

[تَكْذِيبِ كُلِّ قَوْمٍ رَسُولُهُمْ عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ: وَكَمَا قَالَ لَكَ هُوَ لَاءِ الْمُشْرِكُونَ قَالَ الْمُكْذِبُونَ الْاَوَّلُونَ لِرُسُلِهِمْ: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ جَحْمٌ﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِ﴾ أَيَّ أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهِذِهِ الْمَقَالَةِ؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أَيَّ لَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طَغَاءَةٌ تَسَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، فَقَالَ مُتَأَخِّرُهُمْ كَمَا قَالَ مُتَقَدِّمُهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَيَّ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ يَعْنِي فَمَا نَلُومُكَ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيَّ إِنَّمَا تَنْتَفِعُ بِهَا الْقُلُوبُ الْمُؤْمِنَةُ.

[مَا كَانَ خَلْقُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِعِبَادَةِ اللَّهِ]

ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونَ﴾ أَيَّ إِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِأَمْرِهِمْ بِعِبَادَتِي لَا لِأَخْتِيَاجِي إِلَيْهِمْ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ أَيَّ إِلَّا لِيُقْرَبُوا بِعِبَادَتِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا^(١٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ﴾^(١٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴿رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ)^(١٤) وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١٥). وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْعِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَمَنْ أَطَاعَهُ جَازَاهُ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، وَمَنْ عَصَاهُ عَذَّبَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ بَلْ هُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ. فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ تَقَرَّعْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا صَدْرَكَ غَنَى وَأَسَدَّ فِقْرَكَ، وَإِلَّا تَفَعَّلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَشَدَّ فِقْرَكَ﴾^(١٦). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(١٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أَيَّ نَصِيصًا مِنْ الْعَذَابِ ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَحْسَبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أَيَّ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الطُّورِ]

رَوَى مَالِكٌ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ [قَالَ]: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ^(١). أَخْرَجَاهُ مِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ^(٢). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: شَكَّوتُ إِلَى رَسُولِ

(١) الطبري: ٤٣٨/٢٢ (٢) الطبري: ٤٤٤/٢٢ (٣) أحمد: ٤١٨/١ (٤) أبو داود: ٢٩٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٢٦١/٨ والنسائي في الكبرى: ٤٦٩/٦ (٥) أحمد: ٣٥٨/٢ (٦) تحفة الأحوذى: ١٦٦/٧ وابن ماجه: ١٣٧٦/٢ (٧) الموطأ: ١/٧٨ (٨) فتح الباري: ٢٨٩/٢ ومسلم: ٣٣٨/١

الله ﷻ أَنِّي أَشْتَكِي فَقَالَ: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ» فَطَفَّتْ وَرَسُولُ اللَّهِ يُصَلِّي إِلَى جَنِبِ الْبَيْتِ يُقْرَأُ بِالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ﴾ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَورًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴿١٠﴾ قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

[قَسَمَ اللَّهُ عَلَى وُفُوعِ الْعَذَابِ]

يُقْسَمُ تَعَالَى بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ عَذَابَهُ وَاقِعٌ بِأَعْدَائِهِ، وَأَنَّهُ لَا دَافِعَ لَهُ عَنْهُمْ، فَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ أَشْجَارٌ مِثْلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى وَأَرْسَلَ مِنْهُ عِيسَى، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَجَرٌ لَا يُسَمَّى طُورًا، إِنَّمَا يُقَالُ لَهُ جَبَلٌ. ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ قِيلَ: هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَقِيلَ: الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي تُقْرَأُ عَلَى النَّاسِ جَهَارًا وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿تَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ بَعْدَ مُجَاوَزَتِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: «ثُمَّ رُفِعَ بِي إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَعُونَ أَلْفًا، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»^(٢) بَعْنِي يَتَعَدَّدُونَ فِيهِ وَيَطُوفُونَ بِهِ كَمَا يَطُوفُ أَهْلُ الْأَرْضِ بِكَعْبَتِهِمْ، كَذَلِكَ ذَاكَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورُ هُوَ كَعْبَةُ أَهْلِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَلِهَذَا وَجَدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُسْنِدًا ظَهَرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، لِأَنَّهُ بَنَى الْكَعْبَةَ الْأَرْضِيَّةَ، وَالْجِزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَهُوَ بِجِوَالِ الْكَعْبَةِ، وَفِي كُلِّ سَمَاءٍ بَيْتٌ يَتَعَدَّدُ فِيهِ أَهْلُهَا، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُقَالُ لَهُ: بَيْتُ الْعِزَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَأَبُو الْأَحْوَصِ عَنْ سِمَاكِ عَنْ خَالِدِ بْنِ عَزْرَةَ عَنْ عَلِيٍّ ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ بَعْنِي السَّمَاءُ. قَالَ سُفْيَانُ: ثُمَّ تَلَا ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

سُورَةُ الطُّورِ ٥٢٤
أَفْسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَاءٍ أَنْهَمَ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّ مَا يَتَّبِعُونَ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَتَتْهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَحِقَ بِمَوْتِهِمْ شَرٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْنِيهٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُعْدَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ آتَى اللَّهُ عِلْمًا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِعَمَّتَ رَبِّكَ يَكَهِنُ وَلَا يَجْنُونَ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ ﴿٣١﴾

[الانباء: ٣٢] ﴿٣٢﴾ وَكَذًا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قَالَ الْجُمْهُورُ: هُوَ هَذَا الْبَحْرُ، وَالْمُرَادُ بِالْمَسْجُورِ أَنَّهُ يُوقَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أَيِ أَضْرِمَتْ فَتَصِيرُ نَارًا تَتَّجَجُ مُحِيطَةً بِأَهْلِ الْمَوْقِفِ. وَرَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ^(٥). وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبِهِ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبِيدِ بْنِ غَمَيْرٍ وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿الْمَسْجُورِ﴾ الْمَمْلُوءُ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ وَوَجَّهَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ مُوقَدًا الْيَوْمَ. فَهُوَ مَمْلُوءٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ أَيِ لَوَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿مَا

(١) فتح الباري: ٤٦٨/٨ (٢) فتح الباري: ٣٤٩/٦ ومسلم: ١٥٠/١ (٣) الطبري: ٢٥٨، ٢٥٧/٢٢ (٤) الطبري: ٢٢/٢٢ (٥) الطبري: ٤٥٨/٢٢

لَمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٧﴾ أَي لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ ذَلِكَ. رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدِ الْعَدْبِيِّ قَالَ: حَرَجَ عُمَرُ يَعْسُ فِي الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَمَرَّ بِدَارِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَوَافَقَهُ فَأَيَّمَا يَصْلِي فَوْقَ يَسْتَمِعُ فِرَاءَتَهُ فَفَرَأَ ﴿وَالطُّورِ﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾ مَا لَمْ يَنْ دَافِعٍ ﴿٧﴾ قَالَ: قَسَمَ رَبِّي الْكُفْبَةَ حَقًّا، فَتَزَلَّ عَنْ حِمَارِهِ وَاسْتَنَدَ إِلَى حَائِطٍ فَمَكَتْ مَلِيًّا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَمَكَتْ شَهْرًا يَبْعُوهُ النَّاسُ لَا يَدْرُونَ مَا مَرَضُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(١).

[وَصَفَّ يَوْمَ الْعَذَابِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: تَتَحَرَّكُ تَحْرِيكًا ^(٢). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ تَتَمَقَّقُهَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: تَدُورُ دَوْرًا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: اسْتَدَارَتْهَا وَتَحَرَّكَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ وَمَوْجُ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ ^(٣). وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّهُ التَّحَرُّكُ فِي اسْتِدَارَةِ. ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ أَي تَذْهَبُ فَتَصِيرُ هَبَاءً مُبْتِئًا وَتُنْسَفُ نَسْفًا ﴿قَوْلٌ بَوْمِيذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَي وَيْلٌ لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنِكَالِهِ بِهِمْ وَعِقَابِهِ لَهُمْ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَمُونَ﴾ أَي هُمْ فِي الدُّنْيَا يَخْوِضُونَ فِي الْبَاطِلِ وَيَتَّخِذُونَ دِينَهُمْ هُزُورًا وَلَعِبًا ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ﴾ أَي يُدْفَعُونَ وَيُسَاقُونَ ﴿إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالثَّوْرِيُّ: يُدْفَعُونَ فِيهَا دَفْعًا ^(٤). ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تُكذِّبُونَ﴾ أَي تَقُولُ لَهُمُ الزَّيْبَانِيَّةُ ذَلِكَ تَقْرِيحًا وَتَوْبِيحًا ﴿أَفْسَحِرْ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تَبْصُرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أَصْلُهَا ﴿أَيِ اذْخُلُوهَا ذُخُولٌ مِّنْ تَعْمُرِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ﴾ ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ أَي سَوَاءٌ صَبَرْتُمْ عَلَى عَذَابِهَا وَنِكَالِهَا أَمْ لَمْ تَصْبِرُوا لَا مَجِيدَ لَكُمْ عَنْهَا، وَلَا خَلَاصَ لَكُمْ مِنْهَا ﴿إِنَّمَا يُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي وَلَا يَطْلُبُ اللَّهُ أَحَدًا بَلْ يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَنَجِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ فَكَيْفَ يَمَّا أَنلَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّحْتَهُمْ بِيحُورٍ عَيْنٍ ﴿٢٠﴾

[وَصَفَّ مَالِ السُّعْدَاءِ]

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ السُّعْدَاءِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَنَجِيمٍ﴾ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَا أَوْلَيْتَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنِّكَالِ ﴿فَتَكْبِهِمْ يَمَّا أَنلَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَي يَتَفَكَّهُونَ بِمَا آتَاهُمْ

وَصَفَّوْنَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِذْنِ الْحَفَاةِ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلِّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنًا﴾ ﴿١١﴾ وَأَمَدَدْتَهُمْ بِفَلَاحِهِمْ وَلَحْرِ مِمَّا يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ يَنْتَهُونَ فِيهَا كَأَسَا لَا لَعُوَ فِيهَا وَلَا تَأْسِيرًا ﴿١٣﴾ وَيَطُورُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلَاهُمْ مَّكَوْنٌ ﴿١٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَلَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ﴿١٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾

[لِحُوقِ ذُرِّيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَنْزِلَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَامْتِنَانِهِ وَلَطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ يُلْحِقُهُمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْمَنْزِلَةِ، وَإِنْ لَمْ يَتَلْعَبُوا عَمَلَهُمْ، لِنَقَرِّ أَعْيُنَ الْأَبَاءِ بِالْإِنْبَاءِ عِنْدَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ بِأَنْ يَرْفَعِ النَّاقِصَ الْعَمَلِ بِكَامِلِ الْعَمَلِ، وَلَا يَنْقُصَ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ - لِلتَّسَاوِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَاكَ. وَهَذَا قَالَ: ﴿الْحَفَاةِ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ رَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ، لِنَقَرِّ بِهِمْ

(١) ذكره المؤلف في مسند عمر: ٢/٦٠٨ (٢) الطبري: ٢٢/٤٦٢ (٣) الطبري: ٢٢/٣٦٢ (٤) الطبري: ٢٢/٤٦٤ والدر المنثور: ٧/٣٣١

عَيْنُهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١). وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ بِهِ (٢). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قَالَ: هُمْ ذُرِّيَّةُ الْمُؤْمِنِ يَمُوتُونَ عَلَى الْإِيمَانِ، فَإِنْ كَانَتْ مَنَازِلُ آبَائِهِمْ أَرْفَعُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ أَلْحَقُوا بِآبَائِهِمْ، وَلَمْ يُنْقِصُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوهَا شَيْئًا. وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ عَلِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ وَلَدَيْنِ مَاتَا لَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمَا فِي النَّارِ» فَلَمَّا رَأَى الْكِرَاهَةَ فِي وَجْهِهَا قَالَ: «لَوْ رَأَيْتُ مَكَانَهُمَا لَأَبْغَضْتَهُمَا» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَوَلَدِي مِنْكَ؟ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ» قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي النَّارِ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ . . . (الآية (٣))، هَذَا فَضْلُهُ تَعَالَى عَلَى الْأَبْنَاءِ بِبَرَكَةِ عَمَلِ الْأَبَاءِ، وَأَمَّا فَضْلُهُ عَلَى الْأَبَاءِ بِبَرَكَةِ دُعَاءِ الْأَبْنَاءِ فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ! أَنَّى لِي هَذَا؟ فَقُولُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدَيْكَ لَكَ» (٤). إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ وَلَمْ يُخْرِجُوهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَكِنْ لَهُ شَاهِدٌ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يَنْتَعِقُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» (٥).

[عَدَلَ اللَّهُ مَعَ أَهْلِ الذُّنُوبِ]
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْفَضْلِ وَهُوَ رَفَعُ دَرَجَةِ الذَّرِّيَّةِ إِلَى مَثَلَةِ الْأَبَاءِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ يَنْتَضِي ذَلِكَ، أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْعَدْلِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾ أَيُّ مُرْتَبِنٌ يَعْمَلُهُ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ذَنْبٌ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، سِوَاكَ كَانَ أَبَا أَوْ ابْنًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ﴾ (٦) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٧) فِي جَنَّتِ يَسَاءَلُونَ (٨) عَنِ الْمُتَجَرِّبِينَ (٩) [المدر: ٣٨-٤١].

[وَصَفُ حَمْرٍ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِ أَهْلِهَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَدَدْتَهُمْ بِفَكَهَيْهِمْ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أَيُّ وَأَلْحَقْنَاهُمْ بِفَوَاكِهٍ وَلَحْمٍ مِنْ أَنْوَاعِ شَيْءٍ مِمَّا يُسْتَطَابُ

(١) تفسير الثوري: ٢٨٣ (٢) الطبري: ٤٦٧/٢٢ (٣) أحمد:

١٣٥/١ (٤) أحمد: ٥٠٩/٢ (٥) مسلم: ١٢٥٥/٣ (٦)

الطبري: ٤٧٤/٢٢ (٧) الطبري: ٤٧٤/٢٢

تَبَرَّئَةُ الرَّسُولِ مِمَّا اتَّهَمَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَتَوَعُّدُهُمْ وَتَحْدِيثُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ إِلَى عِبَادِهِ، وَأَنْ يَذْكُرَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَفَى عَنْهُ مَا يَرِيهِ بِهِ أَهْلُ الْبُهْتَانِ وَالْفُجُورِ، فَقَالَ: ﴿فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ يَنْعَمَتِ رَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أَي لَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ بِكَاهِنٍ كَمَا تَقُولُهُ الْجَهْلَةُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، وَالكَاهِنُ الَّذِي يَأْتِيهِ الرَّئِيُّ مِنَ الْجَانِّ بِالْكَلِمَةِ يَتَلَقَّهَا مِنْ خَيْرِ السَّمَاءِ ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَخَطُّهُ الشُّبَّانُ مِنَ الْمَسْرِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ فِي الرَّسُولِ ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ بِرَبِّهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾ أَي قَوَارِعَ الدَّهْرِ، وَالْمُنُونُ: الْمَوْتُ. يَقُولُونَ: نَنْتَظِرُهُ وَنَضْبِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَتَسْتَرِيحُ مِنْهُ وَمِنْ شَأْنِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَرَضُّوا لِي فِي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أَي انْتَظِرُوا فَإِنِّي مُنْتَظَرٌ مَعَكُمْ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنَّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: اخْتَبِسُوهُ فِي وَتَاقِي وَتَرَبَّضُوا بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ: زُهَيْرٌ وَالتَّابِغَةُ إِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ بِرَبِّهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾^(١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَدُهُمْ بَهْدًا﴾ أَي عَقُولُهُمْ تَأْمُرُهُمْ بِهَذَا الَّذِي يَقُولُونَهُ فِيكَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا كَذِبٌ وَزُورٌ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أَي وَلَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ضَلَالًا مُعَايِدُونَ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَا قَالُوهُ فِيكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ أَي اخْتَلَقَهُ وَافْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ يَعْنُونَ الْقُرْآنَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي كَفَرُوا هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أَي إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿تَقَوْلُهُ وَافْتَرَاهُ﴾ فَلْيَأْتُوا بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا هُمْ وَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا جَاءُوا بِمِثْلِهِ، وَلَا بِعَشْرِ سَوْرٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٢) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ﴾^(٤) أَمْ لَهُمْ سُمْرٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مَسْمَعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ﴾^(٥) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾^(٦) أَمْ تَسْتَأْجِرُنَّ آجْرًا فَمَنْ مِنْ مَغْرَمٍ مُتَقَلَّبُونَ﴾^(٧) أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَيْبُ فَمَنْ يَكْتُمُونَ﴾^(٨) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾^(٩) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١٠)

[أَسْئَلُهُ تَثْبِثُ التَّوْحِيدَ وَتَنْفِي حَيْلِ الْمُشْرِكِينَ]

هَذَا الْمَقَامُ فِي إِثْبَاتِ الرَّبُّوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أَي أَوْجَدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ أَمْ هُمُ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ؟ أَي لَا هَذَا وَلَا هَذَا، بَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكَورًا. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(١١) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٢) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ﴾^(١٣) كَادَ قَلْبِي أَنْ يُطِيرَ^(١٤). وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طُرُقٍ^(١٥). وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْفَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأَسَارَى، وَكَانَ إِذْ ذَلِكَ مُشْرِكًا، فَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةٍ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي أَمْ هُمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَكِنْ عَدَمَ إِيقَانِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ﴾ أَي أَمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمُلْكِ وَيَبْدَهُمْ مَفَاتِيحَ الْخَزَائِنِ ﴿أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ﴾ أَي الْمُحَاسِبُونَ لِلْخَلْقِ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُمْرٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ﴾ أَي مِرْقَاةً إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴿فَلْيَأْتِ مَسْمَعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ﴾ أَي فَلْيَأْتِ الَّذِي يَسْمَعُ لَهُمْ بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ، أَي وَلَيْسَ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ذَلِكَ فَلْيَسْأَلُوا عَلَى شَيْءٍ وَلَا لَهُمْ دَلِيلٌ، ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا نَسَبُوهُ

(١) الطبري: ٤٧٩/٢٢ إسناده ضعيف لتدليس محمد بن إسحاق ولم يصرح بالسماع (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٨ (٣) فتح الباري: ٢٨٩/٢ و١٩٤/٦ و٣٧٥/٧ ومسلم: ٣٣٨/٣ و٣٣٩

إِلَيْهِ مِنَ الْبَنَاتِ وَجَعَلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا، وَاخْتَارَهُمْ
لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ عَلَى الْإِنَاثِ، بَحِيثٌ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، هَذَا وَقَدْ جَعَلُوا
الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٍ لِلَّهِ وَعَبَدُوهُمْ مَعَ اللَّهِ فَقَالَ: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ
وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ﴿أَمْ سَتُلْقَوْنَ
أَجْرًا﴾ أَيْ أَجْرَةَ إِبْلَاغِكُمْ إِيَّاهُمْ رَسُولَةَ اللَّهِ، أَيْ لَسْتَ تَسْأَلُهُمْ
عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ﴿فَهُمْ بَيْنَ مَقَرٍّ مُمْتَلُونَ﴾ أَيْ فَهَمٌ مِنْ أَدْنَى
شَيْءٍ يَتَّبِعُونَ مِنْهُ وَيَتَّقِلُهُمْ وَيَسْقُ عَلَيْهِمْ ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ
كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَمْ يُرِيدُ هَؤُلَاءِ يَقُولِهِمْ
هَذَا فِي الرُّسُولِ وَفِي الَّذِينَ غُرُورَ النَّاسِ وَكَيْدَ الرَّسُولِ
وَأَصْحَابِهِ، فَكَيْدُهُمْ إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَالَّذِينَ
كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَهَذَا إِنْكَارٌ شَدِيدٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ
الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ مَعَ اللَّهِ، ثُمَّ نَزَّ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَمَّا
يَقُولُونَ وَيَقْتَرُونَ وَيُشْرِكُونَ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَأَنْ يُرَوِّا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ فَذَرَهُمْ
حَتَّى يَلْقَوُا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
رَبَّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

[بَيَانُ عِنَادِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْتَهُمْ يَعْدُبُونَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ
لِلْمَحْسُوسِ ﴿وَأَنْ يُرَوِّا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أَيْ عَلَيْهِمْ
يُعْدَبُونَ بِهِ. لَمَّا صَدَّقُوا، وَلَمَّا أَتَقْنَا بَلْ يَقُولُونَ: هَذَا
سَحَابٌ مَرْكُومٌ، أَيْ مَتْرَاجِمٌ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ
فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرَجُونَ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا
سُكْرَتُ أَبْصَرْنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مُسْحُورُونَ ﴿[الحجر: ١٤، ١٥].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أَيْ دَعَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿حَتَّى يَلْقَوُا
يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أَيْ لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا مَكْرَهُمُ الَّذِي
اسْتَعْمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا، لَا يَجْزِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْئًا ﴿وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ
ذَلِكَ﴾ أَيْ قَبْلَ ذَلِكَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ

سُورَةُ الطُّورِ ٥٢٥

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ
بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا أَصْدِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ حَلِفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ هُمْ سَائِرٌ يَسْمَعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كَسْفًا
مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقَوُا
يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ ٥٢٦

يَجْعَلُونَ ﴿[السجدة: ٢١] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ تُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَتَبْتَلِيهِمْ فِيهَا
بِالْمَصَائِبِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَيُتَّيْسُونَ، فَلَا يَفْهَمُونَ مَا يَرَادُ
بِهِمْ، بَلْ إِذَا جُلِّيَ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ، عَادُوا إِلَى أَسْوَأِ مَا
كَانُوا عَلَيْهِ، وَفِي الْأَثَرِ الْإِلَهِيِّ: كَمْ أَغْصَبَكَ وَلَا تُعَاقِبُنِي؟
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبْدِيَ! كَمْ [أَعَاقِبُكَ] وَأَنْتَ لَا تَدْرِي؟

[أَمْرُ الرَّسُولِ ﷺ بِالصَّبْرِ وَالتَّسْبِيحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أَي اصْبِرْ
عَلَى أَدَائِهِمْ وَلَا تَبَالِهْمْ فَإِنَّكَ بِمَرَأَى مِنَّا وَتَحْتَ كَلَاءَتِنَا وَاللَّهُ
يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ
تَقُومُ﴾ قَالَ الصَّحَّاحُ: أَي إِلَى الصَّلَاةِ. سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ
وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ^(١).
وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ أَبِي

(١) الطبري: ٤٨٩/٢٢ (٢) مسلم: ٢٩٩/١

سورة النجم

٥٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَأَاهُ
نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ هَاجِنَةِ الْمُأْوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذِغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنَ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتَ لَكَ وَالْعَزَىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةٌ
الثَّلَاثَةُ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ جَاءَ الْوَيْلَ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تَلَكَّ إِذَا قَسَمَةٌ
ضُرِيَتْ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَدَّبَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٤﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ
الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٦﴾ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرْضَىٰ ﴿٢٧﴾

تفسير سورة النجم
وهي مكية

[أَوَّلُ سُورَةٍ أَنْزَلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: أَوَّلُ سُورَةٍ أَنْزَلَتْ
فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ قَالَ: فَسَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ
خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ ثُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ،
فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا وَهُوَ أُمِيَّةٌ بَنُ خَلْفٍ (١٢). وَقَدْ

- (١) أحمد: ٥٠/٣ وأبو داود: ٤٩٠/١ وتحفة الأحوذى: ٤٧/٢
و٥٠ والنسائي: ١٣٢/٢ وابن ماجه: ٢٦٤/١ و٢٦٥ (٢)
القرطبي: ٧٩/١٧ (٣) الطبري: ٤٨٨/٢٢ (٤) أحمد: ٥/
٣١٣ (٥) فتح الباري: ٤٧/٣ وأبو داود: ٣٠٥/٥ وتحفة
الأحوذى: ٣٥٩/٩ والنسائي في الكبرى: ٢١٥/٦ وابن ماجه:
١٢٧٦/٢ (٦) القرطبي: ٧٨/١٧ (٧) تحفة الأحوذى: ٩/
٣٩٢ والنسائي في الكبرى: ١٠٥/٦ (٨) الحاكم: ٥٣٦/١
(٩) الطبري: ٣٧٩/٢٢ (١٠) فتح الباري: ٥٥/٣ ومسلم: ١/
٥٠١ (١١) مسلم: ٥٠١/١ (١٢) فتح الباري: ٤٨٠/٨

سَعِيدٍ وَغَيْرِهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ (١). وَقَالَ
أَبُو الْجَوْرَاءِ: ﴿وَسَجَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ نَقُومُ﴾ أَيُّ مِنْ نَوْمِكَ مِنْ
فِرَاشِكَ (٢). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٣). وَيَتَأَيَّدُ هَذَا الْقَوْلُ بِمَا
رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ
أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي -
أَوْ قَالَ: ثُمَّ دَعَا - اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى،
فَبَلَّتْ صَلَاتُهُ» (٤). وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَأَهْلُ
السُّنَنِ (٥). وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَسَجَّحَ بِحَمْدِ
رَبِّكَ حِينَ نَقُومُ﴾ قَالَ: مِنْ كُلِّ مَجْلِسٍ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي
إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ ﴿وَسَجَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ نَقُومُ﴾
قَالَ: إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ قَالَ: سُبْحَانَكَ
اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ (٦).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ جَلَسَ فِي
مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَعَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ:
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ،
أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ
ذَلِكَ». رَوَاهُ الثَّرِمِذِيُّ، وَهَذَا لَفْظُهُ وَالتَّسَائِي فِي الْيَوْمِ
وَاللَّيْلَةِ. وَقَالَ الثَّرِمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٧). وَأَخْرَجَهُ
الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ، وَقَالَ: إِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ (٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أَيُّ اذْكُرْهُ وَأَعْبُدْهُ
بِالتَّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ
فَتَسَبَّحْ بِهِ، نَافِلَةٌ لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾
[الإسراء: ٧٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَرَّ النَّجْمُ﴾ فِي حَدِيثِ
ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُمَا الرَّكْعَتَانِ اللَّتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ،
فَإِنَّهُمَا مَشْرُوعَتَانِ عِنْدَ إِذْبَارِ النَّجْمِ أَيُّ عِنْدَ جُنُوحِهَا
لِلْعَبُوبَةِ (٩). وَقَدْ تَبَتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّوَاتُفِ
أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْهُ عَلَى رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ (١٠). وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ:
«رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (١١).

أَجْرٌ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطُّورِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ، وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ بِهِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

الْمَوْتَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

﴿أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ الرَّسُولَ حَقٌّ وَمَا يَنْطِقُ

إِلَّا بِالْوَحْيِ﴾

قَالَ الشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُ: الْخَالِقُ يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: يُعْنِي بِالنَّجْمِ الثَّرَيًّا إِذَا سَقَطَ مَعَ الْفَجْرِ^(٢). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إِذَا رَمِيَ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا أُفْسِدُ يَوْمَ ذِي الْقُرْبَىٰ كَرِيمٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّهُ لَكَنُوبٌ ﴿٧٦﴾ لَا يُمَسُّهُ إِلَّا الْمَطْهُورُونَ ﴿٧٧﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الشَّهَادَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ لَيْسَ بِضَالٍّ، وَهُوَ الْجَاهِلُ الَّذِي يَسْتَلِكُ عَلَىٰ غَيْرِ طَرِيقٍ يَغْيِرُ عِلْمَ، وَالْعَاوِي هُوَ الْعَالِمُ بِالْحَقِّ، الْعَادِلُ عَنْهُ قَضْدًا إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَتَزَهَّ اللَّهُ رَسُولُهُ وَشَرَعَهُ، عَنْ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ كَالنَّصَارَىٰ وَطَرَائِقِ الْيَهُودِ، وَهِيَ: عِلْمُ الشَّيْءِ وَكَيْفَانُهُ، وَالْعَمَلُ بِخِلَافِهِ، بَلْ هُوَ صَلَاةُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ، فِي غَايَةِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالِاعْتِدَالِ وَالسَّدَادِ.

﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أَيُّ مَا يَقُولُ قَوْلًا عَنْ هَوَىٰ وَعَرَضٍ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَقُولُ مَا أُمِرَ بِهِ يُبَلِّغُهُ إِلَى النَّاسِ كَامِلًا مَوْفُورًا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «[لَيْدُخْلَن] الْجَنَّةُ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ يَنْبَغِي مِثْلَ الْحَيِّينَ - أَوْ مِثْلَ أَحَدِ الْحَيِّينَ - رَبِيعَةَ وَمُضَرَ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ مَا رَبِيعَةٌ مِنْ مُضَرَ؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ»^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَهَنَيْتَنِي فُرَيْشٌ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ. فَأَمْسَكَتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «اكْتُبْ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا الْحَقُّ»^(٤). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٥).

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ عَبْدِي مَا

أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَمْنُونُهُ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ ﴿١٢﴾

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ

الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَنْشَى الْمِدْرَةَ مَا يَعْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا رَأَىٰ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ ﴿١٧﴾

لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

﴿مُعَلِّمُ الرُّسُولِ الْأَمِينِ هُوَ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ

عَلَّمَهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى النَّاسِ ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ

كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَّلِعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾

[التكوير: ١٩-٢١] وَقَالَ هُنَا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أَيُّ ذُو قُوَّةٍ: قَالَهُ

مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ^(٦). وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ

الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَمْرٍو وَأَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

قَالَ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَيْبِي وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ يُعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَهُ

الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ^(٨). ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ

الْأَعْلَىٰ﴾ يُعْنِي جِبْرِيلَ اسْتَوَىٰ فِي الْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ. قَالَهُ عِكْرَمَةُ

وَعَبِيدُ بْنُ وَحِيدٍ. قَالَ عِكْرَمَةُ: وَالْأُفُقُ الْأَعْلَىٰ الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ

الصُّبْحُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ هُوَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ^(٩). وَقَالَ قَتَادَةُ:

هُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ النَّهَارُ^(١٠). وَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [أَبِي ابْنِ مَسْعُودٍ] أَنَّهُ

قَالَ: رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتْمَاةٌ

جَنَاحُ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْرُ سَدِّ الْأُفُقِ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنْ

التَّهَاقُوتِ وَالذَّرِّ وَالْيَأْقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ^(١١). انْفَرَدَ بِهِ

(١) فتح الباري: ٢/٦٤١ و ٦٤٣ و ٧/٢٠٢ و ٣٤٨ و مسلم: ١/٤٠٥ و أبو داود: ١٢٢/٢ و النسائي: ١٦٠/٢ (٢) الطبري: ٢٢/٤٩٥ (٣) أحمد: ٥/٢٥٧ (٤) أحمد: ٢/١٦٢ (٥) أبو داود: ٤/٦٠ (٦) الطبري: ٢٢/٤٩٩ و القرطبي: ١٧/٨٥ (٧)

أبو داود: ٢/٢٨٦ و النسائي: ٥/٩٩ (٨) الطبري: ٢٢/٥٠١ (٩) القرطبي: ١٧/٨٨ (١٠) الطبري: ٢٢/٥٠١ (١١) أحمد: ١/٣٩٥

وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قَالَ: أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ [الضحى: ٦] ﴿وَوَقَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ﴿١﴾ وَقَالَ غَيْرُهُ: أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّىٰ تَدْخُلَهَا، وَعَلَى الْأُمَّمِ حَتَّىٰ تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ.

[هَلْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ؟]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ رَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قَالَ: رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ ^(٧). وَكَذَا رَوَاهُ سِمَاكٌ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَهُ ^(٨). وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: إِنَّهُ رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ ^(٩).

وَقَالَ مَسْرُوقٌ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ: هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِشَيْءٍ فَفَ لَهْ شِعْرِي، فَقُلْتُ: رُوَيْدًا، ثُمَّ قَرَأْتُ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ فَقَالَتْ: أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ، إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيْلٌ، مَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ، أَوْ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَ بِهِ، أَوْ يَعْلَمُ الْخَمْسَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ الَّتِي نَسُفُكُ بِهَا الْكَلِمَاتُ﴾ [الأنعام: ٣٤] فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفُرْيَةَ، وَلَكِنَّهُ رَأَى جَبْرِيْلَ، لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَمَرَّةً فِي أَجْيَادٍ وَلَهُ سِتْمَائَةٌ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ ^(١٠).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنْتَىٰ أَرَاهُ» وَفِي رِوَايَةٍ: «رَأَيْتَ نُورًا» ^(١١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا جَبْرِيْلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْإِسْرَاءِ بِطُرُقِهَا وَأَلْفَاظِهَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ «سُبْحَانَ» بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ

(١) أحمد: ٣٢٢/١ إسناده ضعيف فيه إدريس بن منبه ضعيف [تقريب ٣٣٤] قال الدار قطني متروك [ميزان الاعتدال ١/١٤٩] (٢) الطبري: ٥٠٣/٢٢ وعبدالرزاق: ٢٥٠/٣ (٣) الطبري: ٥٠٤/٢٢ (٤) الطبري: ٥٠٣/٢٢ (٥) فتح الباري: ٤٧٦/٨ (٦) القرطبي: ٥٢/١٧ (٧) مسلم: ١٥٨/١ (٨) الطبري: ٥٠٧/٢٢ (٩) الطبري: ٥٠٨/٢٢ (١٠) تحفة الاحوذى: ١٦٧/٩ (١١) مسلم: ١٦١/١

أَحْمَدُ. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ جَبْرِيْلَ أَنْ يَرَاهُ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: ادْعُ رَبَّكَ، فَدَعَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَطَلَعَ عَلَيْهِ سَوَادٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَجَعَلَ يَرْتَعُ وَيَتَشَبَّهُ، فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ صَعِقَ فَاتَّاهُ فَنَعَسَهُ، وَمَسَحَ الْبُرَاقَ عَنْ شِدْقَيْهِ ^(١). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

[تَفْسِيرُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أَي فَاقْتَرَبَ جَبْرِيْلُ إِلَى مُحَمَّدٍ لَمَّا هَبَطَ عَلَيْهِ إِلَى الْأَرْضِ حَتَّى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَابَ قَوْسَيْنِ، أَي بِقَدْرِهِمَا إِذَا مُدَّا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ ^(٢). وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ وَتَرَّ الْقَوْسُ إِلَى كَيْدِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الصَّيغَةَ تُسْتَعْمَلُ فِي اللَّغَةِ لِإِنْبَاتِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ وَنَفِي مَا زَادَ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ فُلُوكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] أَي مَا هِيَ بِالْيَتَنِ مِنَ الْحِجَارَةِ، بَلْ هِيَ مِثْلُهَا أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهَا فِي الشَّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿يَخْتَوُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مَادَّةٍ أَلْبَ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفات: ١٤٧] أَي لَيْسُوا أَقْلَ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِائَةٌ أَلْفَ حَقِيقَةً أَوْ يَزِيدُونَ عَلَيْهَا. فَهَذَا تَحْقِيقٌ - لِلْمُخْبَرِ بِهِ - لَا شَكَّ وَلَا تَرَدُّدٍ، فَإِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ هَهُنَا، وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

وَهَذَا الَّذِي قُلْنَا مِنْ أَنَّ هَذَا الْمُقْتَرَبَ الدَّانِي الَّذِي صَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، هُوَ قَوْلُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي ذَرٍّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ^(٣). كَمَا سَنُورِدُ أَحَادِيثَهُمْ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتَ جَبْرِيْلَ، لَهُ سِتْمَائَةٌ جَنَاحٌ» ^(٤).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ طَلْحِ بْنِ عَنَّتَمَ عَنْ زَائِدَةَ عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ زُرًّا عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ﴿١١﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى جَبْرِيْلَ لَهُ سِتْمَائَةٌ جَنَاحٍ ^(٥).

قَوْلُهُ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ مَعْنَاهُ: فَأَوْحَىٰ جَبْرِيْلُ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَىٰ، أَوْ فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَىٰ عَبْدِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَىٰ بِوَاسِطَةِ جَبْرِيْلَ، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ.

[غَشِيَانُ الْمَلَائِكَةِ وَالنُّورِ وَالْأَلْوَانِ السَّدْرَةَ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّهُ غَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ مِثْلَ الْغُرْبَانِ، وَغَشِيَتْهَا نُورُ الرَّبِّ، وَغَشِيَتْهَا أَلْوَانٌ مَا أَدْرِي مَا هِيَ؟ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا ﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قَالَ فَرَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِينَ، وَأَعْطِيَ حَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقْرَةِ، وَغَفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ الْمُؤْمِنَاتِ^(٨). انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ^(٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا زِلْنَا اللَّيْلَ وَمَا لَطَقْنَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا ذَهَبَ بِيَمِينًا وَلَا شِمَالًا^(١). ﴿وَمَا لَطَقْنَا﴾ مَا جَاوَزَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَهَذِهِ صِفَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ فَإِنَّهُ مَا فَعَلَ إِلَّا مَا أَمَرَ بِهِ وَلَا سَأَلَ فَوْقَ مَا أُعْطِيَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿لَيْتَنِي مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] أَيْ الدَّالَّةَ عَلَى قُدْرَتِنَا وَعَظَمَتِنَا، وَبِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْتَدَلَّ مَنْ ذَهَبَ مِنْ أَهْلِ الشُّبُهَةِ أَنَّ الرُّؤْيَى تِلْكَ اللَّيْلَةَ لَمْ تَفْعَلْ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ وَلَوْ كَانَ رَأَى رَبَّهُ لِأَخْبَرَ بِذَلِكَ وَلَقَالَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَى ﴿٢﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ صِغَرٍ ﴿٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٥﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٦﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٧﴾ وَكَرِهَ مِنْ مَلَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْنِي سَفْعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ ﴿٨﴾

[الرَّدُّ عَلَى عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ وَبَيَانِ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ] يَقُولُ تَعَالَى مُفْرَعًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ

فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [عند سِدْرَةِ الْمُنتَهَى] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتْمَانَةٌ جَنَاحَ، يَنْتَثِرُ مِنْ رِيْشِهِ التَّهَاطُيْلُ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ»^(١). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتْمَانَةٌ جَنَاحَ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنْ التَّهَاطُيْلِ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ أَعْلَمُ^(٢). إِسْنَادُهُ حَسَنٌ أَيْضًا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى وَلَهُ سِتْمَانَةٌ جَنَاحَ» سَأَلْتُ عَاصِمًا عَنْ الْأَجْنِحَةِ فَأَبَى أَنْ يُخْبِرَنِي، قَالَ: فَأَخْبِرَنِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنَّ الْجَنَاحَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ^(٣). وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُضْرٍ مَعْلَنِي بِهِ الدَّرُّ»^(٤). إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ أَيْضًا. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَامِرٍ قَالَ: أَتَى مَسْرُوقٌ عَائِشَةَ فَقَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ! لَقَدْ فَتَّ شِعْرِي لِمَا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَ هُنَّ فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي عَدِيٍّ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ... الْآيَةَ [القمان: ٣٤]. وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿يَتْلَاهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ^(٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ جِبْرِيلُ» لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ، رَأَهُ مِنْهُبِطًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ سَادًّا عَظْمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ^(٦). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ بِهِ^(٧).

(١) أحمد: ١/٤٦٠ (٢) أحمد: ١/٣٩٥ (٣) أحمد: ١/٤٠٧ (٤) أحمد: ١/٤٠٧ (٥) أحمد: ٦/٤٩ (٦) أحمد: ١/٢٤١ (٧) فتح الباري: ٨/٤٧٢ ومسلم: ١/٣٥٩ (٨) أحمد: ١/٤٢٢ (٩) مسلم: ١/١٥٧ (١٠) الطبري: ٢٢/٥٢١

وَالْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ، وَاتَّخَذِهِمْ لَهَا الْبُيُوتَ مُضَاهَاةً لِلْكَعْبَةِ
الَّتِي بَنَاهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿٢٧﴾ أَوْرَيْتُمْ آلَ كَثُفٍ
وَكَانَتْ اللَّاتُ صَخْرَةً بَبْضَاءَ مَنْقُوشَةً وَعَلَيْهَا بَيْتٌ
بِالطَّائِفِ، لَهُ أَسْتَارٌ وَسِدْنَةٌ وَحَوْلُهُ فِنَاءٌ مُعْظَمٌ عِنْدَ أَهْلِ
الطَّائِفِ، وَهُمْ ثَقِيفٌ وَمَنْ تَابَعَهَا، يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَى مَنْ
عَدَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بَعْدَ قُرَيْشٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:
وَكَانُوا قَدِ اسْتَمْتُوا اسْمَهَا مِنْ اسْمِ اللَّهِ فَقَالُوا: اللَّاتُ،
يَعْنُونَ مُؤَنَّثَةً مِنْهُ. تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوقًا كَبِيرًا، وَخَبِي
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: أَنَّهُمْ قَرَأُوا
(اللَّاتُ) بِتَشْدِيدِ التَّاءِ وَفَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يَلْتُ لِلْحَجِيجِ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ السُّوَيْقِ، فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ
فَعَبَدُوهُ^(١). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّتُّ وَالْعُرَى﴾ قَالَ: كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلْتُ
السُّوَيْقِ سُوَيْقَ الْحَاجِّ^(٢). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَا الْعُرَى مِنْ
الْعُرَيْزِ، وَكَانَتْ شَجَرَةً عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَأَسْتَارٌ بِنَخْلَةٍ، وَهِيَ بَيْنَ
مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ يُعْظَمُونَهَا^(٣). كَمَا قَالَ أَبُو
سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ: لَنَا الْعُرَى وَلَا عُرَى لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»^(٤).

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَهُنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى
وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَذَّعَبُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ
الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحَسَنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ
إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْنَاعٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنْ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى
﴿٣٤﴾ أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَابْرَهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نُنزِّلُ الْوَيْزَةَ وَزُرَّخْرَى
﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ
يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى
﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

وَكَانَ سَدَنَّتْهَا وَحَجَابُهَا بَنِي مُعْتَبٍ^(٧). (قُلْتُ): وَقَدْ بَعَثَ
إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُنْبِئَةَ بِنِ شُعْبَةَ، وَأَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ
ابْنِ حَرْبٍ، فَهَدَمَاهَا وَجَعَلَهَا مَكَانَهَا مَسْجِدًا بِالطَّائِفِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ «مَنَاة» لِلْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَمَنْ
دَانَ بَدِينِهِمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ
الْمُسَلَّلِ بِقُدَيْدٍ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهَا أَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ
ابْنِ حَرْبٍ فَهَدَمَهَا - وَيُقَالُ: عَلِيٌّ بِنَ أَبِي طَالِبٍ - قَالَ:
وَكَانَتْ ذُو الْخَلْصَةِ لِدَوْسٍ وَخَنَعَمَ وَبِجِلَّةَ، وَمَنْ كَانَ
يَبْلَاغِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بِبَنَاءِ^(٨). (قُلْتُ): وَكَانَ يُقَالُ لَهَا:
«الْكَعْبَةُ الْيَمَانِيَّةُ»، وَلِلْكَعْبَةِ الَّتِي بِمَكَّةَ الْكَعْبَةُ الشَّامِيَّةُ،
فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَرِيرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيَّ فَهَدَمَهُ،

وَأَمَّا مَنَاةُ فَكَانَتْ بِالْمُسَلَّلِ عِنْدَ قُدَيْدٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ،
وَكَانَتْ خُرَاعَةً وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يُعْظَمُونَهَا
وَيُهْلُونَ مِنْهَا لِلْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ
نَحْوَهُ^(٥). وَقَدْ كَانَ بِبَجْرِيَّةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا طَوَاغِثٌ أُخْرُ
تُعْظَمُهَا الْعَرَبُ كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ. غَيْرَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي نَصَّ
عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ الْعُرَيْزِ، وَإِنَّمَا أَوْرَدَ هَذِهِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَشْهُرُ
مِنْ غَيْرِهَا.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي الطَّفِيلِ قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا
الْعُرَى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمْرَاتٍ، فَقَطَعَ
السَّمْرَاتِ وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ
فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا» فَرَجَعَ خَالِدٌ،
فَلَمَّا أَبْصَرَتْهُ السَّدْنَةُ وَهُمْ حَجَّجَتْهَا أَمَعُوا فِي الْجَبَلِ وَهُمْ
يَقُولُونَ: يَا عُرَى! يَا عُرَى! فَأَتَاهَا خَالِدٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرَيْيَانَةٌ
نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا تَحْتُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَسَهَا بِالسَّيْفِ
حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ:
«يَلْتُ الْعُرَى!»^(٦).

(١) الطبري: ٥٢٣/٢٢ (٢) فتح الباري: ٤٧٨/٨ (٣)
الطبري: ٥٢٣/٢٢ (٤) فتح الباري: ١٨٨/٦ (٥) فتح
الباري: ٤٧٩/٨ (٦) النسائي في الكبرى: ٤٧٤/٦ (٧) ابن
هشام: ٨٧/١ (٨) ابن هشام: ٨٧/١

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ اللَّاتُ لِثَقِيفٍ بِالطَّائِفِ،

قَالَ: وَكَانَتْ [فَلْسٌ] لَطِيءٌ وَمَنْ يَلِيهَا بِجَبَلٍ طَيِّبٍ مِنْ سَلْمَى وَأَجَأ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَهَدَمَهُ، وَأَصْطَفَى مِنْهُ سِتْفَيْنِ: الرَّسُوبَ وَالْمُخَذَّمِ، فَفَقَلَهُ إِيَّاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهُمَا سَيْفَا عَلِيٍّ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ لِجَمِيرٍ وَأَهْلِ الْيَمَنِ بَيْتٌ بِصَنْعَاءَ يُقَالُ لَهُ: «رِيَامٌ» وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ بِهِ كَلْبٌ أَسْوَدٌ، وَأَنَّ الْحَبْرَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَهَبَا مَعَ تَبَعٍ اسْتَخْرَجَاهُ وَقَتَلَاهُ وَهَدَمَا الْبَيْتَ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ «رُضَاءٌ» بَيْتًا لِبَنِي رِبِيعَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ ابْنِ تَمِيمٍ^(١). وَلَهَا يَقُولُ الْمُسَوِّغُ بْنُ رِبِيعَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ جَعْفَرٍ هَدَمَهَا فِي الْإِسْلَامِ:

وَلَقَدْ شَدَدْتُ عَلَى رُضَاءَ شَدَّةً

فَتَرَكْتُهَا قَفْرًا بِقَاعِ أَسْمَحَا
وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ «ذُو الْكَعْبَاتِ» لِيَكْرَ وَتَغْلِبَ
ابْنِي وَائِلَ وَإِيَادَ «بِسِنْدَادٍ». وَلَهُ يَقُولُ أَعْسَى بْنُ قَيْسِ بْنِ
ثَعْلَبَةَ:

بَيْنَ الْخَوَزَنِيِّ وَالسَّيْدِيِّ وَبَارِقِ

وَالْبَيْتِ ذُو الْكَعْبَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
[الرَّدُّ عَلَى مُعْتَقِدِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَذْكِيرِ الْأَنْدَادِ
وَتَأْيِثِ الْمَلَائِكَةِ]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٦﴾ وَمَنْزَةَ الثَّالِثَةَ
الْأُخْرَىٰ ﴿١٧﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْكُفْرَ الذَّكْرَ ﴿١٨﴾ وَكَلِمَةَ الْأُنثَىٰ ﴿١٩﴾ أَيْ
أَتَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَتَجْعَلُونَ وَلَدَهُ أَثْنَىٰ، وَتَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِكُمْ
الذَّكُورَ، فَلَوْ افْتَسَمْتُمْ أَنْتُمْ وَمَخْلُوقٌ مِثْلَكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ
لَكَانَتْ «قِسْمَةُ ضِرْيَٰءَ» أَيْ جَوْرًا بَاطِلَةً، فَكَيْفَ تَقَاسِمُونَ
رَبَّكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ الَّتِي لَوْ كَانَتْ بَيْنَ مَخْلُوقِينَ كَانَتْ جَوْرًا
وَسَفْهًا؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَخْدَعُوهُ
مِنَ الْكَدِّبِ وَالْإِفْرَاءِ وَالْكَفْرِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَسْمِيَّتِهَا
آلِهَةً: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ﴾ أَيْ مِنْ تِلْقَاءِ
أَنْفُسِكُمْ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَيْ مِنْ حُجَّةٍ ﴿إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أَيْ لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ إِلَّا
حُسْنُ ظَنِّهِمْ بِآبَائِهِمْ الَّذِينَ سَلَكَوا هَذَا الْمَسْلِكَ الْبَاطِلَ
قَبْلَهُمْ، وَإِلَّا حَظَّ نَفْسِهِمْ فِي رِيَّاسَتِهِمْ وَتَعْظِيمِ آبَائِهِمْ
الْأَقْدَمِينَ. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ أَيْ وَلَقَدْ أُرْسِلَ اللَّهُ
إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ الْمُنِيرِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ، وَمَعَ هَذَا مَا
اتَّبَعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ وَلَا انْقَادُوا لَهُ.

[لَا يَحْصُلُ الْخَيْرُ بِالتَّمَنَّى]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿١﴾ أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ
تَمَنَّى خَيْرًا حَصَلَ لَهُ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ
الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] مَا كُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُهْتَدٍ يَكُونُ
كَمَا قَالَ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَدَّ شَيْئًا يَحْصُلُ لَهُ. رَوَى الْإِمَامُ
أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَمَنَّى
أَحَدُكُمْ فَلْيَنْظُرْ مَا يَتَمَنَّى، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا يَكْتَسِبُ لَهُ مِنْ
أُمِّيَّتِهِ»^(٢). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾
أَيْ إِنَّمَا الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ مَالِكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْمُتَصَرِّفِ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ
يَكُنْ.

[لَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْنَى سَفْعُهُمْ
شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَىٰ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا
الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ
عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ
الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فَكَيْفَ تَرْجُونَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ شَفَاعَةَ
هَذِهِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ تَعَالَى لَمْ يَشْرَعْ
عِبَادَتَهَا وَلَا أَدْنَىٰ فِيهَا، بَلْ قَدْ نَهَىٰ عَنْهَا عَلَىٰ أَلْسِنَةِ جَمِيعِ
رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ جَمِيعَ كُتُبِهِ؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا تَسْبِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا
لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ بَرًّا إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾
ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعُلُوِّ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

[الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي رَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ

بَنَاتُ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْمِيَّتِهِمُ الْمَلَائِكَةَ
تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ، وَجَعَلِهِمْ لَهَا أَنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ
ذَلِكَ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ
الرَّحْمَنِ إِنَّكُمْ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخِكَبُ شَهْدَتِهِمْ وَسُئُلُونَ﴾
[الزخرف: ١٩] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيْ
لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ صَحِيحٌ يَصْدُقُ مَا قَالُوهُ، بَلْ هُوَ كَذِبٌ وَزُورٌ

(١) ابن هشام: ١/٨٩ (٢) أحمد: ٣٥٧/٢ إسناده ضعيف
والحديث ضعفه الألباني في الضعيفة (٢٢٥٥)

قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّزْقِ، أَرَدَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرِزْنَا الْعَيْنِ النَّظْرُ، وَرِزْنَا اللِّسَانَ النَّطْقُ، وَالتَّنَفُّسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهَى، وَالْفَرْجُ يُصَدَّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذَبُهُ»^(٣) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٤).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: رِزْنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرُ، وَرِزْنَا الشَّفَتَيْنِ التَّقْبِيلُ، وَرِزْنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَرِزْنَا الرَّجْلَيْنِ الْمَسِي، وَيُصَدَّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يَكْذَبُهُ، فَإِنْ تَقَدَّمَ بِفَرْجِهِ كَانَ رَايَا وَإِلَّا فَهُوَ اللَّمَمُ^(٥). وَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ^(٦) وَالشَّعْبِيُّ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَافِعٍ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: ابْنُ لُبَابَةَ الطَّائِفِيُّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ قَالَ: الْقِبْلَةُ وَالْعَمْرَةُ وَالنَّظْرَةُ وَالْمُبَاشَرَةُ، فَإِذَا مَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْعُسْلُ، وَهُوَ الرِّزْنَا^(٧).

[الترغيب في التوبة والنهي عن تركية النفس]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَعْفُورَ﴾ أَي رَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَمَغْفِرَتُهُ تَسَعُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، لِمَنْ تَابَ مِنْهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُوِّ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِثْرَ الْأَرْضِ﴾ أَي هُوَ بَصِيرٌ بِكُمْ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ الَّتِي سَتَصُدُّرُ عَنْكُمْ، وَتَفْعُ مِنْكُمْ حِينَ أَنْشَأَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ، وَاسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ ضُلْبِهِ أَمْثَالَ الدَّرْنَمِ فَسَمَّاهُمْ قَرِيبَيْنِ: قَرِيبًا لِلْحَجَّةِ وَقَرِيبًا لِلسَّعِيرِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قَدْ كَتَبَ الْمَلِكُ الَّذِي يُوَكَّلُ بِهِ: رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيَّ أُمِّ سَعِيدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُرْكُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أَي تَمَدِّحُوهَا وَتَشْكُرُوهَا وَتَمَنُّوا بِأَعْمَالِكُمْ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ قِتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]. وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ: سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةً، فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الْإِسْمِ، وَسَمَّيْتُ بَرَّةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا

وَافْتِرَاءٌ وَكُفْرٌ شَنِيعٌ. «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَعْتِقُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» أَي لَا يُجَلِّدِي شَيْئًا وَلَا يَقُومُ أَبَدًا مَقَامَ الْحَقِّ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(١).

[الأمر بالإعراض عن أهل الباطل]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْرِضْ عَن مَّن تَوَكَّلَ عَن ذِكْرِنَا﴾ أَي أَعْرِضْ عَنِ الَّذِي أَعْرِضَ عَنِ الْحَقِّ وَاهْتَجَرَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَي وَإِنَّمَا أَكْثَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ الدُّنْيَا، فَذَلِكَ هُوَ غَايَةٌ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ﴾ أَي طَلَبُ الدُّنْيَا وَالسَّعْيُ لَهَا هُوَ غَايَةٌ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ. وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا»^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ أَي هُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْعَالَمِ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَن قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا، لَا فِي شَرِّهِ وَلَا فِي قُدْرَتِهِ.

﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَفُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَعْفُورَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُوِّ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِثْرَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ [٣١]

[اللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، فَهُوَ يُجَازِي كُلًّا بِحَسَبِهِ] يُخَبِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، الْحَاجِمُ فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ، وَخَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَفُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ أَي يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

[صِفَةُ الْمُحْسِنِينَ وَعُقْرَانِ اللَّمَمِ دُونَ الْكِبَائِرِ]

ثُمَّ فَسَّرَ الْمُحْسِنِينَ بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ، أَي لَا يَتَعَاطَوْنَ الْمُحْرَمَاتِ الْكِبَائِرَ، وَإِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بَعْضُ الصَّغَائِرِ فَإِنَّهُ يُعْفَرُ لَهُمْ وَيَسْتُرُ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُهَيَّوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ صِغَائِرَهُمْ وَتُذَلِّكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، لِأَنَّ اللَّمَمَ مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

(١) فتح الباري: ٤٤١/٥ (٢) تحفة الأحوذني: ٤٧٦/٩ (٣)

أحمد: ٢٧٦/٢ (٤) فتح الباري: ٢٨/١١ ومسلم: ٢٠٤٦/٤

(٥) الطبري: ٥٣٧/٢٢ (٦) الطبري: ٥٣٧/٢٢ (٧) الطبري:

[بَيَانُ ضُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ يَمَا فِي ضُحُفِ مُوسَى﴾^(٣٣)
 وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالثَّوْرِيُّ: أَي بَلَغَ
 جَمِيعَ مَا أَمَرَ بِهِ^(٣٤). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿وَفَّى﴾ لِلَّهِ
 بِالْبَلَاغِ^(٣٥). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَفَّى﴾ مَا أَمَرَ بِهِ^(٣٦).
 وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَفَّى﴾ طَاعَةَ اللَّهِ وَآدَى رِسَالَتَهُ إِلَى خَلْقِهِ.
 وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَهُوَ يَسْمَلُ الَّذِي قَبْلَهُ
 وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَسْلَمَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ
 قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٣] فَقَامَ بِجَمِيعِ
 الْأَوَامِرِ وَتَرَكَ جَمِيعَ النَّوَاهِي، وَبَلَغَ الرِّسَالَةَ عَلَى التَّمَامِ
 وَالْكَمَالِ، فَاسْتَحَقَّ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ إِمَامًا يُتْتَدَى بِهِ
 فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ
 أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
 [النحل: ١٢٣].

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي دَرٍّ عَنْ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ: «ابْنُ آدَمَ، ارْزُقْ
 لِي أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفَكَ آخِرَهُ»^(٣٧).

[لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وَزْرَ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى يُبَيِّنُ مَا كَانَ أَوْحَاهُ فِي ضُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
 وَمُوسَى فَقَالَ: ﴿أَلَا نَزَرُ وَرِزَّةً وَزَرَ أُثْرَى﴾ أَي كُلُّ نَفْسٍ
 ظَلَمَتْ نَفْسَهَا بِكُفْرٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا عَلَيْهَا وَزْرُهَا
 لَا يَحْمِلُهُ عَنْهَا أَحَدٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِوَارِهَا
 لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨] «وَأَنْ لَيْسَ
 لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى» [النجم: ٣٩] أَي كَمَا لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ وَزْرُ
 غَيْرِهِ، كَذَلِكَ لَا يَحْضُلُ مِنَ الْأَجْرِ إِلَّا مَا كَسَبَ هُوَ لِنَفْسِهِ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي
 هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ
 عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ

تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبَيْتِ مِنْكُمْ» فَقَالُوا: بِمِ
 نُسَمِّيَهَا؟ قَالَ: «سَمُوهَا زَيْبٌ»^(٣٨). وَقَدْ ثَبَتَ أَيْضًا فِي
 الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي
 بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - مِرَارًا - إِذَا
 كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا
 وَاللَّهِ حَسِيبَهُ، وَلَا أُرْكَبِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا،
 إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ»^(٣٩). وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو
 دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ^(٤٠).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: جَاءَ
 رَجُلٌ إِلَى عُثْمَانَ فَأَتَى عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ قَالَ: فَجَعَلَ الْمِقْدَادُ
 ابْنُ الْأَسْوَدِ يَحْتُو فِي وَجْهِهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: أَمَرْنَا رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ إِذَا لَقِينَا الْمَدَاحِينَ أَنْ نَحْتُو فِي وَجُوهِهِمْ
 التُّرَابَ^(٤١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ^(٤٢).

﴿أَفَرَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَآكَدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ
 فَهُوَ بَرِيٌّ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يَبْنَأْ يَمَا فِي ضُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي
 وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَرِزَّةً وَزَرَ أُثْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا
 سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعَيْكُمْ سَوْفَ بَرِيٌّ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجِزُّهُ الْجَزَاءَ
 الْأَوَّلَى ﴿٤١﴾

[الَّذِينَ لَمِنَ تَوَلَّى عَنِ الطَّاعَةِ وَبِخَلِّ بِالْمَالِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِ]
 يَقُولُ تَعَالَى ذَاتًا لَمِنَ تَوَلَّى عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا
 صَلَّى﴾^(٤٣) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿[القيامة: ٣١، ٣٢]﴾ «وَأَعْطَى قَلِيلًا
 وَآكَدَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَعْطَى قَلِيلًا ثُمَّ قَطَعَهُ^(٤٤). وَكَذَا
 قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ
 وَاحِدٍ^(٤٥). قَالَ عِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ: كَمَثَلِ الْقَوْمِ إِذَا كَانُوا
 يَحْفَرُونَ بِنَاءً، فَيَجِدُونَ فِي أَثْنَاءِ الْحَفْرِ صَخْرَةً تَمْنَعُهُمْ مِنْ
 تَمَامِ الْعَمَلِ فَيَقُولُونَ: «أَكْدَيْنَا»^(٤٦) وَيَتْرَكُونَ الْعَمَلَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيٌّ﴾ أَي أَعِنْدَ هَذَا
 الَّذِي قَدْ أَمْسَكَ يَدَهُ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَقَطَعَ مَعْرُوفَهُ، أَعِنْدَهُ
 عِلْمُ الْغَيْبِ أَنَّهُ سَيَنْفَدُ مَا فِي يَدِهِ حَتَّى قَدْ أَمْسَكَ عَنْ مَعْرُوفِهِ
 فَهُوَ بَرِيٌّ ذَلِكَ عَيْنَانَا؟ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ. وَإِنَّمَا أَمْسَكَ
 عَنِ الصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْبِرِّ وَالصَّلَاةِ بُخْلًا وَشُحًا وَهَلَعًا،
 وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنْفَقُ بِلَالًا، وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي
 الْعَرْشِ إِفْلَالًا»^(٤٧). وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ
 شَيْءٍ فَهُوَ يُحْصِيهِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاسِبِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

(١) مسلم: ١٦٨٧/٣ (٢) أحمد: ٤٦/٥ و٤١ (٣) فتح
 الباري: ٣٢٤/٥ و٤٩١/١٠ و٥٦٧ و٢٢٩٦/٤ وأبو
 داود: ١٥٤/٥ وابن ماجه: ١٢٣٢/٢ (٤) أحمد: ٥/٦ (٥)
 مسلم: ٢٢٩٧/٤ وأبو داود: ١٥٣/٥ (٦) الطبري: ٥٤١/٢٢
 (٧) الطبري: ٥٤٢/٢٢ (*) كذا وقع في النسخ ولعله: أكدتنا
 بالناء إما بضمير الغائب أو بالمخاطب أو أصله أكدنا وانظر
 الطبري (٨) الطبراني: ١٩١/١٠ (٩) الطبري: ٥٤٤/٢٢
 (١٠) الطبري: ٥٤٣/٢٢ (١١) الطبري: ٥٤٤/٢٢ (١٢) تحفة
 الأحوذى: ٥٨٥/٢

جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ عِلْمٌ يُتَمَعُّ بِهِ^(١). فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ مِنْ سَعْيِهِ وَكَدِّهِ وَعَمَلِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنْ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ»^(٢) وَالصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ كَالْوَقْفِ وَنَحْوِهِ هِيَ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ وَوَقْفِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ النَّوْفُكَاتُ وَالَّذِي نَسَرَّهُ فِي النَّاسِ فَاغْتَدَى بِهِ النَّاسُ بَعْدَهُ هُوَ أَيْضًا مِنْ سَعْيِهِ وَعَمَلِهِ، وَبَيَّنَّ فِي الصَّحِيحِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ اتَّبَعَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ بَرَى﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسِرِّي اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ وَاللَّهْبَةُ الَّذِينَ يُنَشِّئُونَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أَي فَيُخَبِّرُكُمْ بِهِ وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ أَمَّ الْجَزَاءِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَهَكَذَا قَالَ هُنَا: ﴿ثُمَّ يُجْزِيهِ الْجَزَاءَ الْأَوَّلُ﴾ أَي الْأَوْفَرُ.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾^(٤) وَأَنَّ هُوَ أَصْحَكَ وَأَنْتَ^(٥) وَأَنَّ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا^(٦) وَأَنَّ خَلْقَ الرَّبِّينِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ^(٧) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَنَسَّاهُ^(٨) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ^(٩) وَأَنَّ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ^(١٠) وَأَنَّ هُوَ رَبُّ السَّمْعَىٰ^(١١) وَأَنَّ هُوَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ^(١٢) وَتَمُودًا فَمَا أَغْنَىٰ^(١٣) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَمَ^(١٤) وَالْمُرْغِفَةَ أَمْوَىٰ^(١٥) فَغَشَّهَا مَا عَشَىٰ^(١٦) فَيَأْتِي مَالَهُ رَبِّكَ تَسْمَانًا^(١٧)

[بَعْضُ صِفَاتِ الرَّبِّ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْإِنْسَانَ كَمَا بَدَأَهُ،

وَذَكَرَ بَعْضُ مَا فَعَلَهُ بِعِبَادِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أَي الْمَعَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونِ الْأَوْدِيِّ قَالَ: قَامَ فِينَا مَعَادُ بْنُ جَبَلٍ فَقَالَ: يَا بَنِي أَوْدٍ! إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ، تَعَلَّمُونَ: أَنَّ الْمَعَادَ إِلَى اللَّهِ، إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هُوَ أَصْحَكَ وَأَنْتَ﴾ أَي خَلَقَ فِي عِبَادِهِ الضَّحِكَ وَالْبُكَاءَ وَسَبَبَهُمَا، وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ ﴿وَأَنَّ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

﴿وَأَنَّ خَلْقَ الرَّبِّينِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ﴾^(٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَنَسَّاهُ^(٦) كَقَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُبْرَكَ سُدًى﴾^(٧) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَتْنٍ يُنْتَنَىٰ^(٨) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ^(٩) جَعَلَ بَيْنَهُ الرَّبِّينِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ^(١٠) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْبِتِيَ الْمُؤْتَىٰ^(١١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أَي: كَمَا خَلَقَ الْبِدَاءَةَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ، وَهِيَ النَّشْأَةُ الْآخِرَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَنَّ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أَي مَلِكٌ عِبَادَةَ الْمَالِ، وَجَعَلَهُ لَهُمْ قِيَمَةً مُقِيمًا عِنْدَهُمْ، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى بَيْعِهِ، فَهَذَا تَمَامُ النُّعْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَعَلَىٰ هَذَا يَدُورُ كَلَامٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، مِنْهُمْ: أَبُو صَالِحٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمَا^(٥). وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَقْنَىٰ﴾: مَوْلٍ، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أَخْدَمَ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ أَيْضًا: ﴿أَقْنَىٰ﴾: أَعْطَىٰ ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: رَضِيَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ هُوَ رَبُّ السَّمْعَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ: هُوَ هَذَا النَّجْمُ الْوَقَادُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: مِرْزَمُ الْجُوزَاءِ، كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْبُدُونَهُ^(٦). ﴿وَأَنَّ هُوَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ وَهُمْ قَوْمٌ هُودٌ، وَيُقَالُ لَهُمْ: عَادُ بْنُ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِعَادٍ﴾^(٧) إِذْ دَاتِ الْعِمَادِ^(٨) الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْيَلْدِ فَكَانُوا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ أَقْوَامًا وَأَعْتَاهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى رَسُولِهِ فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ ﴿بِإِيجِ صَمَصَةٍ عَلَيْهِ﴾^(٩) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنًّا لَيَالٍ وَتَنَبَّأَهُ أَبْنَاءُ حُسُومًا^(١٠) [الحاقة: ٧] أَي: مُتَنَابِعَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمُودًا فَمَا أَغْنَىٰ﴾ أَي: دَمَرَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدًا، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿إِبْرَاهِيمَ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَمَ﴾ أَي أَشَدَّ تَمَرُّدًا مِنَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ﴿وَالْمُرْغِفَةَ أَمْوَىٰ﴾ يَعْنِي: مَدَائِنَ لُوطٍ فَلَبَّاهَا عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ مَنْصُودٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَغَشَّهَا مَا عَشَىٰ﴾ يَعْنِي: مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَيْهِمْ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]، ﴿فَيَأْتِي مَالَهُ رَبِّكَ تَسْمَانًا﴾ أَي: فِي أَيِّ نَعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ تَمْتَرِي؟ قَالَهُ قَتَادَةُ^(٧). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿فَيَأْتِي مَالَهُ رَبِّكَ تَسْمَانًا﴾ يَا مُحَمَّدُ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَىٰ وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَىٰ﴾^(٨) أَرَفَتْ الْآرَافَةَ^(٩) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ^(١٠) أَفَنُ هَذَا الْمَدِيدِ تَجْبُونَ^(١١) وَتَضْحَكُونَ وَلَا

(١) مسلم: ١٢٥٥/٣ (٢) النسائي: ٢٤١/٧ (٣) مسلم: ٤/٢٠٦٠ (٤) الحاكم: ٨٣/١ فيه سويد بن سعيد قال ابن حجر: صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه وأفحش فيه ابن معين القول [تقريب ٢٩٧٨] (٥) الطبري: ٢٢/٥٤٨ ٥٤٩ (٦) الطبري: ٥٥١/٢٢ (٧) الطبري: ٥٥٦/٢٢

تَبْكُونَ ﴿٦١﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦٢﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٣﴾
[الإنذار والتنبيه والأمر بالسجدة والخضوع]

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعني: مُحَمِّدًا ﷺ ﴿مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ﴾ أي: مِنْ جَنْسِهِمْ أُرْسِلَ كَمَا أُرْسِلُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحزاب: ٩]، ﴿أَرَفَتِ الْآرِزَةَ﴾ أي: افتربت القرية، وهي القيامة ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: لا يذفعها إذا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَحَدٌ، وَلَا يَطْلُعُ عَلَى عِلْمِهَا سِوَاهُ، وَالنَّذِيرُ الْحَذِيرُ لِمَا يُعَايَنُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يُخْشَى وَفُوعُهُ فَيَمُنُّ أَنْذَرَهُمْ كَمَا قَالَ: إني ﴿نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وفي الحديث: «أنا النذير العُرَيَانُ»^(١).

أي: الَّذِي أَعَجَلَهُ شِدَّةٌ مَا عَايَنَ مِنَ الشَّرِّ عَنْ أَنْ يَلْبَسَ عَلَيْهِ شَيْئًا، بَلْ بَادَرَ إِلَى إِنْذَارِ قَوْمِهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَجَاءَهُمْ عُرَيَانًا مُسْرِعًا، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ: ﴿أَرَفَتِ الْآرِزَةَ﴾ أي: افتربت القرية يعني: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا: ﴿افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [الفرقان: ١] وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مِثْلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمِثْلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِطَنْ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، حَتَّى أَنْصَجُوا خُبْرَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا، تُهْلِكُهَا»^(٢). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَتَلَهِّيهِمْ ﴿تَعْبُجُونَ﴾ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَهَا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ مِنْهُ؛ اسْتِهْزَاءً وَشُحْرَبَةً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أَي كَمَا يَفْعَلُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ ﴿وَيَخْرُونَ لِلْآذِقَانِ يَبْكُونَ﴾ وَرَبِّدُهُمْ خُشُوعًا ﴿[الاسراء: ١٠٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْغِنَاءُ: هِيَ يَمَانِيَّةٌ: اسْمُ لَنَا: عَنْ لَنَا، وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿سَيِّدُونَ﴾: مُعْرُضُونَ^(٤). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعِبَادِهِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْعِبَادَةِ الْمَتَابِعَةِ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَالتَّوْحِيدِ وَالْإِحْلَاصِ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أَي: فَاحْضَعُوا لَهُ، وَأَخْلِصُوا، وَوَحَّدُوهُ. رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ^(٥). انْفَرَدَ بِهِ دُونَ مُسْلِمٍ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ سُورَةَ النَّجْمِ فَسَجَدَ وَسَجَدَ مَنْ عِنْدَهُ فَرَفَعَتْ رَأْسِي فَأَبَيْتُ أَنْ أَسْجُدَ، وَلَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ

وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٥٦﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَمَنَّيْتُ ﴿٥٧﴾ وَأَنَّ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٥٨﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٩﴾ وَتَمُودًا إِذْ بَقِيَ ﴿٦٠﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَى ﴿٦١﴾ وَالْمُؤَنَّفَكَ أَهْوَى ﴿٦٢﴾ فَعَسَلْنَا مَا عَمَسْنَى ﴿٦٣﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكَ نَسْمَارَى ﴿٦٤﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ ﴿٦٥﴾ أَرَفَتِ الْآرِزَةَ ﴿٦٦﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٦٧﴾ أَفَنَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْبُجُونَ ﴿٦٨﴾ وَتَضْحَكُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٧٠﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٧١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٧٢﴾

سُورَةُ الْقَبْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُعِنُّ النَّذِرُ ﴿٥﴾ قَوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ تُكْرَهُ ﴿٦﴾

يَوْمَئِذٍ الْمُطَّلِبُ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَسْمَعُ أَحَدًا يَقْرؤها إِلَّا سَجَدَ مَعَهُ^(٦). وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الصَّلَاةِ^(٧).
أَجْرٌ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّجْمِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي وَقِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِقَافٍ وَافْتَرَبَتِ السَّاعَةُ فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ وَكَانَ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَحَافِلِ الْكِبَارِ؛ لِاسْتِمَالِهَا عَلَى ذِكْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَبَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ وَالتَّوْحِيدِ وَإِبْنَاتِ التَّبَوَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْعَظِيمَةِ.

(١) فتح الباري: ١١/٣٢٣ (٢) أحمد: ٥/٣٣١ (٣) الطبري: ٥٥٩/٢٢ (٤) عبد الرزاق: ٣/٢٥٥ (٥) فتح الباري: ٨/٤٨٠ (٦) أحمد: ٦/٣٩٩ (٧) النسائي: ٢/١٦٠

فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ كَانَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ .

ذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ

رِوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَأَلَ أَهْلَ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ آيَةَ، فَأَنْشَقَ الْقَمَرَ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ فَقَالَ: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرَ﴾^(٨). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٩). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةَ، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شَقِيحِينَ حَتَّى رَأَوْا جِرَاءَ بَيْنَهُمَا^(١٠). وَأَخْرَجَاهُ أَيْضًا مِنْ طُرُقٍ .

رِوَايَةُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَارَ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ وَفِرْقَةٌ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، فَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ. فَقَالُوا: إِنْ كَانَ سَحَرَنَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ^(١١). فَفَرَدَّ بِهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَأَسْنَدَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ^(١٢).

رِوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رَوَى الْبُخَارِيُّ^(١٣)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ^(١٤). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا وَمُسْلِمٌ^(١٥). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرَ﴾^(١٦) وَإِنْ بَرَّوْا آيَةَ يُعْرَضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمَرٌّ [القمر: ١، ٢] قَالَ: قَدْ مَضَى ذَلِكَ، كَانَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ انْشَقَّ الْقَمَرُ حَتَّى رَأَوْا شِقَاقَهُ^(١٧).

(رِوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرَ﴾ قَالَ: وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، انْشَقَّ فَلِقَتَيْنِ، فَلِقَةٌ مِنْ دُونِ الْجَبَلِ وَفَلِقَةٌ مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(١٨). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ

(١) مجمع الزوائد: ٣١١/١٠ (٢) أحمد: ١١٥/٢ (٣) أحمد: ٣٣٨/٥ (٤) فتح الباري: ٣٥٥/١١ ومسلم: ٤/٢٢٦٨ (٥) أحمد: ٣٠٩/٤ (٦) أحمد: ٢٢٣/٣ (٧) فتح الباري: ٦٤١/٦ (٨) أحمد: ١٦٥/٣ وقوله: مرتين أي: قطعتين. (٩) مسلم: ٢١٥٩/٤ (١٠) فتح الباري: ٢٢١/٧ و٤٨٤/٨، ومسلم: ٢١٥٩/٤ (١١) أحمد: ٨١/٤ (١٢) دلائل النبوة: ٢٦٨/٢ (١٣) فتح الباري: ٤٨٤/٨ (١٤) فتح الباري: ٢٢١/٧، ومسلم: ٢١٥٩/٤ (١٥) الطبري: ٢٢/٥٦٩ (١٦) دلائل النبوة: ٢٦٧/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرَ﴾^(١) وَإِنْ بَرَّوْا آيَةَ يُعْرَضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمَرٌّ^(٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ^(٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ^(٤) حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تَعَنَّ الْأَنْدُرُ^(٥)

[اِقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَأَنْشِقَاقِ الْقَمَرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَفَرَاغِ الدُّنْيَا وَأَنْقِضَائِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ لِلَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وَقَالَ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ. رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَطَبَ أَصْحَابَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَقَدْ كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا شَيْفٌ يَسِيرٌ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ» وَمَا نَرَى مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا يَسِيرًا^(١).

(حَدِيثٌ آخَرَ يَعْضُدُ الَّذِي قَبْلَهُ وَيُفَسِّرُهُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَالشَّمْسُ عَلَى قُعَيْبَعَانَ بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَ: «مَا أَعْمَارُكُمْ فِي أَعْمَارٍ مَنْ مَضَى إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ فِيمَا مَضَى»^(٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا». وَأَشَارَ بِأَصْبُعِيهِ السَّبَابِيَةِ وَالْوُسْطَى^(٣). وَأَخْرَجَاهُ^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَهْبِ السُّوَائِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَلِهِ مِنْ هَذِهِ، إِنْ كَادَتْ لَتَسْفِينِي» وَجَمَعَ الْأَعْمَشُ بَيْنَ السَّبَابِيَةِ وَالْوُسْطَى^(٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ: قَدِمَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَسَأَلَهُ: مَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ بِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^(٦). فَفَرَدَّ بِهِ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَشَاهِدُ ذَلِكَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ فِي أَسْمَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمَيْهِ^(٧). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْشَقَ الْقَمَرَ﴾ قَدْ كَانَ هَذَا فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ بِالْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ. وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ قَدْ وَقَعَ

وَالْتَرْمِذِيُّ^(١) وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢).
(رواية عبد الله بن مسعود) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ
مَسْعُودٍ قَالَ: انْتَشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَقَّتَيْنِ،
حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْهَدُوا»^(٣).
وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٤).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ أَيْضًا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ
الْجَبَلَ مِنْ فَرْجِ الْقَمَرِ حِينَ انْتَشَقَّ^(٥). وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ،
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: انْتَشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
حَتَّى رَأَيْتُ الْجَبَلَ مِنْ بَيْنِ فُرْجَتِي الْقَمَرِ^(٦).

[عِنَادُ الْمُشْرِكِينَ وَمَوْقِفُهُمُ السَّيِّئُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ أَي: دَلِيلًا وَحُجَّةً
وَبُرْهَانًا ﴿يُعْرَضُوا﴾ أَي: لَا يَتَقَادُوا لَهُ، بَلْ يُعْرَضُونَ عَنْهُ
وَيَتْرَكُونَهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ. ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ﴾ أَي:
وَيَقُولُونَ: هَذَا الَّذِي شَاهَدْنَاهُ مِنَ الْحُجْحِ سِحْرٌ سِحْرُنَا بِهِ.
وَمَعْنَى: ﴿مُسْتَعْتِرٌ﴾. أَي: ذَاهِبٌ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ^(٧)
وَعَبِيدُ اللَّهِ. أَي: بَاطِلٌ مُضْمَجِلٌ لَا دَوَامَ لَهُ. ﴿وَكَذَّبُوا
وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَي: كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ، وَاتَّبَعُوا مَا
أَمَرْتَهُمْ بِهِ أَرَاؤُهُمْ وَأَهْوَاؤُهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَخَافَةِ عَقْلِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَعْتِرٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: أَنَّ
الْخَيْرَ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الْخَيْرِ، وَالشَّرُّ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الشَّرِّ^(٨). وَقَالَ
ابْنُ جُرَيْجٍ: مُسْتَعْتِرٌ بِأَهْلِهِ^(٩). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
مُسْتَعْتِرٌ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أَي: مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ قِصَصِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ
بِالرُّسُلِ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعَذَابِ مِمَّا
يُنْتَلَى عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿مَا فِيهِ مُرْدَجِرٌ﴾ أَي: مَا فِيهِ
وَاعِظٌ لَهُمْ عَنِ الشَّرِّ وَالْتِمَادِي عَلَى التَّكْذِيبِ. وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ أَي: فِي هِدَايَتِهِ تَعَالَى لِمَنْ
هَدَاهُ، وَإِضْلَالِهِ لِمَنْ أَضَلَّهُ، ﴿فَمَا تَعْنِ الْأَنْذُرُ﴾ يَعْنِي: أَيُّ
شَيْءٍ تُعْنِي النَّذْرَ عَمَّنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَخَتَمَ عَلَى
قَلْبِهِ، فَمَنْ الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُكْمَةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾
[الأنعام: ١٤٩] وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ
عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا﴾ خُشَعًا
أَبْصَرَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى
الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمَ عِيسَى﴾

سُورَةُ الْقَمَرِ
٥٢٩
خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمَ عِيسَى ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ فكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا
رَبَّهُ: أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنَمَّرٍ
﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ ﴿١٢﴾
وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وَّدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ
كٰفِرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ سَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ
﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ
نَخْلِ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ سَرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا الْبَشَرُ
مِتَّا وَوَحْدًا أَنْتَبِعُونَ إِنَّا إِذْ لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ
مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ
الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَى لَهُمْ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ﴿٢٧﴾

[سوء أحوالهم يوم القيامة]

يَقُولُ تَعَالَى: فَتَوَلَّى يَا مُحَمَّدُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا
آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا: هَذَا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ، أَعْرَضَ عَنْهُمْ
وَأَنْتَظِرُهُمْ ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا﴾ أَي: إِلَى
شَيْءٍ مُنْكَرٍ فَطِيعٍ، وَهُوَ مَوْقِفُ الْحِسَابِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ،
بَلْ وَالزَّلَازِلِ وَالْأَهْوَالِ، ﴿خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ﴾ أَي: دَلِيلَةٌ
أَبْصَارُهُمْ، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وَهِيَ الْقُبُورُ، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ
مُنْتَشِرٌ﴾ أَي: كَأَنَّهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ وَسُرْعَةِ سَيْرِهِمْ إِلَى
مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِجَابَةً لِلدَّاعِي جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ فِي الْأَفَاقِ،
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أَي مُسْرِعِينَ ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ لَا
يُخَالِفُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ ﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمَ عِيسَى﴾ أَي يَوْمَ

(١) مسلم: ٢١٥٩/٤، وتحفة الأحوذى: ١٧٥/٩ (٢) تحفة
الأحوذى: ١٧٥/٩ (٣) أحمد: ٣٧٧/١ (٤) فتح الباري: ٨/
٤٨٣ ومسلم: ٢١٥٨/٤ (٥) الطبري: ٥٦٧/٢٢ (٦) أحمد:
٤١٣/١ (٧) الطبري: ٥٧٠/٢٢ (٨) الطبري: ٥٧٢/٢٢ (٩)
الدر المشور: ٦٧٣/٧

شَدِيدُ الْهَوْلِ هُبُوسٌ قَمَطَرِيرٌ ﴿١﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٢﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرٌ يَسِيرٌ ﴿٣﴾ [المدثر: ١٠، ٩].

﴿١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا بَحْتُونُ وَازْدَجَرُوا ﴿١﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿٣﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ ﴿٤﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿٥﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٩﴾

[قِصَّةُ قَوْمِ نُوحٍ، وَالْعِبْرَةُ بِهَا وَيَقْصَصُ الْأَقْوَامَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قَبْلَ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴿أَيُّ صَرَحُوا لَهُ بِالْكَذِبِ وَاتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ﴾ وَقَالُوا بَحْتُونُ وَازْدَجَرُوا ﴿قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَازْدَجَرُوا﴾ أَيُّ اسْتَطِيرَ جُنُونًا﴾. وَقِيلَ: ﴿وَازْدَجَرُوا﴾ أَيُّ انْتَهَرُوهُ وَزَجَرُوهُ وَتَوَاعَدُوهُ ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَنْتُحَ لِكُفُونٍ مِنَ الرَّجُومِ﴾. قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ. ﴿وَهَذَا مُتَوَجِّهٌ حَسَنٌ. ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ أَيُّ: إِنِّي ضَعِيفٌ عَنْ هَوْلِهِ وَعَنْ مَقَاوِمَتِهِمْ فَانْتَصِرْ أَنْتَ لِدِينِكَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ﴾ قَالَ الشَّدِيدِيُّ: وَهُوَ الْكَثِيرُ ﴿٣﴾. ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أَيُّ: نَبَعَتْ جَمِيعُ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ حَتَّى التَّنَائِيرُ الَّتِي هِيَ مَحَالُ النَّبْرَانِ نَبَعَتْ عُيُونًا ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أَيُّ: مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ﴾ أَيُّ: أَمْرٍ مَقْدَرٍ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ﴾: كَثِيرٍ، لَمْ تَمْطُرِ السَّمَاءُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا بَعْدَهُ إِلَّا مِنَ السَّحَابِ، فَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالْمَاءِ مِنْ غَيْرِ سَحَابٍ، ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَالْتَقَى الْمَاءَانِ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ ﴿٤﴾. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْفَرَطِيُّ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: هِيَ الْمَسَامِيرُ﴾. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. قَالَ: وَوَاجِدُهَا دِسَارًا. وَيُقَالُ: دَسِيرٌ كَمَا يُقَالُ: حَبِيبٌ وَحَبَابٌ، وَالْجَمْعُ حَبِيبٌ ﴿٦﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أَيُّ: بِأَمْرِنَا بِمَرَأَى مِنَّا وَتَحْتَ حِفْظِنَا وَكَلَاءَتِنَا ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أَيُّ: جَزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ، وَانْتِصَارًا لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قَالَ قَتَادَةُ: أَبَقَى اللَّهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿٧﴾. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ جِنْسُ السُّفُنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُنْ لَكُمْ آتَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٩﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نِثْلِهِ مَا

يُرَكَّبُونَ ﴿١٠﴾ [يس: ٤١، ٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَا طَعَا الْمَلَكُ حَمَلْنَاكُمْ فِي اللَّيْلَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرًا وَنَعِيمًا أَذُنٌ وَعَيْةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أَيُّ: فَهَلْ مَنْ يَتَذَكَّرُ وَيَتَّعِظُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: أَفْرَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿٨﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿٩﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ﴾ أَيُّ: كَيْفَ كَانَ عَذَابِي لِمَنْ كَفَرَ بِي وَكَذَّبَ رُسُلِي، وَلَمْ يَتَّعِظْ بِمَا جَاءَتْ بِهِ نَذِيرِي، وَكَيْفَ انْتَصَرْتُ لَهُمْ وَأَخَذْتُ لَهُمْ بِالثَّأْرِ ﴿وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أَيُّ: سَهَّلْنَا لَفْظَهُ وَبَيَّرْنَا مَعْنَاهُ لِمَنْ أَرَادَهُ لِيَتَذَكَّرَ النَّاسُ، كَمَا قَالَ: ﴿كُنْتُ أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَذَّبُوا عَنْكُمُ أَيْتِيهِمْ وَيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْهِي بِلِسَانِكَ لِيُتَسَرَّ بِهِ الْمُتَقَبِّحُ وَيُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَذًّا﴾ [مریم: ٩٧] وَقَوْلُهُ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أَيُّ: فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ حِفْظَهُ وَمَعْنَاهُ؟ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْفَرَطِيُّ: فَهَلْ مِنْ مُنْزَجِرٍ عَنِ الْمَعَاصِي؟ ﴿١٠﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ﴾ ﴿١١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٢﴾ نَزَغَ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَعْبَارًا تَلْوِي مُنْقَعِرٍ ﴿١٣﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾

[قِصَّةُ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ: إِنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ أَيْضًا، كَمَا صَنَعَ قَوْمُ نُوحٍ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا وَهِيَ الْبَارِدَةُ الشَّدِيدَةُ الْبُرْدِ ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ أَيُّ: عَلَيْهِمْ، قَالَهُ الصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَالشَّدِيدِيُّ ﴿١١﴾ ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ عَلَيْهِمْ نَحْسُهُ وَدَمَارُهُ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ اتَّصَلَ فِيهِ عَذَابُهُمُ الدُّنْيَوِيُّ بِالْآخِرَوِيِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزَغَ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَعْبَارًا تَلْوِي مُنْقَعِرٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي أَحَدَهُمْ فَتَرْفَعُهُ حَتَّى تُغَيِّبَهُ عَنِ الْأَبْصَارِ، ثُمَّ تَنْكَسُهُ عَلَى أُمَّ رَأْسِهِ،

(١) الطبري: ٥٧٦/٢٢ (٢) الطبري: ٥٧٧/٢٢ (٣) القرطبي: ١٣١/١٧ (٤) الدر المنثور: ٦٧٥/٧ (٥) الطبري: ٥٨٠/٢٢ والقرطبي: ١٣٢/١٧ (٦) الطبري: ٥٧٨/٢٢ (٧) الطبري: ٥٨٢/٢٢ (٨) فتح الباري: ٤٨٥/٨ (٩) فتح الباري: ٨/٤٨٤ (١٠) الدر المنثور: ٦٧٦/٧ (١١) الطبري: ٥٨٧/٢٢

فَسَقَطُ عَلَى الْأَرْضِ، فَتَلَعَ رَأْسُهُ فَيَبْقَى جُثَّةٌ بِلا رَأْسٍ،
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَلَّهْمُ أَصْحَارُ نَحْلٍ مُسْقَرٍ﴾ (٢٦) فكيف كان عذابي
وَنَذْرِي (٢١) وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ﴾ (٣٧) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَجِدًا تَبِعْتُمْ؛ إِنَّا إِذَا لَبِئْ
ضَلَّلْنَا وَسُعُرًا (٢٤) أَتَيْتِ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ (٢٥)
سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ (٢١) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَى لَهُمْ
فَارْتَقِبْهُمْ وَأَصْلِحْ (٢٧) وَيَنْبَغِي أَنْ الْمَاءَ فَسَمَّوْهُمُ بِشَرِّ كُلِّ شَرِبٍ
مُحَضَّرٍ (٢٨) فَادَّوْا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنَذْرِي (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ (٣١)
وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) ﴿

[قِصَّةُ ثَمُودَ]

وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ ثَمُودَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ صَالِحًا
﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَجِدًا تَبِعْتُمْ؛ إِنَّا إِذَا لَبِئْ ضَلَّلْنَا وَسُعُرًا﴾ يَقُولُونَ:
لَقَدْ خَبَرْنَا وَخَسِرْنَا إِنْ سَلَّمْنَا كُلَّنَا قِيَادَنَا لِوَاحِدٍ مِثَّا. ثُمَّ
تَعَجَّبُوا مِنْ إِقَاءِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ خَاصَّةً مِنْ دُونِهِمْ ثُمَّ رَمَوْهُ
بِالْكَذِبِ فَقَالُوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ أَي: مُتَجَاوِزٌ فِي حَدِّ
الْكَذِبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ﴾
وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا
مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَى لَهُمْ﴾ أَي: اخْتِيَارًا لَهُمْ، أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى
لَهُمْ نَاقَةَ عَظِيمَةَ عَشْرَاءَ، مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءَ طَبَقَ مَا سَأَلُوا؛
لِتَكُونَ حُجَّةً اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي تَصْدِيقِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا
جَاءَهُمْ بِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ:
﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَأَصْلِحْ﴾ أَي: انظُرْ مَا يَأُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ، وَأَصْبِرْ
عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ، وَالنَّصْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَيَنْبَغِي
أَنْ الْمَاءَ فَسَمَّوْهُمُ بِشَرِّ﴾ أَي: يَوْمَ لَهُمْ، وَيَوْمَ لِلنَّاقَةِ، كَقَوْلِهِ:
﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِمَا شَرِبْتُمْ وَلَكُرْ شَرِبْتُمْ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُحَضَّرٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا
غَابَتْ حَضْرُوا الْمَاءِ. وَإِذَا جَاءَتْ حَضْرُوا اللَّبَنِ (١). ثُمَّ
قَالَ تَعَالَى: ﴿فَادَّوْا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ قَالَ الْمُتَسَرِّونَ: هُوَ
عَاقِرُ النَّاقَةِ، وَأَسْمُهُ قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ، وَكَانَ أَشَقَى قَوْمِهِ.
كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقْنَهَا﴾ [الشمس: ١٢] ﴿فَعَاطَى﴾ أَي:
[فَجَسَرَ] ﴿فَعَقَرَ﴾ (٢٦) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذْرِي﴾ أَي: فَعَاقِبْتُهُمْ،
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِي وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولِي
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ﴾ أَي:
فَادَّوْا عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ، وَخَمَدُوا وَهَمَدُوا
كَمَا يَهْمَدُ يَبْسُ الرُّزْعِ وَالنَّبَاتِ. قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنْ

سورة القمر ٥٣
وَيَنْبَغِي أَنْ الْمَاءَ فَسَمَّوْهُمُ بِشَرِّ مُحَضَّرٍ (٢٨) فَادَّوْا صَاحِبَهُمْ
فَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذْرِي (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ (٣١) وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمَ لُوطٍ بِالنَّدْرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ بَجَيْنَتْهُمُ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرْتَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِالنَّدْرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنَذْرِي (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨)
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذْرِي (٣٩) وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ
(٤٠) وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُفْرًا فَخَذَّوْنَاهُمْ
أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ (٤٢) أَكْفَارًا كَرِهَ مِنْ أُولَئِكَ أَمْلِكُ بَرَاءَةً
فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْرٌ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَبَّحْنَاهُ لِيَجْمَعَ
وَيُؤَلِّقُ الذُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ
(٤٦) إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)

الْمُفْسِّرِينَ. وَالْمُحْتَظِرُّ: قَالَ الشَّدْيِيُّ: هُوَ الْمَرْعَى
بِالصَّخْرَاءِ حِينَ يَبْسُ وَيَحْتَرِقُ وَتَسْفِيهِ الرِّيحُ. وَقَالَ ابْنُ
زَيْدٍ: كَانَتْ الْعَرَبُ يَجْعَلُونَ حِطَارًا عَلَى الْإِبِلِ وَالْمَوَاشِي
مِنْ بَيْسِ الشَّوْكِ، فَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كَهَشِيمِ
الْحَخِيطِ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمَ لُوطٍ بِالنَّدْرِ﴾ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ
بَجَيْنَتْهُمُ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ
أَنْذَرْتَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّدْرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا
أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذْرِي (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ
مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذْرِي (٣٩) وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنْ مُدَكِّرٍ (٤٠) ﴿

[قِصَّةُ قَوْمِ لُوطٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ لُوطٍ كَيْفَ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ
وَخَالَفُوهُ، وَارْتَكَبُوا الْمَكْرُوهَ مِنْ إِثْبَانِ الذُّكُورِ، وَهِيَ

[قِصَّةَ آلِ فِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ: إِنَّهُمْ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونُ بِالْبَيِّنَاتِ إِنْ آمَنُوا، وَالتَّنَادَرَةُ إِنْ كَفَرُوا، وَأَيَّدَهُمَا بِمُعْجَزَاتٍ عَظِيمَةٍ وَآيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَكَذَّبُوا بِهَا كُلَّهَا، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ أَي: فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أُنْثَى.

[نُصْحَ قُرَيْشٍ وَتَهْدِيدُهُمْ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكْفَرُكُمْ﴾ أَي: أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيائِكُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِمَّنْ أَهْلَكُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَكُفْرِهِمْ بِالْكِتَابِ، أَلَأَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيائِكُمْ؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أَي: أَمْ مَعَكُمْ مِنَ اللَّهِ بَرَاءَةٌ أَنْ لَا يَتَالَكُمُ عَذَابٌ وَلَا نَكَالٌ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ أَي: يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَتَنَاصَرُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَنْ جَمَعَهُمْ يُعْنِي عَنْهُمْ مَنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَبْرَهُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ﴾ أَي: سَيَقْرَفُ سَمْلَهُمْ وَيُعْلَبُونَ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ: «أُنْشِدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبِدْ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا». فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَدِهِ وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْوَعْدُ عَلَى رَبِّكَ. فَخَرَجَ وَهُوَ يَتَّبِعُ فِي الدَّرْعِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيَبْرَهُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ﴾ بِلِلسَةِ مَوْعِدِهِمُ وَالسَّاعَةِ آذَنِي وَأَمْرِي^(١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ يُونُسَ بْنِ يُونُسَ بْنِ مَاهَكَ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ: نَزَلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَكَّةَ وَإِنِّي لِبِجَارِيَّةٍ أَلْعَبُ ﴿بِلِلسَةِ مَوْعِدِهِمُ وَالسَّاعَةِ آذَنِي وَأَمْرِي﴾^(٢). هَكَذَا رَوَاهُ هَهُنَا مُخْتَصِرًا، وَرَوَاهُ فِي فَصَائِلِ الْقُرْآنِ مَطْوُولًا^(٣)، وَلَمْ يُخْرِجْهُ مُسْلِمٌ.

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي سَلَاطِ وَسُعْرِ﴾^(٤٧) يَوْمَ يَسْجُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ دُوفُوا مَسَّ سَقَرٍ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَحِدَةً كَلِمَاتٍ بِالنَّبِيِّ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَذَكَّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْفَاقِينَ فِي جَنَّتِ وَبَرٍّ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

الْفَاحِشَةُ الَّتِي لَمْ يَسْمِعْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَلِهَذَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ هَلَاكًا لَمْ يَهْلِكْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَمَلَ مَدَائِحَهُمْ حَتَّى وَصَلَ بِهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ وَأَرْسَلَهَا وَأَنْبَعَتْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ مَنْصُودٍ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وَهِيَ الْحِجَارَةُ ﴿إِلَّا مَالَ لُوطٍ لَوَّجْتُنَّهِمْ سِحْرًا﴾ أَي: خَرَجُوا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَجَعُوا مِمَّا أَصَابَ قَوْمَهُمْ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللُوطِ مِنْ قَوْمِهِ أَحَدٌ وَلَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، حَتَّى وَلَا أَمْرًا لَهُ، وَأَصَابَهَا مَا أَصَابَ قَوْمَهَا، وَخَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ لُوطٌ وَبَنَاتُ لَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ سَالِمًا لَمْ يَمَسَّهُ سُوءٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا أَي: وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بِأَسَنِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ فَمَا التَّفَتُّوا إِلَى ذَلِكَ، وَلَا أَضْغَعُوا إِلَيْهِ، بَلْ شَكُّوا فِيهِ وَتَمَارَوْا بِهِ.

﴿وَلَقَدْ رَوَدُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ﴾ وَذَلِكَ لَيْلَةٌ وَرَدَّ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فِي صُورِ شَبَابٍ مُرْدٍ حَسَانٍ؛ مِخْتَةً مِنَ اللَّهِ بِهِمْ، فَأَضَافَهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَعَثَتْ أَمْرَأَتُهُ الْعَجُوزَ السَّوْءَ إِلَى قَوْمِهَا فَأَعْلَمَتْهُمْ بِأَضْيَافِ لُوطٍ، فَأَقْبَلُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَأَعْلَقَ لُوطٌ دُونَهُمُ الْبَابَ، فَجَعَلُوا يُحَاوِلُونَ كَسْرَ الْبَابِ، وَذَلِكَ عَشِيَّةً، وَلُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْفَعُهُمْ وَيَمَانِعُهُمْ دُونَ أَضْيَافِهِ وَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿هَتَوْلَاءَ بَنَاتٍ﴾ يَعْنِي: نِسَاءُهُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾

[الحجر: ٧١] ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ﴾ أَي: لَيْسَ لَنَا فِيهِنَّ أَرْبٌ ﴿وَأِنَّكَ لَلْعَاذِرُ مَا نُؤِيدُ﴾ [هود: ٧٩] فَلَمَّا اشْتَدَّ الْحَالُ وَأَبَوْا إِلَّا الدُّخُولَ، خَرَجَ عَلَيْهِمْ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضَرَبَ أَعْيُنَهُمْ بِطَرْفِ جَنَاحِهِ، فَانْطَمَسَتْ أَعْيُنُهُمْ، فَرَجَعُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ يَتَحَسَّسُونَ بِالْحَيْطَانِ، وَيَتَوَعَّدُونَ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الصَّبَاحِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أَي: لَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهُ، وَلَا انْفِكَكَ لَهُمْ مِنْهُ ﴿مَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِي﴾ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ يَتَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكَّرٍ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ مَالُ فِرْعَوْنَ وَزَعُونَ النَّذْرُ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَبُوا بِبَيْنَاتِنَا كُلِّهَا فَلَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٩﴾ أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٦٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٦١﴾ سَيَبْرَهُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ ﴿٦٢﴾ بِلِلسَةِ مَوْعِدِهِمُ وَالسَّاعَةِ آذَنِي وَأَمْرِي ﴿٦٣﴾

(١) فتح الباري: ٤٨٥/٨ ٤٨٦ (٢) فتح الباري: ٤٨٦/٨

(٣) فتح الباري: ٦٥٥/٨

[عاقبة المُجرمين]

يُخْبِرُنَا تَعَالَى عَنِ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ وَسُعْرٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالْاضْطِرَابِ فِي الْأَرَءِ، وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ مِنْ كَافِرٍ وَمُتَّبِعٍ مِنْ سَائِرِ الْفِرَقِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أَي: كَمَا كَانُوا فِي سُعْرِ وَشَكِّ وَتَرَدُّدٍ أَوْزَتْهُمْ ذَلِكَ النَّارَ، وَكَمَا كَانُوا ضَلَالًا يُسْحَبُونَ فِيهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ لَا يَدْرُونَ أَيَّنَ يَذْهَبُونَ، وَيُقَالُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوَيْخًا: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

[كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَلَأَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ نَقِيرًا﴾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ سُبْحَانَ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أَي: قَدَّرَ قَدْرًا، وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَيْمَةُ السُّنَّةِ عَلَى إِبْتِنَاتِ قَدْرِ اللَّهِ السَّابِقِ لِخَلْقِهِ، وَهُوَ عِلْمُهُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَكِتَابَتُهُ لَهَا قَبْلَ بَرئِهَا، وَرَدُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَيَمَّا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَاتِ عَلَى الْفِرْقَةِ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ نَبَعُوا فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذَا الْمَقَامِ مُفَصَّلًا وَمَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي شَرْحِ كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلِنَذْكُرْ هَهُنَا الْأَحَادِيثَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

رَوَى أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُخَاصِمُونَهُ فِي الْقَدْرِ فَتَرَكْتُ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ (١). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ (٢).

وَرَوَى الْبِرَّازُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: مَا تَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَاتِ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (٤٧)﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ (١) إِلَّا فِي أَهْلِ الْقَدْرِ (٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ (١) قَالَ: «تَرَكْتُ فِي أَنْاسٍ مِنْ أُمَّتِي يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَكْذِبُونَ بِقَدْرِ اللَّهِ» (٤).

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رِيَاحٍ قَالَ: أَتَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَنْزِعُ مِنْ زَمْرَمَ، وَقَدْ ابْتَلَتْ أَسَافِلُ نِيَابِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

٥٣١

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمَجْ بِالْبَصْرِ (٥) وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ (٥٥)

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنِ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ (٥) وَالتَّجَمُّمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَكِكُمْهُمُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَيَأْتِيهِ الْآءُ رِيكًا مُتَكَدِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَيَأْتِيهِ الْآءُ رِيكًا مُتَكَدِّبَانِ (١٦)

تُكَلِّمُ فِي الْقَدْرِ، فَقَالَ: أَوْقَدْ فَعَلُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا فِيهِمْ ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ (١) وَأُولَئِكَ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَا تَعُدُّوهُا مَرْضَاهُمْ، وَلَا تَصَلُّوا عَلَى مَوْتَاهُمْ، إِنْ رَأَيْتَ أَحَدًا مِنْهُمْ فَقَاتُ عَيْنِيهِ بِأُصْبَعِي هَاتِيْنِ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: كَانَ لِابْنِ عُمَرَ صَدِيقٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يُكَاتِبُهُ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَكَلَّمْتَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقَدْرِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكْتَبَ إِلَيَّ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي

(١) أحمد: ٤٤٤/١ (٢) مسلم: ٢٠٤٦/٤ وتحفة الأحوزي: ١٧٦/٩ وابن ماجه: ٣٢/١ (٣) كشف الأستار: ٧٢/٣ إسناده ضعيف قال الهيثمي في المجمع ١٢٠/٧ رواه البزار وفيه يونس بن الحارث وثقه ابن معين وابن حبان وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. وقال ابن حجر: ضعيف [تقريب] قال أحمد: أحاديثه مضطربة وقال ابن معين أيضًا: لا شيء [تاريخ الدوري ٦٨٧/٢ العلل ١/١٠٢] (٤) الطبراني: ٢٧٦/٥ (٥) جزء الحسن بن عرفة: ٤٦ فيه ابن جريج مدلس وقد عنعن ولم يصرح

أَقْوَامٌ يَكْذِبُونَ بِالْقَدَرِ^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ^(٢).
 وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعُجْزُ وَالْكَيْسُ»^(٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مُتَّفَرِّدًا بِهِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ^(٤).
 وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «اسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، فَإِنْ أَصَابَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(٥).
 وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ، جَعَتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ»^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَمْ تَطْعَمْ الْإِيمَانَ وَلَمْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ! وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ! إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» يَا بُنَيَّ! إِنْ مِتُّ وَلَسْتُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتُ النَّارَ^(٧). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(٨).
 وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». زَادَ ابْنُ وَهْبٍ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٩). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(١٠).

[التَّهْدِيدُ بِتَنْفِيذِ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ»
 وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ نَفُوضِ مَشِيئَتِهِ فِي خَلْقِهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِنُفُوضِ قَدَرِهِ فِيهِمْ فَقَالَ: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ» أَي: إِنَّمَا نَأْمُرُ بِالشَّيْءِ مَرَّةً وَاحِدَةً لَا نَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ بِنَائِيَةٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الَّذِي نَأْمُرُ بِهِ حَاصِلًا مَوْجُودًا كَلَمْحِ الْبَصَرِ، لَا يَتَأَخَّرُ طَرْفَةً عَيْنٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ» يَغْنِي:

[عَاقِبَةُ الْمُتَمَيِّنِ الْحَسَنَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّيْقِينَ فِي جَنَّتِ وَتَهَرَّ» أَي بَعُكْسَ مَا الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالسُّعْرِ وَالسَّحَبِ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ، مَعَ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ» أَي: فِي دَارِ كَرَامَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَفَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ «عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ» أَي: عِنْدَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَمُقَدِّرِهَا. وَهُوَ مُقَدِّرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ مِمَّا يَطْلُبُونَ وَيُرِيدُونَ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: «الْمُسْطَوْنُ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْلَمُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»^(١٣).
 وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(١٤).

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اقْتَرَبَتْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

(١) أحمد: ٩٠/٢ (٢) أبو داود: ٢٠/٥ (٣) أحمد: ٢/١١٠ (٤) مسلم: ٢٠٤٥/٤ (٥) مسلم: ٢٠٥٢/٤ (٦) تحفة الأحوذى: ٢١٩/٧ (٧) أحمد: ٣١٧/٥ (٨) تحفة الأحوذى: ٣٦٨/٦ (٩) مسلم: ٢٠٤٤/٤ (١٠) تحفة الأحوذى: ٣٧٠/٦ (١١) أحمد: ١٥١/٦ (١٢) تحفة الأشراف: ٢٥٠/١٢ وابن ماجه: ١٤١٧/٢ (١٣) أحمد: ١٦٠/٢ (١٤) مسلم: ٣/١٤٥٨ والنسائي: ٢٢١/٨

تفسير سورة الرحمن وهي مكية

[توطئة عن سورة الرحمن]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زَيْدٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: كَيْفَ تَعْرِفُ هَذَا الْحَرْفَ مِنْ (مَاءٍ غَيْرِ آسِينِ) أَوْ (آسِينِ)؟ فَقَالَ: كُلُّ الْقُرْآنِ قَدْ قُرِئْتُ؟ قَالَ: إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفْصَلَ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَقَالَ: أَهَذَا كَهَذَا الشُّعْرِ لَا أَبَا لَكَ؟ قَدْ عَلِمْتُ قَرَأْتِ النَّبِيَّ ﷺ الَّتِي كَانَ يَقْرَأُ قَرِيبَتَيْنِ قَرِيبَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ الْمُفْصَلِ، وَكَانَ أَوَّلُ مُفْصَلِ ابْنِ مَسْعُودٍ «الرَّحْمَنُ»^(١). وَرَوَى أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَضْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا فَقَالَ: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا آتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: «فِي أَيِّ آيَةٍ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ» قَالُوا: لَا بَشِيءَ مِنْ نِعْمِكَ رَبَّنَا نُكْذِبُ، فَتِلْكَ الْحَمْدُ». ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ^(٢). وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَرَاءُ^(٣). وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ أَوْ قُرِئَتْ عِنْدَهُ فَقَالَ: «مَا لِي أَسْمَعُ الْجِنَّ أَحْسَنَ جَوَابًا لِرَبِّهَا مِنْكُمْ؟». قَالُوا: وَمَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا آتَيْتُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «فِي أَيِّ آيَةٍ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ» إِلَّا قَالَتْ الْجِنُّ: لَا بَشِيءَ مِنْ نِعْمِ رَبَّنَا نُكْذِبُ»^(٤). وَرَوَاهُ الْحَافِظُ الْبَرَاءُ^(٥).

السِّيَاقَ فِي تَعْلِيمِهِ تَعَالَى الْقُرْآنَ، وَهُوَ آدَاءٌ تِلَاوَتِهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِتَبْيِيسِ النَّطْقِ عَلَى الْخَلْقِ وَتَسْهِيلِ خُرُوجِ الْحُرُوفِ مِنْ مَوَاضِعِهَا مِنَ الْحَلْقِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ عَلَى اخْتِلَافِ مَخَارِجِهَا وَأَنْوَاعِهَا.

[آيات الله في الشمس والقمر والسماء والأرض]
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ» أَي: يَجْرِيَانِ مُتَعَارِفَيْنِ بِحِسَابٍ مُقَدَّرَيْنِ لَا يَخْتَلِفُ، وَلَا يَضْطَرِبُ «لَا الشَّمْسُ بَلَّغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» [يس: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ آتِلًا سَكَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» [الأنعام: ٩٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ» قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَالنَّجْمِ» بَعْدَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى أَنَّ الشَّجَرَ مَا قَامَ عَلَى سَاقٍ^(١). فَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: النَّجْمُ مَا انْبَسَطَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يُعْنِي مِنَ النَّبَاتِ^(٢). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ^(٣). وَقَدْ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: النَّجْمُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ^(٤). وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ^(٥). وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَظْهَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «الَّذِينَ تَرَأَتْهُ اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَاللِّدَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ»... الآية [الحج: ١٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ» يَعْنِي: الْعَدْلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» [الحديد: ٢٦]. وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: «أَلَا تَطْفَعُوا فِي الْمِيزَانِ» أَي: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ لِتَكُونَ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَقِيمُوا أَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ» أَي: لَا تَبْخَسُوا أَلْوَزْنَ، بَلْ زِنُوا بِالْحَقِّ وَالْقِسْطِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ» وَقَوْلُهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ ① عِلْمَ الْفُتْرَانِ ② خَلْقَ الْإِنْسَانِ ③ عِلْمَهُ
الْبَيَانَ ④ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَالنَّجْمَ وَالشَّجَرَ
يَسْجُدَانِ ⑥ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ أَلَا تَطْفَعُوا فِي
الْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا أَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨
وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ ⑩ فِيهَا فَكَيْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ
الْأَكْمَامِ ⑪ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ⑫ فِي أَيِّ آيَةٍ رَيْكُمَا
تُكْذِبَانِ ⑬

[القرآن أنزله الرحمن وعلمه]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى عِبَادِهِ الْقُرْآنَ، وَبَسَّرَ حِفْظَهُ وَفَهَمَهُ عَلَى مَنْ رَحِمَهُ فَقَالَ تَعَالَى: «الرَّحْمَنُ ① عِلْمَ الْفُتْرَانِ ② خَلْقَ الْإِنْسَانِ ③ عِلْمَهُ الْبَيَانَ ④

(١) أحمد: ٤١٢/١ (٢) تحفة الأحوذى: ١٧٧/٩ (٣) الحاكم: ٤٧٣/٢ (٤) الطبري: ٢٣/٢٣ (٥) كشف الأستار: ٧٤/٣ (٦) الطبري: ١١/٢٣ (٧) الطبري: ١١/٢٣ (٨) الطبري: ١١/٢٣ (٩) الطبري: ١٢/٢٣ (١٠) الطبري: ٢٣/٢٣

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٨﴾
 مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْحٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ
 رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِيءَ
 الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢٤﴾
 فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى
 وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾
 يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَيَأْتِيءَ
 الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَيَأْتِيءَ
 الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْعَسِرُ الْغَنِي وَالْإِسْنِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ
 أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْعُدُوا لَّا تَنْفُذُونَ
 إِلَّا الْإِسْطِنَ ﴿٣٣﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
 شَوْابِطٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا
 تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾
 فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْعَلُ عَنْ ذَنْبِهِ
 إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾

تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضُ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أَي: كَمَا رَفَعَ السَّمَاءَ
 وَصَعَ الْأَرْضَ وَمَهَّدَهَا وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ
 الشَّامِيَّاتِ، لِتَسْتَقِرَّ لِمَا عَلَى وَجْهَهَا مِنَ الْأَنَامِ وَهُمْ
 الْخَلَائِقُ الْمُخْتَلِفَةُ أَنْوَاعُهُمْ وَأَشْكَالُهُمْ وَالْوَأْنُهُمْ وَالسِّتْمَةُ
 فِي سَائِرِ أَفْطَارِهَا وَأَرْجَائِهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: الْأَنَامُ:
 الْخَلْقُ^(١). ﴿فِيهَا فِكْهَةٌ﴾ أَي: مُخْتَلِفَةٌ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ
 وَالرَّوَائِحِ ﴿وَاللَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ؛ لِشَرَفِهِ
 وَتَعَبِهِ رَطْبًا وَيَابَسًا. وَالْأَكْمَامُ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ
 عَبَّاسٍ: هِيَ أَوْعِيَةُ الطَّلَعِ^(٢). وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ
 الْمُفَسِّرِينَ، وَهُوَ الَّذِي يَطْلُعُ فِيهِ الْفَنُو ثُمَّ يَنْشَقُّ عَنِ
 الْمُتْفُوذِ، فَيَكُونُ بُسْرًا ثُمَّ رَطْبًا ثُمَّ يَنْضِجُ وَيَتَنَاهَى بِنَعْتِهِ
 وَاسْتِوَاؤُهُ.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ
 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يَعْنِي: التَّبَنَ^(٣). وَقَالَ
 الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ الْأَخْضَرِ
 الَّذِي قُطِعَ رُؤُوسُهُ، فَهُوَ يُسَمَّى الْعَصْفَ إِذَا بَيَسَ^(٤). وَكَذَا
 قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو مَالِكٍ: عَصْفُهُ: نَبْتُهُ^(٥). وَقَالَ
 ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: وَالرَّيْحَانُ يَعْنِي:
 الْوَرَقُ^(٦). وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ رَيْحَانُكُمْ هَذَا^(٧). وَقَالَ عَلِيُّ
 ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ خَضِرُ
 الزَّرْعِ^(٨). وَمَعْنَى هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْحَبَّ كَالْفَمْحِ
 وَالشَّعِيرِ وَنَحْوِهِمَا لَهُ فِي حَالِ نَبَاتِهِ عَصْفٌ. وَهُوَ مَا عَلَى
 السُّبُلَةِ، وَرَيْحَانُ، وَهُوَ الْوَرَقُ الْمُلْتَفُّ عَلَى سَاقِهَا.
 وَقِيلَ: الْعَصْفُ الْوَرَقُ أَوَّلُ مَا يَنْبُتُ الزَّرْعُ بِقَلَا،
 وَالرَّيْحَانُ: الْوَرَقُ يَعْنِي: إِذَا أَدَجَنَ وَانْعَقَدَ فِيهِ الْحَبُّ.

[الإنسان مغمورٌ بنعم الله]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ أَي: فَيَأْتِيءُ
 الْآلَاءُ يَا مَعْشَرَ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ تَكْذِبَانِ؟ قَالَهُ
 مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَيَبْدُلُ عَلَيْهِ السِّيَاقُ بَعْدَهُ، أَي: النَّعْمُ
 ظَاهِرَةٌ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ بِهَا، لَّا تَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهَا
 وَلَا جُحُودَهَا، فَتَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْجِنَّ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ:
 اللَّهُمَّ وَلَا يَشِيءُ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ.
 وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَّا بِأَيِّهَا يَا رَبِّ، أَي: لَّا نَكْذِبُ
 بِشَيْءٍ مِنْهَا^(٩).

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وَخَلَقَ الْجَانَ مِنْ

مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿٥﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿١١﴾ رَبُّ الشَّرْقَيْنِ
 وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
 يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْحٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢١﴾
 يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ
 الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٥﴾
 كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِيءَ
 الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾
 فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَيَأْتِيءَ
 الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْعَسِرُ الْغَنِي وَالْإِسْنِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ
 أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْعُدُوا لَّا تَنْفُذُونَ
 إِلَّا الْإِسْطِنَ ﴿٣٣﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
 شَوْابِطٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا
 تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾
 فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْعَلُ عَنْ ذَنْبِهِ
 إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ،
 وَخَلْقَهُ الْجَانَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَهُوَ طَرَفٌ لَهَا. قَالَهُ
 الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١٠). وَيَبِي يَقُولُ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ
 وَالْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ^(١١). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:

(١) الطبري: ١٦، ١٥/٢٣ (٢) الدر المنثور: ٦٩٣/٧ (٣)
 الطبري: ١٨/٢٣ العوفي ضعيف (٤) الطبري: ١٨/٢٣ (٥)
 الطبري: ١٨/٢٣ (٦) الطبري: ١٩/٢٣ (٧) البغوي: ٤/
 ٢٦٨ (٨) الطبري: ٢١/٢٣ (٩) الطبري: ٢٣/٢٣ (١٠)
 الطبري: ٢٦/٢٣ الضحاک لم يسمع من ابن عباس (١١)
 الطبري: ٢٧/٢٣

وَلَمَّا كَانَ اتَّخَذَ هَذِهِ الْجَلِيَّةَ نِعْمَةً عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، امْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعني السفن التي تَجْرِي ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا رُفِعَ وَرُفِعَ قَلْعُهُ مِنَ السُّفُنِ فَهِيَ مُنْشَأَتٌ، وَمَا لَمْ يُرْفَعْ قَلْعُهُ فَلَيْسَ بِمُنْشَأَتٍ^(٩). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿الْمُنْشَأَتُ﴾ يَعْنِي الْمَخْلُوقَاتِ^(١٠). وَقَالَ غَيْرُهُ: (الْمُنْشَأَت) بِكسر الشين يعنى البادئات ﴿كَالْعَلَمِ﴾ أَي:

كَالْجِبَالِ فِي كِبَرِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ الْمَقُولَةِ مِنْ قَطْرٍ إِلَى قَطْرٍ، وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ، مِمَّا فِيهِ صَلاَحُ النَّاسِ فِي جَلْبِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ النَّصَائِعِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾.

﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيَّا فَإِنَّ^(١١) وَيَسْفِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ^(١٢)﴾ فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ^(١٣) يَسْفِيهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنِ^(١٤) أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ^(١٥)

[بَيَانُ شَأْنِ اللَّهِ وَبِقَائِهِ وَغِنَاهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ سَيَذْهَبُونَ وَيَمُوتُونَ أَجْمَعُونَ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَا يَبْقَى أَحَدٌ سِوَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ لَا يَمُوتُ بَلْ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا. قَالَ قَتَادَةُ: أُنْبَأَ بِمَا خَلَقَ ثُمَّ أُنْبَأَ أَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ فَإِنَّ. وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْتُورِ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، يَا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ نَسْتَعِينُ، أَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ». وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِذَا قَرَأْتَ ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيَّا فَإِنَّ﴾ فَلَا تَسْكُتَ حَتَّى تَقْرَأَ ﴿وَيَسْفِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ^(١١)﴾. وَهَذِهِ آيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨] وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ آيَةِ بَأَنَّهُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أَي: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٨٨] وَكَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ

مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ مِنْ لَهَبِ النَّارِ مِنْ أَحْسَنِهَا^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ.

[الامْتِنَانُ بِكُونِهِ رَبِّ الْمَشْرِقِينَ وَالْمَغْرِبِينَ]

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِينَ وَرَبُّ الْمَغْرِبِينَ﴾ يَعْنِي مَشْرِقِي الصَّبِيفِ وَالشَّمَاةِ وَمَغْرِبِي الصَّبِيفِ وَالشَّمَاةِ، وَقَالَ فِي آيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَلَا أَقْبَمُ بِبِ الشَّمْسِ وَاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ﴾ [المعارج: ٤٠] وَذَلِكَ بِاخْتِلَافِ مَطَالِعِ الشَّمْسِ وَتَنَقُّلِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَبُرُوزِهَا مِنْهُ إِلَى النَّاسِ. وَقَالَ فِي آيَةِ الْأُخْرَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]. وَهَذَا الْمُرَادُ مِنْهُ جِنْسُ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَلَمَّا كَانَ فِي اخْتِلَافِ هَذِهِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ مَصَالِحٌ لِلْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ قَالَ: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾.

[الامْتِنَانُ بِنَوْعِي الْبَحْرِ وَالسُّفُنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِيانِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَي: أَرْسَلَهُمَا^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿يَلْتَمِيانِ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَي: مَنَعَهُمَا أَنْ يَلْتَمِيا بِمَا جَعَلَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْبُرُخِ الْحَاجِزِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا^(٥). وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾: الْمِلْحُ وَالْحُلُوهُ. فَالْحُلُوهُ: هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣] ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبِيعَانِ﴾ أَي: وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا، وَهُوَ الْحَاجِزُ مِنَ الْأَرْضِ؛ لِتَلَا يَبِيعِي هَذَا عَلَى هَذَا، وَهَذَا عَلَى هَذَا، فَيُفْسِدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ وَيُرِيْلُهُ عَنْ صِفَتِهِ الَّتِي هِيَ مَفْضُودَةٌ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجْرُ الْمَوْتُ وَالْمَوْتُ وَاللُّؤْلُؤُ الْمَعْرُوفُ، وَأَمَّا الْمَرْجَانُ فَقِيلَ: هُوَ صِنَاغُ اللَّؤْلُؤِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَأَبُو رَزِينٍ وَالضَّحَّاكُ، وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ^(٦). وَقِيلَ: كِبَارُهُ وَجَيْدُهُ. حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ^(٧).

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ فَتَحَّتِ الْأَصْدَافُ فِي الْبَحْرِ أَقْوَاهَا فَمَا وَقَعَ فِيهَا، يَعْنِي مِنْ قَطْرِ فَهَوَ اللَّؤْلُؤُ^(٨). إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

(١) الطبري: ٢٦/٢٣ (٢) أحمد: ١٦٨/٦ (٣) مسلم: ٤/

٢٢٩٤ (٤) الطبري: ٢٩/٢٣ (٥) الطبري: ٣١/٢٣ (٦)

الطبري: ٣٣/٢٣ والقرطبي: ١٦٣/١٧ (٧) الطبري: ٣٤/٢٣

(٨) الطبري: ٣٥/٢٣ (٩) الطبري: ٣٧/٢٣ (١٠) القرطبي:

١٦٤/١٧ (١١) الدر المنثور: ٦٩٨/٧

الْمُتَّصِدِّقِينَ: ﴿إِنَّمَا ظَعْمُكُمْ لِيَوْمِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ذُو الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذُو الْعِظَمَةِ وَالْكَبِيرِيَاءِ^(١). وَلَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَسَاوِي أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْوَفَاةِ، وَأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ فَيَحْكُمُهُ فِيهِمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ قَالَ: ﴿فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَسْتَلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وَهَذَا إِجْبَارٌ عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ وَافْتِقَارِ الْخَلَائِقِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَنْتَابِ، وَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ يَلْسَانِ حَالِهِمْ وَقَالِهِمْ، وَأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ عُثَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قَالَ: مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجِيبَ دَاعِيًا أَوْ يُعْطِيَ سَائِلًا، أَوْ يَفْكَ عَائِنًا أَوْ يَشْفِي سَقِيمًا^(٢).

﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ أَيُّهُ التَّقْلَانِ﴾ (٣٦) فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٧﴾ يَمْتَعِرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ اسْتَظَعْتُمْ أَنْ تَفْعَدُوا مِنْ أَطْفَالِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفَعِدُوا لَا تَنْفَعِدُوا إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴿٣٨﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٩﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْطٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصَرَانِ ﴿٤٠﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٤١﴾

[تَهْدِيدٌ لِلتَّقْلَيْنِ وَبَيَانٌ لَهُمَا مَا يُصِيبُهُمَا]

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ﴾ أَيُّ: سَفَضِي لَكُمْ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: سَنَحَاسِبُكُمْ، لَا يُشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ^(٣). وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، يُقَالُ: لَا تَفْرَعَنَّ لَكَ. وَمَا بِهِ شُغْلٌ، يَقُولُ: لَا أَخَذْتُكَ عَلَى غِرَّتِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيُّهُ التَّقْلَانِ﴾ التَّقْلَانِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا التَّقْلَيْنِ»^(٤). وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا الْإِنْسَ وَالْجِنَّ». وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ: «التَّقْلَانِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ»^(٥) ﴿فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْتَعِرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ اسْتَظَعْتُمْ أَنْ تَفْعَدُوا مِنْ أَطْفَالِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفَعِدُوا لَا تَنْفَعِدُوا إِلَّا بِسُلْطَنِ﴾ أَيُّ: لَا تَسْتَطِيعُونَ هَرَبًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى التَّخْلُصِ مِنْ حُكْمِهِ وَلَا التَّمُودِ عَنْ حُكْمِهِ فِيكُمْ، أَيُّمَا ذَهَبْتُمْ أَحْبَطَ بِكُمْ، وَهَذَا فِي مَقَامِ الْحَشْرِ، الْمَلَائِكَةُ مُحَدِّقَةٌ بِالْخَلَائِقِ سَنَعُ صُفُوفٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الذَّمَّابِ ﴿إِلَّا بِسُلْطَنِ﴾ أَيُّ: إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْفَرَقَ﴾ (٤١) كَلَّا لَا وَرَدَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لَشَاقِقٌ [القيامة: ١٠-١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَئِلُهَا

وَرَزَقْنَاهُمْ ذُلًّا مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قَطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [يونس: ٢٧] ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْطٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصَرَانِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الشَّوْطُ: هُوَ لَهَبُ النَّارِ^(٦). وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: الشَّوْطُ هُوَ اللَّهَبُ الَّذِي فَوْقَ النَّارِ وَدُونَ الدُّخَانِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿شَوْطٌ مِنْ نَارٍ﴾ سَيْلٌ مِنْ نَارٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَنُحَاسٌ﴾: دُخَانُ النَّارِ^(٧). وَرُوِيَ مِنْهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي سِنَانٍ^(٨). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الدُّخَانَ نُحَاسًا، بِضَمِّ النُّونِ وَكَسْرِهَا، وَالْقُرَاءَةُ مُجْمَعَةٌ عَلَى الضَّمِّ^(٩). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: النُّحَاسُ الضُّفْرُ يُدَابُّ فَيُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ^(١٠). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةَ^(١١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: «وَنُحَاسٌ» سَيْلٌ مِنْ نُحَاسٍ، وَالْمَعْنَى: لَوْ ذَهَبْتُمْ هَارِبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَدَّتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ وَالزَّبَانِيَةُ بِإِزْسَالِ اللَّهَبِ مِنَ النَّارِ، وَالنُّحَاسُ الْمُدَابُّ عَلَيْكُمْ لِتَرْجِعُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَنْصَرَانِ﴾ (٤٥) فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ.

﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (٤٦) فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٤٩﴾ يَعْرِفُ الْجُرْمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّورِ وَالْأَقْدَامِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٥١﴾ هَذِهِ جِهَتُهُمُ الَّتِي يَكْتُبُ فِيهَا الْجُرْمُونَ ﴿٥٢﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرِ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٣﴾ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٥٤﴾

[بَيَانٌ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَأَحْوَالِ الْمُحْرَمِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ مَعَ مَا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي مَعْنَاهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَاهِبَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦] وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْعَنَمِ وَرِزْلُ الْمَلَائِكَةِ تَزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وَأَدَّتْ رِجَالُهَا وَحُفَّتْ [الانشقاق: ٢٠، ٢١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أَيُّ تَدُوبٌ كَمَا يَدُوبُ الدُّرْدِيُّ وَالْفِضَّةُ فِي

(١) الطبري: ٨٦/٢٣ (٢) الطبري: ٣٩/٢٣ (٣) فتح الباري: ٤٨٧/٨ (٤) فتح الباري: ٢٤٤/٣ (٥) الطوال للطبراني: ٢٧٣ (٦) الطبري: ٤٥/٢٣ (٧) الطبري: ٤٧/٢٣ (٨) الطبري: ٤٧/٢٣ (٩) الطبري: ٤٨/٢٣ (١٠) الطبري: ٢٣/٤٨ (١١) الطبري: ٤٨/٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣٣

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسَمِيحَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَيَأْتِي
 ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ
 ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءِ آيٍ ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ
 ﴿٤٤﴾ وَلَيْمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٥﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ
 ﴿٤٦﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٧﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٨﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
 تَجْرِيَانِ ﴿٤٩﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٥٠﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ
 رَوْحَانَ ﴿٥١﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٥٢﴾ مُتَّكِفِينَ عَلَى فُرُشٍ
 بَطَّانِيهَا مِنْ إِسْتَرْبٍ وَحَنَى الْجَنَيْنِ دَانٍ ﴿٥٣﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا
 تَكْذِبَانِ ﴿٥٤﴾ فِيهِنَّ قَصْرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْهَا فِئَاطُهُنَّ
 وَلَا جَانٌّ ﴿٥٥﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٥٦﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
 وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٧﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٥٨﴾ هَلْ جَزَاءُ
 الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٥٩﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ
 ﴿٦٠﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦١﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ
 ﴿٦٢﴾ مُدْهَاتَانِ ﴿٦٣﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٦٤﴾ فِيهِمَا
 عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٥﴾ فَيَأْتِي ءِ الْآءِ رِيكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٦٦﴾

السَّبْكِ، وَتَلَوْنَ كَمَا تَلَوْنَ الْأَصْبَاحُ الَّتِي يَدُهُنَّ بِهَا، فَتَارَةٌ
 حَمْرَاءُ وَصَفْرَاءُ وَزُرْقَاءُ وَخَضْرَاءُ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ
 وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَكُونُ كَلَوْنُ
 الْبَغْلَةِ الْوَرْدَةِ، وَتَكُونُ كَأَمْهَلِ كَدْرِيِّ الرَّبْتِ. وَقَالَ
 مُجَاهِدٌ: ﴿كَالِدِهَانٍ﴾: كَأَلْوَانِ الدِّهَانِ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾
 وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَطْفِقُونَ^(٢)﴾ وَلَا يُؤَدِّنُ لَهُمْ
 فَيَعْتَدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦، ٣٥] فَهَذَا فِي حَالٍ، وَتَمَّ فِي
 حَالٍ يُسْأَلُ الْخَلَائِقُ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿فَوَرَبِّكَ لَسَنَلَسَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ^(٣)﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 [الحجر: ٩٢، ٩٣] وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ
 إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ قَالَ: قَدْ كَانَتْ مَسْأَلَةٌ ثُمَّ خُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِ
 الْقَوْمِ وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٤). قَالَ
 تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسَمِيحَتِهِمْ﴾ أَيُّ: بِعَلَامَاتٍ تَطْهَرُ
 عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: يَعْرِفُونَهُمْ بِأَسْوَادِ الْوُجُوهِ
 وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ^(٥). (قُلْتُ): وَهَذَا كَمَا يَعْرِفُ الْمُؤْمِنُونَ
 بِالْغُرَّةِ وَالشَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أَيُّ يَجْمَعُ
 الزَّبَانِيَةَ نَاصِيَتَهُ مَعَ قَدَمَيْهِ وَيُلْقُونَهُ فِي النَّارِ كَذَلِكَ. وَقَالَ
 الْأَعْمَشُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُؤْخَذُ بِنَاصِيَتَيْهِ وَقَدَمَيْهِ فَيَكْسَرُ كَمَا
 يُكْسَرُ الْحَطْبُ فِي النَّوْرِ^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ أَيُّ:
 هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكْذِبُونَ بِوُجُودِهَا، هَاهُنَا حَاضِرَةٌ
 تُشَاهِدُونَهَا عَيْنَانَا، يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَنَضْغِيرًا
 وَتَحْقِيرًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءِ آيٍ﴾ أَيُّ:
 تَارَةٌ يُعْدَبُونَ فِي الْجَحِيمِ، وَتَارَةٌ يُسْقُونَ مِنَ الْحَمِيمِ، وَهُوَ
 الشَّرَابُ الَّذِي هُوَ كَالنَّحَاسِ الْمُدَابِّ يَفْطَعُ الْأَمْعَاءَ
 وَالْأَحْشَاءَ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فَجَتْ عَنْقِيهِمْ
 وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ^(٧)﴾ فِي اللَّعِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾
 [غافر: ٧١، ٧٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءِ آيٍ﴾ أَيُّ: حَارٌّ قَدْ بَلَغَ الْعَايَةَ فِي
 الْحَرَارَةِ لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي
 قَوْلِهِ: ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءِ آيٍ﴾: قَدْ انْتَهَى عَلَيْهِ،
 وَاشْتَدَّ حَرُّهُ^(٨). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ
 وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَالثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ^(٩). وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ
 أَنْ طَبَّخَهُ مِنْدُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(١٠). وَقَالَ مُحَمَّدٌ

ابْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيُّ: يُؤْخَذُ الْعَبْدُ فَيَحْرُكُ بِنَاصِيَتِهِ فِي ذَلِكَ
 الْحَمِيمِ حَتَّى يَذُوبَ اللَّحْمُ وَيَبْقَى الْعَظْمُ وَالْعَيْنَانِ فِي
 الرَّأْسِ، وَهِيَ كَالَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فِي اللَّعِيمِ ثُمَّ فِي
 النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢] وَالْحَمِيمُ الْآيُّ يَعْنِي الْحَارَّ،
 وَعَنِ الْقُرْظِيِّ رَوَايَةٌ أُخْرَى ﴿حَمِيمٍ ءِ آيٍ﴾ أَيُّ: حَاضِرٍ. وَهُوَ
 قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ أَيْضًا^(١١). وَالْحَاضِرُ لَا يُنَافِي مَا رَوَى عَنْ
 الْقُرْظِيِّ أَوْ لَا أَنَّهُ الْحَارُّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَقَى مِنْ عَيْنٍ ءِ آيَةٍ﴾
 [الغاشية: ٥] أَيُّ: حَارَّةٌ شَدِيدَةٌ الْحَرُّ لَا تُسْتَطَاعُ، وَكَقَوْلِهِ:
 ﴿عَبْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يَعْنِي: اسْتَبَوَاءَهُ وَنُضْجَهُ،
 فَقَوْلُهُ: ﴿حَمِيمٍ ءِ آيٍ﴾ أَيُّ: حَمِيمٌ حَارٌّ جِدًّا. وَلَمَّا كَانَ
 مُعَاقِبَةُ الْعُصَاةِ الْمُجْرِمِينَ وَتَنْعِيمُ الْمُتَّقِينَ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ
 وَعَدْلِهِ وَلَطْفِهِ بِخَلْقِهِ، وَكَانَ إِذْذَارُهُ لَهُمْ عَنْ عَذَابِهِ وَبَأْسِهِ

(١) الطبري: ٥٠/٢٣ (٢) الطبري: ٥٢/٢٣ (٣) الطبري:

٥٢/٢٣ (٤) الدر المشثور: ٧٠٤/٧ (٥) الطبري: ٥٤/٢٣

(٦) الطبري: ٥٥، ٥٤/٢٣ والقرظي: ١٧٥/١٧ (٧) الطبري:

٥٤/٢٣ (٨) الطبري: ٥٥/٢٣

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ يَعْنِي: أَنَّ بَيْنَ ذَلِكَ بَوْنًا عَظِيمًا وَفَرْقًا بَيْنًا فِي التَّفَاضُلِ.

﴿مُكَيَّبِينَ عَلَى فُرُشٍ تَطَايُنًا مِنْ إِسْتَرْبَى وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ نَكْهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ ﴿٥١﴾﴾
 إِلَّا ٱلْإِحْسَنَ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ ﴿٥٣﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مُكَيَّبِينَ﴾ يَعْنِي أَهْلَ الْجَنَّةِ. وَٱلْمُرَادُ بِٱلْإِتْكَاءِ هَهُنَا: ٱلْإِضْطِجَاعُ، وَيُقَالُ: ٱلْجُلُوسُ عَلَى صِفَةٍ ٱلرَّبِيعِ. ﴿عَلَى فُرُشٍ تَطَايُنًا مِنْ إِسْتَرْبَى﴾ وَهُوَ مَا غَلِظَ مِنَ ٱلدَّبَاجِ. قَالَ عِكْرِمَةُ وَٱلصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ (٦). وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ ٱلْجَوْزِيُّ: هُوَ ٱلدَّبَاجُ ٱلْمَزِينُ بِٱلذَّهَبِ، فَبَنَى عَلَى شَرَفِ ٱلظَّهَارَةِ بِشَرَفِ ٱلْبَطَانَةِ، فَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ بِٱلْأَدْنَى عَلَى ٱلْأَعْلَى. قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ هُبَيْرَةَ بِنِ ٱلْيَرِيمِ، عَنْ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: هَذِهِ ٱلْبَطَانُ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتُمُ ٱلطَّوَاهِرَ (٧). ﴿وَحَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أَي: تَمُرُهُمَا قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ مَتَى شَاءُوا وَتَنَاولُوهُ عَلَى أَيِّ صِفَةٍ كَانُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَطَوَّفُوهَا دَائِيَةً﴾ [ٱلْحَاقَةُ: ٢٣] وَقَالَ: ﴿وَدَائِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ فُطُوفُهَا لِدَلِيلِهَا﴾ [ٱلْإِنْسَانُ: ١٤] أَي: لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ تَنَاولَهَا، بَلْ تَنَحُّطُ إِلَيْهِ مِنْ أَغْصَانِهَا ﴿فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ ٱلْفُرُشَ وَعَظَمَتَهَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿فِيهِنَّ﴾ أَي: فِي ٱلْفُرُشِ ﴿فَصِرَتْ ٱلْأَطْرَفُ﴾ أَي: غَضِيضَاتٌ عَنْ غَيْرِ أَرْوَاجِهِنَّ، فَلَا يَرِينَ شَيْئًا فِي ٱلْجَنَّةِ أَحْسَنَ مِنْ أَرْوَاجِهِنَّ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَعَطَاءُ ٱلْخُرَّاسَانِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ (٨). وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ ٱلْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ تَقُولُ لِبَعْلِهَا: وَٱللَّهِ مَا أَرَى فِي ٱلْجَنَّةِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْكَ. وَلَا فِي ٱلْجَنَّةِ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ، فَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي جَعَلَكَ لِي وَجَعَلَنِي لَكَ.

﴿لَوْ يَطْمِئِنُّنَّ إِسْرَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أَي: بَلْ هُنَّ أَبْكَارٌ عُرْبٌ أَتْرَابٌ لَمْ يَطَّأهُنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أَرْوَاجِهِنَّ مِنْ ٱلْإِنْسَانِ

مِمَّا يُزْجِرُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَٱلْمَعَاصِي وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ مُمْتَنَّا بِذَلِكَ عَلَى بَرِيَّتِهِ: ﴿فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ﴾.

﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ نَكْهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ ﴿٥٣﴾﴾

[أَحْوَالُ ٱلْمُتَّقِينَ وَتَعِيمُهُمْ فِي ٱلْجَنَّتِ]

يَقُولُ ٱللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بَيْنَ يَدَيْ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَى﴾ [ٱلنَّازِعَاتُ: ٤٠] وَلَمْ يَطْعُ وَلَا أَثَرَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا، وَعَلِمَ أَنَّ ٱلْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى فَأَدَّى فَرَائِضَ ٱللَّهِ، وَاجْتَنَبَ مَحَارِمَهُ، فَلَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ، كَمَا رَوَى ٱلْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَنْ عَبْدِ ٱللَّهِ ابْنِ قَيْسٍ، أَنَّ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ ٱلْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رِذَاءَ ٱلْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ» (١). وَأَخْرَجَهُ بَيْهَقِيُّ ٱلْجَمَاعَةَ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ بِهِ (٢). وَهَذِهِ ٱلْآيَةُ عَامَّةٌ فِي ٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ، فَهِيَ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ ٱلْجَنَّ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ إِذَا آمَنُوا وَاتَّقَوْا، وَلِهَذَا أَمَرَهُ ٱللَّهُ عَلَى ٱلتَّقَلُّبِ بِهَذَا ٱلْجَزَاءِ فَقَالَ: ﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ﴾ ثُمَّ نَعَتْ هَاتَيْنِ ٱلْجَنَّتَيْنِ فَقَالَ: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أَي: أَغْصَانٍ نَضْرَةَ حَسَنَةً، تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ ثَمَرَةٍ نَضِيجَةً فَائِقَةً ﴿فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ﴾ هَكَذَا قَالَ عَطَاءُ ٱلْخُرَّاسَانِيُّ وَجَمَاعَةٌ: إِنَّ ٱلْأَفْنَانَ أَغْصَانُ ٱلشَّجَرِ يَسَسُ بَعْضُهَا بَعْضًا. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أَي: تَسْرَحَانِ لِسْفِي تِلْكَ ٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَغْصَانِ فَتَتَمَرُّ مِنْ جَمِيعِ ٱلْأَلْوَانِ ﴿فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ﴾ قَالَ ٱلْحَسَنُ ٱلبَصْرِيُّ: إِحْدَاهُمَا يُقَالُ لَهَا: تَسْنِيمٌ، وَٱلْأُخْرَى: ٱلسَّلْسِيلُ (٣). وَقَالَ عَطِيَّةٌ: إِحْدَاهُمَا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ٱسْنِ، وَٱلْأُخْرَى مِنْ حَمْرِ لَدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤). وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ نَكْهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أَي: مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلثَمَارِ مِمَّا يَعْلَمُونَ وَخَيْرِ مِمَّا يَعْلَمُونَ، وَمِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بِشَرِّ ﴿فَيَأْتِي ٱلْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِبَانِ﴾. قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا فِي ٱلدُّنْيَا ثَمَرَةٌ حُلُوةٌ وَلَا مُرَّةٌ إِلَّا وَهِيَ فِي ٱلْجَنَّةِ حَتَّى ٱلْحَنْظَلِ (٥).

(١) فتح الباري: ٤٩١/٨ (٢) مسلم: ١٦٣/١ وتحفة الأحوذى: ٢٣٢/٧ والنسائي في الكبرى: ٤١٩/٤ وابن ماجه: ٦٦/١ (٣) القرطبي: ١٧٨/١٧ (٤) القرطبي: ١٧٨/١٧ (٥) القرطبي: ١٧٩/١٧ (٦) الطبري: ٦١/٢٣ والقرطبي: ١٧/١٧٩ (٧) الطبري: ٦٢/٢٣ إسناده ضعيف مداره على أبي إسحاق السبيعي وهو مدلس ولم يصرح (٨) الطبري: ٦٣/٢٣ ٤١/٢١

وَالجِنِّ، وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى دُخُولِ مُؤْمِنِي الْجِنِّ الْجَنَّةَ. وَقَالَ أَرْطَاةُ بْنُ الْمُنْدَرِيِّ: سئِلَ ضَمْرَةُ بْنُ حَبِيبٍ: هَلْ يَدْخُلُ الْجِنُّ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَيَبْكِحُونَ، لِلجِنِّ جِنِّيَاتٌ، وَلِلْإِنْسِ إِنْسِيَّاتٌ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَطْمِئَنُوا بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا بَآءًا﴾ (٦١) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (١). ثُمَّ قَالَ يَنْتَعُهُنَّ لِلخَطَّابِ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ وَعَبْرُهُمْ: فِي صَفَاءِ الْيَاقُوتِ وَبَيَاضِ الْمَرْجَانِ، فَجَعَلُوا الْمَرْجَانَ هَهُنَا اللَّوْلُؤَ (٢).

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: إِذَا تَفَاحَرُوا وَإِمَا تَذَاكَرُوا، الرَّجَالُ أَكْثَرُ فِي الْجَنَّةِ أَمِ النِّسَاءُ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَوْلَمْ يَقُلْ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالتِّي تَلِيهَا عَلَى [أَصْوَاءٍ] كَوْكَبِ ذُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مِخُّ شَوْقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْرَبُ» (٣). وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْعَدْوَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلِقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ، أَوْ مَوْضِعُ قَدِّهِ - يَعْنِي سَوْطُهُ - مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ اطَّلَعَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنْصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (٥). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِنَحْوِهِ (٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أَي لَا لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُسْتَقَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وَلَمَّا كَانَ فِي الَّذِي ذَكَرَ نَعَمٌ عَظِيمَةٌ لَا يُقَاوَمُهَا عَمَلٌ، بَلْ مُجَرَّدُ تَفَضُّلٍ وَإِمْتِنَانٍ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ: ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (١٢) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (١٣) ﴿مُدَّاهِمَتَانِ﴾ (١٤) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (١٥) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾ (١٦) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (١٧) ﴿فِيهَا فَيْكُهُمْ وَغُلٌّ وَرَمَّانٌ﴾ (١٨) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (١٩) ﴿فِيهِ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ (٢٠) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (٢١) ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (٢٢) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (٢٣) ﴿لَمْ يَطْمِئَنُوا بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا بَآءًا﴾ (٢٤) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (٢٥) ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى رُفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (٢٦) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (٢٧) ﴿تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ

وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٨) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (٢٩) ﴿فِيهِ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ (٣٠) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (٣١) ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (٣٢) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (٣٣) ﴿لَمْ يَطْمِئَنُوا بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا بَآءًا﴾ (٣٤) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (٣٥) ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى رُفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ﴾ (٣٦) ﴿فِي أَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (٣٧) ﴿تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٣٨)

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣)
 إِذْ ارْجَحَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَسُتَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥)
 فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَاصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا اصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَاصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا اصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)
 وَالسَّادِقُونَ السَّادِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١)
 فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)
 عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مَقْفَلِينَ (١٦)

وَالْإِكْرَامِ﴾ (٣٨)
 هَاتَانِ الْجَنَّتَانِ دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا فِي الْأَمْرَيْنِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، فَأَلْوَالِيَانِ لِلْمُقَرَّبِينَ وَالْآخِرَتَانِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٧). وَقَالَ أَبُو مُوسَى: جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ لِلْمُقَرَّبِينَ وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَالذَّلِيلُ عَلَى شَرْفِ الْأُولَيْنِ عَلَى الْآخِرِينَ وَجُودٌ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ نَعَتِ الْأُولَيْنِ قَبْلَ هَاتَيْنِ، وَالتَّقْدِيمُ يَدُلُّ عَلَى الْإِغْتِيَاءِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي شَرْفِ التَّقَدُّمِ وَعُلُوِّهِ عَلَى الثَّانِي.

وَقَالَ هُنَاكَ ﴿ذَرَاتًا أُنثَانٍ﴾ وَهِيَ الْأَعْصَانُ أَوْ الْفُنُونُ فِي

(١) الطبري: ٦٥/٢٣ (٢) الطبري: ٦٧، ٦٦/٢٣ (٣) مسلم: ٢١٧٨/٤ (٤) فتح الباري: ٦/٣٦٧، ٤١٧ ومسلم: ٤/٢١٧٩، ٢١٨٠ (٥) أحمد: ١٤١/٣ (٦) فتح الباري: ١٩/٦ (٧) فتح الباري: ٤٩١/٨

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّفُوفُ: الْمَحَابِسُ^(٩). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ: هِيَ الْمَحَابِسُ^(١٠). وَقَالَ الْعَلَاءُ بْنُ [بَدْرٍ]: الرَّفْدُ عَلَى السَّرِيرِ كَهَيْئَةِ الْمَحَابِسِ الْمُتَدَلِّي. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَبْقَرِيَّ حِسَانٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: الْعَبْقَرِيُّ: الزَّرَابِيُّ^(١١).

ثُمَّ قَالَ: ﴿تَبَرَّكَ أَمُّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أَيُّ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُكْرَمَ فَيُعْبَدُ، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذِي الْعِظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ^(١٢). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَذِي السُّلْطَانِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْعَالِي فِيهِ، وَلَا الْجَافِي عَنْهُ»^(١٣).

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رِبْعَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلْطَوُا بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(١٤). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(١٥). وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ أَلْطَأُ فُلَانٌ إِذَا لَزِمَهُ، وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَلْطَوُا بِذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أَيُّ الزُّمُومِ. وَيُقَالُ: الْإِلْطَاطُ هُوَ الْإِلْحَاحُ.

(قُلْتُ) وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ مِنَ الْآخِرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهُوَ الْمُدَاوِمَةُ وَاللُّزُومُ وَالْإِلْحَاحُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَالشُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَا يَقْعُدُ بَعْثِي بَعْدَ الصَّلَاةِ إِلَّا يَقْدِرُ مَا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(١٦).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

الْمَلَادُ، وَقَالَ هَهُنَا ﴿مُدَاهَمَتَانِ﴾ أَيُّ: سَوْدَاوَانٍ مِنْ شِدَّةِ الرَّيِّ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُدَاهَمَتَانِ﴾ قَدِ اسْوَدَّتَا مِنَ الْخُضْرَةِ مِنْ شِدَّةِ الرَّيِّ مِنَ الْمَاءِ^(١٧). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ ﴿مُدَاهَمَتَانِ﴾: مُمْتَلِئَتَانِ مِنَ الْخُضْرَةِ، وَلَا شَكَّ فِي نِصَارَةِ الْأَعْصَانِ عَلَى الْأَشْجَارِ الْمُشْتَبِكَةِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ.

وَقَالَ هُنَاكَ: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَضْلَخَانِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ فَيَاضَتَانِ وَالْجُرِّيُّ أَقْوَى مِنَ النَّضْحِ^(١٨). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿فَضْلَخَانِ﴾ أَيُّ مُمْتَلِئَتَانِ وَلَا تَنْقَطِعَانِ^(١٩).

وَقَالَ هُنَاكَ ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَنَكِهَةٍ زَعَانِ﴾ وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَنَجَلٌ وَرُمَانٌ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَوْلَى أَعَمُّ وَأَكْثَرُ فِي الْأَفْرَادِ وَالتَّنْوِيعِ عَلَى فَاكِهَةٍ، وَهِيَ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِنْبَاتِ لَا تَعْمُ، وَلِهَذَا لَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿وَنَجَلٌ وَرُمَانٌ﴾ مِنْ بَابِ عَطَفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ كَمَا فَرَّزَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ النَّجْلَ وَالرُّمَانَ بِالذِّكْرِ لِشَرْفِهِمَا عَلَى غَيْرِهِمَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَتٌ حِسَانٌ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: خَيْرَاتٌ جَمْعُ خَيْرَةٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَسَنَةُ الْخُلُقِي الْحَسَنَةُ الْوَجْهِ، قَالَهُ الْجُمْهُورُ. وَرَوَى مَرْفُوعًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ^(٢٠). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: أَنَّ الْحُورَ الْعَيْنِ يُعْتَمَنُ: «نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحِسَانُ، حُلِفْنَا لِأَزْوَاجِ كِرَامِ»^(٢١). ثُمَّ قَالَ: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾ وَهُنَاكَ قَالَ: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّتِي قَدْ قَصُرَتْ طَرْفُهَا بِنَفْسِهَا أَفْضَلُ مِمَّنْ قَصُرَتْ وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ مُخَدَّرَاتٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي الْخِيَارِ﴾. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ»^(٢٢). وَرَوَاهُ أَيْضًا وَقَالَ: «ثَلَاثُونَ مِيلًا»^(٢٣).

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَلَفَّظَهُ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلٌ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(٢٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنُّوا إِسَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ سِوَاءِ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي وَصْفِ الْأَوَائِلِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْآبَاؤُوتُ وَالرِّجَالُ﴾^(٢٥) فَإِنَّ آيَةَ رَبِّكُمَا كَذَّبَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيَّ حِسَانٍ﴾

(١) الدر المشور: ٧١٥/٧ (٢) الدر المشور: ٧١٦/٧ (٣) الطبري: ٣٥٧/٢٣ (٤) الطبري: ٧٥/٢٣ (٥) الطبراني في الأوسط: ٢٥٧/٧ فيه سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدي [مجمع الزوائد ٧/١٢٢] (٦) فتح الباري: ٤٩١/٨ (٧) فتح الباري: ٣٦٦/٦ (٨) مسلم: ٢١٨٢/٤ (٩) الطبري: ٨٣/٢٣ (١٠) الطبري: ٨٤/٢٣ (١١) الطبري: ٨٥/٢٣ (١٢) الطبري: ٨٦/٢٣ (١٣) أبو داود: ١٧٤/٥ إسناده ضعيف لجهالة أبي كنانة. [تقريب ٩٩٢٨] (١٤) أحمد: ١٧٧/٤ (١٥) النسائي في الكبرى: ٤٧٩/٦ (١٦) مسلم: ٤١٤/١ وأبو داود: ١٧٩/٢ وتحفة الأحوذى: ١٩٢/٢ والنسائي: ٦٩/٣ وابن ماجه: ٢٩٨/١

تفسير سورة الواقعة وهي مكية

[فضل سورة الواقعة]

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَارَسُوا اللَّهَ! قَدْ شَبَّتَ، قَالَ «شَبَّيْتَنِي هُوَذَا وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ كَنَحْوِ مِنْ صَلَاتِكُمْ الَّتِي تُصَلُّونَ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخَفِّفُ، كَانَتْ صَلَاتُهُ أَخْفَ مِنْ صَلَاتِكُمْ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْعَجْرِ الْوَاقِعَةَ وَنَحْوَهَا مِنَ السُّورِ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ① لَيْسَ لَوْقِعَهَا كَذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③
﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ ④ وَوَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ⑥ وَكُنْتُمْ أَرْدَجًا نَلْنَةً ⑦ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑧ وَأَصْحَابُ الشَّمَائِهِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَائِهِ ⑨ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ⑩ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ⑫

[ذَكَرَ أَحْوَالَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

الْوَاقِعَةُ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِتَحَقُّقِ كَوْنِهَا وَوُجُودِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَوْقِعِنَهَا كَذِبَةٌ﴾ أَي لَيْسَ لَوْقِعِهَا إِذَا أَرَادَ اللَّهُ كَوْنَهَا صَارِفٌ يَصْرِفُهَا وَلَا دَافِعٌ يَدْفَعُهَا كَمَا قَالَ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧] وَقَالَ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ٢٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كُنْتُ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ سَافِلِينَ إِلَى الْجَحِيمِ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَعْرَاءَ، وَتَرَفُّعُ آخَرِينَ إِلَى أَعْلَى عَلِيَّيْنِ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا وُضْعَاءَ. هَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا^(٥). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿خَافِضَةٌ

رَافِعَةٌ﴾ أَسْمَعَتِ الْقُرَيْبَ وَالْبَعِيدَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: خَفَضَتْ فَأَسْمَعَتِ الْأَذُنَى، وَرَفَعَتْ فَأَسْمَعَتِ الْأَفْصَى. وَكَذَا قَالَ الصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أَي حُرِّكَتْ تَحْرِيكًا فَاهْتَزَّتْ وَاضْطَرَبَتْ بِطَوْلِهَا وَعَرْضِهَا، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أَي زُلْزِلَتْ زَلْزَالًا^(٦). وَقَالَ الرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ: تَرُجُ بِمَا فِيهَا كَرَجِ الْعُرْبَالِ بِمَا فِيهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقِيحٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ أَي فَتَّتَتْ فَتًّا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: وَغَيْرُهُمْ^(٧). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: صَارَتِ الْجِبَالُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَيْبًا مَهِيلاً﴾^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا﴾ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْحَارِثِ عَنِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿هَبَاءٌ مُتْبِنٌ﴾ كَرَهَجِ الْعُبَارِ يَسْطَعُ ثُمَّ يَذْهَبُ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا﴾ الْهَبَاءُ الَّذِي يَطِيرُ مِنَ النَّارِ إِذَا اضْطَرَمَّتْ يَطِيرُ مِنْهُ الشَّرُّ فَإِذَا وَقَعَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا^(٩). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الْمُتْبِنُ: الَّذِي قَدْ ذَرَتْهُ الرِّيحُ وَبَثَّتْهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿هَبَاءٌ مُتْبِنًا﴾ كَبَيْسِ الشَّجَرِ الَّذِي تَذْرُوه الرِّيَاحُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَأَخْوَانِهَا الدَّالَّةِ عَلَى زَوَالِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَذَهَابِهَا وَتَشْيِيرِهَا وَنَسْفِهَا [أَي قَلْعِهَا] وَصَيْرُورِهَا كَالْجُهْنِ الْمُنْمُوشِ.

[النَّاسُ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُنْتُمْ أَرْدَجًا نَلْنَةً﴾ أَي يَنْقَسِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: قَوْمٌ عَنِ يَمِينِ الْعَرْشِ. وَهُمْ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْأَيْمَنِ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الْيَمِينِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: وَهُمْ جَمْهُورُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَآخَرُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ، وَهُمْ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ

(١) تحفة الأحوذى: ١٨٤/٩ (٢) أحمد: ١٠٤/٥ فيه سماك بن حرب عن عكرمة وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة كما مر ذكره وليست هذه منها وقد تغير آخره فكان ربما تلفن. (٣) الطبري: ٨٩/٢٣ (٤) الطبري: ٨٩/٢٣ (٥) الطبري: ٩٠/٢٣ (٦) الطبري: ٩١/٢٣ (٧) الطبري: ٩٣، ٩٢/٢٣ (٨) الطبري: ٩٣/٢٣ (٩) الطبري: ٩٤/٢٣

سُوقَ آدَمَ الْأَيْسَرَ وَيُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِشِمَالِهِمْ وَيُوَخِّدُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ النَّارِ - عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ صَنِيعِهِمْ - وَطَائِفَةٌ سَابِقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُمْ أَحْصَى وَأَحْطَى وَأَقْرَبَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ هُمْ سَادَتُهُمْ، فِيهِمُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالصُّدُقُونَ وَالشُّهَدَاءُ، وَهُمْ أَقْلُ عَدَدًا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ (٩) وَاللَّذِينَ فِي الْأَنْفُسِ أَصْحَابُ الْأَنْفُسِ (١٠) وَهَكَذَا قَسَمَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ فِي آخِرِ الشُّورَةِ وَقَتَّ اخْتِصَارَهُمْ، وَهَكَذَا ذَكَرَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِ ابْتُغِيَ اللَّهُ... آيَةَ [فاطر: ٣٢].

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَأَبُو حُرَيْرَةَ وَيَعْقُوبُ بْنُ مُجَاهِدٍ: ﴿وَاللَّذِينَ فِي الْأَنْفُسِ أَصْحَابُ الْأَنْفُسِ﴾ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُمُ أَهْلُ عُلْيَى.

وَالْمُرَادُ بِالسَّابِقِينَ هُمُ الْمُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ كَمَا أَمُرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] فَمَنْ سَابَقَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَسَبَقَ إِلَى الْخَيْرِ، كَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْكِرَامَةِ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جَنَسِ الْعَمَلِ، وَكَمَا تَلِدُنْ تَدُنْ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فِي جَنَّتِ الْعَجِيرِ.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُورِ مَوْضُوعٍ (١٥) مُتَّكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ (١٩) وَفَكَهْفَةٍ وَمَا يُنْخَبَرُونَ (٢٠) وَلَعَلَّ طَلِبَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا تَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)

بِقَوْلِهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣). وَلَمْ يَحْكُ غَيْرُهُ وَلَا عَزَاهُ إِلَى أَحَدٍ، وَمِمَّا يُسْتَأْنَسُ بِهِ لِهَذَا الْقَوْلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثَلَاثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، بَلْ أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ - أَوْ: شَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ - وَتَقَاسِمُونَهُمُ النِّصْفَ الثَّانِيَّ». وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٤).

وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَهُنَا، فِيهِ نَظَرٌ، بَلْ هُوَ

[السَّابِقُونَ وَجَزَاؤُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ أَنَّهُمْ ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أَيَّ جَمَاعَةٍ ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ وَ﴿الْآخِرِينَ﴾ فَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِينَ الْأُمَّمُ الْمَاضِيَّةُ، وَبِالْآخِرِينَ هَذِهِ الْأُمَّةُ. وَهَذَا رِوَايَةٌ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، رَوَاهَا عَنْهُمَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَهُوَ اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ (٢). وَاسْتَأْنَسَ

(١) القرطبي: ١٧/١٩٩ (٢) الطبري: ٢٣/٩٨ (٣) فتح الباري: ١١/٥٢٦ (٤) أحمد: ٢/٣٩١ إسناده ضعيف فيه شريك بن عبدالله سىء الحفظ ووالد محمد يباع الملاء وهو عبدالرحمن بن خالد بن مسيرة مجهول لكن يشهد لقوله: "انتم ثلث أهل الجنة" حديث ابن مسعود عند أحمد ٤٣٢٨ وحديث جابر أيضا عنده ٣/٢٤٦، ٢٨٣.

قَوْلُ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، فَيَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمُفْرَبُونَ فِي غَيْرِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، بَلِ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُفْرَبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي هَذَا الْمَقَامِ هُوَ الرَّاجِحُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيُّ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السَّرِيِّ بْنِ يَحْيَى قَالَ: قَرَأَ الْحَسَنُ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أَوْلَيْكَ الْمُفْرَبُونَ ﴿١٧﴾ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿١٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ: ثُلَّةٌ مَعْنَى مَضَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَرَوَى عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ أَوْ يَرْجُونَ أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ أَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَوَّلَ كُلِّ أُمَّةٍ خَيْرٌ مِنْ آخِرِهَا، فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَعَمَّ الْآيَةُ جَمِيعَ الْأُمَمِ، كُلُّ أُمَّةٍ بِحَسَبِهَا، وَلِهَذَا نَبَتْ فِي الصَّحاحِ وَغَيْرِهَا مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْبِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» ﴿١﴾. الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ. وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ». وَفِي لَفْظٍ: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ كَذَلِكَ» ﴿٢﴾. وَالغَرَضُ: أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، وَالْمُفْرَبُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا، وَأَعْلَى مَنْزِلَةً لِشَرَفِ دِينِهَا وَعَظَمِ نَبِيِّهَا، وَلِهَذَا نَبَتْ بِالتَّوَاتُرِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَفِي لَفْظٍ: «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا» وَفِي آخَرَ: «مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ مَرْمُولَةٍ بِالذَّهَبِ، يَعْنِي مَسْجُوجَةٌ بِهِ ﴿٣﴾. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَغَيْرُهُ ﴿٤﴾. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمِنْهُ يُسَمَّى وَضِئِنِ النَّاقَةِ الَّتِي تَحْتِ بَطْنِهَا، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، لِأَنَّهُ مَضْفُورٌ، وَكَذَلِكَ السُّرُّ فِي الْجَنَّةِ مَضْفُورَةٌ بِالذَّهَبِ وَاللَّائِيءِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مَتَّعِيلِينَ﴾ أَيُّ: وَجُوهٌ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، لَيْسَ أَحَدٌ وَرَاءَ أَحَدٍ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أَيُّ: مُخَلَّدُونَ عَلَى صِفَةِ وَاحِدَةٍ، لَا يَتَكَبَّرُونَ

عَنْهَا، وَلَا يَسِيْبُونَ وَلَا يَتَعَيَّرُونَ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُؤُوسٍ مِّنَ مَّعِينٍ﴾ أَمَّا الْأَكْوَابُ فَهِيَ الْكَيْزَانُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا آذَانَ. وَالْأَبَارِيقُ الَّتِي جَمَعَتِ الرَّصْفَيْنِ. وَالْكُؤُوسُ: الْهَنَابَاتُ. وَالْجَمِيعُ مِنْ خَمْرٍ مِنْ عَيْنِ جَارِيَةٍ مَعِينٍ، لَيْسَ مِنْ أَوْعِيَةٍ تَنْقُطُ وَتَفْرُغُ، بَلِ مِنْ عُيُونٍ سَارِحَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَصْذَعُونَ عَلَيْهَا وَلَا يَزْفُونَ﴾ أَيُّ لَا تُصَدِّعُ رُؤُوسَهُمْ وَلَا تَنْزِفُ عُقُولَهُمْ، بَلِ هِيَ ثَابِتَةٌ مَعَ الشَّدَةِ الْمُطْرَبَةِ وَاللَّذَّةِ الْحَاصِلَةِ، وَرَوَى الصَّحَّاحُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: فِي الْخَمْرِ أَرْبَعُ خِصَالٍ: السُّكْرُ، وَالصُّدَاعُ، وَالْقَيْءُ، وَالْبَوْلُ، فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَمْرَ الْجَنَّةِ وَزَهَبَهَا عَنْ هَذِهِ الْخِصَالِ ﴿٥﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطِيَّةُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿لَا يَصْذَعُونَ عَلَيْهَا﴾ يَقُولُ: لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا صُدَاعٌ رَأْسٍ ﴿٦﴾. وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَزْفُونَ﴾ أَيُّ لَا تَذْهَبُ بِعُقُولِهِمْ ﴿٧﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَكَهَهُمْ مِمَّا يَشَخَّرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا طَبِرَ مِمَّا يَشَخَّرُونَ أَيُّ: وَيَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَتَخَيَّرُونَ مِنَ الثَّمَارِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ أَكْلِ الْفَاكِهَةِ عَلَى صِفَةِ التَّخَيَّرِ لَهَا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَابِتٍ قَالَ: قَالَ أَنَسٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تُعْجِبُهُ الرُّؤْيَا، فَرَمَّا رَأَى الرَّجُلَ الرُّؤْيَا فَسَأَلَ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ، فَإِذَا أَتَيْتِ عَلَيْهِ مَعْرُوفٌ كَانَ أَعْجَبَ لِرُؤْيَاةِ إِلَيْهِ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ فَأُخْرِجُكَ مِنَ الْمَدِينَةِ فَأَدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَسَمِعْتُ وَجِبَةً انْتَحَبَتْ لَهَا الْجَنَّةَ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، وَفُلَانُ بْنُ فُلَانٍ فَسَمَّيْتُ اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا - كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ بَعَثَ سَرِيَّةً قَبْلَ ذَلِكَ - فَجَاءَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ طَلَسَ تَشَخَّبَ أَوْ دَاجَهُمْ، فَقِيلَ: أَذْهَبُوا بِهِمْ إِلَى نَهْرِ الْبَيْدَخِ - أَوْ الْبَيْدَخِ - قَالَ: فَفَمِسُوا فِيهِ فَخَرَجُوا وَوُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَأَتُوا بِصَفْحَةٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بُسْرٌ، فَأَكَلُوا مِنْ بُسْرِهِ مَا شَاءُوا، فَمَا يَقْلِبُونَهَا مِنْ وَجْهِ إِلَّا أَكَلُوا

(١) البخاري: ٣٦٥١ ولفظ البخاري "خير الناس قرني...". وقد تقدم هذا. (٢) البخاري: ٧١، ٣١١٦، ٣٦٤٠، ٣٦٤١، ٧٣١١، ٧٣١٢، ٧٤٥٩، ٧٤٦٠ وغير ذلك. (٣) الطبري: ٩٩/٢٣ (٤) الطبري: ٩٩/٢٣، ١٠٠ (٥) القرطبي: ١٧/٢٠٤ إسناده منقطع والضحاك لم يسمع من ابن عباس (٦) الطبري: ١٠٣/٢٣، ١٠٤ (٧) الطبري: ١٠٤، ١٠٤/٢٣، ١٠٥

تَعَالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُورٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْأَحْوَصِ وَقَسَامَةُ بْنُ زُهَيْرٍ وَالسَّقَرِيُّ بْنُ نَسِيرٍ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَالسُّدِّيُّ وَأَبُو حَزْرَةَ وَغَيْرُهُمْ: هُوَ الَّذِي لَا شَوْكَ فِيهِ^(٣). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الْمَوْقَرُ بِالنَّمْرِ. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ عِكْرِمَةَ وَمُجَاهِدٍ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ أَيْضًا: كُنَّا نَحْدُثُ أَنَّهُ الْمَوْقَرُ الَّذِي لَا شَوْكَ بِهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَرَادَ هَذَا وَهَذَا، فَإِنَّ سِدْرَ الدُّنْيَا كَثِيرُ الشَّوْكِ قَلِيلُ النَّمْرِ، وَفِي الْأَخِيرَةِ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ هَذَا، لَا شَوْكَ فِيهِ، وَفِيهِ النَّمْرُ الْكَثِيرُ الَّذِي قَدْ أَنْقَلَ أَصْلُهُ، وَعُتِبَهُ بْنُ عَبْدِ السَّلْمِيِّ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَجَاءَ أَغْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَسْمَعُكَ تَذَكُّرُ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٍ لَا أَعْلَمُ شَجَرًا أَكْثَرَ شَوْكًا مِنْهَا، يَعْنِي: الطَّلْحَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ مِنْهَا ثَمْرَةً، مِثْلَ خُصْوَةِ النَّيْسِ الْمَلْبُودِ، فِيهَا سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ، لَا يُشْبِهُ لَوْنَ آخَرَ»^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَطَلْحٍ مَّضُورٍ﴾ الطَّلْحُ: شَجَرٌ عَظَامٌ يَكُونُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاءِ، وَاجِدَتُهُ طَلْحَةٌ، وَهُوَ شَجَرٌ كَثِيرُ الشَّوْكِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَّضُورٍ﴾ أَيُّ مَتْرَاكِمِ النَّمْرِ يُذَكَّرُ بِذَلِكَ قَرِينًا، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْجَبُونَ مِنْ وَجْهِ وَظِلَالِهِ مِنْ طَلْحٍ وَسِدْرٍ^(٥). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: ﴿وَطَلْحٍ مَّضُورٍ﴾ قَالَ: الْمَوْزُ. قَالَ: وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ وَقَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ وَقَتَادَةَ، وَأَبِي حَزْرَةَ مِثْلَ ذَلِكَ^(٦). وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ. وَرَادَ فَقَالَ: أَهْلُ الْيَمَنِ يَسْمُونَ الْمَوْزَ الطَّلْحَ^(٧). وَلَمْ يَحِكْ ابْنُ جَرِيرٍ غَيْرَ هَذَا الْقَوْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَطَلْحٍ مَّضُورٍ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّابِكُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، أَفْرُؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَطَلْحٍ مَّضُورٍ﴾»^(٨). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٩). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّابِكُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، أَفْرُؤُوا إِنْ شِئْتُمْ:

مِنَ الْفَائِكَةِ مَا أَرَادُوا، وَأَكَلْتُ مَعَهُمْ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ مِنْ تِلْكَ السَّرِيَّةِ، فَقَالَ مَا كَانَ مِنْ رُؤْيَا: كَذَا وَكَذَا. فَأَصِيبَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ حَتَّى عَدَّ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَرْأَةَ، فَقَالَ: «فُصِّي رُؤْيَاكَ» فَفَصَّيْنَاهَا وَجَعَلَتْ تَقُولُ: فَجِيءَ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ كَمَا قَالَ. هَذَا لَفْظُ أَبِي يَعْلَى^(١٠). قَالَ الْحَافِظُ الضَّيَاءُ: وَهَذَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَجَعِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ طَيْرَ الْجَنَّةِ كَأَمْثَالِ الْبُحْبِ، يَرَعَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ هَذِهِ لَطَيْرٌ نَاعِمَةٌ، فَقَالَ: «أَكَلَهَا أَنْعَمَ مِنْهَا» قَالَهَا ثَلَاثًا «وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَأْكُلُ مِنْهَا»^(١١). انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَمْثِلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكُونِ﴾ أَيُّ: كَأَنَّهِنَّ اللُّؤْلُؤُ الرُّطْبُ فِي بِيَاضِهِ وَصَفَائِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ «كَأَنَّهِنَّ بَيْضٌ مَكُونٌ» وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ وَصَفَهُنَّ أَيْضًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حِرَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي أَتَحَفَّنَاهُمْ بِهِ مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنُوا مِنَ الْعَمَلِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْتِيًا﴾^(١٢) إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا أَيُّ: لَا يَسْمَعُونَ فِي الْجَنَّةِ كَلَامًا لَا عِيَا أَيُّ: عَبَثًا خَالِيًا مِنَ الْمَعْنَى، أَوْ مُشْتَمِلًا عَلَى مَعْنَى حَقِيرٍ، أَوْ ضَعِيفٍ كَمَا قَالَ: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِقَاءً﴾ [الغاشية: ١١] أَيُّ: كَلِمَةً لَا عِيَةً «وَلَا تَأْتِيًا» أَيُّ وَلَا كَلَامًا فِيهِ فُتْحٌ «إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا» أَيُّ: إِلَّا التَّنْسِلِيمَ مِنْهُمْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَتَنَمَّوْنَ فِيهَا سَلَامًا﴾ [يونس: ١٠] وَكَلَامُهُمْ أَيْضًا سَالِمٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالْإِنْمِ.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾^(١٣) فِي سِدْرٍ مَّخْضُورٍ ﴿وَطَلْحٍ مَّضُورٍ﴾^(١٤) وَطَلْحٍ مَّضُورٍ ﴿وَطَلْحٍ مَّضُورٍ﴾^(١٥) وَمَا وَسَّكُوبٍ ﴿وَالْجَنَّةُ كَثِيرَةٌ﴾^(١٦) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿وَفَرَشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾^(١٧) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿وَجَعَلْنَهُنَّ أَكْبَارًا﴾^(١٨) عَرَبًا أَتْرَابًا ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾^(١٩) ثَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾^(٢٠) وَثَلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ وَجَزَاؤُهُمْ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَالَ السَّابِقِينَ وَهُمْ الْمُقَرَّبُونَ، عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَهُمْ الْأَبْرَارُ، كَمَا قَالَ مَيْمُونُ ابْنُ مِهْرَانَ: أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَنَزَلَتُهُمْ دُونَ الْمُقَرَّبِينَ فَقَالَ: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ أَصْحَابُ الْيَمِينِ؟ وَمَا حَالُهُمْ؟ وَكَيْفَ مَالُهُمْ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ

(١) أحمد: ١٣٥/٣ ومسند أبي يعلى: ٤٤/٦ (٢) أحمد: ٣/٢٢١ (٣) الطبري: ١١٠/٢٣ (٤) البعث لابن أبي داود: ٥٩ وانظر الصحبة لللاباني: ٢٧٣٤ (٥) الطبري: ١١٤/٢٣ (٦) الطبري: ١١٢/٢٣، ١١٣ (٧) الطبري: ١١٣/٢٣ (٨) فتح الباري: ٤٩٥/٨ (٩) مسلم: ٤/٢١٧٥

﴿وَلَيْلٍ تَمْدِيدٍ﴾^(١) وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢). وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٣)، وَكَذَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِكَهْمَ كَبِيرَةٍ﴾^(٥) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿أَيُّ وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْفَوَاكِهِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ فِي الْأَلْوَانِ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أَيُّ: يُشْبِهُ الشَّكْلَ الشَّكْلَ، وَلَكِنَّ الطَّعْمَ غَيْرَ الطَّعْمِ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي ذِكْرِ سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى: «فَإِذَا وَرَقَهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وَنَبْقَهَا مِثْلَ قِلَالِ هَجْرٍ»^(٦). وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَسَفَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ، فَذَكَرَ الصَّلَاةَ، وَفِيهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْتَكَ تَتَأَوَّلُ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْتَكَ تَكْتَعَمُ، قَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْحَبَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُثْفُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمُ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا»^(٧).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عُثْبَةَ بْنِ عَبْدِ السَّلْمِيِّ يَقُولُ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ عَنِ الْحَوْضِ وَذَكَرَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فِيهَا فَاكِهَةٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهَا شَجَرَةٌ تُدْعَى طُوبَى» - قَالَ: فَذَكَرَ شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ - قَالَ: أَيُّ شَجَرٍ أَرْضِنَا نُشْبُهُ؟ قَالَ: «لَيْسَتْ نُشْبُهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرِ أَرْضِكَ». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَيْتَ الشَّامَ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «نُشْبُهُ شَجَرَةٌ بِالشَّامِ تُدْعَى الْجَوْزَةَ، تُنْبِتُ عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ، وَيَنْفِرُشُ أَغْلَاهَا». قَالَ: مَا عِظْمُ أَصْلِهَا؟ قَالَ: «لَوْ ارْتَحَلْتَ جَدْعَةً مِنْ إِبِلِ أَهْلِكَ مَا أَحَاطَتْ بِأَصْلِهَا، حَتَّى تَنْكَسِرَ تَرْفُوتُهَا هَرْمًا» قَالَ: فِيهَا عِنَبٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَمَا عِظْمُ الْعُنْفُودِ؟ قَالَ: «مَسِيرَةٌ شَهْرٍ لِلْغُرَابِ الْأَبْعَعِ وَلَا يَفْتَرُّ». قَالَ: فَمَا عِظْمُ الْحَبَّةِ؟ قَالَ: «هَلْ ذَبَحَ أَبُوكَ تَبْسًا مِنْ عَنَمِهِ قَطُّ عَظِيمًا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَسَلِّحْ إِهَابَهُ فَأَعْطَاهُ أُمَّكَ فَقَالَ: اتَّخِذِي لَنَا مِنْهُ دَلْوًا؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فَإِنَّ تِلْكَ الْحَبَّةَ لَتُسْبِعُنِي وَأَهْلَ بَيْتِي؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَعَامَّةَ عَشِيرَتِكَ»^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أَيُّ: لَا تَنْقَطِعُ شِتَاءً وَلَا صَيْفًا، بَلْ أَكُلَهَا دَائِمٌ مُسْتَمِرًّا أَبَدًا، مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ شَيْءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ تَنَاوُلِهَا عُوْدٌ وَلَا شَوْكٌ وَلَا بَعْدٌ^(٨). وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: إِذَا تَنَاوَلَ الرَّجُلُ الثَّمَرَ عَادَتْ مَكَانَهَا

أُخْرَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفُرْشٍ مَرْمُوعَةٍ﴾ أَيُّ: عَالِيَةٍ وَطَيِّبَةٍ نَاعِمَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً﴾^(٩) فَمَعَلَنَهُمْ أَنْبَكَارًا^(١٠) عُرُبًا أَرْبَابًا^(١١) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿جَرَى الضَّمِيرُ عَلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ. وَلَكِنْ لَمَّا دَلَّ السِّيَاقُ وَهُوَ ذِكْرُ الْفُرْشِ عَلَى النِّسَاءِ اللَّاتِي يُصَاحِبُنَّ فِيهَا، اكْتَفَى بِذَلِكَ عَنْ ذِكْرِهِنَّ، وَعَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِنَّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّغِيَّتُ الْيَتِيمَ﴾^(١٢) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حَبَّ الْغَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿[ص: ٣١، ٣٢] يَعْني: الشَّمْسُ. عَلَى الْمَشْهُورِ مِنْ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ﴾ أَصْمَرَهُنَّ وَلَمْ يُذَكَّرَنَّ قَبْلَ ذَلِكَ^(١٣). وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ذُكِرَنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾^(١٤) كَأَمْثَلِ الْوَلُؤِ الْمَكْمُونِ^(١٥) فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ﴾ أَيُّ: أَعَدْنَاهُنَّ فِي النَّشْأَةِ الْأُخْرَى بَعْدَ مَا كُنَّ عَجَائِزَ رُفَصًا، صِرْنَ أَبْكَارًا عُرُبًا، أَيُّ: بَعْدَ الثَّبُوتِ عُدْنَ أَبْكَارًا عُرُبًا مُتَحَبِّبَاتٍ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ بِالْحَلَاوَةِ وَالطَّرَافَةِ وَالْمَلَاخَةِ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّبْرَانِيُّ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةٌ كَذَا وَكَذَا فِي النِّسَاءِ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَيُعْطَى ذَلِكَ؟ قَالَ: يُعْطَى قُوَّةً مِائَةً^(١٦). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(١٧). وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ نَصِلُ إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَدْرَاءَ»^(١٨). قَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَدِّسِيُّ: هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدِي عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عُرُبًا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني: مُتَحَبِّبَاتٍ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ، أَلَمْ تَرَ إِلَى النَّاقَةِ الضَّبْعَةَ؟ هِيَ كَذَلِكَ. وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْعُرْبُ: أَلْعَوَاشِقُ لِأَزْوَاجِهِنَّ، وَأَزْوَاجُهُنَّ لِهِنَّ عَاشِقُونَ^(١٩). وَكَذَا

(١) أحمد: ٤٨٢/٢ (٢) مسلم: ٢١٧٥/٤ (٣) فتح الباري: ٣٦٨/٦ (٤) عبد الرزاق: ٤١٧/١١ (٥) فتح الباري: ٣٤٩/٦ ومسلم: ١٤٦/١ (٦) فتح الباري: ٦٢٧/٢ ومسلم: ٦٢٦/٢ (٧) أحمد: ١٨٣/٤ (٨) الطبري: ١١٨/٢٣ (٩) الطبري: ١١٨/٢٣ (١٠) الطبري: ١١٨/٢٣ (١١) مسند الطيالسي: ٢٦٩ (١٢) تحفة الأحوذى: ٢٤١/٧ فيه تدليس فتادة ولم يصرح (١٣) الطبراني الصغير: ٦٨/٢ (١٤) الدرر المشور: ٨/١٦

وَجُوهَ الرَّجَالِ». قَالَ: «أَرْضَيْتِ؟». قُلْتُ: «قَدْ رَضِيتُ رَبَّ». قَالَ: «فَإِنَّ مَعَ هَذَا سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». قَالَ: «وَأَنْشَأَ عَكَاشَةَ بِنْتُ مِحْصَنٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ - قَالَ سَعِيدٌ: وَكَانَ بَدْرِيًّا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ قَالَ: فَقَالَ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». قَالَ: أَنْشَأَ رَجُلٌ آخَرَ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ قَالَ: «سَبَقَتْ بِهَا عَكَاشَةُ» قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّ اسْتَطَعْتُمْ - فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي - أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّبْعِينَ فَافْعَلُوا، وَإِلَّا فَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الظَّرَابِ، وَإِلَّا فَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الأُفُقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ نَاسًا كَثِيرًا قَدْ تَأَسَّبُوا حَوْلَهُ». ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالَ: فَكَبَّرْنَا، قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالَ فَكَبَّرْنَا، قَالَ ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ «ثُمَّ مِنَ الآوَّلِينَ ﴿٦٦﴾ وَثُمَّ مِنَ الآخِرِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ: فَقُلْنَا بَيْنَنَا: مَنْ هُوَ لِأَيِّ السَّبْعُونَ أَلْفًا؟ فَقُلْنَا: هُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا. قَالَ: فَبَلَّغَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «بَلْ هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ، وَلَا يَسْتَرْفِقُونَ وَلَا يَنْظُرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(١). وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ فِي الصَّحاحِ وَغَيْرِهَا^(٢).

﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ (٤١) فِي سُورَةِ وَجْهِ ﴿٤٢﴾ وَظِلِّ مِنَ يَمِينِهِ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّمِمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرِكِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يَمِيرُونَ عَلَى الْيَمِينِ النَّظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيَّدَا مِنَّا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَظَلَمْنَا إِنَّا لَمَعْمُورُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ إِنَّا أَنَا الْآوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنِّي مِنَ الْآوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَعْمُورُونَ إِلَى يَفْقَدَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ إِنِّي الصَّالُونَ الْمَكِيدُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُمٍ ﴿٥٢﴾ فَالْقُلُوبُ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَرَى مِنْهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَيْمِ ﴿٥٤﴾ فَتَرَى مِنْهُ شَرِبَ الْمَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا تَرْتِيبُهُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

[أَصْحَابُ الشَّمَالِ وَأَحْوَالُهُمْ وَجَرَائِهِمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الشَّمَالِ فَقَالَ: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾

(١) الطبري: ٢٣/١٢١ و١٢٢ و١٢٣ (٢) الدر المنثور: ١٦/٨ (٣) الطبري: ٢٤/٢٣ (٤) الطبري: ١٢٥/٢٣ (٥) فتح الباري: ٤١٧/٦ و٤١٧/٤ و٢١٧/٤ (٦) الحاكم: ٤٧٧/٤ (٧) فتح الباري: ١٠/١٦٤ و٢٢٤ و٣١٢/١١ و٤١٣ و٤١٣/١٠ و١٩٨/١٩٩ و١٩٩/٧ و١٣٩/٧ وأحمد: ٤٠١/١

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَرْجِسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَيَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ وَعَطِيَّةٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَغَيْرُهُمْ^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَثْرَابًا﴾ قَالَ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ، ثَلَاثٌ وَثَلَاثِينَ سَنَةً^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الأَثْرَابُ: المُسْتَوِيَّاتُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: الأَمْنَالُ^(٣). وَقَالَ عَطِيَّةٌ: الأَقْرَانُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أَي: خُلِقْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، أَوْ أُدْخِرْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، أَوْ رُوجْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَالْأَطْهَرُ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ ﴿٦٥﴾ بِجَلْسَتِهِنَّ أَتَكَرَّرَ ﴿٦٦﴾ عُرْبًا أَثْرَابًا ﴿٦٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٦٨﴾ فَتَقْدِيرُهُ أَنشَأْنَاهُنَّ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَهَذَا تَوْجِيهُ ابْنِ جَرِيرٍ^(٤).

قُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ مُتَعَلِّقًا بِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَثْرَابًا﴾ ﴿٦٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ أَي: فِي أَشْنَانِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى ضَوْءِ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتَمَلَّوْنَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلْوَةُ، وَأَرْوَاجُهُمُ الحُورُ الْعِينُ، أَخْلَافُهُمْ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ثُمَّ مِنَ الآوَّلِينَ ﴿٦٦﴾ وَثُمَّ مِنَ الآخِرِينَ ﴿٦٧﴾ أَي: جَمَاعَةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الآخِرِينَ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَأْخُذُ عَنْ بَعْضٍ قَالَ: أَكْرَمْنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ عَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهَا بِأَمَمِهَا، فَيَمُرُّ عَلَيَّ النَّبِيُّ، وَالنَّبِيُّ فِي الْعِصَابَةِ، وَالنَّبِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ». وَتَلَا قَتَادَةُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلَيْسَ مِنْكَ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] قَالَ:

«حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي كَبْكَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» قَالَ: «قُلْتُ: رَبِّي، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَنْ بَعَثَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» قَالَ: «قُلْتُ: رَبِّ فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ قَالَ: انظُرْ عَنْ يَمِينِكَ فِي الظَّرَابِ» قَالَ: «فَإِذَا وَجَّهَ الرَّجَالَ». قَالَ: «قَالَ: أَرْضَيْتِ؟». قَالَ: «قُلْتُ: قَدْ رَضِيتُ رَبَّ». قَالَ: «انظُرْ إِلَى الأُفُقِ عَنْ يَسَارِكَ، فَإِذَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣٦

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْمَانُ الصَّالُونَ الْمَكْذِبُونَ ﴿٥٦﴾ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٥﴾
 فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٧﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا
 شَرْبَ الْهَيْدِ ﴿٥٥﴾ هَذَا تَرْكُومٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ تَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
 تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْتَنُونَ ﴿٥٨﴾ أَسْتَرْخَلْقُونَهُ؟ أَمْ نَحْنُ
 الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
 عَلَيَّ أَنْ تَبْدِلَ أَمْتَلِكُمْ وَنُنشِعْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
 عَلَّمْنَا النَّشَاءَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ
 ﴿٦٣﴾ أَسْتَرْزَعُونَهُ؟ أَمْ نَحْنُ الزَّرْعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
 حُطًا مَّا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ﴿٦١﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ
 ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ
 أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُنْجَابًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
 ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمَا التَّارَاتِي تَوْرُونَ ﴿٧١﴾ أَسْتَرَأْنَشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ
 نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ تَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرًا وَرَمَتَا الْمُفْسِدِينَ
 ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ * فَلَا أُقْسِمُ
 بِمَوْقِعِ الْجُورِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

وَهَائِمَةٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ بْنُ جُبَيْرٍ
 وَعِكْرِمَةُ: الْهَيْمُ: الْإِبِلُ الْعَطَاشُ الظَّمَاءُ ﴿٧٤﴾ وَقَالَ
 السُّدِّيُّ: الْهَيْمُ دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فَلَا تُرَوَى أَبَدًا حَتَّى تَمُوتَ،
 فَكَذَلِكَ أَهْلُ جَهَنَّمَ لَا يَرَوُونَ مِنَ الْحَمِيمِ أَبَدًا. ثُمَّ قَالَ
 تَعَالَى: ﴿هَذَا تَرْكُومٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي وَصَفْنَا هُوَ
 ضِيَاقَتُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ حِسَابِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ
 الْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ
 الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] أَي: ضِيَاقَةٌ وَكَرَامَةٌ.

﴿تَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْتَنُونَ ﴿٥٨﴾ أَسْتَرْ
 خَلْقُونَهُ؟ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
 بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تَبْدِلَ أَمْتَلِكُمْ وَنُنشِعْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
 وَلَقَدْ عَلَّمْنَا النَّشَاءَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

(١) الطبري: ١٢٩/٢٣ (٢) الطبري: ١٢٩/٢٣، ١٣٠ (٣)
 الطبري: ١٣١/٢٣ (٤) الطبري: ١٣١/٢٣ (٥) الطبري:
 ١٣٢/٢٣ (٦) الطبري: ١٣٦/٢٣

أَي: أَي شَيْءٍ هُمْ فِيهِ أَصْحَابُ الشَّمَالِ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ
 فَقَالَ: ﴿فِي سَمُورٍ﴾ وَهُوَ الْهَوَاءُ الْحَارُّ ﴿وَجِيمٍ﴾ وَهُوَ الْمَاءُ
 الْحَارُّ ﴿وَطِيلٍ مِنَ يَحْمُورٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ظِلُّ الدُّخَانِ ﴿١﴾.
 وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ
 وَعَبْرُهُمْ ﴿٢﴾. وَهَلِيهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ
 تَكْدِبُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٦٥﴾ لَا ظِلِيلٌ وَلَا يَنْتَبِ
 مِنَ اللَّهَبِ ﴿٦٦﴾ إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَمَرِ ﴿٦٧﴾ كَأَنَّهُ جَنَّتُ
 صُفْرٌ ﴿٦٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمَكْذِبِينَ ﴿المرسلات: ٢٩-٣٤﴾ وَلِهَذَا
 قَالَ لَهْمَنَّا: ﴿وَطِيلٍ مِنَ يَحْمُورٍ﴾ وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ ﴿لَا يَارِدُ
 وَلَا كَرِيمٌ﴾ أَي: لَيْسَ طَيِّبُ الْهُبُوبِ، وَلَا حَسَنَ الْمُنْظَرِ،
 كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ أَي: وَلَا كَرِيمٌ
 الْمُنْظَرُ ﴿٣﴾. قَالَ الضَّحَّاكُ: كُلُّ شَرَابٍ لَيْسَ بِعَذْبٍ فَلَيْسَ
 بِكَرِيمٍ ﴿٤﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى اسْتِحْقَاقَهُمْ لِذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ
 كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أَي: كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُتَمَتِّعِينَ
 مُقْبِلِينَ عَلَى لَذَاتِ أَنْفُسِهِمْ، لَا يَلُومُونَ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ
 ﴿وَكَانُوا يَصْرُوفُونَ﴾ أَي: يَقِيمُونَ وَلَا يَتَوُونَ تَوْبَةً ﴿عَلَى الْجَنَّةِ
 الْعَظِيمِ﴾ وَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ، وَجَعَلَ الْأَوْثَانَ وَالْأَنْدَادِ أَرْبَابًا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْجَنَّةُ الْعَظِيمَةُ: الشَّرْكُ.
 وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ
 وَعَبْرُهُمْ ﴿٥﴾. ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيَّدَا مِنَّا وَكَانَّا ثَرَكًا وَعَظْمًا أَوْثَانًا
 لَمَعُونُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ
 مُكْذِبِينَ بِهِ، مُسْتَبْعِدِينَ لِقُورِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِيَ
 الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿٨﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ تَعْلَمُونَ﴾ أَي:
 أَخْبِرُهُمْ يَا مُحَمَّدُ! أَنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ
 سَيُجْمَعُونَ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا،
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ
 وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا
 بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ سِقِّىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٤، ١٠٥] وَلِهَذَا قَالَ
 هَهُنَا: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ تَعْلَمُونَ﴾ أَي: هُوَ مَوْقَاتٌ يَوْقَتُ
 مَحْدُودٌ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْمَانُ الصَّالُونَ الْمَكْذِبُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ
 زُقُومٍ ﴿٥٥﴾ فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنََّّهُمْ يُقْبَضُونَ وَيُسْجَرُونَ
 حَتَّى يَأْكُلُوا مِنْ شَجَرِ الزُّقُومِ حَتَّى يَمْلَأُوا مِنْهَا بُطُونَهُمْ
 ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهَيْدِ﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ
 الْعَطَاشُ، وَاجِدَهَا أَهْيَمٌ وَالْأُنثَى هَيْمَاءُ، وَيُقَالُ: هَائِمٌ

[ثُبُوتُ الْفِيَامَةِ وَدَلِيلُ الْمَعَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُفْرَرًا لِلْمَعَادِ، وَرَادًا عَلَى الْمُكذِّبِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ، مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وَقَوْلُهُمْ ذَلِكَ صَدْرَ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِنْعَادِ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَحْنُ خَلَقْتُمْ﴾ أَي: نَحْنُ ابْتَدَأْنَا خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى الْبُدْءَةِ، بِقَادِرٍ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَوْلَا نَصُودُونَ﴾ أَي: فَهَلَّا تُصَدِّقُونَ بِالْبُعْثِ! ثُمَّ قَالَ: مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمَخْلُوقُونَ﴾ أَي: أَنْتُمْ تَقْرُونَهُ فِي الْأَرْحَامِ وَتَخْلُقُونَهُ فِيهَا، أَمْ اللَّهُ الْخَالِقُ لِذَلِكَ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ أَي: صَرَفْنَا بَيْنَكُمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: سَاوَى فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (١) ﴿وَمَا تَحْنُ بِمُسَبِّحِينَ﴾ أَي: وَمَا نَحْنُ بِعَاجِزِينَ ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْنَلَكُمْ﴾ أَي: نَعَيِّرُ خَلْقَكُمْ يَوْمَ الْفِيَامَةِ ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: مِنْ الصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا عَلِمْتُمْ الْفِيَامَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَي: قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، فَخَلَقَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، فَهَلَّا تَتَذَكَّرُونَ وَتَعْرِفُونَ أَنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى هَذِهِ النَّشْأَةِ - وَهِيَ الْبُدْءَةُ - قَادِرٌ عَلَى النَّشْأَةِ الْآخَرَى - وَهِيَ الْإِعَادَةُ - بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَذَكِّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧] ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) فَلْيُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَلَّا أَنشَأَهُ اللَّهُ قَوْلًا لَيْسَ لَهُ سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا يَفْهَمُ شَيْئًا﴾ (٧٩) ثُمَّ كَانَ عَقْلَهُ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٨٠) جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٨١) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيْهِ أَنْ يُحْيِيَ الْقَوْلَ﴾ [الفيامة: ٣٦-٤٠].

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ (٧٧) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٧٨) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٧٩) إِنَّا لَمَعْرُومُونَ﴾ (٨٠) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٨١) أَوْفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٨٢) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ (٨٣) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٨٤) فَهَلَّا تَشْكُرُونَ بِعَمَّةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي إِزْزَالِهِ الْمَطَرَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا زُلْزَلًا! ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (٨٥) يُثَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (٨٦)

الْمُنشُورُونَ﴾ (٧٦) تَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكَّرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْبِلِينَ﴾ (٧٧) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٨)

[التَّيْبِيَّةُ عَلَى تَفَرُّدِ اللَّهِ بِالزَّرْعِ وَإِزْزَالِ الْمَاءِ، وَخَلْقِ النَّارِ، وَهِيَ مِنْ أَقْرَبِ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ وَهُوَ شَقُّ الْأَرْضِ وَإِثَارَتُهَا وَالْبُدْرُ فِيهَا ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أَي: تُنْبِتُونَهُ فِي الْأَرْضِ ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أَي: بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ نَقْرَهُ قَرَارَهُ وَنُنْبِتُهُ فِي الْأَرْضِ. رَوَى ابْنُ جَبْرِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُولُوا: زَرَعْتُ وَلَكِنْ قُلْ: حَرَثْتُ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ (٧٦) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٧٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ أَي: نَحْنُ أَنْبَتَاهُ بِلُطْفِنَا وَرَحْمَتِنَا، وَأَبْقَيْنَاهُ لَكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ، بَلْ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ أَي: لَا يُبَسِّنَاهُ قَبْلَ اسْتِوَائِهِ وَاسْتِحْصَادِهِ ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَمَعْرُومُونَ﴾ (٧٩) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أَي: لَوْ جَعَلْنَاهُ حُطَمًا لَطَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ فِي الْمَقَالَةِ، تَتَوَعَّونَ كَلَامَكُمْ فَتَقُولُونَ تَارَةً: ﴿إِنَّا لَمَعْرُومُونَ﴾ أَي: لَمَلُوقُونَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: إِنَّا لَمَوْلَعٌ بِتَارَةً (٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: مُعَذِّبُونَ. وَتَارَةً تَقُولُونَ: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٤). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تَلَاوُمُونَ (٥). وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾: تَنْدَمُونَ (٦). وَمَعْنَاهُ إِذَا عَلَى مَا أَنْفَقْتُمْ أَوْ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، قَالَ الْكِسَائِيُّ: تَفَكَّهُ مِنَ الْأَصْدَادِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَفَكَّهُتُ بِمَعْنَى: تَنَعَّمْتُ، وَتَفَكَّهُتُ بِمَعْنَى: حَزَنْتُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٧٧) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يَعْنِي: السَّحَابِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ (٧٧). ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ يَقُولُ: بَلْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْجًا﴾ أَي: زُعَاقًا مَرًّا، لَا يَصْلُحُ لِشَرْبٍ وَلَا زَرْعٍ ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أَي: فَهَلَّا تَشْكُرُونَ بِعَمَّةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي إِزْزَالِهِ الْمَطَرَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا زُلْزَلًا! ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (٨٥) يُثَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (٨٦)

(١) القرطبي: ٢١٦/١٧ (٢) الطبري: ١٣٩/٢٣ (٣) الطبري: ١٤١/٢٣ (٤) الطبري: ١٤١/٢٣ (٥) الطبري: ١٤٠/٢٣ (٦) الطبري: ١٤٠/٢٣ (٧) الطبري: ١٤٣/٢٣

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ [النحل: ١٠، ١١]. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تَقْدَحُونَ مِنَ الزَّوَادِ، وَتَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ أَصْلِهَا ﴿أَءَأْتَمْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِقُونَ﴾ أي: بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ جَعَلْنَاهَا مَوْدَعَةً فِي مَوْضِعِهَا. وَلِلْعَرَبِ شَجَرَتَانِ إِحْدَاهُمَا الْمَرْخُ، وَالْأُخْرَى الْعُقَارُ، إِذَا أَخَذَ مِنْهُمَا غَضَّانِ أَحْضَرَانِ فَحَكَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، تَنَاطَرَ مِنْ بَيْنَهُمَا شَرُّ النَّارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَي تَذَكُّرُ النَّارِ الْكُبْرَى ^(١). قَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا قَوْمُ! نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي تُوقِدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ. قَالَ: «إِنَّهَا قَدْ صُرِبَتْ [بِالْمَاءِ] صُرْبَتَيْنِ - أَوْ مَرَّتَيْنِ - حَتَّى يَسْتَنْفَعَ بِهَا بَنُو آدَمَ وَيَذْتَوُوا مِنْهَا» ^(٢). وَهَذَا الَّذِي أَرْسَلَهُ قَتَادَةُ قَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَصُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنَفَعَةً لِأَحَدٍ» ^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي يُوقِدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ. فَقَالَ: «إِنَّهَا قَدْ فُضِّلَتْ عَلَيْهَا يَتَسَعُّ وَسِتِينَ جُزْءًا» ^(٤). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزُّنَادِ ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالنَّضْرُ بْنُ عَرَبِيِّ: يَعْنِي بِالْمُؤْمِنِينَ: الْمُسَافِرِينَ ^(٦). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَقَالَ: وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَقْوَبُ الدَّارِ، إِذَا رَحَلَ أَهْلُهَا ^(٧). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْمُؤْمِي هَهُنَا: الْجَانِعُ. وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سَلِيمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: لِلْحَاضِرِ وَالْمُسَافِرِ، لِكُلِّ طَعَامٍ لَا يُضْلِحُهُ إِلَّا النَّارُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: قَوْلُهُ: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: الْمُسْتَمْتِعِينَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ^(٨). وَكَذَا ذَكَرَ عَنْ عِكْرَمَةَ. وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَعْمٌ مِنْ غَيْرِهِ، فَإِنَّ الْحَاضِرَ وَالْبَادِيَّ مِنْ عَنِّي وَفَقِيرَ، الْجَمِيعَ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهَا لِلطَّبْخِ وَالِإِصْطِلَاءِ وَالِإِضَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ، ثُمَّ مِنْ لَطْفِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ أَوْدَعَهَا فِي الْأَحْبَارِ وَخَالِصِ الْحَدِيدِ، بِحَيْثُ يَتَمَكَّنُ الْمُسَافِرُ مِنْ حَمْلِ ذَلِكَ فِي مَتَاعِهِ وَيَبْنِي نَيْبَاهُ، فَإِذَا احتَاجَ

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ ٥٣٧

إِنَّه لَقَرَّ أَنْ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّاتٌ يَجِيءُ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْأَعْيُنِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنَ الْأَعْيُنِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكذِّبِينَ الصَّالِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَرْزُلُ مِنَ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

سُورَةُ الْحَجِّ ٥٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

إِلَى ذَلِكَ فِي مَثَلِهِ أُخْرَجَ زَنْدُهُ وَأُورِي، وَأَوْقَدَ نَارَهُ فَاطْبَخَ بِهَا وَاصْطَلَى بِهَا وَاشْتَوَى، وَاسْتَأْنَسَ بِهَا، وَانْتَفَعَ بِهَا سَائِرَ الْإِنْتِفَاعَاتِ، فَلِهَذَا أُفْرَدَ الْمُسَافِرِينَ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَامًّا فِي حَقِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أَي: الَّذِي يُقَدِّرَتِهِ خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ الْمُتَضَادَّةَ: الْمَاءَ الرُّزَالَ الْعَذْبَ الْبَارِدَ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مِلْحًا أَجَاجًا كَالْبَحَارِ الْمُعْرِقَةِ. وَخَلَقَ النَّارَ الْمُعْرِقَةَ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مَضْلَعَةً لِلْعِبَادِ، وَجَعَلَ هَذِهِ مَنَفَعَةً لَهُمْ فِي مَعَاشِ دُنْيَاهُمْ، وَزَجْرًا لَهُمْ فِي الْمَعَادِ.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ الْجَبُورِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَفَسَدٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقَرَّ أَنْ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ

(١) الطبري: ١٤٤/٢٣ (٢) الطبري: ١٤٤/٢٣ (٣) أحمد: ٢٤٤/٢ (٤) الموطأ: ٩٩٤/٢ (٥) فتح الباري: ٣٨٠/٦ ومسلم: ٢١٨٤/٤ (٦) الطبري: ١٤٥/٢٣ (٧) الطبري: ١٤٦/٢٣ (٨) الطبري: ١٤٥/٢٣

إِلَّا الْمَطْهُرُونَ ﴿٧٩﴾ تَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ
مُدْهُونٌ ﴿٨١﴾ وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾
[قَسَمَ اللَّهُ عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ]

لَيْسَتْ «لَا» زَائِدَةٌ لَا مَعْنَى لَهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، بَلْ يُؤْتَى بِهَا فِي أَوَّلِ الْقَسَمِ إِذَا كَانَ مُقْسَمًا بِهِ عَلَى مَثْنِيٍّ، كَقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَا، وَاللَّهِ! مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ^(١). وَهَكَذَا هُنَا تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: لَا، أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كَهَانَةٌ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ كَرِيمٌ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْقَسَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقِيلَ: أَقْسِمُ^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: مَوَاقِعِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ وَيُقَالُ: مَطَّاعُهَا وَمَشَارِقُهَا^(٣).

وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةَ: وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ^(٤). وَعَنْ قَتَادَةَ: مَوَاقِعُهَا: مَنَازِلُهَا^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِئِنَّهُ لَفَسْرٌ لُّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أَي: وَإِنَّ هَذَا الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ، لَوْ تَعْلَمُونَ عَظَمَتَهُ لَعَظَمْتُمْ الْمُقْسَمَ بِهِ عَلَيْهِ ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ أَي: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ لِكِتَابٍ عَظِيمٍ ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾ أَي: مُعْظَمٍ، فِي كِتَابٍ مُعْظَمٍ مَحْفُوظٍ مَوْقُرٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمَطْهُرُونَ﴾ قَالَ: الْكِتَابُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ^(٦). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمَطْهُرُونَ﴾ يَعْنِي: الْمَلَائِكَةَ^(٧). وَكَذَا قَالَ أَنَسٌ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالصَّحَّاحُ وَأَبُو الشَّعْنَاءِ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَبُو نَهْيَكٍ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْثَدَةَ وَغَيْرُهُمْ^(٨).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ قَتَادَةَ: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمَطْهُرُونَ﴾ قَالَ: لَا يَمْسُهُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْمَطْهُرُونَ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَمْسُهُ الْمَجُوسُ النَّجِسُ، وَالْمُنَافِقُ الرَّجْسُ. وَقَالَ: وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (مَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمَطْهُرُونَ)^(٩). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمَطْهُرُونَ﴾ لَيْسَ أَنْتُمْ، أَنْتُمْ أَصْحَابُ الدُّنُوبِ^(١٠). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: زَعَمْتُ كَمَا قُرِئَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمَطْهُرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وَمَا يَبْنِي هُمْ وَمَا

يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُؤُونَ ﴿٨٠﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]^(١). وَهَذَا الْقَوْلُ قَوْلٌ جَبَدٌ، وَهُوَ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْأَقْوَالِ الَّتِي قَبْلَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي هَذَا الْقُرْآنُ مَنَزَّلٌ مِّنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كَهَانَةٌ أَوْ شِعْرٌ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ نَافِعٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَي مُكَذِّبُونَ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ^(٢). وَكَذَا قَالَ الصَّحَّاحُ وَأَبُو حَزْرَةَ وَالسُّدِّيُّ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُدْهُونٌ﴾ أَي: تُرِيدُونَ أَنْ تُمَالِئُوهُمْ فِيهِ وَتَرَكَوْا لِإِيَّاهُمْ^(٤). ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ بِمَعْنَى شُكْرِكُمْ: أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ. أَي: تُكَذِّبُونَ بَدَلَ الشُّكْرِ. وَقَدْ رَوَى عَنْ عَلِيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا قَرَأَهَا: (وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ)^(٥) كَمَا سَبَّأَتِي.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا مُطِرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا أَصْبَحَ بَعْضُهُمْ كَافِرًا، يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنُورٍ كَذَا وَكَذَا. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ)^(٦). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدِ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ فِي إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ فِي اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنُورٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»^(٧). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِي، كُلُّهُم مِّنْ حَدِيثِ مَالِكٍ بِهِ^(٨).

(١) فتح الباري: ٥٠٤/٨ (٢) الطبري: ١٤٧/٢٣ (٣) الطبري: ١٤٨/٢٣ (٤) الطبري: ١٤٨/٢٣ (٥) الطبري: ١٤٨/٢٣ (٦) الطبري: ١٤٩/٢٣ (٧) الطبري: ١٥٠/٢٣ فيه ضعف العوفي (٨) الطبري: ١٥٠/٢٣، ١٥١ والقرطبي: ١٧/٢٣٥ (٩) الطبري: ١٥٢/٢٣ (١٠) الطبري: ١٥١/٢٣ (١١) الطبري: ١٤٩/٢٣ عن الصحاح. (١٢) الطبري: ١٥٣/٢٣ (١٣) الطبري: ١٥٣/٢٣ (١٤) الطبري: ١٥٣/٢٣ (١٥) الطبري: ١٥٤/٢٣، ١٥٥ (١٦) الطبري: ١٥٤/٢٣ (١٧) الموطأ: ١٩٢/١ (١٨) فتح الباري: ٣٨٨/٢ ومسلم: ٨٣/١ وأبو داود: ٢٢٧/٤ والنسائي: ١٦٥/٣

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَا الْحَسَنُ فَكَانَ يَقُولُ: بِئْسَ مَا أَحَدَ قَوْمٍ لِأَنْفُسِهِمْ، لَمْ يُرْزُقُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا التَّكْذِيبَ، فَمَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ هَذَا: وَتَجْعَلُونَ حَظَّكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ قَبْلَهُ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٢) وَأَنْتُمْ جِيئِدُ نَظْرُونَ ﴿٨٣﴾ وَتَحَنَّنَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٤﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٥﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٦﴾

[عَدَمُ اسْتِطَاعَةِ رَدِّ الرُّوحِ حِينَ تَبْلُغُ الحُلُقُومَ، دَلِيلٌ عَلَى المَحَاسِبَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتْ﴾ أي: الرُّوحُ ﴿الحُلُقُومَ﴾ أي الحلق، وَذَلِكَ حِينَ الإِخْتِصَارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّارَ﴾ (٦١) وَقِيلَ مَنْ لاقِ ﴿٦٢﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٦٣﴾ وَاللَّعْنُ النَّارُ بِالسَّاقِ ﴿٦٤﴾ إِنْ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ [القضامة: ٢٦-٣٠] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَأَنْتُمْ جِيئِدُ نَظْرُونَ﴾ أي: إِلَى المُخْتَصِرِ وَمَا يَكْبِيدُهُ مِنْ سَكَرَاتِ المَمُوتِ ﴿وَتَحَنَّنَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي: بِمَلَائِكَتِنَا ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَهُوَ الظَّاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ المَمُوتُ تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ (٦١) ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَمْرُ الحَكِيمِينَ [الأنعام: ٦١، ٦٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا ﴿مَعْنَاهُ فَهَلَّا تَرْجِعُونَ هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي قَدْ بَلَغَتْ الحُلُقُومَ، إِلَى مَكَانِهَا الأَوَّلِ، وَمَقَرَّهَا مِنَ الجَسَدِ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَنْتُمْ تُدَانُونَ وَتُبْعَتُونَ وَتُجَزَّوْنَ، فَرُدُّوا هَذِهِ النَّفْسَ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غَيْرَ مُوقِنِينَ.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٧) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ (٨٨) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَحْسَبِ اليَمِينِ ﴿٨٩﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَحْسَبِ اليَمِينِ ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩١﴾ فَزُلْ مِنْ جَمِيمٍ ﴿٩٢﴾ وَصَلِيَّةٍ جَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ إِنْ هَذَا لَمَوْ حَقُّ اليَمِينِ ﴿٩٤﴾ فَسَبَّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴿٩٥﴾

[أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ الإِخْتِصَارِ، وَمَصِيرُ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ]

(١) الطوال: ص ٢٣٨ (٢) الطبري: ١٥٩/٢٣ (٣) الطبري:

١٦٠/٢٣ (٤) الطبري: ١٦٠/٢٣ (٥) مسلم: ١٥٠٢/٣

أخْضَارِهِمْ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ المُقَرَّبِينَ، أَوْ يَكُونَ مِنْ دُونِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ المُكذِبِينَ بِالحَقِّ، الضَّالِّينَ عَنِ الهُدَى، الجَاهِلِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ أي: المُخْتَصِرُ ﴿مِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ فَعَلُوا الوَاجِبَاتِ وَالمُسْتَحَبَّاتِ، وَتَرَكُوا المَحْرَمَاتِ وَالمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضَ المُبَاحَاتِ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: فَلَهُمْ رُوحٌ وَرَيْحَانٌ، وَتَبَشَّرَهُمُ المَلَائِكَةُ بِذَلِكَ عِنْدَ المَمُوتِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ البَرَاءِ: أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ يَقُولُ: أَيُّهَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتَ تَعْمُرِيهِ، أَخْرَجِي إِلَى رُوحِ وَرَيْحَانِ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانٍ (١).

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَرَوْحٌ﴾ يَقُولُ: رَاحَةٌ ﴿وَرَيْحَانٌ﴾، يَقُولُ: مُسْتَرَاخَةٌ (٢). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنْ الرُّوحُ: الإِسْتِرَاخَةُ (٣). وَقَالَ أَبُو حَزْرَةَ: الرَّاحَةُ مِنَ الدُّنْيَا، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسَّدْيِيُّ: الرُّوحُ: الفَرْحُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ جَنَّةٌ وَرِخَاءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَرَوْحٌ﴾: فَرَحْمَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَرَيْحَانٌ﴾: وَرِزْقٌ. وَكُلُّ هَذِهِ الأَقْوَالِ مُتَّفَارِقَةٌ صَاحِبَةٌ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ مُقَرَّبًا حَصَلَ لَهُ جَمِيعُ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّاحَةِ وَالإِسْتِرَاخَةِ، وَالفَرْحِ وَالسُّرُورِ وَالرِّزْقِ الحَسَنِ ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ وَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ: لَا يُفَارِقُ أَحَدٌ مِنَ المُقَرَّبِينَ حَتَّى يُؤْتَى بِغَضَنِ مِنْ رَيْحَانِ الجَنَّةِ، فَتُقْبَضُ رُوحُهُ فِيهِ (٤). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَا يَمُوتُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ هُوَ أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خَضِرٍ، تَسْرَحُ فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَتَادِيلٍ مُعَلَّقَةٍ بِالعَرْشِ» الحَدِيثِ (٥). وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ: كَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ عَرَفْتُ فِيهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى: رَأَيْتُ شَيْخًا أَبْيَضَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةَ عَلَى جِمَارٍ، وَهُوَ يَتَّبِعُ جَنَازَةً فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَدَّثَنِي فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». قَالَ: فَأَكْبَتِ القَوْمُ يَبْكُونَ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكُمْ؟». فَقَالُوا: إِنَّا نَكْرَهُ المَمُوتَ. قَالَ:

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَنْتُمْ تُدَانُونَ وَتُبْعَتُونَ وَتُجَزَّوْنَ، فَرُدُّوا هَذِهِ النَّفْسَ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غَيْرَ مُوقِنِينَ.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٧) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ (٨٨) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَحْسَبِ اليَمِينِ ﴿٨٩﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَحْسَبِ اليَمِينِ ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩١﴾ فَزُلْ مِنْ جَمِيمٍ ﴿٩٢﴾ وَصَلِيَّةٍ جَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ إِنْ هَذَا لَمَوْ حَقُّ اليَمِينِ ﴿٩٤﴾ فَسَبَّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴿٩٥﴾

[أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ الإِخْتِصَارِ، وَمَصِيرُ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ]

هَذِهِ الأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ

«لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ إِذَا اخْتَضَرَ ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَجِيمٌ ﴿فَإِذَا بُشِّرَ بِذَلِكَ أَحَبُّ لِقَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْقَائِهِ أَحَبُّ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ (٩١) فَنَزَلُ مِنَ جِيمٍ ﴿٩٢﴾ وَنَصْلِيَّةٌ جِيمٍ ﴿فَإِذَا بُشِّرَ بِذَلِكَ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لِلْقَائِهِ أَكْرَهُ﴾ (٩١). هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شَاهِدٌ لِمَعْنَاهُ (٩٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَحْسَبِ الْيَمِينِ﴾ أَي: وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمُحْتَضِرُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَحْسَبِ الْيَمِينِ﴾ أَي تَشْرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ تَقُولُ لِأَحَدِهِمْ: سَلَامٌ لَكَ، أَي: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، أَنْتَ إِلَى سَلَامَةٍ، أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، كَمَا قَالَ عِكْرَمَةُ: تَسَلَّمَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٌ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ بِالْغَنَةِ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تُوَعَّدُونَ﴾ (٢١) مَعْنَى أَوْلِيَاؤَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَلًا مِنْ عَفْوِرٍ رَحِيمٍ [فصلت: ٣٠-٣٢] وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: ﴿فَسَلِّمْ لَكَ﴾ أَي: مُسَلِّمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَالْغَيْثُ (إِنْ) وَبَقِيَ مَعْنَاهَا كَمَا تَقُولُ: أَنْتَ مُصَدِّقٌ مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ، إِذَا كَانَ قَدْ قَالَ: إِنِّي مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ، وَقَدْ يَكُونُ كَالدَّعَاءِ لَهُ كَقَوْلِكَ: سُقِّمَا لَكَ مِنَ الرَّجَالِ، إِنْ رَفَعْتَ السَّلَامَ، فَهُوَ مِنَ الدَّعَاءِ (٣). وَقَدْ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَكَذَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَالَ إِلَيْهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ (٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ (٩٢) فَنَزَلُ مِنَ جِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلِيَّةٌ جِيمٍ ﴿أَي: وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُحْتَضِرُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَى ﴿فَنَزَلُ﴾ أَي: فَضِيَّافَةٌ ﴿مِنْ جِيمٍ﴾ وَهُوَ الْمُدَابُّ الَّذِي يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَنَصْلِيَّةٌ جِيمٍ ﴿أَي: وَتَقْرِيرٌ لَهُ فِي النَّارِ الَّتِي تَعْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أَي: إِنَّ هَذَا الْخَبْرَ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ، الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، وَلَا مَجِيدَ لِأَحَدٍ عَنْهُ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، عُرِسَتْ لَهُ نَحْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ». هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَدِيدِ وَهِيَ مَدِينَةٌ

[فُضِّلَ سُورَةَ الْحَدِيدِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ الْمُسَبِّحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرُقُدَ وَقَالَ: «إِنَّ فِيهِنَّ آيَةٌ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ (٨)». وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ عَنْ بَقِيَّةِ بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ (٩). وَالآيَةُ الْمُسَارُّ إِلَيْهَا فِي الْحَدِيثِ هِيَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَرِعْمَ الْوَكِيلِ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ [يُسَبِّحُ جَمِيعُ الْكَوْنِ لِلَّهِ وَذَكَرُ بَعْضُ صِفَاتِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، أَي: مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتَاتِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا عَفْوًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَي:

(١) أحمد: ٤/٢٥٩ (٢) فتح الباري: ١١/٣٦٤ مسلم: ٤/٢٠٦٥ (٣) البخاري: تفسير سورة الواقعة. (٤) الطبري: ٢٣/١٦٢ (٥) تحفة الأحوذى: ٩/٤٣٤ والنسائي في الكبرى: ٦/٢٠٧ (٦) فتح الباري: ١٣/٥٤٧ (٧) مسلم: ٤/٢٠٧٢ وتحفة الأحوذى: ٩/٤٣٤ والنسائي في الكبرى: ٦/٢٠٧ وابن ماجه: ٢/١٢٥١ (٨) أحمد: ٤/١٢٨ (٩) أبو داود: ٥/٣٠٤ وتحفة الأحوذى: ٨/٢٣٨ ٩/٣٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ

مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ

ءَايَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْئُرُ مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ

وَقَتْلِ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، أَقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ. وَكَانَ يَرَوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (٤).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ [سَمُّوهُ عِلْمُ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ خَلْقِهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ بِاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، بِمَا أَعْنَىٰ عَنِ إِعَادَتِهِ هَهُنَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

(١) أبو داود: ٣٣٥/٥ (٢) فتح الباري: ٣٧٤/١٣ (٣) أحمد: ٤٠٤/٢ (٤) مسلم: ٢٠٨٤/٤

الَّذِي قَدْ خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَشُرْعِهِ ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيَىٰ وَيُمِيتُ﴾ أَيُّ: هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَّصِرُ فِي خَلْقِهِ، فَيَحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ: مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمُسَارُ إِلَيْهَا فِي حَدِيثِ عَزْبَاصِ بْنِ سَارِيَةَ أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي زَمِيلٍ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ أَجَدُّهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَاللَّهِ! لَا أَتَكَلَّمُ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ لِي: أَشَيْءٌ مِنْ شِكِّ؟ قَالَ: وَضَحِكُ، قَالَ: مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ. قَالَ: حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ إِلَيْنَا لِيَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ... [يونس: ٩٤] الْآيَةَ. قَالَ: وَقَالَ لِي: إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١). وَقَدْ اِخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَقْوَالُهُمْ عَلَىٰ نَحْوِ مِنْ بَضْعَةِ عَشْرٍ قَوْلًا.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ يَحْيَىٰ: الظَّاهِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَالْبَاطِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (٢). وَقَالَ شَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمَرْيُ: يَحْيَىٰ هَذَا هُوَ ابْنُ زَيْدِ الْفَرَّاءِ، لَهُ كِتَابٌ سَمَّاهُ «مَعَانِي الْقُرْآنِ» وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ النَّوْمِ: «اللَّهُمَّ! رَبِّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، مُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ. أَقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ» (٣).

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَهْلِ قَالَ: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَىٰ شِقْبِهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ! أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴿٥٧﴾ أَي يَعْلَمُ عَدَدَ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنْ حَبِّ وَقَطْرِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ مِنْ نَبَاتٍ وَزَرْعٍ وَثَمَارٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَعَعَزَ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٨﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَي: مِنَ الْأَمْطَارِ، وَالتَّلُوجِ وَالتَّبَرَدِ، وَالْأَقْدَارِ، وَالْأَحْكَامِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا﴾ أَي: مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَعْمَالِ. كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ» (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَي: رَقِيبٌ عَلَيْكُمْ، شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ وَأَيْنُ كُنْتُمْ بَرًّا أَوْ بَحْرًا، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فِي الْبُيُوتِ أَوْ الْفُقَارِ، الْجَمِيعِ فِي عَلَيْهِ عَلَى السَّوَاءِ، وَتَحْتَ بَصَرِهِ وَسَمْعِهِ، فَيَسْمَعُ كَلَامَكُمْ، وَيَرَى مَكَانَكُمْ، وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَاكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَكْثِفُوا مِنْهُ أَلَّا حِينٌ يَسْتَعْشُرُونَ مِنْهَا بِعِلْمٍ وَلَا يُلْقُونَ إِلَيْهِ عِلْمًا يَدَاتِ الْأَشْدُقِيرِ﴾ [هود: ٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتَيْلٍ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِجَبْرِئِيلَ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْإِحْسَانِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أَي هُوَ الْمَالِكُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣] وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلْعَدُّ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْخِمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ١] فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكٌ لَهُ، وَأَهْلُهُمَا عِبِيدٌ أَرْقَاءُ أَدْلَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَاءٌ الرَّحْمَنِ عَبْدٌ ﴿٥٣﴾ لَقَدْ أَحْضَمْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ﴿٥٤﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٩٣-٩٥] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أَي: إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، بَلْ إِنْ يَكُنْ

عَمَلٌ أَحَدِهِمْ حَسَنَةً وَاحِدَةً يُضَاعَفُهَا إِلَى عَشْرَةِ أَمْثَالِهَا ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُفَى بِهَا حَسِيبًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أَي: هُوَ الْمُتَمَصِّرُ فِي الْخَلْقِ، يُغَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَيُقَدِّرُهُمَا بِحُكْمَتِهِ كَمَا يَشَاءُ، فَتَارَةً يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ، وَتَارَةً بِالْعَكْسِ، وَتَارَةً يَبْتَزُّكُهُمَا مُعْتَدِلِينَ، وَتَارَةً يَكُونُ الْفَضْلُ شِتَاءً، ثُمَّ رَبِيعًا ثُمَّ قَظًا ثُمَّ خَرِيفًا، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحُكْمَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِمَا يُرِيدُهُ بِخَلْقِهِ ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَي: يَعْلَمُ السَّرَائِرَ، وَإِنْ دَقَّتْ، وَإِنْ خَفِيَتْ.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٥٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِلْيَوْمِ الَّذِي يَرْجُونَ وَفَدَّ أَخَذَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عِبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْرِئُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَهُوَ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ وَالْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ]

أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، وَالذُّوَامِ وَالتَّثَابِتِ عَلَى ذَلِكَ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَحَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ أَي: مِمَّا هُوَ مَعَكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعَارِيَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي أَيْدِي مَنْ قَبْلَكُمْ ثُمَّ صَارَ إِلَيْكُمْ، فَأَرَشَدَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى اسْتِعْمَالِ مَا اسْتَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ فِي طَاعَتِهِ، فَإِنْ يَفْعَلُوا وَإِلَّا حَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ وَعَاقِبَتُهُمْ لِتَرْكِهِمُ الْوَأَجِبَاتِ فِيهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ مُخْلِفًا عَنْكَ، فَلَعَلَّ وَارْتِكَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ، فَيَكُونُ أَسْعَدَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْكَ، أَوْ يُعْصِي اللَّهَ فِيهِ فَتَكُونُ قَدْ سَعَيْتَ فِي مُعَاوَنَتِهِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى

(١) مسلم: ١٦٢/١ (٢) فتح الباري: ١٤٠/١

وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُهُمَا وَعِنْدَهُ خَزَائِنُهُمَا، وَهُوَ مَالِكُ الْعَرْشِ بِمَا حَوَى، وَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وَقَالَ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، أَنْفَقَ وَلَمْ يَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَاقًا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سَيُخْلِفُهُ عَلَيْهِ.

[فَضْلُ الْإِنْفَاقِ وَالْفِتَالِ قَبْلَ الْفَتْحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا﴾ أَي: لَا يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ كَفْعَلِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ الْحَالُ شَدِيدًا، فَلَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ حِينَئِذٍ إِلَّا الصَّادِقُونَ، وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ فَإِنَّهُ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ ظُهُورًا عَظِيمًا، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ أَعْطَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِنَا﴾ وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى ﴿وَالْجُمُهورُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ هَهُنَا فَتْحُ مَكَّةَ، وَعَنِ الشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ هَهُنَا صَلْحَ الْحُدَيْبِيَّةِ^(٥). وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنِ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كَلَامٌ، فَقَالَ خَالِدٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: تَسْتَطِيلُونَ عَلَيْنَا بِأَيَّامٍ سَبَقْتُمُونَا بِهَا، فَبَلَّغْنَا أَنَّ ذَلِكَ دُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «دَعُوا لِي أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ - أَوْ مِثْلَ الْجِبَالِ - ذَهَبًا، مَا بَلَّغْتُمْ أَعْمَالَهُمْ»^(٦). وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْلَامَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الْمُوَاجِهَ بِهَذَا الْخُطَابِ كَانَ بَيْنَ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَفَتْحِ مَكَّةَ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُسَاجِرَةُ بَيْنَهُمَا فِي بَنِي جَدِيمَةَ الَّذِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بَعْدَ الْفَتْحِ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأَنَا، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَأَمَرَ خَالِدٌ بِقَتْلِهِمْ وَقَتَلَ مِنْ أَسِيرِ مِنْهُمْ، فَخَالَفَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُمَا، فَأَخْتَصَمَ خَالِدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بِسَبِّ ذَلِكَ. وَالَّذِي فِي الصَّحِيحِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَّغَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ يَعْنِي: الْمُتَّقِينَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ، كُلُّهُمْ لَهُمْ ثَوَابٌ عَلَى مَا عَمِلُوا، وَإِنْ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿«أَلْهَنَكُمْ الْكَافِرُ»﴾ [التكاثر: ١] يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَزَادَ: «وَمَا سِوَى ذَلِكَ، فَذَاهَبَ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ تَرْغِيبٌ فِي الْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِلْيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أَي: وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالرَّسُولِ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ، يَدْعُوكُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَيَبِينُ لَكُمْ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ، وَقَدْ رَوَيْنَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ فِي أَوَائِلِ شَرْحِ كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبَ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟». قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟». قَالُوا: فَلَأَنْبِيَاءُ. قَالَ: «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قَالُوا: فَنَحْنُ. قَالَ: «وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟ وَلَكِنْ أَعْجَبَ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا، قَوْمٌ يَجِئُونَ بَعْدَكُمْ، يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا»^(٣). وَقَدْ ذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ هَذِهِ الرَّوَايَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ يَمِينُكُمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ كَرَّمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمِمَّا عَرَفُوا وَإِنْ جِئْتُمْ بِكُمْ بِيَعَةٍ فَلْتَمَّ سَجْعَتَا وَأَطْمَنَا﴾ [المائدة: ٧] وَيَعْنِي: بِذَلِكَ بَيْعَةَ الرَّسُولِ ﷺ. وَزَعَمَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي صَلْبِ آدَمَ، وَهُوَ مَذْهَبٌ مُجَاهِدٌ فَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُعِزُّ عَلَى عِبْدِهِ ءَأَيَّتَ يَبْتَدِئُ﴾ أَي: حُجَجًا وَاصْحَابًا وَدَلَائِلَ بَاهِرَاتٍ وَبَرَاهِينَ قَاطِعَاتٍ ﴿يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَي: مِنَ الظُّلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْكَفْرِ وَالْآرَاءِ الْمُتَضَادَّةِ، إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أَي: فِي إِزَالَةِ الْكُتُبِ وَإِزَالَةِ الرُّسُلِ لِهَدَايَةِ النَّاسِ وَإِزَاحَةِ الْعِلَلِ وَإِزَالَةِ الشُّبُهَةِ. وَلَمَّا أَمَرَهُمْ أَوَّلًا بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ قَدْ أزالَ عَنْهُمْ مَوَانِعَهُ، حَثَّهُمْ أَيْضًا عَلَى الْإِنْفَاقِ فَقَالَ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أَي: أَنْفَقُوا وَلَا تَخْشَوْا فِتْرًا وَإِفْلَاقًا، فَإِنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِهِ هُوَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ،

(١) أحمد: ٢٤/٤ (٢) مسلم: ٢٢٧٣/٤ (٣) المجمع: ١٠/٦٥ (٤) الطبري: ١٧٢/٢٣ (٥) الطبري: ١٧٥/٢٣ (٦) أحمد: ٢٦٦/٣ (٧) مسلم: ٢٥/٤

كَانَ بَيْنَهُمْ تَفَاوُثٌ فِي تَفَاضُلِ الْجَزَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَوْدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَدُوُّ الْأَوَّلِي الضَّرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] وَهَكَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ»^(١). وَإِنَّمَا نَبَّهَ بِهَذَا، لِئَلَّا يُهْدَرَ جَانِبُ الْآخِرِ بِمَدْحِ الْأَوَّلِ دُونَ الْآخِرِ، فَيَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمُ دَمَهُ، فَلِهَذَا عَطَفَ بِمَدْحِ الْآخِرِ وَالشَّاءَ عَلَيْهِ، مَعَ تَفْضِيلِ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي: فَلِيخْبِرْتِهِ فَآوَتْ بَيْنَ ثَوَابٍ مِنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِيُعْلِمَهُ بِقُضْدِ الْأَوَّلِ وَإِخْلَاصِهِ التَّامِّ وَإِنْفَاقِهِ فِي حَالِ الْجَهْدِ وَالْقَلَّةِ وَالضَّيْقِ، وَفِي الْحَدِيثِ:

«سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ»^(٢). وَلَا شَكَّ عِنْدَ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنَّ الصَّادِقَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ الْحِطُّ الْأَوْفَرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ سَبَقَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ سَائِرِ أُمَّمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُ أَنْفَقَ مَالَهُ كُلَّهُ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ نِعْمَةٌ يَجْزِيهِ بِهَا.

[الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقِيلَ: هُوَ التَّفَقُّهُ عَلَى الْعِيَالِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَيْتِ خَالِصَةٍ، وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ دَخَلَ فِي عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَمْ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:

﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] أَي: جَزَاءً جَمِيلٌ وَرِزْقٌ بَاهِرٌ، وَهُوَ الْجَنَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنَّ اللَّهَ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ!».

قَالَ: أَرْنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: فَتَأَوَّلَهُ يَدَهُ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي - وَلَهُ حَائِطٌ فِيهِ سِتْمَانَةٌ نَحْلَةً، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا - قَالَ: فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَتَادَاهَا: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ! قَالَتْ: لَبَّيْكَ، قَالَ: أَخْرِجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ: رِبْحَ بَيْعِكَ يَا أَبَا

(١) مسلم: ٢٠٥٢/٤ (٢) السنائي: ٥٩/٥ (٣) جزء الحسن بن عرفة: ٩٢ صحيح لشواهد له شاهد من حديث أنس عند ابن حبان (٧١٥٩) (٤) الطبري: ١٧٩/٢٣ (٥) الطبري: ١٧٩/٢٣

[أَحْوَالِ الْمُتَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلذِّبِّ ءَامَنُوا أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْمُزْعِجَةِ وَالزَّلَازِلِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأُمُورِ الْفَطِيعَةِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْجُو يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمَا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَمَا النَّاسُ فِي ظُلْمَةٍ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ نُورًا، فَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ النُّورَ تَوَجَّهُوا نَحْوَهُ، وَكَانَ النُّورُ دَلِيلًا مِنَ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَلَمَّا رَأَى الْمُتَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَدِ انْطَلَقُوا اتَّبَعُوهُمْ، فَأَظْلَمَ اللَّهُ عَلَى الْمُتَافِقِينَ، فَقَالُوا حَيْتَيْدُ: ﴿أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فَإِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا. قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿أَرْجِعُوا وَرَدُّكُمْ﴾ مِنْ حَيْثُ جِئْتُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ فَاتَّبِعُوا هُنَالِكَ النُّورَ^(١).
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هُوَ حَاطِطٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ^(٢). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]^(٣) وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرِ وَاحِدٍ^(٤). وَهُوَ الصَّحِيحُ. ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ - أَي: الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا ﴿وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أَي النَّارُ. قَالَه قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا^(٥).

﴿يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أَي يُنَادِي الْمُتَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ: أَمَا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا نَشْهَدُ مَعَكُمْ الْجُمُعَاتِ وَنُصَلِّيَ مَعَكُمْ الْجَمَاعَاتِ، وَنَقِفُ مَعَكُمْ بَعْرَفَاتِ، وَنَحْضُرُ مَعَكُمْ الْغَزَوَاتِ، وَنُودِي مَعَكُمْ سَائِرَ الْوَأَجِبَاتِ؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أَي: فَأَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَافِقِينَ قَائِلِينَ: بَلَى قَدْ كُنْتُمْ مَعَنَا ﴿وَلَكِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بِالْحَقِّ وَأَهْلِهِ ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أَي: بِالْبُهْتِ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أَي قُلْتُمْ: سَيُفْقَرُ لَنَا. وَقِيلَ: غَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أَي: مَا زِلْتُمْ فِي هَذَا حَتَّى جَاءَكُمْ الْمَوْتُ ﴿وَغَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ﴾ أَي: الشَّيْطَانُ^(٦). قَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا عَلَى خُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ! مَا زَالُوا عَلَيْهَا حَتَّى قَذَفَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ^(٧). وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُتَافِقِينَ أَنْكُمْ كُنْتُمْ مَعَنَا، أَي: بِأَبْدَانِ لَا نَبِيَّةَ لَهَا، وَلَا قُلُوبَ مَعَهَا، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ فِي حَيْرَةٍ وَسَكَّ، فَكُنْتُمْ تُرَاوُونَ النَّاسَ، وَلَا تَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا،

سُورَةُ الْحَدِيدِ

٥٣٩

سُورَةُ الْحَدِيدِ

يَوْمَ نَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانِكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلذِّبِّ ءَامَنُوا أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٧﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ ﴿١٨﴾ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْفَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْمَصْدَقِينَ وَالْمَصْدَقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٢٢﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ الْمُتَافِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْيَاءً يُنَادِيهِمْ وَيَعِشُونَهُمْ وَيَعَاشِرُونَهُمْ، وَكَانُوا مَعَهُمْ أَمْوَاتًا، وَيَعْمَلُونَ النُّورَ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُطْفَأُ النُّورُ مِنَ الْمُتَافِقِينَ إِذَا بَلَغُوا السُّورَ، وَيُمَارَ بَيْنَهُمْ حَيْتَيْدُ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَوْفَكُمُ النَّارُ﴾ أَي: هِيَ مَصِيرُكُمْ وَإِلَيْهَا مُتَقَلِّبُكُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هِيَ مَوْلَانِكُمْ﴾ أَي: هِيَ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ عَلَى كُفْرِكُمْ وَارْتِبَابِكُمْ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾

(١) الطبري: ١٨٢/٢٣ (٢) الطبري: ١٨٢/٢٣ وابن أبي شيبه: ١٧٥/١٣ (٣) الطبري: ١٨٣/٢٣ (٤) الطبري: ١٨٢/٢٣ (٥) الطبري: ١٨٤/٢٣ (٦) الطبري: ١٨٥/٢٣ (٧) الطبري: ١٨٥/٢٣ (٨) الطبري: ١٨٤/٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكَثْرٌ فِي الْأَمْوَالِ
 وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهِجُ فَتَرَهُ
 مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
 مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ ﴿١٩﴾
 سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ
 اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٠﴾ مَا أَصَابَ
 مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
 مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢١﴾ لِكَيْلَا
 تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ
 لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
 النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٣﴾

[الْحَضُّ عَلَى الْخُشُوعِ وَالنَّهْيُ عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ أَهْلِ
 الْكِتَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَمَا أَنْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ
 اللَّهِ، أَيْ تَلِينُ عِنْدَ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَتَقَهَّمُهُ
 وَتَتَقَادُّ لَهُ وَتَسْمَعُ لَهُ وَتَطِيعُهُ. رَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ غَابَتْنَا اللَّهُ
 بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ
 اللَّهِ... الْآيَةِ. إِلَّا أَرْبَعَ سِنِينَ، كَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي آخِرِ
 الْكِتَابِ (١)، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ (٢).
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ
 عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَسَبَّهُوا
 بِالَّذِينَ حُمِلُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لَمَّا
 تَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ بَدَلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ، وَاشْتَرَوْا
 بِهِ نَمَنًا قَلِيلًا، وَبَدَّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْآرَاءِ
 الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَقْوَالِ الْمُتَوَكِّفَةِ، وَقَلَّدُوا الرَّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ،
 وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ
 قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، فَلَا يَقْبَلُونَ مَوْعِظَةً، وَلَا تَلِينُ قُلُوبُهُمْ بِوَعْدِ
 وَلَا وَعِيدِ ﴿وَكَبُرَتْ مِنْهُمْ فَسُفُوتٌ﴾ أَيْ: فِي الْأَعْمَالِ،
 فَقَلُوبُهُمْ فَاسِدَةٌ، وَأَعْمَالُهُمْ بَاطِلَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا
 نَقَضْتُمْ بَيْتَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَدَسِيَّةً يَجْرِفُونَ
 الْكَلِمَةَ عَنِ مَوَاضِعِهِ، وَسَوُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾
 [المائدة: ١٣] أَيْ: فَسَدَتْ قُلُوبُهُمْ فَقَسَتْ، وَصَارَ مِنْ
 سَجِيَّتِهِمْ تَحْرِيفُ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَرْكُوعُ الْأَعْمَالِ الَّتِي
 أُمِرُوا بِهَا، وَارْتِكَابُ مَا نَهَى عَنْهُ، وَلِهَذَا نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
 أَنْ يَتَسَبَّهُوا بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْفَرَعِيَّةِ.
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا
 لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُلِينُ
 الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسَوْتِهَا، وَيَهْدِي الْخَيَارَى بَعْدَ ضَلَّتِهَا، وَيَفْرُجُ
 الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ
 الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَيَّانِ الْوَابِلِ، كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ
 الْقَاسِيَةَ بِزَاهِمِي الْقُرْآنِ وَالذَّلَائِلِ، وَيُوجِّعُ إِلَيْهَا الثُّورَ بَعْدَ أَنْ
 كَانَتْ مُفَقَّلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ
 يَشَاءُ بَعْدَ الضَّلَالِ، وَالْمُضِلُّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ، الَّذِي
 هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَالٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ،
 اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٥﴾
 [أَجْرُ الْمُصَدِّقِ وَالصَّادِقِ وَالشَّهَادَةِ وَمَصِيرُ الْكُفَّارِ]
 يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يُنْبِئُ بِهِ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ
 بِأَمْوَالِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ وَالْمَسْكِنَةِ ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ
 قَرْضًا حَسَنًا﴾ أَيْ: دَفَعُوهُ بِنَيْتِ خَالِصَةِ ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللَّهِ،
 لَا يُرِيدُونَ جَزَاءً مِمَّنْ أَعْطَوْهُ وَلَا شُكُورًا، وَلِهَذَا قَالَ:
 ﴿يُضْعَفُ لَهُمْ﴾ أَيْ: يُقَابَلُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا،
 وَيَزَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَفَوْقَ ذَلِكَ ﴿وَلَهُمْ
 أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أَيْ: ثَوَابٌ جَزِيلٌ حَسَنٌ، وَمَوْجِعٌ صَالِحٌ
 وَمَأْتٍ كَرِيمٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ
 هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هَذَا تَمَامُ الْجُمْلَةِ، وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ
 وَرُسُلِهِ بِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ، قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي

(١) مسلم: ٤/٢٣١٩ (٢) النسائي في الكبرى: ٦/٤٨١

﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضْعَفُ لَهُمْ﴾

يَكُونُ حُطَمًا أَي: يَهْجُ ذَلِكَ الزَّرْعُ فَتَرَاهُ مُضْفَرًا بَعْدَ مَا كَانَ خَضْرَاءَ نَضْرًا، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ حُطَمًا أَي: يَصِيرُ نَيْسًا مُنْحَطَمًا، هَكَذَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا تَكُونُ أَوَّلًا شَابَةً، ثُمَّ تَكْتَهِلُ، ثُمَّ تَكُونُ عَجُوزًا سُوءَاءَ، وَالْإِنْسَانُ يَكُونُ كَذَلِكَ فِي أَوَّلِ عُمُرِهِ وَعُغْفُوانِ شَبَابِهِ غَضًا طَرِبًا لَيِّنَ الْأَعْطَافِ، بَهِي الْمُنْظَرِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْرَعُ فِي الْكُهُولَةِ فَتَتَغَيَّرُ طِبَاعُهُ، وَيَقْفُدُ بَعْضَ قُوَّاهُ، ثُمَّ يَكْبُرُ فَيَصِيرُ شَيْخًا كَبِيرًا ضَعِيفَ الْقُوَى، قَلِيلَ الْحَرَكَةِ يُعْجِزُهُ الشَّيْءُ الْيَسِيرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ دَالًّا عَلَى زَوَالِ الدُّنْيَا وَانْقِصَائِهَا وَقَرَأَهَا لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ الآخِرَةَ كَانَتْ لَا مَحَالَةَ، حَذَرَ مِنْ أَمْرِهَا وَرَعِبَ فِيهَا مِنْ الْخَيْرِ فَقَالَ: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أَي: وَلَيْسَ فِي الآخِرَةِ الآتِيَةِ الْقَرِيبَةِ إِلَّا إِمَامًا هَذَا، وَإِمَامًا هَذَا، إِمَامًا عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَإِمَامًا مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أَي: هِيَ مَتَاعٌ فَإِنَّ عَارًا لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتَعَجُّبُهُ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا دَارَ سِوَاهَا، وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا، وَهِيَ حَقِيرَةٌ قَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دَارِ الآخِرَةِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَلْحَيَاةِ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»^(١). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ فِي الرَّاقِي مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ^(٢). فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى اقْتِرَابِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِهَذَا حَتَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ، مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي تَكْتَفُرُ عَنْهُ الذُّنُوبُ وَالزَّلَّاتُ، وَتَحْصُلُ لَهُ الثَّوَابُ وَالذَّرَجَاتُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالْمُرَادُ جِنْسُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وَقَالَ هُنَا: ﴿أَعِدَّتْ لِلذَّيْبِ﴾ أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ أَي: هَذَا الَّذِي أَهْلَهُمُ اللَّهُ لَهُ هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنَّهُ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي

الصَّحِيحِ: أَنَّ قُرَّاءَ الْمُهَاجِرِينَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ، بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنِّعَمِ الْمُقِيمِ. قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟». قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَتَبْصَدُقُونَ وَلَا تَنْصَدُقُ، وَبِعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ. قَالَ: «أَفَلَا أَدَلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ: تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتُحَمِّدُونَ ذُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ». قَالَ: فَارْجِعُوا فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأُمُورِ مَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»^(٣).

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٤) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٥﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُوتُ بِنِجْمَاتِهِ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

[كُلُّ مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ فَهُوَ بِقَدْرِ]

يُخِيرُ تَعَالَى عَنْ قَدَرِهِ السَّابِقِ فِي خَلْقِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْرَأَ الْبَرِيَّةَ فَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أَي: فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ الْخَلِيفَةَ وَنَبْرَأَ النَّسَمَةَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: هِيَ السُّنُونُ يَعْنِي: الْجَدْبُ ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يَقُولُ: الْأَوْجَاعُ وَالْأَمْرَاضُ، قَالَ: وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُصِيبُهُ خَدَشٌ عَوْدٍ وَلَا نَكْبَةٌ قَدَمٍ، وَلَا خِلْجَانٌ عَرِيقٌ إِلَّا يَدْنِبُ، وَمَا يَعْمُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ^(٤).

وَهَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلِ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ نَفَاةِ الْعِلْمِ السَّابِقِ - قَبْلَهُمُ اللَّهُ - وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَدَّرَ اللَّهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(٥). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَرَادَ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ». وَرَوَاهُ الثَّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أَي: إِنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا وَكِتَابَتَهُ لَهَا طَبِيعٌ مَا يُوجَدُ

(١) أحمد: ٣٨٧/١ (٢) فتح الباري: ٣٢٨/١١ (٣) مسلم:

٤١٦/١ (٤) الطبري: ١٩٦/٢٣ (٥) أحمد: ١٦٩/٢ (٦)

مسلم: ٢٠٤٤/٤ وتحفة الأحوذى: ٣٧٠/٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤١

سُورَةُ الْحَدِيدِ

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نَبِيِّهِ رَسُولَهُ وَالْعَلِيْبَ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِدِهِمْ بِرُسُلِنَا وَفَقَيْتْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَتَلَايَعَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿[الرحمن: ٧]﴾ وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أَي: بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا أُخْبِرُوا بِهِ، وَطَاعَتُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا بِهِ، فَإِنَّ الَّذِي جَاءُوا بِهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ كَمَا قَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَي: صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَلِهَذَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا تَبَوَّأُوا عُرْفَ الْجَنَابِ، وَالْمَنَازِلَ الْعَالِيَاتِ، وَالسَّرِيرَ الْمَضْمُوقَاتِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فَوَائِدُ الْحَدِيدِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أَي: وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ رَادِعًا لِمَنْ أَبِي الْحَقِّ وَعَانَدَهُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ النَّبُوَّةِ

فِي حَبِينِهَا: سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ.

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكِلَا تَأْسَا عَلَٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أَي: أَعْلَمْنَاكُمْ بِتَقَدُّمِ عِلْمِنَا وَسَبْقِ كِتَابَتِنَا لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَتَقْدِيرِنَا الْكَائِنَاتِ قَبْلَ وُجُودِهَا، لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْكُمْ، وَمَا أَخْطَأَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْكُمْ، فَلَا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ، لِأَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ لَكَانَ ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أَي: جَاءَكُمْ، وَتَفْسِيرُ ﴿آتَاكُمْ﴾ أَي: أَعْطَاكُمْ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَاوِمٌ، أَي: لَا تَفْرَحُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَعْيِكُمْ وَلَا كَدِّكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَرِزْقِهِ لَكُمْ فَلَا تَتَّخِذُوا نِعْمَ اللَّهِ أَشْرًا وَبَطْرًا، تَفْخَرُونَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أَي: مُخْتَالٌ فِي نَفْسِهِ، مُتَكَبِّرٌ فَخُورٌ أَي: عَلَىٰ غَيْرِهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا هُوَ يَفْرَحُ وَيَحْزَنُ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا الْفَرَحَ شُكْرًا، وَالْحُزْنَ صَبْرًا^(١).

[ذَمُّ الْبُخْلِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أَي: يَقْعُلُونَ الْمُتَكَبِّرَ وَيَحْضُونَ النَّاسَ عَلَيْهِ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أَي: عَنِ أَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ جَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نَبِيِّهِ رَسُولَهُ وَالْعَلِيْبَ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢٥﴾

[أَرْسِلَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْمُعْجَزَاتِ وَالْعَدْلِ وَالْحَقِّ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي: بِالْمُعْجَزَاتِ، وَالْحُجَجِ الْبَاهِرَاتِ، وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وَهُوَ النُّقْلُ الصِّدْقُ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وَهُوَ الْعَدْلُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا^(٢). وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُخَالِفَةُ لِلْأَرَاءِ السَّقِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلِيًّا فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ

(١) الطبري: ١٩٨/٢٣ (٢) الطبري: ٢٠٠/٢٣

أَبَعُوهُ ﴿١٦﴾ وَهُمْ الْحَوَارِيُّونَ ﴿رَافِعَةَ﴾ أَي رِفْعَةَ وَهِيَ الْخَشْيَةُ ﴿وَرَحْمَةَ﴾ بِالْحَلْقِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أَي: ابْتَدَعَهَا أُمَّةُ النَّصَارَى ﴿مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا﴾ أَي: مَا شَرَعْنَا لَهُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ التَّرْمُوهَا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ رِضْوَانَ اللَّهِ. قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَفَتَادَةُ^(١). (وَالْآخَرُ) - مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابَتِهَا﴾ أَي: فَمَا قَامُوا بِمَا التَّرْمُوا حَقَّ الْقِيَامِ، وَهَذَا ذَمٌّ لَهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ (أَحَدُهُمَا) - الْإِبْتِدَاعُ فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ اللَّهُ. وَ (الثَّانِي) - فِي عَدَمِ قِيَامِهِمْ بِمَا التَّرْمُوهُ مِمَّا زَعَمُوا أَنَّهُ قُرْبَةٌ يَقْرَبُهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ مُلُوكٌ بَعْدَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَلَتِ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَكَانَ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَقِيلَ لِمُلُوكِهِمْ: مَا نَجِدُ شَيْئًا أَشَدَّ مِنْ شَيْءٍ يُشْتَمُونَاهُ هَؤُلَاءِ إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْهُمَا أُنزِلَ اللَّهُ فَالْوَلِيَّكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ مَعَ مَا يَعْيُونَنَا بِهِ مِنْ أَعْمَالِنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَءُوا كَمَا نَقَرُّ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا، فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ أَوْ يَتْرَكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تَرِيدُونَ إِلَيْنَا؟ دَعُونَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أُسْطُوَانَةً، ثُمَّ ارْزُقُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا فَلَا نَرُدُّ عَلَيْكُمْ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: دَعُونَا نَسِيحٌ فِي الْأَرْضِ، وَنَهَيْمُ وَنَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفِيَّافِي، وَنَحْتَقِرُ الْآبَارَ وَنَحْرُثُ الْبُقُولَ، فَلَا نَرُدُّ عَلَيْكُمْ، وَلَا نَمْرُ بِكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَّا لَهُ حَوِيْمٌ فِيهِمْ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابَتِهَا﴾^(١٧).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةٌ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي

ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً تُوحَى إِلَيْهِ السُّورُ الْمَكِّيَّةُ، وَكُلُّهَا جِدَالٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَيَبَانٌ وَإِبْصَاحٌ لِلتَّوْحِيدِ، وَيَبِيْنَاتٌ وَدَلَالَاتٌ، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ خَالَفَ، شَرَعَ اللَّهُ الْهَيْجَرَةَ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِتَالِ بِالسُّيُوفِ وَضَرْبِ الرِّقَابِ وَالْهَامِ لِمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ وَكَذَّبَ بِهِ وَعَانَدَهُ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالسُّيُوفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْفِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١٨).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يَعْنِي: السَّلَاحَ، كَالسُّيُوفِ وَالْحِرَابِ وَالسَّيْفِ وَالنَّصَالِ وَالذُّرُوعِ وَنَحْوِهَا ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أَي: فِي مَعَايِشِهِمْ كَالسَّكَّةِ وَالْفَاسِ وَالْقُدُومِ وَالْمِنْشَارِ وَالْإِزْمِيلِ وَالْمِجْرَفَةِ وَالْأَلَاتِ الَّتِي يُسْتَعَانَ بِهَا فِي الْحِرَابَةِ وَالْحَيَاكَةِ وَالطَّبْخِ وَالْحُجْرِ، وَمَا لَا قِيَامَ لِلنَّاسِ بِدِينِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَبْذُرُ وَرِسْلَهُ بِالْعَيْبِ﴾ أَي: مَنْ يَبْنِيهِ فِي حَمْلِ السَّلَاحِ نَصْرَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أَي هُوَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ يُنْصَرُ مِنْ نَصْرِهِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَاغٍ مِنْهُ إِلَى النَّاسِ، وَإِنَّمَا شَرَعَ الْجِهَادَ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾^(١٩) ثُمَّ فَتَيْنَا عَلِيَّ عَائِدَهُمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافِعَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابَتِهَا فَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾^(٢٠)

[فَسِقُوا الْكَثِيرُ مِنْ أُمَّمِ الْأَنْبِيَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْذُ بَعَثَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُرْسَلْ بَعْدَهُ رَسُولٌ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، لَمْ يَتَزَلْ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا وَلَا أُرْسِلَ رَسُولًا وَلَا أُوحَى إِلَى بَشَرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ حَتَّى كَانَ آخِرُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الَّذِي بَشَّرَ مِنْ بَعْدِهِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ فَتَيْنَا عَلِيَّ عَائِدَهُمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

(١) أحمد: ٥٠/٢ وأبو داود: ٣١٤/٤ (٢) الطبري: ٢٣/

٢٠٣ (٣) الطبري: ٢٠٣/٢٣ والنسائي: ٢٣١/٨

وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عَمَلًا فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيْرَاطٍ قِيْرَاطٍ؟ أَلَا فَعَمِلْتَ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيْرَاطٍ قِيْرَاطٍ؟ أَلَا فَعَمِلْتَ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيْرَاطَيْنِ قِيْرَاطَيْنِ؟ أَلَا فَانْتُمْ الَّذِينَ عَمِلْتُمْ، فَغَضِبَ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقْلَبُ عَطَاءً، قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُمْكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَإِنَّمَا هُوَ فَضْلِي أَوْتِيَهُ مِنْ أَسَاءٍ^(٦). وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ^(٧).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا، وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلًا، فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَفْعَلُوا، أَكْمَلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبُوا وَتَرَكَوْا، وَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ بَعْدَهُمْ فَقَالَ: أَكْمَلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمْ الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ جِنِّ صَلَاةِ الْعَصْرِ قَالُوا: مَا عَمِلْنَا بَاطِلًا، وَلَكِ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ: أَكْمَلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، فَإِنَّمَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَأَبُوا. فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ فَعَمِلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، فَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَةَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قِيلُوا مِنْ هَذَا الثُّورِ». انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ^(٨). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: لِيَتَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى رَدِّ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَا إِعْطَاءً مَا مَنَعَ اللَّهُ ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْحَدِيدِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

سَبِيلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى وَلَقَطَهُ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: أَوْصِنِي. فَقَالَ: سَأَلْتُ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رُوحُكَ فِي السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ»^(٢). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ^(٤).

[يُوتَى مُؤْمِنٌ أَهْلَ الْكِتَابِ الْأَجْرَ مَرَّتَيْنِ]

فَدَقَّقَمَ فِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ حَمَلَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، كَمَا فِي الْآيَةِ الَّتِي فِي الْفَصِّصِ، وَكَمَا فِي حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ عَنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِبِي فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلِيهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ آدَبَ أُمَّتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٥). وَوَأَقَّ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ الضَّحَّاكُ وَعُتْبَةُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ وَغَيْرُهُمَا، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ^(٦).

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: سَأَلَ عُمَرُ ابْنَ الْخَطَّابِ حَبْرًا مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ: [كَمْ] أَفْضَلُ مَا ضَعَفَ لَكُمْ حَسَنَةً؟ قَالَ: كِفْلٌ - ثَلَاثُمِائَةٍ وَ[خَمْسُونَ] حَسَنَةً - قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهُ عُمَرَ عَلَى أَنَّهُ أَعْطَانَا كِفْلَيْنِ، ثُمَّ ذَكَرَ سَعِيدٌ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ قَالَ سَعِيدٌ: وَالْكِفْلَانِ فِي الْجُمُعَةِ مِثْلُ ذَلِكَ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٧). وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِثْلُكُمْ وَمِثْلُ الْيَهُودِ

(١) أحمد: ٢٦٦/٣ إسناده ضعيف فيه زيد العمي وهو ضعيف

[تقريب] (٢) أحمد: ٨٢/٣ فيه حجاج بن مروان الكلاعي (٣) فتح الباري: ٢٢٩/١ ومسلم: ١٣٤/١ (٤) الطبري: ٢٠٨/٢٣ و

٢١٠ (٥) الطبري: ٢١٠/٢٣ (٦) أحمد: ١١١/٦ و (٧) فتح الباري: ٥٢١/٤ و ٥٧١/٦ (٨) فتح الباري: ٥٢٣/٤

تفسير سورة المجادلة مدنيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١)

[سَبَبُ النُّزُولِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ النَّبِيِّ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (١). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ تَعْلِيقًا (٢). وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ (٣). وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: تَبَارَكَ الَّذِي أَوْعَى سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ حَوَلةِ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ وَهِيَ تُشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَكَلْ مَالِي، وَأَفْنَى شَبَابِي، وَنَزَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبُرَتْ سِنِّي وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ! إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ. قَالَتْ: فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. قَالَتْ: وَزَوْجَهَا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ (٤).

﴿الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٢) وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ لَكُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَطَاعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)

[الظَّهَارُ وَكَفَّارَتُهُ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ حُوَيْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ قَالَتْ: فِي - وَاللَّهِ - وَفِي أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ أَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ، قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ، فَغَضِبَ فَقَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَنْ نَفْسِي، قَالَتْ: قُلْتُ: كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسُ حُوَيْلَةَ بِيَدِهِ! لَا

سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ

٥٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ لَكُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَطَاعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يَحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْثَرُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)

تَخْلُصَ إِلَيَّ، وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ. قَالَتْ: فَوَاتِنِي فَاثْنَعْتُ مِنْهُ، فَغَلَبَتْهُ بِمَا تَغْلَبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ فَالْقَيْتُهُ عَنِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا نِيَابًا، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ وَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ مَا لَقِيَ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا حُوَيْلَةُ! ابْنُ عَمِّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَاتَّقِي اللَّهَ فِيهِ». قَالَتْ: فَوَ اللَّهُ! مَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ، فَتَعَشَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ يَتَعَشَاهُ ثُمَّ سَرَى عَنْهُ فَقَالَ لِي: «يَا حُوَيْلَةُ! قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبِكَ». ثُمَّ قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَتْ:

(١) أحمد: ٤٦/٦ (٢) فتح الباري: ٣٨٤/١٣ (٣) النسائي:

١٦٨/٦ وابن ماجه: ٦٧/١ والطبري: ٢٢٥/٢٣ (٤) الطبري:

فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا عِنْدَهُ مَا يُعْتِقُ. قَالَ: «فَلْيُصِّمُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ! إِنَّهُ لَسَبَّحَ كَبِيرًا، مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ. قَالَ: «فَلْيُطْعِمِ سِتِينَ مَسْكِينًا وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا ذَاكَ عِنْدَهُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَأَنَا سَاعِيئُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ. قَالَ: «قَدْ أَصَبْتُ وَأَحْسَنْتُ فَادْهَبِي فَتَصَدَّقِي بِهِ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمَلِكٍ خَيْرًا». قَالَتْ: فَفَعَلْتُ^(١).

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الطَّلَاقِ مِنْ سُنَنِهِ^(٢). وَعِنْدَهُ حَوْلُهُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ، وَيُقَالُ لَهَا: حَوْلَةُ بِنْتُ مَالِكِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، وَقَدْ تَصَعَّرَ فَيُقَالُ: حَوْلَيْتُهُ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، فَالْأَمْرُ فِيهَا قَرِيبٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي سَبَبِ تَزْوُلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «الَّذِينَ يَطْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ» أَصْلُ الطَّهَارِ مُسْتَقٌّ مِنَ الظَّهْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا إِذَا ظَاهَرَ أَحَدُهُمْ مِنْ أَمْرَاتِهِ قَالَ لَهَا: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي. وَكَانَ الظَّهَارُ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا، فَارْحَصَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَجَعَلَ فِيهِ كَفَّارَةً، وَلَمْ يَجْعَلْهُ طَلَاقًا، كَمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُنَّ» أَي: لَا تَصِيرُ الْمَرْأَةُ بِقَوْلِ الرَّجُلِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي أَوْ مِثْلِ أُمِّي، أَوْ كَظْهَرِ أُمِّي وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَا تَصِيرُ أُمَّهُ بِذَلِكَ، إِنَّمَا أُمُّهُ اللَّائِي وَلَدْتَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا» أَي: كَلَامًا فَاجِشًا بَاطِلًا «وَأَنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ» أَي: عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَهَكَذَا أَيْضًا عَمَّا خَرَجَ مِنْ سَبْقِ اللِّسَانِ، وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُ، وَلَوْ قَصَدَهُ لَحَرُمَتْ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عَلَى الصَّحِيحِ بَيْنَ الْأُمِّ وَبَيْنَ غَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الْمَحَارِمِ مِنْ أُخْبٍ وَعَمَّةٍ وَخَالَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ يَطْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» قَالَ الشَّافِعِيُّ: هُوَ أَنْ يُمَسِّكَهَا بَعْدَ الْمُظَاهَرَةِ زَمَانًا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُطَلَّقَ فِيهِ فَلَا يُطَلَّقُ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْجِمَاعِ أَوْ يَعْزِمَ عَلَيْهِ: فَلَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى يَكْفُرَ بِهِذِهِ الْكُفَّارَةَ، وَقَدْ حَكِيَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ الْعَزْمُ عَلَى الْجِمَاعِ وَالْإِنْسَاكِ. وَعَنْهُ أَنَّهُ الْجِمَاعُ. عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: «ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» يَعْنِي: يُرِيدُونَ أَنْ يَعُودُوا فِي الْجِمَاعِ الَّذِي

حَرَمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْنِي الْعُشْبَانَ فِي الْفَرْجِ، وَكَانَ لَا يَرَى بِأَسْمَاءَ أَنْ يَعْشَى فِيهَا دُونَ الْفَرْجِ قَبْلَ أَنْ يَكْفُرَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَسَّأَ» وَالْمَسُّ النَّكَّاحُ^(٣). وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَالزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: لَيْسَ لَهُ أَنْ يُقْبَلَهَا وَلَا يَمَسَّهَا حَتَّى يَكْفُرَ. وَقَدْ رَوَى أَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي ظَاهَرْتُ مِنْ أَمْرَاتِي فَوَقَعْتُ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ أَكْفُرَ. فَقَالَ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ؟» قَالَ: رَأَيْتُ خَلْخَالَهَا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ. قَالَ: «فَلَا تُقْرَبُهَا حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» أَي: فَاِعْتَاقُ رَقَبَةٍ كَامِلَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَسَّأَ، فَهِيَ الرَّقَبَةُ مُطْلَقَةٌ غَيْرُ مَقْبَدَةٍ بِالْإِيمَانِ، وَفِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ مَقْبَدَةٌ بِالْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ذَلِكَ لَكُمْ تَوْعُظٌ بِهِ» أَي: تُزَجَّرُونَ بِهِ «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» أَي: خَبِيرٌ بِمَا يُصِلُحُكُمْ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَسَّأَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامِ سِتِينَ مَسْكِينًا» قَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ الْأَمْرَةَ بِهَذَا عَلَى التَّرْتِيبِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ فِي قِصَّةِ الَّذِي جَامَعَ أَمْرَاتَهُ فِي رَمَضَانَ^(٥) «ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» أَي: سَرَعْنَا هَذَا لِهَذَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» أَي: مَحَارِمُهُ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاللَّكْفِيرَاتُ عَذَابُ أَلِيمٌ» أَي: الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَا التَّزَمُوا بِأَحْكَامِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْبَلَاءِ، كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، بَلْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

«إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا يَبِّنَاتٍ وَاللَّكْفِيرَاتُ عَذَابُ مُهِينٌ» يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنِيبُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسَوَّاهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ^(٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا

(١) أحمد: ٤١٠/٦ (٢) أبو داود: ٦٦٢/٢ و٦٦٤ (٣) الطبري: ٢٣١/٢٣ (٤) أبو داود: ٦٦٦/٢ وتحفة الأحوذى: ٣٨٠/٤ والنسائي: ١٦٧/٦ وابن ماجه: ٦٦٦/١ (٥) فتح الباري: ١٩٣/٤ ومسلم: ٧٨١/٢

يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ
سَادِسُهُمْ وَلَا آدَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ
يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾
[بَيَانُ عَاقِبَةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَعَانَدُوا شَرْعَهُ
﴿كُنُوتًا كَمَا كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: أَهْيَبُوا وَأُغْنُوا وَأُخْزُوا
كَمَا فَعَلَ بِمَنْ أَشْبَهُهُمْ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾
أَي: وَأَضْحَاتٍ، لَا يُعَانِدُهَا وَلَا يُخَالِفُهَا إِلَّا كَافِرٌ فَاجِرٌ
مُكَابِرٌ ﴿وَاللَّكْفَرِينَ عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾ أَي: فِي مَقَابِلَةِ مَا
اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ شَرْعِ اللَّهِ، وَالْإِنْفِيَادِ لَهُ وَالْخُضُوعِ
لِدِينِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ
﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَي: فَيُخْبِرُهُم بِالَّذِي صَنَعُوا مِنْ خَيْرٍ
وَشَرٍّ ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ﴾ أَي: ضَبَطَهُ اللَّهُ وَحَفِظَهُ عَلَيْهِمْ،
وَهُمْ قَدْ نَسُوا مَا كَانُوا عَمِلُوا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾
أَي: لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَخْفَى وَلَا يَنْسَى شَيْئًا.

[عِلْمُ اللَّهِ مُحِيطٌ بِالْخَلْقِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَإِطْلَاعِهِ
عَلَيْهِمْ وَسَمَاعِهِ كَلَامَهُمْ، وَرُؤْيِيهِ مَكَانَهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ
كَانُوا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ أَي: مِنْ سِرِّ ثَلَاثَةٍ ﴿إِلَّا
هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا
أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ أَي: مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، يَسْمَعُ
كَلَامَهُمْ وَسِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَرُسُلُهُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ تَكْتُبُ مَا
يَتَنَاجَوْنَ بِهِ، مَعَ عِلْمِ اللَّهِ بِهِ وَسَمْعِهِ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ
الْعُيُوبَ﴾ [التوبة: ٧٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وَلِهَذَا
حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعِيَّةُ
عِلْمِهِ تَعَالَى، وَلَا شَكَّ فِي إِزَادَةِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ سَمِعَهُ أَيْضًا
مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَبَصْرَهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ،

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: افْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ وَاخْتَتَمَهَا
بِالْعِلْمِ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ
مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ
وَلَا آدَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
نَهَوْا عَنِ التَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْإِنَّمِ
وَالْعُدُونَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكَ
بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبِهِمْ
جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيدُ ﴿٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا
تَنَجَّجْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّجُوا بِالْإِنَّمِ وَالْعُدُونَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا
بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَأَنْتُمْ اللَّهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا التَّجْوَى
مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسْخَرُوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ
اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ اشْرَوْا فَاشْرَوْا بِرَفْعِ اللَّهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ التَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ
بِالْإِنَّمِ وَالْعُدُونَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكَ
بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبِهِمْ جَهَنَّمُ
يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيدُ ﴿٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّجْتُمْ فَلَا
تَتَنَجَّجُوا بِالْإِنَّمِ وَالْعُدُونَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَأَنْتُمْ
اللَّهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا التَّجْوَى مِّنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

[بَيَانُ شَرَارَةِ الْيَهُودِ]

قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ
التَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ﴾ قَالَ: الْيَهُودُ (١). وَكَذَا قَالَ
مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَزَادَ: كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الْيَهُودِ
مُؤَادَعَةٌ، وَكَانُوا إِذَا مَرَّ بِهِمُ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ
جَلَسُوا يَتَنَاجَوْنَ بَيْنَهُمْ، حَتَّى يَظُنُّ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُمْ يَتَنَاجَوْنَ

عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: سَامَ عَلَيْكَ، ثُمَّ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ؟ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبِهِمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُهَا نَسْفًا مَصِيرًا﴾^(١). إسناده حسنٌ ولم يُخرجه.

[آداب النجوى]

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُؤَدِّبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَكُونُوا مِثْلَ الْكُفْرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمْ فَلَا تَنْجُوا بِالْإِنِّمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: كَمَا يَتَنَاجَى بِهِ الْجَهْلَةُ مِنْ كُفْرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمَنْ مَالَأَهُمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: فَيُخَبِّرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ الَّتِي قَدْ أَحْصَاهَا عَلَيْكُمْ، وَسَيَجْزِيكُمْ بِهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إِنَّمَا النَّجْوَى - وَهِيَ الْمَسَارَةُ حَيْثُ يَتَوَهَّمُ مُؤْمِنٌ بِهَا سُوءًا - ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يَعْنِي: إِنَّمَا يَصُدُّرُ هَذَا مِنَ الْمُتَنَاجِيْنَ عَنِ تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ ﴿لِيَحْزُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: لِيَسُوءَهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمَنْ أَحْسَسَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّنَاجِيِ حَيْثُ يَكُونُ فِي ذَلِكَ تَأْذٌ عَلَى مُؤْمِنٍ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»^(٧). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ^(٨). وَرَوَى عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّلَاثِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»^(٩). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(١٠).

(١) الدر المنثور: ٨/٨٠ (٢) الطبري: ٢٣/٢٣٦ و ٢٣٧ (٣) فتح الباري: ١٠/٤٦٦ (٤) الطبري: ٢٣/٢٤٠ (٥) فتح الباري: ١٠/٤٦٣ (٦) أحمد: ١٧٠/٢ (٧) أحمد: ١/٤٢٥ (٨) فتح الباري: ١١/٥٨ و مسلم: ٤/١٧١٨ (٩) عبد الرزاق: ١١/٢٦ (١٠) مسلم: ٤/١٧١٧

يَقْتَلِيهِ، أَوْ يَمَّا يَكْرَهُ الْمُؤْمِنُ، فَإِذَا رَأَى الْمُؤْمِنَ ذَلِكَ حَسْبِهِمْ فَفَرَّكَ طَرِيقَهُ عَلَيْهِمْ، فَهَاتَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النَّجْوَى فَلَمْ يَنْتَهُوا، وَعَادُوا إِلَى النَّجْوَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ هُمْ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُمْ عَنْهُ﴾^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَنْجُونَ بِالْإِنِّمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿بِالْإِنِّمِ﴾ وَهُوَ مَا يَخْتَصُّ بِهِمْ ﴿وَالْعُدُونِ﴾ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِمْ، وَمِنْهُ مَعْصِيَةُ الرَّسُولِ وَمُخَالَفَتُهُ بِصُرُوفٍ عَلَيْهَا وَيَتَوَاصُونَ بِهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَهُودٌ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ». قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ: السَّامُ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مَا سَمِعْتَ أَقُولَ: وَعَلَيْكُمْ؟». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾^(٢). وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُمْ: عَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيْنَا»^(٣).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ أَتَى عَلَيْهِمْ يَهُودِيٌّ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ؟» قَالُوا: سَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «بَلْ قَالَ: سَامَ عَلَيْكُمْ». أي: تُسَامُونَ دِينَكُمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُدُّوهُ». فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقُولُوا: عَلَيْكَ». أي: عَلَيْكَ مَا قُلْتُ^(٤). وَأَصْلُ حَدِيثِ أَنَسٍ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ بِنَحْوِهِ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يَقُولُونَ هَذَا، وَيَقُولُونَ مَا يُحَرِّفُونَ مِنَ الْكَلَامِ وَإِيهَامِ السَّلَامِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَتْمٌ فِي الْبَاطِنِ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا لَعَذَّبَنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ لَهُ فِي الْبَاطِنِ، لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا نُسِرُهُ، فَلَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا حَقًّا لَأَوْشَكَ أَنْ يُعَاجِلَنَا اللَّهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: جَهَنَّمُ كِفَايَتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُهَا نَسْفًا مَصِيرًا﴾ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ

نَبِيكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ [أَقْوَامًا] وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»^(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ﴾^(٣) أَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

[الْأَمْرُ بِالصَّدَقَةِ قَبْلَ أَنْ يَنَاجِيَ الرَّسُولَ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَنَاجِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ: يُسَارُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، أَنْ يَقْدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُ وَتُرْكِيهِ وَتُوَهِّلُهُ لِأَنْ يَصْلَحَ لِهَذَا الْمَقَامِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ أَيُّ: إِلَّا مَنْ عَجَزَ عَنِ ذَلِكَ لِفَقْرِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ﴾ فَمَا أَمَرَ بِهَا إِلَّا مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أَيُّ: أَحْفَظْتُمْ مِنْ اسْتِمْرَارِ هَذَا الْحُكْمِ عَلَيْكُمْ مِنْ وُجُوبِ الصَّدَقَةِ قَبْلَ مُنَاجَاةِ الرَّسُولِ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فَتَسَخَّرَ وَجُوبُ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِهِذِهِ الْآيَةِ قَبْلَ نَسْخِهَا سِوَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرُوا الْمَسَائِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى شَفَعُوا عَلَيْهِ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ: [صَبْرًا] كَثِيرًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَكَفُّوا عَنِ الْمَسْأَلَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ هَذَا: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فَوَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُضَيِّقْ^(٤).

وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ إِلَى آخِرِهَا^(٥). وَقَالَ سَعِيدُ ابْنِ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبَّانٍ: سَأَلَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَحْفَظَهُ بِالْمَسْأَلَةِ فَفَضَّمَهُمُ اللَّهُ بِهِذِهِ الْآيَةِ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا كَانَتْ لَهُ الْحَاجَةُ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْضِيَهَا حَتَّى يَقْدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ صَدَقَةً، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الرُّخْصَةَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿فَإِن لَّمْ

تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ﴾^(٥).

وَقَالَ مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ: ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ إِنَّهَا مُنْسُوخَةٌ، مَا كَانَتْ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ^(٦). وَهَكَذَا رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ عَلِيُّ: مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ غَيْرِي حَتَّى نُسِخَتْ، وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَمَا كَانَتْ إِلَّا سَاعَةً^(٧).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَخَذُوا إِيمَانَهُمْ حُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ فَالَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٨﴾ لَنْ نَعْفِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٢٠﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢١﴾

[دَمُّ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي مُوَالَاتِهِمُ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ، وَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا مَعَهُمْ وَلَا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي: الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا الْمُنَافِقُونَ بِمَالِئُونَهُمْ وَيُوَالُونَهُمْ فِي الْبَاطِنِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أَيُّ: هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَيْسُوا فِي الْحَقِيقَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! وَلَا مِنَ الَّذِينَ يُوَالُونَهُمْ وَهُمْ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ، وَهُمْ عَالِمُونَ بِأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا، وَهِيَ الْيَمِينُ الْعَمُوسُ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ حَالِهِمُ اللَّعِينِ عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا جَاؤُوا الرَّسُولَ حَلَفُوا لَهُ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا بِهِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ صِدْقَ مَا قَالُوهُ، وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُطَابِقًا، وَلِهَذَا شَهِدَ اللَّهُ بِكُذِبِهِمْ فِي آيَمَانِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ لِذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا

(١) أحمد: ٣٥/١ (٢) مسلم: ٥٥٩/١ (٣) الطبري: ٢٣/٢٤٩ (٤) الطبري: ٢٣/٢٥٠ (٥) الطبري: ٢٣/٢٤٨ مرسل (٦) الطبري: ٢٣/٢٤٩ (٧) عبد الرزاق: ٣/٢٨٠

كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿١٩﴾ أَي: أَرَضَدَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَهِيَ مُوَالَاةُ الْكَافِرِينَ وَنُصْحُهُمْ وَمُعَادَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَغَشُّهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَاتَّقُوا بِالْإِيمَانِ الْكَادِبَةَ، فَظَنَّ كَثِيرٌ مِّمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ صِدْقَهُمْ فَأَغْتَرَّ بِهِمْ، فَحَصَلَ بِهَذَا صَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لِيُغْضِبَ النَّاسَ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أَي: فِي مُقَابَلَةِ مَا امْتَنُّهُوا مِنَ الْحَلْفِ بِاسْمِ اللَّهِ الْعَظِيمِ فِي الْإِيمَانِ الْكَادِبَةِ الْحَايِثَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنفَعَكَ عَنْتَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أَي: لَنْ يَدْفَعَنَّ ذَلِكَ عَنْهُمْ بَأْسًا إِذَا جَاءَهُمْ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أَي: يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَن آخِرِهِمْ فَلَا يَعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أَي: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى وَالِاسْتِقَامَةِ كَمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ مَنْ عَاشَرَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ وَوَعِثَ عَلَيْهِ، وَيَتَّقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا كَانَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ، فَيَجْرُونَ عَلَيْهِمُ الْأَحْكَامَ الظَّاهِرَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أَي: حَلْفُهُمْ بِذَلِكَ لِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ حُسْبَانَتَهُمْ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فَأَكَّدَ الْخَبَرَ عَنْهُمْ بِالْكَذِبِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أَي: اسْتَحْوَذَ عَلَى قُلُوبِهِمُ الشَّيْطَانُ حَتَّىٰ أَنَسَاهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَلِكَ يَصْنَعُ بِمَنْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَن أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْبَةٍ وَلَا بَدْوٍ، لَا تَقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ الْقَاصِيَةَ» قَالَ زَائِدَةُ: قَالَ السَّائِبُ: يَعْنِي الصَّلَاةَ فِي الْجَمَاعَةِ (١). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنَسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلِيكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ٥٤٥
 سُورَةُ الْحَشْرِ
 لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّ لَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْ لَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

[ذِلَّةُ الْمُخَالِفِينَ لِلَّهِ وَعَلَبَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُعَادِيَةِ الْمُحَادِّثِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، يَعْنِي: الَّذِينَ هُمْ فِي حَدِّ وَالشَّرْعِ فِي حَدِّ، أَي: مُجَابِلُونَ لِلْحَقِّ، مُشَاقِقُونَ لَهُ، هُمْ فِي نَاحِيَةٍ، وَالْهُدَى فِي نَاحِيَةٍ ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أَي: فِي الْأَشْقِيَاءِ الْمُعْبَدِينَ الْمَطْرُودِينَ عَنِ الصَّوَابِ، الْأَذَلِّينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلِيكَ أَنَا وَرَسُولِي﴾ أَي: قَدْ حَكَمَ وَكَتَبَ فِي كِتَابِهِ الْأَوَّلِ وَقَدَرَهُ الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يُبَدَّلُ، بِأَنَّ النُّصْرَةَ لَهُ وَلِكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا

أَرَى مَا رَأَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ تُمْكِنُنِي مِنْ فَلَانٍ - قَرِيبٍ لِعُمَرَ - فَأَقْتُلُهُ، وَتُمْكِنُ عَلَيَّا مِنْ عَقِيلٍ، وَتُمْكِنُ فَلَانًا مِنْ فَلَانٍ، لِيَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَتْ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ...
الْقَصَّةُ بِكَمَالِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أَي: مَنْ انْتَصَفَ بَأْتَهُ لَا يُؤَادُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَحَاهُ، فَهَذَا مِمَّنْ كَتَبَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الْإِيمَانَ، أَي: كَتَبَ لَهُ السَّعَادَةَ وَقَرَّرَهَا فِي قَلْبِهِ وَزَيَّنَ الْإِيمَانَ فِي بَصِيرَتِهِ. قَالَ السُّدِّيُّ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ جَعَلَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أَي: قَوَّاهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كُلُّ هَذَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سِرٌّ بَدِيعٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا سَخَطُوا عَلَى الْقَرَائِبِ وَالْعَشَائِرِ فِي اللَّهِ تَعَالَى، عَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِالرِّضَا عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالْفَضْلِ الْعَمِيمِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَي: هُوَ لِأَنَّ حِزْبَ اللَّهِ، أَي: عِبَادَ اللَّهِ وَأَهْلَ كَرَامَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تَنْوِيهُ بِفَلَاحِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِي مُقَابَلَةِ مَا ذَكَرَ عَنْ أَوْلِيكَ بِأَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾. أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَشْرِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: سُورَةُ بَنِي النَّضِيرِ^(٢)
رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ:
لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ الْحَشْرِ. قَالَ: أَنْزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ.
وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، عَنْ هُنَيْمِ بْنِ^(٣)
وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَوَّانَةَ، عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، عَنْ
سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ الْحَشْرِ؟

لَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿عافر: ٥١، ٥٢﴾ وَقَالَ هُنَا: ﴿كَتَبَ
اللَّهُ لِأَعْيُنِكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]
أَي: كَتَبَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ أَنَّهُ الْعَالِبُ لِأَعْدَائِهِ، وَهَذَا قَدَرٌ
مُحْكَمٌ وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ، أَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ.

[لَا يُؤَادُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ
أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أَي: لَا يُؤَادُّونَ
الْمُحَادِّينَ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْأَقْرَبِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا
يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَعِذُّكُمْ اللَّهُ
نَفْسَكُمْ﴾... [الآية: آل عمران: ٢٨].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ
وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَبْتُمُوهَا وَيَعْتَدُوكُمْ كِسَافًا
وَمَسَاكِينٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وَقَدْ قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
وَعِزُّهُ: أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾... إِلَى آخِرِهَا، فِي أَبِي عُبَيْدَةَ عَامِرِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ، حِينَ قَتَلَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ^(١). وَلِهَذَا قَالَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ جَعَلَ الْأَمْرَ سُورَى
بَعْدَهُ فِي أَوْلِيكَ السُّنَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: وَلَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ
حَيًّا لَأَسْتَحْلَفْتُهُ. وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي عُبَيْدَةَ قَتَلَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿أَوْ
أَبْنَاءَهُمْ﴾ فِي الصَّدِيقِ هَمَّ يَوْمَئِذٍ بِقَتْلِ ابْنِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ فِي مُضْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ، قَتَلَ أَحَاهُ عُبَيْدَ بْنَ
عَمِيرٍ يَوْمَئِذٍ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فِي عُمَرَ قَتَلَ قَرِيبًا لَهُ يَوْمَئِذٍ
أَيْضًا، وَفِي حَمْرَةَ وَعَلِيٍّ وَعُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ قَتَلُوا عُبَّةَ
وَسَيِّبَةَ وَالْوَالِدِ بْنِ عُبَّةَ يَوْمَئِذٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قُلْتُ: وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ حِينَ اسْتَشَارَ رَسُولَ اللَّهِ
الْمُسْلِمِينَ فِي أَسَارَى بَدْرٍ، فَأَشَارَ الصَّدِيقُ بِأَنْ يُعَادُوا،
فَيَكُونُ مَا يُؤَخِّدُ مِنْهُمْ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ بَنُو الْعَمِّ
وَالْعَشِيرَةِ، وَلَعَلَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَقَالَ عُمَرُ: لَا

(١) انظر الإصباة ترجمة عامر بن عبدالله بن الجراح. (٢) فتح
الباري: ٤٩٧/٨ (٣) فتح الباري: ٤٩٧/٨ ومسلم: ٤/٢٣٢٢

قَالَ: سُورَةُ بَنِي النَّضِيرِ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)
 هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ
 الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ
 اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
 يُجْرِبُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِتِلْكَ الْأَوَّلِ
 الْأَنْبِيَاءِ ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَائَةَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا
 وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ
 يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ
 تَرَكَتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أَسْوَلِهَا فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيخْرِي الْفَلْسَفِينَ﴾ (٣)
 [يُسَبِّحُ لِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ] ع

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 مِنْ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لَهُ وَيُمَجِّدُهُ وَتَقَدِّسُهُ، وَصَلَّى لَهُ وَيُوحِّدُهُ،
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبِّحَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَي: مَنِيعُ الْجَنَابِ ﴿الْحَكِيمُ﴾
 فِي قَدْرِهِ وَشَرَعِهِ.

[ذِكْرُ مَا حَلَّ بِبَنِي النَّضِيرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ﴾ بِمَعْنَى يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ
 وَالزُّهْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٢): كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ
 الْمَدِينَةَ هَادِنَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ عَهْدًا وَدِفْعَةً، عَلَى أَنْ لَا يُقَاتِلَهُمْ
 وَلَا يُقَاتِلُوهُ، فَتَقَضَّوْا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَأَحْلَلَ
 اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ قِضَاءَهُ الَّذِي
 لَا يُصَدُّ، فَأَجْلَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ
 الْحَصِينَةِ الَّتِي مَا طَمَعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ، وَظَنُّوا هُمْ أَنَّهَا
 مَايَعْتَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ، فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،
 وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ بِإِلَهُمْ، وَسَيَّرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 وَأَجْلَاهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى
 أَدْرِعَاتٍ مِنْ أَعْلَى الشَّامِ، وَهِيَ أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ،
 وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى حَبِيرٍ، وَكَانَ قَدْ أَنْزَلَهُمْ مِنْهَا عَلَى
 أَنْ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ إِبِلُهُمْ، فَكَانُوا يُجْرِبُونَ مَا فِي بِيُوتِهِمْ مِنْ
 الْمُتَقُولَاتِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُحْمَلَ مَعَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ
 تَعَالَى: ﴿يُجْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِتِلْكَ الْأَوَّلِ
 الْأَنْبِيَاءِ﴾ أَي تَمَكَّرُوا فِي عَاقِبَتِهِ مِنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَخَالَفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٥٤٦
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكَتُمْهَا قَائِمَةً
 عَلَى أَسْوَلِهَا فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيخْرِي الْفَلْسَفِينَ ﴿٥﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ
 عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ
 وَلِلَّذِي الْقُرَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ
 دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ فَمَا
 نَهَكْتُمْ عَنْهُ فَانْتَهَوْا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾
 لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
 يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَبْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ
 هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً
 مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
 وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

رَسُولَهُ، وَكَذَّبَ كِتَابَهُ، كَيْفَ يَجُلُّ بِهِ مِنْ بَأْسِهِ الْمُخْزِي لَهُ
 فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.
 رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،
 عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَتَبُوا إِلَى
 ابْنِ أَبِيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ يَعْبُدُ الْأوثَانَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ،
 وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ: إِنَّكُمْ أَوْثِمُ
 صَاحِبِنَا وَإِنَّا نَقْسِمُ بِاللَّهِ لَتَقَاتِلَنَّهُ أَوْ [لَتُخْرِجَنَّهُ] أَوْ لَنَسِيرَنَّ
 إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا، حَتَّى نَقْتُلَ مَقَاتِلَتَكُمْ وَ[نَسْتَبِيحَ] نِسَاءَكُمْ،
 فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عِبَادَةِ
 الْأوثَانَ، [اجْتَمَعُوا] لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ
 النَّبِيُّ ﷺ لَقِيَهُمْ فَقَالَ: «لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ
 الْمَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا تُرِيدُونَ» أَنْ تَكِيدُوا
 بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ؟ فَلَمَّا
 سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ تَفَرَّقُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ،

(١) فتح الباري: ٨/٤٩٧ (٢) الطبري: ٢٣/٢٦٢

فَكَتَبْتَ كُفَّارًا فُرْيَشٍ بَعْدَ وَفْعَةٍ بَدْرٍ إِلَى الْيَهُودِ: إِنَّكُمْ أَهْلُ
الْحَلْفَةِ وَالْحُصُونِ، وَإِنَّكُمْ لَتَقَاتِلُنَّ مَعَ صَاحِبِنَا، أَوْ لَتَفْعَلُنَّ
كَذَا وَكَذَا، وَلَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَدَمِ نِسَائِكُمْ شَيْءٌ - وَهِيَ
الْخَلَاخِيلُ - فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ [أَجْمَعَتْ] بَنُو
النَّضِيرِ بِالْعَدْرِ، فَأُرْسِلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: اخْرُجْ إِلَيْنَا فِي
ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ وَليُخْرَجْ مِنَّا ثَلَاثُونَ حَبْرًا حَتَّى
نَلْتَقِيَ بِمَكَانِ الْمُصْصِفِ، [فَيَسْمَعُوا] مِنْكَ، فَإِنْ صَدَّقوكَ
وَأَمَّنُوا بِكَ أَمَّا بِكَ. فَلَمَّا كَانَ الْعُدُودُ عَدَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ بِالْكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَا
تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدٍ تُعَاهِدُونَنِي عَلَيْهِ». فَأَبَوْا أَنْ يُعْطَوْهُ
عَهْدًا فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ عَدَا مِنَ الْعُدُودِ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ
بِالْكَتَائِبِ، وَتَرَكَ بَنِي النَّضِيرِ وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يُعَاهِدُوهُ
فَعَاهَدُوهُ، فَأَنْصَرَفَ عَنْهُمْ وَعَدَا إِلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالْكَتَائِبِ،
فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ، فَجَلَّتْ بَنُو النَّضِيرِ
وَاحْتَمَلُوا مَا أَقْلَبَ الْإِبِلُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ وَأَبْوَابِ بِيوتِهِمْ
وَخَشَبِهَا، وَكَانَ نَحْلُ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً
أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا وَخَصَّهُ بِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى
رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْفَقْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يَقُولُ:
بِغَيْرِ قِتَالٍ، فَأَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَهَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّهَا
بَيْنَهُمْ وَقَسَمَ مِنْهَا لِرَجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَا ذَوِي حَاجَةٍ،
وَلَمْ يَقْسِمِ مِنَ الْأَنْصَارِ غَيْرَهُمَا، وَبَقِيَ مِنْهَا صَدَقَةُ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ الَّتِي فِي أَيْدِي بَنِي فَاطِمَةَ^(١). وَلَنُنْذِرُكَ مَلْخَصَ عَزْوَةِ
بَنِي النَّضِيرِ عَلَى وَجْهِ الْإِخْتِصَارِ، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

[سَبَبُ عَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ]

وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ فِيمَا ذَكَرَهُ أَصْحَابُ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ
أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ أَصْحَابُ بَيْرُ مَعُونَةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
وَكَانُوا سَبْعِينَ، وَأُفْلِتَ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، فَلَمَّا
كَانَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ قَتَلَ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي
عَامِرٍ، وَكَانَ مَعَهُمَا عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمَانَ لَمْ يَعْلَمْ
بِهِ عَمْرُو، فَلَمَّا رَجَعَ أَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ قَتَلْتَ رَجُلَيْنِ لِأَدْبِهِمَا». وَكَانَ بَيْنَ بَنِي
النَّضِيرِ وَبَنِي عَامِرٍ حِلْفٌ وَعَهْدٌ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى
بَنِي النَّضِيرِ لِيَسْتَعِينَهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ الرَّجُلَيْنِ، وَكَانَتْ
مَنَارِلُ بَنِي النَّضِيرِ ظَاهِرَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَمْيَالٍ مِنْهَا
سَرِقَهَا^(٢).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ فِي كِتَابِهِ السِّيَرَةِ: ثُمَّ

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ
الْقَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرِ الَّذِينَ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ
الضَّمْرِيُّ؛ لِلْجِوَارِ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَقَدَ لَهُمَا فِيمَا
حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ، وَكَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي عَامِرٍ
عَهْدٌ وَحِلْفٌ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ
ذَيْنِكَ الْقَتِيلَيْنِ قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! نُعِينُكَ عَلَى مَا
أَحْبَبْتَ مِنَّا اسْتَعْنَتْ بِنَا عَلَيْهِ، ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ
فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ -
وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَنْبِ جِدَارٍ
مِنْ بِيوتِهِمْ - فَمَنْ رَجُلٌ يَغْلُو عَلَى هَذَا النَّبِيِّ، فَيُلْقِي عَلَيْهِ
صَخْرَةً فَيَرِيحُنَا مِنْهُ؟ فَأَنْتَدِبَ لِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جِحَاشِ بْنِ
كَعْبٍ أَحَدَهُمْ فَقَالَ: أَنَا لِذَلِكَ. فَصَعَدَ يُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً
كَمَا قَالَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو
بَكْرٍ وَعَمْرُو وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبِيرَ
مِنَ السَّمَاءِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ فَقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ.

فَلَمَّا اسْتَلَبَتْ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابُهُ قَامُوا فِي طَلْبِهِ فَلَقُوا
رَجُلًا مُقْبِلًا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ، فَقَالَ: رَأَيْتُهُ دَاخِلًا
الْمَدِينَةَ، فَأَقْبَلَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ،
فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبِيرَ بِمَا كَانَتْ يَهُودُ أَرَادَتْ مِنَ الْعَدْرِ بِهِ، وَأَمَرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالتَّهَيُّؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالمَسِيرِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ سَارَ
حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فَتَحَصَّنُوا مِنْهُ فِي الْحُصُونِ، فَأَمَرَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ بِقَطْعِ النَّخْلِ وَالتَّحْرِيقِ فِيهَا، فَتَادَوْهُ: أَنْ يَا مُحَمَّدُ!
قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَتُعَيِّبُهُ عَلَى مَنْ
يَصْنَعُهُ، فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا؟. وَقَدْ كَانَ رَهْطٌ
مِنْ بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُوفٍ
وَوَدِيعَةُ وَمَالِكُ بْنُ أَبِي قَوْقَلٍ وَسُوَيْدٌ وَدَاعِسٌ، قَدْ بَعَثُوا إِلَى
بَنِي النَّضِيرِ أَنْ انْتَبُوا وَتَمَتَّعُوا، فَإِنَّا لَنْ نُسَلِّمَكُم، إِنْ قُوتِلْتُمْ
قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِنْ خَرَجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ، فَتَرَبَّصُوا ذَلِكَ
مِنْ نَضْرِهِمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَقَدَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ،
فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجْلِيَهُمْ وَيَكْفَ عَنْ دِمَائِهِمْ عَلَى
أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا الْحَلْقَةَ. فَفَعَلَ.

فَاحْتَمَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا اسْتَلَّتْ بِهِ الْإِبِلُ، فَكَانَ الرَّجُلُ
مِنْهُمْ يَهْدِمُ بَيْتَهُ عَنِ إِيْجَافِ بَابِهِ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ

(١) أبو داود: ٤٠٤/٣ صححه الألباني في صحيح سنن أبي
داؤد (٢) الدرر في اختصار المغازي والسير: ١٨٠، ١٨١ وابن

سِعِدْتُهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مَعَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ^(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ﴾ أَي: حَتْمٌ لَا زِمَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ سَأَلُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَي: إِنَّمَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ ذَلِكَ، وَسَلَطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَكَذَّبُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْبِشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

[مَا وَقَعَ مِنْ قَطْعِ النَّخِيلِ كَانَ بِإِذْنِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكْتُومَهَا فَاقْتُمُوا عَنْهَا أَصُولَهَا فَإِذَنْ لَنْ نَحْزِيَ الْقَاسِيَةَ﴾ اللَّيْنُ نَوْعٌ مِنَ التَّمْرِ وَهُوَ جَيِّدٌ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَهُوَ مَا خَالَفَ الْعَجْوَةَ وَالْبَرْزِيَّ مِنَ التَّمْرِ^(٤). وَقَالَ كَثِيرُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: اللَّيْنَةُ أَلْوَانُ التَّمْرِ سِوَى الْعَجْوَةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُوَ جَمِيعُ النَّخْلِ^(٥). وَقَوْلُهُ عَنِ مُجَاهِدٍ وَهُوَ الْبُؤْرَةُ أَيْضًا، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا حَاصَرَهُمْ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ إِهَانَةً لَهُمْ وَإِرْهَابًا وَإِرْغَابًا لِقُلُوبِهِمْ، فَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بَرِيدِ بْنِ رُوْمَانَ وَقَتَادَةَ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبِآنَ أَنَّهُمْ قَالُوا: فَبَعَثَ بَنُو النَّضِيرِ يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّكَ تَنْهَى عَنِ الْفُسَادِ فَمَا بِالكَ تَأْمُرُ بِقَطْعِ الْأَشْجَارِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، أَي مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ وَمَا تَرَكْتُمْ مِنَ الْأَشْجَارِ فَالْجَمِيعُ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقَدْرِهِ وَرِضَاؤِهِ، وَفِيهِ نِكَايَةٌ بِالْعَدُوِّ وَخِزْيٌ لَهُمْ، وَإِرْغَامٌ لِأَنُوفِهِمْ^(٦).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَهَى بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ بَعْضًا عَنْ قَطْعِ النَّخْلِ، وَقَالُوا: إِنَّمَا هِيَ مَعَانِمُ الْمُسْلِمِينَ، فَتَزَلَّ الْقُرْآنُ بِتَضَدِّقِي مَنْ نَهَى عَنْ قَطْعِهِ وَتَحْلِيلِي مَنْ قَطَعَهُ مِنَ الْإِثْمِ، وَإِنَّمَا قَطَعَهُ وَتَرَكَّهُ بِإِذْنِهِ، وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا مَرُوعًا^(٧).

فَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمْهَا قَائِمَةً﴾ عَلَى أَصُولِهَا فَإِذَنْ لَنْ نَحْزِيَ الْقَاسِيَةَ وَالْقَاسِيَةَ الْفَلْسِيفَةُ قَالَ: يَسْتَنْزِلُونَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ. وَأَمَرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ فَحَاكَ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: قَطَعْنَا بَعْضًا

فَيَنْطَلِقُ بِهِ، فَخَرَجُوا إِلَى حَبِيرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى الشَّامِ وَخَلَوْا الْأَمْوَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً يَصْعَقُهَا حَيْثُ يَشَاءُ، فَسَمَّهَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ إِلَّا سَهْلَ بْنَ حَنْظَلٍ وَأَبَا دُجَانَةَ - سِمَاكَ بْنَ خَرَشَةَ - ذَكَرَا قَفْرًا فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَلَمْ يُسَلِّمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَّا رَجُلَانِ: يَامِينَ بْنُ عُمَيْرٍ وَبَنِي كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ جِحَاشٍ وَأَبُو سَعْدِ بْنِ وَهَبٍ أَسْلَمَا عَلَى أَمْوَالِهِمَا فَأَخْرَجَاهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ آلِ يَامِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِيَامِينَ: «أَلَمْ تَرَ مَا لَقِيتُ مِنْ ابْنِ عَمِّكَ وَمَا هَمَّ بِهِ مِنْ شَأْنِي؟». فَجَعَلَ يَامِينَ بْنُ عُمَيْرٍ لِرَجُلٍ جُعْلًا عَلَى أَنْ يَقْتُلَ عَمْرُو بْنَ جِحَاشٍ فَقَتَلَهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَنَزَلَ فِي بَنِي النَّضِيرِ سُورَةُ الْحَشْرِ بِأَسْرِهَا^(١). وَهَكَذَا رَوَى يُونُسُ بْنُ بَكَّيْرٍ، عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي: بَنِي النَّضِيرِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ أَي فِي مَدَّةِ حِصَارِكُمْ لَهُمْ وَقَضْرِهِمَا، وَكَانَتْ سِتَّةَ أَيَّامٍ مَعَ شِدَّةِ حُصُونِهِمْ وَمَنْعَتَيْهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَطَوَّأْنَا لَهُمْ مَا نِعْتُهُمْ حُصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنْهَمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أَي: جَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بُلَيْتُهُمْ مِنَ الْقَوَائِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْفِهِمْ وَأَتَدَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أَي: الْخَوْفَ وَالْهَلْعَ وَالْجَزَعَ، وَكَيْفَ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ ذَلِكَ وَقَدْ حَاصَرَهُمُ الَّذِي نَصَرَ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿يَخْرُجُونَ بِيُوْتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ابْنِ إِسْحَاقَ لِذَلِكَ، وَهُوَ نَقْضُ مَا اسْتَحْسَنُوهُ مِنْ سُفُوفِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ وَتَحَمُّلُهَا عَلَى الْإِبْلِ. وَكَذَلِكَ قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أَي: لَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْجَلَاءَ -

وَهُوَ النَّهْيُ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ - لَكَانَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ آخَرَ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. قَالَهُ الزُّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ وَالسُّدِّيِّ وَابْنِ زَيْدٍ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ

(١) ابن هشام: ١٩٩/٣ - ٢٠٢ (٢) القرطبي: ٤/١٨ (٣) الرازي: ٢٤٥/٢٩ (٤) الرازي: ٢٤٦/٢٩ (٥) الطبري: ٢٣/٢٦٨ (٦) الطبري: ٢٣/٢٧١ فيه عن ابن إسحاق وهو مدلس ولم يصرح (٧) الطبري: ٢٣/٢٧١

وَلَا يَمَانَعُ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾^(١) أَي: جَمِيعِ الْبُلْدَانِ الَّتِي تُفْتَحُ هَكَذَا فَحُكْمُهَا حُكْمُ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ وَاللرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ إِلَى آخِرِهَا وَالَّتِي بَعْدَهَا، فَهَذِهِ مَصَارِفُ أَمْوَالِ الْفَيْءِ وَوُجُوهُهُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، مِمَّا لَمْ يُوجِبِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَالِصَةً، فَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةَ سِتِّهِ - وَقَالَ مَرَّةً: قُوتَ سِتِّهِ - وَمَا بَقِيَ جَعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢).

هَكَذَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ هُنَا مُخْتَصِرًا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ مَطْوَلًا^(٣).
وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ تَعَالَى النَّهَارُ، فَجِئْتُهُ فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا عَلَى سَرِيرٍ مُفَضِّيًا إِلَى رِمَالِهِ فَقَالَ حِينَ دَخَلْتُ عَلَيْهِ: يَا مَالِكُ! إِنَّهُ قَدْ دَفَّ أَهْلُ آيَاتٍ مِنْ قَوْمِكَ وَقَدْ أَمَرْتُ فِيهِمْ بِشَيْءٍ فَأَقْسِمُ فِيهِمْ، قُلْتُ: لَوْ أَمَرْتُ غَيْرِي بِذَلِكَ؟ فَقَالَ: خُذْهُ، فَجَاءَهُ يَرْفَأُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! هَلْ لَكَ فِي عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا، ثُمَّ جَاءَهُ يَرْفَأُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! هَلْ لَكَ فِي الْعَبَّاسِ وَعَلِيِّ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَذِنَ لَهُمَا فَدَخَلَا، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِفْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا بَعْضِي عَلِيًّا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَجَلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِفْضِ بَيْنَهُمَا وَأَرْحُهُمَا، قَالَ مَالِكُ بْنُ أَوْسٍ: خِيلَ إِلَيَّ أَنَّهُمَا قَدَمَا أَوْلَيْكَ التَّقَرُّ لِدَلِكِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اتِّدَا، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَوْلَيْكَ الرَّهْطِ فَقَالَ: أُنشِدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي يَأْذِيهِ تَقْوَمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً» قَالُوا: نَعَمْ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيِّ وَالْعَبَّاسِ فَقَالَ: أُنشِدْكُمْ بِاللَّهِ

وَتَرَكَنَا بَعْضًا، فَلْتَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ لَنَا فِيهَا قَطْعًا مِنْ أَجْرٍ؟ وَهَلْ عَلَيْنَا فِيهَا تَرَكَنَا مِنْ وَرْزٍ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَحَرَّقَ^(٥). وَأَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ بِنَحْوِهِ^(٦). وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: حَارَبَتْ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ فَأَجَلَى بَنِي النَّضِيرِ، وَأَقَرَّ قُرَيْظَةُ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةَ، فَفَقَتَلَتْ مِنْ رِجَالِهِمْ وَسَبَى وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ فَأَمْتَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجَلَى يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِي قَيْنِقَاعَ، وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَيَهُودُ بَنِي حَارِثَةَ، وَكُلُّ يَهُودٍ بِالْمَدِينَةِ^(٧). وَلَهُمَا أَيْضًا عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَقَطَعَ - وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكَتُمُوهَا فَاقْسِمُوا عَلَى أَصُولِهَا فَيُؤَذِّنَ اللَّهُ وَيُخْرِجُ الْفَنَاقِينَ﴾^(٨).
قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَتْ وَقَعَةُ بَنِي النَّضِيرِ بَعْدَ وَقَعَةِ أُحُدٍ وَبَعْدَ بَرٍّ مَعُونَةَ.

﴿وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٩) مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَاللرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَانَكُمْ الرَّسُولَ فَاخْذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

[أَمْوَالِ الْفَيْءِ وَمَصَارِفِهَا]

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا مَا الْفَيْءُ وَمَا صِفَتُهُ وَمَا حُكْمُهُ؟ فَالْفَيْءُ كُلُّ مَالٍ أَخَذَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا إِجَافٍ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، كَأَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ هَذِهِ، فَإِنَّهَا مِمَّا لَمْ يُوجِبِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، أَي: لَمْ يَقَاتِلُوا الْأَعْدَاءَ فِيهَا بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمُصَالَوَةِ، بَلْ نَزَلَ أَوْلَيْكَ مِنَ الرُّغَبِ الَّذِي أَلْفَى اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ هَيْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَفَاءَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَلِهَذَا تَصَرَّفَ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ، فَرَدَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي وَجُوهِ الْبَرِّ وَالْمَصَالِحِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أَي: مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يَعْنِي: الْإِبِلَ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي: هُوَ قَدِيرٌ لَا يُعَالَبُ

(١) النسائي في الكبرى: ٤٨٣/٦ (٢) أحمد: ٧/٢ (٣) مسلم: ١٣٦٥/٣ (٤) فتح الباري: ٣٨٣/٧ (٥) فتح الباري: ٣٨٣/٧ (٦) فتح الباري: ٤٩٨/٨ (٧) فتح الباري: ١٣٧٦/٣ (٨) أبو داود: ٣٧١/٣ وتحفة الأحوذى: ٣٨١/٥ والنسائي: ١٣٢/٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولِيَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٣﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٤﴾ لَا يَقْبَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَدْرٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرَّبُوا بِلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَهُمْ عَدَابٌ أَلَيْسَ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

وَالْمُتَعَلِّجَاتِ لِلْحَسَنِ، الْمُتَعَبِّاتِ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَبَلَغَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ فِي النَّبْتِ يُقَالُ لَهَا أُمَّ يُعْقَبُ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: بَلَّغْنِي أَنَّكَ قُلْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، قَالَ: مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَتْ: إِنِّي لَأَقْرَأُ مَا بَيْنَ لَوْحَيْهِ فَمَا وَجَدْتُهُ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ قَرَأْتَهُ فَقَدْ وَجَدْتِهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْهُ. قَالَتْ: إِنِّي لَأَظُنُّ أَهْلَكَ يَتَعَلَّقُونَ، قَالَ: أَذْهَبِي فَاظْطَرِّي، فَذَهَبَتْ فَلَمْ تَرِ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا، قَالَ: لَوْ كَانَ كَذَا لَمْ تَجَامِعْنَا^(٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ^(٤). وَقَدْ نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

الَّذِي يَأْذِنُهُ تَقْوَمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ هَلْ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً» فَقَالَا: نَعَمْ. فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ حَصَرَ رَسُولَهُ بِخَاصَّةٍ لَمْ يَخُصَّ بِهَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَفَاءً عَلَى رَسُولِهِ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ فَوَاللَّهِ! مَا اسْتَأْثَرَ بِهَا عَلَيْكُمْ وَلَا أَحْرَزَهَا دُونَكُمْ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَخْذِ مِنْهَا نَفَقَةَ سَنَةٍ - أَوْ نَفَقَتَهُ وَنَفَقَةَ أَهْلِهِ سَنَةً - وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ أَسْوَةَ الْمَالِ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَوْلِيكَ الرَّهْطِ فَقَالَ: أَسْتَدْعِيكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي يَأْذِنُهُ تَقْوَمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ هَلْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيِّ وَالْعَبَّاسِ فَقَالَ: أَسْتَدْعِيكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي يَأْذِنُهُ تَقْوَمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ هَلْ تَعْلَمَانِ ذَلِكَ؟ قَالَا: نَعَمْ. فَلَمَّا تُوْفِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَنْتَ وَهَذَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، تَطْلُبُ أَنْتَ مِيرَاثَكَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، وَيَطْلُبُ هَذَا مِيرَاثَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً» وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُ لَصَادِقٌ بَارٍ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ، فَوَلَّيَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا تُوْفِيَ، قُلْتُ: أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَلِيُّ أَبِي بَكْرٍ فَوَلَّيْتُهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَلِيهَا، فَجِئْتُ أَنْتَ وَهَذَا، وَأَنْتُمَا جَمِيعٌ وَأَمْرُكُمَا وَاحِدٌ فَسَأَلْتُمَانِيهَا، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتُمَا فَأَنَا أَدْفَعُهَا إِلَيْكُمَا عَلَى أَنْ عَلَيَكُمَا عَهْدُ اللَّهِ أَنْ تَلِيَاهَا بِالَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلِيهَا، فَأَخَذْتُمَا مِنْ يَدِي عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ جِئْتُمَانِي لِأَقْضِي بَيْنَكُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ! لَا أَقْضِي بَيْنَكُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّى تَقْوَمَ السَّاعَةُ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَرُدَّاهَا إِلَيَّ^(١). أَخْرَجُوهُ مِنْ حَدِيثِ الرَّهْرِيِّ بِهِ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أَيِ جَعَلْنَا هَذِهِ الْمَصَارِفَ لِمَالِ الْفَقِيءِ كَيْلًا يَبْقَى مَأْكَلَةً يَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيَنْصَرِفُونَ فِيهَا بِمَحْضِ الشَّهَوَاتِ وَالْآرَاءِ، وَلَا يَصْرَفُونَ مِنْهُ شَيْئًا إِلَى الْفُقَرَاءِ.

[الْأَمْرُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ وَيَنْهَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أَيِ مَهْمَا أَمَرَكُم بِهِ فَافْعَلُوهُ، وَمَهْمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ شَرٍّ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْوَأَشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَمَنَّمَاتِ

(١) أبو داود: ٣٦٥ (٢) فتح الباري: ١٣/٢٩٠ ومسلم: ٣/

١٣٧٧ وتحفة الأحمدي: ٥/٢٣٣ والنسائي: ٧/١٣٦ (٣)

أحمد: ١/٤٣٣ (٤) فتح الباري: ٨/٤٩٨ ومسلم: ٣/١٦٧٨

أَرَهُ فِي الْكُتُبِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حِينَ خَرَجَ مَعَهُ إِلَى الْوَلِيدِ، قَالَ: دَعَا النَّبِيَّ ﷺ الْأَنْصَارَ أَنْ يَقْطَعَ لَهُمُ الْبُحْرَيْنِ. قَالُوا: لَا، إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ لِإِخْوَانِنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِثْلَهَا قَالَ: «إِنَّمَا لَا، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي آثَرُهُ»^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَتْ الْأَنْصَارُ: أَسْمِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلِ، قَالَ: «لَا». فَقَالُوا: أَتَكْفُونَنَا الْمَوْتَةَ وَتَشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ. قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا^(٥). تَفَرَّدَ بِهِ دُونُ مُسْلِمٍ.

[كَانَ الْأَنْصَارُ لَا يَحْسُدُونَ الْمُهَاجِرِينَ]

«وَلَا يَحْسُدُونَ فِي ضُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» أَي وَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَسَدًا لِلْمُهَاجِرِينَ فِيمَا فَضَّلَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ، وَالتَّقْدِيمِ فِي الذِّكْرِ وَالرَّثْبَةِ. وَقَوْلُهُ: «مِمَّا أُوتُوا» قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي فِيمَا أُعْطِيَ إِخْوَانُهُمْ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ.

[إِيثَارُ الْأَنْصَارِ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» يَعْنِي: حَاجَةً أَيْ يُقَدِّمُونَ الْمَحَاوِجَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَبْدَأُونَ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ فِي حَالِ احتِجَاجِهِمْ إِلَى ذَلِكَ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جَهْدُ الْمُقِلِّ»^(٦) وَهَذَا الْمَقَامُ أَعْلَى مِنْ حَالِ الَّذِينَ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْدِهِ» [الإنسان: ٨] وَقَوْلُهُ: «وَعَاقَى أَلْمَالِ عَلَى حَيْدِهِ» [البقرة: ١٧٧] فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَصَدَّقُوا وَهُمْ يُحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ وَلَا ضَرُورَةٌ بِهِ، وَهَؤُلَاءِ أَتَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خَصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا أَنْفَقُوهُ، وَمِنْ هَذَا الْمَقَامِ تَصَدَّقَ الصَّدِيقُ رَضِيَّيَ اللَّهُ عَنْهُ بِجَمِيعِ مَالِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» فَقَالَ رَضِيَّيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ^(٧). وَهَذَا الْمَاءُ الَّذِي عَرَضَ عَلَى عِكْرَمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ فَكُلُّ مِنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إِلَى

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»^(٨). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» أَي اتَّقَوْهُ فِي امْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَأَبَاهُ، وَارْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجْرَهُ وَنَهَاهُ.

«لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ»^(٩) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي ضُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّقْ شَيْئًا فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(١٠) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ^(١١)

[بَيَانُ الْمُسْتَحَقِّينَ الْآخِرِينَ لِأَمْوَالِ الْفَيْءِ، وَفِيهِ فَضْلُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا حَالَ الْفُقَرَاءِ الْمُسْتَحَقِّينَ لِمالِ الْفَيْءِ أَنَّهُمْ «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا» أَي خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَخَالَفُوا قَوْمَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ «وَيَصْرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» أَي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَدَّقُوا قَوْلَهُمْ بِفِعْلِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ سَادَاتُ الْمُهَاجِرِينَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَا دَخَا لِلْأَنْصَارِ وَمُيَبَّنًا فَضْلَهُمْ وَشَرَفَهُمْ وَكَرَمَهُمْ، وَعَدَمَ حَسَدِهِمْ وَإِيثَارَهُمْ مَعَ الْحَاجَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أَي سَكَنُوا دَارَ الْهَجْرَةِ مِنْ قَبْلِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَمَنُوا قَبْلَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ. قَالَ عُمَرُ: وَأَوْصِي الْخَلِيفَةُ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ وَيَحْفَظَ لَهُمْ كَرَامَتَهُمْ، وَأَوْصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ، أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَأَنْ يَغْفُو عَنْ مُسِيئَتِهِمْ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ هُنَا أَيْضًا^(١٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» أَي مِنْ كَرَمِهِمْ وَشَرَفِ أَنْفُسِهِمْ يُحِبُّونَ الْمُهَاجِرِينَ وَيُؤَسُّوهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ قَالَ: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مَوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ، وَلَا أَحْسَنَ بَدَلًا فِي كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمَوْتَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَةِ، حَتَّى لَقَدْ حَشِينَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ. قَالَ: «لَا، مَا أَنْتَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللَّهُ لَهُمْ»^(١٣). لَمْ

(١) فتح الباري: ٤٩٨/٨ ومسلم: ٩٧٥/٢ (٢) فتح الباري: ٤٩٩/٨ (٣) أحمد: ٢٠٠/٣ (٤) فتح الباري: ١٤٦/٧ (٥) فتح الباري: ١١/٥ (٦) أبو داود: ١٤٦/٢ (٧) تحفة الأحوذى: ١٦١/١٠

صَاحِبِهِ، وَهُوَ جَرِيحٌ مُثَقِّلٌ أُحْوجُّ مَا يَكُونُ إِلَى الْمَاءِ، فَرَدَّهُ
 الْآخَرَ إِلَى الثَّلَاثِ، فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّلَاثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ
 آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.
 وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَصَابَنِي الْجَهْدُ، فَأَرْسَلْ إِلَيَّ
 نِسَائِي فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ
 يُضَيِّفُ هَذَا، اللَّيْلَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ
 فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ:
 هَذَا ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تَدَجِرِيهِ شَيْئًا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ!
 مَا عِنْدِي إِلَّا قُوْتُ الصَّبِيَّةِ. قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ الْعِشَاءَ
 فَتَوَمَّيْهِمْ وَتَعَالَى فَاطْفَيْءِ السَّرَاجِ، وَنَطَوِي بَطُونَنَا اللَّيْلَةَ،
 فَفَعَلْتُ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَقَدْ
 عَجِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - أَوْ ضَحِكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ»^(١)
 وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيُؤَيِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
 حَصَصَةٌ﴾ وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَمُسْلِمٌ
 وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ عَنْ فَضِيلِ بْنِ عَزْوَانَ بِهِ
 نَحْوَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ تَسْمِيَةُ هَذَا الْأَنْصَارِيِّ بِأَبِي طَلْحَةَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ﴾ أَي مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّحِّ فَقَدْ أفلَحَ وَأَنْجَحَ.
 رَوَى أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
 وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ
 عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»^(٣) انْفِرَدَ
 بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٤).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ هِلَالٍ، قَالَ: جَاءَ
 رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ أَكُونُ قَدْ هَلَكْتُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ:
 سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ﴾ وَأَنَا رَجُلٌ شَحِيحٌ، لَا أَكَادُ أَنْ أُخْرَجَ مِنْ يَدَيَّ
 شَيْئًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَيْسَ ذَلِكَ بِالشُّحِّ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي
 الْقُرْآنِ، إِنَّمَا الشُّحُّ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَنْ تَأْكُلَ مَالَ
 آخِيكَ ظُلْمًا، وَلَكِنْ ذَاكَ الْبُخْلُ، وَبَسَّ الشَّيْءُ الْبُخْلُ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي
 قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هُوَ لَا هُمْ

الْقِسْمُ الثَّلَاثُ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ فُقْرَاؤُهُمْ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ، وَهُمْ
 الْمُهَاجِرُونَ، ثُمَّ الْأَنْصَارُ، ثُمَّ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، كَمَا
 قَالَ فِي آيَةِ بَرَاءةٍ: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
 وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾
 فَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ هُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِإِتَارِهِمُ الْحَسَنَةَ
 وَأَوْصَافِهِمُ الْجَمِيلَةَ، الدَّاعُونَ لَهُمْ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ،
 وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا
 مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أَي قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
 وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أَي
 بُغْضًا وَحَسَدًا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وَمَا
 أَحْسَنَ مَا اسْتَنْبَطَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ
 الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الرَّافِضِيَّ الَّذِي يَسُبُّ الصَّحَابَةَ لَيْسَ لَهُ فِي
 مَالِ الْفَيْءِ نَصِيبٌ، لِعَدَمِ اتِّصَافِهِ بِمَا مَدَحَ اللَّهُ بِهِ هُوَ لَا فِي
 قَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ
 وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.
 وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَمُرُوا أَنْ
 يَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ فَسَبُّوهُمْ، ثُمَّ قَرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ
 جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ
 سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾... الْآيَةَ^(٦).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَتُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ
 أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لِكُذِّبُونَ﴾^(١) لَئِنْ
 أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ
 لَيُؤَلِّبُنَّ الْأَدْبَانَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ^(٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي
 صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ^(٣) لَا يَقْبَلُونَكُمْ
 جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ
 تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ^(٤)
 كَذَّبُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَبِيحًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٥)
 كَذَّبُوا الشَّيْطَانَ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي

(١) فتح الباري: ٥٠٠/٨ (٢) فتح الباري: ١٤٩/٧ ومسلم: ١٦٢٤/٣ و١٦٢٥ وفتح الأحمدي: ١٩٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٨٦/٦ (٣) أحمد: ٣٢٣/٣ (٤) مسلم: ٤/١٩٩٦ (٥) الطبري: ٢٩/٢٨ في إسناده المسعودي المختلط وقال الهيثمي في المجمع: ١٢٥/٧-١٢٦: رواه الطبراني عن شيخه عبدالله بن محمد بن أبي مريم وهو ضعيف. (٦) روى مسلم نحوه: ٢٣١٧/٤

بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا
 فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾
 [وَعَدُ الْمُتَافِقِينَ الكَذِبَ لِبَنِي النَّصِيرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَافِقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَضْرَابِهِ،
 حِينَ بَعَثُوا إِلَى يَهُودَ بَنِي النَّصِيرِ يَعِدُونَهُمُ النَّصْرَ مِنْ
 أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ
 لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ
 مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ قَالَ اللَّهُ
 تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَي لَكَادِبُونَ فِيمَا
 وَعَدُوهُمْ بِهِ: وَإِنَّمَا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُمْ قَوْلًا، وَمِنْ نَبِيَّتِهِمْ أَنْ لَا
 يَقُولُوا لَهُمْ بِهِ. وَإِنَّمَا لِأَنَّهُمْ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ الَّذِي قَالُوهُ، وَلِهَذَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُهُمْ﴾ أَي لَا يَقَاتِلُونَ مَعَهُمْ
 ﴿وَلَئِن نَصَرُوهُمْ﴾ أَي قَاتَلُوا مَعَهُمْ ﴿لِيُؤَلِّبَ الْآدِنْرَ ثَمًّا لَا
 يُنصُرُونَ﴾ وَهَذِهِ بَشَارَةٌ مُسْتَعَلَّةٌ بِنَفْسِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَابًا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي يَخَافُونَ مِنْكُمْ
 أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ اللَّهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا فُرِيقٌ مِنَهُمْ يُنصِرُونَ النَّاسَ
 كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً﴾ [النساء: ٧٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُغْنِيكُمْ
 جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ مِنْ
 جُنُبِهِمْ وَهَلَعِهِمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُوَاجَهَةِ جَيْشِ الْإِسْلَامِ
 بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمَقَاتِلَةِ، بَلْ إِنَّمَا فِي حُصُونٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ
 مُحَاصِرِينَ، فَيَقَاتِلُونَ لِلدَّفْعِ عَنْهُمْ ضَرُورَةً.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ سَدِيدٌ﴾ أَي عَدَاوَتُهُمْ
 فِيمَا بَيْنَهُمْ شَدِيدَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ
 بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعًا
 وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أَي تَرَاهُمْ مُجْتَمِعِينَ فَتَحَسَّبُهُمْ مُؤْتَلِفِينَ،
 وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ غَايَةَ الْإِخْتِلَافِ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّحَعِيُّ:
 يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمُتَافِقِينَ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا أَبْرَامَ
 وَكَلِمَ عَدَابِ آلِيمٍ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾
 يَعْنِي يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعٍ^(١). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ
 إِسْحَاقَ^(٢).

[مَثَلُ الْمُتَافِقِينَ وَالْيَهُودِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا
 كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ يَعْنِي مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ فِي
 اغْتِرَابِهِمْ بِالَّذِينَ وَعَدُوهُمْ النَّصْرَ مِنَ الْمُتَافِقِينَ، وَقَوْلُ

فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُ
 نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾
 وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ
 هُمُ الفٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الفٰرِحُونَ ﴿٢٠﴾ لَو أَنزَلْنَا هَذَا
 الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ
 اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾
 هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ
 الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾
 هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
 يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ الممتحنَةِ

الْمُتَافِقِينَ لَهُمْ: لَئِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ، ثُمَّ لَمَّا حَقَّتْ
 الْحَقَائِقُ وَجَدَّ بِهِمُ الْحِصَارُ وَالْقِتَالُ، تَخَلَّوْا عَنْهُمْ
 وَأَسْلَمُوهُمْ لِلْهَلَكَةِ، بِتَأْلُهُمْ فِي هَذَا: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ
 سَوَّلَ لِلْإِنْسَانِ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - الْكُفْرَ، فَإِذَا دَخَلَ فِيمَا
 سَوَّلَ لَهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَتَنَصَّلَ، وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
 الْعَالَمِينَ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ
 خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي فَكَانَ عَاقِبَةُ الْأَمْرِ بِالْكَفْرِ وَالْفَاعِلُ لَهُ،
 وَمَصِيرُهُمَا إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الظَّالِمِينَ﴾ أَي جَزَاءُ كُلِّ ظَالِمٍ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا
 اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الفٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ
 النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الفٰرِحُونَ ﴿٢٠﴾

(١) الطبري: ٢٩٣/٢٣ (٢) الطبري: ٢٩٣/٢٣

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالِاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاءٌ عُرَاءٌ مُجْتَابِي النَّمَارِ - أَوْ الْعَبَاءِ - مُتَلَدِّي الشُّبُوفِ، عَامَتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، قَالَ: فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِإِلَاقَةِ فَادُنٍّ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِلْدٍ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَقَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿وَلَنْتَظِرَ نَفْسَ مَا فَعَلْتُمْ لِعَذَابٍ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِزْهِيمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ ثَمَرِهِ - حَتَّى قَالَ -: «وَلَوْ بِشِقِّ ثَمَرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفَّهُ تَعْجُرُ عَنْهَا، بَلَّ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامِ وَيْتَابِ، حَتَّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ مُذْمَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١) انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ^(٢)، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَمْرٌ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ تَشْمَلُ فِعْلَ مَا بِهِ أَمْرٌ، وَتَرْكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْتَظِرَ نَفْسَ مَا فَعَلْتُمْ لِعَذَابٍ﴾ أَي حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَانظُرُوا مَاذَا ادَّخَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ مَعَادِكُمْ وَعَرَضِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تَأْكِيدٌ ثَانٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ حَيٌُّ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَي اعْلَمُوا أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِكُمْ جَلِيلٌ وَلَا حَقِيرٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أَي لَا تَنْسُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَنْسِيَكُمْ الْعَمَلَ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمْ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَي الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، الْهَالِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

[لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أَي لَا يَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِمَّنَّاهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾. فِي آيَاتٍ آخَرَ دَلَالَتٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُكْرِمُ الْأَبْرَارَ وَيُعِينُ الْفُجَّارَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ أَي النَّاجُونَ السَّالِمُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهِيدُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ^(٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمِكُ الْقُدُّوسِ أَسَلَمُ الْمُؤْمِنِ الْمُهَيَّبِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ الْمُكْرِمِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(٤)

[بَيَانُ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُعْظَمًا لِأَمْرِ الْقُرْآنِ وَمُبَيِّنًا عُلُوَّ قَدْرِهِ، وَأَنَّهُ يَتَّبِعِي أَنْ تَخْشَعَ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَتَصَدَّعَ عِنْدَ سَمَاعِهِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ الْحَقِّ وَالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أَي إِذَا كَانَ الْجَبَلُ فِي غَلْظَتِهِ وَقَسَاوَتِهِ، لَوْ فَهَمَ هَذَا الْقُرْآنُ فَتَدَبَّرَ مَا فِيهِ، لَخْشَعَ وَتَصَدَّعَ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ يَا أَيُّهَا الْبَشَرُ أَنْ لَا تَلِينَ قُلُوبُكُمْ وَتَخْشَعَ وَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَدْ فَهَمْتُمْ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَتَدَبَّرْتُمْ كِتَابَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء

النَّبِيِّ ﷺ لِيُخَطِّبَ فَبَاوَزَ الْجِدْعَ إِلَى نَحْوِ الْمُسْبِرِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَرَّ الْجِدْعُ وَجَعَلَ بَيْنَ كَمَا بَيْنَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسْكَنُ، لِمَا كَانَ يَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ وَالْوَحْيِ عِنْدَهُ، فِيهِ بَعْضُ رَوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بَعْدَ إِيرَادِهِ: فَانْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَشْتَأَفُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْجِدْعِ^(١) وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِذَا كَانَتْ الْجِبَالُ الصُّمُّ لَوْ سَمِعَتْ كَلَامَ اللَّهِ وَفَهَمَتْهُ، لَخَشَعَتْ وَتَصَدَّعَتْ مِنْ خَشْيَتِهِ، فَكَيْفَ بِكُمْ وَقَدْ سَمِعْتُمْ وَفَهَمْتُمْ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا سِرَّاتٍ بِهِيَ الْجِبَالُ أَوْ قَطَعْتَ بِهِيَ الْأَرْضَ أَوْ لِكُلِّ مِهْرٍ بِهِيَ الْمَوْتِيُّ...﴾ الْآيَةُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنْ مَعْنَى ذَلِكَ أَيُّ لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارِ لَمَا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْفُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

[تَمْجِيدُ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ لِلْوُجُودِ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَبَاطِلٌ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَيُّ يَعْلَمُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْمُسَاهَدَاتِ لَنَا وَالْغَائِبَاتِ عَنَّا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، مِنْ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ، وَصَغِيرٍ وَكَبِيرٍ حَتَّى الذَّرُّ فِي الظُّلُمَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الشَّامِلَةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَهُوَ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رِزْقَكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ٥٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ أَيُّ الْمَالِكِ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا بِإِلَا مُمَانَعَةٍ وَلَا مُدَافَعَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ قَالَ وَهَبُ ابْنُ مُثَنَّبِيهِ: أَيُّ الطَّاهِرُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَيُّ الْمُبَارَكِ^(٢). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: تَقَدَّسَهُ الْمَلَائِكَةُ الْكِرَامُ^(٣).
﴿السَّلَامُ﴾ أَيُّ مِنْ جَمِيعِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، لِكَمَالِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَعَالِيهِ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:

أَيُّ أَمَّنْ خَلَقَهُ مِنْ أَنْ يَظْلَمَهُمْ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّنْ يَقُولُهُ: إِنَّهُ حَقٌّ^(٥). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: صَدَقَ عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ بِهِ^(٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمُهَيَّبُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيُّ الشَّاهِدُ عَلَى خَلْقِهِ بِأَعْمَالِهِمْ^(٧). بِمَعْنَى هُوَ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩] وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦] وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾... الْآيَةُ [الرعد: ٣٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْعَزِيزُ﴾ أَيُّ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَفَهَرَهُ، وَغَلَبَ الْأَشْيَاءَ فَلَا يَبَالُ جَنَابُهُ لِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَبْرُوتِهِ وَكِبْرِيَاةِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْجَبَّارُ الْمُنْكَرُ﴾ أَيُّ الَّذِي لَا تَلِيْقُ الْجَبْرِيَّةُ إِلَّا لَهُ، وَلَا التَّكْبَرُ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْجَبْرِيَّةُ رِدَائِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ»^(٨). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ الْخَلْقُ: التَّقْدِيرُ. وَالْبَرَاءُ: هُوَ الْفَرْقِيُّ، وَهُوَ التَّنْفِيذُ وَإِبْرَارُ مَا قَدَرَهُ وَقَرَرَهُ إِلَى الْوُجُودِ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ قَدَرَ شَيْئًا وَرَبَّهُ يَقْدِرُ عَلَى تَنْفِيذِهِ وَإِبْجَادِهِ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ أَيُّ الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ عَلَى الصُّفَةِ الَّتِي يُرِيدُ، وَالصُّوْرَةُ الَّتِي يَخْتَارُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الأنظار: ٨] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أَيُّ الَّذِي يُنْفِذُ مَا يُرِيدُ إِبْجَادَهُ عَلَى الصُّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا.

[الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ. وَتَذَكَّرُ الْحَدِيثَ الْمَرْوِيَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ. وَهُوَ وَتَرُ يُحِبُّ الْوَتَرَ»^(٩).

[كُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لِلَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كَقَوْلِهِ

(١) فتح الباري: ٦/٦٩٦ والدارمي: ١/٣٥، ٣٤ (٢) الطبري: ٢٣/٣٠٢ (٣) الدر المنثور: ٨/١٢٣ الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٤) الدر المنثور: ٨/١٢٣ (٥) الطبري: ٢٣/٣٠٣ (٦) الطبري: ٢٣/٣٠٣ (٧) البغوي: ٤/٣٢٦ (٨) مسلم: ٤/٢٠٢٣ (٩) فتح الباري: ١١/٢١٨ ومسلم: ٤/٢٠٦٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْتُمْ
 إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ
 وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِ
 وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
 وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ
 يَتَّقَوْكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ
 بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ
 كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
 إِنَّا بَرَاءٌ وَأَنْتُمْ مَعَنَا وَعَمَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا لَنَا
 وَيُنَازِعُكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا
 قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَكَ مَا تَشَاءُ وَتُبْنَا عَلَيْكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
 فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَارْزُقْنَا رِزْقًا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

تَعَالَى: ﴿سُجِّحَ لَهُ السَّيِّئَاتُ الَّتِي سَنَّ وَأَلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ
 إِلَّا يَسْجُجُ بِحَيْدِهِ. وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾
 [الإسراء: ٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَي فَلَا يُرَامُ
 جَنَابُهُ ﴿الْعَزِيمُ﴾ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

أَخْرَجُ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْحُسْرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة الممتحنة
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْتُمْ إِلَيْهِمْ
 بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ
 تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي
 تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ
 مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً
 وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ
 تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

[سَبَبُ نَزُولِ سُورَةِ الْمُمْتَحَنَةِ]

كَانَ سَبَبُ نَزُولِ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ قِصَّةَ حَاطِبِ
 ابْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ حَاطِبًا هَذَا كَانَ رَجُلًا مِنْ
 الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ أَيْضًا، وَكَانَ لَهُ بِمَكَّةَ
 أَوْلَادٌ وَمَالٌ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فُرَيْشٍ أَنْفُسِهِمْ، بَلْ كَانَ حَلِيفًا
 لِعُمَيَّانَ، فَلَمَّا عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا نَقَضَ
 أَهْلُهَا الْعَهْدَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّجْهِيزِ لِعِزْوِهِمْ
 وَقَالَ: «اللَّهُمَّ! عَمَّ عَلَيْهِمْ خَبْرَنَا». فَعَمَدَ حَاطِبٌ هَذَا
 فَكَتَبَ كِتَابًا وَبَعَثَهُ مَعَ امْرَأَةٍ مِنْ فُرَيْشٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ،
 يُعَلِّمُهُمْ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عِزْوِهِمْ، لِيَتَّخِذَ
 بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ يَدًا، فَاطَّلَعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ اسْتِجَابَةً لِدَعَائِهِ، فَبَعَثَ فِي أُمَّرِ الْمَرْأَةِ فَأَخَذَ
 الْكِتَابَ مِنْهَا، وَهَذَا بَيِّنٌ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ:
 أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ - وَقَالَ مَرَّةً: إِنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ
 أَبِي رَافِعٍ أَخْبَرَهُ - أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:
 بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمُقَدَّادُ فَقَالَ: «انْطَلِقُوا
 حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ فَإِنَّ بِهَا طَبِيعَتَهُ مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ

مِنْهَا» فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا حَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا
 نَحْنُ بِالطَّبِيعَةِ قُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، قَالَتْ: مَا مَعِيَ
 كِتَابٌ، قُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتَلْقَيْنَنَّ الْكِتَابَ، قَالَ:
 فَأَخْرَجَتِ الْكِتَابَ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَخَذْنَا الْكِتَابَ فَأَتَيْنَا بِهِ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى...
 (أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) بِمَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ! مَا هَذَا؟»
 قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأَةً مُلْصَقًا فِي فُرَيْشٍ وَلَمْ
 أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ
 قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ بِمَكَّةَ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ قَاتَيْتُ ذَلِكَ
 مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَاتِي،
 وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ
 بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ صَدَقَكُمْ». فَقَالَ
 عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى
 أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ». وَهَكَذَا

[الحج: ٤٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أَي إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَخْذَلُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي بَاغِينَ لِمَرْضَاتِي عَنْكُمْ، فَلَا تُؤَالُوا أَعْدَائِي وَأَعْدَاءَكُمْ، وَقَدْ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ حَقًّا عَلَيْكُمْ وَسَخَطًا لِدِينِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شِرُونَ إِلَيْهِ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُ﴾ أَي تَعْمَلُونَ ذَلِكَ وَأَنَا الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ وَالظَّوَاهِرِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ① إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ بِالشُّوْءِ أَي لَوْ قَدَرُوا عَلَيْكُمْ لَمَا اتَّقَوْا فِيكُمْ مِنْ أَدَى يَتَّالُونَكُمْ بِهِ بِالْمَقَالِ وَالْقَعَالِ ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أَي وَيَحْرُصُونَ عَلَى أَنْ لَا تَتَّالُوا خَيْرًا، فَهَمْ عَدَاؤُهُمْ لَكُمْ كَامِنَةٌ وَظَاهِرَةٌ، فَكَيْفَ تُؤَالُونَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ؟ وَهَذَا تَهْيِيجٌ عَلَى عَدَاؤِهِمْ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَي قَرَابَاتِكُمْ لَا تَنفَعُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ سُوءًا، وَنَفَعُهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ إِذَا أَرْضَيْتُمُوهُمْ بِمَا يُسَخِطُ اللَّهُ، وَمَنْ وَافَقَ أَهْلَهُ عَلَى الْكُفْرِ لِيَرْضِيَهُمْ فَقَدْ خَابَ وَحَسِرَ وَضَلَّ عَمَلُهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ قَرَابَتُهُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَوْ كَانَ قَرِيبًا إِلَى نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ» فَلَمَّا قَفَى دَعَاهُ فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»^(٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ^(٣).

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ② رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْرِضْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْمُجِيمُ ③ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَّوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ ④

الْحَمِيدُ ⑤

لِلْمُسْلِمِينَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِهِ فِي

أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ مِنْ غَيْرِ وَجِهٍ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ بِهِ، وَزَادَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَعَارِي: فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وَقَالَ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ: قَالَ عَمْرُو: وَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وَقَالَ: لَا أُدْرِي الْآيَةَ فِي الْحَدِيثِ أَوْ قَالَ عَمْرُو. قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ عَلِيُّ يَعْني ابْنَ الْمَدِينِيِّ: قِيلَ لِسُفْيَانَ: فِي هَذَا نَزَلَتْ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؟ فَقَالَ سُفْيَانُ: هَذَا فِي حَدِيثِ النَّاسِ حِفْظُهُ مِنْ عَمْرُو، مَا تَرَكْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَلَا أُدْرِي أَحَدًا حِفْظُهُ غَيْرِي^(١).

[الْأَمْرُ بِعَدَاوَةِ الْكُفَّارِ وَتَرْكِ مَوَالِيهِمْ]

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْفُوتَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يَعْني الْمَشْرِكِينَ وَالْكَفَّارَ الَّذِينَ هُمْ مُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ شَرَعَ اللَّهُ عَدَاؤَهُمْ وَمُضَارَمَتَهُمْ، وَنَهَى أَنْ يَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَخْلَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ يَتَّوَلَّهُمْ إِنَّهُ بَيْنَهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وَهَذَا تَهْلِيدٌ شَدِيدٌ وَرَعِيدٌ أَكِيدٌ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُومًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أَوَّلُوا الْكُفْرَ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءَ أَنْ يَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا اللَّهُ عَلَيْكُمْ مُسَلِّطًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وَلِهَذَا قِيلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُدْرَ حَاطِبٍ، لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مُضَانَعَةً لِقُرَيْشٍ، لِأَجْلِ مَا كَانَ لَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هَذَا مَعَ مَا قَبْلَهُ مِنَ التَّهْيِيجِ عَلَى عَدَاؤِهِمْ وَعَدَمِ مَوَالِيهِمْ، لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، كَرَاهَةً لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحَدُّهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أَي لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيمَانُكُمْ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَقْوُوا مِنْهُ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغِيْرٍ حَتَّىٰ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾

(١) فتح الباري: ١٦٦/٦، ٥٩٢/٧، ٥٠٢/٨، ١٩٤١/٤
 وأبو داود: ١٠٨/٣، وتحتفة الأحوذى: ١٩٨/٩، والنسائي في
 الكبرى: ٤٨٧/٦، (٢) أحمد: ٢٦٨/٣، (٣) مسلم: ١٩١/١
 وأبو داود: ٩٠/٥

تَبَرَّيْهِمْ عَنْ قَوْمِهِمُ الْكَفَّارِ

يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ بِمُصَارَمَةِ
الْكَافِرِينَ وَعَدَاوَتِهِمْ وَمُجَانَبَتِهِمْ وَالتَّبَرِّيَ مِنْهُمْ: ﴿قَدْ كَانَتْ
لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أَيُّ وَأَتْبَاعُهُ الَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ ﴿إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بِرَأْسِهِمْ أُولَىٰ بِكُمْ﴾ أَيُّ تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ
﴿وَمَا تَبَدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَثَرْنَا بِكُمْ﴾ أَيُّ بِدِينِكُمْ وَطَرَفِكُمْ
﴿وَبِنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعِدَاةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ بِعَيْنِي وَقَدْ شَرَعَتْ
الْعِدَاةُ وَالْبَغْضَاءُ مِنَ الْآنِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، مَا دُمْتُمْ عَلَى
كُفْرِكُمْ فَتَحْنُ أَبَدًا تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ وَبَغِضْنَاكُمْ ﴿حَتَّىٰ تَوَدُّوا بِاللَّهِ
وَحَدَّيْهِ﴾ أَيُّ إِلَىٰ أَنْ تُوْحِدُوا اللَّهَ فَتَعْبُدُوهُ وَحَدَّيْهِ لَا شَرِيكَ
لَهُ، وَتَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مَعَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ. وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أَيُّ لَكُمْ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَّسُونَ بِهَا إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ
كَانُوا يَدْعُونَ لِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ وَاسْتَغْفِرُونَ
لَهُمْ وَيَقُولُونَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ
وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿١٣٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ
مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّلُ حَسْبٍ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقال تعالى في هذه الآية: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ
فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بِرَأْسِهِمْ أُولَىٰ
بِكُمْ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ أَسْوَةٌ أَيُّ فِي الاسْتِغْفَارِ
لِلْمُشْرِكِينَ، هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَمَقَاتِلُ
ابْنُ حَيَّانَ، وَالضَّحَّاكُ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ حِينَ
فَارَقُوا قَوْمَهُمْ وَتَبَرَّأُوا مِنْهُمْ، فَلَجَّأُوا إِلَى اللَّهِ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ
فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أَيُّ تَوَكَّلْنَا
عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَسَلَّمْنَا أُمُورَنَا إِلَيْكَ وَقَوَّضْنَاهَا
إِلَيْكَ ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أَيُّ الْمَعَادُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿رَبَّنَا لَا
تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ لَا تُعَذِّبْنَا
بَأَيْدِيهِمْ وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ فَيَقُولُوا: لَوْ كَانَ هَذَا عَلَى
حَقٍّ مَا أَصَابَهُمْ هَذَا^(٢). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ. وَقَالَ قَتَادَةُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٠

سُورَةُ الْمَمْتَحَنَةِ

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٧﴾ لَّا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِّنْ دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهْتَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حُلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لهنَّ وَأَتَوْهُنَّ
مَا آنَفَقُوا وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
وَلَا تَمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَسْئَلُوا مَا آنَفَقْتُمْ وَلَا تَسْئَلُوا مَا آنَفَقُوا
ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُنَّ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَرْزَاقُهُمْ مِّثْلَ مَا آنَفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

لَا تُظْهِرُهُمْ عَلَيْنَا فَيَقْتَتِلُوا بِذَلِكَ، يَرُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ظَهَرُوا
عَلَيْنَا لِحَقِّ هُمْ عَلَيْهِ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ
أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا تُسْأَلُهُمْ عَلَيْنَا فَيَقْتَتِلُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ
وَاسْتَرْ ذُنُوبَنَا عَنْ غَيْرِكَ، وَاعْفُ عَنْهَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ
﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أَيُّ الَّذِي لَا يُضَامُ مِنْ لَدَىٰ جَنَابِكَ
﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ، وَشَرَعِكَ وَقَدْرِكَ، ثُمَّ
قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ وَمُسْتَشْتَىٰ مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ
أَيْضًا، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُسْوَةَ الْمُثَبَّتَةَ هَهُنَا هِيَ الْأُولَىٰ بِعَيْنِهَا،
وقوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تَهْيِيجٌ إِلَى
ذَلِكَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ وَالْمَعَادِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾
أَيُّ عَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَيُّ

حَمِيدٌ ﴿إِبْرَاهِيمَ: ٨﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَعَنُ﴾ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي غِنَاهُ وَهُوَ اللَّهُ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَبْغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفَاءٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿حَمِيدٌ﴾ الْمُسْتَحْمَدُ^(*) إِلَى خَلْقِهِ، أَيْ هُوَ الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَبْنِيكُمْ وَيَبْنِي الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) لَا يَهْنِكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَهْنِكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَقُولُوا وَمَنْ يَبُولُكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

[عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْدَائِهِمْ مَوَدَّةً] يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ بِعِدَاوَةِ الْكَافِرِينَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَبْنِيكُمْ وَيَبْنِي الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ أَي مَحَبَّةً بَعْدَ الْبُغْضَةِ، وَمَوَدَّةً بَعْدَ النِّفَرَةِ، وَأَلْفَةً بَعْدَ الْفُرْقَةِ ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أَي عَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَافِرَةِ وَالْمَتَابِيَةِ وَالْمُخْتَلِفَةِ، فَيُؤَلِّفُ بَيْنَ الْقُلُوبِ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ وَالْقَسَاوَةِ فَتُصْبِحُ مُجْتَمِعَةً مُتَّفِقَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى الْأَنْصَارِ: ﴿وَأَذْكُرُوا لِمَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾... الْآيَةَ [آل عمران: ١٠٣]. وَكَذَا قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا لَا يَهْدِي اللَّهُ إِلَّا لِقَوْمٍ يُفَصِّلُ لَهُمْ سُبُلَهُمْ فَالْقَوْمُ اللَّهُ بِي؟»^(١). وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ وَإِلْمًا وَمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] وَفِي الْحَدِيثِ: «أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنَا مَا، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِضْكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغَضُ بَغِضْكَ هَوْنَا مَا، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي يَغْفِرُ لِلْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِذَا تَابُوا مِنْهُ وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ بِكُلِّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ.

[يَجُوزُ الْإِحْسَانُ إِلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَ فِي

الدِّينِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَهْنِكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ

وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أَي يَعَاوِنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، أَي لَا يَنْهَأَكُمُ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ، كَالنِّسَاءِ وَالصَّغَفَةِ مِنْهُمْ ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ أَي تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أَي تَعْدِلُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: قَدِمْتُ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاعِيَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ»^(٣).

أَخْرَجَاهُ^(٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَدِمْتُ فَتَيْلَةَ عَلَى ابْنَتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ بِهَدَايَا: ضَبَابٍ وَأَطِيطٍ وَسَمْنٍ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَأَتَيْتُ أَسْمَاءَ أَنْ تَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا وَأَنْ تُدْخِلَهَا بَيْتَهَا. فَسَأَلْتُ عَائِشَةَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَهْنِكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. فَأَمَرَهَا أَنْ تَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا وَأَنْ تُدْخِلَهَا بَيْتَهَا^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْحُجُرَاتِ، وَأُورِدَ الْحَدِيثَ الصَّحِيحُ: «الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ بَيْنِ الْعَرْشِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»^(٦).

[النَّهْيُ عَنِ مَوَالَاتِ الْمُحَارِبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَهْنِكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَقُولُوا﴾ أَي إِنَّمَا يَنْهَأَكُمُ عَنِ مَوَالَاتِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَاصَبُوكُمْ بِالْعِدَاوَةِ، فَقَاتَلُوكُمْ وَأَخْرَجُوكُمْ، وَعَاوَنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، يَنْهَأَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ مَوَالَاتِهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِعِدَادَاتِهِمْ، ثُمَّ أَكَّدَ الْوَعِيدَ عَلَى مَوَالَاتِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَبُولُكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْذَرُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ لِقَوْمٍ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَبُولُكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لهنَّ وَلَا هُنَّ يَبُولُونَ حَتَّىٰ يُؤْمِرَهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُسَبِّحُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ

(*) أي يحين إلى الناس ما يستوجب حمد الناس إليه فهو المستحمد (١) فتح الباري: ٦٤٤/٧ (٢) تحفة الأحوذى: ٦/١٣٣ (٣) أحمد: ٣٤٤/٦ (٤) فتح الباري: ٢٧٥/٥ ومسلم: ٦٩٦/٢ (٥) أحمد: ٤/٤ (٦) مسلم: ١٤٥٨/٣

وَلَسْتُلُوا مَا أَنْفَقُوا دَلِيلَكُمْ حَكْمَ اللَّهِ يَخَافُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾
 وَإِن فَاتَكُمْ سُنَّةٌ مِّنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَلَيْكُمْ فَاتُوا الذُّبْنَ ذَهَبَتْ
 أَرْزَاقُهُمْ يَتَلَّ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
 [تَخْصِيصُ الْمُسْلِمَاتِ بَعْدَ رَدِّهِنَّ إِلَى الْكُفَّارِ إِذَا
 هَاجَرْنَ بَعْدَ الْحُدُوبِ]

تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ ذِكْرُ صُلْحِ الْحُدُوبِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَكَانَ فِيهِ: عَلَيَّ أَنْ لَا
 يَأْتِيكَ مِنِّي رَجُلٌ وَإِن كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيَّ. وَفِي
 رِوَايَةٍ: عَلَيَّ أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنِّي أَحَدٌ وَإِن كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا
 رَدَدْتَهُ إِلَيَّ، وَهَذَا قَوْلُ عُرْوَةَ وَالضَّحَّاكِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
 زَيْدٍ، وَالزُّهْرِيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَالسُّدِّيِّ. فَعَلَى هَذِهِ
 الرِّوَايَةِ تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مُخَصَّصَةً لِلسُّنَّةِ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ
 أَمَلَةٍ ذَلِكَ، وَعَلَى طَرِيقَةٍ بَعْضُ السَّلَفِ نَاسِخَةٌ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
 وَجَلَّ أَمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا جَاءَهُمُ النِّسَاءُ مَهَاجِرَاتٍ أَنْ
 يَمْتَحِنُوهُنَّ، فَإِنَّ عِلْمَهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى
 الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي
 تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَحْمَدَ بْنِ جَحْشٍ مِنَ الْمُسْتَدِ
 الْكَبِيرِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَحْمَدَ قَالَ: هَاجَرَتْ أُمُّ كَلْثُومِ
 بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ فِي الْهَجْرَةِ، فَخَرَجَ أَخَوَاهَا عُمَارَةُ
 وَالْوَلِيدُ حَتَّى قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَاهُ فِيهَا أَنْ
 يَرُدَّهَا إِلَيْهِمَا، فَتَقَضَّى اللَّهُ الْعَهْدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فِي
 النِّسَاءِ خَاصَّةً، فَمَنَعَهُمْ أَنْ يَرُدُّوهُنَّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْزَلَ
 اللَّهُ آيَاتِ الْإِمْتِحَانِ ^(١).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ وَكَانَ
 امْتِحَانُهُنَّ أَنْ يَشْهَدَنَّ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ
 وَرَسُولُهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فَاسْأَلُوهُنَّ عَمَّا جَاءَ
 بِهِنَّ، فَإِذَا كَانَ جَاءَ بِهِنَّ غَضَبٌ عَلَى أَرْوَاجِهِنَّ أَوْ سَخَطَةٌ
 أَوْ غَيْرُهُ وَلَمْ يُؤْمِنَنَّ فَارْجِعُوهُنَّ إِلَى أَرْوَاجِهِنَّ ^(٢).
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى
 الْكُفَّارِ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يُمَكِّنُ الْإِطْلَاعَ عَلَيْهِ
 يَقِينًا.

[حُرْمَةُ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَالْمُشْرِكَاتِ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ
 هِيَ الَّتِي حَرَمَتْ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ كَانَ

حَاجِزًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْمُشْرِكُ الْمُؤْمِنَةَ،
 وَلِهَذَا كَانَ أَبُو الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ زَوْجَ ابْنَةِ النَّبِيِّ ﷺ زَيْنَبَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَدْ كَانَتْ مُسْلِمَةً وَهُوَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ،
 فَلَمَّا وَقَعَ فِي الْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ بَعَثَتْ أُمْرَأَتَهُ زَيْنَبَ فِي فِدَائِهِ
 بِقِلَادَةٍ لَهَا كَانَتْ لِأُمِّهَا حَدِيدَةً، فَلَمَّا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 رَقَّ لَهَا رَقَّةً شَدِيدَةً، وَقَالَ لِلْمُسْلِمِينَ: «إِن رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِفُوا
 لَهَا أَسِيرَهَا فَافْعَلُوا» فَفَعَلُوا فَأُطْلِفَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ
 يَبْعَثَ ابْنَتَهُ إِلَيْهِ، فَوَفَّى لَهُ بِذَلِكَ وَصَدَقَهُ فِيمَا وَعَدَهُ وَبَعَثَهَا
 إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(٣).

فَأَقَامَتْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ بَعْدِ وَقَعَةِ بَدْرٍ. وَكَانَتْ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ إِلَى
 أَنْ أَسْلَمَ زَوْجُهَا أَبُو الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ سَنَةَ ثَمَانٍ ^(٤) فَرُدَّهَا
 عَلَيْهِ بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهَا صَدَاقًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ يَعْنِي أَزْوَاجَ
 الْمَهَاجِرَاتِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِذْ فَعَلُوا إِلَيْهِمُ الَّذِي غَرَّمُوهُ
 عَلَيْهِنَّ مِنَ الْأَصْدَقَةِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ
 وَالزُّهْرِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ ^(٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ يَعْنِي إِذَا أُعْطِيَتْهُمُوهُنَّ
 أَصْدَقَتَهُنَّ فَانكِحُوهُنَّ، أَيْ تَزَوَّجُوهُنَّ بِشَرْطِهِ مِنْ انْقِضَاءِ
 الْعِدَّةِ وَالْوَلِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ
 الْكُفَّارِ﴾ تَحْرِيمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ نِكَاحِ
 الْمُشْرِكَاتِ وَالْإِسْمِرَارِ مَعَهُنَّ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ الْمُسَوِّرِ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ: أَنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا عَاهَدَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدُوبِ، جَاءَهُ
 نِسَاءٌ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ
 الْكُفَّارِ﴾ فَطَلَّقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ، تَزَوَّجَ
 إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنَ
 أُمَيَّةَ ^(٦). وَقَالَ ابْنُ ثَوْرٍ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ: أَنْزَلَتْ هَذِهِ
 الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِأَسْفَلِ الْحُدُوبِ حِينَ
 صَالَحَهُمْ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَنَاهُ مِنْهُمْ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا جَاءَ
 النِّسَاءُ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَرُدَّ الصَّدَاقَ إِلَى

(١) جامع المسانيد: ٢٤٣/٧ فيه عبدالعزيز بن عمران وهو متروك
 انظر ما قال ابن حجر في التقریب (٤٦١٣) (٢) الطبري: ٢٣/
 ٣٢٦ إسناده ضعيف لضعف العوفي (٣) أبو داود: ١٤٠/٣ (٤)
 الصحيح أنه سنة ست قبل الحديبية وقبل نزول هذه الآية (٥)
 الطبري: ٣٢٨/٢٣، ٣٢٩ (٦) فتح الباري: ٣٩١/٥

أَزْوَاجِهِمْ، وَحَكَمَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِثْلَ ذَلِكَ إِذَا جَاءَهُمْ
امْرَأَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرُدُّوا الصَّدَاقَ إِلَى أَزْوَاجِهِمْ وَقَالَ:
﴿وَلَا تُسْكَرُوا بِعَصْمِ الْكُفَّارِ﴾^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَسَلْنَا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ أَي
وَطَالِبُوا بِمَا أَنْفَقْتُمْ عَلَى أَزْوَاجِكُمْ اللَّاتِي يَذْهَبْنَ إِلَى الْكُفَّارِ
إِنْ ذَهَبْنَ، وَلِطَالِبُوا بِمَا أَنْفَقُوا عَلَى أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي
هَاجَرْنَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ أَي فِي
الصُّلْحِ وَاسْتِنَاءِ النِّسَاءِ مِنْهُ، وَالْأَمْرُ بِهَذَا كُلُّهُ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ
بِحُكْمِهِ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَي عَلِيمٌ بِمَا يَضِلُّحُ
عِبَادَهُ، حَكِيمٌ فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ فَاتَكَ شَيْءٌ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَبِلْتُمْ فَتَاوَا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا
أَنْفَقُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هَذَا فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ
عَهْدٌ إِذَا فَرَّتْ إِلَيْهِمْ امْرَأَةٌ وَلَمْ يَدْفَعُوا إِلَى زَوْجِهَا شَيْئًا،
فَإِذَا جَاءَتْ مِنْهُمْ امْرَأَةٌ لَا يُدْفَعُ إِلَى زَوْجِهَا شَيْءٌ حَتَّى يَدْفَعَ
إِلَى زَوْجِهَا النَّدَاهِيَةَ إِلَيْهِمْ مِثْلَ نَفَقَتِهِ عَلَيْهَا^(٢). وَرَوَى ابْنُ
جَرِيرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَقْرَأَ الْمُؤْمِنُونَ بِحُكْمِ اللَّهِ فَأَدَّوْا مَا
أَمُرُوا بِهِ مِنْ نَفَقَاتِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي أَنْفَقُوا عَلَى نِسَائِهِمْ،
وَأَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَقْرَءُوا بِحُكْمِ اللَّهِ فِيمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ
أَدَاءِ نَفَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ: ﴿وَإِنْ
فَاتَكَ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَبِلْتُمْ فَتَاوَا الَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

فَلَوْ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَعْدَ هَذِهِ آيَةِ امْرَأَةٍ مِنْ أَزْوَاجِ الْمُؤْمِنِينَ
إِلَى الْمُشْرِكِينَ، رَدَّ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى زَوْجِهَا النِّفَقَةَ الَّتِي أَنْفَقَ
عَلَيْهَا مِنَ الْعَيْبِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ، الَّذِي أَمُرُوا أَنْ يَرُدُّوهُ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مِنْ نَفَقَاتِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوا عَلَى أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي
أَمَنَ وَهَاجَرْنَ، ثُمَّ رَدُّوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَضْلًا إِنْ كَانَ بَقِيَ
لَهُمْ، وَالْعَيْبُ مَا كَانَ بَقِيَ مِنْ صَدَاقِ نِسَاءِ الْكُفَّارِ حِينَ أَمَنَ
وَهَاجَرْنَ^(٣).

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُمْسِكَنَّ بِاللهِ
شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهِنَّ
بِقَرْنَيْنِ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْيِبَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَيَابِعَهُنَّ
وَاسْتَغْفِرَ لهنَّ اللهُ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤)

[الْأُمُورُ الَّتِي يُبَايِعُ عَلَيْهَا النِّسَاءُ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ
أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنْ

٥٥١
يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُمْسِكَنَّ
بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْيِبَنَّكَ
فِي مَعْرُوفٍ فَيَابِعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لهنَّ اللهُ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَانْتَوَلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ
قَدْ بَيَّسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا بَيَّسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾^(٥)

سُورَةُ الصِّفَاتِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١)
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ
اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ
بُنِينَ مَرْصُوصٍ ﴿٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ
تُؤَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
زَاعُوا أَرْوَاحَ اللهِ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ آيَةِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ
يُبَايِعُكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقْرَأَ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْ
الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ: «قَدْ بَايَعْتِكِ» كَلَامًا، وَلَا
وَاللهُ! مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ فِي الْمُبَايَعَةِ قَطُّ، وَمَا يُبَايِعُهُنَّ
إِلَّا بِقَوْلِهِ: «قَدْ بَايَعْتِكِ عَلَى ذَلِكَ»^(٤) هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ قَالَتْ: أَتَيْتُ
رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي نِسَاءٍ لِنُبَايَعُهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ
أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا... الآية، وَقَالَ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ
وَأَطَقْتُنَّ» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، قُلْنَا: يَا
رَسُولَ اللهِ! أَلَا تُصَافِحُنَا؟ قَالَ: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ،
إِنَّمَا قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، كَقَوْلِي لِإِمَائَةِ امْرَأَةٍ»^(٥). هَذَا

(١) الطبري: ٣٢٩/٢٣ (٢) الطبري: ٣٣٨/٢٣ (٣) الطبري:
٣٣٧/٢٣ (٤) فتح الباري: ٥٠٤/٨ (٥) أحمد: ٣٥٧/٦

قَتْلَهُ وَهُوَ جَنِينٌ، كَمَا قَدْ يَقَعُهُ بَعْضُ الْجَهْلَةِ مِنَ النِّسَاءِ تُطْرَحُ نَفْسُهَا لِتَلَا تَحْبُلَ، إِمَّا لِعَرَضٍ فَاسِيدٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْني لَا يُلْحِقْنَ بِأَرْوَاجِهِنَّ غَيْرَ أَوْلَادِهِنَّ^(٩) وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ يَعْني فِيمَا أَمَرْتَهُنَّ بِهِ مِنْ مَعْرُوفٍ وَنَهَيْتَهُنَّ عَنْهُ مِنْ مُنْكَرٍ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قَالَ: إِنَّمَا هُوَ شَرْطٌ شَرَطَهُ اللَّهُ لِلنِّسَاءِ^(١٠). وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ طَاعَةَ لِنَبِيِّهِ إِلَّا فِي الْمَعْرُوفِ، وَالْمَعْرُوفُ طَاعَةٌ^(١١). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ وَهُوَ خَيْرُهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ: فِي الْمَعْرُوفِ^(١٢).

وَرَوَى ابْنُ جَبْرِ عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ الْأَنْصَارِيَّةِ قَالَتْ: كَانَ فِيمَا اشْتَرَطَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ حِينَ بَايَعَنَا، أَنْ لَا نَنْوَحَ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي فُلَانٍ: إِنَّ بَنِي فُلَانٍ أَسْعَدُونِي فَلَا حَتَّى أَجْزِيَهُمْ، فَاَنْطَلَقَتْ فَاسْعَدْتَهُمْ ثُمَّ جَاءَتْ فَبَايَعَتْ، قَالَتْ: فَمَا وَفَى مِنْهُنَّ غَيْرَهَا وَغَيْرَ أُمِّ سُلَيْمِ ابْنَةِ مِلْحَانَ أُمَّ أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ^(١٣).

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ طَرِيقِ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ، عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ نَسِيئَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(١٤). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ أَبِي أُسَيْدِ الْبَرَادِ، عَنْ امْرَأَةٍ مِنَ الْمُبَايَعَاتِ قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا نَعْصِيهِ فِي مَعْرُوفٍ: أَنْ لَا نَخْمِسَ وَجْهًا، وَلَا نَنْشُرَ شَعْرًا، وَلَا نَسُقُ جَيْبًا، وَلَا نَدْعُو وَيْلًا. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾^(١٥)

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مُوَالَاةِ الْكُافِرِينَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ كَمَا نَهَى عَنْهَا فِي أَوَّلِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْني الْيَهُودَ

إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(١٦). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ قَالَتْ: بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْنَا: ﴿أَنْ لَا يُشْرَكَ بِإِلَهِ سِوَاكَ﴾ وَنَهَانَا عَنْ النَّبَاحَةِ، فَقَبَضَتِ امْرَأَةٌ يَدَهَا قَالَتْ: أَسْعَدْتَنِي فَلَانَةٌ فَأَرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا، فَمَا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا، فَاَنْطَلَقَتْ وَرَجَعَتْ فَبَايَعَهَا^(١٧). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١٨).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ: «تُبَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ» - قَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي أَخَذَتْ عَلَى النِّسَاءِ: «إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ» - فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسْتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ^(١٩) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢٠).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّتِي إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ﴾ أَيُّ مَنْ جَاءَكَ مِنْهُنَّ يُبَايِعُ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ فَبَايَعَهَا ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَ﴾ أَمْوَالِ النَّاسِ الْأَجَانِبِ، فَمَا إِذَا كَانَ الرَّوْحُ مُقْضًى فِي نَفْسِهَا، فَلَهَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةٌ أُمَّثَلِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ، عَمَلًا بِحَدِيثِ هِنْدِ بِنْتِ عُنْبَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ لَا يُعْطِينِي مِنَ الثَّمَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ، مَا يَكْفِيكَ وَيَكْفِي بَنِيكَ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] وَفِي حَدِيثِ سَمُرَةَ: ذَكَرَ عُقُوبَةَ الزَّنَاةِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي نَارِ الْجَحِيمِ^(٢٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عُنْبَةَ تُبَايِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ عَلَيْهَا: ﴿أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَ وَلَا يَزْنِيَ﴾... الْآيَةَ، قَالَ: فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا حَيَاءً، فَأَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْهَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَوْقِي أَيْتُهَا الْمَرْأَةَ! فَوَاللَّهِ! مَا بَايَعَنَا إِلَّا عَلَى هَذَا، قَالَتْ: فَتَعَمَّ إِذَا، فَبَايَعَهَا بِالْآيَةِ^(٢٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ قَتْلَهُ بَعْدَ وُجُودِهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ، وَيَعْمُ

(١) تحفة الأحادي: ٢٢٠/٥ والنسائي: ١٤٩/٧ والنسائي في الكبرى: ٤٨٨/٦ وابن ماجه: ٩٥٩/٢ (٢) فتح الباري: ٨/٥٠٦ (٣) مسلم: ٦٤٦/٢ (٤) أحمد: ٣١٤/٥ (٥) فتح الباري: ١٨٣/١٣ (٦) فتح الباري: ١٣٣٣/٣ (٧) أحمد: ٩/٥ (٨) أحمد: ١٥١/٦ (٩) الطبري: ٣٤٠/٢٣ (١٠) فتح الباري: ٥٠٦/٨ (١١) القرطبي: ٧٣/١٨ (١٢) الطبري: ٣٤٥/٢٣ (١٣) الطبري: ٣٤٦/٢٣ (١٤) البخاري: ٤٨٩٢

بِهِ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِالْوَعْدِ مُطْلَقًا، سَوَاءَ تَرْتَبَ عَلَيْهِ عَزْمٌ لِلْمَوْعُودِ أَمْ لَا، وَاحْتَجَّوْا أَيْضًا مِنَ السُّنَنِ بِمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أُتِمِّنَ خَانَ»^(٤). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ فِي الصَّحِيحِ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ حَظْلَةً مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعَهَا»^(٥). فَذَكَرَ مِنْهُنَّ إِخْلَافَ الْوَعْدِ، وَقَدْ اسْتَفْصَيْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ، وَلِهَذَا أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَامِرِ ابْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا صَبِيٌّ، فَذَهَبْتُ لِأَخْرُجَ لِأَلْعَبَ فَقَالَتْ أُمِّي: يَا عَبْدَ اللَّهِ! تَعَالَي أَعْطِكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ؟» قَالَتْ: تَمْرًا. فَقَالَ: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُنَيْتِ عَلَيْكَ كَذْبَةً»^(٦). قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: لَوْ نَعَلِمَ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ لَعَمِلْنَا بِهِ، فَذَلَّهُمُ اللَّهُ عَلَى أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ فَبَيَّنَ لَهُمْ، فَابْتُلُوا يَوْمَ أُحُدٍ بِذَلِكَ، فَوَلَّوْا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُدْبِرِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وَقَالَ: أَحْبَبُّكُمْ إِلَيَّ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِي^(٧).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَنْزَلَتْ فِي شَأْنِ الْقِتَالِ، يَقُولُ الرَّجُلُ: قَاتَلْتُ. وَلَمْ يُقَاتِلْ. وَطَعَنْتُ. وَلَمْ يَطْعَنْ. وَصَرَبْتُ. وَلَمْ يَضْرِبْ، وَصَبَرْتُ. وَلَمْ يَضْبِرْ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ تَوْبِيخًا لِقَوْمٍ كَانُوا يَقُولُونَ: قَتَلْنَا وَضَرَبْنَا وَطَعْنَا وَفَعَلْنَا، وَلَمْ يَكُونُوا فَعَلُوا ذَلِكَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ وَمَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَاسْتَحَقَّ مِنَ اللَّهِ الطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ، فَكَيْفَ تَوَالُونَهُمْ وَتَتَّخِذُونَهُمْ أَصْدِقَاءَ وَأَحْيَاءَ، وَقَدْ يَبْسُوْنَ مِنَ الْآخِرَةِ، أَيْ مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَتَعْيِيبِهَا فِي حُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْسَبِ الْقُبُورِ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ الْأَحْيَاءُ مِنَ قَرَابَاتِهِمْ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ أَنْ يَجْتَمِعُوا بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بَعثًا وَلَا نُشُورًا، فَقَدْ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ مِنْهُمْ فِيمَا يَعْتَقِدُونَهُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي، مَعْنَاهُ: كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ هُمْ فِي الْقُبُورِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ. قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الصُّحَى، عَنْ سَرْوِقٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْسَبِ الْقُبُورِ﴾ قَالَ: كَمَا يَبْسُ هَذَا الْكَافِرُ إِذَا مَاتَ وَعَايَنَ ثَوَابَهُ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَمُقَاتِلَ وَابْنِ زَيْدٍ وَالْكَلْبِيِّ وَمَنْصُورٍ^(٨). وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جُرَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٩). آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّفِّ وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الصَّفِّ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ: تَذَكَّرْنَا أَيْكُمْ يَا نَبِيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَيَسْأَلُهُ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ مَنَّا، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْنَا رَجُلًا، فَحَمَعَنَا فَقَرَأَ عَلَيْنَا هَذِهِ السُّورَةَ، يَعْنِي سُورَةَ الصَّفِّ كُلَّهَا^(١٠). هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوعِينَ ﴿٤﴾

[ذَمُّ مَنْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفْعَلُهُ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ غَيْرَ مَرَّةٍ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يَعِدُ عِدَّةً أَوْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفْعَلُهُ

(١) الطبري: ٣٤٨/٢٣ (٢) الطبري: ٣٤٨/٢٣ (٣) أحمد: ٤٥٢/٥ (٤) فتح الباري: ١١١/١ ومسلم: ٧٨/١ (٥) فتح الباري: ١١١/١ (٦) أحمد: ٤٤٧/٣ وأبو داود: ٢٦٥/٥ إسناده ضعيف لجهالة مولى من حوالي عبدالله بن عامر إلا أن الشيخ الألباني أورده في الصحيحة (٧٤٨) لشواهد (٧) الدر المنثور: ١٤٦/٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٢

سُورَةُ الصَّفِّ

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْتِكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٦٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَى تَحْوِيلِهِ نُنَجِّيكَ مِنْ غَلَابِ الْمَمِيقِ ﴿٦٤﴾ تَوَسَّلْنَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَبْدِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْجَنَّةُ الْعَظِيمَةُ ﴿٦٦﴾ وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا مَنْ تَطَافَيْتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَافَيْتُ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَاصْبِرُوا لَهَا إِنَّ اللَّهَ

الَّذِينَ يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُقَاتِلُ الْعَدُوَّ إِلَّا أَنْ يُصَافَهُمْ، وَهَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ^(١). قَالَ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ مَرَضُوسٌ﴾ أَيُّ مُلْتَصِقٌ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ مِنَ الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: مُلْتَصِقٌ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ مَرَضُوسٌ﴾ مُثَبَّتٌ لَا يَزُولُ، مُلْتَصِقٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُعْمِرُ لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْتِكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦١﴾

[خَطَابُ مُوسَى لِقَوْمِهِ عَلَىٰ أَذَاهُمْ وَإِزَاغَةَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أَيُّ لِمَ تُوصَلُونَ الْأَذَى إِلَيَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي فِيَمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ. وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيَمَا أَصَابَهُ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَمْرٌ لَهُ بِالصَّبْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»^(٣). وَفِيهِ نَهْيٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّالُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ يُوصَلُوا إِلَيْهِ أَدَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فِرْيَانًا اللَّهُ مَعًا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أَيُّ فَلَمَّا عَدَلُوا عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ مَعَ عَلِيمِهِمْ بِهِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْهُدَى، وَأَسْكَنَهَا الشُّكَّ وَالْحَيْرَةَ وَالْخِذْلَانَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنزَلُهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُسَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

[تَبْسِيرُ عِيسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِاسْمِهِ أَحْمَدَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْتِكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا

رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ قَدْ بَشَّرَتْ بِي، وَأَنَا مُصَدِّقٌ مَا أَخْبَرَتْ عَنْهُ، وَأَنَا مُبَشِّرٌ بِمَنْ بَعْدِي، وَهُوَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْعَرَبِيُّ الْمَكِّيُّ أَحْمَدُ. فِعْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ خَاتِمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ أَقَامَ فِي مَلَأِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَشِّرًا بِمُحَمَّدٍ، وَهُوَ أَحْمَدُ، خَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِي لَا رِسَالَةَ بَعْدَهُ وَلَا نُبُوَّةَ. وَمَا أَحْسَنَ مَا أوردَ الْبُخَارِيُّ الْحَدِيثَ الَّذِي روي فِيهِ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ»^(٤) وَرواه مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ بِهِ نَحْوَهُ^(٥).

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبَرْنَا

(١) القرطبي: ٨١/١٨ (٢) الدر المنثور: ١٤٧/٨ (٣) فتح الباري: ٦٥٢/٧ (٤) فتح الباري: ٥٠٩/٨ (٥) مسلم: ٤/٤

اشْتَعَفَرَ لَهُ حِينَ بَلَغَهُ مَوْلَاهُ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ جَرِيرٍ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أَحْمَدُ أَيُّ الْمُبَشَّرِ بِهِ فِي الْأَعْصَارِ الْمُتَقَادِمَةِ، الْمُنْتَوَى بِذِكْرِهِ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، لَمَّا ظَهَرَ أَمْرُهُ وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ، قَالَ الْكُفْرَةُ وَالْمُخَالَفُونَ: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُبِينٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْمُدَيِّنِ وَوَدِينِ لِنَقِي لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٩) [ذَكَرُ أَظْلَمَ النَّاسِ وَالْبِشَارَةَ بِإِثْمَامِ نُورِ الْإِسْلَامِ وَعَلَبْتِهِ عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أَيُّ: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَقْتَرِي الْكُذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَيَجْعَلُ لَهُ أُنْدَادًا وَسُرَكَاءَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أَيُّ يُحَاوِلُونَ أَنْ يُزِدُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شِعَاعَ الشَّمْسِ فِيهِ، وَكَمَا أَنَّ هَذَا مُسْتَحِيلٌ كَذَاكَ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مُبِينٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْمُدَيِّنِ وَوَدِينِ لِنَقِي لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٩) وَهَذَا تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْعَةٍ تَنَجِّيكُمْ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (١٠) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١) يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَتَ طَيْبَةً فِي جَنَّتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢) وَلِخَيْرِ يُحِبُّونَهَا نَصْرًا مِنَ اللَّهِ وَفَتْحًا قَرِيبًا وَيَنْزِرُ الْمُنِيمِينَ﴾ (١٣) [التَّجَارَةُ الْمُنْجِيَّةُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ]

تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِيَفْعَلُوهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ

عَنْ نَفْسِكَ قَالَ: «دَعَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبَشَّرَ عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورٌ بَصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ»^(١). وَهَذَا إِسْنَادٌ حَيْدٌ. وَرَوَى لَهُ شَوَاهِدٌ مِنْ وَجْهِ أُخْرَى، فَزَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْعُرْبَانِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدٌ فِي طَيْبَتِهِ، وَسَأَنْبِئُكُمْ بِأَوْلِ ذَلِكَ: دَعَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةَ عِيسَى بِي، وَرَوَّيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أَمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ بَرِينَ»^(٢). وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي أَمَامَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا كَانَ بَدَأَ أَمْرِيكَ؟ قَالَ: «دَعَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبَشَّرَ عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»^(٣).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ نَحْوُ مِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَجَعْفَرُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُرْفُطَةَ، وَعُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ وَأَبُو مُوسَى، فَأَتَوْا النَّجَاشِيَّ، وَبَعَثَتْ فُرَيْشُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَعَمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بِهَدِيَّةٍ، فَلَمَّا دَخَلَا عَلَى النَّجَاشِيِّ سَجَدَا لَهُ، ثُمَّ ابْتَدَرَاهُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَا لَهُ: إِنْ نَفَرْنَا مِنْ بَنِي عَمَّتَا نَزَلُوا أَرْضَكَ، وَرَعِبُوا عَنَّا وَعَنْ مِلَّتِنَا، قَالَ: فَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَا: هُمْ فِي أَرْضِكَ فَأَبْعَثْ إِلَيْهِمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ جَعْفَرُ: أَنَا خَطِيئَتُكُمْ الْيَوْمَ، فَأَتَبِعُوهُ فَسَلَّمَ وَلَمْ يَسْجُدْ، فَقَالُوا لَهُ: مَا لَكَ لَا تَسْجُدُ لِلْمَلِكِ؟ قَالَ: إِنَّا لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ فَأَمَرَنَا أَنْ لَا نَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: فَإِنَّهُمْ يُخَالِفُونَكَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأُمِّهِ. قَالَ: نَقُولُ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هُوَ كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحُهُ أَلْقَاهَا إِلَى الْعَذْرَاءِ الْبُتُولِ الَّتِي لَمْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ وَلَمْ يَعْطَرْضَهَا وَلَدٌ، قَالَ: فَرَفَعَ عُدُودًا مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْحَبَشَةِ وَالْفِصِّيِيِّينَ وَالرُّهْبَانِ! وَاللَّهِ! مَا يَرِيدُونَ عَلَى الَّذِي نَقُولُ فِيهِ مَا يَسَاوِي هَذَا، مَرْجَبًا بِكُمْ وَيَمْنًا جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ، أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ الَّذِي نَجِدُ فِي الْإِنْجِيلِ، وَأَنَّهُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، أَنْزَلُوا حَيْثُ شِئْتُمْ، وَاللَّهِ! لَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ لَأَتَيْتُهُ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَحْمِلُ عَلَيْهِ وَأَوْضَعُهُ، وَأَمَرَ بِهَدِيَّةِ الْآخَرِينَ فَوَدَّتْ إِلَيْهِمَا، ثُمَّ تَعَجَّلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَدْرَكَ بَدْرًا، وَرَعِمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(١) ابن هشام: ١٧٥/١ (٢) أحمد: ١٢٧/٤ (٣) أحمد: ٥/٥

٢٦٢ (٤) أحمد: ٤٦١/١

السُّورَةَ وَمِنْ جُمَلِهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ بَيْعَتِي لِيُجِزَكُمْ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ؟ ثُمَّ فَسَّرَ هَذِهِ التَّجَارَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي لَا تَبْرَأُ، الَّتِي هِيَ مُحْصَلَةٌ لِلْمَقْصُودِ، وَمُزِيلَةٌ لِلْمَحْذُورِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ مِنْ تِجَارَةِ الدُّنْيَا وَالْكَدِّ لَهَا وَالتَّصَدِّيِّ لَهَا وَحَدَّهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿يَعْرِفُ لَكُمْ دُونَكُمْ﴾ أَيُّ إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُمْكُمْ بِهِ وَدَلَّكْتُكُمْ عَلَيْهِ، عَفَرْتُ لَكُمْ الرِّلَابَ، وَأَدْخَلْتُكُمْ الْجَنَّاتِ وَالْمَسَاكِينَ الطَّيِّبَاتِ وَالذَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْهَا﴾ أَيُّ وَأَزِيدَكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ زِيَادَةً تُحِبُّونَهَا، وَهِيَ: ﴿تَصَرُّ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٌ﴾ أَيُّ إِذَا قَاتَلْتُمْ فِي سَبِيلِهِ وَتَصَرَّيْتُمْ دِينَهُ، تَكَمَّلَ اللَّهُ بِتَصَرُّكُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَصَرُّوا اللَّهُ يَصْرِكُمْ وَيُنَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْتَصَرَّنَّ اللَّهُ مَنْ يَصْرِهُوَ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفَتْحَ قَرِيبٌ﴾ أَيُّ عَاجِلٌ، فَهَذِهِ الزِّيَادَةُ هِيَ خَيْرُ الدُّنْيَا، مَوْصُولٌ بِبَعِيْمِ الْأَخْرَجَةِ لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ، وَتَصَرَّ اللَّهُ وَدِينَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَبِّشِرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ آمَنَتْ بِعِيسَى وَأُخْرَى كَفَرَتْ بِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ أَيُّ لَمَّا بَلَغَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رِسَالَةَ رَبِّهِ إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَوَارَزَّهُ مِنْ وَارَزَّهُ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ، اهْتَدَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ وَصَلَّتْ طَائِفَةٌ، فَخَرَجَتْ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ وَجَحَدُوا بِبُؤْتِهِ، وَرَمَوْهُ وَأُمَّهُ بِالْعِظَائِمِ، وَهُمْ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمُ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَّبِعَةُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وَعَلَّتْ فِيهِ طَائِفَةٌ مِمَّنْ اتَّبَعَهُ حَتَّىٰ رَفَعُوهُ فَوْقَ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّبُوَّةِ، وَافْتَرَقُوا فِرْقًا وَشِبَعًا، فَمِنْ قَائِلٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ. وَقَائِلٍ: إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةِ الْأَبِّ وَالْإِبْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ. وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ اللَّهُ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُفْصَلَةٌ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ.

[نَصَرَ اللَّهُ الطَّائِفَةَ الْمُؤْمِنَةَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أَيُّ نَصَرْنَاهُمْ عَلَىٰ مَنْ عَادَاهُمْ مِنْ فِرْقِ النَّصَارَى ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أَيُّ عَلَيْهِمُ، وَذَلِكَ بِبِعْتِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ خَرَجَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ وَهُمْ فِي بَيْتٍ إِثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً فَقَالَ: إِنْ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يَلْقَىٰ عَلَيْهِ شَبْهِي فَيَقْتُلُ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي؟ قَالَ: فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًا فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: نَعَمْ أَنْتَ ذَاكَ.

قَالَ: فَأَلْقَىٰ عَلَيْهِ شَبْهَ عِيسَى وَرَفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ رُوزَتِهِ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا شَبِيهَهُ فَقَتَلُوهُ، وَصَلَبُوهُ، وَكَفَرُوا بِهِ بَعْضُهُمْ ائْتَتْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنُوا بِهِ، فَتَمَرَّقُوا فِيهِ ثَلَاثَ فِرْقٍ، فَقَالَتْ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُورًا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾

[الْمُسْلِمُونَ أَنْصَارُ الَّذِينَ فِي كُلِّ حَالٍ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ كَمَا اسْتَجَابَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى حِينَ قَالَ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ أَيُّ مَنْ مُعِينِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟﴾ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ؟ أَيُّ نَحْنُ أَنْصَارُكَ عَلَىٰ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَمُوَارِزُوكَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلِهَذَا بَعَثَهُمْ دُعَاةً إِلَى النَّاسِ فِي بِلَادِ الشَّامِ فِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَالْيُونَانِيِّينَ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ: «مَنْ رَجُلٌ يُؤُونِي حَتَّىٰ أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي؟ فَإِنْ فُرِئْنَا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي»^(١). حَتَّىٰ قَبِضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْأَوْسُ وَالْحَزْرَجُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَبَايَعُوهُ وَوَارَزُّوهُ، وَشَارَطُوهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنْ

(١) أحمد: ٣٢٢/٣ والحاكم: ٦٢٤/٢ والبيهقي: ١٤٦/٨

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَعَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَلْمَأْتِ الَّذِينَ يَنْفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُمْ لَمُنْكَرُونَ وَلَكِنْ يَتَذَكَّرُونَ إِلَىٰ عَلْوٍ عَلَىٰ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَنْتَسِحُّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

فِرْقَةٌ: كَانَ اللَّهُ فِينَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَيْهِ وَهُؤُلَاءِ السَّنْطُورِيَّةُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَهُؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ. فَظَاهَرَتِ الْكَافِرَاتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَتَتَلَوْنَهَا فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿١﴾ فَتَامَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَرِهَتْ طَائِفَةٌ ﴿٢﴾ يَعْنِي الطَّائِفَةَ الَّتِي كَفَرَتْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَنِ عِيسَى، وَالطَّائِفَةَ الَّتِي آمَنَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى ﴿٣﴾ فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدْوِيٍّ فَاصْبِرُوا طَاهِرِينَ ﴿٤﴾ بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ ﷺ دِينَهُمْ عَلَى دِينِ الْكُفَّارِ ﴿٥﴾. هَذَا لَفْظُهُ فِي كِتَابِهِ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُنَنِهِ ﴿٦﴾. فَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ لَا يَزَالُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ، وَحَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَالَ مَعَ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ ﴿٧﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَجْرٌ تَفْسِيرِ سُورَةِ الصَّفِّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بِسُورَةِ الْجُمُعَةِ وَالْمُنَافِقِينَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ﴿٤﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَعَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

[يُسَبِّحُ لِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، أَيُّ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ نَاطِقًا وَجَامِدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ثُمَّ قَالَ

تَعَالَى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ أَيُّ هُوَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِحُكْمِهِ، وَهُوَ الْمُقَدَّسُ، أَيُّ الْمُتَزَهِّدُ عَنِ النَّقَائِصِ، الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُمَا غَيْرَ مَرَّةٍ.

[الْأُمَمَاتُ بِعِنْتَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الْأُمَمُونَ هُمُ الْعَرَبُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمَمِينَ مَا سَلَّمْتُمْ إِنْ آسَلْتُمْوَا فَقَدْ آهْتُمْوَا وَوَلَاتِ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] وَتَخْصِيصُ الْأُمَمِينَ بِالذِّكْرِ لَا يَنْبَغِي مَنْ عَدَاهُمْ، وَلَكِنَّ الْمِنَّةَ عَلَيْهِمْ أُبْلَغُ وَأَكْثَرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْلِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وَهُوَ ذِكْرٌ لِعِبْرَتِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ، وَكَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]

(١) الطبري: ٢٣/٣٦٦ (٢) النسائي في الكبرى: ٦/٤٨٩ (٣)

فتح الباري: ١٣/٣٠٦ ومسلم: ٣/١٥٢٤ وأبو داود: ١١/٣

(٤) مسلم: ٢/٥٩٧ و٥٩٩

وَهَذَا وَأَمثَالُهُ لَا يُنَافِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله: ﴿لَا تُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وقوله تَعَالَى إِنْخَابًا عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عُمومِ بَعَثَتِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَحْمَرِهِمْ وَأَسْوَدِهِمْ، وَقَدْ قَدَّمْنَا تَفْسِيرَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِالْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ مُضَادَّةٌ إِنْجَابِيَّةٌ لِلْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ، حِينَ دَعَا لِأَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ عَلَى حِينِ فِتْرَةِ مِنَ الرُّسُلِ وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وَقَدْ اشْتَدَّتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، وَقَدْ مَقَّتْ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ عَرَبِيَّهُمْ وَعَجَمِيَّهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَيْ نَزَرَا يَسِيرًا مِمَّنْ تَمَسَّكَ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا قَدِيمًا مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَدَّلُوهُ وَعَيَّرُوهُ وَقَلَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَاسْتَبَدَّلُوا بِالتَّوْحِيدِ شِرْكًَا وَبِالْيَقِينِ شَكًّا، وَابْتَدَعُوا أَشْيَاءَ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللَّهُ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كُتُبَهُمْ وَحَرَّفُواهَا وَعَيَّرُوهَا وَأَوَّلُوهَا، فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِشَرَعٍ عَظِيمٍ كَامِلٍ شَامِلٍ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، فِيهِ هِدَايَتُهُمْ وَالتَّبَيُّانُ لِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ مَعَاشِيهِمْ وَمَعَادِيهِمْ، وَالدَّعْوَةُ لَهُمْ إِلَى مَا يُفَرِّقُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَرِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ، وَالتَّهْنِي عَمَّا يُفَرِّقُهُمْ إِلَى النَّارِ وَسَخَطُ اللَّهِ تَعَالَى حَاكِمِ فَاصِلٍ لِجَمِيعِ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالتَّرَيْبِ فِي الْأَصُولِ وَالتَّفُرُوعِ، وَجَمَعَ لَهُ تَعَالَى وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ جَمِيعَ الْمَحَاسِنِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَأَعْطَاهُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَلَا يُعْطِيهِ أَحَدًا مِنَ الْآخِرِينَ. فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَلِمَ يُرَاجِعُهُمْ حَتَّى سئِلَ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ»^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ حَبْرٍ^(٢). فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَدِينِيَّةٌ، وَعَلَى عُمومِ بَعَثَتِهِ ﷺ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، لِأَنَّهُ فَسَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ﴾ بِفَارِسٍ، وَلِهَذَا كَتَبَ كُتُبَهُ إِلَى فَارِسَ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قَالَ: هُمْ الْأَعَاجِمُ^(٣) وَكُلُّ مَنْ صَدَّقَ النَّبِيَّ ﷺ، مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيْ: ذُو الْعِزَّةِ وَالتَّحْكَمَةِ فِي شَرَعِهِ وَقَدْرِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يَعْنِي مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ النَّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا خَصَّ بِهِ أُمَّتَهُ مِنْ بَعَثَتِهِ ﷺ إِلَيْهِمْ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥﴾ قُلْ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَضِعْتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَنَنْتُمُوهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمْنُونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَمَوْتُ الَّذِي يُعْرَضُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَلَيْهِ الْعَنْبِ وَالتَّشْهَدَةِ فَيُنْفِخُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

دَمَّ الْيَهُودَ وَدَعَوْتُهُمْ لِتَمَنِّي الْمَوْتِ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَاهَلَةِ [يَقُولُ تَعَالَى ذَا مَا لِلْيَهُودِ الَّذِينَ أُعْطُوا التَّوْرَةَ وَحُمِلُواهَا لِلْعَمَلِ بِهَا ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا: مَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، أَيْ كَمَثَلِ الْحِمَارِ إِذَا حَمَلَ كُتُبًا - لَا يَدْرِي مَا فِيهَا - فَهُوَ يَحْمِلُهَا حَمَلًا حَسْبًا وَلَا يَدْرِي مَا عَلَيْهِ،

(١) فتح الباري: ٥١٠/٨ (٢) مسلم: ١٩٧٢/٤ وتحفة الأحاديث: ٢٠٩/٩ و٤٣٣/١٠ والنسائي في الكبرى: ٧٥/٥ و٤٩٠/٦ والطبري: ٣٧٥/٢٣ (٣) الطبري: ٣٧٤/٢٣

وَكَذَلِكَ هُوَ فِي حَمْلِهِمُ الْكِتَابِ الَّذِي أَوْتُوهُ حِفْظُهُمْ لَفُظًا
 وَلَمْ يَتَفَهَمُوهُ وَلَا عَمِلُوا بِمُقْتَضَاهُ، بَلْ أَوْتُوهُ وَحَرَفُوهُ وَبَدَّلُوهُ
 فَهُمْ أَسْرَأُ حَالًا مِنَ الْحَمِيرِ، لِأَنَّ الْحِمَارَ لَا فَهْمَ لَهُ،
 وَهُوَ لِأَنَّ لَهُمْ فَهْمٌ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي
 الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ
 الْفٰٓتِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿يَسْئَلُ
 الْقَوِي الْأَيْدِينَ كَذِبًا يُغَابِئُ اللَّهَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ
 أَوْلِيَائِهِ لَإِنَّ مِنْ دُونِ النَّاسِ فِتْنًا مَّا لَمْ تَكُونُوا مِنْهُمْ صٰٓدِقِينَ﴾ أَيُّ
 إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى، وَأَنْ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ
 عَلَى ضَلَالَةٍ، فَادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى الضَّالِّ مِنَ الْفِتْنَيْنِ إِنْ
 كُنْتُمْ صٰٓدِقِينَ، أَيُّ فِيمَا تَزْعُمُونَهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَمْتَنِعُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أَيُّ
 بِمَا يَعْمَلُونَ لَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالنُّجُورِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِالظَّالِمِينَ﴾ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى هَذِهِ
 الْمَبَاهِلَةِ لِلْيَهُودِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ
 الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ
 إِنْ كُنْتُمْ صٰٓدِقِينَ﴾ (٤٤) وَلَنْ يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٥) وَلنَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيٰٓوِهِمْ وَمِنَ
 الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْشِحٍ بِهِ
 مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤-
 ٩٦] وَقَدْ أَسْلَفْنَا الْكَلَامَ هُنَاكَ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمُرَادَ أَنْ يَدْعُوا
 عَلَى الضَّالِّ مِنَ أَنْفُسِهِمْ أَوْ خُصُومِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَتْ مَبَاهِلَةُ
 النَّصَارَى فِي آلِ عِمْرَانَ ﴿فَمَنْ حَآجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ
 الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَآبَاءَنَا وَسَاءَ مَا وَصَّيْنَاكُمْ
 وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ تَبَتَّلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰٓذِبِينَ﴾ [آل
 عمران: ٦١] وَمَبَاهِلَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ ﴿قُلْ مَنْ كَانَ
 فِي الضَّلٰٓلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدًّا﴾ [الآية: ١٧٥].

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو
 جَهْلٍ - لَعْنَةُ اللَّهِ - : إِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا عِنْدَ الْكَعْبَةِ لِأَيَّتِهِ
 حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُقْبِهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ فَعَلَ
 لَأَخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا
 وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا» (١). رَوَاهُ
 الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ (٢).

يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلٰوةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ
 فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلٰوةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ
 وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
 ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا فَلْيَضْحَكُوا وَلَا يَسْأَلُوا
 مَاعِنَدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
 إِذَا جَاءَكَ الْمُنٰفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنٰفِقِينَ لَكٰذِبُونَ ﴿١﴾
 اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
 فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
 وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ لَّيْسَ لَكَ
 صِيحَةٌ عَلَيْهِمْ هُوَ الْعُدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَوَلَّاهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤَفِّكَوْنَ ﴿٤﴾

مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿أَيَّمَا تَكُونُوا
 يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]
 ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلٰوةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا
 إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾
 فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلٰوةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
 وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾﴾

[الْجُمُعَةُ وَالْأَوَامِرُ وَالْآدَابُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ]

إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً لِأَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجَمْعِ، فَإِنَّ
 أَهْلَ الْإِسْلَامِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ مَرَّةً بِالْمَعَابِدِ
 الْكِبَارِ، وَفِيهِ كَمُلَ جَمِيعِ الْخَلَاتِقِ، فَإِنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ مِنَ
 السَّنَةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِيهِ خُلِقَ
 آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ

(١) أحمد: ٢٤٨/١ (٢) فتح الباري: ٥٩٥/٨ وتحفة
 الأحودي: ٢٧٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦

السَّاعَةَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، كَمَا ثَبَّتَ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ.

وَقَدْ كَانَ يُقَالُ لَهُ فِي اللُّغَةِ الْقَدِيمَةِ يَوْمَ الْعُرُوبَةِ، وَثَبَّتَ أَنَّ الْأَمَمَ قَبْلَنَا أَمُرُوا بِهِ فَضَلُّوا عَنْهُ، وَاخْتَارَ الْيَهُودُ يَوْمَ السَّبْتِ الَّذِي لَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقُ آدَمَ، وَاخْتَارَ النَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ الَّذِي ابْتَدَى فِيهِ الْخَلْقُ، وَاخْتَارَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ، كَمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّدْ أَيْدِيَهُمْ وَأُثِرُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ إِنَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالْتَأَسُّ لَنَا فِيهِ تَبِعَ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»^(١). لَفْظُ الْبُخَارِيِّ وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبِعَ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضَى بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»^(٢).

[الْأَمْرُ بِالسَّعْيِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ]

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالاجْتِمَاعِ لِعِبَادَتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» أَيِ أَفْضَلُوا وَاعْمَدُوا وَاهْتَمُّوا فِي سَبْرِكُمْ إِلَيْهَا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالسَّعْيِ هَهُنَا الْمَشْيُ السَّرِيعَ، وَإِنَّمَا هُوَ الْإِهْتِمَامُ بِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ» وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقْرَأْنَاهَا: (فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)^(٣). فَأَمَّا الْمَشْيُ السَّرِيعَ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَدْ نَهَى عَنْهُ لِمَا

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ وَلَا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتُوا»^(٤). لَفْظُ الْبُخَارِيِّ. وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ سَمِعَ جَلْبَةَ رَجَالٍ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قَالُوا: اسْتَعْجَلْنَا إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: «فَلَا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَامْشُوا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتُوا».

أَخْرَجَاهُ^(٥). قَالَ الْحَسَنُ: أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالسَّعْيِ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَقَدْ نَهَى أَنْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ إِلَّا وَعَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَكِنْ بِالْقُلُوبِ وَالنِّيَّةِ وَالْخُشُوعِ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: «فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» يَعْنِي أَنْ تَسْعَى بِقَلْبِكَ وَعَمَلِكَ وَهُوَ الْمَشْيُ إِلَيْهَا^(٦). وَكَانَ يَتَأَوَّلُ قَوْلَهُ تَعَالَى: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» أَيِ الْمَشْيِ مَعَهُ. وَرَوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرِهِمَا نَحْوَ ذَلِكَ^(٧).

وَيُسْتَحَبُّ لِمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ أَنْ يَغْتَسِلَ قَبْلَ مَجِيئِهِ إِلَيْهَا، لِمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ»^(٨). وَلَهُمَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ»^(٩). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَقٌّ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ»^(١٠). وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ^(١١).

[فَضْلُ الْجُمُعَةِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسِ التَّقْفِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ غَسَلَ وَاعْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَبَكَرَ وَابْتَكَّرَ وَمَسَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ أُجْرُ سَنَةِ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»^(١٢). وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ وَأَلْفَاظٌ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةَ وَحَسَنَهُ التِّرْمِذِيُّ^(١٣). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَهُ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ

(١) فتح الباري: ١١/٥٢٦ ومسلم: ٢/٥٨٦ (٢) مسلم: ٢/٥٨٦ (٣) الطبري: ٢٣/٣٨١ (٤) فتح الباري: ٢/١٣٨ ومسلم: ١/٤٢٠ (٥) فتح الباري: ٢/١٣٧ ومسلم: ١/٤٢٢ (٦) الطبري: ٢٣/٣٨٠ (٧) الطبري: ٢٣/٣٨١ والدر المنثور: ٨/١٦٢ (٨) فتح الباري: ٢/٤١٥ ومسلم: ٢/٥٧٩ (٩) فتح الباري: ٢/٤١٥ ومسلم: ٢/٥٨٠ (١٠) مسلم: ٢/٥٨٢ (١١) أحمد: ٣/٣٠٤ والنسائي: ٣/٩٣ وابن حبان: ٢/٢٦٢ (١٢) أحمد: ٤/٩ (١٣) أبو داود: ١/٢٤٦، ٢٤٧ وتحفة الأحوذى: ٣/٣ والنسائي: ٣/٩٥ وابن ماجه: ١/٢٤٦

طَلَبِ الرَّزْقِ بَعْدَهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذُرُوا النَّبِيَّ﴾ أَي اسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَاتْرُكُوا النَّبِيَّ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ، وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى تَحْرِيمِ النَّبِيِّ بَعْدَ النَّدَاءِ الثَّانِي، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي تَرْكُكُمْ النَّبِيَّ وَإِفْئَالُكُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَإِلَى الصَّلَاةِ خَيْرٌ لَكُمْ أَيْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أَي فَرُغَ مِنْهَا ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ لَمَّا حَجَرَ عَلَيْهِمْ فِي النَّصْرِفِ بَعْدَ النَّدَاءِ وَأَمَرَهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ أَدْنَى لَهُمْ بَعْدَ الْفَرَاغِ فِي الْأَنْبِيَّاتِ فِي الْأَرْضِ وَالِابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ أَنْصَرَفَ، فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَجِئْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَي فِي حَالِ بَيْعِكُمْ وَشَرَائِكُمْ وَأَخْذِكُمْ وَإِعْطَائِكُمْ أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَلَا تَشْغَلْكُمْ الدُّنْيَا عَنِ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ دَخَلَ سُوقًا مِنَ الْأَسْوَاقِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ» (٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا حَتَّى يَذْكُرَ اللَّهَ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ

اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

[النَّهْيُ عَنِ الْإِنْصِرَافِ مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ]

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى مَا كَانَ وَقَعَ مِنَ الْإِنْصِرَافِ عَنِ الْخُطْبَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى التِّجَارَةِ الَّتِي قَلِمَتِ الْمَدِينَةَ يَوْمَئِذٍ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أَي عَلَى الْمِنْبَرِ تَخْطُبُ، هَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ

فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ أَخْرَجَاهُ (١).

وَيَسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَلْبَسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ وَيَتَطَيَّبَ وَيَتَسَوَّكَ وَيَتَنَطَّفَ وَيَتَطَهَّرَ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُتَمَدِّمِ «عَسَلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَالسَّوَّكُ، وَأَنْ يَمَسَّ مِنْ طَيْبٍ أَهْلِهِ» (٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طَيْبٍ أَهْلِهِ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ، وَلَبَسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعَ إِنْ بَدَأَ لَهُ وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّيَ، كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخَرَى» (٣). وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: «مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوْ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْنِ مَهْنَتِهِ» (٤). وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَرَأَى عَلَيْهِمْ ثِيَابَ النَّمَارِ فَقَالَ: «مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْنِ مَهْنَتِهِ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ (٥).

[الْمُرَادُ بِالنَّدَاءِ أَذَانُ الْخُطْبَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا النَّدَاءُ هُوَ النَّدَاءُ الثَّانِي الَّذِي كَانَ يُفْعَلُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ فَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَإِنَّهُ كَانَ حِينَئِذٍ يُوَدَّنُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ، فَأَمَّا النَّدَاءُ الْأَوَّلُ الَّذِي زَادَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّمَا كَانَ هَذَا لِكثَرَةِ النَّاسِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: كَانَ النَّدَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوَّلَهُ إِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ عَلَى الْمِنْبَرِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بَعْدَ زَمَنِ وَكَثُرَ النَّاسُ، زَادَ النَّدَاءَ الثَّانِي عَلَى الزُّورَاءِ يَعْنِي يُوَدَّنُ بِهِ عَلَى الدَّارِ الَّتِي تُسَمَّى بِالزُّورَاءِ (٦). وَكَانَتْ أَرْفَعُ دَارٍ بِالْمَدِينَةِ بِقُرْبِ الْمَسْجِدِ.

[حُرْمَةُ النَّبِيِّ وَالشَّرَاءِ بَعْدَ نَدَاءِ الْجُمُعَةِ وَالتَّرْغِيبُ فِي

(١) فتح الباري: ٢/٤٢٥، ومسلم: ٢/٥٨٢ (٢) فتح الباري:

٤٢٣/٢ (٣) أحمد: ٥/٤٢٠ (٤) أبو داود: ١/٦٥٠ وابن

ماجه: ١/٣٤٨ (٥) ابن ماجه: ١/٣٤٩ (٦) فتح الباري: ٢/

٤٥٧ (٧) القرطبي: ١٨/١٠٨ (٨) تحفة الأحوذى: ٩/٣٨٦

وَأَحَدٍ مِنَ التَّابِعِينَ، مِنْهُمْ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةُ^(١). وَرَزَعَمُ مَقَابِلُ بَنِي حَيَّانَ أَنَّ التَّجَارَةَ كَانَتْ لِدُحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، وَكَانَ مَعَهَا طَبْلٌ فَأَنْصَرَفُوا إِلَيْهَا، وَتَرَكُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا عَلَى الْمِئْبَرِ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ، وَقَدْ صَحَّ بِذَلِكَ الْخَبَرِ فَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَدِمْتُ عِيرَ مَرَّةٍ الْمَدِينَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فَخَرَجَ النَّاسُ وَبَقِيَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا فَزَلَّتْ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَصَمُوا إِلَيْهَا﴾^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ سَالِمِ بِهِ^(٣).

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَائِمًا. وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُطْبَتَانِ يَجْلِسُ بَيْنَهُمَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَذْكُرُ النَّاسَ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيِ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ الْجَنَّةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِيقِينَ﴾ أَيِ لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَطَلَبَ الرِّزْقَ فِي وَفَيْهِ.

أَخْرَجُ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَبْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خُسْبٌ مُسْنَدٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَدْذُومُونَ فَاتَّخَذَهُمُ اللَّهُ أَنْفُسًا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

[أَحْوَالُ الْمُنَافِقِينَ وَتَقَلُّبَاتُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّقُوهُنَّ بِالْإِسْلَامِ إِذَا جَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَّا فِي بَاطِنِ الْأُمْرِ فَلَيْسُوا كَذَلِكَ، بَلْ عَلَى الضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَبْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أَيِ إِذَا حَضَرُوا عِنْدَكَ وَاجْهَوْكَ بِذَلِكَ، وَأَظْهَرُوا لَكَ ذَلِكَ، وَلَيْسُوا كَمَا

(١) الطبري: ٣٨٧/٢٣ (٢) أحمد: ٣/٣١٣ (٣) فتح الباري:

٥١١/٨ ومسلم: ٥٩٠/٢ (٤) مسلم: ٥٨٩/٢ (٥) الطبري:

غُلُولٌ، لَا يَقْرُبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا، مُسْتَكْبِرِينَ، لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، حُشْبٌ بِاللَّيْلِ صُحْبٌ بِالنَّهَارِ وَقَالَ زَيْدُ بْنُ مَرَّةَ: «سُحِبَ بِالنَّهَارِ» (١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ وَعَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ أَنَّهُمْ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ﴾ أَيُّ صَدُّوا وَأَعْرَضُوا عَمَّا قِيلَ لَهُمْ اسْتِجَابًا عَنْ ذَلِكَ وَاحْتِقَارًا لِمَا قِيلَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ثُمَّ جَاؤَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ بَرَاءةَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِرَادُ الْأَحَادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ هُنَاكَ.

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ كُلَّهُ نَزَلَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنِي سَلُولٍ كَمَا سَنُورِدُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ التَّمَقُّةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ. وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ: وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، يُعْنِي مَرْجِعَهُ مِنْ أُحُدٍ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنِي سَلُولٍ كَمَا حَدَّثَنِي ابْنُ شِهَابِ الزُّهْرِيُّ لَهُ مَقَامٌ يَقُومُهُ كُلَّ جُمُعَةٍ، لَا يُتَكْرَمُ، شَرَفًا لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ فِيهِمْ شَرِيفًا، إِذَا جَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ قَامَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أَكْرَمَكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَأَعَزَّكُمْ بِهِ فَانصُرُوهُ وَعَزِّرُوهُ وَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، ثُمَّ يَجْلِسُ حَتَّى إِذَا صَنَعَ يَوْمَ أُحُدٍ مَا صَنَعَ، يُعْنِي مَرْجِعَهُ بِنُثْلِ الْجَيْشِ وَرَجَعَ النَّاسُ، قَامَ يَفْعَلُ ذَلِكَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ، فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ بِيَتَابِهِ مِنْ تَوَاجِيهِ وَقَالُوا: اجْلِسْ أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ لَسْتَ لِذَلِكَ بِأَهْلٍ وَقَدْ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ، فَخَرَجَ يَخْطِي رِقَابَ النَّاسِ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ ٥٥٥
سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِأَنَّ لَهُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَارَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ النِّجَابِ

لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بُحْرًا أَنْ قُمْتُ أُسَدُّ أَمْرُهُ، فَلَقِيَهُ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ بِيَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالُوا: وَتِلْكَ مَالِكٌ؟ قَالَ: قُمْتُ أُسَدُّ أَمْرُهُ فَوُتِبَ عَلَيَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَجِدُونَنِي وَيَعْتَفُونَنِي، لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بُحْرًا أَنْ قُمْتُ أُسَدُّ أَمْرُهُ. قَالُوا: وَتِلْكَ أَرْجَعُ يَسْتَغْفِرُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَتَّبِعِي أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي (٢). وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَذَلِكَ أَنَّ غُلَامًا مِنْ قَرَابَتِهِ انْطَلَقَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَدَّثَهُ بِحَدِيثٍ عَنْهُ وَأَمْرٍ شَدِيدٍ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَحْلِفُ بِاللَّهِ وَيَتَّبِرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقْبَلَتْ الْأَنْصَارُ عَلَى ذَلِكَ الْغُلَامِ فَلَا مَوْهَ وَعَزَلُوهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ مَا تَسْمَعُونَ، وَقِيلَ لِعَدُوِّ اللَّهِ: لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يُلَوِّي رَأْسَهُ، أَيُّ لَسْتُ فَاعِلًا (٣).

(١) أحمد: ٢٩٣/٢ قال الهيملي في المجمع ١١٢/١ رواه أحمد والبخاري وفيه عبد الملك بن قدامة الجمحي قال ابن حجر: ضعيف [تقريب: ٤٧٠٧] (٢) ابن هشام: ١١١/٣ (٣) الطبري: ٢٣/٣٩٩

وَقَالَ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَعَاصِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ قَتَادَةَ فِي قِصَّةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَبَيَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقِيمٌ هُنَاكَ أَقْتَلَ عَلَى الْمَاءِ جَهَّاهُ بْنُ سَعِيدِ الْغِفَارِيِّ، وَكَانَ أَجِيرًا لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ وَسِنَانُ بْنُ وَبَرٍ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ قَالَ: أزدَحَمَا عَلَى الْمَاءِ فَأَقْتَتَلَا، فَقَالَ سِنَانُ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْجَهَّاهُ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ وَنَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، فَلَمَّا سَمِعَهَا قَالَ: قَدْ تَأَوَّرْنَا فِي بِلَادِنَا، وَاللَّهِ مَا مَثَلْنَا وَجَلَابِيبَ فُرَيْشٍ هَذِهِ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ، وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَقَالَ: مَا صَنَعْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحَلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَفَفْتُمْ عَنْهُمْ لَتَحْوَلُوا عَنْكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ إِلَى غَيْرِهَا، فَسَمِعَهَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذَهَبَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: - وَهُوَ عَلِيمٌ - عِنْدَهُ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبْرَ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَرَّ عِبَادُ بْنُ بَشْرٍ فَلْيَضْرِبْ عَنْقَهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَكَيْفَ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ يَا عُمَرُ، أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، لَا، وَلَكِنْ نَادِ يَا عُمَرُ الرَّحِيلَ» فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْ ذَلِكَ قَدْ بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَاهُ فَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ، وَخَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالَ مَا قَالَ عَلَيْهِ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، وَكَانَ عِنْدَ قَوْمِهِ بِمَكَانٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغَلَامُ أَوْهَمَ وَلَمْ يَثْبُتْ مَا قَالَ الرَّجُلُ.

وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُهَجَّرًا فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَرُوحُ فِيهَا، فَلَقِيَهُ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِحِيَةِ النَّبُوَّةِ ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رُحْتُ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ مَا كُنْتُ تَرُوحُ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكَ ابْنُ أَبِي؟ رَزَمَ أَنَّهُ إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ سَيُخْرِجُ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» قَالَ: فَأَنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - الْعَزِيزُ وَهُوَ الدَّلِيلُ. ثُمَّ قَالَ: ارْفُضْ بِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِكَ وَإِنَّا لَنَنْظِمُ لَهُ الْحَزْرَ لِنُتَوِّجَهُ، فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنْ قَدْ سَلَبْتَهُ مُلْكًا، فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ حَتَّى أَمْسُوا وَلَيْلَتُهُ حَتَّى أَصْبَحُوا، وَصَدَرَ يَوْمِهِ حَتَّى اشْتَدَّ الضُّحَى ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ لِيَسْغَلَهُمْ عَمَّا كَانَ مِنَ الْحَدِيثِ، فَلَمْ يَأْمَنِ النَّاسُ أَنْ

وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ فَنَامُوا وَنَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ^(١). وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَأَنْصَارِ، وَيَالَ الْمُهَاجِرِيَّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُنْتَهَةٌ».

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنُ سُلُوفٍ: وَقَدْ فَعَلُوهَا، وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَ الْأَنْصَارُ بِالْمَدِينَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ عُمَرُ: دَغْنِي أَضْرِبْ عَنْقُ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(٢). وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٣). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٤).

وَذَكَرَ عِكْرَمَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ النَّاسَ لَمَّا قَفَلُوا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ [ابْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ] هَذَا عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَالَ لَهُ ابْنُهُ: وَرَأَيْكَ! فَقَالَ: مَا لَكَ وَتِلْكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَجُوزُ مِنْ هَهُنَا حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ وَأَنْتَ الدَّلِيلُ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِنَّمَا يَسِيرُ سَاقَةً، فَشَكَاَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي ابْنِهِ، فَقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا حَتَّى تَأْذَنَ لَهُ، فَاذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَمَا إِذَا أْذِنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَزِ الْآنَ^(٥). وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْحَمِيدِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هَارُونَ الْمَدَنِيِّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ لِأَبِيهِ: وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ الْمَدِينَةَ أَبَدًا حَتَّى تَقُولَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَعَزُّ وَأَنَا الْأَذَلُّ. قَالَ: وَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ أَبِي؟ فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا تَأَمَّلْتُ وَجْهَهُ قَطُّ هَبَيْتَهُ لَهُ، وَلَئِنْ شِئْتَ أَنْ آتِيكَ بِرَأْسِهِ لَأَتِيَنَّكَ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَى قَاتِلَ أَبِي^(٦).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ

(١) ابن هشام: ٢٩٠-٢٩٢ / ٢ (٢) دلائل النبوة: ٥٣ / ٤ (٣)

أحمد: ٣٩٢ / ٣ (٤) البخاري: ٤٩٠٧ ومسلم: ٢٥٨٤ (٥)

الطبري: ٤٠٣ / ٢٣ و٤٠٥ (٦) مسند الحميدي: ٥٢٠ / ٢

ذَكَرَ اللَّهُ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾
وَأَقْبُوا مِنْ مَا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ
لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢﴾
وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾
[الْحَثُّ عَلَىٰ عَدَمِ الْاِسْتِغَالِ بِأَسْبَابِ الدُّنْيَا، وَعَلَى
الصَّدَقَةِ قَبْلَ الْمَوْتِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ آمِرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ، وَنَاهِيًا
لَهُمْ عَنْ أَنْ تَشْغَلَهُمُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ عَنْ ذَلِكَ، وَمُخْبِرًا
لَهُمْ بِأَنَّهُ مِنَ التَّهَيُّ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَبِيتِهَا عَمَّا خَلَقَ لَهُ
مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَذِكْرِهِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ يَخْسِرُونَ
أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ فِي
طَاعَتِهِ فَقَالَ: ﴿وَأَقْبُوا مِنْ مَا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ
الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنْ مِنَ
الصَّالِحِينَ﴾ فَكُلُّ مُفْرَطٍ يَنْدُمُ عِنْدَ الْإِحْضَارِ، وَيَسْأَلُ طَوْلَ
الْمُدَّةِ وَلَوْ شِئْنَا سَيَّرًا لَيْسْتَغْتَبُ وَيَسْتَدْرِكُ مَا فَاتَهُ وَهَيْهَاتَ،
كَانَ مَا كَانَ وَأَتَىٰ مَا هُوَ آتٍ، وَكُلُّ بِحَسَبِ تَفْرِيطِهِ، أَمَا
الْكُفَّارُ فَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ
فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ
وَنَسِجْ الرُّسُلَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمُ مِنْ
رِزَالِي﴾ [إبراهيم: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ
الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْحَمْنِي﴾ لَعَلَّ أَعْمَلَ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا
إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤﴾
[المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا
إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ لَا يُنْظَرُ أَحَدًا بَعْدَ
حُلُولِ أَجَلِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ وَأَخْبِرُ بِمَنْ يَكُونُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ
وَسُؤَالِهِ مِمَّنْ لَوْ رُدَّ لَعَادَ إِلَىٰ شَرِّ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ
التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّغَابِنِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ وَقِيلَ: مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسِيحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسِيحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
فَدَاؤُوا بِأَلْهَامِ آلِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا لَوْ أَشْرَكُوا لَمْ يَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى
اللَّهُ وَاللَّهُ عِنْدَ حِمْدِهِ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَلْبُعْثِثِ ثُمَّ لَنْ يُبْعَثُونَ وَمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَمَا مَثَلُ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
يَجْعَلُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٢﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣﴾
[التَّسْبِيحُ لِلَّهِ وَذِكْرُ خَلْقِهِ وَعِلْمِهِ]

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ آخِرُ الْمُسَبِّحَاتِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى
تَسْبِيحِ الْمَخْلُوقَاتِ لِإِبَارَتِهَا وَمَالِكِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أَيُّ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ
الْكَائِنَاتِ، الْمُخَمُّودُ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ. وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ مَهْمَا أَرَادَ كَانَ بِلَا
مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ
الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أَيُّ هُوَ الْخَالِقُ لَكُمْ
عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَأَرَادَ مِنْكُمْ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ
مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ
يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَ، وَهُوَ شَهِيدٌ عَلَىٰ أَعْمَالِ عِبَادِهِ وَسَيَجْزِيهِمْ
بِهَا أَنْتُمْ الْجَزَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ

أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ ﴿٦﴾ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴿٧﴾ أَيُّ لَتُخْبِرُنَّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ جَلِيلِهَا وَخَفِيرِهَا، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ﴿٨﴾ وَذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ يُبَيِّرُ ﴿٩﴾ أَيُّ بَعَثَكُمْ وَمُجَارَاتِكُمْ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقَسِّمَ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ وُفُوعِ الْمَعَادِ وَوُجُودِهِ، فَلَا أَوْلَىٰ فِي سُورَةِ يُوسُفَ ﴿يَسْتَسْتَشِيرُكَ أَحَدٌ هُوَ قُلْ إِلَىٰ رَبِّي إِنِّي لَاحِقٌ لِّمَا أَشْرُ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الآية: ٥٣] وَالثَّانِيَةُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ... الْآيَةُ. وَالثَّلَاثَةُ هِيَ هَذِهِ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ يُبَيِّرُ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَمُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يُعْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَافِيَةٌ.

[ذَكَرَ يَوْمَ التَّغَابِنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوْلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُم الدَّاعِيَ وَيَتَفَدَّهُمُ الْبَصْرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ نَجْمَعُ لَهُ الْآسَافَ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ [هود: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴿[الواقعة: ٤٩، ٥٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ التَّغَابِنِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ اسْمٌ مِنْ أَشْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُغْتَبُونَ أَهْلَ النَّارِ^(١). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ^(٢). وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: لَا عَيْنَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُدْخَلَ هُؤُلَاءِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَيُذْهَبَ بِأُولَئِكَ إِلَىٰ النَّارِ. قُلْتُ: وَقَدْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِسَّاسِ الْمَصِيرِ ﴿وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرٌ مِثْلُ هَذِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنَّ تَوَاتُرَهُمُ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أَيُّ أَحْسَنَ أَشْكَالِكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَاكَ رَبُّكَ الْكَبِيرُ﴾ [الانفطار: ٦-٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ... الْآيَةُ [غافر: ٦٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْيَوْمَ الْمَصِيرِ﴾ أَيُّ الْمَرْجِعِ وَالْمَأْتِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْتُرُونَ وَمَا تُلْقُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاؤُوا بِآلِ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّثْلُونا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَعَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنَىٰ حَيْدًا ﴿٥﴾

[الْإِنذَارُ بَيْنَانٍ إِهْلَاكِكَ مِنْ سَبَقٍ مِنَ الْكُفَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَسْمِ الْمَاضِيْنَ وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ خَبْرُهُمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهُمْ ﴿فَذَاؤُوا بِآلِ أَمْرِهُمْ﴾ أَيُّ وَخِيمَ تَكْذِيبِهِمْ وَرَدِيءِ أَعْمَالِهِمْ، وَهُوَ مَا حَلَّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْخِزْيِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مُضَافًا إِلَىٰ هَذَا الدُّنْيَوِيِّ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ بِالْحُجُجِ وَالذَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّثْلُونا﴾ أَيُّ اسْتَبَعَدُوا أَنْ تَكُونَ الرَّسَالَةُ فِي الْبَشَرِ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ عَلَىٰ يَدَيْ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أَيُّ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ وَنَكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ ﴿وَأَسْتَعَىٰ اللَّهُ﴾ أَيُّ عَنْهُمْ ﴿وَاللَّهُ عَنَىٰ حَيْدًا﴾.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُنَبَّؤُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ يُبَيِّرُ﴾ فَاتَمُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمَ التَّغَابِنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِسَّاسِ الْمَصِيرِ ﴿١٠﴾

[الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَمَاتِ حَقٌّ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُلْجِدِينَ

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

[مَا يُصِيبُ الْمَرْءَ فَهُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا بِمَا أَخْبَرَ بِهِ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِأَمْرِ اللَّهِ، يَعْنِي عَنْ قَدْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَيْ وَمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَعَلِمَ أَنَّهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ وَاسْتَسَلَّمَ لِقَضَاءِ اللَّهِ هَدَى اللَّهُ قَلْبَهُ. وَقَدْ يُخْلِفُ عَلَيْهِ مَا كَانَ الدُّنْيَا هُدَى فِي قَلْبِهِ وَيَقِينَا صَادِقًا، وَقَدْ يُخْلِفُ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَحَدٌ مِنْهُ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يَعْنِي يَهْدِي قَلْبَهُ لِلْيَقِينِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ^(١).

وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلا يَسِرُ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»^(٢).

[الْأَمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أَمْرٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِيمَا شَرَعَ، وَفِعْلٌ مَا بِهِ أَمْرٌ، وَتَرْكٌ مَا عَنْهُ نَهَى وَرَجَرَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ إِنْ نَكَلْتُمْ عَنِ الْعَمَلِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ مِنَ الْبَلَاغِ، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: مِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةُ وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ^(٣).

[التَّوْحِيدُ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فَلَأَوَّلُ خَبْرٍ عَنِ التَّوْحِيدِ وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الطَّلَبِ، أَيْ وَحْدُهَا الْإِلَهِيَّةُ لَهُ وَأَخْلَصُوهَا لَدَيْهِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَرْجَائِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ

سُورَةُ التَّغَابُنِ ٥٥٧

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشِّرِ الْمَصِيرِينَ ﴿١١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ

مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن

تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٣﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَرْجَائِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا

لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ

فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ

وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ

يُوقِ شَحْمَةَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾ إِنْ تَقَرَّبُوا

إِلَى اللَّهِ قَرَضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ

حَلِيمٌ ﴿١٨﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ

عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا

لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْمَةَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ

تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ قَرَضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ

حَلِيمٌ ﴿١٨﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾

[التَّحْذِيرُ مِنَ فِتْنَةِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ: إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ

هُوَ عَدُوُّ الرَّوْجِ وَالْوَالِدِ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَلْتَمِيهِ بِهِ عَنِ الْعَمَلِ

الصَّالِحِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تِلْكَ أَمْوَالُكُمْ

وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْخَاسِرُونَ﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ

زَيْدٍ: يَعْنِي عَلَى دِينِكُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْجَائِكُمْ

وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ قَالَ: يَحْمِلُ الرَّجُلُ عَلَى قَطِيعَةٍ

(١) الطبري: ٤٢١/٢٣ (٢) مسلم: ٤/٢٢٩٥ (٣) البخاري:

توحيد، باب ٤٦

[التَّرغِيبُ فِي الصَّدَقَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ﴾ أَي وَابْتَدَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ عَلَى الْأَقَارِبِ، وَالْفُقَرَاءِ، وَالْمَسَاكِينِ، وَذَوِي الْحَاجَاتِ. وَأَحْسِنُوا إِلَى خَلْقِ اللَّهِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ لَا تَفْعَلُوا يَكُنْ شَرًّا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤَقِّدْ شِعْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰئِدُونَ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ، وَذَكَرَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا أُغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثْنَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أَي مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ. وَمَهْمَا تَصَدَّقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ، وَنَزَلَ ذَلِكَ مَثَلَةَ الْقَرْضِ لَهُ، كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «مَنْ يَفْرَضُ غَيْرَ ظُلْمٍ وَلَا عَدِيمٍ؟»^(٥). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَضَاعِفُهُ لَكُمْ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فِيضْعَفَهُ لَكَ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أَي وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ السَّيِّئَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أَي يَجْزِي عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ ﴿حَلِيمٌ﴾ أَي يَضْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ وَالْخَطَايَا وَالسَّيِّئَاتِ ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالنَّهْدَةِ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ.

أَخْرَجُ تَفْسِيرَ سُورَةِ التَّغَابُنِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثْنَةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّلَاقِ
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْحَةٍ مُنِيئَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [١]

[تَطَّلِقُ الْمَرْأَةَ لِعِدَّتِهَا، وَلَا تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا، وَتُحْصِي

الرَّحِمَ أَوْ مَعْصِيَةَ رَبِّهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ مَعَ حُبِّهِ إِلَّا أَنْ يُطِيعَهُ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْحَةٍ مُنِيئَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قَالَ: فَهَؤُلَاءِ رِجَالٌ أَشْلَمُوا مِنْ مَكَّةَ، فَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَبَى أَرْوَاهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ أَنْ يَدْعُوهُمْ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ رَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَفَهُوا فِي الدِّينِ، فَهَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَضَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ فِتْنَةٌ أَي اخْتِيَارٌ وَابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِخَلْفِهِ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يُعْصِيهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرِّ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤] وَالتِّي بَعْدَهَا، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُرَيْدَةَ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ، فَبَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَلَيْهِمَا قَيْصَانُ أَحْمَرَانِ، يَمَشِيَانِ وَيَعْتِرَانِ، فَتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُنْبَرِ، فَحَمَلَهُمَا، فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ يَمَشِيَانِ وَيَعْتِرَانِ، فَلَمْ أَضْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»^(٢). وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(٣).

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى بِقَدْرِ الْإِسْطَاعَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أَي جُهِدْكُمْ وَطَاقَتَكُمْ كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أَي كُونُوا مُتَقَاتِلِينَ لِمَا يَأْمُرُكُمُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَلَا تَحِيدُوا عَنْهُ بِمَنَّةٍ وَلَا بَسْرَةٍ، وَلَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا تَنَحَّلُوا عَمَّا بِهِ أُمِرْتُمْ. وَلَا تَرْكَبُوا مَا عَنْتَهُ زُجْرْتُمْ.

(١) تحفة الأحوذى: ٢٢٢/٩ (٢) أحمد: ٣٥٤/٥ (٣) أبو داود: ٦٦٣/١ وتحفة الأحوذى: ٢٧٨/١٠ والنسائي: ١٠٨/٣ وابن ماجه: ١١٩٠/٢ (٤) فتح الباري: ٢٦٤/١٣ ومسلم: ٢/٩٧٥ (٥) مسلم: ٥٢٢/١

عَدَّتْهَا

خُوِطِبَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْلَا تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا ثُمَّ خَاطَبَ الْأُمَّةَ بَعَثًا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأَةً لَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَعَيَّظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «الْيُرَاجِعُهَا ثُمَّ يُمَسِّكُهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَأَ لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا، فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمْسَسَهَا، فَبِئْسَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ بِهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١). هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ هَهُنَا، وَقَدْ رَوَاهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ وَمُسْلِمٌ وَلَفْظُهُ: «فَبِئْسَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ»^(٢).

وَأَمْسَ لَفْظُ يُوْرِدُ هَهُنَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي مَوْلى عَزَّةَ يُسْأَلُ ابْنَ عُمَرَ وَأَبُو الزُّبَيْرِ يَسْمَعُ: كَيْفَ تَرَى فِي الرَّجُلِ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا؟ فَقَالَ: طَلَّقَ ابْنُ عُمَرَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْيُرَاجِعُهَا - فَرَدَّهَا وَقَالَ: - إِذَا طَهَّرْتَ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ يُمَسِّكْ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ (يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عَدَّتِهِنَّ)^(٣). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ قَالَ: الطَّهْرُ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ^(٤). وَرَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ، وَعَطَاءٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالْحَسَنِ، وَابْنِ سِيرِينَ وَفَتَادَةَ، وَمِثْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ مِثْلَ ذَلِكَ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ عِكْرِمَةَ، وَالصَّحَّاحِ^(٥). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ قَالَ: لَا يُطَلِّقُهَا وَهِيَ حَائِضٌ وَلَا فِي طَهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ، وَلَكِنْ يَتْرُكُهَا حَتَّى إِذَا حَاضَتْ وَطَهَّرَتْ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً^(٦). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿طَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ الْعِدَّةُ: الطَّهْرُ وَالْقُرْءُ: الْحَيْضَةُ. أَنْ يُطَلِّقَهَا حُبْلَى مُسْتَبَيِّنًا حَمْلَهَا، وَلَا يُطَلِّقُهَا وَقَدْ طَافَ عَلَيْهَا، وَلَا يَدْرِي حُبْلَى هِيَ أَمْ لَا؟ وَمِنْ هَهُنَا أَخَذَ الْفُقَهَاءُ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ وَقَسَمُوهُ إِلَى طَلَاقِ سُنَّةٍ وَطَلَاقِ بَدْعَةٍ: فَطَلَاقِ السُّنَّةِ أَنْ يُطَلِّقَهَا طَاهِرَةً مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ، أَوْ حَامِلًا قَدْ اسْتَبَانَ حَمْلَهَا. وَالْبَدْعَةُ هُوَ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ، أَوْ فِي طَهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ، وَلَا يَدْرِي أَحْمَلَتْ أَمْ لَا. وَطَلَاقُ ثَالِثٌ لَا سُنَّةَ فِيهِ - وَلَا بَدْعَةَ وَهُوَ طَلَاقُ

سُورَةُ الطَّلَاقِ

٥٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُهَا فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ بُوْعُظٌ بِهِ مِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ اللَّهَ بَلَّغَ أَمْرَهُ فَدَجَعَلِ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبْسُنُ مِنَ الْمَجِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ رَزَقْتَهُنَّ فَعِدَّتِهِنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالَ أَجَلُهَا أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهَا وَمَنْ يَنْقِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظَمُ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

الصَّغِيرَةَ وَالْآيِسَةَ وَغَيْرَ الْمُدْخُولِ بِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أَيِ احْفَظُوهَا وَاعْرِفُوهَا ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً، لِئَلَّا تَطُولَ الْعِدَّةُ عَلَى الْمَرْأَةِ فَتَمْتَنِعَ مِنَ الْأَزْوَاجِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أَيِ فِي ذَلِكَ.

[التَّفَقُّهُ وَالسُّكْنَى عَلَى الرَّوْحِ فِي عِدَّةِ الرَّجْعِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ﴾ أَيِ فِي ذَلِكَ. فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ، لَهَا حَقُّ السُّكْنَى عَلَى الرَّوْحِ، مَا دَامَتْ مُعْتَدَّةً مِنْهُ. فَلَيْسَ لِلرَّجُلِ أَنْ يُخْرِجَهَا وَلَا يَجُوزُ لَهَا أَيْضًا الْخُرُوجُ، لِأَنَّهَا مُعْتَقَلَةٌ لِحَقِّ الرَّوْحِ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أَيِ لَا يُخْرِجَنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ إِلَّا أَنْ تَرْتَكِبَ الْمَرْأَةُ فَاِحْشَةً مُبَيَّنَةً، فَتُخْرَجُ مِنَ الْمَنْزِلِ، وَالْفَاِحْشَةُ الْمُبَيَّنَةُ: تَشْمَلُ الزَّنا كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ

(١) فتح الباري: ٥٢١/٨ (٢) فتح الباري: ٢٥٨/٩ و٣٩٣
ومسلم: ١٠٩٤/٢ و١٠٩٥ (٣) مسلم: ١٠٩٨/٢ (٤)
الطبري: ٤٣٢/٢٣ (٥) الطبري: ٤٣٢/٢٣ (٦)
الطبري: ٤٣٥/٢٣

الحديث .

وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ، أُحْتِ الصَّحَّاحُ بْنُ قَيْسِ الْقُرَشِيِّ، وَرَوَّجَهَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ حَفْصِ بْنِ الْمُعْبِرَةِ الْمُخَزَمِيُّ فَقَالَتْ: إِنَّ أَبَا عَمْرٍو بْنَ حَفْصِ أَرْسَلَ إِلَيَّ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ فِي جَيْشٍ إِلَى الْبَيْمَنِ بِطَلَّاقِي، فَسَأَلْتُ أَوْلِيَاءَهُ النَّفَقَةَ عَلَيَّ وَالشُّكْنَى، فَقَالُوا: مَا أَرْسَلَ إِلَيْنَا فِي ذَلِكَ شَيْئًا وَلَا أَوْصَانًا بِهِ، فَاِنطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا عَمْرٍو بْنَ حَفْصِ أَرْسَلَ إِلَيَّ بِطَلَّاقِي، فَسَأَلْتُ أَوْلِيَاءَهُ الشُّكْنَى وَالنَّفَقَةَ عَلَيَّ، فَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُ: لَمْ يُرْسِلْ إِلَيْنَا فِي ذَلِكَ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الشُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ لِلْمَرْأَةِ إِذَا كَانَ لِرُؤُوجِهَا عَلَيْهَا رَجْعَةٌ، فَإِذَا كَانَتْ لَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ رُؤُوجًا غَيْرَهُ: فَلَا نَفَقَةَ لَهَا وَلَا سُكْنَى»^(٧). وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٨).

﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ مَا نَسَبُوا بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلِ امْنَكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ لَكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُطَلَّقةِ سِوَاءِ أَرَادَ الرَّجْعَةَ أَوْ الْفِرَاقَ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَإِذَا بَلَغَتِ الْمَعْتَدَاتُ أَجَلَهُنَّ، أَيِ شَارَفْنَ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَقَارَبْنَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَمْ تَقْرُغِ الْعِدَّةُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَحَيْثُ إِذَا أَنْ يَعْزِمَ الرُّؤُوجَ عَلَى إِمْسَاكِهَا، وَهُوَ رَجَعْتُهَا إِلَى عِصْمَةِ نِكَاحِهِ وَالِاسْتِمْرَارُ بِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ عِنْدَهُ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أَيِ مُحْسِنًا إِلَيْهَا فِي صُحْبَتِهَا، وَإِنَّمَا أَنْ يَعْزِمَ عَلَى مُفَارِقَتِهَا بِمَعْرُوفٍ، أَيِ مِنْ غَيْرِ مُقَابَحَةٍ وَلَا مُشَاتَمَةٍ وَلَا تَعْنِيفٍ، بَلْ يُطَلِّقُهَا عَلَى وَجْهِ جَمِيلٍ وَسَبِيلِ حَسَنِ.

عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ وَالشَّعْبِيُّ، وَالْحَسَنُ وَابْنُ سَيْرِينَ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَأَبُو قَلَابَةَ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالصَّحَّاحُ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالسُّدِّيُّ وَسَعِيدُ بْنُ أَبِي هِلَالٍ وَغَيْرُهُمْ^(١). وَتَشْمَلُ مَا إِذَا نَشَرَتْ الْمَرْأَةُ أَوْ بَدَتْ عَلَى أَهْلِ الرَّجُلِ، وَادَّتْهُمْ فِي الْكَلَامِ وَالْفِعَالِ. كَمَا قَالَ أَبُو بِنُ كَعْبٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَغَيْرُهُمْ^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أَيِ شَرَائِعُهُ وَمَحَارِمُهُ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أَيِ يَخْرُجُ عَنْهَا، وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى غَيْرِهَا وَلَا يَأْتِمِرُ بِهَا ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أَيِ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

[مَصْلَحَةُ الْإِعْتِدَادِ فِي بَيْتِ الرُّؤُوجِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أَيِ إِنَّمَا أَتَيْنَا الْمُطَلَّقةَ فِي مَنْزِلِ الرُّؤُوجِ فِي مَدَّةِ الْعِدَّةِ، لَعَلَّ الرُّؤُوجَ يَنْدُمُ عَلَى طَلَّاقِهَا وَيَخْلُقُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَجْعَتَهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَيْسَرَ وَأَسْهَلَ. قَالَ الزُّهْرِيُّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قَالَتْ: هِيَ الرَّجْعَةُ^(٣). وَكَذَا قَالَ الشَّعْبِيُّ، وَعَطَاءُ، وَقَتَادَةُ، وَالصَّحَّاحُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَالتَّوْرِيُّ^(٤).

[لَا نَفَقَةَ وَلَا سُكْنَى لِلْمَبْتُوتَةِ]

وَمِنْ هُنَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ السَّلَفِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ، إِلَى أَنَّهُ لَا تَجِبُ الشُّكْنَى لِلْمَبْتُوتَةِ وَاعْتَمَدُوا أَيْضًا عَلَى حَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسِ الْفَهْرِيَّةِ حِينَ طَلَّقَهَا رُؤُوجُهَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ حَفْصِ آخِرَ ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ، وَكَانَ غَائِبًا عَنْهَا بِالْيَمَنِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا بِذَلِكَ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا وَكَيْلُهُ بِشَعِيرٍ يَعْنِي نَفَقَةَ فَسَخَطْتُهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَيْسَ لَكَ عَلَيْنَا نَفَقَةٌ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ» وَلِمُسْلِمٍ: «وَلَا سُكْنَى» وَأَمْرَهَا أَنْ تَعْتَدَ فِي بَيْتِ أُمَّ شَرِيكٍ ثُمَّ قَالَ: «تِلْكَ أَمْرَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي، اعْتَدِي عِنْدَ ابْنِ أُمَّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ نِيَابِكَ»^(٥). الْحَدِيثُ.

وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ أُخْرَى بِلَفْظٍ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انظري يا بنت آل قيس إنما النفقة والشكنى للمرأة على زوجها، ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا شكنى، اخرجي فانزلي على فلانة» ثم قال: «إنه يتحدث إليها، انزلي على ابن أم مكتوم فإنه أعمى لا يراك»^(٦). . . . وَذَكَرَ تَمَامَ

(١) الطبري: ٤٣٨/٢٣ والقرطبي: ١٥٦/١٨ والدر المنثور: ٨/

١٩٤ (٢) الطبري: ٤٣٨/٢٣ (٣) الطبري: ٤٤١/٢٣ (٤)

الطبري: ٤٤٢/٢٣ والقرطبي: ١٥٧/١٨ والدر المنثور: ٨/١٩٤

(٥) مسلم: ١٤٨٠ (٦) أحمد: ٣٧٣/٦ (٧) الطبراني في

الكبير: ٣٨٢/٢٤ (٨) النسائي: ١٤٤/٦

[الْأَمْرُ بِالْإِشْهَادِ عَلَى الرَّجْعَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أَي عَلَى الرَّجْعَةِ إِذَا عَزَمْتُمْ عَلَيْهَا. كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ ثُمَّ يَبْعُ بِهَا وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَلَاقِهَا وَلَا عَلَى رَجْعَتِهَا، فَقَالَ: طَلَّقْتَ لِغَيْرِ سُنَّةٍ وَرَجَعْتَ لِغَيْرِ سُنَّةٍ، أَشْهَدُ عَلَى طَلَاقِهَا وَعَلَى رَجْعَتِهَا وَلَا تُعَدُّ^(١). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ كَانَ عَطَاءٌ يَقُولُ: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قَالَ: لَا يَجُوزُ فِي نِكَاحٍ وَلَا طَلَاقٍ وَلَا رَجَاعٍ إِلَّا شَاهِدَا عَدْلٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ عُدْرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا يُوَعِّظُ بِهِ. مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَي هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ وَإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ إِنَّمَا يَأْتِمُرُ بِهِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنَّهُ شَرَعَ هَذَا وَمَنْ يَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

[يَجْعَلُ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُمْ وَيُكْفِيهِمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا^(٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَي وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ يَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ أَي مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِإِيَالِهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٣) [النحل: ٩٠] وَإِنَّ أَكْبَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَرَجًا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وَقَالَ عِكْرَمَةُ مَنْ طَلَّقَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا^(٤). وَكَذَا رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمَسْرُوقٌ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ إِنْ شَاءَ أَعْطَى وَإِنْ شَاءَ مَنَعَ ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَي مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أَي مِنْ شَهَاتِ الْأُمُورِ وَالكَرْبِ عِنْدَ الْمَوْتِ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ مِنْ حَيْثُ لَا يَرْجُو وَلَا يَأْمَلُ^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا غَلَامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ

يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَفْئِدَةُ وَجَمَّتِ الصُّحُفُ»^(٧). وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ أَي مُنْفِذُ قَضَائِهِ وَأَحْكَامِهِ فِي خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ وَيَشَاءُهُ ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَالَّتِي يَسِّنُ مِنَ الْمَجِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةٌ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالَ أَجَلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ إِسْرًا^(٩)﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ لِإِيَّاكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا^(١٠)

[عِدَّةُ الْآيِسَةِ وَالَّتِي لَمْ تَحِضْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا لِعِدَّةِ الْآيِسَةِ، وَهِيَ الَّتِي انْقَطَعَ عَنْهَا الْمَجِيضُ لِكِبَرِهَا، أَنَّهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، عِوَضًا عَنِ الثَّلَاثَةِ فُرُوءٍ فِي حَقِّ مَنْ تَحِضُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَةُ الْبَقَرَةِ، وَكَذَا الصَّغَارُ اللَّائِي لَمْ يَبْلُغْنَ سِنَّ الْحَيْضِ: أَنَّ عِدَّتَهُنَّ كَعِدَّةِ الْآيِسَةِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ:

(أَحَدُهُمَا) وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ كُمُجَاهِدِ وَالرُّهْرِيِّ وَابْنِ زَيْدٍ أَي إِنْ رَأَيْتِ دَمًا وَسَكَكْتُمْ فِي كَوْنِهِ حَيْضًا أَوْ اسْتِحَاضَةً وَارْتَبْتُمْ فِيهِ^(١١). (وَالْقَوْلُ الثَّانِي) إِنْ أَرَبْتُمْ فِي حُكْمِ عِدَّتَيْهِنَّ وَلَمْ تَعْرِفُوهُ فَهُوَ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ. وَهَذَا مَرُورِيٌّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جُرَيْجٍ^(١٢). وَهُوَ أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَا رَوَاهُ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ عَدَدًا مِنْ عِدَّةِ النِّسَاءِ لَمْ تُذَكَّرْ فِي الْكِتَابِ: الصَّغَارِ وَالْكِبَارِ وَأَوْلَاتِ الْأَحْمَالِ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّتِي يَسِّنُ مِنَ الْمَجِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالَ أَجَلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ﴾^(١٣). وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْبَاطٍ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنْ نَاسًا مِنْ

(١) أبو داود: ٦٣٧/٢ وابن ماجه: ٦٥٢/١ (٢) أحمد: ٥/

١٧٨ (٣) الطبري: ٤٤٦/٢٣ (٤) الطبري: ٤٤٥/٢٣ ٤٤٦

(٥) الطبري: ٤٤٨/٢٣ (٦) أحمد: ٢٩٣/١ (٧) تحفة

الأحودي: ٢١٩/٧ (٨) الطبري: ٤٥٠/٢٣ (٩) الطبري:

٤٥٢/٢٣ (١٠) الطبري: ٤٥١/٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٩

سُورَةُ الطَّلَاقِ

أَسْكَنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِضَعْفِهِنَّ
عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمَلٍ فَلَا تُفْقِعُوا عَلْتِهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ
فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتُدُّنَّ عَنْهُنَّ فَإِنْ فَارَّهِنَّ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكُمْ فَاعْبُدُوا
وَأَنْتُمْ لَهَا بِرَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا بِرَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا بِرَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا بِرَبِّكُمْ

تَعَاَسَرْتُمْ فَمَنْ رَضِعَ لَهَا مِنْ أُمَّةٍ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ
وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا
إِلَّا مَا آتَاهَا سَيِّئًا لِيُنْفِقَ مِنْ فَضْلِهِ قَدِ ابْتَدَأَ الطَّلَاقَ فِي الْكُفْرِ
عَنْتَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِهَا
عَذَابًا نَكِرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا حَسْرًا ﴿٩﴾
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا
قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ
لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَمِمَّا أَوْصَلَتْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِرَبِّكَ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنِهِنَّ لِلْعِلْمِ أَنْ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

وَقَاتِيهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نَفْسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَابِ، فَدَخَلَ
عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكِكَ فَقَالَ لَهَا: مَالِي أَرَاكَ مُتَجَمِّلَةً؟
لَعَلَّكَ تَرْجِينَ النِّكَاحَ، إِنَّكَ وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ
عَلَيْكَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعِشْرًا.

قَالَتْ سَبِيعةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ
أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَقْتَانِي
بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزْوِيجِ إِنْ
بَدَأَ لِي (٦). هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُخْتَصَرًا (٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْقَى اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أَيُّ
يُسْهَلُ لَهُ أَمْرُهُ وَيُسْرُهُ عَلَيْهِ، وَيَجْعَلُ لَهُ فَرْجًا قَرِيبًا وَمَخْرَجًا

أَهْلَ الْمَدِينَةِ لَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ فِي عِدَّةِ
النِّسَاءِ قَالُوا: لَقَدْ بَقِيَ مِنْ عِدَّةِ النِّسَاءِ عِدَّةٌ لَمْ يَذْكُرْنَ فِي
الْقُرْآنِ: الصَّغَارُ وَالْكِبَارُ اللَّائِي قَدْ انْطَمَعَ مِنْهُنَّ الْحَيْضُ،
وَذَوَاتُ الْحَمْلِ. قَالَ: فَأَنْزَلَتْ الَّتِي فِي النِّسَاءِ الْقَضْرَى:
﴿وَالَّتِي يَبْسَنَ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةٌ
أَشْهُرٌ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ (١).

[عِدَّةُ الْحَامِلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ﴾
يَقُولُ تَعَالَى: وَمَنْ كَانَتْ حَامِلًا فَعِدَّتُهَا بِوَضْعِهِ، وَلَوْ كَانَ
بَعْدَ الطَّلَاقِ، أَوْ الْمَوْتِ بِفَوَاقِي نَاقِيهِ، فِي قَوْلِ جُمْهُورِ
الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، كَمَا هُوَ نَصُّ هَذِهِ الْآيَةِ
الْكَرِيمَةِ وَكَمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ
أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ
جَالِسٌ فَقَالَ: أَفْتَيْتَنِي فِي امْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ
لَيْلَةً، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آخِرُ الْأَجَلَيْنِ. قُلْتُ أَنَا: ﴿وَأَوْلَاتُ
الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابْنِ
أَخِي - يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ - فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ غُلَامَهُ كُرَيْبًا
إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ يَسْأَلُهَا فَقَالَتْ: قُتِلَ زَوْجُ سَبِيعةَ الْأَسْلَمِيَّةِ
وَهِيَ حُبْلَى، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَخُطِبَتْ
فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِيْمَنْ
خَطَبَهَا (٢). هَكَذَا أُرْوَدُ الْبُخَارِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ هَهُنَا
مُخْتَصَرًا، وَقَدْ رَوَاهُ هُوَ وَمُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ الْكُتُبِ مَطْوَلًا
مِنْ وُجُوهِ أُخْرَى (٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ: أَنَّ سَبِيعةَ
الْأَسْلَمِيَّةِ تُوفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ حَامِلٌ فَلَمْ تَمُتْ إِلَّا
لَيَالِي حَتَّى وَضَعَتْ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نَفْسِهَا خُطِبَتْ،
فَأَسْتَأْذَنَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النِّكَاحِ فَأَذِنَ لَهَا أَنْ تَنْكَحَ،
فَنَكَحَتْ (٤). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ
وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ طَرَفٍ عَنْهَا (٥). كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ بِنِ
الْحَجَّاجِ: عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ: أَنَّ أَبَاهُ كَتَبَ
إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيِّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ
عَلَى سَبِيعةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ، فَيَسْأَلُهَا عَنْ حَدِيثِهَا
وَعَمَّا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ اسْتَفْتَتْهُ، فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ يُخْبِرُهُ أَنَّ سَبِيعةَ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ
خَوْلَةَ - وَكَانَ مِنْ شُهَدَاءِ بَدْرًا - فَتُوفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةٍ
الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشُبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ

(١) الحاكم: ٤٩٢/٢ (٢) فتح الباري: ٥٢١/٨ (٣) فتح
الباري: ٣٧٩/٩ ومسلم: ١١٢٣/٢ وتحفة الأحمدي: ٣٧٥/٤
والنسائي: ١٩٢/٦ (٤) أحمد: ٣٢٧/٤ (٥) فتح الباري: ٩/
٣٧٩ ٣٦٠/٧ وأبو داود: ٧٢٨/٢ والنسائي: ١٩٠/٦ ١٩٦/
وابن ماجه: ٦٥٤/١ (٦) مسلم: ١١٢٢ (٧) فتح الباري: ٩/
٣٧٩

عَاجِلًا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أَيُّ حُكْمُهُ وَسَرْعُهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ بِوِاسِطَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿وَمَنْ يَقُولُ اللَّهُ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيَعْظِمُ لَهُ أَجْرًا﴾ أَيُّ يُوْذِبُ عَنْهُ الْمَحْذُورَ، وَيَجْزِلُ لَهُ الثَّوَابَ عَلَى الْعَمَلِ الْبَسِيرِ.

﴿أَنْتُمْ كُنْتُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا تَقُولُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنَّهُمْ كَمَا كُنْتُمْ مِنَ الْغَيْبِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبُكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعَايَنَّا فَلْيَنْصِبْ لَنَا إِثْمًا وَإِنْ تُنَاصِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيُصْحَبِ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤] وَتَعَالَى: ﴿وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِيقِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وَتَعَالَى: ﴿وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِيقِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وَتَعَالَى: ﴿وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِيقِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

أَشْرُجَرْتِ بِهِ الْأَجْنِيَّةُ فَهِيَ أَحَقُّ بِوَلَدِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ أَيُّ لِيُنْفِقَ عَلَى الْمَوْلُودِ وَالْوَالِدَةِ أَوْ وَلِيِّهِ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ ﴿وَمَنْ قُدْرَتُهُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٦].

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٢٨٦].

[قِصَّةُ الْمَرْأَةِ الْمُتَّقِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وَعَدُّ مِنْهُ تَعَالَى وَوَعْدُهُ حَقٌّ لَا يُخْلِفُهُ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦٠٥] وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَدِيثًا يَحْسُنُ أَنْ نَذْكُرَهُ هُنَا: فَرَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ مِنَ السَّلَفِ الْخَالِي لَا يَقْدِرَانِ عَلَى شَيْءٍ، فَجَاءَ الرَّجُلُ مِنْ سَفَرِهِ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ [جَائِعًا] قَدْ أَصَابَتْهُ مَسْغَبَةٌ شَدِيدَةٌ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَتَبَيَّرُ أَتَانَا رِزْقُ اللَّهِ، فَاسْتَحْتَمَهَا فَقَالَ: وَيَحِكِ ابْتِغِي إِنْ كَانَ عِنْدَكَ شَيْءٌ، قَالَتْ: نَعَمْ هُنِيئَةً - تَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ - حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيْهِ الطُّوْلُ قَالَ: وَيَحِكِ قَوْمِي فَابْتِغِي إِنْ كَانَ عِنْدَكَ شَيْءٌ فَاتَّبِعِي بِهِ، فَإِنِّي قَدْ بُلِغْتُ وَجُهِدْتُ، فَقَالَتْ: نَعَمْ، الْآنَ نَفْتَحُ الثَّنُورَ فَلَا تُعْجَلْ، فَلَمَّا أَنْ سَكَتَ عَنْهَا سَاعَةً وَتَحَيَّنَتْ أَنْ يَقُولَ لَهَا، قَالَتْ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهَا: لَوْ قُمْتُ فَنَطَرْتُ إِلَى تَنُورِي، فَقَامَتْ فَنَطَرَتْ إِلَى تَنُورِهَا مَلَانٌ مِنْ جُئُوبِ الْعَنَمِ، وَرَحِييَهَا تَطْحَنَانٌ، فَقَامَتْ إِلَى الرَّحَى فَفَضَّتْهَا وَاسْتَخْرَجَتْ مَا فِي تَنُورِهَا مِنْ جُئُوبِ الْعَنَمِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ هُوَ قَوْلُ مُحَمَّدٍ ﷺ: «لَوْ أَخَذْتُ مَا فِي رَحِييَهَا وَلَمْ تَنْفُضْهَا [لَطَحْتَهَا] إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤).

﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَّتْ عَنْ أُمِّ رِبْهَآ وَرُسُلِهِ فَمَا سَبَنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا

عَاجِلًا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أَيُّ حُكْمُهُ وَسَرْعُهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ بِوِاسِطَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿وَمَنْ يَقُولُ اللَّهُ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيَعْظِمُ لَهُ أَجْرًا﴾ أَيُّ يُوْذِبُ عَنْهُ الْمَحْذُورَ، وَيَجْزِلُ لَهُ الثَّوَابَ عَلَى الْعَمَلِ الْبَسِيرِ.

﴿أَنْتُمْ كُنْتُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا تَقُولُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنَّهُمْ كَمَا كُنْتُمْ مِنَ الْغَيْبِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبُكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعَايَنَّا فَلْيَنْصِبْ لَنَا إِثْمًا وَإِنْ تُنَاصِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيُصْحَبِ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤] وَتَعَالَى: ﴿وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِيقِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وَتَعَالَى: ﴿وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِيقِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وَتَعَالَى: ﴿وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِيقِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

[تَسْكُنُ الْمَطْلَقَةَ حَسَبَ مَا يَجِدُ الزَّوْجُ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ الْمَرْأَةَ: أَنْ يُسْكِنَهَا فِي مَنْزِلٍ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا فَقَالَ: ﴿أَنْتُمْ كُنْتُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ أَيُّ عِنْدَكُمْ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاجِدٌ: يَعْنِي سَعَتِكُمْ^(١). حَتَّى قَالَ قَتَادَةُ: إِنْ لَمْ تَجِدْ إِلَّا جَنْبَ بَيْتِكَ فَأَسْكِنَهَا فِيهِ^(٢).

[الْتِهَانِي عَنِ التَّضْيِيقِ عَلَى الْمَطْلَقَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنَّهُمْ كَمَا كُنْتُمْ مِنَ الْغَيْبِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبُكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِيقِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وَتَعَالَى: ﴿وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِيقِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وَتَعَالَى: ﴿وَالْمَرْءُ عَلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِيقِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

[نَفَقَةُ الْحَامِلِ الْبَائِسِ عَلَى الزَّوْجِ حَتَّى تَضَعَ الْحَمْلَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَى حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ هَذِهِ فِي الْبَائِسِ، إِنْ كَانَتْ حَامِلًا أَنْفَقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا، بِدَلِيلِ: أَنَّ الرَّجْعِيَّةَ تَجِبُ نَفَقَتُهَا سِوَاءَ كَانَتْ حَامِلًا أَوْ حَائِلًا.

[تَأْخُذُ الْأُمُّ الْمَطْلَقَةَ أَجْرَةَ الرِّضَاعَةِ إِنْ أَرْضَعَتْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ مِثْلَ مَا كُنْتُمْ تُرْزَقُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ مِثْلَ مَا كُنْتُمْ تُرْزَقُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ مِثْلَ مَا كُنْتُمْ تُرْزَقُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ مِثْلَ مَا كُنْتُمْ تُرْزَقُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

(١) الطبري: ٤٥٧/٢٣ (٢) الدر المنثور: ٢٠٧/٨ (٣) القرطبي: ١٦٨/١٨ (٤) أحمد: ٤٢١/٢

وَعَدَّتْهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبَہَا أَمْرًا حُسْرًا ﴿٩﴾
 أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ
 أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ
 وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿١١﴾

[جَزَاءُ الْعُتُوِّ عَنْ أَمْرِ الرَّبِّ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ
 وَسَلِّكَ غَيْرَ مَا شَرَعَهُ، وَمُخْبِرًا عَمَّا حَلَّ بِالْأُمَّمِ السَّالِفَةِ
 بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّيْنِ مِنْ قَرَبِي عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا
 وَرُسُلِهِ﴾ أي تَمَرَّدَتْ وَطَعَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ عَنِ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ
 وَمُتَابَعَةِ رُسُلِهِ ﴿مَمَسَّتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّتْهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾ أي
 مُنْكَرًا فَظِيمًا ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي غَبَّ مُحَالَفَتِهَا، وَتَدْمُومًا
 حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿وَكَانَ عِقَبَہَا أَمْرًا حُسْرًا﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ
 عَذَابًا شَدِيدًا ﴿أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَعَ مَا [عَجَلَّ] لَهُمْ مِنْ
 الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ مَا قَصَّ مِنْ خَبَرِ
 هَؤُلَاءِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَي الْأَفْهَامِ
 الْمُسْتَقِيمَةِ، لَا تَكُونُوا مِثْلَهُمْ، فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ يَا أُولِي
 الْأَلْبَابِ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي صَدَقُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ
 إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
 وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

[صِفَةُ الرَّسُولِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ قَالَ
 بَعْضُهُمْ: رَسُولًا مَنْصُوبًا عَلَى أَنَّهُ بَدَلُ اسْتِمَالٍ وَمُلَابَسَةٍ،
 لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي بَلَغَ الذِّكْرَ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:
 الصَّوَابُ: أَنَّ الرَّسُولَ تَرْجَمَةٌ عَنِ الذِّكْرِ يَعْنِي تَفْسِيرًا
 لَهُ^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ
 مُبَيِّنَاتٍ﴾ أَي فِي حَالِ كَوْنِهَا بَيِّنَةً وَاضِحَةً جَلِيلَةً ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾
 [إبراهيم: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُغْفِرْ لَهُمْ
 مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أَي مِنَ الظُّلُمَاتِ الْكُفْرِ
 وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَقَدْ سَمَى اللَّهُ تَعَالَى
 الْوَحْيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ نُورًا؛ لِمَا يَحْضُلُ بِهِ مِنَ الْهُدَى، كَمَا
 سَمَّاهُ رُوحًا، لِمَا يَحْضُلُ بِهِ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ فَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ
 لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
 ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذَا
 غَيْرَ مَرَّةٍ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.
 ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ
 لِيُعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عِلْمًا ﴿١٧﴾

[بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ
 لِيَكُونَ ذَلِكَ بَاعِثًا عَلَى تَعْظِيمِ مَا شَرَعَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ
 ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ
 قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾
 [نوح: ١٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحٰنَ لَهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
 فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أَي
 سَبْعًا أَيْضًا: كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ «مَنْ ظَلَمَ فَيَدِّ شِبْرٍ مِنْ
 الْأَرْضِ طَوْقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٢). وَفِي صَحِيحِ
 الْبُخَارِيِّ: «خُسِيفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٣). وَقَدْ ذَكَرْتُ
 طَرَفَهُ وَالْفَاطِظَةَ وَعَزْوَهُ فِي أَوَّلِ «الْبَدَايَةِ وَالنَّهَائَةِ» عِنْدَ ذِكْرِ
 خَلْقِ الْأَرْضِ^(٤). وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَمَنْ حَمَلَ ذَلِكَ
 عَلَى سَبْعَةِ أَقَالِيمٍ فَقَدْ أَبْعَدَ التُّجَعَةَ، وَأَغْرَقَ فِي التَّرَعِّعِ،
 وَخَالَفَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ بِلا مُسْتَنَدٍ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطَّلَاقِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّحْرِيمِ
 وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاتَ زَوْجِكَ وَاللَّهُ
 عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١﴾ قَدْ فَضَّ اللَّهُ لَكَ نِكَاحَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمُ وَهُوَ
 الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا بَيَّنَّاتِ
 بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا بَيَّنَّاهَا بِهِ
 قَالَتْ مَنْ أَبْنَاكَ هَذَا قَالَ تَبَتَّى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُوِيَ إِلَى اللَّهِ

(١) الطبري: ٤٦٨/٢٣ (٢) فتح الباري: ١٢٤/٥ ومسلم: ٣/١٢٣٢
 (٣) فتح الباري: ١٢٤/٥ (٤) البداية والنهاية: ١/٢٠١٩

سورة التحريم

٥٦٠

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَحْرَمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي عَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلَةَ أَيْمَنِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهَا بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبُوا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَتٍ تَبِيَّتْ عِيْدَاتٍ سَدِّحَاتٍ تَيَسَّبَتْ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَنْعَدُونَ الْيَوْمَ إِنَّمَا يَنْجُرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

التي أجد، فإنه سيقول لك: «سقتني حفصة شربة عسل» فقولي جرت نحلته العرْفُطُ وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفيته ذلك، قالت: تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب، فأذت أن أناديه بما أمرتني فرقا منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: «لا» قالت: فما هذه الرياح التي أجد منك؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل» قالت: جرت نحلته العرْفُطُ، فلما دار إلي قلت نحو ذلك، فلما دار إلي صفيته قالت له مثل ذلك، فلما دار إلي حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أشفيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه» قالت: تقول سودة والله لقد حرمتها، قلت لها: أسكني^(٤). هذا لفظ البخاري. وقد رواه مسلم^(٥)، وعنده قالت: وكان رسول الله ﷺ يشدد عليه أن يوجد منه الريح^(٦). يعني الريح

(١) فتح الباري: ١١/٥٨٢ (٢) فتح الباري: ٩/٢٨٧ (٣) مسلم: ١١٠٠/٢ (٤) فتح الباري: ٩/٢٨٧ (٥) مسلم: ٢/١١٠١، ١١٠٢ (٦) مسلم: ٢/١١٠٢

فَقَدَّ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَتٍ تَبِيَّتْ عِيْدَاتٍ سَدِّحَاتٍ تَيَسَّبَتْ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

[عتاب الله لنبه في تحريمه الحلال وبيان كفارته، وتأديب الأزواج على تضييقه]

روى البخاري في كتاب الأيمان والتدوير عن عبيد بن عمير قال: سمعت عائشة تزعم أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلا، فتواطأت أنا وحفصة أن أتينا دخل علينا النبي ﷺ فنقل له: إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما النبي ﷺ فقالت ذلك له. فقال: «لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولكن أعود له» فنزلت: «يتأيتها النبي لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ» - إلى قوله تعالى - «إِنْ نُبُوا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» لعائشة وحفصة «وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا» لقوله: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا» وقال إبراهيم بن موسى عن هشام: «ولن أعود له وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحدا»^(١). وهكذا رواه في كتاب الطلاق بهذا الإسناد ولفظه قريب منه^(٢). ثم قال: المغافير شبيهة بالصمغ يكون في الرمث فيه حلاوة: أعفر به الرمث: إذا ظهر فيه. واحدها مغفور، ويقال: [المغافير]، وهكذا قال الجوهري قال: وقد يكون المغفور أيضا للعسر والتمام والسلام والطلع. قال: والرمث بالكسر: مرعى من مراعي الإبل، وهو من الحمض. قال: والعرْفُطُ: شجر من العضاة ينضح المغفور.

وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب الطلاق من صحيحه عن عائشة به، ولفظه كما أورده البخاري في الأيمان والتدوير^(٣). ثم روى البخاري في كتاب الطلاق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والغسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نساءه فيدئو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة فقلت: أما والله لنتحالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدئو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير، فإنه سيقول لك «لا»، فقولي له: ما هذه الرياح

الْحَيْثَّةَ، وَلِهَذَا قُلْنَا لَهُ أَكَلْتُ مَغَافِرَ، لِأَنَّ رِيحَهَا فِيهِ شَيْءٌ، فَلَمَّا قَالَ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا» قُلْنَا: جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطُ، أَي: رَعَتْ نَحْلُهُ شَجَرَ الْعُرْفُطِ الَّذِي صَمَّعُهُ الْمَغَافِرُ، فَلِهَذَا ظَهَرَ رِيحُهُ فِي الْعَسَلِ الَّذِي شَرِبْتَهُ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: جَرَسَتْ النَّحْلُ الْعُرْفُطُ تَجْرُسُ إِذَا أَكَلْتَهُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلنَّحْلِ: جَوَّارِسُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

* تَظَلُّ عَلَى النَّمْرَاءِ مِنْهَا جَوَّارِسُ *

وَقَالَ: الْجَرَسُ وَالْجَرَسُ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ. وَيُقَالُ: سَمِعْتُ جَرَسَ الطَّيْرِ إِذَا سَمِعْتُ صَوْتًا مَنَاقِرِهَا عَلَى شَيْءٍ تَأْكُلُهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «فَيَسْمَعُونَ جَرَسَ طَيْرِ الْجَنَّةِ» قَالَ الْأَضْعَبِيُّ: كُنْتُ فِي مَجْلِسِ شُعْبَةَ، قَالَ: فَيَسْمَعُونَ جَرَسَ طَيْرِ الْجَنَّةِ - بِالشَّيْنِ - فَقُلْتُ: جَرَسٌ، فَظَنَرُ إِلَيَّ فَقَالَ: خُدُومًا عَنْهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِهَذَا مِنْهَا^(١). وَالْغَرَضُ: أَنَّ هَذَا السَّبَاقَ فِيهِ أَنَّ حَفْصَةَ هِيَ السَّاقِيَةُ لِلْعَسَلِ، وَهُوَ مِنْ طَرِيقِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ، وَفِي طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ عَبْدِ بْنِ عَمِيرٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ هِيَ الَّتِي سَقَمَتُ الْعَسَلُ، وَأَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ تَوَاطَأَا وَتَظَاهَرَتَا عَلَيْهِ فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُمَا وَافِقَتَانِ وَلَا بُعْدَ فِي ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ كَوْنَهُمَا سَبَبًا لِيُزُولَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَظَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هُمَا الْمُتَظَاهِرَتَانِ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ حَيْثُ قَالَ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حَتَّى حَجَّ عُمَرُ وَحَجَّجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ عُمَرُ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ، فَتَبَرَّرَ، ثُمَّ أَتَانِي فَسَكَنْتُ عَلَى يَدَيْهِ، فَتَوَضَّأَ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مِنَ الْمَرْأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فَقَالَ عُمَرُ: وَاعْبَجَا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَرِهَ - وَاللَّهُ - مَا سَأَلَهُ عَنْهُ وَلَمْ يَكْتُمَهُ قَالَ: هِيَ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ.

قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ يَسُوقُ الْحَدِيثَ قَالَ: كُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ قَالَ: وَكَانَ مِنْزِلِي فِي دَارِ أُمِّئَةَ بْنِ زَيْدٍ بِالْعَوَالِي، قَالَ: فَغَضِبْتُ يَوْمًا عَلَى امْرَأَتِي فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي فَقَالَتْ: مَا

تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّ أَرْوَاجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيُرَاجِعُنِي وَتَهَجَّرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ: أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَتَهَجَّرُهُ إِحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَخَسِرَ، أَفَتَأْمُرُنَّ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا لِيُغْضِبَ رَسُولَهُ فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ، لَا تُرَاجِعِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَا تَسْأَلِيهِ شَيْئًا وَسَلِينِي مِنْ مَالِي مَا بَدَا لَكَ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْسَمَ - أَيِ أَحْمَلَ - وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكَ - يُرِيدُ عَائِشَةَ -.

قَالَ: وَكَانَ لِي جَارٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكُنَّا تَتَوَابَعُ التَّرْوَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا فَيَأْتِينِي بِخَبَرِ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَآتِيهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ. قَالَ: وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ عَسَانَ تَنْعَلُ الْخَيْلَ لِيَتَغَرَّوْنَا، فَتَزَلُّ صَاحِبِي يَوْمًا ثُمَّ أَتَى عِشَاءَ فَضْرَبَ أَبِي تُمَّ نَادَانِي فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: حَدَّثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، فَقُلْتُ: وَمَا ذَلِكَ أَجَاءَتْ عَسَانَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَطْوَلُ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ. فَقُلْتُ: قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ، قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ هَذَا كَانِنًا حَتَّى إِذَا صَلَّيْتُ الصُّبْحَ شَدَدْتُ عَلَيَّ تِيَابِي، ثُمَّ نَزَلْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ وَهِيَ تَبْكِي فَقُلْتُ: أَطَلَّقَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: لَا أَذْرِي، هُوَ هَذَا مُعْتَرِلٌ فِي هَذِهِ الْمَشْرَبَةِ، فَأَتَيْتُ غُلَامًا لَهُ أَسْوَدٌ فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَدَخَلَ الْغُلَامُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ فَقَالَ: ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَّتْ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُ الْمُنْبَرِ، فَإِذَا عِنْدَهُ رَهْطٌ جُلُوسٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ، فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَحْدُ، فَأَتَيْتُ الْغُلَامَ فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ، فَصَمَّتْ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا، فَإِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي فَقَالَ: أَدْخُلْ قَدْ أَدْنُ لَكَ، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ مُتَّكِيٌّ عَلَى رُمَالِ حَصِيرٍ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقُلْتُ: أَطَلَّقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نِسَاءَكَ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ: «لَا» فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ. وَلَوْ رَأَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ

فَنَادَيْتُ فَقُلْتُ: يَا رَبَّاحُ، اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ... فَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ إِلَيَّ أَنْ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا
 رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ، فَإِنْ كُنْتُ
 طَلَقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتُهُ وَجِبْرِيلُ وَمِيكَالُ، وَأَنَا وَأَبُو
 بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ، وَقَلَمًا تَكَلَّمْتُ - وَأَحْمَدُ اللَّهُ -
 بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ
 الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا
 مِنْكَ﴾، ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِيحُ
 الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فَقُلْتُ: أَطَلَقْتَهُنَّ؟ قَالَ:
 «لَا» فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَتَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: لَمْ
 يُطَلَّقْ نِسَاءً. وَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ
 الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي
 الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَشِيرُونَ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] فَكُنْتُ
 أَنَا إِسْتَشْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ^(٥). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ،
 وَعِكْرَمَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالصَّحَّاحُ وَعَبْدُ اللَّهِ^(٦) وَصَلِيحُ
 الْمُؤْمِنِينَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، زَادَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَعُثْمَانُ،
 وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ «وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ»
 قَالَ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: اجْتَمَعَ نِسَاءُ
 النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعَبْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ
 طَلَقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٧). وَقَدْ
 تَقَدَّمَ أَنَّهُ وَافَقَ الْقُرْآنَ فِي أَمَاكِنَ مِنْهَا فِي نَزُولِ الْحِجَابِ،
 وَمِنْهَا فِي أُسَارَى بَدْرٍ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: لَوْ اتَّخَذْتُ مِنْ مَقَامٍ
 إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْتَدُوا مِنْ مَقَامٍ إِبْرَاهِيمَ
 مُصَلًى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ
 الْخَطَّابِ: بَلَغَنِي شَيْءٌ كَانَ بَيْنَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ
 النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَفْرَيْتُهُنَّ أَقُولُ: لَتَحْفَنَنَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ
 لِيُبَدِّلَنَّ اللَّهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِ
 أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ مَا
 يَعْظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعْطَهُنَّ، فَأَمْسَكْتُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ
 نِسَائِهِمْ فَغَضِبْتُ عَلَى امْرَأَتِي يَوْمًا فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي،
 فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي فَقَالَتْ: مَا تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ؟ قَوْلَ اللَّهِ
 إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لِكِرَاجِعَتِهِ، وَتَهَجَّرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى
 اللَّيْلِ، فَقُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُنَّ وَخَسِرَتْ،
 أَفَتَأْمَنُ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا لِعِصَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَإِذَا
 هِيَ قَدْ هَلَكَتْ.

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ دَخَلْتُ
 عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ لَا يَعْزَّتُكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتِكَ هِيَ أَوْ سَمَ
 أَوْ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكَ. فَتَبَسَّمَ أُخْرَى، فَقُلْتُ:
 أَشْتَأْنِسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَجَلَسْتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي
 فِي النَّبْتِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِي النَّبْتِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ إِلَّا
 [أَهْبُ مَقَامَةً]، فَقُلْتُ: أَدْعُ اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ يُوسِّعَ
 عَلَيَّ أُمَّتِكَ، فَقَدْ وَسَّعَ عَلَيَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ
 اللَّهَ، فَاسْتَوَى جَالِسًا وَقَالَ: «أَفِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ
 الْخَطَّابِ، أَوْلَيْتَكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا» فَقُلْتُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ.

وَكَانَ أَقْسَمُ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا مِنْ شِدَّةِ مَوْجِدَتِهِ
 عَلَيْهِنَّ حَتَّى عَاتَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ
 وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ^(٢). وَأَخْرَجَهُ
 الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَكَّثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ
 عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ، فَمَا اسْتَطِيعَ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ،
 حَتَّى خَرَجَ حَاجًا فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِنَعْصِ
 الطَّرِيقِ، عَدَلْتُ إِلَى الْأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ، قَالَ: فَوَقَفْتُ حَتَّى
 فَرَغْتُ ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ اللَّتَانِ
 تَطَاهَرْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ^(٣). هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ، وَلِمُسْلِمٍ:
 مِنَ الْمَرَاتَانِ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ؟﴾
 قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ. ثُمَّ سَأَقِ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ^(٤) وَمِنْهُمْ
 مَنْ اخْتَصَرَهُ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، حَدَّثَنِي عُمَرُ
 ابْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ دَخَلْتُ
 الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ: طَلَّقَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤَمَّرَ بِالْحِجَابِ فَقُلْتُ
 لِأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي دُخُولِهِ عَلَى
 عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَوَعَّظَهُ إِيَّاهُمَا، إِلَى أَنْ قَالَ: فَدَخَلْتُ فَإِذَا
 أَنَا بِرَبَّاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَشْكَفَةِ الْمَشْرَبَةِ،

(١) أحمد: ٣٣/١، ٣٤ (٢) فتح الباري: ١٨٧/٩، ١٣٧/٥
 ومسلم: ١١١/٢ وتحتفة الأحوذني: ٢٢٤/٩ والنسائي في
 الكبرى: ٣٦٦/٥ (٣) فتح الباري: ٥٢٥/٨ (٤) مسلم: ٢/
 ١١٠٨ (٥) مسلم: ١١٠٥/٢ (٦) الطبري: ٤٨٦/٢٣ (٧)
 فتح الباري: ٥٢٨/٨

فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاصْرُبُوهُ عَلَيْهَا هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٨).

[وَقُوْدُ جَهَنَّمَ وَمَلَأَتْهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وَقُوْدُهَا أَي حَطَبُهَا الَّذِي يُلْقَى فِيهَا جُثَثُ بَنِي آدَمَ ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْأَصْنَافُ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَالسُّدِّيُّ: هِيَ حِجَارَةٌ مِنْ كِبْرِيَّتٍ. زَادَ مُجَاهِدٌ: أَتُنَّنُ مِنْ الْحِجَافَةِ^(٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غَلَّظَ شِدَادُهَا﴾ أَي طَبَاعُهَا غَلِظَةٌ قَدْ نَزَعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةَ بِالْكَافِرِينَ يَا اللَّهُ ﴿شِدَادُهَا﴾ أَي تَرْكِيْبُهُمْ فِي غَايَةِ الشَّدَةِ وَالْكَثَافَةِ وَالْمَنْظَرِ الْمُرْعَجِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أَي مَهْمَا أَمَرَهُمْ بِهِ تَعَالَى يُبَادِرُونَ إِلَيْهِ، لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى فِعْلِهِ لَيْسَ بِهِمْ عَجْزٌ عَنْهُ، وَهُؤُلَاءِ هُمُ الرِّبَايَةُ - عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْهُمْ -.

[لَا يُقْبَلُ عُذْرُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُعَذِّدُوا آلِيَوْمَ إِنَّمَا يُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي يُقَالُ لِلْكَافِرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَا تُعْتَذِرُوا فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ، وَلَا تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، وَإِنَّمَا تُجْرُونَ الْيَوْمَ بِأَعْمَالِكُمْ.

[الترغيب في التوبة النصوح]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أَي تَوْبَةً صَادِقَةً جَارِمَةً، تَمَحُّو مَا قَبَلَهَا مِنْ السَّيِّئَاتِ، وَتَلُمُ شَعَثِ النَّائِبِ، وَتَجْمَعُهُ وَتَكْفُهُ عَمَّا كَانَ يَتَعَطَّاهُ مِنَ الدَّنَائَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وَعَسَىٰ مِنَ اللَّهِ

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنِيئَاتٍ تَحِبَّاتٍ عِيْدَاتٍ سَخِيحَاتٍ تَبِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا﴾^(١) وَهَذِهِ الْمَرْءَةُ الَّتِي رَدَّتهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ وَعْظِ النِّسَاءِ، هِيَ أُمُّ سَلْمَةَ كَمَا [تَبَّتْ] ذَلِكَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ^(٢).

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنِيئَاتٍ تَحِبَّاتٍ عِيْدَاتٍ﴾ ظَاهِرٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَخِيحَاتٍ﴾ أَي: صَائِمَاتٍ، قَالَه أَبُو هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءٌ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ وَأَبُو مَالِكٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَالصَّحَّاحُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَبِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أَي مِنْهُنَّ تَبِيَّاتٌ وَمِنْهُنَّ أَبْكَارًا لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْهَىٰ إِلَى النَّفْسِ، فَإِنَّ التَّنَوُّعَ يَبْسُطُ النَّفْسَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَبِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُرًا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غَلَّظَ شِدَادُهَا لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٤) يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُعَذِّدُوا آلِيَوْمَ إِنَّمَا يُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(٥) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُجْرَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ تَوْبَهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِيهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا تُورَةً وَأَعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٦)

[تعليم الأهل الأدب والدين]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قُرًا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يَقُولُ: إِعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَاتَّقُوا مَعَاصِي اللَّهِ، وَأَمُرُوا أَهْلِيكُمْ بِالذِّكْرِ يُنَجِّبِكُمْ اللَّهُ مِنَ النَّارِ^(٧). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿قُرًا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ قَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ وَأَوْضُوا أَهْلِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ^(٨). وَقَالَ قَتَادَةُ: تَأْمُرُهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَتَنْهَاهُمْ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَأَنْ تَقَوْمَ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَتَأْمُرُهُمْ بِهِ وَتُسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتَ لِلَّهِ مَعْصِيَةً قَدَعْتَهُمْ عَنْهَا وَرَجَزْتَهُمْ عَنْهَا^(٩). وَهَكَذَا قَالَ الصَّحَّاحُ وَمُقَاتِلٌ: حَقٌّ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُعَلِّمَ أَهْلَهُ مِنْ قَرَابَتِهِ وَإِمَائِهِ وَعَبِيدِهِ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَمَا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ^(١٠).

وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُرُوا الصَّيْبَ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ،

(١) الطبري: ٤٨٨/٢٣ (٢) فتح الباري: ١٦/٨ (٣) الطبري:

٤٩٠/٢٣ والقُرطبي: ١٩٣/١٨ والدر المنثور: ٢٢٤/٨ (٤)

الطبري: ٤٩١/٢٣ (٥) الطبري: ٤٩٢/٢٣ (٦) الطبري:

٤٩٢/٢٣ (٧) القرطبي: ١٩٦/١٨ (٨) أحمد: ٤٠٤/٣ وأبو

داود: ٣٣٢/١ وتحفة الأحوذني: ٤٤٥/٢ (٩) الطبري: ١/

سورة التحريم

٥٦١

سورة التحريم

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
 أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآخِرُ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
 يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٍ تُوْجٍ وَامْرَأَتٍ لُوْطٍ كَانَتَا تَحْتَ
 عَبْدَيْنٍ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ
 الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾
 وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتٍ فَرَعَوْنَ إِذْ
 قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ
 وَعَمَلِهِ وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَزَمِيمَ ابْنَتِ
 عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا
 وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

كانتا على غير دينيهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أخذت أخبار الجبارة من قوم نوح به، وأما امرأة لوط، فكانت إذا أضاف لوط أحدًا أخبرته به أهل المدينة ممن يعمل الشؤء^(٣). وقال الضحاک عن ابن عباس: ما بعث امرأة نبي قط إنما كانت خيانتها في الدين^(٤). وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبیر والضحاک وغيرهم^(٥).

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتٍ فَرَعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١١﴾ وَزَمِيمَ ابْنَتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

(١) الطبري: ٤٩٦/٢٣ (٢) أحمد: ٢٣٤/٤ وقال الهيثمي في مجمع رواه أحمد ورجاله ثقات (٣) الطبري: ٤٩٨/٢٣ (٤) الطبري: ٤٩٨/٢٣ (٥) الطبري: ٤٩٨/٢٣ إسناده ضعيف

مُوجِبَةً ﴿يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أَي وَلَا يُخْزِيهِمْ مَعَهُ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآخِرُ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضُّحَاكُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ: هَذَا يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ يَرَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورَ الْمُتَّقِينَ قَدْ طَفِيَ^(١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٍ تُوْجٍ وَامْرَأَتٍ لُوْطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنٍ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾

[الأمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ امْرَأَ رَسُولَهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ: هُوَ لَاءٌ بِالسَّلَاحِ وَالْقِتَالِ، وَهُوَ لَاءٌ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ ﴿وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ أَي فِي الْآخِرَةِ.

[لَا يَنْفَعُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ عِنْدَ اللَّهِ مَهْمَا كَانَ قَرِيبًا]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي فِي مَخَالَطَتِهِمُ الْمُسْلِمِينَ وَمُعَاشَرَتِهِمْ لَهُمْ: أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجِدِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ الْإِيمَانُ حَاصِلًا فِي قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَثَلَ فَقَالَ: ﴿امْرَأَتٍ تُوْجٍ وَامْرَأَتٍ لُوْطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أَي نَبِيَّيْنِ رَسُولَيْنِ عِنْدَهُمَا، فِي صُحْبَتِهِمَا لَيْلًا وَنَهَارًا، يُوَاكِلَانِهِمَا وَيُصَاحِبَانِهِمَا، وَيُعَاشِرَانِهِمَا أَشَدَّ الْعِشْرَةِ وَالِاخْتِلَاطِ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أَي فِي الْإِيمَانِ لَمْ يُوَافِقَاهُمَا عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَا صَدَقَاهُمَا فِي الرِّسَالَةِ، فَلَمْ يُجِدْ ذَلِكَ كُفَّةً شَيْئًا وَلَا دَفَعَ عَنْهُمَا مَحْذُورًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أَي لِكُفْرِهِمَا ﴿وَقِيلَ﴾ أَي لِلْمَرَأَتَيْنِ ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فِي فَاحِشَةٍ بَلْ فِي الدِّينِ، فَإِنَّ نِسَاءَ الْأَنْبِيَاءِ مَعْصُومَاتٌ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْفَاحِشَةِ لِحُرْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ خِيَانَتُهُمَا أَنَّهُمَا

والتَّجْوِمِ

يُحِجُّ تَعَالَى نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ وَيُخْبِرُ أَنَّهُ بِيَدِهِ الْمُلْكُ أَيُّ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِمَا يَشَاءُ لَا مُعْتَبَرٍ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ قَالَ إِنَّ الْمَوْتَ أَمْرٌ وَجُودِيٌّ، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ أَوْجَدَ الْخَلَائِقَ مِنَ الْعَدَمِ لِيَلْبُوهُمْ أَيَّ يَخْتَرِبُهُمْ أَتَيْهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فَسَمِيَ الْحَالِ الْأَوَّلُ وَهُوَ الْعَدَمُ مَوْتًا وَسَمِيَ هَذِهِ النَّشْأَةَ حَيَاةً، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَلْبُوَكُمْ أَتَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَيَّ خَيْرٍ عَمَلًا كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَجَلَانَ، وَلَمْ يَقُلْ: أَكْثَرَ عَمَلًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أَيُّ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَظِيمُ الْمُنِيعُ الْجَنَابِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَفُورٌ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ بَعْدَ مَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى عَزِيزًا، هُوَ مَعَ ذَلِكَ يَغْفِرُ وَيَرْحَمُ وَيَضْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أَيُّ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ، وَهَلْ هُنَّ مُتَوَاصِلَاتٌ بِمَعْنَى أَنَّهُنَّ عَلَوِيَّاتٌ بَعْضُهُنَّ عَلَى بَعْضٍ أَوْ مُتَفَاصِلَاتٌ بَيْنَهُنَّ خَلَاءٌ، فِيهِ قَوْلَانِ أَحْسَهُمَا الثَّانِي كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ الْأَسْرَاءِ وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ أَيُّ بَلْ هُوَ مُضْطَحَبٌ مُسْتَوٍ لَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَافُرٌ، وَلَا مُخَالَفَةٌ، وَلَا نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ وَلَا خَلَلٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أَيُّ أَنْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَأْمَلْهَا هَلْ تَرَى فِيهَا عَيْبًا أَوْ نَقْصًا أَوْ خَلَلًا أَوْ فُطُورًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ وَالتَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أَيُّ شُقُوقٍ^(١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾: أَيُّ مِنْ خُرُوقٍ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أَيُّ هَلْ تَرَى خَلَلًا يَا ابْنَ آدَمَ؟.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَرَّتَيْنِ ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذَلِيلًا^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: صَاغِرًا^(٤). ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْني وَهُوَ كَلِيلٌ^(٥). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: الْحَسِيرُ

سُورَةُ الْمَلِكِ
٥٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبْرَكَ الَّذِي يَدِرُّ الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَلْبُوَكُمْ أَتَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنًا يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَأَنْتَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا الْفُجُورُ بِمَا سَعَوْا هَمَّاهُمْ شَقِيحًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادَتْ مَيِّزٌ مِنْ الْعَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ فَسَوْفَ نَأْتِيهِمْ فَنَسُفَحُكُمَ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

الْمُنْقَطِعُ مِنَ الْإِعْيَاءِ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِنَّكَ لَوْ كَرَّرْتَ الْبَصَرَ مَهْمَا كَرَّرْتَ لَأَنْقَلَبَ إِلَيْكَ، أَيُّ لَرَجَعَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ ﴿حَاسِبًا﴾ عَنْ أَنْ يَرَى عَيْبًا أَوْ خَلَلًا ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أَيُّ كَلِيلٌ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ الْإِعْيَاءِ مِنْ كَثْرَةِ التَّكْرُرِ، وَلَا يَرَى نَقْصًا، وَلَمَّا نَفَى عَنْهَا فِي خَلْقِهَا النَّقْصَ بَيَّنَّ كَمَا هِيَ وَرَبَّتْهَا فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ﴾ وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الَّتِي وُضِعَتْ فِيهَا مِنَ السِّيَّارَاتِ وَالتَّوَابِتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ عَادَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ عَلَى جِنْسِ الْمَصَابِيحِ لَا عَلَى عَيْنِهَا، لِأَنَّهُ لَا يُرْمَى بِالْكَوَاكِبِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ بَلْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِهَا وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَمَدَّةً مِنْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أَيُّ جَعَلْنَا لِلشَّيَاطِينِ هَذَا الْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ فِي الْآخِرَى، كَمَا

(١) الدر المنثور: ٢٣٥/٨ والقرطبي: ٢٠٩/١٨ والطبري: ٢٣/٥٧
(٢) القرطبي: ٢٠٩/١٨ (٣) الطبري: ٥٠٧/٢٣ (٤) الطبري: ٥٠٧/٢٣ (٥) الدر المنثور: ٢٣٥/٨

سورة الملك

٥٦٣

سورة الملك

وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمِثْلَهُمْ وَكُنُوزِهِمْ فِي السَّمَاءِ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمِثْلَهُمْ وَكُنُوزِهِمْ فِي السَّمَاءِ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمِثْلَهُمْ وَكُنُوزِهِمْ فِي السَّمَاءِ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمِثْلَهُمْ وَكُنُوزِهِمْ فِي السَّمَاءِ

قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ الصَّافَاتِ: ﴿إِنَّا زَيْنًا لِّلْمَاءِ الدُّنْيَا بَرِينَةٌ لِّلْكَوْكِ﴾ وَحَفِظْنَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ مُحُورًا وَهَلُمَّ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَن حَظِيَ الْمُنَظَفَةَ فَاتَّبَعَهُمْ سِهَابٌ تَابِتٌ ﴿١٠﴾ قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّمَا خُلِقَتْ هَذِهِ النُّجُومُ لِثَلَاثِ خِصَالٍ خَلَقَهَا اللَّهُ زِينَةً لِّلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا. فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ بِرَأْيِهِ، وَأَخْطَأَ حَظَّهُ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ^(١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَوِئَ الصِّيرُوتِ﴾ إِذَا أَلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَمُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن سَمَاءٍ إِلَّا سَمُومٌ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ خَفِيًّا مِمَّا يَهْتَأَمِرُونَ ﴿١١﴾

[صِفَةُ جَهَنَّمَ وَالِدَاخِلِينَ فِيهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَسَوِئَ الصِّيرُوتِ﴾ أَيِ بَسْسِ الْمَالِ وَالْمُنْقَلَبِ ﴿إِذَا أَلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي الصَّبَاحَ ^(٢) ﴿وَهِيَ تَمُورُ﴾ قَالَ الثَّورِيُّ: تَغْلِي بِهِمْ كَمَا يَغْلِي الْحَبُّ الْقَلِيلُ فِي الْمَاءِ الْكَثِيرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أَيِ تَكَادُ يَتَفَصَّلُ بَعْضُهَا عَنِ بَعْضٍ، مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَيْهِمْ وَحَتْفِهَا بِهِمْ ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن سَمَاءٍ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ يَذْكُرُ تَعَالَى عَذْلَهُ فِي خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُعَدَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ فَطَحَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] وَهَكَذَا عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ وَنَدِيمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُهُمُ النَّدَامَةُ فَقَالُوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أَيِ لَوْ كَانَتْ لَنَا عُقُولٌ نَسْتَفْعِ بِهَا، أَوْ نَسْمَعُ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ، لَمَا كُنَّا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِعْزَارِ بِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا فَهْمٌ نَعِي بِهِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسُلُ، وَلَا كَانَ لَنَا عَقْلٌ يُرْشِدُنَا إِلَى اتِّبَاعِهِمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الْبُخْتَرِيِّ الطَّائِبِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يَعْزُرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» ^(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَعْضًا مِّنَ أَعْيُنِ رَبِّهِمْ لَأَظْهَرُ إِلَيْهِمْ وَأَسْرَأُ قَوْلَهُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

[جَزَاءٌ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ بِالْغَيْبِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ يَخَافُ مَقَامَ رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِذَا كَانَ غَايِبًا عَنِ النَّاسِ، فَيَتَكَفَّى عَنِ الْمَعَاصِي وَيَقُومُ بِالطَّاعَاتِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، بِأَنَّهُ لَهُ ﴿مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أَيِ تَكْفَّرَ عَنْهُ ذُنُوبُهُ وَيَجَازَى بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «سَبْعَةٌ يُظَاهَرُهُمُ اللَّهُ

(١) الطبري: ٥٠٨/٢٣ (٢) الطبري: ٥٠٨/٢٣ (٣) أحمد:

تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» فَذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلًا
«دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ،
وَرَجُلًا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ
بِمِيمَتِهِ»^(١). ثُمَّ قَالَ مُنْبِهَا عَلَى أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى الصَّمَاوِيَّ
وَالسَّرَاوِيَّ «وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ» إِنَّهُ عَلَيْهِ بِذَاتِ الضُّمُورِ
أَيُّ بِمَا يَخْطُرُ فِي الْقُلُوبِ.
«أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ» أَيُّ أَلَا، يَعْلَمُ الْخَالِقُ، وَهُوَ
اللطيف الخبير.

[نِعْمَةُ اللَّهِ فِي تَسْخِيرِ الْأَرْضِ لِعِبَادِهِ]

ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لَهُمُ الْأَرْضَ
وَتَذْلِيلِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ، بِأَنْ جَعَلَهَا قَارَةً سَاكِنَةً، لَا تَمِيدُ وَلَا
تَضْطَرِبُ، بِمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَأَنْبَعٍ فِيهَا مِنَ
الْعُيُونِ، وَسَلَكَ فِيهَا مِنَ السُّبُلِ، وَهَيَّأَ فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ
وَمَوَاضِعِ الزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ، فَقَالَ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا» أَيُّ فَسَافِرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ
مِنْ أَطْطَارِهَا وَتَرَدَّدُوا فِي أَقْلِيمِهَا وَأَرْجَائِهَا، فِي أَنْوَاعِ
الْمَكَايِبِ وَالتَّجَارَاتِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَعْيَكُمْ لَا يُجْدِي
عَلَيْكُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُسِّرَهُ اللَّهُ لَكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
«وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» فَالْسَّعْيُ فِي السَّبَبِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ كَمَا
رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: إِنَّهُ سَمِعَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ
تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرِزُقُ الطَّيْرَ، تَعْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ
بَطَانًا»^(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ
التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣). فَانْبَتَ لَهَا رَوَاحًا وَعُذُودًا
لِطَلْبِ الرِّزْقِ مَعَ تَوَكُّلِهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الْمُسَخَّرُ
الْمُسِيرُ الْمُسَبَّبُ «وَالَّذِي نُشِيرُ» أَيُّ الْمَرْجُوعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ: مَنَاكِبُهَا: أَطْرَافُهَا
وَفِجَاجُهَا وَنَوَاجِجُهَا^(٤).

«ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ»^(٥) أَمْ
أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ
نَذِيرٍ^(٦) «وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ»^(٧) أَوْلَتْ رِوَا
إِلَى الطَّيْرِ فَوَقَّهَتْ صَفَقَتِ وَيَقِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ بَصِيرٌ^(٨)

[كَيْفَ تَأْمِنُونَ عَذَابَ اللَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى مَوَاحِدَتِكُمْ

كَيْفَمَا شَاءَ]

وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى

تَعْذِيبِهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِ بَعْضِهِمْ بِهِ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ مَعَ
هَذَا يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يُعَجِّلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
«وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا
مَنْ دَابَعَتْ وَلَئِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ
فَلَمَّ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا» [يس: ٤٥] وَقَالَ هُتَاتَا:
«ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ» أَيُّ
تَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَتَضْطَرِبُ «أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا» أَيُّ رِيحًا فِيهَا حَضْبَاءُ تَدْمَعُكُمْ كَمَا قَالَ
تَعَالَى: «أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا» [الإسراء: ٦٨] وَهَكَذَا
تَوَعَّدُهُمْ هَهُنَا بِقَوْلِهِ «فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ» أَيُّ كَيْفَ يَكُونُ
إِنْذَارِي وَعَاقِبَتِهِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ وَكَذَّبَ بِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:
«وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أَيُّ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالْقُرُونِ
الْخَالِيَةِ «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أَيُّ فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ
وَمُعَاقِبَتِي لَهُمْ، أَيُّ عَظِيمًا شَدِيدًا أَلِيمًا.

[طَيْرَانَ الطُّيُورِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ بَصِيرٌ بِكُلِّ

صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «أَوْلَتْ رِوَا إِلَى الطَّيْرِ فَوَقَّهَتْ صَفَقَتِ
وَيَقِضْنَ» أَيُّ تَارَةً يَصْفَقْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ فِي الْهَوَاءِ، وَتَارَةً
تَجْمَعُ جَنَاحًا وَتَنْشُرُ جَنَاحًا «مَا يُمْسِكُهُنَّ» أَيُّ فِي الْجَوِّ
«إِلَّا الرَّحْمَنُ» أَيُّ بِمَا سَخَّرَ لَهُنَّ مِنَ الْهَوَاءِ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَلُطْفِهِ «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ» أَيُّ بِمَا يُضْلِعُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ
مَخْلُوقَاتِهِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ
مُخْسِرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [النحل: ٧٩].

«أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَانَ
إِلَّا فِي عُرُورٍ»^(٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَحُوبًا
فِي عُرُورٍ وَتَقْوَرٍ^(١٠) أَمَّنْ يَمْشِي مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي
سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(١١) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ^(١٢) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ^(١٣) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١٤) قُلْ
إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ^(١٥) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ

(١) فتح الباري: ١٦٨/٢ ومسلم: ٧١٥/٢ (٢) أحمد: ١/

٥٢ (٣) تحفة الأحوذى: ٨/٨ والنسائي في الكبرى في الرقائق
وتحفة الأشراف: ٧٩/٨ وابن ماجه: ١٣٩٤/٢ (٤) الطبري:

٥١٢/٢٣ والقرطبي: ٢١٥/١٨

وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٧٧﴾
[لَا يَنْصُرُكُمْ أَحَدٌ وَلَا يَرْزُقُ إِلَّا اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ يَتَّبِعُونَ
عَنْدَهُمْ نَصْرًا وَرِزْقًا، مُتَكَبِّرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا اعْتَقَدُوهُ وَمُخْبِرًا
لَهُمْ، أَنَّهُ لَا يَخْضُلُ لَهُمْ مَا أَمَلُوهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ هَذَا
الَّذِي هُوَ جُدُّ لَكُمْ يَصْرُكُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أَي لَيْسَ لَكُمْ مِنْ
دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ وَلَا نَاصِرٍ لَكُمْ غَيْرُهُ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُوبٍ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ هَذَا
الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَسْكَبْتُمْ عَلَيْهِ رِزْقًا﴾ أَي مِنْ هَذَا الَّذِي إِذَا قَطَعَ اللَّهُ
عَنْكُمْ رِزْقَهُ يَرْزُقُكُمْ بَعْدَهُ، أَي لَا أَحَدٌ يُعْطِي وَيَمْنَعُ وَيَخْلُقُ
وَيَرْزُقُ، وَيَنْصُرُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَي
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿كَلِّ لَعْنًا﴾ أَي اسْتَمَرُّوا فِي طُعْيَانِهِمْ وَإِفْكَهِمْ
وَضَلَالِهِمْ ﴿فِي عَتْوٍ وَتَفْوِيرٍ﴾ أَي فِي مُعَانَدَةٍ وَاسْتِكْبَارٍ وَتَفْوِيرٍ
عَلَى إِذْبَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، لَا يَسْمَعُونَ لَهُ وَلَا يَتَّبِعُونَهُ.

[مِثْلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ يَبْشَى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَنْ
يَبْشَى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ
وَالْكَافِرِ، فَالْكَافِرُ مَثَلُهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ: كَمِثْلِ مَنْ يَمْشِي مُكِبًّا
عَلَى وَجْهِهِ، أَي يَمْشِي مُنْحَنِيًّا لَا مُسْتَوِيًّا عَلَى وَجْهِهِ. أَي
لَا يَذْرِي أَيْنَ يَسْلُكُ وَلَا كَيْفَ يَذْهَبُ بَلْ تَأْتِيهِ حَائِزٌ ضَالًّا،
أَهَذَا أَهْدَى ﴿أَمَنْ يَبْشَى سَوِيًّا﴾ أَي مُتَّصِبِ الْقَامَةِ ﴿عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ أَي عَلَى طَرِيقٍ وَاصِحٍ بَيْنَ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُسْتَقِيمٌ
وَطَرِيقُهُ مُسْتَقِيمَةٌ، هَذَا مِثْلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ يَكُونُونَ فِي
الْآخِرَةِ، فَالْمُؤْمِنُ يُحْسَرُ ﴿يَبْشَى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مُفْضِرٌ
بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ يُحْسَرُ يَمْشِي عَلَى
وَجْهِهِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ. ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا
يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ﴾ الْآيَاتِ
[الصافات: ٢٢-٢٦]. أَرْوَاهُمْ: أَشْبَاهَهُمْ. رَوَى الْإِمَامُ
أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ، كَيْفَ يُحْسَرُ النَّاسُ عَلَى وَجْهِهِمْ؟ فَقَالَ: «الَّذِينَ
الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَى
وَجْهِهِمْ»^(١). وَهَذَا الْحَدِيثُ مَخْرُجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢).

[قُدْرَةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَدَلَالَتِهَا عَلَى الْمَعَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ أَي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ
بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكَورًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أَي الْعُقُولَ وَالْإِذْرَاكَ ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أَي
فَلَمَّا تَسْتَعْمِلُونَ هَذِهِ الْقُوَى الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فِي
طَاعَتِهِ، وَامْتِنَالِ أَوْامِرِهِ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ
فِي الْأَرْضِ﴾ أَي بَنَىكُمْ وَنَسَرَكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا
مَعَ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ فِي لَعَائِكُمْ وَالْوَاوِيكُمْ، وَجِلَاكُمْ
وَأَشْكَالِكُمْ وَصُورِكُمْ ﴿وَاللَّيْلَ تَحْشُرُونَ﴾ أَي تُجْمَعُونَ بَعْدَ هَذَا
التَّفْرِيقِ وَالشَّتَاتِ، يَجْمَعُكُمْ كَمَا فَرَّقَكُمْ، وَيُعِيدُكُمْ كَمَا
بَدَأَكُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِلْمَعَادِ
الْمُسْتَعْبِدِينَ وَفُوعَهُ ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
أَي مَتَى يَفْعَلُ هَذَا الَّذِي تُخْبِرُنَا بِكَوْنِهِ مِنَ الْاجْتِمَاعِ بَعْدَ هَذَا
التَّفْرِيقِ؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَي لَا يَعْلَمُ وَقَدْ ذَلِكَ
عَلَى التَّثْبِينِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِكَيْتَهُ أَمْرِي أَنْ أُخْبِرَكُمْ أَنَّ
هَذَا كَائِنٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ فَاحْذَرُوهُ ﴿وَلِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ
مُبِينٌ﴾ أَي وَإِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ وَقَدْ آدَيْتُهُ إِلَيْكُمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وَجْهُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
أَي لَمَّا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَسَاهَدَهَا الْكُفَّارُ وَرَأَوْا أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ
قَرِيبًا، لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ، وَإِنْ طَالَ زَمَنُهُ، فَلَمَّا وَقَعَ
مَا كَذَّبُوا بِهِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ لِمَا يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ هُنَاكَ مِنَ
الشَّرِّ، أَي فَاحْطَ بِهِمْ ذَلِكَ وَجَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ
لَهُمْ فِي بَالٍ وَلَا حِسَابٍ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا
يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٨] وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ
التَّفْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ أَي
تَسْتَعْجِلُونَ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ
الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٧٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا
فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ﴿٨٠﴾

[مَوْتُ الْمُؤْمِنِ لَا يُجِيرُ الْكَافِرَ فَلْيَتَكَبَّرْ فِي خَلَاصِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ
الْجَاهِلِينَ لِنِعْمِهِ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا
فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أَي خَلَّصُوا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهُ

(١) أحمد: ١٦٧/٣ (٢) فتح الباري: ٣٥٠/٦ ومسلم: ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ٥٦٤
 فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكِنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الْقَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنْ رَيْتَكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطَّعِ الْمُكَذِبِينَ ﴿٨﴾ وَدُوا لَوُدُنْهُمْ فَيَدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطَّعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنِسْمٍ ﴿١١﴾ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَسِيرٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسْطُرُ الْأُولَى ﴿١٤﴾

لَا مُنْقَذَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ وَالرُّجُوعُ إِلَى دِينِهِ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ وُفُوعُ مَا تَسْمُونَ لَنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، فَسَوَاءٌ عَذَّبْنَا اللَّهُ أَوْ رَحِمْنَا فَلَا مَتَّاصَ لَكُمْ مِنْ نَكَالِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ الْوَاقِعِ بِكُمْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أَيَّ أَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيَّ مَنَّا وَمِنْكُمْ وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[التذكير بنعمة الله في نبع الماء والتخفيف بدهابه]
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِظْهَارًا لِلرَّحْمَةِ فِي خَلْقِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أَيَّ ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ إِلَى أَسْفَلٍ، فَلَا يَبْقَى بِالْفُؤُوسِ الْجِدَادِ وَلَا السَّوَاعِدِ الشُّدَادِ، وَالْعَائِزُّ: عَكْسُ النَّابِغِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أَيَّ نَابِغٍ سَابِغٍ جَارٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، أَيَّ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ فَضَّلَهُ وَكَرَّمَهُ أَنْ أَنْبَعَ لَكُمْ الْمِيَاءَ وَأَجْرَاهَا فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَلْبَةِ وَالْكَثْرَةِ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُلْكِ.

تفسير سورة
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنْ رَيْتَكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُرُوفِ الْهَجَاءِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ت﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ص﴾. ﴿ق﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، وَتَحْرِيرِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا.

[تفسير القلم]

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله: ﴿أَتَرَأَى رَبَّكَ الْأَكْرَمَ﴾ الذي عدَّ بالقلم عدَّ الإنسان ما لا يرى ﴿[العلق: ٣-٥] فهو قسم منه تعالى وتبئيه لخلقها على ما أنعم به عليهم: من تعليم الكتابة التي بها

تتال العلوم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني وما يكتبون^(١). وقال السدي: وما يسطرون يعني الملايكة وما تكتب من أعمال العباد، وقال آخرون: بل المراد ههنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام.

وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم روى ابن أبي حاتم عن الوليد بن عباد بن الصائب قال: دعاني أبي، حين حضرته الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ»^(٢). وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق^(٣). وأخرجه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي

(١) الطبري: ٥٢٧/٢٣، ٥٢٨ (٢) الطبري: ٥٢٦/٢٣ (٣) أحمد: ٣١٧/٥

بِهِ، وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(١).

[الْقَسَمُ بِالْقَلَمِ عَلَى عَظَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أَي لَسْتَ وَ اللَّهِ الْحَمْدُ بِمَجْنُونٍ، كَمَا يَقُولُهُ الْجَهْلَةُ مِنْ قَوْمِكَ، الْمُكَذِّبُونَ بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ الْمُبِينِ، فَتَسْبُوكُ فِيهِ إِلَى الْجُنُونِ، ﴿وَلَئِنْ لَكَ لَأَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أَي بَلْ إِنَّ لَكَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ، وَالنَّوَابِ الْجَزِيلَ الَّذِي لَا يَقْطَعُ وَلَا يَبِيدُ؛ عَلَى إِبْلَاقِكَ رَسُولَةَ رَبِّكَ إِلَى الْخَلْقِ، وَصَبْرِكَ عَلَى آذَانِهِمْ، وَمَعْنَى ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أَي غَيْرُ مَقْطُوعِ كَقَوْلِهِ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨] ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] أَي غَيْرُ مَقْطُوعِ عَنَّهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أَي غَيْرُ مَحْسُوبٍ^(٢). وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا قُلْنَا.

[تَفْسِيرُ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٍ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَإِنَّكَ لَعَلَى دِينِ عَظِيمٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ^(٣). وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو مَالِكٍ وَالشَّدِيدُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ^(٤). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ^(٥). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٍ﴾ ذَكَرْنَا أَنَّ سَعْدَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ^(٦). وَرَوَى نَحْوَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ^(٧). وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ بِطَوِيلِهِ^(٨).

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَارَ امْتِنَالَ الْقُرْآنِ أَمْرًا وَنَهْيًا سَجَّتهُ لَهُ، وَخُلُقًا تَطَعَهُ، وَتَرَكَ طَبْعَهُ الْجِبَلِيَّ، فَمَهْمَا أَمَرَهُ الْقُرْآنُ فَعَلَهُ، وَمَهْمَا نَهَاهُ عَنْهُ تَرَكَهُ، هَذَا مَعَ مَا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ: مِنَ الْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ وَالصَّفْحِ وَالْجَلْمِ، وَكُلُّ خُلُقِي جَمِيلٍ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أَفُّ قَطُّ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتُهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتُهُ؟ وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسِئْتُ خَرًّا وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا شِمْمْتُ مَسْكًا وَلَا عَطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٩).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا وَأَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ

وَلَا بِالْقَصِيرِ^(١٠). وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَلِأَبِي عَيْسَى التِّرْمِذِيِّ فِي هَذَا كِتَابُ السَّمَائِلِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ قَطُّ، وَلَا ضَرَبَ امْرَأَةً، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ قَطُّ إِلَّا كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ أَيْسَرُهُمَا حَتَّى يَكُونَ إِثْمًا، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الْإِثْمِ، وَلَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ مِنْ شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ إِلَّا أَنْ تَنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ، فَيَكُونَ هُوَ يَنْتَقِمُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» تَفَرَّدَ بِهِ^(١٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبِحَمْدِهِ ۗ أَيَاتِكُمْ الْمَقْتُونُ﴾ فَسَتَعَلَّمُ يَا مُحَمَّدُ، وَسَيَعَلَّمُ مَخَالِفُوكَ وَمُكَذِّبُوكَ: مَنْ الْمَقْتُونَ الضَّالُّونَ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ؟ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَدَاءَ مَنْ أَلْكَذَابَ الْآيَاتِ﴾ [القمر: ٢٦] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ الْوَيْسُكَ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سأ: ٢٤] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: سَتَعَلَّمُ وَيَعْلَمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١٣). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَأْتِيَكُمْ الْمَقْتُونَ﴾ أَي الْمَجْنُونُونَ^(١٤). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ^(١٥).

وَمَعْنَى ﴿الْمَقْتُونَ﴾ ظَاهِرٌ أَي الَّذِي قَدِ افْتَتِنَ عَنِ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُ. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ ﴿يَأْتِيَكُمْ﴾ لِتَدَلُّ عَلَى تَضْمِينِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبِحَمْدِهِ﴾ وَتَقْدِيرُهُ فَسَتَعَلَّمُ وَيَعْلَمُونَ، أَوْ: فَسَتُخْبِرُ وَيُخْبِرُونَ ﴿يَأْتِيَكُمْ الْمَقْتُونَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أَي هُوَ يَعْلَمُ تَعَالَى أَي الْفَرِيقَيْنِ - مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ - هُوَ الْمُهْتَدِي، وَيَعْلَمُ الْجُزْبُ الضَّالُّ عَنِ الْحَقِّ.

﴿لَا تَطْعُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٨) وَدَوَّ لَوْ تَدَهَّنُ فَيَدَهَّنُونَ (٩) وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَابٍ مِهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَسْمُومٍ بِنِسْبَةِ (١١) مَنَاعٍ لِلْحَبْرِ مَعْتَدٍ أَتَمَّ (١٢) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَتَلَّى

(١) تحفة الأحودي: ٢٣٢/٩ (٢) الطبري: ٥٢٨/٢٣ (٣)

الطبري: ٥٢٩/٢٣ (٤) الطبري: ٥٢٩/٢٣ والدر المشهور: ٨/

٢٤٣ (٥) الطبري: ٥٣٠/٢٣ (٦) الطبري: ٥٢٩/٢٣ (٧)

عبد الرزاق: ٣٠٧/٣ (٨) مسلم: ٥١٣/١ (٩) فتح الباري:

١٠/٤٧١ (١٠) مسلم: ١٨١٤/٤ (١١) فتح الباري: ٦/٦٥٢

(١٢) أحمد: ٦/٢٣٢ (١٣) أحمد: ٢/٣٨١ (١٤) القرطبي:

١٨/٢٢٩ (١٥) الطبري: ٥٣١/٢٣ (١٦) الطبري: ٥٣٠/٢٣

عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالِ اسْتَطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَسِمْهُ عَلَى الْغُرُطِ ﴿١٦﴾
[الَّتْهِي عَنْ قُبُولِ صَغُطِ الْمَكْدِبِينَ وَمَقْتَرِحَاتِهِمْ بَيْنَ
الإِيمَانِ وَالْكَفْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: كَمَا أُنْعَمْنَا عَلَيْكَ وَأَعْطَيْنَاكَ الشَّرْعَ
الْمُسْتَقِيمَ، وَالْخُلُقَ الْعَظِيمَ ﴿فَلَا تَطْعِ الْمَكْدِبِينَ﴾ (١٥) وَدُؤَا لَوْ
تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ شَرَحْنَا لَهُمْ
فَيَرْحَسُونَ﴾ (١٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿دُؤَا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾
تَرَكْنَا إِلَى إِلَهِتِهِمْ وَتَتَرَكْنَا مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ (١٦). ثُمَّ قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَاظٍ مَهِينٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَاذِبَ
لِيَصْغِيهِ وَمَهَانَتِهِ إِنَّمَا يَبْقَى بِإِيمَانِهِ الْكَاذِبَةِ الَّتِي يَجْتَرِئُ بِهَا
عَلَى أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاسْتِعْمَالِهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ فِي غَيْرِ
مَحَلِّهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَهِينُ: الْكَاذِبُ (١٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَتَّارٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: بَعْضُ
الإِغْتِيَابِ (١٧). ﴿مَسْلَمٌ بِنَسِيمٍ﴾ بَعْضُ الَّذِي يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ
وَيُحْرَسُ بَيْنَهُمْ، وَيَنْقُلُ الْحَدِيثَ لِفَسَادِ ذَاتِ التَّيْنِ وَهِيَ
الْحَالِقَةُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ عَنْ
طَاوُسٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَبْرَيْنِ
فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَا أَحَدُهُمَا
فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ النَّبْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي
بِالنَّمِيمَةِ... الْحَدِيثُ (١٨). وَأُخْرِجَهُ بِقِيَّةِ الْجَمَاعَةِ فِي
كُتُبِهِمْ مِنْ طَرَفِي، عَنْ مُجَاهِدٍ بِهِ (١٩).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ حُدَيْفَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاتًا» (٢٠). رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ
إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ (٢١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنَاعٌ لِلخَيْرِ مَعْتَدٌ أَسِيرٌ﴾ أَي يَمْنَعُ مَا عَلَيْهِ
وَمَا لَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ ﴿مَعْتَدٌ﴾ فِي تَنَاقُلٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ
يَتَجَاوَزُ فِيهَا الْحَدَّ الْمَشْرُوعَ ﴿أَسِيرٌ﴾ أَي يَتَنَاقَلُ
الْمَحْرَمَاتِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ أَمَّا
الْعُتْلُ فَهُوَ الْفُظُّ الْغَلِيظُ الصَّحِيحُ الْجَمُوعُ الْمُنُوعُ. وَرَوَى
الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَّصِفٍ لَوْ
أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ. أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ
جَوَاطِظٍ مُسْتَكْبِرٍ» (٢٢). وَقَالَ وَكِيعٌ: «كُلُّ جَوَاطِظٍ جَعْظَرِيٍّ
مُسْتَكْبِرٍ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَبَيَّنَّاهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا أَبَا
دَاوُدَ، مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَشُعْبَةَ، وَكِلَاهُمَا عَنْ
سَعِيدِ بْنِ خَالِدٍ بِهِ (٢٣).

سَسِمْهُ عَلَى الْغُرُطِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَاصْبَحَ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَا وَامُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ
أَعْدُوا عَلَيَّ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾
أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينِينَ ﴿٢٤﴾ وَغَدَاوًا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ خَرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْرَأْفَلُ
لَكُمْ لَوْ لَا تَسْئَلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا أَسْأَلُ رَبَّنَا أَنَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَمَّزُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا نُوَلِّينَا أَنَا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى
رَبَّنَا أَنْ يَبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعْدَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كُنُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنْ لِلْمُفْسِدِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ التَّعِيمِ
﴿٣٤﴾ فَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَرِيمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ مَا تَحْيُرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيْمُنٌ
عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ مَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ
بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الَجَعْظَرِيُّ: الْفُظُّ الْغَلِيظُ. وَالْجَوَاطِظُ:
الْجَمُوعُ الْمُنُوعُ. وَأَمَّا الزَّيْمُ فَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَةٌ
مِثْلُ زَنَمَةِ الشَّاةِ (١١). وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ كَانَ مَشْهُورًا بِالسُّوءِ
كَشَهْرَةِ الشَّاةِ ذَاتِ الزَّنَمَةِ مِنْ بَيْنِ أَخَوَاتِهَا، وَإِنَّمَا الزَّيْمُ فِي
لُغَةِ الْعَرَبِ هُوَ الدَّعِي فِي الْقَوْمِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ
مِنَ الْأَثَمَةِ.

(١) الطبري: ٥٣٣/٢٣ (٢) الطبري: ٥٣٣/٢٣ (٣) الطبري:
٥٣٣/٢٣ (٤) الطبري: ٥٣٤/٢٣ (٥) فتح الباري: ٣٥٨/١
ومسلم: ٢٤٠/١ (٦) أبو داود: ٢٥/١ وتحفة الأحوذى: ١/
٢٣٢ والنسائي: ٢٨/١ و٤١٢/٤ وفي الكبرى: ٤٩٦/٦ وابن
ماجه: ١٢٥/١ (٧) أحمد: ٣٨٢/٥ (٨) فتح الباري: ١٠/
٤٨٧ ومسلم: ١٠١/١ وأبو داود: ١٩٠/٥ وتحفة الأحوذى: ٦/
١٧٢ والنسائي في الكبرى: ٤٩٦/٦ (٩) أحمد: ٣٠٦/٤
(١٠) فتح الباري: ٥٣٠/٨ ومسلم: ٢١٩٠/٤ وتحفة الأحوذى:
٣٣١/٧ والنسائي في الكبرى: ٤٩٧/٦ وابن ماجه: ١٣٧٨/٢
(١١) البخاري: ٤٩١٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١٧) إِذَا تَمَثَّلَ عَلَيْهِ وَابْنُنَا قَالَ أَسْطِطِرَ الْأَوْلِيَيْنِ يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا - مَقَابَلَةٌ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ - كَفَرَّ بِآيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَزَعَمَ أَنَّهَا كَذِبٌ مَأْخُودٌ مِنْ أَسْطِطِرِ الْأَوْلِيَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا﴾ (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٧) وَبَيْنَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهْيِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِكْتِنَابِنَا عِينِدًا (١٦) سَأَهُمْ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ مَكَرٌ وَقَدَرٌ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأَصْلِيهِ سَعَرٌ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَعَرٌ (٢٧) لَا يُفِي وَلَا نَدْرُ (٢٨) لَوَاسِمَةٌ لِلْبُحْرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ [المدر: ١١-٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿سَسِمُهُ عَلَى الْفَرْطُومِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: سَبَّيْنِ أَمْرُهُ بَيَانًا وَاضِحًا، حَتَّى يَعْرِفُوهُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ كَمَا لَا تَخْفَى عَلَيْهِمُ السَّمَةُ عَلَى الْخَرَاطِيمِ (١) .
وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿سَسِمُهُ﴾ سِمَةٌ أَهْلُ النَّارِ يَعْنِي نُسُودٌ وَجَهَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَبَّرَ عَنِ الْوَجْهِ بِالْخَرْطُومِ.

﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لِيَصْرِنَهَا مِصْبِينَ﴾ (١٧) وَلَا يَسْتَنْوُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ (١٩) فَاصْبَحَ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مِصْبِينَ (٢١) أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْوِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ (٢٢) فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَخْتَفُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَى حَرٍِّ قَدِيدٍ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَسَّالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَمُوا لَكُمُ الْوَيْلَ سَحِينُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٣١) عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا حَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴿

[مَثَلٌ لِدَهَابِ كَسْبِ الْكُفَّارِ]

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِكُفَّارٍ قُرَيْشِيٍّ، فِيمَا أَهْدَى إِلَيْهِمْ: مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَأَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ الْجِسْمِيَّةِ، وَهُوَ بَعْتُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَابَلُوهُ بِالْتَكْلِيبِ وَالرَّدِّ وَالْمُحَارَبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ﴾ أَيِ اخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وَهِيَ الْبُشْتَانُ الْمُسْتَمَلُّ عَلَى أَنْوَاعِ النَّمَارِ وَالْفَوَاكِهِ ﴿إِذْ أَقْبَمُوا لِيَصْرِنَهَا مِصْبِينَ﴾ أَيِ حَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ لِيَجِدَنَّ ثَمَرَهَا لَيْلًا، لِئَلَّا يَعْلَمَ بِهِمْ فَقِيرٌ وَلَا سَائِلٌ لِيَتَوَفَّرَ ثَمَرُهَا عَلَيْهِمْ، وَلَا يَتَصَدَّقُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ أَيِ فِيمَا حَلَفُوا بِهِ، وَلِهَذَا حَثَّهُمُ اللَّهُ فِي آيْمَانِهِمْ فَقَالَ

تَعَالَى: ﴿طَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ أَيِ أَصَابَتْهَا أَفَّةٌ سَمَآوِيَّةٌ ﴿فَاصْبَحَ كَالصَّرِيمِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَاللَّيْلِ الْأَسْوَدِ (٢) . وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: مِثْلُ الزَّرْعِ إِذَا حُصِدَ أَيِ: هَشِيمًا بَيَسًا. ﴿فَتَنَادُوا مِصْبِينَ﴾ أَيِ لَمَّا كَانَ وَقْتُ الصُّبْحِ نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَذْهَبُوا إِلَى الْجُدَاذِ أَيِ: الْقَطْعِ: ﴿أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْوِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾ أَيِ تُرِيدُونَ الصَّرَامَ ﴿فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَخْتَفُونَ﴾ أَيِ يَتَنَاجُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِحَيْثُ لَا يُسْمِعُونَ أَحَدًا كَلَامَهُمْ. ثُمَّ فَسَّرَ اللَّهُ سُحْنَانَهُ وَتَعَالَى عَالِمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى مَا كَانُوا يَتَخَفَتُونَ بِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَخْتَفُونَ﴾ (٣) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴿أَيِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تُمْكِنُوا الْيَوْمَ فَقِيرًا يَدْخُلُهَا عَلَيْكُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدْنَا عَلَى حَرٍِّ﴾ أَيِ قُوَّةٌ وَشِدَّةٌ ﴿قَدِيدٍ﴾ أَيِ عَلَيْهَا، فِيمَا يُزْعَمُونَ وَيُرْوَمُونَ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَسَّالُونَ﴾ أَيِ فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا وَأَشْرَفُوا عَلَيْهَا، وَهِيَ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ اسْتَحَالَتْ عَنْ تِلْكَ النَّصَارَةِ وَالزُّهْرَةِ وَكَثْرَةِ الثَّمَارِ إِلَى أَنْ صَارَتْ سُودَاءَ مُدْلَهَمَةً لَا يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ مِنْهَا، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَأُوا الطَّرِيقَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا لَسَّالُونَ﴾ أَيِ قَدْ سَلَكْنَا إِلَيْهَا غَيْرَ الطَّرِيقِ فَتُهِنَّا عَنْهَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ. ثُمَّ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ وَتَيَقَّنُوا أَنَّهَا هِيَ فَقَالُوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أَيِ بَلْ هِيَ هَذِهِ، وَلَكِنْ نَحْنُ لَا حَظَّ لَنَا وَلَا نَصِيبَ .

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ: أَيِ أَعْدَلُهُمْ وَخَيْرُهُمْ (٣) . ﴿أَلْزَمُوا لَكُمُ الْوَيْلَ سَحِينُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿وَلَا سَحِينُونَ﴾ أَيِ لَوْلَا تَسْتَنْوُونَ (٤) . قَالَ السُّدِّيُّ: وَكَانَ اسْتِنَاؤُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ تَسْبِيحًا وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُوَ قَوْلُ الْقَائِلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ (٥) . وَقِيلَ مَعْنَاهُ: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَمُوا لَكُمُ الْوَيْلَ سَحِينُونَ﴾ أَيِ هَلَّا تَسْبِحُونَ اللَّهَ وَتَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَلْتُوا بِالطَّاعَةِ حَيْثُ لَا تَنْفَعُ، وَتَدْمُوا، وَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْجِعُ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٦) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ ﴿أَيِ يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَا كَانُوا أَصْرُوا عَلَيْهِ مِنْ مَنَعِ الْمَسَاكِينِ مِنْ حَقِّ

(١) الطبري: ٥٤١/٢٣ (٢) الطبري: ٥٤٤/٢٣ (٣) الطبري:

٥٥٠/٢٣ والدر المنثور: ٢٥٢/٨ (٤) الطبري: ٥٥١/٢٣

والدر المنثور: ٢٥٣/٨ (٥) الطبري: ٥٥٠/٢٣

الجُذَادِ، فَمَا كَانَ جَوَابَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِلَّا الْإِعْتِرَافَ بِالْخَطِيئَةِ وَالذَّنْبِ ﴿٣٤﴾ قَالُوا يَا رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣٥﴾ أَيِ اعْتَدَيْنَا وَبَعَيْنَا وَطَعْنَا، وَجَاوَزْنَا الْحَدَّ حَتَّى أَصَابْنَا مَا أَصَابَنَا.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ قِيلَ: رَغِبُوا فِي [بَدْلِهَا] لَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: اخْتَسَبُوا ثَوَابَهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانُوا مِنْ قَرِيْبَةٍ يُقَالُ لَهَا: ضَرَوَانُ، عَلَى سِنَةِ أُمِّيَالٍ مِنْ صَنْعَاءَ. وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ، وَكَانَ أَبُوهُمْ قَدْ خَلَفَ لَهُمْ هَذِهِ الْحَبَشَةَ، وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ كَانَ أَبُوهُمْ يَسِيرُ فِيهَا سِيرَةً حَسَنَةً، فَكَانَ مَا يَسْتَعْلُجُ مِنْهَا يَرُدُّ فِيهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَيَتَخَرَّجُ لِعِيَالِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ وَيَتَصَدَّقُ بِالْفَاضِلِ، فَلَمَّا مَاتَ وَوَرِثَهُ بَنُوهُ قَالُوا: لَقَدْ كَانَ أَبُوْنَا أَحْمَقَ إِذْ كَانَ يَصْرِفُ مِنْ هَذِهِ شَيْئًا لِلْفُقَرَاءِ، وَلَوْ أَنَا مَتَعْنَاهُمْ لَتَوَقَّرَ ذَلِكَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَىٰ ذَلِكَ عُوِقُوا بِتَقْيِصِ قُضْدِهِمْ، فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا بَأْيَدِيهِمْ بِالْكُلَيْتِيَّةِ: رَأْسَ الْمَالِ وَالرَّيْحَ وَالصَّدَقَةَ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَيْءٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أَيُّ هَكَذَا عَذَابٌ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَبَخَلَ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وَمَنْعَ حَقَّ الْمُسْكِينِ وَالْفَقِيرِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ، وَبَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ هَذِهِ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا كَمَا سَمِعْتُمْ. وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٧﴾ أَفْتَجِدُ الْمُتَّقِينَ كَالْفِرْيِينِ ﴿٣٨﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ لَكُمْ آيْمُنُ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ رَبِّكُمُ الْيَوْمَ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٤٢﴾ سَأَلَهُمْ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٣﴾ أَمْ لَمْ تَكُنْ شُرَكَاءَ فُلَيْقَاؤًا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

[جَزَاءَ الْمُتَّقِينَ وَأَنَّهُمْ لَا يُجْعَلُونَ كَالْمُجْرِمِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَا أَصَابَهُمْ فِيهَا مِنَ النَّعْمَةِ، حِينَ عَصَوْا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ - بَيْنَ أَنْ لِمَنْ اتَّقَاهُ وَأَطَاعَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا تَفْرُغُ، وَلَا يَنْقُصِي نَعِيمُهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفْتَجِدُ الْمُتَّقِينَ كَالْفِرْيِينِ﴾ أَيُّ أَفْتَسَاوِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَزَاءِ؟ كَلَّا وَرَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ كَيْفَ تَطُنُّونَ ذَلِكَ؟!

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَفَأَيُّدِيكُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ، تَدْرُسُونَهُ وَتَحْفَظُونَهُ وَتَتَدَاوَلُونَهُ، بِنَقْلِ الْخَلْفِ عَنِ السَّلَفِ، مُتَضَمِّنٌ حُكْمًا مُؤَكَّدًا كَمَا تَدْعُونَهُ؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيْمُنُ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ رَبِّكُمُ الْيَوْمَ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ أَيُّ أَمْعَكُمْ عُهْدٌ مِنَّا وَمَوَائِقُ مُؤَكَّدَةٌ؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ أَنَّهُ سَيَحْضُلُ لَكُمْ مَا تَرِيدُونَ وَتَسْتَهْوُونَ ﴿سَأَلَهُمْ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أَيُّ قُلْ لَهُمْ: مَنْ هُوَ الْمُتَضَمِّنُ الْمُتَكَلِّفُ بِهَذَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ: أَيُّهُمْ بِذَلِكَ كَفِيلٌ ^(١). ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ شُرَكَاءَ﴾ أَيُّ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يُكْتَفَىٰ عَنْ سَاقِي وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٠﴾ خَلِيعَةً أَنْصَرَهُمْ رَهْمَهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤١﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا اللَّوْثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٣﴾ أَمْ سَأَلْتَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَفْرُوقٍ مُنْقَلَبُونَ ﴿٤٤﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

[هَوَلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ ﴿لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ بَيْنَ مَتَى ذَلِكَ كَائِنٌ وَوَاقِعٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْتَفَىٰ عَنْ سَاقِي وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ: مِنَ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ وَالْبَلَاءِ، وَالْإِمْتِحَانِ وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ هَهُنَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُكْتَفَىٰ رَبُّنَا عَنْ سَاقِيهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسَمْعَةً، فَيَذْهَبَ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَفِي غَيْرِهِمَا مِنْ طُرُقٍ، وَلَهُ الْفَاطِمَةُ، وَهُوَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ مَشْهُورٌ ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿خَلِيعَةً أَنْصَرَهُمْ رَهْمَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، بِإِجْرَامِهِمْ وَتَكْبِيرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَعُوِقُوا بِتَقْيِصِ مَا كَانُوا دُعُوا إِلَى الشُّجُودِ فِي الدُّنْيَا فَاْمْتَنَعُوا مِنْهُ مَعَ صِحَّتِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ، كَذَلِكَ عُوِقُوا بِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، إِذَا تَجَلَّى الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ فَيَسْجُدُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ وَلَا الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَسْجُدَ، بَلْ يَعُودُ ظَهْرُ أَحَدِهِمْ طَبَقًا وَاحِدًا، كَلَمَّا أَرَادَ

(١) الطبري: ٥٥٤/٢٣ (٢) فتح الباري: ٥٣١/٨ و٥٣٢ ومسلم: ١٧٧/١

أَحَدُهُمْ أَنْ يَسْجُدَ خَرًّا لِقَفَاهُ عَكْسَ السُّجُودِ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ.

[وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ يَكْذِبُ بِالْقُرْآنِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَذْرِبٍ وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْكَلِمِ﴾ يعني الْقُرْآنَ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ أَيْ دَعْنِي وَإِيَّاهُ مِنِّي وَمِنَهُ، أَنَا أَعْلَمُ بِهِ كَيْفَ اسْتَدْرَجُهُ وَأَمُدُّهُ فِي عَيْهِ، وَأَنْظِرُهُ ثُمَّ أَخَذَهُ أَحَدٌ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بَلْ يَعْتَمِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ كِرَامَةً وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأُمْرِ إِهَانَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٥٥﴾ سَائِحٌ لَّهُمْ فِي الْفِتْرِاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَوَّأْنَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أَيْ وَأَوْزَحْرَهُمْ وَأَنْظَرَهُمْ وَأَمِدَّهُمْ، وَذَلِكَ مِنْ كَيْدِي وَمَكْرِي بِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أَيْ عَظِيمٌ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَكَذَّبَ رُسُلِي، وَاجْتَرَأَ عَلَى مَعْصِيَتِي.

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الثُّرَايِيَّ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ إِلَهُ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَمْ تَسْتَلْهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرِبٍ مُنْقَلَبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ» تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُمَا فِي سُورَةِ الطُّورِ، وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ تَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَلَا أَجْرٍ تَأْخُذُهُ مِنْهُمْ، بَلْ تَرْجُو ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ يَكْذِبُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ بِمَجْرَدِ الْجَهْلِ وَالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ.

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ ثَمُودَ إِذْ نَادَى مِنْ رَبِّهِمْ ﴿٤٨﴾ فَجَعَلْنَا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٥٥﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُرْفَلُوكَ بَأْصَابُهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَقَوْلُوا إِنَّهُ لَحَدِيثُ الْجِنَّتِ ﴿٥٦﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٧]

[السَّلَامُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبِرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ عَلَى أَدَى قَوْمِكَ لَكَ وَتَكْذِيبِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَحْكُمُ لَكَ عَلَيْهِمْ وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلَا تَتَّبِعْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ ثَمُودَ﴾ يعني ذَا الثَّنُونِ وَهُوَ يُونُسُ بْنُ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ ذَهَبَ

مُعَاضِبًا عَلَى قَوْمِهِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ: مِنْ رُكُوبِهِ فِي الْبَحْرِ، وَالتَّقَامِ الْحُوتِ لَهُ، وَشُرُودِ الْحُوتِ بِهِ فِي الْبِحَارِ، وَظَلَمَاتِ غَمَرَاتِ الْيَمِّ، وَسَمَاعِهِ تَسْبِيحِ الْبَحْرِ بِمَا فِيهِ لِلْعَلِيِّ الْقَدِيرِ، الَّذِي لَا يُرَدُّ مَا أَنْفَذَهُ مِنَ التَّقْدِيرِ، فَجَبَّتِيذُ نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَجْنْتَهُ مِنْ أَلْفِمْ وَكَذَلِكَ نَسْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٢٣﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَوْمَ يُنْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] وَقَالَ هُنَا: ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: وَهُوَ مَعْمُومٌ (٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَجَبْنَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلْنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» (٣). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤) وَهُوَ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ (٥).

[إِصَابَةُ الْعَيْنِ حَقًّا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُرْفَلُوكَ بَأْصَابُهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْرُهُمَا ﴿لَيُرْفَلُوكَ﴾: لَيَنْفُذُونَكَ (٦) ﴿بَأْصَابِهِمْ﴾ أَيْ يَعِينُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ، بِمَعْنَى يَحْسُدُونَكَ لِيُغْضِبَهُمْ إِيَّاكَ، لَوْلَا وَقَايَةُ اللَّهِ لَكَ وَحِمَايَتُهُ إِيَّاكَ مِنْهُمْ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ إِصَابَتُهَا وَتَأْثِيرُهَا حَقٌّ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمَرْوِيَّةُ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَثِيرَةٍ.

(حديث بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا رُفْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ» (٧). هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بُرَيْدَةَ مَوْقُوفًا وَفِيهِ قِصَّةٌ (٨). وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٩). وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مَوْقُوفًا: لَا رُفْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ (١٠).

(١) فتح الباري: ٢٥٥/٨، ١٩٩٧/٤، ١٩٩٧/٤ (٢) الطبري: ٥٦٣/٢٣ (٣) أحمد: ٣٩٠/١ (٤) فتح الباري: ٥١٩/٦ (٥) فتح الباري: ١٤٤/٨، ١٤٤٦/٤ (٦) الطبري: ٥٦٤/٢٣، ٥٦٥ (٧) ابن ماجه: ١١٦١/٢ (٨) مسلم: ١/١٩٩ (٩) تحفة الأحوذى: ٢١٧/٦ (١٠) فتح الباري: ١٠/١٦٣ وأبو داود: ٢١٣/٤، وتحفة الأحوذى: ٢١٧/٦

سورة القلم

٥٦٦

سورة القلم

خَشَعَةً أَبْصَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِمُونَ

﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ آجْرًا فَهُمْ

مِنْ مَعْرُومٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ

لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ نُوَلِّا

أَنْ تَدْرَكَهُ بِعَمَةٍ مِنْ رَبِّهِ لَيْسَ بِالْعَرَاوِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْ رِبَّهُ

فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ

لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ

وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا

عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ

سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى

كَأَنَّهُمْ أَعْجَانٌ مَنحَلٌ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

حَقٌّ ﴿١٠﴾. أَخْرَجَاهُ ﴿١١﴾. وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ» ﴿١٢﴾. تَقَرَّرَ بِهِ.

(حَدِيثُ أَسْمَاءَ بِنْتِ عَمِيْسٍ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِقَاعَةَ الزُّرْقِيِّ قَالَ: قَالَتْ أَسْمَاءُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَنِي جَعْفَرٍ نَصَبِيهِمُ الْعَيْنُ أَفَأَسْتَرَفِي لَهُمْ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَقَمَتُهُ الْعَيْنُ» ﴿١٣﴾.

وَكَذَا رَوَاهُ التُّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ ﴿١٤﴾ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ

(١) مسلم: ١٧١٩/٤ (٢) فتح الباري: ٤٧٠/٦ وأبو داود: ٥/١٠٤

١٠٤ وتحفة الأحوذى: ٢٢٠/٦ والنسائي في الكبرى: ٢٥٠/٦ وابن ماجه: ١١٦٤/٢ (٣) سنن ابن ماجه: ٣٥٠٩ (٤) النسائي في الكبرى: ٧٦١٧-٧٦١٩ (٥) ابن ماجه: ١١٦١/٢ (٦) تحفة

الأحوذى: ٢١٨/٦ والنسائي: ٢٧١/٨ (٧) أحمد: ٢٨/٣، ٥٦ (٨) مسلم: ١٧١٨/٤ وتحفة الأحوذى: ٤٦/٤ والنسائي في الكبرى: ٢٤٩/٦ وابن ماجه: ١١٦٤/٢ (٩) أحمد: ٥٨/٣، ٧٥

(١٠) أحمد: ٣١٩/٢ (١١) فتح الباري: ٢١٣/١٠ ومسلم: ١٧١٩/٤ (١٢) ابن ماجه: ١١٥٩/٢ (١٣) أحمد: ٤٣٨/٦ (١٤) تحفة الأحوذى: ٢١٩/٦ وابن ماجه: ١١٦٠/٢

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتِ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتَعْسَلْتُمْ فَأَعْسِلُوا» ﴿١١﴾ انفردَ بِهِ دُونَ الْبُخَارِيِّ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُوذُ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ يَقُولُ: «أَعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامِيَةٍ» وَيَقُولُ: «هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَعُوذُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَأَهْلُ السُّنَنِ ﴿٢﴾.

(حَدِيثُ أَبِي أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ: مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ بِسَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ فَقَالَ: لَمْ أَرُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُحْبَاةٍ، فَمَا لَبِثَ أَنْ لَبِطَ بِهِ فَأَتَيْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ لَهُ: أَدْرَكَ سَهْلًا صَرِيعًا قَالَ: «مَنْ تَهْمُونَ بِهِ؟» قَالُوا: عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ قَالَ: «عَلَامٌ يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ؟ إِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ مِنْ أَحِبِّهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ» ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَأَمَرَ عَامِرًا أَنْ يَتَوَضَّأَ، فَيَغْسِلُ وَجْهَهُ وَيَدِيهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ وَرُكْبَتَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَضَبَّ عَلَيْهِ. قَالَ سُفْيَانٌ: قَالَ مَعْمَرُ عَنِ الزُّهْرِيِّ: وَأَمْرٌ أَنْ يَكْفَأَ الْإِنَاءَ مِنْ خَلْفِهِ ﴿٣﴾. وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ: وَبِكُفْمَا الْإِنَاءَ مِنْ خَلْفِهِ ﴿٤﴾.

(حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ) رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ أَعْيُنِ الْجَانِّ وَأَعْيُنِ الْإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ الْمَعْوِذَاتَانِ، أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ ﴿٥﴾. وَرَوَاهُ التُّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَقَالَ التُّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ ﴿٦﴾.

(حَدِيثُ آخَرَ عَنْهُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِشْتَكَيْتَ يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: «يَا سَمِ اللَّهُ أَرْفِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ وَعَيْنٍ تَشْنِيكَ، وَاللَّهُ يَشْفِيكَ، يَا سَمِ اللَّهُ أَرْفِيكَ» ﴿٧﴾. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ ﴿٨﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَوْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِشْتَكَى فَآتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: «يَا سَمِ اللَّهُ أَرْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ» ﴿٩﴾.

(حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَيْنَ

تفسير سورة الحاقة وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ﴾ ١ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَءَاءِ
بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَتَا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا
بِرِيحٍ صَوَّسِرٍ عَلَيَّيْنَهُ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ
حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ نَحَلٌ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ
تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمِن قَبْلِهِ وَالْمُرْفِقِيُّ
بِالطَّاغِيَةِ ﴿٩﴾ فَصَوَّرُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَجْدَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَنَّا لَطَعَا
الْمَاءَ حَمَلَكُوا فِي الْخَابِيَةِ ﴿١١﴾ لِيَجْزَلَنَّهُمْ لَكُمُ الذِّكْرُ وَلِيَعْبَأَ أَعْدُو
رَبِّهِ ﴿١٢﴾

[التَّيْبِيَّةُ عَلَى عِظَمِ الْقِيَامَةِ]

الْحَاقَّةُ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ فِيهَا يَتَحَقَّقُ الْوَعْدُ
وَالْوَعْدُ، وَلِهَذَا عَظَّمَ اللَّهُ أَمْرَهَا فَقَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا
الْحَاقَّةُ﴾.

[ذِكْرُ إِهْلَاكِ الْأُمَّمِ]

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى إِهْلَاكَ الْأُمَّمِ الْمُكذِّبِينَ بِهَا فَقَالَ تَعَالَى:
﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وَهِيَ الصَّيْحَةُ الَّتِي أَسْكَتَتْهُمْ
وَالزَّلْزَلَةُ الَّتِي أَسْكَتَتْهُمْ. هَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ: الطَّاغِيَةُ:
الصَّيْحَةُ^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الطَّاغِيَةُ: الذُّنُوبُ، وَكَذَا قَالَ
الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَابْنُ زَيْدٍ إِنَّهَا الطُّغْيَانُ. وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ:
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ [الشمس: ١١]

﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَوَّسِرٍ﴾ أَي بَارِدَةٍ. قَالَ قَتَادَةُ
وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالثَّوْرِيُّ: ﴿عَلَيَّيْنَهُ﴾ أَي شَدِيدَةٌ
الهُبُوبُ، قَالَ قَتَادَةُ: عَنَّتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى نَقَبَتْ عَنْ
أَفْتِدَتِهِمْ^(٧). وَقَالَ الصَّحَّاحُ: ﴿صَوَّسِرٍ﴾ بَارِدَةٌ ﴿عَلَيَّيْنَهُ﴾
عَنَّتْ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ رَحْمَةٍ وَلَا بَرَكَهٍ^(٨). وَقَالَ عَلِيُّ وَعَبْدُ
عَنَّتْ عَلَى الْخَزَنَةِ فَخَرَجَتْ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(٩).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أَي سَلَطَهَا عَلَيْهِمْ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً
أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أَي كَوَاطِلٍ مُتتَابِعَاتٍ مُسَائِمٍ. قَالَ ابْنُ

الترميمي: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١).

(حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) رَوَى ابْنُ مَاجَهَ عَنْ
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهَا أَنْ تَسْتَرْفِي
مِنَ الْعَيْنِ^(٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٣).

(حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي
أَمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
خَرَجَ وَسَارُوا مَعَهُ نَحْوَ مَكَّةَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشَيْبِ الْخَرَّارِ
مِنَ الْجُحْفَةِ، اغْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَكَانَ رَجُلًا أَبْيَضَ
حَسَنَ الْجِسْمِ وَالْجُلْدِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ أَخُو بَنِي
عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ
مُحِبَّاءٍ، فَلَبِطَ سَهْلٌ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلِ! وَاللَّهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَلَا يُضِيقُ،
قَالَ: «هَلْ تَتَهَمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟» قَالُوا: نَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ
رَبِيعَةَ فَدَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَامِرًا فَتَغَيَّبَ عَلَيْهِ وَقَالَ: «عَلَامٌ
يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ، هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَكْتُ؟» - ثُمَّ
قَالَ - اغْتَسَلَ لَهُ» فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَمِرْقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ
وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ ذَلِكَ الْمَاءَ
عَلَيْهِ، فَصَبَّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ يَكْفَأُ
الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ فَرَأَى سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ
بَأْسٌ^(٤).

(حَدِيثُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ
عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: إِنِطَلَقَ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ وَسَهْلُ بْنُ
حُنَيْفٍ يُرِيدَانِ الْغُسْلَ، قَالَ: فَأَنْطَلَقَا يَلْتَمِسَانِ الْخَمْرَ.
قَالَ: فَوَضَعَ عَامِرٌ جُبَّةً كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ صُوفٍ فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ،
فَأَصَبْتُهُ بِعَيْنِي، فَزَلَّ الْمَاءُ يَغْتَسِلُ، قَالَ: فَسَمِعْتُ لَهُ فِي
الْمَاءِ فَرْقَعَةً فَأَتَيْتُهُ فَنَادَيْتُهُ ثَلَاثًا فَلَمْ يَجِبْنِي، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ
فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: فَجَاءَ يَمْشِي فَحَاضَ الْمَاءُ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى
بَيَاضِ سَاقَيْهِ، قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرَهُ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ
اصْرِفْ عَنْهُ حَرَّهَا وَبَرْدَهَا وَوَصَبَهَا» قَالَ: فَقَامَ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَحِبِّهِ، أَوْ مِنْ نَفْسِهِ،
أَوْ مِنْ مَالِهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيَبْرِكْ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ»^(٥).

[رَمَى الْكُفَّارِ وَجَوَابُهُمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أَي يَزِدُّوهُ بِأَعْيُنِهِمْ
وَيُؤَدُّوهُ بِاللِّسَانِ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ أَي لِمَجْنِيئِهِ
بِالْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ نَ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(١) تحفة الأحوذى: ٢٢٠/٦ والسائي في الكبرى: ٤/٣٦٥

(٢) ابن ماجه: ١١٦١/٢ (٣) فتح الباري: ١٠/٢١٠ ومسلم:

٤/١٧٢٥ (٤) أحمد: ٤٨٦/٣ (٥) أحمد: ٤٤٧/٣ (٦)

الطبري: ٥٧١/٢٣ (٧) الطبري: ٥٧٢/٢٣ (٨) الطبري:

٥٧٢/٢٣ (٩) الطبري: ٥٧٢/٢٣

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿١﴾ فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿٢﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُ كُرْحِيَ الْجَارِيَةِ ﴿٣﴾ لِنَجْعَلَهَا لُكْرًا نَذَكَّرُهَا وَقَعِيَ أذُنُ وَعِيَةٍ ﴿٤﴾ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةً وَاحِدَةً ﴿٥﴾ وَجَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكْنَادُكَ وَاحِدَةً ﴿٦﴾ فَيَوْمَ يَذُوقُ وَعْتِ الْوَأَقِعَةِ ﴿٧﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَ يَوْمٍ وَاهِيَةٌ ﴿٨﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَ يَوْمٍ مَنِينَةٌ ﴿٩﴾ يَوْمَ يَوْمٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٠﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَتَبِهِ بِسَمِيئِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَمْ وَأَقْرَعُوا وَكِتَابِي ﴿١١﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةٍ ﴿١٢﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٣﴾ فِي حِجَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٤﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٥﴾ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَتَبِهِ بِسَمَاءٍ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَأَرْوَتُ كَتَبِيَةَ ﴿١٧﴾ وَلَأَدْرِمَاجِحْسَابِيَةٍ ﴿١٨﴾ يَلَيْتَنِي كَأَنِّي الْفَاضِيَةُ ﴿١٩﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَةَ ﴿٢٠﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةً ﴿٢١﴾ خَذُوهُ فَعَلُوهُ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَحِجِمَ صَلْوَهُ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ فِي سِلْسَلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٥﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٢٦﴾

تَعَالَى مُنْتَنَا عَلَى النَّاسِ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُ كُرْحِيَ الْجَارِيَةِ وَهِيَ السَّفِينَةُ الْجَارِيَةُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ﴾ لِنَجْعَلَهَا لُكْرًا نَذَكَّرُهَا عَادَ الضَّمِيرُ عَلَى الْجِنْسِ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ، أَيْ وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنْ جِنْسِهَا مَا تَرْكَبُونَ عَلَى تِيَارِ الْمَاءِ فِي الْبَحَارِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَفْئَالِكُمْ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴿الزخرف: ١٢، ١٣﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَالِكِ الْمَسْحُونِ﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿آيس: ٤١، ٤٢﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: أَنْبَى اللَّهُ السَّفِينَةَ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ^(١). وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَعِيَ أذُنُ وَعِيَةٍ﴾ أَيْ وَتَفَهَّمْ هَذِهِ النِّعْمَةَ وَتَذَكَّرْهَا أذُنُ وَعِيَةٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَافِظَةٌ سَامِعَةٌ ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَذُنُ وَعِيَةٍ﴾ عَقَلَتْ

سَعُودٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالتَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ: حُسُومًا مُتَتَابِعَاتٍ ^(٣). وَعَنْ عِكْرِمَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ خُنَيْمٍ: مَشَائِيمَ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحَسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] وَيُقَالُ: إِنَّهَا النَّبِيُّ تُسَمِّيهَا النَّاسُ الْأَعْجَازَ، وَكَانَ النَّاسُ أَخَذُوا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَحْلٍ حَاقِيَةٌ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿حَاقِيَةٌ﴾ خَرَبَةٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بِالْيَاءِ أَيْ جَعَلَتْ الرِّيحُ تَضْرِبُ بِأَحْدِهِمُ الْأَرْضَ فَيَجْرُ مِيثًا عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، فَيَسْتَدِخُّ رَأْسَهُ وَتَبْقَى جُنَّتُهُ هَامِدَةً، كَأَنَّهَا قَائِمَةٌ التُّخْلَةُ إِذَا خَرَّتْ بِلَا أَغْصَانٍ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نَصَرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلِكَتُ عَادَ بِالذَّبُورِ» ^(٤). «فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ» أَيْ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَقَايَاهُمْ، أَوْ مِمَّنْ يُنْتَسَبُ إِلَيْهِمْ؟ بَلْ بَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُمْ خَلْفًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ فَرِيءٌ يَكْسِرُ الْقَافَ أَيْ وَمَنْ عِنْدَهُ مِمَّنْ فِي زَمَانِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ مِنْ كُفَّارِ الْقُرَيْشِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِفَتْحِهَا، أَيْ: وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأُمَمِ الْمُشْبِهِينَ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ وَهِيَ الْأُمَمُ الْمُكَذِّبُونَ بِالرُّسُلِ ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ وَهِيَ التَّكْذِيبُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالَ الرَّبِيعُ: ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أَيْ بِالْمَعْصِيَةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِالْخَطَايَا ^(٥). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وَهَذَا جِنْسٌ، أَيْ: كُلُّ كَذَّبٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ لِقَى وَوَيْدٍ﴾ وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْجَمِيعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥، ١١٣، ١٤١] وَإِنَّمَا جَاءَ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ وَاحِدٌ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ أَيْ عَظِيمَةً شَدِيدَةً أَلِيمَةً، قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رَابِيَةً﴾ شَدِيدَةً ^(٦). وَقَالَ السُّدِّيُّ: مُهْلِكَةً.

[التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ السَّفِينَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أَيْ زَادَ عَلَى الْحَدِّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَارْتَفَعَ عَلَى الْوُجُودِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: ﴿طَغَا الْمَاءُ﴾ كَثُرَ ^(٧). وَذَلِكَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ جِئِن كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، فَعَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَعَمَّ أَهْلَ الْأَرْضِ بِالطُّوفَانِ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ سَلَالَةِ نُوحٍ وَذُرِّيَّتِهِ. وَلِهَذَا قَالَ

(١) الطبري: ٥٧٤، ٥٧٣/٢٣ (٢) مسلم: ٦١٧/٢ (٣) الطبري: ٥٧٦/٢٣ (٤) الطبري: ٥٧٧/٢٣ (٥) الطبري: ٥٧٧/٢٣ (٦) الطبري: ٥٧٨/٢٣ (٧) الطبري: ٥٧٩/٢٣

عَنِ اللَّهِ فَاتَّقَعْتُ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿وَبِمَا أُذُنٌ وَبِعِيَّةٌ﴾ سَمِعْتُهَا أُذُنٌ وَوَعْتُ. أَي: مَنْ لَهُ سَمْعٌ صَحِيحٌ وَعَقْلٌ رَجِيحٌ، وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ فَوَّهَ وَوَعَى.

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةً وَجِدَّةً﴾ ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَّةً﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَلِيَّةً﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ﴿١٨﴾

[ذَكَرُ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ نَفْحَةُ الْفَرْعِ ثُمَّ يَعْقِبُهَا نَفْحَةُ الصُّعْقِ، حِينَ يَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ بَعْدَهَا نَفْحَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْبُعْثِ وَالنُّشُورِ، وَهِيَ هَذِهِ النَّفْحَةُ، وَقَدْ أَكَّدَهَا هَهُنَا بِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ، لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّرٍ وَلَا تَأْكِيدٍ. وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَّةً﴾ أَي فَمَدَّتْ مَدَّ الْأَدِيمِ الْمُعْكَاطِي، وَتَبَدَّلَتْ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أَي قَامَتِ الْقِيَامَةُ ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَفُيْحَتِ السَّمَاءُ فَكَاتَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُتَخَرِّقَةٌ وَالْعَرْشُ بِجِذَائِهَا ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ الْمَلِكُ إِسْمٌ جِنْسٍ، أَي الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَرْجَاءِ السَّمَاءِ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ يَقُولُ: عَلَى مَا اسْتَدَقَّ مِنَ السَّمَاءِ يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَلِيَّةً﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ الْعَرْشَ ثَمَانِيَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ مِنْ سُنَنِهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُذُنٌ لِي أَنْ أَحَدَّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ: أَنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ» هَذَا لَقَطُ أَبِي دَاوُدَ^(١).

[عَرَضُ بَنِي آدَمَ عَلَى اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أَي تَعْرَضُونَ عَلَى عَالِمِ السِّرِّ وَالنَّجْوَى، الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمُورِكُمْ، بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِالظُّوَاهِرِ وَالسَّرَائِرِ وَالصَّمَائِرِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّهُ ﷻ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَأَمَّا عَرَضَاتِنِ فَجِدَالٌ وَمَعَادِيرٌ، وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي فَأَخِذْ بِبِمِينِهِ وَأَخِذْ بِشِمَالِهِ»^(٢). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ^(٣) وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(٤).

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِبِيَمِينِهِ﴾ ﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ﴾ ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَةَ﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ﴿فِي حِكْمَةٍ عَلِيمَةٍ﴾ ﴿فَطُوفُهَا دَائِرَةٌ﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ﴾ ﴿١٤﴾

[فَرَحُهُ مِنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِبِيَمِينِهِ وَحُسْنُ حَالِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ سَعَادَةِ مَنْ يُؤْتَى كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبِيَمِينِهِ وَفَرَحِهِ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَتهُ: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ﴾ أَي خُذُوا أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ وَحَسَنَاتٌ مَحْضَةٌ، لِأَنَّهُ وَمَنْ بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: مَعْنَى ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ﴾ أَي هَا أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ (وَمِنْ) زَائِدَةٌ. كَذَا قَالَ، وَالظَّاهِرُ: أَنَّهَا بِمَعْنَى «هَآكُم».

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ غَسْبِيلِ الْمَلَائِكَةِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُوقِفُ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُيَدِي أَي يُظْهِرُ سَيِّئَاتِهِ فِي ظَهْرِ صَاحِبِيهِ فَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ عَمِلْتَ هَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ أَي رَبِّ. فَيَقُولُ لَهُ: إِنِّي لَمْ أَفْصَحْكَ بِهِ وَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكَ، فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ﴾ ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَةَ﴾ حِينَ نَجَا مِنْ فُضِيحَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ النَّجْوَى فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُذْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِبِيَمِينِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» [هود: ١٨]^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَةَ﴾ أَي قَدْ كُنْتُ مُوقِنًا فِي الدُّنْيَا أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَائِنٌ، لَا مَحَالَةَ، كَمَا قَالَ

(١) أبو داود: ٩٦/٥ (٢) أحمد: ٤١٤/٤ إسناده ضعيف فيه تدليس الحسن البصري ولم يصرح بالسماع (٣) ابن ماجه: ٢/ ١٤٣٠ (٤) تحفة الأحوذى: ١١١/٧ (٥) أحمد: ٧٤/٢ والبخاري: ٤٦٨٥ ومسلم: ١٧٦٨

تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَطْمَنُونَ أَنَّهُمْ مُلْعَقُوا رِيحَهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦] قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هُمْ فِي عَيْسَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أَي مَرْضِيَةٍ ﴿فِي حَسَنَةٍ عَلِيمَةٍ﴾ أَي رَفِيعَةٍ قُضُورُهَا، حِسَانِ حُورُهَا، نَعِيمَةٍ دُورُهَا، دَائِمِ حُبُورُهَا.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةٌ دَرَجَةٌ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَطَوَّفُهَا دَائِمَةً﴾ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: أَي قَرِيبَةً، يَتَنَاولُهَا أَحَدُهُمْ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى سَرِيرِهِ^(٢). وَكَذَا قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَيْتَا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْآلِيَةِ﴾ أَي يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَفَضُّلاً عَلَيْهِمْ وَامْتِنَانًا وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا، وَإِلَّا فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اعْمَلُوا وَسَدَّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ وَلَا يُحْضِرُ عَلَى طَعَامِ الْتَسْكِينِ أَي لَا يَقُومُ بِحَقِّ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَلَا يَنْفَعُ خَلْقَهُ وَيُؤَدِّي حَقَّهُمْ، فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُوحِدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَلِلْعِبَادِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ حَقٌّ الْإِحْسَانِ وَالْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَانِ الزَّكَاةِ، وَقَبْضِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ^(٥) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ أَي لَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ مِنْ الْيَوْمِ مَنْ يُقَدِّمُهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى لَا حَمِيمٌ - وَهُوَ الْقَرِيبُ - وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ، وَلَا طَعَامٌ لَهُ هُنَا إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ، قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ شَرُّ طَعَامِ أَهْلِ النَّارِ^(٦). وَقَالَ الرَّبِيعُ وَالتَّضْحَاكُ: هُوَ شَجَرَةٌ فِي جَهَنَّمَ. وَقَالَ شَيْبٌ بِنُ بَشِيرٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْغَسَلِينَ الدَّمُ وَالمَاءُ يَسِيلُ مِنْ لُحُومِهِمْ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ: الْغَسَلِينَ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَهُ بِإِسْمَالِهِ﴾ يَقُولُ بِلَيْتَنِي لَمْ أَوْفَى كَيْفِيَّةً^(٧) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةً^(٨) بَلَيْتَهَا كَانَتْ الْفَاضِيَّةً^(٩) مَا أَقْفَى عَنِّي مَالِيَّةً^(١٠) هَلَكَ عَنِّي سَطْنِيَّةً^(١١) حُدُوهُ فَعَلُوهُ^(١٢) ثُمَّ الْحَجِيمِ صَلَوُهُ^(١٣) ثُمَّ فِي سَلْسِلَةٍ دَرَعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْأَلُوكَهُ^(١٤) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ^(١٥) وَلَا يُحْضِرُ عَلَى طَعَامِ التَّسْكِينِ^(١٦) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ^(١٧) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ^(١٨) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ^(١٩)

[سوء حالٍ من أوتى كتابه بِإِسْمَالِهِ]

وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ إِذَا أُعْطِيَ أَحَدُهُمْ كِتَابَتَهُ فِي الْعَرَصَاتِ بِإِسْمَالِهِ، فَحِينَئِذٍ يَنْدُمُ غَايَةَ النَّدَمِ ﴿فَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَمْ أَوْفَى كَيْفِيَّةً﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةً^(١٠) بَلَيْتَهَا كَانَتْ الْفَاضِيَّةً^(٩) قَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي مَوْتَهُ لِأَحْيَاةٍ بَعْدَهَا. وَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالرَّبِيعُ وَالتَّسَدُّيُّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَمَتَّى الْمَوْتِ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِنْهُ^(٤). ﴿مَا أَقْفَى عَنِّي مَالِيَّةً﴾ هَلَكَ عَنِّي سَطْنِيَّةً أَي لَمْ يَدْفَعْ عَنِّي مَالِي وَلَا جَاهِي عَذَابِ اللهِ وَبَأْسَهُ، بَلْ خَلَصَ الْأَمْرُ إِلَيَّ وَحْدِي، فَلَا مُعِينَ لِي وَلَا مُجِيرَ، فَعِنْدَهَا يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حُدُوهُ فَعَلُوهُ﴾^(١٢) ثُمَّ الْحَجِيمِ صَلَوُهُ أَي يَأْمُرُ الزَّبَانِيَةَ أَنْ تَأْخُذَهُ عَثْفًا مِنَ الْمَحْشَرِ، فَتَعْلَهُ، أَي: تَضَعُ الْأَغْلَالَ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ تُورِدُهُ إِلَى جَهَنَّمَ فَتُضَلِّبُهُ بِهَا أَي: تَعْمُرُهُ فِيهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ فِي سَلْسِلَةٍ دَرَعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْأَلُوكَهُ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ: كُلُّ حَلْقَةٍ مِنْهَا قَدْرٌ حَدِيدٍ الدُّنْيَا. وَقَالَ

(١) البخاري: ٢٧٩٠ (٢) الطبري: ٥٨٦/٢٣ (٣) فتح الباري: ٣٠٠/١١ (٤) الطبري: ٥٨٧/٢٣ (٥) الطبري: ١٧٣/٢٣ (٦) الطبري: ٥٨٩/٢٣ (٧) أحمد: ١٩٧/٢ (٨) تحفة الأحوذى: ٣١٣/٧ (٩) النسائي في الكبرى: ٢٥٨/٤ (١٠) الطبري: ٥٩١/٢٣

[الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُقْسِمًا لِخَلْقِهِ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِهِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا غَاب عَنْهُمْ مِمَّا لَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْمُعْجَبَاتِ عَنْهُمْ: إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا بُصُرُونَ﴾ (٣٦) وَمَا لَا يُبْصُرُونَ (٣٧) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ﴾، أَضَافَهُ إِلَيْهِ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ، لِأَنَّ الرَّسُولَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبَلِّغَ عَنِ الْمُرْسَلِ، وَلِهَذَا أَضَافَهُ فِي سُورَةِ التَّكْوِينِ إِلَى الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٣٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٣٠﴾ مُطَاعٌ ثُمَّ آمِنٌ ﴿التَّكْوِينِ: ١٩-٢١﴾ وَهَذَا جَبْرِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئُقِ الْعَالِيْنَ﴾ يَعْنِي أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى جَبْرِيًّا عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أَيِّ بِمُتَّهَمٍ.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وَهَكَذَا قَالَ ههنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿فَأَضَافَهُ اللَّهُ تَارَةً إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ وَتَارَةً إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ مَا اسْتَأْمَنَهُ عَلَيْهِ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بِعَصْرِ الْأَقَابِلِ﴾ (٤١) لِأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ [لَوْ تَقَوْلُ النَّبِيِّ شَيْئًا عَلَى اللَّهِ لِأَخْذِهِ اللَّهُ بِعَدَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ لَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ مُتَمَرِّبًا عَلَيْنَا، فَرَادَ فِي الرِّسَالَةِ أَوْ تَقَصَّ مِنْهَا، أَوْ قَالَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فَسَبَّهَ إِلَيْنَا - وَلَيْسَ كَذَلِكَ - لَعَاجِلُنَا بِالْعُقُوبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأَخْذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَأَتَّقَمْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْنِ، ﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ نَبَاطُ الْقَلْبِ وَهُوَ الْعِرْقُ الَّذِي الْقَلْبُ مُعَلَّقٌ فِيهِ (١). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَالْحَكَمُ، وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ، وَمُسْلِمُ الْبَطِينُ، وَأَبُو صَخْرٍ حُمَيْدُ بْنُ زِيَادٍ (٢). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ هُوَ الْقَلْبُ وَمَرَافَهُ وَمَا بِلَيْهِ (٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أَيُّ فَمَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَحْجِزَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِذَا

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

٥٦٨

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِطُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصُرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصُرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بِعَصْرِ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لِأَخْذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ مِائَتِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَوْنَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾

أَرَدْنَا بِهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا: بَلْ هُوَ صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُفَرِّدٌ لَهُ مَا يُبَلِّغُهُ عَنْهُ، وَمُؤَيَّدٌ لَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالذَّلَالَاتِ الْقَاطِعَاتِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ أَيُّ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ سَيُوجَدُ مِنْكُمْ مَنْ يَكْذِبُ بِالْقُرْآنِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَإِنَّ التَّكْذِيبَ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٤). وَحَكَاهُ عَنْ قَتَادَةَ بِمِثْلِهِ (٥). وَيَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى الْقُرْآنِ، أَيُّ وَإِنَّ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ بِهِ لَحَسْرَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى الْكَافِرِينَ،

(١) الطبري: ٥٩٣/٢٣ (٢) الطبري: ٥٩٣/٢٣، ٥٩٤ والدر المثور: ٢٧٦/٨ (٣) القرطبي: ٢٧٦/١٨ (٤) الطبري: ٢٣/٥٩٥ (٥) الطبري: ٥٩٥/٢٣

وَأَمَّا الرُّوحُ فَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُشْبِهُونَ النَّاسَ وَلَيْشُوا نَاسًا. فُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ جِبْرِيلَ، وَيَكُونُ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِسْمُ جِنْسٍ لِأَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ، فَإِنَّهَا إِذَا قُبِضَتْ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبِرَاءِ^(٥).

[الْمُرَادُ بِيَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الْمُرَادُ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قَالَ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَرَوَاهُ الثَّوْرِيُّ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ عِكْرَمَةَ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٦). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَمُجُّ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قَالَ: هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْكَافِرِينَ مِقْدَارَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ^(٧). وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ فِي مَعْنَى ذَلِكَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عُمَرَ الْغُدَانِيِّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا أَكْثَرُ عَامِرِيِّ مَالًا، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، رُدُّوهُ إِلَيَّ فَرُدُّوهُ فَقَالَ: نُبْتُ أَنْتَ ذُو مَالٍ كَثِيرٍ. فَقَالَ الْعَامِرِيُّ: إِي وَاللَّهِ إِنْ لِي لِمِائَةِ حُمْرًا وَمِائَةِ أَدْمًا، حَتَّى عَدَّ مِنْ أَلْوَانِ الْإِبِلِ وَأَفْئَانِ الرَّيْقِيِّ، وَرِبَابِ الْخَيْلِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِيَّاكَ وَأَخْفَافِ الْإِبِلِ وَأَطْلَافِ النَّعَمِ، يُرَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى جَعَلَ لَوْنُ الْعَامِرِيِّ يَتَغَيَّرُ فَقَالَ: مَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَسُولَهَا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَجْدَتُهَا وَرَسُولُهَا؟ قَالَ: «فِي عُسْرِهَا وَيُسْرِهَا، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَعْدَمٍ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرِهِ وَأَسْمَنِهِ وَأَشْرِهِ، ثُمَّ يَبْطَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَفَرٍ فَتَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا، فَإِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُفْضَى بَيْنَ النَّاسِ قَبْرِي سَبِيلَهُ».

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّبِينَ ﴿١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجِبِلَ بَيْنَهُمْ وَيَوْمَ مَا يَنْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] وَلِهَذَا قَالَ لِهَهُنَا: ﴿وَلَهُمْ لِحَقُّ الْقِيَمَةِ﴾ أَيِ الْخَبْرِ الصَّدُقِ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أَيِ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ.

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَاقَّةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تَفْسِيرُ سُورَةِ سَائِلِ سَائِلٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَمُجُّ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ قُرْبًا ﴿٧﴾﴾

[الاستعجال بيوم القيامة]

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فِيهِ تَضَمِينٌ دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ الْبَاءِ كَأَنَّهُ مَقْدَرٌ: اسْتَعْجَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَتَجْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُمْ﴾ أَيِ وَعْدَائِهِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَه. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قَالَ: ذَلِكَ سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ^(١). وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ دَعَا دَاعٍ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ يَقَعُ فِي الْآخِرَةِ. قَالَ: وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آسِرٍ﴾ [الأضواء: ٣٢]^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَيِ مُرْصَدٌ مُعَدٌّ لِلْكَافِرِينَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَاقِعٍ﴾ جَاءَ ﴿لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ أَيِ لَا دَافِعَ لَهُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ كَوْنَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

[تفسير ذي المعارج]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ يَعْنِي الْعُلُوقَ وَالْفَوَاضِلَ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ مَعَارِجُ السَّمَاءِ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَمُجُّ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿تَمُجُّ﴾ تَصْعَدُ.

(١) الطبري: ٥٩٩/٢٣ (٢) الطبري: ٥٩٩/٢٣ (٣) الطبري: ٦٠٠/٢٣

(٤) الطبري: ٦٠٠/٢٣ (٥) الطوال للطبراني: ٢٣٨

(٦) الطبري: ٦٠١/٢٣ (٧) الطبري: ٦٠٣/٢٣

وَإِذَا كَانَتْ لَهُ بَقَرَةٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَسُولَهَا، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَعْدُ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرُهُ وَأَسْمَنِهِ وَأَشْرَهُ، ثُمَّ يُطَّحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ، فَتَطْوُهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلْفٍ يَظْلِفُهَا وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ يَقْرَنُهَا، لَيْسَ فِيهَا عَفْصَاءٌ وَلَا عَضْبَاءٌ، إِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُفْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ.

وَإِذَا كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَسُولَهَا فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَعْدُ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنِهِ وَأَشْرَهُ حَتَّى يُطَّحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ فَتَطْوُهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلْفٍ يَظْلِفُهَا وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ يَقْرَنُهَا، لَيْسَ فِيهَا عَفْصَاءٌ وَلَا عَضْبَاءٌ، إِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُفْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ» فَقَالَ الْعَامِرِيُّ: وَمَا حَقُّ الْإِبِلِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: أَنْ تُعْطِيَ الْكَرِيمَةَ وَتَمْنَحَ الْغَزِيرَةَ، وَتَقْرَعَ الظَّهْرَ وَتَسْقِي الْإِبِلَ (*) وَتَطْرُقَ الْفَحْلَ (١). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ (٢).

(طريق أخرى لهذا الحديث) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبٍ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ إِلَّا جُعِلَ صَفَانِخَ، يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَتَكْوَى بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ» وَذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ فِي الْغَنَمِ وَالْإِبِلِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَفِيهِ: «الْحَيْلُ ثَلَاثَةٌ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَرْزٌ» إِلَى آخِرِهِ (٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بِتَمَامِهِ مُتَّفَرِّدًا بِهِ دُونَ الْبُخَارِيِّ (٤). وَالْغَرَضُ مِنْ إِيرَادِهِ هَهُنَا قَوْلُهُ: «حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

[تَلْقِيَانِ النَّبِيِّ الصَّبْرَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا﴾ أَيِ اصْبِرْ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ، وَاسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ اسْتِيعَادًا لَوْفُوعِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَمْثَلًا مُتَّفِقُونَ مِمَّا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴿[الشورى: ١٨]﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ يَرْتَدُّونَهُ بَعْدًا﴾ أَيِ وَقُوعِ الْعَذَابِ. وَقِيَامَ السَّاعَةِ يَرَاهُ الْكَفَرَةَ بَعِيدَ الْوُقُوعِ بِمَعْنَى مُسْتَحِيلِ الْوُقُوعِ ﴿وَرَبُّهُ

يَبْصُرُونَهم بؤد المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه ﴿١١﴾ وصحبته وأخيه ﴿١٢﴾ وفصيلته التي تؤويه ﴿١٣﴾ ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ﴿١٤﴾ كلاً إنهما لظنى ﴿١٥﴾ نزاعة للشوى ﴿١٦﴾ تدعوا من أدبر وتولى ﴿١٧﴾ وجمع فأوعى ﴿١٨﴾ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴿١٩﴾ إذا مسه الشر جزوعاً ﴿٢٠﴾ وإذا مسه الخير منوعاً ﴿٢١﴾ إلا المصلين ﴿٢٢﴾ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴿٢٣﴾ والذين في أموالهم حق معلوم ﴿٢٤﴾ للسائل والمحرور ﴿٢٥﴾ والذين يصدقون بيوم الدين ﴿٢٦﴾ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴿٢٧﴾ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴿٢٨﴾ والذين هم لفروجهم حافظون ﴿٢٩﴾ إلا على أزواجهما وما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴿٣٠﴾ فمن ابغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴿٣١﴾ والذين هم لامنتهين وعهدهم رعون ﴿٣٢﴾ والذين هم بشهادتهم قايمون ﴿٣٣﴾ والذين هم على صلاتهم محافظون ﴿٣٤﴾ أولئك في جنت مكرمون ﴿٣٥﴾ قال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴿٣٦﴾ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴿٣٧﴾ أيطع كل أمرئ منهم أن يدخل جنه نعيم ﴿٣٨﴾ كلاً إننا خلقناهم مما يعلمون ﴿٣٩﴾

وَيَا ﴿١﴾ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ يَعْتَدُونَ كَوْنَهُ قَرِيبًا، وَإِنْ كَانَ لَهُ أَمَدٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِنْ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ فَهُوَ قَرِيبٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَنْتَلِ حَيْدٌ حَيْسًا ﴿١٠﴾ يَبْصُرُونَهُمُ بؤد المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه ﴿١١﴾ وصحبته وأخيه ﴿١٢﴾ وفصيلته التي تؤويه ﴿١٣﴾ ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ﴿١٤﴾ كلاً إنهما لظنى ﴿١٥﴾ نزاعة للشوى ﴿١٦﴾ تدعوا من أدبر وتولى ﴿١٧﴾ وجمع فأوعى ﴿١٨﴾

[أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: الْعَذَابُ وَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَعِكْرِمَةُ وَالشَّدِيدِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيِ كَذْرَدِي الرِّبِّتِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ أَيِ كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ، قَالَهُ

(*) وفي بعض النسخ: وَتَسْقِي اللَّبَنَ (١) أحمد: ٤٨٩/٢ (٢) أبو داود: ٣٠٤/٢ والتسائي: ١٢/٥ (٣) أحمد: ٢٦٢/٢ (٤) مسلم: ٦٨٢/٢

مُجَاهِدٌ وَقِتَادَةٌ وَالسُّدِّيُّ (١). وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا ۖ يُصِرُّوهُمْ﴾ أَي لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ فِي أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ، فَتَشْغَلُهُ نَفْسُهُ عَنْ غَيْرِهِ، قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَوْرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُبَيِّنُهُ﴾ [عبس: ٣٧] (٢). وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكُرَيْمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رِيكًا وَأَحْشَوًا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَالِدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ حَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [القمان: ٢٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ نَدَعُ مُثْقَلَهُ إِلَى جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُرَى الْكُفْرُ مِنْ أَدْبُرٍ ۚ وَأَمِيرٌ وَأَمِيرٌ ۖ وَصَحِيحٌ وَصَحِيحٌ ۖ وَبَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُبَيِّنُهُ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بُودٌ الْمُرْجُمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَيْنَهُ ۖ وَصَحِيحُهُ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتُهُ الَّتِي تُؤْتِيهِ ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حِمِيمًا ثُمَّ يُبْجِدُهُ ۖ كَلَّا ۖ أَي لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدَاءٌ وَلَوْ جَاءَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ وَيَأْعَزُّ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْمَالِ وَلَوْ بَجَلِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، أَوْ مِنْ وَالِدِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا حَشَاشَةً كَبِيدَهُ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - إِذَا رَأَى الْأَهْوَالَ - أَنْ يَفْتَدِيَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِهِ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ.

قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: ﴿وَفَصِيلَتُهُ قَبِيلَتُهُ وَعَشِيرَتُهُ﴾ (٣). وَقَالَ عِكْرَمَةُ: فَجَذِيهِ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ، وَقَالَ أَشْهَبٌ عَنْ مَالِكٍ: فَصِيلَتُهُ: أُمُّهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا لَطَىٰ يَصِفُ النَّارَ وَشِدَّةَ حَرِّهَا نَزَاعَةً لِلشَّوَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: جِلْدَةُ الرَّأْسِ (٤). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَتَابِتُ الْبُنَائِي: ﴿نَزَاعَةً لِلشَّوَى﴾ أَي مَكَارِمَ وَجْهِهِ، وَقَالَ قِتَادَةُ: ﴿نَزَاعَةً لِلشَّوَى﴾ أَي نَزَاعَةً لِهَا مَتِيهِ وَمَكَارِمَ وَجْهِهِ وَخَلْفِهِ وَأَطْرَافِهِ (٥). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تَبْرِي اللَّحْمِ وَالْجِلْدِ عَنِ الْعَظْمِ حَتَّى لَا تَبْقَى مِنْهُ شَيْئًا (٦). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الشَّوَى: الْأَرَابُ الْعِظَامُ (٧). فَقَوْلُهُ نَزَاعَةً قَالَ: نَقَطَعَ عِظَامَهُمْ، ثُمَّ تَبَدَّلَ جُلُودَهُمْ وَخَلَقَهُمْ. (٨)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَدْعُوا نَارًا مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّىٰ ۖ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أَي تَدْعُوا النَّارَ إِلَيْهَا أَبْنَاءَهَا الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ لَهَا، وَقَدَّرَ لَهُمْ

أَنَّهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَعْمَلُونَ عَمَلَهَا، فَتَدْعُوهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِسَانٍ طَلَّقَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّيْرُ الْحَبَّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَانُوا مِنْكُمْ ﴿أَدْبُرًا وَتَوَلَّىٰ﴾ أَي كَذَّبَ بِقَلْبِهِ وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِجَوَارِحِهِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أَي جَمَعَ الْمَالَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَأَوْعَاهُ، أَي: أَوْكَاهُ، وَمَنَعَ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ فِي النَّفَقَاتِ وَمِنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا تُرْعِي فِرْعَوِيَّ اللَّهُ عَلَيْكَ» (٨).

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرْجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فَمَنْ أَتَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَآدُونَ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَاهُونَ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَشْهَدُونَ قَائِمُونَ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أُولَئِكَ فِي حَتَّىٰ مُكْرَمُونَ ﴿٢٠﴾

[الإنسان هالِعٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا هُوَ مَجْبُولٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الدُّنْيَا ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ يَقُولُهُ: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أَي إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ فَرَعَ وَجَزَعَ وَانْخَلَعَ قَلْبُهُ مِنْ شِدَّةِ الرُّغْبِ، وَأَيْسَ أَنْ يَحْصَلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أَي إِذَا حَصَلَتْ لَهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بَخَلَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ، وَمَنَعَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شُحُّ هَالِعٍ وَجُبْنُ خَالِعٍ» (٩). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُفْرِيِّ، بِهِ، وَلَيْسَ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ عِنْدَهُ سِوَاهُ (١٠).

(١) الطبري: ٦٠٤/٢٣ (٢) الطبري: ٦٠٥/٢٣ العوفي ضعيف (٣) الطبري: ٦٠٦/٢٣ (٤) الطبري: ٦٠٨/٢٣ (٥) الطبري: ٦٠٩/٢٣ (٦) الطبري: ٦٠٩/٢٣ (٧) الطبري: ٦٠٩/٢٣ (* كذا عندنا، والرواية عند ابن جرير عن ابن زيد: ثُمَّ يَجَارِدُ خَلْفَهُمْ وَتَبَدَّلَ جُلُودَهُمْ (٣٤٨٩٤). وبه تستقيم العبارة (٨) مسلم: ٧١٣/٢ (٩) أحمد: ٣٠٢/٢ (١٠) أبو داود: ٣/٢٦

تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِم قَائِمُونَ﴾ أَيُّ مُحَافِظُونَ عَلَيْهَا لَا يَزِيدُونَ فِيهَا وَلَا يَنْقُصُونَ مِنْهَا وَلَا يَكْتُمُونَهَا ﴿وَمَنْ يَكْتُمُهَا فَإِنَّهُ عَائِدٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَيُّ عَلَى مَوَاقِيئِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَمُسْتَحَبَّاتِهَا، فَانْتَحَى الْكَلَامَ بِذِكْرِ الصَّلَاةِ وَاخْتَمَمَهُ بِذِكْرِهَا، فَذَلَّ عَلَى الْإِغْتِنَاءِ بِهَا وَالتَّنْوِيهِ بِسِرِّهَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ سَوَاءً، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ١٠، ١١] وَقَالَ هُنَا: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ أَيُّ مُكْرَمُونَ بِأَنْوَاعِ الْمَلَادِ وَالْمَسَارِّ.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَيْلًا مَطْمَئِينًا﴾ عَنِ الَّذِينَ وَعَى الشَّيْطَانُ عَزِيمًا ﴿٢٧﴾ أَطْمَعُ كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا أَفْسَحُ لِرَبِّ الشَّرِّ وَالْعُزْبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٣٠﴾ عَلَيَّ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٣١﴾ فَذَرَهُمْ مَحْضُوعًا وَيَلْمِئُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَادِ سِرَّاتٍ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٣٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٤﴾

﴿بُوعَدُونَ﴾

[النكير على الكفار وتهديدهم]

يَقُولُ تَعَالَى مُكْرَمًا عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ مُشَاهِدُونَ لَهُ وَلَمَّا أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى، وَمَا أَيْدَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا كَلَّهُ قَارُونَ مِنْهُ مُتَفَرِّقُونَ عَنْهُ، شَارِدُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا فِرْقًا فِرْقًا، وَشِيعًا شِيعًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْذَارِ مُعْرِضِينَ﴾ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٥﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْرَمٍ ﴿...﴾ الْآيَةُ [المدثر: ٤٩-٥١]. وَهَذِهِ مِثْلُهَا فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَيْلًا مَطْمَئِينًا﴾ أَيُّ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿مَطْمَئِينًا﴾ أَيُّ مُسْرِعِينَ نَافِرِينَ مِنْكَ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿مَطْمَئِينًا﴾ أَيُّ مُنْطَلِقِينَ ﴿عَنِ الَّذِينَ وَعَى الشَّيْطَانُ عَزِيمًا﴾ وَاجِدْهَا عِزَّةً أَيُّ مُتَفَرِّقِينَ (٥). وَهُوَ حَالٌ مِنْ ﴿مَطْمَئِينًا﴾ أَيُّ فِي حَالٍ تَفَرُّقِهِمْ وَاجْتِلَاءِهِمْ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَيْلًا مَطْمَئِينًا﴾ قَالَ: قَيْلًا يَنْظُرُونَ ﴿عَنِ الَّذِينَ وَعَى الشَّيْطَانُ عَزِيمًا﴾ قَالَ:

[إِسْتِنَاءُ الْمُصَلِّينَ مِمَّا سَبَقَ وَبَيَانُ أَعْمَالِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ أَيُّ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الدِّمِّ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَوَقَّعَهُ وَهَدَاهُ إِلَى الْخَيْرِ وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَهُ وَهُمْ الْمُصَلُّونَ. ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ يُحَافِظُونَ عَلَى أَوْقَاتِهَا وَوَاجِبَاتِهَا. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمَسْرُوقٌ وَإِبْرَاهِيمُ التَّحَعِّيُّ (١).

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالذَّوَامِ هُنَا الشُّكُونُ وَالْخُشُوعُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿[المؤمنون: ١، ٢]﴾، قَالَهُ عُبَيْدُ بْنُ غَامِرٍ. وَمِنْهُ: الْمَاءُ الدَّائِمُ، وَهُوَ السَّاكِنُ الرَّائِدُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الطَّمَأِينَةِ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ الَّذِي لَا يَطْمَئِنُّ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ لَيْسَ بِدَائِمٍ عَلَى صَلَاتِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْكُنْ فِيهَا وَلَمْ يَدْمُ بَلْ يَتَفَرَّغُهَا تَفَرُّ الْعُرَابِ فَلَا يُفْلِحُ فِي صَلَاتِهِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الَّذِينَ إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا ذَاوَمًا عَلَيْهِ وَأَتَبَتْهُ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ غَايِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ» (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَرْحُومِ ﴿أَيُّ فِي أَمْوَالِهِمْ نَصِيبٌ مَقْرَرٌ لِذَوِي الْحَاجَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ﴾ أَيُّ يُوقِنُونَ بِالْمَعَادِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، فَهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلٌ مِنْ يَرْجُو الثَّوَابَ وَيَخَافُ الْعِقَابَ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أَيُّ خَافِقُونَ وَجِلُونَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أَيُّ لَا يَأْمَنُهُ أَحَدٌ مِمَّنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ إِلَّا بِأَمَانٍ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْمَالِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أَيُّ يَكْفُرُونَهَا عَنِ الْحَرَامِ وَيَمْنَعُونَهَا أَنْ تُوَضَعَ فِي غَيْرِ مَا أَدْنَى اللَّهِ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْإِمَاءِ ﴿فَأَنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فَنِي ابْتِغَى وَرَكَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أَيُّ إِذَا أُوتِمُوا لَمْ يَخُونُوا، وَإِذَا عَاهَدُوا لَمْ يَغْدِرُوا. وَهَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ وَضِدَّهَا صِفَاتُ الْمُتَافِقِينَ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «آيَةُ الْمُتَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُوتِمَ خَانَ» (٣). وَفِي رِوَايَةٍ: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» (٤). وَقَوْلُهُ

(١) الطبري: ٦١٢/٢٣ (٢) مسلم: ٥٤١/١ (٣) فتح

الباري: ١١١/١ (٤) فتح الباري: ١١١/١ (٥) الطبري: ٢٣/

الْعَزِيْزِ: الْعُصْبُ مِنَ النَّاسِ عَنِ يَمِيْنٍ وَشِمَالِ مُعْرِضِيْنَ يَسْتَهْزِئُوْنَ بِهِ .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ حَلَقٌ فَقَالَ: «مَا لِيْ اَرَاكُمْ عَزِيْزِيْنَ؟»^(١) . رَوَاهُ اَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَاَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَاَبْنُ جَرِيْرٍ^(٢) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ اَنْ يُدْخَلَ جَنَّةً نَّعِيْمًا ﴾^(٣٨) كَلَّا؟ اَيُّ: اَيْطَعُ هُوَ لَا- وَالحَالَةُ هَذِهِ مِنْ

فِرَارِهِمْ عَنِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَفِرَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ - اَنْ يُدْخَلُوْا جَنَّاتِ النَّعِيْمِ؟ كَلَّا؟ بَلْ مَا وَاَهُمْ جَهَنَّمَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى

مُفْرَرًا لِيُفَوِّعَ الْمُعَادِيَ وَالْعَذَابِ بِهِمْ الَّذِي اُنْكُرُوْا كُوْنَهُ، وَاسْتَبَعَدُوْا وُجُوْدَهُ مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِالْبِدَاةِ الَّتِي الْاِعَادَةُ اَهْوَنُ مِنْهَا، وَهُمْ مُعْتَرِفُوْنَ بِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ اِنَّا خَلَقْنَاهُمْ

مِمَّا يَعْلَمُوْنَ ﴾ اَيُّ مِنَ الْمَنِيِّ الضَّعِيْفِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ اَلَمْ نَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِيْنٍ ﴾ [المرسلات: ٢٠] وَقَالَ: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْاِنْسَانُ

مِمَّ خُلِقَ ﴾^(٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَاقِيٍّ^(٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ^(٧) اِنَّهُ عَلَى رَجِيْمٍ لَّقَادِرٌ^(٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ^(٩) فَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿

[الطارق: ٥-١٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا اَقِيْمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ اَيُّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضَ وَجَعَلَ مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا، وَسَخَّرَ الْكَوْكَبَ تَبْدُوْ مِنْ مَشَارِقِهَا وَتَغِيْبِ فِي مَغَارِبِهَا .

وَتَقْرِيرُ الْكَلَامِ: لَيْسَ الْاَمْرُ كَمَا تَزْعُمُوْنَ اَنْ لَا مَعَادَ وَلَا حِسَابَ، وَلَا بَعَثَ وَلَا نُشُوْرَ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ وَاَقِعَ وَكَائِنٌ لَا

مَحَالَّةَ، وَلِهَذَا اُتِيَ بِ لَا، فِي الْاِبْتِدَاءِ الْقَسَمِ لِيَدُلَّ عَلٰى اَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ نَفِيٌّ، وَهُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ، وَهُوَ الرَّدُّ عَلٰى رَعِيْمِهِمُ الْفَاسِدِ فِي نَفْيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقَدْ شَاهَدُوْا مِنْ عَظِيْمِ

قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى مَا هُوَ اَبْلَغُ مِنْ اِقَامَةِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ وَتَسْخِيْرٍ مَا فِيْهِمَا: مِنَ الْمَخْلُوْقَاتِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجِمَادَاتِ وَسَائِرِ صُنُوفِ الْمَوْجُوْدَاتِ، وَلِهَذَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضَ اَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنْ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ [غافر: ٥٧] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ اَوْلَيْرَبِّوْا اَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضَ وَلَمْ يَغِيْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيْرٍ عَلٰى اَنْ يَخِيْعَ الْمَوْتُ بِلَهِّ اِنَّهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴾ [الاحقاف: ٣٣] وَقَالَ تَعَالَى فِي الْاَيَةِ الْاُخْرٰى: ﴿ اَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضَ بِقَدِيْرٍ عَلٰى

اَنْ يَخْلُقَ مِنْلَهُمْ بَلٰى وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيْمُ^(١١) اِنَّمَا اَمْرُهُ اِذَا اَرَادَ شَيْئًا اَنْ يَقُوْلَ لَهٗ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴾ [يس: ٨١، ٨٢] وَقَالَ هُنَا:

﴿ فَلَا اَقِيْمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اِنَّا لَقَدِيْرُوْنَ ﴾^(١٢) عَلٰى اَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمُ

فَلَا اَقِيْمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اِنَّا لَقَدِيْرُوْنَ ﴿٤١﴾ عَلٰى اَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمُ

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوْبِيْنَ ﴿٤١﴾ فَذَرَّهُمْ يُخَوِّضُوْا وَيَلْعَبُوْا حَتّٰى يَلْتَقُوْا يَوْمَهُمُ الَّذِي

يُوْعَدُوْنَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُوْنَ مِنَ الْاَجْحَادِ سِرَاعًا كَانَهُمْ اِلَى نَصَبٍ يُوْفُوْصُونَ

﴿٤٣﴾ خَشِيْعَةً اَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذٰلِكَ الَّذِي كَانُوْا يُوعَدُوْنَ ﴿٤٤﴾

سُورَةُ الْاَنْفُوْثِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

اِنَّا اَرْسَلْنَا نُوْحًا اِلٰى قَوْمِهٖ اَنْ اَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَأْتِيَهُمْ

عَذَابُ الْيَوْمِ ﴿١﴾ قَالَ يَقُوْمُوْنَ اِنِّي لَكُمْ نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ ﴿٢﴾ اَنْ اَعْبُدُوْا

اللهَ وَاتَّقُوْهُ وَاطِيعُوْنَ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوْبِكُمْ وَيُوْخِرْكُمْ

اِلَى اَجَلٍ مُّسَمًّى اِنْ اَجَلَ اللهُ اِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ

﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ اِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِيْ لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَايَ اِلَّا

فِرَارًا ﴿٦﴾ وَاِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوْا اَصْبَعَهُمْ

فِيْ اِذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا نِيَابَهُمْ وَاصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوْا وَاسْتَكْبَارًا

﴿٧﴾ ثُمَّ اِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ اِنِّي اَعْلَنْتُ لَهُمْ وَاَسْرَرْتُ

لَهُمْ اِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوْا رَبِّكُمْ اِنَّهٗ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

اَيُّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ تُعِيْدُهُمْ بِاَبْدَانِ خَيْرٍ مِنْ هٰذِهِ فَاِنَّ قُدْرَتَهُ صَالِحَةٌ لِّذَلِكَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوْبِيْنَ﴾ اَيُّ بِعَاجِزِيْنَ، كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿ اِنْحَسِبُ الْاِنْسَانُ اَلَنْ نَجْعَ عَظْمَهُ ﴾^(١) بَلْ قَدِيْرِيْنَ عَلٰى اَنْ سُوِّيَ بَنَانُهُ ﴿[القيامة: ٤، ٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بِنَاكُمْ

الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوْبِيْنَ ﴾^(٢) عَلٰى اَنْ نُبَدِّلَ اَمْتَلِكُمْ وَنُنَشِئَكُمْ فِيْ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿[الواقعة: ٦٠، ٦١] وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيْرٍ ﴿عَلٰى اَنْ نُبَدِّلَ

خَيْرًا مِنْهُمُ﴾ اَيُّ: اُمَّةٌ تُطِيعُنَا وَلَا تُعَصِيْنَا، وَجَعَلَهَا كَقَوْلِهِ: ﴿ وَاِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَدْبِرْكُمْ فَمَا غَيْرِكُمْ ثَمَّ لَا يَكُوْنُوْا اَمْتَلِكُمْ ﴾

وَالْمَعْنٰى الْاَوَّلُ اَظْهَرَ لِدَلَالَةِ الْاَيَاتِ الْاُخْرٰى عَلَيْهِ، وَاللهُ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى اَعْلَمُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَذَرَّهُمْ ﴾ اَيُّ يَا مُحَمَّدُ ﴿يُخَوِّضُوْا وَيَلْعَبُوْا﴾ اَيُّ دَعَاهُمْ فِي تَكْذِيْبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿حَتّٰى يَلْتَقُوْا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُوْنَ﴾ اَيُّ فَسَيَعْلَمُوْنَ غَيْبَ ذَلِكَ

(١) الطبري: ٦٢٠/٢٣ (٢) أحمد: ٩٣/٥ ومسلم: ٣٢٢/١

وأبو داود: ٥٦١/١ والنسائي: ٤/٣ والطبري: ٦٢٠/٢٣

وَيَذُوقُونَ وَبَالَهُ ﴿يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ يِرَافًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: يُخْرَجُونَ مِنَ الْقُبُورِ إِذَا دَعَاهُمْ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ يَنْهَضُونَ سِرَاعًا ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ: إِلَى عِلْمٍ يَسْعُونَ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَيَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ إِلَى غَايَةِ يَسْعُونَ إِلَيْهَا. وَقَدْ قَرَأَ الْجُمْهُورُ: (إِلَى نُصُبٍ) يَفْتَحُ التَّوْنِ وَإِسْكَانِ الصَّادِ وَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمُنْصُوبِ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿نُصُبٍ﴾ بِضَمِّ التَّوْنِ وَالصَّادِ وَهُوَ الصَّنَمُ أَيْ كَأَنَّهُمْ فِي إِسْرَاعِهِمْ إِلَى الْمَوْقِفِ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَهْرُولُونَ إِلَى النَّصْبِ إِذَا عَابَيْتُوهُ، ﴿يُوفِضُونَ﴾ يَتَّيِدُونَ أَيُّهُمْ يَسْتَلِمُهُ أَوَّلًا. وَهَذَا مَرْوِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ وَيَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ وَمُسْلِمِ الْبُطَيْنِ وَقَتَادَةَ وَالصَّحَّاحُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَأَبِي صَالِحٍ، وَعَاصِمُ بْنُ بَهْدَلَةَ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتِيمَةً أَبْصَرْتُمْ﴾ أَيْ خَاصِمَةً ﴿رَهْمَتُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أَيْ فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ذَلِكَ النَّوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة نوح عليه السلام وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ يَقَوْمِي إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَعِزُّ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

[دعوة نوح لقومه]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمِهِ أَمْرًا لَهُ أَنْ يُنذِرَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ قَبْلَ حُلُولِهِ بِهِمْ، فَإِنْ تَأَبَّوْا وَأَنَا بُو رَفَعَ عَنْهُمْ. وَهَذَا قَالَ تَعَالَى. ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ يَقَوْمِي إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَيْ بَيْنَ النَّذَارَةِ ظَاهِرِ الْأَمْرِ وَاضِحُهُ، ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾، أَيْ اتْرُكُوا مَحَارِمَهُ وَاجْتَنِبُوا مَا يَمُنُّهُ ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَأَنهَأَكُمْ عَنْهُ ﴿يَعِزُّ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أَيْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَصَدَقْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَ﴿يَنْ﴾ هُنَا قِيلَ: إِنَّهَا زَائِدَةٌ وَلَكِنَّ الْقَوْلَ بِزِيَادَتِهَا فِي الْإِتْبَاتِ قَلِيلٌ. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا وِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيَتَّخِذُوا لِي آيَاتِي وَمَا آيَاتِي إِلَّا سِحْرًا مَكْرُومًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَتَلَّتْهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ رَيْبًا إِنَّهُ كَانَ عَفَاكَرًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكَ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِأَنَاءٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَسْتَلْكَوْا مِنْهَا سَبِيلًا ﴿٢٠﴾

فِيهَا جَاءَ ﴿٢٠﴾

[شكوى نوح ما لقي من قومه]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ اسْتَكَى إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَا صَبَرَ عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَلْفُ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَمَا بَيْنَ لِقَائِهِمْ وَوَضَحَ لَهُمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الرَّشْدِ وَالسَّبِيلِ الْأَقْوَمِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أَيْ لَمْ أَتْرُكْ دُعَاءَهُمْ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ امْتِثَالًا لِأَمْرِكَ وَأَبِيعَاءِ لِبَطَاعَتِكَ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا وِرَارًا﴾ أَيْ كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَقْتَرِبُوا مِنَ الْحَقِّ قَرُّوا مِنْهُ وَحَادُوا عَنْهُ ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيَتَّخِذُوا لِي آيَاتِي وَمَا آيَاتِي إِلَّا سِحْرًا مَكْرُومًا﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ رَيْبًا إِنَّهُ كَانَ عَفَاكَرًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكَ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِأَنَاءٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَسْتَلْكَوْا مِنْهَا سَبِيلًا ﴿٢٠﴾

(١) ابن شهاب: ٩٣/١ إسناده حسن، راجع الصحيحة للالباني (١٩٠٨).

الْمَاءِ الْغَائِقِ

٥٧١

سَبَّحْتَ

يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَعَلَ
لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمَوَاتٍ
طَبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾
وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدْكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجْكُمْ
إِحْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَسْأَلُكُمْ فِيهَا
سَبْلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمُ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ
مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خُسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرًا وَمَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا
لَا نَذَرُهُ الْهَتَكَ وَلَا نَذَرْنَا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَعُوثُ وَيَعُوقُ
وَسَرًّا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾
مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرُقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَتَمَّ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
دِيَارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي
مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

أَيُّ وَاحِدَةٍ فَوْقَ وَاحِدَةٍ، وَهَلْ هَذَا يُتَلَقَّى مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ
فَقَطُّ أَوْ هُوَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُدْرَكَةِ بِالْجِسِّ مِمَّا عُلِمَ مِنَ التَّنْسِيرِ
وَالْكُسُوفَاتِ؟ وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى:
﴿خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ أَيُّ فَارَتْ بَيْنَهُمَا فِي الْإِسْتِنَارَةِ فَجَعَلَ كُلًّا
مِنْهُمَا أُنْمُودَجًا عَلَى جِدَةٍ، لِيُعْرَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ بِمَطْلِعِ
الشَّمْسِ وَمَغِيبِهَا، وَقَدَّرَ لِلْقَمَرِ مَنَازِلَ وَبُرُوجًا وَقَارَتِ نُورُهُ،
فَنَارَةٌ يَزْدَادُ حَتَّى يَبْتَاهِي، ثُمَّ يَسْرِعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَسْتَبِيرَ
لِيُذَلَّ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ
الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيئًا وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِيَسْأَلُكُمْ
عَدَدَ السِّنِينَ وَالْجِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ هَذَا إِسْمٌ
مَصْدَرٌ وَالْإِنْبَاتُ بِهِ هَهُنَا أَحْسَنُ ﴿ثُمَّ يُعِيدْكُمْ فِيهَا﴾ أَيُّ إِذَا مِتُّمْ

يُنَابَهُمْ ﴿قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَنَكَّرُوا لَهُ لِقَالًا
يَعْرِفُهُمْ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ: غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ
لِقَالًا يَسْمَعُوا مَا يَقُولُ. ﴿وَاصْرُوا﴾ أَيُّ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ
فِيهِ: مِنَ الشَّرِكِ وَالْكَفْرِ الْعَظِيمِ الْفُطْيَعِ ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾
أَيُّ وَاسْتَنَكَبُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ
جِهَارًا﴾ أَيُّ جَهْرًا بَيْنَ النَّاسِ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَتَلْتُ لَهُمْ﴾ أَيُّ كَلَامًا
ظَاهِرًا بِصَوْتِ عَالٍ ﴿وَاسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أَيُّ فِيمَا بَيْنِي
وَبَيْنَهُمْ، فَتَوَقَّعَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ لِتَكُونَ أَنْجَعَ فِيهِمْ.

[مَا قَالَ نُوحٌ جِئْنَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ]

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أَيُّ ارْجِعُوا إِلَيْهِ
وَارْجِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، وَتَوَبُّوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ، فَإِنَّهُ مَنْ
تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ مَهْمَا كَانَتْ فِي الْكُفْرِ
وَالشَّرِكِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ
غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أَيُّ مُتَوَاصِلَةً الْأَمْطَارِ،
وَلِهَذَا سُنَّتِحَبَّ قِرَاءَةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي صَلَاةِ الْإِسْتِغْفَاءِ
لِأَجْلِ هَذِهِ الْآيَةِ. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرٍو بْنِ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ صَعِدَ الْمِنْبَرَ لِيَسْتَسْقِيَ فَلَمْ يَزِدْ
عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ وَقِرَاءَةِ الْآيَاتِ فِي الْإِسْتِغْفَارِ، وَمِنْهَا هَذِهِ
الْآيَةُ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْعَيْثَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ
الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: يَتَّبِعُ
بَعْضُهُ بَعْضًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ
لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ أَيُّ إِذَا تَبَّيْتُمْ إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفَرْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ،
كَثَّرَ الرِّزْقَ عَلَيْكُمْ، وَأَسْفَاكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَنْبَتَ
لَكُمْ مِنَ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَأَنْبَتَ لَكُمْ الزَّرْعَ، وَأَدَّرَ لَكُمْ
الضَّرْعَ وَأَمْدَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي أَيُّ أَعْطَاكُمْ الْأَمْوَالَ
وَالْأَوْلَادَ، وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ، فِيهَا أَنْوَاعُ الشَّمَارِ، وَخَلَّلَهَا
بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهَا. هَذَا مَقَامُ الدَّعْوَةِ بِالْتَّرْغِيبِ. ثُمَّ
عَدَلَ بِهِمْ إِلَى دَعْوَتِهِمْ بِالْتَّرْهيبِ فَقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ
وَقَارًا﴾ أَيُّ عَظَمَةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ (١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تُعْظَمُونَ اللَّهَ حَتَّى عَظَمْتَهُ (٢). أَيُّ: لَا
تَخَافُونَ مِنْ بَأْسِهِ وَيَقْمَتِهِ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ مِنْ
نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ
وَقَتَادَةُ وَيَحْيَى بْنُ رَافِعٍ، وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا﴾

(١) الطبري: ٢٣/٦٣٤ (٢) الطبري: ٢٣/٦٣٤

[أَصْنَامُ قَوْمِ نُوحٍ وَمَا صَارَتْ إِلَيْهِ]

﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ الْهَيْكُلَ وَلَا نَذَرُ وَمَا نَدْرَأُ وَلَا سِوَاءَ وَلَا يَبْعُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا﴾ وَهَذِهِ أَسْمَاءُ أَصْنَامِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ: أَمَا وَدَّ فَكَانَتْ لِكَلْبٍ يَدُومَةَ الْجَنْدَلِ. وَأَمَا سِوَاءُ فَكَانَتْ لِهَذِيلِ. وَأَمَا يَبْعُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِيَبْنِي عَطِيفٍ بِالْبَجْرِيفِ عِنْدَ سَبَأٍ. وَأَمَا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ. وَأَمَا نَسْرُ فَكَانَتْ لِحِمَيْرٍ لِأَنَّ ذِي كَلْعِ، وَهِيَ: أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ أَنْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمَّ تَعَبَّدَ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَيْكَ وَسَبَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ^(٣). وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ وَالصَّحَّاحِ وَقَتَادَةَ وَابْنَ إِسْحَاقَ نَحْوَ هَذَا، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذِهِ أَصْنَامُ كَانَتْ تُعْبَدُ فِي زَمَنِ نُوحٍ^(٤). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ «وَيَعُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا» قَالَ: كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاهُمْ كَمَا كَانَ أَشْوَاقٌ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَرْنَاهُمْ، فَصَوَّرُوهُمْ، فَلَمَّا مَاتُوا وَجَاءَ آخَرُونَ، دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ فَقَالَ: إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطْرَ، فَعَبَدُوهُمْ.

[دُعَاءُ نُوحٍ عَلَى قَوْمِهِ وَلَمَنْ آمَنَ بِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يَعْنِي الْأَصْنَامَ الَّتِي اتَّخَذُوهَا أَضْلُوهَا بِهَا خَلَقًا كَثِيرًا، فَإِنَّهُ اسْتَمَرَّتْ عِبَادَتُهَا فِي الْقُرُونِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا، فِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَسَائِرِ صُنُوفِ بَنِي آدَمَ، وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَائِهِ: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿٢٢﴾ رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ دُعَاءٌ مِنْهُ عَلَى قَوْمِهِ لِمَتَمَرُّدِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، كَمَا دَعَا مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا هُنَّ﴾.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ الْاَرْضِ بِسَاطًا﴾ أَي بَسَطَهَا وَمَهَّدَهَا وَقَرَّرَهَا وَثَبَّتَهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ، الشُّمِّ الشَّامِيخَاتِ ﴿لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أَي خَلَقَهَا لَكُمْ لِيَسْتَقِرُّوا عَلَيْهَا وَيَسْلُكُوا فِيهَا أَيْنَ شِئْتُمْ مِنْ تَوَاجِحِهَا وَأَرْجَائِهَا وَأَقْطَارِهَا، وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يُبَيِّنُهُمْ بِه نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْمِهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا جَعَلَ لَهُمْ: مِنَ الْمَنَافِعِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ جَعَلَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَالْأَرْضَ مِهَادًا وَأَوْسَعَ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ رِزْقِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَيُوحَّدَ، وَلَا يُشْرَكَ بِهِ أَحَدٌ، لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ وَلَا يَدَّ وَلَا كُفْءَ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ، وَلَا وَرِيرَ وَلَا مُشِيرَ، بَلْ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوْنِي وَأَتَّعَبُوا مِنْ لَدُنِّي بَرْدَهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا حَسَارًا﴾ ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ الْهَيْكُلَ وَلَا نَدْرَأُ وَلَا سِوَاءَ وَلَا يَبْعُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا﴾ ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ ﴿٢٤﴾

[شَكْوَى نُوحٍ إِلَى رَبِّهِ لِمَا أَجَابَ بِهِ قَوْمُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَنهَى إِلَيْهِ - وَهُوَ الْعَلِيمُ الَّذِي لَا يَغْرُبُ عَنْهُ شَيْءٌ - أَنَّهُ مَعَ الْبَيَانِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ وَالِدَعْوَةِ الْمُتَوَعَّعَةِ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى التَّرغِيبِ تَارَةً وَالتَّرْهيبِ أُخْرَى: أَنَّهُمْ عَصَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، وَاتَّبَعُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا مِمَّنْ غَفَلَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَمَتَّعَ بِمَالٍ وَأَوْلَادٍ، وَهِيَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ اسْتِدْرَاجٌ وَإِنظَارٌ لَا إِكْرَامَ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاتَّبَعُوا مِنْ لَدُنِّي بَرْدَهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا حَسَارًا﴾ فُرِيءَ: (وَوَلَدَهُ) بِالضَّمِّ وَبِالْفَتْحِ وَكِلَاهُمَا مُتَقَارِبٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا﴾ قَالَ مَجَاهِدٌ: ﴿كَبِيرًا﴾ أَي عَظِيمًا^(١). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿كَبِيرًا﴾ أَي كَبِيرًا وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَمْرٌ عَجِيبٌ وَعَجَابٌ وَعَجَابٌ، وَرَجُلٌ حَسَانٌ وَحَسَانٌ وَجُمَالٌ وَجُمَالٌ، بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ^(٢). وَالمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا﴾ أَي بِاتِّبَاعِهِمْ فِي تَسْوِيلِهِمْ لَهُمْ: أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، كَمَا يَقُولُونَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣٣] وَلِهَذَا قَالَ هُنَّ.

(١) الطبري: ٦٣٨/٢٣ (٢) الطبري: ٦٣٨/٢٣ (٣) فتح

الباري: ٥٣٥/٨ (٤) الطبري: ٦٤٠/٢٣

سُورَةُ الْجِنِّ ٥٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنَجَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ سَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلِكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشَيْهًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَيْهًا يَّارْصِدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الضَّالِّحُونَ وَمَنَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ؕ فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ ؕ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ الْأَرْهَقَا ﴿١٣﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: إِلَّا هَلَاكًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِلَّا خَسَارًا. أَي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
 أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنَجَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ سَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾

الْعَدَابِ الْأَلِيمِ ﴿يونس: ٨٨﴾ وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِكُلِّ مِّنَ النَّبِيِّينَ فِي قَوْمِهِ، وَأَغْرَقَ أُمَّتَهُ بِتَكْذِيبِهِمْ لِمَا جَاءَهُمْ بِهِ.
 ﴿يَمَّا خَطِبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْحَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿١٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿١٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿١٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴿١٨﴾﴾
 يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَمَّا خَطِبْتَهُمْ﴾ وَقُرِئَ: ﴿خَطَابَاهُمْ﴾ ﴿أَغْرَقُوا﴾ أَي مِّنْ كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَعَتُوهِمْ وَإِضْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ ﴿أَغْرَقُوا فَأَدْحَلُوا نَارًا﴾ أَي نَقَلُوا مِّنْ تَبَارِ الْبِحَارِ إِلَى حَرَارَةِ النَّارِ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أَي لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُعِينٌ وَلَا مُعِيثٌ، وَلَا مُجِيرٌ يُنْقِذُهُمْ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَزَحَهُ﴾ [هود: ٤٣] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أَي لَا تَتْرُكْ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا دَيَّارًا. وَهَذِهِ مِّنْ صَيَغِ تَأْكِيدِ النَّبِيِّ، قَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿دَيَّارًا﴾ وَاحِدًا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الدَّيَّارُ الَّذِي يَسْكُنُ الدَّارَ. فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، فَأَهْلَكَ جَمِيعَ مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ حَتَّىٰ وَلَدَ نُوحٍ لِضَلْبِهِ الَّذِي اغْتَزَلَ عَنْ أَبِيهِ، وَقَالَ: ﴿سَيَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَزَحَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٤٣] وَنَجَّى اللَّهُ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمْ الَّذِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ بِحَمَلِهِمْ مَعَهُ.
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ﴾ أَي إِنَّكَ إِن تَبْقَيْتَ مِنْهُمْ أَحَدًا أَضَلُّوا عِبَادَكَ، أَي الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ بَعْدَهُمْ ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أَي فَاجِرًا فِي الْأَعْمَالِ كَافِرَ الْقَلْبِ، وَذَلِكَ لِخَبْرَتِهِ بِهِمْ وَمُكْنِهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي مَسْجِدِي.
 وَلَا مَانِعَ مِّنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا وَهُوَ أَنَّهُ دَعَا لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ مَنْزِلَهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دَعَاءٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَذَلِكَ يَعْمُ الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، وَلِهَذَا يُسْتَحَبُّ مِثْلُ هَذَا الدُّعَاءِ افْتِدَاءً بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِمَا جَاءَ فِي الْأَثَارِ وَالْأَدْعِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الْمَشْرُوعَةِ.

[إِسْتِمَاعُ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ وَإِيمَانُهُمْ بِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُخْبِرَ قَوْمَهُ أَنَّ الْجِنَّ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ، فَأَمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ وَأَنقَادُوا لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيْكَ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾ يَهْدِي إِلَى الرَّشْدِ أَي إِلَى السَّدَادِ وَالنَّجَاحِ ﴿فَتَأْمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهَا هُنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أَي فَعَلَهُ وَأَمْرُهُ وَقُدْرَتُهُ^(١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَدُّ اللَّهِ: الْأَوْهُ وَقُدْرَتُهُ وَنِعْمَتُهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ^(٢). وَرَوَىٰ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ: جَلَالُ رَبِّنَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَعَالَىٰ جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ وَأَمْرُهُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَعَالَىٰ أَمْرُ رَبِّنَا. وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَمُجَاهِدٍ أَيْضًا، وَابْنِ جُرَيْجٍ: تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ.

[إِقْرَأُ الْجِنَّ بِأَنَّ اللَّهَ مُنَزَّهٌ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَخَذَ صَاحِبَةٌ وَلَا وِلْدَانٌ﴾ أَي تَعَالَىٰ عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ، أَي قَالَتْ الْجِنَّ: تَنَزَّهَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ - حِينَ اسْلَمُوا وَأَمَنُوا بِالْقُرْآنِ - عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ ثُمَّ قَالُوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَىٰ اللَّهِ شَطَطًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿سَفِيهُنَا﴾ يَعْنُونَ إِبْلِيسَ. ﴿شَطَطًا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ عَنِ أَبِي مَالِكٍ: ﴿شَطَطًا﴾ أَي جَوْرًا. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَي ظَلَمًا كَبِيرًا. وَوَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِمْ سَفِيهُنَا إِسْمٌ جِنْسٌ لِكُلِّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ لِلَّهِ صَاحِبَةً أَوْ وِلْدَانًا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أَي قَبْلَ إِسْلَامِهِ ﴿عَلَىٰ اللَّهِ شَطَطًا﴾ أَي بَاطِلًا وَزُورًا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا﴾ أَي مَا حَسِبْنَا أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ يَتِمَّ الْكُفْرُونَ عَلَىٰ الْكُذْبِ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي نِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعْنَا هَذَا الْقُرْآنَ وَأَمَّنَّا بِهِ، عَلِمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَ عَلَىٰ اللَّهِ فِي ذَلِكَ.

[مِنْ سَبَبِ طُغْيَانِ الْجِنَّ اسْتِعَادَةَ الْإِنْسِ بِهِمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أَي كُنَّا نَرَىٰ أَنَّ لَنَا فَضْلًا عَلَىٰ الْإِنْسِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعُوذُونَ بِنَا إِذَا نَزَلُوا وَإِدْيَا أَوْ مَكَانًا مَّوْحِشًا مِّنَ

الْبَرَابِرِ وَغَيْرِهَا، كَمَا كَانَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَعُوذُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجَانِّ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَشِيءٌ يَسُوؤُهُمْ، كَمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَدْخُلُ بِلَادَ أَعْدَائِهِ فِي جَوَارِ رَجُلٍ كَبِيرٍ وَدِمَامِهِ وَخِفَارَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ الْجِنَّ أَنَّ الْإِنْسَ يَعُوذُونَ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنْهُمْ، زَادُوهُمْ رَهَقًا أَي خَوْفًا وَإِرْهَابًا وَذُعْرًا، حَتَّىٰ بَقُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ مَخَافَةً وَأَكْثَرَ تَعَوُّدًا بِهِمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أَي إِثْمًا وَازْدَادَاتِ الْجِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَرَاءً. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنِ مَنصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أَي اِزْدَادَاتِ الْجِنَّ عَلَيْهِمْ جُرْأَةً^(٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ الرَّجُلُ يَخْرُجُ بِأَهْلِيهِ فَيَأْتِي الْأَرْضَ، فَيَنْزِلُهَا فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنَ الْجِنَّ أَنْ أَضْرَّ أَنَا فِيهِ أَوْ مَالِي أَوْ وَلَدِي أَوْ مَا شِئْتِي. قَالَ قَتَادَةُ: فَإِذَا عَادَ بِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، رَهَقَتْهُمْ الْجِنَّ الْأَذَىٰ عِنْدَ ذَلِكَ. وَرَوَىٰ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: كَانَ الْجِنَّ يَفْرُقُونَ مِنَ الْإِنْسِ، كَمَا يَفْرُقُ الْإِنْسُ مِنْهُمْ أَوْ أَشَدَّ، فَكَانَ الْإِنْسُ إِذَا نَزَلُوا وَإِدْيَا هَرَبَ الْجِنَّ فَيَقُولُ سَيِّدُ الْقَوْمِ: تَعُوذُ بِسَيِّدِ أَهْلِ هَذَا الْوَادِي، فَقَالَ الْجِنَّ: نَرَاهُمْ يَفْرُقُونَ مِنَّا كَمَا نَفْرُقُ مِنْهُمْ فَدَنَوْا مِنَ الْإِنْسِ فَأَصَابُوهُمْ بِالْحَبْلِ وَالْجُنُونِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أَي إِثْمًا. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿رَهَقًا﴾ أَي خَوْفًا وَقَالَ مُجَاهِدٌ: زَادَ الْكُفْرَانُ طُغْيَانًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أَي لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ رَسُولًا، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ.

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَمَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨﴾ وَأَنَا كَمَا تَقَعَّدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلتَّسَمُّعِ فَحَنَ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ۝٩﴾ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾

[إِسْتِرَاقُ الْجِنَّ خَبَرَ السَّمَاءِ قَبْلَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ وَرَمِيئِهِمْ بِالشُّهْبِ بَعْدَ الْعَيْتَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْجِنَّ حِينَ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَكَانَ مِنْ حِفْظِهِ لَهُ، أَنَّ السَّمَاءَ مُلْتَثَمَةً

(١) الطبري: ٦٤٨/٢٣ (٢) إسناده منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٣) الطبري: ٦٥٥/٢٣

وَأَنَّا مَنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾
وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَنَفْنِئَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرُنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدُ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ أَمْرًا مِنْ رُسُولِهِ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَن مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْتَلَا رُسُلَهُ فَجَاءَتْ رُسُلَهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

يَسْتَمِعُونَ مَا يَحْدُثُ فِي السَّمَاءِ مِنْ أَمْرٍ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيًّا رَسُولًا رُجِعُوا لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فَفَزِعَ لِدَلِكِ أَهْلُ الطَّائِفِ فَقَالُوا: هَلَكَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِمَا رَأَوْا مِنْ شِدَّةِ النَّارِ فِي السَّمَاءِ وَاخْتِلَافِ الشُّهُبِ، فَجَعَلُوا يُعْتَقُونَ أَرْقَاءَهُمْ وَيُسَيِّبُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ يَالِيلِ بْنِ عَمْرٍو ابْنِ عُمَيْرٍ: وَيَحْكُمُ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الطَّائِفِ، أَمْسِكُوا عَن أَمْوَالِكُمْ وَأَنْظَرُوا إِلَىٰ مَعَالِمِ النُّجُومِ، فَإِن رَأَيْتُمُوهَا مُسْتَقَرَّةً فِي أَمْكِنَتَيْهَا فَلَمْ يَهْلِكْ أَهْلُ السَّمَاءِ، إِنَّمَا هَذَا مِنْ أَجْلِ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ بَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ، وَإِن نَظَرْتُمْ فَلَمْ تَرَوْهَا فَقَدْ هَلَكَ أَهْلُ السَّمَاءِ. فَظَنُّوا فَرَاوَهَا، فَكَفُّوا عَن أَمْوَالِهِمْ وَفَزَعَتِ الشَّيَاطِينُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَأَتُوا إِبْلِيسَ فَحَدَّثُوهُ بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فَقَالَ: اتُّوْنِي مِنْ كُلِّ أَرْضٍ بِقَبْضَةٍ مِنْ تُرَابٍ أَشْمُهَا، فَأَتُوهُ فَسَمَّ فَقَالَ: صَاحِبِكُمْ بِمَكَّةَ،

حَرَسًا شَدِيدًا وَحُفِظَتْ مِنْ سَائِرِ أَرْجَائِهَا، وَطُرِدَتْ الشَّيَاطِينُ عَن مَقَاعِدِهَا الَّتِي كَانَتْ تَقْعُدُ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ، لَيْلًا يَسْتَرْفُوا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَيَلْقُوهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْكَهَنَةِ فَيَلْتَمِسُ الْأَمْرَ وَيَخْتَلِطُ وَلَا يُدْرِي مِنَ الصَّادِقِ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَحِفْظِهِ لِكِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَلِهَذَا قَالَ الْجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَنَسْنَا أَسْمَاءَهُ فَوَجَدْنَاهَا مُلِغَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَتَاعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ﴿الجن: ٨، ٩﴾ أَي مَنْ يَرُومُ أَنْ يَسْتَرْقِيَ السَّمْعَ الْيَوْمَ، يَجِدْ لَهُ شَهَابًا مُرْصَدًا لَهُ لَا يَخْطَأُهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ بَلْ يَمْحَقُهُ وَيُهْلِكُهُ. ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ﴿الجن: ١٠﴾ أَي مَا نَدْرِي هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي قَدْ حَدَّثْتَ فِي السَّمَاءِ، ﴿لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وَهَذَا مِنْ أَدْبِهِمْ فِي الْجَبَابَةِ حَيْثُ اسْتَدْوُوا الشَّرَّ إِلَىٰ غَيْرِ فَاعِلٍ، وَالْخَيْرَ أَضَافُوهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ^(١). وَقَدْ كَانَتْ الْكَوَاكِبُ يُزَمَّى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِكَثِيرٍ بَلْ فِي الْأَحْيَانِ بَعْدَ الْأَحْيَانِ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ رَمَى بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قُلْنَا: كُنَّا نَقُولُ يُولَدُ عَظِيمٌ، يَمُوتُ عَظِيمٌ فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ ^(٢). وَقَدْ أوردناه في سورة سبأ بتمامه، وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة. فعرّفوا أنّ هذا هو الذي حُفِظَتْ مِنْ أَجْلِهِ السَّمَاءُ، فَأَمَّنْ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، وَتَمَرَّدَ فِي طُعْيَانِهِ مَنْ بَقِيَ. كَمَا تَقَدَّمَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾... الآية [الأحفا: ٢٩] ^(٣).

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَمَّا حَدَّثَ هَذَا الْأَمْرَ، وَهُوَ كَثْرَةُ الشُّهُبِ فِي السَّمَاءِ وَالرَّمْيِ بِهَا، هَالِ ذَلِكَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَانزِعْجُوا لَهُ وَارْتَاعُوا لِذَلِكَ. وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لِيَحْرَابِ الْعَالَمِ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ: لَمْ تَكُنِ السَّمَاءُ تُحْرَسُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْضِ نَبِيٌّ أَوْ دِينٌ لِلَّهِ ظَاهِرٌ، فَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَدْ اتَّخَذَتْ الْمَقَاعِدَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا،

(١) مسلم: ١/٥٣٥ (٢) مسلم: ٤/١٧٥٠ (٣) فتح الباري:

يُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ أَوْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ غَيْرُ سَيِّئَاتِهِ^(٣). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُتَلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أَيِّ مِنَّا الْمُسْلِمُ وَمِنَّا الْقَاسِطُ، وَهُوَ الْجَائِرُ عَنِ الْحَقِّ النَّكِيبُ عَنْهُ، بِخِلَافِ الْمُقْسِطِ فَإِنَّهُ الْعَادِلُ ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلِيكَ تَحَرَّوْا رِسْدًا﴾ أَيِّ طَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمُ النَّجَاةَ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أَيِّ وَقُودًا تُسْعَرُ بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقِنَتْهُمْ مَاءً عَذَابًا﴾ [١١] لِنَفْسِهِمْ فِيهِ، اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى هَذَا عَلَى قَوْلَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامَ الْقَاسِطُونَ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَعَدَلُوا إِلَيْهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا ﴿لَأَسْقِنَتْهُمْ مَاءً عَذَابًا﴾ أَيِّ كَثِيرًا، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ سَعَةُ الرَّزْقِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لِنَفْسِهِمْ فِيهِ﴾ أَيِّ لِنَحْتَبِرُهُمْ، كَمَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: لِنَفْسِهِمْ لِتَبْتَلِيَهُمْ مَنْ يَسْتَمِرُّ عَلَى الْهِدَايَةِ يَمَنْ يَرْتَدُّ إِلَى الْغَوَايَةِ.

(ذَكَرَ مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ) رَوَى الْعَوْفِيُّ نَحْوَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَطَاءٌ وَالسُّدِّيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ، وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي كَفَّارِ قُرَيْشٍ حِينَ مُبِعُوا الْمَطَرَ سَبْعَ سِنِينَ.

(وَالْقَوْلُ الثَّانِي) ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أَيِّ: الضَّلَالِ ﴿لَأَسْقِنَتْهُمْ مَاءً عَذَابًا﴾ أَيِّ: لِأَوْسَعْنَا عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ اسْتِدْرَاجًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَوَّأْنَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَخَرْنَا عَلَيْهِمْ أَيْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعَثَهُ إِذًا هُمْ يُثْلَسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضَاهُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ سُبْحَانَ الَّذِي هُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦] وَهَذَا قَوْلُ أَبِي مِجْلَزٍ لِأَجْحِقِ بْنِ حُمَيْدٍ، فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أَيِّ طَرِيقَةَ الضَّلَالَةِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٣). وَحَكَاهُ الْبُغَوِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَالْكَلْبِيُّ وَابْنُ كَيْسَانَ^(٤). وَلَهُ اتِّجَاهٌ، وَيَتَأَيَّدُ بِقَوْلِهِ: ﴿لِنَفْسِهِمْ فِيهِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أَيِّ عَذَابًا [شَاقًّا شَدِيدًا] مُوجِعًا مُؤْلِمًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

فَبَعَثَ سَبْعَةَ نَفَرٍ مِنْ جِنِّ نَصِيبِينَ فَقَدِمُوا مَكَّةَ فَوَجَدُوا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَدَنُّوا مِنْهُ جُرْصًا عَلَى الْقُرْآنِ، حَتَّى كَادَتْ كَلَامُهُمْ تُصِيبُهُ، ثُمَّ أَسْلَمُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُمْ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الْفَضْلَ مُسْتَقْصَى فِي أَوَّلِ الْبَعْثِ مِنْ (كِتَابِ السِّيَرَةِ) الْمُطَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [١١] وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [١٢] وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدْيَ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [١٣] وَأَنَا مِنَّا الْمُتَلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلِيكَ تَحَرَّوْا رِسْدًا﴾ [١٤] وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [١٥] وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقِنَتْهُمْ مَاءً عَذَابًا﴾ [١١] لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [١٧]

[لِلْجِنِّ أَصْنَافٌ: مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُ، وَالضَّالُّ وَالرَّاشِدُ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا مُخْبِرِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أَيِّ غَيْرُ ذَلِكَ ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أَيِّ طَرَائِقَ مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً وَأَرَاءَ مُتَفَرِّقَةً، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أَيِّ مِنَّا الْمُؤْمِنُونَ وَمِنَّا الْكَافِرُ^(١). وَرَوَى أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ النَّجَّادُ فِي أَمَالِيهِ سَمِعْتُ الْأَعْمَشَ يَقُولُ: تَرَوُحَ إِلَيْنَا جِنِّي فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْكُمْ؟ فَقَالَ: الْأُرْزُ، قَالَ: فَأَتَيْنَاهُمْ بِهِ فَجَعَلْتُ أَرَى اللَّقْمَ تُرْفَعُ وَلَا أَرَى أَحَدًا، فَقُلْتُ: فَيْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي فِيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: فَمَا الرَّافِضَةُ فَيْكُمْ؟ قَالَ: سُرْنَا. عَرَضْتُ هَذَا الْإِسْنَادَ عَلَى شَيْخِنَا الْحَافِظِ أَبِي الْحَجَّاجِ [الْمُرِّي] فَقَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى الْأَعْمَشِ.

[إِفْرَارُ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أَيِّ نَعْلَمُ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ حَاجِمَةٌ عَلَيْنَا وَأَنَا لَا نُعْجِزُهُ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ أَمَكَّنَّا فِي الْهَرَبِ فَإِنَّهُ عَلَيْنَا قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنَّا ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدْيَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ يَفْتَحِرُونَ بِذَلِكَ وَهُوَ مَفْخَرٌ لَهُمْ، وَشَرَفٌ رَفِيعٌ، وَصِفَةٌ حَسَنَةٌ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: فَلَا يَخَافُ أَنْ

(١) الطبري: ٦٥٩/٢٣ (٢) الطبري: ٦٦٠/٢٣ (٣) الطبري:

٦٦٣/٢٣ (٤) البغوي: ٤٠٤/٤

تَلْبُدُ عَلَيْهِ جَمِيعًا^(٧).

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قَالَ: تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ وَيَمْضِيَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ^(٨). وَهَذَا قَوْلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَقَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ^(٩) وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أَيُّ قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَمَّا آدَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَلَّبُوهُ وَنَظَّاهِرُوا عَلَيْهِ لِيُطْبَلُوا مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْحَقِّ وَاجْتَمَعُوا عَلَى عِدَاوَتِهِ ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ أَيُّ إِنَّمَا أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَسْتَجِيرُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

[الرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ وَلَا الرُّشْدَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ لِيَ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ وَأَنَا فِي سَبِيلِهِ لَئِنِ نَدَّيْتُ بِهِ لَآتِيَنِّي خِزْيَانًا كَثِيرًا وَلَا يَخْلِفُنِي فِيهِ كِفْلٌ وَلَا يَنْصُرُنِي الْمَلَائِكَةُ وَالْحَقُّ لِلَّهِ﴾ أَيُّ إِنَّمَا أَنَا بِشَرِّ مِثْلِكُمْ يُوحَى إِلَيَّ وَعَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، لَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فِي هِدَايَتِكُمْ وَلَا غَوَايَتِكُمْ، بَلِ الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يُجِيرُهُ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ أَيُّ لَوْ عَصَيْتُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إِنْقَادِي مِنْ عِدَائِهِ ﴿وَلَنْ أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: لَا مَلْجَأَ^(١٠).

[لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ إِنْشَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أَيُّ لَا يُجِيرُنِي مِنْهُ، وَخَلَّصْنِي إِلَّا لِإِبْلَاجِي الرِّسَالَةَ الَّتِي أَوْجَبَ آدَاءَهَا عَلَيَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّبَلَّغِ مَا نَزَّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ لَمَّ يُلَاقِكْ رِسَالَةٌ مِّنَ اللَّهِ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ أَيُّ أَنَا أَبْلَعُكُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ فَمَنْ يَعْصِ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ جَزَاءٌ عَلَى ذَلِكَ نَارُ جَهَنَّمَ، خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا أَيُّ لَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَعَعَلُمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أَيُّ حَتَّىٰ إِذَا رَأَى هُوَ لِإِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ

وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿عَدَابًا صَعْدًا﴾ أَيُّ مَشَقَّةٌ لَا رَاحَةَ مَعَهَا^(١١). وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ^(١٢). وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: يَفْرُ فِيهَا.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنْ لِيَ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ وَأَنَا فِي سَبِيلِهِ لَئِنِ نَدَّيْتُ بِهِ لَآتِيَنِّي خِزْيَانًا كَثِيرًا وَلَا يَخْلِفُنِي فِيهِ كِفْلٌ وَلَا يَنْصُرُنِي الْمَلَائِكَةُ وَالْحَقُّ لِلَّهِ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَعَعَلُمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَاجْتِنَابِ الشَّرِكِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِعِبَادَةِ أَنْ يُوحِدُوهُ فِي مَحَالِّ عِبَادَتِهِ وَلَا يُدْعَى مَعَهُ أَحَدٌ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قَالَ: كَانَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبَيْعَهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُوحِدُوهُ وَحْدَهُ^(٣). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قَالَ: قَالَتِ الْجِنُّ لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَ الْمَسْجِدَ وَنَحْنُ نَآوُونَ؟ أَيُّ بَعِيدُونَ عَنْكَ، وَكَيْفَ نَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَنَحْنُ نَآوُونَ عَنْكَ؟ فَتَرَلَّتْ: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٤).

[إِزْدِحَامُ الْجِنِّ عَلَى سَمَاعِ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَمَّا سَمِعُوا النَّبِيَّ ﷺ يَتْلُو الْقُرْآنَ كَادُوا يَرِكُونَهُ مِنَ الْجِرْصِ، لَمَّا سَمِعُوهُ يَتْلُو الْقُرْآنَ وَدَنُوا مِنْهُ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِمْ حَتَّىٰ أَنَاهُ الرَّسُولُ فَجَعَلَ يَقْرَأُهُ: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ. هَذَا قَوْلٌ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ الْجِنُّ لِقَوْمِهِمْ: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قَالَ: لَمَّا رَأَوْهُ مُضِلِّي وَأَصْحَابُهُ يَرِكُونَ بِرُكُوعِهِ وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ، قَالَ: عَجِبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ قَالَ: فَقَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾^(٥). وَهَذَا قَوْلٌ ثَانٍ وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ أَيْضًا^(٦). وَقَالَ الْحَسَنُ: لَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ كَادَتِ الْعَرَبُ

(١) الطبري: ٢٣/٦٦٤ (٢) الطبري: ٢٣/٦٦٤ (٣) الطبري: ٢٣/٦٦٧
 (٤) الطبري: ٢٣/٦٦٥ (٥) الطبري: ٢٣/٦٦٧ (٦) الطبري: ٢٣/٦٦٧
 (٧) الطبري: ٢٣/٦٦٨ (٨) الطبري: ٢٣/٦٦٩
 (٩) الطبري: ٢٣/٦٦٨ (١٠) الطبري: ٢٣/٦٦٩

الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا يُوعَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَسَيَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ مَنْ أضعَفَ ناصِرًا وَأَقْلَ عَدَدًا، هُمْ أُمُّ الْمُؤْمِنُونَ الْمُؤَحَّدُونَ اللهُ تَعَالَى، أَي بَلِ [الْمُشْرِكُونَ] لَا ناصِرَ لَهُمْ بِالْكَلْبِيَّةِ وَهُمْ أَقْلَ عَدَدًا مِنْ جُنُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عِلْمُ الْعَنَبِ فَلَا يَطْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مِنْ أَرْضِي مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الرَّسُولُ ﷺ لَا يَعْرِفُ وَقْتُ السَّاعَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِوَقْتِ السَّاعَةِ، وَلَا يَدْرِي أَقْرَبَ وَقْتُهَا أَمْ بَعِيدٌ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أَي مُدَّة طَوِيلَةً، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي يَتَدَاوَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْجَهْلَةِ مِنْ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «لَا يُؤَلَّفُ» ﴿تَحْتَ الْأَرْضِ﴾ كَذِبٌ لَا أَصْلَ لَهُ، وَلَمْ تَرَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ، وَقَدْ كَانَ ﷺ يُسْأَلُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ فَلَا يُجِيبُ عَنْهَا، وَلَمَّا تَبَدَّى لَهُ جَبْرِيلُ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ، كَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». وَلَمَّا ناداهُ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ بِصَوْتِ جَهْرِيٍّ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَيَحْكُ إِنَّهَا كَانَتْ، فَمَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟» قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَعِدْ لَهَا كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهُ وَرَسُولَهُ قَالَ: «فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴿١﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عِلْمُ الْعَنَبِ فَلَا يَطْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مِنْ أَرْضِي مِنْ رَسُولٍ﴾ هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ وَهَكَذَا قَالَ هُئِنَّا: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْعَنَبَ وَالشَّهَادَةَ وَأَنَّهُ لَا يَطْلُعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا أَطَّلَعَهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿عِلْمُ الْعَنَبِ فَلَا يَطْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مِنْ أَرْضِي مِنْ رَسُولٍ﴾ وَهَذَا يُعْنَى الرَّسُولَ الْمَلَكِيَّ وَالْبَشَرِيَّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أَي يَخْصُصُهُ بِمَزِيدٍ مَعْقَبَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَيُسَاقِفُونَهُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنْ وَحْيِ اللهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ الصَّمِيرُ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يَعُودُ إِلَى

النَّبِيِّ ﷺ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿عِلْمُ الْعَنَبِ فَلَا يَطْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مِنْ أَرْضِي مِنْ رَسُولٍ﴾ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ قَالَ: أَرْبَعَةٌ حَفَظَتْهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعَ جَبْرِيلَ. ﴿لِيَعْلَمَ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ﴿٢٨﴾ وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَهَكَذَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ وَالشَّيْخُ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: لِيَعْلَمَ نَبِيُّ اللهِ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ بَلَّغْتَ عَنِ اللهِ وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ حَفَظَتْهَا وَدَفَعَتْ عَنْهَا ﴿٣﴾. وَكَذَا رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ﴿٤﴾. وَقَالَ الْبَغُويُّ: قَرَأَ يَعْقُوبُ: (لِيَعْلَمَ) بِالضَّمِّ أَي لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ بَلَّغُوا ﴿٥﴾.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الصَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ قَوْلُ حَكَاةِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ فِي «زَادَ الْمَسِيرِ». وَيَكُونُ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ يَحْفَظُ رُسُلَهُ بِمَلَائِكَتِهِ لِيَتِمَّ كُنُوفُ مِنْ أَدَاءِ رِسَالَاتِهِ، وَيَحْفَظُ مَا يُنَزِّلُهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ: لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا قَطْعًا لَا مَحَالَةَ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿وَأَحاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجِنِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْمَلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[سَبَبُ نَزُولِ سُورَتِي الْمُرْمَلِ وَالْمُدَّثَرِّ]

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ الْخَالِقِ الْبَزَّارُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ فِي دَارِ التَّدْوَةِ

(*) أي لا يتم عليه في قبره ألف سنة إلا وقد تقوم الساعة الكبرى
(١) فتح الباري: ١٤٠/١ (٢) الطبري: ٦٧٣/٢٣ (٣) عبد
الرزاق: ٣٢٣/٣ (٤) الطبري: ٦٧٣/٢٣ (٥) البغوي: ٤/٤

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَابَهَا الْمَزْمَلُ (١) فَوَيْلٌ لِلْأَسْبَلِ (٢) بَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبُّهُ الْقِرْبَانُ تَرْبِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلاً (٥) إِنَّا نَشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَأَذْكُرَ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرِنِي وَأَلْمُكذِبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا (١١) إِنَّا لَدِينَا نَكَالٌ لَأَوْحِي مَا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَدَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) أَلْسِمَاءٌ مَنْفُطِرَةٌ بِهِ كَان وَعَدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنْ هُدَيْتُمْ تَذْكُرَةٌ فَمَنْ شَاءَ أَخَذْنَا إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩)

الرَّحِيمِ^(٤). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: كَانَ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ آيَةَ آيَةٍ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿[الفاتحة: ١-٤]﴾ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٥).

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّرْتِيلِ وَتَحْسِينِ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «رَبَّنَا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٦). وَ«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٧). وَ«لَقَدْ أوتِي هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ

فَقَالُوا: سَمُوا هَذَا الرَّجُلَ اسْمًا يُصَدُّ النَّاسَ عَنْهُ، فَقَالُوا: كَاهِنٌ. قَالُوا: لَيْسَ بِكَاهِنٍ. قَالُوا: مَجْنُونٌ. قَالُوا: لَيْسَ بِمَجْنُونٍ. قَالُوا: سَاحِرٌ. قَالُوا: لَيْسَ بِسَاحِرٍ، فَتَفَرَّقَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى ذَلِكَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَتَزَمَلَ فِي بَيْتِهِ وَتَدَثَّرَ فِيهَا. فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿يَتَابَهَا الْمَزْمَلُ﴾ ﴿يَتَابَهَا الدَّدِيُّ﴾. ثُمَّ قَالَ الْبِرَّاءُ: مُعَلَّى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَدْ حَدَّثَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَاحْتَمَلُوا حَدِيثَهُ، لَكِنَّهُ تَفَرَّدَ بِأَحَادِيثَ لَا يَتَابِعُ عَلَيْهَا^(٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَابَهَا الْمَزْمَلُ (١) فَوَيْلٌ لِلْأَسْبَلِ (٢) بَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبُّهُ الْقِرْبَانُ تَرْبِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلاً (٥) إِنَّا نَشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَأَذْكُرَ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾

[الأمر بقيام الليل]

يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَتْرُكَ التَّزْمَلَ وَهُوَ التَّغَطِّي فِي اللَّيْلِ وَيَهْتَضَ إِلَى الْقِيَامِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. وَكَذَلِكَ كَانَ ﷺ مُتَمَثِّلًا مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَقَدْ كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَيْلٍ فَهَجَدَ بِهِ نَافِلَةٌ لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَجْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وَهَلُمْنَا بَيْنَ لَهُ مِقْدَارَ مَا يَقُومُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَابَهَا الْمَزْمَلُ (١) فَوَيْلٌ لِلْأَسْبَلِ (٢) قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١، ٢]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿يَتَابَهَا الْمَزْمَلُ﴾ يَعْنِي يَا أَيُّهَا النَّائِمُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمَزْمَلُ فِي بَيْتِهِ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَصَفَهُ﴾ ﴿بَدَلٌ مِنَ اللَّيْلِ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا (٢) أَوْ زِدَ عَلَيْهِ﴾ أَيَّ أَمْرِنَاكَ أَنْ تَقُومَ نِصْفَ اللَّيْلِ بِزِيَادَةِ قَلِيلَةٍ أَوْ نَقْصَانِ قَلِيلٍ، لَأَخْرَجَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ.

[طريقة تلاوة القرآن]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّهُ الْقِرْبَانُ تَرْبِيلاً﴾ أَيَّ اقْرَأَهُ عَلَى تَهْمَلٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ عَوْنًا عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَدْبِيرِهِ. وَكَذَلِكَ كَانَ يَقْرَأُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ يَقْرَأُ السُّورَةَ فَيَرْتَلُّهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلِ مِنْهَا^(٢). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: كَانَتْ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ وَيَمُدُّ الرَّحْمَنَ وَيَمُدُّ

(١) كشف الأستار: ٧٧/٣ إسناده ضعيف جدا وفيه معلى بن عبد الرحمن الواسطي وهو كذاب (٢) الطبري: ٦٧٧/٢٣ (٣) مسلم: ٥٠٧/١ (٤) فتح الباري: ٧٠٩/٨ (٥) أحمد: ٦/٣٠٢ وأبو داود: ٢٩٤/٤ وتحفة الأحودي: ٢٤١/٨ (٦) فتح الباري: ٥٢٧/١٣ (٧) فتح الباري: ٥١٠/١٣

دَاوُدَ^(١). يَعْنِي أَبَا مُوسَى، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ كُنْتَ تَسْمَعُ قِرَاعَتِي لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَجْبِيرًا. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا تَنْثَرُوهُ نَثْرَ الرَّمْلِ وَلَا تَهْدُوهُ هَذَا الشَّعْرَ، فَيَفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ. رَوَاهُ الْبَغَوِيُّ^(٢). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: قَرَأْتُ الْمُفْصَلَ اللَّيْلَةَ فِي رَكْعَةٍ. فَقَالَ: هَذَا كَهَذَا الشَّعْرِ، لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْرُقُ بَيْنَهُنَّ، فَذَكَرَ عَشْرِينَ سُورَةً مِنَ الْمُفْصَلِ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ^(٣).

[عَظْمَةُ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَخَّلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قِيلًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَيِ الْعَمَلِ بِهِ وَقِيلَ: قَبِيلٌ وَقِفْتُ نَزُولِهِ مِنْ عَظْمَتِهِ، كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْزَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفَخَذَهُ عَلَيَّ فِخْذِي فَكَادَتْ تُرَضُّ فِخْذِي^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ تُحْسِنُ بِالْوَحْيِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْمَعُ صَلَاحًا لَمْ أَسْكُتْ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَا مِنْ مَرَّةٍ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسِي تُقْبَضُ». فَفَرَدَّ بِهِ أَحْمَدُ^(٥). وَفِي أَوَّلِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ: «أَحْيَانًا يَأْتِي فِي مِثْلِ صَلَاحَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ، فَيُقْضِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَمْتَلِكُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ». قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ﷺ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيُقْضِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَّقِصُّ عَرَقًا. هَذَا لَفْظُهُ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِذَا كَانَ لِيُوحَى إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَيَّ رَاجِلِيهِ فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا^(٧). الْجِرَانُ هُوَ بَاطِنُ الْعُنُقِ.

وَإِخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ يُقْبَلُ مِنَ الْوُجْهِينِ مَعًا. كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ، كَمَا نُقِلَ فِي الدُّنْيَا نُقِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمَوَازِينِ.

[شَرَفُ قِيَامِ اللَّيْلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وَقَالَ عُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ: اللَّيْلُ كُلُّهُ نَاشِئَةٌ^(٨). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(٩). يُقَالُ: نَشَأَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: بَعْدَ الْعِشَاءِ^(١٠). وَكَذَا قَالَ

أَبُو مِجَلَزٍ وَقَتَادَةُ وَسَالِمٌ وَأَبُو حَازِمٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ^(١١). وَالْغَرَضُ: أَنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ سَاعَاتُهُ وَأَوْقَاتُهُ، وَكُلُّ سَاعَةٍ مِنْهُ تُسَمَّى نَاشِئَةً وَهِيَ الْآثَاتُ. وَالْمُقْصُودُ: أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ هُوَ أَشَدُّ مُوَاطَأَةً بَيْنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَأَجْمَعُ عَلَى التَّلَاوَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أَيِ أَجْمَعُ لِلْحَاطِرِ فِي آدَاءِ الْقِرَاءَةِ وَتَهْفِهِمَا مِنْ قِيَامِ النَّهَارِ، لِأَنَّهُ وَقْتُ انْتِسَارِ النَّاسِ وَلَعَطِ الْأَصْوَابِ وَأَوْقَاتِ الْمَعَاشِ. وَأَخْرَجَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُؤَصِّلِيُّ: عَنْ الْأَعْمَشِ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَصْوَبُ قِيلاً) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّمَا نَقَرْتُمَا ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾. فَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَصْوَبَ وَأَقْوَمَ وَأَهْيَأُ وَأَشْبَاهَ هَذَا وَاحِدٌ^(١٢).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ: الْفَرَاغُ وَالنُّوْمُ^(١٣). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو مَالِكٍ وَالصَّحَّاحُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: فَرَاغًا طَوِيلًا. وَقَالَ قَتَادَةُ: فَرَاغًا وَبُعْيَةً وَمُتَقَلِّبًا. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ قَالَ: لِحَوَائِجِكَ فَافْرُغْ لِدِينِكَ اللَّيْلَ. قَالَ: وَهَذَا حِينَ كَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَرِيضَةً ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ عَلَى عِبَادِهِ فَخَفَّفَهَا وَوَضَعَهَا وَقَرَأَ: ﴿مُرْ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضْمَعُ حَتَّى بَلَغَ ﴿فَافْرُؤْ مَا وَسَّعَ مِنْهُ﴾^(١٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي قَالَهُ، كَمَا قَالَهُ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ هِشَامٍ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَبِيعَ عَقَارًا لَهُ بِهَا، وَيَجْعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ، ثُمَّ يُجَاهِدُ الرُّومَ حَتَّى يَمُوتَ، فَلَقِيَهُ رَهْطًا مِنْ قَوْمِهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّ رَهْطًا مِنْ قَوْمِهِ سَنَتْهُ أَرَادُوا ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

(١) فتح الباري: ٧١٠/٨ (٢) معالم التنزيل: ٢١٥/٨ (٣)

فتح الباري: ٢٩٨/٢ (٤) فتح الباري: ١٠٨/٨ (٥) أحمد:

٢٢٢/٢ (٦) فتح الباري: ٢٥/١ (٧) أحمد: ١١٨/٦ (٨)

الطبري: ٦٨٣/٢٣ (٩) الطبري: ٦٨٢/٢٣ (١٠) الطبري:

٦٨٢/٢٣ (١١) الطبري: ٦٨٣/٢٣ (١٢) مسند أبي يعلى: ٧/

٨٨ (١٣) الطبري: ٦٨٦/٢٣ (١٤) القرطبي: ٤٢/١٩ (١٤)

الطبري: ٦٨٦/٢٣

«أَلَيْسَ لَكُمْ فِي أَسْوَةِ حَسَنَةٍ؟» فَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَأَشْهَدَهُمْ عَلَى رَجْعَتِهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْنَا، فَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ أَتَى ابْنَ عَبَّاسٍ فَسَأَلَهُ عَنِ الْوِثْرِ فَقَالَ: أَلَا أَبَيْتُكَ بِأَعْلَمَ أَهْلِ الْأَرْضِ بِوِثْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: آتَيْتَ عَلِيًّا فَسَأَلَهَا ثُمَّ أَرْجَعِ إِلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِرَدِّهَا عَلَيْكَ. قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلِيَّ حَكِيمَ بْنِ أَلْفَحٍ فَاسْتَلْحَقْتُهُ إِلَيْهَا فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِبِهَا إِلَيَّ نَهَيْتُهَا أَنْ تَقُولَ فِي هَاتَيْنِ الشَّعْبَتَيْنِ شَيْئًا قَابَتْ فِيهِمَا إِلَّا مُضِيًّا، فَأَقْسَمْتُ عَلَيْهِ فَبَجَاءَ مَعِيَ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا فَقَالَتْ: حَكِيمٌ وَعَرَفْتُهُ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: مَنْ هَذَا الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَ:

سَعِيدُ بْنُ هِشَامٍ. قَالَتْ: مَنْ هِشَامٌ؟ قَالَ: ابْنُ عَامِرٍ. قَالَ: فَتَرَحَّمْتَ عَلَيْهِ وَقَالَتْ: نِعْمَ الْمَرْءُ كَانَ عَامِرًا. قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِي عَن خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ، ثُمَّ بَدَأَ لِي قِيَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِي عَن قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتَمَتَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَصَارَ قِيَامَ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا مِنْ بَعْدِ فَرِيضَةٍ. فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ثُمَّ بَدَأَ لِي وَثْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِي عَن وَثْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: كُنَّا نَعُدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهْوَرَهُ فَيَنْعَتُهُ اللَّهُ لِمَا شَاءَ أَنْ يَنْعَتَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَسْوُوكَ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يُصَلِّي ثَمَانَ رَكَعَاتٍ، وَلَا يَجْلِسُ فِيهِنَّ إِلَّا عِنْدَ الثَّامِنَةِ، فَيَجْلِسُ وَيَذْكُرُ رَبَّهُ تَعَالَى وَيَدْعُو، ثُمَّ يَنْهَضُ وَمَا يُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُومُ لِيُصَلِّيَ التَّاسِعَةَ ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَذْكُرُ اللَّهَ وَحْدَهُ ثُمَّ يَدْعُوهُ، ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُنَا، ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ، فَيَلْتَمِسُ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكَعَةً يَا بَنِيَّ، فَلَمَّا أَسَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخَذَهُ اللَّحْمُ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ فَتَلْتَمِسُ تِسْعَ يَا بَنِيَّ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يَدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا شَعَلَهُ عَن قِيَامِ اللَّيْلِ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ أَوْ مَرَضٌ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكَعَةً، وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، وَلَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ. فَأَتَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَحَدَّثَنِي بِحَدِيثِهَا فَقَالَ: صَدَقْتَ، أَمَا لَوْ

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُرْ آيَاتِ الْكِتَابِ لَا يُغْنِي عَنْكَ كَلِمَةٌ وَلَا يَذَكُرُ﴾ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ، ثُمَّ بَدَأَ لِي قِيَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِي عَن قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتَمَتَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَصَارَ قِيَامَ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا مِنْ بَعْدِ فَرِيضَةٍ. فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ثُمَّ بَدَأَ لِي وَثْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِي عَن وَثْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: كُنَّا نَعُدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهْوَرَهُ فَيَنْعَتُهُ اللَّهُ لِمَا شَاءَ أَنْ يَنْعَتَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَسْوُوكَ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يُصَلِّي ثَمَانَ رَكَعَاتٍ، وَلَا يَجْلِسُ فِيهِنَّ إِلَّا عِنْدَ الثَّامِنَةِ، فَيَجْلِسُ وَيَذْكُرُ رَبَّهُ تَعَالَى وَيَدْعُو، ثُمَّ يَنْهَضُ وَمَا يُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُومُ لِيُصَلِّيَ التَّاسِعَةَ ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَذْكُرُ اللَّهَ وَحْدَهُ ثُمَّ يَدْعُوهُ، ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُنَا، ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ، فَيَلْتَمِسُ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكَعَةً يَا بَنِيَّ، فَلَمَّا أَسَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخَذَهُ اللَّحْمُ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ فَتَلْتَمِسُ تِسْعَ يَا بَنِيَّ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يَدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا شَعَلَهُ عَن قِيَامِ اللَّيْلِ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ أَوْ مَرَضٌ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكَعَةً، وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، وَلَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ. فَأَتَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَحَدَّثَنِي بِحَدِيثِهَا فَقَالَ: صَدَقْتَ، أَمَا لَوْ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أَيْ أَكْثِرُ مِنْ ذِكْرِهِ وَانْقَطِعَ إِلَيْهِ وَتَفَرَّغَ لِعِبَادَتِهِ إِذَا فَرَعْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورٍ دُنْيَاكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧] أَيْ إِذَا فَرَعْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ فَانصَبْ فِي طَاعَتِهِ وَاعْبَادَتِهِ لِتَكُونَ فَارغَ الْبَالِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ بِمَعْنَاهُ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ^(١). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَعَطِيَّةٌ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أَيْ أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ^(٢). وَقَالَ الْحَسَنُ: اجْتَهِدْ وَابْتَلْ إِلَيْهِ نَفْسَكَ^(٣).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يُقَالُ لِلْعَابِدِ تَبَتَّلَ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ: نَهَى عَنِ التَّبَتُّلِ يَعْنِي الْإِنْقِطَاعَ إِلَى الْعِبَادَةِ وَتَرَكَ التَّرَوُّجَ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ الْكَشْفِ وَالْعَرَبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أَيْ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَكَمَا أَفْرَدْتُهُ بِالْعِبَادَةِ فَأَفْرَدَهُ بِالتَّوَكُّلِ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] [في آيات كثيرة في هذا المعنى فيها الأمرُ بإفْرَادِ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَتَخْصِيصِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ].

(١) أحمد: ٥٣/٦ (٢) مسلم: ٥١٢/١ (٣) الطبري: ٢٣/٦٧٩ (٤) الطبري: ٦٨٠/٢٣ (٥) الطبري: ٦٧٩/٢٣ (٦) الطبري: ٦٨٩/٢٣ (٧) الطبري: ٦٨٨/٢٣ (٨) الطبري: ٦٨٨/٢٣ (٩) الطبري: ٦٨٧/٢٣

وَالثَّورِيَّ ﴿أَخَذًا وَيَلًا﴾ أَي شَدِيدًا^(٣). أَي فَاحْذَرُوا أَنْتُمْ أَنْ تُكْذِبُوا هَذَا الرَّسُولَ فَيُصِيبَكُم مَّا أَصَابَ فِرْعَوْنَ، حَيْثُ أَخَذَهُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥] وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْهَلَاكِ وَالذَّمَارِ إِنْ كَذَبْتُمْ رَسُولَكُمْ، لِأَنَّ رَسُولَكُمْ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ. وَيُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ.

[التَّهْدِيدُ بِعَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَنفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يَوْمًا مَعْمُولًا لِتَنفُونَ كَمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (فَكَيْفَ تَخَافُونَ أَيُّهَا النَّاسُ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا إِنْ كَفَرْتُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ)^(٤)؟ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْمُولًا لِكْفَرْتُمْ فَعَلَى الْأُولَى: كَيْفَ يَحْصُلُ لَكُمْ أَمَانٌ مِنْ يَوْمٍ هَذَا الْفِرْعَ الْعَظِيمِ إِنْ كَفَرْتُمْ، وَعَلَى الثَّانِي: كَيْفَ يَحْصُلُ لَكُمْ تَقْوَى إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَحَدْتُمُوهُ، وَكِلَاهُمَا مَعْنَى حَسَنٍ، وَلَكِنَّ الْأُولَى أَوْلَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أَي مِنْ شِدَّةِ أَهْوَالِهِ وَرَلَازِلِهِ وَبَلَايِهِ، وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَدَمَ: ابْعَثْ نَارَ فَيْتُولُ: مِنْ كَمِّ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفِ تَسْعَمَائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ أَي بِسَبَبِهِ مِنْ شِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أَي كَانَ وَعْدُ هَذَا الْيَوْمِ مَفْعُولًا أَي وَاقِعًا لَا مَحَالَةَ، وَكَانَتْ لَا مَحِيدَةَ عَنْهُ.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (١٦) إِنْ رَزَقَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلثِي اللَّيْلِ وَيَضْمَعُ وَتُلْتَمِسُ وَطَائِفَةً مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُعَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَوَاتَ عَلَيْكَ قَائِرَةٌ وَمَا يَبْسُرُ مِنَ الْفُرْقَانِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَأَخْرُونَ بِضُرُوبٍ فِي الْأَرْضِ يَلْتَفِتُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَبُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَفِرُّوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

[هَذِهِ السُّورَةُ تَذْكِرَةٌ لِأُولَى الْأَبَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أَي السُّورَةُ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أَي

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَيَلًا (١٦) فَكَيْفَ تَنفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨)

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْكُفَّارِ وَبَيَانُ مَا لَهُمْ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُهُ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، وَأَنْ يَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا، وَهُوَ الَّذِي لَا عِتَابَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ مُتَهَدِّدًا لِكُفَّارِ قَوْمِهِ وَمَتَوَعِّدًا، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَقُومُ لِنُصْبِهِ شَيْءٌ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ أَي دَعْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ الْمُتْرَفِينَ أَصْحَابِ الْأَمْوَالِ، فَإِنَّهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَهُمْ يُطَالِبُونَ مِنَ الْحُقُوقِ بِمَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أَي رُوَيْدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَتِمَّتْهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ وَهِيَ الْقَيْوُدُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَطَاوُسٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ وَأَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ وَأَبُو مَجَلَزٍ وَالضَّحَّاكُ، وَحَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ، وَقَتَادَةُ وَالشَّدِيدِيُّ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَالثَّورِيُّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَاحِدٌ^(١). ﴿وَجَحِيمًا﴾ وَهِيَ السَّعِيرُ الْمُضْطَّرَّمَةُ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْشِبُ فِي الْحَلْقِ فَلَا يَدْخُلُ وَلَا يَخْرُجُ^(٢). ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ أَي تَزُولُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا أَي تَصِيرُ كَكُثْبَانِ الرَّمْلِ بَعْدَ مَا كَانَتْ جِجَارَةً صَمَاءً، ثُمَّ إِنَّهَا تُنْسَفُ نَسْفًا، فَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا ذَهَبٌ، حَتَّى تَصِيرَ الْأَرْضُ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (١٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا ﴿طه: ١٠٦، ١٠٧﴾ أَي وَادِيًا ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أَي رَابِيَةً، وَمَعْنَاهُ: لَا شَيْءَ يَنْخَفِضُ وَلَا شَيْءَ يَرْتَفِعُ.

[رَسُولُكُمْ ﷺ مِثْلَ رَسُولِ فِرْعَوْنَ وَتَعَلَّمُونَ مَصِيرَ

فِرْعَوْنَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَالْمُرَادُ سَائِرِ النَّاسِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أَي بِأَعْمَالِكُمْ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَيَلًا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالشَّدِيدِيُّ

(١) الطبري: ٦٩٠/٢٣، ٦٩١، والدر المنثور: ٣١٩/٨ (٢)

الطبري: ٦٩١/٢٣ (٣) الطبري: ٦٩٣/٢٣ (٤) الطبري:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ٥٧٥
 إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَافَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نُحْصِيهِ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْهُ وَمَا تَنَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْهُ وَمَا تَنَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا عَفْوَ رَحِيمًا

سُورَةُ الْمَزْمَلِ
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا فَطْحِرُ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ عَلَى الْكُفْرَىٰ ﴿٦﴾ وَلَا تَبْكُ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نَفَرْنَا فِي السَّمَاءِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمِ عَسِيرٍ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِ سِيرٍ ﴿١٠﴾ ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وَجِدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتَ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَيَبْنِي شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتَ لَهُ تَمَهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَأَرَّهُنَّ صَعُودًا ﴿١٧﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّصَدَّقِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ]

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل، وهو خير مما أبتئتموه لأنفسكم في الدنيا. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «أَيْبُكُمْ مَا لَهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَارِثِهِ؟» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِثًا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَا لَهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَارِثِهِ قَالَ: «اعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» قالوا: مَا نَعْلَمُ إِلَّا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِنَّمَا مَالٌ أَحَدِكُمْ مَا

يَتَذَكَّرُ بِهَا أَوْلُو الْأَلْبَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ انْقَضَ إِلَيْ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] أَي مِمَّنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى هِدَايَتُهُ كَمَا قَدَّه فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

[نَسْخُ وَجُوبِ قِيَامِ اللَّيْلِ وَذِكْرُ أَعْدَارِهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَافَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أَي تَارَةً هَكَذَا وَتَارَةً هَكَذَا، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْمُواظَبَةِ عَلَى مَا أَمَرَكُم بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ لِأَنَّهُ يَسْقُ عَلَيْكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَي تَارَةً يَغْتَدِلَانِ، وَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا وَهَذَا مِنْ هَذَا ﴿عَلِمَ أَنْ لَّنْ نُحْصِيهِ﴾ أَي الْفَرَضَ الَّذِي أَوْجِبَهُ عَلَيْكُمْ ﴿فَاقْرَأْهُ وَمَا تَنَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أَي مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدِ بوقتٍ، أَي وَلَكِنْ قَوْمُوا مِنَ اللَّيْلِ مَا تَنَسَّرَ، وَعَبَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ بِالْقِرَاءَةِ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أَي بِقِرَاءَتِكَ ﴿وَلَا خَافَتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ذُووُ أَعْدَارٍ فِي تَرْكِ قِيَامِ اللَّيْلِ مِنْ مَرَضَى لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ، وَمُسَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فِي الْمَكَاسِبِ وَالْمَتَاجِرِ، وَآخَرِينَ مَشْغُولِينَ بِمَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي حَقِّهِمْ مِنَ الْعَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ بَلِ السُّورَةُ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ وَلَمْ يَكُنِ الْقِتَالُ شَرَعَ بَعْدُ، فَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْإِخْبَارِ بِالْمُعْتَبَرَاتِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاقْرَأْهُ وَمَا تَنَسَّرَ مِنْهُ﴾ أَي قَوْمُوا بِمَا تَنَسَّرَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَي أَقِيمُوا صَلَاتِكُمْ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ وَآتُوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَهَذَا يُدَلُّ لِمَنْ قَالَ: إِنَّ قَرْضَ الزَّكَاةِ نَزَلَ بِمَكَّةَ، لَكِنْ مَقَادِيرُ النَّصَبِ وَالْمَخْرُجِ لَمْ يَبَيَّنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَسَخَتْ الَّذِي كَانَ اللَّهُ قَدْ أَوْجِبَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَوْلَا مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ^(١). وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَعُ»^(٢).

(١) الطبري: ٦٧٩/٢٣، ٦٨٠، والدر المنثور: ٣٢٢/٨ (٢) فتح الباري: ١٣٠/١، ومسلم: ٤١/١

قَدَّمَ، وَمَا وَارِيَهُ مَا آخَرَ^(١). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٢). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ وَاسْتَعْفَاهُ فِي أُمُورِكُمْ كُلِّهَا، فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ اسْتَعْفَرَهُ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة المدثر وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَابَعُ الْمُدَّثِّرُ^(١) قُرْ فَأَنْذِرْ^(٢) وَرَبِّكَ فَكَلِمَةً^(٣) وَيَتَابَعُ فَطَهَّرَ^(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ^(٥) وَلَا تَنْتَنُ تَسْتَكْبِرُ^(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ^(٧) فَإِذَا نَفَرَ فِي الْغَاوِرِ^(٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ^(٩) عَلَى الْكَافِرِينَ عَذِيبٌ

يَسِيرٌ^(١٠)﴾

[أَوَّلُ آيَاتٍ نَزَلَتْ بَعْدَ أَقْرَأُ]

تَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوُحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصْرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِجِرَاءٍ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَرَمَلُونِي. فَأَنْزَلَ [اللَّهُ تَعَالَى]: ﴿يَتَابَعُ الْمُدَّثِّرُ^(١) قُرْ فَأَنْذِرْ^(٢) إِلَى ﴿فَاهْجُرْ﴾ - قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَالرُّجْزُ الْأَوْثَانُ - ثُمَّ حَمِيَ الْوُحْيُ وَتَتَابَعُ هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ^(٣). وَهَذَا السِّيَاقُ يَقْتَضِي أَنَّهُ قَدْ نَزَلَ الْوُحْيُ قَبْلَ هَذَا، لِقَوْلِهِ: «فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِجِرَاءٍ». وَهُوَ جِبْرِيلُ حِينَ أَنَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ^(٤) الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ^(٥) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْبَرُ^(٦) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ^(٧) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^(٨)﴾ [العلق: ١-٥] ثُمَّ إِنَّهُ حَصَلَ بَعْدَ هَذَا فِتْرَةٌ ثُمَّ نَزَلَ الْمَلَكُ بَعْدَ هَذَا.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ثُمَّ فَتَرَ الْوُحْيُ عَنِّي فِتْرَةً، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ فَرَقًا حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ

لَهُمْ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَرَمَلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَابَعُ الْمُدَّثِّرُ^(١) قُرْ فَأَنْذِرْ^(٢) وَرَبِّكَ فَكَلِمَةً^(٣) وَيَتَابَعُ فَطَهَّرَ^(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ^(٥) ثُمَّ حَمِيَ الْوُحْيُ وَتَتَابَعُ^(٦). خَرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ بِهِ^(٧). وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ صَنَعَ لِفَرَيْشٍ طَعَامًا، فَلَمَّا أَكَلُوا مِنْهُ قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَاحِرٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِسَاحِرٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَاهِنٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِكَاهِنٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: شَاعِرٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِشَاعِرٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ سِحْرٌ يُؤْتَرُ، فَأَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنَّهُ سِحْرٌ يُؤْتَرُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَحَزَنَ وَقَفَعَ رَأْسَهُ وَتَدَثَّرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَابَعُ الْمُدَّثِّرُ^(١) قُرْ فَأَنْذِرْ^(٢) وَرَبِّكَ فَكَلِمَةً^(٣) وَيَتَابَعُ فَطَهَّرَ^(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ^(٥) وَلَا تَنْتَنُ تَسْتَكْبِرُ^(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ^(٧) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ^(٨) أَي شَمَّرَ عَنِ سَاقِ الْعَزْمِ، وَأَنْذِرِ النَّاسَ، وَبِهَذَا حَصَلَ الْإِرْسَالُ كَمَا حَصَلَ بِالْأَوَّلِ النَّبُوَّةُ. ﴿وَرَبِّكَ فَكَلِمَةً أَي عَظْمٌ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَيَتَابَعُ فَطَهَّرَ﴾ يَعْنِي لَا تَكُنْ يَتَابَعُ الَّتِي تَلْبَسُ مِنْ مَكْسِبِ غَيْرِ طَائِبٍ، وَيُقَالُ: لَا تَلْبَسْ يَتَابَعًا عَلَى مَعْصِيَةٍ^(٩). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: ﴿وَيَتَابَعُ فَطَهَّرَ﴾ أَي اغْسَلَهَا بِالْمَاءِ^(١٠). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ لَا يَطْهَرُونَ فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَطْهَرَ وَأَنْ يُطْهَرَ يَتَابَعًا^(١١). وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١٢).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: ﴿وَيَتَابَعُ فَطَهَّرَ﴾ وَقَلْبِكَ وَيَتَبَكَ فَطَهَّرَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَخَلَقَكَ فَحَسِّنْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالرُّجْزُ﴾ وَهُوَ الْأَضْنَامُ ﴿فَاهْجُرْ﴾^(١٣). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: إِنَّهَا الْأَوْثَانُ^(١٤). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَابَعُ الَّتِي آتَى اللَّهُ وَلَا تَطْعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾ [الاحزاب: ١] ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَجِيهِ هَدْرَتٌ أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِيحٌ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

(١) مسند أبي يعلى: ٩٧/٩ (٢) فتح الباري: ١١/٢٦٤ والنسائي: ٢٣٧/٦ (٣) فتح الباري: ٦/٣٦١ ومسلم: ١/١٤٣ (٤) أحمد: ٣/٣٢٥ (٥) فتح الباري: ١/٣٧ ومسلم: ١/١٤٣ (٦) الطبراني: ١١/١٢٥ (٧) الطبري: ٢٤/١١ (٨) الطبري: ٢٤/١٢ (٩) الطبري: ٢٤/١٢ (١٠) الطبري: ٢٤/١٣ (١١) الطبري: ٢٤/١٣ (١٢) الطبري: ٢٤/١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧٦

سُورَةُ الْمَدْثَرِ

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾
 ثُمَّ عَبَسَ وَسَمَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَبْجَرِ ﴿٢٤﴾
 يُؤْتِرُهُ ﴿٢٥﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٦﴾ سَأُصْلِحُهُ سَقَرًا ﴿٢٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ
 مَا سَقَرٌ ﴿٢٨﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٩﴾ لَوَاحِةً لِلْبَشَرِ ﴿٣٠﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ
 ﴿٣١﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَنْهُمْ إِلَّا فَتْنَةً
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيُرَدِّدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيَّانَا
 وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
 وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي
 مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ خُجُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣٢﴾ كَلَّا
 وَالْقَمَرِ ﴿٣٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٤﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٥﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى
 الْكُرِيِّ ﴿٣٦﴾ نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٨﴾ كُلُّ
 نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا أَحْسَبَ الْيَبِينِ ﴿٤٠﴾ فِي جَنَّتِ بَسَاةٌ لَّوْنُ
 ﴿٤١﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٢﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٣﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ
 الْمَصْلُومِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نُطْعَمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ
 الْخَاطِئِينَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ نُبَيِّنُ لِلَّذِينَ يَدَّبُرُونَا آيَاتِنَا لِيَقِينُوا ﴿٤٧﴾

[تَهْدِيدُهُ مَن قَالَ: أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِهَذَا الْحَيْثُ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 بِنِعَمِ الدُّنْيَا فَكَفَّرَ بِأَنْعَمِ اللَّهُ وَبَدَّلَهَا كُفْرًا، وَقَابَلَهَا بِالْجُحُودِ
 بآيَاتِ اللَّهِ وَالْإِفْرَاءِ عَلَيْهَا، وَجَعَلَهَا مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ، وَقَدْ
 عَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَهُ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
 وَجِدًا﴾ أَي خَرَجَ مِنْ بطنِ أُمِّهِ وَخَدَهُ، لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ،
 ثُمَّ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَالًا مَمْدُودًا﴾ أَي وَاسِعًا كَثِيرًا وَجَعَلَ
 لَهُ ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَغِيبُونَ^(٨). أَي حُضُورًا
 عِنْدَهُ لَا يُسَافِرُونَ بِالتَّجَارَاتِ بَلْ مَوَالِيَهُمْ وَأَجْرَاؤُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ
 ذَلِكَ عَنْهُمْ وَهُمْ قُعُودٌ عِنْدَ آبِيهِمْ يَتَمَتَّعُ بِهِمْ وَيَتَمَلَّى بِهِمْ،
 وَكَانُوا فِيمَا ذَكَرَهُ الشَّدِيدِيُّ وَأَبُو مَالِكٍ وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ
 قَتَادَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ^(٩). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ كَانُوا

الْمُفْسِدِينَ ﴿الاعراف: ١٤٢﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمَنَّ
 سَتَكِبْرُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تُعْطِ الْعَطِيَّةَ تَلْتَمِسُ أَكْثَرَ مِنْهَا.
 وَقَالَ حُصَيْنٌ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمَنَّ
 سَتَكِبْرُ﴾ قَالَ: لَا تَضَعُفَ أَنْ تَسْتَكْبِرَ مِنَ الْخَيْرِ، قَالَ:
 تَمَنَّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: تَضَعُفُ^(١١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أَي اجْعَلْ صَبْرَكَ عَلَى
 أَدَاؤِهِمْ لِيُوجِبَ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(١٢). وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ
 النَّخَعِيُّ: إِصْبِرْ عَطِيَّتِكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١٣).

[التَّذْكِيرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نَفَرَ فِي الْغَاوِرِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ
 عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذْرٌ يَبِيرُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ
 وَالشَّعْبِيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ،
 وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالشَّدِيدِيُّ وَإِبْنُ زَيْدٍ ﴿الغافر: الصور﴾^(٤).
 قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهُوَ كَهَيْئَةِ الْقُرْنِ^(٥). وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:
 حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ: حَدَّثَنَا أَشْبَاطُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ
 مُطَرِّفٍ، عَنْ عَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَإِذَا نَفَرَ فِي
 الْغَاوِرِ﴾ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ
 الْقُرْنِ قَدِ اتَّعَمَ الْقُرْنُ وَحَتَّى جَبْهَتُهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْشُخُ؟»
 فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
 قَالَ: «قُولُوا: حَشِبْنَا اللَّهُ وَيَعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»
 وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَشْبَاطِ بِهِ^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أَي شَدِيدٌ عَلَى
 الْكَافِرِينَ عَذْرٌ يَبِيرُ أَي عَثْرٌ سَهْلٌ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى
 قَاضِي الْبَصْرَةِ أَنَّهُ صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ، فَقَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ فَلَمَّا
 وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نَفَرَ فِي الْغَاوِرِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ
 عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذْرٌ يَبِيرُ﴾ شَهِقَ شَهْفَةً ثُمَّ خَرَّ مَيِّتًا
 رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(٧).

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ
 شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهْجِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ
 لِإِيْتِنَانًا عِنْدَنَا ﴿١٦﴾ سَأُنْفِثَهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ ذَكَرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ
 قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَسَمَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ
 وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتِرُهُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ
 ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِحُهُ سَقَرًا ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا يُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾
 لَوَاحِةً لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ﴿٣٠﴾﴾

(١) الطبري: ١٦/٢٤ (٢) الطبري: ١٦/٢٤ (٣) البغوي: ٤/٤١٤
 (٤) الطبري: ١٨/٢٤ (٥) الطبري: ١٨/٢٤ (٦) أحمد: ٣٢٦/١
 (٧) عطيّة العوفي (٧) الحاكم: ٢٠٦/٢ (٨) البغوي: ٤١٤/٤
 (٩) الدر المنثور: ٣٢٩/٨

عَشْرَةً^(١). وَهَذَا أْبْلَغُ فِي التَّعَمُّةِ وَهُوَ إِقَامَتُهُمْ عِنْدَهُ. **﴿وَهَدَّتْ لَمْ تَهْتَدِ﴾** أَي مَكَّنْتَهُ مِنْ صُنُوفِ الْمَالِ وَالْأَنْثَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿ثُمَّ يَطْعُ أَنْ أَرِيدَ﴾ **﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عِنْدًا﴾** أَي مُعَايِدًا وَهُوَ الْكُفْرُ عَلَى نِعْمِهِ بَعْدَ الْعِلْمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا﴾** وَقَالَ قَتَادَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: **﴿صَعُودًا﴾** صَحْرَةً فِي جَهَنَّمَ يُسْحَبُ عَلَيْهَا الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ^(٢). وَقَالَ الشَّدِيُّ: **﴿صَعُودًا﴾** صَحْرَةً مَلْسَاءً فِي جَهَنَّمَ يَكْلَفُ أَنْ يَصْعَدَهَا.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: **﴿سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا﴾** أَي مَشَقَّةً مِنَ الْعَذَابِ^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: عَذَابًا لَا رَاحَةَ فِيهِ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾** أَي إِنَّمَا أَرَهَقْتَاهُ صَعُودًا أَي قَرَّبْتَاهُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّاقِّ لِيُعْذِرَ عَنِ الْإِيْمَانِ لِأَنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، أَي تَرَوَى مَاذَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ جِئِن سئِلَ عَنِ الْقُرْآنِ فَفَكَّرَ مَاذَا يُخْتَلَقُ مِنَ الْمَقَالِ **﴿وَقَدَّرَ﴾** أَي تَرَوَى **﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾** ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ دُعَاءً عَلَيْهِ **﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾** أَي أَعَادَ النَّظْرَةَ وَالتَّرَوِيَّ **﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾** أَي قَبَضَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَطَبَ **﴿وَبَسَرَ﴾** أَي كَلَحَ وَكَرِهَ.

وَقَوْلُهُ: **﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾** أَي صَرَفَ عَنِ الْحَقِّ وَرَجَعَ الْفَهْمَرَى مُسْتَكْبِرًا عَنِ الْإِنْفِيَادِ لِلْقُرْآنِ **﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾** أَي هَذَا سِحْرٌ يُفَعْلُهُ مُحَمَّدٌ عَنْ غَيْرِهِ وَمِنْ قَبْلِهِ، وَيَحْكِيهِ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: **﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾** أَي لَيْسَ بِكَلَامِ اللَّهِ، وَهَذَا الْمَذْكُورُ فِي هَذَا السِّيَاقِ هُوَ الْوَلِيدُ ابْنُ الْمُغْبِيرَةِ الْمُخْزُومِيُّ أَحَدُ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِ فِي هَذَا مَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

قَالَ: دَخَلَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغْبِيرَةِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي فُحَّافَةَ فَسَأَلَهُ عَنِ الْقُرْآنِ، فَلَمَّا أَحْبَبَهُ خَرَجَ عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ: يَا عَجَبًا لِمَا يَقُولُ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ بِشِعْرِ وَلَا بِسِحْرِ وَلَا يَهْدِي مِنَ الْجُنُونِ، وَإِنْ قَوْلُهُ لِمَنْ كَلَّمَ اللَّهُ فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ النَّقْرَ مِنْ قُرَيْشٍ اتَّعَمَّرُوا وَقَالُوا: وَاللَّهِ لَئِنْ صَبَأَ الْوَلِيدُ لَتَضُوبُوا قُرَيْشًا، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: أَنَا وَاللَّهِ أَكْفَيْكُمْ شَأْنَهُ فَاذْهَبْ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ لِلْوَلِيدِ: أَلَمْ تَرِ إِلَى قَوْمِكَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ الصَّدَقَةَ؟

فَقَالَ: أَلَسْتُ أَكْتَرُهُمْ مَالًا وَوَلَدًا؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: يَتَحَدَّثُونَ أَنَّكَ إِنَّمَا تَدْخُلُ عَلَى ابْنِ أَبِي فُحَّافَةَ لِتُصِيبَ مِنْ طَعَامِهِ، فَقَالَ الْوَلِيدُ: أَقَدْ تَحَدَّثْتَ بِهِ عَشِيرَتِي؟ فَلَا وَاللَّهِ لَا أَقْرَبُ ابْنَ أَبِي فُحَّافَةَ وَلَا عَمْرًا، وَلَا ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ، وَمَا قَوْلُهُ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ. فَانزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ **﴿ذَرِّ وَمَنْ**

خَلَقْتَ وَجِدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ **﴿لَا بُدِّي وَلَا نُدْرُ﴾**^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: زَعَمُوا أَنَّهُ قَالَ: وَاللَّهِ، لَقَدْ نَظَرْتُ فِيمَا قَالَ الرَّجُلُ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ بِشِعْرٍ، وَإِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ وَمَا يُعْلَى عَلَيْهِ، وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ سِحْرٌ. فَانزَلَ اللَّهُ: **﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾** ... الْآيَةَ **﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾** قَبَضَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَكَلَحَ^(٦). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿سَأُصْلِحُ سَفْرًا﴾** أَي سَأُعْمِرُهُ فِيهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَفَرٌ﴾**

وَهَذَا تَهْوِيلٌ لِأَمْرٍهَا وَتَفْخِيمٌ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿لَا بُدِّي وَلَا نُدْرُ﴾** أَي: تَأْكُلُ لِحُومَهُمْ وَعُرُوقَهُمْ وَعَصَبَهُمْ وَجُلُودَهُمْ، ثُمَّ تَبَدَّلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيُونَ. قَالَ ابْنُ بَرِيْدَةَ وَأَبُو سَيَانَ وَغَيْرُهُمَا^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿لَوَائِمَةٌ لِّلنَّسْرِ﴾** قَالَ مُجَاهِدٌ: أَي لِلْجِلْدِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: **﴿لَوَائِمَةٌ لِّلنَّسْرِ﴾** أَي: حَرَّاقَةٌ لِلْجِلْدِ^(٨). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَحْرَقُ بَشَرَةُ الْإِنْسَانِ^(٩). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿عَلَيْهَا سِتْعَةٌ عَسْرٌ﴾** أَي: مِنْ مُقَدِّمِي الزَّبَانِيَةِ عَظِيمٌ خَلَقَهُمْ غَلِيظٌ خُلِقَهُمْ.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكَتَابِ وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكَتَابِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَهْدِي إِلَّا ذِكْرُنَا لِلنَّاسِ﴾ **﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾** وَالْقَمَرُ **﴿٢٦﴾** وَالْقَمَرُ **﴿٢٧﴾** إِذْ أَذْبَرَ **﴿٢٨﴾** وَالصُّبْحُ إِذَا اسْتَفْرَجَ **﴿٢٩﴾** إِنَّمَا يَلْمِزُ الْكُفْرَ **﴿٣٠﴾** نَذِيرًا لِلنَّاسِ **﴿٣١﴾** لِمَنْ شَاءَ مَسْكْرًا أَنْ يَتَّقُوا أَوْ يَتَّخِرُوا **﴿٣٢﴾**

[عَدَدُ حَزَنَةِ جَهَنَّمَ وَمَا قَالَهُ الْكُفَّارُ حَوْلَ ذَلِكَ]

يَقُولُ تَعَالَى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ﴾** أَي: حَزَانَهَا **﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾** زَبَانِيَّةً غَلَاظًا شِدَادًا، وَذَلِكَ رَدٌّ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ جِئِن ذَكَرَ عَدَدُ الْحَزَنَةِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ لِوَاجِدٍ مِنْهُمْ فَتَعْلَبُونَهُمْ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾** أَي: شِدِيدِي الْحَلْقِ لَا يَقَاوِمُونَ وَلَا يُعَالَبُونَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ أَبَا الْأَشَدِّينَ وَاسْمَهُ كَلْدَةُ بْنُ أَسِيدِ بْنِ خَلْفٍ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَكْثَمُونِي مِنْهُمْ اثْنَيْنِ وَأَنَا أَكْفَيْكُمْ مِنْهُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ؛ إِعْجَابًا

(١) الطبري: ٢١/٢٤ (٢) الدر المنثور: ٣٣١/٨ (٣) الطبري: ٢٣/٢٤ (٤) الطبري: ٢٣/٢٤ (٥) الطبري: ٢٤/٢٤ (٦) الطبري: ٢٥/٢٤ (٧) الدر المنثور: ٣٣٢/٨ (٨) الطبري: ٢٧/٢٤ (٩) الطبري: ٢٨/٢٤

منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة ليزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر، إختياراً منا للناس ليستبين الذين أوتوا الكتاب أي: يعلمون أن هذا الرسول حق، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله. وقوله تعالى: ﴿وَرِزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي: إلى إيمانهم [أي]: بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرْسًا﴾ أي: من المنافقين ﴿وَالكُفْرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي: يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: من مثل هذا وأشابهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين. وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

﴿لَا يَعْلَمُ جُنُودَ اللَّهِ إِلَّا هُوَ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى؛ لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط، وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أجز ما عليهم» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: ﴿وَمَا مِنَّا﴾ أي: النار التي وصفت (٢) ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ (٣) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَدْبَرَ﴾ أي: ولي ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا اسْتَفْرَجَ﴾ أي: أشرق ﴿إِنَّمَا لِحَدَى الْكُفْرِ﴾ أي: العظائم يعني النار. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد من السلف (٣). ﴿ذِكْرًا لِلنَّاسِ﴾ لمن شأه ينكر أن يقدم أو يتأخر أي: لمن شاء أن يقبل التدارة ويهتدي للحق أو يتأخر عنها ويؤلي ويردها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ﴾ (٤) ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٥) في جنن يسألون (٦) عن المجرمين (٧) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٨) ﴿قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٩) ﴿وَلَوْ نَكُ نَطِيعُ الْمَسْكِينِ﴾ (١٠) ﴿وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (١١) ﴿وَكُنَّا نَكُذِّبُ بَيُوتَ الَّذِينَ﴾ (١٢) ﴿حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ﴾ (١٣) ﴿فَمَا

سورة المدثر
٥٧٧
سورة القامتة
فَمَا نَعْمُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿١٨﴾ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً﴾ ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْغُفْرَةِ﴾

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَلَيْسَ لِلإِنسَانِ أَلَن يَجْمَعُ عَظْمَهُ ﴿٣﴾ ﴿بَلْ قَدِ يَرِينَ عَلَيَّ أَن سَوَىٰ بِنَانِهِ﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجَرًا مَّأْمُومًا﴾ ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿فَإِذَا رُقِىَّ البَصْرُ﴾ ﴿وَحُصِفَ الْقَمَرُ﴾ ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ﴿قَوْلَ الْإِنسَانِ يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿أَيْنَ الْمَفْرَقِ﴾ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لِّلشَّمْرِ﴾ ﴿يَبْنُو الْإِنسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿وَلَوْ لَقِيَ مَعَاذِرَهُ﴾ ﴿لَا تَحْرِكُهُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْعَجْرُ أَنَّهُ﴾ ﴿ثُمَّ إِن عَلَيْنَا يَبَانَهُ﴾

لنعمهم شفعة الشفيعين ﴿١٨﴾ ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ ﴿١٩﴾ كأنهم حمير مستنفرة ﴿٢٠﴾ فرت من قسورة ﴿٢١﴾ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴿٢٢﴾ كلاب لا يخافون الآخرة ﴿٢٣﴾ كلاب إنه تذكرة ﴿٢٤﴾ فمن شاء ذكره ﴿٢٥﴾ وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو

أهل التقوى وأهل الغفرة ﴿٢٦﴾
[ما يدور بين أهل الجنة والنار من الحوار]
يقول تعالى محيياً أن ﴿كل نفس بما كتبت رهينة﴾ أي: معتقلة بعملها يوم القيامة. قاله ابن عباس وغيره (٤). ﴿إلا أصحبت اليمين﴾ فإنهم ﴿في جنن يسألون﴾ عن المجرمين ﴿أي: يسألون المجرمين وهم في العرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم: ﴿ما سلككم في سقر﴾ ﴿١﴾ ﴿قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَلَوْ نَكُ نَطِيعُ الْمَسْكِينِ﴾ ﴿٣﴾ أي: ما عبدنا ربنا ولا أحسننا إلى خلقه من جنسنا ﴿وكنا نحوس مع الخائضين﴾

(١) فتح الباري: ٣٤٨/٦، ومسلم: ١٤٦/١ (٢) الطبري: ٢٤/٣٢ (٣) الطبري: ٣٣/٢٤ (٤) الطبري: ٣٥/٢٤

تفسير سورة القيامة وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَوَامَةَ ﴿٢﴾ أَيْحَسِبُ
الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَمَّى بِكَأَنَّهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ
الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ إِذَا رَقَّ الْقَمَرُ ﴿٧﴾
وَحَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ
الْقَمَرُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَدَرَ ﴿١١﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يَبْنُو الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ
بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى

مَعَادِيرَهُ ﴿١٥﴾

[الْقَسْمُ عَلَى وَفُوعِ الْمَعَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالرَّدُّ عَلَى حِيلِ
الْمُتَحَابِلِينَ]

قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مُنْتَفِيًا جازِ
الْإِثْبَاتِ «بَلَا» قَبْلَ الْقَسْمِ لِتَأْكِيدِ التَّقْيِي. وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ هَهُنَا
هُوَ إِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَالرَّدُّ عَلَى مَا يُزَعِّمُهُ الْجَهْلَةُ مِنَ الْعِبَادِ مِنْ
عَدَمِ بَعْثِ الْأَجْسَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَوَامَةَ ﴿٢﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلْ أَقْسَمَ
بِهِمَا جَمِيعًا (٨). وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ
جُبَيْرٍ (٩). فَأَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَعْرُوفٌ، وَأَمَّا النَّفْسُ الْوَلَوَامَةُ
فَقَالَ قُرَّةُ بْنُ خَالِدٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ
الْمُؤْمِنَ وَاللَّهِ مَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ. مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟ مَا
أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ نَفْسِي... وَإِنَّ الْفَاجِرَ
يَمْضِي قُدَمَا قُدَمَا مَا يَمَاتِبُ نَفْسَهُ (١٠). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ
سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَوَامَةَ﴾ قَالَ:
تَلُومٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَنَحْوُهُ عَنْ عِكْرَمَةَ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ
أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: تَنْدُمُ عَلَى مَا فَاتَ وَتَلُومٌ
عَلَيْهِ (١١).

وقوله تعالى: ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي: يوم
القيامة؟ أليظن أننا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من

أي: نتكلم فيما لا نعلم. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَلَّمَا غَوَى غَاوٍ
غَوَيْنَا مَعَهُ (١). ﴿وَكَلَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (٢) حَتَّى آتَنَّا الْيَقِينَ ﴿٣﴾
يَعْنِي الْمَوْتَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى بَأْيُنِكَ
الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هُوَ -
يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ مَطْعُونٍ - فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ» (٢).
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ أي: مَنْ كَانَ
مُتَّصِفًا بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةُ
شَافِعٍ فِيهِ؛ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ إِنَّمَا تَنْجَعُ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا،
فَأَمَّا مَنْ وَافَى اللَّهَ كَافِرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُ لَهُ النَّارُ لَا مَحَالَةَ
خَالِدًا فِيهَا.

[التكبير على إغراض الكفار وموقفهم]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: فَمَا
لَهُؤُلَاءِ الْكَافِرَةِ الَّذِينَ قَبْلَكَ عَمَّا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتُذَكِّرُهُمْ بِهِ
مُعْرِضِينَ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَمِهِ ﴿٦﴾ أَي:
كَأَنَّهُمْ فِي نَفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ حُمُرٌ مِنْ حُمُرِ
الْوَحْشِ إِذَا فَرَّتْ وَمِمَّنْ يُرِيدُ صَيْدَهَا مِنْ أَسَدٍ. قَالَهُ أَبُو
هُرَيْرَةَ (٧). وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ
يُوسُفَ بْنِ [مِهْرَانَ]، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَسَدُ بِالْعَرَبِيَّةِ.
وَيُقَالُ لَهُ بِالْحَبَشِيَّةِ: قَسْوَرَةٌ، وَبِالْفَارِسِيَّةِ: شَيْرٌ، وَبِالنَّبَطِيَّةِ
أَوْبَا (٨).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا
مُنشَرَةً﴾ أي: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ
يُنزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ كَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ
وغيره (٥). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ
حَتَّى نُؤْتَى نِشْرًا مِمَّا أَوْفَى رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ قَتَادَةَ: يُرِيدُونَ أَنْ
يُؤْتُوا بَرَاءَةً بِغَيْرِ عَمَلٍ (٦). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ
الْآخِرَةَ﴾ أَي: إِنَّمَا أَفْسَدَهُمْ عَدَمُ إِيمَانِهِمْ بِهَا، وَتَكْذِيبُهُمْ
بُؤُوقِعَهَا.

[القرآن تذكرة]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ أي: حَقًّا إِنَّ الْقُرْآنَ
تَذَكُّرَةٌ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٠) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿١١﴾
كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ
أَهْلُ الْقُرْآنِ وَأَهْلُ التَّخْفِيرِ﴾ أي: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يَخَافَ مِنْهُ، وَهُوَ
أَهْلٌ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ. قَالَهُ قَتَادَةُ (٧).
أخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(١) الطبري: ٣٧/٢٤ (٢) البيهقي: ٤٠٦/٣ (٣) الطبري: ٤٢/٢٤
(٤) الطبري: ٤٢/٢٤ إسناده ضعيف علي بن زيد بن
جدعان ضعيف كما مر (٥) القرطبي: ٩٠/١٩ (٦) الطبري: ٤٣/٢٤
(٧) الطبري: ٤٤/٢٤ (٨) الطبري: ٤٨/٢٤ (٩)
الدر المنثور: ٤٧/٨ والقرطبي: ٩١/١٩ (١٠) القرطبي: ١٩/
٩٣ (١١) الطبري: ٥٠/٢٤

الْمُتَّقِينَ أَي: الْمَرْجُوعِ وَالْمَصِيرِ.

[أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ تَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْتَئِنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أَي: يُخْبِرُ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا، أَوَّلَهَا وَآخِرَهَا، صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَادِيرُهُ﴾ أَي هُوَ شَهِيدٌ عَلَى نَفْسِهِ عَالِمٌ بِمَا فَعَلَهُ وَلَوْ اعْتَدَرَ وَأَنْكَرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ يَقُولُ: سَمِعُهُ وَبَصَّرَهُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ وَجَوَارِحُهُ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: شَاهِدٌ عَلَى نَفْسِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: إِذَا شِئْتَ وَاللَّهِ رَأَيْتُهُ بَصِيرًا بِغُيُوبِ النَّاسِ وَذُنُوبِهِمْ غَافِلًا عَنْ ذُنُوبِهِ. وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّ فِي الْإِنجِيلِ مَكْتُوبًا: يَا ابْنَ آدَمَ تَبَصَّرِ الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَتَرُكُ الْجَلْعَ فِي عَيْنِكَ لَا تَبْصِرُهُ!^(٥)

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَادِيرُهُ﴾ وَلَوْ جَادَلَ عَنْهَا فَهُوَ بَصِيرٌ عَلَيْهَا^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَادِيرُهُ﴾ وَلَوْ اعْتَدَرَ يَوْمَئِذٍ يَبْاطِلُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ^(٦). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَادِيرُهُ﴾ حُجَّتُهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَعْتَبِرُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَطْمَلِقُونَ لَهُمْ كَمَا يَطْمَلِقُونَ لَكَ﴾ وَصَوَّبُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ آلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَادِيرُهُ﴾ هِيَ الْأَعْتِدَارُ، أَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢] وَقَالَ: ﴿وَأَلْفُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ [النحل: ٨٧] ﴿فَأَلْفُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]^(٧).

﴿لَا تُحْرَقُ بِهِ لِسَانَهُ لِيَتَعَلَّ بِهِ﴾ [١١] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ إِذَا قَرَأَهُ فَالْبَيْتُ قُرْآنُ اللَّهِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الضَّالَّةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ نَازِحٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِقَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوَجْهُهُ يَوْمَئِذٍ بِابْرَأَةٍ ﴿٢٤﴾ نَظَرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرَةٌ ﴿٢٥﴾

[تَعْلِيمٌ تَلْفِي الْوُحْيِ]

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي كَيْفِيَّةِ تَلْفِيهِ

أَمَا كَيْفَا الْمُتَمَرِّقَةِ؟ ﴿بَلِ قَادِرِينَ عَلَيْهِ أَنْ سُئِيَ بِنَانِهِ﴾ أَي: أَبْظُنُّ الْإِنْسَانَ أَنَّا لَا نَجْمَعُ عِظَامَهُ؟ بَلَى سَنَجْمَعُهَا قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بِنَانَهُ أَي: قُدْرَتُنَا صَالِحَةٌ لِيَجْمَعَهَا، وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَاهُ أَزِيدَ مِمَّا كَانَ فَتَجْعَلُ بِنَانَهُ -وهي أطراف أصابعه- مُسْتَوِيَةً، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلِ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يَعْنِي الْأَمَلَ. يَقُولُ الْإِنْسَانُ: أَعْمَلْتُ ثُمَّ أَتُوبُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ هُوَ الْكُفْرُ بِالْحَقِّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ. قَالَ سَعِيدٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي يَمْضِي قُدَمَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ لِيَمْضِيَ أَمَامَهُ رَاكِبًا رَأْسَهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الْكَافِرُ يَكْذِبُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ^(١). وَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ^(٢). وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أَي: يَقُولُ: مَتَى يَكُونُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؟ وَإِنَّمَا سُؤَالُهُ سُؤَالُ اسْتِيعَادٍ لَوْ قُوعِهِ وَتَكْذِيبٍ لَوْجُودِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّمَا بِرَقِ الضَّرُّ﴾ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو بِنُ الْعَلَاءِ ﴿بِرَقٍ﴾ بِكَسْرِ الرَّاءِ أَي: حَارَ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ شَيْبَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٤] أَي: بَلْ يَنْظُرُونَ مِنَ الْفَرْعِ هَكَذَا وَهَكَذَا لَا يَسْتَعْرِفُونَ لَهُمْ بَصَرَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ شِدَّةِ الرُّعْبِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ: (بِرَقٍ) بِالْفَتْحِ، وَهُوَ قَرِيبٌ فِي الْمَعْنَى مِنَ الْأَوَّلِ، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْأَبْصَارَ تَتَبَهَّرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَتَحَسَّعُ وَتَحَارُ وَتَذِلُّ مِنَ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ وَمِنْ عِظَمِ مَا تُشَاهِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأُمُورِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أَي: ذَهَبَ ضَوْؤُهُ ﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: كُورًا^(٣). وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١] وَرَوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَ: (وَجَمَعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ﴾ أَي: إِذَا عَايَنَ ابْنُ آدَمَ هَذِهِ الْأَهْوَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَئِذٍ يُرِيدُ أَنْ يَقَرَّ وَيَقُولَ: أَيْنَ الْمَقَرُّ؟ أَي: هَلْ مِنْ مَلْجَأٍ أَوْ مَوْئِلٍ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [١١] إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدٌ بَنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ مِنَ السَّلَفِ: أَي: لَا نَجَاةَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أَي: لَيْسَ لَكُمْ مَكَانٌ تَتَنَكَّرُونَ فِيهِ، وَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لَا وَزَرَ﴾ أَي: لَيْسَ لَكُمْ مَكَانٌ تَعْتَصِمُونَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

(١) الطبري: ٥٤/٢٤ (٢) الطبري: ٥٤/٢٤ (٣) الطبري:

٥٧/٢٤ (٤) الطبري: ٦٢/٢٤ (٥) الطبري: ٦٤/٢٤ (٦)

الطبري: ٦٥/٢٤ (٧) الطبري: ٦٤/٢٤

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١٦﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿١٧﴾ وَوَجْهٌ يُومِئُ نَاصِرَةٌ ﴿١٨﴾
إِلَىٰ رِبَّهَا نَاطِرَةٌ ﴿١٩﴾ وَوَجْهٌ يُومِئُ بَاسِرَةٌ ﴿٢٠﴾ ظَنُّنَّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢١﴾
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَافَةَ ﴿٢٢﴾ وَقِيلَ مِنْ رَأْفٍ ﴿٢٣﴾ وَظَنُّنَّ أَنْهَا الْفِرَاقُ ﴿٢٤﴾ وَالنَّفْسُ
السَّاقِيَةُ بِالسَّاقِ ﴿٢٥﴾ إِلَىٰ رَيْكٍ يُومِئُ الْمَسَاقِ ﴿٢٦﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ
﴿٢٧﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي ﴿٢٩﴾ أُولَٰئِكَ
فَأُولَٰئِكَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ ﴿٣١﴾ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٢﴾
أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٣﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَحَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٤﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ
الرِّزْقَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ الْمَوْتَىٰ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الْإِنشِرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَاقًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّا
الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

وَجَلَّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ مِنْ طُرُقٍ
مُتَوَاتِرَةٍ عِنْدَ أَيْمَةِ الْحَدِيثِ لَا يُمَكِّنُ دَفْعُهَا وَلَا مَنَعُهَا،
كَحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ
نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ تَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟
فَقَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا
سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ
كَذَلِكَ»^(٤).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَبْرِ، قَالَ: نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ
هَذَا الْقَمَرَ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ
طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»^(٥). وَفِي أَفْرَادِ
مُسْلِمٍ عَنْ صَهْبِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ

الْوَحْيِ مِنَ الْمَلِكِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُبَادِرُ إِلَىٰ أَخِيهِ وَيُسَابِقُ
الْمَلِكَ فِي قِرَاءَتِهِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا جَاءَهُ الْمَلِكُ
بِالْوَحْيِ أَنْ يَسْتَمِعَ لَهُ، وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَجْمَعَهُ فِي صَدْرِهِ،
وَأَنْ يُبَيِّنَهُ لِأَدَاتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَلْفَاهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبَيِّنَهُ لَهُ
وَيُفَسِّرَهُ وَيُوضِّحَهُ. فَالْحَالَةُ الْأُولَى جَمْعُهُ فِي صَدْرِهِ،
وَالثَّانِيَةُ تِلَاوَتُهُ، وَالثَّلَاثَةُ تَفْسِيرُهُ وَإِبْصَاحُ مَعْنَاهُ. وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَلَّكَ بِهِ﴾ أَي: بِالْقُرْآنِ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ
وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِ
عَلَيْنَا جَمْعُهُ﴾ أَي: فِي صَدْرِكَ ﴿وَوَهَّائِهِ﴾ أَي: أَنْ تَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا
قَرَأْتَهُ﴾ أَي: إِذَا تَلَاهُ عَلَيْكَ الْمَلِكُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّيَبَ
قُرْآنُهُ﴾ أَي: فَاسْتَمِعَ لَهُ ثُمَّ أَقْرَأَهُ كَمَا أَقْرَأَكَ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
بَيَانَهُ﴾ أَي: بَعْدَ حَفْظِهِ وَتِلَاوَتِهِ نُبَيِّنُهُ لَكَ وَنُوضِّحُهُ
وَنُلْهِمُكَ مَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَدْنَا وَشَرَعْنَا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ
شِدَّةً، فَكَانَ يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ قَالَ: فَقَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَا
أَحْرَكُ شَفْتَيْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ، وَقَالَ
لِي سَعِيدٌ: وَأَنَا أَحْرَكُ شَفْتَيْ كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُ
شَفْتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَلَّكَ بِهِ﴾^(١).
وَإِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَوَهَّائِهِ﴾ قَالَ: جَمْعُهُ فِي صَدْرِكَ ثُمَّ تَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا
قَرَأْتَهُ فَاتَّيَبَ قُرْآنُهُ﴾ أَي: فَاسْتَمِعَ لَهُ وَأَنْصَتَ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
بَيَانَهُ﴾ فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا انْطَلَقَ جَبْرِيلُ قَرَأَهُ كَمَا أَقْرَأَهُ^(٢).
وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ. وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ: فَكَانَ إِذَا أَنَا
جَبْرِيلُ أَطْرَقَ، فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٣).

[سَبَبُ تَكْلِيْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حُبِّ الدُّنْيَا وَالْعَفْلَةِ عَنِ

الْآخِرَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ﴿١٦﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أَي:
إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّكْلِيْبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمُخَالَفَتِهِ مَا أَنْزَلَهُ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ
الْعَظِيمِ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا هَمَّتْهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ وَهُمْ
لَا هُونَ مُتَشَاغِلُونَ عَنِ الْآخِرَةِ.

[رُؤْيَةُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجْهٌ يُومِئُ نَاصِرَةٌ﴾ مِنَ التَّضَارَةِ أَي:
حَسَنَةً بَهِيَّةً مُشْرِقَةً مَسْرُورَةً ﴿إِلَىٰ رِبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ أَي: تَرَاهُ عَيْنَانَا
كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي صَحِيحِهِ «إِنَّكُمْ
سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيْنَانَا»^(٣). وَقَدْ بَيَّنَّتْ رُؤْيَةَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّ

(١) أحمد: ٣٤٣/١ (٢) فتح الباري: ٣٩/١ و٥٤٧/٨ و٥٤٩
٥٥٠ و٧٠٧ و١٣/٥٠٨ و١٣/٣٣٠ (٣) فتح الباري:
٤٣٠/١٣ (٤) فتح الباري: ٤٣٠/١٣ و٤٣١ و١/١
١٦٧ و١٣/٤٢٩ و١٣/٤٢٩ (٥) فتح الباري: ٤٢٩/١

[يَحْضُلُ الْيَقِينُ عِنْدَ الْاِحْتِضَارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالَةِ الْاِحْتِضَارِ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ الْاَهْوَالِ - تَبَيَّنَا اللهُ هُنَالِكَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِي إِِنْ جَعَلْنَا كَلًا رَادِعَةً فَمَعَنَّاهَا: لَسْتَ يَا ابْنَ آدَمَ، هُنَاكَ تُكَذِّبُ بِمَا أُخْبِرْتَ بِهِ، بَلْ صَارَ ذَلِكَ عِنْدَكَ عِيَانًا. وَإِنْ جَعَلْنَاهَا بِمَعْنَى: حَقًّا فَظَاهِرًا، أَيْ: حَقًّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِي أَيْ: انْتَزَعَتْ رُوحَكَ مِنْ جَسَدِكَ وَبَلَغَتْ تَرَاقِيكَ، وَالتَّرَاقِي جَمْعُ تَرْقُوعَةٍ، وَهِيَ الْعِظَامُ الَّتِي بَيْنَ ثَغْرَةِ النَّخْرِ وَالْعَاتِقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُمُ (٨٧) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٨) وَحَنْ أَوْبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ (٨٩) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ (٩٠) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِي﴾ ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ مِنْ رَاقٍ يَرْقِي (٦). وَكَذَا قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أَيْ: مِنْ طَيِّبٍ شَافٍ (٧). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ (٨). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَاللَّتِ السَّائِقُ بِالسَّائِقِ﴾ يَقُولُ آخِرَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الآخِرَةِ، فَتَلْقَى الشَّدَّةُ بِالشَّدَّةِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللهُ (٩). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وَاللَّتِ السَّائِقُ بِالسَّائِقِ﴾ الأَمْرُ الْعَظِيمُ بِالأَمْرِ الْعَظِيمِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِلَاءٌ بِلَاءً. وَقَالَ الْحَسَنُ البَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّتِ السَّائِقُ بِالسَّائِقِ﴾ هُمَا سَافَاكٌ إِذَا التَفَّتَا (١٠). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: مَاتَتْ رِجْلَاهُ فَلَمْ تَحْمِلْهُ وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا جَوَالًا (١١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ النَّسَاقُ﴾ أَيْ: الْمَرْجِعُ وَالْمَابِثُ، وَذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ تَرْفَعُ إِلَى السَّمَوَاتِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: رُدُّوا عِبْدِي إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ البَرَاءِ الطَّوِيلِ (١٢). وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَرَسُولُكَ عَلَيْكُمْ حَفْظَةٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

الْحَيَّةُ الْحَيَّةُ - قَالَ - يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَرِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تَبْيَضْ وَجُوهُنَا؟ أَلَمْ تَدْخُلْنَا الْحَيَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ زِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] (١). وَفِي أَفْرَادٍ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ فِي حَدِيثِهِ: «إِنَّ اللهَ يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ بِضَحَاكٍ» (٢). يَعْنِي: فِي عَرَاصَاتِ الْقِيَامَةِ، فَبِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي العَرَاصَاتِ، وَفِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ. وَلَوْلَا خَشْيَةُ الإِطَالَةِ لِأَوْرَدْنَا الأَحَادِيثَ بِطَرَفِهَا وَالْفَاطِيهَا مِنَ الصَّحَّاحِ وَالْحَسَانِ وَالْمَسَائِدِ وَالسَّنَنِ، وَلَكِنْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ مُفْرَقًا فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ. وَهَذَا بِحَمْدِ اللهِ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَلَفِ هَذِهِ الأُمَّةِ، كَمَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أُمَّةِ الإِسْلَامِ وَهَذِهِ الأَنَامِ.

[تَسْوَدُ وَجُوهُ الْعُصَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٤٤) تَلْهَى أُنثَىٰ بِمَا قَاوَرَةٌ هَذِهِ وَجُوهٌ أَلْفَجَارٍ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَاسِرَةً. قَالَ قَتَادَةُ: كَالِحَةٍ (٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَعَبَّرَ أَلْوَانُهَا (٤). «تَنْظُرُ» أَيْ: تَسْتَيْقِنُ «أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَاوَرَةٌ» قَالَ مُجَاهِدٌ: ذَاهِيَةٌ (٥). وَقَالَ قَتَادَةُ: شَرٌّ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَسْتَيْقِنُ أَنَّهَا هَالِكَةٌ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: تَنْظُرُ أَنْ سَدَّخُلُ النَّارِ، وَهَذَا الْمَقَامُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٢٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٢٩) وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَابِرَةٌ (٤٠) تَرَهَقَهَا فَزْرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ الْفَجْرَةُ﴾ [عبس: ٣٨-٤٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٦١) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٦٢) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٦٣) إِلَى قَوْلِهِ «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-١٠] فِي أَشْبَاهِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ وَالسِّيَاقَاتِ.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِي (٦١) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٦٢) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٦٣) وَاللَّتِ السَّائِقُ بِالسَّائِقِ (٦٤) إِنْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ النَّسَاقُ (٦٥) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٦٦) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٦٧) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمْتَقِنُ (٦٨) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٦٩) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٧٠) أَحْسَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٧١) أَلَمْ يَكُنْ لَكَ تَلْفُظٌ مِنْ مَتْنِي يُمْنِي (٧٢) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٧٣) فَعَمَلٌ مِنْهُ الْوَجْهَيْنِ الذِّكْرُ وَالْأُنثَىٰ (٧٤) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ الْمَوْتَىٰ (٧٥)﴾

(١) مسلم: ١٦٣/١ (٢) مسلم: ١٧٨/١ (٣) الطبري: ٢٤/٢٤
٧٤ (٤) القرطبي: ١١٠/١٩ (٥) الطبري: ٧٤/٢٤ (٦)
الطبري: ٧٥/٢٤ (٧) الطبري: ٧٥/٢٤ (٨) الطبري: ٢٤/٢٤
٧٥ (٩) الطبري: ٧٦/٢٤ (١٠) الطبري: ٧٨/٢٤ (١١)
القرطبي: ١١٢/١٩ (١٢) الطوال للطبراني: ٢٣٨

[ذِكْرُ حَالِ الْمُكَذِّبِ]

الدُّنْيَا مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى، وَلَا يُتْرَكُ فِي قَبْرِهِ سُدَى لَا يُبْعَثُ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ مِنْهِيَ فِي الدُّنْيَا، مَحْشُورٌ إِلَى اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا: إِبْتِثُ الْمَعَادِ وَالرُّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الرَّيْبِ وَالْجَهْلِ وَالْعِتَادِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُسْتَدِلًّا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْبُدْءِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيِّ بَيْنَتَيْ أُنثَى: أَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ نُطْفَةً ضَعِيفَةً مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [يُنْتَى]: يُرَاقُ مِنَ الْأَصْلَابِ فِي الْأَرْحَامِ.

﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَلَقًا فَنَسُوهُ﴾ [أُنثَى]: فَصَارَ عِلْقَةً ثُمَّ مُضَعَّةً، ثُمَّ سُكِّلَ وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ فَصَارَ خَلْقًا آخَرَ سَوِيًّا سَلِيمًا الْأَعْضَاءِ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَجْعَلُ بَيْنَهُ الرِّزْقَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَّمَ أَنْ يُخَيِّئَ الْمَوْتَ﴾ [أُنثَى]: أَمَا هَذَا الَّذِي أَنْشَأَ هَذَا الْخَلْقَ السَّوِيَّ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ الضَّعِيفَةِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ؟! وَتَنَاوَلُ الْقُدْرَةَ لِلْإِعَادَةِ إِمَّا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى بِالنَّسَبِ إِلَى الْبُدْءِ، وَإِمَّا مُسَاوِيَةً عَلَى الْقَوْلَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وَالْأَوَّلُ أَشْهَرُ. كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الرُّومِ بَيَانُهُ وَتَقْرِيرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الدُّعَاءُ عِنْدَ خِتَامِ السُّورَةِ]

رَوَى أَبُو دَاوُدَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ، فَكَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿الَّذِينَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَّمَ أَنْ يُخَيِّئَ الْمَوْتَ﴾ قَالَ: سُبْحَانَكَ قَلْبِي. فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ، وَلَمْ يُسَمِّ هَذَا الصَّحَابِيَّ وَلَا يُضَرُّ ذَلِكَ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْسَانِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[قِرَاءَةُ سُورَةِ السَّجْدَةِ وَالْإِنْسَانِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ]

قَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: ﴿الذِّكْرُ ١﴾

(١) الدر المنثور: ٣٦٣/٨ (٢) الطبري: ٨١/٢٤ (٣) النسائي في الكبرى: ٥٠٤/٦ (٤) أبو داود: ٥٤٩/١

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [٣٦] وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿هَذَا إِجْبَارٌ عَنِ الْكَافِرِ الَّذِي كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُكَذِّبًا لِلْحَقِّ بِقَلْبِهِ مُتَوَلِّيًا عَنِ الْعَمَلِ بِقَالِيهِ، فَلَا خَيْرَ فِيهِ بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [٣٦] وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَّبِعُهُ﴾ [أُنثَى]: جَذْلَانٌ أَشْرًا بَطْرًا كَسَلَانٌ لَا هِمَّةَ لَهُ وَلَا عَمَلَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِمْ سُرُوًّا﴾ [٣٢] إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ لَنْ يَمُوتُوا أَيُّ يَرْجِعُ ﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٣-١٥] وَقَالَ الصَّحَّاحُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَّبِعُهُ﴾ [أُنثَى]: يَخْتَالُ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: يَتَّخِذُ^(٢). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ لَكَ فَأُولَى﴾ [٣٦] ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَافِرِ بِهِ، الْمُتَّبِعِ خَيْرٌ فِي مَشِيهِ أَيُّ يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَمْشِيَ هَكَذَا، وَقَدْ كَفَرْتَ بِخَالِقِكَ وَبَارِئِكَ؟! كَمَا يُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ وَالتَّهْدِيدِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَشَرِبُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَرَوَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَوَلَيْكَ لَكَ فَأَوْلَى﴾ [٣٦] ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي جَهْلٍ ثُمَّ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٣). رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَيْكَ لَكَ فَأَوْلَى﴾ [٣٦] ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿وَعِيدٌ عَلَى أَثَرِ وَعِيدٍ كَمَا تَسْمَعُونَ، وَرَعِمُوا أَنْ عَدُوَّ اللَّهِ أَبَا جَهْلٍ، أَخَذَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ بِمَجَامِعِ نِيَابِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى» فَقَالَ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ: أَنْتَ عَدُوُّنِي يَا مُحَمَّدٌ؟ وَاللَّهُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلَا رَبُّكَ شَيْئًا، وَإِنِّي لِأَعَزُّ مِنْ مَسَى بَيْنَ جَبَلَيْهَا.

[لَا يُتْرَكُ الْإِنْسَانُ هَمَلًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي: لَا يُبْعَثُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّافِعِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَعْنِي لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ الْآيَةَ تَعْمُ الْحَالَيْنِ أَيُّ: لَيْسَ يُتْرَكُ فِي هَذِهِ

تَبْرِيْلٌ ﴿١﴾ السَّجْدَةَ وَ ﴿٢﴾ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴿٣﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿٢﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٣﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٤﴾

[خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ أَوْجَدَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا يُذَكَّرُ لِحَفَازَتِهِ وَضَعْفِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أَي: أَخْلَاطٍ. وَالْمَشْجُ وَالْمَشِيخُ: الشَّيْءُ الْمُخْتَلَطُ بِبَعْضِهِ فِي بَعْضٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يَعْنِي مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ إِذَا اجْتَمَعَا وَاخْتَلَطَا ^(١). ثُمَّ يَنْتَقِلُ بَعْدَ مِنْ طُورٍ إِلَى طُورٍ وَحَالٍ إِلَى حَالٍ وَلَوْ نِ إِلَى لَوْنٍ. وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالرَّبِيعُ بُنُ أَسَس: الْأَمْشَاجُ هُوَ اخْتِلَاطُ مَاءِ الرَّجُلِ بِمَاءِ الْمَرْأَةِ ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أَي نَحْتَبِرُهُ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لِيَبْلُوكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أَي: جَعَلْنَا لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا يَتِمَكَّنُ بِهِمَا مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

[هَدَاهُ اللَّهُ السَّبِيلَ فَهُوَ إِمَّا شَاكِرٌ وَإِمَّا كَفُورٌ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أَي: بَيَّنَّاهُ لَهُ وَوَضَّحْنَاهُ وَبَصَّرْنَاهُ بِهِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَمَّا نَسُوا فَمَا كَانُوا فِيهَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الفصل: ١٧]، وَكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أَي: بَيَّنَّاهُ لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ الشَّرِّ. وَهَذَا قَوْلُ عِكْرِمَةَ وَعَطِيَّةَ وَابْنِ زَيْدٍ وَمُجَاهِدٍ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ وَالْمُجْمُورِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ تَقْدِيرُهُ: فَهُوَ فِي ذَلِكَ إِمَّا شَاكِرٌ وَإِمَّا سَعِيدٌ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسِهِ، فَمُؤْتَمِنٌ أَوْ مُخْتَفَأٌ» ^(٤).

﴿٤﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَوْنَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٦﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٧﴾ يُؤْتُونَ بِالنَّدْرِ نِغَابُونَ يَوْمًا كَانَ سُرُهُمْ مَسْتَطِيرًا ﴿٨﴾ وَيُظْمِئُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْهٍ مَّسْكِينًا وَيَسْمَا وَيَأْسِيرًا ﴿٩﴾ إِنَّمَا نَطْمَعُكُمْ لِيَوْمِهِ اللَّهُ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿١٠﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا

قَطِيرًا ﴿١١﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١٢﴾

وَجَزَاءُ الْكَافِرِينَ وَالْأَبْرَارِ]

[جَزَاءُ الْكَافِرِينَ وَالْأَبْرَارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَرْصَدَهُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ خَلْقِهِ بِهِ مِنْ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ وَالسَّعِيرِ، وَهُوَ اللَّهَبُ وَالْحَرِيقُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [٧٦: ٧١، ٧٢]، وَلَمَّا ذَكَرَ مَا أَعَدَّهُ لِلْهُولَاءِ الْأَشْفِيَاءِ مِنَ السَّعِيرِ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَوْنَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ وَقَدْ عَلِمَ مَا فِي الْكَافُورِ مِنَ التَّبْرِيدِ وَالرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ اللَّذَازَةِ فِي الْحَيْثِ. قَالَ الْحَسَنُ: بَرْدُ الْكَافُورِ فِي طِيبِ الرَّنَجَبِيلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أَي: هَذَا الَّذِي مُرَّجَ لِهُولَاءِ الْأَبْرَارِ مِنَ الْكَافُورِ هُوَ عَيْنٌ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقْرَبُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ صَرْفًا بِلَا مُرَّجٍ وَيَرْوُونَ بِهَا، وَلِهَذَا ضَمَّنَ يَشْرَبُ مَعْنَى «يَرَوِي» حَتَّى عَدَّاهُ بِالْبَاءِ وَنَصَّبَ عَيْنًا عَلَى التَّمْيِيزِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أَي: يَنْصَرِفُونَ فِيهَا حَيْثُ شَاؤُوا، وَأَيَّنَ شَاؤُوا مِنْ قُصُورِهِمْ وَدُورِهِمْ وَمَحَالِسِهِمْ وَمَحَالَتِهِمْ، وَالتَّفْجِيرُ هُوَ الْإِنْبَاعُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، وَقَالَ: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ [الكهف: ٣٣].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يَقُودُونَهَا حَيْثُ شَاؤُوا ^(٥) وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ ^(٦). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: يُصْرَفُونَهَا حَيْثُ شَاؤُوا ^(٧).

[أَعْمَالُ هُولَاءِ الْأَبْرَارِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُؤْتُونَ بِالنَّدْرِ نِغَابُونَ يَوْمًا كَانَ سُرُهُمْ مَسْتَطِيرًا﴾ أَي: يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ فِيَمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَةِ بِأَصْلِ الشَّرْعِ، وَمَا أَوْجَبُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِطَرِيقِ النَّدْرِ. قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْأَيْلِيِّ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَدَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِيعْهُ، وَمَنْ نَدَرَ أَنْ يُعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يُعْصِهِ» ^(٨). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ

(١) مسلم: ٥٩٩/٢ (٢) الطبري: ٨٩/٢٤ (٣) الطبري: ٢٤

٨٩، ٩٠ (٤) مسلم: ٢٠٣/١ (٥) الطبري: ٩٤/٢٤ (٦)

الدر المنثور: ٣٦٩/٨ (٧) الطبري: ٩٥/٢٤ (٨) الموطأ: ٢

مَالِكٍ^(١). وَيَتْرُكُونَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي نَهَاهُمْ عَنْهَا؛ خِيفَةً مِنْ شُوءِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي شَرُّهُ مُسْتَطِيرٌ أَيُّ: مُتَشِيرٌ عَامٌّ عَلَى النَّاسِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاشْتِيَاءً. وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتَطَارَ - وَاللَّهُ - شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى مَلَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ قِيلَ: عَلَى حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَجَعَلُوا الضَّمِيرَ عَائِدًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِذِلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى الطَّعَامِ أَيُّ: وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ فِي حَالِ مَحَبَّتِهِمْ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّ الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ نَأْكُلَ الْلَبَّ حَتَّى تَنْفِقُوا مِمَّا حُبَّبْنَا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ٩٩].

وَفِي الصَّحِيحِ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ سَاحِحٍ، تَأْمَلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ»^(٤). أَيُّ: فِي حَالِ مَحَبَّتِكَ لِلْمَالِ وَجِزْصِكَ عَلَيْهِ وَحَاجَتِكَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، أَمَّا الْمَسْكِينُ وَالْيَتِيمُ فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُمَا وَصِفَتُهُمَا، وَأَمَّا الْأَسِيرُ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَالصَّحَّاحُ: الْأَسِيرُ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ^(٥). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ أَسْرَاؤُهُمْ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكِينَ^(٦). وَيَشْهَدُ لِهَذَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ يُكْرِمُوا الْأَسَارَى، فَكَانُوا يُقَدِّمُونَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْغَدَاةِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُمُ الْعَيْدُ^(٧). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، لِغُمُومِ الْآيَةِ لِلْمُسْلِمِ وَالْمُشْرِكِ^(٨). وَهَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَقَدْ وَصَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَرْقَاءِ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ آجِرًا مَا أَوْصَى أَنْ جَعَلَ يَقُولُ: «الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»^(٩). قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْمَحْبُوسُ^(١٠). أَيُّ: يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ لَهُؤُلَاءِ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ وَيُحِبُّونَهُ قَائِلِينَ بِلِسَانِ الْحَالِ: ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: رَجَاءِ ثَوَابِ اللَّهِ وَرِضَاهُ ﴿لَا زَيْدٌ مِنْكُمْ جَزَاءٌ وَلَا شُكْرًا﴾ أَيُّ: لَا نَطْلُبُ مِنْكُمْ مُجَازَاةً نَكَاثِفُونَنَا بِهَا، وَلَا أَنْ تَشْكُرُونَا عِنْدَ النَّاسِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَمَّا وَاللَّهِ مَا قَالُوهُ بِالْأَسْتِثْمِ، وَلَكِنْ عَلِمَ اللَّهُ بِهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِهِ، لِيُرْعَبَ فِي ذَلِكَ رَاغِبٌ^(١١). ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ أَيُّ: إِنَّمَا نَفْعَلُ هَذَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَنَا وَيَتَلَقَّنَا بِلُطْفِهِ فِي الْيَوْمِ الْعَبُوسِ الْقَطَطِيرِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ

عَبَّاسٍ: ﴿عَبُوسًا﴾ ضَمًّا. ﴿قَطَطِيرًا﴾: طَوِيلًا^(١٢). وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ قَالَ: يَعْبَسُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَرَقٌ مِثْلُ الْقَطْرَانِ^(١٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿عَبُوسًا﴾ الْعَابِسُ الشَّفِيعِينَ ﴿قَطَطِيرًا﴾ قَالَ: [تَقْبِضُ] الْوَجْهَ [بِالْبُسُورِ]. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: تَعْبَسُ فِيهِ الْوُجُوهُ مِنَ الْهَوْلِ. ﴿قَطَطِيرًا﴾: تَقْلِصُ الْجَبِينِ وَمَا بَيْنَ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْهَوْلِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ، الْعَبُوسُ: الشَّرُّ، وَالْقَطَطِيرُ: الشَّدِيدُ.

[بَعْضُ التَّفْصِيلِ لِجَزَاءِ الْأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ

(١) فتح الباري: ٥٨٩/١١ (٢) الطبري: ٩٦/٢٤ (٣) الطبري: ٩٦/٢٤ (٤) فتح الباري: ٣٣٤/٣ (٥) الطبري: ٩٧/٢٤ (٦) عبد الرزاق: ٣٣٧/٣ (٧) القرطبي: ١٢٩/١٩ (٨) الطبري: ٩٨/٢٤ (٩) السائي في الكبرى: ٢٥٨/٤ (١٠) الطبري: ٩٨/٢٤ (١١) الطبري: ٩٨/٢٤ (١٢) الطبري: ١٠٠/٢٤ (١٣) الطبري: ٩٩/٢٤

وَسُورًا ﴿١٣﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّجَانُّسِ الْبَلِيغِ ﴿وَقَوْلُهُمْ اللَّهُ سَرَّ ذَلِكَ الْوَبْرَ﴾ أَي: أَمَنَهُمْ مِمَّا خَافُوا مِنْهُ ﴿وَلَقَنَّهُمْ نَصْرَهُ﴾ أَي: فِي وُجُوهِهِمْ ﴿وَسُورًا﴾ أَي: فِي قُلُوبِهِمْ. قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ ^(١). وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجِئُوا يَوْمَئِذٍ مُسْفِرًا﴾ (١٨) صَاحِكَةً مُسْتَشِيرَةً ﴿وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا سَرَّ اسْتَنَارَ الْوَجْهُ. قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَتْهُ فِلَقَةٌ قَمَرٍ ^(٢). وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَسْرُورًا تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ. الْحَدِيثُ ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَزَّوْهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ أَي: بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ أَغْطَاهُمْ وَتَوَلَّاهُمْ وَبَوَّأَهُمْ جَنَّةً وَحَرِيرًا أَي: مَنْزِلًا رَحْبًا وَعَيْشًا رَعْدًا وَلِبَاسًا حَسَنًا. وَرَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ هِشَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ الدَّارَائِيِّ قَالَ: قُرِئَ عَلَيَّ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَائِيِّ سُورَةُ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ فَلَمَّا بَلَغَ الْقَارِئُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَّوْهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ قَالَ: بِمَا صَبَرُوا وَعَلَى تَرْكِ الشَّهَوَاتِ فِي الدُّنْيَا.

﴿مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (١٤) وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَدِيلًا ﴿١٥﴾ وَطُفَافٌ عَلَيْهِمْ بِكَائِبَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٦﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٧﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٨﴾ عَيْنًا فِيهَا سَعْتَى سَلْسِيلًا ﴿١٩﴾ وَطُفُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلِذُنُوبِهِمْ أَقْدَامًا إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مِنْ ثَمَرٍ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَمْلَكًا كِبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا مُسَوِّدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَبَاتٍ طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مُشْكُورًا ﴿٢٢﴾

[ذِكْرُ الْأَرَائِكِ، وَأَنَّهُ لَا حَرَّ وَلَا بَرْدَ فِي الْجَنَّةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَمَا أَسْنَعُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ، وَذِكْرُ الْخِلَافِ فِي الْإِتِّكَاءِ، هَلْ هُوَ الْأَضْطِجَاعُ أَوْ التَّمَرُّقُ أَوْ التَّرْبِيعُ أَوْ التَّمَكُّنُ فِي الْجُلُوسِ، وَأَنَّ الْأَرَائِكَ هِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْجِحَالِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أَي: لَيْسَ عِنْدَهُمْ حَرٌّ مُزْعِجٌ وَلَا بَرْدٌ مُؤْلِمٌ، بَلْ هِيَ مِزَاجٌ وَاحِدٌ دَائِمٌ سَرْمَدِيٌّ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا جَوْلًا.

[دُنُوُّ الظَّلَالِ وَالْقُطُوفِ]

﴿وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أَي: قَرِيبَةً إِلَيْهِمْ أَغْصَانُهَا ﴿وَذُلَّتْ

قُطُوفُهَا نَدِيلًا﴾ أَي: مَتَى تَعَاطَاهُ دَنَا الْقُطْفُ إِلَيْهِ وَتَدَلَّى مِنْ أَعْلَى غُصْنِهِ كَأَنَّهُ سَامِعٌ طَائِعٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَحَىَّ الْحَنَاقِينَ دَانٍ﴾ (الرحمن: ٥٤) وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُطُوفُهَا دَائِبَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رَدُّلَتْ قُطُوفُهَا نَدِيلًا﴾ إِنْ قَامَ ارْتَفَعَتْ مَعَهُ بِقَدْرٍ، وَإِنْ قَعَدَتْ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى يَبَالِغَ، وَإِنْ اضْطَجَعَ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى يَبَالِغَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَدِيلًا﴾ ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا يَرُدُّ أَيْدِيَهُمْ عَنْهَا شَوْكٌ وَلَا بَعْدُ ^(٥).

[آيَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ]

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَطُفَافٌ عَلَيْهِمْ بِكَائِبَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أَي: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ الْحَدَمُ بِأَوَانِي الطَّعَامِ، وَهِيَ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابِ الشَّرَابِ، وَهِيَ الْكِبْرَانُ الَّتِي لَا عُرَى لَهَا وَلَا خَرَاطِيمَ، وَقَوْلُهُ: ﴿قَوَارِيرًا﴾ (١٦) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ ﴿فَالأَوَّلُ مَنْصُوبٌ بِخَبَرٍ كَانَ أَي: كَانَتْ قَوَارِيرَ، وَالثَّانِي مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْبَدَلِيَّةِ أَوْ تَمْيِيزٍ لِأَنَّهُ بَيَّنَّهُ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ: بِيَاضِ الْفِضَّةِ فِي صِفَاءِ الزُّجَاجِ ^(٦). وَالْقَوَارِيرُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ زُجَاجٍ، فَهَذِهِ الْأَكْوَابُ هِيَ مِنْ فِضَّةٍ، وَهِيَ مَعَ هَذَا شَفَافَةٌ تَرَى مَا فِي بَاطِنِهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، وَهَذَا مِمَّا لَا تُظَيِّرُ لَهُ فِي الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أَي: عَلَى قَدْرِ رَبِّهِمْ، لَا تَزِيدُ عَنْهُ وَلَا تَنْقُصُ، بَلْ هِيَ مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ مُقَدَّرَةٌ بِحَسَبِ رِيٍّ صَاحِبِهَا. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي صَالِحٍ، وَقَتَادَةُ وَابْنُ أَبِي زَيْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، وَقَتَادَةُ وَالشَّعْبِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ ^(٧). وَهَذَا أُبْلَغُ فِي الْأَعْتِنَاءِ وَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ.

[شَرَابُ الزَّنْجَبِيلِ وَالسَّلْسِيلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ أَي: وَيُسْقَوْنَ بِعِنِي الْأَبْرَارِ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْأَكْوَابِ ﴿كَأْسًا﴾ أَي: خَمْرًا ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ فَتَارَةٌ يُمَزَّجُ لَهُمُ الشَّرَابُ بِالْكَافُورِ وَهُوَ بَارِدٌ، وَتَارَةٌ بِالزَّنْجَبِيلِ وَهُوَ حَارٌّ؛ لِيَعْتَدِلَ

(١) الطبري: ١٠١/٢٤ (٢) فتح الباري: ٦/٦٥٣ (٣) فتح الباري: ٦/٦٥٣ (٤) الطبري: ٢٤/١٠٣ (٥) الطبري: ٢٤/١٠٣ (٦) الطبري: ٢٤/١٠٥، ١٠٦ (٧) الطبري: ٢٤/١٠٦، ١٠٧ والقرطبي: ١٩/١٤١

سورة الإنسان

٥٨٠

سورة الإنسان

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٦٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٦٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٦٨﴾ إِنْ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٦٩﴾ وَمَا نَشَاءُ وَنُؤْتِي إِلَّا أَنْ نَشَاءَ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٧٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧١﴾

سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْصَقْتَ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرَتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَأَنْزَقْتَ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلَقْتَ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ تَنْزِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا نُوعِدُونَ لَوَفْعَ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُوجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَبِلِ يَوْمِذِ لَمَّا كَذَبْتُمْ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَهْلِكِ الْأُولَىٰ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَبَعْتَهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَبِلِ يَوْمِذِ لَمَّا كَذَبْتُمْ ﴿١٩﴾

الأبرار، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْتَلُونَ فِيهَا مِنَ الْأَسَاوِرِ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى زِينَةَ الظَّاهِرِ بِالْحَرِيرِ وَالْحُلِيِّ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أَي طَهَّرَ بَوَاطِنَهُمْ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحَقْدِ وَالغِلِّ وَالْأَدَى وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ، كَمَا رَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا انْتَهَى أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ وَجَدُوا هُنَاكَ عَتَبَيْنِ، فَكَأَنَّمَا أَلْهَمُوا ذَلِكَ، فَسَرَّبُوا مِنْ إِحْدَاهُمَا، فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ أَدَى، ثُمَّ اغْتَسَلُوا مِنَ الْآخِرَى، فَجَرَّتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحَالِهِمُ الظَّاهِرِ وَجَمَالِهِمُ الْبَاطِنِ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مَشْكُورًا﴾ أَي يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ؛ تَكْرِيمًا لَهُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

الْأَمْرِ، وَهَؤُلَاءِ يُمَزَّجُ لَهُمْ مِنْ هَذَا تَارَةً، وَمِنْ هَذَا تَارَةً، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَإِنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ كُلِّ مِثْمَلٍ صَرَفًا. كَمَا قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ وَاجِدٌ^(١). وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا ﴿عَيْنًا يَتَرَّبُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ﴾ وَقَالَ هُنَا: ﴿عَيْنًا فِيهَا سَمَىٰ سَلْسِيلًا﴾ أَي: الزَّنَجَبِيلُ عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ تُسَمَّى سَلْسِيلًا. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: اسْمٌ عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ، لِسَلْسَاةِ مَسِيلِهَا وَجِدَّةِ جَرِيهَا^(٢).

[الْوِلْدَانِ وَالْخَدَمِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَشْكُورًا﴾ أَي: يَطُوفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ لِلْخَدَمَةِ وَلِدَانٌ مِنْ وَلْدَانِ الْجَنَّةِ ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أَي: عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مُخَلَّدُونَ عَلَيْهَا لَا يَتَغَيَّرُونَ عَنْهَا، لَا تَرِيدُ أَعْمَارُهُمْ عَنْ تِلْكَ السَّنِّ، وَمَنْ فَسَّرَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُخْرَصُونَ فِي آذَانِهِمُ الْأَقْرَطَةُ، فَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَعْنَى بِذَلِكَ، لِأَنَّ الصَّغِيرَ هُوَ الَّذِي يَبْلُغُ لَهُ ذَلِكَ دُونَ الْكَبِيرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَشْكُورًا﴾ أَي إِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ فِي فِضَاءِ حَوَائِجِ السَّادَةِ وَكَثْرَتِهِمْ وَصَبَاحَةِ وَجُوهِهِمْ، وَحُسْنِ أَلْوَانِهِمْ وَنَيَابِهِمْ، وَحُلِيِّهِمْ، حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَشْكُورًا، وَلَا يَكُونُ فِي التَّشْبِيهِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا، وَلَا فِي الْمَنْظَرِ أَحْسَنُ مِنَ اللَّؤْلُؤِ الْمَشْكُورِ عَلَى الْمَكَانِ الْحَسَنِ.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿١﴾ أَي: هُنَاكَ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ وَتَعْبِيجِهَا وَسَعَتِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَبَرَةِ وَالسُّرُورِ ﴿رَأَيْتَ نَيْمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ أَي: مَمْلُوكَةً لِلَّهِ هُنَاكَ عَظِيمَةً وَسُلْطَانًا بَاهِرًا. وَبَتَّ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِآخِرِ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَيْهَا: إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا^(٣). فَإِذَا كَانَ هَذَا عَطَاؤُهُ تَعَالَى لِأَذْنَى مَنْ يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا هُوَ أَعْلَىٰ مَنْزِلَةً وَأَحْظَىٰ عِنْدَهُ تَعَالَى؟.

[اللباس والحلي]

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أَي لِبَاسٌ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا الْحَرِيرُ وَمِنْهُ سُدُسٌ وَهُوَ رَفِيعُ الْحَرِيرِ كَالْقَمِصَّانِ وَنَحْوَهَا مِمَّا يَلْبَسُ الْبَدَانَهُمْ، وَالْإِسْتَبْرَقُ مِنْهُ مَا فِيهِ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ، وَهُوَ مِمَّا يَلْبَسُ الظَّاهِرَ كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي اللَّبَاسِ ﴿وَمَطَّوًّا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ

(١) الطبري: ١٠٧/٢٤ (٢) الطبري: ١٠٨/٢٤ (٣) مسلم:

١٧٣/١ (٤) القرطبي: ٤٧/١٩

أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ﴿٢٤﴾ [الحاقة: ٢٤] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَدُّوا أَنْ يَلَكُمْ الْجِنَّةُ أُرْسِلْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ أَي جَزَائِكُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَنْتَ مُنَادٍ أَوْ كَقَوْلِكَ (٢٤) وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنْ أَيْلٍ فَاسْتَجِدْ لَهُمْ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ جُحُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَبِيًّا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

[ذِكْرُ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ وَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالذِّكْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْتَهَا عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنْ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تَنْزِيلًا: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أَي: كَمَا أَكْرَمْتِكَ بِمَا أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَيَذُرُّكَ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ﴿وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَقَوْلِكَ﴾ أَي: لَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ أَرَادُوا صَدَّكَ عَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ، بَلْ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، فَالْأَيْمُ هُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ، وَالْكَفُورُ هُوَ الْكَافِرُ قَلْبُهُ ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَي: أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ﴿وَمِنْ أَيْلٍ فَاسْتَجِدْ لَهُمْ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَيْلٍ فَاتَّخِذْ يَوْمَ نَافِلَةٍ لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الرِّزْقُ﴾ فَرِ أَيْلٍ إِلَّا قَلِيلًا (٢٦) بَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا (٢٧) أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَزَلَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا [المزمل: ١-٤].

[دَمٌ حُبُّ الدُّنْيَا وَالتَّوْبَةُ عَلَى يَوْمِ الْمَعَادِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْكُفَّارِ وَمَنْ أَشَبَّهُهُمْ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَالْإِنْصَابِ إِلَيْهَا، وَتَرْكِ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ جُحُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَبِيًّا﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي خَلَقْنَاهُمْ (١). ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أَي: وَإِذَا شِئْنَا بَعَثْنَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبَدَّلْنَاهُمْ فَأَعَدْنَا لَهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِالْبَدَاءَةِ عَلَى الرَّجْعَةِ. وَقَالَ

ابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أَي: وَإِذَا شِئْنَا أَتَيْنَا بِقَوْمٍ آخَرِينَ غَيْرِهِمْ (٢). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٣) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [فاطر: ١٩، ٢٠].

[الْقُرْآنُ تَذْكِرَةٌ وَالْهُدَايَةُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يَعْنِي: هَذِهِ السُّورَةُ تَذْكِرَةٌ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أَي: طَرِيقًا وَمَسْلَكًا أَي: مَنْ شَاءَ اهْتَدَىٰ بِالْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا آدَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ... الْآيَةُ [النساء: ٣٩]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَي: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَهْدِيَ نَفْسَهُ، وَلَا يَدْخُلَ فِي الْإِيمَانِ وَلَا يَجُرَّ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَي: عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ فَيَسِّرُهَا لَهُ وَيَقْضِي لَهُ أَسْبَابَهَا، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَاثِيَ فَيَضْرِبُهُ عَنِ الْهُدَىٰ. وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَي: يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْسَانِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ وَقِرَاءَتُهَا فِي الْمَغْرِبِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَارٍ بِمِثْلِ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ﴾ فَإِنَّهُ لَيَتْلُوها، وَإِنِّي لَأَتَلَقَاهَا مِنْ فِيهِ، وَإِنْ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَبِيَّةٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اقْتُلُوها». فَابْتَدَرْنَاها فَذَهَبَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقِيَّتْ شَرُّكُمْ، كَمَا وَقِيَّتْ شَرَّها» (١). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ (٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أُمِّهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ

(١) الطبري: ١١٨/٢٤ (٢) الطبري: ١١٨/٢٤، ١١٩ (٣)

فتح الباري: ٤٢/٤ (٤) مسلم: ١٧٥٥/٤

بِالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا^(١). وَفِي رِوَايَةِ مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أُمَّ الْفَضْلِ سَمِعَتْهُ يَقْرَأُ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ أَذَكَرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ إِنَّهَا لَأَخْرُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ بِهِ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ① فَأَلْمَقِنَتِ عَصْفًا ② وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرًا ③ فَأَلْفَرَقَتْ فَرَقًا ④ فَأَلْمَقِنَتِ ذِكْرًا ⑤ عُدْرًا أَوْ نُدْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ⑦ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ ⑩ وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْفِتَتْ ⑪ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ الْفَضْلِ ⑬ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَضْلِ ⑭ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑮

[قَسَمَ اللَّهُ بِأَشْيَاءٍ مِنْ خَلْفِهِ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ]

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ قَالَ: الْمَلَائِكَةُ. وَرَوَى عَنْ مَسْرُوقٍ وَأَبِي الصَّحْحَى وَمُجَاهِدٍ فِي إِحْدَى الرِّوَايَاتِ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ مِثْلَ ذَلِكَ، وَرَوَى عَنْ أَبِي صَالِحٍ أَنَّهُ قَالَ: هِيَ الرُّسُلُ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: أَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ. وَهَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ فِي الْعَاصِفَاتِ وَالنَّاشِيرَاتِ وَالْفَارِقَاتِ وَالْمُلْقِيَاتِ: أَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ. عَنْ سَلْمَةَ بْنِ كَهْمَلٍ، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ، عَنْ أَبِي الْعُبَيْدِينَ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا قَالَ: الرِّيحُ. وَكَذَا قَالَ فِي الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِيرَاتِ نَشْرًا: إِنَّهَا الرِّيحُ^(٤). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ^(٥). وَقَطَعَ ابْنُ جَرِيرٍ بِأَنَّ الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا الرِّيَّاحُ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمَنْ تَابَعَهُ. وَتَوَقَّفَ فِي النَّاشِيرَاتِ نَشْرًا هَلْ هِيَ الْمَلَائِكَةُ أَوْ الرِّيحُ كَمَا تَقَدَّمَ؟ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ: أَنَّ النَّاشِيرَاتِ نَشْرًا هِيَ الْمَطَرُ، وَالْأَطْهَرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِعٍ﴾ [الحجر: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] وَهَكَذَا الْعَاصِفَاتُ هِيَ الرِّيَّاحُ، يُقَالُ: عَصَفَتِ الرِّيَّاحُ إِذَا هَبَّتْ بِتَضْوِيَتٍ، وَكَذَا النَّاشِيرَاتُ هِيَ الرِّيَّاحُ الَّتِي تَنْشُرُ السَّحَابَ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ كَمَا يَشَاءُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَلْفَرَقَتْ فَرَقًا﴾ ④ فَأَلْمَقِنَتِ ذِكْرًا ⑤ عُدْرًا أَوْ نُدْرًا ⑥ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ

وَالثَّوْرِيُّ^(٦). وَلَا خِلَافَ لِهَهُنَا فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى الرُّسُلِ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالنَّهْدَى وَالْعَيْ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُلْقِي إِلَى الرُّسُلِ وَخِيَا فِيهِ إِعْدَارًا إِلَى الْخَلْقِ وَإِنْدَارًا لَهُمْ عِقَابَ اللَّهِ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ ⑦ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ بِهِذِهِ الْأَقْسَامِ أَي: مَا وَعَدْتُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَالتَّنْفِخِ فِي الصُّورِ وَبَعَثِ الْأَجْسَادِ وَجَمْعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَمُجَاوَزَةِ كُلِّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، إِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَوَاقِعٌ أَي: لِكَائِنٍ لَا مَحَالَةَ.

[ذَكَرَ بَعْضُ مَا يَحْدُثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أَي: ذَهَبَ ضَوْؤُهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أَي: انْفَطَرَتْ وَانْتَشَقَّتْ وَتَدَلَّتْ أَرْجَاؤُهَا وَوَهَتْ أَطْرَافُهَا.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ﴾ أَي: ذَهَبَ بِهَا فَلَا يَبْقَى لَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا... الْآيَةَ [طه: ١٠٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نُسِئَ الْجِبَالُ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَمَرْتَنَّهُمْ فَمَنْ نَعَادِرٍ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْفِتَتْ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: جُمِعَتْ^(٧). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]^(٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أُنْفِتَتْ﴾ أُجِّلَتْ^(٩). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﴿أُنْفِتَتْ﴾ أُوْعِدَتْ^(١٠). وَكَأَنَّهُ يَجْعَلُهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّتِ وَالشَّهَادَةِ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ الْفَضْلِ ⑬ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَضْلِ ⑭ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑮﴾ [المرسلات: ١٢-١٥] يَقُولُ تَعَالَى: لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ الرُّسُلُ، وَأَرْجَى أَمْرُهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعَدِيهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو

(١) أحمد: ٦/٣٣٨ (٢) الموطأ: ١/٧٨ (٣) فتح الباري: ٢/٢٨٧ ومسلم: ١/٣٣٨ (٤) الطبري: ٢٤/١٢٤، ١٢٥ (٥) الطبري: ٢٤/١٢٣، ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ (٦) الطبري: ٢٤/١٢٨، ١٢٩ (٧) الطبري: ٢٤/١٢٩ (٨) الطبري: ٢٤/١٣٠ (٩) الطبري: ٢٤/١٣٠ (١٠) الطبري: ٢٤/١٣٠

سورة المرسلات

٥٨١

سورة المرسلات

أَنْفِقَامِ ﴿٧٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٧٨﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨] وَهُوَ يَوْمَ الْفُضْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ الْفُضْلِ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا لِشَأْنِهِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفُضْلِ﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٧٩﴾ وَيَوْمَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ غَدَاةٌ.

﴿أَنْفِقَامِ﴾ [٧٧] ثُمَّ تُنْفِقُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿٧٧﴾ كَذَلِكَ نَفَعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٧٩﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨٠﴾ فَجَعَلْتَهُمْ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٨١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٨٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٨٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٨٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٨٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْسِيًّا شَمِيخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٨٧﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٨٨﴾

[الدَّعْوَةُ إِلَى الْأَعْتِبَارِ بِأَنْوَاعٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَنْهَكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦] يَعْنِي مِنَ الْمُكذِّبِينَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالِفِينَ لِمَا جَاءُواهُمْ بِهِ ﴿ثُمَّ تُنْفِقُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أَي: مِمَّنْ أَشَبَّهُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَفَعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُثَمِّنًا عَلَى خَلْقِهِ وَمُحْتَجًّا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْبِدْءَةِ: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أَي: ضَعِيفٍ حَقِيرٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا فِي حَدِيثِ [بُسْرِ] ابْنِ جِحَاشٍ: «ابْنُ آدَمَ أُنِّي تُعْجَزُنِي وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ مِثْلِي هَذِهِ؟!» (١).

﴿فَجَعَلْتَهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ يَعْنِي: جَمَعْنَاهُ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ قَرَارُ الْمَاءِ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرَاةِ وَالرَّجْمِ مَعْدُ لِدَلِكِ حَافِظٌ لِمَا أُوْدِعَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يَعْنِي: إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوْ تِسْعَةٍ أَشْهُرٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كِفَاتًا﴾ كِنَاً (٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُكْمِتُ الْمَيْتَ فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ (٣). وَقَالَ الشَّعْبِيُّ بَطْنُهَا لِأَمْوَاتِكُمْ، وَظَهَرُهَا لِأَحْيَائِكُمْ (٤). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ (٥). ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْسِيًّا شَمِيخَاتٍ﴾ يَعْنِي الْجِبَالَ، أَرَسَى بِهَا الْأَرْضَ؛ لِئَلَّا تَمِيدَ وَتَضْطَرِبَ ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ أَي: عَذْبًا زَلَالًا مِنَ السَّحَابِ أَوْ مِمَّا أُنْبَعُ مِنْ عِيُونِ الْأَرْضِ ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ﴾ أَي: وَيَوْمَ لِمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَسْتَمِرُّ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَكُفْرِهِ.

شَعْبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُعْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْفَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جَمَلَتُ صَفْرًا ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَدُ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

[سَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى مَا وَاهُمْ فِي جَهَنَّمَ وَشَيْءٌ مِنْ كَيْفِيَّتِهَا]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُكذِّبِينَ بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَنَّهُمْ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْيَمَامَةِ: ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْدِبُونَ ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ إِلَى ظِلِّ ذِي تَلَكُ شَعْبٍ يَعْنِي لَهَبِ النَّارِ إِذَا ارْتَفَعَ وَصَعِدَ مَعَهُ دُخَانٌ، فَمِنْ شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ أَنَّ لَهُ ثَلَاثَ شَعْبٍ ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُعْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أَي: ظِلُّ الدُّخَانِ الْمُقَابِلِ لِلَّهَبِ لَا ظَلِيلٌ هُوَ فِي نَفْسِهِ، وَلَا يُعْنِي مَنْ

(١) الطبري: ١٣١/٢٤ (٢) أحمد: ٢١٠/٤ (٣) الطبري:

١٣٤/٢٤ (٤) الطبري: ١٣٤/٢٤ (٥) الطبري: ١٣٤/٢٤

(٦) الطبري: ١٣٤/٢٤، ١٣٥

﴿أَنْطَلِقُوا﴾ إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْدِبُونَ ﴿٣٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تَلَكُ

وَأَتْرَبُوا هَيْتًا يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّا كَذَبْنَا تَجْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣١﴾
 وَبِئْسَ يَوْمِيذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ كَلُوا وَتَمَنَعُوا فَيَلَا إِنَّكَ مُجْرِمُونَ ﴿٣٤﴾ وَبِئْسَ
 يَوْمِيذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٣٨﴾ وَبِئْسَ يَوْمِيذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤١﴾ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾

[مَالُ الْمُتَّقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ عَبْدُوهُ بِأَدَاءِ
 الْوَاجِبَاتِ، وَتَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ: أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُونَ
 فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ أَيْ: بِخِلَافِ مَا أَوْلَيْكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنْ
 ظِلِّ النَّيْحُموم وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ الْمُتَيْنِ. وَقَوْلُهُ [تَعَالَى]:
 ﴿وَفَوْكَ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ أَيْ: وَمِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ مَهْمَا
 طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿كَلُوا وَأَتْرَبُوا هَيْتًا يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ:
 يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى
 مُخْبِرًا خَبْرًا مُسْتَأْنَفًا: ﴿إِنَّا كَذَبْنَا تَجْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ هَذَا
 جَزَاؤُنَا لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلِ ﴿وَبِئْسَ يَوْمِيذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

[تَهْدِيدٌ لِمُنْجِرِي الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلُوا وَتَمَنَعُوا فَيَلَا إِنَّكَ مُجْرِمُونَ﴾ خِطَابٌ
 لِلْمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَأَمْرُهُمْ أَمْرٌ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، فَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿كَلُوا وَتَمَنَعُوا فَيَلَا﴾ أَيْ: مُدَّةٌ قَلِيلَةٌ قَرِيبَةٌ قَصِيرَةٌ
 ﴿إِنَّكَ مُجْرِمُونَ﴾ أَيْ ثُمَّ تُسَاقُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي تَقَدَّمَ
 ذِكْرُهَا ﴿وَبِئْسَ يَوْمِيذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَمُنَعُنَّهُمْ فَيَلَا
 ثُمَّ نَضَطَّرُّهُمْ إِلَيْكَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦١﴾ مَنَعَ فِي
 الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا
 كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
 ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أَيْ: إِذَا أَمِرَ هؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنْ
 يَكُونُوا مِنَ الْمُصَلِّينَ مَعَ الْجَمَاعَةِ امْتَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ
 وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبِئْسَ يَوْمِيذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثُمَّ
 قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾. أَيْ: إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا
 بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَيَأْتِي كَلَامٌ يُؤْمِنُونَ بِهِ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِي
 حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ
 التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

اللَّهِبِ يَعْنِي: وَلَا يَبْقِيهِمْ حَرَ اللَّهَبِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا
 تَرَى بِسَكْرِ كَالْقَصْرِ﴾ أَيْ: يَتَطَايَرُ الشَّرُّ مِنْ لَهَبِهَا كَالْقَصْرِ.
 قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كَالْحُصُونِ^(١). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ
 وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرِهِمْ: يَعْنِي أُصُولَ
 الشَّجَرِ^(٢). ﴿كَأَنَّهُمْ جَمَلَتْ صُفْرًا﴾ ﴿٣٣﴾ أَيْ: كَالْإِبِلِ السُّودِ.
 قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ
 جَرِيرٍ^(٣). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ:
 ﴿جَمَلَتْ صُفْرًا﴾ يَعْنِي: حِبَالُ الشُّفْنِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ
 ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿إِنَّمَا تَرَى بِسَكْرِ كَالْقَصْرِ﴾
 قَالَ: كُنَّا نَعْمِدُ إِلَى الْخَشَبَةِ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ وَفَوْقَ ذَلِكَ فَزَفَعُهُ
 لِلنِّبَاءِ فَسَمِّيَهُ الْقَصْرَ ﴿كَأَنَّهُمْ جَمَلَتْ صُفْرًا﴾ حِبَالُ الشُّفْنِ
 تُجْمَعُ حَتَّى تَكُونَ كَأَوْسَاطِ الرَّجَالِ^(٤) ﴿وَبِئْسَ يَوْمِيذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

[عَجَزُ الْمُجْرِمِينَ عَنِ الْكَلَامِ وَتَقْدِيمِ الْعُذْرِ]

وَعَدَمُ الْإِقْدَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَبْطِقُونَ﴾ أَيْ لَا يَتَكَلَّمُونَ
 ﴿وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِعْلَهُمْ﴾ أَيْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ وَلَا
 يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِيهِ لِيَعْتَذِرُوا، بَلْ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَوَقَعَ
 الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ، وَعَرَصَتْ الْقِيَامَةُ
 حَالَاتٍ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُخْبِرُ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً، وَعَنْ
 هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً، لِيَدُلَّ عَلَى شِدَّةِ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ
 يَوْمِيذٍ، وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْدَ كُلِّ فَضْلِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ: ﴿وَبِئْسَ
 يَوْمِيذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأُولَى﴾ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ
 لَكُمُ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ﴾ وَهَذِهِ مُحَاطَبَةٌ مِنَ الْخَالِقِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ
 يَقُولُ لَهُمْ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأُولَى﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ
 جَمَعَهُمْ بِقُدْرَتِهِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفِذُهُمُ
 الْبَصْرَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ﴾ تَهْدِيدٌ
 شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ أَيْ: إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى أَنْ تَتَخَلَّصُوا مِنْ
 قَبْضَتِي وَتَنْجُوا مِنْ حُكْمِي فَافْعَلُوا، فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى
 ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمَسَّرَ لَيْلَى وَإِلَيْسَ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ
 تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا
 بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَصْرُوهُنَّ سِتْنًا﴾
 [هود: ٥٧]، وَفِي الْحَدِيثِ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا
 نَعْمِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا صَرِي فَتَصْرُونِي»^(٥).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٤٠﴾ كَلُوا

(١) الطبري: ١٦٣/٢٤ (٢) الطبري: ١٣٨/٢٤ (٣) الطبري:

١٣٩/٢٤-١٤١ (٤) فتح الباري: ٥٥٦/٨ (٥) مسلم: ٤/

تفسير سورة النبا وهي مكية

سورة النبا

٥٨٢

سورة النبا

سورة النبا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٦﴾
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا
﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَدَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا
أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعَفُ فِي الصُّورِ
فَنُتَوَّنُ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَنُبْحِتُ السَّمَاءَ مَكَاتٍ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلظَّالِمِينَ
مَتَابًا ﴿٢٢﴾ لِيُثَبِّتُنَا فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا فِيهَا جِوَادٌ وَلَا شِرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا جَهِمًا وَعَسَافًا ﴿٢٥﴾ جِرَاءَ وَقَافًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا
سَيَعْمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ
أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَيْلًا
لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَدَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ
بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

[الرَّدُّ عَلَىٰ إِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ لَوْفُوعِ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُنْكَرًا عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْأَلِهِمْ عَنْ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ؛ إِنْكَارًا لَوْفُوعِهَا ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾
أَيُّ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَسْأَلُونَ؟ عَنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ النَّبِيُّ
الْعَظِيمُ، يَعْنِي: الْحَبْرَ الْهَائِلَ الْمُفْطَعَ الْبَاهِرَ ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ
مُخْلِفُونَ﴾. يَعْنِي: النَّاسُ فِيهِ عَلَىٰ قَوْلَيْنِ مُؤْمِنٌ بِهِ وَكَافِرٌ، ثُمَّ
قَالَ تَعَالَىٰ مُتَوَعِّدًا لِمُنْكَرِي الْقِيَامَةِ: ﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْمُونَ﴾. وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ.

[ذَكَرُ شَيْءٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ كَالدَّلِيلِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ

عَلَىٰ الْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ]

ثُمَّ شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَيِّنُ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ عَلَىٰ خَلْقِ
الْأَشْيَاءِ الْغَرِيبَةِ وَالْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا
يَسَاءَلُ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَغَيْرِهِ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾
أَيُّ: مُمَهَّدَةً لِلْخَلَائِقِ ذُلُولًا لَهُمْ، قَارَةً سَاكِتَةً ثَابِتَةً ﴿وَالْجِبَالَ
أَوْتَادًا﴾ أَيُّ: جَعَلَهَا لَهَا أَوْتَادًا أَرْسَاهَا بِهَا وَثَبَّتَهَا وَقَرَّرَهَا
حَتَّىٰ سَكَتَتْ وَلَمْ تَضْطَرْبِ بِمَنْ عَلَيْهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ:
﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يَعْنِي: ذَكَرًا وَأُنْثَىٰ يَتَمَتَّعُ كُلُّ مِنْهُمَا
بِالْآخِرِ وَيَحْضُلُ التَّنَاسُلُ بِذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ
خَلَقْنَا لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ
مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا﴾ أَيُّ: قَطْعًا لِلْحَرَكَةِ، لِتَحْضُلِ الرَّاحَةِ مِنْ كَثْرَةِ التَّرَادِ
وَالسَّعْيِ فِي الْمَعَاشِ فِي عَرْضِ النَّهَارِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ
الآيَةِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا﴾ أَيُّ: يَغْسِي
النَّاسَ ظِلَامَهُ وَسَوَادَهُ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَيْلًا إِذَا يَسْتَهْنَأُ﴾
[الشمس: ٤] وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا﴾
أَيُّ سَكَنًا، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أَيُّ: جَعَلْنَاهُ

مُشْرِقًا نَبِيرًا مُضِيًّا؛ لِيَتَمَكَّنَ النَّاسُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ
وَالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ لِلْمَعَاشِ وَالتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَاتِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ يَعْنِي
السَّمَوَاتِ السَّبْعَ فِي اتِّسَاعِهَا وَارْتِفَاعِهَا، وَإِحْكَامِهَا
وَإِتْقَانِهَا، وَتَرْبِيئِهَا بِالْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسِّيَّارَاتِ. وَلِهَذَا
قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ يَعْنِي الشَّمْسَ الْمُتَبَيِّرَةَ
عَلَىٰ جَمِيعِ الْعَالَمِ الَّتِي يَتَوَهَّجُ ضَوْوُهَا لِأَهْلِ الْأَرْضِ
كُلِّهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا﴾ وَقَالَ
عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أَيُّ: مِنْ
مِنَ السَّحَابِ ^(٢). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ أَيْضًا وَأَبُو الْعَالِيَةِ
وَالصَّحَّاحُ، وَالْحَسَنُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالثَّوْرِيُّ وَآخِرَاهُ
ابْنُ جَرِيرٍ ^(٣). وَقَالَ الْفَرَّاءُ: هِيَ السَّحَابُ الَّتِي تَتَحَلَّبُ
بِالْمَطَرِ وَلَمْ تُمَطَّرْ بَعْدُ، كَمَا يُقَالُ: امْرَأَةٌ مُعْصِرٌ إِذَا دَنَا

(١) الطبري: ١٥٢/٢٤ (٢) الطبري: ١٥٤/٢٤ (٣) الطبري:

١٥٣/٢٤، ١٥٤، والبغوي: ٤٣٧/٤

حَضُّهَا وَلَمْ تَحْضُ^(١). وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلَ الرِّيحَ فتنُفِرُ سَحَابًا فَيَسْطُرُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى السَّودَ يَخْضَبُ حَمَلًا﴾ [الروم: ٤٨] أَي: مِنْ بَيْنِهِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَاءً نَزَّلْنَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: نَجَّاجًا: مُنْصَبًا^(٢). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: مُتَّابِعًا^(٣). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَثِيرًا^(٤). وَفِي حَدِيثِ الْمُسْتَحَاضَةِ حِينَ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْعَتْ لَكَ الْكُرْسُفُ». يَعْنِي أَنْ تَحْتَشِي بِالْقَطْنِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا أُتِجُ نَجًّا^(٥). وَهَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى اسْتِعْمَالِ النَّجِّ فِي الصَّبِّ الْمُسْتَبَاعِ الْكَثِيرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَاظًا أَي: لِنُخْرِجَ بِهَذَا الْمَاءِ الْكَثِيرِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ الْمُبَارَكِ ﴿حَبًّا﴾ يَدُخْرُ لِلْأَنْبَاسِيِّ وَالْأَنْعَامِ ﴿وَنَبَاتًا﴾ أَي: خُضْرًا يُؤْكَلُ رَطْبًا ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أَي: بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ مِنْ ثَمَرَاتٍ مُتَّوَعَةٍ، وَالْوَانَ مُخْتَلِفَةٍ وَطَعُومٍ وَرَوَائِحٍ مُتَّفَاوِيَةٍ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مُجْتَمِعًا. وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَاظًا﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: ﴿أَلْفَاظًا﴾ مُجْتَمِعَةً^(٦). وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُشْجُورَاتٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْصَانِهَا زَرْعًا وَنَجِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ [فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَقْوَابًا﴾] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْثَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قَالُوا: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: «أَبَيْتُ». قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: «أَبَيْتُ» قَالَ: «ثُمَّ يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبُلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَهُوَ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٩).

﴿وَفُيْحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أَي طُرُقًا وَمَسَالِكَ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَسُرِّبَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَادًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرٌّ السَّحَابُ﴾ [النمل: ٨٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [الفارعة: ٥] وَقَالَ هُنَيْدٌ: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أَي يُخَيَّلُ إِلَى النَّاطِرِ أَنَّهَا شَيْءٌ، وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ وَبَعْدَ هَذَا تَذَهَبُ بِالْكَلْبَةِ فَلَا عَيْنَ وَلَا أَثَرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَانًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَسِيتُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أَي: مُرْصَدَةً مُعَدَّةً لِلطَّالِبِينَ ﴿وَهُمْ الْمُرْدَةُ الْعِصَاءُ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ﴾ ﴿مَتَابًا﴾ أَي مَرْجِعًا وَمُنْقَلِبًا وَمَصِيرًا وَتُرُزًّا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ أَي مَا كَثِيرِينَ فِيهَا أَحْقَابًا وَهِيَ جَمْعُ حُقْبٍ، وَهُوَ الْمُدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ. وَقَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ: هَذِهِ الْآيَةُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا سَاءَ رَبُّكَ﴾ فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ^(١٠). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَالِمٍ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يُسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قَالَ: أَمَّا الْأَحْقَابُ فَلَيْسَ لَهَا عِدَّةٌ إِلَّا الْخُلُودُ فِي النَّارِ، وَلَكِنْ ذَكَرُوا أَنَّ الْحُقْبَ سَعُونَ سَنَةً، كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تُعْدُونَ^(١١). وَقَالَ سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ وَهُوَ مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ، وَكُلَّمَا مَضَى حُقْبٌ جَاءَ حُقْبٌ بَعْدَهُ.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ ﴿يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَقْوَابًا﴾ ﴿وَفُيْحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ﴿وَسُرِّبَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ﴿لِلطَّالِبِينَ مَتَابًا﴾ ﴿لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ﴿لَا يَدُورُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا سَرَابًا﴾ ﴿إِلَّا حِمِيمًا وَنَسْفًا﴾ ﴿جَزَاءً وَفَأَقَا﴾ ﴿لَهُمْ كَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ﴿وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا كَذَابًا﴾ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٢٠﴾

[تفسير يوم الفصل وتفصيل ما فيه]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفُصْلِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ مُوقَّتٌ بِأَجَلٍ مُعْدُودٍ لَا يُزَادُ عَلَيْهِ، وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُ، وَلَا يَعْلَمُ وَقْتَهُ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤] ﴿يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَقْوَابًا﴾ [النبأ: ١٨] قَالَ مُجَاهِدٌ: زَمْرًا زَمْرًا^(٧). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي: تَأْتِي كُلُّ أُمَّةٍ مَعَ رَسُولِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ [الإنسان: ٧١]^(٨)

(١) البغوي: ٤٣٧/٤ (٢) الطبري: ١٥٥/٢٤ (٣) الطبري: ١٥٥/٢٤ (٤) الطبري: ١٥٥/٢٤ (٥) أبو داود: ١٩٩/١ (٦) الطبري: ١٥٦/٢٤ (٧) الطبري: ١٥٨/٢٤ (٨) الطبري: ١٥٨/٢٤ (٩) فتح الباري: ٥٥٨/٨ (١٠) الطبري: ١٦٣/٢٤ (١١) الطبري: ١٦٢/٢٤

[وَذَكَرْنَا لَنَا أَنَّ الْحُثْبَ ثَمَانُونَ سَنَةً^(١)]. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿لَيْتَنِي فِيهَا أَحْقَابًا﴾ لَا يَعْلَمُ عِدَّةَ هَذِهِ الْأَحْقَابِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَذَكَرْنَا لَنَا أَنَّ الْحُثْبَ الْوَاحِدَ ثَمَانُونَ سَنَةً، وَالسَّنَةُ ثَلَاثُمِائَةٌ وَسِتُّونَ يَوْمًا، وَكُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ. رَوَاهُمَا أَيْضًا ابْنُ جَرِيرٍ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَدْرُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أَي: لَا يَجِدُونَ فِي جَهَنَّمَ بَرْدًا لِقُلُوبِهِمْ وَلَا شَرَابًا طَيِّبًا يَتَعَدُّونَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: اسْتَبَيَّ مِنَ الْبَرْدِ الْحَوِيمُ، وَمِنَ الشَّرَابِ الْعَسَاقُ^(٣). وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: فَأَمَّا الْحَوِيمُ فَهُوَ الْحَارُّ الَّذِي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ وَحَمُوهُ، وَالْعَسَاقُ هُوَ مَا اجْتَمَعَ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ وَعَرَقِهِمْ وَدُمُوعِهِمْ وَجُرُوجِهِمْ، فَهُوَ بَارِدٌ لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ بَرْدِهِ وَلَا يُوَاجَهُ مِنْ نَتْنِهِ - أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَزَاءً وَفَاةً﴾ أَي: هَذَا الَّذِي صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ وَفَقَّ أَعْمَالِهِمُ الْفَاسِدَةَ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ^(٤). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أَي لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ثَمَّ دَارًا يُجَازُونَ فِيهَا وَيُحَاسَبُونَ ﴿وَكَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ كَذَابًا﴾ أَي وَكَانُوا يُكْذِبُونَ بِحُجَجِ اللَّهِ وَدَلَالَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ ﷺ، فَيَقَابِلُونَهَا بِالْكَذِبِ وَالْمُعَانَدَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَابًا﴾ أَي تَكْذِيبًا، وَهُوَ مُضَدٌّ مِنْ غَيْرِ الْفَعْلِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أَي: وَقَدْ عَلِمْنَا أَعْمَالَ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ وَكَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ، وَسَنَجِزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذُرُّوهُ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أَي: يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ: ذُرُّوهُ مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا مِنْ جَنْسِهِ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاجٌ. قَالَ قَتَادَةُ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَزْدِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: لَمْ يَنْزَلْ عَلَى أَهْلِ النَّارِ آيَةٌ أَشَدَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَذُرُّوهُ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قَالَ: فَهُمْ فِي مَزِيدٍ مِنَ الْعَذَابِ أَبَدًا^(٥).

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿وَكَوَاعِبَ أَنْزَابًا﴾ وَكُأْسًا دِهَاقًا ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣١﴾

[الْفَوْزُ الْكَبِيرُ لِلْمُتَّقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السُّعْدَاءِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ تَعَالَى مِنَ الْكِرَامَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾

سُورَةُ النَّبَا

٥٨٣

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿وَكَوَاعِبَ أَنْزَابًا﴾ وَكُأْسًا دِهَاقًا ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لَئِنَّمَا لَكُنَّ مِنْهُ خِطَابًا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ لَئِنَّمَا لَكُنَّ مِنَ الْأَمْرِ إِذْ نَزَلَ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا﴾ ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاہُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ لَوْلِي تِلْكَ كُنْتُ تَرَابًا﴾ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُفًا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّدَاتِ سَبَّحًا ﴿٣﴾ فَالسَّيِّدَاتِ سَبَّحًا ﴿٤﴾ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا نَالِمُ الرُّدُودُونَ فِي الْمَعَاوِرِ ﴿١٠﴾ أَيْنَا ذَا كُنَّا عِظْمًا خِجْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا لَيْتَنَّا كُنَّا نَسَاهِرَةً ﴿١٢﴾ هَلْ أَنْتُمْ مُوسِيٌّ ﴿١٥﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالصَّحَّاحُ: مُتَنَزَّهَا^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: فَارْتَوَوْا فَجَازُوا مِنَ النَّارِ^(٧). وَالْأَطْرَهُ هُنَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿حَدَائِقَ﴾ وَالْحَدَائِقُ الْبَسَاتِينُ مِنَ التَّخِيلِ وَغَيْرِهَا ﴿وَأَعْنَابًا﴾ وَكَوَاعِبَ أَنْزَابًا أَي: وَحُورًا كَوَاعِبَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: (كَوَاعِبَ) أَي: نَوَاهِدٌ، يَعْنُونَ أَنَّ تُدْيِهِنَّ نَوَاهِدٌ لَمْ يَتَدَلَّيْنِ؛ لِأَنَّهُنَّ أَبْكَارٌ عَرُبٌ أَتْرَابٌ أَي: فِي سِنِّ وَاحِدٍ^(٨). كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُأْسًا دِهَاقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَمْلُوءَةٌ مُتَابِعَةٌ^(٩). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: صَافِيَةٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿دِهَاقًا﴾ أَلْمَلَأَى الْمُتْرَعَةَ^(١٠). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾

(١) الطبري: ١٦٢/٢٤ (٢) الطبري: ١٦٢/٢٤ (٣) الطبري:

١٦٥/٢٤ (٤) الطبري: ١٦٧/٢٤ (٥) الطبري: ١٦٩/٢٤

(٦) الطبري: ١٧٠/٢٤ والبغوي: ٤٣٩/٤ (٧) الطبري: ٢٤/

١٦٩، ١٧٠ (٨) الطبري: ١٧٠/٢٤ والدر المنثور: ٣٩٨/٨

(٩) الطبري: ١٧٣/٢٤ (١٠) الطبري: ١٧٢/٢٤

[الْقِيَامَةُ قَرِيبَةً]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا قَرِيبًا﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِتَأْكِدِ وَقُوعِهِ صَارَ قَرِيبًا؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ بِآيَةٍ يُعْرَضُ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ خَيْرًا وَسَرًّا. قَدِيمُهَا وَحَدِيثُهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْقَى الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْتَنِي كُفْرًا كُفْرًا أَي: يَوْمُ الْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا تَرَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خُلِقَ وَلَا خَرَجَ إِلَى الْوُجُودِ، وَذَلِكَ حِينَ عَايَنَ عَذَابَ اللَّهِ، وَنَظَرَ إِلَى أَعْمَالِهِ الْفَاسِدَةِ قَدْ شَطَرَتْ عَلَيْهِ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ. وَقِيلَ: إِنَّمَا يَوْمُ ذَلِكَ حِينَ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، فَيَفْصِلُ بَيْنَهَا بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقْتَصِرُ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْنَاءِ، فَإِذَا فَرَعَ مِنَ الْحُكْمِ بَيْنَهَا قَالَ لَهَا: كُونِي تَرَابًا، فَتَصِيرُ تَرَابًا. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَلْتَنِي كُفْرًا كُفْرًا﴾ أَي: كُنْتُ حَيَوَانًا فَأَرْجِعْ إِلَى التُّرَابِ. وَقَدْ وَرَدَ مَعْنَى هَذَا فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ، وَوَرَدَ فِيهِ آثَارٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِمَا. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّبَأِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ. وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّبَأَاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّارِ عِزَّةً﴾ (١) وَالنَّارِ عِزَّةً نَسَطًا (٢) وَالسَّيِّحَاتِ سَبْعًا (٣) فَالسَّيِّحَاتِ سَبْعًا (٤) فَالْمَدْرَبَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ (٦) تَتَّعَمُّهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ (٨) أَمْسَرُهَا خَشَعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) لَوْ أَنَّا كُنَّا عَظْمًا مَحْرُورًا (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَايْمًا هِيَ رَجْرَجَةٌ وَاجِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالنَّارِ هَارِبًا (١٤)

[الْقِسْمُ بِخَمْسَةِ أَوْصَافٍ عَلَى وَقُوعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ

كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَلْعَوْ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِ﴾ [الطور: ٤٣] أَي: لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ لَاغٌ عَارٍ عَنِ الْفَائِدَةِ وَلَا إِثْمٌ كَذِبٌ، بَلْ هِيَ دَارُ السَّلَامِ، وَكُلُّ مَا فِيهَا سَالِمٌ مِنَ النَّقْصِ. وَقَوْلُهُ: ﴿جَزَاءُ بِنِ رَيْكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ أَي: هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ جَازَاهُمْ اللَّهُ بِهِ وَأَعْطَاهُمُوهُ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ أَي: كَافِيًا وَافِيًا شَامِلًا كَثِيرًا، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَعْطَانِي فَأَحْسَنِي أَي: كَفَانِي، وَمِنَهُ: "حَسْبِيَ اللَّهُ" أَي: اللَّهُ كَافِيٌّ.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْتَنِي كُفْرًا كُفْرًا (٤٠)

[لَا يَجْتَرِيءُ أَحَدٌ عَلَى التَّكَلُّمِ أَمَامَ اللَّهِ حَتَّى الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بَعْدَ الْإِذْنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَأَنَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّ الرَّحْمَنَ الَّذِي سَمَلَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أَي: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى ابْتِدَاءِ مُخَاطَبَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ الْمُرَادُ بِالرُّوحِ هَهُنَا هُوَ جَبْرِيْلُ. قَالَهُ الشَّعْبِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالصَّحَّاحُ (١). كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (٣٧) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وَقَالَ مَقَاتِلُ بْنُ حَبَّانَ: الرُّوحُ هُوَ أَشْرَفُ الْمَلَائِكَةِ وَأَقْرَبُ إِلَى الرَّبِّ، عَزَّ وَجَلَّ وَصَاحِبِ الْوَحْيِ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥] وَكَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحِ: «وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ» (٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أَي: حَقًّا، وَمِنَ الْحَقِّ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَمَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَعِكْرَمَةُ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ أَي: الْكَائِنُ لَا مَحَالَةَ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ أَي: مَرَجِعًا وَطَرِيقًا يَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَمِنْهَا جَاءَ بِمُرِّ بِهِ عَلَيْهِ.

(١) الطبري: ١٧٦/٢٤ والقرطبي: ١٨٦/١٩ (٢) الدر المشهور:

٤٠٠/٨ (٣) فتح الباري: ٤٣٠/١٣ (٤) الطبري: ١٧٨/٢٤

سورة النازعات ٥٨٤

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٧﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾
 قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرَكِّي ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشِيَ ﴿١٩﴾ قَارَنَهُ
 آيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ كَذَبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ سَعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ
 فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَارِكُمْ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءِ بِنَهَا ﴿٢٧﴾
 رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾
 وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾
 وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٣٢﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تُعْمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ
 الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ
 لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ
 هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
 فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾
 فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَدًا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ
 مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْ يَوْمَ يَوْمِهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوِّضَهَا ﴿٤٦﴾

سورة العنكبوت

وَأَبُو صَالِحٍ وَأَبُو الضُّحَى وَالسُّدِّيُّ وَالشَّرِيعَتِيُّ غَرَفًا: ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾،
 يَعْنُونَ حِينَ تَنْزِعُ أَرْوَاحَ بَنِي آدَمَ^(١). فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ
 بِمُسْرِ فَعُغْرُقُ فِي نَزْعِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِسَهْوَلَةٍ وَكَأَنَّهَا
 حَلَّتْهُ مِنْ نِشَاطٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالنَّشِيطُ نَشَاطًا﴾: قَالَ ابْنُ
 عَبَّاسٍ^(٢). وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّيْحَتِ سَبَحًا﴾ فَقَالَ ابْنُ
 مَسْعُودٍ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ^(٣). وَرُوي عَنْ عَلِيٍّ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ
 ابْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي صَالِحٍ مِثْلَ ذَلِكَ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالسَّيْقَتِ سَيْقًا﴾ رُوي عَنْ عَلِيٍّ وَمَسْرُوقِ
 وَمُجَاهِدِ وَأَبِي صَالِحٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: بِعَنِي
 الْمَلَائِكَةُ^(٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْمَذْرَبَاتُ أَمْزًا﴾ قَالَ عَلِيٌّ
 وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ
 أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ^(٦). زَادَ الْحَسَنُ: تُدَبَّرُ الْأَمْرَ
 مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، بِعَنِي: بِأَمْرِ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ.

[صِفَةُ الْقِيَامَةِ وَصِفَةُ النَّاسِ وَأَقْوَالُهُمْ فِيهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّايِفَةُ﴾ تَبِعُهَا الرَّادِفَةُ قَالَ
 ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا التَّمَخَّنَانِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ^(٧). وَهَكَذَا قَالَ
 مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضُّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٨). وَعَنْ
 مُجَاهِدٍ: أَمَّا الْأُولَى: وَهِيَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ
 الرَّايِفَةُ﴾ فَكَفَّوْهُ جَلَّتْ عَظْمَتُهُ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾
 [المزمّل: ١٤] وَالثَّانِيَةُ: وَهِيَ الرَّادِفَةُ فِيهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَلَّتِ
 الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذَكَرَهُ وَجِدَةً﴾^(٩) [الحاقة: ١٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْبُ يَوْمِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:
 بِعَنِي: خَائِفَةٌ^(١٠). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ^(١١). وَأَصْنَعُهَا
 خَشِيعَةٌ أَيُّ: أَبْصَارُ أَصْحَابِهَا - وَإِنَّمَا أُصِيفَتْ إِلَيْهَا
 لِلْمَلَابَسَةِ - أَيُّ: ذَلِيلَةٌ حَقِيرَةٌ مِمَّا عَايَنْتَ مِنَ الْأَهْوَالِ.
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْمَكَرَةِ﴾ بِعَنِي مُشْرِكِي
 قُرَيْشٍ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ فِي إِنْكَارِ الْمَعَادِ. يَسْتَبْعِدُونَ وَقُوعَ
 النَّبْعِ بَعْدَ الْمَصِيرِ إِلَى الْحَافِرَةِ وَهِيَ الْقُبُورُ. قَالَهُ
 مُجَاهِدٌ^(١٢). وَبَعْدَ تَمَرِّقِ أَجْسَادِهِمْ وَتَفْتَتِ عِظَامِهِمْ
 وَنُحُورِهَا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا نَجْرَةً﴾ وَقُرِيءَ:
 (نَاجِرَةً) وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَيُّ: بِالْيَةِ^(١٣).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ الْعَظْمُ إِذَا بَلِيَ وَدَخَلَتِ الرِّيحُ فِيهِ،
 وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: ﴿يَاكُ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ:
 قَالَتْ قُرَيْشٌ: لَيْتَ أَحْيَانَا اللَّهُ بَعْدَ أَنْ نَمُوتَ لِنَحْسَرَنَّ^(١٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾^(١٥) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ
 أَيُّ: فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لَا مَثْنِيَّةَ فِيهِ وَلَا تَأْكِيدَ، فَإِذَا

النَّاسُ قِيَامَ يَنْظُرُونَ وَهُوَ أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخَ
 فِي الصُّورِ نَفْخَةَ النَّبْعِ، فَإِذَا الْأُولُونَ وَالْآخِرُونَ قِيَامَ بَيْنَ
 يَدَيِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ يَنْظُرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ
 يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا﴾
 [الإسراء: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَجِدَةً كَلِمِجٍ
 بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا
 كَلِمِجٍ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] قَالَ

(١) الطبري: ١٨٥/٢٤ والقرطبي: ١٩٠/١٩ والدر المنثور: ٨/

٤٠٤ (٢) الطبري: ١٧٨/٢٤ (٣) الدر المنثور: ٨/٤٠٤ (٤)

الطبري: ١٩٠/٢٤ والقرطبي: ١٩٣/١٩ (٥) القرطبي: ١٩/

٩٣ والدر المنثور: ٨/٤٠٤ (٦) الطبري: ١٩٠/٢٤ القرطبي:

١٩٤/١٩ والدر المنثور: ٨/٤٠٣-٤٠٥ (٧) الطبري: ٢٤/

١٩١ (٨) الطبري: ١٩١/٢٤، ١٩٢ (٩) الطبري: ٢٤/١٩٢

(١٠) الطبري: ١٩٣/٢٤ (١١) الطبري: ١٩٣/٢٤ والبعري:

٤٤٣/٤ (١٢) الطبري: ١٩٥/٢٤ (١٣) الطبري: ١٩٥/٢٤

(١٤) القرطبي: ١٩٨/١٩

وَحَاصِلُهُ: أَنَّهُ كَفَرَ قَلْبُهُ فَلَمْ يَتَّفِعْ لِمُوسَى بِبَاطِنِهِ وَلَا بَظَاهِرِهِ، وَعَلَّمَهُ بِأَنْ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ عِلْمَ الْقَلْبِ، وَالْإِيمَانَ عَمَلُهُ، وَهُوَ الْإِنْفِيَادُ لِلْحَقِّ وَالْحُضُوعُ لَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ أَي فِي مُقَابَلَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَهُوَ جَمْعُهُ السَّحَرَةُ لِيُقَابِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ﴿فَحَسَرَ فَادَى﴾ أَي فِي قَوْمِهِ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ قَالَهَا فِرْعَوْنُ بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] بِأَرْبَعِينَ سَنَةً (٤). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَأَعْلَنَّكَ اللَّهُ تَكَاَلُ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ أَي انْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُ انْتِقَامًا جَعَلَهُ بِهِ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِأَمثَالِهِ مِنَ الْمُتَمَرِّدِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَوْمَ الْيَقِينِ يَفْسُ الرِّقْدِ الْمُرُودُ﴾ [هود: ٩٩] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذُوقُونَ إِلَى الْإِسْكَارِ وَيَوْمَ الْيَقِينِ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ أَي لِمَن يَتَعَطَّى وَيَنْزَجِرُ.

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَنَّمَا جَعَلْنَا مِنْهَا آيَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ وَأَنْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صَهْنَهَا (٦) وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٧) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٨) وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (٩) مَعًا لَكُرًّا وَلَأَنْعِمَكُرًّا (١٠)

[خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَشَدُّ مِنْ إِعَادَةِ الْخَلْقِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْتَجًّا عَلَى مُنْكَرِي الْبَعْثِ فِي إِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ بَدْيِهِ: ﴿مَأْتِسُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ﴾ بَعْثِي: بَلِ السَّمَاءُ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَنَاهَا﴾ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أَي: جَعَلَهَا عَالِيَةَ النَّبَاءِ بَعِيدَةَ الْفَنَاءِ مُسْتَوِيَةَ الْأَرْجَاءِ مُكَلَّلَةً بِالْكَوَاكِبِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَغَطَّسَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صَهْنَهَا﴾ أَي: جَعَلَ لَيْلَهَا مُظْلِمًا أَسْوَدَ حَالِكًا وَنَهَارَهَا مُضِيئًا مُشْرِقًا نَبْرًا وَاضِحًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَغَطَّسَ لَيْلَهَا: أَظْلَمَهَا (٥). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ (٦)

ابْنُ عَبَّاسٍ: السَّاهِرَةُ الْأَرْضُ كُلُّهَا (١). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَفَتَادَةُ وَأَبُو صَالِحٍ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: السَّاهِرَةُ وَجْهُ الْأَرْضِ (٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا بِأَسْفَلِهَا فَأَخْرَجُوا إِلَىٰ أَعْلَاهَا. قَالَ: وَالسَّاهِرَةُ: الْمَكَانُ الْمُسْتَوِي (٣).

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَسِيتُ الْجِبَالَ نَسِيًّا وَالرُّسُلُ الْأَرْضُ بَارِزَةٌ﴾ [الكهف: ٤٧] وَبَرَزَتْ الْأَرْضُ الَّتِي عَلَيْهَا الْجِبَالُ وَهِيَ لَا تُعَدُّ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ وَهِيَ أَرْضٌ لَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا حَظِيئَةٌ وَلَمْ يُهْرَقْ عَلَيْهَا دَمٌ.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدْسِ طَوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشَى (١٩) فَإِنَّهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَسَرَ فَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَعْلَنَهُ اللَّهُ تَكَاَلُ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى (٢٦)﴾

[ذِكْرُ قِصَّةِ مُوسَى وَأَنَّهَا عِبْرَةٌ لِمَن يَخْشَى]

يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ ابْتَعَثَهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَأَيَّدَهُ اللَّهُ بِالْمُعْجَزَاتِ، وَمَعَ هَذَا اسْتَمَرَّ عَلَىٰ كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ حَتَّىٰ أَخَذَهُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ، وَكَذَلِكَ عَاقِبَةُ مَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أَي: هَلْ سَمِعْتَ بِخَبْرِهِ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أَي: كَلَّمَهُ نِدَاءً ﴿بِالْوَادِ الْقَدْسِ﴾ أَي: الْمَطَّهَّرِ طَوًى، وَهُوَ اسْمُ الْوَادِي عَلَى الصَّحِيحِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ طه، فَقَالَ لَهُ: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤] أَي: تَجَبَّرَ وَتَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ﴾ أَي: قُلْ لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُجِيبَ إِلَى طَرِيقَةٍ وَمَسَلِكٍ تَزُكِّي بِهِ أَي: تُسَلِّمُ وَتُطِيعُ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أَي: أَذْكَتُكَ إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّكَ ﴿فَخَشِيَ﴾ أَي: فَصَيَّرَ قَلْبَكَ خَاضِعًا لَهُ مُطِيعًا خَاشِعًا بَعْدَمَا كَانَ قَاسِيًا خَبِيثًا بَعِيدًا مِنَ الْخَيْرِ ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ يَعْنِي: فَظَاهَرَ لَهُ مُوسَى مَعَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْحَقِّ حُجَّةً قَوِيَّةً وَدَلِيلًا وَاضِحًا عَلَىٰ صِدْقِ مَا جَاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ أَي: فَكَذَّبَ بِالْحَقِّ وَخَالَفَ مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ،

(١) الطبري: ١٩٨/٢٤ (٢) الطبري: ١٩٨/٢٤ (٣) الطبري: ١٩٨/٢٤ (٤) الدر المنثور: ٤٠٨/٨ (٥) الطبري: ٢٠٦/٢٤ (٦) الدر المنثور: ٢٠٧/٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 عَسَىٰ وَتَوَكَّلْ ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٢ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَكْفُرُ ٣ أَوْ
 يَذْكُرُ فَنُفِعه الذِّكْرَى ٤ أَمَّا مَنْ اسْتَعْتَنَ ٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ٦
 وَمَا عَلَيْكَ الْأَلْبَابُ ٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ٨ وَهُوَ يَخْشَى ٩ فَأَنْتَ
 عَنْهُ تَلَهَّى ١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ١١ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٣
 مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦ قُلْ لِلْإِنْسَانِ
 مَا أَكْفَرَهُ ١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ١٨ مِنْ نَفْثَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ١٩ ثُمَّ
 السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ٢٠ ثُمَّ أَمَانَهُ وَأَقْبَرَهُ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ٢٢ كَلَّا لَمَّا
 بَيَّضَ مَا أَمْرَهُ ٢٣ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ٢٤ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا
 ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعَبْنَا وَفَضَّبْنَا ٢٨
 وَزَيَّنَّا وَنَحَلْنَا ٢٩ وَحَدَّيْنَا عُلْبًا ٣٠ وَفَكَهَنَهُ وَآبَا ٣١ مَنَعًا كَرًّا
 وَلَا تَحْسَبِكُمْ ٣٢ إِذَا جَاءَتْ الصَّاعَةُ ٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤
 وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
 يُغْنِيهِ ٣٧ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ٣٨ ضَاكِرَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ٣٩ وَجُوهٌ
 يَوْمَئِذٍ عَلَيَّابَةٌ ٤٠ تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ ٤١ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ٤٢

بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَافَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ، وَنَهَى نَفْسَهُ
 عَنْ هَوَاهَا، وَرَدَّهَا إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهَا ﴿وَإِنَّ الْحِجَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾
 أَي: مُتَقَلِّبُهُ وَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى الْحِجَّةِ الْفَيْحَاءِ ثُمَّ قَالَ
 تَعَالَى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (١) فِيمَ أَنْتَ مِنْ
 ذِكْرِكُمْ (٢) إِلَ رَبِّكَ مُنْبِتَهَا ﴿أَي: لَيْسَ عِلْمُهَا إِلَيْكَ وَلَا إِلَى
 أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، بَلْ مَرَدُّهَا وَمَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،
 فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَقْتَهَا عَلَى التَّعْيِينِ ﴿نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتَةٌ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ
 اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿إِلَ رَبِّكَ مُنْبِتَهَا﴾ وَلِهَذَا
 لَمَّا سَأَلَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ قَالَ: «مَا
 الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ أَي: إِنَّمَا
 بَعْتُكَ لِتُنذِرَ النَّاسَ وَتُحَذِّرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، فَمَنْ

(١) الطبري: ٢٠٨/٢٤ (٢) الطبري: ٢١١/٢٤ (٣) فتح
 الباري: ١٤٠/١

وَجَمَاعَةٌ كَثِيرُونَ ﴿وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا﴾ أَي: أَنَارَ نَهَارَهَا. وَقَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَخْرَجَ
 مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ حَمِّ السَّجْدَةِ أَنَّ
 الْأَرْضَ خَلَقْتَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا دُجِيَتْ بَعْدَ
 خَلْقِ السَّمَاءِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ أَخْرَجَ مَا كَانَ فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى
 الْفِعْلِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَبْرٌ وَاحِدٌ وَاخْتَارَهُ
 ابْنُ جَرِيرٍ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْجِبَالُ أَسْهَابًا﴾ أَي: قَرَّرَهَا وَأَثْبَتَهَا
 وَأَكَّدَهَا فِي أَمَاكِينِهَا وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، الرَّؤُوفُ بِخَلْقِهِ
 الرَّحِيمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنَعًا لِّكَ وَلَا تَحْسَبُكَ﴾ أَي: دَحَا
 الْأَرْضَ فَأَتْبَعَ عِيُونَهَا، وَأَظْهَرَ مَكْنُونَهَا، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا،
 وَأَثْبَتَ زُرُوعَهَا وَأَشْجَارَهَا وَنَمَارَهَا. وَبَيَّتَ جِبَالَهَا لِتَسْتَوِيَ
 بِأَهْلِهَا وَيَقِرَّ قَرَارُهَا، كُلُّ ذَلِكَ مَنَاعًا لِخَلْقِهِ وَلِمَا يَحْتَاجُونَ
 إِلَيْهِ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا وَيَرْكَبُونَهَا مَدَّةَ احْتِيَاجِهِمْ
 إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمَدُ، وَيَتَّقَضِيَ
 الْأَجَلَ.

﴿وَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُذْبَى﴾ (٢) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣) وَبَرَزَتْ
 الْحَجِيمَةُ لِمَنْ بَرَى (٤) فَأَمَّا مَنْ طَعَى (٥) وَمَا رَ لِمَجِيئَةِ الدُّنْيَا (٦) فَإِنَّ
 الْحَجِيمَةَ هِيَ الْمَأْوَى (٧) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ
 الْهَوَىٰ (٨) فَإِنَّ الْحِجَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٩) يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ
 مُرْسَاهَا (١٠) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِكُمْ (١١) إِلَ رَبِّكَ مُنْبِتَهَا (١٢) إِنَّمَا أَنْتَ
 مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا (١٣) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رُبُّوهُآ لَرَّ يَلْبَسُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ
 صُحُفَهَا (١٤)

[يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ التَّعْيِيمِ وَالْحَجِيمِ وَأَنَّ وَقْتَهَا
 غَيْرُ مَعْلُومٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُذْبَى﴾ وَهُوَ يَوْمُ
 الْقِيَامَةِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ (١). سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَطُمُّ عَلَى
 كُلِّ امْرِئٍ هَائِلٌ مُّطْفَعٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدهنٌ وَأَمْرٌ﴾
 ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ أَي: حِينَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ابْنُ آدَمَ جَمِيعَ
 عَمَلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ
 وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [البلد: ٢٣] ﴿وَبَرَزَتْ الْحَجِيمَةُ لِمَنْ بَرَى﴾ أَي:
 أَظْهَرَتْ لِلنَّاطِقِينَ فَرَاهَا النَّاسُ عِيَانًا ﴿فَأَمَّا مَنْ طَعَى﴾ أَي:
 تَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿وَمَا رَ لِمَجِيئَةِ الدُّنْيَا﴾ أَي: قَدَّمَهَا عَلَى أَمْرِ دِينِهِ
 وَأَخْرَاهُ ﴿وَإِنَّ الْحَجِيمَةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أَي: فَإِنَّ مَصِيرَهُ إِلَى
 الْحَجِيمِ وَإِنَّ مَطْعَمَهُ مِنَ الرُّقُومِ، وَمَشْرَبُهُ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿وَأَمَّا
 مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أَي: خَافَ الْقِيَامَ

خَشِيَ اللَّهَ وَخَافَ مَقَامَهُ وَوَعِيدَهُ اتَّبَعَكَ فَأَلْفَحَ وَأَنْجَحَ، وَالْخَيْبَةُ وَالْخَسَارُ عَلَى مَنْ كَذَبَكَ وَخَالَفَكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَنْ يَلْتَوُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أَي: إِذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْمَحْشَرِ يَسْتَقْصِرُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَتَّى كَانَتْ عِنْدَهُمْ كَانَتْ عَشِيَّةً مِنْ يَوْمٍ أَوْ ضُحَى مِنْ يَوْمٍ. وَقَالَ جُوَيْرِبٌ عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَنْ يَلْتَوُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أَمَا عَشِيَّةٌ فَمَا بَيْنَ الظُّهْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ (١). وَقَالَ قَتَادَةُ: وَقُتِّ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِ الْقَوْمِ حِينَ عَاتَبُوا الْآخِرَةَ.

أخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّازِعَاتِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة عبس وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْجَى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَا مِنْ أَسْتَقَى (٥) فَأَنْتَ لَمْ صَدَّقْ (٦) وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْجَى (٧) وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْفَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَى (١١) لَوْ شَاءَ ذَكَرْ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مُرَوِّعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) [عَتَابَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عُبُوسِهِ فِي وَجْهِ رَجُلٍ ضَعِيفٍ: ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ]

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُخَاطَبُ بَعْضَ عَظَمَاءِ قُرَيْشٍ وَقَدْ طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُخَاطَبُهُ وَيُنَاجِيهِ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَدِيمًا، فَجَعَلَ يَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ وَيُلِحُّ عَلَيْهِ، وَوَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَوْ كَفَّ سَاعَتَهُ تِلْكَ؛ لِيَتِمَّكَنَ مِنْ مُحَاطَبَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ؛ طَمَعًا وَرَعْبَةً فِي هِدَايَتِهِ. وَعَبَسَ فِي وَجْهِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخَرِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْجَى (٣) أَي: يَحْضُلُ لَهُ زَكَاةٌ وَطَهَارَةٌ فِي نَفْسِهِ ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ (٤) أَي: يَحْضُلُ لَهُ اتِّعَاطُ [وَأَنْزَجَارًا] عَنِ الْمَحَارِمِ ﴿أَمَا مِنْ أَسْتَقَى﴾ (٥) فَأَنْتَ لَمْ صَدَّقْ (٦) أَمَا الْغَنِيُّ فَأَنْتَ تَتَعَرَّضُ لَهُ لَعَلَّهٗ يَهْتَدِي ﴿وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْجَى﴾ (٧) مَا أَنْتَ بِمُطَالِبٍ بِهِ إِذَا لَمْ يَحْضُلْ لَهُ زَكَاةٌ ﴿وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ

يَسْعَى﴾ (٨) وَهُوَ يَخْفَى (٩) أَي: يَفْضِدُكَ وَيُؤْمُكَ؛ لِيَهْتَدِيَ بِمَا تَقُولُ لَهُ ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (١٠) أَي: تَسْتَغَالُ، وَمِنْ هُنَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَخْصَّ بِالْإِنذَارِ أَحَدًا، بَلْ يُسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ، وَالْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ، وَالسَّادَةِ وَالْعَبِيدِ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالصَّغَارِ وَالْكِبَارِ، ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ.

وَرَوَى أَبُو يَعْلَى وَابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَنْزَلَتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومِ الْأَعْمَى، أَنَّى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ أُرِيدُنِي، قَالَتْ: وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عَظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَتْ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ: «أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بِأَسَاءًا؟». فَيَقُولُ: لَا، فَبَيَّ هَذَا أَنْزَلَتْ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ عَائِشَةَ (٣).

(قُلْتُ): كَذَلِكَ هُوَ فِي الْمُوطَأِ (٤).

[أوصاف القرآن]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَى﴾ (١) أَي: هَذِهِ السُّورَةُ أَوْ الْوَصِيَّةُ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي إِبْلَاحِ الْعِلْمِ بَيْنَ شَرِيفِهِمْ وَوَضِيعِهِمْ وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَى﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْ﴾ (٢) أَي: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَيُحْتَمَلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى الْوَحْيِ لِذِلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ (٣) مُرَوِّعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (٤) أَي: هَذِهِ السُّورَةُ أَوْ الْعِطَّةُ وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ، بَلْ جَمِيعُ الْقُرْآنِ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ أَي: مُعَظَّمَةٍ مُوقَّرَةٍ ﴿مُرَوِّعَةٍ﴾ (٥) أَي: عَالِيَةِ الْقَدْرِ ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ (٦) أَي: مِنَ الدَّنَسِ وَالرِّبَاذَةِ وَالنَّقْصِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (٧) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ (٥).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: ﴿سَفَرَةٍ﴾: الْمَلَائِكَةُ، سَفَرَتْ أَصْلَحَتْ بَيْنَهُمْ وَجَعَلَتِ الْمَلَائِكَةُ إِذَا نَزَلَتْ بِوَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَأْوِيَتِهِ كَالسَّفِيرِ الَّذِي يُصَلِّحُ بَيْنَ الْقَوْمِ (٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (٧)

(١) الدر المنثور: ٤١٣/٨ (٢) الطبري: ٢٤/٢١٧ (٣) تحفة الأحوذى: ٩/٢٥٠ (٤) الموطأ: ١/٢٠٣ (٥) الطبري: ٢٤/٢٢١ (٦) الدر المنثور: ٨/٤١٨ (٧) فتح الباري: ٨/٥٦١

بِرَبِّهِمْ أَي: خَلَقَهُمْ كَرِيمٌ حَسَنٌ شَرِيفٌ وَأَخْلَقَهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ بَارَةٌ طَاهِرَةٌ كَامِلَةٌ، وَمِنْ هُنَا يَبْنِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ عَلَى السَّدَادِ وَالرَّشَادِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»^(١). أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَمَّا بَقِيَ مَا أَمَرُوا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ جَلَّ تَنَاهُ: كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ هَذَا الْإِنْسَانُ الْكَافِرُ مِنْ أَنَّهُ قَدْ آدَى حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿لَمَّا بَقِيَ مَا أَمَرُوا﴾ يَقُولُ: لَمْ يُؤَدِّ مَا فَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَرَائِضِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٣).

وَالَّذِي يَقَعُ لِي فِي مَعْنَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّ الْمَعْنَى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَأَلَ أَشْرَرُ﴾ أَيُّ بَعَثَهُ ﴿كَلَّا لَمَّا بَقِيَ مَا أَمَرُوا﴾ أَي: لَا يَفْعَلُهُ الْآنَ، حَتَّى تَنْقَضِيَ الْمُدَّةُ وَيَفْرَغَ الْقَدْرُ مِنْ بَنِي آدَمَ وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنْ سَيُوجَدُ مِنْهُمْ، وَيَخْرُجُ إِلَى الدُّنْيَا، وَقَدْ أَمَرَ بِهِ تَعَالَى كَوْنًا وَقَدْرًا، فَإِذَا تَنَاهَى ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ أَشْرَأَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ وَأَعَادَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ.

[إِبْنَاتُ الْحَبِّ وَغَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ فِيهِ امْتِنَانٌ وَفِيهِ اسْتِدْلَالٌ بِإِحْيَاءِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ الْهَامِدَةِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ مَا كَانَتْ عِظَامًا بَالِيَةً وَتُرَابًا مُتَمَرِّقًا ﴿أَنَا صَبَبْتُ اللَّهُ صَبًّا﴾ أَي: أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ﴿ثُمَّ سَفَقْنَا الْأَرْضَ سَفَاقًا﴾ أَي: أَشْكَنَاهُ فِيهَا، فَدَخَلَ فِي تَحْوِمِهَا وَتَحَلَّلَ فِي أَجْزَاءِ الْحَبِّ الْمُوَدَّعِ فِيهَا، فَتَبَّتْ وَازْتَفَعَتْ وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ﴿فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا﴾ وَغَنًّا وَقَضْبًا ﴿فَالْحَبُّ كُلُّ مَا يُذَكَّرُ مِنَ الْحُبُوبِ، وَالْعِنَبُ مَعْرُوفٌ، وَالْقَضْبُ هُوَ الْفُضْفِصَةُ الَّتِي تَأْكُلُهَا الدَّوَابُّ رَطْبَةً، وَيُقَالُ لَهَا: الْقَتُّ أَيْضًا. قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: الْقَضْبُ: الْعَلْفُ.

(١) أحمد: ٤٨/٦ (٢) فتح الباري: ٥٦٠/٨ ومسلم: ٥٤٩/١ وأبو داود: ١٤٨/٢ وتحفة الأحوذى ٢١٥/٨ والنسائي في الكبرى: ٥٠٦/٦ وابن ماجه: ١٢٤٢/٢ (٣) القرطبي: ١٩/٢١٧ الضحاک لم یسمع من ابن عباس (٤) البغوي: ٤٤٨/٤ (٥) الطبري: ٢٢٣/٢٤ العوفي ضعيف (٦) الدر المنثور: ٨/٤١٩ و٢٢٣، ٢٢٤ (٧) الطبري: ٢٢٤/٢٤ (٨) فتح الباري: ٤١٤/٨ ومسلم: ٢٢٧٠/٤ (٩) الطبري: ٢٢٥/٢٤ (١٠) الطبري: ٢٢٦/٢٤

بِرَبِّهِمْ أَي: خَلَقَهُمْ كَرِيمٌ حَسَنٌ شَرِيفٌ وَأَخْلَقَهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ بَارَةٌ طَاهِرَةٌ كَامِلَةٌ، وَمِنْ هُنَا يَبْنِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ عَلَى السَّدَادِ وَالرَّشَادِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»^(١). أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ^(٢).

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرُ﴾ (٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿١١﴾ ثُمَّ إِذَا سَأَلَ أَشْرَرُ ﴿١٢﴾ كَلَّا لَمَّا بَقِيَ مَا أَمَرُوا ﴿١٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿١٤﴾ أَنَا صَبَبْتُ اللَّهُ صَبًّا ﴿١٥﴾ ثُمَّ سَفَقْنَا الْأَرْضَ سَفَاقًا ﴿١٦﴾ فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا ﴿١٧﴾ وَغَنًّا وَقَضْبًا ﴿١٨﴾ وَزَيْتُونًا وَغُلًّا ﴿١٩﴾ وَحَمَاقِينَ عَلًّا ﴿٢٠﴾ وَفَكْهَةً وَأَبًّا ﴿٢١﴾ مَلْعَمًا لَعْنًا وَلَيْتَمَسِكُوا ﴿٢٢﴾

[الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى ذَا مَا لِمَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ وَالنُّشُورَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرُ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾ لِمَنْ الْإِنْسَانُ^(٣). وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ: وَهَذَا لِجِنْسِ الْإِنْسَانِ الْمُكَذَّبِ لِكَثْرَةِ تَكْذِيبِهِ بِلَا مُسْتَنَدٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْإِسْتِعْمَادِ وَعَدَمِ الْعِلْمِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿مَا أَكْثَرُ﴾ أَي: مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَا أَكْثَرُ﴾: مَا أَلْعَنَهُ^(٤). ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى لَهُ كَيْفَ خَلَقَهُ مِنَ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ، كَمَا بَدَأَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ﴿٧﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ أَي: قَدَّرَ أَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَسَقِيَّتِي أَوْ سَعِيدٌ ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ثُمَّ يَسَّرَ عَلَيْهِ خُرُوجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ^(٥). وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] أَي بِنَاءَهُ لَهُ وَأَوْضَحْنَاهُ وَسَهَّلْنَا عَلَيْهِ عَمَلَهُ، وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ^(٧). وَهَذَا هُوَ الْأَرْجَحُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أَي: أَنَّهُ بَعْدَ خَلْقِهِ لَهُ أَمَانَةٌ فَأَقْبَرَهُ أَي: جَعَلَهُ ذَا قَبْرِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: قَبِرْتُ الرَّجُلَ إِذَا وَلِي ذَلِكَ مِنْهُ، وَأَقْبَرَهُ اللَّهُ. وَعَضَبْتُ قَرْنَ الثَّوْرِ وَأَعْضَبَهُ اللَّهُ. وَتَبَرَّتْ ذَنْبُ الْجَعْبِ وَأَبْتَرَهُ اللَّهُ. وَطَرَدْتُ عَنِّي فُلَانًا وَأَطْرَدَهُ اللَّهُ، أَي: جَعَلَهُ طَرِيدًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَأَلَ أَشْرَرُ﴾ أَي: بَعَثَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ

الصَّحِيحِ فِي أَمْرِ الشَّفَاعَةِ أَنَّهُ إِذَا طُلِبَ إِلَى كُلِّ مِنْ أُولَى الْعَزْمِ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْخَلَائِقِ يَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي، حَتَّى إِنْ عَسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَقُولُ: لَا أَسْأَلُهُ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي، لَا أَسْأَلُهُ مَرْيَمَ الَّتِي وَلَدْتَنِي^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُفْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ آخِرِهِ^(٢) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^(٣) وَصَنِيحِهِ وَبَيْنِهِ﴾ قَالَ قَتَادَةَ: الْأَحَبُّ فَلَا أَحَبَّ، وَالْأَقْرَبُ فَلَا أَقْرَبَ مِنْ هَؤُلَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أَي: هُوَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ غَيْرِهِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ مُشَاةَ غُرُلَا» قَالَ: فَقَالَتْ زَوْجَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَنْظُرُ - أَوْ يَرَى - بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ؟ قَالَ: «لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ - أَوْ قَالَ: - مَا أَسْغَلُهُ عَنِ النَّظْرِ»^(١).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلَا». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: أَيُّبَصِرُ - أَوْ: يَرَى - بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ؟ قَالَ: «يَا فُلَانَةُ، لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ». ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢).

[وَجُوهُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ^(٣) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ أَي: يَكُونُ النَّاسُ هُنَالِكَ فَرِيقَيْنِ وَجُوهٌ مُسْفِرَةٌ أَي: مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ أَي: مَسْرُورَةٌ فَرِحَتْ مِنَ الشُّرُورِ فِي قُلُوبِهِمْ، قَدْ ظَهَرَ الْبِشْرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ^(٤) تَرْفَعُهَا قَدْرَةٌ﴾ أَي: يَعْلُوها وَيَغْشَاهَا قَدْرَةٌ أَي: سَوَادٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿تَرْفَعُهَا قَدْرَةٌ﴾ أَي: يَغْشَاهَا سَوَادُ الْوُجُوهِ^(٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ﴾ أَي: الْكٰفِرَةُ قُلُوبُهُمْ، الْفٰجِرَةُ فِي أَعْمَالِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فٰجِرًا كَفٰرًا﴾.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ عَبَسَ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَرَبُّنَا﴾ وَهُوَ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ أَدَمٌ وَعَصِيرُهُ أَدَمٌ وَيُسْتَصْبَحُ بِهِ وَيُدْهَنُ بِهِ ﴿وَمَخْلًا﴾ يُؤْكَلُ بِلَحَا وَيُسْرًا وَرَطْبًا وَتَمْرًا وَيَبِينًا وَمَطْبُوحًا وَيُعَصَّرُ مِنْهُ رَبُّ وَخَلٌّ ﴿وَمَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أَي: بَسَاتِينَ. قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةَ: ﴿غُلْبًا﴾: نَخْلٌ غِلَاطٌ كِرَامٌ^(١). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: كُلُّ مَا التَفَّتْ وَاجْتَمَعَتْ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِكَهَةٌ وَأَبًا﴾ أَمَّا الْفٰكِهَةُ فَكُلُّ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ مِنَ الثَّمَارِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفٰكِهَةُ كُلُّ مَا أُكِلَ رَطْبًا. وَالْأَبُّ: مَا أُتْبِتَ الْأَرْضُ مِمَّا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ وَلَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: هُوَ الْحَشِيشُ لِلْبَهَائِمِ^(٤).

وَرَوَى أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّمِيمِيِّ قَالَ: سَأَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِكَهَةٌ وَأَبًا﴾ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظَلِّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقَلِّنِي إِنْ قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ^(٥). فَأَمَّا مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَفِكَهَةٌ وَأَبًا﴾ قَالَ: قَدْ عَرَفْنَا الْفٰكِهَةَ فَمَا الْأَبُّ؟ فَقَالَ: لَعَمْرُكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنْ هَذَا لَهُوَ التَّكْلُفُ^(٦). فَهُوَ إِسْتِنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ أَنَسٍ بِهِ، وَهَذَا مُحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ شَكْلَهُ وَجِنْسَهُ وَعَيْنَهُ وَالْأَفْهَى وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا^(٧) وَعَبًا وَقَضًا^(٨) وَرَبُّونًا وَمَخْلًا^(٩) وَمَدَائِقَ غُلْبًا^(١٠) وَفِكَهَةً وَأَبًا﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِمَّا لَكَرُوا لِأَنْعَامِكُمْ﴾ أَي: عَيْشَةَ لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿وَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ يَوْمَ يُفْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ آخِرِهِ^(١) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^(٢) وَصَنِيحِهِ وَبَيْنِهِ^(٣) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ^(٤) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ^(٥) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ^(٦) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ^(٧) تَرْفَعُهَا قَدْرَةٌ^(٨) أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ^(٩)

[يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفَرَارُ النَّاسِ فِيهَا مِنْ أَقَارِبِهِمْ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الصَّلَاةُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَظَّمَهُ اللَّهُ وَحَدَرَهُ عِبَادَهُ^(١). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَعَلَّهُ اسْمٌ لِلنَّفْحَةِ فِي الصُّورِ^(٢). وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: الصَّلَاةُ بِعَيْنِي صَيِّحَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَصُخُّ الْأَسْمَاعَ أَي تُبَالِغُ فِي إِسْمَاعِهَا حَتَّى تَكَادُ تَضْمُمُهَا^(٣). ﴿يَوْمَ يُفْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ آخِرِهِ^(٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^(٥) وَصَنِيحِهِ وَبَيْنِهِ﴾ أَي: يَرَاهُمْ وَيَفْرَأُ مِنْهُمْ وَيَبْتَعِدُ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ الْهَوَلَ عَظِيمٌ وَالْخَطْبُ جَلِيلٌ. وَفِي الْحَدِيثِ

(١) الطبري: ٤٢١/٢٤ و ٤٢١/٢٤ (٢) الطبري: ٢٢٧/٢٤ (٣)

الطبري: ٢٣٠/٢٤، ٢٣١ (٤) الدر المنثور: ٤٢١/٨ (٥)

البعوي: ٤٤٩/٤ مرسل (٦) الطبري: ٢٢٩/٢٤ (٧) الطبري:

٢٣٢/٢٤ (٨) الطبري: ٢٣١/٢٤ (٩) الطبري: ٤٤٩/٢٤

(١٠) مسلم: ١٨٢/١ (١١) الحاكم: ٢٥١/٢ (١٢) تحفة

الأحودي: ٢٥١/٩ (١٣) الدر المنثور: ٤٢٤/٨

تفسير سورة التكويد وهي مكية

[ما ورد في هذه السورة]

روى الإمام أحمد عن ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾». (١) وهكذا رواه الترمذي (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنْسِ (١٦) وَالْإِنِّلُ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصَّحِيجُ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

[ما يقع يوم القيامة، وهو تكوير الشمس]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يعني: أظلمت (٣). وقال العوفي عنه: ذهبت. وقال قتادة: ذهبت ضوءها (٤). وقال سعيد بن جبير: ﴿كُوِّرَتْ﴾ غورت (٥). وقال أبو صالح: ﴿كُوِّرَتْ﴾ ألقبت، والتكوير جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها.

روى البخاري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة» (٦). انفرد به البخاري، وهذا لفظه.

[انكدار النجوم]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي: انتثرت كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكُوكُوبُ انْثَرَتْ﴾ وأصل الانكدار: الانصباب. قال الربيع بن أنس، عن أبي العلية، عن أبي ابن كعب قال: سب آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجوه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففرعت الجحش إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير

سورة التكويد ٥٨٦

سُورَةُ التَّكْوِيْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنْسِ (١٦) وَالْإِنِّلُ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصَّحِيجُ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

سورة الانفطار

والوحوش، فمأجوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أهملها أهلها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: قالت الجحش نحن نأتيكم بالخبير، قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتتهم. رواه ابن جرير (٧). وهذا لفظه.

[تسيير الجبال، وتعطيل العشار وحشر الوحوش]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعا صافصفا وقوله: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال عكرمة ومجاهد: عشار

(١) أحمد: ٢٧/٢ (٢) تحفة الأحوذى: ٢٥٢/٩ (٣) الطبري: ٢٣٧/٢٤ (٤) الطبري: ٢٣٨/٢٤ ضعيف (٥) الطبري: ٢٣٨/٢٤ (٦) فتح الباري: ٣٤٣/٦ (٧) الطبري: ٢٣٧/٢٤

الإبل^(١). قَالَ مُجَاهِدٌ: «عَطَلْتُ» تُرِكَتْ وَسَيِّتٌ^(٢). وَقَالَ أَبُو بِنُ كَعْبٍ وَالضَّحَّاكُ: أَهْمَلَهَا أَهْلُهَا^(٣). وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُنَيْمٍ: لَمْ تُحَلَبْ، وَلَمْ تُصَرَّ تَخَلَّى مِنْهَا أَرْبَابُهَا^(٤). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تُرِكَتْ لَا رَاعِي لَهَا^(٥). وَالْمَعْنَى فِي هَذَا كُلِّهِ مُتَبَارِبٌ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْعِشَارَ مِنَ الْإِبِلِ وَهِيَ خَيْرُهَا، وَالْحَوَامِلُ مِنْهَا الَّتِي قَدْ وَصَلَتْ فِي حَمْلِهَا إِلَى الشَّهْرِ الْعَاشِرِ - وَاجِدَتْهَا عَشْرَاءَ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ اسْمُهَا حَتَّى تَضَعَّ - قَدْ اسْتَعَلَّ النَّاسُ عَنْهَا وَعَنْ كَفَالَتِهَا وَالْإِنْتِفَاعَ بِهَا بَعْدَ مَا كَانُوا أَرْعَبَ شَيْءٍ فِيهَا بِمَا دَهَمَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الْمُفْظِعِ الْهَائِلِ، وَهُوَ أَمْرُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَانْعِقَادِ أَسْبَابِهَا وَوُقُوعِ مَقْدَمَاتِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ» أَي جُمِعَتْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُنْمَالُكُمْ مَا قَرَأْتُمْ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ لِكِ رَبِّهِمْ يُبَشِّرُونَ» [الأنعام: ٣٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الذَّبَابِ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٦). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَالطَّيْرَ حَشْرًا» أَي مَجْمُوعَةً.

[تَسْجِيرُ الْبِحَارِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ» رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ: أَيْنَ جَهَنَّمُ؟ قَالَ: الْبَحْرُ. فَقَالَ: مَا أَرَاهُ إِلَّا صَادِقًا، «وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ» [الطور: ٦] «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ»^(٧)، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ».

[تَرْوِجُ النَّفُوسِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ» أَي: جُمِعَ كُلُّ شَكْلٍ إِلَى نَظِيرِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» [الصفات: ٢٢] وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ««وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ» قَالَ: الضَّرْبَاءُ: كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ عَمَلَهُ وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً» فَأَصْحَبُ الثَّمِينَةِ مَا أَصْحَبُ الثَّمِينَةِ^(٨) وَأَصْحَبُ الثَّمِينَةِ مَا أَصْحَبُ الثَّمِينَةِ^(٩) وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ» [الواقعة: ٧-١٠] - قَالَ -: هُمْ الضَّرْبَاءُ^(١٠).

[سُؤَالُ الْمَوْءُودَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ» أَي: دُنِبَ قِيلَتْ

هَكَذَا قِرَاءَةُ الْجُمُورِ «سُئِلَتْ». وَالْمَوْءُودَةُ هِيَ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدُسُّونَهَا فِي التُّرَابِ؛ كَرَاهِيَةَ النَّبَاتِ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تُسَالُ الْمَوْءُودَةُ عَلَى أَيِّ ذَنْبٍ قِيلَتْ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَهْدِيدًا لِقَاتِلَيْهَا، فَإِنَّهُ إِذَا سُئِلَ الْمَظْلُومُ فَمَا ظَنَّ الظَّالِمَ إِذَا؟ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ» أَي: سَأَلَتْ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الضَّحَى: (سَأَلَتْ) أَي: طَالَبَتْ بِدَمِيهَا^(٩). وَعَنِ الشَّدِيِّ وَقِتَادَةَ مِثْلَهُ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْءُودَةِ، فَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ [جُدَامَةَ] بِنْتِ وَهْبٍ أُنْتِ عَكَّاشَةٌ قَالَتْ: حَضَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نَاسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْتَهِيَ عَنِ الْغَيْلَةِ فَظَفَرْتُ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ، فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ، وَلَا يَصُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا». ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنِ الْعَزْلِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ الْوَأْدُ الْحَفِي، وَهُوَ الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ»^(١٠). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَةَ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(١١).

[كَفَّارَةُ وَأَدِ النَّبَاتِ]

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ سَمَّاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ» قَالَ: جَاءَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَأَدْتُ بَنَاتٍ لِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ: «أَعْتَقِي عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي صَاحِبٌ إِبِلٍ قَالَ: «فَانْحَرِي عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَدَنَةً»^(١٢).

[نَشْرُ الصُّحُفِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا الصُّحُفُ سُحِّرَتْ» قَالَ الضَّحَّاكُ: أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ صَحِيفَتَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِهِ، وَقَالَ قِتَادَةُ: يَا ابْنَ آدَمَ، تُمْلِي فِيهَا ثُمَّ تُطْوِي، ثُمَّ تُنَشَرُ عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَنْظُرْ رَجُلٌ مَاذَا يُمْلِي فِي صَحِيفَتِهِ^(١٣).

(١) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٢) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٣) الطبري:

٢٤٠/٢٤ (٤) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٥) الطبري: ٢٤٠/٢٤

(٦) القرطبي: ٢٢٩/١٩ (٧) الطبري: ٢٤٢/٢٤ (٨) الطبري:

٢٤٥/٢٤ فيه الوليد بن مسلم وهو يدلس تليس التسوية لا بد أن

يصرح عن شيخه وشيخه وهو ما لم يفعله (٩) الطبري:

٢٤٦/٢٤ (١٠) أحمد: ٤٣٤/٦ (١١) مسلم: ١٠٦٦/٢،

١٠٦٧ وابن ماجه: ٦٤٨/١ وأبو داود: ٢١١/٣ وتحفة

الأخوذى: ٢٤٩/٦ والنسائي في الكبرى: ١٠٦/٦ (١٢) عبد

الرزاق: ٣٥١/٣ (١٣) الطبري: ٢٤٩/٢٤

[كَشَطُ السَّمَاءِ وَتَسْعِيرُ الْحَجِيمِ وَتَقْرِيبُ الْجَنَّةِ]
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ:
 اجْتُنِدَتْ^(١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: كُشِفَتْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
 الْحَجِيمُ سُعِرَتْ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: أَحْمِيَتْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
 الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ وَأَبُو مَالِكٍ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ
 حَتِيمٍ: أَي قُرِبَتْ إِلَى أَهْلِهَا.

[كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا أَحْضَرَهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ هَذَا هُوَ الْحَوَاطِ
 أَي: إِذَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ حِينَئِذٍ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ
 وَأَحْضَرَتْ ذَلِكَ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
 عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْتَسِرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
 وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنُوا لِلْإِنْسَانِ
 يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿فَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ١٧﴾
 وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي
 الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢﴾ وَلَقَدْ
 رَأَاهُ بِالْأُنْفِ الْأَيْمَنِ ٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ
 شَيْطَانٍ مَجْنُونٍ ٢٥﴾ فَأَن تَذَهَبُونَ ٢٦﴾ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧﴾ لِمَنْ
 شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَفِيمَ ٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ ٢٩﴾

[تَفْسِيرُ الْخُنُسِ وَالْكُنَّسِ]

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عِنْدَ هَذِهِ
 الْآيَةِ عَنْ عَمْرٍو بْنِ حُرَيْثٍ قَالَ: صَلَّيْتُ حَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ
 الصُّبْحَ فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦﴾
 وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ١٨﴾. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ،
 عَنْ [خَالِدِ] ابْنِ عَرَعَرَةَ، سَمِعْتُ عَلِيًّا وَسُبَيْلَ عَنْ ﴿فَلَا أُقِيمُ
 بِالنَّفْسِ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦﴾ فَقَالَ: هِيَ النُّجُومُ تَخْسُنُ بِالنَّهَارِ
 وَتَكْسُنُ بِاللَّيْلِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا:
 إِفْبَالُهُ بِظُلَامِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَظْلَمَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:
 إِذَا نَشَأَ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: إِذَا غَشِيَ النَّاسَ^(٤).
 وَكَذَا قَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ^(٥). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ
 وَالْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾: إِذَا أَدْبَرَ^(٦).
 وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ^(٧). وَكَذَا قَالَ زَيْدُ بْنُ
 أَسْلَمَ وَإِنَّهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ أَي إِذَا ذَهَبَ
 فَنَوَلَى^(٨).

وَعِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ إِذَا أَقْبَلَ وَإِنْ
 كَانَ يَصِحُّ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْإِدْبَارِ أَيْضًا، لَكِنَّ الْإِقْبَالَ هَهُنَا
 أَنْسَبُ، كَأَنَّهُ أَقْسَمَ بِاللَّيْلِ وَظُلَامِهِ إِذَا أَقْبَلَ، وَبِالْفَجْرِ
 وَضِيَائِهِ إِذَا أَشْرَقَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ١﴾ وَالنَّهَارِ
 إِذَا تَجَلَّى ٢﴾ [الليل: ٢، ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالصُّبْحِ ١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا
 سَجَى ٢﴾ [الضحى: ٢، ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَمَلَ
 اللَّيْلِ سَكَاكًا﴾ [الأنعام: ٩٦] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَقَالَ
 كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ: إِنَّ لَفْظَةَ عَسَسَ تُسْتَعْمَلُ فِي
 الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ عَلَى وَجْهِ الْإِشْرَاقِ، فَعَلَى هَذَا يَصِحُّ أَنَّ
 يُرَادُ كُلُّ مِنْهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: إِذَا
 طَلَعَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا أَضَاءَ وَأَقْبَلَ^(٩).

[الْقُرْآنُ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ وَلَيْسَ مِنْ نَسِجَةِ الْجُنُونِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يَعْنِي: إِنَّ هَذَا
 الْقُرْآنَ لَتَبْلِغُ رَسُولٍ كَرِيمٍ أَي: مَلِكٍ شَرِيفٍ حَسَنِ الْخَلْقِ
 بَهِيٍّ الْمَنْظَرِ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قَالَ ابْنُ
 عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيُّ وَمِمْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ
 ابْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ^(١٠). ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ٥﴾ ذُو مِرْوَةٍ ٦﴾ [النجم: ٦، ٥] أَي: شَدِيدُ
 الْخَلْقِ شَدِيدُ الْبَطْشِ وَالْفِعْلِ ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أَي: لَهُ
 مَكَانَةٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾ أَي: لَهُ
 وَجَاهَةٌ وَهُوَ مَسْمُوعُ الْقَوْلِ، مُطَاعٌ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى قَالَ
 قَتَادَةُ: ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾ أَي: فِي السَّمَوَاتِ يَعْنِي: لَيْسَ هُوَ مِنْ
 [أَفْنَاءِ] * الْمَلَائِكَةِ، بَلْ هُوَ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَشْرَافِ مُعْتَنَى بِهِ
 انْتِخِبَ لِهَذِهِ الرَّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمِينٍ﴾ صِفَةٌ لِجِبْرِيلَ بِالْأَمَانَةِ، وَهَذَا
 عَظِيمٌ جِدًّا أَنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ يُرَكِّي عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْمَلَكِيَّ
 جِبْرِيلَ، كَمَا زَكَّى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْبَشَرِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ بِقَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ قَالَ الشَّعْبِيُّ وَمِمْمُونُ بْنُ

(١) الطبري: ٢٤٩/٢٤ (٢) مسلم: ٣٣٦/١ والنسائي في
 الكبرى: ٥٠٧/٦ (٣) الطبري: ٢٥١/٢٤ (٤) الطبري: ٢٤/
 ٢٥٦ (٥) الطبري: ٢٥٦/٢٤ (٦) الطبري: ٢٥٥/٢٤ (٧)
 الطبري: ٢٥٦/٢٤ (٨) الطبري: ٢٥٦/٢٤ (٩) الطبري:
 ٢٥٨/٢٤ (١٠) القرطبي: ٢٤/١٩ والدر المشور: ٤٣٣/٨
 (*): يقال: هذا رجل من أفناء الناس، أي لا يعلم من هو؟ (أفاده
 د/البنات)

مِهْرَانَ وَأَبُو صَالِحٍ وَمَنْ تَقَدَّمَ ذَكَرَهُمْ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ يَعْنِي وَلَقَدْ رَأَى مُحَمَّدًا جِبْرِيلَ الَّذِي يَأْتِيهِ بِالرِّسَالَةِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، لَهُ سِتْمَاةٌ جَنَاحٌ ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ أَي: الْبَيِّنِ، وَهِيَ الرُّؤْيَةُ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ بِالْبَطْحَاءِ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿١﴾ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿[النجم: ٥-١٠]﴾ كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ وَتَقْرِيرُهُ، وَالذَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الرُّؤْيَةُ وَهِيَ الْأُولَى، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَمَا جَنَّهُ لِلْمَلَكِ ﴿١٥﴾ إِذْ يَعْنَى السِّدْرَةَ مَا يَعْنَى ﴿فَلَيْكَ إِنَّمَا ذُكِرْتُ فِي سُورَةِ النَّجْمِ﴾ [النجم: ١٣-١٦] وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

[لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ضَنِينًا فِي إِبْلَاحِ الْوُحْيِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ أَي: وَمَا مُحَمَّدٌ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ بِظَنِينٍ أَي: بِمُتَّهَمٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ ذَلِكَ بِالضَّادِ أَي: بِخَيْلٍ. بَلْ يَبْدُلُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ. قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: ظَنِينٌ وَضَنِينٌ سَوَاءٌ أَي: مَا هُوَ بِكَادِبٍ، وَمَا هُوَ بِفَاجِرٍ. وَالظَّنِينُ: الْمُتَّهَمُ وَالضَّنِينُ: الْبَخِيلُ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ الْقُرْآنُ غَيْبًا فَأَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ فَمَا ضَنَّ بِهِ عَلَى النَّاسِ، بَلْ نَشَرَهُ وَبَلَّغَهُ، وَبَذَلَهُ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ^(٣). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ قِرَاءَةَ الضَّادِ^(٤).

(قُلْتُ): وَكَلاهُمَا مُتَوَاتِرٌ وَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ كَمَا تَقَدَّمَ.

[الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَيْسَ بِوُحْيِ الشَّيْطَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ سَيِّئِينَ نَجْمٍ﴾ أَي: وَمَا هَذَا الْقُرْآنُ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ أَي: لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمَلِهِ، وَلَا يُرِيدُهُ، وَلَا يَتَّبِعِي لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿١٦﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٧﴾ إِذْ هُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ ﴿[الشعراء: ٢١٠-٢١٢]﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلْنَا نَزْلًا مِّنْ سَمَوَاتٍ مَّوْجًا دَحْزَاتٍ لَّيْلًا نَّزَّلَهُ الْغَمَامَ يُنَادِي: أَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ الْبُرُوجِ﴾ ﴿١٧٧﴾ أَي: فَأَنزَلْنَا تَذَهَبٌ عُقُولِكُمْ فِي تَكْذِيبِكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَعَ ظُهُورِهِ وَوُضُوحِهِ وَبَيَّانِ كَوْنِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَوْ فِدِيَ بَنِي حَنِيْفَةَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أَي: هَذَا الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَتَعَطَّوْنَ ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَعِيمَ﴾ أَي: مَنْ أَرَادَ الْهِدَايَةَ فَعَلَيْهِ بِهَذَا الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ [مُنْجَاةٌ] لَهُ وَهِدَايَةٌ، وَلَا هِدَايَةَ فِيهَا سِوَاهُ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: لَيْسَتْ الْمَشِيئَةُ مَوْكُولَةً إِلَيْكُمْ فَمَنْ شَاءَ اهْتَدَى وَمَنْ شَاءَ ضَلَّ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ تَابِعٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. رَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَعِيمَ﴾ قَالَ أَبُو جَهْلٍ: الْأَمْرُ إِلَيْنَا إِنْ شِئْنَا اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ شِئْنَا لَمْ نَسْتَعِيمَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥). آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكْوِيرِ. وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ]

رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَامَ مُعَاذُ فَصَّلَى الْعِشَاءَ الْأَخِرَةَ فَطَوَّلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفَتَأَنَّ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾^(١). وَأَصْلُ الْحَدِيثِ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢). وَلَكِنْ ذَكَرَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ فِي أَفْرَادِ النَّسَائِيِّ. وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْقِيَامَةِ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾»^(٣).

(١) الطبري: ٢٥٩/٢٤ والدر المنثور: ٤٣٤/٨ (٢) الطبري: ٢٦١/٢٤ (٣) الطبري: ٢٦١/٢٤ (٤) الطبري: ٢٦٠/٢٤، ٢٦١ (٥) الدر المنثور: ٤٣٥/٨ (٥) الطبري: ٢٦٤/٢٤ سفیان الثوري ثقة مدلس وعنعن ولم يصرح بالسماع (٦) النسائي في الكبرى: ٥٠٨/٦ (٧) فتح الباري: ٥٣٢/١٠ ومسلم: ٣٣٩/١

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ
٥٨٧
بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكُوكُوبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ
فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمْتَ
وَأَخَّرْتَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا
كُنِينِ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنْ أَلْبَرْتُمْ لِفِي نَعِيمِ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ
الْفَجَارَ لَفِي حَجِيمِ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾
وَمَا آذَرْنَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا آذَرْنَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٨﴾
يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سِتًّا وَالْأَمْرُ يَوْمَ مِذْلَ اللَّهِ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ
٥٨٨
بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا كَانُوا عَلَى النَّاسِ سَتَوْفُونَ ﴿٢﴾
وَإِذَا كَانُوا لَهُمْ أَوْ رَزَقُوهُمْ يَخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ
مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

كُورَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿٣﴾ .
بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
﴿١﴾ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْكُوكُوبُ انْتَرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ
فُجِرَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٥﴾ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿٥﴾
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ
بِالذِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كُنِينِ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

[مَا يَتَّعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أَي: انشَقَّتْ كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ . ﴿ وَإِذَا الْكُوكُوبُ انْتَرَتْ ﴾
أَي: تَسَاقَطَتْ ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ،
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَجَّرَ اللَّهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ (٢) . وَقَالَ
الْحَسَنُ: فَجَّرَ اللَّهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ فَذَهَبَ مَاؤُهَا (٣) . وَقَالَ
قَتَادَةُ: اخْتَلَطَ عَذْبُهَا بِمَالِحِهَا (٤) .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُحِثَتْ (٥) . وَقَالَ
السُّدِّيُّ: تُبْعَثُ: تُحْرَكُ فَيَخْرُجُ مِنْ فِيهَا ﴿ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا
قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴾ أَي: إِذَا كَانَ هَذَا حَاصِلًا هَذَا .

[لَا يَتَّبِعِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْسَى اللَّهَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴾ هَذَا
تَهْدِيدٌ، لَا كَمَا يَتَوَهَّمُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَنَّهُ إِزْشَادٌ إِلَى
الْجَوَابِ حَيْثُ قَالَ: الْكَبِيرِ . حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: غَرَّهُ
كَرْمُهُ . بَلِ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَا غَرَّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بِرَبِّكَ
الْكَرِيمِ أَيِ الْعَظِيمِ حَتَّى أَقْدَمْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَقَابَلْتَهُ بِمَا لَا
يَلِيْقُ . كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ:
يَا ابْنَ آدَمَ، مَا غَرَّكَ بِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، مَاذَا أَجَبْتَ
الْمُرْسَلِينَ؟ » (٦) .

وَقَدْ حَكَى الْبُغَوِيُّ عَنِ الْكَلْبِيِّ وَمُقَاتِلِ أَنَّهُمَا قَالَا:
نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَسْوَدِ بْنِ شَرِيْقٍ: ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ
وَلَمْ يُعَاقَبْ فِي الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ مَا غَرَّكَ
بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴾ (٧) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أَي: مَا
غَرَّكَ بِالرَّبِّ الْكَرِيمِ ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أَي:
جَعَلَكَ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا، مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ مُنْتَصِبَهَا، فِي أَحْسَنِ
الْهَيْئَاتِ وَالْأَشْكَالِ . رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُسْرِ بْنِ
جِحَاشِ الْقُرَشِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ

فَوَضَعَ عَلَيْهَا إِصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ
أَنْتَى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ
وَعَدَلْتُكَ مَسَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَبَيْدٌ، فَجَمَعْتَ
وَمَتَّعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتَ: أَنْصَدُقُ وَأَنْتَى أَوَانُ
الصَّدَقَةِ؟ » (٨) . وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ (٩) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ:
فِي أَيِّ شِبْهِ أَبٍ أَوْ أُمٍّ أَوْ خَالٍ أَوْ عَمٍّ (١٠) . وَفِي
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غَلَامًا أَسْوَدًا، قَالَ: « هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ »
قَالَ: نَعَمْ . قَالَ: « فَمَا أَلْوَأْنُهَا؟ » قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: « فَهَلْ
فِيهَا مِنْ أَوْزُقٍ؟ » قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: « فَأَنْتَى أَنَا هَذَا ذَلِكَ؟ »

(١) تحفة الأحودي: ٢٥٢/٩ (٢) الطبري: ٢٦٧/٢٤ (٣)
الطبري: ٢٦٧/٢٤ (٤) الطبري: ٢١٧/٢٤ (٥) الطبري:
٢٦٧/٢٤ (٦) تحفة الأشراف: ٧٠/٧ (٧) البغوي: ٤٥٥/٤
(٨) أحمد: ٢١٠/٤ (٩) ابن ماجه: ٩٠٣/٢ (١٠) الطبري:
٢٧٠/٢٤

قَالَ: عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقًا. قَالَ: «وَهَذَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقًا»^(١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُطْفِفِينَ وهي مَدِينَةٌ

[سَبَبُ الْغُرُورِ، وَالنَّبِيَّةُ عَلَى تَسْجِيلِ الْمَلَائِكَةِ لِأَعْمَالِ
بَنِي آدَمَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أَي: إِنَّمَا يَحْمِلُكُمْ عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ الْكَرِيمِ وَمُقَابَلَتِهِ بِالْمَعَاصِي تَكْذِيبٌ فِي قُلُوبِكُمْ بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ يَعْنِي: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَمَلَائِكَةً حَفَظَةً كِرَامًا فَلَا تَقَابِلُوهُمْ بِالْقَبَاحِ فَإِنَّهُمْ يَكْتُبُونَ عَلَيْكُمْ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٣﴾ صَلَوَاتُهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٤﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكُمْ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ لِمَوْمِدِ اللَّهِ ﴿١٨﴾﴾

[جَزَاءُ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَصِيرُ الْأَبْرَارُ إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ، وَهُمْ الَّذِينَ أَطَاعُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَمْ يَقَابِلُوهُ بِالْمَعَاصِي. ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْفُجَّارُ مِنَ الْجَحِيمِ وَالْعَذَابِ الْمُقِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿صَلَوَاتُهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَي: يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْقِيَامَةِ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أَي: لَا يَغِيبُونَ عَنِ الْعَذَابِ سَاعَةً وَاحِدَةً، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا وَلَا يُجَابُونَ إِلَىٰ مَا يَسْأَلُونَ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الرَّاحَةِ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أَكَّدَهُ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكُمْ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ يَقُولُهُ: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أَي: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ نَفْعِ أَحَدٍ وَلَا خَلَاصِهِ مِمَّا هُوَ فِيهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى، وَتَذَكَّرْ هَهُنَا حَدِيثَ: «يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(٢). وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّعْرَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾. كَقَوْلِهِ: ﴿لِمَنْ أَمْلَكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجِدَ الْقَهَّارِ﴾ [عاف: ١٦] وَقَقَوْلِهِ: ﴿أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وَقَقَوْلِهِ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] قَالَ قَتَادَةُ: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾: وَالْأَمْرُ - وَاللَّهُ - الْيَوْمُ لِلَّهِ، وَلِكَيْتَهُ لَا يَبْزَعُهُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَيِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطْفِفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

[الزِّيَادَةُ وَالتَّقْصَانُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ سَبَبٌ لِلْوَيْلِ
وَالْخُسْرَانِ]

رَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ كَيْلًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطْفِفِينَ﴾ فَحَسَّنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ^(٣).

وَالْمُرَادُ بِالتَّطْفِيفِ هَهُنَا: التُّبْحُسُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِمَّا بِالْإِزْدِيَادِ إِِنْ افْتَضَى مِنَ النَّاسِ، وَإِمَّا بِالتَّقْصَانِ إِنْ قَصَّاهُمْ. وَلِهَذَا فَسَّرَ تَعَالَى الْمُطْفِفِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمْ بِالْخُسْرَانِ وَالْهَلَاكِ وَهُوَ الْوَيْلُ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أَي: مِنَ النَّاسِ ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أَي: يَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ بِالْوَافِي وَالزَّائِدِ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أَي: يَتَّقْصُونَ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ يُجْعَلَ «كَالُوا» «وَوَزَنُوا» مُتَعَدِّيًا، وَيَكُونُ «هُمْ» فِي مَحَلِّ نَصْبٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهَا ضَمِيرًا مُؤَكَّدًا لِلْمُسْتَبْرَ فِي قَوْلِهِ: «كَالُوا» وَ «وَزَنُوا» وَيُخَدِّفُ الْمَفْعُولَ لِذِلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَكِلَاهُمَا مُتَعَدَّرٌ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسِنَتِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] وَأَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمَ شُعَيْبٍ وَدَمَّرَهُمْ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَبْخَسُونَ النَّاسَ فِي الْمِيزَانِ وَالْمِكْيَالِ.

[تَخْوِيفُ الْمُطْفِفِينَ مِنَ الْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ

(١) فتح الباري: ٣٥١/٩ ومسلم: ١١٣٧/٢ (٢) مسلم: ١/

١٩٣ (٣) النسائي في الكبرى: ٥٠٨/٦ وابن ماجه: ٧٤٨/٢

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٩﴾ وَبِئْسَ يَوْمِذٌ لِمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُنزِلَتْ عَلَيْهِ بَشِيرًا قَالِ اسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَّحُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُعَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ لَفِي عِلْتِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْتُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُفْرُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَفِي تَعْوِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْفُونَ مِنْ رَحِيْقٍ مَحْتُمٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُمْ مَسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمُرَاجِعُهُ مِنَ تَنْبِيهِ ﴿٢٧﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُفْرُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ أَيُّ مَا يَخَافُ أَوْلِيكَ مِنَ الْبُعْثِ وَالْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ فِي يَوْمٍ عَظِيمٍ الْهَوْلِ. كَثِيرِ الْفَرَحِ جَلِيلِ الْخَطْبِ، مَنْ حَسِرَ فِيهِ أُدْخِلَ نَارًا حَامِيَةً؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ يَقُومُونَ حِفَاةَ عِرَاةٍ غُرَالًا فِي مَوْقِفٍ صَعْبٍ حَرَجٍ ضَبَقٍ صَنِكَ عَلَى الْمُجْرِمِ وَيَعْنَاهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا تُعْجِزُ الْقُوَى وَالْحَوَاسَّ عَنْهُ.

رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ نَافِعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْنٍ كِلَاهُمَا عَنْ نَافِعٍ بِهِ ^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنَ الطَّرِيقَيْنِ أَيْضًا ^(٢).

(حَدِيثٌ آخَرَ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّادِ يَعْنِي ابْنَ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُذُنَيْتِ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قَدَرٌ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ - قَالَ - فَتَضَهُرُهُمُ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْجَنَامُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ ^(٣).

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْ ضَبِقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(٤). وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُومُونَ أَرْبَعِينَ سَنَةً رَافِعِي رُؤُوسِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، لَا يُكَلِّمُهُمْ أَحَدٌ قَدِ الْجَمِّ الْعَرَقُ بَرُّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ ^(٥). وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ: يَقُومُونَ مِائَةَ سَنَةٍ. رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ ^(٦). وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالتَّنَائِي وَابْنِ مَاجَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَفْتَتِحُ قِيَامَ اللَّيْلِ: يُكَبِّرُ عَشْرًا وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُسَبِّحُ عَشْرًا وَيَسْتَغْفِرُ عَشْرًا وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْلِيهِ وَارْزُقْنِي وَعَافِيهِ» وَيَتَعَوَّذُ مِنْ ضَبِقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(٧).

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٩﴾ وَبِئْسَ يَوْمِذٌ لِمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُنزِلَتْ عَلَيْهِ بَشِيرًا قَالِ اسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَّحُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُعَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

[كِتَابُ الْفُجَارِ وَبَعْضُ أَحْوَالِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ أَيُّ أَنْ

مَصِيرُهُمْ وَمَا وَهُمْ لَفِي سِجِّينٍ فَعِيلٌ مِنَ السَّجْنِ وَهُوَ الضَّبِقُ، كَمَا يُقَالُ: فَسِقٌ، وَشَرِيْبٌ، وَخَمِيْرٌ، وَسَكِيْرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا عَظَّمَ أَمْرُهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أَيُّ هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَسَجْنٌ مُقِيمٌ، وَعَدَابٌ أَلِيمٌ، ثُمَّ قَدْ قَالَ قَائِلُونَ: هِيَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي رُوحِ الْكَافِرِ أَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ - وَسِجِّينٌ هِيَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ^(٨). - وَلَمَّا كَانَ مَصِيرُ الْفُجَارِ إِلَى جَهَنَّمَ وَهِيَ أَسْفَلُ السَّافِلِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٥، ٦]

(١) فتح الباري: ٥٦٥/٨ (٢) مسلم: ٢١٩٦، ٢١٩٥/٤ (٣) أحمد: ٣/٦ ومسلم: ٢٨٦٤ وتحفة الأحوذى: ٨٩/٧ (٤) أبو داود: ٤٨٧/١ (٥) الطبري: ٢٨١/٢٤ إسناده ضعيف فيه شريك بن عبدالله وهو سئى الحفظ (٦) الطبري: ٢٨٠/٢٤ (٧) أبو داود: ٤٨٦/١ والتنائي: ٢٩٩/٣ وابن ماجه: ٤٣١/١ (٨) الطوال للطبراني: ٢٣٨

وَقَالَ هَهُنَا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَئِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَجْمَعُ الضِّيقَ وَالسُّقُولَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِإِذَا أُلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا صَبِيحًا مُقْرِزِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان: ١٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ مَرْفُومٌ ﴿١٠﴾ لَيْسَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿١١﴾ وَإِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْمَصِيرِ إِلَى سَجِينٍ أَيْ مَرْفُومٌ مَكْتُوبٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ لَا يَزَادُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، أَحَدٌ. قَالَهُ مُحَمَّدٌ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ ^(١). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٢﴾ أَلَيْسَ إِذَا صَارُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ السَّجْنِ وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيْلٌ ﴿١٣﴾﴾ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ الْهَلَاكُ وَالْدَّمَارُ كَمَا يُقَالُ: وَيْلٌ لِقُلَانٍ. وَكَمَا جَاءَ فِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ مِنْ رِوَايَةِ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلٌ لِّلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ النَّاسَ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ» ^(٢).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُفَسِّرًا لِلْمُكَذِّبِينَ الْفَجَارِ الْكُفْرَةَ: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِيَوْمِ اللَّيْلِ ﴿١٤﴾ أَيْ لَا يُصَدِّقُونَ بِوَفْوَعِهِ وَلَا يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ وَيَسْتَبْعِدُونَ أَمْرَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٥﴾ أَيْ مُعْتَدٍ فِي أَفْعَالِهِ مِنْ تَعَاطِي الْحَرَامِ وَالْمُجَاوِزَةِ فِي تَنَاوُلِ الْمُنَاحِ، وَالْأَثِيمِ فِي أَقْوَالِهِ؛ إِنَّ حَدِيثَ كَذِبٍ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ إِيَّاكُنَا قَالَ أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ أَيْ إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الرَّسُولِ يَكْذِبُ بِهِ، وَيَطْرُقُ بِهِ ظَنُّ السُّوءِ فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُفْتَعَلٌ مَجْمُوعٌ مِنْ كُتْبِ الْأَوَائِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكَ قَالُوا أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تَمَلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٥] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ مَا عَلَّمَهَا مِنَ الرَّئِيبِ الَّذِي قَدْ لَيْسَ قُلُوبُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْحَطَايَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وَالرَّئِيبُ يَعْتَرِي قُلُوبَ الْكَافِرِينَ، وَالْعَيْمُ لِلْأَبْرَارِ وَالْعَيْنُ لِلْمُقَرَّبِينَ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ

يَقُولُ تَعَالَى: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ ﴿٢٠﴾ كِتَابٌ مَرْفُومٌ ﴿٢١﴾ يَشْهَدُهُ الْمُرُورُ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَئِي نَجِيمٍ ﴿٢٣﴾ عَلَى الْأَرْبَابِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّجِيمِ ﴿٢٥﴾ يُسْقُونَ مِنْ رَجِيحٍ مَحْتَمٍ ﴿٢٦﴾ خِتْمُهُمْ مِسْكَ ﴿٢٧﴾ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٨﴾ وَبِرَاحِهِمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٩﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٣٠﴾

[كِتَابُ الْأَبْرَارِ وَجَزَاءُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩﴾ وَهُمْ بِخِلَافِ الْفَجَارِ ﴿٢٠﴾ لَئِي عَلِيَّتٍ ﴿٢١﴾ أَيْ مَصِيرُهُمْ إِلَى عَلِيَّتَيْنِ وَهُوَ بِخِلَافِ سَجِينٍ. عَنْ هِلَالِ بْنِ يَسَافٍ، قَالَ: سَأَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ كُتَابًا وَأَنَا حَاضِرٌ: عَنْ سَجِينٍ قَالَ: هِيَ الْأَرْضُ السَّابِغَةُ وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْكُفَّارِ. وَسَأَلَهُ عَنْ عَلِيَّتَيْنِ فَقَالَ: هِيَ السَّمَاءُ السَّابِغَةُ وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ ^(٤). وَهَكَذَا قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ: إِنَّهَا السَّمَاءُ السَّابِغَةُ ^(٥). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَئِي عَلِيَّتَيْنِ ﴿٢١﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ ^(٦). وَقَالَ غَيْرُهُ: عَلِيُّونَ: عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَيِّ ^(٧). وَالظَّاهِرُ أَنَّ عَلِيَّتَيْنِ مَأْخُودٌ مِنَ الْعُلُوفِ، وَكُلَّمَا عَلَا الشَّيْءُ وَارْتَفَعَ عَظْمٌ وَاسْتَسَحَّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا أَمْرَهُ

(١) الدر المنثور: ٤٤٤/٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٥٠٩/٦ (٣) الطبري: ٢٨٧/٢٤ وتحفة الأحودي: ٢٥٣/٩ والنسائي في الكبرى: ٥٠٩/٦ وابن ماجه: ١٤١٨/٢ (٤) الطبري: ٢٤/٢٤ (٥) الطبري: ٢٩٠/٢٤ (٦) الطبري: ٢٩٢/٢٤ (٧) الطبري: ٢٩٢/٢٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ إِيَّاكُنَا قَالَ أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ أَيْ إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الرَّسُولِ يَكْذِبُ بِهِ، وَيَطْرُقُ بِهِ ظَنُّ السُّوءِ فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُفْتَعَلٌ مَجْمُوعٌ مِنْ كُتْبِ الْأَوَائِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكَ قَالُوا أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تَمَلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٥] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ مَا عَلَّمَهَا مِنَ الرَّئِيبِ الَّذِي قَدْ لَيْسَ قُلُوبُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْحَطَايَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وَالرَّئِيبُ يَعْتَرِي قُلُوبَ الْكَافِرِينَ، وَالْعَيْمُ لِلْأَبْرَارِ وَالْعَيْنُ لِلْمُقَرَّبِينَ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ

وَمَفْخَمًا شَانَهُ ﴿١٩﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلِمُونَ ﴿٢٠﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُؤَكَّدًا لِمَا كَتَبَ لَهُمْ: ﴿ كَتَبَ مَرُومٌ ﴿٢١﴾ يَشْهَدُ الْقُرُونُ ﴾ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ . قَالَهُ قَتَادَةُ ^(١) . وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَشْهَدُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مَقْرُبُوهَا ^(٢) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ، وَجَنَاتٍ فِيهَا فَضْلٌ عَمِيمٌ ﴿ عَلَى الْأَرَايِكِ ﴾ وَهِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ يَنْظُرُونَ فِي مُلْكِهِمْ وَمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ الَّذِي لَا يَنْقُضِي وَلَا يَبِيدُ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ﴿ عَلَى الْأَرَايِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَهَذَا مُقَابِلٌ لِمَا وُصِفَ بِهِ أَوْلِيكَ الْفُجَّارُ ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴾ فَذَكَرَ عَنْ هُوَلَاءِ أَنَّهُمْ يَبْأَحُونَ النَّظَرَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ عَلَى سُرُرِهِمْ وَفُرُشِهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أَي تَعْرِفُ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ فِي ﴿ وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أَي صِفَةَ الشَّرَافَةِ وَالْحِشْمَةِ، وَالشُّرُورِ وَالِدَّعَةِ وَالرِّيَاسَةِ، مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْقُونَ مِنْ رِجْقٍ مَخْتُومٍ ﴾ أَي يُسْقَوْنَ مِنْ خَمْرٍ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالرِّجْقُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْخَمْرِ . قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ ^(٣) .

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَرَاهُ قَدْ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَيْمًا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا شَرِبَتْهُ مَاءٌ عَلَى ظَهْرٍ سَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّجِيقِ الْمَخْتُومِ . وَأَيْمًا مُؤْمِنٍ أَعْطَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ أَعْطَمَهُ اللَّهُ مِنْ تِمَارِ الْجَنَّةِ . وَأَيْمًا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِنًا تَوْبًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ» ^(٤) . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ حَتَمْتُمْ مِسْكَ ﴾ أَي خَلَطْتُمْ مِسْكَ ^(٥) . وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: طَيَّبَ اللَّهُ لَهُمُ الْخَمْرَ فَكَانَ آخِرَ شَيْءٍ جُعِلَ فِيهَا مِسْكَ حَتَمَ بِمِسْكِ ^(٦) . وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ ^(٧) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أَي وَفِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ؛ وَلْيَتَبَاهَى وَيُكَايِرْ وَيَسْتَبِقْ إِلَى مِثْلِهِ الْمُسْتَبِقُونَ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لِيَسْلُبْ هَذَا فَلْيَعْمَلَ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرِزَابُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ أَي وَرِزَابُ هَذَا الرَّجِيقِ الْمُوصُوفِ: مِنْ تَسْنِيمٍ أَي: مِنْ شَرَابٍ يُقَالُ لَهُ: تَسْنِيمٌ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهُ، قَالَهُ أَبُو صَالِحٍ وَالضَّحَّاكُ ^(٨) . وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ عَيْنًا يَتَرَبَّبُ بِهَا الْقَمْرُونَ ﴾ أَي يَتَرَبَّبُهَا الْمُقْرَبُونَ صِرْفًا

سورة المطففين
٥٨٩
سورة المطففين

عَلَى الْأَرَايِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢١﴾ هَلْ تُوْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢﴾

سورة الأَشْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَامْلِكْ فِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلُبُ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنْ رَدَّهٖ كَانَ بِهٖ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالسَّفَافِئِ ﴿١٦﴾ وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

وَتَمْرُجٌ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَرْجًا . قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ ^(٩) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٢٣﴾ قَالِیْمٌ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ ﴿٢٤﴾ عَلَى الْأَرَايِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ هَلْ تُوْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾

[إِسَاءَةُ الْمُجْرِمِينَ وَاسْتَهْزَاؤُهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَصْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَي يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ وَيَحْتَقِرُونَهُمْ،

(١) الطبري: ٢٩٤/٢٤ (٢) الطبري: ٢٩٤/٢٤ (٣) الطبري: ٢٩٦/٢٤ (٤) أحمد: ١٣/٣ إسناده ضعيف فيه عطية العوفي وهو ضعيف مدلس كما مر ذكره عدة مرات أنظر أيضًا سنن الترمذي (٢٤٤٩) (٥) الطبري: ٢٩٧/٢٤ (٦) الطبري: ٢٩٤/٢٤ (٧) الطبري: ٢٩٧/٢٤ (٨) الطبري: ٣٠١/٢٤ (٩) الطبري: ٣٠١/٢٤

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ بِتَأْيِهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ
 كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَقَيْهِ ﴿٣﴾ فَمَا مِنْ أَوْفٍ كِنْتَهُ بِمِيسِنِهِ ﴿٤﴾
 فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٥﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٦﴾ وَأَمَّا مَنْ
 أَوْفَىٰ كِنْتَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿٨﴾ وَيَصِلُ سَعِيرًا ﴿٩﴾
 إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٠﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ ﴿١١﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ
 كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٢﴾

[انْشِقَاقَ السَّمَاءِ وَتَمْدِيدُ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أَي اسْتَمَعَتْ لِرَبِّهَا وَأَطَاعَتْ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَهَا
 بِهِ، مِنَ الْإِنْشِقَاقِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَحُقَّتْ﴾ أَي وَحُقَّ
 لَهَا أَنْ تُطِيعَ أَمْرَهُ لِأَنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُعَالَبُ،
 بَلْ قَدْ فَهَرَّ كُلُّ شَيْءٍ وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا
 الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أَي بُسِطَتْ وَفُرِشَتْ وَوُسِّعَتْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أَي أَلْقَتْ مَا فِي
 بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ وَتَخَلَّتْ مِنْهُمْ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ
 وَقَتَادَةُ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٣). كَمَا تَقَدَّمَ.

[جَزَاءُ الْأَعْمَالِ حَقٌّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿بِتَأْيِهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أَي إِنَّكَ
 سَاحٍ إِلَىٰ رَبِّكَ سَعْيًا وَعَامِلٌ عَمَلًا ﴿فَمَلَقَيْهِ﴾ ثُمَّ إِنَّكَ سَتَلَقِي
 مَا عَمَلْتَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ
 الطَّيَالِسِيُّ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ
 جَبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ
 [مَنْ] شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ
 مُلَاقِيهِ» (٤). وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعِيدُ الضَّمِيرَ عَلَى قَوْلِهِ:
 ﴿رَبِّكَ﴾ أَي فَمَلَقِ رَبِّكَ، وَمَعْنَاهُ فَيَجَازِيكَ بِعَمَلِكَ
 وَيُكَافِئُكَ عَلَى سَعْيِكَ، وَعَلَى هَذَا فَكَلِمَاتُ الْقَوْلَيْنِ مُتَلَازِمَةٌ.
 قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿بِتَأْيِهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ
 كَدْحًا﴾ يَقُولُ: تَعْمَلُ عَمَلًا تَلْقَى اللَّهُ بِهِ خَيْرًا كَانَ أَوْ
 شَرًّا (٥).

(١) مسلم: ٤٠٦/١ والنسائي في الكبرى: ٥١٠/٦ (٢) فتح
 الباري: ٢٩٢/١ (٣) الطبري: ٣١٠/٢٤ (٤) مسند الطيالسي:
 ٢٤٢ إسناده ضعيف لضعف الحسن بن أبي جعفر قال ابن حجر:
 ضعيف الحديث مع عبادته وفضله [تقريب ١٣٥١] وعن عتبة أبي
 الزبير وهو مدلس وله شاهد من حديث سهل بن سعد عند الطبراني
 في الأوسط (٤٢٧٨) والحاكم ٣٢٥/٤ واللقاضي في مسند
 الشهاب ٤٣٥/١ وصححه الحاكم وأقره الذهبي (٥) الطبري:

وَإِذَا مَرُّوا بِالْمُؤْمِنِينَ يَتَعَامَرُونَ عَلَيْهِمْ، أَي مُحْتَقِرِينَ لَهُمْ
 ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أَي وَإِذَا انْقَلَبَ أَي
 رَجَعَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ انْقَلَبُوا إِلَيْهَا فَكِهِينَ أَي
 مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، وَمَعَ هَذَا مَا شَكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ،
 بَلْ اشْتَعَلُوا بِالنُّفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ يَحْفَرُونَ نَهْمًا وَيَحْسُدُونَ نَهْمًا ﴿وَإِذَا
 رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُونَ﴾ أَي لِكُورِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ دِينِهِمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفَظِينَ﴾ أَي وَمَا بُعِثَ
 هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ حَافِظِينَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَصُدُّ
 مِنْهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَلَا كُلُّفُوا بِهِمْ؟ فَلِمَ اشْتَعَلُوا
 بِهِمْ وَجَعَلُوهُمْ نَصَبَ أَعْيُنِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا
 وَلَا تُكَلِّمُون﴾ (١٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
 فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ
 أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿٢٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا
 صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١] وَلِهَذَا قَالَ
 هُنَا: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
 يَضْحَكُونَ﴾ أَي فِي مُقَابَلَةِ مَا صَحَّحَ بِهِمْ أَوْلِيكَ ﴿عَلَّ الْأَرَاكِلَ
 يَنْظُرُونَ﴾ أَي إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ رَعَمَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ
 صَالُونَ - لَيْسُوا بِصَالِينَ بَلْ هُمْ مِنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُفْرِيينَ -
 يَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ تُوْبُّ
 الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَي هَلْ جُوزِي الْكُفَّارُ عَلَىٰ مَا كَانُوا
 يُقَابِلُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِسْتِهْزَاءِ وَالتَّطْيِيسِ أَمْ لَا، يَعْنِي
 قَدْ جُوزُوا أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ.

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْمُطَفِّينَ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[سَجْدَةُ التَّلَاوَةِ فِي سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ]

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَرَأَ بِهِمْ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾
 فَسَجَدَ فِيهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَجَدَ
 فِيهَا. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتَّسَائِي فِي طَرِيقِ مَالِكٍ (١). وَرَوَى
 الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَةَ
 فَقَرَأَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ فَسَجَدَ، فَقُلْتُ لَهُ: فَقَالَ: سَجَدْتُ
 خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ فَلَا أَرَأَىٰ أَنْ سَجُدَ بِهَا حَتَّىٰ أَلْقَاهُ (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣)

[الْعُرْضُ وَالْمُنَاقِشَةُ فِي الْحِسَابِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ بِئِيمِينِهِ ۖ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أَي سَهْلًا بِلَا تَعْسِيرٍ أَي لَا يُحَقِّقُ عَلَيْهِ جَمِيعَ دَقَائِقِ أَعْمَالِهِ فَإِنَّ مَنْ حُوسِبَ كَذَلِكَ هَلَكَ لَا مَحَالَةَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَفَلَيْسَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ بِالْحِسَابِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْعُرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ» ﴿١١﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ ﴿٢١﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَنْبَغِي لِإِخْوَانِهِمْ مَسْرُورًا﴾ أَي وَيَرْجِعُ إِلَىٰ أَهْلِهِ فِي الْحِجَّةِ قَالَهُ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ ﴿مَسْرُورًا﴾ أَي فَرِحًا مُغْتَبِطًا بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿٣﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أَي بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، تُثْنِي يَدُهُ إِلَىٰ وَرَائِهِ وَيُعْطَى كِتَابَهُ بِهَا كَذَلِكَ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرًّا﴾ أَي خَسَارًا وَهَلَاكًا ﴿وَيَصِلُ سَعِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿أَي فَرِحًا لَا يُفَكِّرُ فِي الْعَوَاقِبِ وَلَا يَخَافُ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَعَقَبَهُ ذَلِكَ الْفَرَحُ الْيَسِيرَ الْحُزْنَ الطَّوِيلَ﴾ ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لَنْ يَمُوتَ﴾ أَي كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَلَا يُعِيدُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا ﴿٤﴾. وَالْحَوْرُ هُوَ الرَّجُوعُ. قَالَ اللَّهُ: ﴿لَنْ يَنْ رَيْبَهُ كَانَ يَدُهُ بِصِيرًا﴾ يَعْنِي بَلَى سَعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا بَدَأَهُ، وَيُجَازِيهِ عَلَىٰ أَعْمَالِهِ خَيْرًا وَسَرًّا، فَإِنَّهُ كَانَ بِهِ بِصِيرًا، أَي عَلِيمًا خَيْرًا.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ﴾ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا

أَسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرَكْنَ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَمْ لَا يَوْمُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا فَرِئَتْ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

[الْقَسَمُ عَلَىٰ رُكُوبِ الْإِنْسَانِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ]

رَوَى عَنْ عَلِيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَسَدَادَ بْنَ أَوْسٍ وَابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَمُكْحَوْلَ وَبَكْرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْمُرْتَبِيَّ، وَبَكْرَ بْنَ الْأَشَّجِ، وَمَالِكَ، وَابْنَ أَبِي ذُنْبٍ وَعَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجِشُونَ، أَنَّهُمْ قَالُوا: الشَّفَقُ: الْحُمْرَةُ ﴿٥﴾. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: الشَّفَقُ: الْبَيَاضُ ﴿٦﴾.

فَالشَّفَقُ هُوَ حُمْرَةُ الْأُفُقِ إِذَا قَبَلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ كَمَا قَالَهُ

مُجَاهِدٌ ﴿٧﴾. وَإِنَّمَا بَعْدَ غُرُوبِهَا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ. قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: الشَّفَقُ: الْحُمْرَةُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِذَا ذَهَبَ قِيلَ: غَابَ الشَّفَقُ ﴿٨﴾. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الشَّفَقُ: بَقِيَّةُ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحُمُرَتُهَا فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الْعَتَمَةِ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ: الشَّفَقُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَقْتُ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِيبِ الشَّفَقُ» ﴿٩﴾.

فَفِي هَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الشَّفَقَ هُوَ كَمَا قَالَهُ الْجَوْهَرِيُّ وَالْخَلِيلُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ وَمَا جَمَعَ ﴿١٠﴾. قَالَ قَتَادَةُ: وَمَا جَمَعَ مِنْ نَجْمٍ وَدَابَّةٍ ﴿١١﴾.

وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يَقُولُ: مَا سَاقَ مِنْ ظِلْمَةٍ: إِذَا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَىٰ مَا وَاهُ ﴿١٢﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا آسَقَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا اجْتَمَعَ، وَاسْتَوَى ﴿١٣﴾. وَقَالَ الْحَسَنُ: إِذَا اجْتَمَعَ: إِذَا امْتَلَأَ ﴿١٤﴾.

وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا اسْتَدَارَ ﴿١٥﴾. وَمَعْنَى كَلَامِهِمْ أَنَّهُ إِذَا تَكَامَلَ نُورُهُ وَأَبْدَرَ جَعَلَهُ مُقَابِلًا لِلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتَرَكْنَ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿لَتَرَكْنَ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِهَذَا اللَّفْظِ ﴿١٦﴾.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ﴿١٧﴾. فَطَبَقًا بَعْدَ مَا كَانَ رَضِيعًا، وَشَيْخًا بَعْدَ مَا كَانَ شَابًا. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يَقُولُ: حَالًا بَعْدَ حَالٍ ﴿١٨﴾: رُخَاءً بَعْدَ شِدَّةٍ، وَشِدَّةً بَعْدَ رُخَاءٍ، وَعِنَى بَعْدَ فَقْرٍ، وَفَقْرًا بَعْدَ غِنَى، وَصِحَّةً بَعْدَ سُقْمٍ، وَسُقْمًا بَعْدَ صِحَّةٍ.

- (١) أحمد: ٤٧/٦ (٢) فتح الباري: ٥٦٦/٨ ومسلم: ٤/٢٢٠٤ وتحفة الأحوذى: ٢٥٦/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٠/٦ والطربري: ٣١٣/٢٤ (٣) الطبري: ٣١٥/٢٤ (٤) الطبري: ٣١٧/٢٤ (٥) القرطبي: ٢٧٤/١٩ (٦) عبد الرزاق: ٣/٣٥٨ (٧) الطبري: ٣١٨/٢٤ (٨) القرطبي: ٢٧٥/١٩ (٩) مسلم: ٤٢٦/١ (١٠) الطبري: ٣١٩/٢٤ (١١) الطبري: ٢٤/٣٢٠ (١٢) الطبري: ٣٢١/٢٤ (١٣) الطبري: ٣٢١/٢٤ (١٤) الطبري: ٣٢١/٢٤ (١٥) الطبري: ٣٢٢/٢٤ (١٦) فتح الباري: ٥٦٧/٨ (١٧) الطبري: ٣٢٣/٢٤ (١٨) الطبري: ٣٢٣/٢٤

سُورَةُ الْبُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣)
 قِيلَ اصْحَبِ الْأَحْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُرِّعَتْ عَلَيْهَا
 قُوعِدُ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا
 مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ
 فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَهُمْ
 عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ
 رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ الْوَعْدِ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)
 ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالِمُ أَسْرَارِهِ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ
 (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ
 وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قَوْلُ آبَائِكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا (٢١) فِي نَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

سُورَةُ الطَّارِقِ

[التَّكْبِيرُ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ وَتَبْشِيرُهُمْ بِالْعَذَابِ، وَأَنَّ النَّعِيمَ لِلْمُؤْمِنِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿أَيُّ فَمَاذَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَالَهُمْ إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَكَلَامُهُ - وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ - لَا يَسْجُدُونَ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ أَيُّ مِنْ سَجِيئَتِهِمُ التَّكْذِيبُ وَالْعِنَادُ وَالْمُخَالَفَةُ لِلْحَقِّ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ (١). ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيُّ فَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ، بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ يَعْنِي لَكِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ بِقُلُوبِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَيُّ بِجَوَارِحِهِمْ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿غَيْرُ مَنُونٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ غَيْرُ مَنُوقٍ (٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ: غَيْرُ مَحْسُوبٍ (٣). وَحَاصِلُ قَوْلِهِمَا أَنَّهُ غَيْرُ مَقْطُوعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ﴾ وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿غَيْرُ مَنُونٍ﴾ غَيْرُ مَنُوقٍ. أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ.

وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

تفسير سورة البروج وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قِيلَ اصْحَبِ الْأَحْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُرِّعَتْ عَلَيْهَا قُوعِدُ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)﴾

[تفسير البروج]

يُفْسِمُ تَعَالَى بِالسَّمَاءِ وَبُرُوجِهَا وَهِيَ النُّجُومُ الْعِظَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: الْبُرُوجُ:

النُّجُومُ (٤). وَقَالَ الْمُنْهَالُ بْنُ عَمْرٍو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أَلْخَلْقِ الْحَسَنِ (٥). وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا مَنَازِلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ بُرُوجًا، تَسِيرُ الشَّمْسُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا شَهْرًا، وَتَسِيرُ الْقَمَرُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَوْمَيْنِ وَثَلَاثًا، فَذَلِكَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ مَنَزَلَةً وَيَسْتَسِيرُ لَيْلَتَيْنِ (٦).

[تفسير اليوم الموعود وشاهد ومشهود]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَمَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِيدُ فِيهَا مِنْ شَرِّ إِلَّا

(١) الطبري: ٣٢٧/٢٤ (٢) الطبري: ٣٢٧/٢٤ (٣) الطبري: ٣٢٧/٢٤ (٤) القرطبي: ٢٠٠/١٩ (٥) القرطبي: ٢٨٣/١٩ (٦) الطبري: ٣٣٢/٢٤

أَعَادَهُ. ﴿وَمَشْهُورٌ﴾ يَوْمُ عَرَفَةَ^(١). وَهَكَذَا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ ابْنُ خَزِيمَةَ وَقَدْ رَوَى مَوْقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ أَشْبَهُ^(٢). [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ، وَالضَّحَّاكَ: الْمَشْهُودُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ].

قَالَ الْبَعُوثِيُّ: الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الشَّاهِدَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَالْمَشْهُودُ: يَوْمُ عَرَفَةَ^(٣).

[ظَلَمَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ﴾ أَي لَعَنَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ، وَجَمَعَهُ أَحَادِيدُ وَهِيَ الْحَفْرُ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا خَبْرٌ عَنِ قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَمَدُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَفَهَرُوهُمْ وَأَرَادُوهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ فَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخْدُودًا وَأَجْبَجُوا فِيهَا نَارًا، وَأَعْدُوا لَهَا وَفُودًا يَسْعُرُونَهَا بِهِ، ثُمَّ أَرَادُوهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ فَقَدَفُوهُمْ فِيهَا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ﴾ الْبَارِ ذَاتِ الْوُجُودِ ﴿١﴾ إِذْ هُرَّ عَلَيْهَا قُودٌ ﴿٢﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَقُولُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٣﴾ أَي مُشَاهِدُونَ لِمَا نَفَعَلُ بِأَوْلِيكَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أَي وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُضَامُ مِنْ لَدُنْ بَجَائِبِهِ الْمَنِيْعِ الْحَمِيدِ، فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَسُرْعِهِ وَقَدْرِهِ - وَإِنْ كَانَ قَدْ قَدَّرَ عَلَى عِبَادِهِ هُوْلَاءِ هَذَا الَّذِي وَقَعَ بِهِمْ بِأَيْدِي الْكُفَّارِ بِهِ، فَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ وَإِنْ خَفِيَ سَبَبُ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ تَمَامِ الصِّفَةِ: أَنَّهُ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَي لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

[قِصَّةُ سَاجِرٍ وَرَاهِبٍ وَعُغْلَامٍ وَمَنْ أَدْخَلَ الْأَخْدُودَ]

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ وَكَانَ لَهُ سَاجِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ السَّاجِرُ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرَ سِنِّي وَحَضَرَ أَجْلِي، فَادْفَعْ إِلَيَّ عُغْلَامًا لِأَعْلَمَهُ السُّحْرَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ عُغْلَامًا فَكَانَ يُعَلِّمُهُ السُّحْرَ، وَكَانَ بَيْنَ السَّاجِرِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ رَاهِبٌ فَأَتَى الْعُغْلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعَجَبَهُ نَحْوَهُ

وَكَلَامُهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاجِرَ ضَرِبَهُ وَقَالَ: مَا حَسَبَكَ؟ وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا: مَا حَسَبَكَ؟ فَسَكَكَ ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ السَّاجِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ: حَسْبِي أَهْلِي، وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ: حَسْبِي السَّاجِرُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَطِيعَةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا. فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ أَمْ أَمْرُ السَّاجِرِ؟ قَالَ: فَأَخَذَ حَجْرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضِي مِنْ أَمْرِ السَّاجِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ.

فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَيُّ بُنْيٍّ، أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي وَإِنَّكَ سَتَبْتَلِي، فَإِنْ ابْتَلَيْتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، فَكَانَ الْعُغْلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَوِي فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهِدَايَا كَثِيرَةً فَقَالَ: أَشْفِينِي وَلَكِ مَا هَهُنَا أَجْمَعُ، فَقَالَ: مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَّنَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ.

ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فَلَانُ، مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ فَقَالَ: رَبِّي. فَقَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، قَالَ: وَلَكِ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْعُغْلَامِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَيُّ بُنْيٍّ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءُ؟ قَالَ: مَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَوْلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأَتَى بِالرَّاهِبِ فَقَالَ: ارْجِعْ عَنِ دِينِكَ فَأَبِي، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى: ارْجِعْ عَنِ دِينِكَ، فَأَبِي، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ إِلَى الْأَرْضِ. وَقَالَ لِلْعُغْلَامِ: ارْجِعْ عَنِ دِينِكَ، فَأَبِي، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا وَقَالَ: إِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَدَهْدِهوهُ، فَدَهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوْا بِهِ الْجَبَلَ قَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ

(١) الطبري: ٢٤/٢٣٣، ٣٣٤ (٢) ابن خزيمة: ١١٦/٣ (٣) البغوي: ٤/٤٦٦

[تَبَانِ أَسْعَدَ أَبِي كَرَبٍ] وَهُوَ تَبَعُ الَّذِي غَزَا الْمَدِينَةَ وَكَسَا
الْكَعْبَةَ وَاسْتَضَحَبَ مَعَهُ حَبْرَيْنِ مِنَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ
تَهَوِّدَ مَنْ تَهَوَّدَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ عَلَى يَدَيْهِمَا كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ
إِسْحَاقَ مَسْطُوطًا، فَقَتَلَ ذُو نُوَاسٍ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ فِي
الْأَخْدُودِ عَشْرِينَ أَلْفًا وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ سِوَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُقَالُ
لَهُ: دَوْسٌ ذُو نُعْلَبَانَ، ذَهَبَ فَارِسًا، وَطَرَدُوا وَرَاءَهُ فَلَمْ
يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، فَذَهَبَ إِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ فَكَتَبَ إِلَى
النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ جَيْشًا مِنْ نَصَارَى
الْحَبَشَةِ يَقْدُمُهُمْ أَرْيَاطُ وَأَبْرَهَةَ فَاسْتَفْتَدُوا الْيَمَنَ مِنْ أَيْدِي
الْيَهُودِ، وَذَهَبَ ذُو نُوَاسٍ هَارِبًا فَلَجَّحَ فِي الْبَحْرِ فَعَرِقَ،
وَاسْتَمَرَّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ فِي أَيْدِي النَّصَارَى سَبْعِينَ سَنَةً، ثُمَّ
اسْتَفْتَدَهُ سَنُفُ بْنُ ذِي يَزَانَ الْجَمَيْرِيُّ مِنْ أَيْدِي النَّصَارَى،
لَمَّا اسْتَحْشَا بِكَيْسَرَى مَلِكِ الْفُرْسِ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ مَنْ فِي
السُّجُونِ فَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ سَبْعِمِائَةٍ، فَفَتَحَ بِهِمُ الْيَمَنَ وَرَجَعَ
الْمَلِكُ إِلَى حَمِيرٍ، وَسَدَّدُكَرُ طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ،
فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (٣).

[جَزَاءُ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَيْ
حَرَقُوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ
أَبْرَى (٤). ﴿ثُمَّ لَمْ يَبْقُوا﴾ أَيْ لَمْ يَبْقِعُوا عَمَّا فَعَلُوا وَيَبْدُوا
عَلَى مَا أَسْلَمُوا ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ وَذَلِكَ
أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: انظُرُوا
إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى
التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١) ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (٢) ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعْدُ
(٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿فَقَالَ لِمَا بَرَيْتُمْ﴾ (٥)
هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُودِ ﴿فِرْعَوْنَ وَتَمُودَ﴾ (٦) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
تَكْذِيبٍ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (٧) بَلْ هُوَ فَرْدٌ أَلْحَدٌ ﴿فِي
لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (٨)

[جَزَاءُ الصَّالِحِينَ وَالْبَطْشِ الشَّدِيدِ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ

الْكَافِرِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ

فَدُهُدُهَا أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ الْعُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى
الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى،
فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرُقُورٍ فَقَالَ: إِذَا لَجَجْتُمْ بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ
رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَعَرَّفُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَجَجُوا بِهِ الْبَحْرَ
فَقَالَ الْعُلَامُ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَعَرَّفُوا أَجْمَعُونَ.

وَجَاءَ الْعُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ
أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى. ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ:
إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ، فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ
مَا أَمَرْتُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي، قَالَ: وَمَا
هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ تَضْلِبُنِي عَلَى
جَذَعٍ وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ
الْعُلَامِ. فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَفَعَلَ وَوَضَعَ السَّهْمَ
فِي كَبِدِ قَوْسِهِ ثُمَّ رَمَاهُ وَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعُلَامِ، فَوَقَعَ
السَّهْمُ فِي ضِدْعِهِ، فَوَضَعَ الْعُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ
وَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ. فَقِيلَ لِلْمَلِكِ:
أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحَدَّرُ؟ فَقَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ
كُلُّهُمْ، فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السَّكِّكِ، فَخَدَّتْ فِيهَا الْأَخْدِيدُ
وَأَضْرَمَتْ فِيهَا النَّيرانَ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ،
وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا، قَالَ: فَكَانُوا يَتَعَادُونَ فِيهَا وَيَتَدَافَعُونَ،
فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ، فَكَانَهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي
النَّارِ فَقَالَ الصَّبِيُّ: اضْبِرِّي يَا أُمًّا فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ (١).
وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي آخِرِ الصَّحِيحِ (٢). وَقَدْ أوردَ مُحَمَّدُ
ابْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ هَذِهِ الْقِصَّةَ فِي السِّيَرَةِ بِسِيَاقٍ آخَرَ،
فِيهَا مُخَالَفَةٌ لِمَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ أَنَّ أَهْلَ نَجْرَانَ صَارُوا
بَعْدَ قَتْلِ الْعُلَامِ عَلَى دِينِهِ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ: قَالَ: فَسَارَ إِلَيْهِمْ
ذُو نُوَاسٍ بِجُنْدِهِ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ أَوْ
الْقَتْلِ فَاخْتَارُوا الْقَتْلَ، فَخَدَّ الْأَخْدُودَ فَحَرَّقَ بِالنَّارِ وَقَتَلَ
بِالسَّيْفِ، وَمَثَلَ بِهِمْ حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ قَرِيبًا مِنْ عَشْرِينَ أَلْفًا،
فَفِي ذِي نُوَاسٍ وَجُنْدِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ:
﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ (١) ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ﴾ (٢) ﴿إِذْ هَرَّ عَلَيَّهَا
مُؤْمِدٌ﴾ (٣) ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَقُولُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ مُهَوِّدٌ﴾ (٤) ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا
أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٥) ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هَكَذَا ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي
السِّيَرَةِ: أَنَّ الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ هُوَ ذُو نُوَاسٍ
وَاسْمُهُ زُرْعَةُ، وَيُسَمَّى فِي زَمَانِ مَمْلَكَتِهِ بِيُوسُفَ، وَهُوَ ابْنُ

(١) أحمد: ١٧/٦ (٢) مسلم: ٢٢٩٩/٤ (٣) ابن هشام: ١/

٣٦ (٤) الطبري: ٣٤٤، ٣٤٣/٢٤

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴿١﴾ بِخِلَافِ مَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْحَرِيقِ وَالْجَحِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ذَلِكَ الْقَوَارُ الْكَبِيرُ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أَيْ إِنَّ بَطْشَهُ وَأَنْتِقَامَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَخَافُوا أَمْرَهُ لَشَدِيدٍ عَظِيمٍ قَوِيٍّ، فَإِنَّهُ تَعَالَى ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ كَمَا يَشَاءُ، فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُئِدُّ﴾ أَيْ مِنْ قُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ بِيَدَيْهِ الْخَلْقُ وَيُعِيدُهُ كَمَا بَدَأَهُ بِلا مَمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ ﴿وَهُوَ الْقَفُورُ الْذُوْدُ﴾ أَيْ يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ وَلَوْ كَانَ الذَّنْبُ مِنْ أَيْ شَيْءٍ كَانَ، ﴿الذُّودُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْحَيِّبُ ^(١). ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أَيْ صَاحِبُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْعَالِي عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَ﴿الْمَجِيدُ﴾ فِيهِ قِرَاءَتَانِ: الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْجُرُّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَرْشِ وَكِلَاهُمَا مَعْنَى صَحِيحٍ ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أَيْ مَهْمَا أَرَادَ فَعَلَهُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَظَمَتِهِ وَقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، كَمَا رَوَيْنَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ وَهُوَ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ: هَلْ نَظَرَ إِلَيْكَ الطَّيِّبُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: فَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: قَالَ لِي: إِنِّي فَعَالٌ لِمَا أُرِيدُ ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ ^(٣) فَرَعُونَ وَمَمُودٌ أَيْ هَلْ بَلَغَكَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْبَأْسِ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّقْمَةِ الَّتِي لَمْ يَرُدَّهَا عَنْهُمْ أَحَدٌ؟ وَهَذَا تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أَيْ إِذَا أَخَذَ الظَّالِمِ أَخَذَهُ أَخْذًا أَلِيمًا شَدِيدًا أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي كَذِبٍ﴾ أَيْ هُمْ فِي شَكِّ وَرَيْبٍ وَكُفْرٍ وَعِنَادٍ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مِحْيطٌ﴾ أَيْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ فَاهِرٌ، لَا يَقْوَمُونَ لَهُ وَلَا يُعْجِزُونَهُ ﴿بَلِ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أَيْ عَظِيمٌ كَرِيمٌ ﴿فِي لَيْحٍ مَحْفُوظَةٍ﴾ أَيْ هُوَ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَحْفُوظٌ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ. أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبُرُوجِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة الطارق وهي مكية

[فضل سورة الطارق]

وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: صَلَّى مُعَاذُ الْمَغْرَبِ فَقَرَأَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنْ كُنْ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانَ مِمَّ خَلَقَ ﴿٥﴾ خَلَقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَالْهُنُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءُ ذَاتَ الرَّجَمِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضُ ذَاتَ الصَّوْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَمَقُولُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَرَمَلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رَوْيَا ﴿١٧﴾

سورة الإعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَتَقَرَّتْ رَأْسُكَ فَلَا تَنسَى ﴿٦﴾ إِنْ أَمَّا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ بِعِلْمِ الْجَهْرِ وَمَا خَفِيَ ﴿٧﴾ وَيَسْرُكُ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكَرْ لَنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَرُكَ مَنْ يَخْتَشَى ﴿١٠﴾ وَيَنْجِنُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُفْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾

الْبِقْرَةَ وَالتَّسَاءَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْتَانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ، مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَالتَّسْمِ وَصَحَاهَا وَنَحْوَهَا؟» ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ^(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ^(٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ ^(٣) إِنْ كُنْ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ^(٤) فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانَ مِمَّ خَلَقَ ^(٥) خَلَقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ^(٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ^(٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ^(٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ^(٩) فَالْهُنُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ^(١٠)

[الْفَسْمُ عَلَى كَوْنِ الْإِنْسَانِ مُحَاطًا بِنِظَامِ اللَّهِ]

يُسَمُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالسَّمَاءِ وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّبِيرَةِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا سُمِّيَ النَّجْمُ طَارِقًا لِأَنَّهُ إِذَا بَرَى بِاللَّيْلِ

(١) الطبري: ٣٤٦/٢٤ (٢) القرطبي: ٢٩٧/١٩ (٣) النسائي في الكبرى: ٥١٢/٦

فَمَا جَاءَ حَتَّىٰ قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ فِي سُورِ مِثْلَهَا^(١). وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ: «هَلَّا صَلَّيْتُ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾، وَالتَّمْيِيزِ وَصَحَّفَهَا»، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾^(٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي الْعِيدَيْنِ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ وَ«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَلَسِيَّةِ» وَإِنْ وَافَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَرَأَهُمَا جَمِيعًا^(٣). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائُفِيُّ وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَلَقَطَ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ الشُّنَنِ: كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ وَ«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَلَسِيَّةِ» وَرُبَّمَا اجْتَمَعَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَقَرَأَهُمَا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِيزٍ، وَعَائِشَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْوُثْرِ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ وَ«قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» وَ«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» زَادَتْ عَائِشَةُ وَالْمُعَوَّدَتَيْنِ^(٤).

[النَّبِيُّ ﷺ لَا يَنْسَى الْوَحْيَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ رَفَعَهُ وَنَسَّخَهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُقْرُوكَ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَوَعْدٌ مِنْهُ لَهُ. بِأَنَّهُ سُقْرُهُ قِرَاءَةٌ لَا يَنْسَاهَا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَنْسَى شَيْئًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ طَلَبٌ، وَمَعْنَى الْإِسْتِثْنَاءِ عَلَىٰ هَذَا مَا يَقَعُ مِنَ النَّسْخِ أَيُّ لَا تَنْسَى مَا نَقَرْتُكَ إِلَّا مَا بَشَاءَ اللَّهُ رَفَعَهُ، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَنْسَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أَيُّ يَعْلَمُ مَا يَجْهَرُ بِهِ الْعِبَادُ وَمَا يُخْفَوْنَهُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسِّرْكَ لِيُسْرَى﴾ أَيُّ يُسْهَلْ عَلَيْكَ أَفْعَالُ الْخَيْرِ وَأَقْوَالُهُ، وَتَسْرَعُ لَكَ شَرْعًا سَهْلًا سَمَحًا مُسْتَقِيمًا عَدْلًا، لَا إِعْجَاجَ فِيهِ، وَلَا حَرَجَ وَلَا عُسْرَ.

[الْأَمْرُ بِالتَّذْكِيرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ لِيَنْفَعَكَ الذِّكْرَىٰ﴾ أَيُّ ذَكَرْ حَيْثُ تَنْفَعُ التَّذْكِيرَةُ، وَمِنْ هَهُنَا يُؤْخَذُ الْأَدَبُ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ، فَلَا

(١) فتح الباري: ٥٦٩/٨ (٢) فتح الباري: ٢٣٤/٢ ومسلم: ٣٤٠/١ (٣) أحمد: ٢٧١/٤ (٤) أحمد عن أبي: ١٢٣/٥، عن ابن عباس: ٢٩٩/١ وابن أبيزى: ٤٠٦/٣، عن عائشة: ٦/٢٢٧ (٥) أحمد: ٢٣٢/١ إسناده ضعيف وفيه تدليس أبي إسحاق ولم يصرح (٦) الطبري: ٣٦٧/٢٤ (٧) الطبري: ٣٦٨/٢٤ انظر لعلته ما تقدم وسبق (٨) الطبري: ٣٦٩/٢٤ (٩) مسلم: ٢٠٤٤/٤ (١٠) الطبري: ٣٦٩/٢٤ (١١) الطبري: ٢٤/٣٦٩، ٣٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَىٰ (٣) وَالَّذِي أخرجَ المَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَىٰ (٥) سُقْرُوكَ فَلَا تَنْسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَيُسِّرْكَ لِيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ لِيَنْفَعَكَ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْفَىٰ (١٠) وَيَنْجِتُهَا الْأَشْقَىٰ (١١) الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكَبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣)

[الْأَمْرُ بِالتَّنْبِيحِ وَمَا يَقُولُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَىٰ»^(٥).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيِّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَىٰ». وَإِذَا قَرَأَ: ﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فَأَتَى عَلَىٰ آخِرِهَا «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُجْحَىٰ اللَّوْقُ» [الْقِيَامَةُ: ٤٠] يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ وَبَلَىٰ»^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَىٰ»^(٧).

[الْخَلْقُ وَالتَّقْدِيرُ وَإِخْرَاجُ النَّبَاتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ﴾ أَيُّ خَلَقَ الْخَلِيقَةَ

سورة الأعلى
٥٩٢

بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

سورة الأعلى
سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْكَبُوتِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾
 عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا أَحَامِيَةً ﴿٤﴾ تَسْقِي مِنْ عَيْنٍ آيِنَةٍ ﴿٥﴾
 لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
 وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
 لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
 وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٥﴾ وَزُرِّيٌّ مِمَّنْ نُوتَةٌ ﴿١٦﴾
 أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فِعْدَابُهُ اللَّهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

يَضَعُهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ، وَقَالَ: حَدَّثَ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَنْجِبُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ^(١)! وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ أَي سَيُعْظَمُ بِمَا تَبْلُغُهُ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَلْبُهُ يَخْشَى اللَّهَ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُلَافِيهِ ﴿وَبَحَّثَهَا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكَبْرَى ﴿٧﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿أَي لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ وَلَا يَحْيَى حَيَاةً تَنْفَعُهُ، بَلْ هِيَ مَضْرَّةٌ عَلَيْهِ، لِأَنَّ بِسَبَبِهَا يُشْمَرُ مَا يَعَاقِبُ بِهِ مِنَ أَلِيمِ الْعَذَابِ وَأَنْوَاعِ النَّكَالِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيُونَ، وَأَمَّا أَنْاسٌ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِمُ الرَّحْمَةَ فَيَمِيْتُهُمْ فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الشُّفَعَاءُ فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الضَّابِرَةَ فَيُنْبِتُهُمْ - أَوْ قَالَ: يَنْبِتُونَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ، أَوْ قَالَ: الْحَيَاةِ، أَوْ قَالَ: الْحَيَوَانَ أَوْ قَالَ: نَهْرِ الْجَنَّةِ - فَيَنْبِتُونَ نَبَاتَ الْجَنَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ» قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا تَرُونَ الشَّجِرَةَ تَكُونُ خَضْرَاءَ، ثُمَّ تَكُونُ صَفْرَاءَ، ثُمَّ تَكُونُ خَضْرَاءَ؟» قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ بِالْبَادِيَةِ^(٢).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيُونَ، وَلَكِنْ أَنْاسٌ - أَوْ كَمَا قَالَ - تُصَيِّبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ - فَيَمِيْتُهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُودِنَ فِي الشُّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ صَبَائِرُ صَبَائِرَ، فَبُثُوا عَلَى أَتْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَيْضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبِتُونَ نَبَاتَ الْجَنَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ» قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ حَيْثُئِذٍ: كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بِالْبَادِيَةِ^(٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ أَسَدُ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

[بَيَانُ أَهْلِ الْفَلَاحِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أَي طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيئَةِ، وَتَابَعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى الرُّسُولِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ﴿وَذَكَرَ أَسَدُ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أَي أَقَامَ الصَّلَاةَ فِي أَوْقَاتِهَا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ وَطَاعَةً لِأَمْرِ اللَّهِ وَامْتِثَالًا لِشَرْعِ اللَّهِ. وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ

كَانَ يَأْمُرُ النَّاسَ بِإِخْرَاجِ صَدَقَةِ الْفَطْرِ وَيَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ أَسَدُ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ وَقَالَ أَبُو الْأَحْوَصِ: إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ سَائِلٌ وَهُوَ يُرِيدُ الصَّلَاةَ فَلْيَقْدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ صَلَاتِهِ زَكَاةً فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ أَسَدُ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ أَسَدُ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ زَكَى مَالَهُ وَأَرْضَى خَالِقَهُ^(٦).

[لَا قِيَمَةَ لِلدُّنْيَا فِي جَنبِ الْآخِرَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَي تُقَدِّمُونَهَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ وَتَبْدُلُونَهَا عَلَى مَا فِيهِ نَفْعُكُمْ وَصَلَاةُكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَي ثَوَابُ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَبْقَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا دُنْيَةٌ فَاتِيَةٌ

(١) انظر البخاري كتاب العلم (١٢٧) عن علي تعليقاً وعند مسلم في المقدمة من حديث ابن مسعود نحوه (٢) أحمد: ٥/٣ (٣) أحمد: ١١/٣ (٤) مسلم: ١٧٢/١ (٥) الطبري: ٣٧٤/٢٤ فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس ولم يصرح (٦) الطبري: ٢٤/٣٧٤

وَالْآخِرَةُ شَرِيفَةٌ بَاقِيَةٌ، فَكَيْفَ يُؤْتِرُ عَاقِلٌ مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى وَبِهِمْ بِمَا يُرْوَى عَنْهُ قَرِيبًا، وَيَتْرَكَ الْأَهْتِمَامَ بِدَارِ الْبَقَاءِ وَالْخُلْدِ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضْرَّ بِدُنْيَاهُ، فَأَيُّرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى» تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ^(١).

[صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ هَذَا لَكِي الصُّحُفِ الْأُولَى»^(٧) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّجْمِ: «أَمْ لَمْ يَبْنَأْ يَمَا فِي صُحُفِ مُوسَى^(٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى^(٧) أَلَّا نُزِّلَ وَزِيلُهُ وَزِدَّ أَثَرًا^(٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى^(٩) وَأَنْ سَعَيْهِمْ سَوْفَ يُرَى^(١٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى^(١١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى^(١٢)»
الآيَاتِ إِلَى آخِرِهِمْ [٣٦-٥٥] وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قِصَّةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى^(١٣). وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ هَذَا» إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَ^(١٤)» وَذَكَرَ أَسَدُ زَيْدٍ فَصَّلَ^(١٥) بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا^(١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(١٧) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ هَذَا» أَيُّ مَضْمُونٌ هَذَا الْكَلَامِ «لَكِي الصُّحُفِ الْأُولَى»^(١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى^(١٩) وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ قَوِيٌّ، وَقَدْ رَوَى عَنْ قَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ نَحْوَهُ^(٢٠). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبْحِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[قِرَاءَةُ الْأَعْلَى وَالْغَاشِيَةِ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ]

قَدْ تَقَدَّمَ عَنِ الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَالْغَاشِيَةِ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ أَنَّ الصُّحَاكَ بْنَ قَيْسٍ سَأَلَ الثَّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ: بِمَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ مَعَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ؟ قَالَ: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ^(٦). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ^(٧)، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَةَ^(٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾^(١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿عَامِلَةٌ

نَاصِيَةٌ﴾^(٢) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿تُشَقِّقُ مِنْ عَيْنِ عَائِيَةٍ﴾^(٣) لَيْسَ لَهُمْ

طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ﴿لَا يَسْعَوْنَ وَلَا يُفْنَى مِنْ جُوعٍ﴾^(٤)

[الْقِيَامَةُ وَمَا يَكُونُ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ فِيهَا]

الْغَاشِيَةُ: مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ

وَابْنُ زَيْدٍ^(٩) لِأَنَّهَا تَعْنَى النَّاسَ وَتَعْمُهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ أَيُّ دَلِيلَةٌ قَالَهُ قَتَادَةُ^(١٠). وَقَالَ ابْنُ

عَبَّاسٍ: تَخَشَعُ وَلَا يَنْفَعُهَا عَمَلُهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَامِلَةٌ

نَاصِيَةٌ﴾ أَيُّ قَدْ عَمِلْتَ عَمَلًا كَثِيرًا وَنَصَبْتَ فِيهِ وَصَلَيْتَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ نَارًا حَامِيَةً. رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبِرْقَانِيُّ عَنْ أَبِي

عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ قَالَ: مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى

عَنْهُ بِذَيْبِرِ رَاهِبٍ، قَالَ: فَتَادَاهُ يَا رَاهِبُ، فَأَشْرَفَ. قَالَ:

فَجَعَلَ عُمَرُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَبْكِي، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،

مَا يَبْكِيكَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: ذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي

كِتَابِهِ: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ﴾^(٢) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿فَذَاكَ الَّذِي

أَبْكَانِي﴾^(١١).

وَقَالَ الْخُبَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ﴾

النَّصَارَى^(١٢). وَعَنْ عِكْرَمَةَ وَالسُّدِّيِّ: عَامِلَةٌ فِي الدُّنْيَا

بِالْمَعَاصِي وَنَاصِيَةٌ فِي النَّارِ بِالْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ. قَالَ ابْنُ

عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ أَيُّ حَارَةً شَدِيدَةً

الْحَرِّ. ﴿تُشَقِّقُ مِنْ عَيْنِ عَائِيَةٍ﴾ أَيُّ قَدِ انْتَهَى حَرُّهَا وَعَلَيَانَهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ^(١٣). وَقَوْلُهُ

تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي

طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: شَجَرٌ مِنَ النَّارِ^(١٤). وَقَالَ ابْنُ

(١) أحمد: ٤١٢/٤ إسناده منقطع المطلب بن عبدالله لم يسمع من أبي موسى الأشعري قال البخاري: لا أعرف المطلب بن (عبدالله) بن حنطب عن أحد من الصحابة سماعًا إلا قوله حدثني من شهد خطبة النبي ﷺ [جامع التحصيل للعلاني] (٢) الطبري: ٣٧٦/٢٤ (٣) الطبري: ٣٧٧/٢٤ (٤) الطبري: ٣٧٦/٢٤ (٥) مسلم: ٥٩٨/٢ (٦) الموطأ: ١١١/١ (٧) أبو داود: ١/٦٧٠ والنسائي: ١١٢/٣ (٨) مسلم: ٥٩٨/٢ وابن ماجه: ١/٣٥٥ (٩) الطبري: ٣٨١/٢٤ (١٠) الطبري: ٣٨٢/٢٤ (١١) عبدالرزاق: ٢٩٩/٢ والحاكم: ٥٢٢/٢ إسناده منقطع فإن أبا عمران الجوني لم يدرك زمان عمر (١٢) فتح الباري: ٥٧٠/٨ (١٣) الطبري: ٣٨٣/٢٤ (١٤) الطبري: ٣٨٥/٢٤

عَبَّاسٌ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَأَبُو الْجَوَزَاءِ وَقَتَادَةُ: هُوَ الشَّيْبِيُّ. قَالَ قَتَادَةُ: فُرَيْشٌ تُسَمِّيهِ فِي الرَّبِيعِ: الشَّيْبِيُّ، وَفِي الصَّيْفِ: الضَّرِيعُ. قَالَ عِكْرَمَةُ: وَهُوَ شَجَرَةٌ ذَاتُ شَوْكٍ لَاطِئَةٌ بِالْأَرْضِ^(١). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ مُجَاهِدٌ: الضَّرِيعُ نَبْتُ يُقَالُ لَهُ: الشَّيْبِيُّ يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْحِجَازِ الضَّرِيعَ إِذَا يَبَسَ، وَهُوَ سُمٌّ^(٢). وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ هُوَ الشَّيْبِيُّ إِذَا يَبَسَ سُمِّيَ الضَّرِيعَ^(٣). وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ مِنْ شَرِّ الطَّعَامِ وَأَشْرَعِهِ وَأَخْيَبِهِ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا يَسْمُنُ وَلَا يَغْنَى مِنْ جُرْعٍ» يَعْنِي لَا يَحْضُلُ بِهِ مَفْضُودٌ وَلَا يَنْدَفِعُ بِهِ مَحْذُورٌ.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ (٨) لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (٩) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَعِينَةً ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٠) فِيهَا سُرٌّ مَرْوُوعَةٌ ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ (١١) وَيَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿وَزُرَّابٌ مِثْبُوتَةٌ﴾ (١٢)

[حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ نَتَى بِذِكْرِ السُّعْدَاءِ فَقَالَ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿نَاعِمَةٌ﴾ أَي يُعْرَفُ النَّعِيمُ فِيهَا وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ بِسَعِيهَا. وَقَالَ سُفْيَانٌ: ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ قَدْ رَضِيَتْ عَمَلَهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أَي رَفِيعَةٍ بَهِيَّةٍ فِي الْعُرْفَاتِ أَمِنُونَ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَعِينَةً﴾ أَي لَا تَسْمَعُ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا كَلِمَةً لَعْنٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا إِلَّا لَعْوًا سَلَامًا﴾ [مریم: ٦٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا لَعْوًا فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الطور: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ (١٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: ٢٥، ٢٦] ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أَي سَارِحَةٌ، وَهَذِهِ نِكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِنْبَاتِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا عَيْنًا وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا هَذَا جِنْسٌ يَعْنِي فِيهَا عَيُونٌ جَارِيَاتٌ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ تِلَالٍ - أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ - الْمِسْكَ»^(٥). ﴿فِيهَا سُرٌّ مَرْوُوعَةٌ﴾ أَي عَالِيَةٌ نَاعِمَةٌ كَثِيرَةُ الْفُرْسِ، مُرْتَفِعَةُ السَّمَكِ عَلَيْهَا الْحُورُ الْعِينُ، قَالُوا: فَإِذَا أَرَادَ وَلِيُّ اللَّهِ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى تِلْكَ السُّرْرِ الْعَالِيَةِ تَوَاضَعَتْ لَهُ ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ يَعْنِي أَوَانِي الشَّرْبِ مُعَدَّةٌ، مُرْصَدَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا.

﴿وَيَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الَّتِمَارِيقُ الْوَسَائِدُ^(٦). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالتَّوْرِيُّ وَعَبْرُهُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَزُرَّابٌ مِثْبُوتَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْزَّرَابِيُّ: الْبُسْطُ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَعَبْرُ وَاحِدٍ، وَمَعْنَى

﴿مِثْبُوتَةٌ﴾ أَي هَهُنَا وَهَهُنَا، لِمَنْ أَرَادَ الْجُلُوسَ عَلَيْهَا. ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (١٠) فَذَكَرَ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (١١) لَسِتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (١٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (١٣) فَيَعَذِبُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (١٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (١٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (١٦) [الْحَضُّ عَلَى النَّظَرِ فِي خَلْقِ الْإِبِلِ وَالسَّمَاءِ وَالْجِبَالِ وَالْأَرْضِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةً بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ عَجِيبٌ وَتَرْكِيبُهَا غَرِيبٌ، فَإِنَّهَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَلِينُ لِلْحِمْلِ الثَّقِيلِ وَتَقَادُ لِلْقَائِدِ الضَّعِيفِ، وَتُؤَكَّلُ وَيُتَمَعُّ بِوَبْرِهَا وَيُسْرَبُ لَبْنُهَا. وَتُبْهَأُ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ غَالِبٌ دَوَابِّهِمْ كَانَتْ الْإِبِلُ. وَكَانَ شَرِيحُ الْقَاضِي يَقُولُ: أَخْرَجُوا بَنَاتِي حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ! أَي كَيْفَ رَفَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْأَرْضِ هَذَا الرَّفْعَ الْعَظِيمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦٦] ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أَي جُعِلَتْ مَنُصُوبَةً فَإِنَّهَا ثَابِتَةٌ رَاسِيَةٌ لِقَلَا تَمِيدَ الْأَرْضِ بِأَهْلِهَا، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَعَادِنِ ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أَي كَيْفَ بُسِطَتْ وَمُدَّتْ وَمُهَدَّتْ، فَتَبَّهَ الْبَدْوِيُّ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ بَعِيرِهِ الَّذِي هُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهِ، وَالسَّمَاءِ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِهِ، وَالْجِبَلِ الَّذِي تُجَاهَهُ وَالْأَرْضِ الَّتِي تَحْتَهُ: عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ ذَلِكَ وَصَانِيهِ، وَأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَأَنَّهُ الْإِلَهِ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ.

[قِصَّةُ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ]

وَهَكَذَا أَقْسَمَ ضِمَامٌ فِي سُؤَالِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كُنَّا نُهَيِّنَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلِ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ. فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُ أَتَانَا رَسُولُكَ

(١) الطبري: ٢٤/٣٨٤ (٢) فتح الباري: ٨/٥٧٠ (٣)

الطبري: ٢٤/٣٨٤ (٤) الطبري: ٢٤/٣٨٤ (٥) ابن حبان:

٢٦٢٢ (موارد الظمان) (٦) الطبري: ٢٤/٣٨٧

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَرَىٰ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبَّهُ فَأُكْرِمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَأَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَبْدَأُ الْإِنْسَانَ وَإِنَّ لَهُ الذِّكْرَ ﴿٢٣﴾

ولهذا قال: ﴿فِعْدَبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أَي مَرْجِعُهُمْ وَمُنْقَلِبُهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ أَي نَحْنُ نَحْسَابُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَتُجَارِيهِمْ بِهَا، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(*) ما بين المعكوفتين زيادة من مسند أحمد وهو غير موجود في نسخ تفسير ابن كثير. (الناسخ) (١) أحمد: ١٤٣/٣ (٢) البخاري: ٦٣، ومسلم: ٤١/١ وأبو داود: ٤٨٦، والترمذي: ٦١٩ والنسائي في الكبرى: ٢٤٠١، ٢٤٠٢ وابن ماجه: ١٤٠٢ (٣) الطبري: ٣٩٠/٢٤ (٤) الطبري: ٣٩٠/٢٤ (٥) أحمد: ٣/٣٠٠ (٦) مسلم: ٥٣/١ وتحفة الأحوذى: ٢٦٥/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٤/٦ (٧) فتح الباري: ٩٥/١ عن ابن عمر ومسلم: ٥٢/١

فَرَعَمَ لَنَا أَنْتَ تَرَعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَيَالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ اللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَرَعَمَ رَسُولُكَ أَنْ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَيَالَّذِي أَرْسَلَكَ اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَرَعَمَ رَسُولُكَ أَنْ عَلَيْنَا زَكَاةَ أَمْوَالِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَيَالَّذِي أَرْسَلَكَ اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَرَعَمَ رَسُولُكَ [أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا قَالَ: «نَعَمْ، صَدَقَ». قَالَ: فَيَالَّذِي أَرْسَلَكَ، اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَرَعَمَ رَسُولُكَ] أَنْ عَلَيْنَا حَجَّ النَّبِيِّ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: ثُمَّ وَلَّى فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرِيدُ عَلَيْهِنَّ شَيْئًا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ شَيْئًا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ صَدَقَ لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ» (١). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٢).

[لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ أَي فَذَكِّرْ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ بِمَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْهِمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وَلهَذَا قَالَ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ (٣) أَي لَسْتَ تَخْلُقُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَسْتَ بِالَّذِي تُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ (٤). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُواهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ (٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا (٦). وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٧).

[الْوَعِيدُ لِمَنْ تَوَلَّى عَنِ الْحَقِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ أَي تَوَلَّى عَنِ الْعَمَلِ بِأَرْكَانِهِ وَكَفَرَ بِالْحَقِّ بِجَنَائِهِ وَلِسَانِهِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٨) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [القيامة: ٣١، ٣٢]

تفسير سورة الفجر وهي مكية

[قراءة سورة الفجر في الصلاة]

رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: صَلَّى مُعَاذٌ صَلَاةً، فَبَجَاءَ رَجُلٌ فَصَلَّى مَعَهُ، فَطَوَّلَ فَصَلَّى فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا فَقَالَ: مُتَافِقٌ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَ الْفَتَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْتُ أَصَلِّي مَعَهُ فَطَوَّلَ عَلَيَّ، فَانْصَرَفْتُ وَصَلَّيْتُ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَعَلَّمْتُ نَافِقِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْتَانُ يَا مُعَاذُ؟ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ سَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى» وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا» وَالْفَجْرِ» وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ (١) وَاللَّيْلِ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِمْرًا ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ يَنْفَلِقُهَا فِي الْإِلْدَادِ (٨) وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الْفَصْحَ بِالْوَادِ (٩) وَرَعُونَ ذِي الْأَرْوَاحِ (١٠) الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْإِلْدَادِ (١١) فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَيَالْمُرْسِدِينَ (١٤)

[تفسير الفجر وما بعده]

أَمَّا الْفَجْرُ فَمَعْرُوفٌ وَهُوَ الضُّبْحُ، قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي عُبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ (١). وَعَنْ مَسْرُوقٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ: الْمُرَادُ بِهِ فَجْرُ يَوْمِ النَّحْرِ خَاصَّةً، وَهُوَ خَاتِمَةُ اللَّيَالِي الْعَشْرِ (٢). وَاللَّيَالِي الْعَشْرُ الْمُرَادُ بِهَا عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ (٣). وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ فِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ» يَعْنِي عَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ» (٤). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَشْرَ عَشْرَ الْأَضْحَى، وَالْوَتْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالشَّفْعَ يَوْمَ النَّحْرِ» (٥). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٦)، وَهَذَا إِسْنَادٌ رِجَالُهُ لَا بَأْسَ بِهِمْ، وَعِنْدِي أَنَّ الْمَثَنَ فِي رَفْعِهِ نِكَارَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْوَتْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ لِكُونِهِ التَّاسِعِ، وَأَنَّ الشَّفْعَ

يَوْمَ النَّحْرِ لِكُونِهِ الْعَاشِرِ، وَقَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّمْحَاكُ أَيْضًا (٨). وَفِي تَفْسِيرِهِمَا أَقْوَالٌ أُخْرَى.

[تفسير الليل]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ إِذَا ذَهَبَ (٩). وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ حَتَّى يُذْهَبَ بَعْضُهُ بَعْضًا (١٠). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ الْعَالِيَةِ، وَقَتَادَةُ، وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَابْنِ زَيْدٍ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ إِذَا سَارَ (١١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ أَيُّ لِيذِي عَقْلٍ وَلُبٍّ وَحِجَا [وَدِينٍ]، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ حِجْرًا لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَمِنْهُ حِجْرُ النَّبِيِّ، لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الطَّائِفَ مِنَ اللَّصُوقِ بِجِدَارِهِ الشَّامِيِّ، وَمِنْهُ حِجْرُ الْبِمَامَةِ، وَحَجَرَ الْحَاكِمِ عَلَى فُلَانٍ: إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا تَحْجُرُونَا﴾ [الفرقان: ٢٢] كُلُّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ وَاحِدٍ، وَمَعْنَى مُتَقَارِبٍ. وَهَذَا الْقَسَمُ هُوَ بِأَوْقَاتِ الْعِبَادَةِ، وَبِنَفْسِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَجٍّ وَصَلَاةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُرْبِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ عِبَادُهُ الْمُتَّقُونَ الْمُطِيعُونَ لَهُ، أَلْحَاقِفُونَ مِنْهُ الْمُتَوَاضِعُونَ لَدَيْهِ، الْخَاشِعُونَ لِرُوحِهِ الْكَرِيمِ.

[ذِكْرُ إِهْلَاكِ عَادٍ]

وَلَمَّا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ وَعِبَادَتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُتَمَرِّدِينَ عَنَاءَ جِبَارِينَ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ، مُكْبِدِينَ لِرُسُلِهِ جَاحِدِينَ لِكُتُبِهِ، فَذَكَرَ تَعَالَى كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ وَعَبْرًا فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (١) إِمْرًا ذَاتِ الْعِمَادِ وَهَؤُلَاءِ عَادُ الْأُولَى وَهُمْ وَلَدُ عَادِ بْنِ إِزْمَ بْنِ عَوْصِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ (٢). وَهُمْ الَّذِينَ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولَهُ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ، وَأَهْلَكَهُمْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَجْمَارٌ خَلَّيَ خَاوِيَةٌ﴾ (٣) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ

(١) النسائي في الكبرى: ٥٥/٦ (٢) الطبري: ٣٩٥/٢٤ والبيهقي: ٤٨١/٤ (٣) الفرطبي: ٣٩/٢٠ (٤) الطبري: ٢٤/٢٤ (٥) فتح الباري: ٥٣٠/٢ (٦) أحمد: ٣٩٦ (٧) النسائي في الكبرى: ٥١٤/٦ (٨) الطبري: ٢٤/٣٢٧ (٩) الطبري: ٣٩٨ (١٠) الطبري: ٤٠١/٢٤ (١١) الطبري: ٤٠١/٢٤ (١٢) الطبري: ٤٠٤/٢٤

وَالسُّدِّيُّ^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ طَفَعُوا فِي الْأَبْلَادِ ﴿١١﴾ فَآكَرُوا فِيهَا
الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ أَي تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ بِالْإِفْسَادِ
وَالْأَذِيَّةِ لِلنَّاسِ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ أَي أَنْزَلَ
عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ وَأَحْلَلَ بِهِمْ عُقُوبَهُ، لَا يَرُدُّهَا عَنِ
الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

[الرَّبُّ بِالْمُرْصَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ ﴿١٤﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:
يَسْمَعُ وَيَرَى^(٨) يَعْنِي يَرُصِدُ خَلْقَهُ فِيمَا يَمْمَلُونَ وَيُجَارِي كَلًّا
يَسْعِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَى، وَسَيَعْرَضُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ
عَلَيْهِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بَعْدَ لِهْ وَيُقَابِلُ كَلًّا بِمَا يَسْتَحْفَهُ، وَهُوَ
الْمُنْرَهُ عَنِ الظُّلْمِ وَالْجُورِ.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَنَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ

أَكْرَمَنِي ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَنَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهْنَنِي ﴿١٦﴾

كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْكُمُونَ عَلَى طَعَامِهِ

السُّكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُجِبُونَ أَمْرَ

جِبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

[الْغِنَى وَالْفَقْرُ اخْتِيَارًا، وَلَيْسَ مِنَ إِكْرَامِ اللَّهِ أَوْ إِهَانَتِهِ

[لِلْعَبْدِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْإِنْسَانِ فِي اعْتِقَادِهِ إِذَا وَسَّعَ اللَّهُ
تَعَالَى عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ لِيخْتَبِرَهُ فِي ذَلِكَ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ
اللَّهِ إِكْرَامٌ لَهُ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ هُوَ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٢٥﴾ سُلْبًا لَهُمْ فِي
الْغَيْرَاتِ بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وَكَذَلِكَ فِي الْجَانِبِ
الْآخِرِ إِذَا ابْتَلَاهُ وَامْتَحَنَهُ وَصَيَّقَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ، يَعْتَقِدُ أَنَّ
ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ إِهَانَةٌ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا ﴿٢٧﴾ أَي لَيْسَ
الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ، لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَيُصَيِّقُ عَلَى مَنْ
يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَإِنَّمَا الْمَدَارُ فِي ذَلِكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ
فِي كُلِّ مِنَ الْحَالَيْنِ: إِذَا كَانَ غَنِيًّا بِأَنْ يَشْكُرَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ
وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا بِأَنْ يُصْبِرَ.

مِنْ بَافِكْرٍ ﴿٢٨﴾ [الحاقة: ٨٠، ٧] وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فَصَّتْهُمْ فِي الْفَرَاقِ
فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ لِيَعْتَبِرَ بِمَصْرَعِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿إِذْ ذَاتَ الْعُمَادِ ﴿٢٩﴾ عَطْفُ بَيَانٍ؛ زِيَادَةٌ تَعْرِيفٍ بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَاتِ الْعُمَادِ ﴿٢٩﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْتَاتِ
الشَّعْرِ الَّتِي تُرْفَعُ بِالْأَعْمِدَةِ الشَّدَادِ وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ
فِي زَمَانِهِمْ خَلْقًا وَأَقْوَاهُمْ بَطْشًا، وَلِهَذَا ذَكَرَهُمْ هُودٌ يَتْلِكَ
النُّعْمَةَ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ الَّذِي
خَلَقَهُمْ فَقَالَ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ
وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَشْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٠﴾
[الأعراف: ٦٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ
هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴿٣١﴾ [فصلت: ١٥] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ
مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣٢﴾ أَي الْقَبِيلَةَ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي بِلَادِهِمْ
لِقُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ وَعَظَمِ تَرْكِيهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ: إِزْمُ أُمَّةٌ
قَدِيمَةٌ يَعْنِي عَادًا الْأُولَى. قَالَ قَتَادَةُ بِنُ دِعَامَةَ وَالسُّدِّيُّ: إِنَّ
إِزْمَ بَيْتٌ مَمْلُوكَةٌ عَادٍ. وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ جَيِّدٌ وَقَوِيٌّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣٢﴾ أَعَادَ ابْنُ
زَيْدٍ الضَّمِيرَ عَلَى الْعِمَادِ لِإِزْمَاعِهَا. وَقَالَ: بَنُوا عُمْدًا
بِالْأَحْقَافِ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ^(١٠). وَأَمَّا قَتَادَةُ وَابْنُ
جَرِيرٍ فَأَعَادَا الضَّمِيرَ عَلَى الْقَبِيلَةِ أَي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلُ تِلْكَ
الْقَبِيلَةِ فِي الْبِلَادِ، يَعْنِي فِي زَمَانِهِمْ^(١١). وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ
الصَّوَابُ، وَقَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ وَمَنْ ذَهَبَ مَذْهَبُهُ ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ لَوْ
كَانَ الْمُرَادُ ذَلِكَ لَقَالَ: الَّتِي لَمْ يُعْمَلْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ،
وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣٢﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٣٣﴾ يَعْنِي يَقْطَعُونَ
الصَّخْرَ بِالْوَادِي، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْجُسُونَهَا
وَيَخْرُقُونَهَا^(١٢). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ
زَيْدٍ^(١٣) وَمِنْهُ يُقَالُ: «مُجْتَابِي النَّمَارِ» إِذَا خَرَقُوهَا، وَاجْتَابَ
التُّوبُ: إِذَا فَتَحَهُ. وَمِنْهُ الْحَبِيبُ أَيْضًا. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿وَتَنْجُسُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا قَدْرَهُمْ ﴿٣٤﴾ [الشعراء: ١٤٩].

[ذِكْرُ فِرْعَوْنَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ ﴿٣٥﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ: الْأَوْتَارُ الْجُنُودُ الَّتِي يَسُدُّونَ لَهُ أَمْرَهُ^(١٤). وَيُقَالُ:
كَانَ فِرْعَوْنٌ يُوتِدُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ فِي أَوْتَارِهِ مِنْ حديدٍ
يُعَلِّقُهُمْ بِهَا. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ يُوتِدُ النَّاسَ
بِالْأَوْتَارِ^(١٥). وَهَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ

(١) الطبري: ٤٠٦/٢٤ (٢) الطبري: ٤٠٦/٢٤ (٣) الطبري:

٤٠٨/٢٤ (٤) الطبري: ٤٠٨/٢٤ (٥) الطبري: ٤٠٩/٢٤

العوفي من جملة الضعفاء (٦) الطبري: ٤٠٩/٢٤ (٧) الطبري:

٤٠٩/٢٤ (٨) الطبري: ٤١١/٢٤

[مِنْ شَرِّ مَا يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ فِي الْمَالِ]

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ النَّبِيِّ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ». وَقَرَنَ بَيْنَ أَضْعَافِ الْوَسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِنْبَاهِمَ^(١). «وَلَا تَحْتَشُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ» يَعْنِي لَا يَأْمُرُونَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَيَحْتُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي ذَلِكَ «وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ» يَعْنِي الْمِيرَاثَ «أَكْلًا لَمًّا» أَي مِنْ أَيِّ جِهَةٍ حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ «وَتَحْتَبُونَ الْمَالَ حُبًّا حَمًّا» أَي كَثِيرًا، زَادَ بَعْضُهُمْ فَاجْتِنًا.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿وَمَاءَ رَبِّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿وَجِئَاءَ يَوْمَيْهِمْ يَوْمَيْهِ يَنْدَكَرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَكْثَرَ﴾ ﴿وَلَا يُؤْتِيهِمْ نَفَقَةً أَحَدٌ﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبَةً﴾ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ﴿٢٠﴾

[يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُوفَىٰ كُلٌّ بِمَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ] يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا يَفْعَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ الْعَظِيمَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ أَي حَقًّا ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أَي وَطُئَتْ وَمُهْدَتْ وَسُوِّيَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، وَقَامَ الْخَلَائِقُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّهِمْ ﴿وَمَاءَ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا يَسْتَشْفَعُونَ إِلَيْهِ بِسَيِّدٍ وَوَلَدٍ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بَعْدَمَا يَسْأَلُونَ أَوْلِيَّ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَاكُمْ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ النَّوْتَةُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ: «أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا»: فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، فَيُشْفَعُهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ^(٢).

وَهِيَ أَوَّلُ الشَّفَاعَاتِ وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَّانُهُ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ، فَيَجِيءُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجِئَاءَ يَوْمَيْهِمْ يَوْمَيْهِمْ﴾ رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ ابْنُ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُونَهَا»^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْدَكَرُ

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿١﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ ﴿٢﴾ وَلَا يُؤْتِيهِمْ نَفَقَةً أَحَدٌ ﴿٣﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٤﴾ ﴿أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبَةً﴾ ﴿٥﴾ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ﴿٧﴾

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَالْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْعَلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأْتُ ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلَسْنَا نَأْتِيهِمْ بِشَفِينٍ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْنَحُمُ الْعَاقِبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَاقِبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَفِئَةٌ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمَةٌ فِي يَوْمِ ذِي مَسْجَبَةٍ ﴿١٤﴾ بَلِيْسَمَاذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِنًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ تُدْرِكُنِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَنَوَاصِبًا بِالصَّبْرِ وَنَوَاصِبًا بِالرِّحْمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الْبَلَدِ

الْإِنْسَانُ ﴿١﴾ أَي عَمَلُهُ وَمَا كَانَ أَسْلَقَهُ فِي قَدِيمِ دَهْرِهِ وَحَدِيثِهِ ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أَي وَكَيْفَ تَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يَعْنِي يَنْدَمُ عَلَىٰ مَا كَانَ سَلَفَ مِنْهُ مِنَ الْمَعَاصِي إِنْ كَانَ عَاصِبًا وَيُودُّ لَوْ كَانَ أَرْزَادًا مِنَ الطَّاعَاتِ إِنْ كَانَ طَائِعًا، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ أَبِي عَمِيرَةَ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَىٰ وَجْهِهِ مِنْ يَوْمٍ وُلِدَ إِلَىٰ أَنْ يَمُوتَ هَرِمًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ دَأَّ أَنَّهُ رَدَّ إِلَىٰ الدُّنْيَا كَيْمَا يَزْدَادَ مِنَ الْأَجْرِ وَالنَّوَابِ»^(٥).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ أَي لَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْ تَعَذِّبِ اللَّهِ مِنْ عَصَاةٍ ﴿وَلَا يُؤْتِيهِمْ نَفَقَةً أَحَدًا﴾ أَي وَلَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ قَبْضًا وَوَقْفًا مِنَ الزَّبَانِيَةِ لِمَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا فِي حَقِّ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْخَلَائِقِ

(١) أبو داود: ٣٥٦/٥ (٢) أحمد: ٢٨٢/١ (٣) مسلم: ٤/٢١٨٤ (٤) تحفة الأحوذى: ٢٩٤/٧ (٥) أحمد: ٤/١٨٥

وَالظَّالِمِينَ. فَأَمَّا النَّفْسُ الزَّيِّئَةُ الْمُطْمَئِنَّةُ، وَهِيَ السَّائِكَةُ الثَّابِتَةُ الدَّائِرَةُ مَعَ الْحَقِّ فَيَقَالُ لَهَا: ﴿يَأْتِيْنَا النَّفْسُ الطَّمِينَةُ﴾ (٧) أَرَجِي إِلَى رَبِّكَ أَي إِلَى جَوَارِهِ وَتَوَابِيهِ، وَمَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِي حَتِّهِ «رَاضِيَةً» أَي فِي نَفْسِهَا «مَرْضِيَةً» أَي قَدْ رَضِيَ عَنْ اللَّهِ وَرَضِيَ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا «فَادْخُلِي فِي عِبْدِي» أَي فِي جُمْلَتِهِمْ «وَادْخُلِي جَنِّي» وَهَذَا يُقَالُ لَهَا عِنْدَ الْأَخْتِصَارِ وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيْضًا. كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُسْئِرُونَ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ، وَعِنْدَ قِيَامِهِ مِنْ قَبْرِهِ، فَكَذَلِكَ هَهُنَا.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيْنَا النَّفْسُ الطَّمِينَةُ﴾ (٧) أَرَجِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً قَالَ: نَزَلَتْ وَأَبُو بَكْرٍ جَالِسٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذَا؟ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُ سَمِيْلٌ لَكَ هَذَا» (١).

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْفَجْرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَلَدِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالسُّدِّيُّ وَالْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ وَخُصَيْفٌ وَشُرْحُبِيلُ بْنُ سَعْدٍ وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي بِالْوَالِدِ: آدَمَ. وَمَا وَلَدَ: وَلَدَهُ (٨). وَهَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ وَأَصْحَابُهُ حَسَنٌ قَوِيٌّ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لِمَا أَقْسَمَ بِأَمِّ الْقُرَى وَهِيَ الْمَسَاكِينُ أَقْسَمَ بَعْدَهُ بِالسَّاكِنِ وَهُوَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ وَوَلَدَهُ. وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ: هُوَ إِبْرَاهِيمُ وَذُرِّيَّتُهُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٩) وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّهُ عَامٌّ فِي كُلِّ وَالِدٍ وَوَلَدِهِ. وَهُوَ مُحْتَمِلٌ أَيْضًا (١٠).

يَسْمِي اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴿لَا أُقِيمُ هَذَا الْبَلَدَ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكَتُ مَا لَا بُدَّ (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَوْ تَجْعَلُ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَسَفْتَيْنِ (٩) وَهَدْيَيْنِ التَّجْدِيئِ (١٠) [الْقَسَمُ بِحُرْمَةِ مَكَّةَ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ فِي مَشَقَّةٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ وَ[ابْنُ] جُرَيْجٍ وَعَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي كَبَدٍ قَالَ: فِي شِدَّةٍ خَلَقْتِي، أَلَمْ تَرِي إِلَيْهِ... وَذَكَرَ مَوْلِدَهُ وَنَبَاتِ أَسْنَانِيهِ (١١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ «فِي كَبَدٍ» نُطْفَةٌ ثُمَّ عَلَقَةٌ ثُمَّ مُضَعَّةٌ يَتَكَبَّدُ فِي الْخَلْقِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الاحقاف: ١٥] وَأَرْضَعَتْهُ كُرْهًا وَمَعِيشتُهُ كُرْهًا فَهُوَ يُكَابِدُ ذَلِكَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ فِي شِدَّةٍ وَطَلَبِ مَعِيشَةٍ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: فِي شِدَّةٍ وَطُولٍ (١٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي مَشَقَّةٍ (١٣).

هَذَا قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَكَّةَ أُمَّ الْقُرَى فِي حَالِ كَوْنِ السَّاكِنِ فِيهَا حَلَالًا لِيُنَبِّهَ عَلَى عَظَمَةِ قَدْرِهَا فِي حَالِ إِحْرَامِ أَهْلِهَا. قَالَ خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ «لَا أُقِيمُ هَذَا الْبَلَدَ» (١) «لَا» رَدٌّ عَلَيْهِمْ «أُقِيمُ هَذَا الْبَلَدَ» (٢). وَقَالَ شَيْبٌ ابْنُ يَشْرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «لَا أُقِيمُ هَذَا الْبَلَدَ» يَعْنِي مَكَّةَ «وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» قَالَ: أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُقَاتِلَ بِهِ (٣). وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي صَالِحٍ، وَعَطِيَّةَ وَالضَّحَّاكَ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَابْنَ زَيْدٍ (٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: يَعْنِي «أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» يَأْخُذُ

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ (٥). وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَالُوهُ قَدْ وَدَّ بِهِ الْحَدِيثُ الْمُتَّفَقُ عَلَى صِحَّتِهِ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمٌ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْصَدُ

(١) ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء المقدسي في المختارة: الدر المنثور: ٥١٣/٨ (٢) الدر المنثور: ٥١٧/٨ (٣) القرطبي: ٦٠/٢٠ والدر المنثور: ٥١٨/٨ (٤) القرطبي: ٢٠/٦٠ والدر المنثور: ٥١٨/٨ (٥) الدر المنثور: ٥١٨/٨ (٦) فتح الباري: ٥٦/٤ (٧) فتح الباري: ٢٣٨/١ (٨) القرطبي: ٦١/٢٠ والدر المنثور: ٥١٩/٨ والطبري: ٤٣٢/٢٤ (٩) الطبري: ٤٣٣/٢٤ (١٠) الطبري: ٤٣٣/٢٤ (١١) الطبري: ٤٣٤/٢٤ (١٢) الدر المنثور: ٥٢٠/٨ (١٣) الطبري: ٢٤/٤٣٣

مِنْ طُرُقٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَرْجَانَةَ بِهِ^(٧).
 رَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ، قَالَ
 السُّلَمِيُّ: قُلْتُ لَهُ: حَدَّثَنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 لَيْسَ فِيهِ انْتِقَاصٌ وَلَا وَهْمٌ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ وُلِدَ
 لَهُ ثَلَاثَةٌ أَوْ لَادٍ فِي الْإِسْلَامِ، فَمَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْحُنْتَ
 أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَنْ شَابَ شَيْئَةً فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ بَلَغَ بِهِ الْعُدُوَّ أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ كَانَ لَهُ عِنْتُ رَقَبَةٍ،
 وَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤِمَّةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنْهُ
 مِنَ النَّارِ، وَمَنْ أَنْفَقَ زَوْجِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ
 أَبْوَابٍ يُدْخِلُهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ بَابٍ شَاءَ مِنْهَا»^(٨). [لَوْ رَوَى مِنْ
 طُرُقٍ] وَهَذِهِ آسَانِيدٌ جَيِّدَةٌ قَوِيَّةٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ
 عَبَّاسٍ: ذِي مَجَاعَةٍ^(٩). وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ
 وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(١٠). وَالسَّعْبُ هُوَ الْجُوعُ.
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْمَا﴾ أَيُّ أَطْعَمَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ يَسْمَا
 ﴿ذَا مَرَبَةٍ﴾ أَيُّ ذَا قَرَابَةٍ مِنْهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ
 وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ^(١١). كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ
 الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمُسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى
 ذِي الرَّحِمِ اثْنَانِ: صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ»^(١٢). وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ
 وَالنَّسَائِيُّ^(١٣). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ
 مِسْكِينًا ذَا مَرَبَةٍ﴾ أَيُّ قَبِيرًا مُذْقِعًا لَأَصْحَابِ الثَّرَابِ، وَهُوَ
 الدَّفْعَاءُ أَيْضًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذَا مَرَبَةٍ هُوَ الْمَطْرُوحُ فِي
 الطَّرِيقِ الَّذِي لَا بَيْتَ لَهُ وَلَا شَيْءَ يَبْقِيهِ مِنَ الثَّرَابِ^(١٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيُّ ثُمَّ هُوَ مَعَ
 هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ الطَّاهِرَةِ مُؤْمِنٌ بِقَلْبِهِ مُحْتَسِبٌ ثَوَابَ
 ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ

(١) الطبري: ٤٣٦/٢٤ (٢) الطبري: ٤٣٦/٢٤ (٣) الطبري:
 ٤٣٧/٢٤ (٤) الطبري: ٤٣٧/٢٤ و٤٣٨ و٤٣٩ والدر المنثور: ٨/
 ٥٢١، ٥٢٢ (٥) الطبري: ٤٤٠/٢٤ (٦) أحمد: ٤٢٢/٢
 (٧) فتح الباري: ١٧٤/٥ و١٧٥/١١ و٦٠٧/١١ ومسلم: ١١٤٧/٢ وتحفة
 الأحوذى: ١٤٤/٥ والنسائي في الكبرى: ١٦٨/٣ (٨) أحمد:
 ٣٨٦/٤ (٩) الطبري: ٤٤٢/٢٤ (١٠) الطبري: ٤٤٢/٢٤،
 ٤٤٣ (١١) الدر المنثور: ٥٢٥/٨ (١٢) أحمد: ٢١٤/٤
 (١٣) تحفة الأحوذى: ٣٢٤/٣ والنسائي: ٩٢/٥ (١٤)
 الطبري: ٤٤٤/٢٤

مَالَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَيْحَسَبُ أَنْ لَنْ يَفِدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قَالَ: ابْنُ
 آدَمَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يُسْأَلَ عَنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَأَيْنَ
 أَنْفَقَهُ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ أَيُّ يَقُولُ
 ابْنُ آدَمَ أَنْفَقْتُ مَالًا لُبَدًا أَيُّ كَثِيرًا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ
 وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ^(٢). ﴿أَيْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ قَالَ
 مُجَاهِدٌ: أَيُّ أَيْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَا قَالَ
 غَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ أَيُّ
 يُبْصِرُ بِهِمَا ﴿وَلِسَانًا﴾ أَيُّ يَنْطِقُ بِهِ فَيَعْبُرُ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ
 ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يَسْتَعِينُ بِهِمَا عَلَى الْكَلَامِ، وَأَكْلِ الطَّعَامِ،
 وَجَمَالًا يُوَجِّهُهُ وَفِيهِ.

[الْتَمِيزُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ نِعْمَةً]

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ الطَّرِيقَيْنِ. قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ
 عَاصِمٍ عَنْ زُرِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﴿وَهَدَيْنَاهُ
 النَّجْدَيْنِ﴾ قَالَ: الْخَيْرِ وَالشَّرِّ^(٣). وَكَذَا رَوَى عَنْ عَلِيِّ وَابْنِ
 عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ، وَأَبِي وَإِثْلٍ وَأَبِي صَالِحٍ، وَمُحَمَّدِ
 ابْنِ كَعْبٍ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ فِي آخَرِينَ^(٤).
 وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ
 أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٥) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا
 شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا [الإنسان: ٢، ٣].

﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ وَمَا أَدْرَكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿فَكَ رَقَبَةً﴾^(٦) أَوْ
 إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ ﴿يَسْمَا ذَا مَرَبَةٍ﴾^(٧) أَوْ مِسْكِينًا ذَا
 مَرَبَةٍ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصَوْا
 بِالرَّحْمَةِ﴾^(٨) أَوْلَيْكَ أَحَبُّ الْيَمِينَةِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَا بَنِي آدَمَ
 أَصْحَابُ النَّسْتَةِ﴾^(٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَسَّدَةٌ^(١٠)

[الْحُضُّ عَلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ]

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أَيُّ أَفَلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ
 الَّتِي فِيهَا النَّجَاةُ وَالْخَيْرُ ثُمَّ يَبْتَهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرَكَ
 مَا الْعَقَبَةُ﴾^(١١) فَكَ رَقَبَةً^(١٢) أَوْ إِطْعَمٌ^(١٣). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ
 عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَرْجَانَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤِمَّةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ إِرْبٍ - أَيُّ
 عَضْوٍ - مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَعْتَقُ بِإِلْيَدِ الْيَدِ،
 وَبِالرَّجْلِ الرَّجْلَ، وَبِالْفَرْجِ الْفَرْجَ». فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ
 الْحُسَيْنِ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؟ فَقَالَ سَعِيدٌ:
 نَعَمْ. فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ لِعُلامٍ لَهُ أَفْرَهُ غُلَمَانِيهِ: أَدْعُ
 مُطْرَفًا، فَلَمَّا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: أَذْهَبَ فَأَنْتَ حُرٌّ لِيُوجِبَهُ
 اللَّهُ^(١٤). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ

وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ [الإسراء: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾... آيَةَ [النحل: ٩٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ أَيِ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ صَالِحًا، الْمُتَوَاصِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى النَّاسِ وَعَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ»^(١). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»^(٢). وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يَرْوِيهِ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَرْحَمِ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرَنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا﴾ أَيِ الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

[أَصْحَابُ الْمَشْئِمَةِ وَجَزَاؤُهُمْ]

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئِمَةِ﴾ أَيِ أَصْحَابِ الشَّمَالِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ أَيِ مُطَبَّعَةٌ عَلَيْهِمْ فَلَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَمُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْفَرَطِيُّ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ أَيِ مُطَبَّعَةٌ^(٤). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُغْلَقَةٌ الْأَبْوَابِ^(٥). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ حَيْطٌ^(٦) لَا بَابَ لَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ مُطَبَّعَةٌ فَلَا ضَوْءَ فِيهَا وَلَا فَرَجَ، وَلَا خُرُوجَ مِنْهَا آخِرَ الْأَبِيدِ^(٧).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَلَدِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[قِرَاءَةُ وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ]

تَقَدَّمَ حَدِيثُ جَابِرِ الدِّي فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ: «هَلَّا صَلَّيْتَ بِ سَجِّ اسْتَرْ رَبِّكَ الْأَعْلَى»، ﴿وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾؟!^(٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا﴾ ① وَالْقَمَرِ إِذَا نَلَّهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَيْهَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ ⑨ رَزَقَهَا ⑩ وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّهَا ⑪

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا نَلَّهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَيْهَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ⑨ وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّهَا ⑩ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ ابْنَعَتْ آسَفْنَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَفَدِمَهَا عَلَيْهِمْ رِبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ⑭ وَلَا يَحِافُ عِقْبَهَا ⑮

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكى ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَنسِرُ الْمَسْرِي ⑦ وَأَمَّا مَنْ يَحْتَلِ وَاسْتَفْتَى ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑨ فَسَنسِرُ الْمَعْرِي ⑩ وَمَا يَعْنِي عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّى ⑪ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ⑫ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ⑬ فَأَنْذَرْتُمْ كَرَارًا تَلَطَّى ⑭

[قَسَمَ اللَّهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ عَلَى فَلَاحٍ مِنْ رِزْقِي نَفْسَهُ وَخَبِيئَةٍ مِنْ دَسَاهَا]

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا﴾ أَيِ وَضُوءِهَا^(٨). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَضَحَاهَا﴾ النَّهَارُ كُلُّهُ^(٩). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: أَقَسَمَ اللَّهُ بِالشَّمْسِ وَنَهَارِهَا، لِأَنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ الظَّاهِرُ هُوَ النَّهَارُ ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا نَلَّهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: تَبِعَهَا^(١٠). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا نَلَّهَا﴾ قَالَ: يَنْتَلُو النَّهَارَ^(١١). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿إِذَا نَلَّهَا﴾ لَيْلَةٌ الْهَلَالُ: إِذَا سَقَطَتِ الشَّمْسُ رُؤْيَى الْهَلَالِ^(١٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَضَاءَ^(١٣).

(١) أبو داود: ٢٣١/٥ (٢) مسلم: ١٨٠٩/٤ (٣) أبو داود: ٢٣٢/٥ (٤) الطبري: ٤٤٧/٢٤ والدر المنثور: ٥٢٦/٨ (٥) الدر المنثور: ٥٢٦/٨ (*) أو حافظ والله أعلم (٦) الطبري: ٤٤٧/٢٤ (٧) فتح الباري: ٢٣٤/٢ مسلم: ٣٤٠/١ (٨) الطبري: ٤٥١/٢٤ (٩) الطبري: ٤٥١/٢٤ (١٠) الطبري: ٤٥٢/٢٤ (١١) الطبري: ٤٥٢/٢٤ ضعيف (١٢) الطبري: ٤٥٢/٢٤ ضعيف (١٣) الطبري: ٥٢٩/٢٤

وَلَهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ إِنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ يَعْنِي إِذَا يَغْشَى الشَّمْسَ حِينَ تَغِيْبُ فَتُظْلِمُ الْأَفَاقُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «مَا» هَهُنَا مَصْدَرِيَّةٌ بِمَعْنَى وَالسَّمَاءَ وَبِنَائِهَا، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى «مَنْ» يَعْنِي وَالسَّمَاءَ وَبِنَائِهَا. وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ^(١). وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ وَ«الْبِنَاءُ» هُوَ الرُّفْعُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدِيٍّ - أَيْ بِقُوَّةٍ - ﴿وَأَنَا لَمُوسِعُونَ﴾ (١٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَمَعَمُ الْمَهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨] وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: طَحَاهَا دَحَاهَا^(٢). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا طَحَاهَا﴾ أَيْ خَلَقَ فِيهَا^(٣). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: طَحَاهَا: قَسَمَهَا^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَأَبُو صَالِحٍ وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿طَحَاهَا﴾ بَسَطَهَا^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أَيْ خَلَقَهَا سَوِيَّةً مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْفِطْرَةِ الْقَوِيْمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودِيَّةً أَوْ يُنصَرَانِيَّةً أَوْ يُمَجْسَانِيَّةً، كَمَا تُوَلَّدُ الْبَهِيْمَةُ بِبَهِيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» أَخْرَجَاهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ^(٦). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُفَاءً، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ»^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أَيْ فَأَرْشَدَهَا إِلَى فُجُورِهَا وَتَقْوَاهَا، أَيْ: بَيَّنَّ ذَلِكَ لَهَا وَهَدَاهَا إِلَى مَا قَدَّرَ لَهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بَيَّنَّ لَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ^(٨). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالثَّوْرِيُّ^(٩). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَلَمَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: جَعَلَ فِيهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا^(١٠). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّبَلِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَكَادِحُونَ فِيهِ أَشْيَاءَ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَنَاهُمْ بِهِ نَبِيَّهُمْ ﷺ وَأَكْدَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ؟ قُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ. قَالَ: فَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا؟

قَالَ: فَفَزَعْتُ مِنْهُ فَرَعًا شَدِيدًا. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ خَلَقَهُ وَمَلَكَ يَدَهُ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، قَالَ: سَدَّدَكَ اللَّهُ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لِأَخْبَرَ عَمَلَكَ، إِنْ رَجُلًا مِنْ مُرِيَّتِهِ أَوْ جُهَيْنَةَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَكَادِحُونَ، أَشْيَاءَ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَمْ شَيْءٌ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَنَاهُمْ بِهِ نَبِيَّهُمْ ﷺ وَأَكْدَتْ بِهِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ؟ قَالَ: «بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ». قَالَ: فَيَمِمْ نَعْمَلُ؟ قَالَ: «مَنْ كَانَ اللَّهُ خَلَقَهُ لِإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لَهَا، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (١٧) فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»^(١١). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ^(١٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ ذَكَرَهُ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ أَيْ بِطَاعَةِ اللَّهِ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ. وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ وَالرَّذَائِلِ. وَيُرْوَى نَحْوُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ أَيْ دَسَّهَا أَيْ أَخْمَلَهَا وَوَضَعَ مِنْهَا، بِخِذْلَانِهِ إِيَّاهَا عَنِ الْهُدَى حَتَّى رَكِبَ الْمَعَاصِي، وَتَرَكَ طَاعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى اللَّهُ نَفْسَهُ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّى اللَّهُ نَفْسَهُ. كَمَا قَالَ الْعَوْفِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١٣). وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرَّ بِهِذِهِ الْآيَةِ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا وَتَفَّتْ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا، وَخَيْرٌ مَنْ رَزَّاهَا»^(١٤).

(خَلِيفَةُ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ. اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَرَزَّاهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ رَزَّاهَا، أَنْتَ

(١) الطبري: ٤٥٣/٢٤ (٢) الطبري: ٤٥٤/٢٤ (٣) الطبري: ٤٥٤/٢٤ (٤) الطبري: ٤٥٤/٢٤ (٥) الطبري: ٤٥٤/٢٤ والدرر المشور: ٥٢٩/٨، ٥٣٠ (٦) فتح الباري: ٢٩٠/٣ ومسلم: ٢٠٤٨/٤ (٧) مسلم: ٢١٩٧/٤ (٨) الطبري: ٢٤/٤٥٤ (٩) الطبري: ٤٥٥/٢٤ (١٠) الطبري: ٤٥٥/٢٤ (١١) الطبري: ٤٥٥/٢٤ (١٢) أحمد: ٤٣٨/٤ ومسلم: ٢٠٤١/٤ (١٣) الطبري: ٤٥٧/٢٤ (١٤) الطبراني: ١٠٦/١١

وَلِيَّهَا وَمَوْلَاهَا. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَتَّقِعُ، وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَدَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا». قَالَ زَيْدٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُهَا نَحْنُ نَعْلَمُكُمْوهنَّ^(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ (١١) إِذِ ابْتَعَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

[تَكْذِيبُ ثَمُودَ وَإِهْلَاكُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ثَمُودَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّغْيَانِ وَالْبَغْيِ. قَالَه مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا^(٣). فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ تَكْذِيبًا فِي قُلُوبِهِمْ بِمَا جَاءَهُ بِهِ رَسُولُهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنِ ﴿إِذِ ابْتَعَتْ أَشْقَاهَا﴾ أَيِ أَشْقَى الْقَيْلَةِ وَهُوَ قُدَارُ بْنُ سَالِفِ عَاقِرِ النَّاقَةِ، وَهُوَ أَحْيَبُ ثَمُودَ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَادَا صَاحِبَهُمْ فَطَاطَى فَمَقَرَّ﴾ [القمر: ٢٩] الْآيَةِ. وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَزِيزًا فِيهِمْ شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ، نَسِيبًا رَئِيسًا مُطَاعًا، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ النَّاقَةَ وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا فَقَالَ: ﴿إِذِ ابْتَعَتْ أَشْقَاهَا﴾... ابْتَعَتْ لَهَا رَجُلٌ عَارِمٌ عَزِيزٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ^(٤). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ وَمُسْلِمٌ فِي صِفَةِ النَّارِ وَالتَّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِيهِمَا^(٥).

[قِصَّةُ نَاقَةَ صَالِحٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ﴾ يَعْنِي صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أَيِ احْذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ أَنْ تَمْسُوهَا بِسُوءِ ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أَيِ لَا تَعْتَدُوا عَلَيْهَا فِي سُقْيَاهَا فَإِنَّ لَهَا شِرْبَ يَوْمٍ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أَيِ كَذَّبُوهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ أَنْ عَقَرُوا النَّاقَةَ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ مِنَ الصَّخْرَةِ آيَةً لَهُمْ وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيِ غَضِبَ عَلَيْهِمْ فَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أَيِ فَجَعَلَ الْعُقُوبَةَ نَازِلَةً عَلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ. قَالَ قَتَادَةُ: بَلَعْنَا أَنَّ أَحْيَبَ ثَمُودَ لَمْ يُعْقِرِ النَّاقَةَ حَتَّى تَابِعَهُ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ وَذَكَرَهُمْ وَأَنَاهُمْ، فَلَمَّا اشْتَرَكَ الْقَوْمُ فِي عَقْرِهَا دَمْدَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا^(٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ وَفُرِيءَ: (فَلَا يَخَافُ). ﴿عُقْبَاهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَخَافُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ تَبِعَهُ^(٧).

وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَبَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُرَيْزِيُّ وَغَيْرُهُمْ^(٨).
أَخْرَجَ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشَّمْسِ وَضَحَّاهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ اللَّيْلِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[قِرَاءَةُ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ فِي الْعِشَاءِ]

تَقَدَّمَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمُعَاذٍ: «فَهَلَّا صَلَّيْتُ بِ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾»^(٩).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣)
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَمَا مَنَ أَعْطَى وَآتَى (٥) وَصَدَقَ بِالْحَقِّ (٦)
فَسَيِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ يَبْغِلْ وَأَسْتَفْتَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ (٩)
فَسَيِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)﴾

[الْقَسَمُ عَلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي سَعْيِهِمْ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى اخْتِلَافِ نَتَائِجِ ذَلِكَ]

أَقْسَمَ تَعَالَى بِ﴿اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أَيِ إِذَا غَشِيَ الْخَلِيقَةَ بِظُلَامِهِ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ أَيِ بِضِيَائِهِ وَإِشْرَاقِهِ. ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النساء: ٨] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] وَلَمَّا كَانَ الْقَسَمُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ كَانَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ أَيْضًا مُتَضَادًّا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أَيِ أَعْمَالُ الْجِبَادِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مُتَضَادَّةٌ أَيْضًا وَمُتَخَالِفَةٌ، فَمَنْ فَاعَلَ خَيْرًا وَمِنْ فَاعَلَ شَرًّا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا مَنَ أَعْطَى وَآتَى﴾ أَيِ أَعْطَى مَا أَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَآتَى اللَّهُ فِي أُمُورِهِ ﴿وَصَدَقَ بِالْحَقِّ﴾ أَيِ بِالْمُجَارَاةِ عَلَى ذَلِكَ. قَالَه قَتَادَةُ^(١٠). وَقَالَ حُصَيْنٌ: بِالثَّوَابِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي

(١) أحمد: ٣٧١/٤ (٢) مسلم: ٢٠٨٨/٤ (٣) الطبري: ٢٤/٤٥٨ (٤) أحمد: ١٧/٤ (٥) فتح الباري: ٥٧٥/٨ ومسلم: ٢١٩١/٤ وتحفة الأحوذني: ٢٦٨/٩ والنسائي في الكبرى: ٦/٥١٥ (٦) الطبري: ٤٦٠/٢٤ (٧) الطبري: ٤١٦/٢٤ (٨) الطبري: ٤٦١/٢٤ (٩) فتح الباري: ٢٣٤/٢ ومسلم: ١/٣٤٠ (١٠) الطبري: ٤٧٠/٢٤

(حَدِيثٌ آخَرٌ مِنْ رِوَايَةِ جَابِرٍ) رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْمَلُ لِأَمْرٍ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ أَوْ لِأَمْرٍ نَسْتَأْمُرُهُ؟ فَقَالَ: «لِأَمْرٍ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ» فَقَالَ سُراقَةُ: فَيَمِمْ الْعَمَلَ إِذَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ عَامِلٍ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ»^(٨). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٩).

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعْتِقُ عَلَى الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ، فَكَانَ يُعْتِقُ عَجَائِزَ وَنِسَاءً إِذَا أَسْلَمْنَ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: أَيُّ بَنِي أَرَاكَ تُعْتِقُ أَنَا سَاءَ ضَعْفَاءَ فَلَوْ أَنَّكَ تُعْتِقُ رَجَالًا جُلْدَاءَ يُقَوْمُونَ مَعَكَ وَيَمْنَعُونَكَ وَيَدْفَعُونَ عَنْكَ. فَقَالَ: أَيُّ أَبْتِ إِنَّمَا أُرِيدُ - أَظُنُّهُ قَالَ - مَا عِنْدَ اللَّهِ. قَالَ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ بَيْتِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَنْزَلَتْ فِيهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾^(٥) وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِ ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾^(١٠).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعْطِي عَنْهُ مَالَهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ إِذَا مَاتَ^(١١). وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِذَا تَرَدَّى فِي النَّارِ^(١٢).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾^(١٣) وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْقَى﴾^(١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾^(١٥) وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَى ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَدَّى﴾^(١٦) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾^(١٧) وَسَوْفَ يُرِضَى ﴿الَّذِي يَتَّبِعُ أَهْلَهُ وَخَشِيَ الْغِيظَ﴾^(١٨) وَخَشِيَ الْغِيظَ ﴿الَّذِي يَتَّبِعُ أَهْلَهُ وَخَشِيَ الْغِيظَ﴾^(١٩) وَخَشِيَ الْغِيظَ ﴿الَّذِي يَتَّبِعُ أَهْلَهُ وَخَشِيَ الْغِيظَ﴾^(٢٠)

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أَيُّ نُبِينُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ^(١٣). وَقَالَ غَيْرُهُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَصَلَ إِلَى اللَّهِ وَجَعَلَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ مِلْكَنَا وَأَنَا الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا وَقَوْلُهُ

لِلْخَيْرِ^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ﴾ أَيُّ يَمَّا عِنْدَهُ ﴿وَاسْتَفْتَى﴾ قَالَ عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ يَخْلُ بِمَالِهِ وَاسْتَفْتَى عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِ﴾ أَيُّ بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أَيُّ لِيَطْرُقَ الشَّرُّ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْسَدَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدَرَهُمْ فِي طَعْنِهِمْ يَمْعَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُجَازِي مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ بِالتَّوْفِيقِ لَهُ، وَمَنْ قَصَدَ الشَّرَّ بِالْخُذْلَانِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدْرِ مَقْدَرٍ وَالْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.

(رِوَايَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْمَلُ عَلَى مَا فُرِعَ مِنْهُ أَوْ عَلَى أَمْرٍ مُؤْتَنَفٍ؟ قَالَ: «بَلْ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ» قَالَ: فَيَمِمْ الْعَمَلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «كُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٣).

(رِوَايَةُ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا فِي حِجَارَةٍ فِي بَيْعِ الْعَرْقَدِ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَتَكَسَّ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ - أَوْ مَا مِنْ نَفْسٍ مَثُوسَةٍ - إِلَّا كَتَبَتْ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كَتَبَتْ شِقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَكَلَّمُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِتًّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِتًّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ الشَّقَاءِ؟ فَقَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيَسِيرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاءِ فَيَسِيرُونَ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾^(٥) وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِ ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾^(٦) وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَفْتَى ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِ﴾^(٧) فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿وَقَدْ أَخْرَجَهُ بِقِيَّةِ الْجَمَاعَةِ﴾^(٨).

(رِوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَا نَعْمَلُ فِيهِ أَيُّ أَمْرٍ قَدْ فُرِعَ أَوْ مُبْتَدَأُ أَوْ مُبْتَدَعٌ؟ قَالَ: «فِيمَا قَدْ فُرِعَ مِنْهُ، فَأَعْمَلُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنَّ كُلَّ مُيَسَّرٍ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلْسَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلشَّقَاءِ»^(٦). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الْقَدْرِ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٧).

(١) الدر المشور: ٥٣٥/٨ (٢) الطبري: ٤٧٢/٢٤ (٣) أحمد: ٥/١ إسناده ضعيف لإبهام الرجل البصري لكن يشهد له ما بعده (٤) فتح الباري: ٥٧٩/٨ (٥) مسلم: ٢٠٣٩، ٢٠٤٠ وأبو داود ٦٨/٥ وتحفة الأحوذى: ٣٤٠/٦ و ٢٧٠/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٦/٦، ٥١٧ وابن ماجه: ٣٠/١ (٦) أحمد: ٥٢/٢ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٣٩/٦ (٨) الطبري: ٤٧٥/٢٤ (٩) مسلم: ٢٠٤١/٤ (١٠) الطبري: ٤٧٣/٢٤ إسناده ضعيف منقطع عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبي بكر مرسل بينهما مائة عام وابن إسحاق مدلس ولم يصرح (١١) الطبري: ٤٧٦/٢٤ (١٢) الطبري: ٤٧٦/٢٤ والقرطبي: ٨٥/٢٠ (١٣) الطبري: ٢٤/٤٧٧ (١٤) الطبري: ٤٧٧/٢٤

تَعَالَى: ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْقَى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَي تَوَهَّجَ (١).
 رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، سَمِعْتُ الثُّعْمَانَ
 ابْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ
 يَقُولُ: «أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ» حَتَّى لَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِالشُّوقِ
 لَسَمِعَهُ مِنْ مَقَامِي هَذَا، قَالَ: حَتَّى وَقَعَتْ خَيْبِصَةُ كَانَتْ
 عَلَى عَاتِقِهِ عِنْدَ رَجُلَيْهِ (٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي
 إِسْحَاقَ، سَمِعْتُ الثُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ وَيَقُولُ: سَمِعْتُ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ تَوَضَّعَ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي
 مِنْهُمَا دِمَاعُهُ» (٣). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤).

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ
 قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ
 لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي
 الْمِرْجُلُ، مَا يَرَى أَنْ أَحَدًا أَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ
 عَذَابًا» (٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أَي لَا
 يَدْخُلُهَا دُخُولًا يُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ إِلَّا الْأَشْقَى ثُمَّ
 فَسَّرَهُ فَقَالَ: «الَّذِي كَذَّبَ» أَي بِقَلْبِهِ «وَتَوَلَّى» أَي عَنِ
 الْعَمَلِ بِجَوَارِحِهِ وَأَرْكَانِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَبَى»
 قَالُوا: وَمَنْ يَا أَبَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ
 الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» (٦). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيَحْنَبُهَا الْأَتَقَى﴾ أَي وَسَيَرْحُزُحُ عَنِ
 النَّارِ النَّقِيُّ النَّقِيُّ الْأَتَقَى ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: «الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ
 يَتَزَكَّى» أَي يَصْرِفُ مَالَهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ لِيُزَكِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَمَا
 وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ أَي
 لَيْسَ بِذَلِكَ مَالَهُ فِي مَكْفَأَةٍ مِنْ أَسَدَى إِلَيْهِ مَعْرُوفًا، فَهُوَ
 يُعْطِي فِي مَقَابِلَةِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا دَفَعَهُ ذَلِكَ «إِنِّعَاءً وَجِهَ رَبِّي
 الْأَعْلَى» أَي طَمَعًا فِي أَنْ يَحْضَلَ لَهُ رُؤْيُهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ
 فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أَي
 وَلَسَوْفَ يَرْضَى مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

[سَبَبُ النُّزُولِ وَفَضْلُ أَبِي بَكْرٍ]

وَقَدْ ذَكَرَ عَيْرٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ
 فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَكَى
 الْإِجْمَاعَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا سَكَّ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهَا
 وَأَوْلَى الْأُمَّةِ بِعُمُومِهَا فَإِنَّ لَفْظَهَا الْعُمُومُ. وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

سُورَةُ اللَّيْلِ
٥٩٦
سُورَةُ الضُّحَى

لَا يَصْلُحُهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيَحْنَبُهَا
 الْأَتَقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ
 نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)

سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)
 وَالْآخِرَةَ خَيْرَكُ مِنْ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
 فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا
 فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْجُرْ
 (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

سُورَةُ الشُّرَحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي
 أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ
 مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

﴿وَسَيَحْنَبُهَا الْأَتَقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
 مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩)﴾ وَلَكِنَّهُ مُتَدَمِّمٌ الْأُمَّةِ وَسَائِقُهُمْ فِي جَمِيعِ هَذِهِ
 الْأَوْصَافِ وَسَائِرِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ، فَإِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا تَقِيًّا
 كَرِيمًا جَوَادًا بَدَلًا لِأَمْوَالِهِ فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ وَنُصْرَةِ رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ، فَكَمَ مِنْ دَرَاهِمٍ وَدَنَانِيرٍ بَدَلَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ
 الْكَرِيمِ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عِنْدَهُ مِثَّةٌ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ
 يُكَافِئَهُ بِهَا، وَلَكِنْ كَانَ فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ عَلَى السَّادَاتِ
 وَالرُّؤَسَاءِ مِنْ سَائِرِ الْقَبَائِلِ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ
 وَهُوَ سَيِّدُ تَقِيْفٍ يَوْمَ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا يَدُكَ لَكَ
 عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبَتِكَ. وَكَانَ الصِّدِّيقُ قَدْ أَغْلَطَ لَهُ
 فِي الْمَقَالَةِ، فَإِنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ مَعَ سَادَاتِ الْعَرَبِ وَرُؤَسَاءِ
 الْقَبَائِلِ فَكَيْفَ يَمُنُّ عَدَاهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ
 عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ

(١) الطبري: ٤٧٧/٢٤ (٢) أحمد: ٢٧٢/٤ (٣) أحمد: ٤/٤
 (٤) فتح الباري: ٤٢٤/١١ (٥) مسلم: ١٩٦/١ (٦)
 أحمد: ٣٦١/٢ (٧) فتح الباري: ٢٦٣/١٣

يَرَىٰ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دَعْتَهُ خَزَنَةَ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَيَّ مِنْ يُدْعَى مِنْهَا ضَرُورَةٌ فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلُّهَا أَحَدٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(١).

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اللَّيْلِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة الضحى وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③
 وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَفَرَضَىٰ ⑤
 أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩
 وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪

[سَبَبُ نَزُولِ سُورَةِ الضُّحَى]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُنْدَبٍ قَالَ: اشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَشْمَ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، فَأَتَتْ: أَمْرَأَةٌ فَقَالَتْ يَا مُحَمَّدُ! مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ .
 رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ^(٣) عَنْ جُنْدَبٍ، هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَلْبَلِيُّ، ثُمَّ الْعَلْقَمِيُّ، بِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ سَمِعَ جُنْدَبًا قَالَ: أَبْطَأَ جَبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: وَدَّعَ مُحَمَّدًا رَبَّهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ .^(٤)

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنُ أَبْطَأَ عَنْهُ جَبْرِيلُ أَيَّامًا فَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: وَدَّعَهُ رَبَّهُ وَقَلَّاهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ③ . وَهَذَا قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالضُّحَى وَمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الضَّيَاءِ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ② أَي سَكَنَ فَأَظْلَمَ وَاذلَّهُمْ . قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ . وَذَلِكَ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ هَذَا وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ

وَاللَّعْمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْفَرَنْزِ الْعَلِيِّ﴾ [الأنعام: ٩٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أَي مَا تَرَكَكَ ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أَي وَمَا أَبْغَضَكَ .

[الْآخِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَى]

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أَي وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ هَذِهِ الدَّارِ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَأَعْظَمَهُمْ لَهَا أَطْرَاحًا، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ سِيرَتِهِ، وَلَمَّا خَيْرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بَيْنَ الْخُلْدِ فِي الدُّنْيَا إِلَى آخِرِهَا ثُمَّ الْجَنَّةِ، وَبَيْنَ الصَّبْرِ وَالصَّبْرُورَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، اخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا . رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ: اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ جَعَلَتْ أُمْسُحُ جَنْبِهِ وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَذْنَتَا حَتَّى تَبْسُطَ لَكَ عَلَى الْحَصِيرِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَتَلِي وَمَتَلِ الدُّنْيَا كَرَايِبٍ ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(٦) . وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ مِنْ حَدِيثِ الْمَسْعُودِيِّ بِهِ . وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٧) .

[نِعْمَ الْآخِرَةُ الْكَثِيرَةُ تَنْتَظِرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَفَرَضَىٰ﴾ أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يُعْطِيهِ حَتَّى يُرْضِيَهُ فِي أُمَّتِهِ، وَفِيمَا أَعَدَّهُ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمِنْ جُمَلِيهِ نَهْرُ الْكُوْتَرِ الَّذِي حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّوْلُو الْمُجَوَّفِ، وَطِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ كَمَا سَبَّأِي . وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: عُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَنْزًا كَنْزًا فَسَرَّ بِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَفَرَضَىٰ﴾ فَأَعْطَاهُ فِي الْجَنَّةِ أَلْفَ أَلْفِ قَصْرٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ مَا يُبْنَعِي لَهُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْخَدَمِ . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِهِ^(٨) . وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ،

(١) فتح الباري: ٢٣/٧، ومسلم: ٧١٢/٢ (٢) أحمد: ٤/٣١٢ (٣) فتح الباري: ١١/٣ و ٥٨٠/٨ و ٥٨١ و ٦١٩ ومسلم: ١٤٢١/٣، و١٤٢٢ وتحفة الأحوذى: ٢٧٢/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٧/٦ والطبري: ٤٨٥/٢٤، ٤٨٦ (٤) الطبري: ٤٨٦/٢٤ (٥) الطبري: ٤٨٤/٢٤ والقرطبي: ٩١/٢٠ (٦) أحمد: ٣٩١/١ (٧) تحفة الأحوذى: ٤٨/٧ وابن ماجه: ٢/١٣٧٦ (٨) الطبري: ٤٨٧/٢٤

وَمِثْلُ هَذَا مَا يُقَالُ إِلَّا عَنِ تَوْقِيفٍ.

[ذَكَرَ شَيْءٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُعَدُّدُ نِعَمَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لِي سَمًا فَكَاوِي﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ تُوْفِي وَهُوَ حَمَلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ثُمَّ تُوْفِيَتْ أُمُّهُ أَمِينَةُ بِنْتُ وَهَبٍ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتُّ سِنِينَ، ثُمَّ كَانَ فِي كِفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى أَنْ تُوْفِيَتْ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانُ سِنِينَ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ، وَيُوَفِّرُهُ وَيَكْفُفُ عَنْهُ أَدَى قَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ. هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ إِلَى أَنْ تُوْفِيَتْ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِقَلِيلٍ، فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ سُفَهَاءُ قُرَيْشٍ وَجَهْلَاهُمْ فَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ الْهِجْرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ إِلَى بَلَدِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، كَمَا أَجْرَى اللَّهُ سُنَّتَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ أَوْوَهُ وَنَصَرُوهُ وَحَاطُوهُ، وَقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لَهُ وَكَلَامِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا...﴾ [الشورى: ٥٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أَي كُنْتُ قَعِيرًا ذَا عِيَالٍ فَأَعَانَكَ اللَّهُ عَمَّنْ سِوَاهُ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ مَقَامِي الْقَعِيرِ الصَّابِرِ وَالْغَنِيِّ الشَّاكِرِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»^(١) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ أُلْفِحَ مِنْ أَسْلَمٍ، وَرَزِقَ كِفَافًا، وَفَتَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»^(٢).

[كَيْفَ تَقْدُرُ هَذِهِ النَّعْمَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أَي كَمَا كُنْتُ يَتِيمًا فَآوَاكَ اللَّهُ فَلَا تَقْهَرْ الْيَتِيمَ أَي لَا تُؤْذِهِ وَتَنْهَرِهِ، وَتَهْنِئْهُ، وَلَكِنْ أَحْسِنِ إِلَيْهِ وَتَلَطَّفْ بِهِ. قَالَ قَتَادَةُ: كُنْ لِلْيَتِيمِ كَأَلَابِ الرَّجِيمِ^(٣). ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أَي وَكَمَا كُنْتُ ضَالًّا فَهَدَاكَ اللَّهُ فَلَا تَنْهَرْ السَّائِلَ فِي الْعِلْمِ الْمُسْتَرْشِدِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أَي فَلَا تُكُنْ جَبَّارًا وَلَا

مُتَكَبِّرًا وَلَا فَحَاشًا وَلَا فَظًّا عَلَى الضُّعْفَاءِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي رُدَّ الْمُسْكِينِ بِرَحْمَةٍ وَلِينٍ^(٤). ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أَي وَكَمَا كُنْتُ عَائِلًا قَعِيرًا فَأَعَانَكَ اللَّهُ فَحَدِّثْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»^(٥). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: صَحِيحٌ^(٦).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَابِرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أُبْلِيَ بِلَاءٍ فَذَكَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»^(٧). تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الضُّحَى، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَنِّ نَشْرَحُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ① وَوَضَعْنَا عَنَتَكَ وَزَرَكُ ② أَلَيْتَ أَنْفَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ⑧

[مَعْنَى شَرْحِ الصَّدْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يَعْنِي أَنَا شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ أَي تَوَرَّنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ فَيْسِيحًا رَحِيبًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْسُحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وَكَمَا شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ كَذَلِكَ جَعَلَ شَرْعَهُ فَيْسِيحًا وَاسِعًا سَمَحًا سَهْلًا، لَا حَرَجَ فِيهِ وَلَا إِصْرَ وَلَا ضَيْقَ.

[بَيَانُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنَتَكَ وَزَرَكُ﴾ بِمَعْنَى «يَغْفِرُ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ٢] ﴿أَلَيْتَ أَنْفَضَ ظَهْرَكَ﴾ الْإِنْقَاضُ الصَّوْتُ. وَقَالَ عَيْزٌ وَاجِدٌ مِنَ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ:

(١) فتح الباري: ٢٧٦/١١ ومسلم: ٧٢٦/٢ بسند آخر وبهذا الإسناد أحمد ٣١٥/٢ (٢) مسلم: ٧٣٠/٢ (٣) القرطبي: ١٠٠/٢٠ (٤) البغوي: ٥٠٠/٤ (٥) أبو داود: ١٥٧/٥ (٦) تحفة الأحوذى: ٨٧/٦ (٧) أبو داود: ١٥٩/٥ فيه تدليس الأعمش وله شاهد ضعيف عند ابن عساكر مع هذا صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أَي أَنْقَلَ حَمْلَهُ.

[مَعْنَى رَفَعَ ذِكْرَ النَّبِيِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا أَذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: رَفَعَ اللَّهُ ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُشْهَدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يُنَادِي بِهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ^(٢).

[الْيُسْرُ بَعْدَ الْعُسْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُوجَدُ الْيُسْرُ ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْخَبَرَ.

[الْأَمْرُ بِالذِّكْرِ عِنْدَ الْفِرَاقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ قَارِعًا أَي إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَشْغَالِهَا وَقَطَعْتَ عِلَاقَتَهَا فَانصَبْ إِلَى الْعِبَادَةِ، وَقُمْ إِلَيْهَا نَشِيطًا فَارْعُ النَّبَالَ وَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ النَّيَّةَ وَالرَّغْبَةَ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدْفِعُهُ الْأَخْبِتَانِ»^(٣). وَقَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَحَضَرَ الْعِشَاءُ فَاثْبُتُوا بِالْعِشَاءِ»^(٤). قَالَ مُجَاهِدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَمُتْ إِلَى الصَّلَاةِ فَانصَبْ لِرَبِّكَ^(٥).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ أَلَمْ نُشْرَحْ، وَ اللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ وَالتِّينِ وَالتِّينِ وَالتِّينِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[قِرَاءَةُ وَالتِّينِ بِالصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ]

قَالَ مَالِكٌ وَشُعْبَةُ عَنْ عَبْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي سَفَرِهِ فِي إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ بِالتِّينِ وَالتِّينِ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ. أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ^(٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالتِّينِ﴾ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ٨

سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالتِّينِ﴾ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ٨

سُورَةُ الْعِجَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ عُلُقٍ﴾ ١ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْكُرْمَ﴾ ٢ ﴿الَّذِي عَلَّمُوا الْقَامُ﴾ ٣ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾ ٤ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَيطغى﴾ ٥ ﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ ٦ ﴿أَن لَكَ رَبٌّ الرَّحِيمِ﴾ ٧ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ ٨ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ ٩ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى﴾ ١٠ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ١١ ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ١٢ ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ١٣ ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِمَةٍ﴾ ١٤ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ١٥ ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ ١٦ ﴿كَلَّا لَا نَطِعُهُ وَأَسْجُدُ وَقُربُ ١٧﴾ ١٧

[تَفْسِيرُ التِّينِ وَمَا بَعْدَهُ]

الْمُرَادُ بِالتِّينِ، كَمَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ مَسْجِدُ نُوحٍ الَّذِي عَلَى الْجُودِيِّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ تَيْبُكُمْ هَذَا^(٧). ﴿وَالتِّينِ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ: هُوَ مَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ: هُوَ هَذَا الزَّيْتُونُ الَّذِي تَغْصِرُونَ^(٨). ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ: هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٩). ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ يَعْنِي مَكَّةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ وَكَعْبُ الْأَخْبَارِ^(١٠). وَلَا

(١) الطبري: ٤٩٤/٢٤ (٢) الطبري: ٤٩٤/٢٤ (٣) مسلم:

٣٩٣/١ (٤) فتح الباري: ٤٩٨/٩ (٥) الطبري: ٤٩٧/٢٤

(٦) فتح الباري: ٥٨٣/٨ مسلم: ٣٣٩/١ وأبو داود: ١٩/٢

وتحفة الأحوذني: ٢٢٦/٢ والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦ وابن

ماجه: ٢٧٣/١ (٧) الطبري: ٥٠٢/٢٤ العوفي من جملة

الضعفاء (٨) الطبري: ٥٠١/٢٤ (٩) الطبري: ٥٠٣/٢٤

(١٠) الطبري: ٥٠٦، ٥٠٥/٢٤

هَذَا؟. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُ بِالْحَكِيمِ﴾ أَيُّ أَمَا هُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا، وَمِنْ عَدْلِهِ أَنْ يُقِيمَ الْقِيَامَةَ فَيَتَصَفَّ لِلْمُظْلَمِ فِي الدُّنْيَا وَمَنْ ظَلَمَهُ. وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «فَإِذَا قَرَأَ أَحَدُكُمْ ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ فَأَتَى عَلَى آخِرِهَا ﴿الَّذِينَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (٤).

أَخْرَجَ تَفْسِيرِ سُورَةِ وَالتِّينِ وَالزُّبُرِ وَ اللَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تفسير سورة اقرأ وهي أول شيء نزل من القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥)

[بَدْءُ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حَبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءَ فَكَانَ يَأْتِي جِرَاءً فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى فَجَأَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي غَارٍ جِرَاءً فَجَأَهُ الْمَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ» قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَعُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَعُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قَالَ: فَوَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي» فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوعُ. فَقَالَ: «يَا خَدِيجَةُ مَا لِي؟» وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ وَقَالَ: «قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا أَبْنِزْ فَوَ اللَّهِ لَا يُخْرِكُكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقَ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ، وَتَقْرَى

(١) الطبري: ١١٠، ٥٠٩/٢٤ (٢) الطبري: ٥٠٨/٢٤ (٣) الطبري: ٥١١/٢٤ (٤) أبو داود: ٥٥٠/١

خِلَافَ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَيْمَةِ: هَذِهِ مَحَالٌ ثَلَاثَةٌ بَعَثَ اللَّهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا نَبِيًّا مُرْسَلًا مِنْ أَوْلِي الْعُزْمِ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ:

(فَالأَوَّلُ) مَحَلَّةُ التِّينِ وَالزُّبُرِ، وَهِيَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. (وَالثَّانِي) طُورُ سِينِينَ، وَهُوَ طُورُ سَيْنَاءَ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ. (وَالثَّلَاثُ) مَكَّةُ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْأَمِينُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَهُوَ الَّذِي أُرْسِلَ فِيهِ مُحَمَّدًا ﷺ، قَالُوا: وَفِي آخِرِ التَّوْرَةِ ذِكْرُ هَذِهِ الْأَمَاكِينِ الثَّلَاثَةِ: «جَاءَ اللَّهُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ» بِعَيْنِي: الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ «وَأَشْرَقَ مِنْ سَاعِيرٍ» بِعَيْنِي جَبَلُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ مِنْهُ عِيسَى «وَأَسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ» بِعَيْنِي جِبَالُ مَكَّةَ الَّتِي أُرْسِلَ اللَّهُ مِنْهَا مُحَمَّدًا ﷺ فَذَكَرَهُمْ مُخْبِرًا عَنْهُمْ عَلَى التَّرْتِيبِ الْوُجُودِيِّ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِمْ فِي الزَّمَانِ. وَلِهَذَا أَقْسَمَ بِالْأَشْرَفِ ثُمَّ الْأَشْرَفِ مِنْهُ ثُمَّ بِالْأَشْرَفِ مِنْهُمَا.

[سُقُوطُ الْإِنْسَانِ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ مَعَ كَوْنِهِ خَلْقًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَتَبِيحَةُ ذَلِكَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَشَكَلٍ مُتَّصِبِ الْقَامَةِ سَوِيَّ الْأَعْضَاءِ حَسَنِيهَا ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ﴾ أَيُّ إِلَى النَّارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ (١). ثُمَّ بَعَدَ هَذَا الْحُسْنِ وَالنَّضَارَةَ مَصِيرُهُمْ إِلَى النَّارِ إِنْ لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ وَيَتَّبِعِ الرُّسُلَ. لِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ﴾ أَيُّ إِلَى أَرْضِ الْعُمُرِ. وَرَوَى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ حَتَّى قَالَ عِكْرِمَةُ: مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ لَمْ يَرِدْ إِلَى أَرْضِ الْعُمُرِ (٢). وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ (٣). وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ لَمَا حَسُنَ اسْتِثْنَاءُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْهَرَمَ قَدْ يُصِيبُ بَعْضَهُمْ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مَا ذَكَرْنَاهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ (٤) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَنِي خَسِرٌ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أَيُّ غَيْرُ مَقْطُوعٍ كَمَا تَقَدَّمَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ أَيُّ يَا ابْنَ آدَمَ ﴿كَبَدٌ بِالذِّنِّ﴾ أَيُّ بِالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، وَلَقَدْ عَلِمْتَ الْبُدَاءَةَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الرَّجْعَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، فَأَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ وَقَدْ عَرَفْتَ

الرَّحْمَنِ ﴿١﴾ أَوَّيْتِ الَّذِي يُسَبِّحُ ﴿٢﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٣﴾ أَوَّيْتِ إِنْ كَانَ عَلَى
الْأَهْدَى ﴿٤﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى ﴿٥﴾ أَوَّيْتِ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٦﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ
رَبُّهُ ﴿٧﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لِنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿٨﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِلَةٍ ﴿٩﴾
فَلْيَنْعَمْ نَادِيَهُ ﴿١٠﴾ سَنَعَمُ الزَّيْنَابَةَ ﴿١١﴾ كَلَّا لَا نَطَعُهُ وَأَسْجُدُ
وَأَقْرَبُ ﴿١٢﴾

[الْوَعِيدُ عَلَى طُغْيَانِ الْإِنْسَانِ لِأَجْلِ الْمَالِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ دُو فَرَحٍ وَأَشْرٍ وَبَطَرٍ وَطُغْيَانٍ
إِذَا رَأَى نَفْسَهُ قَدْ اسْتَعْنَى وَكَثُرَ مَالُهُ، ثُمَّ تَهَدَّدَهُ وَتَوَعَّدَهُ
وَوَعَّظَهُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الرَّحْمَنُ﴾ أَي إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ
وَالْمَرْجِعُ وَسَيُحَاسِبُكَ عَلَى مَا لَكَ مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهُ وَفِيمَ
صَرَفْتَهُ؟

[ذَمُّ أَبِي جَهْلٍ وَالْوَعِيدُ بِمُؤَاخَذَتِهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَّيْتِ الَّذِي يُسَبِّحُ﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٣﴾ نَزَلَتْ
فِي أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ، تَوَعَّدَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ
النَّبْتِ فَوَعَّظَهُ تَعَالَى بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ أَوْلَا فَقَالَ: ﴿أَوَّيْتِ إِنْ
كَانَ عَلَى الْأَهْدَى﴾ أَي فَمَا ظَنُّكَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَنْهَاهُ: عَلَى
الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي فِعْلِهِ أَوْ ﴿أَمَرَ بِالْقَوَى﴾ بِقَوْلِهِ، وَأَنْتَ
تَرْجُرُهُ وَتَتَوَعَّدُهُ عَلَى صَلَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ
رَبُّهُ﴾ أَي أَمَا عَلِمَ هَذَا النَّاهِي لِهَذَا الْمُهْتَدِي أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ
وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ. وَسَيُجَازِيهِ عَلَى فِعْلِهِ أَمَّ الْجَزَاءِ. ثُمَّ قَالَ
تَعَالَى مُتَوَعَّدًا وَمُتَهَدِّدًا: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ أَي لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْ
عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الشَّقَاقِ وَالْعِنَادِ ﴿لِنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أَي
لِنَسْمَتِهَا سَوَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ قَالَ: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِلَةٍ﴾
يَعْنِي: نَاصِيَةَ أَبِي جَهْلٍ كَازِبَةٍ فِي مَقَالِهَا خَاطِلَةٌ فِي أَعْمَالِهَا
﴿فَلْيَنْعَمْ نَادِيَهُ﴾ أَي قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ أَي لِيَدْعَهُمْ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ
﴿سَنَعَمُ الزَّيْنَابَةَ﴾ وَهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يَغْلِبُ
أَحْرَبْنَا أَوْ حِرْبُهُ؟

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ
رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأَطَّانُ عَلَى عُنُقِهِ، فَبَلَغَ
النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «لَئِنْ فَعَلَ لَأَخَذْتُهُ الْمَلَائِكَةُ»^(٣). وَكَذَا
رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِهِمَا^(٤). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ
جَرِيرٍ^(٥). وَرَوَى أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ،

(١) أحمد: ٢٣٢/٦ (٢) فتح الباري: ٣٦٨/١٢ ومسلم: ١/١٣٩ (٣) فتح الباري: ٥٩٥/٨ (٤) تحفة الأحوذى: ٢٧٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦ (٥) الطبري: ٦٤٩/١٢ ط: علمية.

الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ
حَتَّى آتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيِّ
وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أُخِي أَبَيْهَا، وَكَانَ أَمْرًا قَدْ تَنَصَّرَ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ
الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ
فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَي ابْنِ عَمِّ اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أُخِيكَ. فَقَالَ
وَرَقَةُ: لِبْنِ أُخِي مَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا رَأَى،
فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا التَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى، لَيْتَنِي
فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا جِئْتُ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟» فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ
يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمَكَ
أَنْضُرُكَ نَضْرًا مُؤَزَّرًا.

ثُمَّ لَمْ يَنْسَبْ وَرَقَةَ أَنْ تُوَفِّي وَفَقَّرَ الْوُحْيِ فَفَرَّهَ حَتَّى حَزَنَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فِيمَا بَلَّغْنَا - حُزْنًا عَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ
يَبْرُدَى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكَلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ
لِكَيْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ تَبْدَى لَهُ جَبْرِيْلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ
رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَمَسْكُنُ بِذَلِكَ جَاشُهُ وَتَغَيَّرَ نَفْسُهُ فَبَرِحَ،
فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوُحْيِ عَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى
بِذِرْوَةِ الْجَبَلِ تَبْدَى لَهُ جَبْرِيْلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ^(١). وَهَذَا
الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الرَّهْرِيِّ^(٢).
وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ جِهَةِ سَنَدِهِ وَمَتْنِهِ،
وَمَعَانِيهِ فِي أَوَّلِ شَرْحِنَا لِلْبُخَارِيِّ مُسْتَقْصَى، فَمَنْ أَرَادَهُ فَهُوَ
هُنَاكَ مُحَرَّرٌ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، فَأَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنْ
الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكُرَيْمَاتُ الْمُبَارَكَاتُ، وَهِيَ أَوَّلُ
رَحْمَةٍ رَحِمَ اللَّهُ بِهَا الْعِبَادَ وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ.

[عِزَّةُ الْإِنْسَانِ وَشَرَفُهُ بِالْعِلْمِ]

وَفِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عِلْقَةٍ، وَأَنَّ
مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى أَنْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، فَشَرَفَهُ وَكَرَّمَهُ
بِالْعِلْمِ وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي امْتَارَ بِهِ أَبُو الرَّبِّيَّةِ آدَمَ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ، وَالْعِلْمُ تَارَةٌ يَكُونُ فِي الْأَذْهَانِ، وَتَارَةٌ يَكُونُ فِي
اللِّسَانِ، وَتَارَةٌ يَكُونُ فِي الْكِتَابَةِ بِالْبِنَانِ، ذَهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ
وَرَسْمِيٌّ، وَالرَّسْمِيُّ يَسْتَلْزِمُهُمَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، فَلِهَذَا
قَالَ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ ﴿٥﴾ وَفِي الْأَثَرِ: قَيَّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ. وَفِيهِ أَيْضًا: مَنْ
عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ وَرَفَهُ اللَّهُ عَلَّمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ.

﴿كَلَّا إِنْ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآبِئٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَبَ ﴿٧﴾ إِنْ يَكُ رَيْكَ

سُورَةُ الْقَدْرِ ٥٩٨

سُورَةُ الْقَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ②
 لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ ④
 فِيهَا يُأْيِذُنَ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ⑤ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑥

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ
 حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ②
 فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ③ وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ④ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
 لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
 الْقِيمَةِ ⑤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
 فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ⑥ إِنَّ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ⑦

الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ① نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا يُأْيِذُنَ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ⑤ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑥

[فَضْلُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾ وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ وَهِيَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ مُفْصَلًا بِحَسَبِ الْوُقُوعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا لِشَأْنِ لَيْلَةِ

(١) أحمد: ٣٢٩/١ والترمذي: ٣٣٤٩ والنسائي في الكبرى: ١١٦٨٤ والطبري: ٦٤٨/١٢ ط: علمية. (٢) الطبري: ١٢/٦٤٩ ط: علمية. (٣) أحمد: ٣٧٠/٢ ومسلم: ٢٧٩٧ والنسائي في الكبرى: ١١٦٨٣ (٤) مسلم: ٣٥٠/١ (٥) مسلم: ٤٠٦

وَهَذَا لَفْظُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْمَقَامِ فَمَرَّ بِهِ أَبُو جَهْلٍ بِنُ هِشَامٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا؟ وَتَوَعَّدَهُ فَأَغْلَطَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! بِأَيِّ شَيْءٍ تَهْدِدُنِي؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَكْثَرُ هَذَا الْوَادِي نَادِيًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ⑦ سَنَعَ الزَّيَّاتِةُ ⑧ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذْتَهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ مِنْ سَاعَتِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ①. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِن رَأَيْتُهُ يُصَلِّي كَذَلِكَ لَأَطَّانٌ عَلَى رَقَبَتِهِ، وَلَأَعْفَرٌ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فَاتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي لِيَطَّأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَعَاهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَكْصُصُ عَلَى عَقْبِيهِ وَيَبْقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتَهُ الْمَلَائِكَةُ غَضُوضًا غَضُوضًا» قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ - لَا أُدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَمْ لَا: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٌ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ②. وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ③.

[تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَا تُطِغَةٌ﴾ يَعْنِي يَا مُحَمَّدُ، لَا تُطِغُهُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ مِنَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَكَثْرَتِهَا، وَصَلَّ حَيْثُ شِئْتَ، وَلَا تَبَالِغْ فَإِنَّ اللَّهَ حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ وَهُوَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ كَمَا نَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» ④. وَتَقَدَّمَ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْجُدُ فِي «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» وَ«أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» ⑤. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ أَقْرَأَ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَدْرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ

مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهِيَ لَيْلَةٌ وَتُرَى: تَسْبَعُ أَوْ سَبْعٌ أَوْ خَامِسَةٌ أَوْ ثَالِثَةٌ أَوْ آخِرُ لَيْلَةٍ». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَمَارَةَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بَلَجَةٌ - كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا - سَاجِدَةٌ سَاجِدَةٌ، لَا بَرْدَ فِيهَا وَلَا حَرَّ، وَلَا يَجِلُّ لِكُوكِبِ بُرْمَى بِهِ فِيهَا حَتَّى يُضْجَحَ، وَإِنَّ أَمَارَتَهَا أَنَّ الشَّمْسَ صَبِيحَتَهَا تَخْرُجُ مُشْتَوِيَةً لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ، مِثْلَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَلَا يَجِلُّ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا يَوْمَئِذٍ»^(٥) وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ، وَفِي الْمُنَنِ غَرَابَةٌ وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ نَكَارَةٌ.

وَقَدْ تَرَجَمَ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ فَقَالَ: «بَابُ بَيَانِ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي كُلِّ رَمَضَانَ» ثُمَّ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَسْمَعُ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَقَالَ: «هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ»^(٦). وَهَذَا إِسْنَادٌ رِجَالُهُ يُقَاتُ، إِلَّا أَنَّ أَبَا دَاوُدَ قَالَ: رَوَاهُ شُعْبَةُ وَسُفْيَانُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ فَأَوْفَقَاهُ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ رَمَضَانَ وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطَلَّبُ أَمَامَكَ، فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ فَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: الَّذِي تَطَلَّبُ أَمَامَكَ. ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِيَ فَلْيَرْجِعْ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنِّي أَنْبَيْتُهَا، وَإِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّالِ فِي وَتُرَى، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَشْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ». وَكَانَ سَقْفُ الْمَسْجِدِ جَرِيدًا مِنَ النَّخْلِ وَمَا تَرَى فِي السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ فِرْعَانَةُ فَمَطَّرْنَا، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالْمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَصْدِيقٌ رُؤْيَاهُ. وَفِي لَفْظٍ: فِي صُبْحِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٧). قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصَحُّ الرُّوَايَاتِ. وَقِيلَ: لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ لِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُتَيْسٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ^(٨).

وَقِيلَ: تَكُونُ لَيْلَةُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «التَّمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّالِ مِنْ رَمَضَانَ فِي تَابِعَةِ تَبْتَى، فِي سَابِعَةِ

الْقَدْرِ الَّتِي اخْتَصَّهَا بِإِنزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهَا فَقَالَ: ﴿وَمَا آذَنَّاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»^(٩).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا حَضَرَ رَمَضَانَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَتُعَلَّقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُعَلَّقُ فِيهِ الشَّيَاطِينُ، فِيهِ لَيْلَةُ خَيْرٍ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ»^(١٠). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(١١). وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ تَعْدِلُ عِبَادَتُهَا عِبَادَةَ أَلْفِ شَهْرٍ بَنَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١٢).

[تُرْوَى الْمَلَائِكَةُ وَقَضَاءُ كُلِّ خَيْرٍ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أَيُّ يَكْتُرُ تَنْزُلُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِكَثْرَةِ بَرَكَتِهَا، وَالْمَلَائِكَةُ يَنْزِلُونَ مَعَ تَنْزُلِ الْبُرُكَةِ وَالرَّحْمَةِ، كَمَا يَنْزِلُونَ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَيُحِيطُونَ بِحَلْقِ الذِّكْرِ، وَيَضْمُونَ أَجْنَحَتَهُمْ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِصِدْقِ تَعْظِيمًا لَهُ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ هُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كُلُّ أَمْرٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: سَلَامٌ هِيَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ قَالَ: هِيَ سَالِمَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا سُوءًا أَوْ يَعْمَلَ فِيهَا أَدَى. وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: تَقْضَى فِيهَا الْأُمُورُ وَتُقَدَّرُ الْأَجَالُ وَالْأَرْزَاقُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهَا يَقْرَأُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَّلَعَ الْفَجْرُ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: حَدَّثَنَا [هَشِيمٌ] عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كُلُّ أَمْرٍ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَّلَعَ الْفَجْرُ﴾ قَالَ: تَسْلِيمُ الْمَلَائِكَةِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ عَلَى أَهْلِ الْمَسَاجِدِ حَتَّى يَطَّلَعَ الْفَجْرُ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ يَعْنِي هِيَ خَيْرٌ كُلِّهَا لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ إِلَى مَطَّلَعَ الْفَجْرِ.

[تَعِينُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَعَلَامَاتُهَا]

وَوُيُودُ هَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْبُوقِي، مَنْ قَامَهُنَّ ابْتِغَاءَ حِسْبَتِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ

(١) الطبري: ٥٣١/٢٤، ٥٣٢ والقرطبي: ١٣٠/٢٠ (٢)
 أحمد: ٢٣٠/٢ (٣) النسائي: ١٢٩/٤ (٤) فتح الباري: ٤/
 ٢٩٤ ومسلم: ٥٢٣/١ (٥) أحمد: ٣٢٤/٥ (٦) أبو داود: ٢/
 ١١١ فتح الباري: ٣٢٩/٤ و٣١٨ ومسلم: ٨٢٤/٢ (٨)
 مسلم: ٨٢٧/٢

تَبَيَّنَ، فِي خَامِسَةِ تَبَيَّنَ^(١).

فَسَرَهُ كَثِيرُونَ بِلَيَالِي الْأَوْتَارِ وَهُوَ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ. وَحَمَلَهُ الْأَخْرُونَ عَلَى الْأَشْفَاعِ. كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ^(٢).

وَقِيلَ: إِنَّهَا تَكُونُ لَيْلَةً سَبْعَ وَعِشْرِينَ، لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهَا لَيْلَةٌ سَبْعَ وَعِشْرِينَ^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زُرِّ سَأَلَتْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قُلْتُ: أَبَا الْمُنْذِرِ إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: مَنْ يَقُمْ الْحَوْلَ يُصِيبُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ. قَالَ: يَرَحِمُهُ اللَّهُ، لَقَدْ عَلِمَ أَنَّهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَأَنَّهَا لَيْلَةٌ سَبْعَ وَعِشْرِينَ، ثُمَّ حَلَفَ، قُلْتُ: وَكَيْفَ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ؟ قَالَ: بِالْعَلَامَةِ أَوْ بِالآيَةِ الَّتِي أَخْبَرْنَا بِهَا: تَطْلُعُ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَا شُعَاعَ لَهَا يَعْنِي الشَّمْسُ^(٤). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٥).

وَقِيلَ: إِنَّهَا تَكُونُ فِي لَيْلَةِ تِسْعَ وَعِشْرِينَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِنِ حَنْبَلٍ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فِي رَمَضَانَ، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّخِرِ، فَإِنَّهَا فِي وَتَرٍ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، أَوْ ثَلَاثَ وَعِشْرِينَ، أَوْ خَمْسَ وَعِشْرِينَ، أَوْ سَبْعَ وَعِشْرِينَ، أَوْ تِسْعَ وَعِشْرِينَ، أَوْ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ»^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ: «إِنَّهَا لَيْلَةٌ سَابِعَةٌ أَوْ تَاسِعَةٌ وَعِشْرِينَ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى»^(٧). فَتَرَدَّدَ بِهِ أَحْمَدُ وَإِسْنَادُهُ لَا بَأْسَ بِهِ.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ تَنْتَقِلُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّخِرِ، وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ نَصَّ عَلَيْهِ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ، وَأَحْمَدُ بِنِ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقُ بِنِ رَاهُوَيْهِ، وَأَبُو ثَوْرٍ وَالمُرَيْزِيُّ وَأَبُو بَكْرِ بِنِ حَزْرَمَةَ وَغَيْرُهُمْ، وَهُوَ مَخْجِي عَنِ الشَّافِعِيِّ، نَقَلَهُ الْقَاضِي عَنْهُ وَهُوَ الْأَشْبَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[دُعَاءُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ]

وَالْمُسْتَحَبُّ: الْإِكْتِمَارُ مِنَ الدُّعَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَكْثَرَ، وَفِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْهُ، ثُمَّ فِي أَوْتَارِهِ أَكْثَرَ، وَالْمُسْتَحَبُّ أَنْ يُكْتَرَ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاغْفِرْ عَنِّي. لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَمَا

أَدْعُو؟ قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاغْفِرْ عَنِّي»^(٨). وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٩). وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ: هَذَا صَحِيحٌ عَلَى سُرْطِ الشَّيْخَيْنِ^(١٠). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا^(١١).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ لَمْ يَكُنْ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

[قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ السُّورَةَ عَلَى أَبِي]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَبِي بِنِ كَعْبٍ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة: ١]» قَالَ: وَسَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَبَكَى^(١٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِهِ^(١٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ① ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ ② ﴿فِيهَا كُتِبَ قِسْمَةٌ﴾ ③ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ ④ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَسْبُدُوا لِلَّهِ تَخْلِيَةً لَهُ الَّذِينَ خَفَاءَ وَيُعِيضُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِسْمَةِ﴾ ⑤

[ذِكْرُ حَالِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

وَالْمُشْرِكِينَ]

أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَهُمْ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكُونَ عِبْدَةُ الْأَوْتَانِ وَالتَّبْرَانِ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنَ الْعَجَمِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَمْ يَكُونُوا ﴿مُنْفَكِينَ﴾ يَعْنِي مُتَّهَبِينَ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمُ الْحَقَّ^(١٤). وَهَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ^(١٥): «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أَيْ

(١) فتح الباري: ٣٠٦/٤ (٢) مسلم: ٨٢٦/٢، ٨٢٧ (٣) مسلم: ٨٢٨/٢ (٤) أحمد: ١٣٠/٥ (٥) مسلم: ٨٢٨/٢ (٦) أحمد: ٣١٨/٥ (٧) أحمد: ٥١٩/٢ (٨) أحمد: ٦/١٨٢ (٩) تحفة الأحوذى: ٤٩٥/٩ والنسائي في الكبرى: ٦/٢١٨ وابن ماجه: ١٢٦٥/٢ (١٠) الحاكم: ٥٣٠/١ (١١) النسائي في الكبرى: ٢١٩/٦ (١٢) أحمد: ١٣٠/٣ (١٣) فتح الباري: ٥٩٧/٨ ومسلم: ٥٥٠/١ وتحفة الأحوذى: ٢٩٤/١٠ والنسائي في الكبرى: ٥٢٠/٦ (١٤) الطبري: ٥٣٩/٢٤ (١٥) الطبري: ٥٣٩/٢٤

هَذَا الْقُرْآنُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾. ثُمَّ فَسَّرَ الْبَيِّنَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ وَمَا يَتْلُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ مُكْتَسَبٌ فِي الْمَلَا الْأَعْلَى فِي صُحُفٍ مُّطَهَّرَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ ﴿١٣﴾ تَرْفُوعًا مُّطَهَّرَةً ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿عيس: ١٣-١٦﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَيُّ فِي الصُّحُفِ الْمُطَهَّرَةِ كُتِبَ مِنَ اللَّهِ قِيمَةٌ عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ لَيْسَ فِيهَا خَطَأٌ، لِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١).

[إِنَّمَا وَقَعَ الْاِخْتِلَافُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يَعْنِي بِذَلِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُنْتَزَلَةَ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَنَا، بَعْدَ مَا أَقَامَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِي الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ كُتُبِهِمْ وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ: «إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفَرِّقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» (٢).

[إِنَّمَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ هُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُرْمَى إِلَّا لِيعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥٠] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حُفَاءً﴾ أَيُّ مُتَحَفِّينَ عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ الْحَنِيفِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ﴿وَيُضْمَعُوا الصَّلَاةَ﴾ وَهِيَ أَشْرَفُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَارِيجِ ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِسْمَةِ﴾ أَيُّ الْمِلَّةِ الْقَائِمَةِ الْعَادِلَةِ، أَوْ الْأُمَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ الْمُعْتَدِلَةِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ] ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ٥٩٩
 جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾
 سُورَةُ الْبُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيَسْرُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالْعَدِيدَاتِ صَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾

ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

[ذِكْرُ شَرِّ الْبَرِيَّةِ وَخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَذِكْرُ جَزَائِهِمَا]

يُنْبِئُ تَعَالَى عَنْ مَالِ الْأَفْجَارِ مِنْ كَثْرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، الْمُخَالِفِينَ لِكُتُبِ اللَّهِ الْمُنْتَزَلَةِ، وَأَنْبِيَاءِ اللَّهِ الْمُرْسَلَةِ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَيُّ مَا كَيْسَتْ لَا يَحُولُونَ عَنْهَا وَلَا يَزُولُونَ ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أَيُّ شَرِّ الْخَلِيقَةِ الَّتِي بَرَّأَهَا اللَّهُ وَذَرَّأَهَا، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَبْدَانِهِمْ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِدِيهِ الْآيَةُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى تَفْصِيلِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْبَرِيَّةِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أَيُّ بِلَا انْفِصَالٍ وَلَا انْقِضَاءٍ وَلَا فَرَاغٍ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وَمَقَامُ رِضَا

(١) الطبري: ٢٤/٥٤٠ (٢) القرطبي: ٤/١٥٩، ١٦٠

عَنَّهُمْ أَعْلَىٰ مِمَّا أَوْتُوهُ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ﴿رَوْضُوا عَنْهُ﴾ فِيمَا مَنَحَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أَيْ هَذَا الْجَزَاءُ حَاصِلٌ لِمَنْ خَشِيَ اللَّهَ وَاتَّقَاهُ حَقَّ تَقْوَاهُ، وَعَبَدَهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ؟» قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَجُلٌ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كُلَّمَا كَانَتْ هَيْعَةً اسْتَوَىٰ عَلَيْهِ. أَلَا أُخْبِرُكُمْ [بِالَّذِي يَلِيهِ؟]» قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَجُلٌ فِي ثَلَاثَةِ مِائَةٍ مِنَ غَنَمِهِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ. أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ الْبَرِيَّةِ؟» قَالُوا: بَلَىٰ. قَالَ: «الَّذِي يَسْأَلُ بِاللَّهِ وَلَا يُعْطِي بِهِ»^(١).

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ لَمْ يَكُنْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ إِذَا زُلْزِلَتْ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَقْرَأْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ لَهُ: «أَقْرَأْ ثَلَاثًا مِنْ ذَوَاتِ الرَّءِ» فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: كَبَّرَ سَيِّئِي وَاشْتَدَّ قَلْبِي وَغَلَطَ لِسَانِي، قَالَ: «فَأَقْرَأْ مِنْ ذَوَاتِ حَمٍّ» فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِيهِ الْأُولَى، فَقَالَ: «أَقْرَأْ ثَلَاثًا مِنْ الْمُسَبِّحَاتِ» فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِيهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَلَكِنْ أَقْرَأْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ سُورَةَ جَامِعَةً، فَأَقْرَأَهُ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهَا قَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَا أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا، ثُمَّ أَذْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ الرَّؤُوسِيُّ، أَفْلَحَ الرَّؤُوسِيُّ» ثُمَّ قَالَ: «عَلَيَّ بِهِ» فَجَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: «أَمْرْتُ بِيَوْمِ الْأَصْحَى جَعَلَهُ اللَّهُ عِيْدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ» فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلَّا مَنِيحَةً أَنْتَى فَأُصْحِي بِهَا؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِكَ وَتَقْلُمُ أَظْفَارِكَ، وَتَقْصُرُ شَارِبَكَ، وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ، فَذَٰلِكَ تَمَامُ أَصْحَابِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢). وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ^(٣).

الْإِنْسَانَ مَا لَهَا ﴿٢﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿١﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَسْتَأْذِنًا لِيُرَوْا أَعْمَلْتُمْ ﴿٤﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٥﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٦﴾

[يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ حَالُ الْأَرْضِ وَحَالُ النَّاسِ] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا» أَيْ تَحَرَّكَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا^(٤) «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا» يَعْنِي أَلْقَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْمَوْتَى، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَأْتِيهَا النَّاسُ أَثْقَالًا رَيِّبَةً إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَتَّىٰ عَظِيمٌ» [الحج: ١] وَكَقَوْلِهِ: «وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٢﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ» [الانشقاق: ٤، ٣] وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «[تَقِيءُ] الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأَسْطُورَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَجْمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا»^(٥). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا» أَيْ اسْتَنْكَرَ أَمْرَهَا بَعْدَمَا كَانَتْ قَارَةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً وَهُوَ مُسْتَقَرٌّ عَلَى ظَهْرِهَا، أَيْ تَقَلَّبَتِ الْحَالُ فَصَارَتْ مُتَحَرِّكَةً مُضْطَرِبَةً قَدْ جَاءَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، مَا قَدْ أَعَدَّهُ لَهَا مِنَ الزَّلْزَالِ الَّذِي لَا مَجِيدَ لَهَا عَنْهُ، ثُمَّ أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَوْلِيَيْنِ وَالْآخِرِينَ، وَجِيئَ اسْتَنْكَرَ النَّاسُ أَمْرَهَا، وَتَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» أَيْ تُحَدِّثُ بِمَا عَمِلَ الْعَامِلُونَ عَلَى ظَهْرِهَا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنْ أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ

(١) أحمد: ٣٩٦/٢ فيه أبو معشر نجيح وهو ضعيف كما سبق وأبو وهب مولى أبي هريرة مجهول ويشهد له حديث ابن عباس عند أحمد (٢١١٦) وإسناده صحيح وحديث أبي سعيد أيضا عنده ١٦/٣ (٢) أحمد: ١٦٩/٢ (٣) أبو داود: ١١٩/٢ والنسائي في الكبرى: ١٦/٥ (٤) الدر المنثور: ٥٩٢/٨ (٥) مسلم: ١٠١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿١﴾ وَقَالَ

عَلَى ظَهْرَهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَحْبَابُهَا» ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ قَالَ الْبُخَارِيُّ: أَوْحَى لَهَا وَأَوْحَى إِلَيْهَا، وَوَحَى لَهَا وَوَحَى إِلَيْهَا وَاحِدٌ^(٢). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوْحَى لَهَا أَيْ أَوْحَى إِلَيْهَا^(٣). وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مُضْمَنٌ بِمَعْنَى أَوْحَى لَهَا. وَقَالَ شَيْبُ بْنُ يَسْرٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَحْبَابَهَا» قَالَ: قَالَ لَهَا رَبُّهَا: قُولِي. فَقَالَتْ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَوْحَى لَهَا أَيْ أَمَرَهَا^(٥). وَقَالَ الْفَرَطِيُّ: أَمَرَهَا أَنْ تَسْتَقِ عَنْهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أَيْ يَرْجِعُونَ عَنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ أَشْتَاتًا أَيْ أَنْوَاعًا وَأَصْنَافًا، مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ مَا مُمِرُّ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَأْمُورٌ بِهِ إِلَى النَّارِ. وَقَالَ الشُّدِّيُّ: أَشْتَاتًا فَرَقًا^(٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُرَوَّاهُمْ﴾ أَيْ [لِيُعْلَمُوا]^(٧) وَيُجَاوَزُوا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

[الجزء على كل ذرة من العمل]

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٨) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ، لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ. فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ طِيلَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ فِي الْمَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرْفًا أَوْ شَرْفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاتُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ - وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَسْقِي بِهِ - كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، وَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَعْنِيًا وَتَعَفُّفًا وَلَمْ يَسَسَّ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظَهْرِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَحْرًا وَرِبَاءً وَزَوَاءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ» فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحُمْرِ فَقَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَائِدَةُ الْجَامِعَةُ»^(٩) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ^(١٠) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١٢).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ مَرْفُوعًا: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَبِيبَةٍ»^(١٣). وَهِيَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ: «لَا تَحْفَرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرَغَ مِنْ

ذَلِكَ فِي إِيَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَحَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْسَبِطًا»^(١٤) وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: «يَا مَعْشَرَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ، لَا تَحْفَرَنَّ جَارَةَ لِبَجَارَتِهَا وَلَوْ فُرِسَنَ شَاةً»^(١٥). يَعْنِي ظَلْفَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظَلْفِ مُحْرَقٍ»^(١٦).

وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا تَصَدَّقَتْ بِعَيْنِيَّةٍ وَقَالَتْ: كَمْ فِيهَا مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ^(١٧). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَوْفِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الطُّفَيْلِ، أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا عَائِشَةُ، إِيَّاكَ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِيًا». وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ^(١٨).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُنَّهُ». وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعَ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يُنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا وَأَجْجُوا نَارًا، وَأَنْصَجُوا مَا قَدَّفُوا فِيهَا»^(١٩).

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ إِذَا زُلْزِلَتْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

تفسير سورة العاديات وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ١ ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ ٢ ﴿فَالْغَيْرَاتِ ضُبْحًا﴾ ٣ ﴿فَاتَّرْنَ بِهِ نَجْفًا﴾ ٤ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ ٥ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَسَّيدٌ﴾ ٧ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ٨ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ فِي الْقُبُورِ﴾ ٩ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ١٠ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ ١١

(١) أحمد: ٣٧٤/٢ تحفة الأحوذى: ٢٨٥/٩ والنسائي في الكبرى: ١١٦٩٣ (٢) فتح الباري: ٥٩٨/٨ (٣) الطبري: ٥٤٩/٢٤ (٤) الدر المنثور: ٥٩٢/٨ (٥) الطبري: ٢٤/٥٤٨ (٦) الدر المنثور: ٥٩٣/٨ (*) كذا في النسخ المطبوعة لدينا، ولعل الصواب: ليعلموا من الإعلام (٧) فتح الباري: ٨/٥٩٨ (٨) مسلم: ٦٨٠/٢ (٩) فتح الباري: ٣٣٢/٣ (١٠) مسلم: ٢٠٢٦/٤ (١١) فتح الباري: ٤٥٩/١٠ (١٢) أحمد: ٣٨١/٥ (١٣) الموطأ: ٩٩٧/٢ (١٤) أحمد: ١٥١/٦ وابن ماجه: ٤٢٤٣ (١٥) أحمد: ٤٠٢/١

[الْقَسْمُ بِخَيْلِ الْحَرْبِ عَلَى كُفْرَانِ الْإِنْسَانِ وَحِرْصِهِ] يُقْسِمُ تَعَالَى بِالْخَيْلِ إِذَا أُجْرِيَتْ فِي سَبِيلِهِ فَعَدَتْ وَصَبَحَتْ، وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنَ الْقَرَسِ حِينَ تَعْدُو ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَمًا﴾ بَعْنِي اضْطِكَكَ نَعَالِيهَا لِلصَّخْرِ فَتَقْدَحُ مِنْهُ النَّارُ ﴿فَالْمُعِيرَتِ صَبَاً﴾ بَعْنِي الْإِغَارَةَ وَقَتِ الصَّبَاحِ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعِيرُ صَبَاً وَيَسْمَعُ الْأَذَانَ فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا وَإِلَّا أَغَارَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْمًا﴾ بَعْنِي عِبَارًا فِي مَكَانٍ مُعْتَرِكِ الْخَيُْولِ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أَيْ تَوَسَّطْنَ ذَلِكَ الْمَكَانَ كُلَّهُنَّ جَمْعٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْمُعِيرَتِ صَبَاً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: بَعْنِي إِغَارَةَ الْخَيْلِ صَبَاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْمًا﴾ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي حَلَّتْ فِيهِ، أَنْزَلَتْ بِهِ الْعِبَارَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ: بَعْنِي جَمْعَ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَدُوِّ ^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّهُ لِنِعْمِ رَبِّهِ لَكُفُورٌ جَحُودٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَأَبُو الْجَوَازِ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَأَبُو الضَّحَى وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ قَيْسٍ، وَالضَّحَّاكَ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَابْنُ زَيْدٍ: الْكُنُودُ الْكُفُورُ ^(٣). قَالَ الْحَسَنُ: الْكُنُودُ هُوَ الَّذِي يَعُدُّ الْمَصَائِبَ، وَيَنْسَى نِعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ^(٥). وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الْإِنْسَانِ. قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُهُ: وَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى كُذُوبِهِ كَنُودًا لَشَهِيدٌ، أَيْ بِلِسَانِ خَالِهِ، أَيْ ظَاهِرٌ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أَيْ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ - وَهُوَ الْمَالُ - لَشَدِيدٌ، وَفِيهِ مَذْهَبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْمَعْنَى وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الْمَحَبَّةِ لِلْمَالِ (وَالثَّانِي) وَإِنَّهُ لَحَرِيصٌ بِخَيْلٍ مِنَ مَحَبَّةِ الْمَالِ؛ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

[التَّخْوِيفُ مِنَ الْمَعَادِ]

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُرْهَدًا فِي الدُّنْيَا، وَمُرْعَبًا فِي الْآخِرَةِ، وَمُنْبَهًا عَلَى مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَ هَذِهِ الْحَالِ، وَمَا يَسْتَقْبِلُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَهْوَالِ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ^(١) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ^(٢)

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ^(١) مَا الْقَارِعَةُ ^(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ^(٣)

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ^(٤) فَأَمَّا

مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ^(٥) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ^(٦) فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ^(٧) نَارُ حَامِيَةٍ ^(٨)

سُورَةُ التَّكْوِينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَنُوكُ التَّكَاثُرُ ^(١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ^(٢) كَلَّا سَوْفَ

تَعْلَمُونَ ^(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ^(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ

عِلْمَ الْيَقِينِ ^(٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ^(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

عَيْنَ الْيَقِينِ ^(٧) ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ^(٨)

الْقُبُورِ ﴿أَيُّ أُخْرِجَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَيْرُهُ: بَعْنِي أُبْرَزَ ^(١) وَأُظْهِرَ مَا كَانُوا يَسْرُونَ فِي نُفُوسِهِمْ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ أَيْ لَعَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَيَعْمَلُونَ، وَمُجَارِبُهُمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ، وَلَا يَظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَادِيَاتِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَارِعَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ^(١) مَا الْقَارِعَةُ ^(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ^(٣) يَوْمَ

يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ^(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ

(١) الطبري: ٥٦٢/٢٤ (٢) الطبري: ٥٦٤/٢٤، ٥٦٥ (٣)

الطبري: ٥٦٦/٢٤ (٤) الطبري: ٥٦٦/٢٤ (٥) الطبري:

٥٦٦/٢٤ (٦) الطبري: ٥٦٩/٢٤

كَالْمُهِنِ الْمَفْئُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَكَايَةً ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

الْفَارِعَةُ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَالْحَاقَةِ وَالطَّامَةِ وَالصَّاحَةِ وَالغَاشِيَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا أَمْرَهَا وَمُهْوَلًا لِسَانِهَا: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ يَقُولُهُ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أَي فِي انْتِشَارِهِمْ وَتَفْرِيقِهِمْ وَدَهَابِهِمْ وَمَجِيئِهِمْ مِنْ حَيْرَتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ، كَأَنَّهُمْ فَرَّاشٌ مَبْثُوثٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القدر: ٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ يَعْنِي قَدْ صَارَتْ كَأَنَّهَا الصُّوفَ الْمَنْفُوشَ الَّذِي قَدْ شَرَعَ فِي الدَّهَابِ وَالتَّمْرِقِي. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ:

﴿كَالْمُهِنِ﴾ الصُّوفِ ﴿١﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا يُؤُولُ إِلَيْهِ عَمَلُ الْعَامِلِينَ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْإِهَانَةِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَي رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَي رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَأَمَّهُ هَكَايَةً﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ فَهُوَ سَاقِطٌ هَاؤُ بِأَمِّ رَأْسِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِأَمِّهِ يَعْنِي دِمَاعَهُ. رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ وَأَبِي صَالِحٍ وَقَتَادَةَ ﴿٢﴾. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَهْوِي فِي النَّارِ عَلَى رَأْسِهِ ﴿٣﴾.

وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ: يَهْوُونَ فِي النَّارِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ ﴿٤﴾. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَأَمَّهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَصِيرُ فِي الْمَعَادِ إِلَيْهَا: (هَآوِيَةٌ) وَهِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْهَآوِيَةِ: أُمُّهُ لِأَنَّهُ لَا مَأْوَى لَهُ غَيْرُهَا ﴿٥﴾. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْهَآوِيَةُ: النَّارُ هِيَ أُمُّهُ وَمَأْوَاهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، وَيَأْوِي إِلَيْهَا. وَقَرَأَ: ﴿وَمَا لَهُمْ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١] ﴿٦﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ: هِيَ النَّارُ. وَهِيَ مَأْوَاهُمْ ﴿٧﴾. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُفَسِّرًا لِلْهَآوِيَةِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أَي حَارَةٌ شَدِيدَةُ الْحَرِّ قُوَّةِ اللَّهَبِ وَالسَّعِيرِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقَدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ؟ فَقَالَ: «إِنَّهَا

فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسِتِّينَ جُزْءًا» وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ﴿٨﴾. وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ: «إِنَّهَا فَضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا».

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا مِنْ لَهُ نَعْلَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ» ﴿٩﴾. وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَدِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسِي فِي الشَّيْءِ، وَنَفْسِي فِي الصَّنِيفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الشَّيْءِ مِنْ بَرْدِهَا، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الصَّنِيفِ مِنْ حَرِّهَا» ﴿١٠﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ» ﴿١١﴾.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَارِعَةِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكَاثُرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَنَكُ التَّكَاثُرُ﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿١﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٤﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٥﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَسْتَلْتَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٧﴾

[نَتِيجَةُ حُبِّ الدُّنْيَا غَفْلَةٌ عَنِ الْآخِرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَشْغَلَكُمْ حُبُّ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا وَزَهْرَتُهَا عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ وَابْتِغَائِهَا، وَتَمَادَى بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَكُمْ الْمَوْتُ وَزُرْتُمُ الْمَقَابِرَ، وَصِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي الرَّقَاقِ مِنْهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿الْهَنَكُ التَّكَاثُرُ﴾ يَعْنِي: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ» ﴿١٢﴾. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ

(١) الطبري: ٥٧٤/٢٤ (٢) الطبري: ٥٧٥/٢٤، ٥٧٦
والقرطبي: ١٦٧/٢٠ (٣) الطبري: ٥٧٦/٢٤ (٤) الطبري: ٥٧٥/٢٤ (٥) الطبري: ٥٧٥/٢٤ (٦) الطبري: ٥٧٦/٢٤ (٧) الطبري: ٥٧٥/٢٤ (٨) فتح الباري: ٦/٣٨٠ مسلم: ٤/٢١٨٤ (٩) أحمد: ٤٣٢/٢ ١٣/٣ (١٠) فتح الباري: ٦/٣٨٠ ومسلم: ٤٣١/١ (١١) فتح الباري: ٢٠/٢ ومسلم: ١/٤٣٠ (١٢) فتح الباري: ٢٥٨/١١

سُورَةُ الْعَصْرِ ٦٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ ٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣

سُورَةُ الْهُمَزِ ٦٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّا فِي الحُطْمَةِ ٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطْمَةُ ٥ نَارُ اللَّهِ المَوْقَدَةُ ٦ الَّتِي تَطْلَعُ عَلَى الْأَقْفَدَةِ ٧ إِنهَاعَلَيْهِمْ مَوْصَدَةٌ ٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ٩

سُورَةُ الْفَيْلِ ٦٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْفَيْلُ ١ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ ٢ الَّتِي جَعَلَ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ٣ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٤ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ٥ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ٦

قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ» يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتِ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَبْتَيْتِ، أَوْ تَصَدَّقْتِ فَأَمْضَيْتِ؟^(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٢).

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ العَبْدُ: مَالِي مَالِي، وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَقْنَى، أَوْ لَيْسَ فَأَبْلَى، أَوْ تَصَدَّقَ فَأَمْضَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهَبَ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ»^(٣). تَفَرَّدَ بِهِ مُسْلِمٌ.

وَرَوَى البُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَتَّبِعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ»^(٤). وَكَذَلِكَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٥). وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مِنْهُ اثْنَتَانِ: الحِرْضُ وَالْأَمَلُ»^(٦). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٧).

[الْوَعِيدُ بِرُؤْيَةِ الجَحِيمِ وَالسُّؤَالُ عَنِ النِّعَمِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»^(٨) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ^(٩).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يَعْنِي أَيُّهَا الكُفَّارُ «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يَعْنِي أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ^(١٠). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ» أَي لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ العِلْمِ لَمَا أَلْهَأْتُمُ التَّكَاثُرَ عَنِ طَلَبِ الدَّارِ الآخِرَةِ، حَتَّى صِرْتُمْ إِلَى المَقَابِرِ، ثُمَّ قَالَ: «لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ»^(١١) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ هَذَا تَفْسِيرُ الوَعِيدِ المُتَقَدِّمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»^(١٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ تَوَعَّدَهُمْ بِهَذَا الحَالِ، وَهُوَ رُؤْيُهُ أَهْلَ النَّارِ الَّتِي إِذَا زَفَرَتْ زَفْرَةً وَاحِدَةً حَرَّ كُلُّ مَلِكٍ مَقْرَبٍ وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، مِنَ المَهَابَةِ وَالعَظَمَةِ وَمَعَابَةِ الأَهْوَالِ، عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الأَثَرُ المَرْوِيُّ فِي ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ بِيَوْمِئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» أَي ثُمَّ لَنَسْأَلُنَّ بِيَوْمِئِذٍ عَنِ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الصَّحَّةِ وَالأَمْنِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مَا إِذَا قَابَلْتُمْ بِهِ نِعْمَهُ مِنْ شُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الصُّدَائِيُّ: حَدَّثَنَا الوَلِيدُ بْنُ القَاسِمِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ

(١) أحمد: ٢٤/٤ (٢) مسلم: ٢٢٧٣/٤ وتحفة الأحودي: ٩/٢٨٦ والنسائي في الكبرى: ٥٢١/٦ (٣) مسلم: ٢٢٧٣/٤ (٤) فتح الباري: ٣٦٩/١١ (٥) مسلم: ٢٢٧٣/٤ وتحفة الأحودي: ٥٠/٧ والنسائي في الكبرى: ٦٣١/٦ (٦) أحمد: ١١٥/٣ (٧) البخاري: ٦٤٢١ ومسلم: ١٠٤٧ (٨) البغوي: ٥٢٠/٤ (٩) الطبري: ٥٨١/٢٤

الْأَوْتَانِ، فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ. وَرَوَى الطَّبْرَائِيُّ عَنْ [عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَفْصِ أَبِي مَدِينَةَ] قَالَ: كَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا التَّقِيَا لَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا عَلَى أَنْ يَتْرُقَا أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخِرِ سُورَةَ الْعَصْرِ إِلَى آخِرِهَا، ثُمَّ يُسَلِّمُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخِرِ^(١). وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَوَسِعَتْهُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾
 الْعَصْرُ: الزَّمَانُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ حَرَكَاتُ بَنِي آدَمَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الْعَشِيُّ، وَالْمَشْهُورُ الْأَوَّلُ. فَأَقْسَمَ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، أَيْ فِي خَسَارَةٍ وَهَلَاكٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَاسْتَنْتَى مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ عَنِ الْخُسْرَانِ: الَّذِينَ ءَامَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ﴿وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ﴾ وَهُوَ آدَاءُ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكُ الْمَحْرَمَاتِ ﴿وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ أَيْ عَلَى الْمَصَائِبِ وَالْأَقْدَارِ، وَأَذَى مَنْ يُؤْذِي مِمَّنْ يَأْمُرُونَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَصْرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمْرَةٌ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمْرَةٌ ١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ٢﴾ يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣﴾ كَلَّا لَيَلْبَدُنَّ فِي الْخَطْمَةِ ٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقِ ٧﴾
 إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ ٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ٩﴾
 الْأَهْمَارُ بِالْقَوْلِ، وَاللَّمَّارُ بِالْفِعْلِ، يَعْنِي يَزْدَرِي النَّاسَ وَيَتَّقِصُّ بِهِمْ. وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا مَثَلٌ يُبَيِّنُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْزَةٌ لَمْرَةٌ، طَعَانٌ

(١) الطبري: ٥٨٣/٢٤ (٢) مسلم: ١٦٠٩/٣ (٣) فتح الباري: ٢٣٣/١١ وتحفة الأحوذى: ٥٨٩/٦ وتحفة الأشراف: ٤٦٥/٤ وابن ماجه: ١٣٩٦/٢ (٤) أحمد: ٤٩٢/٢ (٥) ذكره أيضا في البداية والنهاية: ٣٢٠/٦ ط: زمزم، ونحوه الحافظ في الإصابة ٢٢٥/٣ (٦) المعجم الأوسط: ٥٠٩٧ «مجمع البحرين»

النَّبِيِّ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ» فَذَبَحَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فَأَكَلُوا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَتُسَأَلَنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَبْتُمْ هَذَا، فَهَذَا مِنَ النَّعِيمِ»^(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

وَوَبَّتْ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَسُنَنِ التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَهَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُوتُونَ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفِرَاعُ»^(٣). وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّهُمْ مَقْصُورُونَ فِي شُكْرِ هَاتَيْنِ النُّعْمَتَيْنِ لَا يَقُومُونَ بِوَاجِبِهِمَا، وَمَنْ لَا يَقُومُ بِحَقِّ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ فَهُوَ مَغْبُوتٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ عَفَّانُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَا ابْنَ آدَمَ، حَمَلْتَنِي عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ، وَزَوَّجْتَنِي النِّسَاءَ، وَجَعَلْتَنِي تَرْبَعٌ وَتِرَاسٌ، فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ؟»^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكْوِينِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَصْرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[مَعْرِفَةُ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ بِهَذِهِ السُّورَةِ]

ذَكَرُوا أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَقَدَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ الْكُذَّابِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ عَمْرُو، فَقَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ: مَاذَا أَنْزَلَ عَلَى صَاحِبِكُمْ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ؟ فَقَالَ: لَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ سُورَةٌ وَجِيزَةٌ بَلِيغَةٌ فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾ فَفَكَرَ مُسَيْلِمَةُ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ مِثْلَهَا، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: يَا وَبُرُّ يَا وَبُرُّ. إِنَّمَا أَنْتَ أَذُنَانِ وَصَدْرٌ. وَسَائِرُكَ حَفْرٌ تَقْرُ. ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تَرَى يَا عَمْرُو؟ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي أَغْلَمُ أَنَّكَ تَكْذِبُ^(٥). وَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا بَكْرَ الْخُرَاطِيَّ أَسْنَدَ فِي كِتَابِهِ الْمَعْرُوفِ (بِمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ) فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْهُ شَيْئًا مِنْ هَذَا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ. وَالْوَبْرُ دَوِيَّةٌ تُشْبِهُ الْهَرَّ، أَعْظَمُ شَيْءٍ فِيهِ أَذُنَاهُ وَصَدْرُهُ وَبَاقِيهِ [لَطِيفٌ] دَمِيمٌ، فَأَرَادَ مُسَيْلِمَةُ أَنْ يُرْكَبَ مِنْ هَذَا الْهَدْيَانِ مَا يُعَارِضُ بِهِ الْقُرْآنَ. فَلَمْ يَرُجْ ذَلِكَ عَلَى عَابِدِ

مِعْيَابٌ ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الهمزة باليد والعين، والهمزة باللسان. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أَي جَمَعَهُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَأَحْصَى عَدَدَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨] قَالَهُ السُّدِّيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ ^(٢). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أَلْهَاهُ مَالُهُ بِالنَّهَارِ هَذَا إِلَى هَذَا، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ نَامَ كَأَنَّهُ حَيْفَةٌ مُنْتَبَهٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أَي يَظُنُّ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالِ يُخْلِدُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ ﴿كَلَّا﴾ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ، وَلَا كَمَا حَسَبَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُذَكَّرَ فِي الْخَلْقَةِ﴾ أَي لِيُتَقَرَّرَ هَذَا الَّذِي جَمَعَ مَالًا فَعَدَّدَهُ، فِي ﴿الْخَلْقَةِ﴾ وَهِيَ اسْمُ صِفَةٍ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ، لِأَنَّهَا تَحْطِمُ مَنْ فِيهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَلْقَةُ﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْجِدَةُ ﴿١﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْيَدِ ﴿٢﴾ قَالَ ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ: تَحْرِفُهُمْ إِلَى الْأَقْيَدِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، ثُمَّ يَقُولُ: لَقَدْ بَلَغَ مِنْهُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ يَبْكِي. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: تَأْكُلُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ فُؤَادَهُ [حَدُو حُلُقِهِ]: تَرْجِعُ عَلَى جَسَدِهِ ^(٣).

[قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ بِإِيجَازٍ]

وَهَذِهِ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ عَلَى وَجْهِ الْإِيجَازِ وَالْإِخْتِصَارِ وَالتَّقْرِيبِ: قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ أَنَّ ذَا نُوَاسٍ - وَكَانَ آخِرُ مُلُوكِ حِمْيَرَ، وَكَانَ مُشْرِكًا - هُوَ الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ، وَكَانُوا نَصَارَى، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا دَوْسٌ ذُو ثُعْلَبَانٍ، فَذَهَبَ فَاسْتَعَانَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ، وَكَانَ نَضْرَانِيًّا، فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ لِكُوزِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ: أَرْيَاطَ وَأَبْرَهَةَ بْنَ الصَّاحِ أَبَا يَكْسُومَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَدَخَلُوا الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَاسْتَلْبَؤُوا الْمَلِكَ مِنْ حِمْيَرَ، وَهَلَكَ ذُو نُوَاسٍ غَرِيبًا فِي الْبَحْرِ، وَاسْتَقَلَّ الْحَبَشَةَ بِمَلِكِ الْيَمَنِ وَعَلَيْهِمْ هَذَانِ الْأَمِيرَانِ: أَرْيَاطُ وَأَبْرَهَةُ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَفَاتَلَا وَتَصَافَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اضْطِدَامِ الْجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا، وَلَكِنْ ابْرُزْ إِلَيَّ وَأَبْرُزْ إِلَيْكَ، فَأَيُّمَا قَتَلَ الْآخَرَ اسْتَقَلَّ بَعْدَهُ بِالْمَلِكِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ فِتْيَارًا وَخَلَفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَنَاءً، فَحَمَلَ أَرْيَاطُ عَلَى أَبْرَهَةَ فَضْرَبَهُ بِالسِّنْفِ فَسَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ، وَحَمَلَ عَتُودَةَ مَوْلَى أَبْرَهَةَ عَلَى أَرْيَاطٍ فَقَتَلَهُ وَرَجَعَ أَبْرَهَةُ جَرِيحًا فِدَاوَى جُرْحَهُ فَبَرَأَ، وَاسْتَقَلَّ بِتَدْيِيرِ جَيْشِ الْحَبَشَةِ بِالْيَمَنِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ يَلُومُهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَيَتَوَعَّدُهُ وَيَخْلِفُ لِيَطَّانَ بِلَادَهُ وَيَجُزَّ نَاصِيئَتَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهَةَ يَتَرَفَّقُ لَهُ وَيُصَانِعُهُ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ بِهَدَايَا وَتُحَفٍ وَبِجِرَابٍ فِيهِ مِنْ تُرَابِ الْيَمَنِ وَجَزَّ نَاصِيئَتَهُ، فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَسَّدَةٌ﴾ أَي مُطْبِقَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْبَلَدِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: عَمِدٌ مِنْ حَدِيدٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مِنْ نَارٍ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَدْخَلَهُمْ فِي عَمِدٍ مُمَدَّوَةٍ عَلَيْهِمْ - بِعِمَادٍ، فِي أَعْنَاقِهِمْ - السَّلَامِلُ فَسُدَّتْ بِهَا الْأَبْوَابَ ^(٤).

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُحْمَةٍ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفِيلِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ١ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ﴾ ٢ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ٣ ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ٤ ﴿جَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ٥

هَذِهِ مِنَ النَّعْمِ الَّتِي أَمْتَنَ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُرَيْشٍ، فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى هَدْمِ الْكَعْبَةِ، وَمَحْوِ أَثَرِهَا مِنَ الْوُجُودِ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ وَأَرْغَمَ

(١) الطبري: ٥٩٦/٢٤ (٢) الطبري: ٥٩٨/٢٤ والقرطبي: ١٣٨/٢٠ (٣) القرطبي: ١٨٥/٢٠ (٤) الطبري: ٦٠٠/٢٤

وَاسْتَضَحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّهُ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ .

فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا تَقِيْفًا وَصَانِعُوهُ - خِيْفَةً عَلَى بَيْنِهِمُ الَّذِي عِنْدَهُمُ الَّذِي يُسْمَوْنَهُ اللَّاتُ - فَأَكْرَمَهُمْ وَبَعَثُوا مَعَهُ «أَبَا رِغَالٍ» دَلِيلاً، فَلَمَّا انْتَهَى أَبْرَهُهُ إِلَى الْمُعَمَّسِ - وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ - نَزَلَ بِهِ . وَأَعَارَ حَيْثُهِ عَلَى سَرَحِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا فَأَخَذُوهُ، وَكَانَ فِي السَّرْحِ مَائَتًا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ الَّذِي أَعَارَ عَلَى السَّرْحِ بِأَمْرِ أَبْرَهُهُ أَمِيرَ الْمُقَدَّمَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: الْأَسْوَدُ بْنُ مَفْصُودٍ فَهَجَاهُ بَعْضُ الْعَرَبِ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَبَعَثَ أَبْرَهُهُ حُنَاطَةَ الْحَمِيرِيِّ إِلَى مَكَّةَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَشْرَفِ فُرَيْشٍ وَأَنْ يُخْبِرَهُ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تُصَدُّوهُ عَنِ النَّبِيِّ، فَجَاءَ حُنَاطَةُ فَدَلَّ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ وَبَلَّغَهُ عَنْ أَبْرَهُهُ مَا قَالَ . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللَّهِ مَا تُرِيدُ حَرْبَهُ وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامِ وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ يَمْنَعُهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْنَهُ وَحَرَمِهِ، وَإِنْ يُخَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَادْهَبْ مَعِيَ إِلَيْهِ، فَدَهَبَ مَعَهُ .

فَلَمَّا رَأَى أَبْرَهُهُ أَجْلَهُ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا جَسِيمًا حَسَنَ الْمَنْظَرِ، وَنَزَلَ أَبْرَهُهُ عَنْ سَرِيرِهِ وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى السَّاطِ، وَقَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ لِتُرْجُمَانٍ: إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكَ مَائَتِي بِعَبِيرٍ أَصَابَهَا لِي، فَقَالَ أَبْرَهُهُ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْتُ أَعَجِبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مَائَتِي بِعَبِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وَتَتْرُكُ بَيْنَنَا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ، قَدْ جِئْتُ لِهَدْيِهِ لَا تَكَلِّمُنِي فِيهِ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ . قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي . قَالَ: أَنْتَ وَذَلِكَ .

وَيُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ مَعَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَمَاعَةً مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَعَرَّضُوا عَلَى أَبْرَهُهُ ثَلَاثَ أَمْوَالٍ تِهَامَةَ عَلَى أَنْ يُرْجَعَ عَنِ النَّبِيِّ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ .

وَرَدَّ أَبْرَهُهُ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِيْلَهُ، وَرَجَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى فُرَيْشٍ فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَالتَّحْصُنِ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْحَيْشِ، ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكُعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ فُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَسْتَصِرُّونَ عَلَى أَبْرَهُهُ وَجُنْدِهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكُعْبَةِ:

وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَّأَ الْمَلِكُ عَلَى هَذَا الْجِرَابِ فَيَبْرَ قَسْمُهُ، وَهَذِهِ نَاصِيَتِي، فَدَبَعْتُ بِهَا إِلَيْكَ فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ وَرَضِيَ عَنْهُ وَأَقْرَهُ عَلَى عَمَلِهِ، وَأَرْسَلَ أَبْرَهُهُ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ إِنِّي سَأَبْنِي لَكَ كَيْسِيَّةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يَبْنَ قَبْلَهَا مِثْلَهَا، فَسَرَعَ فِي بِنَائِ كَيْسِيَّةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَضِيعةَ الْبِنَاءِ عَالِيَةِ الْفَنَاءِ، مُزَخْرَفَةَ الْأَرْجَاءِ، سَمَّيْتُهَا الْعَرَبُ الْقُلَيْسَ لِارْتِفَاعِهَا، لِأَنَّ النَّاطِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ فَلَنْسَوْتُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنْ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا، وَعَزَمَ أَبْرَهُهُ الْأَشْرَمُ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجَّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحْجُ إِلَى الْكُعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ فَكْرِهَتْ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةَ وَالْقَحْطَانِيَّةَ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ فُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى فَصَدَهَا بَعْضُهُمْ وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا، فَأُخِذَتْ فِيهَا وَكُرَّ رَاجِعًا، فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةَ ذَلِكَ الْخَدَثَ رَفَعُوا أَمْرَهُ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبْرَهُهُ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ فُرَيْشٍ غَضَبًا لِيَبْتِهِمُ الَّذِي صَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبْرَهُهُ لِيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ وَلِيُخَرِّبَنَّ حَجْرًا حَجْرًا .

وَذَكَرَ مَقَاتِلُ بْنُ سَلِيمَانَ: أَنَّ فَيْتَةَ مِنْ فُرَيْشٍ دَخَلُوهَا فَأَجْبُوا فِيهَا نَارًا، وَكَانَ يَوْمًا فِيهِ هَوَاءٌ شَدِيدٌ، فَاحْتَرَقَتْ وَسَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ .

فَتَأَهَّبَ أَبْرَهُهُ لِذَلِكَ وَسَارَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَزْمَرَمَ لَيْلًا يَصُدُّهُ أَحَدٌ عَنْهُ، وَاسْتَضَحَبَ مَعَهُ فَيْلًا عَظِيمًا كَبِيرَ الْحُجَّةِ لَمْ يَرِ مِثْلَهُ، يُقَالُ لَهُ: مَحْمُودٌ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ لِذَلِكَ، وَيُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أَيْضًا ثَمَانِيَةُ أَفْيَالٍ، وَقِيلَ: اثْنَا عَشَرَ فَيْلًا غَيْرُهُ فَاللَّهُ أَعْلَمُ . يَعْنِي لِيَهْدِمَ بِهِ الْكُعْبَةَ بِأَنْ يَجْعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ وَتُوَضَعَ فِي عُنُقِ الْفَيْلِ، ثُمَّ يَزْجُرُ لِيُلْقَى الْحَائِطُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَمَّا سَمِعَتْ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ الْمُحَاجَبَةُ دُونَ النَّبِيِّ، وَرَدُّ مَنْ أَرَادَهُ بِكَيْدٍ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ يُقَالُ لَهُ ذُو نَفَرٍ، فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهُهُ وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ، وَمَا يُرِيدُهُ مِنْ هَدْيِهِ وَخَرَابِهِ، فَأَجَابُوهُ وَقَاتَلُوا أَبْرَهُهُ فَهَزَمَهُمْ لَمَّا يُرِيدُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كَرَامَةِ النَّبِيِّ وَتَعْظِيمِهِ، وَأَسِيرَ ذُو نَفَرٍ، فَاسْتَضَحَبَهُ مَعَهُ، ثُمَّ مَضَى لِيُوجِّهَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَتَمِ اعْتَرَضَ لَهُ نَقِيلُ بْنُ حَبِيبِ الْخَتَمِيِّ فِي قَوْمِهِ شَهْرَانَ وَنَاهِسَ فَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهُهُ، وَأَسِيرَ نَقِيلُ بْنُ حَبِيبٍ فَأَرَادَ قَتْلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ،

لَا هُمْ إِنَّ الْمَرَّةَ يَمُ —

نَعُ رَحْلَهُ فَاَمْتَعِ حِلَالَكَ (*)
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ

وَمَحَالُهُمْ غَدَاً وَمَحَالَكَ
قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أُرْسِلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَلَقَةَ الْبَابِ
ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:

أَنَّهُمْ تَرَكُوا عِنْدَ الْبَيْتِ مِائَةً بَدَنَةً مَقْلَدَةً لَعَلَّ بَعْضَ الْجَيْشِ
يَنَالُ مِنْهَا شَيْئًا يَغْيِرُ حَقًّا فَيَسْتَقِيمُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهُهُ
نَهْيًا لِدُخُولِ مَكَّةَ وَهَيَأُ فِيهَا، وَكَانَ اسْمُهُ مُحَمَّدًا، وَعَبًّا
جَيْشُهُ فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحَوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نَفِيلُ بْنُ حَبِيبٍ
حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ: أَيْرُكُ مُحَمَّدُ أَوْ

ارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ،
ثُمَّ أُرْسِلَ أَذُنُهُ فَبَرَكَ الْفِيلُ وَخَرَجَ نَفِيلُ بْنُ حَبِيبٍ يَسْتَدُّ حَتَّى
أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ، وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقْرَمَ فَأَبَى، فَضَرَبُوا فِي
رَأْسِهِ بِالطَّبْرَزِينَ وَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَ لَهُمْ فِي مَرَاقِهِ [فَبَزَعُوهُ]
بِهَا لِيَقْرَمَ فَأَبَى، فَوَجَّهُوا رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَمَقَامَ يَهْرُونَ،
وَوَجَّهُوا إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوا إِلَى الْمَشْرِقِ
فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوا إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأُرْسِلَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَاطِيفِ وَاللِّسَانِ مَعَ كُلِّ
طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِثْقَالِهِ وَحَجَرَانِ
فِي رِجْلَيْهِ أَمْثَالُ الْحِمَّصِ وَالْعَدَسِ، وَلَا يُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا
إِلَّا هَلَكَ. وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ، وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ
الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نَفِيلٍ لِيَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ، هَذَا
وَنَفِيلٌ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الْجِحَارِ يَنْظُرُونَ
مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ مِنَ التَّقْمَةِ، وَجَعَلَ نَفِيلٌ
يَقُولُ:

أَيُّنَ الْمَفَرِّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبِ

وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْعَالِبِ
قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَقَالَ نَفِيلٌ فِي ذَلِكَ أَيْضًا:

أَلَا حُبَيْبَتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا

نَعْمَانَاكُمْ مَعَ الْإِضْبَاحِ عَيْنَا
رُدَيْنَتُهُ لَوْ رَأَيْتِ - وَلَا تَرِيهِ -

لَدَى جَنْبِ الْمُحَصَّبِ مَا رَأَيْنَا
إِذَا لَعَدَزْتِنِي وَحَمِدْتَ أَمْرِي

وَلَمْ تَأْسِنِي عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَنَا
حَمِدْتُ اللَّهَ إِذَا أَبْصَرْتُ طَيْرًا

وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
فَكُلُّ الْقَوْمِ تَسْأَلُ عَنْ نَفِيلٍ
كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبَشَانِ دِينَا
وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَغَيْرُهُ: لَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ
فِي السَّاعَةِ الرَّاهِتَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ
جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهُهُ يَمِّنُ
تَسَاقَطَ عُضْوًا عُضْوًا حَتَّى مَاتَ بِيَلَادِ حَنْعَمٍ.

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ
وَيَهْلِكُونَ عَلَى كُلِّ مَنَهْلٍ، وَأُصِيبَ أَبْرَهُهُ فِي جَسَدِهِ
وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أُنْمَلَةٌ أُنْمَلَةٌ حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ،
وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، فَمَا مَاتَ حَتَّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ
قَلْبِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ فِيمَا
يَعُدُّ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ وَفَضْلِهِ مَارِدًا عَنْهُمْ مِنْ
أَمْرِ الْحُبَشَةِ، لِبِقَاءِ أَمْرِهِمْ وَمُدَّتِهِمْ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ
فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾
يَجْعَلُهُمْ كَعَصِيفٍ تَأْكُولُ ﴿٥﴾ ﴿لَا يَلْفِيفُ قُرَيْشٌ ﴿٦﴾ لِدَلْفِهِمْ رِجْلَةَ
السِّتَاءِ وَالصَّبِيفِ ﴿٧﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٨﴾ الَّذِي
أَطْعَمَهُمْ مِّن جُودٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٩﴾ [قريش: ١-٤] أَيْ لِقَلَّا
يُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ حَالِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ
الْخَيْرِ لَوْ قَبِلُوهُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْأَبَابِيلُ الْجَمَاعَاتُ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ الْعَرَبُ
بِوَاجِدِهِ. قَالَ: وَأَمَّا السِّجِّيلُ فَأَخْبَرَنِي يُونُسُ النَّخْوِيُّ وَأَبُو
عُبَيْدَةَ أَنَّهُ عِنْدَ الْعَرَبِ: الشَّدِيدُ الصُّلْبِ. قَالَ: وَذَكَرَ بَعْضُ
الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمَا كَلِمَتَانِ بِالْفَارِسِيَّةِ جَعَلْتُهُمَا الْعَرَبُ كَلِمَةً
وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا هُوَ سَنْجٌ وَجِلٌّ، يُعْنَى بِالسَّنَجِ: الْحَجَرُ
وَالجِلُّ: الطِّينُ. يَقُولُ: الْحِجَارَةُ مِنْ هَذَيْنِ الْجِنْسَيْنِ
الْحَجَرِ وَالطِّينِ. قَالَ: وَالْعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ الَّذِي لَمْ
[يُقَصَّبْ]، وَاحِدَتُهُ عَصْفَةٌ^(*). إِنَّهِيَ مَا ذَكَرَهُ. وَقَدْ قَالَ
حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ زُرَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَبُو سَلَمَةَ
ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: الْفِرْقُ. وَقَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: [أَبَابِيلُ] يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَقَالَ

(*) جمع جلة وهي جماعة البيوت أي القوم الحلول وقوله:
غدوا أي غدا (١) ابن هشام: ٥١/١-٥٦

سُورَةُ الْفِيلِ
٦٠٢
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ فَرَسٍ ① إِيَّاهُمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ② الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ③

سُورَةُ الْمَاعُونِ
١١٠
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ ① فَذَلِكَ الَّذِي
يَدْعُ الْيَتِيمَ ② وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ③
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
الَّذِينَ هُمْ بِإِرَائِهِمْ ⑤ وَيَسْمَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦

سُورَةُ الْكَوثرِ
١١٠
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوثرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ②
إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③

مَشْرُوفُ بَنِي أِبْرَهَةَ، ثُمَّ خَرَجَ سَيْفُ بَنِي يَزِيدِ الْجَمِيمِيِّ
إِلَى كِسْرَى فَاسْتَعَانَهُ عَلَى الْحَبْسَةِ، فَأَنْقَذَ مَعَهُ مِنْ جُبُوشِهِ
فَقَاتَلُوا مَعَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُلْكَهُمْ وَمَا كَانَ فِي آبَائِهِمْ مِنْ
الْمَلِكِ، وَجَاءَتْهُ وَفُودُ الْعَرَبِ بِالتَّهْنِئَةِ ⑨.

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَتْحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
لَمَّا أَطَّلَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى الثَّنِيَّةِ الَّتِي تَهْبِطُ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ،
بَرَكَتْ نَاقَتُهُ فَزَجَرُوهَا فَأَلْحَتْ، فَقَالُوا: خَلَّاتِ الْقِصْوَاءُ أَيُّ
حَرَنْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقِصْوَاءُ، وَمَا
ذَلِكَ لَهَا بِحُلُقِي، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَاسِسُ الْفَيْلِ - ثُمَّ قَالَ: -
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ حُطَّةً يُعْطَمُونَ فِيهَا
حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَحَبَّتْهُمْ إِلَيْهَا» ثُمَّ زَجَرَهَا فَقَامَتْ ⑩.

(١) الطبري: ٦٠٥/٢٤، ٦٠٦ (٢) الطبري: ٦٠٦/٢٤ (٣)
الطبري: ٦٠٧/٢٤ (٤) الطبري: ٦٠٧/٢٤ (٥) الطبري:
٦٠٧/٢٤ (٦) الدر المنثور: ٦٣٣/٨ (٧) البغوي: ٥٢٩/٤
(٨) الطبري: ٦٩٩/٢٤ (٩) انظر مفصلاً في سيرة ابن هشام:
١٠٣-٩٦/١ (١٠) فتح الباري: ٣٨٨/٥

الْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ وَقَتَادَةُ: الْأَبَابِيلُ الْكَثِيرَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ:
[أَبَابِيلُ] شَتَّى مُتَابِعَةٌ مُجْتَمِعَةٌ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْأَبَابِيلُ
الْمُخْتَلِفَةُ تَأْتِي مِنْ هَهُنَا، وَمِنْ هَهُنَا أَنْتَهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ①.
وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: سَمِعْتُ بَعْضَ التَّحْوِيلِيِّينَ يَقُولُ: وَاحِدُ
الْأَبَابِيلِ إِبْيَلٌ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ
بْنِ تَوْفَلٍ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا
أَبَابِيلَ﴾ هِيَ الْأَقَاطِيعُ كَأَبَابِيلِ الْمُؤَبَّلَةِ ②. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:
﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: لَهُمْ خَرَّاطِيمٌ كَخَرَّاطِيمِ
الطَّيْرِ، وَأَكْفٌ كَأَكْفِ الْكِلَابِ ③. عَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: كَانَتْ طَيْرًا خَضِرًا خَرَجَتْ مِنَ
الْبَحْرِ، لَهَا رُؤُوسٌ كَرُؤُوسِ السَّبَاعِ ④. عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ
﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: هِيَ طُيُورٌ سُودٌ بَحْرِيَّةٌ فِي مَنَاقِيرِهَا
وَأَطَافِيرِهَا ⑤ الْجِجَارَةُ. وَهَذِهِ آسَانِيدٌ صَحِيحَةٌ.

عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُهْلِكَ
أَصْحَابَ الْفَيْلِ بَعَثَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَنْشَيْتَ مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ
الْخَطَاطِيفِ، كُلُّ طَيْرٍ مِنْهَا يَحْمِلُ ثَلَاثَةَ أَحْجَارٍ مَجْرَعَةٍ:
حَجْرَيْنِ فِي رِجْلَيْهِ وَحَجْرًا فِي مَنْقَارِهِ، قَالَ: فَجَاءَتْ حَتَّى
صَفَّتْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، ثُمَّ صَاحَتْ وَأَلْقَتْ مَا فِي أَرْجُلِهَا
وَمَنَاقِيرِهَا، فَمَا يَقَعُ حَجْرٌ عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ إِلَّا خَرَجَ مِنْ
دُبُرِهِ، وَلَا يَقَعُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ إِلَّا خَرَجَ مِنَ الْجَانِبِ
الْآخَرِ، وَبَعَثَ اللَّهُ رِيحًا شَدِيدَةً فَضْرَبَتْ الْجِجَارَةَ فَزَادَتْهَا
شِدَّةً فَأَهْلِكُوا جَمِيعًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَلَّهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ
جُبَيْرٍ: يَعْني الثَّنِيَّةَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ هَبْرًا. وَفِي رِوَايَةٍ
عَنْ سَعِيدٍ: وَرَقٌ الْجَنْطِطَةُ ⑥. وَعَنْهُ أَيْضًا: الْعَصْفُ: الثَّنِيَّةُ،
وَالْمَأْكُولُ: الْقِصِيلُ يُجَزُّ لِلدَّوَابِّ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ
الْبُضْرِيُّ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْعَصْفُ: الْقِشْرَةُ الَّتِي عَلَى
الْحَبَّةِ كَالْعُلَافِ عَلَى الْجَنْطِطَةِ ⑦.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْعَصْفُ: وَرَقُ الرَّزْعِ وَوَرَقُ الْبَقْلِ إِذَا
أَكَلْتَهُ الْبَهَائِمُ فَرَأَيْتَهُ فَصَارَ [دَرِينًا] ⑧. وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ
شَبَحَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ وَرَدَّهُمْ بِكَيْدِهِمْ وَعَظِيمِهِمْ،
لَمْ يَتَأَلَوْا خَيْرًا، وَأَهْلَكَ عَامَتَهُمْ وَلَمْ يَزِجْ مِنْهُمْ مُخَيَّرًا إِلَّا
وَهُوَ جَرِيحٌ، كَمَا جَرَى لِمَلِكِهِمْ أِبْرَهَةَ، فَإِنَّهُ انْصَدَعَ صَدْرُهُ
عَنْ قَلْبِهِ حِينَ وَصَلَ إِلَى بَلَدِهِ صَنْعَاءَ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا جَرَى
لَهُمْ ثُمَّ مَاتَ، فَملَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ يَكْسُومُ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ أَخُوهُ

وَالْحَدِيثُ مِنْ أَفْرَادِ الْبُحَارِيِّ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: «إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، أَلَا فَلْيُبْلَغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»^(١).
أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفِيلِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ لِيْلَافِ قُرَيْشٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿لِيْلَافِ قُرَيْشٍ﴾ ١ ﴿لِإِنْفِهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ٢
﴿لِيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ٣ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ
وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ٤

[النحل: ١١٢، ١١٣].

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ لِيْلَافِ قُرَيْشٍ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا الْمَاعُونَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ﴾ ١ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ﴾ ٢ ﴿وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ ٣ ﴿فَوَيْلٌ
لِلْمُصَلِّينَ﴾ ٤ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ٥ ﴿الَّذِينَ هُمْ
بِرَاءَتِهِمْ﴾ ٦ ﴿وَيَسْتَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ٧

[أَوْصَافُ مُنْكَرِي الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَرَأَيْتَ يَا مُحَمَّدُ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ وَهُوَ
الْمَعَادُ وَالْجَزَاءُ وَالنَّوَابِ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾
أَيُّ هُوَ الَّذِي يَقْفُرُ الْيَتِيمَ وَيُظْلِمُهُ حَقَّهُ، وَلَا يَطْعَمُهُ وَلَا
يُحْسِنُ إِلَيْهِ ﴿وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ٧ وَلَا تُحْضِرُونَ عَلَى طَعَامِ
الْيَتِيمِ ﴿[الفجر: ١٧، ١٨] يُعْنِي الْفَقِيرَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ
يَقُومُ بِأُودِهِ وَكِفَايَتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ٤
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْرُهُ: يَعْنِي
الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي الْعَلَانِيَةِ وَلَا يُصَلُّونَ فِي

هَذِهِ السُّورَةِ مَفْضُولَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي الْمُضْحَفِ
الْإِمَامِ، كَتَبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرًا: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)،
وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا قَبْلَهَا كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ
إِسْحَاقَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، لِأَنَّ الْمَعْنَى
عِنْدَهُمَا حَبَسْنَا عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهُ ﴿لِيْلَافِ
قُرَيْشٍ﴾ أَيُّ لِيْلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي بَلَدِهِمْ أَمِينٍ،
وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَأْتُونَهُ مِنَ الرَّحْلَةِ فِي الشِّتَاءِ
إِلَى الْيَمَنِ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ فِي الْمَتَاجِرِ وَعَبْرٍ
ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى بَلَدِهِمْ أَمِينٍ فِي أَشْفَارِهِمْ،
لِيَعْتَظِمَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ لِكُرْبَتِهِمْ سُكَّانَ حَرَمِ اللَّهِ، فَمَنْ عَرَفَهُمْ
اخْتَرَمَهُمْ، بَلْ مَنْ [ضَوَى] إِلَيْهِمْ وَسَارَ مَعَهُمْ أَمِنَ بِهِمْ،
وَهَذَا حَالُهُمْ فِي أَشْفَارِهِمْ وَرِحْلَتِهِمْ فِي شِتَائِهِمْ وَصَيْفِهِمْ،
وَأَمَّا فِي حَالِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْبَلَدِ، فَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً مَاءً وَيُخَفِّطُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾
[العنكبوت: ٦٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيْلَافِ قُرَيْشٍ﴾ ١
لِيْلَافِهِمْ ﴿ بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ وَمُفَسَّرٌ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
﴿لِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الصَّوَابُ
أَنَّ اللَّامَ لَامُ التَّعَجُّبِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: اعْجَبُوا لِيْلَافِ قُرَيْشٍ
وَيَعْمَتِي عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، قَالَ: وَذَلِكَ لِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ
عَلَى أُنْهُمَا سُورَتَانِ مُفْصَلَتَانِ مُسْتَقْلِلَتَانِ.

ثُمَّ أُرْسِدَهُمْ إِلَى شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ فَقَالَ:
﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أَيُّ فَلْيُوحِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ كَمَا
جَعَلَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا وَبَيْتًا مُحَرَّمًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا

(١) فتح الباري: ١/٢٤٨ ومسلم: ٢/٩٨٨

السُّرِّ^(١). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَقَدِ التَّرُمُوا بِهَا، ثُمَّ هُمْ عَنْهَا سَاهُونَ، وَإِنَّمَا عَنْ فِعْلِهَا بِالْكَلْبِيَّةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَإِنَّمَا عَنْ فِعْلِهَا فِي الْوَقْتِ الْمَقْدَرِ لَهَا شَرْعًا، فَيُخْرِجُهَا عَنْ وَقْفِهَا بِالْكَلْبِيَّةِ، كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَأَبُو الضَّحَى^(٢).

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ: أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ^(٣). وَإِنَّمَا عَنْ وَقْفِهَا الْأَوَّلِ فَيُؤَخِّرُونَهَا إِلَى آخِرِهِ دَائِمًا أَوْ غَالِيًا. وَإِنَّمَا عَنْ آذَانِهَا بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ. وَإِنَّمَا عَنْ الْخُشُوعِ فِيهَا وَالتَّذَبُّرِ لِمَعَانِيهَا، فَاللَّفْظُ يَشْمَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَ[لِكُلِّ] مَنْ اتَّصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قِسْطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَمَنْ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّ لَهُ نَصِيبُهُ مِنْهَا، وَكَمُلَ لَهُ النِّقَاطُ الْعَمَلِيُّ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ قَامَ فَتَقَرَّرَ أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»^(٤). فَهَذَا آخِرُ صَلَاةِ الْعَصْرِ الَّتِي هِيَ الْوُسْطَى، كَمَا ثَبَتَ بِهِ النَّصُّ إِلَى آخِرِ وَقْفِهَا، وَهُوَ وَقْتُ كَرَاهَةِ، ثُمَّ قَامَ فِيهَا فَتَقَرَّرَهَا نَقْرَ الْغُرَابِ لَمْ يَطْمِئِنَّ وَلَا خَشَعَ فِيهَا أَيْضًا، وَلِهَذَا قَالَ: لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى الْقِيَامِ إِلَيْهَا مَرَاءةَ النَّاسِ، لَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، فَهُوَ كَمَا إِذَا لَمْ يُصَلِّ بِالْكَلْبِيَّةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرٍو بْنِ مَرَّةٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَذَكَرُوا الرِّيَاءَ، فَقَالَ رَجُلٌ يُكْنَى بِأَبِي يَزِيدَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمِعَ اللَّهُ بِهِ سَمِيعَ خَلْفِهِ، وَحَفَرَهُ وَصَعَّرَهُ»^(٥). وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لِلَّهِ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ، أَنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ رِيَاءً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أَيُّ لَا أَحْسَنُوا عِبَادَةَ رَبِّهِمْ، وَلَا أَحْسَنُوا إِلَى خَلْقِهِ، حَتَّى وَلَا بِإِعَارَةٍ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ وَيُسْتَعَانُ بِهِ، مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِمْ، فَهَوْلَاءِ لِمَنْعِ الزَّكَاةِ وَأَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ أَوْلَى وَأَوْلَى. وَقَالَ الْمُسْعُودِيُّ عَنْ

سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ، عَنْ أَبِي الْعُبَيْدَيْنِ: أَنَّهُ سِئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ عَنِ الْمَاعُونِ فَقَالَ: هُوَ مَا يَتَعَاطَاهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَاسِ وَالْقَدْرِ وَالذَّلْوِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ^(٦).
آخِرُ تَفْسِيرِ السُّورَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَوْثَرِ وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ، وَقِيلَ: مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ﴾ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْمِرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِعٌ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيِيُّ عَنْ أَنَسِ^(٧). وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهَرِنَا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، قُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَقَدْ أَنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةً سَوْرَةً» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ﴾ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْمِرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِعٌ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَتْ بَعْدَكَ»^(٨). وَرَوَاهُ أَحْمَدُ ثَلَاثِيًّا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ فَضِيلٍ، عَنِ الْمُخْتَارِ بْنِ قُلْفُلٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ^(٩).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ خِيَامُ اللَّوْلُؤِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، فَإِذَا مِنْكَ أَدْفَرٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيْلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَنْعَمْتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١٠). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: «أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّوْلُؤِ الْمُجَوَّفِ فَقُلْتُ:

(١) الطبري: ٦٣٢/٢٤ (٢) الطبري: ٦٣١/٢٤ (٣) القرطبي: ٢١٢/٢٠ (٤) فتح الباري: ٣٨٦/٦ ومسلم: ٤٣٤/١ (٥) أحمد: ٢١٢/٢ (٦) الطبري: ٦٣٩/٢٤ (٧) مسلم: ٣٠٠/١ وأبو داود: ١١٠/٥ والنسائي في الكبرى: ٥٣٣/٦ (٨) مسلم: ٣٠٠/١ (٩) أحمد: ١٠٢/٣ (١٠) أحمد: ١٠٣/٣

مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكُوثَرُ^(١). وَهُوَ لَفْظُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكُوثَرُ؟ قَالَ: «هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ أَعْطَانِيهِ رَبِّي، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، فِيهِ طُيُورٌ أَعْنَقَهَا كَأَعْنَاقِ الْجُرُزِ» قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهَا لَتَأَمَّةٌ. قَالَ: «أَكَلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا يَا عُمَرُ»^(٢).

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ فِي الْكُوثَرِ: هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، قَالَ أَبُو بَشِيرٍ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: فَإِنَّ نَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: التَّهْرُ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ^(٣). وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: الْكُوثَرُ: الْخَيْرُ الْكَثِيرُ^(٤). وَهَذَا التَّفْسِيرُ يَعْمُ النَّهْرَ وَغَيْرَهُ، لِأَنَّ الْكُوثَرَ مِنَ الْكَثْرَةِ وَهُوَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّهْرُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكُوثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَالْمَاءُ يَجْرِي عَلَى اللَّوْلُؤِ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»^(٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أَيُّ كَمَا أَعْطَيْنَاكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّهْرُ الَّذِي تَقَدَّمَ صِفَتُهُ، فَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ صَلَاتَكَ الْمَكْتُوبَةَ وَالنَّافِلَةَ وَنَحْرَكَ، فَاعْبُدْهُ وَخَدِّه لَا شَرِيكَ لَهُ، وَانْحَرْ عَلَى اسْمِهِ وَخَدِّه لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أَمُرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ: يَعْني بِذَلِكَ نَحْرَ الْبَدَنِ وَنَحْوَهَا﴾^(٧). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ وَالصَّحَّاحُ وَالرَّبِيعُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالْحَكَمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُ أَبِي خَالِدٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ^(٨). وَهَذَا بِخِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ السُّجُودِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَالذَّبْحِ عَلَى غَيْرِ اسْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾... الآية [الأنعام: ١٢١].

[عَدُوُّ النَّبِيِّ هُوَ الْأَبْتَرُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ سَائِنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أَيُّ إِنَّ

مُبْغِضَكَ يَا مُحَمَّدُ وَمُبْغِضَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ وَالثَّوْرِ الْمُمِينِ، هُوَ الْأَبْتَرُ الْأَقْلُ الْأَذَلُّ الْمُنْقَطِعُ ذِكْرُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ^(٩). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ قَالَ: كَانَ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ إِذَا ذُكِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَبْتَرٌ لَا عَقَبَ لَهُ، فَإِذَا هَلَكَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ^(١٠). وَقَالَ سِمْرُ بْنُ عَطِيَّةَ: نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ^(١١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَعِكْرِمَةُ: نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَجَمَاعَةٍ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ^(١٢). وَرَوَى الْبِرَّازُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: أَنْتَ سَيِّدُهُمْ، أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الصَّبْرِ الْمُتَّبِعِ مِنْ قَوْمِهِ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَجِيجِ وَأَهْلُ السَّدَانَةِ وَأَهْلُ السَّقَايَةِ! فَقَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنِّي، قَالَ: فَتَزَلَّتْ: ﴿إِنَّكَ سَائِنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ هَكَذَا رَوَاهُ الْبِرَّازُ وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ^(١٣). وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي لَهَبٍ، وَذَلِكَ حِينَ مَاتَ ابْنُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَهَبَ أَبُو لَهَبٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: بَيَّرَ مُحَمَّدٌ اللَّيْلَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿إِنَّكَ سَائِنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانُوا إِذَا مَاتَ ذُكُورُ الرَّجُلِ قَالُوا: بَيَّرَ، فَلَمَّا مَاتَ أَبْنَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: بَيَّرَ مُحَمَّدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّكَ سَائِنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فَتَوَهَّمُوا لِجَهْلِهِمْ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ بَنُوهُ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ، وَحَاشَا وَكَأَلَا، بَلْ قَدْ أَبْقَى اللَّهُ ذِكْرَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَأَوْجَبَ شَرْعُهُ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ، مُسْتَمِرًّا عَلَى دَوَامِ الْأَبَادِ، إِلَى يَوْمِ الْمَحْشَرِ وَالْمَعَادِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ النَّتَاجِ. أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْكُوثَرِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(١) البخاري: ٤٩٤٦ (٢) أحمد: ٢٢٠/٣ (٣) فتح الباري: ٦٠٣/٨ (٤) الطبري: ٦٤٧/٢٤ (٥) أحمد: ٦٧/٢ (٦) تحفة الأحوذني: ٢٩٤/٩ وابن ماجه: ١٤٥٠/٢ (٧) الطبري: ٦٥٠ (٨) الطبري: ٦٥٣/٢٤ (٩) الطبري: ٦٥٦/٢٤، ٦٥٧ (١٠) ابن هشام: ٧/٢ ابن إسحاق عن (١١) الطبري: ٦٥٧/٢٤ (١٢) الطبري: ٦٥٧/٢٤ (١٣) كشف الأستار: ٨٣/٣

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون وهي مكية

[قراءة هذه السورة في النوافل]

تَبَّتْ فِي صَاحِحِ مُسْلِمٍ عَنِ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ بِهَذِهِ السُّورَةِ وَبِ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فِي رَكْعَتِي الطَّوَافِ (١). وَفِي صَاحِحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ بِهِمَا فِي رَكْعَتِي الْفَجْرِ (٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ، قَبْلَ الْفَجْرِ، وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ بَضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً - أَوْ بَضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً - «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» وَ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (٣).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: رَمَتْ النَّبِيَّ ﷺ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً - أَوْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً - يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ بِ «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» وَ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (٤). وَرَوَى أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: رَمَتْ النَّبِيَّ ﷺ شَهْرًا، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ بِ «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» وَ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (٥). وَكَذَا رَوَاهُ الثُّرَيْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ، وَقَالَ الثُّرَيْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ (٦). وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهَا تُعَدَّلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ تُعَدَّلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)»

[البراءة من الشرك]

هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةُ الْبِرَاءَةِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ، وَهِيَ أَمْرَةٌ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» يَشْمَلُ كُلَّ كَافِرٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَلَكِنْ الْمُوَاجِهُونَ بِهَذَا الْخُطَابِ هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ أَوْلِيَانِهِمْ سَنَةً، وَيَعْبُدُونَ مَعْبُودَةَ سَنَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ فِيهَا أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دِينِهِمْ بِالْكَلِمَةِ فَقَالَ: «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» يَعْنِي مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» وَهُوَ اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَ«مَا» هَهُنَا بِمَعْنَى

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

٦٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)»

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)»

سُورَةُ الْمُنَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)»

«مَنْ» ثُمَّ قَالَ: «وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ (١) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٢) أَيْ وَلَا أَعْبُدُ عِبَادَتَكُمْ أَيْ لَا أَسْلُكُهَا وَلَا أَقْتَدِي بِهَا، وَإِنَّمَا أَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُجِبُهُ وَيَرْضَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» أَيْ لَا تَقْتَدُونَ بِأَوْامِرِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ فِي عِبَادَتِهِ، بَلْ قَدِ اخْتَرَعْتُمْ شَيْئًا مِنْ بَلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ، كَمَا قَالَ: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ» [النجم: ٢٣].

فَتَبَّرًا مِنْهُمْ فِي جَمِيعِ مَا هُمْ فِيهِ، فَإِنَّ الْعَابِدَ لَا يَدُلُّهُ مِنْ مَعْبُودٍ يَعْْبُدُهُ وَعِبَادَةٌ يَسْلُكُهَا إِلَيْهِ، فَالرَّسُولُ ﷺ وَأَتْبَاعُهُ يَعْْبُدُونَ اللَّهَ بِمَا شَرَعَهُ، وَلِهَذَا كَانَ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» أَيْ لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا طَرِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَالْمُشْرِكُونَ يَعْْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ

(١) مسلم: ٨٨٨/٢ في حديث طويل (٢) مسلم: ٥٠٢/١ (٣) أحمد: ٥٨٠٢٤/٢ (٤) أحمد: ٩٩/٢ (٥) أحمد: ٩٤/٢ (٦) تحفة الأحوذى: ٤٧٠/٢ وابن ماجه: ٣٦٣/١ والنسائي:

أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ^(٣). تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي» فَإِنَّهُ مَقْبُوضٌ فِي تِلْكَ السَّنَةِ^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»^(٥): يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ. وَأَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا التِّرْمِذِيُّ^(٦).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» وَقَالَ: «إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتَهَا أَنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا، فَقَدْ رَأَيْتَهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٧) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا^(٨) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا»^(٩). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١٠).

وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا فَتْحُ مَكَّةَ قَوْلًا وَاحِدًا، فَإِنَّ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ كَانَتْ تَتَلَوُّ بِإِسْلَامِهَا فَتَحَ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ ظَهَرَ عَلَى قَوْمِهِ فَهُوَ نَبِيٌّ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَلَمْ تَمُضْ سِتَانٌ حَتَّى اسْتَوْسَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِيمَانًا، وَلَمْ يَبْقَ فِي سَائِرِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ إِلَّا مُظْهَرٌ لِلْإِسْلَامِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ الْأَحْيَاءُ تَتَلَوُّ بِإِسْلَامِهَا فَتَحَ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: دَعُوهُ وَقَوْمُهُ، فَإِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ^(١١) الْحَدِيثُ. وَقَدْ حَرَّرْنَا غُرُوبَ الْفَتْحِ فِي كِتَابِنَا «السِّيَرَةَ» فَمَنْ أَرَادَهُ فَلْيُرَاجِعْهُ هُنَاكَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عَمَّارٍ، حَدَّثَنِي جَارٌ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَدِمْتُ مِنْ سَفَرٍ فَجَاءَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ،

عِبَادَةٌ لَمْ يَأْذُنْ بِهَا اللَّهُ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَدِينُ اللَّهِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ دِينُكُمْ وَدِينُ اللَّهِ﴾ وَكَأَنَّكَ كَذَّبَتْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ [يونس: ٤١] وَقَالَ: ﴿لَمَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: يُقَالُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ أَلْكَفَرُ ﴿وَلِي دِينٌ﴾ الْإِسْلَامُ. وَلَمْ يَقُلْ: دِينِي، لِأَنَّ الْآيَاتِ بِالنُّونِ فَحَدَفَ الْبَاءَ، كَمَا قَالَ: ﴿فَهُوَ يَهْدِينُ﴾ وَ﴿يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨، ٧٩]^(١٢).

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ نَصْرِ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ النَّصْرِ]

فَدَقَّدَمَ أَنَّهَا تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ. وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا ابْنَ عُتْبَةَ، أَتَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قَالَ: صَدَقْتَ^(١٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا^(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا^(٣)

[هَذِهِ السُّورَةُ إِخْبَارٌ عَنْ تَمَامِ أَجْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عَمْرٌ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: لِمَ يَدْخُلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءُ مِثْلِهِ؟ فَقَالَ عَمْرٌ: إِنَّهُ يَمُنُّ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَادْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرْنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكذلك تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: مَا تَقُولُ؟ فَقُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَغْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَلَيْكَ عَلَامَةٌ أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا﴾ فَقَالَ عَمْرٌ بْنُ الْخَطَّابِ: لَا

(١) فتح الباري: ٦٠٤/٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٥٢٥/٦

(٣) فتح الباري: ٦٠٦/٨ (٤) أحمد: ٢١٧/١ (٥) فتح

الباري: ٦٠٥/٨ (٦) ومسلم: ٣٥٠/١ وأبو داود: ٥٤٦/١

والنسائي في الكبرى: ٥٢٥/٦ وابن ماجه: ٢٨٧/١ (٧) أحمد:

٣٥/٦ (٨) مسلم: ٣٥١/١ (٩) فتح الباري: ٦١٦/٧

أَحْمَدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا آتَيْنَاهُ مِنْهُ وَمَا كَسَبَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْرُهُ: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يَعْنِي: وَلَدُهُ^(٥). وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ مِثْلَهُ^(٦). وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الْإِيمَانِ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِي حَقًّا، فَإِنِّي أَفْتَدِي نَفْسِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ بِمَالِي وَوَلَدِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿مَا آتَيْنَاهُ مِنْهُ وَمَا كَسَبَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَصِلَنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أَيُّ ذَاتَ لَهَبٍ وَشَرِّهِ، وَإِحْرَاقٍ شَدِيدٍ.

[ذَكَرَ مَصِيرَ أُمِّ جَبِيلٍ إِمْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ]

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ وَكَانَتْ زَوْجَتَهُ مِنْ سَادَاتِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ وَهِيَ أُمُّ جَبِيلٍ، وَاسْمُهَا أَرْوَى بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَتْ عَوْنًا لَزَوْجِهَا عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ وَعِنَادِهِ. فَلِهَذَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَوْنًا عَلَيْهِ فِي عَذَابِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ يَعْنِي تَحْمِيلَ الْحَطَبِ فَتَلْقِي عَلَى زَوْجِهَا لِيُزَادَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ، وَهِيَ مُهَيَّأَةٌ لِذَلِكَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعُرْوَةُ: مِنْ مَّسَدِ النَّارِ^(٧).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطِيَّةُ الْجَدَلِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: كَانَتْ تَصْعُقُ الشُّوكَ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْمَسَدُ: اللَّيْفُ، وَالْمَسَدُ أَيضًا: حَبْلٌ مِنْ لَيْفٍ أَوْ خَوْصٍ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ أَوْ أَوْبَارِهَا، وَمَسَدَتْ الْحَبْلُ أَمْسَدُهُ مَسَدًا: إِذَا أَجْدَتْ فَتَلَّهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾ أَيُّ طَوْقٍ مِنْ حَدِيدٍ^(٨). أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَرَبَ يُسْمُونَ الْبَكْرَةَ مَسَدًا؟

[قِصَّةٌ مِنْ إِبْدَاءِ امْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي وَأَبُو زُرْعَةَ قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْحَمْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ ابْنُ كَثِيرٍ عَنِ [ابْنِ تَدْرَسَ] عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمَّ جَبِيلٍ

(١) أحمد: ٣/٣٤٣ (٢) فتح الباري: ٨/٦٠٩ (٣) أحمد: ٤/٣٤١ (٤) أحمد: ٤/٣٤١ (٥) الطبري: ٢٤/٦٧٧ (٦) الطبري: ٢٤/٦٧٧ (٧) الدر المشور: ٨/٦٦٧ (٨) الطبري: ٢٤/٦٨١

فَجَعَلَتْ أُحَدِّثُهُ عَنِ افْتِرَاقِ النَّاسِ وَمَا أَحَدْتُوا، فَجَعَلَ جَابِرٌ يَبْكِي، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا»^(١). آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّصْرِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ تَبَّتْ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ١ مَا آتَيْنَاهُ مِنْهُ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصِلَنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ٥

[سَبَبُ نَزُولِ السُّورَةِ، وَعِنَادُ أَبِي لَهَبٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ] رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْبَطْحَاءِ فَصَعِدَ الْجَبَلَ فَنَادَى: «يَا صَبَاحَاهُ» فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ، أَوْ مُمَسِّبُكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَأِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ تَبَّأ لَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾... إِلَى آخِرِهَا^(٢). وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَامَ يَنْفُضُ يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: تَبَّأ لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ الْأَوَّلُ دَعَاءٌ عَلَيْهِ وَالثَّانِي خَبْرٌ عَنْهُ، فَأَبُو لَهَبٍ هَذَا هُوَ أَحَدُ أَعْمَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعَزَى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو [عُتْبَةَ]، وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَبَا لَهَبٍ لِإِسْرَاقِ وَجْهِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْأَذْيَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْبَغْضَةِ لَهُ، وَالْأَزْدِيَاءِ بِهِ، وَالتَّنْقِصُ لَهُ وَوَلَدِيهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: رَبِيعَةُ بْنُ عَبَّادٍ مِنْ بَنِي الدَّبَلِ، وَكَانَ جَاهِلِيًّا فَاسْتَلَمَ، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا» وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الْوَجْهِ أَحْوَلُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِيءٌ كَاذِبٌ، يَسْمَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَأَلَتْ عَنْهُ فَقَالُوا: هَذَا عَمَهُ أَبُو لَهَبٍ^(٣).

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ سُرَيْجِ بْنِ ابْنِ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ أَبِيهِ... فَذَكَرَهُ، قَالَ أَبُو الزِّنَادِ: قُلْتُ لِرَبِيعَةَ: كُنْتُ يَوْمَئِذٍ صَغِيرًا؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، إِنِّي يَوْمَئِذٍ لِأَعْقَلُ، أَنِّي أَزْفَرُ الْقِرْبَةَ^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ

سُورَةُ الْاِخْلَاصِ ٦٠٤

سُورَةُ الْاِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④

سُورَةُ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥

بِنْتُ حَرْبٍ، وَلَهَا وَلَوْلَةٌ وَفِي يَدِهَا فَهْرٌ، وَهِيَ تَقُولُ:
 مُدَمَّمًا آبِينَا وَدِينَهُ قَلِينَا وَأَمْرَهُ عَصِينَا
 وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ أَقْبَلْتُ وَأَنَا أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَرَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي» وَقَرَأَ قُرْآنًا اغْتَضَمَ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الاسراء: ٤٥] فَأَقْبَلْتُ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أَخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، فَقَالَ: لَا، وَرَبُّ هَذَا النَّبِيِّ مَا هَجَاكَ، فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنَّ ابْنَةَ سَيِّدِهَا. قَالَ: وَقَالَ الْوَلِيدُ فِي حَدِيثِهِ أَوْ غَيْرُهُ: فَعَثَرْتُ أُمَّ جَبِيلٍ فِي مِرْطَها وَهِيَ تَطُوفُ بِالنَّبِيِّ فَقَالَتْ: نِعَسَ مُدَمَّمٌ، فَقَالَتْ أُمُّ حَكِيمٍ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي لَحَصَانٌ فَمَا أُكَلِّمُ، وَتَقَافُ فَمَا أَعْلَمُ، وَكِلْتَانَا مِنْ بَنِي الْعَمِّ، وَقُرَيْشٌ بَعْدُ أَعْلَمُ^(١).
 آخِرُ تَفْسِيرِ السُّورَةِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْاِخْلَاصِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

(ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِهَا وَفَضْلِهَا)
 رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَبَ لَنَا رَبِّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾ وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ، زَادَ ابْنُ جَرِيرٍ وَالتِّرْمِذِيُّ قَالَ: ﴿الصَّمَدُ﴾ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إِلَّا سَمِئُوتٌ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلَّا سَبُورُثٌ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمُوتُ وَلَا يورُثُ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْبَةٌ وَلَا عَدْلٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ^(٢). وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالتِّرْمِذِيُّ فَذَكَرَهُ مُرْسَلًا، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَهَذَا أَصَحُّ^(٣).

(حَدِيثُ آخَرَ فِي فَضْلِهَا) رَوَى البُخَارِيُّ عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ - وَكَانَتْ فِي جَجْرِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَحْتَمِبُ بِهِ ﴿قُلْ هُوَ

اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهَا» هَكَذَا رَوَاهُ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ^(٥). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ أَيْضًا^(٦).

(حَدِيثُ آخَرَ) رَوَى البُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ، عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُؤْمِنُهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتِحَ سُورَةٌ يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي

(١) فتح الباري: ٦١٠/٨ مسند الحميدي (٣٢٥) وقال حسين سليم أسد الداراني: "في أصولنا وفي مصادر التخرج أيضا "ابن تدرس" والصواب أن الراوي عن أسماء هو تدرس جد أبي الزبير وانظر ترجمة كل من الوليد بن كثير وأسماء في "تهذيب الكمال" وقال: تدرس جد أبي الزبير ما رأيت له ترجمة. انظر تعليقه على المسند للحميدي ١/٣٢٣، ٣٢٤. (٢) أحمد: ١٣٣/٥ (٣) تحفة الأحوذى: ٩/٢٩٩، والطبري: ٢٤/٦٩١ (٤) تحفة الأحوذى: ٩/٣٠١ (٥) فتح الباري: ١٣/٣٦٠ (٦) مسلم: ١/٥٥٧ والنسائي في الكبرى: ٦/١٧٧

داودَ وَالتَّرْمِذِيَّ وَالتَّنَائِيَّ وَقَالَ التَّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(٩). وَقَدْ رَوَاهُ التَّنَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ أُخْرَى، وَلَفْظُهُ «تَكْفِكَ كُلِّ شَيْءٍ»^(١٠).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) فِي الدُّعَاءِ بِمَا تَصَمَّنْتَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ. رَوَى التَّنَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَجُلٌ يُصَلِّي يَدْعُو يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ سَأَلَهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ»^(١١). وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَيْهَقِيُّ أَصْحَابِ السُّنَنِ^(١٢). وَقَالَ التَّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(حَدِيثٌ آخَرٌ فِي الْإِسْتِشْفَاءِ بِهِنَّ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَنِيهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، وَقَرَأَ فِيهِمَا: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وَ«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» وَ«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» ثُمَّ يَمْسُحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ. يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.^(١٣) وَهَكَذَا رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ^(١٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدْ ③ وَكَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④ ﴿

قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِهَا، وَقَالَ عِكْرَمَةُ: لَمَّا قَالَتِ الْيَهُودُ: نَحْنُ نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، وَقَالَتِ الْمَجُوسُ: نَحْنُ نَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَالَتِ الْمُشْرِكُونَ: نَحْنُ نَعْبُدُ الْأَوْثَانَ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» بِغَيْبِ هُوَ

الصَّلَاةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ، فَاتَّحَى بِ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، ثُمَّ كَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَضَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَحُ بِهِذِهِ السُّورَةَ ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْرِكُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِالْأُخْرَى، فِيمَا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا، وَإِمَّا تَدْعَاهَا وَتَقْرَأُ بِأُخْرَى، فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أُؤَمِّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ. وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وَكَرِهُوا أَنْ يُؤَمِّمَهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَنَا هُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: «يَا فَلَانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟» قَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، قَالَ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ». هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيْقًا مَجْزُومًا بِهِ^(١).

(حَدِيثٌ فِي كَوْنِهَا تَعْدِيلٌ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَفَاهَتًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِيلٌ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ»^(٢). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّنَائِيُّ^(٣).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَيَعِجْزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟» فَسَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيْنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ»^(٤). تَفَرَّدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ.

(حَدِيثٌ آخَرٌ فِي كَوْنِ قِرَاءَتِهَا تَوْجِبُ الْجَنَّةَ) رَوَى الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: أَقْبَلْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَجَبَتْ - قُلْتُ: وَمَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: - الْجَنَّةُ»^(٥). وَرَوَاهُ التَّرْمِذِيُّ وَالتَّنَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، وَقَالَ التَّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ^(٦). وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»^(٧).

(حَدِيثٌ فِي تَكَرُّارِ قِرَاءَتِهَا) رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُبَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَصَابَنَا عَطَشٌ وَظَلَمَةٌ فَانْتَهَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِنَا، فَخَرَجَ فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: «قُلْ» فَسَكَتُ. قَالَ: «قُلْ» قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وَالْمُعَوَّذَتَيْنِ حِينَ تُنْسَى وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثًا، تَكْفِكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ»^(٨). وَرَوَاهُ أَبُو

(١) فتح الباري: ٢/٢٩٨ (٢) فتح الباري: ٨/٦٧٦ (٣) أبو داود: ٢/١٥٢ والنسائي في الكبرى: ٥/١٦ (٤) فتح الباري: ٨/٦٧٦ (٥) الموطأ: ١/٢٠٨ (٦) تحفة الأحوذى: ٨/٢٠٩ والنسائي في الكبرى: ٦/١٧٧ (٧) فتح الباري: ٢/٢٩٨ (٨) أحمد: ٥/٣١٢ (٩) أبو داود: ٥/٣٢٠ وتحفة الأحوذى: ١٠/٢٨ والنسائي: ٨/٢٥٠ (١٠) النسائي: ٨/٢٥١ (١١) النسائي في الكبرى: تحفة الأشراف: ٢/٩٠ (١٢) أبو داود: ١٤٩٣ والترمذي: ٣٤٧٥ وابن ماجه: ٣٨٥٧ (١٣) فتح الباري: ٨/٦٧٩ (١٤) أبو داود: ٥/٣٠٣ وتحفة الأحوذى: ٩/٣٤٧ والنسائي في الكبرى: ٦/١٩٧ وابن ماجه: ٢/١٢٧٥

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْوًا أَحَدٌ»^(٤).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَتِي الْمَعُودَتَيْنِ وَهُمَا مَدَنِيَّتَانِ

[مَوْقِفُ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنَ الْمَعُودَتَيْنِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زُرَّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ابْنِ كَعْبٍ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ لَا يَكْتُبُ الْمَعُودَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَخْبَرَنِي: «أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فَقُلْتُمَا: قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فَقُلْتُمَا. فَتَحْنُ نَقُولُ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ»^(٥).

[فَضْلُ الْمَعُودَتَيْنِ]

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»^(٦) وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٧).

(طَرِيقُ أُخْرَى) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَقُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النَّقَابِ إِذْ قَالَ لِي: «يَا عُقْبَةُ أَلَا تَرُكِبُ؟» قَالَ: فَأَشْفَقْتُ أَنْ تَكُونَ مَعْصِيَةً، قَالَ: فَتَزَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَكِبْتُ هَيْئَةً ثُمَّ رَكِبَ ثُمَّ قَالَ: «يَا عُقْبَةُ، أَلَا أَعَلَمْتُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَقْرَأَنِي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثُمَّ أَقْرَأَنِي الصَّلَاةَ فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ بِهِمَا، ثُمَّ مَرَّ بِي فَقَالَ:

الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَرِيرَ، وَلَا نَدِيدَ وَلَا شَبِيهَ وَلَا عَدِيلَ، وَلَا يُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَحَدٍ فِي الْإِنْبَاءِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الَّذِي يَصْمَدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي سُؤْدُدِهِ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي جَلَمِهِ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي حِكْمَتِهِ. وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَتَّبِعِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ^(١). وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ: ﴿الصَّمَدُ﴾ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ^(٢).

[اللَّهُ مُنَزَّهُ عَنِ الْوَالِدِ وَالْوَالِدَةِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْكُفْوِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بُولَدٌ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ أَي لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ﴾ يَعْنِي لَا صَاحِبَةٌ لَهُ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّهُ يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١] أَي هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نَظِيرٌ يُسَامِيهِ، أَوْ قَرِيبٌ يُدَانِيهِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا^(٣) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَتَجِرُّ لِجِبَالٍ هَذَا^(٤) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا^(٥) وَمَا يَبْغَى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا^(٦) إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا^(٧) لَقَدْ أَحْضَرْتُمْ وَعَدْتُمْ عَدًّا^(٨) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْنَا^(٩) [مریم: ٨٨-٩٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ لَا يَسْتَفِيئُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ^(١٠) [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾ وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِتْمَانَهُمْ لِمُحْضَرُونَ^(١١) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ^(١٢) [الصافات: ١٥٨، ٥٩] وَفِي الصَّحِيحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ، يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»^(١٣). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ

(١) الطبري: ٦٩٢/٢٤ (٢) الطبري: ٦٩٢/٢٤ (٣) فتح الباري: ٣٧٢/١٣ (٤) فتح الباري: ٦١١/٨، ٦١٢ (٥) أحمد: ١٢٩/٥ (٦) مسلم: ٥٥٨/١ (٧) أحمد: ١٤٤/٤ و تحفة الأحوذى: ٣٠٣/٩ والنسائي: ٢٥٤/٨

«كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عَقِيْبُ، أَفَرَأَى بِهَمَّا كَلِمًا يَمُنْتُ وَكَلِمًا قُمْتُ»^(١). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ^(٢).

(طَرِيقُ أُخْرَى) رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَعَوَّدُوا بِمِثْلِ هَذَيْنِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»^(٣).

(طَرِيقُ أُخْرَى) رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: كُنْتُ أَشْبِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عُقْبَةُ قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ؟ فَسَكَتَ عَنِّي ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾» فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» فَقَرَأْتُهَا ثُمَّ أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِذٌ بِمِثْلِهَا»^(٤).

(حَدِيثٌ أُخْرَى) رَوَى النَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ عَبَّاسِ أَلَا أَدُلُّكَ - أَوْ أَلَا أُخْبِرُكَ - بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّدُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾» - وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هَاتَانِ السُّورَتَانِ»^(٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَيَنْثُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَيْهِ، رَجَاءَ بَرَكَتِهَا^(٦). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ^(٧).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّدُ مِنْ أَعْيُنِ الْجَانِّ وَأَعْيُنِ الْإِنْسَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَاتَانِ أَخَذَ بِهَمَّا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ الْمُنْتَنِتِ فِي الْعَقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: «الْفَلَقُ»: الصُّبْحُ^(٩). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «الْفَلَقُ»: الصُّبْحُ^(١٠). وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، وَابْنِ زَيْدٍ، وَمَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ مِثْلُ

هَذَا^(١١). قَالَ الْقُرْظِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ: وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾^(١٢) [الأنعام: ٩٦]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أَي مِنْ شَرِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَقَالَ ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: جَهَنَّمُ وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ: مِمَّا خَلَقَ. ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: (غَاسِقُ اللَّيْلِ إِذَا وَقَبَ) غُرُوبُ الشَّمْسِ. حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ^(١٣). وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْهُ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيُّ، وَالضَّحَّاكُ وَخُصَيْفٌ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: إِنَّهُ اللَّيْلُ إِذَا أَقْبَلَ بِظُلَامِهِ^(١٤). وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ. وَقَالَ أَبُو الْمُهَزَّمِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الْكَوْكَبُ^(١٥). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَتِ الْعَرَبُ تَقُولُ: الْغَاسِقُ سَفُوطُ الثُّرَيَّا، وَكَانَتِ الْأَسْقَامُ وَالطَّوَاعِينُ تَكْتُرُ عِنْدَ وَقُوعِهَا، وَتَزْتَفِعُ عِنْدَ طُلُوعِهَا^(١٦).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الْقَمَرُ. (قُلْتُ) وَعُمْدَةٌ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَأَرَانِي الْقَمَرَ حِينَ طَلَعَ وَقَالَ: «تَعَوِّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ»^(١٧). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابَيْ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا^(١٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ شَرِّ الْفَقْدَانِ فِي الْعَقَدِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: يَغْنِي السُّوَاحِرَ^(١٩). قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا رَقِينَ وَنَفَنَ فِي الْعَقَدِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ أَنَّ جَبْرِيلَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِشْتَكَيْتَ يَا مُحَمَّدُ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَزْيِكَ مِنْ

(١) أحمد: ١٤٤/٤ (٢) أبو داود: ١٥٢/٢ والنسائي: ٨/

٢٥٢، ٢٥٣ (٣) الكنى للدولابي: ١٠٦/١ (٤) النسائي: ٨/

٢٥٣ (٥) النسائي: ٢٥١/٨ (٦) الموطأ: ٩٤٢/٢ (٧) فتح

الباري: ٦٧٩/٨ ومسلم: ١٧٢٣/٤ وأبو داود: ٢٢٠/٤

والنسائي في الكبرى: ٨٦٧/٤ و٣٦٨ وابن ماجه: ١١٦٦/٢

(٨) تحفة الأحوذى: ٢١٨/٦ والنسائي: ٢٧١/٨ وابن ماجه:

١١٦١/٢ (٩) الطبري: ٧٠٠/٢٤ (١٠) الطبري: ٧٠١/٢٤

(١١) الطبري: ٧٠١، ٧٠٠/٢٤ (١٢) الطبري: ٧٠١/٢٤

(١٣) فتح الباري: ٦١٣/٨ (١٤) الطبري: ٧٤٨/١٢، ٧٤٩

(علمية) (١٥) الطبري: ١٤٩/١٢ (علمية) (١٦) الطبري:

١٤٩/١٢ (علمية). (١٧) أحمد: ٦١/٦ (١٨) الترمذي:

٣٣٦٦ (١٩) الطبري: ٧٥٠/١٢، ٧٥١

كُلُّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ (١).

[بَيَانُ سِحْرِ النَّبِيِّ]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الطَّبِّ مِنْ صَحِيحِهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَجَرَ حَتَّى كَانَ يُرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ - قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، إِذَا كَانَ كَذَا - فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، أَعَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَقْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتَهُ فِيهِ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرَ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرَ: مَا بَالَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ، قَالَ: لَيْدُ بْنُ أَعْصَمٍ - رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ، كَانَ مُنَافِقًا، قَالَ: وَفَيْمَ؟ قَالَ: فِي مُشِطٍ وَمُشَاطَةٍ، قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، تَحْتَ رَاعُوفَةٍ فِي بَثْرِ ذَرْوَانَ قَالَتْ: فَأَتَى الْبَثْرَ حَتَّى اسْتَحْرَجَهُ فَقَالَ: «هَذِهِ الْبَثْرُ الَّتِي أُرِيهَا، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نَفَاعَةُ الْحَيَاءِ، وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ». قَالَ: فَاسْتَحْرَجَ [قَالَتْ] فَقُلْتُ: أَفَلَا تَنْشُرْتِ؟ فَقَالَ: «أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهُ أَنْ أُبَيَّرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا» (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِهِ

النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ سَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوسِّسُ

فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

هَذِهِ ثَلَاثُ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ: الرَّبُّوبِيَّةُ وَالْمُلْكُ وَالْإِلَهِيَّةُ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَاللَّهُ، فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ، مَمْلُوكَةٌ عِبِيدٌ لَهُ، فَأَمَرَ الْمُسْتَعِيدَ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِالْمُتَّصِفِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ الْمُوَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزَيِّنُ لَهُ الْفَوَاحِشَ، وَلَا يَأْلُوهُ جُهْدًا فِي الْخَبَالِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينَةٌ» قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» (٣).

وَبَتَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ فِي قِصَّةِ زِيَارَةِ صَفِيَّةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، وَخُرُوجِهِ مَعَهَا لَيْلًا لِيُرِدَّهَا إِلَى مَنْزِلِهَا، فَلَقِيَهِ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حَمِيٍّ» فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: «إِنَّ

الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَبْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا، أَوْ قَالَ: شَرًّا» (٤).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ قَالَ: الشَّيْطَانُ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَعَقَلَ وَسَوَسَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ حَسَنًا (٥). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ (٦). وَقَالَ الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ: ذَكَرَ لِي أَنَّ الشَّيْطَانَ الْوَسْوَاسَ يَنْفُثُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ عِنْدَ الْحُزْنِ وَعِنْدَ الْفَرَحِ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ حَسَنًا (٧). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قَالَ: هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْمُرُ، فَإِذَا أُطِيعَ حَسَنًا (٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ هَلْ يَخْتَصُّ هَذَا بِبَنِي آدَمَ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ، أَوْ يعمُ بَنِي آدَمَ وَالْجِنِّ؟ فِيهِ قَوْلَانِ: وَيَكُونُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ تَغْلِيظًا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ اسْتَعْمَلَ فِيهِمْ رِجَالٌ مِنَ الْجِنِّ فَلَا يَدْعُ فِي إِطْلَاقِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ (٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هَلْ هُوَ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ثُمَّ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وَهَذَا يَقْوَى الْقَوْلَ الثَّانِي. وَقِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تَفْسِيرٌ لِلَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأَحْدُثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ، لِأَنَّ آخِرَ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ» (١٠). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ (١١).

آخِرُ التَّفْسِيرِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) مسلم: ٢١٨٦ (٢) فتح الباري: ١٠/٢٤٣ (٣) مسلم: ٤/٢١٦٧

(٤) فتح الباري: ٤/٣٢٦ (٥) الطبري: ٢٤/٧٠٩

إسناده ضعيف لأجل شيخ الطبري محمد بن حميد الرازي (٦)

الطبري: ٢٤/٧١٠ (٧) الطبري: ٢٤/٧١٠ (٨) الطبري: ٢٤/٧١٠

(٩) الطبري: ٢٤/٧١١ (١٠) أحمد: ١/٢٣٥ (١١)

أبو داود: ٥/٣٣٦ والنسائي في الكبرى: ٦/١٧١

مراجع التخریج لملخص تفسير ابن كثير

- ١ - الأدب المفرد للبخاري، المكتبة الأثرية، بمبائي، الهند.
- ٢ - أسد الغابة لابن الأثير، الشعب.
- ٣ - أطراف المسند لابن حجر، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة.
- ٤ - الأم للشافعي، الشعب.
- ٥ - الإتقان للسيوطي، الطبعة الثالثة، دار التراث، بالقاهرة.
- ٦ - إرواء الغليل، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٧ - الإصابة لابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ٨ - الاستيعاب لابن عبد البر على أسفل الإصابة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ٩ - البحر الزخار للبخاري، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.
- ١٠ - البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان.
- ١١ - البعث والنشور لابن أبي داود، دار الكتب العلمية بيروت.
- ١٢ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.
- ١٣ - تاريخ الطبري، دار سويدان، بيروت، لبنان.
- ١٤ - التاريخ الكبير للإمام البخاري، بدون ذكر المطبعة.
- ١٥ - تحفة الأحوذى للمحدث عبدالرحمن المباركفوري، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ١٦ - تحفة الأشراف، الدار القيمة، بيوندي، بمبائي، الهند.
- ١٧ - تخریج الإحياء للعراقي، دار العاصمة، الرياض.
- ١٨ - تخریج الكشاف لابن حجر، في آخر الكشاف، وفي بعض الطبقات أسفله.
- ١٩ - ترتيب مسند الإمام الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٢٠ - الترغيب والترهيب للمنزري، مكتبة شباب الأزهر.
- ٢١ - تفسير البغوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٢٢ - تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية مع التكملة.
- ٢٣ - تفسير عبدالرزاق، مكتبة الرشد، الرياض.
- ٢٤ - تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق د/الغامدي - مسودة.
- ٢٥ - تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، الطبعة الأولى، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.
- ٢٦ - التفسير الكبير للرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٢٧ - تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، لعبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، لبنان.
- ٢٨ - تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، لبنان.
- ٢٩ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- ٣٠ - جامع المسانيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- بيروت، لبنان. باكستان.
- ٣١ - جزء حسن بن عرفة، مكتبة دار الأقصى، ٤٧ - سنن الدارمي، نشر السنة، ملتان، الكويت.
- ٣٢ - الجزء المفقود من مصنف ابن أبي شيبة، ٤٨ - سنن سعيد بن منصور، دار الكتب العلمية، دار عالم الكتب، الرياض. بيروت، لبنان.
- ٣٣ - حلية الأولياء للأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. ٤٩ - السنن الكبرى للبيهقي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٣٤ - الدر المنثور للسيوطي، دار الفكر، ٥٠ - السنن الكبرى للنسائي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٣٥ - الدرر اختصار المغازي والسير لابن عبد البر، مؤسسة علوم القرآن، دمشق. ٥١ - سنن النسائي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- ٣٦ - دلائل النبوة للأصبهاني، دار الباز، مكة المكرمة. ٥٢ - سيرة ابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ٣٧ - دلائل النبوة للبيهقي، دار الكتب العلمية، ٥٣ - شرح السنة للبغوي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- ٣٨ - الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، الطبعة الثانية، مكتبة دار التراث، بالقاهرة. ٥٤ - الشريعة للأجري، حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان.
- ٣٩ - الروض الأنف للسيهلي، دار المعرفة، ٥٥ - شعب الإيمان للبيهقي، الدار السلفية، بمبائي، الهند.
- ٤٠ - زاد المعاد لابن القيم، مؤسسة الرسالة، ٥٦ - شمائل الترمذي، دار العلم، جدة. بيروت، لبنان.
- ٤١ - الزهد لهناد بن السري، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت. ٥٧ - صحيح ابن حبان، تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٤٢ - سلسلة الأحاديث الضعيفة للمحدث الألباني، المكتب الإسلامي. بيروت. ٥٨ - صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي.
- ٤٣ - السنة لابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي. ٥٩ - صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- ٤٤ - سنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، دار الحديث، حمص، سورية. ٦٠ - صفة الجنة لأبي نعيم، بيروت، لبنان.
- ٤٥ - سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر. ٦١ - الضعفاء للعقيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٤٦ - سنن الدارقطني، نشر السنة، ملتان، ٦٢ - الطوال للطبراني في آخر الجزء للمعجم الكبير.
- ٦٣ - العظمة لأبي الشيخ، دار العاصمة، الرياض.

- ٦٤ - علل الحديث لعلي بن المديني، بيروت، لبنان.
- ٦٥ - العلل المتناهية لابن الجوزي، إدارة العلوم الأثرية فيصل آباد، باكستان.
- ٦٦ - عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، أحمد شاكر، (بدون اسم المطبعة).
- ٦٧ - عمل اليوم والليلة للنسائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- ٦٨ - عون المعبود للعلامة شمس الحق العظيم آبادي، نشر السنة، ملتان، باكستان.
- ٦٩ - غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧٠ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر، الطبعة الثانية، المطبعة السلفية، بالقاهرة.
- ٧١ - فتح القدير للشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٧٢ - الفردوس للدليمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧٣ - فضائل القرآن لأبي عبيد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧٤ - فضائل القرآن للإمام النسائي، تحقيق فاروق حمادة، دار الثقافة، المغرب.
- ٧٥ - الفقيه والمتفقه للبغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧٦ - الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٧٧ - كتاب الزهد لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧٨ - كتاب الصلاة للمروزي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
- ٧٩ - كتاب المجروحين لابن حبان، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
- ٨٠ - الكشف للزمخشري، دار الكتاب العربي.
- ٨١ - كشف الأستار، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- ٨٢ - مجمع الزوائد للهيثمي، دار الكتاب، بيروت، لبنان.
- ٨٣ - المجموع المغيث للمدني الأصفهاني، دار المدني، جدة.
- ٨٤ - المحرر الوجيز لعبد الحق بن غالب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٨٥ - المختارة للضياء، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.
- ٨٦ - المراسيل لأبي داود، المكتبة القاسمية، فيصل آباد، باكستان.
- ٨٧ - المستدرک للإمام الحاكم، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٨٨ - مسند أبي داود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٨٩ - مسند أبي عوانة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٩٠ - مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت.
- ٩١ - مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي ودار صادر، بيروت.
- ٩٢ - مسند الحميدي، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- ٩٣ - مسند الشهاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- ٩٤ - مشكاة المصابيح للتبريزي، المكتب الإسلامي بيروت.
- ٩٥ - مشكل الآثار للطحاوي، دائرة المعارف، حيدرآباد، الهند.
- ٩٦ - المصنف لابن أبي شيبة، الدار السلفية، بمبائي، الهند.

- ٩٧ - المصنف لعبدالرزاق، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٩٨ - المطالب العالية للحافظ ابن حجر.
- ٩٩ - المعجم الأوسط للطبراني، مكتبة المعارف، الرياض.
- ١٠٠ - المعجم الصغير للطبراني، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
- ١٠١ - المعجم الكبير للطبراني، الطبعة الثانية، القاهرة.
- ١٠٢ - المغازي للواقدي.
- ١٠٣ - المنتخب من مسند عبد بن حميد، مكتبة السنة، القاهرة.
- ١٠٤ - موارد الظمان للهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ١٠٥ - الموطأ للإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

الفهرس

٥	مقدمة الطبعة الأولى
٨	مقدمة الطبعة الثانية
٩	شرح الرموز المستعملة في التخريج
١١	ترجمة المؤلف
١٥	[مقدمته ابن كثير]
١٥	[الأمر يفهم القرآن]
١٦	[أصول التفسير]
١٦	[حكم الروايات الإسرائيلية]
١٧	[مكانه تفسير التابعين]
١٧	[التفسير بالرأي]
١٧	[السكوت عن تفسير غير المعلوم]
١٨	[وجوه التفسير]
١٨	[السور المكية والمدنية]
١٨	[عدد آيات القرآن الكريم]
١٨	[عدد كلماته وحروفه]
١٨	[تقسيمات أخرى للقرآن الكريم]
١٨	[التحزيب والتجزئة]
١٩	[معنى السورة واشتقاقها]
١٩	[معنى الآية]
١٩	[معنى الكلمة]
١٩	[العجمة والقرآن]
٢٠	سورة الفاتحة
٢٠	[أسماء الفاتحة ومعناها]
٢٠	[عدد آياتها]
٢٠	[عدد كلماتها وحروفها]
٢٠	[لماذا سميت أم الكتاب]
٢٠	[ذكر ما ورد في فضل الفاتحة]
٢١	[قراءة الفاتحة في الصلاة]
٢١	الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه
٥	[وجوب قراءة الفاتحة في الصلوات كلها إماما كان أو
٢١	مأموماً أو منفرداً]
٢١	[تفسير الاستعاذة وأحكامها]
٢٢	[الاستعاذة تكون قبل التلاوة]
٢٢	[التعوذ عند الغضب]
٢٢	[الاستعاذة واجبة أو مستحبة؟]
٢٢	[من لطائف الاستعاذة]
٢٣	[معنى الاستعاذة]
٢٣	[تسميته الشيطان]
٢٣	[معنى الرجيم]
٢٤	[البسملة أول آية من سورة الفاتحة]
٢٤	[الجهر والإسراء بالبسملة في الصلاة الجهرية]
٢٥	فضل في فضلها
٢٥	[استحبها في بداية كل عمل]
٢٥	[بماذا يتعلق بسم الله]
٢٥	[معنى لفظ الجلالة «الله»]
٢٦	[تفسير: الرحمن الرحيم]
٢٦	[معنى الحمد]
٢٧	[الفرق بين الحمد والشكر]
٢٧	ذكر أقوال السلف في الحمد
٢٧	[فضائل الحمد]
٢٧	[الألف واللام في الحمد لإستغراق]
٢٨	[معنى الرب]
٢٨	[معنى العالمين]
٢٨	[وجه تسمية العالم]
٢٨	[معنى مالك وملك]
٢٨	[معنى تخصيص الملك بيوم الدين]
٢٨	[معنى يوم الدين]
٢٨	[الملك وملك الأملاك هو الله]
٢٩	[تفسير الدين]

- ٤٠ [ذِكْرُ الْمُتَافِقِينَ] ٢٩ [مَعْنَى الْعِبَادَةِ لُغَةً وَشَرْعًا]
- ٤٠ [مَعْنَى النَّفَاقِ] ٢٩ [فَوَائِدُ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ وَالْإِنْفَاتِ]
- ٤٠ [إِبْدَاءُ النَّفَاقِ] ٢٩ [الْفَاتِحَةُ إِشَادٌ إِلَى الثَّنَاءِ فَتَجِبُ قِرَاءَتُهَا فِي الصَّلَاةِ]
- ٤١ [تَفْسِيرُ الْآيَةِ] ٢٩ [تَوْحِيدُ الْأُلُوْهِيَّةِ]
- ٤٢ [الْمُرَادُ بِالْمَرَضِ] ٢٩ [تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ]
- ٤٢ [الْمُرَادُ بِالْفَسَادِ] ٢٩ [تَسْمِيَةُ اللَّهِ نَبِيَّهُ عَبْدًا فِي أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ]
- ٤٢ [أَنْوَاعُ فَسَادِ الْمُتَافِقِينَ] ٣٠ [الْإِرْشَادُ إِلَى الْعِبَادَةِ عِنْدَ ضَيْقِ الصَّدْرِ]
- ٤٣ [مَكْرُ الْمُتَافِقِينَ وَخِدَاعُهُمْ] ٣٠ [سِرُّ تَأْخِيرِ الدُّعَاءِ بَعْدَ الْحَمْدِ وَالْوُصْفِ]
- ٤٣ [شَيْاطِينُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ] ٣٠ [مَعْنَى الْهِدَايَةِ]
- ٤٤ [مَعْنَى الْإِسْتِهْزَاءِ] ٣٠ [مَعْنَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ]
- ٤٤ [مَكْرُ الْمُتَافِقِينَ وَبَالَهُ عَلَيْهِمْ] ٣٠ [سُؤَالُ الْمُؤْمِنِ الْهِدَايَةَ مَعَ اتِّصَافِهِ بِهَا]
- ٤٤ [الْمَدُّ وَالطَّعْيَانُ وَالْعَمَةُ] ٣٢ [مُسْتَمَلَاتُ الْفَاتِحَةِ]
- ٤٥ [مَثَلُ الْمُتَافِقِينَ] ٣٢ [إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَى اللَّهِ دُونَ الْإِضْلَالِ. وَالرَّدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ]
- ٤٥ [مَثَلُ آخَرٍ لِلْمُتَافِقِينَ] ٣٢ [الْتَأَمِينَ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ]
- ٤٦ [ذِكْرُ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ فِي ذَلِكَ] ٣٣ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ]
- ٤٦ [أَقْسَامُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَقْسَامُ الْكَافِرِينَ وَالْمُتَافِقِينَ] ٣٣ [ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ آلِ عِمْرَانَ]
- ٤٧ [أَقْسَامُ الْقُلُوبِ] ٣٣ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ مَدِينَةٌ بِلَا خِلَافٍ]
- ٤٧ [تَوْحِيدُ الْأُلُوْهِيَّةِ] ٣٤ [أَنَّكَ لَمْ حَوْلَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ]
- ٤٨ [دَلَائِلُ وُجُودِ الْبَارِي تَعَالَى] ٣٥ [الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ دَالَةٌ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ]
- ٤٨ [إِبْتِثَاتُ رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ] ٣٥ [لَا رَيْبَ فِي الْقُرْآنِ]
- ٤٨ [الْتِحَادِيَّ وَالْإِعْجَازِ] ٣٦ [إِخْتِصَاصُ الْهِدَايَةِ بِالْمُتَّقِينَ]
- ٤٩ [مِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ] ٣٦ [مَعْنَى الْمُتَّقِينَ]
- ٥٠ [الْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجَزَةُ الْعُظْمَى لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] ٣٦ [الْهِدَايَةُ نَوْعَانِ]
- ٥٠ [الْمُرَادُ بِالْحِجَارَةِ] ٣٦ [مَعْنَى التَّقْوَى]
- ٥١ [إِنْ جَهَنَّمَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ] ٣٧ [مَعْنَى الْإِيمَانِ]
- ٥١ [جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ] ٣٧ [الْمُرَادُ بِالْغَيْبِ]
- ٥١ [مُشَابَهَةُ ثَمَارِ الْجَنَّةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ] ٣٧ [مَعْنَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ]
- ٥١ [أَزْوَاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مُطَهَّرَاتٌ] ٣٨ [الْمُرَادُ بِالْإِنْفَاقِ]
- ٥٢ [مَثَلٌ لِلدُّنْيَا] ٣٨ [مَعْنَى الصَّلَاةِ]
- ٥٣ [الْمُرَادُ بِالْحُشْرَانِ] ٣٨ [أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ]
- ٥٤ [بَيَانُ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ] ٣٩ [الْهِدَايَةُ وَالْفَلَاحُ مِنْ نَصِيبِ الْمُؤْمِنِينَ]
- ٥٤ [إِبْدَاءُ الْخَلْقِ] ٣٩ [مَعْنَى الْحَتْمِ]
- ٥٤ [خُلِقَتِ الْأَرْضُ قَبْلَ السَّمَاوَاتِ] ٣٩ [إِعْرَابُ غِشَاوَةٍ وَمَعْنَاهَا]
- ٥٥ [دُجِبَتِ الْأَرْضُ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ] ٤٠

- ٥٥ [اِسْتِخْلَافِ آدَمَ وَبَنِيهِ لِلْمَلَائِكَةِ وَمَا قَالُوهُ]
- ٥٦ [وَجُوبُ نَصَبِ الْخَلِيفَةِ، وَبَعْضُ مَسَائِلِ الْخِلَافَةِ]
- ٥٦ [فَضْلُ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ]
- ٥٧ [إِظْهَارُ فَضْلِ آدَمَ بِعِلْمِهِ]
- ٥٨ [تَكْرِيمُ آدَمَ بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ]
- ٥٨ [دُخُولُ إِبْلِيسَ فِيمَنْ أَمَرَ بِالسُّجُودِ. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْمَلَائِكَةِ]
- ٥٨ [كَانَتْ الطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالسَّجْدَةُ لِآدَمَ]
- ٥٨ [اِسْتِكْبَارُ إِبْلِيسَ]
- ٥٨ [تَكْرِيمُ آخَرَ لِآدَمَ]
- ٥٨ [خُلِقَتْ حَوَاءٌ قَبْلَ دُخُولِ آدَمَ الْجَنَّةَ]
- ٥٩ [إِخْتِيَارُ آدَمَ بِالشَّجَرَةِ وَتَوَعُّهَا]
- ٥٩ [بَعْضُ صِفَاتِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٥٩ [لَبَثَ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ وَهُبُوطُهُ مِنْهَا]
- ٦٠ [شُبُهَةٌ وَجَوَابُهَا]
- ٦٠ [تُوبَةُ آدَمَ وَدَعَاؤُهُ]
- ٦١ [حَضُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ]
- ٦١ [إِسْرَائِيلُ لَقَبٌ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٦١ [نِعْمَ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ]
- ٦١ [تَذْكِيرُ الْيَهُودِ بِعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ]
- ٦٢ [الْتِهَامُ عَنِ لَيْسَ الْحَقِّ وَكَيْفَانِهِ]
- ٦٣ [إِلَا شِعَاعَتُهُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ]
- ٦٤ [تَذْكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِتَفْضِيلِهِمْ عَلَى الْأُمَمِ]
- ٦٤ [أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ]
- ٦٥ [لَا يَقْبَلُ مِنَ الْكُفَّارِ شَفَاعَةً وَلَا فِدَاءً، وَلَا يُنْصَرُونَ]
- ٦٦ [تَنْجِيَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَإِعْرَاقُ آلِ فِرْعَوْنَ]
- ٦٦ [صَوْمُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ]
- ٦٧ [إِتِّخَاذُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَجَلِ]
- ٦٧ [تُوبَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ]
- ٦٧ [طَلَبُ خِيَارِهِمْ رُؤْيَةَ اللَّهِ وَإِمَاتَتَهُمْ وَإِحْيَاؤَهُمْ]
- ٦٨ [تَظْلِيلُهُمْ بِالْعَمَامِ وَإِنزَالِ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ]
- ٦٩ [فَضِيلَةُ صَحَابَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى سَائِرِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ]
- ٦٩ [تَعَنَّتِ الْيَهُودُ بَعْدَ الْفَتْحِ بَدَلًا مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى]
- ٧١ [إِنْفِجَارُ اثْنَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا]
- ٧١ [طَلَبُهُمُ الطَّعَامَ الدَّيْنِيَّ بَدَلَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى]
- ٧٢ [أَضْرَبَ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ عَلَى الْيَهُودِ]
- ٧٢ [تَعْرِيفُ الْكَبِيرِ]
- ٧٢ [الْإِيْمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ مَدَارُ النَّجَاةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ]
- ٧٣ [تَعْرِيفُ الْمُؤْمِنِ]
- ٧٣ [وَجْهٌ تَسْوِيَةٌ لِلْيَهُودِ]
- ٧٣ [وَجْهٌ تَسْوِيَةٌ لِلنَّصَارَى]
- ٧٣ [الْمُؤْمِنُونَ]
- ٧٣ [الْأَصَابِيئُونَ]
- ٧٣ [أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ الْيَهُودِ مَعَ رَفْعِ الطُّورِ عَلَيْهِمْ وَتَوَلِّيَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ]
- ٧٤ [إِعْتِدَاؤُهُمْ فِي السَّبْتِ وَمَسْحُهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ]
- ٧٤ [الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ الْمَوْجُودَةُ لَيْسَتْ مِنْ نَسْلِ الْمَمْسُوحَةِ]
- ٧٥ [قِصَّةُ مَقْتُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْبَقْرَةَ]
- ٧٦ [تَعَنُّتُهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنِ الْبَقْرَةِ وَتَضْيِيقِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]
- ٧٦ [إِحْيَاءُ الْمَقْتُولِ وَتَعْيِينُ الْقَاتِلِ]
- ٧٧ [بَيَانُ قِسْمَةِ قُلُوبِ الْيَهُودِ]
- ٧٧ [وُجُودُ قُوَّةِ الْإِذْرَاكِ فِي الْجَمَادَاتِ]
- ٧٨ [قَطْعُ الطَّمَعِ فِي إِيْمَانِ يَهُودِ زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ]
- ٧٩ [الْيَهُودُ كَانُوا يُفْرُونَ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا يُؤْمِنُونَ]
- ٧٩ [مَعْنَى الْأُمِّيِّ]
- ٧٩ [تَفْسِيرُ الْأَمَانِيِّ]
- ٨٠ [وَيْلٌ لَهُؤُلَاءِ الْيَهُودِ الْمُحْرِفِينَ]
- ٨٠ [مِنْ أَمَانِيِّ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ لَا يَمَكُونُ فِي النَّارِ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً]
- ٨١ [مُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ إِذَا اجْتَمَعْنَ يُهْلِكُنَّ]
- ٨١ [مِيثَاقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ]
- ٨٢ [بُؤْدُ الْمِيثَاقِ، وَنَقْضُهُمْ لَهُ]
- ٨٣ [اِسْتِكْبَارُ الْيَهُودِ وَتَكْذِيبُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَتَقْتُلُهُمْ إِيَّاهُمْ]
- ٨٤ [رُوحُ الْقُدْسِ هُوَ جِبْرِيلُ]
- ٨٤ [اِسْتِمْرَارُ الْيَهُودِ فِي مُحَاوَلَةِ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ]
- ٨٥ [كَانَتِ الْيَهُودُ تَنْتَظِرُ بَعَثَةَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَعَثَ كَفَرُوا بِهِ]
- ٨٦ [إِدْعَاءُ الْيَهُودِ الْإِيْمَانَ مَعَ كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ]

- ١٠٥ [مَا هِيَ كَلِمَاتُ الْإِنْبَاءِ؟]
- ١٠٦ [عَهْدُ اللَّهِ لَا يَبَالُ الظَّالِمِينَ]
- ١٠٦ [فَضْلُ بَيْتِ اللَّهِ]
- ١٠٧ [مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ]
- ١٠٨ [الْأَمْرُ بِتَطْهِيرِ بَيْتِ اللَّهِ]
- ١٠٨ [تَحْرِيمُ مَكَّةَ]
- ١٠٩ [دُعَاءُ الْخَلِيلِ لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ]
- ١١٠ [بِنَاءُ الْكَعْبَةِ وَالِدُعَاءُ بِقَبُولِ ذَلِكَ الْعَمَلِ]
- [ذَكَرَ بِنَاءَ قُرَيْشِ الْكَعْبَةَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- [بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ سِنِينَ
- [الْتِرَاعُ فِي وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ. وَقَضَاءُ مُحَمَّدِ بْنِ
- [عَبْدِ اللَّهِ ﷺ الْقَضَاءِ الْعَادِلِ]
- [بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ الْكَعْبَةَ عَلَى مَا كَانَ يُرِيدُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ]
- [حَبْسِيٌّ يَهْدِمُ الْكَعْبَةَ قُرْبَ الْقِيَامَةِ]
- [دُعَاءُ الْخَلِيلِ]
- [تَفْسِيرُ الْمَنَاسِكِ]
- [دُعَاءُ الْخَلِيلِ بِيَعْنَةَ النَّبِيِّ ﷺ]
- [تَفْسِيرُ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ]
- [مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ، لَا يَزَعُبُ عَنْهَا إِلَّا السَّيْفِيَّةُ]
- [وُجُوبُ الْإِتْرَامِ بِالتَّوْحِيدِ حَتَّى الْمَمَاتِ]
- [عَهْدُ يُعْمَقُ لِيَنِيهِ عِنْدَ الْمَوْتِ]
- [الْمُسْلِمُ يُؤْمِنُ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ نَبِيِّ
- [وَنَبِيِّ]
- [تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ]
- [فَضْلُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ]
- [مِنْ حِكْمَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ]
- [هَلِ الْقِبْلَةُ عَيْنُ الْكَعْبَةِ أَمْ جِهَةُ الْكَعْبَةِ؟]
- [مَسْأَلَةٌ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ كَانَتْ مَعْلُومَةً عِنْدَ الْيَهُودِ]
- [مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَيْفَانَهُمُ الْحَقَّ]
- [لِكُلِّ أُمَّةٍ قِبْلَةٌ]
- [إِمَادًا تَكَرَّرَ ذِكْرُ نَسْخِ الْقِبْلَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟]
- [حِكْمَةُ نَسْخِ الْقِبْلَةِ]
- [بِعْنَةُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ تُوجِبُ ذِكْرَ اللَّهِ

- [عِصْيَانُ الْيَهُودِ بَعْدَ أَخْذِ مِيثَاقِهِمْ وَرُؤْيَتِهِمُ الطُّورَ فَوْقَ
- رُؤْسِهِمْ] ٨٦
- [دَعْوَةُ الْيَهُودِ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ] ٨٧
- [حِرْصُهُمْ عَلَى طَوْلِ الْعُمَرِ] ٨٨
- [عِدَاوَةُ الْيَهُودِ لِجِبْرِيلَ] ٨٨
- [الْتَفْرِيقُ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ كَالْتَفْرِيقِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ] ٨٩
- [دَلَايِلُ بُتُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ] ٩٠
- [نَقْضُ الْعُهُودِ مِنْ عَادَةِ الْيَهُودِ] ٩٠
- [الْيَهُودُ طَرَحُوا كِتَابَ اللَّهِ وَأَقْبَلُوا عَلَى السَّحْرِ] ٩٠
- [كَانَ السَّحْرُ قَبْلَ عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ] ٩١
- [قِصَّةُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَتَفْسِيرُ الْمَلَكَيْنِ] ٩١
- [تَعَلَّمَ السَّحْرَ كُفْرًا] ٩٢
- [مِنَ السَّحْرِ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ] ٩٢
- [قَضَاءُ اللَّهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ] ٩٣
- [الْأَدَبُ فِي اخْتِيَارِ الْكَلِمَاتِ] ٩٣
- [شِدَّةُ عِدَاوَةِ الْكَافِرِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ لِلْمُسْلِمِينَ] ٩٤
- [الْتَسْنُخُ وَتَعْرِيفُهُ] ٩٤
- [بَيَانُ صِحَّةِ التَّسْنُخِ وَالرَّدُّ عَلَى الْيَهُودِ فِي اسْتِحْصَالِهِمْ
- ذَلِكَ] ٩٥
- [الْتَهْمِي عَنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ] ٩٦
- [الْتَهْمِي عَنْ سُلُوكِ طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ] ٩٧
- [الْتَرْتِيبُ فِي الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ] ٩٧
- [أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ] ٩٨
- [تَنَارُغُ الْيَهُودِ وَالتَّصَارِي فِيمَا بَيْنَهُمْ كُفْرًا وَعِدَادًا] ٩٩
- [ظُلْمٌ مَنْ مَنَعَ عَنِ الْمَسَاجِدِ وَسَعَى فِي خِرَابِهَا] ٩٩
- [سِبَاةٌ بَعْلَبَةَ الْإِسْلَامِ] ١٠٠
- [اسْتِيفَالُ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَوَاتِ] ١٠٠
- [قِبْلَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ] ١٠١
- [الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ وَلَدًا] ١٠١
- [كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ وَقَائِتٌ لِلَّهِ تَعَالَى] ١٠٢
- [مَعْنَى الْبَدِيْعِ] ١٠٢
- [أَوْصَافُهُ ﷺ فِي التَّوْرَةِ] ١٠٣
- [مَعْنَى التَّلَاوَةِ الْحَقَّةِ] ١٠٤
- [ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَتَوَلَّيْتَهُ إِمَامَةً النَّاسِ] ١٠٥

- ١٢٥ [وَشُكْرُهُ]
- ١٢٥ [فَضْلُ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ]
- ١٢٦ [حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ]
- ١٢٦ [يَبْتَلِي الْمُؤْمِنُ فَيُضْبِرُ وَيُؤَجِّرُ]
- ١٢٧ [فَضْلُ الْإِسْتِزْجَاعِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ]
- ١٢٧ [مَعْنَى نَفْيِ الْجُنَاحِ فِي الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ]
- ١٢٧ [حُكْمُ السَّعْيِ وَأَصْلُهُ]
- ١٢٨ [اللَّعْنُ الدَّائِمُ لِمَنْ كَتَمَ الْأَحْكَامَ الدِّيْنِيَّةَ]
- ١٢٩ [جَوَازُ لَعْنِ الْكُفْرَةِ]
- ١٢٩ [دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ]
- ١٣٠ [أَحْوَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَبَرُّؤُ الْمُتَّبِعِينَ مِنْ تَابِعِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٣٠ [الْأَمْرُ بِأَكْلِ الْحَلَالِ، وَالنَّهْيُ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ]
- ١٣١ [الْمُشْرِكُ مُقَلَّدٌ]
- ١٣٢ [مَثَلُ الْمُشْرِكِ مَثَلُ الْحَيَوَانِ]
- ١٣٢ [الْأَمْرُ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، وَيَبَيِّنُ الْمَحْرَمَاتِ]
- ١٣٣ [إِبَاحَةُ الْحَرَامِ لِلْمُضْطَرِّ]
- ١٣٤ [دَمُ الْيَهُودِ عَلَى كَيْفَانِهِمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ]
- ١٣٥ [جَامِعُ الْبِرِّ]
- ١٣٦ [الْأَمْرُ بِالْفَصَاصِ، وَيَبَيِّنُ مَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ]
- ١٣٧ [لَوْلِي الدَّمُ إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ]
- ١٣٧ [فَائِدَةُ الْفَصَاصِ وَحِكْمَتُهُ]
- ١٣٧ [الْأَمْرُ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، ثُمَّ نَسَخُهَا فِي حَقِّ الْوَرَثَةِ]
- ١٣٨ [الْوَصِيَّةُ لِقَرِيبٍ لَا يَرِثُ]
- ١٣٨ [الْوَصِيَّةُ بِالْمَعْرُوفِ]
- ١٣٩ [فَضْلُ الْعَدْلِ فِي الْوَصِيَّةِ]
- ١٣٩ [الْأَمْرُ بِالصَّوْمِ]
- ١٤٠ [فِيذِيَّةُ الصِّيَامِ لِلْعَجْزَةِ وَكَبِيرِي السَّنِّ]
- ١٤٠ [فَضْلُ رَمَضَانَ وَنَزُولُ الْقُرْآنِ فِيهِ]
- ١٤٠ [فَضْلُ الْقُرْآنِ]
- ١٤٠ [إِيْجَابُ صَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ]
- ١٤٠ [أَسْأَلُ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ]
- ١٤١ [أَلَيْسَ دُونَ الْعُسْرِ]
- ١٤١ [ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى إِتْمَامِ الْعِبَادَةِ]
- ١٤١ [اللَّهُ يَسْمَعُ دُعَاءَ عِبَادِهِ]
- ١٤٢ [الدُّعَاءُ يُقْبَلُ وَلَا يُضِيْعُ]
- ١٤٢ [ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ]
- ١٤٢ [الْإِذْنُ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ فِي لَيْلِي رَمَضَانَ]
- ١٤٣ [آخِرُ وَقْتِ السُّحُورِ]
- ١٤٤ [اسْتِحْبَابُ السُّحُورِ وَيَبَيِّنُ وَقْتَهُ]
- ١٤٤ [مَنْ أَصْبَحَ جُئْبًا فَلَا حَرَجَ فِي صِيَامِهِ]
- ١٤٤ [الصِّيَامُ يَنْتَهِي بِدُخُولِ اللَّيْلِ فَيُسْرَعُ الْإِفْطَارُ عَلَى الْفُورِ]
- ١٤٥ [النَّهْيُ عَنِ صَوْمِ الْوِصَالِ]
- ١٤٥ [أَحْكَامُ الْإِغْتِكَافِ]
- ١٤٦ [الرُّشُوءُ حَرَامٌ]
- ١٤٦ [قَضَاءُ الْقَاضِي لَا يُجِلُّ حَرَامًا وَلَا يُحْرِمُ حَلَالًا]
- ١٤٦ [السُّؤَالُ عَنِ الْأَهْلَةِ]
- ١٤٧ [مَدَارُ الْبِرِّ عَلَى التَّقْوَى]
- ١٤٧ [الْأَمْرُ بِقِتَالِ مَنْ يُقَاتِلُ، وَيَقْتُلُهُ حَيْثُ وَجَدَ]
- ١٤٧ [النَّهْيُ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ كَالْمَثَلَةِ وَالْعُلُولِ]
- ١٤٨ [الشُّرْكُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ]
- ١٤٨ [حُرْمَةُ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ، وَجَوَازُ دَفْعِ الصَّائِلِ]
- ١٤٨ [الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً]
- ١٤٨ [حُرْمَةُ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ إِلَّا إِذَا بَدَأَ الْعَدُوُّ بِالْقِتَالِ فِيهَا]
- ١٤٩ [الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]
- ١٥٠ [الْأَمْرُ بِإِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ]
- ١٥٠ [إِذَا أُحْصِرَ الْمُحْرِمُ فِي الطَّرِيقِ فَلْيَدْبَحْ وَلْيُحْلِقْ رَأْسَهُ وَيَتَحَلَّلْ]
- ١٥١ [مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ مُحْرِمًا وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْفِدْيَةُ]
- ١٥٢ [بَيَانُ التَّمَتُّعِ فِي الْحَجِّ]
- ١٥٣ [إِذَا لَمْ يَجِدِ التَّمَتُّعَ الْهَدْيَ فَلْيَصُمْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ]
- ١٥٤ [لَا يَتَمَتَّعُ أَهْلُ مَكَّةَ]
- ١٥٤ [مَتَى يُحْرَمُ لِلْحَجِّ؟]
- ١٥٤ [أَشْهُرُ الْحَجِّ]
- ١٥٥ [النَّهْيُ عَنِ الرَّفَثِ فِي الْحَجِّ]

- ١٧٤ [بَيَانُ عِدَّةِ الْمُطَلَّقةِ]
- ١٧٥ [مَعْنَى الْقَرْءِ]
- ١٧٥ [يُقْبَلُ كَلَامُ النِّسَاءِ فِي الْحَيْضِ وَالطُّهُرِ]
- ١٧٥ [الزَّوْجُ أَحَقُّ بِالرَّجْعَةِ]
- ١٧٥ [حُقُوقُ الزَّوْجَيْنِ]
- ١٧٥ [فَضْلُ الرَّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ]
- ١٧٦ [قَضْرُ الطَّلَاقِ عَلَى الثَّلَاثِ، وَبَيَانُ الرَّجْعِيَّةِ وَالْبَائِنَةِ]
- ١٧٦ [النِّهْيُ عَنِ اسْتِرْجَاعِ الْمَهْرِ]
- ١٧٦ [الْإِدْنُ بِالْخُلْعِ وَاسْتِرْجَاعِ الْمَهْرِ فِيهِ]
- ١٧٧ [عِدَّةُ الْمُخْتَلَعَةِ]
- ١٧٧ [إِعْغَاءُ حُدُودِ اللَّهِ ظُلْمًا]
- ١٧٧ [الطَّلَاقَاتُ الثَّلَاثُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ حَرَامٌ]
- ١٧٧ [لَا رَجْعَةَ بَعْدَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ]
- ١٧٨ [اللِّغْنَةُ عَلَى الْمُحَلَّلِ وَالْمُحَلَّلِ لَهُ]
- ١٧٨ [مَتَى تَحِلُّ الْمُطَلَّقةُ ثَلَاثًا لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ]
- ١٧٨ [الْأَمْرُ بِحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الْمُطَلَّقةِ]
- ١٧٩ [نَهْيُ الزَّوْجِيِّ عَنِ مَنَعِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَنْكِحَ زَوْجَهَا الْمُطَّلَقَ]
- ١٧٩ [لَا يَنْكَاحُ إِلَّا بِوَلِيِّ]
- ١٧٩ [سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ]
- ١٧٩ [لَا رِضَاعَةَ إِلَّا فِي مُدَّةِ الرِّضَاعَةِ]
- ١٨٠ [رِضَاعَةُ الْكَبِيرِ]
- ١٨٠ [أَجْرَةُ الرِّضَاعَةِ]
- ١٨٠ [لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارًا]
- ١٨٠ [الْفِطَامُ عَنِ تَرْضَائِ مِنْهُمَا]
- ١٨١ [عِدَّةُ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا]
- ١٨٢ [حِكْمَةُ هَذِهِ الْعِدَّةِ]
- ١٨٢ [عِدَّةُ أُمِّ الْوَالِدِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا سَيِّدُهَا]
- ١٨٢ [وُجُوبُ الْإِحْدَادِ فِي هَذِهِ الْعِدَّةِ]
- ١٨٢ [إِبَاحَةُ التَّعْرِيفِ بِالْجُطْبَةِ فِي الْعِدَّةِ، وَالنِّهْيُ عَنِ النِّكَاحِ فِيهَا]
- ١٨٣ [الطَّلَاقُ قَبْلَ الدُّخُولِ]
- ١٨٣ [مُنْعَةُ الطَّلَاقِ]
- ١٨٤ [لِلْمَرْأَةِ بَيْضُ الْمَهْرِ إِذَا طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ]
- ١٨٥ [الصَّلَاةُ الْوَسْطَى]
- ١٥٥ [النِّهْيُ عَنِ الْمُسْوَقِ فِي الْحَجِّ]
- ١٥٥ [النِّهْيُ عَنِ الْجِدَالِ فِي الْحَجِّ]
- ١٥٥ [التَّرْغِيبُ فِي فِعْلِ الْحَبْرَاتِ وَأَخْذُ الزَّادِ فِي الْحَجِّ]
- ١٥٦ [زَادُ سَفَرِ الْأَخْرَةِ]
- ١٥٦ [التَّجَارَةُ فِي الْحَجِّ]
- ١٥٦ [الْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ]
- ١٥٧ [وَقْتُ الْإِفَاضَةِ مِنْ عَرَفَاتٍ وَمَزْدَلِفَةَ]
- ١٥٧ [الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ]
- ١٥٧ [الْأَمْرُ بِالِتِزَامِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَالْإِفَاضَةَ مِنْهَا: لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يَقِفُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ]
- ١٥٨ [الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَارِ وَبَعْضُ أَدْعِيَةِ الْإِسْتِغْفَارِ]
- ١٥٨ [الْأَمْرُ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَطَلَبِ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بَعْدَ قَضَاءِ التُّسُكِ]
- ١٦٠ [الذِّكْرُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلِ وَشُرْبِ]
- ١٦٠ [بَيَانُ الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ]
- ١٦٠ [بَيَانُ أَحْوَالِ الْمَنَافِقِينَ]
- ١٦١ [مِنْ صِفَاتِ الْمَنَافِقِ رَدُّ النَّصِيحَةِ]
- ١٦١ [مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ إِثَارُ مَرَضَةِ اللَّهِ]
- ١٦٢ [وُجُوبُ الْأَخْذِ بِالِإِسْلَامِ كَامِلًا]
- ١٦٢ [الْحَتْهُ عَلَى عَدَمِ التَّأَخِيرِ فِي الْإِيمَانِ]
- ١٦٣ [عِقَابُ تَبْدِيلِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]
- ١٦٣ [الِاخْتِلَافُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ دَلِيلٌ عَلَى الْبَغْيِ وَالضَّلَالِ]
- ١٦٣ [لَا يَحْضُلُ النَّصْرُ وَدُخُولُ الْجَنَّةِ إِلَّا بَعْدَ الْإِخْتِيَارِ وَالتَّمْيِيزِ]
- ١٦٤ [التَّدْرُجُ فِي تَحْرِيمِ الْحَمْرِ]
- ١٦٨ [الْأَمْرُ بِإِنْفَاقِ مَا فَضَّلَ مِنَ الْمَالِ]
- ١٦٩ [إِصْلَاحُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى]
- ١٦٩ [تَحْرِيمُ نِكَاحِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ]
- ١٧٠ [الْأَمْرُ بِاعْتِرَالِ النِّسَاءِ فِي الْمَحْضِصِ]
- ١٧١ [تَحْرِيمُ الْوَطْءِ فِي الدُّبْرِ]
- ١٧٣ [النِّهْيُ عَنِ الْيَمِينِ بِتَرْكِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ]
- ١٧٣ [لَعْنُ الْيَمِينِ]
- ١٧٤ [الْإِيْلَاءُ وَحُكْمُهُ]

- ٢٠٨ [مَدْحُ الشَّاكِرِينَ]
- ٢٠٨ [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَاجْتِنَابِ الرِّبَا]
- ٢٠٨ [أَكْلُ الرِّبَا إِعْلَانٌ عَنِ الْحَرْبِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]
- ٢٠٨ [الإِحْسَانُ إِلَى الْمُعْسِرِ]
- ٢١٠ [الْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْمُعَامَلَاتِ الْمُؤَجَّلَةِ]
- ٢١٠ [الْأَمْرُ بِالإِشْهَادِ مَعَ الكِتَابَةِ]
- ٢١٢ [بَيَانُ الرَّهْنِ]
- ٢١٢ [هَلْ يُحَاسَبُ الْعِبَادُ عَلَى مَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ]
- ذِكْرُ الأحَادِيثِ الوَارِدَةِ فِي فَضْلِ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ
- ٢١٣ [الْكَرِيمَتَيْنِ نَفَعَنَا اللَّهُ بِهِمَا]
- ٢١٤ [تَفْسِيرُ الآيَتَيْنِ]
- ٢١٥ [تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَهِيَ مَدِينَةُ]
- ٢١٦ [بَيَانُ الآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَالْمُحْكَمَاتِ]
- ٢١٧ [لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهَاتِ إِلاَّ اللَّهُ]
- ٢١٨ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ]
- [تَهْدِيدُ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ سَيُعْلَبُونَ، وَحَثُّهُمْ عَلَى الإِغْتِيَارِ
- ٢١٨ [يَوْمَ بَدْرًا]
- ٢١٩ [بَيَانُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]
- ٢٢٠ [جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا]
- ٢٢١ [دُعَاءُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمْ]
- ٢٢١ [شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ]
- ٢٢١ [الدِّينُ هُوَ الإِسْلَامُ]
- [الإِسْلَامُ دِينُ النَّاسِ كَافَّةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَيْهِمْ
- ٢٢٢ [جَمِيعًا]
- ٢٢٢ [دَمُ الْيَهُودِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الأنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ]
- ٢٢٣ [دَمُ أَهْلِ الكِتَابِ عَلَى عَدَمِ تَحْكِيمِهِمْ كِتَابَ اللَّهِ]
- ٢٢٣ [الإِزْشَادُ إِلَى الشُّكْرِ]
- ٢٢٤ [النَّهْيُ عَنِ مَوَالَةِ الْمُشْرِكِينَ]
- [اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ، وَيُحْضِرُ كُلَّ أَعْمَالِ الْعَبِيدِ
- ٢٢٥ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٢٢٥ [حُبُّ اللَّهِ فِي اتِّبَاعِ الرُّسُولِ]
- ٢٢٥ [المُصْطَفَوْنَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ]
- ٢٢٦ [قِصَّةُ وِلَادَةِ مَرْيَمَ]
- ٢٢٦ [نُشُوءُ مَرْيَمَ وَكَرَامَتُهَا عَلَى اللَّهِ]
- ١٨٥ [النَّهْيُ عَنِ الكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ]
- ١٨٦ [صَّلَاةُ الخَوْفِ]
- ١٨٦ [الْأَمْرُ بِإِتِمَامِ الصَّلَاةِ فِي حَالَةِ الأَمْنِ]
- ١٨٦ [نَسْخُ هَذِهِ الآيَةِ]
- ١٨٧ [وَجُوبُ مُتَعَةِ الطَّلَاقِ]
- ١٨٨ [قِصَّةُ هُوَلَاءِ الأُمُوتِ]
- ١٨٨ [الْفِرَارُ مِنَ الجِهَادِ لَا يُقَرَّبُ الأَجَلَ وَلَا يُبْعَدُهُ]
- ١٨٩ [الْقَرَضُ الحَسَنُ وَتَوَاتُؤُهُ]
- [قِصَّةُ الْيَهُودِ فِي طَلَبِهِمُ الْمَلِكِ وَالْقِتَالَ مَعَهُ، وَاسْتِقَامَةُ
- ١٨٩ [الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَانْتِصَارُهُمْ]
- ١٩٢ [تَفْضِيلُ بَعْضِ الأنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ]
- ١٩٣ [فَضْلُ آيَةِ الكُرْسِيِّ]
- ١٩٤ [إِسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي آيَةِ الكُرْسِيِّ]
- ١٩٤ [وَهَذِهِ الآيَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عَشْرِ جَمَلٍ مُسْتَقَلَّةٍ]
- ١٩٥ [لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ]
- ١٩٥ [التَّوْحِيدُ هُوَ العُرْوَةُ الوُثْقَى]
- ١٩٧ [مُنَاطَرَةُ خَلِيلِ اللَّهِ مَعَ نُمْرُودَ]
- ١٩٨ [قِصَّةُ عَزْرَبَر]
- ١٩٩ [طَلَبُ خَلِيلِ اللَّهِ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي المَوْتَى]
- ١٩٩ [جَوَابُ طَلَبِ الخَلِيلِ]
- ١٩٩ [جَزَاءُ الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]
- ٢٠٠ [النَّهْيُ عَنِ إِتْبَاعِ الصَّدَقَاتِ المَنِّ وَالْأَدَى]
- ٢٠١ [مِثَالُ ضِيَاعِ الحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ]
- ٢٠٢ [تَرْغِيبُ إِنْفَاقِ المَالِ الطَّيِّبِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]
- ٢٠٣ [الْوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِيَّةُ فِي الإِنْفَاقِ]
- ٢٠٣ [مَعْنَى الحِكْمَةِ]
- ٢٠٤ [فَضْلُ إِظْهَارِ الصَّدَقَةِ وَإِحْفَاقِهَا]
- ٢٠٤ [الصَّدَقَةُ لِلْمُشْرِكِينَ]
- ٢٠٥ [مَنْ أَحَقُّ بِالصَّدَقَةِ]
- ٢٠٥ [مَدْحُ المُنْصَدِّقِينَ]
- ٢٠٦ [دَمُ أَكَلَةِ الرِّبَا]
- ٢٠٧ [لَا يُبَارَكُ فِي الرِّبَا]
- ٢٠٧ [إِنَّ اللَّهَ يُرِي الصَّدَقَاتِ كَمَا يُرِي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ]
- ٢٠٨ [الْكَافِرُ الأَيْمُ مُبْعَضٌ عِنْدَ اللَّهِ]

- ٢٢٧ [دُعَاءُ زَكَرِيَّا وَتَبَشِيرُهُ بِيَحْيَى]
- ٢٢٨ [فَضْلُ مَرْيَمَ عَلَى نِسَاءِ عَصْرِهَا]
- ٢٢٩ [تَبَشِيرُ مَرْيَمَ الصَّدِيقَةِ بِعِيسَى]
- ٢٢٩ [كَلَامُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ]
- ٢٢٩ [خَلَقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبِي]
- ٢٣٠ [صِفَاتُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُعْجَزَاتُهُ وَدَعْوَتُهُ]
- ٢٣١ [نُصْرَةُ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٢٣١ [هَمُّ الْيَهُودِ بِقَتْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٢٣٢ [مَعْنَى مُتَوَفِّكٍ]
- ٢٣٢ [التَّحْرِيفُ فِي دِينِ الْمَسِيحِ]
- ٢٣٣ [تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]
- ٢٣٣ [الْمُمَاتِلَةُ فِي خَلْقِ آدَمَ وَعِيسَى]
- ٢٣٣ [الدَّعْوَةُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٢٣٥ [مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ]
- [مُحَاجَّةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٢٣٦ [السَّلَامُ]
- ٢٣٧ [حَسَدُ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ وَكَيْدُهُمْ]
- ٢٣٧ [بَيَانُ حَالِ أَمَانَةِ الْيَهُودِ]
- ٢٣٨ [لَا نَصِيبَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ خَالَفَ الْعَهْدَ]
- ٢٣٩ [تَحْرِيفُ الْيَهُودِ لِكَلَامِ اللَّهِ بِلِسَانِ الْأَلْسُنِ]
- ٢٣٩ [النَّبِيُّ لَا يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَلَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ]
- ٢٤٠ [أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ]
- ٢٤١ [الدِّينُ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَلَا يَقْبَلُ غَيْرُهُ]
- ٢٤١ [لَا يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ تَابَ]
- ٢٤٢ [لَا تَقْبَلُ تَوْبَةَ الْكَافِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا فِدْيَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٢٤٢ [الْإِنْفَاقُ مِنْ أَحَبِّ الْأَمْوَالِ مِنَ الْبِرِّ]
- ٢٤٣ [أَسْئَلَةُ الْيَهُودِ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ]
- ٢٤٤ [الْكَعْبَةُ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضِعَ لِلْعِبَادَةِ]
- ٢٤٥ [وَجْهٌ تَسْمِيَةٌ بَكَّةَ، وَأَسْمَاءُ مَكَّةَ]
- ٢٤٥ [مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ]
- ٢٤٥ [الْحَرَمُ مَقَامٌ أَمِنٌ]
- ٢٤٦ [بَيَانُ وَجُوبِ الْحُجِّ]
- ٢٤٦ [مَعْنَى الْأَسْطِغَاةِ]
- ٢٤٦ [مُنْكَرُ الْحُجِّ كَافِرٌ]
- تَعْنِيفُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ
- ٢٤٦ [اللهِ]
- ٢٤٧ [تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ طَاعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ٢٤٧ [مَا هُوَ حَقٌّ تَقَاةَ اللَّهِ؟]
- ٢٤٨ [الْأَمْرُ بِالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ]
- ٢٤٨ [الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالِدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ]
- ٢٤٩ [النَّهْيُ عَنِ التَّفَرُّقَةِ]
- ٢٤٩ [تَمَرَاتُ الْأُلْفَةِ وَالْفُرْقَةِ يَوْمَ الْحَشْرِ]
- ٢٥٠ [فَضْلُ الْأُمَّةِ الْمَحْمَدِيَّةِ وَكَوْنُهَا خَيْرَ أُمَّةٍ]
- [نَوْعٌ آخَرَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَشَرَفِهَا وَكَرَامَتِهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]
- ٢٥١ [الْبَشَارَةُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ٢٥٢ [فَضْلٌ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ٢٥٢ [بَيَانٌ مِثْلُ مَا يُنْفَعُ الْكُفَّارَ]
- ٢٥٣ [النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِطَانَةً]
- ٢٥٤ [بَيَانٌ غَزْوَةَ أُحُدٍ]
- ٢٥٥ [التَّذْكَيرُ بِنَصْرِ اللَّهِ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ فِئَةِ الْعَدُوِّ وَالْعُدُدِ]
- ٢٥٥ [النَّصْرُ بِالْمَلَائِكَةِ]
- ٢٥٧ [حُرْمَةُ الرَّبَا عَلَى الْإِطْلَاقِ]
- ٢٥٨ [التَّدْبُّ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَحُصُولِ الْجَنَّةِ]
- ٢٥٩ [بَيَانُ حِكْمَةِ مَا أُصِيبُوا بِهِ يَوْمَ أُحُدٍ]
- [ذِكْرُ إِشَاعَةِ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَبَيَانُ الْمَوْقِفِ الصَّحِيحِ فِي حَالِهِ مَوْتِهِ]
- ٢٦١ [النَّهْيُ عَنِ طَاعَةِ الْكُفَّارِ، وَبَيَانُ أَسْبَابِ مَا حَصَلَ فِي أُحُدٍ مِنَ النَّصْرِ وَالْهَرِيمَةِ]
- [ذِكْرُ مَا أَصَابَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْهَرِيمَةِ]
- ٢٦٤ [دِفَاعُ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ]
- [إِنزَالُ الْأَمْنَةِ، وَهِيَ التَّعَاسُ أثنَاءَ الْغَزْوَةِ، عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَذِكْرُ هَلَجِ الْمُنَافِقِينَ]
- ٢٦٦ [ذِكْرُ تَوَلَّى بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ وَبَيَانُ الْعَفْوِ عَنْهُمْ]
- [النَّهْيُ عَنِ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي تَعْلِيقِ الْمَوْتِ وَأُمُورِ الْقَدْرِ بِغَيْرِ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى]
- [مِنْ صِفَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الرَّحْمَةُ وَاللِّينُ]

- ٢٨٧ [جَوَازُ الْأَكْلِ لِلْفُقَرَاءِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِقَدْرِ قِيَامِهِمْ عَلَيْهِ].
[الْأَمْرُ بِالتَّوْرِيثِ وَالرِّضْخِ لِحَاضِرِي الْقِسْمَةِ مِنْ غَيْرِ
الْوَرْتَةِ]
- ٢٨٨ [الْعَدْلُ فِي الْوَصِيَّةِ].
- ٢٨٨ [الْوَعِيدُ لِمَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ].
- ٢٨٩ [الْأَمْرُ بِالْمَوَارِيثِ وَالْحَضُّ عَلَى تَعْلِيمِهَا].
- ٢٨٩ [سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ].
- ٢٨٩ [الأَوْلَادُ يَرْتُونَ بِحِسَابِ اللَّذْكَرِ مِثْلَ حَطِّ الْأُنثِيَيْنِ].
- ٢٩٠ [مِيرَاثُ الْبَنَاتِ إِذَا انْفَرَدْنَ].
- ٢٩٠ [مِيرَاثُ الْوَالِدَيْنِ].
- ٢٩٠ [تَقْدِيمُ الدِّينِ ثُمَّ الْوَصِيَّةِ عَلَى الْمِيرَاثِ].
- ٢٩١ [مِيرَاثُ الرُّوَجَيْنِ].
- ٢٩١ [تَعْرِيفُ الْكَلَالَةِ].
- ٢٩١ [حُكْمُ أَوْلَادِ الْأُمِّ مِنْ غَيْرِ أَبِيهَا].
- ٢٩٢ [الْوَعِيدُ عَلَى تَعْدِي الْحُدُودِ فِي الْمَوَارِيثِ].
- ٢٩٢ [الْأَمْرُ بِحَبْسِ الرَّائِيَةِ فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ نَسْخُ هَذَا الْأَمْرِ].
- ٢٩٣ [قَبُولُ تَوْبَةِ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ].
- ٢٩٤ [مَعْنَى إِرْثِ النِّسَاءِ كَرَاهًا].
- ٢٩٤ [الْهَيْبَةُ عَنِ الْإِضْرَارِ بِالنِّسَاءِ].
- ٢٩٥ [الْأَمْرُ بِحُسْنِ عَشْرَةِ النِّسَاءِ].
- ٢٩٥ [الْهَيْبَةُ عَنِ اسْتِرْدَادِ الصَّدَاقِ].
- تَحْرِيمُ رُوجَاتِ الْأَبِّ عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَحُكْمُ مَنْ خَالَفَ
ذَلِكَ].
- ٢٩٦ [بَيَانُ الْمُحَرَّمَاتِ الْأَبْدِيَّةِ وَغَيْرِ الْأَبْدِيَّةِ].
- ٢٩٧ [قَدْرُ مَا يُحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَمُدَّتُهَا].
- ٢٩٧ [حُرْمَةُ أُمَّهَاتِ الرُّوجَاتِ وَبَنَاتِهِنَّ].
- ٢٩٧ [الرَّبِيبَةُ حَرَامٌ سِوَاءَ كَانَتْ فِي حَجْرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ].
- ٢٩٨ [تَفْسِيرُ الدُّخُولِ].
- ٢٩٨ [تَحْرِيمُ رُوجَاتِ الْأَبْنَاءِ دُونَ رُوجَاتِ الْمُتَبَنَّى].
- ٢٩٨ [شُبْهَةٌ وَجَوَابُهَا].
- ٢٩٨ [تَحْرِيمُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ فِي النِّكَاحِ].
- ٢٩٨ [تَحْرِيمُ الْمُحْصَنَاتِ إِلَّا إِذَا صِرْنَ مَلَكَ الْيَمِينِ].
- ٢٩٨ [إِخْلَالُ نِكَاحٍ غَيْرٍ مِنْ ذِكْرَانِ].
- ٢٩٩ [بَيَانُ مَتْعَةِ النِّسَاءِ وَحُرْمَتِهَا].
- ٢٦٧ [الْأَمْرُ بِالشُّورَى وَالْعَمَلُ بِهَا].
- ٢٦٨ [التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ بَعْدَ الْمَشُورَةِ].
- ٢٦٨ [الْعُلُوقُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ].
- ٢٦٩ [لَيْسَ الْأَمِينُ وَالْعَالُ سِوَاءً].
- ٢٦٩ [بِعِزَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ].
- ٢٧٠ [سَبَبُ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَحِكْمَتُهُ].
- ٢٧١ [فَضْلُ الشُّهَدَاءِ].
- ٢٧٢ [ذِكْرُ غَزْوَةِ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ وَفَضْلُ مَنْ شَهِدَهَا].
- ٢٧٤ [تَسْلِيَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ].
- ٢٧٤ [ذَمُّ الْبُخْلِ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ].
- ٢٧٥ [وَعِيدُ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ].
- ٢٧٥ [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ].
- ٢٧٦ [لِمَنِ الْمَوْتُ؟].
- ٢٧٦ [الْمُؤْمِنُ يُبْتَلَى وَيَسْمَعُ مِنَ الْعَدُوِّ الْأَذَى].
- ٢٧٧ [ذَمُّ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى تَبَدُّ الْعُهُودِ وَكَيْفَانِ الْحَقِّ].
- ٢٧٧ [ذَمُّهُمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ وَحُبُّهُمْ أَنْ يُحَمَّدُوا بِمَا لَمْ يَقْعُلُوا].
- [دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وَصِفَاتُهُمْ وَقَوْلُهُمْ
وَدَعَاؤُهُمْ].
- ٢٧٨ [اسْتِجَابَةُ اللَّهِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ].
- ٢٨٠ [التَّخْذِيرُ مِنَ الْإِعْرَارِ بِأَهْلِ الدُّنْيَا، وَيَبَانُ مَا لِلصَّالِحِينَ
مِنَ الْجَزَاءِ].
- ٢٨٠ [حَالُ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَجْرِهِمْ].
- ٢٨١ [الْأَمْرُ بِالْمُصَابَرَةِ وَالْمُرَابَطَةِ].
- ٢٨٣ [تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّسَاءِ].
- ٢٨٣ [مَدِينَتُهُ، وَبَعْضُ مَا يَهْدِيهِ السُّورَةُ مِنْ فَصَائِلَ].
- ٢٨٤ [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالتَّذْكَيرُ بِالْخَلْقِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ].
- ٢٨٤ [الْأَمْرُ بِحِفْظِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى].
- ٢٨٥ [الْهَيْبَةُ عَنِ نِكَاحِ الْيَتِيمَةِ بِصَدَاقِ دُونَ].
- ٢٨٥ [قَضْرُ الزَّوْجِ عَلَى أَرْبَعٍ مِنَ النِّسَاءِ].
- ٢٨٥ [الْإِسْتِغْفَارُ بِالْوَاحِدَةِ عِنْدَ حَشِيَّةِ عَدَمِ الْعَدْلِ].
- ٢٨٦ [إِعْطَاءُ الصَّدَاقِ وَاجِبٌ].
- ٢٨٦ [الْحَجْرُ عَلَى الشُّهَدَاءِ].
- ٢٨٦ [الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْمَحْجُورِينَ بِالْمَعْرُوفِ].
- ٢٨٦ [الْأَمْرُ بِاخْتِيَارِ الْيَتَامَى، وَدَفْعِ أَمْوَالِهِمْ لَهُمْ عِنْدَ الرُّشْدِ].

- ٢٩٩ [جَوَارُ نِكَاحِ الْإِمَاءِ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ نِكَاحَ الْحَرَائِرِ] ٣١٥
- [عَلَى الْأَمَةِ إِذَا زَنَتْ يَنْصَفُ عَذَابُ الْحَرَّةِ] ٣١٥
- [النَّهْيُ عَنِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ] ٣١٥
- [خِيَارُ الْمَجْلِسِ فِي الْبَيْعِ مِنْ تَمَامِ التَّرَاضِي فِي التَّجَارَةِ] ٣١٦
- [النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ وَالْوَعْدُ عَلَيْهِ] ٣١٦
- [تُكْفَرُ الصَّغَائِرُ إِذَا اجْتَنَبَتِ الْكِبَائِرَ] ٣١٧
- [السَّمْعُ الْمُؤَبَّاتُ] ٣١٧
- [النَّهْيُ عَنِ تَمَنِّي مَا فَضَلَ بِهِ غَيْرُهُ] ٣١٧
- [عَلَامَةُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ] ٣١٨
- [النَّهْيُ عَنِ تَمَنِّي مَا فَضَلَ بِهِ غَيْرُهُ] ٣١٨
- [عَلَامَةُ الْمَرْأَةِ إِذَا أَطَاعَتْ] ٣١٨
- [تَحْكِيمُ حَكَمَيْنِ عِنْدَ خَوْفِ الشَّقَاقِ بَيْنَ الرُّوَجَيْنِ] ٣١٨
- [النَّهْيُ عَنِ بَعَادَةِ اللَّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَغَيْرِهِمْ] ٣١٨
- [حَقُّ الْجَارِ] ٣١٨
- [النَّهْيُ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْمَمْلُوكِ] ٣١٩
- [إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ] ٣١٩
- [دَمُّ الْبُخْلِ] ٣١٩
- [لَا يَطْلُمُ اللَّهُ وَيُقَالُ ذَرَوْ] ٣١٩
- [هَلْ يُخَفَّفُ الْعَذَابُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ] ٣١٩
- [مَعْنَى الْأَجْرِ الْعَظِيمِ] ٣١٩
- [شَهَادَةُ نَبِيِّنا ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَمَنِّي الْكُفَّارِ الْمَوْتِ] ٣١٩
- [النَّهْيُ عَنِ اقْتِرَابِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ وَالْجَنَابَةِ] ٣١٩
- [بَيَانُ التَّيْمُمِ] ٣١٩
- [دَمُّ الْيَهُودِ عَلَى اخْتِيَارِهِمُ الصَّلَاةَ وَتَحْرِيفِ الْكَلِمِ وَالْعِضْيَانِ، وَلِي الْأُلسُنِ وَالطَّعْنَ فِي الدِّينِ] ٣١٩
- [دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ مَعَ التَّهْدِيدِ] ٣١٩
- [إِسْلَامُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ عِنْدَ سَمَاعِهِ هَذِهِ الْآيَةِ] ٣١٩
- [لَا يَغْفَرُ الشُّرْكَ أَبَدًا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ] ٣١٩
- [دَمُّ الْيَهُودِ وَلَعْنَتُهُمْ عَلَى تَرْكِيهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِيمَانِهِمْ بِالْحَبِيبِ وَالطَّاعُونَ وَقَلْبُهُمُ الْهَدَايَةِ وَالْإِيمَانَ] ٣١٩
- [لَا فَضْلَ لِلْكَفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ] ٣١٩
- [لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ لِاسْتِنصَارِهِمْ بِالْمُشْرِكِينَ] ٣١٩
- [بُخْلِ الْيَهُودِ وَحَسَدُهُمْ] ٣١٥
- [بَيَانُ عَذَابِ مَنْ يُكْفَرُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ] ٣١٥
- [بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَهُوَ الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا] ٣١٥
- [الْأَمْرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ] ٣١٦
- [الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ] ٣١٦
- [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ الْأَمِيرِ فِي الْمَعْرُوفِ] ٣١٧
- [الْأَمْرُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عِنْدَ التَّنَازُعِ] ٣١٧
- [مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَحَاكَمَ إِلَى مَا سِوَاهُمَا فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ] ٣١٨
- [دَمُّ الْمُنَافِقِينَ] ٣١٨
- [طَاعَةُ الرَّسُولِ وَاجِبَةٌ حَتْمًا] ٣١٨
- [لَا يَكُونُ الْمَرْءُ مُؤْمِنًا حَتَّى يُحَكَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي خُصُومَاتِهِ وَيَرْضَى بِهِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ] ٣١٨
- [أَكْثَرُ النَّاسِ يُعَانِدُونَ لِمَا يُؤْمَرُونَ] ٣١٩
- [مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَهُوَ مَعَ الْمُكْرِمِينَ عِنْدَ اللَّهِ] ٣٢٠
- [ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ] ٣٢٠
- [الْأَمْرُ بِأَخْذِ الْحَذَرِ مِنَ الْعَدُوِّ] ٣٢١
- [مِنْ عِلَامَاتِ الْمُنَافِقِينَ التَّخَلُّفُ عَنِ الْجِهَادِ] ٣٢١
- [الْتِرَافُ فِي الْجِهَادِ] ٣٢١
- [الْأَحْضُ عَلَى الْقِتَالِ لِإِنْقَاذِ الْمُسْتَضْعَفِينَ] ٣٢١
- [الْلُومُ عَلَى حُبِّ تَأَخُّرِ فَرُوضِ الْقِتَالِ وَمَنْ كَانُوا يُرِيدُونَهُ] ٣٢٢
- [لَا مَفْرَءَ مِنَ الْمَوْتِ] ٣٢٢
- [طَبَقَةُ الْمُنَافِقِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ] ٣٢٢
- [طَاعَةُ الرَّسُولِ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ] ٣٢٣
- [بَيَانُ سَفَاهَةِ الْمُنَافِقِينَ] ٣٢٣
- [الْقُرْآنُ حَقٌّ] ٣٢٤
- [النَّهْيُ عَنِ إِشَاعَةِ الْخَبَرِ دُونَ تَحْقِيقِهِ] ٣٢٤
- [أَمْرُ اللَّهِ رَسُولَهُ أَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ] ٣٢٥
- [تَحْرِيفُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ] ٣٢٥
- [الشُّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ] ٣٢٦
- [الْأَمْرُ بِرَدِّ السَّلَامِ بِأَحْسَنِ مِنْهُ] ٣٢٦
- [الْكِبْرُ عَلَى اخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ فِيمَنْ رَجَعَ مِنْ أَحَدِهِ] ٣٢٧
- [مَنْ يُقَاتِلْ وَمَنْ لَا يُقَاتِلْ؟] ٣٢٧
- [حُكْمُ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ خَطَأً] ٣٢٨

- ٣٢٩ [الْوَعِيدُ عَلَى قَتْلِ الْعَمْدِ]
- ٣٢٩ [هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَةُ قَاتِلِ الْعَمْدِ؟]
- ٣٣٠ [السَّلَامُ مِنْ عَلَامَاتِ الْإِسْلَامِ]
- ٣٣١ [لَا يَسْتَوِي الْمُجَاهِدُونَ وَالْقَاعِدُونَ]
- [الْتَهِي عَنْ الْمُكْتَبِ فِي الْمُشْرِكِينَ لِلْقَادِرِينَ عَلَى
- ٣٣٢ [الْهَجْرَةِ]
- ٣٣٣ [صَلَاةَ الْفَضْرِ]
- ٣٣٤ [بَيَانُ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَأَنْوَاعِهَا]
- ٣٣٥ [الْأَمْرُ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ]
- ٣٣٦ [الْحَضُّ عَلَى مُطَارَدَةِ الْعَدُوِّ رَغَمَ الْجِرَاحِ]
- ٣٣٦ [الْأَمْرُ بِالْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ]
- [الْتَرْتِيبُ فِي التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْوَعِيدِ لِمَنْ يَكْسِبُ
- ٣٣٧ [الْإِثْمَ أَوْ يَرِي بِهِ الْبِرِيءَ]
- ٣٣٨ [نَجْوَى الْخَيْرِ]
- ٣٣٩ [جَزَاءُ مَنْ شَاقَّ الرَّسُولَ وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ]
- [الشِّرْكَ لَا يُغْفَرُ وَالْمُشْرِكُونَ يُعْبَدُونَ الشَّيْطَانَ فِي
- ٣٣٩ [الْحَقِيقَةِ]
- ٣٤٠ [جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ]
- ٣٤١ [الْتَجَاحُ لَيْسَ بِالْأَمَانِيِّ بَلْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ]
- ٣٤٢ [إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ]
- ٣٤٢ [حُكْمُ التَّيْسَةِ]
- ٣٤٣ [أَحْكَامُ نُسُورِ الرُّوْحِ]
- ٣٤٤ [الْوَصِيَّةُ بِتَقْوَى اللَّهِ]
- ٣٤٥ [الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالْعَدْلِ وَبِإِدَاءِ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ]
- ٣٤٦ [الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ الْإِيمَانِ]
- [أَحْوَالُ الْمُتَافِقِينَ وَمَصِيرُهُمْ]
- ٣٤٧ [تَرْبُصُ الْمُتَافِقِينَ بِالْمُسْلِمِينَ]
- [مُخَادَعَةُ الْمُتَافِقِينَ لِلَّهِ وَكَسَلُهُمْ فِي الصَّلَاةِ وَتَدْبِيبُهُمْ
- ٣٤٨ [بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَفَّارِ]
- ٣٤٩ [الْتَهِي عَنْ وِلَاءِ الْكَفَّارِ]
- [الْمُتَافِقُونَ - الْمَمُولُونَ لِلْكَفَّارِ - فِي أَسْفَلِ النَّارِ إِلَّا أَنْ
- ٣٤٩ [يَتُوبُوا]
- [الْإِدْنُ بِالْجَهْرِ بِالسُّوءِ لِلْمُظْلَمِ مَعَ تَرْغِيهِ فِي الْعَفْوِ]
- ٣٥٠ [الْإِيمَانُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَالْكَفْرُ بِبَعْضِهِمْ كَفْرٌ خَالِصٌ]
- ٣٥١ [عِتَادُ الْيَهُودِ]
- ٣٥٢ [جَرَائِمُ الْيَهُودِ]
- ٣٥٢ [قَوْلُهُمْ فِي مَرِيَمَ وَادْعَاؤُهُمْ قَتْلَ عِيسَى وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ]
- ٣٥٤ [يُؤْمِنُ جَمِيعُ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ بِالْمَسِيحِ قَبْلَ مَوْتِهِ]
- [ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي نَزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرِيَمَ إِلَى
- [الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
- ٣٥٤ [وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ]
- ٣٥٦ [صِفَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٣٥٧ [تَحْرِيمُ طَيِّبَاتِ عَلَى الْيَهُودِ لِأَجْلِ ظُلْمِهِمْ]
- ٣٥٨ [أَوْحِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ مَا أَوْحِيَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ]
- ٣٥٨ [الْمَذْكُورُونَ فِي الْقُرْآنِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَسُولًا]
- ٣٥٨ [فَضْلُ مُوسَى]
- ٣٥٨ [الْقَضْدُ مِنْ بَعْنَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ]
- ٣٦٠ [نَهَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْعُلُوِّ فِي الدِّينِ وَإِطْرَاءِ]
- ٣٦١ [فِرْقِ النَّصَارَى]
- ٣٦١ [الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَسْتَنْجِفُونَ عَنْ كُوزِهِمْ عِبَادَ اللَّهِ]
- ٣٦٢ [أَوْصَافُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ]
- ٣٦٢ [حُكْمُ الْكَلَالَةِ، وَهِيَ آخِرُ آيَةِ نَزُولًا]
- [ذِكْرُ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَاهَا وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ
- ٣٦٣ [التَّكْلَانِ]
- ٣٦٤ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ]
- ٣٦٤ [فَضَائِلُ الْمَائِدَةِ وَزَمَنُ نَزُولِهَا]
- ٣٦٥ [بَيَانُ مَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]
- ٣٦٥ [الْأَمْرُ بِاخْتِرَامِ الْحَرَمِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ]
- ٣٦٥ [الْإِهْدَاءُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ]
- ٣٦٦ [تَحْرِيمُ مَنْ قَصَدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ]
- ٣٦٦ [إِبَاحَةُ الصَّيْدِ بَعْدَ الْحَلَالِ مِنَ الْإِحْرَامِ]
- ٣٦٦ [الْعَدْلُ وَاجِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ]
- ٣٦٧ [مَا حَرَّمَ أَكْلُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]
- ٣٦٩ [حُرْمَةُ الْإِسْقِيسَامِ بِالْأَرْزَامِ]
- ٣٦٩ [يَأْسُ الْكُفَّارِ وَالشَّيْطَانِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ]
- ٣٧٠ [إِكْمَالُ دِينِ الْإِسْلَامِ]
- ٣٧٠ [إِبَاحَةُ الْمَيْتَةِ فِي حَالَةِ الْاضْطِرَارِ]
- ٣٧١ [بَيَانُ الْحَلَالِ]

- ٣٨٨ [تَعْجِيلُ عُقُوبَةِ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّجْمِ]
- ٣٨٨ [يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَرِمَ الْإِنْسَانَ]
- ٣٨٩ [تَهْدِيدُ الْمُسْرِفِينَ]
- ٣٨٩ [جَزَاءُ الْمُحَارِبِينَ وَالْأَشْرَارِ]
- ٣٩٠ [تَسْقُطُ حُدُودُ الْمُحَارِبِينَ إِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ]
- ٣٩١ [الْأَمْرُ بِالْتَّقْوَى وَالْوَسِيلَةَ وَالْجِهَادِ]
- [لَا تُقْبَلُ الْفِدْيَةُ مِنَ الْكُفَّارِ وَهُمْ يَسْتَمِرُّونَ فِي عَذَابِ النَّارِ]
- ٣٩٢ [الْأَمْرُ بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ]
- ٣٩٢ [مَتَى تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ؟]
- ٣٩٣ [تَوْبَةُ السَّارِقِ مَقْبُولَةٌ]
- ٣٩٤ [الْتَّقِينُ بَعْدَ الْحُزْنِ عَلَى تَصْرُفَاتِ الْيَهُودِ وَالْمَنَافِقِينَ]
- [تَحْرِيفُ الْيَهُودِ وَمَحَاوَلَةُ انْحِرَافِهِمْ عَنِ الرَّجْمِ فِي قِصَّةِ الْيَهُودِيِّينَ]
- ٣٩٤ [ذَمُّ مَقَاصِدِ الْيَهُودِ الرَّائِعَةِ وَمَدْحُ كِتَابِهِمُ التَّوْرَةِ]
- ٣٩٦ [سَبَبُ آخَرَ فِي نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ]
- ٣٩٧ [يُقْتَلُ الرَّجُلُ بِأَمْرَةِ]
- ٣٩٧ [قِصَاصُ الْجُرُوحِ]
- ٣٩٨ [قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ]
- ٣٩٨ [الْمَعْمُوكَفَّارَةُ لِلذُّنُوبِ]
- ٣٩٨ [ذِكْرُ عَيْسَى وَمَدْحُ الْإِنْجِيلِ]
- ٣٩٩ [مَدْحُ الْقُرْآنِ وَوَصْفُهُ وَالْأَمْرُ بِالْحُكْمِ بِهِ]
- ٤٠١ [الْتَّهْيُ عَنْ مَوَالِةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ]
- ٤٠٢ [سَبَبُ النُّزُولِ]
- ٤٠٢ [مِنْ صِفَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ]
- ٤٠٣ [سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ]
- ٤٠٣ [الْتَّهْيُ عَنْ مَوَالِةِ الْكُفَّارِ]
- ٤٠٤ [اسْتِهْزَاءُ الْكُفَّارِ بِالصَّلَاةِ وَالْأَذَانِ]
- ٤٠٤ [يَقُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ]
- ٤٠٤ [أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْتَحِقُّونَ شَرَّ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ٤٠٥ [مِنْ عَادَاتِ الْمُنَافِقِينَ إِظْهَارُ الْإِيمَانِ وَإِبْطَانُ الْكُفْرِ]
- [الْتَّكْبِيرُ عَلَى الرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَحْبَارِ عَلَى تَرْكِهِمُ النَّهْيِ عَنِ الْمَعَاصِي]
- ٤٠٥ [قَوْلُ الْيَهُودِ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ]
- ٣٧١ [حُكْمُ صَيْدِ الْجَوَارِحِ الْمُعَلَّمَةِ]
- ٣٧٢ [الْتَّسْمِيَةُ عَلَى الْجَارِحِ عِنْدَ إِسْأَلِهِ]
- ٣٧٢ [جَلُّ ذَبِيحَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ٣٧٣ [جَوَازُ نِكَاحِ الْحَرَائِرِ الْعَفَائِفِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ٣٧٤ [الْأَمْرُ بِالْوُضُوءِ]
- ٣٧٤ [الْكَيْفِيُّ وَالتَّسْمِيَةُ فِي الْوُضُوءِ]
- ٣٧٤ [تَخْلِيلُ اللَّحْيَةِ]
- ٣٧٥ [كَيْفِيَّةُ الْوُضُوءِ]
- ٣٧٥ [وَجُوبُ غَسَلِ الرَّجْلَيْنِ دُونَ الْمَسْحِ]
- [ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي غَسَلِ الرَّجْلَيْنِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ]
- ٣٧٦ [الْأَمْرُ بِالتَّخْلِيلِ بَيْنَ الْأَصَابِعِ]
- ٣٧٦ [الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَيْنِ سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ]
- ٣٧٦ [الْأَمْرُ بِالتَّيِّمِ عِنْدَ عَدَمِ وَجُودِ الْمَاءِ وَلِلْمَرِيضِ]
- ٣٧٧ [الْتَّدْعَاءُ بَعْدَ الْوُضُوءِ]
- ٣٧٧ [فَضْلُ الْوُضُوءِ]
- ٣٧٧ [الْتَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ الرَّسَالَةِ وَالْإِسْلَامِ]
- ٣٧٨ [الْأَمْرُ بِالتَّزَامِ الْعَدْلِ]
- ٣٧٨ [كَفُّ أَيْدِي الْكُفَّارِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ]
- ٣٧٩ [مِيثَاقُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَعْنُهُمْ عَلَى نَقْضِهِ]
- ٣٧٩ [تُقْبَأُ الْأَنْصَارُ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ]
- ٣٨٠ [الْمِيثَاقُ وَنَقْضُهُ]
- ٣٨٠ [مِيثَاقُ النَّصَارَى وَنِسْيَانُهُمْ لَهُ وَنَيْبِجَتُهُ]
- ٣٨١ [بَيَانُ الْحَقِّ بِالرُّسُولِ وَالْقُرْآنِ]
- ٣٨١ [شِرْكُ النَّصَارَى وَكُفْرُهُمْ]
- ٣٨١ [الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِمْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ]
- [الْتَّذْكِيرُ مُوسَى قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَأَمْرُهُ بِدُخُولِهِمْ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَتَمَرُّدُهُمْ عَلَيْهِ]
- ٣٨٣ [حُطْبَةُ يُوْسُفَ وَكَالِبِ عَنِ الْجِهَادِ]
- ٣٨٤ [حُسْنُ جَوَابِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ بَدْرٍ]
- ٣٨٥ [دُعَاءُ مُوسَى عَلَى الْيَهُودِ]
- ٣٨٥ [تَحْرِيمُ دُخُولِ الْيَهُودِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً]
- ٣٨٥ [فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ]
- ٣٨٥ [تَسْلِيَةُ اللَّهِ لِمُوسَى]
- ٣٨٦ [قِصَّةُ هَابِيلَ وَقَابِيلَ]

- ٤٢٩ [فَضْلُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَزَمَنُ نَزُولِهَا]
- ٤٢٩ [الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى جَلِيلِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ]
- ٤٣٠ [عِنَادُ الْمُشْرِكِينَ وَتَوَعُّدُهُمْ عَلَيْهِ]
- ٤٣٠ [ذَمُّ الْمُعَانِدِينَ وَإِبَاؤُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا]
- ٤٣١ [اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ فَيَجِبُ الْإِنْقِيَادُ لَهُ]
- ٤٣٢ [اللَّهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْقَاهِرُ]
- ٤٣٣ [أَهْلُ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ]
- ٤٣٣ [يُسْأَلُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ شِرْكِهِمْ]
- ٤٣٣ [لَا يَسْتَعِيدُ الشَّقِيُّ مِنَ الْقُرْآنِ]
- ٤٣٤ [لَا تُفِيدُ الْأَمَانِيُّ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ]
- ٤٣٥ [تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ]
- ٤٣٧ [مُطَالَبَةٌ الْمُشْرِكِينَ بِآيَةِ]
- ٤٣٧ [مَا الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ]
- ٤٣٧ [الْكُفَّارُ صَمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ]
- ٤٣٧ [إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِدُعَائِهِمْ اللَّهُ وَحْدَهُ عِنْدَ الْعَذَابِ]
- ٤٣٧ [الْعَذَابِ]
- ٤٣٩ [الرَّسُولُ لَا يَمْلِكُ خَزَائِنَ اللَّهِ وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبِ]
- ٤٣٩ [نَهَى الرَّسُولُ عَنْ طَرْدِ أَصْحَابِهِ الضُّعَفَاءِ وَالْأَمْرُ بِتَكْرِيبِهِمْ إِذَا جَاءُوا]
- ٤٣٩ [الرَّسُولُ عَلَى بَيْتِهِ مِمَّا يُدْعَوُ إِلَيْهِ، وَالْجَزَاءُ بِيَدِ اللَّهِ وَلَيْسَ بِيَدِهِ]
- ٤٤١ [لَا يَعْلَمُ الْغَيْبِ إِلَّا اللَّهُ]
- ٤٤٢ [الْعِبَادُ بِيَدِ اللَّهِ قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ]
- ٤٤٣ [بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ وَبَطْشِهِ وَفَهْرِهِ]
- ٤٤٤ [الدَّعْوَةُ إِزْشَادٌ بِغَيْرِ إِكْرَاهٍ]
- ٤٤٤ [النَّهْيُ عَنِ الْجُلُوسِ مَعَ مَنْ يَخُوضُ فِي آيَاتِ اللَّهِ]
- ٤٤٦ [بَيَانُ نَفْحِ الصُّورِ]
- ٤٤٦ [وَعَظْمُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ]
- ٤٤٧ [إِنْكَشَافُ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ]
- ٤٤٧ [هَذَا مَقَامُ الْمُتَاطَرَةِ لَا طَلُبُ التَّحْقِيقِ]
- ٤٤٩ [الشِّرْكُ هُوَ الظُّلْمُ الْعَظِيمُ]
- ٤٤٩ [هَبَّةٌ إِسْحَاقٌ وَيَعْقُوبُ لِإِبْرَاهِيمَ فِي شَيْخُوخَتِهِ]
- ٤٥٠ [خُصُوصِيَّةُ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ]
- ٤٥٠ [الشِّرْكُ يَحِيطُ أَعْمَالَ الْمُخْلُوقِينَ حَتَّى الرُّسُلِ]
- ٤٠٦ [يَدَا اللَّهِ مَسْطُوتَانِ]
- ٤٠٦ [مَا نَزَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَرِيدُ الْيَهُودَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا]
- ٤٠٦ [لَوْ عَمِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِكِتَابِهِمْ لَحَصَلْ لَهُمْ خَيْرًا دُنْيَاً وَالْآخِرَةِ]
- ٤٠٧ [الْأَمْرُ بِالتَّبْلِيغِ وَالْوَعْدُ بِالْعِصْمَةِ]
- ٤٠٨ [لَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ]
- ٤٠٩ [كُفْرُ النَّصَارَى وَدَعْوَةُ الْمَسِيحِ لِلتَّوْحِيدِ]
- ٤١٠ [الْمَسِيحُ عَبْدٌ وَأُمَةٌ صِدِّيقَةٌ]
- ٤١٠ [النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ وَالْعُلُوِّ فِي الدِّينِ]
- ٤١١ [لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ]
- ٤١١ [أَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ]
- ٤١١ [ذَمُّ الْمُتَأَفِّقِينَ]
- ٤١٢ [بَيَانُ سَبَبِ النَّزُولِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ]
- ٤١٣ [لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ]
- ٤١٣ [الْعُلُوُّ فِي الْيَمِينِ]
- ٤١٣ [كُفَّارَةُ الْيَمِينِ]
- ٤١٤ [تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ]
- ٤١٥ [تَفْسِيرُ الْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ]
- ٤١٥ [ذَكَرَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي بَيَانِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ]
- ٤١٧ [حُرْمَةُ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ]
- ٤١٧ [جَزَاءُ قَتْلِ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ أَوْ الْإِحْرَامِ]
- ٤١٩ [إِحْلَالُ صَيْدِ الْبَحْرِ لِلْمُحْرِمِ]
- ٤١٩ [تَحْرِيمُ صَيْدِ الْبُرِّ لِلْمُحْرِمِ]
- ٤٢١ [ذَمُّ السُّؤَالِ بِدُونِ فَائِدَةٍ]
- ٤٢٢ [تَفْسِيرُ الْحَيَوَانَاتِ الْمَذْكُورَةِ]
- ٤٢٤ [الْأَمْرُ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ]
- ٤٢٤ [شَهَادَةُ عَدْلَيْنِ عَلَى الْوَصِيَّةِ]
- ٤٢٥ [يُسْأَلُ الْأَنْبِيَاءُ عَنْ أُمَّهِمْ]
- ٤٢٦ [تَذْكِيرُ عَيْسَى بِالنِّعَمِ]
- ٤٢٦ [بَيَانُ نَزُولِ الْمَائِدَةِ]
- ٤٢٧ [وَأَقِعةً تَارِيخِيَّةً غَرِيبَةً]
- ٤٢٨ [الْمَسِيحُ يَنْبَرَأُ مِنَ الشِّرْكِ وَيَهْرُ بِالتَّوْحِيدِ]
- ٤٢٨ [لَا يَنْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الصَّدَقُ]
- ٤٢٩ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]

- ٤٧٣ [مَا حُرِّمَ عَلَى الْيَهُودِ مِنَ الْحَلَالِ لِيَنبَغِيهِمْ]
- ٤٧٤ [حِيلَةُ الْيَهُودِ وَاعْتَنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ]
- ٤٧٥ [ذِكْرُ مُعَاظَةِ الرَّدِّ عَلَيْهَا]
- ٤٧٥ [أَلْوَصَايَا الْعَشْرَةَ]
- ٤٧٦ [النَّهْيُ عَنِ الشَّرْكِ]
- ٤٧٦ [الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ]
- ٤٧٦ [النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ الْأَوْلَادِ]
- ٤٧٧ [النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ]
- ٤٧٧ [تَحْرِيمُ أَكْلِ مَا لِيَئِيمٍ]
- ٤٧٨ [الْأَمْرُ بِإِيْفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ]
- ٤٧٨ [الْأَمْرُ بِالشَّهَادَةِ الْعَادِلَةِ]
- ٤٧٨ [الْأَمْرُ بِإِيْفَاءِ عَهْدِ اللَّهِ]
- ٤٧٨ [الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالنَّهْيُ عَنِ اتِّبَاعِ السَّبِيلِ الْأُخْرَى]
- ٤٧٩ [مَدْحُ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ]
- ٤٨٠ [الْقُرْآنُ حُجَّةٌ عَلَى خَلْقِهِ]
- ٤٨٠ [تَهْدِيدٌ مَنْ سَوَّفَ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ]
- ٤٨١ [دَمُّ التَّفْرِقَةِ]
- ٤٨١ [الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا]
- ٤٨٢ [الإِسْلَامُ هُوَ الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ]
- ٤٨٢ [الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ]
- ٤٨٣ [دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ الإِسْلَامُ]
- ٤٨٣ [الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ التَّوَكُّلِ]
- ٤٨٤ [لَا تَرَوْا وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى]
- ٤٨٤ [جَعَلَ اللَّهُ النَّاسَ خَلَائِفَ وَمُتَقَاتِلِي الدَّرَجَاتِ لِيَبْلُغُوهُمْ]
- ٤٨٥ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ٤٨٥ [أَحْوَالُ قَوْمِ أَهْلِكْتِ]
- ٤٨٦ [بَيَانُ وَزْنِ الْأَعْمَالِ]
- ٤٨٧ [سَائِرُ نِعَمِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ خُلِقَتْ لِلْإِنْسَانِ]
- ٤٨٧ [قِصَّةُ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِأَدَمَ وَاسْتِكْبَارِ إِبْلِيسَ]
- ٤٨٨ [أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسَ]
- ٤٨٩ [مَكْرُ الشَّيْطَانِ مَعَ آدَمَ وَحَوَاءَ وَأَكْلُهُمَا مِنَ الشَّجَرَةِ]
- ٤٩٠ [إِهْبَاطُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ]
- ٤٩١ [إِنزَالُ اللَّبَاسِ وَالرِّيَّةِ]
- ٤٥١ [بَسْرَةُ الرُّسُولِ وَإِنزَالُ الْكِتَابِ عَلَيْهِ]
- ٤٥١ [لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ وَيَدَّعِي نُزُولَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ]
- ٤٥٢ [حَالَ هَوْلَاءِ الظَّلَمَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٤٥٣ [التَّعْرِيفُ بِاللَّهِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ]
- ٤٥٥ [دَمُّ الْمُشْرِكِينَ]
- ٤٥٦ [مَعْنَى الْبُدَيْعِ]
- ٤٥٦ [اللَّهُ هُوَ رَبُّكُمْ]
- ٤٥٦ [رُؤْيَةُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ]
- ٤٥٧ [تَفْسِيرُ الْبَصَائِرِ]
- ٤٥٨ [الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ]
- ٤٥٨ [النَّهْيُ عَنِ سَبِّ آلِهِ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَسُبُّوا اللَّهَ]
- ٤٥٨ [طَلَبُ الْمُعْجَزَاتِ وَالْإِقْسَامِ عَلَى الْإِيْمَانِ عِنْدَ مَجِيئِهَا]
- ٤٦٠ [لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوٌّ]
- ٤٦١ [أَكْثَرُ النَّاسِ فِي ضَلَالٍ]
- ٤٦١ [إِحْلَالُ مَا ذُبِحَ بِاسْمِ اللَّهِ]
- ٤٦١ [تَحْرِيمُ مَا ذُبِحَ بِغَيْرِ اسْمِ اللَّهِ]
- ٤٦٢ [وَحْيُ الشَّيْطَانِ]
- ٤٦٢ [تَقْدِيمُ قَوْلِ أَحَدٍ عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ شِرْكَ]
- ٤٦٢ [مِثْلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ]
- ٤٦٣ [أَكْبَابُ الْمُجْرِمِينَ وَحِيلَتُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ]
- ٤٦٦ [تَوَلِيَّةُ بَعْضِ الظَّالِمِينَ عَلَى بَعْضٍ]
- ٤٦٦ [تَفْرِيعُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ بِالسُّؤَالِ عَنِ إِرسَالِ الرُّسُلِ وَاعْتِرَافِهِمْ بِذَلِكَ]
- ٤٦٦ [الْوَعِيدُ بِإِذْهَابِهِمْ إِذَا عَصَوْا]
- ٤٦٨ [بَيَانُ بَعْضِ أَعْمَالِ الشَّرْكِ]
- ٤٦٩ [زَيْنُ الشَّيْطَانِ لِلْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادِهِمْ]
- ٤٦٩ [بَعْضُ تَحْرِيمَاتِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَنْعَامِ]
- ٤٧٠ [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الثَّمَرَ وَالْحَبَّ وَالْأَنْعَامَ]
- ٤٧١ [بَيَانُ إِسْرَافِ]
- ٤٧١ [فَوَائِدُ الْأَنْعَامِ]
- ٤٧٢ [كُلُّوا مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهَا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ]
- ٤٧٣ [بَيَانُ الْأَشْيَاءِ الْمُحَرَّمَةِ]

- ٥٠٧ [قَتَلَ النَّاقَةَ] ٤٩١
- [مُحَاوَلَةُ الْمُفْسِدِينَ بِقَتْلِ صَالِحٍ وَبِدَايَةُ الْعَذَابِ بِهِمْ، ثُمَّ نُزُولُ الْعَذَابِ عَلَى ثَمُودَ] ٤٩١
- ٥٠٧ [قِصَّةُ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ] ٤٩٢
- ٥٠٨ [قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَدْيَنَ] ٤٩٢
- ٥٠٩ [إِبْتِلَاءُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ] ٤٩٣
- ٥١١ [الْبَرَكَاتُ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْبَطْشُ مَعَ الْكُفْرِ] ٤٩٣
- ٥١٢ [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ] ٤٩٤
- ٥١٣ [عَصَا مُوسَى وَبَدَأُ الْبَيْضَاءِ] ٤٩٤
- [قَوْلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي مُوسَى: إِنَّهُ سَاحِرٌ وَاتَّفَاقُهُمْ عَلَى مُعَارَضَتِهِ بِالسَّحَرَةِ] ٤٩٤
- ٥١٤ [إِجْتِمَاعُ السَّحَرَةِ وَمُقَابَلَتُهُمْ مَعَ مُوسَى وَتَمْوِيهِمْ فِي تَحْوِيلِ حِبَالِهِمْ وَعِصِيهِمْ حَيَاتٍ] ٤٩٥
- ٥١٥ [عَلْبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحَرَةِ] ٤٩٥
- ٥١٦ [تَهْدِيدُ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَجَوَابُهُمْ لَهُ] ٤٩٦
- ٥١٦ [تَحْرِيسُ الْقَوْمِ وَاسْتِعْدَادُ فِرْعَوْنَ لِقَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَشُكُوكِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مُوسَى وَوَعْدُهُ بِنَصْرِ اللَّهِ] ٤٩٧
- ٥١٧ [إِبْتِلَاءُ آلِ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ] ٤٩٧
- ٥١٧ [تَمَرُّدُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعِقَابُ اللَّهِ لَهُمْ بِآيَاتٍ] ٤٩٨
- ٥١٨ [إِعْرَاقُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي النَّيْمِ وَتَوْرِيثُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ] ٤٩٨
- ٥١٩ [مُجَاوَرَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ وَمُرُورُهُمْ بِمَعْبُودٍ مُجَسِّمٍ] ٤٩٩
- ٥٢٠ [تَذَكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعْمِ اللَّهِ] ٤٩٩
- ٥٢٠ [صَامُ مُوسَى وَانْقِطَعُ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً] ٥٠٠
- ٥٢٠ [طَلَبُ مُوسَى رُؤْيَةَ رَبِّهِ] ٥٠٠
- ٥٢٢ [إِضْطِفَاءُ مُوسَى وَإِعْطَاؤُهُ الْأُلُوحَ] ٥٠٠
- ٥٢٢ [يُحْرَمُ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ] ٥٠٠
- ٥٢٢ [قِصَّةُ عِبَادَةِ الْعُجْلِ] ٥٠١
- ٥٢٤ [أَخَذَ مُوسَى الْأُلُوحَ بَعْدَ أَنْ سَكَتَ الْغَضَبُ] ٥٠١
- ٥٢٤ [ذَهَابُ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمِيقَاتِ رَبِّهِمْ، وَإِهْلَاكُهُمْ] ٥٠١
- ٥٢٤ [رَحْمَةُ اللَّهِ مَكْتُوبَةٌ لِلْمُتَّقِينَ الْمُزَكِّينَ الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ وَرِسُولِهِ] ٥٠٢
- ٥٢٥ [صِفَاتُ ذَلِكَ الرَّسُولِ ﷺ] ٥٠٢
- ٥٢٦ [التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الشَّيْطَانِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [عَمَلُ الْكُفَّارِ الْفَاجِسَةِ وَنَسْبُهَا إِلَى اللَّهِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، بَلْ بِالْقِسْطِ وَالْإِحْلَاصِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [مَفْهُومُ الْبُذَى وَالْعَوْدَةِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [الْأَمْرُ بِالتَّجَمُّلِ عِنْدَ الذَّهَابِ إِلَى الْمَسَاجِدِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [النَّهْيُ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [الْحَرَامُ هُوَ الْفَوَاحِشُ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ وَالشُّرْكُ وَالْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ] ٥٠٣
- [الْمُشْرِكُونَ الْمُفْتَرُونَ يَتَأَلَّهُمْ نَصِيحُهُمْ وَيَضِلُّ عَنْهُمْ أَوْلِيَائُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ وَتَلَاعُتُهُمْ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [الْمُكْذِبُونَ لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أَبَدًا] ٥٠٣
- ٥٢٦ [بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَأَحْوَالِهِمْ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [لِلْأَهْلِ جَهَنَّمَ حَسْرَةٌ فَوْقَ حَسْرَةِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [الْأَعْرَافُ وَأَصْحَابُهَا] ٥٠٣
- ٥٢٦ [نَعِيمُ الْجَنَّةِ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [لَا مَجَالَ لِلْمُشْرِكِينَ لِلْإِعْتِدَارِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [خَلْقُ الْكُونِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [تَفْسِيرُ الْإِسْتِوَاءِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [الْتَرَاغُيبُ فِي الدُّعَاءِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [النَّهْيُ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [النَّهْيُ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يُنَزِّلُ الْمَطَرَ وَيُخْرِجُ النَّمْرَ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [قِصَّةُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَسْبُ قَوْمِ عَادٍ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [مَسَاكِينُ قَوْمِ عَادٍ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [مَا دَارَ بَيْنَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [مَصِيرُ قَوْمِ عَادٍ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [قِصَّةُ وَافِدِ عَادٍ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [مَسَاكِينُ قَوْمِ ثَمُودَ وَنَسْبُهُمْ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودَ] ٥٠٣
- ٥٢٦ [ثَمُودٌ طَلَبَتْ نَاقَةَ مِنْ صَخْرَةٍ فَظَهَرَتْ] ٥٠٣

- ٥٤٩ [غَلَبَةُ النَّعَاسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ]
- ٥٥٠ [نُزُولُ الْمَطَرِ لَيْلَةَ بَدْرٍ]
- ٥٥٠ [أَمْرُ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ بِتَثِييبِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ]
- ٥٥١ [الْتِهَانِي عَنِ التَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ وَجَزَاؤُهُ]
- ٥٥٢ [قَتَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ وَرَمِيَهُمْ بِالرَّابِ]
- ٥٥٢ [إِجَابَةُ اسْتِفْتَاكِ الْمَشْرِكِينَ]
- ٥٥٣ [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]
- ٥٥٣ [الْأَمْرُ بِاسْتِجَابَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]
- ٥٥٤ [اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ]
- ٥٥٤ [الْتَحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ عَامَّةٍ]
- ٥٥٥ [تَذْكِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الذَّلِّ وَالضَّعْفِ وَمَا أَلُوَ إِلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالنَّصْرِ]
- ٥٥٦ [سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَالْتِهَانِي عَنِ الْخِيَانَةِ]
- ٥٥٦ [ذِكْرُ مَا دَبَّرَهُ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ حَبْسِهِ أَوْ إِجْلَائِهِ]
- ٥٥٧ [رَزَعَمُ قُرَيْشٍ فِي إِتْيَانِهِمْ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ]
- ٥٥٨ [اسْتِفْتَاكِ الْمَشْرِكِينَ وَطَلْبُهُمُ الْعَذَابِ]
- ٥٥٨ [وُجُودُ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتِغْفَارُ الْمَشْرِكِينَ كَانَا أَمَانِينَ مِنْ الْعَذَابِ]
- ٥٥٨ [عَذَابُ الْمَشْرِكِينَ بَعْدَ إِزْتِكَابِهِمُ الْقَطَائِعِ]
- ٥٥٨ [إِنْفَاقُ الْكُفَّارِ أَمْوَالَهُمْ لِلصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يُعُودُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ]
- ٥٥٩ [تَرْغِيبُ الْكُفَّارِ فِي التَّوْبَةِ وَتَرْهِيْبُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ]
- ٥٦٠ [الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ لِإِنْهَاءِ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ]
- ٥٦٢ [حُكْمُ الْغَنِيْمَةِ وَالْفِيءِ]
- ٥٦٣ [بَعْضُ نَفَاصِيلِ يَوْمِ بَدْرٍ]
- ٥٦٤ [تَقْلِيلُ اللَّهِ كُلِّ فِتْنَةٍ فِي عَيْنِ الْآخَرَى]
- ٥٦٥ [تَعْلِيمُ آدَابِ الْحَرْبِ]
- ٥٦٥ [الْأَمْرُ بِاللِّبَاتِ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ]
- ٥٦٦ [كَيْفِيَّةُ خُرُوجِ الْمَشْرِكِينَ لِيَوْمِ بَدْرٍ]
- ٥٦٦ [تَرْبِيْبُ الشَّيْطَانِ وَتَغْرِيبُهُ الْمَشْرِكِينَ]
- ٥٦٦ [مَوْفِقُ الْمُتَنَافِقِينَ يَوْمَ بَدْرٍ]
- ٥٦٧ [ضَرْبُ الْمَلَائِكَةِ الْكُفَّارَ عِنْدَ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ]
- ٥٦٨ [الْأَمْرُ بِشِدَّةِ ضَرْبِ مَنْ يَكْفُرُ وَيَنْقُصُ الْعَهْدَ]
- ٥٢٧ [عُمُومُ رِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ]
- ٥٢٩ [عُدْوَانُ الْيَهُودِ فِي السَّبَبِ]
- ٥٢٩ [مَسْحُهُمْ قِرْدَةً وَنَجَاهُ النَّاهِينَ دُونَ السَّاكِنِينَ]
- ٥٣٠ [الذَّلَّةُ الدَّائِمَةُ لِلْيَهُودِ]
- ٥٣٠ [إِنْتِشَارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ]
- ٥٣١ [رَفْعُ الطُّورِ عَلَى رُؤُوسِ الْيَهُودِ لِتَمْرُدِهِمْ]
- ٥٣٢ [بَيَانُ الْعَهْدِ الْمَأْخُوذِ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ]
- ٥٣٣ [قِصَّةُ بَلْعَمِ بْنِ بَاعُورَاءَ وَمَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُنْسَلِخُ عَنْ عِلْمِهِ]
- ٥٣٥ [الْكُفْرُ وَالْقَدْرُ]
- ٥٣٦ [بَيَانُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى]
- ٥٣٧ [بَيَانُ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا]
- ٥٣٧ [الرَّسُولُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا حَتَّى لِنَفْسِهِ]
- ٥٣٩ [كُلُّ النَّاسِ أَوْلَادُ آدَمَ]
- ٥٤٠ [أَلِهَةُ الْمَشْرِكِينَ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَنْصُرُ وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا]
- ٥٤٢ [الْأَمْرُ بِالْعَفْوِ]
- ٥٤٣ [عَمَلُ أَهْلِ التَّقْوَى عِنْدَ الْوَسْوَسةِ]
- ٥٤٣ [إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ يَمُدُّونَ فِي الْعُيِّ]
- ٥٤٣ [طَلْبُ الْمَشْرِكِينَ الْآيَاتِ]
- ٥٤٤ [الْأَمْرُ بِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ]
- ٥٤٤ [الْأَمْرُ بِالذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ]
- ٥٤٤ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَهِيَ مَدِينَةٌ]
- ٥٤٤ [تَفْسِيرُ الْأَنْفَالِ]
- ٥٤٥ [سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ]
- ٥٤٥ [سَبَبُ آخَرُ فِي نُزُولِ الْآيَةِ]
- ٥٤٦ [أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ]
- ٥٤٦ [زِيَادَةُ الْإِيمَانِ إِذَا تَلَى آيَاتُ الْقُرْآنِ]
- ٥٤٦ [بَيَانُ التَّوَكُّلِ]
- ٥٤٦ [بَيَانُ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ]
- ٥٤٦ [بَيَانُ حَقِيْقَةِ الْإِيمَانِ]
- ٥٤٦ [ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ]
- ٥٤٧ [إِتْبَاعُ الرَّسُولِ بَاعَثَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ]
- ٥٤٨ [اسْتِغَاثَةُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِجَابَةُ اللَّهِ لَهُمْ بِإِنزَالِ الْمَلَائِكَةِ]

٥٨٦ [شِرْكُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَكَفَرُهُمْ هُوَ سَبَبُ فِتْنَالِهِمْ]

٥٨٧ [مُحَاوَلَةٌ أَهْلِ الْكِتَابِ إِطْفَاءَ نُورِ الْإِسْلَامِ]

٥٨٧ [دِينُ الْإِسْلَامِ يَغْلِبُ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ]

٥٨٧ [التَّحْذِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ وَعِبَادِ الضَّلَالِ]

٥٨٨ [عَذَابٌ مَنْ يَكْتِزُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ]

٥٨٩ [السنَّةُ اثنا عشر شهرًا]

٥٩٠ [الأشهرُ الحُرُمُ]

٥٩٠ [القِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ]

٥٩١ [دَمُ النَّصْرَفِ فِي الشَّرْعِ بِالرَّأْيِ]

٥٩٢ [الْعِتَابُ وَالتَّهْدِيدُ عَلَى الشَّاغِلِ عَنِ الْجِهَادِ]

٥٩٢ [اللهُ نَاصِرٌ نَبِيَّهُ ﷺ]

٥٩٣ [تَحْتِيْمُ الْجِهَادِ عَلَى كُلِّ حَالٍ]

٥٩٤ [سَبَبٌ تَخْلُفُ الْمُنَافِقِينَ وَبَيَانٌ حِيلَتِهِمْ]

٥٩٤ [مُعَايَنَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِذْنِهِ لَهُمْ]

٥٩٤ [كَشْفُ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ]

٥٩٧ [بَيَانٌ هَلَعَ الْمُنَافِقِينَ]

٥٩٧ [لَمَزُ الْمُنَافِقِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَطَمَعُهُمْ فِيهَا]

٥٩٨ [بَيَانٌ مَصَارِفِ الزَّكَاةِ]

٥٩٨ [الْفُقَرَاءُ]

٥٩٨ [الْمَسَاكِينُ]

٥٩٨ [الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا]

٥٩٨ [الْمَوْلُوقَةُ قُلُوبُهُمْ]

٥٩٨ [الرَّقَابُ]

٥٩٩ [مَا وَرَدَ فِي الْعِتَاقِ]

٥٩٩ [الْعَارِمُونَ]

٥٩٩ [فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

٥٩٩ [إِبْنُ السَّبِيلِ]

٥٩٩ [مِنْ سِمَاتِ الْمُنَافِقِينَ إِذْءَاءُ النَّبِيِّ ﷺ]

٦٠٠ [أَوْمِنَهَا مُحَاوَلَةٌ إِرْضَاءِ النَّاسِ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ]

٦٠٠ [أَوْمِنَهَا حَوْفُهُمْ مِنْ إِفْسَاءِ السَّرِّ]

٦٠٠ [أَوْمِنَهَا تَحَايِلُهُمْ وَاعْتِدَائُهُمْ بِالْبَاطِلِ]

٦٠١ [بَيَانٌ بَعْضُ خِصَالِ الْمُنَافِقِينَ الْأُخْرَى]

٦٠٢ [نَصِيحَةُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنْ يَغْتَبِرُوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ]

٦٠٢ [صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحْمُودَةِ]

٥٦٨ [الْأَمْرُ بِتَقْضِ الْعَهْدِ عَلَى سِوَاءِ]

٥٦٨ [الْأَمْرُ بِالْإِعْدَادِ حَسَبِ الْمُسْتَطَاعِ حَتَّى يَزْهَبَ أَعْدَاءُ

الله]

٥٦٩ [الْأَمْرُ بِالْجُنُوحِ لِلسَّلَامِ إِنْ جَنَحَ لَهَا الْعَدُوُّ]

٥٧٠ [التَّذْكَيرُ بِنِعْمَةِ التَّالِيفِ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ]

٥٧٠ [التَّحْرِيفُ عَلَى الْقِتَالِ وَالتَّشْبِيرُ بِأَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ

المُسْلِمِينَ يَغْلِبُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْكُفَّارِ]

٥٧٢ [وَعَدُ الْأَسْرَى بِعَوَضٍ أَحْسَنَ إِنْ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ]

٥٧٣ [الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ]

٥٧٣ [لَا وَلايَةَ لِمَنْ آمَنَ وَلَمْ يَهَاجِرْ]

[الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَلَا وَلايَةَ لَهُمْ مَعَ

المُسْلِمِينَ]

٥٧٤ [الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا]

٥٧٤ [الْإِزْتُ لِأَقَارِبِ]

٥٧٥ [تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّوْبَةِ [وهي] مَدِينَةٌ]

٥٧٥ [لِمَ لَمْ تُكْتَبِ الْبِسْمَلَةُ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ؟]

٥٧٥ [إِعْلَانُ الْبِرَاءَةِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ]

٥٧٦ [أَمِنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ وَلَمْ يَتَّقْصِفْهُدُهُ إِلَى مَدَّتِيهِ]

٥٧٦ [هَذِهِ هِيَ آيَةُ السَّيْفِ]

٥٧٧ [إِذَا طَلَبَ الْمُشْرِكُ الْأَمْنَ فَيُعْطَى]

٥٧٧ [تَأْكِيدُ الْبِرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ]

٥٧٨ [لَا أَيْمَانَ لِأَيَّةِ الْكُفْرِ]

٥٧٩ [أَلْحَتْ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَبَيَانٌ بَعْضُ فَوَائِدِهِ]

٥٨٠ [مِنْ حِكْمَةِ الْقِتَالِ اخْتِيَارَ الْمُسْلِمِينَ]

٥٨٠ [لَا يَغْمُرُ الْمُشْرِكُونَ مَسَاجِدَ اللَّهِ]

٥٨٠ [أَهْلُ الْإِيمَانِ يَغْمُرُونَ الْمَسَاجِدَ]

إِسْقَايَةُ الْحَاجِّ وَعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَا يُسَاوِيَانِ

الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ]

٥٨١ [الْأَمْرُ بِتَرْكِ مَوَالِيَةِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَقَارِبَ]

٥٨٢ [إِنْحِصَارُ الْفَتْحِ عَلَى النَّصْرِ الْعَبِيِّيِّ]

٥٨٣ [وَقَفْعَةُ غَزْوَةِ حُبَيْنَ]

٥٨٤ [مَنْعُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ]

٥٨٥ [التَّحْرِيفُ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ]

٥٨٥ [الْجِزْيَةُ عَلَامَةُ الذَّلَّةِ وَالْكُفْرِ]

- ٦٠٢ [الْبِشَارَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ]
- ٦٠٤ [الْأَمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْعِلْطَةَ عَلَيْهِمْ]
- ٦٠٤ [سَبَبُ النُّزُولِ]
- ٦٠٤ [هَمُّ الْمُنَافِقِينَ بِقَتْلِهِ ﷺ]
- ٦٠٥ [إِمْنَ سِمَاتِ الْمُنَافِقِينَ طَلَبُ الْمَالِ ثُمَّ الْبُخْلِ بِالصَّدَقَةِ]
- ٦٠٥ [وَمِنْهَا نَمْرُ الْمُطَّوِّعِينَ وَالشُّخْرِيَّةُ مِنَ الْمُفْلِينَ]
- ٦٠٦ [الَّتَيْبِيُّ عَنِ الْاِسْتِغْفَارِ لِلْمُنَافِقِينَ]
- ٦٠٧ [فَرَحُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْعَزْوَةِ]
- ٦٠٧ [لَا يُؤْذَنُ لِلْمُنَافِقِينَ بِالْخُرُوجِ فِي الْحَرْبِ]
- ٦٠٨ [الَّتَيْبِيُّ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ]
- ٦٠٨ [ذَمُّ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ]
- ٦٠٩ [بَيَانُ الْعُدْرِ الشَّرْعِيِّ لِعَدَمِ الْمُشَارَكَةِ فِي الْجِهَادِ]
- ٦١٠ [بَيَانُ مَكْرِ الْمُنَافِقِينَ]
- ٦١٠ [الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِفَاقًا]
- ٦١١ [فَضَائِلُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ]
- ٦١٢ [مُتَافِقُو الْأَعْرَابِ وَالْمَدِينَةِ]
- ٦١٢ [الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْجِهَادِ كَسَلًا]
- ٦١٣ [الْأَمْرُ بِأَخْذِ الرِّكَاتِ وَبَيَانُ فَوَائِدِهَا]
- ٦١٣ [الْوَعْدُ لِلْعَصَاةِ]
- ٦١٣ [إِرْجَاءُ أَمْرِ الْمُتَخَلِّفِينَ الثَّلَاثَةِ]
- ٦١٤ [مَسْجِدُ الضَّرَّارِ وَمَسْجِدُ التَّقْوَى]
- ٦١٥ [فَضْلُ مَسْجِدِ قُبَاءٍ وَالصَّلَاةُ فِيهِ]
- ٦١٥ [الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ]
- ٦١٦ [اِسْتَرَى اللَّهُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالْجَنَّةِ]
- ٦١٧ [الْتِهَابِيُّ عَنِ الدُّعَاءِ لِلْمُشْرِكِينَ]
- ٦١٨ [لَا مَوْأَدَةَ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ]
- ٦١٨ [بَيَانُ عَزْوَةِ بَنِي كَلْبٍ]
- ٦١٩ [قِصَّةُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا]
- ٦٢١ [الْأَمْرُ بِقَوْلِ الصَّدَقِ]
- ٦٢٢ [جَزَاءُ الْخُرُوجِ لِلْعَزْوَةِ]
- ٦٢٣ [الْأَمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ]
- ٦٢٤ [إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِ يَزِيدُ وَيَقْصُ وَالْمُنَافِقُونَ يَزِيدُونَ رِجْسًا]
- ٦٢٤ [إِبْتِلَاءُ الْمُنَافِقِينَ]
- ٦٢٥ [بِعْتَةُ الرَّسُولِ ﷺ مِنْهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى]
- ٦٢٦ [تَفْسِيرُ سُورَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ٦٢٦ [لَا يَكُونُ الرَّسُولُ إِلَّا بَشَرًا]
- ٦٢٦ [اللَّهُ خَالِقُ الْكُونِ وَرَبُّهُ وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ]
- ٦٢٧ [مَرْجِعُ الْجَمِيعِ إِلَى اللَّهِ]
- ٦٢٧ [كُلُّ شَيْءٍ شَاهِدٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ]
- ٦٢٨ [مَا أَوْى مُتَكْرِي السَّاعَةِ جَهَنَّمَ]
- ٦٢٨ [الْجَزَاءُ الْحَسَنُ لِأَهْلِ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ]
- ٦٢٩ [لَا يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دُعَاءَ الشَّرِّ وَمِثْلَ اسْتِجَابَتِهِ دُعَاءَ الْخَيْرِ]
- ٦٢٩ [إِلَى الْإِنْسَانِ يَذْكُرُ اللَّهُ عِنْدَ الشَّدَةِ وَيُنْسَاهُ عِنْدَ الرَّخَاءِ]
- ٦٢٩ [الْعَبْرَةُ بِإِهْلَاكِ الْقُرُونِ الْأُولَى]
- ٦٣٠ [بَيَانُ تَعْتَبِ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ]
- ٦٣٠ [ثُبُوتُ صَدَقِ الْقُرْآنِ]
- ٦٣١ [مَا يَعْتَقِدُهُ الْمُشْرِكُونَ فِي آلِهَتِهِمْ]
- ٦٣١ [الشَّرْكُ حَادِثٌ]
- ٦٣٢ [طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ آيَةَ]
- ٦٣٣ [تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ حِينَ تُصِيبُهُ الرَّحْمَةُ بَعْدَ الضَّرِّ]
- ٦٣٣ [مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]
- ٦٣٤ [التَّرْغِيبُ فِي النَّعْمِ الدَّائِمَةِ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا]
- ٦٣٤ [أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ]
- ٦٣٥ [جَزَاءُ الْمُجْرِمِينَ]
- ٦٣٥ [تَبْرِي آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٦٣٦ [اعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ]
- ٦٣٧ [الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ حَقًّا، وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ]
- ٦٣٨ [الْأَمْرُ بِالتَّبَرُّي مِنَ الْمُشْرِكِينَ]
- ٦٣٩ [الشُّعُورُ بِقِصْرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَ الْحَشْرِ]
- ٦٤٠ [لَيَسْتَقَمَنَّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ سِوَاءٌ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ]
- ٦٤٠ [اِسْتِغْجَالُ الْمُتَكْرِبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَوَابُهُمْ]
- ٦٤١ [الْقِيَامَةُ حَقٌّ]
- ٦٤١ [الْقُرْآنُ مَوْعِظَةٌ وَشِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ وَهُدًى]
- ٦٤١ [لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ أَنْ يُجِلَّ أَوْ يُحَرِّمَ شَيْئًا]
- ٦٤٢ [كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ]
- ٦٤٢ [مَعْرِفَةُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ]
- ٦٤٣ [الْمَرَادُ بِالبُّشْرَى الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ]

- [الْمُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الصَّادُونَ عَنْ سَبِيلِهِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ] ٦٥٨
 [حِزَابُ أَهْلِ الْإِيمَانِ] ٦٥٩
 [مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ] ٦٥٩
 [قِصَّةُ نُوحٍ وَحِوَارِهِ مَعَ قَوْمِهِ] ٦٦٠
 [جَوَابُ نُوحٍ] ٦٦٠
 [مُطَابَقَةُ قَوْمِ نُوحٍ بِالْعَذَابِ وَجَوَابُهُ لَهُمْ] ٦٦١
 [اسْتِظْرَادُ لَيْثَانَ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ] ٦٦١
 [الْوَحْيُ إِلَى نُوحٍ بِمَصِيرِ الْقَوْمِ وَالْأَمْرُ بِالْإِسْتِعْدَادِ لَهُ] ٦٦١
 [بِدَايَةُ الطُّوفَانِ وَحَمْلُ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ] ٦٦٢
 [اِثْنَيْنِ] ٦٦٢
 [الرُّكُوبُ فِي السَّفِينَةِ وَجَزْيُهَا فِي الْأَمْوَاجِ الْهَائِلَةِ] ٦٦٣
 [قِصَّةُ عَرَقِ ابْنِ نُوحٍ الْكَافِرِ] ٦٦٣
 [نَهَايَةُ الطُّوفَانِ] ٦٦٣
 [الْعُودُ إِلَى قِصَّةِ ابْنِ نُوحٍ وَذِكْرُ مَا دَارَ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوْلَ ابْنِهِ] ٦٦٤
 [الْأَمْرُ بِالْتَّوَلُّوْلِ مِنَ السَّفِينَةِ بِالسَّلَامِ وَالْبَرَكَةِ] ٦٦٤
 [قِصَصُ الْغَيْبِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ] ٦٦٥
 [قِصَّةُ هُودٍ وَقَوْمِهِ عَادٍ] ٦٦٥
 [الْحِوَارُ بَيْنَ عَادٍ وَهُودٍ] ٦٦٥
 [إِهْلَاكُ عَادٍ وَتَنْجِيَةُ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ] ٦٦٦
 [قِصَّةُ صَالِحٍ وَتَمُودَ] ٦٦٦
 [الْحِوَارُ بَيْنَ صَالِحٍ وَتَمُودَ] ٦٦٧
 [مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَتَبَشِيرُهُمْ إِيَّاهُ بِإِسْحَاقَ وَبِعِصْمَةَ] ٦٦٧
 [مُجَادَلَةُ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْمِ لُوطٍ] ٦٦٨
 [مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى لُوطٍ وَمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الضَّبِقِ وَمَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ] ٦٦٩
 [عَجْزُ لُوطٍ وَتَمَيُّهُ الْقُوَّةَ، وَإِخْبَارُ الْمَلَائِكَةِ لَهُ بِالْحَقِيقَةِ] ٦٦٩
 [قَلْبُ قَزِيَّةِ قَوْمِ لُوطٍ وَإِهْلَاكُهُمْ] ٦٧٠
 [قِصَّةُ مَدْيَنَ وَدَعْوَةُ شُعَيْبٍ] ٦٧١
 [جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ] ٦٧١
 [رَدُّ شُعَيْبٍ عَلَى قَوْمِهِ] ٦٧١
 [جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ] ٦٧٢
 [الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَهُوَ الْمَتَّصِرُ فِي الْكُؤْنِ دُونَ غَيْرِهِ] ٦٤٣
 [اللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الرِّوَجَةِ وَالْأَوْلَادِ] ٦٤٤
 [قِصَّةُ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ] ٦٤٤
 [الْإِسْلَامُ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ] ٦٤٥
 [عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ السَّيِّئَةِ] ٦٤٥
 [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ] ٦٤٦
 [بَيْنَ مُوسَى وَالسَّحَرَةِ] ٦٤٦
 [لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ] ٦٤٦
 [تَحْرِيبُ مُوسَى قَوْمَهُ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ] ٦٤٧
 [أَمْرُهُمْ بِالصَّلَاةِ فِي الْبُيُوتِ] ٦٤٧
 [دُعَاءُ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ] ٦٤٧
 [نَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَرَقُ آلِ فِرْعَوْنَ] ٦٤٨
 [تَمَكِينُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْأَرْضِ وَرِزْقُهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ] ٦٤٩
 [تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ] ٦٥٠
 [لَمْ يَنْفَعِ الْإِيمَانَ أَحَدًا عِنْدَمَا جَاءَ الْعَذَابُ إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ] ٦٥٠
 [لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَكْفُرَ النَّاسُ عَلَى الْإِيمَانِ] ٦٥١
 [الْأَمْرُ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] ٦٥٢
 [الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحُدَّةِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ] ٦٥٢
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ٦٥٣
 [سُورَةُ هُودٍ مِمَّا شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ] ٦٥٣
 [الْقُرْآنُ وَدَعْوَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَحُدَّةِ] ٦٥٣
 [اللَّهُ خَيْرٌ بِكُلِّ شَيْءٍ] ٦٥٣
 [اللَّهُ مُتَكَفِّلٌ بِأَرْزَاقِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ] ٦٥٤
 [خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ] ٦٥٤
 [جِدَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي التَّبْعِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَاسْتِعْجَالُهُمْ لِلْعَذَابِ] ٦٥٥
 [مَعَانِي الْأُمَّةِ] ٦٥٥
 [تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ فِي السَّرِّ وَالضَّرِّ] ٦٥٥
 [تَضَائِقُ الرَّسُولِ عَنِ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَتَسْلِيَّتُهُ] ٦٥٦
 [بَيَانُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ] ٦٥٦
 [مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ حَظٌّ فِي الْآخِرَةِ] ٦٥٧
 [إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَكُونُ عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ] ٦٥٧
 [مِضْدَاقُ كُلِّ حَدِيثٍ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ] ٦٥٨

- ٦٧٢ [رُدُّ شُعَيْبٍ عَلَى قَوْمِهِ] ٦٧٢
- [تَهْدِيدُ شُعَيْبٍ قَوْمَهُ] ٦٧٢
- [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ] ٦٧٣
- [الْأَعْظَمُ بِالْقُرَى الْمُهْلَكَةِ] ٦٧٤
- [إِهْلَاكُ الْقُرَى دَلِيلٌ عَلَى قِيَامِ السَّاعَةِ] ٦٧٤
- [حَالُ الْأَشْفِيَاءِ وَمَصِيرُهُمْ] ٦٧٥
- [حَالُ السَّعْدَاءِ وَمَصِيرُهُمْ] ٦٧٥
- [الشَّرْكُ ضَلَالٌ لَا شَكَّ فِيهِ] ٦٧٦
- [الْأَمْرُ بِالِاسْتِقَامَةِ] ٦٧٦
- [الْأَمْرُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ] ٦٧٦
- [إِنَّ الْحَسَنَاتِ تَمْحُو السَّيِّئَاتِ] ٦٧٧
- [لَا بَدَّ مِنْ وَجُودِ جَمَاعَةٍ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ] ٦٧٧
- [لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ الْإِيمَانَ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ] ٦٧٨
- [الْحَاثِمَةُ] ٦٧٨
- تفسير سورة يوسف - عليه السلام - وهي مكية ٦٧٩
- [أَوْصَافُ الْقُرْآنِ] ٦٧٩
- [سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ] ٦٧٩
- [رُؤْيَا يُوسُفَ] ٦٧٩
- [أَمْرُ وَالِدِ يُوسُفَ بِإِخْفَاءِ الرُّؤْيَا حَدْرًا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ] ٦٧٩
- [تَعْبِيرُ رُؤْيَا يُوسُفَ] ٦٨٠
- [قِصَّةُ يُوسُفَ وَفِيهَا آيَاتٌ] ٦٨٠
- [اسْتِثْنَاءُ الْإِخْوَةِ بِدَهَابِ يُوسُفَ] ٦٨١
- [جَوَابُ الْأَبِ] ٦٨١
- [إِقْفَاءُ يُوسُفَ فِي الْبَيْتِ] ٦٨٢
- [مَكْرُ إِخْوَةَ يُوسُفَ مَعَ أَبِيهِمْ] ٦٨٢
- [إِخْرَاجُ يُوسُفَ مِنَ الْبَيْتِ وَبَيْعُهُ] ٦٨٢
- [يُوسُفَ فِي مِصْرَ] ٦٨٣
- [حُبُّ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ وَمَكِيدَتُهَا بِهِ] ٦٨٣
- [وُصُولُ الْخَبْرِ إِلَى نِسْوَةِ الْمَدِينَةِ وَمَكِيدَتُهُنَّ لِيُوسُفَ] ٦٨٦
- [الْقَرَارُ بِسُجُنِ يُوسُفَ وَتَنْفِيدُهُ] ٦٨٧
- [سَجِينَانِ يَسْأَلَانِ يُوسُفَ عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُمَا] ٦٨٧
- [دَعْوَةُ يُوسُفَ السَّجِينِينَ إِلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ التَّعْبِيرِ] ٦٨٧
- [تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا] ٦٨٨
- [قَالَ يُوسُفُ لِلْسَّاقِي أَدْكُرْنِي عِنْدَ الْمَلِكِ] ٦٨٨
- ٦٨٩ [رُؤْيَا مَلِكِ مِصْرَ] ٦٨٩
- ٦٨٩ [تَعْبِيرُ رُؤْيَا الْمَلِكِ] ٦٨٩
- [تَحْقِيقُ مَا جَرَى بَيْنَ يُوسُفَ وَبَيْنَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَنِسْوَةِ مِصْرَ] ٦٩٠
- ٦٩١ [مَكَانَةُ يُوسُفَ فِي عَيْنِ الْمَلِكِ] ٦٩١
- ٦٩١ [حُكْمُ يُوسُفَ فِي مِصْرَ] ٦٩١
- [وَرُودُ إِخْوَةَ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ وَرُجُوعُهُمْ مَعَ الْحَمِيرَةِ وَتَعَاهُدُهُمْ بِإِيْتَانِ أَخِيهِمُ الْأَصْغَرَ] ٦٩١
- ٦٩٢ [طَلْبُهُمْ مِنْ يَعْقُوبَ أَنْ يَدْهَبُوا بَيْنِيَامِينَ وَجَوَابُهُ] ٦٩٢
- ٦٩٣ [خُرُوجُ الْبَضَاعَةِ مِنَ الْمَتَاعِ] ٦٩٣
- [أَمْرُ يَعْقُوبَ بِنَبِيِّهِ أَنْ يَدْخُلُوا مِصْرَ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِ مُتَّفَرِّقَةٍ خَشِيَةِ الْعَيْنِ] ٦٩٣
- ٦٩٣ [تَسْلِيَةُ يُوسُفَ لِبَنِيَامِينَ] ٦٩٣
- ٦٩٤ [جَعَلَ صَوَاعَ الْمَلِكِ فِي رَحْلِ أَخِيهِ وَحَبَسَهُ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ] ٦٩٤
- ٦٩٥ [إِخْوَةَ يُوسُفَ اتَّهَمُوهُ بِالسَّرْقَةِ] ٦٩٥
- [إِقْتِرَاحُ الْإِخْوَةِ أَخَذَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَدَلَ بِنِيَامِينَ وَالرَّدُّ عَلَى هَذَا الْإِقْتِرَاحِ] ٦٩٥
- ٦٩٥ [مُتَسَاوَرَتُهُمْ وَمَشْوَرَةُ كَبِيرِهِمْ] ٦٩٥
- ٦٩٦ [جَوَابُ نَبِيِّ اللَّهِ وَحَالُهُ بَعْدَ سَمَاعِ الْخَبْرِ الْمُؤْلِمِ] ٦٩٦
- ٦٩٧ [الْأَمْرُ بِتَحْسُسِ يُوسُفَ وَأَخِيهِ] ٦٩٧
- ٦٩٧ [إِخْوَةَ يُوسُفَ بَيْنَ يَدَيْهِ] ٦٩٧
- ٦٩٧ [تَعَرَّفُ يُوسُفَ إِلَى إِخْوَتِهِ وَعَفْوُهُ عَنْهُمْ] ٦٩٧
- ٦٩٨ [قَمِيصُ يُوسُفَ وَوَجْدَانُ يَعْقُوبَ رِيحَ يُوسُفَ] ٦٩٨
- ٦٩٨ [جَاءَ يَهُودًا بِالْقَمِيصِ بَشِيرًا] ٦٩٨
- ٦٩٨ [نَدَامَةُ إِخْوَةَ يُوسُفَ] ٦٩٨
- ٦٩٩ [اسْتِغْبَالُ يُوسُفَ أَبُوهُ وَصِدْقُ رُؤْيَاةِ] ٦٩٩
- ٦٩٩ [الدَّعَاءُ بِالْحَاثِمَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ] ٦٩٩
- ٧٠٠ [مَا سَبَقَ مِنَ الْقِصَصِ هُوَ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ] ٧٠٠
- ٧٠٠ [عَدَمُ تَفَكُّرِ النَّاسِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ] ٧٠٠
- ٧٠١ [سَبِيلُ الرُّسُولِ ﷺ] ٧٠١
- ٧٠١ [الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا بَشَرًا وَرِجَالًا] ٧٠١
- ٧٠٢ [الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْبَشَرِ لَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ] ٧٠٢
- ٧٠٢ [الْعَبْرَةُ فِيمَنْ سَبَقَ] ٧٠٢
- ٧٠٢ [النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ وَضِيْقِ الْحَالِ] ٧٠٢

- ٧٠٣ [الْعَبْرَةُ لِمَنْ اعْتَبَرَ]
- ٧٠٣ تفسیر سورة الزعد وهي مکیة
- ٧٠٣ [الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ]
- ٧٠٤ [بَيَانُ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ]
- ٧٠٤ [الْأَسْتِوَاءُ]
- ٧٠٤ [تَسْخِيرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَجَزَائُهُمَا]
- ٧٠٥ [آيَاتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ]
- ٧٠٥ [إِنْكَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ عَجِيبٌ]
- ٧٠٦ [إِسْتِجْالُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ]
- ٧٠٦ [طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَةَ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ٧٠٧ [عَالِمُ الْعَيْبِ هُوَ اللَّهُ]
- ٧٠٧ [عَلِمَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ ظَاهِرٍ وَخَفِيٍّ]
- ٧٠٨ [الْمَلَائِكَةُ الْحَفَظَةُ]
- ٧٠٨ [السَّحَابُ وَالْبُرُقُ وَالرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ]
- ٧٠٨ [الدُّعَاءُ عِنْدَ الرَّعْدِ]
- ٧١٠ [تَمْثِيلُ عَجْرِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ]
- ٧١٠ [كُلُّ شَيْءٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ]
- ٧١٠ [إِبْتِهَاتُ التَّوْحِيدِ]
- ٧١١ [مَثَلَانِ لِيَقَاءِ الْحَقِّ وَفَنَاءِ الْبَاطِلِ]
- ٧١٢ [ذِكْرُ مَزِيدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ]
- ٧١٢ [جَزَاءُ السُّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ]
- ٧١٢ [لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ]
- ٧١٣ [أَوْصَافُ السُّعْدَاءِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْجَنَّةِ]
- ٧١٣ [أَوْصَافُ الْأَشْقِيَاءِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى اللَّعْنَةِ وَسُوءِ الدَّارِ]
- ٧١٤ [السَّعَةِ فِي الرِّزْقِ وَالْقَفَرُ بِيَدِ اللَّهِ]
- ٧١٤ [طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ٧١٥ [طَمَأْنِينَةُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ بِذِكْرِ اللَّهِ]
- ٧١٥ [بَيَانُ طُوبَى]
- [مِمَّا بُعِثَ بِهِ نَبِيْنَا ﷺ، بِلَاوَةٍ مَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ، وَالِدَعْوَةُ إِلَيْهِ]
- ٧١٦ [فَضْلُ الْقُرْآنِ وَجُحُودُ الْكُفَّارِ بِهِ]
- ٧١٦ [تَسْلِيَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]
- [لَا اشْتَرَاكَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ بِوَجْهِهِ مِنْ الْجُحُودِ]
- ٧١٧ [الْوَجُوهُ]
- ٧١٨ [بَيَانُ عِقَابِ الْكُفَّارِ وَجَزَاءِ الْأَبْرَارِ]
- [يَفْرَحُ الصَّادِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِتَصْدِيقِ كُتُبِهِمْ]
- ٧١٨ [الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا بَشَرًا]
- ٧١٩ [الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ لَيْسَ مِنْ مُسْتَطَاعِ الرَّسُولِ]
- ٧١٩ [مَا يُمَسَّحُ وَيُرَالُ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ]
- ٧٢٠ [عَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ وَعَلَى اللَّهِ الْحِسَابُ]
- ٧٢٠ [مَكْرُ الْكُفَّارِ وَالْوَعِيدُ عَلَى ذَلِكَ]
- [الْأَسْتِشْهَادُ بِعِلْمِ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلرَّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ]
- ٧٢١ [تفسیر سورة إبراھیم - عليه السلام - وهي مکیة]
- ٧٢١ [التَّعْرِيفُ بِالْقُرْآنِ وَمَقْصُودُهُ وَالْوَيْلُ لِمَنْ خَالَفَهُ]
- [كُلُّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيَتَكُونَ الْهَدْيَئَةَ أَوْ الضَّلَالَ بَعْدَ تَبْيِينِهِ]
- ٧٢٢ [بِعْتَهُ يُوسُفُ وَوَعظُهُ لِقَوْمِهِ]
- ٧٢٣ [تَكْذِيبُ الْأُمَمِ لِرُسُلِهِمْ وَمَا دَارَ بَيْنَهُمْ]
- ٧٢٤ [الْمُجَادَلَةُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْكَفَّارِ]
- ٧٢٤ [عَدَمُ اعْتِرَافِ الْكُفَّارِ بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ بَشَرٌ]
- ٧٢٤ [تَهْدِيدُ الْأُمَمِ رُسُلَهُمْ وَتَبْيِيسُ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الرَّسُولِ]
- ٧٢٦ [مَثَلٌ لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ]
- ٧٢٧ [بُرْهَانُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]
- ٧٢٧ [مُجَادَلَةُ التَّابِعِينَ وَالْمُتَّبِعِينَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ]
- ٧٢٨ [خِطَابُ إِبْلِيسَ أَتْبَاعَهُ وَاعْتِدَارُهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٧٢٩ [مَثَلٌ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْقَوْلِ بِالْبَاطِلِ]
- ٧٢٩ [تَنْبِيهُتِ الْمُؤْمِنِ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]
- ٧٣١ [مَصِيرٌ مَنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا]
- ٧٣٢ [الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ]
- ٧٣٢ [بَيَانُ نِعَمِ اللَّهِ الْعَدِيدَةِ]
- ٧٣٣ [دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَكَّةَ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِدَرَّتَيْهِ]
- ٧٣٤ [إِنْهَاءُ اللَّهِ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ عَنْ عَقْلِهِ]
- ٧٣٥ [لَا مُهْلَةَ بَعْدَ مَجِيءِ الْعَذَابِ]
- ٧٣٦ [لَا يُخْلَفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ]
- ٧٣٦ [أَحْوَالُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

- ٧٣٧ تفسير سورة الحجر وهي مكية
- ٧٣٧ [يَتَمَنَّى الْكُفَّارُ فِي وَفَيْتَ مَا أَنْ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ]
- ٧٣٨ [لِكُلِّ قَرْيَةٍ أَجَلٌ يَتَّبِعِي إِلَيْهِ]
- ٧٣٨ [رُؤْيُ الرُّسُولِ بِأَنَّهُ مَخْبُونٌ وَطَلَبُ نَزُولِ الْمَلَائِكَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ]
- ٧٣٨ [اسْتِهْزَاءُ مُشْرِكِي كُلِّ أُمَّةٍ بِرُسُلِهِمْ]
- ٧٣٩ [الْمُعَانِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ لَا يُؤْمِنُونَ مَهْمَا رَأَوْا مِنْ الْآيَاتِ]
- ٧٣٩ [قُدْرَةُ اللَّهِ وَإِيَاتُهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]
- ٧٤٠ [خَزَائِنُ كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ]
- ٧٤٠ [مَنْفَعَةُ الرِّيَّاحِ]
- ٧٤٠ [الْمَاءُ الْعَذْبُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ]
- ٧٤٠ [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ]
- ٧٤١ [مَعَادَةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْجَانِّ]
- ٧٤١ [خَلْقُ آدَمَ وَأَمْرُ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَتَمَرُّدُ إِبْلِيسَ]
- ٧٤١ [إِخْرَاجُ إِبْلِيسَ مِنْ مَقَامِهِ عِنْدَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَإِمهَالُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ٧٤٢ [تَحَدِّي إِبْلِيسَ بِالْإِعْوَاءِ، وَوَعِيدُ اللَّهِ لَهُ بِجَهَنَّمَ]
- ٧٤٢ [أَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ]
- ٧٤٢ [بَيَانُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَحْوَالِهِمْ]
- ٧٤٣ [صَيْفُ إِبْرَاهِيمَ وَتَبْيِيزُهُمْ إِيَّاهُ بِغُلَامٍ]
- ٧٤٣ [سَبَبُ مَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ]
- ٧٤٣ [مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ لُوطٍ]
- ٧٤٤ [أَمْرُ لُوطٍ بِخُرُوجِهِ مَعَ أُسْرَتِهِ فِي اللَّيْلِ]
- ٧٤٤ [مَجِيءُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ رِجَالٌ]
- ٧٤٥ [إِهْلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ]
- ٧٤٥ [قَرْيَةُ سُدُومَ عَلَى الطَّرِيقِ]
- ٧٤٥ [إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ: قَوْمِ شُعَيْبٍ]
- ٧٤٥ [إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْحَجْرِ، وَهُمْ تَمُودٌ]
- ٧٤٥ [خَلْقَتِ الدُّنْيَا لِمَصْلَحَةٍ مَا، ثُمَّ تَقُومُ السَّاعَةُ]
- ٧٤٦ [الْإِيمَانُ بِالْقُرْآنِ وَالْأَمْرُ بِالْمَرْكُزِ عَلَى دَعْوَتِهِ]
- ٧٤٦ [الرُّسُولُ نَذِيرٌ مُبِينٌ]
- ٧٤٧ [تَفْسِيرُ الْمُفْتَسِمِينَ]
- ٧٤٧ [الْأَمْرُ بِالصَّدَقِ بِالْحَقِّ]
- ٧٤٧ [الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَصَمَانَ كِفَايَةَ الْمُسْتَهْزِئِينَ]
- ٧٤٨ [التَّشْجِيعُ عَلَى تَحْمِلِ الْمَسَاقِ، وَالْأَمْرُ بِالْتِزَامِ التَّسْبِيحِ وَالْعِبَادَةِ حَتَّى الْمَوْتِ]
- ٧٤٩ [تفسير سورة النحل وهي مكية]
- ٧٤٩ [الْإِنذَارُ بِقُرْبِ السَّاعَةِ]
- ٧٥٠ [يُرْسِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ بِالْوَجْهِ]
- ٧٥٠ [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْإِنْسَانَ]
- ٧٥٠ [الْأَنْعَامُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَنِعْمَةٌ مِنْهُ]
- ٧٥١ [بَيَانُ الطَّرِيقِ الدِّينِيَّةِ]
- ٧٥٢ [الْمَطَرُ وَفَوَائِدُهُ وَبَيَانُ أَنَّهُ آيَةٌ]
- ٧٥٢ [آيَاتٌ فِي تَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَفِيمَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ]
- ٧٥٣ [آيَاتٌ فِي الْبَحَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالسَّيْلِ وَالنُّجُومِ]
- ٧٥٣ [الْعِبَادَةُ حَقٌّ لِلَّهِ]
- ٧٥٣ [إِلَهِيَّةُ الْمُشْرِكِينَ مَخْلُوقَةٌ غَيْرُ خَالِقَةٍ]
- ٧٥٤ [لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ]
- ٧٥٤ [إِعْرَاضُ الْكُفَّارِ عَنِ الْوَحْيِ وَمُضَاعَفَةُ عِقَابِهِمْ]
- ٧٥٥ [بَيَانُ مَا فَعَلَهُ السَّائِقُونَ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ]
- ٧٥٥ [أَحْوَالُ الْكَافِرِينَ عِنْدَ وَقَاتِهِمْ وَبَعْدَهَا]
- ٧٥٥ [قَوْلُ الْمُتَّقِينَ فِي الْوَحْيِ وَجَزَاؤُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ عِنْدَ الْوَفَاةِ وَبَعْدَهَا]
- ٧٥٦ [مَعْنَى تَأَخُّرِ الْكَافِرِينَ عَنِ الْإِيمَانِ انْتِظَارُهُمْ لِلْعَذَابِ]
- ٧٥٧ [اسْتِدْلَالُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى شِرْكِهِمْ بِالْقَدْرِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ٧٥٨ [الْبُعْتُ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ، وَفِيهِ حِكْمَةٌ، وَهُوَ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ]
- ٧٥٨ [جَزَاءُ الْمُهَاجِرِينَ]
- ٧٥٨ [مَا أُرْسِلَ رَسُولٌ إِلَّا مِنَ الْبَشَرِ]
- ٧٥٩ [كَيْفَ يَأْمَنُ الْمُجْرِمُونَ]
- ٧٦٠ [سُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ لِلَّهِ]
- ٧٦٠ [اللَّهُ وَحْدَهُ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ]
- ٧٦١ [مِنْ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ التَّنَدُّرُ لِلْإِلَهَةِ وَمِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ]
- ٧٦١ [نُفُورُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْبَنَاتِ]
- ٧٦٢ [لَا يُؤْخَذُ بِالْمَعَاصِي فَوْرًا]

[رُمِيَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى اللَّهِ مَا يَكْرَهُونَ] ٧٦٢
 [الْتَعَزَّى بِمَنْ سَبَقَ] ٧٦٢
 [أَلْقَضَ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ] ٧٦٢
 [الْعِبْرَةُ وَالنِّعْمَةُ فِي الْأَنْعَامِ وَتَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ] ٧٦٣
 [وَفِي النَّحْلِ وَعَسَلِهَا نِعْمَةٌ وَعِبْرَةٌ] ٧٦٣
 [وَفِي أَطْوَارِ عُمُرِ الْإِنْسَانِ عِبْرَةٌ] ٧٦٤
 [وَفِي أُمُورِ مَعَايِشِ الْإِنْسَانِ آيَةٌ وَنِعْمَةٌ] ٧٦٥
 [وَمِنْ النِّعَمِ وَالْآيَاتِ الْأَزْوَاجُ وَالْأَوْلَادُ وَالْأَحْفَادُ] ٧٦٥
 [الْكِبْرِيُّ عَلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ] ٧٦٦
 [مَثَلٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ أَوْ لِلتَّوَنِّ وَالْحَقِّ] ٧٦٦
 [مَثَلٌ آخَرٌ] ٧٦٦
 [الْعَيْبُ لِلَّهِ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ] ٧٦٦
 [لَوْ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفْئِدَةُ] ٧٦٦
 [وَفِي تَسْخِيرِ الطَّيْرِ فِي جَوْ السَّمَاءِ آيَةٌ] ٧٦٧
 [الْبُيُوتُ وَالْأَنْثَاثُ وَالنِّبَابُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ] ٧٦٧
 [الظُّلُمُ وَالْجِبَالُ وَسَرَابِيلُ الثُّوبِ، وَالْحَدِيدُ أَيْضًا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ] ٧٦٨
 [مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ] ٧٦٨
 [حَالُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحَشْرِ] ٧٦٨
 [تَبَرُّوا إِلَهُهُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا] ٧٦٩
 [يَسْتَسَلِمُ الْجَمِيعُ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ٧٦٩
 [الرِّبَاذَةُ فِي عَذَابِ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْكُفَّارِ] ٧٦٩
 [كُلُّ نَبِيٍّ يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ٧٦٩
 [الْقُرْآنُ بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ] ٧٦٩
 [الْأَمْرُ بِالْإِنصَافِ وَالْإِحْسَانِ] ٧٧٠
 [الْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالتَّهْمِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبُغْيِ] ٧٧٠
 [وَأَقِمْ عَيْنَ لِعُمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] ٧٧٠
 [الْأَمْرُ بِإِيْقَامِ الْعَهْدِ] ٧٧٠
 [لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً] ٧٧٢
 [التَّهْمِي عَنْ أَنْ يُحْلَفَ لِلْخِدَاعِ] ٧٧٢
 [لَا تَتَّقُوا الْأَيْمَانَ لِلدُّنْيَا] ٧٧٢
 [الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَجَزَاؤُهُ] ٧٧٢
 [الْأَمْرُ بِالسَّعَادَةِ قَبْلَ التَّلَاوَةِ] ٧٧٢

[رُمِيَ الْمُشْرِكِينَ الرَّسُولَ بِالْإِفْتِرَاءِ لِنَسْخِ بَعْضِ الْآيَاتِ، وَالرُّدُّ عَلَيْهِمْ] ٧٧٣
 [نِسْبَةُ الْمُشْرِكِينَ تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ إِلَى بَشَرٍ وَالرُّدُّ عَلَيْهِمْ] ٧٧٣
 [قَهَرَ اللَّهُ وَعَضَبَهُ عَلَى الْمُزْتَدِّ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ] ٧٧٤
 [سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ] ٧٧٤
 [يُعْفَرُ لِلْمُكْرَهِ إِذْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ بَعْدَ الْإِكْرَاهِ] ٧٧٥
 [مَثَلٌ لِمَكَّةَ] ٧٧٦
 [الْأَمْرُ بِأَكْلِ الرُّزْقِ الْحَلَالِ وَبِالشُّكْرِ وَبَيَانُ الْحَرَامِ] ٧٧٦
 [تَحْرِيمُ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ عَلَى الْيَهُودِ] ٧٧٧
 [ذِكْرُ خَلِيلِ اللَّهِ] ٧٧٧
 [جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الْيَهُودِ] ٧٧٨
 [الْأَمْرُ بِالذُّعْوَةِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ] ٧٧٨
 [الْأَمْرُ بِالسَّوَادَةِ فِي الْفِصَاصِ] ٧٧٨
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ٧٧٩
 [أَفْضَلُ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ] ٧٧٩
 [بَيَانُ الْإِسْرَاءِ] ٧٧٩
 [ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَرَادَةِ فِي الْإِسْرَاءِ] ٧٨٠
 [رِوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] ٧٨٠
 [رِوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ] ٧٨١
 [رِوَايَةُ أَنَسِ عَنِ أَبِي ذَرٍّ] ٧٨٢
 [رِوَايَةُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] ٧٨٣
 [رِوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا] ٧٨٣
 [رِوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] ٧٨٤
 [رِوَايَةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] ٧٨٤
 [رِوَايَةُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] ٧٨٤
 [رِوَايَةُ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا] ٧٨٥
 [رِمَانُ الْإِسْرَاءِ وَأَنَّهُ كَانَ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ يَقْظَةُ لَا مَنَامًا] ٧٨٥
 [فَائِدَةٌ حَسَنَةٌ جَلِيلَةٌ] ٧٨٦
 [ذِكْرُ مُوسَى وَإِعْطَايَهُ التَّوْرَةَ] ٧٨٦
 [ذِكْرُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ الْيَهُودَ يَطْعُونَ مَرَّتَيْنِ] ٧٨٧
 [الْإِفْسَادُ الْأَوَّلُ مِنَ الْيَهُودِ وَجَزَاؤُهُمْ عَلَيْهِ] ٧٨٧
 [الْإِفْسَادُ الثَّانِي] ٧٨٧
 [مَدْحُ الْقُرْآنِ] ٧٨٨
 [عَجَلَةُ الْإِنْسَانِ وَدُعَاؤُهُ عَلَى نَفْسِهِ] ٧٨٨

- ٨٠٤ [قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]
- ٨٠٥ [أَفْلَكُكُ مِنْ عَلَامَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ]
- ٨٠٥ [الْكَفَّارُ لَا يَذْكُرُونَ عِنْدَ الضَّرِّ إِلَّا اللَّهَ]
- ٨٠٦ [أَلَا يَأْتِي عَذَابُ اللَّهِ فِي الْبُرِّ؟!]
- ٨٠٦ [وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِي الْبَحْرِ . . .]
- ٨٠٦ [بَيَانُ شَرَفِ الْإِنْسَانِ وَكَرَمِهِ]
- ٨٠٧ [كُلُّ أَحَدٍ يُدْعَى بِإِمَامِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٨٠٧ [شِدَّةُ عُقُوبَةِ النَّبِيِّ لَوْ رَكَنَ شَيْئًا قَلِيلًا إِلَى الْكُفَّارِ فِي مُطَابَقَتِهِمْ بِتَغْيِيرِ بَعْضِ الْوَحْيِ]
- ٨٠٧ [سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ]
- ٨٠٨ [الْأَمْرُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا]
- ٨٠٨ [اجْتِمَاعُ الْمَلَائِكَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ]
- ٨٠٩ [الْأَمْرُ بِاتِّهَادِ]
- ٨١٠ [حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]
- ٨١١ [الْأَمْرُ بِالْهَجْرَةِ]
- ٨١١ [وَعِيدُ الْكُفَّارِ قُرَيْشٍ]
- ٨١٢ [الْقُرْآنُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ]
- ٨١٢ [عَادَةُ الْإِنْسَانِ فِي حَالَتِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ]
- ٨١٢ [ذِكْرُ الرُّوحِ]
- ٨١٣ [الرُّوحُ وَالنَّفْسُ]
- ٨١٣ [لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِالْقُرْآنِ]
- ٨١٣ [التَّحَدِّي بِالْقُرْآنِ]
- ٨١٤ [طَلَبُ قُرَيْشٍ آيَاتِ مُعَيَّنَةٍ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ٨١٥ [سَبَبُ رَدِّ طَلَبَاتِ الْمُشْرِكِينَ]
- ٨١٥ [إِيَاءُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْإِيمَانِ لِكُونَ الرَّسُولِ بَشَرًا، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ٨١٦ [الْهُدَايَةُ وَالْإِضْلَالُ بِيَدِ اللَّهِ]
- ٨١٦ [جَزَاءُ أَهْلِ الضَّلَالِ]
- ٨١٧ [الْإِنْسَانُ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ]
- ٨١٧ [تِسْعُ آيَاتِ لِمُوسَى]
- ٨١٨ [إِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ]
- ٨١٩ [نَزْلُ بِالْحَقِّ مُتَمَرِّقًا]
- ٨١٩ [الْقُرْآنُ حَقٌّ يَعْرِفُ بِهِ السَّابِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ]
- ٨١٩ [لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى]
- ٧٨٨ [اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مِنْ آيَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ الْعَظِيمِ]
- ٧٨٩ [مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابٌ أَعْمَالِهِ]
- ٧٩٠ [لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ]
- ٧٩٠ [لَا عَذَابَ إِلَّا بَعْدَ بَغْيَةِ الرَّسُولِ]
- ٧٩٠ [مَسْأَلَةٌ مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَوْلَادِ الصَّغَارِ]
- ٧٩١ [كَرَاهَةُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ]
- ٧٩١ [قِرَاءَاتُ قَوْلِهِ "أَمْرُنَا" وَمَعَانِيهِ]
- ٧٩١ [تَهْدِيدُ لِقُرَيْشٍ]
- ٧٩٢ [جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ]
- ٧٩٢ [لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ أَحَدًا]
- ٧٩٣ [الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِحْسَانِ بِالْوَالِدَيْنِ]
- ٧٩٣ [غُفْرَانُ زَلَّةِ الْوَالِدِ فِي حَقِّ وَالِدَيْهِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى اللَّهِ]
- ٧٩٤ [الْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالتَّهْيِ عَنِ التَّبْدِيرِ]
- ٧٩٥ [الْإِقْبَادُ فِي الْإِنْفَاقِ]
- ٧٩٥ [التَّهْيِ عَنِ قَتْلِ الْأَوْلَادِ]
- ٧٩٦ [الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الزُّنَا وَأَسْبَابِهِ]
- ٧٩٦ [التَّهْيِ عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ]
- ٧٩٦ [الْأَمْرُ بِالتَّصَرُّفِ الْحَسَنِ فِي مَالِ التَّيِّمِ وَبِالتَّكْيِيلِ الْأَوْفَى وَالتَّوَزُّنِ الْمُسْتَقِيمِ]
- ٧٩٦ [لَا تَكَلِّمُوا إِلَّا بِالْعِلْمِ]
- ٧٩٧ [دَمٌ مِشِيءٌ التَّبَخُّرُ]
- ٧٩٧ [كُلُّ مَا سَبَقَ وَحْيِي وَحِكْمَتِي]
- ٧٩٨ [الرَّدُّ عَلَى الرَّاعِمِينَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ]
- ٧٩٨ [كُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ اللَّهَ]
- ٧٩٩ [الْحِجَابُ عَلَى قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ]
- ٨٠٠ [تَنَاجِي قُرَيْشٍ بَعْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ]
- ٨٠١ [الرَّدُّ عَلَى مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]
- ٨٠٢ [لِيَتَكَلَّمَ الْعِبَادُ بِالْحُسْنِ وَالْأَدَبِ]
- ٨٠٢ [تَفْضِيلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ]
- ٨٠٢ [آلِهَةُ الْمُشْرِكِينَ لَا تَقْدِرُ عَلَى النَّفْعِ وَالضَّرْرِ بَلْ تَطْلُبُ الْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ]
- ٨٠٢ [تُهْلُكُ أَوْ تُعَدِّبُ قَرَى الْكُفَّارِ كُلُّهَا قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ]
- ٨٠٣ [سَبَبُ عَدَمِ إِزْسَالِ الْآيَاتِ]
- ٨٠٣ [إِحَاطَةُ اللَّهِ بِالنَّاسِ وَجَعْلُهُ رُؤْيَا النَّبِيِّ فِتْنَةً لَهُمْ]

- ٨١٩ [الْأَمْرُ بِالْقِرَاءَةِ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمَخَافَةِ]
- ٨٢٠ [بَيَانُ التَّوْحِيدِ]
- ٨٢٠ سُورَةُ الْكَهْفِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ٨٢١ [أَنْزَلَ الْقُرْآنَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا]
- ٨٢١ [سَبَبُ نَزُولِ السُّورَةِ]
- ٨٢٢ [لَا تَأْسَفْ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِ الْمُشْرِكِينَ]
- ٨٢٢ [الَّذِينَ دَارَ الْإِيْتِلَاءُ]
- ٨٢٢ [قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ]
- ٨٢٣ [إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ وَاعْتِزَالُهُمُ الْقَوْمَ]
- ٨٢٥ [مَوْقِعُ الْكَهْفِ]
- ٨٢٦ [رُفُودُهُمْ فِي الْكَهْفِ]
- ٨٢٦ [اسْتِنْقَاظُهُمْ وَبَعْثُهُمْ أَحَدَهُمْ لِيَسْرَاءِ الطَّعَامِ]
- ٨٢٧ [عُثُورُ أَهْلِ الْبَلَدِ عَلَيْهِمْ وَبِنَاؤُهُمْ تَذْكَارًا عَلَى الْكَهْفِ]
- ٨٢٨ [عَدْدُهُمْ]
- ٨٢٨ [الْإِسْتِثْنَاءُ عِنْدَ الْعَزْمِ عَلَى فِعْلِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ]
- ٨٢٩ [مُدَّةُ قِيَامِهِمْ فِي الْكَهْفِ]
- ٨٣٠ [الْأَمْرُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَبِالصَّبْرِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ]
- ٨٣٠ [الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ وَجَزَاءُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ]
- ٨٣١ [جَزَاءُ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ]
- ٨٣٢ [مَثَلُ الْمُشْرِكِ الْغَنِيِّ وَالْمُسْلِمِ الْفَقِيرِ]
- ٨٣٢ [جَوَابُ الْمُؤْمِنِ الْفَقِيرِ]
- ٨٣٣ [الَّتِي سَجَّهَ السَّيِّئَةُ لِلْكَافِرِ]
- ٨٣٣ [مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]
- ٨٣٤ [عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ]
- ٨٣٥ [أَهْمُ أَهْوَالِ السَّاعَةِ]
- ٨٣٦ [قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]
- ٨٣٦ [الْإِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَشْهَدُوا خَلْقَ شَيْءٍ حَتَّى أَنْفُسَهُمْ]
- ٨٣٧ [عَجْزُ الشُّرَكَاءِ عَنِ الْجَوَابِ وَحُضُورُ الْمُجْرِمِينَ النَّارِ]
- ٨٣٧ [تَضْرِيْفُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ]
- ٨٣٨ [بَيَانُ تَمَرُّدِ الْكُفَّارِ]
- ٨٣٨ [أَظْلَمُ النَّاسِ مَنْ أَعْرَضَ بَعْدَ التَّذْكِيرِ]
- ٨٣٩ [قِصَّةُ مُوسَى وَالْحَضِرِ]
- ٨٤١ [إِلْقَاءُ مُوسَى مَعَ الْحَضِرِ وَمُصَاحَبَتُهُ إِيَّاهُ]
- ٨٤١ [قِصَّةُ حَرْقِ السَّفِينَةِ]
- ٨٤٢ [قِصَّةُ قَتْلِ الْعُلَامِ]
- ٨٤٢ [قِصَّةُ إِقَامَةِ الْجِدَارِ]
- ٨٤٢ [تَأْوِيلُ حَرْقِ السَّفِينَةِ]
- ٨٤٢ [تَأْوِيلُ قَتْلِ الْعُلَامِ]
- ٨٤٣ [تَأْوِيلُ إِقَامَةِ الْجِدَارِ بِعَجْرِ أُجْرَةَ]
- ٨٤٣ [أَهْلُ كَانَ الْخَضِرِ نَبِيًّا]
- ٨٤٣ [وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْخَضِرِ]
- ٨٤٣ [قِصَّةُ ذِي الْقُرْنَيْنِ]
- ٨٤٣ [كَانَ ذُو الْقُرْنَيْنِ صَاحِبَ سُلْطَنَةٍ كَبِيرَةٍ]
- ٨٤٤ [ذَهَابُهُ وَبُلُوغُهُ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ]
- ٨٤٥ [ذَهَابُهُ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ]
- ٨٤٥ [ذَهَابُهُ إِلَى أَرْضِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَبِنَاؤُهُ السِّدِّ]
- ٨٤٦ [صَارَ السِّدُّ مَائِعًا وَسَوَّفَ يَدُكُ فُزْبَ الْقِيَامَةِ]
- ٨٤٧ [عَرَضَ جَهَنَّمَ عَلَى الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٨٤٧ [الْأَخْسَرُونَ أَعْمَالًا وَجَزَائُهُمْ]
- ٨٤٧ [جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ]
- ٨٤٨ [لَا تَنْفَعُ كَلِمَاتُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ]
- ٨٤٨ [مُحَمَّدٌ ﷺ بَشَرٌ وَرَسُولٌ وَالْإِلَهُ وَاحِدٌ]
- ٨٤٩ [سُورَةُ مَرْيَمَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ٨٤٩ [قِصَّةُ زَكَرِيَّا وَدُعَاؤُهُ لِلْوَالِدِ]
- ٨٥٠ [قَبُولُ دُعَائِهِ]
- ٨٥٠ [الَّتِي عَجِبَ بَعْدَ قَبُولِ الدُّعَاءِ]
- ٨٥٠ [جَوَابُ الْمَلَكِ]
- ٨٥٠ [عَلَامَةُ الْحَمْلِ]
- ٨٥١ [وِلَادَةُ الْعُلَامِ وَأَوْصَافُهُ]
- ٨٥٢ [قِصَّةُ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ]
- ٨٥٣ [إِسْتِقْرَارُ الْحَمْلِ ثُمَّ الْوِلَادَةُ]
- ٨٥٣ [مَا قِيلَ لَهَا بَعْدَ الْوِلَادَةِ]
- ٨٥٣ [مَرْيَمَ مَعَ الْمَسِيحِ أَمَامَ الْقَوْمِ وَنَكِيرُهُمْ عَلَيْهَا وَرَدُّ الْمَسِيحِ عَلَيْهِمْ]
- ٨٥٤ [عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَلَيْسَ بِوَالِدِهِ]
- ٨٥٦ [أَمْرُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوْحِيدِ ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ بَعْدَهُ]
- ٨٥٦ [إِنْدَارُ الْكُفَّارِ بِيَوْمِ الْحَشْرَةِ]

- ٨٥٨ [وَعَظُّ إِبرَاهِيمَ لِأَبِيهِ]
 ٨٥٨ [جَوَابُ وَالِدِ إِبرَاهِيمَ]
 ٨٥٨ [جَوَابُ خَلِيلِ اللَّهِ]
 ٨٥٩ [وَهَبُ اللَّهِ لِإِبرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ]
 ٨٥٩ [ذَكَرُ مُوسَى وَهَارُونَ]
 ٨٦٠ [ذَكَرُ إِسْمَاعِيلَ]
 ٨٦١ [ذَكَرُ إِدْرِيسَ]
 ٨٦١ [أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ هُمُ الْمُحْتَبُونَ]
 ٨٦١ [خَلَقَهُمُ السُّوءَ وَمَنْ صَلَحَ مِنْهُمْ]
 ٨٦٢ [صِفَةُ جَنَاتِ النَّائِبِينَ الصَّادِقِينَ]
 ٨٦٣ [لَا تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ]
 ٨٦٣ [تَعْجَبُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَالرُّدُّ عَلَى هَذَا التَّعَجُّبِ]
 ٨٦٤ [كُلُّ يَرُدُّ عَلَى جَهَنَّمَ ثُمَّ يَخُوضُ الْمُتَّقُونَ]
 ٨٦٥ [إِفْخَارُ الْكُفَّارِ عَلَى حُسْنِ حَظِّهِمْ مِنَ الدُّنْيَا]
 ٨٦٥ [يُهْمَلُ الْمُتَمَرِّدُ وَلَا يُهْمَلُ]
 ٨٦٥ [زِيَادٌ فِي هِدَايَةِ الْمُهْتَبِينَ]
 ٨٦٥ [الرُّدُّ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنَّهُ يُعْطَى فِي الْآخِرَةِ مَا لَا وَوَلَدًا]
 ٨٦٦ [يَكْفُرُ إِلَهَةَ الْمُشْرِكِينَ بِعِبَادَتِهِمْ]
 ٨٦٧ [تَسَلُّطُ الشَّيَاطِينِ عَلَى الْكَافِرِينَ]
 ٨٦٧ [حَالُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
 ٨٦٧ [النَّكِيرُ الشَّدِيدُ عَلَى نَسَبِ الْوَالِدِ إِلَى اللَّهِ]
 ٨٦٨ [يُجْعَلُ حُبُّ الصَّالِحِينَ فِي الْقُلُوبِ]
 ٨٦٩ [نَزَلُ الْقُرْآنُ لِلتَّبَشِيرِ وَالْإِنذَارِ]
 ٨٦٩ [سُورَةٌ طَهَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
 ٨٦٩ [الْقُرْآنُ تَذَكِيرٌ وَتَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ]
 ٨٧٠ [حَدِيثُ رِسَالَةِ مُوسَى]
 ٨٧١ [أَوَّلُ الْوَحْيِ إِلَى مُوسَى]
 ٨٧١ [قَلْبُ عَصَا مُوسَى حَيَّةٌ]
 ٨٧٢ [يَبْيَضُّ يَدُ مُوسَى مِنْ غَيْرِ سُوءٍ]
 ٨٧٢ [أَمْرُ مُوسَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ لِلْبَلَاغِ]
 ٨٧٢ [دُعَاءُ مُوسَى]
 ٨٧٣ [الْبِسَارَةُ بِقَبُولِ الدُّعَاءِ وَالتَّذَكِيرُ بِالْمَنْ السَّابِقَةِ]
 ٨٧٤ [إِصْطِفَاءُ مُوسَى وَأَمْرُهُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَبِدَعْوَتِهِ بِاللِّينِ وَالرَّفْقِ]
 ٨٧٤ [خَوْفُ مُوسَى مِنْ فِرْعَوْنَ وَتَثْبِثُ اللَّهِ إِلَيْهِ]
 ٨٧٥ [وَعَظُّ مُوسَى أَمَامَ فِرْعَوْنَ]
 ٨٧٥ [الْحَوَارُ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]
 ٨٧٦ [تَبَيَّنَ جَوَابُ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ]
 ٨٧٦ [أَرَى فِرْعَوْنَ كُلَّ الْآيَاتِ وَلَمْ يُؤْمِنْ]
 ٨٧٦ [وَصَفُّ فِرْعَوْنَ آيَاتِ مُوسَى بِالسَّحْرِ وَتَدْبِيرُهُ فِي الْمُعَارَضَةِ]
 ٨٧٧ [اجْتِمَاعُ الْقَرِيبِينَ وَدَعْوَةُ مُوسَى لِلسَّحْرَةِ]
 ٨٧٨ [الْمُعَارَضَةُ وَعَلَبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحْرَةِ]
 ٨٧٨ [عَدَدُ السَّحْرَةِ]
 ٨٧٨ [تَقَلُّبُ فِرْعَوْنَ عَلَى السَّحْرَةِ وَتَهْدِيدُهُ وَجَوَابُهُمْ]
 ٨٧٩ [وَعَظُّ السَّحْرَةِ أَمَامَ فِرْعَوْنَ]
 ٨٨٠ [خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ]
 ٨٨٠ [تَذَكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]
 ٨٨١ [ذَهَابُ مُوسَى إِلَى مَوْعِدِ اللَّهِ وَوُفُوعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ]
 ٨٨١ [نَهْيُ هَارُونَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَنِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَإِضْرَارُهُمْ عَلَيْهَا]
 ٨٨٣ [مَا حَصَلَ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ بَعْدَمَا رَجَعَ مُوسَى]
 ٨٨٣ [كَيْفَ نَحَتَ السَّامِرِيُّ الْعِجْلَ؟]
 ٨٨٣ [عِقَابُ السَّامِرِيِّ وَتَحْرِيقُ الْعِجْلِ]
 ٨٨٤ [الْقُرْآنُ ذَكَرُ اللَّهِ الْجَامِعُ وَبَيَانَ عُقُوبَةَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ]
 ٨٨٤ [تَفْخُ الصُّورِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ]
 ٨٨٥ [تُنْشَفُ الْجِبَالُ وَتُصَيَّرُ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا]
 ٨٨٥ [يَسْعَى النَّاسُ لِصَوْتِ الدَّاعِي]
 ٨٨٥ [السَّفَاعَةُ وَالْحَزَاءُ]
 ٨٨٦ [أَنْزَلُ الْقُرْآنَ لِيَتَّبِعِيَ النَّاسُ وَيَتَذَكَّرُوا]
 ٨٨٦ [أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ عِنْدَ النَّزُولِ دُونَ الْإِسْتِعْجَالِ لِقِرَائَتِهِ]
 ٨٨٧ [قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]
 ٨٨٧ [إِنْزَالُ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ وَعَوْدُ الْخَيْرِ لِمَنْ اهْتَدَى وَالشَّرِّ لِمَنْ بَغَى]

- ٨٨٨ [الْعَذَابُ الشَّدِيدُ لِلْمُصْرِفِينَ]
- ٨٨٩ [فِي إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ عِبْرَةٌ لِّلْمُعْتَبِرِينَ]
- ٨٨٩ [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَبِإِدَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ]
- ٨٨٩ [لَا تَنْظُرْ إِلَى مَنَعَةِ الْأَغْنِيَاءِ وَاصْبِرْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ]
- ٨٩٠ [طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ آيَةٌ]
- ٨٩١ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ٨٩١ [فَضْلُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ]
- ٨٩١ [السَّاعَةُ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا]
- ٨٩٢ [قَوْلُ الْكُفَّارِ فِي الْقُرْآنِ وَالرُّسُولِ، وَطَلَبُهُمُ الْآيَاتِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ٨٩٢ [لَمْ يَكُنِ الرَّسُلُ إِلَّا بَشَرًا]
- ٨٩٣ [فَضْلُ الْقُرْآنِ]
- ٨٩٣ [كَيْفَ أَهْلَكَ الظَّالِمُونَ؟]
- ٨٩٤ [خَلْقُ الْكُونِ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ]
- ٨٩٤ [كُلُّ شَيْءٍ مَلِكٌ لِلَّهِ وَعَبْدٌ لَهُ]
- ٨٩٤ [الرَّدُّ عَلَى الْآلِهَةِ الْكَاذِبَةِ]
- ٨٩٤ [الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ وَيَبَانُ أَعْمَالِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ]
- ٨٩٥ [آيَاتُ اللَّهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ]
- ٨٩٧ [لَيْسَ لِأَحَدٍ الْخُلُودُ فِي الدُّنْيَا]
- ٨٩٧ [إِسْتِهْزَاءُ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ]
- ٨٩٨ [إِسْتِعْجَالُ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ]
- ٨٩٨ [الْعِبْرَةُ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ]
- ٨٩٨ [إِنْخِدَاعُ الْمُشْرِكِينَ لِطُولِ اسْتِمْتَاعِهِمْ بِالدُّنْيَا وَيَبَانُ الْحَقِّ لَهُمْ]
- ٨٩٩ [إِنْزَالُ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ]
- ٩٠٠ [قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ]
- ٩٠٠ [كَسْرُ الْخَلِيلِ الْأَصْنَامِ]
- ٩٠١ [إِعْتِرَافُ الْقَوْمِ بِعَجْزِ الْآلِهَةِ وَوَعظُ إِبْرَاهِيمَ]
- ٩٠٢ [إِلْقَاءُ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ وَتَصَرُّفُ اللَّهِ فِيهَا]
- ٩٠٢ [هَجْرَةُ خَلِيلِ اللَّهِ إِلَى النَّسَامِ وَمَعَهُ لُوطٌ]
- ٩٠٣ [ذِكْرُ لُوطٍ]
- ٩٠٣ [ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ]
- ٩٢٢ [ذِكْرُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَمَا أُوتِيَا مِنَ الْآيَاتِ وَذِكْرُ قِصَّةِ
- ٩٠٤ [نَفْسِ الْغَمَمِ فِي الرُّزْعِ]
- ٩٠٥ [سُلْطَنَةُ سُلَيْمَانَ لَا مِثَالَ لَهَا]
- ٩٠٥ [ذِكْرُ أَيُّوبَ]
- ٩٠٦ [ذِكْرُ إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيَسَ وَذِي الْكُفْلِ]
- ٩٠٦ [ذِكْرُ يُوسُفَ]
- ٩٠٧ [ذِكْرُ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى]
- ٩٠٧ [ذِكْرُ عِيسَى وَمَرْيَمَ الصَّادِقَاتِ]
- ٩٠٨ [النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ]
- ٩٠٨ [لَا يَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا مَنْ هَلَكَ]
- ٩٠٨ [ذِكْرُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ]
- ٩١١ [الْمُشْرِكُونَ وَالْهَيْهَاتُمْ وَقَوْلُ جَهَنَّمَ]
- ٩١١ [ذِكْرُ حَالِ السَّعْدَاءِ]
- ٩١٢ [تَطَوُّى السَّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٩١٢ [الْأَرْضُ يَرِيئُهَا الصَّالِحُونَ]
- ٩١٣ [مُحَمَّدٌ ﷺ رَحْمَةٌ لِّلْعَالَمِينَ]
- ٩١٣ [خِلَاصَةُ الْوَحْيِ أَنْ اغْبُدُوا اللَّهَ]
- ٩١٤ [لَا يَعْلَمُ وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا اللَّهُ]
- ٩١٤ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ {وَهِيَ مَكِّيَّةٌ}]
- ٩١٤ [أَهْوَالُ السَّاعَةِ]
- ٩١٦ [دَمٌ مُّبْعِي الشَّيْطَانِ]
- ٩١٦ [دَلَائِلُ النَّعْتِ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالنَّبَاتِ]
- ٩١٦ [تَطَوُّرُ النَّطْفَةِ وَالْجَنِينِ فِي الرَّحْمِ]
- ٩١٦ [تَطَوُّرُ الْإِنْسَانِ مِنَ الطُّفُولَةِ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ]
- ٩١٧ [مِثَالُ آخَرٍ لِّلْبُعْثِ مِنَ النَّبَاتِ]
- ٩١٧ [بَيَانُ حَالِ رُؤَسَاءِ الْمُتَبَدِّعِينَ وَالصَّالِحِينَ]
- ٩١٨ [مَعْنَى الْعِبَادَةِ عَلَى حَرْفٍ]
- ٩١٨ [جَزَاءُ الصَّالِحِينَ]
- ٩١٩ [لَيُبَصِّرَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ مَهْمَا غَاطَّ عَدُوَّهُ]
- ٩١٩ [إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَ الْفِرْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٩١٩ [كُلُّ شَيْءٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ]
- ٩٢٠ [سَبَبُ التَّرْوِيلِ]
- ٩٢١ [جَزَاءُ الْكُفَّارِ]
- ٩٢١ [جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ]
- ٩٢٢ [الْوَعْدُ لِمَنْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ]

- ٩٤٥ [قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]
- ٩٤٦ [قِصَّةُ عَادٍ أَوْ ثَمُودَ]
- ٩٤٧ [ذِكْرُ الْأُمَمِ الْأُخْرَى]
- ٩٤٧ [قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ]
- ٩٤٨ [ذِكْرُ عِيسَى وَمَرْيَمَ]
- ٩٤٨ [الْأَمْرُ بِأَكْلِ الْحَلَالِ وَبِالْعَمَلِ الصَّالِحِ]
- ٩٤٩ [دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ التَّوْحِيدُ وَالْوَعْدُ لِلَّذِينَ تَقَرَّفُوا]
- ٩٤٩ [صِفَاتُ أَهْلِ الْخَيْرِ]
- ٩٥٠ [بَيَانُ عَدْلِ اللَّهِ وَتَقَلُّبَاتِ الْمُشْرِكِينَ]
- ٩٥١ [الْكَرْدُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَدَثْمُهُمْ]
- ٩٥١ [الْحَقُّ لَا يَتَّبِعُ الْهَوَى]
- ٩٥٢ [الْأَنْبِيَاءُ لَا يَسْأَلُ أَجْرًا وَيَدْعُو إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ]
- ٩٥٢ [ذِكْرُ أَحْوَالِ الْكُفَّارِ]
- ٩٥٣ [التَّذْكِيرُ بِنِعْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ]
- ٩٥٣ [اسْتِيعَادُ الْمُشْرِكِينَ الْبُعْتُ بَعْدَ الْمَوْتِ]
- ٩٥٣ [إِفْرَارُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ وَإِلْزَامُهُمْ بِذَلِكَ بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ]
- ٩٥٥ [لَا شَرِيكَ لِلَّهِ]
- ٩٥٥ [الْأَمْرُ بِالدُّعَاءِ عِنْدَ حُلُولِ النَّعْمِ وَبِالدَّفْعِ الْحَسَنِ وَبِالتَّعْوِذِ]
- ٩٥٥ [تَمَنِّي الْكُفَّارِ عِنْدَ الْإِحْتِصَارِ]
- ٩٥٦ [الْبُرْزُخُ وَعَذَابُهُ]
- ٩٥٧ [التَّفَخُّ فِي الصُّورِ وَوَزْنُ الْأَعْمَالِ]
- ٩٥٧ [تَوْبِيخُ أَهْلِ النَّارِ وَاعْتِرَافُهُمْ بِشِقْوَتِهِمْ وَطَلْبُهُمُ الْخُرُوجَ مِنْهَا]
- ٩٥٧ [جَوَابُ اللَّهِ وَرُدُّهُ عَلَى الْكُفَّارِ]
- ٩٥٨ [إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقِ الْعِبَادَ عَبَثًا]
- ٩٥٨ [الشَّرْكُ ظُلْمٌ عَظِيمٌ لَا فَلَاحَ لِصَاحِبِهِ]
- ٩٥٩ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الثَّوْرِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ]
- ٩٥٩ [أَهْمِيَّةُ سُورَةِ الثَّوْرِ]
- ٩٥٩ [بَيَانُ حَدِّ الزَّنَا]
- ٩٦٠ [لَا تَكُنْ لَدَيْكُمْ رَأْفَةٌ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ]
- ٩٦٠ [أَقِيمُوا الْحَدَّ بِحَضْرَةِ النَّاسِ]
- ٩٦٠ [بَيَانُ حَدِّ الْقَذْفِ]
- ٩٢٢ [مَسْأَلَةُ إِبْجَارِ بُيُوتِ مَكَّةَ]
- ٩٢٣ [الْوَعْدُ لِمَنْ أَرَادَ الْإِلْحَادَ فِي الْحَرَمِ]
- ٩٢٣ [بِنَاءُ الْكَعْبَةِ وَالتَّأْذِينَ بِالْحَجِّ]
- ٩٢٤ [فِي الْحَجِّ مَنَافِعُ الدَّارَيْنِ]
- ٩٢٥ [الْأَجْرُ عَلَى اجْتِنَابِ الْمَعَاصِي]
- ٩٢٦ [جَلَّةُ الْأَنْعَامِ]
- ٩٢٦ [الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الشُّرْكِ وَالْكَذِبِ]
- ٩٢٦ [بَيَانُ الْأَصَاحِي وَتَفْسِيرُ شُعَائِرِ اللَّهِ]
- ٩٢٧ [مَنَافِعُ الْبُذْنِ]
- ٩٢٧ [الْتِسَاكُ مَشْرُوعٌ فِي جَمِيعِ مَلَلِ الْعَالَمِ]
- ٩٢٨ [الْأَمْرُ بِنَحْرِ الْبُذْنِ]
- ٩٢٩ [الْمَقْصُودُ مِنَ الْأُضْحِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ إِخْلَاصُ الْعَبْدِ وَتَقْوَاهُ]
- ٩٣٠ [بِسَارَةِ الدَّفَاعِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ]
- ٩٣٠ [الْإِذْنُ بِالْقِتَالِ، وَهِيَ أَوَّلُ آيَةِ الْجِهَادِ]
- ٩٣١ [وَأَجِبَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ تَمَكِّيهِمْ مِنَ الْحُكْمِ]
- ٩٣٢ [عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ]
- ٩٣٣ [مُطَابَلَةُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ]
- ٩٣٣ [جَزَاءُ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَأَهْلِ الْفَسَادِ]
- ٩٣٤ [يُدْخِلُ الشَّيْطَانُ فِي أُمَّيَّةِ الرُّسُلِ وَإِبْطَالِ اللَّهِ ذَلِكَ]
- ٩٣٥ [لَا يَزَالُ الْكُفَّارُ فِي الشُّكِّ وَالتَّرَدُّدِ]
- ٩٣٥ [الْأَجْرُ الْعَظِيمُ لِمَنْ هَاجَرَ لِلَّهِ]
- ٩٣٦ [خَالِقُ الدُّنْيَا وَالتَّمَتُّرُ فِيهَا هُوَ اللَّهُ]
- ٩٣٧ [آيَاتُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ]
- ٩٣٨ [يَكُلُّ قَوْمٌ مَنَسْكَ]
- ٩٣٨ [عِبَادَةُ الْمُشْرِكِينَ غَيْرَ اللَّهِ وَشِدَّةُ انْكَارِهِمْ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ]
- ٩٣٩ [بَيَانُ حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَحِمَاقَةِ عَابِدِيهَا]
- ٩٣٩ [إِخْتِيَارُ اللَّهِ رُسُلًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَرُسُلًا مِنَ النَّاسِ]
- ٩٤٠ [الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ وَالجِهَادِ]
- ٩٤١ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ٩٤١ [الْفَلَاحُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَذِكْرُ صِفَاتِهِمْ]
- ٩٤١ [آيَةُ اللَّهِ فِي تَطَوُّرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنَ التُّرَابِ ثُمَّ مِنَ التُّطْفَةِ إِلَى مَا بَعْدَهَا]
- ٩٤٣ [إِنِّي أَنبَأُكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَا يَمُوتُ وَلَا يَنْسِي، وَأَنْبَأُكُمْ بِالنَّارِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ]
- ٩٤٤ [بَيَانُ حَقِّقَةِ الْوَعْدِ بِالنَّارِ]
- ٩٤٤ [آيَاتُهُ فِي الْمَطَرِ وَالتَّبَاتِ وَالأَشْجَارِ وَالأَنْعَامِ]

- ٩٦٠ [بَيَانُ تَوْبَةِ الْفَآذِبِ]
- ٩٦١ [بَيَانُ اللَّعَانِ]
- ٩٦١ [سَبَبُ نَزُولِ آيَةِ اللَّعَانِ]
- ٩٦٢ [حَدِيثُ الْإِفْكِ]
- ٩٦٥ [تَأْدِيبُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِسَاعَةِ الْإِفْكِ]
- ٩٦٦ [فَضْلُ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الْإِفْكِ بِتَوْفِيقِ اللَّتْوَبَةِ لَهُمْ]
- ٩٦٦ [التَّأْدِيبُ مَرَّةً أُخْرَى]
- ٩٦٦ [تَأْدِيبٌ مَنْ يُحِبُّ إِسَاعَةَ الْفَآحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ]
- ٩٦٧ [التَّذْكِيرُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ خُطُوبِ الشَّيْطَانِ]
- ٩٦٧ [حُثًّا لِأَوْلِي الْفَضْلِ عَلَى الْمَطْءِ وَالسَّمَاكِ]
- ٩٦٨ [الْوَعْدُ عَلَى رَمِي الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ]
- ٩٦٨ [عَاشِئَةُ طَيِّبَةٌ لِأَنَّهَا لِأَطْيَبِ الْبَشَرِ]
- ٩٦٩ [الْأَسْتِثْذَانُ وَآدَابُ الدُّخُولِ فِي الْبُيُوتِ]
- ٩٧١ [الْأَمْرُ بِعَضِّ الْبَصْرِ]
- ٩٧٢ [أَحْكَامُ الْحِجَابِ]
- ٩٧٣ [آدَابُ مَسِي الْمَرْأَةِ فِي الطَّرِيقِ]
- ٩٧٤ [الْأَمْرُ بِالنِّكَاحِ]
- ٩٧٤ [الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَافِ لِمَنْ لَمْ يَتَذَرَّ عَلَى النِّكَاحِ]
- ٩٧٥ [الْأَمْرُ بِمُكَاتَبَةِ الْعَبِيدِ]
- ٩٧٥ [الْتَهِي عَنْ إِخْرَافِ الْإِمَاءِ عَلَى الرِّثَا]
- ٩٧٥ [ذِكْرُ الْآثَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ]
- ٩٧٦ [مَثَلُ نُورِ اللَّهِ]
- ٩٧٧ [فَضَائِلُ الْمَسَاجِدِ وَآدَابُهَا وَفَضَائِلُ الْمُتَعَاهِدِينَ لَهَا]
- ٩٧٩ [مَثَلَانِ لِتَوْعِي الْكُفَّارِ]
- ٩٨٠ [كُلُّ يُسْبِحُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَهُ الْمُلْكُ]
- ٩٨١ [الْتَنِيهِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ بِخَلْقِ السَّحَابِ وَمَا يَتَّبِعُهُ]
- ٩٨١ [قُدْرَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِ الدَّوَابِّ]
- ٩٨٢ [جِبِلُّ الْمُتَأَفِّقِينَ وَحَالُ الْمُؤْمِنِينَ]
- ٩٨٣ [وَعْدُ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِخْلَافِ]
- ٩٨٣ [الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالطَّاعَةِ، وَبَيَانُ عَجْزِ الْكُفَّارِ وَمَصِيرِهِمْ]
- ٩٨٦ [أَوْقَاتُ اسْتِثْنَانِ الْمَمْلُوكِينَ وَالصَّغَارِ]
- ٩٨٦ [لَا جُنَاحَ عَلَى الْعَجَائِزِ إِنْ لَمْ يَخْتَجِبْنَ]
- ٩٨٧ [الْأَكْلُ مِنْ بُيُوتِ الْأَقْرَبَاءِ]
- ٩٨٨ [الْأَسْتِثْذَانُ عِنْدَ الْإِنْصِرَافِ إِذَا مَا كَانُوا عَلَى أَمْرِ جَامِعٍ]
- ٩٨٩ [بَيَانُ الْأَدَبِ فِي مُخَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ]
- ٩٨٩ [الْتَهِي عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ]
- ٩٨٩ [يَعْلَمُ اللَّهُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ]
- ٩٩٠ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَرْقَانِ [وَهِيَ] مَكْتَبَةٌ]
- ٩٩٠ [تَبَارَكَ اللَّهُ]
- ٩٩١ [بَيَانُ سَفَاهَةِ الْمُشْرِكِينَ]
- ٩٩١ [أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الْقُرْآنِ]
- ٩٩٢ [أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الرَّسُولِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ وَبَيَانُ مَصِيرِهِمْ]
- ٩٩٣ [الْتَارُ خَيْرٌ أَمِ الْحَجَّةُ]
- ٩٩٤ [تَبْرِي إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٩٩٤ [كُلُّ مَنْ سَقَى مِنَ الرَّسُولِ كَانَ بَشْرًا]
- ٩٩٥ [بَيَانُ تَعَنَّتِ الْكُفَّارِ]
- ٩٩٦ [مُسْتَقَرُّ أَهْلِ الْحَجَّةِ]
- ٩٩٧ [أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتَمَيُّ الظَّالِمِ اتِّخَاذَ سَبِيلِ الرَّسُولِ]
- ٩٩٧ [الرَّسُولُ يَشْكُو مُخَالَفِيهِ]
- ٩٩٨ [الْحِكْمَةُ فِي إِتْرَالِ الْقُرْآنِ مُتَفَرِّقًا وَالرَّدُّ عَلَى الْكُفَّارِ وَبَيَانُ سُوءِ مَصِيرِهِمْ]
- ٩٩٩ [تَحْوِيفُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ]
- ١٠٠٠ [إِسْتِهْزَاءُ الْكَافِرِينَ بِالرَّسُولِ ﷺ]
- ١٠٠٠ [إِتِّخَاذُهُمْ أَهْوَاءَهُمْ إِلَهَةً وَكُوفُهُمْ أَصْلَ مِنَ الْأَنْعَامِ]
- ١٠٠٠ [الْدَّلَائِلُ عَلَى وُجُودِ الْبَارِي وَسَعَةِ قُدْرَتِهِ]
- ١٠٠٠ [عُمُومُ رِسَالَتِهِ ﷺ وَتَنَبُّهُ عَلَيْهِ وَذِكْرُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ]
- ١٠٠٢ [جَهَالَةُ الْمُشْرِكِينَ]
- ١٠٠٣ [الرَّسُولُ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ]
- ١٠٠٣ [أَمْرُ الرَّسُولِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَذِكْرُ بَعْضِ صِفَاتِهِ]
- ١٠٠٤ [دَمُّ الْمُشْرِكِينَ]
- ١٠٠٤ [بَيَانُ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ]
- ١٠٠٥ [بَيَانُ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ]
- ١٠٠٥ [مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ إِجْتِنَابُ الشُّرْكِ وَالْقَتْلِ وَالزَّوَانِ]
- ١٠٠٦ [بَعْضُ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ]
- ١٠٠٧ [بَعْضُ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ]

- ١٠٢٧..... [الرُّدُّ عَلَى أَفْرَاءِ الْمُشْرِكِينَ]
- ١٠٢٨..... [الرُّدُّ عَلَى قَوْلِهِمْ فِي النَّبِيِّ ﷺ إِنَّهُ شَاعِرٌ]
- ١٠٢٨..... [اسْتِثْنَاءُ شُعْرَاءِ الْإِسْلَامِ]
- ١٠٢٩..... تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّفْلِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٠٢٩..... [الْقُرْآنُ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ نَذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ]
- ١٠٣٠..... [قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَصِيرُ فِرْعَوْنَ]
- [ذِكْرُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَتَرْبِيَةُ جُنُودِهِ وَمُرُورُهُ عَلَى وَادِي النَّمْلِ]
- ١٠٣١..... [غِيَابُ الْهَدُودِ]
- [الْهَدُودُ بَيْنَ يَدَيْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِخْبَارُهُ عَنْ سَيِّئِ]
- ١٠٣٣..... [كِتَابُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى بَلْقَيْسَ]
- ١٠٣٣..... [مُشَاوَرَةُ بَلْقَيْسَ مَعَ مَلَائِكَةٍ]
- ١٠٣٤..... [الْهَدْيَةُ وَجَوَابُ سُلَيْمَانَ]
- ١٠٣٤..... [إِحْضَارُ عَرْشِ بَلْقَيْسَ فِي لَحْظَةٍ]
- ١٠٣٦..... [إِخْتِيَارُ بَلْقَيْسَ]
- ١٠٣٧..... [قَالَ: إِنَّهُ صَرَّحَ مُرَدِّدًا مِنْ قَوَارِيرِ]
- ١٠٣٧..... [بَيْنَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَمُودَ]
- ١٠٣٧..... [مَكْرُ طَائِفَةِ الْمُفْسِدِينَ وَمَصِيرُ قَوْمِ نَمُودَ]
- ١٠٣٨..... [ذِكْرُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]
- ١٠٣٩..... [الْأَمْرُ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى رُسُلِهِ]
- ١٠٣٩..... [بَعْضُ أَوْلِيَةِ التَّوْحِيدِ]
- ١٠٤٠..... [قِصَّةُ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]
- ١٠٤٠..... [بَيَانُ خِلَافَةِ الْأَرْضِ]
- ١٠٤٢..... [عَالِمُ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ]
- ١٠٤٢..... [اسْتِثْنَاءُ الْبُعْثِ وَالرُّدِّ عَلَيْهِ]
- [الْقُرْآنُ يَقْصُرُ أَكْثَرَ اخْتِلَافِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ]
- ١٠٤٣..... [الْأَمْرُ بِالتَّوَكُّلِ فِي الْبَلَاغِ]
- ١٠٤٤..... [خُرُوجُ دَايَةَ الْأَرْضِ]
- ١٠٤٤..... [حَشْرُ الطَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٠٤٥..... [أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَزَاءُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ فِيهِ]
- ١٠٤٧..... [الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالدَّعْوَةُ بِالْقُرْآنِ]
- ١٠٤٧..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقُضْصِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٠٠٨..... [جَزَاءُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ وَالْوَعْدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ]
- ١٠٠٨..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعْرَاءِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- [الْقُرْآنُ وَإِعْرَاضُ الْكُفَّارِ عَنْهُ وَقَهْرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ لَوْ شَاءَ اللَّهُ]
- ١٠٠٨..... [بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]
- ١٠٠٩..... [بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسَّحْرَةَ]
- ١٠١٢..... [بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحْرَةَ]
- ١٠١٣..... [خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ]
- ١٠١٣..... [مُطَارَدَةُ فِرْعَوْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِعْرَاقُهُ وَإِعْرَاقُ قَوْمِهِ]
- ١٠١٤..... [وَعَظُّ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رَدِّ الشِّرْكِ]
- ١٠١٤..... [ذِكْرُهُ كَرَمَ اللَّهِ وَلَطْفَهُ بِهِ]
- ١٠١٥..... [دُعَاءُ الْخَلِيلِ لِنَفْسِهِ وَأَبِيهِ]
- ١٠١٦..... [الْمُتَّقُونَ وَالْعَاوُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجِدَالُ الْعَاوِينَ وَحَسْرَتُهُمْ]
- ١٠١٦..... [ذِكْرُ نُوحٍ وَعَظُّهُ لِقَوْمِهِ وَجَوَابُهُمْ]
- ١٠١٧..... [تَهْدِيدُ الْقَوْمِ وَدُعَاءُ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَيْهِمْ وَإِهْلَاكُهُمْ]
- ١٠١٨..... [وَعَظُّ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ عَادَ]
- ١٠١٨..... [جَوَابُ قَوْمِ هُودٍ وَعَدَابُهُمْ]
- ١٠١٩..... [ذِكْرُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَمُودَ]
- ١٠٢٠..... [تَنْذِيرُهُمْ بِأَحْوَالِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ]
- ١٠٢٠..... [جَوَابُ نَمُودَ وَطَلْبُهُمُ الْآيَةَ وَمَجِيئُهُمُ الْعَذَابَ]
- ١٠٢١..... [ذِكْرُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعْوَتُهُ]
- ١٠٢١..... [تَكْبِيرُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِعْلِ قَوْمِهِ، وَجَوَابُهُمْ وَعَدَابُهُمْ]
- ١٠٢٢..... [شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْظُ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ]
- ١٠٢٢..... [الْأَمْرُ بِإِفْيَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ]
- ١٠٢٣..... [جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ وَتَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ وَمَجِيئُهُمُ الْعَذَابَ]
- ١٠٢٣..... [الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ]
- ١٠٢٤..... [ذِكْرُ الْقُرْآنِ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ الْأَوْلِيْنَ]
- ١٠٢٤..... [شِدَّةُ كُفْرِ قُرَيْشٍ]
- ١٠٢٤..... [الْمُكْذِبُونَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ]
- ١٠٢٥..... [نَزَلَ بِالْقُرْآنِ جَبْرِيْلُ لَا الشَّيْطَانُ]
- ١٠٢٦..... [الْأَمْرُ بِإِنْدَارِ الْأَقْرَبِينَ]

- ١٠٤٧ [بَأُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ وَمَا أَرَادَ اللَّهُ لِقَوْمِهِمَا] ١٠٤٧
- [إِيحَاءُ التَّدْبِيرِ إِلَى أُمِّ مُوسَى] ١٠٤٨
- [مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَارِ فِرْعَوْنَ] ١٠٤٨
- [ثَلَاثَةُ حُزْنٍ أُمِّ مُوسَى وَرُجُوعُهُ إِلَيْهَا] ١٠٤٩
- [قَتَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِنَ الْقَبْطِ] ١٠٥٠
- [فَشَوْ سِرَّ الْقَتْلِ] ١٠٥١
- [مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَدْيَنَ وَسَقِيَهُ أَعْنَامَ امْرَأَتَيْنِ] ١٠٥٢
- [مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ يَدَيْ وَالِدِ الْمَرَأَتَيْنِ وَنِكَاحِ مُوسَى بِإِحْدَاهُمَا عَلَى أَجْرَةٍ رَعِي الْعَنَمِ] ١٠٥٢
- [رُجُوعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مِصْرَ وَتَكْرِيمُهُ بِالرَّسَالَةِ وَالْمُعْجَزَاتِ فِي الطَّرِيقِ] ١٠٥٤
- [سُؤَالَ مُوسَى مُؤَاظَرَتَهُ بِأَجِيهِ هَارُونَ وَقَبُولُ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ] ١٠٥٥
- [مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ] ١٠٥٥
- [إِسْتِجْبَارُ فِرْعَوْنَ وَمَصِيرُهُ] ١٠٥٦
- [بَيَانُ نَعَمِ اللَّهِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ] ١٠٥٧
- [الْتِمْسِيهِ عَلَى بُرْهَانِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ] ١٠٥٧
- [تَعَنُّتُ الْكُفَّارِ وَجَوَاهِرُهُمْ] ١٠٥٨
- [لَا يُؤْمِنُ الْمُتَمَرِّدُونَ بِالْمُعْجَزَاتِ] ١٠٥٩
- [الْأَفْرَاءُ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالسَّحْرِ] ١٠٥٩
- [جَوَابُ الْأَفْرَاءِ] ١٠٥٩
- [ضَلَالٌ مِنَ اتَّبَعِ هَوَاهُ] ١٠٥٩
- [الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ] ١٠٥٩
- [يَهْدِي اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ] ١٠٦٠
- [عَذْرُ أَهْلِ مَكَّةَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالرُّدِّ عَلَيْهِمْ] ١٠٦١
- [الْتَعْرِيبُ بِإِهْلَاكِ الْفَرَى وَأَنَّهَا تُهْلِكُ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ] ١٠٦١
- [الدُّنْيَا فَايَةٌ لَا يَسْتَوِي صَاحِبُهَا وَصَاحِبُ الْأَخْرَةِ] ١٠٦٢
- [تَبَرُّؤُ الْمُشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهِمْ كُلِّ عَنِ الْآخِرِ] ١٠٦٢
- [مَوْقِفُهُمْ عَنِ الرُّسُولِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ١٠٦٣
- [اللَّهُ مُتَّفَرِّدٌ بِالْخَلْقِ وَالْعِلْمِ بِالضَّمَائِرِ وَالْإِخْتِيَارِ] ١٠٦٣
- [اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مِنْ نَعَمِ اللَّهِ وَدَلَائِلُ تَوْحِيدِهِ] ١٠٦٤
- [التَّوْبِيخُ وَالرَّجْرُ لِلْمُشْرِكِينَ] ١٠٦٤
- [ذِكْرُ قَارُونَ وَوَعظُ قَوْمِهِ لَهُ] ١٠٦٤
- [خُرُوجُ قَارُونَ فِي الرِّبَةِ وَتَعْلِيْقُ الْقَوْمِ عَلَيْهِ] ١٠٦٥
- [خَسَفُ قَارُونَ فِي الْأَرْضِ مَعَ دَارِهِ] ١٠٦٦
- [اتِّعَاطُ الْقَوْمِ بِخَسْفِهِ] ١٠٦٦
- [نِعَمُ الْأَخْرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ] ١٠٦٦
- [الْأَمْرُ بِالْبَلَاغِ وَالتَّوْحِيدِ] ١٠٦٧
- [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ١٠٦٨
- [إِخْتِيَارُ النَّاسِ حَتَّى يُعْرَفَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ] ١٠٦٨
- [الْمُسِيئُونَ لَا يَقُوْنُونَ اللَّهَ] ١٠٦٨
- [يُحَقِّقُ اللَّهُ رَجَاءَ الصَّالِحِينَ] ١٠٦٩
- [الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدِينَ] ١٠٦٩
- [عَادَاتُ الْمُتَافِقِينَ وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي الْإِخْتِيَارِ] ١٠٧٠
- [جُرْأَةُ الْكُفَّارِ فِي تَحْمَلِ خَطَايَا الْآخَرِينَ بِشَرْطِ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ] ١٠٧٠
- [ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ] ١٠٧١
- [وَعظُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ] ١٠٧٢
- [أَدْلَةُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ١٠٧٢
- [وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ آيَةً فِي النَّارِ] ١٠٧٣
- [وَعظُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ] ١٠٧٤
- [إِيمَانُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَجْرَتُهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ] ١٠٧٤
- [مَا وَهَبَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ بَعْدَ هَجْرَتِهِ، وَمَا جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ مِنَ النَّبِيِّ وَالْكِتَابِ] ١٠٧٤
- [وَعظُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ] ١٠٧٥
- [إِسْتِئْصَارُ لُوطٍ وَمَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ إِلَى لُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ] ١٠٧٦
- [ذِكْرُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ] ١٠٧٦
- [ذِكْرُ مَا تَمَّ بِهِ إِهْلَاكُ أَقْوَامٍ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ] ١٠٧٧
- [تَمْثِيلُ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ بِسَبْتِ الْعَنْكَبُوتِ] ١٠٧٧
- [الْأَمْرُ بِالْبَلَاغِ وَالتَّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ] ١٠٧٨
- [مُجَادَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ] ١٠٧٨
- [كَوْنُ هَذَا الْقُرْآنِ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ] ١٠٧٩
- [طَلْبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ وَجَوَاهِرِهِمْ] ١٠٨٠
- [إِسْتِعْجَالُ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ] ١٠٨١
- [الْأَمْرُ بِالْهَجْرَةِ وَالْوَعْدُ عَلَيْهِمَا بِالرُّزْقِ وَالْحَزَاءِ الْحَسَنِ] ١٠٨١
- [أَدْلَةُ التَّوْحِيدِ] ١٠٨٢

١١٠٢..... [التَّذْكِيرُ بِالنَّعَمِ].
 ١١٠٣..... [اِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ].
 ١١٠٣..... [كَلِمَاتُ اللَّهِ لَا تُحْصَى وَلَا تَعُدُّ].
 ١١٠٤..... [ذِكْرُ قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ].
 ١١٠٥..... [الْأَمْرُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْحَسَنِيَّةِ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ].
 ١١٠٥..... [عَالِمِ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ].
 ١١٠٦..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَسْجِدِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.
 ١١٠٦..... [فَضَّلَ سُورَةَ الْمَسْجِدِ].
 ١١٠٦..... [الْقُرْآنُ كِتَابُ اللَّهِ لَا شَكَّ فِيهِ].
 ١١٠٧..... [اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ لِلْكَوْنِ].
 ١١٠٧..... [تَطْوِيرُهُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ].
 ١١٠٨..... [الرُّدُّ عَلَى اسْتِعْجَادِ الْبُعْثِ].
 ١١٠٨..... [بَيَانُ حَالِ الْمُشْرِكِينَ السَّيِّئِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ].
 ١١٠٩..... [حَالُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَجَزَاؤُهُمْ].
 ١١١٠..... [لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْفَاسِقُ].
 ١١١١..... [كِتَابُ مُوسَى وَإِمَامَةُ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ].
 ١١١١..... [خَلُّوا الْعِبْرَةَ بِالْمَاضِينَ].
 ١١١١..... [إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بِالْمَاءِ دَلِيلُ الْبُعْثِ].
 ١١١٢..... [اسْتِعْجَالُ الْكُفَّارِ لِلْعَذَابِ وَجَوَائِهِمْ].
 ١١١٢..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَخْرَابِ وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ.
 ١١١٢..... [الْأَمْرُ بِالصُّمُودِ فِي وَجْهِ الْكَافِرِينَ وَالْمُتَافِقِينَ، مُتَّبِعًا
 وَحْيِ اللَّهِ، وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ].
 ١١١٣..... [إِنطَالُ النَّبِيِّ].
 ١١١٣..... [يُنسَبُ الْمُتَّبِيُّ إِلَى أَبِيهِ الْحَقِيقِيِّ].
 ١١١٥..... [وَلَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأُمُومَةُ أَرْوَاجِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ].
 ١١١٦..... [الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ].
 ١١١٦..... [ذِكْرُ غَزْوَةِ الْأَخْرَابِ].
 ١١١٦..... [إِتِّلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَاقِفُ الْمُتَافِقِينَ فِي وَقْعَةِ
 الْأَخْرَابِ].
 ١١١٩..... [الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ].
 ١١١٩..... [مَوْقِفُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَخْرَابِ].
 ١١٢٠..... [مَدْحُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَوْقِفِهِمْ وَإِرْجَاءُ أَمْرِ الْمُتَافِقِينَ].
 ١١٢١..... [رَدُّ اللَّهِ الْأَخْرَابَ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ].
 ١١٢٢..... [ذِكْرُ غَزْوَةِ نَبِيِّ قُرَيْظَةَ].

١٠٨٣..... [كُفْرُ قُرَيْشٍ مَعَ مَا حُصِّوا بِنِعْمَةِ الْحَرَمِ حَوْلَهُمْ!].
 ١٠٨٤..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الرُّومِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.
 ١٠٨٤..... [الْتَّبَتُّ بِغَلْبَةِ الرُّومِ].
 ١٠٨٥..... [مَنْ هُمُ الرُّومُ؟].
 ١٠٨٥..... [كَيْفَ غَلَبَ قَيْصَرُ عَلَى كَيْسَرِي؟].
 ١٠٨٧..... [دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ].
 ١٠٨٨..... [الْأَمْرُ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ].
 ١٠٨٩..... [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ].
 ١٠٩٠..... [إِعَادَةُ الْخَلْقِ أَهْوَنَ].
 ١٠٩١..... [مَثَلٌ يَدُلُّ عَلَى التَّوْحِيدِ].
 ١٠٩١..... [الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ].
 ١٠٩١..... [تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الشُّرْكِ وَمِنَ الْفَرَحِ إِلَى
 الْيَأْسِ حَسَبَ الظُّرُوفِ].
 ١٠٩٣..... [الْأَمْرُ بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَمَا وَرَدَ فِي رِبَا الْهَدْيَةِ].
 ١٠٩٣..... [الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْإِمَانَةُ وَالْإِحْيَاءُ بِيَدِ اللَّهِ].
 ١٠٩٣..... [آثَارُ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا].
 ١٠٩٤..... [الْأَمْرُ بِالِاسْتِقَامَةِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ].
 ١٠٩٥..... [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الرِّيَاحُ].
 ١٠٩٥..... [إِحْيَاءُ الْأَرْضِ دَلِيلُ الْبُعْثِ].
 ١٠٩٦..... [الْكُفَّارُ أَمْوَاتٌ، صُمٌّ وَعُمِّيٌّ].
 ١٠٩٦..... [ذِكْرُ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ الْمُخْتَلِفَةِ].
 ١٠٩٧..... [جَهَالَةُ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ].
 ١٠٩٧..... [ضَرْبُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ وَعَدَمُ اِعْتِبَارِ الْكُفَّارِ بِهَا].
 ١٠٩٧..... [مَا رُوِيَ فِي فَضْلِ هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ وَاسْتِحْبَابِ
 قِرَائَتِهَا فِي الْفَجْرِ].
 ١٠٩٧..... تَفْسِيرُ سُورَةِ لُقْمَانَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.
 ١٠٩٨..... [مِنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الِاسْتِعْجَالِ بِلَهْوِ الْحَدِيثِ وَالْإِعْرَاضِ
 عَنِ آيَاتِ اللَّهِ].
 ١٠٩٨..... [ذِكْرُ مَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنِ].
 ١٠٩٩..... [أَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ].
 ١٠٩٩..... [ذِكْرُ لُقْمَانَ].
 ١١٠٠..... [وَصِيَّةُ لُقْمَانَ لِابْنِهِ].
 ١١٠١..... [الْأَمْرُ بِالْإِقْتِصَادِ فِي الْمَشْيِ].
 ١١٠٢..... [نَضَائِحُ لُقْمَانَ].

- ١١٢٣..... [تَخْيِيرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ]
- ١١٢٤..... [إِنْسَاءُ النَّبِيِّ لَسُنَنِ كَعَامَةِ النَّسَاءِ]
- ١١٢٥..... [الْأَمْرُ بِآدَابِ تَكُونُ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا أَسْوَةٌ]
- ١١٢٥..... [أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ]
- ١١٢٦..... [الْأَمْرُ بِالْعَمَلِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ]
- ١١٢٧..... [بَيَانُ سَبَبِ التَّزْوِيلِ]
- ١١٢٨..... [بَيَانُ سَبَبِ التَّزْوِيلِ]
- [عِتَابُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي قِصَّةِ زَيْدٍ وَرَيْبَ وَتَزْوِيجِهِ
- ١١٢٩..... [إِيَّاهَا بَعْدَ الطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ لِإِبْطَالِ النَّبِيِّ]
- ١١٣٠..... [مَدْحُ الْمُتَّبِعِينَ لِرِسَالَاتِ اللَّهِ]
- ١١٣١..... [الرَّسُولُ لَيْسَ أَبَا أَحَدٍ مِنَ الرِّجَالِ]
- ١١٣١..... [هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ]
- ١١٣٢..... [فَضِيلَةُ كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ]
- ١١٣٤..... [صِفَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]
- ١١٣٥..... [الْمُنْعَةُ وَعَدَمُ الإِعْتِدَادِ لِلْمُطْلَقَةِ قَبْلَ الْمَيْسِسِ]
- ١١٣٥..... [بَيَانُ النَّسَاءِ اللَّاتِي أُحْلِلْنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ]
- [تَخْيِيرُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَبُولِ الْوَاهِبَةِ نَفْسَهَا أَوْ رَدِّهَا عَلَى
- ١١٣٧..... [قَوْلِ]
- ١١٣٧..... [الْقَوْلِ الْآخَرُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ]
- ١١٣٨..... [مُجَازَاةُ الْأَزْوَاجِ عَلَى اخْتِيَارِهِنَّ ضُحْبَةَ الرَّسُولِ]
- ١١٣٩..... [آدَابُ الدُّخُولِ فِي بُيُوتِ النَّبِيِّ وَالْأَمْرُ بِالْحِجَابِ]
- [النَّهْيُ عَنِ إِيدَاءِ الرَّسُولِ وَبَيَانُ حُرْمَةِ أَزْوَاجِهِ عَلَى
- ١١٤٠..... [المُسْلِمِينَ]
- ١١٤٠..... [مَنْ لَا تَحْتَجِبُ الْمَرْأَةُ مِنْهُ مِنَ الْأَقَارِبِ]
- ١١٤٠..... [الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ]
- ١١٤٢..... [وَجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ الدُّعَاءِ]
- ١١٤٢..... [فَضْلُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ]
- ١١٤٢..... [وَجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ كُلَّمَا دُكِرَ]
- ١١٤٣..... [الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي ذَلِكَ]
- ١١٤٣..... [مَوَاقِعُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ]
- ١١٤٣..... [أَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ]
- ١١٤٤..... [مَنْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَهُوَ مُلْعُونٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]
- ١١٤٥..... [الْوَعِيدُ لِلْمُفْتَرِينَ]
- ١١٤٥..... [الْأَمْرُ بِالْحِجَابِ]
- ١١٤٦..... [التَّكْبِيرُ وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْمُنَافِقِينَ الْأَشْرَارِ]
- ١١٤٦..... [لَا يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا اللَّهُ]
- ١١٤٦..... [لَعْنُ الْكُفَّارِ وَخُلُودُهُمْ فِي النَّارِ وَحَسْرَتُهُمْ]
- ١١٤٧..... [إِفْتِرَاءُ الْيَهُودِ عَلَى مُوسَى]
- ١١٤٧..... [أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّقْوَى وَالتَّصَدَّقِ]
- ١١٤٧..... [حَمْلُ الْإِنْسَانِ الْأَمَانَةَ]
- ١١٤٨..... [تَبَيُّهُ حَمْلُ الْأَمَانَةَ]
- ١١٤٨..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١١٤٨..... [الْحَمْدُ وَعِلْمُ الْعُنْبِ لِلَّهِ فَقَطًا]
- ١١٤٩..... [إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيَّةٌ لِيُجْزَى كُلُّ حَسَبٍ عَمَلِهِ]
- ١١٥٠..... [إِنْكَارُ الْكُفَّارِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ١١٥٠..... [بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى دَاوُدَ]
- ١١٥١..... [فَضْلُ اللَّهِ عَلَى سُلَيْمَانَ]
- ١١٥٢..... [وَفَاةُ سُلَيْمَانَ]
- ١١٥٢..... [كُفْرَانُ سَيِّئٍ وَعَذَابُهُمْ]
- ١١٥٣..... [سَدُّ مَارِبٍ وَسَيْلِ الْعَرَمِ]
- ١١٥٤..... [تِجَارَةُ سَيِّئٍ وَذَهَابُهَا]
- ١١٥٥..... [تَضَدُّقُ إِبْلِيسَ ظَنَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ]
- ١١٥٥..... [عَجْزُ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ]
- ١١٥٦..... [لَا شَرِيكَ لِلَّهِ فِي أَمْرِ مَا]
- ١١٥٧..... [بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً]
- ١١٥٨..... [سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنِ وَقْتِ الْقِيَامَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- [إِتِّفَاقُ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا عَلَى إِنْكَارِ الْحَقِّ وَمُشَاجَرَتُهُمْ
- ١١٥٨..... [يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- [تَكْذِيبُ الْمُتَرَفِّعِينَ بِالرُّسُلِ وَاعْتِرَازُهُمْ بِالْأَمْوَالِ
- ١١٥٩..... [وَالْأَوْلَادِ]
- ١١٦٠..... [بِرَاءَةُ الْمَلَائِكَةِ مِنْ عَابِدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١١٦١..... [أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ١١٦١..... [طَرِيقُ الْفَضْلِ فِيمَا رَمَوْا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْجُنُونِ]
- ١١٦٢..... [لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا عَلَى الْبَلَاغِ]
- ١١٦٣..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١١٦٣..... [ذِكْرُ قُدْرَةِ اللَّهِ]
- ١١٦٤..... [لَا مُمْسِكَ لِرَحْمَةِ اللَّهِ]
- ١١٦٤..... [دَلِيلُ التَّوْحِيدِ]

- ١١٨٦ [بَيَانُ عَيْشِ أَهْلِ الْجَنَّةِ] ١١٦٥ [الَّتْسَلِيَةُ بِكَذِيبِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْمَعَادِ]
- ١١٨٦ [مَكَانُ الْكُفَّارِ بِالْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَجْرُهُمْ] ١١٦٥ [جَزَاءُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْمَعَادِ]
- ١١٨٧ [الْخَتْمُ عَلَى أَفْوَاهِ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ١١٦٥ [دَلِيلُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]
- ١١٨٨ [إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُعَلِّمْ رَسُولَهُ الشَّعْرَ] ١١٦٦ [مَنْ يُرِدُ الْعِزَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيُطِيعِ الْعَزِيزَ]
- ١١٨٨ [أَلَا نَعَامُ آيَةٌ وَنِعْمَةٌ] ١١٦٦ [أَلْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ يَرْفَعُ إِلَى اللَّهِ]
- ١١٨٩ [إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ لَا تُقَدِّرُ عَلَى نَصْرِهِمْ] ١١٦٦ [أَللَّهُ خَالِقُ وَعَلَامٌ لِلْغُيُوبِ]
- ١١٨٩ [تَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ] ١١٦٧ [مَنْ نِعْمَةٌ اللَّهُ وَآيَاتِهِ]
- ١١٨٩ [إِنْكَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَالرَّدُّ عَلَى ذَلِكَ] ١١٦٨ [إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ]
- ١١٩١ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ١١٦٨ [أَلنَّاسُ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ وَكُلُّ يَحْوِلُ أَوْزَارُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١١٩١ [فَضْلُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ] ١١٦٩ [لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ]
- ١١٩١ [تَشْهَدُ الْمَلَائِكَةُ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِ] ١١٧٠ [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ]
- ١١٩٢ [الْمَعْبُودُ الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ] ١١٧٠ [أَلْمُسْلِمُونَ هُمْ تَجَارُ الْآخِرَةِ]
- ١١٩٢ [تَزْيِينُ السَّمَاءِ وَحِفْظُهَا مِنَ اللَّهِ] ١١٧١ [أَلْقُرْآنُ كِتَابُ اللَّهِ الْحَقُّ]
- ١١٩٣ [جُبُوتُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ١١٧١ [وَرَتْنَةُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ]
- ١١٩٣ [أَهْوَالُ يَوْمِ الدِّينِ] ١١٧١ [فَضْلُ الْعُلَمَاءِ]
- ١١٩٤ [تَخَاصُّمُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ١١٧٢ [جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَحَالُهُمْ فِي جَهَنَّمَ]
- ١١٩٥ [جَزَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَعِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ] ١١٧٤ [التَّنْبِيهِ عَلَى عَجْزِ الشَّرْكَاءِ وَقُدْرَةِ اللَّهِ الْعَالِيَةِ]
- [اجْتِمَاعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَحِوَارُ أَحَدِهِمْ مَعَ صَاحِبِهِ الْمُشْرِكِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ يُعَذِّبُ فِي جَهَنَّمَ . . . وَشُكْرُهُ نِعْمَةٌ اللَّهُ تَعَالَى] ١١٧٤ [دَعْوَى الْكُفَّارِ مَجِيءٌ نَذِيرٌ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ كَفَرُوا بِهِ]
- ١١٩٦ [قِصَّةُ إِسْرَائِيلِيِّينَ] ١١٧٥ [ذِكْرُ السَّنَجِ السَّيِّئَةِ لِتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ]
- ١١٩٧ [ذِكْرُ شَجَرَةِ الرَّثْمِ وَأَصْحَابِهَا] ١١٧٥ [حِكْمَةُ تَأْجِيلِ الْمُؤَاخَذَةِ]
- ١١٩٨ [ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ] ١١٧٥ [تَفْسِيرُ سُورَةِ يَسٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١١٩٩ [قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ] ١١٧٥ [الرَّسُولُ بُعِثَ مُنذِرًا]
- ١٢٠٠ [هَجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ وَابْتِلَاؤُهُ بِدَبْحِ إِسْمَاعِيلَ وَنِعْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ] ١١٧٦ [حَالُ مَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ]
- ١٢٠١ [ذِكْرُ الْأَثَارِ الْوَارِدَةِ بِأَنَّ الدَّبِيحَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَقْطُوعُ بِهِ] ١١٧٦ [قِصَّةُ أَصْحَابِ الْقُرْيَةِ مَعَ الرُّسُلِ، وَهِيَ تُفِيدُ إِهْلَاكَ الْمُكْذِبِينَ]
- ١٢٠٢ [ذِكْرُ مُوسَى وَهَارُونَ] ١١٧٨ [يَا حَسْرَةً عَلَى الْمُكْذِبِينَ]
- ١٢٠٣ [ذِكْرُ إِبْنِ سَبَأٍ] ١١٨١ [الرَّدُّ عَلَى عَقِيدَةِ النَّاسُخِ]
- ١٢٠٤ [ذِكْرُ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ] ١١٨٢ [جُبُوتُ الصَّانِعِ لِلْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]
- ١٢٠٥ [ذِكْرُ قِصَّةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ] ١١٨٢ [وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ]
- ١٢٠٧ [الرَّدُّ عَلَى مَنْ يُنْبِئُ اللَّهُ الْوَلَدَ وَيَجْعَلُ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٍ لَهُ] ١١٨٤ [وَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ حَمْلُهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ]
- ١٢٠٨ [لَا يُؤْمِنُ بِكَلَامِ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ أَضَلُّ مِنْهُمْ] ١١٨٥ [بَيَانُ ضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ]
- ١٢٠٨ [مَقَامُ الْمَلَائِكَةِ وَتَسْبِيحُهُمْ صُفُوفًا] ١١٨٥ [اسْتِيعَادُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْبَعْثِ]
- ١١٨٥ [نَفْخَةُ الْبَعْثِ]

- ١٢٢٩ [مَالُ الْمُكَذِّبِينَ]
- ١٢٢٩ [مَثَلُ الشُّرْكِ]
- ١٢٢٩ [مَوْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفُرُشٍ وَاخْتِصَامُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ]
- ١٢٣١ [جَزَاءُ الْكَاذِبِينَ الْمُكَذِّبِينَ وَالصَّادِقِينَ الْمُصَدِّقِينَ]
- ١٢٣١ [اللَّهُ كَافٍ لِعَبْدِهِ]
- ١٢٣١ [إِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْكَوْنِ وَإِقْرَارُهُمْ بِعَجْزِ آلِهَتِهِمْ]
- ١٢٣٢ [اللَّهُ الَّذِي يُبَيِّتُ وَيُحْيِي]
- ١٢٣٢ [لَا شَفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَاشْتِمَازُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ ذِكْرِهِ تَعَالَى وَخَدَهُ]
- ١٢٣٣ [تَمْوِيضُ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى اللَّهِ]
- ١٢٣٣ [لَا تُقْبَلُ فِدْيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٢٣٤ [تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ الضَّرِّ]
- ١٢٣٥ [الدُّعْوَةُ إِلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْعَذَابُ]
- ١٢٣٦ [ذِكْرُ أَحَادِيثَ فِيهَا تَقْيُّ الْقُتُوبِ]
- ١٢٣٧ [عَاقِبَةُ الْكَاذِبِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَاقِبَةُ الْمُتَّقِينَ]
- ١٢٣٧ [اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ، وَالْإِشْرَاكُ بِهِ يُخْطِئُ الْعَمَلُ]
- ١٢٣٨ [مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ]
- ١٢٣٩ [الْفَتْخُ فِي الصُّورِ وَالْقَضَاءُ وَالْجَزَاءُ]
- ١٢٤٠ [يُسَاقُ الْكُفَّارُ إِلَى جَهَنَّمَ]
- ١٢٤٠ [يُذْهَبُ بِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ]
- ١٢٤٠ [ذِكْرُ سَعَةِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ - نَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهَا]
- ١٢٤٢ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٢٤٣ [فَضْلُ آلِ حَمٍّ]
- ١٢٤٣ [مِنْ صِفَاتِ الْكُفَّارِ الْجِدَالِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَبَيَانِ مَا يَبْرَتُّبُ عَلَيْهِ]
- ١٢٤٤ [حَمَلَةُ الْعَرْشِ يَحْمِدُونَ اللَّهَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ]
- ١٢٤٥ [نَدَامَةُ الْكُفَّارِ بَعْدَ دُخُولِ النَّارِ]
- ١٢٤٦ [أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ مَهْمَا كَانَ]
- ١٢٤٧ [وَحْيِ اللَّهِ لِإِنذَارِ عِبَادِهِ يَوْمَ التَّلَاقِ]
- ١٢٤٨ [الْإِنذَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَضَاءُ اللَّهِ فِيهِ]
- ١٢٤٨ [عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ السَّيِّئَةِ]
- ١٢٤٩ [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]
- ١٢٠٨ [تَمَنَّى فُرَيْشٍ لَوْ كَانَ عِنْدَهَا ذِكْرٌ مِنَ الْأَوْلِيَيْنِ]
- ١٢٠٨ [الْوَعْدُ بِالنَّصْرِ وَالْأَمْرُ بِالتَّوَلَّى عَنْ فُرَيْشٍ]
- ١٢٠٩ [سُورَةُ صَ]
- ١٢١٠ [تَعَجُّبُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالتَّوْحِيدِ وَالتَّقْرَانِ]
- ١٢١١ [ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ]
- ١٢١٢ [التَّلْذِيذُ بِمَنْ أَهْلِكَ مِنَ الْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ]
- ١٢١٣ [ذِكْرُ دَاوُدَ]
- ١٢١٤ [قِصَّةُ الْخَضَمِينَ]
- ١٢١٤ [سَجْدَةُ صَ]
- ١٢١٤ [الْوَصِيَّةُ لِلْحُكَّامِ وَالتَّسْلُطِينَ]
- ١٢١٥ [الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الدُّنْيَا]
- ١٢١٥ [ذِكْرُ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ]
- ١٢١٦ [إِتْيَاءُ سُلَيْمَانَ ثُمَّ التَّفَضُّلُ عَلَيْهِ]
- ١٢١٧ [ذِكْرُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلَامُ]
- ١٢١٩ [ذِكْرُ الْمُضْطَّظِّينَ الْأَخْيَارِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ]
- ١٢١٩ [بَيَانُ مَابِ السُّعْدَاءِ]
- ١٢٢٠ [بَيَانُ مَالِ الْأَشْقِيَاءِ]
- ١٢٢٠ [تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ]
- ١٢٢١ [رِسَالَةُ الرَّسُولِ ﷺ نَبَأٌ عَظِيمٌ]
- ١٢٢١ [قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]
- ١٢٢٢ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٢٢٢ [فَضْلُ سُورَةِ الزُّمَرِ]
- ١٢٢٢ [الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّرَدُّ عَلَى الشُّرْكِ]
- ١٢٢٣ [الْإِسْتِشْهَادُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ]
- ١٢٢٤ [يَغْضَبُ اللَّهُ مِنَ الْكُفْرِ وَيَرْضَى مِنَ الشُّكْرِ]
- ١٢٢٤ [مِنْ كُفْرِ الْإِنْسَانِ: ذِكْرُهُ اللَّهُ فِي الشَّدَّةِ، وَالتَّوْحِيدِ بِهِ بَعْدَ الْفُرْجِ]
- ١٢٢٥ [لَا يَسْتَوِي الْمُطِيعُ وَالتَّعَاصِي]
- ١٢٢٦ [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالتَّهَجُّرَةِ وَإِحْلَاصِ الْعِبَادَةِ]
- ١٢٢٦ [التَّخَوُّيفُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ]
- ١٢٢٦ [الْإِسْأَرَةُ لِلصَّالِحِينَ]
- ١٢٢٧ [مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]
- ١٢٢٨ [لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْحَقِّ وَأَهْلُ الضَّلَالِ]
- ١٢٢٨ [وَصَفُ الْقُرْآنِ]

١٢٧١..... [الْإِشَارَةُ إِلَى النَّاسِي بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

١٢٧١..... [كُلُّ يُجَازَى حَسَبَ عَمَلِهِ]

١٢٧١..... [عَلِمُ السَّاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ]

١٢٧٢..... [تَقَلَّبَ الْإِنْسَانُ حِينَ تُصِيبُهُ السَّرَاءُ بَعْدَ الصَّرَاءِ]

١٢٧٢..... [الْقُرْآنُ وَدَلَائِلُ صِدْقِهِ]

١٢٧٣..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَى وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]

١٢٧٣..... [الْوَحْيُ وَعَظَمَةُ اللَّهِ]

١٢٧٤..... [أَوْحَى الْقُرْآنَ لِلْإِنْدَارِ بِهِ]

١٢٧٤..... [اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَاكِمُ الْخَالِقُ]

١٢٧٥..... [دِينُ الرُّسُلِ وَاحِدٌ]

١٢٧٦..... [وَجْهُ الْإِخْتِلَافِ]

١٢٧٧..... [تَنْبِيهُ لِمَنْ جَادَلَ فِي الدِّينِ]

١٢٧٧..... [رَزَقَ اللَّهُ وَعَظَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

١٢٧٨..... [تَشْرِيعُ الْعِبَادِ شِرْكٌ]

١٢٧٨..... [فَرَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَبْدَأِ الْحَشْرِ]

١٢٧٨..... [الْإِشَارَةُ بِنِعْمِ الْجَنَّةِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ]

١٢٧٩..... [رَمَى النَّبِيُّ بِاخْتِلَاقِ الْقُرْآنِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ]

١٢٧٩..... [اللَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ وَيَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ]

١٢٨٠..... [الْحِكْمَةُ فِي عَدَمِ سِنطِ الرُّزْقِ]

١٢٨٠..... [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ]

١٢٨٠..... [سَبَبُ الْمَصَائِبِ الْعِضْيَانُ]

١٢٨١..... [السُّقُنُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

١٢٨١..... [صِفَاتٌ مَنْ يَسْتَحِقُّ مَا عِنْدَ اللَّهِ]

١٢٨٢..... [فَضِيلَةُ الْعُفْوِ وَخِيَارُ الْإِنْتِصَارِ مِنَ الظَّالِمِ]

١٢٨٣..... [حَالُ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

١٢٨٣..... [الْحُتُّ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

١٢٨٥..... [بَيَانُ كَيْفِيَّةِ الْوَحْيِ]

١٢٨٥..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْرِفِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]

١٢٨٦..... [تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى تَكْذِيبِ قُرَيْشٍ]

١٢٨٦..... [إِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ الْخَلْقِ وَمَزِيدُ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ]

١٢٨٧..... [الْكَيْبُرُ عَلَى جَعْلِ الْمُشْرِكِينَ اللَّهُ وَلَدًا]

١٢٨٨..... [بَيَانُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا حُجَّةَ لَهُمْ]

١٢٨٩..... [إِعْلَانُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبِرَاءَةِ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ]

١٢٨٩..... [إِعْتِرَاضُ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى اللَّهِ فِي إِنْزَالِ الْقُرْآنِ وَجَوَابُهُ]

تَأْيِيدُ مُوسَى بِرَجُلٍ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَخِطَابُ هَذَا
الرجل ١٢٥٠

[اسْتِهْزَاءُ فِرْعَوْنَ بِرَبِّ مُوسَى] ١٢٥٢

[مُؤَاصَلَةُ خِطَابِ مُؤْمِنٍ آلِ فِرْعَوْنَ] ١٢٥٢

[نَهَايَةُ الْخِطَابِ وَمَصِيرُ الْفَرِيقَيْنِ] ١٢٥٣

[ثُبُوتُ عَذَابِ الْقَبْرِ] ١٢٥٣

[تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ] ١٢٥٤

[أَنْصَرَةُ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ] ١٢٥٥

[الْإِشَارَةُ إِلَى نَجَاحِ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِمَثَلِ مُوسَى
وَبَنِي إِسْرَائِيلَ] ١٢٥٦

[الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ١٢٥٦

[الْأَمْرُ بِالدُّعَاءِ] ١٢٥٧

[آيَاتُ اللَّهِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ] ١٢٥٧

[الْتِهَامُ عَنِ الشُّرْكِ وَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ] ١٢٥٨

[مَصِيرُ الْمُجَادِلِينَ الْمُكْذِبِينَ] ١٢٥٩

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالْإِسَارَةُ بِالْفَتْحِ] ١٢٦٠

[الْأَنْعَامُ أَيْضًا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ] ١٢٦٠

[الْعِبَرَةُ بِحَالِ مَنْ سَبَقَ] ١٢٦٠

[تَفْسِيرُ سُورَةِ فَضَّلَتْ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ١٢٦١

[صِفَةُ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالُ الْمُعْرِضِينَ] ١٢٦١

[الدُّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ] ١٢٦٢

[بَعْضُ تَفَاصِيلِ خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ] ١٢٦٣

[تَنْبِيهُ لِلْمُكْذِبِينَ وَتَذَكِيرٌ لَهُمْ بِقِصَّةِ عَادٍ وَثَمُودَ] ١٢٦٤

[يَوْمَ الْحَشْرِ تَشْهَدُ أَعْضَاءُ الْمُجْرِمِينَ عَلَيْهِمْ] ١٢٦٥

[قُرْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ يُزَيِّنُونَ لَهُمْ سُوءَ الْأَعْمَالِ] ١٢٦٦

[تَوَاصِي الْكُفَّارِ بِالْإِمْتِنَاعِ عَنِ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَجَزَاءِ
ذَلِكَ] ١٢٦٦

[الْإِسَارَةُ لِلْمُؤَحِّدِينَ دَوَى الْأَسْتِقَامَةِ] ١٢٦٧

[فَضْلُ الدُّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ] ١٢٦٨

[الْحِكْمَةُ فِي الدُّعْوَةِ وَغَيْرِهَا] ١٢٦٨

[مِنْ آيَاتِ اللَّهِ] ١٢٦٩

[عِقَابُ الْمُتَلَحِّدِينَ وَوَصْفُ الْقُرْآنِ بِكَوْنِهِ مَصُونًا
مَحْرُوسًا مِنَ الْبَاطِلِ] ١٢٧٠

[الْمُشْرِكُونَ وَأَثَرُ الدُّعْوَةِ فِيهِمْ] ١٢٧٠

- ١٢٩٠..... [لَيْسَ الْمَالُ مِنْ عَلَامَةِ الرُّضَا]
- ١٢٩١..... [الْشَّيْطَانُ قَرِينُ الْمُعْرِضِ عَنِ الرَّحْمَنِ]
- ١٢٩١..... [لَا يُهْدَى مَنْ شَفِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ]
- ١٢٩١..... [إِنْتِقَامُ اللَّهِ مِنْ أَعْدَاءِ الرَّسُولِ وَاقِعٌ]
- ١٢٩١..... [أَلْحَثْ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْقُرْآنِ]
- آيَاتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَضِحُّكَ آلِ فِرْعَوْنَ وَتَنَاقُصُهُمْ
عُهُودُهُمْ]..... ١٢٩٢
- ١٢٩٢..... [خِطَابُ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ وَمُؤَاخَذَةُ اللَّهِ إِيَّاهُ]
- ١٢٩٣..... [إِسْتِخْفَافُ فُرَيْشِ لِبَنِي مَرْيَمَ، وَدَرَجَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ]
- ١٢٩٦..... [تَأْتِي الْقِيَامَةُ بَعَثَهُ وَتَفْعُ الْعِدَاوَةُ بَيْنَ الْأَخِلَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ]
- ١٢٩٦..... [بِشَارَةُ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَدُخُولُهُمُ الْجَنَّةَ]
- ١٢٩٧..... [عَاقِبَةُ الْأَشْقِيَاءِ السَّيِّئَةِ]
- ١٢٩٧..... [لَيْسَ لِلَّهِ وَلَدٌ]
- ١٢٩٧..... [بَيَانُ تَقَرُّدِ الرَّبِّ]
- ١٢٩٧..... [نَفْيُ شَفَاعَةِ الْأَوْثَانِ]
- ١٢٩٨..... [إِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ]
- ١٢٩٨..... [شُكُوى النَّبِيِّ ﷺ إِلَى اللَّهِ]
- ١٢٩٨..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٢٩٨..... [فَضْلُ سُورَةِ الدُّخَانِ]
- ١٢٩٨..... [نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ]
- ١٢٩٨..... [تَحْوِيلُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي تَأْتِي السَّمَاءُ
بِالدُّخَانِ]..... ١٢٩٩
- ١٣٠٠..... [الْقَوْلُ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِ الدُّخَانِ]
- ١٣٠١..... [تَفْسِيرُ الْبَطْنَةِ الْكُبْرَى]
- ١٣٠١..... [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَنَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ]
- ١٣٠٣..... [الرَّدُّ عَلَى مُنْكَرِي الْقِيَامَةِ]
- ١٣٠٤..... [خُلِقَتِ الدُّنْيَا لِجَهَنَّمَ]
- ١٣٠٤..... [حَالُ الْمُشْرِكِينَ وَعَذَابُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٣٠٥..... [حَالُ الْمُتَّقِينَ وَنِعْمَتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ]
- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجاثِيَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٣٠٦..... [إِلْزَامُ شَأْدٍ إِلَى التَّمَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ]
- ١٣٠٦..... [صِفَاتُ الْأَفَّاكِ الْأَيْمِ وَجَزَاؤُهُ]
- ١٣٠٧..... [فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ وَغَيْرِهِ آيَاتٌ]
- ١٣٠٧..... [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْمُشْرِكِينَ]
- ١٣٠٨..... [فَضَّلَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاخْتَلَفَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ]
- ١٣٠٨..... [تَحْذِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنِ سُلُوكِ مَنَهِجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ]
- ١٣٠٨..... [لَا تَسْتَوِي حَيَاةُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَمَمَاتُهُمَا]
- ١٣٠٩..... [مُعْتَقِدُ الْكَافِرِ وَحُجَّتُهُ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ]
- ١٣١٠..... [بَعْضُ أَحْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا]
- ١٣١١..... [سُورَةُ الْأَخْفَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٣١١..... [أَلْقُرْآنُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ وَالْكَوْنُ مَخْلُوقٌ لَهُ بِالْحَقِّ]
- ١٣١١..... [الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ]
- ١٣١٢..... [أَقْوَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ وَالرُّسُولِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ١٣١٣..... [أَلْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ الْحَقُّ وَمَوْفِقُ الْكُفَّارِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهُ]
- ١٣١٤..... [وَصِيَّةُ اللَّهِ بِالْوَالِدَيْنِ]
- ١٣١٥..... [أَسْتَبْطُ الْحُكْمِ عَلَى مُدَّةِ الْحَمْلِ: سِتَّةَ أَشْهُرٍ]
- ١٣١٦..... [ذِكْرُ الْأَوْلَادِ الْعَاقِينَ وَمَصِيرُهُمْ]
- ١٣١٧..... [قِصَّةُ عَادٍ]
- ١٣١٩..... [قِصَّةُ اسْتِمَاعِ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ]
- ١٣٢٠..... [دَلِيلُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]
- ١٣٢٠..... [أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ]
- ١٣٢١..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقِتَالِ وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ]
- ١٣٢١..... [جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ]
- ١٣٢١..... [الْأَمْرُ بِضَرْبِ رِقَابِ الْعَدُوِّ وَشَدِّ وَثَاقِهِ ثُمَّ الْمَنُّ أَوْ
الْفِدَاءُ]..... ١٣٢١
- ١٣٢٢..... [فَضْلُ الشُّهَدَاءِ]
- ١٣٢٢..... [أَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ]
- ١٣٢٣..... [الْثَّارُ لِلْكَفَّارِ وَالْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ]
- ١٣٢٤..... [لَا يَسْتَوِي عَابِدُ الْحَقِّ وَعَابِدُ الْهَوَى]
- ١٣٢٤..... [نَعْتُ الْجَنَّةِ بِأَنْهَارِهَا]
- ١٣٢٥..... [بَيَانُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ وَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّسْتِغْفَارِ]
- ١٣٢٥..... [حَالُ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ وَمَرِيضِ الْقَلْبِ عِنْدَ نَزْوِلِ الْأَمْرِ
بِالْجِهَادِ]..... ١٣٢٦
- ١٣٢٧..... [الْأَمْرُ بِتَدْبِيرِ الْقُرْآنِ]
- ١٣٢٧..... [دَمُّ الْأَرْتِدَادِ]
- ١٣٢٨..... [كُتِبَ سِرُّ الْمُنَافِقِينَ]
- ١٣٢٨..... [إِحْبَابُ عَمَلِ الْكُفَّارِ وَالْأَمْرُ بِمَلَا حَقَّتِهِمْ]
- ١٣٢٩..... [بَيَانُ حَقَارَةِ الدُّنْيَا وَالْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ]

١٣٥٠..... [النُّهْيُ عَنِ الظَّنِّ]

١٣٥١..... [طَرِيقَةُ تَوْبَةِ الْمُغْتَابِ وَالنَّمَامِ]

١٣٥١..... [كُلُّ النَّاسِ بِنُو آدَمَ وَحَوَّاءَ]

١٣٥٢..... [الْكَرَمُ بِالتَّقْوَى]

١٣٥٢..... [الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُسْلِمِ]

١٣٥٣..... تَفْسِيرُ سُورَةِ قٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

١٣٥٣..... [بِدَايَةُ الْمُفْصَلِ]

١٣٥٤..... [فَضْلُ سُورَةِ قٍ]

١٣٥٤..... [تَعَجُّبُ الْكُفَّارِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْمَعَادِ، وَالرُّدُّ عَلَيْهِمْ]

١٣٥٥..... [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْمَعَادِ]

١٣٥٦..... [تَذْكِيرُ قُرَيْشٍ بِهَلَاكِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ]

١٣٥٦..... [الإِعَادَةُ أَسهَلُ]

١٣٥٦..... [إِحَاطَتُهُ تَعَالَى وَحِفْظُهُ لِكُلِّ مَا عِنْدَ الْإِنْسَانِ]

..... [التَّذْكِيرُ بِسَكْرَةِ الْمَوْتِ وَنَفْخِ الصُّورِ وَمَا يَلِيهِ مِنْ

١٣٥٧..... الحَسْرِ]

١٣٥٨..... [شَهَادَةُ الْمَلِكِ وَأَمْرُ اللَّهِ بِالْقَاءِ الْكَاْفِرِ فِي جَهَنَّمَ]

١٣٥٨..... [إِخْتِصَامُ الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ عِنْدَ اللَّهِ]

١٣٥٨..... [أَحْوَالُ جَهَنَّمَ وَالنَّجْنَةَ وَأَهْلِهَا]

..... [تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ وَأَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ

١٣٦٠..... وَالصَّلَاةِ]

١٣٦٠..... [الْأَمْرُ بِالتَّسْبِيحِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ]

١٣٦١..... [التَّذْكِيرُ بِبَعْضِ مَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

١٣٦١..... [تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ]

١٣٦١..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الدَّارِيَاَتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

١٣٦٢..... [التَّأَكِيدُ عَلَى صِدْقِ وَفُوعِ الْمَعَادِ وَالْحِسَابِ]

١٣٦٢..... [إِخْتِلَافُ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ]

١٣٦٣..... [جَزَاءُ الْمُتَمَتِّينَ وَصِفَاتُهُمْ]

١٣٦٤..... [آيَاتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَالنَّفْسِ]

١٣٦٤..... [حَدِيثُ صَنْبِ إِبْرَاهِيمَ]

١٣٦٥..... [شَأْنُ الْمَلَائِكَةِ إِهْلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ]

١٣٦٦..... [الْعَيْبُرُ مِنْ صِصَةِ فِرْعَوْنَ وَعَادِ وَثَمُودَ وَقَوْمِ نُوحٍ]

..... [دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ

١٣٦٧..... رُوحَيْنِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ]

١٣٦٧..... [تَكْذِيبُ كُلِّ قَوْمٍ رَسُوْلَهُمْ عَلَى طَرِيقِ وَاحِدٍ]

١٣٢٩..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

١٣٢٩..... [فَضْلُ سُورَةِ الْفَتْحِ]

١٣٣٠..... [سَبَبُ نُزُولِ سُورَةِ الْفَتْحِ]

١٣٣١..... [نُزُولُ السَّكِيَّةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ]

١٣٣١..... [صِفَاتُ رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ]

١٣٣١..... [بَيَعَةُ الرُّضْوَانِ]

١٣٣٢..... ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ

١٣٣٢..... ذِكْرُ سَبَبِ هَذِهِ الْبَيَعَةِ الْعَظِيمَةِ

..... [الْعُدْرُ الْمَكْذُوبُ مِمَّنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْحَدِيثِيَّةِ وَوَعِدُ اللَّهِ

١٣٣٥..... عَلَيْهِ]

..... [الإِخْبَارُ بِمَرِيدِ الْجِهَادِ وَأَنَّهُ يَكُونُ فُرُقَانًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ

١٣٣٥..... وَالْمُنَافِقِينَ]

١٣٣٦..... [الأَعْدَارُ الشَّرْعِيَّةُ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ مَعَ الْأَمْرِ بِالتَّطَاعَةِ]

١٣٣٦..... [الْبَسَارَةُ بِالرِّضَا وَالْمَغَانِمِ لِأَهْلِ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ]

١٣٣٧..... [الْبَسَارَةُ بِالْمَغَانِمِ الْكَثِيرَةِ]

١٣٣٧..... [الْبَسَارَةُ بِجَمِيعِ الْفَتْوحَاتِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

..... [لَوْ قَاتَلَ كُفَّارٌ مَكَّةَ بِالْحَدِيثِيَّةِ لَفَرُّوا وَلَمْ يَضْمُدُوا]

١٣٣٨..... [حِكْمَةُ اللَّهِ فِي كَفِّ الْقِتَالِ]

..... [وَفِعْ ضُلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ، مَعَ كَوْنِ الْمُؤْمِنِينَ أَصْحَابِ الْحَقِّ

١٣٣٨..... وَالْعَلْبَةِ، وَذِكْرُ مَصَالِحِهِ]

١٣٣٩..... [وَهَذَا ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي قِصَّةِ الْحَدِيثِيَّةِ]

١٣٤٢..... [بَيَانُ صِدْقِ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ]

١٣٤٤..... [الْبَسَارَةُ بِغَلْبَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْعَالَمِ]

١٣٤٤..... [صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ]

١٣٤٥..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحُجْرَاتِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

..... [النُّهْيُ عَنِ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ، وَالْأَمْرُ

١٣٤٥..... بِتَعْظِيمِهِ وَالتَّأَدُّبِ مَعَهُ]

..... [ذَمُّ مَنْ يُنَادِي النَّبِيَّ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ]

١٣٤٧..... [الْأَمْرُ بِالتَّثَبُّتِ إِنْ جَاءَ فَاسِقٌ بِسَيِّئًا]

١٣٤٧..... [حُكْمُ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ الْأَصْلَحُ]

١٣٤٨..... [الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ]

..... [الْأَمْرُ بِالإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِقِتَالِ الْفِتَنِ

١٣٤٨..... البَاغِيَّةِ]

١٣٤٩..... [النُّهْيُ عَنِ السُّخْرِيَّةِ وَالإِخْتِقَارِ]

١٣٨٠..... [بَيَانُ صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ].
 ١٣٨٠..... [لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وِزْرَ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ].
 [بَعْضُ صِفَاتِ الرَّبِّ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْإِنْسَانَ كَمَا بَدَأَهُ،
 ١٣٨١..... وَذَكَرَ بَعْضُ مَا فَعَلَهُ بِعِبَادِهِ].
 ١٣٨٢..... [الْإِنذَارُ وَالتَّنْبِيهُ وَالْأَمْرُ بِالسَّجْدَةِ وَالْخُضُوعِ].
 ١٣٨٢..... تَفْسِيرُ سُورَةِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
 ١٣٨٣..... [اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ].
 ١٣٨٣..... ذَكَرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ
 ١٣٨٤..... [عِنَادُ الْمُشْرِكِينَ وَمَوْفِقُهُمُ السَّيِّئُ].
 ١٣٨٤..... [سُورَةُ أَحْوَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ].
 ١٣٨٥..... [قِصَّةُ قَوْمِ نُوحٍ، وَالْعِبْرَةُ بِهَا وَبِقِصَصِ الْأَقْوَامِ].
 ١٣٨٥..... [قِصَّةُ عَادٍ].
 ١٣٨٦..... [قِصَّةُ ثَمُودَ].
 ١٣٨٦..... [قِصَّةُ قَوْمِ لُوطٍ].
 ١٣٨٧..... [قِصَّةُ آلِ فِرْعَوْنَ].
 ١٣٨٧..... [نُضْحُ فُرَيْسٍ وَتَهْدِيدُهُمْ].
 ١٣٨٨..... [عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ].
 ١٣٨٨..... [كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ].
 ١٣٨٩..... [التَّهْدِيدُ بِتَنْفِيذِ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ].
 ١٣٨٩..... [عَاقِبَةُ الْمُتَّقِينَ الْحَسَنَةُ].
 ١٣٩٠..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
 ١٣٩٠..... [تَوْطِئَةٌ عَنِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ].
 ١٣٩٠..... [الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ الرَّحْمَنُ وَعَلَّمَهُ].
 ١٣٩٠..... [آيَاتُ اللَّهِ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ].
 ١٣٩١..... [الْإِنْسَانُ مَعْمُورٌ بِنِعَمِ اللَّهِ].
 ١٣٩١..... [بَيَانُ خَلْقِ آدَمَ وَالْجَنَّةِ].
 ١٣٩٢..... [الْإِمْتِنَانُ بِكَوْنِهِ رَبِّ الْمَشْرِقِينَ وَالْمَغْرِبِينَ].
 ١٣٩٢..... [الْإِمْتِنَانُ بِتَوْعِي الْبَحْرِ وَالسُّفُنِ].
 ١٣٩٢..... [بَيَانُ شَأْنِ اللَّهِ وَبِقَائِهِ وَعِنَاهُ].
 ١٣٩٣..... [تَهْدِيدٌ لِلثَّقَلَيْنِ وَبَيَانٌ لِهَوْلِ مَا يُصِيبُهُمَا].
 ١٣٩٣..... [بَيَانُ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَأَحْوَالِ الْمُجْرِمِينَ].
 ١٣٩٥..... [أَحْوَالُ الْمُتَّقِينَ وَنِعْمَتُهُمْ فِي الْجَنَّاتِ].
 ١٣٩٨..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
 ١٣٩٨..... [فَضْلُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ].

١٣٦٧..... [مَا كَانَ خَلْقُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِعِبَادَةِ اللَّهِ].
 ١٣٦٧..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
 ١٣٦٧..... [فَضْلُ سُورَةِ الطُّورِ].
 ١٣٦٨..... [قَسَمُ اللَّهِ عَلَى وَفُوعِ الْعَذَابِ].
 ١٣٦٩..... [وَصَفُ يَوْمِ الْعَذَابِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ].
 ١٣٦٩..... [وَصَفُ مَالِ السَّعْدَاءِ].
 ١٣٦٩..... [أُحْوَافُ دَرِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَنْزِلَةِ].
 ١٣٧٠..... [عَدْلُ اللَّهِ مَعَ أَهْلِ الذُّنُوبِ].
 ١٣٧٠..... [وَصَفُ حَمْرِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِ أَهْلِهَا].
 [تَبَرُّتُهُ الرُّسُولِ مِمَّا اتَّهَمَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَتَوَعُّدُهُمْ
 ١٣٧١..... وَتَحْدِيثُهُمْ].
 ١٣٧١..... [أَسْئَلُهُ تَثْبِثَ التَّوْحِيدِ وَتَنْهِي حَيْلِ الْمُشْرِكِينَ].
 ١٣٧٢..... [بَيَانُ عِنَادِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنَّهُمْ يُعَذِّبُونَ].
 ١٣٧٢..... [أَمْرُ الرُّسُولِ ﷺ بِالصَّبْرِ وَالتَّسْبِيحِ].
 ١٣٧٣..... تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّجْمِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
 ١٣٧٣..... [أَوَّلُ سُورَةٍ أَنْزَلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ].
 ١٣٧٤..... [أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَى أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَمَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالْوَحْيِ].
 ١٣٧٤..... [رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى].
 ١٣٧٤..... [مُعَلِّمُ الرُّسُولِ الْأَمِينُ هُوَ الرُّوحُ الْأَمِينُ].
 ١٣٧٥..... [تَفْسِيرُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ].
 ١٣٧٥..... [هَلْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ؟].
 ١٣٧٦..... [غَشِيَانُ الْمَلَائِكَةِ وَالتُّورِ وَالْأَلْوَانِ السُّدْرَةِ].
 ١٣٧٦..... [الرُّدُّ عَلَى عِبْدَةِ الْأَوْثَانِ وَبَيَانِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ].
 [الرُّدُّ عَلَى مُعْتَقِدِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَذْكِيرِ الْأَنْدَادِ وَتَأْيِثِ
 ١٣٧٨..... الْمَلَائِكَةِ].
 ١٣٧٨..... [لَا يَحْضُلُ الْحَيْرَ بِالتَّمْنِي].
 ١٣٧٨..... [لَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ].
 [الرُّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي رَعْوِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ
 ١٣٧٨..... اللَّهِ].
 ١٣٧٩..... [الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ أَهْلِ الْبَاطِلِ].
 ١٣٧٩..... [اللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، فَهُوَ يُجَازِي كُلًّا بِحَسَبِهِ].
 ١٣٧٩..... [صِفَةُ الْمُحْسِنِينَ وَعُقْرَانُ اللَّمَمِ دُونَ الْكَبَائِرِ].
 ١٣٧٩..... [التَّرَغِيبُ فِي التَّوْبَةِ وَالتَّنْهِي عَنِ تَرْكِيَةِ النَّفْسِ].
 ١٣٨٠..... [الذَّمُّ لِمَنْ تَوَلَّى عَنِ الطَّاعَةِ وَبَجَلَ بِالْمَالِ، وَالرُّدُّ عَلَيْهِ].

- ١٤٢١..... [الظَّهَارُ وَكَمَّارَتُهُ]
- ١٤٢٣..... [بَيَانُ عَاقِبَةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ]
- ١٤٢٣..... [عِلْمُ اللَّهِ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُقِ]
- ١٤٢٣..... [بَيَانُ سَرَارَةِ الْيَهُودِ]
- ١٤٢٤..... [آدَابُ النَّجْوَى]
- ١٤٢٥..... [آدَابُ الْمَجْلِسِ]
- ١٤٢٥..... [فَضْلُ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ]
- ١٤٢٦..... [الْأَمْرُ بِالصَّدَقَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَأَجَّى الرَّسُولُ]
- ١٤٢٦..... [دَمُّ الْمُنَافِقِينَ]
- ١٤٢٧..... [ذَلَّةُ الْمُخَالِفِينَ لِلَّهِ وَعَلَيْهِ اللَّهُ وَرَسُولِهِ]
- ١٤٢٨..... [لَا يُوَادُّ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ]
- ١٤٢٨..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَشْرِ وَهِيَ مَدِينَةٌ]
- ١٤٢٩..... [يُسَبِّحُ اللَّهُ كُلُّ شَيْءٍ]
- ١٤٢٩..... [ذِكْرُ مَا حَلَّ بِبَنِي النَّضِيرِ]
- ١٤٣٠..... [سَبَبُ عَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ]
- ١٤٣١..... [مَا وَقَعَ مِنْ قَطْعِ الشَّجَلِ كَأَن يَأْذِنَ اللَّهُ]
- ١٤٣٢..... [أَمْوَالُ الْفَقْرِ وَمَصَارِفُهَا]
- ١٤٣٣..... [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ وَيَنْهَى]
- ١٤٣٤..... [بَيَانُ الْمُسْتَحْتَجِّينَ لِأَمْوَالِ الْفَقْرِ، وَفِيهِ فَضْلُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ]
- ١٤٣٤..... [كَأَنَّ الْأَنْصَارَ لَا يَحْسُدُونَ الْمُهَاجِرِينَ]
- ١٤٣٤..... [إِيثَارُ الْأَنْصَارِ]
- ١٤٣٦..... [وَعَدُّ الْمُنَافِقِينَ الْكِذْبَ لِبَنِي النَّضِيرِ]
- ١٤٣٦..... [مَثَلُ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ]
- ١٤٣٧..... [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالِاسْتِعْدَادَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٣٧..... [لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ]
- ١٤٣٧..... [بَيَانُ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ]
- ١٤٣٨..... [تَمْجِيدُ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ]
- ١٤٣٨..... [الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى]
- ١٤٣٨..... [كُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لِلَّهِ]
- ١٤٣٩..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُمتَحِنَةِ وَهِيَ مَدِينَةٌ]
- ١٤٣٩..... [سَبَبُ نَزُولِ سُورَةِ الْمُمتَحِنَةِ]
- ١٤٤٠..... [الْأَمْرُ بِعَادَاةِ الْكُفَّارِ وَتَرْكِ مَوَالِيهِمْ]
- ١٤٤٠..... [لِلْمُسْلِمِينَ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِهِ فِي تَبَرُّهِمْ]
- ١٣٩٨..... [ذِكْرُ أَحْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٣٩٨..... [النَّاسُ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٣٩٩..... [السَّابِقُونَ وَجَزَاؤُهُمْ]
- ١٤٠١..... [أَصْحَابُ الْيَمِينِ وَجَزَاؤُهُمْ]
- ١٤٠٣..... [أَصْحَابُ الشَّمَالِ وَأَحْوَالُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ]
- ١٤٠٥..... [ثُبُوتُ الْقِيَامَةِ وَدَلِيلُ الْمَعَادِ]
- ١٤٠٥..... [التَّنْبِيهُ عَلَى تَقَرُّدِ اللَّهِ بِالزَّرْعِ وَإِنزَالِ الْمَاءِ، وَخَلْقِ النَّارِ، وَهِيَ مِنْ أَقْرَبِ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ]
- ١٤٠٧..... [قَسَمَ اللَّهُ عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ]
- ١٤٠٧..... [عَدَمُ اسْتِطَاعَةِ رَدِّ الرُّوحِ حِينَ تَبْلُغُ الْحُلُقُومَ، دَلِيلٌ عَلَى الْمَحَاسِنِ]
- ١٤٠٨..... [أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ الْإِحْتِصَارِ، وَمَصِيرُ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ]
- ١٤٠٩..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَدِيدِ وَهِيَ مَدِينَةٌ]
- ١٤٠٩..... [فَضْلُ سُورَةِ الْحَدِيدِ]
- ١٤٠٩..... [يُسَبِّحُ جَمِيعُ الْكَوْنِ لِلَّهِ وَذَكَرُ بَعْضُ صِفَاتِهِ]
- ١٤١٠..... [شُمُوعُ عِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ]
- ١٤١١..... [الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ وَالْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ]
- ١٤١٢..... [فَضْلُ الْإِنْفَاقِ وَالْقِتَالِ قَبْلَ الْفَتْحِ]
- ١٤١٣..... [الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]
- ١٤١٣..... [يُعْطَى الْمُؤْمِنُونَ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ]
- ١٤١٤..... [أَحْوَالُ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٤١٤..... [الْحَضْرُ عَلَى الْخُشُوعِ وَالنَّهْيُ عَنِ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ١٤١٤..... [أَجْرُ الْمُصَدِّقِ وَالصَّادِقِ وَالشَّهَدَاءِ وَمَصِيرُ الْكُفَّارِ]
- ١٤١٦..... [الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ]
- ١٤١٧..... [كُلُّ مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ فَهُوَ بِقَدَرٍ]
- ١٤١٨..... [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ]
- ١٤١٨..... [دَمُّ الْبَجِيلِ]
- ١٤١٨..... [أُرْسِلَ الْأَنْبِيَاءُ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالْعَدْلِ وَالْحَقِّ]
- ١٤١٨..... [فَوَائِدُ الْحَدِيدِ]
- ١٤١٩..... [فِسْقُ الْكَثِيرِ مِنْ أُمَّمِ الْأَنْبِيَاءِ]
- ١٤٢٠..... [يُؤْتَى مُؤْمِنٌ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَجْرَ مَرَّتَيْنِ]
- ١٤٢١..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ مَدِينَةٌ]
- ١٤٢١..... [سَبَبُ التَّرْوِيلِ]

- ١٤٤٠ عَنْ قَوْمِهِمُ الْكُفَّارِ]
 [عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْدَائِهِمْ مَوَدَّةً] ١٤٤٢
 [يَجُوزُ الْإِحْسَانُ إِلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَ فِي الدِّينِ] ١٤٤٣
 [الَّتِي عَنْ مَوَالِدِ الْمُحَارِبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] ١٤٤٢
 [تَخْصِيصُ الْمُسْلِمَاتِ بَعْدَ رَدِّهِنَّ إِلَى الْكُفَّارِ إِذَا
 هَاجَرْنَ بَعْدَ الْحُدُوبِ] ١٤٤٣
 [حُرْمَةُ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَالْمُشْرِكَاتِ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ] ١٤٤٣
 [الْأُمُورِ الَّتِي يُبَايِعُ عَلَيْهَا النِّسَاءُ] ١٤٤٤
 تفسير سورة الصف وهي مدنيته ١٤٤٦
 [فَضْلُ سُورَةِ الصَّفِّ] ١٤٤٦
 [دَمٌ مَنْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفْعَلُهُ] ١٤٤٦
 [خِطَابُ مُوسَى لِقَوْمِهِ عَلَى آدَاهُمْ وَإِزَاعَهُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ] ١٤٤٧
 [تَبَشِيرُ عِيسَى بِنَبِيِّنَا ﷺ بِاسْمِهِ أَحْمَدُ] ١٤٤٧
 [ذِكْرُ أَظْلَمِ النَّاسِ وَالْبِسَارَةَ بِإِتْمَامِ نُورِ الْإِسْلَامِ وَعَلَيْهِ
 عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ] ١٤٤٨
 [النَّجَارَةُ الْمُنْجِيَّةُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ] ١٤٤٨
 [الْمُسْلِمُونَ أَنْصَارُ الدِّينِ فِي كُلِّ حَالٍ] ١٤٤٩
 [طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ آمَنَتْ بِعِيسَى وَأُخْرَى كَفَرَتْ بِهِ] ١٤٤٩
 [نَضْرُ اللَّهُ الطَّائِفَةَ الْمُؤْمِنَةَ] ١٤٤٩
 تفسير سورة الجمعة وهي مدنيته ١٤٥٠
 [فَضْلُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ] ١٤٥٠
 [يُسَبِّحُ اللَّهُ كُلُّ شَيْءٍ] ١٤٥٠
 [الْأَمْتَانِ بِعِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] ١٤٥٠
 [مُحَمَّدٌ رَسُولُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ] ١٤٥١
 [دَمُ الْيَهُودِ وَدَعْوَتُهُمْ لِتَمَيُّ الْمَوْتِ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَاهَلَةِ] ١٤٥١
 [الْجُمُعَةُ وَالْأَوَامِرُ وَالْأَدَابُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ] ١٤٥٢
 [الْأَمْرُ بِالسَّعْيِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ] ١٤٥٣
 [فَضْلُ الْجُمُعَةِ] ١٤٥٣
 [الْمُرَادُ بِاللَّذَاءِ إِذَا نِ الْخُطْبَاءِ] ١٤٥٤
 [حُرْمَةُ التَّبَعِ وَالشَّرَاءِ بَعْدَ نِدَاءِ الْجُمُعَةِ وَالتَّرْغِيبِ فِي
 طَلَبِ الرِّزْقِ بَعْدَهَا] ١٤٥٤
 [الَّتِي عَنْ الْإِنْصِرَافِ مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْإِمَامِ يَخْطُبُ] ١٤٥٤
 تفسير سورة المنافقين وهي مدنيته ١٤٥٥
 [أَحْوَالُ الْمُنَافِقِينَ وَتَقْلِبَاتِهِمْ] ١٤٥٥
 [إِعْرَاضُهُمْ عَنْ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ وَعَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى مَنْ
 عِنْدَهُ] ١٤٥٦
 [الْحَثُّ عَلَى عَدَمِ الْإِسْتِغْثَالِ بِأَسْبَابِ الدُّنْيَا، وَعَلَى
 الصَّدَقَةِ قَبْلَ الْمَوْتِ] ١٤٥٨
 تفسير سورة التغابن وهي مدنيته وقيل: مكّيته ١٤٥٨
 [التَّسْبِيحُ لِلَّهِ وَذِكْرُ خَلْقِهِ وَعِلْمِهِ] ١٤٥٨
 [الْإِنذَارُ بِبَيَانِ إِهْلَاكِ مَنْ سَبَقَ مِنَ الْكُفَّارِ] ١٤٥٩
 [الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَمَاتِ حَقٌّ] ١٤٥٩
 [ذِكْرُ يَوْمِ التَّغَابُنِ] ١٤٥٩
 [مَا يُصِيبُ الْمَرْءَ الْمَرْءَ فَهُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ] ١٤٦٠
 [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ] ١٤٦٠
 [التَّوَجِيدُ] ١٤٦٠
 [التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ] ١٤٦٠
 [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى بِقَدْرِ الْإِسْطَاعَةِ] ١٤٦١
 [التَّرْغِيبُ فِي الصَّدَقَةِ] ١٤٦١
 تفسير سورة الطلاق وهي مدنيته ١٤٦١
 [تَطْلُقُ الْمَرْأَةُ لِعِدَّتِهَا، وَلَا تُخْرَجُ مِنْ بَيْتِهَا، وَتُحْصَى
 عِدَّتُهَا] ١٤٦١
 [الْفَقْفَقَةُ وَالسُّكْنَى عَلَى الرَّوْحِ فِي عِدَّةِ الرَّجْعِيَّةِ] ١٤٦٢
 [مَصْلَحَةُ الْإِعْتِدَادِ فِي بَيْتِ الرَّوْحِ] ١٤٦٣
 [لَا نَفَقَةَ وَلَا سَكْنَى لِلْمَبْتُوتَةِ] ١٤٦٣
 [الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُطَلَّغَةِ سَوَاءَ أَرَادَ الرَّجْعَةَ أَوْ
 الْفِرَاقَ] ١٤٦٣
 [الْأَمْرُ بِالْإِشْهَادِ عَلَى الرَّجْعَةِ] ١٤٦٤
 [يَجْعَلُ اللَّهُ لِلْمُتَّيِّنِ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُمْ وَيَكْفِيهِمْ] ١٤٦٤
 [عِدَّةُ الْآيِسَةِ وَالَّتِي لَمْ تَحْضُرْ] ١٤٦٤
 [عِدَّةُ الْحَامِلِ] ١٤٦٥
 [تَسْكُنُ الْمُطَلَّغَةُ حَسَبَ مَا يَجِدُ الرَّوْحُ] ١٤٦٦
 [الَّتِي عَنْ التَّضْيِيقِ عَلَى الْمُطَلَّغَةِ] ١٤٦٦
 [نَفَقَةُ الْحَامِلِ الْبَائِسِ عَلَى الرَّوْحِ حَتَّى تَضَعَ الْحَمْلَ] ١٤٦٦
 [تَأْخُذُ الْأُمُّ الْمُطَلَّغَةُ أَجْرَةَ الرِّضَاعَةِ إِنْ أَرْضَعَتْ] ١٤٦٦
 [وَصَةُ الْمَرْأَةِ الْمُتَّقِيَّةِ] ١٤٦٦

- ١٤٦٧..... [جَزَاءُ الْعُتُوِّ عَنْ أَمْرِ الرَّبِّ]
- ١٤٦٧..... [صِفَةُ الرَّسُولِ ﷺ]
- ١٤٦٧..... [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ]
- ١٤٦٧..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّحْرِيمِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ]
- ١٤٦٨..... [عِتَابُ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ فِي تَحْرِيمِهِ الْحَلَالَ وَبَيَانُ كَفَّارَتِهِ، وَتَأْدِيبُ الْأَرْوَاحِ عَلَى تَضْيِيقِهِ]
- ١٤٧١..... [تَعْلِيمُ الْأَهْلِ الْأَدَبِ وَالِدِّينِ]
- ١٤٧١..... [وَقُودُ جَهَنَّمَ وَمَلَايِكَتُهَا]
- ١٤٧١..... [لَا يَقْبَلُ عَذْرُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٧١..... [الْتَرَاغِبُ فِي التَّوْبَةِ الصُّوْحِ]
- ١٤٧٢..... [الْأَمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ]
- ١٤٧٢..... [لَا يَنْفَعُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ عِنْدَ اللَّهِ مَهْمَا كَانَ قَرِيبًا]
- ١٤٧٣..... [لَا يَضُرُّ الْكَافِرُ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ اللَّهِ]
- ١٤٧٣..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّلِكِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٧٣..... [فَضْلُ سُورَةِ الْمُلِكِ]
- ١٤٧٣..... [تَمْجِيدُ اللَّهِ وَذِكْرُ خَلْقِهِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، وَالسَّمَاوَاتِ وَالشُّجُومِ]
- ١٤٧٥..... [صِفَةُ جَهَنَّمَ وَالِدَّاحِلِينَ فِيهَا]
- ١٤٧٥..... [جَزَاءُ مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ بِالْغَيْبِ]
- ١٤٧٦..... [نِعْمَةُ اللَّهِ فِي تَسْخِيرِ الْأَرْضِ لِعِبَادِهِ]
- ١٤٧٦..... [كَيْفَ تَأْمَنُونَ عَذَابَ اللَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى مُوَاحَذَتِكُمْ كَيْفَمَا شَاءَ]
- ١٤٧٦..... [طَيْرَانُ الطُّيُورِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ بَصِيرٌ بِكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ]
- ١٤٧٧..... [لَا يَنْصُرُكُمْ أَحَدٌ وَلَا يَرْزُقُ إِلَّا اللَّهُ]
- ١٤٧٧..... [مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ]
- ١٤٧٧..... [قُدْرَةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَدَلَالَتُهَا عَلَى الْمَعَادِ]
- ١٤٧٧..... [مَوْتُ الْمُؤْمِنِ لَا يُجِيرُ الْكَافِرَ فَلْيَمُتْكُمْ فِي خَلَاصِهِ]
- ١٤٧٨..... [الْتَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ فِي نَبْعِ الْمَاءِ وَالتَّخْوِيفُ بِذَهَابِهِ]
- ١٤٧٨..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ ن وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٧٨..... [تَفْسِيرُ الْقَلَمِ]
- ١٤٧٩..... [الْقَسَمُ بِالْقَلَمِ عَلَى عَظَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ]
- ١٤٧٩..... [تَفْسِيرُ إِنَّكَ لَمَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ]
- ١٤٧٩..... [الْتَّنْهَى عَنِ قَبُولِ صَغْطِ الْمَكْذِبِينَ وَمُقْتَرَحَاتِهِمْ بَيْنَ
- ١٤٨٠..... [الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ]
- ١٤٨١..... [مَثَلٌ لِدَهَابِ كَسْبِ الْكُفَّارِ]
- ١٤٨٢..... [جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ وَأَنَّهُمْ لَا يُجْعَلُونَ كَالْمُجْرِمِينَ]
- ١٤٨٢..... [أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٨٣..... [وَعَيْدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ يُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ]
- ١٤٨٣..... [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَعَدَمُ الْإِسْتِعْجَالِ مِثْلُ يُونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ١٤٨٣..... [إِصَابَةُ الْعَيْنِ حَقٌّ]
- ١٤٨٥..... [رَمِي الْكُفَّارِ وَجَوَائِبُهُمْ]
- ١٤٨٥..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَاقَّةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٨٥..... [الْتَّنْبِيهُ عَلَى عَظَمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٨٥..... [ذِكْرُ إِهْلَاكِ الْأُمَّمِ]
- ١٤٨٦..... [الْتَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ السَّيْفِينِ]
- ١٤٨٧..... [ذِكْرُ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٨٧..... [عَرَضُ بَنِي آدَمَ عَلَى اللَّهِ]
- ١٤٨٧..... [فَرَحُهُ مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِبَيْمِنِهِ وَحُسْنِ حَالِهِ]
- ١٤٨٨..... [سُوءُ حَالِ مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ]
- ١٤٨٩..... [الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ]
- ١٤٨٩..... [لَوْ تَقَوْلَ النَّبِيِّ شَيْئًا عَلَى اللَّهِ لَأَخَذَهُ اللَّهُ بِعَذَابٍ]
- ١٤٩٠..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ سَأَلَ سَائِلٌ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٩٠..... [الْإِسْتِعْجَالُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٩٠..... [تَفْسِيرُ ذِي الْمَعَارِجِ]
- ١٤٩٠..... [الْمُرَادُ بِيَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ]
- ١٤٩١..... [تَلْقِينُ النَّبِيِّ الصَّبْرَ]
- ١٤٩١..... [أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٩٢..... [الْإِنْسَانُ هَالِكٌ]
- ١٤٩٣..... [إِسْتِثْنَاءُ الْمُصَلِّينَ مِمَّا سَبَقَ وَبَيَانُ أَعْمَالِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ]
- ١٤٩٣..... [الْتَّذْكِيرُ عَلَى الْكُفَّارِ وَتَهْدِيدُهُمْ]
- ١٤٩٥..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٩٥..... [دَعْوَةُ نُوحٍ لِقَوْمِهِ]
- ١٤٩٥..... [شَكْوَى نُوحٍ مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ]
- ١٤٩٦..... [مَا قَالَ نُوحٌ حِينَ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ]
- ١٤٩٧..... [شَكْوَى نُوحٍ إِلَى رَبِّهِ لِمَا أَحَابَ بِهِ قَوْمُهُ]
- ١٤٩٧..... [أَصْنَامُ قَوْمِ نُوحٍ وَمَا صَارَتْ إِلَيْهِ]

- ١٤٩٧..... [دُعَاءُ نُوحٍ عَلَى قَوْمِهِ وَلَمَنْ آمَنَ بِهِ]
- ١٤٩٨..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٩٩..... [إِسْتِمَاعُ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ وَإِيمَانُهُمْ بِهِ]
- ١٤٩٩..... [إِفْرَارُ الْجِنِّ بِأَنَّ اللَّهَ مُنْزَعٌ عَنِ الرُّوحَةِ وَالْأَوْلَادِ]
- ١٤٩٩..... [مِنْ سَبَبِ طُعْيَانِ الْجِنِّ اسْتِعَاذَةَ الْإِنْسِ بِهِمْ]
- ١٤٩٩..... [إِسْتِرَاقُ الْجِنِّ خَبَرَ السَّمَاءِ قَبْلَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ وَرَمِيَهُمْ بِالشُّهْبِ بَعْدَ الْبُعْثَةِ]
- ١٤٩٩..... [لِلْجِنِّ أَصْنَافٌ: مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ، وَالضَّالُّونَ وَالرَّاشِدِينَ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْهُمْ]
- ١٥٠١..... [إِفْرَارُ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ]
- ١٥٠٢..... [الْأَمْرُ بِالْوَحِيدِ وَاجْتِنَابِ الشَّرِكِ]
- ١٥٠٢..... [إِزْدِحَامُ الْجِنِّ عَلَى سَمَاعِ الْقُرْآنِ]
- ١٥٠٢..... [الرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ وَلَا الرُّشْدَ]
- ١٥٠٢..... [لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ]
- ١٥٠٣..... [الرَّسُولُ ﷺ لَا يَعْرِفُ وَقْتُ السَّاعَةِ]
- ١٥٠٣..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الضُّمَلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٠٣..... [سَبَبُ نُزُولِ سُورَتَيْ الْمُرْمَلِ وَالْمُدَّتَّرِ]
- ١٥٠٤..... [الْأَمْرُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ]
- ١٥٠٤..... [طَرِيقَةُ تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ]
- ١٥٠٥..... [عَظَمَةُ الْقُرْآنِ]
- ١٥٠٥..... [شَرَفُ قِيَامِ اللَّيْلِ]
- ١٥٠٧..... [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْكُفَّارِ وَيَبَانُ مَا لَهُمْ عَلَيْهِ]
- ١٥٠٧..... [رَسُولُكُمْ ﷺ مِثْلُ رَسُولِ فِرْعَوْنَ وَتَعْلَمُونَ مَصِيرَ فِرْعَوْنَ]
- ١٥٠٧..... [التَّهْدِيدُ بِعَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٥٠٧..... [هَذِهِ السُّورَةُ تَذَكُّرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ]
- ١٥٠٨..... [نَسْخٌ وَجُوبٌ قِيَامِ اللَّيْلِ وَذِكْرُ أَغْدَارِهِ]
- ١٥٠٨..... [الْأَمْرُ بِالتَّصَدُّقِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ]
- ١٥٠٩..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُتَّتْرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٠٩..... [أَوَّلُ آيَاتِ نَزَلَتْ بَعْدَ افْرَأ]
- ١٥١٠..... [التَّذَكُّيرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٥١٠..... [تَهْدِيدٌ مَنْ قَالَ: أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ]
- ١٥١١..... [عَدَدُ حَزَنَةِ جَهَنَّمَ وَمَا قَالَهُ الْكُفَّارُ حَوْلَ ذَلِكَ]
- ١٥١٢..... [لَا يَعْلَمُ جُنُودَ اللَّهِ إِلَّا هُوَ]
- ١٥١٢..... [مَا يَدُورُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنَ الْحَوَارِ]
- ١٥١٣..... [الْكَبِيرُ عَلَى إِعْرَاضِ الْكُفَّارِ وَمَوْفِيهِمْ]
- ١٥١٣..... [الْقُرْآنُ تَذَكُّرَةٌ]
- ١٥١٣..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقِيَامَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥١٣..... [الْقَسَمُ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالرَّدُّ عَلَى حَيْلِ الْمُتَحَايِلِينَ]
- ١٥١٣..... [أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ تَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٥١٤..... [تَعْلِيمُ تَلْقَى الْوَحْيِ]
- ١٥١٤..... [سَبَبُ تَكْذِيبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حُبِّ الدُّنْيَا وَالْعَقْلُ عَنِ الْآخِرَةِ]
- ١٥١٥..... [رُؤْيَةُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ]
- ١٥١٥..... [تَسَوُّدُ وَجْهِ الْعُصَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٥١٦..... [يَحْضُلُ الْيَقِينُ عِنْدَ الْإِحْتِصَارِ]
- ١٥١٦..... [ذِكْرُ حَالِ الْمُكْذِبِ]
- ١٥١٧..... [لَا يَتْرُكُ الْإِنْسَانُ هَمَلًا]
- ١٥١٧..... [الدُّعَاءُ عِنْدَ خِتَامِ السُّورَةِ]
- ١٥١٧..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥١٧..... [قِرَاءَةُ سُورَةِ السَّجْدَةِ وَالْإِنْسَانِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ]
- ١٥١٧..... [خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ]
- ١٥١٨..... [هَذَا اللَّهُ السَّبِيلُ فَهُوَ إِمَامٌ شَاكِرٌ وَإِمَامٌ كَفُورٌ]
- ١٥١٨..... [جَزَاءُ الْكَافِرِينَ وَالْأَبْرَارِ]
- ١٥١٨..... [أَعْمَالٌ هُوَ لِأَبْرَارِ]
- ١٥١٨..... [بَعْضُ التَّفْصِيلِ لِجَزَاءِ الْأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ]
- ١٥١٩..... [ذِكْرُ الْأَرَائِكِ، وَأَنَّهُ لَا حَرَ وَلَا بَرْدَ فِي الْجَنَّةِ]
- ١٥٢٠..... [ذُنُوبُ الظَّلَالِ وَالْقَطُوفِ]
- ١٥٢٠..... [آيَةٌ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابِ]
- ١٥٢٠..... [شَرَابُ الرَّنَجِبِيلِ وَالسُّلْسَبِيلِ]
- ١٥٢١..... [الْوَلْدَانُ وَالْحَدَمُ]
- ١٥٢١..... [اللِّبَاسُ وَالْحُلِيِّ]
- ١٥٢٢..... [ذِكْرُ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ وَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالدُّكْرِ]
- ١٥٢٢..... [دَمٌ حُبُّ الدُّنْيَا وَالتَّيْبَةُ عَلَى يَوْمِ الْمَعَادِ]
- ١٥٢٢..... [الْقُرْآنُ تَذَكُّرَةٌ وَالْهَدَايَةُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ]

- ١٥٣٥..... [يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِرَارُ النَّاسِ فِيهَا مِنْ أَقَارِبِهِمْ]
- ١٥٣٥..... [وُجُوهُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٥٣٦..... تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكْوِينِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٥٣٦..... [مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ]
- ١٥٣٦..... [مَا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ تَكْوِينُ الشَّمْسِ]
- ١٥٣٦..... [اِنْتِدَارُ النُّجُومِ]
- ١٥٣٦..... [تَسْيِيرُ الْجِبَالِ، وَتَعْطِيلُ الْعِشَارِ وَحَشْرُ الْوُحُوشِ]
- ١٥٣٧..... [تَسْجِيرُ الْبِحَارِ]
- ١٥٣٧..... [تَرْوِيجُ النُّفُوسِ]
- ١٥٣٧..... [سُؤَالُ الْمَوْتِ وَوَدَّه]
- ١٥٣٧..... [كَفَّارَةٌ وَأَدِ النَّبَاتِ]
- ١٥٣٧..... [نَشْرُ الصُّخْرِ]
- ١٥٣٨..... [كَشْطُ السَّمَاءِ وَتَسْيِيرُ الْجَحِيمِ وَتَقْرِيبُ الْجَنَّةِ]
- ١٥٣٨..... [كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا أَحْضَرَهُ]
- ١٥٣٨..... [تَفْسِيرُ الْخُنْثَى وَالْكَنْثَى]
- ١٥٣٨..... [الْقُرْآنُ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيْلٌ وَلَيْسَ مِنْ نَبِيَّةِ الْجُنُونِ]
- ١٥٣٩..... [لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَنِيعًا فِي إِبْلَاحِ الْوَحْيِ]
- ١٥٣٩..... [الْقُرْآنُ ذُكِّرَ لِلْعَالَمِينَ وَلَيْسَ بِوَحْيِ الشَّيْطَانِ]
- ١٥٣٩..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٥٣٩..... [فَضْلُ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ]
- ١٥٤٠..... [مَا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٥٤٠..... [لَا يَبْغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْسَى اللَّهَ]
- ١٥٤١..... [سَبَبُ الْعُرُورِ، وَالتَّثْبِيهِ عَلَى تَسْجِيلِ الْمَلَائِكَةِ لِأَعْمَالِ]
- ١٥٤١..... [جَزَاءُ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ]
- ١٥٤١..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ
- ١٥٤١..... [الزِّيَادَةُ وَالتَّقْصَانُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ سَبَبٌ لِلْوَيْلِ وَالْحُسْرَانِ]
- ١٥٤١..... [تَحْوِيفُ الْمُطَفِّفِينَ مِنَ الْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعَالَمِينَ]
- ١٥٤٢..... [كِتَابُ الْفَجَّارِ وَبَعْضُ أَحْوَالِهِمْ]
- ١٥٤٣..... [كِتَابُ الْأَبْرَارِ وَجَزَائِهِمْ]
- ١٥٤٤..... [إِسَاءَةُ الْمُجْرِمِينَ وَاسْتَهْزَأُوهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ]
- ١٥٤٥..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٥٤٥..... [سَجْدَةُ التَّلَاوَةِ فِي سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ]
- ١٥٤٥..... [إِنْشِقَاقُ السَّمَاءِ وَتَمْيِيدُ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

١٥٢٢

- ١٥٢٢..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٥٢٢..... [نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ وَقِرَاءَتُهَا فِي الْمَغْرِبِ]
- ١٥٢٣..... [قَسَمَ اللَّهُ بِأَشْيَاءٍ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ]
- ١٥٢٣..... [ذَكَرَ بَعْضُ مَا يَحْدُثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٥٢٤..... [الِدَّعْوَةُ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِأَنْوَاعٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ]
- ١٥٢٤..... [سُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى مَا وَاهُمْ فِي جَهَنَّمَ وَشَيْءٌ مِنْ كَيْفِيَّتِهَا]
- ١٥٢٤..... [عَجَزُ الْمُجْرِمِينَ عَنِ الْكَلَامِ وَتَقْدِيمُ الْعُذْرِ وَعَدَمُ الْإِفْتِدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٥٢٥..... [مَالُ الْمُتَّقِينَ]
- ١٥٢٥..... [تَهْدِيدٌ لِمُنْكَرِي الْقِيَامَةِ]
- ١٥٢٦..... تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّبَأِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٥٢٦..... [الرَّدُّ عَلَى إِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ لِقُوعِ الْقِيَامَةِ]
- ١٥٢٦..... [ذَكَرَ شَيْءٌ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ كَالدَّلِيلِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ]
- ١٥٢٦..... [تَفْسِيرُ يَوْمِ الْفَضْلِ وَتَفْصِيلُ مَا فِيهِ]
- ١٥٢٨..... [الْفَوْزُ الْكَبِيرُ لِلْمُتَّقِينَ]
- ١٥٢٨..... [لَا يَجْتَرِءُ أَحَدٌ عَلَى التَّكَلُّمِ أَمَامَ اللَّهِ حَتَّى الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بَعْدَ الْإِذْنِ]
- ١٥٢٩..... [الْقِيَامَةُ قَرِيبَةٌ]
- ١٥٢٩..... تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّازِعَاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٥٢٩..... [الْقَسَمُ بِخَمْسَةِ أَوْصَافٍ عَلَى وَقُوعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٥٣٠..... [صِفَةُ الْقِيَامَةِ وَصِفَةُ النَّاسِ وَأَقْوَالُهُمْ فِيهَا]
- ١٥٣١..... [ذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَى وَأَنَّهَا عِبْرَةٌ لِمَنْ يَحْسَى]
- ١٥٣١..... [خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَشَدُّ مِنْ إِعَادَةِ الْخَلْقِ]
- ١٥٣١..... [يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ وَأَنَّ وَقْتَهَا غَيْرُ مَعْلُومٍ]
- ١٥٣٢..... تَفْسِيرُ سُورَةِ عَبَسَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ
- ١٥٣٣..... [عِتَابُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عَبُوسِهِ فِي وَجْهِ رَجُلٍ ضَعِيفٍ]
- ١٥٣٣..... [ابْنُ أُمَّ مَكْنُومٍ]
- ١٥٣٣..... [أَوْصَافُ الْقُرْآنِ]
- ١٥٣٤..... [الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ]
- ١٥٣٤..... [إِنْبَاتُ الْحَبِّ وَغَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

- ١٥٤٥..... [جَزَاءُ الْأَعْمَالِ حَقًّا]
- ١٥٤٦..... [الْعَرَضُ وَالْمُنَاقَشَةُ فِي الْحِسَابِ]
- ١٥٤٦..... [الْقَسَمُ عَلَى رُكُوبِ الْإِنْسَانِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ]
- ١٥٤٧..... [النَّكِيرُ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ وَتَبْشِيرُهُمْ بِالْعَذَابِ، وَأَنَّ النِّعَمَ لِلْمُؤْمِنِينَ]
- ١٥٤٧..... [تفسير سورة البروج وهي مكية]
- ١٥٤٧..... [تفسير البروج]
- ١٥٤٧..... [تفسير اليوم الموعود وشاهد ومشهد]
- ١٥٤٨..... [ظلم أصحاب الأعداء المسلمين]
- ١٥٤٨..... [قصة ساحر وزاهب وعلام ومن أذحل الأعداء]
- ١٥٤٩..... [جزاء أصحاب الأعداء]
- ١٥٤٩..... [جزاء الصالحين والبطش الشديد بأعداء الله الكافرين]
- ١٥٥٠..... [تفسير سورة الطارق وهي مكية]
- ١٥٥٠..... [فضل سورة الطارق]
- ١٥٥٠..... [القسم على كون الإنسان محاطًا بنظام الله]
- ١٥٥١..... [كيفية خلق الإنسان دليل على قدرة الله على رجعِهِ]
- ١٥٥١..... [يوم القيامة لا يكون للإنسان قدرة ولا نصرة]
- ١٥٥١..... [القسم على كون القرآن حقًا وقسئل مخالفيه]
- ١٥٥١..... [تفسير سورة سبح وهي مكية]
- ١٥٥١..... [فضل سورة الأعلى]
- ١٥٥٢..... [الأمر بالتسبيح وما يقول بعد هذه الآية]
- ١٥٥٢..... [الخلق والتقدير وإخراج النبات]
- ١٥٥٢..... [النبي ﷺ لا ينسى الوحي إلا ما شاء الله رفعه ونسخه]
- ١٥٥٢..... [الأمر بالتذكير]
- ١٥٥٣..... [بيان أهل الفلاح]
- ١٥٥٣..... [لا قيمة للدنيا في جنب الآخرة]
- ١٥٥٤..... [صحف إبراهيم وموسى]
- ١٥٥٤..... [تفسير سورة الغاشية وهي مكية]
- ١٥٥٤..... [قراءة الأعلى والغاشية في صلاة الجمعة]
- ١٥٥٤..... [القيامة وما يكون من حال أهل النار فيها]
- ١٥٥٥..... [حال أهل الجنة يوم القيامة]
- ١٥٥٥..... [الحض على النظر في خلق الإبل والسماء والجبال والأرض]
- ١٥٥٥..... [قصة ضمام بن ثعلبة]
- ١٥٥٦..... [لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ]
- ١٥٥٦..... [الوعيد لمن تولى عن الحق]
- ١٥٥٧..... [تفسير سورة الفجر وهي مكية]
- ١٥٥٧..... [قراءة سورة الفجر في الصلاة]
- ١٥٥٧..... [تفسير الفجر وما بعده]
- ١٥٥٧..... [تفسير الليل]
- ١٥٥٧..... [ذكر إهلاك عاد]
- ١٥٥٨..... [ذكر فرعون]
- ١٥٥٨..... [الرب بالمزاد]
- ١٥٥٨..... [الغنى والفقر اختيارًا، وليس من إكرام الله أو إهانته للعباد]
- ١٥٥٩..... [من شر ما يعمل العبد في المال]
- ١٥٥٩..... [يوم القيامة يؤتى كل بما عمل من خير أو شر]
- ١٥٦٠..... [تفسير سورة البلد وهي مكية]
- ١٥٦٠..... [القسم بحرمة مكة على خلق الإنسان في مشقة]
- ١٥٦٠..... [الإنسان محاط بالله وبنعمائه]
- ١٥٦١..... [التمييز بين الخير والشر نعمة]
- ١٥٦١..... [الحض على سلوك سبيل الخير]
- ١٥٦٢..... [أصحاب المشمة وجزاؤهم]
- ١٥٦٢..... [تفسير سورة الشمس وضحاها وهي مكية]
- ١٥٦٢..... [قراءة الشمس وضحاها في صلاة العشاء]
- ١٥٦٢..... [قسم الله بمخلوقاته على فلاح من زكى نفسه وخيبه من دساها]
- ١٥٦٤..... [تكذيب ثمود وإهلاكهم]
- ١٥٦٤..... [قصة ناقة صالح]
- ١٥٦٤..... [تفسير سورة الليل وهي مكية]
- ١٥٦٤..... [القسم على اختلاف الناس في سعيهم، والتبئيه على اختلاف نتائج ذلك]
- ١٥٦٥..... [الهدى وغيره بيد الله]
- ١٥٦٦..... [سبب النزول وفضل أبي بكر]
- ١٥٦٧..... [تفسير سورة الضحى وهي مكية]
- ١٥٦٧..... [سبب نزول سورة الضحى]
- ١٥٦٧..... [الآخرة خير من الأولى]
- ١٥٦٧..... [نعم الآخرة الكثيرة تنتظر لرسول الله ﷺ]
- ١٥٦٨..... [ذكر شيء من نعم الله على الرسول ﷺ]

- ١٥٦٨ [كَيْفَ تُقَدَّرُ هَذِهِ النِّعَمَ]
- ١٥٦٨ [تَفْسِيرُ سُورَةِ أَمْرِ نَشْرَخِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٦٨ [مَعْنَى شَرْحِ الصِّدْرِ]
- ١٥٦٨ [بَيَانُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ]
- ١٥٦٩ [مَعْنَى رَفْعِ ذِكْرِ النَّبِيِّ]
- ١٥٦٩ [أَلَيْسَ بَعْدَ الْعُسْرِ]
- ١٥٦٩ [أَلَا أَمْرٌ بِالذِّكْرِ عِنْدَ الْفَرَاغِ]
- ١٥٦٩ [تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٦٩ [قِرَاءَةُ وَالتَّيْنِ بِالصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ]
- ١٥٦٩ [تَفْسِيرُ التَّيْنِ وَمَا بَعْدَهُ]
- ١٥٧٠ [سُقُوطُ الْإِنْسَانِ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ مَعَ كَوْنِهِ خَلْقًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَنَتِيجَةُ ذَلِكَ]
- ١٥٧٠ [تَفْسِيرُ سُورَةِ أَفْرَأَ وَهِيَ أَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ]
- ١٥٧٠ [بَدَأَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ]
- ١٥٧١ [عِزَّةُ الْإِنْسَانِ وَشَرَفُهُ بِالْعِلْمِ]
- ١٥٧١ [الْوَعِيدُ عَلَى طُعْيَانِ الْإِنْسَانِ لِأَجْلِ الْمَالِ]
- ١٥٧١ [دَمُّ أَبِي جَهْلٍ وَالْوَعِيدُ بِمُؤَاخَذَتِهِ]
- ١٥٧٢ [تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ]
- ١٥٧٢ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَدْرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٧٢ [فَضْلُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ]
- ١٥٧٣ [نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ وَقَضَاءُ كُلِّ خَيْرٍ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ]
- ١٥٧٣ [تَعْيِينُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَعِلْمَاتُهَا]
- ١٥٧٤ [دُعَاءُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ]
- ١٥٧٤ [تَفْسِيرُ سُورَةِ لَمْ يَكُنْ وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ]
- ١٥٧٤ [قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ السُّورَةَ عَلَى أَبِي]
- ١٥٧٤ [ذِكْرُ حَالِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ]
- ١٥٧٥ [إِنَّمَا وَقَعَ الْإِخْلَافُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ]
- ١٥٧٥ [إِنَّمَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ هُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ]
- ١٥٧٥ [ذِكْرُ شَرِّ الْبَرِيَّةِ وَخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَذِكْرُ جَزَائِهِمَا]
- ١٥٧٦ [تَفْسِيرُ سُورَةِ إِذَا زُلْزِلَتْ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٧٦ [فَضْلُ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ]
- ١٥٧٦ [يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ حَالُ الْأَرْضِ وَحَالِ النَّاسِ]
- ١٥٧٧ [أَلْجَزَاءُ عَلَى كُلِّ دَرَجَةٍ مِنَ الْعَمَلِ]
- ١٥٧٧ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْغَايَاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٧٨ [أَلْقَسَمُ بِخَيْلِ الْحَرْبِ عَلَى كُفْرَانِ الْإِنْسَانِ وَحِرْصِهِ]
- ١٥٧٨ [أَلْتَّخْوِيفُ مِنَ الْمَعَادِ]
- ١٥٧٨ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَارِعَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٧٩ [تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكْوِينِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٧٩ [نَتِيجَةُ حُبِّ الدُّنْيَا عَقْلُهُ عَنِ الْآخِرَةِ]
- ١٥٨٠ [أَلْوَعِيدُ بِرُؤْيَةِ الْجَحِيمِ وَالسُّؤَالُ عَنِ النَّعِيمِ]
- ١٥٨١ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَصْرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٨١ [مَعْرِفَةُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ بِهَذِهِ السُّورَةِ]
- ١٥٨١ [تَفْسِيرُ سُورَةِ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمْزَةٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٨٢ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفِيلِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٨٢ [قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ بِإِعْجَازِ]
- ١٥٨٦ [تَفْسِيرُ سُورَةِ إِيلَافِ فَرَنْشِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٨٦ [تَفْسِيرُ السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا الْمَاعُونُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٨٦ [أَوْصَافُ مُكْرَبِي الْقِيَامَةِ]
- ١٥٨٧ [تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكْوِينِ وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ وَقِيلَ: مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٨٨ [عَدُوُّ النَّبِيِّ هُوَ الْأَبْتَرُ]
- ١٥٨٩ [تَفْسِيرُ سُورَةِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٨٩ [قِرَاءَةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي التَّوَافِلِ]
- ١٥٨٩ [الْبُرَاءَةُ مِنَ الشَّرِّكَ]
- ١٥٩٠ [تَفْسِيرُ سُورَةِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَهِيَ مَدِينِيَّةٌ]
- ١٥٩٠ [فَضْلُ سُورَةِ النَّصْرِ]
- ١٥٩٠ [هَذِهِ السُّورَةُ إِخْبَارٌ عَنْ تَمَامِ أَجَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]
- ١٥٩١ [تَفْسِيرُ سُورَةِ تَبَّتْ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٩١ [سَبَبُ نُزُولِ السُّورَةِ، وَعِنَادُ أَبِي لَهَبٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]
- ١٥٩١ [ذِكْرُ مَصِيرِ أُمِّ جَمِيلٍ امْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ]
- ١٥٩١ [قِصَّةٌ مِنْ إِبْدَاءِ امْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]
- ١٥٩٢ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٥٩٢ [ذِكْرُ سَبَبِ نُزُولِهَا وَفَضْلُهَا]
- ١٥٩٤ [اللَّهُ مُنْزَهُ عَنِ الْوَالِدِ وَالْوَالِدِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْكُفُو]
- ١٥٩٤ [تَفْسِيرُ سُورَتِي الْمَعْوَدَتَيْنِ وَهُمَا مَدِينَتَانِ]
- ١٥٩٤ [مَوْقِفُ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنَ الْمَعْوَدَتَيْنِ]
- ١٥٩٤ [فَضْلُ الْمَعْوَدَتَيْنِ]
- ١٥٩٦ [بَيَانُ سِحْرِ النَّبِيِّ]
- ١٥٩٧ [مَرَاجِعُ التَّخْرِيجِ لِمُلَخَّصِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ]

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنم الله الفردوس

www.moswarat.com